

# المؤلفات الكاملة

## المجلد الرابع

# نجيب محفوظ

الحائز على جائزة نوبل للآداب - ١٩٨٨

## المؤلفات الكاملة

|                |                        |
|----------------|------------------------|
| الجزيرة        | تحيّة الظليّة          |
| الآنسة         | حكايمة بلديّة والأخوات |
| حكايمة حمارتنا | شهر العسل              |
| قلب الليل      | السيرة                 |
| حضرة المحترم   | الخبز المحمر           |
|                | سليم المرادفيس         |

مكتبة لبنان ناشرون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

© الحقوق الكاملة محفوظة

لمكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

الطبعة الأولى ١٩٩٣

رقم الكتاب 01 R 160109

طبع في لبنان

# المحتويات

|     |                                 |
|-----|---------------------------------|
| ص   |                                 |
| ٣   | تحت المظلة .....                |
| ١٠٣ | حكاية بلا بداية ولا نهاية ..... |
| ١٩١ | شهر العسل .....                 |
| ٢٦٩ | المرايا .....                   |
| ٣٩٣ | الحب تحت المطر .....            |
| ٤٥٣ | الجريمة .....                   |
| ٥١١ | الكرنك .....                    |
| ٥٤٥ | حكايات حارتنا .....             |
| ٦٠٣ | قلب الليل .....                 |
| ٦٤٩ | حضرة المحترم .....              |
| ٧٠٥ | ملحمة الحرافيش .....            |

تخمير = التخمر

## تحت المظلة

الملابس بأجسادهم ولكنهم واصلوا النقاش بإصرار وبلا أدنى اكتراث بالمطر. ووشت حركات اللص بحرارة دفاعه ولكن لم يصدقه أحد. ولتوح بدراعيه فكأنما يخطب ولكن ضاع صوته في البعد وانهلال المطر. إنه بلا شك يخطب. وما هم يصغون إليه. تطلّعوا إليه خرسًا تحت المطر. وظلّت أعين الواقفين تحت المظلة مشدودة إليهم.

- كيف أنّ الشرطي لا يتحرك!

لذلك خطرت فكرة... أن يكون الحدث منظر تصوير

سينمائي!

- لكنّ الضرب كان حقيقيًا...

- والمناقشة والحطابة تحت المطر؟!!

شيء طارئ جذب النظر. فمن ناحية الميدان انطلقت سيارتان في سرعة جنونية. مطاردة حامية فيما بدا. المتقدمة تطير طيرًا والأخرى توشك أن تدركها. وإذا بالمتقدمة تفرمل بغتة حتى زحفت فوق أديم الأرض فصدمتها الأخرى صدمة عنيفة مدوية. انقلبتا معًا محدثتين انفجارًا وسرعان ما اشتعلت فيهما النيران. وارتفع صراخ وأنين تحت المطر المنهمر. ولكن لم يهرع أحد من المحققين به إلى بقايا السيارتين اللتين أدركهما الخراب على بعد أمتار منهم. لم يبالوا بها كما لا يبالون بالمطر. ولمح الواقفون تحت المظلة آدميًا من ضحايا الحادث يزحف ببطء شديد من تحت سيارة ملطّخًا بالدم. حاول النهوض على أربع ولكنّه سقط على وجهه سقطة نهائية.

- كارثة حقيقية بلا أدنى شك.

- الشرطي لا يريد أن يتحرك!

- لا بدّ من وجود تليفون قريب.

انعقد السحاب وتكاثف كليل هابط ثم تساقط الرذاذ. اجتاح الطريق هواء بارد مفعماً بشذا الرطوبة. حتّ المازة خطاهم غير نفر تجمّعوا تحت مظلة المحطة. وأوشكت الرتابة أن تجمّد المنظر لولا أن اندفع رجل. اندفع راكضًا كالمجنون من شارع جانبي واختفى في شارع آخر على الجانب الآخر. تبعه على الأثر جماعة من الرجال والغلمان وهم يتصايحون «لصّ.. أمسكوا اللصّ». وما لبثت الضجّة أن خفت رويدًا حتى ماتت وتتابع الرذاذ. وخلال الطريق أو كاد أمّا المتجمّعون تحت المظلة فبعضهم ينتظر الباص والبعض لاذ بها خوف البلل. وتبعث ضجّة المطاردة مرّة أخرى وتدانّت في اشتداد وتضخّم ثم ظهر المطاردون وهم يقبضون على اللصّ ومن حولهم الغلمان تهلّل بأصوات رفيعة حادة. وعند عرض الطريق في المنتصف حاول اللصّ الإفلات فأمسكوا به وانهلوا عليه صفعًا ولكمًا فمن شدّة الضرب قاوم وضرب كيفما اتفق. وشدّت أعين الواقفين تحت المظلة إلى المعركة.

- يا لها من ضربات قاسية عنيفة!

- ستقع جريمة أشدّ من السرقة!

- انظروا... الشرطي واقف في مدخل عمارة

يتفرّج..

- بل أدار وجهه إلى الناحية الأخرى..

واشتدّ الرذاذ فتواصل أسلاكًا فضيّة برهة ثم انهمر المطر. خلا الطريق إلّا من المتعاركين والواقفين تحت المظلة. نال الإعياء من الرجال فكفّوا عن تبادل الضربات ولكنهم أحاطوا باللصّ. وتبادلوا كلمات غير مسموعة معه وهم يلهثون. ثم انغمسوا في مناقشة هامة لم يميّزها أحد دون مبالاة بالمطر. التصقت

من الجنوب قافلة من الجمال. يتقدّمها حادٍ ويقودها رجال ونساء من البدو. عسكرت على مبعدة قصيرة من حلقة اللصّ الراقص. شدّت الجمال إلى أسوار البيوت ونُصبت الخيام. وتفرّقوا فممنهم من تناول طعامه أو راح يحتسي الشاي أو يدخن وبعضهم غرق في السمر. ومن الشمال جاءت مجموعة من سيّارات السياحة محمّلة بالخواجات. توقّفت فيما وراء حلقة اللصّ ثمّ غادرها راكبوها من الرجال والنساء ففرّقوا جماعات تستطلع المكان في نهم دون مبالاة بالرقص أو الحبّ أو الموت أو المطر.

ثمّ أقبل عمّال بناء كثيرون تتبعهم لوريات مثقلة بالأحجار والأسمنت وأدوات البناء. وبسرعة مذهلة شيّدوا قبرًا رائعًا، وعلى مقربة منه أقاموا من الأحجار سريزًا كبيرًا، فغطّوه بالملاءات وزيّنوا قوائمه بالورد، كلّ ذلك تحت المطر. ومضوا إلى حطام السيّارتين فاستخرجوا منه الجثث، مهشّمة الرؤس محترقة الأطراف، وضمّوا إليها جثّة المنكفيّ على وجهه من تحت العاشقين اللذين لم يكفّوا عن ممارسة الحبّ، ثمّ رصّوا الجثث فوق السرير جنبًا إلى جنب، وتحولوا إلى العاشقين فحملوهما معًا وهما لا ينفصلان فأودعهما القبر ثمّ سدّوا فوهته وأهالوا عليها التراب حتّى سوّوها بالأرض. استقلّوا بعد ذلك اللوريات فانطلقت بهم في سرعة عاصفة وهم يهتفون بكلام لم يميّزه أحد.

- كأننا في حلم!

- حلم مخيف، ويحسن بنا أن نذهب. . .

- بل علينا أن ننتظر.

- ماذا ننتظر؟

- النهاية السعيدة!؟

- السعيدة!؟

- ولأ فبشّر المنتج بكارثة!

في أثناء الحديث ترّبع فوق القبر رجل يرتدي روب القضاء. لم ير أحد من أين أتى. من عند الخواجات أو من عند البدو أو من حلقة الرقص لم يعرف أحد. بسط صحيفة بين يديه وراح يتلو نصًّا كأنما ينطق بحكم. لم يميّز كلامه أحد إذ غطّى عليه التصفيق وضوضاء الأصوات بشقّي اللغات والمطر. ولكنّ كلماته

ولكنّ أحدًا لم يبرح مكانه خشية المطر. وقد انهلّ انهبلاً مخيفًا وقعقع الرعد. وانتهى اللصّ من خطابه فوقف ينظر إلى مستمعيه بثقة واطمئنان. وفجأة راح يخلع ملابسه حتّى تجرّد عاريًا. رمى بملابسه فوق حطام السيّارتين اللتين أطفأ نيرانها المطر. دار حول نفسه كأنما يستعرض جسمه العاري. تقدّم خطوتين وتأخّر خطوتين وبدأ يرقص في رشاقة احترافية. وإذا بمطارديه يصفقون له تصفيقات إيقاعية على حين تشابكت أذرع الغلمان وراحوا يدورون من حولهم في دائرة متماسكة. وذهل الواقفون تحت المظلة ولكنهم رغم ذلك استردّوا أنفاسهم.

- إن لم يكن منظرًا تصويريًا فهو الجنون!

- منظر سينمائيّ بلا ريب وما الشرطيّ إلا أحدهم ينتظر دوره.

- وحادث السيّارتين؟

- براعة فنيّة وسوف نكتشف المخرج في النهاية وراء إحدى النوافذ.

فُتحت نافذة في عمارة مواجهة للمحطة محدثة صوتًا لافتًا للنظر. لغت الأنظار رغم التصفيق وانهار المطر. ظهر بها رجل كامل الزيّ فصفر صفيّرًا متقطّعا. وفي الحال فتحت نافذة أخرى في نفس العمارة فظهرت بها امرأة متأهبة الزينة والملابس فاستجابت لصفيره بإشارة من رأسها. اختفيا معًا عن أنظار الواقفين تحت المظلة.

بعد قليل غادرا العمارة معًا. سارا متشابكيّ الدراعين بلا مبالاة تحت المطر. وقفا عند السيّارتين المهشمتين.

تبادلًا كلمة. أخذوا يخلعان ملابسهما حتّى تعريًا تمامًا

تحت المطر. استلقت المرأة على الأرض طارحة رأسها فوق جثّة القتيل المنكفيّ على وجهه. ركع الرجل إلى جانبها.

بدأ غزل رقيق بالأيدي والشفاه. ثمّ سقاها الرجل بجسده ومضى يمارس الحبّ. وتواصل الرقص والتصفيق ودوران الغلمان وانهار المطر.

- فضيحة!

- إن لم يكن تصويريًا فهو فضيحة وإن يكن حقيقة فهو جنون.

- الشرطيّ يشعل سيجارة. . .

واستقبل الطريق شبه الخالي حياة جديدة. جاءت



## تحت المظلة ٧

- ولكنّه رأس حقيقيّ، فمن فضلك فهِمنا.  
وآخر قال:
- كلمة واحدة منك تكفي لنعرف مَنْ أنت وَمَنْ هؤلاء...
- وثالث قال بتوسّل:
- لا شيء يمنعك من الكلام!  
ورابع تضرّع قائلاً:
- يا أستاذ لا تضنّ علينا براحة البال.
- ولكنّ الأستاذ تراجع في قفزة مباغته. كأنما كان يداري نفسه خلفهم. ذاب الصلف في نظرة مترقبة. وتوارت نفخته. كأنما طعن به السنّ أو تردى في مرض. رأى المتجمعون تحت المحطة نفرًا من الرجال ذوي هيئة رسميّة يتجولون غير بعيد من المحطة كأنهم كلاب تشمّم. واندفع الرجل راکضًا مجنونًا تحت المطر. انتبه إليه رجل من المتجولين فاندفع أيضًا صوبه يتبعه الآخرون كعاصفة. وسرعان ما اختفوا جميعًا عن الأنظار. مخلفين الطريق للقتل والحبّ والرقص والمطر.
- يا أطفاف الله! لم يكن المخرج كما توهمنا..
- مَنْ يكون؟
- لعله لَصّ..
- أو مجنون هارب!
- أو لعله ومطارديه ضمن المنظر السينمائيّ.
- هذه أحداث حقيقيّة لا علاقة لها بالتمثيل.
- ولكنّ التمثيل هو الفرض الوحيد الذي يجعلها معقولة على نحو ما.
- لا داعي لاختلاق الفروض...
- فما تفسيرك لها؟
- هي حقيقة بصرف النظر...
- كيف أمكن أن تقع؟
- هي واقعة.
- يجب أن نذهب بأيّ ثمن.
- سندعى للشهادة عند التحقيق.
- ثمّة أمل باقي...
- قال ذلك وألّجه ناحية الشرطيّ وصاح:
- يا شاويش...

- غير المسموعة لم تضع فانتشرت في الطريق حركات كالأمواج الصاخبة في عنف وتضارب. نشبت معارك في محيط البدو وأخرى في مواقع الخواجات. واشتعلت معارك بين بدو وخواجات. وجعل آخرون يرقصون ويغنّون. وأقبل كثيرون حول القبر وراحوا يمارسون الحبّ عرايا. وأخذت النشوة اللصّ فتفنّن في رقصه وأبدع. واشتدّ كلّ شيء وبلغ غايته. القتل والرقص والحبّ والموت والرعد والمطر.
- واندسّ بين الواقفين رجل ضخّم. عاري الرأس يرتدي بنطلونًا وبلوفر أسود ويده منظر مكتر. شقّ مكانه بينهم بعنف واستهتار. وجعل يراقب الطريق بمنظاره متجوّلًا به بين الأركان. وتمتم:
- لا بأس.. لا بأس..
- تعلّقت به أعين المتجمّعين تحت المظلة باهتمام:
- هو؟
- نعم.. هو المخرج.
- وعاد الرجل يخاطب الطريق مغمغمًا:
- استمروا بلا خطأ ولأ اضطررنا لإعادة كلّ شيء من البدء...
- عند ذاك سأله أحدهم:
- هل سيادتك..
- ولكنّه قاطعه بإشارة عداويّة وحاسمة فازدرد الرجل بقية سؤاله وسكت. ولكنّ آخر استمدّد من توتر أعصابه شجاعة فسأله:
- حضرتك المخرج؟
- لم يلتفت إليه وواصل مراقبته. وإذا برأس آدميّ يتدحرج نحو المحطة فيستقرّ على بُعد أذرع منها والدماء تتفجّر من مقطع العنق بغزارة. صرخ الرجال فرغًا أمّا الرجل فحدّق بالرأس مليًا ثمّ غمغم:
- برافو.. برافو..
- وصاح به رجل:
- ولكنّه رأس حقيقيّ ودم حقيقيّ..
- فوجّه الرجل منظاره نحو رجل وامرأة يمارسان الحبّ ثمّ هتف نافد الصبر:
- غيرّ الوضع.. حدّار من الملل...
- ولكنّ الآخر صاح به:

تعقد في شقَّتكَ لتحضير الأرواح؟  
 - هل أستجوب عمّا يدور داخل شقَّتِي؟  
 - نعم، إذا امتدَّ أثره إلى مَنْ حولك، ثمَّ إنَّ لي  
 حقًّا في مخاطبتك باسم صداقتي القديمة للمرحوم  
 والدك..  
 انطبع الامتعاض في صفحة وجهه فقال صاحب  
 البيت:

- لم أرك مرّة واحدة في صلاة الجمعة!  
 - وما دخل ذلك في موضوعنا؟  
 - المؤمن لا يهتم بهذه الألاعيب، هذا ما أعنيه!  
 ضحك الشاب ضحكة قصيرة وقال:  
 - ولكنَّ الاهتمام بذلك يعني الإيمان بالأرواح.  
 - كلاً. يعني الشكُّ أولاً وأخيراً.  
 فغيَّر الحديث قائلاً:  
 - أذكرك بجدار دورة المياه.  
 - لا تتهرَّب، الحقُّ أنَّ هذه الجلسات مُحدث بين  
 السكَّان اضطراباً غير مستحبّ...  
 - أنا لا أرتكب فعلاً مخالفاً للقانون، وأرجو أنَّ  
 الجدار..

- من الأفضل أن نبقى على وفاق.  
 ثمَّ قال وهو يدفع بماء الخرطوم إلى بعيد:  
 - أما عن أيِّ إصلاح فعليك أن تقوم به بنفسك.  
 ما أبغض أن يصبح على وجهه يوم العطلة.  
 والطريق شبه خالٍ كشأنه في بواكير العطلات. وثمة  
 سقيفة من السحاب الثابت تمتدُّ فوق الضاحية. واشتدَّ  
 عليه ثقل رأسه عقب ليلة لم ينم فيها أكثر من ساعتين.  
 فبعد انفضاض حلبة التحضير قال لزميله مدرِّس  
 التاريخ:

- يطيب الآن الحديث في المصير...  
 وتقضى الليل دون أن يجنوا من النقاش ثمرة. وقال  
 له صديق ضاحكاً وهو يغادر الشقَّة قبيل الفجر:  
 - خير حلٍّ أن تتزوَّج!

وأوى إلى فراشه قلقاً ووجهه محبوب يترأى لعينيه.  
 لا ينبغي أن تبقى النخلة وحيدة إلى الأبد. ولمَّ كانت  
 أمه تؤكِّد له دائماً قبيل وفاتها بأيام بأنَّ كلَّ شيء يدعو  
 للحمد؟. وجد الكازينو خالياً في تلك الساعة المبكرة.

كرَّر النداء أربعمائة حتَّى انتبه إليه الرجل. فقطب  
 متنحنحاً فأشار إليه يستدعيه قائلاً:

- من فضلك يا شاويش...  
 نظر الشرطي إلى المطر متسخطاً ثمَّ حبك المعطف  
 حول جسمه ومضى نحوهم مسرعاً حتَّى وقف تحت  
 المظلة. تفحصهم بقسوة متسائلاً:

- ما شأنكم؟  
 - ألم تر ما يحدث في الطريق؟  
 لم يحوّل عينيه عنهم وقال:  
 - كلُّ من كان في المحطة استقلَّ سيارته إلا أنتم فما  
 شأنكم؟

- انظر إلى هذا الرأس الأدمي!  
 - أين بطاقتكم؟  
 ومضى يتحقَّق من شخصياتهم وهو يتسم ابتسامة  
 ساخرة قاسية ثمَّ سألمهم:

- ماذا وراء اجتماعكم هنا؟  
 تبادلوا نظرات إنكار وقال أحدهم:  
 - لا يعرف أحدنا الآخر  
 - كذبة لم تعد تجدي...

تراجع خطوتين.. سدَّد نحوهم البندقيَّة. أطلق  
 النار بسرعة وإحكام. تساقطوا واحداً في أثر الآخر  
 بجثة هامدة. انطرحت أجسادهم تحت المظلة أما  
 الرعوس فتوسّدت الطوار تحت المطر.

## النوم

هذه النخلة الوحيدة في الفناء التريب تذكّر بحوش  
 قراقة، يجري ذلك في خاطره كلّما مرَّ عبر الفناء إلى  
 باب البيت الخارجي واعترضه صاحب البيت وهو  
 يرشُّ الأرض بالخرطوم، ناداه قائلاً:  
 - أستاذ.

اللعنة. أبغض يوم عنده يوم يصبح على وجهه.  
 عجوز ناعم، يفترّ فوه أحياناً عن ابتسامة كشقِّ في لحاء  
 شجرة.

- أنت شابٌ وحيد ولكنك مهذب طيب السمعة،  
 لا شكوى من ناحيتك. فبالله ما معنى الجلسات التي

## تحت المظلة ٩

بهؤلاء الناس! عشرات وعشرات وعشرات يقفون خارج سور الحديقة الصغيرة. وقوة من الشرطة تمسك فوق طوار المحطة. حدثت تحت السحاب الراكدة؟ وما هو الجرسون راجعاً من الزحام إلى الكازينو. وقد مال الرجل نحوه قائلاً:

- حضرتك رأيت كل شيء طبعاً؟
- فقطب متسائلاً ومنكراً في آن فواصل الرجل:
- سوف تدعى فوراً إلى المحقق!
- أي محقق يا هذا؟
- ارتكبت الجريمة في المحطة على بعد أمتار من مجلسك.

تساءل ذاهلاً:

- جريمة؟
- أين كنت يا سيدي؟، جريمة القتل فظيعة، ألا تعرف الأنسة «المولدة»؟

- المولدة!

- قتلها شاب مجنون الله ينتقم منه..
- تقلص وجهه في ألم وذهول، وغمغم:
- قُتلت.. لا أصدق.. وأين هي؟
- حملوها إلى المستشفى لإسعافها ولكنها ماتت في الطريق.

- ماتت!

- ألم ترها وهي تُقتل على بعد أمتار منك؟
- وبعد صمت عاد يقول:

- كيف لم ترها، أما أنا فكنت مشغولاً في الداخل ثم خرجنا على صوت الصراخ، كان الملعون يطاردها وهي تجري أمامه حتى طعنها في المكان الذي يقف فيه المحقق...

- والقاتل؟

- استطاع الهرب، حتى الآن على الأقل، شاب صغير، رآه ناظر المحطة وهو يثب فوق السور ويستقل دراجة بخارية، ولكن سيقبض عليه عاجلاً أو آجلاً. اشتد تقلص وجهه بالألم حتى تقوض في مجلسه. ومضى الجرسون عنه وهو يقول:

- كيف لم تر الحادثة التي وقعت بين يديك؟
- وأقبل شرطي فدعاه إلى لقاء المحقق. قرر أن يركّز

وأخذ مجلسه عند مدخل الحديقة الفاصلة بين الكازينو ومحطة الديزل. حياه الجرسون وجاءه بالجرائد. أعد له مع القهوة سندويتش فول فبعد أن شبع ثقل رأسه أكثر وأكثر حتى عجب أين كان النوم وهو يستجديه في فراشه. وتذكر درس المفعول المطلق الذي سيلقيه غداً صباحاً على تلاميذه فتذكر بالتالي زميله مدرس التاريخ، قرينه في المناقشات الجنونية.

- ولكن ما معنى ذلك؟

- أنت مدرس عربي، حسن هل عرفت فعلاً بلا فاعل...؟

- اللغة بحر بلا حدود.

- مات محمد، محمد فاعل، ولكن أي فاعل لهذا؟، ولذلك فإنني أبحث عما أريد خارج نطاق اللغة...

وجاء الجرسون لينظف الرخامة فسأله:

- كيف تبرّز مطالبتك الزبائن بأثمان الطلبات؟

ابتسم الرجل ابتسامة المعتاد لهذه الأسئلة الغريبة، ثم تناول قروشه ومضى. وقال هو لنفسه «إنه يتسم ابتسامة العقلاء، ومع ذلك فما لم نعرف كل شيء فستظل معرفتنا الأشياء الصغيرة القريبة ناقصة وغير مبررة». ورننا إلى السحب حتى ابيض كل شيء في عينيه. ولكنّ البياض لم يثبت على حال، لعبت به يد ساحرة، تبيع وقوج، واستحال لونها معتماً بلا شخصية ولا شكل. واختفى قطار الديزل الواقف في المحطة أو ذاب في السحاب. وبدافع من رغبته في الهدوء المطلق مثل بين يدي بوذا في الحديقة اليابانية. وسمع صديقه مدرس التاريخ يقول وهو يشير إلى بوذا «الهدوء والحقيقة والانتصار» ثم أكد قوله مكرراً «الهدوء والحقيقة والهزيمة». وجمع عزمته على المناقشة ولكنّ أوراق الشجر اهتزت بصرخة حادة. صرخة طفل أو لعلها صرخة امرأة. وخفق قلبه وانتعش بروح الغزل. وأراد أن يستشهد ببيت من عمر الحيام ولكن هيهات. وناداه صوت. التفت نحو مصدره فرأى صديقه الآخر وقد بادره قائلاً «خير حل أن تتزوج». وأطبق عليه وقع أقدام راكضة. وركض ليلحق بالديزل فزلت قدمه وتهاوى من فوق الطوار. رباه كيف اكتظ المكان

## ١٠ تحت المظلة

- فكره المشتت مهما كلفه ذلك من عناء. نظر في ساعته فأدرك أنه نام ساعة على الأقل. ومضى مع الشرطي وهو يجزّ رجليه. بدأ السؤال كالعادة بالاسم والسُن والعمل.
- متى جلست في الكازينو؟  
- في الساعة صباحًا على وجه التقريب.  
- ألم تغادر مجلسك طيلة الوقت؟  
- كلاً.
- ماذا رأيت، حدّثنا بالتفصيل من فضلك؟  
- لم أر شيئاً!  
- كيف؟! لقد ارتكبت الجريمة في هذا الموضع، فكيف لم تر شيئاً؟  
- كنت نائماً!  
- نائماً!  
- أجب باستحياء:  
- نعم.  
- لم توقظك المطاردة؟  
- كلاً.  
- ولا الصراخ؟  
- هز رأسه نفيًا وهو يعضّ على شفتيه.  
- ولا استغاثتها وهي تناديك باسمك؟  
- تأوّه هاتفاً:  
- اسمي!  
- أجل لقد نادتك مرارًا ورجّح الشهود أنّها كانت تجري نحوك مستغيثة بك!  
- حلق في وجهه بدهول وتمتم في توسّل:  
- كلاً!  
- هو الواقع.  
- أغمض عينيه ولم يعد يلقي بالآ إلى المحقّق أو أسئلته حتّى قال له هُذا في ضجر:  
- أجب.. عليك أن تجيب...  
- إني في غاية من التعاسة...  
- أكانت ثمة علاقة بينك وبينها؟  
- كلاً...  
- ولكنّها نادتك باسمك!  
- نحن من ضاحية واحدة ونقيم في شارعين
- متجاورين..  
- شهد شهود بأنهم كثيرًا ما رأوها تقفان متقاربتين في انتظار الديزل؟  
- توافق في المواعيد بحكم العمل ليس إلا..  
- أليس لاستغاثتها بك دلالة ما؟  
- لعلّها كانت تشعر بإعجابي بها!  
- إذن كانت هناك علاقة من نوع ما.  
- ربّما..  
- ثمّ بانفعال قاهر..  
- كنت أحبّها.. كنت أفكر كثيرًا في طلب يدها.  
- أو لم تفعل شيئًا في سبيل ذلك؟  
- كلاً.. لم أكن اتخذت قرارًا بعد.  
- ووقعت الواقعة وأنت نائم؟  
- أطرق في خزي أليم:  
- والآخر.. أعني القاتل.. أليس لديك فكرة عنه؟  
- كلاً.  
- ألم تسمع عن علاقة لها بآخر؟  
- كلاً.  
- ألم تر أحدًا يحوم حولها؟  
- كلاً.  
- هل لديك أقوال أخرى؟  
- كلاً.
- ما زالت السماء محجوبة وراء سقيفة السحاب الجامد. وتساقط رذاذ دقيقة واحدة ثمّ انقطع. هام على وجهه طويلًا.  
انقضى النهار وهو يهيم على وجهه. كأنّما يداوي أزمته الطاحنة بالحركة المرهقة. وصادفه مدرّس التاريخ أمام الحديقة اليابانية. هزّ يده مصافحًا وهو يقول:  
- تعال نجلس سوياً، بي رغبة في الحديث.  
فقال بفتور:  
- من غير مؤاخلة لا رغبة لي في الأحاديث الميتافيزيقية.  
مطّ الرجل بوزه أسفًا وتساءل:  
- أحقّ ما يقولون من أنّ المولدة قتلت أمامك وأنت نائم؟

## تحت المظلة ١١

عجيباً ألا يوقظه الصراخ والمطاردة والاستغاثة إنه  
لعجيب حقاً ولكنهم لا يعلمون أنه قضى الليل في  
تحضير الأرواح وأحاديث المصير. اعتصر الألم قلبه  
فتجرّعه سماً بطيئاً. واضطرّ أخيراً إلى الرجوع إلى  
البيت وهو كاره. كان المساء يغشى حجاب السحاب  
بغلالة معتمة. وجد صاحب البيت يقتعد أريكة تحت  
النخلة الوحيدة. استقبله بلطف وقال:

- تبدو متعباً، أرجو ألا يكون حديثي معك في  
الصباح قد ضايقك؟

هزّ رأسه نافيةً فخفض الرجل صوته وهو يسأله:

- أحقّ ما يقال...؟

فقاطعه بحدة:

- أجل... قتلت المولدة على بعد أمتار من مجلسي

في الكازينو وأنا نائم، هذه هي المعجزة الثامنة!

- لم أقصد يا بنيّ أن...

فقاطعه مرّة أخرى:

- ولم أسمع استغاثتها، وفي قول آخر آلي سمعته  
ولكنني تناومت...

أقبل عليه الرجل معتدلاً متأسفاً، وأخذه من ذراعه  
فأجلسه إلى جانبه قائلاً:

- كان المرحوم والدك صديقي، لا تؤاخذني يا بنيّ...  
ومضت فترة غير قصيرة في صمت وحذر ثم استأذن  
في الانصراف فأوصله الرجل حتى الباب الداخلي.  
وهناك همس في أذنه:

- أكرّر الرجاء فيما قلته لك في جلسات تحضير  
الأرواح.

استلقى على الفراش وهو من العناء في غاية، ثم  
غمغم مغمض العينين:

- ما أحوجني إلى نوم طويل، طويل بلا نهاية!

## الظلام

كثيف الظلام كأنه جدار غليظ لا يمكن أن تخترقه  
عين. لا شيء يُرى البتّة. إنهم يجتمعون في عدم، ولا  
صوت إلا قرقرة الجوزة. والجوزة تدور حتى تتم دورتها

فسأله غاضباً:

- من أدراك بذلك؟

أجاب بنبرة المعتذر:

- سمعت به عند الحلاق!

- أمن العجب أن ينحس إنسان متعب؟... وما

ذنبه إذا قامت القيامة في أثناء ذلك؟

ضحك الزميل وقال ملاطفاً:

- لا تغضب ولكنني لم أكن أعلم بالعلاقة بينك

وبين المولدة.

- أيّ علاقة... أنت مجنون..

- اعتذر... اعتذر... هذا ما سمعتهم يقولونه

في دكان الحلاق...

مضى في سبيله الذي لا هدف له. اللعنة، ستتفخ  
الشائعات كالمناطيد. ولن تردّ قوة الجميلة اليانعة إلى  
الحياة. حسرة لا دواء لها. واستغاثتها اليانعة ارتطمت  
بجدار النوم ولكنها نفذت بطرق سحرية إلى آذان  
الضاحية. آيتها التعيسة إيّ أنحس منك. وقال له بائع  
السجائر وهو يعطيه العلية:

- لا بأس عليك يا أستاذ، البقية في حياتك..

اللعنة. لا يبدو أن أحداً يجهل الواقعة. وما هم  
يقدمون له العزاء مسلمين بداهة بعلاقته بها، ها هي  
الخطبة تعلن بعد الوفاة. وربما تمادت الظنون وراء  
ذلك.

ورماه البدال بنظرة ذات معنى. ما البدال... يجتيل  
إليه أن الأعين كلها تتعقبه. إنه في الواقع مطارد،  
متهم، مجرم. إنه مسئول عن الاستغاثة الضائعة لا  
مفرّ. وغداً في المدرسة تنهال عليه الأسئلة. الجحيم  
الحقيقيّ ستندلع نيرانه في حوش المدرسة. تحبّط  
طويلاً. تلقى أقوالاً كثيرة كلها مثيرة مؤلمة. إنه حديث  
الضاحية. لا حديث للضاحية إلا الجريمة والنوم.

«قبض على القاتل وهو تلميذ بالشانوي» إذن قتلها  
العبث وجنون العيال. «كان القاتل يحبّها ولكنها لم  
تشجعه» لذلك بدت له دائماً رزينة وجادة. «من المؤكّد  
أنها كانت تحبّ مدرّس اللغة العربية» يا للحسرة..

شغل عن إسعادها بجلسات تحضير الأرواح ومنعه من  
إنقاذها النوم. «قال في التحقيق إنه كان نائماً، ليس

الدينيّة والفكريّة. يسخرون وهم لا يعرفون لا التي يتردّدون عليها شكلاً إلا مسّ الشلّت وا. المفروشة بينها. وهو يسعل كثيراً ثمّ يقول : كالقرقرة :

- إنّ أحدكم قد يلقي جليسه في مكان فلا ؛ قد يكون زميلاً في مصلحة أو عضواً في أسرة، قد له الخير أو يضرر الرغبة في قتله، كلّ ذلك للغاية!

إنّهم جميعاً غارقون في الإثم. وحامل الإثم ولذلك فهم يكتمون الضحكات فتضغظ و؛ صوت فحيح زاحف في الظلمة. ويضحك ويقول:

- إنّني أعرفكم جميعاً، الاسم والعمل والمكانا أنا فلا يهمني شيء، لا يكبل الإنسان مثل - المضحك على حسن السمعة، وما سرّ الحرّيّة التي بها إلا السجن والخلاء وسوء السمعة!

يا له من صوت كالقرقرة. ونبرة لا تخلو أبا السخرية والثقة بالنفس. وسوء سمعته جدير بت الناس من مجلسه لولا دبلوماسيّته في معاملة السلة وعنده يهد المصاب ما لا يجد عند غيره من ال والطمأنينة. ويقع في الظلام محتكراً الكلام وال ومرة قال ضاحكاً:

- إنكم جميعاً من السادة، لكم منزلة تح عليها. أمّا الفقراء فلا يخافون على شيء ولذلك مكان لهم عندي، ولذلك فهم لا يؤمنون بال والصمت..

هذا الرجل رغم حقارته ذو مكانة يؤمر المصابون بالأدواء. يتلقون أياديه بامتنان. ولا يت من عدم إلا عيناه المحطمتان لجدار الظلمة. أحذب مغضون الوجه قصير القامة، تيف على ال ولكنّه ذو حيويّة شيطانيّة. ويسألهم ضاحكاً:

- لم لا تجعلون من حياتكم كلّها امتداداً جيّلاً الجلسة؟

ثمّ قال وكأنّه يجيب على سؤاله:

- ستقولون العمل.. الأسرة.. الواجب.

وضحك ساخراً ثمّ واصل قائلاً:

في الظلام فترجع إلى المعلّم بطريقة ميكانيكيّة. وكثيراً ما كان المعلّم يقول:

- إنّني أرى في الظلام، اعتدت ذلك لطول معاشرّة السجن والخلاء..

إذن فهو يراهم على حين أتهم لا يرونه ولا يرون شيئاً. وبسبب الظلام يعيش كلّ منهم في عالم خاصّ به مغلق الأبواب عليه. يجيئون من أماكن مختلفة، متباعدة ومتقاربة، لا يدري أحد عن الآخر شيئاً، يشدّهم إلى هذه الحجرة داء واحد. والمعلّم يدعوهم واعدّاً إليّاهم بالأمان والستر، وكلّمها دعا أحدهم قال له:

- في عزبة النخل داري. وفي حوشها الخلفي فيها يلي الحقول شيّدت حجرة مرتفعة، معزولة عن الأرض بلا موصل يفضي إليها، ستصعد إليها على سلّم خشبيّ سرعان ما يطرح تحت أكوام التبن، فهي حصن لا يكبس، ولها من الظلام حولها حصن آخر. أجل، ما هم معلّقون في الهواء، غائصون في الظلام، كأنّما يعيشون في الزمن الذي لم تكن العين قد خلقت فيه بعد. وكلّ يد تلامس اليد المجاورة عند تناول الجوزة ولكن يد من هي؟، أيّ شخص وأيّ هويّة؟.

ويضحك المعلّم ويقول:

- نحن مدينون للظلمة بالسلام الذي ننعّم به، صدّقوني فإنّني رجل مجرب!

لم يتوقّع يوماً أن يناقشه أحد خشية أن يفضحه صوته لدى آخر تمّن يكفّنهم الظلام. وكان يقول لهم: - لو تعارفتم على ضوء الشمعة لتبادلتم أحاديث لا نهاية لها، ولاحظت الخلاف بينكم، ولانقلب المجلس جيّياً لا يُطاق، وطالب اللذة لا يجب ذلك أمّا أنا فأمفته مقنناً.

ونذت من الظلام همس ضحكات مكتومة فقال: - أعرف بينكم أناساً مختلفي الأديان والآراء وها أنتم تُمضون وقتاً طويلاً في سلام بفضل الظلام والصمت!

نذّهمس من جديد. لعلّهم يسخرون كعادتهم ولو في سرهم. يا لها من طريقة طريفة لمعالجة التفرقة

### نحت المظلة ١٣

السجار بمكانها أما الثقباب فلا أثر له! لا يمكن أن يقع ذلك مصادفة. سرق الثقباب! ولكن من السارق ولم سرقة؟ وماذا يراد بهم؟! نادوا المعلم. نادوه بأصوات غاضبة. نادوه بأصوات رعدية ولكن لا مجيب، لا مجيب على الإطلاق، ولا صوت.

- أين ومتى ذهب؟

- من أي منفذ تسأل؟

- ما معنى اختفائه؟

- وكيف ولم سرق الثقباب؟

- لعلّه ذهب لقضاء أمر فدهمه حادث.

- ولم أغلق الباب؟

- ولم سرق الثقباب؟

- أهزر وراء ذلك أم شر؟

- نحن مهتدون في الظلام...

وعادوا ينادون الرجل فترطم أصواتهم بالجدران الصماء. بُحّت حناجرهم، وكَلّت قبضاتهم من دقّ الحيطان. وأطبق عليهم اليأس في الظلام. ما عسى أن نفعل؟ هل نتنظر إلى ما لا نهاية؟ نستسلم حتى يتقرر مصيرنا؟ وما مصيرنا؟ هل جنّ الرجل؟ استكانوا إلى مقاعدهم فوق الشلّت وهم في نهاية من الإعياء. كآتهم جروا شوطاً قطع منهم الأنفاس أو نجّاضوا معركة مرّت الأوصال. حتىّ الخوف باخ تحت وطأة التلبّد الذي أخلفه الوهن. وتشاءب شخص بصوت مسموع فجرى التناؤب من فم إلى فم. وتساءل صوت:

- ترى هل سرقت علب الثقباب وحدها؟

وفتشت الأيدي الجيوب حتىّ صاح أحدهم:

- بطاقة الشخصية!... لا أثر للبطاقة..

وتتابعت الأصوات:

- وبطاطي أيضاً..

- النقود موجودة أما البطاقة فلا أثر لها.

- ما معنى هذا اللغز؟!

وأكثر من شخص أراد معاودة النداء فخذله صوته. وعاد التناؤب يتردد في نغمة ممطوطة مسترخية. ثمّ ساد في الظلام صمت ثقيل كأنه النوم أو الموت. وإذا بصوت يشقّ الظلام متسائلاً في هدوء:

- لكنّه لا شيء إلاّ الظلام والصمت!

وتنقضي فترة طويلة في صمت ثمّ يعود قائلاً:

- إنّي أسخر منكم بالكلام بالفارغ وأنتم تسخرون منّي في قلوبكم بالصمت، ولهذا يعني أنكم لا تتعلّمون، أما أنا فقد حققت لنفسي المعجزة، رغم أنف الدنيا، فلا أسرة لي ولا عمل إذ إنّ الموزّع في الحقيقة لا عمل حقيقياً له، وفي غمرة الدهول وجريان الأيام على وتيرة واحدة تبدو لي الحياة طويلة كثيفة مثقلة بالملل فلا أخاف الموت، من منكم لا يخاف الموت!

وبرغم حقارته، برغم ما يثيره في النفوس من سخرية خرساء، فقد مسّ وترًا حسّاسًا. ولكنّ من يصدّق أنّه لا يخاف الموت؟ ولمّ إذن بنى هذه الحجرة المعزولة في الهواء والخلاء؟

وفي ذات ليلة قال لهم بثقة:

- في هذه الحجرة خلاصة مرّكة لحكمة الحياة.

وكفّ عن الكلام طويلًا. وإذا بالجوزة تتوقّف عن الدوران. ظلّوه ينشد شيئًا من الراحة بخلاف عادته.

وانتظروا فطال بهم الانتظار في الصمت والظلام. انتظروا وانتظروا ولكن لم يجّد جديد. استهلكوا قدرتهم على الانتظار. تنحّج بعضهم استحثًا له على العمل ولكن دون جدوى. هل نام الرجل؟ هل أغمي عليه؟ هل مات؟

وأقربهم إلى موضعه مدّ يده متحسّسًا مكانه ثمّ همس بقلق:

- ليس الرجل في مكانه!

وألصقهم بالباب قام ليفتحه ولكنّه همس في اضطراب:

- الباب مغلق بإحكام.

واضطّر أحدهم إلى رفع صوته قائلاً:

- لا بدّ من وجود نافذة فليفتّش عنها كلّ فييا يليه من الجدار.

ومضت فترة في التفتّش ثمّ تتابعت الأصوات:

- لا توجد نافذة... لا توجد نافذة...

واستهانوا بالستر فقرّروا إشعال أعواد الثقباب ليتبينوا موقفهم. ولكنّ أحدًا لم يجد علبه ثقبابه. علبه

- كيف حالكم؟  
تردد الصوت في الظلام وحده ولكن دون رد فعل  
فعاد يتساءل مرتفعاً درجات:  
- هوه... كيف حالكم؟  
ونذت حركة ضعيفة في الظلام أعقبها صوت يقول،  
بنبرة فازعة للأمل:  
- المعلم... من... المعلم؟  
واستبقت الأصوات مرردة: المعلم.. المعلم..  
فعاد الصوت يتساءل متهكماً:  
- كيف حالكم؟  
- تسأل عن حالنا... أنت... أيّ دعابة  
سمجة؟!
- كيف حالكم، هذا ما أسأل عنه.  
- أين كنت يا رجل؟  
- أنا لم أبرح مكاني...  
- ألا زلت مصرّاً على العبث بنا؟  
- صدّقوني فأنا لم أبرح مكاني طيلة الوقت.  
- كذاب... تحسّسنا موضعك فلم نجد لك أثراً.  
- لم يحرّك أحد منكم ساكنًا...  
- أيها المكابر... لقد ناديناك حتى بحت أصواتنا  
ودققنا الجدران حتى كلت أيدينا.  
- لم يحرّك أحد منكم ساكنًا، صدّقوني، وكنت  
طيلة الوقت بينكم!
- ما زلت متوهماً أنك قادر على العبث بنا!  
- صدّقوني... لم أفعل شيئاً سوى أن أخذت  
بطاقاتكم وعلب الثقاب.  
- ها أنت تعترف... كُفّ عن العبث... لم تكن  
نعرف أنك نشال ماكر.  
- بل أخذتها وأنتم نيام...  
- نيام!  
- أجل وأنتم نيام...  
- لم يغمض لأحد منا جفن.  
- بل نمت ساعة كاملة على الأقلّ أنجزت فيها  
مهمتي.
- أنت مطالب بأن تفسّر لنا سلوكك الشاذ.  
- طيب... خطر لي أن أقوم بتجربة فذّة...  
خذرتكم بخلطة عجيبة من ابتكاري...  
- إنك تهذي...  
- ستفقدون ذاكرتكم قبل طلوع الفجر.  
- ردّ إلينا مسروقاتنا وافتح الباب.  
- واستغرقتم في النوم ساعة كاملة تبعاً للخطة، ثمّ  
استيقظتم، وتناءبتم، ونذت عنكم همسات لا معنى  
لها، ثمّ تكلمت أنا!  
- لن يجدي خداعك...  
- نمت ساعة بدليل أنني أخذت ما أردت أخذه  
منكم وأنتم لا تشعررون.  
- لكنني تحسّست مكانك بيدي فلم أجده.  
- لم يكن باستطاعتك أن تحرّك يدك.  
- ودققنا الجدار ونادينا بأصوات كالرعد...  
- عجزتم عن ذلك كما تعجزون عنه الآن،  
ولكنكم توهمتم أفعالاً لم تخرج في حقيقتها عن نطاق  
رءوسكم، كانت أفعالكم كالظلام الذي يلفكم لا  
وجود حقيقياً لها...  
- ألا ترى أننا غير مستعدين للهزل؟  
- ستفقدون الذاكرة قبل الفجر، لن يعرف أحدكم  
نفسه فضلاً عن الآخرين!  
- ألا ترى...  
- لذلك استوليت على بطاقاتكم، لن يعرف  
أحدكم نفسه وهيئات أن يعرفه أحد.  
- اغسل رأسك بماء بارد... أسرع...  
- غداً صباحاً لن يوجد منكم أحد، ستختفون كما  
اختفت بطاقاتكم...  
- هل جنت يا رجل؟  
- ليكن، ماذا جنيت من عقلي؟، فلتجربوا  
جنوني، وسوف أخدّر نفسي بابتكاري العجيب، ومن  
حسن الحظّ أنني لا أملك بطاقة من الأصل، فلنشكر  
للظلام والصمت والليل أياديا...  
- يا مجنون يا مخرف...  
- ستفقدون القدرة على الكلام كما فقدتم القدرة  
على الحركة، سوف ألحق بكم أهدكم بذلك، انطرحوا  
جثثاً فوق الشلّت فغداً سيستقبلكم الخلاء أجساداً فتية  
مبلّلة بندى الحقول.



## تحت المظلة ١٥

- لا بدّ من ذلك، إنّي مسئول عن الأمن، وأنت أدرى بما في موقعي من حرج...
- ولكنّه... أعني...
- ولكنّه يمقتني ويسيء بي الظنّ، غير أنّه سيثق في كلمتك...

- أعدك بالسعي إلى تحقيق رغبتك ولكن عدني بالتزام الحلم إلى أقصى حدّ مهبا لقيت من استفزاز.
- ليس في نيتي طبعاً أن أعرض بيتك المنعزل في الضاحية الهادئة للفضيحة... آتي أعطيك كلمة شرف وأنت أدرى بقدرتي على ضبط النفس.

- وقد وعدتكم...
- تبدو غير متحمّس؟
- فعلاً...
- وتراه لقاء عقيماً؟
- أي نعم.
- ولكن لا بدّ منه...
- أي نعم.

- وتبادلنا نظرة طويلة حزينة. وتلبّدت سماؤنا بغيوم الذكريات المتجهّمة. الصداقة الحميمة وقوى الهوس الصيانيّ التي انقلبت مع الزمن شراً كامراً. وقال بنبرة كئيبة:

- لم أكن أتخيّل أنّه سيتردّي إلى هذه الدرجة من الحضيض!
- ولا أنا، ولو أنّ العمر والتجربة ومزاولة التربية لم تدع لي مجالاً واسعاً للدهشة.

- وكم أرتقتني أنباء تدهوره وأنا بعيد عن العاصمة.
- لم يكن في الوسع صنع شيء.
- لا أشكّ في أنّك حاولت الإصلاح ما وسعت ذلك!

- طبعاً، ولكنّ النصيحة تؤجج ناره، فتجنّب الحديث الشائك.

- واحتفظت بصداقته رغم ذلك؟
- كان الذي بيننا أعمق من أخوة حميمة، ثمّ إنّ الإنسان الذي يجيء لمقابلتي إنسان آخر، طيّب المعشر عامر بأجل الذكريات، يفيض بالودّ قلبه...
- وكيف تفسّر ذلك؟

وساد الصمت. لم ينبس أحدهم بكلمة، وتردّدت أنفاس نوم عميق. وجعل ينقلّ بصره من واحد لآخر ثمّ تنهّد بارتياح متمتّياً:

- مبلّلة بندى الحقول.

## الوجه الآخر

زارني عثمان بعد غياب طال بسبب خدمة طويلة في الأقاليم. تعانقنا بحرارة. تذاكرنا عهداً ماضياً امتدّ من الطفولة ماراً بالشباب حتّى الكهولة. وقد عاد ليشغل وظيفة هامة رئيسيّة في جهاز الأمن عقب انتصارات خطيرة أحرزها في مطاردة المجرمين. وبعد أن شرّق بنا الحديث وغرّب سألني:

- هل ترى رمضان؟
- توقّعت هذا السؤال طيلة الحديث. حدّثني قلبي بأنّه آتٍ لا ريب فيه، وأجبت بأمانة:
- أجل، بين حين وآخر...
- ما زلتما صديقين؟
- أجل!

- أليس غريباً أن تظلاً صديقين وأنت المرءي الفاضل؟ الأمر لا يخلو من غرابة ولكنّها عشرة عمر، ثمّ إنّه يلقاني إذا جاء كشخص أليف مستأنس كأنّما لا يتّ بصلة إلى الشخص الآخر المثير للفرع...

- لا أتصوّر ذلك!

- ولكنها حقيقة، وعلاقته بي هي العلاقة الإنسانيّة الوحيدة في حياته فلا عجب أن يحرص عليها...

- قد يدمك بغدره على غير انتظار.

- لا سبب يدعو إلى ذلك ألبتة...

تنهّد بحزن عميق. وشاركته مشاعره. إنّه شقيقه. وهو يملك نقطة سوداء دائمة في حياته وحياة أسرته. نشأ في بيت واحد. نشأنا في حارة واحدة تحت ظلّ جيرة حميمة... ولكنّ رمضان كان دائماً ريمحاً هوجاء تعصف الوجوه بالطين والتراب. وسألني:

- هل تستطيع أن تهنيئ لي لقاء معه في بيته؟
- تفكرت ملياً في قلبي فعاد يقول بإلحاح:

- إنَّ الحَيَّةَ الغادِرةَ لا تَخْلُو من عواطف أمومة!
- ولكِنَّكَ تعلم أَنَّهُ وحشٌ قَدْرٌ وعارٌ إنسانيٌّ!
- لن أَدافعُ عن نَفسي فإِنِّي صديقُه كما أَنك شقيقُه...
- لا زلتُ أعجبُ أَنك لم تقطعه!
- داريت ابتسامةً كئيبةً وقلت:
- إِنَّه ليس كائِنًا من جنسٍ آخرٍ غير جنسنا، الحكايةُ أَنه أسيرُ الأهواءِ التي وُقِّفنا إلى كبجها...
- هو الفرقُ بين المدنيَّةِ والوحشيَّةِ...
- إِنِّي لا أَدافعُ عن انحرافه...
- وللذنا بالصمتِ مليًّا ثمَّ عاد يسأل:
- هل زرتُ مخبأه في الجبل؟
- تساءلتُ بدوري ضاحكًا:
- هل تبدأ التحقيقَ معي؟
- فضحك ضحكةً فائرةً ولم ينسَ فقلت:
- لا أدري شيئًا عن هذا المخيل المزعوم.
- فقال بامتعاض:
- اعتداء، برجمة، بلطجة، مخدَّرات، عربدة، سرقة ونهب، هتك أعراض... ..
- أمَّا المبالغات فقد خلقت منه أسطورة...
- إِنِّي أعرفه من المهدي، وأنت كذلك...
- أي نعم!
- كُنَّا ثلاثةً، وكُنَّا واحدًا...
- أجل...
- انظر كيف انشَقَّ وانحرف...
- يا للأسف...
- شرَّير بطبعه!
- الأفضل أن نقول إنَّ ثَمَّةَ معاملاتٍ صادفته داخل البيت وأخرى في الطريق.
- لا هذه ولا تلك يمكن أن تبرِّرَ هذا المصير الأسود.
- أنا لا أَدافعُ عنه، ولا جدوى من ذلك...
- نهض وهو يقول إنَّه آن له أن يذهب، ذكَّرتني بوعدِي. ثمَّ ودَّعني وانصرف.
- \* \* \*
- وقلت لرمضان ونحن نحتسي الشاي بعد العشاء:
- أحدهم يروم مقابلتك.
- حدجني بنظرةٍ ثاقبةٍ. نظرةٌ ينفذ بها إلى باطن محدَّته إذا تشمَّم وراء كلماته أمرًا. وقال متهكِّمًا:
- إن تكن امرأةً فأهلاً وسهلاً بها...
- وأدركت أَنه أدرك ببساطة.
- إِنَّه رجل، ومن رجال الأمن.
- فقال مقطَّبًا:
- توقَّعت ذلك مد علمت بعودته إلى العاصمة.
- هذا يقطع بحسن ظنِّك به...
- فتقلَّص وجهه غضبًا. وما أسرع انفعالاته - وقال:
- اللعنة!.. إِنَّه مثال العقل كما يقولون، ولعلَّه ازداد مع الأيام ثقلَ ظلِّ...
- لا شكَّ أَن وراء رغبته بواعث طيِّبة...
- منذ المهدي وهو يوَدُّ القضاء علي!
- كان يوَدُّ لك أن تسلك في الدنيا مسلكه...
- العقل... الاتزان... الاعتدال...
- النظام... الاجتهاد... الأدب، إِنَّه رمز الموت في عيني!
- يا للذكرى. شدَّ ما تبادلنا المقت. وبازدراء متقرِّز كان عثمان يقول عنه «عاصفة مجنونة... نزوة بلا ضابط... ثور هائج معصوب العينين... مجموعة من الأكاذيب والخرافات». شدَّ ما تبادلنا المقت ولكن من الغريب أَنِّي أحببتهما معًا. عثمان كان الرفيق الذي شجَّعني على الدرس والخلق والوطنيةِ وأمَّا رمضان فكنت أهرع إليه ليروي ظمأي المكبوت إلى الانطلاق والأسطورة والغابة. وقلت له:
- إِنَّه أخوك على أيِّ حال.
- ماذا يريد مِنِّي؟
- ليس من الصعب أن نتخيَّل...
- لعلَّها مكيدة!
- فقال محتجًّا:
- كلاً... ألف مرَّةً كلاً...
- العقل يعني الحكمة والأنايَّة والجبن!
- لك أن ترفض إذا شئت...
- يجب أن يعرف أَنِّي لا أخشاه.
- إذن فلنحدِّد موعدًا؟

## تحت المظلة ١٧

- أولها؟
- أن تسلّم نفسك معلّتا توبتك ولعلّ ذلك ينجّف من عقوبتك .
- وثانيهما؟
- أن تبتعد عن طريقتي بالوسيلة التي تختارها .
- ضحك رمضان ضحكة هازئة ولاذ بالصمت .
- انتظر عثمان ملياً ثمّ تمتم:
- الحقّ أنّي لم أتوقّع خيراً!
- إذن فلمّ دعوتني؟
- لكي أبرئ ذمتي .
- قطّب رمضان غاضباً وقال:
- طالما رغب كلانا في القضاء على الآخر!
- هذا حقّ فيما يتعلّق بك .
- وفيما يتعلّق بك أيضاً ولكن كان لك أسلوبك الخاصّ .

- لا جدوى من الجدل، والأفضل أن تفكّر فيما عرضته عليك .
- لن تظفروا بدليل ضدّي ولا شاهد .
- أنصحك بالألا تطمئنّ إلى ذلك .
- جرّب حظّك إذا شئت .
- سأجرّبه بلا أدنى تردّد .
- بدهتي حقيقة طريفة . إنهما كانا يقتتلان طيلة العمر ومد كانا في المهد . لم يجدّ جديد سوى أنّها سيتلاقيان وجهها لوجه . سيكتشف كلاهما عمّا قريب أنّه كان يقاتل شقيقه أو جزءاً من نفسه .
- نهض رمضان قائماً . لوح بيده محيياً . ومضى عابساً عصبياً الخطوات .

\*\*\*

بدأت المعركة بين الشقيقين عقب ذلك الاجتماع بأيّام . دهمت قوّات الأمن جميع الأماكن المشبوهة في المدينة والجبل والخلاء . قبض على جميع من ظنّ أنّ لهم بالرجل علاقة من الرجال والنساء . واستُجوبوا بعنف فتتابعت الاعترافات . وتضاعف عدد المقبوض عليهم بعد أن ثبت أنّ أعوانه مُنبئون في أماكن لا حصر لها كالملاهي والأندية والمقاهي والمصالح الحكومية، حتّى أماكن العبادة لم تخلُ منهم . وتدققت

- ولكيّ لن أقع كديابة . . .
- والرأي؟
- لعلّه يريد أن ينتقم؟
- لقد انقضى الماضي واختفى وهو اليوم زوج وأب سعيد .
- تذكرت عروس عثمان الأولى التي هربت مع رمضان موقعة بالأسرة زلزالاً . وكيف عاملها بعد معاشره أسبوع بوحشية حتّى اضطرت إلى الاختفاء مجلّة بالعار واليأس . وعدت أقول:
- لقد مضى ذلك وانقضى! ، ولك أن ترفض إذا شئت .
- لفتكّر ملياً ثمّ قال:
- ادعّه . . . وسوف أحضر متأخراً بعد أن آخذ حلدي . . .

\*\*\*

- وجاءنا رمضان ونحن ندخّن في حجرة المكتب . ووقف عثمان لاستقباله فالتقيا وجهها لوجه بعد فراق ربع قرن من الزمان . نظرت إليها باهتمام محموم وقلبي يخفق . تقابلا بوجهين جامدين لم يتحرّكا باختلاجة عاطفيّة واحدة . وتصافحا مصافحة رسميّة باردة، وقال عثمان:
- أشكرك على قبول دعوتي . . .
- وجلس عثمان على مقعده على حين جلس رمضان إلى جانبي على الكنبه . واقتربت أن أنصرف ولكنّها أصراً - معاً - على استيقائي . وقال عثمان مخاطباً أخاه:
- لا أظنّك تجهل السبب الذي دعوتك من أجله . . .؟

قال رمضان برود:

- صارحني بما لديك .
- طيب، نحن نعمل الآن في مدينة واحدة، ويحسن بنا أن نتجنّب - ما وسعنا ذلك - وقوع المأساة .
- المأساة؟
- لم يُجّدع بتجاهله إذ كان على يقين من إدراكه لما يعنيه ولذلك واصل حديثه قائلاً:
- عندي اقتراحان . . .
- فتساءل رمضان وهو يرمقه بتحدّ:

ولكنّي لم أدر علام أحتق. وازدحمت مخيلتي بالقوى الكونية المدمرة كالزلازل والبراكين والأعاصير والشهب والفيضانات والجراثيم. ولم أدر هل أتذكرها على سبيل التشفي أو لأعرف موضعها بين الخير والشر.

وزارني عثمان بعد ذلك بأيام. كان كل شيء في الدنيا قد انقلب رأساً على عقب. في دنياي على الأقل. وبخلاف العهد وجدت نحوه نفوراً مرضياً بدلت قصاراي لأروضه وأهدبه. وشعرت في ذاتي بعدد من الشخصوس تتصارع وتتجاذب بعنف جنوني. جلسنا على مقعدين متقاربين وهو يطالعني بنظرة ثقيلة تنم عن روح ميت. وفصل بيننا صمت غامض لا يريد أن ينقشع. وأخيراً تملل في مجلسه قائلاً:

- إرادة الله ولا راد لإرادته..

فقلت أو قال لساني بلا وعي:

- إني أرمل وحيد وقد امتلأ البيت بالأشباح..

تفحصني بقلق ثم قال:

- إنك لا تبدو كما عهدتك. أنت مريض؟

- لا أشكو إلا من الأشباح...

- أنت لا تعني ما تقول؟!

فقلت وأنا أضحك ضحكة رجل نسي تمامًا كيف يسيطر على نفسه:

- عشت عمري متوهماً أن سلوكك كان المثل الذي قادني إلى طريق النجاح حتى تبوّأت مكاني المرموق في عالم التربية!

- لعلك تبالغ...

- فعلاً... إني نجحت بفضل هو، هذه هي الحقيقة!

- هو؟

- الرجل الذي عبّأت قوى الأمن لقتله...

- جديتك يقلقني...

- شبح من الأشباح أكّد لي ذلك!

- عزيزي!

- صه... وقال لي أيضًا. إن رمضان انطلق من قاعدة لا يمكن الدفاع عنها ولكنّه أتبع أسلوبًا رائعًا، أما نحن - أنا وأنت - فلنا قاعدة لا يمكن الهجوم عليها ولكننا نتبع أسلوبًا سمجًا ميتًا...

القوات بكل ثقلها في مطاردة عنيفة جعلت المدينة بطابعها الإرهابي فذُكرت الناسين بأيام الطوارئ وليالي الغارات. فثشت العيون السيّارات والتاكسيات والناقلات. ومسحت الكشّافات زوايا الجسور ومنعطفات الطرق والخرابات. وطوّفت القوارب الشراعية فوق سطح النيل واقتحمت الخلوات على العاشقين. ومكالمة تليفونية عابثة كانت خليقة بأن تحرّك فرقة كاملة من الشرطة وتزلزل عمارة آمنة. وندبة في أنف رجل بريء أو بروز غير عادي في جبهته قد تجرّ عليه من الولايات ما لم يكن يحلم به. ولم يكن من النادر أن تند عن ركن من الطريق صيحة، تعقبها أصوات أقدام راكضة، ثم تنطلق رصاصات. فيخلو الطريق في ثوانٍ. وتنفض على أديمه مطاردة عنيفة لا تنتهي إلى شيء. وأظلت المدينة سحابة قائمة تقطر رعبًا.

تابعت أخبار المعركة باهتمام لم أشعر بمثله من قبل. وكنت على يقين من الخسران الشخصي مهسا تكن نتيجة المعركة. فلا مقرّ من أن أفقد أحد أحبّ رجلين إلى قلبي. وموقف الحياء بينها لا يهضمه ضميري فلا بدّ من الانحياز إلى عثمان. غير أنّ عواظي تمردت عليّ واقتلت بمرارة ومزّقني تمزيقًا. فكلمنا أحرز رجال الأمن انتصارات حاسمة داخلني كآبة وأشفت من خلوّ عالمي من رمضان ومرحه وأساطيره ومغامراته في دنيا الجنس والتحدّي. وكلمنا فاز الرجل في مطاردة ونشر الرعب من حوله وهذد أخاه انقبض قلبي واستشعرت خوفًا من تسلط قوى الهدم والعريضة وتمكّنها من تقويض دعائم الأمن والحضارة. وانبهم أمري على نفسي ولم أعد أدري أيّ رجل أكون، ولا ماذا أروم، ولا كيف أبلغ التوازن المنشود. هكذا تابعت أبناء المعركة باهتمام وانفعال وخجل وحيرة.

\* \* \*

وانتهت المعركة إلى خاتمها المحتومة. وطلعت علينا الصحف ذات صباح بصورة رمضان وقد خرّ صريعًا مضرّجًا بدمه. انقضت المطاردة الجهنمية وأيام القلق ولياليه. رنوت إلى الصورة طويلًا حتى شعرت بالدمع يدبّ في أعماق عيني. وحنقت، امتلأت بالحنق،

# الحاوي خَطَفَ الطَبِقَ

قالت لي أُمِّي :  
 - أن لك أن تكون نافعًا .  
 ودست يدها في جيبيها وهي تقول :  
 - خذ هذا القرش واذهب لتشتري الفول، لا  
 تلعب في الطريق وابتعد عن العربات .  
 تناولت الطبق ولبست قبضاي وذهبت وأنا أترنم  
 بأغنية . وجدت زحاما أمام بياع الفول فانتظرت حتى  
 عثرت على منفذ إلى الطاولة الرخامية وهتفت بصوتي  
 الرفيع :  
 - بقرش فول يا عم .  
 سألني بعجلة :  
 - فول خالص، بزيت، بسمن؟  
 لم أجد جوابًا فقال لي بخشونة :  
 - وسع لغيرك .  
 تراجع مسحوبًا بخجلي وعدت إلى البيت خائبًا  
 فصاحت بي أُمِّي :  
 - راجع بالطبق فارغًا، دلقت الفول أم ضيعت  
 القرش يا شقي؟  
 فتساءلت عتجًا :  
 - فول خالص، بزيت، بسمن، لم تخبريني!  
 - يا خيبة، ماذا تأكل كل صباح؟  
 - لا أعرف . . .  
 - خيبة . . . خيبة، قل له فول بزيت . . .  
 مضيت إلى البياع وقلت له :  
 - بقرش فول بزيت يا عم .  
 سألني مقطبًا نافذ الصبر :  
 - زيت حار، زيت طيب، زيت زيتون؟  
 بهت فلم أحر جوابًا أيضًا فصاح بي :  
 - وسع لغيرك . . .  
 رجعت مغنيًا إلى أُمِّي فهتفت داهشة :  
 - عدت كما ذهبت، لا فول ولا زيت .  
 فقلت بغضب :

- لا أفقه لقولك معنى . . .  
 - من العسير فهم لغة الأشباح . . .  
 - صديقي . . . إنك في حاجة إلى نوم عميق . . .  
 - إنِّي في حاجة إلى يقظة مجنونة . . . هكذا قالت  
 الأشباح . . .  
 - جئتك بعد أن أضناني الغم . . .  
 - وسقوني جرعات ضخمة من شراب الأعاصير .  
 وقالوا لي إن من يهدم مدينة خير ممن يحافظ على جدار  
 قديم . . .  
 ونهضت فجأة ورحت أتمشي في الحجرة متوكئًا على  
 عصا، فهتف بي :  
 - إنك تخرج . . .  
 فأشرت إلى ركبتي وقلت :  
 - التهاب أصابني صباح اليوم المشنوم . . .  
 - زرت طبيبك؟  
 - كلاً سأجد دوائي عند الأشباح . . .  
 اربد وجهه باليأس فهتفت متشقيًا :  
 - سأبذل الترية والقواعد والطقوس، ابتعت لوحة  
 وعلبة ألوان وأقلامًا وفرشاة، سأعمل مصوّرًا، مصوّرًا  
 أعرج، وقد جئت بامرأة عارية كنموذج . . .  
 وأزحت الستار عن باب الحجرة المجاورة فتبدت  
 عارية وهي تنظر إلينا بهدوء وتحداً . ردّد عينيه عثمان  
 بينها وبينني في ذهول فصحت ضاحكًا :  
 - لعلك تسألني عمًا أدراي بقواعد الرسم  
 وأصوله؟ . . . حسن، لن يعرفني شيء، سأقبض على  
 الأدوات وأدمر كل شيء . . .  
 ورميت عينيه المحملقتين بنظرة متحدية وقلت  
 بهوس :  
 - لقد أضعت أيامي في صحبة العقلاء، سألهو  
 بالأشياء العميقة، سأنصب شراعي في مهب  
 العاصفة . سأسحق مقتنياتي وأقلد بها للرياح،  
 سأعرض عن العقلاء الشرفاء، وليجرمني الدوار،  
 فليكونوا سعداء نافعين ولاكن مجنونًا مخربًا ولينقلبني  
 الشيطان، وتسالني عن القواعد والتقاليد فأقول لك إنه  
 لن يعرفني شيء، سأقبض على الأدوات وأدمر كل شيء !  
 ومضيت بعزم نحو الفتاة العارية وأسدللت الستار ورائي .

- زيت حارّ... زيت طيب... زيت زيتون...  
لمّ لمّ تخبريني؟
- فول بزيت يعني فول بزيت حارّ.  
- إيش عرفني؟
- أنت خيبة وهو رجل متعب، قل له بزيت حارّ.  
ذهبت مسرعًا وهتفت بالبّياح وأنا على مبعده أمتار  
من دكانه:
- فول بزيت حارّ يا عمّ.  
وقفت ورأسني بحذاء الطاولة الرخامية وأنا الهت.  
وكرّرت بانتصار:
- فول بزيت حارّ يا عمّ.  
دسّ المغرفة في القدر قائلًا:  
- ضع القرش على الرخامة.  
وضعت يدي في جيبي فلم أعرّ على القرش.  
فتشيت عنه بقلق. قلبت الجيب ظهرًا لبطن ولكني لم  
أجد له أثرًا. استردّ الرجل المغرفة فارغة وهو يقول بقرق:  
- ضيّعت القرش، أنت ولد لا يعتمد عليك.  
نظرت فيما تحت قدمي وحواليّ وأنا أقول:  
- لم أضيّعه... كان في جيبي طول الوقت.  
- وسّع لغبرك وقل يا فتاح يا عليّ.  
عدت إلى أمي فارغًا فصرخت في وجهي:  
- يا خبّر أسود، أنت يا ولد عبيط؟  
- القرش.  
- ماله؟  
- ليس في جيبي.  
- اشتريت به حلوى؟  
- أبدًا والله.  
- كيف ضاع؟  
- لا أعرف.  
- تقسم على المصحف أنك لم تشتريه شيئًا؟  
- أقسم...  
- جييك مثقوب؟  
- أبدًا.  
- ربّما تكون أعطيته للبّياح في المرّة الأولى أو الثانية؟  
- يمكن.  
- ألسنت متأكدًا من شيء؟
- أنا جائع!  
ضربت كفًا بكفّ وقالت:  
- أمري لله، ساعطيك قرشًا آخر ولكني سأخذه  
من حصالتك، وإن عدت بالطبق فارغًا سأكرس  
رقتك...  
وذهبت جريًا وأنا أحلم بفطور لذيذ. وعند  
المنمطف المفضي إلى حارة البّياح رأيت حلقة من  
الصبيان والأطفال وسمعت تهليل أفرح. نقلت  
قدمي وشدّ قلبي إليهم. على الأقلّ ألقى نظرة عابرة.  
اندست بينهم، فإذا بالحاوي يطالعي. غمرتني فرحة  
مذهلة. نسيت نفسي تمامًا. استمتعت بكُلّ قوّة  
بالعاب البيض والأرانب والحبال والشعابين. ولما اقترب  
الرجل ليجمع النقود تراجعت هامسًا «لا نقود معي»،  
انقضّ عليّ متوحّشًا. تخلّصت منه بصعوبة. جريت  
ولكمته تشقّ ظهري. ولكني سعدت للغاية. وذهبت  
إلى البّياح وأنا أقول:  
- بقرش فول بزيت يا عمّ.  
جعل ينظر إليّ ولا يتحرّك فكّررت الطلب فسألني  
بغيط:  
- هات الطبق...  
- الطبق! أين الطبق؟ سقط منّي وأنا أجري!.  
خطفه الحاوي؟  
- أنت يا ولد عقلك ليس في رأسك!  
عدت أفتش في الطريق على الطبق المفقود. وجدت  
موضع الحاوي خاليًا ولكنّ أصوات الأطفال دلّني عليه  
في حارة قريبة. درت حول الحلقة لمحني الحاوي فصاح  
بي مهتدًا:  
- ادفع أو فاذهب أحسن لك.  
فهتفت بيأس:  
- الطبق!  
- أيّ طبق يا بن الشياطين؟  
- ردّ إليّ الطبق.  
- اذهب وإلا جعلتك طعامًا للشعابين.  
إنه سارق الطبق. ولكني ابتعدت عن مرمى عينيه  
اتقاء لشره. ومن القهر بكيت. وكلّما سألني بارّ عمّا  
بيكيني قلت له «خطف الحاوي الطبق». وانتهت من

## تحت المظلة ٢١

ترايئة وعبير أنفاس ممزوج بشذا الحلوى. قبّلت شفيتها. ازدردت ريفي الذي اقتبس مذاقًا حلواً من ذوب براغيث الست. أحطتها بذراعي دون أن تنبس بكلمة، وأقبل خذها وشفتها، فتسكن شفتها عند تلقّي القبلة ثم تعودان إلى استحلاب الحلوى. وقُررت أخيراً أن تقوم. قبضت على ذراعها بجزع وأنا أقول:

- اجلسي.

فقلت ببساطة:

- أنا ذاهبة.

فسألته بضيق:

- إلى أين؟

- إلى أمّ عليّ الداية.

وأشارت إلى بيت يقيم أسفله كوّاء بلدي.

- لماذا؟

- لأقول لها أن تأتي بسرعة.

- لماذا؟

- أمّي تصرخ في البيت، قالت لي اذهبي إلى أمّ

عليّ الداية وقولي لها أن تأتي بسرعة...

- وستعودين بعد ذلك؟

فهزّت رأسها بالإيجاب وذهبت. تذكّرت بذكر أمّها أُمّي. انقبض قلبي. غادرت السّلم الأثريّ عائداً إلى البيت. بكيت بصوت مرتفع وهي طريقة مجرّبة أذاع بها عن نفسي. توقّعت أن تجيئي ولكنّها لم تأت. تنقلت بين المطبخ وحجرة النوم فلم أعثر لها على أثر. أين ذهبت الأمّ؟. ومتى ترجع؟. وضقت بالبيت الخالي. وخطر لي خاطر طيّب. أخذت من المطبخ طبناً ومن حصالتي قرشاً وذهبت من فوري إلى بيّاع الفول. وجدته نائماً على أريكة أمام الدكان مغطياً وجهه بذراعه. اختفت قدر الفول وأعيدت قوارير الزيت إلى الرفّ وغسلت الرخامة، اقترت منه هامساً:

- يا عمّ...

فلم أسمع إلاّ شخيره. لمست كتفه فرفع ذراعه في انزعاج وطالعي بعينين حمراوين:

- يا عمّ...

انتبه إلى وجودي وعرفني فسألني بخشونة:

- ماذا تريد؟

كربي على صوت يقول «اتفرّج يا سلام». نظرت خلفي فرأيت صندوق الدنيا قائماً، ورأيت عشرات من الأطفال تهرع إليه. وتتابع وقوف المشاهدين أمام عيني الصندوق وراح الرجل يشرح الصور بإغراء «عندك الفارس المهّام، وست الكّل زينة البنات». جفّت دموعي وتطلّعت إلى الصندوق بشغف. نسيت الحاوي ثامناً والطبق. لم أستطع مقاومة الإغراء. دفعت القرش ووقفت أمام العين إلى جانب بنت وقفت أمام العين الأخرى. تسلسلت أمام ناظريّ صور الحكايات الخلابّة. وكما عدت إلى دنياي كنت فقدت القرش والطبق ولم يعد للحاوي من أثر، لم أفكر فيما فقدت واستغرقتني صور الفروسية والحبّ والصراع. نسيت جسوعي، حتّى المخاوف التي تهذّدي في البيت، نسيتها. تراجعت خطوات لاستند إلى جدار أثريّ كان يوماً ما مبنى لبيت المال ومقرّاً للقاضي، واستسلمت بكليّتي للأحلام. حلمت طويلاً بالفروسية وزينة البنات والغزل. وتكلّمت في حلمي بصوت يُسمع ولوحت بيدي بأكثر من دلالة. وقلت وأنا أدفع بالحربة الخيالّة:

- خذ يا غول في قلبك.

وجاءني صوت رقيق قائلاً:

- ورفع زينة البنات خلفه فوق الحصان!

نظرت إلى يميني فرأيت الصبيّة التي زاملتني في الفرجة. تبدّت في فستان متسخ وقبّاب ملوّن وهي تعبت بضميرتها الطويلة. وفي يدها الأخرى حبّات بيضاء وحمراء من «براغيث الست» تستحلبها على مهل. تبادلنا النظر. مال قلبي إليها فقلت لها:

- نجلس لنستريح.

بدت مستسلمة لاقتراحي فأخذتها من ذراعها ودخلنا من بوّابة الجدار الأثريّ فجلسنا على درجة من سلّمه الذي لا يفضي إلى شيء. سلّم يرتفع درجات حتّى ينتهي إلى بسطة تلوح وراءها السماء الزرقاء والمآذن. جلسنا صامتين جنباً إلى جنب. قبضت على يدها وجلسنا صامتين لا ندرى ماذا نقول. وتناوبتني مشاعر غريبة وجديدة ومبهمة. قرّبت وجهي من وجهها فشممت رائحة شعرها الطبيعيّة تخالطها رائحة

«ميعاده» كالذي جاء بي . بذلك تنطق الشفاه والنظرات والأعين ولكنهما على خبرة مدهشة ويفعلان أمورًا لا يحيط بها الخيال . شدّ بصري إليهما مشدوهُما في استطلاع ودهشة ولذّة ولم يخلُ من انزعاج .

وجلسا أخيرًا جنبًا إلى جنب، لم يعد بينهما أحدهما بالأخر . وبعد فترة ليست بالقصيرة قال الرجل :

- النقود!

فقلت بضيق :

- أنت لا تشبع .

بصق على الأرض ثم قال :

- أنت مجنونة .

- أنت لصّ . . .

بظهر يده لطمها لطمه قويّة . قبضت حفنة تراب وقذفتها في وجهه . انقضّ عليها بوجه مغرّب فأنشب أصابعه في زمارة رقبتها . بدأ صراع جهنميّ مريع . ركّزت قواها عبثًا لتخليص رقبتها من يده ، احتبس صوتها ، جحظت عيناها ، ضربت بقدميها الهواء . حملقت فزعًا أحرص حتّى رأيت خبطًا من الدم يتسلسل من أنفها . فرّت من فمي صرخة . زحفت إلى الورا قبل أن يرفع الرجل رأسه . هبطت السلم وثبًا وعدوت كالمجنون إلى حيث تحملني قدماي . لم أتوقّف عن العدو حتّى انقطعت مئيّ الأنفاس . جعلت الهث دون أن أرى شيئًا مما حولي . وكما انتبهت إلى نفسي وجدنتي تحت قبر مرتفع يتوسّط مفترق طرق . لم تطأه قدماي من قبل ولا فكرة لي عن موقعه بالنسبة لحينّا . وكان يقتعد جانبيه شحاذون لا يبصرون . ويعبره في شقيّ نواحيه أناس لا يلتفتون إلى أحد . أدركت بخوف أنّي ضللت الطريق ، وأنّ متاعب لا حصر لها تترتب بي حتّى أهتدي إلى سبيلي . هل الجأ إلى أحد المارّة لأسترشد به ؟ . ولكن ما العمل لو ساقني الحظّ إلى رجل كبيّاع الفول أو متشرّد الخرابة ؟ هل تقع معجزة فأرى أمي مقبلة فأهرع إليها بكلّ قلبي ؟ . هل أجرب السير وحدي فأتحبّط حتّى أعثر على أثر أستدلّ به على طريقي ؟ .

وقلت إنّ عليّ أن أحزم أمري ، بسرعة ودون تردّد ، فقد أخذ النهار يويّ ، وعمّا قليل سيهب الظلام من مجاهله .

- بقرش فول بزيت حارّ . . .

- ؟هه

- معي القرش ومعني الطبق .

صرخ في وجهي :

- أنت مجنون يا ولد ، اذهب وألا كسرت دماغك .

وكما لم أتحرك دفعني بيده دفعة قويّة ألقني متقهقرًا

على ظهري . نهضت متألّمًا وأنا أقاوم البكاء الذي

يلوي شفتيّ ، ويداي قابضتان إحداهما على الطبق

والأخرى على القرش . رميته بنظرة غاضبة . فكّرت في

عودة خاتبة يائسة ، ولكن أحلام الفروسيّة عدّلت من

خطّتي . صمّمت وأخذت قرارًا سريعًا . وبكلّ قوّة

ساعدي رميته بالطبق . طار الطبق فأصاب رأسه .

ركضت بسرعة لا ألوي على شيء . وملأني اليقين بأنّي

قتلته كما قتل الفارس الغول . ولم أتوقّف عن الجري

إلا على مقربة من الجدار الأثريّ . نظرت خلفي وأنا

ألهث فلم أزل أثيرًا لمطاردة . وقفت حتّى عمالكت أنفاسي

ثمّ ساءلت نفسي ما العمل وقد ضاع الطبق الثاني .

وشيء حذرني من العودة المباشرة إلى البيت . وما لبثت

أن استسلمت إلى موجة من الاستهانة تحمّلني إلى حيث

تشاء . هي علقة لا أكثر ولا أقلّ وسأناها لدى العودة ،

فلتؤجّل العودة إلى حينها . وها هو القرش في يدي ،

ويمكن أن أحظى بمتعة لا بأس بها قبل العقاب . قرّرت

أن أتناسى جرمي ولكن أين الحاوي ، وأين صندوق

الدنيا . فثّشت عنهما هنا وهناك بلا ثمرة . أرهقني

البحث العقيم فمضيت إلى السلم الأثريّ وراء

الميعاد . جلست أنتظر وأتمجّل اللقاء . تالت نفسي إلى

قبلة أخرى معبقة بشذا الحلوى . واعترفت فيما بيني

وبين نفسي بأنّ الصبّيّة وهبتي مشاعر لم أجرب أطيب

منها من قبل . وفيما أنتظر وأحلم ترامى إليّ همس من

الجهة الخلفيّة . رقيت في الدرج بحذر وعند البسطة

الأخيرة انبطحت على وجهي لأرى ما وراءها دون أن

يلمحني أحد . رأيت خرابة مطوّقة بسور عالٍ ، وهي

آخر ما بقي من بيت المال ومقرّ قاضي القضاة . وتحت

السلم مباشرة جلس رجل وامرأة . هما مصدر الهمس ،

أما هو فأشبه بالمتشرّدين ، وأما هي ففجريّة تمّن يرعين

الأغنام . صوت باطنيّ مريب قال لي بأنّها يجتمعان في



## ثلاثة أيام في اليمن

-١-

### الأديب

ها هي السيارة تنطلق والقاهرة تبتعد. تطايرت  
المهوم وخفقت القلوب في طريق السويس. وقال في  
صوت حنون:

- لن نفرق زهاء أسبوعين، كم تمضي أيام طويلة  
دون أن يرى أحدنا الآخر...

أحدقت بنا لا نهائية الصحراء من الجانبين فأهدت  
إلينا هواء منعشاً رغم حرارة يوليو. وصلنا إلى ميناء  
الأديبة مع المساء. تعلقت أعيننا بالسفينة الراسية عند  
الشاطئ حيناً ثم أخذنا سبيلنا بين صفوف من الجنود  
وأكوام من المؤن والذخيرة. مضى بنا المرشد إلى مركز  
التشهيلات. تمّ التعارف بيننا وبين الضابط ثمّ جلسنا  
نتنظر. إنه ليس بضابط كلاً، إنه دوامة مكهربة. يجرّك  
الجنود والموظفين بأصابعه العشرة ويحاجبيه وأنفه  
وشفتيه ويتكلّم من خلال عشرة تليفونات. وكلّما مرّ  
بنا بصره تفحصنا باسماً وهزّ رأسه هزّة تدعو للتساؤل  
والفضول. آلو.. ليتقدّم حملة صناديق الذخيرة، يا  
عمّ حسنين، أنت مسئول عن توصيل البطاطس...

هات الساركي، اسمعني يا يسري. السطح الأمامي من  
الدور الأول للسريّة الثالثة، عليوة راجعت شهادات  
التطعيم؟، مرحباً بضيوفنا الأدباء مرحباً... سمعت  
عبد الوهاب وهو يغني قصيدتك يا أستاذ، انتهيت من  
التيفود؟... والكوليرا؟... آلو... انتهى  
التطعيم؟، أما مقالاتك أنت يا أستاذ فهي السحر

- الحلال، آلو.. أرسل شخصاً لتطعيم الأدباء...  
- تمّ تطعيمنا ضدّ الكوليرا والجدرى!  
- والتيفود؟  
- أكدوا في البلدية ألا ضرورة لذلك.  
- التيفود مهمّ جداً.. دعوني أتصرّف فأنا منذ  
الساعة مسئول عن الحركة الأدبية في مصر...  
- ولكنكم تعطون الحقن بطريقة عسكرية...  
أعني...  
- يا ربّ السماوات!.. أخاف من الحقن أصحاب  
«البذاء تعرفني» و«علوّ في الحياة وفي المات»!  
استسلمنا. اجتزنا فترة عصيبة لم نحل من  
التأوهات. ولما انتهى التطعيم قال:  
- انتهينا من الكوليرا والجدرى والتيفود...  
ثمّ وهو يتفحص وجوهنا بنظرة غامضة:  
- أما بقية الحميات هناك فلم يكشف الطبّ سرّها  
بعد...  
تبادلنا نظرات ارتياح وتوجّس على حين انصرف  
عنا في غير مبالاة. وجرى التهامس بيننا في إسفاق:  
- أحقّ ما يقول؟  
- يبدو الأمر جدّاً.  
- إذن ما معنى هذه الرحلة؟  
- لننفع بالأحداث.  
- أليس من الأسلم أن ننفعل في القاهرة؟  
- وهؤلاء الجنود أليسوا بشرّاً مثلنا؟  
- ولكنهم جنود!

- الحق أن العالم مقبل على عصر عليه أن يخلق فيه كل شيء من جديد.  
- وربما وجد أن عليه أن يعتاد الحياة بلا معنى ولا آمال كبيرة!

\*\*\*

- أظنه بسكال الذي قال إننا مبحرون في هذا العالم، ليس لنا خيار في أمر السفر فلم يبق لنا سوى اختيار السفينة...  
- ولكن كيف نختار سفينة مناسبة إذا لم يكن لدينا فكرة عن الرحلة؟  
الأفكار مغلقة ولكن الأصوات راضية تندد عنها غبطة المستمتع بعشاء لذيذ وشراب منعش. والغناء لا يتوقف، يحمل إلينا أنغام حماس وحنين. وثمة تساؤلات عما ينتظرنا هناك عند المأكل والمشرب والمنام. وخاوف أو شكك أن تتضخم لولا أن ارتفع صوت قائلاً:

- ما هي إلا أيام ثم تنقضي بسلام... دعونا نشارك الجنود حياتهم ولو بدون قتال... شعرت برغبة في الحركة. غادرت جناح القبطان إلى السطح ماضياً حتى الشرفة المطلّة على مقدم السفينة. رأيت الجنود على ضوء الكلوبات ما بين مستلقين وواقفين وجالسين. جال بصري بينهم في جسد وانفعال. اجتاحني طوفان من الذكريات الوطنية، حماسية وأليمة على السواء، لكنه طوفان حمل في النهاية هذه السفينة، التي تحمل بدورها هؤلاء الجنود، ثملة بنشوة النصر والأمل، ملوحة براية الأخوة والكرامة، فأيقنت أن تاريخنا الطويل المثلث بأحلك الذكريات يتكشف عن صفحة جديدة بيضاء. ونحيل إلى أن اسمي يتردد في نداء صاعد من بين أمواج الغناء. حقاً! أجل إن صوتاً يناديني. تحرك رأسي هنا وهناك حتى رأيت جندياً يشق طريقه نحو أسفل الشرفة ملوِّحاً بيده. أمعنت النظر فيه بدهشة. تذكّرت. انحنيت من فوق السور في غاية من الابتهاج. لوح لي بيده تحية فلوّحت له بيدي.

- لعله يمازحنا...  
وإذا به يلتفت نحونا هاتفاً:  
- ستفعلون أولاً وقبل كل شيء بالحميات المجهولة!

وضحكنا طويلاً. ضحكنا وكأننا نتسوّل تكذيب الظنون. ضحكنا في الأصوات المسموعة للقلق المتطاحن في أعناقنا. ولكنه استقبل هدنة راحة في زحمة العمل فرمقنا بنظرة جادة حقيقية لأول مرة. جادة وودودة. ثم قال بنبرة أخوية:

- أهلاً بكم، فرصة طيبة وسعيدة، وهينئاً لكم زيارة بلد شقيق نائر، ستجدون له مذاقاً خاصاً وجمالاً ذا سحر غير منكور، فاذهبوا بسلام آمنين...

شددنا على يده بامتنان وذهبنا وراء حقائبنا المحمولة إلى السفينة. ودعانا القبطان إلى العشاء. وطيلة الوقت ترامى إلينا غناء الجنود من سطح السفينة الأمامي، ودار حديث عن ميعاد الإبحار والجوّ. وأعلمنا الرجل الكريم الظريف بأننا سنكون ضيوفه طوال الرحلة.

وفي أثناء ذلك اختفى من الصحاف الدجاج والشواء والملوحيّة والبطاطس والسلطة الخضراء والمشّ والبطيخ. ودعانا إلى قضاء السهرة في جناحه المطلّ على البحر ثم مضى إلى عمله. أطفأنا المصباح واهبين الليل أنفسنا. أنعشنا شراب البرتقال ونسمة معبقة بجوّ الميناء. وما زالت أغنية تتردد متهادية إلينا من معسكر الجنود فوق مقدم السفينة.

- ترى فيم يفكّرون حول بنادقهم؟

- الحرب... إنها الحرب...

- أقدم حرفة في الوجود.

- لكنها تنشب هذه المرة في سبيل التحرير والحريّة.

- إنها الحرب، وهي ككلّ حدث خطير تدفعنا إلى

مواجهة لغز الوجود، وجهاً لوجه...

وتذوّقنا حيناً النسمة اللطيفة. استسلمنا بكلّ قوانا

للحظة طيبة خالية من الكدر، ثم تفرّق الحديث

واختلف كأنما يدور بين أجيال. وأوشك أن يستقلّ كلّ

اثنين بفكرة ما.

- ستكون الحرب القادمة خاتمة الحروب!

- ولكن هل تستمرّ الحضارة بلا حروب؟

نفسه فذات يوم عُهد إليّ بتدريب موظفة جديدة. لم تكن أول فناة أدريها في السكرتارية ولكنها كانت الأولى في حياتي.

ساءلت زميلي مرة أخرى:

- اليمن... أليس كذلك؟

- أظن ذلك.

- متى نعرف؟

- كل آت قريب.

إذن هي الحرب. كما نراها أحيانًا على شاشة السينما. وحتى في السينما لم أشاهد معركة بارشوت إذ إنني أفضل عادة أفلامنا الغنائية. كانت الأولى في حياتي فلم أعرف الحب قبلها بصفة جدية وقلت لها عليك بالانتباه فإن رئيس القلم يمزق أي خطاب لأقل هفوة. ما أحل ارتباكها إذا ارتبكت! ما أجل نظرتها وهي تنرنو إلى مدرّبتها! وهي تستهده المعونة والثقة فيهدي إليها قلبه ومستقبله.

وقال زميلي:

- الفطار يهذي من سرعته. ستعرف كل شيء... .

وقف القطار. أكثر من صوت ردد اسم الأديبة.

أجل... . أجل. غادرنا القطار. انتظمتنا الصف. سرنا إلى الميناء. جرى تطعيمنا ضد الكوليرا والجدرى والتيفود. وكل حمل لوازمه ومضى نحو سفينة راسية بالميناء. تناولنا العشاء. أناس استغرقهم النوم وآخرون راحوا يغنون. الحق أنني لم أركب سفينة من قبل، لا في البحر ولا في النيل. بل لأنني لم أزل البحر قط. ولم أستطع أن أرى منه شيئًا في الظلام.

- أين الأمواج التي يقال إنها كالجبال؟

- نحن في الميناء يا رجل يا طيب... .

لفحني هواء لطيف فمالت صدري ثم سألته:

- وماذا تعرف عن دوار البحر؟

فسألني بدوره:

- لماذا لا نغني مع من يغنون؟

تمسّيت مستطعمًا. لاحت مني نظرة إلى أعلى. رأيت على ضوء كلوب وجهًا ينظر إليّ أو بدا بذلك. من؟، استاذي القديم. استاذي بـمدرسة مكارم الأخلاق الإعدادية بشبرا. هو دون غيره. ترى ماذا جاء به إلى

## الجندى

دعني للجلوس فجلست. توقفت عن الكتابة على الآلة الكاتبة وقالت لي مجاملة:

- شكلك ظريف في البدلة العسكرية.

نفخي السرور، رحّب بي الزملاء القدماء في الإدارة. على مكتبي السابق المجاور لمكتب خطيبي جلس شابّ جديد هو الذي حلّ محلي بعد تجنيدي، سألتني:

- هل اعتدت الآن على الهبوط بالبارشوت؟

همست في أذنها:

- عندما أؤلف بنفسي أبسمل وأتذكر وجهك فيتمّ الهبوط على أحسن حال.

وناقشنا بعض المشكلات التي تلابس زواجنا كالآثاث والمسكن فاتفقنا على الإقامة «مدّة» في بيت والديها وبذلك نؤجل مشكلة المسكن ونكتفي بتأثيث حجرة واحدة. وتركتها واعدًا بزيارتها في القريب في بيتها. مضيت من لوري إلى الثكنة بمنشية البكري. ولم أكد أمكث ساعة هناك حتى صدرت أوامر بتجهيز سفريات الميدان. تجمّعنا في الحال. سألت جاري عمّا هناك فقال لي علمي علمك. اصطفت سريرتنا الثالثة. ووزعت علينا البنادق. انتقلنا إلى السيارات فانطلقت بنا إلى هايكستب. كان ثمة قطار في انتظارنا، وثمة حركة نشيطة لنقل الذخيرة. همست في أذن صاحبي:

- اليمن!

هز رأسه فخيل إليّ أنه يوافقني على رأيي. تحرّك القطار. اجتاحني شعور بالغرابة والخيرة. لم أودع خطيبي ولم أودع أمي. منذ عام كنت موظفًا، مجرد موظف على مكتب. وبفضل شبابي وصحّي أحببت وخطبت ثم جُندت. ها هو القطار يحملنا إلى الميدان. سنهبط من الطائرات إلى ميدان حرب حقيقية... . لا تمرين ولا مناورة. يوم دُعيت إلى التجنيد قال لي رئيس السكرتارية «ها أنت ذاهب... . وها هو تدريينا لك يضيع في الهواء... . ساء حظّ الرئيس الذي يوظّف شابًا قبل تجنيده بعد اليوم». كنت موضع ثقته وكنت بذلك فخورًا. أنا طول عمري من المتوكلين على الله، المعتمدين على دعاء الوالدين. والحبّ عجيب كالقدر

سفيتتنا... وجعلت أنادي وألوح بيدي وأنا أشقّ  
طريقي بين البنادق والنيام. وأخيراً عرفني فلوح لي  
بيده. التقينا عند منتصف السلم تماماً فتصافحنا  
بحرارة.

- أنت جندي؟... ما تصوّرت ذلك.  
- جندي منذ عام فتركت وظيفتي إلى حين.  
- متزوج؟  
- كلاً ولكنّي خاطب.  
- مبارك (ثمّ وهو يتفحص ملابسي) لا أعرف لغة  
ملابسكم.

- من قوّة المظلات يا فندم.  
- فرصة طيبة، أتمنى لك حظاً سعيداً.  
- وماذا جاء بك يا أستاذي؟  
- رحلة.. زيارة.. في ضيافة الجيش.  
- أهلاً أهلاً... إني أقرأ مقالاتك... هل تركت  
التعليم؟  
- نعم.  
وتصافحنا مرّة أخرى وهو يقول:  
- أرجو أن أراك كثيراً.  
انفصلنا. عدت إلى مقدّم السفينة وصعد إلى  
السطح.

## -٢-

### الأديب

أخيراً تراءت لنا ميناء الحديدية.  
تهادت سفيتتنا في الممر المائي الذي شقّه الروس في  
الصخر، عقب رحلة طويلة أذابتنا فيها الحرارة  
وأهكتنا الأحاديث، فوق سطح بحر كظيم صامت،  
تحت سماء باهتة تترامى في الأفاق بلا تعبير، بين  
جماعات متواثبة من الدرافيل. لا تسلية لنا إلا الكلام  
والسجائر والذكريات ولا عمل لنا إلا الاستجمام  
وتجفيف العرق.  
أخيراً تراءت لنا ميناء الحديدية.  
تطلّعنا بشغف نحو الأرض التي ظلّت دهرًا طويلًا  
متوقّعة، حتّى ثارت ثورتها فحطمت القشرة الصلبة

التي تحبسها فيها وراء التاريخ.  
- تدكّروا أنّ وطننا تلقى موجات في أثر موجات  
من مهاجري هذا البلدا  
- لا يبعد أن نصادف أجدادًا وأصولًا ونحن لا  
ندري.

قلّبت وجهي في مجموعتنا فرأيت وجوهًا تشي بأكثر  
من أصل تتراوح جذورها ما بين البلقان والسودان مازًا  
بالشام ومصر. قلت لنفسي إنّ أضمن وأعرق أصل  
للإنسان هو الأرض.

\*\*\*

استقبلنا مندوباً القيادتين العربية واليمينية. انتقلنا  
إلى مركز قائد الميناء حيث قُدمت لنا المرطبات. قائد  
ضخم كتمشال، وطراز من الرجال يضيف أصلًا  
جديدًا إلى مجموعتنا المتعدّدة الأصول. دعانا لمشاهدة  
خريطة لليمن.

- أرض مجهولة لا يعرفها إلا المرشدون...  
انتقل المؤشّر من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى  
الغرب.

- جميع هذه المدن نائرة وموالية أمّا الجبال فلا تخلو  
من جيوب!  
- اعتقدنا أنّ الحرب قد انتهت.

- هي كذلك بالمعنى العسكري ولكن علينا أن  
نطهر الجبال من المتسلّلين!

دعانا إلى جولة في المدينة. زرنا المستشفى. تجولنا  
في أحياء ردتنا بقدره قادر إلى أزقة القاهرة وحرارتها  
القديمة. شاهدنا دكاكين حافلة بسلع من جميع أنحاء  
المعمورة. طالعتنا وجوه صامتة مغلقة غامضة، لا  
ينظرون نحونا، وإذا نظروا لم يرونا.

- يا حضرة القائد.. أهم يكرهوننا؟  
- كلاً يا أستاذ ولكنّا في عزّ وقت التخزين!  
أجل... إنّه القات! الدنيا تنساب في حلم كبير  
يرفرف فوق المدينة ولم نعد إلا أشباحًا لا حقيقة لها.  
وثمة تاجر مستلقٍ على أريكة أمام دكان سأله القائد  
عن مكان ما ولكنّه لم يبد حراكًا ولم ينبس بكلمة...  
ما فعل إلا أن رفع يده ببطء شديد مشيرًا نحو المكان  
كأنّما هي صورة متحرّكة مصوّرة بالتصوير البطيء، أمّا

أقل .

عدنا إلى الباخرة . سهرنا في جناح القبطان في جوّ حارّ رطب خرق المألوف لنا . ولما آويت آخر الليل إلى القمرة قلت لزميلي فيها :

- أشعر من الحرّ والرطوبة بأثني ساموت عمّا قليل .

فأجابني بصوت ملؤه النعاس :

- لكلّ أجل كتاب !

## الجنديّ

السفينة تقترب من الشاطئ . جمهور ضخم ينتظرنا . ولكن أيّ جمهور؟! . نساء . أجل نساء لا حصر لهنّ في أزياء مزخرفة بالحمرة والزرقة . ما الذي أخرجهنّ من البيوت؟ . وفي هفة حزم كلّ جنديّ متاعه وعدّته وحمل بندقيته . ورأينا ضيوفنا من الأدباء وهم يهبطون وراء حقائبهم . وبحث عيناوي عن أستاذي السابق حتّى رأيته . وددت أن أودعه ولكنّ الزحام والنظام حالا دون ذلك . وصدرت لنا الأوامر بالنزول فسرنا نحو السلم في ترتيب عسكريّ . ها أنا أستقبل بلدًا غريبًا بعد أن ركبت السفينة لأول مرّة . وفوق الأرض تكشّفت لي حقيقة المتجمهرين . إنهم رجال لا نساء كما توهمت من بعيد . يرتدون لباسًا كالجونلة ويطلقون اللحي . تنغصّ حماسي وفتري فرحت أمشّي فوق رصيف الميناء . وتذكّرت أمي التي لم أودّعها . وتذكّرت خطيبي التي زرتها ولم أودّعها أيضًا . وقلت لـرأيتي ودّعت أمي لتلقّيت من دعواتها ما ينفعني . ونودي علينا فهرعنا إلى الصّف . ثمّ أجهنا إلى سيّارات معدّة لتوصيلنا إلى صنعاء . وخرجت السيّارات من حارات مترية حتّى اجتزنا بؤابة كبيرة . وإذا بنا ندخل في طرق ممّهدة ، تأخذ في الارتفاع كلّما تقدّمنا . وسألت زميلي :

- أين مملكة سبأ؟

فسألني بدوره دون اهتمام بسؤالي :

- نحن ذاهبون إلى الميدان؟

وجذبت الجبال المتشابكة عينيّ . ألقيت بنظرة إلى أسفل فأدركت مدى الارتفاع الذي نصعد إليه بلا توقّف . ومضت الحرارة تحفّ والجوّ يلطف والدنيا

ظاهر الرجل اليمينيّ فيتلخّص في لحية وخنجر وبندقية . والتجوّل بين الحوانيت مثير للغاية . وكان مدعاة للتساؤل عن بدل السفر ومتى يصل . وقال القائد :

- ستجدون في صنعاء سلعا أطرف وأجمل . أمّا تبرز فحدث عنها . .

ولفتت الأنظار الحقائق والأتمشة ، ثمّ احتكرتها الهرمونات والمقويات . وتسكّل من القائد إلى النفوس إعجاب ودود . تضاعف عندما دعانا إلى العشاء في مقرّ القيادة اليمينية . اجتمعنا هناك بكهول وشبان من اليمن ، منهم من يرتدي البدلة ومنهم من يرتدي الزيّ الوطنيّ . تبادلنا الأحاديث عن الحرب والثورة والتاريخ والأدب . كشفت الروح اليمينية عن كنوزها فاستعدنا شعورنا بالأنس والألفة وتفتّحت قلوبنا بلا حدود . وملت نحو زميل هامسًا :

- أشعر كأنما رأيت هذا المكان من قبل !

فرّد عليّ هازئًا :

- هذه نتيجة عقدة نفسيّة سأحدّثك عنها فيما بعد . ووضعت الموائد حول بركة كانت مسبحًا للجواري ذات يوم . وعزفت لنا جوقة موسيقية وغنّى لنا مهرج الإمام . وقال لنا القائد ونحن عائدون :

- سبيتون الليلة في الباخرة وغدًا صباحًا تذهبون إلى صنعاء . . .

وتساءلنا عن وسيلة المواصلات فقال :

- ثمة طريق جديدة شقّها الصينيون في الجبل ، تقطعها السيّارة في ثماني ساعات ، وسوف ترافقكم قوّة مسلّحة . . .

ولدى سماع هذه العبارة الأخيرة ساورنا القلق ، وسأله سائل :

- وما الداعي لمرافقة القوّة المسلّحة لنا؟

فأجاب مواريًا ابتسامة :

- تعرّضت الطريق لهجمة عدوانية فاشلة منذ

أسابيع !

وأكثر من صوت قال في نفس واحد :

- حدّثنا يا قائد عن وسيلة مواصلات أخرى .

فضحك ضحكة عظيمة وقال :

- ستأخذون الطيّارة وستصل بكم في ساعة أو

تتغير. وتساءلنا حتى متى نواصل الصعود فأجاب دليلاً اليميني:

- سنصعد فوق الجبل.

لا فرق بين السيارة والطيارة في هذا البلد. ودار بنا طريق دائري فطالعنا الشمس المائلة حيناً وتغيب عنا حيناً آخر. وبهزنا السحاب وهو يزحف نحونا حتى روّعنا. ودخلنا فيه فغاب الوجود وبتنا من أهل السماء. حتى أنفسنا غابت عنا. وارتفعت الأصوات وتبادلنا الألقاب الضاحكة. وكأنا خرجنا من السحاب استوى الجبل إلى يسارنا على هيئة مدرجات تكسوها الخضرة المتألقة فهتفنا في دهشة. لم أكن رأيت من الجبال إلا المقطم فيما وراء مسجد الحسين رضي الله عنه فتلوت فاتحة الكتاب. أما إلى اليمين فينحدر الجبل صانعاً مدرجات واسعة من السهول تنبت في جنباتها القرى، وتتناثر الأكواخ، وتهميم القطعان والأطفال، من تحتها خضرة ومن فوقها قطع من السحب متفاوتة الشفافية تتلاشى في احتدام وتنتشر كقبة هائلة ثم تلاطم سفح الجبل تحتنا فتفور كالأبخرة، وما نحن نطلق فوق السحاب كأنما تقلنا إليوشن المظلات. قال الزميل:

- ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.

فقلت يوجد:

- صدق الله العظيم.

قبيل الغروب اجتزنا بؤابة صنعاء. وعلمنا أننا ذاهبون إلى كآية الطيران للمبيت فاستبشرنا خيراً ومبينا أنفسنا بيلة نوم ناعمة. غادرنا السيارات ومضينا نحو الكآية دون أن نتبين المبنى من الخارج لغلبة الظلام على الدنيا. ولكننا وجدنا أنفسنا في مكان هو أشبه ما يكون بالإصطبل. لا مقعد ولا فراش ولا حتى حصيرة. وقفنا ذاهلين نتبادل النظرات. وأمرنا أن ننام كيفما كان الحال حتى الصباح. ثمنا ليلتنا على الأرض بكامل ملابسنا. وفي الصباح صدرت أوامر بأن ننشئ معسكرًا حول مطار صنعاء فانهمكنا في العمل. ولم يكن بين أيدينا من الطعام إلا القليل ومن الماء إلا النادر. وندرة الماء أزعجتنا بصفة خاصة. وغمنا ليلتنا في المعسكر. وفي الصباح صدرت الأوامر بالتوجه إلى

مدينة عمران. خرجنا من بؤابة صنعاء الخلفية. وترامى أمامنا طريق صخري يتنقل بين جبال عاتية. إنني أغوص في المجهل. أصبح الماضي بعيداً جداً. ترى هل علمت أمي بأمرني وهل علمت به خطيبي؟. إنها أعز ما يشدني إلى عالمي القديم. أما العالم الصخري المكفهر المترامي أمامي فلا أدري شيئاً عما يجئني لي من أقدار الغيب. ورأيت عن بُعد سيارة مدرعة تقود قافلتنا فتطلعت نحوها بثقة ولكني قلت لنفسي إن الله وحده يحفظنا ويرعانا.

- كل شيء غريب هنا.

- وقافلتنا العسكرية تسير كما كنا نشاهد في السينما.

- ولكن الفرجة شيء وخوض المعارك شيء آخر.

- لا يوجد أنسي.

- ولا جان!

وأخيراً تراءت لنا عن بُعد بؤابة حجرية تقوم على مبعدة منها إلى اليسار قلعة ذات أسوار وأبراج للمراقبة. تبودلت كلمات لم نسمعها بين السيارة المدرعة ورجال الأبراج ففتح على أثرها باب البؤابة فتهدت منه قافلتنا.

- مدينة عمران؟

- أجل... لعلنا نجد مقهى أو ملهى.

وجدنا قرية كقرانا في الريف. تقع وسط سهل ومرح تطوقها سلسلة من الجبال الصخرية من ثلاث جهات.

- مدينة عمران.

- مدينة عمران!

غادرنا السيارات. تناولنا الطعام من العلب وشربنا بحیطة وحذر. أحاط بنا الغلمان والأطفال شبه عرايا. حملقوا في وجوهنا بأعين داهشة ثم تبادلنا الابتسام. ومرح الأطفال حول السيارات ومحتها. رغم البؤس أطل علينا من الأعين البريئة جمال فطري ونظرات ذكية. ترى من ين هؤلاء تربطني به صلة قريب ترجع في تاريخها إلى ألف عام؟.

ولم تمكث في عمران إلا ساعات ثم صدرت الأوامر بالذهاب إلى حجة. تحركت القافلة دون أن تترك وراءها ذكريات. دخلنا في السحاب مرة أخرى حتى

وارتفع النداء داعياً إلى إقامة المعسكر.

-٣-

### الأديب

استيقظت بعد نوم ساعتين. غادرنا السفينة إلى مطار الحديدية. اتخذنا مجالسنا في طيارة إليوشن ناقلة للجنود. سئى اليمن من فوق. صحراء وجبال ومراع. أما المنظر الجديد حقاً فهو منظر الوديان الخضراء في سفح الجبل. وقال أحدنا للمرافق لنا:

- انبال عالية جداً!

- وتنطلق الطيارة بحذاء بعض القمم أحياناً.

- لو أن عدواً ربض فوق جبل فلن يتعدّر عليه إصابة الطيارة بالبندقية العادية؟

فضحك قائلًا:

- ولا يخلو بعض طيساراتنا من آثار عديسة للرصاص...

ولمّا رأى وجومنا استنرد:

- لا تزيد نسبة الإصابة القاتلة عن واحد في

الألف...

أسلمت ناظرى إلى الجبال تحتنا. القرى الخضراء والفتجاج المتلوية. حتى لاحت صنعاء. من الجوى بدت مدينة عمران ومجمع أحياء ومقرّ قباب ومآذن. وعندما حملتنا السيارة من المطار إلى الفندق خاضت بنا زمناً موعلاً في القدم. تراصت على جوانب الطرقات المترية بيوت غريبة مزركشة. زرركشتها أيدي أطفال فنسجتها من خيوط الأحلام وألقت بها في قلب مدينة سحرية. انشقّ سطح الأرض عن دنيا عابرة تطوف بها القلائس والوزرات والخناجر والبنادق واللحمى. لفحتنا غربة، لاطفتنا نسمة، تجاذبتنا عواطف مبهمة، ثمّ لدنا أخيراً بأطيب المشاعر البشرية التي جئنا بها. وفي الفندق ارتدنا إلى ذكريات الطفولة، درجات السلم العالية، رائحة الكلس العطنة، الأسقف العالية. فندق قديم كقلعة بالية يديره غلام ذكيّ. جلسنا على الأسرة في عنبر جمعنا. وتبادلنا أحاديث لا نهاية لها. وإذا بالغلام يجلس على كرسيّ عند باب العنبر بلا استئذان. جعل

غاب عنّا كلّ شيء. ونذت أصوات متفرقة في المسيرة الطويلة.

- أهي أرض عدوة أم صديقة؟

- ربّما انهال علينا المطر أو الرصاص.

- قريب من هنا هبط سيّدنا آدم إلى الأرض.

تلوت الفاتحة والصمدية. وكما انجاب السحاب عنّا ترمى أمامنا الطريق الصخريّ مرّة أخرى. ثمّ انفسح فيها يشبه الدلتا عن أرض رملية تغطّي الحشائش بعض رقعات منها متباعدة. وتوقفت القافلة فجأة فاشرّبت القلوب. دارت السيارة المدرّعة في حركة مناورة. وجرى التهامس من سيارة إلى أخرى كمين...

كمين. تناولنا البنادق في حركة استعداد. برز علم أبيض من وراء أكياس الرمل المطوّقة للكمين. خرج جنديّ يمخّي ملوّحاً ومرحّباً. نزل إليه من السيارة المدرّعة ضابط فتصافحا. زار الكمين ثمّ عاد إلى السيارة. دخلنا حجة، القرية الجديدة، يا للقرى! إنّ قلبي يعلم بشيء لا يتحقّق. التقينا بجنود مصريّين من المشاة. تفرّقنا في الخلاء والشمس على وشك المغيب. الجوى مائل للبرودة كأيام الخريف يا مصر.

- جنود مظلات؟

- نعم...

- صرواح!

- صرواح؟

- هبط الجنود في واد ضيق تكنتفه الجبال.

- في صرواح؟

- نعم... ثمّ انهال عليهم الرصاص من الجبال!

- في أيّ وقت؟

- الفجر.

- وقت يسهل فيه الاختفاء، هل وقع ضحايا

كثيرون؟

- غير قليلين ولكنهم طهروا المنطقة..

- ليرحم الله الشهداء.

بلد كأنه شبكة من الجبال المتقاطعة. من كان يتصوّر ذلك؟! كحارات خان الخليلى، كحجرة جحا، كالتعليقات المالية والإدارية. السحاب يركض وعمّا قليل تختفي السماء. وقيل إنّ المطر سينهمر.

قال له شيخنا:

- إنك معجم فسق البلدان!

غادرنا الفندق لزيارة القائد العام ورئيس الجمهورية. طفنا بمخازن الإمام وبيت الرهائن ثم شهدنا في المساء ندوة أدبية بالقصر الجمهوري. وقابلنا بعض الموظفين المصريين المنتدبين لعمل أول ميزانية للجمهورية اليمنية وإقامة نظام مالي كأساس لحياتها الاقتصادية. وقد دعوني لزيارة جناحهم في القصر فذهبت معهم وأنا أداعبهم قائلاً:

- إذن فأنتم أول من بُشِّرَ بالروتين في أرض اليمن.

وجلسنا نتحدث وأصوات الشعراء في الندوة تترامى إلينا. وقال أحدهم:

- لقد أغلقت اليمن الأبواب على نفسها ألف سنة فلم يَخْتَفِ منها الشعر ولكن المشكلة الحقيقية هي متى يغزوها العلم؟!

### الجندبي

على السرية الأولى أن تستعد وتجهز بأدوات الميدان. شملتنا حركة نشاط متدفقة وعصبية.

- لماذا؟

- للقفز في مدينة صعدا.

أمرت أن أذهب مندوباً عن ف ٢ للتعين. ذهبت إلى مركز التعين. تسلّمت مجموعة كافية من الفانكلات والكلسونات وطواقي صوف وجرابات وأحذية وعلب سردين وبلوييف، إلى صعدا. وما صعدا؟. مدينة أم قرية؟. غزو أم إمداد؟. لن يكون القفز هذه المرة في ميدان كالمرات السابقة.

- لندعُ الله أن تكون صعدا خيراً من صرواح.

هتفت مقطّباً لأعمالك أعصابي:

- الأعمار بيد الله.

- معي أربعة وعشرون ريالاً وهي ثقيلة.

- لقفها حول وسطك كما فعلت.

ذهبنا إلى مبنى المطار لتسلم المظلات. أخذت مظلة أساسية بدون احتياطي. ليكن طريقاً سهلاً أمناً حتى نهبط فوق الأرض. لبست ما يلزمي في الحرب من

يقلب عينيه اللماحتين فينا بهدوء عجيب. وكما تركزت الأبصار عليه قال:

- أنتم مصريون؟

- نعم يا أهل اليمن...

- أتريدون فطوراً؟. عندي بيض من اليمن وفول من مصر ومرّبة من أوروبّا...

- أنت صاحب الفندق؟

- ابن صاحبه ولكنّي مديره.

- كم عمرك؟

- اثنا عشر عاماً.

- إذا غالطناك في الحساب؟

- إني أغالط الجرن.

- عفارم عليك، وما رأيك في الثورة؟

- كلنا متجمهورون وثوار واللعنة على الأعداء...

ودخل رجل غامق السمرة مترنح المشية، يرتدي بدلة ويطالعنا بنظرة مسطولة من عينيّن جاحظتين.

قدّمه الغلام باعتباره عمّه ثم ذهب تأدّباً. وقال الرجل إنّه من عدن ولكنّه في الأصل يمني، وإنّه شريك في ملكية الفندق. وجلس على الكرسي الذي أخلاه الغلام.

- حضرتك مقبوت؟

- كلاً.

- مسطول؟

فضحك وأجاب بالنفي. سرعان ما أغرانا مظهره بمجازحته فأثبت أنّه أوسع صدرًا ممّا تصوّرنا.

- إن كنت حقاً من عدن فهل تعرف لغة أجنبية؟

- عشت في عدن ومصر وسوريا وإنجلترا وفرنسا...

- هل تستعمل القات؟

- كلاً فإنّه يضعف القوّة الجنسية.

- إذن فأنت حريص على قوتك الجنسية؟

- إن قرّة عيني في التجارة والفسق!

ضحكنا طويلاً. وانطلق يتكلم عن الفسق في شتى أشكاله والوانه ومتناقضاته، وعقد مقارنات عنه في البلاد التي عاش بها ولكي يقيم الدليل لنا على صحّة مراجعته حدّثنا عن مصر حديث العارف الدائر، حتى



### نحت المظلة ٣١

حول بعضها البعض. درت حول نفسي بسرعة فائقة حتى استقامت الجبال. مضيت أهبط في الظلام وحركة انسيابية هادئة تسري في أعصابي وأنا في غاية من اليقظة والترقب. ولمحت شبح جبل غير بعيد، ما لبثت أن صرت في كنفه، وجعل يرتفع كلما أمعنت في الهبوط. اخترقت أذني أصوات طلقات ناروية. اجتاحني القلق وشدت يدي على الجبال. ضرعت إلى الظلام أن يخفيني عن أعين الصائدين وأنا أتوقع رصاصة تصيبني في أي لحظة. انتهت الرحلة التي اعتبرها أطول رحلة في حياتي فاصطدمت بالأرض صدمة شديدة ورحت أتدحرج منقلبًا على نفسي مرّات حتى استقرّ بي المكان. غرزت ركبتي على أرض معشوشبة مصمّمًا على النجاة. فتحت قفل المظلة فأخليتها بسرعة ثم انبطحت على بطني. وبحذر شديد تحلّلت الظلام بعيني. وإذا بي أجد شبحًا على مقربة مني فسددت نحوه بندقيتي في ذات الوقت الذي صاح بي «يا أخي المصري... أنا من الحرس الوطني» أنهضني وهو يعانقني. حدّثته عن الطلقات النارية فأكد لي أنّ الجبل بعيد نسبيًا. نظرت حولي فميّزت مجاميع من أشجار التين الشوكي. انطلقت في الجوّ إشارة خضراء فمضينا نحوها، وانضممت مرّة أخرى إلى السرية. نادى الضابط علينا فتبيّن غياب اثنين من السرية.

- أصيبا؟

- أو هبطا في أرض العدو.

لاحظت وجود جنود من غير سريتنا. وعلمت أنّ ثمة قوّة سبقتنا إلى هنا ولكنّها حوصرت فطلبت نجدة فأرسلنا إليها من السماء. ولم يكن بصعدا أحد سوى الجنود. ولم نسترح دقيقة فتوزّعنا في أماكن من السور المحيط بالبلد وسرعان ما اشتركنا في إطلاق النار. واستمرّ الضرب من ناحيتنا حتى توقّف الضرب الآتي من الناحية الأخرى.

وصدر أمر بالاستعداد للهجوم على الجبل الأسود المطوّق لجانب كبير للمدينة. حصل تجمّع لا أعرف مداه. وترامى إلينا أزيز طياراتنا وهي تتهاجم الجبل وترميه بقنابلها. تواصل الضرب ساعة ثم صدر الأمر بالتحرك. تقدّم سريتنا ضابط حاملًا مدفعًا رشاشًا

بدلة ممّوهة وبدلة اسموكس فوق بدلة كاكي قفز والخوذة والبندقية وحقيبة خزن ومحفظة قنابل وحقيبة الجراية وبها ذخيرة ومطواة. وانهمكت في إعداد أشرطة المظلة. وإذا بيد تساعدني. رفعت رأسي فرأيت زميلي بمدرسة مكارم الأخلاق بشبرا. تعانقنا. عانقت فيه مصر وأهلها.

- ساكون معك في الطيارة.

- جان مستر؟

- نعم وسأساعدك على القفز.

- أشكرك. هل تتذكّر شبرا؟

فضحك ويداه لا تكفّان عن مساعدتي. وقبل أن استرسل في الذكريات دُعينا إلى طابور. استعرضنا القائد العامّ وقائد المظلات. وكان القائد يقف أمام كلّ جنديّ ويسأله:

- ألك أيّ طلبات؟

رأيته لأوّل مرّة عن قرب. ذكرني وجهه بوجه ستالين. وسرحت رغبتًا عني فلما عدت إلى الحاضر سمعته وهو يعطي إرشادات عن المنطقة. واصطفت الفصيلة أمام طائرة إليوشن رقم ١٤، الضابط أوّل الأستك يمين وأنا آخر الأستك شمال. وهذا يعني أنني ساكون أوّل القافزين. ولكن ألا يستوي الأوّل والأخير أمام القدر؟. وصعدنا إلى الطيارة واحدًا في أثر واحد. بدأت محرّكات الطائرة تدور. كان معنا اثنان من جان ماستر الذين يساعدون على القفز. وانطلقت الطيارة فلم تتحوّل أفكاري عن مصر. ولما استويينا فوق السحاب أشعلت سيجارة. ظلّت أفكاري منفرسة في مصر. النيل والخضرة والأمّ والفتاة. ولمحت طائرات تطير إلى جانبنا. وإذا بجرس النور الأحمر يدقّ معلنا وصول الطائرة إلى صعدا. وظهر النور الأخضر داعيًا إلى القفز في الحال.

- ستهبطون في منطقة إسقاط بالمطار، توجد طائرة بيضاء في وسط المطار، على كلّ فرد أن يتجه إليها... تقدّمت من باب الطائرة. توّبت للقفز بقلب خافق. دفعني الزميل القديم بشدة ليبعدني عن جسم الطائرة. لم أنتبه لنفسي إلاّ وحبال المظلة تشدّني في الجوّ. نظرت إلى أعلى فرأيت المظلة مفتوحة بيد أنّ حبالها التفت

-٤-

## الآديب

غادرنا صنعاء بالطيارة إلى مأرب. من مطار استقلنا سيارة رومي في حجم لوري متوسط، في مقدمتها مدفع، لتحميلنا إلى القلعة والآثار. قطعت بنا طريقاً وعرة متلاحقة العقبات. وكان في هندستها مرونة لتواجه بها المرتفعات والمنخفضات ولكن لم يكن بنا مثل مرونتها. تأرجحنا بقوة وتصادمنا فحففنا البلوى بالفكاهة ما أمكن. اخترقنا أرضاً فضاء إلى ما لا نهاية، قاحلة جرداء، إلا من نباتات شوكية موسومة بطابع الهلاك والفناء.

- مكان الجنتين خالاً

- أجل. أين العمران والخضرة أين!

- وجه الأرض يتغير كوجه الإنسان.

- لقد كان لسبا في مسكنهم آية جنتان.

- فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم.

زرنا الآثار القليلة الباقية. عرش سبا ومقاعد مجلس الحاشية. تكشّف عنها وجه الأرض ثم تُركت وحيدة وسط يباب يكتنفها من جميع الجهات. وقفنا ننعم النظر وثارت رومانسية الشعراء ولكن ماذا يعني أيّ أثر لقوم آتين من بلاد الآثار؟

وذهبنا إلى القلعة. وجدنا حامية مصرية معزولة عن العالم بآلاف السنين. حفروا بئراً ليشربوا، وأقاموا فرناً ليخبزوا، ويدو كأسرة مستقلة مكثفة بذاتها ضائعة في الفراغ. قابلونا بمرح وقدّموا لنا الشاي. ولم يكن يصلهم بالدنيا إلا راديو وبعض أفلام قصيرة من مصر. وأشاروا إلى مدينة صامته مقامة فوق هضبة، مدينة غارقة في الجمود والصمت.

- مدينة مهجورة، هجرها أهلها في أثناء المعارك.

- مية لا حركة فيها ولا صوت ولا خيال حيّ.

- كانت مقاماً للأشرف، وخارج أسوارها عاش الرعاة.

- ثمة مفاوضات معهم وسوف يعودون.

- يا له من منظر، منظر المدينة الخالية. حتّى المقابر

توحي بطريقة ما بالراقدين داخلها.

- وكيف حال مصر؟

فتبعناه في حركة انتشار. تقدّم الضابط لنا بثّ فينا روحاً عاليّاً فأخذنا في الصعود ونحن نطلق النار وقد شعشع ضوء النهار الباكر. وتساقط رذاذ في أثناء تقدّمنا ثمّ لم يلبث أن انهمر المطر. وصوت صاح:

- يجب أن نصعد قبل أن تعيقنا السيول.

الحقّ أزعجنا المطر وتسألّ منا إلى الأجساد على حين غاصت أقدامنا في الوحل. لم نكفّ عن الضرب حتّى كفّ العدو عنه ممّا يقطع بتقهقره. ومضينا في صعود عسير تكاد نجرّنا السيول حتّى بلغنا القمة. أعلن الضابط احتلال الجبل. تسلّينا دقائق بمشاهدة آثار قنابل الطائرات.

تلقينا أنباء عن فقد شهداء منهم ثلاثة من المجموعة التي استقلت معي الطائرة رقم ١٤. تذكّرت وجوههم وبخاصّة أحدهم الذي كان يحدّثنا في أوقات الفراغ بالفصحى متفكّهاً.

- ماذا يصنعون بالجثث؟

- فسمعت إجابة مقتضبة لا تخلو من أسي:

- يدفنونها!

ولكنّ الميت يظلّ حيّاً في وجدان أهله بمصر حتّى يبلغهم خبره. وفكّرت في مصر. بكلّ وجداني الحزين. من فوق قمة الجبل الأسود وتحت سيل من المطر المنهمر فكّرت فيك يا مصر. وسمعت نداءً باسمي. وقفنا ثلاثة أمام الضابط:

- كونوا نقطة إنذار على بعد كيلو ونصف.

حدّدنا الموضع بالقياس الدقيق. حفرنا حفرة سرعان ما امتلأت بمياه المطر. غصنا فيها حتّى الرقاب ومعنا جهاز لاسلكيّ صغير R/06

- راقبوا جيّداً وعند أيّ اشتباه نبليغه ثمّ ننسحب في ثوانٍ قبل إطلاق النار.

- قد يلمحنا العدو ونحن ننسحب.

- أيّ تأخير معناه الموت بقنابل جنودنا!

- اختصّ كلّ ممّا بناحية المطر يكاد يجرّنا.

- لكنّ الجبل طهر، أليس كذلك؟

- الرّم الصمت. . .

رگزت عينيّ في المراقبة والمطر ينهلّ بغزارة وقوّة لم أتخيّلها من قبل.

### تحت المظلة ٣٣

وابتأها يملأن الجرار. تلكأت عندهن فنظرت إليّ الأمّ  
بحنان ذكّرتني بأمي التي لم أودّعها.

- مصريّ؟  
- نعم يا خالة.  
- يخلّيك لأمك.  
- سررت وابتسمت الفتاتان. اجتأحني شعور عائليّ  
وتذكّرت قريتنا بأسطنها. قلت:

- نحن نحبكم.  
- وإذا بصوت عالٍ يقول في غير جدّيّة:  
- ما شاء الله!  
أذيت التحيّة للضابط فقال مقطّبًا:  
- ماذا تفعل؟.. ألا تعرف التعليقات؟  
وابتعدت من فوري والمرأة تقول له شبه غاضبة:  
- أفزعته يا رجل!

عند الظهر صدرت الأوامر بالتحرك إلى قرية البيضاء  
على بُعد ثلاثة كيلومترات من صعدا. ولدى مشارف  
الموقع الجديد هاجمنا على شكل كباشة تتقدّمنا ثلاث  
عربات مدرّعة. وثار الضرب من الجانبين كأعنف ما  
يكون. اشتدّ الضرب علينا بغزارة وتشتّ بضخامة  
القوّة التي تصدّي لنا. انطلق الرصاص من مركز  
المراقبة، من أسوار القلعة، ومن أكثر من كمين،  
انفجرت قنابل وراءنا وبين صفوفنا. وصدر الأمر  
بالانسحاب ونحن نقاتل. انسحبنا مقاتلين بعنف.  
انغرزت إحدى سيّاراتنا المدرّعة في حفرة وتعدّر عليها  
المسير. انهمر عليها الرصاص كالطر فلم يجرؤ أحد من  
فيها على رفع رأسه وتوقّف الدفاع. أحاط بها العدو  
من كلّ جانب ونحن نقاتل مهقيرين لا نستطيع أن نمثدّ  
لها يدًا، ثمّ أطبق عليها الأعداء بالبلط والخناجر.

ساعات مرّت دون أن تتوقّف العمليّة دقيقة  
واحدة. أنهكنا التعب. قلّ زادنا من الطعام والذخيرة  
والماء. وضاعف من إرهابنا إحساسنا بالقدارة ونحن  
نتقلّب في الطين. الساعات تمرّ بثقلها فوق أجسادنا  
وأرواحنا. وساءلت نفسي حتّى متى أحتمل العناء  
الذي يفوق البشر.

وهتف صوت:

- صوت دبابات!

- عال، قلوبها تخفق معكم.

- وكيف حال الأدب؟

وضحكنا. وفي أثناء ذلك جاءونا بنسخ من كتبنا  
تهرأت من كثرة التداول.  
- أنتم لا تتصوّرون مدى الأثر الذي يحفره في  
نفوسنا قراءة بضعة أسطر عن وصف مكان أو عادة أو  
زمان في مصر.

حقًا لا يمكن أن نتصوّر. وقال أحدنا:

- ولكن عددكم قليل ومراكز المراقبة معدودة؟

- لا بهم... أصبحت المنطقة مواتية... .

تخيّلت نفسي مقيّمًا في هذا الحلاء. يومًا بعد يوم،  
بلا عمل ولا تسلية. وكلّما تخيّلت عجبت للمرح  
البيسط الصادق الذي يطالعنا في الوجوه. وغزاني  
شعور بالإكبار لا يقاوم.

رجعنا إلى اللوري الروسيّ. كابدنا الطريق في  
الإياب كما كابدناه في الذهاب. عدنا إلى صنعاء.  
دعينا إلى زيارة مندوب الحكومة المصريّة. جلسنا في  
بهو استقبال فخم وشربنا المرطبات. وتكلّم أهل العلم  
عن مستقبل اليمن الواعد بكلّ خير. عن الشباب  
الثائر المؤمن بالتقدّم. عن التأخر الأسيف المتراكم من  
أبعد العصور. إيمان المسؤولين اليمنيين بوجود سير  
الإصلاح جنبًا إلى جنب مع الحرب ودون تأجيل.  
ولدى عودتنا إلى الفندق وجدنا في انتظارنا وفدًا من  
الأدباء الثائرين. جالسونا على الأسرة فشرّق بنا  
الحديث وغرّب. وكان لكلّ منهم مغامرة مع الإمام  
فراح يروي مغامرته.

### الجنديّ

غادرنا الجبل على أثر قدوم قوّة من المشاة لتحتله.  
نمت نومًا عميقًا في المعسكر. في الصباح مُنحنا عطلة  
قصيرة فقصدت قرية غراز. سرت في طرقاتها الضيقة  
فاستقبلني أهلها ببسات إنسانيّة كنت في نهم إليها.  
لاعبت الأطفال حيثما وجدتهم. وشربت القهوة في  
مقهى ريفيّ كالكوخ. أذهلني جمال النساء. جمال  
العيون بصفة خاصّة يبعث الدفء في القلوب التي  
أذابها المطر. صادفت في تجوالي بثرا وقفت حولها أمّ

## - وطائرات ا

هل جاءت نجدة حقاً؟

ارتفعت روحي المتهافنة . اشتدّ إطلاق النار . دارت الدبابات من حولنا وهي تقذف بقنابلها . ثمّ دوت انفجارات قنابل الطائرات . تراخت القبضة الخانقة لرقابتنا . تحوّلنا من الدفاع المتقهقر إلى الهجوم . اقتحمنا اليضا ونحن نتساقط من الإعياء . علمت باستشهاد أحد زميليّ بنقطة الإنذار فوق الجبل الأسود . تذكّرت أحاديثنا منذ ساعات عند مشارف قرية غراز . قال إنّه رأى وجوهاً تشبه بعض أفراد أسرته بدرجة مذهلة .

اقتنع بأنّه ينحدر من أصل يمنيّ . وقال لي :

- لا تدهش إذا قرّرت - بعد الحرب - الإقامة في اليمن إلى الأبد!

## -٥-

## الأديب

طارت بنا الطيّارة إلى تيمز . ودون توقّع أحد منا وجدنا أنفسنا في جنة . تهادت بنا السيّارة من المطار إلى القصر الجمهوريّ في جنة .

- ماذا ترون أيّها الأخوة؟

- سويسرا . . . لبنان . . . حلم الخيال .

الحقول خضراء ، المراعي خضراء ، الطرقات مجلّلة بالأشجار ، الحدائق أكثر من البيوت عدداً ، سلسلة من الجبال كالأنغام المتموجة مكسوة بالزمرد مزرکشة بالأزهار ، الجوّ لطيف يريق السحر مُعبّقاً بشذا الورود والثمار . وصاح صائح مشيراً إلى القمة :

- يا له من فندق سياحيّ!

إنّه يلوح كوكبر نسر فوق قمة جبل وسيط بين التموجات الجبلية غير أنّ الدليل قال مصحّحاً بهدوء :

- بيت الرهائن ، وهو اليوم خال .

وضحكنا ونحن نتأمله في أسي . واخترت شاعراً من بين الزملاء وهمست له :

- ألا تعذرنّي إن طلبت الإقامة في تيمز؟

فأجاب بشيء من الامتعاض :

- دلّني على ملهى واحد . . .

ولما آنس منّي الدهشة استردّ:

- دفء الجمال الحقيقيّ إنّما ينبعث من المرأة . . .

ثمّ بعد دقيقة صمت:

- والويسكي . . . لا يجوز أن ننسى الوقود .

استرحنا في القصر الجمهوريّ ساعة . دعا الداعي

إلى التسويق . ذهبنا إلى السوق كلّ يحمل بدل سفره .

وتسأل صوت في براءة:

- أليس من الأفضل أن نحفظ بالعملة الصعبة

لوطننا؟

انهالت عليه مختارات من السباب شعراً ونثرًا .

تحوّلنا في السوق . الوجوه ناضرة جميلة . الخوانيت

يديرها غلمان هم آيات في النشاط والذكاء . اخترنا

محللاً متوسّطاً فائقضنا عليه كمجموعة من الفئران .

زاغت الأبصار بين لعب الأطفال والساعات

الأتوماتيكية والأغطية والمفارش والبلوزات والإشاربات

والشالات . من جميع بلاد المعمورة . وابتاع كلّ حقيبة

متوسطة ليودع بها هداياه . عدنا ولا عملة معنا صعبة

ولا سهلة . ذهبنا - عقب الغداء - إلى ميدان الشهداء

لشهود ندوة أدبية . استقبلنا بهتاف والتخلدنا مجالسنا وراء

مائدة مستطيلة . ازدحم الميدان بالجمهور . استبق

الشعراء إلى الترحيب بنا والإشادة بشورتنا . وألقى

شعراؤنا قصائد عن العروبة والجهاد والثورة

والاشتراكية . وجددتني طيلة الوقت أقارن بين أحاديثنا

الفردية وكلّماتنا أمام الجمهور ، بين تحوّلنا في السوق

وموقفنا وراء المنصة . إنّ الصوت الذي يتحدث أمام

الجهامير هو صوت الجماهير . وتخيّل إليّ أنّي أدركت

شيئاً ممّا ينقصنا . لعلّه محور التناقض بين ما يقال وما

يجب أن يقال . أن نتبيّن في خلوتنا صوت الجماهير . ها

هي أشداق مستقبليتنا متكوّرة بالقات إذ قامت الحفلة

في وقت التخزين . هكذا اجتمع خازنو القات بخازني

الهدايا في سباق الحياس لتقرير المبادئ المثالية للأمة

العربية . وعند إبداء ملاحظة من هذا النوع ستسمع

من يردّ عليك قائلاً «يا أخي . . . نحن بشر . . . لم

نرتكب شراً . . . ونحن مخلصون . . .» ولكن أين الروح

التي تشعل القلوب؟ ، أين لحظات الانتصار على

النفس التي تخلق المعجزات على مدى التاريخ؟ ماذا

## تحت المظلة ٣٥

كيلومتر انهمر علينا الرصاص. تصدّت دروع السيارة للرصاصة واستمرت عملية الاستكشاف. انحشرت سيارتنا في مطبّ أو التحمت بشيء مرتفع فتوقفت. عجزت عن التحرك وضاع كلّ جهد لتخليصها.

- على دبابّة أن تدفعنا من الخلف.  
- ليذهب أحدنا إلى إحدى الدبابتين.

وقعت القرعة على زميل فغادر السيارة ليزحف على بطنه في الظلام. انتظرنا في غايّة من القلق. وبعد دهر رجع إلينا وهو يقول:

- دبابّة المقدّم مشتبكة في قتال على بعد خمسة كيلومترات. أما الأخرى فقد تعطلت!

صعقنا الخبر. وهمس صوت:

- نحن عشرة والعدوّ آلاف.

- والعمل؟

- مصير سيارّة اليضا!

من داخل السيارة رأينا الأشباح تمهيط في حذر من الجبل. فتحنا سقف السيارة وأخذنا أهبتنا بالبنادق والقنابل اليدويّة. طلبنا النجدة باللاسلكي ولكنّ الاتصال انقطع. أمرنا أقدمنا في الخدمة بمغادرة السيارة. مرّت لحظات رهيبّة ممّزة بالخوف. قاومت موجة من الضحك تريد أن تبتاحني. وثب أحدنا. تبعناه بلا تردّد. نفرّ من الموت إلى الموت. انهال الضرب. انبطحت على وجهي. استعملت البندقية والقنابل اليدويّة. في هنيهة صمت رفعت رأسي فلم أجد أثرًا لأحد من زملائي. دعوت القمر أن يخفي. لم أدر أين أنجّه ولا كيف نفرّق الزملاء. خيل لي أنّي محاصر. أنجّمت وجهه بلا خطّة ولا علم لي بما ينتظرنني. دهمتني لحظة مباغته فوجدتني حيال ثلاثة أشباح من العدوّ بلا تدبّر أو وعي فتحت الأمان وضغطت على الزناد فانطلقت مطرة من الرصاص خرّ على أثرها الثلاثة. انطلقت أعدو على غير هدى تحت ضوء القمر. سمعت صوتًا يناديني فأنجّمت نحوه بلهفة من يفلت من قبضة القمر. وجدتني مع مجموعة من الزملاء ماضية في حذر نحو شبح الدبابّة المعطلة. ولما بلغناها صحننا معًا:

- افتحوا... نحن مصريون!

ينقصنا؟. لماذا نبقى كأننا متفرجون حسنو النية أمام فيلم يموج بجلبيل الأحداث؟. وخيل لي أنّ شيئًا يتحرّك عند ساقّي تحت المائدة. طويت طرف الغطاء ونظرت إلى أسفل فرأيت صبيّة في الثامنة أو دون ذلك، متلقّعة بشال أبيض، تتفرّج على الحفل من تحت المائدة. شعرت بعيني فأدارت نحو عينيها فرأيت وجهها صغيرًا نقي البشرة يحدّق في بعينين سوداوين كأجمل ما رأيت في حياتي من عيون. وجب قلبي ممتنًا لرؤيتها. وفاض به نبع من الحنان والحبّ. ورفعت عيني إلى قطع السحاب الأبيض المشعشع بنسائم مخضلة برذاذ يبيء قليلًا وينقطع قليلًا فاطمأن القلب إلى وجود شيء صغير على هامش الجمع، عند ساقّي، ولكنّه كامل الصدق والنقاء. وسهرنا في حديقة القصر حتّى الهزيع الأخير من الليل. الهواء بارد دسم ولكنّه مفعم بالأمان والسحب تبهر العين بضياء القمر. وقال محدثنا:

- المدن معنا، أما الجبال فهارقة ولا سبيل للتفاهم بين الاثنين.

وقلب عيني في وجوهنا مستطلعًا ثمّ واصل:

- فأما أن نلتزم موقف دفاع إلى الأبد وأما أن نبعد

العدوّ إبادة!

وقال قائل:

- الإبادة.

وقال آخر:

- الحضارة... نغزوهم بالحضارة!

وثالث قال:

- نعرف بالواقع!

وتواصل الحديث تحت ضوء القمر. وتمجّلت لنا الحقيقة صخريّة صلبة مستقلّة بذاتها عن الأحلام.

## الجنديّ

إلى وادي نشوز.

تحرّكتنا بالعربات المدرّعة R+R شارفنا الوادي. تقدّمت دبابتان للاستكشاف تتبعهما مدرّعتين للحراسة. دخلنا مرًا ضيقًا تقوم على جانبيه هضبتان صخريّتان وكنا في المدرّعة عشرة. بعد توغّل نصف

-٦-

## الآديبُ والجنديّ

غادرنا القصر الجمهوري في الصباح الباكر. والسيارة تميل بنا نحو طريق المطار. اعترض سيلنا قطع غنم ترعاه فتاة... فتاة جميلة لحص وجهها وقوامها جمال تميز بكافة أشكاله وألوانه. اهتز الشاعر وجعل يهلوس بها بقية الرحلة. عدنا إلى الحديدة. إلى الحرارة الذائبة في الرطوبة الخائفة. قال:

- الارتفاع في المكان يحدث المعجزات، كذلك الروح لها إذا شاءت. أن ترتفع فإنها تعانق المعجزات، ما رأيك في هذه الفكرة؟ قلت:

- لخيرك ولخير الشعر لا تكتب إلا عن المرأة ودعانا القائد إلى العشاء فوق سطح مسكنه على شاطئ البحر الأحمر. لطف الجو على شاطئ البحر. طاب السمر حول المائدة الحافلة بما لذ وطاب من طعام وشراب. تجاوبت في الفضاء ضحكاتنا. هل سمعتم نكتة الرجل الذي... هل تعرفون حكاية الزوجة التي... هل وهل لها وماها. وتنوع الحديث واختلط جدّه بهزله، وتعدّد المتحدثون في وقت واحد، وانقسموا إلى وحدات مستقلة.

- الجبليون أشداء. عندما يُحكم على أحدكم بالموت يتقدم إلى السياف مطلق اليدين على مشهد من أهله، لو خاف أو صرخ ركبهم العار إلى الأبد، يجني رأسه بثبات، يهوي عليه السيف دون بادرة خوف من ناحيته، ينفصل رأسه عن جسده وكأنه رأس رجل آخر.

- رجال أشداء حقًا، من سلالة غزت العالم ذات يوم، وقوة مدخرة للخير مستقبلًا

\* \* \*

تري أين تلميذي القديم، جنديّ المظلات، ماذا يفعل الآن، وماذا يفعل غدًا؟

\* \* \*

- وينقلون أوامر شيخ القبيلة بلا تردد، في المعقول وفيما يجاوز أيّ معقول، حتى الموت نفسه يهجمون عليه

لم نتلق من الداخل استجابة من أي نوع كان. كررنا النداء بلا أمل. يشنا فدفعنا أنفسنا في الحشائش متفرقين وأصوات الرصاص لا تنقطع. وأخذ الضرب يخف حتى سكت. نهضت في حذر مقتربًا من الدبابة وهتفت بتوسل:

- افتحوا... إني مصري... ألا تسمعون؟

ظلت الدبابة غارقة في صمت متحد مرهق رهيب حتى تطايرت اللعنات من فمي ثم رجعت مغيظًا يائسًا إلى قبر الحشائش. وإذا بالضرب يتركز على الدبابة كالسيل. مست رصاصة خوذي فتشهدت. ترقبت الرصاصة التالية بيأس وقهر. هاتف قال لي إني سأعود إلى مصر. أقسم لي على ذلك.

اشتدّ الضرب لدرجة غير محتملة. ثم يهدأ ويخف لسبب لا أدريه. لم يبق منه إلا طلقات متباعدة وأنا مغروز بكل قوتي بين الحشائش. ونحى إليّ أن الظلام يخف ويبهت ويذأ. أجل، الظلام يخف رغم اختفاء القمر وراء الجبل. سوف تلوح تباشير الضياء وينقشع الظلام الذي يخفي عن عين العدو المترصص. سيجدني صيدًا سهلًا وسينال الرصاص الحائق الغاضب عليّ من جميع الجهات. الصباح يقترب ولا مكان للمعجزات. لعلّ أمي تصلي في هذه اللحظة ولكن لا أمل في المعجزات. واشتدّ الضرب فجأة. اشتدّ أكثر من أي وقت مضى. أصبح الضوء يسمح بالرؤية. أقدام العدو تراجع نحو الجبل والضرب يجيء من الناحية الخلفية. ترامي إلى سمعي صوت دبابة أو دبابتين. جاءت النجدة. إن القذائف تطير فوقي لتنفجر خلف سفح الجبل. لم تدم فرحتي إلا ثانية واحدة ثم تساءلت كيف أعلن عن حقيقي المدفونة لبني وطني؟ كيف أجنب الموت برصاصهم أو شظايا قنابلهم؟ أطلقت النار نحو العدو المتقهقر. وتركز الخوف من الموت فيما ورائي. أثقلني التعب وثقل عليّ بصفة خاصة فوق كتفي اليسرى. وغاصت الأرض بلا سبب واضح. إلى أين تغوص الأرض ولماذا؟ إني أهبط في هوة ثم يرفعي شيء مجهول إلى أعلى. وعاد ضوء الصباح يضعف بسرعة عجيبة حتى غاب كل شيء في الظلام.

## المظلات؟

\* \* \*

- وتلاقينا مع قوّة معادية ولكن حجز بيننا صخرة كبيرة في ممرّ جبليّ، تحصّنت كلّ جبهة في مكانها واستحال علينا القتال، دخلنا معركة كلاميّة، قلنا لهم يا عبدة الإمام يا أعداء الإصلاح فقالوا لنا يا كفره يا فجرة يا عبدة الشيوعيّة، ثمّ تمادينا في السبّ والقذف!

\* \* \*

- لا أعرف مكانه الآن، اكتب له خطابًا وأعدك بإيصاله إليه في أيّ مكان في الميدان..

\* \* \*

- هل جرّبت مواجهة الموت؟  
- الحياة كلّها كفاح وليس الجنديّ وحده الذي يحارب...  
- ولكن...

- سأقصّ عليك قصّة حبّ عانيتها زمنًا، بطلتها فتاة متمرّدة وحشيّة، وسوف تقتنع بأنّ ما كان بيني وبينها لا يختلف عن القتال في شيء.

\* \* \*

هل ثمة فرصة لأكتب كلمة سريعة؟  
أخي العزيز...

كم وددت أن أودّعك قبل الرحيل. أذكرك بالحبّ والإكبار وأنا على وشك العودة إلى أرض الوطن. ستعود إليه ذات يوم منتصرًا راضيًا بإذن الله. هنا الآن بأنك تحارب في سبيل قضية عادلة، قضية التقدّم للإنسان العربيّ. ومهما تكن العوائق ومهما تكن العواقب فإنك بذرت في الأرض بذرة من طبيعتها النموّ والازدهار. أستودعك الله وإلى اللقاء.

«المخلص»

دون مبالاة، ويؤمنون بأنهم من طينة غير طينة البشر، وأنّ الدنيا جميعًا تحت وأتهم فوق، كالجبال التي تؤويهم!

\* \* \*

- ستعود فرقة من الجنود معنا على ظهر الباخرة...  
- ما أجل أن تؤدّي واجبك في حرب ثمّ تعود إلى الوطن سالمًا!

- الإنسان يحارب منذ وُجد على ظهر الأرض، ومن خلال الحرب خلق الحياة والحضارة!

- متى انقلبت إلى ماردي فلسفيّ؟  
- لا فلسفة ولا دياولو، فكرة تذهب بي وأخرى تهيء بي...  
- سبق أن قلت إنك لم تحارب ولن تحارب.

- والحمد لله على ذلك!  
- ومرة تزوّج جنديّ دون إذن فقدم وحكم عليه بالحبس سبعة أشهر، ثمّ أرسل إلى مصر لتنفيذ الحكم ولكنهم أرسلوا معه زوجته اليمينيّة...  
\* \* \*

- دماغي يدور ويجب أن نتبادل الرأي!  
- سيّسع المجال فوق ظهر السفينة.  
- العالم غريب مليء بالمتناقضات ولا معنى لشيء إذا لم نعرف لماذا نعيش!

- شربت أكثر مما ينبغي...  
- إني أشرب زجاجة كاملة وأستطيع بعد ذلك أن أحاضر إذا شئت...  
- متى تجمع محاضراتك في كتاب؟

\* \* \*

ترى أين ضابط الشئون العامّة لأسأله عن جنديّ

## يُمِيتُ وَيُحْيِي

عينيهِ، ينظر إليها ثمَّ يغمض عينيه مرّة  
أخرى مغمغماً)

الفتى : أبا

(تربّت على خدّه بحنان، يفتح عينيه لحظات  
ثمَّ يغمضهما مغمغماً)

: أمي!

(تربّت على خدّه بحنان، يفتح عينيه لحظات  
ثمَّ يغمضهما مغمغماً)

: زوجتي!

الفتاة : شدّ حيلك.

(تدلك خدّيه . يفتح عينيه مفيئاً . ينظر إليها  
طويلاً ثمَّ يتمتم)

الفتى : أنت!

الفتاة : حمدًا لله ... فم ... اعتمد على  
ذراعي ...

(تقيمه ... تمسح بمنديل جبينه وتسوي له  
شعره ... وهو يأخذ في التماسك شيئًا  
فشيئًا)

: لعلك أحسن ...

(الفتى لا يردّ ولكنه يعاود حالته الطبيعيّة)

: تنفّس بعمق فالجوّ اليوم طيّب .

الفتى : لا شيء طيّب على الإطلاق .

الفتاة : الجوّ طيّب على الأقلّ، هدئي خاطرك .

الفتى : هيهات أن يطيب بعد اليوم جوّ أو خاطر .

(تشدّه برقة إليها في دلال)

الفتاة : تعال إليّ، أنا لا أعرف اليأس .

المسرح منقسم إلى قسمين . قسم أمامي وهو حوالي  
ثلثي المساحة وهو مضاء واضح المعالم . في وسطه نخلة  
مفروسة، وفي جانب منه ساقية صامتة، القسم الخلفي  
مرتفع الدرجات على هيئة مصطبة، تغشاه الظلمة،  
وتلوح به أشباح راقدة، نيام أو موت . الطابع طابع  
تجريديّ .

يُرفع الستار . على المسرح فتاة جميلة تسير ذهابًا  
وجيشة بين النخلة والساقية . ثوبها يناسب الجوّ  
التجريديّ حيث يصعب تحديده على أساس جغرافيّ  
وكذلك ثياب جميع من سيظهرون على المسرح .

ومع ارتفاع الستار تترامى أصوات معركة بين اثنين  
آتية من ناحية اليسار . شتائم وتهديدات وأصوات  
ضرب .

الفتاة : يا ربّ السماوات ... متى تختفي هذه  
الأصوات من الوجود ... متى تشرق  
شمسك على أرض ناعمة البال، قريرة  
العين؟  
(تصغي إلى الأصوات بقلق متزايد ثمَّ  
تقول)

ترى هل أكفّر عن ذنب قديم؟، أو إنّه بلاء  
مركبّ في دمي؟، أو إنّه أخطاء تقع فلا  
تلقى إرادة صادقة لإصلاحها؟ .

(يتقهقر شخص مندفعًا بعنف، نتيجة لدفعة  
قويّة تلقّاها في الخارج، ثمَّ يسقط تحت  
النخلة مغمى عليه . الفتاة تنحني لوقه  
باهتمام وتربّت على خدّه بحنان . يفتح



- (محتد في عيني الفتي نظرة ولكنه يتراجع في حياء أمام نظراتها الخنونة)
- الفتى : لست على حال أهنا معها بعطفك، معدرة... .
- الفتاة : لبتك تقنع بصدري ملاذاً لك من متاعب الدنيا.
- الفتى : لبت ذلك في الإمكان.
- الفتاة : إنه ممكن إذا أردته.
- الفتى : (متحسناً رأسه وعنقه في تألم) إنه مستحيل أردت أم لم أرد.
- الفتاة : إيتها اللعنة القديمة التي تطارد التعمساء.
- الفتى : الحق أنها تطارد الأحياء.
- الفتاة : وعلى الأحياء أن يحدروها، إني أدعوك إلى السعادة الحقيقية في الوجود.
- الفتى : حتى السعادة تنقلب أحياناً بين أيدينا تراباً وخجلاً.
- الفتاة : يا لك من جاحد.
- الفتى : لا أنكر عهيدك، ولكني أخشاه، أخشاه في لحظة اندحاري الراهنة، وأراه من موقفي الدامي ذا جاذبية مخيفة تعمي البصر.
- الفتاة : أهذا شعورك نحو تفتيح القلب وتألُّق الأزهار وجني الثمر؟
- الفتى : بل إني أذكر مع الأسى ثقل الجنون، وترهل العضلات واسترخاء الهمم.
- الفتاة : دعني أكرّر أن لبتك تقنع بصدري ملاذاً لك من متاعب الدنيا.
- الفتى : يا له من جمال دافئ قهّار. أقوى من الموت نفسه، ولكن تلاشت في أحضانه أحلامي.
- الفتاة : إنه أنفع من أحلامك.
- الفتى : سيظلّ الجبن أكبر منغص لصفو الرجال.
- الفتاة : من عجب أن نحن إلى فظاظة الخلاء!
- الفتى : أحنّ حقاً إلى توهج مصباح الحياة على حافة هاربة الخطر الدايم.
- الفتاة : والدم والتشرّد والغبار.
- الفتى : بل قوّة الاعتداد المسخرة للرياح.
- الفتاة : ولدى زلّة قدم يهال التراب على رَجُل من الرجال.
- الفتى : والصرخات المدوية تتوارى في أعقابها الفئران في الحجور، ولذّة التساؤل المغمم بالقلق أمام احتمالات الحياة والموت.
- الفتاة : ووجهك الملطخ بالدماء المثير للرعب.
- الفتى : ونبض القلب بزهو النصر المؤسس على الحقّ والكرامة.
- الفتاة : أنت أنانيّ، زهدت فيّ بعدّ شيع. وشاقتك رائحة الدماء.
- الفتى : إني أحبّك ولكني أكره أن أتمرغ في التراب.
- الفتاة : هذا يعني أنك لا تحبّني.
- (الفتى يشير إلى المصطبة المسربلة في الظلام حاملة الرقود من الأشباح)
- الفتى : ليكون لي قدوة في الغابرين.
- الفتاة : لا أحبّ النظر نحو الموت.
- الفتى : لكنهم أحياء ما دمنا أحياء.
- الفتاة : فراغ وراءك وفراغ أمامك، ولا حقيقة في الوجود سواي!
- الفتى : كم استنمت إلى هذا الكلام الأسر حتى داستني الأقدام.
- الفتاة : لقد أشعلت غضبه بمزاحك.
- الفتى : المزاح من آداب حياتنا فكيف يكون جزائي ضرباً أليماً موجعاً!
- الفتاة : طالما حدّرتك من المغالاة فيه.
- الفتى : ولما أردت الدفاع عن نفسي خدلتني يداي.
- الفتاة : الرجل المهذب خير عندي من الرجل القويّ.
- الفتى : صدّقت حتى وهنت منّي القبضة.
- الفتاة : كان عليّ أن أنتشلك من حياة التشرّد في الخلاء.
- الفتى : وهكذا هزمني وهو يسخر من ضعفي.
- الفتاة : لا تتمرّق عشرتنا بالكبرياء.
- الفتى : إنها تتمرّق بالمهانة كما تتمرّق بالموت.
- الفتاة : لا شيء كالموت.
- الفتى : لأنه ليس شرّاً ما في الحياة.
- الفتاة : صدّفتني فإنه العدوّ الأوّل للحياة.

## تحت المظلة ٤١

- الفتى : أيسرك أن أرضى بالهزيمة؟  
الفتاة : لا شيء يُرى ولا يُسمع!
- الفتاة : أرض بأي شيء إلا الموت.  
الفتى : لقد زلزلني هتاف النصر فوق جثث الشهداء.
- الفتاة : لأعود إلى اللعب السعيد وقلبي يحترق بنار الهزيمة؟  
الفتاة : ما هي إلا هواجس رغباتك الجامحة في القتل.
- الفتاة : للزمن بلسم يشفي كل شيء إلا الموت.  
الفتى : (مشيراً إلى المصطبة) تعامل أجدادنا مع الموت بعقيدة أخرى فوهبوا الخلود.
- الفتاة : لقد ماتوا وشبعوا موتاً.  
الفتى : (مخاطباً المصطبة وأهلها) قولوا إنكم خالدون.
- الفتاة : لا تخاطب الفراغ كالمجانين.  
الفتى : صوت من المصطبة كالصدى: إنكم خالدون.
- الفتاة : ألا تسمعين؟  
الفتاة : إنك تصرخ في الأموات تبريراً لسفك الدماء.
- الفتى : يا له من صوت رهيب!  
الفتاة : متى كان للتراب صوت.
- الفتى : (مخاطباً المصطبة) هل تسمعون ما يقال؟  
الصوت - الصدى: (بعد قليل) هل تسمعون ما يقال؟
- الفتى : ماذا فعلتم بالموت وماذا فعل بكم؟  
الصوت - الصدى: ماذا فعلتم بالموت وماذا فعل بكم؟
- الفتى : (لا يزال متطعماً إلى المصطبة وكأنها يخاطب نفسه)  
إنهم يرددون قولي... أجل... ولهذا معنى عميق لا يخفى على لبيب... وها هم يتحركون. (يظنون رقوداً طيلة الوقت ودون حركة)... إنهم يهدون إلي صورة عزيزة غابرة... ها هو القتال يحدث... الشهداء يسقطون... الجنود يتسلقون جدار الحصن كالنمل... ها قد سقط الحصن... ولهذا هتاف النصر يدوي مخترقاً جدار المثين من السنين (ثم ملتفتاً نحو الفتاة)... أرايت... أسمعيت؟
- الفتاة : لقد مات الأموات أدرك الغناء كل شيء.  
الفتاة : إذا أردت الحياة حقاً فلا تنظر إلى الوراثة.
- الفتى : ولكن الوراثة هو الأمام!  
الفتاة : ولا تنظر إلى الأمام... (يقطب محتجاً حائراً).
- الفتاة : فلتغرق في عيني توهب خلوداً بين الظلمتين!  
(قهقهة ساخرة وحشية تترامى من ناحية اليسار).
- الفتى : أتسمعين استفزازة الساخر؟  
الفتاة : ريح هوجاء يعربد خلالها الشقاء.
- الفتى : لأنه يتحدثني!  
الفتاة : سأغني لك أغنية ترقص لها الحمام فاستمع لي أنا!
- الفتى : فلتطرب العصافير.  
الفتاة : فلتنهأ بك شهوة الدماء.
- الفتى : إن قهقهته الساخرة تحيل الهواء في صدري تراباً.  
الفتاة : خير ما تفعل أن تصم أذنيك.
- الفتى : ولكني خلقت بأذنين.  
الفتاة : لتسمع بهما مناجاتي الدافئة.
- الفتى : يا لها من مناجاة أجهضت همتي...  
الوداع...  
الفتاة : لن تستغني عني أبداً.
- الفتى : فلتكوني الأمل المؤجل حتى يطيب كل شيء.  
الفتاة : لن يطيب شيء بعيداً عن ذراعي.
- (القهقهة الساخرة تترامى من بعيد)

- الفتى : وهل تأكدت من مرضي حتى تحذري من المضاعفات؟  
الطبيب : إننا لا ندعى للأفراح.  
الفتى : بل يبدو لي أنني مريض.  
الطبيب : لأنني أعمل يومين في اليوم الواحد.  
الفتى : ياه!
- الطبيب : إنَّه الوباء.  
الفتى : هل يوجد وباء؟  
الطبيب : كأنك تعيش في قمقم.  
الفتى : قمقم من الغم.  
الطبيب : وهو ينتشر رغم المقاومة الفتيَّة المنتظمة.  
الفتى : لعَلَّكم ازددتم به ثراء على ثراء.  
الطبيب : نحن نثرى بفضل الأمراض لا الأوبئة.  
الفتى : لكنَّ الوباء ما هو إلا مرض كبير.  
الطبيب : الوباء ينتشر انتشارًا أعمى فيهدد كبار رجال الدولة ولذلك فهم يسخرون الأطباء لمقاومته فلا نفيد من ورائه خيرًا يُذكر.
- الفتى : أمر يدعو للأسف، ولكننا ندفع ثمن إهمالنا للبيئات الفقيرة القذرة.  
الطبيب : الوباء وفدَّ من الخارج كالعادة دائمًا.  
الفتى : ربَّما ولكنَّه يستفحل في البيئات الفقيرة.  
الطبيب : استفحل هذه المرَّة في البيئات الراقية!  
الفتى : ظاهرة غريبة تستحقُّ الدراسة.  
الطبيب : لكنَّك استدعيتني لأمر أهمَّ من التزوّد من الثقافة الصحيَّة العامَّة.
- الفتى : عندك حقّ. إنِّي أعتقد أنني مريض.  
الطبيب : إنِّي مصغّر إليك يا سيدي.  
الفتى : لا أعراض خاصَّة تستحقُّ الذكر.  
الطبيب : لعَلَّك ترغب في إجراء كشف عامّ؟  
الفتى : تقريبًا.
- الطبيب : إمَّا أنك تريد أو لا تريد فما معنى قولك «تقريبًا»؟  
الفتى : لا مؤاخلة فهذا ما قصدته بالدقَّة.  
الطبيب : ولمَّ لمَّ تذكر ما تقصد بالدقَّة من أوَّل الأمر؟  
الفتى : لا تشتدَّ في محاسبي على أسلوب في الكلام.  
الطبيب : هل يجري كلامك على هذا النحو القلق
- الفتى : الوداع.  
الفتاة : انعم بالنوم رغم الضوضاء.  
الفتى : بل أقضي على الضوضاء قبل أن أنعم بالنوم.  
الفتاة : كلمة أخرى... لا أريد أن يدركني اليأس.  
(الفتى يضع أصبعه في أذنيه. تنظر إليه مليًا ثمَّ تمضي إلى الجهة اليمنى).  
(الفتى ينظر نحو المصطبة)  
الفتى : لا يمكن أن يدلني على حقيقة الحياة إلا شخص أدركه الموت!  
الصوت - الصدى : الموت.  
الفتى : ذهبت... ولكنَّها لن تذهب بعيدًا...  
معال أن أتمرَّر منها كلَّية... ولا رغبة لي في ذلك... ولا قدرة لي عليه... ولكنَّي أريد الحقيقة.  
الصوت - الصدى : الحقيقة.  
الفتى : أفصحوا... لا تتكلّموا كما تتكلّم الصخور.  
الصوت - الصدى : الصخور.  
الفتى : حدّثوني عن الموت والحياة.  
الصدى : الحياة.  
الفتى : من هو البطل؟  
الصدى : البطل.  
الفتى : أهو المحارب؟  
الصدى : المحارب.  
الفتى : أهو المسالم؟  
الصدى : المسالم.  
الفتى : اللعنة... اللعنة... اللعنة...  
(يتحوّل الفتى عن المصطبة)  
(صائحًا) عليّ أن أستعدّ... إليّ بالطبيب... أيها الطبيب.  
(يدخل الطبيب... بنفس الشياب التجريديَّة... ولكنَّه ذو لحية... ويديه حقيقية).  
الطبيب : لا تصرخ اتقاء للمضاعفات.

## تحت المظلة ٤٣

الفتى : بهذه الطريقة يمكن أن نعتبر أي عبارة عرضاً من أعراض الوباء.

الطبيب : قولك هذا يقطع بعدم ثقتك في العلم.

الفتى : ولكني من المتحمسين للعلم...

الطبيب : (يهز رأسه في شك وهو صامت)

الفتى : (وهو يشير نحو المصطبة المسربلة بالظلام) إني من أضل عريق كان أول من أحرز في ميدان العلم نصراً.

الطبيب : الإشارة نحو الظلام مقرونة بالمباهاة عرض ثالث من أعراض الوباء.

الفتى : لست من هؤلاء... إني بصفة عامة متعصب للعصر الحديث...

الطبيب : متعصب؟

الفتى : أقصد أنني متحمس للعصر الحديث، ولا ألتفت نحو الأسلاف إلا تحت ضغط ضرورة ملحة!

الطبيب : وهاك عرضاً من أعراض الوباء.

الفتى : إذن فأين يقع السلوك الصحيح؟

الطبيب : إنك لا تدري عنه شيئاً فيما أرى!

الفتى : إني أجد دواراً في رأسي!

الطبيب : الصراحة تحدث لك دواراً؟ .. عرض خامس!

الفتى : لعلي بالغت في التعبير.

الطبيب : من الدوار إلى المبالغة.. عرض سادس!

الفتى : خير ما أفعل أن ألزم الصمت.

الطبيب : من الدوار إلى المبالغة إلى الصمت... عرض سابع!

الفتى : ها... ها... ها...

الطبيب : دوار، مبالغة، صمت، ضحك بلا سبب... عرض ثامن...

الفتى : ها... ها... ها... ها... ها...

الطبيب : إغراق في الضحك رغم التأكد من أعراض الوباء... عرض تاسع!

الفتى : (يخفي وجهه بين كفيه)

الطبيب : وتخفي وجهك ولكن أعراض الوباء لا تختفي.

عادة؟

الفتى : تقريباً.

الطبيب : عدنا إلى تقريباً!

الفتى : فلنفترض أن الجواب بالإيجاب.

الطبيب : فلنفترض... ألا تستطيع أن تعبر عما تريد بدقة؟

الفتى : طيب، أتى أرغب في إجراء كشف عام.

الطبيب : أسلوبك في الكلام لا يخلو من دلالة مريبة.

الفتى : عدنا إلى الأسلوب.

الطبيب : إنه أول عرض.

الفتى : عرض؟

الطبيب : إنك تحاور وتداول، ولا تقصد إلى هدفك رأساً.

الفتى : معدرة.

الطبيب : وهذا هو أول أعراض الوباء.

الفتى : الوباء!

الطبيب : أما بقية الأعراض فيمكن استنتاجها.

الفتى : لا أفهم شيئاً.

الطبيب : غير مهم.

الفتى : ولكنه مرضي أنا.

الطبيب : إنه وباء فهو ملكية عامة.

الفتى : فليكن، علينا أن نفهمه على أي حال.

الطبيب : بل عليك أن تتداوى منه.

الفتى : حسن، فلتحدثني عن بقية الأعراض.

الطبيب : بل عليك أن تحدثني أنت.

الفتى : ولكنك قلت إن بقية الأعراض يمكن استنتاجها.

الطبيب : أتريد أن ترسم لي خطتي في العلاج؟

الفتى : أنا تحت أمرك.

الطبيب : هذا هو العرض الثاني!

الفتى : أين هو؟

الطبيب : بعد المحاور والمداورة تصدر جملة واضحة محدّدة وهي «أنا تحت أمرك».

الفتى : ولكنّها مجرد مجاملة!

الطبيب : هذا ما يجئ إليك، أما الواقع فإنه العرض الثاني!

- الفتى : وماذا يمكن أن أفعل؟  
الطبيب : وهذا هو التساؤل الذي يمثل أخطر أعراض الوباء.
- الفتى : الحق أنك لا تشخص مرضاً ولكنك مصمم على إثبات وجود الوباء.
- الطبيب : ها أنت تبدأ بالتهجم عليّ، ومعنى ذلك أنك تهادن من يتحرش بك وتتحرش بمن يحسن معاملتك... وهذا هو العرض العاشر.
- الفتى : إنك تثير غضبي.
- الطبيب : وتغضب حيث يجب الحلم... العرض الحادي عشر.
- الفتى : (هازئاً) لو لي لا بم.
- الطبيب : هذيان لفظي... العرض الثاني عشر.
- الفتى : سيدي الطبيب، ألم تعالج في حياتك رجلاً من أصحاب النفوذ؟
- الطبيب : حصل.
- الفتى : وهل صارحته بما تصارحني به الآن؟
- الطبيب : كلاً.
- الفتى : وكيف تصرفت معه؟
- الطبيب : تجنبت ذكر أيّ عرض يسيء إليه.
- الفتى : ولكنك عرضت حياته للخطر؟
- الطبيب : هذا على أيّ حال خير من تعريض حياتي للخطر!
- الفتى : ليس ذلك بعرض من أعراض الوباء؟
- الطبيب : بلى!
- الفتى : إذن فأنت مصاب أيضاً.
- الطبيب : طبعاً لم يسلم من الوباء أحداً
- الفتى : ألا تتداوى من الداء؟
- الطبيب : بنفس الدواء الذي سأنصفه لك.
- الفتى : وهو؟
- الطبيب : إنّه دواء واحد لا بديل به، وهو أن تسير إذا سرت على يديك، أن تسمع بعينيك، أن ترى بأذنك، أن تتذكر بعقلك، وأن تعقل بذاكرتك.
- الفتى : يا له من دواء غريب وشاق!
- الطبيب : ولكنه ناجح وفعال ومجرب!
- الفتى : شكراً لك.
- الطبيب : عفواً أن لي أن أذهب.
- الفتى : مصحوباً بالسلامة.
- (الطبيب يتجه نحو الناحية اليسرى. صوت القهوة الساخنة يرتفع، الطبيب يتوقف عن السير. يستدير ذاهباً إلى الناحية التي جاء منها ويحتفي)
- الفتى : أنّ لهذا الصوت الكريه أن يخمد، ولا حلّ إلا أن أؤذبه...
- صوت من الجهة اليمنى: بل يوجد حلّ آخر.
- (يدخل رجل عملاق بادي الاعتداد بالنفس مبتسماً بمودة)
- الفتى : من أنت؟
- العملاق: صديق.
- الفتى : ولكني لا أعرفك.
- العملاق: نحن في عالم لا نعرف إلا أعداءنا.
- الفتى : ولكني لم أرك من قبل.
- العملاق: ها أنت تراني، وفي هذا الكفاية.
- الفتى : لا حول ولا قوة إلا بالله.
- العملاق: تذكر هذه اللحظة جيّداً فسوف تؤرّخ بها السعادة في عمرك.
- الفتى : وماذا تريد؟
- العملاق: أن أساعدك.
- الفتى : في أيّ شيء؟
- العملاق: في قهر عدوك.
- الفتى : ولكني لم أطلب مساعدة أحد.
- العملاق: وهذا يجعل من تقدّمي إليك سلوكاً جديراً حقاً بالصدّاقه!
- الفتى : ومن الذي أرسلك؟
- العملاق: قل إنّه العناية الإلهية.
- الفتى : هذه إجابة عامّة ولا تشفي.
- العملاق: إذن اعتبر أنني جئتك بحكم وظيفتي.
- الفتى : وما وظيفتك؟
- العملاق: أن أقيم ميزان العدالة.
- الفتى : ومن قلّدك هذه الوظيفة؟

## تحت المظلة ٤٥

العملاق: الفرد هو الذي يختار الوظيفة التي تناسبه.  
 الفتى : ولكنني لم أسألك المعونة.  
 العملاق: ربّما لأنك لم تكن تعلم بوجودي على كتب منك. وربّما...  
 الفتى : وربّما؟  
 العملاق: وربّما لأنك تبالغ في تقدير قوتك.  
 الفتى : هذا شأنى على أيّ حال.  
 العملاق: كلّاً.  
 الفتى : كلّاً؟  
 العملاق: إنّه يدخل ضمن اختصاص وظيفتي، عليّ أن أفتدك ولو من نفسك.  
 الفتى : ولكنّ مرجع الأمر في النهاية إليّ أنا.  
 العملاق: ويرجع إليّ بحكم وظيفتي.  
 الفتى : إنّي أشكرك، أرجو ألاّ تغالي في اختصاص وظيفتك. نمة رجل وقح اعتدى عليّ، ولا مفرّ من أن أوذبه بنفسه...  
 العملاق: ولكنّه يفوقك قوّة، ولا دافع لشربه سواي...  
 الفتى : لست في حاجة إلى مساعدتك.  
 العملاق: بل إنك في ميسس الحاجة إليها.  
 الفتى : أكرّر الشكر ولكنني لا أعرفك ولا تربطني بك صلة حقيقيّة.  
 العملاق: إنّي جزء لا يتجزأ من المكان، لي فيه رزق وصهر، وتربط أسرتي بأجدادك أواصر مودة قديمة.  
 الفتى : أجدادي؟... إنّي أشكّ في ذلك.  
 العملاق: من أين لك هذا الشكّ؟  
 الفتى : إنّي أعرف من كانوا على صلة بهم...  
 العملاق: لا بدّ أن تفوتك معرفة البعض، وأسرتي كانت ضمن ذلك البعض.  
 الفتى : حتّى لو صحّ ذلك فإنني لا اعتبره ملزماً لي بقبول مساعدتك.  
 العملاق: إنّي أذكر ذلك التاريخ باعتباره مسوّغاً لقبول لا ملزماً له!  
 الفتى : إذن لا إلزام هناك...  
 العملاق: أمّا الإلزام فيجيء من طبيعة وظيفتي.

الفتى : إنّي أرفض مبدأ الإلزام...  
 العملاق: عجيب أن تقف هذا الموقف العنيد من مساعدة تهبط عليك من السماء...  
 الفتى : أنا الذي تلقّيت الضربة وأنا الذي عليّ ردّها.  
 العملاق: لن تستطيع ذلك وحدك.  
 الفتى : هذا لا يعنك في شيء.  
 العملاق: بل هو كلّ شيء عندي، هو وظيفتي في الحياة.  
 الفتى : لا شأن لي بوظيفتك.  
 العملاق: لا تجعلني أشكّ في قواك العقليّة.  
 الفتى : انصرف من فضلك ودعني أتصرّف كما أشاء.  
 العملاق: ففكر.. ففكر طويلاً.. لا ترفض هبة العناية الإلهيّة.  
 الفتى : أنا الذي تلقّيت الضربة وأنا الذي عليّ ردّها.  
 الفتاة (الفتاة ترجع وتتخذ مكانها بين الرجلين)  
 (العملاق يجني لها رأسه فتردّ التحيّة)  
 العملاق: لي عظيم الشرف بلقاء ربّة الدار.  
 الفتاة : شكراً يا سيّدي.  
 العملاق: كنت أذكّره بالصلة القديمة التي ربطت بين أسرتي وأجداده.  
 الفتاة : سمعت كلّ شيء.  
 العملاق: إنّه ينكر تلك الصلة.  
 الفتاة : لا يمكن إنكار أيّ صلة قديمة أو حديثة.  
 العملاق: مرحباً بصوت الحكمة.  
 الفتاة : كن رفيقاً به فهو غاضب.  
 العملاق: ألاّ يحقّ لي أن أتمسك بأداء وظيفتي؟  
 الفتاة : مباركة الوظيفة التي تصون الحياة.  
 العملاق: مرحباً بصوت الحكمة.  
 الفتى : (مخاطباً الفتاة) مؤامرة!  
 الفتاة : معاذ الله.  
 الفتى : مؤامرة.  
 الفتاة : افتح له صدرك.  
 العملاق: أشكرك يا صوت العقل.

العملاق: الفرد هو الذي يختار الوظيفة التي تناسبه.  
 الفتى : ولكنني لم أسألك المعونة.  
 العملاق: ربّما لأنك لم تكن تعلم بوجودي على كتب منك. وربّما...  
 الفتى : وربّما؟  
 العملاق: وربّما لأنك تبالغ في تقدير قوتك.  
 الفتى : هذا شأنى على أيّ حال.  
 العملاق: كلّاً.  
 الفتى : كلّاً؟  
 العملاق: إنّه يدخل ضمن اختصاص وظيفتي، عليّ أن أفتدك ولو من نفسك.  
 الفتى : ولكنّ مرجع الأمر في النهاية إليّ أنا.  
 العملاق: ويرجع إليّ بحكم وظيفتي.  
 الفتى : إنّي أشكرك، أرجو ألاّ تغالي في اختصاص وظيفتك. نمة رجل وقح اعتدى عليّ، ولا مفرّ من أن أوذبه بنفسه...  
 العملاق: ولكنّه يفوقك قوّة، ولا دافع لشربه سواي...  
 الفتى : لست في حاجة إلى مساعدتك.  
 العملاق: بل إنك في ميسس الحاجة إليها.  
 الفتى : أكرّر الشكر ولكنني لا أعرفك ولا تربطني بك صلة حقيقيّة.  
 العملاق: إنّي جزء لا يتجزأ من المكان، لي فيه رزق وصهر، وتربط أسرتي بأجدادك أواصر مودة قديمة.  
 الفتى : أجدادي؟... إنّي أشكّ في ذلك.  
 العملاق: من أين لك هذا الشكّ؟  
 الفتى : إنّي أعرف من كانوا على صلة بهم...  
 العملاق: لا بدّ أن تفوتك معرفة البعض، وأسرتي كانت ضمن ذلك البعض.  
 الفتى : حتّى لو صحّ ذلك فإنني لا اعتبره ملزماً لي بقبول مساعدتك.  
 العملاق: إنّي أذكر ذلك التاريخ باعتباره مسوّغاً لقبول لا ملزماً له!  
 الفتى : إذن لا إلزام هناك...  
 العملاق: أمّا الإلزام فيجيء من طبيعة وظيفتي.

## ٤٦ تحت المظلة

- العملاق: ولا تعط للأموال أهمية أكثر مما يستحقون .  
 الفتى : إذن هذا هو رأيك عن الأجداد؟  
 العملاق: إن باطن الأرض مليء بالعظام وهيئات أن تعرف أين عظام أجدادك بينها .  
 الفتى : هذا رأي من لا أصل له .  
 العملاق: لا تغضب . . ما أردته هو أن أبين لك خطي في العمل .  
 الفتى : ولم لا تذهب إليه حيث يقهقه؟  
 العملاق: إنني أعرف ما أريد .  
 الفتى : سأجاريك في أفكارك فهل إذا وافقت على رأيك تشرع في العمل؟  
 العملاق: ولكن ليس هذا بكل شيء .  
 الفتى : نعمة شروط أخرى؟  
 العملاق: لا تردّد كلمة «شروط» فما أبغضها في مقام الصداقة .  
 الفتى : طيب . . ماذا تريد أيضًا؟  
 العملاق: في فترة التأهب للمعركة أحتاج لرعاية خاصة .  
 الفتى : مثال ذلك؟  
 العملاق: تقدّم لي الطعام والشراب والترفيه الضروري .  
 الفتى : جميل، ولكن يجئني إليّ أنّ مطالبك لم تنته بعد؟  
 العملاق: ما أجمل أن تدعو الفتاة الجليلة لمجالستنا!  
 الفتى : فتاتي؟  
 العملاق: إنها قلب كبير يتسع للجميع . . .  
 الفتى : ولعلّه يتسع أيضًا لعدونا المشترك؟  
 العملاق: أعني أنني في حاجة إلى الحنان قبل المعركة .  
 الفتى : وماذا أيضًا؟  
 العملاق: بما أنني سأكون يدك عند الحاجة فمن الإنصاف ألاّ تتورّط في فعل قبل مشاورتي . . .  
 الفتى : منطوق سديدا  
 العملاق: ولا أن تصادق شخصًا قبل موافقتي فقد يكون لي عدوًا .  
 الفتى : واحد وواحد يساويان اثنين .
- الفتى : (الفتاة) إنني أطلبك بالاحترام .  
 الفتاة : قلبي ملكه الاحترام والحبّ .  
 العملاق: لم تعاند محبيك؟  
 الفتى : الحبّ قد يدفع إلى الهلاك .  
 الفتاة : الحبّ لا يتعامل إلاّ مع الحياة .  
 الفتى : إنني أطلبك بالانسحاب .  
 العملاق: غريب أن تعامل الجمال والحكمة بهذه الفظاظة .  
 الفتى : (للعلاق) لا تتدخل في شئوني الخاصة .  
 العملاق: سمعًا وطاعة .  
 الفتاة : إنني ذاهبة ما دمت ترغب في ذلك، ولكنني أتوسّل إليك أن تفتح له صدرك .  
 (الفتاة تذهب)  
 فترة صمت يتبادل فيها الرجلان النظرات ،  
 العملاق باسماً والفتى غاضبًا)  
 العملاق: الجوز أصبح أصلح للمناقشة .  
 الفتى : ألم تستنفذ المناقشة .  
 العملاق: كلاً بعد، افتح لي صدرك، وأخذ بعد ذلك قرارك .  
 الفتى : (يتنهّد صامتًا)  
 العملاق: أريد أن أساعدك .  
 الفتى : خبّرني صراحة عما تريد ثمناً لذلك؟  
 العملاق: إنني صديق ولست بتاجر .  
 الفتى : حدّثني عما تريد .  
 العملاق: لا شيء البتّة .  
 الفتى : البتّة؟  
 العملاق: إلاّ ما تتطلبه ظروف العمل طبعًا .  
 الفتى : ظروف العمل؟  
 العملاق: لكي أؤدّب عدوك فلا بدّ من استدراجه إلى هنا .  
 الفتى : إلى مكاني هذا؟  
 العملاق: نعم .  
 الفتى : لا يجوز أن يدنس مقامي بقدمه .  
 العملاق: لا تعط المكان أهمية أكثر مما يستحقّ .  
 الفتى : (مشيرًا إلى المصطبة) إنّه مقامي مذ كان مقامًا لهؤلاء .

## تحت المظلة ٤٧

- العملاق: ولا أن تعادي شخصاً قبل الرجوع إليّ فقد يكون لي صديقاً.
- الفتى : مَنْ يجادل في ذلك؟
- العملاق: هل نبدأ؟
- الفتى : أودّ أن أسألك سؤالاً، هل يمكن أن يفعل بي عدوّي أكثر من ذلك؟
- العملاق: (مستنكراً) ولكنّ الفعل يتغيّر معناه بتغيّر فاعله.
- الفتى : فاعله؟
- العملاق: قبله من زوجك غير قبله من بنت هوى، وصفعة من والدك غير صفعة من غريب!
- الفتى : وأنت تعتبر نفسك الوالد والزوجة لي؟
- العملاق: بدأنا نتفاهم فيما اعتقد.
- الفتى : (غاضباً) اغرب عن وجهي.
- العملاق: ماذا جرى لك؟
- الفتى : اذهب... اذهب بلا تردّد.
- العملاق: أين أذهب؟
- الفتى : ابعد عن مقامي.
- العملاق: ولكنّه مقامي أنا أيضاً.
- الفتى : ماذا قلت؟
- العملاق: يا سيدي، مضى وقت طويل ونحن نتبادل الحديث، وقت يعطيني الحقّ في الإقامة، وبالإضافة إلى ذلك نشأت علاقة إنسانيّة صميمة مع فتاتك الحكيمة، بل مع هؤلاء الأجداد أنفسهم...
- الفتى : أنت بلطجيّ...
- العملاق: فليسأحك الله.
- الفتى : اذهب بعيداً، لا أريد مساعدتك، وسألقي عدوّي وحدي...
- العملاق: عليك في هذه الحال أن تقاتل اثنين!
- الفتى : كيف؟
- العملاق: إنك تناصبني العداة وسأضطرّ إلى الدفاع عن نفسي...
- الفتى : تهاجني لأنني أرفض مساعدتك؟
- العملاق: لأنك تريد أن تطردني من مقامي وتعتلّ وظيفتي الأساسيّة في الحياة.
- الفتى : لا تستهن بي، لست عملاقاً مثلك، ولكنني مصمّم على منازلة الموت نفسه.
- العملاق: ما دمت تريد الموت فلتمت.
- الفتى : سأموت إذا متّ وأنا أقاتل.
- العملاق: إذن فلتقاتل ولتمت. (تعود الفتاة بسرعة)
- الفتاة : أردت أن تفتح صدرك للتفاهم لا للموت.
- الفتى : إنّه شرّ من الآخر.
- العملاق: إنّه أحقّ.
- الفتى : إنّه من النوع الآخر ولكنّه شرّ منه.
- الفتاة : يا للأسف.
- الفتى : لا منفذ إلى حياة طيّبة مع وجودهما.
- الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردّد؟
- الفتى : عندما يختفيان هما وأمثالهما.
- الفتاة : كلام قديم معاد.
- الفتى : ولكنّه حقّ.
- الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردّد؟
- العملاق: إنّي أردّد هذه الكلمة المنشودة ولا من سميع.
- الفتاة : (للعملاق) ألا يمكن أن تقيم ميزان العدالة بلا شروط؟
- العملاق: إنّي أبغض كلمة «شروط».
- الفتاة : ألا يمكن أن تقيم ميزان العدالة دون أن تطالب بشيء؟
- العملاق: لن يكون هذا من العدل في شيء...
- الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردّد...
- (صوت القهقهة الهازئة يترامى من بعيد)
- (العملاق ينصت إلى الصوت باهتمام ودهشة)
- العملاق: ربّاه... إنّي أعرف هذا الصوت.
- الفتاة : إنّه صوت عدوّه.
- العملاق: عدوّه!
- الفتاة : نعم.
- العملاق: يا لعجائب المصادفات!
- الفتاة : هذا هو الرجل الذي قصدت بتقديم مساعدتك القضاء عليه.



## ٤٨ تحت المظلة

- العملاق: ها... ها... ها...  
 الفتاة: ماذا يضحكك؟  
 العملاق: إنه قريبي من ناحية الأم!  
 الفتاة: قريبيك؟  
 العملاق: نعم... يا لذكريات الطفولة السعيدة التي لا تُنسى.  
 الفتى: ظننتك تعرف العدو الذي جئت متطوعًا لضربه.  
 العملاق: ها... ها... ها...  
 الفتى: ألا زلت عند رأيك في مساعدتك؟  
 العملاق: ولكنك رفضت مساعدتي!  
 الفتى: هبني قبلتها فهل تقدمها؟  
 العملاق: مع كافة الشروط التي اشترطتها؟  
 الفتى: لكنك تبغض كلمة «شروط»؟  
 العملاق: نعم أم لا؟  
 الفتى: نعم.  
 العملاق: في هذه الحال أعب دور رسول السلام بينكما.  
 الفتى: رسول السلام؟  
 العملاق: إكرامًا لهذه الفتاة الحكيمة، ولك.  
 الفتى: وتعهّداتك السابقة؟  
 العملاق: للقريب حقوق، وإني لا أوفيتها حقًا الكامل بموقفي هذا..  
 الفتى: ولكنّه هو المعتدي؟  
 العملاق: ولوا  
 الفتى: وهو في الأصل قاطع طرق ليس إلا؟  
 العملاق: ولوا  
 الفتى: إنه وحش ذميم.  
 العملاق: إنك لا تراه على حقيقته.  
 الفتى: ألم تسمع قهقهته الساخرة؟  
 العملاق: هذه هي طريقته في المزاح، يا له من شاب خفيف الروح حقًا!  
 الفتى: ولكنّي أعرفه حقّ المعرفة، من خلال المعاملة والجوار والصرع عرفته.  
 العملاق: صدّقني إنه لا يكشف عن مكنون كنوزه إلا لمن يحبه ويفهمه.  
 الفتى: بل لا تلين عريكته إلا لمن يشكمه بالتأديب والضرب.  
 العملاق: أحمد الله على أنك لم تتمكن من ضربه.  
 الفتى: ولم؟  
 العملاق: كنت سأهرع إلى نجدته.  
 الفتى: ها أنت تهذّدي.  
 العملاق: للقرابة حقوق.  
 الفتى: تجملت الحقيقة، فما أنت إلا بلطجي كقريبك.  
 العملاق: يا له من تفكير خليق بأن يقود إلى الهلاك.  
 الفتى: لا تضيّع وقتي هباء.  
 العملاق: تصرف بوقتك كما تشاء.  
 الفتى: سأسوّي حسابي بنفسي.  
 العملاق: أنت تعلم أنّ هذا الكلام لا معنى له، وقد وضّحت لك أهداف وظيفتي...  
 الفتى: اللعنة!  
 العملاق: إنّي صديقك أردت أم لم ترد، وإني قريبه قبلت ذلك أم لم تقبله، وأنا أكبر منكما سنًا وأعظم قوّة، فواجبي أن أجمع بين ثلاثتنا بعهد صداقة دائمة جديرة بهذا المكان الذي يؤاخي الأحياء والأموات أنفسهم.  
 الفتى: كلام طيّب ونية لثيمة وفعل غشوم...  
 العملاق: (مخاطبًا الفتاة)... تكلمي أنت.  
 الفتاة: لم يعد عندي من جديد أقوله.  
 الفتى: اعترفي بأنني على حقّ.  
 الفتاة: اعترف بأنه لا يهمني في هذا الوجود إلا الحبّ.  
 العملاق: كم أنك حكيمة!  
 الفتى: كم أنك أنانيّة.  
 الفتاة: الحبّ عطاء بلا حدود ولا نهاية.  
 الفتى: الوحش يأخذ ولكنّه لا يعرف العطاء.  
 الفتاة: ليتك تؤمن بالحبّ.  
 الفتى: لا حياة للحبّ بين الوحوش.  
 الفتاة: الحبّ أقوى قوّة في الوجود بيد أنّه سلاح لا يسلس إلا لمن يؤمن به.  
 الفتى: للوحوش لغة أخرى.

## تحت المظلة ٤٩

الشحاذ : رُزقت اليوم بما فيه الكفاية فإذا تريد أنت؟

الفتى : لا أريد شيئاً.

الشحاذ : كذب!

الفتى : شحاذ ووقع.

الشحاذ : لم تستمني؟

الفتى : كيف تجرؤ على رمي بالكذب؟

الشحاذ : لأنك كذاب!

(الفتى يرفع يده ليضربه ولكنه يتراجع أمام

عجزه)

الفتى : اذهب قبل أن أكرس رأسك.

الشحاذ : لا أذهب حتى أعرف لماذا ناديتني وماذا تريد

مني.

الفتى : اذهب أحسن لك.

الشحاذ : ليس قبل أن أعرف ماذا تريد.

الفتى : (ساحراً) وهل عندك ما تعطيه؟

الشحاذ : اطلب ما تشاء.

الفتى : (ضاحكاً رغماً عنه) إني مدين لك بأول

ضحكة في يومي.

الشحاذ : هذا قليل من كثير مما عندي.

الفتى : يجيل إليّ أنك غني.

الشحاذ : جدّاً.

الفتى : ماذا تملك؟

الشحاذ : عالم الظلام الذي لا نهاية له.

الفتى : أنت خفيف الروح رغم سلاطة لسانك،

وكان ينبغي أن تجد ملجأاً يؤويك.

الشحاذ : التحقت ذات يوم بملجأ.

الفتى : ولم تركته؟

الشحاذ : رُفِئت!

الفتى : (ضاحكاً) أسمع أول مرة عن رفت

الشحاذين!

الشحاذ : كان ناظر الملجأ فظاً غليظاً ولصاً لا حياء

له.

الفتى : وتوقع أن تسبحوا بحمده على أي حال؟

الشحاذ : ولكن بعضنا تمرد وكنت على رأس

التمردين!

الفتى : ولفضلت أن تهيم على وجهك بلا ماوى؟

الفتاة : أخشى أن تنقلب وحشاً مثلهم.

الفتى : الكرامة أهم من الحياة نفسها.

الفتاة : الفضائل الحقيقية نهار لا تنبت إلا فوق

شجرة الحب..

العملاق: (مخاطباً الفتى).. من المؤسف أنك تحب

الموت أكثر مما تحب فتاتك الجميلة الحكيمة.

الفتى : الموت أحب إليّ من الخضوع لإرادتك.

(الفهمة الساخرة تترامى من بعيد)

العملاق: يا له من فتى ضحوك، يحب المزاح بقدر ما

يحب الحياة الأمنة.

الفتى : إنك لثيم بقدر ما أنت قويّ.

العملاق: أمامك عملاقان، ووراءك حياة طيبة،

فارجع إلى الوراء.

الفتى : إلى الأمام.

العملاق: (للفتاة) أقترح أن ندعه لنفسه ليفكر بهدوء

فإن الجدول يغريه بالعناد والمكابرة.

(العملاق والفتاة يخرجان من بايين متقاربين

في الناحية اليمنى)...

(الفتى يتفكر قليلاً... ينظر ناحية المصطبة

المسرلة في الظلام)

الفتى : أن لكم أن تنطقوا.

الصدى : تنطقوا.

(الفتى يلوح بيده غاضباً... يذهب ويحيى

متفكراً... يدخل رجل أعمى يتحسس

طريقه بعكاز، يتنصت مائلاً برأسه نحو

الفتى)

الشحاذ : هل يوجد أحد هنا؟

الفتى : نعم.

الشحاذ : أنت الذي ناديتني؟

الفتى : كلاً.

الشحاذ : لكنه صوتك وأذني لا تغطى.

الفتى : خبرني عما تريد.

الشحاذ : ماذا تريد أنت؟

الفتى : ألسنت شحاذاً؟

الشحاذ : بلى.

الفتى : لعمرك تريد إحساناً؟

## • تحت المظلة

- الشيخاذه : نعم .  
 الفتى : إلى التراب والحشرات واللقة العفنة !  
 الفتى : ولكن أليس الملجأ بكل عيوبه أفضل من التسول والتشرد؟  
 الشيخاذه : الحرمة أفضل من الأمن نفسه !  
 الفتى : يتل إلى أنك شحاذه مثقف !!  
 الشيخاذه : أعرف أشياء كثيرة .  
 الفتى : مثل ماذا؟  
 الشيخاذه : أن أرى بأذني .  
 الفتى : وماذا أيضًا؟  
 الشيخاذه : وأن أسير على يدي !  
 الفتى : أنت ترى بأذنيك وتسير على يديك !  
 الشيخاذه : وصادفني في تجوالي بعض الرسميين فقادوني مرة أخرى إلى الملجأ .  
 الفتى : إلى الوحش؟  
 الشيخاذه : كلاً، كان قد خلفه ناظر جديد عادل وأمين ورحيم . . .  
 الفتى : وكيف تركته بعد ذلك؟  
 الشيخاذه : هربت !  
 الفتى : غير معقول !  
 الشيخاذه : كان عادلاً وأميناً ورحيماً ولكنّه مغرم بالنظام لدرجة الهوس، ويطلبه بدقة فلكية، ولا يقبل مراجعة . . .  
 الفتى : ولكنك نعمت بالغذاء والكساء والراحة والنظافة . . .  
 الشيخاذه : الأكل بيمعاد والشرب بيمعاد وولا مؤاخذه بيمعاد والنوم بيمعاد، فكذت أن أجن . . .  
 الفتى : ومردت مرة أخرى؟  
 الشيخاذه : حتى التمرد حُرمت منه فلم يطاوعني ضميري على التمرد على رجل عادل أمين رحيم .  
 الفتى : كان عليك أن ترضى . . .  
 الشيخاذه : حتى التمرد حُرمت منه !  
 الفتى : التمرد ليس خيراً في ذاته .  
 الشيخاذه : ولكنّه خير من أن تكون حجراً .  
 الفتى : وهكذا هربت؟  
 الشيخاذه : هكذا هربت .
- الفتى : إلى التراب والحشرات واللقة العفنة !  
 الشيخاذه : إلى سعادي الحقيقية . . .  
 الفتى : حديثك مثير وعجيب .  
 الشيخاذه : فتك بعالية .  
 (الشيخاذه يتحرك)  
 الفتى : انتظر . . .  
 (الشيخاذه يستمر في سيره)  
 الفتى : ألا تريد أن تسمعي؟  
 (يمضي الشيخاذه حتى يختفي)  
 (يعود العملاق . . . تعود الفتاة)  
 الفتاة : قلبي طيلة الوقت معك .  
 العملاق : لعلك اقتنعت برأيي .  
 الفتى : أيها السيد الذي يحب الشر، ويحب الخير أحياناً لحساب الشر .  
 أيها السيدة التي تحب الخير، وتحب الشر أحياناً لحساب الخير .  
 إليكما رأيي النهائي .  
 سأصون كرامتي حتى الموت .  
 الفتاة : (تخفي وجهها بين يديها وستظل كذلك إلى ما قبيل النهاية)  
 العملاق : شعار الوباء الذي فتك بملايين الحمقى . . .  
 الفتى : ينباع الحياة الحقّة مهددة بالجفاف، أشواق القلب الخالدة يساومها الضياع، سحقاً للوحشة التي تدبل فيها معاني الأشياء، إني ذاهب . . .  
 (القهقهة الساخرة ترتفع)  
 (الفتى يتحوّل نحوها في تصميم ويتقدم .  
 العملاق يثب نحوه . الفتى يدفعه . العملاق يقبض على كتفيه ويدفع به نحو المصطبة .  
 الفتى يندفع حتى يغيب في الظلمة، الفتى يرتد كأنه كرة ارتطمت بجدار منقلباً على وجهه ثم يقف مترنحاً .  
 وكأن حركته أيقظت الرقود وشدّتهم من رقاهم . يتدحرج أولهم حتى يصل إلى مقدّم المسرح وينهض في تناقل كمن يقوم من نوم .  
 يتبعه آخر مكرراً نفس الحركة . ويتتابع

## تحت المظلة ٥١

صامت. يسير الفتى نحو ناحية عدوه وهو  
يضرب الأرض ضربات مسموعة منتظمة.  
يضمون خلفه في عزم صلب حتى ينجسوا  
جميعاً. ضربات أقدامهم ما زالت تترامى)  
الفتاة : (ترفع يديها عن وجهها... تصغي  
بحزن... وترمي بنظرها إلى بعيد).

كثيرون. رجالاً ونساءً مكرّرين نفس  
الحركات حتى يكتظ بهم المسرح.  
العملاق يتزحزح رويداً رويداً حتى يغيب في  
المدخل المفضي إلى القهقهة الساخرة.  
تتمّ يقظة الجميع. تنتصب قاماتهم. يرتسم  
العزم في وجوههم. يجري ذلك في تمثيل

## التركة

- حجرة انتظار في بيت وليّ الله حجرة ذات  
طابع عتيق. في الصدر كونصول. باب إلى  
اليمن وآخر إلى اليسار، تصطفُ بجوانبها  
كنبات تفصل بينها كراسي. ثمّة حصر مزركشة  
معلّقة على الجدران في مواضع محدّدة.  
يدخل فتى وفتاة. يتفحصان الحجرة  
باستطلاع من يراها لأول مرّة، ثم يقفان في  
الوسط.
- دام المذنب رجلاً.  
الفتى : ألم تحلمي يوماً بأن يدعوك أبوك ليغفر لك؟  
الفتاة : لو رأي ساعة احتضاره لغالب الموت حتى  
يفتك بي.  
(الفتى يبتسم من خلال ثوانٍ من الصمت)  
الفتى : ترى لماذا دعاني بعد ذلك الفراق الطويل؟  
الفتاة : إنك وحيد ولقلب حنينه، ومن يدري  
فلعلّك...  
الفتى : لمعي؟  
الفتاة : لعلّك تذهب مكرّماً بثروة لم تخطر لك على  
بال.  
الفتى : طردني يافعاً ولا ملّيم في جيبني.  
الفتاة : ماذا كنت تتوقّع جزاء لسلكك المشين؟  
الفتى : تشرّدت وجعت ولولا...  
الفتاة : ولولا فجورك لمتّ جوعاً.  
الفتى : اقطعي لسانك يا بنت الأبالسة.  
الفتاة : ولأنك رجل فكلّ ذنب مغفور لك.  
الفتى : ولأنك امرأة فكلّ ذنب مرجعه إليك.  
الفتاة : أنت صعلوك ولكن تخافه الشياطين.  
الفتى : فلنتأدّب ولو ساعة من الزمان.  
الفتاة : حتى تضحك على الرجل.  
الفتى : العبي دور الزوجة بإتقان.  
الفتاة : كان عليك أن تحميّ وحدك وتتركني في  
سلام.
- حجرة انتظار في بيت وليّ الله حجرة ذات  
طابع عتيق. في الصدر كونصول. باب إلى  
اليمن وآخر إلى اليسار، تصطفُ بجوانبها  
كنبات تفصل بينها كراسي. ثمّة حصر مزركشة  
معلّقة على الجدران في مواضع محدّدة.  
يدخل فتى وفتاة. يتفحصان الحجرة  
باستطلاع من يراها لأول مرّة، ثم يقفان في  
الوسط.
- \*\*\*  
الفتى : البيت صامت كأنه قبر.  
الفتاة : صفّق لتشعرهم بوجودك.  
الفتى : إنّه يكره ذلك، ما زلت أذكر طبعه.  
(صمت قصير)  
الفتاة : بيتكم قديم، والحواري المفضية إليه سُقّت  
فيها يبدو من عهد نوح.  
الفتى : لا تنسني أصلك وأنتِ تتكلّمين عن الحواري  
كسائحة.  
الفتاة : تأدّب، المفروض أننا مهذبون.  
(صمت قصير)  
الفتى : لمّ دعاني يا ترى؟  
الفتاة : هو أبوك مهما يكن من أمر.  
الفتى : طننت أنّ الماضي لن يعود.  
الفتاة : الحاضر يمضي والماضي يعسود، ولا ينبغي  
لرجل مذنب أن يياس، فأيّ ذنب يُغفر ما

- الفتى : لئن أتقدّم إليه مصحوبًا بزواجي خير من  
الحضور وحدي كرجل أعزب محوط بشبهات  
العزّاب .
- الفتاة : لعلّه يعرف عنك أكثر ممّا تتصوّر .  
الفتى : لو صحّ ذلك لما دعاني بإعلان في الجرائد .  
الفتاة : ولكنّه وليّ من أولياء الله فكيف لم يعرف  
أثك صاحب خّمارة وأثك مغامر؟!
- الفتى : على أيّ حال فإنّه لم يدخل السجن فهو خير  
من أبيك المرحوم .
- الفتاة : تدفعني إلى استعمال حلّائي في هذه الحجرة  
العتيقة المباركة .
- الفتى : استعمليه، وسأردّ بكسر رأسك، ونقدّم  
بذلك الدليل على صدق علاقتنا الزوجيّة .
- الفتاة : من حسن الحظّ أثك شيطان وبوسعك أن  
تتعامل مع الشياطين، هل لك امرأة أب؟
- الفتى : ماتت من زمن بعيد .  
الفتاة : أهو طاعن في السنّ؟  
الفتى : جدًّا .
- الفتاة : هذا يبشّر بالخيرا  
الفتى : لا تحلمي، ماتت أجيال وهو حيّ يمارس  
عمله .
- الفتاة : لم تعد أعصابي تتحمّل الصبر أكثر من ذلك،  
عليك أن تقابله .  
الفتى : بل علينا أن ننتظر، إني أعرف طبعه .  
(صمت . يمشيان ذهابًا وجيئة)
- (يُفتح الباب إلى اليسار . يدخل غلام حاملًا  
مبخرة . غلام جميل يلبس جلبابًا وطاقية  
ومركوبًا . يدور في الحجرة حارقًا البخور  
دون أن يلتفت إلى الفتى والفتاة ودون أن  
ينبس بكلمة . يقف الفتى والفتاة جنبًا لجنب  
وهما يتابعانه بعينيهما) .
- الفتى : يا غلام .  
(الغلام يكفّ عن الدوران ويقف قبالتهما) .  
الفتى : هل أنت من يقوم على خدمة الشيخ؟  
الغلام : الناس جميعًا يقومون على خدمته .  
الفتى : وماذا تفعل أنت؟
- الفتى : لئن أتقدّم إليه مصحوبًا بزواجي خير من  
الحضور وحدي كرجل أعزب محوط بشبهات  
العزّاب .
- الفتاة : لعلّه يعرف عنك أكثر ممّا تتصوّر .  
الفتى : لو صحّ ذلك لما دعاني بإعلان في الجرائد .  
الفتاة : ولكنّه وليّ من أولياء الله فكيف لم يعرف  
أثك صاحب خّمارة وأثك مغامر؟!
- الفتى : على أيّ حال فإنّه لم يدخل السجن فهو خير  
من أبيك المرحوم .
- الفتاة : تدفعني إلى استعمال حلّائي في هذه الحجرة  
العتيقة المباركة .
- الفتى : استعمليه، وسأردّ بكسر رأسك، ونقدّم  
بذلك الدليل على صدق علاقتنا الزوجيّة .  
(صمت)
- الفتاة : آه لو يتحقّق حلم الثروة!  
الفتى : وتتحوّل الخّمارة الصغيرة إلى ملهى ليليّ  
عالميّ .
- الفتاة : والمغامر الهاوي إلى قواد دوليّ!  
(يكوّر لها قبضة يده مهدّدًا فتراجع خطوة  
وهي تضحك دون إحداث صوت)
- الفتاة : الحقّ أنّ أباك ذو سمعة طيّبة كرائحة الورد .  
الفتى : أجل .
- الفتاة : ما سألنا أحدًا عن بيته إلا ولهج بالثناء عليه .  
الفتى : أناس هذه الأحياء طيّبون!  
الفتاة : ولكنّهم يؤكّدون خوارقه .
- الفتى : إنهم يرون في الحاوي معجزة .  
الفتاة : وينوّهون بالطمأنينة التي يزرعها في القلب .  
الفتى : جميع هؤلاء يجيئون إلى هنا ويجودون بنقودهم  
عن طيب خاطر .
- الفتاة : ربّما لأنهم يأخذون ما هو أقيم ممّا يعطون .  
الفتى : إنّ قلبك لا يخلو من موطن للخرافة رغم  
اكتنازه بالشرّ الباهر .
- الفتاة : وأنت، ألا تذكر يوم تأزمت بالمنص  
الكلويّ؟  
الفتى : كفيّ عن الثرثرة، الرجل مليونير ما في ذلك  
من شكّ .

## تحت المظلة ٥٥

- الغلام : إني خادم البيت .  
الفتى : أنا ابن مولاك .  
الغلام : أعرف ذلك يا سيدي .  
الفتى : وكيف عرفتني؟  
(الغلام لا يجيب)  
الغلام : لم لا تهيب؟  
الغلام : لقد أجبته يا سيدي .  
الفتى : (باسمًا) طيب . . . لقد جئت ملبيًا دعوته .  
الغلام : أعرف ذلك يا سيدي .  
الفتى : ألا تدري متى يدعوني إلى لقائه؟  
الغلام : لقد كلّفني مولاي أن أخبرك . .  
الفتى : (مقاطعًا) إني أسألك متى يلقاني .  
الغلام : لقد ذهب .  
الفتى : أين . . . ومتى؟  
الغلام : غادر البيت عقب صلاة الفجر .  
الفتى : ومتى يعود؟  
الغلام : لن يعود .  
الفتى : أنت تهدي يا غلام .  
الغلام : ساعحك الله يا سيدي .  
الفتى : ولم لن يعود؟  
الغلام : (حنينًا رأسه من الحزن) لقد ذهب إلى لقاء ربه .  
الفتاة : (جزعة) ماذا تعني يا شاطر؟  
الغلام : قال إنه يشعر بدنوّ الأجل ثم ذهب .  
الفتى : ولم لم يبق في فراشه؟  
الغلام : نذر من قديم أن يلقي ربه في الخلاء .  
الفتى : ولكنك تعرف مكانه؟  
الغلام : كلاً .  
الفتى : ولماذا دعاني؟  
الغلام : دعاك لتعود إلى بيتك القديم .  
الفتى : وهل حثك رسالة إلي؟  
الغلام : قال: دنا الأجل، أنّ لي أن أدعوا بني الضالّ لعله يصلح لأن يرث التركة .  
الفتى : التركة؟  
الغلام : أمرني أن أسلمك التركة لعلك تشوب إلى رشدك .  
الفتى : ليرحمه الله . . . أعني ليمدّ الله في عمره .  
الفتاة : وأين التركة يا شاطر؟  
الغلام : قال سيدي غارقًا في الضلال صاحبًا معه قرينة سوء .  
(صمت مع تبادل نظرات)  
الفتاة : لهذا يعني أنها أيضًا في حاجة إلى نصيب من تركته .  
الفتى : ومتى تسلّمنا التركة؟  
(الغلام يشير إلى حصيرة معلقة على الحائط إلى يمين الكونصول)  
الغلام : التركة في خزانة وراء الحصيرة . . . هاك المفتاح يا سيدي .  
(يتناول الفتى المفتاح ويمضي إلى الحصيرة .  
يهمّ الغلام بمغادرة الحجرة . الفتاة تهرع إليه فتقبض على يده)  
الفتاة : ابق حتى نتسلّم التركة .  
(الفتى يزيح الحصيرة . يفتح الخزانة . يأخذ في إخراج كتب صفراء . ويقرأ بعض العناوين وهو يخرجها ويرصّها فوق الكنية)  
الفتى : الحقّ . . . مدارج الروح . . . سلام للقلب .  
(يستمرّ في إخراج الكتب التي تراكم فوق الكنية ويتهاوى بعضها إلى الأرض)  
الفتى : أين التركة؟  
الفتاة : (للغلام) أنت سرقته!  
الغلام : ساعحك الله .  
الفتى : (مواصلًا إخراج الكتب) أين التركة؟  
الغلام : لا علم لي بما في الخزانة .  
الفتى : كان المفتاح معك .  
الغلام : أعطانيه قبل أن يغادر البيت .  
(الفتى يواصل إخراج الكتب ثم يصيح بفرح جنونيّ)  
الفتى : التركة!  
(يخرج رزمًا من الأوراق المألّية ويرصّها فوق خوان)  
الفتاة : ثروة طائلة .  
الفتى : ما أكرمك يا أبي وما أبرّك!

- الغلام : إنّه يوصيك بألا تنفق منها مَلِيًّا واحدًا قبل أن تستوعب ما في هذه الكتب.
- الفتاة : الأوفى أن نبدأ باستيعاب هذه النقود.
- الغلام : تلك كانت وصيته.
- الفتى : شكرًا يا غلام، يمكنك أن تنصرف إذا شئت.
- الغلام : والتركة؟
- الفتى : هل ثمة تركة أخرى؟
- الغلام : (مشيرًا إلى الكتب) إنما أعني هذه التركة.
- الفتى : ستفقد الوصية بأمانة.
- (الفتاة في سيرها تدوس على بعض الكتب)
- الغلام : ارفعي قدمك.
- الفتاة : تفضل بسلام وكفّ عن إلقاء الأوامر.
- الغلام : فلأعيدها إلى الخزانة إذا لم تكن بكما من حاجة إليها.
- الفتى : خير ما تفعل أيها الغلام الأمين.
- (الغلام يعيد الكتب إلى الخزانة. يحملها باحترام وهو يبكي صامتًا. ولما ينتهي يقول بنبرة حزينة)
- الغلام : إني ذاهب.
- الفتى : مصحوبًا بالسلامة.
- (ثمّ مستدرجًا)
- : انتظري، أنت غلام طيّب، تحب أن تشتغل عندي؟
- الغلام : أيّ شغلة يا سيدي؟
- الفتى : أدربك لتعمل جرسونًا ماهرًا.
- الغلام : في مقهى.
- الفتى : حارة، وهي أربح للجرسون من عشر مقاهٍ.
- الغلام : إني ذاهب يا سيدي.
- الفتاة : مع السلامة.
- (الغلام يذهب)
- الفتاة : ألا ترى أن نفثته قبل أن يرحل؟
- الفتى : لو كان لصًا لما أخبرنا عن التركة.
- الفتاة : علينا أن نجد حقيبة لنضع فيها النقود.
- الفتى : سنجد حقيبة أو بقجة في هذا البيت العتيق.
- الفتاة : وعليك أن تفكر في استغلاله.
- الفتى : الأفضل بيعه، إنّه قديم حقًا ولكنّه يدرّ ذهبًا لو بيع أرضًا.
- الفتاة : واشتر بالثمن عبارة، ولنبيع الختامة أيضًا لنعيش أحرارًا كأبناء الذوات.
- الفتى : أفكار طائشة، سوف أنشئ ملهى ليليًا يضاهاى الأوبرج...
- (يظهر رجل عند الباب الأمين. يلبس جلبابًا ومعطفًا وهو ذو قامة ضخمة، وطابع رسمي كالمخبرين. يتقدّم خطوات حتى يصير على مبعدة قصيرة من الفتى والفتاة اللذين يطالعانه بدهشة. يجيل في المكان نظرة فاحصة، ويرى النقود المكسدة ثمّ يعود لينظر إلى الفتى والفتاة)
- الفتى : من حضرتك؟
- الرجل : هل أنت ابن وليّ الله؟
- الفتى : نعم ولكن من حضرتك؟
- الرجل : تحير من قوّات الشرطة.
- الفتى : أكنت على موعد مع الشيخ؟
- الرجل : الشيخ يرقد الآن إلى جوار ربّه.
- الفتى : كيف عرفت ذلك؟
- الرجل : أسلم الروح في الخلاء، فيها وراء مسكني، في الموضع الذي كان يتعبّد فيه.
- الفتى : وأين جثمانه؟
- الرجل : في المثوى الذي سنمضي إليه جميعًا، لم يعد في حاجة إلى عنايتك، ويبدو أنّك مشغول عنه بما هو أهمّ عندك.
- الفتى : وماذا تريد حضرتك؟
- الرجل : جئت لأذهب بك إلى القسم.
- الفتى : لماذا؟
- الرجل : أنت متّهم بقتل أبيك.
- الفتى : دعابة ولكنّها ثقيلة.
- الفتاة : إنّه لم يره منذ عمر مديد.
- الرجل : أنت متّهم بقتل أبيك.
- الفتى : كفّ عن ترديد هذا السخف.
- الرجل : شهادته وهو محتضر، وأنا أعرفه منذ قديم، صرّح لي قبل صعود روحه بأنك قتلته!



## تحت المظلة ٥٧

- الفتى : محض افتراء وهذيان .  
الرجل : الميت لا يكذب، وهو وليّ من أولياء الله .  
الفتى : لعلك لم تسمعه بوضوح أو لم تفهم ما يريد قوله .  
الرجل : قال «إني أموت مطعوناً بيد ابني الوحيد» .  
الفتاة : كان يعرب عن حزنه لفراق ابنه الطويل له .  
الفتى : هل وجدت في جسده طعنة واحدة؟  
الرجل : لنترك ذلك إلى التحقيق .  
الفتى : أيّ تحقيق يا رجل؟ إني لم أراه منذ عشرات السنين .  
الرجل : وكيف سؤلت لك نفسك أن تنهب أمواله قبل أن تراه؟  
الفتى : المال ميراثي الشرعيّ .  
الرجل : هل علمت بوفاته؟  
الفتى : كلاً .  
الرجل : كيف عمّد يدك إلى ماله وهو حيّ في ظنّك؟  
الفتى : وتعبه لي قبل مغادرته البيت كما أخبرني غلامه .  
الرجل : أين غلامه؟  
الفتاة : ذهب .  
الرجل : استدعيه ليدي بأقواله .  
الفتى : لا أدري أين ذهب .  
الرجل : هلّم معي إلى القسم .  
الفتى : لا جريمة هناك ألبتة .  
الرجل : قتلته أباك وسرقت الدولة .  
الفتى : الدولة؟  
الرجل : ألا تعلم أنّه لا يجوز التصرف في هذا المال حتّى تأخذ الدولة حصّتها منه؟  
الفتى : لم يكن في نيّتي أن أتصرف في مليم قبل أن تأخذ الدولة حصّتها كاملة والله على ما أقول شهيداً  
الرجل : براعتك في التنكيت تفوق براعتك في القتل والنهب .  
الفتى : أوكد لك أنّ التحقيق سيسفر عن براءتي .  
الرجل : ولكنّ سيسبق ذلك القبض عليك والتحقّق على المال .
- الفتاة : أهكدا تعامل شخصاً يوم وفاة أبيه؟  
الفتى : الشيخ الطيّب الذي طالما ثبت القلوب بالطمأنينة!  
الرجل : إنك رجل شرير .  
الفتى : أنت متحامل وسنيّ الظنّ .  
الرجل : كلّفت بمهامّ كثيرة في مواطن الشبهات فعرفت الكثيرين من أمثالك .  
الفتى : أنا تاجر شريف .  
الرجل : هلّم معي ولا تدفعني إلى الضحك في بيت ميت .  
الفتاة : كن لطيفاً ودعه في حاله .  
الرجل : إنك تدافعين عنه كأنك بعيدة عن التهمة!  
الفتاة : أنا؟!  
الرجل : أنت شريكته في الجريمتين .  
الفتى : أنا بريء (يتناول رزمة من النقود ويضعها في يد الرجل) وهذا المال مالي .  
الرجل : أترشوني يا رجل مرتكباً بذلك جريمة ثالثة؟  
الفتى : معاذ الله، ولكنني أوذي حقّ الدولة عليّ .  
الرجل : حقّ الدولة يمثّل ربيع التركة .  
(الفتى يعطيه رزمة أخرى)  
الفتى : إليك رزمة أخرى دون تعرّض لمناقشة المقدار المستحقّ .  
الرجل : والقضيّة وتكاليفها؟... والتحقّق على المال وتعرّضه للضياع؟  
الفتى : اعتقد أنّي أعطيت ما فيه الكفاية .  
الرجل : أتعب المحاماة؟... الرسوم؟...  
سجنك؟... تعرّض عملك الذي ترتزق منه للخسران؟  
(الفتى يعطيه رزمة ثالثة)  
الفتى : تدكّر أنّي أعطيتك ثروة .  
الرجل : لعلّ هذا يكفي بالنسبة لك . .  
(صمت وتبادل نظرات حائرة)  
الرجل : ولكنّ هذه السيّدة لم تدفع مليمًا بعد؟  
الفتاة : إني زوجته .  
الرجل : قلت إني عملت طويلاً في مواطن السواء فلا تحاولي الضحك على ذقني .

## ٥٨ تحت المظلة

- الفتى : لقد أعطيت فدية لكلينا.  
الرجل : بل فدية لك وحدك!  
الفتى : ماذا تريد؟  
الرجل : الأتعاب الخاصة بالسيدة.  
(يعطيه رزمة رابعة)  
الفتى : هاك رزمة رابعة.  
الرجل : كن كريمًا كسائر القتلة واللصوص.  
الفتى : أتريد أن تستولي على نصف التركة؟  
الرجل : الأمر يتوقف على مدى تقديرك لحرّيتك.  
(يقطب الفتى في قهر ثمّ يسلمه رزمة جديدة)  
الفتى : تفضّل مصحوبًا بالسلامة.  
(الرجل يدير ظهره ليذهب. الفتى يسأل من ملابسه مطواة فيفتح نصلها ويهجم على الرجل. الرجل حذر وكان يتوقّع حركة غادرة فيتفادى من الطعنة ويقبض على معصمه فيلويه ثمّ يلكمه فيسقط على الأرض.  
يحيى بكرسيّ فيجلسه عليه ويخرج من ملابسه حبلًا ويكبّله بمهارة قبل أن يفيق من اللكمة، وهو يهدّد الفتاة بأنّها إذا نذت عنها حركة أو صوت فسوف يساقان إلى القسم.  
ثمّ يحيى بكرسيّ آخر ويأمر الفتاة بالجلوس مهدّداً ويكبّلهما بحبل آخر. يتجه نحو النقود على الخوان فيستولي عليها ثمّ يلقيها في الحصيرة. يلقي عليهما نظرة ثمّ يذهب.  
الفتى يفيق من أثر اللكمة. ينظر فيما حوله. يتدكّر ما وقع. يحاول تخليص نفسه ولكن عبثًا).  
الفتى : ذهب؟  
الفتاة : بعد أن استولى على النقود كلّها. . .  
الفتى : (غاضبًا) لم تصوّتي؟ . . . كان يجب أن تصوّتي بأعلى صوتك.  
الفتاة : خفت أن يرجع فيضربنا أو يقتلنا.  
(يحاول تخليص نفسه مرّة ثانية دون فائدة)
- الفتى : سأقتله ولو اختفى في بلاد الواق.  
الفتاة : تهوّرُك هو المستول عمّا حلّ بنا، لم حاولت الهجوم عليه؟  
الفتى : ليس من مبادئنا أن أسمح لإنسان باستغفالي.  
الفتاة : ها هو قد ذهب بالثروة كلّها.  
الفتى : سيكون التنكيل به هو هدفي الأوّل في الحياة.  
الفتاة : وقد تحقّق هدفك ولكنّ الحلم السعيد تبدّد.  
الفتى : سأقبض على عنقه عاجلاً أو آجلاً.  
الفتاة : ولا شاهد أو دليل لدينا عمّا حصل.  
الفتى : المهمّ الآن أن نتحرّر من قيدنا.  
الفتاة : نحن مقيدان في بيت مغلق النوافذ والأبواب.  
الفتى : ويعزّ عليّ أن أتصوّر أنّ الثروة حقًا ضاعت.  
الفتاة : هي الحقيقة الأليمة، وربّما تقتله ولكنك لن تستردّ مليًّا من ثروتك.  
الفتى : لم يعث بي أحد من قبل.  
الفتاة : ها قد عث بك كأنك لا شيء.  
الفتى : أين المفرّ؟ . . . إنّه يعمل في دائرة هذا القسم.  
الفتاة : إذا كان حقًا مخبرًا.  
الفتى : ولم لا يكون مخبرًا؟  
الفتاة : كان يجب أن تطالبه بإبراز بطاقته الشخصية.  
الفتى : اعترف بأنّي لم أحسن التفكير ولا التدبير.  
الفتاة : أنت منور، تتوهّم أنك إله ثمّ تقع كالرطل.  
الفتى : كيف صدّق ما حصل؟  
الفتاة : قلبي يحدّثني بأنّه ليس مخبرًا.  
الفتى : هو مجرم محترف على أيّ حال.  
الفتاة : ويخيل إليّ . . . ربّما لم يكن إنسانًا أيضًا!  
الفتى : ماذا تعنين؟  
الفتاة : أعني أنّنا في بيت وليّ: وهو وكر للأرواح والشياطين.  
الفتى : أنت حمقاء، لا يسرق النقود إلاّ إنسان

- عائل . الفتاة : تدكر كيف اقتحم علينا المكان وكيف ذهب .  
 الفتى : جاء كما يجيء المجرم وذهب بما يذهب به المجرمون .  
 الفتاة : أنت لا تحسن الرؤيا عند الانفعال .  
 الفتى : أنت حمقاء ، هذه حقيقة مفروغ منها .  
 الفتاة : لنفكر في حالنا ، نحن مقيدان بطريقة جهنمية ، البيت محاط بفناء واسع يعزله عن الحارة فلن يسمع صوتنا أحد ، الجوّ هنا لا أرتاح إليه ، فثمة روح ميت لعله لم يُدفن بعد ، وثمة أرواح كثيرة لا علم لنا بها ولا سيطرة لنا عليها .  
 الفتى : يا مجنونة ، يا مخرفة ، ما هذا الهديان ؟  
 الفتاة : أنا خائفة .  
 الفتى : عهدتك دائماً عريضة ساخرة فكيف خانتك جراتك الداعرة ؟  
 الفتاة : إنه بيت مهجور ألا تدرك ذلك ؟ ، جثة أبيك الآن في المشرحة وستدفن كجثة رجل مجهول ، ولن ينس المخبر- إذا كان حقاً مخبراً- بكلمة ، وسيظل البيت مغلقاً مهجوراً زمناً غير قصير ولكنه يكفي لقتلنا جوعاً وعطشاً ، وهناك الأرواح .  
 الفتى : الأرواح !  
 الفتاة : أنا خائفة . . .  
 الفتى : كيف قيدنا بهذا الإحكام ؟ . . . لقد جاء مبيتاً النيّة على فعل ما فعل .  
 الفتاة : وقد يرجع للإجهاد علينا .  
 الفتى : فليرجع .  
 الفتاة : (صمت تتخلّله محاولات فاشلة لفك القيود) ولمن دون جدوى)  
 الفتاة : كأننا في حلم .  
 الفتى : ولكنه أسخف من الحقيقة .  
 الفتاة : أحياناً يكاد يغلبني الضحك .  
 الفتى : اضحكي إن استطعت .  
 الفتاة : حتى حياتنا المألوفة بين المغامرين والمنافسين والأعداء أخف وطأة من هذا السجن في بيت أبيك .  
 الفتاة : ليرحمه الله .  
 الفتاة : ادعه أن يتقدنا .  
 الفتى : (ساخراً) أبانا الذي في المشرحة . . انقلد ابنك الوحيد .  
 الفتاة : ماذا كان رأيك في أبيك ؟  
 الفتى : كان دجّالاً كوحيده .  
 الفتاة : حدّثونا في كلّ موضع عن كراماته .  
 الفتى : حارة مخبولة مسطولة .  
 الفتاة : لكنّ الطمأنينة التي بثّها في القلوب حقيقية .  
 الفتى : ردّي إلى ثروتي وأنا أغرقك في بحر من الطمأنينة .  
 الفتاة : لم نكن فقراء ، ولكننا لم نعرف الطمأنينة .  
 الفتى : وما سبيل الطمأنينة إلى خنارة هي ملتقى للمغامرين ، واقعة بين عشرات من الخنارات المنافسة ، في حيّ مكتظ بالأعداء ، ووراء ذلك كله إحساس ثابت بالمطاردة ؟ . . . كنا سنرتفع بالثروة فوق ذلك كله .  
 الفتاة : (دقيقة صمت)  
 الفتاة : سيجيء الظلام ونحن مكبلون بالحبال في هذا البيت المسكون .  
 الفتى : لا فرق بين النور والظلام .  
 الفتاة : كيف نخرج من هذا المأزق ؟  
 الفتى : اصرخي . . . صوتك أحد من الرصاصة .  
 الفتاة : لن نسمعنا أحد .  
 الفتى : علينا أن نتنظر حتى يجيء إنقاذ من حيث لا نتنظر أو يجيء الموت .  
 الفتاة : (صمت تتخلّله محاولات فاشلة لفك القيود)  
 الفتاة : لم دعاك أبوك ؟  
 الفتى : مات سرّه معه .  
 الفتاة : ماذا ظننت ؟  
 الفتى : قلت لعله حين قلب عجزوز .  
 الفتاة : لم تقل كلّ الحقّ .  
 الفتى : وحلمت بثروة !  
 الفتاة : وقد وهبك ثروة .  
 الفتى : وضاعت .

- الفتاة : ولكتته أراد أن ترث عمله .  
 الفتى : فكرة سخيفة .  
 الفتاة : كان يجب أن تجاربه ولو في الظاهر .  
 الفتى : لم يكن ليغتر من الأمر شيئاً .  
 الفتاة : ربما لم يكن حدث الذي حدث .  
 الفتى : أراهن على أنك فقدت عقلك .  
 الفتاة : هل حاول أن يلقتك سره وأنت صغير؟  
 الفتى : نعم .  
 الفتاة : ولكتتك عصيته؟  
 الفتى : لو أطعته ما صادفتني في طريقك أبداً .  
 الفتاة : (تضحك... ولا تنبس)  
 الفتى : حاول معي كثيراً، لم أفهم كلمة من كلماته،  
 وأخذت من سلوكي المشين سبيلاً لتحديده  
 حتى طردني...  
 الفتاة : واحترفت المغامرة بدلاً من الطمأنينة .  
 الفتى : ورثت عنه الدجل لأستثمره في مجاله  
 الطبيعي .  
 الفتاة : لم أسمع أحداً يثني عليه مثلك؟  
 الفتى : إني أعاشر مغامرین وكان يعاشر مغفلين .  
 الفتاة : رأسي يدور .  
 الفتى : الحياة الحققة نقيض الراحة، والرجوع إلى  
 الخرافة تفكير مضحك، لعله ينقصنا شيء  
 ولكن لا بدّ من مواصلة حياتنا، ماذا  
 تريدین؟  
 الفتاة : أن أخرج من هنا سالمة .  
 الفتى : سنخرج عاجلاً أو آجلاً .  
 الفتاة : عمّا قليل سيجيء الظلام .  
 الفتى : فليجيء الظلام .  
 الفتاة : أنت المسئول عمّا وقع .  
 الفتى : أنت جبانة .  
 الفتاة : وأنت وغد .  
 الفتى : فلتسلّ بتبادل الشتائم حتى تنكشف عمّا هذه  
 الغمة .  
 الفتاة : أو حتى يحلّ بنا الموت .  
 الفتى : أو حتى يحلّ بنا الموت .  
 (الفتاة تبكي من القهر. وهو يضحك)
- ضحكة عصبية)  
 الفتاة : إنه يؤدّبك .  
 الفتى : من؟  
 الفتاة : أبوك .  
 الفتى : لم استطع أن يؤدّبني وهو حيّ، وهو أعجز  
 عن ذلك وهو ميت .  
 الفتاة : بين حدث وحدث توجد أسباب خفية .  
 الفتى : بين حدث وحدث لا يوجد شيء .  
 الفتاة : وها قد وقعنا في الفخ .  
 الفتى : فخّ لم ينصبه أحد ولكننا وقعنا بسوء تصرّفنا .  
 (النور ينخفض مندرًا باقتراب المساء .  
 لحظات من الصمت ومحاولات فاشلة لفكّ  
 القيد)  
 الفتاة : بدأ الليل يهبط...  
 الفتى : ليس في وسع شيء أن يمنعه .  
 الفتاة : كان في وسعنا على الأقل...  
 الفتى : (مقاطعًا في تمهّم) كان يا ما كان...  
 الفتاة : أكره الظلام، أكره الأغلال، وسوف أجنّ .  
 الفتى : جرّبي الجنون فهو أكرم من الشعوذة على أيّ  
 حال .  
 الفتاة : يا لك من وغد قاسٍ كأنك لم تنعم عمراً  
 بحيّتي .  
 الفتى : عودي إلى توازنك لتتفاهم كما تفاهمنا دائماً .  
 الفتاة : حتى حبّك ما هو إلّا حبّ مغاير، نوبة من  
 نوبات الأعصاب بلا قاعدة ثابتة .  
 الفتى : لم يكن ثمة فردوس في الماضي، ولن يكون  
 ثمة فردوس في المستقبل، علينا أن نتقبّل  
 الحياة كما هي .  
 الفتاة : الظلام يتهدى في الاقتراب .  
 الفتى : فليأتِ الظلام .  
 الفتاة : إنك تداري خوفك باللعب بالألفاظ .  
 الفتى : اللعنة.. في هذا الوقت من اليوم يبدأ  
 النشاط في الحجرة .  
 الفتاة : يا لها من نهاية رخيصة!  
 (يستمرّ انخفاض النور حتى يحتوي الظلام  
 الحجرة ويختفي الفتى والفتاة. الفتاة تصرخ

## تحت المظلة ٦١

- الفتاة : مستغيثة ثم يسود الصمت)  
 الفتاة : ألا تحفظ تلاوة ندفع بها الشياطين بعيداً؟  
 الفتاة : لا أحفظ شيئاً.  
 الفتاة : إني خائفة.  
 الفتاة : لا يوجد هنا سبب حقيقي يبرر الخوف.  
 الفتاة : ولكنني خائفة.  
 الفتاة : أنا قريب منك.  
 الفتاة : ولكنني لا أراك.  
 الفتاة : فلنغنّ أغنية بديئة لنهزأ بالظلام.  
 الفتاة : صمت يتخلله بكاء خافت.  
 الفتاة : ضوء يتسرب إلى الحجرة آتياً من شراصة الباب إلى اليسار)  
 الفتاة : ألا ترى؟... نور في الداخل. يوجد شخص، البيت مسكون!  
 الفتاة : (بصوت مرتفع) من بالداخل؟  
 الفتاة : مفاصلي سابت.  
 الفتاة : من بالداخل؟  
 الفتاة : (يفتح الباب. يظهر الغلام وييده مصباح. يتقدم ثم يتوقف عندما يرى الفتى والفتاة)  
 الفتاة : أنت!... أكنت بالداخل طيلة الوقت؟  
 الفتاة : ظننت أنكما ذهبتما.  
 الفتاة : ألا ترانا مكبلين بالحبال؟  
 الفتاة : ولم فعلتما ذلك بنفسيكما؟  
 الفتاة : هل تسخر منا يا غلام!  
 الفتاة : أكنت موجوداً بالداخل؟... أعني ألم تغادر البيت؟  
 الفتاة : رجعت مع المساء لأشعل المصابيح.  
 الفتاة : لماذا؟  
 الفتاة : إكراماً لروح الشيخ يوم وفاته.  
 الفتاة : ضِع المصباح وتقدم لحل عقدتنا.  
 الفتاة : (الغلام يمضي إلى الكونصول فيضع المصباح ويتجه راجعاً نحو الباب).  
 الفتاة : يا غلام.  
 الفتاة : (الغلام يتوقف)  
 الفتاة : تعال.  
 الفتاة : ماذا تريد يا سيدي؟
- الفتى : كيف لا تدري ماذا نريد؟  
 الغلام : أمرني الشيخ قبل ذهابه بالأقدم لك آية مساعدة إذا أهملت تركته.  
 الفتى : ولكنّه غير معقول أن تتركنا على هذه الحال.  
 الغلام : لا أستطيع أن أخالف لمولاي أمراً.  
 الفتاة : لا يمكن أن تعني ما تقول، إنك غلام طيب ونبيل...  
 الفتى : وأنا ابن مولاك يا شاطر ولا يرضيك أن تتركنا في هذا المأزق.  
 الغلام : لن أعصي لمولاي أمراً.  
 الفتى : مولاك لم يتصور أننا سنقع في هذه الورطة.  
 الغلام : ساحك الله.  
 الفتاة : لصّ أئيم نهب ثروة مولاك وكبلنا بالحبال.  
 الغلام : عليّ أن أذهب.  
 الفتى : لا تُغضب مولاك في قبره.  
 الغلام : مولاي ارتفع إلى السماء.  
 الفتى : لا تُغضب مولاك في سمائه.  
 الغلام : ما دمّت لا أعصيه فلن يغضب.  
 الفتى : أعتقد أنّه يرضيه أن نترك هكذا بدون مساعدة؟  
 الغلام : لا أدري.  
 الفتى : أوكد لك أنّ ذلك سيحزنه غاية الحزن.  
 الغلام : لا أدري.  
 الفتى : أقدم ولا تخف.  
 الغلام : لن أعصي لمولاي أمراً.  
 الفتاة : من أجل خاطري، لا يمكن أن تمتنع عن مساعدة امرأة.  
 الغلام : إني ذاهب.  
 الفتى : انتظر،... ألا ترى، إني أريد تركة أبي الحقيقية.  
 الغلام : أنت تعلم بمكانها.  
 الفتى : ولكنني لا أستطيع الانتقال إليها.  
 الغلام : سبق أن نبلتها.  
 الفتى : أنا نادم على ذلك!  
 الغلام : لن أعصي لمولاي أمراً.  
 (الغلام يستأنف السير)

- الفتاة : على الأقل بَلِّغ الأمر إلى الشرطة .  
 (الغلام يواصل السير دون مبالاة)  
 الفتى : هل ستبَلِّغ الشرطة؟  
 الغلام : كَلَّا .  
 (الغلام يَخْتفي ثم يعلّق الباب)  
 الفتى : ملعون ابن ملعون . . .  
 (الفتاة تعاود البكاء)  
 الفتى : كفى . . . كفى وألَّا . . .  
 الفتاة : قضي علينا بالهلاك .  
 الفتى : لقد رجّع الغلام، وربما رجّع مرّة أخرى،  
 ولعلّ غيره يجيء .  
 (صمت قصير ثم يواصل حديثه)  
 الفتى : يَجِبُ إليّ أَنْ العجوز استدرجني إلى بيته  
 لينكّل بي . الطيبة كانت حرفته لا طبيعته،  
 وآي ذلك أنّي منحدر من صلبه، غير  
 معقول أن تكون أمّي مسئولة وحدها عن  
 دمي العريبد، وليت نداءه وأنا في غفلة من  
 مكره فتتابعت الأخطاء . . .  
 الفتاة : كفاك قَدْفاً فالبيت مسكون!  
 الفتى : مسكون بأرواح أسرتنا العريقة في الشّر .  
 الفتاة : ليس الغلام غلاماً ولا المخبر مخبراً . . .  
 وسوف تقع كوارث ليست في الحسبان .  
 الفتى : فلتقع الكوارث بغير حساب .  
 (صمت . . . ثم تنزل الستار)  
 \* \* \*
- ترفع الستار . ضوء النهار يملأ الغرفة رغم أنّ  
 المصباح ما زال مشتعلًا . الفتى والفتاة نائمان  
 ورأساهما مطروحان على مسندي الكرسيين .  
 يُسمع صوت الباب الخارجي وهو يُفتح ثمّ  
 وهو يغلق .  
 يدخل رجل ضخم أنيق الملبس ولكنّا نعرف  
 فيه المخبر في ملبس جديد وهيئة جديدة يتبعه  
 سكرتير وضابط من الشرطة .  
 الفتى والفتاة يستيقظان . يبدو عليهما  
 الإرهاق . ينظران إلى القادمين بدهول فلا  
 يعرفان حقيقة الشخص الضخم .
- الضابط : مَنْ أنتما؟ . . . مَنْ فعل بكما ذلك؟  
 الفتى : مَنْ حضرتك؟  
 الضابط : ضابط النقطة .  
 الفتاة : أنقذنا من فضلك .  
 (الضابط يجلّ وثاقهما . يقفان وهما يتأوّهان .  
 يجرّكان أعضاءهما ليستعيدا توازنهما)  
 الضابط : مَنْ أنتما؟  
 الفتى : أنا ابن صاحب البيت أعني وليّ الله المتوفّى .  
 الفتاة : وأنا الزوجة .  
 الضابط : ماذا حدث لكما؟  
 الفتى : هاجمنا مجرم غدراً ثمّ سرقنا وذهب .  
 الضابط : سأفتح لكما محضر تحقيق بعد قليل .  
 الفتى : هل أبلغك الغلام عنّا؟  
 الضابط : أيّ غلام؟  
 الفتى : غلام الشيخ المتوفّى .  
 الضابط : كَلَّا، لقد جئت في صحبة المهندس لمعاينة  
 البيت الذي يرغب في شراؤه ظلماً منّا بأنّه  
 بيت خالٍ ولا وريث له!  
 (الفتى والفتاة يتبهان لأوّل مرة للمهندس  
 فتلوح في وجهيهما الدهشة والانزعاج .  
 يتبادلان النظرات ثمّ يحدّقان في المهندس  
 بدهول)  
 الضابط : مالك؟  
 المهندس: لماذا تنظران إليّ هكذا؟  
 الفتى : أنت!  
 الفتاة : هو . . . جسمه وصوته ووجهه .  
 المهندس: ماذا تعنيان؟  
 الفتى : أنت دون غيرك، أيّها المجرم!  
 (ينقضّ عليه ولكنّ الضابط والسكرتير  
 يحولان بينهما . المهندس يتراجع دهشاً  
 مستنكراً)  
 الضابط : أيّ مجرم تعني؟ . . . المهندس أكبر مقاول في  
 الجمهورية .  
 الفتى : هو المخبر . . . هو اللصّ . . . هو الذي  
 سرقنا . . .  
 (المهندس والسكرتير والضابط يضحكون)

## نحت المظلة ٦٣

المهندس: يجب أن تستردّ عقلك سريعًا لأنك لا تتكلم من إنجاز مهمتي.

(صمت قصير)

الفتاة : وما مهمتك؟

المهندس: إنّي أرغب في شراء هذا البيت القديم لأقيم مكانه مصنعًا للأجهزة الإلكترونية.

الفتاة : ألم تحاول الاتفاق مع صاحبه قبل وفاته؟

المهندس: حاولت وعرضت عليه بيتًا جديدًا في مطلع الحّي، ولكن كان لكلّ منّا لغة يستعصي على الآخر فهمها!

الفتى : إذن فأنت تعرف البيت وكنت تعرف صاحبه؟

المهندس: وكان أبي رحمه الله من مرّديه أيضًا!

الفتى : أنت إذن . . .

(الفتاة تمجده من ذراعه مانعة إيّاه من تكلمة

كلامه، وتنتحي به جانبًا)

الفتاة : ثمّلك نفسك.

الفتى : لكنّه هو عينه.

الفتاة : لنذع ذلك للتحقيق، المهمّ الآن بيع البيت.

الفتى : سيشتري بمالي.

الفتاة : لا يجوز أن تخرج من المولد بلا حمص.

الفتى : الجحش الأحمر نفسه لا يستطيع خداعي!

الفتاة : أنس شطارتك الآن وأجل مشروعاتك.

(يعودان إلى الجماعة)

الفتاة : اغفر له تهوّه يا سيدي المهندس إكرامًا

لذكرى أبيه الطيّب!

المهندس: ليرحمه الله رحمة واسعة.

الفتى : أكنت تؤمن به؟

المهندس: كنت أحبه.

الفتى : هل شهدت احتضاره؟

المهندس: لكنني مشيت في جنازته، أين كنت أنت؟

الفتى : كنت موثقًا بحبال المجرم الأثيم.

المهندس: حضرة الضابط كفيل باسترداد ثروتك

الضائعة، وما عليك الآن إلا أن تتقبّل

وضعك بالطمأنينة التي بشر بها أبوك.

الفتى : ولكنك لم تؤمن به؟

الضابط : اضبط لسانك.

السكرتير: يا لها من نكتة.

الفتاة : هو المخبر.

الفتى : هو المجرم.

الضابط : كفى هذيانا!

المهندس: ترقق بهما يا حضرة الضابط، تذكر كيف قضيا ليلتهما في هذا البيت.

الفتى : لا تحاول خداعي.

الضابط : إنك تهين رجلًا ولا كلّ الرجال، رجل أدّى لوطنه أجلّ الخدمات في ميدان الهندسة.

(الفتى والفتاة يتبادلان النظرات الحائرة)

الفتى : خبّرني يا حضرة الضابط هل عندك خبر يشبهه؟

الضابط : كلّ على وجه اليقين.

المهندس: ثمّلك نفسك من فضلك، لقد عانيت ليلة

غاية في السوء، وغير بعيد أنّ المجرم الذي

اعتدى عليكما يمّثلني في بعض الصفات

والخصائص، وأنت نفسك ثمّائل المرحوم

أباك في بعض ملاحظه رغم تناقض منهجكما

في الحياة فيهما يبدو لي، وسوف يقبض

الضابط على المجرم ويردّ إليك مالك، هل

فقدت مالًا كثيرًا؟

الفتى : أنت أدري بمقدراه.

الضابط : رجع إلى الهلوسة مرّة أخرى!

الفتى : أوكد لك أنّ هذا الرجل هو المجرم الذي

اعتدى علينا.

الضابط : كُفّ عن هذيانك، من صالحك أن تكفّ

عنه.

السكرتير: ثمّة أحقاد غريبة تستقرّ في نفوس الشباب،

فإذا تعرّض أحدهم لهزّة نفسيّة استمدّ من

حقده الدفين آراء هدامة وراح يرمي بها كبار

ذوي النشاط الناجح من الرجال الممتازين

في المجتمع.

الضابط : هل أنت من هؤلاء الشبان؟

الفتى : إنّي ضحيّة وقد حللت بنفسك وثاقي.

الضابط : ولكنك لم تستردّ عقلك بعد.

المهندس: لن أبخسكم حقكم، وستكلم عن ذلك في حينه، (المهندس يستأذن في الانصراف. وقبل أن يذهب يلتفت إلى الفتي ويسأله)  
: وأنت... ما مهنتك؟

الفتي : صاحب حجارة.

المهندس: (ضاحكًا) لست مقطوع الصلة بأبيك، فالناس يقصدون الحجارة طلبًا للطمانينة أيضًا.

(المهندس وسكرتيره يذهبان)

(يقترب الضابط من الفتي والفتاة قائلاً)

الضابط : أن لنا أن نبدأ التحقيق.

ستار

المهندس: (ضاحكًا) كان يقول لي «الطمانينة هي هدف النفس البشرية» فأقول له «بل التقدّم يا مولانا ولو بالجهد والقلق».

الفتي : ولو بالاعتداء والنهب!

الفتاة : لنعد إلى مشروع المصنع.

المهندس: ثبت الآن أنّ للبيت وريثًا، وعليه فلا بدّ من انتظار الإجراءات الخاصّة بإثبات الوراثة.

الفتاة : إنه بيت كبير وذو موضع ممتاز على مشارف الصحراء، ولا تنسَ أثنائه القديم النادرا

المهندس: لا حاجة بي إلى الأثاث.

الفتاة : والكتب التي صنعت المعجزات؟

المهندس: لديّ ما أحتاج من كتب ومعجزات!

الفتاة : أظنّ أن لنا أن نتكلم عن الثمن.



## النَّجَّاة

صدرها وينخفض بشكل محسوس. الرجل  
يتفحصها بدهشة، ويبدو-رغم غرابة  
الموقف- أن محاسنها أثرت فيه بعض الشيء)  
الرجل : أنا وحدي، ذهبت الخادمة عقب إعداد  
العشاء. ولكني سأجيتك بكوب ماء.  
(يقوم إلى البار فيملاً كوباً من دورق ثم  
يقدمه إليها. المرأة تشرب نصفه ثم تضعه  
على خوان بين المقعدين).

المرأة : آسفة جداً لإزعاجك.

الرجل : أنا في خدمتك...

المرأة : شكراً.

الرجل : يلزمك شيء؟

المرأة : أكرّر الأسف، الواقع أنني لا أدري ماذا  
أقول.

(صمت)

: سلوكي يتطلب تفسيراً ولكني لا أدري ماذا  
أقول.

الرجل : استردي أنفاسك أولاً.

المرأة : ماذا أقول؟، مهما يكن فأني أتوسل إليك أن  
تكرمني...

الرجل : وهل في ذلك شك؟

المرأة : أعني أن تعاملني معاملة تليق بامرأة في أشد  
حاجة إلى...

الرجل : إلى؟

المرأة : الحياة!

الرجل : ماذا يهددك؟...

حجرة جلوس. في الوسط مدفأة حائط  
مشتعلة. إلى اليمين من المدفأة باب حجرة  
النوم وإلى اليسار منها باب حجرة المكتب. في  
نهاية الجانب الأيمن لحجرة الجلوس باب هو  
باب الشقة. إلى اليسار يوجد بار وتلفزيون.  
رجل يجلس على مقعد كبير أمام المدفأة،  
يرتدي روبا، ويطلع في كتاب.  
جرس الباب الخارجي يرنّ بغتة رنيناً  
متواصلاً.

يقوم الرجل إلى الباب، يفتحه، تندفع إلى  
الداخل امرأة جميلة مرتدية معطفاً ويدها  
حقيقية. تندفع وكأنتها تجري ثم تقف وهي  
تلهث... الرجل ينظر إليها بدهشة ودون أن  
يغلق الباب. واضح من نظراته أنه لا يعرفها  
ولم يكن ينتظرها.

الرجل : (بتردد وارتباك) ولا مؤاخذه... حضرتك؟  
المرأة : (بلهفة) أغلق الباب، من فضلك أغلق  
الباب.

(الرجل يغلق الباب بدهول)

الرجل : وحده؟

المرأة : نعم.

(يقفان وهما يتبادلان النظرات)

المرأة : لآني مرهقة، تسمح لي بالجلوس؟

الرجل : تفضلي.

(يجلسان على مقعدين متقاربين أمام المدفأة.)

تسند المرأة رأسها إلى يدها في إعياء. يعلو

- (صمت)
- الرجل : (مداريًا ارتبأكه بابتسامه) ستظلين شيئًا لا يمكن نسيانه .
- المرأة : غزل أم محقيق؟
- الرجل : كنت أفضل أن يكون غزلًا خالصًا .
- (صمت)
- الرجل : إذا شرقتني وقتًا ثم ذهبت دون أن يعلم أحد فلا حرج، ولكن إذا جاء أحدهم يتعقبك فيلزمي بصيص نور قبل أن أنكر وجودك .
- المرأة : لن تقع عليك مسئولية ما .
- الرجل : بل قد أجزر إلى متاعب لا تخطر ببال المرأة : لا تهول .
- الرجل : لا تركبني في ظلام .
- (صمت)
- الرجل : أرجوك، لا تضطربني إلى ...
- المرأة : إلى تسليمي لأول طارق!
- الرجل : أرجوك أن تفهمي موقعي جيدًا .
- المرأة : إنني أتعلق بأمل وحيد، ببقية من الشهامة البطولية القديمة .
- الرجل : من المؤسف أن عهد الفروسية والملاحم قد ولى ...
- المرأة : في حالة اليأس يفرغ القلب إلى زمن الأساطير
- الرجل : أنا يا سيدي رجل بلا أسطورة ...
- (صمت)
- الرجل : فكّري من فضلك وأجيبي ...
- المرأة : لكّني عاجزة تمامًا .
- الرجل : قبل أن تفوت الفرصة؟
- المرأة : كن كريمًا إلى النهاية .
- الرجل : (غاضبًا) إنني أشم رائحة مقلقة للأعصاب .
- المرأة : أيّ رائحة؟
- الرجل : جريمة ما!
- المرأة : لا تدفعني إلى الانتحار!
- الرجل : ماذا فعلت؟
- (جرس الباب يرنّ . المرأة تقف فزعمة . تهرع إلى باب حجرة النوم . تدخل ثم تغلق الباب من الداخل . الرجل يحاول فتح الباب فلا
- (مستدرّكًا) لكّني لم أتشرّف بعد؟
- المرأة : لا يهّم هذا على الإطلاق .
- الرجل : ولكنّه ضروريّ فيها أعتقد .
- المرأة : كلاً، لن يقدم ولن يؤخرا
- الرجل : لن أضايقك، ولكن نمة سؤال آخر، هل قصدتني بالذات؟ ... هل تعرفيني؟
- المرأة : بابك أول باب فتح لي، هذا كلّ ما هنالك ...
- الرجل : هل طرقت أكثر من باب؟
- المرأة : نعم .
- الرجل : ماذا يهددك؟
- المرأة : أكرمني بالأناجير أيّ طارق عتي!
- الرجل : (بقلق) هل يتوقع مجيء من يتعقبك؟
- المرأة : نعم .
- الرجل : رجل أم امرأة؟
- المرأة : رجلاً
- الرجل : (بعد تردّد) زوجك؟
- المرأة : كلاً .
- الرجل : صديق؟ ... قريب؟
- المرأة : ألا تتكرّم بحمايتي دون تحقيق؟
- الرجل : ولكن ...
- المرأة : (مقاطعة) لعلك تعمل حساب أهل بيتك؟
- الرجل : لا يوجد في البيت سواي .
- المرأة : ولكن عمّا قليل سترجع زوجتك؟
- الرجل : لست متزوّجًا .
- المرأة : تنتظر ولا شكّ أحدًا ممن يقيم معك؟
- الرجل : إنني أقيم هنا بمفردتي .
- المرأة : عظيم، ستكون المهمة سهلة لو تكرّمت بالموافقة .
- الرجل : ولكن يلزمي بصيص نور .
- المرأة : لن يمّسك سوء!
- الرجل : ولكّني أودّ أن أعرف المسئولية التي سأحمّلها!
- المرأة : لن تمضي ساعات حتى أغادر مسكنك إلى الأبد كآني شيء لم يكن .

## تحت المظلة ٦٧

- الغد، ولكي أقول إنه توجد رائحة امرأة.  
الرجل : رائحة امرأة؟  
الصديق: رائحة زكية، هل عندك حبوبة؟  
الرجل : كلاً.  
الصديق: وغده الرائحة؟  
الرجل : كان ثمة صديقة تزودني...  
الصديق: مبارك عليك، ولكن مالك؟  
الرجل : على خير ما يرام.  
الصديق: كلاً، لست كعادتك...  
الرجل : لعله البرد.  
الصديق: (مشيراً إلى المدفأة) إنك تنعم بفردوس في هذا الشتاء القاسي.  
(صمت)  
الرجل : أي من أعرفهن؟  
الرجل : من تعني؟  
الصديق: المرأة التي كانت هنا.  
الرجل : كلاً.  
الصديق: ولم انصرفت مبكرة؟  
الرجل : يكفي تحقيق واحد في العمارة.  
الصديق: ذكرتني، ترى ماذا حدث؟  
الرجل : أجل ماذا حدث؟  
الصديق: إنك تعرف عن فيتنام أكثر مما تعرف عن شقة مجاورة في عمارة حديثة.  
الرجل : أي جريمة؟... وأين اختفت المرأة؟  
الصديق: لا تشغل بالك، الجرائم وجبات يومية.  
الرجل : والمرأة؟  
الصديق: قاتلة... شريكة في جريمة قتل... سرّ جريمة ما.  
الرجل : وأين يمكن أن تختفي؟  
الصديق: لعلمهم عثروا عليها، إلا إذا كانت أصلاً من سكان العمارة.  
الرجل : فكرة.  
الصديق: أو تكون لجأت إلى شقة ما.  
الرجل : لا أحد في اعتقادي إلا إذا كان له ضلع في الحكاية.  
(الرجل يقوم، يتعد إلى جناح الحجره)
- يستطيع. الجرس يرنّ مرّة أخرى)  
: افتحي.  
المرأة : كن كريماً.  
الرجل : لا تجزّيني إلى مازق.  
المرأة : كن رحيماً.  
الرجل : سأصرف كما ينبغي لي.  
المرأة : إذا اعترفت بوجودي هنا رميت بنفسي من النافذة.  
الرجل : أنت مجنونة!  
المرأة : أنا عاقلة جداً.  
الرجل : إنك تجازيني خير جزاء.  
المرأة : لآني آسفة ولكنتي مضطّرة!  
الرجل : انتظري... لا تتعجّلي.  
(يذهب إلى الباب لاعتنا متسخطاً. يفتح الباب. يدخل رجل ضاحكاً ثم يردّ الباب)  
الصديق: كنت نائماً؟  
الرجل : أنت؟ عليك اللعنة!  
الصديق: يا له من استقبال.  
(يتجهان نحو المدفأة)  
الرجل : ماذا حدث في العمارة؟  
الرجل : لا شيء!  
الصديق: وأنا قادم إلى زيارتك وجدت الشرطة تحاصر العمارة. لم أستطع المرور إلا بعد س وج.  
الرجل : حقاً... ماذا حدث؟  
الصديق: لم أفهم شيئاً، لم يردّ على أسئلتني أحد، ولكن ثمة حادث أو جريمة، والأمر المؤكّد أنهم يبحثون عن امرأة هاربة.  
الرجل : أين؟  
الصديق: في مكان ما بالعمارة، العمارة محتلة بالقوّات، ألم تشعر بشيء؟  
الرجل : أبداً.  
(يجلسان. الصديق يجلس في مكان المرأة. يتشتم الجوّ بدهشة)  
الصديق: رائحة امرأة!  
الرجل : ترى أيّ جريمة وأيّ امرأة؟  
الصديق: لا تشغل بالك، ستعرف كلّ شيء صباح

- البعيدة عن حجرة النوم. يشير إلى صاحبه  
أن يتبعه فيلحق به)  
الرجل : (هامساً) أنا واقع في مشكلة.  
الصديق: أي مشكلة؟  
(جرس الباب يرن)  
هل تنتظر أحداً؟  
(الرجل يمضي إلى الباب بعد تردد. يفتح)  
صوت من الخارج: تسمح لي بالدخول؟  
الرجل : تفضّل.  
(يدخل ضابط. يقدم نفسه)  
الضابط : نحن نبحث عن امرأة هاربة في العمارة.  
(الرجل يتظاهر بالدهشة ويتساءل)  
الرجل : آية امرأة؟  
الضابط : امرأة هاربة، وبهمّ الأمن العامّ القبض  
عليها.  
الرجل : لم يلجأ إلى شقّي أحد.  
الضابط : حضرتك ربّ الأسرة؟  
الرجل : إني أقيم بمفردي هنا، (ثمّ مشيراً إلى  
صديقه) هذا صديق زائر.  
الضابط : تسمح بالبطاقة الشخصية.  
(الرجل يذهب إلى حجرة المكتب ثمّ يعود  
بالبطاقة. الضابط يقرأها بعناية. ثمّ يقدم له  
ورقة مكتوبة ويقول)  
: هذا إقرار بأنّ المرأة لم تلجأ إلى شقّتك هذا  
المساء، وقمعه بإمضائك، وأودّ أن أذكرك  
بخطورة الأمر إذا ثبت ما يخالفه.  
(الرجل يوقّع الإقرار. الضابط يتناوله.  
وينصرف. الرجل يغلق الباب. يعود إلى  
صديقه حيث كان يقف في وسط الحجرة)  
الصديق: الظاهر أنّ الجريمة أخطر ممّا تتصوّر.  
الرجل : ليست إلاّ إجراءات روتينيّة.  
الصديق: لا تشغل بالك، كنت تتحدّث عن مشكلة.  
الرجل : مشكلة؟  
الصديق: الضابط شتّت عقلك.  
الرجل : ربّما.  
الصديق: لنعد إلى مشكلتك.
- (صمت)  
الرجل : جدّ ما هو أهمّ.  
الصديق: لا تشغل بالك بهموم لا تخصّك.  
الرجل : أليس من الجائز أن تستصدر الشرطة أمراً  
بالتفتيش العامّ إذا لم تعثر على المرأة؟  
الصديق: جائز.  
الرجل : وقد يفتشون شقّي!  
الصديق: إنّه احتمال ضعيف على أيّ حال.  
الرجل : ولكنّه جائز.  
الصديق: عندك فرصة للتخلّص من الأشياء المحرّجة.  
الرجل : كيف؟  
الصديق: النافذة.  
الرجل : العمارة محاصرة.  
الصديق: النار.  
الرجل : ليست جميع الأشياء قابلة للاحتراق.  
الصديق: أنت مجنون، طالما حدّرتك، ولكنّ احتمال  
التفتيش احتمال ضعيف، إنّه امرأة وليست  
إبرة وسيعثرون عليها عاجلاً. . .  
الرجل : تستطيع أن تقدّم لي خدمة.  
الصديق: اسمع، أنت تعلم أنّه لا شأن لي بهذه  
الأمور الخطرة، دع صداقتنا في المنطقة  
البريّة.  
الرجل : نحن في زمن الخوف من الشرطة، أمّا شهامة  
الأساطير فقد وئى زمانها!  
الصديق: الخوف من شيء حقيقيّ، أمّا الأساطير  
(صمت)  
الرجل : أودّ أن أطمئنّ عليك.  
الرجل : دون أن تقدّم خدمة ما.  
الصديق: كلانا يعرف الحدود التي يتحرّك فيها الآخر.  
الرجل : إني في حاجة إلى الانفراد بنفسي وكلّ ما  
أطلبه منك أن توافيني بأية معلومات جديدة  
بالتليفون.  
الصديق: بمجرد عودتي إلى مسكني. . .  
(يتصافحان. يوصله حتّى الباب الخارجيّ.  
يغلق الباب ثمّ يعود مسرعاً إلى باب حجرة

## تحت المظلة ٦٩

- الرجل : أعترف بأنني لم أحسن التصرف .  
المرأة : بل أحسنت التصرف وألاً لأثرت الشبهة في وجود علاقة بينك وبين المرأة المتحررة .
- الرجل : كانت الحقيقة ستظهر على أي حال .  
المرأة : ربّما، ولكن بعد تفتيش غير مرغوب فيه، ترى ماذا تحوي شقّتك الأنيقة من أسرار خطيرة؟
- الرجل : سخريتك تقطع بأنك معتادة للإجرام .  
المرأة : أو غاية من اليأس .
- الرجل : ماذا ارتكبت؟  
المرأة : محض فعل مألوف في التاريخ ولكنّ الشرطة تصفه بأنه جريمة، وأنت؟
- الرجل : لا أسمح بالتحقيق معي، ولكن خبّرني أيّ جريمة ارتكبت؟  
المرأة : ما أهميّة ذلك؟ ... أيّ تحسّن يمكن أن يضيفه إلى موقفنا؟
- الرجل : هل عرفوا شخصك؟  
المرأة : محتمل جدًا .
- الرجل : ليس مؤكّدًا؟  
المرأة : لا يوجد في هذه الليلة شيء مؤكّد .
- الرجل : جرّبي أن تغادري شقّي بوصفك امرأة أخرى .  
المرأة : لن يدعوني أمرّ دون تحقيق، وغالبًا يوجد خبر في الطريقة الخارجيّة، وسيجرّونك للتحقيق، وسوف تنكشف الحقيقة .
- الرجل : آية حقيقة؟  
المرأة : حقيقتي وحقيقتك .
- الرجل : (غاضبًا) لا تدفعيني للخروج عن حدود اللياقة .  
المرأة : معدرة .
- الرجل : أنت تؤجّلين الخطر ليس إلّا .  
المرأة : لا حيلة لي .
- الرجل : لو كنت مكانك ... !  
المرأة : لو كنت مكاني ... ؟
- الرجل : لسأمت نفسي إلى الشرطة ...  
المرأة : هذا حلّ طبيعيّ ومعقول لمشكلتك ...
- الرجل : سيّدي ... تعالّي ... لا أحد بالشقّة سواي .  
(تفتح الباب . تخرج . يقفان وجهًا لوجه)  
: إنك تلقين بياسك فوق رأسي .
- المرأة : جئت باندفاع لا اختيار فيه ثمّ وقعت في فحّ .  
الرجل : سيعودون للتفتيش .
- المرأة : لا تهتمّ بي فإنّي أعرف كيف أتصرف .  
الرجل : إنّي لا أهتمّ بنفسني في الواقع .
- المرأة : هذا حقّك وإنّي آسفة لحّد الموت .  
الرجل : إنك تخلفين لي مشاكل ومضاعفات .
- المرأة : لم تعد بيدي حيلة .  
الرجل : لمّ تبحث الشرطة عنك؟  
(صمت)
- المرأة : لمّ تبحث الشرطة عنك؟  
المرأة : إنهم يبحثون عن كثيرين ... !
- الرجل : شركائك؟  
المرأة : وغيرهم . .
- الرجل : (محتدًا) ماذا تعنين؟  
المرأة : (باسمة) سمعت ما دار بينك وبين صديقك .
- (صمت وهو ينظر إليها غاضبًا)  
الرجل : تمهّدني؟  
المرأة : ربّما كئنا في الهوى سوا .
- الرجل : افتراء .  
المرأة : آسفة .
- الرجل : أنا رجل محترم .  
المرأة : وأنا امرأة محترمة .
- الرجل : لهذا يتوقّف على مضمون الاحترام عند كلينا .  
المرأة : بمعنى آخر فكلانا غير محترم .
- الرجل : هل نمضي الوقت في جدل وسمر؟  
المرأة : إنّي آسفة وحزينة .
- الرجل : فاتني أن أعترف للضابط بالحقيقة .  
المرأة : لمّ لمّ تفعل؟

## ٧٠ تحت المظلة

- الرجل : ولمشاكلتك أيضًا ما داموا سيجيئون في النهاية  
حتماً.  
المرأة : ليس حتمًا!  
الرجل : (غاضبًا) ولكنك تراهنين بحياتي!  
المرأة : أمر مؤسف حقًا ولكنني أفضل الانتحار على  
التسليم...  
الرجل : افعلني بنفسك ما تشائين ولكن بعيدًا  
عني...  
المرأة : ليته ممكن!  
الرجل : أي قدر قذفي بك.  
المرأة : هو الذي رماني إليك.  
(تضحك ضحكة عصبية)  
الرجل : تمزحين كما لو كنت في حفل استقبال.  
المرأة : إذا انقطع الأمل فعلينا أن نعاشر اليأس  
معاشرة حسنة.  
الرجل : ولكن الأمل لم ينقطع بعد.  
المرأة : حقًا؟  
الرجل : أستطيع أن أطردك.  
المرأة : سأحاول الانتحار كأخبر وسيلة دفاع في  
يدي...  
الرجل : تهديني؟  
المرأة : موقف مؤسف مخجل ولكنني لم أخلفه  
بإرادتي.  
الرجل : أنت مجرمة بالسليقة.  
المرأة : (باسمة) لعلنا من سليفة واحدة.  
الرجل : (فائزًا) لتشق الأرض وتبلعك.  
المرأة : أول مرة يعاملني رجل بهذه المعاملة.  
(الرجل يتقضض عليها فاقدا أعصابه ليشدها  
ناحية الباب. هي تقاوم بيأس. يقوم بينهما  
شد وجذب.)  
يحتل توازنه فيقمان على ديوان ويستمر  
الصراع بينهما. وبالاستمرار لا تكاد تختلف  
حركاتهما عن مبادلات العشق. ويتغير مذاق  
الصراع وحدته. ويخلق جو جديد لم يكن في  
الحسبان فتستغل الأعصاب المتوترة البائسة.  
وإذا به يضمها بين ذراعيه وينهال عليها
- تقبيلًا.  
ينخفض الضوء رويدًا رويدًا حتى يسود  
الظلام. ثم يعود رويدًا رويدًا حتى يبلغ  
حاله الأولى.  
الآن كلاهما يجلس على مقعد كما كانا أول  
الامر.  
هي تنظر إلى السقف وهو يرنو إلى نيران  
المدفأة)  
الرجل : ترى ماذا يحدث في الخارج الآن؟  
(صمت)  
المرأة : كما يحدث في الداخل.  
الرجل : ماذا تعنين؟  
المرأة : جرائم ترتكب باهتمام وجنس يمارس بلا  
اهتمام.  
الرجل : وبلا حب؟  
المرأة : لحظات عناق تنزع من بين الكلمات ولي  
الأذرع.  
(صمت)  
الرجل : والعمل؟  
المرأة : هل تحاول طردني مرة أخرى.  
(صمت)  
الرجل : وما جرميتك؟  
المرأة : وما جرميتك؟  
الرجل : من حقني أن أسألك وليس ذلك من حَقك.  
المرأة : من واجبي ألا أتكلم.  
الرجل : لست على أي حال من الشرطة.  
المرأة : على سكوتي تتوقف سلامة آخرين.  
الرجل : تزييف نقود؟... مخدرات؟...  
دعارة؟... سياسة؟  
المرأة : جميعها ظاهرات إجتماعية.  
(صمت)  
الرجل : متزوجة؟  
المرأة : لا أجب على هذا السؤال بعد ما كان.  
الرجل : هل كانت أول مرة تخونينه؟  
المرأة : ألا ترى أنني أفضل الموت على الخيانة؟

## تحت المظلة ٧١

- الرجل : إذن سلّمت حبًّا وكرامة؟  
 المرأة : حالة هستيرية ليس إلا.  
 الرجل : نادمة؟  
 المرأة : لا وقت للندم.  
 الرجل : هبيني دعوتك مرّة أخرى؟  
 المرأة : مرّت فترة كافية لبلوغ سنّ الرشد.  
 الرجل : هل نفترق كغريبين؟  
 المرأة : كما التقينا!  
 الرجل : لا شيء يجمعنا؟  
 المرأة : الجريمة هي ما يجمعنا.  
 (صمت)  
 : هل أنت أعزب؟  
 الرجل : نعم.  
 المرأة : لمّ لم تتزوج؟  
 الرجل : لم أظن في السنّ بعد.  
 المرأة : ومتى تطعن في السنّ؟  
 الرجل : لعلّي أنتظر أن تجرّفي امرأة إلى الزواج،  
 ولكن ألا تترين أنّنا نسمر كأننا نستمتع  
 بسهرة طيبة؟  
 المرأة : هو خير من الصمت.  
 الرجل : الأغلال تقترب من أعناقنا.  
 المرأة : لا تدلّكري بدني حيالك.  
 الرجل : ثمّة فرصة لتجربة الحظّ.  
 المرأة : وهي؟  
 الرجل : أن نخاطري بالذهاب.  
 المرأة : لو كان الأمر يتعلّق بي وحدي لفعلت.  
 الرجل : تدوسيني في طريقك بلا رحمة.  
 المرأة : كما داسني آخرون.  
 الرجل : مالي أنا وذلك كلّه!  
 (يتملّكه غضب مبالغت. ينهض قائمًا بعنف.  
 يقبض على ساعدها ليشدّها ولكتّها لمخّص  
 ساعدها بهدوء)  
 المرأة : كلاً... لا يتكرّر شيء واحد مرّتين بطريقة  
 واحدة.  
 الرجل : أنت... أنت...  
 (جرس التليفون يرنّ. ينتقل إليه حيث  
 يوجد على حامل قرب البار)  
 الرجل : آلو.  
 :  
 الرجل : تأخّرت.. أين كنت؟  
 :  
 الرجل : ماذا تقول؟  
 :  
 الرجل : غير معقول، ألم تعرف السبب؟  
 :  
 الرجل : شيء عجيب حقًّا.  
 :  
 الرجل : بخبر كما تركتني.  
 :  
 الرجل : لست وحدي... أقصد أنّي منفرد  
 بهمومي!  
 :  
 الرجل : أبدًا أبدًا... وحدي كما تركتني.  
 :  
 الرجل : أنت مجنون.. أيّ أفكار جنونيّة تساورك؟  
 :  
 الرجل : لا موجب لإساءة الظنّ، إلى اللقاء...  
 (يضع السماعة ثمّ يعود إلى مقعده. يتبادل  
 مع المرأة نظرات حائرة)  
 الرجل : إنّه الصديق الذي كان هنا.  
 المرأة : وماذا قال لك؟  
 الرجل : ماذا حصل للدنيا؟.. الشوارع المحيطة بنا  
 غاصّة بالجنود... من أنت؟  
 المرأة : لست إلاّ امرأة سيّئة الحظّ كما ترى...  
 الرجل : بيدك حلّ هذا اللغز.  
 المرأة : يستوي لدينا أن يُضرب الحصار حول العمارة  
 أو حول الحيّ كلّه.  
 الرجل : ولكن لا يجمعهم بهذه القوّة إلاّ شيء خطير.  
 المرأة : لست هذا الشيء.  
 الرجل : لعلّك الخيط الذي يوصل إليه.  
 المرأة : جئنا مناقشة عقيمة.  
 الرجل : لن أسمح لك بالقضاء عليّ.

## ٧٢ تحت المظلة

- المرأة : ضيّعتُ فرصة الاعتراف بالحقيقة وهي غلطتك .
- الرجل : لن أضيع بسبب غلطة .
- المرأة : لماذا تعود إلى الغضب ولم يجِدْ جديد على الموقف؟
- الرجل : الهلاك بات أقرب ممَّا تتصوّر .
- المرأة : نحن مقامرون ، والمقامر العاقل يجب أن يوطن نفسه على الهلاك .
- الرجل : أنت امرأة مقامرة .
- المرأة : وانت أيضًا، لا سبيل إلى النكران .
- الرجل : لم أتوقّع أبدًا أن أضيع بمثل هذه الطريقة السخيفة .
- المرأة : جميع طرق الضياع سخيفة .
- الرجل : أوّد أن أقتلك ولسر اضطررت إلى قتل نفسي .
- المرأة : هاك طريقة سخيفة أخرى .
- الرجل : كلّ هذا وأنا لا أعرف من أنت ولا أدرك شيئًا ممَّا يقع حولي .
- المرأة : لا أهميّة للتفاصيل، حسبك أن تعرف أننا مطازدون، وأنّ حولنا وفوقنا ومحتنا أعداء مصمّمون!
- (صمت)
- : (وهي تبتسم متوّددة) لا تضخّم سوء الحظّ بالغضب .
- (صمت)
- : عندي اقتراح .
- (ينظر نحوها بامتعاض ودون أن ينبس)
- : نحن في حاجة إلى ترفيه .
- الرجل : ترفيهه؟!
- المرأة : لم لا؟... إثمهم يسألون المحكوم عليه بالإعدام عن رغبته الأخيرة .
- الرجل : أنت مجنوننة .
- المرأة : لنشرب كأسين .
- الرجل : وما حولنا وفوقنا ومحتنا؟
- المرأة : أنا أعتبر نفسي منتهية، وأعترف لك بكلّ أمانة أنّ جانبًا ممّي راضٍ كلّ الرضا، ويخيّل
- إليّ أنّك تماثلني إلى حدّ كبير، وأماننا وقت غير محدود، فلمّا أن نقضيه في تبادل السباب وإمّا أن نرفّه عن أنفسنا، ما رأيك؟
- الرجل : كيف تتحمّل أعصابك الترفيه وهي تتوقّع الموت بين لحظة وأخرى؟
- المرأة : هي حال الإنسان بصفة عامّة مع فارق بسيط هو أنّنا أعظم وعيًا بالنهاية .
- (صمت)
- : فلنجرّب . . .
- (المرأة تقوم إلى البار فتجيء بزجاجة وكأسين . تملأ الكأسين . ترفع إحداها إلى فم الرجل وتمسك بالأخرى)
- : صحّة لقائنا دون تعارف سابق .
- (تشرب وتدفّع بالشراب إلى فيه فيقبّله بفتور . ثمّ تملأ الكأسين مرّة ثانية)
- : صحّة افتراقنا القريب بعد تعارف عميق!
- (تشرب . تنظر إليه بتوسّل حتّى يشرب كأسه أيضًا . ثمّ تملأ الكأسين للمرّة الثالثة)
- : صحّة أسباب الهلاك التي لا حصر لها .
- (تشرب . يشرب . تملأ الكأسين للمرّة الرابعة)
- : صحّة الأحلام التي تقود إلى الهلاك .
- (تشرب . يشرب . تنبسط أساريهما بتأثير الخمر . يملأ هو الكأسين للمرّة الخامسة)
- : صحّة الجنس الذي يمارس وسط العنف والشجار .
- (تشرب . يشرب . يتأكّد أثر الخمر . يملأ الكأسين للمرّة السادسة)
- الرجل : صحّة الشرطة عدوّة الأحلام .
- (تشرب . يشرب . يتأكّد أثر الخمر . يملأ الكأسين للمرّة السابعة)
- المرأة : صحّة أوّل من اخترع حروف الهجاء .
- (تشرب . يشرب . يتضح أثر السكر في الحركة والصوت . يملأ الكأسين للمرّة الثامنة)
- الرجل : صحّة أوّل رجل اخترع آلة للزينة .



## تحت المظلة ٧٣

- (تشرّب. يشرب. يملأ الكأسين للمرّة  
التاسعة)  
المرأة : صحّة أوّل من كتب رسالة غرامية.  
(تشرّب. يشرب. يملأ الكأسين للمرّة  
العاشرة)  
الرجل : صحّة الحلقة المفقودة.  
المرأة : صحّة المخبر الواقف بالطرقة خارج الشقّة.  
الرجل : صحّتك.  
المرأة : صحّتك.  
(يفرقان في الضحك. يقفان وهما يترنّحان)  
الرجل : لننسى العمر الذي عشناه فيتهي كلّ شيء.  
المرأة : انتهى كلّ شيء.  
الرجل : ولكيّ لن أنسى أوّل أمنية داعبت فؤادي وأنا  
طفل.  
المرأة : ما هي؟  
الرجل : أن أكون يّاع كسكسي!  
(يفرقان في الضحك)  
المرأة : لنستمتع بشيء من الفنّ...  
الرجل : فكرة.  
(يذهب إلى التلفزيون. يديره. يظهر موقف  
من فيلم رعاة بقر يشتمّد فيه تبادل إطلاق  
النار. المرأة تصرخ متراجعة محتجّة فيطفئ  
الرجل التلفزيون)  
الرجل : هلمي نرقص.  
(يرقصان بلا موسيقى. يتعمّد ضمّمها إلى  
صدره. يقبلها من آن لأن. يتوقّف عن  
الرقص ويرفعها بين يديه ليمضي بها ولكنّ  
توازنها يحنّس فيسقطان وهما يضحكان.  
ينطحان جنبًا لجنب وهما يضحكان. وهو  
يقبلها كلّها سكت عن الضحك. لا مقاومة  
من ناحيتها ولكنّها تزحف قليلاً وتمدّ يدها  
فتتناول سّاعة التليفون. تطلب رقّمًا، وفي  
أثناء الحديث يتابعها الرجل بانتباه قليل  
لشدّة سكره ولا يكفّ عن تقبيلها)  
المرأة : آلو.  
..... :
- المرأة : مساء الخير، أنت قلق طبعًا، آسفة...  
..... :  
المرأة : شربت كأسين تحت ظروف اضطرارية.  
..... :  
المرأة : لا وقت للإجابة، ليس الظرف مناسبًا،  
ستعرف كلّ شيء من الصحف...  
..... :  
المرأة : لا تنتظري... ولكن ثق من إخلاصي...  
حتّى آخر لحظة... أستودعك الله.  
(تغلق السكّة)  
الرجل : تخونيني جهازًا؟  
المرأة : الماضي يستحقّ أن نوّدعه.  
الرجل : عفريتة...  
المرأة : سأكون لك إلى الأبد!  
الرجل : حتّى الموت.  
المرأة : حتّى الموت.  
الرجل : ولو امتدّ بنا العمر ساعة كاملة؟  
المرأة : ولو امتدّ ساعة وربعًا!  
(جرس الباب يرنّ. ينظران نحو الباب  
بانزعاج رغم سكرهما. ينهضان بصعوبة  
وتعثر. تمضي نحو المقعد حيث تركت  
حقيبتها)  
المرأة : سيجدونني جيّنة هامة منتصرة.  
الرجل : لن أفتح الباب.  
المرأة : سيكسرونه.  
الرجل : فلتنّفق على الاعتراف بأننا زوجان.  
المرأة : قلت للضابط خلاف ذلك.  
الرجل : نعترف بأننا تزوّجنا عقب ذهابه!  
المرأة : هذه فترة كافية لموتنا أمّا الزواج فيستغرق  
عامًا على الأقلّ.  
(الجرس يرنّ متقطّعًا ولكن في إصرار.  
الرجل يلتفت نحو الباب موليًا المرأة ظهره.  
المرأة تتناول من الحقيبة أنبوبة. تستخرج  
منها حبّة. تزدردّها ببقية كأسها. تترنّح ثمّ  
تسقط فوق الديوان منكفئة على وجهها،  
جيّنة هامة. الرجل لم ينتبه إلى ما حدث.

- الرجل : السكران لا يكذب .  
(صمت)  
الصديق: لو صحَّ هذا...  
الرجل : تعاهدنا على الحبِّ إلى الأبد .  
الصديق: كنت تعرفها؟  
الرجل : عرفتھا منذ ساعة هجرية!  
الصديق: وما جريمتها؟  
الرجل : جريمة قامت لها القيامة .  
الصديق: قتل... مؤامرة...؟  
الرجل : سألتها فاعترفت لي بحبِّها...  
الصديق: لعنة الله على البار الأمريكائي... خبّرني من  
هي؟  
الرجل : امرأة.  
الصديق: اسمها، أسرتها، مهنتها؟...  
الرجل : لا اسم ولا أسرة ولا مهنة لها.  
الصديق: ألا تعرف عنها أيّ شيء؟  
الرجل : عرفنا أهمّ شيء وهو أننا سنموت بعد ساعة  
أو ساعتين!  
الصديق: إنك مضجر ولا خير فيك .  
الصديق: نحن ننتظر الشرطة فلا تفسد علينا ساعة  
الانتظار.  
الصديق: لا سبيل إلى التفاهم معك، سأذهب،  
أستودعك الله...  
الرجل : مع ألف سلامة .  
(يتحرّك الصديق للذهاب . جرس الباب يرنّ  
رنينًا متواصلًا)  
: أخيرًا...  
الصديق: (في اضطراب) ماذا أنت فاعل؟  
الرجل : سأفتح الباب قبل أن يحطّموه...  
(أصوات من الخارج تصيح «افتح...  
الفتح» .  
الرجل يذهب إلى الباب . يفتحه . تندفع إلى  
الداخل قوّة من الشرطة المسلّحة على رأسها  
ضابط غير الضابط الأول)  
الضابط : أين الحجرة المطلّة على الطريق العمومي؟  
(الرجل يشير إلى حجرة النوم . الضابط
- يتردّد بين الوقوف وبين الذهاب إلى الباب .  
ينظر وراه فيرى المرأة منكفئة على وجهها)  
الرجل : غلبك السكر؟... تمت؟  
(يتأمّلها دون مبالاة بجرس الباب)  
: يا لك من شاتبة جميلة حقًا!...  
(الجرس يرنّ)  
: أضعنا في الخصام وقتًا لا يُعوّض...  
(الجرس يرنّ)  
: استريح... تخاصمنا كغرياء على حين  
تجمعنا طبيعة واحدة .  
(يقترّب منها، يميل فوقها كأنما ليقبّلها وإذا  
بصوت صديقه ينادي من وراء الباب صائحًا  
«افتح» يمضي مسرعًا نحو الباب فيفتحه  
ضاحكًا . الصديق يدخل ويغلق الباب  
وراه).  
الرجل : سبّيت ركبنا، عليك اللعنة .  
الصديق: من المرأة التي عندك؟  
الرجل : الغيرة رجعت بك رغم الحصار... يا لك  
من أحمق ما فكّرت في حياتك قطّ .  
(الصديق ينظر إلى المرأة ويضحك عاليًا)  
الصديق: بعض الظنّ إثم .  
الرجل : أنت أحمق .  
الصديق: متى جاءت هذه الحبوبة؟  
الرجل : كانت هنا من قبل زيارتك الأولى .  
الصديق: ولم أخفيها عني؟  
الرجل : إنَّها المرأة التي تبحث عنها الشرطة .  
الصديق: كم كأسًا شربت؟  
الرجل : لم أفكّر في حصرها .  
الصديق: وهل الحبوبة نائمة؟  
الرجل : من السكر والتعب... ولكن ما حال  
الحصار؟  
الصديق: القيامة قائمة...  
الرجل : وحبّيتي نائمة...  
الصديق: إنَّها جميلة... من هي؟  
الرجل : المرأة التي قامت القيامة من أجلها .  
الصديق: أنت سكران .

## تحت المظلة ٧٥

والقوة يهرعون إلى الحجرة ويختفون داخلها)  
الصديق: ما معنى هذا؟  
الرجل : عليّ اللعنة إن كنت أفهم حرفاً مما يقع حولي.  
الصديق: يستحسن أن توقف المرأة، أيّ نوم هذا؟  
الرجل : زِدْ فعلٍ طبيعيّ للإِنْهَاء والاضطراب والسكر، دعها تنعم بآخر هدوء يتاح لها في حياتها!  
(فجأة تترامى من الحجرة أصوات طلقات نارية كثيرة، تستمر وتترايد. الرجلان ينحطان على ركبتيهما بحركة قاسية وهما في غاية من الدعر)  
الصديق: إنها معركة...  
الرجل : إنها معركة بكلّ معنى الكلمة...  
الصديق: هل العدو في الطريق؟  
الرجل : ولكنك رأيت الطريق محاصراً!  
الصديق: لعله في العمارة القائمة على الجانب الآخر.  
الرجل : لا أفهم شيئاً...  
الصديق: يجب أن يغادر الشقة فوراً قبل أن نُصرع بالرصاص.  
(الصديق يزحف على أربع حتى يغادر

الشقة. الضابط يظهر في باب الحجرة. يرى المرأة لأول مرة)  
الضابط: هل أصيبت السيّدة؟  
الرجل : كلاً...إنها...إنها مريضة...  
الضابط: الشقة معرضة للخطر. غادرها بلا تردّد.  
(الضابط يرجع إلى الحجرة. الضرب في تصاعد مستمرّ. رصاصات تصيب المصباح الكهربائيّ فيسود الظلام. شبح الرجل يزحف نحو المرأة. يهزّها ليوقظها)  
الرجل : استيقظي... يجب أن تستيقظي...  
(يهزّها بشيء من الشدّة)  
: سأحملك بين يديّ وأمرى الله...  
(يحملها بين يديه ويمضي بها نحو الباب بتعثر ومشقة وبطء)  
: لم يجيئوا للقبض عليك ولا للتفتيش... لقد نجوت يا حبيبتي... ونجوت أنا أيضاً...  
نجونا معاً. سيمسي اليأس في خبير كان...  
نجوت ونجوت... وستكونين لي إلى الأبد.  
(يغادر الشقة بحمله. الضرب مستمرّ).

(الصديق يزحف على أربع حتى يغادر

## مَشْرُوعُ النُّاقِشَةِ

مجلسها. يمضي إلى المكتب فيقف مستندًا إلى  
مقدمته. ينتقل المخرج والناقد إلى المقعدين  
المتقابلين أمام المكتب. يعود الممثل إلى  
مجلسه إلى جانب الممثلة)

الناقد : (للمؤلف) صحتك عال.

المؤلف : شكرًا.

المخرج : الجوّ فظيع ولكنّ ضاحيتك مرتفعة الموقع  
ومعتدلة الجوّ.

المؤلف : التفكير من شأنه أن يرفع الحرارة.

الناقد : إلى أيّ حدّ يمكن أن نقول إنّ عملك  
اكتمل؟

المؤلف : سينتهي على أيّ حال في موعده.

الناقد : إذا أردنا أن نحدّد روايتك الجديدة فأيّ اسم  
يمكن أن نطلقه عليها؟

المؤلف : إنك ناقد لا تخلو من داء النقاد في غرامهم  
بالأسماء، أنا لا تهمني الأسماء، إنّما أبدأ من  
انفعال معين ثم أترك الاسترسال لوحى  
القلم.

الناقد : ولكنّ المسرحيّة بناء، ولا يسع البناء أن  
يضرب في الأساس ضربة واحدة ما لم تكن  
الصورة النهائية متبلورة بشكل ما!

الممثل : (في شيء من العصبية) سنصل في نقاش غير  
محدود، أريد أن أطمئنّ إلى وجود بطولة  
حقيقيّة.

الممثلة : وأضيف إلى قول زميلي أنّ خير دور تمثله  
المرأة هو الحبّ. (ثمّ موجهة الحديث إلى

حجرة الإدارة بمسرح. في الجانب الأوسط  
من الحجرة يوجد مكتب. أمام المكتب مقعدان  
كبيران متقابلان. إلى اليسار مكتبة، وباب  
مغلق يؤدي إلى الخارج. في الجانب الأيمن كنية  
ومقعدان وخوان. على الكنية يجلس الممثل  
والممثلة. على المقعدين يجلس المخرج والناقد.

الجميع في أواسط العمر مع تفاوت.

المخرج : يجب أن نفتح الموسم بعمل باهر.

الممثلة : (متنهدة) الحقّ أنّ الفنّ جمال وعذاب.

الممثل : (ناظرًا في ساعة يده) متى يحضر الأستاذ؟

الناقد : إنّه في الطريق إلينا.

المخرج : كثرت المسارح واشتدّت المنافسة بينها لدرجة  
الوحشيّة.

الممثل : وعلينا يقع عبء المحافظة على القمّة.

الممثلة : هذا ما قصدته بالعذاب.

الناقد : ترى هل انتهى الأستاذ من كتابة المسرحيّة؟

المخرج : لا أظنّ، ولكنّه سيحدّثنا عن الفكرة العامّة.

الممثلة : لن يبدأ الموسم قبل أشهر.

(يُفتح الباب إلى اليسار ويدخل السكرتير)

السكرتير: الأستاذ.

(يدخل المؤلف. يخرج السكرتير ويغلق

الباب. المؤلف متقدّم في السنّ ولكنّه من

النوع الذي يتعدّد تجديد سنّه. وهو أنيق

المظهر وبادي الصحّة والعافية رغم تقدّمه في

السنّ. ينهض المخرج والناقد والممثل

لمصافحته. يذهب لمصافحة الممثلة في

- المؤلف : إني أحب الصراحة، والحق أقول لكم إنه لا وجود لكم قبل أن توجد الفكرة التي تنجزونها.
- الممثل : (في حدة) بل نحن موجودون قبل أي فكرة.
- المؤلف : إذا لم توجد القصة فأنتم مجرد أشخاص لا معنى فني لهم.
- الناقد : ألا يؤثر في خيالك وأنت تؤلف أشخاص الممثلين مثلاً؟
- المؤلف : كلاً، إني أستغرق في عملية الخلق فحسب، ثم يختار العمل بعد ذلك ممثليه ويخرجه!
- الناقد : هذا فرض مثالي، ولكن الواقع أن المؤلف إنما يتعامل مع زمان ومكان وجمهور وممثلين وممثلات ومخرجين ونقاد أيضاً!
- المؤلف : (ضاحكاً في سخرية) يا لها من أفكار غريبة عن عملية الخلق!
- الناقد : لا يمكن أن تترك لخيالك العنان ما دمت مرتبطاً بمسرح ما وجمهور ما وإمكانيات فنية محدودة.
- المؤلف : أو في كلمة واحدة هي فبركة بلا زيادة.
- الناقد : إنها محاولة صادقة للتوفيق بين خيالك الخلاق والضرورات بفبركة لا يحصى عنها لتقول في النهاية ما تريد قوله وما يتطلبه الزمان والمكان وما يؤدّ الناس أن نقوله!
- المؤلف : (بلهجة مزدريّة) أضدق وصف للفن التجاري.
- الناقد : الفنّ معاملة، والمعاملة نوع من التجارة، والنجاح وجه من وجوه المعاملة.
- المؤلف : هذا يعني أنكم المؤلف لا أنا.
- الناقد : التأليف جماعي وإن بدا فردياً.
- الممثل : لذلك أطالب ببطولة تقليدية وهو طلب عادل.
- الممثلة : وأطالب بالحبّ وهو مطلب طبيعي.
- المخرج : وأطالب بالحرية ليمّ لعملك الكمال المنشود.
- المؤلف : (غاضباً) تمرد سخيف مضحك، ولولاي لما كنتم شيئاً مذكوراً.
- المخرج) تكلم فانت المخرج ...
- المخرج : لكل رواية أسلوب خاص لإخراجها.
- الممثلة : ولكنّ الحبّ ضرورة لا غنى عنها.
- المخرج : إنه ضرورة حقاً ولكن لا يمكن فرضه على المؤلف.
- المؤلف : هذا كرم منك إذا تدكرنا محاولاتك السابقة للوثوب فوق رأسي.
- المخرج : (ضاحكاً) أنت تؤلف وأنا أفسر، فانت حرّ في تأليفك وأنا حرّ في تفسيري.
- المؤلف : ولكنّي أعرف ما أريد قوله.
- المخرج : بل إني أعتبر ذلك من اختصاصي.
- الناقد : الأمر يتوقف على نوع العمل، نمة عمل لا يختلف في تفسيره أحد، وآخر تتعدّد في تفسيره وجهات النظر.
- الممثل : ما يهمني حقاً هو دور البطولة، أريد أن أكون بطلاً لا مهرجاً.
- المخرج : ولكنّ المهرج يمكن أن يكون بطلاً أيضاً.
- الممثل : إني أرفض ذلك كلّ الرفض.
- المخرج : نمة زمن يخلق الأبطال وآخر يخلق المهرجين.
- الممثل : مهرجون لا أبطال.
- المخرج : المسألة نسبية.
- الممثلة : سنضلّ في متاهة الآراء، حدّدوا أفكاركم.
- الممثل : حسن، أريد البطولة بالمعنى التقليدي.
- الممثلة : وأريد أن أعب دور حبّ لا يُسي.
- الناقد : ويلزمي الوضوح الذي يمكّني من نقد العمل وتقديمه.
- المخرج : أطالب بالحرية الكاملة للتفسير.
- المؤلف : ماذا يبقى لي أنا؟
- الممثل : أن تحمّق لنا مطالبنا الفنتية العادلة في صيغة ناجحة تستحوذ على إعجاب الجمهور.
- المؤلف : إنكم بحاجة إلى سكرتير لا إلى مؤلف.
- الممثلة : بل نريد تفاهماً وتعاوناً.
- (المؤلف ينادر موقفه متمشياً حتى منتصف الحجره وهو مقطب ثم يعود إلى موقفه مسنداً إلى مقدّم المكتب)

## نحت المظلة ٧٩

- الناقد : (بلطف) ولولانا ما كنت مؤلفاً على الإطلاق.
- المؤلف : أستطيع أن أكتب مسرحية لنفسي!
- الناقد : محض كلام، كيف يثبت أنها مسرحية إذا لم يقبض لها مخرج ويمثلون وجمهور ونقاد؟!
- المؤلف : (غاضباً) إن مهنتي الخلق لا الجدل، الجدل مهنة العاجزين عن الخلق.
- الممثلة : إنني أكره الجدل وأخاف عواقبه، وسوف ينتهي بنا إلى خصام مرير بدلاً من عرض مسرحي رائع.
- الممثل : ولكن لا خير في مصالحة تجميء على حسابنا.
- المؤلف : من الضروري أن أكتب مسرحيتي بلا قيد أو شرط.
- الناقد : لا يجوز أن تحمل الاعتبارات التي عدتها.
- المؤلف : إنني ملزم باحترام الخلق الفني وحده.
- الممثل : والبطولة؟
- الممثلة : والحب.
- المخرج : بعض الهدوء، إنه لم يحدثنا بعد عن قصته!
- (صمت)
- : أستاذنا العزيز، حدثنا عن قصتك.
- المؤلف : إنها مجرد مشروع وخطوط عامة.
- المخرج : ليكن.
- المؤلف : إنها قصة رجل وامرأة.
- الممثل : نمة نجال لبطولة.
- الممثلة : ومكان أرجح للحب.
- المؤلف : يلتقيان في غابة.
- الناقد : غابة؟
- المؤلف : يلتقيان في غابة.
- الناقد : ولم غابة؟
- المؤلف : (محتدًا) أنا حرّ.
- المخرج : أنا الحرّ.
- الناقد : أحشى أن ترجع بنا إلى عهد الرومانسية البائسة!
- الممثلة : هو مكان ظريف على أي حال، والعري فيه لا يمكن أن يتهم بالافتعال.
- الناقد : اللقاء اليوم في الشارع، في البصر، في مله في
- ليلي.
- المخرج : ربما أراد من الغابة أن تهيئ له جواً موحشاً حافلاً بأخطار الإنسان والحيوان.
- الناقد : المدينة أحفل بكل ذلك من أي غابة.
- المؤلف : (ضارباً الأرض بقدمه) يلتقيان في غابة.
- الممثلة : بعض الحلم حتى يُتم صورته.
- المؤلف : في الغابة أخطار لا حصر لها فهما يبحثان عن مأوى يحميهما.
- الممثل : ليس في ذلك شيء من البطولة.
- الممثلة : ولكنّه مجال طيب للحب.
- الممثل : لا حبّ بلا بطولة.
- الممثلة : الحبّ في ذاته بطولة.
- الممثل : ليست هي ما أبحث عنه.
- المخرج : إنّه يريد أن يقاتل، يقاتل الوحوش، يقاتل المجهول.
- الممثل : أحسنت.
- المخرج : ومن ثمّ يوجد الصراع وهو أساس الدراما.
- الممثل : أمّا مجرد البحث عن مأوى!
- الممثلة : لعله يكتب قصة حبّ؟
- الممثل : الحبّ لا يكفي وحده موضوعاً لمسرحية.
- المخرج : وأي مجال يُترك لحرّيتي في مسرحية بحث عن مأوى؟
- المؤلف : أنا لا أعترف بحرّيتك المزعومة.
- المخرج : أنا أفسّر فأنا حرّ.
- المؤلف : هل تستطيع بحرّيتك أن تغبّر النهاية؟
- المخرج : صدّقني فإنّ حرّية المخرج هي زينة العرض المسرحي.
- المؤلف : هل تستطيع أن تغبّر النهاية؟
- المخرج : لم تحدثنا عن النهاية.
- المؤلف : يجدان مأوى على درجة من الأمان.
- الممثلة : أراهن على أنّ الحبّ سيبدأ دوره الخالد.
- المؤلف : بمصنانه ضد أهوال لا حصر لها ولا عدّ.
- الممثلة : أكمل... إنني منتظرة...
- المؤلف : يمضيان أوقات الراحة في عناق حارّ.
- الممثلة : (تقف من الانفعال وتنتقل إلى جنب المؤلف)
- المؤلف : ألم أقل لكم؟...

- المؤلف : وفي لحظة من لحظات العناق الحار يسقطان جثتين هامدتين!  
(صمت)  
يتبادلان النظرات. تمضي الممثلة إلى المكتبة على اليسار وتستند إليها مغمضة العينين)  
الناقد : جثتين هامدتين؟  
المؤلف : نعم.  
الناقد : وهي النهاية؟  
المؤلف : وماذا تتوقع بعد ذلك؟  
الناقد : ولكن ما أسباب الموت؟  
المؤلف : أي سبب تفضضه، لنقل إنه العناق نفسه!  
الممثلة : (متقدمة خطوات) الحق أنني لم أفهم شيئاً.  
المخرج : وماذا عن الأخطار المحدقة بهما؟  
المؤلف : لم أتمّ دراستي لها بعد، ولكن يمكن القول بأنها قد ينجحان في تحصين ماوأهما.  
الناقد : ستكون نهاية متشائمة.  
الممثل : وبلا بطولة تخفف من وقعها.  
الممثلة : دور الحب غني، ولكن النهاية...؟  
المخرج : من حسن الحظ أنه لم ينته من دراسته، وأنه لا بدّ أن تسبق النهاية سلسلة من صراعات شائقة...  
المؤلف : (متهكماً) ربّما تكون حرّاً في كيفية الوصول إلى النهاية التي اختارها ولكن لا حرّيّة لك في تغييرها.  
المخرج : (في شبه ثورة) يمكن أن أسدل الستار عند لحظة من لحظات النصر.  
المؤلف : في تلك الحال لن يزعم أحد بأنّ الرواية روايتي.  
الممثل : (وهو يهّب واقفاً) أنا البطل، أنا الجمهور، وإني أرفض الأدوار الهابطة!  
المؤلف : قدّر لسانك قبل النطق موضعه من اللباقة.  
الممثل : إني ممثّل قديم، لعبت أدواراً خالدة، صارعته القدر، صارعته الأبطال، صارعته المجتمع، اليوم يراد منّي أن ألعب دور الهارب، وأن أموت مستهلكاً في عناق حارّ، خبّرتني بالله أي نوع من الدراما تكون، تراجيديا؟ ملهاة؟  
الناقد : أجل... النوع المسرحي غير واضح.  
المؤلف : أنا أقدم مسرحيات لا أساء.  
الناقد : ولكنها تنكبت سبيل الجلال الحقّ.  
المؤلف : الجلال الحقّ، ما زلتم تحنون إلى القدر والأبطال الخرافيين وأسطورة المجتمع، ولكنّ القدر لم يعد إلّا موضحة بالية، والبطولة الخرافية مراهقة، وهل يتمخض المجتمع إلّا عن لعبة يعبث بها أطفال شرّيون لم تحسن تربيتهم!؟، إني أعرف عملي تماماً.  
الممثل : إني أرفض مسرحيتك.  
الممثلة : لكتها ما زالت قصّة حبّ.  
الممثل : إنك مخطئة يا عزيزتي، تصوّري أن نلتقي في غابة وأن نلوذ بمأوى، لا مجال للمناجاة أو الحبّ الحقيقيّ، ستكون أعصابنا متوتّرة طوال الوقت، الحبّ لا ينمو في هذا الجوّ، مجرد عناق عصبيّ، يروّج عن نفسه بالشهوة، ثمّ نقع جثتين، ستكونين طيلة الوقت محدّقة في فزع، مرتعشة الأطراف، مضطربة الأمعاء، دميعة الوجه، مجرد لبؤة ثائرة ثمّ جيئة هامدة.  
الممثلة : كلاً... كلاً...  
الممثل : ولن يبقى لنا من الحوار إلّا كلمات متشنّجة، واستغاثات معرّبة، وهذيان طويل عن الأخطار المحدقة بنا، ثمّ نقع جثتين هامدتين!  
المؤلف : (محتدّاً) لست إلّا ممثلاً فلا تجاوز حدّك.  
الممثل : (في غضب وعجرفة) أنا المسرح.. أنا الجمهور..  
المؤلف : لست إلّا ممثلاً.  
الممثل : (وغضبه في تصاعد) وما أنت!؟... كم من الجمهور راوك؟... وكم تمّن يرونك يعرفون من أنت!؟  
المؤلف : يا لها من وقاحة!  
(الممثل يرمي المؤلف بنظرة متوعّدة. الممثلة تقرب منه بسرعة فتضع يدها على ذراعه

## تحت المظلة ٨١

- ملاطفة) المؤلف : (في غضب) لست أهلاً لمناقشتي.
- الممثلة : لا يليق بكما الخصام.
- الناقد : ترى هل تحمل بمسرحنا اللعنة؟! المؤلف : ليلتزم كلّ بحدوده.
- المخرج : الحلم والهدوء، لا تدفعوني إلى اليأس.
- الممثلة : عليك بالتساسك ولأنا فشلنا وأعرض عنا الجمهور.
- الممثل : إن من يسلبني مجدي إنما يسلبني كرامتي وحياتي.
- المؤلف : لكلّ زمان مجده الخاصّ به.
- الممثل : العبث ببطلتي التي عشقها الجمهور محاولة لقتلي.
- المؤلف : مجدك الحق أن تلعب دورك بمهارة أيّا كان دورك.
- الممثل : ولو كان الحرب والموت بين أحضان امرأة؟ المؤلف : ولو كان.
- الممثل : سينصرف عنكم الجمهور ولن ينفع الندم.
- المؤلف : الجمهور يودّ أن يرى نفسه.
- الممثل : لا كما هي ولكن كما يجب أن تكون.
- المؤلف : على أساس من واقعها الحقيقيّ.
- الممثل : أهذه هي الكلمة الأخيرة في البطولة؟ المؤلف : لا يمكن التنبؤ بالمرحليّة التالية.
- الممثل : إذا تجهمني زمني فعليّ أن أعتزل.
- المؤلف : (متهمكاً) ها أنت تفكر في الهروب في حياتك رغم ثورتك عليها فوق خشبة المسرح.
- الممثل : إنّي أرفض مسرحيتك.
- الناقد : (للمؤلف) فكرتها طيبة ولكن أعد النظر في النهاية.
- المؤلف : (بكبرياء) كلام لا يليق أن يوجّه إلى مؤلف.
- الناقد : هل نسيت تاريخك القديم؟.. هل نسيت روائعك؟
- المؤلف : آخر مسرحيّة خير ما ألفت حتى اليوم.
- الممثل : حتى هذه المسرحيّة الشاذّة؟ المؤلف : ستكون خير ما ألفت حتى اليوم.
- الممثل : (صائحاً في غضب وموجّهاً كلامه للجميع) إنّه يضمحلّ وهو لا يدري.
- الممثل يرميه بنظرة غاضبة متوتّعة مرّة أخرى ولكنّ الممثلة تأخذه من ذراعه إلى مجلسها السابق فوق الكنبه (صمت)
- (محادثةً نفسه) تعب وعذاب وها هي النهاية، من يدري بمتعاب الخلق إلا من يعانيه؟، ثمّ لا يكفيه ذلك فتتمردّ عليه مخلوقاته، وأيّ تمرداً، تعيب خلقه، تعيبه بكلّ جهل وقحة، تدكّره بعمله القديم كأنه عاجز عن تكرار نفسه، تتهمه بالكسل وهي الخامة العاجزة عن تفهّم الجديد، وتبيّن مزاياءه، هل يكمل الخلق إذا جاء على هوى المخلوق؟، وقد تدرّجت معهم من البسيط إلى المعقدّ وها هم ينتعون البسيط بالجلال والمعقدّ بالتفاهة، عقول قاصرة فكيف يمكن أن يتموا الرحلة الطويلة معي؟
- الممثل : (مخاطباً نفسه أيضاً تجبّياً للخصام) الخلق شيء عظيم أمّا الغرور فلا عظمة له، لسنا مخلوقات ولكننا شركاء، هو يعرف ذلك وإن أنكره حين الغضب، المسرحيّة لا تحيا وحدها، يلزمها مخرج وممثلون ونقاد وجمهور، ما قيمة النصر بغير هؤلاء؟، هل تبقى الرواية هي هي إذا تغير الممثلون؟، هل تبقى هي هي إذا تغير المخرج؟ الحقّ أننا خالقون أيضاً، وهو مخلوق لنا بمعنى من المعاني، وجميعنا معذبون بالخلق، والجزاء ليس عادلاً، إننا نعيش فترة ثمّ نختفي كالفقاعات، أمّا كلماته فتبقى على مدى الأيام...
- (صمت)
- الناقد : نريد أن نصفّي الجوّ، وبالاحترام المتبادل نصفّي لا بالتفاخر.
- الممثل : (آتياً بحركة تدلّ على الحسرة) إنّي أبكي الأيام السعيدة الماضية، أخاف ألا تعود مرّة أخرى، كنت أخطر على خشبة المسرح رمزاً



- للإنسان في ذروة نبيله ونضاله، وعلى المسرح كانت تتواجه قوى الخير والشرّ وبينهما تقوم الإرادة الحرة المتوقّبة، والخير لم يكن يهزم وإن حاقت به هزيمة والشرّ لا ينتصر وإن أحرز نصرًا، ذلك أنّ خشبة المسرح لم تكن تخلو من إله عادل.
- الممثّلة : (تتأثر فتقوم لتمشي وهي تتكلّم) أجل، المرأة كانت وحيًا، الحبّ كان دينًا، النور يهزم جيوش الظلام بنضاله اللامع، الأمومة مقدّسة، الوفاء مقدّس، الرذيلة شيطان، لا شيء هو ولعب.
- الممثل : أين الألهة؟، أين البطولة؟. أين الحبّ؟، أين الأمل؟، لم تبقى إلّا غابسة مليئة بالوحوش، وأدميان هاربان لائذان بكهف، لم يبق إلّا الخوف والتوجّس والهستيريا والموت، أيّ دور هذا؟
- (الممثل يقف منفعلًا ثمّ يهتف بصوت مرتفع)
- إني أرفض مسرحيتك.
- المؤلف : لا تتخطّ حدودك.
- الممثل : لم أخطّ حدودي.
- المؤلف : لا تحلم كالمراهقين.
- الممثل : لا تتخطّ حدود اللياقة.
- (صمت)
- المؤلف : هذا هو مشروع روايتي الجديدة، وإني مقتنع به.
- الممثل : إني أرفضها.
- الممثّلة : (بصوت منخفض) على العين والراس ولكن...
- المخرج : عملي يبدأ بعد انتهاء عملك.
- الناقد : لا أدري هل يبكي المشاهد أو يضحك؟
- المؤلف : لم يكن أحد يجادلني فيما مضى.
- الممثل : كان العمل رائعًا.
- المؤلف : المؤلف الحقّ يطالب بالطاعة والإعجاب.
- الممثل : (متهكّيًا) الطاعة والإعجاب؟
- المؤلف : (منفعلًا بالغضب) وإلّا هدمت المسرح على من فيه.
- الممثل : إني أشهدكم على ما يقول.
- المؤلف : من حقّي أن أقول ما اعتقده.
- الممثل : تحت شرط ألاّ تمسّ كرامة الآخرين.
- المؤلف : لقد خلقت منكم نجومًا وكواكب ولن يعجزني أن أخلق غيركم.
- الممثل : الحقّ أننا نحن الذين خلقناك.
- المؤلف : لو تخلّيتُ عنك لتسوّلتُ حتى الموت.
- الممثل : لولاي لما نجحت لك رواية واحدة ولبثت مؤلّفًا ناشئًا
- (الممثل يتقدّم إلى الممثّلة فيأخذ بيدها متّجهاً في تحدّي إلى المؤلف)
- هل نسيت فضل هذه الفنانة؟. أو حسبت أنّ الجمهور يتدقّق علينا من أجلك؟
- المخرج : (للمؤلف بمنعصًا) وأنا يا أستاذ؟. هل نسيت عروضي الرائعة؟
- الناقد : (للمؤلف أيضًا) ساعك الله، وقلمي الذي كرّسته للإشادة بعبقرتكم؟، إنّ الناس لا تثني عليك إلّا بكلماتي...
- الممثل : (غاضبًا) نحن الذين خلقناك.
- المؤلف : سأعهد بعملي إلى آخرين، اغربوا عن وجهي.
- الناقد : لكلّ مسرح رجاله، ونحن رجال هذا المسرح.
- المؤلف : إذن لن تقدّم به مسرحيات بعد اليوم.
- المخرج : سيغلقه الظلام ويدركه العدم.
- المؤلف : لن أتضوّر جوعًا، إني رجل لم تغره الحياة الدنيا مثلكم، ولكنكم ستسوّلون في مجرى عامّ.
- الممثل : ولكن لن نخلق، وهو العن من التسوّل.
- المؤلف : حسن، فليمض كلّ إلى سبيله.
- (صمت)
- الناقد : لقد حلّت اللعنة بمسرحنا.
- الممثّلة : قلبي يتمزّق.
- المؤلف : أنتم المسؤولون عن ذلك.
- الممثل : أنت وحدك المسؤول.

- المخرج : مسرح عريق في القدم والنجاح.  
 الممثلة : يش من اللحاق به الأعداء.  
 المؤلف : وبطرت نعمته أصحابه.  
 الناقد : لا أصدق، لن يهون أمره على أحد منا (ثم موجّها الخطاب للمؤلف) وأنت على وجه الخصوص، ليست أول مرّة يعصف بك الغضب...  
 المؤلف : (مشيراً إلى الممثل) جاوز حدود اللياقة باستهانة لا تُغتفر.  
 الناقد : ما تزال قابلة للغفران.  
 المخرج : لن يدرك مسرحنا العدم ولو اضطررنا إلى إعادة تقديم الروايات القديمة.  
 المؤلف : هذا هو الإفلاس، ولن يخفى على أحد.  
 الناقد : لنكن إيجابيين في حوارنا، أصغوا إليّ، يمكن استخلاص عنصر صراع بطوليّ من مجرى الرواية.  
 الممثلة : (بلهفة) كيف؟  
 الناقد : الرواية ما زالت مشروّعا، وقد قال الأستاذ إنّ الرجل والمرأة سيلوذان بكهف، أليس كذلك؟  
 الممثلة : بلى.  
 الناقد : إنّه كهف كبير، لاذ به كثيرون..  
 (ينظرون إلى المؤلف مستطلمين فلا يعترض)  
 لدينا كهف وسط غابة مليئة بالوحوش والاضطراب المجهولة، وهو في الوقت نفسه مكتنّظ بالناس، ثمّة فرصة لقيام صراع ما بين بطلنا وبين أحد أو أكثر من الآخرين...  
 الممثل : صراع سخيف؟ غير بطوليّ، إذا كانت الاضطراب محدد بالكهف من كلّ جانب، فكيف يجوز أن يقوم صراع بينهم؟  
 الممثلة : وكيف يطيب الحبّ في مثل ذلك الجوّ؟  
 الناقد : قد يكون صراعاً غير منطقيّ ولكنّه ممكن إذا قيس بمقاييس الطبيعة البشريّة، وبخاصّة إذا توقّرت أسبابه...  
 الممثلة : أسبابه؟  
 الناقد : المرأة، عدم وفرة الماء والغذاء..  
 الممثل : الصراع الحقّ هو ما قام بين البطل والوحوش، أو بينه وبين المجهول.  
 المؤلف : (ينظرون جميعاً إلى المؤلف مستطلمين)  
 المؤلف : (بفتور) ثمّة مجال لصراع في الداخل وآخر في الخارج.  
 الناقد : يسعدني أن نعود إلى المناقشة.  
 المؤلف : لم أفرغ من عملي بعد.  
 الناقد : المناقشة تفتح الأبواب.  
 المؤلف : ولكنها تفسح المجال للرغبات الشخصيّة التي لا تمتّ إلى الفنّ بصلة.  
 الممثل : رغباتي فنيّة وليست شخصيّة.  
 الممثلة : (في رقّة متناهية) النهاية مهمّة جداً.  
 المؤلف : المؤلف يكتب مسرحيات متتابعة، لكلّ مسرحيّة شخصيّة المستقلّة، ولكنها في مجموعها مسرحيّة كبرى ذات نهايات متكاملة.  
 الممثل : ما يهّمنا الآن هي مسرحيّة الانفتاح.  
 المؤلف : لم أفرغ من عملي بعد.  
 الممثلة : ليكون صراع من أيّ نوع كان ولكن يجب أن ينتهي بانتصار الحبّ.  
 المخرج : كيف يمكن استخلاص إيقاع غراميّ من ضجيج الغابة الموحشة؟  
 الممثلة : (بحدّة) إذن الأفضل ألا يكون للمرأة دورا  
 الممثل : ما أجل أن ينتهي الصراع في الداخل إلى القضاء على أسبابه، ومن ثمّ يتجهون جميعاً نحو الخارج...  
 الناقد : وماذا يقع في الخارج؟  
 الممثل : صراع جديد فنصر جديد.  
 الممثلة : وحبّ طيلة الوقت!  
 الناقد : حلم جميل ولكنّ الجمهور لم يعد يستسلم للأحلام طويلاً...  
 المخرج : ثمّة مشروع مضادّ وهو أن يقضي الصراع على اللائذين بالكهف ثمّ تقتحمه الوحوش فتلتهم الأحياء والجثث.

- الناقد : كتيب أكثر مما تحتمله الأعصاب...  
 المخرج : لم يبق إلا أن يستمر الصراع بالداخل  
 والتهديد في الخارج!  
 الناقد : نهاية مفتوحة تدعو للبليلة...  
 الممثلة : (محتجة) تتكلمون عن الصراع ولا تذكرون  
 الحب بكلمة.  
 المخرج : أيًا كان الحال فسوف تتخلله لحظات حب  
 وغناء ورقص...  
 الناقد : ولكن هل يتفق ذلك مع مرارة الصراع؟  
 المخرج : هكذا تمضي الحياة، وبذلك تُرضي جميع  
 الأذواق.  
 (ينظرون إلى المؤلف مستطلعين)  
 المؤلف : لم أفرغ من عملي بعد.  
 الناقد : ما رأيك في الاقتراحات التي عُرضت؟  
 المؤلف : لا رأي لي الآن.  
 الناقد : ولكننا استعرضنا كافة الاقتراحات المحتملة.  
 المؤلف : لا حصر للاحتيالات الممكنة.  
 الممثل : عدنا على الأقل بصراع بطولي من أي نوع  
 كان!  
 الممثلة : وبحب يستحق هذا الاسم!  
 المؤلف : لا أعد بشيء.  
 الممثل : ولكنك حرّ ووبسعك أن تعبد وأن نفي بما  
 تعد.  
 المؤلف : لا تتحدث عني بخير أو شر.  
 الناقد : حذار أن يعاودنا الخصام.  
 المخرج : نحن في حاجة إلى استراحة قصيرة، بنا إلى  
 البوفيه لتتناول بعض المرطبات.  
 (ويذهب الناقد والمخرج والممثل. الممثلة  
 تقف ولكنها لا تبرح مكانها. المؤلف يغادر  
 موقفه عند المكتب ليتمشي ذهابًا وجيئة. ثم  
 يعود إلى موقفه مستندًا إلى مكتبه، والممثلة  
 تتابعه بعينها طوال الوقت)  
 المؤلف : (كأنما يسأل نفسه) هل حقًا حلت اللعنة  
 بمسرحنا؟  
 الممثلة : لن نحل بنا إلا إذا قررت أنت ذلك.  
 المؤلف : ولكنه بمعنى ما مسرحي، إنه جزء من نفسي
- لا يتجزأ.  
 الممثلة : ونحن عناصره التي لا تقوم إلا بها.  
 المؤلف : عمل واحد وهدف واحد.  
 الممثلة : بالحق نطقت.  
 المؤلف : فيم الخلاف إذن؟  
 الممثلة : لا خلاف حقيقي ولكنّه الخوف، لقد  
 أفسدت المنافسة المريرة أعصابنا.  
 المؤلف : بالتالي ضقت بهم ذرعًا.  
 الممثلة : ليتسع لهم صدرك.  
 (صمت)  
 : هل يضايقك وجودي؟  
 المؤلف : بل يسعدني.  
 الممثلة : (في شيء من التردد) أودّ أن أدخل إليك  
 بعض الوقت.  
 المؤلف : بكل سرور، فرصة طيبة.  
 الممثلة : لا قيمة لأكليشهات المجاملة لمن يتطلع  
 للعاطفة الحقيقية!  
 (ينظر إليها في تساؤل ودهشة)  
 : لم الآن؟، لم أختار هذه اللحظة لأضي إليك  
 بأسرار قديمة؟، ربما لأنني شعرت لأول مرة  
 بأنك تهّدنا حقًا بالفراق الأبدي...  
 المؤلف : اعترف بأنني ضقت بالعناء والمكابرة.  
 الممثلة : عدني بالأ تقرر الفراق مهما يكن من عندهم  
 ومكابرتهم.  
 المؤلف : كيف يمكن أن أعد بذلك؟  
 الممثلة : عدني بلا قيد أو شرط؟  
 المؤلف : بلا قيد أو شرط؟  
 الممثلة : بلا قيد أو شرط.  
 المؤلف : إنّي أشكر لك عواطفك ولكنه طلب غير  
 عادل.  
 الممثلة : لأنه مسرحك، لأنه مسرحنا، لأننا أسرتك،  
 ولأنني...  
 المؤلف : ولأنك؟  
 الممثلة : ولأنني... ولأنني لولاك ما عرفت  
 طريقتي إلى المسرح.  
 المؤلف : حقًا؟

## تحت المظلة ٨٥

- المثّلة : نعم .  
 المؤلف : لم تحدّثني عن ذلك من قبل .  
 المثّلة : لم أهدئك عن نفسي قطّ .  
 (صمت يتبادلان نظرات صامتة)  
 : ألا تذكر أيّام زمان؟  
 المؤلف : بلى ، حينما كنت طفلة . .  
 المثّلة : حينما كنت فتاة صغيرة لا طفلة . .  
 المؤلف : كنت أملك في الطريق أحياناً .  
 المثّلة : أكنت تراني حقاً؟  
 المؤلف : من حيّ واحد كنتا ، إنّي أذكر تلك الأيام .  
 المثّلة : اعتقدت أنّك لم ترني قطّ .  
 المؤلف : في الشرفة رأيتك وأمام باب البيت .  
 المثّلة : وقلت لنفسني إنّما أنّه إله أو أنّه صخر .  
 المؤلف : صخر؟؟  
 المثّلة : ذلك أنّك لم تعرف سهر الليالي ولا الوسائد  
 المبلّلة بالدموع .  
 (يتبادلان نظرة طويلة ، هي تلقيها إليه  
 بثبات ، وهو بدهشة)  
 : وصمّمت على أن أكبر نفسي لعليّ ألفت  
 نظرك . انتعلت حذاء بكعب عالٍ ، غيرت  
 التسمية ، ضيّقت أعلى الفستان لأبرز  
 صدري ، ولكنك لم ترني . . .  
 المؤلف : (بأسف) آسف جداً ، كنت صغيرة وكنت  
 كبيراً .  
 المثّلة : المسألة أنّك لم تحبّي . . .  
 (صمت)  
 : ولحبك أحببت المسرح ، أحببت مسرحك ،  
 غيرت مجرى حياتي رغم معارضة أهلي  
 الشديدة . . .  
 المؤلف : إنّي أغبط نفسي على الخدمة التي قدّمتها  
 للمسرح دون تخطيط .  
 المثّلة : ومضى حبيّ ينمو بلا حدود ، ولما تحرّجت في  
 المعهد أتصلت بك تليفونياً ، طالبة ناشئة  
 تعرض نفسها على المؤلف الكبير . . .  
 المؤلف : متى كان ذلك؟ ، إنّي لا أذكره . . .  
 المثّلة : طبعاً فهو حديث يتكرّر يوميّاً عشرات
- المثّلة : لا تتذكّر شيئاً؟  
 المؤلف : الحقّ . . .  
 المثّلة : (مقاطعة) الحقّ أنّك تتلقّى مئات الرسائل  
 مثلها  
 المؤلف : لم تكن لي ثقة كبيرة في الرسائل .  
 المثّلة : ذهبت إلى المسكن الخلويّ .  
 (صمت)  
 : كثيراً ما يدفع الحبّ الخائب إلى المسكن  
 الخلويّ .  
 المؤلف : الحياة سلسلة من التجارب المتناقضة .  
 المثّلة : هكذا انضمت إلى مسرحك .

- المؤلف : مهما يكن من أمر فقد كسب بك نجمة لامعة .
- المؤلفة : وعندما قُدمت لك لأول مرة وضح لي أنك لا تتذكّري .
- المؤلف : ولكن سرعان ما تذكّرتك .
- المؤلفة : وثبت لديّ أنّ حبّك سراب مستحيل فلذت بصمت الكبرياء .
- (صمت)
- المؤلف : ولعني حبّك المستحيل من بيت خلويّ إلى بيت خلويّ .
- المؤلفة : لحقّ أنّك اشتهرت في الوسط بكثرة العشق
- المؤلفة : على حين أنّي لم أعرف من الحبّ إلاّ حبّك
- المؤلف : فتانة كبيرة وقلب كبير .
- المؤلفة : تصوّرني الرسوم الكاريكاتورية امرأة شهوانية بينا أنّي أعاف في أعماقي الشهوة والفساد .
- المؤلف : إنّني أصدّقك .
- المؤلفة : ولكنني اعتبر من خلال علاقاتي العابرة بالأخرين عن تشوّفي الخالد إليك .
- المؤلف : إنّني أحترم عاطفتك وأفهم سلوكك .
- المؤلفة : ولكنك لا تحبّني؟
- المؤلف : أحبّك بقدر ما يستطيع شخص في سنّي أن يحبّ امرأة في سنّك .
- المؤلفة : إنّك من الذين يتعدّد تقدير أعمارهم حتّى قيل عنك إنّك في سياحاتك الموسميّة حول العالم تمجّد شبابك وتنفق في ذلك عن سعة؟ (المؤلف يغرّق في الضحك وهي لا تحوّل عنه عينيه)
- المؤلف : هل تؤمنين بالأساطير؟
- المؤلفة : نعم .
- المؤلف : اعترف أنّ حبّك سيجدّد شبابي .
- المؤلفة : إنّك تتكلّم من بعيد، ولا ألومك فلا حقّ لي عليك، ولكن لمّ لم تتزوّج؟
- المؤلف : لم يكن الزواج من أهدافي أبداً .
- المؤلفة : عدوّ للمرأة؟
- المؤلف : لعليّ لم أتزوّج لشدة حبي للمرأة .
- المؤلفة : لا نخبرة لي بالمغالطات اللفظيّة .
- المؤلف : اعترف بأنني شيء غير مهضوم من وجهة نظر الطبيعة البشرية .
- المؤلفة : على كلّ حال ما مضى قد مضى، وما يهمني الآن هو ألاّ تفكّر في هجر مسرحنا .
- (صمت)
- المؤلف : طالما أنت على رأسه فإنّي أشعر بأنّي أعمل في بيتي وبأنّ حياتي رغم تمزّقها وضياعتها لم تفقد كلّ معنى لها، وبأنّي إذا كنت أخفقت في أن أكون خليلتك أو زوجك فإنّي على الأقلّ نجمة مسرحياتك .
- المؤلف : النجمة التي ساقطت إليّ الملايين .
- المؤلفة : ولا تنس أنّ الحبّ هو الدور الذي خلّدي .
- المؤلف : وشارك في تخليد أعماله .
- المؤلفة : وإنّي أشعر وأنا أقوم به بأنني أمارس حبّك الكبير الذي استحال عليّ خارج المسرح .
- المؤلف : إنّني مدين لك بالكثير .
- المؤلفة : عدني إذن ألاّ تهجرنا مهما يكن من أمر .
- (صمت)
- المؤلف : ألا تريد أن تعدني؟
- المؤلف : بدا التفاهم اليوم مستحيلاً .
- المؤلفة : إنّهم يحبّونك أيضاً. صدّقني إنّهم يحبّونك أيضاً، المسألة أنّهم خائفون، المنافسة مرّة ومزلة للأعصاب، وهم من طول ما مارسوا البغضاء في نزاعهم مع المسارح المحيطة بنا انطبعت البغضاء في أسرارهم وسلوكهم ونوازعهم، كأنما قد فقدوا القدرة على الحبّ، ألفوا التحديّ والوقاحة والتهوّر، تصوّروا في غضبهم أنّه يمكن أن يوجد هذا المسرح بدونك، محض خيال مريض، تخيّلوه بأخيلة هزيلة مريضة، ولو ضننت عليهم بوجودك لتقوّضت الجدران فوق رؤوسهم، وتلاشت فرص الندم .
- المؤلف : لا أوافق على أن أكرّر نفسي بحال .
- المؤلفة : سيدي.. هل حقاً لم يبق للفنّ إلاّ غابة وكهف ورجل وامرأة يموتان في حومة هليان؟

## نحت المظلة ٨٧

- المؤلف : إنني أعرف ما أصنع .  
 الممثلة : ولكننا لم نعرفه بعد .  
 المؤلف : علينا أن نواجه الحقائق، هذه مواجهة وليست هروباً .  
 الممثلة : هني قَدْراً من الحب ليستقيم دوري، ووفر له نصيباً من البطولة !  
 المؤلف : ممثّل متعجرف!.. أهو آخر عشاقك؟  
 الممثلة : نعم .  
 المؤلف : أيعاملك ببطولة؟  
 الممثلة : (ضاحكة في امتعاض) معاملته لي تتم وراء جدران لا أمام الجمهور .  
 المؤلف : إنه برحمتي نساء كما هو معروف .  
 الممثلة : ربّما .  
 المؤلف : لماذا ارتضيته عاشقاً؟  
 الممثلة : ليس أسوأ من غيره .  
 المؤلف : إنه لا يمارس البطولة إلا فوق خشبة المسرح .  
 الممثلة : والحب الحقيقي أين يمارس إلا فوق خشبة مسرحك؟  
 المؤلف : إنهم يكرهون مشروعك الجديد لأنه يعكس بصدق خبايا نفوسهم .  
 الممثلة : كنت رقيقاً بهم في الزمان الأول .  
 المؤلف : كانت دنيا أخرى، وكانوا ناشئين مبتدئين .  
 الممثلة : أولهم بعض الاحترام الذي نعموا به قديماً .  
 المؤلف : اعترف لك بأنني أعاملهم دائماً باحترام .  
 الممثلة : حقاً؟  
 المؤلف : وروايتي الجديدة أكبر دليل على ذلك !  
 الممثلة : لا أفهمك يا حبيبي .  
 المؤلف : عليك أن تفهميني يا حبيبي .  
 الممثلة : ما أحلى هذا الحديث، نتحدّث كما لو كنا حبيبين حقاً .  
 المؤلف : نحن كذلك .  
 الممثلة : حقاً؟  
 المؤلف : كلّ بطريقته .  
 الممثلة : ليس للحبّ إلا طريقة واحدة .  
 المؤلف : بل له طرق كثيرة .
- الممثلة : وما طريقتك في الحب؟  
 المؤلف : العمل .  
 (تقترب منه خطوة، تمنع فيه النظر)  
 الممثلة : ألم تحبّ بطريقي البسيطة؟  
 المؤلف : ربّما، ولكن بعيداً عن الوسط الفنيّ .  
 الممثلة : (متنهدة) تصوّر أنّي لم أدخل الوسط الفنيّ إلا سعياً وراء حبّك .  
 (صمت)  
 المؤلف : والآن هل تعدني؟  
 المؤلف : أرجو أن تسير الأمور سيراً حسناً .  
 الممثلة : شكراً .  
 المؤلف : عفواً .  
 الممثلة : (بعد تردّد) أودّ أن أقبلك ولو قبلة واحدة .  
 (الممثلة تقترب منه . يتعانقان متبادلين قبلة طويلة . في ذات اللحظة يدخل الممثل وفي أعقابها المخرج والناقد . المؤلف والممثلة يفترقان في كثير من الارتباك . الممثل يذهل لحظة . ثمّ يحاول الهجوم على المؤلف ولكنّ المخرج والناقد يجولان دون ذلك) .  
 الممثل : (صائحاً) داعرة محترفة وعجوز منحلّ . . . ساحطّم رأسك . . .  
 الممثلة : اخرس . . . لا تتكلّم بغير فهم .  
 الناقد : ما رأيانه لا يجوز أن نسيء فهمه، ما هو إلا عناق أبويّ !  
 الممثل : أبويّ! . . . أنت لا تعرف شيئاً عن تدهور الشيوخ !  
 المؤلف : تأدّب . . .  
 الممثل : ساحطّم رأسك، لن تغلت من قبضتي . . .  
 الممثلة : اخرس، قلت لك ألا تتكلّم بغير فهم .  
 الممثل : إنّي خير من يفهمك يا خنزيرة !  
 الممثلة : ما أنت إلا حيوان غميّ .  
 الممثل : لا زلت بغياً تنتقلين من فراش إلى فراش .  
 الممثلة : تأدّب وألا أسكتك بالحداء .  
 الممثل : ولكنتك تنتقلين هذه المرّة إلى نعش . . .  
 الممثلة : (للاخرين) أسكتوا هذا الحيوان الأعمى .  
 الناقد : (ضارباً جيئه بيده) لقد حلّت بمسرحنا

- اللجنة.  
 الممثلة : (بصوت مرتفع) لن تحل بمسرحنا اللعنة.  
 المخرج : سوء فهم واضح، واضح البراءة.  
 الناقد : (مخاطبًا المؤلف) بوسعك أن تحسم سوء الظن بكلمة.  
 المؤلف يلزم الصمت في كبرياء)  
 المخرج : (للممثلة) لديك بلا شك ما تدافعين به عن نفسك.  
 الممثلة : إني أرفض أن أقف موقف الاتهام.  
 الممثل : لقد رأيناها متلبسين!  
 المخرج : يجب أن نخجل من نفسك.  
 الناقد : حتى إن سوء الظن أمر نخجل.  
 المخرج : (للمؤلف) تكلم يا أستاذ (ثم للممثلة) تكلمي أنت، علينا أن ننتهي من سوء التفاهم ونصفيه بسرعة لنستأنف مناقشة المشروع الجديد.  
 الممثل : (للمخرج) يا للغرابة، إنك تتكلم عن أعمق العلاقات البشرية كما لو كانت عبث أطفال...  
 المخرج : (للممثل) لقد وجدتني ذات يوم في مثل موقفك، وكنت حيال خيانة حقيقية لا مجرد سوء تفاهم بريء، وكان غريمي وقتذاك صديقنا الناقد، كيف تصرفت؟، كظمت غضبي وواصلت تدريباتي للمسرحية الجديدة.  
 الممثل : أنت جبان.  
 المخرج : أنت حيوان.  
 (الممثل يوجه لكمة لرأس المخرج. المخرج يترنح واضعًا يده على موضع الضربة. يمضي إلى الكنبه ويرتمي عليها. يسند رأسه إلى مسندها ويمد ساقيه في إعياء.  
 الممثلة تثور وتلطم الممثل على خده فيعميه الغضب ويوجه لطمه إلى رأسها فتقع إلى جانب المخرج. الناقد يسرع إلى إجلاسها، ويهجم على الممثل. يتبادلان الضرب حتى يسقطا متتابعين. يقومان مترنحين ويلوذ كل
- منها بمقعد حول الكنبه.  
 الأربعة جالسون متقاربين وفي حالة إعياء شديد تقارب الإغماء. وطيلة الوقت لزم المؤلف موقفه وهو يراقب ما يحدث ببرود (صمت)  
 يُفتح الباب فيدخل السكرتير، يتجه نحو المؤلف دون أن يتبته إلى الآخرين)  
 السكرتير: مندوب مجلة إيزيس.  
 (يدخل مندوب المجلة. السكرتير يغادر الحجرة.  
 المندوب يمضي إلى المؤلف فيصافحه. يتحول إلى الجالسين ولكنه يتوقف في ذهول. يردد بصره بينهم وبين المؤلف. يتراجع إلى قريب من المؤلف)  
 المندوب : آسف على مجيئي دون موعد سابق.  
 المؤلف : إننا مفاجأة ولكننا سارة.  
 المندوب : (مشيرًا إلى الجالسين) ماذا حصل لهم؟  
 المؤلف : فرغوا لتوهم من تدريبات الرواية الجديدة.  
 المندوب : حقًا... مجرد تدريبات؟  
 المؤلف : مجرد تدريبات.  
 المندوب : إننا رواية عنيفة فيما أرى؟  
 المؤلف : لا تخلو من عنف.  
 المندوب : إني أرى آثار كدمات : والمس إعياء واضحًا على وجوههم، كأنما هي رواية من روايات رعاة البقرا  
 المؤلف : لا تخلو من حيوانات.  
 المندوب : حتى فنانتنا الكبيرة تطرح رأسها في شبه إغماء، إنه لأمر غير معقول.  
 المؤلف : لا تخلو من جنون.  
 المندوب : إن عرض مسرحية بذاك العنف شهورًا متواصلة يجب أن يعدّ معجزات!  
 المؤلف : وهي لا تخلو من معجزة!  
 المندوب : (مشيرًا إلى الممثلة) هل أصيبت وهي تدافع عن شرفها؟  
 المؤلف : أصيبت وهي تدافع عن شرف البطل.  
 المندوب : ولكن المعتاد أن البطل يلدود عن شرف

## تحت المظلة ٨٩

المندوب : أعلم أنك لا تحبّ الحديث عن رواية جديدة قبل عرضها ولكن لديّ بعض أسئلة تقليديّة يتابعها الجمهور عادة بشغف.  
(المؤلف يهزّ رأسه بالموافقة صامتاً)  
المندوب : كم من الوقت استغرقت في كتابتها؟  
المؤلف : (حاسراً كمّ الجاكطة عن معصمه اليسرى) أنا لا أستعمل الساعات.  
المندوب : ممّ استلهمت فكرتها العامّة؟  
المؤلف : شرعت في كتابتها عقب تفكير طويل في المغص.  
المندوب : (ضاحكاً) هل يمكن إرجاعها إلى تجربة شخصية مرّت بك في حياتك العامرة؟  
المؤلف : ربّما أمكن إرجاعها إلى علاقة قديمة قد قامت بيني وبين مطرب أخرس.  
المندوب : مطرب أخرس؟  
المؤلف : نعم.  
المندوب : وكيف أمكنك معرفة تطريبيه؟  
المؤلف : هذا ما ستجيب عنه المسرحيّة.  
(المندوب يضحك عاليًا. يصفح المؤلف.)  
يذهب. المؤلف يلقي نظرة على الجالسين.  
يسوّي ربطة عنقه ومنديل جيب الصدر تأهبًا للذهاب.  
الممثّلة تنظر نحوه. تقاوم ضعفها فتعتدل في جلستها)  
الممثّلة : انتظر.  
(تدلكّ رأسها. تقوم بصعوبة. تمضي إلى أقرب المقعدين المتقابلين أمام المكتب لتعتمد عليه)  
المندوب : متى نجتمع لنقرأ النصّ الجديد؟  
(صمت)  
المندوب : لا تهجرنا.  
(صمت)  
المندوب : لقد وعدت بالألا تهجرنا.  
(صمت)  
المندوب : (مشيرة إلى الجالسين) ما وقع بيننا ليس الأول من نوعه ولن يكون الأخير.

الآخرين بالإضافة إلى شرفه هو؟  
المؤلف : هي لا تخلو من طرافة وجدة!  
المندوب : لعلّ المسرحيّة تميل إلى التشاؤم؟  
المؤلف : لا تخلو من تشاؤم.  
المندوب : ولكنّ موقف البطلة يدعو للتساؤل فيما أعتقد؟  
المؤلف : لا يخلو من تفاؤل.  
المندوب : كيف تجمع مسرحيّة بين التشاؤم والتفاؤل وهما نقيضان؟  
المؤلف : لا تخلو من تناقض.  
المندوب : معذرة يا عميد المؤلفين ألا يعتبر ذلك ضعفًا؟  
المؤلف : لا تخلو من ضعف.  
المندوب : ولمّ لم تبلغ بها الكيال المعهود منك؟  
المؤلف : الكيال للموت وحده.  
(المندوب يضحك عاليًا. ثمّ يعقب ذلك صمت)  
المندوب : جميع المسارح تتساءل عن عرضكم القادم، وقد بلغت المنافسة بينها ذروة المرارة، المؤامرات تدبّر في الظلام، المرتزقة يُستأجرون لإحداث الشغب، ألا يمكن أن يسود السلام بين المسارح؟  
(صمت)  
المندوب : كثيرون من العقلاء يعقدون عليك الآمال بوصفك عميد المؤلفين لتقوم بخطوة حاسمة في هذا السبيل؟  
المؤلف : لا وقت عندي إلا للعمل.  
المندوب : هلا كرّست لذلك يوم راحتك الأسبوعيّة؟  
المؤلف : يوم الراحة للراحة.  
المندوب : إنهم يظنّون بأنّ تجمع المسارح في وحدة متعاونة يسودها السلام الذي يسود مسرحك!!  
المؤلف : لن أجد في سنيّ هذه من يمكنه التفاهم معي...  
(المندوب يتسّم وهو يشدّ على ذراع المؤلف إعجابًا وتقديرًا)





## المهمة

- بقعة صحراوية خالية. تقوم في وسطها هضبة صخرية. أمام الهضبة يتمشى شاب جيئة وذهاباً وهو ينظر في ساعته من آن لأن. الوقت أصيل. الشاب أنيق بدرجة ملحوظة، والجو يوحي بأنه ينتظر موعداً غرامياً.
- يترامى من الخارج وقع أقدام ثقيلة. الشاب يرهف السمع في قلق، وباقتراب الأقدام يتجهّم وجهه ويتوقّف عن المشي فيلزم مكانه أمام الهضبة. يدخل رجل في الخمسين، مهمل الهمد، ولكنه قويّ البنية يلقي على الشاب نظرة عابرة ثم يمضي إلى يسار الهضبة فيقف متطلّعاً إلى الخلاء.
- الشابّ ينظر صوب الرجل مقطباً ولكنّ الآخر يبدو وكأنّه لا يشعر له بوجود. يقترب منه خطوة.
- الشابّ : (مخاطباً الرجل بصوت مرتفع لا يخلو من تحدّ و غضب) ماذا تريد؟
- الرجل : (يظنّ الرجل رائياً إلى الخلاء كأنّما يسمع صوتاً)
- الشابّ : (بصوت أشدّ ارتفاعاً) إني أسألك عمّا تريد.
- الرجل يبدو مستغرقاً في الأفق، وترنّم مغنّياً)
- والله زمان زمان والله . . .
- الشابّ : (بحدّة جانقة) لماذا تتبعني؟
- الرجل يواصل ترنّمه في هيان)
- الشابّ : (إني أحاطبك وأنت تعلم ذلك، لا أحد سوانا في هذا الخلاء.
- الرجل : (ملتفتاً في دهشة) حضرتك تخاطبني؟
- الشابّ : دون سواك.
- الرجل : معذرة، ماذا قلت؟
- الشابّ : إني أسألك عمّا تريد مني.
- الرجل : (متظاهراً بالدهشة) أنا؟
- الشابّ : أنت، أنت دون سواك.
- الرجل : عجيب سؤالك يا سيدي، أنا لا أريد منك أيّ شيء.
- الشابّ : لم إذن تتبعني بإصرار؟
- الرجل : أتبعك، إني أراك لأول مرّة في حياتي!
- الشابّ : (بعناد) إنك تتبعني منذ الصباح الباكر، ولم تكفّ عن تتبّعي حتّى هذه اللحظة من الأصيل.
- الرجل : أنت مخطئ في ظنك فأنا لم أرك وبالنسبة لم أتبعك.
- الشابّ : لم أذهب إلى مكان إلا رأيتك قادماً في أثري.
- الرجل : لا يحقّ لي أن أكذبك ولكني لم أرك ولم أتبعك.
- الشابّ : (بنبرة لا تخلو من عنف) أهي مجرد مصادفة؟
- الرجل : سمّها كيفما شئت.
- (صمت. يعود الرجل إلى النظر صوب الأفق أمّا الشابّ فلا يبرح مكانه ولا يكفّ عن النظر إليه).
- الشابّ : هل تفضّل بإخباري عن الجهة التي تنوي الذهاب إليها بعد هذه الوقفة؟

- الرجل : (ملتفتًا نحوه في دهشة) بأيِّ حقِّ تسألني هذا السؤال الغريب!
- الشابّ : معذرة، أودُّ التخلّص من فكرة أتباعك لي.
- الرجل : أنا لا أعرفك، لم أتبعك، وفي هذا الكفاية.
- الشابّ : ألم توجد في ميدان القلعة صباحًا؟
- الرجل : بلى.
- الشابّ : ألم تتناول فطورك في مطعم... فلافل... بشارع محمد عليّ؟
- الرجل : بلى.
- الشابّ : ألم تذهب بعد ذلك إلى مقهى الشمس؟
- الرجل : بلى.
- الشابّ : ألم تقم بزيارة لدار الآثار؟
- الرجل : بلى.
- الشابّ : ألم تشهد مزادًا بصالّة المعروضات بالدقّ؟
- الرجل : بلى.
- الشابّ : ألم تذهب بعد ذلك إلى عيادة الدكتور عرنوسي طبيب الأسنان؟
- الرجل : بلى.
- الشابّ : ألم... .
- الرجل : (مقاطعًا) أكنت تتبعني يا سيّدي؟
- الشابّ : (ضاحكًا ضحكة جافّة) أنا؟
- الرجل : أليس من الغريب أن تعرف تحرّكاتني طيلة اليوم بهذه الدقّة؟!
- الشابّ : ولكنّك كنت، لا مؤاخلة، كأنك كنت تتبعني!
- الرجل : لقد شغلت نفسك بي أكثر ممّا يتصوّر.
- الشابّ : في كلّ مكان رأيتك قادمًا في أثري، حتّى في هذه المنطقة النائية الخالية!
- الرجل : عجيب أنّي لم أرك ولا مرّة واحدة.
- الشابّ : الحقّ أنّ عينيّنا التقنا أكثر من مرّة.
- الرجل : لا يرى الإنسان جميع ما تقع عليه عيناه من أشياء.
- الشابّ : إذن فأنت لا تتبعني؟
- الرجل : ولم أتبعك؟
- الشابّ : لعنك تعلمرني.
- الرجل : لك العذر.
- الشابّ : مصادفة عجيبة.
- الرجل : هي بالقياس إليّ لا شيء.
- (الشابّ يضحك ضحكة عصبية ثمّ يسود الصمت. وعندما يهّم الشابّ بالابتعاد يتكلّم الرجل)
- الرجل : آسف جدًّا لآتي أزعجتك بغير قصد.
- الشابّ : أن تصدّق أنّ شخصًا ما يتبعك أمر مزعج حقًّا.
- الرجل : ليس في جميع الأحوال.
- الشابّ : أعني إذا كنت تجهله وتجهل مقصده بالتالي.
- الرجل : ولكنّك شابّ مهذب بريء الساحة.
- الشابّ : لا يكفي هذا للإسكات وساوسك ما دمت تجهله وتجهل مقصده.
- الرجل : (بأسمًا) أيّها أبعث على الخوف... المجهول أم المعروف؟
- الشابّ : الأمر يتوقّف على السبب وعلاقته بنا.
- الرجل : الحقّ أننا نخاف أكثر ممّا ينبغي.
- (الشابّ يصمت متجهّمًا)
- الرجل : أكزّر الأسف.
- الشابّ : (بعصبية) الحقّ أنّك أفسدت عليّ يومي كلّهُ.
- الرجل : عجيب أن ترتكب جريمة ونحن لا ندري.
- الشابّ : وجئت إلى هذه البقعة الخالية النائية لأكتشفك وأخرجك!
- الرجل : لعلّ مجيئي يقطع براءتي.
- الشابّ : ترى ما الذي دعاك إلى المجيء إلى هنا؟
- الرجل : إنّها أحد الأماكن المختارة التي أشهد فيها الغروب.
- الشابّ : أتحبّ الغروب؟
- الرجل : إنّه أحبّ ساعات اليوم إلى نفسي.
- الشابّ : ألم يزعجك أن تجلدي هنا؟
- الرجل : أنا أحبّ الناس.
- الشابّ : (بعد تردّد واضح) هلّا أخبرتني عن خطواتك التالية؟
- الرجل : أما زلت على ريب منّي؟
- الشابّ : كلّاً، ولكنّي أودّ أن أمتحن دهاء المصادفة.

## تحت المظلة ٩٣

- الرجل : الواقع آتٍ سرت طيلة اليوم على غير هدي  
وبلا خطة موضوعة، إنه يوم عطلتي.  
الشاب : لا بدّ من فكرة تفودك في يوم عطلتك.  
الرجل : من طول خضوعي للتخطيط على مدى  
الأسبوع فلأني أتحرّر يوم العطلة من أيّ قيد.  
الشاب : أمّا أنا فسأبقى هنا بعض الوقت ثمّ أذهب  
إلى حانة «الأحمر والأبيض».
- الرجل : (بحماس مفاجئ) حانة النييد الفاخر  
والسلطة الخضراء!... ما أجملها!  
الشاب : هل تقرّر الذهاب إليها؟  
الرجل : أعترف بأنك ذكّرتني بمكان أحبّ الجلوس  
فيه!  
الشاب : وبعد ذلك سأمضي إلى بيتي!  
الرجل : من يدري، ربّما توثّقت العلاقة بيننا في  
«الأحمر والأبيض» فتمضي إلى البيت معاً.  
(يضحكان معاً، ثمّ يسود الصمت. يلتفت  
الشاب إلى الناحية الأخرى فيعود الرجل إلى  
التطلّع صوب الأفق. الشاب يتمشّي غير  
خالدٍ من القلق. يجتلس إلى ظهر الرجل  
النظرات، ينظر إلى ساعته، يتضاعف قلقه.  
تدخل فتاة جميلة متأنّقة. ما إن ترى الشاب  
حقّى تهرع نحوه متهلّلة ولكتها تنبّه إلى وجود  
رجل غريب فتسالك مشاعرها وتلوح في  
وجهها خيبة. الشاب يمضي بها إلى يمين  
الهضبة. يتبادلان قبلة)
- الشاب : لسنا وحدنا.  
الفتاة : ماذا يفعل؟  
الشاب : ينتظر الغروب!  
الفتاة : الغروب؟!  
الشاب : (متهمكاً) أحبّ ساعات اليوم إليه.  
الفتاة : هل تعرفه؟  
الشاب : كلّاً.  
الفتاة : هل حادثته؟  
الشاب : نعم.  
الفتاة : لمّ؟  
الشاب : الواقع أنّه لم يفارقني منذ الصباح الباكر.
- الفتاة : (بدهشة) كيف؟  
الشاب : ظننته يتبعني.  
الفتاة : ما دام لم يفارقك طوال اليوم.  
الشاب : ولكنّه أكّد لي أنّه لم يرنّ.  
الفتاة : وهل صدّفته؟  
الشاب : لم أكذبه.  
الفتاة : ألا ترى أنّه يحسن بنا أن نذهب؟  
الشاب : إني ضنين باللقاء.  
الفتاة : ولكنّ قلبي غير مطمئنّ.  
الشاب : لعله ينتظر صديقه.  
الفتاة : ليتها تحميء لتحلّ المشكلة من أساسها.  
(يتبادلان قبلة طويلة)  
الفتاة : (مشيرة إلى الناحية الأخرى من الهضبة) لم  
يفارقك طوال اليوم؟  
الشاب : بلى.  
الفتاة : لنذهب.  
الشاب : لماذا يتبعني؟  
الفتاة : (بقلق واضح) ترى هل يتعلّق الأمر بي؟  
الشاب : هل سبق لك أن رأيتّه؟  
الفتاة : لا لم ألمح إلّا ظهره، وبسرعة عابرة، لم  
يذكّرني بأحد أعرفه.  
الشاب : لا داعي لكثرة الظنون.  
الفتاة : أرى أنّه يحسن بنا أن نذهب.  
الشاب : لنتنظر فلأني ضنين باللقاء.  
الفتاة : أعترف بأنني بتّ أكرهه بقدر ما أخافه.  
الشاب : كيف تخافينه وأنت لم تريّ إلّا ظهره!  
الفتاة : إنه ذو قصّة مريبة تدعو للانزعاج.  
الشاب : بوسعنا أن ننسأه تمامًا ونعبث بنواياه.  
الفتاة : نواياه؟!  
الشاب : أعني إن كان ثمة نوايا يضمّرها حقّ.  
الفتاة : ولكن كيف؟  
الشاب : (وهو يجذبها نحو صدره) هكذا.  
(يتعانقان وهما يتبادلان قبلة طويلة.  
يواصلان العناق والقبل كأنما قد نسيا الآخر  
تمامًا. في أثناء ذلك يجلس الآخر على  
الأرض كأنما أتعبته الوقفة، يمدّ ساقيه ويسند

- رأسه إلى حافة المضية. صوت غراب ينق. رأسه إلى حافة المضية. صوت غراب ينق.
- الشاب : (ناظرًا إلى الفتاة) كنت وحدك فيما أذكر!  
الشاب : ثم لحقت بي خطيبي!
- الرجل : (مبدئيًا دهشة سمجة) خطيبتك!  
الشاب : (بحدة) نعم خطيبي!
- الرجل : (بقحة) وكيف نجىء بخطيبتك إلى هذه البقعة النائية المهجورة؟  
الفتاة : (مشيرة إلى الناحية الأخرى) ترى هل ذهب؟
- الشاب : سيان عندي أن يذهب أو أن يبقى.  
الشاب : لا يند عنه صوت.  
الشاب : لعله مات.
- (صمت يتخلله تبادل قُبَل)  
: من الحماقة أن أخافه.  
الفتاة : ولكنتك تجهله.  
الشاب : هو على أي حال كهمل وبوسعي أن أصرعه بلكمة واحدة.  
الفتاة : ولكنتي وجدتك قلقًا لدى حضوري.  
الشاب : لم أكن أفقت من فكرة مطاردته لي.  
الفتاة : لعله...
- (وقبل أن تتم كلامها يترامى إليها شخير منتظم من ناحية الرجل. يتبادلان نظرة ذاهلة)  
: نام؟  
الشاب : لعله شخير رجل آخر.
- (الشاب يمضي في حذر شديد نحو الرجل. تتبعه الفتاة. يلقيان عليه نظرة داهشة. الرجل يستيقظ لدى وقوع نظرتيها عليه كأنما رُمي بطوبة. ينهض بسرعة ويحتمق فيهما بانزعاج ويحدّ معًا)  
الرجل : (متجهيًا) من أنتما؟... ماذا تبغيان؟  
الشاب : لا مواخلة لم نقصد إزعاجك.  
الرجل : (مستعيدًا تدكره وهدوءه) أه... أنت...  
(صمت وارتباك والرجل يردّد بصره بينهما)  
: (بأسيا) وقعت أحداث جديدة في أثناء غفوتي!  
الشاب : أي أحداث؟
- الرجل : (ناظرًا إلى الفتاة) كنت وحدك فيما أذكر!  
الشاب : ثم لحقت بي خطيبي!
- الرجل : (مبدئيًا دهشة سمجة) خطيبتك!  
الشاب : (بحدة) نعم خطيبي!
- الرجل : (بقحة) وكيف نجىء بخطيبتك إلى هذه البقعة النائية المهجورة؟  
الفتاة : (مشيرة إلى الناحية الأخرى) ترى هل ذهب؟
- الشاب : سيان عندي أن يذهب أو أن يبقى.  
الشاب : لا يند عنه صوت.  
الشاب : لعله مات.
- (صمت يتخلله تبادل قُبَل)  
: من الحماقة أن أخافه.  
الفتاة : ولكنتك تجهله.  
الشاب : هو على أي حال كهمل وبوسعي أن أصرعه بلكمة واحدة.  
الفتاة : ولكنتي وجدتك قلقًا لدى حضوري.  
الشاب : لم أكن أفقت من فكرة مطاردته لي.  
الفتاة : لعله...
- (وقد عدلت عن قراري.  
الرجل : يا للخسارة!  
الشاب : اذهب أنت إذا شئت...  
الرجل : لعلك ضحكت عليّ حين كنت تنتظر خطيبتك؟  
الشاب : لا داعي للأخذ والردّ.  
الرجل : إذن فلم تقصد هذا المكان لتخرجني كما قلت؟  
الشاب : لئنني حديثًا لا جدوى منه.  
الرجل : ولكنتنا وصلنا في الحديث إلى حافة الصداقة.  
الشاب : لندع ذلك إلى فرصة أخرى.  
الرجل : (راجعًا إلى مكانه الأول) أتمنى لكما وقتًا طيبًا.  
(الرجل يعود إلى موقفه الأول ليرنو من جديد إلى الأفق. يعود الشاب بالفتاة إلى موقفها إلى يمين المضية).  
الشاب : ها قد عدنا إلى الجنة.  
الفتاة : ليتنا لم نغادرها.  
الشاب : لعنة الله على الفضول.  
الفتاة : دعني أذهب...  
(يضمّهما إلى صدره ويقبلها فتستسلم دون

## تحت المظلة ٩٥

- الرجل : لا تغترّ بفوارق السنّ . (استجابة)  
 الفتاة : دعني أذهب . الشاب : ابتسمي .  
 الرجل : (للفتاة) محال أن تكذّري صنفوك بسببي . الفتاة : يا له من رجل كرهه .  
 الفتاة : إذن فابتعد عنّا . الشاب : لنلقِ به في النسيان .  
 الرجل : إنّها فرصة نادرة لمشاهدة الحبّ . (يتعانقان حتّى يغيبا عن الوجود . في أثناء ذلك يتسلّل الرجل من موقفه حتّى يقف قبالتها ويبدو سعيدًا بمشاهدتها . يتبهران إليه . ينفصلان في ارتباك وانزعاج . الشاب يرميه بنظرة غاضبة)  
 الشاب : أنت مجنون؟  
 الرجل : أنا رجل يحبّ مشاهدة الطرائف، جرّب ذلك بنفسك إذا شئت .  
 الشاب : ماذا تعني؟  
 الرجل : (حائياً رأسه بأدب) دعني أحلّ محلّك وتفضّل بمشاهدتنا أنت لتحكم بنفسك .  
 (الفتاة تلتطمه . الرجل يتلقّى اللطمة باسماً)  
 (صمت)  
 الفتاة : (هامسة للشابّ) دعني أذهب .  
 الشابّ : (بعناد وكبرياء) كلّاً .  
 الفتاة : بل يجب أن أذهب في الحال .  
 الشابّ : (بإصرار) لن تذهبي . . .  
 (الرجل يتعدّد خطوات، يتحمّس خدّه مكان اللطمة وهو ما يزال يتسم)  
 الرجل : (مخاطباً الخلاء) بنوايا طيبة أسير، ولكنّي أتلقّى السلطات، وكلمات أفسى من اللططات، لماذا؟، لماذا يصرّ الناس على الوهم والحياقة؟، لم لا يقفون على أرض الواقع؟، كيف لا يفرّقون بين العدو والصديق؟  
 الفتاة : (للشابّ) لا تكن عنيداً .  
 الشابّ : لن تذهبي . . .  
 الفتاة : لا فائدة . . .  
 الشابّ : ولكنك لن تذهبي .  
 الرجل : (مستمراً في مخاطبة الخلاء) المتعلّم والأمّي في الجهالة سواء، لم يسيئون النظر بي؟، ماذا عليهم لو استمروا في لهوهم أمام وجودي البريء؟، أحبّ مشاهدة الأفراح، ولا عدوّ لي إلا الحياقة والأنانية . . .  
 الفتاة : (للشابّ) إنّهُ مجنون .  
 الشابّ : ليكن .  
 الرجل : ما أجهل هذا!  
 الشابّ : وقاحة .  
 الرجل : استمراً في لعبكما الظريف .  
 الشابّ : (محتئداً) ماذا جاء بك؟  
 الرجل : بالله لا تغضب .  
 الشابّ : وقع .  
 الرجل : إنك لا تقدّر وقع كلمة قاسية على رجل يحبّ الناس .  
 الشابّ : ماذا جاء بك؟  
 الرجل : أحبّ أن أرى الأشياء الظريفة .  
 الشابّ : احذر أن تدفع ثمن قحتك .  
 الرجل : لقد تسلّلتنا لتلقيا عليّ نظرة وأنا نائم وها أنا أردّ التحية .  
 الفتاة : (وهي تهتمّ بالذهاب فيمسك الشابّ بها) إني ذاهبة .  
 الرجل : (للفتاة) لا تذهبي ، لم أقصد إزعاجك .  
 الشابّ : هذا سلوك غير لائق .  
 الرجل : بل هو طبيعيّ وجميل .  
 الشابّ : اذهب .  
 الرجل : ألا ترى أنّي أعرض مودتي بغير حساب؟  
 الشابّ : اذهب وآلاً . . .  
 الرجل : يجدر بك ألا تهتدي .  
 الشابّ : سأفعل أكثر من التهديد .  
 الرجل : كلّاً، لا تدفعنا إلى عواقب غير محمودة .  
 الشابّ : لك .  
 الرجل : ولك أيضاً .  
 الشابّ : لا تحملي على تأديبك وأنت في سنّ أب .

- الفتاة : إني خائفة .  
الشاب : لست عاجزاً عن حمايتك .  
الرجل : (مخاطباً الخلاء أيضاً) يخلقون المتاعب من لا شيء ثم يلقون بها في وجهي، أهيم على وجهي باحثاً عن أشياء ثمينة فلا ألقى إلا الصدأ، الخلاء يشهد بأنني ذو شأن ولكن اللعنة على الحماقة . . .
- الفتاة : إنه مجنون، لن أبقى دقيقة أخرى .  
(الفتاة تمضي نحو الخارج . الشاب يلحق بها فيمسك بيدها)  
: لا بدّ من ذهابي .  
الشاب : ولكن . . .  
الفتاة : لا تُكرهني على البقاء .  
الشاب : إذن فلأوصلك . . .  
الفتاة : (مانعة إياه بيدها) ابق هنا حتى لا يتبعنا .  
(يتصافحان . تغادر المكان . الشاب يتبعها عينيه . الرجل يقترب منه ولكنه يتجاهله)  
الرجل : أقدم لك اعتذارى بقلوب ملؤة الأسف .  
(الشاب يصرّ على تجاهله)  
: أيّ نحس يفسد عليّ مطالبي البريئة؟  
(الشاب يتمسّى والرجل يتبعه كظله)  
: أكرّر الأسف من كلّ قلبي .  
الشاب : (متوقفاً عن المشي في مواجهته) ألا تخجل من نفسك؟  
الرجل : انظر إلى جزاء من يسعى إلى حبّ الناس!  
الشاب : أتسخر مني؟  
الرجل : صدّقني فيما أقول، بيد أنّي رجل سيئ الحظّ .  
الشاب : لقد ضيّعت عليّ ثمرة يومي المرهق الطويل بلا حياة .  
الرجل : أنا؟  
الشاب : دون غيرك .  
الرجل : كلّمنا سمعت إلى إنسان بقلب مفتوح رُميت بهذه التهمة .  
الشاب : يخيّل إليّ أنّك ذو تاريخ قديم في النحس .  
الرجل : لا ذنب لي على الإطلاق .
- (الشاب يغادره إلى يسار الهضبة فيتبعه على الأثر)  
: أودّ أن تؤمن ببراءتي .  
الشاب : أمن الضروريّ أن تلاحقني لتحديثني عن نحسك؟  
الرجل : فرصة طيبة للحديث والتعارف .  
(الشاب يقطب ثم يسود صمت)  
: افتح لي صدرك .  
الشاب : أكنت تتبعني منذ الصباح كما ظننت؟  
الرجل : (باسماً) بصراحة نعم .  
الشاب : إذا كذبت عليّ؟  
الرجل : بسبب نحسي الزمن أصبح الكذب وسيلتي المفضّلة للدفاع عن النفس .  
الشاب : أكنت تعرفني؟  
الرجل : كلاً .  
الشاب : لمّ تبعني؟  
الرجل : إني أهيم على وجهي من مطلع الصبح فاتبع أول من يصادفني .  
الشاب : أيّا كان؟  
الرجل : أيّا كان .  
الشاب : كلّ يوم؟  
الرجل : كلّ يوم .  
الشاب : أليس لك عمل في الحياة؟  
الرجل : ليس لي عمل .  
الشاب : ثريّ؟  
الرجل : موفور الإيراد .  
الشاب : ما قصدك من مطاردتي؟  
الرجل : أتصيّد لحظة للتعارف .  
الشاب : أليس لك أصدقاء؟  
(صمت)  
الرجل : وآمل من وراء التعارف أن أحظّم أسطورة النحس!  
الشاب : (ضاحكاً ضحكة مكفهرة) الآن وقفت على سرّ الحظّ العاثر الذي لازمني طيلة يومي .  
الرجل : لا تكن كالآخرين .  
الشاب : في ميدان القلعة زلت قدمي فوقعت على

## تحت المظلة ٩٧

الرجل : أتوسّل إليك أن تبقى ولو حتى ساعة الغروب فحسب.

الشابّ : وداعًا.

(الشابّ يمضي صوب الخارج بعزم وصرامة.

الأخر ينظر إليه بأسف. عند منتصف المسافة

يتوقّف الشابّ فجأة ويعلو صوته بالتأوّه ثمّ

ينحني قابضًا بيديه على ركبته. الرجل يلحق

به متسائلًا)

الرجل : مالك؟

الشابّ : ركبتي!

الرجل : مدّ ساقك، ذلكها.

الشابّ : نار... نار موقدة...

(ينبّ راجعًا على قدمه الأخرى حتى يجلس

في أسفل الهضبة. يمدّ ساقه السليمة ويثني

الأخرى ثمّ يتأوّه من الأعماق).

الرجل : ماذا حدث؟... كنت في غاية الصحة...

الشابّ : الحقّ أنّها لم تعد إلى حالتها الطبيعيّة

أبدًا...

الرجل : لكنك لم تشكّ طيلة الوقت.

الشابّ : كان يعاودني ألم خفيف فظننته عابرًا.

الرجل : حالة طارئة لا تلبث أن تزول.

الشابّ : لعّل وعسى.

الرجل : من المفيد أن تدلّكها.

الشابّ : لا أستطيع لمسها...

الرجل : حال بسيطة فيما اعتقد.

الشابّ : (متأوّهًا) قلبي مجذّثني بأنّ الأمر أخطر ممّا

تتصوّر.

الرجل : لا تعتمد كثيرًا على حديث قلبك.

الشابّ : صدّقني فإنّ الحال خطيرة حقًا.

الرجل : أرجو أن تكون واهمًا...

الشابّ : أريد إسعافًا عاجلًا...

الرجل : سأذهب لاستدعاء الإسعاف.

الشابّ : وتعود بسرعة من فضلك!

الرجل : لا أظنّ فإنّ أقرب تليفون يقع على مسيرة

غير قصيرة.

الشابّ : (بقلق) لا تتركني وحدي طويلًا...

ركبتي.

الرجل : (باسمًا) كنت تنظر إلى امرأة في نافذة!

الشابّ : وفي المطعم شرقت حتى قدلت بما في

معدتي.

الرجل : كنت تأكل بسرعة كأنك في سباق!

الشابّ : وفي مقهى الشمس خسرت نقودي.

الرجل : كنت تبلف باستمرار حتى كشف ورقك.

الشابّ : وفي دار الآثار وقعت على ركبتي المصابة

للمرّة الثانية.

الرجل : كنت شاربه اللبّ وتحادث نفسك.

الشابّ : وأخيرًا أفسدت عليّ أجيل ثمرة في يومي.

الرجل : ألم توقظني من النوم بنفسك؟

(الشابّ يعاود ضحكته المكفهرة ثمّ يسود

الصمت)

الشابّ : أليس لك أصدقاء؟

الرجل : (متنهدًا) كلاً.

الشابّ : ألسنت ربّ أسرة؟

الرجل : جرّبت حظّي مرّات ولكّني لم أوفق!

الشابّ : (يضحك رغماً عنه) لا مؤاخذه.

الرجل : العفو.

الشابّ : أظنّ أنّ لي أن أذهب.

الرجل : (يتوسّل) كلاً.

الشابّ : ليس ثمة ما يدعوني إلى البقاء.

الرجل : فلنشهد الغروب معًا.

الشابّ : لا أحبّ الغروب.

الرجل : ثمّ نذهب إلى حانة «الأحمر والأبيض».

الشابّ : لن أذهب.

الرجل : إذا كنت مفلسًا فلا يهّمك.

الشابّ : لن أذهب.

الرجل : تكره مرافقتي؟

الشابّ : نعم.

الرجل : لا تجعل للخرافة سيطرة عليك.

الشابّ : (معتدًا) إنك وراء ما فقدت من صحّة ومال

وحبّ!

الرجل : أقلع عن الخرافات.

الشابّ : أقلع أنت عن نحسك.



## ٩٨ تحت المظلة

- الرجل : ماذا تخاف؟  
 الشاب : المساء قريب، وهذه بقعة غير مألوفة لإنسان عاجز.
- الرجل : وما الحل؟  
 الشاب : هل يمكن أن أسير معتمدًا عليك؟  
 الرجل : سأضطر إلى حملك وهو ما أعجز عنه، جزّب أن تسير على مهل.
- الشاب : الحال أخطر مما تتصوّر.  
 الرجل : لا بدّ من حلّ وبخاصّة أنني لن أبقى بعد الغروب!
- الشاب : ولكنك لن تتركني وحدي!  
 الرجل : أخشى أن أضطرّ إلى ذلك إذا لم تسعفني بحلّ.
- (صمت وتأوّه)  
 الشاب : ولكنك لن تفعل ذلك.  
 الرجل : لا يمكن أن أبقى هنا إلى ما شاء الله ولكني سأتلفن للإسعاف في طريق العودة.
- (الشاب يرمقه بنظرة صامتة متألمة)  
 : سأفعل من أجلك ما لا تنتظره من رجل لا تعرفه ولا يعرفك.
- الشاب : (بحياء) حدّثني عن رغبتك في الصداقة وأمامك فرصة لربطنا برباط المودة إلى الأبد.
- الرجل : (بشيء من الجفاء) ولكنك رفضت يدي!  
 الشاب : اغفر لي غضبي الأحمق!
- الرجل : الحقّ أنك كرهتني طوال الوقت.  
 الشاب : الإنسان عدوّ ما يجهله ولكني سأعرفك من خلال سلوكك النبيل.
- الرجل : (بنبرة لم يعد بها أثر من الرقة القديمة) لا أقبل اصطيداد صداقة تحت وطأة ظروف قاهرة.
- الشاب : (بضراعة) ولكنك إنسان كبير القلب.  
 الرجل : أوّل كلمة طيبة أسمعها منك.
- (صمت)  
 الشاب : ماذا تنوي أن تفعل؟  
 الرجل : سأشاهد المغيب ثمّ أذهب.
- الشاب : وتركني عاجزًا للخلاء والليل؟  
 الشاب : ليس لك خبرة بالإسعافات الأوّليّة؟
- الرجل : لا حيلة لي في ذلك.  
 الشاب : سيكون سلوكك غير إنسانيّ.
- الرجل : لم ألق من السير وراء الناس إلّا الصدّ والانتقام واللعنة!  
 (الشاب يتأوّه)  
 : أنا الذي خلقت النحاس حقًا؟  
 (الشاب يتأوّه)
- كيف تعاملون التريبيّ؟... إنّه يوارى جثثكم في التراب، يصون كرامتكم، يعرض نفسه لألوان شتّى من المخاطر، ويستحقّ في أحاديثكم التقليديّة الجنّة بغير حساب، ولكنّه لا يسعد في حياته بصديق واحد، ويمضي وحيدًا كالوباء... .
- الشاب : الوقت يمرّ والحال تزداد سوءًا.  
 الرجل : كم صددتني، كم أهنتني، ولم تصدّق أنني إنسان إلّا بعد إصابتك وقبيل الغروب.
- الشاب : يا لسوء حظّي!  
 الرجل : ها أنت تعود إلى اتهامي.  
 الشاب : لم أقصد هذا البتّة.
- الرجل : ألسنت النحاس الذي سلبك المال والحبّ والصحة؟  
 الشاب : سيّدي!  
 الرجل : أين فتاتك؟  
 الشاب : لا سبيل إليها الآن.
- الرجل : أليست هي أوّل بتمريضك منّي؟  
 الشاب : إنّها لا تعلم بما حلّ بي.  
 الرجل : زهدت لوجودي في وصالك نفسه.
- الشاب : (متأوّهًا) أريد إسعافًا.  
 الرجل : سأتلفن للإسعاف في طريق العودة.  
 الشاب : لا تتركني.
- الرجل : (متأفّفًا) إنك مزعج في مرضك كما كنت مزعجًا في صحتك.  
 الشاب : ألا ترى كم أنهكني المرض؟  
 الرجل : ألا ترى كم أنهكني السير؟  
 (صمت)  
 الشاب : أليس لك خبرة بالإسعافات الأوّليّة؟

## تحت المظلة ٩٩

تمرّ فترة قصيرة على تلك الحال ثمّ تترامى أضواء من وراء الهضبة. ويسمع وقع أقدام قادمة. من يمين الهضبة ومن يسارها يجيء رجلاًن حاملين مشعلين، يرتدي كلّ منهما سروالاً وصدراً أحمرين. يقفان على مبعدة من الشاب إلى اليمين وإلى اليسار ويلازمان الصمت طوال الوقت. يبدو الشاب على ضوء المشعلين مستغرقاً في النوم. ثمّ يتبعها رجلاًن في أردية سوداء يحمل كلّ منهما سوطاً وجبلاً معقوداً. يقفان عن يمين الشاب ويساره وهما يحملقان في وجهه. يوثقان يديه وقدميه بإحكام ثمّ يعودان إلى وقفتها معننين فيه النظر. الشاب يفتح عينيه. ينظر إلى الأمام في ذهول. يهيم بالحركة فيدرك أنّه مكبل بالخيال. ثمّ ينتبه إلى وجود الرجال الأربعة. يردّد عينيه بينهم في دهشة ووجل

الشابّ : من أنتم؟ وماذا تريدون؟

الرجل ١: (للرجل رقم ٢ في تهكم) إنّه لا يعرفنا  
الرجل ٢: (في تهكم أيضاً) طبعاً... إنّه يرانا لأول مرة.

الرجل ١: (للشابّ) أليس كذلك أيّها المخادع المارق!

الرجل ٢: أنت لا تعرفنا، هه؟

الشابّ : آسف، لم أكن أفقت من النوم بعد.  
(يركلانه بقدميهما فيصرخ)

: الرحمة...

الرجل ١: (ضاحكاً) ابن الأبالسة يطلب الرحمة!

الشابّ : لا تحكموا عليّ بالظواهر، أنا بريء...

الرجل ٢: نفس الكلمات، لا جديد، نفس الأكاذيب العفنة!

الشابّ : كنت دائماً حسن النية ولكنّ الزمن عنيد.

الرجل ١: الزمن، الزمن، ذلك المتهم الوهمي.

الشابّ : الرحمة.

الرجل ٢: الرحمة؟

الشابّ : العدل.

الرجل ١: لا يدري ماذا يطلب.

الرجل : لا خبرة لي بشيء.

الشابّ : ولكنك في سنّ الحكمة والخبرة.

الرجل : أعرف كيف أسير على غير هدى، وأعرف

كيف أسير في أعقاب إنسان أحمق، وأعرف

كيف أمل دواماً في علاقة لا تتحقّق أبداً.

الشابّ : (بضراعة متأوهة) لا تذهب.

الرجل : سأذهب عندما يجب الذهاب.

الشابّ : لا تذهب.

الرجل : اعتدت أن يقال لي اذهب عندما أرغب في

البقاء وأن يقال لي لا تذهب عندما يجب

الذهاب.

(الشابّ يتأوه. جوّ المغيب يهبط فيخطي

الخيلاء. الرجل يمضي إلى يسار الهضبة

ليتطلّع إلى الشمس الغاربة)

الشابّ : لا تبعد عن إنسان يتألم لتشاهد شمساً

تغرب.

الرجل : صه، لا تكذّر صفو الساعة، الساعة

الفريدة، الوحيدة التي تلمس فيها حركة

الشمس، السعيدة التي تنظر فيها إلى

الشمس دون أن تُصاب بالعمى، الوحيدة

التي يُرى فيها الظلام وهو يزحف، الوحيدة

التي أسمع فيها التوسّلات بدلاً من

اللعنات، ها هي الشمس تختفي تماماً...

(الرجل يتحوّل عن موقفه متّجهاً نحو

الشابّ ويرنو إليه دقيقة).

الرجل : الوداع.

(ثمّ يسير على مهل نحو الخارج)

الشابّ : لا تذهب.

(يواصل السير غير ملتفت إليه)

: أستحلفك بالله.

(يواصل سيره)

: انتظر... انتظر...

(الرجل يحنّفي)

: عليك اللعنة.

(الشابّ ينظر فيما حوله بخوف. الظلام

يهبط رويداً رويداً حتّى يحنّفي كلّ شيء...)

الرجل ١: تريد أن تستغلنا باسم البشرية، هه؟،  
ولأنك تتكوّن من نفس العناصر التي يتكوّن  
منها الكون فسوف تحاول استغلال الكون  
كلّه، ماذا تريد أيضًا؟  
الشابّ: إني متألّم فكّوا قيودي.

الرجل ٢: تريد الحرّيّة؟  
الرجل ١: إن كنت تريد الحرّيّة فاختر بنفسك الوسيلة  
التي نقتلك بها.

الشابّ: لا تسخروا مِنّي، لا تعارض يا سادة بين  
الحرّيّة والعدل والرحمة

الرجل ١: كذبت، كلّ واحدة منها تُستورد من بلد غير  
البلد التي تُستورد منه الأخرى.

الرجل ٢: ويؤدّي ثمنها الباهظ بالعملة الصعبة.  
الشابّ: إني متألّم لحدّ العجز.

الرجل ١: الحرّيّة أم العدل أم الرحمة؟

الرجل ٢: نريد جوابًا صريحًا غير متردّد.

الرجل ١: جواب صريح لا رجعة فيه.

الرجل ٢: إن أردت الرحمة قتلناك بلا تحقيق، وإن  
أردت العدل قتلناك بعد تحقيق، وإن أردت  
الحرّيّة فاقتل نفسك بالوسيلة التي تفضّلها!

الرجل ١: ماذا تريد؟، تكلم بوضوح وصرحة، العدل  
أم هرمونات مجيد الشباب؟، الرحمة أم  
جواز سفر إلى جميع البلدان؟، الحرّيّة أم  
أملاح الفواكه الفوّارة؟، ما طريقة القتل  
المفضّلة لديك؟، ألك وصيّة بما يتعلّق  
بجثّتك؟... أترغب في دفنها؟، في  
حرقها؟، في تركها في الخلاء؟، في شحنها  
إلى بلد معين؟

الرجل ٢: ماذا تريدنا على أن نفعل بالدّرات التي  
يتكوّن منها جسدك؟. أن نتركها للديدان؟،  
أن نبها للجمعية الطّبيّة؟ أن نصنع منها  
قنابل مدّمة؟

الشابّ: لا سبيل إلى التفاهم فيما بيننا.

(يركلانه فيصرخ)

الرجل ١: لقد بدّدت وقتنا سدى، ألهذا أرسلناك؟

الشابّ: أرسلتموني!؟، متى كان ذلك؟، لم يرسلني

الشابّ: الرحمة والعدل.

الرجل ٢: قلت الرحمة ثمّ العدل فإذا تطلب الرحمة أم  
العدل؟

الشابّ: الرحمة والعدل.

الرجل ١: لا تكن طمّاعًا.

الرجل ٢: نحن لا نعطي عادة إلا الموت.

الرجل ١: والرحمة والعدل لا يجتمعان.

الشابّ: ولم لا يجتمعان؟

(يركلانه مرّة ثانية فيصرخ)

الرجل ١: هذا التأديب عدل لأنك تستحقّه فكيف  
يمكن أن تعامل بالرحمة في الوقت نفسه!؟

الرجل ٢: حدّد أفكارك عمّا تريد، العدل أم الرحمة؟

الرجل ١: (بحدّة) العدل أم الرحمة؟

الشابّ: الرحمة، لعلّ الرحمة هي ما أريد...

الرجل ١: ألسنت على يقين بما تريد؟

الشابّ: لست على يقين من شيء، لقد أنهكتني  
التعب.

الرجل ٢: ألم تبدّد الوقت بغير حساب؟

الشابّ: يلزمني شيء من الراحة لأحسن الإجابة،  
فكّوا قيودي لأحظى ببعض الحرّيّة.

الرجل ١: (ضاحكًا) ها هو ينادي بالحرّيّة كمطلب  
جديد!

الرجل ٢: الحرّيّة بعد العدل والرحمة!

الشابّ: أليست جميعها أخوات لا يفترقن؟

الرجل ١: ابن الأبالسة عقد بينها أوامر القربى ليطلب  
بالدنيا والآخرة!

الرجل ٢: استمِرّ في الطلب إلى غير نهاية، وبلا حياء،  
ماذا تريد أيضًا؟، ثروة؟، صحّة؟ جاه؟ ما

رأيتك في الحب؟، الدرّيّة؟، طاقية  
الاختفاء؟، جناحين للطيران؟، هرمونات

لتجديد الشباب؟، مهضّسات وملينات  
ومسهّلات؟، فاتحات شهية؟. جواز سفر

إلى جميع البلدان؟. ماذا تريد أيضًا؟

الشابّ: بعض الرفق، نحن إخوة!

الرجل ١: إخوة!، من ناحية الأب أم من ناحية الأم؟

الشابّ: أعني أننا جميعًا بشر.

## تحت المظلة ١٠١

الرجل ١: لتعبث بنا مرّة أخرى.  
 الشاب: أعطوني رسالة مكتوبة كيلا أنسى.  
 الرجل ٢: وكيف نحيط بالظروف المتقلّبة التي تواجهك؟  
 الشاب: الزحام هناك شديد وهو خليق بأن يشتت الذاكرة.  
 (الرجل ٢ يضربه بالسوط. الشاب يصرخ)  
 الرجل ١: ماذا فعلت بيومك الطويل؟، لم قصدت ميدان القلعة؟  
 الشاب: كنت أسير على غير هدى.  
 الرجل ١: تسير على غير هدى وأنت لم ترسل إلى هناك إلا المهمة؟  
 الشاب: كان اليوم عطلة.  
 الرجل ٢: ألم تقل لك القلعة شيئاً يذكرك بمهمتك؟  
 الشاب: زلت قدمي فوقعت على ركبتي.  
 (الرجل ٢ يضربه بالسوط فيصرخ الشاب)  
 الرجل ٢: ألم يوح المطعم لك بشيء؟، ولا المقهى؟، ولا دار الأثار؟، ولا صالة المزاد؟، ولا عيادة الطبيب؟  
 (الشاب يصمت في يأس)  
 وماذا جاء بك إلى الخلاء؟  
 الشاب: فتاة.  
 الرجل ٢: ولم اخترت للقاء مكاناً هو أصلح لدفن الموتى؟  
 (صمت)  
 لم يذكرك اللقاء بشيء عن مهمتك؟  
 الشاب: ثمة رجل، رجل كرهه كان يتبعني طول الوقت فشئت فكري.  
 الرجل ١: حتى ذلك الرجل لم يذكرك بشيء؟  
 الشاب: هو النحس نفسه، وقد أفسد كل شيء.  
 (الرجل ١ يضربه بالسوط فيصرخ الشاب)  
 الرجل ١: ضيّعت وقتك ووقتنا يا جبان.  
 الرجل ٢: وكانت الفرص تناديك من كل جانب يا أعمى.  
 الرجل ١: ولم نبخل عليك بالتحذير تلو التحذير.  
 الشاب: ما تلقّيت تحذيراً قط.

أحد  
 الرجل ٢: يا لك من كذاب مخادع!  
 (يركلانه فيصرخ)  
 الرجل ١: أحقاً لم يرسلك أحد؟  
 الشاب: معذرة، ضعفت ذاكرتي من المرض والإيهام، معذرة.  
 الرجل ٢: أم تريد أن تتنصّل من المهمة التي كلّفت بها؟  
 الشاب: المهمة؟  
 الرجل ٢: المهمة التي كلّفت بها؟  
 الشاب: أيّ مهمة؟  
 الرجل ٢: يا لك من كذاب مخادع!  
 (يضربه بالسوط. الشاب يصرخ)  
 الرجل ١: وإلا فلماذا أرسلناك؟  
 الشاب: أنتم صادقون وأنا معذور، الزحام هناك شديد، والأصوات مزعجة، وعملي اليومي استغرق جلّ وقتي.  
 الرجل ١: وما عملك اليومي؟  
 الشاب: مدرّس تاريخ.  
 الرجل ٢: حدّثنا عن دروسك، ماذا فعل الإنسان القديم؟  
 الشاب: اكتشف الزراعة، صنع التصوير، بنى الأهرام، هزم وانهمز...  
 الرجل ١: ألم يذكرك شيء من ذلك بمهمتك؟  
 الشاب: كنت مستغرقاً طوال الوقت.  
 الرجل ١: ألم تحظر بذاكرتك ولو كالممس؟  
 (الشاب يصمت. الرجل ١ يضربه بالسوط فيصرخ متوجّعاً)  
 الرجل ٢: اعترف...  
 الشاب: اللعنة على ذاكرة لا تسعف صاحبها بما يجب أن تتذكّره.  
 الرجل ١: كذاب.  
 الرجل ٢: اعترف بأنك تمهّبت ذكر ما يجرّ عليك المتاعب.  
 الرجل ١: مخادع جبان!  
 الشاب: جرّبوني مرّة أخرى!

١٠٢ تحت المظلة

الرجل ١: كذاب غيبي أعمى .

الشاب : الرحمة ١

الرجل ٢: الرحمة أم العدل أم الحرّية؟

الرجل ١: أم فاتحات الشهية أم هرمونات الشباب؟

(يضرّبانه معاً بالسوط وهو يصرخ متوجّعاً .

الرجل ١ يشير إشارة خاصّة إلى الرجلين

حاملَي المشعلين . الرجل ١ والرجل ٢

يذهبان إلى مكانها الأوّل وراء الهضبة)

حامل المشعل : (مخاطبًا الشاب) لم تحنّ أسراب

الطيور المهاجرة إلى أعشاشها التي تركتها في

الجبيل؟

(يحمل الشاب بين يديه ثم يقول له)

: تذكر أنّ الطفل يبكي حين تنحّيه أمه عن

ثديها الأيمن ولكنّه يجد في اللحظة التالية

سلوه في ثديها الأيسر .

(يمضي حامل المشعلين في مشية متمهّلة

والآخر يتبعه حاملًا الشاب بين يديه)

(ستار)

انتهت

حِكَايَةُ بِلَالِ بْنِ رِبَاعَةَ

وَالْأَنْحَاءِ

## حكاية بلا بداية ولا نهاية

المسجد والبيت الكبير. البيت الكبير مركز الروح والنور والهدى تدور حوله كواكب الأكرمية ما بين سوريا والعراق وتركيا ولبنان وفلسطين والجزيرة والهند وفارس وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس. بيت هو القلب الخفاق لعالم روحيّ شامل. يا سيدي الأكرم تحية وسلاماً. يا من جبت الأقطار كلها واخترت لمقامك هذا القطر، هذه العاصمة، هذه الحارة، هذا البيت. يا صانع الكرامات تحية وسلاماً. ولآخر خلفائك وذريتك مولانا محمود الأكرم تحية وسلاماً. تعالت الهتافات من الأركان، ثم أنشد المنشد وردد المريدون:

«الله... الله... الله...»

«يا سيدي الأكرم على بابك»

تحول عن النافذة بوجه أسمر مستطيل ولحية سوداء قصيرة مدببة. تطلع إلى شيخ في الستين يقف وسط البهو الكبير تحت نجفة برنزية على هيئة مثلثة. أنعم فيه النظر فتلقى نظره بخشوع وقال:

- تحية وسلاماً يا مولانا محمود الأكرم.

فتمتم الرجل بأسماً:

- طاب يومك يا شيخ عمّار.

مضى - والآخر يتبعه - إلى كنية تركية مفروشة بالسجاد الشيرازي على مقربة من باب السلامك. جلس ودعا الشيخ إلى الجلوس. تتابعت نسائم الصيف العطرة متهادية في تضاعيف أصيل غابت شمسها وراء أشجار التوت المعششة بالعصافير. قال الشيخ محمود:

- من يرى موكبنا لا يتطرق إليه شك في استقرارنا.

«١»

هتف المنشد في نغمة بدائية:

«يا سيدي الأكرم على بابك»

فردد المريدون:

«الله... الله... الله...»

تابعت عيناه المشهد من خصائص نافذة بيهر الاستقبال. تابعتا موكب أهل الطريقة وهم ينشدون ويصفقون على أنغام الناي ودق الدفوف وتحث البيارق ينشدون. تزاموا حول الضريح وأمام البيت الكبير حتى امتلأت بهم الحارة. وتسلفت إليه في موقفه وراء النافذة نسائم دافئة من الحديدية مترعة بأخلاق من روائح الفلّ والياسمين والحناء والقرنفل. لبث بمكانه في بذلته السوداء الأنيقة مغطى الرأس بعمامة مقلوذة، ينظر ويصغي باهتمام.

«يا سيدي الأكرم على بابك»

الله... الله... الله...»

وارتفع صوت مكتسح النبرة يطالب الجميع بالسكوت فساد الصمت. وراح يخطب قائلاً:

«هنيئاً لأهل مصر. هنيئاً لمصر. اختارك الأكرم

ماوى ومستقراً لشخصه ولذريته. هنيئاً لك يوم قصدك قادماً من المشارق. على قدميه جاء. يستأنس وحوش البراري، يخرق الجبال، يسير فوق الماء، يفجر العيون في الصخر. وهل على القاهرة السعيدة كالبدن، وتجوّل في أطراف متباعدة حتى استقرّ به المقام في هذه البقعة الطاهرة حيث يقوم مسجده وضريحه. هنيئاً يا مصر، وهنيئاً يا حارتنا، حارة الأكرم وموطن ذريته ومريديه. منذ قرون خلت انبثق في هذا المكان نور ما زال يجذب إليه فراشات من طالبي الهداية والغفران، وترك لكم

## ١٠٦ حكاية بلا بداية ولا نهاية

- فقال الشيخ عمار بحماس:  
- ما زالت الدنيا بخير.  
هزّ الرجل رأسه في أسى متسائلاً:  
- ماذا جرى لشارتنا؟  
- لا شيء، سحابة صيف، عبث أطفال...  
- إنك لا تؤمن بما تقول يا شيخ عمار، هل سبق أن نال لسان من الطريقة؟  
- إنه جيل جديد عجيب يمتطي مركبة الشيطان.  
قطب محمود الأكرم قائلاً:  
- يسخرون من الطريقة، ومن المريدين، ومي شخصياً، ويرسلون النكات في مقاهي الحارة بكل وقاحة.  
- وباء هذا الزمن، ماذا جرى لهذا الجيل؟ كيف هانت عليه مقدساته، ولكنه عبث أطفال ليس إلا.  
- ألم يسمعون المريدون؟  
- بلى يا مولاي؟  
- ماذا فعلوا؟  
- نصحوهم بالتي هي أحسن، وركبهم الغضب مرّات، ولكن أحداً منهم لم ينس أن الحارة أسرة واحدة.  
وقال محمود الأكرم بحدة:  
- لولا الأكرمية ما كان للحارة شأن...  
- هو الحق يا مولاي، وقد هيّجنى الغضب مرّة كدت...  
ولكنه قاطعه قائلاً:  
- لا يلقى العنف بأهل الطريق!  
- ولكن للصبر حدود.  
- أسأل الله ألا تدفعنا الأحداث إلى تجاوز القصد.  
رفع بصره إلى الساعة الكبيرة في الجدار الأوسط ثم تساءل:  
- متى يجيئون؟  
- لعلمهم في الطريق إلينا.  
- ألا يوجد بينهم زعيم أو محرّض أو ما شاكل ذلك؟  
- ليس هناك تنظيم أو زعامة ولكن ثمة شاب يتسم بوقاحة مركزة يدعى عليّ عويس.
- ضيق الشيخ عينيه متفكراً وقال:  
- عليّ عويس... إني أعرف هذا الاسم أو على الأقلّ بعضه.  
- إنه ابن المرحوم عويس سواق الكارو.  
استقام ظهر الرجل بغتة وتساءل:  
- شقيق المدرّسة؟  
- شقيق زينب عويس المدرّسة.  
نظر الشيخ محمود إلى حدائه الأسود صامتاً فقال الشيخ عمار:  
- لعله ليس من الحكمة أن تفتح المدارس لكل من هبّ ودبّ!  
فتمتم الشيخ محمود وكأنها يحدث نفسه:  
- إذن فهو شقيق زينب عويس.  
- يغادر كل صباح بيتاً قديماً أعد مدخله قديماً موقفاً للكارو ليذهب إلى الجامعة!  
- يقال إن شقيقته شقت طريقها بإرادة من حديد.  
- إنها عانس، مدرّسة أطفال، ذات دخل ضئيل، وفي هذه الجحور يترسّب الحقد يا مولاي، ويتسّر على نفسه السوداء بالسخرية والنكات الجارحة.  
- ليتك دعوت شاباً آخر.  
- إنه أسلطهم لساناً!  
- كان أبوه مريداً لأبي، وكان محمود السيرة رغم ضمته وفقره.  
- قلت لهم اختاروا من بينكم نخبة لمقابلة مولانا فكان أجراهم على القبول، رفض البعض، وتردّد البعض الآخر، ولكنّي اعتقد أن سيجيء منهم نفر لعلمهم أصلهم.  
- طليعة الخاطئين...  
تمهّد الشيخ عمار قائلاً:  
- لم تعرف حارتنا أمثالهم من قبل...  
- هو زمن الغرور والوقاحة.  
- يجتيل إليّ أن جامعاتنا معاقل أجنبية!  
حدجه الشيخ محمود بنظرة عابسة فترجع الرجل في استحياء قائلاً:  
- إلا من هداه الله وحفظه...  
- رحم الله أبي.



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٠٧

بالقلق والحيرة.  
قال باسمًا:  
- حللتهم أهلًا وسهلاً..  
فأجاب أكثر من صوت:  
- شكرًا يا صاحب الفضيلة.  
قلّب عينيه في الوجوه الغالب عليها الشحوب  
وقال:  
- لا تعجبوا لدعوتي إياكم، فهذا البيت مفتوح  
لجميع أبناء الحارة، وبمعنى آخر هو بيت الجميع..  
فقال أحدهم:  
- فرصة طيبة وهبة سعيدة.

لاحظ أنّ الآخرين جالوا بأبصارهم في المكان  
وصاحبهم يتكلم فشرع بحدة التناقض بين رثائهم  
وفخامة الجدران المحلاة بالأبسطة المزركشة والحصر  
الملونة وزينة الأرابيسك، والسقف الأبيض العالي تتدلى  
من وسطه النجفة البرنزية ومن أركانه الفوانيس  
الأندلسية. بدوا كحشرات حادة تغوص في شبك  
البساط الكبير الدسم.  
قال الشيخ:  
- نحن قوم مهمتنا في الحياة التواضع لله وحبّ  
الناس.

- ما أجمل أن نسمع ذلك!  
- وإذا كان الحوار مفيدًا بين الناس في كلّ حين فما  
أوجه إذا نشب بينهم ما يدعو إلى سوء التفاهم.  
صدّقوا على قوله بإحسان من رءوسهم العارية  
فقال:  
- وطريقي أن أدخل الموضوع رأسًا، بلا لفت ولا  
دوران ثم أتركه يتفرّع كيف شاء بعد ذلك.  
استقرت في أعينهم نظرات استطلاع وتوقّع فقال:  
- بلغني يا سادة أنّكم تخوضون في كرامتنا وتهزءون  
بنا؟

فأجاب أحدهم:  
- لا يخلو الخبر من مغالاة..  
- أتتكرون ذلك؟  
فأجاب آخر:  
- لعلّ مزاحنا علا أكثر مما ينبغي.

- لقد جئتكم بالمعلمين ولكنتك ترغب في دخول  
مدارس الدنيا.  
- لا بأس من ذلك يا أبي.  
- كلّ علم فهو من عند الله.  
- الحمد لله.  
- ولكنّ العبرة بالجهاد وعليه يوقف الطريق.  
- سمعًا وطاعة يا أبي.  
- لكي تكون خليفة كما ينبغي لك.  
- أجل يا أبي.  
- إنّ علوم الدنيا لها نهاية أما جهاد الطريق فلا  
نهاية له.

\*\*\*

ولما خرج من أعماق صمته قال الشيخ عمّار:  
- ليرحم الله أباك.  
وطيلة الوقت لم ينقطع إنشاد المنشدين وترديد  
المريدين ولكنّه انخفض درجات كأنما يجيء من بعيد.  
تابعه الشيخ محمود بشيء من الحزن ثم قال:  
- يا للذكريات، عرفنا ذات يوم أسماء جذابة  
كأرشميدس ونيوتن، وحقائق غريبة كالجزري  
والحرّة، ولم أتصوّر وقتذاك أنّها ستطاردنا بعنف  
كالزمن.  
دخل خادم يستأذن للقادمين... أشار الشيخ  
محمود للشيخ عمّار فقام ليغادر المكان في أثر الخادم  
ولكنّه أضاء النجفة قبل أن يعييه الباب. دخلت  
مجموعة من الشبان، عشرة بالتام، دون العشرين  
سنًا، يرتدون البطلونات والأقمصة نصف كمّ ولا  
تحفى على عين قديم ملاسهم. وقف الشيخ لاستقبالهم  
فتّمت المصافحة بطريقة حديثة لم يتوقّعها ولم يألّفها.  
مدّ يده منتظرًا تقبيلها ولكن شدّت عليها الأيدي  
باحترام دون تقبيل. بدأ التعارف فقدم كلّ نفسه.  
الجميع طلبة بالجامعة، بالأداب خاصّة، ما عدا واحدًا  
بالهندسة، وآخر بالعلوم هو عليّ عويس. تفحصه  
بنظرة عميقة بقدر ما سمح الموقف الخاطف. لمح  
قسما غير غريبة كنغمة قديمة عزفت بعد نسيان،  
ونظرة حرّكت باطنه بقوة مذهلة، فسرها بالحنق  
فاستعاذ بالله من الشيطان في سرّه ولكنّها كانت ألصق

قال الشيخ محمود ممتعضاً:

- لو جاء ذلك من خارج حارتنا ما أكثرنا له، بل حتى وهو من صميم حارتنا كان يمكن أن ألقاه بالصبر والحلم لولا أن بعض المريدين هموا مرة بالدفاع عن مقدساتهم فالمني ذلك جدًّا، إذ أننا قوم مهمتنا الأولى في الحياة هي حبّ الناس لا الاعتداء عليهم، وبخاصة إذا كانوا من أبنائنا، لذلك قرّرت أن أدعوكم لتتضح لأعيننا المواقف والسليل، ولتعاون على تحكيم الحكمة والرشاد فيما بيننا. . .

قال صوت:

- سلوك حميد خليق بفضيلتكم.

قلّب عينيه في وجوههم مرة أخرى ثمّ تساءل:

- ألا تعرفون ماذا يعني الأكرم وطريقته لحارتنا؟

ساد الصمت قليلاً حتى خرج منه عليّ عويس

قائلاً:

- الحقّ أن نوايانا حسنة وإن يكن مزاحنا عاليًا، ولكي نعرفنا على حقيقتنا فاعلم يا سيدي أننا طلاب علم، نحبّ الحقيقة أكثر من أيّ شيء في الوجود، يؤسفنا أننا أزعجناك.

عاوده القلق لدى سماع صوته ولكنّه كبح انفعالاته وقال:

- نحن لا يزعجنا شيء. حتى الموت نفسه لا يزعجنا. ونحن طلاب الحقيقة منذ الأزل وإلى الأبد.

فقال عليّ عويس:

- لعلّه اختلاف في وجهة النظر.

- لم يطالبكم أحد بالدخول في طريقنا.

- الآراء المتناقضة يا سيدي لا يمكن أن تعيش جنبًا

إلى جنب في سلام.

فتساءل الشيخ بحرارة:

- ألا تعلمون أنه لولا الأكرم، لولا الأكرمية، لما

كان لحارتكم ذكر ولا لأهلها شأن أو أمل.

فقال عويس بثبات:

- الدنيا تتغيّر بلا توقف ولا رحمة يا مولانا.

- ولكنّ الحقائق باقية خالدة.

- التغيّر هو الشيء الوحيد الخالد يا مولانا!

- التغيّر؟!

- التغيّر في كلّ يوم، في كلّ ساعة، في كلّ لحظة. . .

- أراك تتعلّق بظواهر كاذب خداع.

- معذرة يا سيدي فالظواهر الكاذب هو الجمود. . .

ابتسم الشيخ مداراة لضيقة وقال:

- لا وقت الآن لمناقشة الظاهر والباطن وألا طال النقاش بنا دهرًا. بيد أنّه واضح أنكم لا تؤمنون بطريقتنا؟

لم ينبس أحد منهم بكلمة فقال الشيخ:

- الصمت جواب، فهل تؤمنون بطريقة

أخرى؟

فأجاب أحدهم:

- لنا في الحياة سبيل آخر غير الطرق!

- إجابة مفاجئة، ترى ماذا تأخذون على طريقتنا؟

فسأله عليّ عويس:

- هل يتسع يا سيدي صدرك لصراحتنا؟

- إنه أوسع ممّا تتصوّر.

فقال أحدهم.

- الحياة في حارتنا معاناة أليمة. . .

وقال آخر:

- إننا صحراء مخيفة مليئة بالاكاذيب.

وقال عليّ عويس:

- صغار المريدين، وهم الكثرة الغالبة، حفاة

خانعون. . .

فقال الشيخ بعجلة:

- إنهم راضون، والرضا مطلب روحيّ مضمون به

على غير أهله. . .

- لا يملكون حيال قوتكم إلا الرضا وألا ماتوا

جوعًا، ولكن لا شكّ أنهم يَمْرُون حيارى بهذا البيت

الكبير الغارق في الرفاهية. . .

قال الشيخ بحدّة لأول مرة:

- بيت آبائي وأجدادي مد أقامه القطب الأوّل.

فقال الشابّ بجرأة جنوبيّة:

- أقيم بأموال المريدين كسائر العبارات الشاهقة في

وسط المدينة. . .

قام الشيخ محافظًا على هدوئه ما أمكن. تقدّم

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٠٩

- إنكم شباب في مقتبل العمر، أمامكم فرص لا تحصى للتعلم من الكتب والحياة والزمن، فأين خطيأ تعثرون به قابل للإصلاح، لذلك لا يزعجني كثيرًا أنكم لا تؤمنون بشيء...

- لا تؤمن بشيء؟

- أتؤمنون بشيء؟

- إن من يعمل فلا بد أن يؤمن...

- كثيرون يعملون كالألات.

- ولكننا نعمل بحماس صادق.

- فلعلّه الطموح؟

هزّ عليّ عويس رأسه هزة غير القانع ثمّ تساءل:

- ألا يستحقّ العلم أن تؤمن به يا مولاي؟

- إنّه معرفة باهرة، وهو من أحبّ القراءات إلى نفسي.

- وما رأيك فيه؟

- إنّه باب من أبواب العبادة.

- وقوّته على السيطرة والتغيير؟

- خير كثير وشرّ كثير.

- هو خير خالص أما الشرّ فيجيء من أوضاع إنسانية معوجّة...

- فما الذي يوجّه الإنسان نحو الخير؟

- وعي حكيم في مجتمع سليم.

قال الشيخ بنبرة راسخة قويّة:

- لا إيمان حقيقيّ إلاّ بالله ولا خير حقيقيّ إلاّ بالله

وفي سبيل الله.

وساد صمت فترامي من الحديقة نقيق، وخشخشة

أوراق، على حين ارتفعت من الحارة ضجّة عابثة

صاحكة. جعل الشيخ ينقل عينيه بينهم. لم يستطع

تجنّب النظر إلى عويس. وقال:

- لعلمكم تؤمنون بالإنسان، هكذا يقال كثيرًا في

هذه الأيام، ولكن ما قيمة الإيمان بالإنسان بغير الإيمان

بالبطولة؟

أجاب أحدهم:

- لا قيمة لشيء بغير البطولة.

- أيّ ضمان للبطولة - وهي تضحية بالنفس والمال -

بغير إيمان كامل بالله!

خطوات مستقبلاً باب البهو المفضي إلى الحديقة كأنما

ليرتّب انفعالاته. تمتم دون أن يلتفت إليهم:

- قاتل الله الحقد والحسد.

فقال الشابّ ثملاً باستهتاره:

- إنهما وقود الحقّ إذا اختلّ الميزان.

فقال الشيخ بازدياء:

- وقودنا الحبّ وحده.

- ذلك يا سيّدي أنك لم تذق عضّ الجوع ولا

ضراوة الكدح ولا رهبة القوّة الغشوم...

وتحوّل الشيخ إليهم بنظرة وهو يقول:

- إذن فهذه المسألة!

- المسألة؟

- إنكم تريدون نقودًا؟

- بمعنى ما ولكننا لا نريد رشوة...

- ماذا تريدون؟... صارحوني كما وعدتم.

أجاب أحدهم:

- ليس في عقولنا مطالب أوضح ممّا نطقت به

شكاوانا...

وقال آخر:

- يريحنا أحيانًا أن نطالب بنقيض ما هو قائم!

فعبس الشيخ قائلًا:

- لا يخلو كلامكم من خدر هو التمويه نفسه،

حسن، إنّي أشمّ رائحة فوضويّة!

فقال عليّ عويس:

- لا تهمّنا الأسماء، وفي الوقت نفسه فهي لن

تخيفنا...

- لعلمكم محلمون بالقتل؟

- القتل؟

- بدأتّم بالسخرية وستنتهون بالدم...

- أحلامنا تحوم حول هدف واحد هو التقدّم...

- يا فتى، إنّي جامعيّ مثلكم!

- نعرف ذلك يا سيّدي.

فعاد إلى مجلسه وهو يقول:

- فلنتحدّث كزملاء.

- هذا شرف كبير لنا يا سيّدي.

فابتسم مسترّدًا بذلك هدوءه وقال:

- من المؤمنين من لا بطولة لهم والعكس صحيح !  
 - على أي أساس تقوم بطولاتهم؟  
 - إيمانهم بأنفسهم ويعلمهم !  
 - غير كافٍ وحده .  
 - التربية الرشيدة .  
 - ولا هذه .  
 فقال آخر:
- قد نستعين في ذلك بالمعاقير كما نستعين بها على مقاومة الأمراض !  
 ابتسم الشيخ على رغمه ولكنه قال بامتعاض:  
 - حبوب للتضحية... حبوب للشجاعة...  
 حبوب للأمانة... ما شاء الله !  
 فقال عليّ عويس منفعلاً:  
 - لا تسخر منا يا سيدي، إن جميع ما حولنا يثير الحزن الشديد، لقد ضقنا بكل شيء ونريد لكل شيء أن يتغير، وقد ورثنا هذا العالم عن آباء وأجداد طُنت بهم الحكمة يوماً ما فحق لنا أن نتنكر لهم ولتراثهم...  
 فتمتم الشيخ ممتعضاً:  
 - أسفي على الآباء والأجداد .  
 - نحن أجدر بالثناء منهم .  
 تفكر الرجل قليلاً ثم قال:  
 - الآن عرفت لم تسخرون من الطريقة أهلها...  
 فقال أحدهم:  
 - إنك يا مولانا رجل مثقف، وليس جعك بين البدلة والعمامة عبثاً، وإن خيراً كثيراً يرجى منك لحارتنا...  
 - ترى ماذا يرجى مني؟  
 - لا شيء يخفى على فطنتك...  
 - أعطني مثلاً يا بني...  
 فقال عليّ عويس:  
 - أن نمزق ستار الأكاذيب الذي يفتشى حارثنا .  
 - الأكاذيب؟  
 - كالتناقض بين شعار الزهد والممارسة الفعلية للتسلط واقتناء العبارات الشاهقة !  
 وقال آخر:
- والكف عن التغيّي بالخرافات .  
 - الخرافات؟  
 فقال عليّ عويس:  
 - معذرة عن صراحتنا ولكننا بتنا نكره الكذب حتى الموت .  
 - زيدوني صراحة !  
 - نحن مقتنعون بأن شيئاً لا يخفى عن فطنتكم...  
 أعقب ذلك صمت ثقيل.. طال الصمت فلم يجرؤ أحدهم على خرقه. وبذل الشيخ جهداً جباراً ليخفي انفعالاته. ونهض باسماً. قال:  
 - ها قد تمّ التعارف بيننا، وذلك من فضل الحوار كما قلت في بدء الاجتماع...  
 فقال أحدهم:  
 - نرجو أن تغفر لنا صراحتنا .  
 فقال الرجل بهدوء:  
 - ليغفر لنا الله جميعاً .  
 صافحهم واحداً واحداً. غادروا البهو. ولما خلا المكان اكفهر وجهه. وروح عن انفعاله بالحركة ذهاباً وجيئة. لم ينتبه إلى عودة الشيخ عمّار حتى مثل الرجل بين يديه. وضع يده على كتفه وهو يقول:  
 - كما أخبرتني وأكثر .  
 تتمم الرجل:  
 - أبالسة يا مولاي .  
 - يريدون سلب أموالنا والقضاء على نفوذنا وإهدار قِيَمِنَا...  
 - وهم يتكاثرون وتتسلل زندقتهم إلى النفوس الضعيفة .  
 - وابن سواق الكارو صاروخ مدمر .  
 - قلت إنّه أسلطهم لساناً .  
 - بل هو شرّ من ذلك...  
 - والعمل يا مولاي؟  
 ابتسم الشيخ محمود قائلاً:  
 - نحن قوم الحبّ غايتهم الأولى والأخيرة .  
 فابتسم الشيخ عمّار بدوره قائلاً:  
 - الآن عرفت سبيلي يا مولاي...  
 -

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١١١

زملائه في هذا المكان منذ أيام قلائل...  
لازمت الصمت كأنها لم تسمع شيئاً فواصل  
حديثه:

- دعوتهم بعد أن بلغني عنهم ما بلغني، لا شك  
أنتك سمعت بما يقال، وتناقشنا طويلاً، والزمتم في  
حديثي معهم بالرفق والسباحة وسعة الصدر، ولم أضنَّ  
عليهم بالنصح الرشيد...

فقلت دون أدنى تأثر بكلامه:

- أرجعه إليّ من فضلك!

- ماذا تعنين؟

- أنت تعرف ما أعنيه تماماً...

- صدّقيني...

فقاطعت بهدوئها الميت:

- لقد ألقى القبض على الجميع فجر اليوم...

- علمت بذلك الساعة فقط ولكنّي لم أفهم معنى

لقولك بعد...

فقلت دون مبالة بأقواله:

- لذلك أكرهت نفسي على هذه الزيارة.

- الحقّ أنني نسيت لدى رؤيتك كلّ شيء.

- إنّ الأخطاء يُنسى بعضها بعضاً...

فقال عتجاً:

- يا للعجب، إنك تسيئين بي الظن!

- نعم...

- مغالاة جاوزت كلّ حدّ.

- أرجع إليّ أخي.

- أيّ تهمة وُجّهت إليهم؟

- يقيني أنهم أبرياء.

- إذا كان بريئاً فسوف يرجع إليك دون شفاعاة.

- لست أطلب شفاعتك ولكنّي أطلبك بإصلاح

خطئك.

قطب قائلاً:

- اقتلمي هذا الوهم من رأسك.

- ليس وهماً ما أعتقد، إنك أكبر من أيّ وهم!

- ساعحك الله.

- إنّه يسامح الولايا والضعفاء والمخدوعين

والمغلوبين على أمرهم ولكنّه لا يسامح الأشرار

- ليكن الله في عونك.

- سأفعل ما يميله الحبّ عليّ، حبّنا لمقدساتنا،

وحبّنا للمريدين الأبرياء!

وتبادلا نظرة طويلة.

«٢»

جلس على الديوان تحت النجفة يرنو إلى الحديقة  
بعينين نصف مغمضتين. إلى جانبه استكنّت العمامة  
فبدا شعره الأسود غزيراً مفروقاً بعناية لم يتطرّق إليه  
أثر الشيب. ومن الحارة ترامت نداءات باعة الصباح  
متسرّمة. وفي الحديقة تألّقت أوراق التوت والحناء  
والاعناب تحت دفعات حازّة من أشعة الشمس،  
استغرق في تأملات حتى انتبه على حفيف ثوب. نظر  
نحو جارية سوداء طاعنة في السنّ جدّت في البحث  
عنه بعينين عمشاورين... نادها برقة:

- أمّ هاني...

أنجّه وجهها النحيل الضامر نحو الصوت ثمّ

همست:

- امرأة تريد مقابلتك.

جاءت امرأة في أواسط العمر، صافية السمرة،  
تعكس عيناها السوداوان نظرة جادة متجهمة تستقرّ في  
أعماقها كتابة ثابتة. لبس العمامة ووقف في دهشة  
أوشكت أن تكون انزعاجاً لولا نجاحه في ضبط  
مشاعره. قال:

- زينب... أهلاً... تفضّلي.

مدّ لها يده فصافحته بعد تردّد ودون أن يندّ عن  
وجهها أيّ تعبير إنسانيّ.

- كيف حالك أهلاً أهلاً، تفضّلي بالجلوس.

- جلست على مقعد قريب من الديوان.

ظلّ واقفاً وهو ينعم فيها النظر ثمّ قال:

- لم أرك منذ عمر طويل، عمر طويل حقاً، ولكنّي

تابعت نجاحك بإعجاب...

قالت بلهجة قاطعة في التركيز على الهدف الذي

جاءت من أجله:

- أرجع إليّ أخي!

حدّق فيها متسائلاً وقال:

- ماذا عن أخيك؟ لقد اجتمعت به مع بعض

- والمناققين. - ليغفر الله لك .
- صدّقيني... - ثمّ واصل حديثه:
- فقاطعته: - اعتقد أنّ الإجراءات التي اتخذت معهم لا تعدو أن تكون نوعًا من الزجر ليس إلّا، ومن أجل خاطرِكَ سأبدل سعيًا حميدًا ولكنّي لست واثقًا من النتيجة، أرجو أن تعديني عن سوء ظنّك بي، إنّ اتهامك فوق احتمالي، ولا يليق بمركزي سواء في الطريقة أو في الحارة، ولقد حرّمت على أتباعي حقّ الدفاع عن مقدّساتهم إيثاريًا للحبّ والسلام.
- إني عاجزة عن تصديقك، لديّ من الأسباب ما يحتملي على إساءة الظنّ بك دائميًا وإلى الأبد، ولكنّي ما كنت أتصوّر أنّك ستلاحقني بالأذى جيلاً بعد جيل!
- إني بريء ممّا ترميني به.
- إني أصدّق قلبي وهو خير دليل.
- صدّقيني.
- كلّاً ولكن أرجع إليّ أخي.
- وعدت بالسعي.
- سيعرف أهل المقبوض عليهم الرجل المسئول عن ذلك أجلاً أو عاجلاً.
- فقال بحدّة:
- جيل شرّير من الأبالسة، أوغروا الصدور بضلالهم، ولا أحد من العقلاء يضمّر لهم أيّ عطف.
- إنهم أفضل ممّا نظنّ.
- أهذا رأيك؟
- يودّون الخير من أعماق قلوبهم.
- هل حدّثك أخوك عن آرائهم؟
- أعرف أحلامهم.
- يا لخيبة الأمل، كدت أطالبك بالمعاونة على تهذيبه.
- لقد أحسنّت تربيته.
- إذن كيف نشأ على الحقد والحسد والتعلّق بآتفه ما في الحياة؟
- أتفه ما في الحياة؟
- زينة المال الكاذبة وما يتبعها من شهوات.
- تهنّدت زينب وقالت:
- يا لك من رجل تفوق جرّاته الخيال!
- والمناققين.
- صدّقيني... -
- فقاطعته:
- لا أستطيع أن أصدّقك.
- لا دخل لي فيما حصل لأخيك.
- أنت أبلغت عنه أو أحد رجالك بإيعاز منك.
- هزّ رأسه همّة المتسامح وقال:
- لم يكن بحاجة إلى من يشي به، ارتفعت أصواتهم في كلّ مكان، ودوّت ضحكاتهم بالأراء الهدّامة... -
- ليس فيما قالوا جريمة ولكن انقلب الحال بعد مجيئهم لمقابلتك... -
- ماذا تعنين؟
- أحلام شباب لا تؤذي أحدًا من الأبرياء، ولكن مادّت الأرض عندما تطرّق الحديث إلى شخصك... -
- كلّاً. ولكنّهم لا يؤمنون بالله، لا يؤمنون بشيء.
- أتؤمن بالله أنت؟
- آيتها الجارة... أتقي الله... -
- ماذا لديك من درجات الإيمان التي تحفظها عن ظهر قلب؟!
- لا تحكمني على رجل لم تراه منذ عمر طويل.
- كثيرون - حتّى من مريدك - يعرفونك على حقيقةتك... -
- لا تعرّضي بقوم يدينون لي بالولاية.
- إنهم يطيعون نداء المصالح.
- ليسعك حلمي إلى ما لا نهاية.
- لم يغضبك كفره المزعوم ولكن غضبك رأيه في عماراتك الشاهقة في وسط المدينة... -
- ليغفر الله لك سوء ظنّك... -
- فعدت تقول بهدوئها الميت:
- أرجع إليّ أخي... -
- يتعدّر عليّ التدخّل في مثل تلك الأحوال.
- ما دام في قدرتك أن ترسله إلى السجن فلن يتعدّر عليك إخراجة.
- جلس الشيخ على السديوان. ابتسم ابتسامة من يأسى على نفسه. قال معاتبًا:

### حكاية بلا بداية ولا نهاية ١١٣

- هل أخنانا ذلك عن تعاستنا شيئاً؟  
 فقام أيضاً وهو يقول محتدًا:  
 - إنك على وشك الزيغ يا زينب.  
 - إني منتظرة وعدك.  
 - كان أبوك مريدًا صادقًا.  
 - رحمه الله.  
 - مات سعيدًا كما يجدر بمؤمن.  
 - ولكنه عاش عيشة مريرة!  
 - أهمّ ما في الحياة هو الموت!  
 مضت نحو الباب وهي تقول:  
 - إني منتظرة وعدك...  
 \*\*\*  
 - في هذا البيت المقدّس! وفي هذه الحجرة  
 المباركة، عليك لعنة الله.  
 \*\*\*  
 همّ بقول شيء قبل أن تختفي ولكنه أطبق فاه، ثمّ  
 ذهب إلى النافذة فأزاح الستارة وألقى نظره يتابع  
 مسيرها...  
 «٣»  
 دخل بهو الاستقبال فرأى الشيخ عمّار في انتظاره.  
 صافحه دون أن يخفي دهشته وهو يتساءل:  
 - خير.. ما جاء بك في هذه الساعة وقد أوشك  
 الليل أن ينتصف؟  
 فأجابه الرجل وهو يفضّ البصر:  
 - لا غرابة أن نوجد في هذا البيت في أيّ ساعة من  
 نهار أو ليل...  
 - جواب حسن.  
 جلسا والشيخ يمسح وجهه بمنديله ويقول:  
 - في الخارج عاصفة ترابية أخشى أن تدفن الحارة  
 دفنًا، في هذا الجوّ يضيق الإنسان بالحياة وتضيق الحياة  
 بالإنسان، وعجيب أن نكون من تراب ونجزع هذا  
 الجزع للفرحة منه، وفي كلّ خطوة يصادفك شابّ من  
 أولئك الشبان، لقد بدلنا لهم مسعى طيبًا ولكنهم لا  
 يبدون شاكرين، كلاً، إنهم أبعد ما يكون عن  
 الشكر، وما أجدر اللثام بأن يظنّوا الاستجابة الطيبة  
 ضعفًا، وذاك الشابّ المتهوّر حدجني اليوم بنظرة

فروق بينهما صمت. أراح رأسه بالنظر إلى الحديقة.  
 تلقى دفقة من انفجالات طارئة. وكأنما يخاطب نفسه:  
 - يا للذكرى، ها هي نفحة من الماضي تهبّ كأنما  
 تهبّ من بستان. حاملة عرف عرق خاصّ، لعله عرق  
 الإبطين، ناشرة صورًا مطوية في قلب الزمن، تشير  
 الحنين بقدر ما تثير الشجن.  
 - ماذا تعني؟  
 عاد يحدّق فيها ثمّ قال:  
 - ما زلت جميلة كما كنت...  
 فهتفت بحدّة:  
 - يا لك من رجل مريض!  
 - ليكن لسانك نفحة من ذكريات لا نصلًا للطعن  
 والقتل.  
 - كأنك إبليس بلحمه ودمه.  
 فقال بأسًا في غموض:  
 - هيهات أن تعرفي عذابات رجال الطريق.  
 - ولكنّي أعرف المنافقين...  
 فقال متوغلًا في الانفجالات الطارئة:  
 - القلب نبع يفيض بمنصهر المعادن النفيسة  
 والخبثية، والسرور توأم الحزن.  
 - إنك تهذي...  
 ولكنه باخ. أفاق تمامًا. تراخت شفتاه امتعاضًا.  
 قال بفتور:  
 - أرجو ألا يخيب مسعاي في إرجاع الجميع إلى  
 بيوتهم.  
 - أرجو ألا أضطرّ إلى المجيء مرة أخرى.  
 - بوسعك أن تفعل شيئًا لتجنّب حارتنا ويلات  
 نزاع يوشك أن ينقلب داميًا.  
 - بوسعك أنت أن تفعل هذا خيرًا مني.  
 تساءل عابسًا:  
 - ألمجرن مجراهم؟ أطمعين أنت أيضًا في مالي  
 الحلال وولايتي المستمدة من كرامات جدّي الأكرم؟  
 - إني أصغر شأنًا من أن أتبهك إلى ما ينبغي لك.  
 - بفضل طريقتنا يؤمن أحقر رجل في حارتنا بأنّه  
 أصل الوجود وغايته!  
 فقامت وهي تقول:

نظر في عيني الرجل متظاهراً بالاستهانة ثم سأله:

- أقرأتها؟
- نعم يا مولاي.
- مهاترات؟
- نقات شيطان رجيم.
- هل وُزعت على نطاق واسع؟
- على جميع من يعرفون القراءة في حارتنا.
- متى حدث ذلك؟
- لم أدرِ بها إلا اليوم.
- لقد تمّ الإفراج عن الأبالسة منذ عشرة أيام!
- أطرق الشيخ عمّار صامتاً فتساءل الشيخ محمود ساخراً:

- هل يجرنا ما جاء بها من الحياة أو يصدّ الحياة عنّا؟

- معاذ الله يا مولاي.
- نحن نعرف أعداءنا كما نعرف أصدقاءنا.
- ومضى يقرأ بسرعة وهو صامت وتندّ عنه كلمات من آن لأن.

- توجد مقدّمة، ما شاء الله، كما يليق بالكتب العلميّة، ماذا تقول المقدّمة؟... «الحقيقة هي الحقيقة، لا تحتاج إلى أسباب تبرّر نشرها على الناس، علينا أن نتقبّلها دون تحريف وبشجاعة تليق بالبشر وإنّ تغير أسلوب حياتنا ليتوافق معها، فنحن لا ننشرها بقصد الإساءة إلى أحد، ولكن إشاراً للحقّ ونشداناً للخير» ما شاء الله، أيّ حقيقة يا أوغاد؟ أبواب ثلاثة؟ أيّ أبواب أيّ اللثام؟ الباب الأوّل عن «البيت الكبير»، والثاني عن «الأكرم صاحب الطريقة الأوّل»، والثالث عن «السلوك في الأسرة الأكرميّة»، ما شاء الله... ما شاء الله...

وراح يقرأ مستغرقاً صامتاً والرجل يراقبه بإشفاق. وعلى حين بغتة هتف:

- اللعنة... الجحيم...
- ورجع إلى الأسطر وقتاً آخر ثمّ صاح بحق:
- الحمقى يتناسون أنّ الآلات الحادّة قادرة على تحطيم الجهاجم الخاوية إلا من ظلمات الكفر...
- وواصل القراءة بوجه مكفهّر وشفّتين قلقتين حتّى

متحدّية، وقد يما قيل أتق شرّ من أحسنت إليه، اللعنة! لم تعد الحارة بالحارة التي أولتنا الإمامة ولا الزمان بالزمان الذي طاب لنا، أكنت تنتظري يا شيخ عمّار؟ غمغم الرجل:

- نعم يا مولاي...
- ماذا أرى؟... إنّ وراء نظرة عينيك أنباء لا تعد بخير؟...
- حفظك الله من كلّ سوء يا مولاي.
- ماذا حدث؟ هل وقع انقلاب خطير في نظام الكواكب؟
- السديسا بخير، ولن ينال من كسالمها عبث الأبالسة...

تساءل الشيخ بضيق:

- ماذا وراءك يا رجل؟

- نحن قوم خلقنا الله لنواجه الشدائد بقلوب أشدّ منها.

فقال بجزع:

- هات ما عندك، كلّما استفحلت المصيبة كان الإيجاز أليق بها!

فقال الشيخ عمّار بعناد:

- ليس من الوفاء أن نخفي عنك أمراً باتت تلوكه السنة الكثيرين.

قال بنبرة غاضبة:

- تكلم.

- ثمة نشرة مطبوعة كتبت بمداد حقد أسود.
- نشرة مطبوعة؟
- نعم.
- للتشهير بنا؟
- ما يشهرون إلا بأنفسهم.

وأخرج من جيب جلبابه نشرة على هيئة كتاب بغير غلاف مطبوعة بالرنبوء، وسلّمها إليه مطرّقاً. تلقّاها الشيخ متجهّماً، تفحص صفحاتها الأولى، فرّها بسرعة، ثمّ عاد إلى صفحاتها الأولى.

- يا له من عنوان غريب، «ماذا يعرف عن الأكرميّة»، ولكن مندا الذي لا يعرف كلّ شيء عن الأكرميّة؟



- هتف: استمّد منه!
- أشهد الله أنّي قوّة إذا شاءت اقتلعت أعداءها الجبناء من جذورهم المغروسة في الطين... وانكبّ على النشرة بنظرات مفترسة وأسارير تنضح بالعنف حتّى قال بصوت متحشرج: إذن فلتتوقّف الأرض عن الدوران أو فلتندّر في عكس اتجاهها... رمى بالنشرة أرضاً. انتثر واقفاً. ورغم غضبه الأحمر بدا منهار القوى مهذّم البنيان. هروا إلى مدخل الحديقة. ضرب الأرض بقدمه. ثمّ رجع إلى موقفه مسدّداً بصره إلى الشيخ عمّار الذي وقف بدوره تأدّباً، وقال: - أيّ وقاحة، أيّ جنون، أيّ تجديف، أيّ دعارة! وكور قبضته ثمّ استرسل: - الهذيان لغة دارجة، درجة الحرارة الطبيعيّة هي درجة الموت، التاريخ قتل غيلة، المسك سمّ زعاف، الأضرحة الطاهرة متاحف حشرات محتنطة، لا أنت أنت ولا أنا أنا، ولا تعجب للدوابّ إذا زحفت عليك لتعلّمنا كيف يكون السلوك في هذه الحياة اللعينة! قال الشيخ عمّار بإشفاق: - نحن في موقف يقتضينا أقصى ما نملك من حكمة. - والجنون لماذا خلّق إذن؟ - مولاي، علينا بالحكمة التي نبشّر بها وألا أفلت منّا الزمام. - أيّها العجوز، لقد كنتّ الذي يحرضني وكنّت الذي يحذرك. - هذا موقف جديد لم يسبق لنا مواجهته من قبل. فلوّح بيده وهو يصيح: - الويل له... الويل لهم... نحن لا نعرف المجرم إلا... - إلّا؟ - إلّا الظنّ... - لا تغالط ضميرك. - عيون رجالنا في كلّ مكان فلننتظر. - سواد الكتاب برهان قاطع على مداد الحقد الذي
- الحكمة... الحكمة... - وندعه يقوم بيننا ساخرًا مجددًا؟! - لتلقّ الضربة بعقل ولندبّر بعقل آخر. - لو تفشّت هذه الأكاذيب لفضت علينا. - الأكاذيب لا تقضي على إنسان ولكن قد يقضي الإنسان على نفسه... صاح بغضب: - أكافح أنا أمواج الغرق العاتية على حين تجلس أنت على برّ السلامة تتغنّى بالأقوال الحكيمة! - أضرع إليك باسم صاحب الضريح ألاّ تقدم على خطوة إلاّ بعد امتحان وتدبّر وتفكّر. - لقد أذهلتك الضربة. فقال عمّار بهدوء: - سنضرب ضربتنا ولكن علينا أولاً أن ندرأ عنا الشبهات. - وكيف يتأتّى لي أن أمشي في الحارة مرفوع الرأس بعد اليوم؟ - المؤمنون بنا أضعاف الكافرين. - ولكنّ الكافرين أقوى على الشرّ. - لم يثن أوان المعركة بعد، علينا ألاّ نفرّد برأي، وعلينا أن نردّ على النشرة بالعلم واليقين فلن يبّد العراك ظلّمتها. فقال الشيخ متأوّها: - إجراءات من طبيعتها أن تطول أكثر من ليلتي الحالكة! فقال الرجل بدهاء: - المعركة قبل جلاء الحقّ اعتداء، ومن شأن الاعتداء الغاشم أن يُكسبهم عطفًا لا يستحقّونه، وسوف يشجّعهم ذلك على مقابلة الاعتداء بمثله وهم عدد لا يستهان به، ورجالنا ورجالهم في النهاية يتمون إلى هذه الحارة التي كُتبت عليها العناء... فتساءل في جزع: - متى وكيف نبدأ؟ فأجاب الرجل بعد تردّد: - هنالك رجل لا غنى عنه في هذا المأزق.

ابتسم الشيخ رغم غمّه وكمده وقال:  
- كأنك أصغر مني سنًا، إنك رجل سعيد، إنّي  
أغبطك!  
- خفّف الله عنك.  
- دعني أشكر لك تفضّلك بالمجيء في هذه الساعة  
من الليل.

فقال الشيخ تغلب بنفس البساطة والصراحة:  
- كنت من دعوتك لي على انتظارا  
صدمه قوله. أذى مشاعره. ولكنّه تساءل:  
- حقًا؟  
- نعم.  
- لعلّ النشرة بلغتك؟  
- نعم.  
فقال بكآبة جديدة:

- لا أجد لها أثرًا في وجهك الكريم!  
- أيّ أثر توقّعت؟  
- الأثر المنشود لدى إمام من أهل الطريقة.  
فارتفع صوت تغلب الصناديقي وهو يقول:  
- لم يعد للطريقة أهل!  
فانقبض قلب الشيخ محمود وقال:  
- الوقت غير مناسب لإثارة الخلافات القديمة.  
فقال العجوز بحدّة:  
- لم يبق من الطريقة إلا الأغاني والأذكار والنذور  
والعمارات!

- بقي الإيمان وهو كفيّل بتجديد الحياة في أيّ  
لحظة.  
- ليست الولاية أن ترث العرش ولا أن تقرأ كتب  
الأقدمين والمحدثين ولكنّها طريق طويل شاقّ لا يقدر  
عليه إلا أهل الإيمان الحقّ.

\*\*\*

- تزوّج، وابدأ الطريق، وألا فاتك قطار الرحمة  
إلى الأبد...

\*\*\*

- لم نتخلّ عن الإيمان ساعة، وهو يتبعنا كظلّ من  
العذاب، ولكننا وقمنا في أحابيل زمان عجيب.  
- أيّ زمان يمنع الرجل الصالح من التطلّع إلى

قطب الشيخ متمنّيًا:  
- الشيخ تغلب الصناديقي؟  
- نعم.  
فقال ممتعضًا:  
- لقد هجرنا منذ عهد بعيد، ورأيه فينا غير خافٍ  
على أحد!  
- أعلم ذلك يا مولاي ولكنّه ما زال إمامًا من أئمة  
الطريقة ولن يتردّد في الدفاع عنها بعلمه الغزير.  
تمهّد ثمّ قال:  
- عليك بإقتناعه بالمجيء إليّ...  
- سأذهب إليه مع الصباح الباكر.  
- اذهب إليه في الحال...  
- مولاي... لقد انتصف الليل.  
- اذهب إليه في الحال، وإن بدا منه اعتراض  
فذكره بأبي إمامه وصديقه.

أحنى الرجل رأسه ومضى والآخر يقول:  
- قل له إنّ رياحًا مليئة بالأوبئة انقضّت على  
الطريقة تروم اقتلاعها من جذورها المقدّسة.

«٤»

لاح في مدخل البهو. تقدّم متوكّنًا على عصاه بعد  
أن أوصله الشيخ عمار ثمّ ذهب، في جلباب أبيض  
بسيط ناصع البياض تطوّق وجهه الضامر الوضيء لحية  
بيضاء مسترسلة حتّى منتصف الصدر. ورغم طعونه في  
العمر تألّقت عيناه بحيويّة جذّابة ونشاط روحيّ أضفى  
على أساريه جمالًا يجمع بين النضارة والعتاقة اختصّت  
به الشيخوخة المستكنّة في أحضان البراءة والتقوى.  
هرع الشيخ محمود إليه فصافحه بحرارة وهو يداري  
حرجه بابتسامة ثمّ مضى به إلى الدبوان فأجلسه  
وجلس إلى جانبه. أرتج عليه القول لحظات ثمّ قال:  
- حللت أهلاً وسهلاً في بيتك بعد غيبة طويلة!

فقال الشيخ تغلب ببساطة:

- كتبت علينا التلبية عند النداء.

لم يرتح الشيخ محمود للإجابة تمامًا ولكنّه قال:

- أعترف بأنّ غيبتك إنّما ترجع إلى تقصيرنا.

فقال الرجل بصرحة:

- هذا حقّ!

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١١٧

- قلت إنني أعنيه حرفيًا.
- ضرب يداً بيد وصاح:
- إليّ بعقل جديد لاقترب من هذه الأحاجي!
- يلزمك عقل جديد حقًا...
- عمًا قليل سيعتلي الجنون عرش الطبيعة!
- لم يجذ جديد يدعو إلى ذلك...
- لقد اختلفوا الأكاذيب بغية القضاء علينا.
- لم يخلقوا أكاذيب ولكنهم عرفوا السبيل إلى مخطوطات قديمة بدار الكتب...
- زيفها ولا شك أعداء الأكرمية؟
- بل وضعها مريدون من أصدق المرشدين القدامى.
- مريدون صادقون؟... أنت تقول ذلك؟
- نعم...
- أكنت على علم بها من قبل؟
- نعم ولكني تكتمتها لاعتقادي بأنه قد يساء فهمها.
- لا أصدق أنهم كانوا مريدين صادقين.
- فقال الرجل بنبرة تنم على الاحترام:
- كانوا ثلاثة، الشيخ أبو كبير أولهم وقد عكف على دراسة بيوت الأكرمية، والشيخ الدرملّي ثانيهم، وكان حجة في معرفة رجال الأكرمية، والشيخ أبو العلاء ثالثهم وقد ولع بتاريخ أهواء القلوب.
- فصاح الشيخ محمود:
- أوغاد كذابون!
- بل مريدون صادقون، كان الأولان تلميذين للقطب الأكبر عبد الله الأكرم أما الثالث فكان مريدًا لوالدك رحم الله الجميع...
- لن أصدق أنّ الشمس تشرق من المغرب ولو أجمع على ذلك المريدون...
- إلى الشيخ أبو كبير يرجع ما ورد في النشرة عن البيت الكبير...
- فقال الشيخ محمود بهتق:
- هذيان ما يقول، من يصدق أنّ بيتنا هذا ما هو إلا فرع من فروع لا حصر لها من بيوت الطريقة لا أنه الأصل الذي انبثق منه النور؟!

## الأفق الأبدي؟!

- تنهّد الشيخ محمود قائلاً:
- ليتنا ننسى خلافاتنا في هذه الليلة المكثرة عن أنياب الشر.
- أنسيت أنني لم أرك مذ كنت شابًا وها أنت تناهز الأربعين؟
- قاطعتنا ونبذت عشرتنا يا شيخ تغلب.
- ذلك أنّي أضنّ بوقتي على غير الاجتهاد.
- لا يجوز أن تنقطع الأسباب بيننا...
- رحم الله أباك أما أنت فلم تُذكرني إلا حين هبت الأعاصير على مجدك!
- فامتعض الشيخ محمود وقال مصححًا:
- بل على الطريقة يا شيخ تغلب...
- الطريقة!... لقد تقوّضت على يديك.
- لن أناقشك ولكنّي أطالبك بواجب الدفاع عنها.
- ثمّ بتوكيد:
- إنك رجل القلم، مؤلف أشعار الأكرمية وفلسفتها والعالم بأسرارها وأول من بحث له الدفاع عنها.
- أقرأت النشرة؟
- قرأت نفاثات الأبالسة المدسوسة فيها.
- هزّ العجوز رأسه وقال:
- تريد أن أردّ عليها؟
- هذا ما أطلبك به...
- لا ردّ عندي عليها!
- ماذا؟
- نذت عن الشيخ محمود صيحة توجع وقطب غاضبًا ولكنّ الآخر قال بهدوء:
- ليس عندي ما أردّ به عليها.
- ماذا تعني يا شيخ تغلب؟
- أعني ما قلت حرفيًا.
- أتعني أنّ ما جاء بها حقّ؟!
- أجل يا مولاي.
- ضحك ضحكة جافة باردة وحلق في وجه العجوز بدهول.
- إنك لا تعني ما تقول...

- وللى الشيخ الدرملّي يرجع ما ورد في النشرة عن القطب الأوّل، جدك الإمام الأكرم.  
فقال الشيخ محمود بحدّة:  
- ذاك الذي رام نُسف الأكرم نسفًا.  
- ليس في وسع إنسان أن ينسف مولانا الأكرم.  
فقال الشيخ محمود برجاء:  
- إذن فأنت تؤمن بكذب ما جاء عنه في النشرة؟  
- كلاً  
تلقى الطعنة في صميم قلبه وهتف:  
- يا للفضاعة يا شيخ تغلب، ألم تعد تؤمن بأنّ الأكرم جاء مصر بين يدي سلسلة من الكرامات؟  
فلاذ الرجل بصمت قاس مغلق المنافذ حيال آية رحمة.  
- أتصدّق أنّ القطب الأعظم جاء مصر هاربًا عقب ارتكاب جريمة شنعاء؟  
لم يخرق العجوز عن صمته الرهيب القاتل.  
- وأنّ اسمه الذي عُرف به ها هنا وهو الأكرم محوّر عمّا شهر به في الخارج وهو المجرم؟  
أصرّ العجوز على صمته فقال الشيخ محمود يائسًا:  
- وأتّه جاء الحارة أشعث أغبر عاري الجسد لا يختلف شيئًا عن الحيوان الأعجم؟  
وتبادلا نظرة طويلة وهو يلهث ثمّ سأله متحدثيًا:  
- أتصدّق ذلك عن مولاك الأكرم؟  
عند ذلك تتمم الشيخ تغلب الصناديقي:  
- ما أجمل الهدى بعد الضلال، ما أجمل الاستقرار بعد التشرّد، ما أجمل الجلال بعد البهيمية، إنّه مولاي الأكرم الذي بلغ بجده المراد وكفى!  
صاح الشيخ محمود:  
- كذب، افتراء، إلحاد، حسد، حقد، من أولئك الثلاثة خُلقت ذرّيّة الأبالسة التي تعيث في حارتنا فسادًا...  
- مأساتك الحقيقة هي الكبرياء والغرور...  
- أبالسة من ذرّيّة شياطين...  
- لم تحسن معاملتهم كما ينبغي لرجل من رجال الطريق.  
فهتف مكورًا قبضته في غضب:

- لم يقصد الخطّ من بيتكم، كلاً، عني بدراسة بيوت الطريقة الأكرمية فسافر من أجل رسالته إلى الشام وشمال أفريقيا وإيران ثمّ قرّر الحقيقة التي لا ضير منها وهي أنّ هذا البيت الكبير ما هو إلّا مقام أنشأه الأكرم، بيت من مئات البيوت التي سبقته إلى الطريقة، بل هو آخر بيت وصل إليه النور والهدى...  
- يا للفضاعة...  
- قل يا للحقيقة!  
- جدّي هو مؤسس الطريقة وبيته هو الأصل والمركز.  
- إنك غاضب للكبرياء لا للطريقة، طريق الله مفتوح للجميع، وشرف العزّة فيه للواصلين مهما يكن موقعهم.  
فهتف محمود وكأنما يخاطب نفسه:  
- الهواء يخنفي ليحلّ محلّه الحزن، ولن يوجد بعد اليوم مبرّر لكي يحافظ العاقل على عقله ولا لبرء المجنون من جنونه.  
- تأمل ولا تحزن، كم صادف أبو كبير في تجواله من بيوت ظنّ أصحابها أنّهم الأصل والمركز.  
- ودّ أن يضيع في زحمة لا نهائية!  
- النور لا يضيع أبدًا ولا يفي...  
- إنك تسلبني العزّة لتنهني بلاغة لفظية.  
- إنك تعاني لأنك لم توجه إلى الطريق قلبك...  
لم يشغله إلّا الجاه. جاء وريث البيت الكبير، أمّا الأكرم نفسه فقتنع بأن يقبس من النور شعلة أصلها في هذه الحارة التي أصبحت بفضلها مباركة...  
قطب الشيخ محمود وقال:  
- سوف يحتاج الناس لرؤيتنا إلى مجهر كبير!  
- المهمّ أن يروا شيئًا يستحقّ الرؤية...  
قام الشيخ محمود فذهب إلى باب السلامك ثمّ رجع وهو يتنفس بعمق. وترامى من الحارة صوت يصيح كالمستجير « يا سيدي الأكرم على بابك، فضحك الشيخ ضحكة قصيرة لم تنبسط لها أساريه إلّا لحظة ثمّ عادت إلى اكفهرارها. أمّا الشيخ تغلب فقال:

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١١٩

- فصرخ الشيخ محمود:  
- ذلك الداعرا  
قال العجوز بإشفاق لأوّل مرّة:  
- كان خادمًا في البيت الكبير قبل أن تولد...  
- داعر ماجن سافل!  
- الحقّ أنّه اجتهد فصار من المريدين.  
- كلماته تقطع بأنّه قوَاد أو منحرف.  
- لم يقصد الإساءة صدّقني!  
- ذاك الوحش الذي يتلذذ بتمزيق الأعراض!  
- كان يؤمن بأنّ الطريقة حبّ خالص فتابع الحبّ في جميع أحواله!  
- ذلك الداعرا  
- كان الحبّ همّة الأوّل والأخير، وآمن بأنّ في قلب كلّ إنسان بذرة حبّ إلهيّة مهما يكن من مساراتها فهي تتجه في النهاية إلى الحبيب الأوحدا  
- يا شيخ تغلب إن هي إلا أكاذيب افترت بقصد القضاء على أسرتنا المجيدة!  
- لو وهبت الطريق قلبك ما أكربتك الوسوس ولا اهتزت شعرة في رأسك لأقاويل الناس.  
- يا ويلي من الذين ينثرون لي الحِكم وأنا أحترق في الجحيم!  
- لو عاصرك الرجل لوجد عندك مادة لكتاب قائم بذاته.  
فقال غاضبًا متحدّثًا:  
- إيّ رجل محمّل بالخطايا ولكني أنتمي إلى أسرة طاهرة مقدّسة، وما أصحابك إلا دجالون مجرمون.  
- لقد صارحتك بما عندي، هو الحقّ والصدق، ليس فيه ما يزري بقيمة حقيقيّة، ولا ما يسدّ الطريق في وجه مؤمن، وكما ترى لم يتزعزع لي إيمان بالطريقة ولا بصاحبها رضي الله عنه.  
- سأقدّم لك الدليل على كذبهم.  
ومضى نحو الباب المفضي إلى الداخل ونادى بأعلى صوته:  
- يا أمّ هاني... يا أمّ هاني.  
ثمّ التفت إلى العجوز قائلاً:  
- إذا ثبت كذب أحدهم انهار البناء من أساسه.

- أنصاف مجانين يملمون بإبادة الصالحين من البشر.  
- ماذا صنعت من أجلهم!  
- قدّمت الحلم حيث كان يجب أن أقدم العصا  
- ثمّ دسست من وشى بهم إلى السلطة!  
- لقد ترامت أصواتهم المزعجة إلى مراكز الأمن دون حاجة إلى وشاية!  
- لقد زاروني، حدّثوني عن العِلْم الذي يؤمنون به فحدّثتهم عن العلم الذي أوّمن به، تبادلنا الاحترام طيلة الوقت، قلت إنّ العالم من رجال الله إلا إذا أراد أن يكون من رجال الشيطان، قالوا ليس من أهل الطريق من يلهج بالفسق والجشع فقلت ولا من العلماء من يهب قدراته للدمار!  
وراح الشيخ محمود يحدث نفسه:  
- كذب، افتراء، حقد أسود...  
- قرّب التفاهم بيننا حتّى فرّقت بيننا الشرطة!  
فصاح الشيخ محمود بغضب:  
- الويل، لن يبذد ظلمات الأكاذيب إلا الضربات الحاسمة.  
- العراك سلوك غير جدير بأهل الطريق!  
- إن صدق ما قال أبو كبير والدرميّ فلا طريق هناك ولا طريقة...  
- بفضل اكتشافاتهم وضح الطريق...  
فقال الشيخ محمود ساخراً:  
- إيّ أرتدي البدلة وما عليّ إلا أن أنزع العمامة...  
- لقد وضعتك الحقائق في موضع الامتحان فاختر لنفسك ما يجلو لها!  
- لا اختيار هناك، إنّه طريق ذو اتجاه واحد.  
ثمّ خاطب نفسه:  
- ويل لي من العذاب الذي يتبعني كالظلّ...  
ويل لي... وطوبى للذين يعيشون بلا ضمائر...  
فصل بينها صمت كالجدار، وطال الصمت حتّى قال الشيخ تغلب:  
- وإلى الشيخ أبو العلاء يرجع ما ورد في النشرة عن السلوك...  
عن السلوك...

رغبة .  
 - لا أفهم عمّ تتكلم يا بني؟  
 - لا شك أنك تندكرين عمّي؟  
 - طبعًا، يرحمها الله...  
 - حدّثيني عنها.  
 - أنت تعرف كلّ شيء عنها، ليرحمها الله.  
 - دعيني ممّا أعرف وحدّثيني عمّا لم أعرف.  
 ارتسم القلق في صفحة الوجه الضامر وقلقت  
 شفثاها دون أن يندّ عنها صوت.  
 - إنّها لم تمت كما قيل يا أمّاه.  
 - ليرحمها الله.  
 - لم تمت، لا فائدة من الإنكار، عشرات وعشرات  
 من أبناء حارتنا يعرفون اليوم الحقيقة فلا جدوى من  
 إخفائها.

هتفت المرأة مستغربة:  
 - أبناء حارتنا؟  
 - نعم، إنهم يقرأون مغامراتها بشغف شيطانيّ  
 ويتندّرون بها...  
 - لا أفهم شيئًا.  
 - ألم تسمعي عن الشيخ أبو العلاء؟  
 - رضي الله عنه.  
 - فلتمزقه أيدي الأبالسة في الجحيم الأبديّ.  
 - يا ربّ السماوات!  
 - تكلمي يا أمّ هاني.  
 - لمّ تفسد الطيبات التي أنعم الله بها عليك؟  
 - استحلّفتك بالله... بأبي... بمولانا الأكرم.  
 - لا تحفر في الماضي الذي مضى.  
 - أحقّ ما يقال من أنّها عشقت في شبابه ضابطًا  
 إنجليزيًا؟

- يا أطفاف الله .  
 - وأنّها هربت إليه بليل ثمّ رحلا ممّا إلى إنجلترا؟  
 تراجعت العجوز في فزع، تمتمت:  
 - من... كيف... ارحم نفسك يا بنيّ.  
 - هل مرقت من دينها حفيدة القطب الأعظم؟  
 - اللّهمّ ارحمنا.  
 - كذبيني إن استطعت.

ولكنّ الشيخ تغلب قام وهو يقول أسفًا:  
 - أستودعك الله، لا أحبّ أن أقوم بينك وبين  
 مرّيتك، إن وجدت جديدًا فاستدعني، ودعني أقول  
 لك مرّة أخرى «تأمل ولا تحزن وابدأ طريقك».  
 قال العجوز ذلك ومضى نحو الباب الخارجيّ، على  
 حين تحوّل الشيخ إلى الداخل وهو يصيح:  
 - يا أمّ هاني... يا أمّ هاني...  
 «٥»

انتظرها في الردهة المفضية إلى بهو الاستقبال ثمّ  
 قادها من يدها إلى المكان الذي أخلاه الشيخ تغلب  
 الصناديقي. انسابت آثار النوم في تجاعيد وجهها  
 وعينيها الكليلتين وجعلت تتشاب بصوت كالأنين وهي  
 تتساءل:

- كم الساعة الآن؟  
 - نحن في أواخر الليل يا أمّاه.  
 - وماذا يبقيك مستيقظًا حتّى الآن؟  
 - إنّها ليلة لم تُخلق للنوم فيها أرى...  
 - لمّ والعياذ بالله؟  
 لتفكّر حائرًا من أين يبدأ ثمّ تتمم:  
 - دعوتك لأمر هامة فأصغني إليّ جيّدًا وافتحي لي  
 قلبك بلا تردّد...  
 - ليكن ما دعوتني من أجله.  
 - الخير يتوارى هذه الأيام في بطون الزواحف  
 السائمة.  
 - ماذا بك يا بنيّ؟  
 - لقد عاصرت أبي وأمّي وعمّي، ربّيتنا جميعًا  
 وأرضعتنا.  
 - ليمدّ الله في أعمار الباقين وليرحم من انتقلوا إلى  
 جواره.

فجلس إلى جانبها وهو يقول:  
 - أطالبك بالصدق والصراحة ولو زلزل ذلك  
 السماوات السبع، سنعود ممّا في رحلة طويلة إلى  
 الماضي.  
 - الماضي؟  
 - أجل، الماضي، الماضي الذي يتوارى بمكر أحيانًا  
 كاللصّ ولكنه لا يموت، ثمّ يُبعث بغير دعوة ولا

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٢١

حارتنا.  
 - كيف تفتح أبواب الجحيم بيديك؟  
 - لقد فتحتها الزبانية.  
 انتحبت أم هاني بحرارة فقال:  
 - لا تبكي، لا فائدة، ولكن تكلمي.  
 فهتفت:  
 - ليقطع لساني إن نطق بسوء.  
 - لقد لعبت البنت لعبة غير لائقة مع خادم،  
 كذّبي إن استطعت.  
 - اللهم احفظنا...  
 - لعبة ليست غريبة في هذا البيت، فقد لعبتها أنا  
 مع أخريات، هكذا يتلقانا الشيطان جيلاً بعد جيل.  
 - يا رب عفوك ورضاك!  
 - لا شك أن أبي حزن حزناً بليغاً، أخته فابنته ثم  
 ابنه، لعله تساءل طويلاً عن سرّ عذابه، ترى ماذا كان  
 يقول في خلوته؟  
 - كما يجدر بالمؤمن الصادق.  
 - ولا شك أنه عانى كثيراً قبل أن يعثر لها على زوج  
 مناسب!  
 تنهدت المرأة قائلة:  
 - لقد قصرت عمري يا بني.  
 - كلانا يتلقى الضربات يا أمه.  
 وغشيتها صمت غير قصير، ثم قادها إلى الداخل  
 كما جاء بها وهو يقول:  
 - سامحي، لقد حملتك من العذاب ما لا طاقة لك به.  
 ولما رجعت إلى البهو وجد الشيخ عمّار في انتظاره.  
 وقفا متقابلين يتبادلان النظر، ثم قال الشيخ عمّار:  
 - أن لك أن تنام يا مولاي.  
 ضحك الشيخ ضحكة لا حياة فيها فقال الشيخ  
 عمّار:  
 - فلنفكر ملياً ثم نشرع في العمل بلا تردّد.  
 فلوح الشيخ محمود بيده في غضب وصاح:  
 - يا شيخ عمّار... لا تحدّثني بلغة الحكماء،  
 فلستُ حكيمًا، إني مجرم تجري الجريمة في عروقه منذ  
 القدم، شدّ على قبضتك... أشحذ سلاحك. سدّد  
 ضرباتك، نحن نخوض معركة حياة أو موت نحتاج

أغمضت المرأة عينها في حزن وياس:  
 - أكان بعض كبار الإنجليز يُدعون إلى بيتنا هذا  
 على عهد أبي؟  
 - كان له أصدقاء منهم ولا عيب في ذلك.  
 - ولكنّ أحد أولئك الأصدقاء الكرام انقضّ على  
 أخته فطار بها.  
 - قلبي يتقطّع يا بني.  
 - تمثّيت أن تكذّبي ولكنّ الحقيقة كالموت لا  
 مهرب منها ولا نجاة.  
 وهزّ رأسه في ياس ثم عاد يقول:  
 - وقيل وقتذاك في الحارة إنّها سافرت للعلاج ثم  
 أذيع بعد ذلك أنّها غرقت في البحار فأقيم مأتم أمه  
 المريدون وغيرهم من أبناء حارتنا الطيبة الساذجة، كان  
 أيّ شيء يجوز على حارتنا التي لم يعد يجوز عليها شيء.  
 أطرقت المرأة حتّى خيّل إليه أنّها نامت أو ماتت. لم  
 يجد في قلبه قدرة على العطف ولكنّه قال:  
 - لا تؤاخذيني على إزعاجك، أنت أم الأسرة  
 وسرّها، وحولك تنفجر أحداث مفعجة فلا مفرّ من أن  
 يصيبك رشاش منها!  
 وكان يغوص في ظلمات اليأس بلا توقّف بيد أنه لم  
 يجد بدأ من السير في طريق الأحزان حتّى نهايته. قال  
 لها:  
 - حدّثيني الآن عن أختي رشيدة!  
 رفعت المرأة رأسها في فزع.  
 - لا تجزعي فلا يخفى اليوم سرّ.  
 - لتبعد عتّا الشياطين!  
 - لكنّها تزحف علينا من جميع الجحور.  
 - كُفّ عن هذا العذاب.  
 - لقد خلقت هذه الليلة للعذاب.  
 - كآتي لا أعرفك يا بني.  
 - ولا أكاد أعرف نفسي ولا طريقي ولا حارتي،  
 ولكن قيل لآبي مجرم من سلالة مجرمين.  
 - بني!

- حدّثيني عن أختي رشيدة، لا تخافي عليها، إنّها  
 تعيش اليوم في كنف زوج كبير المقام في أقاصي  
 الصعيد، ولكنّ سيرتها الخفيّة يقرأها المطلعون من أبناء

- لقد جئت...  
ولكن غلبه الانفعال فسكت. تركّزت عليه النظرة  
الجافة الباردة دقيقة كاملة ثم سأله:  
- ماذا تريد؟  
- أنت أدري بما دفعني إلى المجيء؟  
- لا تضيّع وقفي بالأغاز.  
- رجالكم يتحرّشون بنا في كلّ موضع.  
- أكنت تتوقّع عاقبة أخرى؟  
- كنّا نتوقّع مناقشة تهيئ للجميع توازنًا ونقاء  
- أصبح في كلّ بيت شقاق، وأنتم أصل البلاء  
والفتنة.  
- ما أردنا إلا...  
فقاطعه بحدة وازدراء:  
- لقد عرفتم منّي جانبًا لينا ولكي أملك جانبًا آخر  
وعرًا...  
- سيدي...  
فقاطعه للمرة الثانية وبعمق أشد:  
- إن من يتحدّى المقدّسات مثلك لا يليق به أن  
يكون جبانًا!  
- لست جبانًا وليس فينا من جبان!  
- إن من يدسّ إلى الناس نشرة ملأى بالافتراءات  
جبان.  
- ليس فينا من جبان، وإذا تمادى رجالكم في  
التحرّش بنا فقد تعصف بحارتنا مأساة مؤسفة!  
- أمهدّني؟ افعل ما بدا لك، وستنال التأديب  
الذي تستحقّه...  
- ليس نشر الحقائق جريمة، ونحن لم نقصد بنشرها  
إلا الخير!  
- احسّ أيها الوغد الكذاب!  
- لقد اكتشفها رجال من طريقكم يُعدّون من  
الأئمة.  
- لم يكونوا إلا أوغادًا مثلكم ومنذ قديم وأسرتنا  
هدف القلوب السوداء الحاسدة.  
- لا تنظر إلى الخلاف من هذه الزاوية.  
فقال بكبرياء وحنق:  
- اعرف نفسك واعرف من تخاطب.

إلى الدهاء والقسوة والعنف لا المآثورات الجميلة. إنك  
تغلب ماكر وإنّي لفي حاجة إلى كلّ نقطة مكر في  
صدرك، لا تمنّ بالمحافظة على المظاهر الرقيقة فقد  
فاحت روائح الباطن الكريمة، إليّ بجميع الشياطين  
التي تقيم في هذا البيت واستعر من تستطيع من  
شياطين الحيّ كلّ، كفك خداعًا بالفضائل  
الكاذبة... واستخرج من قبور قلبك الرذائل الرائحة  
المخلوقة أصلًا للكفاح والنصر، لتتصرّف بسرعة...  
وبقوة... وبلا رحمة، ليكن سلوكنا كما ينبغي لأناس  
سادوا بعد هرب موفّق من مسرح جريمة بشعة... ثمّ  
هاموا على وجوههم كالوحوش يأكل بعضهم بعضًا.  
ولما شيّدوا من أسلاب الضعفاء قصرًا جعلوه ميدانًا  
للألعاب الحسة والفسوق، يا شيخ عمّار هلّم إلى ساحة  
الغدر والجريمة والعنف.

«٦»

- الحال خطيرة، وستزداد مع الأيام خطورة!  
قال الشيخ عمّار بذلك للشيخ عممود وهما يقفان  
مستقبلين الحديقة في ساعة الأصيل. تجاهل الشيخ  
عممود قوله رائيًا إلى الحديقة ثمّ قال:  
- ما أهدأ ساعة الأصيل!... كأنها الوقفة الصامته  
بين الشهيق والزفيرا  
- لن تعرف حارتنا الهدوء بعد اليوم.  
فقال الشيخ عممود بحدة:  
- لم يبدأ الشرّ من جانبنا.  
- هذا حقّ ولكن وقع اعتداء على بعض رجالنا  
الطيبين.  
- شرّ لا مفرّ منه أمّا الأبالسة فقد اجتاحتهم  
العاصفة.  
ابتسم الشيخ عمّار قائلاً:  
- عليهم اللعنة، ولكن هل تأذن له يا مولاي؟ لقد  
تركناه ينتظر طويلًا!  
- إنّي أمقته ولكن فليحضرا  
غادر الشيخ عمّار وهو الاستقبال وما لبث أن دخل  
عليّ عويس. جاء بوجه متجهّم فلاقاه الشيخ بنظرة  
جافة باردة. حيّاه الشابّ بالسلام فردّ الشيخ بغمغمة  
ولم يمدّ يده. قال الشابّ:



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٢٣

- أتعتزني بأبي؟  
- أفهم ما تشاء.  
- كان رجلاً شريفاً.  
- كان رجلاً حفيراً.  
هتف الشاب بغضب:  
- لم يرتكب جريمة...  
- لعله كان أحقر من ذلك.  
- ولم يلوث الدنس بيته.  
جنّ جنون الشيخ. همّ بضربه. كبح جماح غضبه  
متراجماً في اللحظة الأخيرة. قال:  
- في بيته الحفير ترعرعت جريمة الكفر.  
- أشياء تسمى بغير أسائها.  
- وفي بيته أيضاً دنس خفي لم يجد من يعنى بنشره  
لحقارته...  
صاح الشاب:  
- لا تهجم على الشرفاء.  
أعماه الغضب تماماً فصاح بدوره:  
- ما أبعدك عن الشرف!... سَلْ أحتك عن  
معنى الشرف.  
فصرخ عليّ عويس:  
- أحتي أشرف من أسرتك!  
وقبل أن يتمّ جملته هوت على صدغه لكمة. قبض  
على يد الشيخ. تلاهما بعنف غير متوقع. صاح  
الشيخ:  
- أتعندي عليّ في داري؟  
وإذا بالشيخ عمار يندفع داخلاً متبوعاً بعدد من  
الخدم فانقضوا على الشاب، قبضوا عليه، أسكتوا  
مقاومته، ساقوه إلى الخارج وهم ينهالون عليه ضرباً.  
وأخذ الشيخ يسوي هندامه وهو من الغضب في  
نهاية. وجعل يذهب ويحيي ويحدّث نفسه لاعتنا  
متسخطاً. وحانت منه التفاتة نحو مدخل البهو فرأى  
زينب! تسلّلت الدهشة إلى بركان غضبه. رماها بنظرة  
قاسية. اقتربت متمهّلة في إشفاق حتّى وقفت في وسط  
البهو. لم يردّ لها تحية ولم يدعها إلى الجلوس.  
- معدرة... لقد اندفعت إلى الداخل بغير  
استئذان...
- سألها بجفاء من خلال غضبه المشتعل:  
- ماذا تريدين؟  
- علمت بمجيء أخي فقررت أن الحق به...  
- رأيته وهم يخرجونه؟  
أجابت بقلق:  
- كلاً... ماذا حدث؟  
- أكنت تتوقّعين لقاء أفضل بيني وبينه؟  
- كلاً. ولكن لا بدّ من كلمة تقال.  
- تتكلمين هذه المرّة بأدب يقطع بشعورك بالإثم.  
- لا بدّ من كلمة تقال.  
- أيّ كلمة؟  
- أعني بسبب الأحداث المحتدمة في حارتنا...  
- بسبب سفاهتهم شبّبت النار في كلّ بيت.  
- ولذلك لا يجوز السكوت...  
- ماذا تريدين؟  
- ينعقد الرجاء الآن على الحكمة.  
- فات أوان ذلك ولم يبق إلاّ التأديب والردع.  
قالت زينب بإشفاق:  
- إنه يعني الهلاك للجميع!  
- بل الهلاك للمجرمين وحدهم.  
تردّدت ثمّ قالت:  
- ولتكنك...  
وتوقّفت لحظات كأنها تعاني ضيقاً ثمّ قالت غاضبة  
البصر والصوت:  
- ولتكنك الأب الروحي للجميع!  
تجلّت في عينيه قسوة بالغة وقال:  
- تنطقين عن كذب وضيع، إنّي أحتقر جبنك!  
خرس لسانها تحت وطأة الضربة المهينة فقال  
بسخرية:  
- كأنما تعترفين بجريمة مخزية!  
جمعت أطراف شجاعته لتقول:  
- ولكنّ مركز التقليديّ في الحارة حقيقة لا يمكن  
إنكارها!  
- لا تتمادّي في الكذب دفاعاً عن أخيك...  
- لعلّ الأمر أصبح أكبر من ذلك...  
- لا تصرّي على الكذب، لا يهّمك إلاّ أمره

- وحده، ألم تطلعي على نشرته المسودة بمسداد الحقد؟ ...
- لم تنبس بكلمة فقال بحق:
- إنك وراء ذلك كله كالدمل الكامن وراء أوراخ نحيبة ...
- ليكن ظنك ما يكون ولكن نصف الحارة يتحرش بنصفها الآخر، ثمة عواقب وخيمة تتجمع في الأفق.
- إني مؤمن بأنك وراء كل مقت في هذا الخصام الويل.
- لقد ذهب سوء الظن بك بعيداً ...
- لا أشك في أنه ورث حقه الأعمى عليّ من حقدك الأبدى ...
- فليساعك الله ...
- ضرب الأرض بقدمه وهتف:
- ليس من حقدك أن تلعب دور الضحية البريئة، لم تكوني ضحية قطاً
- ثم رماها بنظرة تمحّد وهو يقول:
- لقد كان ما كان وأنت في كامل اختيارك ا فتساءلت بفرح:
- ماذا يرجعك إلى ماضٍ مضى وانقضى؟
- إنكم تهاجمون الأعراض وتنسون أنفسكم، فدعيني أذكرك بما كان، وبأنك لم تكوني ضحية لأحد، ولكنك تصرفت كما يجدر بامرأة مستهترّة!
- فهتفت:
- يا لك من رجل لا يفرق بين أنبل المشاعر وأحظها!
- فتمتم بحقد وغضب:
- مستهترّة، أجل، مستهترّة!
- فغلبها الغضب على حلمها وصاحت:
- يا لك من رجل حقيراً ...
- مرّقي ستار الأدب الزائف، واكشفي عن الحقد المخزون في أعماقك، يا بس الصغيرات اللاتي يتلقين العلم على يديك!
- مجرم عريق في الإجرام!
- ارجعي إلى بيتك، وانزوي في ركن مظلم متلفعة بعارك ...
- أيها الوغد.
- اعترفي لأخيك بعارك ليكفّ عن الخوض في سيرة الأعراض!
- لقد جُننت أو أنك على وشك الجنون، هي النهاية ولا رادّ لها.
- لقد حزّ في نفسك يوماً أن أرفض الوقوع في فخّ الزواج الذي نصيبه لي، حزّ في نفسك أن تنفرد بعارك كامرأة عانس، ولعلك توهمت أنك تشارين لنفسك بنشر الأكاذيب عن أعراض الشرفاء.
- ليت مرديك يرونك وأنت على هذه الحال.
- ليتهم رأوك وأنت ترسمين الخطّة الحمراء لتكوي زوجة لخليفة الأكرم.
- ماذا أقول لرجل لم يشعر قلبه بقيمة نبيلة قطاً؟
- ماذا أقول لرجل يستمدّ معارفه عن النساء من دنيا الساقطات المحترفات؟ ماذا أقول لرجل خسيس يخطر في لباس شيخ طريقة؟
- لبت يرميها بنظرة قاسية متشعبة، ونوازع الشرّ المتضاربة تقلقل عينيه. وأخيراً قال كمن يودّ التخلص منها:
- اغربي عن وجهي، حتى أخوك كان دونك وقاحة ...
- ففرقت في صمت ثقيل لا تنبس بحرف.
- اغربي عن وجهي!
- تهتدت وقد تمكّنت مشاعرها، وقالت:
- ماضينا لا يهمّ سوانا، أما الهلاك فلإنه يهدّد الجميع!
- عودي إلى بيتك.
- لنرجع إلى الحديث الأهمّ.
- عودي إلى بيتك.
- فقالته يهدوء نسبي:
- لم أجدني أصلاً للشجار ولكنك أنت الذي دفعتني إلى الجنون.
- هو خير على أيّ حال من الكلمات الخانعة ذات الطلاء الكاذب ...
- أسأت فهم مقصدي ...
- لن تُهدر حياتي بلا ثمن، ألم يقل أخوك إنني بلا

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٢٥

- أيّ قولاً... آية لعبة!
- مضت تجفّف دموعها. اعتدلت في جلستها. لم ترفع عينيها عن الأرض.
- ابني؟
- همست:
- نعم.
- كلاً...

\*\*\*

- أني...
- لم تشيرين إلى بطنك؟ آه... كلاً.
- بلى.
- ألم تأخذي حدرتك؟
- رغم ذلك حصل.
- تصرّفي... إنك أدرى بهذه الأمور.
- إني خائفة يا محمود.
- تصرّفي وإلا ساءت العاقبة.
- لا تكن قاسياً.
- لست قاسياً ولكن عليك أن تتصرّفي.

\*\*\*

- لكنّها الحقيقة.
- قول يخرق المعقول، إنّه أخوك، فكيف أصدّق أنّه ابنك؟!
- ولم أدعي ذلك اليوم بعد سكوت عشرين عاماً؟
- قال بارتياح:
- لعلك تتصوّرين أنّ...
- فقاطعت قائلة:
- إنّه ابنك وكفى، لن يغيّر جدل من هذه الحقيقة!
- هل علم بذلك؟
- كيف تتخيّل ذلك!
- ولا أحد غيره؟
- كلاً، وقعت في المازق عقب وفاة أبي بأيّام، أعلنت المرحومة أمي أنّها حبلى، أقمنا زمناً عند جدّي بالمرج حتى وضعت، ثمّ عدنا إلى حارتنا وهي حامله ابني باعتباره ابنها هي...
- تنفّس بعمق وهو لا يحوّل عنها عينيه وتمتم مذهولاً:
- ابنك وابنها!

- أصل ولا شرف؟ حسن، سأعامله كما يليق برجل لا أصل له مثله ولا شرف له مثل أخته!
- أحنت رأسها في حزن شديد. غلبها الإعياء فاضطّرت إلى الجلوس الذي لم تُدعِ إليه. هزّ منكبيه باستهانة وهمّ بالذهاب إلى الداخل وهو يقول:
- خذي راحتك ثمّ اذهبي.
- غالبت ضعفها الطارئ فقامت قائلة:
- انتظر...

فتحرّك وهو يقول:

- لا وقت عندي لمهاترات النساء.
- آجلاً أو عاجلاً ستوعز بقتله.
- قلت لا وقت عندي.
- أعلم أنّه في مقدرتك أن تقتله وأنت آمن.
- ولما لم يتوقّف اعترضت سبيله قائلة:
- انتظر.
- ابعدني عن طريقي.
- أصغِ إليّ.
- كفافك ثرثرة...

ونحّاهما جانباً وسار نحو الباب الداخليّ فهتفت:

- إيّاك أن تمسّه بسوء، أسمعني، إنّه...
- وغصّت بعبرة ولكنها صاحت بصوت خشن متهدّج مختنق:
- إنّه ابنك! من لحمك ودمك...

«٧»

تسمّر الرجل في مكانه. استدار بعنف، عنف غاضب دارى به فرحاً لم يستطع إخفاءه. تراجعت المرأة إلى الديوان فارتمت فوقه ثمّ استسلمت لموجة عاتية من النحيب. تبعها مهرولاً. وقف أمامها يحمق فيها يودّ أن ينفذ إلى أعماقها.

- ماذا تقولين؟

ولكنّ البكاء المتدفّق لم يمكّنها من النطق.

- ماذا قلت؟ أجيبني من فضلك؟

رغم مغالبتها للبكاء لم تغلبه بعد فعاد يتساءل بنفاد:

صبر:

- ابني... ماذا قلت؟

حرّكت رأسها بالإيجاب دون أن تنبس.

- لم أتصوّر أنني سأبوح بسرّه إلى أحد ولكنتك دفعتني إلى ذلك دفعًا.
- أأنت في كامل قواك العقلية؟
- ليتك كذلك؟
- أتريديني على أن أصدّق أنّه ابني وأتني أبوه؟
- هي الحقيقة التي لا مفرّ منها.
- رفع الرجل رأسه هاتئًا:
- ما أعجب هذه الحارة! تنام أعوامًا نوم الأموات ثمّ تتفجّر بها شواطئ العجائب كالشهب المجنونة في ليلة واحدة بغير حساب!
- لا مفرّ من الحقائق، ستطاردا اليوم أو غدًا. . .
- لا شيء هو هو، السماء فوقنا وتحتنا في آن، ماذا يجدر بنا أن نفعل؟
- قالت متأوّهة:
- لم يجز لي في خاطر أنّه سيفقد أمامك متحدّيًا ولا أنّك ستجيبه مهدّدًا بالموت!
- لقد ترامت إليّ قذائفه قبل أن أسمع باسمه.
- شدّ ما أزعجني ذلك.
- قال وكأّنه يخاطب نفسه:
- كم حيرتني عيناه! كم عانيت من تناقض العواطف في أول لقاء، ولكن... ربّاه حذار من الخداع يا زينب!
- أف... تخلّ عن شكوك سخيفة لا مبرر لها.
- فهزّ رأسه مغمغمًا:
- إذن هو ابني!
- ثمّ واصل هزّ رأسه قائلاً:
- وأنا أبوه... .
- وتنهّد من الأعياق وقال:
- فلاسلّم بهذه الحقيقة، سيلزمني دهر لضمها، ولكن عليّ أن أسلّم بها... .
- والتفت نحو المرأة متسائلًا:
- كيف ولدت الكراهية في قلبه نحوي؟
- لا أدري... .
- لعلّه لم ينشأ نشأة دينيّة صادقة؟
- نشأ متديّنًا ولكنّه... .
- ولكنّه؟
- عانى وما زال يعاني حياة فقيرة مريرة.
- هو حال الأكثرية الساحقة في حارتنا.
- ولكن يحدث أن يتنبّه إلى الفوارق في المدرسة، ثمّ تصادفه كلمات هنا وهناك فيقرأها باهتمام يفوق الحدّ، ويكثر من التساؤل والنقاش، ثمّ يلقي نظرات غريبة على البيت الكبير، ثمّ تنزل الأرض ويخلق شخص جديد!
- فتفكّر مليًا ثمّ تساءل:
- ترى هل يتقلب إذا وجد نفسه فجأة في البيت الكبير؟
- فسألته فزعة:
- فيم تفكّر؟
- إنّه محض سؤال!
- حسن، عهدته يفكّر في الآخرين أكثر ممّا يفكّر في نفسه، أو قلّ لا يفكّر في نفسه إلّا من خلال الآخرين... .
- فقال بكآبة:
- براءة مؤقتة تنطوي مع الشباب الأوّل!
- لا أظنّ ذلك.
- يا لله، إنّه يهزأ بجميع القيم التي يلتحم بها بنيان حارتنا.
- لا أدري الكثير عن ذلك!
- ضرب كفًا بكفّ قائلاً:
- وقد دمّر نفسه تدميرًا وهو لا يدري... .
- فحدجته بنظرة حزينة متسائلة فاستطرد:
- شدّ ما اجتهد اجتهدًا عبقرياً ليثبت للملأ إجرام جدّه وهوان بيته ودعارة أهله!
- زعم أنّه ينشر حقائق يجب احترامها!
- أساذجة أنت أم ماسكرة؟ ليست المسألة محض عبادة للحقيقة، ولكنّها ذات عواقب محتومة، فلا ضمان للندور بعد الأخذ بها، وسرعان ما ترتفع الأصوات مطالبة إيانا بالأموال المقدّسة وريع العمارات!
- فقالت بعد تردّد وفي إشفاق:
- لا شكّ في طيبة نواياهم!
- بل لمست في حديثهم الحقد والحسد والرغبة في الاعتداء.

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٢٧

- إنَّ ما دفعني إلى المجيء إلى هنا هو أن أضرع إليك لتغلَّب الحكمة... .
- أخشى أن تكون الفرصة قد أفلتت.
- حتَّى بعد أن علمت بما علمت؟
- الصراع الناشب اليوم أقوى من أيِّ علاقة شخصية.
- وذرع المكان ذهابًا وإيابًا في اضطراب واضح ثم عاد إلى موقفه أمامها وهو يقول:
- الصراع اليوم أقوى من أيِّ علاقة شخصية، وفضلاً عن ذلك فسوف يظلُّ جاهلاً بحقيقة نسبه، ولن يكفَّ - وأصحابه - عن عنادهم المقيت، ومن الناحية الأخرى فإنَّ كبار رجالنا قد أخرجهم الغضب عن جادة الاعتدال.
- ولكنَّ الحكمة تستطيع أن تقدِّم خيرًا... .
- أين يمكن أن توجد الحكمة في حارتنا التي زُلزلت أركانها؟!
- أستحلفك بالله ألا تياس... .
- صدَّقيني لقد اختلَّ ميزان كلِّ شيء، خرجت النجوم عن أفلاكها، والكلمات عن منطقتها، وتمخَّضت قباب الأضرحة عن أوثان!
- ثمَّة طريق للنجاة؟
- من أدراك؟... لقد سدَّته الزبانية!
- ولكنك رجل محنَّك ذو نفوذ شامل.
- فضحك ضحكة هازئة وقال:
- كنت مستندًا إلى عراقة أصل وامتياز بيت وكرامة أسرة، أين أولئك أين؟
- الذين يؤمنون بك لا حصر لهم.
- مع الزمن سيرى الناس في رجلاً غارقًا في الخطايا ملوثًا ضائعًا، شيَّد من أموالهم بفساد ذمته بناءً ضخمًا.
- أكثر الناس ليسوا أفضل من ذلك.
- ولكنهم لا يدعون ولاية ولا يطالبون أحدًا بطاعة... .
- فرفعت إليه عينين دامعتين وقالت:
- ترى هل أفضيت سرَّه بلا ثمن؟... بلا فائدة؟ فقال بامتعاض:
- للأسف لن يرث عني إلا الخطايا وربما ضعننا في
- الصراع معًا
- حسن أن تفكَّر فيه بعطف لأوَّل مرَّة... .
- ألم تفكَّر في البوح له بالسرِّ؟
- لو فعلت لحطَّمته تحطيمًا... .
- عاد يذهب ويحيى وهو يقول:
- اللهمَّ ألهمني الصواب، اللهمَّ بدِّد جيوش الظلمات... .
- ورجع إلى موقفه وقد تضاعف تجمُّهه ثم قال:
- كدت أنسى! لقد دفعني الغضب إلى طريق وعر... .
- أجل فقد اعتدى عليه بعضهم.
- هنالك ما هو أفظع من ذلك!
- حدجها بارتباك ثم عاد يقول:
- لقد عرَّضت بشرفه!
- شرفه!... ماذا تعني؟
- أشعل غضبي لحدِّ الجنون، عيَّرني متحدِّيًا فصحت به أن بيته ليس أشرف من البيوت التي يعرَّض بها!
- خير أسود!
- ذكرك بطريقة ما.
- هبت قائمة في فزع هاتفة:
- كلاً.
- فأجاب بأسى:
- بلى!
- أنت؟!
- دفعني إلى حافة الجنون... .
- ربَّاه... هل كُمت إلى ذلك التاريخ القديم؟
- كلاً ولكنَّه غادر بيتي فاقد العقل ولا شكَّ أنه يجِد الآن في البحث عنك.
- إنه يظنُّ الآن أنك تسعى إلى فضحه انتقامًا منه، يا للكراثة!
- أكدي له أنها محض أكاذيب لم أرددها إلا رغبة في الانتقام منه... .
- ترى أيصدِّقني؟
- سيصدِّقك، إننا نصدِّق ما نحبُّ أن نصدِّقه.
- وإن طاردني بشكوكه؟

﴿٨﴾

قام الشيخ محمود إلى القادم وهو يقول:  
- أهلاً بك يا شيخ تغلب.

ومضى به إلى الديوان والعجوز يقول:  
- هاتف دعاني إلى لقائك.

- أهلاً بك وشكراً لك.

فسأله برقة لأول مرة:

- كيف حالك؟

- النار أرحم من رأسي وقلبي...

- وأرحم من الغضب الذي يحتاج حارتنا...

- يا له من موقف يا شيخ تغلب.

- وماذا يقول رجالك الكبار؟

- صدق عزمهم على مقابلة التحدي بمثله.

- لا غرابة أن يدافعوا عن مصالحهم!

فتساءل الشيخ محمود غاضباً:

- والآخرين ماذا يحركهم؟

- إنهم بحكم سنهم أقرب إلى البراءة.

- فات وقت الجدل.

- ولكن ثمة مجال للعمل، بم طالبك أبوك قبل

وفاته؟ ابدأ اجتهادك في الطريق وسوف يقودك من خير

إلى خير.

نفخ الرجل قائلاً:

- رأسي منزل!

- أفقدت إيمانك بالله؟

- كلاً، صدقني، ولكن رأسي منزل.

- ألا تؤمن بالطريق؟

صمت ملياً ثم قال:

- إذا تهاوى بناء شامخ فما جدوى أن تسأل عن

حجرة من حجراته؟!

- إذن تريد أن تواصل حياتك كشيخ طريقة بلا

طريقة.

- اعترف لك بأن ذلك لم يعد ممكناً...

- اعتراف سعيد ولكن خبرني أكان في نيتك أن

تستمر في ذلك إلى الأبد؟

تفكر الشيخ باسمًا في أمي:

- كنت دائماً أوجل البدء، لأنه الكسل وعشق

- أصرتي على رأيك، ما عسى أن أقول أكثر من ذلك؟ إنني غارق في محيط من المشاكل التي تبدو لا حل لها...

شملمها صمت. تبادلنا نظرة طويلة. بدا شاحب اللون غائر النظرة كما بدت دميمة من أثر البكاء والغم. وتساءلت بلهفة:

- أارجع إلى بيتي بلا بارقة أمل؟

فقال متبهئاً:

- لا أعد بشيء لا سيطرة لي عليه، يلزمي وقت أدخل فيه إلى نفسي...

- وكيف أذهب ولا شيء في يدي غير الخواء؟

- لقد عريت مزيداً من الحقائق، حسبك هذا...

- ولكنك لم يغير من القضاء فيما يبدو؟

- لقد أتخمت بالحقائق المفزعة ويلزمي وقت أدخل فيه إلى نفسي.

- دعني أكرر عليك أن الحكمة تستطيع أن تقدم خيراً.

- لا طاقة عندي لسماع جديد.

- أذهب؟

- بسلامة الله...

همت بالذهاب ولكنها عدلت. ترددت متفكرة. ثم قالت:

- لقد رميتني بشقي التهم، تصورت أن أي حقد تحملك إنما يستمد من حقدني الأبدي، دعني أقول لك قبل الذهاب، دعني أقول لك... إنك... خطي!

نظر إليها بعينين متعبتين وتساءل:

- ماذا تعنين؟

فقالت وهي تمضي إلى الخارج:

- أستودعك الله.

أتبعها عينيه حتى اختفت. تساءل ماذا تعني. سرعان ما شدته الهموم إلى دوامتها. جلس على الديوان وأغمض عينيه. دخل خادم فأضاء النجفة والمصابيح ثم ذهب. استشف جفناه الضوء فانقبض قلبه لمقدم الليل. ترمى إلى أذنيه وقع عصا على أرض الحجرة. فتح عينيه ملتفتاً نحو الباب فرأى الشيخ تغلب الصناديقي.

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٢٩

- الإيمان يتجدد تحت مظاهر شتى خلال الزمن ...

- ما جدوى المناقشة ونحن على وشك القتال؟! وقد يقتل الأب ابنه أو يقتل الابن أباه؟

فقال العجوز برجاء:

- ما كان بوسع أحد أن ينالك بأذى لو أنك ... فقاطعه بضيق:

- لكنهم يزيحون ملكًا مختصبًا عن عرش زائف! - معذرة يا بني فإني لا أنطق إلا عن صدق، وأردت القول بأنه لو أنك مارست حياة الطريق الشاقة الطاهرة لما تعرض لك أحد بسوءه أو لما باليت بما يتعرضون لك به.

قام الرجل متوترًا. مضى نحو باب السلامك وجعل يرنو إلى الحديقة التي ذابت تفاصيلها في أمواج الظلام فتبدت أشجارها كالتلال حينًا وكالوحوش حينًا آخر. ومن موقفه جاء صوته قائلاً:

- يتجمل إلي أنه لم يعد لي مقام هنا! هتف العجوز بجزع:

- مولاي!

- لعل ذلك يحل الأزمة المستعصية ...

- لكن الأزمة لا تحل بالهرب ...

استدار نحوه مقتربًا وهو يقول:

- ثمّة خواطر مغرية تدعوني إلى طرح المتاعب أرضًا واستقبال حياة بسيطة سعيدة!

- حياة بسيطة سعيدة؟

- لي من المال ما ييسر لي ذلك!

- معذرة مرة أخرى عن قول الصديق، لا مال لكم

إلا ما جاءكم من المرديد!

- إنه مالي أمام القانون وكفى.

نظر نحوه بارتياح وسأل:

- أتؤمن بما تقول؟

لم يجب على سؤاله ولكنه قال:

- ثمّة حياة بسيطة سعيدة لا تعقيد بها ولا

نزاع ...

- والطريق الذي خلقت له؟

لم يجب على سؤاله أيضًا ولكنه قال:

الحياة، وأعترف لك بأن ثمّة نكدًا لا يكف عن مطاردتي ...

- اعتراف سعيد ثان!

- من السخرية أن تذكر السعادة في هذا الجحيم.

- ظننت أن عواقب الكسل ستضريك وحدك ولكن ما هي تعصف بالحارة كلها ...

- مرتكبة ما يخطر بالبال، وما لا يخطر!

قال العجوز باستبشار:

- في صوتك نغمة جديدة لعل سرها هو الذي دعاني إليك ...

- لا تبادر إلى التفاؤل بلا مبرر!

- توكل على الله واتخذ قرارًا؟

- كيف لقلب مزلزل أن يتخذ قرارًا؟

- اتخذ قرارًا.

- يتجمل إلي أنني لست كجدتي الأولى إن صح ما يقال عن اجتهاده العجيب.

- تقول إن صح؟

فقال بحدّة:

- أجل، فمن يدريني أن اجتهاده لم يكن إلا أسطورة كما كان أصله وبيته وكما كانت أسرته؟

فهتف الشيخ تغلب:

- حذار من الشك!

فقال الرجل بامتعاض:

- لقد زرعت في قلبي يا شيخ تغلب.

- ثمّة جوهر حقيقيّ باقي تحت ركام من أوامها لا قيمة لها.

- أنت نفسك لم تعد تؤمن بمعجزات الأكرم.

- أكرّر القول بأن معجزته الحقيقية هي أنه رغم خطاياها قد بلغ المراد باجتهاده.

هزّ الرجل رأسه بمرارة فقال الشيخ تغلب:

- اعزم، العمل يقتل الشك، النجاح يقتلعه من جذوره، في وسع أيّ إنسان أن يكون نافعًا للناس، على ضعفي وعجزتي كنت القوة التي أقنعت كثيرين

من أولياء الأمور بإرسال أبنائهم إلى المدارس!

ضحك الشيخ محمود بمرارة وقال:

- أرسلتهم في الطريق الذي قوّض أركان إيمانهم!

- نفسه :
- عاصفة تجتاح رأسي، أحداث تطاردني فلا تدع لي فرصة لإنعام النظر، من أسفل يلح نداء ومن أعلى يلح نداء، وأنا ممزق القلب، كأني مطالب بتنظيم الوجود وأنا محاصر في ركن ضيق يهددني الموت!
- فقال الشيخ تغلب باسمًا:
- وُصف موجز للحياة لا بأس به.
- ما أجل أن أرمي بنفسي بين أحضان اللهو...
- استمر في محاوره نفسك!
- فهتف:
- ليتني بلا ضمير كهذا الجليل الساخرا
- صدقني إنه أمل لحارتنا...
- لا إيمان لهم بشيء.
- حُبّ العلم ما هو إلا لغة إيمان جديدة.
- وتردّد الشيخ محمود مليًا ثمّ سأله:
- أعرفت المدعو عليّ عويس؟
- أجاب الرجل بعد تدكّر قصير:
- نعم، شابّ ممتاز، قلت له مرّة إذا طعمت علمك بالحكمة فأنت خير حفيد للأكرم!
- هتف الشيخ محمود فرحًا:
- حفيد الأكرم؟!
- لا تنزعج فإنّ حفيد الأكرم الحقّ هو خير من يعيد سيرته، ويعكس صميم روحه...
- ولزم الرجل الصمت وهو واقف على حين أطرق العجوز. سبحت الأفكار في الصمت محمومة متلاطمة. سقطت فراشة ثملة بالضوء على لحية الرجل السوداء المدببة فهشها بعصبيّة فتهاوت عند قدميه ونذت تنهدة بصوت مسموع ثمّ تساءل الرجل:
- ماذا كنت تفعل لو كنت مكاني يا شيخ تغلب؟
- لرفع الرجل رأسه كمن يصحو بعد غفوة وقال:
- لا تسل عن جواب أنت خير من يعرفه!
- أريد أن أسمعه!
- كلاً إنّ الحياة تتموّج أمام بصرك، الأركان تهاوي، أوهام تتبخّر، حقائق تنفض كالقنابل، عناصر تتحلّل مطالبة بتركيب جديد، أصوات جديدة تحطّم جدران الخرس وترتفع، أناس يتلاحمون، قوى
- فلنحبّ الحياة كما يحبّها أكثر الناس...
- فقال بثقة أو برجاء:
- إنك لا تعني ما تقول، ولكنك تردّد الأفكار التي تناقشها وأنت خالٍ إلى نفسك...
- لم لا؟... فلاذهب إلى مكان قصي، إلى أوروبا كما فعلت عمّي، ولأترك لك الطريقة فأنت خير من يقودها...
- ردّد ما يناوشك به الشيطان في نفسك...
- لم لا يا مولاي؟!
- لقد عشت حتى اليوم عيشة الاستهتار واللذة ولكنّ الأمل معقود بالعذاب الذي تبعك في منامراتك الليلية كالظلّ...
- فقال بسخرية مريرة:
- عند ذاك يبدأ جيل الأبالسة المتمردين!
- نحن في حاجة إليهم كما أنّهم في حاجة إلينا...
- لديهم العلم والأفكار الشيطانية التي تصوّرنا في صورة نفايات سائمة يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن صونًا للصحة العامة...
- فقال المعجوز بإصرار:
- على ضوء ذلك يتحدّد لنا هدف جديد...
- لعلّها مهمّة قدّيس!
- ها قد بدأنا نتقارب...
- ولكن عليه أن يقنع الناس بقداسته قبل البدء.
- بل عليه أن يقنع نفسه بقداسته قبل ذلك.
- ها نحن نحلم بالسطيران ونحن غرقى في الأوحال...
- القدّيس لا يكثرث للأوحال.
- فتنهّد الشيخ محمود من الأعماق وقال:
- فلنحبّ الحياة كما يحبّها أكثر الناس، ولا خوف من العذاب الذي أرهقني ظلّمه فيما مضى بعد أن ثبت لي أنّي جدير بها كما أنّها جديرة بي...
- قال الشيخ تغلب غاضبًا:
- شاهدت في حياتي حقراء لا حصر لهم ولا عدّ ومع ذلك فلم يحس من قلوبهم التقسّز من القبيح والتهلّيل للحقّ.
- رفع رأسه إلى فوق وراح يتكلّم وكأنّما يناجي



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٣١

- إنك شرّ يجب أن يزول.  
 - دعنا نتكلم!  
 - مكيدة جديدة؟  
 انقضّ عليه بوحشية وانهال عليه ضرباً. وجعل الآخر يدفعه بقوة ولكنّه لم يستطع أن يتفادى من ضربات صادقة أصابته في صدره وكتفه. وأخذ الضعف يعتوره وتحاصره اللكيمات حتّى استشعر دنوّ الاثنيار.  
 - حسبك... أمسك...  
 ولكنّ الآخر ضاعف له الضرب فهتف:  
 - كفاية... ستقتلني...  
 - إلى الجحيم!  
 فهتف متوجّعاً:  
 - ستقتل أباك!  
 فصاح به:  
 - كُفّ عن الهذيان يا مجرم.  
 فقال بصوت متحشرج وقد بدادفاعه يضعف ويتلاشى:  
 - ستقتل أباك؟ ألا تسمع؟... ستقتل أباك...  
 إنّ أبوك.  
 ولما يئس من إدراكه وشعر بدنوّ النهاية صاح بأعلى صوته:  
 - إليّ... إليّ... شيخ عمّار...  
 في الحال اندفع خدّم من باب السلامك. فتح الباب ودخل الشيخ عمّار وبعض الرجال يهرولون. انقضّوا على الشابّ فقبضوا عليه وشلّوا حركته. ومضى الشيخ مترنّحاً نحو الديوان وتهاكك عليه وهو يتمتم:  
 - اقبضوا عليه... لا تمسّوه بسوء...  
 أخرج منديلاً وراح يمجّف به دماً سائلاً من أنفه وفيه طارحاً رأسه على المسند في إعياء شديد. وتمتم مرّة أخرى وهو يقرأ في الوجوه غضباً أسود:  
 - لا تمسّوه بسوء...  
 سأله الشيخ عمّار بصوت متهدّج:  
 - ماذا نفعل به يا مولاي؟  
 - صبراً!  
 - أندعو الشرطة؟  
 - كلّاً...

تطلق من مخابثها، والنفس تطالب صاحبها بأنّخاذ موقف، اثبت... اهرب... احي... مث...  
 تعقّد... تجدّد... ولكن لا حلّ إلا أن نخوض أمواج الظلمات وأن تشقّ طريقك إلى برّ النور.  
 وقام الرجل العجوز معتمداً على عصاه فقال الرجل:  
 - لنبق قليلاً يا شيخ تغلب...  
 - لقد قلت ما عندي وقلت ما عندك.  
 تصافح. مضى معه إلى باب الخروج والعجوز يقول:  
 - الليل يمضي، وقلبي يحدّثني بأنّه سيتمخّض عن أمور هامة...  
 وبينما كان يوصله تسأل من باب السلامك عليّ عويس. ألقى على المكان نظرة حذرة ثمّ مضى إلى الديوان فتوارى وراءه فيما يلي الجدار المطلّ على الحارة. رجع الشيخ محمود فذهب إلى باب السلامك متلقياً نسائم الليل. زحف الشابّ نحو الباب فأغلقه بهدوء. تنبّه الشيخ إلى حركة فالتفت وراءه فرأى الشابّ وهو يتّجه نحوه. فذهب الرجل وقد قرأ الشّرّ في عينيه وسأله:  
 - من أين جئت؟  
 تقدّم دون أن ينبس فسأله:  
 - ماذا تريد؟  
 قال الشابّ وهو منه على بعد ذراعين:  
 - كدت أقتل بيد رجل من رجالك...  
 - احذر أن ترتكب حماقة...  
 - وتريد أن تشهّر بشرفي؟!  
 - محض أوهام سخيفة...  
 ولكنّه وجّه إليه لكمة شديدة. قبض الرجل على ذراعه قبل أن تصكّه الضربة. تلاحاً بعنف، الشابّ يريد أن يصرعه وهو يقاومه بكلّ ما أوتي من قوّة.  
 - كُفّ وإلا دعوت رجالي...  
 - سأنالك قبل أن يأتوا...  
 ودفعه دفعة قويّة فتراجع الرجل مترنّحاً ولكنّه أسند ظهره إلى الجدار...  
 - كُفّ قبل فوات الفرصة.

«٩»

كان الشيخ يجلس على الديوان وقد ضمّد جراحاته. وعلى كنبه قبائله جلست زينب وعليّ. وبدت نظراتهم ثقيلة بما حملت من حقائق وما تخايل لها من عواقب. وقال الشيخ:

- ها هي الحقيقة عارية!

ثم ردّد عينيه بينها حتى تبتها على الشاب وقال:  
- عرفناها معاً في ليلة واحدة، ها هو الماضي يعانق الحاضر فيكونان معاً كلاً لا يتجزأ.  
وابتسم في أسى ثم مضى يقول مخاطباً الشاب أيضاً:

- لقد وزّعت على الناس نشرة تكشف عن أعجب الحقائق عن جدك وبيته الكبير وأسرته ولكن فاتك أطرف ما فيها وهو هذا الفصل الأخير...  
نظر الشاب نحو أمه فوجدها تحقّف عينها فتمتم:  
- الفصل الأخير... أيّ حقيقة؟... لن أعجب بعد الليلة لو رأى الناس بأذانهم وسمعوا بأعينهم!

فقال الشيخ:

- هكذا دار رأسي أيضاً بلا توقّف، ولكن علينا أن نحسم أمرنا فلم يبق على الفجر إلا ساعة...  
قالت زينب:  
- من حقنا أن نمهل لمزيد من التفكير.  
فقال الشيخ:

- لا وقت للانتظار، فالخارطة مهدّدة بالانفجار بين ساعة وأخرى.  
- والعمل؟

- علينا أن نختار سبيلاً من اثنين، فإمّا أن نهرب بأموالنا أو بمعنى آخر بأموال الناس، وإمّا أن نبقى لنواجه الحقيقة ونتحمّل عواقبها...  
تنهدت زينب بصوت مسموع وقالت:

- حدّثنا برأيك.  
فنظر الرجل إلى ابنه وسأله:

- أودّ أن أسمع رأيك أوّلاً.  
انتفض الشاب كمن يستيقظ من نوم وقال:  
- رأيي... أمهلني حتى أستعيد توازني.

مرّت فترة لم يُسمع فيها إلا تردّد الأنفاس. وفي أثناء ذلك جيء للشيخ بقارورة ورد فغسل وجهه، اعتدل في جلسته متأوّهًا. التفت إلى رجاله قائلاً:  
- اتركوه!

لرفعوا أيديهم عنه في دهول، فقال:  
- تفضّلوا بالذهاب.

لم يتحرّك أحد منهم فقال بلهجة امرأة:  
- اذهبوا!

غادر الرجال البهو ذاهلين. تردّد الشيخ عتار ثم ذهب في أثرهم. وقف الشاب خافض الرأس لا يفهم شيئاً. وقال الشيخ:

- تذكر أنّك واقع تحت رحمتي ولم أمسك بسوء...  
وجعل يتحمّس بعض مواضع تؤلّه ثم قال:

- عار عليك أن تستغلّ قوتك في الاعتداء على رجل في مثل سنيّ، يجب أن تحجل من نفسك...  
قال الشاب دون أن يرفع رأسه:

- إذا كنت تدبّر أمراً فنقله بلا إبطاء لا ضرورة له.  
فسأله بعد وقفة قصيرة:

- ألم تسمع ما قلت لك؟

لم يجب ولم يفهم.

- قلت لك... ستقتل أباك...  
فرفع إليه عينيه دون أن ينبس.

- لم تصغِ إليّ. كدت تقضي على أبيك، ألا تدرك معنى لقولي؟  
حرّك رأسه في حيرة، فقال الرجل في هدوء واستسلام:

- ذلك أيّ أبوك وأنتك ابني!

انتصبت قامته فجأة وأتسمت عيناه وتساءل:

- ماذا تقصد؟

- ليس لقولي إلا معنى واحد وهو أيّ أبوك وأنتك ابني، لقد رميتني بحقائق عسيرة الهضم وها أنا أردّ التحية إليك، ولو عاصرنا أبو العلاء لعثرت على نفسك في مخطوطة، أراك لا تصدّق؟ حسن، سنبحث في طلب الشخص الوحيد القادر على إقناعك... ثمّ علينا بعد ذلك أن نوطن النفس على مواجهة الحقائق...  
فقال الشيخ:

- اتركوا!

لرفعوا أيديهم عنه في دهول، فقال:  
- تفضّلوا بالذهاب.

لم يتحرّك أحد منهم فقال بلهجة امرأة:  
- اذهبوا!

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٣٣

- لا بدّ من الإدلاء برأيك .
- أظنني أفصحت عنه فيما يخصني .
- ثمة ما يخصك ولا يقل أهمية عن ذلك إذ إنّه يتعلّق بكرامتك وسمعتك؟
- فتمتم بهدوء:
- يخجل إليّ . . .
- وانطبقت شفته فتساءل الشيخ:
- يخجل إليّ؟
- فقال بحلّة عصبية:
- أنني لن أتورّع عن شيء .
- أتدرك ماذا يعني ذلك؟
- أجل .
- أنت شجاع، وسوف يتقرّر مصيرنا على ضوء ما يرى الناس فينا .
- ليكن ما يراه الناس .
- سأعيد إليك اسمك، أمّا الثروة فستعود إلى أصحابها، ستجيئنا بكتبك ولن نجد عندنا إلا كتبًا
- ليكن . . .
- وتساءلت زينب بدهول:
- أيمكنك مواجهة الناس بذلك؟
- سأدعوهم إلى البيت الكبير صباح الغد .
- ألا يلزمك وقت للمزيد من التفكير؟
- لا تدرين كم فُكّرت!
- وابتسم وهو يرنو إليها بنظرة ثقيلة:
- لم أكفّ عن التفكير لحظة واحدة منذ انهالت على رأسي المطارق!
- ثمّ وهو يتنهد:
- وكان عليّ أن أختار فلما الدعارة وأمّا القداسة .
- وابتسم في هدوء ثمّ استطرّد:
- وقد اخترت سبيلي، فاضت من قلبي قرارات عنيدة غير متوقّعة كضربات المطارق المنهالة على رأسي، اكتسحت نداءات الدعارة اللزجة اللينة، فرفضت الهزيمة ومجّجت الهناء السهل، والظاهر أنّ إيماني بجوهر جدّي كان أكبر من إيماني بمعجزاته .
- وردّد بصره بينها وهو يقول:
- فلنستمتع بأخر هدوء يتاح لنا!

- لا وقت لذلك، دعني أساعدك، ماذا أردت أنت وزملاؤك؟
- تفكّر مليًا ثمّ قال:
- أردنا الاحتكام إلى الحقائق وإزهاق الأباطيل والخرافات، مؤمّلين من وراء ذلك أن تردّ أموال الناس إليهم وأن تنفق في سبيلهم وأن ترفع عن كواهلهم الوصاية والسيطرة . . .
- هذا حسن ولكنه ليس بكلّ شيء، الحقيقة لا تنجزًا، وإن يكن ثمة خير في أن يعرف الناس الأكرم على حقيقته فمن الخير أيضًا أن يعرفونا على حقيقتنا، لا نستطيع أن نبدأ من جديد ونحن نتسرّ على آثامنا الماضية، على الاعتراف أن يكون كاملًا وصریحًا ليكون التفكير كاملًا وصریحًا، ولنبدأ حياة نقيّة بالمعنى الحقيقي . . .
- تساءلت زينب بإشفاق:
- ماذا تقصد؟
- فأجاب بإصرار:
- يخجل إليّ أنني لن أتورّع عن شيء!
- وأيّ عواقب تتوقّع؟
- لا أدري، قد يعيدنا ذلك إلى مجد الأكرم وقد يردنا إلى تشرّده!
- زدني تفصيلًا!
- إذا اعترفت بكلّ شيء، إذا بلغت الغاية في الأمانة، فلن يتردّد على محاربي أخلص الناس لي اليوم وهم المنتفعون بأموالنا، أمّا المريدون فسيقعون حيارى بين إيمانهم القديم والحقائق الجديدة، ولا يبعد أن ينقسموا بين مرتدّ عني ومؤيّد لي حتّى النهاية . . .
- يا لها من صورة غامضة!
- رجم بالغيّب أن أحسد المصير .
- هي احتمالات ونحواطر ولكن ما الذي تضمّره في قلبك؟
- التفت نحو الشابّ وهو يقول:
- أوّد الآن أن أسمع رأيك؟
- لم ينبس الشابّ مستغرقًا في تفكيره .
- إنك تبدو شاحب اللون يا بنيّ؟
- ليس هذا ممّا يهمّ . . .

## ١٣٤ حكاية بلا بداية ولا نهاية

- فقال عليّ: - أماننا حياة عسيرة .  
 - ولكنك تودّ مواجهتها؟  
 فقال بتصميم:  
 - بلا تردّد.  
 - حسن، لقد تعلّمت منك أشياء وأودّ أن تتعلّم  
 مني أشياء  
 فقالت زينب:  
 - ولكنّ النزاع لن ينتهي في حارتنا.  
 فقال الشيخ:  
 - بل، ولكننا سنكون في الموقع الأفضل .  
 وتفكّر ملياً ثمّ قال:  
 - لا شك أنّ جدنا اعترضته نفس المتاعب وهو  
 يتحوّل من الجريمة إلى الولاية  
 وقام في نشاط حيّ وقال:  
 - لقد أورتنا مثلاً لا يجوز أن يُنسى . . .  
 ودنا من مدخل الحديقة المستكنة في سكيئة الفجر  
 وقال:  
 - تلك كانت المعجزة .

## حَارَةَ العُشَاق

تري هل اكتشفت وجومه؟ إنه على دراية بتسللها  
الناعم، قال:  
- أجل في أحضان الحب يطير طيراناً.  
فامتلات عيناها بالحنان وقالت:  
- وطيلة النهار جعلت أتذكر وأغني نفسي...  
- ثمّة ذكريات لا تنسى.  
- قبيل الخطوبة وأنت تخالسي النظر من مجلسك في  
القهوة.

فخفض صوته وهو يقول:  
- الحبّ جنونا  
- وكلّ ركن في هذه الشقّة يستطيع أن يقوم ألف  
دليل على حبنا...  
- ألف دليل ودليل.  
- هكدا مرّت السنوات الخمس فلم نشعر  
بمرورها.

- أجل...  
- بالرغم من أنّ متاعبك فيها لا يمكن أن تنسى.  
فغلبته عواطف مكبوتة فقال:  
- كانت متاعب سعيدة.

- بل كانت السعادة أقوى من المتاعب!  
تنهّد. تجلّت في عينيه نظرة حاملة. قال:  
- تلك الأيام كنت موظّف أرشيف خارج الهيئة،  
أعمل عملاً متواصلًا من طلعة الصبح حتى أول  
الليل، حتى الغداء كنت أتناوله تحت أرفف  
الأرشيف، فقير كادح وزوج عاشق، حتى النسل  
أجلته حين تتحسنّ الحال، لا وقت للتفكير، لا وقت  
للنظر، عمل عمل عمل، وأعود إليك مرهقًا ولكن  
بفؤاد حيّ مشتاق، أجد الحمام مبخّرًا فأغتسل وأرتدي

«١»

تربّع على الكنبه في هدوء متوثّب. تابعها بعينيه  
وهي ذاهبة تحمل صينيّة القهوة. تابعها وهي عائدة  
بجسمها البضّ ووجهها الممتلئ البديريّ. جميلة فاتنة!  
وتزداد مع الأيام نضجًا وفتنة. ها هي تلقي نظرة على  
الحارة من النافذة الوحيدة في حجرة الجلوس. وها هي  
تجلس إلى جانبه على الكنبه الوسطى. وها هي الغبطة  
تسيل من نظرتها وهي تقول:

- شكرًا للترقية!  
وابتسمت بحبور ثمّ قالت:  
- بفضلها أنا بمجالستك كلّ عصر.  
تقلّصت بعض عضلاته تحت جلبابه الأبيض  
الفضفاض وغمغم بالفاظ غير واضحة. جعلت تلحظه  
بعينها الصافيتين. ستكتشف عاجلاً أو آجلاً وجومه.  
لعلّها اكتشفته. هي شديدة الحساسية فطنة ولكنّها في  
نفس الوقت مرنة واسعة الخيلة. كم يحبّها لم يتوقف  
عن حبّها بعد الزواج. لا يتصوّر الحياة بدونها. قالت  
بنعومة:

- لمناسبة ما ذكّرني صاحبة العمارة بأننا نقيم في  
هذه الشقّة منذ خمس سنوات...  
فصدّق على قولها متمتياً:

- أجل، خمس سنوات.  
- خمس سنوات حقًا؟ هل مرّت خمس سنوات  
حقًا؟...  
- خمس سنوات مرّت على زواجنا، العمر يجري  
جرّيًا يا هنيّة.

فربتت على ظهر كتفه وقالت بحنان:  
- يبدو أنّه يطير طيرانًا في أحضان الحبّ السعيد.

## ١٣٦ حكاية بلا بداية ولا نهاية

- رأيت أهل حارتنا، لم أكن أتصوّر أنهم بهذه الكثرة.

- ما أعجب ذلك وأجمله!

فتفكّر قليلاً ثم قال:

- ومنهم أناس أثاروا قلقي!

- لم كفى الله الشرّ!

- يتخلدون في ركن من المقهى مجلسهم، عصابة من الشبان، يتبادلون المزاح بأصوات مزعجة، لا يرحمون كبيراً ولا صغيراً من مزاحهم، ويتهجمون على الأعراض بلا حياء.

- هكذا الشبان في كل زمان ومكان.

- ألا يزعجك ذلك يا هنية؟

- لا أحبّ لك أن تنزعج أنت!

- ولا يتركون فتاة دون غمز، حتى السيدات المصونات، حتى تحيل إليّ آني أقيم في عالم من الدعارة والانحلال.

- لا تستسلم للأوهام السخيفة!

قام كأنما ضاق بمجلسه. وقف وراء النافذة دقيقة. رجع إلى وسط الحجره ووقف مستنداً إلى الخوان. قال بحنى:

- تحيل إليّ مرّة أنّ أحدهم رمانى بنظرة لم أرتح لها!

نضب المرح من صفحة وجهها وتساءلت:

- أيّ نظرة؟

- نظرة ماكرة ذات معنى.

- أيّ معنى؟

- استفزّني غضب وهممت بالقتال!

- يا لطف الله.

- وتنعّص عليّ صفوي فلم أستردّه بعد ذلك.

قالت بقلق واضح:

- إنك تبالغ يا عبد الله.

- الحقّ آني عانيت تجربة جديدة كلّ الجدة وهي

الشك!

هتفت باستياء:

- الشك!

- كمن صحا عقب نوم ثقيل على لسع عود ثقاب

مشتعل.

جلبأياً مزهراً، نتبادل الحديث، نتناول العشاء، نسعد بالحبّ، ننام النوم العميق، لا أفكار ولا كدر، ثقة لا حدّ لها بكلّ شيء، بك وبنفسي وبالله، وإيمان لا حدّ له بك وبنفسي وبالله، كلّ شيء ثابت الأركان مدعم البنيان.

- أيام شاقّة وسعيدة يا عبد الله.

- جزّي بلا انقطاع وراء لقمة العيش، طمأنينة شاملة، حبّ يُبادل بقوة تضاهي قوة دوران الأرض! أزاحت خصلة سوداء تهدّلت فوق عينها وقالت وهي تضحك في دلال:

- ولكننا لم نكن نهنا بجلسة سعيدة كهذه الجلسة في العصارى الطيبة.

فقال بحزن لم يعد يستطع مداراته:

- فقد منّ الله عليّ بالترقية.

- أصبحت مُراجع وحدة ينتهي عمله في تمام الثانية بعد الظهر مثل كبار الموظّفين.

- وتهيّا لي من الفراغ ما لم أكن أحلم به.

ربتت على خدّه وقالت بارتياح:

- مالك؟

- لا شيء بي.

- تحيل إليّ أنّك لست كعادتك.

ابتسم. ابتسم وهو يرنو إلى بشرتها الصافية.

اعترف بأنّه لا شيء يمارس سيطرته على شيء كما تمارس

سيطرتها عليه. عادت تسأله:

- لست سعيداً بالترقية والفراغ؟

- الحقّ أنّ الفراغ خلّفتني من جديد.

- وأنا كذلك.

- فقد رأيتك في النهار طويلاً بعد أن لم أكن أراك

فيه إلا خطفاً!

ضحكت ضحكة ناعمة منغومة فواصل حديثه:

- رأيت حارتنا في الضوء، عرفت المقهى، توثقت

علاقتي بالجيران خاصّة الإمام والمدرّس وشيخ الحارة.

هكذا الفراغ راحة ونعمة وتعارف.

- وعرفت نفسي بعد أن كانت حوائتي مشدودة

دائماً إلى الخارج.

- يا لها من مكاسب لا تقدّر بمال.

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٣٧

- قالت بامتعاض وغضب:  
 - أطلعني على أفكارك أكثر.  
 - قلت إنه الشك وكفى.  
 فصاحت بغضب:  
 - لا أصدق أنني أتلقى منك إهانة صريحة!  
 - إني أسألك المعونة.  
 - غير ما بنفسك قبل أن يفسد كل شيء.  
 فقال دون اكتراث لتحذيرها:  
 - إنك تخرجين كل يوم للتسويق.  
 - لست في حاجة إلى من يذكرني بحياتي اليومية.  
 فقال بخشونة:  
 - وتذهبين إلى الفرن لابتياح الخبز!  
 - كما أذهب إلى البدال والقصاب والكواء.  
 فقال بحنق:  
 - ولكنّ الفران يستقبلك استقبالا عجيبيًا، يهتف  
 دون مناسبة: أهلاً أهلاً ويقبل عليك كأنه صديق  
 حميم.  
 - عبد الله!  
 - إني أصف ما رأته عيناى.  
 - أكنت تتجسّس عليّ؟  
 - الشكّ له أسلوب لا مفرّ منه.  
 - ولو بلغ الواحّة؟  
 - ولوا  
 - كيف خفيت عن عينيّ حقيقتك طيلة ذلك  
 العمر؟  
 - كما خفيت عن عينيّ حقيقة أظع!  
 - اقطع لسانك واخرس.  
 - رأيت وهو يكاد يأخذك في حضنه.  
 صاحت به:  
 - لا أسمع لك.  
 - رأيت ذلك بعينيّ كما رأيتك قبل ذلك في عيني  
 الشابّ بالقهوة!  
 - لن أسمع لك بإهانتى!  
 - هل لديك دفاع؟  
 - لست متهمّة!  
 - هل لديك تفسير؟
- أنت مجنون.  
 - لا مفرّ من المواجهة.  
 - كم أنك كرهه أعمى.  
 - الشتائم غير مجدية.  
 - إني أشرف من أفكارك الوضيعة.  
 - هاى دفاعك.  
 فصاحت بكبرياء وهي تثب قائمة في غضب  
 جنونى.  
 - لا تردّد كلمة الدفاع، لا أسمع لك.  
 - يا للشيطان! . . هذا يعنى أنك تعترفين.  
 - إني ذاهبة، بقائى مع شخص مثلك مستحيل.  
 ضرب الخوان بقبضته وهو يرتجف غضبًا وصاح:  
 - تكلمى!  
 - إني ذاهبة.  
 غادرت الحجرة فصاح في أعقابها:  
 - تكلمى!  
 ثمّ ضرب الخوان بقبضته مرّة أخرى وصاح  
 بجنون:  
 - أنت طالق!
- «٢»  
 جلس في حجرة الجلوس وحيدًا. لم يملحن ذقنه ولم  
 يمشط شعره. زائغ البصر.  
 - إني وحيد، وحرّ، واليأس إحدى راحتين.  
 وصمت مليًا ثمّ قال:  
 - يجب أن أعترف بأنني غير سعيد وبأنني لا أجد  
 لحياتى معنى.  
 عاد إلى الصمت مرّة أخرى ثمّ راح يقول:  
 - ويجب أن أعترف أيضًا بأنني أحبّها، وبأنني  
 أكرهها.  
 أطبق شفتيه دقيقة ثمّ قال:  
 - طلقته لأنه من غير الجائز أن أبقي على زوجة  
 خائنة، أمّا الحبّ فقلعة منيعة مستقلة - بذاتها  
 وأبراجها - عن الشكّ والسلوك.  
 وقام ليذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا. دقّ جرس الباب  
 فجأة. فتح الباب فدخل شيخ بدين قصير ذو لحية  
 سوداء. تصافحا، قاده إلى الكنبه وهو يقول:

- أجلس، وقبل ذلك نظرة الشاب المستهتر إليّ!
- دعني أصارحك بأنني لم أشاركك الاقتناع فيما اقتنعت به!
- لقد بهتت فلم تستطع الدفاع عن نفسها!
- ولا تلك بحجة تشرع ضدها فللمرأة كبرياؤها!
- إني مطمئن إلى الإجراء الذي اتخذته.
- ولكنك قضيت على نفسك بالسجن كأنما طلقت الدنيا في نفس الوقت.
- سوف يدركني النسيان عاجلاً أو آجلاً.
- فابتسم الإمام وقال بهدوء وثقة:
- إني رجل من رجال الله، خادم بيت من بيوته، أعرف حارتنا وأحوالها ما ظهر منها وما خفي، أتوكل على الله في كل فكر أو عمل، ولا غرض لي في الدنيا إلا الخير، وأبعد شيء عن خاطري أن أسعى إلى ردّ زوجة خائنة إلى عصمة رجل فاضل مثلك.
- غضّ عبد الله بصره ليداري نظرة رجاء لاحت في عينيه وتمتم:
- لا شكّ عندي في ذلك كلّ يا شيخ مروان.
- يا صديقي عبد الله، لقد قرأت في وجهك رسالة، لا أجزم بصحة ما قرأت فصارحني أبتعدّ عليك نسيانها؟
- الخيانة؟!
- الزوجة!
- فقال عابساً:
- كلّ شيء رهن بوقته.
- الحبّ ككلّ شيء يجري مجراه بأمر الله، فلعلك تحبها؟!
- لا أهميّة لذلك.
- صدّقني يا صديقي عبد الله إذا قلت لك إنّ زوجتك بريئة!
- بريئة!
- أجل بريئة بما رميتها به.
- فسأله باهتمام بيّن:
- كيف عرفت ذلك؟
- لا أدري من أين أبداً أقول لك إنّ لرجال الله خواطرمهم القلبية التي تفوق في قدرتها براهين
- خطوة عزيزة يا شيخ مروان عبد النبيّ.
- جلس الرجل وهو يقول:
- أوحشتنا يا رجل!
- أهلاً بك، وكيف الإخوان؟
- القهوة كلّها مشتاقّة إليك.
- علم الله أنّي مشتاق إليك كذلك.
- فرماه الشيخ بنظرة ارتباب وهو يقول باسمًا:
- لو أنّك مشتاق حقاً لزرتنا!
- الحزن يطوبنا على أنفسنا.
- ولكنّه يتبخّر عادة بين الإخوان.
- لم تفتح نفسي لشيء بعد.
- كيف؟ ولم؟
- أنت أدري!
- خطرت لي أنّه من المفيد أن نتعاون على محاربة ذلك العدو المدعوّ الحزن.
- أنت إمام وصديق وإنسان.
- إنّه عدوّ خطير، له كلّ يوم فريسة، ولا يجوز أن نلقاه متفرّقين.
- دعاه الشيخ إلى الجلوس إلى جانبه. وبّت على منكبّه وقال مستطردًا:
- وما دام سببه معروفًا فالاهتداء إلى سبيل الشفاء ميسورًا
- أطرق عبد الله مليًا ثمّ قال باستحياء:
- كانت تجربة قاسية عاصفة، وليس الشفاء منها بالأمر الميسورًا
- إنّك صادق في تعبيرك، ولكن لا يجوز أن تنسى أمرين هامّين.
- وسكت ليخلق جوًّا مناسبًا لسماع نصائحه، ثمّ قال:
- لا تنس الإيمان بالله هو الملاذ الأخير من جميع الأحزان.
- وعاد إلى السكوت مرّة أخرى، ثمّ قال:
- ولا تنس أن تثبّت من حقيقة التجربة التي عصفت بك!
- لقد رأيت بعيني رأسي!
- واقعة القرآن؟



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٣٩

- حواسنا؟! عليها اللعنة، تلك المرايا المشوهة التي لم تُخلق إلا لتشهد بكذبها بصدق حدس القلب.
- ولكننا نحيا بها يا شيخ مروان.
- نحن لا نحيا حقًا حتى يمتلئ قلبنا بالإيمان.
- فقال بمرارة:
- كأي أيضًا لم أر القرآن وهو يفتح لها ذراعيها فابتسم الشيخ مروان وقال:
- صدقني فقد ظلمته ورميته بما لا يجري له في خيال.
- لست أعمى.
- إنه رجل مسكين، وزوجه تشاركه في عمله ساعة بساعة، وهي تستقبل الزبائن معه!
- كلاً!
- هو الحقّ بالتمام والكمال!
- أطرق عبد الله محاصرًا في ركن مسدود فاستطرد الشيخ:
- وإلى ذلك فهو عجوز دميم يكاد يقعه الكبر!
- قام عبد الله في تأثر واضطراب وهو يقول:
- لا تجرني إلى هاوية يا شيخ مروان!
- معاذ الله، إني لا أقدم على عمل قبل أن أستخير الله ذا الجلال، وكم من مرة زارت مطلقتك الضريح ورجعتي أن أدعوك بالصحة والفلاح!
- حسبك.
- لعنة الله على الغضب، لعنة الله على الحواس!
- تراجع عبد الله إلى الكنبه في الجناح الأيسر للحجرة وتمالك عليها مغمض العينين فقال الشيخ:
- أصلح خطاك، كُفر عنه، استرد السعادة التي سلبها الشيطان، تخلص من وحدتك الغارقة في الحزن.
- وتريت قليلاً ثم قال:
- ولكن عليك أن تغر حياتك.
- فقال عبد الله بتأثر شديد:
- دعني آخذ أنفاسي!
- إنك في صميم قلبك ترهب بكافة الحقائق التي كشفتها لك، لا تنكر ذلك، إنك تحبها، ولا غنى لك عنها، إنك تنتظر اللحظة التي أدعوك فيها إلى ردها إلى

- العقول!؟ ولكني أخاف ألا يكون إيمانك بالقوة التي تتخيلها، كثيرون يعتقدون أنهم مؤمنون ثم تراهم ينهارون لدى أول تجربة، المؤمن الحقيقي يا عبد الله بجرك الجبل ويزلزل الحياة ويقهر الموت.
- فتهد عبد الله قائلاً:
- لا ينقصني الإيمان يا شيخ مروان.
- ألم تعاشرها خمس سنوات كاملة بل يزيد؟
- لا يمنع ذلك من وقوع شر.
- حدثني عن قلبك لا عن الوقائع الخارجية!
- لا أنكر أنني اطمانت إليها الاطمئنان كله.
- ألم يتسلل إليك الشك أبداً؟
- كلاً.
- ثم مستدركًا بعجلة:
- لم يكن لدي وقت للشك.
- لا أهمية للوقت في ذلك.
- بل هو كل شيء يا شيخ مروان فأنا لم أنتبه إلى ما يجري حولي إلا من خلال الفراغ الذي أتيح لي عقب الترقية.
- لاحظت تغيرًا في معاملتها لك؟
- فتمهل قليلاً ثم قال:
- لا أظن!
- يا صديقي، إني أعرف حارتنا، رجلًا رجلًا وامرأة امرأة، وصبيًا صبيًا، لا يغيب عني شيء من أسرارها، وأشهد الله أنني لم أعرف امرأة تتمتع ببعض الخصال الحميدة التي تحظى بها امرأتك!
- فقال متجهيًا:
- السلوك الحقيقي سر من الأسرار.
- صدقت ولكن ندر أن استطاع خاطئ التسرُّ على خطيئته إلى الأبد.
- لقد رأيت ولا يمكن الاستهانة بما رأيت.
- دعني أحدثك عن الشاب الذي هيجتك نظرتة.
- لقد حققت بنفسني مع الشبان الذين يشاركوننا الجلوس في المقهى فثبت لي على وجه اليقين ألا أحد فيهم يضمرك سوء ظن أو تقدير، فلعلك توهمت رؤية ما لا وجود له.
- لا يمكن أن نشك في حواسنا.

- لم تتخلف عن درس العصر مرة واحدة طوال العام الماضي.

غادر موقفه إلى الكنبة في الجناح الأيمن وجلس وهو يقول في فتور:  
- لن أذهب.  
- مالك؟  
- لا شيء.

جمعت شعرها في ضفيرة واحدة طويلة مليئة كالغصن الريان وهي تتساءل:  
- هل ثمة شيء ضايقتك؟  
فأجاب على غير توقُّع منها:  
- بل أشياء.  
تبقّظت تمامًا في قلق واضح وسألته:  
- ماذا هنالك؟

فقال بامتعاض ولكن بهيب:

- ذلك الشيخ  
وأكمل متجنبًا نظرته المستطلعة:

- أصبح مضجراً!

- الشيخ مروان؟

- نعم.

- إنه يكاد يستأثر بأوقات فراغك!

- ثبت لي أنه رجل مضجرا

- حدث بينكما شيء؟

- يعيد ما يقول ويقول ما يعيد، بطريقة رجل يحفظ كلمات معادة عن ظهر قلب، كالبيغاء، كالألة، ودائماً بلا روح.

- شدّ ما تحمّست له يا عبد الله.

- لا أنكر أنني كنت مبهوراً به، ولكنّه مضى يتكشّف لي على حقيقته، قاومت الملل شهوراً، انتظرت عبثاً أن يقول شيئاً جديداً، ولكن لا جديد، رجل يؤدّي وظيفته بلا روح، ينادي على بضاعته كبيع البطاطة.

- متى اكتشفت ذلك؟

فقال بنبهة لم تخل من حدة:

- منذ زمن قصير، ولكن ليس من اليسير أن نجازف بإنكار ما تعودنا الإيمان به!

عصمتك.

فتأوه الآخر قائلاً:

- اللهم عفوك ورحمتك...

- ولكن عليك أن تغير حياتك، فبادر إلى الإنجاب بعد أن منّ الله عليك باليسر، وتردّد على الزاوية في أوقات الصلاة المتأخّرة، ولا يفوتك درس من دروس الدينيّة...

فقال عبد الله بحماس:

- بإذن الله لن يفوتني شيء من ذلك، والحقّ أنني لم أكن مقصراً ولكنّ فترة الاستغراق في العمل أورثني عادات سيئة لا يتحرّر منها إلا صادق العزم.

- فترة ذميمة!

فتردّد عبد الله قليلاً ثمّ قال:

- ولكنني كنت قوياً وسعيداً!

- تلك جنة الحيوان، أما الإيمان الحقيقيّ فلا

تكمل أسبابه إلا بالتأمّل والصلاة والدرس...

- سمعاً وطاعة!

- أنّ لك أن تؤمن كما يؤمن الإنسان الكامل،

وسوف تعرف الروح وبهجتها، ومعنى الحياة الزوجية

ومسرّاتها الحقيقيّة، وستعرف إلى ذلك كلّ كيف همزم

الشيطان إذا تصدّى لك بلعبة من الأعباء!

انتقل عبد الله إلى جانب الشيخ. قبل جبينه، ثمّ

قال بامتنان:

- ربنا يكرمك يا شيخ مروان، لقد انتشلتني من

الظلمات وفتحت لي أبواب الهدى والسعادة...

«٣»

دخلت حجرة الجلوس وهي تمشط شعرها. تبدّى

وجهها مورّداً رائقاً بعد الحجام. نظرت نحوه وهو واقف

في جلبابه وراء النافذة وتساءلت:

- ألا تستعدّ لحضور الدرس في الزاوية؟

لم يلتفت نحوها. لعلّه لم يسمعها. جلست على

الكنبة وما زالت تمشط شعرها:

- أرف ميعاد الدرس يا عبد الله.

أجاب باقتضاب:

- لن أذهب.

حدجت ظهره بنظرة متسائلة ثمّ قالت بدهشة:

حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٤١

لا يتوزع عن التودد المهين...  
 - خصال لو نظرت إليها بعين غير غاضبة لأمكن  
 أن تمرّ بها مرور الكرام!  
 فقال بسخرية مريرة:  
 - ما أجمل أن يسعد الإنسان بحمامٍ مقاتلٍ مثلك!  
 - عبد الله.. ما هذه النبرة؟!  
 - أملك؟  
 - إتها تذكري...  
 وأطبقت شفيتها دون أن تكمل كلامها فتساءل:  
 - بمَ تذكري؟  
 ولكنّها تجاهلت سؤاله قائلة:  
 - لكلّ إنسان عيوبه!  
 - ليس الإمام كبقية الناس وقد قال شيخ الحارة  
 مرةً إنّه عرف من الأئمة أناسًا فوق مستوى البشر!  
 - يمكن أن تقبله كإنسان عاديّ!  
 فقال بحدة:  
 - ومرةً ضبطته وهو يقرص الزهر في لعبة النرد،  
 الغشاش!  
 غمغمت بإشفاق:  
 - لا تحكم عليه من خلال لعبة تسلية!  
 - الخلق ينعكس على هونا كما ينعكس على جدنا!  
 تنهدت ولم تدرِ ماذا تقول فتساءل بحدة:  
 - ثمّ ألا تذكرين كيف عاقب خادمته؟!  
 - قيل إتها سرقت.  
 - أيبرّ ذلك انهياله عليها بالضرب وطردها  
 بوحشية؟ خيّل إليّ وقتذاك أنني أرى وحشًا ينقضّ على  
 فريسته!  
 صممت تمامًا وراحت تعبت بضفيرتها بقلق بين.  
 وضحك هو ضحكة ساخرة وقال:  
 - وكنت لمحت أشياء اعتدتها في وقتها أوهاّمًا تافهة  
 فلمّا تبين لي من أمره ما تبين عدت إليها بعين جديدة  
 انحسرت عنها غشاوة التضليل...  
 تجلّت في عينيها نظرة متسائلة فقال:  
 - تذكري أنّي رأيت عينيه أكثر من مرةٍ وهما  
 يتابعان نساء حارتنا باهتمام غريب!  
 هتفت بانزعاج:

بهتت هنيئة. صرخ الدهول في عينيها. قالت وهي  
 تضبط انفعالاتها:  
 - ليكن، لا تذهب إلى الدرس إن يكن ذلك  
 بضايقتك، وعلى أيّ حال فصدقتكما أكبر من الدرس  
 وأبقى...  
 فقال بجملة:  
 - هو ليس في المقهى بخير منه في الزاوية!  
 - ربّاه كيف أصدّق أفنيّ!  
 - حقًا؟!  
 - عبد الله لا تنس أفضاله علينا، من أجلها سمينا  
 ولیدنا باسمه، ولن تنكر أنّك طالما تغنيت بصداقته  
 وسجاياه.  
 نفخ قائلاً بوجه عابس:  
 - لم يعد لي به ثقة البتّة...  
 - يا الطاف الله...  
 - على أيّ حال كان صديقي أنا لا صديقك أنت!  
 - ولكنّه صاحب فضل على كلينا، فهو الذي جمع  
 شملنا من جديد...  
 - وتبيّن لي بعد ذلك أنّه غير جدير بالمركز الذي  
 يشغله!  
 - بالله كيف؟  
 - كنت أضيف بعنّ مراد عبد القويّ شيخ الحارة إذا  
 احتدّ عليه في مناقشة ما، وكان الشيخ مروان بدوره  
 يتهم شيخ الحارة بأنّه يعمل مرشدًا للمباحث، ولكنّي  
 بتّ أومن بصدق فراسة عمّ مراد!  
 قالت هنيئة بحزن واضح:  
 - لن أناقشك ولكن فسّر ما غمض عليّ من أمره.  
 فصمت قليلاً ليرتّب أفكاره ثمّ قال:  
 - لم تتكشّف الحقيقة لي دفعة واحدة، ولكنّها  
 جاءت كنقاط الماء التي تتجمّع رويدًا لتصنع في النهاية  
 بركة آسنة!  
 - أودّ أن أعرف كلّ شيء.  
 - حسن. أوّل ما نفّرني منه تمالكه على تصيّد  
 الدعوات إلى ولائم التجار بالحارة!  
 ابتسمت هنيئة ابتسامة فاترة فقال بحقنق:  
 - أتضح لي أنّه شره، وأنّه في سبيل إشباع شرهته

- استردت الصورة حياتها الحقيقية على ضوء ما  
تكشّف لي بعد ذلك.
- اقطع لسانك يا مجنون... .
- أدركت أنني كنت أعمى لا مجنوناً، وأدركت لم  
سعى للإصلاح بيننا، وأدركت كم كنت لعبة بلهاء في  
يديه.
- انتزعت قائمة وهي تصرخ:
- أنت وحش، حيوان، مجنون، لن أبقى في بيتك  
لحظة أخرى... .
- وغادرت حجرة الجلوس وهي تنتفض غضباً.  
ضرب هو الأرض بقدمه بعنف وصاح وراءها:  
- في داهية... ألف داهية وأنت طالق!
- «٤»
- عاد الصمت إلى البيت. صمت جاف نفاث  
للقلق. وطيلة الوقت ذرع الحجر من الكنبه إلى  
الكنبه. اختفت آهات الطفل بشقّ درجاتها المنغومة  
 وأنواعها الصوتية الملونة بأطياف السخط والرضى.  
ولكن لم يبرح تخيلته جسمه الضئيل البهّي المطروح على  
ظهره وأطرافه الأربعة الصاعدة تتلاعب في الهواء  
عارضة أصابعه الصغيرة الدقيقة كالنقوش البارزة.  
وجعل يقول:
- تجنّب الوحشة فهي أنسب جوّ لتقطير الحزن  
والأسى!
- وذرع الحجر مرتين ثم عاد يقول:
- تحرك... انطلق... حتى لا تبقى فريسة  
مطاردة عاطفية محبوبة... .
- وتجمّع التصميم في زاويتيّ فيه وهو يواصل حديثه:  
- الأسرة فحّ... والرجل الحرّ... .
- ودقّ جرس الباب فقاطعه. فتح الباب فرأى الشيخ  
مروان أمامه. قطّب في وحشية ولكنّ الشيخ لم يباليه.  
دخل وهو يتساءل:
- أحقّ ما سمعت يا عبد الله؟  
فقال عبد الله بفضاعة:
- اغرب عن وجهي .  
- أظردني من دارك؟  
- شرّ طردة!
- كلاً!
- ألا تصدّقين أم أنك لا تريدين أن تصدّقي؟
- ماذا تعني؟
- لم أعد أشكّ في أنه كان يطارد نساء حارتنا بعينين  
فاسقتين!
- يا ربّ عفوك ورحمتك!
- إنه خدعة كبرى وزنديق خطيراً
- رحماك اللهم!
- رحماك يا هنيئة، لقد غرقت عائسا في بحر من  
العمى والضلال!
- حسبك، صادق من تشاء واهجر من تشاء.
- فهتف متجهّياً بنبرة صارمة:
- ثمة أشياء لا يمكن أن تمرّ دون حساب!
- ماذا تعني؟
- أنّ لي أن أصارحك بما في نفسي... .
- لهذا ما ناشدتك الله أن تفعله.
- لنعد إلى حادث شهبه بثر السلم بعمارتنا!
- عمّ تتحدّث؟
- فقال بصوت ممزّق:
- كان ذلك منذ أشهر مضت، رجعت ذات يوم  
من مشوار إلى عمارتنا وكنت أنا جالساً في المقهى،  
أردت اللحاق بك لسبب لا أذكره الآن، صادف  
دخولك خروج الشيخ من شقّته، رأيتكما في بشر  
السلم، تحيل إليّ... .
- صرخت هنيئة:
- ماذا تقصد؟
- رأيتنه يمدّ يده... .
- قاطعته بغضب جنونيّ:
- ما من مرة قابلني حتّى مدّ يده إلى رأس الطفل  
ليباركه وقد فعل ذلك أمام عينيك مراراً... .
- تحيل إليّ أنّ يده كانت تبارك صدرك!
- فصرخت نائرة:
- يا لك من مجنون قلدا  
هو يضحك بجنون:
- لكن وقتها كذّبت عيني... .
- .. وقع... وقع... .

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٤٣

- إني حزين لدرجة اليأس يا أستاذ عنتر.  
- أعلم ذلك يا أخي فأنت مصاب في حب كبير  
وصداقة وطيدة.  
- لم تبد لي الحياة من قبل كريمة منقّرة كما تبدو  
اليوم.  
- بلى، حياة ذات مائة وجه!  
ثم بصوت منخفض:  
- بيد أننا لا نعرفها على حقيقتها حتى نرى وجوهها  
جميعاً!  
- قلبي غاص بوحشة مخيفة يتعذر معها الاستمرار  
في الحياة...  
- قلبي معك يا صديقي ولكن لا تستسلم  
لليأس...  
- إنها محنة بكل معنى الكلمة.  
- وعلينا أن نخرج منها سالمين!  
- يجئ إلي...  
فقاطعته قائلاً:  
- بين آلاف الضاحكين في هذه اللحظة يوجد على  
الأقل شخص واحد كان يفكر في الانتحار منذ عام.  
- لعلك لم تعرف كل شيء عن مأساتي؟  
- بل أعرف كل شيء عنها، المهم أن نتجاوز  
الحاضر إلى المستقبل...  
- ما أسهل الكلام يا أستاذ عنترا  
- وليس العمل بالمستحيل...  
- وسكت الرجل قليلاً ثم استطرد:  
- ففكرُ جدّيًا في تهديد حياتك من جذورها.  
استغرقته الأفكار فلم ينبس فسأله عنتر:  
- هل خطر لك يوماً أن تسأل نفسك عن معنى  
حياتك؟  
- فرفع إليه عينين ثقيلتين فاترتين فقال الآخر:  
- ما معنى الحياة، ما معنى الإنسان، وما معنى  
الحب، ما معنى الخيانة، أدركت ما أعني؟  
- كلاً...  
- لقد جرّبت من الحياة جانباً أقرب إلى البدائية  
ولكن تنقصك الثقافة...  
- وما علاقة ذلك بمأساتي؟

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.  
- إنك أنت الشيطان الرجيم.  
فقال الشيخ وقد غلبه الحزن:  
- ربّما كان لك عذرك أول مرّة!  
- اخرس، حذار من السفسطة، اذهب وألا  
حطمت رأسك.  
- يا لطف الله، لقد أفسد عقلك الرجل الماكر.  
- لا أريد أن أسمع صوتك، اذهب...  
- المرشد الخبيث مراد عبد القوي، الذي يتخذ من  
مشيخة الحارة ستاراً لمؤامراته الشيطانية، إنه يشعر  
بأنني عدوّه بالفطرة، فلا يتردد عن التشنيع بي وافتراء  
الكذب عليّ، ولكن كيف هان عليك أن تصدّقه يا  
عبد الله!  
- اذهب، إنه آخر نذير أنذرك به.  
- صدّقته، بعث صداقتنا بثمن بخس وخربت  
بيتك!  
- أنت الذي خربت يا خنزير...  
وانقضّ عليه يريد أن يقبض على عنقه. صدّه  
الشيخ بذراعيه. تلاهما بشدّة ما بين هجوم كاسر  
ودفاع حكيم. وفي تلك اللحظة جاء مهرولاً رجل  
نحيل متوسط القامة فدخل بينها حتى فصل بينهما، ثم  
هتف لاهتافاً:  
- يا للعار... يا للخجل...!  
والتفت نحو الشيخ وهو يقول برجاء:  
- تفضّل الآن بالذهاب يا شيخ مروان.  
وأغلق الباب وراءه ثم مضى بعبد الله إلى الكنبه  
متمتاً:  
- تمالك نفسك أيها الأخ الكريم.  
و ضرب كفّاً بكفّ وهو يقول:  
- أيّ شيطان عبث بكما معاً!  
وهتف عبد الله وصدّره يعلو وينخفض:  
- ذلك الداعر الخائن...  
جلس إلى جانبه، وطوّق منكبه بذراعه بحنان  
وقال:  
- علينا أن نستردّ هدوءنا وأتزاننا قبل كل شيء.  
فتأوه قائلاً:  
- وما علاقة ذلك بمأساتي؟

- أوثق مما تتصوّر. . .  
 - لا أدري كيف. . .  
 - فلنؤجل فهم ذلك إلى حين!  
 - ولكفي رجل بسيط التعليم.  
 - غير أنك تمتلك أقوى قوّة في الوجود وهو العقل. . .  
 - إنّ ما يهمني الآن أكثر من سواه. . .  
 فقطعه باهتمام:  
 - الثقافة أن تعرف نفسك، أن تعرف الناس، أن تعرف الأشياء والعلاقات، ونتيجة لذلك ستحسن التصرف فيما يلزم بك من أطوار الحياة!  
 - يا له من طريق طويل!  
 - لقد ضيّعت في الأرشيف عمراً، وفي المقهى عمراً، وفي الزاوية عمراً، ومن حقّ الثقافة عليك أن تهبها بعض عمرك. . .  
 - يجئني إليّ أنني لا أحبّ ذلك. . .  
 - سوف تحبّه، وستجد مكتبي تحت تصرفك، مكتبة متواضعة فما أنا إلاّ مدرّس، ولكن كن على يقين من أنك ستحبّه، أكان من الممكن أن تحبّ زوجتك قبل أن تراها؟  
 فصاح بحنق:  
 - لا تُرجعني إلى تلك الذكري.  
 - لا زلت تحبّها!  
 - أوّد أن أقتلها. . .  
 - هذا يعني أنك لا زلت تحبّها.  
 - ألم تسمعي يا أستاذ عنتر؟  
 - الكراهية الحقيقيّة هي النسيان.  
 - يا له من حديث بغيض!  
 - لا تنس أنني ها هنا لأنثلك من الهزيمة. فلا يجدي إلاّ الصدق. . .  
 - الصدق؟! . . . أين الصدق؟  
 - إنّه جوهرة قد تختفي أحياناً تحت ركام الأوهام.  
 - من سوء الحظّ أنّ مأساتي ليست وهماً. . .  
 - منذاً الذي يستطيع أن يقطع برأي في ذلك؟  
 - الضحيّة!  
 - بل البصيرة. . .  
 - أوثق عبد الله منكبيه في فتور فقال عنتر:  
 - فلنناقش خيانة الشيخ مروان المزعومة.  
 هتف عبد الله بغضب:  
 - المزعومة!  
 لم يعلّق عنتر على صحبته فقال عبد الله:  
 - أجيئت لتدافع عن ذلك الوغد؟  
 فقال بهدوء:  
 - من أجل الحقيقة وحدها جئت.  
 - لا يلدغ مؤمن من جحر مرّتين.  
 فواصل حديثه وكأنه لم يسمعه:  
 - لأنّي أحبّ الحقيقة ولأنّي أوّد معاونتك.  
 - لم يعد من السهل إقناعي!  
 - فلنجرّب.  
 - إنّي أمقت ذلك.  
 - صبرك. . .  
 - لقد رأيت بعينيّ وسمعت بأذنيّ!  
 - لا تباؤ بأدوات الخطأ.  
 نذت عن عبد الله ضحكة جافّة وقال:  
 - سمعت مثل ذلك من قبل، الوغد قاله لي!  
 - حقاً؟  
 - لعن الحواسّ وأشاد بالقلب.  
 - وإنّي أيضاً ألعنّها ولكن لحساب العقل!  
 - لا دخل للعقل فيما رأيت. . .  
 - إنّي أعرف الشيخ مروان خير منك.  
 - لا أحد يعرفه مثلي.  
 - هلأ حدّثتي باكتشافاتك؟  
 صمت عبد الله زاهداً في الحديث ونفوراً منه فقال  
 عنتر برجاء:  
 - احترم رغبة صديق يحبّك ويتعمّى لك الخير.  
 فقال عبد الله بحنق:  
 - إنّه رجل مضجر، يعمل بلا روح، على خلاف ما يظنّ الناس.  
 فقال عنتر متودّداً:  
 - أوافقك على رأيك في ذلك ولكن لا ذنب له فيما استشعرته.  
 - ذنب من إذن؟

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٤٥

ضحك عنتر ضحكة عالية وقال:  
 - الضحكة المسكين، ألا تعرف أنه لا يستطيع أن يرى إلى أبعد من ذراعين؟  
 - كلاً، لم يشك ذلك قط.  
 - إنه لا يحب الشكوى على الإطلاق.  
 فصاح عبد الله ملقياً بأخر تمهدياته وأخطرها:  
 - لقد رأيت يده في صدر زوجتي.  
 - لم يحصل ذلك يا صديقي عبد الله.  
 - حصل.  
 تنهد الرجل قائلاً:  
 - لا بد مما ليس منه بد.  
 وسكت ملياً، مكفهر الوجه لأول مرة، ثم قال:  
 - لا مفر من مصارحتك بحقيقة ما كان يجوز إعلانها.

تابعه الآخر صامتاً ولكن باهتمام متزايد فقال عنتر:  
 - الرجل مصاب بعجز جنسي منذ أكثر من عام  
 انكتمت أنفاس الانفعالات المحتمدة تحت طن من  
 التراب فساد الدهول. وارتفع صوت عنتر قائلاً:  
 - ذهبنا من طيب إلى طيب ولكن لم يعدنا أحدهم  
 بشفاء عاجل!  
 لم يستطع عبد الله الخروج من صمته فقال عنتر:  
 - إن كنت في شك من قولي صحبتك إلى الطبيب  
 بنفسه.

ثم وهو يرفع رأسه إلى أعلى:  
 - ليغفر لي الله ذنبي!  
 خلا كل منها إلى نفسه. أغمض عبد الله عينيه.  
 على رغمه انسابت دموع من تحت جفنيه. حانت من  
 عنتر التفاتة إليه فرأى دموعه. تهلل وجهه وانبسط.  
 تتم بنبرة متأثرة:  
 - صديقي عبد الله، ليحفظك الله من كل سوء،  
 ليجعل لك من عقلك مرشداً.

«٥»

صمت هنيئاً وليدها إلى صدرها ترضعه. أما مروان  
 الصغير فكان يجبر أسفل الكنية. عبد الله.. انفرد  
 بنفسه على كنية أخرى يقرأ في كتاب. وسأله هنيئاً:  
 - متى تستعد للذهاب إلى القهوة؟

- لا أهمية لذلك الآن، غيره؟  
 - ذلّه المهين حيال التجار من أهل الحارة؟  
 - لا أنكر ذلك ولكن من خلال علاقاته معهم  
 أقنعهم بإنشاء المدرسة التي أنا مدرّس بها!  
 بهت عبد الله. ومضت عيناه حنقاً وهو يعثر بشرك،  
 فقال الآخر برقة:  
 - لا تغرتك المظاهر، إن التكالب على الولايم  
 عيب ولكن ثمة خير أكبر منه وأخطر.  
 فتساءل عبد الله بحذر:  
 - ومعاملته لخادمته؟... أنسيت ذلك؟  
 فضحك عنتر طويلاً ثم قال:  
 - يا للرجل الضحكة!  
 واستمر في ضحكته حتى قال:  
 - الحق يا صديقي أن البنت حاولت إغواءه!  
 - هه!

- أجل، تلك حقيقة لا يعلم بها أحد سواي، وأنا  
 الذي اقترحت السرقة كعذر لطردها صوتاً لسمعتها!  
 بهت عبد الله مرة أخرى. عكست عيناه نظرة حذر  
 وخوف.

تتم:  
 - فلنغلق باب ذلك الحديث...  
 - أوجدت رغبة طارئة في الهرب؟  
 - الهرب!  
 - لعلك تخشى اكتشاف ضحايا أبرياء لك؟  
 - أستاذ عنتر!  
 - لا توصل باب السعادة في وجهك.  
 - هيهات أن أنسى ما رأته عيناى.  
 - تعني حكاية بثر السلم؟  
 فتهد ولم ينبس.  
 - لم تصدقها في وقتها؟  
 - لكثافة الغشاوة فوق عيني.

- ثم استرجعتها بعين ذاكرة حانقة غاضبة كارهة!  
 - لن أقيم قصوراً على الرمال مرة أخرى.  
 - راجع عقلك وحده.  
 - كلاً، الوغد الفاسق، طالما ضبطت عينيه وهما  
 يفسقان بنساء حارتنا!

- فأجاب دون أن يرفع رأسه عن الكتاب :  
 - سأذهب إلى السنيما مساء اليوم مع عنتر.  
 ومضى الوقت في هدوء شامل حتى دق جرس  
 الباب . فتح الرجل الباب فدخل رجل طويل نحيل في  
 بدلة رمادية .  
 رحّب به عبد الله قائلاً :  
 - أهلاً بشيخ حارتنا .  
 حيّاً القدام الزوجة وجلس حيث أجلسه عبد الله  
 إلى جانبه .  
 - زارنا النبيّ يا سيّد مراد عبد القويّ .  
 - انتظرتك في القهوة ولكنك لم تحضر كعادتك؟  
 - سأذهب إلى السنيما مع الأستاذ عنتر .  
 ابتسم شيخ الحارة ابتسامة غامضة فقال عبد الله :  
 - هلاً ذهبت معنا يا سيّد مراد؟  
 فقال بهدوء :  
 - جئتكم لغرض آخر .  
 فنظر الرجل نحو زوجته نظرة خاصّة لتغادر الحجرة  
 ولكنّ شيخ الحارة بادره :  
 - لا تزعجها ، ولعلّه من المفيد أن تسمع حديثنا .  
 فتطّلع إليه باهتمام حتى قال بهدوءه المألوف :  
 - سيدور الحديث حول صديقنا الإمام والمدرّس ا  
 دهش عبد الله . راقب وجه الرجل الجادّ باهتمام .  
 وكما طال السكوت قال :  
 - الحقّ أنّه رغم صداقتكم فلا يخلو لقاء بينكم من  
 مناوشات غير مريحة .  
 - لا ضرر من ذلك .  
 - ترى هل لانتصارك المتكرّر عليهما في الشطرنج  
 دخل في ذلك؟  
 - ليس ذلك بالتفسير المقنع .  
 - بل .  
 - ولكنك تعرف لذلك أسباباً أخرى ا  
 فلاح الارتباك في وجه عبد الله فقال شيخ الحارة :  
 - أعرف أنّهما يشيعان عنيّ أنّي مرشدا  
 لم يخرج عبد الله عن صمته فقال الرجل :  
 - ما عيب أن أكون مرشداً؟ ما المرشد إلّا عين من  
 عيون المصلحة العامة .
- هذا حقّ .  
 - ولا يخافه إلّا المنحرفون .  
 - هذا حقّ أيضاً .  
 فابتسم شيخ الحارة وقال :  
 - ما علينا يا سيّد عبد الله ، ماذا تعرف عن  
 الرجلين؟  
 - كلّ خير يا شيخ الحارة .  
 وقالت هنيئة :  
 - نحن مدينان لهما بسعادتنا .  
 وقال عبد الله :  
 - وباسميهما سمّينا وليدينا .  
 فقال الرجل بهدوء كاد يكون بروداً :  
 - إنّما أسأل عن الرجلين لا عنكما .  
 فقال عبد الله بحماس :  
 - هما الصق الناس بي ، ومنهما أستمّد العلم  
 والهداية والمودّة .  
 - باسم الصداقة صارحني : ألك رغبة حقيقة في  
 خدمة المصلحة العامة؟  
 - أعتقد ذلك .  
 - أتفضّلها عند المقارنة على العلاقة الشخصية؟  
 أجاب بعد تردّد :  
 - أعتقد ذلك .  
 - حسن ، قلت إنّها الصق الناس بك ، كثيراً ما  
 تجمعكم سهرات طويلة في بيت الإمام أو المدرّس أو في  
 بيتك هذا ، ماذا ترى؟ ماذا تسمع؟ ماذا تلاحظ؟  
 - سهراتنا تمضي عادة في مناقشات يتخلّلها شرب  
 الشاي والقرفة ، وأنا شخصياً قليلاً ما أشارك في  
 الحديث إذ إنّه يعلو عليّ كثيراً ، ربّما أطرح سؤالاً من  
 آن لأن ، وهما رغم خلافاتهما الكثيرة ينتهيان عادة إلى  
 نوع من الوفاق .  
 - هل تستطيع أن تمدّني بأمثلة مما يدور النقاش  
 حوله؟  
 فأجاب عبد الله باهتمام منتشياً بإحساس بالاهميّة :  
 - إنّها موضوعات خطيرة حقّاً ، مثل الحرّيّة والخبز ،  
 الخير والشرّ ، الخلود وهل يكون بالأرواح وحدها أو  
 بالأرواح والأجساد معاً ، العفاريث وهل توجد بالحقيقة



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٤٧

- أو بالرمز. فابتسم شيخ الحارة ابتسامة غامضة وقال:
- يا لها من مسائل خطيرة حقًا
- جدًا.
- وهل برهنا على وجود للعفاريت حقيقي؟
- هذا ما يؤمن به الشيخ مروان أما الأستاذ عنتر فيتكلم عن ذلك بحذر شديد وإن قرّر أنّ احتمال وجود كائنات غيرنا في العالم مقبول عقلاً.
- وكيف برّأ وجود الشرّ في العالم؟
- ما زال عقلي طفلًا ولكنّ عنتر يؤكد أنّ ما نعدّه شرًا ليس بشرّ حقيقيّ إذا نُظر إليه في موضعه من الصورة الكلّيّة للكون.
- فضحك شيخ الحارة ضحكة مقتضبة وقال:
- لا أظنّه كذلك في نظر أيّ من المرشدين.
- فقالت هنيئة:
- ولا في نظرنا يا سيّ مراد.
- رحّب شيخ الحارة برأيها بهزة من رأسه ثمّ تحوّل إلى عبد الله متسائلًا:
- ألم يتطرّق الحديث إلى موضوعات أهمّ؟
- أهمّ من الخير والشرّ والخلود؟
- فقال وهو يداري ابتسامة:
- كالنساء مثلاً أو المخدّرات!
- فهتف عبد الله:
- أعوذ بالله.
- وقالت هنيئة:
- إنّهما أفضل رجلين في حارتنا!
- فسأله دون اكتراث لاعتراضاتها:
- ألم تلاحظ في سلوكهما ما يدعو إلى التفكير؟
- كلّاً يا سيّدي.
- فرمقه بنظرة ذات معنى وقال:
- أذكر أنّه كانت لك جولات مع الإمام مثيرة!
- فقال عبد الله بيقين:
- لقد انقضت غيومها بفضل القلب والعقل.
- وقالت هنيئة باستياء:
- كيف هان عليك أن تذكّرنا بذلك الماضي؟
- لا مؤاخذه، فإنّ عملي الدقيق عودني على ألاّ
- أتورّع عن شيء في سبيل إتقانه.
- ثمّ مرّكزًا خطابه على عبد الله:
- رُئيّ الأستاذ عنتر عبد العظيم في ليلة ممطرة وهو راجع إلى مسكنه حافي القدمين، واضعًا في ذات الوقت حذاءه وجوربه تحت إبطه ملفوفين بجريدة، ألم يدعك ذلك إلى التفكير؟
- فضحك عبد الله وقال ببراعة:
- أبدى عن ذلك منطقيًا غريبًا ولكنّه لا يخلو من سداد، قال إنّ القدمين بغسلهما يعودان إلى أصلهما، أما الحذاء والجورب فلو تعرّضا للمطر والطين لأصابها حتّى تآلف كبير أو صغيرًا
- أاقتنعت بمنطقه؟
- اعتبرت الأمر كلّه فكاهة لطيفة.
- ألم ترّ فيه تصرفًا غير لائق برجل من رجال التربية؟
- الحقّ أنّ احترامي له منعني من التفكير على ذلك النحو.
- ألم يكن عرضة لأن يراه أحد من تلاميذه؟
- يا شيخ الحارة إنّ أكثرهم لا تستعمل الأحذية خارج أسوار المدرسة!
- ألا يعني سلوكه أنّه يؤمن بأنّ الإنسان يجب أن يكون في خدمة الحذاء لا العكس؟
- اعتبرت الأمر فكاهة كما قلت
- فتفكّر مليًا ثمّ سأله بلهجة ابتداء جديدة:
- صرّح الشيخ مروان مرّة أنّه يفضّل أن يعيش في ظلام دامس على أن ينور مجلسه بمصباح وارد من بلاد أعداء الله، ما رأيك؟
- بيته يا سيّد مراد مضاء بالكهرباء!
- فما معنى التناقض بين قوله وفعله؟
- ما هي إلاّ طريقة للإعراب عن إيمانه وأصالته!
- هل استشهد مرّة بقول الشاعر:
- هل الله عاف من ذنوب تسلفت
- أم الله إن لم يعف عنها يعيدها
- أجل يا سيّدي ولكن كان ذلك من خلال إبداء بعض الآراء في النحو.
- إذن ليس لديك أيّة ملاحظات عن الرجلين؟

- لا يا سيّد مراد .  
فقال الرجل وهو يهيمّ بالقيام :  
- أنّ لي أن أذهب .  
فقال عبد الله بحرارة :  
- بوذي أن أدعوكم جميعاً إلى جلسة مودة وتصفية في بيتي .  
فقام شيخ الحارة وهو يقول :  
- فات أوان ذلك !  
- بل نعمة فرصة طيبة .  
فقال شيخ الحارة بهدوء البارد :  
- لقد ألقى القبض عليها منذ ساعتين !  
نذت عن هنية آهة فزع على حين صاح عبد الله منكراً :  
- لا !  
- هي الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان .  
هتفت هنية متسائلة :  
- كيف يُقبض على أشرف رجلين في حارتنا ؟  
- علمي علمك يا أمّ مروان .  
- ولكنّها كارثة عظمى !  
- بل أحداث عادية تقع كلّ يوم .  
وأراد الرجل أن يمضي إلى الخارج ولكنّ عبد الله اعترض سبيله متسائلاً في هستيريا :  
- لمّ قبض عليهما ؟  
فأجاب بوضوح وقوة :  
- لا جواب عندي على ذلك .  
وحياهما وانصرف . خلف وراءه زوبعة اجتاحت العقل والقلب . جعل الزوجان يتبادلان النظر في صمت رهيب . قام بينهما حاجز مشحون بالنزور .  
وتمتت هنية :
- أمر لا يصدّقه العقل .  
- أجل .  
- كارثة حقيقية .  
- أجل .  
- انظر كيف تُهدّد كرامة الأبرياء !  
- نعم . . . نعم .  
- عقلي سيطر في الهواء .
- عقلي طار فعلاً .  
- ما معنى ذلك يا عبد الله ؟  
- ما معنى ذلك !  
- وشيخ الحارة لا يريد أن يتكلّم .  
- مسئولية خطيرة !  
- ولكنّه يعرف كلّ شيء .  
- ربّما .  
- ولعلّه المستول عن كلّ شيء .  
- جائز .  
- أليس هو بصديقك ؟  
- ليس من السهل مناقشة عمله .  
وحدجته بنظرة قلقه وقالت :  
- الحادث قلقك !  
- طبيعي .  
- لقد انفعلت به أكثر ممّا يجوز .  
- بل دون ما يجب .  
- قلبي . . . قلبي غير مرتاح .  
- ولا قلبي .  
وتبادلا نظرة ثقيلة معتمة كالحة .
- « ٦ »
- ترامت من الحارة أصوات متلاطمة آخذة في نقاش محتدم . ترامت من وراء النافذة المغلقة فقال عبد الله :  
- أهل حارتنا يتبادلون الرأي في القهوة .  
ومضى إلى النافذة ففتحها على مصراعها فتدققت الأصوات في قوّة ووضوح . ذهب هنية بالطفلين إلى حجرة داخلية ثمّ عادت بمفردها فجلست قبالة زوجها على الكنبه وراحا يرفهان السمع باهتمام شديد .
- \*\*\*
- شيخ الحارة، إنّه شيخ الحارة !  
- هو الذي دبر الإيقاع بهما .  
- ولكن لمّ ؟  
- الأسباب مجهولة .  
- لعلّها أسباب شخصية .  
- وتردد ذكر أسباب غريبة .  
- أيّ أسباب غريبة ؟  
- أسباب لها علاقة بالسلوك !

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٤٩

- السلوك! معاذ الله.
- الإشاعات تطاير.
- اضرب لنا مثلاً.
- كلام قيل عن المخدرات!
- المخدرات!... مندا يتصور ذلك!
- بل حتى الأتجار بالمخدرات جرى به الهمس.
- يا أطف الله!
- وكلام آخر عن النساء!
- ليقطع الله ألسنتهم.
- الرجلان بريثان، وما هي إلا مكيدة قلرة!
- أجل مكيدة يقف وراءها شيخ الحارة.
- ولكن شيخ الحارة رجل مستقيم ما عرفنا عنه من سوء.
- كالخط المستقيم، كالماء النقي.
- ووسائل عمله وإن تكن مجهولة إلا أنها مؤكدة لا تخطئ.
- هذه مغالاة لا مبرر لها، لا يخلو الرجل من ضعف إنساني، ولا شك عندي في أنه أوقع بهما لأسباب شخصية!
- اتهاماته لا دليل عليها!
- كل واحد يعرف أنه لم يكن يستلطفها.
- إنه لا يستلطف آخرين فليم لم يوقع بهم!؟
- لكل إنسان مزاياه ونقائصه، هذا قانون ينطبق على الإمام والمدرس وشيخ الحارة، فشيخ الحارة ليس بالإنسان الكامل ولكن الأمر لم يكن يقتضي القبض على الرجلين المحترمين.
- أنا أصرّ على براءة الرجلين وكماهما!
- وأنا أصرّ على امتياز شيخ الحارة.
- انتظروا، ستعرف الحقيقة عاجلاً أو آجلاً.
- لن يغيّر شيء من رأينا في الرجلين.
- ولن يغيّر شيء من رأينا في الرجل.
- يا لها من بلبلة، لن نتفق على رأي.
- ولكن الحق واضح.
- الحق واضح.
- الحق واضح.
- لا اتفاق على رأي.
- والتعصب رذيلة غير مجدية.
- ولكنّه مبرّر في حال الرجلين فهما مرجع كل كلمة طيبة أو سلوك حميد في حارتنا.
- وهو مبرّر كذلك في حال الرجل الساهر على أمن حارتنا وسعادتها.
- ولكننا حيال موقف يحتم علينا التفرقة بين الصواب والخطأ.
- لا يمكن أن يخطئ الرجلان.
- ولا يمكن أن يخطئ الرجل.
- يا لها من بلبلة! لن نتفق على رأي...  
\*\*\*
- ضاق صدر عبد الله بما ترامي إلى سمعه فقام إلى النافذة فأغلقها بعصبية. عادا يتبادلان النظرة المعتمة الثقيلة. وتمتمت المرأة:
- إنها لبلبله حقاً لا تستخلص منها شيئاً... فقال بقلق:
- ولكنّها تعصف بالقلب عصفاً.
- لكل رأيه ولكن أحداً لا يستسلم للعاصفة!
- فقال وكأنا يناجي نفسه:
- لا يمكن أن يلقي القبض عليهما لغير ما سبب!
- سمعنا كل ما يمكن أن يقال.
- الأمر يختلف بما يتعلّق بها!
- وساد صمت لم تجرؤ على خرقه حتى عاد يقول:
- فانا لم أستقرّ على الطمانينة إلا استناداً إلى الثقة الكاملة بهما!
- لعله من المغالاة أن نطالب بالثقة الكاملة.
- لولا ثقتي الكاملة بالأستاذ عنتر لما عاودت الثقة بالشيخ مروان!
- ما أكثر الذين يؤمنون ببراءتهما!
- وما أكثر الذين لا يؤمنون!
- من الحكمة أن تبقى على ثقتك بهما ما دمت لا تجد الدليل القاطع على إدانتها.
- ولكنّها حكمة قد تقضي عليّ.
- فتساءلت بحزن وأسى:
- ماذا تعني؟
- لم ينبس ولكنّه طالعتها بوجه مكفهر. وإذا بها تهتف

- بحدثة: فهتفت بغضب:
- أصبحت خبيرة برصد وساوسك!
- وساوسي!
- وساوس التردد وضعف الثقة بالنفس!
- فصاح بغضب:
- عليّ أن أكون مغفلاً لتشهدني لي بالقوة والثبات!
- فقالت بوجه متقلص بالعذاب:
- ها نحن نعود رويداً إلى الجحيم!
- المهم أن يقوم صرح حيالي على حقيقة واضحة.
- لعل من الأهم من ذلك أن تنادي الحكمة في المحن وأن تتذكر دائماً أنك أب!
- فقال بسخرية مريرة:
- أجل، إني أبو مروان وعنتر...
- وهي حقيقة أهم مما عداها...
- فقال بارتياح:
- بل توجد حقيقة أخرى أكبر، وليست هي بالثانوية، وأنا أريدها كما هي في الواقع ولو دهمتني في حالة من النيران المتقدة.
- أخشى أن يقتصر حقلنا من السعي في النهاية على الاحتراق بالنيران المتقدة!
- فرماها بنظرة متفحصة وقال بنحن:
- أنت وحدك تعرفين الحقيقة الكاملة!
- فقالت بإصرار:
- حسبي أن أعرف أنني زوجة أمينة كما ينبغي للزوجة أن تكون.
- فتمتم كأنما يناجي نفسه:
- زوجة أمينة كما ينبغي للزوجة أن تكون...
- فقالت بتحد:
- أجل، هذا ما عنيته...
- أترين لي في صميم قلبك أم تسخرين مني؟
- فقالت بحدثة:
- علم الله أنني أرثي لك...
- إذن فأنت زوجة وفيّة؟
- لشد ما يؤلني تساؤلك...
- لا مفر من التساؤل حتى الموت.
- اطرح أفكارك المريضة أو فلتذهب إلى الجحيم...
- ها أنا أتقدم من الجحيم بخطوات ثابتة...
- ففكر مرتين، ففكر مرات، ففكر من أجل الطفلين...
- ما أحوجني إلى ضوء شمعة في هذه الظلمات المتلاطمة...
- حذار من الخطأ...
- ما أحوجني إلى ضوء شمعة...
- حذار من رمي الأبرياء بالتهمة الباطلة...
- ضوء شمعة لا أكثر...
- إذا غادرت بيتك للمرة الثالثة فتكون الثالثة والأخيرة...
- أتلجئين إلى التهديد لتمنعيني من التفكير؟
- إني أحذرك وأنبهك...
- هل رميتك بتهمة تكريهها؟
- دعني أسالك، ألا زلت تؤمن ببراءتي؟
- فتنهّد قائلاً:
- في محنتي الراهنة لا أجد قدرة على الإيمان بشيء.
- أرايت إني ذاهبة عليك أن تحسم أمرك للمرة الأخيرة وإلى الأبد...
- واندفعت خارجة من الحجرة وهي تردّد:
- للمرة الأخيرة وإلى الأبد...
- «٧»
- جلسا جنباً إلى جنب، عبد الله وشيخ الحارة. فرغا من احتساء الشاي وشيخ الحارة يقول:
- تخنّت من بادئ الأمر دعوتني يا صديقي.
- فقال عبد الله بحرارة:
- بالنسبة إليّ فهي مسألة حياة أو موت.
- فقال شيخ الحارة بامتعاض:
- تخنّب من فضلك المبالغات العاطفية.
- يهمني جداً أن أعرف الأسباب التي أدت إلى القبض على الشيخ مروان عبد النبي والأستاذ عنتر عبد العظيم...
- فلوح شيخ الحارة بيده متضامياً وقال:

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٥١

- لا أفهم ذلك .
- ولكنّي أفهمه بكلّ وضوح وبساطة، وتحت شعاره  
أعمل .
- ثمّ قال بصوت مرتفع الدرجة:
- الحارة كلّ لا يتجزأ وليس من العسير أن أعرف  
ما ينفعها وما يضرّها، أمّا أهلها فأفراد لا حصر لهم،  
وتتعدّد مشكلاتهم بتعدّد أهوائهم . . .
- معدرة، يتعدّر عليّ أن أسلم بذلك .
- دعني أضرب لك مثلاً، ثمّة زوج يكره زوجته،  
وآخر يحبّها حتّى العبادة، وثالث لا هو يحبّها ولا هو  
يكرهها، فهل تتصوّر لهم موقفًا واحدًا من حادثة  
القبض على الإمام والمدرّس؟
- ولكنّ كلّاً منهم يودّ أن يتخذ موقفًا على ضوئه  
الحقيقة . . .
- لعلّك تفترض فيهم شجاعة قلّ أن تتوافر، وفي  
النهاية تتحكّم الأهواء وحدها . . .
- ثمّ التفت نحوه باسمًا متسائلًا:
- تحبّ زوجتك؟
- فلاذ عبد الله بالصمت فقال شيخ الحارة:
- لطيف أن تحبّ زوجتك هذا الحبّ كلّها
- اعترف بأنّه لعنة تطاردني . . .
- فإذا تهّمك الحقيقة؟
- هي كلّ شيء .
- تحبّ إليّ أنّها لا شيء في مثل حالاتك . . .
- أيّ قيمة حبّ يقوم على كذبة؟
- وتنهّد عبد الله ثمّ استطرّد:
- إني أتساءل دون توقّف، هل أطلق؟ هل أغمض  
عينيّ؟ هل أسلم للعبث والمجون؟، هل أنتحر؟ . . .
- يا له من عذاب!
- أنت المسئول عنه .
- فابتسم شيخ الحارة ساخرًا وقال:
- أنت وحدك المسئول!
- ما أسباب القبض عليهما؟ . . . باسم الرحمة  
والصداقة أجبني . . .
- فقال شيخ الحارة بهدوء:
- كثيرون يتصوّرون مسؤوليتي في ذلك على غير

- عيب أهل حارتنا أنّهم يخلطون بين العلاقات  
الشخصيّة والأمور العامّة!
- ليس الفضول على الإطلاق ما يدفعني إلى  
سؤال!
- ليس الفضول وحده ولكن علاقتك الوطيدة  
بالرجلين .
- ولا ذاك أيضًا، ولكن لأنّ على الجواب تتوقّف  
حياتي، حياة أسرتي، سعادتي في هذه الحياة .
- لعلّك تعني المضاعفات التي أصابت حياتك  
الزوجيّة فيما مضى؟
- نعم .
- إنّه موقف يشاركك فيه كثيرون من أهل حارتنا!  
فتساءل عبد الله بذهول:
- حقًا؟
- هو الحقّ على وجه اليقين .
- أتعني . . . ١٩ . . .
- أعني أنّ الرجلين بحكم عملهما، اتّصلا بأسر  
كثيرة، ونزلا منها نفس المنزلة التي نزلاها من أسرتك .
- فقال عبد الله باهتمام :
- حدّثني عمّا وقع لتلك الأسر؟
- فقال بعدم اكترات:
- منهم من خاب ظنّه فيها فطلّق، ومنهم من أصرّ  
على الثقة بهما فمضت حياتهم كما كانت ثمّضي من قبل  
دون أدنى تأثر .
- وحده بنظرة نافذة ثمّ واصل حديثه:
- ومنهم من لم يستقرّ على رأي فتردّى في هاوية  
العذاب .
- يا له من مصير غير محتمل!
- أجل .
- ولكن بوسعك أنت وحدك أن تحسم الأمر .
- لا شأن لي بذلك .
- بل هو واجبك نحو أهل حارتك .
- يا صديقي إنّ مهمّتي تتعلّق بأمن الحارة  
وسلامتها ولا شأن لي بحياة الأفراد .
- ولكنّ الحارة ليست إلّا أهلها .
- الحارة شيء وأهلها شيء آخر .

- حقيقتها .  
 - ولكنك قبضت عليها .  
 - لم أقبض في حياتي على أحد .  
 - الكلّ يُجمع . . .  
 فقطاعه بهدوء :  
 - دعنا ممّا يُجمعون عليه ، إنّ مهمّتي تنحصر في جمع المعلومات .  
 - إذن حدّثني عن معلوماتك .  
 - المعلومات - كالوسائل التي أحصل بها عليها - سرّ من أسرار عملي .  
 - أليس من المحتمل أن تكون خادعة ؟  
 - إنّني أعرف عملي جيّدًا .  
 ثمّ بشيء من الكبرياء :  
 - ولا أثر فيه للهوى أو للأغراض الشخصية .  
 فقال بنبرة اعتذار :  
 - لم أقصد شيئًا سييء إليك ولكن حدّثني عن انطباعك فهل تؤمن بأنّها مذنبان ؟  
 - الحُكْمُ بلذّك يخرج عن حدود عملي .  
 - كيف ذلك ؟  
 - إنّني أقدم معلومات أمّا الحكم عليها فمن اختصاص غيري !  
 - ولكن لا شك أنّ لك انطباعك عن المعلومات التي تتجمّع لديك ؟  
 - لا أستطيع الجزم بشيء ، إنّني أعرف - على سبيل المثال - أنّ (أ) قابل (ب) في الساعة (د) في المكان (هـ) ، الواقعة مؤكّدة ولكن ماذا تعني عند أهل الاختصاص ؟ . . . قد يعقب ذلك القبض على (أ) ، أو على (ب) ، أو على (أ) و (ب) معًا ، وقد لا يقع شيء البتّة . . .  
 - فإذا تمّ القبض فهذا يعني الإدانة .  
 - كلاً . . .  
 - ولكن كيف ؟  
 - قد يُفرج عن المقبوض عليه بعد وقت ما ، وقد يتضح أنّ القبض على (أ) و (ب) كان بغرض الإيقاع بثالث مجهول هو (و) . . . !  
 - أيّ حيرة !  
 - هو الطريق إلى الحقيقة !  
 - ربّما كان أفضل ما يتّبع هو الانتظار .  
 - رأي يبدو وجيهاً ، ولكنّ الانتظار قد يمتدّ عامًا أو عشرة أعوام ، فهل تطيق أن تترك زوجتك في بيت أبيها هذه المدة دون حسم ؟ !  
 - إذن كيف يمكن معرفة الحقيقة ؟  
 - لا أدري ماذا أقول ، ولكن لا يكفي الاعتماد على الغير ، لا بدّ من استغلال مواهبك الذاتية وخبرتك الماضية . . .  
 تنهّد عبد الله من الأعيان وقال :  
 - الحقّ أنّي كنت أجد عند الرجلين إجابات جاهزة وحاسمة ومريحة كلّما احتجت إليها .  
 - ولكن لا تنس أنّك طلّقت في رحابها مرّتين !  
 - ربّما كنت متسرّعًا .  
 - وربّما كنت على حقّ .  
 صمت مليًا مكفهرّ الوجه ، ثمّ سأله :  
 - بمّ تنصّحي فيما يتعلّق بزواجتي ؟  
 - أرجوك ، لا شأن لي بالشئون الخاصّة . . .  
 - ولكتّها كلّ شيء . . .  
 - بالنسبة لك لا للحارة التي أنا شيخها !  
 - إنّني أسألك كصديق .  
 - اعترف بأنّ صفتي العامّة قد غلبت على كلّ شيء ، ولو أنّي نصحتك نصيحة ثمّ ثبت بعد ذلك فشلها لحاسبتني على ذلك بصفتي شيخ الحارة لا الصديق فحسب . . .  
 تنهّد عبد الله مرّة أخرى ثمّ قال :  
 - إذن قد تثبت براءة الرجلين وقد تثبت إدانتها ؟ . . .  
 - أجل . . .  
 - ليس ثمّة يقين ؟  
 - بلى . . .  
 - مجرّد احتمال !  
 - نطقك بالصواب .  
 - وما النسبة المثوية لكلا الاحتمالين ؟  
 - لنقل ٥٠٪  
 - ٥٠٪ . . .

### حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٥٣

نظر الرجل في ساعته. قام. قام عبد الله أيضًا.  
ومضى شيخ الحارة نحو الباب ولكنه توقف في وسط  
الحجرة، ثم سأله:

- بحكم الفضول هلأ أخبرتي بما أنت فاعل؟  
فتفكر عبد الله وقتاً ثم قال:  
- لئن تكن زوجتي مدنية بنسبة ٥٠٪ فهي بريئة في  
الوقت نفسه بنسبة ٥٠٪!

- وإذن؟  
- ولأني أحبها أكثر من الدنيا نفسها، ولأنه لا بديل  
عنها إلا الجنون أو الانتحار، فلأني سأسلم باحتمال  
البراءة...

فابتسم شيخ الحارة ومضى إلى الباب. وتصافحا.  
ثم سأله وهو يهيم بالذهاب:  
- وهل أنت سعيد؟  
فابتسم عبد الله ابتسامة لا تخلو من حزن وقال:  
- بنسبة لا تقل عن ١٠٠٪!

- أيهمك أمر الرجلين لهذا الحد؟  
- يهمني أمر زوجتي قبل كل شيء...  
فابتسم شيخ الحارة وقال:  
- كم تحب زوجتك! ولكن لا غرابة فأننا أحب  
زوجتي أيضًا...  
فرمقه بنظرة غريبة وسأله:  
- ألم تصادفك متاعب في حياتك الزوجية؟  
فضحك شيخ الحارة لأول مرة وقال:  
- لا يخلو بيت من ذلك، وقد وقفت مرة على عتبة  
الطلاق ولكن الله سلم...  
- أكان لذلك أسباب مختلفة؟  
- نمة تشابه لدرجة ما...  
فسأله بلهفة:  
- وكيف استرددت ثقتك بها؟  
تفكر الرجل قليلاً ثم قال:  
- الحق أن زوجتي تعاونني فنحن لا نكاد نفترق،  
ولا يجد الشك ثغرة بيننا يمكن أن يتسلل منها...

# روبايكًا

«١»

- ورزينة ومليشة بالثقة، وتسأل بصري... .
- وتسأل بصرك؟  
- إلى أصابعك فلم أرَ خاتمًا  
- وليست في الوقت نفسه بنتًا من البنات، أليس كذلك؟ ماذا قلت؟  
- مطلقة.  
- وفيم فكرت؟  
- لم يخطر ببالي عبث... .  
- توكد لديّ ذلك عند تعارفنا أمس.  
فتفكر قليلًا ثم قال:  
- ولكن عليّ أن أصارحك بأنّي أحبّك.  
- تعني أنّك معجب بي؟  
- أكثر من ذلك، أنا أحبّك بكلّ معنى الكلمة... .  
- ولكنك لم تعرفني بعد.  
- ثمّة حبّ يجيء بعد المعرفة، وحبّ يسبق كلّ شيء.  
- الآخر كثير الأعباء.  
- الحقّ أنّي أحبّ المغامرة.  
فضحكت ضحكة رقيقة وقالت:  
- أتحبّ الصراحة؟... تخيّلت حديثنا هذا من قبل!  
فقال بفرحة:  
- هذا يعني أنّي خطرت ببالك... .  
- ألا يشهد هذا الطريق على قديم زماننا؟  
- وشهد أيضًا مصيري وهو يتقرّر حقّ من قبل أن أدري... .  
- ولكن ألم تنقضّ مدّة طويلة قبل أن ينطق الحبّ الذي تزعم أنّه سبق كلّ شيء؟
- كالعادة كلّ صباح كان أوّل طارئٍ على الطريق.  
مع أوّل شعاع للشمس تنفّج عنه السحب. أوردت الأشجار فترامت خضرتها على المدى فوق كورنيش النيل. مشى على مهل مفعبًا بأنفاس الريح وعيناه تنظران إلى بعيد. تنظران في لهفة. وكالعادة أيضًا، وقريبًا من منتصف الطريق لاحت لعينيّه قادمة. تلاقيا تحت شجرة الأكاسيا فتصافحا باسمين. تساءل:  
- نجلس فوق السور؟  
- لا بأس.  
وجلسا ظهراهما للنيل ووجهاهما للطريق الخالي.  
- صباح سعيد أن أصبح على وجهك.  
- شكرًا.  
- ورغم أنّنا لم نتعارف إلاّ أمس فإنّني أشعر بأنّي أعرفك منذ زمن بعيد... .  
- طالما جمعنا الطريق كلّ صباح.  
- كلّ صباح سعيد.  
- مشوار ضروريّ لي لتجنّب الترهّل.  
- ألفتك، كالنسمة الرقيقة والسحابة البيضاء، ونفذت إلى أعماقي بقوة مدعمة بالزمن.  
- لعلّك تساءلت كثيرًا عن سرّ مسيرتي الصباحية؟  
- كثيرًا جدًّا، خاصّة وأنّ مظهرك لا يوحي بأنك موظّف، قلت لعلّها تتمشّي في منطقتها السكنية لأسباب جمالية... .  
- ولكن ماذا عن خواطرك الأخرى؟  
- الأخرى؟  
- أيّ نوع من النساء ظننتني؟  
- سيّدة جميلة بقدر ما هي قويّة، نظرتها جريشة



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٥٥

- أحبه قريباً قادراً، رذائل القوة أحبّ عندي من فضائل الضعف...
- إنك واضحة وقوية...
- ماذا تكره أنت في المرأة؟
- فتفكر قليلاً ثمّ قال:
- القبح والانحلال.
- الانحلال؟
- أظنه لا يحتاج إلى تفسير.
- أنت ممن يهتمون بالماضي؟
- كلاً.
- ماذا تقصد بالانحلال؟
- الاستهتار، مثل إنشاء أكثر من علاقة في وقت واحد، أو التسليم بلا حبّ!
- ولكنّ ذلك مرض؟
- ربّما.
- لا توجد امرأة خائنة أبداً.
- هذا صحيح بصفة عامّة.
- يتجمل إليّ أننا متفاهمان؟
- وعلينا أن نعدّ أنفسنا للزواج بأسرع ما يمكن...

\*\*\*

«٢»

- مضت في الطريق ووقف يُبعمها ناظره، بقلب كلّ هيام. ثمّ انتبه إلى حركة ما. التفت نحو السور. وهو يقترب منه ظهر رأس رجل. لعله كان جالساً أو نائماً.
- ها هو يقف الآن أمامه في الناحية الأخرى من السور التي تلي شاطئ النيل. ترى هل سمع حديثه مع المرأة؟ وطالعه الغريب بوجه شاحب، بارز العظام، غائر العينين، وذقن غير حليق. سوى جليابه المتسخ فوق جسده الهزيل ثمّ عبر السور فصار على كئيب منه.
- لصّ؟ متشرّد؟ ليكن ما يكون. همّ بالدهاب ولكن استوقفه صوته وهو يقول:
- الحبّ!... ما أجل الحبّ...
- رمقه باشمئزاز وهمّ بالسير مرّة أخرى ولكنّ الرجل خاطبه قائلاً:
- لدينا حديث مشترك فيما أعتقد.

- كان اللقاء يمرّ في سرعة الضوء.
- جواب غير مقنع تماماً.
- وأول الأمر كنت في غفلة، واعتقدت فترة أخرى أنّك سيّدة متزوجة!
- وربّما كنت مرتبطاً بعلاقة ما؟
- ربّما...
- أيّ نوع من العلاقة من فضلك؟
- عابرة...
- عظيم!
- ولإذا بصمت قصير حتى خرقه الرجل قائلاً بنبرة جديدة بعض الشيء:
- يحسن بي أن أقدم ما خفي من شخصي، مهنتي صائغ، في الثلاثين من عمري، مركزي الماليّ على ما يرام.
- وأنا مطلّقة، قدر عمري كما تشاء، ويحسن بي أن أصارحك بأنّي جرّبت الزواج أكثر من مرّة!
- ما أجل الصدق...
- ألم يتفكّر ذلك؟
- كلاً!
- من حقّك أن تقلق ولكن صدّقني أنّي كنت وما زلت بريئة!

- وأنا أحبّك...

- إذن فأنا سعيدة أكثر ممّا أستحقّ...
- أفهم من ذلك أنّك...؟
- أنّي أشاركك عواطفك!
- ما أسعدني من عاشق...
- وحدجته بنظرة ثابتة وهي تسأله:
- ألم تتحرّ عني؟
- كلاً...
- أنا أنا ففعلت.
- فضحك طويلاً ثمّ تساءل:
- وهل نجحت في الامتحان؟
- أعتقد ذلك...
- بأيّ مقياس تحكّمين؟
- العجز هو ما أكرهه في الرجل.
- العجز؟!

- فسأله بتقرّز:  
- أناخطبني؟  
- لم يعد يوجد سوانا في الطريق.  
- ولكنّي لا أعرفك؟  
- ولا أنا أعرفك!  
- إذن لا أناخطبني.  
- ولكن لدينا حديث مشترك.  
- من أنت؟  
- تاجر روبايكيا.  
- وأيّ حديث تعني؟  
فأشار بيد معروفة شبه سوداء من القدارة نحو  
الناحية التي سارت فيها المرأة وقال:  
- بخصوص السيّدة...  
- وما شأنك بها؟  
- كنت آخر زوج لها؟  
- هه؟  
- تكلمت بوضوح فلا داعي للتكرار.  
فتفتّصه بدهول وتمتم:  
- أنت مجنون بلا شك...  
فضحك قائلاً:  
- لم ينعم الله عليّ بالجنون بعد.  
- لعلك تهذي!  
- لعلك تتساءل كيف آل أمري إلى ما ترى؟  
فلم يجب الرجل. فقال تاجر الروبايكيا:  
- كنت تاجر غلال ناجح...  
ثمّ بنبرة ساخرة:  
- ثمّ أفلست!  
وضحك قائلاً:  
- ولكنّي ما زلت تاجرًا على أيّ حال، وهالك  
عربي...  
وأشار إلى عربة منزوية وراء جلدع شجرة فوق  
الطوار. هزّ الرجل منكبيه استهانة، أو تظاهر  
بالاستهانة وهمّ للمرّة الثالثة بالسير ولكنّ التاجر  
سأله:  
- والحديث المشترك؟  
فسأله بحدّة:  
- أيّ حديث مشترك؟  
- حديثنا عنها، أيّ حديث عنها فهو هامّ بالنسبة  
إليّ، الحقّ أنّي ما زلت أحبّها.  
- ما زلت تحبّها؟  
- بكلّ جوارحي.  
- ولمّ طلّقتها؟  
- نتيجة حتميّة للإفلاس.  
- ولكنّ الزوجة المخلصة...  
فقاطعته:  
- لا يمكن أن تكون زوجة لتاجر روبايكيا.  
- ألم تكن... ألم تكن تحبّك؟  
- أجل فيها اعتقد.  
- كيف تغيّر قلبها فجأة؟  
- لا لوم عليها في ذلك.  
- لعلّ إفلاسك جاء نتيجة لأخطاء لا تفتقر؟  
- اعتقد أنا أنّ إفلاسي وقع بسببها واعتقدت هي  
أنّه جاء نتيجة لعجز...  
- عجزك؟  
- وهي تكره العجز كما قالت لك من دقائق!  
- زدني إيضاحًا.  
- لا أهميّة لذلك.  
- ولكنّه مهمّ في رأيي...  
- إنك تحبّها ومن حقك أن تجرّب حظك...  
- ولكنك أثرت موضوعًا وتركته مفتوحًا...  
- لا تقلق فهي امرأة ممتازة بكلّ معنى الكلمة...  
- لا تحاول خداعي...  
- لا سمح الله.  
- إنك تعني اتهامها...  
- أوكد لك أنّها على خلق عظيم...  
- لعلّها لم تكن تحبّك؟  
- ها أنت تتهمها بأنّها تزوّجت من رجل من غير  
أن تحبّه.  
- أعني أنّها لم تحبّك الحبّ الكافي.  
- جعلتني أوّمن بخلاف ذلك.  
- المرأة المحبّة الفاضلة لا تتخلّى عن زوجها.  
- أنا الذي تخلّيت عنها!

حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٥٧

واسطته. ونظرت من خلال المرأة أيضًا إلى صورة  
الرجل المترتع فوق الديوان وراها يتسلى بمشاهدة  
النيل من النافذة. وقالت وهي تتجه نحو الديوان:  
- في أصابعك معجزة.  
نزع بصره من النيل كمن يصحو من غفوة  
وتساءل:

- ماذا قلت يا عزيزتي؟  
- من يبدع هذه اللؤلؤة فهو معجزة!  
- المعجزة حقًا من تُصنع اللؤلؤة من أجله.  
فجلست إلى جانبه فوق الديوان وهي تقول:  
- جميل أن أسمع منك غزلًا رقيقًا حتى اليوم.  
- حقًا؟... ما وجه العجب في ذلك؟  
- المألوف أن الغزل يوارى كَلِمًا أوغل المرء في  
الزواج.

- ولكنتك نبع للحب لا ينضب أبدًا.  
فمسحت على شعر رأسه بنعومة وقالت:  
- حقًا؟  
- أيداخلك شك في ذلك؟  
- كَلَّا ولكنتك لم تعد كما كنت.  
فتردد قليلاً ثم قال:  
- لا علاقة لذلك بحبنا.  
- لا تخف عني شيئًا فإني أشعر بكل شيء.  
- أردت دائمًا ألا أجرك إلى متاعبي.  
- ستجدني دائمًا في صميم متاعبك، لا تخف عني  
شيئًا.

فتنهّد قائلاً:  
- الحقّ أنّي محاصر بالقلق...  
- أرايت؟  
- أقاومه بكلّ ما أوتيت من قوّة الانحدار إلى  
الهاوية!

- وأخفيت عني كلّ شيء.  
- لم أكفّ دقيقة واحدة عن الكفاح.  
- والجميع يضرّبون المثل بسعادتنا.  
- الحقّ أنّي أندفع نحو الخراب.  
- الخراب؟!  
- اختلّ ميزان العمل في يدي ولا سبيل إلى

- بسبب إفلاسك؟  
- أليس ذلك كافيًا؟  
- ألم تختبر استعدادها للوفاء؟  
- كَلَّا، لدى تسليمي بعجزني عن إسعادها هربت  
بالطلاق.

- بذلك يصبح الأمر واضحًا.  
- لا شيء واضح في هذه الدنيا المعقّدة.  
- ولكنّ ما قلته واضح جدًا.  
- جرّب حظك، جرّب أن تبلغ الوضوح بنفسك.  
- يتّجمل لي أنّك تداور وتماور لتلقي بدور الشكّ في  
نفسي...  
- أنت تقول ذلك.  
فهتف بغضب:  
- إذا كان لديك ما يستحقّ القول فقله وآلا  
فاذهب بغير سلام...

- المتاجرة بالأشياء القديمة علّمتني السباح.  
- الحديث المشترك؟  
- لا شيء بعد.  
- أتهزأ مني يا صعلوك؟  
- أبدًا، ولكنّي أحبّ الحبّ كما أحبّ المحيّن.  
- كنت تتجنّس علينا؟  
- أبدًا، ولكنّي أنام على شاطئ النيل في الربيع.  
- كذاب.  
- الربيع الذي يجتدّد الشجر ويعجز عن تجديد حياة  
البشر!

- لا ألوم إلا نفسي على الاستماع إليك.  
- لن تندم على ذلك أبدًا.  
- عد إلى القبر الذي خرجت منه.  
- سمعًا وطاعة، أمّا مجلسي المختار فهو قهوة سوق  
الكاتب، وشهرتي هناك «الملعون»...

- عليك اللعنة!  
- إلى اللقاء.

\*\*\*

«٣»

أمام المرأة وقفت ترنو بإعجاب إلى العقد المطوّق  
لجيدها. ترنو بصفة خاصّة إلى اللؤلؤة المدلاة من

## ١٥٨ حكاية بلا بداية ولا نهاية

- ضبطه .  
 - عندما يفتر الحبّ ينشط التفكير والتدبير .  
 - أبدأ، ليس الأمر كذلك .  
 - عندما يفتر الحبّ يبدأ الندم على السرور البريء .
- فقلت بحزن حقيقيّ :  
 - أيّ لعنة، أيّ لعنة، أيّ صحوة مباحثة من سعادة وهمية !  
 - بل كانت وما زالت سعادة حقيقية .  
 - أيّ لعنة تطاردني ! لم أضرنّ بعبء، هيأت لك عشًا ذهبيًا، ما رأيك في عشنا؟  
 - جئت .  
 - وأصدقائنا؟  
 - جدّابون كالسحرة .  
 - ورحلاتنا وليالينا؟  
 - جمال في جمال . . .  
 - أينقصنا شيء؟  
 - أبدأ ولكنّي أنفق المال بجنون !  
 - إنك صائع عبقرى ولا حدود لقدرتك .  
 - لو كان مال قارون لنفد . . .  
 - لا تقل ذلك يا حبيبي .  
 - ولكنّها الحقيقة .  
 - وأيّ طعم للحياة بغير مباحثها الحقيقية؟  
 - أنا مهذّب بالخراب العاجل .  
 - لا تحبّ أمني فيك .  
 - ولكنّها الحقيقة .  
 - لا تعلن عن عجزك .  
 - فقال بجزع :  
 - كلّ شيء له حدّ لا يجوز أن يتجاوزه .  
 - إنّما تهمني النتائج، أنا أحبّ الحياة الحلوة بقدر ما أحبّك .
- أنت جميلة، أنت فاتنة، أنت عطر الحبّ وروحه، ولكنك تتعلّقين بمسرات يمكن الاستغناء عنها .  
 - لا تقل ذلك أبدًا .  
 - الحبّ أغلى من أيّ شيء سواه .  
 - ولكنّ أزهاره لا تتورّ إلا في خمائل المسرات .  
 - ظننته غنيًا بنفسه عمّا عداه .  
 - لعلّ حبّك فتر . . .  
 - يا له من حكم جائر !
- فقلت بحدّة :  
 - لم أحبّ هذا القول .  
 - ما قصدت سوءًا قطّ .  
 - ولكنّي كرهته . . .  
 - إني أعتذر، وإني أحبّك، وأقرّ بأنّي إنسان ذو طاقة محدودة !  
 - إنك ترعبي .  
 - حقّ الحبّ تلزمه استراحات قصيرة . . .  
 - إنك تحمّلني ذنوب الآخرين .  
 - لا يعني الماضي قطّ .  
 - إني امرأة بريئة، لا عيب فيها إلا أنّها تحبّ الحياة حبًا لا يعرف الحدود .  
 - ولكنّه حبّ لا يتأقّ لرجل إشباعه .  
 - الحقّ ما أنا إلاّ ضحيّة لعجز الرجال .  
 - يا حبيبي علينا أن نحرص على حياتنا المشتركة .  
 - فقلت بكبرياء :  
 - لم أستطع ذلك في الماضي ولا أستطيعه الآن .  
 - اليس ذلك أيضًا نوعًا من العجز؟  
 - كلاً، لا تسمّ الأشياء بأضدادها .  
 - أنت اليوم في عزّ نضجك . . .  
 - فهتفت غاضبة :  
 - لست عجوزًا بعد .  
 - معاذ الله أن يخطر لي ذلك المعنى .  
 - ولكنّه خطر، ورميتني بما هو فيك .

حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٥٩

منعطف يصادفها هوت ضربة على رأسه فشهب ثم سقط مغشى عليه. ولما أفاق وجد نفسه ملقى فوق مقعد خشبي كأنه أريكة في ظلام دامس لا يرى فيه شيء. جلس في حذر وهو يتساءل:

- أين أنا؟!

وأجال يده في الظلام وهم بالوقوف وإذا بصوت غليظ يقول بنبرة أمره ومهتدة معاً:

- لا تتحرك.

فصدع بالأمر وهو يرتعد وسأل برجاء:

- ما معنى هذا من فضلك؟

- لا تسأل ولكن عليك أن تجيب...

- سل عما شئت ولكني لم أسئ إلى أحد.

- اخرس.

فخرس وقلبه يدق فعاد الصوت يسأل:

- ما مهنتك؟

- صائغ.

- وعمرك بالسنة الهجرية؟

- لا أعرف.

- أنصحك بأن تتجنب الكذب.

- ممكن معرفته إذا أعطيت ورقة وقلماً ونوراً!

- أختلف عمرك الهجري عن عمرك الميلادي؟

- طبعاً.

- هل أفهم من ذلك أنك مصاب بانقسام

الشخصية؟

- أنا سليم والحمد لله.

- إذن لم ذهبت إلى قهوة الكانتو؟

- لمقابل تاجر الروبايكيكيا الشهير بالملعون.

- ما علاقتك به؟

- لا علاقة لي به.

- تجنب الكذب حرصاً على سلامتك.

- أنا لا أكذب وليس ثمة ما يدعوني إلى الكذب.

- ما علاقتك به؟

- تقابلنا مرة في الطريق...

- أكرر تحذيرك من الكذب.

- بالحق نطقت.

- أيّ طريق؟

فتنهّد يائساً وقال:

- لا فائدة، أفلست في كل شيء.

- ها هي اللعنة تطاردني من جديد.

- ليبعد الله عنا اللعنات!

- ها هي تطاردني من جديد!

ونفضت غاضبة فغادرت الحجرة..

\*\*\*

«٤»

تذكر فجأة تاجر الروبايكيكيا. حاجة ملحة دفعته إلى البحث عنه لمناقشته. ولم يجد صعوبة تذكر في العثور على القهوة القابعة تحت البواكي بسوق الكانتو. وقف يجيل البصر في الجالسين ولكنه لم يظفر بطلبته على حين تطلعت إلى منظره الأبصار في دهشة. ورأى وراء النصة رجلاً يقوم بكل شيء فقدّر أنه صاحب القهوة فاقترّب منه، حيّاه، وسأله:

- أين تاجر الروبايكيكيا الشهير بالملعون؟

فحدّجه الرجل بنظرة أشعلها انتباه طارئ وقال:

- لا أدري.

- ألا يجلس عادة في هذه القهوة؟

- ولكني لم أراه من مدة.

- وأين يمكن أن أجده من فضلك؟

- لا أدري.

- هل يوجد أمل في رؤيته إذا انتظرت بعض

الوقت؟

- من يدري؟!

وقف الرجل في وسط القهوة متردداً. وإذا برجل

يدنو منه حتى يقف أمامه ثم يسأله:

- أتريد مقابلة الملعون؟

- أتعرف مكانه؟

- اتبعني.

قال ذلك ومضى إلى الخارج. تبعه بأمل جديد في مقابلة الرجل. كان المغيب يضي على الدنيا ظلاله، ولفحات هواء رطيب تتردد بأنفاس الخريف. سار وراء الرجل في زقاق ضيق.

- أنحن ذاهبان إلى بيته؟

فلم يجب الرجل وواصل السير. ولدى أول

- طريق النيل .
- متى؟
- منذ عام وبضعة أشهر.
- لأيّ مناسبة؟
- صادفني في الطريق فتبادلنا حديثًا عابرًا.
- انهالت عليه السيّاط في الظلام كالنيران . اجتاحه ألم حادّ فصرخ من الأعماق . توقّف الضرب ولكنّ صراخه لم يتوقّف . تُرك يصرخ ويتوجّع بلا مصادرة لحرّيته في ذلك حتّى همد وسكت . عاد الصوت يقول:
- حدّرتك من الكذب .
- فقال بصوت ممزّق:
- أنا لا أكذب .
- ماذا كانت مناسبة المقابلة؟
- كنت أجالس خطيبي على سور الكورنيش فلما ذهبت ظهر لي الرجل من وراء السور وقال لي إنّه كان آخر زوج لخطيبي . . .
- السوط أخفت أدوات التأديب .
- فقال بجزع:
- ولكنّي أقول الصدق .
- ومن كان أوّل زوج لها؟
- لم أسأله عن ذلك .
- وماذا دار بينكما أيضًا؟
- حدّثني عن حياته حديثًا غامضًا وفي النهاية أخبرني عن مجلسه المختار بقهوة سوق الكانتو . . .
- لم؟
- لا أدري .
- ولم ذهبت تسأل عنه اليوم؟
- شعرت برغبة في محادثته .
- في أيّ موضوع .
- فشل زواجه .
- لم؟
- ربّما لأنّ زواجي أنذر أيضًا بالفشل . . .
- ماذا توقّعت أن نمجد عنده؟
- لا أدري ولكنّ اليأس جعلني المتخبّط . . .
- حدّرتك من الكذب . . .
- فهتف في رعب:
- ما قلت إلاّ الصدق .
- أمهلك دقيقة واحدة .
- أقسم على ذلك بكلّ غال .
- دقيقة واحدة .
- أيّ شيء يدعوني للكذب . . . ١٩ .
- أيّ شيء يدعوك إلى الكذب؟
- لا شيء البتّة . . . صدّقوني . . .
- لم يبق إلاّ ثوانٍ . . .
- الرحمة . . .
- انتهت الدقيقة . . .
- وانهاه عليه العذاب في الظلام . لم ينبج منه رأس ولا قدم .

\*\*\*

«٥»

- ترأى الملعون في الجانب الأيسر من قهوة سوق الكانتو وهو يدخن البوري . تلاقى عندها مرّة ولكنّ الملعون بدا مستغرقًا في البوري . تقدّم منه حاملًا كرسيًا وضعه أمامه وجلس . ورمقه الملعون بنظرة غير مرحّبة وسأله:
- ماذا تريد؟
- ألا تذكرني؟
- من أنت؟
- ألا تذكر الصائغ؟
- فانقلبت سحنة الملعون من السخط إلى الدهول وهتف:
- الصائغ!
- بلحمه ودمه!
- ولكن لا لحم هناك ولا دم .
- أجل!
- غير معقول .
- هي الحقيقة كما ترى .
- أعوام انقضت ولكنّها لا تكفي لتبرير هذا التغيّر الشامل!
- أجل . . .
- كأنك خارج من قبر .
- كأنّي خارج من قبر .

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٦١

- ماذا حدث لك؟  
- كل شيء.  
- فقال الملعون باسمًا:  
- ولكنّ زوجتنا ما زالت ترفل في حبل السعادة.  
- أليك معلومات عنها؟  
- هل في وسع عاشق أن ينزع عينيه من معشوقه؟  
- جاء دوري لأسألك.  
- ما أكثر أخبارها وما أقلها، حدثك واحد يتكرّر إلى ما لا نهاية، زواج طلاق، زواج طلاق، زواج طلاق، زواج...  
- ألك أعداء؟  
- ليس لي أصدقاء.  
- سأقصّ عليك قصّتي، فمنذ...  
- وتوقّف حائرًا ثمّ تمتم:  
- الحقّ أنّه لم يعد لي علم بالزمن...  
- أهملته كما يهملنا...  
- جئت يومًا أسأل عنك في هذه القهوة، خُطفت، جرى معي تحقيق غريب، عُذبت، سُجنت في الظلام زمنا لا أدريه، ثمّ وجدني ملقى في الخلاء! ضحك الملعون وقال:  
- مررتُ بمحنة مماثلة في زمن ماضٍ...  
- أنت أيضًا؟  
- أنا أيضًا...  
- نفس الظروف والأسباب؟  
- تقريبًا...  
- ومن أولئك الشياطين؟  
- علمي علمك!  
- كيف يمكن أن تقع تلك الأحداث؟  
- كما يقع غيرها...  
- أمور تجنّب...  
- لا تشغل بالك بما لا حلّ له.  
- لا حلّ له؟  
- أجل بما لا حلّ له وحدثني عن زواجك.  
- لم أجد أثرًا لدكّاني الذي ضاع في التنظيم.  
- حدثني عن زواجك.  
- ذهبت إلى بيتي، بيت الزوجيّة، فوجدته مأهولًا بأغراب!  
- ضاع كلّ شيء؟  
- هو.

- فتنهّد في قنوط وقال:
- دلّني على عنوانها.
- له؟
- أرغب في مقابلتها.
- لكنّها لن تعرفك.
- أذكّرهما بنفسني فتعرفني كما عرفتني أنت.
- وما فائدة ذلك؟
- أجل وما فائدة ذلك!
- خير من ذلك أن تفكّر في عمل تحصل به على رزقك.
- كنت أبيع صائغ.
- دعنا من كان وكنا... .
- ماذا أعمل؟
- ممكن أجد لك عملاً في الروبائيكيا ولكنّي من زمن أفكّر في مغامرة تعود علينا بالرزق الوفير... .
- ما هي؟
- مشروع لم أجد الشريك الثقة له... .
- وهل أصلح له؟
- سأجد لك غرفة للإقامة فوق سطح عمارة في حيّ راقٍ.
- وبعده؟
- ومن خلال علاقاتي الكثيرة بالبيوت والناس سأشيع أنّك من رجال الأمن السريين الدهاء... .
- رجال الأمن؟
- ويتنشر الرعب في المساكن التي لا يخلو واحد منها من نقطة ضعف يخاف عليها من القانون... .
- وماذا نجني من وراء ذلك؟
- أمثل دور السمسار الخاصّ وأتلقى الهبات والهدايا!
- يا له من مشروع خيالي!
- هو أكثر من واقعيّ، ستنهال علينا الأموال، لن نستردّ قوانا الضائعة ولكنّا سنعيش في رفاهية كالأحلام... .
- أتمنّى أن تتحقّق الأحلام.
- وإذا تحقّقت أمكن بفضل الرفاهية أن نجد الوسائل الكفيلة بالعزاء والنسيان... .
- نسيان المرأة وعشقها... ؟
- أجل، ولدينا فرص لا حصر لها لتكرار التجربة في أحياء كثيرة... .
- لو تحقّق ذلك فهو المعجزة!
- أجل... المعجزة!
- \*\*\*
- «٦»
- في بهو فاخر جلس الشريكان. بينهما مائدة حفلت بما لذّ وطاب من طعام وشراب. بهو كأنه متحف. وكانت أعينها تلتمع بالنشوة حين قال الصائغ وهو يرفع كأسه:
- صحتة الضعف البشريّ.
- وليدم إلى الأبد!
- أصبح الآن من الممكن أن ننسى.
- صدقت ولكنّا لم ننس بعد تمامًا.
- كلّما رجعنا إلى الإفاقة رجعت الذكريات كالزنابير... .
- يا ويلنا من الإفاقة.
- ولكن لدينا ما يشغلنا، لدينا الطعام والشراب والتحف النادرة وأدوات الترف والحدايق والملاهي الليلية... .
- لدينا حقًا ما يشغلنا ولكنّها تخطر على القلب في الإفاقة.
- ما دامت وسائل النسيان متوفّرة فلا خوف علينا... .
- فلنفرق فيها حتّى الأعماق.
- إنّها تطاردنا ولكنّها لن تقبض علينا.
- نجونا من الجنون.
- يا له من جنون!
- عليها اللعنة.
- صحتك.
- صحتك.
- عليك أن تحصل لنا على عملة صعبة من السوق السوداء لنغزو السوق الحرّة... .
- سيتمّ ذلك على خير وجه... . وأظنّ أنّ لي أن أذهب... .



حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٦٣

- مصحوبًا بالسلامة...  
 ودّعه حتّى الباب. وجعل يذرع البهو وهو ينظر في الساعة. حتّى دخل الخادم وهو يقول:  
 - جاءت السيّدة.  
 فقال بلهفة:  
 - أدخلها.  
 دخلت المرأة تمخطف الأبصار بجهاها وبريق اللؤلؤة فوق صدرها. دعاها للجلوس وهو ينحني لها تحيّة، ثمّ قال:  
 - شرّفت الدار.  
 - شكرًا.  
 - كنت في انتظارك لتسليمك القرض كما تمّ الاتفاق عليه مع زوجك.  
 - ولولا المرض لجاء بنفسه.  
 - أعرف ذلك، شفاه الله، ولكن اسمحي لي أن أقدم لك كأسًا...  
 - شكرًا...  
 وتنهّد الرجل وقال بأسى:  
 - إذن لم تعرفيني بعد؟  
 فحدجته بنظرة غريبة فقال:  
 - أكثر من مرّة تقابلنا بحضور زوجك ولكنك لم تعرفيني للأسف.  
 لم تحوّل عنه عينيه فقال:  
 - لم تتغيّري، أمّا أنا...  
 هتفت:  
 - أنت!  
 - أجل!  
 - أيّ مفاجأة!...  
 - لا تعجبي فأنت العجب.  
 ولاذت بالصمت دقائق ثمّ سألته:  
 - أين كنت طيلة ذلك الدهر؟  
 - الحقّ أنّي لا أدري.  
 - غير معقول.  
 - هو غير معقول حقًا ولكنّه واقع.  
 - كنت في مكان ما ولم تعنّ بالاتّصال بي.  
 - كنت في مكان ما واستحال عليّ الاتّصال بأحد.
- أين كنت؟  
 - في الظلام.  
 - لا أفهم.  
 - وليس عندي ما أقوله أكثر من ذلك، دعينا نمتّ مضى وانقضى...  
 - إنك لا تدري مدى تلهّفي على معرفة ذلك.  
 - وأنا عاجز عن إشباعه!  
 وتبادلا نظرة كثيفة حتّى قال:  
 - وطلبتِ أنتِ الطلاق.  
 - اضطررت إلى ذلك.  
 - وتزوّجت مرّة بعد مرّة...  
 فلاذت بالصمت، فقال:  
 - لك كمال مروّع لا يحتمل...  
 فقالت بتبرّم:  
 - دعنا من سيرته.  
 فتنهّد قائلاً:  
 - لذلك لا أجد فائدة في منح القرض!  
 - ولكنك وعدته!  
 - لن يغيّر من المصير المقرّر.  
 فسكتت متجهّمة فقال:  
 - لا أشك لحظة واحدة في أنّك تؤمنين بقولي كلّ الإيمان.  
 فقالت بحزن:  
 - لن أنعم بالاستقرار فيها يدوا  
 - لذلك أقترح عليك أن تعودى إليّ فعل الأقلّ  
 ستجدين عندي ثروة لا تنفدا  
 - غير ممكن، أنت تؤمن بذلك أيضًا.  
 - وقد تحدثت معجزة!  
 - معجزة؟!  
 - إليّ أنتظر طبيبًا يُعدّ في هذه الشئون معجزة!  
 فلاحت في وجهها خيبة واضحة فقال:  
 - لا توصدي باب الأمل وانتظري...  
 وطبع على يدها قبلة حارّة وهو يودّعها.
- \*\*\*  
 «٧»  
 وجاء الطبيب في ميعاده. جاء يحمل حقيبة وعصا

- غليظة. رحّب به بحرارة ولكنّ شيئاً في منظره جذب انتباهه فجعل ينظر إليه بدهشة حتى سأله:
- مالك تنظر إليّ هكذا؟
- الحقّ أنّي أعجب للشبه العجيب بيننا!
- حقاً؟
- تساءل الطبيب وهو ينظر في وجهه بإمعان فقال مستدرّكاً:
- أعني أيّام شبّابي... .
- فابتسم الطبيب فقال الرجل:
- نفس الصورة والقوّة!
- كلّ شيء محتمل.
- أكاد أرى فيك نفسي الذاهبة.
- سييسّر ذلك من مهمّة العلاج.
- يسعدني ذلك.
- وجال الطبيب بعينه في أنحاء البهو الفخم الجميل ثمّ قال:
- حدّثني عن ذلك.
- لحظة واحدة حتى أفيق من الدهشة.
- وترتّب قليلاً ثمّ قال:
- سمعت عن براعتك الكثير فهل حقاً تستطيع أن تعيد الشباب؟
- ذاك أيسر عليّ من التنفّس.
- يا للسعادة!
- ولكنّ لم ترغب في استرداد شبابك؟
- يا له من سؤال يا دكتوراً!
- يهمني أن أعرف جوابك.
- ولكنّ الرغبة في الشباب لا محتاج إلى تبرير.
- أليس لحكمة الكهولة عشاقها؟
- لا أظنّ.
- خبّرني على الأقلّ ماذا فعلت بشبابك؟
- ولكنّ ألا يعدّ ذلك خروجاً عن الموضوع؟
- بل هو في صميمه.
- حسن، استثمرته في كافّة وجوهه.
- أبداً، بدّدت شطره الأكبر في الظلام.
- أعرفت ذلك؟
- أجل.
- كيف عرفت؟
- هو بعض عملي.
- طيب أنت أم قارئ غيب؟
- هما شيء واحد.
- على أيّ حال لم أكن مخيّراً.
- ومن قال إنّه غير مخيّر فقد أهدر شبابه.
- كانت قوّة مجهولة لم أعرف كتبها حتى اليوم.
- أيّ جهد بذلت لتعرفها؟
- قلت إنّ البعد عنها غنيمة وسلام.
- وهكذا أهدرت شبابك للمرّة الثانية.
- وتبادلا نظرة طويلة ثمّ قال الطبيب:
- أصابك ما أصابك نتيجة لعجز محقّق.
- عجز؟!
- أجل، في العمل والحبّ.
- أعرفت ذلك أيضاً؟ إنك مذهل حقاً.
- قلت إنّه بعض عملي.
- أشهد بأنك عرفت حبيّ وعملي وضياعي.
- وأكثر من ذلك.
- أكثر من ذلك؟
- أعرف أنّك دجال لصّ!
- تراجع الرجل منذعراً فقال الطبيب ضاحكاً:
- تاجرت بالخطايا، وحولت ثروتك الهائلة إلى تحف نادرة كما أرى.
- اصفرّ وجه الرجل وارتعشت أطرافه فقال الطبيب:
- لا تخف، أنا طبيب لا شرطيّ.
- سيدي.
- أفندم؟
- ماذا تروم من وراء معرفتك اللانهائية؟
- أروم الشفاء لمرضاي.
- أما زلت تنوي علاجي؟
- بل بداته منذ رأيتك.
- أتردّ إليّ شبّابي؟
- بلا أدنى شكّ.
- وتصون الأسرار التي عرفتتها؟
- إنّه واجب الطبيب الأوّل.
- فقال بابتهاج:

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٦٥

«٨»

رقد ذاهلاً بين الخرائب. ضاعت الحبيبة وهلك ما  
يمكن أن يتسلّى به عنها. لم يبق إلا الفقر والتشرّد  
والهيمان المحروم. كان يفكر في ذلك عندما تنهى إليه  
صوت أجشّ وهو ينادي «روبابيكيا». نهض متثاقلاً  
فناداه من النافذة. جاء الرجل فنظر في أنحاء البهو  
بدهشة ثمّ نظر إلى صاحبها متسائلاً ولكنّ هذا قال له  
متجاهلاً تساؤله الصامت:

- افحص هذه البقايا واختر ما يصلح لك منها.

- أوقع زلزال في مسكنك؟

فقال واجماً:

- اختر ما يصلح لك.

- الشظايا لن تنفعني بطبيعة الحال ولكنّي آخذ ما  
يمكن إصلاحه أو تهيئته بطريقة ما.

- ليكن.

وانكبّ التاجر على بقايا التحف المتناثرة يأخذ  
واحدة من بين كلّ عشرين وسرعان ما كفّ وهو  
يقول:

- لم يبق شيء ذو قيمة.

- منذ لحظات كان كلّ شيء محتفظاً بقيمته.

فنظر إليه التاجر في ارتياب وسأله:

- هل زارك الطبيب؟

فسأله بدوره داهشاً:

- من أدراك بذلك؟

- قصّته أصبحت مشهورة.

- وأنا الذي دعوته بنفسه!

- هو على أيّ حال لا يزور إلا من يدعوه بنفسه.

- ولا فائدة من الندم!

- ولا فائدة من الندم.

- لعلّك دُعيّت إلى بيوت أخرى خزّ بها وذهب؟

- يكاد عملي هذه الأيام يقتصر على شراء مخلفاته.

- الحقّ أنّي في ميسس الحاجة إلى نقود.

- لن تحصل على شيء يذكر.

- افحص من جديد.

- لا فائدة، ولكن هناك فكرة لا بأس بها.

فتساءل الرجل بلهفة:

- لست مرعباً كما يتبادر إلى الذهن.

- سيعود إليك شبابك الحقّ.

- متى... متى يا دكتور؟

- قبل أن أغادر بيتك!

- إنك لساحر.

- ولكنك ساحر أيضاً؟

- أنا؟!

- استعصت عن الحبّ بالثروة ثمّ حولت الثروة إلى  
طعام وشراب وتحف.

- هي الرغبة في النسيان.

- ولكنك كنت تخاف النسيان بقدر ما تتمناه.

- ربّما!

- حسن، سيعود إليك الشباب.

وقبض على عصاه بشدّة وهو يقول:

- آخر خطوات العلاج هي أصعبها.

وبسرعة جنونيّة راح يهوي بعصاه على كلّ ثمين في  
البهو. لم يُبق على شيء من التحف والصور والمصاييح  
والثريات والحليّ. ولم تكفّ يده عن توجيه الضربات  
حتّى أصبحت الجواهر أكواماً من الشظايا. وانزوى  
الرجل في أثناء ذلك في أحد الأركان وهو يرتعد رعباً  
ويصرخ بصوت مبحوح. وتنهّد الطبيب في ارتياح وقال  
بهدهء:

- عمليّة من أشقّ ما صادفني في حياتي الطيّبة.

فصاح الرجل:

- أنت مجنون.

- أصدق التهاني.

فصاح الرجل:

- خربتني، الله يخرب بيتك.

- أكرّر التهنته.

- أنت مجنون.

- يسعدني أن أسمع أسلوب الشباب يجري على  
لسانك.

وتناول حقيبته ومضى نحو الباب وهو يقول:

- عليك الآن أن تصون شبابك بعد أن رجع إليك

بمعجزة وأنّ تنفقه فيما يليق بروعته، وإذا حدثت

مضاعفات غير متوقّعة فتلفن إليّ من فورك.

- ما هي؟
- توجد تحفة قديمة لم يصبها التدمير.
- أين هي؟
- فأشار إليه قائلاً:
- هي أنت!
- أنا؟... أجننت؟
- هي التحفة القديمة الوحيدة التي لم تُمس.
- أتريد أن تشتريني كالأشياء القديمة؟
- خير من الموت جوعاً.
- يا لك من مهذار!
- لا أعرف الهدر في العمل.
- اغرب عن وجهي.
- خير من أن تموت جوعاً.
- سأبدأ من جديد.
- لعلك تأمل في مساعدة شريكك الغني؟
- أنعرفه أيضاً؟
- حكابتكما ذائعة في سوق الكانتوا
- هلكننا!
- كلاً فإن أهل المهنة الواحدة لا يخون بعضهم بعضاً.
- إذن فلا تنتظره.
- ولكنّه قُبض عليه في السوق السوداء.
- يا للكارثة!
- لم يبق لك إلا أن توافق على رأيي.
- إنّي أحقر رأيك.
- سأنفذه أردت أم لم تُرد.
- أتركك إلى القوّة اطمئناناً إلى ضعفي وشيخوختي؟
- إنّي أتعامل عادة مع الأشياء القديمة.
- سأقاومك والويل لك.
- افعل إن استطعت.
- وتقدّم منه بثبات فرفعه إلى كتفه كطفل، ومضى به إلى الخارج غير مبالٍ بحركات ساقيه ولا بقبضاته الواهنة المنهالة فوق ظهره.

\*\*\*

«٩»

دفع التاجر العربية والرجل راقد فيها بين الأشياء القديمة وكان يصيح بصوته الأجهش بين آونة وأخرى «روبايكيا». وبلغ طريق النيل لدى هبوط المغيب، وبدا الرجل مستسلمًا ولكنّ عينيه تحوّلتا تلقائياً نحو كورنيش النيل. وخطف بصره شيء يلمع. أحّد بصره فرأى اللؤلؤة تراقص فوق صدر المرأة الفاتنة. كانت تسير على مهل كأنّما تبحث عن رجل جديد. ودبّت فيه حيوية من لا شيء فانتظر اقترابها على لهف. ولكنّها حاذته ومرّت به دون أن تلتفت نحو العربية. مضت في الاتجاه المضادّ تضيء لؤلؤتها فتامة المغيب.

## الرجل الذي فقد ذاكرته مرتين

«١»

- ليتها كانت هي صاحبة الفندق.

ثم بنبرة منتشية:

- ما أجل أن يحوز الإنسان فتاة حسناء مثلها.  
ومضى الوقت وهو لا يريد أن يتحرك. وإذا  
بصاحب الفندق يمضي نحوه على حين وقفت كريمة في  
نهاية الممر الموصل بين البهو والحديقة رغبة في إشباع  
حب استطلاعها. وقال صاحب الفندق للفتى:

- نحن في خدمتك.

فقال الشاب بارتباك:

- شكراً.

- أخبرني النادل أنك تريد حجرة خالية.

- أجل أريد حجرة للمبيت.

- تفضل بالدخول للقيام بإجراءات الحجز.

- إن أردت الحق...

- أفندم؟

- لا أدري في الواقع ماذا أقول!

- ولكن لديك بلا شك ما تقوله.

- لا أدري كيف أقول.

اقتربت الفتاة أكثر حتى وقفت جنب أبيها وقال

الرجل:

- ولكن لا مفر من الكلام!

- أمهلني قليلاً...

- لعله ليس معك نقود؟

- معي من النقود ما يكفي وزيادة.

- إذن فما المشكلة؟

- مشكلتي أنني مرهق جداً...

- ولكنك تبدو في صحة جيدة...

- الحق أنني لا أعرف من أنا!

لم يبق في الحديقة الصغيرة أحد سواه. ذهب اللذين  
تناولوا عشاءهم سواء في الحديقة أم في البهو الصغير  
المتصل بها من الداخل. أكثرهم صعدوا إلى حجراتهم  
في الفندق وقلة مضت في الطريق الذي يشق الخلاء.  
انتظر النادل أن يذهب هو أيضاً ليخلي الحديقة من  
الكراسي والموائد ولكنه لم يذهب. ولم يبد استعداداً  
للذهاب. جلس وحده يستقبل الهواء الجاف المنعش  
المابط من سفح الجبل فيما وراء الخلاء. ولم يجد النادل  
بداً من نقل الموائد والكراسي إلى الداخل عدا مائدته  
وكرسیه ثم حام حوله كأنما ليدكره بأنه آن له أن  
ينصرف. ونجراً أكثر فوقف أمامه وهو يسأل:

- هل من خدمة؟

فسأله بدوره:

- أتوجد في الفندق حجرة خالية؟

- أعتقد ذلك، تفضل بمقابلة صاحب الفندق.

- تلك الفتاة في نهاية البهو؟

- كلاً؛ إنه في الداخل فيما يلي البهو.

- ومن تكون الفتاة إذن؟

- مديرة المطعم وابنة المدير.

- شكراً.

ولما لم يزايل مكانه قال النادل:

- هلاً تفضلت بالذهاب لأنمكن من نقل المائدة؟

- معذرة، يلزمي بعض الوقت لاستعيد نشاطي

من تعب طارئ.

ذهب النادل فلبث وحده كما كان. ونظر نحو الفتاة

كما فعل مراراً وهو يتناول عشاءه. وبادلتها النظر أيضاً.

وقال لنفسه:

- فصلك . . .
- ماذا قلت؟
- لا أعرف من أنا.
- أنت مالك لقواك العقلية؟
- أعتقد ذلك.
- وأسألته الفتاة:
- كيف لا تعرف من أنت؟
- لا أعرف لي أصلًا ولا هوية ولا اسمًا. . .
- فسأله الأب:
- كيف تواجدت في حديقة فندقنا؟
- وجدت نفسي في الخلاء، الجبل ورائي، ومبنى وحيد أمامي هو الفندق، ولم أجرو على التوغل في المدينة فتسللت إلى حديقة الفندق. . .
- أليس معك بطاقة شخصية؟
- كلاً، لعلّي سُرقت. . .
- ولكن معك نقود كما تقول؟
- وجدتها ملفوفة في حزام حول بطني. . .
- أليست نقودك؟
- هذا ما استنتجته. . .
- تبادلوا النظرات في صمت حتى قال الأب:
- ستذكر أشياء بلا ريب، لا بدّ أنّك تذكر من أين أتيت؟
- لا أدري.
- أين كنت ذاهبًا؟
- لا أدري.
- أسرتك؟
- لا أدري.
- عملك؟
- لا أدري.
- وسألته الفتاة:
- ألك زوجة؟
- لا أدري!
- فتفكر الرجل مليًا ثمّ سأله:
- وماذا تنوي أن تفعل؟
- لا فكرة لي بعد.
- فتفكر الرجل مرة أخرى ثمّ قال:
- لا شك أنّك ستجد في البحث عن أصاك
- هذا هو المعقول.
- كأن تنشر صورتك في الجرائد؟
- تفكير صائب.
- وهو ما سيفعله المهتمون بأمرك. . .
- أعتقد ذلك.
- هي مشكلة نادرة حقًا ولكنها سرعان ما تُحلّ بنهاية سعيدة.
- أرجو ذلك.
- وسألته الفتاة برقة:
- ترى بيم تشعر؟
- بأنني لا شيء، ينحدر من لا شيء، ماضٍ إلى لا شيء.
- وتبادلوا النظرات مرة أخرى ثمّ قال الشاب:
- سأذهب أول ما أذهب إلى الطبيب.
- عين الصواب.
- ولكن يلزمي مأوى مع إعفائي من الإجراءات المتبعة.
- فقال الأب:
- إنها مغامرة قد تدفع بي إلى س وج.
- وقد ثمرّ بسلام.
- الله المستعان.
- سأذكر لك صنيعتك ما حييت.
- وأرسله إلى حجرة مع الفراش ووقف مع ابنته يتابعانه في سيره في ذهول صامت. وتبادلًا نظرة طويلة ثمّ قال الأب:
- عجيبة تلك الحال لدرجة تعزّ على التصديق.
- فتمتمت الفتاة:
- ولكنّه صادق في مرضه.
- وهذا هو العجب.
- أجل. . .
- ترى هل أخطأت في قراري؟
- فقالته بهدوء:
- إنك لا تخطئ أبدًا. . .
- \*\*\*

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٦٩

- ولم أعد أخشى مسئولية من ليوائك .  
وقالت الفتاة:  
- وستعرف نفسك عاجلاً أو آجلاً .  
فقال بشيء من الحياء:  
- يجيئ ليّ أنّي لن أكتشف شيئاً ذا قيمة .  
- إنك رشيد ولا حاجة بك إلى أحد .  
- ولكن هل أمضي وقتي كلّهُ في الانتظار؟  
فقال الأب:  
- يحسن بك أن تفكر في الحاضر والمستقبل .  
- قبل أن تنفذ النقود؟  
- أجل . . .  
- فعليّ إذن أن أجد لنفسي عملاً .  
- ماذا تحسن من الأعمال؟  
- أجرّب .  
فتفكر الأب ملياً وقال:  
- عندي فكرة .  
فنظر الشاب إليه مستطلعاً فقال:  
- الفندق يحتاج إلى تجديدات . . .  
- ماذا تعني يا سيدي؟  
- أقترح أن تشترك فيه بمالك وأن تعاون في أعمال الحسابات .  
- فكرة طيبة .  
- لنبدأ إذن .  
- ولكن أخشى أن نكتشف أنّ المال هو مال للغير .  
- مضى وقت منذ إعلانك عن نفسك وهو يكفي لإبراء ذمتك .  
فالتفت الشاب نحو الفتاة وسألها:  
- ما رأيك؟  
- أوافق أبي على رأيه .  
- عظيم .  
فقال الأب:  
- اتفقنا . . .  
- أن لي أن أصارحك برغبة تضطرم في نفسي .  
- إني مصغٍ إليك .  
فقال بعد صمت قليل:  
- أودّ أن أطلب منك يد كرميتك .

«٢»

- كانت شرفة الفيلا - فوق الجبل - تسبح في ظلام دامس . وكان يوجد بها رجلان . بدا الرجلان شبحين جلس أحدهما فوق كرسيّ هزاز ومثل الآخر بين يديه .  
وسأل الجالس:  
- ماذا وراءك؟  
فقال الآخر:  
- ساقته قدماه إلى الفندق!  
- لا أعجب لذلك .  
- وهو على حال من العدم .  
- لا جديد في ذلك .  
- بل حال جديد تماماً .  
- حقاً؟  
- بالدقة نطقت .  
- كن يقظاً وسجّل كلّ شيء .  
- سمعاً وطاعة .

\*\*\*

«٣»

- تفرّق النزلاء بعد العشاء فلم يبق في الإدارة سوى الأب والفتاة والشاب . وكان القلق بارزاً في قسبات الشاب فقال له الأب بنبرة رثاء:  
- لم تستقرّ بعد .  
فقال الشاب:  
- نشرت صورتي في الصحف ولم يسع ورائي أحداً  
- ثمّة شيء طيب هو أنّ الشرطة لم تسع ورائك كذلك!  
- وأكاد أجزم بأنني لن أصبر على أسلوب العلاج .  
- طويل ومعقد؟  
- وكثير التكاليف .  
وبعد صمت قصير عاد يقول:  
- وبتّ أشعر بأنني حمل ثقل عليك .  
- كلاً .  
- حقاً؟  
- أصبحنا فيما أعتقد أصدقاء .  
- الحقّ أنكم كلّ شيء لي في هذه الدنيا .

## ١٧٠ حكاية بلا بداية ولا نهاية

- لا تتعجل الأمور.  
- انتظرت من الشهور ما فيه الكفاية.  
- ربما كنت متزوجة.  
- لم يسع إليّ أحد.  
- لقد تبادلنا الرأي على أوسع نطاق وأنا مضطرّ  
الآن إلى الذهاب إلى مشوار عاجل.  
قال الرجل ذلك وذهب. وقف الشابّ والفتاة  
يتبادلان النظر. سألهما:  
- أنت متردّة مثل أبيك؟  
فقالت بهدوء عذب:  
- أنت تعرف رأيي تمامًا.  
- أترغين أن أنتظر حتى يتكشف لي الماضي؟  
- لا يهمني أن تهتدي إلى ماضيك أو أن يهتدي  
ماضيك إليك...  
- أنا سعيد ولكنّ القلق يطاردني.  
- وتحبّي أليس كذلك؟  
- لا يربطني بهذا المكان إلّا حبّك.  
- حسبنا ذلك.  
- سأعمل وأتزوج ولكنّ والدك متردّد...  
- كلاً، إنّي أعرف والدي تمامًا.  
- يخيل إليّ أنّي نلت ثقته...  
- أنت أهل للثقة.  
- لندعُ الله أن يهتدي لنا السعادة.  
- لندعه من صميم قلوبنا.  
\*\*\*  
« ٤ »  
وفي شرفة الفيلا - فوق الجبل - جرى الحديث في  
ظلام دامس. سأله الشيخ الجالس فوق الكرسيّ  
المرزاق:  
- ما وراءك؟  
فأجاب الشيخ المائل بين يديه:  
- آواه صاحب الفندق.  
- رجل طيّب وداهية مكر.  
- وعمل كلّ ما يمكن عمله للاهتمام إلى هويّته.  
- ولمّ لم ينظر الفتى في نفسه مباشرة؟  
- إنهم يفضلون الوسائل غير المباشرة.
- وثار فضول الناس؟  
- لم يعد يثير فضولهم شيء.  
- حسن.  
- وظلّ مجهولاً كاللغز.  
- تعني في نظر نفسه؟  
- طبعًا...  
- وكيف مضت القصة؟  
- ظهر الحبّ.  
- من جديد؟  
- أجل، وفي الوقت نفسه تطلّع الأب إلى نقوده!  
- يعزّ على اللصّ أن يسرق!  
- إنّه من رجال الأعمال يا سيدي.  
- وهل يوجد فرق هناك بين اللصّ ورجل  
الأعمال؟  
- إنهم هناك يفرّقون بينهما.  
- وبعده؟  
- اشترك الفتى بماله في الفندق وتزوج من  
الفتاة...  
- طريفة جدًّا هذه اللعبة.  
- الحبّ والعمل يتسبان.  
- والحبّ عند المجهول من ذاته؟  
- لا يكاد يحظر له على بال إلّا إذا انفرد بنفسه...  
- وهل ينفرد بنفسه كثيرًا؟  
- زوجته لا تحبّ ذلك.  
- مأكرة مثل أبيها.  
- الحقّ أنّها تحبّه وتحبّ الفندق.  
- الأمور تتعقّد والأمل يتضاءل.  
- ولكنّه موجود.  
- كن يقظًا وسجّل كلّ شيء.  
- سمعًا وطاعة.

\*\*\*

« ٥ »

اجتمعت الأسرة حول مائدة في الحديقة الصغيرة،  
الأب والزوجة والزوجة. تلقت وجوههم ظلال المغيب  
وقد غيرتها على تفاوتٍ تقدّم الزمن. وكان الأب  
يقول:



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٧١

- لن أشهد الصيف القادم، هذا ما أشعر به.
- فقالت الزوجة:
- ربنا يطول عمرك يا أبي.
- وقال الزوج:
- ستتحسن صحتك.
- فقال العجوز:
- السعيد من يذهب في هذا الزمن.
- فقالت الزوجة:
- ليست الأحوال بدك القدر من سوء.
- فتساءل الزوج:
- أممكن أن يوجد ما هو أسوأ؟
- فقالت الزوجة محتجة:
- يوجد دائماً ما هو أسوأ.
- فقال الزوج متهكماً:
- ما أجل حكمتك!
- وقال الأب:
- كانت الحياة على أيامنا أبسط وأهنأ.
- فقال الزوج:
- ثمة شكوى دائماً من الحاضر وحسرة على الماضي ولكنّ الماضي كان حاضراً يوماً ما...
- فقالت الزوجة:
- لا نكاد نلهم بلقاء، نحن نركض كأنّ سيّاطاً تلهب ظهورنا...
- فقال الزوج:
- الويل لمن يستسلم لساعة من الراحة.
- إنّي أعمل معك بقوة عشرة رجال.
- وأنا أعمل بقوة عشرات من الخيل.
- فقال الأب:
- كان العمل أمتع والثمرة أشهى!
- فقال الزوج:
- نحن نحمل فوق أكتافنا سبعة من الأبناء...
- حملنا أكثر وسعدنا بهم...
- ألا تدري ماذا يعني ابن واحد في هذه الأيام؟
- فقالت الزوجة:
- هكذا حال الناس جميعاً...
- كلّنا في الهمّ شخص واحد.
- فقال الأب:
- كم حسدنا الناس من أجل هذا الفندق!
- فقال الزوج:
- اليوم هم ينظرون لنا برئاء.
- وقالت الزوجة وهي تتهدّد:
- امتلاً طريق الخلاء بالفنادق...
- وكلّها قامت على طراز حديث.
- فسأله الأب:
- أليس لديك احتياطيّ كافٍ لتجديد الفندق؟
- لم يعد التجديد بالحلّ الناجح!
- فما الحلّ إذن؟
- أن يُهدم ويُبنى من جديد!
- ومن أين لك المال اللازم لذلك؟
- لا خيار لنا وإلاّ نحولّ الفندق على أيدينا إلى وكالة.
- فيم تفكّر؟
- في الاقتراض إن أمكن.
- فقالت الزوجة:
- لا تكن متشائماً.
- لا وقت عندي للتشاؤم.
- إنك تنسى أشياء هامة.
- حقاً؟
- فقال الأب:
- ينقصكم شيء هامّ كان متوفّراً لدينا.
- ما هو يا سيدي؟
- الإيمان.
- حتّى هذا لا ينقصنا.
- لا وقت لديك للإيمان، أتدري ماذا فعل الإيمان لنا؟
- ماذا فعل؟
- عثر جدّي الفقير ذات يوم في صحن داره على كنز مدفون!
- كنز مدفون؟
- كان يدعو الله أن يرزقه فرزقه، وشيّد بهال الكنز أوّل فندق في هذه البقعة...
- كان عليه أن يبحث عن صاحبه فيسلمه له!

بعد دقائق بزجاجة بيرة مثلجة وقدهين. ملائمتها  
والظلام يتجسد متممة:  
- أنعش فؤادك.  
ولكنه قال:  
- لن يكفي الاحتياطي كله لبناء دور واحد  
جديد.

- أنعش فؤادك، ألا تسمعي؟  
- وماذا يعني دور جديد واحد في فندق قديم؟  
- أنعش فؤادك، ألا تسمعي؟  
- والأساس القديم لن يحتفل مزيدًا من الأدوار.  
- ألا تريد أن تنعش فؤادك؟  
- أرى الفنادق الجديدة تقتلني الحسرة.  
- يلزمك قدر من الاسترخاء فأنعش فؤادك.  
- كيف تقدّمهم الحظّ وتخلّف عنّا؟  
- لا تريد أن تصغي إليّ!  
- إمّا فندق جديد وإمّا الجوع.  
- لدينا الإرادة ولدينا الأبناء.  
- أنت تحلمين مثل أبيك.  
- لدينا كنوز غير مدفونة...  
وأرادت أن تداعب يده ولكنّه نهض قائمًا وهو  
يقول:  
- آن لي أن أذهب لمقابلة الرجل.  
وذهب.

«٦»

لبثت الزوجة وحيدة حتى رأت رجلًا قادمًا من باب  
الحديقة. انحنى لها بأدب قائلاً:  
- مساء الخير يا سيّدي.  
- مساء الخير.  
- اسمحي لي أن أقدم لك نفسي أنا صاحب  
الفندق الكبير.  
- أهلاً وسهلاً، تفضّل بالجلوس...  
جلس الرجل وهو يرمق بعينه القدهين المترعين ثمّ  
تساءل:  
- هل ينضمّ إلينا أحد؟  
- كلاً، كان زوجي هنا ثمّ ذهب...  
- ذهب لمقابلة صاحب فندق النور.

- كان الكنز هديّة من الله إليه.  
- القانون اليوم يعتبر قبول مثل هذه الهدية نوعاً من  
النهب!  
- اللعنة! إنكم تمارسون النهب بألف وسيلة  
ووسيلة...  
- معدرة يا سيّدي، أتريدني على أن أسأل الله  
الرزق حتى أعرثر على كنز مدفون؟  
- ولن تعثر عليه مهما فعلت.  
- حقاً!  
- لأنّ الإيمان لا يفتعل.  
فنظر الزوج إلى زوجته وسألها:  
- هذا ما تعقدين به الأمل؟  
فأجابت ببرود:  
- ذاك مجد لم نعد له أهلاً.  
- حسن.  
- ولكنّا نملك ثروة أخرى.  
- حقاً؟  
- أبناءنا!  
- إنهم الهّم الذي قصم ظهري.  
- ولكنهم غداً سيسعون إلى أصحاب الفنادق  
الجديدة بأسباب للنسب والعمل!  
- يا له من خيال...  
- سيستجدّ حقيقة صلبة!  
- يا له من خيال طموح!  
- بل علينا أن نيسر لهم سبيل العلم في أعلى  
درجاته.  
- أخشى أن نموت في أثناء ذلك جوعاً.  
- إنّه سباق مرير ولكنّ الفوز فيه للصابرين.  
فقال الأب:  
- ينقصكما الإيمان.  
فقال الزوج:  
- لا مجال اليوم للحلم بالكنوز المدفونة.  
- لن أشهد الصيف القادم، هذا ما أشعر به.  
وقام بصعوبة، ثمّ مضى إلى الداخل وهو يقول:  
- السعيد حقاً من يرحل عن هذه الدنيا.  
وما لبثت الزوجة أن ذهبت أيضاً ولكنها رجعت

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٧٣

- كيف علمت بذلك؟  
 - نحن نعرف ما يهمنى يا سيدي.  
 - همة مشكورة!  
 - لعله نسي أن يشرب قدحه؟  
 - ما أهمية ذلك؟  
 - رجال الأعمال ينسون كثيرًا من الشؤون السارة!  
 - أنت أدري بذلك...  
 - ولكنّ الناجحين منهم لا يهملون شيئًا!  
 - فقالت بشيء من الانفعال:  
 - نحن أيضًا من الناجحين...  
 - يسرني أن أسمع ذلك.  
 - ولكن لم شرفتنا بزيارتك ما دمت تعلم أنّ زوجي غائب؟  
 - لا قابلتك أنت يا سيدي.  
 - ولم يا سيدي؟  
 - الحق أنّي أؤمن بتفوق حكمة النساء.  
 - إن كنت تقصد المقارنة بيني وبين زوجي فيأتي أرفض ثناءك...  
 - لم أحضر لأثير خلأفًا...  
 - ثمّ نظر إلى قدح البيرة وتساءل:  
 - أسمحين لي بأن أحلّ محلّ زوجك.  
 - لا يروقني تعبيرك!  
 - معذرة، جميع رجال الحيّ يعجبون بك.  
 - أجتث يا سيدي لتعرب لي عن إعجابك؟  
 - جثت يا سيدي لأشترى الفندق.  
 - فندقتنا؟  
 - إنّه الفندق القديم الوحيد في المكان كلّه.  
 - يا له من اقتراح لم أتوقّعه أبدًا.  
 - زوجك يسعى إلى عقد قرض ولن يوفّق في مسعاه.
- كيف علمت بذلك؟  
 - نحن نعرف ما يهمنى يا سيدي.  
 - همة مشكورة!  
 - لعله نسي أن يشرب قدحه؟  
 - ما أهمية ذلك؟  
 - رجال الأعمال ينسون كثيرًا من الشؤون السارة!  
 - أنت أدري بذلك...  
 - ولكنّ الناجحين منهم لا يهملون شيئًا!  
 - فقالت بشيء من الانفعال:  
 - نحن أيضًا من الناجحين...  
 - يسرني أن أسمع ذلك.  
 - ولكن لم شرفتنا بزيارتك ما دمت تعلم أنّ زوجي غائب؟  
 - لا قابلتك أنت يا سيدي.  
 - ولم يا سيدي؟  
 - الحق أنّي أؤمن بتفوق حكمة النساء.  
 - إن كنت تقصد المقارنة بيني وبين زوجي فيأتي أرفض ثناءك...  
 - لم أحضر لأثير خلأفًا...  
 - ثمّ نظر إلى قدح البيرة وتساءل:  
 - أسمحين لي بأن أحلّ محلّ زوجك.  
 - لا يروقني تعبيرك!  
 - معذرة، جميع رجال الحيّ يعجبون بك.  
 - أجتث يا سيدي لتعرب لي عن إعجابك؟  
 - جثت يا سيدي لأشترى الفندق.  
 - فندقتنا؟  
 - إنّه الفندق القديم الوحيد في المكان كلّه.  
 - يا له من اقتراح لم أتوقّعه أبدًا.  
 - زوجك يسعى إلى عقد قرض ولن يوفّق في مسعاه.

\*\*\*

«٧»

- جرت الحديث في الظلام الذي يلفت شرفة الفيلا فوق الجبل. سأل الشيخ الجالس فوق الكرسي الهزاز:  
 - ماذا وراءك؟  
 - فأجاب الشيخ المائل بين يديه:  
 - لأنّ أحدًا لا يريد أن يخلق منه منافسًا له خطره.  
 - لا أحبّ أن أناقش هذا الموضوع في غيابه.  
 - البيع أفضل، إنّي أخاطب حكمتك.  
 - لا أرى رأيك.  
 - إنّه فندق قديم غير قابل للسكنى، ولا فائدة

- تعقدت الأمور.
- ماذا يفعل صاحبنا؟
- يعمل بجنون، يحارب في ألف ميدان.
- وامرأته؟
- تشاركه في كل خطوة.
- والآخرين؟
- يعملون للاستيلاء على فندقه وامرأته.
- أتعلم هي بنواياهم؟
- بكل وضوح، وبكل قوة ترفضها.
- وهل يعلم الزوج؟
- بذكائه عليم، وبصراحة زوجته.
- ولم أخبرته؟
- لتؤكد له طهرها ولتحيي حبها في قلبه.
- ألم يعد يحبها؟
- لا وقت عنده للحب.
- ألم يعد للتفكير في ماضيه المجهول؟
- لا وقت عنده لذلك، غير أنه قال لزوجته مرة إنه ربما لو عادت إليه ذاكرته لوجد نفسه ابناً للميونيرا ولكنها سخرت منه قائلة إنه يلجم بالكنز مثل أبيها!
- متى - في تفكيرك - يرجع للتفكير في أصله؟
- أي أصل تقصد يا سيدي؟
- يا لك من أحمق!
- حسن يا سيدي، إن ذلك يتوقف على نجاحه في مهمته.
- لا نهاية لشيء هناك.
- فأمسك الرجل عن التفوه بكلمة حتى قال الجالس:
- كن يقظاً وسجل كل شيء.
- سمعاً وطاعة يا سيدي.
- \*\*\*
- «٨»
- في الحديقة الصغيرة جلس الزوجان وقد تقدمت بهما العمر على حين وقف أمامها شاب مفعماً حياة وقلقاً. وكان الشاب يقول:
- انزعجت جداً لدى قراءة رسالتك...
- فقالت الزوجة:
- قدرت ذلك يا بني...
- أخذت أول طائرة...
- فقال الزوج:
- كان علي أن أستطلع رأيك...
- وقالت الزوجة:
- رغم علمنا بأنك عاكف على تحضير رسالتك.
- فسأل الشاب:
- هل الأمر سيئ لهذا الحد يا أبي؟
- هو ذلك يا بني...
- وقالت الزوجة بنبرة باكية:
- كان الجوع ضمن الأسباب التي أدت بأختك إلى الوفاة...
- ولكنّ الفندق لا يخلو من زبائن.
- فقال الزوج:
- اضطررنا إلى تخفيض إيجار الحجر، لا يفي الربح بالضرورات، الأمور من سيئ إلى أسوأ...
- والاحتياطي يا أبي؟
- استهلك في سد نفقات المعيشة.
- وتبادل الزوجان نظرة سريعة غير أن الزوج خاطب ابنه قائلاً:
- في غمار ذلك النزاع الأليم فقدنا أخويك العزيزين...
- فهتف الشاب:
- شد ما حزنت عليها...
- الكلاب يضيّقون علينا الخناق مستعملين أحسن الوسائل وأقساها...
- وقالت الزوجة بنبرتها الباكية:
- وذات يوم عثرنا على جثة أخيك عند سفح الجبل...
- وماذا كشف التحقيق يا أمّاه؟
- قيّدت القضية ضد مجهول...
- وقال الزوج:
- وقد مات جدك حزناً.
- وقالت الزوجة:
- وقتل أخوك الآخر وهو يحاول الانتقام لأخيه.
- الويل للقتلة!
- فقال الزوج:

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٧٥

- وهكذا نحن محاصرون بالجوع والموت .  
وقالت الزوجة :  
- لذلك فكر أبوك في بيع الفندق والهجرة إلى مكان آخر .  
فهتف الشاب :  
- لن يحدث ذلك أبدًا .  
- والحلّ يا بنيّ؟  
- لا أصدق أنّكما قرّرتمَا ذلك، لعلّكما تطرحان الفكرة للمناقشة؟  
- حتّى لو صحّ ذلك لما تغيّرت النتيجة .  
- يلزمنّا المزيد من الصبر .  
- العمر يتقدّم بنا كما ترى .  
وقال الزوج :  
- وعليك أن تعرف كلّ شيء فقد ورّطنا النزاع في أعمال عنف لم نجر لنا على بال .  
- أعمال عنف؟  
- أجل يا بنيّ . لم نعد أبرياء في نظر القانون ، لا أنا ولا أمك !  
وقالت الزوجة :  
- قد ينكشف أمرنا في أيّ لحظة .  
- يا للجنة . . .  
- هذه هي حياتنا بكلّ مرارتها .  
وقال الزوج :  
- وسيدفعنا الإصرار على البقاء إلى مزيد من الجرائم .  
وتساءلت الزوجة :

\*\*\*

«٩»

- بقي الزوجان جنبًا إلى جنب وساد الصمت .  
وجعلت المرأة تختلس النظر إلى الرجل حتّى خحرت الصمت قائلة :  
- علينا أن نصبر كما وعدناه .  
فهزّ رأسه بالإيجاب دون أن ينبس فعادت المرأة تقول :  
- علينا أن نصبر كما وعدناه .  
- أنت متحمّسة لرسالته التي لا تعرفين عنها شيئًا .  
- ولكيّ أعرفه وأومن به .  
- فما رأيك الآن يا بنيّ؟  
نفخ الشابّ، تريث قليلاً، ثمّ قال :  
- عليّ أن أكاشفكما بأخطر نبيّ في حياتي .  
- ما هو يا بنيّ؟  
- إذا صبرنا بضع سنوات فسوف يمكنني إعادة بناء الفندق بلا تكاليف تذكر .  
- أنت؟  
- أجل، وذلك هو موضوع رسالتي .  
- لعلّه أمل، مجرد أمل؟  
- بل أكثر من ذلك فقد كشفت عن حقائق

- حسن .  
- ولكنتك مترددة فيما يبدو لي .  
- خانتك الفراسة .  
- لا أحد يعرفك كما أعرفك .  
- هكذا كل زوجين أمينين .  
- لا تسخر يا رجل .  
- ولكنتي جاذ جدًا .  
- أنت متردد .  
- لا عيب في ذلك إذا أخذ بمعنى التفكير .  
- وتضمير غير ما تُظهر .  
- ماذا تعنين يا امرأة؟  
- قلت إن الاحتياطي استهلك في سد نفقات المعيشة؟  
- قلت ذلك حقًا .  
- ولكنته لم ينفد بعدا  
- لم يبق منه ما ينفع لشيء .  
- قد ينفع من يفكر في الفرار  
- ماذا تعنين؟  
- أنت تدرك ما أعني .  
- إني أفكر في شيء واحد هو سلامة الأسرة .  
- سلامة الأسرة جزء لا يتجزأ من سلامة الفندق .  
- تحت هذا الشعار ضحيت بما ضحيت .  
- وعليك أن تستوصي بالمزيد من الصبر .  
- المزيد من الصبر .  
- ولكنتك تضمير أمرًا آخرًا  
- أي أمر يا امرأة؟  
- لعله الهرب .  
- الهرب؟  
- إني أستنتج مستقبلك من مقدمات ماضيك .  
- فسأل وهو يضحك:  
- هل سبق لي الهرب؟  
- نعم .  
- جميل أن نضحك في غمرة هذا الغبار الدامي .  
- من أين لي بالضحك!  
- إذن فخير ما فعله أن نغير الموضوع .  
- فرمته بنظرة قاسية وقالت:  
- يبدو أنه آن لي أن أصارحك .  
- بماذا؟  
- دفاعًا عن أسرتك، دفاعًا عن نفسك،  
- سأصارحك بما كتمته طيلة السنين .  
- أليدك سرّ لم أعرفه؟  
- بلى .  
- وما هو يا ترى؟  
- فقلت بهدوء رهيب:  
- ماضيك المجهول .  
- فاشتعل اهتمامًا مبالغًا وتساءل:  
- ماضي المجهول؟  
- الذي نسيته، أو الذي تصرّ على أن تنساه .  
- ماذا تعنين؟  
- أنت تجهل ماضيك كما تجهل شخصك الحقيقي .  
- ذاك تاريخ مشهور .  
- ولكنتي أعرفه .  
- أنت؟  
- كما كان أبي يعرفه  
- أأنت جاذة؟  
- كل الجد .  
- منذ متى؟  
- منذ وجدناك في هذه الحديقة .  
- يا له من عبث .  
- بل هو الجد كل الجد .  
- أتتوقعين أن أصدقك؟  
- أقسم لك بروح ابني .  
- فهتف فيما يشبه الفزع:  
- ربّاه!  
- أجل .  
- انتشليني من هذه الغيبوبة .  
- سأفعل حتى لا تقع في الخطأ مرة أخرى .  
- من أنا؟  
- أنت زوجي .  
- إني أسألك من كنت؟  
- كنت زوجي أيضًا قبل أن تفقد ذاكرتك .  
- نظر إليها بدهول فقالت:

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٧٧

- كنت قبل ذلك ربيب أبي، وجدك غلامًا ضالًا .  
 ظلّ ينظر إليها بدهول فقالت :  
 - ولم تكن لك فكرة عن والديك فربّاك وشغلك في  
 الفندق ثمّ تزوّجنا .  
 ما لبث ينظر إليها ذاهلاً فقالت :  
 - وذات يوم سرقت الخزانة وهربت مع راقصة .  
 - ماذا تقولين؟  
 - تدكّر، تدكّر، سرقت الخزانة وهربت مع  
 راقصة .  
 - رأسي يدور .  
 - وكنّت كما تكون اليوم مزيجًا من التمرد والتمرد  
 على التمرد فعذبتها - الراقصة - بالقدر الذي أردت أن  
 تعذب به نفسك .  
 - ربّاه . . . أيّ عالم هذا!  
 - فاضطرّرت هي إلى الهرب وسرعان ما فقدت  
 ذاكرتك .  
 - آه . . .  
 - وراقبك أبي من بعيد ولم يبلغ الشرطة عنك حتى  
 رأيناك يومًا قادمًا .  
 - آه .  
 - ساقتك قدماك أو ضميرك إلى ضحاياك .  
 - أيّ حلم مفرع !  
 - ماذا حدث بعد ذلك فأنت تذكره .  
 - أجل ، ولعبتم معي تمثيلية متقنة !  
 - آثرنا أن ننسى الماضي معك ، حتى ذكّرني تردّدك
- بحالك قديمًا قبيل الهرب .  
 أغمض عينيه إعياء فقالت بحزم :  
 - علينا أن نصبر كما وعدناه .  
 \* \* \*  
 « ١٠ »  
 في شرفة الفيلا - فوق الجبل - وفي ظلام دامس  
 جلس الشيخ فوق الكرسيّ الهزاز ومثل الآخر بين  
 يديه . وسأل الشيخ الجالس :  
 - ماذا وراءك؟  
 - الأسرة تكافح في صبر وعناء وعناد لا يعرف  
 الهوادة .  
 - وما الجديد من أنباء الصراع؟  
 - العنف يتراكم كالجبال .  
 - وكيف حال صاحبيننا؟  
 - عرف - فيما يعتقد - ذاته وتعلّم من ذلك درسًا لا  
 يُنسى .  
 - وذاته الأولى ألا يفكر فيها؟  
 - لا وقت لديه لذلك .  
 - أليس ثمة أمل في يقظة غير متوقّعة؟  
 - لا أستبعد حدوث معجزة إذا تحقّقت آماله في  
 البناء .  
 فتفكّر الشيخ الجالس مليًا ثمّ قال :  
 - دعه وشأنه .  
 فقال الشيخ المائل بين يديه :  
 - سمعًا وطاعة يا سيّدي .

## عَنْ لَوْلُو

- قام الكشك في الوسط من طرف الحديقة الجنوبيّ .  
 كشك مصنوع من جذور الأشجار على هيئة هرم  
 تكتنفه أغصان الياسمين . وقف في وسطه كهل أبيض  
 الشعر نحيل القامة ما زال يجري في صفحة وجهه بقية  
 من حيوة . جعل ينظر في ساعة يده ويمدّ بصره إلى  
 الحديقة المترامية مستقبلاً شعاعاً ذهبياً من الشمس  
 المائلة فوق النيل نفذ إلى باطن الكوخ من ثغرة  
 انحسرت عنها أوراق الياسمين . ولاحت الفتاة وهي  
 تتجه نحو الكشك سائرة على فسيفساء الممشى  
 الرئيسيّ . أحنت هامتها قليلاً وهي تمرق من مدخل  
 الكشك القصير، ومضت نحو الكهل بوجهها الأسمر  
 وعينيها الخضراوين . تصافحا . ثمّ قالت بصوت ناعم  
 وبنبهة اعتذار:
- إني خجلة !  
 فقال الكهل برقة:  
 - يسرني أن ألقاك .  
 - لا يحقّ لي أن أنهب وقتك . . .  
 - لا يُعدّ ضائعاً وقت تمنحه لعلاقة إنسانية .  
 - شكراً لطيبة قلبك .
- أشار إلى الأريكة داعياً إيّاها للجلوس فجلست ثمّ  
 جلس وقالت:
- لم تسعني الجراة على طلب مقابلتك إلا لأني في  
 مسيس الحاجة إلى رأي حكيم .  
 - كلّ إنسان عرضة لذلك ، غير أنّ من يراك في  
 الإدارة لا يتصوّر أنّك تحمّلين همّاً  
 - دعك من المظاهرا  
 فهزّ رأسه موافقاً فواصلت:  
 - وتساءلت طويلاً إلى من يحسن بي أن ألقا، حتّى
- هداني التفكير إليك .  
 - أستغفر الله .  
 وترثت لحظات ثمّ قالت:  
 - إنك لا تعرفني إلا كزميلة في إدارة السكرتارية .  
 - بلى .  
 - فعليّ أن أقدم نفسي الحقيقية . . .  
 - أهلاً بها .  
 - هي نفس مقضيّ عليها بالسجن المؤبد في شقاء  
 دائم . . .  
 - أرجو أن تتكشّف بعد تبادل الرأي عن مغالاة  
 عاطفية . . .  
 - بل هي حقيقة واقعية . . .  
 تجلّى الاهتمام في عينيه وهو يقول:  
 - إني مصغّر إليك . . .  
 فقالت وهي تنتهد:  
 - حسبي أن أعرض عليك الفصل الأخير من  
 المساة . . .  
 فتجلّى الاهتمام بصورة أوضح .  
 - إني يتيمة الأبوين ، لي إخوة ثلاثة صغار، نقيم  
 في بيت زوج المرحومة أمنا . . .  
 - وضع معقد . . .  
 - وأبعد ما يكون عن الراحة . . .  
 - لا يمكن إنكار ذلك .  
 - وهو رجل عنيد متعجرف .  
 - زوج المرحومة؟  
 - دون غيره . . .  
 - أهو عجوز مثلي؟  
 - بل أكبر، وهو لا يحبنا!



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٧٩

نوعه في بلادنا، ما أكثر أشباهه وإن اختلفت الظروف والأسباب.

فرمته بنظرة غامضة وقالت:

- ولكّني لم أحدثك بعد عن المشكلة الحقيقية!

- الحقيقية؟

- التي تتحدّان في اليقظة والمنام!

- غير ما سبق ذكره؟

- ما حدّثتك عنه حال يمكن اعتيادها كما يعتاد المريض مرضه المزمن...

فرفع الكهل حاجبيه متسائلاً فقالت:

- أصبحت أشعر بشبابي لا كفترة من العمر تتسرّب في ضياع، ولكن كقرّة دافعة، قوّة قاهرة، كهبة مقدّسة، وحقّ إلهي...

نظر الكهل في بريق عينيها الخضراوين كالمأخوذ فقالت بنشوة وحماس:

- كم تنازعني نفسي إلى أشياء وأشياء، إلى كلّ شيء، إلى الوجود كلّ!

ثمّ وهي تمفض عينيها وينبرة معتصرة بالحسرة والحزن:

- أودّ أن أرقص وأغنّي وأمرح!

اختبأ الكهل في صمته وهو يطبق شفثيه متفكّراً. وكما طال انتظارها قالت:

- لعليّ دهمتك بصراحتي!

فأصرّ على الاختباء فقالت:

- لم تتوقّع ذلك، أصبحت الأكاذيب وجبات يومية متكرّرة. ولكن ما جدوى هذا اللقاء إذا لم أكاشفك بدخيلة نفسي؟

فتتمم الرجل بحذر:

- صراحتك مشكورة!

- وكان عليّ أن أعلن ما في نفسي أو أجنّ، ولكن كان عليّ أيضًا أن أختار الرجل المناسب، وكنت تخاطر على بالي دائماً، رجل وقور ومحبوب وذو سمعة طيبة، له تاريخ مجيد قضى عليه بأن يكون ضحية فتعلقت به قلوب الضحايا!

- أشكر لك إنسانيتك ولطفك.

- لا أنكر أنّ لي صديقتين هيمتين في المصلحة

- هل أنجب لكم إخوة؟

- كلاً، إنّه عقيم!

- ذلك مدعاة لحبّ الأطفال.

- ولكّنه شاذّ، وقد أفهمني عقب وفاة والدتي بأنّي

المسئولة وحدي عن إخوتي...

وساد الصمت ملياً حتى استطرقت قائلة:

- لعلّه بقراره لم يجاوز العقل!

- بلى ولكّنه جاوز الرحمة...

- على أيّ حال أنا لا أطمع في رحمة!

- مفهوم.

- وهو يئنّ علينا بالمأوى وبعض المساعدات وإن يكن يحسبها ديوناً مؤجلة...

هزّ الكهل رأسه دون أن ينبس فقالت متنهّدة:

- لعلّك تخيّلت الصورة التي أعيش في إطارها، والحقّ أنّي لا أملك النقود اللازمة للملابس فتاة موظّفة...

- وشابّة في عزّ شبابها!

- هكذا تمضي الأيام في قسوة ومرارة، تحت رعاية عنيفة لا تعرف الرحمة، بلا أمل، أيّ أمل في غد أفضل!

فقال الكهل كالمحتجّ:

- لا يجوز أن ننظر إلى الحياة بهذه العين.

- ولو كانت بالحال التي ذكرت؟

- ولو كانت!

ثمّ تساءل وكأنّه يناجي نفسه:

- منذاً يقطع بما يجنّبه الغد؟!

فرفعت منكبيها زهداً في مناقشة فكرته وقالت وهي تتنهّد:

- وإذا بي أشعر بزحف الزمن، من خلال حياة التقشّف والمرارة أخذ الزمن يطاردني...

- ولكّتك ما زلت في مطلع الشباب.

- إنّي في الرابعة والعشرين من عمري...

- عزّ الشباب!

- ولكّنه في مثل حالتي يُعدّ مرحلة من الشيخوخة...

- لا داعي للمبالغة، إنّ وضعك ليس الوحيد من

## ١٨٠ حكاية بلا بداية ولا نهاية

الحياة والسعادة، وفي كلمة أودّ من أعماقي أن أرقص  
وأغني وأمرح...

رجع الكهل إلى حيرته وصمته فقالت بوضوح:  
- هذه هي مشكلتي الحقيقية!

وكأ وجدته مصرًا على الصمت عادت تقول:

- يسعدني أنّي وجدت أخيرًا الشجاعة لمصارحتك  
بها!

فجعل يغمغم بكلمات مبهمّة فقالت باسمّة:

- وطبيعي أن أنتظر منك شيئًا غير الصمت...

فجمع عزمه وقال:

- إنّني بطبعي وتاريخي أرفض التسليم بوجود طرق  
مسدودة!

- ولكنّ طريقي مسدودة!

- ما تزال...

- أرجو أن تعتبرها كذلك إكرامًا لي، أنا لم أجا  
إليك إلا مطاردة بسياط الجرع، وبعد كفر بالأحلام

والخوارق!

فقال بوضوح:

- لا رأي عندي دون مراعاة كاملة للكرامة!

- الكرامة؟

- أعني السلوك الخلق بفتاة محترمة.

فقالت بتحدّ:

- لقد جئتك وأنا على علم غزير بالنصائح  
التقليدية!

- طيب، هل تتوقّعين لديّ رأيًا آخر؟

- نعم!

- أن أسوّغ لك السقوط؟

- نعم.

فتساءل الكهل بذهول:

- ألم تجيئيني مدفوعة بما ذكرت عن تاريخي وحُسن  
سمعتي؟

- بل!

- وتصوّرت بعد ذلك أن أبارك سقوطك؟

- نعم!

فضحك الكهل على رغمه وقال:

- الحقّ أنّي لا أفهمك...

ولكنّي لم ألد من رأيها ما يذكر!

- هل كاشفتها بما كاشفتني به؟

- كلاً ولكنّي سألتها الرأي في مناسبات حادة

وخطيرة!

- بمّ نصحاك؟

- بدت لي إحداهما أبعد ما تكون عن الرحمة!

- زيديني إيضاحًا.

- ليس الآن موضعه.

- والأخرى؟

- إنّها غاية في الغرابة، قالت لي إنّ مشكلتي عامّة

وإن بدت خاصّة وإنّها لا تُحلّ بالحلول الفردية، وإنّ

علينا أن نغيّر تفكيرنا من جذوره لنحقّق تغييرًا عامًّا

وشاملاً...

فابتسم قائلاً:

- ليس رأيها بالجديد على مسمعي، ولكن كيف

كانت استجابتك لها؟

- لم يستمرّ ما بيني وبينها طويلاً بعد ذلك فقد ألقى

القبض عليها فجأة...

- عرفت المعنيّة بحديثك، أليست هي زميلتنا

السابقة بالحسابات؟

- بل، وهكذا لم أجد أحدًا سواك...

فقال بلهجة أبوية:

- إنّك تنظرين إلى الأمور بمنظار أسود، ونسيت

أنّك قد ترزقين بابن الحلال غداً أو بعد غدا

- أبناء الحلال متوّرون...

- ألم يقع اختيارك على أحدهم؟

- كلاً، إنّهم موقّفون شبّان في مستوى مادّي لا

يختلف عن مستواي، وقبول يد أحدهم يعني التخلّي

عن إخوتي، ودعنا من تكاليف الزواج ومشاكلها!

فقال الكهل بإصرار:

- عسى أن يجيء عريس غنيّ يقوم بكافة التكاليف

ويسمح بالنزول عن مرتّبك لإخوتك!

- هذا حلم وليس عريسا!

- الأحلام توجد كما توجد الحقائق.

- أرفض أن أقيم ميزان حياتي على الأحلام، إنّني

أعيش في جفاف قاتل وبلا أمل، ونفسي تتحرّق إلى

حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٨١

- ولكنني واضحة كضوء الشمس!  
- الرقص والغناء والمرح؟  
- نعم!  
- خبّرني عما تتوقّعين مني؟  
- أن تصرّح لي بأنّ النهل من متعة الحياة ليس سقوطاً!  
- ولكنّه ينقلب كذلك أردنا أم لم نردا  
- وإذن فما عليّ إلّا أن أصبر حتّى أذوي وأذبل وأموت؟
- بل حتّى تفرج...  
- كلام لن يكلفك شيئاً ولكنّه سيكلفني حياتي...  
فقال متحايلاً للهروب من حدّة الموقف:  
- حدّثني عن رأي صديقك الأخرى، أعني التي لم تُعتقل؟
- كان الحديث لمناسبة تقدّم شابّ لخطبتي فطالبني بأن أقبله دون تردّد، وأما عن إخوتي فقد قالت إنّها ليس من حقّ أحد أن يضحّي بحياة آخر في هذه الدنيا قصيرة الأجل!  
فهزّ الكهل رأسه في حيرة صامته فقالت:  
- ولكنّي أرفض التضحية بإخوتي!  
- يا لك من فتاة نبيلة!  
- ولكن من حقّي أن أحبّ الحياة، وأن أستمتع بهذا الحبّ...  
- إذا فقدنا الكرامة فإنّه لا يطيب لنا شيء...  
- من الذي خلق الكرامة؟  
- خلقتها السماء كما خلقتها الأرض...  
- ألم تسمع عما يقال عن الفتاة الأوروبية؟  
- إنّها تنتمي إلى حياة أخرى في أوروبا ولست أملك المعرفة الكافية للحكم عليها...  
- ولكنّها أثبتت لنا أنّه من الممكن الاستهانة بالتقاليد الموروثة دون التضحية بقيم إنسانيّة باهرة!  
- قلت إنّني لا أملك الحكم عليها...  
- هل تهرب من مواجهة الحقيقة؟  
- بل أتكلّم بما أعلم...  
- أخشى أن تعدّني مسئولية ثقيلة اعترضت طريقك الهادي؟
- بل أوّد مساعدتك بكلّ قلبي...  
فقالت برجاء:  
- إذن قدّم لي نصيحة مبتكرة...  
- مبتكرة!  
- أجل، لم أعد أوّمن بالماضي، لقد ورثت تعاسي عن الماضي، لذلك أكره كلّ ما يمتّ إليه بصلة، هبني نصيحة مبتكرة ولو هزئت في النهاية بما سمّيته بالكرامة!  
- ولكنّي صارحتك بما أوّمن به.  
- إنّك رجل غير عاديّ، لا بدّ أن تنبع منك أفكار مبتكرة، أفكار لا تستمدّ سداها من قول سلف أو من عادة أثرت...  
- من حقّي ومن واجبي أن أكون مخلصاً لطبعي أبداً.  
فقالت وهي تنظر في عينيه بجرأة:  
- أحياناً يخيّل إليّ أنّ شراً عصريّاً أفضل من خير بال!  
- أيّ ثورة تنطوي عليها جوانحك الرقيقة الجميلة!  
- الحياة توشك أن تفلت من بين أصابعي تحت شعارات متهرّفة تردّدها ألسنة محنّضة...  
- هذه انعكاسات أزمة كفرت بحكمة الصبر...  
- صدّقني فإنّ حياتنا وقف قديم متهدّم تتحكّم فيه وصايا الأموات...  
- كلّ ذلك لأنك توذّين أن ترقصي وتغنّي وتمرحي؟  
- لأني أوّد أن أعيش حياتي.  
- وربما توذّين غداً أن تقتلي الأنفس وتشعلي الحرائق وتهتمي الجدران؟  
فضحكت قائلة في حبور:  
- أوّد حقّاً أن أقتل زوج أمتي، وأن أحرق من يتناول على رمي بالسقوط، وأن أهدم جدران الإدارة!  
ابتسم الكهل وهو يرمقها بحنان أبويّ وقال:  
- لعله الحبّ؟  
- هه؟  
- لعله حبّ يائس الذي أضرم فيك نار الثورة!  
- لا يوجد حبّ معيّن الآن، أحببت مرّات وخاب

الخمسين، وبعطف من البعض ألحقت بالوظيفة،  
بمرتّب مبتدئ، وعمّا قليل سأترك الخدمة دون أن  
أستحقّ معاشًا، وقد فاتني الحبّ والزواج والأسرة،  
وإن امتدّ بي العمر فلا مفرّ من التشرّد والجوع . . .

- يا للبطولة!

- لذلك قلت إنّ بيننا أوجه شبه . . .

- لكنك اليوم بطل!

- لا يذكرني اليوم أحدا

ترامت إليهما في الكشك ضحكات هامسة وهي  
تقترب. مرق إلى الداخل فتاة وشابّ سرعان ما تبادلوا  
عناقًا حارًا. أسلمت الفتاة رأسها إلى كتف الشاب  
وأغمضت عينيها. قلبت رأسها، وكما فتحت عينيها  
وقع بصرها على الكهل والفتاة السمراء ذات العينين  
الخضراوين. ابتسمت بلا ارتياب يذكر ثمّ سحبت  
فتاها من يده وغادرا الكشك. ضحكت السمراء  
وابتسم الكهل. وسألته:

- لم اخترت هذه الحديقة مكانًا للقائنا؟

- كنت أتردد عليها في الزمان الأول . . .

- لا علّم لك بما يدور فيها اليوم؟

- كلاً، كنّا نتخذها أحياناً نجباً ننقضّ منه على

أعدائنا . . .

فقامت برشاقة آخذة إيّاه من ذراعه، فمضت به إلى  
جدار الكشك. مدّت بصرها من الثغرات بين أوراق  
الياسمين داعية إيّاه إلى النظر. نظرا معًا وهما شبه  
متلاصقين حتّى فغر الكهل فاه. وهمست في أذنه:

- انظر إلى الحديقة!

ثمّ وهي تكتم ضحكة:

- كم أنّها مرصعة بالعشاق!

- فوق ما يتصوّر العقل . . .

- العقل يستطيع أن يتصوّر كلّ شيء لو تخلّت عنه

القبضة الخائفة . . .

فقال في انفعال ظاهر:

- انظري إلى هذه الفاجرة!

- يا لها من سكرى بالحبّ . . .

- أهذه حديقة عامّة؟

- لا عيب فيها إلّا أنّها تشبه الجنة . . .

الحبّ مرّات، أمّا الآن فأنا أحبّ الحبّ وحده!

- لا شك أنّ للحبّ عندك قصة!

هزّت منكبيها في استهانة وقالت:

- أنت تعرف حبّ المراهقة ومصيره المحتوم . . .

ذاك واحد، وحلمت يوماً بحبّ ممثّل، وكان كلّما تقدّم

لي خاطب أبدى قلبي استعدادًا طيبًا للحبّ لا يلبث

أن يذهب بدهابه . . .

- لا قصة حبّ الآن؟

- أكبر قصة حبّ، حبّ الحبّ نفسه!

وتبادلًا نظرة طويلة. ثمّ سألته:

- بم تنصحني يا سيّدي النبيل؟

فقال بأسًا:

- أنصحك بالرقص والغناء والمرح والقتل

والتحريق والهدم . . .

- أنسخر منّي يا سيّدي؟

- معاذ الله، بل إنك تغرينني بالتعلّق بك!

- حقًا؟

- ما أكثر أوجه الشبه بيننا!

- فيم؟

- في التعاسة على الأقل!

فقالت باستطلاع:

- لقد سمعت عنك الكثير . . .

فلاحت في عينيه نظرة حاملة وقال:

- كنت يومًا ذا شباب يافع ومستقبل مرموق.

ثمّ وهو يبتسم:

- وذات يوم قرّرت الانضمام إلى الجموع الثائرة.

وسكت لحظة ثمّ تتمم:

- ولم أكتفِ بذلك فجازفت بالعمل في

السراديب . . .

ثمّ واصل وهو يضحك ضحكة موجزة:

- ثمّ قضيت من حياتي خمسة وعشرين عامًا في

السجن . . .

- أوّل ما لفتني إليك حديث بعض الزملاء في

المصلحة عندما أشاروا إليك وقالوا هذا الرجل بطل

من أبطالنا القدامى!

- وقد خرج البطل من السجن بعد أن جاوز

## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٨٣

ينطلق بقوة وغزارة. بهت الرجل وارتجفت الفتاة.  
تساءلت:

- ما هذا؟
- رصاص من بندقية سريعة الطلقات...
- كيف؟... لم؟...
- لا أدري...
- غارة؟
- ولكن صقارة الإندار لم تنطلق، لعله تمرين.
- وسكت الضرب. لبثا يرهقان السمع ولم يزايلهما
- القلق. تساءلت:
- هل يعود؟
- لا علم لي...
- هل تُستأنف الحرب؟
- من يدري!
- الكلام عن ذلك لا ينقطع.
- وهو ينتهي حيث يبدأ.
- أنفكر في ذلك كثيراً؟
- إنه ظلنا ومصيرنا.
- وفصل الصمت بينهما طويلاً حتى قال:
- إن الرصاص يترك غرائز في أعماقي، لقد زلزل
- كياتي في هذه اللحظة القصيرة.
- يؤسفني أنني كدّرت صفوك.
- لنعد إلى ما كنّا فيه، أكنت تتحدّثين عن سرّ؟
- فابتسمت قائلة:
- أجل... هناك سرّ...
- فومقها بنظرة مستطلعة فقالت:
- ثمّة رجل في حياتي.
- حقاً؟
- شاب غني من طنطا!
- ها هو الحلم يتحقّق...
- كلاً، إنه متزوج.
- ما مهنته؟
- تاجر.
- أتقبلين أن تكوني الزوجة الثانية؟
- لكنّه يمقت فكرة تعدّد الزوجات.
- هل سيطلق زوجته؟

- إنّا في عمر الورد!

- الحديقة؟

- الفاجرة!

- يخيّل إليّ أنّه لا زوج أمّ يرهبها ولا سجن  
يهدّها!

رجع الرجل إلى مجلسه وهو يلهث. تراجمت الفتاة  
إلى وسط الكشك. وقفت كأنّما تستعرض جسمها  
الرشيق.

دارت حول نفسها مرتين كأنّما تشرع في الرقص.  
سألها وهو لا يتمالك نفسه:

- لم وقع اختيارك عليّ بالذات؟

- لأنك الرجل الذي قضى زهرة عمره في السجن.  
كيف ظننت أنك واجدة رأياً جنونياً عند رجل  
مثلي؟!

- تخيّلتي أنّه لن يتشلفني من الموت إلا رجل كان  
الموت لعبته!

- يا له من مزاح!

- قلت لنفسني سأجد عنده رأياً جديراً ببطل!

فتردّد قليلاً ثمّ سألتها:

- ألم تخيّلتي أن أغازلك؟

- ليس ثمّة ما أخشاه في ذلك!

هزّ الكهل رأسه مغلوباً على أمره فعادت إلى مجلسها  
إلى جانبه وهي تسأله:

- أليس في حياتك جانب لهو؟

فأجاب دون اكتراث:

- أقرأ بانتظام، وأذهب إلى السينما بين حين وآخر.

- تعيش وحدك؟

- نعم، لا أقارب لي في القاهرة.

- ولا أصدقاء لك؟

- منهم من قُتل في الثورة ومنهم من تبوراً يوماً  
الوزارة فبعُد ما بيني وبينه...

- والنساء، أليس في حياتك نساء؟

- ولّى موسمهنّ في عمري...

فغكرت قليلاً وقالت:

- أودّ أن أعترف لك بسرّاً

في تلك اللحظة ترامي إلى سمعها صوت رصاص

- وميقت فكرة الطلاق.
- وماذا يريد إذن؟
- إنه يحبني!
- كذاب!
- أعتقد أنه صادق.
- هل... هل... هل...!
- تقابلنا في مشرب شاي مرتين...!
- ماذا يريد؟
- يريد أن أقابله مرةً ثالثة...!
- لا كرامة في ذلك.
- رجعنا إلى الكرامة!
- واضح أنه يريد العبث بك.
- أو أن أعبت به!
- كوني بريئة بقدر ما أنت صغيرة...!
- وحذثني عرضاً عن شقة يملكها في الهرم!
- الداعرا!
- لم أقطع برأي بعد.
- فهتف بحدة:
- الرقص والغناء والمرح.
- لا أحب لك أن تغضب...!
- ومالت نحوه فلثمت جبينه. جعل ينظر إليها باهتمام وتوقد. سألته برجاء:
- ألا تريد أن تمنّي عليّ برأي؟
- عليك أن تصبري حتى يجيء الفرج كما أنّ عليّ أن أصبر حتى يجيء الموت!
- فقامت وهي تقول:
- شكراً، وإذن فيجب أن أذهب...!
- هتف باستنكار:
- تذهين...!
- لم أجد لأقيم هنا.
- أنت ذاهبة إلى الشاب الغني من طنطا.
- كلاً، ليس موعدك اليوم...!
- لا يمكن أن تذهبي...!
- أن لي أن أذهب...!
- قام إلى جدار الكشك ورمى ببصره إلى الخارج ثم قال بعصبية:
- الحب لا يتوقّف لحظة واحدة...!
- متّع بصرك...!
- تحوّل إليها وهو يقول بانفعال:
- كأنك ابنتي!
- ومال نحوها فلثم جبينها وهو يقول:
- لا تذهبي إلى مشرب الشاي.
- ليس اليوم...!
- إنه يريد عشيقاً!
- لم يصرّح بذلك.
- أنت ساذجة؟ أنت ماكرة؟... ما أنت؟
- أنا مصممة.
- أنت جميلة، أنت فاتنة، اصبري...!
- يجب أن أذهب.
- إنه يرفض أن يطلق، ويرفض أن يتزوج زوجة ثانية، لماذا؟ لعل زوجته غنية، لعلها رأساله الحقيقي، وغير بعيد أن تكون أكبر منه سناً، لذلك جهّز شقة للعبث، يجيء إلى القاهرة باسم التجارة ليهارس الدعارة، هذه هي الحقيقة.
- أشكرك، ولكن أن لي أن أذهب.
- قبض على يدها، ثم على ساعدها، وقال وهو يزداد انفعالاً:
- لن تذهبي...!
- ابتسمت قائلة:
- لقد تأثرت لحالي أكثر مما يجوز...!
- لا حدود لما يجوز في ذلك.
- شدّ ما أزعجتك.
- أكثر من سبب يشدّ أهدنا إلى الآخر.
- ولكنّ الوقت يسرقنا وزوج أتي رجل شرس...!
- فلنسحق رأسه ولكن لا تذهبي إلى الشاب الغني من طنطا.
- إني راجعة إلى البيت.
- ففرقع بأصابعه وقال:
- جاءني فكرة طيبة.
- فكرة؟
- إنك مشغولة بالحياة، ولا خوف عليك من كهل

- مثلي، فلنذهب سوياً إلى عنبر لولو.
- عنبر لولو؟
- حديقة في صحراء سقارة، في المركز منها بركة مترامية من ماء الورد، وتنتشر بها المقاصير المغطاة بالأزهار، وشعارها غير المكتوب افعل ما تشاء.
- فأتسعت عينها دهشة وقالت:
- أنت تدعوني إلى ذلك؟
- مع آمن رفيق!
- لا أصدق!
- لا يعز شيء على التصديق.
- ولكن... ولكن ليس الوقت مناسباً.
- كل وقت فهو مناسب لزيارة عنبر لولو!
- لم أسمع بها من قبل.
- إنها جنة الأحلام، كل حلم فهو واقع في عنبر لولو.
- إنك تتكلم بصوت جديد، وعينك تنطقان بمعاني جديدة.
- جذبها من يدها إلى جدار الكشك فنظر من الثغرات داعياً إيها إلى النظر وقال محمومًا:
- انظري، جميع هؤلاء حقى لأتهم لم يعرفوا الطريق إلى عنبر لولو.
- تلك الحدائق النائية عرضة للخطرا
- إنها ترقد في حضن الأمان وأي ذلك أنه لا يوجد بها شرطي واحد!
- وماذا فعل هناك؟
- كما تهوين، لا أحد يرى الآخر في عنبر لولو.
- انظر إلى هذه الفتاة الفاجرة!
- إنها فاجرة لأنها تلهو بعيداً عن عنبر لولو.
- إنك تخيفني!
- لا ظلل للخوف في عنبر لولو.
- تراجعت عن الجدار فلحق بها في نشاط غير معهود وهو يشد على يدها. وتساءل:
- ألم تخيبي لتسمعي نصيحة من كهل؟
- أمقت النصائح!
- اذهبي معي إلى عنبر لولو.
- رباه... إني أراجع، لعل حديتك الحكيم أثر
- في أكثر مما توقعت!
- حديث عنبر لولو؟
- حديث الصبر والكرامة!
- إنك لا تؤمنين بالألفاظ الصفراء.
- ولكنك تؤمن بها؟
- إن ربيع قرن في السجن خليق بأن يخل الميزان.
- إنك تخيفني.
- كلاً، ولكنها حيلة نسائية بالية!
- اهدأ، فلنجلس، أود أن أعترف بسر جديد.
- اعتراف آخر؟!
- عادا إلى مجلسها وهو يلهث. وقبل أن تفتح فاهها تدافعت أقدام مهرولة تند بين وقعها ضحكات شابة متوثبة. اندفعت إلى الداخل فتاة يطاردها شاب. لمحا وجود الكهل والفتاة ولكنها لم يلقيا إلى ذلك بالأل. مضت تحاوره وهو يتحين غفلة للانقضاض عليها. وفجأة وثبت الفتاة فوق الأريكة الوحيدة التي يستقر عليها الكهل وصاحته ونحطت الرجل فاختمت لحظة بين ساقها ثم قفزت إلى الباب، ومنه إلى الحديقة والشاب في أثرها. سوى الكهل هدامه وتمتم كأنما يناجي نفسه:
- ما أجل أن يذهب إلى عنبر لولو!
- ثم قال لفتاته بصيغ:
- نحن نضيع وقتاً ثميناً لا يعوض!
- فكالت تذكره:
- ولكن ثمة اعتراف جديد!
- لا قيمة الآن لأي اعتراف!
- أود أن أعترف لك بأن حكاية الشاب الغني من طنطا مختلفة من جذورها ولا أساس لها في الواقع!
- حقاً؟
- بالصدق أعترف لك.
- ذاك يعقد الأمور ولا يبسطها!
- وعلي أن أذهب الآن.
- كلاً، لن تذهبي.
- لا شيء يدعونا للبقاء.
- بل علينا أن نفهم الأسباب التي دعمتك إلى اختراع الحكاية.

وتكرهين في الوقت نفسه فكرة دوامه، سوء ظنّ  
مكتسب من ماضٍ تعييس..  
- أتقرأ الفنجال أيضًا؟  
- من طنطا!... ماذا يقول الحلم؟ طنطا هي  
مثنوى السيّد البدوي، صاحب الكرامات والمعجزات،  
الذي كان يجيء بالأسرى من الأعداء... فهمت يا  
عزيزتي؟!  
- فهمت يا سيّدنا الشيخ.  
- وشقّة الهرم؟... الشقّة مفهومة ولكن لماذا في  
الهرم؟ الهرم في ظاهره قبر ولكنّه في حقيقته يشكّل  
تحديًا للزمن... للموت.  
- تفسير مسلّ وجميل، ولكن يجب أن تفكّر في  
الذهاب.  
- ابصقي هذه النية من فيك وهلمّي إلى عنبر  
لولو.  
- بل إلى البيت...  
- ماذا في البيت ممّا يفريك بالعودة إليه؟  
- هو يبقي على أيّ حال.  
- سيتغير طعمه ومذاقه عقب زيارة لعنبر لولو.  
رمقته بنظرة ارتياب وسألته:  
- ما علاقة كهل وقور مثلك بعنبر لولو؟  
- فيه خلوة للعجزة، كلّ شيء في عنبر لولو.  
- ترى... ترى أنت جدير بالسمعة الطيبة التي  
تتمتّع بها؟  
- أنسيت رأيك في الوقت القديم ووصايا الأموات؟  
- لكّني تعلّمت أشياء جميلة من معاشرتك الطويلة  
هنا!  
- لا تسخري من رجل قضى زهرة عمره وراء  
القضبان.  
- اغفر لي فإنّي لم أجاوز الأربعة والعشرين ربيعًا  
من عمري!  
- ولكنّه في حالتك يُعتبر مرحلة من مراحل  
الشيخوخة!  
وقامت متجهّمة فقام في أثرها بحال توحّي  
بالاعتذار، وقال:  
- لا معنى للغضب بعد أن تعارفنا على خير وجه!

- لا أهميّة لذلك البتّة.  
- كلام غير علميّ، فالحلم له أسبابه كالواقع سواء  
بسواء  
- أكرّر ألا أهميّة لذلك.  
فهزّ رأسه مفكّرًا وقال باهتمام:  
- دعيني أفكّر.  
ومسح على جبينه واستطرد:  
- شاب... تاجر... غني... من طنطا...  
شقّة خاصّة في الهرم.  
- كدت أنسى تلك التفاصيل.  
- لا يمكن أن تُنسى.  
- أنت ظريف ولكنك عنيد.  
- أصغني إليّ، شاب، تخيلته شابًا، الشباب رمز  
الجنون بحبّ الحياة، وأنت تهيمن بحبّ الحياة لحدّ  
الجنون.  
- لكّني تغيّرت.  
- كذب، لم يمرّ وقت يسمح بالتغيير.  
- يجنّ إليّ أنّي عاشرتك في هذا الكشك عمّرًا.  
- أصغني إليّ يا عزيزتي،... تاجر... ما معنى  
تاجر؟ إنّه نقيض الموظّف، الموظّف رمز الروتين،  
التاجر رمز الحركة، الموظّف ظلّ الأخلاق التقليديّة،  
التاجر ظلّ الانطلاق واللاأخلاقية.  
فساءلت ضاحكة:  
- أتراني حلمت بقرصان؟  
- وأكثر يا عزيزتي، إنك تدعيننا للإيمان بإبليس كما  
آمن إبليس بنفسه، إنك تنبذين آدم مخلوق الخطيئة  
والاستغفار، وتعشقين إبليس مخلوق الإبداع  
والكبرياء، إنك تعيدين للنار كرامتها حيال التراب.  
- ساعك الله... أنت خفيف الروح.  
- وما معنى غني؟، الغني هو الذي يملك المال  
والقوّة، ولكننا لم نعد في عصر الأغنياء، أيّ غنيّ اليوم  
إنما هو كاللصّ الذي لم يُبتدأ إلى أثره بعد، ستطبق  
عليه يد العدالة في المساء أو عند منتصف الليل،  
فالحلم يريد شابًا غنيًا، لفترة محدّدة، إنّه يخشى المعاشرة  
الطويلة، يخشى أن يتكشف مع الزمن عن شخص  
حقير شرس مثل زوج أمك، فأنت ترغبين فيه



## حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٨٧

- فقلت بنبرة ساخرة:
- شيدت قصرًا ولكن على الرمال!
- حقًا؟
- الشاب الغني من طنطا حقيقة من صميم الواقع!
- بل خيال في خيال!
- حقيقة من صميم الواقع.
- فقبض على ساعدها بعنف وهو يطلق على عينيها نظرة من نار. وتوَّب ليقذفها بسيل من الكلمات التي انصهر بها شدقاؤه ولكنَّ شخصًا غريبًا اقتحم الكشك على غير توقُّع. اقتحمه وكأنما ألقي به إليه. مشعث الشعر، أغبر الوجه، يتصبَّب عرقًا. رفع بنطلونه وحبكه حول وسطه. ضرب الأرض بقدميه بشدَّة ليزيل عن حدائه ما يطويه من طين. بادلها النظر صامتًا دون أن ينبس. مضى إلى طرف الأريكة وارتمى عليها في إعياء. جعل صدره يرتفع وينخفض ورائحة عرقه تنتشر. حلَّ بالكشك صمت كالشلل. لكنَّ الفتاة كانت أوَّل من خرج منه. خلَّصت يدها من قبضة الكهل وقالت:
- أستودعك الله، إنِّي ذاهبة.
- فقال الكهل برجاء:
- انتظري، يحسن بك ألا تسيري وحدك في الطرقات الخالية في هذه الساعة من الأصيل!
- وإذا بالشابَّ الغريب يقول:
- ليست الطرقات بالخالية!
- فرماه الكهل بنظرة مغيظة متسائلة فقال الشاب:
- جميع الطرقات مطوَّقة برجال الشرطة!
- فتحوَّل غيظ الكهل إلى دهشة وسأله:
- لم؟
- فسأله الشابُّ بدوره:
- ألم تسمعوا طلقات الرصاص؟
- بلى، منذ وقت غير قصير، ظننته تدريبيًا عسكريًا.
- لم يكن تدريبيًا عسكريًا.
- فسألته الفتاة:
- أكان غارة جويَّة؟
- لم يكن غارة جويَّة.
- فسأله الكهل:
- هل بلغتك عنه أنباء صادقة؟
- فهزَّ الشابُّ رأسه بالإيجاب، وأجاب النظرات المتسائلة قائلاً:
- صعد شخص إلى قمة البرج وأطلق الرصاص من بندقية سريعة الطلقات.
- ما هوَّته؟
- لا يدري أحد.
- وما الهدف الذي أطلق عليه الرصاص؟
- أطلقه على كافَّة الجهات، على جميع الناس!
- يا للخبر، وكم عدد الضحايا؟
- لم يصب أحد!
- غير معقول.
- يبدو أنَّه أراد أن يطلق الرصاص لا أن يصيب أحدًا!
- حادث غامض.
- إنَّه كذلك.
- هيهات أن يثبت عدم الشروع في القتل.
- ذاك واضح، ولكن ربما صفحته خالية من السوابق!
- فقال الكهل باستياء:
- ليس خلَّو الصفحة من السوابق بالشهادة الطيبة دائمًا، ولا العكس بالصحيح.
- قول لا يخلو من حكمة.
- أهنتك على حسن إدراكك.
- شكرًا.
- لكن لنعد إلى مطلق الرصاص، لعلَّه مجنون؟
- كلاً... .
- إنك تتحدَّث عنه بيقين!
- بل أردد ما تناقله الناس في الطرق.
- ولكن لم يطلق النار في جميع الجهات دون أن يقصد إصابة أحد؟
- ذلك بعض السرِّ الذي يسعى وراءه رجال الشرطة.
- فقال الفتاة:
- لعلَّه مجنون بالشهرة.

- لا يبدو كذلك .  
فعادت تقول:
- لعلّه كان في حاجة ملحة إلى الترفيه؟  
فابتسم الشاب قائلاً:
- لا أظنّ الأمر كذلك .  
وسأله الكهل:
- ماذا يقول الناس عنه أيضًا؟  
- يقال إنّه كان ضمن وفد دعي إلى زيارة الجبهة  
ومعسكرات اللاجئين .
- حقًا... لعلّ أعصابه اهتزت فوق ما يحتمل .  
- لكنّه لم يفقد توازنه قطّ وإلا لقتل الناس  
بالعشرات!
- أطلق النار وهو في كامل وعيه؟  
- وكامل عقله!
- يا له من حادث غامض!  
وقالت الفتاة:
- كم أودّ أن أراه .  
فقال الكهل:
- ستريه في جرائد الغد، كذلك تجري الأمور منذ  
قديم!
- ثمّ التفت إلى الشاب وهو يقول كأنما يقدم له  
نفسه:
- أنا أيضًا ولّعت يومًا بإطلاق النارا  
ثمّ بنيرة اعتزاز:
- ولكنّ الرصاص انصبّ على الأعداء!  
فقال الشابّ بامتعاض:
- يقال إنّ صاحب البندقية المجهولة هتف قبل أن  
يختفي «ليستقرّ الرصاص في قلب العدو الأكبر» .  
فقال الكهل في حيرة:
- حتّى القتل أصبح غامضًا رغم أنّه أوضح فعل في  
الوجود!
- ليس ثمّة غموض البتّة...  
فتساءل الكهل بغنيظ:
- أكان العدو الأكبر يسير فوق رؤوس المازّة؟  
- أو خلفهم أو أمامهم أو تحت أرجلهم!  
فقال الفتاة بانفعال:
- واضح أو غامض، لا يهمّ، كم أنّه جميل أن  
يطوف إنسان بالجبهة ومعسكرات اللاجئين ثمّ يصعد  
إلى برج القاهرة ليطلق النار في جميع الجهات!  
فسألها الكهل:
- هل وضع لك ما غمض عليّ؟  
- نعم .  
- ولكن كيف؟  
- إنّي أفهم بطريقي الخاصة!  
وسادت لحظات من الصمت ارتفعت خلالها ضجّة  
في الخارج . ثمّ تبيّن على وجه اليقين أنّ ثمّة ضجّة  
تجتاح الحديقة .  
هرعا إلى ثغرات الياصمين فرأيا العشاق يتجمّعون  
في الممشى وقد تولّاهم الوجوم والارتباك . ثمّ رأيا  
رجال الشرطة وهم يجتّلون الأركان . قالت الفتاة  
بانفعال:
- أصبحنا في قلب الحدث...  
فقال الكهل:
- وقد يقع صدام دام .  
والتفتت الفتاة نحو الباب وقالت له:
- واضح أنّ رجال الشرطة يعتقدون أنّ صاحبك  
المجهول في الحديقة معنا!  
فقال الشابّ بهدوء:
- وهو فرض محتمل!  
فقال الكهل:
- ولم يعد ثمّة مجال للهرب...  
فقال الشابّ:
- إنّ من يقدم على ما أقدم عليه لا يمكن أن يركن  
إلى الهرب إلى ما لا نهاية...  
فقال الكهل وهو يحدّجه بمودّة:
- وعليه فخير سبيل أن يذهب إليهم بنفسه...  
- أنظرنّ ذلك؟  
وابتسم . ثمّ قام بهدوء . حيّاهما بإحناءة من رأسه  
قائلاً:
- إلى اللقاء...  
ومضى نحو باب الكشك فمرك منه إلى الحديقة  
وهما يردّان وراءه...

حكاية بلا بداية ولا نهاية ١٨٩

- ففكرنا في ذلك بطبيعة الحال، وبالإجماع اتفقنا على وسيلتين لا ثالث لهما وهما السرقة والقتل! فضحكت متسائلة:  
- وماذا أتحركم عن التنفيذ مذ تم الإفراج عنكم؟  
- الخيانة!  
- الخيانة؟  
- إذا بالزملاء يتوبون إلى الله ويؤدون فريضة الحج في عام واحدا هكذا تعطل مشروع عنبر لولوا  
- يا للخسارة...  
- العين بصيرة واليد قصيرة!  
وفرق بينهما صمت واجم ثقيل. حتى قال الكهل:  
- آن لنا أن نذهب ولكن لا يجوز أن نفرق!  
- حقاً؟  
- ألا ترخين بذلك؟  
- من المؤسف أنك لن تحسن الرقص ولا الغناء ولا المرح...  
- ولكنني صاحب مشروع قيم!  
- عنبر لولوا؟  
- أجل...  
- لكنه لا يمكن تنفيذه بمجهود فردي؟  
- إذا اتفقنا أمكن أن نصنع شيئاً ذا بال...  
- وماذا في وسعي أنا؟  
- أصغني إليّ، نحن نملك مواهب لا تقدر بشمن...  
- ما أريد إلا أن أرقص وأغني وأمرح.  
- لن أطلبك بأكثر من ذلك...  
- ماذا تعني؟  
- عنبر لولوا، جنة الأحلام، ما قيمتها بلا رقص وغناء ومرح؟؟  
فابتسمت الفتاة بأمل وتساءلت:  
- وأنت؟  
فقال بفخار:  
- أنا مولع بالقتل من قديم الزمان...  
قام فقامت. أعطاهم ذراعها فتأبطتها... مضيا نحو باب الكشك وهو يقول:  
- سأطلق الرصاص في جميع الجهات وسنرقص ونغني ونمرح...  
- وماذا عن تمويله؟

- إلى اللقاء!  
واقتربا من باب الكشك متلاصقين وراحا يراقبان ما يحدث في الخارج. ولبثا وقتاً غير قصير ثم رجعا إلى مجلسهما فيما يشبه الإعياء والحزن. وقال الكهل وكأنه يناجي نفسه:  
- فاتي أن أستوضحه بعض الأمور، كان الوقت قصيراً وحرّجاً!  
فالتفت الفتاة:  
- وفاتي أن أدعوه إلى شيء من اللهوا فقال لها معاتباً:  
- ما زلت قادرة على المزاح!  
- أنسيت هيامي بالرقص والغناء والمرح؟ فقال بامتعاض:  
- آن لك أن تذهبي إلى شائك الغني من طنطا! فضحكت قائلة:  
- دعني اعترف لك بأنه حلم لا أساس له في الواقع!  
فهتف بغضب:  
- لقد أرهقتني اعترافاتك المتضاربة...  
فالتفت بتسليم:  
- هلم بنا إلى عنبر لولوا ونهضت قائمة. لكنه جذبها برقة من يدها فأجلسها مرة أخرى وهو يحني رأسه:  
- دعيني اعترف لك بأن عنبر لولوا لم توجد بعد. فأنسعت عينها دهشة وتمتمت:  
- ماذا قلت؟  
- كانت مجرد مشروع!  
- مشروع؟  
- أجل.  
- ماذا تملك لتنفيذه؟  
- رسمنا له خطة عظيمة في غيابات السجن!  
- السجن؟!  
- كان حياتنا الحقيقية، أنا وبعض الزملاء، وقد اشتققنا اسمه من عنبر السجن وأضفنا إليه «لولوا» على مثال هونولولو...  
- وماذا عن تمويله؟

شهرُ العَسَلِ

## شهر العسل

- تملّ وجهاهما بالرضى وهما يدخلان. وقفا تحت  
النجفة الصغيرة يلقيان نظرة شاملة على الحجرة. وقاسا  
بعين دقيقة المسافة بين الكنبه الرئيسيه والصوان الجامع  
للراديو والتلفزيون. ونظرا إلى الفريجدير القائم في  
الركن بشيء من الفتور إذ كانا يتميّان لو اتّسعت له  
حجرة السفر. قال باسماً وهو يختال في بدلته الجديدة:
- مباركة عليك الشقة الجديدة يا حبيبي.  
- مباركة عليك يا حبيبي.  
- يتجلّى ذوق والدتك في تنسيقها البديع.  
- ولا تنس دور ذوقي في ذلك.  
فلثم خدّها وهو يضحك ثمّ قال:  
- شقة لقطه!  
- حقيقة...  
- ترى أين أمّ عبد الله؟  
- لعلّها في المطبخ أو الحمام...  
- ترينها يا عزيزتي أهلاً للثقة؟  
- كلّ الثقة، لم تفارق ماما مذ كانت في العاشرة.  
- ستقيم في شقتنا أكثراً منّا، وستدير جميع شئوننا،  
أما نحن فلن نهنا بها إلا حين الراحة والنوم...  
- نُدّر بين أمثالنا من الأزواج العاملين من ظفر  
بمدبرة بيت مثلها.  
- أيّ بهجة لشقة جميلة كهذه بدون مدبرة؟  
- هذه هي الحقيقة، هي في ذات الوقت مشكلة،  
ولكن...  
وجعلت تتشتمّ الهواء في قلق وتساءل:  
- ألا تشتمّ رائحة غريبة؟  
- رائحة غريبة؟
- وراح يتشتمّ بدوره ثمّ قال:  
- أجل... ثمّة رائحة غريبة...  
- رائحة طيبخ...  
وقاما بجولة تفتيش في الأركان، تحت المقاعد، تحت  
الكنبة، وصاح الشابّ باستنكار:  
- توجد حلّة تحت الكنبه...  
- حلّة؟!  
أخرجها الشابّ بوجه متقرّز وهو يتمتم:  
- حلّة طيبخ في حجرة الجلوس!  
- وهو طيبخ حامض، ما معنى ذلك؟!  
- شيء لا يتصوّره العقل...  
وصفّق بيديه بشدّة ونرفزة. وصاحت الفتاة:  
- أمّ عبد الله!  
ترامى إليهما وقع أقدام ثقيلة. دخل رجل قصير  
بدين مصبوب في كتلة قويّة كأنه برمبل. غليظ الرأس  
والوجه والعنق كأنه مصارع محترف، ومن عينيه  
الغائرتين تنبعث نظرة جامدة بليدة. وقف في بنطلونه  
الترابيّ وقميصه الأسود وحدائه المطاط، ينظر إليهما  
ببلادة وعدم اكتراث. صرخت في عينيها نظرة ذاهلة  
غير مصدّقة. تبادلنا نظرة سريعة ثمّ عادا للحملقة في  
وجهه البليد. وسألته الفتاة:  
- من أنت؟  
لم يجب. كأنه لم يسمع. سأله الشابّ بصوت  
رئان:  
- من أنت؟  
فنظر إلى الشابّ مليّاً ثمّ تمتم بهدوء بارد:  
- أنا ابن أمّ عبد الله...

- ومَن أذن لك بدخول الشقة؟  
- استدعني لأحل محلها في أثناء غيابها.  
- أليست في الداخل؟  
- سافرت إلى طنطا لحضور مولد السيد.  
- متى سافرت؟  
- صباح اليوم...  
- فقالت الفتاة باستياء:  
- لكتها لم تستأذن منا، بل ولم نخطرنا...  
- فجعل ينظر ببلاهة وعدم اكتراث حتى سأله الشاب:
- ومتى ترجع؟  
- لا أدري.  
- وماذا كنت تفعل؟  
- لا شيء...  
- ماذا تعرف من شئون المنزل؟  
- لا شيء.  
- ألك حرفة تتعيش منها؟  
- كلاً.  
- وكيف تعيش؟  
- أكل وأشرب وأنام.  
- فنفض الشاب في يأس، ثم سأله:  
- ولم استدعتك أمك إذا كنت لا تحسن شيئاً؟  
- لأحل محلها في أثناء غيابها.  
- ولكتها تقوم هنا بكل شيء.  
- قالت لي ابق هنا حتى أرجع.  
- لوى الشاب شفثيه امتعاضاً. أشار بحدّة إلى الحلقة، وسأله:
- ألم تر هذه الحلقة من قبل؟  
- فنظر الرجل إليها في بلاهة وقال:  
- لا أتذكر.  
- ألم تأكل من الكرنب؟  
- أكلت...  
- في هذه الحجره، أليس كذلك؟...  
- لا أتذكر!  
- ثم دفعت بها تحت الكنبه؟  
- فقال في ابتهاج طارئ:
- بحثنا عنها طويلاً...  
- فنفض الشاب في غيظ وقال:  
- لا جدوى من الكلام، على أي حال تفضّل غير مطرودا  
- فاستدار ليرجع من حيث أتى ولكنّ الشاب استوقفه  
- ثم أشار إلى ردهة مفضية إلى الباب الخارجي، فمضى  
- الرجل نحوها بشكل آلي، غاب قليلاً ثم رجع وهو  
- يقول:  
- ذاك الباب يؤدّي إلى الخارج!  
- أعرف ذلك.  
- أتطردني؟  
- لا حاجة بنا إليك؟  
- قالت لي ابق حتى أرجع.  
- ولكنّي صاحب الشقة!  
- أنا لا أعرف إلا أمي!  
- فصاحت الفتاة:  
- أتريد أن تبقى بالقوة؟  
- فقال بثقة:  
- سأبقى حتى ترجع.  
- ولكننا لا نريدك.  
- سأبقى حتى ترجع.  
- فذهلت الفتاة ونظرت صوب زوجها. شعر الفتي  
- بأنه مُطالب بأداء واجب فوق احتمالها. وبدأ أمام  
- الرجل كخضن طريّ حيال جذع شجرة بلح. واحتدم  
- غضباً فصاح بالرجل:  
- اذهب في الحال.  
- قالت لي ابق حتى أرجع!  
- اغرب عن وجهي بلا مناقشة.  
- لن أذهب، اذهب أنت إذا شئت!  
- أعياه الغضب فانقضّ على الرجل ودفعه بكلّ قوته.  
- لم يتأثر الرجل أقلّ تأثر ودفعه بكتفه دفعة بسيطة  
- فانقذف الشاب إلى أقصى الحجره متمسكاً في طريقه  
- بخوان فسقطاً سويّاً. نهض بسرعة لاعتنا ولكنّه كفت  
- عن تجربة قوته. واندفعت الفتاة نحو النافذة المطلّة على  
- الطريق ففتحتها على مصراعها وراحت تصوت بأعلى  
- صوتها مستغيثة. وإذا بأصوات ترتفع لاعنة في

شهر العسل ١٩٥

- لعلّه عبث به، ومَن يدري فلعلّه عبث بالراديو والتلفزيون أيضًا. . . .

- كارثة حلّت بشقّتنا الجديدة، ولكن لا بدّ من عمل شيء. . . .

- فلنذهب سوياً إلى نقطة الشرطة. . . .

- قد ينتقم من الشقّة في غيابنا. . . .

- لا بدّ ممّا ليس منه بدّ. . . .

مضيا معاً نحو الباب الخارجيّ ولكتّهما رجعا وهو يقول:

- أغلق الباب بالفتاح!

ومضى يفتّش عن المفتاح حيث وضعه على ترابيزة صغيرة فلم يجده. . . . تتمم:

- ليس الوحش غيباً كما تصوّرت. . . .

- لقد سجننا. . . .

- حتّامٌ نمضي في السجن تحت رحمة؟

- ذلك لا يمكن أن يقع ولا في الخيال!

وإذا بدفقة مرّعة من أصوات خشنة مختلفة المصادر تنفذ من ناحية المطبخ. وقع أقدام، ارتطام بجدران، سقوط أوعية، تحطيم آنية، صيحات وعبد. وقبل أن يفيق الزوجان من الصدمة الجديدة اندفع الرجل الغليظ مشتبكاً مع آخر في مثل حجمه إلى الحجرة وهما يتصارعان. تصارعا بعنف ووحشيّة وكلّ منهما يحاول قهر الآخر. فمرة يقع هذا تحت الآخر ومرة العكس. حتّى تمكّن الرجل الغليظ من غرس الآخر تحتته دون أن يدع له فرصة للإفلات أو الحركة، ثمّ هتف بصوت جدلان:

- فيفا فلا!

ونفض فنفض الآخر. تصافح الاثنان كما يتصافح متباريان عقب مباراة عادلة. وانتهيا إلى الزوجين فجعلتا ينظران إليهما ببلادة وبرود. وحلّ صمت ثقيل كالاحتناق. ثمّ خرج الشاب من ذهوله فأشار إلى الرجل الجديد وسأل ابن المدبّرة:

- من هذا؟

- صديق!

- أكان موجوداً معك من قبل؟

- نعم. . . .

غضب، وإذا بالطوب ينهال على النافذة ويمرّق بعضه إلى داخل الحجرة حتّى تنحّت الفتاة والفتى في ركن آمن وهما مدهولان.

تساءلت وهي ترتجف:

- ماذا جرى للناس؟

- يقذفوننا بالطوب بدلاً من إغائتنا!

والرجل الغليظ لم يسكت. تقدّم خطوات فتناول الحوان المقلوب وجرى نحو النافذة فرمى به منها بأقصى قوّته، ثمّ أغلق النافذة! صاح الشاب:

- ماذا فعلت؟

فعاد إلى موقفه وهو يقرّل:

- طيلة الوقت تبادلنا الضرب.

- الضرب؟

- وانتصرت عليهم دائماً!

فسألته الفتاة بحنق:

- كيف جعلت من شقّتي ميدان قتال؟

- الحقّ عليهم، كلّما ظهرت في نافذة بادروني بمعاكساتهم، اضطرتت إلى قذفهم بالأطباق فقذفوني بالطوب. . . .

- لقد جعلت من أهل الطريق أعداء لنا!

- لا يهّمك.

- ألا ترى أنّك تتصرّف في الشقّة كما لو كانت ملكك الخاصّ؟

- الحقّ عليهم كما قلت لك.

- إنّك تبدّد الأشياء الثمينة وتعرّضنا للخراب.

- أهذا جزاء من يدافع عن شقّتك؟

- يا سيّدي تشكر، ما نريد منك إلّا أن تذهب بسلام!

هرّ منكبيه العريضين ثمّ ذهب إلى الردهة المفضية إلى الباب الخارجيّ. لكنّه لم يلبث أن عاد فرفع الحلّة في هدوء ومضى بها إلى الداخل. همست الفتاة:

- النجدة!

انتقل الشاب إلى التليفون ورفع السّاعة، جعل

ينقر عليه، ثمّ أعادها غاضباً وهو يقول:

- حرارته مفقودة!

- ربّاه!

- هل علمت أمك بوجوده؟  
- كلاً.
- وكيف تدعوه إلى شقة آخرين؟  
- دعوته لأنني لا أحب الوحدة، ولنواصل تدريبنا...  
- أنت رجل عاقل؟  
- نحن نتصارح في الموالد ولا غنى لنا عن التدريب المستمر...  
- لعلك توهمت أنك صاحب الشقة!  
- أنا لا أحب الإقامة في البيوت!  
فالت الفتاة:  
- إذن غادر بيتنا مصحوباً بالسلامة!  
- قالت لي ابقى حتى أرجع...  
فقال الشاب:  
- نحن على استعداد للذهاب فلم أغلقت الباب بالفتاح؟  
- حتى ترجع أمي من المولد...  
- ولكننا نريد أن نذهب...  
- إلى أين؟  
- يا له من سؤال، ألسنا أحراراً؟!  
- من أدراي أنكما صاحباً الشقة الحقيقيان؟  
- أيدخلك شك في ذلك؟  
- يجب أن تبقى معنا حتى ترجع أمي من مولد السيد.  
فعض الشاب على أسنانه من الغيظ وقال:  
- على الأقل يجب أن تلتزم بالنظام!  
فأشار الرجل الغليظ إلى زميله قائلاً:  
- أراد أن يجرب قوته معي وقد رأيت النتيجة بنفسك!  
- حسبكما ما كان من ضجيج وتخريب.  
- لن يأتيك من ناحيتنا بعد ذلك إلا الطرب!  
- أريد الهدوء الشامل الكامل...  
- ألا تحب الغناء والرقص؟  
- الغناء والرقص!  
- معنا في المطبخ راقصة وبعض المراد الجوقة!  
فصاح الزوجان معاً:  
- ماذا تقول؟!  
- إنهم من زملاء الموثوق بهم...  
- لقد جعلت من الشقة ساحة مولدا  
- لم تعقدان الأمور بلا سبب؟  
- كل ذلك وتقول بلا سبب؟!  
- ما كنت أتصور وجود ناس يكرهون الناس والطرب بهذه القوة!  
ورفع منكبيه العريضين استهانة، ثم تابط ذراع صاحبه، ومضى به إلى الداخل. وجعلا يتبادلان النظر في غضب وياس حتى ترامى إليهما دق وعزف مزمار وإيقاع رقص، وما لبث الحناجر الخشنة أن غنت بغرابة:  
يا زرمباحه يا زرمباحه خواتمك ستنة وقداحه هتفت الفتاة:  
- سأجرن إن لم أكن جننت بالفعل.  
ومضى الشاب نحو النافذة بتصميم فقالت له محذرة:  
- الطوب!  
- لعلهم ذهبوا...  
ثم وهو يمسك بمقبض الضلفة:  
- علينا أن نوصل صوتنا إلى الناس!  
ولكن ما كادت الضلفة تتحرك حتى انهال الطوب عليهما كالرصاص. أغلقها مرة أخرى وهو يسب ويلعن. وتساءل فيما يشبه التتهجد:  
- غلبنا على أمرنا؟  
فتمتمت:  
- إنه كابوس قاتل...  
- ولكن لا بد أن يوجد مخرج.  
- أجل، يجب أن يوجد مخرج.  
- ولكن ما هو؟  
وتفكر قليلاً ثم تساءل:  
- لنسأل أنفسنا ماذا نريد؟  
- أظننا جئنا ونحن نحلم بقضاء شهر عسل سعيداً  
- ولكن عاقنا عن ذلك وجود أولئك الشياطين.  
- فعلياً أن نتخلص منهم.  
- طيب، فلنفكر كيف يمكن التخلص منهم.



شهر العسل ١٩٧

- باستغراب:
- أرفف الفريجدير مخلوعة ومطروحة أرضاً وراءه!
  - وانتقلت إلى باب الفريجدير فجذبته. وإذا بكتلة بشرية تندلق من داخله منكفئة على وجهها فوق الأرض.
  - صرخت الفتاة بجنون وهي تترنح. وثب الشاب إليها فتلقاها بين ذراعيه. تفحص الكتلة المطروحة بذهول، انحنى فوقها حتى رأى الوجه، ثم هتف:
  - أم عبد الله!
  - أجلس الفتاة على مقعد ورجع يفحص المرأة ويبحسها ثم تتمم بذهول:
  - جثة هامدة!
  - واقترحم الحجرة الرجل الغليظ وجوقته وهو يقول بنبرة انتقاد:
  - ألا تكفان عن الضوضاء؟
  - وتابع عينيها ببصره حتى استقر على الجثة المنكفئة فتساءل:
  - ما هذا؟
  - ولما لم يسمع جواباً صاح بغضب غاطباً الشاب:
  - أجب!
  - فقال الشاب بغضب كظيم:
  - إنها جثة...
  - جثة؟؟
  - نعم.
  - أهي شقة أم مقبرة؟
  - كانت شقة فأصبحت مقبرة...
  - أين وجدتها؟
  - في الفريجدير.
  - فقال المصارع الآخر ببلاهة:
  - إنهما يتغذيان على لحوم البشر.
  - فقال الشاب بحدة:
  - لقد قُتلت ثم دُفنت في الفريجدير.
  - فسأله الرجل الغليظ وعيناه تلتمعان بالسكر:
  - وماذا حملك على قتلها؟
  - لقد قُتلت من قبل وصولنا إلى شقتنا.
  - فمن الذي قتلها في رأيك؟

- الباب مغلق، التليفون معطل، النافذة ينال عليها الطوب.
- إذن فلا مفر من الاعتماد على أنفسنا!
- ولكننا دونهم في القوة بما لا يقاس!
- ولكن هنالك الحيلة.
- أجل... الحيلة.
- هل يسعنا حبسهم في المطبخ؟
- يلزمنا معاينة المكان هنالك.
- سأذهب لصنع فنجال قهوة... دون تردّد غادر الحجرة. ثم رجع بالقهوة فسأله بلهفة:
- ماذا وجدت؟
- فقال بضيق:
- باب المطبخ مفتوح والزمار جالس على الأرض مسند الظهر إليه، ولكن لم يمت الأمل.
- حقاً؟
- اختلست مفتاح المطبخ من فوق الرف.
- ألم تعثر على مفتاح الشقة؟
- ليس الرجل بالغباء الذي تتصوره ولكنهم...!
- ولكنهم؟...
- يجرعون النييد بإفراط!
- ننتظر حتى يفقدوا الوعي؟
- أجل...!
- لكنّه سلاح ذو حدين!
- أجل، قد يزدادون جنوناً، ولكن إذا غلبهم النوم فسوف يتساوون بالأموات.
- علينا أن ننتظر الليل.
- وليس الليل بعيداً
- تنهدت في ضيق شديد متسائلة:
- متى ترجع أم عبد الله؟
- ذاك يتوقّف على انتهاء المولد.
- ألدريك فكرة عن تاريخ الليلة الكبيرة؟
- لا فكرة عندي عن المولد.
- راحت الفتاة تدرع الحجرة محنية الرأس تحت همّ ثقيل. حانت منها التفاتة إلى ما وراء الفريجدير فشدد بصرها شيء ما. اقتربت منه ممعنة النظر، ثم قالت

١٩٨ شهر العسل

وقال له الرجل الغليظ:  
 - الويل لك أيها المجرم.  
 فصاح الشاب متحدّياً:  
 - أهذا ظنكم حقاً؟... إذن فاستدعوا الشرطة!  
 فضجّوا بالضحك، وقال الرجل الغليظ:  
 - نحن الشرطة ونحن القضاة...  
 فقالت الراقصة:  
 - فلنقدّمه إلى المحاكمة...  
 فقال الرجل الغليظ:  
 - بعد أن نفرغ ممّا كنّا فيه.  
 وتعالى هتافهم في حبور، ثم غادروا الحجرة وراء  
 الرجل. أغمض الشاب عينيه إعياء. تجنّب النظر نحو  
 عروسه المنطرحة فوق المقعد. رفع الجثة من الأرض  
 فأرقدتها فوق الكنبه وغطى وجهها بخيار كان معقوداً  
 حول رقبتها. انتقل إلى فتاته متمتاً:  
 - كيف حالك؟  
 فقال بصوت ضعيف:  
 - سيقضون علينا قبل أن نقضي عليهم.  
 - من العسير أن يتخيّل إنسان ماذا تكون خطوطهم  
 التالية فهم لا يخضعون لمنطق.  
 - علينا أن نجد حلاً سريعاً.  
 - وأن نتوقّع ما يخطر بالبال وما لا يخطر.  
 - لن يتركونا أحياء.  
 فقال محتدماً بالغضب:  
 - إذا لم يكن من الموت بداً  
 فهمست:  
 - هذا جميل، ولكننا نفضّل ألا نموت.  
 - ولا أحد يريد أن يموت، من رأيي أن تستريح  
 قليلاً في حجرة النوم.  
 - وأنت؟  
 - لا أكفّ عن التفكير، وأردّد في نفسي بلا  
 انقطاع: إذا لم يكن من الموت بداً  
 - هل يحاكمونك حقاً؟  
 - لن يتورّعوا عن شيء.  
 - إنّه الكابوس.  
 - وربّما قتلوني كما قتلوا المرأة الطيبة.

- دعني أسألك أنت فقد كنت قابلاً هنا من قبل أن  
 نحضر.  
 فالتفت الرجل إلى أفراد جوقة وسألهم:  
 - ما رأيكم في مكابرة هذا الرجل؟  
 فقال الزمّار:  
 - يقتل القتييل ويسأل عن قاتله...  
 وقال الطّبّال:  
 - إنّه مجنون، لا بدّ أن يكون مجنوناً من يرتكب  
 جريمة كهذه.  
 وقالت الراقصة:  
 - ودفنها في الفريجدير على أمل أن تتحوّل إلى ديك  
 روميّ!  
 فقال الشابّ مغاطباً الرجل الغليظ:  
 - انظر إلى وجه الجثة.  
 - لا تهمني معرفته.  
 - إنّها جثة أمك!  
 فضجّت الجوقة بالضحك فصاح الشابّ:  
 - إنّها جثة أمّ عبد الله.  
 فقال الرجل الغليظ بصوت ملتو:  
 - أمي ذهبت إلى مولد السيّد!  
 فأشار الشابّ إلى الجثة وسأله في هياج:  
 - أليست هذه بأمك؟  
 قالت الراقصة:  
 - كانت أمّه يا مجرم...  
 وقال الزمّار:  
 - أمّه ذهبت إلى مولد السيّد.  
 وقال الطّبّال:  
 - إنّه يدعي الجنون ليفلت من العقاب.  
 وصاح الرجل الغليظ:  
 - كيف تنبش القبر لتبعث بالجثث؟!  
 فهتف الشابّ:  
 - لن تفلتوا من يد العدالة.  
 فقال الزمّار:  
 - تقتل مدبرة بيتك، يا لك من وغد حسيس.  
 وقالت الراقصة:  
 - قتلها كيلا يدفع لها أجرها.

## شهر العسل ١٩٩

- ترى أمي أمه حقًا؟  
- لن يغير من الأمر شيئًا.  
- فقالت بإصرار:  
- يجب ألا نموت كالأغنام.  
- حتى الموت، يجب أن ندافع عن أنفسنا حتى الموت، وأن ندخر لهم ضربة مذهلة إن أمكن.  
- أريد أن أفعل شيئًا ذا بال أكثر من مجرد انتظار نتيجة معركة.  
- فكّري، فكّري لحسابك، نحن في موقف لا يجوز لأحدنا فيه أن يدعي وصاية على آخر.  
- أعترف لك بأنني أتغلب على الخوف بقوة لم تكن متوقعة.  
- الموقف أكبر من الخوف.  
- هذا حتى.  
- والحرص على الحياة خليك بأن يضيع الحياة.  
- قول جميل.  
- يجب أن تكون لنا القوة لتنفيذه، هذه هي مشكلة الأقوال الجميلة.  
- ألدريك خطة جديدة؟  
- لا أكف عن التفكير.  
- وأنا أيضًا.  
- المهمّ قوة العزيمة إذا وقفنا إلى خطة.  
- مهما يكن من عواقبها...  
- وهي تتهدد:  
- كنت أحلم بشهر عسل بديع.  
- انبذي الأحلام التي تُضعف الهمم.  
- طيب.  
- استريح قليلاً في حجرة النوم.  
- أخشى أن يلاحظوا اختفائي إذا قدموا.  
- إنهم سكارى وهم يقصدوني أولاً.  
- قامت. قبلته. مضت إلى حجرة النوم.  
- ومضت فترة قصيرة ثم دخل الرجل وجوقته. لمعت أعينهم بوهج الخمر وشعت أساريهم شرًا.  
- وقفوا حيال الشاب على هيئة نصف دائرة مركزها الرجل الغليظ. أشار الرجل إلى الجثة وسأل:  
- من قتل هذه المرأة؟
- فأجابت الجوقة في نفس واحد:  
- أنت يا معلّم!  
ضحك وضحكوا. ثم سأل:  
- بم تحكمون عليّ؟  
فأجابوا:  
- بالسلامة.  
فضحك وضحكوا. ثم سأل:  
- من الذي انتهك حرمة الجثة؟  
فأشاروا إلى الشاب وقالوا:  
- هذا المجرم.  
- بم تحكمون عليه؟  
- بالإعدام.  
فرمى الشاب بنظره وسأله:  
- هل لديك ما تدافع به عن نفسك؟  
فلم يجب. نقل بصره بين الجمع بسرعة وتحفّز وانتباه. وتوثبت الجوقة للانقضاض لدى أول إشارة.  
عند ذلك دوت صرخة فظيعة في حجرة النوم، اندفعت الفتاة إلى الحجرة وهي تصيح:  
- رجل في صوان الملابس!  
وهتف كثيرون في دهشة:  
- رجل!  
وظهر الرجل في مدخل الحجرة. عملاق، عملاق ينطق وجهه البرنزي بالقوة والتحدّي والاستهتار. تبادلوا نظرات ذاهلة، وغاضبة، وتأهبوا للعواقب... لم يبذل وجه القادم الجديد أيّ ارتباك ولا خوف. بل تساءل بصوت أجش:  
- من أنتم؟... وماذا جاء بكم إلى هنا؟  
فسأله الشاب بدوره:  
- من أنت؟ وماذا جاء بك إلى هنا؟  
أجاب العملاق ببساطة:  
- إنّي في بيتي!  
- بيتك... لكنته بيتي، وتحت يدي ما يثبت ذلك.  
- لا أحبّ الهذر، إنه بيتي وكفى.  
فقال الرجل الغليظ بحقد:  
- دجال، أنت لصّ منازل حقير، سأتذكّر فوراً متى

٢٠٠ شهر العسل

- رايتك أول مرة... .
- صه أيها البلهوان ولأ حطمت أضلعك!
- أنت تقول ذلك يا لصّ المنازل؟
- مصارع موالد زائف، المصارعة الحقيقية شيء آخر، إني أعرفكم أيها المهزجون... .
- فقال له الشاب:
- هذا بيتي، وأنت لصّ كالأخرين... .
- أنت تهذي.
- سيحكم بيننا القانون... .
- سأقذف بك من النافذة، هذا هو القانون الذي أعترف به... .
- فسألته الفتاة:
- إذا كنت صاحب البيت كما تزعم فليّم أخفيت نفسك في صوان الملابس؟
- أنا حرّ في بيتي، أرقد حيث يطيب لي.
- لا أحد يرقد في صوان الملابس.
- إنّه خلوتي المفضّلة ولست مسئولاً أمام أحد.
- فقال الرجل الغليظ:
- أنت لصّ، لصّ منازل حقير، إني أعرفك.
- اخرس أيها المهزج الحقير.
- فقال الشاب:
- لندع الشرطة ولنترك لها الفصل في الأمر.
- فقال العملاق بوضوح:
- لا أحبّ الشرطة.
- فقال الشاب غاضباً:
- فأنت لصّ كما قال هذا القاتل.
- القاتل؟ هل قتل أحدًا هذا المهزج؟
- ها هي جثة ضحيته!
- فمدّ العملاق بصره إلى الجثة وقال بدهشة:
- أيّ تقدّم أحرزته يا مهزج الموالد!
- هي أمّه أيضًا!
- قاتل أمّه... هذا شرف لا تستحقّه أيها المهزج، من أين جاءك هذا الشرف؟
- فقال الرجل الغليظ بحنق:
- يا لصّ المنازل، احذر إثارة الزلازل!
- فقال العملاق ساخرًا:
- أهلاً بالزلازل، هي دواء موصوف لصحّتي!
- في أثناء ذلك مضت الفتاة تتسلّل ناحية المطبخ... .
- خطوة فخطوة وعين الفتى تلحظها بقلق. وغطّى على تحركاتها بتوجيه الخطاب إلى الجميع قائلاً:
- ما أخرجنا إلى تحكيم نزيه، فهذا رجل يتوهم أنّه قاضٍ وهو في الحقيقة قاتل، وذلك رجل آخر يزعم أنّه صاحب البيت وتؤكدون أنّه لصّ منازل حقير، وأنا أقول إني صاحب البيت على حين يتهمني هؤلاء بأنني قاتل المرأة الطيبة. فما المخرج من هذه الفوضى؟، لا مفرّ أن نستدعي الشرطة!
- فقال العملاق باستهانة:
- سيقدّف بنا اقتراحك إلى قعر بئر عميق.
- بل ليس أسهل من استدعاء الشرطة.
- ولكنّ المشاكل تبدأ بمجيئها، ستحرّر لنا محضراً طويلاً عريضاً لا بداية له ولا نهاية، ثمّ تأمر بتحويلنا إلى النيابة، ويستمرّ التحقيق أيّاماً وأسابيع، من القاتل... من اللصّ... من صاحب الشقة، ثمّ تأمر بتحويلنا إلى المحكمة، ويتقاذفنا الاتهام والدفاع حتّى ننفق، ونؤجّل من جلسة إلى أخرى، ولن ينطق بالحكم حتّى يكون أول إنسان قد هبط فوق سطح القمر، وفي أثناء ذلك تُغلق الشقة وتُختم بالشمع الأحمر فتصير نهباً للحشرات والأشباح، لا تنس هذه السلسلة المعقّدة التي لا نهاية لها.
- ولكنّها حاسمة وعادلة!
- أيسر من ذلك أن تنقضّ على خصمك فتحطّم جدران بطنه بلكمة صادقة فيعترف لك بحقك، ثمّ تنصافحان ويذهب كلاكما إلى حال سبيله.
- وتقدّمت الراقصة خطوة وقالت:
- فيمّ تتناقشون والعقد محلولة بنفسها لا تحتاج إلى حلّال؟.
- فقال العملاق ساخرًا:
- لنستمع إلى الغازية!
- ولكنّها قالت بهدوء دون تأثر أو غضب:
- لا حاجة بنا إلى البحث عن القاتل فقد حوكم وقضيّ عليه بالإعدام!
- فقال الزمّار بحماس:

## شهر العسل ٢٠١

- لن أترك حراً .  
انقضت على الشاب . وإذا بالشاب يفاجئه بضربة  
من سكينه استلها من جيبه فاستقرت في القلب ،  
وتهاوى على أثرها العملاق دون أن ينبس . لم تغب  
الواقعة عن الرجل الغليظ فوثب على الشاب وهو  
يصيح :

- خيانة !

وفي الحال صرعه وبرك فوقه ، ولكن الزوجة استلت  
بدورها سكينه مدسوسة في جيب معطفها وبكل قوتها  
غرزتها في عنق الرجل .

وتتابعت الأحداث في سرعة البرق . تحطم الباب  
الخارجي . اندفع منه رجال متهورون . ورن جرس  
المطابق . وصفارة النجدة . وارتطمت في الشقة الجديدة  
قوى المقاومة بقوى الغدر فانخرطت في معركة شاملة  
تحت ألسنة اللهب المندفع والماء المتدفق وقطع الأثاث  
المتناثرة .

\*\*\*

وفي المساء نشر الهدوء ألويته فوق الحي جميعه .  
خلت الشقة من الغرباء ولم يبق بها قائم ، إن هي إلا  
أشلاء مقاعد وحطام أجهزة ونفايات مفارش . جلس  
الزوجان على أريكة تحت نجفة صغيرة لم ينبج من  
مصاييحها إلا شمعة واحدة شعت ضوءاً شاحباً . لم  
يخل وجهها ورأسها من كدمات وتسليخات وأورام  
خفيفة أما ملابسها فقد تمزقت في أكثر من موضع  
وتلوت بالسنج . جعلتا ينظران فيما حولهما بوجوم  
ويتبادلان النظر . وفجأة أغرقا في ضحك هستيري  
ركبها طويلاً حتى رجعا إلى الصمت والوجوم . ورغم  
كل شيء فإن القلب لم يخل من ارتياح خفي ، وامتنان .  
وتردد صوته في إعياء :

- ضاع كل شيء .

فربتت على كتفه بحنان وقالت :

- نجونا بأعجوبة !

فهز رأسه في تسليم وتمتم :

- أجل نجونا بأعجوبة .

ثم بنبرة وشت بنشوة طارئة :

- لم يضع شيء لا يمكن تعويضه .

- وبإعدامه يبطل أذعاه ملكية الشقة .

وعادت الراقصة تواصل حديثها فائلة :

- وتصبح الشقة ملكاً لنا جميعاً على قدم المساواة !  
فابتسم العملاق لأول مرة ولكنه قال بعجرفة :

- لا أقبل المساواة !

فقال الرجل الغليظ بعجرفة ماثلة :

- وأنا أرفضها !

فقال العملاق :

- ليكن نصيب كل بحسب قوته .

فقال الرجل الغليظ :

- ليكن . . .

فالت الراقصة :

- الخير بين أيدينا أكثر من أن يحصى !

أحاطت الجوقة بالرجل الغليظ تحاول إقناعه .  
وتنحت الراقصة بالعملاق جانباً لتلطف من صلابته .  
أما الزوجة فقد رجعت خفية إلى موقف زوجها .  
وقفت لصقه وهي تدس شيئاً في جيبه . وراحا يراقبان  
الحشد الذي يتأمر على قتلها ونهب بيتها بغرابة . غير  
أن طارئاً سرى في الجوّ بخفة كالمس ، رائحة ماء ،  
وشيء كالزفير أو المسيس . وتفشى في دقائق كالفحيح  
مفجراً رائحة مميزة كاللدخان . وانتشرت طقطقة مجنونة  
بسرعة غير متوقعة فاقتمت على المتأمرين خلوتهم .  
جذبت منهم بعنف أعيناً محملقة نحو ردهة المطبخ . وما  
لبثت أن غابت في سحابات من دخان تسبح فيها  
عناقيد من الشرر ، وتلاطمت صرخاتهم في غضب :

- النارا

- حريقة في المطبخ !

- الشقة في خطر .

- كل شيء في خطر .

- فلنطفئها بأيّ ثمن .

ودبت حركة وحشية . ولكنها لم تكن إلا صدى  
خفيفاً لحركة رعدية أطبقت على الطريق في الخارج .  
ارتفع الصياح . دق جرس الباب بلا انقطاع . انهال  
دق عنيف على الباب الخارجي . وهرع المتأمرين إلى  
ردهة المطبخ ، غير أن العملاق مال نحو الشاب فجأة  
وهو يصيح :

# العالم الآخر

- وليجزّ وراءه أجمل بنت عندنا!  
فتنهّدت المعلّمة قاتلة:  
- حسبي الله، ولكنّ أمامها ليل طويل قبل ذلك  
تستطيع أن تحوّل ساعاته إلى ذهب!  
وقام التابع فدخل القهوة. أشار إلى الجوقة فكفّت  
عن العزف. أخذ الراقصة من ذراعها وانتحى بها  
جانبًا بعيدًا عن الأنظار. وفي تلك اللحظة ظهر في  
مدخل الدرب شابّ يافع يدلّ مظهره على أنّه تلميذ أو  
طالب. ألقى على الدرب نظرة استغراب، ونقل عينيه  
بين النسوة في دهشة واضحة. تردّد مليًا، استعدت  
كلّ امرأة لاستقباله بحركة ترحيب، لكنّه ألقى ببصره  
فيا أمامه بلا فهم أو مبالاة وتقدّم نحو القهوة. حيّا  
المعلّمة برفع يده إلى جبينه ثمّ سألها بأدب:  
- أين صاحب القهوة؟  
سألته بدورها وهي تتفحصه بإمعان:  
- ماذا تريد منه؟  
- أريده لأمر هامّ.  
فأشارت إلى نفسها وهي تقول:  
- محسوبتك صاحبة القهوة.  
تساءل بدهشة:  
- حضرتك؟  
- حضرتي!  
وضحكت ضحكة عالية ثمّ قالت:  
- بشرى لنا، السماء تمطر أدبًا!  
- لا مؤاخذه، أرجو ألا أكون أخطأت.  
- لا سمح الله ولكن خيّل إليّ بادئ الأمر أنّك  
زبون نهاريّ!  
- زبون نهاريّ؟  
- ما علينا، ماذا تريد من صاحبة القهوة؟  
فقال الشابّ بجديّة:  
- يجب أن أقدم نفسي أولًا، أنا مندوب لجنة  
الطلبة...  
- لجنة الطلبة؟  
- اللجنة العامّة للطلبة...  
فتساءلت مازحة:  
- ولمّ لمّ تحيّى معك باللجنة لتقضي سهرة الموسم

رقصت الفتاة على عزف جوقة صغيرة في القهوة  
الوحيدة بالدرب. جميع المقاعد خالية في تلك الساعة  
من الأصيل عدا مقعدين أمام القهوة احتلت المعلّمة  
أحدهما وجلس على الآخر شابّ تابع لها. تبدّى بلاط  
الدرب الضيق نظيفًا لم تطأه قدم بعد أمّا الشمس  
فتوارت وراء البيوت القديمة طارحة آخر دفقة من  
شعاعها على أسوار الأسطح المتآكلة. وعلى جانبي  
الدرب - أمام الأبواب المفتوحة - جلست نساء على  
كراسي خيزران في أزياء مهتكة وزينة فاقعة، يدخنّ،  
ويتبادلن الأحاديث. قالت المعلّمة لتابعها الشابّ:  
- حياتنا خنوع واستسلام ودفق إتاوات، حتّى متى؟  
فقال التابع، وهو متين البنيان في العشرين من  
عمره:  
- حتّى تنهتيا الفرصة للقضاء عليه!  
- متى تنهتيا الفرصة؟  
- كلّ شيء بأوانه، وإلا دمّرنا تدميرًا لا يُبقي ولا  
يذر.  
- مهنة كالقطران، ادفع ادفع ادفع، للطبيب...  
للشرطي... للضابط... وكلّه كوم وشيخ البلطجيّة  
كوم وحده، هل قضى علينا أن نشقى بمهنة جزاؤها  
النار وبش القرار لنبتدّد مكاسبنا على كلّ من هبّ  
ودبّ!  
- لكلّ عمل متاعبه.  
- ما أكثر الذين يفوزون باللقمة الهنيئة بلا قرف...  
- الصبر طيّب يا معلّمة...  
فبصقت المعلّمة بازدراء وقالت:  
- الليلة موسم، وعلينا أن نحقق أكبر ربح  
بالإضافة إلى نفقات الحكومة والبلطجيّة!  
- ستكون ليلة مباركة...  
- همتك، فتح عينك، خذ بالك من النسوان...  
- اطمئني يا معلّمة، ولكنّ الرجل المرعب سيمرّ  
آخر الليل ليأخذ الإتاوة...  
ثمّ وهو يشير ناحية الفتاة التي ترقص داخل القهوة:

شهر العسل ٢٠٣

- عندنا؟  
فقال بجدية مضاعفة:  
- نحن مندوبو اللجنة انتشرنا في أنحاء القطر  
للدعوة إلى قرار خطيرا  
- قرار خطير؟  
- تعلمين حضرتك أنّ غداً هو الذكرى الأسيفة  
لمرور عام على إلغاء دستور الأمة؟  
فقلت وهي ما زالت تتفحصه بذهول:  
- حضرتي لم تعلم.  
- دستور الأمة!  
- دستور يا سيادي.  
- الموضوع لا يمتثل المزاح.  
- أليس المزاح أفضل من الجد؟  
- الموقف خطير والضحايا يتساقطون كلّ يوم  
بالعشرات!  
- لا حول ولا قوة إلا بالله.  
- والوطن يطالبنا...  
فقاطعته:  
- ما الذي جاء بك إلى هذا الدرب؟  
- وقع شارع كلوت بك في قرعتي، مررت على  
المحالّ والدكاكين والمقاهي فوجدت استجابة شاملة،  
سيغلقون الأبواب جميعاً بلا استثناء غداً، وأنا عائد من  
مهمتي تنبّهت إلى هذه العطفة التي لم ألاحظها في  
مروري الأوّل...  
- ألم تدخلها من قبل؟  
- كلاً يا سيديتي.  
- لمّ لمّ توجه دعوتك إلى الفتيات الجالسات أمام  
الأبواب؟  
- على فكرة، لمّ يجلسن بهذه الصورة المنافية  
لتقاليدنا؟  
- اجلس، اجلس واشرب شيئاً، أشهد الله أنّك  
أظرف شابّ قابلته في حياتي!  
- لا وقت عندي، أشكرك واعتذر، عليّ أن أمرّ  
على بقية المحالّ في الدرب.  
- لا يوجد فيها إلا قهوتي.  
- حقاً؟. إذن فقد انتهت مهمتي، ولكنك لم
- تعديني بشيء!  
- أيّ وعد؟  
- بخصوص الإضراب العامّ المزمع تنفيذه غداً؟  
- ماذا تريد؟  
- أن تغلقي القهوة غداً.  
- سبحان الله، لمّ؟  
- احتجاجاً على إلغاء الدستور.  
فضحكت المعلمة وقالت:  
- عشنا وشفنا!  
- لم يعترض أحد، حتى الخواجات!  
فغمزت له بعينها وسألته متهمّة:  
- أنت وحيد مامتك؟  
فقال وهو يداري استيائه:  
- لا وقت للمزاح، ولا للخروج على الإجماع.  
فهتفت المعلمة بحدة لأوّل مرّة:  
- يا دافع البلاء يا ربّ، لا يكفيننا رجال الحكومة  
والبلطجية حتى ينضمّ إليهم مندوب الطلبة والدستورا  
- الزعيم نفسه سيطوف بأ أنحاء القاهرة ليتفقد حال  
الإضراب بنفسه!  
- الزعيم سيشرقنا هنا؟  
- بشخصه!  
- أهلاً به وسهلاً، سنفتح له الأبواب بالمجان!  
- موقفك غير مفهوم يا هانم!  
- هانم!  
وأغرقت في الضحك:  
- موقفك غير مفهوم!  
- أقسم برأس أمي أنّ الإنجليز سيخرجون من  
مصر قبل أن تفهم أنت أيّ شيء.  
فقال الشابّ بنبرة لم تخلُ من تهديد:  
- أخشى أن يتعرّض الخارجون عن الإجماع لغضب  
الشعب!  
- نحن نخدم الشعب من قبل أن تولد لجنة  
الطلبة.  
- حتى النساء سيشاركن في مظاهرات الغد.  
أجالت المعلمة عينيها بين النساء القابعات أمام  
البيوت وصاحت بهنّ:

- وكيف أجابك؟  
- نهرني، وحدّرتني من العودة إلى ذكر اسمك على مسمعه!
- وكيف حال أسرتي؟  
- بخير، ولكن لمْ انقطعت عن زيارتهم؟  
- أليس لديك فكرة عن حيننا هذا؟  
- ولا عن أيّ شيء سوى الكتب والدستورا باختفائك فقدنا أبيع صديق!
- لعلك الوحيد من العالم الآخر الذي كنت أحنّ إلى رؤيته...  
فنظر الشابّ فيما حوله وقال:  
- أوضح ما غمض عليّ أمره في هذا الدرب.  
- لكلّ شيء وقته، لا تتعجل!  
- أتقيم هنا؟  
- نعم.  
- أتعمل هنا؟  
- نعم.  
- وهؤلاء النسوة؟  
- لطيفات وطوع الأمرأ  
- مظهرهنّ فاقع مبتدل.  
- بدأت تفهم.  
- حقًا!  
- وتطالهنّ بالإضراب؟!  
وضحك عاليًا. وهمّ الشابّ بالكلام ولكنّ الموسيقى عزفت بالقهوة فعدت الفتاة إلى الرقص. وانجذبت عيناه إليها بقوة فتابع رقصها باهتمام وإعجاب. ثمّ شعر بعيني التابع تتجسّسان عليه فابتسم مرتبًا بعض الشيء وتمتم:  
- فتاة جميلة!  
- حقًا؟  
- من الطراز الذي يستهويني!  
- ترى ما نوع هذا الطراز؟  
- يصعب تعريفه، ولكنّها ترقص في قهوة خالية!  
- مجرد تمرين فالسهرة لم تبدأ بعد.  
وتوقّف العزف والرقص. وسرعان ما جاءت الراقصة وجلست إلى جانب التابع. وحمل إليها صبيّ
- اهتفن معي... يجيا الإضراب...  
وهتف أكثر من صوت:  
- يجيا الإضراب.  
ثمّ ضجّ الدرب بالضحك. وإذا بالتابع يرجع على صوت المتاف. ولما رأى الشابّ ارتسمت الدهشة في أساريه. وتنبّه الشابّ إليه فبادله دهشة بدهشة. هرول كلّ منها نحو صاحبه وتعانقا بحرارة. وقال الشابّ:  
- لا أصدّق عيني...  
فقال التابع:  
- ماذا جاء بك إلى هنا؟  
وعند ذاك سألته المعلّمة:  
- تعرفه؟  
- جار العمر، وزميل من أيام المدرسة...  
فقالت ساخرة:  
- بسلامته يطالبنا بالإضراب غدًا احتجاجًا على إلغاء الدستور!  
فضحك التابع ضحكة عالية وقال:  
- والله زمان!... فكّرنا بالذي مضى!  
وجذبه من ذراعه فجلس وأجلسه على كرسيّ جنبه.  
وهنا قامت المعلّمة وهي تقول للتابع:  
- أنا ذاهبة، فتّح عينك...  
مضت خارج الدرب وقد وقفت النساء لها على الجانبين. التفت التابع نحو الشابّ قائلاً:  
- متى رأيتك لآخر مرّة؟  
- منذ عامين، بل أكثر، أين اختفيت كأنك هاجرت إلى الخارج؟  
- وأنت... ألا زلت غارقًا في السياسة...  
ولكن كيف تريد لهذا الدرب أن يضرب؟!  
- إنه أعجب مكان رأيته في حياتي...  
- أما زلت تذاكر وتنجح وتشارك في المظاهرات؟  
- وأنت!... أين أنت؟... كم أوحشتني!  
- يجيّل إليّ أنّك نسيتني!  
- أبدًا، حتّى والدك نفسه واتتني الجراة مرّة على أن أسأله عن مكانك...  
فضحك التابع وتساءل:



شهر العسل ٢٠٥

بقهوتنا!

فقلت بحنق:

- سأخذني معه ولا يدري أحد متى أعود!
- لا تحدّثيني عن ذلك...

فسألت الراقصة الشابّ راجعة إلى الدعابة:

- وأنت... ألن تدافع عن حبيبك؟

فتساءل الشابّ:

- عمّ تتحدّثين؟

ولكنّ التابع بادره قائلاً:

- إن كنت تحبّها حقاً فهي لك!

- لي؟!

- النظرة والحبّ والتنفيذ تحدث في دربنا في ساعة

واحدة!

- أفندم؟

وقبل أن يجيبه تراءت المعلّمة في أوّل الدرب.

سارت بعجلة إلى داخل القهوة وهي تومئ إلى

الراقصة فتبعتهما في الحال. تبادل الصديقان نظرة

طويلة ثمّ قال التابع:

- الظاهر أنّك وقعت!

- ليس الأمر كما تتصوّر إنّها فتاة جدّابة وفي عينيها

نظرة بريئة!

- بريئة!

- بكلّ معنى الكلمة.

- ألك ثقة في فراستك؟

- قلبي لا يخطئ.

- هنيئاً لك موهبتك ولكنّ ألا ترغب في شيء من

الترفيه قبل أن تخوض جهاد الغد؟

- يبدو أنّك لم تعد تهتمّ بالسياسة!

- حلّنا فيما نحن فيه، -ألا ترغب في شيء من

الترفيه؟

- ألم يعد يهزّك حدث مثل إلغاء الدستور؟

- انظر إلى دربنا العجيب، تأمّله لتتذكّره فيما بعد،

فيه تسعد النفس بجميع محرّمات العالم الآخر، مثل

الحبّ، والحريّة والاحترام!

ومال فوق أذنه وراح يهمس له وكأنّما ينفث في

أساريه الدهول. وهتف الشابّ:

فنجال قهوة فراحت تحتسيه بتمهّل وتلذذ لا مبرّر له.

حانت منها التفاتة إلى الشابّ الجديد فضبطت عينيه

الصافيتين وهما ترنوان إليها بإعجاب لا خفاء فيه. وفي

الحال وهبته عينيهما بسخاء أذله وأثمله فقال التابع وهو

يتابع الحكاية باهتمام موجّهاً خطابه للراقصة:

- صديقي معجب بك!

فقلت ببسالة:

- أرجو إبلاغه إعجابي أيضاً!

فتساءل التابع ضاحكاً:

- من أوّل نظرة؟

- نظرة كفاية وفوق الكفاية!

فقال الشابّ في تلعم:!

- لا شكّ أنّي سعيد الحظّ...

فقالت الفتاة باسمّة:

- ما أجل أن أرى وجهها يجمّر خجلاً!

فقال التابع للشابّ بتحريض:

- أثبت رجولتك!

فغنم الشابّ بأصوات مبهمة حتّى قالت الراقصة

مازحة:

- تاتا... تاتا... خطّ العتبة!

فنهرا التابع قائلاً:

- شجّعيه ولا ترعبيه!

فأعطته الفنجال بعد أن فرغت منه وهي تقول:

- شف لي بخفي...

فقلب الفنجال فوق الطبق ثمّ مضى يقرأ ما

بداخله، قال:

- أمامك ليلة موسم طويلة غنيّة الموارد...

- وماذا أيضاً يا سيّدنا الشيخ؟

- في نهايتها يطرق بابك شيطان ليخطف روحك.

- ألا ترى في طريقه رجلاً جديراً برجولته؟

فأكفهر وجه التابع وأعاد الفنجال إلى الطبق،

ولكنّها ربّت على ذراعه ملاطفة ثمّ سألته بنبرة جادّة:

- ماذا أعددتكم له؟

- ذهبت المعلّمة لتجهّز له الإتاوة...

- متى يحضر؟

- قد يمرّ في أيّ ساعة لكنّنا لا ندرى متى ينزل

- في هذا ما يكفي في الوقت الحاضر  
وغادرت المعلمة القهوة. هرع التابع إليها فقالت  
له:  
- إني ذاهبة مرة أخرى، سأوفق بإذن الله، انتبه،  
وإذا مرّ قبل أن أرجع فتصرف بحكمة، إنيك والتهور  
ولأهدمت الدرب فوق رهوسنا  
ذهبت المعلمة. عادت الراقصة إلى مجلسها.  
ومضت فترة قبل أن يسترجعوا جوهم السابق.  
وتساءلت الفتاة:  
- هل قرأت البخت لصديقك؟  
- نعم، في طريقه بنت حلوة ورخيصة.  
- هل تشبهني هذه البنت؟  
- لا أدري، لم يبذ في الفنجال إلا جسمها العاري  
وحده!  
ومالت الراقصة بغتة نحو الشاب فقبلت خده.  
ضحك التابع وقال:  
- قم... لا تؤجل عمل اليوم إلى غد، فإن يوم  
الدستور غدا!  
ونفض التابع ومضى إلى داخل القهوة وهو يقول:  
- سأمر لكما بكأس كونياك على حسابك!  
جعل الشاب يبادلها النظرات. رأى حلية في عنقها  
فمدّ يده إليها وقربها من وجهه. ابتسم متسائلاً:  
- صورة من؟  
قظت الفتاة مأخوذة ولكنّه قال دون أن يلاحظ  
شيئاً:  
- طفل جميل، من هو؟  
تبذى التأثر في وجه الفتاة حتى اغرورقت عيناها  
على رغمها.  
- رباه... مالك؟  
أشاحت عنه بوجهها وهي توشك أن تنهار تحت  
موجة بكاء عاتية.  
- آسف... آسف لا تؤاخذيني!  
وعاد التابع بالكأسين فوضعهما على الخوان متمماً  
«عشرة قروش فقط ما أجمل عيونك» ثمّ تنبه إلى الفتاة  
فتساءل:  
- تبكين؟!

- فوق العقل!... ولكن ماذا تفعل هنا؟  
- أقيم هنا كما قلت لك.  
- ولكن...  
- ألا ترى في عيني نظرة بريئة؟  
فضحك الشاب وقال:  
- إنّه مكان عبور لا مكان إقامة!  
- لكلّ قاعدة استثناء كما قيل لنا في المدرسة!  
- من يتصور أنّك ابن أبيك الرجل الطيب!  
فبصق بازدراء وقال:  
- اللعنة على الجميع!  
وحلّ صمت فالتحذا منه هدنة للتفكير ثمّ قال التابع  
بنبرة خلعت من المزاح أو السخرية لأول مرة:  
- إني أكره العالم الذي جثت منه، هجرته بلا  
أسف عليه، وإذا ذكرته فإتما أذكر عنف أبي وغيباءه،  
وسجن المدرسة الرهيب، وهراوات الشرطة، وما إن  
اهتديت إلى هذا المكان حتى أدركت أنني ولجت أبواب  
الجنة!  
- الجنة... أيّ جنة؟!  
- هنا يتقرّر مصيرك بقوة رأسك، ويتحدّد مركز  
الماليّ بجراتك، وتقرّر سعادتك بطاقة حيويّتك، لا  
زيف على الإطلاق، اعتبرني الآن رئيس وزراء يعترض  
طريقه رجل خطير فإذا تغلّبت عليه يوماً ما تُوجت  
ملكاً!  
فضحك الشاب قائلاً:  
- عاش الملك!  
- ما الأمل الذي تشقى من أجله؟، وظيفة حقيرة  
في حكومة حقيرة، ثمّ إنك عبد مضطهد، الاضطهاد  
يطبق عليك في بيتك، ويطاردك في الخارج، وكلّ عام  
أو عامين يتصدّى لك دكتاتور كالكلب الأرمنت يلتهم  
لحمك ويهشم عظامك...  
- أترى أنّ الحلّ أن أحمل متاعي وأقدم إلى هنا؟  
فقال التابع معاوداً سخريته:  
- ذاك مطمح فوق قدرتك!  
- ولكن...  
- ولكن؟  
- ولكن ربّ زيارة من آن لآخر تنفع ولا تضرّ!

## شهر العسل ٢٠٧

- أتعدّ بكاءها على وليدها جريمة؟  
 - لا وقت هنا للبكاء... إني الأمين على الصالح العام!  
 فضحك الشاب على رغبته وقال:  
 - إنك تدكرني بفعل وكلمات الطاغية، لشد ما تغيّرت!  
 - كفّ عن التفلسف والحق بها...  
 - لشد ما تغيّرت...  
 - لا نقس في الحكم عليّ، إن أيّ ضعف يعترينا هنا إنّما يعني هلاكنا!  
 - وماذا يضطرّك إلى الإقامة هنا؟  
 - مهما يكن من أمره فهو أفضل من العالم الآخر...  
 - ما هو إلا مزاح!  
 - حقاً!... أنسيت؟... أليس الطاغية يحكمكم؟، والشرطة تجلّدكم؟، والجيش يصدكم؟، والإنجليز يترّبعون فوق رؤوسكم؟، لا أحد يحكمني هنا، وأنا لا أستعمل القوة إلا دفاعاً عن الصالح العام...  
 فقال الشاب وهو يلوّح بيده في أسي:  
 - وجئت بنبائي لأطالبكم بالإضراب غدًا!  
 - دستورنا هنا لم يُلغَ ولا يمكن أن يُلغى، إنّه دستور أبديّ، وهو يقضي بأن نعمل لا أن نضرب، أن نعمل لا أن نبكي موتانا، ووراء هذه الجدران المتداعية نقدّم لأمثالك السعادة التي يحملون بها.  
 فقال الشاب كالحالم:  
 - وأسفاه... لم أعجز عن تحقيق ما أريد؟  
 - ماذا تريد؟  
 ولما لم ينبس عاد يسأله:  
 - ماذا تريد؟  
 فأجاب بصوت حالم أيضًا:  
 - أشياء كثيرة، ما يهمني منها الآن أن أرجع تلك الفتاة إلى العالم الآخر!  
 فضحك التابع وقال:  
 - لقد كانت هنالك ولم تجد مناصًا من هجره والمجيء إلى هنا...!

شرح الشاب له ما غمض عليه بإشارة من يده إلى الحلية فاكفهرّ وجه التابع وهوى بكفه على خدها بوحشية غير متوقّعة غير مبالٍ بما توتّى الشاب من ذعر وذهول. وهتف بها:  
 - تقيمين مأنمًا للزبائن في ليلة الموسم!... اشربي!  
 تناولت الفتاة الكأس فتجرّعته دفعة واحدة وقدمت الآخر إلى الشاب ولكنّه تراجع قائلًا بعصبية وحدة:  
 - كلاً!  
 فقال له التابع:  
 - خذ معك إلى الحجرة!  
 - الحجرة؟  
 - ستذهبان معًا إلى ذلك البيت القريب.  
 - كلاً!  
 - لا تتأثّر كالأطفال، انس ما رأيت بسرعة، اذهب، لن تندم أبدًا، البنت مدهشة، والبكاء ما هو إلا حيلة نسائية مشهورة...  
 وهولت الفتاة إلى البيت وهي تقول بإغراء:  
 - اتبعني، تانا... تانا... خطّ العتبة!  
 وقال له التابع:  
 - قم قبل أن يبجيء الليل وتتقاطر أفواج الزبائن.  
 فقال بإصرار:  
 - كلاً.  
 - كفّ!... أنسيت الطراز الذي يستهويك؟  
 - لا رغبة على الإطلاق...  
 - لا تعقّد الأمور.  
 - دعني من فضلك.  
 - لقد سجّل في حسابها أوّل زبون فلا تتسبّب لها في ضرر.  
 - سأدفع ما تطلبه ولكني لن أذهب.  
 - عشرة قروش، هذا حسن، ولكنك لن تستطيع مواجهة الحياة بقلب كالملمب!  
 - ولكن... أنت... كيف هان عليك أن تلطمها بتلك القسوة؟... أنت وليّ أمرها؟  
 - إني وليّ أمرها... وأعمل لصالحها ولصالح الكلّ.

- الحمد لله، فلو كنت مجتهدًا لمضيت في طريقك حتى أدفن في إدارة من إدارات الحكومة!  
وهنا عادت الراقصة إلى مجلسها وهي تقول مخاطبة الشاب:

- خيّت ظني!  
فقال لها التابع بخشونة:  
- الفضل لدموعك الحارة.  
فقال الشاب برجاء:  
- لا تعدّ إلى ذلك.  
فقال لها التابع:  
- استعدي للرقص...  
فقلت بإشفاق:  
- إني متعبة!  
فضحك ضحكة عالية وقال:

- متعبة في ليلة الموسم!  
- إني بكأس كونياك...  
- اطلبه من عاشقك!  
وأدرك الشاب المقصود فقال:  
- هات لها كأسًا!  
ذهب التابع. نظر الشاب إليها باهتمام ورتاء وقال:  
- ثمة شيء في عينيك، أنت متعبة حقًا...  
- أعراض عابرة سرعان ما تزول.  
- يجيئ إليّ أنّ هذا الدرب ليس بالمكان المناسب لك!

فقال بسخرية:  
- ربّما، لعلّ المكان الأنسب هو السجن أو القبر.  
- أعوذ بالله!  
- أليس الأفضل أن نذهب إلى الداخل لنغيّر المكان والحديث؟

فتردّد الشاب قليلًا ثمّ قال:  
- في وقت آخر...، ولكن... أنت متعبة حقًا.  
- حقًا؟!

ووقفت فجأة كأنما تنتزع نفسها من كابوس. وخبث نظرة عينيها. وأخذت تتنفس بعمق وبجهد كأنما تحشر الهواء في قناة مسدودة. وقف منزعجًا واقترب منها خطوة ولكنّها أشارت إليه أن يتعد. خاضت معركة

- من الممكن أن تتوقّر لها حياة مستقرّة هنالك...  
- صدّقني لقد لاذت بنا كما يلوذ الغريق بصخرة!  
وفجأة ظهر قزم وهو يصفر ثمّ صاح: «إبليس».  
وفي الحال انفجرت في الدرب حركة شاملة. هرعت النساء إلى داخل البيوت وأغلقت الأبواب. قبض التابع على ذراع الشاب واندفع به إلى داخل القهوة وأغلق بابها. في ثوانٍ خلا الدرب تمامًا وشمله الموت. ومرت دقيقتان ثمّ ظهر الفتوة وسط عصابة مدججة بالنايبت. ألقوا على المكان الخالي نظرة استعلاء وساروا على مهل في خيلاء. ساروا يرتجون الأرض بوقع أقدامهم الثقيلة وارتطام نايباتهم بالبلاط. مضى الزحف وثيّدًا حتى اختفوا وراء المنعطف ومّرت دقائق والدرب مستسلم للموت. حتى ظهر القزم مرّة أخرى وصاح «أمان».

ورويّدًا رويّدًا أخذت الأبواب تفتح والحركة تدبّ واللغظ يعلو. كما عاد التابع والشاب إلى مجلسهما حول الخوان. وقال التابع بهدوء:  
- مناورة، ما هي إلاّ مناورة، وعندما سيعود سيجد الإتاوة جاهزة!

وانتابت الشاب نوبة ضحك هستيرية:  
- ماذا يضحكك؟

- فكّرت أن لو حصل الإضراب غدًا بهذه الصورة فسيكون أكبر مظاهرة وطنية...  
- إنّه يناور ونحن نناورا

- إنّه الخوف يا صديقي.

- لا تحكم بالظاهر.

- لستم أفضل حالًا منّا!

- قياس مع الفارق، ثق من أنني سأضربه ذات يوم!

- وتصبح عند ذاك الطاغية!

- لقد نالها عن جدارة وسأناها عن جدارة أمّا في العالم الآخر فالطاغية يطغى استنادًا إلى قوّة أسياده.

- أنت راضٍ عن نفسك حقًا؟

- ثمة أمل دائمي لا يغيب!

- يا للخسارة، لقد كنت تلميذًا ذكيًا ولكنك كنت عدوّ الاجتهاد!

شهر العسل ٢٠٩

أغمضت الراقصة عينيها متدهورة تمامًا فهتفت  
المعلمة بالتابع:

- أدركنا بكوب ماء بالمالح... أسرع.  
وقال الشاب للمعلمة:

- يجب استدعاء طبيب!  
فصاحت المعلمة بحق:

- انتهينا من الدستور وسندخل في الطب.

ورجع التابع بالكوب. ولكن الراقصة تقلصت  
بحركة عنيفة ثم تهاوت ساقطة على الأرض.

أسرع الشاب إليها ولكن التابع كان أسرع منه.  
عكف عليها يربّت على وجهها ويدلك خديها  
وصدرها. قرب وجهه من فيها. جس نبضها. رفع  
وجهها جامدًا ذاهلاً، منهزمًا لأول مرة وتمتم:

- ماتت!

- ماتت!

فندت عن المعلمة صيحة خافتة يائسة وقالت:

- أنت أعمى.....

فأعاد الكرة ثم قال ببرود:

- ماتت يا معلمة!

- يا خبز أسود!

وهتف الشاب:

- خطأ، يجب استدعاء الإسعاف.

فقال التابع بوحشية:

- اصمت، لقد ماتت.

فهتفت المعلمة:

- في ليلة الموسم... يا له من حظ أسود من  
الليل.

وقال الشاب بعناد:

- إنها حية!

فصاحت المعلمة في وجهه:

- ألا تفهم يا طلعة الشؤم!

- ولكن كيف؟

- إنك تخاطبني كما لو كنت قابضة الأرواح.

ثم التفتت إلى التابع وسألته:

- هل تعاطت شيئًا؟

- كلاً...!

مجهولة وحدها بلا نصير وبلا استجداء. ثم انقشعت  
السحابة السوداء فاستردت العين نظرتها المألوفة.

تنهدت. ابتسمت في استسلام. ثم انحطت فوق  
مقعدها. غمغمت:

- لا شيء.

- ولكنك...!

- انتهى.

- أنت بخير؟

- نعم، اجلس...!

جلس وهو لا يحول عنها عينيه.

- أعتقد أنه يلزمك راحة طويلة.

- تلزمي راحة أطول مما تتصورا

- وهل تستطيعين أن ترقصي؟

- أستطيع، لا أستطيع، سيان!

وشحب لونها من جديد. وخبث نظرتها.

- أنت متعبة يا عزيزتي!

- حقًا، وماذا بعد؟ الطريق طويل.

- دعي الأمر لي.

- طريق طويل، أطول مما تتصور.

- حالتك تزداد سوءًا.

ورجع التابع يحمل كأسين في يديه ويدندن، وقال  
وهو يلقي عليهما نظرة باسمية:

- كعروسين في شهر العسل.

فقال له الشاب:

- إنها ليست على ما يرام.

فقطب متسائلًا وهو يحدجها بنظرة ارتياب:

- عادت للبكاء؟

ولكنه قرأ في صفحة وجهها شيئًا جديدًا. قدّم لها

كأسًا ولكنّها أطاحت به ضجيرة فوق على البلاط

وتحطم مختلطًا بسائله. وتأومت بعمق طارحة رأسها

على مسند الكرسي. وصادف ذلك قدوم المعلمة

فنظرت إليها عابسة وتساءلت:

- مالها؟

فقال التابع وهو لا يحول عن الراقصة عينيه:

- أزمة كالعادة!

- هل تعاطت شيئًا؟

٢١٠ شهر العسل

- فقال التابع :  
 - لا تخشني من جانب صديقي .  
 فقال الشاب :  
 - ولكنّه وضع لا يقبله عقل .  
 فقالت المعلمة :
- لم يحدث شيء غير طبيعيّ، وليس في قدرتنا أن نردّ الأرواح إلى أجسادها .  
 - ولكنّ شتّان بين القسوة والرحمة !  
 فقال التابع :  
 - ليس إلا أننا نؤجّل إعلان وفاة !  
 - ولكنّ للموت احترامه !  
 فهتفت المعلمة بنفاد صبر :  
 - احترام الموت بعد الدستور والطب !  
 فقال التابع معتذراً عن صديقه :  
 - لعلّه يلتقي بالموت لأول مرّة في حياته .  
 فقالت المعلمة للشاب :  
 - لا تطالبنا بالتفريط في الحياة باسم احترام الموت، ابقْ لصق صديقك حتّى تنتهي السهرة، واحتفل بالموت بعد ذلك ما شئت لك إنسانيتك !  
 فقال التابع :  
 - دعي الأمر لي يا معلمة !  
 - ربّنا يستر .  
 - جهّزت الإتاوة ؟  
 - نعم . . .  
 - وإذا طالب بالراقصة ؟  
 - لن يطالب قبل نهاية السهرة، وله إن شاء أن يقاتل عزرائيل عند ذلك . . .  
 وقامت وهي تبسط وجهها فمضت إلى القهوة هاتفه :
- يا جمال الرقص يا جماله !  
 ورمق الشابّ التابع بمرارة ثمّ قال :  
 - لشدّ ما تغيّرت !  
 فقال التابع بوجوم :  
 - لا تبألغ يا عزيزي . . .  
 - جئتُ ملقاة في الداخل والعريضة دائرة في الخارج !  
 - لا مفرّ، للعمل ساعة وللموت ساعة .
- هو قلبها إذن ؟  
 - أعتقد ذلك .  
 - لو يكن بسبب تعاطي شيء فسنتقع في س وج .  
 - كلاً، ولكن ما العمل الآن ؟  
 فقالت المعلمة :  
 - فلنحملها إلى حجرتها أوّلاً .  
 وتعاون الثلاثة على حملها ومضوا بها إلى البيت .  
 وتساءلت امرأة :  
 - مالها يا معلمة ؟  
 فأجابت المرأة بلا تردّد :  
 - مسطولة !  
 ودخل الموكب البيت بين ضحكات تتجاوب على الجانبين . وما لبث الأصيل أن ولّى تماماً ومضى الظلام يهبط ماحياً كلّ شيء . أشعلت الأنوار . بدأ الرواد يحضرون فرادى وجماعات . عزفت الجوقة ودبّت في الأركان حياة صاحبة معريدة . ورجعت المعلمة وتابعها والشابّ فجلسوا حول الخوان المعدنيّ في وجوم بادئ الأمر، ولكنّ المعلمة سرعان ما قالت :  
 - ابسطوا وجوهكم كما يجدر بأناس يستقبلون موسماً .  
 ثمّ بنبرة متشدّدة منذرة :  
 - لا يجوز بحال أن يفطن أحد إلى سرّ الحجر المغلقة . . . ، وإذا سأل سائل عنها فهي مشغولة بزبون !  
 وتنهّدت بحنق وواصلت حديثها :  
 - لو عرف أنّ الموت قابح بالبيت لما طرقه طارق حتّى القيامة !  
 فقال الشابّ غاضباً :  
 - ولكنّه تصرف أبعد ما يكون عن الإنسانيّة . . .  
 فقالت المعلمة مخاطبة التابع ودون مبالاة باحتجاج الشابّ :  
 - تكفّل بصديقك، أنت مسئول عنه، ولا جدوى من تصرف إنسانيّ يقضي علينا بالخراب العاجل، سيجيء دورنا يوماً ما ولن تبكيننا عين، سنشيّع باللعنات حتّى من زبائننا، الليلة موسم، فلتمض بالبهجة والخبورا

## شهر العسل ٢١١

- أنا لا أخشى الموت .
- ولكنك تحترمه أكثر مما ينبغي .
- رفع رأسه إلى نافذة الحجره الرهيبة وقال :
- جئته منسيّة، بلا أهل ولا أصدقاء ولا رحماء .
- لم تعد بحاجة إلى أحد .
- وظهر القزم وهو يصيح «إبليس» . خرجت المعلّمة
- فجلست بين الشابّ والتابع . سرعان ما سدّ موكب
- الفتوة مدخل الدرب . وكما وصل إلى القهوة قامت
- المعلّمة وتابعها لاستقباله . قالت بأدب لأوّل مرّة :
- تحية لسيد الرجال .
- موسم طيب بإذن الله .
- وضعت صرة في يده وهي تقول :
- بفضل الله وبفضلك . . .
- وأين البنت؟
- مع زبون!
- أرسلني في طلبها .
- ستكون بين يديك في نهاية الليلة .
- سأنتظر في القهوة ساعة واحدة . . .
- ولكن . . .
- ساعة بالتمام والكمال!
- أنت سيد من يفهم ويقدر .
- بالتمام والكمال وآلا فليهنأ عزرائيل بوليمة فاخرة!
- ودخل القهوة متبوعًا برجاله .
- نظرت المعلّمة في حيرة إلى التابع وسألته :
- ما العمل؟
- ما من قوة في الأرض تستطيع أن تأتي بها إليه كما
- يريد .
- ماذا تتوقع؟
- أنفضي إليه بالحقيقة؟
- هذا يعني خرابنا .
- أخشى أن يعرف الحقيقة رغم إرادتنا .
- فقالت بغضب :
- أفضل أن يدهمني القضاء على أن أسير إليه
- بقدمي .
- ثم قامت وهي تقول :
- سأجلس معه وليُعيني الله على إقناعه!

- إني حزين، بوذي أن أفعل شيئًا .
- حسن، أعد إليها الحياة .
- يا لكم من وحوش!
- أتذكر كيف كان يلقي بضحايا المظاهرات في
- القبور بملاصهم حتى لا يشملهم الإحصاء الرسمي؟!
- إلى الجحيم بكل شرير وبكل شرًا
- ما زالت دنيانا أفضل .
- فقال الشابّ بضيق :
- عن إذنك، أريد أن أذهب .
- كلاً .
- كلاً؟
- المعلّمة لا تسمح بذلك .
- لتذهب المعلّمة إلى الشيطان!
- لقد وجدت نفسك في دربنا فلتتمّ التجربة!
- بي غثيان منه .
- خذ الأمر ببساطة ولو من أجل خاطري!
- وساد الصمت بينها ولكن صحب العريضة انهال
- عليها من الأركان كالصواريخ، ورغم الزياط سمع
- صوت الشابّ وهو يتمتم :
- يا لها من شابة تميسة!
- فقال التابع ملاطفًا :
- كانت مريضة بالقلب .
- لم تنعم بحياة هادئة تناسبها .
- ذلك أنّه لم يكن من الجائز أن تموت جوعًا .
- فقال الشابّ منفعلاً :
- إني أحتقر بروذك .
- فقال ضاحكًا :
- إني أحتقر حرارتك!
- دعني أذهب .
- غير ممكن، إنها تخشى أن تبلى عن الجثة .
- أيعني ذلك أنني سجين؟!
- أنت ضيف صديقك القديم .
- يجب أن أستيظ مبركًا، أماننا يوم جهاد
- عصيب!
- يسرني أن أنقذك من الرصاص الذي يُعدّ الآن
- لأمثالك .

تنقطع. يعربدون ولا فكرة لأحدهم عما يتأزم في المقهى ولا عما يبيع في البيت. والتفت نحو صديقه قائلاً:

- الوقت يمرّ أسرع مما تتصوّر.
- ليس أسرع مما أنصوّر.
- قد تكون آخر ساعة في حياتك.
- قول يصدق على أيّ مخلوق!
- لن تكون معركة عادلة.
- لا توجد معركة عادلة!
- يا له من انتظار!
- يا له من انتظار!
- ويا لها من نهاية!
- ويا لها من نهاية!
- بوذي أن أصعد إلى حجرة الفتاة.
- لم؟
- لأجسّ نبضها من جديد!
- إني أتوتّب لمواجهة القضاء وأنت تحلم بالخرافات.

- سمعنا عن جثث دبّت فيها الحياة بعد دفنها؟
- إذا قامت القيامة فابتعد عن ميدان المعركة...
- كنت أعتقد أنّ الغد هو يوم الخطر.
- حافظ على حياتك حتى الغدا!
- يا له من يوم عجيب!
- أرجو أن تكون قد تعلّمت أشياء مفيدة.
- كيف تنتظر الموت بهذا الهدوء كلّه؟
- ابتسم التابع ابتسامة غامضة وقال:
- عندما ماتت الفتاة حلّ بي تشاؤم غريب...
- لم يبد عليك شيء قطّ.
- لا يجوز في عملي أن يبدو على الوجه شيء!
- يجيّل إليّ أنّك تتكلّم بحزن لأول مرّة؟
- صمت التابع ملياً ثمّ قال بنبرة اعتراف:
- كانت حبيبي الوحيدة في هذه الدنيا!
- من؟
- الميتة!

فغر الشابّ فاه من ذهوله فاستطرد الآخر:  
- عشرة ليست بالقصيرة، وبها أصلت نجاحي في

ومضت إلى داخل القهوة. مدّ الشابّ جذعه يتابعها حتى استقرت إلى جانب الفتوة. ثمّ تراجع إلى جلسته وهو يسأل التابع:

- ما معنى ذلك؟
- ليس عندي ما أضيفه إلى ما سمعت.
- ماذا تتوقّع أن يحدث في ختام الساعة؟
- سيقتحم البيت محطّماً من يعترضه.
- ولكنّه لن يجد سوى جثّة.
- وعند ذاك يتقرّر خراب البيت.
- وما دورك أنت في ذلك كلّه؟
- لا أستطيع أن أدعه يمرّ دون مقاومة!
- أتفكر في اعتراض سبيله؟
- هذا هو عملي.
- عملك؟
- أنا حامي منطقة المعلمة!
- ولكنّه... ولكنّه سيقتضي عليك.
- ربّما!
- إنّه مؤكّد فلا تخاطر بحياتك.
- هو عملي كما قلت لك.
- تجاهله.
- أفقد عملي وكرامتي.
- يمكن أن تتسلّل بطريقة ما إلى الشرطة!
- فقال ضاحكاً:
- أفقد كرامتي مرّتين!
- لا أفهمك.
- هي تقاليد عملي.
- إنّه الجنون عينه.
- فابتسم التابع قائلاً:
- يمكن أن يقال مثل ذلك عن زعيمك.
- أخشى أن تذهب ضحيّة للغرور. دعني أتسلّل أنا...
- أرفض اقتراحك.
- أنت مهتدّ بفقد حياتك.
- محتمل!

وساد الصمت. نظر الشابّ في ساعة يده فتزايد قلقه. هرب من مخاوفه إلى أمواج الرّواد التي لا



شهر العسل ٢١٣

رحمة . . .

- ماذا رأيت من المعركة؟
- إني امرأة ضعيفة، هربت فلم أر شيئاً!
- أوما الضابط إلى جثة التابع وسألها:
- من هذا؟
- مدير المقهى، قُتل ولا شك وهو يدافع عن نفسه.

- وهذه الفتاة؟
- كانت ترقص في المقهى عندما نشبت المعركة!
- لا يظهر بها أثر لاعتداء؟
- كانت مريضة بالقلب فربما قتلها الخوف . . .
- عند ذاك خاطب الضابط الجميع قائلاً:
- لا يرحن أحد مكانه حتى يدي بأقواله.
- وإذا بمخبر يتجه نحو الشاب فيقبض على ذراعه ويشده إلى موقف الضابط ثم قال:
- إني أتذكر هذا الشاب يا حضرة الضابط . . .
- فتساءل الضابط متهمكاً:
- أهو من رجال العصابة؟
- هو الذي اعتدى على حضرة المأمور في مظاهرات العنابر ثم نجح يومها في الهرب.
- رماه الضابط بنظرة قاسية ثم قال:
- ما شاء الله . . . تشعلون الفتنة في البلد وتهرولون إلى المواخير!

## فجان شاي

دق جرس المنبه. تقلب الرجل في فراشه. تشاءب بصوت مرتفع كالتوجع. أزاح الغطاء وجلس. ترحزح إلى الورا حتى استند إلى ظهر السرير. تشاءب مرة أخرى. مدّ يده إلى زرّ جرس معلق فوق الفراش فضغظه. جاءت امرأة حاملة صينية عليها إبريق شاي وجريدة الصباح فوضعتها على ترابيزة لصق السرير. ملأ القدح بنفسه وتناول الجريدة. لاحظ أنّ المرأة لم تبرح مكانها فحدجها بعين متسائلة، فقالت:

- الأولاد . . .

هذا الدرب.

- ظلّ الشاب يرمقه بذهول، أما هو فقال:
- والحقّ قد ماتت بموتها أشياء لا تُعدّ ولا تُعوّض.
- ونفض وهو يهمس:
- ما علينا . . .
- وأشار إلى المعلّمة إشارة خفيّة فجاءته بوجه كالح.
- سألها:

- هل لأنّ جانبه؟
- فقالت بيأس:
- أصلب من الصخر.
- لم تبق إلا دقائق معدودات . . .
- والتفت نحو صديقه وقال:
- ابتعد دون تردّد.

ومضى نحو القهوة في هدوء وثبات. وجعل يقترب من الفتوة بأسماً حتى وقف بين يديه. وبغته استلّ من صدره خنجرًا ودفنه في قلب الوحش. انتتر الفتوة قائماً جاحظ العينين. ترنّح جسمه الضخم ودار حول نفسه ثمّ تهاوى كجدار تهدم. وفي الحال أفاق الوحوش من ذهولهم. زلزلت القهوة بحركة جائحة. انتصب أجسام، استلّت خناجر، ارتفعت نبايت، تطايرت شتائم، اهتزّت جدران، تحطّمت مصابيح، هرولت أقدام، اجنّفى كلّ شيء في ظلام حالك، صرخت صقارة الشرطي. ومضى وقت غير قصير في الظلام . . . ولما أشعلت المصابيح من جديد تبدّى الدرب في منظر مختلف. عند مدخل القهوة انطرحت ثلاث جثث للفتوة والتابع والراقصة! خلا الدرب من جميع الرّواد عدا نفر قليل دهمتهم المعركة فاندسوا تحت الأرائك ثمّ أخذوا يخرجون من مخابهم بوجوه شاحبة، على رأسهم الشاب. وطوّق المكان قوّة من الشرطة والمخبرين بقيادة ضابط مباحث. وانتحت جانباً المعلّمة والنسوة بأبصار زائغة. أما رجال العصابة فلم يظهر لهم أثر.

تحوّل الضابط إلى المعلّمة وسألها:

- ما معلوماتك عن الواقعة؟

فأشارت إلى جثة الفتوة وقالت:

- جاء على رأس عصابة فهاجم الدرب بلا

٢١٤ شهر العسل

ولكنه قاطعها بحدّة:

- يا فتّاح يا عليم، صبرك حتّى أغادر الفراش...

وتردّدت المرأة فعاد يقول:

- هذا وقت الشاي والجريدة فلا تفسدي عليّ

أطيب أوقات اليوم.

تهدّت المرأة وغادرت الحجرة وهو يتابعها بعينيه

حتّى أغلقت الباب وراءها. رشف من الفنجان رشفة

ثمّ عكف على القراءة.

\*\*\*

تحركت ستارة مسدلة فوق نافذة. خرج من ورائها

رجل مرتدياً بدلة سوداء. تقدّم بخطوات متمهّلة حتّى

وقف في وسط الحجرة. نظر فيما حوله ثمّ قال بلهجة

خطابيّة:

- الحمد لله.

فتتمم رجل الفراش ورأسه لا يتحوّل عن الجريدة:

- الذي لا يُحمد على مكروه سواه.

- لو قلت إنّ كلّ شيء حسن فربّما وقع القول من

الأذان موقع الغرابة.

فتتمم رجل الفراش:

- ربّما.

- وقد يتوهّم البعض أنّنا لا نتحرّك.

- قد.

تضايق ذو البدلة السوداء من تمثّيات الآخر فمضى

إلى الفراش وراح ينقر على رأسه محدّراً ثمّ رجع إلى

موقفه. انكمش رجل الفراش ولكنّه لم يتحوّل عن

الجريدة وواصل قراءته الصامتة في هدوء. وقال ذو

البدلة السوداء:

- نظرة عادلة إلى الوراء كفيّلة بإبراز المدى الذي

قطعناه.

فهزّ رجل الفراش رأسه دون أن ينبس.

- في كلّ شيء بغير استثناء.

فهزّ رجل الفراش رأسه مرّة أخرى دون أن ينبس.

- ليعلم ذلك عدوّنا الخارجيّ، وليعلمه عدوّنا

الداخليّ.

ونظر ذو البدلة السوداء صوب رجل الفراش

مستطلعاً فتتمم هذا دون أن يتحوّل عن جريدته:

- كلام طيّب.

عند ذلك أخلى ذو البدلة السوداء مكانه فأنّخذ موقفاً

جديداً في ناحية الحجرة المقابلة للفراش ووقف صامتاً

كتمثال.

\*\*\*

تحركت الستارة مرّة ثانية فبرزت من ورائها فتاة

جميلة في لباس البحر. تقدّمت مزهوّة بجهاها الفتان

حتّى وقفت في وسط الحجرة. وجعلت ترسم في الهواء

حركات سباحة كشفت بعمق أكثر عن مفاتها، ثمّ

قالت بصوت عذب:

- سأظهر هكذا في دور جديد تماماً في الفيلم

الجديد «الأبواب الخلفيّة».

فقال رجل الفراش:

- يسعدني أن أراك هكذا في أيّ دورا

- ولكنّه دور عجيب يجمع بين المرح والمأساة.

فقاطعها بحماس وهو لا يرفع رأسه عن الجريدة:

- المهمّ هو أنت!

- يقتلك بالضحك ويتفكك بالهدف!

- لا قيمة لشيء سوى قامتك السحرية.

- فهو فيلم ترفيهيّ وهادف معاً.

- ماذا؟، سمعي ثقيل، هلّا حدّثتني في أذني؟

دنت الفتاة من الفراش ومالت نحوه فطوّق وسطها

بذراعه وجذبها نحوه حتّى التصقت به.

- قلت إنّه فيلم ترفيهيّ وهادف معاً.

- ماذا؟. قرّبي أكثر وأكثر.

فصاح ذو البدلة السوداء بصوت راعد:

- فيلم ترفيهيّ وهادف معاً، أسمعته؟!

سحب ذراعه بسرعة. واصل انكباؤه على الجريدة.

رجعت الممثّلة إلى وسط الحجرة. دارت حول نفسها

في حركة استعراضية ثمّ مضت ناحية البدلة السوداء

وأنّخذت موقفاً وقال ذو البدلة السوداء:

- الفنّانة تريد أن توقظ ذوقك ولكنك تأبى إلا أن

تراها بشهوتك.

- رأيت جسداً جميلاً عارياً.

- أتريد أن نقدّم لك الحكمة في برميل؟

- ما أكثر الأشياء التي تعذب الإنسان.

شهر العسل ٢١٥

- اللعنة على كلّ معتدٍ أثيم!  
فصاح الأمريكيّ في وجه الفيتناميّ:  
- أرايت أنّه يقصدك أنت؟  
- يا لجنون العظيمة!  
وظلّا يتبادلان إطلاق النار حتّى فرغت ذخيرتهما  
فمضيا غير بعيدين من الممثلة ووقفا جامدين. وقال  
رجل الفراش وهو مكبّ على الجريدة.  
- هذا الرجل جدير بكلّ إعجاب.  
فقال ذو البدلة السوداء:  
- بكلّ تأكيد.  
وقالت الممثلة:  
- أرايت كيف أنّه يقطف الورد ويرقص في حومة  
القتال!  
فقال رجل الفراش بصوت منخفض:  
- سمعي ثقيل، هلاً اقتربت لأسمعك؟  
ولكنّ ذا البدلة السوداء ضرب الأرض بقدمه فساد  
الصمت.

\*\*\*

تحركت الستارة للمرّة الرابعة فخرجت من ورائها  
امرأة متوسطة العمر تحمل بين ذراعيها ستّة من المواليد  
فوقفت في وسط الحجرة وقالت:  
- أنا امرأة من كوبا، ولدت ستّة توأم وجميعها في  
صحة جيّدة!  
فقال الممثلة:  
- هيهات أن تصلحي بعد ذلك لحياة الأضواء.  
- ولكّني معجزة من معجزات الحياة!  
فقال الجنديّ الأمريكيّ:  
- نحن في عصر معجزات العلم والصناعة لا  
الحياة، ومثل هذه المعجزة المزعومة خليقة بأن تدفع  
العالم إلى أنياب مجاعة شاملة.  
فقال الفيتناميّ:  
- لا خوف على العالم من مجاعة ما دامت قنابلكم  
تحصده.  
- إنّها لا تبيد إلاّ النفايات.  
فقال الأمّ:  
- هل أجد طعمًا متوفّرًا؟

- سنعرض عليك أجسادًا عارية.  
- شكرًا!  
- والويل لك إذا عابثك شهوة من شهوات  
الجسد.  
وجم الرجل فوق جريدته فسأله الآخر بحدّة:  
- ماذا قلت؟  
- الويل لي.

\*\*\*

انزاحت الستارة بعنف. دوت في الجوّ طلقات  
رصاصة وانفجار قنابل وأزيز طيّارات. خرج من وراء  
الستارة جنديّ أمريكيّ وفيتناميّ وهما يتبادلان إطلاق  
النار. تساقطت فوارغ الرصاص فوق الرجل في فراشه  
فاضطرب في مجلسه ولكنّه لم يرفع رأسه عن الجريدة.  
رشف رشفة في عصبية واستمرّ في القراءة. وصاح  
الجنديّ الأمريكيّ:  
- أيها الشيوعيّ المنحط.  
فصاح به الفيتناميّ:  
- أيها الإمبرياليّ المتوحّش.  
- ماذا جاء بك من الشمال؟  
- ماذا جاء بك أنت من وراء المحيط؟  
- الأرض كلّها أمريكية... وغدًا سيكون القمر  
أمريكيًا.  
فقال الفيتناميّ وهو يطلق النار:  
- وستكون المقابر أمريكية، سأقتلك ثمّ أقطف  
وردًا وأرقص.  
وكثر تساقط فوارغ الرصاص فوق رجل الفراش  
فقال متذمّرًا:  
- ابتعد.  
فصاح الأمريكيّ بالفيتناميّ:  
- أنظر كم أنّك مزعج للناس.  
فصاح به الفيتناميّ:  
- إنّهُ يوجّه الخطاب لك أنت.  
- ما كان ليجرؤ أن يخاطبني بتلك اللهجة.  
- إنّني أطلق النار عليك أمّا أنت فتطلق النار في  
جميع الجهات.  
وعاد رجل الفراش يقول متأوّمًا:

- أقترح أن تودعا نقودكما عندي حتى تسويا  
خلافاتكما!

فابتسم إليها ذو البدلة السوداء وقال:  
- قول طيب، أحسنت.

فخطت نحوهما خطوتين وقالت ياغراء:  
- عندي موضوع يصلح للإنتاج المشترك.  
فقال الألماني:

- أوافق إن يكن عن حرب ١٨٧٠.  
وقال الفرنسي:

- حرب ١٩١٤ أهم وأخطر.  
فقال الممثلة:

- هو عن امرأة مريضة نفسيًا، وأعراض مرضها أن  
تسير عارية وهي نائمة!

فقال رجل الفراش وهو مكب على جريدته:  
- مرض ممتاز.

وقال الفرنسي:

- أعطينا مثلاً لتلك الحالة المرضية.

مدت يديها للجزء الأعلى من لباس البحر كأنما  
لتنزعه ولكن ذا البدلة السوداء قال:

- ليس في وسط الحجر!

فقال رجل الفراش:

- يهمني أيضًا أن أرى ما يجري في بيتي.

فقال الآخر بحدة:

- الأجانب يستحقون معاملة خاصة!

- لقد عانيت من صراعهم فمن حقّي أن أشاركهم  
بعض المسرة!

فقال له الممثلة:

- لا من أهل المال أنت ولا من أهل الفن.

فتساءل منكرًا:

- أفندم؟، سمعي ثقيل.

فقال ذو البدلة السوداء:

- ألاحظ أنّ أذنك تعمل بحسب هواك.

- إني أمارس حرّيتي من خلال أذني.

- سأسمعك بنفسي ما يتعدّر عليك سماعه.

- شكرًا، لا داعي لتكليف خاطرنا!

اندست الممثلة بين الرجلين فتأبّطت ذراعيها

فقال لها الفيتنامي:

- توجد ذخيرة بعدد حبّات الرمال.

فقالت الأم:

- لم أسمع تحية واحدة.

فقال رجل الفراش:

- طوبى لك في الدارين!

- شكرًا يا سيدي.

- ولأبيهم أكبر تحيات التقدير.

- أكرّر الشكر يا سيدي.

- هل لديكم قانون تعليم مناسب؟

- عندنا أشياء كثيرة مناسبة.

- أهلاً بك وسهلاً.

وذهبت إلى الناحية الأخرى. جلست على الأرض  
وراحت تغني للمواليد. تغني وتغني حتى ثقل رأس  
الفيتنامي بالنعاس فتأب، وتبعه الأمريكي على  
الأثر، وجلسا تباغما على الأرض عن يمين الأم  
ويسارها. وأوسعت لكل موضعًا في حجرها فتوسده  
برأسه وغط في النوم.

\*\*\*

وتحرّكت الستارة حركة عصبية فخرج من ورائها  
رجلان، أندفعا إلى وسط الحجر وكلّ منها بمسك  
برأس الآخر يحاول جهده أن يخفضه إلى أسفل. صاح  
أولهما:

- المارك فوق الجميع.

فصاح الآخر:

- الفرنك لا يُعلّى عليه.

- المارك رمز التفوق.

- الفرنك رمز الإنسانية!

ولكّم الألماني الفرنسي فتراجع مترنحًا حتى سقط  
فوق زجل الفراش. نهض الفرنسي من سقطته فهجم  
على الألماني ولطمه على وجهه ثم قبض على رباط عنقه  
وجذبه منه جذبة قوية فاندلق ناحية الفراش حتى  
ارتطم برجل الفراش. واستعاد توازنه وانقض على  
خصمه. وجعل كلّ منها يجاور الآخر حتى لا يمكّنه  
من نفسه. ونال منها الإعياء فوقًا متباعدين وهما  
يلهثان. وقالت الممثلة:

شهر العسل ٢١٧

- هتكتك، لديك قرآن وويسكي وموضوع مشترك!

\*\*\*

وتمحرتت الستارة فخرج من ورائها رجلان من رجال الفضاء، روسي وأمريكي، سارا بخفة نحو وسط الحجر، تصافحا، ثم قال الروسي لزميله الأمريكي:

- أصدق التهاني.

فقال الأمريكي:

- ومي إليك أصدق التهاني.

- لا يهم أنني سبقتك إلى التجربة ما دمت تتقدم

بنجاح، تهاني...

- المهم هو النجاح، وسألتق بك، وسوف

أسبقك، تهاني...

- لا أظن أنك ستسبقني أبداً، فات أوان ذلك،

تهاني.

- أراك لا تعمل حساباً للمفاجآت الأمريكية،

تهاني.

فقال رجل الفراش:

- إنكما حلم وردني في عالم قطران!

- شكراً أيها الرفيق.

- شكراً أيها الزبون.

فقال رجل الفراش:

- بفضل العلم تقع معجزات.

فقال الروسي:

- وبفضل النظام الشيوعي.

فقال الأمريكي:

- بل بفضل النظام الرأسمالي.

فقال رجل الفراش:

- لقد ارتفعتما إلى سماوات الله عز وجل.

فقال الروسي:

- رأيت الكواكب تسبح في أفلاك متأثرة باختلاف

أحجامها فمساراتها متحددة بصراع طبقي أزلتي

سرمدي.

فقال الأمريكي:

- وهناك الشمس تمد الكواكب بالحرارة والضوء

كالمعونة الأمريكية.

ومضت بهما إلى موضعها السابق.

ومن وراء الستارة خرج رجلان، يحمل أولهما كتباً

ويحمل الآخر قوارير. وقفا جنباً لجنب وسط الحجر

ثم قال حامل الكتب بصوت عريض رثان:

- من ذخائر التراث، تفسير القرآن، طبعة أنيقة مع

تعليقات بأقلام أكبر الأساتذة، الثمن جنيه واحد.

وقال حامل القوارير بصوت منغوم:

- أفخر أنواع الويسكي، وردت منها كميات

محدودة، بأسعار محددة ومعقولة تتراوح بين أربعة

جنيهات وخمسة جنيهات.

فسأل رجل الفراش حامل الكتب:

- ألا تميزون أرباب الأسر بشيء من التخفيض؟

- يختص بالتخفيض الطلبة فقط.

- وأرباب الأسر؟

- الثمن معقول جداً...

- شكراً.

وعاد حامل القوارير يقول:

- أفخر أنواع الويسكي، كميات محددة وأسعار

زهيدة!

فسأل رجل الفراش حامل الكتب:

- أحرام أن يتناول المسلم قليلاً من الويسكي

كدواء؟

فأجاب حامل الكتب:

- إني أتناول كأساً قبل النوم كدواء لضيق

الشرايين.

- ولكني أشكو ثقلاً في السمع!

فقال حامل القوارير:

- ثقل السمع عرض مرضي لضيق الشرايين.

- ولكن ثمن الويسكي كفيلاً بسد الشرايين.

وتدخل ذو البدلة السوداء في الحديث فخطب

حامل القوارير قائلاً:

- قف جنب السيد الفرنسي فهو يحب المرح.

وتحول إلى حامل الكتب قائلاً:

- قف جنب السيد الألماني فلعله أن يكون

مستشرقاً.

ثم التفت إلى المثلة وقال:

- ألم تريا شيئاً وراء ذلك؟  
فقال الروسي:  
- لا شيء وراء ذلك.  
ولكنّ الأمريكيّ صاح:  
- رأيت الله.  
- كيف... أين؟...  
- نور يخطف الأبصار، يشعّ في منطقة من السماء  
تقع فوق البيت الأبيض.  
فقال له الروسي:  
- يا لك من دجال.  
- اخرس أيها السفّاك.  
- سندفنكم أحياء.  
- سندفنكم أمواتاً.  
فهتف رجل الفراش متأوهاً:  
- الغوثا!  
فصاح به ذو البدلة السوداء:  
- ها أنت تسمع كلّ كلمة تقال.  
- أسمع وشأ، لعلّه ضيق الشرايين، إليّ بقليل من  
الويسكي...  
- معك عملة ضعيفة؟  
- ولا سهلة!  
- كفّ عن شرب الشاي فإنّه مثير للأعصاب.  
- إنه يبهي أطيب ساعات اليوم!  
وهتفت الممثلة بنرفزة:  
- لا أستطيع أن أعمل في هذا الجوّ الصاخب.  
فقال رجل الفراش بقلق:  
- من الحمق أن تترك هذين العملاقين يتخاصمان.  
فقال ذو البدلة السوداء:  
- مندا يجزم أين تقع المصلحة؟  
وتقدّمت الممثلة من رجلي الغضاء وقالت وهي تشير  
إلى الأّم:  
- يوجد صغار نيام!  
فكظم كلّ حنقه. وقال الروسيّ بوجه متجهّم غاطبًا  
زميله:  
- تهازي...  
فقال الآخر بازدراء:  
- تهازي...  
- ألم تهازي...  
وذهبا مع الممثلة فأخذها لهما موقفًا.  
\*\*\*  
ومن وراء الستارة خرجت فتاة جميلة في العشرين  
من عمرها، في مني جيب، معلّقة حقيبتها بكتفها،  
ووقفت في وسط الحجره وقالت:  
- أنا فتاة مثقّفة، أتقن العربيّة والإنجليزيّة وأعمال  
السكرتاريّة، أريد وظيفة سكرتيرة.  
هرش رجل الفراش ذقنه أمّا ذو البدلة السوداء فقد  
سألها:  
- ألم تقبّدي نفسك في إدارة القوى العاملة؟  
- بلى...  
- عليك أن تتظري دورك.  
- طال الانتظار، أريد وظيفة حرّة.  
فقال لها الممثلة:  
- أعرف شخصًا هامًا في حاجة إلى سكرتيرة!  
- إنّي مستعدّة لمقابلته في الوقت الذي يحدده.  
فقال رجل الفراش:  
- ولكنك لا تعرفين عنه شيئًا؟  
- أعرف عملي وكفى.  
فقال الرجل بتأثر:  
- فكّري قليلًا، إنّي أحدثك بلسان أب.  
- كأنك يا سيّدي تخاف عليّ؟  
- الناس أشرار يا ابنتي وأنت صغيرة السنّ.  
- لست صغيرة.  
- ما زلت في طور البراءة!  
- لست هشة ولا خوف عليّ.  
- إنك تعرّضين نفسك لخطر فادح.  
- إنّي أحتقر هذا الإشفاق!  
- إنّي أب...  
- بل جدّ، وأقدم من ذلك!  
- ساعحك الله.  
- سأجد في العمل حرّيّتي وكرامتي.  
- قد... قد...  
- لا أسمح لأحد بالتدخّل في شئوني.  
- نمة أخطار...  
- ألم تهازي...  
فقال الآخر بازدراء:  
- تهازي...  
- ألم تهازي...  
وذهبا مع الممثلة فأخذها لهما موقفًا.  
\*\*\*  
ومن وراء الستارة خرجت فتاة جميلة في العشرين  
من عمرها، في مني جيب، معلّقة حقيبتها بكتفها،  
ووقفت في وسط الحجره وقالت:  
- أنا فتاة مثقّفة، أتقن العربيّة والإنجليزيّة وأعمال  
السكرتاريّة، أريد وظيفة سكرتيرة.  
هرش رجل الفراش ذقنه أمّا ذو البدلة السوداء فقد  
سألها:  
- ألم تقبّدي نفسك في إدارة القوى العاملة؟  
- بلى...  
- عليك أن تتظري دورك.  
- طال الانتظار، أريد وظيفة حرّة.  
فقال لها الممثلة:  
- أعرف شخصًا هامًا في حاجة إلى سكرتيرة!  
- إنّي مستعدّة لمقابلته في الوقت الذي يحدده.  
فقال رجل الفراش:  
- ولكنك لا تعرفين عنه شيئًا؟  
- أعرف عملي وكفى.  
فقال الرجل بتأثر:  
- فكّري قليلًا، إنّي أحدثك بلسان أب.  
- كأنك يا سيّدي تخاف عليّ؟  
- الناس أشرار يا ابنتي وأنت صغيرة السنّ.  
- لست صغيرة.  
- ما زلت في طور البراءة!  
- لست هشة ولا خوف عليّ.  
- إنك تعرّضين نفسك لخطر فادح.  
- إنّي أحتقر هذا الإشفاق!  
- إنّي أب...  
- بل جدّ، وأقدم من ذلك!  
- ساعحك الله.  
- سأجد في العمل حرّيّتي وكرامتي.  
- قد... قد...  
- لا أسمح لأحد بالتدخّل في شئوني.  
- نمة أخطار...  
- ألم تهازي...  
فقال الآخر بازدراء:  
- تهازي...  
- ألم تهازي...  
وذهبا مع الممثلة فأخذها لهما موقفًا.  
\*\*\*

- لم جئنا إلى هنا يا أبي؟  
 فهوى بكفّه على وجهها وصاح:  
 - لأنقذ شرفي من الفساد.  
 نذت عن الفتاة صرخة مدوية. رمت بالمقطف  
 وجرت نحو الفراش فأحاطها الرجل بذراعه. سرعان  
 ما لحق بها الأب ولكي يخلصها من ذراع الرجل انهال  
 على صدره ضرباً حتى سحب الرجل ذراعه متأوّهًا.  
 جذبها إلى وسط الحجرة، طرحها أرضاً، استلّ خنجرًا  
 وانهاه عليها طعنًا حتى أخذ أنفاسها. ثم دفنها في  
 المقطف، وغطاها بخيارها، وهو يتمتم بتشفّ:  
 - الآن رُدّت الحياة إليّ.  
 فقال له ذو البدلة السوداء:  
 - ستفقدنا وراء القضبان أو فوق المشنقة.  
 فقال باستهانة:  
 - طظ!  
 - متى تحترم القانون؟  
 - طظ.  
 وحمل المقطف ومضى به صوب الفراش فدفعه تحته.  
 تأوّه رجل الفراش وقال له:  
 - يا لك من وحش.  
 فقال له بازدراء وهو يرجع إلى وسط الحجرة:  
 - كيف يُعدّ أمثالك من الرجال!  
 - كيف طاوعتك يدك على قتل ابنتك؟  
 - يوجد شيء اسمه الشرف.  
 - وتوجد أيضًا الحياقة.  
 فأشهر خنجره مرّة أخرى وهو يتساءل في ريبة:  
 - ماذا يملكك على الدفاع عنها؟  
 ولكن ذا البدلة السوداء بادر إليه فأخذه من ذراعه  
 إلى الناحية الأخرى.

\*\*\*

وتسرامى عزف أوركسترا وتحت بلديّ في وقت  
 واحد. وخرج من وراء الستارة رجلان، أولهما في  
 لباس مغنيّ أوبرا والآخر مُغنّ بلديّ. وقفا في وسط  
 الحجرة وراحا يغنيان في وقت واحد، كلّ بطريقته.  
 فأحدثا صخبًا متنافرًا مزعجًا مضحكًا. ولما ختما  
 غناءهما تصافحا ببرود، مغنيّ الأوبرا في احتقار لم يفلح

- أخطارًا... ألم تسمع عن غزاة الفضاء؟  
 - معدرة يا آنسة.  
 فقال ذو البدلة السوداء:  
 - ليتك تعرف نعمة السكوت.  
 فقالت لها الممثلة:  
 - انضمّي إلينا مؤقتًا، ثمّة شركة في دور التكوين.  
 \*\*\*  
 وتحركت الستارة فخرج من ورائها رجل عجوز  
 أنيق الملبس، وقف في وسط الحجرة وقال بنبرة شبه  
 باكية:

- يا بنيّ، عد إلى أبيك... طلباتك مجابة.  
 فسأله ذو البدلة السوداء:  
 - متى اختفى؟  
 - منذ أسبوع...  
 - بحثت عنه في مكانه؟  
 - لم أترك مكانًا واحدًا.  
 - ما عمره؟  
 - ستّة عشر عامًا.  
 - ما مشكلته؟  
 - كلّ شيء ولا شيء بالذات...  
 - رأي، سلوك، ذوق، هه؟  
 - نعم وعلم الله ما راعيت إلاّ مصلحته.  
 فقال له رجل الفراش:  
 - إنّي أرثي لك.  
 - شكرًا.  
 - ليس زماننا بزمان الآباء.  
 - زمان قدر.  
 فصاح به ذو البدلة السوداء:  
 - لا تسبّ الزمان فهو الدولة.  
 فعاد الرجل يردّد بهدوء حزين:

- يا بنيّ، عد إلى أبيك... طلباتك مجابة.  
 واختار لنفسه موقفًا جنب حامل الكتب.

\*\*\*

من وراء الستارة خرجت فتاة صعيدية حاملة مقطفًا  
 كبيرًا، تبعها على الأثر صعيديّ في الخمسين، وقفا في  
 وسط الحجرة فسألته الفتاة:

٢٢٠ شهر العسل

- فضحك الطالب ضحكة جافة وقال:
- الليل ينشر جناحيه بينا الشمس ما زالت في كبد السماء فما تفسيرك لذلك؟
  - لعلّ الليل أسرع أو أنّ الشمس تباطأت . . .
  - فما علاقة ذلك بتحديد مرّات السقوط؟
  - مثل علاقته بإهدار المال بلا حكمة . . .
  - واضح أنّك تهذي.
  - وأوضح منه أنّك قليل الأدب.
- وقذف الطالب الشرطيّ بطوية فلم تصبته ولكن أصابت رجل الفراش فتأوّه دون أن يرفع رأسه عن الجهريدة. تراجع الشرطيّ خطوات، لوّح بهراوته استجمامًا لقوّته ولكتّتها في حركاتها العشوائية أصابت رجل الفراش في قدمه ومنكبه فتأوّه مرّة أخرى. تبادلوا الضرب حتّى نرفت دماؤهما فتباعدا وهما يترنّحان من الإعياء والإنهاك. وهتف رجل الفراش:
- وما ذنبي أنا؟
  - فقال ذو البدلة السوداء:
  - لا تفتأ تتدخّل فيما لا يعينك!
  - ولكنّ القتال يدور في حجرة نومي . . .
  - عال فأنت أصلح شاهد للإدلاء بما رثي، ما سبب المعركة ومَن البادئ بالضرب؟
  - للمعركة أسباب غير عادية.
  - مثال ذلك؟
  - الغبار والتسكّع والليل والشمس.
  - يا لك من شاهد فاجر!
  - أقسم لك . . .
  - فقاطعه بحدّة:
  - ومرّات السقوط في الامتحان ألم تسمع بها؟
  - إنّ سمعي ثقيل كما تعلم.
  - ها أنت تعود لادّعاء الصمم، وواضح أنّك مغرض!
  - علم الله . . .
  - فمن الذي بدأ الضرب؟
  - تلقّيت ضربتين متعاقبتين ولكن تعذّر عليّ تحديد المصدر البادئ!
  - فاجر، ألم أقل إنّك شاهد فاجر؟!

- في مداراته، والمغنيّ البلديّ دارى ضحكة أوشكت أن تفلت منه. في أثناء ذلك تقلّص وجه رجل الفراش من الانزعاج، وتساءل:
- أبكيا مسّ أم ألم مُليخ؟
  - نحن بخير.
  - لماذا تصرخان؟
  - غنينا كأحسن ما يكون الغناء . . .
  - أكان ذلك غناء؟
  - أسمعناك الشرق والغرب معًا.
  - ألم يكن الأفضل أن نسمع كلّاً على حدة؟
  - أصلنا ننتمي إلى مؤسّسة واحدة . . .
  - وزاد الأوبراليّ على ذلك أن قال:
  - أنا المستقل، وزميلي الفاضل يمثّل الماضي . . .
  - فغضب المغنيّ البلديّ وقال:
  - أنا مغنّ، أما هذا الرجل فهو مجنون يصرخ بلا سبب.
  - وتبادلا صفتين، وتوتّبيا لعراك أشدّ . . . فصاح رجل الفراش:
  - اذهب . . . اتركاني في سلام.
  - فقال ذو البدلة السوداء باستياء:
  - تأدّب في مخاطبة المغنّين الرسميين!
  - وأشار إلى الرجلين فأمسكا عن الخصام وذهبا معًا إلى الناحية الأخرى.
- \*\*\*
- وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها طالب ثمّ شرطيّ، وقفوا في وسط الحجرة وهما يتبادلان نظرة متوجّسة، وسأل الشرطيّ:
- لمّ تسكّع في الطرقات؟
  - فتساءل الطالب بتحدّ:
  - لمّ تتبعني كظليّ؟
  - أنا ظلّ الأشياء المعوجّة!
  - ألا تشمّ في الجوّ رائحة غبار خانق؟
  - فتشمّ الشرطيّ الجوّ وقال:
  - في الجوّ غبار خانق!
  - لئني أبحث عن هواء نقيّ . . .
  - ولكنك بتسكّعك تثير مزيدًا من الغبار الخانق . . .



شهر العسل ٢٢١

- دعنا من التحقيق .
- دعنا من التحقيق؟
- واضح أنّ أعصابها تحتاج إلى عقاقير فعّالة .
- الصيدليّات ملأى بالعقاقير.
- الحاجة ماسّة إلى طبيب لا إلى شرطيّ .
- ألسنّ طبيبًا؟ ... إني أناقشك طيلة الوقت باعتبارك طبيبًا!
- أنا طبيب حقًا، ولكنّي في إجازة مرّضية ...
- أصبحت قادرًا على الحركة في بيتي فأنا أغادر الفراش وقتما أشاء، ولكن تلمني بضعة أيام راحة قبل أن أمضي إلى الخارج لمزاولة نشاطي المعتاد .
- حسنًا، لا تبدّد قواك في الثرثرة حتّى تستردّ صحتك .
- بجباله وأنهاره وحقله وتاريخه ثمّ قذفوا بي إلى العراء .

ومضى الرجل إلى الطالب والشرطيّ فأخذهما إلى موقف في الناحية الأخرى .

\*\*\*

- أيّ قطاع طرق!
- وراءهم يقف الذين يضطهدونك .
- لذلك تحمل السلاح؟
- ولذلك يجب أن تحمل السلاح .
- ولكن أين أجده؟
- وهنا قال رجل الفضاء الروسيّ:
- تجده عندي إذا أردته .
- ولكنّي لا أملك ثمنه .
- يمكن الاتفاق على ذلك دون إرهاب .
- فصاح رجل الفضاء الأمريكيّ مخاطبًا الزنجيّ:
- تجنّب هذا الرجل فإنّه لم ير الله في السماء .
- فقال رجل الفضاء الروسيّ:
- أحذرك من أضرابيل هذا الزميل فقد زعم أنّه رأى إلها أمريكيًا .
- لم أقل إنّه يحمل الجنسيّة الأمريكيّة ولكن ثبت لي أنّه إله العالم الحرّ .
- فسأله الزنجيّ:
- هل أنست عنده ازدراء للسود؟
- إنّ نور فطبيعيّ أن يفضّل من عباده من على صورته .
- ولكنني أراك لا تحمل سلاحًا؟
- كان لنا زعيم يدعو إلى الحبّ والسلام .
- وهل استجابوا له؟
- قتلوه غيلة!

ومضى الرجل إلى الطالب والشرطيّ فأخذهما إلى موقف في الناحية الأخرى .

٢٢٢ شهر العسل

- الأبيض ا  
 - أتريد السلاح حقًا؟  
 - أجل...  
 - والويسكي؟  
 - أجل...  
 - عهد الله أعطيك ما تريد من سلاح وويسكي.  
 - حقًا؟  
 - كلمتي ميثاقا  
 - ولكني لا أملك نقدًا.  
 - لا يهم.  
 - أعطيني ما أريد بلا مقابل؟  
 - بشروط لا تستحق الذكر، انتظر...  
 وتحرك متجهًا نحو الفراش، ولما بلغه وجد ذا البدلة  
 السوداء في انتظاره، فقال له:  
 - أريد أن أحادث هذا المريض على انفراد.  
 فقال ذو البدلة السوداء:  
 - ليس بيني وبينه سرًا  
 - المرضى في وطننا الأمريكي يتمتعون بحريّات  
 هائلة!  
 فقال الزنجي:  
 - كذاب!  
 تحوّل نحوه غاضبًا ولكنّ ذا البدلة السوداء حال  
 بينهما، ثمّ أوسع لهما مكانًا بين الآخرين.  
 \*\*\*  
 من وراء الستارة خرج رجل قصير نحيل، يلقه  
 الحياء حتىّ بدا كطفل، وقف في وسط الحجرة وراح  
 ينظر فيها حوله بارتباك. همّ بالكلام مرّة ومرّة ولكنّه لم  
 ينبس. وإذا برجل جديد يخرج من وراء الستارة،  
 ضخم مهيب ذو لحية مدبّبة، اتّخذ موقفه أمام الرجل  
 الأوّل فأخفاه عن الأنظار وقال بنبرة متعجرفة:  
 - أنا رجل ألمانيّ من بون.  
 فسأله الألمانيّ الأوّل:  
 - أديك معلومات جديدة عن المارك؟  
 فقال بالنبرة المتعجرفة:  
 - لا أقيم الآن في ألمانيا، لم أجد هناك المعاملة  
 اللائقة، أنا مواطن عالمي، ولديّ اختراع كيميائيّ  
 مذهل.
- فصاح رجل الفضاء الروسيّ:  
 - ألم أقل لك إنّه دجال؟  
 وقال العربيّ المسلّح:  
 - دعونا من السماء، على الأرض تُسرق أوطان  
 ويُضطهد أبرياء، وعلى المسروق والمضطهد أن يحمل  
 السلاح، وأن يتعاون مع من يعطيه السلاح، وأن  
 تفسّر حكمة الله على ضوء ذلك!  
 - أنت شيوعيّ!  
 - أنت إمبرياليّ!  
 - أنت ظالم!  
 - أنت أسود!  
 - أنت دجال!  
 - أنت سفاح!  
 وتأوّه الرجل في فراشه وعينه لا تتحوّلان عن  
 الجريدة، فسأله ذو البدلة السوداء:  
 - مالك... ماذا تريد؟  
 - أريد سلاحًا!  
 - لكنّ إجازتك المرضيّة لم تنته بعد.  
 - أريد سلاحًا!  
 - اصبر...  
 - ألم تسمع ما قيل؟  
 - سمعت واقتنعت ولكنّ إجازتك لم تنته بعد.  
 - إنيّ أقرأ في رأسك أفكارًا غريبة!  
 - إن أردت الصراحة فإنّ تعليقاتك المتكرّرة لا  
 توحى بالثقة!  
 - لعلمك لا تعرفني على حقيقتي.  
 - إنيّ أعرفك أكثر ممّا تتصوّر!  
 - أنا رجل مخلص ومستعدّ للقتال.  
 - ولكنك غير مدربّ على استعمال السلاح.  
 - إذن أدرّب.  
 - اصبر حتىّ تنتهي إجازتك.  
 - طيب... أعطني كأسًا من الويسكي...  
 - معك عملة صعبة؟  
 فتنبّه الرجل بصوت مسموع، وعند ذلك قال له  
 رجل الفضاء الأمريكيّ:

شهر العسل ٢٢٣

وساد صمت شامل حتى واصل حديثه قائلاً:  
- لقد جرّبتها على مرضى كثيرين فنجحت  
بنسبة ٤٠٪، ولكنّي في حاجة إلى مزيد من البحث  
والجريب وتلزمي تكاليف باهظة!  
وساد الصمت، صمت ثقيل، حتى قال الفرنسيّ  
هامساً:

- هذا الرجل يستحقّ التشجيع، ولولا أزمة  
الفرنك. . .

فقال الألمانيّ:

- إنّه جدير بالتشجيع ولكن من أدرانا أنّه ليس  
دجّالاً؟

فقال الممثّلة:

- إن تكشّف عن دجّال فأنا أرشحه لتمثيل دور في  
فيلمنا المشترك.

وقال رجل الفضاء الأمريكيّ:

- أبحاث السرطان متقدّمة عندنا. . .

فقال رجل الفضاء الروسيّ:

- يمكن أن نستضيفك عامّاً في المعهد الطيّب  
الشيوعيّ.

فصاح رجل الفضاء الأمريكيّ:

- يمكن أن نستضيفك عامين ولكن إذا زرت روسيا  
تعدّر عليك دخول بلادنا.

ونفخ رجل الفراش بصوت مسموع فسأله ذو  
البدلة السوداء:

- ماذا تشكو؟

- أريد كأساً من الويسكي.

- تمرّ بك الأحداث وأنت لا عنها بشهواتك!

- أعطني سلاحاً. . .

- تريد أن تسكر وتطلق النار على غير هدى!

وأشار إلى الرجل القصير النحيل إشارة خاصّة  
فمضى ليتخذ موقفاً بين الواقفين.

\*\*\*

وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها رجل ملفوفاً في  
كفن لا يظهر منه إلا رأسه، وقف في وسط الحجرة  
وقال:

- أنا المدير العامّ لمؤسسة م.م.م.

فسأله رجل الفراش:

- أله فائدة في تجديد الشباب؟

وسأله الزنجيّ:

- هل يجدي مفعوله في تهذيب الخلق الإنسانيّ؟

وسألته الأمّ:

- هل ينفع غذاء للأطفال؟

فقال:

- إنّه مسحوق غامض، يكفي الجرام منه لإبادة  
خمسين مليوناً من البشر.

هَبّ الجميع في اهتمام ساحق. حتى الأمريكيّ  
والفيتناميّ استيقظا ووثبا واقفين. قال الألمانيّ الأوّل:

- لعلهم جهلوا مقاصدك أيّها الأخ العبقريّ فلم  
يحسنوا معاملتك، عد إلى وطنك.

ولكنّ رجل الفضاء الأمريكيّ قال:

- أيّها الأخ العبقريّ، أمريكا هي وطن العلماء،  
عندنا برج بابل يعيش فيه العلماء من مختلف الأجناس

عيشة الأباطرة. اذهب إلى وطنك الحقيقيّ أمريكا!

وقال له رجل الفضاء الروسيّ:

- ليكن مسحوقك في خدمة الملايين الكادحة لا في  
خدمة حفنة من مصاصي الدماء.

وقال له العربيّ:

- يلزمي ملليجرام من مسحوق العبقريّ!

وسأله ذو البدلة السوداء:

- هل سبق لك زيارة معبد الكرنك تحت شمس  
الشتاء المشرقة؟

فقال الألمانيّ بعجرفة:

- تلزمي مهلة للتفكير.

وذهب إلى ناحية الواقفين فاتخذ مكاناً. وبعدها  
ظهر مرّة أخرى الرجل القصير النحيل.

وقال له رجل الفراش:

- كان المنتظر أن تبدأ أنت بالكلام.

فابتسم في حياء دون أن ينبس فسأله:

- بالله ماذا يمنعك من الكلام؟

فتغلّب على حيائه وقال:

- أعتقد أنّي بصدد اكتشاف طريقة ناجعة لمعالجة  
السرطان.

فقال له رجل الفراش:

- تشرّفنا يا فندم.

- انتقلت إلى رحمة الله على أثر نوبة قلبية أصابني

وأنا جالس إلى مكتبي.

- ليرحمك الله.

- الموت أكبر كارثة في الوجود، أكاد أجنّ كلما

تصوّرت أنّ العالم سيمضي في طريقه عقب اختفائي

كأنني لم أعايشه دقيقة واحدة.

- أكنت تتوقّع أن يتوقّف عن الحياة إكرامًا لك؟

- هذه هي مأساة الوجود الحقيقية التي تُفقدني أيّ

معنى من المعاني!

- صدّقني فإنّ العالم مثقل بهوميه بحيث يُغفر له

ألا يشعر بموتك.

- ذهب الحياة بجهاها وسحرها وآمالها!

- ليرحمك الله.

- ما لقلبك جامدًا هكذا، حتّى الحيوان يحزن.

- حزني للحياة لم يترك في قلبي موضعًا للحزن على

الموت!

- متّ وحيدًا وها أنا أحزن وحدي.

- لنكن الجثة مثواك.

- وأنا والد س و ص بالجامعة، وشقيق أ بمؤسسة

م.م.م.م.م، وعمّ د بمؤسسة م.م.م.م.م، وابن خالة ز

بمؤسسة م.م.م.م.م، وستشيع الجنّازة من مسجد عمر

مكرم في تمام الثانية عشرة ظهرًا ولا عزاء للسيدات.

- سأعزّي بتلغراف.

- ولم لا تشيّع جنازتي بنفسك؟

- إني مريض كما ترى.

- تستطيع أن تشيّع جنازتي لو بك رغبة في ذلك.

- أخشى أن أصاب بنكسة.

- أناي لا تفكر إلا في نفسك.

- لا وقت عندي للتفكير في نفسي ولا فيمن يموت.

- ليت يومك كان قبل يومي.

- أنتم السابقون ونحن اللاحقون...

وبدأ الرجل يتحرّك ببطء ليأخذ موقفه بين الجماعة.

وفي أثناء سيره قال ذو البدلة السوداء:

- مات رجل من جيل الثورة المضادة...

فقال رجل الفضاء الأمريكي:

- فقدنا صديقًا ذا استعداد طيّب للتفاهم.

وقالت الممثلة:

- نقص روّاد السينا رجلاً ولا كلّ الرجال.

\*\*\*

وتحرّكت الستارة فخرج من ورائها رجل وجبه بدين

أنيق الملبس رغم ضخامته الفدّة، وقف في وسط

الحجرة ثمّ بسط صحيفة وراح يقرأ منها بصوت

جهوري:

- من واجبي، من حقّي، أن أقول رأيي كما يجدر

بصحفيّ يحترم نفسه ويحترمه الجميع، وأن أصيغه

بالوضوح الكامل لنخترق الظلمات إلى رؤية مضيئة

لعلنا نهتدي إلى مرفأ آمن في هذا البحر العاصف

الذي تتلاطم أمواجه كجبال من الظلام، سأقول الحقّ

بوضوح مهما كلّفتني ذلك من جهد ومن تضحية.

لذلك أقول لكم:

الوعي قضية، تسير مسارها الطبيعي إلى نقيضها

وهو اللاوعي، وعلى أثر تقدّم مطرد يتكوّن تركيب

جديد من النقيضين هو المرض. بمعنى آخر الوعي +

اللاوعي = المرض. إن يكن عُصابًا فهو مرض نفسيّ

وإن يكن ذهانًا فهو مرض عقليّ. ذلك أنّ كلّ شيء

يخضع في النهاية للدّيالكتيك. ولا يلبث التركيب

الجديد (المرض النفسيّ أو العقليّ) أن يتحوّل إلى قضية

جديدة تبحث بدورها عن نقيضها كما تبحث المراهقة

عن عريس، ونقيض المرض هو الصّحة النفسية، ثمّ

يجمعها تركيب جديد آخر بحكم حتمية الدّيالكتيك،

وهذا التركيب الجديد يتكوّن من المرض والصّحة،

مرض دّيالكتيكيّ وصّحة دّيالكتيكية، وهي حال لا

هي صّحة ولا هي مرض، وإذا ترجمناها إلى لغة

فلسفية أمكن أن نطلق عليها « حال وجودية... »

ويغلب عادة أن تكون من نوع الوجود في ذاته، ولكن

بتدخّل قوى قهرية باغية تتحوّل إلى نوع آخر هو

الوجود لذاته، ويخشى في تلك الحال أن تتحوّل إلى

وضع أجوف أو ما يسمّى في الهندسة بالفراغ، فراغ

مشحون بالقلق السرمديّ، ولا علاج لذلك إلا بالمزيد

من الدّيالكتيك. هذه هي حقيقة المسألة بلا حشو ولا

- المرأة وهي تتساءل:  
- شربت شايبك؟  
فأحنى رأسه بالإيجاب فقالت وهي تختفي في  
الداخل:  
- أظنّ أنّ لنا أن نناقش مشاكلنا العاجلة!  
فمضى نحو الباب وهو يتمتم:  
- استعنا على الشقا بالله.

## رُوح طَيبِ القُلُوبِ

تفحصها الرجل باهتمام فتلقّت نظراته بعينين  
حذرتين مستطعتين. كان يجلس مسند الظهر إلى باب  
الضريح الصغير على حين تربّعت هي بين يديه. لم  
يكن في ساحة الضريح الصحراويّة سواهما أحد في  
صحبة شعاع الصباح الباكر. وكان الضريح صغيراً  
مثل زنزانة، ولا تناسب بين جسم الرجل النحيل وبين  
عمامته الخضراء الكبيرة ولحيته الكثيفة السوداء، وثمة  
تناقض أشدّ بين جلباب الفتاة الرثّ القدر وقدميها  
الحافيتين وبين جمال وجهها الأسر. أشار الرجل إلى  
الضريح وقال:  
- تبارك ذكره، كان بطبّ الجراح إعجازه وسره.  
فتمتمت الفتاة بسداجة:  
- تبارك ذكره.

- لعلّ الذي جاء بك إليه جرح عزّ على البشر  
شفاؤه؟

فتمتمت فيما يشبه البلاهة:

- نعم.  
فسألها بارتياح:  
- ما سنك يا فتاة؟  
- لا أدري.  
- ولكنّ أمك تدرى؟  
- لم أزلّي أمّا...  
- توقّاه الله؟  
- لا أدري.  
- وأين أبوك؟

إسهاب ولا موجب له، شرحتها متوخّياً البساطة  
والوضوح، بلغة شعبيّة جديرة بمخاطبة شعب عظيم  
يمزّ بلا شكّ بمحنة عصبية، ويتوتّب لقهر ما يعترض  
سبيله من عقبات، مصمّماً على الصمود والنجاح، ألا  
هل بلغت؟

أعقب كلمته صمت، استمرّ حتى خرقه رجل  
الفراش قائلاً:

- شكراً يا سيّدي ولكن ثمة أسئلة حائرة أودّ أن  
أرجّحها إليك.  
فقال بهدوء:

- صناعتي هي الكتابة لا الكلام.

- ولكنّها أسئلة ملحة يا سيّدي.

- اكتبها في ورقة وسأجيب عليها كتابة.

وتكرّم بإعطائه ورقة وقلماً فتناولها الرجل وسجّل  
أسئلة ومدّ بها يده إليه. قرأها الصحفيّ بعناية ثمّ  
سجّل بدوره إجاباته عليها ثمّ راح يقرؤها:

- بالنسبة للسؤال الأوّل الجواب: محتمل.

- بالنسبة للسؤال الثاني الجواب: بين بين.

- بالنسبة للسؤال الثالث الجواب: نعم ولا.

- بالنسبة للسؤال الرابع الجواب: لعلّ وعسى.

- بالنسبة للسؤال الخامس الجواب: إنّه سلاح ذو  
حدّين.

- بالنسبة للسؤال السادس الجواب: خير الأمور  
الوسط.

فتمتم رجل الفراش:

- شكراً يا سيّدي.

فردّ الصحفيّ الشكر بهزة من رأسه وانتقل إلى  
الناحية الأخرى. طوى رجل الفراش الجريدة ثمّ  
احتسى آخر رشفة من الشاي. هبط إلى أرض  
الحجرة. راح يسوّي جلباب نومه ويتشاءب. وفي الحال  
أحدق به جميع الحاضرين بغير استثناء. جعلوا يدورون  
حوله مردّدين مقاطع من أقوالهم السابقة في وقت  
واحد. تخلّل دورانهم طلقات نارية، انفجار قنابل،  
أزيز طائرات، صرخات آدمية. وكلّما أتمّ أحدهم  
دورته زحف تحت الفراش واختفى حتى خلت الحجرة  
ولم يعد يبقى بها سواها. وفتح الباب وظهرت عنده

٢٢٦ شهر العسل

- لم أزل لي أبًا .  
 - وأين تعيشين؟  
 - في الدنيا!  
 - ماذا تعملين؟  
 - أسرح بالفاكهة الفاسدة يوجد بها الفاكهوي أو يبيعهها بثمان بخس .  
 - ولكنها تجارة فاسدة!  
 - لها زبائن يتنافسون في الحصول عليها .  
 - وأين تقيمين؟  
 - في الخلاء صيفًا وتحت البواكي شتاء .  
 - أتحمّلين تقلّب الجوّ؟  
 - وهل تقلّب الجوّ يؤذي؟!  
 - وخفض الرجل صوته درجة وهو يسألها:  
 - وهل صنعتِ شرفك يا فتاة؟  
 - شرفي؟!  
 - ألا تعرفين معنى الشرف؟  
 - الشرف؟!  
 - فتردّد لحظة ثمّ تساءل:  
 - ألم يغرّر بك شاب؟  
 - يغرّر بي؟!  
 - يجذعك لينال منك مأريه؟  
 - نحن نعمل معًا ونلعب معًا وننام معًا!  
 - يا للجنة!  
 - اللعنة؟!  
 - لعلّك قصدت صاحب الضريح مطاردة بعداب الضمير؟  
 - الضمير؟  
 - لا تعرفين الضمير أيضًا!  
 - أيضًا!  
 - أنت راضية عن حياتك؟  
 - فقالت بحماس:  
 - الحياة جميلة بالرغم من كثرة المشاجرات .  
 - الشجار إذن هو ما يقلقك؟  
 - كلاً، إنه يهب الحياة مذاقًا طيبًا!  
 - فنفع الرجل متسائلًا:  
 - ما دينك يا فتاة؟
- ديني؟!  
 - ألا تعرفين الدين؟  
 - الدين!  
 - فسألها بحدّة:  
 - ماذا جاء بك إليّ؟  
 - أنت الذي أمرتني أن أجلس فجلست .  
 - ولكنّي رأيتك قادمة نحوي؟  
 - نحو الضريح!  
 - لماذا؟  
 - ظننت أنّه يصلح مأوى لي .  
 - أنت بلهاء أم مجنونة؟  
 - لاذت الفتاة بالصمت، فقال:  
 - إنك تعيشين في الخلاء صيفًا وتحت البواكي شتاءً  
 - فإذا جعلك تبحثن عن مأوى؟  
 - بدا أنّها تهتمّ بالكلام ولكنها أطبقت شفيتها راجعة  
 - إلى الصمت فغمغم الرجل في ضجر:  
 - إنك شيطانة!  
 - فسألته ببساطة:  
 - من أنت؟  
 - فقال بغضب:  
 - لا يجهلني إلا الشياطين!  
 - ماذا تعمل؟  
 - أنت لا تعرفين الشرف أو الدين فكيف تدركين  
 - معنى الولاية؟  
 - لماذا أنت غاضب؟  
 - ملعونة أنت في الدارين!  
 - الدارين؟  
 - في الدنيا والآخرة .  
 - أعرف الدنيا ولكن ما الآخرة؟  
 - اغربي عن وجهي!  
 - نهضت الفتاة قائمة . سقطت من داخل الجلباب  
 - بين قدميها قطعة حليّ . انحنت بسرعة فالتقطتها ولكنّ  
 - يد الوليّ قبضت على ساعدها بقوة ثمّ وثب قائمًا وهو  
 - يقول:  
 - ما هذا!  
 - هتفت به أن يطلق يدها ولكنه قبض على منكبيها

## شهر العسل ٢٢٧

- أرى أحلامًا غريبة تراودك!
- لعلها نفس الأحلام التي تراودك!
- وتوسلت الفتاة قائلة:
- دعني أذهب...
- فقال لها الوليُّ وهو يخفّف من قبضته عليها:
- لا أمان لك في دنيا الشرور.
- وقال لها خادم الضريح:
- سأفتح لك الضريح كما تشائين!
- ولكنّ الفتاة قالت بإصرار:
- أريد أن أذهب.
- وحاولت أن تخلّص ذراعيها، ولكنّ الوليُّ شدّد قبضته، وأقبل خادم الضريح يساعده. تبادلنا نظرة من فوق رأس الفتاة. قال خادم الضريح:
- يلزمنا وقت لتبادل الرأي.
- وتبادلنا غمزة حملا الفتاة على أثرها إلى داخل الضريح. غابا في الداخل دقائق ثمّ خرجا يتفصّدان عرقًا.
- أغلق الخادم الباب ثمّ مضى إلى الوليِّ وهو يقول:
- الخير في الاتفاق.
- لا تنس أنّها جاءت إليّ بقدميها.
- بل كانت تقصد الضريح.
- اكشف أفكارك.
- نتقاسم الغنيمة!
- من العدل أن...
- ولكنّ خادم الضريح قاطعه بحزم:
- نتقاسم الغنيمة!
- فصمت الوليُّ قليلاً ثمّ تساءل:
- وماذا نعمل بالفتاة؟
- نطردها، ونهددها بالويل إن عادت...
- قد...
- إنها سارقة ولن تلجأ إلى الشرطة...
- قد تحرّض علينا عصابة من الأشرار لا يقبل لنا بها.
- أترى من الأفضل أن نتخلّص منها؟
- ماذا تعني؟
- أن نقتلها!

وراح ينهرها بعنف فتساقطت قطع الخليّ حتّى استقرت على الأرض كنزًا صغيرًا. وفي تلك اللحظة جاء خادم الضريح فرأى الصراع بين الفتاة والوليِّ ورأى الكنز، ردّد البصر بينهما ثمّ حمل في الكنز متسائلًا في ذهول:

- ماذا يحدث؟

فقال الوليُّ:

- لصة من صعلوكات الطريق.

- ماذا جاء بها إلى هنا؟

- توهمت الشيطانة أنّه يمكن إخفاء سرقتها في الضريح.

- وماذا تنوي أن تفعل بها؟

- ما ينبغي فعله.

ولولت الفتاة:

- دعني وشأني.

فصاح بها:

- اخربي يا لصة.

- يدك تهشم عظامي.

- من أين لك هذه الخليّ؟

- إنها ملكي!

- ورتتها عن أهلك؟

وعاد خادم الضريح يسأل:

- ماذا تنوي أن تفعل بها؟

- ما ينبغي فعله.

- وما الذي ينبغي فعله؟

- علينا أن نسلّمها للشرطة.

- أليس من الجائز أن تكون بريئة؟

- ستتكلّم العدالة بإظهار الحقيقة.

- ولكنّ العدالة عمياء يا وليّ الله.

- من أين لها هذه الخليّ؟

- الله يرزق من يشاء بغير حساب.

- أترى أن نطلقها؟

- لن تكون بآمن من قنّاع الطرق.

- لم يبق إلا أن أضعها تحت رعايتي!

- ولكنك وليّ وهيئات أن تحسن رعاية الأمور

الدينيّة.

فقال الوليُّ بارتياح:

- نقتلها؟!  
- ثم ندفنها في الضريح وهو خالٍ كما تعلم!  
فقال الوليُّ باضطراب:  
- ولكن لا قلب لي على القتل!  
فقال الخادم بارتياح:  
- ولا قلب لي أيضًا...  
- فما العمل إذن؟  
وتفكّر في صمت مليًا حتى قال خادماً الضريح  
بظفر:  
- الرأي أن نستعين بصديقنا الشرطي!  
- فكرة طيبة...  
- وهي المخرج الوحيد لنا.  
- ولكنّ الغنيمة ستوزع على ثلاثة بدلاً من اثنين!  
- خير من ضياع كلّ شيء.  
وغادر خادماً الضريح المكان. غاب فترة غير قصيرة  
ثمّ رجع بصحبة الشرطيّ وهو يقول له:  
- هذه هي المسألة بلا زيادة ولا نقصان.  
هزّ الشرطيّ رأسه مفكراً على حين أقبل الوليُّ نحوه  
قائلاً:  
- عندك الرأي والتنفيذ.  
فقال الشرطيّ:  
- ولكنّها عقدة تحتاج إلى حلّال وتحفّ بها المهالك!  
فقال الوليُّ:  
- سنقبض على الفتاة وتبدأ من فورك التحقيق  
معها، ثمّ تستولي باسم القانون على الخبيّ، وعند ذلك  
نتشقق نحن في إطلاق سراحها، ويمجّرد أن نفسك  
قبضتك عنها ستطير كالحمامة ولن ترجع إلى هذا المكان  
ما امتدّ بها العمرا  
فقال الشرطيّ:  
- ولكنّي لا أقبل الظلم...  
فتساءل خادماً الضريح بانزعاج:  
- أيّ ظلم، إنّها صعلوكه شريرة قّطاعة طريق!  
فقال الشرطيّ:  
- الظلم أن توزع الغنيمة علينا بالتساوي!  
فوجم الرجلان وقال الوليُّ:  
- لولا صداقتنا الوطيدة لقمنا بالمهمّة وحدنا.
- لولا الضرورة ما لجأتُم إليّ!  
- لا تكن سيّ الظنّ أيّها الصديق.  
- لي النصف ولكلّ منكما الربع.  
- لا تغالِ أيّها الصديق.  
- لا تبتدوا الوقت هباء...  
وصمت قليلاً ثمّ استدرك:  
- ولكن يلزمنا مثمن!  
- مثمن؟!  
- للوزن والتقييم والفحص.  
- ترى هل يفعل ذلك لوجه الله؟  
- ماذا فعلت أنت لوجه الله؟  
- ولكن سينقص ذلك من نصيب كلّ منّا؟  
- من نصيب كلّ منكما!!  
- يجب أن نتحمّل العبء الجديد بالتساوي.  
- أنت تتناسى أنّك تخاطب القانون!  
- الرحمة أيّها الصديق.  
- القانون لا يغمض عينيه بلا ثمن.  
فقال الوليُّ:  
- أنا صاحب اللقيّة.  
وقال خادماً الضريح:  
- أنا صاحب الضريح.  
فقال الشرطيّ بحدّة:  
- أهنالك رحمة أعظم من أن أهبكم ثروة بدلاً من  
أن أسوقكم إلى السجن؟!  
فهبط عليهما صمت واجم مثقل بالتسليم. وتسلّم  
الشرطيّ الكنز فاقترح أن يذهب إلى المثمن ولكنّ  
الرجلين أصرّا على اصطحابه. وفيما هم يهيمون  
بالذهاب جاء عجوز ضريّر قابضاً على يد شابّ  
ضريّر، يتلمّس طريقه نحو الضريح، فعدل الرجال  
الثلاثة عن الذهاب حتىّ تطمئنّ قلوبهم. بلغ العجوز  
باب الضريح فبسط راحته عليه وتساءل بصوت  
مرتفع:  
- أين خادماً الضريح؟  
فأجاب الشرطيّ:  
- الظاهر أنّه مريض، اذهب الآن وعُدْ غدًا.  
ولكنّ العجوز قال:



## شهر العسل ٢٢٩

ولكنّ الشابّ صاح بقوة:  
 - طيب القلوب يناديني...  
 - كفت عن الهديان...  
 فقال المعجوز بضراعة:  
 - ارحم شبابه وعجزه.  
 - إنه يحدث فتنة.  
 فقال المعجوز:  
 - دعه يسمع ما يطرق أذنيه، لا ضير من ذلك على أحد...  
 وأكثر من صوت من بين الناس قال:  
 - لا ضير من ذلك على أحد، لا ضير من ذلك على أحد.  
 أما الشابّ فراح يخاطب الضريح قائلاً:  
 - يا طيب القلوب، إني أسمعك، صوتك يملأ قلبي، يحرك جذور وجداني. إني أصعد في مدارج السماء يا طيب القلوب...  
 وهتفت أصوات من الشعب:  
 - تبارك الله القادر على كل شيء.  
 فصاح الشرطي:  
 - تضليل وتحدّ لقوانين الأمن.  
 وقال الولي:  
 - اذهب إلى وليّ من أولياء الله أو طيب من أطباء الدولة!  
 وقال خادم الضريح:  
 - لقد انتهى عصر المعجزات!  
 فعادت أصوات من الشعب تهتف:  
 - تبارك الله القادر على كل شيء.  
 ومضى الشابّ الضرير في مناجاته قائلاً:  
 - ما أجمل صوتك يا طيب القلوب. رقيق كالرحمة، هامس كالسرّ، عزيز كالنور...  
 فصاح الشرطي:  
 - دجّل يدعو للتجمهر دون إذن من الداخلية!  
 ولكنّ الشابّ واصل حديثه:  
 - بكلّ جوارحي أصغي إليك. أصغي إليك يا بشير النور والأمل.  
 فتقدّم الشرطيّ من الناس خطوات وصاح:

- الباب المغلق لن يسدّ سبيل الرحمة. إنّ الرحمن أمر بها.  
 وأسند رأس الشابّ إلى الباب وهتف:  
 - يا طيب القلوب الكسيرة، إليك ابني المسكين، فقدّ في حادث بصره، فتوقّف في سبيل الرزق سعيه، وأعياء الأطباء شفاؤه، اشمله بنفحة من بركتك...  
 همّ الرجال الثلاثة بالذهاب مرّة أخرى لولا صرخة نذت عن الشابّ الضرير. وهتف الشابّ.  
 فسأله المعجوز:  
 - مالك يا بنيّ؟  
 - أسمع صوتاً!  
 - أيّ صوت يا بنيّ؟  
 - صوت طيب القلوب الكسيرة ولا صوت غيرها!  
 تبادل الرجال الثلاثة نظرة قلقة. ألصق المعجوز أذنه بالباب ثمّ تساءل:  
 - ماذا سمعت يا بنيّ؟  
 - نفذ صوته إلى أعماق قلبي...  
 وقال الشرطيّ بحدّة:  
 - اذهب اليوم وعوداً غداً.  
 فصاح الشابّ:  
 - لن أذهب، إنه يناديني!  
 فقال الشرطيّ:  
 - أنا الشرطيّ، وأقول لك إنني لا أسمع شيئاً...  
 فصاح الشابّ بأعلى صوت:  
 - اسكت، دع صوت الرحمة ينفذ إلى قلبي...  
 - ولكنّ ذلك مخالف للقانون!  
 - اسكت، طيب القلوب يهمس في أذني، تكلم يا طيب القلوب الكسيرة...  
 وجذب صوت الشابّ الضرير انتباه بعض الناس فيما بدا فأخذوا يتقاطرون على الساحة بجلايبهم الزرق وأقدامهم الحافية. وقفوا ينظرون باهتمام ويتبادلون الهمس. واستشعر الرجال الثلاثة دنوّ خطر مجهول فحثّ الوليّ وخادم الضريح الشرطيّ على إنقاذ الموقف قبل أن يستفحل الخطر. ضرب الشرطيّ الأرض بقدمه وصاح بصوت أمر خشن:  
 - أيّها الشاب، كفت عن الهديان.

٢٣٠ شهر العسل

- باسم القانون أمركم بالتفرّق .  
فقال أكثر من صوت :  
- دعنا نشهد معجزة . . .  
- اذهبوا وإلا هلككم على الذهاب بالعصا  
- لن تمنعنا قوّة من شهود معجزة مباركة !  
توثّب الشرطيّ للهجوم فتوثّب الجمهور للدفاع دون  
أن يتزحزح عن مواقفه . وإذا بالشابّ الضرير يهتف :  
- ليُفتح الباب، ليُفتح الباب، بهذا أمر طيب  
القلوب .  
فارتفعت ضجّة بين الجمهور وصاحت الأصوات :  
- افتحوا الباب . . . افتحوا الباب . . .  
وهتف الشابّ الضرير متشكّياً :  
- إنّه يدعوني إليه !  
فهتفت أصوات في حماس جنونيّ :  
- افتحوا الباب، الروح تريد أن تنطلق . . .  
فقال خادم الضريح :  
- لن أفتح احتراماً للأمن والقانون . . .  
عند ذلك بدأ الشابّ الضرير يدفع الباب بمنكبه  
فتعالى هتاف الجمهور . وأراد الشرطيّ أن يمنعه بالقوّة  
ولكنّ الشابّ دفعه بعنف فرمى به بعيداً . وانفجر  
حماس الجمهور فاضطرّ الرجال الثلاثة إلى التنحّي  
جانباً اتقاء لغضبة لا يقبل لهم بها .  
وفتح الباب تحت وقع دفعات الشابّ القويّة فاجتاح  
المتأف الساحة كالانفجار . ولم يتردّد الشابّ فدخل  
متلمّساً طريقه بيديه حتّى اختفى عن الأنظار . وساد  
صمت . صمت عميق شامل . تركزت الأرواح في  
الأعين المستطلعة . انعدم الزمان والمكان . وإذا بصيحة  
تندّد عن الداخل . ثمّ ظهر الشابّ في الباب وهو  
يترنّح . رفع يديه صوب السماء وهتف :  
- أشهد الله أنّي أرى . . . أشهد الله أنّ بصري  
ردّ إليّ !  
وقلب عينيه في وجوه الداهلين الصامتين وصاح :  
- أرى الضياء، أرى الناس، أرى السماء، وقد  
رأيت الروح !  
- الروح !  
- تجسّدت لعينيّ في صورة فتاة ترسّف في  
الأغلال . . .  
- الله أكبر . . . الله أكبر .  
- فككت أغلالها بمشيئة الله !  
- الله أكبر . . . الله أكبر . . .  
- وهي تقطر بهاء وجلالاً وجمالاً . . .  
- الله أكبر . . . الله أكبر . . .  
- وبإذن الله سوف تظهر للأعين المؤمنة !  
ووثّب الشابّ نحو الجمهور فوقف في مقدّمته  
مستقبلاً باب الضريح . وساد الصمت مرّة أخرى .  
وتطلّعت الأعين نحو الباب في لهفة عارمة . وفي  
خطوات وثيدة متردّدة ظهرت الفتاة . ظهرت وهي تنظر  
إلى الجمهور في ذهول . تعالى الهتاف من الأعماق وركع  
الجميع في خضوع .  
- الله أكبر . . .  
- الله قادر على كلّ شيء .  
- يا له من جمال !  
- يا له من بهاء !  
- ما لا عين رأت . . .  
وحان من البعض التفاتة نحو الرجال الثلاثة  
الواقفين فصرخوا فيهم أن يركعوا فاضطّروا إلى الركوع  
اتقاء للغضب .  
وصاح الشابّ :  
- إليّ خادمك منذ الساعة وإلى الأبد . . .  
واستبقت أصوات الجمهور في خشوع :  
- رعایتك للغائب .  
- رحمتك بالمریض .  
- كرمك للكادح الفقير .  
- غضبك على الظالمين .  
نظرت الفتاة فيما حولها بذهول وتساءلت :  
- أين أنا ؟  
فقال الشابّ :  
- من السماء هبطت إلى أرضنا التعسة . . .  
- ماذا أرى ؟  
- أناس طيّبون جمعتهم المعجزة بعد أن فرقتهم  
الهموم .  
- إليّ أشعر بدوار .

شهر العسل ٢٣١

- لقد ضببتهما وهما يتقاسمانها فوضعت يدي عليها  
باسم القانون...  
وبلا تردّد تخلّص الشرطيّ من الخليّ فوضعها في  
الساحة أمام الضريح، في موجة هادرة من التكبير  
والتهليل.  
وصاح الشاب:  
- الآن وضح الحقّ!  
فانخفضت الأصوات رويدًا حتّى استقرّ الصمت  
فاستدرك الشابّ قائلاً:  
- أرادت الروح أن تجود ببعض الجواهر على  
الفقراء فسرقها اللصّان ولكنّها هي الجواهر تعود إلى  
أصحابها!  
- الله أكبر... الله أكبر...  
- وتلك هي رسالة طبيب القلوب إليكم...  
- الله أكبر... الله أكبر...  
- تباركت يا طبيب القلوب.  
- فلتوزّع بالعدل.  
- تباركت يا طبيب القلوب.  
- ولتُنقّ في الخير.  
- تباركت يا طبيب القلوب.  
وإذا برجل وجيه المظهر يجيء مهرولاً. ينظر فيها  
حوله بذهول حتّى تقع عيناه على الخليّ فيندفع نحوها  
كالمجنون هاتفاً:  
- الخليّ المسروقة!  
ولكنّ الشابّ يدفعه دفعة قويّة تُرجعه القهقريّ.  
وصاح الوجيه:  
- هذه حلتيّ، وهي مثبتة بالوصف والعيار في  
محضر الشرطة...  
فتعالت أصوات الشعب:  
- كذاب!  
- لصّ!  
- شريك المجرمين!  
فقال الوجيه:  
- لنذهب إلى قسم الشرطة.  
- اذهب إلى الجحيم.  
وفيما يضرب الوجيه كفّاً بكفّ يقع بصره على

- إته دوار من يرثي لحالنا.  
- كادوا يكتمون أنفاسي!  
- الويل للأشرار حيث كانوا وحيث يكونون.  
- اغتصبوا الخليّ بلا رحمة...  
- جواهرك للطيبين لا للمغتصبين.  
- أريد الخليّ...  
- ليجد كلّ مؤمن بك بمكنون جواهره.  
انتهز الرجال الثلاثة فرصة انهك الجمهور وأخذوا  
يتزحزون عن مواقعهم بغية الهرب ولكنّ عينيّ الفتاة  
وقعتا على الوليّ وخادم الضريح فأشارت نحوهما  
هاتفة:  
- المجرمان!  
انقضّ رجال على الرجلين فدفعوهما أمامهم حتّى  
خرّا أمام الفتاة. سألت الفتاة:  
- أين الخليّ؟  
لاذ الرجلان بالصمت فقال صوت من الشعب:  
- الروح - تباركت - تتحدّث عن جواهر حقيقيّة!  
فقال الشرطيّ:  
- للروح لغة لا يدركها أحد من البشر!  
- إتّها تتحدّث عن جواهر حقيقيّة.  
فعاد الشرطيّ يقول:  
- حذار! أن تفسّروا كلام الروح على هواكم.  
- اضربوهما حتّى يقرّا!  
- إنيّ مسئول عن الأمن العامّ.  
- اضربوهما حتّى يقرّا.  
فقال الوليّ مرتعداً:  
- نحن رجال العهد.  
وقال خادم الضريح:  
- فتشونا إن شئتم.  
فصاح رجال من الشعب:  
- اضربوهما حتّى يقرّا.  
وانهالت عليهما اللكمات كالطرر حتّى صاح خادم  
الضريح:  
- الخليّ في حوزة الشرطيّ.  
تحوّل الجمهور الغاضب نحو الشرطيّ فقام الرجل  
وهو يقول بعجلة ولهجة:

٢٣٢ شهر العسل

- الفتاة. حدّق فيها ذاهلاً وهتف:  
- أنت!
- وهمّ بالانقضاض عليها ولكنّ الشابّ دفعه دفعة  
قويّة كادت تطرحه أرضاً. وصاح به الجمهور غاضباً:  
- تأذّب في الخطاب يا وقح...  
- أنت غير جدير بالثول بين يدي روح كريم.  
وتساءل الوجيه في ذهول:  
- ماذا جرى للدنيا؟  
ولمّ الشرطيّ فلاذ به قائلاً:  
- أنا صاحب الخليّ، اذهب بنا إلى القسم...  
فهمس الشرطيّ في أذنه:  
- اصبر، لا جدوى الآن من تحديّ الجمهور...  
- ولكنّها لصة صعلوكه!  
فانهالت عليه الأكفّ.  
- اقطع لسانك يا وغد.  
- يا مجدّف.  
- يا لثيم.  
وسأل الشابّ الفتاة:  
- ما قولك في هذا الوقح؟  
فأجابت الفتاة بسرعة:  
- إنّه حيوان يتمرّع في تراب الفتيات ويضنّ عليهنّ  
بالملايم!
- فصاح الجمهور الغاضب:  
- حيوان... حيوان...  
فقالت الفتاة:  
- أمواله حلال لكم!  
تعالى التهليل والتكبير. هجم عليه رجال أشداء  
فطرحوه أرضاً واستخرجوا من جيوبه جميع نقوده...  
وصاح الوجيه:  
- أيّها الشرطيّ!  
فهمس الشرطيّ:  
- ماذا يفعل الشرطيّ بين مجانين!  
- أموالي تهبّ بمحضرك!  
وصاح الشابّ:  
- أمواله كالخليّ هبة طيبب القلوب للفقراء!  
فصاح الجمهور:
- تبارك الروح الكريم!  
فقال الشابّ:  
- تقاسموا المال بالعدل...  
وأحاط الجمهور بالشابّ وراحوا يتقاسمون النقود  
والخليّ. وجعل الوجيه يهذي قائلاً:  
- ماذا جرى للدنيا؟  
وقال الشابّ:  
- الآن تحققت رسالة طيبب القلوب.  
وأشارت الفتاة إلى الوجيه والشرطيّ وخادم  
الضريح والوليّ وقالت:  
- قيّدوهم ثمّ احبسوهم في الضريح!  
هجم الجمهور على الرجال الأربعة فقيّدوهم ثمّ  
حملهم إلى داخل الضريح وأغلق الباب. وسلّمت  
الفتاة المفتاح إلى الشابّ قائلة:  
- أنت خادم الضريح...  
ثمّ نظرت إلى الجموع وقالت:  
- اذهبوا بسلامة الله...  
على رغمهم غادروا المكان فلم يبق معها إلاّ  
الشابّ، خادم الضريح الجديد. تبادلوا النظر، من  
ناحيته بخشوع ومن ناحيتها بشوق. سألته:  
- لمّ لمّ تأخذ من المال نصيباً؟  
فقال الشابّ بوجود واقتنان:  
- حسبي أن أكون خادم ضريحك...  
- ماذا كنت تعمل قبل أن تفقد بصرك؟  
- نشأت في الطريق حتّى التقطني منه العجوز  
الطيبّ فعلمني صناعته وهي تحضير الأرواح العظريّة!  
- كنت من فتيان الطريق؟  
- أوّل عهدي بالحياة.  
- وكيف فقدت بصرك؟  
- صدمتني سيّارة عابرة!  
- ولكنّه رّد إليك فمبارك عليك...  
- بفضل الله وفضلك...  
تفكّرت قليلاً ثمّ قالت:  
- الأصوب أن ترجع إلى عمك الأوّل مع العجوز  
الطيبّ.  
- بل أحبّ أن أبقى خادماً لضريحك...

شهر العسل ٢٣٣

- صبرك، لم يكن في الإمكان فعل شيء، جنّ الناس وإذا جنّ الناس تطايرت هيبة الشرطي، ولكن هيهات أن يفلت مجرم من يدي...  
- واللصّة الصعلوكة أين ذهبت؟  
- اعتبرها في قبضة يدك، إنّي أعني ما أقول.  
- وكيف أسترّد مالي وحلّتي؟  
فقال خادم الضريح:  
- لنلجأ إلى القسم...  
ولكنّ الشرطي اعترض قائلاً:  
- كلاً، للتحقيق سراديب أحشائها!  
فسأله الوليّ:  
- والعمل؟  
فأجاب الشرطيّ:  
- لي وسائل الحفاضة.  
ولكنّ الوجيه قال:  
- بل لديّ فكرة لو قدّر لها النجاح ردت إليّ أموالي الضائعة!

- ما هي فكرتك؟  
- نلجأ إلى الروح!  
- الروح؟  
- الروح التي سلبت مالي هي التي تردّه إليّ!  
- ولكنّ ذلك حلم!  
- سنعيد تمثيل الرواية!  
- نفس الرواية؟  
- ولكنّ بممثلين من عندنا.  
- والروح من أين تأتي بها؟  
- نفس الروح، وإذا خرجت عن المرسوم لها مرّفتها إرباً!

\*\*\*

وفي صباح اليوم التالي طلع أوّل شعاع على الضريح وهو مغلق والوليّ جالس أسفل بابه. وإذا بعجوز يسحب وراءه شاباً ضريراً نحو الضريح. وجاء رجال فأنخذوا مواقفهم فيما يلي الضريح. وغمز الوليّ بعينه فراحوا يتصايحون متظاهرين بالدهشة.

- هل نشهد معجزة جديدة؟  
- أجل... إنّها معجزة جديدة!

- أقول لك ارجع إلى عملك...  
- أهو أمر؟  
- نعم.  
- سأرجع إلى عملي...  
- سأرسل لك بفتاة من الطريق الذي نشأت فيه إذا رأيتها توهمت أنّك تراني...  
- ما أجل أن أرى صورتك على الدوام!  
- تزوّج منها فهي هبتي إليك...  
- سمعاً وطاعة...  
- وأحسب معاملتها.  
- سمعاً وطاعة...  
- ولا تصدّق قول الحاسدين فيها.  
- سمعاً وطاعة...  
- ولا تفارقها حتى تفارقك الحياة.  
- سمعاً وطاعة...  
- اذهب الآن بسلام...  
- وددت أن أبقى كظلك...  
- اذهب بسلام...  
أحنى الشاب رأسه في خضوع ثم فارق المكان أسيفاً حزينا.

وجدت نفسها وحيدة في الخلاء. تجلّت الحيرة في عينيها.  
تساءلت:  
- ماذا جرى للعالم!  
وقطبت في غضب:  
- إنا أني مجنونة وإنا أنهم مجانين!  
ثمّ في ذهول:  
- الجميع يركعون، يهللون ويكبرون، بإشارة من يدي يأمرون... ماذا جرى؟

وبفتة سمعت دفعا يصكّ باب الضريح من الداخل صكاً. تولّاه الذعر فاطلقت للريح ساقيهما. انفتح الباب بقوة الدفع وانطلق منه الوجيه والشرطيّ وخادم الضريح والوليّ. وجعل الوجيه يقول في صخب غاضب للشرطيّ:

- سأحمّلك مسئولية المهزلة كلّها.  
ولكنّ الشرطيّ قال:

- خلقت الدنيا من جديد، بنورها وناسها،  
فلتقبّلني خادماً لضريحك يا طيب القلوب.  
- تبارك الله القادر على كلّ شيء.  
- المنة لله، ما أحلى النور عقب الظلام.  
- تبارك الروح الكريم...  
وسأله رجل تمنّ يقفون في الصفّ الأوّل:  
- ماذا وجدت في الداخل؟  
- رأيت الروح يرسف في الأغلال!  
فتساءل شابّ الأمس بذهول:  
- ماذا قيّدها بعد أن أطلقتها بيدي؟  
- قد أخبرت بما رأيت...  
وتتابعت الاستغاثات من الحناجر:  
- أتمّ نعمتك يا طيب القلوب.  
- يا مفرّج الكرب.  
- يا ناصر الضعفاء والفقراء.  
وظهرت الفتاة في الباب كما ظهرت أمس، ودوى  
المكان بالتهليل والتكبير...  
- ها هي الروح المباركة.  
- ترقّبوا مزيداً من البركات...  
- طوبى للفقراء.  
وتساءلت الفتاة:  
- أين أنا؟  
فاستبقت أصوات تجيب:  
- في الأرض التي اخضرت بجودك.  
- ماذا أرى؟  
- شعبك الشكور.  
فقالت بآلم:  
- كادت الأغلال تكتم أنفاسي!  
فارتفعت الأصوات غاضبة تتساءل:  
- من المجرم الأثيم؟...  
- من الجاني الشرير؟  
- من عدوّ الأرواح؟  
فقالت الفتاة وهي تلحظ المحذّقين بها في ياس:  
- رماني في الأغلال صديق لا عدوّ، وبحسن نيّة لا  
بسوء طويّة!  
فانفجرت الأفواه ذهولاً فعادت الفتاة تقول:

وترامت أصواتهم المرتفعة إلى أطراف المدينة فهرع  
إلى ساحة الضريح جموع الأمس ملهوفين وعلى رأسهم  
الشابّ، ولحق بهم الشرطيّ وخادم الضريح،  
وتطلّعت الأبصار إلى الشابّ الضرير. رأوه مسند  
الرأس إلى باب الضريح وهو يهتف:  
- يا ربّ السماوات!  
فسأله العجوز:  
- مالك يا بني؟  
فقال الشابّ بانفعال شديد:  
- أسمع صوتاً يا أبي.  
فسرت في الجموع همهمة سرعان ما انقلبت تهليلاً  
وتكبيراً. وتظاهر خادم الضريح بالقلق فنادى الشرطيّ  
بنبرة تحريض:  
- أيّها الشرطيّ!  
ولكنّ الشرطيّ أجاب بإذعان:  
- كفاني ما لقّنت أمس من درس، فلتكن مشيئة  
الله.  
فهتفت الجموع هتاف النصر. وصاح الشابّ  
الضرير:  
- إنّه يناديني!  
فصاح الجمهور:  
- الله أكبر... الله أكبر...  
- إني مرهف السمع، إني رهن الإشارة يا طيب  
القلوب الكسيرة.  
- تبارك الله القادر على كلّ شيء.  
- افتحوا الباب، إنّه يناديني، افتحوا الباب.  
مضى شابّ الأمس ففتح الباب بين التهليل  
والتكبير. دخل الشابّ الضرير ملتتمساً طريقه إلى قلب  
الضريح حتّى اختفى عن الأنظار. وساد صمت.  
صمت عميق شامل. وتركّزت الأرواح في الأعين  
المتطلّعة. وإذا بصيحة تتراعى من الداخل وإذا  
بالشابّ يظهر في الباب رافعاً يديه إلى السماء وهو  
يهتف:  
- أشهد الله أنّ بصري قد ردّ إليّ!  
فهتف الناس بانجداب:  
- الله أكبر... الله أكبر...  
فانفجرت الأفواه ذهولاً فعادت الفتاة تقول:

- فيه :
- ما أساء إليّ إلا سوء الفهم والتأويل !  
واصلت الأعين حملكها في ذهول وتساؤل .  
- طرحت لغزاً فوقعتم في حباله !  
- ليغفر الله لنا .  
- غاب عنكم أنّ الروح لا تتكلم بلغة الدنيا .  
- ليغفر الله لنا .  
- وأنتها تهب الضياء الخالد لا المال الفاني .  
فصاح رجال الصفت الأول :  
- ليغفر الله لنا .  
أما الآخرون فوجوا وأطرقوا .  
- وأنتها جاءت لتطهر القلوب لا لتحضن على النهب  
والسرقة !  
اندحر الجمهور وغرق في صمت على حين صاح  
الآخرون :  
- ليغفر الله لنا .  
- هكذا وقعتم في الضلال ونهبتم المال الحلال !  
- ليغفر الله لنا .  
- ذلك ما أعادني إلى الأسرا  
- ليغفر الله لنا .  
- اطلقوا سراحي أيها الأحباء المخلصون .  
وبين التكبير والتهليل أخذ الرجال المحدقون بها  
يدسّون أيديهم في جيوبهم ويرمون بالنقود تحت أقدامها  
على حين انكمش الجمهور منقبض القلب والصدر  
والأمل، وأخذوا يتبادلون النظرات كمن يفيقون من  
حلم . واستبظأهم الآخرون فسألهم الشرطيّ محتجاً :  
- أتضنّون بالحرية على الروح الكريم ؟  
ولكنّ واحداً منهم لم ينبس أو يتحرك . وجعل شاب  
الأمس يملق في الفتاة بذهول حتى صاح متأوفاً :  
- ماذا أرى ؟  
فتطلعت إليه الأبصار فصاح بغضب موجهاً  
الخطاب إلى الفتاة :  
- شدّ ما تغير كلّ شيء ، كلاً ، ماذا أرى ؟  
التصقت به الأبصار وهو يمعن النظر بجنون حتى  
صاح بتحدّ :  
- ما أنت بالروح الكريم !  
أشرقت أعين الجمهور بالأمل أما الشرطيّ فصرخ
- كفت عن التجديف يا مارق !  
ولكنّه صاح بإصرار :  
- ما أنت بالروح الكريم !  
انبعثت من صدور الجمهور موجة استجابة حارة  
لقوله صدّقه من أعماقهم المدّبة . تغيّرت النظرة وتغيّر  
المنظور وتتابع الصيحات في غضب وثورة :
- ما أنت بالروح الكريم .  
- أين صوت الأمس الحنون ؟  
- أين ذهبت رحمة السماء ؟  
- أين اختفى البهاء والجلال ؟  
- انظروا إلى أسياها البالية !  
- انظروا إلى الطين يعلو قدميها !  
- انظروا إلى التراب يغطي وجهها !  
وفجأة وثبت الفتاة مخترة الحصار المحدق بها رامية  
بنفسها وسط الجمهور وهي تهتف :
- النجدة !  
وصاح الشرطيّ :  
- ما هذا !  
فصاحت الفتاة :  
- أنا بنت مسكينة لا روح ولا ملاك ! .  
فصاح الشرطيّ :  
- أيتها الدجالة الويل لك . . .  
فصرخت الفتاة :  
- هدّدوني بالقتل إن لم أتكلّم على هواهم .  
فارتفعت الأصوات بالغضب وتكوّرت القبضات في  
تشنج . وانقضّ رجال من المتأمّرين على الفتاة ولكنّ  
الجمهور تصدّى لهم فدارت بين الفريقين معركة  
حامية . معركة استعملت فيها الأيدي والأرجل  
والعصي والطوب والأسنان . وقاتل كلّ فريق بعناد  
وغضب . ورأى شابّ الأمس الفتاة وهي تقايل كرجل  
فخطر له أنّها فتاة الموعودة فزاد قوّة واستبسلاً .
- \*\*\*  
استمرّت المعركة وهي تزداد عنفاً ووحشية . . .

## مَوْقِفٌ وَدَاعٌ

أفاقا في وقت واحد. دَبَّتَ فيهما حركة بطيئة  
كتقلصات اعترت زوايا الفم والجبون والأطراف.  
فتحا عينيها. نَدَّتَ عنها آهة عميقة من التوجع. تقلبا  
على الجنين. زحفا على أربع مقدار ذراع. جلسا على  
الرمال. أجالا في الخلاء المحيط بهما نظرة ثقيلة نصف  
عمياء. تلاقت عيناها في نظرة عابرة لم تكف تكفي  
لكي يرى أحدهما الآخر.

- ما أثقل رأسي

- ما أثقل رأسي

- لا ريب أتي أغادر مرضًا طويلًا.

- لا شك أتي أبعث من موت.

- يا له من خلاء ميت.

- لعلي في قبر، كذلك يبدو القبر من الداخل؟

وتلاقت عيناها مرة أخرى.

- مَن أنت؟

- مَن أنت؟

- إنك عارٍ تمامًا كيوم ولدتك أمك.

- وأنت أيضًا، ألا تدرك ذلك؟

- يا للعجب، أين ملابسني؟

- أين ملابسنا؟

- مَن أنت؟

- مَن أنت؟

- اسمي عبد الواحد.

- اسمي عبد القوي.

- ترى أسمعت هذا الاسم من قبل؟

- محتمل أنني سمعت اسمك كذلك.

- ماذا جاء بك إلى هنا؟

- ماذا جاء بك إلى هنا؟

- في الذاكرة تُلْفَتَ وعناء.

- في الذاكرة تلف وعناء.

- واضح أننا تعرّضنا معًا لشرّ واحد.

- أجل.

- غير بعيد أنني لا أراك لأول مرة.

- ويخيل إلي أنني عرفت في حياتي شخصًا يقاربك  
في الشبه...

نهضًا معًا بصعوبة. وقفًا يترنحان. أخذًا يتنفسان بعمق.

- ما الذي جمع بيننا؟

- لا يمكن أن نوجد هكذا معًا مصادفة.

- ثمّة علاقة تربط بيننا، فما هي؟

- ما هي؟

- سنتخلص من الإعياء والخور ونتذكر كل شيء.

- من خبرتي السابقة أوكد لك أنّ رأسينا تعرّضا

لضرب مركز.

- ضربنا لشرق وقد شرقنا بالفعل كما ترى.

- ومن خبرتي أيضًا أوكد لك أننا تعاطينا مخدرًا

جهنميًا.

- ولكنني لا أتعاطى أيّ مخدر.

- لعله دُسن إلينا في غفلة منا!

- لعله، ولكننا سنعود إلى وعينا...

- استيقظي يا ذاكرة، حقًا إنّ الإنسان بلا ذاكرة

هو لا شيء!

- ها أنت تتنبّه إلى أننا من فصيلة الإنسان.

- لا يتعرّى إلا الإنسان أما الحيوان فيُخلق بملابس

طبيعية.

- من حسن الحظّ أن تكون إنسانًا ولو شرقت

وتعرّيت وتألّقت.

- علينا أن نقاوم الدهول وإلا ذبنا في الخلاء.

- وهو خلاء صامت لن يجيب بحرف لو سُئل ألف

سؤال.

- صدقت.

- الحقّ أنّ وجهك غير غريب، ولا صوتك.

- كذلك وجهك وصوتك.

- نحن نتقدّم بلا شكّ.

- الذكريات تُقبِلُ حتى أكاد أمسك بها ولكنها

سرعان ما تُدبّر...

- اشحذ جهاز استقبالك.

- صه... ها هي ذكرى، كأنها عواء، وثمة

ظلام كأنما يتكدّس في كهف!

- حقًا!... وإني أكاد أمسك بأرقام محدّدة...



شهر العسل ٢٣٧

- تري ما هي؟
- وثمة إيقاع شيطانيّ، لعلّه زارّ، أتعرف الزار؟
  - كلاً ولكن هناك خطّة... خطّة هامة!
  - وفرّق بينها صمت. مضى كلّ منها يحرّك رأسه بشدّة. ويتنفّس بعمق. ثمّ تبادلا نظرة حيّة لأول مرّة. ارتسمت في وجهيهما الدهشة.
  - ربّاه!
  - عبد القويّ!
  - عبد الواحد!
  - ماذا حدث لنا أيّها الأخ؟
  - أجل ماذا حدث؟
  - وساد الصمت مرّة أخرى تحت شمس الحريف الدافئة حتّى تتم عبد الواحد:
  - كنّا ماضيين نحو الطريق الزراعيّ.
  - أجل رأيناها بالعين على ضوء النجوم.
  - ثمّ؟
  - ثمّ انقضّ علينا قطاع الطرق، لا شكّ عندي في ذلك.
  - وسرعان ما غبنا عن الوجود.
  - آه، تذكّرت، كنّا قادمين من مخيم البدويّ.
  - ذلك الرجل الكريم الذي استضافنا في الواحة.
  - الواحة... أجل الواحة... وقد قضينا وقتنا طيّباً في الخيمة... وتعاطينا... .
  - فقاطعه عبد الواحد بحدّة:
  - إنك أنت أصل المصائب!
  - كلّها هفتُ نفسك إلى لدّة مسحت ضعفك فيّ أنا!
  - أنت الذي شجّعتني!
  - لمّ اشتركت أنت معنا؟
  - ضقت بالعزلة...
  - هي حجّتك إذا أردت أن تمسح ضعفك فيّ...
  - وقد وصلنا البدويّ حتّى مشارف الطريق...
  - وعقب رجوعه بوقت غير قصير وقع لنا ما وقع.
  - وحملنا المعتدون إلى هذا الخلاء ثمّ تركونا عرايا!
  - وجعل كلّ منهما يقظ متذكّراً حتّى قال عبد الواحد:
  - سرقوا ملابسنا بما فيها...
  - نفودنا وأوراقنا الخاصّة...
  - تركونا بلا شيء في لا شيء.
  - فنحن وما حولنا لا شيء.
  - هراء ما تقول!
  - ولكنك أنت من قلته!
  - إنّي لا أتكلّم ولكنّي أفكّر والتفكير طرح فروض واحتمالات...
  - معذرة يا أخي، ولتفكّر في هدوء.
  - ويجب أن تفكّر أنت أيضاً.
  - إنّما اعتيادي - بعد الله - على إحساسي الباطنيّ وحده.
  - ماذا يقول لك إحساسك الباطنيّ؟
  - إنّها ستفّرّج من حيث لا ندري!
  - ربّما هلكنّا قبل ذلك.
  - فرفع عبد القويّ كتفيه العاريين في صمت واستسلام فقال عبد الواحد:
  - لقد سلّبونا جميع ما نملك إلّا العقل.
  - وهو ما زال في شبه غيبوبة.
  - أجل ولكن من اليسير أن ندرك أنّ علينا أن نذهب إلى أقرب نقطة شرطة.
  - فكرة صائبة، هيّا بنا...
  - لا تتعجّل، أنسيت أننا عرايا يستحيل عليهم مواجهة الناس؟!
  - ولكنك أنت الذي اقترحت ذلك.
  - قلت لك إنّي أفكّر وإنّ التفكير ما هو إلّا طرح فروض واحتمالات!
  - معذرة...
  - وإذن فعلينا قبل ذلك أن نحصل على ملابس.
  - فكرة صائبة ولكن كيف؟
  - أن نعود مثلاً إلى صاحبنا البدويّ.
  - أسرع، لنسرع أيّها الأخ...
  - ولكننا في خلاء مجهول لا ندري شيئاً عن موقعه ولا بوصلة معنا ولا مرشد.
  - لم يبق إلّا أن نتنظر حتّى يعبر أحد فنتهبه كما نهبنا.

- وإذا بأحدهم يسألني برقة «أتريد أن تنضم إلينا؟»  
 - وهمست في أذنك أنهم زملاء وقد يتضامنون عليك...  
 - والخطر لا يخيفني بقدر ما يستفزني للتحدي...  
 - سجية مفيدة في مجالها مضرة فيها عدا ذلك.  
 - ولكنتك أنت نفسك لحقت بي في اللعب  
 - عندما طالت بي الوحدة  
 - كلاً... عندما ثبت لديك أن اللعب نظيف وأني أربح باستمرار  
 - ليس إلا أنني أكره الوحدة  
 - وسرعان ما انهمكت في اللعب...  
 - وقد ربحت أنت مالا طائلاً...  
 - ثروة!... أخذتها من أصحابها لأهبها لقطاع الطرق...  
 - وأعقب ذلك معركة  
 - رماني أحدهم بتهمة باطلة فلكمتها  
 - ولكنتها أتسعت واضطرت إلى المشاركة دفاعاً عنك ونلت نصيبي من الضرب الأليم...  
 - ولكنتنا انتصرنا في الضرب كما انتصرنا في اللعب.  
 - وبعد أن ورطتنا فيها لا يليق  
 - استمتع عبد القوي بلحظات من الارتياح على حين مضى عبد الواحد يفكر حتى رجعت يتساءل:  
 - ولكن ماذا دفع بنا إلى الاستراحة؟  
 - أفاق عبد الواحد من لحظاته السعيدة فحدجه بنظرة بلهاء. وتساءل عبد الواحد:  
 - أين كنا قبل أن ننزل بالاستراحة؟  
 - الاستراحة... الواحة... مؤكّد كنا نقوم برحلة.  
 - من أين وإلى أين؟... أحمل ذاكرتك الفدّة.  
 - ولكنتها ما زالت في قبضة المخدر وعلقة قطاع الطرق  
 - تغلب على ضعفك الطارئ فأنت رجل مخلوق للشدائد.  
 - راح عبد القوي يعصر ذاكرته ملياً ثم قال:

- وأي مجنون يعبر هذه المناهة؟  
 - يا لها من ورطة مضحكة!  
 - مضحكة!؟  
 - المآزق تبعث في نفسي الضحك.  
 - ذاك أنك أهوج ملهوج لا يُركن إليه في أزمة.  
 - أنسيت موافقي في نجدتك عند الخطر؟  
 - لا يمكن أن يُنسى ذلك ولكن لا تضحك في المآزق  
 - أحنى عبد القوي رأسه مستجيباً أو متظاهراً بالاستجابة فواصل عبد الواحد كلامه قائلاً:  
 - اتفق الرأي على أننا نزلنا ضيفين في خيمة البدوي ولكن ما الذي دفع بنا إلى الواحة؟  
 - ولكنتك لم تحل مشكلة وجودنا في الخلاء عرايا بعد؟  
 - يقتضي حلها بالرجوع إلى الوراء قليلاً فنحن لم نستكمل الوعي بنفسنا وحالنا بعد.  
 - فليتم ذلك قبل أن نهلك في الخلاء.  
 - لا تبذد الوقت، ماذا جاء بنا إلى الواحة؟... لا أظننا من أهل الواحات  
 - الثابت أننا من أهل الأرض.  
 - أين كنا قبل أن نذهب إلى الواحة؟... ولم ذهبنا إلى الواحة؟  
 - فضرب عبد القوي جبهته بكفه وصاح:  
 - شد ما كانت جيوبى ملأى بالنقود  
 - ولكنتنا لا يمكن أن نُعدّ من الأغنياء بحال  
 - صه، ها هي ذكرى تقع في قبضتي، الاستراحة... ألا تذكر الاستراحة؟  
 - الاستراحة... أجل... الاستراحة والحديقة وبركة البط.  
 - برافو... والركن القصي حيث قبعت مجموعة من الأفندية؟  
 - أجل... كانوا يلعبون الورق...  
 - وجعلت أنا أتابع اللعب من بعيد.  
 - وحذرتك من ذلك.  
 - ولكنتي لا أملك أن أرى اللعب دون أن أتفرج.  
 - قلت لك ابتعد.

شهر العسل ٢٣٩

- وكدنا نقع في قبضة الشرطة ...  
 - ولكن الله سلم وقضينا ليلة حمراء مترعة بجنون اللذة ...  
 - وها نحن عرايا في خلاء ميت!  
 - ولكن الليلة الحمراء لا يمكن أن تُنسى ...  
 - لولا حماقتك ما وقعنا في هذا المأزق.  
 - حماقتي قادتنا من لذة إلى لذة، ومن نصر إلى نصر ...  
 - حتى مجرد الاعتراف بالخطأ تأباه، أيها العنيد المكابر. أتذكر كم من مرّة قلت لك إن العيب قد يحول بيننا وبين إنجاز مهمتنا.  
 - وسرعان ما تبادلنا نظرة حادة مزعجة! وهتف عبد القوي:  
 - ماذا قلت؟ ... أعد ما قلت مرّة أخرى؟  
 فقال عبد الواحد بدهول:  
 - يحول بيننا وبين إنجاز مهمتنا!  
 - إذن فهناك مهمة تتطلب الإنجاز؟  
 - صبرك. دعني أتذكر بهدوء ...  
 - بهفوة لسان تذكّرت أخطر شيء في رحلتنا ...  
 - مهمة ... أيّ مهمة؟ ... دعني أتذكر.  
 - لا شك أننا كنّا في العاصمة قبل أن نتنقل إلى المدينة.  
 - أجل ... لا شك في ذلك.  
 - وها أنا أتذكر آخر ليلة لنا فيها، كنّا في زيارة للكهف الذي أقام فيه الوجوديون معرضهم التشكيلي! - صدقت أيها الأخ عبد القوي.  
 - وقابلنا هناك الزميل نوح فأمرنا همسًا بأن نذهب من فورنا إلى مستشفى الولادة لمقابلة الدكتور المولّد رئيس وحدتنا السريّة ومندوب الزعيم.  
 - وذهبنا إلى المستشفى فانتظرناه في حجراته حتى يفرغ من توليد امرأة ...  
 - وجاءنا فتحدّث معنا عن رحلتنا.  
 - أمرنا أن نساfer إلى الجنوب، ولكن لم نساfer إلى الجنوب رأسًا?  
 - رسم للسفر خطة معقّدة، فكان علينا أن نذهب أولًا إلى المدينة فالاستراحة ثم الواحة قبل أن نمضي إلى

- أذكر أنني رفعتُ بين يديّ رجلاً يرتدي جبّة وقفطانًا وطرحته أرضًا!  
 - ولكنّ خصومنا في الاستراحة كانوا أفنديّة!  
 - أكان أحد قطع الطرق؟  
 - ولكنّا لم ندخل معركة معهم فقد غدروا بنا بغتة فغبنا عن الوجود.  
 - وإذا بعبد القويّ يصبح منهللاً:  
 - كان الرجل صاحب الراقصة!  
 - الراقصة؟!  
 - ملهى الزهرة ... ملهى الزهرة بالمدينة ... كنّا في المدينة قبل أن نمضي إلى الاستراحة!  
 - عفارم عليك ... كنّا حقًا في المدينة.  
 - قضينا ليلة عجيبة ...  
 - الله يكسفك!  
 - حيّاك الله يا ملهى الزهرة!  
 - أنت الذي قدّمتني إليه ...  
 - ينبغي أن أستحقّ شكرك.  
 - وشربت، وشربنا، ولكنك جاوزت الحدّ.  
 - وكانت الراقصة تضيء كاللؤلؤة ...  
 - ورغم تحديري لك فإنّ النهم تجلّى في عينيك كوحش ضار ...  
 - كنت تحذّرني يا أخ وتسترق إليها النظر.  
 - الإعجاب بالجمال في ذاته من ضمن أشواق العقل!  
 - لذلك لم أنسك في مغامراتي الباهرة فساومتها على ليلة كاملة لرجلين معًا!  
 - أخزأك الله!  
 - ولم تمنع الفاتنة ...  
 - مؤامرة حيوانيّة.  
 - ولكنّها ضمنت لكلينا ليلة ساحرة.  
 - ثمّ اعترضتنا متاعب غير متوقّعة ومخجلة ...  
 - كان ثمة عشاق قدامى لها اعتبروا مغامرتنا اعتداء صارخًا على رجولتهم ...  
 - وهكذا خضنا في طريقنا إلى بيتها معركة حامية ...  
 - وانتصرنا انتصارًا حاسمًا.

- الجنوب.
- هذا يعني القضاء علينا.
- حتى إذا علم باعتداء قطاع الطرق علينا؟
- له قدرة خارقة على أن يقرنا حتى نقر بما يديننا!
- ولم لم يفض إليك بالمهمة من بادئ الأمر؟
- إنه أدري بما ينبغي أن يتبع.
- ولكننا نحن الذين نقوم بالمغامرة ومن حقنا أن نعرف.
- لقد دخلنا التنظيم باختيارنا وقبلنا لائحته دون شرط، فما وجه اعتراضك الآن؟
- كان علينا أن نرفض أن نكون مجرد آلات.
- بالتنظيم كذلك أناس لا عمل لهم إلا التفكير والتدبير.
- ولم يختصون هم بالتدبير ونختص نحن بالتنفيذ الأعمى؟
- لا يستقيم التنظيم إلا بتوزيع دقيق للعمل.
- ومتى ثبت لهم أننا دونهم في التفكير والتدبير؟
- يبدأ العضو عادة بعمل تنفيذي ثم يتدرج في مدارج الرقي.
- كلام جميل أما الواقع فهو أنهم يستاثرون بالعلو والأمان وتعرض نحن كل ساعة للموت، وتمر الأيام ونحن نمشي النفس بترقية لا تريد أن تتحقق أبدا!
- الحق أنه لا هم لك في دنياك إلا التمرد وانتهاج اللذات!
- فرفع عبد القوي كتفيه العاريتين امتعاضاً وأطبق فاه، فقال عبد الواحد:
- شد ما يغضبك قول الحق!
- فتساءل عبد القوي ساخراً:
- خبرني عن تفكيرك ماذا أفادنا؟
- فتساءل عبد الواحد بالسخرية نفسها:
- حدثني عن إحساسك الباطني ماذا أفادنا؟
- فنفخ عبد القوي مغيطاً وقال متشككاً:
- أن لنا أن نبحت عن طريق للخلاص.
- حسن، لنسأل أنفسنا ماذا نريد، وعلينا أن نجيب على ذلك بوضوح.
- نريد العمران، الملابس، المظروف الضائع، مواصلة الرحلة...
- أجل وحدد لكل مكان وقتاً ومدة إقامة، ولكن ماذا كانت المهمة؟
- أن لنا أن نتذكر أخطر ما في رحلتنا.
- أذكر أنه انتحى بك جانباً مقدار خمس دقائق فلم أسمع ما دار بينكما.
- ألم أحدثك عن المهمة عقب مغادرتنا المستشفى؟
- كلاً، مؤكداً أنني لم أعرف شيئاً عن المهمة، ولكنك... ولكنني؟
- ولكنك قلت لي ونحن في الطريق نصف المظلم إتنا سنعرف المهمة عندما نصل... ذلك يؤكد أنني لم أكن أعرفها وقتذاك.
- وهنا صاح عبد القوي متهللاً:
- قلت إنها في جيبك، إنه سأمك مظروفاً مغلقاً لا يجوز فضه قبل الوصول.
- أحسنت التذكر... وضرب يده على موضع الجيب فأصابت لحم فخلده الضامرة فصاح بحسرة:
- يا للدهاية السوداء، لقد سرق المظروف فيما سرق من أموالنا!
- يا للكارثة!
- إنك أنت المسئول عما حاق بنا.
- لا تمسح في ضعفك.
- اعترف بجنونك.
- إني راضٍ عن نفسي فاعترف أنت بضعفك... وتبادلا نظرة نارية، تلاقى فيها الغضب بالتحدي، ولكن عبد الواحد انتزع عينيه يائساً، رمى ببصره إلى الخلاء، ثم تنهد قائلاً:
- نهاية خليقة بالحشرات!
- فقال عبد القوي:
- لا تنس مشكلتنا الراهنة، علينا أن نتخلص من ورطتنا!
- لم ينس عبد الواحد فعاد عبد القوي يقول:
- لنبحث عن العمران، وسنحصل بوسيلة ما عما يسترنا، ولنرجع بعد ذلك إلى الدكتور.

## شهر العسل ٢٤١

- فلنستعن بالعقل .
- سأل عقلك عن سرّ مدفون في مظروف مفقود!
- إنك لا تحترم العقل، وذلك هو سرّ تعاستك .
- ولكتفي لست تعيسًا .
- ومن أي تعاستك أنك لا تعرف أنك تعيس .
- إني مسلم بمقدرتك في الجدل، وبسخرتكم مني إذا حلا لك ذلك، ولكن من الخير أن توجه قوتك المزعومة إلى حلّ اللغز الذي تتوقف عليه حياتنا . . .
- كأنك عازم على الوقوف مني موقف المشاهد أو

الشامت؟

- اقترحت عليك ما أرى وهو الهرب .
- لنمارس حياة وضيفة في ظلّ المطاردة؟
- سنكون مطاردين على الحالين!
- مطاردة الشرطة لنا شرف لم نستحقه إلا بالعرق أما مطاردة التنظيم فهي اللعنة الكبرى!
- لست راضيًا عن دوري الآلي فيه .
- ولكتك دخلته مختارًا؟
- بل لأنك دخلته ولأني لم اعتد الحياة بعيدًا عنك!
- وإذن فعلينا أن نتقبل مصيرنا بالصبر والشجاعة .

فقال عبد القويّ متبهّدًا:

- ليكون . . . حدّثني الآن كيف نعرف المهمة؟
- كن معي بكلّ حواسك، لقد أمرنا بأن نزل في المدينة فالاستراحة ثمّ الواحة في طريقنا إلى الجنوب حيث نفصّ غلاف المظروف .
- أجل، والحقّ أنّي لم أدرك وجه الحكمة فيه، وقد نقلنا الشطر الأكبر منه بكلّ دقة ودون جني أيّ ثمرة إلا ما حاق بنا من خسران!

- لا تنس أننا ضيعنا وقتنا في العريضة والعراك .
- هو خير عندي من المكوث بلا عمل أو تسلية .
- فالتنا أشياء وأشياء لم نفظن لها في حينها!
- ما كان قد كان، انتهينا إلى ما نحن فيه، فما العمل؟

- لنسأل أنفسنا ما المهمة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه في الجنوب؟
- فضحك عبد القويّ وأجاب:

- قد نهتدي إلى العمران، وقد نجد ما نغطي به جسدنا، ولكن كيف يمكن العثور على المظروف؟!
- نلجأ إلى نقطة الشرطة!
- لقد أنهكت الضياع فنسيت أنّ رجال الشرطة هم أعداؤنا!

فتمكّر عبد القويّ مليًا في حيرة بالغة ثمّ قال:

- أصبحنا مطاردين من الشرطة والتنظيم معًا فلم يبق أمامنا إلا سبيل واحد!
- وهو؟

الهرب!

الهرب؟

أجل . . . الهرب . . .

وكيف نحيا؟

- لنا خبرتنا في الحياة، وما أكثر الذين يعيشون خارج نطاق التنظيم؟

ولكن كيف؟

- لنبدأ من جديد، لتسؤل أو نقامر أو نسرق، وهناك تجارة الرقيق الأبيض؟

- أتتصور أنني أرضى بشيء من ذلك بعد أن اخترت عضواً في التنظيم، وبعد أن كُلفت بمهمة لا يكلف بها إلا الأكفأ؟!

- عيبك الأساسي هو الغرور، اعترف بأننا خسرنا اللعبة، ومن حقنا أن نتعلّق بأذيال الحياة بأيّ ثمن . . .

فقال عبد الواحد بلباء:

- أرفض أن أتعلّق بأذيال الحياة بأيّ ثمن .
- ولكنّ الحياة تستحقّ ذلك .
- لعليّ أفضل الانتحار .
- أيّ شيء أفضل من الانتحار .
- ليس أيّ شيء!
- لنكن عمليين!
- لنكن عمليين ولنفكّر في وسيلة لإصلاح الخطأ وإنجاز المهمة .

بضياع المظروف ضاع الأمل في ذلك .

لا تتسرّع في الحكم .

حدّثني عن سبيل لمعرفة المهمة . . .

- قد يقتل أو يشهد حفل كوكتيل!  
- إنك لا تساعدني البيّة!  
- معذرة، الأفضل أن نتسلّل إلى رئيس وحدتنا لنحاول الاتّفاق معه...  
- الاتّفاق معه؟  
- أن يعطينا مطروفاً جديداً بثمن معقول يمكن دفعه ولو بأقساط.  
- إنّه رجل أمين، وفضلاً عن ذلك فالراجع أنّه لا يدري شيئاً عمّا في المطروف.  
- لا يدري شيئاً عمّا في المطروف؟  
- كلاً.  
- يا لها من مهزلة...  
- إنّه تنظيم ضخّم ويحسن توزيع العمل بين أعضائه...  
فقال عبد القويّ بنفاد صبر:  
- لنرجع إلى السؤال المطروح، ما المهمّة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه في الجنوب؟  
- بالاستقراء والقياس تتضح الأمور فنعرف ما يجب عمله.  
- ما المهمّة الجديرة بعضو التنظيم إذا وجد نفسه، في الجنوب؟  
- لا أملك إجابات جاهزة ولكننا نملك خلق الفروض وتجربتها...  
- كما يترأى لنا؟  
- كما يترأى لعقولنا!  
- نفكّر ونتعب، نفتح الفروض، نجرّب كلّ فرض، نرتطم بالخطأ، نعاود التفكير والتعب، نفتح فروضاً جديدة، وطيلة الوقت نتلقّت فيها حولنا بحذر، أن يقبض علينا رجال الشرطة أو يقتلنا رجال التنظيم، وعاجلاً أو آجلاً سنقع في المصيدة...  
- إنك مبطّ للهمم، ولكن حتّى لو وقعنا في المصيدة فسنكون قد أثبتنا حسن نيّتنا، وربّما نوفّق إلى نجاح فذّ. يغطّي على أخطائنا...  
- عظيم... عظيم.  
- ولكنّي أراك غير متحمّس في الواقع!  
- معاذ الله...  
- وشارد النظر، سرحت بفكرك بعيداً، فيم كنت تفكّر؟  
- أتريد الحقّ؟  
- نعم.  
- تذكّرت كيف هوّشت المقامرين في الاستراحة فربحت في دور عشرة جنيهاً بجوز عشرة! فقطّب عبد الواحد في استياء وقال:  
- يا لك من مستهترا  
- وعندما جندلت اثنين في معركة الراقصة بلكمة واحدة مستعرضة!  
- إنك تمل بذكريات عفنة...  
فقال عبد القويّ بحماس:  
- أصغِ إليّ، إنّها ذكريات جميلة، لا أدلّ على ذلك من أنّك شاركت فيها جميعاً معتلاً بشقّي العليل، لا تنكر ذلك، أصغِ إليّ، هلمّ نهرب، دعنا من خلق فروض خياليّة في الجنوب، دعنا من تعب غير مجدٍ ألبتّة، نحن مطاردون، وسنظلّ مطاردين، وخير لنا أن نهب حياتنا للمغامرات الشائقة.  
- لا تستسلم لتيّار خيالك الجامح، اسبح ضدّه بقوة، وهلمّ نبحث عن العمران...  
فضرب عبد القويّ الأرض بقدمه في عناد وقال:  
- كلاً.  
- ثق أننا سنعرف المهمّة.  
- كلاً!  
- إنّي أطالبك بالسير معي...  
- كلاً.  
- معنى ذلك أننا سنفترق.  
- لنفترق.  
- ولكنك قلت إنّنا اعتدنا الحياة معاً.  
- منذ نشأتنا الأولى!  
- لم تجرّب الحياة وحدك.  
- ولا أنت.  
- إذن يجب أن نحافظ على وحدتنا.  
- تعال معي.  
- بل عليك أنت أن تأتي معي.  
- إنّي أرفض وصايتك كما رفضت وصاية التنظيم.

شهر العسل ٢٤٣

- أنا لا يهمني إلا المهمة، فيها اكتسب وظيفتي في الحياة وبغيرها لا يبقى لي إلا العدم، ولقد اعتدنا أن نسلّم بالمهمة على ثقنتنا بالزعيم، ولكن ليس ثمة فارق كبير أن تقوم بالمهمة لذاتها وبين أن تقوم بها لحساب زعيم مجهول...

- هل البدء بالمهمة يعني الانتهاء إلى الزعيم؟  
- كسل شيء محتمل، قد يؤهلنا النجاح لوظيفة مندوب فتتصل بالزعيم، وقد يتضح لنا أنّ المندوبين أنفسهم لا يتصلون بالزعيم كما يدعون، وقد يثبت لنا أنّ التنظيم يدار بطريقة جديدة لم نجر لأحد على بال.  
- وإذا تبين لنا أنّ إنجاز المهمة قد يكلفنا حياتنا؟  
- ألم يكن من الجائز أن نفقدها في بيت الراقصة؟  
- أن أموت بين يدي راقصة أفضل من أن أموت وراءك!

- علينا أن نختار على ضوء احترامنا لأنفسنا.  
- بكلّ صراحة أنا لا يهمني الاحترام  
- بل إنك تشعل معركة لأقلّ إهانة توجّه لذاتك!  
- لا علاقة لذلك بالاحترام الذي تطالبي به.  
- لقد أصبحنا وحدنا فإما أن نختار العمل كأعضاء محترمين رغم زوال صفة العضوية الرسمية عنّا وإما أن نرضى بحياة الصعلكة...  
- إني أعشق حياة الصعلكة!  
- يا لك من مجنون!  
- يا لك من رجل متعب!  
- يا للحزن، إنّ الانفصال يهدّد وحدتنا الرائعة...  
- إنه لأمر محزن حقًا.

- انفصلنا عنه، ونفصل عن بعضنا البعض، سلسلة من الانفصالات لا أدري أين تقف...  
لاذا بالصمت وهما يتبادلان نظرة طويلة. وهمّ عبد الواحد بالكلام، فتح فاه ولكنّه سرعان ما أطبقه. ورفع رأسه نحو السماء في دهشة. ورفع عبد القويّ رأسه كذلك وهو يتمتم:

- صوت طائرة!

- أجل.

- ولكن أين هي؟

- لقد انقطع ما بيننا وبين التنظيم، ولكن زالت عنّا ولايته فقد وهبنا الحرية، ولكنها ليست الحرية التي كانت لنا قبل أن ننضمّ إليه، إنها حرية جديدة غير عابثة، وليست وصاية منّي عليك...  
- إنك تحسن الجدل ولكنّي مصرّ على الرفض!

- لا يجوز أن نفترق...  
- لا يجوز أن نفترق...  
- هلّمّ معي...  
- هلّمّ معي أنت...  
- ليتقدّم كلّ منا خطوة من جانبه، عندي اقتراح للتوفيق.

- ما هو؟

- ليكن لكلّ منا اختصاصه وليعمل في دائرته ولكن تحت شرط!

- وهو؟

- أن تسلم بالمهمة، لا تهرب منها ولا تنكرها، فبدونها تضحي الحياة لا شيء...  
- ولكنّ الظروف سُرق؟  
- لا يهيم، إنّ فقدته يعني الانفصال عن التنظيم، لا إهمال المهمة أو الكذب بها، بل لعلّ الإيمان بالمهمة هو الذي دفعنا إلى الانضمام إلى التنظيم وليس العكس...  
- بوسعك دائمًا أن توقع عقلي أسيرًا لمنطقك ولكنّ كلماتك لا تنفذ إلى باطني...  
- اقتراحي يبدو لأول وهلة خارقًا للمألوف، من أين لنا أن نعرف المهمة؟ ولكن من الأصل في اقتراح المهمة أليس هو الزعيم المجهول؟ حسن، وأليس هو يقترح المهمة بعقله؟ حسن، فلمّ نتصوّر أنّ عقله فوق جميع العقول؟، بل حتّى مع التسليم بتفوّقه فهل يعني هذا التسليم بعجز عقولنا؟، فإذا انقطعت الصلة بيننا وبينه فما علينا إلا أن نفكّر، ثمّ إنّ الصلة بيننا وبينه مقطوعة في الواقع من بادئ الأمر فنحن لا نعرف إلا مندوبه الذي يرأس وحدتنا، ولا علم لنا عن مدى صلة المندوب به، ولا يبعد أنّه يترك للمندوبين مهمة اقتراح المهمة...  
- ها أنت تشكك في القيادات العليا نفسها!

٢٤٤ شهر العسل

فتابّر على صمته دون مبالاة فقال عبد القويّ بأسياً:  
- بحسن نية أيّما الزميل ارتكبنا بعض الأخطاء،  
ودون تقدير للعواقب!  
كأنّه أصمّ لم يستجب ولكنّ عبد القويّ لم ييأس  
فسأله:

- هل نجد محاكمة عادلة ورحيمة ونمنح فرصة  
جديدة للعمل؟  
قام الصمت كجدار سجن. ولما لم يحاولوا الكلام  
مرة أخرى قال نوح وهو يتناول الحقيبة الفارغة:  
- سأنتظر في الطائرة ثلاث ساعة ثمّ أرجع من حيث  
أتيت.

ورجع كما جاء فرقي في السلم حتّى اختفى داخل  
الطائرة. تبادلنا نظرة حائرة ثمّ تساءل عبد القويّ:  
- ما له يعاملنا كأنّه غريب أو عدوّ؟  
- إنّه ينفذ ما أمر به.  
- ماذا تظنّهم فاعلين بنا؟  
- سنقدّم إلى محاكمة عاجلة.  
- وما العقوبة المتوقّعة؟  
- العقوبات تتراوح بين الإعدام والخصم من  
المرتب.

- لو كنّا نستحقّ الإعدام في نظرهم لأمره بقتلنا  
في هذه الملاحقة!  
- لا تعتمد على المنطق في فهم نواياهم.  
- ستوقع علينا عقوبة ما ثمّ نمنح فرصة جديدة  
للعمل، هذا هو إحساسي!  
- أترى أن نعود معه؟  
- إنّه المخرج الوحيد من حيرتنا إلّا...  
- إلّا؟  
- إلّا إذا وافقتني على الهرب!  
فنفخ عبد الواحد في ضيق وقال:  
- لا تعد إلى ذلك.  
- إذن فلا مفرّ من العودة.  
- ألم تتمرّد منذ حين قليل على الوضع الذي يجعل  
منا آلات صمّاء؟  
- ولكنّك تكره فكرة الهرب وتقترح - بدلاً من  
التنظيم - حياة غريبة لا يقين فيها ولا أمان.

أشار عبد الواحد إلى الأفق قائلاً:

- هيلكيترا

جعلنا ينظران إليها وهي تقترب وتتضح في سمت  
السماء.  
وقال عبد القويّ:

- هلّمّ لنلوح بأيدينا لعلّهم يروننا... .

- لوخ... ولكنهم لا ينظرون إلينا... .

فصاح عبد القويّ:

- انظر... إنّها تهبّط!

هبطت بنوذة كأنّها تمضي إلى هدف محدّد حتّى  
استقرت فوق الأرض غير بعيد منها وهما يتطلّعان إليها  
بدهول. وتساءل عبد القويّ:

- هل هبطت من أجلنا؟

- لعلّها مناورة لا علاقة لها بنا... .

- أو أنّها... .

ولكنّه انقطع عن الكلام عندما انفتح بابها، وتدلّى  
السلم نحو الأرض. ولاح في الباب رجل يحمل حقيبة  
متوسطة الحجم سرعان ما أخذ في النزول. ضيق عبد  
الواحد عينيه ليحدّ بصره ثمّ هتف:

- زميلنا نوح!

- أجل... هو الزميل نوح... .

مضيا نحوه فتلاقوا في منتصف المسافة. تهلّل  
وجهاهما بالفرح ولكنّه قابلهما بوجه جامد لا يفصح  
عن أيّ تعبير إنسانيّ، فباخا وهما يصابفحانه،  
وصالفحهما بأليّة صمّاء. ودون أن ينبس بكلمة فتح  
الحقيبة وأخرج لكّل طاقم ملابس متكاملة. ارتديا  
الملابس الداخليّة والخارجيّة في فتور وقلق. ولما فرغا  
نظرا إليه في استطلاع فأشار صوب الطائرة وقال:

- الطائرة تحت تصرّفكما إذا رغبتما في العودة.

وساد الصمت قليلاً حتّى تساءل عبد الواحد:

- كيف عرفتم بمكاننا أيّما الزميل؟

ولكنّه لم يجب فعاد عبد الواحد يقول:

- لعلّهم أرسلوا وراءنا عيوناً؟

لم يبدّ عليه أنّه سمعه، فقال عبد الواحد بإصرار:

- أرجو أن يكون رجالنا قد استردّوا المظروف

المسروق!



شهر العسل ٢٤٥

من مطروف مغلقاً  
 - تَوَقَّع في كلِّ خطوة مطاردة من الشرطة أو التنظيم!  
 - سيجد مَنِّي يقظة كاملة لا يعثرها خور.  
 - سيكون فراقنا موجعاً ولكن لا بدَّ من العودة...  
 - سنعاين حياة منفصلة لأول مرة، ففكر في ذلك أيها الزميل القديم!  
 - إنه لأمر محزن ولكن لا بدَّ من العودة.  
 - ستوقع عليك عقوبة، سيلاحقك سوء الظنِّ كذلك، سيضعاف ذلك من نصيبك من الآليّة.  
 - وأنتا، ستهلك في هذه المتاهة قبل أن تبدأ من جديد!  
 - كلاً، لقد جاءت الطائرة من تلك الناحية، فهناك يقع الشمال، وبالتالي عرفت الجهات الأصليّة، كما عرفت الطريق إلى العمران، ابق معي!  
 - يا زميلي العزيز سوف تُقتل في العمران إن لم تهلك في الخلاء، تعال معي...  
 - ستمضي حياتك وأنت ظلٌّ لا حقيقة له، تنفد مهمة لا فكرة لك عنها، ابق معي...  
 - أنت تخاف المحاكمة!  
 - إنِّي أرفض المحاكمة، أرفض العقوبة، أرفض العفو، أرفض الأمر الغامض والتنفيذ الأعمى، أرفض المهمة داخل مطروف مغلق، أرفض النجاة الرخيصة في الطائرة، ابق معي.  
 - إنِّي أعجب لشأنك كيف انقلبت من النقيض إلى النقيض.  
 - قلت لك إنِّي ابن الساعة التي أنا فيها، ولكنك أنت أول من فُكِّر في الانضمام إلى التنظيم، أنت من دافع عنه بحسناته وسيئاته، أنت من قَبِلَ بحماس الدور الذي رسمه لك دون مناقشة!  
 - لعلَّ تمردك تسلَّل إلى نفسي، خالط فكري بعلم وغير علم مَنِّي، فلما وقعنا في هذا المأزق تبدت الحقيقة عارية، وانتهيت إلى رأي حاسم.  
 - يحزنني أن يكون تمردني من أسباب انقلابك.  
 - سأشكر لك ذلك ما حبيت.  
 هنا دار محرِّك الطائرة محدثاً دويّاً كالانفجار، فهتف

- ولكنك لعنت دورنا الآليّ في التنظيم!  
 - معذرة أيها الزميل، لا رأي لي إذا اعتبرت الرأي عقيدة ثابتة، إنما أنا ابن الساعة التي أنا فيها...  
 - وهكذا فأنت ترغب في العودة؟  
 - ليس ظلياً أن ندفع ثمن الخطأ، وسأجد بعد ذلك عملاً أنال عليه أجراً، ولن تنعدم الفرص المشروعة للتسلية والمغامرة!  
 - لا فائدة من مناقشتك!  
 - إنِّي أعجب لشأنك، ألم تبدِ حرصك الدائم على المهمة؟، ها هي المهمة تعود بأيسر سبل، ومعها التنظيم كله، والعضوية الرسمية، والمندوب، والزعيم المجهول!  
 - ماذا أقول أيها الزميل؟، لقد عايشت في هذا الخلاء جواً جديداً، وسلمت نفسي لمنطق جديد، وهيأت إرادتي لحياة جديدة...  
 - لعلك تبالي في الخوف من المحاكمة؟  
 - كلاً، فهي لن تكون أقسى من المطاردة التي ستمقّنا!  
 - أتصرّ على الاعتماد على نفسك حتّى بعد أن هبطت عليك معجزة النجاة؟  
 - لن أطيق بعد اليوم أن أكون آلة صماء.  
 - ولكنّه تنظيم كامل، يوزّع العمل بكلّ دقّة تضمن النجاح!  
 - لم تعد أعصابي تحتمل المعاملة مع المظاريف المغلقة، ولا المندوب الغامض الذي نلقاه دقائق في أوقات راحته، ولا الزعيم المجهول الذي لا ندرى عنه شيئاً، كلاً ثمّ كلاً، وأنت نفسك كنت البادئ بالرفض!  
 - لا تدع فرصة العمر تفلت من بين يديك.  
 - نحيل إليّ أيّ أقنعتك قبل هبوط نوح؟  
 - كلاً، إنِّي أختار واحداً من طرفين، فإمّا الهرب وإمّا التنظيم، وما هي الطائرة تنتظر فلا مجال للتردد بعداً!  
 - أمّا أنا فطريقي واضح، سأعيد الرحلة من جديد بدءاً من المدينة ولكن بعقل متفتح لا يغادر كبيرة ولا صغيرة، وفي الجنوب ستنبثق المهمة من صميم رأسي لا

عبد القوي:

- لولا السوابق الماضية ما باليت شيئاً . . .
- لا تدكرنا بما مضى، الطيبة مطمئنة، قالت إنها ستلد ولادة طبيعية . . .
- بدأ الطلق في أول الليل وها نحن في الهزيع الأخير منه .
- ربك كريم، وعندها طيبة لا داية، فاصبر وانتظر.

شعر بامتعاض نبرتها فقال:

- لا تلوميني يا دادة، هُذا زمن الأطباء لا الدايات . . .
- كم ولدت الداية أمها في يسر كالسحر .
- ذاك زمان مضى، وما من داية تستطيع أن تواجه هذه الحال . . .

- كم واجهت مثيلات لها في الماضي . . .
- كل شيء تغير، حتى المرض نفسه . . .

مضت نحو الحمام ثم رجعت بوعاء من الصاج فدخلت الحجر وأغلقت الباب. وجد شيئاً من الطمأنينة. لم يألُ جهداً في إقناع نفسه بها ما دامت الطيبة قد قالت. ودق جرس الباب الخارجي فبادر إليه. استقبل القادم بدهشة وترحاب معاً، وهو نحيل طويل يكاد يماثله شكلاً ويقاربه في العمر. أجلسه على مقعد إلى جانب مقعده وهو يتمتم:

- خطوة عزيزة، أهلاً بك . . .
- علمت بالخبر وأنا عائد من سهرة طويلة فلم أتردد في المجيء إليك . . .
- أشكرك يا عزيزي، إنها ساعة متأخرة جداً . . .
- لا شكر على واجب . . .
- ولكن كيف علمت بالخبر؟
- من أكثر من مصدر فيما يجئ إلي . . .
- لم أتصور أنّ أحداً علم به سوى أمها . . .
- أنت يا صديقي لا تعلم بما يدور حولك.
- حدّثني عن مصادرك!
- لا أدري، لا أذكر . . .
- لا تدري ولا تذكر؟!
- كنت وقتها ثملاً بالشراب!
- وكانوا سكارى؟

- ففكر مرة أخرى أيها الزميل .
- فكّرت بما فيه الكفاية .
- أمامك فرصة أخيرة!
- وأمامك فرصة أخيرة!
- ما أمرّ الفراق . . .
- إنه لكذلك أيها الزميل القديم .

تمهّد عبد القوي يائساً. فتح ذراعيه فتعانقا بحرارة. اشتدّ دويّ المحرك. انتزع عبد القوي نفسه من صاحبه. مضى نحو الطائرة في خطوات ثقيلة. أخذ يرقى في السلم حتى بلغ الباب. استدار فلوح لصاحبه مودّعاً فردّ الآخر التحية بمثلها. بدأت الطائرة في الصعود. دوّمت في الفضاء. أتبعها عبد الواحد عينيه وهي تبعد وترتفع وتصفّر حتى اختفت فيما وراء الأفق. وجد نفسه وحيداً. وجد نفسه حزيناً. ولكنه لم يبذد دقيقة من وقته سدى. شحذ إرادته لينفض عن قلبه الحزن. قلب وجهه في الجهات الأصلية ليحدّد طريقه إلى العمران. سار متّجهاً نحو الشرق . . .

## وَلَيْدُ الْعَنَاءِ

جلس وحيداً في الصالة. أرهقه ذرعها ذهاباً وإياباً فجلس. ثبتت عيناه على البسبب المغلق وأرهف السمع. أشعل سيجارة، دخنها بطريقة آليّة خالية من الاستمتاع ولم تتحوّل عيناه عن الباب المغلق. بدت من وراء الباب أصوات مبهمّة، حركة أقدام، تأوهات خافتة، أشاعت في جوّه الخالي روحاً مبلّلاً بعرق العناء المرّ. ونظر في الساعة، مرّت عيناه بالنافضة المكتنّزة بأعقاب السجائر، ونفخ وهو يمدّ ساقيه.

وفتح الباب فمرقت منه امرأة عجوز مطوّقة الوجه بخمار أبيض. ردّت الباب وراءها وتقدّمت ولكنه وثب معترضاً سبيلها. انتهت إليه وقالت برقة:

- كلّ شيء حسن، لا تقلق . . .

فقال بانقباض:

- ولكن طال الوقت .

- إنها ساعة لا يعلم بأسرارها إلا الله فتوكّل عليه .

## شهر العسل ٢٤٧

- المهّم كيف حال السّت؟  
- قالت الطبيبة إنّها ستلد ولادة طبيعيّة...  
- حمدًا لله.  
- ولكنّ السوابق تقلقني...  
- لا لوم عليك في ذلك.  
- ولكن لا يجوز الخوف من السوابق أكثر ممّا ينبغي.
- عين الحكمة والصواب.  
- أهذا هو رأيك أيضًا؟  
- علينا أن نستفيد من السوابق لا أن نخالفها.  
- كانت سوابق إجهاض جبريٍّ ونزيف.  
- لا أعادها من أيّام.  
- ترى كيف يمكن الاستفادة منها؟  
- بأن نتجنّب الأسباب التي أدّت إليها...  
- ولكنّه الحبل نفسه.  
- فلنتجنّبه.  
- ولكنّ أمر الله نفذ وكلّ شيء بأمره.  
- أظنّ لك دخل في الأمر أيضًا؟  
- طبعا...  
- ماثور عنك حبّ الأبوة بلا حدود...  
- لا أنكر ذلك.  
- صدّقني إنّهُ حبّ لا معنى له.  
- إنّهُ أصل الوجود!  
- لا معنى له في هذا العصر.  
- إنّها مداعبة ولا شك؟  
- فقال الصديق وهو يشير إلى الباب المغلق:  
- أهذا وقت تجوز فيه المداعبة؟  
- ولكنّه أصل الوجود بلا ريب.  
- في عصرنا هذا تقع له مضاعفات لم تكن معروفة قديمًا.  
- الطبيبة قالت إنّها ستلد ولادة طبيعيّة.  
- فليباركها الله.  
- ولكنّ الوقت طال وها نحن في الهزيع الأخير من الليل؟  
- يا لها من معاناة تهرّ لها الأفئدة.  
- اسمعني برأيك؟
- لا رأي لي يعتدّ به في هذه الشئون ولكن ماذا قالت الطبيبة في السابقة الأولى؟  
- كانت في الواقع داية ولذلك أرجعنا الإجهاض الجبريٍّ إلى جهلها...  
- والسابقة الثانية؟  
- قالت الطبيبة إنّ النزيف حدث نتيجة لعيب في الجهاز...  
- وهل برأ الجهاز من عيبه؟  
- هيأت لها ما استطعت من دواء.  
- إذن فلا داعي للقلق.  
- ولكنّ الوقت طال والمعاناة تتراكم.  
- وانطلقت من وراء الباب المغلق نأوّه عميقة، أعقبته صرخة مدوّية، ثمّ موجة متقهقرة من الأنين.  
- صمت الزوج محدّقًا في الباب. وكما مضى الانتظار بلا نتيجة قال الصديق:  
- لعله البشير...  
- هي حال تتكرّر من أوّل الليل.  
- يا لها من ولادة عسيرة!  
- ولكنّ الطبيبة قالت إنّها ستلد ولادة طبيعيّة.  
- إذن فهي ولادة طبيعيّة طويلة!  
- من أين لي باليقين؟  
- فلنرجع إلى أهل الخبرة.  
- لديها طبيبة ممتازة.  
- الآراء تختلف.  
- هل لديك اقتراح عمليّ؟  
- دعنا نفكّر.  
- قلت إنّ الآراء تختلف.  
- هذا قول صادق في ذاته.  
- كيف نبليغ اليقين؟  
- الحقيقة بنت البحث!  
- إنك مغرم بالأقوال الماثورة.  
- سجيّة جميلة في ذاتها!  
- ولكن لا وقت لدينا للبحث.  
- هذا حقّ...  
- فكري تبلبل.  
- هذا حقّ.

- أراها حالاً مرضية... .
- هي أحياناً كذلك!
- لم يبق إلا الصمت والانتظار.
- قد تفوت فرصة نادرة!
- فماذا أفعل؟
- بعد تردّد:
- الصمت والانتظار!
- ولكنك قلت إنه قد تفوت فرصة نادرة؟.
- وقد لا يحدث شيء!
- فكيف أتصرف؟
- ففكّر!
- إذا ففكرت تلد امرأتي بسلام؟
- يتوقّف ذلك على نوع العلاقة بين التفكير والولادة!
- ترى أيّ نوع من التفكير يمكن أن يؤدي إلى الولادة السعيدة؟
- ففكّر!
- يبدو أنك لا تعرف أكثر مما أعرف.
- وربما أقل!
- فسأله بنرفزة:
- لم جئت؟
- جئت مدفوعاً بواجب اللياقة... .
- شكراً.
- عفواً.
- في أمثال هذه الظروف يقدم المجاملون ما في وسعهم من خدمات؟
- إني على أتم استعداد.
- ماذا في وسعك أن تفعل؟
- أنت في حاجة إلى نقود يا صديقي؟
- إني في حاجة إلى من يسعفها هي.
- عندها طيبة ممنازة.
- ترى هل أخطأت؟
- أنت؟
- نعم.
- ما كان يجوز أن تتركها لحبل.
- إنها بنت غلطة.
- بل أنت مجنون بالأبوة... .
- لهذا شأن الرجال جميعاً.
- احذر الأحكام الشاملة... .
- إذن لماذا يتزوج الرجال؟
- أفكرت يوم عشقتها في الأبوة أم في الاستمتاع بها؟
- الاستمتاع يحمد أما الأبوة فخالدة!
- ما كان أجدرك أن تحمد في السابقتين نديراً!
- الحياة لإقدام لا نكوص.
- إذن فلتتحلّ بالشجاعة.
- رماه بنظرة نافذة. همّ بالكلام ولكنّ الباب فُتح وخرجت امرأة في الخمسين منهوكة القوى. وقف الزوج لاستقبالها. قدّم لها صديقه وقدمها له باعتبارها حماته. رفضت المرأة الجلوس وظلّت متجهمة الوجه. سأها بإشفاق:
- كيف الحال؟
- الحمد لله... .
- ثمّ بحدة موجّهة خطابها للزوج:
- إني أحتجّ على ما تديعه في كلّ مناسبة من التشكيك في كفاءة ابنتي للحبل!
- فقال الزوج محتجاً بدوره:
- لم أشكك في كفاءتها ولكنّ الحكمة تقتضي تذكّر الأزمات السابقة!
- لا عيب في ابنتي على الإطلاق.
- إني مؤمن بذلك.
- العيب فيك أنت!
- أنا؟!
- طالما نغصت صفوها بنزواتك حتى سممت بدنها فأصبحت جميع شؤون حياتها عسيرة لا ولادتها فقط!
- علم الله أنّ زوجاً لا يحبّ زوجته كما أحبها.
- وجريك وراء كلّ من هبّت ودبّت من النسوان؟
- أعوذ بالله، أتصدّقين شائعات يفترها عليّ الحاسدون؟
- أنا لا أتكلّم بلا حساب دقيق.
- وأنا مظلوم ظلم الحسن والحسين.
- وتدخلّ الصديق قائلاً بلطف:

## شهر العسل ٢٤٩

- على أيّ حال فنحن سعداء ولن نسمح لمخلوق  
بإفساد حياتنا السعيدة!  
دوّت صرخة وراء الباب المغلق فألجمت الألسن.  
أسرعت المرأة إلى الحجره فأغلقت الباب وراءها.  
عاد الصديقان إلى مجلسهما وعاد التوتّر يركب الزوج  
جسداً وروحاً. لم يجد من يفرغ فيه شحنة قلقة سوى  
صديقه فقال له:

- كلامك جاوز كلّ حدّ...

- كثيراً ما أنسى نفسي في الحديث فيغلبني الصدق.  
- قد يغلبك الصدق مرّة أخرى فتخرب بيتي.  
وقبل أن يرده عليه دقّ جرس الباب الخارجي. قام  
الزوج فاستقبل زائراً جديداً في تلك الساعة من  
الليل. عجوز طاعن في السنّ. لو قدّر عمره بتجاعيد  
وجهه وعضونه لجاوز المائة ولكنّه تمتّع بحيويّة لا بأس  
بها. وهو نحيل لدرجة مخيفة كأنه محض عظام. برزت  
وجنتاه وفكّاه وغارت عيناه فلم يبدُ في محجريهما إلّا  
ظلام. وترّبع رأسه فوق عنقه الدقيق ضخماً أصلع  
منبعج الجبين. وعكس الوجه هيئة جامدة بل متحجّرة  
ونذت عن القدمين خطوات متقاربة غير مسموعة.  
قبّل الزوج يده المدبوغه، قدّم إليه صديقه، قدّمه هو  
باعتباره صديق المرحوم أبيه والمرحوم جدّه من قبل،  
وجاءه بفوتيل فأجلسه بينهما وهو يقول:  
- لم أتوقّع أن تتجشّم مشقّة الحضور في هذه  
الساعة يا عمّاه...

فقال العجوز بصوت غائر مثل عينيه:

- طال انتظاري للبشرى فقرّرت زيارتك...  
- ما كان ينبغي أن تكلف نفسك هذا التعب.  
- هل من خدمة يمكن أن أقدمها لك؟  
- لا مطلب لي إلّا زوجتي.  
- يخيّل إليّ أنّها ولادة عسيرة حقاً؟  
- قالت الطيبة إنّها ستلد ولادة طبيعيّة.  
- عظيم...  
- ولكنّها طالّت كما ترى.  
- هذا واضح...  
- وعندما أتذكّر المرّتين السابقتين؟...  
- المؤمن لا يخاف ولا يقلق.

- أشهد أنّه يحبّها فوق كلّ شيء.

فالتفتت إليه متسائلة في حدّة:

- ماذا تعرف عن أسرار هذا البيت؟  
- أعرف ما يجدر بالصديق أن يعرفه.  
- إذن فأنت خبير ولا شكّ بغرامياته؟  
- لا غرام له إلّا الأبوة.  
- بل لعلّك تشاركه بعض مغامراته ولذلك تنبّري  
للدفاع عنه؟

- سيّدتي!

- إنّ خير من يفهمكم.

- الزوج الوفيّ يظنّ وفيّاً حتّى لو تسلّل بصره إلى  
هذه أو تلك من النساء...  
- ما شاء الله...

- صدّقيني يا سيّدتي، إنّهُ لا يثبت أركان الحياة  
الزوجيّة ويحبّها الملل مثل التنقّل العابر بين النساء!  
- ها أنت تعترفا

فصاح الزوج:

- أنا لم أعترف، وأعلن استنكاري لهذه النظريّة!  
فقال الصديق متراجعاً:

- إنّني أصرب مثلاً ليس إلّا.

فهمت المرأة:

- يا لسوء حظّك يا ابنتي!

فقال الصديق:

- لا تخلو حياة من المرّ مهما تكن حلوة، وأشهد أنّي  
ما سمعت زوجة صديقي تشكو قطّ.

- ذلك أنّها من الصابرات الصديقات!

- لو كان هناك ما يدعو للشكوى لشكّنت...

- حتّى الجوع... تصوّرت أيّاماً من الجوع!

فصاح الزوج:

- الجوع!

وقال الصديق:

- لعلّها تشير إلى الأيام التي ندرت فيها اللحم؟

فقال الزوج:

- على أيّامك يا حماتي أكل الناس لحوم الخيل.

فهمت المرأة في كبرياء:

- كانت أيّام بلاء واحتلال.

- فقال الصديق: كيف تتصوّر الدنيا بغيره؟
- هذا ما ردّده له مرارًا.
- فقال العجوز باسمًا عن أنياب عتيقة:
- أنت مخطئ يا بني، مخطئ في حقّ نائر عظيم.
- أشكّ في ذلك يا بني؟
- نائر عظيم؟!
- ضحك الصديق متسائلًا:
- بل زعيم الثوار في كلّ زمان ومكان.
- ألا يُتوقّع منّي مثل ذاك القول الحكيم؟
- لغة أيّ عصر هذه؟
- هذا أقلّ ما يقال!
- لغة العصر، لغة الغد...
- شكرًا.
- فلنختر حديثًا آخر...
- عفواً.
- ما جدوى الأحاديث المعادة؟
- بخيل إليّ أيّ رأيت سيادتك قبل الآن؟
- أصارك يا عمّاه بأنني لا أفكر إلا في سلامة زوجتي.
- يعرفني أهل الحيّ جميعًا.
- لسّ من أهل الحيّ فمعدرة ولتحلّ بركتك بالبيت.
- فلتحلّ به بركة الله الرحيم.
- صديقي قلق وفي حاجة إلى من يشجّعه.
- علينا أن ندعن لمشيئة الله قبل كلّ شيء.
- والظاهر أنّ قوله لم يبشّر بالطمانينة المفتقدة فساد الصمت قليلاً حتّى خرّقه الزوج قائلاً:
- جئت لها بطيبة ممتازة.
- لم تكن توجد طبيبات في الزمن الماضي.
- ذلك زمن مضى وانقضى.
- أعرف زوجة ماتت في مستشفى خاصّ تحت إشراف ثلاثة أطباء!
- أعوذ بالله!
- فلا عاصم لنا إلا إرادة الله.
- ولكيّ لم أخطئ باستدعاء الطبيبة!
- وقال الصديق متضايقًا:
- ما أجدر أن تتجنّب ذكر الموت في موقفنا هذا.
- فقال العجوز:
- ولكنّه حديث كلّ يوم وكلّ ساعة.
- فقال الزوج:
- هذا حقّ ولكنّه حديث غير محبوب...
- لم يا بني؟
- الموت لا يحبّه أحد!
- يا له من خادم أمين مظلوم!
- مظلوم؟!
- كيف تتصوّر الدنيا بغيره؟
- أفضل ممّا كانت معه عشرات المرات.
- أنت مخطئ يا بني، مخطئ في حقّ نائر عظيم.
- نائر عظيم؟!
- بل زعيم الثوار في كلّ زمان ومكان.
- لغة أيّ عصر هذه؟
- لغة العصر، لغة الغد...
- فلنختر حديثًا آخر...
- ما جدوى الأحاديث المعادة؟
- أصارك يا عمّاه بأنني لا أفكر إلا في سلامة زوجتي.
- فلتحلّ بها بركة الله.
- أمين.
- ولكن خبرني هل جدّدت مقبرة الأسرة؟
- فهتف الصديق:
- يا أطفاف الله!
- وتساءل الزوج بامتعاض:
- من أخبرك أنّي أفكر في ذلك؟
- تلك كانت رغبة أبيك لولا أن عاجله الموت.
- أمّا أنا فلا يمكن أن أنفق ملياً على تجديد مقبرة!
- أحسنت.
- وقال الصديق نافعًا:
- إني أنذر جنيهاً استرليتيًا إذا تغيّر الحديث.
- فقال العجوز دون مبالاة للمقاطعة:
- كلّما رأيت مقبرة متجدّدة حزنت!
- فتساءل الصديق:
- الظاهر أنّ سيادتك تزور المقابر كثيرًا؟
- شيعت المئات من الموتى بحكم سنيّ الطاعن!
- وماذا يحزنك في مقبرة متجدّدة!
- أرى المقبرة العتيقة البالية من آيات الرحمن!
- فقال الزوج برجاء:
- هلاً حدّثتنا بحديث آخر؟
- سنجد حديثًا أو آخر، سيشرق بنا ويغرب، ثمّ لا مفرّ من العودة إلى الحديث الأوّل.
- إنّه حديث كتيب خانق للقلب.
- أشكّ في ذلك!

## شهر العسل ٢٥١

انتبهت إلى وجود العجوز فصافحته مصافحة حميمة، وقال الرجل:

- أهلاً بك يا عزيزة، رحم الله أباك.

- أهلاً بك يا عمّاه.

- وكيف حال الأمّ الصغيرة؟

- طبيعياً وإن تكن شديدة بعض الشيء.

- كلام يذكّرني بأقوال الأطباء!

- ماذا تعني يا عمّاه؟

- كلام يشي باحتمالات كثيرة!

- الحال طبيعياً جداً ولكننا لا ندخل في علم الله...

- آه من الأطباء إذا ردّوا ذكر الله!

- ولكنّي أتكلّم بصراحة.

وقال الزوج بحدّة:

- صارحوني بكلّ شيء.

فقالت الطبيبة:

- ضع ثقتك في الله.

فقال العجوز:

- كلام له مغزى خاصّ.

فقال صديق الزوج:

- عمّا يتلّهف على سماع كلمة سوء!

فقال العجوز:

- وأنت تتلّهف على سماع كلمة.

وقالت الطبيبة:

- الحال طبيعياً جداً يا عمّاه.

- لم تركت الحجر؟

- لأستريح دقيقة.

- أردت الدخول فمنعوني.

- لا يوجد رجل في الداخل.

- وما رأيك أنت في ذلك؟

- لا رأي لي في ذلك يا عمّاه.

- بل تستطيعين أن تدلي برأي حاسم في الموقف.

فقال الزوج بإصرار حازم:

- مكانك معنا يا عمّاه.

وتساءل الصديق:

- ألم تجيء للطمثان على ابن صديقك الراحل؟

- لا شك في ذلك من ناحيتي!

فقال العجوز بصوت هامس مخاطباً نفسه:

- عليّ ألاّ أياس، مهما طال الزمن، حتّى لو طال بالقدر الذي أتصوّره كافيّاً.

ثمّ نهض قائماً. نظر نحو الباب المغلق وقال:

- آن لي أن ألقى نظرة.

فعلت الدهشة وجهي الصديقين وتساءل الزوج:

- على أيّ شيء يا عمّاه؟

- على زوجتك.

- زوجتي... شكراً... ولكن لا تكلف نفسك مزيداً من التعب.

- إنه واجب يا بني!

- ولكنّه غير جائز!

- كيف؟

- غير جائز بلا حاجة إلى تفسير!

- إني صديق أبك وجدك من قبل، صديق حميم...

- لو كان أبي نفسه مكانك ما خطر له ذلك!

- إنك تمنعني من أداء واجبي!

- إني أطلبك بالجلوس مشكوراً...

- هبني طبيباً.

- ولكنك لست طبيباً!

- وما الفرق يا بني؟

- مزاح لطيف!

وقال الصديق:

- ويا له من مزاح!

فقال العجوز دون التفات لمقاطعة الصديق:

- إني الصقّ بك من الطبيب.

- اجلس يا عمّاه مشكوراً مكرّماً!

فُتح الباب، خرجت امرأة متوسطة العمر تتهادى في معطف أبيض وتنظر من خلال نظارة أنيقة ذات مشبك ذهبي. أقبل الزوج نحوها متسائلاً في لهفة:

- دكتورة؟

فقالت المرأة بهدوء:

- غير منتظر أن تلد سريعاً ولكنّها ستلد ولادة طبيعياً.

محدّثًا في لا شيء بنظرة باردة مترقّعة. واضح أنّه لم يجِدْ جديد وأنّ الكفاح غير المنظور يضطرم بلا هوادة. وفتّح الباب عن زاوية ضيّقة وتسلّلت منه فتاة في العشرين ترفل في فستان أبيض. أشرقت بوجه بدا- رغم الإنهاك - كالقمر الساطع. حيّت الجالسين ولكنّ العجوز لم يبد حراكتًا وظلّ مغمض العينين. وقالت للزوج:

- إتّما تريدك.

قام الرجل فمضى إلى الداخل وأغلق الباب. ذهبت الجميلة إلى كنبه في الجانب المقابل لمجلس الرجال ثمّ جلست. لم يحوّل الصديق عينيه عنها مذ طلعت عليه من الحجرة. التقت عيناهما مرّة ثمّ غضّبت البصر في إعياء. قال:

- لعلّك في حاجة إلى شراب منعش...

فأجابت:

- إني في حاجة إلى شيء من الراحة.

- شقيت على نفسك بالبقاء في الداخل إلى جانب شقيقتك.

- إتّما معاناة مرّوعة...

وقام، ربّما متشجّعًا بنوم العجوز، فجلس إلى جانبها وهو يقول:

- قلبي معك طيلة الوقت!

- الله معها...

- من أجلك جئت في هذه الساعة من الليل...

- ظننتك جئت من أجل صديقك.

- كان من الممكن أن أزره صباحًا، ولكن من أجلك أنت...

- ماذا تريد؟

- إنك مرهقة الأعصاب؟

- ربّما.

- كلانا مرهق الأعصاب!

- أنت أيضًا؟

- شاركت صديقي آلامه، يضاف إلى ذلك تفكيري الدائم فيك!

- شكرًا...

مال نحوها كالمسحور فلثم فاهها. لم تقاومه ولم

- ولكنّه لا يعاني ولادة عسيرة!

- وأنت لا تعرف الزوجة إلّا بصفتها زوجة ابن صديقك الراحل.

- والدها أيضًا كان صديقًا لي...

- لعلّك شيّعتة كالآخرين؟

- وهو ثواب كبير...

وهتف الزوج:

- مكانك بيننا يا عمّاه ولا لزوم للأخذ والردّ.

فرفع العجوز منكبها آسفًا وقال مخاطبًا الطيبة:

- إنكم تعدّبون الناس بلا سبب معقول.

فقال الطيبة:

- نحن نوذّي واجبنا الإنساني...

- ولا تميّزون الصديق من العدو.

- ما أظرفك يا عمّاه!

- وأنتم المسئولون عمّا يحلّ بالإنسان من ضرر

بالخ...

- ساعحك الله يا عمّاه.

- فليساعحك أنت.

وسأله الصديق:

- ماذا تعني يا عمّنا؟

- لا غموض في كلامي.

- لعلّه يحتاج إلى شيء من التبسيط.

- يتعدّر التبسيط على من هو في مثل عمري.

- إنّ عطفك يا عمّاه يُركبك الصعب...

- إنك فتّى مشاغب.

أحنت الطيبة رأسها تحيّة ثمّ رجعت إلى الحجرة فأغلقت الباب. وهتف الزوج:

- يا لها من ليلة ليلاء!

فقال صديقه:

- عمّا قليل يطلع الفجر.

عاد العجوز إلى مقعده وهو يقول:

- ما باليد حيلة.

وأسند رأسه إلى ظهر الفوتيل وأغمض عينيه مستوهمًا الراحة أو النوم. وارتفع الصراخ من وراء

الباب. مرّات متتابعات ثمّ سكت. تابعه الزوج باهتمام ولكنّ الباب المغلق تبدّى صلبًا عنيدًا أصمّ



- تشجعه. قالت:
- معذرة فإنّي أكره الرجال في هذه اللحظة!
- ذاك من تأثير ما شاهدت في الحجرة ولكنّها لحظة سرعان ما تمضي.
- من يدري، ولكن كيف قبلتني؟
- إنّه سحرك الذي لا يقاوم، وغرامي القديم الذي لم ترفضه على الأقل!
- إنّه تصرف لا يُغتفر.
- هيّا معي إلى الليل في الخارج.
- أحلام جنونيّة.
- سنستقبل الفجر النديّ معًا.
- هيهات لقلب ميت أن يستجيب لجنونك.
- إنّه الدواء الشافي لما نعاني من اضطراب.
- أراد أن يقبلها مرّة أخرى ولكنّه رآها تنظر نحو العجوز المغمض العينين باهتمام طارئ فقال:
- لا تهتمّي له، إنّه مستغرق في النوم حاول أن يضمّها إلى صدره ولكنّها دفعته فأراد أن يعيد المحاولة وإذا بصوت العجوز يقول دون أن يفتح عينيه:
- عد إلى مجلسك يا بنيّ!
- ارتدّ عنها منزعجًا. نظر نحو العجوز فرآه مغمض العينين مطروح الرأس إلى ظهر الفوتيل. قطّب حانقًا ولكنّه لم يتخلّ عن مجلسه. جاءه الصوت البارد يقول معنقًا:
- لا ترتكب فضائح أمام الباب المغلق!
- قام الصديق متعثرًا. عاد إلى مجلسه حانقًا. فتح العجوز عينيه فتلقّى نظرة الفتاة الثابتة. تبادلنا نظرة طويلة دسمة. ابتسما معًا. قام العجوز وهو يقول:
- أعصابك مرهقة يا ابنتي...
- جلس إلى جانبها. تناول يدها برقّة فوضعها بين يديه المدبوغتين. قال:
- ما أحوجك إلى راحة طويلة!
- جذبها بلطف فاستسلمت له حتّى أجلسها على فخذه وهو يهمس:
- كما كنت تجلسين وأنت صغيرة...
- ثمّ وهو يربّت على خدّها:
- رحم الله أباك...
- فقال الصديق بغضب:
- وضع غير لائق.
- فقال العجوز:
- كلّ شيء في وضعه!
- ألا ترى أنّها لم تعد صغيرة بعد؟ ومدّ لها شفّتيه الجافّتين المكرمشتين فوهبته شفّتيها فراح يقبلها. وقف الصديق هاتفًا:
- أيّ فعل فاضح!
- ولكنّ الفتاة طوّفته بذراعيها وأنامت رأسها على كتفه منخرطة في هيمان ساحر. صاح الصديق:
- لا تتبادي في الإجمام.
- فهمس العجوز في أذن الجميلة:
- اهدهني يا جميلتي.
- فغمغمت:
- أريد أن أنام.
- ستنامين كأسعد ما يكون.
- وفُتح الباب وخرج الزوج. عاد إلى مجلسه فجلس واضعًا رأسه بين يديه. توقّع الصديق أن ينفصل العجوز عن الفتاة ولكنّه واصل مناغاته وكأنّه لم يشعر برجوعه. عند ذلك صاح الصديق:
- دعها أيّما العجوز القبيح!
- رفع الزوج رأسه منزعجًا وقال لصديقه:
- ما هذا الصباح... أجننت؟
- فأشار إلى العجوز والفتاة قائلاً:
- انظرا!
- لعلّها في حاجة إلى عطف، عد إلى مجلسك.
- أنت أعمى؟
- احترم حالي التعيسة!
- وهمس العجوز في أذن الفتاة:
- هلمّي نذهب معًا.
- إلى أين؟
- إلى الليل...
- الصبح قريب.
- ما زال في الليل بقيّة تكفي للعاشقين!
- خذني إلى حيث تشاء.

ذراعيه وهي ترمقه في ارتياح، ثم هرعته إلى الحجرة  
فدخلت وأغلقت الباب وراءها. تتم العجوز متمعضًا:

- ما أضيعها من ليلة!

ومضى نحو مقعده فارتمى عليه وأغمض جفنيه.  
وجلجلت صرخة أخرى. تنهد الزوج متسائلًا:

- أما لهذا العذاب من نهاية؟

- لا تتوقع خيرًا طالما هذا النحس باقي!  
ولكن الباب فُتح، ومنه مرقت الطيبة متهللة  
الوجه. هتف الزوج واقفًا:

- ماذا وراءك؟

- مبارك عليك.

- حقًا؟!

- مولود سعيد، حال الوالدة طيبة وإن تكن جدّ  
متعبة...

- حمدًا لله...

وشدّ الصديق على ذراعه قائلاً:

- مبارك.

على حين قال العجوز دون أن يفتح عينيه:

- تهازي يا بني.

وقالت الطيبة:

- كانت ولادة عسيرة حقًا، لم أصارحك بشيء طبعًا  
ولكنني استعنت بأحدث وسائل التكنولوجيا...

فسألها الزوج:

- وهل من الممكن أن أراه الآن؟

ولكن جرس الباب الخارجي دق فجأة. هرول  
الزوج إلى الباب وما كاد يفتحه حتى اندفع إلى الداخل  
أربعة رجال شاهري المستسات. أغلقوا الباب

وراءهم وصاح أولهم:

- ليلزم كل مكانه، لا صوت ولا حركة...

تقهقر الزوج أمامهم حتى جلس - مؤتمرًا - على  
مقعده، وإلى جانبيه أجلست الطيبة. تساءل الزوج:

- من أنتم؟ ماذا تريدون؟

- عليك أن تجيب لا أن تسأل.

قلّب الرجل عينيه فيهم مهددًا وكأ رأى العجوز -  
وقد فتح عينيه - قال له بنبهة جديدة:

- معذرة يا عمّاه عن إزعاجك ولكنها الضرورة...

- ما أجل عينيك المخضلتين بالأحلام!

- ما أهدب همساتك ولمساتك!

فهتف الصديق:

- ماذا يحدث في الدنيا؟

فقال الزوج محتدًا:

- تصرّف كرجل مهذب.

- ثمة علاقة عاطفية تنشأ بين العصر الحجريّ

والعصر الحديث!

- تأدّب، إنه عمّاه، عمنا جميعًا، ألا تفهم؟

- أنتركها تذهب معه؟

- لهذا شأنها...

- ولكنه يحدث في بيتك ومع بعض أهلك؟!

- عندي من الشواغل ما يكفي...

وكان العجوز قد قام وقامت الجميلة معه مستسلمة

كالمنومة فوثب الصديق معترضًا سبيلها وهو يقول:

- لن أسمح بذلك، سأدافع أنا الغريب عن

شرفك!

فقال له العجوز بنبهة ساخرة:

- إنها نفس الرحلة التي دعوتها إليها!

- ولكنها معك تفقد كل الإنسانية!

وصاح الزوج:

- اذهبوا جميعًا واركبوا في سلام...

فقال العجوز:

- سمعًا وطاعة...

ولكنّ الصديق صرخ:

- دعها فهي لي أنا وحدي، أنا المرشح للزواج

منها.

فسأله العجوز ساخرًا:

- منذ الذي رشحك؟

فأجاب الصديق بحنق:

- كانت الأمور تسير سيرًا حسنًا بيني وبينها حتى

تدخل صوتك الكريه...

وجلجلت وراء الباب المغلق صرخة مدوية. أفضع

من سابقاتها جميعًا. تحوّل الزوج نحو الباب مندعرا.

تسمر الصديق في موضعه. رفعت الجميلة رأسها عن

صدر العجوز كمن تفيق من غيبوبة، تخلّصت من

## شهر العسل ٢٥٥

- فسأله العجوز:
- عمّ تبحثون يا بني؟
- عن مولود دخل الدنيا في هذه الساعة.
- وهل كنتم تتوقعون مولده؟
- أجل... منذ عام ونحن نرقب مقدمه!
- فتساءل الزوج:
- ما معنى هذا الكلام الذي لا معنى له؟
- فانقضّ عليه الرجل ولكمه لكمة أذهلته عمّا حوله
- وقال:
- تأدّب، نحن نتبع إشارات جهاز دقيق لا يكذب... .
- انقبضوا في الصمت حتى قالت الطبيبة متسائلة:
- وماذا تبغون من مولود لم يكد يرى النور؟
- إنّه يهدّد الأمن والسلام، ونحن لن نغفك من المسؤولية يا دكتورة!
- وقال الرجل الثاني:
- كما لن نعفي منها الأب والأم... .
- وقال الرجل الثالث:
- جميع من شهد الولادة مشتركون في الجريمة!
- وقال الرابع:
- الجميع عدا عمنا العجوز الذي يعفيه سنّه من مشكلات الدنيا.
- همس الصديق - وهو لا يدري - في أذن الطبيبة:
- وقعنا تحت رحمة مجانين.
- فانقضّ عليه الرجل الأوّل ولكمه لكمة شديدة
- وقال:
- ستحاسب على قلّة أدبك كما ستحاسب على اشتراكك في الجريمة.
- وقال العجوز موجّهاً خطابه للزوج:
- تمالكوا أعصابكم والزمو الهدوء فالموقف أخطر ممّا تظنّون... .
- فسأله الزوج:
- إنك تعرفهم كما يعرفونك فخبّرنا عمّا يريدون؟
- فقال الرجل الأوّل بصراحة:
- نريد المولود.
- ماذا ستفعلون به؟
- ننقل الدنيا من شرّه.
- فقال الزوج للعجوز:
- إنهم يريدون اغتيال المولود البريء.
- فقال العجوز:
- ما عليك إلّا الإذعان للقدر!
- نتركهم يغتالون وليدًا لم يكد يرى النور؟
- ما جدوى إهدار دماء جديدة بلا فائدة؟
- وصاح الرجل الأوّل:
- حذارٍ أن تبدر حركة عن أحدكم فيهلك في الحال.
- وتقدّم الرجل نحو الباب المغلق ولكنّ العجوز قام وهو يقول:
- أتقتحمون الحجرة على النساء؟
- فتوقّف الرجل قائلاً:
- نحن قوم متحصّرون فتصرّف أنت يا عمنا... .
- مضى العجوز إلى الحجرة، نقر على الباب مستأذناً، ثمّ دفع الباب ودخل، غاب قليلاً ثمّ رجع حاملاً الوليد بين ذراعيه تتبعه الحياة والفتاة الجميلة والدادة في اضطراب وتساؤل. وقال العجوز للزوج:
- الأمّ مستغرقة في النوم فاطمئن من هذه الناحية.
- ورأت الدادة الرجال المسلّحين فهتفت:
- اللّهمّ الطف بنا.
- وتساءلت الجميلة:
- أغراب ومسدّسات. ما معنى هذا؟
- أمّا الحياة فقد سألت الزوج بحدّة:
- من هؤلاء؟
- فأجاب بنبرات باكية:
- إنهم يريدون الوليد... .
- ماذا يريدون منه؟
- فقال الرجل الأوّل:
- نريد أن ننقل الدنيا من شرّه!
- فصاحت الدادة:
- مجانين... مجانين... انظري إلى أعينهم!
- فحركّ الرجل مسدّسه مهدّداً وقال:
- سنطلق النار لدى أيّ حماقة تُرتكب!
- فقال الحياة مغطّبة الزوج:

- لعلمهم بعض مدمني المخدرات من أصحابك؟!  
فرغ الزوج يده إلى موضع اللكمة وتأوه فقالت  
الحياة وهي تزداد قسوة:
- أو لعلمهم بعض أعدائك الذين تسيء إليهم في  
نزواتك لندفع نحن الثمن!
- واقترب الرجل الأول من العجوز فألقى على الوليد  
نظرة وقال بحقد:
- وقعت، أخيراً وقعت، سنريح العالم من شرك!  
ورثب الزوج كالمجنون ولكنه عولج بلكمات كالمطر  
فتهاوى فوق مقعده. وبسرعة فائقة أجلس الرجال  
المسلحون الآخرين على مقاعد متقاربة فأوثقوا أيديهم  
وكمموا أفواههم، ثم وقفوا صفًا واحدًا وقال أولهم  
للعجوز:
- ضع الشيطان الصغير فوق الخوان.  
ثم قال لرجاله:
- لدى ابتعاد عمنا أطلقوا النار على الشيطان...  
تحرّك العجوز في صمت خائق، بين أعين محدقة.  
وفجأة انتفض الوليد في لافته فأزاحها وتجرّد عاريًا.  
وبسرعة مذهلة طار كالفراشة، انقضّ على الرجال  
الأربعة فلکم كلاً منهم لكمة بقبضته الصغيرة ثم رجع  
فاستقرّ فوق يدي العجوز. وقع ذلك بسرعة كسرعة  
الضوء، ذهل الرجال الأربعة وتجمّدوا. سقطت  
المسدسات من أيديهم. تقوّضت قاماتهم فتهاووا على  
الأرض لا حراك بهم. وخيم الصمت والجمود  
والرهبة. خيم الصمت والجمود والرهبة حتى تحرّك  
العجوز بالوليد فوضعه على الخوان. وراح يملّ أوثقة  
الرجال والنساء، ثم مضى بالوليد إلى حضن أمه، فلما  
رجع وجد الجميع واقفين في ذهول. يتبادلون النظرات  
ثم يركزونها فوق الرجال الراقدين بلا حراك.
- ما هذا؟!  
- أحقّ ما رأينا؟  
- أهو سحر؟  
- أنحن نيام؟  
- الوليد... أحقّ أنه هو؟...  
- لولا وجود الرجال الأربعة لمضى الحدث حلماً من  
الأحلام...
- إنّه حقيقة، حقيقة مخيفة...  
- لنسأل الله اللطف بعقولنا.  
وقالت الحياة:
- إنّه معجزة من معجزات الله القهار!  
فسأل الصديق الطيبة:
- ما رأيك يا دكتورة، ألدك تفسير لذلك؟  
فقالت (الدكتورة بحيرة شديدة):
- أحياناً، أعني في أحوال نادرة، عقب الآم معاناة  
رهيبة...  
- ماذا يحدث عقب الآم والمعاناة؟  
- ما يشبه المعجزة!  
- أن ينقلب وليد إلى قوّة كونيّة خارقة؟!  
- قريب من هذا ما سجّلته مدكّرات بعض الأطباء  
في العصر الفرعونيّ وفي العصور الوسطى.  
وتحوّل الصديق نحو الرجل العجوز فسأله:
- ما رأيك أنت يا عمّاه؟  
فقال العجوز بلا مبالاة بسؤاله:
- الأفضل أن نسأل عمّا يمكن عمله بهذه الجثث!  
وهتف أكثر من صوت:  
- الجثث!!  
وانحنت الطيبة فوق الرجال ففحصتهم ثم قامت  
وهي تقول:
- ربّاه... لقد فارقوا الحياة حقاً...  
فصرخ الزوج:  
- فارقوا الحياة؟!  
- بكلّ تأكيد.  
- يجب استدعاء الشرطة فوراً.  
فسأله الصديق:
- وبم نجيب إذا سُئلنا عن القاتل؟ أو إذا سُئلنا  
عن أسباب القتل؟!  
فقالت الفتاة الجميلة:
- يا له من موقف لم يخطر لأحد على بال.  
وقال الزوج:
- ستوجّه التهمة إلينا نحن!  
وتساءل الصديق:
- أمكن التخلص من الجثث؟

شهر العسل ٢٥٧

- ترى ما عدد الأربعة التي التهمتها؟ وعدد الخراف والعجول؟ والأفدنة من الخضروات والبقول؟ والأمواج من مياه النيل؟ والسعرات الحرارية التي استهلكك في اللعب والعمل؟  
وتشاءب طويلًا وهو يقول:

- سعيد من يبلغ هذا العمر وهو مرتاح الضمير  
وأسلم للصمت ليسترد حيويته. وأعجبه أن يسبح في صمت عميق لولا أن تناهى إلى سمعه حفيف ثوب أو تردّد أنفاس. فتح عينيه فرأى في وسط البهو تقريبًا عجوزًا مهلهل الثياب أعور حافي القدمين. تساءل:

- من؟

وأمعن النظر ثم قال بدهشة:

- جارنا القديم المسكين!

ولم ينس العجوز بكلمة فقال الرجل:

- ذكريات الصبا التي لا تُنسى، كيف صعدت إلى شقتي في الدور الخامس والثلاثين؟  
لم يتكلم العجوز ولم تند عنه رغبة في الكلام فقال:  
- أدفعتك الحاجة إلى المجيء؟  
وانتظر عبثًا أن يتكلم، ثم تساءل:  
- أتريد كالزمن الأول بعض النقود أو الملابس القديمة؟

تراجع العجوز خطوات فقال الرجل:

- خطرت على بالي مرّات فظننتك انتقلت إلى دار البقاء!

ولأول مرّة قال العجوز بصوت بارد:

- لم يجب ظنك!

- حقًا؟

- حقًا!

- كأنما جثت تحية لعيد الميلاد.

فقال بصوت غليظ:

- عليك اللعنة!

- اللعنة؟

- وعلى جميع المجرمين!

وتراجع أكثر فاخفى تمامًا. اختفى قبل أن يطفئ وقدرة تساؤلاته. قبل أن يجلو سرّ غضبه عليه وتنگره لإحسانه. وتساءل:

- وكيف نتخلص من جثث أربع عمالقة؟

فأجاب العجوز متطوّرًا:

- ولكنّه لا حلّ لديكم سواه...

وتحوّلت إليه الأعين مستطلعة ومستغيثة معًا فقال:

- طالما أبديت استعدادي لأداء أيّ خدمة تُطلب

مني، وها أنا أعتبر هذا العمل من اختصاصي...

وأعرض عنهم متّجهاً نحو الجثث حتى أطلّ بقامته عليها. مدّ يده إلى الجثة الأولى. رفعها ثمّ طرحها على كتفه اليسرى وكأنّه يرفع قشة. رفع الجثة الثانية فوضعها فوق الأولى بالسهولة نفسها. كذلك حمل الجثتين الأخريين على كتفه اليمنى كأنّه كان يتسلّى بلعبة محببة دون عناء. وكأنّه استجدّ لنفسه شبابًا أسطوريًا بمعجزة. وقال بهدوء:

- افتحوا الباب!

ومضى بحمله بأقدام ثابتة وفي غير جهد وفيما يشبه المرح والجميع يتابعونه بأعين ذاهلة. وظلّوا في وقتهم كالمثومين حتى أفاق الزوج فأقبل على الطيبة وهو يقول:

- أنت وحدك تستطيعين أن تعيدي العقول

المتطيرة إلى مستقرّها الآمن في الرؤوس.

## نافذة في الدور الخامس والثلاثين

مدّ ساقه مستسلمًا لظراوة الفتيل. شعر بشيء من الجهد في نهاية نهار حافل بالنشاط. أضاء الخادم العجوز مصابيح البهو وألقى نظرة أخيرة على البار والمائدة الشهية ثمّ همّ بالذهاب ولكنّه قال له:

- أطفئ النور حتى يأتي المدعوون.

فصدع العجوز بالأمر وذهب. أمّا هو فقد غاب هيكله النحيل في ظلمة المغيب. ومضى يرنو من خلال النافذة في الجدار المقابل إلى المقطم وراء النيل والحقول وشرقيّ المدينة. وقال لنفسه:

- عيد ميلاد جديد، سبع شمعات رمزية، ما أكثر

الأعوام وما أقلّ من بقي من الأصدقاء...

وأغمض عينيه وهو يتمتم:

ترامقا طويلاً حتى انقبض قلبه. وقال الشاب:  
 - تركتني أغرق يا نذل...  
 - لا ذنب عليّ، أنت وحدك المستول.  
 - غلبني الموج وخانتني قواي فاستغثت بك...  
 - لم أكن أحسن السباحة...  
 - بل كنت نحسناً بالقدر الكافي لإنقاذي...  
 ولكنتك هربت يا قاتل...  
 - لا تقل ذلك، القانون نفسه في ذلك العهد...  
 - القانون! إن الغرقى في ذمة المتفرجين!  
 - حسبت أن ذلك الموقف قد تصوّر لك في صورة  
 جديدة...؟  
 - ولم يتصوّر في صورة جديدة؟  
 - هكذا انقلبت الأحكام في عالمكم!  
 - لقد انقلبت في رأسك بحكم الخوف، وإني نادم  
 على مخاطبتك...  
 وغادره على حال من القلق فقد معها توازنه.  
 اضطرب صدره وجاش بالمتناقضات. وقال:  
 - أيّ الأفعال خير وأتينا شرّاً وكيف يهتدي  
 ضميري في هذه الغابة المتلاطمة بالفرائب! آه لو كان  
 أبي حيّاً!  
 وإذا بالصوت الذي طال انقطاعه يقول:  
 - أشكر لك حسن ظنّك.  
 غصّ البصر تهنّباً للمواجهة وعقل الخجل لسانه  
 فلم ينطق. وقال الأب بنبرة لم تخل من تهكم:  
 - أراك تستعدّ للاحتفال بعيد ميلادك!  
 ولما لم ينبس سألته:  
 - ماذا يمنعك من الكلام؟  
 فأجاب بصوت متهدّج:  
 - الذنب وإنه لكبير!  
 - أما زلت تذكر ذلك؟  
 - وكيف لي بالنسيان؟  
 - ولكنتي لم أحضر لإحياء ذكريات تافهة.  
 فتشجّع قائلاً:  
 - لقد اختلّ الميزان وانفرط العقد.  
 - وتروم الاهتداء إلى أساس مكين؟  
 - بكلّ ما أملك من قوّة.

- ماذا يقع في العالم الآخر من أمور يشقّ على  
 عقولنا هضمها؟  
 فجاءه صوت ناعم يقول:  
 - ألا زلت تكلم نفسك كالمجانين؟  
 وتراءت أمامه في فستانها البيتيّ الفضفاض تنضح  
 صحّة وشباباً. هتف بخوف:  
 - أنتي؟!  
 - دون غيرها وبجميع ذكرياتها...  
 - ذكريات أليمة لم يبرأ قلبي بعد من عذاباتها...  
 - يا للعجب!  
 - وبسببها عافت نفسي الزواج فبقيت أعزب حتى  
 النهاية.  
 - ولكنتك لم تفعل إلا أن عشقتني.  
 - رغم أنك كنت بمنزلة الأم، امرأة أبي.  
 - في مذهب العشق يجوز كلّ شيء.  
 - ما زالت الجريمة تنغصّ عليّ صفوي.  
 - أتسميها جريمة؟  
 - أنت التي أغريتني!  
 - كلانا أغرى صاحبه...  
 - إننا ذكرى الجحيم في حياتي...  
 - وهي أسعد ذكرياتي.  
 - يا لك من...  
 - امرأة طيبة كما إنك إنسان طيب...  
 - أهذا يمثّل الرأي هناك؟  
 - كيف لم يبلغك؟... عيد ميلاد سعيد...  
 وتوارت عن ناظره. تبلبل فكره. رغم ذلك داخله  
 إحساس دافئ بالارتياح. انجابت هموم ثقيلة. وقال  
 لنفسه:  
 - من يدري فلعلّي بالغت أيضًا في محاسبة النفس  
 عن غرق ذلك الشابّ المجهول...  
 سمع تنهدة عميقة. رأى الشابّ يقف عارياً يحملق  
 في وجهه ويقول:  
 - تقول إنك بالغت؟  
 فقال بأمل:  
 - بتّ أعتقد ذلك...  
 - يا لك من فاجرا!

## شهر العسل ٢٥٩

- حسن، ركّز فكري جيّدًا وأجب بأمانة على ما أسألك عنه.
- ستجدني طوع أمرك يا أبي.
- فهتف بإنكار:
- لست أباك!
- لست أبي؟!
- وتصورك هذا يقطع بأتك ما زلت تعيش في عصر حجري!
- ولكنّها علاقة حقيقية لا ينكرها أحد.
- بل علاقة خاصّة تعيقك عن الرؤية الصحيحة.
- شعر بأنّ عليه أن يجاربه لا أن يناقشه فقال:
- معذرة عن خطأ وقعت فيه بحسن نية.
- أجبني، ما أهمّ حدث وقع لك في طفولتك؟
- لا أذكر، لعلّ طفولتي مرّت دون أحداث تستحقّ الذكر.
- إجابة عمياء تنذر بعواقب سيّئة.
- الحقّ أيّ...!
- أجبني، ما أكبر خطيئة ارتكبتها في شبابتك؟
- استعدّ ولم يجب، فقال الرجل:
- ما زلت تخجل مما لا يدعو للخجل وهو نذير بأتك ستباهي بما يجدر بك أن تخجل منه...!
- آسف...!
- أجبني، كم شخصًا قتلت؟
- لم أقتل أحدًا والحمد لله.
- ألم يشرع أحد في قتلك؟
- كلاً، ماذا جعلك تظنّ بي ذلك؟
- تنهّد الأب بصوت مسموع فقال الرجل:
- عشت حياة طيبة...!
- طيبة!
- لم يشبها سوى أخطاء بسيطة، مثل ذلك...!
- لا يهمني أن أسمع إلى أخطاء بسيطة...!
- وقدمت للمجتمع خدمات لا بأس بها.
- لا بأس بها!
- ما الذي يهّمك حقًا يا أبي؟
- أبي مرّة أخرى!
- معذرة!
- ذهب العمر هباء...!
- ماذا تريدني على أن أفعل؟
- يا لضيعة لقاء ينتهي بالسؤال الذي بدأ به!
- لكنّك لم تقل شيئًا...!
- قلت كلّ شيء...!
- واختفى الأب. اختفى دون أن تقع عليه عين الرجل. لكنّه شعر بذهابه. وشعر بخيبة أمل مريرة. غير أنّها لم تطل. وجد نفسه يميل إلى تصديقه فيما قال من أنّه قال كلّ شيء. ما عليه إلا أن يستعيد أقواله.
- ومضى يتذكّر. وقال لنفسه:
- ليس هذا العيد كالأعياد السابقة، رأسي يدور، وينثر في دورانه ما استقرّ فيه من أفكار، كلّ شيء يتطاير...!
- ومضى يتذكّر. ولكنّه عوجل بحضور المرّضة. تصافحا بمودة. راقبها وهي تعدّ الحقنة معجبًا بشبابها الغضّ.
- خلع الجاكته فحسر كمّ القميص مسلّمًا ذراعه. حقنته وهي تقول:
- بالشفاء...!
- شكرًا.
- أعادت الحقنة إلى العلبة المعقّمة فقال:
- ابقني لتشتركي في حفل عيد ميلادي.
- ولكنّي لا أعرف المدعوّين.
- رجلان وزوجتاها، لم يبق سواهم!
- ولكنّي لم أحضر هديّة...!
- إنك أنت الهدية...!
- فأشارت إلى ثوب العمل المحتشم وقالت:
- لست مستعدّة.
- جميعنا في الحلقة السابعة والثامنة فلتكوني أنت صلاتنا الحميمية بالحاضر...!
- وتردّدت بعض الشيء فأمسك بمعصمها قائلاً:
- لن أدعك تذهين.
- فجلست على المقعد التالي لمقعده وهي تبسّم.
- سألها:
- كلّ شيء على ما يرام؟

٢٦٠ شهر العسل

- نحمده .  
- متى تزوجين؟  
- في نهاية الشهر القادم . . .  
- سأفتقدك كثيرا . . .  
- ألم تشيع بعد؟  
وضحكت فابتسم ابتسامة لا تخلو من فتور. وجاء المدعوون. الصديقان وزوجتهما. صُفَّت الهدايا فوق الخوان. تبودلت القبلات. جلجلت الضحكات. ثم التعارف بين السادة والمرضة. ملأ الرجل الكئوس بنفسه رغم مثول الخادم العجوز وراء البار. اختلطت النهاي بالنكات بالأحاديث. اشترك الرجل في الحديث بنصف عقل. بدا رغم التظاهر جاداً أو متفكراً. ولم يجلس كما جلسوا. جعل يذرع المكان حيناً، وحيناً يقف. وقال له الصديق الأول:  
- اجلس، وقوفك يرهقنا . . .  
وسألته زوجة الصديق الآخر:  
- لم لا تجلس؟  
فابتسم ابتسامة غامضة وقال:  
- شيء يحدّثني بأنه عيد الميلاد الأخير.  
وأكثر من صوت قال:  
- فال الله ولا فالك .  
فقال بإصرار:  
- سوف يتبين لكم صدق قولي .  
فسأله الصديق الأول:  
- ماذا بك؟  
وقالت زوجته:  
- لست كالعهد بك .  
والفتت نحو الممرضة متسائلة:  
- أهو على ما يرام؟  
فأجابت الفتاة:  
- على خير حال .  
فقال له الصديق الآخر:  
- إذن فدع ما لله الله واجلس واهنا بالعيد .  
فقال الرجل:  
- كلاً .  
- كلاً؟  
- قررت أن أؤذي واجبي .  
- أيّ واجب يا هذا؟  
- قبل أن تغتلب الفرصة إلى الأبد .  
- إنه الويسكي بلا شك! .  
- لا وقت للهدر .  
- ولكنّها ليلة عيدك .  
وقالت زوجة الصديق الآخر:  
- صديقنا ممتع، هذا كلّ ما هنالك .  
تحرك الرجل إلى الطرف الآخر من البهو. وضع قدمه على كرسيّ، اعتمد بثقله عليها، وجعل ينظر نحوهم باهتمام، منقلاً بصره من وجه لوجه، وقال:  
- الأيام تمرّ، وانتم تتقدّمون في العمر، لا بدّ من مواجهة صريحة بينكم وبين الأيام .  
فقال الصديق الأول ضاحكاً وهو يرفع كأسه:  
- صحّتك!  
وقالت زوجة الصديق الآخر:  
- عندي كلمة من الشعر المنثور، متى يُسمح لي بالفاثها؟  
فقال الرجل بوجه جاد:  
- لا محدّث غيري الليلة .  
- ولكنّها ليلة عيدك!  
- الأخير!  
- دعنا من هذه السيرة المزعجة!  
- اسمعوا، لقد شهدت مداولة قضائية ثمّ قوّضت في التحقيق والحكم والتنفيذ!  
- أراهن أنّ ذلك كلّه سيتمخض عن فكاهة رائعة!  
- أشكّ في ذلك كلّ الشكّ .  
فقال الصديق الأول:  
- أقترح أن نجاريه حتّى النهاية .  
فقال الصديق الآخر:  
- عظيم، اعتبرنا مائلين في محكمتك!  
- إنكم لكذلك أردتم أم لم تريدوا .  
- فماذا تروم منّا؟  
- قلت إنّ الأيام تمرّ وإنّ الأعمار تتقدّم، ولا بدّ من مواجهة صريحة .



## شهر العسل ٢٦١

هدير من الصراخ. حتى الخادم العجوز صرخ. وصاح الرجل ويده بالمسدس ترعش:

- ليلزم كل مكانه!

انكبت الزوجة فوق زوجها مجهشة في البكاء فتساءل ساخرًا:

- لم تبكين؟ تزوجته على رغمك وخنته بإرادتك، ما أقيح الدموع الجارية في أحاديث وجهك، أتودين للحاق به؟

فصاحت في غضب:

- مجرم... مجرم...

ولكن رصاصة استقرت في رقبتها قبل أن تكمل كلامها فتهافت إلى جانب جثة زوجها مضرجة في دماها. حملقت فيه العين في فزع أخرس فقال:

- أشهد أن القتل أكبر تحدٍ لقضبان الحياة...

فقال الصديق الآخر بصوت سائب لا ضابط له:

- ماذا دهك أيها الصديق الكريم؟... أنسيت أننا جئنا للاحتفال بعيد ميلادك؟!

فقال مسترًا ذاكرته من صدى الحدث:

- أنت أيضًا لم تقتل ولم تُقتل...

فقال الصديق برعب:

- كسائر الملايين، وإلا ما بقي على وجهها أحد،

ماذا دهك أيها الصديق الكريم؟

وقالت الزوجة وهي ترتعد:

- نحن أصدقاؤك، أنسيت العمر الطويل؟ أنسيت

مودة نصف قرن؟!

فحدجها بنظرة احتقار قائلاً:

- وأنت أيضًا، ما تزوجت منه إلا من أجل ثروته،

أنت أيضًا استسلمت، لا أحد منكم يحترم المقاومة!

- ألمحاسبني على عواطف طفولية اندلعت في قلبي

منذ نصف قرن؟

- إني أعرف عشيقك أيضًا!

- فليساعحك الله...

وقال له الصديق متوسلاً:

- دعنا نذهب!

فسأله بازدراء:

- لم لم تغضب ليرضك؟

- لتكن مواجهة صريحة.

فأشار إلى الرجلين وقال:

- أجيابي، كم شخصًا قتلتما؟

فضجوا بالضحك. انتظر حتى سكتوا ثم قال:

- أجيابي، لم تم تتعرضا للقتل حتى الآن؟

فضجوا بالضحك مرة أخرى، ولما ساد السكوت قال:

- أجيابا، لم تم تسجنا على الأقل؟

وقالت زوجة الصديق الآخر:

- ألم أقل لكم إنه سيتمخض عن فكاهة رائعة؟

فقال الرجل:

- إني مفوض لقتل من لم يقتل أو يُقتل أو يُسجن!

فهتف الصديق الآخر:

- يا عدو الأحيار!

وقال الصديق الأول:

- وأنت خبرنا متى قتلت أو قُتلت أو سُجنت؟

وقالت زوجة الصديق الأول متضاحكة:

- ونحن ألا نستحق القتل أيضًا؟

فقال الرجل بخشونة:

- نطقت بالحق يا سيدتي!

- حقًا؟!

- أنسيت الحب الذي ألف بيننا في الصبا؟

ولأول مرة تغير الجو. تجهمت الوجوه في ذهول.

وصاح الصديق الأول غاضبًا:

- أفقدت عقلك وذوقك؟!

فقال الرجل بتحد:

- لا مفر من الحقيقة مهما طال الزمن، كان حبنا

حقيقة ولكن تصادف أنك كنت ابن خالتها فقيل إنك

أولى بها، وإذا بالحقيقة تنهار وتستسلم!

- مجنون، وضخ لنا ما غمض من أمرك.

- انهارت واستسلمت، لم تقاوم، ثم استسلمت

مرة أخرى فيما بعد، ها أنا أصارحك بأننا - أنا وهي -

اشتركتنا في خيانتك زهاء خمسة أعوام!

انبت الصديق الأول واقفًا، همًّا بالانقضاض على

الرجل. ولكن الرجل أخرج مسدسه من جيبه، سدده

نحوه، ثم أطلق النار، فخر الصديق صريعًا وسط

- هذا حقّ، ولذلك فأني أحكم عليك بالإعدام.  
وثبت الجميلة في استغاثة فزعة ولكن الرصاصة  
عاجلتها فهوت على وجهها. أنزل قدمه من فوق  
الكرسيّ وتقدّم ببطء وهو يتفحص الجثث. ومدّ بصره  
إلى الخادم العجوز وراء البار فترأى شاحب الوجه  
بلون الموت. قال له:

- أيها العجوز الطيب، ما رأيك فيما شهدت؟  
لم يستطع الرجل أن ينس بكلمة فقال:  
- بدأت الخدمة في بيتي شابًا وها أنت تقف  
كالغصن الذابل الجاف في أرذل العمر...  
هزّ العجوز رأسه دون أن ينطق فقال:  
- كم أسأت إليك، حتى العذاب ذقته أحيانًا على  
يدي...  
... سيدي...  
- ولم يخطر لك مرّة واحدة أن تهجر بيتي...  
- رغم كلّ شيء كنت طيب القلب.  
- لا تكذب، كم تورّطت معي فيما يليق وما لا  
يليق، كم شهدت هنا ألوانًا من الدعارة السافرة!  
- أفضالك مع ذلك لا يمكن أن تنسى...  
- ولا مرّة واحدة فكّرت أن تعاملني بما أستحقّ؟  
- إني خادمك المطيع يا سيدي.  
- لذلك أحكم عليك بالإعدام...  
حاول العجوز أن يخفي وراء منصّة البار ولكن  
الرصاصة نفذت في رأسه. تنهّد الرجل بعمق. تنهّد  
بعمق حتى ملأ صوت تنهّده البهو...  
\*\*\*

شعر بالضوء يشعّ وراء جفنيه المغلقين ففتح عينيه.  
رأى الخادم العجوز واقفًا والبهو متوهّجًا بالضوء فنزع  
نفسه من جلسته المريحة وهو يقول:

- جاء المدعوون؟  
فقال العجوز:  
- جاءت المرّضة...  
ذهب الخادم، دخلت المرّضة مشرقة الوجه.  
تبادلًا ابتسامه عريضة. خلع جاكته وحسّر كمّ  
القميص وهي تُعدّ الحقنة.  
قالت:

- دعنا نذهب بحقّ صداقة العمرا!  
- لقد بلغنا نقطة لا يجوز التراجع عندها.  
- أتقتل الأبرياء بالجملة؟  
- لا يوجد بريء واحد.  
أخفت المرّضة وجهها بين يديها على حين هتف  
الخادم العجوز من وراء البار:  
- سيدي... أتقّي الله العظيم!  
فقال الرجل بارتياح:  
- أحسنت أيها العجوز.  
وأطلق الرصاص مرتين فسقط الصديق ثم سقطت  
زوجته. لم يعد يُسمع إلّا نحيب المرّضة الحسنة،  
فنظر الرجل نحوها وتساءل:

- لم قبلت الدعوة يا سيّئة الحظّ؟  
فواصلت النحيب دون أن تجيب فقال:  
- لعله ضميرك الذي أغراك بقبولها؟  
فقالت وهي تنسج:  
- قبلتها إكرامًا لك.  
فقال متقرّزًا:  
- ولكنك تبغضيني كالموت!  
- أنا؟  
- أجل.  
- لا نظلمني.  
- اختلست مرّة نظرة إلى المرأة ونحن في غمرة  
العناق. فرأيت الاشمزاز مطبوعًا على وجهك  
كالقطران!  
- أبدًا... أبدًا...  
- عرضت عليك ذات يوم أن تقبلي الزواج مني  
ولكنك اعتذرت...  
- كنت مخطوبة كما تعلم...  
- أجل، والحقّ أنّي أكبرتك.  
- ليس إلّا أنّي كنت مخطوبة...  
- ولكنك قبلت أن تكوني خليلتي نظير مكافأة من  
المال تستعينين بها على إعداد نفسك للزواج...  
- سيدي...!

- عرضت عليك ذات يوم أن تقبلي الزواج مني  
ولكنك اعتذرت...  
- كنت مخطوبة كما تعلم...  
- أجل، والحقّ أنّي أكبرتك.  
- ليس إلّا أنّي كنت مخطوبة...  
- ولكنك قبلت أن تكوني خليلتي نظير مكافأة من  
المال تستعينين بها على إعداد نفسك للزواج...  
- سيدي...!  
- أمّ تقاومي! ماذا يُغضّ لكم المقاومة؟  
- لكنك سعدت بقراري على أيّ حال!

شهر المحرم ٢٦٣

- إنه يمتصّ الحيويّة، يجعل من السمر حديثًا مرهقًا، يدفع إلى طريق مسدود، لترحم أنفسنا هذه الليلة...

- أشكّ في إمكان تحقيق هذا المطلب البريء، ستظاهر بالامثال، وستحدث في هذا أو ذاك من الموضوعات ثم نجد أنفسنا ونحن لا ندري في الجهة...

- وحتى إذا وقفنا إلى اختيار موضوع ما فلن نلبث أن نجد الكلام لغوًا لا معنى له ولا طعم، وإننا في الواقع إنما نهرب من الحديث الوحيد المقضيّ به علينا، ولن نجد بدءًا في النهاية من الرجوع إلى الجهة، وتشعب الآراء والاحتمالات، وتتطاحن فروض الحرب والسلم، وتمضي الليلة ونحن غائصون في شرك حفرائنا بأيدينا.

فقال المرأة بإصرار:

- إذن فلأنصب من نفسي ملائمة حارسًا للسهرة، أطلق صقارة إنذار كلما آنست ميالاً نحو الحديث الأبدى.

- تجربة لا بأس بها ولكني أتنبأ بالفشل من قبل أن تبدأ...

- صحّحكم.

- صحّحتك.

- ولكن ما بال صاحب العيد يبدو شاردًا؟

- أنا؟

- أجل... يوجد شيء في رأسك الكريم...

فضحك قائلاً:

- الحقّ أتي حلمت حلماً غريباً.

- خير إن شاء الله.

- ولكن ماذا أقول؟

- قل ما رأيت ونحن على تأويل الرؤيا قادرون.

فقال وهو يرمقهم بنظرة غريبة:

- رأيت أنني قتلتم جميعاً رمياً بالرصاص.

ضجّوا جميعاً بالضحك.

- خير ما فعلت فإننا أصبحنا كالخيل القديمة تُرمى

بالرصاص على سبيل الرأفة.

- وكنت أقتل وأنا في غاية من المرح...

- عام سعيد.

فقال وهو يسلمها ذراعه:

- آتي أدعوك للحفل الصغير.

فقال وهي تمسح بقطنة مبلّلة بالكحول موضع الغز:

- أوّد ذلك ولكني على موعد مع خطيبي.

- آتي أدعوه معك، أرجو أن تبلغيه ذلك...

- سيسرّه أن يلتي دعوتك فهو لا ينسى مساعدتك في نقله إلى القاهرة، ولكنه ليس على ما يرام...

- مريض؟

- كلاً... ولكن حالته النفسيّة ليست على ما يرام.

- تلك أعراض تمرّ متى تتزوجان؟

- قريباً على أيّ حال.

- سأفتقدك كثيراً.

فضحكت قائلة:

- حذار، سأبدأ بالزواج حياة جديدة!

- يا لك من استغلاليّة فاتنة ولكني لن أنسى

السعادة التي حظيت بها على يدك!

- أكرّر التهنئة.

وذهبت وهو يتبعها عينيه. ثمّ أجال بصره في البهو، الأرض والمقاعد والبار ثمّ تنهّد بعمق. ونظر في الساعة ثمّ تمتم:

- رحلة طويلة حقاً في أقلّ من خمس دقائق!

ومضى يدرع البهو ولكن الانتظار لم يطل فما لبث أن جاء المدعوون. رجلان وامرأتان في الحلقتين الثامنة والسابعة. صُفّت الهدايا فوق الخوان. تبودلت القبلات. التخلدوا مجالسهم ومضى الرجل يملاً الكئوس بنفسه.

- لم يبق إلا نحن الخمسة.

- ليرحم الله الراحلين.

وقالت زوجة الصديق الأول:

- ثمّة تنبيه هامّ أسوقه حرصاً على سهرتنا الغالية.

- ألا وهو؟

- متع الكلام في السياسة أو الحرب.

- عين الصواب.

- جديد...  
فقال الرجل:  
- إنها شابة ممتازة وهو شاب ممتاز ولكنه يبدو على غير ما يرام.  
فقال الشاب:  
- إني على خير حال يا سيدي.  
- حقاً؟... ما رأيك يا أنسة؟  
فقالت بشيء من الحزن:  
- إنه كما تقول يا سيدي ولكن لا يجوز أن نكدر صفو الحفل بهومنا.  
وسأل الصديق الثاني:  
- أهو مريض؟  
- كلاً يا سيدي ولكن يتأبه من آن لأن شعور مجهول بالكآبة...  
- كيف تنتاب الكآبة من أنت خطيبته؟  
فقال الشاب محتجاً:  
- إني بخير...  
فقال الرجل:  
- لست كما تقول...  
- سيدي... لا يجوز أن نكدر صفوكم...  
- صارحني يا بني فإني بمنزلة الوالد...  
وقالت زوجة الصديق الأول:  
- لعلنا نجد في حديثك ملاذاً من حديث آخر يطاردنا...  
وتساءل الصديق الثاني:  
- ما علة كآبتك؟  
فأجابت المرؤضة:  
- بلا سبب...  
وتساءل الصديق الأول:  
- لعله خلاف في العمل؟  
فأجاب الشاب:  
- لا شيء البتة...  
- أو بواذر قلق مما ينظر للمحبين؟  
- لا شيء البتة يا سيدي.  
ولم تملك المرؤضة أن قالت:  
- قال لي ونحن في الطريق إلى هنا أن الانتحار
- يمكن تفسير الأحلام بأضدادها فمعنى الحلم أنك تتمنى لنا طول العمر...  
- عظيم.  
- أما إذا اعتمدنا في تفسيرنا على العلم، على فرويد مثلاً فسنكشف عن رغبات جنسية مكبوتة لا يحسن الجهر بها...  
- ما كان في الوسع أن أكتبها طيلة ذاك العمر.  
- صحتك...  
- صحتكم.  
- وحتى النساء؟  
- حتى النساء!  
- يخونك العيش والملح.  
- حتى الخادم العجوز والمرؤضة!  
- لم يكن حلماً ولكنه كان استمراراً لأحداث الحرب.  
- لعله.  
- ولكن لم تفضلت بقتلنا؟  
- لم أعد أذكر فرعان ما تُنسى تفاصيل الأحلام.  
- تذكر السبب فإنا نتوقع أن يكون طريفاً...  
- لا أظن...  
- لا شك أننا تحديناك بطريقة ما؟  
- ربّما.  
- ماذا فعلت بعد أن أجهزت علينا؟  
- لا أذكر.  
- ألم تشعر بالندم؟  
- لا أظن.  
- اسمح لي أن أقول لك...  
ولكن الخادم العجوز دخل ليعلم عن حضور المرؤضة وخطيبها. وذهب فجاءت المرؤضة يتبعها خطيبها. وتمّ التعارف على يد الرجل. واتخذ القادمان جلسيهما متجاورين والشاب يتسم ابتسامة ودودة ربّما ليخفي كآبة لم ينجح في إخفائها. وقدم لها الرجل كأسين وهو يقول:  
- صحتكما...  
وقال لها الصديق الأول:  
- نشكركما على حضوركما فإن مجلسنا يحتاج إلى دم

- ألك علاقة بجرمة قتلنا؟  
وأخذ الرجل الشاب من يده ومضى به إلى النافذة  
ثم قال:  
- من هذا الموضع المرتفع ترى أكثر من نيل يجري  
في القاهرة...  
فقال الشاب:  
- منظر عجيب حقاً، ولا شك أنه في أثناء النهار  
أعجب...  
- من هنا ترى الحدائق كأنها أشكال هندسية دقيقة  
مرسومة على سطح من الورق...  
- ربما... ولكن أرجو ألا تصدق أنني فكرت حقاً  
في الانتحار...  
- السيارات لعب أطفال، الناس فئران، أما الجبل  
والمساكن فبناء هائل متصل التكوين تنبثق منه هنا  
وهناك قباب ومآذن، الطرقات تختفي تماماً، كما يختفي  
تفرّد الناس وتميزها ولا أثر يظهر لهمومها ومشاكلها  
وأفراحها وأتراحها...  
- ما أعجب ذلك كله!  
- ما أجل أن نتعامل مع الشمس والهواء  
والعلو... أيضاً بك حديثي؟  
- أبداً، أخشى أن يضايقك وجودي...  
وقالت زوجة الصديق الأول:  
- ارفع صوتك قليلاً يا عزيزي فنحن أيضاً في  
حاجة إلى كلمتك الطيبة...  
فقال الرجل للشاب:  
- إنّي سعيد بك، ولعلّي أستطيع أن أقنعك كما  
أقنعت نفسي بالحياة فوق كلّ شيء!  
- فوق كلّ شيء؟  
- أعني أن تنظر إلى همومك من فوق كما تنظر إلى  
المدينة تحتك فتراها أشكلاً مجردة لا فاعلية لها...  
فهتف الصديق الثاني:  
- أحسنت أيها الحكيم...  
ولكنّ الشاب قال:  
- هذه خاطرة قد تخطر أحياناً للمثقل بالهموم  
للراحة ولكن لا موضع لها بين الحقائق.  
فقال زوجة الصديق الثاني مخاطبة الشاب:

فكرة طيبة!  
فهتف الشاب:  
- أتعيدين كلمة ردّتها بلا قصد ولا معنى؟  
- لقد خفت خوفاً حقيقياً...  
- ما أغرب أطوارك...  
- اعدربي...  
- إننا نفسد الجوّ...  
فقال الرجل:  
- لا داعي للحرج يا بني، فأنا نفسي حلمت منذ  
حين بآتي قتلت جميع المدعوين بما فيهم خطيبتك،  
وحقّ خادمي العجوز...  
وضجّ المدعوون بالضحك، حتى الشاب ابتسم،  
وقال الرجل:  
- اشرب كأسك، اطرّد عنك الحرج، وصدّقني  
فإنّي أرحّب بك ترحيباً خاصاً وأشعر بأنك تشاركني في  
موقفي الغريب...  
والتفت الرجل نحو أصحابه وقال:  
- معدرة فإنّي أتوهم أنّ لديّ كلمة طيبة يحسن أن  
تقال لصديقنا الشاب، فاستمتعوا بوقتكم دون  
تأجيل...  
فقال الصديق الأول:  
- إنّي أتوقّع حديثاً طريفاً جديراً بالمتابعة وبخاصّة  
وأنّه لا يجرم الأكل أو يمنع الشرب!  
فنظر الرجل نحو المرّضة وقال:  
- أنت مسئولة، كيف تركته يغرق في الكآبة؟  
فقال المرّضة:  
- أعتقد أننا سعداء، أو هذا ما اعتقدته...  
فسأل الرجل الشاب:  
- لم أنت كئيب؟  
- إنّها تبالغ يا سيدي.  
فقال المرّضة:  
- لم أبالغ قط...  
فقال الرجل:  
- نحن في الدور الخامس والثلاثين، وقد لقّني  
ذلك حكمة...  
فسأله الصديق الثاني ضاحكاً:

- إثمها وصفة مجرّبة فلا تستهن بها يا عزيزي .  
وقال الرجل :  
- أجل... لا تستهن بها، ما أجهل أن نحيا فوق كلّ شيء!
- ولكننا خلقنا لنعيش تحت .  
- ألا تستطيع أن ترتفع؟  
- لا أظنّ، الملايين تعانني تحتنا .  
- لا يغيّر ذلك من جوهر الحقيقة...  
- أشكّ في ذلك يا سيّدي...  
فأشار الرجل إلى المدينة المرصّعة بالأضواء وقال:  
- هنا وهناك، تقع أحداث، تنشأ علاقات، تتفجّر خصومات، أمّا بالنسبة للراصد من هذه النافذة فلا يحدث شيء على الإطلاق!  
- لعلّه ضعف رؤية يا سيّدي!  
فضجّ البهو بالضحك، وضحك الرجل أيضًا وقال:  
- الشباب مرحلة خطيرة، بأنف من المهادنة ويسخر من الحكمة فليس أمامه إلّا إحدى طريقتين فإمّا الانتحار أو الثورة...  
وتساءل الصديق الأوّل:  
- والحبّ، أليس طريقًا أيضًا؟  
ولكنّ الشابّ تساءل:  
- الانتحار أو الثورة؟  
- وكلاهما شيء واحد للراصد من النافذة .  
النافذة!  
- نبرتك ساخرة! خبرني بصدق عمّا جاء بك إلى هنا؟  
- المشاركة في عيد ميلادك...  
- وماذا أيضًا؟  
- ربّما رغبت أيضًا في شيء من الراحة .  
- علامة سيّئة .  
- سيّئة؟  
- تقطع بأنك غارق في الهموم .  
- لا تخلو حياة من ذلك .  
- المهمّ هو موقفنا منها، أليس كذلك؟  
- أن نواصل الصراع .
- أرجو ألا تردّد أمامي شعارات محفوظة .  
- لا أخجل من ترديد الشعارات إذا كانت مجدية .  
- وأنا رجل مجرّب، وقد حقّقت لنفسي نصرًا على الدنيا، ومن واجبي أن أفضي بالسرّ لمن هو في حاجة إليه .  
- أشكرك...  
- ألا تصدّقني؟  
- إنّي متلهّف على معرفة السرّ .  
وقال أكثر من صوت:  
- ونحن متلهّفون أيضًا .  
فقال الرجل:  
- في الأصل كانت الهموم .  
- في الأصل؟  
- بدأت التجربة والهموم تقصم ظهري .  
- أيّ هموم من فضلك؟  
- لا أهميّة لذلك، الفراق... العسوق...  
الدنس... أشجان الوطن... زلزال في يوغسلافيا، لا تهتمّ بالأسماء، كانت الهموم قد قصمت ظهري .  
- وبعده؟  
- استولى عليّ الإعياء والإرهاق، وذات يوم وجدتني أطلّ على المدينة من هذه النافذة، عند ذاك ألهمت الحقيقة دفعة واحدة...  
- الحقيقة؟  
- وهي أنّ الهموم لا وجود لها .  
- أين ذهبت؟  
- لم أر إلّا مدينة مجرّدة .  
- المدينة نفسها تختفي إذا ارتفعت درجة مناسبة .  
- مدينة مجرّدة ولا أثر للهموم .  
- محض خيال .  
- أبدًا .  
- الواقع أنّ الهموم تستقرّ في أعماق نفوسنا .  
- ولكنّها تتلاشى إذا نظرت من علّ .  
- مطلب مستحيل .  
- ولكنّي حقّقته وانتصرت...  
- أتعني أنّه لم يعد يزنك شيء؟  
- بلى...  
- المشاركة في عيد ميلادك...  
- وماذا أيضًا؟  
- ربّما رغبت أيضًا في شيء من الراحة .  
- علامة سيّئة .  
- سيّئة؟  
- تقطع بأنك غارق في الهموم .  
- لا تخلو حياة من ذلك .  
- المهمّ هو موقفنا منها، أليس كذلك؟  
- أن نواصل الصراع .

شهر العسل ٢٦٧

- هذا يعني أنك لم تعد من البشر.
- أكرّر التحذير من ترديد الشعارات.
- ولكنها الحقيقة.
- لا حقيقة إلا تجربتي الظاهرة.
- تخيل - لا سمح الله - أنك فقدت أعز ما تملك.
- جرّبت أظلم من ذلك، ألمحدّك أن تميّز من موقفك هذا بين القبر والبيت. . .
- ذاك عزاء عقلي لا شأن له بالأعصاب.
- الأعصاب تدعن في النهاية للنافذة.
- لا أصدّق. . .
- فقالت زوجة الصديق الثاني:
- يجب أن تصدّقه.
- فقال الشاب للرجل:
- إنه يعني لو صحّ أنك لم تعد حيًا.
- أو أنني أحيًا فوق قمة الحياة.
- لعلك لم تعرف ضراوة الحياة الحقيقية.
- عُجنت بها وخُبزت.
- إذن فأنت أسعد رجل في العالم.
- نحن نتحدّث عن الحكمة لا السعادة.
- قد تكون حكيماً ولكنك - ومعذرة - لست حيًا.
- ما زالت أنفاسي تتردّد.
- حكمتك خليقة بقتل بواعث الحياة الحقيقية.
- ها قد عدنا إلى الشعارات.
- بقتل التقدّم.
- لم أخلّ يوماً بواجب.
- ولم تؤدّي أيّ واجب؟
- لأنني حيّ ولأنه واجب!
- إنك تطرح علينا لغزاً؟
- بدأت تفهمي. . .
- ولكنّ حديثك يخاصم الواقع ويبدو معقداً غير مفهوم.
- قولك هذا يمكن أن يصدق على أيّ شيء في الحياة.
- يؤسفني أنني لا أستطيع الإفادة من حكمتك.
- اعترف لك بأنني قلقته عندما وقع بصري عليك.
- لم؟
- شيء حدّثني بأنك مقدم على شيء خطيراً
- أيّ شيء هذا؟
- أصارحك بأنّ خاطر الانتحار خطر لي.
- فكرة بعيدة عن الواقع تُعد هذه النافذة عن الأرض.
- ولذلك أطلعتك على السرّ الذي يقتل فكرة الانتحار.
- شكراً لا حاجة بي إليه، ثم إن لي وسائل الخاصة.
- عظيم. . . عدّ إلى مجلسك واشرب.
- وتأهّب الجميع لشقّي التعليقات. أمّا الرجل فلم يبرح مكانه أمام النافذة. ثمّ صعد فوق مقعد قريب.
- أشاعت حركته الدهشة فتساءل الصديق الأول:
- أنتنوي إلقاء خطبة؟
- من موقفه فوق المقعد انتقل بخفّة لا تناسب سنّه إلى حافة النافذة فوقف عليها مستنداً بيديه إلى ضلعها. وقف الجميع في ذهول وصاح أكثر من صوت:
- ماذا تفعل! . . . احترس. . .
- في اللحظة التالية رآوه وهو يرمي بنفسه في الفضاء فيختفي بسرعة خاطفة مخلّفاً وراءه صرخة محشجة كالعواء. . .

المسكوت



## إبراهيم عقل

- لم تَمْ تُوَلَّفْ كِتَابًا يَا دَكْتُور؟  
 فرماني بنظرة متعالية وقال بصوته الجمهوري:  
 - أَتَنْظُرُ أَنَّ عَالَمَ الْكُتُبِ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَزِيدٍ؟  
 وجعل يهزُّ رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم قال:  
 - لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطته مرّتين!  
 ثم بامتعاض وازدراء:  
 - ومع ذلك فلو عدّنا الكتب المتضمّنة جديدًا من  
 الفكر لما غطت سطح زقاق!  
 ولم يكن من النادر أن ألقاه في صالون الدكتور ماهر  
 عبد الكريم بقصره الكبير في المنيرة. وما أكثر مَنْ  
 عرفت من أهل الفكر في ذلك الصالون العتيق، وما  
 زلت حتّى اليوم أتردّد عليه وإن تغيّر مكانه وزمانه.  
 وثمّة ذكرى لاجتماع فيه ترد على الخاطر بوضوح ويسر  
 كلّما استدعتها الظروف والأحوال. ولعلّ الدكتور  
 إبراهيم عقل كان أقرب الحاضرين نجاسةً مع البهو  
 الكلاسيكيّ الفخم بجسمه العملاق ومهابته الطبيعية  
 ونظرته الزرقاء الذكيّة. وعلى غير المألوف خاض  
 الحديث في شؤون السياسة. وكنا نتجنّبها إكرامًا  
 لاستاذنا صاحب الصالون لعلنا المسبق بنفوره من  
 الأحاديث الانفعاليّة، ولكونه من الملتزمين إلى الحزب  
 الوطنيّ بحكم أسرته ونشأته على حين أنّ تلاميذه جميعًا  
 كانوا من شباب الوفد. غير أنّ الانقلاب الذي قام به  
 إسمايل صدقي في ذلك التاريخ طوّق المشاعر وضغط  
 على الأفكار فلم يكن من اليسير تجاهله. وتكلّم كثير  
 من الطلبة الحاضرين حتّى قال الدكتور إبراهيم عقل:  
 - إنّ حياتنا الدستوريّة مكسب ولكنّها في الوقت  
 نفسه فتح!

سمعت أوّل ما سمعت عن الدكتور إبراهيم عقل  
 في مقالة للأستاذ سالم جبر. لا فكرة لي الآن عن  
 موضوع المقالة ولكنّه ذكر في سياقها الدكتور إبراهيم  
 عقل باعتباره عقلًا فذاً بَشَرَ في وقت ما بثورة فكريّة في  
 حياتنا الثقافيّة لولا وشاية حقيرة أجهضته قبل أن يقف  
 على قدميه، ردّدها شخص لا أخلاق له زاعمًا بأنّه -  
 الدكتور إبراهيم - طعن في الإسلام ضمن رسالة  
 الدكتوراه التي قدّمها للسربون. وشنّ على الدكتور  
 هجوم ناريّ في عديد من الصحف والمجلاّت، فأنتموه  
 بالإلحاد، وتبّي آراء المستشرقين المبشرين لنيل  
 الدكتوراه على حساب دينه وقومه، ثمّ طالبوا بفضله  
 من الجامعة. واهتزّ الدكتور من جلوره حيال الحملة  
 العاتية، ولم يكن ذا طبيعة مقاتلة، ولا قبل له بتحدّي  
 الرأي العامّ، فضلًا عن حرصه على وظيفته وشدّة  
 حاجته إليها، فأنكر التهمة، ودافع عن عقيدته،  
 وتوسّل بكثيرين - على رأسهم صديقه وزميله في هيئة  
 التدريس الدكتور ماهر عبد الكريم - لإخاد الفتنة  
 واسترضاء مؤجّجيهها. ولما التحقّت بالجامعة عام ١٩٣٠  
 وجدته أستاذًا مساعدًا بها. والظاهر أنّ المحنة التي مرّ  
 بها علّمته كيف يُركّز نشاطه في دروسه الجامعيّة  
 وينسحب من الحياة الفكريّة خارج جدران الكليّة.  
 ولاحظنا أنّ همته يطويها الفتور والملال، وأنّ دروسه  
 أقرب إلى التوجيهات العامّة منها إلى المحاضرات  
 الدسمة التي يلقيها علينا زملاؤه، رغم ما تمتّع به من  
 صحّة وحيويّة، ونضح ترّيع فوق الأربعين من العمر.  
 وما لبث أن انقلب في مجالسنا نادرة ودعابة. ومرّة  
 سألته في أثناء مناقشة بقاعة المحاضرات:

فتحفّز الشبان للنضال ولكنته قال:

- انحراف الجهاد الوطني عن غايته الأولى، غرقنا في معاركنا الحزبية، ولدى كل انقلاب يحدث رد فعل فظيخ في العلاقات والأخلاق، وبيومًا بعد يوم يتفتت البناء الشامخ الذي ورثناه عن ثورة ١٩١٩..

فقال أحد أفراد مجموعتنا الشابة:

- بناء الشعب غير قابل للتفتت.

ابتسم أستاذنا ماهر عبد الكريم، وتفكر قليلاً، ثم قال بصوته الناعم الهامس:

- شعبنا مثل الوحش المذكور في بعض الأساطير الشعبية يستيقظ أياً ما ثم ينام أجيالاً.

فعاد الدكتور إبراهيم عقل يقول:

- لن نضار البتة إذا استمسكنا بأئثل العليا.

وجعل ينقل عينيه الزرقاوين بين وجوهنا المتحفرة ثم كرر بنبرة منغومة:

- أئثل العليا... أئثل العليا.

وكان يرددها كثيراً في محاضراته عن الأخلاق حتى أطلق عليه زميلنا عجلان ثابت «دكتور أئثل عليا».

ولعل الدكتور تذكر موجة الإلحاد التي كانت تجتاح الكلية في ذلك الوقت فقال:

- أرجو ألا تعتبروا أئثل العليا نتيجة لعقيدة دينية، اعتبروها إذا شئتم المنبع الذي تدفقت منه العقيدة نفسها...

فقال شيخ أزهرى لا يحضرني اسمه الآن:

- السياسة ترمي بنا كل يوم في محنة جديدة...

فقال الدكتور إبراهيم عقل بإصرار:

- أئثل العليا، حُسبنا أن تبقى لنا...

فقال الأستاذ سالم جبر وهو غائص بجسمه البدين

في فوئيل وثير:

- يا سيدي الدكتور ما الأخلاق إلا علاقات

اجتماعية، وعلينا أن نغير المجتمع...

فسأله يهدوء:

- أقرأت كتاب برجسون عن أصل الأخلاق

والدين؟

فقال سالم جبر باستهانة:

- إني أقرأ برجسون كما أقرأ قصيدة حاملة

فقال له الدكتور ماهر عبد الكريم:

- إنك يا أستاذ تحلم بثورة كالتى قامت في روسيا منذ أربعة عشر عاماً، وهي تتكشف كل يوم عن مضاعفات خطيرة...

فقال سالم جبر بحدة:

- نحن لا نعرف عن روسيا إلا ما نقرأه في صحف

الغرب وكتبه.

وحلت هدنة ريشا نشرب أقذاح القرفة وننعم بحشوها الطيب من البندق واللوز والجوز. ثم خرق

الهدنة شأب قائلاً:

- لا حلّ إلا القضاء على أحزاب الأقلية الطامعة

في الحكم.

فقال سالم جبر:

- هذه ترجمة ركيكة لصراع الطبقات.

ولكن الدكتور إبراهيم عقل قال:

- إن رئيس الوزراء يزعم أنه يسعى للحصول على

الاستقلال فلندعه يسع

- وإن فرض علينا معاهدة مثل تصريح ٢٨ فبراير؟

فقال الدكتور بشيء من العنف:

- الاستقلال الحقيقي في المثل العليا وبنك مصر

طالما عذبني التناقض بين تناول الأوساط الشعبية

للسياسة وتناولها في الأوساط الثقافية الرفيعة، فهي

هناك انفعال مضطرب سرعان ما يسيل دماً، وهي هنا

مناقشات متفلسفة لا تخلو من تشبيط للهمم وتخييب

للآمال.

فكرت في ذلك ونحن راجعون من قصر المنيرة،

وتبادلنا الآراء في سرعة محمومة:

- لا بد من ثورة

- أيكفي الإضراب لإشعال ثورة؟

- هكذا قامت ثورة ١٩١٩ ليا يقال.

- كيف قامت ثورة ١٩١٩؟

- ما أقربها وما أبعدا...

وفي صيف ذلك العام قابلت الدكتور - كان

بصحبه أسرته المكونة من زوجة وغلادين - في كازينو

الأنفوشي بالإسكندرية. كنت أجلس هناك في الصباح

- عقب الاستحمام - فأشرب القهوة وأقرأ الصحف،

## المرايا ٢٧٣

الحضيض وتقوّضت كرامات الكثيرين من الرجال. ورمى الأبرياء المهزلة بأعين حمراء ولكن حتى صفوفهم لم تبرأ من فساد. عصر الزلازل والبراكين المتفجرة. عصر إجباط الأحلام وانبعث شياطين الانتهازية والجريمة. عصر الشهداء من جميع الطبقات. وظلّ الدكتور يخطر بيننا، متظاهراً بالثبات والشجاعة، يطالعنا بنظرات متحدية تخفي في أعماقها إحساساً بالهزيمة والذنب. وكنا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمّر له الاستهانة والسخرية. الاستهانة والسخرية أجل، لا البغضاء ولا الرغبة في القتل، كما شعرنا بهما نحو كثيرين من رجال السياسة. لم تكن شخصيته تثير شيئاً من ذلك، وكان لحنه روحه ومناوراته البهلوانية خليقاً بأن يتبدى لنا مهزجاً أو دجلاً لا شريراً أو سقاًكاً للدماء أو عدواً حقيقياً للشعب.

وفي اليوم الأخير للدراسة، ونحن ذاهبون لعطلة قصيرة نتقدّم بعدها لامتحان الليسانس، دعانا إلى الاجتماع به في مكتبه. كنا عشرة ذكور، هم طلاب الليسانس للقسم الذي يرأسه إلى جانب منصبه العام. اجلسنا أمام مكتبه وراح ينقل بين وجوهنا عينيه الزرقاوين مطيلاً الصمت والتأمل، وابتسم وهو يهزّ رأسه في تعالٍ ساخر، وقال:

- نحن على وشك الفراق ولا يجوز الفراق بلا كلمة...

وعاد ينقل بصره بيننا مواصلاً هزّ رأسه، ثم قال:

- طالما حنّنت ما دار بنفوسكم يوماً، ولكن ليس الأمر كما توهمتم!

ها هو يطرق الموضوع بعد صمت طويل. صمت طويل جداً. ولكن علينا أن نلزم أنفسنا الأدب والحذر. علينا أن نذكر أننا سئمنا في كلّ مادة تحريرياً وشفوياً معاً. وعلينا أن نذكر أنّ بن حقّ مجلس القسم تعديل نتيجة الامتحان - بصرف النظر عن الدرجات الحاصل عليها الطالب - لتتفق مع مستواه العام كما يقرره الأساتذة. كلّ ذلك يضعنا تحت رحمة بلا مراجع ولا معقّب. وواصل حديثه قائلاً:

- المسألة أنني وجدت أناساً يحطّبون وأناساً يعملون

وأشاهد في الوقت نفسه ما يجري على مسرح الكازينو من بروفات للعروض المسائية رغم نفوري الطبيعي من الغناء الإفرنجي.

وقدّمنا الدكتور إلى حرمة وأظنّها كانت مفتّشة بوزارة المعارف. ولاحظت بسرور غرامه الأبويّ بابنيه وملاطفاته لها بما دعا زوجه لإعلان استنكارها لتدليله لها. واستبالي لأزلّ مرّة بعواطفه الأبوية، فلم أكنّ له احتراماً يذكر لعزوفه عن التأليف، ولعدم إخلاصه في عمله. وما أعجبي فيه إلا منظره ونخفة روحه وسخريته الموهمة بالفلسف. وسألني:

- أنتستحمّ عادة في الأنفوشي؟

فأجبت:

- إنّ أواجه أهدأ بكثير من الشاطبي.

- عندما يتمّ بناء الكورنيش سيتغيّر وجه الإسكندرية.

فوافقته على قوله فقال باسماً:

- ولكنكم تكرهون إسماعيل صدقي!

فقلت وأنا أداري العواطف المريرة التي استفزّها ذلك الاسم:

- ليس بالكورنيش وحده يحيا الإنسان.

فضحك قائلاً:

- لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشري.

ثمّ أشار إلى زوجه وقال:

- والدتها - حماتي - عضوة في اللجنة الوفدية

للسيّادات.

فرمقت السيّدة بامتنان إكراماً لوالدتها.

وفي مطلع العام الدراسيّ تولّى الدكتور إبراهيم عقل منصباً جامعياً كبيراً ولكنّه اغتال في سبيله جميع مثله العليا. كانت الهتافات العدائية للسراي تتردّد في جنبات الوادي، ونشرت جريدة التيمز أنّ مظاهرة في أسوان هتفت لمصطفى النحاس رئيساً للجمهورية، وانقسمت البلاد إلى أقلّيّة موالية للملك وأغليّة معادية تكاد تجهر بعداها. وإذا بالدكتور إبراهيم عقل ينشر مقالة في الأهرام يدعو فيها للولاء لصاحب العرش وبنوّه بأيادي أسرته على نهضة البلاد وبخاصّة عمّد علي وإسماعيل. كانت أزمة تهاوت فيها القيم إلى

فاخترت الانضمام إلى العاملين. وكلنا في النهاية مصريون.

ولذنا بالصمت إلا واحدًا فقال بجرأة:

- إن من يخطب مطالبًا بالاستقلال والدستور خير ممن يبني الكورنيش ويسفك الدماء...

كان القائل يدعى اسحق بقطر، وكان الغني الوحيد فينا، وكان سيمضي عقب الامتحان إلى مزرعته عند مشارف القاهرة لزراعة أفخر أنواع الزهور. ولم يغضب الدكتور إبراهيم عقل. ابتسم وقال بشيء من الأسى:

- ليس كالسياسة مفسدة للعقل...

ثم بنبرة تشي بالرجاء:

- الحقيقة، اعبدوا الحقيقة عبادة، ليس ثمة ما هو أئمن ولا أجل منها في الوجود، اعبدها واكفروا بأي شيء يتهدها بالفساد.

ظللنا ملازمين الصمت، متذكرين الامتحان الشفوي وحق مجلس القسم، أما هو فعاد يقول:

- لن أناقش بقطر، لن أتفوه بكلمة في السياسة، إنما دعوتكم لنلقي نظرة معًا على المستقبل...

فانتشر الارتياح في نفوسنا كالضوء. نجونا من مزلق السياسة وما هو يفتح باب المستقبل الذي نرقبه بوجوم قاتم مذ صدرت القرارات الوزارية بوقف التعيينات والترقيات والعلاوات لأجل غير مسمى. ماذا بقي لنا من أمل وماذا عند أساتذتنا من وعود؟ قال:

- هذه أيام أزمة، أزمة تطحن العالم كله وليست خاصة ببلادنا كما يصور البعض، ماذا أنتم فاعلون؟ وسكت قليلاً ثم قال:

- لن نجدوا وظيفة بالسرعة المطلوبة، ولن تكونوا أسيرة في أجل قريب، وربما تفاوتت بينكم الحظوظ...

وتلقى نظراتنا التي أطفأ نورها الفتور بابتسام وقال:

- حتى الفرص الضعيفة التي يفوز بها الطبيب أو المهندس أو الحقوقي في الميدان الحر، حتى هذه الفرص لا نصيب لكم فيها، ولكن يبقى لكم شيء هام، جوهره لم يتعود أحد أن يتحلل بها بعد!

فاشتعلت أعيننا بالاهتمام مرة أخرى فواصل حديثه

قائلًا:

- أمامكم طريق الحقيقة والقيم!

تذكر كل منا آله وحييته والأمال المعقودة على الوظيفة المنتظرة، أما هو فقال:

- تحففوا من غلواء الطموح الدنيوي وارضوا من الدنيا بما تجود به أما الشوق للحقيقة فلا ترسموا له حدًا!

تُرى أدعانا الرجل ليعذبنا ويسخر منا؟

- إن الجلوس تحت شجرة في يوم صافٍ خير من امتلاك عزبة.

أنت تقول ذلك يا من بعثت جميع القيم من أجل...

- إن حكمة الحياة هي أئمن ما نفوز به من دنيانا ذات الأيام المعدودات..

وما غادرنا الكلية حتى انفجرنا ضاحكين من عنف المفارقة واليأس. واستبقنا إلى نعته بكل قبيح:

- الوغد.

- المهرج.

- الدجال.

ومنذ نخرجنا في الكلية انقضى زمن طويل لم أراه فيه مرة واحدة. غاب عن عيني كما غاب عن وعيي إلا في النادر من المناسبات. وكان يتجنب صالون الدكتور ماهر عبد الكريم منذ وثوبه الانتهازي إلى الوظيفة الكبيرة أن يتعرض لهجوم بعض المتطرفين فاقتصر مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصة. لذلك مرّت ثلاثة عشر عامًا دون أن أراه حتى عرضت مناسبة غير سارة، بل مناسبة مؤسفة غاية الأسف إذ فقد ابنه الوحيدين في وباء الكوليرا الذي اجتاح البلاد عام ١٩٤٧. عانيت صدمة وأنا أتلقى الخبر ورجعت بي الذاكرة إلى كازينو الأنفوشي وهو يلاعب الغلامين. يا لها من ذكرى ويا لها من نهاية! وذهبت إلى الجزيرة للاشتراك في تشييع الجنازة. جنازة مؤثرة مفعمة بالأشجان. وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة كأنها صورة ناطقة لليأس الأعمى. ولا أظنه عرفني وأنا أقدم له العزاء، لم يتلفت إلى أحد، ولم يهتم بشيء مما يدور حوله، ولكن عندما تقدم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيتته خفض جفنيه على دمع تفجّر رغم

- ماذا يدور في الدنيا؟  
فذكرت من الأمور ما رأيته جديراً بالذكر منوهاً  
بصفة خاصة بالثورة الجديدة فقال:  
- هبوط صعود، مَوْتٌ بَعَث، مدنيّ عسكريّ،  
فلتسير الدنيا في طريقها أما أنا فلإني أستعدّ لرحلة  
أخرى.  
وغاب عنيّ من جديد حتىّ قرأت نعيه عام ١٩٥٧  
على ما أذكر. وأطرف ما سمعت عنه بعد ذلك ما قيل  
من عثور ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية في الجمال  
لديوان «أزهار الشرّ» لبودلير لم يُعرف بالضبط تاريخ  
ترجمته. ولما كان ابن أخيه هو الوريث الوحيد له -  
توقّيت زوجته في العام السابق لوفاته - فقد أذن بنشره،  
وهكذا بقي اسمه في المكتبة العربيّة مقروناً باسم بودلير  
على ديوان «أزهار الشرّ».  
ولا خلاف في الرأي عن الدكتور إبراهيم عقل بين  
طلبته، فقد اعتبروه - بلا استثناء - مهزّجاً. ولكنّ ثمة  
مفكراً له وزنه مثل الأستاذ سالم جبر كان يراه صحيحةً  
لمجتمع فاسد وإن لم يغفر له انهزاميته. وذات يوم قال  
لي أستاذي ماهر عبد الكريم بصوته الهامس:  
- إنكم تظلمون إبراهيم عقل.  
فلم أتكلّم احتراماً لعواطفه نحو صديقه، فقال:  
- إنّه عقليّة فذّة، وكان يبهرننا بذكائه ونحن في  
السربون. فقلت:  
- لم يفدّ أحد من ذكائه شيئاً...  
فقال متجاهلاً تعليقي:  
- وهو الوحيد في مصر الذي يتمنّع بعقل فلسفيّ.  
بالنظرة الشاملة للأشياء...  
ونظر إليّ باسماً ثمّ استطرد:  
- لم يخلق كاتباً، ولكنّه محدّث موهوب، نوع من  
سقراط، خصّ أصدقاءه الحميمين بزبدة أفكاره،  
وطرح أيسر ما عنده على الناس.  
فقلت له:  
- لعلّه يحتاج إلى أفلاطون جديد ليردّ إليه اعتباره!  
ولكنّه اندثر فلم يبقَ منه إلاّ مأساة وترجمة نادرة  
لأزهار الشرّ.

إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر. وعند  
منتصف الليل دعاني الدكتور ماهر عبد الكريم إلى  
مرافقته في سيارته إلى المدينة. وفي أثناء الطريق تمتم  
بعطف:  
- الله معه، إنّا كارثة لا تُحتمل...  
فوافقت على رأيه وكنت في الحقيقة متأثراً جداً فعاد  
يقول:  
- ولكنّ حديثه أقلقني!  
فسألته عمّا أقلقه فأجاب:  
- جعل يقول بنبرة متهدّجة إنّ الوقت جميل، وإنّه  
مظلوم، وإنّه لولاه لما كانت للحياة قيمة...  
فصمت متفكّراً فعاد أستاذي يقول:  
- الله معه...  
غاب الدكتور إبراهيم عقل عن عينيّ مرّة أخرى  
وإن لم تغب عنيّ مأساته طويلاً. وفي صالون قصر  
النيرة علمت بما طرأ عليه من أحوال في الأعوام التالية  
للحادث. قيل إنّه أصبح يُرى كثيراً في جامع الحسين.  
وإنّه يمضي الساعات متربّعاً أمام المقام. وفي كلمة أنّه  
يتدروش ويسلم للإيمان تسليماً بلا قيد ولا شرط. وأثار  
مسلكه الكثير من الجدل عن الإيمان بصفة عامّة،  
والإيمان بالنشأة، والإيمان بالاعتناق، والإيمان بسبب  
الكوارث، وإيمان الفلاسفة، وإيمان العجائز، وكان  
ماهر عبد الكريم يفدّ كلّ حجة يأنس منها هجومًا ولو  
من بعيد على مسلك صديقه القديم. وفي عام ١٩٥٠  
ترك الدكتور إبراهيم عقل الخدمة لبلوغه السنّ  
القانونيّة فتنفّخ تمامًا للدروشة. وفي يوم من عام  
١٩٥٣ صادفته أمام الباب الأخضر بحيّ الحسين -  
ذهاباً أو راجعاً من الجامع لا أدري - فجذبتني طلعتة  
المهيبة المجلّلة بالمشيب. واقتربت منه ماداً يدي  
للمصافحة فصافحني وهو يمدجني بنظرة لا يلوح فيها  
أنّه عرفني، فلما ذكرته بنفسه هتف بصوته الجمهوري:  
- أنت! كيف حالك؟ ماذا تفعل؟  
فلما أجبتة قال:  
- لا تؤاخذني فانا لا أقرأ.  
وسايرته حتىّ موقف سيارته في ميدان الأزهر وهناك  
سألني:

## أحمد قذري

فأجبت بالنفي فسألت:

- معك كم؟ .

فأجبت بخوف وأدب:

- شلن.

- عال، تحبّ أفزجك على شيء لطيف لم تره؟

- ولكنّه قال لي ألاّ التحركّ . . .

- دقيقة واحدة في هذه الحجرة أمامك . . .

- كلاً.

- لا تخف، ممّ تخاف!

وأخذتني من يدي إلى الحجرة وأغلقت الباب وهي

تقول:

- هاتِ الشلن . . .

فأعطيتها إيّاه بلا تردّد فقالت وهي تمسحني بعينها:

- اخلع بدلتك . . .

فقلت بفرع:

- كلاً . . .

وإذا بها تنزع ثوبها فتبدو أمامي عارية. رأيت امرأة

عارية لأوّل مرّة. ملأني الحركة المقتحمة المستهترة

فزحاً. وملأني المنظر الذي رأيته خطفًا فزعاً أشدّ.

تراجعت نحو الباب وأنا أنتفض.

فتحت الباب وهولت إلى الخارج وضحكبتها المائعة

التموّجة تتعقّبني كثعبان. وتلقّني المرأة الأخرى

بقهقهة. وأشارت إلى الكرسيّ كي أجلس. ولكنّي

وقفت في وسط الدهليز لا أريد أن ألمس شيئاً ولا أريد

لشيء أن يلمسني. وجعل المتسكّمون خارج البيت

ينظرون إليّ في دهشة ويطلقون في وجهي أبشع

النكات. ولبثت أعاني محنة وأيّ محنة حتّى رجع أحمد

فسألني بفتور:

- مالك واقف كالديدبان؟

فقبضت على ذراعه كالستغيث فمضى بي إلى

الخارج، ولم تكن العودة يسيرة كالذهاب إذ صادفتنا

مظاهرة ضخمة فشقّ طريقه خلال أزقة جانبيّة

وأصوات الرصاص تدوي في الجوّ. وكأنا جلسنا في

الترام سألني بنبرة الممتحن:

- أين كنّا يا بطل؟

فأجبت من فم جافّ:

يقترن أحمد قذري في ذاكرتي بالشهد والفظائر

المشلتة والسينما، كما يقترن بواقعة لا تنسى. وهو

قريب لي من أسرة ريفيّة، كان يفد إلينا في بعض

المواسم لقضاء أيام في القاهرة. وكانت إقامته تنقضي

في اللعب في شوارع العبّاسيّة الهادئة المحفوظة بالحقول

والحدائق. كنت في التاسعة أو العاشرة وكان يكبرني

بخمسة سنوات، وكان وحيد أبويه، وكان عفريناً بكلّ

معنى الكلمة. واقترح ذات مرّة القيام برحلة، ولكي

يؤكّد براءتها استأذن والدي في أن يصطحبني معه.

وذهبت معه مرتدياً بدلتي القصيرة. وقال لي ونحن في

طريقنا إلى محطة الترام:

- سأشتري لك بسكوناً بشرط.

فسألت عن الشرط فقال:

- أن تحفظ تماماً ما سأقوله لك ثمّ تردّده عند

عودتنا . . .

فسألت عمّا ينبغي لي حفظه فقال:

- إننا ذهبنا إلى سينما أولمبيا وشاهدنا فيلماً لشارلي

شابلن.

فوعده بذلك وأخذت البسكوت ثمّ ركبنا الترام،

وغادرنا الترام في شارع لم أراه من قبل، فمضى بي من

حارة إلى حارة في عالم جديد وغريب ومثير. وجرّني من

يدي إلى مدخل بيت آية في الغرابة كان يجلس في

دهليزه ثلاث نساء يبهرن النظر بألوان وجوههنّ

وملابسهنّ ولا يباليين أن ينكشف من أجسادهنّ ما

ينكشف فوق السيقان وتحت الأعناق. نهضت إليه

إحداهنّ فأجلسني مكانها وهو يقول:

- لا تحركّ من مكانك حتّى أرجع إليك . . .

ووصّى بي المرأتين ومضى بصاحبته إلى الداخل.

وركّزت بصري في بلاط الدهليز المعصرانيّ متجسّبا

النظر إلى المرأتين، شاعراً في الوقت نفسه بأنّ مخالفة

خطيرة تُرتكب على كئيب منّي، ومتابعاً من حين لآخر

صوت إحدى المرأتين وهي تغنيّ «يوم ما عضّني

العضّة». ثمّ مالت نحوي الأخرى فسألني:

- هل معك نصف ريال؟

## المرايا ٢٧٧

قدري بأحمد قدري الذي عرفته، انقلب شخصية خفيفة تُنسج حولها أساطير الرعب، سُلّ سوط عذاب في أيدي الطغاة يلهبون به الوطن والوطنيين. وكنت أسمع عنه وأتعجب، كيف استحال الظريف الماجن شيطانًا من شياطين العذاب، كيف يمثّل بالشبان من ذوي العقائد الحرة فيجلدهم ويطفئ السجائر المشتعلة في جفونهم ويخلع بالآلات العذاب أظافرهم! وحدث أكثر من مرة أن نوقش مسلكه على مسمع مني في بعض مجالس الأصدقاء من أهل الفكر والوطنية مثل رضا حمادة وسالم جبر وغيرهما، وقيل إنه ما دام لا توجد ثورة شاملة فلا أقل من أن توجد جمعيات سرية لممارسة الاغتيال السياسي دفاعًا عن الشعب الأعزل. وقد حدثت بالفعل محاولة لاغتياله أمام نادي محمد عليّ ولكنّه نجا بأعجوبة وأفلت مما سمّوهم وقتها بالجنة الهارين.

وعقب ثورة يوليو ١٩٥٢ قُدّم إلى التحقيق فاكثفي بإحاطته إلى المعاش، ومضى بالنسبة إليّ يذوب في ماء النسيان، حتّى دُعيت في خريف ١٩٦٧ تليفونيًا إلى المستشفى الأنجلو أمريكيّ. هناك وجدته راقداً مصاباً بأزمة قلبيةّ. لم أعرفه لأوّل وهلة. جاوز الستين وذُكرني بصورة أبيه في أيامه الأخيرة. قال:

- معذرة عن إزعاجك...

فشجّعته بما حضرنى من كلمات فقال:

- لا أحد لي غيرك في الواقع...

ثمّ بصوت هامس:

- لكي تدفني إذا قُضي الأمر.

فعدت إلى تشجيعه. وخلوت إلى الطبيب مستعلمًا فأكد لي أنّه اجتاز مرحلة الخطر وأنّ صحّته بعد ذلك تتوقّف على إرادته. ولما سمع بتلك المعلومات قال:

- عندي أكثر من داء!

فخَمّنت وراء قوله الخمر والنساء والقمار، فقلت:

- تجنّب الانفعال لكي تتجنّب أزمة أخرى.

فقال باستهانة:

- إنّه آتية لا ريب فيها!

وجعلت أنقب في وجهه المريض عن الوحش الضاري الذي نشر الفزع في الزمان القديم أو الشاب

- في سينما أولمبيا.

- ماذا شاهدنا؟

- شارلي شابلن.

- عظيم، ولكن مالك مخطوف الوجه؟

- لا شيء.

- ضابقتك المراتان؟

- كلاً...

وجعل يراقبني بقلق ثمّ عاد يسألني:

- مالك؟

ففاض بي الحزن حتّى كدت أبكي فسألني بقلق:

- مالك؟

فقلت بمرارة:

- لا شيء، إنّه شيء خاصّ جدًا، دورا، ليست

دورا جميلة كما توهمت...

- دورا!... من هي دورا؟

- حبيبة دان...

- ومن هو دان؟

- بطل المغامرات، ألم تقرأ مجلّة الأولاد؟

- أولاد؟... بتمّ تهدي؟... ابسط وجهك، لن

نرجع إلى البيت حتّى ترجع إلى حالتك الطبيعية!

لم يعلم بمدى شغفي بدورا، ولم يدرك أنّي تخيلت

جسدها من الماس النقي!

ولكن بصفة عامّة كانت أيامه بالقاهرة من أسعد

أيامي. علّمني كرة القدم والملاكمة ورفع الأثقال،

وأمتعني بنوادره الفكاهية، وكان يقلّد شابلن في

مشيته، ويغنيّ المنولوجات المشهورة، ويحاكي عمدة

القرية وشيخ الخفراء. وانتقل والداه إلى القاهرة فأقاما

في عابدين فلم يعد يزورنا إلّا كلّ حين ومين. وتعرّض

في دراسته الثانوية فاختار الالتحاق بمدرسة البوليس.

وعقب تخرّجه عُيّن في القاهرة لتقدّمه، وشغل بحياته

الجديدة فانقطع عن زيارتنا وبتنا كالغرباء. لم أره طيلة

عمله الأوّل بالقاهرة إلّا خطأً ومصادفة وهو يتسلّل

خارجًا من سراي عصام بك عقب مغامرة غرامية.

وتوفّي والداه وكادت أنساه تمامًا، بل نسيت حتّى ذكّرتني

الحوادث في أثناء الحرب العظمى الثانية وما تلاها بعد

أن اختير عضوًا في البوليس السياسيّ. لم يعد أحمد

تكتب تقريرًا بناءً على طلب الوزير، عمل ليس إلا، له مقاييسه من الإلتقان وتقديره في حساب الواجبات العامة، وإذا وُجد بيننا من يُغالي في عمله أو ينقله بلدّة خفية أو ظاهرة فكما يوجد أحيانًا في أوساطكم من يفرط في العمل ليدياري نقصًا أو تعاسة ملحة...

وفي أثناء الحديث ثبتت عيناه على صورة قائمة على منضدة فنظر إليها مليًا ثمّ تساءل:

- أليس هذا هو الدكتور إبراهيم عقل؟  
فقلت بدهشة:

- بلى، بين بعض الزملاء القدامى وبعض الأساتذة، أكنت تعرف الدكتور عقل؟  
- كلاً، ولكنّ ظروفًا معينة جعلتني أتابع ما كان يُنشر له من صور في الصحف...

- أيّ ظروف يا ترى؟

تفكّر طويلًا ثمّ قال:

- لعلّك تذكر وفاة ابنه؟

- أجل، هلكا فيمن هلك من ضحايا وباء الكوليرا.

فضحك قائلاً:

- يبدو - والله أعلم - أنّ الكوليرا لم تكن هي الجانية...

فهتفت بدهول:

- ماذا تقول؟

- رئيسي رحمه الله همس لي يومًا في مجلس صداقة حميمة بأنّها قُتلا!

- قُتلا؟

- اضبط أعصابك، ذاك تاريخ مضى وانقضى...

- ولكن كيف قُتلا ومن الذي قتلها؟

- لا شيء مؤكّد، صدّقني لا شيء مؤكّد، حتّى رئيسي نفسه لم يكن لديه أكثر من همس، تسلّل إليه خبر عن غرام امرأة هامة وشخص من رجال الملك وجريمة قتل في بيت خلوى بالطريق الصحراوي...

- أعطني مزيدًا من المعلومات...

- لا مزيد عندي، ولا شيء مؤكّد، صدّقني لا شيء مؤكّد...

وأصرّ على موقفه فلم أجد مبررًا لتكذيبه. وقد

المهرج الظريف ولكن عبثًا، ولم يكن في صدري حياله إلا شعور بالواجب. وعلمت أنّه يقيم بشقّة صغيرة بالزمالك وأنّه لم يتزوّج طبعًا، وأنّه لم يعد له من صديق سوى نفر من كهول اليونانيين المدمنين لسباق الخيل. وهزّ رأسه ثمّ غمغم:

- يجيّل إليّ أنّي انتهيت كما انتهوا...

فقطنت على البدهاة إلى من يعني. كان ٥ يونيه ما زال ممتزجًا بريقنا كالعلقم. وأدركت من فوري مدى الحقد الذي عاشه منذ إحالته على المعاش. وكرهت مناقشة شائته المنغصّة بسوء حاله لتحديثها الجراح لعواظفي الشخصية. وعلى أيّ حال لم تتحقّق نبوءته السوداء فيما يتعلق بحياته أو حياة الثورة. غادر المستشفى عقب ذلك بثلاثة أسابيع. وزارني في بيتي للشكر. تبدّى في حال صحّيّة مقبولة وراح يغازل ذكريات الجيل السابق. وطيلة الوقت وجدت إغراء لا يقاوم في نبش ماضيه الغريب، حتّى واتتني الفرصة فقلت:

- أتدري أنّي لم أكن أصدّق ما يقال عنك؟

خيّل إليّ أنّه تجاهل قولي تمامًا. اقتنعت بأنّي أخطأت. ولكنّه قال وكأنّه يقرّر حقائق لا علاقة لها بحديثي:

- يحدث أحيانًا أن تصدم سيّارة أحد المازة فترديه قتيلاً...

وأشعل سيجارة متحدّيًا أولى نصائح طبيبه ثمّ قال:  
- من الخطأ أن نحمل السيّارة تبعه ما حدث، التبعة تقع على السائق أو الطريق أو المصنع أو الضحية نفسها أمّا السيّارة فلا ذنب لها...  
وقال أيضًا:

- لم نعدّب أحدًا في عهد الوفد؟. المسألة أنّه يوجد نوعان من الحكومة، حكومة يبيء بها الشعب فهي تعطي الفرد حقّه من الاحترام الإنساني ولو على حساب الدولة، وحكومة نجبيء بها الدولة فهي تعطي الدولة حقّها من التقديس ولو على حساب الفرد...  
وقال أيضًا:

- لم نعدّب أحدًا بالمعنى الذي نظنّه، كتنا نصبّ العذاب كما نملأ أنت الاستهارة ٥٠ ع. ح.، أو كما



فأكدت لها سروري باللقاء فقالت:  
 - إن فراغ حياتي لن يملاها إلا الفن، ومن حسن الحظ أنني لا أخلو من استعداد.  
 - سيدي موظفة؟  
 - كلا، ولا حاصلة على شهادة عالية، الثانوية العامة فقط، ولكتي قارئة ممتازة، وكتبت أكثر من تمثيلية إذاعية...  
 - لم يسعدني الحظ بساعها...  
 - لا غرابة في ذلك.  
 وتفضلت بإغداق الشاء فشكرت لها تقديرها فقالت:  
 - إني بحاجة إلى مراجع تاريخية لأواصل الكتابة.  
 - مطلب يسير فيها أعتقد.  
 - أود أن أكتب عن أشهر نساء الشرق وبخاصة اللاتي لعين أدوارًا خالدة في الحب...  
 - موضوعات شائقة...  
 فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت:  
 - أطمح أن تشترك معي في العمل...؟  
 فاعتذرت بلا تردد قائلاً:  
 - إني مشغول بأعمال أخرى.  
 - ممكن أن تمدني بالمراجع والمادة العلمية وأن تشترك فيما يعجبك من الموضوعات...  
 - سأهديك إلى المراجع.  
 ولكنها تجاهلت اعتراضها وقالت وهي ترمي بنظرها إلى رموس أتجار الحور تحتنا:  
 - سنعمل في الحدائق...  
 ثم بعد توقف قصير:  
 - إلا إذا تفضلت بتشريف بيتي.  
 نجحت الغزوة الجديدة في اقتحام ترددي فتساءلت:  
 - بيتك؟  
 - لم أعرفك بحالي الاجتماعية، إني مطلقة، أقيم مع خالتي العجوز، ولي ابن وابنة بقيان مع والدهما.  
 - لكن خالتك؟  
 - لا عيب في العمل...  
 ثم وهي تنظر بعيداً:

أفضيت بما بلغني منه إلى أستاذي الدكتور ماهر عبد الكريم فأبدى من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الهادي من قبل. وقال لي:  
 - لا أصدق أن المرحوم إبراهيم عقل كان يخفي عني سرًا...  
 - لعل صلة الأمر بالسراي ألزمته بالصمت...  
 فهز رأسه وهو في شك وحيرة، وقررت تناسي الموضوع من أساسه. أما أحمد قدرتي فقد اختفى من حياتي مرة أخرى. وكنت ألمحه أحياناً في مقهى فنكس وسط نفر من كهول الخراجات، وفي أوائل عام ١٩٧٠ رأيت - من بعيد - سائراً في ميدان طلعت حرب. وثبت لي من تهذل شذقيه أنه خلع أسنانه، ولكن صحته بدت خيراً عما توقعت.

## أمانى محمد

كان التليفون واسطة التعارف بين أمانى محمد وبيبي. بدأت حديثها بالتحيات والمجاملات المعروفة. واستأذنتني في طرح أسئلة عن بعض المناقشات التي تتابعها في التلفزيون. وأنست منها اهتماماً بالفن ورغبة في التزود ببعض المراجع وحامساً للقاء تتم به الفائدة. دعوتها إلى مكتبي ولكنها عالتني بنفورها من جو المكاتب واقترحت لقاء في الخارج. وتم اللقاء في استراحة الهرم في أواخر ربيع عام ١٩٦٥. توقعت أن تجيئي طالبة أو خريجة حديثة العهد بالتخرج. ولكن التي أقبلت كانت امرأة ناضجة، في الأربعين، ربانة البدن ملونة العينين، تخطر على الحد الفاصل بين حرية المرأة العصرية وبهرج الغانية. ولدى رؤيتها غازلني شعور مستفز بأن الفن لن يكون - وحده - ثالثاً. لم يهزني قبول ولا صدني رفض فسلمت أمري للظروف. جلسنا في طرف الحديقة المطل على المدينة ونظراتنا المتبادلة تمكس الحياء والترقب. قالت بلسان يحور الراء غيئاً:

- معذرة عن جراتي...

ثم كالمستدركة:

- كان لا بد أن أقابلك...

وعندما جمعنا الحجرة هفت على حواشي أخلاط  
روائح مركزة من العطر والبرفان والخمر تسبح في  
أمواج نور أحمر خافت فردتني إلى ذكريات بعيدة ما  
كنت أتصور أنها ستعود. وجدتني مرة أخرى موثقا  
بالحرير مذعنا لرغبة سكرى بيقظة مباغته، وبلا حب  
بالمعنى الحقيقي. أما أمانى فكانت متفانية في المودة،  
اهتدت إلى مرفأ بعد تحبب في ليل بهيم، لهفة بلا حدود  
على الحب والحنان يزرها قلب محروم من الحب  
والأمومة والثقة. وجعلت تصارحني بخباياها في لقاءنا  
المتالية.

- حالتي المالية حسنة، ليس لدي ما أشكوه من  
هذه الناحية...  
أو تقول:

- ربنا يسامح بابا ويرحمه، كان السيب...  
أو تقول:

- لا أمان لشبان هذه الأيام، ربنا يحفظ بنتي...  
وتضح شعوري بالمسؤولية، وكان يستفحل كلما  
تذكرت بأن حياتنا المشتركة تقوم على غير أساس  
مشترك، وأنه لا يمكن أن تمضي هكذا إلى الأبد، وأن  
العطف والجنس لا يكفيان لاستتباب الأمن في أسرنا  
ذات الجناح الواحد. وذات يوم من أيام العام نفسه -  
أواخر الصيف أو أوائل الخريف - زارني في مكثبي  
الأستاذ عبده البسيوني، تذكرته من أول نظرة رغم  
التغير الهائل الذي طرأ عليه. ورحبت به بحرارة كأننا  
لم نفرق حوالي ربع قرن على الأقل. ترى ماذا غيره  
بهذه الدرجة رغم أنه لا يكبرني بأكثر من بضعة  
أعوام؟. وسألته:

- ماذا تفعل الآن؟

ولكنه تجاهل سؤالي وسأل بدوره:

- لعلك تسأل عما دعاني إلى زيارتك بعد ذلك

العمر من الانقطاع؟.

- لعله خير يا زميلي القديم.

فقال وهو يرمقني بهدوء:

- إني أزورك بصفتي زوج أمانى محمد!

مرت ثانية وأنا لا أعني لقوله معنى وفي الثانية التالية  
انفجر معناه في وعي كصاروخ. الحق أني غبت عن

- يمكن تدبير الأمر لهي جوا صالحا للعمل...  
ولكن...  
ولكن؟

- أصارحك بأنه من المؤسف ألا تنعم سيده مثلك  
بحياتها الزوجية...  
فقلت بامتعاض:

- لم تكن حياة موفقة، ولا يوما واحدا...  
عجيبة.

- علمني كيف أمقته، ولم أحبه من قبل.

- ولم قبلت الزواج منه؟

- زوجت إليه وأنا بنت ستة عشر، أبعده ما تكون  
عن النضج وبلا وزن لرأيي.

- زيجات سعيدة كثيرة بدأت كذلك.

- إنه أناني نذل متوحش.

لم تشأ أن تنتقل من العموميات إلى التفاصيل ففتر  
اهتمامي بالموضوع، وبخاصة وأنه أصبح من ذكريات  
ماض بدا أنه ذهب إلى غير رجعة. حتى الفن نفسه  
تراجع إلى الهامش وذاب في الظلام. وبحركة غير  
متوقعة تسلفت يدها البضة فاستقرت فوق يدي على  
طرف المائدة:

- إني في حاجة إلى إنسان أطمئن إليه...  
ورغم احتمال المبالغات بل والأكاذيب فإني شعرت  
نحوها بعطف ورناء. ومع ذلك سألتها مداعبا:

- يهتك الفن لهذا الحد؟

فقلت ضاحكة:

- الفن والحياة!

ولكننا نسينا الفن والتاريخ ونحن نتجول في  
صحراء الهرم. تركزت همومنا في الواقع المعاصر، واقع  
البيت بالذات، وخالتها بصفة خاصة، سنها الطاعنة،  
ونومها الثقيل، وحواشها الضعيفة...  
إلا إذا أردت أن نلتقي في بيت آخر!

وبانداماجي في المؤامرة تدفق طوفان الرغبة في دمي

فقلت:

- ليكن اليوم.

ولكنها قالت بسرور وبلا مكر:

- أمهلني حتى أهني الجيو...  
ليكن اليوم.

- لم؟  
 - هي أم ابنتي وابني، وهما في طور المراهقة،  
 والطلاق يعني لها التدهور حتى الاحتراف!  
 - قد تتزوج مرة أخرى.  
 - لم تعد أهلاً لذلك!  
 - موقف عسير محزن.  
 - لذلك فإني مصمم على استردادها، وإنقاذ ما  
 يمكن إنقاذه، ومن حسن الحظ أن حياتي في باريس لم  
 تضع هدراً!  
 فقلت بحزن:  
 - ما أبغض الحياة إذا فسدت!  
 - أجل، لعلها حدثتكَ عني، وعندني أيضاً ما  
 أقوله، ولكنني مصمم على إنقاذه ما يمكن إنقاذه...  
 فقلت متأسفاً:  
 - ما تصوّرت يوماً أن أفقد منك موقعي هذا!  
 فلم يكثر لأسفي هذه المرة. أشعل سيجارة وراح  
 يدخن متفكراً. بدا لي هرماً متهدماً. ثم نظر إليّ قائلاً:  
 - أنت تذكر بلا شك حياتي الماضية!  
 أجل أذكر. زمالته في الجامعة. سفره إلى باريس في  
 بعثة خاصة على حسابه. عودته بعد عامين أو ثلاثة بلا  
 نتيجة. انتخابه عضواً بمجلس النواب. تمتعه بجاه  
 الأسرة والحزب والنيابة. قلت:  
 - طبعاً أذكرها...  
 فقال:  
 - كما قامت ثورة يوليو لم أجد تناقضاً بينها وبين  
 فكري الحر...  
 - معقول جداً...  
 - وعملت في نطاقها بإخلاص ولكنني أثممت ظلماً  
 في مؤامرة أتهم بها بعض أقطاب الحزب فقبض عليّ  
 حيناً ثم صودرت أملاكي...  
 وجهت لا أجد ما أقوله فقال:  
 - وجدت نفسي في الطريق متسولاً!  
 - ولكن حرمك ذات مال!  
 فضحك قائلاً:  
 - أفقر من الفقر نفسه، لها خالة غنيّة ولكن لها  
 وريثاً، ولعلها كلبت عليك في ذلك أيضاً.

الوجود بمعنى ما، تلاشي المكان والزمان، لم أعد أرى  
 إلا وجه عبده البسيوني الأسمر المستدير، كأنه وجه  
 شخص آخر، وجه تمثال يقوم أمام مكتبي منذ الأزل.  
 لم أنبس بكلمة، وطبعاً لا فكرة لي عن الصورة التي  
 انطبعت فوق صفحة وجهي، ولكنّه هز رأسه بهدوء  
 وقال بنبرة مستأنسة:  
 - لا داعي للجزع.  
 وابتسم ابتسامة ما وقال:  
 - لا أعلم لك بشيء...  
 ثم بتوكيد:  
 - لم أحضر للانتقام.  
 مضيت أرجع إلى مقعدي وحجرتي ولكن شعوراً  
 حاداً اجتاحني بأنّ دنيائي على وشك التصدّع  
 والتلاشي.  
 وسمعته يقول:  
 - من حسن الحظ أن الأيام التي عشتها في باريس  
 لم تضع عبثاً!  
 وقلت وأنا مستسلم تماماً للمقادير:  
 - لعلك تعني امرأة أخرى.  
 - أعني المرأة التي كنت عندها أمس!  
 - ولكنها مطلقة!  
 - بل هي على ذمتي وأنا زوجها!  
 فغمغمت:  
 - يا لها من كارثة!  
 - لم أزرك بدافع غضب أو انتقام.  
 - ولكنني أموت أسفاً وحزناً.  
 - لا ذنب عليك.  
 ثم بامتعاض شديد:  
 - وما أنت إلا آخر صيد لها!  
 - ماذا؟  
 - مرة ومرّة ومرّة، وفي كلّ مرة أتدخل لإنقاذها من  
 التدهور، لإنقاذ مستقبل ابني وابنتي...  
 - يا لها من حياة... ولكن...  
 وترينت مرهقاً ثم عدت أتساءل:  
 - ولم تتحمّل ذلك كلّ؟  
 - لا مفراً، إني أرفض تطليقها رغم مطالبتها به.

- وشملنا الصمت حيناً حتى قلت:
- أذلك ما أفسد حياتكما؟
- كلاً، لقد توثبت للعمل الجدي من أول يوم، كرتس وقتي وما أزال للترجمة والافتباس، واستعنت على النشر ببعض الزملاء القدامى المنتشرين في الصحف والمجلات، غير أن أخلاقي تغيرت في سياق المحنة، ونشب نزاع متواصل بيني وبينها...
- ولكن تلك أمورًا طارئة يمكن معالجتها.
- كان قد فسد الأمر.
- خسارة فادحة وغير مقنعة...
- إنها حمقاء، غير جديرة بالمحافظة عليها لولا مصلحة ابني وابنتي...
- وصمت لحظات ثم قال بنبرة اعتراف:
- ضربتها مرة وأنا فريسة لجنون الغضب فلم تغفرها لي...
- يؤسفني ما صادفك من سوء حظ...
- فقال بنبرة متجددة:
- إنني أطالبك بقطع علاقتك بها...
- فقلت وأنا لا أصدق بالنجاة:
- طبعاً...
- وأن تحاول إقناعها بالرجوع إلى بيتها...
- سأبذل جهدي وفوقه...
- فقال وهو يلوح بحركة قاطعة:
- حسبنا كلام في هذا الموضوع البغيض...
- تنفست من الأعماق. وجعل يتذكر عهدنا القديم.
- وذكر فيمن ذكر الدكتور إبراهيم عقل وأستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم. قال:
- لقد انقطعت عن صالونه منذ سفري إلى باريس ولكني زرتة مراراً زيارات خاصة، وأفكر في الرجوع إلى اجتماعات الصالون...
- وهز رأسه قائلاً:
- لقد ضاعت أراضي أسرته في الإصلاح الزراعي، وباع قصر المنيرة وابتاع فيلاً في مصر الجديدة انتقل إليها صالونه العتيد.
- أعرف ذلك فأنا من المترددين عليه بانتظام منذ عام ١٩٣٠...
- فراح ينوّه بنشاطي وتقدمي ثم قال:
- إنني أكادح بلا انقطاع للمحافظة على كرامتي...
- أنت مثال طيب.
- ولديّ مشروعات ترجمة لا حصر لها... كتب مسرحيات... قصص سينمائية...
- عظيم... عظيم...
- ولكن تلزمني عقود مع المؤسسات الثقافية...
- اعرض ما لديك...
- فسكت قليلاً ثم قال:
- قيل لي إنه لا جدوى من العرض وحده؟ فتساءلت متبهاً:
- ماذا تعني؟
- قيل إن الوصول قد يقتضي مالاً ولا مال لديّ!
- لا تصدق جميع ما يقال!
- أو أن أكتب مقالات نقدية تقديراً للبارزين في المؤسسات...
- قلت لا تصدق...
- أنا على استعداد لتقرير أن أيّ بغل فيهم أعظم من أحمد شوقي ولكنّ المتنافسين في التقدير لم يدعوا مجالاً لشخص مثلي لم يعرف كناقده من قبل... وفضلاً عن ذلك فلست إذاعياً ولا تلفزيونياً لأدعوهم إلى برامج أو اعرض أعمالهم، فلم يبق أمامي إلا الطريق الطبيعي وهو كما تعلم غير طبيعي...
- وضحك لأول مرة فشمعت بالنجاة أكثر، وحاولت تهديد ظنونه وتشجيعه. وقام وهو يذكّرني بمطلبه الأصلي فقلت له:
- سأبذل ما فوق طاقة الإنسان...
- وقد بررت بوعدتي. وما إن طرقت الموضوع حتى هتفت أماني:
- الوحش وصل إليك!
- واحترقت عينها بنار الغضب فذكّرتها بواجبها نحو ابنها وابتنتها فصاحت:
- أنت لا تعرفه!
- فقلت:
- بل أعرفه من قديم، ليس سيئاً كما تتوهمين، وهو خير من كثيرين...

- الحمد لله ...

تبدت مفرطة في البدانة والرزانة غير أنّ ارتباكها أفنعتني بأنّها تعاني مسئولية السيدة المتزوّجة إذا ورطتها ظروف خارجة عن الإرادة في مصافحة رجل «غريب».

## أنور الحلواني

اسمه قادر على استدعاء عالم متكامل بأسره. ميدان بيت القاضي المترّج بين الجمالية وحنان جعفر والنحاسين، وأشجار البلح المثقلة بأعشاش العصافير، وقسم الجمالية العتيق، وحوض الماء القائم في الوسط تسقى منه البغال والحمر، وكشك حنيفة المياه العمومية، وهو ملعب طفولتي وصباي. وكنت أتطلع باهتمام إلى أنور الحلواني في ذهابه من بيته الملاصق لبيتنا أو في إيابه إليه. لم يكن شاباً عادياً، كان من رواد المتعلمين الأوائل في الحي، كان طالباً بمدرسة الحقوق. وربما كنت معجباً بطربوشه المفرط في الطول، وشاربه الغزير المبروم، وبذلة الأنيقة. وكان يسير في رزانة لا تناسب سنّه فكان يجلو لي أن أقلده ما تيسر لي ذلك. وكنت أتدكّر جيّداً الشرابات الذي شربته احتفالاً بنجاحه في البكالوريا، قدّمته لي أمّه بيدها وهي امرأة من أصل ريفي كان يجلو لي أيضاً أن أقلد لهجتها. والظاهر أنّ أحداً كانت تجري في خفاء من حولي وأنا ألعب تحت أشجار البلح.

استيقظت ذات صباح على صوت يترامى من بيت جيراننا. وحدث اضطراب شامل في بيتنا فجعلت أتمسّح في المضطربين والمضطربات مستطلعاً. وعرفت في ذلك الصباح أنّ جارنا الشاب أنور الحلواني قد قُتل برصاصة في مظاهرة، بيد جنديّ إنجليزيّ. عرفت لأول مرة فعل «القتل» في تجربة حيّة لا في حكاية من الحكايات الشعبيّة، وسمعت لأول مرة عن «الرصاص» في أوّل اتصال سمعيّ بإحدى منجزات الحضارة، وثمة لفظة جديدة أيضاً «مظاهرة» استدعت الكثير من الشرح والتفسير، وربما لأول مرة سمعت عن تمثّل جنس بشريّ جديد في حياتي الصغيرة هو

- كلاً.. أنت لا تعرفه ...

فأصررت على نصحتها فصاحت:

- كفى.. لا تضطهدي ...

- بل لي عليك عتاب، كيف تخفين عني علاقتك الزوجية وأنت تعلمين أنّه يطارذك؟

فهتفت:

- لا غيرة عنده البتّة!

- أنّه يحبّ ابنه وابنته ...

- بل يحبّ نفسه وحدها ...

- المسألة ...

فقاطعتني بحدّة:

- المسألة أنّك لا تحبّني ...

ثمّ وهي تحقّف عينيها:

- مات الحبّ في هذه الدنيا منذ زمن بعيد ...

ثمّ رمته بنظرة عتاب وقالت:

- لم تقل لي إنّك تحبّني ولا مرّة واحدة، ولكنّي لا

ألومك ...

فقلت معتذراً:

- أنت تستحقّين الحبّ أمّا أنا فلم أعد أهلاً

له ...

- كلام.. كلام.. كلام ...

- ستجدين في بيتك ما هو أهمّ.

رجعت وفي أعماقي شعور بالتحرّر والنجاة والندم

ثمّ اجتاحني حزن عميق. وظلّ إحساس حادّ بالراء

يطاردني نحو زميلي القديم عبده البسيوني وزوجه أماني

محمد. وتوقّعت أن يتصل بي ولكنّه لم يفعل. وأردت

أن أتصل بها لأطمئنّ عليها ولكنّي لم أجد فرصة ولا

وسيلة. والتقيت بعد ذلك بأزمته متفاوتة وفي أماكن

مختلفة بعبده البسيوني فأشعرتني سلوكه بأنّه يتقدّم في

طريقه المرسوم بإرادته الكادحة. وفي ١٩٦٨ أو ١٩٦٩

وكنت سائراً بشوارع رمسيس أمام مبنى التليفون

وجدت أماني مقبلة نحوني على بعد خطوات.

وبحركة عفوية مددت يدي فصافحتني بلهوجة وارتباك

أشعراي بتسرّع وخطئي. وهمست معتذراً:

- إن شاء الله تكونين بخير.؟

فأجابت وهي تمضي:

محورًا تتحرك مواهبه ويحيش صدره بالعطاء، فيلقي بعض الأزجال الوطنية، ويحكي النوادر اللطيفة، أو يتصدى لتحديات غريبة. سألنا مرة عن أرفق الأماكن لممارسة الحب، فأجاب كل بما خطر له، ولكنه جعل يهز رأسه ساخرًا حتى نضب معين خواطرننا، ثم أجاب هو قائلاً:

- القرافة!

ودهشنا، وضحكنا بما ظنناه مزاحًا فعاد يقول:

- في المواسم يبيت الناس في أحواش المقابر، نساء ورجالاً، والنساء يكنّ عادة أضعاف أضعاف الرجال، وفي ظلام الليل تسنح فرص لا تحظر على بال... .  
فقال بعضنا:

- ولكنّها مناسبة لا تفتح النفس للحب!

فقال بيقين:

- الحب لا يتخيّر مناسبة فهو صالح لكل مناسبة! وقص علينا كيف انقضّ على خادمة في مكان خالٍ من البيت وجثة عمته مسجاة تنتظر من يكفنها والنائحات ينحنّ في ساحة البيت. وفي ذلك المجال كانت له حكايات غريبة لا تنفذ. أمّا امتيازه الحقّ فقد ناله بكلّ جدارة في كرة القدم. كان قلب الهجوم في فريق المدرسة. ورغم بدائته اشتهر بالسرعة وخفة الحركة غير أنّ اندفاعه المتناقض مع وزنه كان يثير في الملعب عاصفة من الضحك. وعُرف بقدرته الخارقة في المحاورة والمداورة، والسيطرة على الكرة كأنما يشدها إلى مجال قدميه بقوة مغناطيسية، والمكر الأريب الذي يُفقد أعداءه توازنهم ويطردهم أرضاً، كما امتاز بقوة ضرباته للكرة.

وكان يُعدّ نفسه للعب في النوادي ويحلم بالاشتراك في الأولمبيات العالمية. وكان مستر سمبسون المدرّب العامّ بوزارة المعارف يُعجب به فنصح به فنصحته في ختام إحدى المباريات العامة بين المدارس بتخفيف وزنه فكانت استجابته للنصيحة أن التهمّ - في حفل الشاي الذي أعقب المباراة - طورطة كاملة وحده مع عديد من السندوتشات والفظائرا.

وذات صباح وقف بدر الزبيدي يهتف - مع الهاتفين - بحياة دستور ١٩٢٣ وسقوط الدكتاتورية.

«الإنجليزي». وتطايرت الأحاديث في البيت وفي الميدان مكررة لتلك الكلمات ومضيفة إليها غيرها مثل الثورة والشعب وسعد زغلول. انهمرت على الكلمات حتى أغرقتني وانطلقت منّي الأسئلة بلا حساب وبالخاح شديد، قتل.. ما معنى قتل؟ وأين ذهب أنور؟ وماذا ينتظره في العالم الذي ذهب إليه؟ ومن الإنجليزي ولمّ قتله؟ وما معنى الثورة؟ وما معنى سعد زغلول؟ وما وما وما؟ وما لبثت الأحداث أن تدافعت إلى الميدان نفسه في جنون خياليّ.

قبعت وراء شيش النافذة أنظر بعينين محمقتين إلى جموع البشر المتدفقة من ذوي البدل والجيب والقفاطين والجلاليب، حتى النساء في الحناطير والكارو، يحملون الأعلام ويهتفون. وسمعت أزيز الرصاص، أجل لأول مرة أسمع، ينطلق من اللوريات ومن فوق صهوات الخيل، ورأيت الإنجليزي رؤية العين بقبعاتهم العالية وشواربهم النافرة وجوههم الغريبة، ورأيت الجثث بالعشرات مطروحة في جوانب الميدان، ورأيت الدم البشريّ يلقّح الملابس وأديم الأرض، وسمعت الحناجر وهي تهتف من الأعماق «يجيا الوطن»، و«موت ويجيا سعد».

## بدر الزبيدي

كان زميلاً بالمدرسة الثانوية. وكان بديناً خفيف الروح، يحبّ الطعام واللعب والبنات ويحبّ الوطن. وكان أبوه ضابط المدرسة، عاصرناه عامين، ثمّ أتهم في ظروف لا أذكرها بالعب في الذات الملكية فقدم إلى المحاكمة التي أدانته وحكمت عليه بالحبس ستة أشهر مع وقف التنفيذ ولكنه فصل من وظيفته. وكان بدر يفاخر بشجاعة أبيه ووطنية فجاريناه في ذلك إذ كان العيب في الذات الملكية يُعدّ درجة لا بأس بها من درجات الجهاد يضمن لصاحبه موضعاً في صفحة المجاهدين. وكان بدر تلميذاً عادياً في الفصل، بل خاملاً، أمّا مجده الحقيقي فكان يتألق في فناء المدرسة. في فناء المدرسة كان قطباً ينجذب إليه بعض تلاميذ فصله وتلاميذ من الفصول الأخرى. وعندما يجد نفسه

## بلال عبده البسيوني

التقيت به مصادفة في فيلاً جاد أبو العلا في أوائل عام ١٩٧٠. ورغم أننا لم نتصادق، بل ولم نلتق مرة أخرى إلا أنه ترك في نفسي أثراً يستحق أن يذكر. وكما ذهبت إلى الفيلاً ذلك المساء لم يكن بهيو الاستقبال إلا الأستاذ جاد أبو العلا وزميلي القديم عبده البسيوني وشابٌ وسيم به شبه منه سرعان ما قدّمه لي قائلاً:

- ابني.. الدكتور بلال..

وفي الحال تدكّرت قصّة الابن والابنة اللذين كانا محور حديث ذي شجون بين عبده وبيني ثم بيني وبين أماني محمّد منذ سنوات خمس. واشتركت في حديث نما يجري بلا هدف وقد عاودني شعور بالدنب القديم. وإذا بعبده البسيوني يقول مشيراً إلى ابنه:

- الدكتور يفكر في الهجرة!

واسترعى قوله اهتمامي فنظرت إلى الشاب من جديد بحبّ استطلاع آسير. إنّ كلمة «الهجرة» من الكلمات الجديدة التي غزت قاموس حياتنا وأثارت في جيلنا القديم العجب. ها هو واحد من فرسانها فما أطيّب الفرصة!

وعاد عبده يقول:

- إنه مرشّح لبعثة دراسية قصيرة بالولايات المتحدة، ولكنّه يضمّر الهجرة..

فسأله جاد أبو العلا:

- وما رأيك أنت؟

فأجاب عبده ضاحكاً:

- وما قيمة رأيي أو رغبتني؟

- على سبيل العلم بالشيء؟

- لا أوافق..

- وأماني هانم؟

ضاعف من ارتباكها الخفيّ ذكر الاسم ولكنّي عرفت لأول مرة أنّها رجعت إلى أسرتها، كما أدهشني أن يتحدث جاد عنها بتلك الألفة. أما عبده فأجاب:

- إنّها ترخّب بالفكرة وتنخيل أنّه سيكون بوسعها

أن تسافر إلى الولايات المتحدة كلّما شاءت..

فضحك مضيفنا وجارته في ضحكه ثمّ قال مخاطباً

كان الملك فؤاد قد أقال مصطفى النحاس وعهدت الوزارة إلى محمّد محمود فأعلن هذا تأجيل العمل بالدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد. وأضربت المدارس جميعاً، ومنها مدرستنا. غير أنّ قوّات الشرطة حاصرتنا فلم نتمكن من الخروج. ولكي نتسلّح بما يلزمنا في المعركة اقتلعنا الأشجار والنوافذ والأبواب واقتحمنا المطعم فاستولينا على الأطباق والحلل والمغارف والشوك والسكاكين. وتصاعدت هتافاتنا العدائيّة مقتحمة كلّ مقام حتّى مقام الملك. وعند ذلك هجم الجنود فجأة ومن جميع الأبواب وانهاخوا علينا بالعصي الطويلة على حين أطلق الكونستبلات الإنجليز الرصاص في الهواء على سبيل الإرهاب. ودارت معركة غير متكافئة، ولم ينبجّ واحد منا من ضربة أو أكثر، وسقط جرحى كثيرون، واستشهد فرّاش وتلميذ. كان بدر الزيايدي هو التلميذ الشهيد إذ قضت عليه ضربة أصابت مؤخر رأسه. وصمّمت المدرسة على تشييع جنازته في اليوم التالي ولكنّ الشرطة ضربت حصاراً حول قصر العمي الذي كان عامراً بالشهداء من جميع المدارس. ومُحلت الجثث رأساً من المستشفى إلى المدافن تحت حراسة الشرطة، ولكننا ذهبنا فرادى إلى بيت ضابط مدرستنا القديم لنقدّم له واجب العزاء. وما زال الرجل حيّاً حتّى اليوم ولعلّه في الخامسة والسبعين من عمره. أراه نادراً في بعض زياراتي للعباسية وهو جالس في مقهى صغير قريب من مسكنه. مهدّماً بالكبر وضيق ذات اليد فيما يبدو. لا يتصوّر من يراه أنّه كان من ذوي العقائد الحرّة أو أنّه جابه الحياة بشجاعة وأنّه فقد في سبيل ذلك وظيفته وابنه. ومن مكانه المنزوي يراقب السيّارات المنطلقة حاملة الناجحين من رجال المجتمع المعتزّين بإقبال الحياة الذين لم يكتفوا بنار تضحياتها وقيمها السامية. ترى ماذا يدور بخلده وهو يتابع هذا التيّار الغريب المتدفّق؟ أم إنّ الكبر والزمن قد أعفياه من كلّ شيء إلا ما يعانیه في لحظة العبارة!!

أما بدر فما زالت الصورة التذكاريّة لفريق كرة القدم تجمعنا، وهو يتوسط الفريق، الكرة بين قدميه، يطالع الكاميرا بنبرة مرحة مترعة بالثقة بالنفس..

الشاب:

- الوطن... الاشتراكية... القومية العربية...  
 ماذا أقول؟ لا تتصوّري عابثًا... كلاً... ولكن  
 ماذا بقي لنا بعد ٥ يونيو؟  
 فقلت:

- مضت على النكسة أعوام خليقة بأن تجعل منها  
 درسًا لا نكسة...  
 فقال لي عبده البسيوني:

- لا فائدة، إته جيل لا يقتنع إلا بما في رأسه...  
 فقال جاد أبو العلا:  
 - لا بأس من ذلك ولكن لا يجوز أن ينسى وطنه...  
 فقال الدكتور بلال:

- لا منقلد لنا سوى العِلم، لا الوطنية ولا  
 الاشتراكية، العِلم والعِلم وحده، وهو يواجه  
 المشكلات الحقيقية التي تعترض مسير الإنسانية، أما  
 الوطنية والاشتراكية والرأسمالية فتخلق كل يوم  
 مشكلات نابعة من أنانيّتها وضيق نظرها وتبتكر لها من  
 الحلول ما يضاعف في النهاية من حصيلة المشكلات  
 الحقيقية.  
 فسألته:

- وماذا يمنعك من أن تكون باحثًا وعالمًا في وطنك؟  
 - توجد موانع وموانع، استعداد بدائي للبحث  
 وجوّ خائق للفكر والعدالة والتقدير، لذلك أفكر في  
 الهجرة، وسأكون في أمريكا أعظم فائدة لوطني ممّا لو  
 بقيت فيه، فالعلم لجميع البشر، باستثناء علم الحرب  
 والهلاك فالعلم لجميع البشر...  
 وسأل جاد أبو العلا عبده البسيوني:

- وماذا عن شقيقته؟  
 - ستحصل على بكالوريوس في الصيدلة في نهاية  
 العام الدراسي وهي متحمّسة أكثر منه للهجرة...  
 فضحك الرجل عاليًا وقال:  
 - وفقى الأحلام؟.. ألم تفكر في هذه المشكلة؟  
 - إنّ ما نعده مشكلة يعدّونه لعبًا...  
 فقال جاد أبو العلا:

- من المؤسف أنّ الفنّ لم يقدّم لنا بعد نموذجًا من  
 هذا الجيل، كم أودّ أن أسبق إلى ذلك!  
 فقلت له:

- ينتظر هنا مستقبل باهر.

فقال الدكتور بلال:

- إني أتطلّع إلى بيئة علمية صحيّة...  
 فقال عبده البسيوني:

- إنّ هجرة صديق له يدعى الدكتور يسري أدارت  
 عقله ولكنّه في اعتقادي شخص شاذّ لا يصلح مثلاً  
 طبيًا، كان طبيًا ناجحًا سواء في المستشفى أم في  
 العيادة ولكنّ غضبه على كلّ شيء لم يكن يهدأ لحظة  
 واحدة، ولم يكن يكفّ عن النقد المرّ، كان يفور  
 بكراهية غريبة نحو البلد ومن فيه، فانتهاز فرصة  
 وجوده في إجازة دراسية ثمّ قرّر البقاء هناك...  
 فقال دكتور بلال:

- ونجح هناك نجاحًا فريدًا، في العمل والبحوث  
 على السواء...  
 وكان هنا ناجحًا أيضًا فما معنى الهجرة؟

- البيئة العلمية يا أبا، وإليك قصّة وكيل قسم  
 بالمستشفى الذي أعمل به، درس حقّ حصل على  
 درجة الدكتوراه بامتياز رائع، انتظر أيّ تقدير فلم  
 يظفر منه بشيء، بل حورب حتّى لا يحتلّ المكان  
 العلميّ اللائق به، فما كان منه إلا أن هاجر، ولدى  
 عرض بحثه في الولايات المتّحدة تلقى أكثر من عرض  
 للعمل في الجامعات والمستشفيات...  
 لاحظت أنّه كان يتكلّم بحدّة تقارب الغضب،  
 فقلت:

- قد يوجد نخل ولكن ليس للحدّة الذي يدفع  
 الناجحين إلى الهجرة...  
 فقال لي دون أن يخفّف من حدّته:

- بل الشأن في كلّ شيء يدعو للثناء!  
 - حسن أن تشمر بذلك وأن تؤمن به ولكن منذ  
 الذي ينبري للإصلاح سواكم؟...  
 - لن أشغل نفسي بهذه الأفكار...  
 - ولكنّ وطنك قيمة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها؟  
 فقال بهدوء نسبيّ:

- وطني الأوّل هو العِلم!

ثمّ بعد تردّد كأنّما حاسّب فيه نفسه:



العامة للحضارة بإفناء أجناس برمتها!  
فهتف به أبوه:  
- حسبك!  
وقال جاد أبو العلا:  
- ما أسعد إسرائيل بكم!  
فعاودت الشابّ حدّته وهو يقول:  
- أمجدى إسرائيل أن تفعل بنا مثلبا فعلناه بأنفسنا!  
وقد بتّ ليلتي متفكراً في حديث الدكتور بلال،  
مستعيداً جملة وعباراته، متأملاً الموضوع من شتى  
جوانبه، حتّى اقتنعت في النهاية بأنّه لا نجاة للجنس  
البشريّ إلّا بالقضاء على قوى الاستغلال التي تستخدم  
أسمى ما وصل إليه فكر الإنسان في استعباد الإنسان  
وخلق صراعات مفتعلة سخيفة تستنفد خيرا ما فيه من  
إمكانيّات رائعة، وذلك كخطوة أولى لجمع العالم في  
وحدة بشريّة، تستهدف خيرها معتمدة على الحكمة  
والعلم، فتعيد تربية الإنسان باعتباره مواطناً في كون  
واحد، وتبنيّ لجسمه السلامة ولقواه الخلاقة الانطلاق  
ليحقّق ذاته ويبدع قيمه ويمضي بكلّ شجاعة نحو قلب  
الحقيقة الكامنة في ذلك الكون الباهر الغامض. إمّا  
ذلك وإمّا مستقبل جعلني أشعر بالامتنان لكوي من  
جيل يوشك أن يختم رحلته في هذه الحياة العجيبة التي  
تدور بخيرها وشرّها فوق فوهة بركان.

وقد التقيت بعبد البسيوني بعد مرور أشهر في  
صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فبادرته بالسؤال عن  
ابنه فأخبرني بأنّه سافر، ثمّ قال:  
- وستلحق به أخته في القريب!  
ثمّ قال بنبرة اعترافيّة:  
- أجد كثيراً غمّاً أليّاً في قلبي ولكنّ زمني علمني  
التسليم للمقادير...  
وبعد قليل من الصمت عاد يقول:  
- لا أخفي عنك أيّ مقتنع بقرارهما، لمّ لمّ تؤهلنا  
دراستنا العقيمة للهجرة ١٩  
فقلت:  
- العلم لغة عالميّة أمّا مهنتنا فالغاز محلّيّة.  
وأفضيت إليه بالخواطر التي اجتاحتني عقب  
استماعي لحديث ابنه فضحك طويلاً ثمّ قال:

- إنّه يتقدّم بلحمه ودمه فوق مسرح حياتنا  
المسكين!

فقال عبده البسيوني مخاطباً ابنه:

- إنكم محلمون بالهروب والسفينة تواجه العاصفة!  
شعرت بأنّ عبده غير جادّ في معارضته وأنّه لا  
يحسن إخفاء إعجابه بابنه. وهزّ الدكتور بلال منكبيه  
استهانة فايقنت أنّه يمثل موقفاً جديداً من «الوطنية»  
تلك الأمانة القديمة التي أرقق جيلنا حملها. وقال بلال  
ضاحكاً وقد ذكّرني ضحكته بأّمه:

- الحقّ أيّ أحلم بهيئة علميّة تحكم العالم لخير  
العالم.

فسألته:

- وماذا عن القيم؟.. العلم لا يتعامل معها،  
وحاجة الإنسان إليها لا تقلّ عن حاجته إلى الحقائق.

فنظر إليّ فيما يشبه العجز ثمّ قال:

- يجب ألاّ يعني ذلك التمسك البائس عديم  
الجدوى بقيم بالية، إنكم لا تتمسكون بها إلّا خوفاً  
المغامرة بالبحث عن غيرها، والعلم لا يعطي قيماً  
ولكنّه يضرب مثلاً حسناً في الشجاعة، فعندما تهاوت  
الحتميّة الكلاسيكيّة كيف نفسه برشاقة فوق أرض  
الاحتمال وتقدّم لا ينظر إلى الوراء...

فقال جاد أبو العلا:

- من العبث أن تناقش قوماً ليس بينك وبينهم لغة  
مشتركة...

فقلت وقد أخذ رأسي يجمي بالحلّة:

- إنكم تودّون الهجرة إلى الحضارة بدل أن تنمّوها  
في أرضكم...

فقال محتدّاً:

- الإنسان في الأصل كائن مهاجر وما الوطن إلّا  
المكان الذي يوفّر لك السعادة والازدهار، لذلك لا  
تقبل على الهجرة إلّا الصفوة، أمّا المتخلفون...

وتوقّف كالتردد فقلت:

- أمّا المتخلفون فيحسن التخلّص منهم!

فباخت حدّته وقال ضاحكاً:

- لو سار الازدياد السكانيّ على معدّله الحاليّ  
وعجزت الوسائل عن تغذيته فربّما تقضي المصلحة

- نحن الكهول مطالبنا يسيرة، سعادتي اليومية تتحقق لدى شرب قدح من القهوة باللبن مع قطعتين من البسكوت...

## ثرياً رافقت

رافقتها أول عهدي بالوظيفة عام ١٩٣٥. كانت تتردد على الوزارة لزيارة عمها فقدمي إليها فتعارفنا. وكانت طالبة بالمعهد العالي للتربية وعلى وشك أن تعمل مدرّسة. وكانت متوسطة الجمال ولكن بارعة القدّ والقامة، نمت عيناها عن ذكاء وشخصية. ولاحظ الأستاذ عباس فوزي وكيل السكرتارية إعجابي بها فقال لي يوماً - عقب ذهابها مباشرة - وهو يوقع لي على بعض الأوراق:

- أن لك أن تفتح بيتاً وتستقرّ.

فأدركت أنني ضُبطت متلبساً وقلت:

- أتري ذلك؟

- إن صافي مرتبك ثمانية جنيهات وهي تكفي

للزواج من اثنتين!

فضحكت وقلت مردّداً مشاعر جيلنا:

- ولكن هل تحبّ الزواج من موظفة؟

فقال بتهكمه المهود:

- كما قد توجد منحرفة بين ستات البيوت فقد

توجد مستقيمة بين الموظفات!

فعلمت أنه يحذرنى بأسلوبه اللطيف، ولكن سيطرة الفتاة الجنسية عليّ كانت فوق أيّ تحذير فسعيت إلى توثيق علاقتي بها. وكانت - كطالبة - تتمتع بقدر من الحرية خليق بأن يثير فيّ سوء الظنّ، فضلاً عن نظرة عينيها الساخنتين الجريئة، واستجابتها المثيرة للقلق.

كان كلّ أولئك جديراً بأن يصدني عنها ولكنّه أغرائي بها فانتظرتها في الخارج بدافع هو خليط من حسن النية والجري وراء مغامرة. صالحتها وسرت إلى جانبها وأنا أقول:

- أودّ أن نجلس معاً قليلاً من الوقت...

فسألني متظاهرة بالدهشة:

- لمّ؟

فقلت:

- رغبة في مزيد من التعارف.

- ليس اليوم...

وأرادت أن تودّعني فقلت:

- ولكنك لم تحددي يوماً آخر؟

فأبطأت قليلاً كأنما غلبت على أمرها وقالت:

- ليكن يوم الاثنين، العاشرة صباحاً، بحديقة

الحيوان...

ومع أنّ استجابتها لبّت صميم أمنية القلب إلا أنّها في الوقت نفسه ثبتت سوء ظنيّ بحريتها، وغلبت في نفسي جانب المغامرة على حسن النية. والتقينا أمام باب الحديقة، ورحنا نتمسّئ في أرجائها ونتكلّم. أعلنت عن إعجابي بها، ثمّ جرّنا الحديث إلى تفاصيل حياتنا، ومستقبلنا. وكانت عواطفنا المكبوتة تعدّبي، وكنت شديد الثقة في أنّها ستستجيب لها كما استجابت إلى الميعاد. وحاولت لدى أوّل فرصة لخلو المكان أن أقبلها. وتجنّبتني، ونظرت إليّ، والظاهر أنّها قرأت في عينيّ معاني لم ترتح لها فتساءلت في استياء:

- ماذا بك؟

فأشرت إلى خميلة وقلت:

- لنجلس هناك...

فقلت بحزم تغيّرت به صورتها:

- يجيّل إليّ أنّك أسأت بي الظنّ...

فقلت وموجة باردة متجتاحني:

- كلّاً...

- أو أنني أحسنت بك الظنّ خطأ...

فقلت بحرارة مصدرها الندم:

- لا هذا ولا ذاك من فضلك!

أجهضت العاصفة فجلسنا جلسة بريئة وواصلنا حديثنا الجادّ السعيد، ثمّ افترقنا على ميعاد جديد، وانجذبت إليها بقوة فحقى الزواج منها ففكرت فيه جاداً وراغباً. وفي اللقاء الثاني أهدتني قلم أبنوس فأثرت في الهدية تأثيراً نافذاً وساحراً. وقالت لي:

- ترددت طويلاً، ففكرت في الانقطاع عنك...

فسألتها بجزع:

- لمّ؟

- أخاف من خيبة الأمل.  
فضنطت على يدها بحنوٍ وقلت:  
- أنت تدرकिन تمامًا أنني أحبك...  
وفي المقابلات التالية تبلور الاتفاق بيننا وفكرنا في الخطوات العمليّة التي تسبق عادة إعلان الخطوبة. وجاءت معها مرّة شقيقتها الكبرى المتزوجة، وتركز الحديث في الوظيفة وهل تبقى بها أم تتفرّغ للبيت. وقلت ببراءة:  
- لا أتصوّر كيف يستقيم أمر البيت إذا تمسكت بالوظيفة...  
فتساءلت شقيقتها:  
- وعلام كان الجهد والتعب؟  
فقلت:  
- إنّ مرتبي يغنيها عن توظيفها ويوفّر جهدها للبيت...  
فقلت الأخت ضاحكة:  
- رغم ثقافتك فأنت دقّة قديمة...  
وقالت ثريًا:  
- لم يسألني أحد عن رأيي بعد؟  
فقلت:  
- ولكنك تشتركين معنا بصمتك...  
- كلاً!  
- إذن فما رأيك يا عزيزتي؟  
- سأعمل فيما أهلت نفسي له حتّى النهاية...  
ثمّ كان آخر لقاء قبل الميعاد الذي حدّدناه لإشراك الأسترين. وجدتها على غير عاداتها قلقة، مشتتة الفكر. فقلت:  
- يوجد شيء يشغلك.  
فقلت ببساطة:  
- نعم!  
- ما هو؟  
- لا يجوز تأجيله أكثر من ذلك...  
وبسرعة استطرقت:  
- وأعترف أنّي أخطأت في تأجيله حتّى هذه اللحظة.  
- شيء خطير؟
- يجب أن نتكاشف!  
- ألم نتكاشف بما فيه الكفاية؟  
- كلاً.. الحبّ يطالبنا بالصدق...  
فقلت بقلق:  
- طبعًا...  
فقلت وهي تغمض عينيها:  
- يجب أن أصارحك...  
اعترفت بأنّ شخصًا ما «خدعها» وهي في سنّ البراءة. وفي أثناء الاعتراف القصير اغرورقت عيناها. لم أفهم شيئًا بادئ الأمر، ثمّ أدركت كلّ شيء ببلاهة كأنه دعابة، ثمّ اجتاحني شعور قديريّ بأنّ كلّ شيء محتمل وأنني لا شيء، ثمّ هبطت في هاوية من الحمود والفتور والاستسلام المشلول كأنها حفرة في قلب الشتاء رُدمت بطبقات من الرماد. وجعلت ترنو إليّ من خلال رموشها المبتلة ثمّ همست بيأس:  
- ألم أقل لك؟  
فتساءلت ببلاهة:  
- هه؟  
- أنت لا تحبني.  
- أنا.. لا تقولي ذلك...  
- لن تغفر لي...  
فسألته جاذبًا نفسي من تيار أفكارها:  
- من هو؟  
- لا يهتم...  
فسألت مصرًا:  
- من هو؟  
- وغد من الأوغادا  
- ولكن من هو؟  
- لا تعذبني...  
وتناولت حقيبتها وهي تقول:  
- أستودعك الله...  
فقلت باليّة:  
- لا تلهبي.  
فنهضت وهي تقول:  
- أعطيتني الجواب بلا كلام.  
- ولكنّي لم أنكلم.

كما يلتمس المحترق مادةً - غطاءً أو ترابًا أو ماءً - ليطفئ به النار المشتعلة في ملابسه. وجدت عند الأستاذ سالم جبر نفرًا من الزملاء مثل جاد أبو العلا ورضا حمادة وعزمي شاكور وكامل رمزي وسيدة وقورًا فوق الخمسين عرفت فيها ثريًا رافت. ألقىت تحية عامة وجلست فلم تلمس يدي يدها ولكّني شعرت بأنها تذكّرني كما تذكّرتنا. وكان الحديث يدور حول النكسة، تحديد أبعادها، تحليل أسبابها، واستقراء الغيب عنها. ومضى الزملاء في الانصراف ثم قامت ثريًا فصافت الأستاذ سالم وهي تقول:

- موعدا يوم الاثنين.

فأكد لها الموعد وهو يوصلها حتى الباب، ثم رجع إلى مكتبه وهو يقول:

- جاءت تدعوني إلى مناقشة وطنية بنقابة المعلمين. فسألته متجاهلاً:

- من هي؟

- الدكتورة ثريًا رافت، مفتشة كبيرة بالتربية. ثم استطردها بعد قليل:

- زوجها من رجال العلم النادرين المكرّسين حياتهم للبحث أما هي فمن وجوه نهضتنا النسائية، امرأة تستحق أن يفخر بها جنسها وأن يفخر بها الوطن...

ثم قال:

- يندر أن تجد امرأة في قوة شخصيتها وعلمها وخلقها.

تذكّرت عيد منصور. تذكّرت ضعفي وانغمامي، تذكّرت نفرًا من أصدقاء الصبا مثل خليل زكي وسيد شعير، تذكّرت أحمد قدرتي قريبي الذي لم أره منذ دهور، تذكّرت عشرات وعشرات تمن تلامطت معهم في مجرى الحياة، برزت وجوههم وسط هالة من غبار متعفن كما تبرز الحشرات في أعقاب انهيار بيت آيل للسقوط.

- إني أرفض ما دون الثقة الكاملة...

فقلت وأنا أجد ارتياحًا في الأعماق لنهوضها:

- تلزمني دقائق للتفكير.

فقلت وهي تمضي في كبرياء:

- أستودعك الله.

بدأت لي المشكلة عقدة غير قابلة للحل. تكشّف حبي عن ولع عنيف ليس إلا وكان حبي القديم لصفاء قد استنفد طاقتي للحب الحقيقي. وكانت تلك الهفوة مما لا يُتغفر على أيامنا. كنّا نحارب طبقات كثيفة من الماضي العتيق كلما تلاشت طبقة برزت تحتها طبقة راسخة تتطلّب المعاناة والعناء لقهرها. كان علينا أن نقطع خمسة قرون وستة في ربع قرن. حزننا وخابنا أملنا ولكّني لم أشك لحظة في أنّ ثريًا قد خرجت من حياتي إلى الأبد. وامتنعت عن الحضور إلى الوزارة لزيارة عمّها فلم تقع عينيّ عليها حتى كان المعرض الزراعيّ الصناعيّ الذي أقيم قبيل نشوب الحرب العالميّة الثانية عام ١٩٣٩. كنت أمضي وقتًا في لونا بارك الملحقّة بالمعرض ومعني صديق صباي عيد منصور فمرّت بنا ثريًا بصحبة شقيقتها الكبرى وأبنائها. لم ترني ولكّني رأيتها، ولما رآها صديقي مال على أذني هامسًا:

- انظر إلى تلك الفتاة!

فسألته:

- ما لها؟

- من حبيّ السكاكيني وجارة لخالتي...

وضحك ضحكة خبيثة ورسم بيده حركة وقحة أدركت منها أنه الوجد المعتدي فقلت بامتعاض لم يدرك مداه:

- أنت وغدا!

فضحك باستهتار كعادته وقال:

- ورغم ذلك سمعت أنّها مخطوبة وستتزوج في هذا

العام!

ومرّت أعوام كثيرة لم أر فيها ثريًا ولم أسمع عنها حتى ذهبت لزيارة الأستاذ سالم جبر عقب النكسة فوجدت ثريًا ضمن آخرين مجتمعين به في مكتبه، كنت في تلك الأيام ألتبس مجامع الزملاء والأصدقاء

المرايا ٢٩١

- شعرت منذ عهد مبكر بالموهبة فألححت على أبي حتى وافق على إرسالني في بعثة خصوصية - عقب حصولي على الثانوية العامة - إلى فرنسا...

وهز رأسه وهو يبتسم إلي ثم قال:

- لم أكن أومن بالدراسة النظامية ولا كانت هدفي فالتحقت بمعهد لتعليم الفرنسية ثم أجهت بكل قواي نحو مناصب الفن الحقيقية في المتاحف والمسارح وصلات الاستماع والكتب...

وأسهب في وصف تلك المناصب وتجربته التذوقية معها...

- ولكنني اضطررت إلى قطع دراستي بعد مرور ثلاثة أعوام لوفاة والدي فعدت لإدارة معرضه بصفتي أكبر إخواني وأرشدهم...

وحكى لي كيف انقسم - وما زال - بين التجارة وبين الأدب، وكيف استطاع أن يشق طريقه العسير ويحقق موهبته باستغلال كل دقيقة من وقت فراغه القليل. وترك حديثه - والأحاديث التالية على مر الأعوام - انطبعا في نفسي لا يمكن أن يوصف بالثقة. كان كثير المرح عادي الذكاء أقرب إلى السطحية ذا طلاء ثقافي بلا أعماق. ومن هذا ومن قراءاتي السابقة لبعض رواياته ملت إلى تصديق ما يقال عنه في مجالس الفكر مثل صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس الأستاذ سالم جبر وغيرهما. قالوا إنه أنفق أعوامه الثلاثة في فرنسا في مجالي اللهو والعبث باسم اكتساب التجارب الحية ومعرفة الإنسان. وشهدوا له بالمهارة في تجارته مما عاد عليه بثروة طائلة، تزداد مع الأيام ضخامة. وهو في نظر الجميع محب للفن وربما للشهرة أكثر ولكن بلا موهبة يُعتد بها مما دفع به إلى طريق مليء بالمتاعب، فقد صمم على أن يكون أديبا وأن يكمل ما ينقصه من موهبة جماله. وكان يكتب تجاربه.

ثم يعرضها على المقرئين من الأدباء والنقاد، ويجري تعديلات جوهرية مستوحاة من إرشاداتهم، بل يقبل أن يكتب له بعضهم فصولا كاملة، ثم يدفع بالعمل إلى أهل الثقة منهم في اللغة لتهديب الأسلوب وتصحيحه، غامرا كل صاحب فضل بالهدايا والنقود تبعا للظروف والأحوال. ويطبع الرواية على حسابه

## جَادُ أَبُو الْعُلَا

هو موجود وهو غير موجود.

ويرجع تاريخ معرفتي الشخصية به إلى عام ١٩٦٠. تلفن لي في مكنتي طالبا مقابلي فرحبت به متأثرا بما يتمتع به اسمه من شهرة في دنيا الأدب. كان قد أصدر خمس روايات وربما أكثر. وكانت الإعلانات عن رواياته تلفت النظر لكبر المساحة التي تشغلها في الصفحات الأولى من الصحف. ويتبع نشر الرواية سلسلة من المقالات النقدية في الصحف والمجلات الأدبية مغرقة في التقدير والثناء. وقد تُرجمت رواياته جميعا إلى الإنجليزية والفرنسية، كما تُرجم ما نُكِّب عنها في الخارج إلى صحفنا، وهي تشيد بأعماله إشادة لا تتحقق إلا لكاتب ذي خطر وشأن. وتبعاً لذلك قرأت له أكثر من رواية ولكنني لم أستطع أن أتم واحدة، ولم أجد ضرورة لقراءة ما قرأت منها بعناية أو اهتمام، وأدهشني أنني لم أجد عنده موهبة تذكر ولا على المستوى المحلي. وجميع أعماله تحولت إلى مسلسلات إذاعية وأفلام سينمائية فلم تحقق أي نجاح ولكنها كانت تشق طريقها بكبرياء كأنها دُرر.

ولما جاء لزيارتي وجدته لطيفا مهذباً، لبق الحديث، سرعان ما تشعر بأنه صاحب قديم، وألا مكان للكلفة بينك وبينه. صارخني بأنه يود أن يتخذني صديقا ودعاني إلى صالونه الأدبي ببيته الجميل في الدقي. ومن يومها وأنا أتردد على صالونه من حين لآخر فأجتمع به منفردا أو ضمن مجموعة من الزملاء، ولعل عبده البسيولي كان آخر من انضم إلينا بعد عامين أو أكثر من مقابلته التي لا تُنسى معي. ولم يتوان عن عرض تاريخه علي منذ أول لقاء. أشار إلى صورة كبيرة بموه إطارها بالذهب وقال:

- كان أبي رحمه الله من تجار التحف بخان الخليلي...

وضحك عالياً وقال:

- لو سارت الأمور في مجراها الطبيعي لسجلت تاجرا فحسب ونجوت من انقسام الشخصية! فسألته عما يعني بانقسام الشخصية فقال:

هو جاد أبو العلا يظفر بصيد ثمين حقًا . وتصافحنا بحرارة كالأيام الخالية على عهد الدراسة وكأنَّ الخطيئة لم تكن . وكبحت رغبة شديدة كادت تدفعني إلى سؤاله عن زوجه وهل رجعت إليه، ومن ناحيته لم يشر بكلمة إلى ذلك . وقال لي :

- القافلة تسير والصعب تدلُّل، وابني بلال في السنة النهائية بكلية طب القاهرة وهو شاب نابغة وسيكون له شأن، وأخته لا تقلَّ نباهة عنه وهي في كلية الصيدلة، وعمًا قريب سأستقبل عهدًا من الاستقرار المالي والنفسي... .  
فهتاته بذلك وتمنيت له أصدق التمنيات، وقلت له :

- الظاهر أنك عرفت الأستاذ جاد أبو العلا حديثًا؟  
فقال لي همسًا :

- منذ عامين ولكني لم أتردد على هذا الصالون إلا مرّات معدودات لم يتصادف وجودك بها... .  
ثم وهو يتسمم :  
- إنَّ أغلب مسلسلاته الإذاعية والتلفزيونية بقلمي... .

وضحكنا معًا ثم عاد يقول :

- وحتى الآن لم أوفق إلى بيع سلسلة باسمي وكما فاز الأستاذ جاد أبو العلا بجائزة الدولة التشجيعية زارني الأستاذ عجلان ثابت ومضى يضحك ساخرًا وهو يقول :

- ألا يتقون الله؟

وتحدّثنا طويلًا حتى جاء ذكر عبده البسيوي فقال عجلان :

- لعنك لا تعرف أن زوجه كانت خليعة للأستاذ جاد أبو العلا؟

فجرى في باطني تيار مضطرب لم يدر به عجلان ولا بأسبابه الحقيقية . . . وقلت :

- أتق الله بدورك .

- صدقني فأنا أخصائي في هذا النوع من الأخبار . فسكت فعاد يقول :

- وعبده البسيوي يعرف ذلك أيضًا وقد ضبطها في فيلا بالهرم واكتفى بقطع العلاقة وتسلم حرمه، ثم

طبعة أنيقة فتخرج من المطبعة - على حدّ قول بعضهم - كالعروس، ومن ثمَّ يوجّه عنايته إلى بعض النقاد فيملاً نقدها أنهار الصفحات الأدبية، وينفق أضعاف ذلك على ترجمتها حتى فرض نفسه على الحياة الأدبية . وبنفس الأسلوب شقَّ سبيله إلى الإذاعة والتلفزيون والسينما، دون اهتمام بريح مليم واحد، بل ويضيف إلى ذلك من ماله إذا لزم الأمر . كان يحقّر بيئة التجار وهي مصدر جاهه وراثه وهو فيها كوكب محترم، ويغرس نفسه غرسًا شيطانيًا في بيئة الفن وهي تأباه وهو فيها غريب محقّر . وقد سألت مرّة الدكتور زهير كامل وكان الحديث يدور حول جاد أبو العلا :

- أيّ لذة حقيقية يجنيها من جهده الضائع وهو أول من يعلم بزيفه؟

فأجابني الرجل :

- أنت مخطئ، لعلّه انتهى بتصديق نفسه... .  
- أشك في ذلك... .

- ولعلّه بات يعتقد أن التجربة التي يقترحها أساسًا لعمله هي كلّ شيء، أما الشكل... أما الأسلوب... .  
أما الصناعة فأمور ثانوية لا وزن لها يقوم بها عبيد ماجورون!

فقال الأستاذ رضا حمادة مصدقًا :

- لا نهاية ولا حد للغرور البشري... .

فعاد زهير كامل يقول :

- الزيف في الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السرّ الذي يجعل من باطن الإنسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته في الوقت الذي تتجلى فيه لأعين الجميع .

وضحك زهير كامل ثم قال بنبرة تسليم يائسة :

- بتّ أعتقد أن الناس أوغاد لا أخلاق لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي : كيف تكفل الصالح العام والسعادة البشرية في مجتمع من الأوغاد والسفلة؟

وظهر عبده البسيوي في صالون جاد أبو العلا متأخرًا، عام ١٩٦٨ أو بعد ذلك . وقلت لنفسي ساعة رؤيته - ولم أكن رأيته منذ لقائنا الرهيب بمكتبي - ها

المرايا ٢٩٣

خليل، سرور عبد الباقي، سيد شعير، عيد منصور، رضا حمادة، خليل زكي، شعراوي الفحام. وقفنا نبادل النظرات حتى سألتني خليل زكي:

- تلعب معنا؟
- ترددت بلا جواب فسألني سرور عبد الباقي:
- من أيّ حيّ؟
- فأجبت متشجعاً بأدب اختصّ به:
- حيّ الحسين.
- فسألني جعفر خليل:
- تلعب الكرة؟
- كلاً.
- تعلمها، متى تدخل المدرسة الابتدائية؟
- عقب الإجازة...
- سندخلها جميعاً في وقت واحد.
- وسأل رضا حمادة:
- هل قابلتكم مظاهرات وأنتم قادمون؟
- جئنا عن طريق الحسينية، المحالّ والمقاهي مغلقة في إضراب شامل.
- هل صادفكم إنجليز؟
- دورية واحدة. هل ترونهم هنا؟
- فضحك جعفر خليل وقال وهو يشير ناحية ما:
- نكناهم هناك في قلب العباسية، ستراهم عند كلّ خطوة تخطوها...
- وسأل سرور عبد الباقي:
- أتممت المدرسة الأولية؟
- مكثت بها عامين وعامين قبل ذلك في الكتاب.
- لا توجد هنا كتابات!
- فسكت وأنا أرمقهم في عدم ارتياح، غير أنّ صداقتنا كانت قد بدأت، وهي لم تنقطع بعد ذلك إلا بالموت في حال شخصين منهم. وفضلاً عن ذلك كان جعفر خليل الوحيد الذي زاملني أيضاً في مراحل الدراسة الابتدائية والثانوية والجامعية. وكان يمتاز بخفة الروح وحلاوة النكتة والتفوق في اللعب والجدّ معاً. وقد دعاني إلى مصاحبتهم لمشاهدة مباراة كرة القدم بالنادي الأهليّ وكما سألته عن التكاليف أجاب بكلّ بساطة:

أعقب ذلك صداقة وطيدة بين الزوج والعشيق السابق...

- قلت بادلًا جهداً غير قليل لتمالك أعصابي:
- متى كان ذلك؟
- منذ سنوات لعلها ثلاث أو أربع أو خمس!
- ليكن...
- يا له من رجل زائف!...
- عبده السيوني؟!
- هذا حمار بائس إني أعني صاحب الجائزة الكبيرة...
- نعم...
- ومن عجب أنّ أبطال رواياته مثل للصدق والكرامة والفضيلة!
- نعم...
- فهتف ضاحكاً:
- علينا اللعنة جميعاً حتى يوم الدين.

## جعفر خليل

بذكره يذكر حيناً «العباسية» في العشرينات من هذا القرن. حيّ الهدوء الشامل والحقول المترامية والحدائق الغناء. شرقيّه قصور كالقلاع وشوارع شبه خالية يجلبها صمت وقور، وغربيّه بيوت مستقلة ذوات حدائق خلفية صغيرة تزدان بكريمة وشجرة جوافة وأرض مغروسة بالشيخ والورد والقرنفل، تحديق بها الحقول، في طرفها ساقية تدور بين خماثل من أشجار الحناء، وتزكو رقعتها بالجرجير والطماطم، وتنتثر فوق أديمها نخلات معدودات، أمّا فيما يلي أسوار البيوت فتمتدّ غابة من أشجار التين الشوكي. في النهار لا يحرق صمتها إلا جلجلة الترام وفي الليل لا يتردد في جنباتها إلا صيحة الخفير. وإذا هبط الليل لفقها بظلامه فلا يخفف من غلظته إلا إشعاعات الفوانيس المدلاة من أعالي أبواب بيوتها. ويوم انتقلنا من الحيّ القديم إليها، ومضى الحمالون بالأثاث إلى داخل البيت الجديد تجمّع في الطريق صغار متقاربو الأسنان يستطلعون. فعندما خرجت مستطلعاً كذلك وجدت أمامي جعفر

- ولا ملّيم .

ذهبنا بجلايبنا وصنادلنا مشيًا على الأقدام مخترقين شوارع الظاهر، الفجالة، ميدان المحطة، عباس، ميدان الخديو إسماعيل، جسر قصر النيل، حتى بلغنا النادي. وإذا بالمجموعة تتسلق شجرة كبيرة وتتخذ أماكنها فوق الغصون فلم يسعني إلا أن أفعل مثلهم. في ذلك اليوم شاهدت مباراة كرة قدم لأول مرة في حياتي، وعرفت لاعبين لم يُحَ أترهم من نفسي حتى اليوم مثل حسين حجازي ومرعي، ورأيت الإنجليز وهم يلعبون وكنت أعتقد أنهم يقتلون فقط، وهالني أن أرى عليّ الحسني وهو يكاتفهم فيطرحهم أرضًا فلا يعقب ذلك معركة دامية. سررت وسعدت، وبدأت أعشق هواية جديدة، وأمنت بأنه يمكن الانتصار على الإنجليز ولو في ملعب النادي الأهلي، ولكننا تأخرنا طبعًا في العودة إلى بيوتنا وتعرضت هناك إلى حساب شديد. وانضمت إلى ناديهم «قلب الأسد» واشتركت في اللعب الذي كان يجري وسط غابة التين الشوكي، وقُدّر لي أن أنافس في المهارة جعفر خليل نفسه بل وعيد منصور الذي توهم في ذلك الوقت أنه يعدّ نفسه لاحتراف اللعبة. وكان جعفر خليل حسن الصوت فكان يغني لنا بعض أغاني سيد درويش ومنيرة المهديّة وعبد اللطيف البنا، ويتقدّم السينين راح يؤلّف الزجل، بل كان يحوّل بعض مناظر الأفلام إلى مواقف زجلية ويخرجها ويشترك في تمثيلها في غابة التين الشوكي أيضًا. ولم أعرف له قصة حبّ واحدة وإن ضبطته مرة وهو يعلم بثنا يهودية من جاراته كيف تركب الدراجة. وبتوثق علاقتي به عرفت أنه فقير بحق، بل لعله كان أفقر المجموعة، إذ كان أبوه موظفًا صغيرًا رغم تقدّمه في السنّ ورغم طول مدة خدمته، ولكنه كان برغم ذلك أكثر مرحًا وسيطرة. ورغم تعدّد ميوله في اللعب والفنّ لم يبد اهتمامًا بالسياسة أو الوطنية كما كانت تعرف في تلك الأيام. وظلّ على سلبيته تلك حتى الجامعة وبعد التخرّج. وقلت له يومًا:

- عجيب ألا تهتمّ بما يصهرنا حتى الذوبان.

فقال ضاحكًا:

- للوطنية رجالها، لست منهم وإن تمثّيت لهم

النجاح.

- ولكن كلّ مواطن فهو من رجالها. . .

- إني أجد سعادي بين أهل الفنّ.

فحقّ وهو تلميذ بالثانوية كان يتردّد على نقابة الموسيقيين الأهلية ويشهد حفلاتهم المجانية، ويحضر مجالس الزجالين بالقهوة الخديوية، وكان يتمتّع في ذلك بجراة انفرد بها وحده. وعن طريق المرحوم كمال سليم عرف الطريق إلى الوسط السينمائي، فقام بدور ضمن الكومبارس في بعض الأفلام. وقدم قصصًا سينمائية وهو طالب بالجامعة، حتى وُلّق إلى المشاركة في كتابة سيناريو عقب تخرّجه عام ١٩٣٤. وعيّن مدرّسًا للغة الإنجليزية، وعُرف في المدرسة بنشاطه الرياضي وإشرافه على فريق التمثيل، وسَحَرَ بشخصيته الخلابّة الألباب. وقال لي:

- الوظيفة خطوة ليس إلا ولكنّي عرفت هدفًا. . .

وكان من الشاقّ أن تعرف له هدفًا محدّدًا، أزجال

هو أم ممثّل أم مطرب أم سينارست؟، فسألته:

- وما هدفك يا صاحب الأهداف؟

- السينيا!

- السينيا؟

- أجل، هي مجمع الفنون، هي دنيا السحر والرفاهية والجمال، ولي فيها مجال وأيّ مجال في التمثيل والكتابة والغناء. . .

ثمّ وهو يضحك:

- وشكلي مقبول، لا تحكّم عليّ بماضي، الفقر لم يوقّر لي الغذاء الكافي لكنك سوف تحكّم بعينيك عندما يستفيد جسمي من اللحوم التي طالما حُرمت منها ظلّمًا وعدوانًا!

وفيا بين تخرّجه ونهاية الحرب العظمى الثانية تقدّم في نشاطه السينمائيّ بخطى ثابتة وملموسة، اقتبس أربع قصص، وكتب ستّة سيناريوهات، ومثّل أدوارًا ثانوية في عشرة أفلام، وألّف عشرات الأغاني، وتحسّنت أحواله الماليّة بدرجة طيبة جدًّا، وكان بازًا بأسرته الفقيرة فنقلها إلى عمارة جديدة بالشارع العامّ الذي تغيّر مع الزمن شكله ومضمونه، وأقام معها وإن استأجر شقّة خاصّة في شارع شامبليون لعمله - أو قل



## المرايا ٢٩٥

صباح الجمعة بمسكنه الخاص بشامبليون .  
وفي صباح اليوم التالي قرأت في الأهرام نعيه .  
نعيه ١؟  
أجل نعيه .  
فقد غادر مسكنه في الثامنة مساءً، فزلت قدمه فوق  
قشرة موز ففقد توازنه وسقط فارتطم رأسه بحافة  
الطوار وسرعان ما فاضت روحه في ثوانٍ معدودات  
أمام باب العمارة .

## حَنان مُصطفى

سمعت صوتًا يناديني فتوقفت عن السير متلفتًا إلى  
الوراء فرأيت سيّدة في الحلقة السادسة تنظر نحوي  
بعينين زرقاوين، باسنتين. تطلّعت إليها لحظات  
متسائلًا ثمّ اقتحميني التذكّر والعرفان كنفحة من عبير  
الأزهار فهتفت:

- حنان!

فقال فيها يشبه الامتتان:

- نعم.. حنان.. كيف حالك؟

وتصافحنا بحرارة ونحن نميل إلى جانب من  
الطوار، وراحت تقول:

- تذكّرتك بسهولة، لم تتغيّر تغيرًا يذكر، وخفت  
ألاّ تتدكّرني ولكنّ الظاهر أنّي لم أتغيّر بصورة تدعو  
للأس، ماذا جاء بك إلى جليم في مايو أم إنك مقيم  
هنا في الإسكندرية؟

- بل جئت لاستئجار شقّة للصيف، وأنت؟

- نفس السبب، وحدك؟

- نعم.

- وأنا كذلك.

وتبادلنا السؤال عن الأهل فعلمنا بمن ذهب وبمن  
بقي، وأخبرتها عن حالي الاجتماعية، فقالت:

- لي أربع بنات متزوجات، وأنا جدّة من زمن،  
أما زوجي فقد توفّي منذ عامين...

ومشينا على مهل على الكورنيش حتّى سألتني:

- متى رأيتني آخر مرّة؟

لعمله ومزاحه - وحافظ بالمثل على علاقاته القديمة بحيّه  
وأصدقائه. وإذا به يُختار عضوًا بعثة إلى الولايات  
المتحدة في العام الذي أعقب انتهاء الحرب. ولم تكن  
البعثة في حسابانه ولكنّه وجدها ممكنة بوساطة صديق  
من الوسط الفنّي ذي صلة طيّبة بوزير المعارف. ولم  
تنقطع عني رسائله طوال مدّة بعثته، ومنها علمت أنّه  
يُعيد رسالة للدكتوراه عن الفنّ في المجتمع العربيّ،  
ومنها علمت أيضًا أنّه ينوي دراسة السيناريو في لوس  
أنجلوس. وفي رسائل تالية علمت أنّه يرسل بعض  
المجلّات بأجر طيّب وأنّه سيجرّب حظّه في الكتابة  
للإذاعة، وأنّه سيعود بمقدار طيّب من الدولارات  
الأمريكيّة.

وعاد إلى مصر عام ١٩٥٠، وزرته في اليوم التالي  
مباشرة لعودته في مسكن الأسرة ولم يكن بقي فيه سوى  
أمّه. تعانقنا بحرارة. ووجدت في زيارته كثيرين من  
أهل الفنّ كما وجدت أصدقاء الطفولة جميعًا عدا  
شعراوي الفحام الذي قُتل في غارة في أثناء الحرب.  
وسُئل أبقى في الوظيفة أم يستقيل للتفرّغ للفنّ  
فأجاب:

- سأبقى حتّى أستوفي المدّة الإلزاميّة بمقتضى البعثة  
وهي خمس سنوات!  
وقال:

- الحياة الأمريكيّة حياة غريبة وعظيمة، والأمريكيّ  
ذو مزايا لا يستهان بها، ولكنّي لم أستطع التخلّص من  
إحساس عامّ بالنفور والكآبة بسبب قنبلة هيروشيما...  
وقال أيضًا:

- يخيّل إليّ أنّ الأمريكيّين يتجهون الآن نحو  
الاهتمام بالشرق اهتمامًا غير عاديّ، وأنّ علينا أن  
نعمل لذلك ألف حساب!  
وقال بحماس:

- لديّ أفكار قيّمة سيكون لها شأنها في تطوير فنّ  
السينما في مصر...

ثمّ غلب المسرح على الجلسة وضجّت الحجرة  
بالقهقهات وبخاصّة عندما انضمّ إلينا المرحوم الشيخ  
زكريّا أحمد.

وغادرت البيت مساء بعد أن دعاني إلى الاجتماع به

فتفكرت ملياً ثم قلت:

- منذ أربعة وأربعين عاماً؟

فهمت ضاحكة:

- يا للفضيحة، وبرغم ذلك عرفتك من أول

نظرة!

- كما عرفتك!

- بل ترددت قليلاً.

- من المفاجأة...

فضحكت ثم تساءلت:

- أتذكر حبّ زمان؟

وجعلت تتكلم بتدقّق وتضحك بين ذلك بصوت

عالٍ حتّى ذكّرني بما كان يقال عن جنون أمها. وليتنا

معاً دقائق ثمّ ذهب كلّ إلى طريقه. ورجعت إلى

عباسية الحقول والحدائق والهدوء الشامل. وعاود

ذاكرتي بيت آل مصطفى، الأب والأمّ والابن وحنان.

بيت بهر أخيلتنا بسحره الخاصّ. فعند الأصيل يجلس

الأب في السلامك المطلّ على الطريق، يجلس على

كرسيّ هزاز وبين يديه منضدة عليها زجاجة ووعاء ثلج

وكأس وطبق مرّة. رجل بدين متوسط القامة أحمّر

الوجه أصلع يتحدّى بكلّ استهانة تقاليد الزمان

والمكان. في أول الجلسة يبدو صامتاً رزيناً بل متعالياً

منطوياً. ثمّ ينشرح صدره بالانتشاء فيجود بنظرات

إنسانية على الطريق والعاشرين، وبعد ذلك لا يستكف

من مخاطبة بياعي الملانة والبطاطة والسحلب

والدندمة تبعاً للفصول، وربّما مازحهم واستعادهم

الإرشاد المطرب الذي يعلنون به عن بضاعتهم على

عادة ذلك الزمان. وكنا نقف غير بعيدين لنسمع

ونشاهد ونشارك في السرور. وتتابع تعليقاتنا مرّة

مستنكرة في الغالب إلا ما يصدر عن جعفر خليل

الذي كان يجهّ ويعجب به ويعتبره فرجة لا تقلّ في

بهجتها عن السيّنا والسيرك. وتظهر خلال تلك الجلسة

اليومية ربّة البيت، طويلة نحيلة تتوكّأ على عصا لمرج

خفيف بها، فتلقي على ما حولها نظرة مستكبرة متأنّفة.

والويل لنا إذا رأنا نتفرّج ونضحك فتنهال علينا قدحاً

وتقريباً، ولعنّاً لآلنا الذين لم يحسنوا تربيتنا، ثمّ تخفي

من السلامك وهي تسبّ الناس والبلد. كانت تُعدّ -

مثل زوجها - غير طبعية، وكثيراً ما كانت ترى وهي

تتشاجر مع الباعة والخدم، وقيل إنّها كانت تكبر

زوجها بعشرة أعوام، وإنّها غنيّة تملك أرضاً ونقوداً

على حين لا يملك زوجها إلا حصّة في وقف، وقد

تزوّجت منه رغم أنّه بلا علم ولا عمل لعراقة أصله.

وكان ضمن المتردّدين على الطريق غجرية ترعى

الأغنام، حافية في جلباب أسود مشدود عند الوسط

بحزام، متلّفة بخمار أسود ينسدل من تحتها على وجهها

برقع أسود أيضاً يخفي الوجه ما عدا العينين. وكان

بيننا وبينها معركة لا تهدأ فكلمّا أقبلت وراء الأغنام

نصيح بصوت واحد:

يا غجرية حلّي حزامك من قدامك

فتقدفنا بما في مجال يديها من طوب. ومضى

مصطفى بك يهنّم بها ويزجرنا مدافعاً عنها. ويوماً قال

لنا سيّد شعير وكان أسرعنا إلى التطلّعات الجنسية:

- ألا ترون ما بين الحروف والماعزة؟

وأعقب ذلك مشاجرة عنيفة بين البك وحرمه

تصدّعت لها جدران البيت وعصفت بالشارع الهادئ

حتّى ازدحمت خصائص النوافذ بأشباح الحرّيم. وغادر

الرجل البيت فلم يَر بعد ذلك، ولكن شاع في الحيّ

أنّه تزوّج من الغجرية وأقام معها في الدرب الأحمر.

ووجدت الزوجة نفسها بلا رجل فلعبت دورَي.

الرجل والمرأة معاً.

كانت غريبة الأطوار حقّاً، ومن أيّ ذلك أنّها

سمحت لحنان باللعب مع أترابها على حين منعت

أخاها الأكبر سليمان من مغادرة البيت، إلا بصحبتها.

كان صبيّاً جميلاً رشيقاً، كُنّا نراه وهو يلعب في الحديقة

منفرداً أو مع خادمة، وكان وديعاً مهذباً أرقّ من أخته

نفسها، وكُنّا نبادله النظرات فتوّدّ لو يلعب معنا ويودّ

لو نلعب معه، ولكنّا ظللنا غرباء حتّى غادر مع أسرته

الحيّ. وتعلّق قلبي بحنان قبل أن أناهز البلوغ. كانت

بيضاء، زرقاء العينين ناعمة الصوت، وكانت ليالي

رمضان فرصة هنيئة للصغار من الجنسين، يجتمعون في

الشارع بلا اختلاط، ويتراءون على ضوء الفوانيس

وهم يلوّحون بها في أيديهم، وكُنّا نترنّم بأناشيد

رمضان وتبادل مشاعر الحبّ وهو كامن في براعمه

- عشرة أعوام على الأقل . . .

فصرخت المرأة:

- إنكم تركلون النعمة . . .

ووقفت غاضبة ثم رددت بنبرة أقوى:

- إنكم تركلون النعمة!

وغادرت البيت عابسة متعجرفة. ودار تحقيق معي لمعرفة الأسباب المجهولة التي تقف وراء تلك الزيارة الغريبة. ولم أكن أتحيل إمكان وقوع ذلك. ولم أشك في أن الأمّ المجنونة أطلعت على سرّ ابنتها فتنازلت لاقتراح الحلّ السعيد كما تتصوره وهي واثقة من قبوله، وتأثرت لذلك غاية التأثر، ورجبت رغبة صادقة في الاعتذار إلى حنان، ولكن هالني أنّها لم تعد تلوح في نافلتها، كما كفت خادمتها عن المجيء إليّ، ورجعت عصر يوم من المدرسة لأعلم أنّ آل مصطفى قد غادروا البيت والحى إلى مكان مجهول. وعانيت لأول مرة في حياتي عذاب الحرمان والهجر. ولكنّ حدّته لم تقتلني بل ولم تبطش بي، أطبقت عليّ حيناً، ثم مضت تخفّ وتبهت حتى استحالت ذكرى مجردة من أيّ انفعال.

ولم تقع على حنان عيناى مذ غادرت حيناً حتى التقيت بها في جليم في مايو ١٩٦٩ وهي تقترّب من الستين من عمرها. أمّا شقيقها سليمان فقد ترامت إليّ بعض أنبائه عن طريق المرحوم جعفر خليل عقب انعطافه إلى الوسط السينمائيّ. إذ صادفه ليلة في إستديو مصر وهو يعمل راقصاً ضمن فرقة جيء بها للتصوير في بعض مناظر فيلم استعراضيّ، قال:

- سلّمت عليه وذكرته بنفسى فتدكرني وأخبرني بأنّه هوى الرقص وكّرّس له حياته . . .

ودهشت يومذاك لتلك النهاية غير المتوقّعة فقال لي جعفر وهو يضحك ضحكته الكبيرة:

- يبدو لي أنّه يمارس هوايته وحياته في حرّية مطلقة!

وفي لقاء جليم أخبرني حنان أنّ أباه توفي في ختام عام انتقالها من العباسية إثر جراحة لاستئصال الزائدة الدوديّة، وأنّ أمّها توفيت منذ عامين فقط، أمّا سليمان فقد انقطع عنها انقطاعاً كلياً فهي لا تعلم أخباره إلاّ

المغلقة. وقنعت عواطفنا الساذجة بتبادل النظرات، وإظهار الرشاقة في الجري والغناء، أو المخاطبة بالابتسام في خفاء. وكما بلغت الثانية عشرة من عمرها مُنعت عن الطريق والمدرسة معاً. لم يكن بيتها يؤمن بالتعلّم أو العمل ويعتبرهما من ضروريّات الفقراء فحقى سليمان هجر المدرسة قبل أن يحصل على الابتدائيّة. وباختفاء حبيبي من الطريق اشتدّ ولعي بها وصارت شغلي الشاغل. وكانت تُربي نفسي خطفاً من النافذة، أو تبادل المشاعر بإشعال أعواد الثقاب في الظلام فوق الأسطح. وخطونا خطوة جديدة بفضل خادمتها التي تردّدت بيننا خفية حاملة التحيّات والورود، وسعدت بذلك سعادة لا توصف، فطمعت في المزيد منها، ولكنّي لم أدرك كيف، وتسلّل إلى روحي قلق نشيط غامض تتجاوزه قوى خفيّة من البهجة والكآبة. وإذا بأمتها تزورنا ونادراً ما كانت تزور أو تُزار. وبصراحة لا يمكن أن تصدر إلاّ عن امرأة مثلها اقترحت أن نتزوّج!

وأحدث اقتراحها ذهولاً، وقالوا لها:

- إنّه شرف كبير ولكنّها لم يبلغا الثالثة عشرة من عمرهما.

لفضرت بعضها الأرض وقالت باستهانة:

- الزواج يُعقد أحياناً بين أطفال في الأقمطة . . .

فقالوا:

- ولكنّه لم يتمّ دراسته الابتدائيّة بعد وما زال أمامه مشوار طويل . . .

فقالت بعجرفة:

- بنتي غنيّة ولن يجد حاجة إلى شهادة أو وظيفة.

- ولكنّ التعليم ضروريّ والوظيفة ضروريّة.

- كلام فارغ . . .

- إنّه لا يملك ولن يملك شيئاً، ولن يقبل أن يكون

مجرد زوج لزوجة غنيّة . . .

فساءلت بحدّة:

- والعمل؟

- لا سبيل إلاّ الانتظار حتى يتمّ تعليمه ثمّ له أن

يتزوّج بعد ذلك . . .

- وما مدى هذا الانتظار؟

من المجلات الفنية . . .

يقولون، وخيل إلينا أننا نخلصنا من شره، ولكنه لم يغب عنا أكثر من شهر واحد، وأقبل علينا ضاحكاً وهو يقول:

- عادت رمة لعادتها القديمة . . .

فقلنا ونحن نداري خيبتنا:

- خير إن شاء الله .

- طردني ابن المجنونة!

- من الدكان؟

- ومن البيت!

وجاءنا سيّد شعير بالأخبار - كان أبوه تاجرًا ومن أصدقاء والد خليل - فأخبرنا بأن خليل اعتدى على زيون بالضرب، وتكررت سرقاته لنقود الدكان حتى اضطرّ الرجل إلى طرده. وخبنا للأخبار وأدركنا أنه سيتفرغ لنا بثقله وعناده. وبالفعل تحمّلنا نفقاته في المقهى والرحلات، وعدا ذلك فلم ندر شيئاً عن أين يذهب بقية الأوقات ولا أين ينام ولا كيف يأكل. وفي تلك المرحلة من دراستنا الثانوية اتصل جعفر خليل بدنيا السينا فجزّه معه ليعمل ضمن الكومبارس فدرت عليه قليلاً من النقود، وهناك التقى بسليمان مصطفى الراقص فحام حوله بغريزته النفعية. وما لبثت أن نشأت بينها صداقة غريبة فسار في ركابه وانتفع إلى أقصى حدّ بماله. وكان جعفر خليل يحكي لنا مغامراته السينائية تلك وهو يضحك من أعناق قلبه، حتى قال لنا يوماً:

- صاحبنا تمادى كعادته حتى ضاق به سليمان فطرده!

فهفتنا ونحن نتوقع شراً:

- طرده ١٩

- وانقلب عليه يهدّه ويتحرّش به . . .

- وقع المسكين في شرّ أعماله!

- ولكنّ سليمان صديق لقوم من الكبراء فما يدري صديقنا خليل إلا وهو يساق إلى نقطة الشرطة، وهناك جُلد حتى يُخّ صوته من الصراخ، ثم أفرج عنه بعد ما أخذ عليه تعهد بالآ يتعرّض للشاب . . .

وعاد خليل يتسكّع هنا وهناك، ثم اختفى زمناً فلم نعد نسمع عنه خبراً، وكان عيد منصور أوّل من جاءنا

## خليل زكي

كان اسمه يُطلق على الشرّ والعدوان بين أصدقاء العباسية. فرضته الجيرة فرضاً لا حيلة لنا فيه ولا اختيار. وأيّ اختلاف معه يعني معركة فلم يفلت أحدنا من عدوانه. حتى اليوم في جيبني أثر من ضربة قباقبه. اختلف رأينا في حسين حجازي ومحمود مختار أيهما أخطر في اللعب فقلت إنه حسين حجازي وقال إنه محمود مختار ثم كانت ضربة القباقب فسال الدم على وجهي وجلباهي. وتشاجر مع جعفر خليل لاختلاف حول شارلي شابلن وماكس لندر. وتضارب مع عيد منصور لاقتراضه منه قرشاً ومماطلته في رده. ولم يكن له كفاء في مجموعتنا سوى سيّد شعير، ولما نشب بينهما القتال شهدنا معركة عادلة لأوّل مرّة، فسال الدم من أنفيهما ممّا وتمزّق جلباهيما، وتمخّلنا ما ينتظره في البيت بسبب تمزّق جلبابه فتضاعف سرورنا. ولم تُجِد معه المقاطعة فسرعان ما يتناسى الخصام ويُقبل علينا هاتماً «صافية يا لبن» فإمّا نقبله وإمّا يتجدّد القتال. على أنه من الحقّ أن أترف بأنه لم يخلُ من فائدة لنا فقد كان قائداً في المعارك التي تشب بيننا وبين غلمان الأحياء القريبة خاصّة في أعقاب مباراة الكرة. وكان أبوه عطاراً في بين الجنانين، وكان يعامله بفضاظة ضرب بها المثل، وكثيراً ما كان يهال عليه ضرباً في الطريق على مرأى من أصحابه، كان يضربه بقسوة وحشية وبلا رحمة، وكان خليل يمقته مقماً ويحلم ليل نهار بموته. وكان الأب مدمن أفيون، وكان خليل من أفشى سرّه وشهره به في كلّ مكان، وكان أسوأ مثال لربّ الأسرة، ولكنه خصّ خليل بلبّ كراهيته وشراسته. وكنا نتابع تلك العلاقة باستغراب وفزع، وفسرها سرور عبد الباقي تفسيراً دينياً فقال:

- إن الله سلط عليه أباه كما سلط الطوفان على آل نوح!

ولم يفلح خليل في دراسته الابتدائية، ولما تكرّر سقوطه شغلّه أبوه في دكانه. وتنفّسنا الصعداء كما

المرايا ٢٩٩

الزواج بعام واحد ضُبط القصاب الغني متلبسًا بتعاطي المخدر فقبض عليه وحُكم عليه بالحبس عامًا ولكن صحته لم تحتل ذلك فمات في مستشفى السجن، وانتقلت إدارة الأملاك إلى يد خليل زكي. وعندما ترامت إلينا تلك الأخبار لم يشك أحد منا في أن خليل هو الذي أوقع بحميّه ليستولي على ثروته، وتسلّط علينا تلك الفكرة لحدّ الإيمان. قال عيد منصور فيما يشبه الحسد:

- صفقة تاريخيّة... .

وقال جعفر خليل ضاحكًا:

- عليه العوض في العمارات الأربع... .

وقال رضا حمادة:

- مسكينة، سنهاها متسوّلة في الطريق عمًا قريبًا وجاءت الحرب وذهبت ولم أكن ألقاه إلا في النادر. ومنذ اجتمعنا في مأتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ لم أره ولم يكن يخطر ببالي حتّى عام ١٩٧٠، كنت جالسًا بالترانون في أوائل الخريف حين وقفت أمامي سيّارة بويك سوداء ورأيت وجهًا ينظر نحوي من نافذتها. وأقبل نحوي ضاحكًا فسألنا وجلس. رغم كبره بدا بجسمه القصير مدمج التكوين قويّ البنيان، كما بدا شرس السحنة همجيّ المنظر فلم ترفعه بذلته الشركسكين إلا قليلًا. وظلّ محتفظًا بطربوشه ليخفي صلعة مشوّهة بأثار خياطات جراح قديمة من مخلفات معاركه. تذاكرنا أخبار الصحاب ثمّ قال:

- لعلك لا تعلم بأنني أصبحت من أهل

الإسكندرية؟

- حقًا؟

- آخرة العنقود طالبة بالأداب لم تجد في القاهرة متسّعًا فقرّرت الإقامة في الإسكندرية وابتعت فيلًا في لوران، سنهاها بنفسك!

فشكرته وسألته:

- ووظيفتك؟

- أصبت منذ عامين بذبحة صدرية فاعتزلت

الخدمة... .

- سلامتك... .

- صحّتي عال ولكنّي لا أحترم كثيرًا الإرشادات

عنه بنبا إذ تسلّل ذات ليلة إلى بيت دعارة سرّية بالسكاكيني... .

- فلمحته هناك يجلس مع المعلّمة كأنه شريك! ولكنّ جعفر خليل هو الذي جاءنا بالخبر اليقين. كان أحبّ مجموعتنا إليه مذ فتح له بابًا للرزق فافضى إليه بسرّه. كان يذهب إلى أيّ بيت دعارة كأنه زبون، ولما يقضي وطره ويطلب بالنقود يهدّد بإبلاغ الشرطة، فإذا استعانوا عليه بحامي البيت جندله، وما يلبث أن يفرض نفسه «حامياً» للبيت، ولم تمرّ فترة طويلة حتّى شمل بحمايته جميع بيوت الدعارة في منطقة السكاكيني. بذلك تحسّنت أحواله واستقرّت ميزانيته وعرف النعيم. وكانت حياة خطيرة مهدّدة ولكنّها كانت تناسبه كما كان يناسبها. وتدرّج فيها في مدارج الرقيّ حتّى وثب به نشاطه إلى بيوت الدعارة الفاخرة في وسط المدينة. وابتسم له الحظّ فقدم خدمة (غرامية) لطبيب كبير، وابتسم له الحظّ مرّة أخرى عندما عُيّن الطبيب عميدًا لكلّيّة الطبّ فكافأه بإلحاقه بوظيفة إدارية بمستشفى قصر العيني. هكذا وجد خليل زكي نفسه موظّفًا في مستشفى كبير، موظّفًا يخطر تحت رعاية العميد، مرتّبًا بسيط حقًا ولكنّ أرباحه خياليّة. ورجع يزورنا في المقهى وهو بادي النعمة فيطلب النارجيلة والشاي الأخضر وينظر إلينا من فوق كما يجدر بموظّف يجالس تلاميذ. وقد سألت جعفر خليل مرّة:

- وماذا عن المهنة الأخرى؟

فقال ضاحكًا:

- الظاهر أنّه لا فكرة لك عن أرباح المستشفى!؟

- إذن قطع علاقته بالبيوت؟

- طبعًا... . عدا المختار من البيوت الرفيعة... .

الامتازة جدًا... . ومن بعيد لبعيد... . وليؤدّي خدمات

نادرة للصفوة... .

وكان على علاقة بقصاب غنيّ من مدمني المخدرات فخطب منه كرميته. وكانت الوحيدة التي بقيت من ذرّيّة الرجل بعد أن قُتل أخواها في المظاهرات التي اجتاحت البلاد في أوّل عهد إسماعيل صدقي. وتزوّج خليل من فتاة موعودة بميراث كبير عبارة عن أربع عمارات في شارع فاروق غير النقود السائلة. وعقب

الطبيّة... .

- هل توجد خطوات أخرى؟  
كانت تحييء بأبناء ثلاثة إلى المنتزه، فيستحم ثلاثهم  
في البحر على حين تجلس هي منفردة في الكازينو  
تراقبهم من النافذة. لفت نظري إليها وجه بشوش  
وجسم فوّار بالنضج الأنثوي. وعشقت في عينيها نظرة  
ودوداً كأنما خلقت للاستقبال والترحيب. وسرعان ما  
شعرت بأنّ ثمة دعوة رقيقة تطالعي كالزهرة الناعمة  
وأنّ مجاهلها فوق طاقة البشر. وتبادلنا كلمات عابرة  
فاتفقنا على موعد في حديقة البجعة.

وآمنت وأنا في الطريق إليها بأنها امرأة من نوع  
خاصّ، فلعلها أرملة أو مطلقة. ولكتبتها قالت لي  
ببساطة:

- أنا متزوجة!

فقلت مأخوذاً:

- ولكتني أراك دائماً منفردة.

- هو في بعثة قصيرة تنتهي هذا العام ١٩٦٠.

فوجئت فسألني ضاحكة:

- أتخاف من النساء المتزوجات؟

- إنّي أفكر...

فقاطعتني قائلة:

- ففكر في إعداد مكان آمن نلتقي فيه في القاهرة!

فقلت بحماس ظاهري:

- اتفقنا.

- ولا تسيء بي الظن!

- وكيف ولم؟

- لعلك تتساءل عمّا وراء امرأة لبت لك أول

إشارة؟

وكان ذلك ما يبدو بيالي ولكتني قلت:

- لم أكن دونك استجابة وكنت البادئ!

فقلت برقة:

- من حقنا أن ننعم ببركة الصراحة.

تأملت كلّ شيء بوعي شأن من لم يقع تحت سيطرة  
مجنونة. وقلت لنفسي إنّي أعجب بهذه المرأة وأرغب  
فيها ولكتني لن أحبها. وتهيأ لنا المكان في طريق  
سقارة. وتخيّلت خلوة حمراء مشتعلة. ولكن ما إن  
أغلقت الباب ورائنا حتّى وجسدتني بحضرة امرأة

وضحك حتّى كشف عن أسنانه الملونة ثمّ قال:  
- لي غير البنت التي حدّثتك عنها ثلاثة مهندسين  
وطبيب!  
فأبدت الإعجاب والاستحسان فقال وهو يغرق في  
الضحك:

- عرفت كيف أكون أباً!

ثمّ بنبرة أسف:

- وددت لو جاءوا مثلي لا يهتمون إلّا بأنفسهم  
ومستقبلهم ولكنهم دوخوني بمناقشاتهم السياسيّة.

وجعلت أختلس إليه النظرات متسائلاً، ترى هل  
يشب إلى العدوان إذا تبيّات أسبابه؟، إلى أيّ مدى  
تغيّر حقاً؟. وكيف ينظر اليوم إلى ماضيه؟، وبأيّ  
صورة يتصوّر أمام أبنائه؟، وهل يطيق أن يعيد أحد  
أبنائه سيرته؟، وألا يعتبر ثلاثة مهندسين وطبيب كفارة  
عن أيّ ماضٍ أسود؟، وأيّ الحلين كان أفضل،  
أينجو من القانون رغم جرائمه ليهدى للوطن أربعة  
من العلماء أم كان يُقبض عليه لتستقرّ العدالة فوق  
عرشها؟! وتذكّرت قول الأستاذ زهير كامل «بتّ أعتقد  
أنّ الناس أوغاد لا أخلاق لهم، وأنّه من الخير لهم أن  
يعترفوا بذلك، وأن يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة  
من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة  
الأخلاقيّة الجديدة هي: كيف تكفل الصالح العامّ  
والسعادة البشريّة في مجتمع من الأوغاد».

## دريّة سالم

- اسمحي لي أن أحييك...

فارتسم ظلّ ابتسامه على شفثيها فقلت متشجعاً:

- غير معقول ألاّ تبادل تحية بعد ما كان...

فخرجت عن صمتها قائلة:

- بعد ما كان؟

- بعد ما كان من عشرة طويلة بين أعيننا.

فضحكت ببراءة وقالت:

- نقبل التحية.

- هذه هي الخطوة الأولى.

المرايا ٣٠١

- لذلك يضيق الناس بالمحققين!  
ولكن بأطراد اللقاءات استأنستها العادة فاستسلمت  
بحرّية إلى تيار الذكريات الحميمية. وفي مناسبة ما  
قالت بصدق:

- تزوّجت بعد قصّة حبّ، حبّ عميق...  
وكانت تعمل ممرضة وكان هو طبيب امتياز.

- تبادلنا حبًا جميلًا كاملًا، وأصارحك بأنني  
استسلمت في أول لقاء...

- وتزوّج منك؟

- كان شهيمًا، كان محبًا صادقًا.

- ما أجل ذلك!

- وعشنا طويلًا كأسد ما نكون فأنجبت له ثلاثة  
أولاد.

وسكنت فسألت:

- ثمّ ماذا؟

فأجابت كمن تفيق من حلم:

- لا شيء.

- كيف حالكم اليوم؟

- حال عادية!

- ماذا تعنين؟

فقالت ضاحكة:

- كلّ ذلك الوقت الضائع على حساب حبنا!

- ممكن نواصل لقاءاتنا بعد عودته؟

- لم لا؟!

لم يعد يربطني بها إلا المجاملة ثمّ العادة. وازدادت  
هي رقة ومودة وحنانًا حتّى قالت لي يومًا:

- لا أتصوّر حياتي بدونك.

فوجدت أنّ أسلم سبيل أن أجيبها بقبلة طويلة  
ولكنّها تساءلت في عناد:

- وأنت؟

- مثلك وأكثر.

- لم تقل لي صراحة إنك تحبني.

فقلت:

- لكّي أحبّك بالفعل وهو الأهمّ.

ورجع الدكتور صادق عبد الحميد من بعثته  
القصيرة. تحدّثت عنه بموضوعيّة كأنّه ظاهرة لا تربطها

جديدة. جلست مسترخية على كنبه، حتّى التلفيعة  
الحريريّة لم تنزعها من حول عنقها. تبدّت هادئة  
مستسلمة تطالعني بعينين ملؤهما الحنان، ورحت  
أداعب أطرافها وألثم فاها فتبادلي عواطفني بابتسامة  
محبّة قانعة. وكما قدّمت لها كأسًا اعتذرت فلما دعوتها إلى  
الفرش همست في أذني:

- ليتنا نمضي وقتنا في سعادة بريئة هادئة...

فقلت محتجًا:

- لا أصدّق...

فنهضت وهي تقول:

- ولكن لا تعتبره غاية في ذاته...

وبالرغم من أنّ التلاقي كان جدّابًا إلا أنّي آمنت  
بأنّه كان من الممكن لها حقًا أن تمضي الوقت في سعادة  
بريئة هادئة. ثمّة تناقض كبير بين المرأة اليسيرة  
المستجيبة لدى أول إشارة وبين هذه المرأة الرقيقة  
الزاهدة. وقلت لها:

- أنت شخصيّة غريبة!

- حقًا... لم؟

وكما تلكّأت في الإجابة سألتني:

- هل تمجد صحبتي عزيزة محبّبة؟

- بكلّ جدارة.

- هذا ما يهمني حقًا.

وتتابعت اللقاءات أسبوعيًا. بلا حبّ حقيقيّ من  
ناحيّتي وبلا دافع يررّ الخيانة من ناحيتها. وكما رُفعت  
الكلفة بيننا قلت:

- اعترف لك بأنني - في كازينو المنتره - توهمت أنّك  
امرأة لعوب!

فسألتني باهتمام:

- ماذا تعني؟

- أعني معنيّ بريئًا!

- سامحك الله!

فتناولت يدها بين يدي وقلت:

- لبيّ أتساءل عمّا يدفعلك إلى حضن رجل آخر؟

- آخر؟!

- أعني غير زوجك...!

فقلت وهي تسبل جفنيها في استياء:

- الواقع أنني لا أطيق ذلك الموقف بحال...  
 أشاحت بوجهها عني حمرة العينين وتمتمت:  
 - أنت لم تكدي تعرفه، هل تنشأ الصداقة من  
 العدم؟  
 ثم بحزن شديد:  
 - والحب أقوى من الصداقة ولكن الحقيقة أنك لا  
 تحبني!

لم أجد ما أقوله فصمتُ. وبالصمت أسدل الستار  
 على علاقتنا الحزينة المفتعلة. وعندما غادرنا عشنا  
 تأملت شخصها الناضج الذي يعاني أحرَج فترة من  
 العمر تحت وطأة الهجران والحياة فتقلص قلبي ألماً  
 وحزناً. ولفحنا في الخارج هواء بارد كلَّسع السباط، في  
 ظلمة الليل...

## رضاً حماداً

يرتبط في الخيال بالعباسية، عباسية الحقول  
 والحدائق، مثل جعفر خليل وخليل زكي وحنان  
 مصطفى. ولكنّه يرتبط أيضاً بقيم ومبادئ لا يستهان  
 بها، ويعنف تيار الحياة في صعوده وهبوطه، وبإرادة  
 الإنسان حيث تنوّب للصراع والتحدّي وتجاوز اليأس  
 والأحزان. وهو عملاق كصديقنا سرور عبد الباقي،  
 امتاز بالعملاقة حتى ونحن غلمان نلعب في غابة التين  
 الشوكي، ولعلّه من القلّة التي واجهت عنف خليل  
 زكي برباطة جأش. وعُرف منذ عهد المدرسة  
 الابتدائية بالاهتمام الشديد بالوطنية. كان يتكلم عن  
 سعد زغلول أكثر ممّا يتكلم عن حسين حجازي أو  
 شارلي شابلي أو المصارع عبد الحلّيم المصري. ولعلّه  
 ورث ذلك عن أسرته التي اشتهرت في شارعنا بالوطنية  
 والعلم فكان أبوه مدير عامّ مستشفى الحمّيات  
 بالعباسية، وكانت أمّه مدرسة من السابقات إلى التعلّم  
 ومن طلائع النهضة النسائية، ونبغت أخته في العلوم  
 فأرسلت في بعثة إلى إنجلترا. كما تفوّق أخوه في  
 مدرسة الحقوق. ولكنّ أسرته اشتهرت أيضاً بالكوارث  
 التي حلّت بها، فهاتت أمّه وهو طفل، ولُصّل أبوه من  
 الخدمة لفرط نشاطه في خدمة الوفد المصريّ في إبان

بها علاقة حميمة. ولكن باحترام لا مزيد عليه. وفي  
 ذلك التاريخ كنت بدأت أتردّد على صالون الأستاذ  
 جاد أبو العلا، وهناك التقيت بالدكتور صادق عبد  
 الحميد. وقصص علينا جاد أبو العلا كيف زار الدكتور  
 في استشارة طبيّة وكيف توثقت العلاقة بينه وبين  
 الدكتور. وبدأت بيننا صداقة روحية نادرة، فقدّمته  
 بدوري إلى مجلس سالم جبر وزهير كامل وصالون  
 الدكتور ماهر عبد الكريم. وأدهشني أن أرى فيه رجلاً  
 يماثل درّية في السنّ أو لعلّه يصغرها ببضع سنوات،  
 وسيماً ذكياً ذا طموح روحيّ لا حدّ له. هكذا بدأت  
 صداقتنا بعد توّلد علاقتي بزوجه بأربعة أشهر!.  
 وضايقتني ذلك وأزعجتني لحدّ العذاب. ولم تتوقّع درّية  
 ذلك فدهلت له. ولاحظت دون جهد ارتباك  
 وقلقي، وجوّ الكتابة الذي نخيم بثقله فوق لقاءاتنا  
 فخنقها. وبدا أنّ تيار الحياة يمضي إلى زاوية مسدودة  
 ليشهد موته. قالت لي بتوسّل:

- انس تماماً أنّه زوجي، ألم يكن من المحتمل ألا  
 أشير بكلمة إلى هويته أو اسمه؟  
 فقلت بارتباك:

- لا فائدة مع افتراض احتمالات لا أصل لها...  
 - يجب أن نحافظ على علاقاتنا فهي أهمّ من كلّ  
 شيء.

فقبلت بحزن صادق:

- إنّي أتعدّب.

فقال بانفعال غير معهود:

- لعلّه لو علم بعلاقتنا ما اكرث لها!

فنظرت إليها بذهول غير مصدّق فقالت:

- إنّه لا يحبّني، لم يعد يحبّني منذ ثلاثة أعوام أو  
 أكثر، صدّقني...

- إنّي أصدّقك وأنا أسف...

- وهو يعاشر امرأة أخرى، ولولا تفانيه في حبّ  
 أولاده لهجرنا ليتزوج منها!

- إنّي أسف يا درّية...

- ماذا تعني بقولك أسف؟

- أسف لحالك، ولحالي التي لا أحسد عليها...

- لو كنت تحبّني لما شعرت بأسف على الإطلاق!



المرايا ٣٠٣

واجتمع الناس. وما لبث أن جاءت الشرطة والإسعاف فحُمل إلى قصر العمري حيث أسعف من حمض الفنيك الذي شربه بقصد الانتحار. شد ما هزني الحدث والمنظر. وسألته فيما بعد:

- كيف هانت عليك نفسك؟

فابتسم في حزن وتمتم:

- ألم تر كيف أهانني أمامكم؟

وأعتقد أن تلك المحاولة المشثومة غيرت من سياسة أبيه نحوه كما أن تفوقه النادر وقر له المزيد من التقدير والاحترام. ولم يمنعه تفوقه الدراسي من الإسهام في النشاط السياسي الذي خفت حدته وتغير لونه بعد انحسار موجة الثورة العارمة. فقد بلغنا أولى درجات الوعي بعد أن انقلبت الثورة الدامية أسطورة مقدسة من أساطير الغيب. وكان كل منا يحتفظ من ذكرياتها بمشهد عابر عجيب أو ذكرى شهيد أو هتاف مثير ولا شيء أكثر من ذلك. وقد اشترطنا معًا في المظاهرة التي قادها نادر برهان تأييدًا لسعد زغلول - وهو رئيس وزارة - في اختلافه الدستوري مع الملك فؤاد. وتوطدت علاقته في الثانوية مع بدر الزيايدي لتقارب مشاربيها. ولما تولى محمد محمود الحكم قال بدر:

- لم يكن لنا من عدو في الماضي إلا الإنجليزي.

فقال رضا حمادة:

- والملك.

- هما شيء واحد.

- موافق

فقال بدر:

- وها هو عدو جديد ينضم إلى الميدان...

ولما قُتل بدر الزيايدي في فناء المدرسة حزن رضا

حزنًا شديدًا، وقال لي:

- مات بدر على حين يحيا خليل زكي!

فقلت له بحزن:

- ومحمد محمود يحيا أيضًا!

وتقدم رضا في نشاطه السياسي فجالس مصطفى النحاس في بيت الأمة ضمن وفود الطلبة. وقُبض عليه في حكم محمد محمود، وكاد يُقتل في عهد صدقي، وفي كلية الحقوق صار من زعماء الطلبة فاستمعت

تكوينه، وماتت أخته في إنجلترا، واستشهد أخوه في ثورة ١٩١٩. وكان يفاخر بأخيه واستشهاده وينوّه بذكائه واجتهاده حتى ضاق خليل زكي بذلك فقال لي مرة:

- لم قتل هذا المجنون نفسه؟

فقلت ببراءة:

- في سبيل الاستقلال...

فتساءل ساخرًا:

- وهل كان الإنجليزي يقيمون فوق صدره؟!

ولما عرفت رضا كان يعيش مع والده وخادم عجوز ولا رابع لهم في البيت. وكان يضيق بالبيت ويعتده سجنًا بلا قضبان، ويرهب جانب أبيه ويعمل له ألف حساب. اعتكف الوالد في البيت عقب فصله من الخدمة، لا يغادره إلا إذا استدعي لاستشارة خاصة في أحد البيوت، والظاهر أنه كان يريد أن يخلق من رضا شخصًا يعرضه عن جميع خسائره، فاشتد في معاملته، وحمله ما يطيق وما لا يطيق، وطالبه بالعلم والأخلاق والوطنية والتفوق، وراقبه مراقبة بلا هوادة ولا تسامح. لذلك نشأ رضا متطهرًا متقشفًا مجتهدًا مطلقًا طموحًا ولكنّه افتقد دائمًا الحنان والعذوبة. وكثيرًا ما كان يقول:

- حدّثني عن أمك، كيف تحبّها وكيف تحبّك!

ويتغنّى بالنشيد المعروف:

أيها الطائر أهلا بمحيّاك وسهلا

ويتهدج صوته وهو ينشد:

أمكن أستودعتني شوقها إذ ودعتني

وخطابًا حملتني لفظه يشفي العليل

ومرة أهانه أبوه في الطريق لإهمال تورط فيه فتأثر تأثرًا بالغًا. وسرنا وهو صامت حتى وقفنا عند السبيل كعادتنا كل أصيل في العطلة. وغاب عنا بعض الوقت ثم رجع فلم يكذ يلحظ أحدنا شيئًا. وبغته تكوّر وهو يقبض على بطنه بيدين متشنجتين ويصرخ من الأعماق. وانطرح على الأرض تحت شجرة، وراح يتمرغ في التراب، ومن شدة الألم يعرض أصول الشجرة الضاربة في الأرض، واجتمعنا حوله فزعين

- مرّات إلى خطبه الحماسية في الحرم الجامعي. كان مثالا للوفدي الصادق في إيمانه بالاستقلال والدستور والحياة الديمقراطية. وكان ينظر بامتناع شديد إلى مجرى السياسة في مصر حتى آمن بفكرة نبتت في يقينه. قال:
- لقد فقد الوفد أو قلّ الشعب قوّته الضاربة يوم قبض على زعماء جمعية الكفّ السوداء. . . .
- فقلت ببراءة:
- ولكنّ الوفد يدعو إلى الجهاد المشروع!
- فضحك وقال:
- دعك ممّا يقولون. . . .
- ثمّ قال بحق:
- لا نجاة لنا إلاّ بإبادة السراي وأحزاب الأقلية ثمّ نواجه الإنجليز كتلة واحدة!
- وقد أحبّ ثريا رأفت وأراد أن يخاطبها وهو طالب بكلية الحقوق. لم يصارحني بذلك في حينه كما لم أبح له بعلاقتي بها في حينها ولكنّي عرفت الحكاية عقب النكسة. كان رضا ضمن المجتمعين في مكتب سالم جبر الذي تراءت فيه ثريا رأفت. وتقابلنا بعد ذلك في بيته بمصر الجديدة فسألني:
- أتذكر السيدة التي كانت في مكتب سالم جبر؟
- فقلت باهتمام:
- ثريا رأفت. . . .
- فضحك قائلاً:
- كانت من أهل السكاكيني وقد أحببتها وأنا طالب في الحقوق حتى عزمت على خطبتها لولا. . . .
- لولا؟
- لولا أن رأيتها بصحبة صديقنا عيد منصورا وعند ذاك قصصت عليه قصّتي معها!
- وتخرّج رضا في الحقوق عام ١٩٣٤ فاشتغل بالمحاماة. ومات أبوه تاركاً له ثروة لا بأس بها. ويزغ نجمه ككاتب سياسي كما رسخت قدمه في المحاماة. وانتخب نائباً عن دائرتنا في انتخابات ١٩٤٢، وكانت موقعة ٤ فبراير قد هزّنتي من الأعماق ورمت بوفديتي في أزمة خانقة. وصارحته بذلك فقال لي:
- إني أعتقد أنّ مصطفى النحاس قد أنقذ الوطن والعرش!
- فقلت بأسى:
- تصوّر أنّ الدبّابات البريطانية تحييء بزعيم البلاد رئيساً للوزارة!
- فقال بإصرار:
- لقد كان الإنجليز أعداءنا ولكنهم اليوم يقاتلون في الجانب الذي نرغب في أن ينتصر. . . .
- ثمّة خطأ يفري روعي كالسّم!
- فسألني:
- أتودّ للفاشستية أن تنتصر كما يودّ الملتفّون حول الملك؟
- كلّاً طبعاً. . . .
- فانظر إلى ٤ فبراير إذن على ضوء ذلك الضوء. وانتخب مرة أخرى عام ١٩٥٠ عن نفس الدائرة. وكانت تعتريه نوبات حزن شديد كلّما شعر بأنّ الوفد لم يعدّ على المستوى الرفيع الذي طالما تربّع عليه بجداره، أو أنّه تسلّل إليه خور في الإرادة والاستقامة وفتّر حماس الشعب له. وكم اهتزّ طرباً يوم ألغى مصطفى النحاس المعاهدة ثمّ أعلن الجهاد، يوم سرت في الوادي نفحة من روح ١٩١٩، ثمّ تتابعت الحليات كالمطارق حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. وتحمّس لها فقال لي:
- سيعود الوفد بلا منازع!
- ولما سارت الثورة في طريقها المرسوم أمل أن تتخذ من جماهير الوفد قاعدة لها. حتى إذا صدر قرار حلّ الأحزاب تقوّضت آماله وقال لي:
- نحن مقبلون على حُكم عسكريّ لن يعرف مدهاء إلاّ الله.
- فقلت له بإخلاص:
- اعتزل السياسة وتركز في مهنتك!
- فقال ضاحكاً:
- لا خياراً
- ولكنّ وفاءه لزعيمه وزملائه رمى به في موضع الشبهات فاعتقل أكثر من مرة. وكان قد تزوّج عام ١٩٤٠ فأنجب ابناً وحيداً قبل أن تُصاب زوجته بما منعها من الإنجاب. وطالما أعجبت بابنه لذكائه وحيويّته. ولما اعتقل رضا تعرّض لحملة تشهير كبقية

الإيمان السياسي. ولعل شخصيته الأخلاقية هي التي سندته حيال الكوارث التي عصفت بحياته، وأيدته بسحرها وهو يشهد اختفاء القيم والأشخاص الذين عبّدهم مثل الحرية والديمقراطية ومصطفى النحاس وزوجته وابنه، توارى كل جميل من دنياه فلم يتهدم، ولكن ثابر على العمل بقوة مضاعفة، وجابه الحياة بإرادة من فولاذ، وظلّ على علاقاته الطيبة بالأصدقاء والصالونات والمجالس. وكلما أبل عليّ بقامته المديدة ورأسه الأبيض، أو امتعني بأحاديثه المتنوعة، انبعث في أعماق روحي نشاط متألق بالأفراح فأجدد إعجابي به وبالحيوة المباركة التي خلقتة . . .

## زهرا حسنونة

ثمة أصحاب من نوع خاص، أصحاب يرتبطون بمكان ما لا يتجاوزونه، حلا لي يوماً أن أدعوهم أصحاب المقاهي. في المقهى نتصافح بحرارة ونتجالس ونسامر ثم يذهب كل إلى سبيله. ومنهم من يختص بصفة تستحق التأمل فيترك أثراً قبل أن يذوب في النسيان. من أولئك زهران حسنونة. عرفته في مقهى ركس في أيام الحرب العظمى الثانية وكنت أتردد عليه من حين لآخر بصحبة جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوي الفخام وعيد منصور. كان يزور المقهى مع آخرين من صحبه في يوم الأحد، وكان بديناً متوسط القامة كبير الرأس جداً كأن به عاهة. وعن طريق النرد تعرّفنا بهم ثم صاحبناهم. قال يعرفنا بنفسه:

- كنت موظفًا بوزارة التجارة والصناعة ثم سويت معاشي لأشتغل في الأعمال التجارية. . .

وكان إذا حضر وقت الصلاة قام هو وصحبه فانتحوا جانباً فيما وراء البار وأدوا الصلاة جماعة وهو يؤمهم. وهو يؤمهم لأنه الوحيد بينهم الذي أدى فريضة الحج. والحق أن الدين كان يشغل حيزاً من أحاديثهم لا يستهان به، وهي تفصح عادة عن إيمان بسيط صادق تختلط فيه العقيدة بالخرافة بالأساطير الشعبية ولكن لا شك في صدقه. وكانت صحبتهم ممتعة، وكانوا كرماء، وفيهم شهامة أولاد البلد. غير

زملائه فعلى ابنه - وكان طالباً في المدرسة الثانوية - تجربة مريرة بين أقرانه. وكان شديد الحساسية فامتحن بأزمة نفسية عنيفة أتلفت أعصابه. وسرعان ما كره المدرسة، واعتكف في بيته، ومضت حياته من سئ إلى أسوأ حتى اضطر أبوه إلى إيداعه مستشفى الأمراض العقلية. ولم تحتمل أمه الصدمة فشلت وماتت في نفس العام. وهكذا وجد رضا نفسه كهلاً وحيداً غارقاً في الأحزان، وهكذا أدركته لعنة أسرته. قلت لنفسي:

- انتهى رضا حمادة.

ولكنه لم ينته في الواقع. غادر حيه القديم إلى مصر الجديدة، وكرس حيوته لمهنته وملكته. ولعل العشرة الأعوام الأخيرة كانت أنجح سني حياته. إنه اليوم من أبرز المحامين. وهو عاكف على تأليف ما سيأه بدائرة معارف العلوم الجنائية. وقد ضمن مقدمتها من الآراء الفلسفية والنظرات النفسية ما يشهد له بالموسوعية في المعرفة والمقدرة الفائقة في التفكير، وليس هذا بالجديد عليّ فقد سمعته يناقش الأساتذة ماهر عبد الكريم وسالم جبر وزهير كامل وغيرهم فكأنه موسوعة في الفلسفة والسياسة والأدب، أما عن القانون فهو حجة من حججه المعاصرة بلا جدال. غير أن إعجابي الأول به إنما يرجع إلى شخصيته الأخلاقية قبل كل شيء، وقليلون جداً من عرفتهم مماثلونه في ذلك مثل كامل رمزي وسرور عبد الباقي. ولا غرابة في أن تبهرني الأخلاق البناءة كرجل عاصر فترة انهيار في الأخلاق والقيم لا نظير لها حتى تحيل إليّ في أحيان كثيرة أنني أعيش في بيت كبير للدعارة لا في مجتمع. ففي رضا حمادة عرفت رجالاً نقي النوايا والسلوك، نزيهاً مخلصاً، آمن طيلة حياته بمبادئ لا يجيد عنها كالحريّة والديمقراطية والثقافة إلى عقيدة دينية مستنيرة متطهرة من شوائب التعصب والخرافة.

أجل وقف موقف الرفض من أي رأي يساري، وعجز عن التطور مع الزمان، فعاصرته أول العهد بصداقته وهو مثال للشاب الثوري ثم عاصرته في شيخوخته وهو محافظ عنيد وإن لم يعترف بذلك، فما برح يردد أن الليبرالية هي آخر كلمة مقدسة في تاريخ

- أن عيد منصور قال لنا يوماً:
- جئت لكم بمعلومات طريفة عن الحاج زهران حسونة.
- فسألناه عنها فقال:
- لم يستقل ولكنه اضطر إلى الاستقالة لسوء سمعته . . .
- أي نوع من سوء السمعة؟
- الرشوة!
- وعيد منصور يسره دائماً أن يثبت أن جميع الناس لا حلاق لهم مثله! قال وهو يضحك:
- إنني أشك في جميع الناس ولكنني أشك بصفة خاصة في المتدينين!
- فقال رضا حمادة:
- ولكن ليس كل متدين منافقاً!
- فقال عيد منصور وهو يضحك أكثر:
- النفاق درجة لا يرتقي إليها عم زهران حسونة! فضحكنا فراح يفسر قوله:
- النفاق أن تبطن الكفر وتعلن الإيمان ولكنه أغبى من أن يكون كافرًا، أنا لا أشك في إيمانه . . .
- إذن لعله تورط في الرشوة تحت ظروف ضاغطة!
- لعله . . .
- ولاحظنا أن زهران حسونة يعمل بهمة في السوق السوداء، في تجارة الثقاب والويسكي، ثم اشتغل في المواد التموينية، ولم يكن يخفي ذلك بل كان يبدي استعداده لتقديم الخدمات لنا، فلم أملك أن أسأله:
- ألا ترى يا حاج في العمل في السوق السوداء ما يناقض ورعك؟
- فأجابني بثقة:
- للدنيا أسلوب في المعاملة وللآخرة أسلوب آخر!
- ولكن الله لا يمكن أن يرضى عن تجويع الفقراء.
- فقال باطمئنان:
- إنني أكفر بالصلاة والصوم والزكاة فإذا تريد؟
- فقلت لأصحابي بعد انصرافه:
- الرجل يرتكب الإثم عن علم لا عن جهل أو نفاق!
- فقال عيد منصور:
- ويثرى ثم يلجأ إلى الدين ليكفر فتحوّل سرقاته بقدرة قادر إلى ربح حلال، الدين عند عم زهران هو المشجع الحقيقي على ارتكاب كافة الآثام!
- ثم وهو يضحك عاليًا:
- ولذلك فهو يسرق قوت الفقراء ويمضي ووجهه يتور بالإيمان والطمأنينة!
- وكنت أتابعهم وهم يصلون في المقهى بعين متأمله ساخرة، يركعون ويسجدون ويسدلون جفونهم خشوعًا وامتنانًا، وأتذكر كم أتهم أوغاد لصوص لا يحق لهم أن يبقوا ساعة واحدة فوق سطح الأرض. ولم أجد جدوى في مناقشاته فدائماً أراه مطمئناً واثقاً من نفسه، يؤمن بالشر كما يؤمن بالخير، ويطيع الشيطان كما يطيع الله، ويتردد بينها تردّد التاجر الماهر في السوق الحرة الذي يحرص في النهاية على أن يزيد دخله على منصرفه. وجعلني ذلك أتلمس وجوه الأعداء لأوغاد مثل خليل زكي وسيّد شعيريل وعيد منصور ممن لم يتعاملوا معاملة جادة مع دين فانطلقوا في الحياة بوحى غرائزهم وعقولهم العملية الجافّة خلال أجواء من الصراع العنيف القاسي. ولذلك أيضًا تردّيت كثيرًا فريسة لكآبة روحية معتمة كددت أرفض تحت وطأتها التجربة الإنسانية كلّها. وكانت تلك المشكلة مدار أحداث لا تنتهي بيننا. قال رضا حمادة:
- الظاهر أنه لا يوجد تاجر شريف!
- فقال عيد منصور:
- لا يوجد إنسان شريف . . .
- فتساءلت:
- ماذا عن دور الدين؟
- وتساءل عيد منصور:
- لم نتمسك بالأخلاق ما دامت تقود إلى الفشل؟ وعاشت تلك المشكلة معي أعوامًا وأعوامًا حتى ناقشتها في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم، بدءًا من نقد الواقع المصري وانتهاء إلى دراسة الخير والشر في ذروتها الفلسفية. ويدعوننا ذلك إلى تذكر الدكتور إبراهيم عقل وفلسفته في المثل الأعلى وسلوكه المناقض لفلسفته! وأذكر بالمثل قول الأستاذ سالم جبر:
- مهما يكن من أمر فلا يمكن تجاهل المرحلة التي

## المرايا ٣٠٧

ولما أفاق الحاجّ زهران من الصدمة باع قصره ففتح مقهى في مصر الجديدة، وضمن لنفسه مستوى من المعيشة لا بأس به، وهو يتظاهر دائماً أمامنا بالشجاعة ورباطة الجأش، ويعلّق على الأحوال بعبارات ذات مغزى ديني مثل الحمد لله، والأمر لله، لا حول ولا قوة إلا بالله، له في ذلك حكمة، ويذهب به الحذر أحياناً إلى الثناء على القرار الذي جرّده من ثروته فيقول:

- عدالة علينا أن نقبلها على العين والرأس.  
ولكن تفضحه أحياناً ومضات فرح للكوارث لا يُحسن مداراتها، مثل الأزمة الاقتصادية وورطة اليمن، وأخيراً ٥ يونيو الذي دار رأسه فيه بنشوة النصر. لقد لاطمتني في ذلك اليوم المشثوم تيارات متناقضة كاد يخنق لها عقلي، ولعلّه نما زاد إكباري لرضا حمادة أنّ المسألة قصمت ظهره كما قصمت ظهرنا، وأنه نسي في ذلك اليوم كلّ شيء إلاّ حبّه العنيد لوطنه...

## زهير كامل

عندما التحقنا بالجامعة كان معيذاً بقسم اللغة العربية تمهيداً لإرساله في بعثة إلى فرنسا. وسمعتنا عنه ثناء طيباً من الدكتورين ماهر عبد الكريم وإبراهيم عقل فقال الأخير عنه مرة:

- إنّه مثال للفلاح إذا نبغ.  
وحديثي رضا حمادة عنه فقال:

- عرفته في بيت الأمة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمود ويعرف مصطفى النحاس معرفة شخصية. وسافر في البعثة عام ١٩٣٢ ثمّ رجع دكتوراً عام ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ فُعِين مدرّس (ب) بهيئة التدريس الجامعية. وفيما بين تاريخ تعيينه وعام ١٩٥٠ تركّز نشاطه الفكريّ في الجامعة والتأليف، فأصدر كتبه المعروفة عن نظريّات النقد العامّة. ونقاد من الشرق والغرب، ودراساته عن شكسبير وراسين وبودليير والبيوت والشعراء الأندلسيين. وكان يتردّد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فتوطّدت بيننا صداقة متينة. وتزوّج في أثناء الحرب من فتاة يونانية كانت تعمل في محلّ فينوس فأنجب منها ولدين وبنّات. وكان أستاذاً

قطعها الإنسان من الغابة إلى القمر  
أو قول رضا حمادة:

- توجد سجايا قيّمة جدية باسترداد الثقة، مثل تفاني الرجل في خدمة أسرته، مثل الذكاء الوقاد المولع بالحقيقة، مثل بعض مواقف البطولة النادرة.  
وقوله أيضاً:

- لا تغال في المثاليّة وإلاّ مُت تقزّزا!  
وأثرى زهران حسّونة في أثناء الحرب ثراء فاحشاً فارتفع إلى مرتبة أصحاب الملايين. وأسس شركة للمقاولات عام ١٩٤٥ ولُكِنِّي أغضبت عن الشهير به مذ قُتل ابنه الطالب بكليّة الهندسة في معركة القنال عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦. سار الرجل وراء النعش معتمداً على ذراعي صديقين محمّر العينين شارح اللبّ. واقتصرت علاقتنا وقتذاك على تبادل المجاملات في المناسبات، ولكنّ عيد منصور وتكدّي أنّه ما زال يجمع النقود ويؤدّي الصلاة، وكان أوثقنا صلةً به بحكم أعماله التجارية. واستمرّ ازدهاره الماليّ في صعود، وأقام في قصر المعادي، وتزوّج في الخمسين من فتاة في العشرين بحجّة زهد زوجته الأولى في المسرات الزوجيّة عقب وفاة بكرتها، ولكن ظلّ الحجّ نزهته الروحيّة كلّ عام، وازداد نشاطه بعد الثورة. لم يكن من الملاك الزراعيّين. ولكنّ شركته أتمت فيما أمم من شركات عام ١٩٦١، وهكذا تقوّض ذلك البناء الشامخ الذي نُحتت أحجاره من الذكاء والغش والإرادة والانتهازية والإيمان والفجور. وكان رضا حمادة يعلّق على الأحداث بامتعاض شديد، مؤكّداً موقفه الثابت من الثورة، فقلت له:

- ولكنتك عرفت الرجل تماماً.

فقال:

- ولو، إنّا مسألة مبدأ...

فقلت:

- ليست مسألة مبدأ ولا رجل ولكنّه نظام بارك ذلك كلّ...

فقال بمرارة:

- انتظر حتّى يتبيّن لك النظام الجديد، لقد كان زهران حسّونة في البدء موطّفاً كهؤلاء الموظفين الذين انقضّوا على شركته ليديروها!

- جامعيًا بالمعنى الدقيق، يكرّس حياته للبحوث الأكاديمية، ولا حديث له خارج مضامينها، فلم أعرف له اهتمامًا عامًا آخر. وحاولت أحيانًا أن أستشف فيه الطالب الوفديّ القديم فلم أفلح، ولكنّه بخلاف الكثيرين كان يتميّز بالنصر للحلفاء، ربّما جُبا في الديمقراطية كما قال، أو مبدئًا مع عواطف زوجته، أو تعصّبًا لفرنسا التي عشقها من أعماق قلبه. وفي عام ١٩٥٠ فاجأنا بما لم نتوقع أبدًا. فرشّح نفسه على مبادئ الوفد في إحدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبية ساحقة، وأثار سلوكه تساؤلات كثيرة ولكنّ الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفظه الشديد:
- إنّه قرار يستحقّ الأسف.
- وقال لي رضا حمادة:
- لعله يلمم بوزارة المعارف.
- ولكن قد يطول الزمن حتّى يتحقّق الحلم فكيف يواجه أعباء الحياة بمعاش صغير ومكافأة النيابة التي لا تتجاوز الخمسين الجنيه؟ قال رضا حمادة:
- ستخبرنا الأيام!
- واخبرتنا الأيام بأسرع ممّا تصوّرنا، فظهرت مقالاته السياسيّة في الجرائد الوفديّة، بل برز ككاتب سياسيّ من الدرجة الأولى، إلى مقالات في النقد في المجلّات الأسبوعيّة. وحدث أن كان لزهرا حسنونة أعمال في الحكومة تحتاج في إنجازها إلى واسطة فطلب منّا أن نقدّمه إلى صديقنا النائب ففعلنا، ومن يومها توطّدت بين الاثنين علاقة متينة. ثمّ مضت تترامى إلينا همسات عن تصرّفات الدكتور زهير كامل غريبة بل مرّية. وقد سألت رضا حمادة يومًا:
- ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل؟
- فأجابني بامتعاض شديد:
- يقال إنّه أصبح سمسار وظائف...
- ثمّ وهو يهزّ رأسه في أسف:
- ويقال إنّه يقدم خدمات لزهرا حسنونة وإنّه ينال عن خدماته مكافآت سخيفة...
- وهل صحيح ما يقال؟
- نعم للأسف الشديد، وإنّي أتساءل أحيانًا والحزن يمرّ رقيقي أيّ فارق هناك بين الوفد وبين غيره
- من الأحزاب!؟
- ولكن هل تصوّر أنّ زهير كامل نبد الأستاذيّة في الجامعة ليهارس النهب والفساد؟
- إنّي أنصوّره وغدًا من البدء غير أنّه كان يتحيّن فرصة لاستغلال مواهبه حتّى وجدها في السياسة... .
- وجلسنا يومًا نتبادل الأحزان على صديقنا النابغة وحزبنا العتيد. ولما أقيمت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول الدكتور زهير الرجوع إلى الجامعة ولكنّه لم يفلح. وواصل حياته ككاتب سياسيّ وناقد ولكنّه بات ينظر إلى المستقبل بقلق وبخاصّة وأنّه كان اعتاد مستوى من المعيشة الرفيعة. واجتمعنا يومًا عند الأستاذ سالم جبر، وكان منفعلًا ويقول:
- ما هذا الذي يحدث بالوطن؟.. الملك جنّ، وكلّ شيء ينهار...
- فقال الدكتور زهير كامل:
- ما أشبه حالنا السياسيّ بالدكتور إبراهيم عقل الذي بدأ باحثًا ناهبًا وانتهى بالدروشة!
- وقال رضا حمادة:
- أصبح الوفد كزعيمه فهو شيخ هرم طيب يزحف عليه العجز والتدهور...
- فقال سالم جبر:
- لا يمكن أن تدوم الحال على هذا المنوال فماذا عن الغد؟
- فقال زهير كامل:
- ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطرّ الملك إلى استدعائه عاجلاً اتّقاء لانفجار ثورة شاملة!
- فقال سالم جبر:
- الثورة أفضل من الوفد...
- فقال رضا حمادة:
- وفي الانتظار الإخوان والشيوعيون...
- فقال زهير كامل بحدّة:
- لا أغلبيّة لهؤلاء أو أولئك.
- فقال سالم جبر:
- الوطن غير مؤهل للشيوعيّة ولا عقيدة هناك جديرة باستيعاب الشباب المتفتّت بين الثورة والانحلال!

ثورة لاحت مخالبها في الأفق  
 - يا لها من فكرة! ...  
 - واعترف لك بأنني لست ثوريًا، فكما لا أوافق  
 على رجعية الإخوان فلأي لا أوافق أيضًا على ثورية  
 الشيوعيين، وأومن بالإصلاح الرزين الذي نتأثر  
 خطاه، وهو طريق الوفد أيضًا لو قُبِضَ لجناح شبابه أن  
 ينتصر...  
 ولكنني لاحظت بدقّة المراقبة أنّ عواطفه لم تنسجم  
 تمامًا مع أفكاره، وأنّ تحمّسه الظاهر كان لتبرير انقلابه  
 قبل كلّ شيء. وعلى مدى الأيام اضطرّ إلى أن يعترف  
 لي قليلًا:  
 - ألم يكن الأفضل أن يتمّ ما تمّ بيد انتفاضة شعبية  
 بقيادة شباب الوفد!  
 فقلت:  
 - المهمّ أن يتمّ ما تمّ.  
 فقال بعد تأمل:  
 - ولكنّ الإنسان لا يستطيع التخلّص من عقليته  
 الخاصّة ولذلك فقلّ على الحرّيّة السلام!  
 وكان الأستاذ رضا حمادة معتقلًا في ذلك الوقت  
 فجاء ذكره فقال زهير:  
 - ربّنا معه.  
 فقلت بثقة:  
 - إنّي أعتقد ببراءته.  
 - لمّ؟  
 - إنّي من أعلم الناس بنقاء أخلاقه...  
 ترى أضيّقه قولي؟.. على أيّ حال قال:  
 - على ذلك الجليل من السياسيين أن يتخذ من  
 أستاذنا القديم إبراهيم عقل مثلًا يحتذى...  
 فذهشت لقوله وقلت:  
 - الدكتور إبراهيم عقل يعاني حال دروشة كاملة  
 وقد لمست ذلك بنفسني في لقاء عابر معه بحميّ سيدنا  
 الحسين!  
 - لهذا ما أعنيه تمامًا، فالدروشة هنا أسلوب  
 لمواجهة الكوليرا التي قضت على ابنه...  
 - ماذا تعني؟  
 - أعني إذا صادفك كارثة يستحيل التغلّب عليها

وقامت ثورة يوليو متحدية كلّ تخمين. وسرعان ما  
 وجد زهير كامل نفسه في مأزق لم يعمل له حسابًا.  
 أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتخيّر ماذا يفعل  
 وماذا يكتب. ولما ألجّته السياسة العامّة نحو تصفية  
 الأحزاب وتركز الهجوم عليها بصفة عامّة وعلى الوفد  
 منها بصفة خاصّة باعتباره القاعدة الشعبية القديمة، إذ  
 بالدكتور يرمينا بالمفاجأة الثانية في حياته، فانقضّ  
 بمقالات من نار على الوفد مُرجعًا إلى فساد كلّ فساد  
 نخر في عظام الوطن. وأثارت المقالات عاصفة من  
 الغضب المكتوم في صدور الوفديين ولكنّ أحدًا لم  
 يستطع أن يقلّل من خطورتها لصدورها من رجل له  
 تاريخه الجامعيّ الوقور فضلًا عن اشتراكه في برلمان  
 الوفد الأخير. وتعيّن صحفيًا في إحدى الجرائد  
 الكبرى، وسرعان ما اعتُبر قلمه من أقلام الثورة، كما  
 عُهد إليه بتحرير صفحاتها الأدبية فقاد نقد الأدب  
 المعاصر. وبسبب مسؤولياته الجديدة، وربّما خجلًا من  
 انقلابه المفاجئ تجنّب إلى حين التردّد على صالون  
 الدكتور ماهر عبد الكريم. وتساءل الدكتور ماهر:  
 - ألم يكن الأفضل له أن يبقى في الجامعة؟  
 وتساءل الأستاذ رضا حمادة:  
 - رأيت ماذا فعل الوغد بنفسه؟  
 فقلت:  
 - لعلّ عذره أنّه فعل ما فعل لحساب قوّة وطنيّة لا  
 شكّ في وطنيّتها.  
 وعاد زهير كامل للظهور في مجالسه المفضّلة كصالون  
 الدكتور ماهر عبد الكريم ومكتب سالم جبر فعدنا  
 للتلاقي المنتظم كما كنّا، وعاودت الاطّلاع على فؤاده.  
 قال:  
 - لمّ تكن ثمة جدوى من المقاومة، ولمّ أقاوم؟  
 وقال أيضًا:  
 - كنت على وشك الإفلاس، ولكن لم يكن المال  
 وحده هو الدافع فأنا مطمئنّ الضمير!  
 فقلت:  
 - إذن فأنت تؤمن بثورة يوليو؟  
 فقال وهو يتفحصني بعينه الذكيّتين:  
 - إنّها حركة مباركة منعت بقوّتها الداتيّة اشتعال

فقال وهو يتنهد:

- وأصبح لكل شيء قيمة إلا الإنسان!

ففساءت بمرارة شديدة:

- متى كان للإنسان قيمة في بلادنا؟! على الأقل فهو يمرر اليوم من عبوديته الاقتصادية والطبقية والعنصرية وستجيء الخطوة الذاتية عندما يستحقها بجدارة!

وقد بلغ قمة سقوطه الأدبي عندما ألف رسالة صغيرة عن أدب «جاء أبو العلاء». وكان جاد أبو العلاء سعى إلى التعرف به حوالي عام ١٩٦٠ نفس العام الذي تعرّف بي فيه. ورغم ذلك كانت الرسالة مفاجأة لي لم أتوقّعها بحال. ومهما يكن الثمن الذي قبضه - قيل إنه طاقم تحف عربية وألف جنيه - فقد دلّ على أنّ صاحبي تمرّغ في السقوط حتى فقد إحساس الحياء الذي يصاحبه، وصدق عبده البسيوي عندما قال لي يوماً في حديث جرى لمناسبة الرسالة المذكورة:

- هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه إلا مومس!

وأوشك زهير كامل أن يعلن ارتداده في ظرفين لولا حسن حظّه، أوّلها الاعتداء الثلاثي عام ١٩٥٦ والآخر النكسة عام ١٩٦٧، ففي كلّ مرّة خيّل إليه أنّ الثورة صفت وانتهدت فتوتّب للعمل لمستقبله من جديد. ووضح لي في المرّتين مدى ما ينطوي عليه من انتهازية وزيف، بالرغم من أنّه يدين للثورة بجاهه وماله. وقارنت بينه وبين رضا حمادة، فكلاهما يتّمع بثقافة إنسانية عميقة وشاملة، وكلاهما من الجيل السياسي السابق الذي أجهضته الثورة، وكلاهما ينتمي إلى عقيدة معادية للاشتراكية، ولكن أحدهما يحتوي على طوية عفنة تتقرّز منها الحشرات، والآخر تستقرّ في أعماقه روح نبيل يستحقّ الفرد من أجله أن يُقدّس ويُعبد. وفي العام التالي للنكسة دهمته أحداث في صميم أسرته لم تحظر له ببال، إذ صمّم ابنه المهندس على الهجرة إلى كندا! ولم يستطع أن يشبها عن عزمها، أمّا أمّها فمالت إلى تشجيعها، وما لبث الشابان أن حقّقا رغبتهما بالفعل. وحزن زهير لذلك حزناً شديداً وراح يقول لي:

- أنا فلاح، ومن طبيعة الفلاح حبه للتصاق أبنائه به.

فعليك بالدروشة، أيّ نوع من الدروشة، أمّا المقاومة غير المجدية فترمي بك إلى المعتقل!

زهير كامل الناقد عانى انقلاباً من نوع آخر في نفس الوقت. فبكلّ استهانة مضى يتاجر بالنقد. مضى يتقبّل الهدايا والنقود ويقيم الفنّ والفنانين تبعاً لذلك. وبازدهار الحركة المسرحية والإنتاج السينمائيّ تضاعفت أرباحه فشيّد فيلته الأنيقة بالدقيّ واقتنى المارسيدس، وبخلاف اعتداله القديم أفرط في الطعام والشراب فزاد وزنه لدرجة أصبح من المتعذّر معها التعرف عليه من أوّل نظرة. لم يبقَ من مزايه القديمة إلا ثقافته الواسعة وذوقه المدرّب في شتى ألوان الفنّ. ورغم الثروة التي أمّتها مهنة كان إذا ذكر الوفد تجلّى الحنين في عينيه، بل علمت أنّه حمل صديقاً رسالةً خاصّة إلى مصطفى النحاس يعتذر له فيها عمّا بدر منه في حقّه، ويشرح له الظروف القاسية التي اكتنفت قراره. ولما أعلنت ثورة يوليو عن سياستها الاشتراكية توتّب بهمته المعروفة لدراسة الاشتراكية ليؤيّدتها عن علم ويحفظ لنفسه بمستواه ككاتب من كتابها الأوّل. وفي أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكية، ثمّ أصدر في النهاية مؤلّفه المعروف «اشتراكية هذا الوطن». وفي هذه الناحية بالذات يش من إقناعي بإخلاصه لسابق علمي بديمقراطيّته الليبرالية، وقد سأله مرّة ضاحكاً:

- كيف انقلبت اشتراكياً بهذه السرعة الجنونية؟

أجابني ضاحكاً أيضاً:

- الناس على دين أوطانهم!

- أتعتقد أنّهم يصدّقونك؟

- لم يعد أحد يصدّق أحداً.

ثمّ قال والضحك يعاوده:

- المهمّ هو ما تقول وما تفعل!

واجتاحته موجة من الضحك ثمّ قال:

- يتساءلون كثيراً عن سرّ ازدهار المسرح، أتدري

ما هو سرّ ذلك؟، السرّ أنّنا صرنا جميعاً عمّلين. . .

فقلت:

- وبالرغم من ذلك فقد حقّق هذا العهد من الخير

ما لم يحقّقه عهد سابق بلا استثناء!



## سابا رمزي

زاملنا في المدرسة الثانويّة. زاملنا عامين ثمّ اختفى. وبالرغم من أنّ زمالته ترجع إلى عام ١٩٢٥ فما زلت أتذكر بوضوح عينيه اللوزيتين الحادّتين وقامته القصيرة لحذّ الرثاء. وكان رياضياً متفوّقاً في القسم المخصوص والكرة. كان الجناح الأيمن لبدر الزياي وكان تبادل الكرة بينها يشكّل خطراً على أيّ فريق نلاعبه. لذلك اكتسب في المدرسة شهرة واحتراماً رغم قصر قامته. وكنا في أوقات الفراغ نقرأ المنفلوطي معاً ونستظهر ما نختاره من جملة الموسيقى. وحدثه مرّة عن روايات ميشيل زيفاكو فتجهم وجهه وسألني:

- أصدقت ما جاء في رواياته عن البابوات؟

فقلت ببراءة:

- ولمّ لا أصدّقها؟

فقال بنبرة تحذير:

- إنّه عدوّ للكاثوليكيّة ولذالك فهو يتعمّد تشويه

سمعة البابا...

عرفت لأول مرّة أسماء جديدة كالكاثوليكيّة والبروتستنتيّة والأرثوذكسيّة. وتخيّرت بينها حتّى أخبرني زميلنا ناجي مرقس أنّ المذهب المسيحيّ المصريّ هو الأرثوذكسيّة، وأنّ المبشرين أفسدوا بعض الأقباط فجروهم إلى اعتناق الكاثوليكيّة أو البروتستنتيّة. وراح جعفر خليل يداعب سابا رمزي قائلاً:

- الآن عرفنا أنّك قبطنيّ فاسدا!

وجعفر خليل هو الذي أفشى سرّه فقال لنا يوماً:

- فيكم من يحفظ السرّ؟

فتساءلت أعيننا باهتمام فعاد يقول:

- الجناح الأيمن سابا رمزي يحبّ مدرّسة بمدرسة

العباسيّة للبنات!

وراقبناه عقب انصراف المدرّسة فرأيناه وهو يتبعها في طرقها حتّى مشارف باب الشعريّة. وكنا يوماً نقرأ بالتبادل في مجدولين فلاحظت تهذّب صوته حتّى كفّ عن القراءة من شدّة التأثر. وشعر بعينيّ فوق جفنيه المسدلين فتمتم:

- رأيتمكم وأنتم تتبعوني!

فسألته عمّا دعاهما للهجرة فقال:

- الأمل في مستقبل أفضل...

وهزّ منكبيه في أسف وقال:

- لم يعد للوطن قيمة، تركاه في محنة قاسية، عن عدم اكتراث أو يأس، وجرياً وراء الأمل الخلاب...

واجتاحه غضب مفاجئ فقال:

- عقليّ معها، ولكنّ قلبي يتوجّع...

وأما كريمته فقد أحبّت شاباً يونانياً وهي في رحلة إلى اليونان بصحبة أمها. وبكلّ بساطة تزوّجت منه هازئة بكافّة التقاليد. وجعلت زوجته تتردّد بين القاهرة وأثينا حتّى استقرّت بصفة نهائيّة في موطنها الأصليّ قبيل انقضاء العام. ووجد الدكتور زهير كامل نفسه وحيداً في الستين، مريضاً بالسكر والضغط. وهو في ذلك يشبه رضا حمادة غير أنّ هذا خلق نهايته بنفسه متجاوزاً كافّة أحزانه، أما زهير فعانى مرارة الوحدة والسأم والهجر. ويوماً سألني عبده البسيوني في صالون جاد أبو العلا:

- هل تعرف نعمات عارف؟

فأجبت بالنفي فقال:

- هي صحفية تحت التمرين...

- وماذا يعني من ذلك؟

فقال ضاحكاً:

- إنّا عشيقة الدكتور زهير كامل!

- زهير كامل!.. إنّه شيخ في الستين أو أكثر...

- ستسمع عن زواجهما في القريب...

وسمعت. وعرفت العروس وهي جميلة في العشرين. وركن الأستاذ معها إلى اللهو والراحة فلم يمسك بالقلم إلّا لكتابة يومياته الأسبوعيّة في الموضوعات اليوميّة العامّة مقلّماً عن مراجعة الكتب والمراجع. ولكنّ مرضه استفحل حتّى أقعده بصفة نهائيّة في الفراش، فأطفأ الشعلة المضيئة الوحيدة في حياته المعتمة، شعلة العقل. وما زلنا نزوره من حين لآخر، فتدور المناقشات في حجرة نومه، ويشارك هو فيها بسمعه أو ببضع عبارات موجزة فقدت إشاراتها الذكيّة وأفكارها الموحية، لتذكّرنا بأنّ لكلّ شيء نهاية...

في حركة متشنجة ثم تهاوت على ظهرها. وجعل سبابا ينظر إليها، ذراعه مدلاة، ويده ما تزال قابضة على المسدس. وظلّ كذلك حتى قبض عليه. وفاضت روح الفتاة قبل مجيء الإسعاف. وعرفنا فيما بعد أنّ سبابا سرق مسدس أخيه الضابط في الجيش ليرتكب جريمته عند اليأس. ولم ندر عنه شيئاً بعد ذلك، ولم نره مرة أخرى. لقد طبع في خيالنا صورة لا تُنسى ثم ذهب.

## سالم جبر

عرفت اسم سالم جبر ككاتب مقال بجريدة كوكب الشرق عام ١٩٢٦. كان بدر الزيايدي أول من نوه به أمامي فوصف كتابته بالبلاغة والفائدة. ووجدته داعياً متحمساً للحضارة والاستقلال الاقتصادي وتحرير المرأة كما دعا إلى اتخاذ القبة غطاء للرأس بدلاً من الطربوش. وكان حقوقياً ولكنه لم يشتغل بالقانون، وكان يقوم بجولة ثقافية في إنجلترا وفرنسا كل عام تقريباً. ولما قامت ثورة ١٩١٩ اشترك فيها ضمن طلبة مدرسة الحقوق، وأصيب برصاصة في كتفه يوم الهجوم على الأزهر، ثم عمل في الصحافة الوفدية، وظلّ يعمل في الصحافة حتى اليوم. وتغيّر موقفه السياسي بعض الشيء منذ تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤. وقد قال لي يوماً بعد أن جمعنا صداقة متينة ملقياً ضوءاً على تلك الفترة من حياته:

- كان من رأيي ألا يتولى سعد زغلول الوزارة، وأن يظلّ الوفد وراءه في الميدان الشعبي حتى تتحقّق رسالة الوفد الوطنية...

فسألته:

- خرجت وقتذاك على الوفد؟

- كلاً ولكن تحوّل اهتمامي الحقيقي إلى ناحية

أخرى...

أجل، تحوّل إلى اعتناق الشيوعية. وعُرف بذلك منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم. ولم ينسَ أنّه صحفي في جريدة الوفد، فتجنّب مناقشة الموضوعات الجديرة بإحراج الزعيم، واحتفظ لنفسه منهجاً خاصاً في الكتابة ينفس به عن عقيدته الجديدة بطريق غير مباشر، ولا

ثمّ بمزيد من التأثر:

- أنا أحبّ مثل ستيفن وأكثر!

ووجدتني مشاركة وجدانية إذ كنت عاشقاً مثله

فقال:

- سأحبّها مهما يكن الثمن!

فقلت له بعطف:

- ولكنّها مدرّسة وما زلت تلميذاً صغيراً.

فقال بإصرار:

- الحبّ أقوى من كلّ شيء.

وقال:

- إني أحاول محادثتها ولكنها تتجاهلني، يقال إنّ

ذلك أسلوب من الدلال، ما رأيك؟

- لا أدري...

- كيف أعرف إن كانت تحبّني أو لا تحبّني؟

- لا أدري...

- هل نسأل جعفر خليل وبدر الزيايدي؟

فقلت محدّراً:

- كلاً... إنها يجبان المزاح وسيجعلان منك نادرة!

واستمرت مطاردته اليومية للمدرّسة بلا نتيجة،

وأخذت ثقته بنفسه تضعف ويغلبه الحزن. وشهدنا

عصر يوم منظرًا ليس من السهل أن يمحي من

الذاكرة. رأيناه يعترض سبيل المدرّسة بجرأة ويقول

لها:

- من فضلك...

فالت عنه ناحية وسارت في طريقها فتبعها وهو

يقول:

- لا بدّ من كلمة...

فهتفت به غاضبة:

- لا يمكن أن أحتملك إلى الأبد...

فقال بتوسّل:

- اسمعي كلمة بكلّ أدب...

- دعني ولأ ناديت الشرطي...

وابتعدت تسير بخطوات غاضبة سريعة. وقف ينظر

إليها بلدهول. وبحركة سريعة غير متوقّعة دسّ يده في

جيبه فاستخرج مسدساً فسدده نحوها وأطلق النار.

صرخت الفتاة صرخة فظيعة وارتفع وجهها إلى السماء

## المرايا ٣١٣

مقال له يدافع فيه عنكم!

فقال ساخراً:

- لم يكن دفاعاً ولكن كان إخراجاً فهو لا يرضى عن مفكر إلا إذا أشهر إحداه أو فوضيته... .  
وكان ذلك بحضور الأستاذ عباس فوزي بصالون المنير.

فقال عباس منضماً للأقوى كعادته:

- إنه رجل فاجر ومن أي ذلك أنه لا يؤمن بالزواج!  
فقلت بدهشة:

- ولكنّه متزوج وقدمني للمدام في حديقة الأورمان!

فقال عباس فوزي ضاحكاً:

- إنها عشيقته، وهي أرملة فرنسية، فكيف تجهل ذلك؟

وتوكد لي أنها عشيقته بعد ذلك، وظلّ مخلصاً لها حتى توفيت عام ١٩٦٠. وروى لي حكاية غرامهما الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم فقال إن المرأة كانت زوجة لمهندس في شركة الكهرباء، وإنها أحبّت سالم جبر في حياة زوجها، فلما توفي اتفقا على المعاشرة دون زواج. وكانت امرأة حرة وشيوعية مثله، أملاكها في مصر ولكنّها تحبّ السفر كثيراً إلى فرنسا، وتكره فكرة الإنجاب.

وألف سالم جبر كتاباً عن الدين المقارن قبيل الحرب العظمى الثانية، عرض فيه الأديان بأسلوب علمي موضوعي، فأثار الكتاب ضجة، وأتهم صاحبه بالافتراء على الدين الإسلامي، ومن أجل ذلك قدّم الأستاذ إلى المحاكمة، ولكنّ المحكمة برّأته وصادرت الكتاب. وفي أثناء الحرب شنّ حملات صادقة على النازية والفاشستية كان لها صدى حسن في دار السفير البريطاني.

ودُعي لإلقاء محاضرات أسبوعية في الإذاعة، وقلت له بمكتبه بجريدة المصري:

- يقولون إنك أصبحت من أصدقاء السفارة البريطانية.

فقال ساخراً:

يتنافى في مظهره مع سياسة الوفد، فراح يدعو إلى حرية المرأة والعلم والصناعة. وتقدّم خطوة أخرى فألف رسالة في المذاهب الاقتصادية مؤرخاً ضمناً للاشتراكية. وحوالي عام ١٩٣٠ أصدر رسالته الثانية عن «كارل ماركس ورسالته» وسرعان ما صادرتها السلطة، وتعرّض بسببها لحملة عاتية من الجهات المحافظة التي اتهمته بالإلحاد والفوضوية. تعرّفت به وأنا طالب بالجامعة في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وكنا نلتقي كثيراً بالصالون أو في مكتبه بالجريدة.

وقدمت إليه من زملائي رضا حمادة وجعفر خليل، وكنا نتحدث في السياسة والاشتراكية، ولم نفتح صدورنا لما قال عن صراع الطبقات ودكتاتورية الطبقة العاملة، وقلت له:

- اشتراكية تحمي عن طريق البرلمان، هذا ما أحلم به!

فقال متحدّياً أفكاري:

- أنا عدوّ للوفدا

- أنت تقول ذلك؟

- ونصير للملك وأحزاب الأقلية...

فضحكت غير مصدق فقال:

- الوفد أفيون الشعب!

ثمّ وهو يضرب مكتبه بقبضة يده:

- الوفد هو المسئول عن استسلام الشعب لأحلام لن تتحقّق أبداً، وسيعجز دائماً عن تقديم أيّ خدمة حقيقية للشعب، أمّا إذا سيطر الملك وأحزابه، واستشرى الفساد واستوطن، ينس الشعب وتوتّب لثورة حقيقية!  
فسألته:

- وما جدوى ذلك والإنجليز يكتمون أنفاسنا؟

- توقع المعجزات عند اليأس.

وأنس الدكتور إبراهيم عقل منّي ميلاً لترديد بعض آراء سالم جبر فقال لي:

- احذر فلسفة سالم جبر الكاذبة!

فأخذت بموقفه وقلت له:

- الحقّ أنّي أوّل ما سمعت عنكم كان لدى قراءة

- ولكنه قال:
- المسألة هي ملكية أو لا ملكية، أما توزيع الأرض على الفلاحين فمن شأنه أن يقوي غريزة الملكية المتوارثة من عصور الظلام!
- ولما حلت الأحزاب التي طالما حمل عليها، حزن على الوفد حزناً غير مفهوم وقال:
- وكيف تمضي البلاد بلا قاعدة شعبية؟! وقال أيضاً:
- التضحية بالحرية فعل مؤقت معقول من أجل الشيوعية ولكننا نسير بلا حرية ولا شيوعية!
- ولما حاربت الحكومة الشيوعيين والإخوان المسلمين قال:
- ها هم يقضون على القوى الإيجابية في الأمة فلا شيوعية ولا إخوانية ولا أحزاب فعلية من يعتمدون في تحقيق سياستهم؟، ولم يبق إلا الموظفون المأجورون وسيقيمون بنيتهم على قوائم من قش...
- حق الشيوعيون أنفسهم لم يكونوا بأحظى عنده من غيرهم، وما نالوا عطفه إلا في فترات الاعتقال أو السجن، وسرعان ما يرميهم بالتفسخ والانحلال والسقوط، واقتنعت أخيراً بأنه شخص غريب خلق ليكون معارضاً، حباً في المعارضة قبل كل شيء، فإذا كانت الدولة إقطاعية فهو شيوعي، وإن تكن يسارية فهو محافظ. أجل محافظاً. فعندما ساند الاتحاد السوفييتي الثورة وعاونها في الحرب والسلام، سمعت منه ما لم يجر لي على بال. قال مرة والخفق يلتهم قلبه:
- الشيوعية نظام عظيم حقاً ولكن ما هو الإنسان الشيوعي؟.. هو شيء ميكانيكي لا إنسان حي!
- وبغير حياء سألني مرة:
- لم يود الناس أن يهاجروا إلى الولايات المتحدة؟ فأجبت بسخرية واضحة:
- لأنهم يجدون هناك الحبز والحرية!
- فقال بامتعاض:
- لا قيمة للحياة بلا حرية فلا تكن متعصباً.
- فقلت وأنا أضحك:
- أنت الذي علمتني ذلك!
- فقال بمزيد من الامتعاض:
- لا عداوة تدوم ولا صداقة، أعترف بأنني في هذه الحرب حليف للإنجليز!
- فقلت له:
- يبدو أن نجمهم آخذ في الأفول!
- فقال بحدّة:
- لا خوف من انتصار النازية حتى إذا انتصرت فإنّ للتاريخ قوانينه وهي أقوى من الحرب والنصر.
- ولما جاءت حكومة الوفد عمل معها بإخلاص كشأنه قبل أن يتولى سعد زغلول وزارته، ولما زحفت جيوش رومل نحو الحدود المصرية هرب مع الهاربين إلى السودان. ثم رجع عقب انقلاب الميزان ليواصل جهاده الصحفي. وأذكر أنه جلس بيني وبين رضا حمادة في ماتم المرحوم جعفر خليل عام ١٩٥٠ فحدثنا عن أفراح الوطن بعودة الوفد ولكنه قال:
- لم يعد بوسع حزب من الأحزاب مهما تكن شعبيته أن يواجه الموقف.
- وتكلم عن الولايات المتحدة باعتبارها روح الشر في العالم، قال:
- لا نجاة للعالم إلا بالشيوعية العالمية.
- ولما انصرف قال لي رضا حمادة:
- لا يوجد إنسان كهذا الرجل يُجمع الكل على بغضه!
- فقلت بصدق:
- ولكنه رجل ذو عقيدة ومنزه عن الأغراض.
- ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تكشفت ذلك البناء المنطقي المنسجم مع ذاته عن تناقضات كالحيال في غرابتها. وهو في الظاهر لعب الدور المنتظر منه. كان حقيقة فكرية واضحة للصديق والعدو. عمل في جريدة الثورة واضعاً قلمه في خدمتها. ولكنه تكشفت لخاصته المقربين عن حزمة من التناقضات جعلت منه في النهاية شخصاً مجهول الهوية. تحمس لإلغاء النظام الملكي تحمساً لا مزيد عليه واعتبره معجزة من المعجزات، ولكنه همس في فتور:
- ذهب الملك وحل محله عدد غدير محدود من الملوك!
- وفرح بالقضاء على الإقطاع وتحديد الملكية الزراعية

## المرايا ٣١٥

موقف النقيض دائماً وأبداً. قال منقسماً عن حقه: - ما جدوى أن نتحرّر من طبقة لنقع في قبضة الدولة الفولاذية؟. السلطة الحاكمة أثقل من الطبقة، أثقل من الشيطان نفسه!

ولكن الثورة لم تتلاش، بل مضت تضمد جراحها وتجدد حيويتها وتناهب لمعركة جديدة. ومضى هو يحنق من جديد ويتمزق بين المتناقضات، وإن حافظ في الظاهر على شخصيته التي عُرف بها منذ عام ١٩٢٤ وإن ظلّ قلباً أميناً من أقلام الثورة. ورغم بلوغه السبعين من عمره، ورغم وحدته وخلوه من روح الدعابة، فهو يتمتع بصحة جيّدة ونشاط موفور. ولعله المصريّ الوحيد من معارفي الذي لم أسمع به مزح أو ينكت أبداً، ولا عرفت له هواية فنيّة، حتّى الغناء لا يتدوّقه. والأدب النادر الذي يطلع عليه يقرأه قراءة سياسية خاصّة كأنه خلق شاذّ مقطوع الصلة بالإمتاع والجمال. وركّز في الأيام الأخيرة على الإيمان بالعلم، إيماناً نسخ إيمانه القديم بالأيديولوجيّة، ويتساءل مراراً:

- متى يحكم العِلْم؟.. متى يحكم العلماء؟...  
هذه هي آخر هتافاتنا، وهي خليقة بلإشباع معارضته الأزليّة لجميع أنواع الدول، حتّى قال رضا حمادة:

- إنّه رجل مجنون، هذه هي الحقيقة!  
فقلت:

- وثمة حقيقة أخرى وهي أنّ أقواله التي تنكر لها خلقت في أجيال أثرًا لا يُحصى!

## سرور عبد الباقي

من أصدقاء العباسيّة. وكان أبوه محامياً ذا شهرة ومال. وكانت أمّه قويّة الشخصية تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم فخضع لها الأب والابن والبنات. وكانت بخيلة فيما بدا. تساوم الباعة المتجولين بلا رحمة، ومن أجل مليم واحد تلغي صفقة، وتزن مشترياتها في ميزان خاصّ ابتاعته لذلك. وظهر أثر ذلك كلّ في سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد.

- مُتنا.. مُتنا.. فمتى نُبعث؟  
وقلت له بشيء من الصراحة:  
- أحياناً يتعدّر فهمك.  
فقال بحدّة:

- أنا واضح كالشمس ولكنكم اعتدتم الشروح المطوّلة والهوامش وهوامش الهوامش!  
وقد علمت بوفاة صديقه الفرنسيّة عَرَضاً في بار الأنجلو بعد مرور أيام على وفاتها فبادرت إلى زيارة مسكنه بشارع قصر النيل ولكنيّ وجدته مغلقاً لا يردّ، ولم أجده بمكتبه بالجريدة كذلك، ثمّ تبين أنّه سافر عقب دفنها إلى أسوان فخلا إلى نفسه شهراً كاملاً. وكما قابلته بعد ذلك وجدته يمارس حياته بنشاطه المعهود ولكنّ مسحة من الكآبة طبعت وجهه بطابعها فلم تفارقه دهرًا طويلاً. ولم يكن يحبّ الخوض في شئونه الخاصّة، فلم يحدّثني بكلمة واحدة عن حبه أو أسرته أو طفولته، وكأنّه إنسان عامّ فحسب، عامّ في الظاهر والباطن، في الحضور والغياب. وسألته مرّة:

- ألم تأسف مرّة على أنّك لم تتزوّج ولم تنجب؟  
فأجاب بسخرية:

- الندم عادة دينيّة سخيفة.  
ولكنني شعرت - إن صدقاً وإن وهماً - بأنّه يعاني مرارة الوحدة في الشيخوخة. وحفلت تلك الفترة من حياته بالمناقشات الحادة التي بلغت في أحيان كثيرة حدّ المصارحة الجارحة في مخاطبة أصدقائه. قال مرّة لرضا حمادة:

- عليك أن تعترف بأنك رجعيّ ترسب في مجرى الزمن.

وقال مرّة أخرى للدكتور زهير كامل:  
- أنت لا تنقد ولكنك تقتل القيم.  
وسأله جاد أبو العلا عن رأيه في أدبه فأجابه على مسمع منا:

- من الخير لك أن توّفّر وقتك لتجارة التحف!  
وكان من بين الذين سُروا في أعماقهم بالكارثة التي حلّت بالوطن في ٥ يونيو ١٩٦٧. وهو موقف غريب ولكنّ تبناه جميع أعداء الثورة، وشاركهم فيه ذلك الرجل الشاذّ الذي خلّقت ليعارض الدولة وليقف منها

مواصلة المعاملة الحرة فيها بينما مع استثناء سرور عبد الباقي فيعامل معاملة مؤدبة خاصة .  
 وكان يتخذ من السياسة موقفاً مماثلاً فلا يتعامل معها على الإطلاق ولا يهتم بها، حتى المظاهرة السلمية التي زحفت على ميدان عابدين تأييداً لسعد زغلول رئيس الوزراء لم يشترك فيها، ويوم الاضراب الذي قُتل فيه بدر الزيايدي تخلف سرور في بيته. ورغم رشاقته ووسامة وجهه الأسمر تجنّب البنات ولم يلعب بعينه هنا أو هناك وكان يشعر دائماً بأن عيني أمه تراقبانه وتتبعانه حيث ذهب. والأوقات التي كنا نخصّصها للقراءة كان يقضيها في حديقة بيته ممارساً هوايته في رعاية الزهور أو رفع الأثقال. ومن فترة مبكرة وضع ميله لدراسة الطب ولكن نجاحه في البكالوريا لم يحقق له المجموع المطلوب، ولذلك أقنع والديه بوجود الالتحاق بكلية الطب في لندن، وكان المتبع أن تقبل الكلية المصرية الطالب إذا نجح عامين في إنجلترا. وسافر إلى إنجلترا فدرس الطب عامين بنجاح ثم رجع إلى مصر فالتحق بكلية الطب، وناقشنا تلك الواقعة يوماً فقال رضا حمادة:

- ليس سرور غيباً كما توهمنا وألا ما نجح في إنجلترا!

فقال عيد منصور:

- وليس نظام القبول بكلية الطب المصرية سليماً كما يُظنّ.

فقال جعفر خليل:

- وليست الفرصة متكافئة بين الأغنياء والفقراء!

وتخرّج سرور عبد الباقي في الكلية عام ١٩٣٦، وتزوج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة، وتقدّم في عمله عامًا بعد عام حتى عُمد من كبار الجراحين في مصر، وبيع من ذلك أموالاً طائلة فشيد عمارة كبيرة في وسط المدينة وبني لنفسه فيلاً غاية في الجمال بالمعادي. ولم يتخلّ يوماً عن مبادئه الأخلاقية حتى عُرف بأخلاقه وإنسانيته كما عرف ببراعته. وهو طبيب مثالي، مهارة في العمل، وغزارة في العلم، ورحمة بالمرضى، وبتعداً عن الجشع والاستغلال. وهو محبوب جداً من طلابه. وكثيراً ما خاض معارك حادة

وكانت علاقته بنا ذات نوع خاص، فهو لا يفارقنا، وهو لا يندمج فينا، ويتجنّب مشاركتنا في مزاحنا الطليق ونكاتنا اللاأخلاقية. وتذاكرنا يوماً مطربة جديدة هي أمّ كلثوم فقال سرور عبد الباقي:

- سمعتها في فرح واعتقد أنّ صوتها أحلى من صوت منيرة المهديّة!

فكبر علينا ذلك وقال جعفر خليل:

- صوت منيرة يعلمو ولا يُعلو عليه.

وانتهره خليل زكي، رغم عدم اهتمامه بالغناء، قائلاً بوقاحتة المعهودة:

- لا تردّد آراء أمك بينما!

وغضب سرور عبد الباقي وصاح به:

- لا شأن لك بأمي يا قليل الأدب.

وجاء الردّ في صورة لطمة، ثمّ اشتبكا في معركة حتى فصلنا بينهما. وكان تلميذاً مجتهداً، ولكنّ نجاحه كان دائماً دون اجتهاده، والحقّ لم تكن نؤمن بذكائه! وأوشك يوماً أن يقسمنا فريقين، إذ طالب بشدّة بالترام الأدب في السلوك والكلام، قال:

- يا جماعة.. يجب ألا تتردّد بينما كلمة بديهة وأن نتعامل باحترام.

وفي الحال شخر خليل زكي وسيّد شعير في وقت واحد تقريباً، فعاد سرور يقول:

- وإلا سأضطرّ إلى مقاطعتكم!

فقلت بجزع لحبي له:

- اقترح ما تشاء ولكن لا تفكّر في المقاطعة...

وقال رضا حمادة:

- كلامه يستحقّ التقديراً!

فقال جعفر خليل:

- البذاءة في الكلام كالملح في الطعام.

وقال عيد منصور:

- يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أحدكم أو أمه إلا إذا قرنته بالسبّ المناسب.

وقال شعراوي الفحاح محدّراً:

- يا جماعة إذا خلت اجتماعاتنا من قلة الأدب فقلّ

عليها السلام!

وتداولنا في الأمر باهتمام جدّي ثمّ تمّ الاتفاق على

## المرايا ٣١٧

القوات المعتدية، جعل يلتمس العزاء في طوايا الموقف، قال:

- لولا الولايات المتحدة لقصي علينا...  
فقلت:

- بل الإنذار الروسي...  
ولكنه رفض ذلك بشدة وقال:

- يحسن بنا ألا نفرط في الصداقة الأمريكية بعد اليوم...  
وكما أعلنت القوانين الاشتراكية اجتاحه الرعب وغشيته كآبة ثقيلة ثابتة. قلت له:

- إنك صاحب مهنة ولن تعرف الفقر.  
فقال:

- لم يعد لشيء قيمة...  
ثم قال:

- زوجتي تنصحني بالهجرة...  
فقال له رضا حمادة:

- لا داعي لذلك على الإطلاق.  
فقال:

- الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين...  
وقد استولى حكمانا على السلطة بقوة السلاح لا العلم.

فسأله:

- وما رأيك في مشكلة الفقر في مصر؟  
فأجاب بسداجة:

- كلُّ يتقرَّر موضعه على قدر طاقته وتلك هي  
حكمة الله سبحانه!

فأدرت أنه مهما يكن من علم الإنسان أو أخلاقه فلا غنى له عن الوعي الثقافي المتضمن طبعاً الوعي السياسي. وأنه مهما يكن من تفوقه وبراعته وفائدته فلن يعتصر من ذاته إمكاناتها الإنسانية حتى ينظر إلى نفسه لا باعتباره جوهراً فرداً مستقلاً ولكن باعتباره خلية لا تتحقق لها الحياة إلا بوجودها التعاوني في جسد البشرية الحي. لذلك بدا الدكتور سرور بجسمه القوي ووجهه الوديع ومهارته العلمية الحارقة، بدا متدهوراً مترنحاً لا شيء إلا لأن بدأ أخذت من فائض الذين يملكون كل شيء لتضميد جراح الملايين

في مجلس الكلية بسبب مثاليته التي لا تعرف المهادنة، وبالرغم من علمه الواسع وتجربته الفذة ظل طفلاً ساذجاً بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم ينعم بأي نظرة شمولية للمجتمع الذي يتألق فيه كنجم من نجومه. ومرّت به الأحداث الكبرى وهو منها بآمن لا تعنيه في شيء حتى قامت ثورة يوليو بثقلها الاجتماعي فشدته من مأمته لأول مرة، بدأ يهتم بهذه الثورة التي تتعرض للأرزاق وتغير الأوضاع، وتسأل إليه قلق لم يعرفه من قبل. وطبّق نظام الإصلاح الزراعي على زوجته فطارت من ملكية أسرته خمسمائة فدان بجزرة قلم، ودُهل الرجل الذي تعود على تقديس المال والملكية، ونبض قلب أسرته بالعداوة، وعُد هو ضمناً من الأعداء. ولذلك لم يتعين عميداً للكلية رغم استحقاقه العلمي لها فامتلات نفسه بالمرارة والحزن.  
قال لي:

- فگرت طويلاً في الاستقالة للتفرغ لعيادتي الخاصة.

ثم قال بإخلاص أنا أول من يقدره:

- ولكني لا أحب أن أخل عن واجبي العلمي! وبدءاً من ذلك التاريخ مضى يهتم بالحياة العامة، والسياسة بصفة خاصة - التي تجنبها طوال حياته - بعد أن غزته في صميم داره. وكنا نقابله في نادي المعادي على فترات متباعدة كلما سمح وقته المشحون بالعمل. وكنت أنا ورضا حمادة الصديقين اللذين استمررت علاقتهما به. وثمة آخر هو خليل زكي أتصل به دون صداقة حقيقية بحكم عمله في قصر العيني. ولكنه كان يذكر الجميع بقدر من الحنان، وقد حزن لمصر شعراوي الفخام ووفاة جعفر خليل وضياح سيد شعير، فإذا ذكر عيد منصور ضحك قائلاً:

- شيلوك!.. عليه اللعنة!

وفي تلك الأثناء ساء حظ رضا حمادة فأصيب في وحيدة وزوجته، فوثق بينها سوء مصير واحد على تفاوته بينهما. وبعد صفقة السلاح المشهورة مع تشيكوسلوفاكيا جزع الدكتور سرور عبد الباقي وقال:

- هذه هي الخطوة الأولى نحو الشيوعية!

فلما كان الاعتداء الثلاثي وما أعقبه من انسحاب

كالمعتدة فيرتجّ ثدياها النافران فتشتعل الفتنة في الصفوف وتندّ عنها همهمات كظنين النحل. وعُرف اسمها وجرى على كلّ لسان، ونحتت له الأوصاف والأسماء فهي «أبلة سعاد» و«كأية سعاد» و«بانت سعاد». وكانت بخلاف زميلاتها غاية في الجراءة، تواجهنا بثقة لا حدّ لها، ولا تخفي إعجابها بنفسها، وتناقش الأساتذة بصوت يسمعه الجميع، وبالجملة تحدّثت الزمان والمكان، وقال محمود درويش:

- إننا غانية لا طالبة...

وقال لي مرّة جعفر خليل:

- ترى كيف كانت وهي تلميذة مراهقة بالمدرسة

الثانوية؟ فأتنا نصف عمرنا...

فقلت:

- لم تلتحق بالكلية إلا لاصطياد عريس

- أو عشيقا

وجرت عنها الأخبار لا أدري إن كان مصدرها

الواقع أم الخيال.

- إننا من حيّ اليهود بالظاهر، ولدت وترعرعت

في جوّ من الحرّية الجنسية المطلقة!

- وأسرتها منحلة، الأب والأم والأخوات...

- وهي امرأة لا عدراء مجرّبة للسهر والسكر

والعريضة!

وتشجّع جعفر خليل بذلك فحاول أن ينشئ معها

علاقة ولكنّه صدّ ولم يفلح. وصدّ غيره ولم يفلح. ومع

ذلك فلم تضنّ بصداقتها على طالب إذا التزم بحدود

الأدب. وطبقت شهرتها الآفاق الجامعية فجاء طلبة من

كلية الحقوق للمشاهدة والمعانية. وكانت في الأدب

الإنجليزي تتلو أحياناً ما تيسر من مسرحية عطيل

فتلقيه إلقاء مسرحياً ناعماً يسحر الألباب، فحتّى

الاستاذ الإنجليزي أعجب بها وعاملها معاملة ودّية

خاصّة. وأخذ الطلبة الوقورون - الريفيون خاصّة -

يناقشون الظاهرة السعادية ويتساءلون عن عواقبها

الوخيمة. وسرت عدوى اهتمامهم إلى الدكتور إبراهيم

عقل الذي يفرض بقامته المديدة رعاية أبوية على

الطلبة والمثل العليا معاً. وانتهاز فرصة اضطراب قاعة

المحاضرات لارتجاج الشديدين النافرين وجعل يسلم

الجماعة. وشدّ ما جزعك عندما آنست في نبرته شهامة عقب هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنّه النجاة. وناقشت ذلك الموقف مع الصديق كامل رمزي فقال:

- لا تدهش ولا تجزع، الأفضل أن تعرف الحقيقة

مهما تكن غريبة وقاسية، ثمّة جانبان يتصارعان بلا

هواة يقف في أحدهما الروس والاشتراكيون العرب

وطوائف الشعب التي وجدت في الاشتراكية جنتها

الموعودة ويقف في الآخر الأميركيان وإسرائيل والدين

رأوا في الاشتراكية ردعاً لطموحهم وجشعهم...

فسألته:

- والوطن والوطنية؟

فأجاب:

- تغيّر مفهوم الوطن ومضمونه، لم يعد أرضاً ذات

حدود معينة ولكنّه بيئة روحية تحدّها الآراء

والمعتقدات!

## سَعَاد وَهَبِي

تلك الزميلة الجامعية التي عاشت في كليتنا عامّاً

واحدًا ولكنّها بهرت خيالنا عهدًا طويلاً. كانت

الزميلات عام ١٩٣٠ قلّة لا يتجاوزن العشر عدداً.

وكان يغلب عليهنّ طابع الحرّيم، يحتشمن في الثياب

ويتجنّبن الزينة ويجلسن في الصفّ الأوّل من قاعة

المحاضرات وحدهنّ كاتهنّ بحجرة الحرّيم بالترام. لا

نتبادل تحية ولا كلمة وإذا دعت ضرورة إلى طرح

سؤال أو استعارة كرامة تمّ ذلك في حذر وحياء، ولا

يمرّ بسلام فسرعان ما يجذب الأنظار ويستثير القيل

والقال ويشنّ حملة من التعليقات. في ذلك الجوّ

المتزمت المكبوت تألقت سعاد وهبي كاتّها نجم هبط

علينا من الفضاء. كانت أجمل الفتيات وأطولهنّ

وأحظاهنّ بنضج الجسد الأنثوي. ولم تقنع بذلك

فلوّنت بخفّة الوجنتين والشفتين، وضيقّت الفستان

حتّى نطق، وتبخرت في مشيتها إذا مشت، وكانت

تتعمّد أن تدخل القاعة متأخرة بعد أن نستقرّ في

مجالسنا وتهيأ الأستاذ لإلقاء محاضرتّه، ثمّ تهول



المرايا ٣١٩

وعرضًا لأول مرّة أيضًا، أما ثدياها فلم يستطع تعهّد  
الوالد بتغيير موضعها ولا فتنتها فظلّ نافرين يتحدّيان  
العميد والتقاليد جميعًا.

ويومًا قال أحد الطلّاب:

- أمس رأيتها مع الرجل الإنجليزي بالحديقة  
اليابانية بحلوان...

وانتشر الخبر في الكليّة، وسألها صديق عنه فأجابت  
بأنّها قابلته هناك مصادفة فسارا معًا يتحدّيان. تؤكد  
الخبر. وبلغ جميع المسئولين في الكليّة. ولكن نجحت  
عن ذلك مشكلة تحدّث الجميع بقحة لا مثيل لها. لم  
يكن من المستطاع اتّخاذ إجراء مع المدرّس خشية  
إغضاب دار المندوب السامي، ولا كان من المستطاع  
معاينة الطالبة خشية إغضاب المدرّس. وأدركنا  
الموقف بكافة أبعاده السياسيّة والنفسية. وقال جعفر  
تحليل بروحه الساخرة:

- إنجلترا زادت من تحفّظات ٢٨ فبراير تحفّظًا  
جديدًا خاصًا بسعاد وهيبي.

وقال آخر:

- الأسطول البريطانيّ يهدّد باحتلال الجمارك إذا  
تعرّضت سعاد لأيّ ضغط.

وقيل في الموقف أشعار كثيرة من أصحاب المواهب  
من الطلبة، وتبدلت السخریات على مسمع من  
العميد نفسه. ولكن في بداية العام الدراسيّ الجديد  
وجدنا الموقف مختلفًا. فالمدرّس الإنجليزيّ لم يرغب في  
تجهيد عقده، وسعاد لم ترجع إلى الكليّة. أين ذهبت  
سعاد؟ قيل إنّها سافرت مع المدرّس الإنجليزيّ،  
وقيل إنّها تزوّجت، وقيل إنّها أصبحت غانية في شارع  
الألفي. ومع كثرة تقلّبي في أنحاء القاهرة فلم تقع  
عليها عيناى منذ ذلك التاريخ البعيد.

### سيّد شعير

كان زعيم الجماعة من أصدقاء العباسية. أجل كان  
خليل زكي يمثله في القوّة أو يفوقه ولكنّ الزعامة لا  
تقوم على القوّة وحدها لا بدّ لها من أساس مكين من  
الحب. وكان سيّد شعير محبوبًا كما كان كريمًا، وفي

سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتّى ثابوا إلى الرشد  
والسكينة، ثمّ قال:

- يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات  
بجامعتنا وبين صالة بديعة!

فضجّت القاعة بالضحك في غير موضعه...

ثمّ وهو يهزّ رأسه بطربوشه الطويل:

- تذكروا أنّنا جميعًا - نساءً ورجالًا - هدف لمجهز  
الناقدين وأنّ جمهرة منهم لم تسلّم بعد بمبدأ اختلاط  
الجنسين في الجامعة، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليمًا  
عاليًا...

وفي نهاية المحاضرة استدعى سعاد وهيبي لمقابلته في  
حجرتها، وحمّتا موضوع الحديث وتنبّأنا بنتيجته  
المحتومة، وكثيرون شعروا مقدّمًا بالأسف لحرمانهم  
الوشيك من الإثارة اليومية الفاتنة. وغادرت سعاد  
وهي حجرة الدكتور متجهمة الوجه، ولما رأت جموع  
المنتظرين في الخارج قالت بحدّة وبصوت مسموع  
متحدّ:

- لن أسمح لأحد بمصادرة حرّيّتي الشخصية...

وأصرّت على التمتع بحرّيّتها حتّى فوجئنا بصدور  
أمر بفصلها من الكليّة! وفرح البعض وأسف البعض  
أسفًا عابرًا بالرغم من اجتماع كلمة الجميع على مقاومة  
الحكم السياسيّ الرجعيّ الذي بطش بحرّيّة الوطن.  
وجاء والد الفتاة لمقابلة العميد، وما زال به حتّى حمله  
على سحب قرار الفصل بعد أن تعهّد له بتحقيق  
مطالبه. وأعجب ما سمعت عن رجوع سعاد حدّثني  
به جعفر خليل، إذ سألتني بأسيا:

- أما سمعت بالسرّ وراء عودة سعاد؟

فسألته بدوري:

- أيّ سرّ؟

- يقال إنّ وزير المعارف أوصى العميد بها.

- ولكنّ وزير المعارف رجل رجعيّ كثير التشدّد  
باحترام التقاليد؟

- ويقال أيضًا إنّّه على علاقة بالفتاة...

على أيّ حال عادت سعاد. وعندما هلّت علينا بعد  
انقطاع استقبلناها بالتصفيق. رأينا وجهها الطبيعيّ  
لأول مرّة وكان وسيما أيضًا، ورأينا فستانها يحتشم طولًا

وسرعان ما فصل أبوه بينهما وانهاى على ابنه ضرباً أمام الناس، ففقد سيّد عقله وصبّ غضبه على البضائع من أواني زجاجيّة ومعدنيّة وقوارير العطر وغيرها. وطرده الرجل، طرده من دكانه ومن بيته فانقطع ما بينهما إلى الأبد. اقترحنا أن نوسّط آباءنا في الإصلاح بينهما ولكنّ سيّد رفض ذلك بإباء وقال:

- سجن البيت لم يعد يناسبني ودنيا الله واسعة.  
وكنا نظنّها نزوة غضب ولكنّ الأيام أثبتت لنا أنّه بحقّ رجل الدنيا الواسعة وأنّه ذو قدرة غريبة على تمزيق الأواصر العائليّة ونبدها من حياته كأنّها نفاية من النفايات. وقد حرت في تعليل ذلك في وقتها ولكنّي أدركت فيما بعد أنّه كان مراهقاً منبوذاً وسط ثلاثة إخوة ناجحين، عمل أحدهما مع والده بعد حصوله على التجارة المتوسّطة وواصل الآخران تعليمهما بتفوّق ساحق. وقال لي بكبرياء:

- إنّ أيّ تاجر في الحيّ يتمنّى أن يستخدمني ا  
فقلت له مخلصاً:

- ولكنّ حكاية النسوان حكاية خطيرة...  
فقال ساخراً:

- المرأة تتسكّع بين دكان وآخر التماساً لغمزة عين  
أو كلمة حلوة أما البيع والشراء فلا يحدثان إلّا في  
المواسم ا

وعمل بالفعل في محالّ كثيرة حتّى خنقت الأزمة  
الاقتصاديّة التجارة فاستغني عنه فيمن استغني عنهم  
ووجد نفسه وحيداً بلا مورد ولا أهل ولا أمل. ولم  
يكن بوسعنا أن نقدم له - ونحن تلاميذ - أيّ مساعدة  
ناجعة، ولكنّه كان صديقاً لصاحب مقهى في مرجوش  
يعمل في الوقت نفسه تاجر مخدرات بالجملة فعرض  
عليه أن يشتغل موزّعاً بالنسبة وسرعان ما قبل.  
وأخبرنا بذلك في مباحة طفوليّة فدعّرنا وقال له سرور  
عبد الباقي:

- أنت مجنون...  
وقال له رضا حمادة:

- لن يكون ذلك أبداً...  
ولكنّه سخر من ذعرنا ورجاننا في الوقت نفسه أن

نخفي الأمر تماماً عن خليل زكي الذي كان يحقته.

أوقات اللعب كان مهرّجاً، وفي ليالي رمضان كان نجماً  
لامعاً. ولا مفرّ من عقد المقارنات بينه وبين خليل  
زكي دائماً، فكلاهما قويّ سريع العدوان غير أنّ خليل  
ينطلق من شراسة إجراميّة على حين ينطلق سيّد من  
المجون والاستهتار، وكلاهما لم يوفّق في الدراسة  
الابتدائيّة، وكلاهما وظّفه أبوه في دكانه، وكلاهما طرد  
من رعاية أبيه غير أنّ خليل طرد لشراسته على حين  
طرد سيّد لسلكه مع النساء من زبائن المحلّ. وبطرف  
عينه الماكرة اكتشف الهوى بيني وبين حنان، وراح  
يداعبني ساخراً من ترددي، حتّى قال لي يوماً:

- كلام فارغ، غرامك كلام فارغ...  
ولم أحبّ أن يجعل من حيّ سخرية من سخرياته  
ولكنّه قال:

- اسمع نصيحتي وواعدها في غابة التين الشوكيّ.

وفي مساء الأربعاء من كلّ أسبوع - في العطلة  
السنيّة - كان يدعوننا إلى بيته في آخر شارعنا من ناحية  
بين الجنانين حيث يقام ذكر في الفناء فنجلس على  
أريكتين متقاربتين نتابع الأناشيد الدينيّة ونشاهد  
حركات الذاكرين ونحتسي الشاي والقرفة، وكلّما  
ابتعد أبوه عن مجالنا روى لنا ما يحفظ من النوادر  
الماجنة عن أهل الذكرا. بقدر ما كانت أسرته متديّنة  
بقدر ما كان مستهتراً وبقدر ما حيرني في فهمه. وكما  
يش من مواصلة الدراسة في المدرسة الابتدائيّة عمل  
في دكان أبيه في الغوريّة. وفي العطلة السنيّة كنا  
نذهب إليه في المغرب، وكما يغلّق الدكان يمضي بنا في  
أنحاء الحيّ الحسيني، من عطفة إلى عطفة، ومن  
مقهى إلى مقهى، فعرفنا بإرشاده مجاذيب الباب  
الأخضر والفيشاوي والمدقّ وخان الخليلي واستمعنا إلى  
أذان عليّ محمود ومواويل العربيّ، وعلمنا - ونحن في  
السنة الأولى من المدرسة الثانويّة - تدخين الجوزة  
والبوروي والتارجيلة ولعب النرد والدومينو. كانت تلك  
الأيام من أسعد أيام سيّد شعير، كان يعيش في بيت  
والده وينفق راتبه على مزاجه الخاصّ ويتشبه بالرجال  
وهو في الرابعة عشرة من عمره، ونشأ الخلاف بينه  
وبين أبيه بسبب النساء من زبائن المحلّ. ومرة غازل  
امراة وكان زوجها في الخارج فنشبت بينهما معركة

## المرايا ٣٢١

والمحامي والدكتور والتاجر والقَوّاد والبرمجي وتاجر  
المخدّرات. وجعلنا نرثي صديقنا الراحل فنقول:

- ترك فراغًا لن يُسدّ.

- ما أجمل ذكرياته!

- عاش ضاحكًا ومات ضاحكًا.

- رَاهَنَ طيلة عمره على حلم لا يريد أن يتحقّق.

وعاتبنا سيّد شعير على انقطاعنا عن زيارته فاعتذرنا

له بأنّ الحيّ القديم لم يعد بالمكان المناسب.

فقال بازدرأ:

- اخصّص على أصلكم...

ثمّ بأسف:

- رحم الله شعراوي، كان الوحيد المواظب على

زيارتي...

وبعد انتهاء الحرب بأعوام تقرّر إلغاء البغاء

الرسميّ فاضطرّ سيّد إلى الظهور فوق سطح الأرض

مرّة أخرى، رجلًا في الأربعين، يملك بضعة آلاف من

الجنهات، وذخيرة كبيرة من التجارب الفاسدة.

واجتمعنا في مقهى الفيشاوي، فقال له رضا حمادة:

- أمامك فرصة طيبة فابدأ حياة صحيّة جديدة!

فضحك سيّد قائلاً:

- ما أقبح الوعظ والإرشاد!

وقرّر أن يستجمّ فترة من الزمن. أقام في فندق

بالموسكي يدار بطريقة مريبة. وأسرف في تعاطي

المخدّرات والخمور، واصطيد بنات الهوى ممن هنّ في

حكم المومسات، أمّا نهاره فيمضيه في لعب الكومي

وتدخين النارجيلة. وظلّ خارج الزمن تمامًا فيما يتعلّق

بجميع الأحداث كحرب فلسطين وحريق القاهرة

وثورة يوليو. وتزوّج وهو في الخمسين من تاجرة

مخدّرات مات زوجها في السجن وكانت في الأربعين

من عمرها. وبالرغم من شدّة العقوبات التي فرضتها

الثورة على تجارة المخدّرات فقد تاجر فيها بكلّ استهانة

وبغير تقدير للعواقب. وقد شيّد لنفسه بيتًا كبيرًا في

طرف الدراسة على حافة الخلاء المفضي إلى جبل

المقطّم، وسط حديقة مساحتها فدان زرعها بالنخيل

والأعشاب والجواقة والليمون والحناء والياسمين، وأثّته

بالآثاث الشرقيّ، وأقام فوق سطحه حظائر الدجاج

واندفع في طريقه باستهتار غريب فانتشل نفسه من

الجوع والكرب. وفي الخطوة التالية عرف السبيل إلى

أحياء البغايا، لا كهوا، ولكن كمحترف، وعاشر امرأة

وأقام معها في بيتها، ودعانا إلى الطواف بمملكته

الجديدة. تخلّف عن الدعوة سرور عبد الباقي، وذهبنا

إليه مدفوعين بحبّ الاستطلاع والرغبات المكبوتة

وسحر المغامرة. وذكرت في الحال تجربتي القديمة مع

قريبي أحمد قدري، وعثرت على البيت، ودهشت

للوجوه الجديدة التي طالعتني. ومضى سيّد شعير بنا في

تلك الدروب كما فعل من قبل في الحيّ الحسيني ولقّنا

كافة تقاليدنا وأسرارها، وسهرنا في مقاهي الأنا

ومجالس المعلّات والفتوات والبلطجية والبرمجية، حتّى

باتت أغانيها الخليعة وأناشيدها الساخرة ودعاباتها

الفاضحة ورقصاتها العارية، باتت تعزف في ربوعنا

كالسحر الأسود وتسكب في قلوبنا عصير الأفراح

والمآسي. وانضمّ بقدرة قادر إلى زمرة رجال الأعمال

فافتتح مقهى في وجه البركة امتاز بالأناقة والخمور

الرخيصة وعازف أرغول يشتفّ آذان السكارى ومدمني

المخدّرات من الزبائن. وكان يديره بحزم الفتوات

وابتسامة التجار المحترفين، مرتديًا بدلة كالأفندية إشارة

إلى أصله العريق المختلف عن أصول أصحاب المقاهي

من أهل البلد البرمجية. ولما قامت الحرب العظمى

الثانية تضاعفت أرباحه من المقهى غير أنّ رفيقته

هجرته فيمن هاجر من حيّ البغايا من المومسات

الجميلات اللاتي آثرن العمل في المشارب الليلية

استغلالاً للجنود البريطانيين، فلم يبقَ في الحيّ إلّا

النسوة الميثوس منهنّ ممن تقدّم بهنّ العمر أو ذبل

جماهنّ. وتدهور الحيّ القديم فلم يعد صالحًا لارتداد

الأفندية، ولم نعد نرى سيّد شعير إلّا كلّ حين ومين.

وقد جمعنا ماتم شعراوي الفحام، ومرّة أخرى اجتمع

في ركن من السرادق جعفر خليل وخليل زكي ورضا

حمادة والدكتور سرور عبد الباقي وعيد منصور وسيّد

شعير وأنا.

اجتمع أصدقاء العمر بعد أن نقصوا واحدًا، وهم

في ذروة الشباب ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من

العمر، وقد عرف كلّ سبيله، المدرّس والموظّف

ولكن ندر اللقاء بيننا. وربما مرّت أعوام دون لقاء على الإطلاق. أو يقع لقاء مصادفة في مقهى الفيشاوي. ولا أنسى يوم أقبل عليّ في الأسبوع التالي للنكسة. كنت جالساً وحدي أجتزّاهمّ الثقيل الذي لم أعرف له نظيراً من قبل. سلّم وجلس ثمّ بادرنى متسائلاً:

- هل يقضي احتلال سيناء على التهريب حقاً؟  
أحنقني سؤاله. اعتبرته غاية ما بعدها غاية في الاستلقاء خارج الزمن. وأدرك بذكائه استيائي فسكت. ومضى يدخنّ النارجيلة صامتاً. . . ثمّ تمتم:  
- كعادتك دائماً لا شيء يهّمك مثل السياسة ووجع الدماغ.

فسألته بضيق:

- الظاهر أنّك لم تسمع بما وقع؟  
فقال وهو يشكم رغبته في السخرية:  
- سمعنا وشفنا العجب!  
ولقيته بعد ذلك بعامين في مكتب عيد منصور. رأيته في صورة جديدة، منتفخ الوجه والبطن، يشي منظره بحال مرضية لا شكّ فيها ولا فكرة لي عنها،  
فسألته:

- كيف حالك؟

فأجاب ببساطة مذهلة:

- بخير كما ترى!

- ولكنك لست كعادتك!

- سبحان الذي لا يتغيّر!

فضحك عيد منصور قائلاً:

- أخيراً عرف ربّنا.

فسألته:

- ألم تستشر طبيباً؟

فتساءل بدوره:

- أتؤمن حقاً بالأطباء؟

- لم أذهب ولا مرّة واحدة إلى طبيب ولم يدخل

معدتي دواء!

وكما غادر المكتب ضحك عيد منصور وقال:

- يبدو أنّ جنازة وشيكة ستجمع شملنا من جديد!

والأورز والأرانب.

واجتمعنا بكامل هيئتنا مرّة أخرى في مأتم زوجة رضا حمادة، وغادرنا المأتم معاً - أنا وسيد - حوالي منتصف الليل لفرنا معاً نتحدث. وسألته ببراءة:

- ألم تجمع من الثروة ما يغنيك عن تجارة المخدرات؟

فأجاب باستهانة:

- إنّي أربح كثيراً وأنفق أكثر. . .

- ولكنك لا تقدّر العواقب.

فقال لي وهو يربّت على كتفي:

- طظ في العواقب!

ثمّ قال بحسرة:

- هل تذكر رفيقي القديمة التي هجرني أيام الحرب؟ . . سمعت أنّها أنجبت متي ولذا ولكّني لم أعر لها على أترا!

فسألته:

- أتحبّ أن يكون لك ولد؟

فضحك متجاهلاً سؤالي، ثمّ قال:

- أنا سعيد بزواجي ولا أفكر في الزواج من أخرى! ثمّ ضحك عاليًا وقال:

- والزواج من أخرى يعني بالنسبة لي الخراب أو التأييد!

وتنهّد وهو يقول:

- كلّ شيء يهون بالقياس إلى ما وقع لصديقنا الشهر رضا حمادة!

فقلت مستعيداً حزني كلّهُ:

- إنّه أعظمنا شخصيّة وأسواناً حقّاً.

فقال بحقنق:

- قارن بين حفّله وحفّظ ابن القديمة خليل زكي.

- أي نعم، يا لها من مقارنة ساخرة. . .

- ذلك هو الحقير الشريّر أمّا أنا! . . ما عيب تجارة

المخدرات؟

- المسألة أنّي أخاف عليك العواقب.

- فلنذكر عاقبة رضا حمادة الذي لم يتاجر في

المخدرات قط!

وأصرّ على اصطحابي إلى بيته العامر بالدراسة.

## السابعة؟

- من قال إنه عامل تليفون؟... لقد انتُدب للعمل بمكتب وكيل الوزارة.

- وكيل الوزارة على سنّ ورمح؟

- وكيل الوزارة على سنّ ورمح!

وتساءلت:

- كيف... ولماذا؟

فقال لي الأستاذ عباس فوزي همساً:

- يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا...

وقال لي عمّ صقر الساعي وهو يقدم لي القهوة:

- لا تدهش يا بك، حضرتك موظف جديد نسبياً

هذا هو كل ما هنالك، والمسألة أنه كان تقرر ترقية

موظف آخر، ولكن شرارة طلب مقابلة سعادة وكيل

الوزارة، ولما طرد من سكرتاريته انتظر في الممشى حتى

إذا خرج الوكيل في وقت الانصراف رمى بنفسه بين

يديه وقال بلهجة تمثيلية كأنه فاطمة رشدي إنه مسئول

عن أسرة كبيرة وإنه لا واسطة له بعد الله إلا سعادته،

ونظر إليه الوكيل نظرة عابرة لا تخلو من ضيق

وامتعاض، غير أن شيئاً في وجه شرارة جعله يعيد إليه

النظر باهتمام، ولبث ينظر إليه كأنما لا يريد أن يستردّ

بصره.

وسكت الساعي وهو يتسم بخبث فساورني

الشك. غير أنني سألته:

- أي شيء تقصد؟

فانسحب الرجل من أمام مكتبي وهو يهمس باسمياً:

- في العشق ياما كنت أنوح!

ونقل شرارة النحال إلى مكتب الوكيل بصفة نهائية

للمعمل في أرشيفه. وتغيّر منظره الخارجي ليناسب

وظيفته الجديدة فارتدى بدلة جديدة أنيقة بدلاً من

القدمية الرثة، ولبس حذاء أسود بدلاً من النعل

المطاط، وتزيّن عنقه بكرافطة حريرية عليها طابع الهبة

وأطلّ من طرف جاكته الأعلى منديل مزركش. وصرنا

إذا تقابلنا تبادلنا التحية تبادل الأنداد لا تبادلها القديم

بين موظف وآخر في حكم الساعة. ولعلّه كان على

وعي بما يدور عنه ولكنّه لم يكثر له، إمّا لأنه كان

مكتشوف الوجه، أو لأنه آمن بأن مركز القوة خليق

## شَرَارَةُ النَّحَالِ

عرفت شرارة النحال أول عهدي بالوظيفة

الحكومية. كان عامل التليفون، في العشرين من

عمره، ومن حملة الابتدائية حديثاً. وكان يلفت النظر

بجمال وجهه ورشاقة قدّه ورقة شئله. رأيت عمّ صقر

الساعي يمازحه مرّة فيقول له:

- اخلع بدلتك وارتد فستاناً وأنا أضمن لك عريساً

في ظرف أربع وعشرين ساعة!

وخلت درجة سابعة لوفاة شاغلها فاشتعلت أفئدة

كتبة الدرجة الثامنة تطلّعاً إليها. ولم يكن ثمة قانون

ينظّم الترقيات، كما كانت الشهادة العليا لعنة على

حاملها لما تثيره من حقد في صدور الرؤساء من حملة

شهادة الابتدائية القديمة، وفزع كلّ موظف من الفئة

الثامنة إلى من يعرف من الكبراء والشيوخ والنواب

فانالت بطاقات التوصية على وكيل الوزارة، ووجدت

أنا شفيماً - في ذلك السباق - في شخص زميلي القديم

عبد البسيوني عضو مجلس النواب، وقابلني الأستاذ

طنطاوي إسماعيل في الممشى خارج السكرتارية

فاستوقفني متجهماً وسألني:

- أما علمت بالذي رُقي إلى الدرجة السابعة؟

فقلت وقلبي يخفق:

- كلّا.

- أسرع بتهنئة شرارة النحال!

فهتفت:

- شرارة النحال؟!

- نعم.

- عامل التليفون؟!

- نعم.

- ولكنّه بالابتدائية ووظيفته خارج الهيئة!

فرفع الرجل رأسه إلى فوق وقال:

- اللهم فاشهد، ما زال بمصر أناس يحتكمون إلى

المنطق!

ثم مضى إلى حجرته. وذهبت إلى إدارة السكرتارية

فوجدت أنّ الترقية أصبحت خبر اليوم دون منازع.

- هل سمعتم عن عامل تليفون في الدرجة

- ليس كغيره من أمثاله، فهم اعتمدوا على جماهم وحده وهو خاصية تفقد قيمتها سريعاً بالتقدم في العمر، لذلك نجدهم الآن كهولاً منسيين في الدرجة الرابعة أو الثالثة على الأكثر، أما صاحبنا فبعد نفسه للمناصب الرفيعة!

وكموظف يُعتبر من أكفأ الموظفين الذين عرفتهم في حياتي، همّة في العمل وجلداً عليه وحسن تصرف فيه، فهو مرجع من المراجع الهامة في الإدارة، ومن ناحية أخرى اشتهر بالطموح والأناية، والقسوة في معاملة مرءوسيه من زملائه القدامى، فلم يغفر لأحدهم هفوة أو زلة لسان، وكان قدراً كبيراً من سعاده لا يتحقق إلا بإذلالهم والتمثيل بهم. واستقالت الوزارة وهو في الدرجة الثالثة مديراً لمكتب الوزير. وتولى الوفد الحكم. وأحيل الوكيل إلى المعاش قبل أن يتمكن من الانتقام من محبوبه القديم. وهرع الحاسدون إلى الوزير الجديد فاتهموا مدير المكتب بالحزبية المضادة والشذوذ الأخلاقي. ودافع شرارة عن نفسه باستماتة فقال إنه «موظف» وموظف فحسب، ولاؤه أولاً وأخيراً للعمل، وإخلاصه لمن يعمل في خدمته. وتقرر نقله مديراً للمحفوظات، وهي وظيفة خلفية لا مجال فيها للطموح، ومع ذلك فقد عكف على دراسة نظام الأرشيف وأعاد تنظيمه على أسس جديدة مما بث فيه حياة لم يحظ بها من قبل. ودعا الوزير لتفقدته فأعجب الرجل باجتهاده وأثنى عليه. وإذا به ينشر مقالة في جريدة المقطم بعنوان «وزير وفدي يثني على خصم من خصوم الوفد»، نوه فيها بعدالة الوزير وإخلاصه وإثاره للمصلحة العامة وكيف أنه شجعه بدل أن يبطش به، وختما بقوله: إن الإنسان ليجتاج إلى قوة خارقة لتمنعه من الارتقاء في أحضان الوفد.

وحدثني الأستاذ عباس فوزي بأنه كان في حضرة الوزير عندما استدعى شرارة النخال لشكره وأنه قال له:

- من أين لك بهذا الأسلوب البليغ؟

فما كان من شرارة إلا أن قال على الفور:

- إنه فضيلة يا صاحب المعالي اكتسبتها من حفظ

خطب خالد الذكر سعد زغلول باشا!

بمحقق المعايير وإخراص الألسنة. وفي ظرف عامين عُيّن شرارة سكرتيراً خاصاً للوكيل مع ترقية إلى الدرجة السادسة. وتهاشم الموظفون بشقّي التعليقات كالعادة، وقال لي الأستاذ عباس فوزي:

- ستره عما قريب ضمن الهيئة الحاكمة!

وسرعان ما عُرف في الوزارة كاهم شخصيّة في مكتب الوكيل، أهم من مدير المكتب نفسه، فصار كعبة لطلاب الحاجات من الموظفين والأهالي، وانهالت عليه الهدايا أشكلاً وألواناً. وأصبحت ابتسامته أو تحيته هدية يفاخر بها المتلقّي وهو يحمد الله المنان. وحدث أن تولى وزارتنا وزير من «أهل ذلك» فانفجرت أزمة لم تمجر لأحد في خاطر، بالرغم من أن الوزير والوكيل كانا ينتميان إلى حزب واحد. ودبر المؤامرة موظف كبير من محاسيب الوزير كان يتحين الفرص للانتقام من الوكيل لإساءة سبقت منه إليه، فحدث الوزير حديثاً مغريباً عن سكرتير الوكيل «الجميل». ورتب لقاء بين الوزير والسكرتير لعرض أوراق طلب الوزير الاطلاع عليها. وقيل إن الوزير اقتنع بكفاءة السكرتير من النظرة الأولى، وإن السكرتير رحّب بتقدير الوزير ترحيب شاب ليس لطموحه حدّ. وأبلغ الوكيل برغبة الوزير في نقل سكرتيره إلى مكتبه فثار غضبه وصارح مبلّغه بأنه لا يستغني عنه. وغضب الوزير بدوره فأصدر أمراً بنقل شرارة إلى مكتبه فما كان من الوكيل إلا أن اعتكف في قصره. وقيل إن رئيس الحزب وبخ الرجلين، وإنه حذرهما من تسرب خلافهما إلى الصحف الوفدية، فرجع الوكيل إلى عمله كاظمًا غيظه. وتتابع صعود شرارة النخال فرقي إلى الخامسة - مع قيده على الرابعة - وترامى المستقبل أمامه فسيحاً باهراً. غير أنه لم يشق طريقه معتمداً على جماله وحده، أو إن جماله لم يكن ميزته الوحيدة، فكان إلى ذلك ذكياً عالي الهمة مزوداً بأكثر من سبب من أسباب النجاح. ففي أثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذاً مجتهداً، وحصل من «منازلهم» على شهادات الكفاءة فالبيكالوريا وأخيراً ليسانس الحقوق. وعلّق عباس فوزي على اجتهاده متهكماً وجاداً في آن فقال:

## المراه ٣٢٥

ونُقل شرارة النخال مديرًا للمستخدمين ثم رُقي إلى الدرجة الثانية قبيل إقالة حكومة الوفد. وفرح الحاسدون وقالوا «الدب وقع»، فما هو الوزير السابق يعود ومعه الوكيل أيضًا، فما عسى أن يصنع شرارة النخال؟ وتوقعنا أن نشهد خاتمة الرجل، ولكننا فوجئنا جميعًا بترقيته إلى الدرجة الأولى مديرًا عامًا للإدارة!

- ما معنى هذا؟  
- ماذا جرى في الدنيا؟  
ومضت الأخبار تتسرب كقط الماء، عرفنا ما خفي علينا. فطيلة عهد الوفد لم ينقطع شرارة عن زيارة وزيره السابق سراً، وكان ينقذ له رغائبه دون أن يدري أحد. وأكثر من ذلك سعى سعيه حتى صالح بين الوزير السابق والوكيل المحال إلى المعاش؟. فلما رجعا قال بكل ثقة:

- رجع عهدنا العتيدي  
وقيل أيضاً لأنه راح يعطي دروساً خصوصية لابن الوزير الوفدي الطالب بكلية الحقوق. غير أنه بفطنته أدرك أن ميزان القوة الحقيقي مضي يتركز في السراي، وأن السراي خير وأبقى لمن أوي بُعد نظر حقيقي. وعليه ألف كتابه الوحيد «صانعو مصر الحديثة» أُرخ فيه لمحمد علي وإسماعيل وفؤاد، وأهداه إلى السدة الملكية. وجاءه من الديوان الملكي جواب شكر نشر في جميع الصحف. وقال لزميله وغريمه عدلي المؤذن:

- الآن أصبحت من رجال السراي ولن يفكر حزب في التنكيل بي.

وفي أواخر أيام الحرب تزوج من أسرة محترمة، فأنجب بنتاً وولداً، كانا - مثله - آيتين في الجمال، وقد تزوجت الفتاة من سكرتيره، أما الشاب فعمل ضابطاً في الجيش، وعقب انتهاء الحرب العظمى الثانية وقبيل إجراء انتخابات لمجلس الشيوخ استدعالي في مكتبه، وتعطف فسمح لي بالجلوس أمام مكتبه وقال لي:

- انتخابات الشيوخ غاية في الأهمية، ولو فاز الوفديون لحق لهم تغيير العهد كله... فنظرت إليه متسائلاً فواصل قائلاً:

- إني أفكر في إرسال اسمك ضمن المرشحين

لرئاسة اللجان الانتخابية... فابتسمت ولم أنبس فقال:

- ستجد في الدائرة رجلاً من رجال حزبنا... فسألت بخبث:

- أي حزب؟ فضحك عاليًا حتى احتقن وجهه الوردي بالدم ثم قال:

- لا أهمية للحزب، المهم الولاء لصاحب العرش! فقلت بقلق:

- لا خبرة لي بذلك العمل... - أغمض عينيك ودع الأمور يعمل، لن يطلب منك أكثر من ذلك.

فوجمت وهو ينظر لي ثم قال متأسفًا:

- الحق أنني رشحتك لما أعهده فيك من خلق طيب ولكني لن أثقل عليك.

ونفض مآذاً يده فصافحته وغادرت الحجرة. وأسفرت نتيجة الانتخابات عن نجاح عشرة من الشيوخ الوفديين في أربع وأربعين دائرة استعملت فيها جميع صنوف الضغط والإرهاب والتزوير كالعادة، فحمدت الله على أنني لم أشارك في تلك الجريمة التاريخية المدبرة.

وقد اختلفت الأقوال في نزاهته فبين قائل أنه كان نزيهاً بالرغم من عيوبه الكثيرة، وبين قائل بأنه لصّ أريب شديد الحذر. ومعروف أنه امتلك فيلاً جميلة في حلوان وعمارة في الدقي، ولكنه كان يردد دائماً بأنها اشترى بأموال زوجته. ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ قُدم إلى لجنة التطهير بناء على ما قُدم فيه من عرائض ولكن الظاهر أنه لم يثبت عليه ما يدينه، فاستمر في عمله. وقيل إنه استمر بفضل شفاعته ابنه الضابط والله أعلم.

ورُقي بعد ذلك وكيلاً للوزارة، ثم عُيّن رئيساً لمؤسسة عقب تطبيق القوانين الاشتراكية. وتسلسل إليه الحزن مرتين، مرة عندما أصيب ابنه برصاصة غير قاتلة في حرب اليمن، ومرة عندما أصيب زوج كريمة إصابة عشواء - وهو جالس في مقهى - في مظاهرات الطلبة التي تفجرت عقب هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧. ولم أره منذ غادر الوزارة، وانقطعت عني أخباره إلا فيما تسوقه

ونُقل شرارة النخال مديرًا للمستخدمين ثم رُقي إلى الدرجة الثانية قبيل إقالة حكومة الوفد. وفرح الحاسدون وقالوا «الدب وقع»، فما هو الوزير السابق يعود ومعه الوكيل أيضًا، فما عسى أن يصنع شرارة النخال؟. وتوقعنا أن نشهد خاتمة الرجل، ولكننا فوجئنا جميعًا بترقيته إلى الدرجة الأولى مديرًا عامًا للإدارة!

- ما معنى هذا؟  
- ماذا جرى في الدنيا؟  
ومضت الأخبار تتسرب كقط الماء، عرفنا ما خفي علينا. فطيلة عهد الوفد لم ينقطع شرارة عن زيارة وزيره السابق سراً، وكان ينقذ له رغائبه دون أن يدري أحد. وأكثر من ذلك سعى سعيه حتى صالح بين الوزير السابق والوكيل المحال إلى المعاش؟. فلما رجعا قال بكل ثقة:

- رجع عهدنا العتيدي  
وقيل أيضاً لأنه راح يعطي دروساً خصوصية لابن الوزير الوفدي الطالب بكلية الحقوق. غير أنه بفطنته أدرك أن ميزان القوة الحقيقي مضي يتركز في السراي، وأن السراي خير وأبقى لمن أوي بُعد نظر حقيقي. وعليه ألف كتابه الوحيد «صانعو مصر الحديثة» أُرخ فيه لمحمد علي وإسماعيل وفؤاد، وأهداه إلى السدة الملكية. وجاءه من الديوان الملكي جواب شكر نشر في جميع الصحف. وقال لزميله وغريمه عدلي المؤذن:

- الآن أصبحت من رجال السراي ولن يفكر حزب في التنكيل بي.

وفي أواخر أيام الحرب تزوج من أسرة محترمة، فأنجب بنتاً وولداً، كانا - مثله - آيتين في الجمال، وقد تزوجت الفتاة من سكرتيره، أما الشاب فعمل ضابطاً في الجيش، وعقب انتهاء الحرب العظمى الثانية وقبيل إجراء انتخابات لمجلس الشيوخ استدعالي في مكتبه، وتعطف فسمح لي بالجلوس أمام مكتبه وقال لي:

- انتخابات الشيوخ غاية في الأهمية، ولو فاز الوفديون لحق لهم تغيير العهد كله... فنظرت إليه متسائلاً فواصل قائلاً:

- إني أفكر في إرسال اسمك ضمن المرشحين

تعلم شرب الخمر ثم لم يفارقه إدمانها حتى الموت .  
ويومًا قال لي وكان ما زال تلميذًا بالابتدائية :  
- أنا عارف!

فسألته عمًا يعنيه فقال :

- أنت تحب حنان مصطفى .

فسكتُ ضيقًا وحياءً فقال :

- وأنا أحب حنان مصطفى!

فدهشت وتوقعت صراخًا من نوع ما غير أنه  
ضحك وقال :

- يد الله مع الجماعة!

- ماذا تعني؟

- نستدرجها معًا إلى غابة التين الشوكي!

فصحت به :

- عليك اللعنة!

وكان ذلك قبيل رحيل آل مصطفى بأيام فسرعان  
ما تلاشى سوء التفاهم . على أنني لم أعرف له بعد ذلك  
قصة حب أو زواج واقتصر نشاطه في ذلك المجال على  
مصادقة المومسات . وكما يشست أمه من تعليمه أرادت  
أن تجهد له عملاً ، وكانت تردّد دائماً أنّ أيّ عمل خير  
من البطالة . وقصدت قريباً لها من الكبراء هو أحمد  
باشا ندا فوظفه في وزارة الأوقاف ، ولكنّه لم يستطع  
المواظبة على العمل ، وكان يمضي يومه في الفيشاوي  
منتظرًا سيّد شعير حتى يفرغ من عمله في دكان أبيه ،  
وسرعان ما فصل من الوزارة ، ولم يتخلف يومًا عن  
سهراتنا الأسبوعية سواء كنا طلبة أم موظفين ، وتمكّن  
منه إدمان الخمر فكان يشرب كلّ ليلة ، يشرب أرخص  
الخمر وأردأها التي تتناسب مع دخله . ويمكن تخيّل ما  
أحدثه ذلك في أمه من قلق وأسى . وهو نفسه قال لنا  
ذات ليلة ونحن نسمر في مقهى سيّد شعير بوجه  
البركة :

- أمي لا تريح ولا تستريح ، تريد أن نخلق لي  
عملاً ولكن أيّ عمل؟ ، وتريد أن تزوّجني ولكن أيّ  
زوجة؟

فقال له عيد منصور :

- دخلك الثابت عشرة جنيهات وهو دخل طيّب لو  
فنتع بسكرة واحدة في الأسبوع وما عليك إلا أن

المصادفة بين الحين والحين . وآخر ما سمعت عنه من  
صديق رآه في مكة عام ١٩٧٠ وهو يؤذي فريضة  
الحجّ .

## شعراوي الفحام

لعله كان أطيّب أصدقاء العباسية . طيبة تخاطبها لا  
مبالاة وبساطة بالغة في الذكاء والتفكير . وأتذكره كلّما  
تذكرته ضاحكًا لسبب ولغير ما سبب وكان يكفيه أن  
يسمع شتمة أو ملاحظة عابرة ليغرق في الضحك ،  
وكلمًا اشتدّ نقاشنا في السياسة ضحك ، وكلمًا تجادلنا في  
الكرة أو السينما ضحك ، وإذا شهدنا جنازة قريب  
لصديق تجنّبنا النظر نحوه خشية إثارة فضيحة بين  
المعزّين . حضرنا يومًا جنازة شابّ قريب لجعفر خليل .  
وخرجت أمّ الشابّ تودّع النعش أمام البيت في حال  
جنونيّة ، حافية القدمين محلولة الشعر تلطم خديها  
بشيشب ، ثم من شدّة الحزن راحت ترقص كالمجنونة ،  
منظر أثار حزننا جيمعًا وأجرى دموعنا ، ولاحت منّي  
التفاته نحو شعراوي الفحام فرأيتُه يعضّ النواجذ على  
ضحكة تريد أن تغلت على حين راح جسمه النحيل  
يرتعش تحت ضغط الضحك المكتوم ، ولم يكن قاسيًا  
ولا بليدًا ولا أبله ولكنّه كان غريبًا ، كان نوعًا قائمًا  
بذاته . وكان يقيم مع أمه في البيت المجاور لبيت سيّد  
شعير ، بلا أب ولا أخوة ، مات أبوه وهو في المهد ،  
تاركًا له ولأمه البيت ومعاشًا مقداره عشرة جنيهات .  
وكرّست أمه حياتها لتربيته معتمدة على معاش زوجها  
وربع وقف يمثله في المقدار . لذلك اعتبرت أسرة  
ميسورة الحال وستظلّ كذلك حتى يدخل شعراوي  
طور الشباب فتكثر مطالبه ويتغيّر الحال . ولم يوفّق  
شعراوي في دراسته الابتدائية ، لا بسبب الإهمال  
والشقاوة مثل خليل زكي وسيّد شعير ولكن بسبب  
الإهمال والشقاوة والغباء . وفصل من المدرسة لكثرة  
سقوطه ، فلم يجد سوى البيت والمقهى والطريق . ونفر  
بطبعه المهذب من مصاحبة خليل زكي ولكنّه وجد  
ملاذه عند سيّد شعير ، فلازمه في سهرات الحيّ  
الحسيني ثمّ في أحياء البغايا بعد ذلك . وعن طريقه



الخيالية . . .

وظل يسكر ويحلم بالتركة، يسكر ويحلم، ومع الأيام رقى عوده وجفّ جلده وبرغم شبابه جرى المشيب في شعره. وإذا بالباشا العجوز يفاجرى البلد بمغامرة لا تخطر بالبال، فعاد من رحلة بالنمسا بصحبة غادة شقراء فتنة في العشرين من عمرها، قيل إنّه ينوي الزواج منها على سنة الله ورسوله. ونار الرأي العام، واضطربت جماعتنا، أما صديقنا فكاد يجم. وما ندري إلا وشعراوي يقيم على الباشا دعوى للحجر عليه باعتباره سفيهاً. وأدهشنا ذلك وبحسنا عمّا خفي علينا منه فوضح لنا أنّ خليل زكي هو الذي أشار عليه بذلك. غير أنّ قوى مجهولة تدخلت لتعيد إلى الأمر توازنه، فسافرت الفتاة النمساوية فجأة وقيل إنّها لم توافق على السفر حتى استولت على عشرين ألفاً من الجنيهات. وبتدخل السراي كفت الجرائد عن الخوض في الموضوع، وبتدخلها أيضاً رُفضت دعوى الحجر. واعتكف الباشا في قصره لا يزور ولا يُزار ثم أعلن وقفيته المشهورة التي أوقف أرضه بها للخيريات والمساجد. تذكّرنا صديقنا فأحزننا ماله وخيبة آماله، وأقبل علينا في مقهى الفيشاوي سكران كالعادة عمرّ العينين ذاهل الطرف، نظر في وجوهنا ملياً، ثم أغرق في الضحك. وخلع حذاءه فوثب إلى أريكة في صدر المقصورة فتربّع عليها وراح يخفي:

البخت لو مال حتعمل إيه بشطارتك

وأغرق في الضحك مرة أخرى حتى أعدانا فضحكنا كالمجانين. ولم يطراً عليه من جديد بعد ذلك سوى الإفراط في الشراب. فكان يشرب في النهار كما يشرب في الليل، ولم يتيسر له من أنواع الخمر إلا الأبلدة الرخيصة الشيطانية، أنبذ السلسلة ودرب المبلات وخمّارات شارع محمد علي، وخبث شهواته الأخرى كشهوة الطعام وشهوة النساء، وبدا أنّه يعيش في منفى من صنعه، يتخاطب بلغته القائمة على الإشارة ويضحك لخيالاته الراقصة أو يطرق في كآبة حيال أشباحه، وأنه يسير بقوة نحو الدويان. وحاول جعفر خليل أن يجرّه إلى دنيا السينا كما فعل مع خليل زكي ولكنّه رفض الفكرة وضحك طويلاً. وعرض عليه

تبحث عن زوجة ذات إيراد . . .

فضحك كالعادة وقال:

- إنّي أنتظر الفرج وهو آتٍ عمّا قريب! وكان يقصد قريبه أحمد باشا ندا الذي تولّى رئاسة الديوان الملكيّ فسأله عيد منصور وهو أشغفنا بالشئون المالية:

- ألك فكرة عن ثروته؟

فأجاب شعراوي وهو يملاً كأسه بالكونياك الجهنمي:

- عشرون ألفاً من الألفنة أما أمواله السائلة فلا يعلمها إلا الله.

- ولا وريثة له غيركم؟

- أمي هي قريبته الوحيدة الباقية . . .

وكان رضا حمادة يؤكد لنا تلك المعلومات نقلاً عن أبيه. ومن الطريف أنّنا لم نعلم بقرابة شعراوي لأحد باشا ندا إلا في وقت متأخر نسبياً، إذ أنّه أخفاها على عهد المدرسة الابتدائية لسوء سمعة الباشا كرجل من رجال السلطان وعدوّ من أعداء سعد زغلول. واسترسل شعراوي يقول:

- أمي هي الوريثة الوحيدة له وأنا الوريث الوحيد لها والباشا الآن في الخامسة والسبعين من عمره، وكلّ آتٍ قريب!

وسأله جعفر خليل:

- حدّثنا عمّا ستفعل بالتركة إذا آلت إليك؟

فضحك طويلاً وقال:

- آه لو تتحقّق الأحلام، سأبني قصرًا في القاهرة وآخر في الإسكندرية كالباشا نفسه، وسأملأ الخزانين بجميع صنوف الخمر المعتقة وأما النسوان . . .

فقاطعته سيّد شعير:

- وماذا ستقدّم لنا نحن الأصدقاء؟

فأجاب:

- ستكون سهرتكم في حديقة القصر وسيقدّم لكم أجود ألوان الطعام والخمر والنساء، عهد الله بيني وبينكم . . .

وهمس رضا حمادة في أذني:

- سوف يكون يومًا تاريخيًا يوم يرث صديقنا تركته

راسخة، وازدادت مع الأيام رسوخًا. وصفا جوها بقطع العلاقة بيني وبين درية زوجته وإن لم أخل من ضيق كلما تذكرتها. وبتحريض حاز من ناحيته قدمته إلى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم ومجلس الأستاذ سالم جبر. كما قدمته إلى الأستاذ زهير كامل. ونجّل لي كثيرًا أنه يضمّر تجربة نفسه في الكتابة ولكنه قنع - ولو إلى حين - بالاستماع والمناقشة، وكان يحظى منها بسعادة لا توصف. وكان من المتحمسين لثورة يوليو عن إيمان وعقيدة. وكان يحلم بالاشتراكية منذ عهد طلب العلم، ولم تكن له جذور حزبية أو إقطاعية تمنعه من الارتقاء في أحضان الثورة. سأله رضا حمادة يومًا:

- أليس لك مأخذ ولو على بعض تصرفاتها؟

فأجاب بحماس، وهو دائمًا يتكلم بحماس:

- كلاً، الحق أيّ أيدت موقفها من الأحزاب، من الإخوان، وحتى من الشيوعيين...

- وما لزوم «حتى» هذه؟

- لست شيوعياً، ولكنّي أرحّب بالتعاون بين الثورة وبينهم، فالثورة والشيوعية تياران ينبعان من مصدر واحد ويهدفان في النهاية إلى أغراض متقاربة...

وبعد صمت قصير استطرد:

- وأيدت موقفها من الوحدة مع سوريا، ومن حملة اليمن!

فقال رضا حمادة:

- إذن فليس في الإمكان خير مما كان...

فقال ضاحكًا:

- لست غافلاً عن السليبيات ولكنها شرّ لا بدّ منه في فترات الانتقال والتطور، فأنت بضربة موفقة واحدة تستطيع أن تغير نظام الحكم أما الطبائع فيلزمها وقت أطول بكثير!

وعمد إلى تفصيل رأيه فقال:

- قولوا في الجمعيات التعاونية ما شئتم، وقولكم حق، ولكنها كنظام فهو نظام مثالي، وسوف يختفي الفساد يوماً وتبقى الجمعية لتؤدي رسالتها، ويمكن أن يقال ذلك بالحرف عن القطاع العام، ألا تذكرون بنك التسليف الزراعي؟.. لقد استغلّه إسماعيل صدقي للتكنيك بخصومه وتفتيت وحدة الأمة ولكنّ إسماعيل

سيّد شعير أن يعمل في المهني بشرط أن يمتنع عن السكر فضحك أيضاً. لم تكن لديه همّة ولا رغبة ولا دافع. وقامت الحرب العظمى الثانية، وفي نفس العام توفيت والدته، فأجّر البيت وأقام في حجرة مستقلة بمراقفها فوق السطح. وفي عام ١٩٤١ أغارت الطائرات الإيطالية على القاهرة في النصف الثاني من الليل، وكان جالساً فوق السطح في غيبوبة تامة من السكر. والظاهر أنّه لم يغادر كرسيه إذ وجد مطروحاً عليه قتيلاً بشظية مستقرّة في رأسه. وكان مصرعه أول تجربة من نوعها في حياتنا المشتركة فهو أول من فقدنا من أصدقاء العمر. وكان جعفر خليل أشدنا حزناً إذ عُرف دائماً بتعاطفه مع أصدقائنا المنحرفين كسيد شعير و خليل زكي. وجمعنا الماتم حتىّ الذين باعدت بيننا وبينهم الظروف الطارئة، وجعل سيد شعير يقول بأسف حقيقيّ:

- رحم الله شعراوي، كان الوحيد المواظب على

زيارتي.

## صَادِقُ صَبْدِ الْحَمِيدِ

قال الأستاذ جاد أبو العلا بقدّمه لي في صالونه بالدقي:

- الدكتور صادق عبد الحميد.

سرت في روعي رعدة وأنا أصفحه. تذكّرت الاسم بقوة خفيفة. تذكّرت درية زوجته وهي تحدّني عنه. ترى أكون آخر له نفس الاسم؟. ولكنّ هذا الأمل تلاشى عندما واصل جاد أبو العلا حديثه قائلاً: - كان في بعثة قصيرة أخيراً في إنجلترا، ولكنه حصل على الدكتوراه من إنجلترا على عهد طلب العلم، وهو باطنيّ ممتاز ولكنه أديب وفتان وفيلسوف وسياسي أيضاً...

إذن فهو زوج عشيقتي دون غيره! ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين بالكاد والذي يفيض حيوية ويتألّق ذكاء. وأعجبي حديثه الذكيّ وجولاته المضيفة في الفنّ والفكر والسياسة. ووجدته يجذبني بطلاوة الحديث وعمقه وتنوّعه، ووجدت في روحه سرّاً ينفث صداقة

فقلت:

- وقال أيضًا إنه سيتزوج منها...  
- يا عزيزي إنَّ حربيًا تنسب فجأة فتقتل ألفًا أو ملايين، وإنَّ زلزالًا يقع فيدمر ألفًا، أما زواج زهير كامل فربما مرَّ بسلام وربما تخلف عنه ضحية أو ضحيتان!

وسكننا مليًا، ثم قال لي:

- اعترف لك بأنِّي عاشق!

فتذكرت ما قالته لي ذرية في آخر لقاء ولكنتي تساءلت متظاهرًا بالاهتمام:

- حقًا؟

- راقصة إيطالية بالأوبرج...

- لعلها نزوة!

- حبَّ عاش أكثر من عشرة أعوام...

- يا له من حبِّ عظيم!

- أشعر أحيانًا بأنه عاش أكثر مما ينبغي!

فترددت، وصمتت، بعد أن كدت أطرح سؤالاً عن الزوجة ولكنته قال وكأنه قرأ أفكاري:

- كما أحببت يومًا زوجتي...

وحدثني بفتور عن حبِّها، حبَّ طيب الامتياز للممرضة، كما سبق أن سمعته:

- كانت فقيرة، وبالرغم من أننا لم نكن أغنياء إلا أنَّ أحدًا من أهلي لم يوافق على فكرة زواجي بها، أبدًا أبدًا أبدًا...

- ولكنك تزوجتها...

- وغرقنا في الحبِّ كالمجانين...

وتمرَّد اللسان على تحفظي فقلت:

- ثمَّ جفَّت ينابيع الحبِّ!

فارتفع صوته - كأنما ليستمدَّ من ارتفاع النبرة دفاعًا - وهو يقول:

- الحقُّ أنَّ نظرتها إلى الحبِّ تغيَّرت تمامًا بمجرد أن صارت أمًا...

- كيف تغيَّرت نظرتها؟

- لا أدري!

- أنت تدري بلا شك.

- لعلها أصبحت تكنُّ حبًّا أعظم من الحبِّ العاديِّ

صدقي ذهب وبقي بنك التسليف!

وكما وقعت الواقعة يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ ذهل واحتلَّ توازنه، ومضى يتخبط بين الصالونات والمقاهي وكأنَّ القيامة قامت، ودار بيني وبينه حديث طويل في التليفون ختمه متسائلًا:

- أكانت حياتنا وهما من الأوهام!

وقابلته بعد ذلك بأيام في بيت رضا حمادة بمصر الجديدة فوجدته متمعضًا غاية الامتعاض، وجعل يردِّد بتألُّم شديد:

- ما أكثر الشامتين، ما أكثر الهازئين، ما أكثر المازحين، لم يجنُّ أحد، لم يتحرر أحد، لم يصب بجلطة أو ذبحة أحد، يجب أن أجنُّ أو أن أنتحر.

ولكنه أخذ يستردُّ الثقة يومًا بعد يوم، وينظر إلى الهزيمة باعتبارها تجربة مريرة نزلت بنا لتعيد «تشخيص» أنفسنا، وكلِّما سمع عن رغبة الأعداء في تصفية الثورة ازداد إيمانًا بها وحماسًا لها، حتى اعتقد مخلصًا أنَّ استمرارها أهمُّ من استرداد الأجزاء المحتلَّة من الوطن العربيِّ، إذ ما فائدة أن نستردَّ أرضًا ونخسر أنفسنا؟ ثمَّ إنَّ استمرارها هو الضمان الوحيد لاسترداد الأرض طال الزمان أو قصر، كما إنَّه الضمان الوحيد لبعث الشعب العربيِّ.

- إننا مطاردون، يطاردنا التخلف، وهو عدونا الحقيقي لا إسرائيل، وليست إسرائيل عدوًّا لنا إلاَّ لأنَّها تهددنا بتجميد التخلف...

وانصرفنا ذات ليلة معًا من صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فجلست إلى جانبه في سيارته نصر التي مضت بنا على مهل تخوض الظلام على ضوء فانوسها المظليِّ بالأزرق. ووجدتني أقول له:

- عبده البسيوني حدثني بحديث عجيب...

فتساءل عن الحديث فقلت:

- قال إنَّ الدكتور زهير كامل عشق أخيرًا صحفية تحت التمريم تدعى نعيات عارف...

- وما وجه العجب في ذلك؟

- هو في الستين كما تعلم وهي في العشرين...

فضحك وقال:

- العشق هو العشق بصرف النظر!

وتدكرت الكثيرين ممن يصفونها بازدراء بقولهم «برجوازية»، وقلت لنفسي إنه لمن حسن الحظ أنه لم يبق لنا طويل عمر في هذه الحياة المتعبة الغائنة.

## صبري جاد

تعيّن بإدارة السكرتارية في أواخر عام النكسة. كان في الثانية والعشرين من عمره، ومن حملة ليسانس الفلسفة، ومن أول يوم جعلت أرمقه بحب استطلاع، وأنتظر على هف اليوم الذي يكاشفني فيه بطويته فيصلني بهذا العالم الجديد الغريب. وكان من أصل ريفي ولكنّه نشأ وتربّى وتعلّم في القاهرة، في أسرة متوسطة، ابناً وحيداً بين ثلاث بنات توقفن وتزوجن، ويوماً سألتني:

- حضرتك تعرف الأستاذ عباس فوزي؟

فأجبته بترحيب:

- طبعاً، كان رئيسنا حتى أحيل إلى المعاش منذ أعوام...

- أين يقيم الآن؟

- في عابدين، أتريد أن تقابله؟

- نعم، أريد منه حديثاً لمجلة العلم...

- أنت صحفيّ بها؟

- تحت التميرين...

- ما رأيك أن نزوره معاً؟.. فإني لم أره من مدة غير قصيرة.

ودهبنا معاً إلى فيلا عباس فوزي، وهي مقامة فوق سطح عمارة يملكها في عابدين. ورحب بنا بلطفه المعهود، وأجرى صبري جاد معه حديثه الذي دار حول مؤلفاته عن التراث. وكما انتهى استاذن في الانصراف ولكنّ الأستاذ عباس فوزي قال له:

- لن أسمح لك بالذهاب حتى تجيب عن أسئلتني...

فتساءل الشاب عما يريد فقال:

- ثمة أسئلة تلح عليّ بخصوص جيلكم فهل أنت

على استعداد للإجابة بصراحة!

فأجاب الشاب بأسياً:

ولكنّي افتقدت الحبّ الأوّل.. وإذا بي...

- وإذا بك؟

- إذا بي أزهّد فيها نهائياً وبلا رجعة...

- يا لها من سيّدة تستحقّ الرثاء!

- إني أفر لها جميع أسباب الرعاية والراحة!

ثم بصراحة:

- أحياناً أتمنى لو توفّق إلى حبّ رجل آخر فتذهب

معه بسلام!

ونخيل لي أنّ قصّة دريّة قد اكتملت ولكن ساورتني

- وما تزال - شكوك كثيرة. وشاءت الظروف أن

نتعرّف - أنا وصادق - إلى حرم الدكتور زهير كامل

معاً، ودعاهما الدكتور صادق عبد الحميد إلى رحلة في

أوبرج الفيوم ولم يصطحب زوجته معه بحجة انشغالها

بالأولاد. وبعد مرور عام قال لي الأستاذ جاد أبو العلا

في صالونه:

- إني رأيتها معاً

فسألته عمّن يعني فقال:

- نعمات عارف والدكتور صادق عبد الحميد في

كنج مربوط...

فقلت وأنا أداري انزعاجي:

- لعلها...

فقاطعتني ساخراً:

وقالوا تراها يا جميل تبدلت

وغيّرها الواشي فقلت لعلها

وقلت لنفسي إنّ الدكتور الممتاز يحتاج إلى مزيد من

الدراسة عن جانبيه العاطفيّ. وظلّ يتحدث في

السياسة والفنّ ولكنّه لم يشر بكلمة إلى حبّه الجديد،

وواصل زيارته للدكتور زهير كامل، وقام بتمثيل دور

الصديق والمعجب كما كان يفعل من قبل، وهو ما

ساءني منه وأثار اشمئزازي. وضاعف من إثارتني أنّي

رأيت في نفس العام دريّة في سيارة جاد أبو العلا وهو

ينطلق بها في طريق الهرم، وللحال تدكرت فيلته

بالهرم التي حدّثني عنها عجلان ثابت عندما أخبرني

بعلاقته - جاد أبو العلا - بأمني زوجة عبده البسيوني.

ها هي دريّة تجرّب حظّها مرّة أخرى مع رجل عابث

لا يوفّر الأمان لأحد. وضقت بهمومي الأخلاقية

## المرايا ٣٣١

- طبعا .  
- بصراحة من فضلك، نحن غير رسميين، ونحن في خلوة، فلا تضمن عليّ بالحقيقة . . .  
- تحت أمرك . . .  
وقلت أنا:  
- الأستاذ يريد أن يعرف أشياء عن الجيل ككلّ لا عن شخصك . . .  
فقال عباس فوزي:  
- هذا ما أقصده تمامًا.  
فقال صبري جاد:  
- تحت أمرك . . .  
اعتدل الأستاذ عباس فوق الكنبه التركيّة ثمّ سأله:  
- ما موقفكم من الدين؟  
فأجاب صبري جاد ببساطة:  
- لا أحد يهتمّ به!  
- لا أحد؟!  
- الأغلبية لا تهتمّ به!  
- لم؟  
- لم يكن موضع بحث، ربّما لأنه توجد به أشياء غير معقولة ومخالف ما ندرسه من العلم . . .  
- ولكنّي أعلم أنّ الدولة تهتمّ بتدريسه وتشرط النجاح فيه؟  
- ونحن نحفظه وننجح فيه.  
- أتعني أنّ تعليمه غير مثمر من ناحية العقيدة؟  
- أجل.  
- والبيت؟ . . . ألم تلقّنه في البيت؟ . . . هل والداك مؤمنان؟  
- نعم ولكنّها لا يصلّيان ولا يصومان ولا يتحدّثان في الدين!  
- ألا يوجد بين الطلبة إخوان مسلمون؟  
- كلاً . . . أو عدد لا وزن له . . .  
- ألا يوجد تلاميذ مؤمنون؟  
- في رأيي أنّهم قلّة . . .  
ثمّ مستدرّكًا:  
- بعد النكسة وجد نوع من الميل للدين، البعض يقولون إنّ هزيمتنا ترجع إلى إهمالنا لديننا . . .
- إذن يوجد ميل للإيمان؟  
- نعم يوجد . . .  
فقال الأستاذ عباس، باسمًا:  
- إنّي أطمع في مزيد من الدقّة.  
- أجبت بما أعرف، مستعيدًا ذكريات الثانوية والجامعة.  
- دعني أساعدك، لعلّك تقصد أن تقول إنّ الإيمان بصفة عامّة لا يلعب دورًا هامًا بينكم ولكنّ الوضع قد يتغيّر بعد النكسة؟  
- نعم . . .  
- ما مدى هذا التغيّر المحتمل في نظرك؟  
- لا أدري . . .  
وتفكّر الأستاذ عباس مليًا وأنا أتابعه - أتابعهما - بحواسّ مرهقة واهتمام لا مزيد عليه. وعاد الأستاذ يسأل:  
- ما هي القيم التي تقدّسونها؟  
فنظر إليه صبري جاد في حيرة وتمتم:  
- القيم؟  
وقلت من فوري مخاطبًا الأستاذ:  
- أرجو أن تتجنّب التجريدات ما أمكن . . .  
فعاد الأستاذ يسأل:  
- لمّ تتلقّون العلم في المدارس؟  
- لعلّه خير من أن نتصعلك في الشوارع!  
- فقط؟!  
- ولكي نحصل على وظيفة توفّر لنا الحياة السعيدة.  
- وما الحياة السعيدة؟  
- هي المسكن الصحيّ والمأكل اللذيذ والملبس الأنيق وغير ذلك من مسرّات الحياة . . .  
فتدخّلت في الحديث بلا تدبير متسائلًا:  
- ألا تحبّون العلم؟ . . . ألا تسعون للتفوّق فيه؟  
- كلّنا نطمح إلى دراسة العلم إلّا من يقعه المجموع عن ذلك.  
- لماذا؟  
- الشهادات العلميّة هي التي توفّر الوظائف الممتازة . . .

- والتفوق في العلم والحلم بخلق إضافات فيه؟  
فتردد قليلاً ثم قال:  
- أعتقد أن المتفوقين يملكون بذلك...  
فسأله الأستاذ عباس:  
- ألا تقرأون الكتب في أوقات الفراغ؟  
- نفضل السينما والإذاعة والتلفزيون وقليلاً  
يقرأون...  
- وهل يقرأون التراث؟  
- لا أظن!  
- ألم تقرأ التراث بصفتك طالب آداب؟  
- لغته معقدة ومحصوله ضحل وهو مقطوع الصلة  
بزماننا!  
فتسللت نبرة حادة بعض الشيء إلى صوت الأستاذ  
وهو يسأل:  
- والوطن أما زلت محبونه؟  
- طبعاً.  
- وإسرائيل هل تودون محاربتها؟  
- نحن الذين سنحرر الوطن بدمائنا، الوطن الذي  
تسببتم في هزيمته...  
- نحن؟  
- نعم.  
- ليس جيلنا الذي يحكم...  
وأشرت إلى الأستاذ عباس إشارة خفية ليتجنب  
الحدة فثاب إلى الهدوء وجعل يبتسم في مودة، ثم  
سأله:  
- وماذا تفضلون الاشتراكية أم الرأسمالية؟  
فرفع صبري منكبيه وأجاب:  
- لا تهمننا الأسياء!  
- الأسياء؟  
- أجل، مللنا ذلك... يهمننا أن نتحقق لكل فرد  
حرّيته ونجاحه وسعادته...  
فقلت متدخللاً في الحديث مرّة أخرى:  
- هذا يعني أنك تفضل الاشتراكية!  
- لا أدري!  
- أنتفضل النظام الرأسمالي؟  
- لا أعتقد.
- أديك نظام جديد؟  
- كلاً... ولكننا مللنا ذلك...  
ورجع الأستاذ عباس فوزي يسأل:  
- وما موقفكم من الحب؟.. ألا زال للحب  
عندكم قيمة أم أصبح الجنس كل شيء؟  
- الجنس مسيطر، وقليلاً يحبون بل ويرغبون أن  
يمتد بهم الحب حتى الزواج!  
- وماذا عن الأكثرية؟  
- يمارسون المغامرات الجنسية...  
- مع من؟  
- التلميذات.. الطالبات.. الفتيات!  
- هل يقبلون الزواج من المغامرات؟  
- كثيرون يقبلون... والبعض يتبع تقاليد الجيل  
الماضي...  
- أعتقد أن الفتيات لا يتخلين عن حلم الزواج.  
- هذا هو عيبهنّ الأول.  
- وغير مستحيل أن تتزوج أنت نفسك يوماً ما.  
- غير مستحيل وإن يكن مرتبياً مضحكاً ومستقبلي  
عدماً.  
- ولكنّ ثمة ما يشدك إلى الحياة ولا شك؟  
- غريزة حبّ البقاء.  
- ربّما لم تخل حياتك من سرور؟  
- لقمة سائغة، فيلم جيّد، علاقة جنسيّة بريئة.  
- بريئة؟  
- أي ليست استدراباً لزواج.  
- أعتقد أنك خير من أبيك؟  
- كان أبي وفدياً يقّس سعد زغلول ومصطفى  
النحاس وأنا أعتبر ذلك مضحكاً.  
- لم؟  
- ثبت أنهم أصنام لا أكثر ولا أقل.  
- لا أجد عندك عقيدة بديلة؟  
- كان عندي، وتزلزل كل شيء عقب ٥ يونيو...  
- ماذا تقترح لتحسين الأحوال؟  
- العالم كلّه عدم وهباء.  
- ماذا تقترح لتحسين أحواله؟  
- القضاء على جميع المستوليين فيها!

المرايا ٣٣٣

- وماذا يحدث بعد ذلك؟  
 - لا يهم، ستتحسن الأحوال وحدها...  
 - لقد جئتني يا عزيزي لإجراء حديث عن التراث على حين أنك لا تؤمن به؟  
 - إني صحفني تحت التميرين!  
 - ولكن سلوكه لا يخلو من انتهازيّة؟  
 - وما العيب؟. أيّ وسيلة تنفع للوصول في هذا العالم المكتظّ فهي مشروعة!  
 - أشكرك جدًا.  
 - العفو...  
 وغادرنا عمارة الأستاذ وصدرني يجيش بانفعال عاصف.

أما أنت ففي الخامسة عشرة!  
 ومن عجب أنّ صورتها - رغم العاطفة التي ابتعثتها - اختفت تمامًا وراء سحب الماضي. بل تعذّرت على الوضوح حتى وأنا فريسة لسحرها. لا أعرف لون شعرها ولا تسريحته ولا لون عينيها أو رسمها ولا طول قامتها أو درجة امتلائها. ذاب ذلك في سائل سحريّ. وكنت إذا تذكّرت - أو خيّل إليّ ذلك - فعن طريق غير مباشر وبإيجاء عضويّ كشذا الورد الذي يباغتك من وراء سور وأنت ماضٍ غارقًا في أفكارك. وكأنّ قلبي لم يكن يحركه شيء إلا إذا انتهى إليها بسبب خفيّ. ولذلك هُمت في أزمنة متأخرة نسبيًا بقسمات وملاحم وسهات ولقنات لنجوم توهمت أنّها تذكّرني بما غاب عنيّ منها. بل ما أحببت صفة في وجه إنسانيّ إلا وكانت هي وراءه حقيقة أم ومسا. وبسبب ذلك الحبّ الخاطف عانت حياتي العاطفيّة من أزومات متواصلة معقّدة كأنّها السحر الأسود. والعجيب أنّه كان حبًا بلا مواقع ولا مواقف ولا تاريخ يذكر. رأيته في الخطوط نوانٍ ليس إلاّ فقدت إرادتي وألقي بي في طور جديد من أطوار الخلق. وكنت قريب عهد بحبّ حنان مصطفى فأدركت خطي وأمنت بأنّي أحبّ لأول مرّة. وعرفت كيف يغيب الإنسان وهو حاضر ويصحو وهو نائم، كيف يفنى في الوحدة وسط الزحام ويصادق الألم، وينفذ إلى جذور النباتات وموجات الضوء. وجعلت أحوم حول سراي الكاتب وهو قصر مغلق النوافذ مسدل الستائر لا يُرى به أنسيّ سوى البوّاب والبستانيّ وبعض الخدم، وسمعت مرّة صوتًا ناعمًا ينادي البوّاب فاهتزّ قلبي وافترضت في الحال أنّه صوتها ثمّ آمنت بذلك. ورأيته للمرّة الثانية في مناسبة حزينة جدًا، في نافذة بيت أثريّ بشارعٍ محمّد عليّ احتشد فيه نفر من النساء لمشاهدة جناز سعد زغلول، ولم أنتبه إليها عقب مرور النعش فأرابت من خلال دموعي وجهها المشرق وهي تجفّف عينيها مائة عنقها وراء النعش المبارك. خفق قلبي خفقة مباغته ولكنني لم أنعم بالرؤية وفقدت النشوة في قلب كسير محزون، واجتاحني عواطف متناقضة كما اجتاحني ثيار الخلق المتلاطم الباكي. لم أرها بعد ذلك

## صفاء الكاتب

كان بيت الكاتب من أعرق البيوت في العباسيّة القديمة. وكان يقع في الحيّ الشرقيّ بمبناه الشامخ وحديقته المترامية ما بين محطتي ترام. وكثيرًا ما سرنا بحذاء سوره ونحن في طريقنا إلى الصحراء للعب الكرة فلم أزم منه إلاّ رموس الأشجار وخمائل الياسمين والستائر المسدلة. وذات يوم وكنت ماضيًا نحو الصحراء رأيت حنطورًا ينحدر من الطريق الشرقيّ نحو الشارع العموميّ، في صدره جلست عجوز تلوح من وجهها عينان ناعستان فوق حافة اليشمك، وإلى جانبها فتاة تتألّق بنور الشباب. وبمجرد أن وقعت عيناها على وجه الفتاة عانقت سرًا من أسرار الحياة المتفجّرة، تفتحت بها أبواب السماء فأغدقت عليّ فيضًا من بركات الحبّ. وقال شعراوي الفحّام وكان أكثرنا خبرة بالحيّ الشرقيّ:

- هي صفاء ابنة صاحب القصر.

وقال خليل زكي وكان يسطو على حدائق الحيّ الشرقيّ كلّما وجد غفلة ليخطف عنقود عنب أو ثمرة من المانجو:

- وهي في العشرين من عمرها.

وعند ذلك همس جمفر خليل في أذني وقد لحظ تغيري:

فقلت له :

- لقد تحلّلت حياتنا إلى سخريات ولكّني أكره أن  
أذكر تلك الأيام باستخفاف...  
- استخفافاً؟ كيف يستخفّ إنسان بأروع سني  
العمر؟

ومررت بقصر آل الكاتب في السّينيات فوجدته قد  
هُدم ورُفعت أنقاضه، مخلّفاً أرضاً فضاءً مُحضراً تمهيداً  
لإقامة أربع عمارات سكنية. ابتسمت وأنا أنظر إلى  
الأرض الفضاء، وعبرني إحساس بالأسى، فتذكّرت  
صفاء التي لم أرها منذ هبوطها في ثوب العرس، التي لم  
أدر عنها شيئاً، حيّة كانت أم ميتة، سعيدة أم شقيّة،  
وكيف غيرّها الكبر بعد بلوغ السّتين؟. وأيّاً كان  
خبرها، ورأي الآخرين فيها، ألم يكن من حقّها أن  
تعرف أنّها عُبدت في محراب كإله، وأنّها فُجرت في  
قلب حياة ما زالت تنبض بين الحين والحين بذكرها؟

## صقر المنوفي

كان طبيعياً أن يوصف عمّ صقر المنوفي بأنّه الساعي  
بإدارة السكرتارية ولكن جاء وقت كاد يُطلق على  
إدارتنا العتيقة بأنّها إدارة عمّ صقر. وكان أقرب إلى  
القصر والبدانة ولكّنه كان جَمّ النشاط، بل فاق نشاطه  
عادة المهام المطلوبة منه. وكان جاسوساً بالسليقة،  
ولحساب نفسه، وفي أوقات تقديم قهوة الصباح كان  
يتطوّع بالهمس مفشياً الأسرار، أسرار الوزارة  
والموظّفين. ولعلّه كان أوّل من بصرني بالأسباب  
الحقيقيّة لترقية شرارة النخال من عامل تليفون إلى  
سكرتير لسعادة وكيل الوزارة، ثمّ انهمرت أنبأه تبعاً  
عن عبّاس فوزي وعدلي المؤدّن وعبد الرحمن شعبان  
والآنسة عبدة سليمان والرجل الطيّب التعميس طنطاوي  
إسماعيل وغيرهم. قال لي يوماً الأستاذ عبّاس فوزي  
ونحن بصدد الحديث عن ارتفاع الأسعار وبؤس  
الموظّفين ذوي المرتبات الثابتة في أيام الحرب:

- لا أحد يأكل ما يشتبهه إلا عمّ صقرا

فأبدت الدهشة فقال:

- إنّه مغرم بالطعام الجيّد.

إلا ساعة هبطت أدراج السلامك في ثوب العرس  
لتستقلّ سيّارة إلى بيت العريس وكنت ضمن حشد  
وقف على الطوار المواجه للقصر للفرجة. وكانت مدّة  
ذلك التاريخ الذي مرّ بلا أحداث عامّاً إلا قليلاً،  
ولكنّه كان أعجب عام في حياتي.

وانكشف أمرني لأصدقائي جميعاً، أمّا المهزّجون  
فسخروا منّي وأطلقوا عليّ «مجنون صفاء»، وأمّا  
الآخرون فحدّروني من التهادي في عاطفة لا جدوى  
منها البتّة. وكنا صغاراً وكانت أفكارنا ساذجة مستعارة  
من الروايات وما عرفناه من تاريخ الأدب العربيّ،  
فقال لي سرور عبد الباقي:

- لا تستسلم وألا جُننت كمجنون ليلي...

وقال لي رضا حمادة:

- إنّ حبّك هذا يقطع بأنك أحببتها في تاريخ  
سحيق مضى، ربّما في عصر الفراغ كما يقول  
ريدريهجار.

وتمثّل ذلك الحبّ في صورة قوّة طاغية متسلّطة لا  
تقنع بأقلّ من التهام الروح والجسد. قذف بي في  
جحيم الألم، وصهرني، وخلق منّي معدناً جديداً توافّقاً  
إلى الوجود، ينجذب إلى كلّ شيء جميل وحقيقيّ فيه.  
وبقي الحبّ - بعد اختفاء خالقه - ما لا يقلّ عن عشرة  
أعوام مشتتلاً كجنون لا علاج له، ثمّ استكنّ على  
مدى العمر في أعماقي كقوّة خامدة، ربّما حرّكتها نغمة  
أو منظر أو ذكرى فتدبّ فيها حياة هادئة مؤقتة تقطع  
بأنّه لم يدركه الفناء بعد. وكلّما تذكّرت تلك الأيام  
أذهلني العجب، وتساءلت بدهشة عن سرّ الحياة التي  
عشتها، وهل كان أصابني مسّ من الجنون، وأسفت  
غاية الأسف أنّه لم يقدر حيّتي أن يخوض تجربته  
الواقعيّة، وأن تتلاقى في دوامته العنيفة السماء  
والأرض، وأن أمتحن قدراتي الحقيقيّة في معاناته  
ومواجهة أسراره على ضوء الواقع بكلّ خشونته  
وقسوته. وما أحكم رضا حمادة حين قال لي يوماً وقد  
بلغنا درجة من النضج والتجربة:

- صفاء ألقيت في حياتك كمثير... لم تكن إلا

«شفرة» تشير إلى شيء، تعين عليك أن تحمل رموزها  
للوصول إليه.



المرايا ٣٣٥

والعجيب أن تحسّن حاله الماليّة لم يغيّر مظهره ولا سلوكه العامّ في الحياة. بقي في وظيفته الحقيرة يقوم على خدمة موظّفين يُعتبر سيّدًا لهم من الناحية الاقتصادية. ولبث يسعى إلى الأفراح والمآتم للاستمتاع بالولائم المجانيّة؛ وظلّ يتشتم الأخبار ليفشي الأسرار عند تقديم القهوة، فإذا خلا إلى نفسه غلبه الحزن على ابنته المفقودة وابنه القليل. وأذكر أنّي كنت في مأتم جعفر خليل عندما جاء عدلي المؤدّن للتعزية، وجالسته بعض الوقت فقال لي:

- صقر المنوفي قبض عليه!

فدهشت وسألت عن السبب فقال:

- الرجل جُنّ ولا شكّ...

ثمّ قال:

- كان في مسكنه وحده فجاءت بنت الكوّاء ببدلته

فاعتدى عليها وهي قاصرا

وغاب عن ذاكرتي زمنًا طويلًا حتّى رأته مقبلًا على

مجلسي بمقهى الفيشاوي حوالي عام ١٩٦٠ بعد

خروجه من السجن بأشهر. وكلّما سألته عن حاله

أجاب باقتضاب:

- الحمد لله.

وعلمت أنّ زوجته توفّيت وهو في السجن وأنّه

يعيش وحيدًا.

- سافرت لزيارة ابني ولكيّ لم ارتح فرجعت بعد

أسبوع واحدًا

وجعلت أواسيه وأشجّعه حتّى قال:

- إني راضٍ بما حدث فهو جزء حقّ ولكن لم لا

يعامل الله سبحانه بالمثل أشخاصًا مثل شرارة النخال

أو عدلي المؤدّن!

## صَبْرِيَّةُ الْحَشْمَةِ

كانت تدير بدير بدرب طيّاب - حوالي ١٩٣٠ - بيتًا

وأربع فتيات جسان. وتأتّصلت بينها وبين سيّد شعير

صدّاقة متينة منذ ذلك العهد البعيد. قدّمتنا إليها فصرنا

من المقرّبين إلى المعلّمة وتمتّعنا بامتيازات غالية، وكنا

نشهد السهرات الخاصّة - التي تبدأ بعد وقت

فقلت له:

- الغرام شيء والقدرة شيء آخر.

فقال بسخريته المعهودة:

- كأنّه فلمّ مباحث، فما من فرح يُقام أو مأتم إلاّ

وعنده علّم به، وسرعان ما تجده بين العاملين في

الفرح أو المأتم. يتطوّع للخدمة ليشهد في النهاية وليمة

العشاء، كذلك تجده في ليالي الموالد بالجوامع الكبرى،

فما من ليلة تمرّ إلاّ وهو في وليمة، فأبيّ باشا يدانيه في

هذا الحظّ الغدائيّ منعدم النظر!؟

من ذلك جاء تألّفه الدائم بالصحة والعافية، وغزله

الرفيق باللحوم والفظائر والحلوى، أمّا بقيّة مظاهر

حياته فجرت في مستواها الطبيعيّ البائس كساع

مسكين، يقيم في حجرة أرضيّة بعطفة دعس بالحسينيّة

هو وزوجته وأبناؤه. ولكن متى رسم خطّة للإثراء؟.

إذ من المحقّق أنّه رسم تلك الخطّة وعمل على تنفيذها

بصبر ودأب، ربّما منذ عهد التحاقه بالخدمة في أواخر

عام ١٩٢٤.

انطلق في ذلك السبيل بادئًا من بيع قطع الحلّيّ

والنحاس ورثها عن أمّه فتجمّع لديه مبلغ من المال

راح يستثمره في إقراض الموظّفين بربح فاحش. وهو

نشاط غريب بالنسبة لرجل مسلم من أهل البلد

الفقراء ولكنّه أقدمّ عليه وتمادى فيه حتّى النهاية.

وعُرف بذلك في أوساط الموظّفين الفقراء وما أكثرهم

فأقبلوا عليه بنهم وأصبح بذلك مركزًا لحركة مصرفيّة

سرّيّة ونمت نقوده وتراكمت. وفي بحر ربع قرن من

الزمان استطاع أن يشتري البيت الذي يسكن حجرته

الأرضيّة بالف جنيه، ثمّ هدمه فأقام موضعه عبارة

صغيرة مكوّنة من دورين ودكّانين. وكان له ابنان

وبنت، أهمّهم إهمال الفقراء فعمل البكريّ فرأشًا في

وحدة صحّيّة بالريف وانقطع كليّة عن أسرته،

واشتغل الأوساط صبيّ قصاب، أمّا البنت فقد اختفت

وهي في سنّ المراهقة، قيل إنّها حُطفت أو تاهت أو

هربت، وما لبث ابنه الأوساط أن قُتل في مشاجرة

بالمديح. وحزن عمّ صقر حزنًا عميقًا، واعتقد أنّ ما

أصابه في بنته وابنه إنّما هو عقاب من الله على إثرائه

بالربا فكفّ عن الإقراض، وأدى فريضة الحجّ تائبًا.

- هي عندي خير من صاحبنا المتدين زهران  
حسونة!

فقلت:

- بل هي عندي خير من كثيرين من الوزراء  
والزعماء الذين يقومون بنفس الدور مع الإنجليز ولكن  
على حساب الوطن!

فقال جعفر خليل بأسى:

- رحم الله صديقنا خليل شعراوي الفحاح فلعلها  
المرأة الوحيدة التي عشقها في حياته القصيرة...

وعند نهاية الحرب كانت قد جمعت ثروة طائلة،  
وأثبتت أنها أعقل من كثيرين، وكانت قد بلغت  
الخامسة والخمسين من عمرها، فصفت أعمالها،  
وأودعت في البنك ألفها المؤلفة، وشيدت لنفسها فيلاً  
في المعادي. ولكن صاحبها الرومي قد توفي ولم يكن  
لها وريث ولا أهل، فعاشت عيشة هنية هادئة، ثم  
قررت تغيير حياتها جذرياً، فأذت فريضة الحج،  
وأهدقت الخير على أصدقائها القدامى، وتبرعت كثيراً  
للجمعيات الخيرية. وسمعت - عام ١٩٥٠ وهي في  
الستين - أنها تزوجت من شاب في الثلاثين، موظف  
بمصلحة المساحة فادركت أن فترة الهدوء قد انطوت  
وأن فترة من القلاقل قد بدأت. ومنذ ذلك التاريخ  
وحتى اليوم لم يبلغني عنها جديد، إذ إن زواجها أغلق  
بابها في وجه سيد شعير وبالتالي انقطعت أخبارها  
عني...

## طنطاوي إسماعيل

لعله الموظف الوحيد الذي لم أجد فيه شيئاً من  
«مضمون» الموظف المتعارف عليه. كان وقت دخولي  
الخدمة رئيساً للسكرتارية العامة، درجة خامسة، في  
الخمسين من عمره، وظل يشغلها حتى أحيل إلى  
المعاش عام ١٩٤٤. وكما أطلع على ملف خدمتي  
الجديد سألني:

- أكنت من تلاميذ الدكتور إبراهيم عقل؟

فأجبت باعتزاز:

- نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضاً.

التشطيب في الدرب - داخل البيت فسمع الغناء  
ونشاهد الرقص ونتمادي في السهر حتى مطلع الفجر.  
وكانت في الأربعين: لحيمة مهيبة، جذابة الملامح،  
ذات شخصية مسيطرة تليق بالمعلمات. وكان مجرد  
حضورها كأنه قانون طبيعي، يخضع له كل في دائرته  
الخاصة، لا تجرؤ على الاستهانة به جارية أو قواد أو  
زبون أو خادم. وأعجب بها جعفر خليل، وعشقها  
شعراوي الفحاح حتى اضطر سيد شعير إلى أن يقول  
له:

- المعلمة تدير ولا تعمل...

فسأله:

- أعني أن حياتها خالية من الرجال؟

- كلا، المعلمة تعشق ولكنها لا تعمل بالأجرة،

ولها رفيق رومي بياع نبيذا

وكما قامت الحرب العظمى الثانية كانت بين أوائل  
المعلمات اللاتي استجبن للتطورات الطارئة فاستأجرت  
شقة كبيرة في شارع شامبليون وخصصتها للدعارة  
السرية، ووسعت دائرة نشاطها ففتحت مشرباً للخمر  
بشارع الملكة نازلي، واستفادت أكبر استفادة من الترفيه  
عن جنود الإمبراطورية البريطانية. وكشفت تلك الفترة  
المتوترة عن مواهبها في الإدارة حتى قال لي سيد شعير:

- خفت عليها من التوسع أن يفلت الزمام من

يدها ولكنها أمهر من الجن الأحمر  
وكان يواظب على زيارتها ويحكي لنا عن مغامراتها  
أول فأول، فعرفنا كيف تاجرت في السوق السوداء  
فربحت أموالاً طائلة من الخمر والخردة. قال سيد  
شعير:

- إنها أقدر من وزير بالرغم من أنها أمية، لا يفوتها  
مليم من حسابات البيت والمشرب والتجارة، وتعرف  
العلاء بالاسم، ويا ويل من يحاول خداعها، وهي  
كريمة تجود بسخاء على العاملين معها من الموزعين  
والقوادين والفتيات، وكل شخص يحبها ويحترمها  
ويعمل لها ألف حساب.

فقلت لرضا حمادة:

- ليت حكومتنا تتبع مثالها في معاملة موظفيها!

فضحك رضا حمادة وقال:

المرايا ٣٣٧

والخير الحقيقي أن تولي من يصلح وأن تطرح في السجون الفاسدين، رحم الله زعماء الحزب الوطني، عرفوا الحياة تضحية وجهادًا لا سياسة ومهادنة! وأطلع يومًا على أسماء كبار الموظفين الذين نالوا رتبًا وأوسمة لمناسبة من المناسبات فقال:

- لولا إيماني بالله، لولا إيماني بأن حكمته فوق العقول، لجننت!

وهمس عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة في أذني: - ما زال يتصوّر أنه عاقل!

أجل. بالجنون كان يُرمى دائمًا، ولذلك حُضِرَ عن الكثير من تصرفاته. وقد عرفت ماضيه من عباس فوزي وعمّ صقر وغيرهما. عُيّن في الوزارة بدبلوم التجارة العليا وهو في العشرين من عمره. وفي ظرف خمس سنوات عمل مفتشًا بالحسابات. وكان ذا خلق نقيّ طاهر، يحمل الأمانة بإخلاص، ولا يجيد عن الحق، فأثار موجة من الرعب في قلوب الكتبة والمراجعين. كانوا يعملون من خلال نظام محكم تعاوني يقوم أساسه على الرشوة والهدية فانفجر الرجل في أوساطهم كالثقلبة فاتكًا بمصادر رزقهم الحقيقية. ولو كانوا يملكون الشجاعة الكافية لاغتالوه، ولكنهم فكروا في وسيلة تخلّصهم منه. ولعبوا بامضائه لعبة مكرة فوجد نفسه وهو لا يدري موضع اتهامه وتعذّر عليه تبرئة نفسه منه. وقُدّم إلى مجلس تأديب فقضى بفصله من عمله.

- تصوّر شخصًا أمينًا لدرجة الجنون يجد نفسه مفصولًا بتهمة خيانة الأمانة!

غادر الوزارة وهو يصرخ بأعلى صوته «أنا أمين... أنا شريف... أنا مظلوم... حسبي الله ونعم الوكيل». وعانى الألم والجوع والجنون خمس سنوات كاملة حتى انهارت أعصابه تمامًا، وحتى اضطرّ عمّه إلى نقله إلى مستشفى أمراض عصبية بحلوان، فقضى فيه عامًا ثم غادره بعد أن تمائل للشفاء، ولكنّه كان خسر شيئًا صميميًا لا يعرّض. ومرضى وكيل الحسابات يشعر بدنوّ الأجل، فاستدعى مدير إدارة التحقيقات واعترف له بحقيقة المؤامرة التي حيكت للإيقاع بطنطاوي إسمايل. وأعيد التحقيق بصفة سرّية ثم

فقال بصوت ذي رئة نحاسية:

- ماهر عبد الكريم رجل عظيم أما إبراهيم عقل فوغد كافر من ذبول المبشرين!

فقلت وأنا لا أجد حافزًا للدفاع عن الرجل:

- يجئني إليّ أنه اعتزل الفكر ولم يبق من أستاذيته إلا شبح... فقال بحدّة:

- لم يبق منه إلا مرتزق من المرتزقة!

وحضرتة - طنطاوي إسمايل - مرّات في مكتب المدير العام فراغني منه أنه لا يجني ظهرًا ولا يردّد ملقًا وأنه يحافظ على كرامته تمامًا، ثم يغادر المكان مخلّفًا وراءه أسوأ الأثرا. ولفت نظري أنه كان يصحح الخطابات التي تُعرض عليه للتوقيع من أخطائها اللغوية والنحوية لا المصلحية فقط. وكان يفتش على حجرات الإدارة متفقدًا النظام والعمل، فلا يتسامح مع متلخّئ أو مهجل أو متهم بسوء معاملة الجمهور. وبالرغم من ذلك كلّ لم أعثر على موظّف واحد يعترف له بفضائله. كانت تصرفاته توصف عادة بالحماقة أو بجنون العظمة. وأذكر أنه قال لي قبيل حلول عيد الهجرة:

- أنا أوّل من طالب باعتبار يوم الهجرة عطلة رسمية!

ووعدني بالاطّلاع على المقالة التي دعا بها إلى ذلك وقد فعل. وأذكر أيضًا أنه رُقي ترقية جديدة بعد أعوام تنفيذًا لقرار مجلس الوزراء الخاصّ بالمنسيين فهنّأته بذلك ولكنّه قال بصوته الجمهوري:

- لو أنصفوا لولّوا المنسيين مقاليد الحكم فهم في الواقع أشرف الموظفين!

وكان عمّ صقر الساعي موجودًا، وكان موضع عطف الرجل فقال له:

- لعلّ ذلك يدعو سعادتك إلى تغيير رأيك في الوفد؟

فقال بصراحتة:

- ليس لهذا بالإنصاف المنشود ولكنّه مداراة قلقه لشراً مستحکم، نوع من أنصاف الحلول، وذلكم هو شعار الوفد الحقيقي الخفي، الحقّ حقّ والباطل باطل،

ومن ذلك فلا سلطان لي على بنت أخي الأكبر إلا النصيحة...

ولعل آخر موقف انطبع في نفسي من طنطاوي إسماعيل كان غداة يوم ٤ فبراير ١٩٤٢، قال لي قبل أن يجلس إلى مكتبه:

- ما رأيك؟.. ها هو زعيمك يرجع إلى الوزارة فوق الدبّابات البريطانية...

وكنت أتهنّب مناقشته وبخاصة وهو ثائر، وجعل يتساءل وعينه ترقان:

- أسمعتم عن زعامة من هذا النوع من قبل؟  
ثم اجتاحت موجة من الغضب فجعل يصيح كالمسوس:

- الطوفان.. الطوفان.. الطوفان...

## طَهَّ عَنَّان

ظهر في حياتنا ونحن في السنة الرابعة الثانوية، كان أبوه مأمور قسم شرطة بأسسيوط ثم نقل إلى القاهرة مأمورًا لقسم الوايلي متخذًا من العباسية مقامًا لأسرته. وتعرّف طه عنان بأصدقائي جعفر خليل ورضا حمادة وسرور عبد الباقي من زملاء المدرسة الثانوية، ولكن علاقته توثقت بي وبرضا حمادة فقط لاشتراك ثلاثتنا في العقيدة الوفديّة والميول الثقافيّة. وقد اشترك في الإضراب الذي استشهد فيه زميلنا بدر الزيايدي، ومما يذكر أنّ أباه كان ضمن الفوة التي حاصرت المدرسة ثم اقتحمتها بعد ذلك بالقوة والعنف. وناقشنا موقف والده، وكان خجلاً منه ومتأكلاً وجعل يدافع عنه فيقول:

- أبي وطني، مثلنا تمامًا، ويؤمن بمصطفى النحاس كما آمن بسعد زغلول، ولكنّه يؤدي واجبه!  
فقال رضا حمادة:

- سمعنا عن ضباط مثله انضموا إلى الثوار في سنة ١٩١٩.

فقال طه عنان مدافعًا عن أبيه ما وسعه الدفاع:  
- كانت أيام ثورة ولا ثورة الآن...  
وكان يغلب على طبعه الجذّ فنفر من مزاح جعفر

تقرّر إعادة الرجل إلى الخدمة، مع إلحاقه بإدارة «غير ماليّة» مجتنبًا لأيّ أذى قد يلحق به أو بالآخرين. وقد عملت معه عشر سنوات فعرفته عن كثب، عرفت إيمانه بالله الذي لا حدّ له، عرفت نقاء خلقه الناصع، كما لمست فيه وطنيّة تبلغ درجة التعصّب الأعمى. وكان كثير الاطلاع على المراجع الدينيّة، ميّالًا للمحافظة لدرجة أن يعاف أيّ حديث من فكر أو سلوك فيعدّه انحرافًا وسقوطًا. جمعي وإياه ركن بجامع الحسين في الليلة السنويّة التي كان يجيئها الشيخ عليّ محمود، وكان يسأل من حوله:

- ترى أما زالت الفضائل فضائل أم أصبحت موضة قديمة؟  
وراح يحمل على الجبن والتملّق وفساد الذمم والانحلال فيقول:

- نحن في حاجة إلى طوفان جديد لتمضي السفينة بقلة الفضلاء ليعيدوا خلق العالم من جديد!

طالما تشوّقت إلى معرفة المزيد عنه، حياته الخاصّة، نشأته الأولى، علاقته بزوجه وأبنائه، تصرّفه حيال سائر مغريات الحياة، ثمّ فنعت بما تيسّر لي معرفته، فهو إنسان يتجلّى بالنقاء لكنّه يعيش في مستنقع مكتظّ بالجراثيم. غير أنّ عنفه في الحقّ يدفعه أحيانًا إلى حافة اللاإنسانيّة وهو لا يدري، فصراحته كثيرًا ما تتسم بالإيذاء في غير ما ضرورة، ممّا جرّ عليه شعورًا عامًّا بالنفور بل والكراهية، وكان عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة يشير إليه بقوله «ابن المجنونة»، كما كان الأستاذ عباس فوزي يقول عنه متهكّيًا:

- سيّدنا طنطاوي بن الخطّاب رضي الله عنه!  
ورغم ذلك كلّه فلم يستطع أن يصدّد موجة «العصر» عن أن تغزو عرينه، فذات يوم - وأنا موظّف جديد - رأيت فتاة مليحة جذّابة تجلس إلى جانب مكتبه قدّمني إليها ثمّ قدّمتها إليّ قائلاً:

- ثريًا رأفت كريمة شقيقي...  
ثمّ قال باحتجاج باسم:  
- طالبة بالمعهد العالي للتربية!  
ثمّ وهو يهزّ رأسه:  
- العلم نور، ولكنّي لا أوافق على المرأة العاملة،

## المرايا ٣٣٩

فسألته :

- وإن صادفتنا أشياء لا يفصل فيها العقل بحكم؟

فقال بحماس :

- لنبدأ بالعقل باعتباره الإنسان ولننظر أين يذهب بنا.

وواصلنا رحلتنا طوال العامين الأولين من حياتنا الجامعية. واعترضتنا أحداث لم نخطر لنا على بال، فقد ألقى إسمايل صدقي دستور ١٩٢٣ وهب الوفد لمحاربه بكل قواه الشعبية.

وكان نعمة يوم رهيب بلغ التوتر فيه مداه. احتلت مفارق الطرق بقوات الشرطة والجيش. ولم يتمكن الشعب من التجمع الذي يصلح أساساً لمظاهرة ضخمة، فعمد الناس من جميع الطبقات إلى التجمد في الحوارية والأزقة والشوارع الجانبية، ومنها يندفعون بقوة هاتفين ملقين بالطوب في جميع الجهات ثم يتفرقون بسرعة ليعيدوا الكرة والرصاص يطاردهم. اشتركنا في مظاهرات ذلك اليوم أنا وطه عنان ورضا حمادة. اشتركنا من أول اليوم في التجمعات المتفرقة والانقضاضات المباحثة والتفرقات السريعة على أنغام الرصاص المتطاير. وشاهدنا المئات وهم يسقطون كما شاهدنا الجنود وهم ينقضون عليهم كالنسور فيحملونهم بعنف غير إنساني ويلقون بهم في اللوريات ويطمسون آثار دمائهم فوق أديم الأرض بالرمل والأثربة. وقبيل المغرب خفت حدة القتال. وندر ظهور التجمعات، ولكن لم يخجل الجو من هتافات متقطعة متباعدة ومن طلقات ناربية قليلة ولكن مستمرة. وقرّرنا العودة إلى بيوتنا فسرنا معاً مخترقين شارع حسن الأكبر. سرنا متشابكي الأذرع من شدة الإعياء ونحن نتصبّب عرقاً، وقال طه عنان وهو يتوسّطنا:

- منذ أشهر والشعب يقاوم والضحايا يسقطون بلا حساب ولا مبالاة...

فقال رضا حمادة:

- إنّه سفاح متعطش للدماء!

فقال طه:

- على أيّ حال لإيجابية الشعب خير من المناقشات

خليل. وكنا نقرأ معاً بعض كتب التراث وكثيراً من مؤلفات كتاب العصر من قادة الفكر الجديد، كما كنا نناقش كل شيء بحرّية وحماس. وننتقل إلى مستقبل فكري واحد. وكان يؤمن بالكتب ويرجع إليها في كل ما يهّمه من شئون الحياة. ولما اطلع على قصة حبي لصفاء الكاتب دهش وقال:

- ولكنّ حالك غير طبيعية...

فقلت باستياء:

- ولكنّها واقع...

- أنا أحبّ أيضاً ابنة عمي ونفكر في إعلان

خطوبتنا!

وأتباعاً لاسلوبه في الرجوع إلى الكتب مضى بي إلى دار الكتب ورحنا نقرأ معاً عن كلمة «حب» في دائرة المعارف البريطانية، ثم قال:

- هذا هو الحب من جميع نواحيه الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية، ومنه ترى أنّ ما بك ليس حباً ولكنّه جنون...

فتمتعت بحنق:

- جنون...

فابتسم قائلاً:

- لا تغضب، ربّما احتجنا لقراءات أخرى!

ولكنّا لم نواصل القراءة عن الحب، وقرأنا كثيراً - وخاصة في العطلّة الصيفيّة - عن حقائق جديدة ومتنوعة، وكلّ شيء كان جديداً. وتعرضنا لأزمات نفسية وعقلية وحشية. وزلزل قلبانا زلزالاً.

واقترح عليّ اقتراحاً عجبياً ونحن جالسان في مقهى الفيشاوي قال:

- علينا أن نبدأ من العدم!

- من العدم؟

فقال بثقة لا تتفق مع انبيارنا:

- لا سبيل إلى مواجهة هذا العذاب إلا بأن نبدأ

من الصفر...

ورمقته بنظرة متسائلة بالرغم من أنّي أدركت ما يعنيه فقال:

- من الصفر، ثم نستعيد قصة الحضارة من جديد

معتمدين على نور العقل وحده...

فقط بالرغم من شهرته وبلوغه الخامسة والثلاثين من العمر، ثم تبين لي أن زملاءه يعتبرونه معتصباً للدرجة باسم الخزعلات التي يؤلفها. والموظف القح لا يحترم عادة إلا الموظف «الحقيقي» الخبير بالإدارة واللوائح، أما تأليف الكتب فيعدّ عندهم نوعاً من العريضة التي لا تليق بالمحترمين من الرجال. ويحكون حكاية وثبتت إلى الدرجة السادسة فيقولون إنه كان كاتباً بالأرشيف كما ينبغي له، فحتى الابتدائية لم يحصل عليها، ولكنه دأب - كلنا تولّى الوزارة وزير جديد - أن يحمل إليه مجموعة من مؤلفاته مصحوبة بإهداء شعري، وكان الوزراء يتقبلون الهدية شاكرين ومن ثم يرجع إلى الأرشيف ويسدل الستار على الدراما المتكررة، حتى تولّى الوزارة رجل يحبّ الأدب فأعجب به ورقاه إلى الدرجة السابعة، ثم - بعد عامين - إلى السادسة مع نقله وكيلاً للسكرتارية، هكذا فرض الرجل عليهم. وكان الأستاذ عباس فوزي على علم بما يقال، وكان يبادلهم احتقاراً باحتقار، وكثيراً ما قامت بينه وبينهم معارك كلامية حتى يفصل بينهم أهل الخير.

وكان يعتبر الموظف حشرة من الحشرات السامة، وكان يعرف الإنسان فيقول «الإنسان موظف ناطقاً». غير أن رجلاً فاضلاً مثل طنطاوي إسماعيل قال لي مرّة:

- احذر ذلك الرجل، إنه ذو علم ولكنه بلا خلق. المسألة أنه كان مثقلاً بالعيال والفقر وكان يكافح بكلّ سبيل لإسعاد نفسه وأسرته. ولم أعرف رجلاً مثله ينضح بالمرارة، وكان يترجم مرارته إلى سخريات لاذعة لا ترحم كبيراً ولا صغيراً، موظفاً أو مفكراً أو أديباً. سخر من أخلاق الموظفين رغم تشييعه بها حتى قمة رأسه، ويهون من شأن الناجحين والمفكرين رغم قصوره عن بلوغ ما حققوه حتى في ميدانه، ويحتفظ دائماً بمذخر لا ينفد من المعلومات التي تشكك في مواهبهم أو تزري بسلوكهم الشخصي. أما قيمته الحقيقية فكانت مركزة في تراث اللغة، ولا أغالي إذا قلت إنه كان يحفظه كلّ شعراً ونثراً عن ظهر قلب. قال لي يوماً:

- شدّ ما يهركم الأدب الغربي حتى تبطّونه كلّ

الباردة التي نسمعها في صالون أستاذنا الدكتور ماهر عبد الكريم...

وثقل بين أيدينا حتى سألته:

- هل غلبك التعب؟

ولكنه ثقل أكثر دون أن يجيب فالتفتنا نحوه فرأينا

فاه ينفث دماً غزيراً. صاح حمادة:

- أصيب برصاصة...

لم تكن الطلقات قد سكنت. ورأينا لافتة طبيب

أسنان فحملناه إليها ونحن نرتعش من الاضطراب.

وكانت العبادة خالية ولكن التمرجي أنامه على كنية

وهرع إلى التليفون لطلب الإسعاف.

ولفظ طه أنفاسه الأخيرة بين أيدينا قبل أن يصل

رجال الإسعاف.

## عبّاس فوزي

جمعت بيننا مودة صميمة منذ أول يوم دخلت فيه الخدمة. وكان يجمع مكاتبنا ركن واحد بإدارة السكرتارية العامة، أنا وعبّاس فوزي وكييل السكرتارية وعبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة. ولما قدّمه رئيسنا طنطاوي إسماعيل قائلاً:

- الأستاذ عباس فوزي وكييل السكرتارية.

نظرت إليه باهتمام وسألته:

- حضرتك الكاتب المعروف؟

فأجاب بالإيجاب فشددت على يده بحماس،

والموظفون يرمقوننا بفتور وقرف. وقلت له:

- طالما انتفعنا بكتبك عن التراث.

فقال:

- ولكنّ الجامعة لا تعترف إلا بالشهادات...

- ولكنّ نمة درجة من العلم تتخطى أيّ شهادة!

فقال بحنق:

- أستاذك إبراهيم عقل لا يؤمن بذلك...

على أيّ حال اعتبرته جوهرة في عالمي الجديد،

زاملته في العمل، والتقيت به في صالون الدكتور ماهر

عبد الكريم وسالم جبر ثمّ في صالون جاد أبو العلا في

زمان متأخر. وعجبت كيف أنه في الدرجة السادسة

غرام ابن لها من زوج آخر  
- أما هذا فلعله الشاعر المعاصر الوحيد الذي فاق

في لواطه الشاعر الراحل الكبير فلان!  
- هذا الكاتب ذو قلب كبير حقاً. لقد أحب  
جميع الأحزاب، ولا يحلو له حبّ حزب إلا وهو في  
الحكم!

وزاره مرة إنجليزيّ عجوز، لبث في مصر بعد  
إحالاته على المعاش، وكان يتقن العربية إتقانه  
للإنجليزية، وكما ذهب الرجل قال:

- إني معجب بالأخلاق الإنجليزية، فثمة فرق  
هائل بين لوطي إنجليزيّ ولوطي مصريّ: اللوطي  
الإنجليزيّ يحمل لواطه معه إلى أقصى الأرض فلا  
يمنعه ذلك من خدمة الإمبراطورية حتى الموت، أما  
اللوطي المصريّ فلا يعرف لنفسه مبدأ أو عقيدة!

وكما لم يرحم أحدًا فلم يرحمه أحد. كان يزعم أنّ  
والده كان مهندسًا فقالوا إنه كان تربيًا، وإنّ أمه  
كانت غسّالة، ورموه كذلك بالشذوذ الجنسيّ.

لم يرحم أحدًا إلا الوزير الذي عطف عليه أو الذي  
- على حدّ تعبيره - اكتشفه، فكان يقول عنه:  
- كان رجلًا أديبًا وشهيمًا ومنصفًا رغم أنّه كان

وزيرًا!

ولكنّه كان يكبح جماح عدوانه إزاء أصحاب  
النفوذ، من هم في الوزارة ومن هم خارجها، فلا  
يتدخل في مناقشة حزبية، أو يتعرّض بكلمة لرجل من  
رجال السراي ولو كان طاهيًا، وفي أثناء الحرب تظاهر  
بأنّه من أنصار الحلفاء، فلمّا كانت موقعة دنكرك وظنّ  
كثيرون أنّ الحرب موشكة على النهاية بانتصار الألمان  
سمعتهم يترنّم بقول بشار:

بعثنا لهم موت الفجاءة إننا

بنو الموت خفّاق علينا سبائبه

فراحوا فريق في الإسار ومثله

قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه

وكما دارت الدائرة على الألمان في موقعة العلمين

استشهدت بدوري بشعر بشار فادرك مكري ومن فوره

قال:

- لا رحم الله بشارًا، كان نازيًا لوطيًا!

شيء، أما أدبكم العربيّ فلا تعرفون منه شيئًا، إني  
أحدّك، اذكر لي ما شئت من مختار أشعارك الغربية  
وسأعطيك ما يقابلها من تراثنا.

وجعلت أردّد له ما حضرتني من معاني الشعر والنثر  
فكان يعطيني المقابل العربيّ بما يقارب الإعجاز. وكان  
يلاحقنا - إذا تكلمنا - بتصحيح نطق الكلمات، وكان  
يقول:

- لا يجوز أن تُطبع كلمتا بدون تشكيل...

وأذكر أنّه مرض يومًا بالكلى فذهبت مصطحبًا  
الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم لنعوده، فوجدناه  
راقدًا ملفوفًا ببطانية لا يبدو منها إلا رأسه. فجلسنا  
قرب فراشه وسألته:

- كيف حال «الكلى» يا أستاذ.

ونظقتها مكسورة الكاف كالمالوف فما كان منه إلا  
أن صحّح النطق قائلاً بصوت لا يكاد يُسمع من  
الضعف:  
- الكلى.

رافعًا الكاف. وعدنا والمترجم يقول لي:

- إذا مات هذا الرجل فسوف يصحّح النطق  
للملاك الذي سيحاسبه!

وتركز اهتمامه في تراث العربية فلم نعرف له هواية  
أخرى، فهو لا يتذوّق أيّ فنّ آخر حتى الغناء، ولا  
يكاد يعرف شيئًا ذا بال من الثقافة الحديثة بوجه عام، ولا  
يهتمّ بالسياسة، ولا يفرّق بين حزب وآخر، ولا  
يحترم إلا الوزير القائم بالوزارة، ولا يؤمن بقيمة من  
القيم ولا دين من الأديان، ولم يحبّ بإخلاص إلا نفسه  
وأسرته واللغة العربية. وكان مكتبه بالوزارة ملتقى  
لكثيرين من الشعراء والكتّاب والصحفيين والزجالين  
من مختلف الأجيال، ولعلّ كثيرين منهم كانوا  
يستعينون به في مراجعة نصوصهم من الناحية اللغوية  
والنحوية نظير مبالغ بسيطة. وكان دائمًا يحسن الترحيب  
بهم فيخندق عليهم أعذب ألحان المديح حتى إذا ذهبوا  
انحال عليهم بالحجارة!

- أرايتم ذلك الرجل؟... إنه لا يتملّق وهو في

المدينة!

- مسكين ذلك الزجال... طلق زوجته لوقوعه في

الأنبياء والرسول.

ومضى أبناؤه يتخرجون في الجامعة ويتوظفون، فقرّر في عام ١٩٥٠ القيام بأول إجازة صيفية في حياته. أجل، لم يكن يطلب إجازة أبداً، ولبث يعمل عامّاً بعد عام بصفة متواصلة حتى سألته:

- لم لا تقوم في إجازة لتنعم بقدر من الراحة؟

فضحك وقال:

- يا لك من طيب القلب، أنت لا تدري شيئاً عمّن يطمعون في وظيفتي، إنهم يلقونني بالأحضان على حين يوارون خناجرهم وراء ظهورهم، فإذا غبت شهراً سعوا سعيهم ودسّوا دسائسهم ليستولوا على الوظيفة، إننا نعيش في غابة من الوحوش ولكنهم أحطّ من الوحوش وأقدر...

ولم أفهم منطقته وعجبت له. على أيّ حال وثق عام ١٩٥٠ بنفسه واطمأنّ إلى دخله من كُتبه فقرّر أن يبرّ نفسه بإجازة، بل سافر بحرمه وكرميته إلى الإسكندرية. كان يرى الإسكندرية لأول مرة في حياته، ولكنّه وجد نفسه كالثالث الشريد إذ لم يتعوّد أبداً معاملة الفراغ. كان يومه مستغرقاً دائماً بالعمل في الوزارة، في البيت، في صالونات الأدب، ولكنّه لم يعرف مقهى أو سينما أو مسرحاً فضلاً عن الإسكندرية. لذلك ضاق بالمصيف، وفزعت حرمه من الزحام، فقرّرا العودة بعد أسبوع واحد، وبالرغم من توسّلات ابنتها الحازة. ولما قامت ثورة يوليو لم تكذب تؤثر فيه شيئاً، فلا خزن على العالم المويّ ولا سرّ للعالم الصاعد، وضاعف نشاطه في التأليف الدينيّ حتى حاز ثروة كبيرة بكلّ معنى الكلمة. وأحيل إلى المعاش عام ١٩٥٩ فتفرّغ لعمله أكثر، وشيّد عمارة في عابدين أقام لنفسه فوق سطحها فيلاً، ولكنّه ما زال حتى اليوم متمرداً ساخراً، وكلّما زرته أتخفني بالجديد من سخرياته وشكاياته. قال:

- تصوّر أنني لم أنتخب حتى الآن في المجمع اللغويّ!.. كأنّ أعضاءه الخواجات أفقه في اللغة مني، والمجلس الأعلى للآداب لا يوجد عبّاس فوزي ضمن أعضائه!.. هل حُتمّ ألا يدخله إلاّ العوامّ!؟ ولما لاحظ همّي وغمّي في الأيام التي أعقبت هزيمة

وغداة ٤ فبراير ١٩٤٢ ثار أذيال الأحزاب من الموظفين فاتّمموا الوفد بالحيانة، أمّا الوفديون فقد فرحوا وطربوا وراح عمّ صقر الساعي يرقص في الإدارة، فخاف عبّاس فوزي أن يفسّر صمته بأنه موقف غير وديّ من الوفد، فانتهاز فرصة غضب طنطاوي إسماعيل وهتافه «الطوفان... الطوفان... الطوفان...» وقال برزانة:

- قولوا فيما حدث ليلة أمس ما شتتم ولكن من الإنصاف أن نعترف لمصطفى النحاس بأنه أنقذ الوطن في هذه المرحلة الحرجة من حياة الوطن!

ومن حسن حظّه أن كان الوزير الوفديّ مغرمّاً بالأدب فرقاه إلى الدرجة الخامسة وعيّنه رئيساً للسكرتارية عقب إحالة طنطاوي إسماعيل إلى المعاش. على أنّ كتبه لم تلق من الرواج ما كان يطمح إليه لمنافسة الأساتذة الجامعيين له في ميدانه وتفوّقه عليهم بمنهجهم العلميّ الحديث. وزاد من شجاءه أنّ أحد تلاميذه استغلّ معرفته بالتراث في تأليف كتب دينية عن النبيّ والقرآن فربح من ذلك أموالاً خيالية فكاد الرجل أن يجنّ. وراح يقول:

- على أيّامنا كان الإلحاد هو الموضة فولينا وجهة أخرى!

ثمّ هزّ رأسه في أسى وتساءل:

- كيف فاتني ذلك الباب الذهبيّ!؟

ثمّ سألني حانقاً:

- أتعلم ما هي الثروة الحقيقية في بلاد العرب؟

ثمّ أجاب:

- ليست البترول ولكنّها السيرة النبوية والقرآن.

فقال له الأستاذ عبد الرحمن شعبان المترجم:

- ما رأيك في أن نترجم معاً بعض الكتب الغربية

التي أنصفت الرسول؟

فرحب بالفكرة، ونفّذها، بالرغم من إلحادهما الكامل، فدرّت عليهما ربخاً يُعتبر أول ربح ذي وزن ربحه في حياته. وانطلق بعد ذلك يكتب سير الأنبياء، فتحسّنت أحواله وواجه بثقة ارتفاع الأسعار الذي أعقب الحرب، حتى قال لي يوماً:

- ليت الله أرسل أضعاف أضعاف من أرسل من



المرايا ٣٤٣

المجهول، قال:

- إنه يسكن معنا في حيّ السيّدة، وكان أبوه سائق ترام، وهو يعيش اليوم مع أمّه وشقيقته... .  
فقلت:  
- إنّ مظهره المهيب الرزين يقطع بأنّه من سلالة حكام!

فضحك عجلان ثابت وقال:

- توظّف بالابتدائية ثمّ درس وهو موظّف حتى بلغ ما بلغه من العلم... .  
ثمّ همس:

- ويبدو أنّ شقيقته بنت لعوب عفرينة ولذلك فاتها سنّ الزواج ولم تتزوّج!

ولم يكن مخلو من جانب مزاح ففي أحد احتفالات آخر السنة بالكليّة تطوّع لتقليد بعض الأساتذة، ونجح في تقليد الدكتور إبراهيم عقل نجاحًا مثيرًا، فما كاد يتكلّم عن المثل العليا حتى دوت القاعة بالتصفيق الشديد. ومع ذلك كانت علاقته بالدكتور إبراهيم عقل وثيقة، ولما ولي الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقرّبه من السراي اعتمد في إدارته على عدلي المؤذن، وهو الذي قدّمه إلى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير إلى وزارته مفسحًا لطموحه مجالًا جديدًا أحفل بالفرص من إدارة الجامعة. هكذا وفد إلى وزارتنا كرجل خطير من رجال الوزير، وزرته مهنتًا ومستبشرًا بقدمه خيرًا، ولكّني وجدت فيه شخصًا جديدًا، شخصًا إداريًا خطيرًا مقطوع الصلة تقريبًا بالرجل الذي كان يتلمّس طريقه بمشقة بين مسالك الفلسفة. وتجلّت مواهبه الكامنة في خدمة الوزير والوزارة، وكان - والحقّ يقال - حادّ الذكاء ذا مقدرة إداريّة فذّة، وكان بارد الأعصاب لدرجة لا تصدّق ولم تُعهد عادة بين المصريّين، ومنذ أوّل يوم شعر شرارة النحال بخطورته وعمل له ألف حساب وحساب. وخيّل إلى الأستاذ عبّاس فوزي أنّه طرأ على الوزارة موظّف خطير مثقّف لأوّل مرّة، وأنه يحسن به أن يهدي إليه مؤلّفاته، وفعل، وقال له وهو يهديها إليه وبحضورني إذ كنت أنا الذي قمت بالتعارف بينهما:  
- ليس من عادتي أن أهدي كتيبي إلى أحد، ولكنّ

يؤنيه قال باسمًا:

- شابّ شعرك ولم تتعلّم الحكمة بعد!  
ثمّ تساءل بسخرية:  
- هل ثمة فارق حقًا بين أن يحكمك الإنجليز أو اليهود أو المصريّون؟!

## عَدلي المؤذّن

عندما التحقت بالجامعة كان موظّفًا بها. وكنت التقي به كثيرًا في مكتبة الجامعة. كما كان يحضر معنا محاضرات مسيو كوريه في الفلسفة تحصيلًا لبعض فوائد رآها ضروريّة في تحضير رسالة الماجستير. وكنا ندعوه «الكاتب المصري» للشبهه العجيب الذي بينه وبين وجه التمثال المعروف بالكاتب، غير أنّه كان طويلًا عريض الكتفين ذا وجه أسمر غامق تتحرّك فيه حركة متحدّية برّاقة عينا صقر يشعان ذكاء ودهاء، التقينا مرّة في حديقة الأورمان ونحن سائران إلى الكليّة فتصافحنا وأخذنا في الحديث. قال:

- سأقدّم رسالة الماجستير في أكتوبر القادم ولكّني أفكر منذ الآن في الخطوة التالية... .  
فسألته:

- الدكتوراه؟

- كلاً، هل لك فكرة عمّا يمكن أن يروج من

الكتب الفلسفيّة؟

- لا أعتقد أنّ الكتب الفلسفيّة توضع للرواج... .

- ولكن إذا أصدرنا سلسلة من الكتب عن ضحايا

الفكر الحرّ في الفلسفة والتصوّف ألاّ تسهم بذلك في

الدفاع عن الحرّيّة المغتالة في هذا العهد؟

فقلت بحماس:

- فكرة بديعة... .

- وناجحة، أليس كذلك؟

- بكلّ تأكيد... .

ولكنّه حصل على الماجستير ولم ينفّد فكرته، ولم

ينشر من الكتب إلاّ تحقيقاتًا لتهافت الفلاسفة وتحقيقاتًا

آخر لتهافت التهافت. وكان زميلي في الكليّة عجلان

ثابت هو الذي أطلعني على جانب من ماضيه

بنقاط ضعفه كأصله وسيرة أخته، ومنهم من فسر عزوبيته بشلوذ جنسي يخفيه بصرامته وعنجهيته، ولذلك فإن الموظف الوحيد الذي ساعده كان شاباً جميلاً منحللاً. وطالما ساءلت نفسي حائرًا كيف أمكنه المحافظة على كرامته ووظيفته بالرغم من تنابح الوزراء والأحزاب عليه؟ وبالبحث والتحري، ولعرفتي الوثيقة به، علمت أنه كان يبسط حمايته - وقت إقبال الدنيا عليه - على عدد محدود من موظفي الأحزاب المختلفة، حتى إذا أقبلت دنيا الأحزاب على أحدهم ردّ الجميل إليه فزكاه عند وزيره، بذلك احتفظ بمكانته في جميع العهود معللاً فوزه بكفاءته الشخصية وحدها، وظلّ يترقى من درجة إلى درجة حتى عُيّن مديرًا عامًا قبل ثورة يوليو. ورغم صلتنا القديمة وزمالتنا العلمية لم يتورّع عن التضحية بي في أوّل فرصة سنحت. كان ذلك عندما رشحتني لجنة شؤون الموظفين لدرجة خالية بعد مقارنات طويلة بيني وبين منافسي الذي كان كاتبًا بالسجلات. ورفعت اللجنة قرارها فوقعه الوزير وغادرت الوزارة مترقبًا متلقياً التهاني. ولما رجعت إلى الوزارة صباحًا فوجئت بإلغاء القرار وترقية المنافس بدلًا مني. كدت أفقد عقلي، وبالبحث علمت أنّ موظفًا كبيرًا بديوان جلالة الملك اتّصل مساء أمس بالاستاذ عدلي المؤذن موصيًا بمنافسي فما كان منه إلا أن سارع إلى مقابلة الوزير - والعهد كان ملكيًا - وأخبره بالتوصية، وفي الحال تمزّق قرار ترقيتي وتمحور قرار جديد بالترقية الجديدة. وذهبت إلى عدلي المؤذن منفعلاً وناقشته فيما سمعت من أنباء ولكنّه ظلّ طيلة الوقت صامتًا باردًا حتى تعبت وبخت، ثمّ قال لي بهدوء:

- أجدوا بيان الميزانية الجديدة للنشر في الصحف! وعرفت أمورًا أكثر من وكيل المستخدمين الذي كان له صديقًا كما كان لي عدوًا، قال لي:

- ما حصل يعتبر مخالفة صريحة للقانون، فالقرار الوزاري لا يجوز تغييره إلا بقرار وزاريّ مثله، وقد اطّلمت بنفسني على قرار ترقيتك فمتى صدر قرار آخر بإلغاء الترقية؟

فسألته:

الكتب لا تؤلّف إلا لتهدى إلى أمثالك!

فقال عدلي المؤذن ببروده النادر:

- اعترف لك بأنّي اطّلمت عليها...

فشاع الفرح في وجه عباس فواصل الآخر قائلاً:

- واعترف لك بأنّي وجدتها سطحية لم تكفد تضيف

إلى الأصل إلا قليلاً...

فاصفرّ وجه عباس فوزي غير أنه قال متظاهرًا

بالمرح:

- لا تحكم بعقلك يا أستاذ، نحن نكتب للبسطاء

لنعلمهم، أما الفلاسفة فلا سبيل لنا إليهم...

وعدنا إلى الإدارة والرجل يقول لي في الممشى:

- لا تخبر بما سمعت أحدًا من الرعاع...

فقلت له برثاء خفي:

- طبعًا...

فقال مستردًا طبعه الساخر:

- بدأت الفلسفة بابن رشد وانتهت بابن كلب!

وفي مدّة وجيزة أحاط عدلي المؤذن بشؤون الوزارة

والموظفين، وكان يشغل وظيفة رئيس المكتب

الاستشاري، فاتّصل بحكم عمله بجميع فروع

الوزارة. وأثبت في العمل طاقة خارقة، واستحقّق

بعمله الثقة كلّ الثقة دون انزلاق إلى سراديب

الحزبية، مع الاحتفاظ لشخصيته بالاحترام، ومع عدم

الحيد إلى ما يمسّ الكرامة إلا عند الضرورة القصوى

رفع الوصولية إلى أرفع مراتبها. وكان في أعماقه ميالًا

للوعد وقيمة الشعبية والديموقراطية والاستقلالية، ولكنّه

كبته في الأعماق، وتغلّب عليها بقوّة أعصابه الباردة.

ولم يُعرف عنه أنّه صنع خيرًا في حياته، ولم يتورّع عن

إيذاء شخص طالما وسعه ذلك، وكان بلا شكّ يجيد

سعادة خاصّة في الشرّ والتحدّي والإيقاع بالخصوم بل

وبالأصدقاء، ولم يكن يهّمه أن يكون محبوبًا، وخيّل ليّ

كثيرًا أنّه يعمل بشغف على أن يكون موضع النعمة

والبغض والحسد. وهو يختلف في ذلك عن شرارة

النحل الذي أثر بعض الأذنان بالعطف، والذي

حرص دائمًا على معسول الكلام حتى وإن دسّ فيه

السّم، والذي سعى إلى نيل الثقة ولو بالكذب

والنفاق. لذلك كره الموظفون عدلي كإبليس، وتهامسوا

المرايا ٣٤٥

- لقد سقطت الوزارة في أيدي جماعة من الغلمان! أو يقول:

- ما قيمة أن تعرف القوانين والأصول الإدارية؟. يمكن أن تفعل الآن أي شيء كما تشاء وكيفما تشاء باسم الثورة!

وشعرت لأول مرة في حياتي بأن موجة من العدالة تحتاج العفونة المتصلة بلا هوادة فتمنيت أن تواصل سيرها بلا تردد ولا اعوجاج وفي نقاء وطهر إلى الأبد. وحاول الرجل التسلّل إلى القيادات الجديدة ولكنه لم يفلح. وما لبث أن أصيب بسرطان الدم فاعتكف في بيته فترة ثم وافاه الأجل حوالي عام ١٩٥٥. ولا أنسى ساعة انتشار خبر وفاته في الوزارة، فقد خرج الموظفون على تقاليدنا المرعية، وسمعت العشرات وهم يقولون بأصوات مرتفعة شامته:

- الله يمجحه!

- في ألف داهية!

وكانت جنازته أفقر جنازة شهدتها، شيعها عشرة أنصار، قريب واحد وتسعة من زملائه القدامى بالجامعة، وحضرها رجل ذو شأن هو الدكتور إبراهيم عقل في عهد دروشته التي أدركته بعد وفاة ابنه وقبيل وفاته. وعقب وفاة عدلي المؤذن بيوم واحد انتحرت شقيقته العانس.

## عبد الرحمن شعبان

شخصية لا تُنسى. عندما جلست إلى مكثبي لأول مرة في إدارة السكرتارية لفت نظري بشدة كهربية. عملاق في طول العنق وضخامة زيور باشا، أنيق الملبس فخم المنظر، تحاله وزيراً رجعيًا أو مدير بنك. - حضرته أستاذنا الكبير عبد الرحمن شعبان مترجم الوزارة.

ليس هذا فحسب ولكنني عرفت أيضًا مع الأيام أنّ مرتبه عشرون جنيهاً لا غيرا. بدا لي أول يوم منظوياً متجهماً كحصن فقذرت المتاعب في زمالته التي فرضتها الأقدار عليّ، ولكنه كان يفتح قلبه بيسر وبسرعة، وسرعان ما تنفجر قهقهاته كالقنابل ويحتقن وجهه

- ألا تستطيع أن تثير المسألة رسمياً؟

فقال ضاحكاً:

- هيهات أن يستطيع ذلك إلا السفير البريطاني نفسه!

فسألته بدهشة:

- ولكن ما علاقة الموظف الآخر وهو على قدّ حاله مثلي تمامًا برجل السراي الخطير؟

فقال ضاحكاً:

- صلّ وسلّم على سيّدنا لوط!

ومنذ ذلك الموقف فترت علاقتي به حتى كادت تقتصر على العمل الرسمي. قبل ذلك كنّا نلتقي صباحاً في ميدان سليمان باشا، نسير كزملاء رغم فارق الدرجة، فنناول فطورنا في الأميركين، ثمّ نمضي في طريق الوزارة معلّنين على الأحداث والمآزة والأشياء، ويبدو في تلك الفترة لطيفاً ودوداً ضاحكاً محباً للمزاح حتى ليقصّ عليّ آخر ما سمع من النكات السياسيّة عن الملك وحاشيته وأسرته، أو يدعوني إلى زيارته في مسكنه الجديد بالمعادي الذي انتقل إليه بعد صعوده السريع، ثمّ قد يستدعيني إلى مكتبه بعد ذلك بربع ساعة فيطالعني بوجه جديد، وجه صارم بارد مجرّد، يأمر ويكلّف وينذر بلا رحمة ولا ذوق! وأغادره وأنا أضرب كفاً على كفّ، ومرة فضفضت نفسي فبحث بما يكربني للأستاذ عباس فوزي فقال لي:

- عنده انقسام شخصيّة ابن القديمة، نحن موعودون في هذه الوزارة بكافة أنواع الشلوذ.

ولما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تهيّأت له فرصة للتخلّص من شرارة النخال أكبر منافس له على وكالة الوزارة. وأشهد أنّه كان وراء بعض العرائض التي قدّم بها شرارة إلى لجنة التطهير، ولكنّ الرجل نجح بأعجوبة ورقيّ وكيلاً للوزارة فتلقّى عدلي المؤذن أكبر ضربة وُجّهت إليه في حياته. وسرعان ما وجد نفسه غريباً بين موظّفين جدد لم يعرف لهم أصلاً ولا فصلاً. اختفى أغلب معاونيه في التطهير واستقبل حياة جديدة بكلّ معنى الكلمة. ورجع يخطب ودي كما كان يفعل في حديقة الأورمان، ورجعنا نتلاقى في ميدان سليمان باشا وراح يقول ساخراً:

بين فرنسا وإنجلترا عشرة أعوام دون جدوى، مكث عاماً أو عامين في كلية الطب، وعامين آخرين في كلية العلوم، كذلك الحقوق والآداب. ولكنه لم يشار ولم يحصل على شهادة. ولما توفي والده رجع إلى مصر في الثلاثين، يحمل في رأسه دائرة معارف مضطربة غير متكاملة وخبرة عميقة بالإنجليزية والفرنسية والنساء والقمار والحانات والمسارح والسينما وبيوت الدعارة، كما رجع بزوجة لبنانية تقاربه في العمر أو ثمانية. ولم يترك أبوه له مالا، وكانت أخته الكبرى متزوجة من سفير خارج القطر، فعمل مترجماً في السفارة الفرنسية.

- لم أعمّر في الوظيفة أكثر من عام ثم اضطرت إلى تركها بسبب لكمة وجّهتها إلى الملحق الصحفي واشتغل بالإذاعة - قبل تمصيرها - ثم اضطرت إلى الاستقالة بعد مشاجرة عنيفة، وعمل في جريدة المقطم حتى وجّه إلى صاحبها كلمة نابية كاد يقدم من أجلها للمحاكمة فتركها، وأخيراً التحق بخدمة الوزارة بعد نجاحه في امتحان أعلن عنه في الصحف. وكان اعتاد الحياة الدسمة المضيئة على الطريقة الأوروبية فلم يغب مرتبه بتحقيق مأربه، فاستغل قدراته في اللغتين في الترجمة للصحف ودور النشر وروايات الجيب، مكرّساً جهده الضخم لرفاهية الحياة ولابنة وحيدة كان يعبدتها عبادة. وأقام في شقة في شارع فؤاد الأول، وأحاط جوه العائلي بصدقات أوروبية لأسر فرنسية وإيطالية وأحياناً إنجليزية، ليكفل لنفسه البيعة التي يعشقها بكلّ مشتبهاتها من أثاث جميل ومأكّل طيب وشراب ممتع وصحبة راقية وأحاديث طليّة رفيعة. وكان يقول بوجود:

- أوروبا روح الدنيا وأهلها ملائكة الخلق أما من عداهم فهم حيوانات أو حشرات...  
ومرة قال لي:

- أصاب أحياناً بدهول مرضي عندما أنظر حولي فأجد نفسي غريباً وسط نفر من الموظفين التعساء الجهلاء الخانعين المطيعين التملّقين المنافقين، الله يرحمك يا أبي، لم بددت مالك في القمار؟!

ولم يكن يوجد ما يدلّ على إسلامه إلا شهادة الميلاد، ولا يعرف من دينه إلا اسم «محمد»، ولم المس

المستدير الريان بالدم ويتجلّى في براءة الأطفال. وعند الحديث تنهمر منه المعلومات كالمطر الغزير، فهو يحبّ الموضوعات التي تطرق مدّخراته من المعارف بقدر ما يضيّق بالموضوعات التي يجهلها فتضطرّه إلى التزام السمع وهو أبغض الأشياء إلى نفسه. يحبّ الكلام لحّد العبادة، ولديه معلومات لا حصر لها عن أشياء لا حصر لها للسيارات والأثاث والزيوت والأمراض والساسة والأفلام والبلاد والنكت والتاريخ والجغرافيا والفلك والقانون والمصارف والدعارة. طفل كبير في الخامسة والثلاثين، خفيف الروح، دعاباته أزهار منورة، ونودره وثي منمنم، أما غضبه فآه لو انفجر غضبه، وما أسهل أن يثور غضبه! لشيء وغير ما شيء ينفجر غضبه، وعند ذلك تزلزل الزلازل وتنفجر البراكين وتنطلق الأعاصير، فإذا لم يقابل بتحدّ هداً وسكن وتراخي وتراجع فاعتذر وقدم السيارة أو أمر بالقهوة. تناقش مرة مع أحد الموظفين فعانده الرجل حتى أثاره، وأراد أن يفحّمه فاستشهد بنادرة من التاريخ الإسلامي - وعبد الرحمن يجهل التراث جهلاً تاماً - فقال:

- دخل بدوي على عبد الملك بن مروان فقال...  
ولكنّ عبد الرحمن شعبان انترقائماً كعمود السواري وصاح وهو ينتفض غضباً:

- عبد الملك بن مروان، من هو عبد الملك بن مروان؟.. تستشهد لي بحيوان يا حيوان، ملعون أبوك أنت وعبد الملك بن مروان...  
وهجم عليه كالوحش ففرّ الرجل من الإدارة كالنحلة. ولكنه لم يقدم فيه شكوى، حتى طنطاوي

إسماعيل رئيس السكرتارية كان يتجاهل ذلك التمرد الصارخ على أصول الوظيفة، وكان يقول:

- إنه أحمق ولكنه أنظف معدن في هذه الوزارة. وأدركت أنّ معاندته غير مأمونة، وأنّ الخوض معه في موضوع تعرّفه ويجهله مغامرة جنونية. ولعلّ عباس فوزي كان أول من عرف كيف يداره بمكره ولباقته، ومع أنّ عبد الرحمن كان يحترقه في باطنه إلا أنّه عامله باحترام ومودة. وكان أبوه وزيراً للحريّة، أرسله إلى فرنسا - بالكالوريا - ليدرس الطبّ فمضى يتنقل ما

يؤدبه... .

- المرأة المصرية هي المخلوق الوحيد الذي يستحق التقدير، فهي لبوة، ويمكنها إذا مُنحت مزيداً من الحرية إسعاد هذا الشعب الذي يستحق الإبادة.

- ليس الأفضل للإنسانية أن ينتشر الأوروبيون في

الأرض وأن يبيدوا من عداهم من بني آدم؟

لم يكن يقرر ذلك عن حقد ولا عن رأي بالمعنى

الحقيقي لهذه الكلمة، ولكن عن انفعال، ووسط

ضحكات بريئة، ولو صادف بعد ذلك شخصاً

يتعصب لأوروبا لانقلب بنفس الحماس مدافعاً عن

الشرق، فهو معارض بطبعه، إن قلت حلواً قال مرأ

وإن قلت مرأ قال حلواً، ممتنماً الفرص على الحالين

للكلام. ولم أجد عنده أصالة في عواطفه إلا ما تعلق

بكريمته، فهو يعبدها عبادة، يروي أحداثها التافهة

كأنها ملاحم ويستشهد بكلامها الفارغ كأنه جوامع

الحكم، وينقل إلينا آراءها - التي ينسبها إليها كذباً

وإدعاء - فيما مرّ بالوطن من أحداث وحروب، منوهاً

بذكايتها المبكر الذي يكبر سنّها بعشرات السنين. وكنت

دائماً أخاف أن يصطدم يوماً بشخص قويٍّ ومؤدٍ مثل

عدي المؤذن أو شرارة النخال ولكن ضخمته أسبغت

عليه مهابة فرضت على كبار المؤلفين احترامه، وهو

من ناحية أخرى - بعد تجاربه المؤسفة في السفارة

الفرنسية والإذاعة والمقلم - تهتّب أصحاب النفوذ ما

وسعه ذلك. وكان يقول لي:

- لعن الله الأيام التي علمتنا احترام الأوغاد، الله

يساعك يا بنتي!

وقد دعوته إلى الفيشاوي وعرفته ببعض الأصدقاء

مثل جعفر خليل ورضا حمادة وشعراوي الفحّام

فأعجبه المكان وأحبّ الأشخاص، وفي جنازتي

شعراوي وجعفر بكى كطفل. وبالرغم من موذنتنا

الحميمة فإني لم أسلم من غضبه، فيوماً كنت أقرأ

الجريدة فأطلعت على صفحة مخصّصة للذكرى سلامة

حجازي، ونقلاً عن كاتبها قلت للأستاذ عباس فوزي

بسرور:

- هل تصدّق أنّ فردي قال عن سلامة حجازي

إنّه لو كان وُلد في إيطاليا لما كان له - فردي - شأن؟!

فيه اهتماماً بقيمة من القيم وإن كان شجاعاً كريماً

محافظة على كرامته، وكان مدخناً مجنوناً وسكيراً عربيداً

ومقامراً متهوراً وأكولاً متوحّشاً وكنتا نسير معاً عادة

عقب انصرافنا من الوزارة حتّى محطة الترام الواقعة

تحت مسكنه، فلا يكفّ عن الكلام دقيقة واحدة

وأتابعه أنا بالسمع والبصر، وكان ينتقد كلّ ما تقع

عليه عيناه ويقارنه بنظيره في فرنسا أو إنجلترا:

- أتعجبك هذه المحالّ والدكاكين؟. إنّها زنانات

سوقية.

- انظر إلى قذارة الشوارع في قلب المدينة!، سيأتي

يوم يطالب فيه اللباب بحقوق المواطن!

- ما رأيك في هؤلاء الغلمان الحفاة في شارع سليمان

باشا؟!

- انظر إلى هذا المنظر الفريد، الكارو والجمال

والسيارة في قافلة واحدة وتقولون الاستقلال التأمّ أو

الموت الزؤام؟!

- أيعجبك حقاً ذلك المقرئ المدعوّ عليّ محمود؟.

رجل ضرير منقر المنظر يزعم كالأبله، قارن ذلك

بقدّاس كاثوليكيّ تسبح في جوه الموسيقى الخالدة!

- صدّقني إنّ رجال السياسة الذين تعجب بهم لا

يصلحون موظّفين مبتدئين في سفارة أجنبية... .

- وملايين الفلاحين القلدين بأيّ منطق يستحقّون

الحياة؟.. لماذا لا تستغنون عنهم بالآلات الزراعية

الحديثة؟!

- إنّ خير ما تمخّضت عنه الحضارة المصرية هو

الحشيش ومع ذلك فما أقبحه بالمقارنة بالوسكي!

- هل حقاً تعجب هؤلاء الكتاب والأدباء؟..

صدّقني إنهم أميّون على المستوى العالمي... .

- اسمح لي أبول على جميع من تحبهم من زعماء

وأدباء ومطربين... .

- أتعرف ما هي أكبر نعمة أغدقت علينا؟.. هي

الاستعمار الأوروبي، وسوف تحتفل الأجيال القادمة

بذكره كما تحتفلون بمولد النبي... .

- لا يغيظني شيء كما يغيظني ضربكم الأمثال

بعدالة عمر ودهاء معاوية وعسكرية خالد، عمر شحاذ

ومعاوية دجال وخالد فتوة درجة ثالثة لم يجد من

في المجالات الأدبية أو قصائد من الشعر التقليديّ. كان أزهرياً، لا علم له بلغة أجنبية، ومع ذلك أثار اهتمامي واحترامي بقوة منطقته وهو يناقش أشخاصاً من المعروفين بثقافتهم الواسعة وأطلاعهم العميق على اللغات الأجنبية مثل الدكتور إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل. وامتاز بهدوء الأعصاب وأدب الحديث فما احتدّ مرة أو انفعل ولا حاد عن الموضوعية، ولا بدا في مستوى دون مستوياتهم الرفيعة، فكأنه نُدّ لهم بكلّ معنى الكلمة، فاقتنعت بحذّة ذكائه ومقدرته الجدليّة وأطلعاه الواسع رغم اعتياده الكليّ على التراث والكتب المترجمة، ولم يداخني شكّ في أنّه أذكى من إبراهيم عقل وسالم جبر وزهير كامل جميعاً. وحتى نقده للكتب العصرية لم يتسم بالهزال أو السطحيّة بالقياس إلى نقد المتخصّصين من حملة المؤهلات الباريسيّة واللندنيّة، وإن كان ثمة فارق دقيق فلم يكن لينكشف إلاّ لعين العارف المدقّق.

قال لي عنه يوماً الدكتور ماهر عبد الكريم:

- إنّه شابّ موهوب ومن المؤسف أنّه لم يرسل لي بعثة.

وكان الدكتور ماهر عبد الكريم ممن يزنون أقوالهم بميزان دقيق. وبالرغم من أنّ عبد الوهّاب إسماجيل لم يكن يتكلّم في الدين، وبالرغم من تظاهره بالعصريّة في أفكاره وملبسه وأخذه بالأساليب الإفرنجيّة في الطعام وارتياح دور السينما، إلّا أنّ تأثره بالدين وإيمانه بل وتعصّبه لم تخف عليّ. أذكر أنّ كاتباً قبطياً شاباً أهداه كتاباً له يحوي مقالات في النقد والاجتماع فحدّثني عنه ذات يوم في مقهى الفيشاوي فقال:

- إنّه ذكيّ مطلع حسّاس وذو أصالة في الأسلوب والتفكير.

فسألته براءة وكنت مغرماً بالكاتب:

- متى تكتب عنه؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

- انتظر وليطولنّ انتظارك!

- ماذا تعني؟

فقال بحزم:

- لن أشارك في بناء قلم سيعمل غداً على تحريج

وإذا بالأستاذ عبد الرحمن يرمي بكتاب كان يقرأه وصاح بي كبركان:

- ما هذا الكلام الفارغ! أتصدّق أيّ كلام يتقرّله هؤلاء الأوباش في الصحف؟... من هو سلامة حجازي؟... إنّ أيّ منادي سيّارات فرنسيّ أعذب منه صوتاً، ولكن هكذا أنتم أيّها المصريّون، لن تزالوا غارقين في أوهام الكلمات حتّى تموتوا، كوكب الشرق... مطرب الملوك والأمراء... سلطنة الطرب... عاهل التمثيل في الشرق... لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً، ولم لا تمنّي أن تكون حمازاً، فيكون لك نفع على الأقلّ، نيلة تاخذكم أنتم وبلدكم!

وفي عام ١٩٥٠ زوّج معبودته «كريمته» من موقّف في البنك الأهليّ. واحتفل بزواجها في الأوبرج، وسعد كما لم يسعد من قبل فسعدنا به. وبعد ذلك بعامين، وعلى التحديد في صباح يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ دخل علينا معاون الوزارة وقال:

- البقيّة في حياتكم في الأستاذ عبد الرحمن شعبان! وفزعنا كأنما نسمع عن الموت لأوّل مرّة. كان حتّى أمس يتخذ مجلسه بيننا في الإدارة، وسرت معه حتّى مسكنه في شوارع مكتظة بالمظاهرين والمخزيين والسنة النيران تشتعل هنا وهناك في المحالّ العموميّة والملاهي والسينمات. وعلمنا في أثناء النهار ونحن نشيخ جنازته أنّه كان ساهراً في الترف كلوب مع بعض أصدقائه من الإنجليز حين هاجم المظاهرون النادي فقتلوا من فيه، وقتل الرجل فيمن قُتل، وانتهت حياته العجيبة.

## سبّد الوهّاب إسماجيل

إنّه اليوم أسطورة، وكالأسطورة تختلف فيه التفسير. وبالرغم من أنّي لم ألق منه إلّا معاملة كريمة أخويّة إلّا أنّي لم أرتج أبداً لسحته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الحادتين، وقد عرفته في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم في أثناء الحرب العظمى الثانية، كان في الثلاثين من عمره، يعمل مدرّساً للغة العربيّة في إحدى المدارس الثانويّة، وينشر أحياناً فصولاً في النقد

المرايا ٣٤٩

الفترة بهجومه المتواصل على حكومة الوفد، وفي نفس الوقت شرع يكتب كتباً عصرية عن الدين الإسلامي، لاقت نجاحاً منعدم النظر. وقامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وهو منغمس في محاربة الوفد والدفاع عن الدين الإسلامي. وكان مرَّ عامان على الأقل لم نلتقي فيها أبداً وانقطعت عني أخباره الخاصة. ويوماً كنت في زيارة للأستاذ سالم جبر فقال لي:

- الظاهر أن نجم عبد الوهَّاب إسماعيل سيلمع قريباً...

فسألته باهتمام:

- ماذا تعني؟

- أصبح من المقرَّين.

- ككاتب سياسي أم ككاتب ديني؟

- باعتباره من الإخوان المسلمين.

فهتفت بدهشة.

- الإخوان؟ .. لكنني عرفته سعدياً متطرِّفاً.

فقال متهكِّماً:

- سبحان الذي يغيِّر ولا يتغيَّر!

وقابلته بعد ذلك بعام أو نحوه أمام بار الأنجلو فنصافحنا بحرارة، وسرنا معاً نتحدث حتى جاء ذكر الثورة فقال بتحفظ:

- ثورة مباركة ولكن من العسير أن تعرف ماذا يريدون...

ولست في حديثه مرارة لم أقف على سرِّها ولم يبيح به. كانت له قدرة على الاحتفاظ بأسراره ليست إلا لقلة نادرة من المصريين. وقلت له:

- بلغني أنك انضمت إلى الإخوان المسلمين؟

فابتسم ابتسامة غامضة وقال:

- أيّ مسلم عرضة لذلك!

- من المؤسف حقاً أنك نهذت النقد الأدبي.

فضحك قائلاً:

- يا لها من تمثيات جاهليَّة!

وافترقنا وأنا أشعر بأننا لن نلتقي مستقبلاً إلا مصادفة في الشوارع. وعند أول صدام بين الثورة والإخوان قبض عليه فيمن قبض عليهم من أعضاء الجماعة، وقُدِّم للمحاكمة فحكَّم عليه بعشرة أعوام

تراثنا الإسلامي بكافة السبل الملتوية.

فساءلت بامتعاض:

- أفهم من ذلك أنك متعصب؟

فقال باستهانة:

- لا تهذني بالأكليشيات فإنتها لا تهزني.

- يؤسفني موقفك.

- لا فائدة من مناقشة وفدي في هذا الموضوع، وقد

كنت وفدياً ذات يوم، ولكني أصارحك بأنه لا ثقة لي في أتباع الأديان الأخرى!

وقد كان حقاً وفدياً، ثم انشقَّ على الوفد وراء الدكتور أحمد ماهر وكان عظيم الإعجاب به، ورُقي في عهد السعديين إلى وظيفة مفتش. وكم تخلَّى عنه حلمه بسبب مصرع الدكتور أحمد ماهر، كأنما أصيب بنفس الرصاصة التي أودت بحياة الرجل، وقال لي بحزن بالغ:

- ضاع أعظم رجل في الوطن.

وكان يشكو صحته كلَّما سنحت مناسبة، وبها يتعلَّل في إفطار رمضان ولكنه لم يصرِّح بحقيقة مرضه لأحد، كما أنه لم يهتم في حياته بالنساء ولم يتزوج، وعُرف في تلك الناحية بالاستقامة الكاملة. وعلى جدِّية أخلاقه، وحملاته الصادقة على المنحرفين، تكشَّف لي جانب منه لم أكن لأصدِّقه لو لم أخبره بنفسه. ذلك أنه كان يوجد كاتب صاحب مجلة ومطبعة تُصدر سلسلة شهرية من الكتب، وكان عبد الوهَّاب يحتمره ويقول عنه:

- لولا مجلته لما وجد مجلة تقبل أن تنشر له كلمة.

وكم أدهشني أن أطلع له مقالة في الرسالة عن صاحب المجلة رفعه فيها إلى السماء! حرت في تفسير ذلك، حتى علمت بأنه اتَّفق معه على نشر كتاب له في سلسلته الشهرية نظير أجر ممتاز لم يظفر بمثله كاتب آخر! وتذكَّرت في الحال موقفه الأعمى من الكاتب القبطي فازعجني جداً اكتشاف ذلك الجانب الانتهازي في شخصيته، وساورني شكٌّ من ناحية صدقه وأمانته، واستقرَّ في نفسي - رغم صداقتنا - نفور دائم منه. وظلَّ يعمل مفتشاً وكاتباً حتى ولي الوفد الحكم عام ١٩٥٠، فلم يرتح إلى معاملة الوزير الوفدي له، فقدم استقالته وتفرَّغ للعمل في الصحافة، وعرف في تلك

ولم أعرف وقتها شيئاً عن مصير عبد الوهّاب إسماعيل الذي رجّحت أنّه غادر الوطن للعمل في الخارج. غير أنّ الصديق قدرني رزق أكّد لي أنّه كان ضمن المؤامرة وأنّه قاوم القوّة التي ذهبت للقبض عليه حتّى أصيب بطلقة قاتلة فسقط جثّة هامدة.

## عبدة سليمان

لعلّها كانت أوّل فتاة تعيّن بوزارتنا، ولكن مؤكّد أنّها كانت أوّل موظفة بإدارة السكرتارية. عُيّن في أيام الحرب العظمى الثانية، في نفس الشهر الذي تولى فيه عبّاس فوزي رئاسة السكرتارية. كانت في الخامس والعشرين من عمرها، بضّة ممتلئة، سمراء، متوسطة الجمال، خفيفة الروح. وكانت تحمل شهادة البكالوريا، ولم ترغب في الوظيفة حتّى توفّي والدها. وقال عبّاس فوزي محدّثاً:

- كونوا جديرين بالزمالة من فضلكم  
وهمس لي عمّ صقر وهو يقمّ لي القهوة:  
- صاحبك من السيّدة زينب!  
فسألته:

- وماله؟  
- السيّدة ماهولة بالطلبة ولذلك فكثيرات من بناتها...

ورسم بيده حركة مثيرة للشكّ. وعمومًا اشتدّت العناية بالمظهر في السكرتارية، واسترقت الأعين النظر إلى ركن الحجرة حيث جلست عبدة إلى يمين الأستاذ عبد الرحمن شعبان. كان علينا أن ننتظر طويلاً حتّى تصير عبدة «عبادة» يومية لا تثير الأهواء ولا تلفت النظر. وتواترت أخبار تصوّر سلوكها الخاصّ في حيّ السيّدة بالاستهتار. وقال لي عمّ صقر:

- لا تصدّق أنّ فتاة «شريفة» تقبل أن تعمل وسط الرجال.

فقلت له:

- ولكنّها مؤدّبة حقًا وتصدّ عنها جميع الطامعين دون استغلال للدعابة.

فقال بإصرار:

سجن. وغادر السجن عام ١٩٥٦ فرأيت أن أزوره مهنتًا، فذهبت إلى مسكنه بشارع خيرت. والحقّ أنّه لم يتغيّر كثيرًا، شاب شعر رأسه، كما يتوقّع لرجل في السابع أو الثامن والخمسين من عمره، وزاد وزنه حتّى خيّل إليّ أنّ صحّته تحسّنت عمّا كانت عليه. وتبادلنا الأسئلة عن الظروف والأحوال، وكان يحافظ على رزاقته المعهودة وبرودة أعصابه الفدّة، وخاصّ دون مقدمات في المسائل العامّة فأدلى بآرائه بكلّ ثقة...

- يجب أن يحلّ القرآن مكان كافّة القوانين المستوردة.

وقال عن المرأة:

- على المرأة أن تعود إلى البيت، لا بأس من أن تتعلّم ولكن لحساب البيت لا الوظيفة، ولا بأس من أن تضمن لها الدولة معاشًا في حال الطلاق أو فقد العائل.

وقال بقوّة:

- الاشتراكية والوطنية والحضارة الأوروبية خبائث علينا أن نجثّها من نفوسنا...

وحمل على العلم حملة شعواء حتّى ذهلتُ فسألته:  
- حتّى العلم؟!

- نعم، لن نتميّز به، نحن مسبقون فيه وسنظلّ مسبقين مهما بدلنا، لا رسالة علمية لنا نقدّمها للعالم، ولكن لدينا رسالة الإسلام وعبادة الله وحده لا رأس المال ولا المادّيّة الجدليّة...

استمعت إليه طويلاً ضاغظًا على انفعالاتي حتّى لا أخلّ بواجب المجاملة ثمّ قمت للانصراف وأنا أسأله:

- ماذا عن المستقبل؟

- هل لديك اقتراح؟

- لديّ اقتراح ولكنّي أخشى أن يكون جاهليًا هو أن تعود إلى النقد الأدبي!

فقال بهدوء:

- تلقّيت دعوة للعمل في الخارج.

- وعلامة عوّلت؟

- إنّني أفكّر...

وودّعته وانصرفت. وبعد انقضاء عام على المقابلة طلعت علينا الصحف بأنباء مؤامرة جديدة للإخوان،



## المرآة ٣٥١

- محمد العادل أخذ إجازة أسبوعًا أيضًا  
وتضاربت التخمينات ولكنها كانت مجرد تخمينات،  
ومضى الأسبوع ورجعت عبدة ولكنها رأينا فيها فتاة  
جديدة كأنما فقدت في صميم روحها شيئًا ثمينًا لا  
يعوض. انتظرنا أن تقول شيئًا ولكنها عكفت على  
عملها في صمت تكتنفها هالة حزن كأنما هي راجعة  
من قرافة. ومال عبد الرحمن شعبان نحوها وسألها  
برقة:

- مالك يا مدموازيل؟

وبمجرد استشعارها العطف انهمرت دموعها.  
وأجهت إليها الأبصار، ومضى عباس فوزي فوقف  
أمام مكتبها وهو يسأل:

- مالك؟... نحن زملاء. والإنسان للإنسان!

- لا شيء!

- لا نريد إكراهك على الكلام إذا كرهت  
ذلك...

فقالت بيأس:

- لن يخفى شيء!

- حسن فإذا يحزنك؟

ترددت قليلاً ثم قالت:

- أخذت الإجازة لأتزوج...

- لا عيب في ذلك ولا حزن.

- تزوجنا أنا ومحمد العادل.

- محمد العادل!

- نعم.

- سرًا!

- قال لي إنه يقامر بمستقبله، وأنه إذا عرفت زوجته  
أو عمه الباشا فسيفضي عليه إلى الأبد...

فسألها عباس فوزي بنبرة لم تخل من عتاب:

- وكيف رضيت أن تتزوجيه وأنت على علم

بحاله؟

فقالت عبد الرحمن شعبان بغضب:

- تذكر أقوالك عن الحب...

فتراجع الرجل قائلًا:

- حسن، وماذا حدث بعد ذلك؟

- سافرنا إلى الإسكندرية فمكثنا أسبوعًا!

- سياسة حلوة.. حفظًا على كرامتها كموظفة،

ولتوقيع بالمغفل ابن الحلال!

ولاحظنا أن زميلًا من الأرشيف أصبح يتردد على  
صديق له في السكرتارية على غير عادة، وكان زميلًا  
مشهورًا رغم حقارة وظيفته وبيدائية تعليمه الذي لم  
يجاوز الابتدائية، ولكنه كان جميلًا، له مظهر اللوات  
واعتادهم بأنفسهم، وكان من أسرة العادل - يدعى  
محمد العادل - في الثلاثين من عمره. وكان ابن شقيق  
الباشا عميد الأسرة، وزوج كريمته الغنية، ورغم فقره  
وضالة مرتبه كان يرتدي أفخر البدل وينفق عن سعة  
من مال زوجته، وعرف أنه يطارد عبدة، وأنه يزور  
السكرتارية جريًا وراء هدفه. ولم يتعرض له عباس  
فوزي بآية ملاحظة لعلمه بصداقة عمه الباشا لوكيل  
الوزارة فتجاهله على مضض، ولكن الأستاذ عبد  
الرحمن شعبان المترجم لم يبال بذلك فمضى نحوه يومًا  
ثم قبض على أعلى جاكته ودفعه أمامه حتى باب  
الإدارة وهو يقول له:

- إذا رجعت مرة أخرى فسأكسر رأسك...

ولكن عم صقر أخبرني أنه يطارد عبدة حتى  
مشارف السيدة وأنه يلح بجنون في التعرف بها.  
ووضح أن الفتاة رفضت تلبية النداء وأصررت على  
ذلك. رفضت بكل قوة أن تكون عشيقته وعاملته  
بخشونة. وأخذنا نناقش الموضوع همسًا. فقال عباس  
فوزي:

- الولد فحل جميل ولا يقاوم...

فقالت عبد الرحمن شعبان:

- ولكنه حقير جاهل.

فقالت له عباس فوزي:

- المرأة هي المرأة والرجل هو الرجل.

فقلت:

- من الطبيعي أن تبحث عن زوج فما معنى أن

ترضى بدور العشيقه...

- هذا هو المعقول ولكن الحب لا معقول...

ولكن مضت الأيام وعبدة سليمان ترفض أن  
تستسلم. ذات يوم طلبت إجازة أسبوعًا. ولم يهتم  
أحد بالطلب حتى جاءنا عم صقر وهو يقول:

جدًا، وسرنا معًا وهي تسأل عن الزملاء القدامى فحكيت لها ما كان من أمر عباس فوزي، ونهاية عبد الرحمن شعبان وقد تأسفت عليه بصدق، وحتى عم صقر أخبرتها بسوء ماله، أما هي فأخبرتني بأن زوجها توفي من عامين، وأنها أنجبت منه ثلاثة ذكور في كليات الطب والزراعة والاقتصاد، وأن ابنتها تزوجت من ضابط، ثم تساءلت:

- أندري ماذا حصل لأبيها؟

ولكني كنت نسيته تمامًا فقالت:

- بعد تطبيق قانون الإصلاح الزراعي بعام واحد مات الباشا، ولم يبق لابنته إلا ما تستطيع أن تربي به أولادها فامتنعت عن إعطاء زوجها أي نقود فلم يستطع ممارسة الحياة على المستوى الذي اعتاده فاختلس وفصل من عمله. . وهو يعيش الآن كالمشردين، واضطر إلى العمل في الإسكندرية منادي سيارات!

ثم سألتني ونحن نتواعد:

- خبرني ماذا عن الموقف، حرب أم صلح؟

لبسطت راحتي في عجز عن الجواب وافترقنا. . .

## عجلان ثابت

زاملنا في الجامعة عامًا ونصف عام، وأتمهم بسرقة طربوش فافتضح أمره واضطر إلى قطع دراسته. حدثني عنه في ذلك الوقت الأستاذ عدلي المؤذن فقال:

- إنه يعيش مع أم عجوز على معاش بسيط.

فقلت بأسف:

- لا أحد منا يستطيع معاونته، وكان النجاح

والنفوق في ميسوره. . .

- ولكنه كان قليل الأدب، ألا تذكر مناقشاته الحادة

مع الدكتور إبراهيم عقل؟

فقلت بامتعاض:

- إنه أفضل في نظري من الدكتور إبراهيم عقل. . .

عقل. . .

وفي أثناء تزامننا اقتنعت بذكائه واجتهاده ووعيه،

وكان ذا استعداد طيب لتعلم اللغات الأجنبية، كما

- ثم ماذا؟

وهي تحاول تمالك أعصابها الباكية:

- طلقني أمس!

- طلقك؟!!

- نعم. . .

- لم؟

- قال إنه إذا استمرت العلاقة فستعرف وإذا

عرفت خسر كل شيء!

وهمس عم صقر في أذني:

- طريقة جديدة للعشق!

ونالت عبدة من العطف بقدر ما نالت من اللوم.

وتطوع كثيرون لمساعدتها في إجراءات القضية

الشرعية. وبما الخبر إلى الزوجة والباشا، واستدعى

وكيل الوزارة - بإيعاز من الباشا - عبدة فويخها

وأتمها بإغواء الولد الأرعن وطالبها بالتنازل عن

القضية في نظير أن يحفظ لها حقها ولكنها صارحته بأنها

حبلى، وبذلك تعقدت الأمور أكثر. ووضعت طفلة

وكانت النفقة تُقتطع لها من مرتب الشاب الصغير،

والحق أن محمد العادل لم يكن شيع تمامًا من عبدة،

وكانت هي من ناحيتها تحبه، وهي حقيقة لم تحف عن

المجربين مثل عباس فوزي وعبد الرحمن شعبان.

وعادت العلاقة بينهما، غير شرعية هذه المرة، وفي تكتم

لم يدري به أحد منا، حتى فوجئنا ذات يوم بالوكيل

يستدعي عبدة ومحمد، ويهددهما بالنقل إلى الأقاليم إذا

لم يقطعا علاقتهما «الأثمة» في الحال. وحدث ذلك

بحضور الباشا نفسه، وترامت الأصوات إلى السعاة

فالتقط عم صقر الخبر وأذاعه بطريقته السادية، حتى

اضطر الأستاذ عبد الرحمن شعبان إلى تذكيره بابنته

الضائعة فغادر الرجل الحجرة متقلص الوجه. ونقل

محمد العادل بعد ذلك إلى وزارة الزراعة. وتزوجت

عبدة من مفاول قيل أن تربي ابنتها في بيته تحت شرط

أن تقدم عبدة استقالتها وقد فعلت. كان ذلك على

عهد حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨، ومر على ذلك

عشرون عامًا حتى لقيت عبدة مصادفة في ميدان

التحرير.

تصافحنا بحرارة، وكانت في الخمسين وبمدينة

- وهذا هو الأهم!

ومضى يشرح الشيوعية باعتبارها نظرية علمية ولكنني شعرت بأنها حلت في نفسه محل العقيدة الدينية. وفي أعقاب الحرب فصل من الدار الصحفية بإيعاز من الداخلية في ظل الحكم الرجعي الذي سيطر على البلاد بعد إقالة الحكومة الوفدية. وتخرج مركزه، حتى سكنه المتواضع أصبح مهدداً بالطرده منه لعجزه عن دفع الإيجار. وكنت أزوره، وأقدم له أحياناً مساعدات لا تغني، ثم تبين لي أن مسكنه يتحول إلى شيء جديد غريب، إلى ملتقى لبعض أهل البلد من أغنياء الحرب، حيث تدور الجوزة. وتجلس زوجته بينهم كريمة الاستقبال والبيت! وأثرت - تبادياً للإحراج - أن تقتصر مقابلاتنا على المقهى، وأخذ يبدو لي مكشوف الوجه مستهتراً، وماجتاً عابثاً، ورغم ذلك كله فإن عقيدته لم تتخلخل، ولم يتسلل إليها الفساد، وبقيت جوهره مدفونة في العفن ولكن محتفظة بقيمتها. وفي عام ١٩٥٠ رجع إلى عمله بالدار الصحفية ولكنه لم يغير أسلوبه في الحياة، لزهاده المرتب من جهة ولفقدان الثقة من ناحية أخرى. ولقيت زوجته بعد انقطاع طويل فهالني أن أرى غانية مترجحة ذكرتي بالمحترفات فتقطع قلبي وحزنت حزناً لا حد له. ولعله لاحظ انقباضي إذ قال:

- مهما يكن من أمرنا فثمة جانب فينا يستطيع أن يصنع المعجزات، وهو الذي خلق الله!

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ أمكن بعض زملائه أن يبيتوا له عملاً أرقى، فتحسنت أحواله، بل وغير مسكنه فانتقل إلى شقة في عمارة بميدان الجيزة. رمزاً لعزمه على تغيير أسلوبه في الحياة، وممارسة حياة محترمة. وبسبب نشاطه العقائدي اعتقل أحياناً حتى اضطرت زوجته إلى اللجوء إلى حماية أحد زبائن بيتها القديم. وكما خرج من المعتقل خرج متعياً متقزراً. استعاد عمله ودخله ولكنه لم يستطع استنقاذ زوجته. قال:

- أدمنت الأفيون...

وهز رأسه في رثاء وقال:

- إنني أحبها، وسأحبها إلى الأبد، ولكنها لم تعد

كان قارئاً ممتازاً. وأذكر أنه ترجم - في تلك الفترة المبكرة من حياته - بعض قصائد شيللي ونشرها في مجلة المعرفة. وكان يقول لي:

- لا تحترم طالباً غير مهتم بالسياسة، ولا تحترم مهتماً بالسياسة إن لم يكن وفدياً، ولا تحترم وفدياً إن لم يكن فقيراً... فقلت له:

- ولكن سعد زغلول لم يكن فقيراً...

- أما مصطفى النحاس فزعيم فقيراً

- هل تعني أن مصطفى النحاس خير من سعد زغلول؟

- كان سعد زغلول عبقرياً أما مصطفى النحاس فإرادة نقيّة.

ولم يستطع - بعد انفصاله عن الجامعة - أن يجد وظيفة، فالوظيفة كانت مطلباً عسيراً لمن لا وساطة له، ولكن أحد أعضاء الوفد استطاع أن يلحقه بدار صحفية محايدة مترجماً بأجر زهيد. وافترقنا نحواً من عشرة أعوام، وتقابلنا بعد ذلك مصادفة في مقهى الفيشاوي. ورحبنا بالمصادفة واعتبرناها سعيدة وسألته عن حاله فقال:

- ما زلت مترجماً صحفياً وما زال الأجر زهيداً!

وضحك وكانت روحه المعنوية مرتفعة وقال:

- ولكنني متزوج...

- أنت مغامر!

- إنه الحب، عليه اللعنة...

ودعاني إلى مسكنه بخان الحلبي فتعرفت بزوجه، وكانت فتاة حسناء، على قدر متوسط من التعليم، ولاحظت أنها متفانية في الحب وذات إرادة صلبة في مواجهة حياتها المتكشفة. ودار الحديث عن الحرب والسياسة، فقال:

- لم أعد وفدياً كما كنت...

فدهشت، ولكنه صارحني بأنه «شيوعي»، وراح يؤكد لي أن الشيوعية حل لمشكلات العالم، ثم وهو يضحك:

- وحل لمشكلتي أيضاً...

فضحكت زوجته وقالت:

قادرة على إعطاء الحب

ثم بغضب:

- إني أحمل على الفساد بصدق آياتن أجده، ولا  
يخيفني أن يشهر بي أحد...

وقدّس علاقته بها، متفانيًا في الإخلاص لها  
والتسامح معها، فهيّ لها الحياة الطيبة ولم يسمح لنفسه  
بمحاسبتها على تصرف، تواجدت أم غابت، استقامت  
أم استهترت. وزحف عليه العجز قبل الأوان فلم يبق  
له من مسرات الدنيا إلا العمل والحديث والتسامح  
اللائهائي مع زوجته. وبالرغم من آلامه وحرمانه  
وتدهور زوجته المحبوبة فقد بلغ في تلك الفترة غاية  
نضجه وأعطى أطيب ثماره، فتتابعت مقالاته السياسيّة  
والاجتماعيّة متّسمة بالطلاوة والعمق، وإني لأعدّ كتابه  
عن الفكر العربيّ التقدّمّي من أمتع الكتب المعاصرة  
وأقواها إجماء وتفاضلاً، كما أعدّ وجهه الشعبيّ،  
وتناقضات حياته الشخصيّة، ومتاعبه الجسديّة،  
ووحدة ذهنه وصفاته، مثلاً لعصر مضطرب جيّاش  
بعوامل هدم وبناء، وتفكّك وتجمّع، وياس وأمل.  
ولشدّ ما تألّت عندما لم أجد من أستاذي الدكتور ماهر  
عبد الكريم استعدادًا للترحيب به في صالونه فقال  
بهودته المعروف:

- يقال إنّه شخص...

وابتسم ابتسامة استغنى بها عند تسجيل وصف لا  
يرتاح إليه ذوقه الرفيع. وعلمت أنّ الذي وشى به  
عنده هو جاد أبو العلا، ذلك الشخص الذي لا وجود  
له في الواقع.

## عَدلي بَرَكات

له في الدهن صورة قديمة، كالعباسيّة القديمة  
بحقولها وسكونها الأبدّي، عندما كان يتهدى به  
الخطوط من العباسيّة الشرقيّة إلى المدرسة، فيغادره  
وهو يسير - رغم حداثة سنّه - في عظمة خياليّة تناسب  
ولادة العرش، ويمرّ بنا دون أن يلقي نظرة على أحد،  
وحيدًا بلا صاحب إلا فيما ندر، وتتابعه بسخرية تخفي  
تحتها إعجابًا وحسدًا. وكان آل بركات - كآل

الكاتب - من أرستقراطيّة العباسيّة الشرقيّة المقيمين في  
القلع. وكانت أمّ عدلي تركيّة وكان الأب فلاحًا  
مصريًا غنيًا، فأنجبا غلامين عدلي وأخا أكبر. وماتت  
الأمّ وعدلي في الثانية عشرة، فتزوّج الأب بعد عام من  
وفاتها بسيدة مصريّة. وقيل لي إنّ وفاة أمّه رسّبت  
الحزن في أعماق روحه. كما إنّ حلول أخرى محلّها  
قضى على توازنه مدى العمر. تلك أحزان يمكن تحليها  
فحسب أمّا تحليها فلا سبيل إليه، وبخاصّة وأنّ عدلي  
لم يكن يذكر سيرة أمّه أمام أحد، ولا يسمح لأحد  
بالتسلّل إلى ذلك التاريخ القديم، وبالرغم من أنّي  
عرفته في تدهوره، وهو لا يعترف لشيء باحترام أو  
يعفيه من سخريته، فإنّه كان من المسلمّ به بيننا أنّ أمّه  
سرّ مغلق مقدّس لا يجوز مسّه أو الخومان حوله أو مجرد  
التفكير في الاقتراب منه. وكنا في صبا نراه كثيرًا، في  
المدرسة، وفي حديقة القصر، ولكن لم تنشأ بيننا وبينه  
أيّ معرفة أو حتّى ميل إلى ذلك. ومرة وكنا عائدين من  
ملعب الكرة في الصحراء وجدناه واقفًا أمام قصره  
فقرّر خليل زكي أن يتحرّش به فوقف أمامه وسأله  
بوقاحة:

- هل تعرف أين تقع دكان عمّ فلقوس بيّاع  
المدّس؟

فتراجع إلى داخل القصر دون أن ينبس ومضينا  
ونحن نكتم الضحك ولنعم خليل ولكن اجتاحتنا  
سرور لا شكّ فيه. وطالما كان خليل يقول:

- يا ما نفسي أطبق في زمارة رقبته!

ودخلنا الجامعة في عام واحد فزامل رضا حمادة في  
كلّيّة الحقوق، وعارف رضا بيبي وبينه ونحن نشاهد  
مباراة كرة حامية بين النادي الأهليّ والمختلط. قلت  
له:

- نحن أبناء حيّ واحد منذ قديم ومع ذلك لم  
نتعارف إلا اليوم.

فابتسم قائلاً في اقتضاب:

- نعم.

وتعمّنته عن قرب فلذا به رغم الأناقة والعظمة  
المطبوعة يشبه أباه الفلاح لحدّ التماثل، ولم يرث عن  
الأمّ التركيّة شيئًا ظاهرًا ينتفع به. وأدركت من أوّل

## المرايا ٣٥٥

كمضيفة، وربما مرّ الشهر والشهران فلا تقع عينا أحدهما على الآخر. وفي آخر عهده بكلّية الحقوق انتقى من الزملاء صحبة قليلة عُرفت باستهتارها الأخلاقيّ، وجعل منها خاصّة أصدقائه، وبهم خرج من عزلة فعرّف مواطن اللهو ومقهى الفيشاوي، وانقلب مقامه المستقلّ في الحديقة إلى حانة وغرزة. ولا شكّ أنّ الباشا فطن إلى ديبب الحركة الجديدة المريبة ولكنّه لم يستطع أن يتعرّض لها إيثارًا للسلامة. وقال لي يومًا:

- عليك بصحبة الأشرار فبفضلهم تعرف نفسك...

ولم أهرف ما يعنيه تمامًا إلّا فيما بعد نسبيًا، عندما تبيّن لي أنّه بقدر ما يحبّ مصاحبة الحسان فإنّه لا يستجيب لمنّ، وأنّه لا يستجيب إلّا للمومسات ذوات السحن الوحشيّة. وأنتم دراسته عام ١٩٣٨ بعد سقوط أربع مرّات، وسعى الباشا إلى تعيينه في النيابة العموميّة بنفوذه، ولكن لم يكن يُقبل أحد في وظائف النيابة إلّا بعد تحرّيات، وقد كشفت التحريّات عن الغرزة المستقرّة في مسكنه المستقلّ فرُفض الطلب وأبلغ والده بالحقيقة. وفتح أبوه بالأمر فقال باستهانة:

- النيابة العموميّة وظيفه مضحكة!

فغضب الرجل وغضب الابن وسعى الابن الآخر بينها حتّى هدأت النفوس. واتفق على أن يفتح الباشا له مكتب حمامة في مقامه المستقلّ على أن يجعل سهراته الخاصّة في الخارج. وأعدّ في إحدى الحجرتين اللتين يتكوّن منها المبنى مكتب، ومكتبه قانونيّة، وألصقت على مدخل السراي لافتة باسم المحامي الجديد. ولم ينقل الاتفاق إلّا أيّامًا معدودات ثمّ رجعت ريمة لعادتها القديمة، فعاد الأصدقاء ودارت الجوزة، وكان الحشيش قد أسره تمامًا. ولم يفتن الأصدقاء بذلك فكانوا يجيئون ببعض المومسات باعتبارهنّ عميلات للمحامي الجديد، فتطوّرت الغرزة إلى ماخور، وسكرت إحداهنّ ذات ليلة حتّى فقدت وعيها فتجرّدت من ثيابها وراحت ترقص في الحديقة تحت ضوء القمر...

ولأوّل مرّة يسمح الباشا لغضبه بالانفجار، انهال على الابن سبًا ولعنًا، فردّ له الابن السبّ سبّتين

وهلة أنّه متعب، وأنّه يحتاج إلى سياسة خاصّة في معاملته كي يمنح ثقته وصداقته، وأنّه يحتقر كلّ شيء في الوجود، وأنّ كلمة «مضحك» إكليشيه لاصق بلسانه يصف به أيّ شخص أو أيّ فعل مهما يكن رأي المتحدّث فيه، فأستاذ المدنيّ «دكتور مضحك»، ومصطفى النحاس «زعيم مضحك»، وقرار الوفد بإعلان المقاطعة «إعلان مضحك»، وقواعد الإسلام «قواعد مضحكة» حتّى سألته مرّة:

- من يستحقّ احترامك من الناس؟

فأجاب وهو يضحك:

- الجميل الشرّير!

ثمّ وهو يواصل الضحك:

- يقال إنّ إسماعيل صدقي كان كذلك في شبابه...

فقلت:

- ولكنك تحترم والدك بلا شكّ؟

فبصق على الأرض بتلقائيّة ووحشيّة وقال:

- اللعنة عليه وعلى جميع الحشرات!

وعرفت ما لم أكن أعرف من مقتله لأبيه. وحدثني موسيقار من جيرانه عن تلك العلاقة الغريبة فقال إنّه - عدلي - لم يعد يخفي كراهيته لأبيه منذ زمن بعيد، وإنّ الباشا يداريه مسلّمًا أمره لله. وسألت عن السبب فقال:

- لا يدري أحد شيئًا على سبيل اليقين، وعدلي نفسه لا يجب أن يفشي ذلك الجانب من أسراره، ولكنّ المظنون أنّ مرجع هذه الكراهية إلى زواج أبيه من امرأة أخرى بعد وفاة أمّه...

ولما توثقت العلاقة بيننا سألته عمّا يدعوّه إلى مقت أبيه واحتقاره فحدجني بنظرة قاسية وقال:

- ألا يكفي لذلك أن يورثني سحنته؟!

فقلت:

- أنت فلاح جميل!

فعبّس قائلاً:

- لو نالفتني مرّة ثانية فسأمتك أكثر منه.

ولكي يبتعد عن مجال أبيه ويتجنّب رؤيته ما أمكن أقام في مبنى مستقلّ بحديقة القصر كان يُستعمل

واللعنة لعتنين، وصفعه الأب فهذه الابن بالصفح والركل، وعند ذلك طرده من قصره وحذره من أن يريه وجهه مرة أخرى. وغادر عدلي القصر مطرودًا في أوائل أيام الحرب العظمى الثانية، وليس معه إلا ملابسه. وراح يبيت بالتناوب في بيوت أصدقائه ويفكرون في المستقبل. اقترح عليه بعضهم أن يبحث عن أي وظيفة كتابية حتى يجيء الفرج، ولكنه قال بكبرياء:

- إني أفضل الصعلكة . . .

وعرض عليه رضا حمادة أن يبدأ من جديد في مكتبه ولكنه قال له:

- نسيت القانون ولا همة لي الآن على استرجاعه.

فقال الرجل ببراءة:

- قم بأي عمل في المكتب!

فأدرك أنه يعرض عليه أن يعمل كاتبًا بمكتبه فصاح غاضبًا:

- إني أحتقرك وأحتقر من خلقتك!

واختار الصعلكة فكان يقترض مبالغ متفاوتة بضمها من موت أبيه الذي جاوز السبعين من عمره وكان يتبلغ بالسندوتش ويُسكت صراخ بطنه بالبول السوداني، وينتقل في الليل من غرزة إلى غرزة ليدخن بالمجان، ثم يقضي الليل في بيت صديق أو في مقصورة من مقاصير مهوى الفيشاوي. وساء مظهره، ووهنت صحته، ورثت ثيابه، وصار أشبه بالتشردين، ولكن كبرياءه كان يتعمد ويتضحّم حتى انقلب وقاحة وسفاهة. وكنا مجتمعين مرة بالفيشاوي فإذا به يضحك عاليًا ويستغرق في الضحك، فسألته عما يضحكه، فقال:

- تصوّر أن أموت أنا قبل «الكلب» . . . ؟

فقلت بأسًا:

- هذا محتمل ومتوقّع أيضًا!

فلعني وقال:

- إني على استعداد لأن أعبد الله إذا أخذ

روحه . . .

ثم مستدركًا:

- على أي حال ليس لديّ ما أشكوه ما دمت أجد

الجوزة في آخر النهار

وكان أيضًا قابلاً في الفيشاوي - ١٩٤٧ أو ١٩٤٨ - عندما جاءه رسول من شقيقه يعني إليه والده ويدعوه إلى القصر. كان مسطولاً فلم يفهم من المرة الأولى، وكما أخذت الحقيقة تلاطمه وتوقظه وقف مترنحًا، فحملق في الجدار المطعم بالأرايبسك، وسرح في غيابات لا يدريها أحد، ثم غادر المكان دون أن يلقي تحية وراه. واستقبله أخوه - رئيس محكمة كان - وقال له:

- البقية في حياتك.

ومضى به إلى الداخل وهو يقول:

- ما كان كان، وهذه ساعة مقدّسة تُنسى فيها الأحقاد . . .

حتى أوصله إلى مخدع الباشا فأوسع له وهو يقول:  
- ادخل فودّع أباك ليغفر الله له ولك ولنا جميعًا.  
وتسلّل عدلي إلى الحجر - كما حكى لنا فيما بعد - ووقف وحده عند رأس الجثمان المسجّى، ثم أزاح الغطاء عنه قليلاً حتى انكشف وجهه المطوّق، ونظر إليه مليًا، ثم غمغم:

- إلى الجحيم يا قدرا

وأكثر من صوت قال:

- مستحيل . . . مستحيل . . .

فنظر إليهم باحتقار لضعفهم وتمتم:

- كم وددت أن أمثل بجثته!

بعضنا لم يصدّق كلمة مما حكى والبعض آمن بكلّ حرف وحنّ أنه ربّما فعل أكثر مما قال. على أي حال ابتسمت له الدنيا بعد عبوس. وقد ترك الباشا أملاكًا منها أرض وعقار وأموال سائلة، وكان نصيب عدلي عمارتين يدرّان دخلاً صافيًا قدره ألف جنيه في الشهر، بالإضافة إلى أربعين ألفاً من الجنيهات. وقال كثيرون من أصدقائه:

- لقد كانت أعوام التشرّد درسًا أريد به أن يعرف

قيمة القرش فيحسن معاملته!

والتفت حوله أصدقاؤه عقب انفضاض المأتم

واستبقوا إلى تخطيط صورة للمستقبل السعيد:

- من حسن الحظ أنّ مطالبك في الحياة معقولة وآثمة

المرايا ٣٥٧

الأخرى، وتجلّى في أثناء ذلك سعيًا مجنونًا فوق الحذر والماضي والمستقبل. وما جاء عام ١٩٥٠ حتى كان قد باع شقته ورجع للإقامة في فندق سميراميس، ثم باع السيارة، وبدا المستقبل واضح المعالم. وأذكر أنني تدارست حاله مع الصديق رضا حمادة فقلت له:

- أهو مجنون؟

فأجاب:

- لا يخلو من جنون.

- إنّه لا يشعر بالغد.

- أو إنّه مستغرق في لحظة الراهنة.

- أكاد - وسط همومنا التي تثقلنا - أحسده!

فضحك عاليًا، وقال:

- على الحياة أن تكون جدًّا أو فلتذهب إلى

الشیطان!

وعندما نفذ حسابه غادر سميراميس. واجه الحياة مرّة أخرى وهو لا يملك ملبيًا ولا أمل له من وراء وفاة أحد. ولم يكن بلا خطة. شرب زجاجتي ويسكي وبلغ ربع أوقية حشيش وهام على وجهه. وغرّ عليه صباح اليوم التالي جثة هامدة على شاطئ النيل.

## عزّمي شاكِر

تعرّفت به في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم عام ١٩٦٠، وقد قلت له من فوري:

- أذكر أنّي رأيتك في زيارة للأستاذ عباس فوزي في أثناء الحرب العظمى الثانية...

فقال:

- لم أقبله من مدّة طويلة، وبالمناسبة كيف تفسّر تحوُّله إلى تأليف الكتب الدينيّة، أكان عن عقيدة حقًّا؟

فأجبت بحذر:

- أنت تعلم أنّه كان دانيًا من المهتمين بالتراث!

وكان عزّمي شاكِر يوم تعرّفت به في الأربعين، وقد جذبني بذكائه وثقافته وصراحته، وأشعرتني تمامًا بأنّه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجدّ، ويلتمسون السبل إلى الأمل. وكان دكتور في التاريخ من فرنسا، ومتزوِّجًا من مدرّسة دكتورة في العلوم.

بوسعك أن تعيش ملكًا حتى آخر يوم في حياتك.

- وفرّ لنفسك مسكنًا جميلًا، واعرض نفسك على طبيب كبير، واحمد ربك أنّك لم تغوَ القمار، الطعام أمره هين، ومزاجك في النسوان متواضع، ولم نسمع عن أنّ الحشيش خرب بيت أحد، فمبارك عليك رزقك الحلال!

وصاح بهم:

- كفّوا عن النصائح عليكم اللعنة!

كان يمقت النصح ويعده تعاليًا مردوًّا ولكنّه بدأ ثملًا بالفرح والسعادة، ويات ليلتها في فندق سميراميس، وأقام به حتى يدبّر أمره، ونشط نشاطًا غير معهود فاستأجر شقة على النيل بخمسين جنيهاً شهريًا. ومضى يؤثثها بأفخر الأثاث، وقد ذهلتنا - نحن البسطاء - عندما علمنا بأنّ تأثيثها تكلف عشرين ألفًا من الجنيهات، وأعجب ما أذهلتنا فيها كان حجرة شرقية، أقام بها بارًا أمريكيًا وغرزة مؤهت أدواتها بالذهب والفضّة، كما ابتاع سيارة كاديلاك، وكان مجموع ما أنفقه على ذلك - بالإضافة إلى الملابس - ثلاثين ألفًا. كان مبلنًا خياليًا، ولكن اعتذر عن ضخامته أصدقاؤه بما عاناه من حرمان طويل، وقالوا أيضًا إنّ التأسيس عادة يتكلف أضعاف ما تتكلفه الحياة اليومية. ولكنّ الحجرة الشرقية شهدت سهرات ليلية جمعت الأصدقاء والطفليين وغانيات الملاهي الليلية وبعض الفنّانين والفنّانات، وجرت الخمر وانتشر الدخان الأزرق وجيء بموائد الطعام من نادي السيارات، وراح يحظر بين الضيوف رافلاً في الحرير عاطًا بالأجلال والإكبار. وما لبث أن تطايرت العشر الآلاف جنيه فلم يبق إلا دخل العمارتين، وقال المتفائلون أنّ أن أوان الانضباط وستسير الحياة سيرتها المترّنة المعقولة، ولكنّه كان اعتاد عادة الإسراف وتقمّص روح ليالي ألف ليلة وليلة، وعلى حين كان ينفق بسخاء على غانيات الملاهي كان يمارس العشق الحقيقي مع بنات الهوى المتواضعات، ومع بيّاعة فول سودانيّ فلأحة من المترّدات على مقهى الفيشاوي، ولذلك لم يوفّق إلى التوازن أبدًا، واضطرّ إلى بيع إحدى العمارتين رغم توسّلات الأصدقاء، ثمّ ألحق بها

وكان الأستاذ سالم جبر يعرفه، وقال لي عنه:

- إنه كان تلميذاً وفدياً ولكنّه اهتمّ من بادئ الأمر  
بالمشكلات الاجتماعية، ويعترف بأنّ قلبي كان له الأثر  
الأول في توجيهه . . .

ولما حدثت عزمي شاكر في ذلك قال لي:

- لم تكن وفديتي قسوة كالحال في جيلكم،  
وتخلّصت منها تماماً قبيل الثورة، ولكنّي بقيت على صلة  
حميمة بالجناح الوفديّ اليساري، وعُدت منذ ذلك  
الوقت من الشيوعيين وعُرفت بذلك في أوساطهم . . .

وقال لي أيضاً:

- ولما قامت ثورة يوليو استقبلتها بترحاب وحذر  
معاً، أعجبت بإلغائها للنظام الملكيّ وبتحقيقها  
للجلاء، ولم أعجب كثيراً بإصلاحها الزراعيّ،  
وسرعان ما اعتبرتها انقلاباً قصد به الإصلاح وتفادي  
الثورة الحقيقيّة . . .

ويسبب موقفه فصل من هيئة التدريس الجامعيّة،  
ثمّ اعتقل أحياناً، ثمّ أفرج عنه فعمل في الصحافة .  
وعكف على الكتابة في الموضوعات التي تتيح له التعبير  
بإخلاص عن آرائه فآثر الكتابة في الشئون الخارجيّة أو  
التاريخيّة أحياناً. وعقب صدور قوانين يوليو ١٩٦١  
الاشتراكيّة تغيّر موقفه تغيّراً ذاتياً وجذرياً وعن إخلاص  
حقيقيّ. كان قد انضمّ إلى أصدقائنا، وكان يجتمع بنا  
في مكتب سالم جبر وصالون ماهر عبد الكريم. وذات  
يوم قال لي:

- الثورة هي أنسب حركة تاريخيّة لوطننا في ظرفه  
الراهن.

فقلت له:

- إذن غيرت رأيك؟

- أجل، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين، وأن

نؤيّدنا بكلّ قوانا!

وأمّنت بصدقه، ولم أجد ما يدعو إلى التشكيك  
فيه، ثمّ إنني من المؤمنين بإخلاصه. ومن يومها وهو  
دائب على تأييد الثورة بقلبه وقلمه، في سرّه وعلايته،  
ولم يُفهم موقفه على حقيقته في أوساط زملائه .

وأذكر أنّ عجلان ثابت قال لي عنه:

- إنه وغد لا أكثر ولا أقلّ، ومهما خطر في لباس

قدّيس!

فقلت له:

- إنّي أعتقد بإخلاصه، لا يداخلني شكّ في ذلك .  
فقال ساخراً:

- إنّ أقواله تبرّر تردّدك، هذا كلّ ما هنالك!

وسنحت فرصة لرجوعه إلى الجامعة ولكنّه آثر  
الجهاد في ميدان الصحافة. ومن المهمّ أن أسجّل أنّه لم  
يكن مؤيِّداً أعمى أو متعامياً، فلم تكن تخفى عنه  
الأخطاء التي تُرتكب. وكثيراً ما كان يردّد:

- بما يؤسّف له أنّ الثورة لم تعتمد على الثوريين  
الحقيقيين، فخلقت منهم أعداء حيناً، أو وضعتهم  
تحت المراقبة حيناً آخر.

وقال مرّة بحزن شديد:

- إنّ الفساد ينتشر كالوباء، لا تملك إلاّ التحذير،  
وحقّ ذلك لا يتيسّر لنا إلاّ فيها ندر.

وثبت لي أنّه من الشيوعيين المتجدّدين، الذين  
يتطلّعون دائماً إلى الحرّيّة، الذين يعتقدون أنّ الحرّيّة  
تعاني مأساة مريرة، ولكنّه لم ييؤنّ أبداً من شأن النقلة  
التاريخيّة التي وثبها الوطن، وكان يتعلّق بالمستقبل  
المضيء كلّما ألحّت عليه عثرات الحاضر. ولما عرّفته  
بالدكتور صادق عبد الحميد لمس سريعا ما يقرب بينهما  
من وجهات النظر فتوثقت العلاقة بينهما. ولما قبض  
على الشيوعيين حزن حزناً عميقاً، وساوره قلق أشبه  
بتأنيب الضمير، ولكنّه قال:

- إنّه التعصّب، والإيمان بالكتب أكثر من الواقع!  
وكم اغتبط لدى الإفراج عنهم، واغتبط أكثر عندما  
علم بأنهم تبرأوا من الحزب الشيوعيّ، وعقدوا العزم  
على التعاون مع الثورة، وقال:

- ها هم يرجعون إلى موقفني الذي اتّهمت به  
عندهم!

فقال الدكتور صادق عبد الحميد:

- وفي ظروف مختلفة تماماً!

وتولّوا مناصب رئيسيّة في الدولة والصحافة تاركين  
إيّاها - نسيّاً - في القاع، فلم تحلّ نفسه من امتعاض،  
وأفلت منه ذلك القول مرّة:

- أخشى أن يكتشف الكتاب يوماً أنّ اللامعقول



## كَزِيرَةُ عَبْدِ

عندما قَدَمَني لها الدكتور زهير كامل في صالونه لم أكن أسمع باسمها لأول مرة، لعلّي اطلعت عليه في مجلّة أو جريدة. كانت بصحبة زوجها، سمراء أنيقة القسّيات خفيفة الروح، قدّرت عمرها بالثلاثين وقال جاد أبو العلا إنّها في الأربعين، وكان ذلك في عام ١٩٦٠، وهي وزوجها - في الخمسين - فتانان تشكيليّان، وقد دعيتاني إلى مسكنها في مدينة الأوقاف فأطلعت على معرضها الدائم، ودهشت وأنا أنتقل بين لوحات واقعيّة في زمن ندرت فيه الواقعيّة وطوى التجريد، بل كانت واقعيّة ذات أهداف واضحة، وقلت مداعبًا:

- أخيرًا أظفر بفنّ رجعيّ!

ولكنّها قالت باحتجاج عذب:

- أمامك فنّ تقدّميّ، بل الفنّ التقدّميّ الوحيد!

ونشأت بيني وبينها مودّة عميقة، وكما أقنعتني بفنّها أقنعتني بأموثها الصادقة لابنين، ولكنّها بدت أقدر على الصداقة من زوجها الذي لا يحبّ الارتباط، والذي يحضرنا بجسمه على حين يغيب بروحه عن الزمان والمكان. وكانت مثقفة جدًا، وتعتبر هي وزوجها من ذوي الميول اليساريّة، ولكنّها كانت تُشعّرنني دائمًا بقوّتها بخلاف زوجها الرقيق، القشّة التي تتلاعب بها أخفّ الرياح. واصطحبت معي الأستاذ يوسف بدران محرّر إحدى الصحف الفنّيّة إلى بيتها بناء على اقتراح منها، فلاحظت أنّها تفاهما تفاهمًا روحيًا عجيبيًا وسريعًا، وأنّها تبادلًا احترامًا ومودّة.

وذهبت يومًا لزيارة يوسف بدران في شقّته بشارع قصر العيني، وجلسنا نتحدث وأنفاسه تتردّد على وجهي معبقة برائحة الخمر، وما لبث أن فُتح باب حجرة النوم فخرجت منه عزيزة عبده مرتدية إحدى بيجاماته. دهشت وارتبكت ولكنّي واجهت الموقف باللغة المناسبة فتظاهرت بعدم المبالاة. وشجعتني على موقفني بضحكاتها العذبة وحديثها الطبعي، وكانت أنفاسها تنفث أيضًا شذا الخمر.

وتكلّمنا في شئون كثيرة أمّا وجودها في الشقّة بالحال

أسلوب مناسب لمعالجة العقائد أيضًا!

ولم يعد يجد في الصحافة الراحة النفسيّة التي نعم بها طويلًا، فطلب العودة إلى التدريس بالجامعة، وسرعان ما حُققت له رغبته. ولما وقعت الواقعة - هزيمة يونيه ١٩٦٧ - تزلزل كيانه كالجَميح، وشدّته إليها موجة النقد العاتية فغطس فيها وقبّ، ولكنّه لم يكتب كلمة في الموضوع بالرغم من أنّه كان يكتب نظرات أسبوعيّة في مجلّة سياسيّة. وأشهد بأنّه كان من أوائل من تابوا إلى التوازن بل لعلّه كان أولهم، ففي أكتوبر من السنة نفسها نشر مقاله المشهور الذي حلّل به الهزيمة، فاعتبرها درسًا، وحذّر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس، وأكد في النهاية حقيقة ما زال يؤمن بها وهي أنّ الثورة هي الأرض الحقيقيّة المتنازع عليها، لا سيناء ولا القدس، وأنّها هي التي يجب أن تبقى وأن تستمرّ. وفي الأعوام التي تلت ذلك عكف على تأليف كتابه الرائع «من الهزيمة نبدأ»، وهو دستور لحياة جديدة تشقّ طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة، وقد شهدته وهو يعمل في وحدته بالأتحاد الاشتراكيّ بهمّة مدهلة، كما استمعت إليه في التلفزيون مرارًا. وهو من القلّة التي لم تُصّب بانقسام الشخصيّة، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم في مجالسه الشخصيّة. وإشادتي به كانت بلا شكّ من أسباب إغضاب كثيرين ممن هزمتهم الأحداث مثل عجلان ثابت وسالم جبر. ولا أنسى كيف غضب الأستاذ سالم وأنا أنوّه مرة بكتاب «من الهزيمة نبدأ» فقال ببرود:

- طالما احترمتها ولكنّه لم يعد إلّا المعادل الموضوعيّ

المدنيّ!

أمّا ثابت عجلان فسَمّي الكتاب «من الانتهازية نبدأ»، وجعل يضحك ويقول:

- حسبنا أن يكون لنا من الكتاب جاد أبو العلا وعزمي شاكِر، يا بلد الاحتفال بالإسراء والمعراج في

عصر المهبوط على سطح القمر!

ولكنّ الدكتور عزمي ما زال ثابتًا في إيمانه وصدقه ونشاطه.

وبدافع الحبّ في بعض الأحوال.  
- وكنت أشعر بالخوف أحياناً ولكنّي لم أشعر بالندم  
قطّ... .

وتوقّفت عن السير متأثرة ثمّ قالت:

- أصبحت سيّدة نفسي، وتحديت العالم كلّه، بكلّ  
قيمه التي لم أعد أومن بها... .

وواصلنا السير وهي تقول:

- وأمنت دائماً بأنّي نقيّة مثل الأوكسيجين.

ولما حَمَّ الافتراق شدّت على يدي وهي تقول:

- نحن أمل المستقبل الحقيقي!

وبعد سنوات من تعارفنا اعتقل زوجها فيمن اعتقل  
من الشيوعيين، فحزنت حزناً عميقاً شاملاً، ونهضت  
بعبء الأسرة والابنين رغم اضطراب بطنها بجنين  
جديد. وتوارت عن الصالونات والمعارض ولم نجد  
وسيلة للاطمئنان عليها إلا التليفون. وسألت يوسف  
بدران عنها فقال لي:

- علّمي علمك... .

فسألته بدهشة:

- ألا تتقابلان كالعادة؟

- قطعت العلاقة مذ اعتقل الرجل.

- حقاً؟

- إنّها غريبة الأطوار ولكنّي غير آسف.

انقطعت عنها فلم أعد أتذكرها إلا لمناسبة. وزرتها  
بعد ذلك بسنوات - بعد الإفراج عن زوجها - للتهنئة.  
كان ابنها طالبين في الجامعة وكانت ابنتها في  
السادسة. ودبّ النشاط في حياتها مرّة أخرى ولكنّها لم  
تصل ما انقطع من أسبابها بيوسف بدران الذي تزوّج  
في تلك الفترة من مهاجرة فلسطينيّة مثقفة. ويوماً كنت  
ويوسف في زيارة للجهة الشرقيّة ضمن مجموعة من  
المواطنين، وجاء ذكر عزيزة فسألني:

- رأيت ابنتها الصغيرة؟

فقلت:

- نعم، وهي جميلة جداً!

فهمس في أذني بهدوء:

- إنّها ابنتي!

فقلت بدهول:

التي وجدت عليها فمضى دون ضوء أو تفسير كأنه  
حقيقة مسلمّ بها. وقال لي يوسف بدران فيما بعد:

- هكذا وقع الحبّ علينا من السماء!

فقلت له:

- أنت تحبّ الغزل!

- ولكنّها كانت البادئة... .

فرميته بنظرة شكّ فقال:

- صدّقني، وسيطرهما أقوى من جاهلها... .

- تحبّها؟

- هي تحبني وفي ذلك ما يكفي.

- وأنت؟

- هي كنز لا يُستهان به ولكنّها لا تعكس الأسلوب  
الذي أعشقّه!

- وزوجها؟

- لا أهميّة له في الموضوع!

والتقيت بها بعد ذلك في صالون جاد أبو العلا،  
وكانت وحدها إذ كان زوجها في الإسكندرية، فطلبت  
منيّ أن أوصلها إلى بيتها، وسرنا معاً في الطريق فإذا  
بها تقول:

- أنا حريصة على صداقتك.

فقلت بصدق:

- وأنا حريص على صداقتك.

- ولا صداقة بلا احترام.

- وإنّي أحترمك.

- أكاد أقرأ في نفسك تساؤلات محيرة... .

- لست قليل الخبرة كما قد تظنّين.

- ولكن قد يبدو لك زوجان شاذين لنظرتهم المغايرة  
للدنيا والحريّة؟

- لا أظنّ... .

- أنا لم ولن أمارس الخيانة!

- لا تسيئي الظنّ بفهمي يا عزيزتي... .

وحذتني عن ماضيها فقالت إنّها التحقت بالمدرسة  
الثانوية وهي مزوّدة بإرشادات أمها الطيّبة المرذدة  
لصوت الجليل السابق، ولكنّها سلّمت نفسها لأوّل  
شابّ بادها الحبّ وهي تظنّه سيفي بوعوده، ثمّ كرّرت  
ذلك مراراً، بدافع الثورة حيناً وبدافع اللهو حيناً آخر

## المرابا ٣٦١

- كلاً  
- هي الحقيقة  
ثم قال:  
- حاولت إقناع عزيزة بإجهاض نفسها ولكنها رفضت...  
- متى كان ذلك؟  
- في الأيام السابقة مباشرة لاعتقال الرجل.  
- ولم رفضت؟  
فصمت قليلاً ثم قال:  
- قالت لي لقد أحببتك حباً لم أحبه أحدًا من قبل وسأحفظ بثمرته!  
- رغم أنها قاطعت الدنيا عقب اعتقاله!  
- وزوجها هل يعلم؟  
- لا أدري...  
وتفجرت قليلاً ثم قلت:  
- الحق أنّ البنت تشبهك!  
- أجل، ولذلك أحرص على تجنب رؤيتها!  
ويحلول عام ١٩٧٠ أحرزت عزيزة عبده أول نجاح حقيقي في حياتها الفنية بنجاح معرضها، واعترّف بها كفتانة مصرية أصيلة...  

## عشماوي جلال

يقع بيته في شارعنا عند طرفه الشرقي المتصل بشارع العباسية، وهو بيت رمادي اللون، مكوّن من طابقين، وحديقة شبه مهملة لم يبق من زرعها إلا ياسمينية ونخلتان وشجرة مانجو شاحخة. وكلما مررت به ألقيت عليه نظرة مشحونة بحب الاستطلاع والنفور كحال سگان شارعنا جميعاً. وأنا جديد طارئ على الحي، وفي فترة التعارف والاستكشاف، أشار صديق - لعله رضا حمادة - إلى البيت وسأل:  
- أتعرف بيت من هذا؟  
فأجبت بالنفي طبعاً فقال:  
- بيت عشماوي بك جلال!  
وسرحت لحظة كالمدهول ثم هتفت:  
- عشماوي بك جلال؟  
- بنفسه ودون غيره!  
- قاتل الطلبة؟  
- قاتل الطلبة!  
- وهل ترونه؟  
- لا يعلم أحد مكانه، لا هو ولا أهله، يخافون جمعية الكفّ السوداء، ولكن هذا هو بيته...  
- أكانوا يقيمون هنا؟  
- نعم.  
- ومتى هجروا البيت؟  
- مذ اشتهر الشيطان بقتل المتظاهرين...  
اقرن اسم عشماوي جلال بالرعب في وجداني منذ طفولتي. كان ضابطاً كبيراً بلواء الفرسان بالجيش المصري، واستحقّ بجدارة أن يوصف بأنه العدو الأول لثورة ١٩١٩ في الجيش المصري. وجرت أخباره كحكايات الرعب بأنه يقتل بلا رحمة، ويمدّب ضحاياه فيربط الطلبة بجواده وينطلق به وضحيته يسحل خلفه مرتطماً بالحصى والأسفلت حتى تفيض روحه. ولما تولى سعد زغلول الوزارة عام ١٩٢٤ أحاله إلى المعاش، فتنسّل عائداً إلى بيته المهجور بشارعنا، وقبع فيه لا يبرحه كأنه سجن. وددت كثيراً أن أراه ولو مرة، أجلت البصر في النوافذ والشرفات والحديقة، لمحت زوجته وابنتيه ولكّتي لم أراه أبداً. وكان اختفاؤه مثار الأحاديث، فهو لا يغادر البيت ولا يظهر في نافذة ولا يتمشّي في الحديقة، وتعرض المناسبات في الشارع فلا يزور ولا يجامل، فكيف يمضي وقته، وكيف يطيق سجنه، قال جعفر خليل:  
- إنه ينفرد بنفسه لأنه لا صديق له.  
وقال رضا حمادة:  
- إنه يخاف انتقام الشعب...  
وقال سرور عبد الباقي:  
- يقال إنه فقد البصر وعجز عن الحركة وإنه يتكتم ذلك حتى لا يشمت الناس به.  
وكان له ابن وابنتان، فأرسل ابنه إلى إنجلترا لياشر دراسته الثانوية خوفاً عليه من انتقام الطلبة في القاهرة، وسمعنا فيما بعد أنه التحق بكلية الطب في لندن ثم عمل هناك طبيباً وتزوَّج وتجنّس بالجنسية

الثوار، ولكنّه لم يَجْزِ الثقة أبداً، وافتضح تعاطفه مع الثورة، وولاؤه لزعيمها، بل وتصديّه جهازاً للدفاع عنه عندما تأمر أعداؤه على الغدر به، ولكن شدّ عن ذلك عشماوي جلال باندفاعه الجنونيّ في الهجوم على الثوار والغدر بهم وتعذيب زعمائهم من الطلبة حتّى فاق الإنجليز أنفسهم في عنفهم وقسوتهم، وحتّى احتلّ في قلوبهم منزلة لم يحتلّها مصريّ من قبل. وأبغضه مواطنوه حتّى الموت، ولم يعطف عليه السلطان لعلمه بأنّ إخلاصه كان وفقاً على سادته الإنجليز لا عليه، ويُدلّت محاولات لقتله لم تكلّل بالنجاح، وإن أصابته شظيّة قنبلة وطنية إصابة سطحيّة في ساقه. ولم يكتريث الرجل لموقف الشعب منه، وتمادى في ضلاله كأنّما كان يؤدّي فريضة دينيّة. وقالت زوجته ضمن أحاديثها عنه مع جاراتها إنّ والدها طالبه يوماً بالاعتدال وإنّه قال له:

- قم بواجبك بلا تورط في الأعمال المتطرّفة...  
فقال له:

- إنّي لا أقوم بواجبي كضابط فحسب، ولكنّي أدافع عن مبدأ، فإنّي أعتقد أنّ استقلال مصر عن إنجلترا سيؤدّي بها إلى الانحلال والفساد، وأننا إذا خرجنا من الأمبراطوريّة خرجنا من الحضارة.  
وتوفّيت زوجته بالسكّنة قبيل الحرب العظمى الثانية فدُفنت على بعد أذرع من مقام الرجل الوحيد في حجرة استقبال المدفن. ولحق بها في العام الأوّل من الحرب بعد أن تمكّن منه تليف الكبد، ومن العجيب أنّ اسمه لم يُمخّج من ذاكرة جيلنا حتّى اليوم، وأنّ الكثيرين ما زالوا يحفظون الأغنية الشعبيّة التي وُضعت بقصد التشهير به.

## عصام الحملاوي

كان بيت آل الحملاوي يطلّ على شارعنا بضلع كما يطلّ على بين الجنانين بضلع آخر. وهو أكبر بيوت الشارع، وذو حديقة واسعة تحيط به من جميع الجهات، ويتراعى من فوق أسواره العالية رموس النخيل والمانجو بكثرة مذهلة. وكان ربّه عصام بك

الإنجليزيّة. وأمّا البنتان فكانتا تلعبان في حديقة البيت، وكانتا وسيمتين جدّابتين فعجبت كيف ينجب الوحش مثلها، ولما حُجبتا - عن الشباب - كان عزفها على البيان يترامى إلينا في الشارع، فعجبت مرّة أخرى كيف يعاشر الوحش الموسيقى والألحان، وحوالي عام ١٩٣٥ تزوّجتا من عريسين مجهولين، ولم يعد في البيت إلّا الرجل وزوجته، ثمّ شاع في الحيّ أنّه هجر بيته تاركاً زوجته وحدها، وقيل - وأكدت زوجته ذلك - أنّه أقام في الأسرة في الحجرة المعدّة لاستقبال زوّار المقبرة في المواسم وإنّه أوصى بأن يُدفن بعد موته دون جنازة أو احتفال، وكانت زوجته جميلة وطيّبة، وقد خرجت من عزلتها عقب هجرته إلى المدفن، فزارت الجيران، واكتسبت ودهنّ بيسر، وأصبح لها مكانة مرموقة في الحيّ، وكلّ ما عُرف عن الرجل الوحش عدا ذلك فمرجعه إلى رجال الجيل السابق من قدامى سگان الحيّ، قالوا عنه أنّه كان غلاماً منظوياً على نفسه، ولكنّه كان مهذباً، ورغم اجتهاده فشل في دراسته حتّى اضطرّ أبوه - وكان ناظر وقف صغير - إلى إلحاقه بالمدرسة الحربيّة وهو ساقط ابتدائيّة، متشقّقاً بصداقته لهربرت باشا ناظر المدرسة في ذلك الوقت. ولدى تخرّجه عمل في السودان. فأثبت في الخدمة كفاءة حازت تقدير الإنجليز وخدمت سياستهم الموضوعية بحلق في جباية الضرائب بقسوة لتفسير المواطن السودانيّ من الضابط المصريّ، ومن ثمّ نشأت بينه وبين الضباط الإنجليز صداقة حميمة. وكان عشماوي جلال يعجب بالإنجليز إعجاباً فاق الحدود، ويحبّهم حبّاً عظيماً ويتيه بصداقتهم ويعتدها عزّته الأولى في الحياة. وكان يمضي إجازته السنويّة في إنجلترا سائحاً ومستطلعاً حتّى آمن بأنّ الإنجليز هم سادة البشر وأنهم المبعوثون من العناية الإلهيّة لتمدين البشر وخاصّة المتأخّرين منهم كالمصريّين. وأخبرني رضا حمادة أنّه بسبب آرائه تلك احتدمت المناقشة بينه وبين والده الدكتور يوماً حتّى تبادلوا كلمات قاسية قطعت ما كان بينهما من علائق المودّة والجيرة.

ولما قامت ثورة ١٩١٩ دُعِيَ الجيش المصريّ لمساعدة جيش الاحتلال في قمع الثورة والقضاء على

## المرايا ٣٦٣

من الأعيان والمضاربيين في البورصة، وكانت أسرته تتكوّن من زوجة وثلاث بنات. وكان الحنطور يحمله في الذهاب والإياب معلّناً برنين جرسه عن تحركاته. ولم تكن الأسرة تنتسب إلى زماننا، ولا ألوانها البراقة تنتمي إلى جنسنا، وهي وحدة كانت مستقلة بذاتها، لا سبب يربطها بمن حولها من الجيران، فلا تزور ولا تزار، ولا تتبّع تقليدياً، ولا تحترم موسماً، وإذا خرجت الأم وبناتها - راكبات أو راجلات - خرجن سافرات فبهرن الأعين ببشراهنّ العاجية وشعورهنّ الذهبية وعيونهنّ الملوّنة. وخرق عصام بك المألوف والمعقول عندما دعا إلى بيته ممثلة مشهورة، وعندما مضت تردّد عليه في أيام محدّدة. وسرعان ما عُرف أنّه أخذها عشيقته. بل نشرت مجلة الفنّ أنّه أهدى إليها عقداً ثمنه عشرة آلاف جنيه. وكنا نتجمّع في الشارع لنشهد مقدمها واستقبالها ونسعد بذلك حتّى قال جعفر خليل: نحن نشاهدها بالمجان أما بقيّة المسرحيّة فلا يمكن تخيّلها!

وتساءل خليل زكي:

- كيف يتصرف البك القوّاد أمام زوجته وبناته؟

فقال سيّد شعير:

- يتصرّف أمامهنّ كما يتصرّفن أمامه!

وكان بيت سيّد شعير أقرب بيوتنا إلى بيت آل الحملاوي، وكان آل الحملاوي يثيرون اهتمامه للدرجة القصوى، فجاهنا يوماً وهو يقول:

- انكشف الغطاء!

والتفنا حوله متلهّفين فقال:

- الهانم تعشق محمّد الكوّاء!

- محمّد الكوّاء!

كنا نعرفه غماماً فهو كوّاء الشارع، وإلى ذلك كان فتوة كما كان أعور، ولم ننصّر أنّ الهانم الجميلة التي كنا نشبّها بماي موراى يمكن أن تعشق ذلك الأعور ذا الكرش المترامية والرقبة الغليظة والوجه المفلطح. وقال سيّد شعير:

- وهي تذهب إلى بيته متخفية في الملاة اللفت، رأيتها بعيني!

واستغنت المرأة عن الاستخفاء فكان الكوّاء يحمل

الملابس بنفسه ويذهب بها إلى البيت فلا يغادره إلا بعد ساعة أو ساعتين. وحدث أن اصطحب عصام بك الممثلة إلى رحلة خارج القطر فكان الكوّاء يتردّد على البيت لمناسبة ولغير ما مناسبة، ومضى يبيت فيه جهازاً وبلا حذر. وفي أثناء ذلك كان البنات الثلاث يخرجن معاً إلى أطراف العباسية الشرقية فيقابلن المعجبين، أو يستقبلنهم مساءً في حديقة البيت، ورأيت بين أولئك عيد منصور وشعراوي الفحّام وقريبي أحمد قدري وضابط قسم الوايلي وطبيب أسنان الحيّ ومدّرس فرنسيّ! وتوهّمنا أنّ واجب الرجولة يطالبنا بالتحرش بالبيت وبالتردّد عليه ولو بالقذف بالطوب من بعيد لصغر سنّنا ولضعفنا ولكنّ شرطياً انبرى لحماية البيت، ربّما بإيعاز من ضابط القسم العاشق. وكنت إذ ذاك غارقاً في حبّ صفاء فغضبت أضعافاً على سلوك بنات عصام، واعتبرته زراية وتلويحاً لأسمى عاطفة في الوجود. ولكن بدءاً من عام ١٩٣٠ حدث ما خيبّ تقديرات أهل الحيّ جميعاً. فقد تزوّجت البنات الثلاث تباعاً، وفزن بزيجات ممتازة! تزوّجت الكبرى من مهندس، والوسطى من سكرتير وزير، والصغرى من محام ناجح. والأعجب من ذلك أنّهنّ قاطعن حياة بيتهنّ مقاطعة شاملة فكوّن أسراً كانت مثلاً في التوفيق والاستقامة! وفي الخمسينيات وما بعدها صادفت بعضاً من أبنائهنّ من الشباب الموقن الناجح، ومنهم من عُرف بالوعي السياسيّ التقدّميّ. وقد توفّي عصام بك في أيام الحرب العظمى الثانية، في نفس الأسبوع الذي قُتل فيه شعراوي الفحّام. ووُزعت التركة فورثت الهانم دخلاً كبيراً، وكانت في الخمسين من عمرها ولكنّ حيويّتها فاقت سنّها، كما احتفظت من جاهها بقدر موفور. ومكثت في البيت وحدها، وأصبح من النادر أن تزورها إحدى بناتها، وذهبنا في تفسير ذلك مذهب لا تخلو من سوء. والواقع أنّ علاقتها بالكوّاء كانت وما تزال مستمرة، ولكنّ بدا أنّ الرجل أراد التخلّص منها، حتّى إنّه صفعها مرّة أمام دكانه وعلى مرأى من بعض الخدم وهي تحاوره بما لم يسمعه أحد. ولم تمض أسابيع حتّى نشأت علاقة جديدة بينها وبين القصاب، حتّى قال

كنا نعرفه غماماً فهو كوّاء الشارع، وإلى ذلك كان فتوة كما كان أعور، ولم ننصّر أنّ الهانم الجميلة التي كنا نشبّها بماي موراى يمكن أن تعشق ذلك الأعور ذا الكرش المترامية والرقبة الغليظة والوجه المفلطح. وقال سيّد شعير:

- وهي تذهب إلى بيته متخفية في الملاة اللفت، رأيتها بعيني!

واستغنت المرأة عن الاستخفاء فكان الكوّاء يحمل

جعفر خليل ضاحكًا:

- الوليّة أرسقراطية ولكنّها ذات ميول شعبية  
وفي أواخر أيام الحرب باعت البيت وغادرت الحيّ.  
ولكنّها لم تغب عن ناظريّ طويلًا، إذ كانت تُسرى  
جالسة في مقهى اللواء أو جروبي أو الأرجنتين، تشرب  
كأسًا، ثمّ تمضي وقد اصطادت شابًا، حتّى اشتهرت  
بذلك في وسط المدينة. ورأيتها في أثنيوس  
بالإسكندرية تلعب نفس اللعبة. وتغيب فترة - طويلة  
أو قصيرة - ثمّ تظهر مرّة أخرى في نفس الأمكنة لتلعب  
نفس الدور، هذا والكبر يزحف والدبول يستفحل  
والفخامة تقلّ ثمّا قطع بأنّ نقودها تنفذ مثل أيامها.  
وكلمّا رأيتها من جديد أدركت أنّها تتدهور وتقترب من  
النهاية المحتومة. لم تعد إلّا عجوزًا معدمة أو شبه  
ذلك، وسارع إليها الانحلال والتفسيخ. وامتنعت عن  
الذهاب إلى تلك الأماكن الفاخرة أو اضطررت إلى  
ذلك، فقنعت بالتجوال في الشوارع في ملابس رثة  
ممزقة، ثمّ لم تعد تظهر إلّا في جلباب وشبشب،  
وانتهى بها الأمر إلى التسوّك أو ما هو قريب من ذلك.  
لم أرها ثمّ يدًا ولكنّ بعض أصحاب المطاعم الصغيرة  
تمنّ وقفوا على سيرتها المشهورة كانوا يتصدّقون عليها  
بالسندوتش أو ببعض النقود. وما زلت كلّما لمحتها  
أستشعر رجماً من الأسى وأستقبل فيضًا من ذكريات  
الشارع القديم بالصورة التي كان عليها على عهد  
الفوانيس المدلاة من أعالي الأبواب والحقول المترامية  
والهدوء الشامل، تلك المرأة التي راحت ضحية لنهم  
جنونيّ بالحياة. والتي يسمّى من حولها أحفادها  
الناجحون وهم على جهل تامّ بأشجانها ووحدها...

### سَيِّدُ مَنْصُورٍ

من مجموعتنا العتيدة، صادقها وصادقته، وأتصلت  
بيننا الأسباب على مدى العمر، ولكنّه كان وما زال  
الصديق بلا صداقة. وكان وما زال بلا قلب، حتّى  
خليل زكي له قلب وحتّى سيّد شعير له قلب، أمّا عيد  
منصور فلا قلب له. وكان يعيش مع أبيه وخادم  
عجوز ولا رابع لهم، أمّا أمّه فهاتت عقب إنجابها

مباشرة. وكان أبوه تاجر عمارات، عمل مع اليهود  
طويلاً، واكتسب الكثير من أساليهم ومهاراتهم. وكان  
عجوزًا فقد أنجبه وهو في الخمسين ولم يتزوَّج مرّة  
أخرى بعد وفاة زوجته فكان عيد وحيد، وكان  
بخيلًا، دقيقًا، فظًا، جامد المشاعر فرّق ابنه تربية  
شديدة لا رحمة فيها ولا مهادنة، مصمّمًا على إخراجه  
على نمطه، فلم يعرف صديقنا المعاملة العاطفيّة ولا  
جرّب الحنان أو الرحمة، كأنّما كان يتكوّن في معسكر  
لإعداد الإرهابيين. لذلك تجلّت مواهبه منذ سنّ  
مبكرة، فنشأ عمليًا، صارمًا، ذا عقل نفعيّ، وبلا  
قلب، وما زال كذلك حتّى اليوم والغد. ومنذ الصغر  
أخذ من القرش معبودًا ومقياسًا للرجولة والتفوق، ولم  
يتسع قلبه إلّا لذلك المعبود الأوحده. وكما قلت فهو  
الصديق بلا صداقة، صديق بحكم الجوار والزمانة  
واللعب وعشرة العمر ولكن بلا عاطفة ولا مودة ولا  
حبّ حقيقيّ، يضحك للكارتة كما تضحك للنكتة،  
فلم يعان أيّ تأثير لموت شعراوي الفخام ولا لموت  
جعفر خليل، ويوم قُتل زميلنا بدر الزياتي في  
الإضراب لم يكن يخفي ارتياحه لخلوّ الميدان من منافسه  
في رئاسة فريق الكرة، ولمّا شعر يومها بعينيّ تحرقانه  
عضّ على أسنانه ليمنع ضحكة من ضحكاته القاسية  
فقلت له:

- أنت شيطان!

فهمس في أذني:

- ربّنا يسمع منك!

ثمّ بمزيد من السخرية:

- لا فرق بيني وبينكم إلّا أنّي صادق غير منافق!

واعتاد أن يعيش بحكم تربيته ومزاجه خارج دائرة

تقاليدنا وديننا وأشواقنا، بحكم تربيته ومزاجه وبلا

دخل من تفكير أو فلسفة، وبلا دافع من الفساد

والشقاوة كما كان الحال مع خليل زكي وسيّد شعير،

فلم تحتشد قواه إلّا للعمل والربح، وحدهما، حتّى

الجنس وهو الترفيه الوحيد الذي مارسه لم يشغل إلّا

هامش وقت فراغه. وما إن حصل على البكالوريا عام

١٩٣٠ حتّى أشركه أبوه في العمل، وظلّ يدربه حتّى

مات عام ١٩٣٥ مخلّفًا عليه ثروة طائلة. ورغم

## المرايا ٣٦٥

نفسه بفاخر الطعام والشراب مع اعتدال تام في الخمر ونفور طبيعي من المخدرات. وكان يقضي ليلته في سمر تجاري مع العاملين معه في حقل تجارة العمارات ولكنّه لم ينقطع عنّا في ليالي سهراتنا الأسبوعية. وكان يهّمه أن يقارن بين نجاحه وبين نجاح أصدقائنا أمثال الدكتور سرور عبد الباقي والأستاذ رضا حمادة، ولم يخفِ إدلّاله بالتفوق عليهما في الثروة التي يعتبرها القيمة الأولى والأخيرة في الحياة. . . وقد داعبته يوماً قائلاً:

- ها هو خليل زكي يناقشك في النجاح والثروة

فقال باحتجاج:

- إنّه قدر حقير.

فسألته:

- أتعبر نشاطك الماليّ نشاطاً شريفاً؟

فقال بصراحة معهودة فيه:

- الشرف تتغير معانيه من بيئة لأخرى، قد أقوم بصفقة تُعتبر في نظرك نهياً ولكننا نعتبرها خبرة وذكاء ولكتّي أحتقر أساليب خليل زكي التي تُعدّ من خبرة الفقراء!

وأحبّته غانية إفرنجيّة، ومضت تراسله، فكان يقرأ علينا رسائلها ساخراً ويقول:

- هكذا تتوهّم المرأة أنّها تحبّ إذا رغبت في

الاستحواذ على رجل وامتلاكه!

وتجلّت عواطفه العامّة في أروع صورة يوم نشبت الحرب بيننا وبين اليهود عام ١٩٤٨، حتّى حُجّل إليّ أنّه يكره وطنه لأسباب لا أدريها، أو أنّ مصالحه التجارية أفسدت عليه الميول التي نعتبرها فطريّة، وتكرّر ذلك الموقف منه عام ١٩٥١ لدى إلغاء المعاهدة وكفاح القنال، ولذلك كان يكره الوفد بالرغم من لامبالته السياسيّة بصفة عامّة، على أنّ حياته واصلت مسيرها في استقرار حتّى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢. ومع أنّ الثورة لم تقتحمه بصفة عامّة إلا أنّها زعزعت طمأنينته وأقلقت ثقته. توالى عليه الهجوم بإلغاء النظام الملكيّ وإعلان الإصلاح الزراعيّ والجملاء. توثبت في أعماقه غريزة الدفاع عن النفس، وأدرك - وإن لم يكن هدفاً مباشراً - أنّه ضمن الجبهة التي تهبّ عليها العواصف وأنّها قد تقتلعه عاجلاً أو آجلاً. وهياً له الاعتداء

مغامراته في حديقة بيت آل الحملاوي فلا أعتقد أنّه تعلّق بامرأة مثلما تعلّق بشرياً رأفت، رآها وهو يعمل مع والده فاندفع في إغرائها، وقد قال لي:

- مرّ بي وقت وقعت فيه تماماً تحت سيطرتها ولو تمّنت عليّ تماماً حتّى النهاية لربّما. . .

وسكت فسألته:

- لربّما تزوّجتها؟

- على الأقلّ كنت فكّرت في ذلك. . .

فسألته:

- ألم تحزن أو تحجل من الخدر بها؟

فقال وهو يضحك:

- لا أظنّ. . .

لم يعرف الحبّ، ولا رغب في الزواج، ولا حنّ إلى الأبوّة، وحتّى اليوم وهو في السّتين أو جاوزها بقليل ما زال يعمل بنفس الهمة ويجمع المال بنفس النهم ولم يعرف للحياة غاية أخرى. وكنت أضيّق به إذا سخر من عواطفنا الوطنيّة كما ضقت به يوم سخر من بكائي لوفاة سعد زغلول، ولكنّه كان يستهين بكلّ ذلك ويقول:

- لولا الإنجليز، لولا اليهود، ما كان لهذا البلد حياة!

وظلّ يردّد ذلك حتّى آخر يوم للإنجليز في مصر. ومع أنّه كان بخيلاً كآبيه إلا أنّه استنّ لنفسه سنة جديدة في البخل، ففرّر ألا ينفق مليّاً لغير ما ضرورة بشرط أن يبيّئ لنفسه حياة رغدة.

- أنا أعزب وسأظلّ أعزب وبلا وريث فيجب أن أتمتّع بحياتي. . .

طالما احتقر الزواج واعتبره عجزاً وغباء، ويبدو أنّه لا يندم على قرار التخلّي أبداً، وكلّما تقدّم به العمر نعم برضاه عن نفسه وعن قراراته. ومنذ عام ١٩٣٦ غادر حيناً بعد أن باع البيت، وأقام في فندق مينا هاوس إقامة دائمة مفضّلاً الفندق لما يوفّره له من خدمة شاملة وليعفيه من هموم المسكن المستقلّ المتنوّعة، وفي الوقت نفسه استأجر بيتاً ريفياً في الهرم لمغامراته النسائيّة المتقطّعة، إذ لم يكن يحبّ العلاقات الطويلة ويفضّل غواني الملاهي الليليّة من الأجانب، ولم يرضنّ على

## غانم حافظ

كان مدرّس الرياضيات في المدرسة الثانوية، وكان وقتها شاباً، عُرف بالأدب والوقار وحسن المعاملة فلم يخرج تلميذ في معاملته عن حدود الأدب، حتى الذين عُرفوا بالشقاوة مثل جعفر خليل وبدر الزياي وعيد منصور. طلبه عيد منصور مرة لدرس خصوصي بعد أن أقنع أباه بأنّ أجره الدرّس الخصوصي أرحم من مصروفات سنة إعادة. وقابل غانم أفندي حافظ والد عيد فسأله الرجل عمّا يطلب فطلب ريالاً في الساعة ولكنّ الرجل فزع وقال إنّه لا يدفع أكثر من شلن، فابتسم غانم أفندي حياءً واقترح أن يعطيه الدرّس مجاناً بشرط أن يحضره مع تلميذ آخر في نفس الحّي، وقد كان. وتلقّى عيد منصور درّساً خصوصياً في الحساب مجاناً طيلة شهرين. وقد رأيت وهو يبكي يوم مصرع بدر الزياي، وكان جزاؤه منّا حباً واحتراماً. وبعد التحاقه بالجامعة عرفتّه عن كثب في مقهى الحّي، فتحوّلت التلمذة إلى صداقة. وكان أهمّ ما يميّزه دماثة الأخلاق وهدوء الطبع وأناقة الملبس، كان يجالسنا في يوم واحد في الأسبوع - وخاصّة في العطلة الصيفيّة - يدخن النارجيلة، يصغي في أدب ومجاملة وقليلاً ما يتكلّم. وكان يعالج شتى الموضوعات في إطار طبعه الهادئ، ومهما يكن من عنف الموضوع وشدة حرارته فإنّه يتحوّل على لسانه همساً عذّباً تحيطه هالة باسمه. لم يُرَ غاضباً أو محتدّاً أو صارخاً، حتى السياسة كان يترجمها حديثاً جذّاباً لطيفاً غاية في الوداعة ولو هوجم حزبه المحبوب الوفد. وإذا تصدّى للدفاع قال:

- إنهم ناس طيبون!

أو يقول:

- مصطفى النحاس؟ . . إنه رجل طيب مبارك!

وأقسى ما يذهب إليه في الدفاع أن يقول:

- ساعحك الله!

واقصر نشاطه السياسي على ذلك، وعلى التوجّه يوم الانتخاب - إذا تقرر إجراء انتخابات حرّة - إلى اللجنة لإعطاء صوته لمرشّح الوفد. ولذلك لم يشترك

الثلاثي عمليّة نقل دم ولكن سرعان ما انطفأت شعلة الأمل، واختفى من الميدان كثيرون من أصدقائه اليهود حتى قال لي يوماً:

- كم أتمنى أن أهرب أموالي وأهاجرا

ولما قرأ الرجوم في وجهي قال:

- لم تعد مصر بالمقام الصالح للأذكيا!

ثم ضحك ضحكته القاسية وقال:

- لو لم أكن مصرياً لتمنيت أن أكون مصرياً.

وتابع نشاطه بنفس القوّة بالرغم من مخاوفه، واستردّ أنفاسه في يونيه ١٩٦٧، ومع أنّه راقب الأحداث التالية للهزيمة بدهشة وذ هول إلا أنّه لم يفقد الأمل هذه المرّة، وقال لي بشهانة:

- لا مفراً!

وقال أيضاً:

- طبعا سمعت عن صحوة الموت!

ومرّت أشهر، وعام وعامان وثلاثة أعوام، وتحسّنت الأحوال، وصلبت الإرادة، وتجددت آمال النضال، ولكنّ ذلك لم يهزمه وإن أقلقه أحياناً، واعتصم بفكرته الثابتة، وغذّاها بمتابعة الإذاعات المعادية، والإشاعات المغرضة، ولما وجد منّي ومن رضا حمادة اتّهاماً لوطنيته قال:

- لا وطن بعد اليوم إلا وطن المصالح، فلما أن تكون أمريكياً وإما أن تكون سوفييتياً، إما أن تقبل الحرّة والإرادة الخلاقّة والإنسانيّة وإما أن تقبل النظام والعدالة العمياء والإرادة الميكانيكيّة!

فقد الأمل في الإنجليز، وأصبح حلمه الذهبي أن تسيطر أمريكا على الشرق الأوسط وأن تحدّد له مداراً حضارياً في مجالها الحيويّ يلعب فيه العرب واليهود دوراً متكاملًا.

هكذا علّمته المصلحة أن يتكلّم في السياسة، وما زال يعمل، يشيّد العمارات ويبيعها، يقيم في مينا هاوس يستمتع بحياته كأعزب مقطوع من شجرة، ويمارس الجنس كلّ شهر مرّة، ويزورنا في أوقات محدّدة تحيّة لبعثرة نصف قرن، صداقة بلا حبّ حقيقيّ ولا احترام، نراه مخلوقاً شاداً قدّ من حجر ويرانا مجموعة من الحمقى العابثين بلا قيمة حقيقيّة. . .



المرايا ٣٦٧

لبث ابنه الأوسط أن تماثل للشفاء فعاد إلى الجبهة، وبقي الرجل ممزقاً بين أحلامه عن المفقود وخوفه على المقاتل، وهو يتابع أبناء الجبهة ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم، ترجفه أخبار الغارات في الأرض والسماء، ويخلدله إيمانه رغم رسوخه، ويزلزله حبه العميق لأولاده، وأراه أحياناً شيئاً عجوزاً محني الظهر قليلاً أبيض الشعر، يجلس شارد النظر، يفكر في المجهول، لا يبشّر منظره بقدرة على مواجهة الحياة بمطالبها الجاحمة، فأحترار طويلاً بين العتب عليه والثناء له، ثم أنضم إليه موسمياً، ثم تبادل التخمينات عن الغيب.

## فايزة نصار

تعرفت بها في بيت عجلان ثابت بالجيزة حوالي عام ١٩٦٠ كما تعرفت بزوجها في نفس الزيارة. كانت في الثلاثين. لوجهها طابع ريفي رائق بالرغم من أنقتها العصرية. وهي وإن تكن متوسطة الجمال إلا أنها ذات جاذبية جنسية قوية، أما زوجها - عبده إبراهيم - فصاحب جراح في الخمسين، بدين مترهل حامل المظهر، يشترك في الحديث بالنظرة أو الابتسامة البلهاء ولا يكاد يتكلم.

قال لي عجلان:

- إنها جارتنا في نفس العمارة وصديقة زوجتي.

فقلت:

- زوجها غير مقنع!

- ولكنه ذو دخل محترم، أنجب منها طفلين، وهي أم لا بأس بها وإن تكن أمية!

- تبدو ذكية...

- في الأصل كانت ابنة بياعة جبن وزبدة، ولكن استعدادها للتأقلم قوي، وهي تتقدم بفضل الإذاعة والتلفزيون والصدقات...

وفي زيارة تالية لبيت عجلان ثابت قابلت فايزة نصار وكانت بصحبة رجل أربعيني حاد البصر قوي الجسم. علمت أنه يدعى جلال مرسي وأنه صاحب كازينو الهرم. وقال لي عجلان ثابت باستهتاره المعروف:

في ثورة ١٩١٩ إلا بقلبه وحده. وكان جثم التواضع، لا ينجل من أصله بخلاف الكثيرين من أهل طبقتهم، فحدثني مرة عن أصله قائلاً:

- كان أبي شرطياً...

ثم قال:

- وكان همه أن يجعل مني شرطياً غير أن جازاً لنا - تاجراً - نصحه بإدخالي المدرسة الابتدائية، ففعل، ونجحت نجاحاً استحقت عليه المجانية حتى نلت البكالوريا، ولم أجد مدرسة ميسرة أمامي إلا المعلمين فدخلتها!

وتزوج من كريمة مدرّس اللغة العربية وكانت حاصلة على الشهادة الابتدائية.

- وكانت أسرة زوجتي على تواضعها أرقى من

أسرتي فصادفتني متاعب مؤسفة...

ثم قال بشيء من الحزن وفي صراحة مؤثرة:

- كان الموقف يتطلب شخصاً أصلب مني!، ولكن

زوجتي أنجبت لي ثلاثة ذكورا

كان له يوم ترفيه واحد يمضيه في المقهى ولا يغادر أهله بعد ذلك إلا للعمل، ومرّت أعوام حافلة بالتاريخ وهو قابع في عشه يراقب الأحداث من بعيد، يناقشها بهدوء ويعلق عليها برقة، مركّزاً على تربية أولاده الثلاثة حتى تخرج بكره ضابطاً في سلاح الفرسان، والأوسط مهندساً ثم التحق بالجيش، والثالث بيطاراً.

وقد نجا ابنه من حرب ١٩٥٦ بأعجوبة فحمد الله وشكره، وواصل عمله حتى أحيل على المعاش عام ١٩٦٠، وهو يتمتع بصحة جيدة وحياة زوجية سعيدة. ولما احتشدت قواتنا في سينا في أواسط عام ١٩٦٧ خفق قلبه بعنف بعد طول هدوء، وراح يسأل كل من هب ودب:

- حرب أو لا؟

ووقعت الواقعة، وانحسر الظلام عن شيء من النور، فرجع الابن الأوسط مصاباً إصابة غير قاتلة، أما بكره فاعتُبر من المفقودين، وهزته الصدمة من الأعماق، وتبدد هدوؤه التقليدي فانهار انهياراً يدعو للثناء، وكان يحبّ أبناءه كأم، ورفض أن يصدّق أنّ ابنه قُتل، وظلّ يحلم دائماً بمعجزة تعيده إليه سالماً. وما

كانت تحبّ جلال حباً حقيقياً. وكانت في الوقت نفسه  
تحرص على نقاء بيتها وتربية طفلها تربية حقيقية،  
وقال لي عجلان:

- إن ما يتعبها حقيقة هو طموحها، فبالرغم من  
أمتيتها تحلم بأن تكون شيئاً عظيماً!

فتساءلت:

- لعلّه المال!

- حياتها رغبة، ولكنها تحبّ المال، وشيئاً أكثر من  
المال...

- أيّ شيء؟

- الفنّ إن صدق تخميني!

ثمّ قال لي:

- كلّفت أن أدعوك لزيارتهم معي...

فقلت وأنا أتساءل عن السبب فقال:

- يبدو أنّه أمر هامّ، وسنعرّفه في الحال.

وجدنا فايّزة وزوجها وعشيقها فسلمنا وجلسنا  
ونحن نشعر بأنّ توتراً ما يكهرب الجوّ والوجوه،  
وسرعان ما قالت فايّزة:

- المسألة وما فيها أنّ أحد المخرجين عرض عليّ  
دوراً هاماً في فيلمه القادم!

ونظرت في وجوهنا وقالت:

- ما رأيكم؟

ولما رأيت عينيها تطارداني قلت:

- المسألة تتعلّق بك وبالسيد عبده أولاً وأخيراً.

فقال عبده إبراهيم وهو يرفع وجهه ليجد الكلام  
ممرّاً خلال لغده:

- سيّدات العائلات يمثّلن في هذه الأيام...

ولكنّ جلال مرسي تساءل:

- أودّ أن أعرف كيف ومتى رآك، ذلك المخرج؟

فأجاب الزوج:

- وأنا ونحن عندك ليلة في الكازينو...

- وهل تجلّلت له موهبتها من النظرة الأولى؟

- هذا شأنه لا شأننا.

فقال جلال:

- كصديق مخلص لكما لا أوافق على دخولها ذلك

الميدان.

- في المرّة السابقة عرفت زوج فايّزة وما أنت تعرف  
في هذه المرّة عشيقها!

وضجّت الحجرة بالضحك، زوجة عجلان وفايّزة  
وجلال صاحب الكازينو، وقال جلال:

- لا تصدّق!

فسألته فايّزة بنبرة وعيد:

- هل تنكري؟

فأحنى رأسه بخشوع وقال لي:

- صدّق يا سيّدي...

قال عجلان ثابت:

- وهو صديق الزوج!

ودعني فايّزة لزيارة بيتها فتوطّدت العلاقة بيني من  
ناحية وبينها وبين زوجها من ناحية أخرى. وذهبت في  
صحبتها مرّات إلى كازينو الوادي فكان ينضمّ إلى  
مائدتنا جلال مرسي، ولمست مدى عمق العلاقة بينه  
وبين الزوجين. ولم أقطع برأي في مدى معرفة الزوج  
بالعلاقة بين زوجته وعشيقها، وحتىّ عجلان ثابت لم  
يعلم أكثر ممّا أعلم، ولكنّه قال لي:

- تعود على هذه العلاقات حتىّ تبرأ من عبوديتك  
البرجوازية.

ومرّة وكنا مجتمعين في بيت عجلان أنا وعجلان  
وزوجته وفايّزة. فأشار إليّ دون تمهيد وبلا مناسبة وقال  
لفايّزة:

- إنّه يعاني من عشقه لك!

وانتقلت إلى جانبي بخفّة وطوّقت عنقي بذراعها  
السمراء البضة وقالت:

- أرنيا!

فقال عجلان ضاحكاً:

- بهوادة حتىّ لا يفرع.

فقلت:

- ولكن تحت شرط.

وسألها عن الشرط فقالت:

- ليلة واحدة...

ثمّ وهي تنظر في عيني:

- المرأة الفاضلة يكفيها زوج وعشيق واحداً

هكذا كانت في مزاحها، ولكنها - فيها علمت -

## المرايا ٣٦٩

فتية لا يُستهان بها، ودُعيت إلى تمثيل دورين جديدين.

وهجرها جلال فلم تسخ لاسترداده. وما لبث زوجها أن طلقها بحجة حماية بيته وطفليه من الجور الفتي الذي أخذ يغزو بيته، ودل بقراره ذلك على أن خوله لم يكن إلا قشرة نخفي وراءها حقدًا طويلًا. وانتقلت فائزة إلى شقة صغيرة وأنيقة بالزمالك. وقد زرتها يومًا بصحبة عجلان فالتقيت عندها بالدكتور صادق عبد الحميد وعشيقته الصحفية نعامت عارف زوجة الدكتور زهير كامل التي تخصصت أخيرًا في النقد الفني، ووجدت فائزة مرحة كعادتها، وسعيدة بالنجاح، حتى قال لي عجلان ونحن راجعان معًا:

- محتمل أن نحن أحيانًا إلى طفليها ولكنها ليست بالتي تنهار بسبب ذلك، اعترف لك بأنني أسعد بنجاح أي فلاح أو فلاحه، مهما يكن ثمن ذلك النجاح!

## فتحي نيس

لفت نظري مذ رأيته في أول يوم التحقت فيه بالوظيفة. حسبته موظفًا كبيرًا أو سليل أسرة عتيقة، وكم دهشت عندما تبين لي أنه كاتب القيد بالسكربتارية. كان في الثلاثين من عمره، شهادة ابتدائية، مرتب ثمانية جنيهات، متزوجًا وأبًا لحمسة أبناء، ولكنه كان طويلًا رشيقًا عظيم القسامة، حتى قال لي الأستاذ عباس فوزي:

- انظر إلى عبث الطبيعة، جادت عليه بمنظر يليق بموظف استقبال بالخارجية ولكنها ضنت عليه بما ينفعه أو ينفع الناس.

وكان يقول عنه أيضًا:

- إنه حي لا يرزق!

وكان مسئولًا عن أم وأختين مطلقتين، فاستقبل أيام الحرب وارتفاع مستوى المعيشة وهو على تلك الحال. ولم يكن نادرًا أن يقرب من عباس فوزي أو عبد الرحمن شعبان ويقول ببساطة:

- من يعطيني قرشًا اشتري به سندوتش فول وله الجزء الأوفى في يوم القيامة؟

فسألته فائزة وهي تبدو سعيدة رغم التوتر العام:

- لِمَ؟

- لم تظهر فيها سبق أي اهتمام بالفن.

- لم توجد مناسبة.

- إنه لا يولد فجأة ولا لمجرد أن مخرجًا اقترحه...

- بل هكذا يولد.

فقال الزوج:

- أظن ذلك.

فقال جلال بحدثة:

- إنهم لا يعرضون الأدوار لوجه الله.

فقال عجلان ثابت:

- لوجه الفن.

فقال جلال:

- ولا لوجه الفن!

فقال فائزة:

- لست قاصرًا!

وقال الزوج:

- إننا أهل للثقة.

فقال جلال بإصرار:

- كصديق مخلص لكما لا أوافق.

فقال الزوج:

- هذه فرصة لا يهوز إمامها...

ووافق عجلان على رأيه كما وافقت أنا وكأنا كانت

مؤامرة بلا تدبير سابق، وقام جلال مرسي فحيانا

ومضى وهو يقول:

- قلت رأيي وأنا مصرّ عليه.

وقال عجلان بخبث:

- عليك أن تقابل المخرج في أسرع وقت...

وعندما غادرنا البيت أنا وعجلان قلت له:

- عبده إبراهيم بكل شيء يعلم!

فضحك عاليًا وقال:

- وانتهاز الفرصة فوجه إلى غريمه ضربة موفقة.

- ولكنها ماذا ستفعل فيها ترى؟

فتفغر قليلاً ثم قال:

- إن صحّ ظني فطموحها أقوى من عشقها!

وصدق ظنه. قامت بتمثيل الدور. وكانت مفاجأة

- وكان إذا لمح أحدًا من الأهالي في الممشى الخارجي  
بأدر إليه فيسأله إن كان في حاجة إلى خدمة يؤدّيها له  
عن طيب خاطر. وفي الختام يسأله بلا حياة:  
- هل أجد عندك سيجارة؟  
وعطف الأستاذ عبد الرحمن شعبان عليه يومًا فقال  
للأستاذ عباس فوزي:  
- حال فتحي تستحقّ النظر.  
فصدّق الرجل على قوله وقال:  
- العين بصيرة واليد قصيرة!  
فقال عبد الرحمن:  
- أسعفوه بوظيفة يمكن أن تدرّ عليه رشوة!  
فقال عباس فوزي بأسًا:  
- يوجد فرص في المستخدمين والحسابات والمخازن  
والمشتريات ولكنّه بدون مؤهلات...  
فقال عبد الرحمن في شبه غضب:  
- يوجد مديرون بالابتدائية.  
- أعني بالمؤهل الوساطة ويبدو أنّ أعظم من يعرف  
في الحياة هو عمّ صقر الساعي!  
واهتدى إلى وسيلة يستغلّ بها منظره في مقاومة  
الجوع، فكان يتقدّم إلى أسرة ما كخاطب، فيقابل  
بالترحيب من ناحية المبدأ حتّى تتمّ الاستعلامات عنه،  
وفي الفترة الموضوع فيها تحت الاختبار يزور الأسرة  
فيستقبله ربّ البيت، ويتعمّد البقاء حتّى وقت الغداء  
أو العشاء، وكما يُدعى للمائدة يلتي وهو يقول:  
- لا يأبى الكرامة إلّا لثيم.  
ثمّ يأكل بوحشية وكأنّما يخزن الطعام ليجتره بقيّة  
الأيام. ونجى نتيجة الاستعلامات في غير صالحه طبعا  
فيعتذرون من عدم قبوله فيذهب وقد فاز ببضع  
أكلات خيالية. ويواصل غزواته في أحياء المدينة حتّى  
تسرّبت أنبأؤها إلى الموظّفين فجعلوا منه نادرة تُروى.  
وما ندرى يومًا إلّا وهو يدخل علينا مرتديًا جلبابًا.  
وكان الأستاذ طنطاوي إسماعيل ما زال رئيسًا  
للسكرتارية فاستدعاه وسأله:  
- ما معنى ذلك يا فتحي أفندي؟  
فقال ببساطة:  
- البدلة استهلكت تمامًا، فلبّتها منذ ثلاثة أعوام
- فلم يعد بها رمق، ولا أستطيع أن أشتري زراة!  
فقال الرجل في حيرة:  
- ولكنّ ذلك يخالف التعليقات!  
فقال بثقة:  
- لا نصّ في التعليقات على ذلك!  
وتداولنا إن كان ذلك يجوز أو لا يجوز دون أن  
نهتدي إلى علاج. وزاد الحرج عندما فاجأنا الوزير  
الولديّ الجديد بزيارة تفتيشية. وكما رآه الوزير ظنّه  
ساعيًا فقال له:  
- ألم يصرفوا لك بدلة الساعة؟  
فأجاب بإيمان:  
- أنا موظّف يا معالي الباشا، ولكنّي لا أملك ثمن  
بدلة جديدة!  
فدهش الوزير وسأله عن وظيفته وشهادته ومرتبّه  
وعدد أولاده الذين بلغوا التسعة عدًا في ذلك التاريخ،  
ثمّ سأله ضاحكًا:  
- ليس لك هواية إلّا الإنجاب؟  
فقال فتحي بجرأته المعهودة:  
- أنا من شعب الوفد ولن أضام في عهدكم!  
وقد منحه الوزير علاوتين استثنائيتين، ثمّ أدركته  
علاوة الغلاء التي تقرّرت لأول مرّة، فاشترى بدلة  
ولكنّ حاله لم تتحسنّ إلّا قليلًا. وذات صباح همس لي  
عمّ صقر وهو يقدم لي القهوة:  
- أخيرًا وفقّ ابن الشحاذة!  
فسألته:  
- فتحي أنيس؟  
- نعم.  
- كيف؟  
- سيتزوج من أرملة غنيّة جدًا...  
- حقًا؟.. وجميلة؟  
فضحك قائلاً:  
- عمرها ستون عامًا، وهي في الجملة كالمومياء!  
وصحّ الخبر كجميع أخبار عمّ صقر. وتزوج فتحي  
من أرملة عجوز تركيّة مستحقّة في وقف كبير، وقيل  
إنّه تزوّج بموافقة زوجته الأولى إيثارًا لسعادة الأولاد  
على نفسها. وتغيّر حاله بصورة ملموسة، وظهرت

الذي كان عضوًا بالهيئة الوفديّة.

وكان عمشوق القوام أسمر واضح الملامح جدًّا بها ذا شارب غليظ لا يني يغازله في إعجاب وارتياح، وفي جلسات الأتس التي اشتهر بها مسكن عدلي بركات شهدت له غزوات موفّقة مع فئات كثيرات. وفي أعقاب حرب ١٩٤٨ اجتمع بنا في شقّة عدلي بركات وقد زايله المرح ووشت حاله عموماً بامتعاض وقرق. وكنا - أنا ورضا حمادة - في غاية من الحزن، فطرحنا عليه العديد من الأسئلة لعلّه يروي غلّتنا أو يبدّد من أفكارنا بعض الظلمات، ولكنّه لم يمّس التفاصيل وقال بإيجاز:

- لقد ضحّى بالجيش بطريقة دنيشة قصد بها القضاء على كرامته وأرواح رجاله...

وهزّ رأسه بضيق وقال:

- لا يمكن أن يمرّ ذلك بلا ثمن!

فقلت ببراءة:

- لكننا لم نهزم، الفالوجة نصر ميين.

فقال بحدّة:

- بل هزمنا، وحوصرنا بين عدوين، عدوّ في الخارج وعدوّ في الداخل.

واستجاب نفسي لغضبه بقدر ما وجدته متجاوبًا معها، وقال رضا حمادة:

- كلّ ذلك نتيجة لحكم أحزاب الأقلّيّة الذي مكّن لطغيان الملك.

فقال قدرّي رزق:

- ونتيجة أيضًا لضعف الوفد الذي عجز عن تحقيق الإرادة الشعبيّة...

فاستاء رضا حمادة وقال:

- الوفد اعتمد دائمًا على ثوريّة الشعب ولكنّ الشعب تخلّى عن ثوريّته!

فقال قدرّي رزق الذي لم أره من قبل على تلك الدرجة من السخط:

- الوفد هو المسئول عن تخلّي الشعب عن ثوريّته! وتوثّقت علاقته بنا في تلك الأيام، وتعدّدت لقاءاتنا بشقّة عدلي بركات. وشهدنا معًا تدهوره حتّى انتحاره، ولكنّه لم ينقطع عنّا فكان يجتمع بنا في بيت

عليه النعمة في ملبسه وصحّته ورويقه، ورغم كلّ شيء أثار حسد الكثيرين، وكان عبّاس فوزي يتهمّك به فيسأله:

- كيف طاوعتك نفسك على معاشرّة مومياة؟

فيجيبه بصراحتة وبساطته:

- عندما يملأ الإنسان بطنه بثلاثة أو أربعة أصناف من اللحوم وخمس كتوس من الويسكي فإنّه يستطيع أن يعاشر عزرائيل نفسه!

وعقب حرب فلسطين الأولى ١٩٤٨ توفّيت زوجته الجديدة مخلّفة عليه ثروة طائلة، ولم يفلح في إخفاء أفراده حتّى في الأيام الأولى للحدث، واستقال من وظيفته، وفكّر في إنشاء عمل حرّ، حتّى هداه تفكيره إلى فتح مقهى كبير في التوفيّة. وتحملّ خسائر عام أو عامين حتّى يتقن مهنته الجديدة، ثمّ نجح المشروع نجاحًا منعدم النظير، وانقطعت أخباره عني بطبيعة الحال حتّى بعثها من الظلمات عمّ صقر عقب خروجه من السجن فحدّثني عن ثرائه الفاحش، وما ملك من عمارات، وعن معيشته الحاليّة في قصره بالهرم، وعن نجاح أبنائه في المدارس والكلّيّات وقد بلغ عددهم اثني عشر ولدًا. أخبرني كذلك بأنّه أبقى على زوجه الأولى ولكنّه أخذ من راقصة إيطاليّة عشيقه له. قال عمّ صقر:

- إنّه اليوم في السادسة والسّتين من عمره، ولكنّه قويّ مهيب كرجل في عزّ شبابه، ويرافق راقصة إيطاليّة فهل سمعت عن عاشق في مثل هذه السنّ؟ ولكنّه الحظّ، ألف ليلة وليلة، وكلّ ما عداه باطل...

## قدرّي رزق

كان يتردّد على شقّة عدلي بركات الفاخرة في أوائل عام ١٩٤٨، وكان في الثلاثين من عمره أو دون ذلك بقليل، وطالما جالسنا ببذلة الرسميّة كضابط في سلاح الفرسان، فيضفي على المجلس من روحه مرحًا وصفاء. وبدا قليل الاهتمام بالسياسة والشئون العامّة ولولا محاولة بدلت لاغتياي مصطفى النحاس ما فطنت إلى أنّه ينطوي على ميول وفديّة، ورثها غالبًا عن أبيه

بمدى تأييدها للنظام الجديد، ولكنّ قدرتي رزق قال:  
- الأمريكان ذوو نفع كبير ولا خوف علينا منهم  
بفضل وطنيّة زعمائنا الجدد.

وحلّت الأحزاب وضُرب على أيدي الإخوان  
والشيوعيين، وكان قدرتي يتحمّس لكلّ إجراء بلا قيد  
ولا شرط، حتّى سألته مرّة:

- ولكن من أنتم؟

فضحك، وتفكّر ملياً، ثمّ قال:

- نحن أصدقاء الوطنيّة والعروبة والثورة وأعداء  
الفساد والتعصّب والإلحادا  
وقال أيضاً بحماسة الطيّب:

- هدفنا تحرير الشعب بما يستعبده سواء أكان  
شخصاً أم طبقة، فقراً أم مرضاً، ثمّ دفعه إلى المكان  
اللائق به تحت الشمس...

ونقص صفونا ما أصاب صديقنا رضا حمادة في  
شخصه وابنه وزوجته، وشدّ ما تأثر لذلك قدرتي رزق  
وحزن، ولكن هون من وقع المأساة القوّة التي لاقاها  
بها صديقنا الجلد الصبور القويّ. وكان قدرتي يعجب  
به ويقول عنه إنّه رجل ولا كلّ الرجال، ويتعجّب  
كيف أنّ رجلاً مثله ورجلاً مثل الدكتور زهير كامل  
ينبتان من أرض واحدة. وتتابعت أحداث مجيدة مثل  
الألجاء نحو الكتلة الشرقيّة للتسليح، ومثل تأميم قناة  
السويس الذي بلغ بحماسنا درجة لم نعرفها من قبل،  
فشمل بذلك قدرتي رزق وثلما. وقال لنا:

- أرايتم؟ نحن مصريون أولاً وأخيراً، لا  
أمريكيون ولا روسيون!

وتزوّج قدرتي في تلك الفترة من كريمة أسرة كبيرة  
إقطاعيّة تمنّ طبّق عليهم قانون الإصلاح الزراعيّ،  
وكانت مفارقة تستدعي الملاحظة وتحتاج إلى تفسير،  
غير أنّه يمكن اعتبارها ظاهرة عاديّة إذا نُظر إليها من  
الناحية العاطفيّة البريئة، ولم يغب عني أنّ صديقي  
كان فخوراً بمصاهرة تلك الأسرة رغم ثورتيته  
وإخلاصه وطيبته، وأمّا رضا حمادة فقال لي:

- إنّها طبقة تتطلّع إلى أن تحلّ مكان طبقة!

ثمّ كان الاعتداء الثلاثيّ وانقلابه على المعتدين  
ولكنّ صديقنا قدرتي رزق أصيب في ساقه وفقد عينه

رضا حمادة أو في مقهى الفيشاوي، ورجع إلى طبيعته  
الأصليّة فقلّ اهتمامه بالسياسة والشئون العامّة، وعاوده  
المرح والمجون والتفرّغ لغزو الحسان. ولما قامت ثورة  
يوليو ١٩٥٢ اكتشفنا أنّه كان ضمن مجموعة الضباط  
الأحرار فعجبنا لقدرة الخارقة على الكتمان. وقد سهر  
معنا عشية الثورة في مقهى الفيشاوي، وجلس كمعادته  
يضاحكنا ويسامرنّا، وعدت معه قبيل منتصف الليل  
إلى العباسية مشياً على الأقدام من طريق الجبل، ثمّ  
ملت أنا إلى العباسية الغربيّة وواصل هو سيره شمالاً  
إلى مسكنه بشارع أحمد ماهر كما ظننت، أمّا الحقيقة  
فإنّه لم يذهب ليلتها إلى بيته ولكنّه مضى صوب منشيّة  
البكري ليقود قوّة صغيرة إلى احتلال مفترق طرق ١.  
وغيبته الأحداث عنّا فترة غير قصيرة طرد في أثنائها  
الملك، ثمّ رجع إلينا وقد رُقي إلى رتبة جديدة.  
وتتابعت التطوّرات الهامّة مثل الإصلاح الزراعيّ  
والجلاء وغيرها ونحن نتلاقى بانتظام أسبوعيّ في بيت  
رضا حمادة قبل اعتقاله، واستمرّ التلاقي بعد ذلك في  
بيتي أو بيته أو في مقهى الفيشاوي، وطيلة تلك المدّة لم  
يخرج حديثنا عن السياسة التي لم يعد له من حديث  
غيرها. ولم يكن بيننا خلاف جدّيّ، استطاعت الثورة  
أن تستأثر بقلوبنا وآمالنا في لحظة تاريخيّة أسطوريّة  
باهرة. وقال قدرتي رزق:

- اندثرت القوى الجهنميّة التي كانت تعوق تقدّم  
الشعب مثل الملك والإنجليز والحكّام الفاسدون ورجع  
الأمر إلى أبناء الشعب الحقيقيين، فهو حكم الشعب  
للشعب لحير الشعب، انتهى الفساد والانحلال  
وسينطلق تيار الإصلاح والتقدّم إلى الأبد...

وقلنا إنّه آن للحلم أن يتحقّق، وأن ينعم بالحريّة  
والرقيّ والعدل ذلك الشعب الذي عانى الظلم  
والاستعباد والفقر والغربة آلاف السنين. أجل سامنا  
بعض الشيء التوتّب للقضاء على الوفد، وسأله رضا  
حمادة - قبل اعتقاله - أكثر من مرّة:

- أليس الأفضل أن تتخلدوا من الوفد قاعدة شعبيّة

لكم؟

كما ساورتنا مخاوف من ناحية أمريكا، وخشينا أن  
تحلّ محلّ إنجلترا بطريقة أو بأخرى، بعدما شعرنا

المرايا ٣٧٣

الشم، كيلا تتعثر النهضة في زمن لم يعد يسمح بالتخلف يوماً واحداً، ويتابع أبناء القتال وهو آسف على أنه لم يعد في إمكانه الاشتراك فيه. ويجزئه أن نتلقى ضربة دون أن نردّها بالمثل ولذلك فهو ينتظر على جمر اليوم الذي نستكمل فيه استعدادنا للقتال. إنه يعيش يوماً فيوماً بل ساعة فساعة في متابعة وقلق وترقب وأمل ومحاسبة للنفس لا هواده فيها. وبصرف النظر عن آراء الأستاذ سالم جبر المتناقضة وسخريرات عجلان الحادّة وانتقادات رضا حمادة المرّة فإنّ قدرتي رزق يُعتبر رجلاً محترماً ومخلصاً من رجال ثورة يوليو، وقد يتعدّر تعريفه على ضوء المبادئ العالميّة ولكن يمكن تعريفه بدقة على ضوء الميثاق، فهو يؤمن بالعدالة الاجتماعيّة إيمانه بالملكيّة الخاصّة والحوافز، ويؤمن بالاشتراكيّة العلميّة إيمانه بالدين، ويؤمن بالوطن إيمانه بالوحدة العربيّة، ويؤمن بالتراث إيمانه بالعلم، ويؤمن بالقاعدة الشعبيّة إيمانه بالحكم المطلق. وعندما يُقبل عليّ وهو يعرج ويظالعي بعينه الباقية ينفض قلبي بالمرّة والإكبار.

## كامل رمزي

تعارفنا عام ١٩٦٥ في بيت الدكتور عزمي شاعر. كان حديث عهد بالحرّيّة بعد أن قضى في الاعتقال خمسة أعوام. وهو أسمر نحيل طويل أصلع كبير الرأس صغير العينين برّاقهما في الخمسين من عمره. دكتور في الاقتصاد وكان أستاذاً بكلّيّة التجارة حتّى تاريخ القبض عليه. قلت له:

- قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصاديّة وأشهد بأنّه أمتعني بقدر ما أفادني...

فشكرني وقال:

- كانت الحياة الجامعيّة تناسبني جداً!

وقال الدكتور عزمي شاعر:

- أتمم خطأً بالنشاط العمليّ أما الحقيقة فهي أنّه أستاذ مفكر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف.

وفي نفس الأسبوع الذي تعارفنا فيه وُلّي منصباً كبيراً، وقال لي عزمي شاعر للمناسبة:

اليسرى فاضطرّ إلى ترك الجيش، وعيّن في وظيفة ثقافيّة كبيرة بوزارة الإرشاد. وبتوليته للوظيفة الجديدة بدأ اهتمامه بالثقافة لأوّل مرّة في حياته، فكان يعمل نهاراً ويدرس ليلاً، وأثبت أنّه عالي الهمة في التحصيل والإدارة. وكان في إجازة شهر العسل حينما نشبت الحرب فاستُدعي من بين أحضان عروسه للقيام بواجبه العسكريّ فأصابه ما أصابه. وكما أعلنت القوانين الاشتراكيّة بعد ذلك بأعوام بدأ يدرس الاشتراكيّة بنفس الهمة التي درس بها الثقافة، وكان على استعداد دائمًا للإيمان بما تدعو الثورة للإيمان به إذ إنّ إيمانه الحقيقيّ كان بالثورة، بالثورة وحدها. والحقّ أنّه كان وما زال برجوازيًا في أخلاقه وآماله وأحلامه وتقاليده، ولكنّه كان وما زال برجوازيًا ذا لسان اشتراكيّ، ولم يجحّ ذلك عن نفاق أو خوف ولكن بدافع إخلاص حقيقيّ للثورة وما تنادي به، وإني لأعده من أخلص الرجال وأنقاهم وأنزههم، كما كان من أشدهم سخطًا على المستغلّين والمفسدين بمنّ خانوا أمانة الثورة. وكما حاقت بنا هزيمة ٥ يونيه ١٩٦٧ زلزل لها كيانه حتّى بخيل إليّ أنّه يموت وهو حيّ، وتساءل فيما يشبه الهديان:

- أيزهد ذلك التاريخ كلّ هباء؟

ونظر في وجوهنا بوجه شاحب وتساءل مرّة أخرى:

- أنركع مرّة أخرى تحت أقدام الرجعيّين

والاستعماريّين؟

وكان يجاهد بعنف ليستردّ أنفاسه اللاهثة، وليخلق في الضياع أملاً جديدًا، وليحوّل الهزيمة إلى درس وعبرة. وكلّما مرّ يوم دون استسلام استردّ بعضًا من عافيته، وعكف على أرض الواقع الصلبة يحفرها بأظافره لعلّه يستخرج منها بعض قطرات من ندى الأمل. وما أشبهه في ذلك بالدكتور عزمي شاعر أو الدكتور صادق عبد الحميد، وكان يقول:

- ما تاريخ العرب الحديث إلّا سلسلة من الهزائم

أمام الرجعيّة والاستعمار، ولكن ما يكاد اليأس يجيّم حتّى ينبثق من ظلماته نور جديد، وهكذا ذهب التتار

والصليبيّون والإنجليز وبقي العرب!

وهو يريد للثورة أن تبقى، وأن تنتصر، مهما كان

عقيدتي الجديدة، وكان الصيام فيما استيقيت من العادات القديمة فهو رياضة تناسب سلوكي تمامًا... وتفكر قليلاً ثم قال:

- العظمة الحقيقية للدين لا تتجلى إلا عندما تعتبره لا ديناً!

وذكري في الحال بالحاج زهران حسونة فذهلت للفارق الهائل بينهما مثل الفارق بين ملاك وشيطان. وقلت له:

- لا يمكن أن تخلو حياتنا من تناقضات كثيرة...

- المهم أن نعمل للمستقبل...

- وطبعاً أنت تؤمن بالشيوعية؟

- ذلك حق.

فسألته باسمًا:

- أعتبر نفسك مخلصًا للثورة التي تعمل في جهازها؟

فقال بوضوح وقوة:

- خلقت لأعبد العمل وأخلص له...

- إنني أسأل عن إخلاصك للثورة؟

فأخذ شهيقاً عميقاً كأنه الترجمة الجسدية لتفكيره وقال:

- لم أكن في يوم من الأيام ذا وجهين، وما دمت قد

قبلت العمل في جهازها فأنا مخلص لها...

فقلت باسمًا:

- هذا هو الجواب الذي أسأل عنه، ولكن ينقصه

شيء ما!

- عظيم، أنا مخلص لها ولكني غير مؤمن بها، أو

غير مؤمن بها إيماناً كاملاً، حسبي في الوقت الراهن

أنها تمهد السبيل إلى الثورة الحقيقية!

فأشرت إلى صديقنا الدكتور عزمي شاعر وقلت:

- ما أشبه موقفك بالموقف الذي اتخذته هذا الرجل

من بادئ الأمر...

فضحك، ورغم ضحكه قال بحدة:

- لقد سلم قبل المعركة أننا نحن فسلمنا بالأمر

الواقع بعد أن أثبتت المعركة عقمها.

- لعله كان أبعد نظرًا!

- اسمح لي في هذه الحال أن ألن بُعد النظرا

- إنه مثال في العلم والحزم والنزاهة.

وكان صديقًا لسالم جبر وزهير كامل، وعرفته

بدوري لرضا حمادة وقدري رزق والدكتور صادق عبد

الحميد فنال احترامهم جميعًا ولكن لم يُغال أحد في

حبّه! وقد أشعرتني حديثه بالصدق والصراحة

والعلم، وهو ممن آمنوا تعليمهم بإنجلترا، وذو اطلاع

شامل في الاجتماع والسياسة، وله قدرة فائقة في

المناقشة والجدل. ويتكلم إذا تكلم بثقة وصراحة

وقوة. ولا يؤمن في شيء بالحلول الوسطى، ولا

بالمجاملة، ولا بالتسامح، بل يؤمن برأيه لحدّ

التعصب، ولا يطبق المعارضة فهي تثير أعصابه

وتخرجه عن الاتزان اللائق بمركزه فسرعان ما يهدر

غاضبًا بالحجج والأدلة وكأنه يخوض معركة حامية.

وهو يشبه عبد الوهاب إسماعيل في تعصبه على

تناقضها في الأسلوب، حتى قلت مرةً للدكتور عزمي

شاعر:

- إنه عالم ولكنّه ذو عقلية دينية.

فقال:

- إنه متعصب بلا شك، ومشتعل في مناقشته،

ولكنّ أعصابه لم تفسد بهذه الصورة إلا بعد تجربة

الاعتقال.

ويزيد من الاختلاط به عرفت زوجته وهي دكتورة

في الاقتصاد أيضًا ومدرسة بكلية التجارة ومثال مشرف

للمرأة المصرية. وعرفت له أسلوبًا في الحياة يُعتبر غريبًا

في عصرنا، فهو يميل إلى التقشف في ملبسه، وطعامه

الذي يشبه الرجيم، وإلى ذلك فهو لا يدخن ولا

يذوق الخمر. وقد قال لي مرةً:

- لم أعرف المرأة قبل الزواج، وقاومت جميع

المغريات وأنا طالب في البعثة!

وأدهشني أن يصوم في رمضان رغم إيمانه الكامل

بالمادية الجدلية وسألته:

- ما معنى ذلك؟

فضحك قائلاً:

- كان أبي عاملًا بسيطًا، وكان متدينًا، فربّانا تربية

دينية شاملة فنشأت في أحضان الأخلاق الإسلامية،

ولم أستطع بعد ذلك التخلي عنها إلا فيما يناقض



المرايا ٣٧٥

- قل في الوفد ما شئت ولكن لا تنس أنه كان حزباً شعبياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وأنه كان يغير سياسته أحياناً إذعائاً لمشينة التلاميذ بالمدارس الثانوية! ثم حدثني عن أحداث عام ١٩٣٥، وكيف ناقش مصطفى النحاس ضمن وفد من الطلبة، وكيف احتدت المناقشة بين الطرفين، وكيف عدل الوفد عن تأييد وزارة توفيق نسيم فأعلن الثورة على لسان مكرم عبيد، وكيف سالت الدماء عقب ذلك بأقل من ساعة!

ولم يعمر كامل رمزي - كما تنبأ عزمي شاعر - في وظيفته طويلاً. باشرها عاماً واحداً حتى ضج جميع أهل الأرض من صلابته ونزاهته، وإذا بجرائد الصباح تنشر خبر نقله إلى مؤسسة صحفية.

ومن عجب أن عمّت الشائنة به أكثرية الناس. ولم أدهش لذلك كثيراً، وذكرت في الحال مأساة الأستاذ طنطاوي إسماعيل رئيس السكرتارية القديم كما ذكرت الدكتور سرور عبد الباقي، وقلت لنفسي إن أمثال أولئك الرجال يغلقون الأبواب في وجوه الوصوليين والانتهازيين وما أكثرهم. كما إنهم بقوة أخلاقهم يفضحون الضعفاء أمام أنفسهم فيمثلون حقداً عليهم. لذلك لم أسمع رثاء له إلا بين خاصة أصدقائه. وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه مرارة وخيل إليه أن نواويس الطبيعة تقلقت وشدت عن مداراتها. ولكن ذلك لم يمنعه من مزاوله عمله الجديدي بنفس الهمة والنزاهة والقوة السابقة، بل إنه وجد فراغاً لم يكن يجده فاستأنف نشاطه العلمي، وشرع في وضع قاموسه السياسي. وكان وما زال شعلة من النشاط المتواصل، ونوراً يطارد ظلمات اليأس.

## كاملًا زهران

يوم أقبلت علينا في السكرتارية بفستانها الأبيض وشعرها الأسود المقصوص المطوق لرأسها تذكرت عبدة سليمان، ولكن ما أبعد المسافة بين عام ١٩٤٤ وعام ١٩٦٥. اختفت الوجوه القديمة مثل طنطاوي إسماعيل وعباس فوزي وعدلي المؤذن وعبد الرحمن

وكان عزمي شاعر كبير الإعجاب به، وكذلك رضا حمادة على تناقضهما في المبدأ، وكانت شخصية كامل رمزي تغرينا بتحليلها وتقييمها. ويومًا قال رضا حمادة:

- لقد تشفقت به في نقل موظف فأعطاني درسًا قاسيًا في فساد الوساطة، ومع أنني استأت في نفسي إلا أنني ازدددت إعجابًا به... .

فقال عزمي شاعر:

- بل أوصاه وزيره بموظف فاعتذر من عدم التنفيذ

حرصًا على مبادئ العدالة!

فقلت بدهشة:

- وزيره نفسه؟

- أجل، إنه خلق صلب غير قابل للثني، ولذلك

أشك كثيرًا في إمكانية بقائه في منصبه!

فسأله رضا حمادة:

- هل يستغنون عن موظف لاستقامته؟

- إن الأسباب التي تدعو للاستغناء عن موظف

لاستقامته أكثر من الأسباب التي تدعو للاستغناء عنه لانحرافه!

واعترف لي كامل رمزي نفسه بأن أحدًا في إدارته لا

يجبه بدءًا من الفراش حتى الوزير، قال:

- لا أستطيع أن أهتم بعواطف الناس والمصلحة

العامة معًا، إن مناصبي يحتاج لألعبان لا لموظف أمين!

ثم قال بازدياد:

- نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات.

وضحك عاليًا وقال:

- لقد عبدنا مصطفى النحاس يومًا لا لشيء إلا

لنزاهته وصلابته في الحق وهما صفتان جديران بكل

مواطن عادي ولكن لندرتهما جعلنا منها دعامتين

أساسيتين لزعامه شعبية!

فسألته:

- هل عبدت مصطفى النحاس يومًا؟

فقال بصراحته المعهودة:

- كنت وفديًا، وعظمي على الوفد عاش طويلاً في

نفسي حتى بعد نضوب إيماني به... .

وحلق في وجهي بعينه البرأتين وقال:

- أودّ لو كنت من أبناء هذا الجيل، لا استخفافاً  
بمتاعه ولكن لتخفّفه من كثير من العقد التي نغصت  
علينا صفو الحياة.

وقد قلت مثل ذلك لصديقي رضا حمادة وهو أقرب  
أصدقائي القدامى إلى المحافظة فسألني عمّا أعني  
فقلت:

- تبادل الحبّ في جوّ من الصراحة الصحيّة خير  
من الكبت والتقلّب بين أذرع البغايا...  
فقال بارتياح:

- يجيّل إليّ أنّ الحبّ كالديموقراطية أصبح معدوداً  
من المهازل البائدة!

وكنت أرهف السمع كلّما دار الحديث بين الشباب  
في إدارتنا، ومن كلمات متناثرة أدركت أشياء لا بأس  
بها، خاصّة عن كاميليا التي استحوذت على اهتمامي  
أكثر من غيرها لحدائتها. فأشرتاً مثلاً متوسّطة وهي  
أولّ من توظّف من إخوة خمس، وليس من الصعب  
تخيّل المتاعب التي تعانيتها أسرة من ذلك النوع  
والدرجة، ولا المتاعب التي تحدّى الفتاة كإنسانة  
مستقلّة ومستولة عن نفسها وربّما عن أسرتها جزئياً،  
وما تطالبها به الحياة العصريّة من نفقات وما يطالبها به  
المستقبل كفتاة تتطلّع إلى عريس محترم. ولذلك فإنّ  
اهتمامها بالشئون العامّة اهتمام سطحيّ، وهي تسلّم  
بأشياء تسليماً واقعيّاً دون تفكير ولا إيجابيّة مثل الدين  
والثورة، ولكنّ حياتها الخاصّة هي شغلها الشاغل،  
وما حياتها إلاّ الحبّ والزواج وثمرات الحضارة  
الحديثة.

وندر أن صادفتنا أنثى تهتمّ اهتماماً حقيقيّاً بالدين  
أو الفلسفة أو السياسة، ولعلّ تفسير ذلك أنّنا لا نزال  
منهنّ إلاّ الأوساط أمّا النابغات فلهنّ طريق آخر في  
الجامعات أو الحياة العامّة. وللدكتور زهير كامل رأي  
في الموضوع. قال:

- عدم اهتمام المرأة بالعقائد والفلسفات يقطع بأنّها  
- العقائد والفلسفات - معطّلة للنشاط الحيويّ  
الحقيقيّ...  
وقال أيضاً:

- المرأة لا تعنى إلاّ بالخلق وما يتعلّق به، هي

شعبان وعمّ صقر. اجتاحت السكرتارية موجة من  
الشباب نصفها من الجنس اللطيف، وما هي كاميليا  
زهرا تنضمّ إلينا، كأحدث قطعة من تلك الأزهار.  
وكنا ألفنا وجودهنّ بيننا، كما ألفنا الشائعات التي  
تلاحقهنّ في الفترة الحرجة التي تسبق الزواج.  
وأكثرهنّ تزوّجن من شبّان خارج وزارتنا عدا واحدة  
تزوّجت من زميل في الإدارة القانونيّة، ولم تهجر واحدة  
منهنّ العمل بسبب الزواج...  
وكاميليا زهران حقوقيّة في الثالثة والعشرين، وقد

استقبلت عملها بامتعاض لإلحاقها بعمل كتابيّ بعد  
دراسة قانونيّة توشك أن تذهب هباء. وسرّي أن  
أطلع في عينيها نظرة مستقيمة وجريئة جاوزت بشكل  
لمموس نظرة الحريم المستكينة الخاملة، ومع ذلك  
شعرت بطريقة ما بعمق تجربتها في الحياة، وأنها لا  
تكاد تختلف في أمر جوهريّ من هذه الناحية عن  
زميلها الجالس إلى جانبها. وسرعان ما رفع الحجاب  
الكلفة بينها وبين الزملاء ولكنّه لم يجاوز حدود الأدب  
التقليديّة، شأن من تنظر إلى المستقبل بحكمة وتعمل  
حساباً للعقد الشرفيّة التي يحملها الزملاء من أسلافهم  
في البيوت.

وعقب الإجازات الصيفيّة حدّثني زميل قديم نسبياً  
في الإدارة فقال:

- لعلّك لا تدري أنّ كاميليا زهران راقصة بارعة؟  
فسألته بدهشة:

- راقصة!؟  
- رأيتها في هانوفيل تراقص شاباً وكانت مندمجة في  
الرقص بنشوة كأنّها نغمة...  
فقلت متوتّباً للدفاع:

- لم يعد عيباً ما كان يُعدّ عيباً على أيّامنا...  
فهرش رأسه قليلاً ثمّ قال:

- أودّ أن أتخيّل كيف تكون الحياة مع زوجة مثلها؟  
فقلت:

- إنّ نسبة الطلاق في هذه الأيام أقلّ من نظيرتها  
على أيّامنا وكذلك نسبة تعدّد الزوجات!  
فقال ضاحكاً:

- الظاهر أنّك رجل عصريّ رغم كهولتك؟

## المرايا ٣٧٧

أخلاقاً جديدة، ومهارات جديدة مثل التكنولوجيا!  
وحدثت صديقي الدكتور عزمي شاكور في الموضوع  
وقلت له:

- إنك مفكر بارع، فلم لا تدرس الأخلاق  
الجديدة؟ أعني الأخلاق الصالحة للعصر الحديث، التي  
يجب أن تُستلهم من المجتمع الجديد لا من القيم  
القديمة...  
فسألني:

- ما الذي دعاك إلى هذا التفكير؟  
فقلت وأنا من الاستياء في غاية:

- انظر إلى مآل صديقنا الدكتور كامل رمزي،  
وعندي نظائر له عرفتهم في مجرى الحياة بمن نعدّم  
أمثلة طيبة للإنسان، ألا يجوز أن أخلاقهم لم تعد  
صالحة للعالم الحديث؟  
فقال بأسماً:

- إنك تنفّس عن مرارة نفسك...  
- الحقّ آلي حائر وحزين.

وتفشت الشائعات عن كاميليا والمدير، وأصبح  
الشكّ يقيناً عندما نُقلت أخيراً إلى الإدارة القانونيّة،  
ولكن لم يجرب بيت ولم يقم محله بيت جديد، وكما تعيّن  
عندنا صبري جاد نشأت بينه وبين الفتاة علاقة حبّ  
صادقة. ومع أنّه بدأ الأمر متمرداً ومستهتراً إلاّ أنّه  
أحبّ كاميليا كما أحبته، وبالرغم من أنّه كان يصفرها  
بعامين أو أكثر إلاّ أنّها أعلنت خطوبتها رسمياً.  
وسعدت أنا شخصياً بهذه النهاية السعيدة، التي شدّت  
الاثنين إلى حياة أصيلة ومسئوليّة جادة من شأنها أن  
تعيد خلق الإنسان وتضمّمه إلى الركب الجسّاد في  
الطريق. ويوماً بعد يوم فإنّ إماني يرسخ بأنّ نقاء  
الإنسان يجيء من الخارج بقدر ما يجيء من الداخل،  
وأنّ علينا أن نوّفر الضوء والهواء النقيّ إذا أردنا أزهاراً  
بانعة.

خالق جميل، الخلق محور حياتها كلّها، أمّا ما عدا ذلك  
من نشاطات فهي من صنع الرجل وهي ضروريّة  
للسيطرة لا للخلق!  
وقال أيضاً:

- الدنيا هي هدف المرأة ومعبودتها، ومعنى آخر  
هي هدف الخلق، وهذا يدلّ على أنّنا خلّقنا لهدف  
بالدنيا دون سواها، وأنّ كلّ ما عداها باطل، وأنّ  
الخلود يجب أن يتحقّق فيها، ولو أنّ الأديان تصوّرت  
الله على صورة امرأة لأهدتنا حكمة جديدة هي  
السعادة الحقيقيّة!

وربّما تعدّر تفسير هذه الآراء على ضوء ما عرفنا من  
عقليّة زهير كامل، ولكن لن يتعدّر تفسيرها على ضوء  
حياته إذ كان يعاني الحنين إلى زوجته وابنته اللتين  
هاجرتا إلى الخارج كما كان يفتح قلبه لحبّ جديد،  
حبّ نعمات عارف. وكانت تظنّنا سحابة من الغمّ  
والنكد في أعقاب هزيمة يونيو عندما قال لي الزميل  
القديم:

- توجد أحداث غريبة لا صلة لها بالمعركة...  
فسألته عمّا يعني فقال:

- كاميليا زهران تلعب مع المدير العامّ تلك اللعبة  
القديمة.

حقّاً أصبح المديرين في سنّ الشباب لا كالعهد  
القديم، ومديرتنا العامّ في الأربعين ولكنّه متزوج وأب  
وذو سمعة - من هذه الناحية على الأقلّ - طيبة. قلت:

- ولعلّها إشاعة!

- ولعلّها حقيقة!

فسألته:

- وما تفسيرك للأمر؟

- لعله حبّ، وإن صحّ هذا الفرض فسيخرب  
بيت ويقام مكانه بيت جديد... .

وصمت ملياً ثمّ عاد يقول:

- ولعلّها اللعبة القديمة على طريقة شرارة النّحال.

- هل تسلّلت انتهازية جيلنا إلى الجيل الطازج؟

- إن المغريات اليوم أقوى وأحنف... .

فقلت بامتعاض:

- لعلّ الانتهازية يُعترف بها في النهاية باعتبارها

## ماهر عبد الكريم

كان أستاذًا مساعدًا بالكليّة عندما التحقت بها عام ١٩٣٠. وكان في منتصف الحلقة الرابعة، يتمتّع بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك. ولم أعرف أستاذًا فتن طلبته بسجاياه الروحية وسماحة وجهه مثله. وهو سليل أسرة عريقة، عُرفت بثراتها كما عرفت في التاريخ الحديث بولائها للحزب الوطني، وعُدّ هو بالتبعية من الموالين للحزب، ولكنّ ذلك لم ينل من حيننا له، والحقّ أنّه لم يعلن عن ميل سياسيّ قطّ، ولم يقع في رذيلة التعصّب أبدًا، ولم ينطق في حديث عن هوى أو تحيُّز أو حقد، ووهب نفسه للعلم والخير. قال لنا مرّة الدكتور إبراهيم عقل:

- لو كان جميع الأغنياء مثل ماهر عبد الكريم لقررت أنّ المثل الأعلى للإنسان أن يكون غنيًا والحقّ أنّ كرمه كان يلتهم ثروته، فلم يصدّ محتاجًا قطّ، وكان يهود بالإحسان سرًا كأنما يتسترّ على عيب، وكان مثلاً لسعة الصدر، هكذا كان في مناقشاته العلمية والعامّة، بل والسياسة إذا جُرّ إليها جرأ، وكان أساير وجهه لم تُهَيِّأ أصلًا إلاّ للتعبير عن التأمّل أو الترحيب أو البشاشة، وغير قابلة للإفصاح عن الحدة أو الغضب. وكان قُضره القديم بالمنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر، وبه متّسع دائميًا لطلبته فيقدّمهم إلى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد، وما أكثر الذين عرفتهم في صالونه من رجال الفكر. وكان النّيار الجارف في أحاديث الصالون ثقافيًا بالمعنى العامّ ولم تكن السياسة لتخالطه إلاّ في ظروف نادرة، ومع ذلك لم يتردّد الأستاذ سالم جبر عن إثارة موضوع فوارق الطبقات يومًا من أيام عام ١٩٣١ عقب عودته من رحلة في فرنسا، قال:

- إنهم في بعض الأوساط يحتقروننا لسوء حال شعبنا

فابتسم الدكتور ماهر عبد الكريم وقال:

- أعتقد أنّها حالة سيّئة.

فقال الدكتور إبراهيم عقل مخاطبًا سالم جبر:

- إنك تزور في فرنسا أوساطًا متطرّفة لعلها تضمّر

نفس الاحتقار لفرنسا أيضًا، على أنّ الإنسان لا تتقرّر حاله الحضارية بما يملك ولكن بما ينبض به فكره وقلبه، وأنا شخصيًا أعتبر الفقير الهنديّ أجمل إنسانيّة من فورد أو روكفلر!

واحتدّ سالم جبر فاتهمه بالمثاليّة الرجعية، كما اتهمه بالصوفيّة التي يعدّها مسئولة عن تأخر الشرق.

ولم يكن ماهر عبد الكريم يفكر كما يفكر سالم جبر ولكنّه اعتقد دائميًا بأنّ الإسلام يكفل للناس عدالة اجتماعية شاملة، كما اعتقد أنّ نشر التعليم يحقق الغاية نفسها بطريقة أخرى. ويومًا دعاني أنا وجعفر خليل - عقب إحدى المحاضرات - لمقابلته في قصر المنيرة، ووجدناه وحده في بهو الاستقبال، فرحّب بنا وقال:

- ستزورني آنسة أمريكية بناء على طلبها وقد

اخترتكما مترجمين بيني وبينها...

وكان يجهل الإنجليزية، ولعلّه فضّل أن يستعين بنا على أن يستعين بأحد من زملائه الكبار حتّى تتبين له أسباب الزيارة الغريبة. وعند الغروب قدمت فتاة شقراء آية في الجمال، في العشرين من عمرها، فسلمت وجلست وهي تعتذر عن تطلّعها. وقدم لنا الشاي والحلوى، وراحت الفتاة تقصّ قصّتها فقالت إنّها تزور مصر ضمن مجموعة من الشباب، وإنّ أمها كلّفقتها بالبحث عن شخص في مصر يدعى ماهر عبد الكريم كان طالبًا بالسوربون في أعقاب الحرب العظمى، وإنّ مدير الفندق دُعا عليه وطلب قصره لها بالتليفون، ووضح لنا من تبادل الحديث أنّ أمها كانت زميلة لأستاذنا في باريس، وأنها كانت صديقتها أيضًا، وأنها انتهزت فرصة سفر ابنتها إلى مصر لتحملها تحيّاها إليه.

وعلى طول الزيارة دار الحديث حول الذكريات القديمة الجميلة، وما آل إليه حال الصديقين القديمين في الوقت الحاضر. وعندما غادرنا القصر قلت لجعفر خليل:

- الظاهر أنّ تأثير أستاذنا فيمن حوله سجيّة قديمة

فيه منذ عهد الشباب...

فغمز جعفر بعينه وقال ضاحكًا:

- ولكنّ التأثير في النساء ذو مغزى آخر!

فاكتفى الأستاذ بقوله:

- عظيم!

ويدعوي ذلك إلى تدكّر رأي رجلين فيه، أحدهما صديق له قديم هو الأستاذ سالم جبر، والآخر مرید من مریديه هو الأستاذ عباس فوزي. أما سالم جبر فكان يحبّه ويعجب به ولكنّه يرى أنّه من طبقة النبلاء، لم يعرف الفقر، ويرى الشعب من فوق، وله رؤيته الخاصّة وهي رغم جاذبيّتها ونقائها غريبة عنّا كأنّها لغة كوكب آخر.

أما عباس فوزي - معجم السخريات اللاذعة - فكان يعرب عن رأيه فيه ولكن في حذر وعلى مهل ونقطة نقطة متجنّباً سكب ما في نفسه دفعة واحدة. فيوماً قال عنه:

- أنّه وجيه نبيل، مملوك من نسل ممالكها وتأمّلت قوله طويلاً على ضوء ما أعرفه من خبثه وساءلت نفسي عمّا يقصد الشيطان. ومرة استمع إلى نداء جميل منّي على الأستاذ ثمّ قال:

- هذه هي فضائل الأثنياء النبلاء وهي فضائل لم تتعرّض للتجارب المريرة!

ومرة ثالثة قال لي:

- في مصر لا يجتمع النبل والثروة والعلم، ولكنّ النبيل الغنيّ متعالم، يستغلّ ذكاء الفقراء، يجمعون له موادّ البحث ويقترحون عليه الأفكار، أمّا هو فيصنعي بوقار ويوقّع بامضائه!

ومرة رابعة قال لي:

- أستاذك ذوّاقة لكلّ طعام جيّد، يلتهم في اليوم ما يكفي لغذاء لواء من الجيش، خبّرني يا عزيزي متى يفرغ من الهضم ليتفرّغ للتفكير والبحث؟

ولكنّا كنّا نتصل بعقل الأستاذ اتصالاً مباشراً وندرك مدى ما يتمتّع به من دقّة ووضوح وغزارة في العلم، ومرّت به الأحداث وهو ثابت في وقاره، ولكنّي استشففت قلقلًا في ذاته في مواقف من حياتنا لا تنسى، مثل الاغتيالات السياسيّة، حريق القاهرة، ثورة يولييه، القوانين الاشتراكيّة، ولكنّه لم يجاوز القصد أبداً، ولا أعلن أنّ إقطاعياً تلقى الضربة التاريخيّة في مثل هدوئه، تلك الضربة التي نزعّت من يده عشرة

ثمّ قال بإيمان:

- الحقّ أنّ جمال الرجل يؤهّله لدور الفتي الأوّل في

أفلامنا!

فردّدت قول الفرزدق الذي كان يدكّرني دائماً بوجه أستاذنا:

يُخفي حياةً ويُغضي من مهابتته

فما يكلم إلا حين يبتسم

وقلت لجعفر:

- ما أتصوّره أبداً متخلّياً عن وقاره، فإذا كان

الوقار لباساً لغيره فهو منه بمثابة اللحم والعظم.

والحقّ أنّه لم يؤخذ عليه طوال حياته ما يمسّ السمعة

أو السلوك. وعند هذه النقطة أرى لزوماً عليّ أن

أعرض لشائعة اقتحمته في فترة القلاقل التي اتّسمت

بالاغتيالات السياسيّة في أعقاب الحرب العظمى

الثانية. قيل إنّ رفع خطاباً سرّياً إلى الملك فاروق يحذّر

من مغبّة التمرد الذي يحتاج الشباب، مفضلاً أسبابه

وبواعثه ومقرّحاً العلاج له. سمعنا ذلك فيما نسعى

من شائعات في المقاهي، وحتىّ اليوم لم أتأكد من

صدق الشائعة، وكلّ ما قيل عنها كان ضرباً من

التخمين ونتيجة للأهواء السياسيّة المتنازعة، فقال

وفدّيون إنّ اقتراح على الملك حلّ الأحزاب وإقامة

ديكتاتوريّة صالحة تعجّل بالإصلاح وتربّي الشباب

تربية دينيّة علميّة، وقال المتطرّفون من تلاميذ سالم جبر

إنّها دعوة لثورة مضادّة يراد بها تفادي الثورة الحقيقيّة.

أمّا أنا فساءتني الرسالة - مها كان مضمونها - باعتبارها

انتهاكاً لحرّيّة الدستور واستهتاراً بسلطة الشعب،

ووجدتني في حرج شديد بين إجلالي لأستاذي وبين

موقفي السياسيّ الواضح، ووجدت حرجاً أكثر من

مفاجئته بالموضوع، غير أنّ جعفر خليل وجد الجراءة

لمفاجئته! حدث ذلك عندما زرنا الأستاذ معاً ليودّعه

جعفر خليل قبل سفره إلى الولايات المتّحدة، وعند

ذاك أخبره صديقي المرحوم بما يشاع وبما يقال.

وأنصت الدكتور في هدوء وابتسام، ثمّ سأله:

- صدقت ما يشاع وما يقال؟

فراجع جعفر خليل قائلاً:

- كلّاً.

- لا احتفال بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، فلا يجوز أن نحفل ونحن نقاتل، ولكنها فرصة طيبة للاجتماع. وشرق الحديث وغرب ولكنه كان يرتد إلى ثورة واحدة هي الصراع في الشرق الأوسط، ويعالج على مستويات سياسية واقتصادية وفلسفية ودينية، ويتفرع إلى الموقف العالمي والكشوف العلمية والمشكلات العامة الإنسانية والاضطرابات الخطيرة في الغرب والشرق وذبول القيم، والمستقبل، أجل المستقبل، وبأي وجه يطالعنا. وطغت موجة من التشاؤم، وترددت كالهتف المطرب بين الشيوخ، طوية يرمون بها الدنيا المولية، واشترك أستاذنا في الجوقة ولكن بنغمة أخرى، وفجأة قال:

- رحم الله إبراهيم عقل...

ما الذي دعاه إلى تذكره؟. كان أحب الأصدقاء إلى قلبه، ولم أشهد دمعه إلا يوم جنازته عام ١٩٥٧، وتذكرت بدوري كلمته لنا قبيل التخرج. وعاد يقول:  
- سلم بالإيمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس...  
وابتسم طويلاً ثم قال:

- قولوا في الدنيا ما شئتم، لا جديد في التشاؤم، ولكن الحياة في صالح الإنسان وإلا ما زاد عدده بأطراد، وما زادت سيطرته على دنياه.

### يحمود درويش

كان يستلقت الأنظار بين طلبة الكلية بطول قامته ونحول قده، وسرعان ما تميز بذكائه واجتهاده الخارق فاكسب مكانة محترمة بين الزملاء ولدى الأساتذة المصريين والأجانب، وكان دقيق الملامح وسيياً ولكنه كان أيضاً جافاً منطوياً على نفسه، يزامل ويصاحب ولكنه لا يعرف الصداقة، كان صديقه الحقيقي الكتاب. وكان أبوه إمام مسجد بالجيزة، يشكو كثرة العيال وقلة المال، فكان محمود درويش يعاني حياة متقشفة، ومن أول يوم نشأ سوء تفاهم بينه وبين عجلان محمود وهو يقول إن أباه إمام مسجد فضحك، فسأله محمود درويش:

آلاف من الأفدنة، وقد باع قصره القديم بالمنيرة واشترى فيلاً جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأي، وواصل عمله الجامعي بنفس المهمة حتى أحيل إلى المعاش عام ١٩٥٤ لبلوغه السن القانونية، فعمل أستاذاً زائراً، وعين عضواً في المجلس الأعلى للآداب ونال جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. إذن قدرت له الثورة مكانته العلمية وسمعتة العطرة واستقامته العامة التي أبعدته عن الشبهات، وهو وإن لم يعلن ولاءه للثورة لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية أن يرمى بشيء مما يمس الكرامة، فإنه لم يتردد في إعلان ذلك الولاء في مجالسه الخاصة، فقال يوماً:  
- إنني مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن عمله كي يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له.

ولم أستشعر في حديثه أو سلوكه أي أثر لمرارة، ولا معنى بعد ذلك للتنقيب في الأفدنة فلا يطالب مثله بأكثر من ذلك، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية منطلقة أصلاً لاقتلاع طبقتة، وأن يقنع نفسه بها فلسفياً كحركة تاريخية حتمية لا مفرّ منها طال الزمان أو قصر. وفي عام ١٩٦٩ احتفل بعيد ميلاده الخامس والسبعين، فازدحم الصالون بمن بقي على قيد الحياة من أساتذة الجامعة القدامى، وبالأصدقاء سالم جبر ورضا حمادة وعزمي شاعر وكامل رمزي وقدري رزق وجاد أبو العلا وعبّاس فوزي وصادق عبد الحميد ونعمات عارف نيابة عن زوجها زهير كامل، وهفت عليّ ذكريات إبراهيم عقل وجعفر خليل. ورأيت قلة من الشباب بينهم صبري جاد وزوجته كاميليا زهران، ولكن غلب الشعر الأبيض والتجاعيد والنظرات المجردة والعصي، ولم أشعر من قبل كما شعرت ذلك اليوم بمرور الزمن وثقله وجلاله وغدره وأبديته وأثره وترقعه وتواضعه وحكمته ونزقه، كأنما غفوت في الديزل إغفاءة طويلة استيقظت بعدها في محطة سيدي جابر. ورغم كل شيء فقد بقي لماهر عبد الكريم عينا الزرقاوان الواسعتان وابتسامته الغازية ووقاره العذب. قال أستاذنا:

## المرايا ٣٨١

الحكومة. ولما اجتاحت موجة الإضراب الجامعة وقف حياها غاضباً وعاجزاً، وكان يتسلل إلى المكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتى تغلق أبوابها. ويوماً وثب إلى منصّة الخطابة عقب خطبة ثورية ألقاها زعيم الطلبة. وثب إلى المنصّة، وبجراة جنونيّة، دعا الطلبة إلى الانتظام في العمل والعكوف على الدراسة باعتبارها هدفهم الأسمى، وهاج الطلاب وماجوا، وطالبوا بإنزاله، ولولا الاحترام الذي اكتسبه بتفوقه لاعتدوا عليه اعتداءً مؤكّداً. وصدر أمر بإغلاق الجامعة شهراً، وفي أثناء ذلك قبض على زعماء الطلبة جميعاً، ولما عدنا إلى الكليّة وجدت همساً تتناقله الألسنة قال لي جعفر خليل:

- سمعت؟.. يقولون إنّ محمود درويش متّصل بإدارة الأمن العامّ..

فاستفظعت ذلك ولم أصدقه فقال:

- يقال إنّ الذي رشّحه لذلك أبوه باعتباره من

السنة إدارة الأمن وعيونهم!

- ولكنّه شابّ مستقيم!

فقال بحزن:

- ويقال أنّه هو الذي أرشد إلى زعماء الطلبة!

كانت إشاعة قويّة ولكن لم يكن من سبيل إلى التأكد منها، وقد تحرّش به بعض الطلبة وعرضوا بدوره في المؤامرة، ولكنّ الدكتور إبراهيم عقل استدعاهم إلى مكتبه وهذّدهم - إذا عادوا - بإبلاغ أمرهم إلى الجهات المختصة. وعاشت الإشاعة معي زمناً طويلاً، وخلقت في نفسي نفوراً منه وبخاصّة وأتني استثقلت ظلّه من أوّل يوم، وكسدت أومن بصدقها عقب تخرّجنا عندما اختير محمود درويش عضواً في بعثة إلى فرنسا في فترة من الزمن توقفت البعثات فيها تماماً. وانقطعت أخباره عني أعواماً طويلاً حتى صادفته في مكتب الأستاذ عدلي المؤذن بوزارتنا فتصافحنا وجلسنا نتبادل الحديث. بدا لي وقتها في صورة جديدة، مليئة بالحويّة والصحة والعافية، وطالعتني عيناه من خلال نظارة أنيقة أسبغت على وجهه هيئة العلماء. قال:

- أنا مدرّس اليوم بالكليّة..

- ماذا يضحكك؟

فأجاب عجلان:

- ألا يضحكك أن تكون الإمامة وظيفّة؟

فغضب محمود وقال له:

- أنت قليل الأدب.

وهتف به عجلان:

- اخرس!

وفصلنا بينهما، ولكنّها أصراً على الخصام إلى النهاية وفي حادثة سرقة الطربوش التي اتهم فيها عجلان شهد محمود ضمته، وكان ضمن الأسباب التي أدت إلى فصله من الكليّة، وقد عاتبناه في ذلك ولكنّه قال:

- لا خير في أن تقدّم للمجتمع لصاً متعلّماً..

وكانت آثار الكبت والحمران تتجلّى في عينيه كلّما

وقع بصره على طالبة من الطالبات. وأمّا سعاد وهي

فكادت تتسبّب في جنونه، ولكنّه بدلاً من أن يغازلها أو

يحاول ذلك على الأقلّ راح يحمل على «هتكها» حملة

كادت تبلغ العلانية، وكان أوّل من أبلغ العميد عن

تبرّجها، وعن الفتنة التي تثيرها في قاعة المحاضرات.

والظاهر أنّه تعرّض لأزمات عنيفة، وصراعات حادة

بين حيويّته وبين حرمانه الإجباري، فلم يجد أبوه حلاً

لذلك - بعقليّته الريفيّة الدينيّة - إلا أن يزوجه من ابنة

عمّ يتيمة يكفلها فرجع إلى الكليّة في العام الدراسي

التالي متزوّجاً من فتاة ريفيّة أميّة، ولكنها أراحت باله،

وأطلقت قواه في التحصيل دون عائق. ولم يعد له من

اهتمام إلا العلم والتفوق، وكان إذا احتشد لكتابة

بحث ما تكلف بكتابته في أثناء السنة الدراسيّة كتبه

بذكاء واقتدار وأحاط به إحاطة تقطع باطلاعه الواسع

ويدرايته في استخراج المراجع. ولذلك كان يتابعنا

أحياناً ونحن نهدر بأحاديث السياسة وكأنّه عاقل

يستمع إلى مجانين. وتساءل مرّة:

- كيف تمجدون متسّعاً بعد ذلك للدراسة؟

فأجابه طالب متعجّباً:

- كأنّ الإنجليز يمتلّون وطناً غير وطنك وكأنّ الملك

يستبدّ بشعب غير شعبك!

ولم يكن يفرّق بين مصطفى النحاس وإسماعيل

صدقي، وأحياناً كان ينسى اسم «الباشا» الذي يرأس

- فقال عدلي المؤذن: - وهو شارع في إصدار سلسلة في فلسفة التصوف... وقال محمود درويش: - أدركتني الحرب في فرنسا قبل إتمام الرسالة فسافرت إلى سويسرا وهناك حصلت على الدكتوراه. وكما غادرنا قال لي عدلي المؤذن ضاحكاً: - عاد خواججا كما ترى ليجد في انتظاره زوجة ريفية أمية. وسألته عما قيل عنه يوماً من اتصاله بإدارة الأمن العام وخاصة وأن عدلي المؤذن كان موظفًا في ذلك الوقت بإدارة الجامعة فقال عدلي باقتضاب: - كلام فارغ. وكما حكيت تلك الواقعة للأستاذ عباس فوزي ضحك طويلاً وقال:
- يا لك من رجل طيب! ألا تعلم أن عدلي المؤذن نفسه كان متصلاً وقتها بإدارة الأمن العام؟ والتقيت - بعد ذلك بأعوام - بالدكتور محمود في صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وكانت قدمه قد رسخت في عالم التأليف، وصدر له أكثر من ثلاثة كتب عُذت من المراجع الهامة في دراسة التصوف في العصر الحديث، وسمعت عنها الشاء تلو الشاء من أستاذنا ماهر عبد الكريم. ويومها سأله عن أحواله فقال:
- لي أربعة أبناء في كليات الهندسة والتجارة والحقوق والآداب و بنت متزوجة من ضابط طيار... فسألته باهتمام: - هل تمارس التصوف؟ فأجاب ضاحكاً: - كلاً، ولكن لا مراء في أن الإنسان لا يتخصص إلا في مادة متغلغلة في نفسه... وفكرت في زوجته التي اختارها الظروف ربة لبيت من المثقفين وهي بدائية بكل معنى الكلمة، فوددت لو أتسلل إلى أحماق ذلك الجانب من حياته، ولكنه كان يبدو متألقاً بالسعادة والنجاح. وقال لي: - طبعاً علمت بمأساة الدكتور إبراهيم عقل؟
- طبعاً، كارثة ولا شك، ولكني لم أرك في جنازة ابنه؟
- كنت خارج القاهرة، هل حافظت على اتصالك به مذ تركت الكلية؟
- كلاً... - إنه أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين. والتقيت به مرة أخرى في صالون المنيرة، ثم دُعي للتدريس في إحدى الجامعات العربية فسافر خارج القطر وانقطعت عني أخباره.

## مجيدة عبد الرزاق

- في زيارة لسالم جبر في مكتبه بجريدة المصري عام ١٩٥٠ قَدَم لي فتاة حسناء فائلاً:
- مجيدة عبد الرزاق محررة الصفحة النسائية. كانت في الثلاثين من عمرها، رشيقة القوام، تطالعك من عينيها السوداوين نظرة ذكية جذابة، ولها شخصية قوية تفرض نفسها لدى أول اتصال. والتقيت بها للمرة الثانية في حفل انتخابي أقامه الدكتور زهير كامل للدعاية لنفسه فسألته:
- إذن فأنت وفديّة؟ فقالت باسمه: - أنا تلميذة للدكتور زهير كامل. - آداب؟ - قسم الصحافة. - ووفديّة؟ - أبعد من ذلك بكثير! فتساءلت وأنا أنظر في عينيها الجميلتين: - ماذا تعنين؟ فابتسمت ولم تجب. والتقيت بها للمرة الثالثة في بيت زهير كامل فشعرت بأننا نتنقل من مرحلة التعارف الودّي إلى مرحلة الصداقة الحقيقية. وعقب ذهابها قال لي الدكتور زهير كامل:
- إنها مثقفة ثقافة تستحق التقدير وذات شخصية محترمة. فقلت بحماس:



## المرايا ٣٨٣

- أجل ولكنتي عرفت في الكلية أستاذًا كان له أكبر الأثر في حياتي، طبعًا سمعت عن الأستاذ محمد العارف؟

- أجل.

- علمني العلم وما هو أخطر منه... .

- الشيوعية؟

- نعم، ثم ألف بيننا حب عميق، وسرعان ما تزوجنا بعد تخرجي مباشرة... .

فقلت بدهشة:

- حسبتك غير متزوجة.

- عشت أيامًا سعيدة وأنجبت توأمين ذكرًا وأنثى.

- جميل حقًا.

- وكانت أمه هي ربة بيتنا فلما توفيت اعترضتنا متاعب فتمزقت بين العمل في الجريدة وبين واجبات البيت، وكان زوجي يحب النظام كما يحب أن يكون موضع الرعاية فاقترح عليّ أن أتفرغ للبيت... .

- رأي لا يخلو من وجهة.

فقلت بحدّة:

- كلاً، كانت لي آمالي الخاصة أيضًا فرفضت، ولم أجد منه عطفًا ولا تقديرًا.

فلم أنبس بكلمة فقلت:

- وتكشفت لي أنانيته وقلة أدبه ورغبته الدفينة في السيادة، واشتعل بيتنا بالعنف والخصام، ثم انتهى الأمر بالطلاق... .

- متى وقع ذلك؟

- أيام الكوليرا!

فسألت بإشفاق:

- وكيف حالك الآن؟

فقلت بمباهاة:

- أتقدّم في عملي كما ترى، وتعاونني في تربية الطفلين امرأة طيبة، وهو يمّدني بالنفقة الشرعية.

ولما قامت ثورة يوليو بذرت في ساحة صداقتنا الهادئة بذور خلاف عنيد لأول مرة، فاتهمتُ بأنها ثورة رجعية، أو لون جديد من الفاشستية، أو انقلاب برجوازيّ صغير يشبع تطلّعات أمثالي من البرجوازيين الصغار. وأصرّت على رأيها حتى التجهت الثورة إلى

- أعتقد ذلك.

وهو يتسم:

- وهي شيوعية أيضًا!

- شيوعية؟!

- امرأة مصرية معذبة من ضحايا فترة الانتقال.

وجمعت بيننا صداقة وطيدة واحترام متبادل. وكنا نجتمع في أوقات متفرقة بجروبي مع نفر من الأصدقاء، فنجالسنا مجالسة الأنداد، وتتجاهل إيماءات الغزل التي توجه إليها أحيانًا، باعتبارها عبثًا صغيرًا، إذ لم تكن تتبع الخيل النسائية البالية، ولا تحترم القيم البرجوازية، ولكنها كانت تنشد دائمًا العاطفة الصادقة الأصيلة. قالت لي يومًا:

- حذار أن تظنّ بي البرودا فتساءلت:

- ما الذي جعلك تفكرين في ذلك؟

فقلت بحرارة:

- إني أعبد الحب.

ثم كالمستدركة:

- أعبد الحب والأيدولوجية.

ولما استتبّ اطمئنانها إليّ قصّت عليّ قصة حياتها في مقهى الفيشاوي، قالت:

- نشأت في أسرة من البرجوازية الصغيرة، ربّها موظف مغمور، وكنت البنت الوحيدة بين أربعة ذكورا!

فقلت بأسيا:

- إذن كنت جوهرة مدلّلة... .

- بالعكس، عانيت الاضطهاد من الجميع، وكان يزداد بتقدّم العمر، ولكنتي فرضت الاحترام عليهم بتفوقي في المدرسة... .

فاعلنت إعجابي بابتسامه فقلت:

- وتقدّم لي عريس بعد نجاحي في الثانوية العامة وبالرغم من ترحيب الجميع به إلا أنني اشترطت عليه أن يسمح لي بإتمام دراستي الجامعية، فسألني عن الحكمة وراء ذلك، فصارحته برغبتي في العمل، ولكنه لم يوافق، وانضمّ إليه في الرأي أهلي ولكنتي صمّمت، فلذهب... .

- وحققت مشروعك بالكامل!

المتوسط فقلتُ لعلها تجد فيها تسلية عن وحدتها  
وتجديدًا لحياتها ومادة طريفة لقلماها.

## ناجي مرقص

لا أنسى هذا الاسم أبدًا، لم يُخَّج من ذاكرتي كأنه  
اسم عَلَّم من الأعلام، رغم أنني لم أزاله إلا ثلاثة  
أعوام من حياتي، ما بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ في المدرسة  
الثانوية. أمضى فترة الدراسة الابتدائية في السودان  
حيث كان يعمل والده. ولما عاد الرجل إلى مصر أقام  
في العباسية وألحق ابنه بمدرستنا. وقال ناجي لي يومًا:  
- كنا إخوة أربعة، مات ثلاثة، وبقيت أنا.

وقال لي مرة أخرى:

- أُمِّي حزينة لا تضحك أبدًا. . .

وكان رشيقًا طويلًا وسيم الوجه لطيفًا مهذبًا ورزينًا  
لدرجة لا تناسب سنه ولعله كان الوحيد في سنة أولى  
الذي يلبس بنطلونًا طويلًا. وربما كان أنبغ تلميذ  
صادفته في حياتي. كان لكل تلميذ مجال في تفوقه إن  
وُجد، فتلميذ يتفوق في اللغات وآخر يتفوق في  
الرياضيات وهكذا. أما ناجي مرقص فكان مُتفوقًا في  
جميع المواد، في العربية والإنجليزية والفرنسية  
والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء والتاريخ  
والجغرافيا. وكان الأول دون نزاع وكان المدرسون على  
اختلاف جنسياتهم من مصريين وإنجليز وفرنسيين  
يحترمونه ويعاملونه كأنه رجل لا تلميذ. وكان بدر  
الزيادي يسميه عبد الحليم المصري تشبيهاً لتفوقه بقوة  
المصارع الشهير. وسألته يومًا:

- كيف تفوقت في جميع المواد؟

فأجاب بأدبه الجَم:

- أنتبه في الفصل وأذاكر من أول يوم في السنة  
الدراسية.

وسأله جعفر خليل:

- ألا تذهب إلى السينما كل خميس؟

- في الأعياد والمواسم فقط.

فسأله عيد منصور:

- ألا تلعب الكرة؟

الكتلة الشرقية فأخذ عنادها يلين ورأيها يتغير.  
وسأنتي وحدتها كثيرًا. وشعرت بأنها تعاني منها مرارة  
حادة، ولكنها رفضت دائمًا رغبات زملاء الجامعة  
العابثة انتظارًا للحب الحقيقي الذي تعبه كما قالت لي  
من قديم. وبصراحتها العذبة قالت لي مرة:

- خُدمت مرة واحدة!

- لا أصدق.

- طبيب أطفالى عليه اللعنة!

- ولكن كيف..؟

- وكان أيضًا متزوجًا!

- ولكن الرجل المتزوج..؟

- خطأ حقيقة ولكنه الحب، وأفهمني أنه غير سعيد  
وأنه سيطئ لأسباب لا تتعلق بي!

- وصدقت؟

- ما أفظح الخداع، إنه أنكر من القتل، وسلّمت  
بدون قيد ولا شرط.

- شيء فظيع حقًا.

- عليه اللعنة، وكانت أيامه سوداء كخداعه فكنا  
نلتقي في عيادته في جو غارات الاعتداء الثلاثي.

ومنذ تلك التجربة الميرة استقرّ سوء الظنّ في  
أعماقها فتضاعف شعورها بوحدتها وحنينها إلى الحب  
الحقيقي. ومضى يغزوها الزمن حتى بلغت اليوم  
الخمسين من عمرها، وقد تزوجت ابنتها، وسافر ابنها  
للعمل في إذاعة الكويت، ففرقت في الوحدة والكهولة  
حتى قمت الرأس. وما زالت حتى اليوم محافظة على  
رشاقة قدها، ومسحة من جمالها، وإذا دُعيت إلى  
التلفزيون فهي تستأثر بالأنظار والأسباح بقوة شخصيتها  
ومرونة منطقتها وغزارة معلوماتها، وإذا خلوت إليها  
تُخيل إليّ أيّ أستمع إلى وحوحة تندّ من أعماقها.

وما زالت مواظبة على زيارة أستاذها القديم الدكتور  
زهير كامل، كما نشأت صداقة حميمة بينها وبين زوجته  
الجديدة الصغيرة نعمات عارف، ولا شك أنها علمت  
بعلاقتها بالدكتور صادق عبد الحميد، ولكنها تجاهلت  
ذلك تمامًا، وتمتّت ألا تنكشف الحقيقة لأستاذها أبدًا.  
وعلمت أخيرًا - وسعدت بذلك جدًا - أنها ستقوم  
برحلة صحفية لزيارة بلاد حوض البحر الأبيض

## المرايا ٣٨٥

تذكرته فداخلي الأسي ونحيت الأجداد التي وُثدت  
بضربة عمياء من ضربات العيب. ومضت أعوام  
فأعوام دون أن تقع عليه عيني أو أسمع عنه ذكرًا  
حتى التقيت به مصادفة في كازينو حديقة الأزيكيت عام  
١٩٦٠. مررت به أول الأمر دون أن أظن إلى هويته  
إذ جذبت عيني لحيته البيضاء فحسبته فتانًا، ثم  
سمعت صوته يناديني فالتفت إلى وجهه وعرفته في  
الحال. وتصافحنا بحرارة ثم جلسنا حول مائدة  
متواجهين. لم يكد يتغير وجهه لولا لحيته وشيبة رأسه،  
وانبعثت من جملة منظره شفافية عذبة كالعبر الخلو أو  
الطمأنينة الشاملة. وتذاكرنا الماضي والزملاء، من  
رحلوا مثل بدر الزيايدي وجعفر خليل، ومن نبغوا في  
الحياة مثل رضا حمادة وسرور عبد الباقي وغيرهما، ثم  
جاء دوره فقال:

- ما زلت موظفًا بوزارة الدفاع ووصلت إلى  
الدرجة الثالثة، متزوج وأب لفتاة في العشرين طالبة  
بكلية العلوم...

وسكت قليلاً ثم استطرد:

- أتجهت من قديم إلى دراسة الروحانيات، عن  
طريق الكتب والمراسلة...

فقلت له:

- قرأت بعض الكتب عنها.

فابتسم قائلاً:

- إني أدرسها وأمارسها!

- حقاً؟!

فقال بوجد وحماس:

- عالم الروح عالمٌ عجيب، أعجب من عالم  
المادة...

فتابعته باهتمام واحترام فاستطرد:

- وهو أمل الإنسان في الخلاص الحقيقي.

فقلت مجاملاً وصادقاً في آن:

- الإنسان في حاجة إلى الخلاص.

فقال بحرارة متشجعاً بإقبالي:

- حضارتنا مادية، وهي تحقق بالعلم - كل يوم -

انتصارات مذهلة وتمهد لسيطرة الإنسان على دنياه  
ولكن ما جدوى أن تملك الدنيا وتفقد نفسك؟

- كلاً.

فسأله رضا حمادة:

- أليس لك هواية؟

فأجاب:

- أعزف على البيانو في أوقات الفراغ.

فقال له رضا:

- إنك لا تشترك في الإضرابات أفلا تهتم بالوطنية؟

- أهتم بها طبعاً ولكن...

وتردد لحظات ثم قال:

- ولكن أخي الأكبر قُتل في مظاهرة!

ونجح في امتحان الكفاءة بتفوق فجاء ترتيبه بين

العشرة الأوائل في القطر كله، وعندما عدنا إلى

المدرسة في بدء العام الدراسي الجديد لم نعثر لناجي

مقرص على أثر لا في القسم العلمي ولا القسم

الأدبي.

وتساءلنا عن سرّ اختفائه دون أن نظفر بجواب.

وكان يسكن بعيداً عن حيننا في أطراف العباسية المشرفة

على منشية البكري فذهبنا إلى مسكنه نستطلع فعلنا

هناك بأنه أصيب في صدره وأنه أرسل إلى جدته

بصعيد مصر ليعالج وأنّ علاجه سيستغرق عامًا كاملاً

في أقلّ تقدير. أحزننا الخبر كما أحزن جميع أقرانه

ومدرّسيه، وأرسلنا إليه رسالة جماعية حملناها تحياتنا

وتمنياتنا له بالشفاء العاجل. وحدث في ذلك الوقت أن

قدّم مصطفى النحاس إلى المحاكمة في قضية سيف

الدين فبرأته المحكمة العليا، وذهبت وفود من الشعب

إلى بيت الأمة تهنئه، وذهب فيمن ذهب والد صديقنا

وهو موظف في وزارة الحربية، وظهرت صورته لسوء

الحظّ ضمن صور المهنيين فقررت الوزارة فصله. وشقّ

على الرجل الرُفت وكان فقيراً كما كان مريضاً بالقلب

فأصيب بالفالج وقضى نحبه. وشفي ناجي من مرضه

ولكنّه عجز عن مواصلة التعليم فانتهمز أهل الخير

فرصة عودة الوفد إلى الحكم وسعوا إلى تعيين الشاب

الصغير في وزارة الحربية فتعيين في وظيفة صغيرة خارج

المهية، كذلك قضت الظروف على أنبغ تلميذ في

جيلنا. وكثيراً ما كنت أتذكره وأحسّر على نهايته، وكلّما

صادفني شيء من التوفيق في حياتي الدراسية أو العملية

فقلت بحذر:

- على الإنسان أن يملك الاثنين!

فابتسم بعذوبة وقال:

- لعلك لا تؤمن بقولي، أو لعلك لا تؤمن به كلَّ الإيمان، ولكن ثق من أنَّ عالم الروح حافل بالمجاهل كعالم المادَّة، وأنَّ التنقيب فيه يعدُّ الإنسان بانتصارات مذهلة لا تقلُّ عن انتصاراته في غزو الفضاء، وأنَّه لا يتقصنا إلا أن نؤمن بمنهج روحي كما نؤمن بالمنهج العلمي، وأن نؤمن أيضًا بأنَّ الحقيقة الكاملة هي ملتقى طريقين لا غاية طريق واحد...  
- حكمة معقولة...  
فرنا إلى بنظرة حنون من عينيه السوداوين - أدركت لونها لأول مرَّة - وقال برثاء وشفافية:

- ما أضعف صوت الحقِّ وسط هدير الآلات، ولكن ما أحوج الإنسانية اليوم إلى منقذ...  
فسألته بحبِّ استطلاع:

- كيف تتصوَّر المنقذ؟

- أتصوِّره رجلًا أو فكرةً أو درسًا باهظ الثمن!

- كحرب ذرية؟

- ربَّما، على أيِّ حال أشعر بأنَّ ثمة حجابًا يفصل بيني وبينك ولكنه حجاب شفاف ضعيف الجذور، وأنَّ استعدادك لحبِّ الحقيقة كبير؛ وإنِّي أمارس تحضير الأرواح في بيتي فلعلك تزورني يومًا...  
وأعطاني بطاقته التي لم يطبع عليها إلا الاسم والوظيفة والعنوان بشارع دير الملاك. ومع أنني تلقيت كلماته بحبِّ لا باقتناع إلا أنَّه خطَرَ في جحيم حياتي كعبير زهر اللارنج. وفي مساء اليوم نفسه قابلت الأستاذ سالم جبر في مكتبه بالجريدة، وحدثته عن ناجي مرقص ودعوته، وإغراءه وتحذُّرًا معًا عرضت عليه أن نزوره معًا، ولكنَّه استسخف الفكرة، وذكريتي بأنَّه لم يعد يوجد فاصل بين عالمي المادَّة والروح، وأنَّ التوغُّل في حقيقة المادَّة هو توغُّل في حقيقة الروح، وأنَّ صديقك يدعوك إلى طقوس سحرية في عصر الفضاء! ولم أزل ناجي مرقص بعد ذلك ولكنَّه يهفو على قلبي أحيانًا كذكريات الصبا فأدرك أنَّه يعيش في ركن من نفسي...

## نَادِرُ بُرْهَانَ

كان بطلًا من الأبطال في حياتنا الصغيرة بالمدرسة الابتدائية ما بين عامي ١٩٢١ و١٩٢٥. كان يكبرنا بأعوام، وكان قويًّا طويل القامة، ومنذ أول يوم لنا في المدرسة قيل لنا إنَّه زعيم التلاميذ بالمدرسة. وكنا نلتفت حوله في فناء المدرسة ونتابع كلامه باهتمام. وكان يقول:

- لا تستصغروا أنفسكم فأنتم جنود سعد، أي جنود الوطن...  
وكان يقول أيضًا:

- علينا أن نوطن أنفسنا على قبول الضرب أو السجن أو حقِّ المشنقة، فلا قيمة للحياة بلا حرِّية، ولا حرِّية بلا تضحية، وقد أرسل الله لنا سعد زغلول زعيمًا وعلينا أن نكون جديرين بزعامته...  
وكنت أجدُّه وأعجب به وكان رضا حمادة يعبهه ولم يجرؤ سيِّد شعير أو خليل زكي على السخرية منه، أمَّا إذا حدَّث عن زيارته لبيت الأُمَّة ومحاوراته مع الزعيم فكان يبهرننا لحدِّ الجنون، ونفد منِّي الصبر فاقتربت منه ذات يوم وقلت:

- أريد رؤية سعد بالعين فهلَّا أخذتنا إلى بيت الأُمَّة؟

فنظر إليَّ بعطف وقال:

- ما زلت صغيرًا تسير في بنطلون قصير، وزيارة بيت الأُمَّة مغامرة خطِّرة لا رحلة آمنة...  
وكان إذا تقرَّر إضراب ومظاهرة انتظر نادر برهان حتى تنتظنا طوابير الصباح، ثمَّ يتقدَّم خطوات إلى الأمام ويأخذ في التصفيق بقوة، وسرعان ما تدوي الطوابير بالتصفيق. وعند ذاك يبادر ضباط المدرسة إلى طوابير التلاميذ الصغار فيمضون بهم إلى الفصول بسماح من التلاميذ المضربين فنمضي ونحن نهتف بحياة سعد، ويذهب الباقون في مظاهرة على رأسها نادر برهان إلى الطريق فيلتقون بتلاميذ المدارس الأخرى، وفي إحدى المظاهرات أصيب برصاصة في ساقه فقضى في المستشفى شهرين ثمَّ لازمه عرج خفيف بقيَّة عمره. ونحت زعامته اشتركت في أول مظاهرة في حياتي

المرايا ٣٨٧

- أنا من أسرة معتمّرين لا يموتون إلا في الحوادث .  
وذكرته بالزملاء وأخبرته عن المصائر فأوضح أنه لا  
يعرف إلا رضا حمادة معرفة غير شخصية . ولما سألته  
عن حاله رحّب بالحديث جدًا كأنما كان يبحث عن  
متنفّس له . قال :

- بعد الابتدائية التحقت بالمدرسة الثانوية في  
أسيوط لانتقال أبي إليها، ولكنّي رُفُت في عهد عمّد  
محمود، ورجعت في عهد النحاس، ثم رُفُت مرّة  
أخرى في حكم صدقي، ثم أتممت في قضية الشروع  
في اغتياله وسُجنت، حُكم عليّ بعشرة أعوام ولكنّي  
خرجت بعفو في حكومة النحاس التي عقدت  
المعاهدة، ووجدت أنه من العبث أن أحاول إتمام  
دراستي الثانوية فعيّني الوفد وكيلًا لجريدة الجهاد في  
الإسكندرية . . .

وسكّت قليلًا متجهّم الوجه للذكريات لا أدري بها  
ثم قال :

- لم أحزن في حياتي مثلما حزنيت للخلاف بين  
مصطفى النحاس والنقراشي، كان النحاس زعيمًا،  
وكان النقراشي أبي الروحي، ولم أتصوّر الدنيا صالحة  
للحياة مع وجود عداوة بين الرجلين، وسارت  
الأحداث في المجرى الذي تذكره، فبلغ بي التقزّز  
مداه . ولما كانت المعاهدة قد ختمت ثورة ١٩١٩  
وتحقّق لنا الاستقلال ولو بعد حين، فقد قرّرت اعتزال  
السياسة، وصادف ذلك وفاة أبي ووراثتي لقدرا لا بأس  
به من المال ففتحت مطعم سمك في سيدي جابر وفتح  
الله عليّ . . .

- إذن اعتزلت السياسة؟

- منذ عام ١٩٣٧ .

ثمّ وهو يعتدل في اهتمام :

- ولكنّي لم أنقطع عن متابعة الأحداث، لعلّي  
السّاك الوحيد الذي يفليّ الجريدة قبل أن يقول يا فتاح  
يا عليم . . .

ثمّ وهو يهزّ رأسه في أسى :

- وكنت أتابع تدهور الأحوال بحزن، وكلّما تسلّل  
إلى الوفد ضعف أو انصرف عنه جيل من الشباب  
تفطّع قلبي، ولكن ما باليد حيلة . . .

عام ١٩٢٤ . دعانا إلى الإضراب وخطب فينا قائلاً إنّ  
الملك فؤاد يريد التلاعب بالدستور وإنّ سعد زغلول  
رئيس الوزراء - تلك المرّة - يقف في صلابة للدفاع  
عن حقوق الشعب، وإنّ علينا أن نذهب إلى ميدان  
عابدين لتأييد الزعيم . ولما كانت الحكومة شعبية لأوّل  
مرّة، ولما كان رئيسها هو وزير الداخلية، فقد سمح لنا  
بالاشتراك في المظاهرة باعتبارها مظاهرة سلمية، وسرنا  
في حشود هائلة من التلاميذ والطلّاب وأهل البلد حتّى  
اكتظّ بنا ميدان عابدين، ورحنا ندقّ باب القصر  
بأيدينا ونهتف «سعد أو الثورة» . . .

وترامى من بعيد هتاف شامل إيدانًا بمقدم  
الزعيم لمقابلة الملك . واشتدّ الضغط حول ممرّ ضيق  
شقّه رجال الشرطة بصقّين منهم لتسير فيه سيّارة  
الزعيم، وقلت لرضا حمادة بسرور غامر :

- سترى أعيننا سعد زغلول .

فقال بحماس :

- نعم ولو لبضع ثوانٍ . . .

وتسلّلنا بخفّة وعناد حتّى بلغنا حافة الممرّ، ورأينا  
السيّارة قادمة ببطء شديد والخلق يحيطون بها ويتعلّقون  
بأركانها ويقفون فوق غطائها . وتطلّعنا بأعين ملهوفة  
تيمّة ولكنّا لم نر إلا أجساد البشر ولم يتجلّ من الزعيم  
لملح واحد، وبؤنا بحسرة لازمتنا طويلًا .

ولما انتقلت إلى المدرسة الثانوية انقطعت عني أخبار  
نادر برهان . لم أره ولم أسمع عنه، افترقت عنه عام  
١٩٢٥ وانقضت أربعون عامًا حتّى صادفته في مقهى  
أسترا شتاء عام ١٩٦٥ . كنت عائدًا من لقاء نهاريّ  
مع أماني محمّد فملت إلى مقهى أسترا لأشرب فنجان  
قهوة فرأيت جالسًا وحده، بدينًا عملاقًا، ومعطفه مثنّي  
على ظهر كرسيّ إلى جانبه . عرفته من أوّل نظرة،  
ونخيل إليّ أنّه لم يتغيّر كثيرًا رغم أنّه كان في الستين،  
حتّى شعر رأسه ظلّ أسود عدا سوائفه . وأقبلت عليه  
باسمًا فنظر إليّ بإنكار ولكنّه صافحني، فلما ذكرته  
بالمدرسة الابتدائية والزعامة تهلّل وجهه ودعاني  
للجلوس فجلست . قلت له :

- عيني عليك باردة، لم تتغيّر .

فقال ضاحكًا :

فقلت:

- لكلّ شيء شباب وشيوخة، تلك سنة الحياة.  
- ولكنّ الوفد في حياتنا يمثل عصر الفتوة والبعث،  
دلّني على أيّ فترة تاريخية منذ عهد ما قبل الأسر حتى  
اليوم ساد فيها الشعب وتعملق كما ساد وتعملق أيام  
الوفدا

ثمّ وهو يضحك:

- وكما قامت ثورة يوليو حمدت الله على القرار الذي  
اتخذته بملء حرّيتي قبل أن أرغم عليه أو على ما هو  
أسوأ منه...

- ولكنك قدرت للثورة أعمالها المجيدة بلا شك؟  
- الاعتراف بالحقّ فضيلة، ولكنّي لا أعتصر لها  
محاولة النيل من زعامة سعد زغلول.

فقلت:

- للسياسة مقتضياتها، وأظنك لا تنسى موقف  
مصطفى كامل من أحمد عرابي.

فسألني باهتمام:

- هل شاهدت جنازة مصطفى النحاس؟. كانت  
ردّ اعتبار شعبيّ لسعد وللوفد ولأكبر ثورة شعبية في  
حياتنا...

وأخبرني أنّه يزور القاهرة من حين لآخر منذ عامين  
لانتقال كريمته إليها بحكم الزواج، ثمّ حدّثني عن  
أسرته فقال:

- ابني الأكبر ستاك مثلي، الأوسط مهندس،  
الأصغر ضابط طيار...

ومنذ ذلك التاريخ واطلبت لدى كلّ تصنيفة في  
الإسكندرية على تناول العشاء ولو مرّة في مطعم  
زعيمي القديم. وفي صيف عام ١٩٦٩ وجدته حزينا  
على غير عادته. وقال لي:

- في أواخر العام الماضي هاجر ابني المهندس إلى  
كندا!

ثمّ بنبرة متهدّجة:

- وفي شتاء هذا العام استشهد ابني الطيار في سبيل  
الوطن!

## هجر النياوي

كان الشيخ هجر النياوي مدرّس اللغة العربية في  
مدرستنا الابتدائية، ولحق بنا في المدرسة الثانوية،  
وكان من أهل الصعيد، ينطق بلهجتهم، قويّ البنيان  
طويل القامة غامق السمرة، قليل العناية بمظهره،  
فعمته أصغر ممّا ينبغي ولا ذوق له في اختيار ألوان  
الجبّة والقفطان، ولكنّه كان يفرض الاحترام بقوّة  
شخصيته والتمكّن من مادته وشجاعته الفائقة، ولم  
يكن متزمتاً، كان يحبّ النكتة، ويروي لنا جميل  
الأشعار، ومرّة تبارى في فناء المدرسة مع مدرّسي  
الرياضة البدنية في التحطيب، فلعب بعصاه برشاقة  
أذهلتنا وانتصر على خصمه وسط تصفيق حادّ. ومرّة  
دخل جعفر خليل الفصل متأخراً بعد أن انتظمنا في  
مجالسنا، وكعادته في حبّ المزاح، قلّد أستاذنا فقال  
له:

- عم صباحاً.

وضحك الفصل وانبسط جعفر، وتركه الشيخ  
هجر حتىّ جلس، ثمّ ناداه:  
- جعفر خليل.

فوقف فقال له بهدوء:

- أعرب «عم صباحاً».

وعجز جعفر عن إعرابها ففتح الشيخ دفتر يومية  
التلاميذ وأعطاه صفراً، فاحتجّ جعفر قائلاً:

- إنّها صعبة!

فقال الشيخ بهدوء:

- ولمّ تستعمل ما لا تفهمه؟

أما جانبه الجادّ فكان قد لا يتكرّر. كان في المدرسة  
الابتدائية - عصر الثورة - مدرّساً للغة العربية  
والوطنية. فلدى أيّ مناسبة يفتح باب الحديث  
الوطنيّ، يستعيد الذكريات المجيدة، ويشيد بالأبطال،  
ونحن نتابعه والدموع في أعيننا. وكان يحدّث عن سعد  
زغلول وكأنّه وليّ من أولياء الله أو صاحب معجزات،  
معتبراً زعامته رسالة ساوية ومعجزة تاريخية، ومنه  
عرفنا ما لم نكن نعرف عن نشأة سعد، ومهارته في  
المحاماة، ومواقفه في نظارة المعارف ونظارة الحقّانية،

المرايا ٣٨٩

فلم يبرحها، ولا أدري إن كان ما زال على قيد الحياة أم انتقل إلى جوار ربّه. ومما يذكر أنّه في سبتمبر عام ١٩٥٢ أو ١٩٥٣ وكنت مارًا أمام نادي الجيش القديم بالشاطبي، رأيت بعض أعضاء الوفد واقفين في فناء النادي يحيط بهم جند، وسمعت من بعض المارّة بأنهم اعتقلوا وسيرحلون إلى القاهرة، ورأيت بين الضباط الذين يشرفون على الإجراءات الضابط محمد هجار ابن شيخنا القديم هجار المنباري. تأملت الموقف، نظرت طويلًا إلى الابن، تذكّرت الأب، ثمّ تحيل إليّ أيّ أسمع هدير الزمن وهو يتدفق حاملًا متناقضاته المتلاطمة.

## وداد رُشدي

رأيت وداد رشدي لأول مرّة عندما جاءت لزيارة كاميليا زهران بإدارة السكرتارية يوميًا من أيام ١٩٦٥، وكانت عملاقة، تمتدّ طولًا وعرضًا، ولكنّها رشيقة بالنسبة لحجمها، وقساياتها كانت كبيرة في ذاتها، ولكنّها مقبولة وجميلة في موضعها من الجسم المترامي، وبصفة عامّة يوحي منظرها بالقوّة والجمال والطلاقة كتمثال، وتؤثّر نظرة عينيها العسلّيتين بجرأتها غير العادية، هذا إلى جاذبيّة جنسيّة نفّاسة كالعطر الفوّاح. وكلّما اختلست منها نظرة وجدتها تنظر إليّ حتّى ثارت تساؤلاتي. قدّرت عمرها بالثلاثين، ومن ملاحظة يسراها عرفت أنّها متزوّجة، وجعلت أتساءل عمّا يدعوها إلى ملاحظتي بنظراتها، وكانت علاقتي بأمان محمد ما زالت في عنفوانها. وخيّل إليّ أنّي عرفت السبب عندما أقبلت هي وكاميليا نحو مكنتي، جلستا على كرسيّين متقابلين أمام المكتب، وقالت كاميليا:

- لا مؤاخذه يا أستاذ نريد استطلاع رأيك في مسألة؟

فسلّمت وأنا أقول:

- تحت أمركما...

فقال كاميليا:

- صديقتي وداد رشدي، ستحدّثك بنفسها...

وقالت وداد بصوت ناعم واضح ذي درجة عالية

وزعامته، وتحديده لقوّة الإنجليز، وسحره وبلاغته، وما ينتظر البلاد على يديه، وكان يقول:

- ببلاغته عبًا الشعور، وباسمه قامت الثورة...

وكان يعرف التلميذ الكامل فيقول:

- هو من يحصل العلم ويثور على الطغاة.

وكنا نحبه بقدر ما نجلّه، وتلقّى عنه الوطنيّة والأصالة، وبفضله أحيينا اللغة العربيّة وعشقنا أشعارها.

وفي المدرسة الثانويّة تغيّر مذاق الجهاد، فتوارت عنّا وجوه الإنجليز وبرزت في الصورة وجوه المصريين الموالين لهم واحتلّت الحزبيّة المكان الأوّل في الصراع، وخاض الشيخ المعركة الجديدة بنفس القوّة والصلابة، وكان يقول:

- المعركة هي المعركة ولكنّ الأعداء ازدادوا عددًا

فوجب علينا مضاعفة الجهاد.

ويوم أضربنا على عهد محمد عمود، اليوم الذي استشهد فيه بدر الزيايدي، أخرجته ناظر المدرسة فطالبه بأن يخاطب التلاميذ حائًا إياهم على الانتظام في الدراسة، وكان في طبعه حدّة ثور على التحديّ وتنفجر غضبًا أعمى، فاعتلى المنصة أمام حجرة الناظر وصاح بصوت رهيب:

- العُلْم يطالبكم بالنظام والوطن يطالبكم بالجهاد وليس لكم إلّا ضمائركم فارجعوا إليها...

وكتب الناظر تقريرًا عنه فرفعه إلى وزير المعارف وسرعان ما تقرّر فصله. ويوم غاب عن المدرسة وانتشر الخبر هاجم الطلبة حجرة الناظر حتّى اضطرّ إلى الفرار من المدرسة، واضطرتّ الوزارة إلى نقله حماية لحياته. وقد عاد الشيخ إلى المدرسة في عهد الوفد ولكنّه فصل مرّة أخرى في عهد صدقي، فعمل في مدرسة بين الجنان الأهلية التي كان يملكها رجل وفديّ معروف. وفي حكومة المعاهدة تعيّن مفتشًا بالوزارة وسوّيت حالته تسوية عادلة. وفي انتخابات ١٩٤٢ رشّح نفسه على مبادئ الوفد فنجح، كما نجح مرّة أخرى عام ١٩٥٠. وقد التقيت به مرّات في بيت رضا حمادة كما عرفت بعض أبنائه. ولما صدر قرار حلّ الأحزاب - بعد ثورة يوليو - رجع إلى قريته في الصعيد

تناسب حجمها:

- المسألة بكلّ بساطة أتّي حصلت على ليسانس الحقوق منذ خمسة أعوام، لكنّي تزوّجت ولم أتوظّف، وزوجي الآن مُعار في الكويت لمدة عام، وأفكّر في التوظّف فهل يمكن إتمام ذلك عن طريق إدارة القوى العاملة؟

فقلت:

- كلاً، ولكن جرّبي حظّك بطلب خاصّ أو بالاشتراك في أيّ مسابقة يعلن عنها...

- واضح أنّ الأمل في تلك الحالة ضعيف...

- لا أقول إنّه قويّ، ولكن عليك أن تجرّبي...

وقالت كاميليا زهران:

- إنّها أمّ لطفلتين ومع ذلك تريد أن تتوظّف...

فقلت وداد:

- جميع زميلاتي متزوّجات وموظفات!

فسألتهما:

- وماذا عن الطفلتين؟

- لن ألقى المتاعب من هذه الناحية...

- وماذا عن زوجك؟

- موافق...

وقالت كاميليا:

- ساعدها بما تستطيع...

وزكّت وداد نفسها قائلة:

- نحن جيران من الزمن القديم!

فتساءلتُ بدهشة:

- حقاً؟

- لا تذكر لأتّي كنت صغيرة، ذلك تاريخ يرجع إلى عشرين عاماً وكنّت في العاشرة، ثمّ غادرنا حيّكم منذ خمسة عشر عاماً وأنا في الخامسة عشرة...

- ذلك تاريخ قديم ولكن ليس جداً فكيف لا أذكرك؟

- أمّا أنا فأذكرك كما أذكر رضا حمادة وسرور عبد

الباقى وجعفر خليل الله يرحمه، وسرور عبد الباقى اليوم هو دكتورنا المفضّل، وما زلت أذكر وفاة جعفر خليل الغريبة...

فقلت بحنان:

- يا لها من ذكريات!...

وتساءلت كاميليا بمكر:

- أرايت؟

وبعد مرور أسبوع على المقابلة تلفتت إليّ بخصوص الوظيفة أيضاً ولكنّي شعرت أنّها لم تكن إلّا محاكاة للمحاورة. وعجبت ماذا تريد العملاقة الجميلة المتزوّجة؟ وجعلت أقارن بينها وبين أماني محمّد، بل بينها وبين درّية، واستثار الوجد فدعا من غيابات الماضي حنان مصطفى وصفاء الكاتب. وسألتهما:

- ألن تزوري كاميليا مرّة أخرى؟

فسألته بصراحة:

- أتريد أن تراني؟

فلم أجد مفرّاً من أن أقول:

- يسعدني ذلك...

فسألته بتحدّ:

- ولماذا يسعدك؟

فانزلت إلى القول:

- مرآك يسعد الأنفوس.

فضحكت وقالت:

- الإدارة عندكم مزدحمة وتفوح برائحة الأوراق.

فارتضيت الهاوية دون تقدير للعواقب وقلت:

- إذن ليكن في مكان هادئ.

- أمحبّ الأماكن الهادئة؟

- جداً...

- بشرطاً

- أفندم؟

- أن تحيىء بنية طيبة.

- طبعاً.

- تذكّر ذلك.

- وعد.

- فما أهدأ مكان في نظرك؟

- حديقة الأسماك...

ووجدتها تنتظر بلا ارتباك ولا حياء. بلا ارتباك ولا حياء كأنّما تنتظر زوجها أو أخاها. وسرنا معاً في شبه خلاء، حتّى اخترنا مجلساً تحت سفح الهضبة، وقالت:

- لعلك تسأل نفسك عن سرّ المرأة الجريئة التي

رمت بنفسها في طريقك بلا سياسة ولا لباقة؟



## المرايا ٣٩١

- فقلت بسرور والرغبات تراقصني :  
 - ما دمت سعيدًا فلا معنى للتساؤل .  
 فقالت ضاحكة :  
 - لا تنسَ شُرطِي !  
 - أنا متذكّره .  
 فقالت بجديّة :  
 - يجب أن تعرف أنني امرأة محترمة وزوجة مخلصّة .  
 فقلت وأنا أستشعر شيئًا من القلق :  
 - لا جدال في ذلك فعيني بصيرة، وسنّ الطيش  
 ودّعتهما من قبل أن تفارقي حينًا!  
 - تكلم عن ذلك العهد باحترام وعاطفة من فضلك .  
 - له الاحترام والحبّ إلى الأبد . . .  
 فابتسمت بجرأة لم أعرفها من قبل وقالت :  
 - لم أقابلك مصادفة . . .  
 - حقًا؟  
 - كاميليا حدّثني عن زملائها، وعندما سمعت  
 اسمك . . . ماذا أقول؟، قررت أن أقابلك . . .  
 - ولكنك ترغيبين في التوظّف .  
 - لا أهميّة لذلك . . .  
 - لا تركبني فريسة للخيرة . . .  
 وهي تضحك في سعادة ناطقة :  
 - أنا أعرفك منذ عشرين سنة!  
 - أجل . . .  
 - كنت من سكّان العمارة الخضراء، تذكرها؟  
 - أمام السيل بالشارع العموميّ!  
 فقالت بعتاب :  
 - ولكنّي كنت في العاشرة فلم تنتبه إليّ .  
 - كنّا نمرّ تحت العمارة ولا موقف لنا تحتها وسنّ  
 العاشرة . . .  
 - وسنّ العاشرة لا يستلفت النظر، ولكنّي بلغت  
 الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة ولم تنتبه . . .  
 - سوء الحظّ إذا استحكمت . . .  
 - كنت وقتذاك أعتبر سوء الحظّ من نصيبي أنا .  
 نظرت إليها في حرج فطالعتني بنظرة صريحة جريئة  
 ضاحكة، وقالت :  
 - فعلت المستحيل لالفت نظرك ولكنّي لم أفلح . . .
- يا لها من ذكريات كالأساطير!  
 - ولكنّها حقيقة، وهي تعيش في أعماقي كخيبة لا  
 دواء لها . . .  
 فقلت بارتباك :  
 - لعلك تبالغين .  
 - أبدًا، كلّ كلام الدنيا لا شيء بالقياس إلى  
 حقيقة ذلك الماضي .  
 وكنت أصغي بارتياح وافتتان وبلا عاطفة،  
 وبصراحتها العملاقة سألتني :  
 - أحتقّ ما يقال عن الحبّ الأوّل من أنّه لا يفنى أبدًا؟  
 وتذكّرت في الحال حنان، وصفاء، ورجعت إلى  
 قلبي الخامد، ثمّ قلت :  
 - لا يخلو قول مأثور من حقيقة خالدة!  
 فقالت بحرارة :  
 - إنّه عاطفة ساحرة لا تتكرّر ولذلك لا يمكن أن  
 يُنسى . . .  
 - وما فائدة ذلك؟  
 - لا فائدة .  
 - ولكنك زوجة سعيدة .  
 فقالت بأسى :  
 - أجل، لا أحبّ أن أكون جاحدة، ولكنّ العين  
 تثبت على ما ينقصها . . .  
 - لذلك فالسعادة حكمة عسيرة .  
 - زوجي رجل كامل، إنّه مثال تتمناه أيّ امرأة،  
 ولكنّه لا يشاركني ميولي الخياليّة، أشعر أحيانًا  
 بالوحدة، وتعصّبي أحيانًا خبيثي القديمة!  
 وضحكت ثمّ استدركت :  
 - عندي نخمة من السعادة ولكنّ روحي ظمأ!  
 فسألته :  
 - ما عمر زوجك؟  
 - أربعون عامًا!  
 - أنت في جنّة ولا يجوز لك أن تحلمي!  
 فقطّبت قليلاً ثمّ قالت :  
 - أنت كبرت، وأراهن أنّك لم تعرف الحبّ!  
 ترى أين صفاء؟، أما زالت على قيد الحياة؟، وهل  
 يمكن - لو صادفتها - أن يجري بيننا مثل هذا

الحديث ١٩. وتراجعت قائلة:

- لا مؤاخذه، صراحتي تخرجني أحياناً عن حدود اللياقة، ولكنّي توقّعت أن تحترم عواطفِي . . .

فقلت بحرارة:

- إنّي أحترمها من أعماق قلبي . . .

فقلت بتأثر وامتنان:

- أشكرك.

ثمّ واصلت:

- أرجو ألا ينقطع الاتصال بيننا، أيضاً يذكرك ذلك؟

- سأسعد به فوق ما تتصوّرين!

- اتّصال روحيّ لن يمسّ احترامنا لأنفسنا.

- اقتراح عذب أقبله على العين والرأس.

- وليكن التليفون وسيلتنا حتّى لا نتعرّض لظلم لا

نستحقّه.

- كما تشائين.

- إلا إذا غلبني شوق فستقابل خطفًا.

- ما أجل أن نتقابل ولو خطفًا!

ومنذ ذلك اللقاء فتحت لي حياة جديدة أبوابها

فدخلتها مدفوعًا بالحنان والتعلّق بالذكريات وحبّ

الاستطلاع، وعاشت روابطها العائليّة ومشكلاتها

اليوميّة وما تزخر به من أبوة وأمومة وبنوة، وارتباطات

عاطفيّة بل وجنسيّة، وخلافات ومسرّات وأمراض

وأحلام وأهواء من كلّ شكل ولون.

وداد بُعد من أبعاد حياتي لا يدري به أحد ولكنّه

جزء من كينونتي لا يتجزأ.

### يُسْرِيّة بَشِير

يرجعني الاسم إلى مهد الطفولة، ميدان بيت

القاضي وأشجار البلح المثقلة بأعشاش العصافير، ومن

نافذة جانيّة كنت أطلّ وأنا طفل على حارة قرمز،

وهي حارة مبلّطة تنحدر في هبوط، وعند منعطف منها

يقوم بيت آل بشير. كنت في السابعة أو الثامنة، وكان

يعجبني منظر الشيخ بشير وهو يجلس أمام مدخل بيته

في العصارى يسبح، يضيء المكان ببشرته البيضاء

ولحيته الشيباء والألوان الزاهية التي تعرضها عمامته

وجبّته وقفطانه. وعندما يمضي إلى ميدان بيت القاضي

في طريقه إلى الكلوب المصريّ تظهر في النافذة يسريّة.

لعلّها كانت في السادسة عشرة أو نحو ذلك، يتجلّى

منها وجه كالقمر، أبيض بهيج مضيء يتوجّه شعر

فاحم، وتناديني بصوت ناعم وتمازحني وأنا أتطلّع إليها

سعيدًا راضيًا وعاشقًا إن جاز لابن سبع أن يعشق.

والحقّ لا يمكن تفسير تعلّقي بها إلا بالعشق، فما كانت

قريبة ولا من سنيّ، ولا أهدتني يومًا لعبة أو قطعة من

الحلوى، ولا تحدّثت بجمال وجهها. وكانت تغريبي

أحيانًا بالذهاب إليها فأتسلّل من البيت إلى الحارة

ولكنّ الخادمة كانت تدركني في اللحظة المناسبة

وتحمّلني إلى البيت وأنا أبكي وأرفس دون جدوى.

ويومًا أمطرت السماء، ووقفت في النافذة أرقب المطر

وهو ينهمر فوق أديم الحارة ويجري نهرًا ليصبّ في القبر

القديم، وما لبث أن ارتفع مستوى الماء حتّى غطّى

وجه الأرض وانقلبت قرمز جدولًا راكدًا يستحيل

عبوره إلاّ بالحمالين أو بالكارو. ومن خلال الأمطار

المهمرة رأيت يسريّة واقفة أيضًا في النافذة وهي تشير

إليّ فخطررت لي فكرة قرّرت في الحال تنفيذها.

فصعدت سرًا إلى السطح وحملت طست غسيل نحاسيًا

ومقشّة ذات يد خشبيّة طويلة ومضيت بها إلى الطريق،

ثمّ أرسيت الطست فوق سطح الماء ووثبت إليه

وجعلت أدفعه بالمقشّة فيسيح نحو بيت بشير، وانتهت

الخادمة ولكن بعد فوات الأوان، لم تستطع تلك المرّة

أن تخوض الماء إليّ فوقفت عند ناصية الحارة تنادي ولا

يجيب. وغادرت الطست عند باب آل بشير المثبت فوقه

تمساح محنّط، ومرقت إلى الداخل حافيًا متشبّع الجلباب

بالماء، وقابلتني يسريّة عند رأس السلم فقادتني إلى

الحجرة، وأجلستني قبالتها على كنبه تركيّة، وراحت

تداعب شعري برقّة وأنا غارس عينيّ في وجهها

المضيء، ولا شكّ أنّي رغم الجهد والبهل شعرت

بالظفر والسعادة بين يديها. وأرادت أن تسلّيني فتناولت

راحتي وبسطتها وهي تقول:

- سأقرأ لك الطالع!

وراحت تتابع خطوط كفيّ وتقرأ الغيب ولكنّي

استغرقت بكلّ وعي في وجهها الجميل.

الحب تحية للاسلام

## الحب تحت المطر

- ١ -

فأحنت رأسها بالإيجاب ثم تساءلت:  
 - ولكن إلى أين تمضي الدنيا؟  
 هذا السؤال الذي يرتطم به في كل مكان وزمان.  
 إلى أين؟ حرب أم سلام؟ وطوفان الشائعات؟  
 - لتمض إلى حيث تشاء.  
 وشربا الليمون حتى دمعت عيناهما ثم سألتها:  
 - وما أخبار أخيك إبراهيم؟  
 - بخير، رسائله قليلة، ولكنه يجيء من الجبهة مرة  
 كل شهر...  
 وكأنما أرادت أن تعتذر عنه فقالت:  
 - مرزوق... لو لم تكن وحيد أبويك لاستدعيت  
 مثله إلى الجندية...  
 فلم يعلق بحرف. واستسلمت معاً للصمت. وعاوده  
 التوتب للكلام في موضوعه فقال ضاحكاً:  
 - لا يجوز أن نضفي البراءة على اجتماعنا أكثر من  
 ذلك...  
 فلعبت في عينيها نظرة مرحة وقالت:  
 - إذن فاجتماعنا بريء!  
 فقال بجديّة:  
 - أعني الموضوع الذي حدثتكَ عنه أختي سنية...  
 فقالت بحذر:  
 - لا تنفصك الصديقات فيما أعلم؟  
 فقال بجديّة أكثر:  
 - نحن نتحرك بدافع اللهو كثيراً ثم يجيء وقت فلا  
 يقنعنا إلا الحب الحقيقي...  
 - الحقيقي؟  
 - هذا ما أعنيه تماماً يا عليّات...  
 -

تبار من الخلق لا ينقطع، يتلاطم في جميع  
 الاتجاهات. تندد عنه أصوات من شتى الطبقات.  
 ويشكل في جملة خليطاً من ألوان الطيف. سارا جنباً  
 إلى جنب صامتين. هي في فستان بّي قصير وشعرها  
 الأسود يتهدل حول الرأس وفوق الجبين. وهو بقميصه  
 الأزرق وبنطلونه الرماديّ وشعره المرسل إلى اليمين.  
 في عينيها نظرة عسليّة مستطلعة. وفي عينيّه جحوظ  
 خفيف ولكنه يوائم تماماً أنفه الحادّ المستقيم. ويقدر ما  
 استسلمت للمشي كان هو يتحين الفرص. قال:  
 - الزحام لا يطاق.  
 فتمتمت باسمه:  
 - ولكنه مسلّ للغاية.  
 واعتبر ردّها مناورة لطيفة ليس إلا. بل استجابة  
 لرغبته القليّة. وأشار بذراعه المفتولة إلى كافتيريا  
 هارون فهالت معه إليها بلا تردّد. ومضيا إلى الخديقة  
 الخلفيّة فاختارا مجلساً شبه خال تحت تكعيبية اللبلاب.  
 وتفحصا المكان، وتبادلا نظرات. استشعر دون شكاية  
 حرارة الجوّ المشبعة بالرطوبة. وطلب قدحين من  
 شراب الليمون. وكان يتوتب للكلام فيما يهّمه ولكنه  
 قال لنفسه فليأت الكلام في وقته وبطريقة عفوية فهذا  
 أفضل. قال:  
 - مضى عهد الجامعة كحلم.  
 فقالت: تكمل جملة:  
 - بمتابعه ومسراته.  
 - وما هي إلا أشهر حتى يتسلم كلّ منا وظيفته.

٣٩٦ الحبّ تحت المطر

- أعتقد أنّها متاعب لا تُذكر بالقياس إلى متاعب

العالم!

فتردّدت قليلاً ثمّ تساءلت:

- ألا يُعدُّ الزواج في حالتك سابقاً لأوانه؟

فقال بازدراء:

- ذلك من كلام السلف ولكن لا أهميّة للوقت ما

دعنا نسيطر على مصيرنا...

فسألته باهتمام:

- وهل أنت واثق من مشاعرك؟

فرمقها بحنان وهو يقول:

- من عيوب الجوهرية أنّي لا أحسن التعبير عن

مشاعري، كم مرّة التقينا؟ ومع ذلك فلم أنوّه بجمالك

أو ثقافتك مرّة واحدة!

ولما لم تنبس سألها بحرارة:

- لم لا تتكلمين؟

فقلت وهي تتنهد:

- لا أدري، كأنني خائفة...

فقال برقة:

- الحقّ أنّي أحبّك كأعزّ شيء في الدنيا.

فغمغمت باسمه:

- هذا أفضل...

فضحك بسرور وقال:

- عندي ما هو أجل...

واعترفت قائلة:

- والحقّ أنّي لم أكن سلبية في المعركة وأنت تعلم

ذلك...

فاستخفه الطرب وقال:

- اعتبريني مجنوناً بك!

فخفضت بصرها وهمست:

- وأنا سعيدة كما يجدر بإنسان يبادلك مشاعرك...

فاجتاحه السرور والإلهام وقال:

- ما كان أحبّ إليّ أن أتلقّى هذه السعادة في مكان

لا يشاركنا فيه أحد.

وضحكا معاً. وصمّتا وهما يتبادلان النظرات.

واقترح عليها الذهاب إلى حديقة ما. وقاما وهي

تقول:

- لا تنس أنّه توجد في الطريق متاعب!

فهزّ منكبيه قائلاً:

- ٢ -

انتصف الليل فخلت مقهى الانشراح بشوارع  
الشيخ قمر من زبائنها. لم يبق من عيالها إلا عمّ عبده  
بدران النادل وعشاوي ماسح الأحذية. ومضى  
عشاوي بهيكلة الضخم الخاوي إلى الخارج فجلس  
القرفصاء جنب مدخل المقهى ينظر إلى لا شيء بعينه  
العمشاورين. أمّا عمّ عبده فاقعد كرسياً وسط المدخل  
وأشعل سيجارة. وبعد ربع ساعة مرقت سيارة  
مارسيدس بيضاء أمام المقهى ثمّ وقفت على مبعده  
يسيرة لصق الطوار فرفع عشاوي رأسه نحوها وهو  
يقول:

- الأستاذ حسني حجازي.

وقام عمّ عبده بدران ليستقبل القادم الذي أقبل  
بجسمه الطويل النحيل ورأسه الضخم رافلاً في بدلة  
بيضاء آية في الأناقة. حيّا الرجلين باسميهما واتخذ  
مجلسه على حين مضى عمّ عبده ليجيشه بالنارجيلة  
وزحف عشاوي ناحيته ليمسح حذاءه. ولأنّ حسني  
حجازي هو زبون ما بعد منتصف الليل الوحيد - كلّما  
سمح له الوقت - فقد نشأت بينه وبين الرجلين علاقة  
حميمة وحوار متبادل. والحقّ أنّه يأنس إلى وقار عمّ  
عبده - في السنين من عمره - ويعجب ببذلة عمله  
العتيقة وصلعته المستديرة الضاربة للاحمرار ونظرة عينيه  
الثقيلة الطيبة. وأيضاً فهو يعجب كثيراً بعشاوي الذي  
لا يُعرف له سنّ وإن قدره بما بين السبعين والثمانين،  
ويثيره منظر هيكله الضخم الخاوي كحفرة متبقية من  
زمن الفتونة، ويحيي بكلّ إجلال صموده في معترك  
الحياة رغم هوان الصلحة والسمع والنظر وزوال  
المجد. وكان عمّ عبده يعنى بنارجيلة الأستاذ عناية  
خاصّة، لا من أجل البقشيش فحسب، ولكن لعلمه  
بأنّها السرّ وراء زيارات الأستاذ للانشراح بالإضافة إلى  
حينه إلى مسقط رأسه بشوارع الشيخ قمر. والأستاذ  
حسني في الخمسين ولكنّه يفيض بحيوية عجيبة ولم

## الحب تحت المطر ٣٩٧

الحقيقة خليقة بأن تصعقه، وإن أخلافنا غير حقيقيّة  
وهي تقوم على الريح .

وقال لعمّ عبده:

- توجد فتيات ذكيّات، يفضّلن الاقتران بالكحول  
الأغنياء طلبًا للاستقرار في الحياة . . .

فهزّ الرجل رأسه في حيرة وقال:

- لا أدري .

- على أيّ حال فإنّ كريمتك ليست واحدة منهم .

- ربّنا معها .

فقال الأستاذ حسني وهو يداري بسمة ساخرة:

- آمين .

فقال عمّ عبده بدران بحماس طارئ:

- عليّات فتاة عالية الهمة، سعت إلى الرزق حتّى

وهي طالبة، واكتسبت نقودًا لا بأس بها من الترجمة

فاستطاعت أن تظهر في الجامعة بالمظهر اللائق الذي لم

يكن في مقدوري توفيره لها . . .

- فتاة عالية الهمة حقًا . . .

- ولكن هل أدخرت من النقود ما يكفي لتجهيز

ولو حجرة واحدة؟

- هذه هي المسألة . . .

- أمّا هي فلا يهّمها ذلك على الإطلاق . . .

فضحك حسني حجازي وقال:

- جيل يستحقّ التحيّة والإكبار .

وسرحت خواطره إلى شقّته الأنيقة بشارع شريف

فقال لنفسه بأنّ الصراع الحقيقيّ في هذه الحياة هو ما

يقوم بين الحقائق والأساطير . وقال له عمّ عبده:

- سعادتك لم تفكّر في الزواج أبدًا . . . ؟

- أبدًا .

ثمّ أشار إليه بسبّابته محدّرًا وقال:

- ولم أندم على ذلك قطّ .

وتذكّر كيف سأله صحفيّ في ريبورتاج عابر

بالاستديو- ضمن مجموعة من العاملين في فيلم - سأله

عن فلسفته في الحياة، وكيف بهت ولم يجر جوابًا .

ولكن أهو حقًا بلا فلسفة؟!

تشب له شعرة واحدة، ويبدو أنّه يسعد حقيقة بوجوده  
في المقهى المتواضع بين صاحبيه وفي مناجاته الطويلة  
مع النارجيلة . وكالعادة بدأ الحديث بتبادل النيران في  
الجبهة، وتساؤلات عن الغد القريب والبعيد، وكلمات  
رقيقة بقصد الاطمئنان عن إبراهيم ابن عمّ عبده  
وغيره من المجنّدين من أهل درب الخلة موطن  
عشاوي . وكان يعتبر عشاوي نموذجًا لجماهير غفيرة لا  
يتاح له الاتّصال بها هي المتحمّسة حقًا للقتال بلا قيد  
ولا شرط، وبلا خوف، وبلا اكتراث للعواقب . وقال  
لنفسه علام يخافون وهم لا يملكون إلّا الكرامة  
والأسطورة . وقال لنفسه أيضًا إنّ المعدّين حقًا هم  
الوطنيّون الصادقون . وكما فرغ عشاوي من مسح  
الخداء اقترب عمّ عبده بدران من مجلس الأستاذ ومال  
نحوه قليلاً وهو يقول:

- عليّات ابنتي طلب يدها شابّ من زملائها .

فانبعث في صدر الأستاذ اهتمام حقيقيّ وقال:

- مبارك يا عمّ عبده .

فقال برضى وفي غير ما حماس:

- الستر مطلوب ولكنّ العريس - مثلها - لم يتوظّف

بعدا

- فكدا تجري الأمور في هذه الأيام .

- ولكنّي رجل مثقل بالأعباء والابن الوحيد الذي

أتمّ دراسته مجتد في الجبهة كما تعلم .

فقال حسني حجازي بثقة:

- ابنتك متعلّمة وهي تدرك ذلك كلّ، وماذا يقال

عن العريس؟

فقال الرجل بامتعاض:

- على الحديدية . حال أبيه كحالي، وهو كاتب في

محلّ تجاريّ . . .

- جُنْد؟

- معفى لأنّه وحيد أبويه .

ثمّ مستدرّكًا:

- بقية ذرّيته بنات وإحداهنّ زميلة وصديقة حميمة

لعلّيّات .

وهيّ الأستاذ مليًا بتدخين النارجيلة ومضى يقول

لنفسه إنّ النادل الطيّب يعيش أيضًا في أسطورة، وإنّ

- ٣ -

- فضغطت على ذراعه وقالت:
- لا تسمح لشيء بأن يفسد عليك ساعة طيبة... .
- نتناول بعض الشطائر ثم نذهب إلى السينما.
- فلم يعارض ولكنّه قال:
- غريب أنّي لم أعرف خطيبك مرزوق من قبل... .
- ألا يعجبك؟
- شكله لطيف ولكنّ أخته الطف!
- ف نظرت إليه باهتمام وهما يقفان في ظلّ عند مشرب قهوة على الناصية وتساءلت:
- سنيّة؟
- أجل، أظنّها صديقتك؟
- جدّاً، سبقني بعام، وهي موظّفة بالإصلاح الزراعيّ، الظاهر أنّها أعجبتك؟
- فقال بيقين:
- جدّاً... .
- فضحكت عليّات وتساءلت:
- حبّ من أوّل نظرة؟
- فقال ضاحكاً:
- أعتقد أنّي نلت منها مائة نظرة... .
- كلّ ذلك من وراء ظهورنا؟
- المهمّ... .
- ولما سكت تساءلت:
- المهمّ؟
- أهي لائقة كزوجة؟
- ما شروط اللياقة في نظرك؟
- نحن كما تعلمين أسرة محافظة؟
- اعترف بأنك متشبع جدّاً بأبي.
- تهتمّي بالأخلاق.
- فلفتته إلى إعلان سينمائيّ فاضح يوشك أن يكون مضاجعة وقالت محدّرة:
- اخفض صوتك... .
- أنت نفسك محافظة في الناحية الأخلاقيّة على الأقلّ... .
- أشكر لك حسن ظنّك... .
- والآن خبّريني؟
- ثمينة جدّاً الساعات القلائل التي يقضيها إبراهيم عبده في القاهرة. تأبّطت شقيقته عليّات ذراعه وهو في بدلته العسكريّة ومضياً يشقان الطريق وسط خضّم هائل من البشر تحت فيض متدفّق من الأضواء. وكان يشبهها لدرجة محسوسة، بعينه العسلّيتين خاصّة، ورغم ما بأنفه من فطس خفيف وما في شفّيته من دسامة، وما في بنيانه من متانة. وكان يلتهم كلّ شيء بحواسّه، ويتلقّى سيلاً متواصلًا من المشاعر، ويدخل أحيانًا في وجود غريب عابر بين الواقع والحلم، أو يتردّد مع خواطره بين الواقع والحلم. وسألته أخته:
- كيف تجد الليلة صدمة الانتقال من باطن الأرض المزلزلة بالانفجارات إلى دنيا القاهرة الثملة بالصخب؟ وكانت تستعيد كلماته القديمة بالحرف، ولكنّه أجاب بلا اكتراث:
- أصبحت عادة.
- وامتعضك العتيد؟
- فأجاب بنفس اللهجة:
- أصبح عادة أيضًا.
- ثمّ وهو يبتسم:
- الموت نفسه أصبح عادة يوميّة.
- فسألته برقّة وهي تتفادى من شابّ ينطلق كالصاروخ:
- كيف تريد لنا أن نعيش؟
- لا أريد تغيير نظام الكون، أريد فقط أن أشعر بأنني أستقبل بين أصدقائي استقبال العائد من جبهة مشتعلة في سبيل الدفاع عن الوطن.
- فلاذت بالصمت فمضى وهو يقول:
- لا أعني تكريمًا أو هتافًا، أطمع فقط في شيء من الاهتمام والجديّة.
- ولكن لا حديث للناس إلّا الحرب!
- ... دون المستوى المطلوب... .
- فقال بعد تردّد:
- لهم بعض العذرا
- اللعنة... مهما كان، مهما يكن، فاللوت شيء حقيقيّ... .

## الحب تحت المطر ٣٩٩

- ٤ -

فقلت بضيق:

لم يكن الجو شديد الحرارة ولكن أشعة الشمس  
تدفقت حامية لاسعة، وترامت تحت دفقاتها حديقة  
الأساك عارية أو شبه عارية. وكانا أول قادمين. ثمّنيًا  
بلا هدف وإبراهيم يقول لنفسه: مثل آدم وحواء،  
مثل آدم وحواء قبل الخطيئة، وابتسم لخواطره وهو لا  
يدري فضبطت سنيّة ابتسامته وسألته بحياء:

- ترى ماذا يضحكك؟

فارتبك ثانيًا ولكنّه قال:

- لأني سعيدا

وبسط راحتيه لأشعة الشمس وقال:

- يوجد مجلس تحت الجبلية.

وذهب صوب الجبلية تفعم أنفيها رائحة نباتيّة  
تزفرها الأعشاب المخضلة برشاش الماء. وكانت  
متوسطة القامة أو دون ذلك بقليل فلم تجاوز قمة  
رأسها الكستنائي منكبها ولكنها كانت متناسقة التكوين  
وذات غنين خضراوين صافيتين. وجلسا متجاورين  
فوق أريكة من جذع النخيل. قال:

- حضورك منّة عظيمة.

فقلت ببساطة:

- لسنا غرباء فنحن أسرة واحدة.

وأضفى القبو على الجو قنامة، وجرت في ثناياه  
نسمة رطبية كحال الأماكن التي لا تزورها الشمس.  
وكانت أعينها تكلمت كثيرًا أمس فلم يشعرنا في  
جلستها بغربة مطلقة. ولاحظ أنها تنظر إلى بدلته  
العسكريّة بحبّ استطلاع فسألها:

- ليس لك أهل مجندون؟

فهزّت رأسها بالنفي فقال:

- إنّه لا تمنع من التفكير في المستقبل كأننا نعيش

أبدًا!

فقلت بعدوية وحرارة:

- الأعمار بيد الله وحده.

فابتسم في تسليم وارتياح. وقال لنفسه لا يمكن  
اقتحام الموضوع بلا تمهيد، ولا يجوز- في ذات  
الوقت- أن يطول التمهيد ما دامت فرصة اللقاء لن  
تجدّد قبل شهر كامل إن وجدت أصلًا! ولعلّها

- ما أعرفه عنها يشهد بأنها ممتازة.

- لا أحب أن أقلق.

فضحكت ولكنها قالت بعطف:

- لا يجوز أن يقلق جنديّ لأسباب تغيّثه من

المدينة!

وانطفأت الأنوار بغتة كأنما ماتت بسكتة فغرق  
الطريق في ظلام دامس. وهلّلت هتافات شابّة مهرجة  
في عبث ومجون، وصرصرت آلات التنبيه بالسيّارات.  
توتّرت أعصاب إبراهيم، واجتاح رأسه أصداء أوامر  
خاطفة بالاستعداد والقبوع في المواقع، ولكن جاءه  
صوت عليّات ناعيًا وهي تقول:

- تنطفئ الأنوار كثيرًا لأسباب مجهولة.

فاستردّ راحته، وقبض على يدها فتراجع بها حتّى  
لامس ظهرهما جدار المشرب، وسألها:

- أيطول ذلك؟

- من دقيقة لساعة. وأنت وحظك!

وسرعان ما ألقت عيناه الظلام فرجع يسألها:

- بم تنصحيني؟

- ننتظر حتّى يعود النور.

- أعني سنيّة!

فضحكت قائلة:

- سنيّة!... تزوّجها إن كنت تحبّها... .

- الحبّ ليس المشكلة!

فسألته ساخرة:

- بم نحكم عليك لو أخذنا بماضيك؟

- ليس الرجل كالمرأة!

فضربت الأرض بقدمها غيظًا ولكنها لم تنبس، فعاد

يقول:

- لا تريدون أن تعطيني رأيًا قاطعًا... .

فقلت بحدّة:

- قلت إنّها ممتازة فتزوّجها إن كنت تحبّها.

- سأقابلها صباح الغد... .

فضحكت عليّات وتساءلت:

- لماذا يطفئون الأنوار إذا كانت أمهر المؤامرات

تُدبّر في رابعة النهار؟!



## ٤٠٠ الحب تحت المطر

حامت حول الأفكار نفسها ولكنها وجدت مخرجًا  
فقالت:

- الحياة هناك شاقّة بلا شك؟

وامتنّ لسماح ملاحظتها التي لا يسمعها عادة بعيدًا  
عن نطاق أسرته فقال:

- فوق ما تتصوّرين!

- وكيف تتحمّلونها؟

فقال بصدق:

- أصبحت أومن بأنّ الإنسان يستطيع أن يعيش في  
الجحيم نفسها وأن يألّفها في النهاية.

ثمّ نظر إليها باهتمام وقال:

- ولا يمنعه ذلك من التطلّع إلى النعيم والسعادة.

فابتسمت، وتوزّد وجهها القمحيّ، وتبدّت  
سعيدة، فقال لنفسه إنّها ليست طفلة ولا ممثلة ولكنها  
قويّة الشخصية والأخلاق، وسألته:

- ترى هل تقوم الحرب من جديد؟

فقال وكأنّه لم يسمع سؤالها:

- علمت أنّك غير مخطوبة!

- إذن فأنت مجرّي عنيّ تحريات!

- لنا صديق مشترك، عليّات...

- ولم تشغل بالك بما لا يهّمك؟

- وهنّأني على إعجابي بك.

- حقًا؟

فقال بلهجة ذات مغزى:

- وتمنّت لي السعادة والتوفيق...

ومرّت فترة صمت مفعمة بالرضى. واعتقد أنّه  
اجتاز خطًا هامًا، وأنّه اجتازه بنجاح، وأنّه لم يُضغ  
دقيقة من وقته الغالي سدى. وقرّرت هي التهرّب من  
نظراته فسألته:

- لم تجبني على سؤالِي هل تقوم الحرب من جديد؟

فقال وهو نشوان بعواطفه:

- تحدّثت عن أشياء يقينيّة مثل إعجابي بك.

- ولكنك لا تعرف عنيّ شيئًا...

- القلب يعرف أكثر ممّا يتصوّر العقل.

فغمغمت ولكنها لم يسمع فسألها:

- ماذا تقولين؟ أنت لم تتكلّمي بعد!

فقالت ببساطة وصراحة وبنبرة غير ملعثة:

- أنا سعيدة!

فتجلّت في عينيه نظرة ممتنة، وتناول يدها بين يديه  
بحرارة وقال:

- في المرّة القادمة سنخطو خطوة حاسمة، وحتىّ

يجيء ذلك الوقت سأحيا حياة غنيّة وجديدة رغم كلّ  
شيء...

- حفظك الله من كلّ شيء...

فقال بسرور:

- كسبت قلبًا جديدًا سيشعر بنا على نحو ما.

وتفكرت فيها يعنيه، وفطن هو إلى ما تفكّر فيه  
فقال:

- يجيّل إليّ أنّ أحدًا لا يشعر بنا سوى أهلنا!

فارتبكت، ثمّ قالت كالمعتدّة:

- إنّها تجربة جديدة علينا، لهذا هو الواقع، ولكن

ماذا عمّا يجب أن يكون؟... ومن رأي الأستاذ حسني

أنها سياسة مرسومة...

- من الأستاذ حسني؟

- موظّف كبير في قسمنا بالمصلحة...

- وماذا يعني؟

- يعني أنّهم لا يريدون تعبئة الشعب للحرب إلّا

قبيل دخول المعركة.

- الحقّ أنّي لا أفهم!

- ولا أنا، ولا يدعي أحد بأنّه يفهم، هل ستقوم

الحرب من جديد؟!

- في الجبهة نؤمن بذلك.

- هنا لا نكاد نصدّق!

- كيف ترون الأمر؟

- ممكن أن تسمع كافّة المتناقضات...

فضحك إبراهيم وقال:

- إنكم توّدون أن تمهدوا النصر يومًا ضمن أخبار

الصحف...

وضحكت، وبالضحك أفلتا من حصار القلق فعادا

إلى موعدهما تحت الجبلية، وتبادلا نظرة اعتذار طويلة

وحنونة.

## الحب تحت المطر ٤٠١

- ٥ -

- هذا موضوع آخر.  
ثم وهي تضحك:  
- ألا تريد للحب أن يُحترم يوماً أو بعض يوم؟  
- حاولت إقناعها...  
- أهي مهمة حقاً عندك؟  
- العشرة عندي غالية دائماً...  
فضحكك ساخرة هذه المرة وقالت:  
- يتخيل إليّ كثيراً أنّ جميع النساء اللاتي يمررن من شارع شريف آتتهنّ ذاهبات إلى شقتك أو راجعات منها...  
فقهره حسني حجازي وقال:  
- جاحدة من تحدّثها نفسها بالسخرية من هذه الشقّة.  
- أنت ترى أنّي جئت بكلّ احترام لأودعها.  
فهتف بأسماً:  
- حتّى أنت يا سنيّة!  
فقال بسرور:  
- جاء دوري يا قيصر.  
- حدّثني عنه أبوه، إنّه جندبيّ، أليس كذلك؟  
- بلى.  
- أقرأ في وجهك الرضى.  
- شابّ لطيف وجذاب.  
- وهكذا قرّرت هجر العنّ كصديقك عليّات!  
- إنّي أحبّ من يرغب في الزواج منّي!  
وقال لنفسه إنّ المرأة مثال الحكمة وإنّها المخلوق الوحيد الذي يستحقّ أن يُعبد، ولكنّه قال لها مداعباً:  
- إذن فهي المصلحة...  
فقال بعجلة واهتمام:  
- لقد أحببتّه، صدّقني...  
- أنت مصدّقة ولكنّي سأسّف كثيراً لغيابك.  
- لن تذوق في هذه الشقّة الوحدة أبداً...  
- ولكنّها مكان عبور ليس إلّا...  
- إنّه شعار يصلح لأيّ مكان...  
فتراجع إلى الكنبّة الاستديو ثمّ جلس. أغمض عينيه قليلاً ثمّ قال:  
- زرت الجهة أخيراً ضمن وفد المصورين

- قام حسني حجازي من مجلسه فوق الكنبّة الاستديو. انطلقت قامته الطويلة وسط حجرة الجلوس كالمارد. في شقّته يجد راحة شاملة وإحساساً بالسيطرة على كلّ شيء. الدواوين والمقاعد تصلح للاضطجاع كما تصلح للجلوس، وأجهزة التسلية قائمة بالأركان وسط تهاويل الديكور، والتحف مصفوفة فوق الأرفف عارضة ألواناً من فنون اليابان وخان الخليلي. من أعماقه يشعر بأنّها توثّق علاقته بالدنيا وتدفع عنه غوائل الفناء. مضى إلى البار فملاً كأسين من الكوكتيل الذي يعدّه بيده بخبرة وأناة ثمّ رجع إلى وسط الحجرة فوضع كأساً فوق ذراع فوتيل على بعد قيراط من يد سنيّة. ولبث واقفاً ثمّ حرّك كأسه قائلاً:  
- في صحتك...  
وأفرغ كأسه ثمّ قال:  
- لم يعد غريباً على هذه الحجرة أن تشهد وداع الأحيّة...  
فقال سنيّة:  
- أنت رجل كريم، في الحياة والحبّ...  
فقال متظاهراً بالاهتمام:  
- من حسن الحظّ أنّي حصلت أخيراً على فيلم ممتاز لا تقلّ مدّة عرضه عن ربع ساعة...  
فابتسمت سنيّة ولكن بلا حماس. وتذكّرت كيف صرخت عند رؤية المشهد الأوّل من أوّل فيلم. كان ذلك منذ سنوات وكانت طالبة بالجامعة أو تلميذة بالثانويّة. وكانت المفاجأة بالغة الإثارة والرعب. وقال بأسف:  
- عليّات انتهت، خسارة فادحة...  
- إنّي مخطوبة وتستعدّ للحياة الزوجيّة، ماذا تتوقّع؟  
فقال في دعابة:  
- لا بأس من إباحة اللهو حتّى الزفاف...  
فرمقته بعينيها الخضراوين وقالت بلهجة ذات معنى:  
- فكرة الزواج تخلق المرأة من جديد...  
- كم من متزوجات!...  
فقاطعت:

## ٤٠٢ الحب تحت المطر

السينمائيين، والتقطت صورًا لبورسعيد شبه الخالية.  
هل سبق لك أن شاهدت مدينة خالية؟  
- كلاً.

- كالحلم المرعب!

- زرت بورسعيد يوماً واحداً قبل الحرب.

- أما أنا فعشت فيها ثلاثة أسابيع ونحن نصوّر  
فيلم «فتاة فلسطين» منذ أعوام، وهي تعيش وتنام  
كالمدن، ولكنها تصحو في أي ساعة من الليل لدى  
وصول أي سفينة، وسرعان ما تخلق فيها الحياة بقوة  
وسرعة فتدب الحركة وتشتع الأنوار وترتفع الحرارة،  
وفي الأماسي تترامى من جنبات الميناء أغاني شعبية غاية  
في الفتنة...

- ووجدتها شبه خالية؟

- ولم تمس بسوء بخلاف المدن الأخرى.

وصممت قليلاً ثم سألت نفسها:

- ترى هل تقوم الحرب من جديد؟

فهز رأسه قائلاً:

- لن يتهيأ لنا ذلك في القريب، ولن يشجعنا أحد  
عليه، ولكن الصمود يوفّر لنا أطيب شروط عقب  
هزيمة يونيو...

- الجنود يريدون الحرب...

- لهذا طبعي، وكذلك الجماهير، أما نحن فلا  
ندري ماذا نريد...

وتأوه قائلاً:

- آه يا وطني العزيز!

فقالت بمرارة:

- أما نحن فكفّرنا بكل شيء...

- أنتم أبناء الثورة وعليكم أن تحلّوا مشاكلكم  
معها...

ثم سألتها مغيّراً نبرته:

- كأس أخرى؟

فهزّت رأسها نفيًا فقال:

- قلت لني حصلت على فيلم ممتازا

فتساءلت ضاحكة:

- أتذكر فيلم القسيس وبائعة الخبز؟

- هذا عن المرأتين ورجل، ثم ينقضّ عليهم رجل

غريب جديد!

فسألته:

- لم لا تتزوج قبل أن يفوتك القطار؟

- ولكنّه فاتني يا عزيزتي.

- توجد زوجة مناسبة دائماً...

- تكلمي بخير رآها فاسكتي...

فسألته بجرأة:

- هل تحترم حياتك؟

- لم أفكر في تقييمها بعد!

فقالت بامتعاض:

- ما يؤلمني أحياناً أنني سلّمت ابتغاء شراء أشياء،

وإن تكن ضرورية...

فقال لها بعطف:

- المجتمع يقوم على الأخذ والعطاء فلا تتألّم...

فضربت الأرض بقدمها الصغيرة وتساءلت:

- متى نرى الفيلم الجديد؟!

- ٦ -

وخيم الهدوء الشامل على مقهى الانشراح فلم يند  
عنه إلا قرقرة النارجيلة المتقطعة، وكان عشاوي يتناول  
عشاءه - رغيفاً وطعمية - عند الباب، أما عبده بدران  
فجلس على مبعدة يسيرة من حسني حجازي متحفّزاً  
للحديث أو لتقديم أيّ خدمة. وتساءل حسني  
حجازي في نفسه كيف يواجه رجل مثل عبده بدران  
أعباء الحياة الفاحشة الغلاء بأسرته الكبيرة؟ كيف  
توازن ميزانيته المحدودة ولو اقتصر الطعام على الخبز،  
والكساء على مخلفات سوق الكانتو، والمسكن على  
بدروم؟ وأولاده مع ذلك تلاميذ في المدارس، واثنان  
منهم - إبراهيم وعليات - أمّا تعليمهما الجامعي، فأيّ  
معجزة تمارس في غفلة من المؤمنين! وقال إن ما ينفقه  
في ليلة يكفي لإعالة أسرة بضعة شهور، ومع ذلك  
فهو لا يخلو من تدمر، وإذا مرّ شهران دون عمل في  
فيلم طويل أو قصير تولاه القلق فماذا يكمن وراء نظرة  
عم بدران الثقيلة الهادئة؟! وأقنعتة عليّات بأنّها تحافظ  
على المظهر اللائق بفتاة جامعية بفضل النقود التي  
تربحها من الترجمة فصلّدق الرجل الطيب، ولم يخطر

## الحب تحت المطر ٤٠٣

- وهل يتزوج إبراهيم في أول فرصة أو يؤجل ذلك لوقت السلم؟
- هذا شأنه، أنا أتمنى أن يتزوج اليوم قبل الغد، ولكن متى تنتهي الحرب؟
- من يدري يا عمّ عبده...
- حقًا من يدري، إنهم يعانون معاناة الأبطال... هذا حق.
- ومع ذلك فلا يهتمّ بهم أحد...
- كلاً، ليس هذا صحيحًا، المسألة أنّ الناس لم يتخلّصوا بعد من مرارة الهزيمة...
- وجذب حديث الحرب عشاوي من الخارج إلى الداخل فجاء بهيكله الضخم وهو يقول:
- ولكنّ الله سينصرنا في النهاية...
- فقال حسني حجازي:
- قل إن شاء الله.
- فقال عشاوي:
- كلّ شيء بمشيئته، لا بدّ أن نهزمهم وإلا فقلّ على الدنيا السلام.
- فسأله حسني:
- وإذا انتهى الموقف بحلّ سلميّ؟
- فهتف العجوز الأعمش:
- أعوذ بالله.
- وأراد أن يدلّل على قدرة الله فقال:
- ربّك كبير، أتصدّق أنّي ضاجعت الوليّة ليلة أمس مرّتين؟
- فذهل الأستاذ حسني وهتف:
- مرّتين؟!
- وحقّ كتاب الله!
- عوفيت... عوفيت يا عشاوي...
- فلا تيأسوا من رحمة الله...
- وضحك حسني عاليًا، ونظر صوب عبده بدران فأحنى رأسه مصدّقًا وعاد عشاوي يقول:
- لمّ حصل ما حصل؟... لأننا خسرنّا الدين والأخلاق!
- وقال حسني لنفسه: ولكن ما الأخلاق؟... أزمتمكم الحقيقيّة أنكم في حاجة إلى أخلاق جديدة!

- ببإله أنّ نفوده هو ضمن النفود التي تسهم في تربية كريمته!، آه... يوم عرف عليّات عرف أنّها كريمة عمّ عبده بدران، وداخله قلق، وشيء من مناقشة الضمير، ولكنّه قتل وسأوسه بعقله البارد. وقال إنّ لا يؤمن بذلك كلّه. ولم يتزعزع احترامه لعليّات. وقال عليهم اللعنة فهم يقبلون الضمير والظلم والاستعباد ويتقبلون أسودًا فاتكة في وجه الحبّ واللهم.
- وهمّ أن يسأل عمّ عبده كيف يواجه الحياة، ولكنّه سرعان ما أقنع عن فكرته خشية أن يفسد عليه هدوء جلسة نصف الليل أو أن يشجّعه سؤاله على استجداء مساعدة أو طلب سلفة. ولما طال صمت الأستاذ قال عمّ عبده بدران:
- تمّت خطبة إبراهيم وسنيّة أخت مرزوق.
- علم بذلك في حينه فأتحف العروس بهبة ماليّة كما تحف عليّات من قبل. ولكنّه قال:
- ليحفظ الله العريس ويسعد العروس.
- ناس طيّبون وعلى قدّ حالهم مثلنا وهي موظّفة بالإصلاح الزراعيّ!
- فجاء صوت عشاوي من عند الباب قائلاً:
- لا تعجبي المرأة الموظّفة!
- فقال له عمّ عبده بدران:
- جميع بنات درب الحلة تلميذات والكبار منهنّ موظّفات...
- فقال العجوز بسخرية:
- ولوا
- لو كانت لك بنت لتغيّر رأيك...
- فقال بفخار:
- أنجبت أربعة كلّهم ذكور...
- وكان حسني حجازي يسمع لأوّل مرّة عن أبناء عشاوي فسأله:
- ماذا يعملون يا عشاوي؟
- اثنان بين الخمسين والستين في المديح...
- ثمّ بفتور:
- الثالث قُتل تحت الترام، والرابع في السجن! وصمتوا دقيقة إعرابًا عن التأثّر والتأمل ثمّ سأل الأستاذ حسني عمّ عبده:

- ٧ -

- كان شغلنا الشاغل الوحدة العربية والوحدة الأفريقية .
- وما دخل ذلك في وجود الله؟
- أصبح شغلنا الشاغل متى وكيف نزيل آثار العدوان .
- معي دقيقة واحدة، أهو موجود؟
- كانت أيامًا مجيدة .
- كانت حلًا .
- بل كانت وهما .
- ويضيعون بوقوفنا دقائق في الناصية!
- الكلاب!
- إذا قُدر لليهود أن يخرجوا فمن سيُخرجهم غيرنا؟
- مَنْ يُقتل كلَّ يوم غيرنا؟
- ومن قتل عام ١٩٥٦؟ من قتل في اليمن؟ من قتل عام ١٩٦٧؟
- يظنّ العجوز أنّ المحافظة على بنت نصف عارية هي كلُّ شيء . . .
- علينا أن نبدأ من الصفر . . .
- أن تزاح عن صدورنا الكوابيس .
- لا أحد يريد أن يجيبني، أهو موجود؟
- طيّب يا أخي، إذا حكمتنا بالفوضى الضاربة في كلِّ مكان فلا يجوز أن يوجدنا
- أليس من الجائز أنّه يملك ولا يحكم؟
- يكفي أن يكون المصريون من عباده لكي يملك ويحكم!
- أنت شارع في الزواج حقًا؟
- نعم، خذ قدحك . . .
- لماذا؟
- لأنّي أحبّ .
- وما العلاقة بين هذا وذاك؟
- يجب أن نعمل شيئًا على أيِّ حال .
- بماذا نفسر تفشي الزواج المبكر بين الشبان؟
- بالفقر!
- بالموت!
- بنظام الحكم!
- سنضطرّ إلى الوقوف غدًا من شدّة الزحام .

- اكتظت ناصية الأمريكيين فلا موضع لقدم .
- تلاصق الشبان تحت الأضواء وانحصر المازة بين الأجسام الحازة الفتية . وقَلَّ الكلام أو انعدم وحملت الأعين وتحركت بعض السيقات بالرقص الخفيف . وثار سالك بحريمه في عباب الزحام غضبًا لكرامته الشخصية فيما بدا وصاح:
- اخجلوا من أنفسكم، واذهبوا إلى الجبهة إن كنتم رجالًا . . .
- ولم ينجل أحد فيها بدا أيضًا . وتساءل صوت:
- لم يريد أن يرسلنا إلى الجبهة قبل الأوان؟
- وقال صوت آخر ساخرًا:
- لعله يظنّ أنهم يرسلون النساء والكهول!
- وشبعت شلّة من وفقتها فانسحبت من معسكرها ومضت إلى «جنيف» فتجمّعوا حول بضع زجاجات من البيرة . وجعلوا يشربون ويتكلمون كما يملو لهم، وغالبًا بلا ضابط ولا نظام، غير أنّ مرزوق أنور تولى مهمة ملء الأقداح وتوزيعها .
- مشكلة الجنس في . . .
- قاطعته:
- في الجبهة مشكلة أهمّ .
- إنّما أتكلّم عن المشكلات الداخلية .
- دعه يتكلّم، المقاطعة ممنوعة .
- حدّثني أحد الكبار فقال إنّه كان يوجد على أيامهم بغاء رسمي .
- زماننا أفضل فالجنس فيه كالهواء والماء!
- الماء لا يصل إلى الأدوار العليا .
- ولكنّه يصل إلى الأدوار السفلى!
- ليس كالهواء والماء فالبنات تعلّمن الاستغلال .
- إنّها ضرورات العصر .
- البراءة تنهزم أمام السيارة مثلاً .
- توجد دائمًا فرص طيبة .
- كما توجد الباصات .
- وحفلات الساعة الثالثة في السينما .
- لا أهميّة لذلك، المهمّ هل الله موجود؟
- ولم تريد أن تعرف؟

## الحب تحت المطر ٤٠٥

الفتاك الطاغية السفاك النمرود الشيطان...  
 واختنق بأنفاسه فقال حسني حجازي بلين ودعابة:  
 - وكيف تشكو الضعف وأنت ذلك كله؟!  
 - إنّي أحكي عن الماضي، عن الماضي أحكي لا  
 الحاضر، افهمني يا أستاذ، كنت رجل درب الحلة  
 وحاميها، وكان الويل نصيب من يتعرّض لأحد من  
 أهلها بسوء، بفضلني نعموا بالسلام والأمان. بفضلني  
 بغوا على الخلق وهم في أمن من العواقب، كان اسمي  
 قانوناً وسيماً ونعمة وغنى وفقراً، ماذا جرى يوم اعتدى  
 نذل من القيسي على رجل من حارتنا؟ هجمت على  
 الحي كالقضاء والقدر، لم أفرق بين متهم وبريء،  
 تهاوت الضربات على رموس المازة، حطّمت  
 الدكاكين، احترقت عربات اليد، انهمرت الأحجار  
 على النوافذ والأبواب، وأسأل عني أيام سعد، ولا  
 تسأل عن عدد ضحاياي، وقد عُرفت بشارب الدماء  
 مد ذبحت إنجليزياً وشربت دمه المسفوح، هذا هو  
 عشماوي الخشن!

فقال حسني حجازي وهو يلعنه في سرّه:  
 - تاريخك معروف يا عشماوي ولكن لم أنت  
 غاضب؟!

ولكنّ العجوز لم يجب. ورجع إلى مجلسه عند  
 الباب وغرق مرّة أخرى في الحزن والصمت. ونظر  
 حسني حجازي إلى عمّ عبده بدران في فضول فقال  
 عمّ عبده بدران بإشفاق بلغ حدّ الخوف:  
 - أصيب شابان من أهل درب الحلة.  
 فقال حسني باستنكار:  
 - ظننت أنّ أيام الفتنة والمعارك قد انتهت إلى غير  
 رجعة.

فقال عبده بدران بوجه شاحب:  
 - أصيبا في الجبهة!  
 فوجم حسني حجازي، ثمّ تفكّر في كلمة مناسبة  
 يقولها، ولكنّ عشماوي سبقه صائحاً:  
 - قصدتني جدّة أحدهما مستغيثة بي كالأيام الخالية،  
 ظنّنت الوليّة أنّ عشماوي ما زال كعهده القديم يُستغاث  
 به فيغيث!  
 فقال حسني حجازي:

- أليس من الأفضل أن نهجر بدلاً من أن نتزوّج؟  
 - الزواج هجرة داخلية.  
 - الحقّ أنّه يلزمنا شيء من انتهازيّة الأجيال  
 السابقة.

- لا غنى عنها في الزحام.  
 - إذن فلماذا يخشى العالم الحرب؟  
 - ليست الحرب بأفزع ما يتهدّد العالم.  
 - أيجاد ما هو أفزع؟  
 - الفرد غير آمن تماماً بين أهله، والأسرة تخشى  
 الجيران، والوطن مهدّد من أوطان شتى، والعالم يحيط  
 به عالم خفيّ من الكائنات الضارّة، والأرض قد يجرّبها  
 خلل بالمجموعة الشمسيّة، والمجموعة الشمسيّة قد  
 تنفجر وتختفي في ثوانٍ.  
 - أنت مجنون!  
 - ولكن علينا أن نضحك وآلاً نسمح لشيء بأن  
 يفسد علينا حياتنا الغالية...

- آمين.  
 - آمين.  
 - آمين.

- ٨ -

ارتسمت في وجه عشماوي صورة غير عادية.  
 انغرست في أساريه غضبة كالحة فولاذية انداحت فوق  
 جفاف الشيوخوخة وبروز الفكّين وتهذّل اللحيين.  
 وعندما استقبل الأستاذ حسني حجازي لم ينجل شعاع  
 واحد للباشاشة في وجهه حتّى توجّس الأستاذ خيفة  
 مجهولة فقال - وهو يتخذ مجلسه - لعمّ عبده بدران:  
 - خير إن شاء الله!  
 وسمعه عشماوي فأقبل نحوه حتّى وقف أمامه  
 وتدقّق قائلاً:

- إنّي ألعن كلّ شيء، وألعن فوق كلّ شيء نفسي،  
 إنّي نائر على ضعفي وعجزني واندحاري في صندوق  
 القمامة بلا حول، ومّن أنا؟! أنا، أنا عشماوي الخشن،  
 صاحب القبضة الحديدية والنّبوت المخضّب بالدماء،  
 أنا من يرتجف عند ذكر اسمه الرجال وتتوارى النساء  
 ويستعيد بالله منه رجال الشرطة، أنا المجرم الجبار

## ٤١٦ الحب تحت المطر

- وهل أولاد الأغنياء يُقتلون أيضًا؟  
فلم يتمالك حسني نفسه من الضحك وقال:  
- ولكنّ التجنيد لا يفرّق بين غنيّ وفقير يا  
عشاوي...  
فهزّ رأسه في ارتياب وعاد يسأل:  
- وهل يرسلونهم حقًا إلى الجبهة؟... قلبي  
يحدّثني بغير ذلك!  
- لا تصدّق قلبك يا عشاوي.

وعكف على النارجيلة. وقال لنفسه إنّ جلسة الليلة  
خسرت هدوءها العتيّد، وإنّ الحزن فيها امتزج  
بالضحك، وإنّ الهزيمة مرّة وعواقبها تنتقل من مركز  
إلى مركز في المتخّ ولكنّها لن تمحى، وإنّ جبلًا شامخًا  
انهار، وتبدّد حلم عجيب، وإنّ خير ما يريح به نفسه  
أن يترك الأمانة لحاملها. وساءل نفسه وهو ينفث  
الدخان من فيه وأنفه أين يجد مكانًا لا يتردّد فيه ذكر  
الحرب؟

- ٩ -

جمعت الشرفة المطلّة على النيل الصديقات الثلاث:  
عليّات عبده وسنيّة أنور ومعنى زهران. وكان الخريف  
يبثّ في الجوّ برودة لطيفة ويزين سماء الأصيل بسحب  
ناصعة البياض. وقد لبّث عليّات وسنيّة دعوة عاجلة  
إلى مسكن مئى بالمنيل فتوقّعتا أخبارًا جديدة وسعيدة.  
وهنّ صديقات حميات منذ الدراسة الثانويّة، وتمتاز  
مئى بجمال رائق يتمثّل في بشرتها الضاربة للبياض  
وعينيها السوداوين الجلّابتين وقامتها الرشيقّة المائلة  
للطول، كما تمتاز بأسرتها المتوسّطة ذات الدخل  
الموفور- الأب مدير إدارة قانونيّة والأمّ ناظرة مدرسة  
مقاعد باختيارها- فضلًا عن أنّها موظّفة بالسياحة  
منذ عام. وكان لها شقيقان أحدهما مهندس في بعثة  
بالاتحاد السوفيتيّ والآخر طبيب بالمنوفيّة ويتوقّع اختياره  
في بعثة قريبة، ولذلك كانت طموحة تداعبها الأحلام  
ولا تستقرّ. وكان مسكن مئى يدكّر عليّات وسنيّة  
بمسكن الأستاذ حسني حجازي رغم الفارق المحسوس  
بينها ولكنّ الحسد لم يتسلّل إلى نفسيهما بفضل العلاقة  
الحميمة الحارّة. وقد توقّعتا أخبارًا جديدة وسعيدة

- إنّها بطلان يا عشاوي...  
فقال الرجل بحنق:  
- أنت لم ترهما ولم ترّ العنبر...  
- زرعها في المستشفى؟  
- زرعها، رأيت وسمعت وشعرت بعجزني فلعلت  
كلّ شيء كما لعنت نفسي.  
فقال حسني بروح عالية وهو يقصد أولًا عمّ عبده  
بدران:  
- هما بطلان، وهكذا الحرب في كلّ زمان ومكان.  
فصاح عشاوي:  
- إني ألعن العجز...  
- سليمة سليمة بإذن الله.  
وقال عمّ عبده بدران ليبدّد مخاوفه الشخصيّة  
بدعابة:  
- وأنت يا عشاوي ألا تطالب دائميًا بالحرب  
والنصر؟

فتحوّل غضبه إلى حزن وهو يردّد:

- الحرب والنصر ولكنّي عجوز لا خير فيه  
- حسبك أنّك شربت من دم الإنجليز في شبابك!  
ثمّ نظر عبده بدران إلى الأستاذ حسني وقال:  
- في الثورة الأولى كنت دون السنّ اللازم للجهاد  
واليوم أنا فوق السنّ المناسب للحرب فلم أفعل شيئًا  
يذكر للوطن...  
- ولكنّ ابنك في الجبهة، خبّرني هل يؤمك تصوّرك  
أنّك لم تفعل شيئًا؟

- أحيانًا ولكنّ أعباء الحياة تغرقني حتّى القمّة!  
وتذكّر حسني أنّه ذو موقف مماثل، وأنّه كان يحاسب  
نفسه في أزمنة تلمّ به، وأنّه كان يطفئ سعارها برودة  
العقل الخالدة، وأنّه أوشك أن يقنع نفسه بأنّه يفتح  
شقّته للأفراح البريئة والخيرا وسأله عبده بدران:

- على أيّ وجه سينتهي الموقف يا أستاذ؟

فضحك حسني عاليًا وقال:

- السؤال الخالدا ماذا يمكن أن يقال؟ فلننتظر...  
- ولكنّ الموت لا ينتظر.

- إنّهُ سباق ونحن لا نموت وحدنا!

وعند ذلك تساءل عشاوي:

## الحب تحت المطر ٤٠٧

يريد معرفته عني أكثر مما يعرف أو مما يمكن أن يعرف  
بالإتصال المباشر وبالحبّ المزعوم، قال إنه بريء وإنه  
يحبني وإن سمعتي نقيّة مثل الورد فضحكت ساخرة  
وقلت له إني أحتقر تحريّاته وأحتقر النتائج التي وصل  
إليها وإنه خُدع أو إنه لم يُحسن التحري، وقلت له  
ماضيّ ملكي وحدي كما إن ماضيه ملكه وحده وإني  
أرفض كافة أنواع العبوديّة في أيّ زيّ تزيت وبأيّ  
اسم تحلّت، وإنه لا يصلح لي كما لا أصلح له...  
وسكنت وهي تلهث والغضب يرتعش في شفيتها  
ويدهمّ في عينيها. وبدا أنّ صديقتها لا تؤيدانها في  
موقفها وإن شاركتها في الإحساس والرؤية. تساءلت  
عليّات:

- ألم تبالي يا منى؟

وقالت سنيّة:

- هي تقاليد بلادنا!

فهزّت منى رأسها بعناد وقالت:

- إني أرفض ذلك كلّ... .

فقال سنيّة:

- إنهم معقدون ويحتاجون إلى ترويض طويل.

وقالت عليّات وكأما تُتيمّ الكلام:

- لا إلى التحديّ... .

فقال منى بعجرفة:

- أفضل أن أبقى بلا زواج إذا كان الثمن كذبة

سخيفة وجراحة دينية!

فقال عليّات:

- ولكنّ ظروفنا حرجة كما تعلمين... .

- لا يمكن أن أتهاون في مبادئ وأخلاقي.

أجل فهي معروفة بأخلاقيّاتها. وهي لم تمارس

الجنس إلاّ بدافع من الحبّ، ولم تضطرّ. مثلها - إلى

ممارسته في أحيان كثيرة لاقتناء ما يحتاجان إليه من

ملابس وأدوات زينة وكتب. ولعلها كانت تحتقر

سلوكها وإن عطف عليه من أعماق قلبها المحبّ. وقد

تابعت خطوات خطوبتها وما اقتضته من شهادات

الزور والأكاذيب وغير ذلك، ولم ترتج لشئ منه وإن

تعزّت بأنّ جميع تلك السخافات إنّما ارتكبت باسم

حبّ حقيقيّ. وكانت محاولة إثباتها عن موقفها ميثوس

ولكنّ منى قالت باقتضاب مثير:

- فسخت خطوبتي قبل أن تعلن!

انزعجت الفتاتان حقًا، وقالت عليّات:

- غير معقول!

وقالت سنيّة:

- أيّ خبر!

وكانت منى قد قدّمت لها - منذ شهر - في دار

الشاي الهنديّ شابًا يدعى سالم عليّ، قاضٍ بمجلس

الدولة، باعتباره الصديق والخطيب المنتظر، ولذلك

توقّعتا من وراء الدعوة العاجلة أخيرًا جديدة سعيدة

لا هذا الخبر الأسيف. وقالت سنيّة وهي تهزّ رأسها

هزّة ذات معنى:

- وطبعًا كنت أنت البادئة؟!

فقال منى بتحدّ:

- ظنّك صادق دائمًا معي!

- ولكنّه شابّ جدّاب وذو مركز يا منى؟

وقالت عليّات:

- وكان واضحًا أنّه يحبّك وأنتك تبادلينه الحبّ؟

عند ذلك تملّمت منى من الضيق وربّما من عاطفة لم

تستطع بعد أن تقتلعا من أعماقها، فنبت لها أنّها إنّما

دعتها لحاجتها إلى الأناج والمزاج، ولكنّها قلبت بنبرة لم

تخلّ من حدّة:

- عرفت عن يقين أنّه يقوم بتحريّات عني!

وساد الصمت حتّى قالت سنيّة:

- أهذا ما أخذته عليه؟

- وهو كافٍ وفوق الكفاية.

فقال عليّات:

- أراهن على أنّه فعل ما فعل بحسن نيّة!

- أنا لا أتهمه بسوء النيّة ولكن بسوء العقليّة

أتهمه... .

ثمّ مستدركة بانفعال شديد:

- ولم أتردّد فواجهته بالتهمة، تلثم وحاول أن

يفسّر سلوكه بغير بواعثه الحقيقيّة ولكنّي رفضت تفسيره

وطالبته باحترام نفسه فاعترف واعتذر بسخافات لا

أذكرها ولا أحبّ أن أذكرها فلم أقبل عذره، وقلت له

ولمّ لا تسعى إلى الزواج عن طريق خاطبة، وسألته عمّا



## ٤٠٨ الحب تحت المطر

- منها لما تعرفان من عنادها وكبرياتها ومثالياتها، فسَلِّمتا بالواقع في حزن وكآبة. وقالت لها عليّات:
- أنت يا منى جميلة وممتازة وجديرة حقًا بزواج سعيد!
- فسألته منى:
- ترى هل تطمئنان إلى مستقبلكما القائم على كذبة كبيرة؟
- فقلت سنيّة:
- إنه يقوم على الحب.
- أما عليّات فقلت بقلق:
- إن رجلاً مثل حسني حجازي خليق بصون سرتنا.
- فقلت منى:
- حسني حجازي لا نتوقع منه الحيانة.
- فعدت عليّات تقول:
- أحياناً أتذكر المصادفات المرعبة التي تقلب الأمور في السينا!
- فقلت سنيّة بقوة متحدية:
- لم يكن في وسعنا أن نفعل خلاف ما فعلنا وعلينا أن نواجه مصيرنا.
- وفجرت الزيارة في نفس عليّات وسنيّة دوّامات من القلق ولكن استقرّ في أعماقهما في النهاية قول سنيّة «علينا أن نواجه مصيرنا».
- ١٠ -

لم تسعد منى بانتصار كبرياتها. أو لم تسعد كما قدّرت. وفي أوقات انفرادها بنفسها غزتها الكآبة كالغبار. خافت أن ترتكب حماقات بلا نهاية. اعترفت لنفسها المتمرّدة بأنّها ما زالت محبّ سالم على رغم حماقته وسخافاتّه. أدركت أنّها تقف حيال مشكلة وأنّ المشكلة تتطلّب على أيّ حال حلاً. وجاءت شقيقها الدكتور عليّ زهران إلى القاهرة في إجازة فسُرت بحضوره وقصّت عليه تجربتها الفاشلة. وأسف الرجل ولكنّه كان مستغرقاً بهوم طارئة فقال لها:

- إنّي أفكر في الهجرة!

فدهشت منى وتمتمت:

- الهجرة؟

- الحقّ أنّي تجاوزت مرحلة التفكير فاستقرّ رأيي على الهجرة.

- ولكنك تنتظر فيها أعلم بعثة علميّة؟

- لم ألق إلاّ الماطلة، ففكرت في الهجرة ثمّ استقرّ رأيي عليها.

- وكيف يتمّ لك ذلك يا أخي؟

- إنّي على وشك الانتهاء من بحثي عن الطفليّات وسوف أرسله إلى زميل مهاجر بالولايات المتّحدة ليعرضه على الجامعات وبعض المراكز الطيّبة ومن ثمّ أنتظر أن أدعى للعمل في إحداها، وهو ما حصل معه بالضبط...

فشهقت بقوة من شدّة الانفعال وقالت:

- أهاجر معك!

ثمّ بثقة:

- إنّي متخصصّة في الإحصاء وأتقن الإنجليزية.

فابتسم الدكتور وقال:

- لئن ناهجر اثنين خير من أن أهاجر وحدي...

وعارض الوالدان الفكرة، ولم يدركا لها حكمة ما دام للشقيقين مستقبل مرموق في مصر، فقال الدكتور لوالديه:

- البلد بات مقرّفاً.

وقالت منى:

- وهو لا يطاق.

وأراد الأب أن يستشير عاطفتها الوطنيّة ولكنّ الدكتور عليّ قال بجرأة عدّها الأب قاسية:

- لم يعد الوطن أرضاً وحدوداً جغرافيّة ولكنّه وطن الفكر والروح!

وتألّم الأب الذي ينتسب إلى جيل ١٩١٩، جيل الوطنيّة المصريّة الخالصة، واستمع إلى ابنه بانزعاج فخيّل إليه أنّه يطالع ظاهرة غريبة تستعصي على الإدراك والتفسير. وكان يسلمّ بأنه لا يستطيع أن يشبهها عن عزم إن اعتزما فتساءل في جرع كيف يمكن أن يحتل الحياة بدون وجودها معه في وطن واحد على الأقل! وكانت منى تحبّ أباهما كثيراً ولكنها لا تكاد تتفق معه في رأي، وعجبت كيف أنّ هزيمة ٥ يونيو

## الحب تحت المطر ٤٠٩

عقب فقال وهو يتهدد في ارتياح:  
 - الحب أهم شيء في الدنيا  
 ثم بارتياح أعمق وشي بما عاناه من عذاب:  
 - أي والله، الحب أهم شيء في الدنيا، وكل ما  
 عداه باطل...  
 ونظر إليها متسائلاً:  
 - هل ستهاجرون حقاً؟  
 فأجابت بفتور:  
 - نعم...  
 - ليتني أستطيع الهجرة أيضاً.  
 فسألته باسمه:  
 - وماذا يمنعك؟  
 - تخصصي لا يؤهلني لها.  
 ثم وهو يضحك:  
 - لا مفر من البقاء في مصحة الأمراض العقلية.

- ١١ -

في قرار واحد أصبح مرزوق أنور وخطيبته عليّات  
 عبده موظفين في الحكومة. تعيّنت هي في وزارة  
 الشؤون الاجتماعية أما هو فتعيّن في المنطقة التعليمية  
 ببني سويف. تكذرت فرحة التعيين وأطلّ شيخ الفراق  
 على الحبيين، وتساءلا كيف يجتمع شمل عروسين  
 واحدة في القاهرة والآخر في بني سويف. وذهب  
 مرزوق إلى محطة مصر فصحبه أبوه وعليّات، وجلسوا  
 حول مائدة في البوفيه حتى يأزف ميعاد قيام قطار  
 الصعيد. كان الأب في الستين ولكنه بدا أكبر من  
 عمره بعشرة أعوام على الأقل، وكان تمن ياخذون  
 الأمور بتسليم وبساطة، كما كان يعتبر ابنه من  
 «المفقودين» على أيّ حال سواء أبقى في القاهرة أم  
 رحل إلى أسوان. لذلك شجعه طيلة الوقت، وضرب  
 له مثلاً بحياته هو في الثلاثينات - سنوات الأزمة  
 الاقتصادية - عندما تقاذفته بلدان القطر والإفلاس  
 يطارد التجار ويصفي المحال التجارية واحداً بعد  
 آخر. ومالت عليّات نحوه وسألته همساً:

- أتعرف ذلك الرجل الذي يجلس أمامنا؟  
 فنظر نحو الأمام فرأى رجلاً جالساً، يدخن

فجرت وطنيته من جديد فعادت سيرتها الأولى على  
 حين أنها منيت بخيبة شاملة تدفعها باستمرار إلى تغيير  
 جلدها خلية خلية. وهو ما حصل لعليّات وسنية  
 وغيرهما وما حصل لشقيقها. وقالت مخاطبة الدكتور:

- إننا نحيا بلا هدف!

فقال لها بامتعاض:

- وأنا أحيا بلا حياة... .

- يجب أن نهاجر.

- سنهاجر عند أول فرصة.

واعتبرت مني نفسها سائحة عابرة فشعرت براحة  
 نفسية لم تشعر بها منذ قطعت علاقتها بسالم عليّ.  
 وسرعان ما ذاع الخبر بين صديقاتها وزميلاتها وفي  
 الأوساط التي تنتقل فيها. وراحت تحلم بحياة جديدة  
 نقيّة توفّر للفرد سبل التقدم والازدهار والأمن. وكانت  
 عائدة من مكتبها عصرًا عندما وجدت أمامها سالم عليّ  
 في ميدان طلعت حرب. لم تكن مصادفة، ولم يحاول  
 ادعاء ذلك، ولكنّه مدّ لها يده وهو يقول:

- علمت أنك ستهاجرين إلى الولايات المتحدة فعزّ  
 عليّ ألا أودّعك... .

فصافحته ببرود أخفت به انفعالها وقالت:

- أشكرك.

ومضت في سيرها فسار إلى جانبها لمرمته باحتجاج  
 ولكنّه تجاهلها فعادت تقول:

- قلت أشكرك!

فقال بهدوء:

- ولكنّي لن أتركك.

فسألته بالبرود نفسه:

- لماذا؟

فقال وكأنّه يعترف:

- وضح لي أنّي أحبك وأنّي لم أستطع الإقلاع عن  
 الحبّ.

ووجدت أنّها سعيدة لدرجة فاضحة فغضت بصرها  
 وهي تقول:

- ولكنّي وُفقت في ذلك... .

- إذن فلنذهب إلى دار الشاي الهنديّ.

وسارا جنبًا بجنب وقد انقلبت أحلامها رأسًا على

## ٤١٠ الحب تحت المطر

- غليونًا، ويفتحه بنظر ثاقب غير هيّاب فقال على الغور:
- كلاً.
- لم يكن يعرفه ولكن خيّل إليه أنه لا يراه لأول مرة، فمضى رأى هذا الوجه شبه المرتفع الريان، وهاتين العينين البرازيتين، وهذين الحاجبين الكثيفين، وهذا الرأس القويّ الأصلع؟
- وهمست عليّات مرة أخرى:
- إنه لم يحول عنك عينيه طوال الوقت.
- ولا بدّ أنّه يريد أن يحولها عنه بعد أن تنبّه إلى نظراته. ولم يقنع بذلك فقام بهدوء وتقدّم خطوات ثم وقف أمامهم، وأحى رأسه تحية وقال يقدم نفسه:
- محمّد رشوان... مخرج سينمائيّ.
- فقام مرزوق أنور بدوره، أحى رأسه وقال:
- مرزوق أنور... موظّف... تشرّفنا يا فندم.
- فسأله وهو يواصل فحصه:
- أليس لك تجربة سابقة في فنّ التمثيل؟
- فأجاب مرزوق بدهشة:
- كلاً.
- ألا تحبّ أن تجرّب نفسك؟
- فضحك مرزوق رغم توتر أعصابه وقال:
- لم يخطر لي ذلك ببال.
- فقال وهو يهزّ رأسه هزّة خبير:
- عندي لك دور بطولة... .
- فهتف مرزوق في ذهول:
- بطولة!
- كنت مشغول البال بحثًا عمّن يلعبه فلمّا وقعت عليك عيناي وجدت ضالتي ماثلة أمامي، فما رأيك؟
- فقال مرزوق بصوت متهدّج:
- أمهلني قليلاً.
- وقال الأب:
- إنه في طريقه لتسلّم وظيفته الجديدة!
- وسألته عليّات:
- هل يضمن بهذا الدور عملاً ثابتاً؟
- فقال محمّد رشوان:
- عندي له أكثر من دور بطولة وأنا أتنبأ له
- بالنجاح... .
- فقلت عليّات:
- ولكنّه لم يسبق له أن مارس التمثيل... .
- هذا أفضل، سيخرج من تحت يدي كالجنيه الذهبي!
- وكان رأس مرزوق قد دار وثمل فقال متخذاً قراره:
- موافق... .
- فقال له أبوه:
- ففكر قليلاً يا بنيّ.
- ولكنّه قال بإصرار:
- موافق وسأجرّب حظّي... .
- وأعطاه محمّد رشوان بطاقته وهو يقول:
- تقابلني غدًا في هذا العنوان في العاشرة صباحًا، عندك تليفون؟
- فهزّ مرزوق رأسه نفيًا فقال:
- ودورك جديد في الواقع، دور شابّ جامعيّ مجتهد، يزور القاهرة في إجازة قصيرة فتقع له أحداث هامة، وتحبّه سيّدة مجهولة الجنسيّة وتدعوه للهرب معها.
- فتساءل مرزوق:
- وهل يهرب معها؟
- لهذا ما سيجيب عنه الفيلم، والمهمّ أن تبقى الحال على ما هي عليه حتّى يعرض الفيلم... .
- أيّ حال تقصد؟
- أقصد الموقف في الجبهة... .
- فسأله الأب:
- وهل تتوقّع أن يتغيّر الموقف قبل ذلك؟
- المنتج يؤكّد أنّ الموقف سيبقى على ما هو عليه أحوالًا... . أمّا... .
- فتساءل مرزوق:
- أمّا؟
- فضحك محمّد رشوان وقال:
- أمّا إذا انهزمنا مرة أخرى أو حتّى إذا انتصرنا فستكون العواقب وخيمة على الفيلم وصاحبه!

## الحب تحت المطر ٤١١

- سنحتاج إليك في بعض المعلومات الضرورية...  
 فتساءل إبراهيم ضاحكًا:  
 - تقصد بعض الأسرار؟  
 - كلاً... إنما ما يُسمح بتصويره...  
 - ليس كل ما يُسمح بتصويره مما يُحسن تصويره!  
 فقال محمد رشوان:  
 - إنما هدفنا أن نحَي بطولتكم!  
 ثم التفت إلى منى زهران وسألها:  
 - ألا توافقين على ذلك؟  
 فهزّت رأسها بالإيجاب، ثم عاد إلى إبراهيم وقال:  
 - كلنا جنود ولكن تختلف الميادين!  
 فضحك إبراهيم بفتور وقال:  
 - ولكننا نقاتل وأنتم تمثلون!  
 وضحك الجميع، وأزف وقت تصوير لقطة جديدة فذهب مرزوق ومحمد رشوان. وعند ذلك قالت منى زهران:  
 - هذا المخرج لا يوحى بالثقة!  
 فقالت عليّات:  
 - ولكنّه ذو فراسة مذهلة ومقدرة خارقة.  
 فلوت منى شفيتها وقالت:  
 - آي على خلاف الكثيرين أحترم الأفلام الهزليّة...  
 فسألها سالم عليّ:  
 - لماذا يا عزيزتي؟  
 - هي على الأقلّ صادقة!  
 فضحك إبراهيم في مرح صافٍ لأول مرّة وقال:  
 - صدقت.  
 ثمّ همس في أذن منى خطيبته:  
 - كدت أفقد حياتي أمس مرتين!  
 فقبضت على كفّه بحنان وهمست:  
 - لا سمح الله!  
 عكست عيناها الخضراوان نظرة ساهمة. وسألت عليّات منى بمرح عابث:  
 - متى تهاجرين؟  
 فأشارت منى إلى سالم وقالت:

- ١٢ -

التقى مرزوق بالسيدة المجهولة الجنسية، كانت تطارده وهو لا يدري ولكنها تظاهرت بالبرود وسألته سؤالاً عابراً، وأجابها بأدب وبلا اهتمام أوّلاً، ثمّ جذبته بغتة جمالها المضيء فصعق تماماً. وكان يرتدي بدلته العسكرية وتتجلى البراءة في عينيه.  
 ووقف وراء الكاميرا ضمن نفر من المراقبين عليّات عبده وسنيّة أنور ومنى زهران وإبراهيم عبده وسالم عليّ. حتى التنفّس مارسوه بحذر فساد الصمت وشمل كلّ شيء، ولم تدب الحياة إلّا تحت الأضواء الباهرة داخل البلاطو. ولما أعلن محمد رشوان انتهاء اللقطة خرج الممثلان من دورهما ورُدت الروح إلى الواقفين وراء الكاميرا فقالت منى زهران:  
 - إنه ممثّل أصيل.  
 وقال إبراهيم عبده:  
 - شيء لا يصدّق!  
 وعينًا حاولت عليّات إخفاء توتر أعصابها والفرحة التي انطلقت في حنايا قلبها. وأقبل مرزوق نحوهم فصافحهم وعانق إبراهيم. ووقف أمام إبراهيم في زيّ عسكريّ واحد يتبادلان النظر والابتسام. وقالت عليّات مخاطبة أخاها إبراهيم:  
 - إنه يلعب دورك في الفيلم!  
 وتفحصه إبراهيم بعناية وقال:  
 - ولكنك أنيق كضابط.  
 فقالت منى ضاحكة:  
 - لأنه يمارس الحبّ لا القتال.  
 فسأله إبراهيم:  
 - وهل يمتدّ دورك إلى الجبهة؟  
 فأجاب مرزوق:  
 - أجل، قرأته في السيناريو، وهو يصوّر بطولة خارقة...  
 فضحك إبراهيم ولم يعلّق بحرف. وجاء المخرج محمد رشوان فصافح الجميع. وكان قد عرف عليّات وسنيّة من قبل فتعرّف بمنى زهران وخطيبها سالم عليّ. وكان يتفحص الوجوه كما يتفحص الصائغ الحليّ. واقترب من إبراهيم وقال له:

## ٤١٢ الحب تحت المطر

- هذا الرجل هو المستول عن فشل المشروع.  
فقلت له عليّات:  
نحن مدينون لك بالشكر.  
فقلت منى:  
- الهجرة على أيّ حال سنة!  
فسألها إبراهيم:  
- ولو كانت إلى الولايات المتحدة؟  
فأجابت بتحدّ:  
- ولو كانت إلى الجحيم!
- ١٣ -
- في زيارة طارئة ثلاثت عليّات وسنيّة مع منى زهران في مسكنها بالنييل. لم تكن زيارة عاديّة، أو هدا ما قرأته منى في عينيّ صديقتها. وقالت عليّات:  
- لدينا رسالة هامة...  
فأثار ذلك حبّ استطلاعها إلى أقصى حدّ وتساءلت:  
- أيّ رسالة؟... ممن؟  
- من مرزوق أنورا  
- الفنان الكبير؟  
فقلت سنيّة:  
- محمّد رشوان المخرج يرغب في مقابلة خاصّة...  
فذهلت منى وأتسعت عيناها ولم تدرِ ماذا تقول،  
فقلت عليّات:  
- إنّه يفتح لك دنيا الكواكب والنجوم...  
وقالت سنيّة:  
- وإن أردت الحقّ فكأنك خلقت لذلك...  
وتفكّرت منى وهي في غاية الانفعال، وتمتمت:  
- لم يجر لي ذلك في خاطر.  
فقلت عليّات:  
- ولا كان جرى في خاطر مرزوق.  
- أودّ أن أستاذس برايكما...  
فقلت عليّات:  
- جرّبي حظّك بلا تردّد.  
وقالت سنيّة بتوكيد:  
- بلا تردّد.
- ولكتني لم أجرّب هذا الفنّ من قبل.  
فقلت سنيّة:  
- الحبّ قد يسبق الفنّ وقد يلحق به، لا أهميّة لذلك...  
وفي الساعات القلائل التي تلت المقابلة جعلت تفكّر في الأمر فاجتاحها فكرته ووقعت أسيرة لسحره. وتلفنت لسالم عليّ أن يقابلها في دار الشاي الهنديّ وكما أخبرته بما اعتزمته ذهل الشابّ وصعق وقال:  
- لا شكّ أنّها دعابة!  
فقلت بتوكيد:  
- بل إنني أعني ما أقول تمامًا.  
فهتف بيأس:  
- ممثلة سينائية!  
فقطّبت متسائلة:  
- ولمّ لا؟  
فقال بغضب:  
- لا!  
ولم تعجبها لهجته وأشعل غضبه كبرياءها فقلت:  
- لا أقبل هذه اللهجة...  
- وأنا أرفض الفضيحة!  
- فضيحة!، أنت... أنت... أنت...  
فقاطعها بحدّة:  
- لقد قبلت من أجلك ما لا أستطيع تجاوزه بخطوة أخرى واحدة...  
فصاحت:  
- أنت ممنّ عليّ بذلك!  
- إنني أعني تمامًا ما قلت...  
فاصفرّ وجهها وقالت بانفعال شديد:  
- كفى... كفى... أرجوك... لا ترني وجهك بعد الآن!  
فقام وهو يقول:  
- أنت معقّدة ومجنونة!  
وفسخت الخطوبة للمرّة الثانية.  
واستجابة لانفعالها الشديد، فضلاً عن رغبته الأصليّة، سعت إلى مقابلة محمّد رشوان. زارته بصحبة مرزوق أنور، في مكتبه بشارع عرّابي. ورحب

### الحب تحت المطر ٤١٣

أكثر الوقت في أحاديث عامة عن الفن والحياة .  
ولاحظت منى أنّ الأتمّة تغلب على تفكيره رغم شهرته  
ونجاحه وأنه كان يمكن استساغته بشيء من التساهل  
لولا غروره الهرمي الذي لا يُحتمل . ولاحظت أيضًا  
أنه يعجب بها أكثر مما يعجب بفنّها . بل باتت تؤمن  
بأنه لا يكتث لفنّها على الإطلاق وأنّ المسألة من أولها  
لآخرها مجرد شرك . وعند ذاك تجمعت في صدرها  
أبخرة الغيظ والغضب وخيبة الأمل . ولما قال لها وهو  
يظنّ أنه آن له أن يمدّ يده لجني الثمرة :

- جوّ المكتب غير مناسب لهذه الأحاديث الطليّة  
فأنا أدعوك للعشاء!

لما قال لها ذلك أدركت ما يعنيه وهي تشعر  
بالغثيان . أمّا هو فاستمرّ يقول :

- يجب أن تري عثي الخلوي بالعامرية!  
وأحسّت بأنفاسه المشبعة بالتبغ وهي تتردّد على  
خدها فثار غضبها ولطمته على وجهها!  
تراجع في وقفته حتى استقام عوده، وتحوّرت نظرته  
وانفخ خدها بالغضب، وبسرعة هوى على خدها بكفّه  
الغليظة فترنّحت وبهاوت على الأرض، وصاح بها :  
- تظنّين أنّك امرأة لا يجوز مسّها في عرف اللياقة  
العصريّة، يا خنزيرة يا بنت الخنزيرة!  
قامت مشعّنة الشعر ورأسها يدور وهي لا تصدّق  
فصاح بها مرّة أخرى:  
- اخرجي يا عاهرة وقصي هذه القصة على  
أمك...

ما زال رأسها يدور وتناولت حقيبتها، وسوّت  
شعرها، ومضت نحو الباب، وصوته يتبعها قائلاً:  
- دعوتي للعشاء ما زالت قائمة، ونحياي لاأمك!

- ١٤ -

ثار سالم على ثورة جامحة تحطّت جميع الحدود،  
صتم على نبذ منى واحتقارها، واعتبرها فتاة مجنونة،  
وأنّ من حسن حظّه حقًا أنه عرفها على حقيقتها قبل  
أن يتورّط في الزواج منها . ولم يقتنع شقيقه الأصغر  
حامد بشورته فقال له :

- ما زلت تحبّها يا أخي .

بها بحرارة وجلس إلى مكتبه وهو يقول :  
- إتهم يسمّوني يا آنسة منى كولبس لكثرة ما  
اكتشفت من نجوم وكواكب، ولم تحب نظرتي مرّة  
واحدة فأبشري مقدّمًا بالنجاح...  
فأشار مرزوق إليه وقال لها :  
- إني أو من بهذا الرجل!  
وعاد محمّد رشوان يقول :  
- إني أرتشحك لبطولة فيلم أعتزّ به جدًّا، هل  
تغنّين؟

فاجابت بحياء :  
- كلّاً .  
- لا يهّم، يمكن الاستغناء عن الغناء ولكنني لن  
أفرغ للفيلم الجديد قبل ستة أشهر...

فقال مرزوق :  
- وهي فرصة لإجراء الاختبارات الضرورية  
والدعاية اللازمة .  
- برفاؤ مرزوق، وإذن فقد تمّ الاتفاق على كلّ  
شيء...

وعقب مرور يومين على المقابلة استدعاها المخرج  
تليفونيًّا إلى مكتبه، وفي ذلك الاجتماع الذي اقتصر  
عليها التقط لها بعض الصور الفوتوغرافية، وأجرى لها  
بعض الاختبارات الصوتية كما دعاها إلى تمثيل موقف  
دراميّ من أحد أفلامه . وطيلة الوقت شجّعها بابتسامة  
لطيفة فأنست إليه وخفق قلبها بالامتنان . غير أنّها لم  
ترتج إلى نتائج الاختبارات رغم تشجيعه الودود .  
ومالت إلى الاعتقاد بأنّها لم تُخلق لهذا الفنّ وأنّ أيّ  
اجتهاد تبذره فيه مصيره الضياع . ولم تحفّ عنه مخاوفها  
فقالت :

- إني غير راضية عن نفسي...  
- هذا بالحرف ما قالته فتنة ناصر عن نفسها في  
أول اختبار .

فاودها شيء من الأمل في صورة ابتسامة حلوة  
فقال :

- وفتنة ناصر في الأصل جامعيّة مثلك وهي اليوم  
جوهرة غالية في دنيا الفنّ!  
وتعدّدت اللقاءات وتكرّرت الاختبارات . ومضى

## ٤١٤ الحب تحت المطر

- فصاح بغضب:  
- أبداً، وسوف تعرف ذلك بنفسك.  
وكان حامد يحب شقيقه ويؤمن بأنه يفهمه فقال:  
- أنت يا أخي برجوازي ويناسبك الزواج  
البرجوازي!  
فتضاعف غضب سالم وقال:  
- عيبكم الأساسي هو تعلّقكم بالمصطلحات،  
انتظر وسوف ترى...  
فقال له بإشفاق:  
- إن مركز القضائي...  
ولكنه قاطعه:  
- انتظر وسوف ترى...  
وعاد إلى بؤرة قديمة كان هجرها مذ عرف منى  
زهران. ذهب إلى ملهى «مركب الشمس» بالهرم وهو  
نصف ثمل. وانزوى في الحديقة رغم برودة الجو  
وطلب من النادل أن يدعو سميرة لمشاربته. وسميرة  
كانت صديقتة، وهي راقصة من الدرجة الرابعة  
ترقص ضمن مجموعة في خلفية المسرح عندما يغني  
مطرب بالملهى. وهي في الخامسة والثلاثين، وبها  
مسحة جمال، وجسمها أجمل من وجهها، ورخيصة  
الثلث نسبياً، وقد دهشت لعودته عقب غياب استمر  
أكثر من نصف عام، فتظاهرت بغضب لا أساس له،  
وقالت له:  
- رجعت يا خائن...  
وراحا يشربان. ولاحظت أنه - بخلاف عادته -  
يشرب بإفراط. وكانت ترتاح إليه لأنه مهذب ولأنه  
يملك سيارة صغيرة وأخيراً لأنه كريم. وقالت له  
ضحكة:  
- أنت تشرب كالوحش.  
فقال لها:  
- سانتظرك آخر الليل.  
ومع أنها رحبت بذلك في أعماقها إلا أنها قالت  
متسائلة مع رغبة في تأديبه:  
- كلاً...  
وتبادلا نظرة طويلة، ثم قالت:  
- مرتبطة الليلة...  
فهتف بضجر:  
- كلاً...  
- كلاً  
- كيف حال بنتك الصغيرة؟  
- مع أمي كما تعلم.  
فأفرغ كأسه وقال:  
- عندي فكرة لا بأس بها...  
- فكرة؟!  
فترتّب قليلاً لأنه شعر رغم سكره بأنه مقدم على  
أخطر خطوة يتخذها في حياته. وغضب لتريته فقال:  
- أرغب يا سميرة في أن نعيش معاً  
فتفتكرت قليلاً ثم تمتمت:  
- فيها قولان!  
- ولكنك لم تدركي مقصدي!  
- أعتقد أنه واضح.  
فقال وهو يركّز عينيه في كأسه:  
- أريد أن أتزوج منك!  
فطالعه بإنكار ثم قالت بحدة:  
- أنت سكران!  
- بل رجعت إليك لتحقيق ذلك.  
فجعلت تنظر إليه في ريبة فقال:  
- ما قولك؟  
- أفق!  
- الليلة إن أمكن!  
ثم وهو يتناول يدها:  
- ستبقى الصغيرة عند والدتك ولكني سأرتّب لها  
مصروفًا معقولاً، لست غنياً ولست فقيراً...  
فتساءلت بدهشة:  
- أنت جاد حقاً؟  
- هيّا بنا في الحال إن شئت...  
فضحكت وسألته:  
- ماذا جعلك تقرّر ذلك؟  
- أريد أن أستقرّ، أستقرّ مع امرأة معقولة بلا  
خداع، فهل أنت على استعداد لنسيان الماضي وبدء  
حياة جديدة؟  
فضحكت ضحكة عصبية وقالت:

## الحب تحت المطر ٤١٥

- ألا تريد أن...  
فقاطعته بحدة:  
- أريد أن أهاجر.  
وهزّ منكبيه ثم ودّعها وغادر البيت. مضى إلى  
صيدلية واتصل تليفونياً بمكتب المخرج محمد رشوان  
سائلاً عنه فكان الجواب أنه يعمل في أستديو مصر.  
وحاول الاتصال بالأستديو ولكنّ الرقم ظلّ مشغولاً  
فاستقلّ سيارته وانطلق بها بسرعة إلى الأستديو.  
وهناك - وكانت الساعة العاشرة مساء - علم بأنّه غادر  
الأستديو وأخبره موظّف أنّه ذهب إلى «جاميكا» لتناول  
العشاء. ووجّه سيارته إلى جاميكا بالطريق  
الصحراويّ. ومضى يجوب حدبقتها ويتفقد البهو  
ولكنّه لم يعثر له على أثر. وقال له المدير إنّ الأستاذ لم  
يحضر بعد فمضى يتمسّي أمام المطعم. وحوالى الحادية  
عشرة وقفت سيارة في الموقف أمام المطعم وتركها  
رجلان فأشار البواب إلى أحدهما وقال للدكتور عليّ:  
- ها هو الأستاذ محمد رشوان...  
كان يتقدّم مرزوق أنور بخطوات، ويسير على مهل  
وهدهو وفي خيلاء بجاكته الجلديّة الطحينيّة وبنطلونه  
الكحليّ. أنجبه الدكتور عليّ زهران نحوه في هدوء أيضاً  
على ضوء المصباحين المغروسين في أعلى المدخل فالتفت  
الرجل إليه في غير اهتمام، ولعلّه توقّع أن يسمع كلمة  
إعجاب أو اقتراح من نوع ما يتّصل بعمله. ودون أن  
يتفوه الدكتور بكلمة ركله في بطنه بكلّ قوّة عضلاته  
وأعصابه. انطلق من فم محمد رشوان حوار. حملقت  
عيناه، ثمّ تهاوى ساقطاً على وجهه. حدث ذلك  
بسرعة خاطفة حتّى ذهل مرزوق أنور فتجمّد كتمثال.  
وخرج من ذهوله صائحاً:  
- أنت مجنون؟  
وأقبل البواب مهرولاً، وتجمّع بعض سائقي  
السيارات.  
أحاط بعضهم بالدكتور عليّ وانحنى الآخرون على  
الأستاذ الملقى.  
وصاح الدكتور عليّ زهران يخاطب الرجل الملقى  
أمامه:  
- أنا شقيق مني زهران يا وغد...  
- لا يوجد مأذون مستيقظاً في هذه الساعة...  
فقام وهو يقول:  
- لا أهميّة لذلك ما دام سيستيقظ في الصباح  
الباكر...  
- أنت يا منى فتاة ممتازة وأنا لا أتصوّر ذلك.  
فقالت بأسى:  
- لننسى ذلك.  
- ولكنّي أشعر باللطمة فوق وجهي!  
- خير من ذلك أن تحدّثني عن مشروع الهجرة...  
- الهجرة!  
ثمّ بفتور:  
- الإجراءات طويلة ولكنّي أنتظر.  
- لا أريد أن أبقى في هذا البلد يوماً آخر.  
فقال وباطنه ما زال يغلي:  
- عيبك أنّك شديدة الحساسية، ما كان يجب أن  
تقطعي رجلاً مثل سالم عليّ في لحظة غضب...  
فقالت بنبرة تشي بالدمع النابع من جذورها:  
- لا أريد أن أبقى في هذا البلد يوماً آخر...  
- رجل ممتاز ويحبّك.  
- دعنا من تلك السيرة...  
- إنّي أتساءل أحياناً لماذا نعتبر أنفسنا على حقّ  
دائماً؟  
فقالت باسمّة:  
- لأننا على حقّ...  
- الهزيمة زلزلتنا...  
- ونوّرتنا...  
- أسمحين لي بالاتّصال بسالم عليّ؟  
فانتترت قائمة في فزع وقالت:  
- كلاً.  
- فكري قليلاً.  
- كلاً.

- ١٥ -

كان الدكتور عليّ زهران يرنو إلى شقيقته منى  
بحزن. كان باطنه يغلي ولكن لم يبدُ في وجهه إلاّ  
الحزن. قال لها:  
- أنت يا منى فتاة ممتازة وأنا لا أتصوّر ذلك.  
فقالت بأسى:  
- لننسى ذلك.  
- ولكنّي أشعر باللطمة فوق وجهي!  
- خير من ذلك أن تحدّثني عن مشروع الهجرة...  
- الهجرة!  
ثمّ بفتور:  
- الإجراءات طويلة ولكنّي أنتظر.  
- لا أريد أن أبقى في هذا البلد يوماً آخر.  
فقال وباطنه ما زال يغلي:  
- عيبك أنّك شديدة الحساسية، ما كان يجب أن  
تقطعي رجلاً مثل سالم عليّ في لحظة غضب...  
فقالت بنبرة تشي بالدمع النابع من جذورها:  
- لا أريد أن أبقى في هذا البلد يوماً آخر...  
- رجل ممتاز ويحبّك.  
- دعنا من تلك السيرة...  
- إنّي أتساءل أحياناً لماذا نعتبر أنفسنا على حقّ  
دائماً؟  
فقالت باسمّة:  
- لأننا على حقّ...  
- الهزيمة زلزلتنا...  
- ونوّرتنا...  
- أسمحين لي بالاتّصال بسالم عليّ؟  
فانتترت قائمة في فزع وقالت:  
- كلاً.  
- فكري قليلاً.  
- كلاً.



## ٤١٦ الحب تحت المطر

فانقض عليه مرزوق أنور حتى قبض على عنقه وهو يهتف:

- أنت مجنون... لن تفلت من يدي...

فنزح يديه بغضب وهو يصيح:

- إنه وغد يستحق التأديب...

وارتفع صوت من بين العاكفين على الرجل الملقى وهو يقول:

- مات الرجل... اقبضوا على القاتل!

- ١٦ -

ذهبت مني برفقة أبيها إلى مكتب الأستاذ حسن حمودة المحامي بشارع صبري أبو علم. وقد تدكره الأستاذ زهران في محنته لا لزمالة قديمة فحسب ولكن لاعتقاده بأنه أحد ثلاثة يُعتبرون قمماً كمحاميين جنائيين. وكانت حجرة مكتبه واسعة وفخيمة. فاستقبلها بقامته المديدة ووجهه الأسمر الغامق وعينييه المشتعتين، ثم رحب بالأستاذ زهران، ووقفت عيناه - ثواني - شبه مبهورتين عند مني قبل أن يدعوها للجلوس ثم جلس.

وشرع الأستاذ زهران في قص قصته وسرعان ما قاطعه الأستاذ حسن:

- أهو ابنك؟... لم يخطر لي ذلك على بال؟

ومضى الرجل في قصته التي أصبحت قضية حتى فرغ منها وهو يتهدد، فقال الأستاذ حسن:

- البقية منشورة في الصحف!

ثم وهو ينظر إلى مني مجاملاً:

- من المؤسف أن قتل من يستحق القتل عن غير جهة اختصاص يُعتبر جريمة!

فقال بصوت ضعيف مقهور:

- لم أتصور أن ينتهي الأمر بمأساة طاحنة...

- ثمّة مأساة معقولة ومأساة لا معقولة.

- وأخي لم يُعرف عنه يوماً أيّ ميل للعدوان...

- لو كان خبيراً في العدوان لما تورط في جريمة غير مقصودة...

وطلب منها أن تقص القصة التي بدأت بها المأساة فقصتها عليه بتفاصيلها. سألها:

- هل يوجد شهود؟

- كنّا وحدنا في حجرة مكتبه.

وتساءل الأستاذ زهران:

- وهل من مبرر لادعاء الباطل عليه؟

فقال الأستاذ حسن حمودة بأسياً:

- أنت أدري بدقة القانون...

فقال مني:

- واضح أنه لم يقصد قتله.

- يجب أن أطلع على ملف القضية أولاً، غير أن

المنشور في الصحف يدل على أن الدكتور كان يسمى

لللقاء القاتل، وأنه بحث عنه في أستديو مصر كما بحث

عنه في مطعم جاميكا، ثم انتظره، ثم كان ما

كان...

- ولكن هل يكفي هذا لإثبات أنه قتله عن عمد

وإصرار؟

- كلا، ولكن ترى هل أصابه في مقتل؟

- حتى لو كان ذلك صحيحاً فلا شك أنه وقع

مصادفة...

- ولكننا مطالبون بإثبات أي رأي نرتثيه، ولا تنسى

أنه دكتور، وأنه - في نظر المحكمة - خبير بالمقاتل!

وغشي الظلام عيني الفتاة فعاد يقول ملاطفاً:

- ولكن حول ذلك سيرتكز نضالنا، وعلينا أن

نثبت أنه ضرب أفضى إلى القتل...

فتساءلت وهي تنهار تماماً:

- والأمل؟... ألا يوجد أمل؟

فقال الأستاذ بصوت رنان:

- طبعاً... وهو أمل كبير... والله المستعان!

وعاشت مني الأيام التالية في الجحيم. ولم تكد

تفارقها عليّات وسنيّة. وكانت تقول:

- حتى لو برئ من القتل المتعمد فقد قُضي على

مستقبله...

ولم توجد كلمة صالحة للجزاء فمضت تصرخ:

- عليّ اللعنة!... أنا المسئولة عن كل شيء.

وسعت إلى لقاء شقيقها في السجن. وبكت بحرارة

وجنون. ومن عجب أنها وجدته هادئاً مستسلماً. وقال

لها:

## الحب تحت المطر ٤١٧

- معرفة سطحية جدًا ولكنها صديقة شقيقتي  
وخطيبتى .

- أتصدق ما ادعته في التحقيق؟

فهز منكبته وقال:

- سمعت همسًا يقول إنه كانت توجد علاقة جنسية  
بين القاتل والقتيل؟!

فذهل مرزوق وقال:

- ولكنَّ المرحوم... أعني أنني لم أسمع عنه...  
فقاطعه:

- ما علينا، سيكشف التحقيق عن الحقيقة، الله  
يرحمه، لا يجوز أن يُذكر بسوء وهو بين يدي الله!  
وكانا يجلسان بمطعم الأستديو فانضمت إلى مجلسها  
فتاة بلا استئذان فقدمه إليها ثم قدمها قائلاً:  
- فتنة ناضر، نجمة جديدة مثلك، ولكنها لمعت في  
سواء الفن منذ عام... .

وكان مرزوق يعرفها من صورها، كما علم بعلاقتها  
الخاصة بأحمد رضوان عن طريق المرحوم محمد  
رشوان. وكانت ذات جمال خاص لا يدرك من أول  
وهلة ولكنه نافذ الأثر. خيل إليه أنه يوجد قدر من  
عدم التناسب بين قسماها ولكنَّ جاذبيتها طاغية.  
وجسمها يميل للصغر في جملته ولكنه في حدوده مليء  
ورشيق وجنسي إلى أبعد الحدود. وكان أحمد رضوان  
في الخامسة والخمسين، والدًا لفتاة متزوجة من موظف  
في السلك الدبلوماسي وشاب مهندس في بعثة في  
الاتحاد السوفيتي. وأتسم غرامه بجنون الكهولة. وفتنة  
في الأصل جامعية، ومعروف في الوسط أنها عشيقة  
لثري عربي يدعى الشيخ يزيد، فرش لها شقة في  
الدور العشرين بعمارة النيل، ولم يكن يزور القاهرة إلا  
في مواسم أو عابراً، وقال له أحمد:

- فتنة موهبة سخية وستعمل معها في الفيلم  
القادم... .

وربت على يدها بحنان وقال مخاطبًا مرزوق:

- ومن مزاياها أنها شقيقة ضابط شهيد فقد في  
حرب يونيه... .

وعرض فيلم مرزوق فحقق نجاحًا ملحوظًا أما هو  
شخصيًا فاعترف به كفتان موهوب وتنبأ له أكثر من

- كفي عن البكاء يا منى فلا جدوى منه .

فالت وهي تنتحب:

- ولكني السبب اللعين... .

فقال بهدوء:

- أنت معتدى عليك، وكان طبيعيًا أن تفضي إليّ  
بحزنك، كما كان طبيعيًا أن أغضب... .

وغمغم بكلام لم تدرکه ثم قال:

- ثمة خطأ أعمى لا أدري عنه شيئًا، قتل الرجل  
وقضى عليّ... .

- أنا الخطأ الأعمى يا أخي... .

- هو أقوى منك ومنّي، كفي عن البكاء... .

- لبتك لم تغضب يا أخي!

فقال بضجر:

- ولكني غضبت، وعليّ أن أواجه المصير... .

## - ١٧ -

عهد بالفيلم إلى المخرج أحمد رضوان فاتم المراحل  
الباقية منه محافظًا ما أمكن على أسلوب محمد رشوان.  
وحظي مرزوق أنور بإعجاب المخرج الجديد لدرجة لم  
يتوقعها فبعثت فيه روح الأمل من جديد. وكان أحمد  
رضوان مخرجًا ناجحًا غزير العقود، عُرف في ميدانه  
بسرعة الإنجاز مع الإتقان وحسن التوفيق لدى  
الجهات فانفتحت أمام مرزوق أبواب العمل. وقال له  
أحمد رضوان:

- أنت فتان موهوب، وسأجعل منك الخليفة الحق  
لأنور وجدي... .

فاهتز مرزوق طربًا وحلم بالمجد فعاد يقول له:

- ولكن لا تجمد نفسك في غط، النمطية مفيدة  
ولكن المرونة خير وأبقى، المرونة التي أعنيها أن تمثل  
الشيء ونقيضه، الطيب والشري، ولك البطولة في  
الحالين... .

وتنهّد في حزن وقال:

- لم يكن كذلك رأي المرحوم محمد رشوان.

ثم وهو يهز رأسه في أسى:

- كان لطيفًا وراح هدرًا! أنت تقول إنك تعرف  
منى شقيقة القاتل؟

## ٤١٨ الحب تحت المطر

ناقد بمستقبل باهر.

وذهبت. اضطرب مرزوق. اجتاحتها عاطفة سعيدة  
وأثمة. تذكر عليّات فيها يشبه الاعتذار والندم.

- ١٨ -

بدا حسني حجازي جادًا أكثر من المؤلف. وقف في  
حجرة الجلوس ينظر باهتمام وإشفاق إلى منى زهران.  
ولم تكن تبادل النظر، عيناها السوداوان شبه مغمضتين  
مستسلمة إلى مسند الفوتيل الكبير كالثائمة، تعلوها  
الكآبة. وقال لنفسه إنَّها الصديقة الوحيدة التي لم  
تستسلم لنزواته. والتي لا تستسلم إلا للحب، وهو  
يذكر كيف زارته أوّل مرّة وهي طالبة بصحبة عليّات  
وسنيّة مسوقة بحب الاستطلاع، وكيف شاهدت  
أفلامه الجنسيّة المثيرة ولكنّها لم تنزل رغم الإثارة، فلم  
تبه أكثر من الصداقة وكفّ هو منذ زمن بعيد عن  
مطالبها بمزيد. قال:

- دعوتك لأني شعرت بأنك في حاجة إلى صديق  
في محنتك...

فجرت على شفيتها ابتسامة خفيفة إعرابًا عن  
شكرها فعاد يقول:

- دعوتك من قبل ولكنك لم تلبّي!

- كنت في غاية الحزن.

فقال نحوها قليلاً وقال بحنان:

- على أيّ حال احمدي ربّنا، حسن حمودة محام  
قادر وقد أنقذ عنقه من المشنقة!

فقالت بأسى:

- ولكنّه سيقضي في السجن عشر سنوات، وخسر  
مستقبله إلى الأبد!

- قضاء أخفّ من قضاء.

فقالت بمصيبة:

- وأنا المذنبة الحقيقيّة!

- ماذا كان بوسعك أن تفعلني؟ ما فعلت إلا أن

شكوت همك لشقيقك...

- لن يهون قولك من شعوري بالإثم...

ورفع الرجل كأسًا بيده إلى فيه ثمّ نظر إلى كأس  
موضوعة على ذراع الفوتيل على كئيب من يدها كأنما  
يدعوها إلى الشراب، وتراجع خطوات حتّى استند إلى

وتعاقد معه أحمد رضوان على ثلاثة أفلام فاستقرّت  
الأرض تحت قدميه وعزم على الزواج من عليّات في  
أقرب فرصة. وعندما اشترك مع فتنة ناصر في تمثيل  
أوّل الأفلام المتعاقد عليها شعر بأنّها توليه عناية  
خاصّة، فتلقّى ذلك بحذر شديد حرصًا على علاقته  
الطيّبة بأحمد رضوان. وكانا - مرزوق وفتنة - يستريحان  
في حديقة الاستديو بين فترات التصوير حين سأله:

- أحقّ ما يقال عن زواجك؟

فأجابها بطيبة:

- في أقرب فرصة.

- مبارك مقدّمًا.

ثمّ مستدركة:

- ستكون أوّل وجه جديد متزوّج!

- أجل...

- ولكن ألا تحتاج إلى حرّيّة مطلقة وخاصّة في

البداية؟!

- طالت مدّة الخطوبة وليس ثمّة ما يبرّر التأجيل.

فسكنت قليلاً مستسلمة لبرودة الليل ثمّ سألت:

- وهل خطيبتك من الوسط الفنيّ؟

- كانت زميلة جامعيّة وهي الآن موظّفة بالشئون

الاجتماعيّة.

- اعتقد أنّها مطالبة بحكمة سقراط لكي تسعد  
معك.

- يا لها من مبالغة.

ومشت قليلاً حتّى غابت في الظلام تمامًا ثمّ عادت  
إلى منطقة النور وهي تقول:

- توجد فرصة لإنشاء شركة بيننا!

فدهش مرزوق وتساءل:

- شركة؟!

- ليس بالمعنى التجاري، أعني ثنائيّة ناجحة...

- سمعت ذلك من الأستاذ أحمد وسعدت به...

- فعلينا أن نتحمّس لشائيتنا!

- بكلّ سعادة من ناحيتي...

- لي الثقة كلّ الثقة في رأي أستاذي أحمد...

ورمته بزهرة بنفسيج كانت تفرّها. بين إصبعيها

## الحب تحت المطر ٤١٩

- اشربي، يلزمك ثلاث كئوس على الأقل.  
 فابتسمت لأول مرة وقالت:  
 - بك حنين ملحوظ إلى الوطنية فهل قمت  
 بواجبك؟  
 فصبّ الشراب في جوفه دفعة واحدة ثم قال:  
 - في مثل سنّي يكفي أن أحمل الكاميرا وأزور  
 الجبهة لأقوم بواجبي!  
 - ثم ترجع إلى بيتك السحري!  
 - هنا أنتهب لذات عابرة بدافع الذعر والحزن.  
 - سعداء هم الكهول!  
 - ما أتعس البلد الذي يُحسد فيه الكهول على  
 كهولتهم!  
 وتبادلا نظرة طويلة لا تخلو من عذوبة، ثم قال:  
 - دعوتك لأسليكي فانظري...  
 فقاطعته بهدوء:  
 - الأستاذ حسن حمودة يرغب في الزواج منّي!  
 فذهل حسني حجازي. صمت ملياً، ثم هتف:  
 - إنه يماثلني في السن!  
 فهزّت رأسها نقياً وقالت:  
 - إنه في الأربعين!  
 - أراهن على أنك ستوافقين!  
 - لم تنوهم ذلك؟  
 - ربّما احتجاجاً على الحب الذي أعطيته أعز ما  
 تملكين ثم لم تحبي منه إلا التعب...  
 فقالت بنبرة ساخرة:  
 - سالم عليّ تزوّج من مومس!  
 - لم يعد لهذه الكلمة من معنى!  
 فتساءلت وهي تتنهد:  
 - أليس من المضحك أن يفعل اثنان بنفسيهما ما  
 فعلنا وهما يتبادلان الحب؟  
 - اشربي كأسك وتزوّجي من حسن حمودة فلا خير  
 في أن تبقي وحيدة لتجترّي أحزانك حتى تقتلك...  
 وحدثها حديثاً مطوّلاً عن حسن حمودة وأسرته  
 الصعيديّة العريقة وأرضه التي صُفّيت في الإصلاح  
 الزراعيّ ونبوغه في الحمامة، ثم سألتها:  
 - هل شاهدت آخر أفلامي؟

حافة البار، ثم قال:  
 - فكّرني في الموم من حولنا تمن عليك همومك.  
 - لا أظن.  
 فابتسم متسائلاً:  
 - مصممة على الحزن؟  
 - لست حزينة، إني أعيش حياتي ولكن بلا طعام!  
 فهزّ رأسه الضخم وقال:  
 - قد يعرض لي عارض حزن، أتدرين كيف  
 أعالجه؟ أتذكّر آلاف القتلى وما يجيئه الغد من  
 احتمالات، وسرعان ما يهون عليّ حزني...  
 فرفعت منكبيها في وجوم ولم تنبس فقال:  
 - وهزّتي ثورة الطلبة من الأعماق ثم تذكّرت أننا  
 قد نُدفن تحت الانقراض في أيّ لحظة...  
 فهتفت بحدّة مباحثة:  
 - هناك ما هو أدهى وأمرّ وهو أننا نعيش في الحقيقة  
 على التسوّل...  
 فضحك حسني عاليًا وقال:  
 - يا له من تعبير صادق ومثير.  
 - لم ضحكت عاليًا؟  
 - صدّقيني أنني لم أضحك ضحكة واحدة من قلبي  
 منذ ٥ يونيه!  
 ثم مستطردًا:  
 - هي مجرد أصوات يا عزيزي مني.  
 - كيف يهنا بعض الناس بالنوم؟  
 - إنهم يضعون على أعينهم نظّارات التاريخ  
 السحرية فتتجلّى لهم رؤية أخرى...  
 - ألا ترى تلك النظّارات عشرات الألوف من  
 الضحايا؟  
 - كلاً، ولكنّها ترى ما هو أخطراً  
 - أنت جادّ فيما تقول؟  
 - كلّ الجدّ.  
 - إذن فأنت راضٍ؟  
 - لست من صانعي التاريخ فنظرتي رهن بضعف  
 بصري وهي مليئة بالشجن والعبث.  
 وولّاهما ظهره ليملاً الكأس من جديد فتناولت  
 كأسها وشربت حتى النصف، ثم تحوّل نحوها قائلاً:

فضحكت على حين ألمه هو نحو غرفة العرض.

- ١٩ -

كانت جلسة واجمة لا تبشر بخير... ها هي قهوة الانسراح عقب منتصف الليل ولكنها لا تعد بمسرة واحدة. دخن حسني حجازي نارجيلته في صمت شامل. اختلس من عبده بدران نظرة فرآه غارقاً في الأفكار. وفي الركن تحت النصبه قرفص عشراوي وهو يرسم على البلاط خطوطاً وهمية بإصبعه. وقال لنفسه: ليلة ثقيلة وسيكون لليالي المقبلة طعم الملقم. والتقط عبده بدران نظرة من نظراته فقال:

- وهكذا ألغيت الأفراح!

فقال حسني حجازي موسياً:

- تأجلت لا ألغيت!

- ربنا يسمع منك!

- ربنا كبير يا معلم عبده.

فقال عبده بدران بأسى:

- كما لم يحضر في ميعاده دق قلبي بعنف، وقبل ذلك رأت أمه حلماً فظيماً...

- جرح بسيط بإذن الله!

- من أدراكي؟ لم يُسمح لي في زيارته بأكثر من دقيقة، لم أر منه شيئاً، اختفى الوجه والرأس والعنق تحت الشاش تماماً!

- لإجراء طبي ليس إلا!

فتنهّد الرجل وقال:

- وكنا نستعدّ للاحتفال بزواجه هو وأخته عليّات.

- سيتمّ الاحتفال بعد أسبوع أو بعد شهراً!

وساءل حسني نفسه ترى أهذا هو حال الآباء والأمهات في جميع الأمم أم أنه توجد شعوب أخرى مشبعة بروح القتال والجهاد؟ وهل زيف التاريخ حكاية البطولات فلم تصلنا على حقيقتها؟ أهو عيب فينا أم هي الطبيعة البشرية في كلّ زمان ومكان؟ وإذا كان ذلك كذلك فكيف أمكن سوق الجماعات البشرية إلى حرب في إثر حرب؟ ما أعظم الفارق بين صورة التضحية في جريدة يومية أو كتاب تاريخ أو ديوان شعر وبينها في مقهى أو بيت أو حارة! ومع ذلك لم يُقبل

البشر على امتهان مهنة وهي كره لهم مثل الحرب!

ورفع عشراوي رأسه من فوق ركبته وقال:

- نحن مساكين يا أستاذ.

فصدّق عبده بدران على قوله قائلاً:

- أجل، نحن مساكين.

فقال حسني:

- ماذا أقول، لو كنت شاباً لوجب أن أتمخّس

للحرب!

فقال عشراوي:

- بتر ساقا ابن جارتنا!

- هي الحرب يا عشراوي، ووطنك محتل!

فقال العجوز بغضب:

- أوّ عندما أرى شخصاً ضاحكاً أن أبصق على

وجهه!

- ماذا تظنّ؟ الحرب تشدنا خطوة فخطوة، وإذا

استعر لهيها فلن ينجو من نارها مخلوق، في الجبهة

كان أم في داره.

وساءل نفسه مرّة أخرى ماذا يقول الرجل لو علم

بما يدور في مسكنه الخيالي؟ اللعنة. ماذا تريدون؟ لم

يبقّ على النهاية إلا القليل. والحياة عزيزة وحيتها

معقول. وأنت يا مصر عزيزة وحيك لا معقول! لا

شكّ أنّه توجد نقطة في العلوّ تدوب فيها الفوارق

وتنمحي الانفعالات المهلّكة. وتنعصّ عليه صفوه

تماماً. وحكم على نفسه بالغباء والحماقة. وقال إنّه ما

زال ينقصه قدر نخيف من الغباء والحماقة ليكون من

عظماء التاريخ: شعلة الحياة والجنون والغموض

الخلّاق.

وقال عشراوي:

- من العدل أن تتوزّع المصائب بالمساواة الحقّة.

- صدقت.

وقال عبده بدران:

- أنا لا أفهم!

فرمقه حسني بنظرة استفهام فقال:

- أيام الكروب تتابع كالمطر...

- نحن قلب العالم فماذا تتوقّع.

- الاحتلال، الاضطلال، الاضطلال، اليمن، ١٩٦٧.

## الحب تحت المطر ٤٢١

فاستدركت:

- ولكننا نحمل في قلوبنا هموم العالم الأزل.  
- لك نصيب موفور من الهموم ولكنك لست  
أنعس من على سطح الأرض، هل تدركين معنى  
خسارة ألف فدان في ثانية واحدة؟ ومصراع أب مهيب  
بأزمة قلبية، وتلوث سمعة أسرة كبيرة كريمة شاركت  
في حياتنا الوطنية منذ الثورة العراقية؟

وترددي وقتاً قبل أن تتساءل:

- ترى ألا تعلم بأنني لا أعدّ صديقة للإقطاع؟  
فابتسم بساحة وقال:

- لا يدهشني ذلك بطبيعة الحال فأنت من جيل  
الثورة ولكن لعلك لا تعدّين نفسك عدوة لثورة  
الطلبة؟

- هذا امر مختلف!

- ليكن، ولنعد إلى همومك الحقيقية، فأقول لك  
ألا ذنب عليك مطلقاً

- ولكننا كما ترى أما هو...  
فقاطعها بقوة:

- أكرّر ألا ذنب عليك...

وأدن وجهه حتى انعكس الضوء الخافت على  
جناحي أنفه وقال:

- ستظلّ القبور مكتظة وكذلك المستشفيات ولن  
يمنعنا ذلك من أن نأكل ونشرب ونتزوج!

وتنهّدت بصوت مسموع وتمتمت:

- كئنا على وشك الهجرة!

فقال ضاحكاً:

- شدّ ما تمثّيتها ولكن بلا أمل، وعلى أيّ حال  
فخير لنا أن نختر موضوعاً آخر للحديث!

فواصلت حديثها بإصرار:

- وقيل لنا تفكران في الهرب وسفينة الوطن تواجه  
الشدائد؟

- آه... اعترف لك بأنني نشأت وطنياً ولكنني لم  
أعد أبالي شيئاً، ساعديني من فضلك على تغيير

الموضوع.

- ألا يهّمك أن ينتصر الوطن؟

فضحك يائساً وقال:

الاحتلال!

فقال وهو يداري ضجراً بدأ يزحف:

- غداً يخلق وطن جديداً!

- قلبي غير مطمئن!

- لأنك راجع من المستشفى بعد التأهب للاحتفال

بفرح!

- آه يا بلدي!

فقال عشواوي:

- بلد الأولياء والصالحين!

ثم بعنف استردّ به بعضاً من وحشيته القديمة:

- يا عرب!

وقال حسني لنفسه للمرة الثالثة ما أشقّ ما تطالبنا به

الحياة، الضعف والقوة، الحماقة والحكمة، النعومة

والخشونة، الجهل والعلم، القبح والجمال، الظلم

والعدل، العبودية والحريّة، وأين أنا من هذا كلّها؟ لا

همة ولا موقع يصلح للعمل ولا بقية من عمر، ولكنني

أحبك يا مصر فمعدرة إذا وجدتني مع حبك أحبّ

الحياة في ساعات وداعها الحمقاء!

- ٢٠ -

وقفت السيّارة أمام عشّ سقّارة. غادرها في وقت

واحد الأستاذ حسن حمودة ومي زهران. مضيا إلى

خيمة في الناحية الجنوبية من الحديقة فجلسا تحت

مصباح خافت يرسل نوراً أزرق من خلال أوراق

اللبلاب. جميلة كعادتها ولكن ثبتت في أعماق عينيها

نظرة حزينة. وكان يعتبر أنّه تحطّى العقبات الأساسية

فتبدّى مرحاً بقامته الطويلة وبشرته العميقة السمرة

وثقته بنفسه التي تلازم حركاته وسكناته. ونظر إليها

طويلاً. وجعل يبتسم وكأنما يدعوها إلى الابتسام

أيضاً. وقال وهو يتنفس بعمق هواء الليل المعبق

بروائح نباتية:

- المكان هادئ، بعيد عن الدنيا، ينتمي إلى عالم

آخر.

فهمست:

- نعم:

وشعرت بأنها تجاوزت الحدّ في الاعتراف بالسعادة

## ٤٢٢ الحب تحت المطر

له مأساة عليّات وسنيّة وهو يتظاهر بالانتباه والاهتمام .  
وقال لنفسه إنّها شديدة المراس ولكنّها ستكون زوجة  
ممتازة . ولكن ماذا أبغي من ورائها؟ لا حنين إلى الأبوة  
ولا إلى الاستقرار ولا إلى الخلود ولكنّي أريد الحبّ ا  
ورفع قدحه وهو يقول:  
- في صحّة زواجنا القريب ا

- ٢١ -

في زيارة الفئانين للجبهة لم تسمح فتنة ناصر لمرزوق  
أنور بمفارقتها دقيقة واحدة . بدأت الرحلة مع الصباح  
الباكر . وتقرّر السفر إلى بورسعيد لهدوتها النسبيّ  
بالقياس إلى بقيّة المناطق المتفجّرة المشتعلة . واختار  
منظّمو الرحلة طريق رأس البرّ - رغم طوله - لموقعه  
البعيد عن مرمى مدفعية العدو . واطمأنّ الجميع إلى  
أنّهم سيستمتعون بسفر آمن وصحة هنيئة . وسخرت  
فتنة في نفسها من أستاذها أحمد رضوان الذي تخلف  
عن الرحلة، معتدراً بمرضه، متأثراً في الواقع بجبته  
وإثارة السلامة بأيّ ثمن . ووصلوا إلى بورسعيد في  
الظهيرة فدّعوا من فورهم للاجتماع بالمحافظ . وتبدلت  
كلمات الترحيب من جهة والحجاس من الجهة الأخرى ،  
ثمّ تقضت ساعات في زيارة بعض الشكنات في المدينة  
وبعض المواقع في الجبهة . تالقت الأيدي في  
مصافحات حارّة . وتبدلت النظرات في إعجاب  
ومحبّة . وأحاط الضبّاط والجنود بفئاناتهم وفئانهم  
المفضّلين . وتدلّجرت فتنة شقيقها الفقيّد فدمعت  
عينها، كما تدكّر مرزوق صاحبه إبراهيم عبده الذي  
يرقد في المستشفى بين الحياة والموت . ورجعوا إلى  
بورسعيد عند الأصيل فتجمّعوا في استراحة المحافظة .  
أمّا فتنة فاقترحت على مرزوق أن يتجوّل قليلاً في  
النواحي القريبة من المدينة . سارا في شارع طويل  
عريض يبدأ من الميدان أمام مبنى المحافظة . وعقب  
دقائق معدودات انفصلا تماماً عن الحياة التي يضجّ بها  
الميدان بما فوق سطحه من سيّارات وجنود وموظّفين .  
خاصا في خلاء شامل وغرقا في صمت مرّوع . لا  
حركة ولا نائمة ولا ظلّ للإنسان أو حيوان . العمارات  
والبيوت تقوم على الجانبيين مغلقة النوافذ والأبواب كأن

- يهمني أن نعيش في سلام وسعادة، فإن تحقّق  
ذلك عن طريق النصر فأهلاً به وسهلاً، وإن تحقّق عن  
طريق الهزيمة فأهلاً بها وسهلاً ا  
فنظرت إليه بذهول وقالت:  
- لا أفهم ا  
- لك العذر، ولكنّي جئت بك إلى هنا لأتي  
أحبّك . . .

الواقع أنّه كان يريد أن يقول أكثر من ذلك، وفي  
الموضوع الذي يتهرّب منه . وقال لنفسه لا مهرب من  
السياسة فهي كالهواء . وقال:

- لو أنّهم انتصروا في حرب يونيه فماذا كان يفعل  
أمثالنا؟ فالهزيمة رغم شرّها لا تخلو من بركة للمغلوبين  
على أمرهم ا

صمتت منى . خيّل إليه أنّها لا تستطيع هضم قوله ،  
وأراد أن يؤكّد رأيه بنغمة جديدة، رقيقة نوعاً، فقال:  
- الوطن هو الأرض التي يسعد فيها الإنسان  
ويكرّم .

- وهل نسعد ونكرّم إذا هزمتنا إسرائيل؟  
فلم يستطع أن ينبس بكلمة . فنفخت في ضيق  
وقالت:

- على أيّ حال فلن أرميك بحجر ما دمت قد  
عزمت يوماً على الهجرة .

وجاء النادل متمهلاً فأمر - بعد مشاورة - بزجاجة  
بيرة وحمام مشويّ، ثمّ قال بعد اختفاء الرجل في ظلام  
الحديقة:

- لقد رُميت بالف حجرا  
ثمّ قال بنبرة وعظ وإرشاد:  
- كلّما اشتدّ البلاء حقّ للإنسان أن يتفانى في  
البحث عن السعادة .

- رأي غريب ا  
- ولكنّه طبيعيّ وحقيقيّ، ولا شيء كالمهمّ يمتصّ  
من السعادة رحيقها الشهويّ ا  
فقال منى بأسف:

- لي صديقتان عزيزتان، توقّفت مشروعات  
سعادتتهما بسبب الحرب . . .  
وساءل نفسه كيف نتملّص من هذه اللعنة؟ وروت

## الحب تحت المطر ٤٢٣

- إنه جَوَّ وعادة وعقيدة، وهذه هي المشكلة.
- وراء ذلك هزيمة خاطفة لم تُهضم بعد.
- ولعلهم أفاقوا - مثلنا - كالمجانين!
- ليجدوا كلَّ شيء مثل هذا المقهى الخالي.
- وكانت شاحبة الوجه. وذهبت إلى دورة المياه.
- ورجعت باسمه. وجدته يدخن سيجارة بعمق فقال لها:
- قرأت اليوم أنّ أخذ النفس بعمق سبب رئيسي في إصابة الشخص بسرطان الرئة!
- أتصدّق ذلك؟
- لم تعد لي ثقة بما يُنشر في الصحف.
- فسألته مداعبة:
- صف شعورك عندما تعطل مشروع زواجك؟
- فسألها متظاهراً بالاستياء:
- أتسخرين من المصائب؟
- فقالت بجرأة:
- أعترف بأنّي سعدت بذلك.
- فتورّد وجهه وقال وهو يقوم:
- أنا ذاهب إلى دورة المياه..
- وذهب مسرعاً، وعاد وقد غسل وجهه ومشط شعره
- فسألته ضاحكة:
- ماذا فعلت؟
- لعنت زماننا!
- ولكنك نجم!
- الفنّ مهزّب كالهجرة التي أصبحت موضحة هذه الأيام.
- لا أحبّ الفلسفة.
- فقال بمرارة:
- أنا معفى من التجنيد ولكن لمّ لا أتطوق مع الفدائيين.
- فقالت بسخرية:
- الفتان جنديّ أيضاً.
- فقال بنفس المرارة:
- الحقّ أنّي كفرت بكلّ شيء.
- ولكنك ترغب في الزواج!
- ماذا تتوقعين عندما يتمخض الجبل عن فار؟

- لم يطرقتها حيّ، نائمة أو ميتة أو هي هياكل ومشروعات لم تُنفخ فيها الحياة بعد. وثاقت العين لرؤية أيّ شيء، وتلهفت الأذان على سماع أيّ صوت، نافذة مفتوحة أو باب موارب أو غسيل يرفرف في شرفة أو طفل يصرخ أو قطة تموء أو كلب ينبح، كلّاً ولا ورقة يدفعها الهواء أو عقب سيجارة ملقى أو قمامة مكومة تحت الطوار، أيّ شيء، أيّ شيء، أيّ أثر لإنسان. وهمست فتنة:
- إنه كابوس.
- فردّد مرزوق:
- نهاية العالم.
- قلبي... لا أدري كيف أصف مشاعري.
- تجربة جديدة، ومشاعر جديدة.
- يتخيّل إلى أيّ تعيسة أو سعيدة جدّاً وأحلم بالرجوع إلى بطن أمي.
- أشعر بأنّي حرّ، حرّيّة كاملة، من الحضارة والتاريخ.
- هل يمكن أن نجنّ فجأة؟
- ويمكن أن نحادث الأرواح!
- ووجدنا نفسيهما أمام مدخل كازينو. مفتّح الأبواب وبلا جليس، ووقف صاحبه - فيما يبدو - في مقدّم التراس مرتدياً بلوفر وبنطلوناً ومشمّر الساعدين. منظر مفاجئ مذهل ولا يصدّق.
- لعلّه مفتوح بأمر المحافظ.
- لعلّه.
- ونظرت فتنة إلى الرجل فحيّاهَا بابتسامة عرفان
- فسألته:
- ممكن نشرب فنجان قهوة.
- أو أيّ شراب... .
- جلسا في أقصى عمق التراس بعيداً عن مرأى الطريق الخالي. وجاءت القهوة فراحا يحتسيانها بارتياح، وقالت:
- بقدر ما سعدت بين الجنود بقدر ما جننت هنا... .
- حديثهم مؤثّر ولهفتهم على القتال واضحة.
- أجل. لا أتصوّر كيف يواجه الناس الموت!



## ٤٢٤ الحب تحت المطر

- فصفرت برشاقة ثم سألته :  
 متى نرجع إلى القاهرة في تقديرك؟  
 - حوالى الفجر.  
 فقالت ضاحكة:  
 - إنّي أدعوك إلى السحور.  
 فتورّد وجهه وقال:  
 - لك زجلان، ألا يقنعك ذلك؟  
 - أحدهما يقوم بالرعاية والآخر بالأستاذية فمن  
 لقلبي الخالي مثل هذه المدينة؟  
 وقاما ليغادرا المكان فقال:  
 - أنا رجل في حكم المتزوج.  
 فقالت بتحدّ:  
 - لا تكابر، أنت ملكي أنا، ألم تدرك ذلك بعد؟
- ٢٢ -
- كان مرزوق أنور واقفاً في حديقة الاستديو في فترة  
 الاستراحة عندما وجد أمامه - على غير ميعاد أو توقّع -  
 سنيّة شقيقته وعلّيات خطيبته. ارتبك وشعر بأنّه وقع  
 في مأزق. وكان عليه أن يتمالك نفسه فتمالكها ومدّ يده  
 للمصافحة وهو يغمغم بكلمات ترحيب مخنوقة لم  
 تُسمع. وأخرسهم الصمت وقتاً، وكادوا يستسلمون له  
 إلى ما لا نهاية حتى خرقته سنيّة فقالت وهي متوتّرة  
 الأعصاب:  
 - ليس العثور عليك بالميسور في هذه الأيام.  
 انقطع عن بيته تماماً منذ عشرة أيام فلم يدِر ماذا  
 يقول. ودست سنيّة يدها في حقيبة علّيات فتناولت  
 خطاباً وسألته:  
 - أهذا خطابك؟  
 فأحى رأسه، لم ينبس ولم يعترض، فقالت سنيّة:  
 - نخجل مؤسف بلا حدود.  
 فخرج من صمته متمتّماً:  
 - أشاركك عواطفك.  
 - أنت تقول ذلك!  
 - أجل، تعدّبت طويلاً، ولكن لا يمكن أن تقوم  
 حياة كريمة على أكذوبة...  
 فتساءلت علّيات بصوت متهدّج:  
 - تعتبر الآن ما كان بيننا أكذوبة ا  
 فقال برقة وحزن:  
 - تقديري لك بلا نهاية، كذلك خجلي منك،  
 ولكنّه قضاء لا حيلة فيه...  
 فسألته سنيّة بامتعاض:  
 - أموت حبّ كبير في دقيقة ليحلّ محلّه حبّ  
 جديد؟  
 وهنفت علّيات:  
 - شيء حقير جعلني أعتقد بأنني كنت بلهاء.  
 فقال:  
 - إنّي آسف، لا حيلة لي، وأنت شابّة جميلة  
 وسيبتسم لك كلّ شيء.  
 فقالت سنيّة:  
 - قل إنّها نزوة أو مصلحة...  
 فهزّ رأسه بأسف وقال:  
 - هي ليست كذلك.  
 فقالت علّيات بعصبية شديدة:  
 - يجب أن أذهب.  
 فقال لها بتوسّل:  
 - اغفري لي ذنبي.  
 فصاحت رغم غربة المكان:  
 - بحقّ لي أن أشكر الحظّ الذي كشف لي عن  
 حقيقتك...  
 وتهدّج صوتها منذراً بالبكاء فابتعدت عن المكان  
 حتى اختفت في الظلام. عند ذاك قالت سنيّة بلهجة  
 قاسية:  
 - يا للعارا  
 فرفع منكبيه مستسلماً، ثمّ قال مغبّراً وجهه  
 الحديث:  
 - أبعثني العمل المتواصل عن البيت ولُكنّي  
 سأزورك في أوّل فرصة.  
 فقالت ساخرة:  
 - تكاليف الفنّ باهظة فيما يبدو  
 فتجاهل سخريتها قائلاً:  
 - زرت إبراهيم في المستشفى ولكن تعدّر عليّ  
 محادثته...

## الحب تحت المطر ٤٢٥

فقلت وهي تحني رأسها وفي تأثر بالغ:

- ليتني أستطيع أن أقول ذلك لك!

- ٢٣ -

جلس حسني حجازي على الديوان الأوسط تحت  
النخلة في شبه استلقاء وهو يراقب المخرج أحمد  
رضوان في ذهابه وإيابه أو وقوفه القلق مستندًا بكوعه  
إلى حافة البار. وقال له:

- اجلس واشرب واهدأ...

فهتف المخرج بحنق:

- لن أجد مشاركة وجدانية عند أحد!

فابتسم حسني حجازي، وقال لنفسه إن الجنون هو  
الطابع المميز لهذه الأعوام. وتذكر أنه أحب مرة واحدة  
في حياته ثم نسي الحب تمامًا. هل يقضى عليه بأن  
يحب من جديد وأن يتولاه ويحبه وهو يتعثر في الحلقة  
السادسة؟

وقال أحمد رضوان بغضب:

- طالما لاحظت أشياء وتغاضيت عنها، ثم ظننتها  
عابرة!

فقال حسني حجازي برقة:

- يا عزيزي أحمد دعني أفكر بك ذلك الرفيق  
الرهيب الذي نسميه الزمن!

- إني أقوى من بغل.

- اجلس واشرب كأسًا.

- إني أفكر تفكيرًا جدّيًا في قتلها...

- اسمعوا ماذا يقول الزوج القديم والأب الوقور!

فقال بتقرّز:

- الزواج والأبوة لا يمنعان من الحب ولا من  
القتل...

- آه لو جلست وشربت!

فضرب الأرض بقدمه وقال:

- واتفقنا على الزواج، الزواج مرة واحدة، أتعرف

ماذا يعني هذا؟ أن تحسرنني أنا والشيخ يزيد في آن،

الشيخ يزيد الذي نقلها من بيت قديم بشارع

الصقلي إلى عمارة النيل، وأنا الذي خلقتها!

فقال حسني حجازي ملاطفاً:

فقلت وهي تحني رأسها وفي تأثر بالغ:

- لعلك لم تعلم بأنه فقد بصره!

فصعق لحظات في انزعاج حقيقي على حين صدرت

عن الفتاة زفرات بكاء.

- فقد بصره؟!

- أجل...

- نهائياً؟

- طبعًا.

- وهل عرف الحقيقة؟

- أجل...

وساد الصمت فوضح صوت النسيم في غصون

الأشجار ثم تمتم:

- آسف على حظك يا سنية...

- هو على أي حال خير من حظ عليّ!

- وماذا قرّرت؟

- يا له من سؤال، سأتمسك به إلى ما لا نهاية...

فتساءل بدهشة:

- أتعنين ما تقولين؟

- بكل تأكيد.

- لن يهملوه من الناحية المادية ولكن...

فقاطعت:

- قدّرت كل شيء ثم اتخذت قراري.

فتردّد قليلاً ثم قال:

- أرجو أن يكون قرارك نتيجة لتفكير سليم لا

لفورة عاطفية زائلة!

- إني أعرف نفسي أكثر مما تتصوّرا

- إذن فتقبلي صادق تمنياتي!

فتساءلت مغترة الحديث بدورها ومرجعة إياه إلى

سجراه الأصلي:

- ألا يمكن أن تعدل عن قرارك فيما يتعلق بعليّات؟

فقال بهدوء وتصميم:

- كلاً للأسف!

- إنك تفرط في حب حقيقي.

- ستتزوج في أقرب فرصة.

وفصل الصمت بينها مرة أخرى حتى قال:

- إني معجب بك!

فانقبض صدره. وقال لنفسه إن عزاءه الوحيد في الحياة يتركز في مسكنه الجميل الحافل، فكيف تمضي الحياة إذا تهدم، كيف تمضي الحياة إذا وجد نفسه بين المهجرين في معسكر من الخيام؟. وقال للرجل:  
- أنصحك بالقيام برحلة إلى الخارج عقب الانتهاء من فيلمك...

فتأوه أحمد وهو يستدير نحو البار ليملاً كأساً وقال بمرارة:  
- إنني بحاجة إلى رحلة طويلة جداً.

- ٢٤ -

دق جرس التليفون على مكتب منى زهران فكان المتكلم سالم علي. رجاها بكل جدية واحترام أن تقابله «دقائق» في دار الشاي الهندي أو في أي مكان تفضله. واعتذرت من ناحية المبدأ فالج عليها إلحاحاً شديداً. سألت عن السبب فقال إنه لا يستطيع أن يفصح بما لديه في التليفون ولكن لديه ما يقوله وهو هام وخطير. وذهبت إلى الموعد وهي في غاية من الضيق والقلق. وتقابلت وتصافحت وجلسا معاً. ولاحظت من النظرة الأولى أنه ليس على ما يرام، وارتاحت لذلك ولكنها لم ترع لارتياحها. فقدد من وزنه قدرًا ملموسًا، وخبا نور عينيه، وشحب لونه. وقرأت في عينيه انعكاس صورتها فحبل إليها أنه لاحظ أيضًا تغيرًا استوقفه، فهل صبغتها الأحزان بلونها القاتم وهي لا تدري؟ وشكرها «تفضلها» بالحضور فصارحته بأنها لا تريد أن تبقى أكثر مما يجب. أخرجته الإجابة قليلًا ولكنه كان على أي حال يتوقعها، فقال:

- منذ آخر لقاء تلقى كلانا تجارب قاسية، وكم وددت أن الأزمك في محنتك!  
فلم تعلق بحرف فقال:  
- وأتسمت نصرفتاي طيلة تلك الفترة بحماقات لا وصف لها!

فلم تنبس أيضًا، فواصل حديثه:  
- أقدمت على زواج كأنه أسلوب من أساليب الانتحار.

فقالت ولو أنها سرعان ما ندمت على قولها:

- ربحاً أبيع لنسا أن نخلق ولكن لن يتيسر لنا التحكيم في مخلوقاتنا إلى الأبد...  
- المجنونة بنت المجنونة، ألا تدري بأن نورها سينطفئ وأنه لن يجد من يتعاقد معه على عمل؟  
- قم برحلة في ربوع أوروبا...  
- على الرحلة وعلى أوروبا اللعنة!  
- إنني حزين عليك أيها الزميل القديم...  
- أليس عندك دواء خير من ذلك؟  
- عندي مأساة ماثلة، فأنا أعرف خطيبة مرزوق الأولى. وهي تتألم مثلك تمامًا...  
فقال بمرارة:

- ستشفى من دائها في ساعة أو ساعة ونصف.  
فضحك حسني على رغمه وقال:  
- إذن فأنت العاشق الوحيد في هذا الوطن!  
فتهدأ أحمد وقال:  
- الله يجرعها كما تحرقني، الحق أنني لا أتصور الحياة بدونها.  
- صبرك، إنها متقلبة الأهواء، وأراهن على أن هذا الزواج لن يعيش أكثر من شهر!  
- وما علي إلا الصبر والتألم!  
- اجلس واشرب...  
- ليس لديك إلا النصائح المحفوظة...  
- ماذا بوسعي أن أفعل؟  
- بوسعي أنا أن أقتل...  
- كلاً، لسبب من فصيلة سفاكي الدماء...  
فقال ببحق من تطارده ذكريات مذلة:  
- حتى الزواج اقترحت عليه...  
- الله معك!

- وماذا كان جواب العاهرة؟ أنها قررت الزواج أيضًا ولكن من الآخر!  
وكور قبضته مهددًا واستطرد:

- إنهم يقيمون الاستعدادات للوقاية من الغارات الجوية، ويتوقعون حربًا شاملة، عظيم، إنني أتنبأ بكارثة ستحوق بهذه الأرض اللعينة...  
وتذكر حسني اللون الأزرق الذي يطلون به النوافذ والمصابيح، وقوائم الطوب الأحمر أمام الأبواب،

## الحب تحت المطر ٤٢٧

فقال:

- انكشف زواجي عن لعبة سخيفة، أدركت أنني لا يمكن أن أواصل الحياة مع المرأة المسكينة، فلا حب يجمعنا، ولا شيء مشترك ألبته، ماذا أقول؟ إنها امرأة سيئة الحظ، أفسدت حياة الليل وجففت ينابيع الإنسانيّة في قلبها، سلسلة متصلة من العادات الجهنميّة، وادمان قاتل للأفيون!

- لا أدري لمّ تحدّثني عن ذلك؟

- لأنّي أحبّك!

وانتظر دقيقة حتّى تستقرّ الكلمة في وعيها ثمّ

استطرد:

- إن يكن للحبّ عندك قيمة فيجب أن تصني ليّ، وأنا أعلم أنّك تقدّسين الحبّ، إن كنت تحيين الرجل فمعدرة عن تبديد وقتك. وأمّا إذا أردت أن نملئي بالزواج فراغاً فلا شيء يملأ فراغ الحبّ إلّا الحبّ نفسه . . .

فسأله بحدّة:

- ماذا تريد؟

- أن نرجع إلى حبّنا. . .

فضحكت ضحكة فاترة وقالت:

- يا له من مطلب مضحك!

- هو مطلبي الوحيد في الحياة. . .

فرفعت منكبها استهانة ولم تنبس لتطمئن إلى سيطرتها على انفعالاتها، فقال:

- إنّ الأمل يضيء قلبي كالإلهام. . .

فقامت قائلة:

- أن لي أن أذهب.

فتبعها وهو يقول:

- لن أسلم بخيبة مسعاي، مع السلامة، ومعك

قلبي إلى الأبد. . .

- ٢٥ -

لم يبقَ في الحجرة إلّا إبراهيم، بمجلسه فوق الكنبة بين سنيّة خطيبته وعلّيات شقيقته. ارتدى جلباباً فضفاضاً، برز من طوقه رأسه الحليق ووجهه النحيل الشاحب والنظارة السوداء التي أخفت عينيه. ذاك أوّل

- فاني أن أهنتك في وقتها!

فازدردها متجاهلاً وقال:

- وعلمت أنّك ستتزوجين قريباً؟

- جدّاً!

وكان جيّاشاً بانفعالات يحنى ألا يسيطر عليها

فصمت قليلاً لينظّم تشنّته ثمّ قال:

- معدرة، أودّ أن أسالك هل تتزوجين عن حبّ

حقيقيّ؟

فتساءلت باحتجاج:

- بأيّ حقّ؟

- لا حقّ لي مطلقاً، ولكنّي تعلّمت عن تجربة أنّ

أيّ تصرف مستهتر يمسّ حياتنا فهو يتمخض عادة عن كارثة.

- ثوب الواعظ لا يناسبك بناتاً!

فتنهّد بعمق واعترف قائلاً:

- مني، أحبّك، ما زلت أحبّك كأول يوم، لا حياة

لي بدونك. . .

فرمقته بنظرة ازدراء وغضب، فقال:

- ماذا فعلت بنفسني؟ تزوّجت من راقصة نعيسة،

لماذا؟ بصراحة اعتبرك المسئولة!

- مسؤولة؟!

- لم ترعي حبّنا بما يستحقّه من احترام، تجمّيت

عليه أنا بعنادي السقيم وطعنته أنت بكبرياء جاوز الحدّ، هكذا يستهين بعض الناس أحياناً بسعادتهم

الحقيقيّة!

فقالت وهي تقطّب لتضفي على وجهها قسوة

تداري بها انفعالاتها:

- ما الداعي إلى نبش أشياء قد ماتت وشبعت

موتاً؟

- لا ينبغي لها أن تموت.

- ولكنّها ماتت بالفعل!

- لا أصدّق أنّ الموت يجوز عليها.

- هذا وهمك أنت وحدك!

- أمّا أنا فلم ألقِ إلّا العذاب حتّى حرّرت نفسي

بالطلاق. . .

نظرت بعيداً كأنّ شيئاً استرعى بصرها ولم تعلق،

وسرعان ما نام نومًا عميقًا. وبقيت عليّات وسنيّة في حجرة الجلوس وحدهما، وبين أيديهما إبريق شاي وطبق مملوء بالفول الأخضر. وتبدّت سنيّة سعيدة، وجياشة الصدر بعواطف لم تفصح عنها بعد. وانبعث في صدرها ينبوع إلهام فأشعرها بشجاعة متحدّية وفدائية. قالت:

- لآي أفكر...

فرمقتها عليّات مستطلعة فقالت:

- لا أريد أن أخدعه!

ففرغت عليّات قائلة:

- كلاً...

- لا أريد...

فقاطعتها بخوف:

- أخي رغم شبابه متشبع بآراء أبي وأمي في هذه المسألة بالذات فلن يفهمك أبداً..

- اعتقد العكس...

- كلاً، حسبك أنك مغلصة له حقاً.

فتساءلت سنيّة في ارتياب:

- أليس من حقّه أن يعلم؟

- كلاً، لا اعترف بحق لا يجلب إلا الشقاء، وهو

لن يفهمك!

- وإذا تراءى له أن يسأل؟

- حسبك أنك مغلصة له، والإخلاص يجب ما

كان قبله...

وتفكرتا معاً في صمت وقلن حتى قالت عليّات:

- لم نشقّ باللهو فلا يجوز أن نشقى بالحبّ

الحقيقي...

ولمست في نبرتها حسرة على تعاستها فقالت متأثرة:

- ستجدين الحبّ مرّة أخرى، إنه مع الحياة دائماً!

- كوارث السلام لا تقلّ عن كوارث الحرب...

- اعتقد أنّ كارثة حلّت بأخي مرزوق وهو لا

يدري...

فهزّت عليّات رأسها في أسى ثمّ قالت مستسلمة

لذكرى هفت على قلبها فجأة:

- والدكتور عليّ زهران ضحية من ضحايا

العبث...

يوم رجع فيه إلى بيته، حيث تلقى سيلاً من كلمات العزاء والتشجيع، ثمّ أخليت الحجرة إلا من ثلاثتهم، فأسند رأسه إلى الجدار البارد وأخذ يستحوذ على إرادته. بالنسبة إليه انتهى القتال وانطوى تاريخ واختفى النور إلى الأبد. عندما انقضّت عليه الحقيقة قال «ليتي مت»، لم يعد يردّها، وسرى إلى قلبه دفء عجيب في بيته، ولم يعد يشكّ أنّ الحيّ خير من الميت، ولم تكفّ سنيّة عن الكلام، قالت ضاحكة:

- لا ياس مع الحياة، كم من مرّة كتبها أو ردّتها، ونسيت للأسف قائلها، ولكنّي لم أدرك معناها إلا اليوم...

ابتسم لصوتها المحبوب فعادت تقول:

- سأقرأ لك، وستتعلم القراءة على طريقة بريل،

وستشقى لنفسك طريقاً جديداً!

فتمتم:

- سنيّة، أنا بمتنّ جدّاً، أنت ملاك...

وتردّد قليلاً ثمّ استطرّد:

- ولكنّي أعفك من أيّ تعهد سابق!

وضعت سبابتها على شفّته بحنان وقالت:

- لم أسمع شيئاً...

- بل فكري طويلاً، إنّ أبعد قراراتنا عن الصواب

هي ما نتخذها ونحن منفعلون...

فقالت بقوة وثقة:

- ففكرت... وتبين لي أنّي لم أكن بحاجة إلى

تفكير البتّة...

- أما أنا فلا أحبّ أن أكون أنانياً...

- إنه قرار ي أنا، وكيف تقرر الأنايّة بشخصك

بعد أن ضحيت بالعزير الغالي...

فأسند رأسه إلى يده وقال:

- ولكنّي خجلان.

- أما أنا فسعيدة جدّاً.

وقالت عليّات:

- صدّقها، إنّ مطلعة على مكنون قلبها...

وكانت في الخارج تعصف رياح مزججة ثمّ هطلت

الأمطار خمس دقائق صفا بعدها الجوّ وتفشّى الدفء

والنقاء وشدا السماء. وآوى إبراهيم إلى فراشه

## الحبّ تحت المطر ٤٢٩

الاحتفال به في الأوبرج، وعلم بذلك الأهل والأصدقاء والزملاء. وعندما جابهته بجرائعها المعهودة معتدرة صُعق تمامًا. صُعق وذُهل. توسّل إليها أن تراجع نفسها، وكان أحبّها وامتلاً إعجاباً بها وحلم بحياة سعيدة معها. أيّ لعنة! أكتب عليه أن يعاني في الحبّ ما عاناه في السياسة!؟

وسألته السيّدة نهاد الرحاني:

- وماذا تنوي بعد ذلك يا عزيزي؟

فأجاب برزانة:

- سألوذ بالجبل كمجرمي وطني الصعيد ثمّ أقطع الطريق على الرائج والغادي.

فضحك الأستاذ صفوت مرجان وقال يداعبه:

- مالك أنت وبنات اليوم! احمذ ربنا على تلك

النهاية!

وقالت له نهاد:

- خير ما تفعله الآن أن تتزوّج زيجة معقولة قبل أن

يفوتك القطار.

فتساءل بامتعاض:

- معقولة!؟

- أعني أن تناسبك في السنّ والأسرة.

فقال لها صفوت:

- يبدو أنّ عندك عرووساً!

- العروس الصالحة توجد دائماً، ماذا نظنّ؟

فقال حسن حمّودة:

- أمهليني حتّى تمضي فترة الانتقال.

وقال لنفسه ساخراً إنّ قانون الأشياء يقضي بأن

يتزوّج صفوت الاشتراكيّ من امرأة مثل نهاد من أسرة

أما هو فعليه أن يتزوّج من إحدى بنات الشعب! وإذا

بصفوت يقول:

- حكاية مني معك تعيد حكاية قديمة حدثت منذ

عشرين سنة...

فُهِت حسن حمّودة ثواني ثمّ ضحكك أما نهاد

فتساءلت:

- أيّ حكاية؟

فأجاب صفوت:

- حكاية قديمة كان حسن بطلها!

وتذكّرت سنيّة منى زهران فجرت على شفيتها ابتسامة فسألتها عليّات عمّا جعلها تبتسم فقالت:

- قرارات منى زهران!

فضحكت عليّات وقالت:

- عليها أن تعلن نشرة يومية عن تدبذبات

إرادتها...

- هل تظنّيتها قطعت الأستاذ حسن حمّودة نهائيّاً؟

- أعتقد أنّها ستتزوّج من سالم عليّ في أقرب

فرصة.

- رغم جنونها فهو قرار حكيم...

- كلاهما مجنون.

وساد السكوت قليلاً حتّى سألت عليّات:

- متى يتزوّجان؟

- منى وسالم؟

- مرزوق وفتنة!

فأجابت سنيّة في وجوم:

- لا أدري... يقال إنّها سيتزوّجان عقب الانتهاء

من تصوير الفيلم!

وشعرت سنيّة بأسى سرعان ما جفّف ينابيع

إلهامها...

## - ٢٦ -

دُعي الأستاذ حسن حمّودة لتناول العشاء بفيلاً

الصحفيّ صفوت مرجان بشارع أحمد شوقي. انعقدت

الجلسة في الفراندة المطلّة على الحديقة، فجلس حسن

حمّودة بين صديقيه صفوت وحرمة نهاد الرحاني. تناول

طعامه بشراهة وشرب كثيراً وصمّم طيلة الوقت على

التظاهر بالاستهانة وتجاوز الأزمة.

وقال له صفوت مرجان:

- خشيت أن أجذك تعيساً.

فقال ببساطة توحى بالصراحة:

- لا وجهٍ للتعاسة!

ثمّ مستدرّكاً:

- مسألة كرامة ليس إلّا!

الحقّ أنّه لم يتصوّر أن يجد نفسه في الموقف الذي

خلقته له منى. كان بصدد تحديد يوم الزواج، وقرّر

## ٤٣٠ الحب تحت المطر

- فقال حسن ساخرًا:  
- كنت الوغد لا البطل...  
فسأله صفوت:  
- ماذا كان اسمها؟ لقد نسيتها تمامًا...  
فقال حسن:  
- سمراء وجدي.  
فقالت نهاد:  
- لم أسمع باسمها ولا بقصتها.  
فقال صفوت مرجان:  
- كنا طالبة بالحقوق، وعشقها صاحبنا، وكانت من أسرة كبيرة وإن كان فرعها الخاص لا يملك شيئًا... فتساءلت نهاد:  
- وخطبها؟  
- عشقها فقط، وكان عشيقًا جريئًا، يتسلل إليها ليلاً في قصر عمها على النيل والناس نيام...  
- ألف ليلة وليلة... الله... الله... وذات ليلة شعر به الخفير، طارده، أطلق النار، أصابت الرصاصة خذ الفتاة ولاذ صاحبنا بالفرار، وعند التحقيق قالت إنها شعرت بخطوات غريبة وإنها خرجت لتنادي الخفير فأصابها الرصاصة!  
- رائع!  
- ولكن وجهها تشوه، أو خذها على الأقل...  
- مسكينة!  
- وكما هرب الأستاذ من القصر هرب من حياتها...  
- من حياتها؟  
- وإلى الأبد.  
وهمت بالتعليق ولكنها أمسكت، ولحظ حسن ذلك فقال ضاحكًا:  
- انطقي بالحكم، سمعت كل ما يمكن أن يقال.  
فقالت:  
- كان عليك أن تتمسك بها!  
- كان لها لا حبًا وكنت مجنونًا بالشباب، وها أنا أعاقل بالمثل!  
فسأله صفوت مرجان:  
- ترى ماذا كان مصيرها؟
- فقال حسن:  
- إننا نملك اليوم محلاً لبيع لوازم السيدات بشارع شريف.  
- ألم تجمع بينكما مصادفة ما؟  
- مرة منذ سنوات في مشرب ببيجال وتجاهلتي تمامًا...  
فقالت نهاد:  
- لست قاسيًا فيها أعلم.  
- الحق أنني لم أخل من ألم وتنغيص، حتى تراكمت علي المصائب بقدوم الثورة المباركة فطهرتني من الألم بما هو أشد وأفظع...  
فقالت نهاد:  
- أمامك فرصة نادرة فتزوج منها.  
فضحك عاليًا وقال:  
- نهاية ممتازة لميلودراما، أما الواقع فإنها اليوم قوادة يشار لها بالبنان!  
- قوادة؟  
- قوادة هاوية.  
فسأله صفوت:  
- ماذا تعني؟  
- بيتها خلية للبنات، لها عليهن سيطرة أسطورية، وتسهر معهن في بيوت الأصدقاء، بدافع اللهو والعبث لا المال!  
- يا لها من نهاية!  
- وسمعت بأنها تقول ساخرة إن عصر البراءة قد زال مع الرجعية والإقطاع والاستعمار!  
وسألته نهاد:  
- ألا تعتبر نفسك مسئولاً عن تلك النهاية؟  
- كلاً يا عزيزي، كان يمكن أن تكون زوجة أو مجرد صاحبة محلٍ مستهتر، أو قديسة...  
فيم يثيرون لهذا الحساب العاطفي من أجل ماضٍ ميت وينسون ما أعانيه في قلبي وكراحتي أليست سمراء وجدي بأسعد مني ألف مرة؟ ألم تفقد أسرتنا ابن أخت في غارات الأعماق؟ كما مات أبي وكما لوتت سمعتنا ظلمًا وبهتانًا. غير أن أخطر شيء أن يستسلم المرء لعاطفة حبٍ خائب وهو في الأربعين. والتفتت

## الحب تحت المطر ٤٣١

- نحو صفوت فسأله:
- ماذا عن الأحبار؟
- فأجاب الرجل الذي لرايه وزنه دائماً:
- لا جديد، ولكن الأمور تتحسن فيما أعتقد.
- فقال حسن حمودة بضيق:
- الله يسامحك.
- فضحك صفوت من أعماقه وقال:
- نسيت أنني أخاطب رجلاً هوام مع جيش إسرائيل ضدّ جيش مصر.
- فتساءل وهو لا يخلو من شعور بالاستياء:
- أهدأ هو تصويرك لموقفي؟
- المسألة مسألة موقف وطني قبل كل شيء.
- أيّ موقف وطني! إما الديمقراطية أو الاشتراكية، أمريكا أو روسيا، وإذا كان من حقكم أن تحبوا روسيا فلم لا يكون من حقنا أن نحب أمريكا؟
- فقال صفوت بجديّة:
- المهم ما يريده الشعب.
- أيّ شعب؟
- الشعب، الشعب التحتانيّ الذي لا تعرفه.
- وفاض قلبه بالتهكم والمرارة، والكراهية والسخط، وفي تلك اللحظة كره كل شيء، حتّى الحديدية التي تضوع بشذا زهر البرتقال، واللبل الرطيب، وصفوت مرجان، وحتّى نهاد الرحامي، وقال لنفسه صبراً، ففي غمضة عين قد تقع كارثة لا تخطر على بال...
- ٢٧ -
- شهدت عليّات حفليّ زواج في أسبوع واحد: حفل متواضع جمع بين أخيها الضرير وسنيّة، وحفل أقيم في بهو عمر الحيام جمع بين منى زهران وسالم عليّ. وقالت إنّه مهما يكن من شأن الصداقة التي تربطها بسنيّة ومنى فلن تبقى هي هي بعد الزواج، هكذا تعلّمت من تجارب سابقة، فشعرت بفرغ مروع لم تشعر بمثله من قبل. وكرهت فكرة العودة إلى اللهو والعبث فالحقّ أنّها كانت تتوق إلى الحبّ. وزارت الأستاذ حسني حجازي مساء بناء على دعوة تلقّتها منه تليفونيّاً وهي في الوزارة. تلقّاها بحنان قبل وجنتيها، وهو يقول:
- توقّعت أن تزوريني من زمن...
- كما لم تحب سألها:
- ماذا تفعلين؟
- فقالت بفتور:
- أكل وأشرب وأنام.
- يجب أن تتعلّم من مرارة الأيام التي نتجرّعها ألا نحزن أكثر ممّا ينبغي مهما يكن المصائب!
- فقالت بالفتور نفسه:
- إنّي أتعلّم ولكنّ التعليم كما تعلم يحتاج إلى زمن.
- أنت شجاعة وأنا مطمئنّ إلى مستقبلك...
- وضحكت على رغمها فنظر إليها مستطلعاً:
- ما أضحكك؟
- ما أجلك في ثوب الواعظ!
- فتساءل وهو يمضي إلى البار ليملأ قلدحين من كوكتيله المشهور:
- ترى هل سمعت هذا القول من قبل؟
- لم دعوتني؟... هل وراك فيلم جديد؟
- فقدّم لها القدح قائلاً:
- إنّي أفكر في مستقبل بناتي ولا أنساهنّ كما ينسينني، لذلك حدّثت المخرج أحمد رضوان في شأنك!
- فاشتعلت عينها في اهتمام ودهشة وتمتعت:
- شأني؟
- قلت إنك فتاة ممتازة وجيلة وتصلحين للشاشة!
- فهتفت في ذهول:
- أنا!
- أنت طبعاً...
- فضحكت بعصبية وقالت:
- لا أتصوّر، لا أستطيع...
- وهل كان مرزوق يتصوّر أو يستطيع؟
- لست بمثّلة... ثمّ أنسيت أبي؟
- سيثور طبعاً، ويرفض، وسأحدّثه طويلاً، وسوف يدعن في النهاية!
- إنه أصلب ممّا تتصوّر، ولكنّه ليس العائق الحقيقيّ، العائق هنا...



## ٤٣٢ الحب تحت المطر

- وأشارت إلى نفسها فقال: - اضحكى إن شئت!  
- لندع الأمر للتجربة... فتساءلت:  
- إذن فانت جاذ؟ - هل تنقصنا روح القتال؟  
- وهو على استعداد لاختبارك! - زوار الجبهة يلمسون روحًا عالية ولكن الأهالي يعيشون في بلبلة!  
- وما الذي جعلك تفكر في ذلك؟ - ثم استدرك بنبرة يقين:  
وهو يضحك: - حتى لا تقتصر حياتك على الأكل والشرب والنوم!  
ودارت قلقها بالضحك فقال: - توقعت أن تتحمسي أكثر من ذلك فالحياة تطالبنا بالحماس حتى في أسوأ الظروف.  
وشربًا معًا. وأغمضت عينها لتفكر وراح هو يتمشى بين البار والتلفزيون. فتحت عينها فالتقت بعينيه فسألها:  
- ماذا قلت؟  
- ليكن، ليس في الإمكان أسوأ مما كان. فضحك وقال:  
- الغم يخلق جگًا جديدة. فقالت:  
- الشوارع في شبه ظلمة!  
- لا يمكن أن تفهمي شيئًا أو تستنتجي شيئًا...  
- المستقبل مليء بكافة الاحتمالات.  
- في مثل هذه الظروف يحسن العناية بكل دقيقة خالية من كارثة...  
- الأقاويل كثيرة جدًا.  
- لو ضربت القاهرة فستقوم القيامة.  
- مسكين أخي، ربنا يأخذ بيده...  
فقال حسني حجازي بجذبة:  
- استدعي ابن أخي الأكبر أمس للتجنيد أما أخي وهي أرملة غنية فقد فعلت المستحيل لتجنب بكرتها التجنيد وذلك بإرساله إلى كندا كمهاجر.  
- كيف أمكنها ذلك؟  
فضحك ضحكة قصيرة وقال:  
- تحبلي الأمر بنفسك! المهم أنه قُتل في الأسبوع الماضي في حادث تصادم!  
فندت عنها آهة تعجب فقال حسني:  
- اضحكى إن شئت!  
فتساءلت:  
- هل تنقصنا روح القتال؟  
- زوار الجبهة يلمسون روحًا عالية ولكن الأهالي يعيشون في بلبلة!  
ثم استدرك بنبرة يقين:  
- ولا تنسي الفدائيين فهم معجزة هذه المرحلة ودق جرس الباب الخارجي فمضى إليه باهتمام وهو يقول:  
- أظنه أحمد رضوان، كوني شجاعة من فضلك!  
- ٢٨ -  
شهدت فتنه ناصر اليوم الأخير للتصوير وحدها إذ لم يكن لمرزوق دور في ذلك المشهد. وانتهى العمل حوالي منتصف التاسعة مساء فتبدلت التهاني، وشربت أكواب الشربات، ووزع أحمد رضوان نقودًا على العمال. ودعا فتنه إلى فنجان شاي في البوفيه فغيرت ملابسها ولحقت به، وجلسا معًا يحتسيان الشاي ويتناولان البسكوت. وساءلت نفسها أهى جلسة الوداع؟ وكانت ثمة أنباء غت إليها عن أنه يعد مفاجأة في الوجوه الجديدة بقصد القضاء عليها فلم تكترث كثيرًا، مطمئنة إلى ما أحرزته من نجاح بين الجماهير. وفي الوقت نفسه تمتت لو تتفادى من تطاحن سخيف لا معنى له، تمتت أن يثوب إلى رشده إن يكن ذلك في الإمكان. وكان يلاحظها طيلة الوقت فسألها:  
- ترى فيم تفكرين؟  
فأجابت بصراحة:  
- كيف يمكن أن نظل أصدقاء.  
فقال بامتعاض:  
- الصداقة لا تصلح بديلًا عن الحب.  
- يجب أن تحاكمي بعدالة.  
- أهذا يعني أنك ستزوجين حقًا؟  
- صارحك بذلك في حينه.  
فقال محتجًا:  
- ولكنني لم أكن في حياتك شيئًا على الهامش! فاعترفت قائلة:

## الحب تحت المطر ٤٣٣

- عار أن تعترفي بزيف عواطفك القديمة . . .  
فقطبت في ضيق وقالت:  
- دعنا نأكل نأكل .  
ووضعت يدها على يده وقالت:  
- افتح قلبك لصداقة جديدة .  
فقال بغضب:  
- لا تتحدثني عن الحب كأنك تجهلينه . . .  
فغمغمت في يأس مسدود:  
- لا فائدة!  
فقال بوحشية:  
- لا فائدة!  
وصمتا. وساءلت نفسها كيف تنتهي هذه الجلسة  
التي لا تُحتمل. واستدعيت للتليفون فقامت وهي تتنهد  
في ارتياح. وجعل يراقبها من بعيد وهي تتكلم.  
ورآها تعيد السّاعة في عجلة وهوجة. شيء وقع.  
شيء ذو خطورة. أخطر مما يتصور. بصرها زائغ  
ونظراتها جنونية. إنها تبتعد ناسية تمامًا حقيبتها.  
وتناول الحقيبة وهول نحوها وما كاد ينطق باسمها  
حتى صرخت في وجهه:  
- أنت . . . أنت . . . أنت المجرم!  
وجرت نحو سيارتها كالمجنونة.

- ٢٩ -

استسلمت فتنة للكروسيّ المعدنيّ محمّرة العينين. رقد  
مرزوق فوق سريره بالمستشفى غارق الرأس والوجه في  
الأربطة. وكانت قد أُجريت له جراحة معقدة في الفكّ  
الأسفل والذقن والجبهة عقب الحادث مباشرة. وجلس  
في الاستراحة المتصلة بالغرفة لإبراهيم وسنية وعليات.  
حتى أحمد رضوان زاره، ولما وجد الجوّ معاديًا غادر  
المكان بسرعة.

ولما سُئل مرزوق بعد مضيّ وقت مناسب قال في  
التحقيق إنّه كان يسير في شارع ابن أيّوب في مطلع  
المساء، في ظلام شامل، وفي طريق خال، حين هاجمه  
شخص أو أكثر، وانهاالت على وجهه اللكيمات حتى  
غاب عن وعيه تمامًا، ثمّ لم يستردّه إلا في المستشفى.  
وتلقّى السؤال التقليديّ إن كان له أعداء أو كان يتهم

- لا جدال في ذلك، نور نجاحي مستمدّ من  
روحك!  
فقال برجاء:  
- أشكرك، ولكن لم الزواج يا فتنة؟ لا داعي  
للزواج يا فتنة!  
- يجيّل إليّ أنّك لم تصدّقني بعد.  
- يعزّ عليّ تصديقك.  
- لا تصدّق أنّ الجنون ممكن؟  
فقال باستسلام:  
- بما أنّي مجنون فأنا أومن بالجنون ولكن . . .  
وتوقّف فساءلت:  
- ولكن؟ . . .  
- ولكن هل يبلغ الجنون حدّ الاستهانة بالمستقبل؟  
ها هو يعود للتهديد . . . هو هو لا يتغيّر. وقالت:  
- المستقبل بيد الله وحده . . .  
فقال ساخرًا:  
- يعجبني إيمانك!  
فلم تضحك، فأذن رأسه إليها وقال:  
- إذن فلتبقّ علاقتنا كما كانت!  
فقال باستياء:  
- ولّكفي جادة يا أستاذ!  
فقال بحق:  
- إذن لم تكوني جادة فيما مضى؟  
فتنهّدت ولم تنبس فتمتم مغنيًا محنقًا:  
- اللعنة . . .  
ثمّ مندرًا:  
- أخشى أن تنطفئ الشعلة في صدرينا معًا!  
- إن صدقت نبتنا على النجاح فلن نلقى ما  
نخشاه.

- أعتقد أنّك لا تفهمين نفسك، أنت لا تحيين إلا  
الفرّ!

فتوسّلت إليه قائلة:

- دعني لمصيري.

فهتف بوجهه متقلّص:

- أنت تدفعيني إلى هاوية . . .

- أملي في حكمتك لا حدود له . . .

## ٤٣٤ الحب تحت المطر

فهتف يائسا:  
 - أنت توافقيني على رأيي بأسلوب آخر.  
 فضمته إلى صدرها وهي تقول:  
 - لنؤجل التفكير في ذلك!  
 - وهل يوجد ما هو أهم؟  
 فقرصته في خده معاينة وقالت:  
 - نحن نستعد للزفاف!  
 فرنا إليها بدهول، وعينه اليسرى ترتعش وتضيق،  
 وتساءل:  
 - ماذا؟  
 - الزفاف يا عزيزي الجاحدا  
 - أهو مجرد عناد؟  
 فصاحت بغضب:  
 - كلاً...

وساءل نفسه ترى هل تعني ما تقول؟ هل تتحقق  
 تلك المعجزات فوق الأرض؟ وكان صدرها يجيش  
 بالحب والعطف والتحدثي. وكانت مصممة على تحطيم  
 درع الدناءة الصلب والبصق على وجه الشائنة  
 الكالغ. وضمته إلى صدرها بقوة وهي تقول:  
 - فلنمض في استعدادنا للزفاف!

- ٣٠ -

تلقاها حسني حجازي بين ذراعيه. أنامت رأسها  
 فوق صدره في استسلام فشر بشدة توقها إلى الحنان.  
 وقال وهو يرت على ظهرها:  
 - قلق الدنيا والآخرة مطبوع فوق وجهك العذب  
 يا عليات.  
 فتملصت من ذراعيه وانحطت فوق الفوتيل وهي  
 تسأله:

- أين كنت في الفترة الماضية؟  
 - سافرت إلى يوغسلافيا للاشتراك في مهرجان  
 للأفلام القصيرة.  
 - ألم تسمع عما حدث لمرزوق أنور؟  
 - إنه حديث الوسط الفني، وكثيرون يتهمون أحمد  
 رضوان، وهو مجرد ظن لم يقم عليه دليل، ما رأيك؟  
 - لا أدري، أنا نفسي سئلت في التحقيق!

أحداً، فأجاب بالنفي، ولكن التحقيق جره إلى ذكر  
 قصة حبه بملابسها، مما استدعى سؤال أحمد رضوان  
 بل وعليات عبده. ولم يكن الشيخ يزيد بمصر، وأنكر  
 أحمد رضوان أي علاقة بالحادث، وكذلك عليات،  
 واستمرت المباحث في البحث خلال جو كثيف  
 الغموض.

وتركز القلق حول مسألة هامة شغلت عقول أهله  
 وأحبابه، فتساءلت سنية:

- ترى إلى أي حد سيتغير وجهه؟

فقال إبراهيم عبده:

- على ذلك يتوقف مستقبله.

فعادت تقول:

- فتنة بكت بحرارة.

- إنها تبكي عليه وعلى نفسها.

ومرت فترة الانتظار ثقيلة على القلوب المحبة.  
 وغادر مرزوق المستشفى بوجه جديدا رغم ما قدم  
 الطب من معجزات فقد خرج بوجه جديد. لم يكن  
 القبح طابعه ولكنه فقد شخصيته ومذاقه وروحه. كان  
 ثمة تجويف صغير في جانب الجبهة اعوجاج في الفك  
 أضفى عليه قسوة من غير معدنه وانحدار في الذقن إلى  
 الخلف. وعندما رأى صورته في المرآة نظر إليها طويلاً  
 في ذهول حتى امتلأت عيناه بالضباب، ثم تهاوى  
 جلدعه فتقوس من اليأس وهتف:

- انتهيت!

وتحول إلى فتنة بوجه ملؤه الخذلان وكثر:

- انتهيت يا فتنة!

فأحاطت عنقه بذراعيها وقالت بحرارة:

- كلاً!

- انتهيت وأنت تدركين ذلك!

- كلاً!

- كلاً!

- ربّما... ربّما...

فقاطعها متسائلاً:

- ربّما؟

فقال وهي تخفض عينيها:

- يوجد أكثر من دور ناجح للممثل القادر مثلك.

## الحب تحت المطر ٤٣٥

فضحك حسني طويلاً ثم قال:  
 - احتفظي به فسيكون دُرّة! -  
 - كدت أجنّ في غيابك...  
 فقال بعطف:  
 - غلبك الحزن أكثر ممّا يجوز.  
 فقالت بتأثر شديد منذر بالدمع:  
 - كان التحقيق، ثمّ الزواج، وشعرت بأنّ الدنيا  
 ماتت ولن تبعث.  
 وراح يملاً قدحين وهو حزين، وقدم لها قدحها  
 قائلاً:  
 - صحّحتك!  
 وأفرغاً القدحين معاً، وقال - لا عن صدق - ولكن  
 عن عطف حقيقيّ:  
 - تذكّرتك وأنا جالس في حديقة تحت الأرض في  
 دوبروفنيك فتاقت نفسي إليك بحنان عجيب!  
 - لعلّي كنت أفكر فيك وأنا أقرع جرسك فلا يردّ.  
 - قلبي معك، لا تخافي يا عزيزتي...  
 فتنهّدت بصوت مسموع تردّد كالنغمة في جوّ  
 الحجر السحريّ. وكان يرؤض رغبة طفرت إلى  
 أعصابه، رغبة طارئة وناعمة في أن يلعب الحبّ معها.  
 ولم يعلنها، وذهب إلى التلفزيون وأدار القرص:  
 - ألوا... سمراء؟... كيف أنت! جميل أن  
 تعرفي صوتي من أوّل كلمة... أريدك على عجل...  
 الآن إن أمكن... إلى اللقاء...  
 ورجع إليها وهو يسأل:  
 - أتعرفين سمراء وجددي?  
 فهزّت رأسها نفياً فقال:  
 - أن لك أن تعرفيها...  
 - ٣٠ -

ظلّ حسن حمّودة أربعين عاماً لا يفكر في الزواج ولا  
 يهتمّ به حتّى عرف منى زهران. وبعد أن فشل مشروع  
 زواجه منها لم يعد له من شاغل إلاّ الزواج. وأثير  
 الموضوع من جديد. أثارته نهاد هانم عقب عشاء  
 دُعيت إليه هي وزوجها صفوت مرجان في قصر  
 الأستاذ حسن حمّودة بشارع الفضل بالعجوزة. وهو

- فذاك نفسي يا عزيزة.  
 - وتمّ زواج فتنة ومرزوق.  
 - إنّه حديث الوسط أيضاً ولكن لا يستطيع أحد  
 أن يتنبأ بالنتيجة!  
 فقالت بفتور:  
 - سنّيّة وإبراهيم سعيدان، وهي تجربة ماثلة!  
 - كلاً... ثمّة اختلاف جوهريّ، ولكنك لم  
 تحدّثيني عن تجربتك!  
 - أيّ تجربة تقصد?  
 - مع المتهم أحمد رضوان?  
 فقالت باستهانة:  
 - فشلت تماماً. لا ذرّة من استعداد عندي  
 للتمثيل...  
 فنظر إليها بإشفاق وقال:  
 - أهذا ما يجزئك?  
 - كلاً...  
 - ولكنك افتقدتني في غيابي فلماذا?  
 - كنت أقرع جرسك كلّ مساء!  
 فتساءل بأساً في سخرية:  
 - هل اكتشفت أخيراً أنّي معشوقك الحقيقيّ?  
 فصمتت. أشارت إلى بطنها. ثمّ قالت:  
 - يوجد هنا شيء غير مرغوب فيه!  
 فهتف بدهشة:  
 - كلاً!  
 - هي الحقيقة!  
 - ولكنك حريصة دائماً...  
 فقالت بمرارة:  
 - تعبت من الحرص كما تعبت من الحياة.

فجعل ينظر إليها وهو يتدكّر منظر جزر الأدرياتيك  
 كما تلوح لعيني المشاهد في دوبروفنيك في ليالي القمر،  
 ثمّ سألهما:  
 - من؟

- لن يخطر لك على بال!  
 - يوثانت؟

- سائح مجهول ذو لحية شقراء وشعر مضمفور دعاني  
 للعشاء فليّيت!

فضحك صفوت مرجان وقال:

- لست أول شخص يجمع في ذاته بين الرجعية في

السياسة والتقدمية في الحب!

اكفهر وجهه الأسمر الغامق، وازداد إشعاع عينيه

حذرة. أثارته - كما تثيره عادة - تهمة الرجعية. إنه يعتبر

الديمقراطية غاية التقدم، وما عداها نوعاً من النازية أو

الفاشستية. وهو يفهم الديمقراطية على أنها أسلوب من

التعامل بين الصفوة في المجتمع. الصفوة من أصحاب

المصالح الحقيقية وأهل الفكر والثقافة. أما عامة

الشعب فلا يعترف بهم ولا يعمل لهم حساباً في قائمته

الإنسانية. لذلك لم يحزن هامته أمام الموجة الشعبية

الهائلة التي أطلقتها الثورة. وكان يسخر من بعض

أهل طبقتهم الذين تأثروا بها فراحوا يهزّون شجرة

الأسرة بعنف لعلهم يعثرون على غصن فقير... .

«شعبي» يلودون به في الإعصار العاصف الذي

يقتلعهم من جذورهم. كان يعتزّ دائماً بأصله الرفيع،

والمخالفة من أعمامه وأجداده، وينظر إلى الأشياء

والناس نظرة أرستقراطية متعصبة. وقد انتشلته

ملاحظة صفوت مرجان العابرة من حديث الزواج

فردّته إلى موضوعه الأبدى وهو السياسة فقال:

- الديمقراطية الأمريكية رجعية ١٩٩٠ أمريكا أمة

علمية، وقد تجاوزت بالعلم خزعبلات الشيوعية

ونبوءاتها الكاذبة... .

فقال نهاد:

- نحن لا نكفّ عن الكلام، لا أحد يتكلم مثلنا،

والغارات تمتدّ إلى أعماق بلادنا... .

فقال حسن حمودة بحق:

- المسألة أننا أمة مهزومة ولكتّنا تأبى الاعتراف

بهيبتها!

ثمّ نظر إلى صفوت وسأله:

- متى نعرف بالواقع في تقديرك؟

فأجاب صفوت وهو يشعل سيجارة:

- سيخطو الروس خطوة جديدة وهامة في تقوية

دفاعنا.

الروس أيضاً إنه يكره الروس أكثر من الكوليرا.

ولولاهم لكان ٥ يونيو يوم السعادة الحقيقية والفردوس

قصر ضخم ذو حديقة كبيرة ورثة عن أمه، ويقوم فيه

وحده مع الخدم. وهو يمتاز بحيازته لطاهٍ فاخر خليق

بأن يعتزّ به مطعم عام من مطاعم الدرجة الأولى. وهو

أكول وذوافة للطعام الجيد، ومماثلة نهاد في ذلك،

بخلاف صفوت الذي يقنع بكأسين من الويسكي

ومختارات من الشواء والخضر والفاكهة. ودار الحديث

عن الزواج وكان هو الذي فتحه برغم ما عُرف عنه

من ولع خاصّ بحديث السياسة الذي لا ينتهي. قال

لها:

- أودّ أن أسمع آخر أنباء عن عروسك!

فقال صفوت:

- أراهن على أنك ستزوّج قبل نهاية هذا العام.

وقالت نهاد هانم:

- هي أرملة وأمّ لبنت وحيدة في الجامعة ومن أسرة

كبيرة مثل سعادتك... .

فغلبه الفتور وقال:

- لن يقلّ سنّها عن الأربعين.

- هي في الأربعين!

فقال محتجاً:

- ولكنني في الأربعين وتلزميني عروس شابة.

فقال نهاد ضاحكة:

- لست خاطبة.

وقال صفوت:

- عليك أن تجدها بنفسك في سينما أو في مرقص أو

في الطريق!

فقال يائساً:

- لا وقت عندي للبحث، ولولا جنانية دُعيّت

للدفاع فيها ما عرفت منى زهران... .

فقال نهاد:

- ما عليك إلّا أن تنتظر جنابة أخرى.

وسأله صفوت:

- ولكن هل تناسبك فتاة من هذا الجيل؟

- لمّ لا؟

- هنّ رؤية جديدة في الحياة والحبّ.

فقال بلا تردد:

- أنا في هذا المجال تقدّمي أكثر مما تتصوّرا

## الحب تحت المطر ٤٣٧

فقاطعته:

- إني مؤمنة بأنك ستكون عنصر نجاح.  
- المهم أن يؤمن الآخرون، فاقترحي إذا شئت  
ولكن لا ترفضى...  
وشعر بأن النجاح الذي أحرزه إنما يخص شخصاً  
آخر لا علاقة له به. وبحسرة قال لها:  
- يحسن بي أن أفكر جدياً في وظيفتي التي لم  
أشغلها...  
فقالت بارتياح:

- تعمل ست ساعات بسبعة عشر جنيهاً!  
- عليّ أن أتوافق مع الواقع مهما يكن مرّاً!  
ورفض من بادئ الأمر أيّ مغامرة سخيفة أو تفكيراً  
جنونياً. قال:

- واضح أنني لم أعد صالحاً للبطولة.  
فقالت برقة:

- توجد أكثر من بطولة في الفيلم ولكن حذار من  
الأدوار الثانوية فهي شرك لا فكاك منه...  
أجل هي شرك. وهذا المسكن الأنيق شرك أيضاً.  
وحبه الذي ضحى في سبيله بإنسانيته شرك ثالث.  
وتجهّمته الحياة لحدّ التقزّز.

ودق جرس التليفون. كان المتكلم أحمد رضوان!!  
وكان يستأذن في زيارة. ونظرت نحو مرزوق مستطلعة  
فقال رغم انفعاله الشديد:

- إذا كان لعمل فليحضر...  
وجاء في الميعاد. وانحنى باحترام تحية متجنباً. في  
الوقت نفسه - مغامرة المصافحة. وجلس في أدب لا  
متنفخاً ولا مزهواً. وقال:

- توجد غشاوة من سوء الظنّ.  
ونقل بصره بينهما ثم قال:

- علينا أن نبّدها، لأنّه لا مبرر لها، ولأنّه لا غنى  
لنا عن العمل المشترك!  
لم يسمع تعليقا. شعر بجمرات النظرات تلسع  
وجهه فقال:

- كان استدعائي للتحقيق سخفاً، ألمني جدّاً، كما  
يجدر بإنسان بريء بكلّ معنى الكلمة...  
وكما لم يسمع كلمة التفت نحو مرزوق وقال:

المفقود. وسأله:

- هل نصمد حتى تصل المعونة الروسية الجديدة؟  
فقال صفوت بثقة:

- لن يسمحوا بهزيمتنا مرّة أخرى!  
- مبارك عليكم هذا الأمان!  
فضحك صفوت وقال:  
- الروس لا يستغلّون.

وفهقه حسن حمودة عاليّاً. اعتدّها نكتة فروح  
بالضحك عن حقه المشتعل. رّوح بالضحك عن  
أحلامه الديمويّة المكبوتة. وكانت نهاد تملّ حديث  
السياسة بسرعة فسألته بنبرة مرحة:  
- لمّ لا تعلن عن رغبتك في الزواج في إحدى  
المجالات؟

فضحك حسن، وضحك صفوت ثمّ قال تأييداً  
للفكرة:

- أقترح الإعلان الآتي:

ح.ح. محام ناجح، غنيّ، من أصل أرستقراطيّ،  
في الأربعين من عمره، أمريكيّ الهوى إسرائيليّ  
الرؤية، يرغب في الزواج من فتاة في العشرين، مثقفة  
عصريّة، جميلة.

فواصل حسن ضحكه وقال:

- سيجيئني الردّ من وزير الداخلية!

- ٣٢ -

أمضى مرزوق وفتنة شهر العسل في أسوان، وكما  
رجعا إلى القاهرة أقاما في شقة بشارع فيّ وتأقبا  
لمواجهة الغيب. وكان مرزوق قد استردّ كثيراً من الثقة  
المفقودة وتألّقت في خياله أحلام غير شاحبة. ودُعيت  
فتنة للقيام ببطولة فيلم فاقترحت أن يلعب مرزوق  
الدور الأوّل أمامها ولكنّ اقتراحها رُفض بأسلوب  
اعتدته غير مقبول فرفضت الفيلم بصلف. وتكرّر  
ذلك مرّة أخرى في نفس الأسبوع! عند ذلك رأى  
مرزوق أنّ الأمر يستحقّ المناقشة. تزعزعت ثقته  
وتبخّرت أحلامه فاقبل على المناقشة بقلب جافّ  
وتصميم يائس. قال لها:

- لا يجوز أن ترفضى فيلماً بعد الآن والأ...  
فقطعت:

- تذكري أنّ همومنا صغيرة إذا قيست بالولايات  
التي تنصبّ على الوطن!  
فقلت ضاحكة على رغمها:  
- لا أذكر أنّك اهتمت بالولايات من قبل!  
فتساءل محتجًا:  
- أهذا كلام يوجّه لرجل أخوه يعمل في الجبهة؟  
وقام فانحنى مرّة أخرى محييًا ثمّ غادر المكان.

- ٣٣ -

تعرفت عليّات على حامد في بيت منى زهران  
بالزمالك. كانت دعوة للعشاء حضرتها سنيّة وعليّات،  
وشهدها حامد باعتباره شقيق سالم زوج منى. ومن  
بادئ الأمر اهتمّ حامد بعليّات اهتمام إعجاب.  
وأوصل الفتاتين إلى محطّة الباص، وفي أثناء الطريق  
أعلن عن رغبته في مقابلة عليّات لمزيد من التعارف.  
وهو ما شجعت عليه سنيّة، فتمّ الاتفاق على ذلك.  
وتقابلًا عند الاصيل في ميدان طلعت حرب، وسألها  
أين تفضّل أن يجلسا، فاقترحت دار الشاي الهنديّ،  
رَبّما لتفاؤلها بها بعد أن جمعت بين منى وسالم. وكانت  
معلوماته عنها لا بأس بها، مثل درجتها العلميّة  
ووظيفتها بالشئون الاجتماعيّة وغير ذلك من المعلومات  
التي اعتقدت أنّ منى بلّغتها إيّاه. ودهشت وهو يحدّثها  
عن وظيفته البسيطة بسكرتاريّة مؤسّسة التي لم تتناسب  
مع حديثه الذكيّ المثقّف. سألته:

- من أيّ كليّة؟

فقال بلا ارتياح:

- الثانويّة العامّة فقط!

فارتبكت قليلاً وقالت:

- الحقّ أنّك مثقّف جدًّا.

- ذلك شيء آخر.

وقرأ في عينها تساؤلات تداريها بأدبها فقال:

- عقب حصولي على الثانويّة العامّة اعتقلت!

فتساءلت باهتمام:

- لمّ؟

فقال ضاحكًا:

- بتهمّة الشيوعيّة!

- لست مجرمًا، أنا فتان مثلك، وحيّي لزملائي  
مضرب الأمثال...  
تنبّهت فتنة إلى أنّها لم ترحبّ به ولم تقدّم له شيئًا  
فأشارت إلى البار وقالت:  
- معذرة، اشرب شيئًا...  
وقام إلى البار فتناول زجاجة الكورفوازييه شرابه  
المفضّل فملاً كأسًا ثمّ عاد فواصل حديثه الموجه إلى  
مرزوق:

- يوجد أكثر من شخص يمكن أن تحوم حوله  
الشبهات، البراءة لم تسعدني، ما يهمني حقًا هو أن  
تقتنع أنت ببراءتي...  
لم يسمع إلا أنفاسًا تتردّد فانطبع الأسف في أساريره  
وقال:

- افتح لي قلبك وصارحي بما فيه.

وثبت عليه عينيه حتّى قال مرزوق:

- لم أعد أفكر في الأمر تاركًا غوامضه للشرطة!

- عظيم، لنتظر، أنا مطمئنّ تمامًا، ولنتكلّم الآن  
في العمل!

وشرب كأسه دفعة واحدة ونظر إلى فتنة وقال:

- كانت بيننا مشروعات مشتركة!

فهزّت رأسها بالإيجاب فقال:

- ماذا يمنعنا من التنفيذ؟

فقال بهدوء:

- الجواب عندك.

فأشارت إلى زوجها وقالت:

- كان أيضًا ضمن المشروعات.

فقال بثقة:

- سيكون له دور محترم!

- أحبّ أوّلًا أن أدرس دوره في السيناريو!

- عظيم، ولكن أوصيك بالمرونة والحكمة، إنتاج

فيلم في هذه الظروف الكثيرة مغامرة يستحقّ القائمون

بها كلّ تقدير، في أيّ لحظة، ونتيجة لهجوم أو غارة قد

يتوقّف العمل في الفيلم، وربّما في عالم السينيما كلّّه،

والعاقل من يدري ذلك.

فقالت بهدوء وتصميم:

- قلت رأيي يا أستاذ أحمد.

## الحب تحت المطر ٤٣٩

ثمّ سألته:  
 - هل جُنّدت؟  
 فأجاب باقتضاب:  
 - كلاً.  
 ثمّ مستدرّكاً:  
 - عيني اليسرى لا تكاد تبصر...  
 فسألته بإشفاق:  
 - مرضت بها؟  
 - فقدتها أو كدت في المعتقل!  
 فارتسم الذعر في وجهها فقال باسماً:  
 - أستطيع أن أعجب بك بعين واحدة فضلاً عن  
 عين وربع!  
 - ومع ذلك فأنت بريء من الشيوعية!  
 فضحك وقال:  
 - عندما أفرجوا عني كنت قد انقلبت شيوعياً في  
 نظرهم.  
 وضحكت فضحك، وبدت لها الأمور في غاية من  
 الفكاهة. وعند ذلك سألتها:  
 - ماذا تفضّلين، السينما أم الرقص؟  
 فقالت بعلوية:  
 - ليس الليلة من فضلك...  
 -

- ٣٤ -

نظر حسني حجازي إلى القادمة بدهشة، ثمّ فتح  
 ذراعيه فتعانقا بحرارة، ثمّ تملّصت من ذراعيه فسبقته  
 إلى حجرة الجلوس وهو يقول في أثرها:  
 - عزيزي سمراء وجددي، أيّ سعادة...  
 وأسكتت الراديو وهي تسأله:  
 - كنت تسمع آخر أنباء الغارات؟ بي شوق نهم إلى  
 كوكيتلك.  
 فأتمّجه إلى البار وهو يقول:  
 - أول مرّة محضرين فيها وحدك!  
 فقالت بنعومة وهي تتناول كأسها:  
 - إنما أجيء هذه المرّة من أجل نفسي لا من  
 أجلك.  
 متوسّطة القامة، رشيقة كلاعبة في سيرك، بيضاء

فنظرت إليه بحبّ استطلاع وإشفاق فقال:  
 - لم أكن شيوعياً عندما اعتُقلت بتهمة الشيوعية.  
 - ذلك مؤسف بقدر ما هو غريب.  
 فقال باسماً:  
 - بقدر ما أنت جميلة...  
 وساءلت نفسها كم مرّة سمعت هذه الجملة. ولكن  
 كم مرّة قيلت لوجه الجبال وحده؟ قالت:  
 - لا تبالغ.  
 - من أوّل نظرة شعرت بأنّه سيكون لك معي  
 شأن.  
 فقالت ببساطة:  
 - شكراً...  
 ثمّ مستدرّكة في تساؤل:  
 - ولكن كيف سقطت عليك تهمة الشيوعية؟  
 - لا أدري.  
 - لم أكن أتصوّر أنّ الأخطاء تقع بتلك السهولة.  
 فقال متهمكماً:  
 - كلّ شيء ممكن.  
 فتجلّت في عينيها العسلّيتين نظرة تشعّ سخرية  
 ومرارة معاً.  
 قال:  
 - كنت في الثامنة عندما قامت الثورة فأنا أحد  
 أبنائها...  
 وتبادلا نظرة طويلة قال بعدها:  
 - منى زوجة أخي معجبة بك، وحدثتني أيضاً عن  
 أخيك البطل.  
 - إنّه يشقّ طريقه في الظلام بإرادة قويّة.  
 - وأثارت إعجابي أيضاً بزوجه...  
 - أحياناً يرتفع الحبّ بالإنسان إلى ذروة عالية.  
 - أظنّه كذلك دائماً...  
 - كلاً، ليس دائماً...  
 فقال باسماً:  
 - لا داعي للتشاؤم فإنّي أكرهه.  
 - حسن.  
 واحتسبا الشاي وتناولوا أربع قطع من الجاتوه،  
 وتبادلا في أثناء ذلك نظرات موحية.



## ٤٤٠ الحب تحت المطر

- موردة، من الأمام ومن الناحية اليسرى تتبدى جمالاً  
أنيقاً نبيلًا، أما عارضتها اليمنى فمشدودة في تقلص،  
مدبوغة باحمرار ضارب للسواد، وبها بقع منقرة  
ونتوءات كالدرن، جلست واضعة رجلًا على رجل  
وهي ترنو إليه بغموض وتحفز حتى أثار حبه  
استطلاعها إلى أقصى حد. قال وهو واقف أمامها:
- ما أسعدني بك يا سمراء.  
- لا تكذب، أنت تسعد بالعصافير التي أجيء  
بها...  
- ولكنتك تعلمين كم أحبك واحترمك.  
فقالت ساخرة:  
- لا يهمني الاحترام!  
- لا شيء يرفع من شأن الإنسان كالمأسة.  
- لا تدغري بأشياء لم أهد أتدغرها.  
فقال بلهجة صادقة:  
- نحن في زمن خسيس معبوده المال، ويوسعك أن  
تربحي منه الآلاف، ولكنتك تجودين بكل جميل من  
أجل اللهو والحب لا المال، أنت من كوكب آخر...  
فقالت ضاحكة في سرور:  
- أنا صاحبة محلّ وغنيّة...  
- لا تبخسي حقك من الثناء، لو أردت لبلغت  
درجات أخرى من الغنى لا يقاس بها غناك!  
فقامت بنفسها إلى البار لتملأ كأسها من جديد ثم  
عادت إلى مجلسها وهي تقول:  
- اسمع يا عزيزي الكهل الفاسق، إنما قصدتك  
لمسألة تهمني شخصيًا!  
- في خدمتك، لعلك تريدون مشاهدة آخر  
الأفلام.
- فقالت بهدوء، وهي تنفد إلى روجه بنظرة عينيها:  
- أريد عليّات!  
لاح لأول وهلة كأنما يحاول تذكر صاحبة الاسم  
فقالت بتحد:  
- الفتاة التي دعوتني لإجهاضها!  
- آه، ولكني لا أدري عنها شيئًا تقريبًا إلا إذا  
جاءتني بنفسها، هل لي أن أتفقد فأسأل عن السبب؟  
فقالت ببساطة:

- ٣٥ -

الحياة تظلمها سحب دكناء من القلق والمخاوف  
الصامتة. بذلك شعر مرزوق أنور. وفتنة تشاركه  
مشاعره وإن تظاهرت بغير ذلك. والاستمتاع بمظاهر  
الحياة البراقة، المحفوف بالضحكات البرنائة وقرع  
الأنخاب لا يغير من الحقيقة شيئًا. وكلما زادت  
المجاملات الناعمة زاد الحذر والتوجس، وتلوت في

## الحب تحت المطر ٤٤١

- لم يعد يهمني في شيء .  
وصممت قليلاً ثم قالت:  
- ما يهم حقاً هو حبنا!  
- من الجنون أن نرحف إذا كان بوسعنا أن نحلق!  
- ماذا تعني؟  
فلم ينس. أطبق فكيه فتجلت قسوته الكاذبة.  
قالت:  
- ما أكثر وساوسك!  
فابتسم وقال:  
- حذار من العطف!  
فهتفت بحدّة:  
- لا تردّد هذه الكلمة!  
- سمعاً وطاعة . . .  
وهي تتنهد:  
- ما أتعس المواقف التي ليس لها حلّ .  
- ولكنّ لكلّ موقف مهما تعقّد حلّاً .  
- على حساب الكرامة أو السعادة أو الاثنين معاً .  
- هو خير من الجمود الذي يشلّ الإرادة .  
- لا أوافقك .  
فقال بضجر:  
- علينا أن نسلّم بأنّ السعادة التي حلمنا بها لم  
تتحقق كما حلمنا بها!  
فصاحت بنبرة منذرة بالبكاء:  
- أنت تهينني!  
- كلامي لا يتضمّن أيّ إهانة .  
- هذا ظنّك!  
فقال بأسف:  
- أردنا أن نركب في جسمنا المشترك جناحاً فانقلب  
عكازاً!  
فقالت بحدّة:  
- ما أردت إلّا أن أتزوج من الرجل الذي أحبه .  
فقبّلها بطريقة آليّة وقال:  
- تقبلي اعتذارى .  
ثمّ قام وهو يقول:  
- سأتمشى في الخارج قليلاً .  
- في هذه الساعة من الليل؟

- مكاتها كالديدان . وقال لها مرزوق يوماً:  
- ها هو موسم التعاقدات انتهى ولم نظفر بعقد  
واحد!  
فقالت باستهانة:  
- ليكن عام إجازة .  
وكان يقرأ قلبها ويسمع ما يقال في الوسط فقال:  
- لا يمكن أن تسير الأمور هكذا .  
فقالت بإصرار:  
- فلتسير كما تشاء .  
هذا عناد المعركة لا الحب . ومن يدري إن كان  
للحب وجود إلّا كقشرة لنواة المعركة الصلبة .  
الشخص الذي أحبته لم يعد له وجود . قال:  
- لا يجوز أن تنتظر حتى نفلس معاً .  
- أنت كثير المخاوف، والدنيا أفضل بكثير ممّا  
تتصوّر .  
- أرجو ألا ترفض عملاً بسببي مستقبلاً . . .  
- حتى لو كان مع أحمد رضوان؟  
- ولو كان مع أحمد رضوان .  
- ولكنني مصمّمة!  
فهتفت بيأس:  
- إليّ أرفض . . .  
- أتقبل أيّ دور ثانوي؟  
- لن يكون أفضل من الالتحاق بوظيفة عادية .  
فانزعجت وقالت:  
- صارحني بما في قلبك .  
- أودّ أن تعملي في حقلك وأن أعمل في حقل  
الأول .  
فأحاطت عنقه بذراعيها وقبّلت خدّه وقالت:  
- أنت ضحية حبي!  
فقال وهو يداري استياءه:  
- لا مكان للعطف هنا!  
فقالت بعتاب:  
- ولكنني أحبّك أوّلاً وأخيراً .  
فقبّل خدّها أيضاً وقال:  
- أصغي إليّ، لقد لفظت نفسي الفرس .  
فحوّلت وجهها عنه في تأثر بالغ فقال:  
- أنت ضحية حبي!

فقال وهو يمضي:

- في هذه الساعة يُعتبر المشي دواء.

- ٣٦ -

كانوا يدخنون في سكون الليل يظلمهم صمت مريح. حسني حجازي يناجي الدخان الذي ينفثه بتمهل وانسجام، وعبدہ بدران يدخن سيجارة، كذلك عشاوي وهو قابع على كتب من دفء النصبه، وفي الخارج ترامت اصوات المنشدين في مولد سيدي البيومي. وجاء بياع الفلافل يحمل رغيفاً محشوياً تتدلى من أطرافه بعض عيدان البقدونس فأعطاه لعشاوي، ووقف ينتظر النقود والآخر يلتقطها من علبة صفيح ببصره الأعمش. وفي فترة الانتظار قال له بياع الفلافل:

- تسلك رجالنا أمس إلى خطوطهم فدمروها...

فهز عشاوي رأسه باعتزاز فعاد الرجل يقول:

- وسيعقب ذلك زحف الجيش!

فقال عشاوي وهو يعطيه القروش:

- ولا تنس هجمات طياراتنا، جاء دورنا...

ذهب الرجل راضياً. ومضى عشاوي يتناول طعامه ويتمطق بصوت مسموع تخلته قرقرة النارجيلة.

والثفت عشاوي نحو حسني حجازي وقال:

- جاءوا له بعربة ذات ثلاث عجلات يقتعدنها

ويسيرها بيديه ولكنه لا يخرج بمفرده بعيداً...

لم يدرك حسني حجازي عمّن يتحدث بادي الأمر، ثم تذكر حكاية جاره البطل الذي بُرت ساقاه فقال:

- عظيم... عظيم...

وسأله عبده بدران:

- هل يمكن أن يتزوج يا عشاوي؟

- يمكن، علمت ذلك من جدته!

فقال حسني حجازي:

- زوجه تكسب ثواباً، الإنسان يعتاد أي شيء

ولكنه لا يطيق الوحدة.

فقال عم عبده:

- إبراهيم يواجه الحياة بعزيمة ونجاح.

فقال عشاوي:

- إنك متعلمٌ وذلك ميزة كبيرة.

وبصراحته الخشنة راح يقارن بين العمى وققد

الساقين ثم تأوه قائلاً:

- في شبابي كنت إذا اخترقت طريقاً يختفي اليهود

من جوانبه...

ولم يتمالك حسني نفسه فضحك حتى سعل. وعادوا

إلى الصمت فترامى إليهم مرةً أخرى صوت المنشدين.

وهز عشاوي رأسه طرباً وقال:

- كنت يوماً من مريدي البيومي...

فقال له عبده بدران:

- طول عمرك مجرم ولا شأن لك بالطريقة.

فقهقه العجوز ولم يعلق. وأقبل عم عبده نحو

حسني حجازي كمن ضاق بسرّه، وكان الأستاذ يحسن

قراءة أفكاره فسأله عمًا وراءه فقال:

- عليّات جاءها ابن الحلال...

فأبدى الرجل سروره متمتاً:

- حقاً!

- شابٌ موظف، أخوه قاضٍ كبير.

- على بركة الله.

وسكت الرجل متفكراً ومتردداً ثم قال:

- قيل لي إنّه كان مسجوناً!

فتساءل عشاوي:

- هل يوظفون المساجين في هذه الأيام؟

فاستدرك عم عبده قائلاً:

- لأسبابٍ سياسيّة...

فقال حسني مخاطباً عشاوي:

- إنّها لا تمسّ الشرف يا عشاوي...

وقال عم عبده:

- وإبراهيم موافق، ولو كانت تمسّ الشرف لما وافق

أبداً...

فقال عشاوي:

- وأنا كنت مسجوناً سياسياً مرة.

فقال عبده:

- مرّة... ثمّ عشرات المرّات لا علاقة لها

بالسياسة!

- إن أردت الحقّ فالمخدرات كالسياسة لا تمسّ

## الحب تحت المطر ٤٤٣

- كلاً .  
 - إذن ستنشأ متاعباً  
 فتمتعت بخوف:  
 - متاعب؟  
 حدثها بإيجاز عن تاريخ سمراء وجددي وحاضرها  
 ثم قال:  
 - إنها عالم من التعاسة والمغامرة والمتعة...  
 فقالت بقلق:  
 - لن أذهب.  
 ثم بتوسل:  
 - أنت قادر على تجنيبي أيّ شرّ.  
 فقال لها بعطف:  
 - سأحاول ولكنني لست واثقاً من النتيجة...  
 ولم يتخلّ عن مسئوليته فدعا سمراء. قدّم لها  
 الشراب ممزوجاً بمزاجه العذب وهي تراقبه طيلة الوقت  
 بنظرة ثابتة من خلال أهدابها الطويلة، ثم قالت له  
 بذلك:  
 - ادخل في الموضوع بلا لفتاً  
 فضحك عالياً وقال:  
 - صاحبك ليست من أهل ذلك.  
 - لم تُلّمي دعوتي.  
 - جاءني أنا.  
 - صارحتها؟  
 فقال برقّة متودّدة:  
 - ليست من أهل ذلك وهي شارعة في الزواج  
 فاصرفني عنها النظراً  
 فاجتاحتها موجة عاتية من الهياج وهتفت:  
 - الخنزيرة!  
 - سمراء!!  
 - إني إذا غضبت...  
 - لا داعي للغضب.  
 - دع تقدير ذلك لي أنا.  
 فداعب ذقنها بأصابعه وهو يسأل:  
 - وهل بالقوّة يمارس الإنسان ما لا يجب؟  
 - الخنزيرة، هل نسيت؟  
 - سمراء، عليّات عانت تجربة مريرة مثلك، وهي

الشرف!  
 - فلنسلّم بذلك، والضرب والاعتداء؟  
 فقال بفخار:  
 - فتونة ومجدعة!  
 فهتف ضاحكاً:  
 - عليك اللعنة!  
 فقال عشياوي وهو يضرب كفّاً على كفّ:  
 - ماذا جرى للعنينا؟ نسوان عرايا في الشوارع،  
 مساجين موظّفون، ويهود غزاة!  
 ورجعوا إلى الصمت وسماح الأناشيد...  
 - ٣٧ -

كانت عليّات تعمل بالوزارة عندما زارتها - بلا  
 سابق معرفة - إحدى العاملات في محلّ سمراء  
 وجددي. أخبرتها أنّها تعبت كثيراً قبل أن تعثر على  
 مكانها ودعتها إلى مقابلة سمراء في محلّها بشارع  
 شريف. انقبض قلب عليّات. إنّها لا تنسى فضل  
 سمراء. وسبق أن زارتها في المحلّ للشكر. ولاحظت  
 أنّها راغبة في توثيق علاقتها بها بحرارة غير عاديّة  
 وبأسلوب أثار في نفسها الريب. لذلك لم تفكّر في  
 زيارتها مرّة أخرى. وانقبض قلبها إزاء دعوتها  
 الجديدة. إنّها حزمة من المتناقضات، فهي نبيلة المظهر  
 مترقّعة عن المال ولكتّنها ذات خبرة فاجرة وعلاقة حميمة  
 بذلك الدكتور التي تشبه عيادته مشرحة الجثث.  
 ومضت ذاك المساء إلى حسني حجازي وقصّت عليه  
 قصّة الدعوة وجملة وساوسها. وارتبك الرجل بادئ  
 الأمر، ثم قال لها ببساطته المخيفة أحياناً:

- سمراء مغرمة بك!  
 ليس من الممكن أن تحمل قوله على محمل آخر رغم  
 قابليّته لأكثر من معنى فارتاعت حقاً، ولكتّنها تغابت  
 وسألته:  
 - ماذا تعني؟  
 - أنت تفهمين تمامًا ما أعنيه.  
 فقطّبت وزمّت شفّتها فساها برقّة:  
 - ألم تكن لك تجربة في ذلك؟  
 فقالت بتقرّز:

## ٤٤٤ الحب تحت المطر

شارعة الآن في الزواج.

- لن تتزوج!

فهاهه القرار وقال:

- لست قاسية ولا شريرة.

- إذن فأنت لم تعرفني بعد.

- ولكن ماذا تنوين يا عزيزي؟

- سأطلع خطيبها على حقيقتها.

فهتف:

- لا.

- بلى.

- لا أصدق.

- سوف ترى.

فأسكتته الهزيمة ملياً ثم قال:

- لقد تركت معدبك الأول يرح بلا عقاب!

- كنت غرة.

وتحوّل حسني عنها في يأس ومضى نحو البار.

- ٣٨ -

اختفى مرزوق أنور فلم يعثر له أحد على أثر. فعل

فعلته واختفى. قضى على نفسه بحبس شبه انفرادي

في بنسيون بحلوان. ومن محبسه تابع أخباره في

المجلات الفنية. أخبار طريفة حقاً. مرزوق يهرب من

بيت الزوجية ويرسل إلى فتنة ناصر وثيقة الطلاق

ورسالة مؤثرة، فتنة تنهار عصبياً ويعودها الأطباء، فتنة

تبحث عن مطلقها في مظانه فلا تقف له على أثر.

وتمضي فترة تخفت بعدها الأصوات وتنداح الحادثة في

خضم الحادثات. وتمضي فترة أخرى ثم يُنشر خبر عن

قبول فتنة العمل في فيلم جديد من إخراج أحمد

رضوان. وقال مرزوق لنفسه إنه كالميت ولكن أتيح له

ما لم يتح لميت من قبل وهو أن يشهد ما خلفه وراءه

من وجود وعدم. وقال أيضاً بأنه لم يكن أمامه إلا

إحدى اثنتين، فإما حياة كلب أمين أو قواد. ولما استقر

كل شيء في موضعه رجع إلى أهله وقرر السعي إلى

الالتحاق بوظيفة.

وما تدري عليّات يوماً - وهي في مكتبها - إلا وهو

يفاجئها بزيارة. تطلعت إلى وجهه نصف دقيقة كأنما

هي في شك من هويته. جرحه ذلك حتى أدماه. وقال لها:

- لم يكن مفرّ من حضوري.

ولم تفهم مراده، ووضح له أنّها برمة بزيارته، ولكنّه

قال:

- أودّ أن أعتذر لأستطيع مواصلة الحياة.

فتالكت مشاعرها وقالت:

- لا أهميّة لذلك.

جلس بدلاً من أن يذهب وقال:

- فلتناول غداءنا معاً لأقول كلمتين.

فقالت ببرود:

- لا معنى لذلك البتة.

- إني مُصير.

ولست فيه حالة مخلخلة تقتضي الملاينة فوافقت.

ذهبا إلى الكورسال القديم فتناولوا غداء بلا استطعام

ثم طلب قهوة، وأشار إلى وجهه وهو يقول:

- هذا ما آل إليه حالي.

فمسحت بإرادتها أيّ ظلّ للتعبير وتمتت:

- سوء حظّ حقاً ولكن يمكن قهره والانتصار عليه.

- شكراً.

- لا داعي لليأس مطلقاً، تذكّر مثال أخي

إبراهيم.

فكرّر شكرها. وشعر بمناعة تطوّق روحها كالحصن

فجعل يفكر صامتاً ثم قال:

- لا شك أنّك غاضبة عليّ.

فقالت ببساطة صلبة:

- مضى ذلك وانقضى.

فقال باسمًا بسمة لا معنى لها:

- ذلك أدهى وأمرّ.

فلاذت بالصمت، فقال:

- نرتكب أحياناً جرائم تحت سيطرة جنون لا معنى

له.

فقالت معترضة:

- بل له معنى.

فقال بلهجة تعلّمها من التمثيل رغم صدقه:

- قلت لنفسي لعلّ ما نالني من عقاب يشفع لي في

## الحب تحت المطر ٤٤٥

وإذا بسمرء وجدي تظهر فجأة فتقف عند طرف المنضدة بينها. بهتت عليّات واختفى الدم من وجهها. ودهش حامد وجعل يردّد عينيه بينها وهو لا يفهم شيئاً. وهمّ بالكلام ولكنّها سبقته فقالت مخاطبة عليّات ورائحة خمر تتردّد مع أنفاسها:

- أنا عنيدة كما ترين . . .

فتساءل حامد:

- ما الخبر؟

فقال له سمرء:

- ادعني أولاً للجلوس كما يقضي الدوق.

ورأى في موقف المرأة خطراً خفياً يهدّد سلامتها فقال:

- ولكنّي لم أتشرّف بمعرفتك.

فجلست وهي تقول متحدّية:

- ها أنا أجلس بلا استئذان.

وضحكت ضحكة تعتبر مزعجة في وقار السكون فقال حامد:

- تصرفك غير لائق . . .

فقال ساخرة:

- ولكنّ خطيبتك تعرفني وقد جئت لأشكوها إليك.

فقال متأثراً بتضعض عليّات:

- ما زلت أعتبر تصرفك غير لائق.

فتجاهلت احتجاجه وقالت:

- أشكو إليك فتاتك فقد قدّمت لها خدمة لا تقدّر ببال فلم أنل منها إلا الجحود . . .

همّت عليّات بصفعها ولكنّها خافت من تفجّر مضاعفات مجهولة، جنبت فعجزت حتّى عن الكلام وتساءل حامد بغضب:

- ماذا تريدين؟

فقال سمرء بتحدّ فاجر:

- نتكلّم أولاً عن الخدمة وسأترك لك تقدير الثمن.

تمتت عليّات:

- مجرمة، أنت مجرمة . . .

فضحكت سمرء بقسوة وقالت:

الغفران.

- لا أدري عمّا تتكلّم.

فتردّد ملياً ثم تساءل:

- هل أطمع في غفرانك؟

- لا أدري عمّا تسأل.

- لكنّه واضح.

- لم يعد لذلك أهميّة.

- ولكنّه بالنسبة إليّ هو كلّ شيء.

- أكّرر بأنّه لم يعد لذلك أهميّة.

فالتمعت عيناه ببريق أمل وقال:

- لعلّه يفتح لنا صفحة جديدة؟

فقال بحزم:

- أيّ صفحة جديدة؟

- لكنك تفهمين قصدي تماماً.

فقالت بنبرة قاطعة:

- لا تضيع وقتك سدى.

- أصغي إليّ . . .

- أرفض مجرّد التفكير في ذلك.

- لننتظر حتّى يهدأ غضبك.

- لست غاضبة، صدّقني، ولكنّي أستعدّ لصفحة جديدة أخرى.

وأرته دبلة خطوبتها، فتمتم:

- حقاً؟

- سأنزّوج في وقت قريب.

وساد الصمت حتّى تساءل:

- أهو رأي نهائيّ؟

- طبعاً.

وقامت وهي تقول:

- أنّ لي أن أذهب.

ومضت وحدها. وجدت في قلبها ارتياحاً شاملاً وشعوراً بالتحرّر والنصر. ومن أمارات التوفيق أنّها لم تضمّر نحوه كراهية ولا حنقاً ولا شتاة فقالت لنفسها: مات تماماً فما أعجب ذلك!

## ٤٤٦ الحب تحت المطر

تحلي لنا الجوّ لنواصل حديثنا!  
وقامت متعثرة بالحيرة ثم مضت في عصبية.  
أسندت عليّات رأسها إلى يدها وأغمضت عينيها في  
إعياء موشكة على الانهيار الكامل.  
ونظر إليها في صمت وحزن. وشعر بالعاصفة في  
قلبها فهال نحوها بعطف وقال:  
- أقترح أن نسير في الهواء الطلق.  
رفعت رأسها وقالت باستسلام يائس:  
- حامد...  
فقاطعها بلطف:  
- لا داعي للكلام، نحن في حاجة إلى الهواء  
الطلق.

- ٤٠ -

كان حسني حجازي يعاني قلقًا في باطنه بخلاف  
عادته في مجلس الليل الهادئ بالانشراح. أطلق كامن  
قلقه في النارجيلة فمضى يأخذ أنفاسًا متتابعة حتى  
اشتعلت الجمرات واحترق التبغ نافثًا رائحة فظّة.  
وتوقّع طيلة الوقت أن يروّج عمّ عبده بدران عن حزنه  
فيعلمه بفسخ خطوبة عليّات. وها هو يقف مستندًا  
إلى غطاء الجدار الخشبيّ، يدخن سيجارة، ونظرته  
الثقيلة المعتمة ثابتة كأنه موشك على النعاس. لعلّه  
يتحرّج الفرصة ليبوح بهمه، وعند ذلك سيجد هون نفسه  
في صميم مأساة لأوّل مرّة. وكان عشياوي مقرّضًا  
قرب النصبه. لا يثرثر كعادته، لوعكة برد ألمّت به،  
فبدا كعجوز يحتضر. وتجنّب النظر ناحية عمّ عبده.  
وشمّ الرجل رائحة التبغ المحترق فاقترب قائلاً:  
- هل أبّل لك التبغ؟  
فانتبه حسني لمعاملته العصبية للنارجيلة وقال له:  
- غيّره...

ومضى الرجل بالنارجيلة فجدد التبغ ثم رجع بها  
بتبغ جديد كسبيكة ذهبية. وقال:  
- زارنا مرزوق أنور مع سنية وإبراهيم!  
فأنس حسني خيرًا وقال بحماس مفاجئ:  
- يا له من جريء!  
- واعتذر، وهنّائي على خطوبة عليّات الجديدة...

- الله يساعك.  
فقال حامد بحقن:  
- من فضلك، أنا لا أسمع.  
فقاطعته بقحة:  
- تصوّر فتاة من أسرة شعبية، اضطربت أحشاؤها  
بجنين سهوًا وهي...  
فقاطعها بغضب:  
- اذهبي من فضلك.  
فواصلت حديثها:  
- كيف تتصوّر بؤسها؟! وكيف تقدّر صنيع من  
يخلّصها من الجنين ويردّ إليها شرفها.  
وجعل حامد يشير إليها بأصبعه مهتدًا وقد أعجزته  
انفعالاته عن النطق، ثم قال:  
- من الأفضل لك أن تذهبي...

- تهديني؟

- نعم.

فسألت عليّات متهمّة:

- ما رأيك يا عليّات؟

لم تنبس عليّات. وغلب الغضب والانفعال حامد  
فخرس. واربّد وجهه بألوان قائمة.

وضح أنّ عاصفة عاتية اجتاحتها. وأمنت سمراء  
بأنّها أصابت الهدف وأنها أنهت مهمّتها على خير وجه.  
وهمت بالقيام تحت تأثير خوف طارئ. ولكنّ حامد  
اجتاز أزمته. كبح انفعالاته. مرق منها باردًا صلبًا  
عنيّدًا. سأل المرأة:

- أنت التي قمت بتلك الخدمة؟

فهزّت رأسها بالإيجاب فسألها متحدّيًا:

- لعليّات؟

فهزّت رأسها مرّة أخرى، فقال وقد سيطر على  
أعصابه تمامًا:

- أنا مدين لك بالشكر، أيّ ثمن تطلين؟

فتفحّصته باهتمام لترى لأيّ درجة هو جادّ أو  
غاضب، فعاد يسألها بهدوء:

- ماذا تطلين؟

فداخلها اضطراب وحيرة فقال:

- يبدو أنّك لا تريدني شيئًا، وعلى ذلك فأرجو أن

## الحب تحت المطر ٤٤٧

بالجميع ولكن بأيّ حكمة يمكن دفعه؟ التدخّل من ناحيته يعني افتضاح أمره، وسيؤدّي في النهاية إلى هتك الستر عن البيت السحريّ. ولكن ينتفي الخطر إذا التزم بموقف المشاهدة؟ ومتملّص من الشلل أو هكذا خيّل إليه. فتح فاه وقال محدّراً:

- إنّها امرأة مجنونة ومغمورة!

ولكنّ أحدًا لم يسمعه. لم يخرج الصوت من فيه. خذلته قواه فاحتواه العجز. لم تتحوّل عيناه عنهما. أرهف السمع ولكنّه لم يسمع حرفًا مما يقال. المرأة تمس والرجل يصغي باهتمام شديد. وعشاوي ينظر ويصغي ولكن دون جدوى. وتأرجح المجلس بحسني حجازي وغاص في باطن الأرض. وطار عشّه السحريّ في الهواء على أجنحة الزبانية. ركّز بصره على وجه عمّ عبده بدران. ها هو يصغي وتتحرّك شفاته أحيانًا. وها هي نظراته الثقيلة تزداد قسامة. ها هو يُقَطَّب ويمتاح وجهه موجة سوداء. تراجع رأسه إلى الوراء كأنّما تلقى لكمة ثقيلة. سقطت السبجارة من يده. قدحت عيناه شررًا. نلّدت عنه آهة ذبيحة محشرجة. ترنّح كالتمل. وفجأة انقضّ على المرأة يقبض على عنقها بكلتا يديه وشدّ عليها بكلّ قوّته. وفزع حسني فصاح:

- لا... لا...

قام كالمجنون فارتطمت ركبته بالنارجيلة فألقت بها على الأرض وقام عشاوي وهو يتساءل:

- ماذا جرى!

هرعا نحو الرجل وحسني يتوسّل إليه:

- انتبه لنفسك يا عمّ عبده...

ولكنّ الرجل لم يفكّ قبضتيه الفولاذيتين حتّى كانت المرأة جثّة هامدة...

- ٤١ -

- هل خنقت هذه المرأة؟

- نعم.

- لماذا خنقتها؟

- .....

- لماذا خنقتها؟

- المسامح كريم.  
- وجد وظيفة في مؤسسة النقل وسيكمل تعليمه للحصول على شهادة بعد الليسانس.  
فقال حسني وهو يوغل في الارتياح:  
- جميل أن يجد الإنسان حياته...  
- وأصبح أمله الأوّل والأخير أن تتاح له الهجرة يومًا ما.

- الهجرة موضحة هذه الأيام الغربية.

وقال لنفسه إنّ عليّات بخير. وإنّ سهم سمراء قد طاش. وشعر بامتنان نحو العقليّات التي تتجدّد وتتجاوز الزمن. وتشجّع فسأله:

- وما أخبار عروستنا؟

فقال عمّ عبده:

- الخطيب يرغب في الزواج في أقرب فرصة.

- على خيرة الله!

فقال الرجل بأسف:

- لا أستطيع أن أقدم لها شيئًا ذا بال.

- لا أهميّة لذلك.

وترامت إليه حركة عند الباب، التفت فرأى سمراء وجددي واقفة كتمثال. نظر إليها عمّ عبده أيضًا بدهشة. ورفع عشاوي رأسه وضيق عينيه ثمّ فغر فاه. ارتجّ قلب حسني ووقف شعره. وتمتم وهو لا يدري:

- غير معقول!

ألقت عليه نظرة باردة مهدّدة ثمّ حولت عنه رأسها بتحدّ. نظرت إلى عمّ عبده بدران وتساءلت:

- عمّ عبده بدران؟

ذهل الرجل. أقبل نحوها ملبّيًا في أدب، ومتأثّرًا غاية التأثير بمظهرها الأنيق الفاخر، ثمّ قال:

- أفندم؟

مضت إلى ركن المقهى الأقصى فتبعها على الفور. شدّت إليها الأبصار. حنّ حسني حجازي ما وراء مجيئها بفزع. وتذكّر وهو يحنّق أنّها استدلت على المكان بإرشاداته التي وردت ضمن حديثه بلا قصد. إنّهُ محور الرحى التي تطحن مجموعة من البشر لم يكن لها طيلة حياته إلّا المودة. وثمة شرّ يوشك. أن يجيق



- بعد منتصف الليل أمر غير معقول .  
 - لعله كان يعرفها من قبل؟  
 - لم يتبادلا كلمة واحدة والعلم عند ربك .  
 ولم تأت شهادة الأستاذ حسني حجازي بجديد عن  
 مضمون الحادثة . وقد سأله المحقق:  
 - لم قلت «غير معقول»؟  
 - كان يجيئها إلى الانشراح في تلك الساعة غير  
 معقول .  
 - ألم ترها من قبل؟  
 - بلى، أعرفها معرفة عامة فهي صاحبة محل تجاري  
 في الشارع الذي أسكن فيه .  
 - هل لك أن تحدد لي نوع معرفتك بها؟  
 - معرفة عابرة ليس إلا .  
 - ولكنكما لم تتبادلا ولا تحية عابرة؟  
 - توقعت ذلك ولكنها تجاهلني تماما .  
 - ما تفسير ذلك في نظرك؟  
 - لعلها كانت مستغرقة بالمهمة التي ساقتها إلى  
 المقهى .  
 - وماذا تعرف عما كان بينها وبين عمّ عبده؟  
 - لا شيء البتة .  
 - وماذا دار بينهما؟  
 - لم أسمع حرفا .  
 - ما تفسيرك للجريمة؟  
 - إنها مذهلة ولا تفسير لها عندي .  
 - ما هي معلوماتك عن القتل؟  
 - لا علم لي بدخائلها .  
 - ما تفسيرك لصمت المتهم؟  
 - إنه لغز ولا تفسير له عندي .

- ٤٢ -

رجال الشرطة شياطين . وهم يملكون جحيم  
 الأرض وينفثون النيران في الوجوه الشاحبة . بطرقون  
 الأبواب بأيدي أليفة كالأحباب ثم يفتحون البيوت  
 كالأعاصير . ويقف الكهل بين أيديهم مجردا من  
 الكرامة فيفترس الخوف قلبه ويوقن بأن الحياة وهم  
 وضياح . وينقبون الجدران والحشيات والجيبوب

- .....  
 - ما علاقتك بها؟  
 - لا أعرفها .  
 - أتقول إنك لا تعرفها؟  
 - لم أرها قبل هذه الساعة المشنومة .  
 - فلماذا خنقتها؟  
 - .....  
 - خنقتها بلا سبب؟  
 - .....  
 - ماذا قالت لك؟  
 - .....  
 - الصمت معناه أنك تجود بعنقك لحبل المشنقة .  
 - .....  
 وأصرّ عمّ عبده بدران على الصمت .  
 ومن خلال شهادة عشراوي تجسدت صورة لظهور  
 سمراء المفاجئ . وتطلّعت إلى عمّ عبده بدران وهي  
 تتساءل «عمّ عبده بدران؟» وقول الأستاذ حسني  
 حجازي «غير معقول»، ثم ذهاب المرأة وعمّ عبده إلى  
 الركن الأقصى، وحديثها الذي لم يُسمع منه حرف،  
 ثم الجريمة التي لم يستطع منعها أحد .  
 - أنادت عمّ عبده أم تساءلت عنه؟  
 - نظرت إليه وتساءلت «عمّ عبده بدران؟»  
 - إذن فلم تكن تعرفه؟  
 - هو ذلك والله أعلم .  
 - أليس لديك فكرة عن كيفية مجيئها إليه؟  
 - كآلا .  
 - ولا عما دار بينهما من حديث؟  
 - لم أسمع حرفا .  
 - ما مدى علمك عن علاقات صاحبك بالنساء؟  
 - أستغفر الله، إنّه رجل طيّب محمود السيرة

ومسكين . . .

- كيف تفسّر ارتكابه للجريمة؟  
 - لا أدري، إنّه لم يقتل دجاجة في حياته، والعلم  
 عند الله .  
 - لم قال الأستاذ حسني حجازي «غير معقول»؟  
 - لا أدري . ولكنّ مجيء امرأة جميلة إلى الانشراح

## الحب تحت المطر ٤٤٩

بالتحديد وإن كنت أعرف أنها موقوفة بالشئون، وقلت لها أيضًا إن علاقتها بي منقطعة تقريبًا وأنا لا أعرف أخبارها إلا عرضًا وفي مقهى الانشراح حيث يعمل والدها نادلًا به، ولم أكن أتصور أنها ستقوم بزيارتها الغريبة التي انتهت بمصرعها.

- ولم قامت بزيارتها الغريبة؟
- كانت مصممة على الانتقام من عليّات لعدم إذعانها لرغبتها الأئمة، فانقضت عليها وهي جالسة مع خطيبها وأخبرته على مسمع منها بحكاية الإجهاض، ولما خاب المسعى ولم يصب الهدف، أعادت التجربة مع الأب فقتلها.
- أعتقد أن ذلك هو الباعث الحقيقي وراء جريمة عمّ عبده؟
- ولا باعث غيره في رأيي.
- ألدك أقوال أخرى.
- كلاً.

كان حسني حجازي ينطلق بسيارته في أطراف المدينة عند الفجر. توقّدت أعصابه ففضت على أيّ أمل في النوم. وطارده أشباح التخيلات طيلة الوقت. ستجري التحريات حول سمراء وجدي وستكشف عاجلاً عن عالم حافل بالجنون والغرائب. إنه خير بهذه الأمور. سرعان ما يُعرف كلّ شيء. وسيجرّ التحقيق العشرات من البنات والفتيات. وقریباً تجتاح العاصفة العاتية عشه السحريّ السعيد ويكبّله القيد الحديديّ. ماذا يوجد في بيت سمراء وجدي من صور وأرقام تليفونات. وأسما، ترى هل تدون مغامراتها في مذكرات؟ هل يُدعى إلى التحقيق؟ هل يُزجّج به في السجن؟ هل يتحرر؟ هل من نخرج؟

- ٤٣ -

اجتمعت عليّات وحامد في دار الشاي الهنديّ. كانت منهوكة الأعصاب دامية العينين. واستعان هو بقواه الكامنة ليواجه الموقف ولكنّه كان يعيش بوجوده في جو مليء بالخواف المجهولة. وجعلت تردّد:

- أي... أي... يجب إنقاذه.
- هذا هو المأمول حقًا ولكن كيف؟

والخزائن فتتلاشى المسرات والأخيلة. عند ذاك يسير بينهم بلا أرجل، بلا أعين، بلا غد، تطنّ في أذنيه همهمة مغلّفة باللعنات، وإن يتبقّى له رمق فسيردّد بصوت محسّر: لقد انتهت.

- اسمك؟
- حسني حجازي.
- عمرك؟
- خمسون عامًا.
- مهنتك؟
- مصوّر سينمائيّ.
- أتعرف بأنك مالك هذه الأشرطة السينمائية؟
- أجل.
- وأنتك عرضتها على عشرات من البنات القاصرات؟
- أجل.
- وأنتك مارست معهنّ الجنس.
- أجل.
- ألا زلت عند قولك عن علاقتك العابرة بسمراء وجدي؟
- كلاً، أتعرف بأنها كانت صديقة قديمة.
- أكانت تجيئك بالبنات لمشاهدة أفلامك الجنسية؟
- أجل.
- وما علاقتك بعليّات ابنة المتهم عبده بدران؟
- كانت صديقة.
- ألم تكن يومًا عشيقتك أيضًا؟
- بلى.
- أتعرف بأنك يسرت لها الإجهاض؟
- بلى.
- كيف؟
- استعنت بسمراء وجدي.
- وهل اعترفت لك سمراء بأنها عشقت عليّات؟
- نعم.
- هل استعانت بك لتحقيق رغبتها الأئمة؟
- نعم ولكنّي حاولت صرفها عنها.
- أرشدتها إلى مكان عمّ عبده بدران؟
- سألتني عن مكان عملها فقلت لها إتّي أجعله

## ٤٥٠ الحب تحت المطر

قالت مصممة:

- بأيّ ثمن.

- سنبدل ما نستطيع وفوق ما نستطيع.

- نحن نعرف كلّ شيء.

- أجل... وهو مصرّ على الصمت صوتنا

لسمعتك.

فقالت وهي تكتم انتحابها:

- لن أنخّل عنك.

- لن نتركه لينال عقوبة رهيبه لا يستحقّها...

فرتت إليه بنظرة دامعة وقالت:

- ذاك يعني أن نشهد بما نعلم.

- لا مفرّ من ذلك.

- ولكن هل يصدّقوننا؟

- من رأيي أن نعهد بالقضيّة إلى الأستاذ حسن

حمودة وأن نشاورة في الأمر قبل أن ندلي بشهادتنا.

- طيب.

- فالطريق واضح.

فعضّت على شفيتها وتمتمت:

- سيعلن السرّ على الملأ.

- أجل.

- وستنشأ مصاعب ومتاعب.

فقال بإشفاق:

- ربّما.

- إني أضحي لإنقاذ أبي ولكني سأجرّك معي...

فقال محتجاً:

- لا أوافق على طريقتك في التفكير.

- الحقّ أنّي لا أريد أن أحملك فوق ما تستطيع.

وكان قلبه ينبض حيال العواقب المتوقّعة ولكنّه

قال:

- هذا شأننا أنا.

فقالت وهي تحفض رأسها:

- أنت في حلّ من...

فقاطعها بحزم:

- عليّات! ما هذا الهراء!

استجمع إرادته ليسحق تردده. غاص قلبه في

هاوية. سخر من مخاوفه واحتقرها..

قلف بنفسه في تصميم صلب. قال:

- لن أنخّل عنك.

- ٤٤ -

لأوّل مرّة تفرق الحجر في كآبة شاملة. وكان

حسني حجازي وعليّات يجلسان متقابلين ومتقاربين

يتبادلان نظرات جافّة باردة كنظرات أصنام الآلهة

والحيوانات فوق الأرفف. ولأوّل مرّة تتخلّى عن الرجل

روح الدعابة والشمول فتطحنه أشياء مجهولة تطبق على

الحجرة من عالم مجهول. قال لها:

- سألت عنك في كلّ مكان.

فقالت بنبرات مية:

- كنت قادمة بنفسني على أيّ حال.

نفذت إجابتها إلى أعماق روحه فقال بقلق:

- دائماً في خدمتك.

- نصحت أن أوكل الأستاذ حسن حمودة المحامي.

فضغط حسني على جناحي أنفه بأصبعيه متأملاً

ولكنّه قال:

- إنّه حجّة في الجنابات!

فانخفض صوتها قليلاً وهي تقول:

- يقال إنّ أتعابه باهظة!

فتنهّد بارتياح وقال:

- ستجدين تحت أمرك كلّ ما يلزمك.

- لا أدري كيف أشكرك.

فتناول يدها بين يديه وتساءل:

- عليّات، ألم أكن دائماً نعمّ الصديق؟

فأحنت رأسها بالإيجاب. انحدرت من عينيها دعة

فاستقرّت فوق ركبتيها. قال:

- لي عندك رجاء.

- ما هو؟

فسكت دقيقة كاملة ثمّ قال:

- ألاّ تذكري اسمي سواء عند المحامي أم في

التحقيق...

فقالت وهي تحفّف عينيها:

- لا أهميّة لذلك فيما أظنّ؟

فقال وبهجة من الأمل تشيع في نفسه:

## الحب تحت المطر ٤٥١

- معذرة، احتفظ بها، فإني لم أقبل القضية بعد.  
فقلت عليّات:  
- ولكنك ستقبلها طبعاً؟  
آه. سمراء وجدي. ترى لم قتلها الرجل؟ لفضيحة ما ولا شك. وسوف يقتضي الدفاع عنه النبش في ماضي الفتاة والكشف عن فضائحها والتشهير بها فهل يقوم هو بذلك؟ وهل يستبعد في تلك الحال أن ينبري شخص مجهول لهتك سرّه المنطوي وتعرية الدور الفاضح الذي لعبه في حياة الفتاة؟ ولم يتردد فأجاب:  
- آسف يا آنسة، لا وقت عندي البتّة...  
فهتفت عليّات:  
- ولكنك لن تتخلّى عنا؟  
- الأمانة تقتضي أن أتخلّى ولكنّي سأعهد بها إلى زميل معروف لا يختلف في تقديره اثنان!  
- ولكننا قصدناك أنت؟  
فقال بلهجة مؤدبة ولكن نهائية:  
- الأمانة وحدها التي تمنعني.  
وهمت عليّات بالكلام فمال حامد نحوها قائلاً:  
- علينا أن نصدّقه ونشكره، إن هي إلا عثرات في الطريق ولكنّه بات ممهداً لما تأمله...  
ولدى انفراد حسن حمودة بنفسه تمزّق قناع الهدوء الذي تخفى خلفه. غاص في مقعده وراح ينظر إلى السقف الأبيض بعينين ذاهلتين. لاحت له مخاوف غريبة كأشباح راقصة. وركبه إحساس لا معقول بأنّه مطارد. ووثب من مجلسه كأنما هو المسئول عن ضعفه وراح يتمسّى في الغرفة ويقول بصوت مرتفع ليطرده الأشباح:  
- محض أوهام، تاريخ ميت، الميت لا يُبعث! وكره الوحدة فغادر المكتب. استقلّ سيارته وجرى بها على غير هدى ساعة ثمّ هفا قلبه إلى لقاء صفوت مرجان فوجهها إلى شارع أحمد شوقي بلا ميعاد سابق. وجد الأستاذ منفرداً في الفراندا بشخص غريب لم يره من قبل. همّ بالانصراف ولكن صفوت دعاه إلى الجلوس فجلس وهو يسائل نفسه متى يستطيع أن يروّج عن صدره ويفضي بانفعالاته إلى صديقه. وقام صفوت بالتعارف بين الرجلين. وقدم الغريب قائلاً:

- عين الصواب، فهو لن يقدم فائدة ولكنّه سيضرتني كما تعلمين.  
- لن أفعل ما يضرّك.  
- شكراً، يمكن أن تقولي إنك عرفت سمراء في محلّها التجاري. وإنّها حاولت أن تنشئ معك علاقة شاذة فرفضت، ومن ثمّ أرادت أن تنتقم منك الخ... الخ.  
- هي الحقيقة في جوهرها.  
فقبل يدها وقال:  
- توكلّي على الله ولا تحملي للنفود همّاً.  
ولمدة دقائق - عقب ذهابها - شعر بأنّ الهمّ قد انجاب عن قلبه وبأنّ تيار الحياة يتدفّق من قلبه نشيطاً مهللاً. أنجوت حقاً؟ إن أكن نجوت فلن يمسنني الضرّ مدى الحياة. ولكن لم تدم تلك الحال طويلاً. وئدت بلا إنذار. عاد عقله يعمل ويفرز سموه المنطقية. ما أهمية وعد عليّات؟ وما قدرتها على الإفلات من حصار الاستجوابات؟ وهل تُجدي شهادتها إن لم تُدعم بشاهد عيان مثله كان محور الأحداث ومحرّكها؟ وهناك أيضاً التحريات التي تنشط في كلّ مكان الآن مثل الذئب الجائعة... لا... لا... لا أمان. عليه أن يهرب. في أوّل فرصة. ثمّة وعد سابق بتصوير فيلم لبنانيّ فليطلب السفر فوراً وقبيل أن يذكر اسمه في التحقيق. سيستقرّ في لبنان إلى الأبد. لا حياة له في هذا البلد.  
الوداع يا مصر...

## - ٤٥ -

يا لها من مفاجأة! أحقّ تقع هذه الأمور في الحياة؟ وأن يُدعى - هو - للدفاع عن قاتل سمراء وجدي؟ نقلّ بصره بين عليّات وحامد مخفياً انفعالاته وراء قناع بارد من التجرد. وقال:  
- قرأت ما نُشر عن الجريمة في الصحف ففكرت طويلاً في سرّ صمت المثّم.  
فقال حامد:  
- نحن نعرف الأسرار كلّها.  
فقال الأستاذ بعجلة:

## ٤٥٢ الحب تحت المطر

- أبو النصر الكبير من رجال المقاومة الفلسطينية .  
فانفجر في صدر حسن حمودة بركان من اللعنات .  
لم يكن من الذوق أن ينصرف فبقي على رغمه وهو  
يتلقى . وقال له صفوت :
- طبعاً سمعت بقبولنا المبادرة الأمريكية؟  
فأجاب بفتور:  
- أجل .  
- كنتا نناقشها .  
فقال بلا مبالاة:  
- معذرة، سأشرب كأساً لأني مرهق .  
أما أبو النصر الكبير فقال يواصل حديثه الذي  
قطعه مقدم حسن حمودة :
- ولكنّ للمسألة وجهها آخر، فالقضية ممتدة في  
الزمن وليست بقضية هذا الجيل وحده، ولا بأس أن  
يتقرر في لحظة زمنية وضرورة أقوى منا مؤقتاً  
التضحية بمجموعة بأسلة من العرب في سبيل صالح  
العرب ككل، ولكنّ الكلمة النهائية ستظلّ سرّاً مقدّساً  
في طوايا الغيب، كما سيظلّ ميلادها رهناً بالإرادة،  
فلما نموت موتاً غير مأسوف علينا، وإما نحيا حياة  
كريمة كما ينبغي لنا . . .
- تدقّ الكلام من فيه هادراً كال موج .  
وتابعه حسن حمودة بأعصاب متوترة، عيناه  
مغمضتان، وكأسه في قبضته لم يبقَ بها إلا ثمالة .

الحبيرة

# المطاردة

## مَسْرَحِيَّةٌ مِنْ فِصْلٍ وَاحِدٍ

- ١ -

- الأبيض : لنلعب لعبة الأحلام .  
 الأحمر : إنها مضجرة وخير منها الملاكمة .  
 الأبيض : الملاكمة رياضة عنيفة فلنَجْرِ في الهواء الطلق .  
 الأحمر : (ساخرًا) أنت جبان .  
 الأبيض : (بأسًا) أنت حيوان .  
 (يتوتبان لبعضهما في تحدٍّ — يتراجعان وهما يرهقان السمع في قلق)  
 : ماذا هناك ؟  
 (الأحمر يشير إليه بالسكوت ويرهف السمع) .  
 : سمعت شيئًا ؟  
 الأحمر : وقع أقدام !  
 الأبيض : حقًا ؟ !  
 الأحمر : اسمع ولا تتكلم .  
 الأبيض : (مرهفًا السمع . وَقَع أقدام يتضح) وقع أقدام حقًا .  
 الأحمر : هو ؟  
 الأبيض : أو أيّ ذي قدمين .  
 الأحمر : لا تتظاهر بعدم الاهتمام .  
 الأبيض : أنا لا أحسن التظاهر ولا أحبه .  
 الأحمر : ألا يزعجك حقًا ؟  
 الأبيض : بلى ، ولو لدرجة ما .  
 (تقترب الأقدام . يدخل رجل متين البنيان ، قويّ بصورة واضحة ، يرتدي قميصًا أسود
- (المسرح خالٍ تمامًا . يدخل شابان في ميعة الصبا . يرتدي أولهما قميصًا أبيض وبنطلونًا رماديًا قصيرًا وحذاء من المطاط ، ويرتدي الآخر قميصًا أحمر وبنطلونًا أزرق وحذاء من المطاط . سنطلق على الأول «الأبيض» نسبة إلى قميصه والآخر «الأحمر» نسبة إلى قميصه أيضًا . ينظران فيما حولهما باستطلاع واهتمام) .  
 الأبيض : مكان مناسب وبه كل ما نحتاج إليه .  
 الأحمر : إنه مكان على أيّ حال ونحن في حاجة إلى مكان .  
 الأبيض : (كمن يتذكر) يجئيل إليّ أننا لعبنا فيه من قبل .  
 الأحمر : (هازيًا) دائمًا تقول ذلك .  
 الأبيض : أو لعلّه قريب الشبه منه .  
 الأحمر : المهمّ أنّه مكان صالح للعب .  
 الأبيض : هذا هو المهمّ حقًا .  
 الأحمر : وهو بعيد فلن يهتدي إليه .  
 الأبيض : أرجو ذلك .  
 الأحمر : لعلّه يجد ما يشغله عتًا .  
 الأبيض : لعلّه .  
 الأحمر : كأنّه لا همّ له إلا التطفل علينا .  
 الأبيض : لو نُوفِّق إلى تجاهله !  
 الأحمر : كيف وهو لا يتركنا لحالنا ؟  
 الأبيض : فلنلعب .  
 الأحمر : فلنلعب .

الأحمر يتراجع مسافة ثم يجري نحو الآخر  
ويشب من فرقه معتمداً بيديه على ظهره  
المنحني، ثم يوطي بدوره فيشب الأبيض من  
فوقه، هكذا تستمر اللعبة حتى يتعثر الأبيض  
وهو يشب فيرتطم بالآخر ويقعان معاً،  
ويغرقان في الضحك. يقفان وهما  
يضحكان. ويكفّ الأبيض عن الضحك  
ويواضله الأحمر. الأبيض يشير إلى صاحبه  
بالسكون وهو يرهف السمع، ثم يتراجع به  
بعيداً عن الرجل).

الأبيض : يخيل إليّ أنّه طالبنا بالكفّ عن اللعب.

الأحمر : لم أسمع شيئاً.

الأبيض : ولكنّي سمعته.

الأحمر : سمعي أقوى من سمعك.

الأبيض : ولكنك كنت تضحك.

الأحمر : (غاضباً) أرى أن نوقفه عند حدّه . . .

الأبيض : يحسن بنا أن نتجاهله . . .

الأحمر : بأيّ حقّ يتدخل في حرّيتنا؟

(صمت)

: وكلّما سكتنا زاد في غيّه.

الأبيض : تذكر أنّه كان صديقاً لوالدنا!

الأحمر : لا نستطيع أن نحكم، كتنا وقتها صغاراً.

الأبيض : ولكنّه لم يكفّ عن زيارته حتى آخر يوم في

حياته . . .

الأحمر : لعلّه كان يتدخل في شؤنه كما يريد أن يفعل معنا؟

الأبيض : لا يبدو أنّه شرّير . . .

الأحمر : ولكن غير بعيد أن يكون به لطف!

الأبيض : لعلّ متابعتنا لنا حينها نذهب نوع من الرعاية

بحكم صلته القديمة بوالدنا؟

الأحمر : أنت عبيط، ولعلّه كان ضمن الأشياء التي

نعتصت صفو أينا في أواخر أيامه . . .

الأبيض : ولكنّ والدنا لم يذكره بسوء.

الأحمر : كتنا صغاراً لا نفقه لما يقال معنى . . .

الأبيض : لم يكن لوالدنا أعداء.

الأحمر : من أدرانا بحقائق ذلك الزمن؟

(صمت)

وينطلقون أسود وبيده سوط. رغم قوّته  
وشباب ملامحه فإنّه لا توجد شعرة سوداء  
واحدة في رأسه الأبيض.

تنحى الشابان جانباً وهما ينظران إليه في  
حذر. أمّا هو فوقف منتصب القامة ناظرًا  
فيما أمامه نظرة مجردة بعيدة المرمى وهو يحرك  
قدميه (تخلّك برّ) طيلة الوقت).

الأحمر : أرايت؟

الأبيض : نعم.

الأحمر : نذهب إلى مكان آخر؟

الأبيض : فلنلعب إن تكن لك رغبة في اللعب حقاً.

الأحمر : تحت عينيه؟

الأبيض : ولمّ لا؟

الأحمر : (ملاحظاً الرجل) إنّه لا يكفّ عن الحركة  
رغم أنّه لا يبرح مكانه.

الأبيض : المهمّ ألا يتدخل في شئوننا.

الأحمر : ولكنّه يتبعنا أينما سرنا.

الأبيض : لا يُعدّ ذلك تدخلاً في شئوننا.

(الصمت)

: فلنلعب «وطي البصلة».

الأحمر : (بهزّ منكبيه استهانة) فليكن، «وطي».

الأبيض : وطي أنت أوّلاً.

الأحمر : بل أنت الأوّل.

الأبيض : لا تكن أنانياً.

الأحمر : لا همّ لك إلّا المعارضة.

الأبيض : وأنت تتصرّف كأن لا وجود لأحد معك.

الأحمر : لاجبي «برا دي فير» والمغلوب يوطي.

(الأحمر ينطرح على بطنه ويركّز ذراعه على

كوعه ناظرًا إلى الأبيض في تحدّ فيضطرّ هذا

إلى أن يفعل مثله، يتصارعان، الأحمر يُميل

ذراع الأبيض حتى يلمسها بالأرض . . .)

الأحمر : (صائحاً بفرح) غلبت . . . لم يوجد بعد

الذي يستطيع أن يغلبني (تلوح منه نظرة

نحو الرجل القويّ المتحرّك فيبوخ حماسه

نوحاً) لم يوجد بعد . . . (الأبيض ينهض

مستسلمًا، يوطي واضعًا يديه على ركبتيه.



(يُضاه المشرح . نفس المشرح الخالي . يقف الأحمر والأبيض متواجهين . لقد تغيراً تغيراً ملحوظاً . ارتدى كلٌ منهما جاكته من لون القميص وحذاء جلدياً وأصبح لكلٌ شاربٌ صغير يتبادلان النظر في ارتياح) .  
الأحمر : هيهات أن يتعرّف علينا الآن .  
الأبيض : تغيرنا لدرجة لا بأس بها .  
الأحمر : ولكنّها كافية لتضليله . . .  
الأبيض : هذا هو المأمول .  
الأحمر : لا تبدو واثقاً ولا مطمئناً .  
الأبيض : يخيّل إليّ أحياناً أنّ التغيرٍ سطحيّ .  
الأحمر : أنت مولع دائماً بالتهوين من مهارتي . . .  
الأبيض : أسدأ ، استعدادي طيّب للاعتراف بمواهبك . . .  
الأحمر : إذن فلماذا تبدو مرتاباً؟  
الأبيض : أخشى ألاّ يحدّعه مظهرنا الجديد .  
الأحمر : لن يصل إلى حقيقتنا الكامنة وراء الشارب والجاكته والحذاء .  
الأبيض : عظيم ، هذا هو المأمول . . .  
الأحمر : نحن الآن موظّفان من قوّة الدولة!  
الأبيض : هذا صحيح و . . .  
(يصمت فجأةً متنصّناً . الآخر يتنصّت أيضاً) .  
الأبيض : وقّع أقدام . . .  
الأحمر : لا أظنّ .  
الأبيض : إنّه قادم . . .  
الأحمر : لعلّه عابر سبيل مجهول .  
الأبيض : بتّ أعرف إيقاع قدميه . . .  
الأحمر : لا تدّع امتلاك الحكمة كلّها .  
(يصبح وقع الأقدام مسموعاً . يدخل الرجل بنفس الصورة التي ظهر بها أوّل مرّة ، ولكنّه لا يقف وإنما يمضي ذهاباً وجيشة في بطن ملحوظ بعرض المشرح وفي عمقه . الشابان ينظران نحوه بذهول .  
ينتحيان جانباً بعيداً عن مسمعه) .

: لماذا يطاردنا؟

الأبيض : إن صحّ أنّه يطاردنا حقاً فلماذا يطاردنا؟  
الأحمر : انظر إلى حركته المستمرة ، إنّه مجنون . . .  
الأبيض : لا تتسرّع في الحكم . . .  
الأحمر : هل يقبل عاقل أن يقف كما يقف ويحرّك ساقيه كما يحركهما؟  
الأبيض : بعض الناس لا يطيقون السكون . . .  
الأحمر : ترى ما مهنته؟  
الأبيض : إنّه قويّ ، خالي البال ، فلعلّه من الأعيان .  
الأحمر : دعنا نناقشه جهاراً .  
الأبيض : كلاً ، مظهره لا يشجّع على المناقشة . . .  
الأحمر : دعني أسأله بضعة أسئلة . . .  
الأبيض : مثل ماذا؟  
الأحمر : لماذا يطاردنا؟  
الأبيض : لن يعترف بذلك ، ولا دليل عليه . . .  
الأحمر : ألم تسمعه وهو يطالبنا بالكفّ عن اللعب . . .  
الأبيض : حتّى ذلك غير مؤكّد .  
(صمت)  
الأحمر : خير ما نفعل أن نتجاهله . . .  
الأبيض : لا أستطيع . . .  
الأحمر : لولا عصيتك . . .  
الأحمر : (مقاطعاً) دائماً ترميني بعجزك . . .  
الأبيض : لا حدّ لمكابرتك . . .  
الأحمر : أحياناً أودّ أن أدقّ عنقك .  
الأبيض : سأضيق بك يوماً فأهجرك . . .  
(يتواجهان في غضب . الرجل يضرب الهواء بسوطه فيحدث طرقة شديدة . . . يدبّ الخوف في قلبيهما . ينسيان خلافهما الطارئ .  
ينادران المكان . الرجل يقف وقفته وهو يحرك ساقيه (محلك سيّ) . . . المكان يظلم . . .) .

\* \* \*

- الأبيض : أرايت؟  
الأحمر : مهلاً.. أرجح أنه لم يتعرّف علينا.  
الأبيض : أتؤمن بذلك حقاً؟  
الأحمر : لعلّ الذي يجمعنا هو الطريق والمصادفة ولا شيء سواهما..  
الأبيض : لا بأس من أن نسلم بذلك...  
الأحمر : فلتجاهله ولنمارس عملنا في هدوء وسكينة...  
(يرجعان إلى وسط المسرح، يتظاهران بالانهاك).  
: (بنبرة عظيمة) حرّرت استمارات الصرف؟  
الأبيض : لم تبقَ إلا واحدة.  
الأحمر : أسرع من فضلك لتتم مراجعتها اليوم.  
الأبيض : على أيّ حال فالخزانة لا تغلق قبل منتصف النهار.  
الأحمر : لا يجوز تأجيل عمل اليوم إلى غد.  
الأبيض : ألا ترى أنه يجب مراجعة ميزانية المصروفات؟  
الأحمر : أعلم أنها تسمح بالصرف حتى نهاية العام الماليّ...  
الأبيض : إذن يحسن أن أكتب المذكرة.  
(صمت)  
الأحمر : هل لك علاقة هذا العام؟  
الأبيض : كلّاً وأنت؟  
الأحمر : أستحقّ علاقة هذا العام.  
الأبيض : مبارك.  
الأحمر : ستفوق في خضمّ أعباء المعيشة.  
(الأبيض يتنصّت فجأة وهو يمدّ أذنه نحو الرجل المتحرّك. ثمّ يأخذ الآخر من يده بعيداً عن مسمعه).  
الأبيض : أسمعت؟  
الأحمر : كلّاً.  
الأبيض : عاد يطالبنا بالكفّ عن اللعب...  
الأحمر : متأكد؟  
الأبيض : بلا أدنى شكّ.  
الأحمر : اللعنة...  
الأبيض : من السهل خداعه.  
الأحمر : ماذا يريد منّا؟  
الأبيض : الله أعلم.  
الأحمر : واضح أننا لا نلعب.  
الأبيض : واضح جداً.  
الأحمر : أيطنّ أنه وليّ أمرنا؟  
(الأحمر يغضب. يأخذ الأبيض من يده ويذهبان إلى وسط المسرح. الأحمر ينظر نحو الرجل المتحرّك متحدّياً).  
: هل تخاطبنا يا حضرة؟  
(الرجل يواصل حركته صامتاً).  
: يجب أن تتكلّم...  
(الرجل يواصل حركته صامتاً).  
: نحن موظّفان محترمان. ولا نقبل إلاّ المعاملة اللائقة بكرامة الدولة...  
(الرجل يواصل حركته صامتاً).  
الأبيض : هل لك حاجة في المصلحة؟  
الأحمر : عليه أولاً أن يجيب...  
الأبيض : هل لك طلب؟... شكوى؟... أموال متأخرة؟  
(الرجل يواصل حركته صامتاً).  
الأحمر : كيف دخلت الإدارة؟... أمعك بطاقة شخصية؟  
الأبيض : نحن في خدمة الجمهور...  
الأحمر : (ثائراً) كُفّ عن حركتك اللعينة فقد أدت رءوسنا!  
الأبيض : وتذكّر أنّ الخزانة تغلق في تمام الثانية عشرة.  
الأحمر : لو رآك المدير وهو ذاهب إلى دورة المياه فلن نحمد العواقب...  
الأبيض : ما زلت أقول إنّنا في خدمة الجمهور.  
الأحمر : يا ويلك من رجال أمن الوزارة لو رأوك! الأبيض : ماذا جاء بك يا سيّدي؟  
الأحمر : طبعاً عندك فكرة عن العقوبة التي ينالها من يعتدي على موظّف في أثناء قيامه بأعمال وظيفته؟  
الأبيض : هل تضايقتك بعض الشكليات السخيفة؟

الأبيض : فكرة مبتكرة .  
الأحمر : واقتصادية، ولكني أخشى قيام نزاع يهدد كل شيء .

الأبيض : طالما واجهنا الحياة كشخص واحد .  
الأحمر : كثيرًا ما نختلف ونتخاصم .  
الأبيض : ولكن شيئًا لم يستطع أن يقضي على الرابطة التي نجتمعنا .

(صمت)

الأحمر : وقع اختياري على زوجة ممتازة ولكن هل تتفق أذواقنا؟  
الأبيض : بيننا تقارُب لا شك فيه ولا تنس تساعني .

(صمت)

الأحمر : إني أحب اللون الحمري .  
الأبيض : اللون الأبيض لا يُعلَى عليه .  
الأحمر : بدأ الخلاف .

الأبيض : (بسرعة) ومع ذلك فجميع الألوان واحدة .  
الأحمر : وأحبّ العود الممتلئ .  
الأبيض : نحن في عصر الرشاقة .  
الأحمر : لا أتصوّر ذلك أبدًا .

الأبيض : ليكن . . . ليكن . . . بشرط ألا يزيد وزنها بعد المعاشرة .

الأحمر : بل لا بأس من أن يزيد وأن تمتلئ المواقع التي يريد الله لها أن تمتلئ .

الأبيض : (متنهّدًا) لتكن إرادة الله .  
الأحمر : ورأيت من الحكمة أن تكون ذات مال ولو في الحدود المعقولة .

الأبيض : يا له من تفكير تجاري!  
الأحمر : أنت جاهل بالدور الذي يلعبه المال في الحضارة!

الأبيض : ليكن ما تريد، لا تغضب .  
الأحمر : ولا أقبل بحال أن تكون كاملة التعليم، حسبها التعليم الابتدائي، فالعلم زينة غير مقبولة للمرأة وهو يغريها دائمًا بالعمل الذي

يحولها في النهاية إلى رجل .  
الأبيض : رأيك هذا كان رأيًا عصريًا في العصر الحجري .

الأحمر : أنت أدري بما يضايقك، ومن حقك أن تشكو، ولكن لكل إجراء نظمه المتبعة الواجبة الاحترام .

الأبيض : وحتى إذا احتاج الأمر إلى رعاية خاصة أو وساطة لها وزنها فستجد عندنا ما يحقق رغباتك المشروعة .

الأحمر : عليك أولًا أن تكفّ عن الحركة وأن تتفاهم كما يجدر بالناس الطيبين .

(الرجل يواصل حركته وفجأة يضرب الهواء بسوطه فيحدث فرقة شديدة . . . يتراجع الشابان في خوف) .

الأحمر : (بلهوجة) أذن موعد الانصراف .

الأبيض : هيّا بنا إلى معركة المواصلات .

(يفادران المكان بسرعة، وفي خوف لم يفلحا في إخفائه . يستمرّ الرجل في حركته . يظلم المسرح) .

- ٣ -

(يُضاء المسرح . الأحمر والأبيض متواجهان بنفس الحال التي رأيناها عليهما؟ عدا الشارب الذي امتدّ ونما فأضفى عليهما مظهر رجولة لم تجاوز حدود الشباب) .

الأحمر : أليست فكرة بارعة؟

الأبيض : وطبيعية، وتهمي لنا استقرارًا .

الأحمر : الزواج هناء، ومصاهرة تقوي مركزنا وسواعدنا، وفي إطار الصورة الجديدة لن يتعرّف علينا .

الأبيض : هو خير من العزوبة على أيّ حال .

الأحمر : (في عصبية) لا أراك متحمسًا .

الأبيض : بل إني مرّحّب جدًا بالفكرة .

الأحمر : لا أرى أثرًا للحماس في وجهك .

الأبيض : الزواج فكرة طيبة ولكن هل يغيّرنا للدرجة التي تضلّله عنا؟  
الأحمر : أعتقد ذلك؟

الأبيض : فلنجرّب والله معنا .

الأحمر : أظنّ يكفيننا زوجة واحدة؟

الأحمر : وعلى كلِّ موقعٍ مختاراً  
(ذهول من العروس وضحك من الشابين).  
الزوجة : (في حيرةٍ أكثر) إنِّي أتزوِّج لأوَّل مرَّةٍ  
فمعدرة.

الأحمر والأبيض معاً : ونحن كذلك!  
الزوجة : نحن؟!  
الأبيض : نعم.  
الأحمر : لسنا من أنصار تعدد الزوجات.  
العروس: ولكن.  
الأحمر : أنت الزوجة ونحن الزوج.  
العروس: معاً?  
الأحمر : نعم.  
العروس: ولكنكما اثنان.  
الأبيض: اعتبرينا شخصاً واحداً.  
العروس: لا أفهم شيئاً.  
الأحمر : ثمة أمور لا تُفهم إلا بعد ممارسة الحياة  
الزوجية بالفعل.  
العروس: لم يكن ذلك ضمن المعلومات التي زوّدتني  
بها أمي.

الأحمر : طيبة منها ولا شك.  
العروس: وكيف تستقيم المعيشة معكم معاً?  
الأحمر : ستعلمين ذلك في حينه.  
العروس: أليست حالاً غير طبيعية؟  
الأحمر : هذا ما جرت به الطبيعة منذ الأزل.  
العروس: قيل لي إنَّ التوفيق مع زوج واحد أمر ليس  
بالهين فكيف يتيسر مع اثنين؟  
الأبيض : هو غير هين لذلك وليس لسبب آخر.  
الأحمر : ستعلمين كلَّ شيء في حينه... تعالي.  
(ينهلان عليها قبلاً وأحضاناً وهي مرتبكة).

العروس: ستوجد مشاكل؟  
الأحمر : مشاكل؟  
العروس: (في حياء) من سيكون أباً الوليد؟  
الأبيض : سيحمل اسم من يسجله في المكتب المدني.  
العروس: ولكن ذلك شيء عرَضِيٌّ جداً.  
الأبيض : الأسماء كلها عرضية.  
العروس: أعجب ما سمعت في حياتي.

الأحمر : أنا لا يخيفني التعبير بالعصور القديمة.  
الأبيض : ما دمنا نرغب في أن نكون ثلاثة فأكثر، وما  
دام ذلك في صالحنا وضمماً لآمننا المهتد،  
فلا يعني إلا القبول.

الأحمر : وطالبت بأن تكون لعوباً في نطاق الشُّرع!  
الأبيض : المرأة اللعوب لا يسعها إلا أن تكون لعوباً  
سواء في نطاق الشرع أو خارجه.  
الأحمر : بل في نطاق الشرع وحده وسوف ترى.  
الأبيض : فلنجرّب على أيِّ حال.

(صمت)

الأحمر : هل لك مواصفات أخرى؟  
الأبيض : مواصفات هامشية ولكنّها لا تخلو من فائدة،  
مثل البراعة في الحديث.  
الأحمر : لا أهميّة لذلك، أنا أعرف زوجاً سعيداً،  
ترجع سعادته أولاً إلى كون زوجته خرساء.  
الأبيض : ويا حبذا لو كانت تحيد الغناء!  
الأحمر : لا أهميّة لذلك أيضاً فلدينا الكفاية في  
الإذاعة والتلفزيون.

(صمت)

: هل من مواصفات أخرى؟  
الأبيض : كلاً.  
الأحمر : أعتبر اتفاقنا كاملاً؟  
الأبيض : كاملاً...

(الأحمر ينظر إلى الجانب الأيمن من المسرح  
ويزغرد. تُسمع موسيقى زفة العروس.  
تدخل العروس وهي تسير بين شيخ  
وشرطي. يقفون أمام الشابين ثم يستدير  
الرجلان ويذهبان. تُتبادل النظرات بين  
العروس وبين الشابين).

الأحمر : أهلاً بك يا عروس.  
العروس: (في حياء) أهلاً بك.  
الأبيض : فلتحلّ بحلولك النعمة والهناء.  
العروس: آمين.  
(يقبلانها في وقت واحد، كلٌّ في حدّ).  
العروس: (بحيرة) توقّعت قبلة واحدة!  
الأبيض : سيتكرّر ذلك كثيراً.

## الجرمة ٤٦١

الأبيض : لعلّه  
العروس: ربّاه... ما أشدّ قلقي... ماذا يجدر بنا أن  
نفعل؟

(صمت)

الأحمر : فلنتجاهله.. ولنغتنق احتفالاً بحياتنا  
الزوجيّة.

(يرجع الأحمر بها إلى موقفها السابق وسط  
المسرح ثمّ يغتوّن):

بشرى لنا نلنا المنى

زال العنا وافي هنا

(الأبيض يرهف السمع باهتمام

واضح).

الأبيض : (للأحمر) عاد يتكلّم.

الأحمر : (منفعلاً) ماذا قال؟

الأبيض : كالعادة.

الأحمر : (مخاطباً الرجل) ماذا تريد؟

الأبيض : (للرجل) سيدي.. لم تضيق وقتك هدرًا؟

الأحمر : (للرجل) وحدّته ترتفع هل تغرّك قوتك؟

هل تستند إلى أحد من ذوي الشأن؟، إذن

فاعلم أنّنا أصهنا إلى واحد منهم هو والد

هذه الزوجة الكريمة، وقد أصبحنا ثلاثة

تؤيّدهم حلقة متينة من العائلات الأصيلة.

الأبيض : (للرجل) أخي شابّ ذو حدّة، ولكننا في

النهاية من صلب الرجل الطيّب الذي كان

صديقًا لك.

الأحمر : (مستسلماً للحدّة): لم أعد أطيق هذا

التدخّل السخيف!

العروس: ولا أنا.

الأبيض : (للرجل) ماذا تريد يا سيدي؟، كأنه لا

يروق لك شيء ممّا فعله، فماذا تريدنا على

أن نفعل؟

الأحمر : (للرجل) تكلم... يجب أن تتكلّم...

العروس: (للرجل أيضًا) احترام الحياة الزوجيّة

المقدّسة.

الأبيض : نحن ندعوك لحفل زفافنا، ما رأيك؟

(صمت)

الأحمر : هكذا سيبدو لك كلّ شيء.

العروس: لم أسمع بذلك من قبل.

الأحمر : ولذلك فلنّني من أنصار تعليم الجنس في

المدارس!

(صمت)

(يترامى وقع أقدام. يخرجون بعنف من جوّ

الموقف ويرهفون السمع).

الأحمر : غير معقول.

الأبيض : (متنهدًا) لم أكن مغاليًا.

العروس: من القادم؟

الأحمر : (للأبيض): ولكن... هيهات أن يعرفنا!

الأبيض : فليحقّق الله ظنّك.

العروس: أنتوقعان قدوم أحد؟

الأحمر : كلاً.

العروس: فمن القادم؟

(صمت مع إرهاف السمع)

(يدخل الرجل بصورته الثابتة، ويمضي ذهابًا

وإيابًا في حركة أسرع قليلًا ممّا كانت عليه في

المنظر السابق.

الأحمر والأبيض والعروس يتراجعون بعيدًا

عن مسمعه).

الأحمر : قلبي يجذّني بأنّه لم يعرفنا.

الأبيض : طالما متينا أنفسنا بذلك.

العروس: (بضيق واضح) ماذا جاء به إلى هنا؟

الأحمر : (للعروس) رأيتك من قبل؟!

العروس: أكثر من مرّة!

الأحمر : أنت أيضًا؟!

العروس: وأنتما؟... أليس كذلك؟!

الأبيض : لعلّه من سگان الحيّ!

الأحمر : أكاد أوقن بجنونه.

العروس: كان من المترددين على أبي.

الأحمر : أيضًا!

العروس: ظننته سينقطع عن الظهور عندما أصير في

عصمة رجل ولكنّه مصرّ رغم أنّي صرت في

عصمة رجلين!

الأحمر : لا داعي للتشاؤم فلعلّه لم يعرفنا.

فكرت في تحسين المعاش كما ينبغي لرجل  
مستول؟

الزوجة : المعاش في النهاية أهم من المرتب نفسه!

الأحر : كزري ذلك على مسامعه!

الأبيض : إني أودّ الترقية أيضًا ولكني أكره حرق الدم.

الأحر : سرعان ما تضيق بأيّ شيء.

الأبيض : فليهتمّ بالمعاش من لن يملكوا سواه، أمّا

أنت فإنّ نشاطك الحرّ أضعاف نشاطك

الرصعيّ.

الأحر : لولا ذلك ما توافرت لنا الحياة التي ننعّم بها.

الأبيض : غرقنا في العمل طيلة عمر، للدولة

ولأنفسنا، بثّ أتطلع حياة أخرى، لشيء

من الهدوء والراحة.

الأحر : عمّا قريب ستشبع من الهدوء والراحة وتبكي

الأيام الخالية.

الأبيض : لا أظنّ.

الزوجة : كفا عن النزاع، ولندعُ الله أن يهبنا القوّة

والصحة، ولكن فكّرنا قليلاً في الأبناء.

الأحر : (للأبيض) أنت مثبّط للهمم.

الأبيض : كلاً، لي طموح بعيد أيضًا.

الأحر : لا أعترف به.

الأبيض : تلزمتنا فترة تأمل عقب الجنون المحتدم.

الأحر : من أين لنا بها؟، ثلاثة اجتماعات في اليوم،

ورابع في المساء مع سمسار من السوق

الحرة، وعلينا بعد ذلك أن نقيم وليمة عشاء

للعملاء...

الزوجة : ستكون وليمة يشهد لها العدو قبل الصديق...

الأبيض : (للأحر) ولكن ألا ترى أنّ وظيفة المدير

العام ستلتهم وقتنا الضيق؟

الأحر : كلاً، فهي من ناحية أخرى تذللّ كثيرًا من

الصعاب...

الأبيض : لا تنسَ أمراضك المزمنة.

الأحر : إني مسيطر عليها تمامًا...

الزوجة : نسأل الله السلامة...

الأحر : (للزوجة) لن أنسى أفضالك فانت ممرضة

ماهرة!

الأحر : (موجهًا خطابه للزوجة والأبيض) لا فائدة!

العروس: يا للأسف!

الأبيض : (وهو يتنهد بصوت مسموع) أصبح لنا أسرة

على أيّ حال!

(الرجل وهو يواصل حركته ذهابًا وإيابًا

يضرب بسوطه الهواء فتسمع طرفعة

شديدة... يتراجعون بعيدًا عنه في دعر

واضح).

العروس: لا أطيق ذلك.

الأحر : ولا أنا

الأبيض : لنبدأ رحلة شهر العسل!

الأحر : لنبدأها فورًا.

العروس: هيّا... هيّا.

الأحر : سيسقط يومًا من الإعياء جيئة هامة.

العروس: آمين.

(يتأبط كلّ منهما ذراعًا لها ويغادران المكان

وهم يسترقون النظر إليه في حذر. يواصل

الرجل حركته على حين يُظلم المسرح).

- ٤ -

(يُضاء المسرح. الأبيض والأحر بنفس

الملابس ومعهما الزوجة. واضح أنّ العمر قد

تقدّم بهم فجرى المشيب في رءوسهم وذبلت

نضارتهم، أصبحوا كهلين وسيدة).

الزوجة : مهما يكن من متاعبكم فلا يجوز أن ننسى

الأبناء!

(الرجلان يتبادلان نظرات عميقة وكأنتها لم

يسمعا صوت الزوجة).

الأحر : إذا طارت درجة المدير العام هذه المرة فقلّ

عليها السلام.

الأبيض : ما زالت اجتماعات اللجنة مستمرة!

الأحر : ككلّ مرّة، ثمّ يُرقي شخص مجهول لا يخطر

ببال أحد.

الأبيض : هل تطيق الصحة أعباء جديدة يا عزيزي؟

الأحر : لا شيء يهتك حتى الأعماق، أبدًا، هل

- الأبيض : هي نفسها لا تخلو من أمراض مزمنة . . .  
الأحمر : هذا يدعونا إلى مضاعفة النشاط.  
الزوجة : والأبناء؟  
الأحمر : (في ضيق) الأبناء . . . الأبناء . . . لا حكاية لك إلا الأبناء، وحكاياتهم لا تسرّ الخاطر . . .  
الزوجة : ولكنها جديرة بكلّ اهتمام وعناية . . .  
الأحمر : اللعنة . . . إتهم أعقد من درجة المدير العام.  
الزوجة : (للأبيض) قل شيئاً . . .  
الأبيض : في ذلك المجال فإني أفعل أكثر مما أتكلّم . . .  
الزوجة : (متأوهة) حسّادنا كثيرون على حين أننا تعساء . . .  
الأحمر : (غاضباً) كفي عن الولوجة!  
الزوجة : (غاضبة أيضاً) أنت رجل أنانيّ . . .  
(بخرصهم السكوت فجأة فيرففون السمع في قلق واضح).  
الأحمر : كلاً . . . لا شيء . . .  
الزوجة : ماذا هناك؟  
الأحمر : نخيل ليّ . . .  
الزوجة : يا رحمن يا رحيم . . .  
الأبيض : ليست المرّة الأولى.  
الأحمر : ماذا تعني؟  
الأبيض : سمعنا الأقدام مرّات ولكنّ الرجل لم يظهر، منذ مدّة لم يظهر.  
الأحمر : بل كدنا نساءه تماماً.  
الزوجة : ليس تماماً.  
الأبيض : ولكنّه كثيرًا ما يُسمعنا وقع أقدامه . . .  
الأحمر : مجرد ظنون.  
الزوجة : لعله مات . . .  
الأبيض : مات؟  
الزوجة : وإلا ما اختفى طيلة تلك المدّة . . .  
الأبيض : لكنّه لم يختفِ تماماً . . .  
الأحمر : أقسم أنني كدت أنساه . . .  
(وقع الأقدام يسمع بوضوح. ينصتون بقلق واضح . . .).  
الأحمر : ليتنا ما ذكرناه . . .  
الزوجة : ليتنا . . .  
الأبيض : ولكن لا حيلة لنا في ذلك . . .  
الأحمر : لا تنقصنا الهموم . . .  
الزوجة : وكلّ الهموم تهون بالقياس لهّمه . . .  
الأبيض : ونحن نخلق من الهموم ما يكفي . . .  
الأحمر : (للأبيض في غيظ وحنق) يخيّل ليّ أحياناً أنّك حليفه علينا  
الأبيض : ليتك تزداد مع العمر حكمة . . .  
الأحمر : الإعجاز أن تزداد مع العمر حماقة!  
الأبيض : أشهد أنّ ذلك الإعجاز لا ينقصنا  
الأحمر : ما زلنا شباباً.  
الأبيض : ظننت أنّ الشباب قد ولى . . .  
الأحمر : (مشيراً إلى قلبه) الشباب هنا وليس في مكان آخر.  
الزوجة : ما زلنا شباباً!  
الأبيض : إذن فعليكم ألا تهتموا بمطاردة الرجل لنا.  
الأحمر : ولكنني لا أرتاح إليه.  
الزوجة : وأما أنا فإني أمقته . . .، ويخيّل ليّ أنّه سيقتلنا يوماً ما.  
الأبيض : نحن نقتل أنفسنا أيضاً . . .  
الأحمر : لقد حقّقنا أعمالاً مجيدة.  
الزوجة : أعمال غير قابلة للموت . . .  
الأبيض : لا يجوز أن نخشى الموت أكثر مما ينبغي.  
الأحمر : كلام فارغ، أنت أوّل من يخاف الموت.  
الزوجة : كيف لا نخشى الموت؟  
الأبيض : لا يبعد أن يكون آخر مغامرة في الحياة . . .  
الأحمر : لا تتعلّق بالأوهام . . .  
(وقع الأقدام يشتدّ. يدخل الرجل. منظره لم يتغيّر. يمضي في حركته ذهاباً وإياباً بسرعة أكبر ممّا كانت عليه في المنظر السابق. يتابعونه بدهول. يتراجعون بعيداً عن مسعته).  
الأحمر : قلبي يحدّثني بأنّه لم يعرفنا.  
الأبيض : لا تتعلّق بالأوهام!  
الزوجة : إنّهُ يزداد سرعة!

- الأحمر : ذلك يعني أنه يزداد جنونًا.  
 الأبيض : ترى ما معنى ذلك؟  
 الأحمر : لا تحمّل الأمور أكثر مما تعني...  
 الزوجة : (في عصبية) ما له يسرع هكذا!  
 الأحمر : علينا أن نفزعه...  
 الزوجة : كيف؟  
 الأحمر : (غامزًا بعينه) فلنمثّل دورنا بإتقان...  
 (يرجع بهما إلى المكان الأول وهو يتظاهر بالثقة والعظمة...)  
 الأحمر : (للأبيض) هل- أضفنت الأموال إلى حسابنا الجاري؟  
 الأبيض : نعم.  
 الأحمر : عظيم... لا يجوز أن نترك مليصًا بلا استشارة.  
 الزوجة : عين الصواب.  
 الأحمر : سأقابل غدًا بعض كبار المسؤولين...  
 الزوجة : لعلهم ضمن المدعوين إلى مأدبة العشاء؟  
 الأحمر : كلاً، ستكون الوليمة قاصرة على الوزراء  
 الزوجة : ولا تنس السفراء يا عزيزي.  
 الأحمر : ذلك ما لا يمكن نسيانه.  
 الزوجة : سيتم كل شيء على خير وجه قبل أن تسافر إلى الخارج.  
 الأحمر : (وهو يضحك عاليًا) طبعًا... طبعًا...  
 (الأبيض يرهف السمع باهتمام وقلق، يتجه نحو الأحمر).  
 الأبيض : تكلم مرة أخرى كالعادة!  
 الأحمر : أنت وحدك تسمع رغم أنك أضعفنا سمعًا  
 الأبيض : عليك أن تصدّقي...  
 الأحمر : (للرجل وهو يتقد غضبًا) ماذا تريد؟  
 الزوجة : (للرجل) ماذا جاء بك إلى بيتنا؟  
 الأحمر : (ب) نحن نطالبك بالأدب واللياقة.  
 الأبيض : (ب) لم يعد يمكن أن يقال إننا نبذ وقتنا في اللعب!  
 الأحمر : (للرجل) وماذا يهّمك من سلوكنا؟  
 الزوجة : (ب) ألا تخاف على أعصابك وأنت تجري بهذه السرعة؟
- الأحمر : (للرجل) يوجد قانون وتقاليد.  
 الزوجة : (ب) صنّ صحتك من أجل خاطر أولادك، ليس لك أبناء؟  
 الأبيض : (للرجل) ليتك تصارحن بما تريد.  
 الأحمر : (ب) إني أحذرك عواقب الاستهتار.  
 الأبيض : (ب) المصارحة مفيدة للطرفين.  
 الأحمر : (للأبيض) لا تلاينه فإنه لا يزداد بالملاينة إلا عتواً.  
 الزوجة : (للأحمر-متوسّلة) دعه يجري!  
 (يتراجع الأحمر والزوجة تاركين الأبيض يجرب حظه...)  
 الأبيض : علاقتك القديمة بوالدنا لا يمكن أن تُنسى...  
 (الرجل يواصل حركته وكأنه لا يسمع شيئاً).  
 الأبيض : إنك لا تدري مدى الإزعاج الذي تسببه لنا بحسن نية.  
 (الرجل يواصل حركته وكأنه... الخ).  
 الأبيض : أنت مكلف بجهمة؟، ما هي؟، من كلفك بها؟... صارحنًا وأعدك بالمساعدة!  
 (الرجل يواصل... الخ).  
 الأبيض : لا تسيء بنا الظنّ، لنا أخطاء بلا شك، ولكن أعمالنا لا تخلو من قيمة... وخيرنا أكثر من شرنا...  
 (الرجل يواصل... الخ).  
 الأبيض : صارحنًا بما في نفسك وإلا فمن العدل أن تتركنا وشأننا...  
 (صمت مع استمرار الرجل في حركته).  
 الزوجة : (لنفسها) الكلام الطيب لا يؤثر فيه.  
 (للرجل بصوت مرتفع منفعل) هذه أرضنا، لنا فيها أبناء وأموال وأعمال، فليس من الإنصاف أن تزعجنا على هذا النحو...  
 الأحمر : (بنبرة تهديد) لا فائدة، ولا مفرّ من اللجوء إلى المسؤولين...  
 (الرجل مستمرّ في حركته على حين ينضمّ الأحمر والزوجة إلى الأبيض).



## الجريمة ٤٦٥

الزوجة : (متنهدة) عندما كنا أطفالاً  
(صمت)

كأنه أمس .

الأبيض : كأنه أمس .

الأحمر : كأنه . . . كأنه . . . كأنه . . . عليكم اللعنة !  
(صمت)

الزوجة : الأيام الحلوة .

الأبيض : والأحلام الحلوة .

الأحمر : كنا نبول على أنفسنا وما نحن نبول على  
أنفسنا مرة أخرى !

(صمت)

الأبيض : (مرهفًا السمع) هل . . .

الأحمر : (مقاطعًا) تسمعان وقع أقدام؟

الزوجة : إنها تدبّ بلا انقطاع .

الأبيض : أعتقد أننا ألفناها .

الأحمر : أعتقد أنك مزعج مثله .

الزوجة : لا داعي للخلاف الآن .

(صمت)

الأحمر : فإتتنا فرص عظيمة ولكننا قمنا بأعمال  
تستحقّ الذكر .

الزوجة : نحمده على ما نلنا ونستعيضه عمّا فاتنا .

الأبيض : نحمده .

(صمت)

الأحمر : ترى هل أخطأنا في توظيف أموالنا؟

الزوجة : العمارات أثبتت من السوق المتقلّبة !

الأبيض : سبحان من له الدوام .

الأحمر : لفكرة البيع الصوريّ للأبناء رائعة من ناحية  
الضرائب !

الأبيض : هي أروع فكرة قانسونية للخروج عن  
القانون .

الأحمر : (غاضبًا) أنت عنيد وأحمق .

الأبيض : دائمًا لا تعجبك الحقيقة .

الزوجة : لا تضاعف من مخاوفنا .

الأحمر : (ساخرًا) الابن الوحيد الذي يحمل اسمك

ضاع، إخوته رجال أعمال يفخر بهم الوطن

أما هو فماذا يعمل؟ . . . ملحن، ملحن . . .

الأحمر : (بنفس النبرة المهتدة) قوى شرّ كثيرة تعترض  
مجرى الحياة، مستهترة بالقوانين والتقاليد،  
ولكن كيف تكون عاقبتها ولو على المدى  
البعيد؟ تغلب على أمرها، ويحقّ عليها  
الجزاء والقهر، هذه هي سنّة الحياة وإلا حقّ  
عليها الفناء . . .

(الرجل وهو مستمرّ يضرب الهواء بسوطه  
فيحدث طرقة رهيبية فينكمش الثلاثة، ثمّ  
يرون من الأفق أن يغادروا المكان فيغادروه  
متعثّرين. الرجل مستمرّ والظلام  
يهبط . . .).

- ٥ -

(يُضياء المسرح. الأحمر والأبيض والزوجة  
وقد طعنوا في السنّ وركبتهم الشيخوخة.  
الأحمر يرتدي عباءة حمراء وطاقية حمراء،  
والأبيض عباءة بيضاء وطاقية بيضاء، أمّا  
الزوجة فترتدي روبا يجمع بين اللونين.  
يتحرّكون حركات تنمّ عن الضعف  
والشيخوخة).

الأحمر : آه .

الأبيض : آه .

الزوجة : آه .

(صمت)

الزوجة : الحمد لله على أيّ حال .

الأبيض : له الحمد والشكر .

الأحمر : اللهمّ احفظنا .

(صمت)

الأبيض : (مرهفًا السمع) هل تسمعان وقع أقدام؟

الأحمر : ثقل السمع !

الزوجة : إني أسمعها عن غير طريق الأذن !

(صمت)

: أتذكران عندما كنا أطفالاً؟

الأحمر : ولكننا عرفناك بعد مرحلة الطفولة !

الأبيض : (في حنان) عندما كنا أطفالاً !

- ... ها ...
- الأبيض : أتؤمن بجدوى ذلك؟
- الأحمر : بلا أدل شك، فلولا علمه بعملنا ونجاحنا وعلاقاتنا بلدي الشأن لفضى علينا من قديم!
- (صمت)
- الزوجة : أتوجد فائدة من مناقشته؟
- الأحمر : يقينًا لا.
- الأبيض : واضح أنه يتبعنا أينما نذهب ولكنه لا يتعرّض لنا بسوء.
- الأحمر : (في غيظ) ألم يجعلنا طول العمر نتوقمه ونفكر فيه ونضيق به ونتوجّس منه؟
- الأبيض : نحن الذين نفعل ذلك لا هو.
- الأحمر : يا لك من مكابر.
- الزوجة : كان وما زال همًا ثقيلاً على القلب.
- الأحمر : كيف فاتنا طيلة عمرنا أن نهاجمه ولو مرة؟
- الزوجة : حذارٍ أن تفكر في ذلك.
- الأبيض : لم نعد أهلاً للمعارك.
- الأحمر : ولكننا كنا أهلاً يوماً ما!
- الأبيض : شغلنا المعارك الأخرى.
- الأحمر : لا يخلو صوتك من تأنيب أبداً.
- الأبيض : دائماً ألامُ على قول الحق!
- الأحمر : أنت عبء طالما حملته فوق عنقي.
- الأبيض : علم الله أنك كنت العبء لا أنا وأني تحمّلتك بصبر يفوق طاقة البشر.
- الأحمر : يا لك من مكابر جاحد.
- الأبيض : يا لك من جاهل.
- الأحمر : لولاك ما جرق هذا المجنون على مطاردتنا والاستهزاء بنا.
- الأبيض : إنه يستهزئ بك وحدك.
- (الزوجة تفصل بينهما لتلطّف الجو. يسود الصمت. تتعلّق الأبصار بالرجل المتحرك بسرعه المفزعة).
- الأحمر : عندي فكرة.
- الأبيض : كلّ ما فعلناه كان من وحي فكرك ولكنه لم يجي.
- الأحمر : أنتهين بما فعلنا؟
- الأبيض : لا يقلّ عن إخوته شأنًا ولا يتطلّع مثلهم للهجرة إلى الولايات المتحدة.
- الأحمر : (وهو يضحك) ماذا يعمل بالله؟
- الأبيض : إنه يلحن فيقول الناس آه.
- الزوجة : (متأوّهة) آه.
- الأحمر : (متأوّهًا) آه.
- (صمت)
- الزوجة : (معاينة) كفاً عن النزاع فلم تعودا صغيرين.
- الأحمر : (فخوّرًا) لولا ي ما دامت لنا الحياة الزوجية.
- الأبيض : (في امتعاض) الحقّ أنه لولا ي لانفصمت عروة الزوجية في أعقاب شهر العسل!
- الأحمر : (ساخرًا) أيّ فضل لك في شهر العسل؟
- الزوجة : (مغطّية وجهها) يا للفضيحة... أخفضا صوتكما!
- (صمت)
- الأحمر : (متذكّرًا أوجاع الكبر) آه.
- الزوجة : آه.
- الأبيض : آه.
- (صمت)
- الأحمر : أن لي أن أذهب إلى النادي.
- الزوجة : يحسن بك ألا تخرج في فصل الشتاء.
- الأحمر : لا أريد أن يشمت بي أحد من الأعداء.
- الأبيض : لا تبالغ في تصوّر الأعداء.
- الأحمر : الناس بطبعهم أعداء للرجل الناجح.
- (وقع الأقدام يرتفع لدرجة لا تحفى على أحد. يرهفون السمع في رهبة صامتة. يدخل الرجل بمنظره المألوف. يمضي ذهابًا وإيابًا في سرعة أكبر من المنظر السابق وهم يتابعونه بذهول).
- الزوجة : إنه يكاد يجري.
- الأحمر : يزداد جنونه استفحالًا.
- الأبيض : لا يبدو عليه الكبر مثلنا.
- الزوجة : ما فائدة أن نتساءل عما يجعله يتبعنا؟
- الأبيض : ولا تؤثر فيه وسائل دفاعنا.
- الأحمر : مهما يكن من أمر فلا يجوز أن نطلعه على ضمفنا.

الجرمة ٤٦٧

ولا يهمّ بعد ذلك أن يكون عمله لحسابه أو لحساب شخص آخر.  
 الأبيض : ولكن يجئ إلي أحياناً أنه بفضل حَقَّقنا ما حَقَّقنا من عمل.  
 الأحمر : ليس بفضل ولكن دفعاً لمطاردته الملمحة.  
 الأبيض : (بنسبة اعتراف) الحقّ أنني قمت سرّاً بتحرّيات كثيرة عنه.  
 الأحمر والزوجة (معاً) : حقّاً؟  
 الأبيض : بلا نتيجة تذكر.

(صمت)

: حسبته مندوباً لمصلحة الضرائب أو مرشداً للمخابرات أو موظف إحصاء، أو من شرطة الآداب  
 الأحمر : جميع أولئك ثقلاء ولكن ليس لهذا الحدّ.  
 الأبيض : وحتى في تلك المراكز الهامة تبيّن لي أنّهم لا يعرفونه أكثر ممّا ويعانون من مطاردته مثلنا.  
 الأحمر : ولمّ سكتوا عنه وهم يقضون على الآلاف بلا حساب؟  
 الأبيض : بل إنّ محاولات قتله وفيرة ولكنّها تبوء عادة بالفشل.  
 الزوجة : (في عصبية) سرعته تدير رأسي  
 (ينظرون إليه بحقن. يضرب الرجل الهواء بالسوط محدثاً الطرقة المخيفة. يتجمعون ويفادرون المكان ببطء حسبما تسمح به سنهم المتقدمة.  
 الرجل يستمرّ في حركته على حين يهبط الظلام).

- ٦ -

(يُضاء المسرح. الأحمر والأبيض والزوجة ولكنهم تغيّروا تغيّراً مذهلاً، عادوا إلى منظر الشباب وملابسه كما رأيناها سابقاً. واضح أنّهم صبغوا الشعور وشدّوا الجلود وفعلوا المستحيل لاستعادة شبابهم الضائع. يتبادلون النظرات وهم يتسمون في ارتياح وسرور).

الأبيض : كلاً، إنّه عظيم، ورغم مخالفته للقانون أحياناً فهو عظيم، ولكنّه لم يُرخنا من مطاردته.

الأحمر : لمّ نلجأ إلى المسؤولين عن الأمن؟

الأبيض : لأننا كنّا وما زلنا نخشاهم!

(يتبادلان نظرة تحدّ ولكنّ الزوجة تفصل بينهما مرّة أخرى).

الزوجة : لجأ كثيرون إلى رجال الأمن ولكن ماذا كانت النتيجة؟... لا شيء، وهو لا يرتكب جريمة يعاقب عليها القانون، ولعلّه يعتمد على صلاته بأناس في أقوى مواقع السلطة، بل علمت أنّ كثيرين من رجال الأمن أنفسهم يعانون منه مثلنا.

الأحمر : لعلّه يطمع في شيء ممّا نملك؟

: ولكنّه يطاردنا مدّ كنّا لا نملك شيئاً.

(الأحمر يضرب الأرض بقدمه مغنيلاً محنقاً).

(صمت)

: (وكأنّه يحدث نفسه) أهو يطاردنا حقّاً؟  
 وإن صحّ ذلك فلماذا يطاردنا؟ وهل يعمل لحسابه أو لحساب شخص آخر؟

(صمت)

الأبيض : (مسترسلاً في تفكيره) أضعنا وقتاً طويلاً دون أن نُعنى عناية حقيقيّة بذلك.

الأحمر : (هازئاً) لو عينا بذلك عناية حقيقيّة لما تبقي لنا وقت لتحقيق شيء ذي قيمة!

الأبيض : نحن الآن على المعاش وبلا عمل جدّيّ.

الأحمر : ولكننا طاعنون في السنّ، ومرضى، ولا قدرة لنا على البحث!

(صمت)

الزوجة : (بغیظ) ترى ما الذي يجعله يحافظ على قوته رغم مرور الزمن؟

الأحمر : (في سخرية) ربّما لأنّه لم يتزوَّج!

الزوجة : (غاضبة) يا لك من جاحد أنانيّ.

الأحمر : (للأبيض) لا داعي لطرح أسئلة والانشغال بها على حين أنّها واضحة الجواب، فهو يطاردنا بلا ريب، ويطاردنا ليقضي علينا،



## الجرمة ٤٦٩

العروس: قليل منه مناسب.  
 الأحمر : هل لك تجربة سابقة به؟  
 العروس: في نطاق ما يسمح به عمري.  
 (الأحمر والأبيض يتبادلان النظر في ذهول.  
 يتتحيان جانبًا).  
 الأحمر : في نطاق ما يسمح به عمري!  
 الأبيض: سمعت كل كلمة... ما رأيك؟  
 الأحمر : ما كان كان.  
 الأبيض: عظيم.  
 الأحمر : ولكنّ الخمر مضرّة لنا ونحن لم نجدّد  
 الكبد.  
 الأبيض: ولم نجدّد القلب ولا العروق.  
 الأحمر : الله معنا.  
 (يرجعان وهما يتسلمان).  
 : ما أجل أن نستغني عن الخمر!  
 العروس: أئسمعني وعظًا في ليلة الزفاف؟  
 الأحمر : كلاً، ولكنّها الصّحة.  
 العروس: أنت مريض؟  
 الأحمر : كلاً... ما زلنا بعيدين عن سنّ الأمراض!  
 العروس: اتّفقنا  
 الأحمر : (ضاحكًا) يبدو لي أنّك فتاة ذات ذكاء  
 وتجربة.  
 العروس: هذا هو طابع القرن!  
 الأحمر : لا أستبعد أن تكوني على إلمام بالتربية  
 ال... العاطفيّة.  
 العروس: العاطفيّة؟  
 الأحمر : أعني الجنسيّة؟  
 العروس: أووه.  
 الأحمر : لكنّها لم تقرّر بعد في المدارس!  
 العروس: (ضاحكة) لكنّها مقرّرة في أماكن كثيرة!  
 الأحمر : يا لك من عروس مثيرة!  
 العروس: إذا كنت تَمَنّ يخافون فلمّ زججت بنفسك-في  
 الحياة الزوجيّة؟  
 الأحمر : لا خوف هناك ولكنّ للأسر العريقة  
 تقاليدها.  
 العروس: طظ!

تستكشف ذلك.  
 الأحمر : اذهبي إلى أولادك قبل أن يعصف الغضب  
 برأسي.  
 (الأبيض يتدخل لإنقاذ الموقف. يأخذ  
 الزوجة من يدها إلى الخارج وهو يحادثها  
 بصوت غير مسموع... ثمّ يعود الأبيض  
 وحده).  
 الأبيض: يا لك من جريء حقًا.  
 الأحمر : أظهر سرورك الآن يا منافق!  
 الأبيض: لن نجد عروسًا مناسبة أبدًا...  
 الأحمر : عروس في السادسة عشرة مثل لهطة  
 القشدة.  
 الأبيض: أصغر من حفيدتنا.  
 الأحمر : ليست حفيدتنا على أيّ حال.  
 الأبيض: لا نخرجنا.  
 الأحمر : ستعلم أنّها أقوى أثرًا من كافّة العقاقير.  
 الأبيض: يا لها من مغامرة!  
 الأحمر : لن تكون أظفح من المطاردة اللعينة.  
 (الأحمر يصنّفق بيديه. نسمع موسيقى الزفة.  
 تدخل العروس بين شابتين هما أمين من أمناء  
 الشرطة حاملًا جهازه اللاسلكي ومأذون  
 عصريّ متأبطًا دفتره مرتديًا بنطلونًا وقميصًا  
 أمريكيًا متعدّد الألوان. يقفّمان العروس  
 ويذهبان... الثلاثة يتبادلون  
 النظرات...).  
 الأحمر : مبارك يا عروس.  
 (العروس تضحك ضحكة عدبة دون أدنى  
 ارتباك)  
 : خلدي راحتك على آخرها فانت في بيتك.  
 العروس: شكرًا... ولكن.  
 الأحمر : أفصحي عمّا تريدن بكلّ حرّيّة.  
 العروس: أشعر كأنّي في حاجة إلى تشجيع.  
 الأحمر : قلت لك إنّك في بيتك.  
 العروس: أعني أنّه من المفيد... أعني أنّ قليلاً  
 من... الويسكي...!  
 الأحمر والأبيض : ويسكي!

## ٤٧٠ الجريمة

الأحمر : غير معقول، وحتى لو كان هو فلن يتعرّف علينا...

العروس: هل تتوقّعان قدوم أحد؟

الأحمر : كلاً.

العروس: أظنّ أنّ اثنين فيهما الكفاية!

(الرجل يدخل. هو هو كما رأينا. يذهب

ويجيء في سرعة تفوق سرعته السابقة كلّها).

الأحمر : اللعنة.

الأبيض : أعوذ بالله.

العروس: هذا الرجل أذكّره.

الأحمر : أنت أيضاً تعرفينه؟ هذا ما توقّعت، إنه مجنون.

العروس: مثل جميع الطاعنين في السنّ فيما يبدو.

الأبيض : ولكنّه ليس طاعناً في السنّ فيما يبدو.

العروس: كان صديقاً لأبي...

الأحمر : (بإصرار) لنشرب.

(تدور الزجاجة بينهم)

الأحمر : لا مفرّ.

الأبيض : لا مفرّ.

العروس: ظننته يوماً يطاردني للحبّ...

الأحمر : إنّه مجنون بدءاً المطاردة.

العروس: لا يبعد أن يكون لطيفاً خفيف الروح.

الأحمر : عرفناه أكثر منك.

(صمت)

: (للرجل متحدّثاً وهو ثمل) اجري...

اجري... افعل ما تشاء... ماذا يهمّ؟...

ولكن لا تعدّ نفسك منتصراً... لن نفتتح

بأنك تتعرّف علينا بحاسة مجهولة...

أبداً... الحكاية أنّ البلد ملأى

بالجواسيس... أنت على صلة بالشرطيّ أو

المأذون أو طبيب التجميل أو الصيدليّ...

لا سِرّ هناك ولا معجزة... افعل ما

سم تشاء... اجري... اجري حتى تقع مغشياً

عليك... وسوف نضحك كثيراً

وطويلاً...

(الأحمر يتظاهر بالضحك وكذلك الأبيض).

الأحمر : أسلوبك بديع ولكنّه جريء، اجراً من

أساليب العذارى!

العروس: لم يعرف التاريخ إلاّ عذراء واحدة!

(الرجلان يتبادلان النظر في ذهول. العروس

تفتح حقيبة يدها وتخرج منها زجاجة

ويسكي... وتشرب... وتمدّ بها يدها

إليهما).

العروس: يبدو أنّك بخيل، خذ واشرب وإلاّ

غضبت.

(الأحمر يُجرّج فيتناول الزجاجة ويشرب ثمّ

يعطيها للأبيض فيشرب، وتنتقل الزجاجة

بينهم).

العروس: ذلك مفيد جداً في التغلب على الحياء!

الأحمر : (مندهشاً) الحياء؟

العروس: نعم الحياء، أنت لم تر شيئاً بعد.

الأحمر : نخب الحياء.

(الزجاجة تدور. في نشوة يقبلان العروس في

الحذّين في وقت واحد).

: (للعروس) لعلّك مندهشة لأنّ القُبَل تنال

عليك من رَجُلَيْن لا من رجل واحد.

العروس: (وهي متتشيّة) القُبَل نتمّ مشكورة لا يجوز

أن نفسدها بالتساؤل!

الأحمر : (ضاحكاً) الحقيقة أنّ لك زوجين لا زوجاً

واحدًا!

العروس: (منقّلة البصر بينهما) أرجو أن أجد في ذلك

الكفاية حتى أنعم بالاستقرار المنشود.

(الرجلان يتبادلان النظر ثمّ يغرقان في

الضحك. الزجاجة تدور مع القُبَلات).

الأحمر : لم نفلح في إثارة دهشتك ولو مرّة واحدة!

العروس: عسير جداً أن تُثار دهشة في هذه الأيام.

(الأبيض يتنصّت في ترقّب مفاجئ).

الأبيض : (للأحمر) سمعت شيئاً؟

(الأحمر ينصت. يترامى وقع أقدام).

الأحمر : لعلّه عابر سبيل...

الأبيض : ولكنّها أقدامه هو

## الجرعة ٤٧١

وحدها... الرجل تأخذ حركته في التباطؤ  
رويدًا رويدًا حتى يقف تمامًا وهو يجرّك قدميه  
(محلّك بين). العروس ترقص وحدها أمام  
الرجل).

(ستار)

## تحقيق

دقّ جرس الباب. انفصل جسدهما في حركة  
مشتتة بالفرع. وثبا إلى ملبسهما وهو يهمس:  
- قلت إنك لا تتوقعين قدوم أحد...  
فقلت هامسة أيضًا:  
- لعله الكوّاء...  
وكان يرتدي ملبسه بيديه وقدميه ويقول:  
- يجب أن أستاذ للاختفاء ولكن أين؟  
- لا أظنّ أنك ستضطرّ إلى ذلك، وإذا وقع  
المستحيل فادخل تحت السرير...

وغادرت الحجرة وهي تحبّك الروب حولها ثم ردت  
الباب. نظر إلى أسفل السرير ولكنّه مضى بخفة إلى ما  
وراء الباب يتنصّت. سمع صوت الباب وهو يُفتح،  
ثمّ وهو يُغلق، ووقع قدمين ثقيلتين. في لحظات  
خاطفة توارى تحبّ السرير. من القادم؟ ليس الزوج  
وإلا لجا إلى حجرة النوم ليخلع ملبسه. ليس الزوج  
على وجه اليقين فقد اتصلت به تليفونيًا في الإسكندرية  
منذ ساعة واحدة. إنّه فيما يبدو من المترددين على  
البيت، بل هو من أهل البيت على نحو ما وإلا ما  
اقتحمه في هذه الساعة من الليل. لبد في مكمنه بمزقه  
القلق والإحساس بالنكد بعد أن ثمل بدفء اللذة.  
وليصبر فسيذهب عاجلاً، لا يمكن أن تطول الزيارة إلى  
ما لا نهاية، وسيتهي بالتالي عذابه. انقضّت عليه  
فكرة كحشرة طائرة، ألا يُحتمل أن يدخل القادم  
حجرة النوم فيرى زجاجة الكونياك وعلبة  
الشيكولاتة؟ هل يزحف إلى الخارج ليعود بالزجاجة  
والعلبة؟ لكنّه لم يتحرّك، لم يجدها الكافية،  
وأطبقت عليه التعاسة أكثر فأكثر. ومضى الوقت وطال

الأبيض: (للرجل) ليتك تشرب معنا، الشرب صنع  
لنا معجزات...

العروس: كيف أنساكم هذا الرجل عروسكم؟  
(يدور الشراب والقبلات والأحضان).

الأحمر: (للرجل) سنفعل ما يجلو لنا تحت سمعك  
وبصرك، سينبت في رأسك قرنان وأنت  
تجري كالمجنون...

الأبيض: (للرجل) معذرة، للخمر سلطان وللحبّ  
سلطان، ولكننا في الواقع نحترمك، صدّقني  
فأنت تشغل من وقتنا أكثر ممّا تصوّر، وأنا  
مقتنع بأنك لا تتعرّض لنا بأذى، وأننا في  
الواقع مسئولون عن كلّ شيء، فنحن الذين  
نعمل ونحن الذين نتغيّر ونحن الذين نكبر،  
ولا حقّ لنا في أن نعلّق عليك الأخطاء  
والمناعب، ويودّي أن تقبل دعوتي للشراب!  
الأحمر: (للأبيض) يا لك من منافق.

الأبيض: لا تفسد شهر العسل بسوء الأدب.

العروس: هل تزوّجتاني لقتل الوقت بالشجار والجدل؟  
(يرجعون للقبل والأحضان والضحك.  
العروس والأبيض يرقصان. الأحمر ينظر  
نحو الرجل وهو يترنّح من السكر).

الأحمر: اجري... لا يهيم... سيدور رأسك وتقع  
جثة هامدة...

(العروس تتخلّص من ذراع الأبيض ثمّ  
تقبل نحو الأحمر فيرقصان معًا. الأبيض وهو  
يترنّح ينظر نحو الرجل).

الأبيض: أودّ أن أقابلك على انفراد...

(الرقص مستمرّ وكذلك الرجل).

: سيجري بيننا حوار مفيد، وإن كان ثمة  
جديد فلعله يكمن في صدرك الصامت...  
(الرجل يضرب الهواء بسوطه محدثًا طرقة  
رهيبية...).

(الأحمر والأبيض يتلاصقان. يحاولان مغادرة  
المكان ولكنّ قدميهما لا تسعفانها. يسقطان.  
يزحفان على أربع إلى الخارج حتى يجتفيا  
تمامًا. العروس مستمرة في الرقص

- سأكتفي بالشاي...  
فلم يفصح وجه المعجوز عن تعبير. وجه ذو سحنة واحدة. ولكنها قالت:

- كُلُّ لقمة تسند قلبك...

المنظر المرعب لا يبرح مخيلته. يعدّبه ويطارده. فرّ بقوة تركبه وتدفعه بلا حذر. نسي زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة فلم يذكرهما إلا في ظلام حجرته. ارتدى ملابس غادر الشقة. حمل الأرض فوق رأسه. ابتاع جريدة الصباح وهو يخرق شارع القبة بالجيزة ولكنه قال لنفسه «لم يكتشف شيء بعد». وأخيراً وجد نفسه جالساً إلى مكتبه بالإدارة. وجاء الرئيس في أعقابها وامتلات المكاتب إلا واحداً. ونظر إلى المكتب الخالي بعين متلصصة، وهو يقع فيما أمامه على الجانب الآخر للحجرة. وشرع في العمل وهو يحنس إليه النظر. إذا تّمت له النجاة فسيحزن عليها طويلاً أما الآن فلا وقت لديه للحزن. وتساءل الرئيس:

- ستّ لطفية لم تحضر، ألم تعتلر؟

ولما لم يسمع جواباً عاد يقول:

- الموظفات أعمارهنّ لا تنتهي...

وأثار قوله ضحكات على سبيل التشفي أو الملق. لم يشترك في الضحك. تساءل فيما بينه وبين نفسه ترى ألم يلاحظ أحد شيئاً ممّا كان يُتبادل في صمت بينه وبين المكتب الخالي؟. ربّما أدلى شاهد بملاحظة عابرة تقلب دنياه رأساً على عقب. أو يكون آخر رأهما في إحدى منعطفات شارع الهرم. ثمّ إنّه نسي هناك زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاطة. أيّ أسرار يمكن أن تبوح بها الزجاجة والعلبة؟. إنّ كلّ شيء ينطق أمام شياطين المحقّقين ويخلق الأساطير. وغير بعيد أن يكون قد نسي أشياء أخرى. وبصماته انطبعت بلا حساب ولا حذر. وربّما وقع المتحقّقون في الشرك وأغمضوا العين عن القاتل الحقيقي.

وجاءه صوت الرئيس وهو يقول بصوت أمر ربّان:

- يا سيّد عمرو، سأحوّل إليك الأوراق العاجلة

الداخلية في اختصاص ستّ لطفية...

لماذا اختاره هو بالذات؟. ربّما لأنّه أحدث الموظفين عهداً بالوظيفة. أم تراه يعني شيئاً وراء ذلك؟. إنّه

وثقل. تلهمى بالنظر إلى نقوش السجادة والوانها وقد اختلطت وغامت تحت نور الأباجورة الأحمر الخافت، وإلى أرجل المقاعد والشفونيرة المغروزة في وير السجادة. وارتعد لسماح صوت طارئ، ثمّ رأى باب الحجرة وهو يُفتح في هدوء. دخل شخص بلا ريب، ها هو حداؤه الأبيض ذو السطح البنيّ وطرف بنظونه. وألحجه يساراً نحو الصوان ففتحه. وقف أمامه دقيقة أو دقيقتين ولكن أين لطفية؟. وأغلق الصوان ثمّ مضى نحو الباب في هدوء كما جاء. ترى ما معنى ذلك؟. ومتى يخرج من زنزانته؟. واشتدّ به التوتر والإرهاق واليأس. خُيّل إليه أنّه وقع في شرك وأنّ يدًا حديدية تمتدّ للقبض عليه وأنّ قدميه تندسّان في حذاء أبيض ذي سطح بنيّ، وأنّ عليه أن يرسم خطة كاملة للتملّص من مأزقه في زنزانته. وقال له صوت باطنيّ يضطرم بالرعب والإلهام إنّ نجاته رهن بقوة خياله، وإنّها وحدها القادرة على تحويل الكابوس إلى حلم. وهو لن يبقى تحت السرير إلى الأبد في هذا الصمت العميق العجيب. إنّه يمدّ ذراعه لينظر في الساعة، ويخرج رأسه في حذر كالسلحفاة ليتنفسّ هواء نقياً بعض الشيء، ويرهف السمع فيجد هدوءاً خفيفاً ولكنه يشجع على مغادرة الزنزانة. كأنّ الموت يربض في الظلام مجمّداً كلّ حركة مسكناً كلّ صوت. وأرهقه التعب لحدّ التهؤور. وتجمّعت كلّ قواه المضمحلة في وثبة جنونية للدفاع عن النفس في مغامرة مرتهلة يائسة...

\*\*\*

طلع الصبح دون أن يغمض له جفن. سمع دقات رفيقة على باب حجرته. وجاءه صوت محشرج هاتفاً:

- سي عمرو، اصحّ...

ما أجدر أن يتغيّب اليوم بعذر ما ولكنه نبد الفكرة بلا تردّد قائلاً لنفسه «هو الجنون بعينه»، وصاح:

- صحيت يا أمّ سمعة!

ولما جلس إلى المائدة الصغيرة في الصالة رأى طبق المدّسّ وقدم الشاي باللبن والرغيف المجمرّ فمدّ يده إلى القدح وهو يقول:



### الجريمة ٤٧٣

عشوائية حول مبنى الوزارة ولكنه لم يعثر للشاب على أثر. ولبت مذهولاً وهو يقول لنفسه: هكذا تقع الأحداث التي نسمع عنها من بعيد دون مبالاة.

\*\*\*

احتلت الحادثة مكانها في صفحة الحوادث. قرأ بعناية وانتباه كامل. بدأت بملاحظة عابرة من البواب لباب شقة المقاول حسنين جودة الذي لم يكن مغلقاً كعادته وانتهت باكتشاف جثة زوجة المقاول الموظفة. اتصلت بشرطة النجدة. تبين أن المرأة خُنت بينا كان زوجها في رحلة تجارية بالإسكندرية. لم تُكتشف سرقة. عُثر على زجاجة كونيالك وعلبة شيكولاتة. وطبعاً التحقيق ماضٍ في طريقه إلى الكشف عن أسرار الجريمة والقبض على القاتل. ووجد الموظفَين واجمين والحوادث مشحوناً بأخبار الجريمة وتأويلاتها. ثمّة حسرة ورتاء وتساؤل عن بواعث الجريمة، وعن معنى وجود الكونيالك والشيكولاتة في غياب الزوج. وقال أحدهم:

- كل شيء مفهوم ولكن لم قتلها؟

أجل لم قتلها؟ وقعت الواقعة في مجال تنفّسه وهو لا يفقه لها معنى. ليس الواقع كما يتصورون وسوف يندفعون جميعاً كالسكارى في طريق الضلال ليرتكبوا جريمة أخرى.

وقد جاءهم صناحب الحذاء بقدميه ولكنهم يتساءلون عن صاحب الخمر والشيكولاتة. هو وحده يتشوّق لمعرفة وكشف سرّه المغلق فلعلّه يعثر عليه في الجنازة. بل يجب أن يعثر عليه في الجنازة كما يقضي به المنطق. وذهب ممثلًا بالتصميم بقدر ما هو ممثّل بالشجن. وتفحص بعين ثاقبة أهل الفقيده من المستقبلين. رأى الزوج الذي يوشك أن يصرعه المرض، ورأى آخرين، ولكنه لم يعثر لضائته الماكرة على أثر. وسار وراء النعش وهو يبتلس إليه النظر بقلب منقبض. وكاد إلى حين ينسى مخاوفه تحت موجة الحزن التي غمرته. وتذكر قصة حبّ القصيرة العميقة التي مضت في عناء ولم تحلّف إلا التعاسة والرعب.

\*\*\*

قصير ماكر ذو نظرات تحتانية فهل يعني شيئاً آخر حقاً؟ واسترق نظرة من الوجوه ليرى أثر الأمر الإداري ولكنه لم يقرأ شيئاً. كل شيء هادئ وعاديّ. والقاتل مجهول فما معنى الخوف؟ وكان يصارع التشبّت والتمزّق عندما سمع صوتاً غريباً يسأل بأدب:

- هل الستّ لطفية موظفة في هذه الإدارة؟

فأجابه موظّف:

- أجل ولكنها لم تحضر اليوم.

نظر إلى القادم باهتمام فرأى شاباً طويلاً نحيلاً غامق السمرة يرتدي قميصاً أزرق وينطلقوناً رمادياً، سرعان ما غادر الحجر على أثر الإجابة التي تلقاها. لم يسأله أحد عن هويته ولم يعلن هو عنها، وتبيّن تماماً بمجرد اختفائه. ففكر فيه طويلاً وساورته مخاوف شتى. وتحمّست لمخيلته الجثة ربما للمرة الألف. وتذكر كيف انهزم لدى رؤيتها ففرّ كالمجنون. غرق في أفكاره ثمّ صحا بعد وقت لا يمكن تحديده على حديث يدور حول حذاء أبيض. ارتعد قلبه. ماذا يقولون؟ أحدهم يقول إن الأحذية البيضاء باتت نادرة الاستعمال، فقال آخر إن الحذاء يعجبه، فعاد الأول يقول إنه يتسخ لأوهى الأسباب ويصعب تنظيفه وتلميعه بسبب سطحه البتّي. اشتدّت به الرعدة فتساءل:

- ما حكاية الحذاء؟

فأجابه الموظّف الأول:

- حذاء أبيض ذو سطح بتّي من النوع الكلاسيكيّ، رأيناه في قدمي الشاب الذي جاء يسأل عن لطفية.

لا -

نذت عنه بعضيّة ملفتة للانتباه وهو يتهاوى في انبيار كامل. ولما شعر بالأعين المحدقة فيه قال:

- آسف، الظاهر أنّي أصبت بالأنفلونزا!

وضحك ضحكة عالية لا تناسب المقام. ولم يستطع صبراً فسأل الموظّف الآخر:

- أكان الشاب يتعل حذاء أبيض ذا سطح بتّي؟

- أجل، وهو يعجبني، هذه هي المسألة.

واستأذن في الذهاب إلى دورة المياه ولكنه اندفع في الطرقة الموصلة إلى الباب الخارجي. ودار دورة

نجا هو من كل سوء كما ينبغي له، أما إذا أصرَّ المحقق على تتبُّع أثر صاحب الخمر والشيكولاطة فلن يعجز عن الوصول إلى مصدرَيها، وهو - عمرو - معروف بشخصه دون هويته لدى صاحب محلّ «الزهرة» كما هو معروف عند فتاة حلواني «ألف ليلة»، وغير بعيد أن أوصافه تتردّد في هذه اللحظة على الشفاه بين جدران حجرة التحقيق.

\*\*\*

ونشرت صور لطفية وحسين زوجها ومحمد ابنه لأول مرة في الجريدة. وتبيّن لعمرو أن ابن المقاول شخص آخر غير الشاب صاحب الحذاء الأبيض. وتابع تعليقات الموظفين بالإدارة باهتمام وتركيز: - تقول الجريدة إن الشرطة عثرت على خيوط يمكن أن تؤدّي إلى القاتل..

- لعلها تقصد الشاب ابن المقاول؟

- أو الزجاجاة والعلبة؟

- بئرا الجريمة كامن في الزجاجاة...

ورفع الرئيس رأسه عن رسالة كان يقرأها بإمعان ثم قال:

- يا جماعة، نحن مطلوبون جميعاً لسباح أقوالنا...

\*\*\*

شهد كلّ موظف بما يعلمه ولم يكن ذا بال، مثل تاريخ التحاق لطفية بالعمل منذ عشرة أعوام، وزواجها منذ عامين. وشهد لها الرئيس بحسن السير والسلوك والمعاملة، وبأنها كانت موظفة ممتازة. ولكنّ الفرّاش - عمّ سليمان - أدلى بواقعة مهمّة فقال إنّه رآها مرّة بصحبة شابّ قبيل زواجها هو نفس الشابّ الذي جاء الإدارة صباح الجريمة سائلاً عنها. وأكد الجميع واقعة الزيارة الصباحية وأعطوا أوصافاً تقريريّة للشخص. واهتمّ المحقق بالواقعة بطبيعة الحال. وكما دُعي عمرو لأخذ أقواله عن الشخص المجهول وصفه بدقة ملحوظة، طوله وحجمه ولونه وملابسه حتى الحذاء، فقال له المحقق:

- يبدو أنّك تفحصته بعناية!

من هو صاحب الحذاء الأبيض؟ هل رآه البواب ليلة الجريمة وهل يعرفه؟ أما هو فقد رآه البواب. وكما سأله عن مقصده أخبره أنّه ذاهب إلى طبيب الأسنان بالدور الثالث، وإلى العيادة ذهب فعلاً للكشف والتنظيف تنفيذاً لتدبير حكيم اتّفق عليه مع الفقيده، فمن تلك الناحية لا خوف عليه.

وقال موظّف بالإدارة بعد أن فرغ من قراءة

الجريدة:

- الأمور تتضح، فالزوج مريض جداً، وله مطلقة أنجب منها شاباً وشابّة جامعيّين، والعلاقة بينه وبين أسرته الأولى سيئة جداً...

فقال ثان:

- وإذن فيهم أسرته الأصليّة التخلّص من الزوجة الجديدة قبل أن تستولي على أموال أبيهم...

وتساءل ثالث:

- هل من علاقة بين ابن المقاول وبين الخمر والشيكولاطة؟

فقال الأوّل:

- لن يفوت المحقق شيء من ذلك.

فقال رابع:

- سيصلون إليه عن طريق الزجاجاة والعلبة...

فقال عمرو وهو يداري حنقه:

- توجد آلاف الزجاجات وآلاف العلب!

- ولكنّ العلبة تدلّ على الدكان والدكان تدلّ على الشاري، وقد يعثرون على لفافة الزجاجاة فيعرف المخزن أو المحلّ...

- ثمّ يُعرض الشابّ أو المتهم على عمّال المحلّ والمخزن.

جميع الأدلة متوقّرة إذا تركّزت الشبهات في الزجاجاة والعلبة. ففكر في ذلك طويلاً وقلبه يغوص في أعماق من الكتابة. وعاد الموظف الأوّل يقول:

- الأمر واضح، ابن المقاول أنشأ علاقة مع المرحومة

ثمّ قتلها...

لعلّ ذلك كذلك، أو لعلّ القاتل هو صاحب الحذاء الأبيض، أو لعلّ ابن المقاول هو صاحب الحذاء الأبيض. إن صحّ احتمال من تلك الاحتمالات فقد

## الجرمة ٤٧٥

من الحكمة أن يكمل علاجه عند طبيب الأسنان.  
ها هو الطريق مرة أخرى وها هي العمارة. ترى أما  
زال حسنين جودة يشغل العمارة؟ وجد البواب فوق  
الأريكة وراء الباب مباشرة. إنه صعيدي فيبدو،  
ويلف سيجارة. ومضى إلى الداخل فقام الرجل وتبعه.  
دخل المصعد وراه فقال باقتضاب:  
- الدكتور نصر طبيب الأسنان.

وهو يغادر المصعد في الدور الثالث حانت منه نظرة  
إلى الأرض فرأى حذاء البواب فارتعدت مفاصله.  
حذاء أبيض ذو سطح بيّ! مضى إلى العيادة بدهن  
مشّت. أياكون البواب هو القاتل؟ ولكنه يذكر تمامًا  
أنه رأى الحذاء تحت طرقي بنطلون لا جلباب. أم  
يكون البصر قد خدعه؟ وغرق في ذهنه حتى دُعي  
إلى حجرة الكشف. جلس وهو يتساءل:

- هل ينتهي التنظيف في هذه الجلسة؟

فقال الطبيب:

- أراك نافد الصبر.

فسأله:

- ما أخبار الجريمة؟

- آه... تلك المرأة! كنت أعرفها جيدًا فقد

حضرت مع زوجها عند تركيب ضرسين له!

- حقًا؟!

وندم على ثرثرته أما الطبيب فقال:

- عمّ خليل التمرجي اعتقد أنه رأى القاتل.

- حقًا؟

- إنه يسكن في حجرة فوق السطح وكان يمرّ أمام

شقة القتيلة عندما رأى رجلًا يغادرها.

- أراه جيدًا؟

- لا أدري.

- كان يجب أن يدلي بشهادته.

- وقد فعل.

من الذي رآه التمرجي؟ ولأيّ درجة تمكّن من

رؤيته؟ هل ساوره شكّ من ناحيته؟!

\*\*\*

وكان يغادر باب الوزارة عندما شعر بشخص

فتضايق عمرو من الملاحظة ولكنه قال بثبات:

- كان يقف أمامي مباشرة...

وكان يشعر طيلة الوقت بضيق وتوتر فزادته  
الملاحظة ضيقًا وتوترًا. وضاعف من همه ما ذاع في  
حجرة المحقّق من أنه ثبت أنّ ابن المقاتل كان في  
رحلة جامعيّة ليلة الجريمة وأنّ الشبهات تبدّت -  
بالتالي - من حوله...

\*\*\*

تقمّص دماغ المحقّق فطارد نفسه بنفسه. من  
الشابّ الذي رآه عمّ سليمان مع الفقيده ولمّ زار مكتبها  
صباح ارتكاب الجريمة؟. محتمل أن يكون صاحب  
الخمر والشيكولاتة أو يكون شخصًا آخر لا علاقة له  
بالجريمة. السرّ قابع وراء الزجاجاة والعلبة. فلتخيل  
القصة من بدايتها عندما بدأت بغرام. انتهب العاشقان  
فرصة سفر الزوج فتواعدا في بيت الزوجيّة. وفي  
الموعد المضروب تسلّل الشابّ إلى العمارة. يسيرُ  
التسلّل إلى عمارة ضخمة بها أكثر من عيادة طبيّة. وها  
هو يجالسها كما يفعل العشاق. كيف ومتى سيطرت  
فكرة القتل؟. إنّه لا تخلق بغنة وبلا مقدمات. ربّما  
جاء بها جاهزة معه وغير بعيد أن تنشأ عقب خلاف  
طارئ أو أثر ميل من المرأة نحو إنهاء العلاقة. لعلّه  
شابّ غرّ ومحبّ حتى الجنون وقع في هوى امرأة طموح  
لا حدّ لطموحها فتزوجت من المقاتل وأبقت على  
علاقة الشابّ بها لتستحوذ على المال والجاه والحبّ  
فكرها بقدر ما أحبّها وكما قالت له بدلال وهي تلاطفه  
«اخنقني» طروق عنقها بقبضتيه وشدّ بكلّ عنف فلم  
يتركها إلا جثة هامدة. ارتكب جرمته ثمّ هرب ولكنه  
نسي وراءه الزجاجاة والعلبة. سيظلّ مهذّبًا بأن تراه  
فتاة حلواني دمشقي أو صاحب محلّ «الزهرة» أو يساق  
إليهما في ظرف ما فيتعرّفان عليه. ويتّضح أنّه زميل  
للفقيده في إدارة واحدة فتقوى الشبهة وتتوطّد. وإذا  
اعترف بأنّه صاحب الزجاجاة والعلبة، وبأنّه كان  
عشيق المرأة، فأبى قوّة يمكن أن تدفع عنه التهمة أو  
تنقله من حبل المشتقة مهما أنكر وأصرّ على الإنكار!

\*\*\*

٤٧٦ الجريمة

يلاحظه فالتفت وراءه فرأى عمّ سليمان الفراش. نظر إليه متسائلاً فقال الرجل:

- عمرو بك، الحقّ أتي لم أشهد في التحقيق بكلّ ما أعرف!

فرمقه في دهشة فقال الرجل:

- كتبت شهادة لو سمعها المحقّق لأتعب الأبرياء بلا موجب.

- ماذا تعني؟

فقال الرجل وهو يباليخ في الأدب:

- رأيت حضرتك يوماً وأنت تقبلّ المرحومة في

المصعد! فهتف:

- ماذا تقول؟

- رأيتك وأنت تقبلّها.

خذلته أعضاؤه في الواقع ولكنّه تماسك بقوة فوق

طاقة البشر وقال:

- أنت أعمى بلا شك.

- كتبتها خشية أن تدفع بك إلى مواطن الشبهات!

فهتف:

- أنت أعمى!

فتراجع الرجل قائلاً:

- لا مؤاخذه يا بك، ما قصدت سوءاً قط.

فتراجع بدوره قائلاً:

- إنك على أيّ حال تستحقّ الشكر.

فقال الرجل وهو يمضي:

- الشكر لله.

إنّه يتمرّق إرباً. لا أمان ولا سلام ولا قدرة على

تحملّ مزيد من العذاب.

\*\*\*

قال عمرو:

- لا خبر عن الجريمة في الجرائد.

فقال مرّظف:

- أكبر الأحداث يشغل الصحف أيّاماً ثمّ يختفي

كأن لم يكن.

وقال آخر:

- في رأيي أنّ النياية هي التي منعت النشر.

فسأل عمرو:

- لماذا؟

- هكذا يتصرّفون إذا اكتشفوا حقائق يجب إخفاؤها

عن القاتل.

وشعر بنظرات تلسع وجهه فالتفت بالغريزة ناحيتها

فالتقت عيناه بعيني عمّ سليمان وهو يحمل القهوة

للرئيس. جُنّ بالقهر دقيقة ثمّ تساءل متى وكيف يشرع

في ابتزاز أمواله! ثلاثة تمّنى أن يتخلّص منهم، فتاة

الحلواني وصاحب محلّ الزهرة وعمّ سليمان، تمّنى أن

يتخلّص منهم ليتخلّب على الأرق الذي احتلّ ليليه

المضنية. وتتابعت المعجزات فصدمت سيّارة نقل الفتاة

الجميلة، وقُتل صاحب محلّ الزهرة في معركة غادرة مع

أحد العمّال، أمّا عمّ سليمان فقد مات فجأة وهو يعمل

في المقصف.

ولم يكذب يتذوّق قطرة من الراحة حتّى دهمه صوت

الرئيس وهو يقول:

- متى تبدأ العمل يا سيّد عمرو!

\*\*\*

وهبطت عليه فكرة من السماء. أوحى إليه بأنّ

البوّاب ليس بالملك المناسب للحداء الأبيض. الحداء

لا يناسبه لا من الناحية الذوقية ولا من الناحية

الاقتصادية. الأرجح أن يكون قد تلقاه هديّة. فمنّ

هو المهدي ومتى أهدها إليه؟. لعلّها فكرة لا تقوم على

واقع ولكنّها جديرة بالاختبار. ومضى لتوّه قاصداً عيادة

الأسنان. وفي المصعد قال للبوّاب:

- حداؤك جميل!

نظر إليه الرجل نظرة جامدة ولم يعلّق فعاد يسأله:

- جاهز أم تفصيل؟

أجاب الرجل:

- يمكن تفصيل حداء مثله عند أمين عليّ بممرّ

الديلمي.

هي إجابة وتخلّص من الإجابة معاً. قويّ سوء

الظنّ به. وكان ممرّ الديلمي قريباً، ودكّان الإسكافيّ في

مطلعه على اليمين. حيّاً الرجل وقال:

- أريد تفصيل حداء أبيض ذي سطح بنيّ.

## الجرمة ٤٧٧

لدوافع قدرية مجهولة، أما هذه الفتاة فمثال كامل للرزانة والحياء والصبر والخلق المتين. وهي زوجة القاتل ولعلها أخته. ولاحظ أن في دكان الكواء امرأة قمیئة عوراء تتابعه باهتمام، واستنتج من سلوكها أنها صاحبة الدكان فأقبل نحوها - اكتساباً للوقت - وسألها عن بيت حسام فيظي فأشارت إلى البيت وهي تتفحصه بخبث بعينها اليسرى، وقالت:

- وتلك أخته التي تجلس في الشرفة.

لعلها ظنت أنه يحوم حول الفتاة فشكرها وهمم بالذهاب فقالت المرأة:

- أسرة طيبة.

فوافق بإحشاء من رأسه فسأته:

- هل تعرفهم؟

فأجاب بالنفي، واقتنع في ذات الوقت بأن المرأة تقوم بدور الخاطبة. وحدثته عن حسام ودولت، وأبدت استعداداً طيباً لتقديم أي خدمة شريفة. وقالت له بغتة وهي تغمز بعينها:

- ها هو حسام ذاهباً إلى المقهى.

التفت عمرو وقلبه يدق بعنف.

ولكنه رأى رجلاً لم تسبق له رؤيته. مضى بديناً أنيقاً فاقع البياض غزير الشارب لا يمت بصلة للرجل الذي يبحث عنه. انهارت تقديراته وخاب مسعاه. وأدرك أن البواب ما دله على عم أمين إلا باعتباره أقرب إسكافي، أما سرّ حذائه هو فما زال سرا، وما زال احتمال أن يكون هدية قائماً، وغير مستحيل في النهاية أن يكون صاحبه.

ورجع إلى النقطة التي منها بدأ.

\*\*\*

لو تنكشف تلك الغمة فيملاً رثيه بالهواء النقي بعمق وتوبة، ويعزم جاداً على إكمال نصف دينه بالاقتران من دولت فيظي، لقد تجب الاقتراب من شوارع برمتها كما يتجنب عيني عم سليمان. وثمة نسيان جاحد يسدل أهدابه على لطفية وماساتها، وهو الوحيد الذي يحترق في خفاء بذكرياتها. وفكر ثم فكر، وكتب رسالة مطولة للمحقق استهلها بقوله: «أنا

فأجلسه الرجل على كرسي من القش المجدول وراح يسجل مقاسات قدميه. وفي أثناء ذلك قال له:

- رأيت حذاء مثله في قدمي بواب العمارة رقم ١١ بشارع ٢٦ يوليو فاعجبني، وهو الذي دلني عليك.

فقال الرجل بهدوء:

- ليس بين زبائني بواب!

فخفق قلب عمرو سروراً بسلامة تفكيره وقال:

- لعله أخذ هبة من أحد زبائنك.

- يمكن.

- هل الطلب كثير على هذا النوع؟

- من النادر أن يطلبه أحد، وطلبك هذا هو الثالث

من نوعه في العامين الأخيرين.

فسأله باهتمام متصاعداً:

- والآخران من أي طبقة؟

- أحدهما قارئ والآخر...

وتردد تردد من خائنه الذاكرة فانحنى فوق دفتر متهرئ وقر صفحاته بسرعة وعمرو ينظر من فوق كتفه. وقال الإسكافي:

- حسام فيظي... غالباً موظف... لا يوجد في

الدفتر إلا العنوان.

وغادر الدكان وهو يحفظ العنوان عن ظهر قلب!

\*\*\*

انبعث إلهام في صدره بأنه سيرى القاتل وأنه سيجد فيه نفس الشخص الذي اقتحم الإدارة صباح ليلة الجريمة. وما عليه بعد ذلك إلا أن يقابل المحقق ليعترف بين يديه بكل شيء، أو الأفضل أن يحزر رسالة متضمنة لكافة التفاصيل. وكان البيت يقع في شارع المتوي بمنشية البكري، وهو شارع سكني نصف مساكنه عمارات حديثة والنصف الآخر بيوت قديمة من دور ودورين، وليس به من محال عامة سوى فرن وكواء، فهو شارع يشعر الغريب الطارئ بغرته. مر أمام البيت عصرًا فرأى في شرفته فتاة فوق العشرين ودون الخامسة والعشرين، أخذ منظرها بله فحلم بسعادة الحياة الزوجية واستقرارها الهانئ. قديمًا أسرته لطفية بحيويتها وعذوبتها الجنسية وتعلقها الجنوني به

## ٤٧٨ الجريمة

فلطمه بقوة هدامة وصاح به:  
- اعترف!  
فتمتم الآخر بصوت كالانين:  
- رحماك!  
- أنت الذي قتلت دولت فيظي!  
وفطن إلى هفوة لسانه أما الآخر فلم يفتن، وانهار  
تماماً فقال:  
- اعترف... ولكن لا تضربني.  
فدفعه أمامه وهو قابض على ذراعيه بوحشية.

\* \* \*

وفكر طويلاً في موضوع الرسالة دون حسم. وهداه  
تفكره إلى وجوب كتابتها على آلة كتابة ما دام مصرّاً  
على إخفاء إمضائه - وبالتالي شخصه - إذ ليس من  
حسن الفطن أن يرسل خطّه إلى المحقّق. واقتنع بذلك  
لحدّ أنّه عزم على شراء آلة كتابة صوتاً للسريّة اللازمة.  
وكان يتخبط في فراغ مخيف بين صمت الصحف وعيني  
عمّ سليمان حتّى اعتقد أنّ بقاءه في المدينة حمق ما بعده  
حمق ولكن أين المفرّ؟!. وقال له عمّ سليمان مرّة وهو  
يقدم له القهوة:

- لست على ما يرام يا أستاذ عمرو.

فغلى دمه لظنّه أنّه يطبق عليه الحصار ولكنّه قال

ببرود وهو يكبح انفعالاته المتطيرة:

- بخير والحمد لله.

واشترى في ذات اليوم الآلة الكاتبة - وهو آسف -  
لارتفاع ثمنها. ما أجدره بالتوفيرا لا بالتبذير ما دامت  
فكرة الزواج من دولت تغزو خياله بسحرها. ونظر إلى  
حذائه الأبيض ذي السطح البنيّ وأبتسم فهو لا ينسى  
أنّه كان المناسبة التي هيأت له التعرف بحسام فيظي  
وبالتالي بمنية القلب دولت. فما كاد الرجل يغادر دكان  
عمّ أمين عليّ حتّى قال له عمرو:

- فضّل لي حذاء مثل حذائه.

فابتسم الرجل وقال:

- ندر في آيأنا الإقبال على هذا الصنف رغم

فخامته.

فتردد عمرو قليلاً ثمّ سأله:

صاحب الخمر والشيكولاتة، وإليك الشهادة الوحيدة  
التي تنفعك». كتبها بعناية ودقّة وحشدها بالتفاصيل  
ولكنّه لم يوقع عليها بإمضائه. ولم يرسلها، أجلّ ذلك  
حتّى يستوفي التفكير في كافّة وجوهها واحتمالاتها. وقال  
لنفسه إنّه لن يذوق للراحة طعمًا حتّى يلقي القبض على  
القاتل. وتساءل أيّ بواعث يا ترى دفعته إلى قتلها  
بعدما ثبت من التحقيق أنّه لم تُكتشف سرقة وراء  
الجريمة؟. أما كان الأجدر أن يقتلها هو - عمرو - وقد  
توقّرت لديه لذلك أسباب وأسباب؟. كان يمقتها بقدر  
ما كان يحبّها، ولم يغفر لها نهمها الجنونيّ للمال  
والسلطان وتضحيتها به في سبيل ذلك. وكان يشدّ  
عليها بقوة وهي بين ذراعيه رغبة وحنقًا. على أيّ حال  
فلا يجوز له أن يمّيّ النفس بحياة زوجيّة سعيدة مع  
ذوّلت فيظي حتّى تنكشف الغمّة تمامًا وتهدأ أعاصير  
الوجود. وذهب من فوره إلى العمارة المشثومة ليكمل  
علاج أسنانه. وانتهاز فرصة هبوط المصعد فصعد إلى  
الدور الرابع بقوة لا تقاوم. وجد المصباح فوق باب  
شقة الماقل مضاء. ففتح الباب فظهر الماقل وهو  
يوسع لضيف فتوارى عمرو في نهاية الطرقة. وسمع  
حوارًا بينهما فقال الماقل:

- لا تنس عيد الأضحى.

فأجاب الرجل:

- كلّ عام وحضرتكم بخير.

فقال الماقل:

- سندبح هذا العام بقرة.

فقال الرجل:

- ونصنع من جلدها حذاء كلاسيكيًا.

فخفق قلب عمرو وشعر بأنّه قريب من النصر أكثر  
تمّا يتصوّر. وخرج الضيف فأفلتت من عمرو صيحة  
فوز. رأى أمامه غريمه دون سواء. القاتل المجهول  
المحوط بالأسرار. وانقضّ عليه كالوحش وقبض على  
ذراعيه وهو يصيح:

- أنت القاتل!

وذعر الرجل واختفى الماقل مغلّقًا الباب فضاعف

ذلك من وحدة الرجل الغريب وهتف:

- أيّ قاتل!

## الجريرة ٤٧٩

- ألم تعرف بأنها قُتلت منذ عشرة أيام؟  
فارتسم الدهول في وجهه وتمتم:  
- قُتلت؟  
- ألم تقرأ الصحف؟  
- أنا لا أقرأ الصحف!  
- على أيّ حال فالمحقق يرغب في مقابلتك.  
- أنا؟، لماذا؟  
- طبعي أن يرغب في استجواب جميع من كانت لهم علاقة بالفقيدة.  
صمت الرجل ملياً حتى أفاق بعض الشيء من وقع الخبر ثم قال بهدوء:  
- إنّي على تمام الاستعداد للقائه.

\* \* \*

ها هو هذا الشيخ . ها هو الحلم . جاء يسعى على حدائه الأبيض . أيّ قاتل ، أيّ مناورة يلعب بها . وقد استُدعي عمّ سليمان للمواجهة ، وعن عمّ سليمان علمت الإدارة بأنباء الرجل . علمت بأنه يُدعى محمود الغرّ وأنه سواق تاكس . وقد تعاقدت الفقيدة معه - قبل زواجها بعام - لاستغلال تاكس تملكه . وحرصت من بادئ الأمر على سرّيّة الموضوع لكونها موظفة من ناحية ولأنّها أخفت صفة التاكس عن أهلها حتى لا تُسأل عن مصدر المال الذي ابتاعته به ، فكانت تلقي السائق في الجراج . وظلّ الرجل على جهله بمسكنها ولكنّها دلته على مكان عملها ليتهدي إليها في الطوارئ . وكما وقع الطارئ ذهب للقائنها في الإدارة صباح ليلة الجريمة ، فلمّا لم يجدها اضطرّ للتصرف بمفرده فسافر بأسرة عربيّة إلى الإسكندريّة ولبث في خدمتها هناك حوالى الأسبوع أو أكثر . وانتظرها في ميعاد اللقاء المعتاد ولكنّها لم تحضر فذهب إلى الإدارة مرّة أخرى لمقابلتها . وتمّ التحقق من أقواله واختبرت بصماته ثمّ أفرج عنه!

دار رأس عمرو . ها هي الأمور تتعقد كما لم تُدرّ له في حسابان . وها هو ينحدر في تيه . وشدّ ما ندم على كتابة رسالته المذهلة . ولكنّ واقعة التاكس حقيقة لا شكّ فيها . «إنّي أحقر تصرّفاتك؟» . وكيف

- من الرجل؟  
- حسام فيظي ، موظف ، لا أدري في أيّ وزارة رغم أنّه زبون قديم مثل حضرتك!  
- ومن الفتاة؟  
- أخته ، اسمها دولت .  
- لعلك تعرف عنوانه؟  
فضحك وقال:  
- ١٤ شارع المتويّ بمنشيّة البكري .  
فحقّق له أن يأسف لشراء آلة كتابة ، ولكنّه اشتراها على أيّ حال . وكتب عليها رسالته المثيرة ، ثمّ عثّرتها ، ثمّ أودعها صندوق البريد .  
عند ذلك شعر بشيء من الراحة لأول مرّة .

\* \* \*

وكان عاكفاً على عمله بالإدارة عندما طرق أذنيه صوت وهو يسأل قائلاً:  
- أين الستّ لطفية؟  
رفع رأسه بقوة وفزع فرأى أمامه الشابّ المجهول الذي اقتحم الإدارة غداه ليلة الجريمة . وأحدث ظهوره المفاجئ دهشة عامّة أمّا سؤاله فأذهلهم . وتكهرب عمرو من الرأس إلى القدم . ها هو الشيطان الخفيّ ، حتىّ الحذاء لم يغيّره . أين كان ، ولماذا جاء ، وماذا يعني سؤاله؟ . وفي لحظات أغلق عمّ سليمان باب الحجرة ووقف وراءه متحفّراً أمّا الرئيس فسأل القادم:  
- من أنت؟  
فتجاهل سؤاله وعاد يسأل:  
- أين الستّ لطفية؟  
- ولمّ تسأل عنها؟  
- ذاك أمر يعينها وحدها .  
- ولكنّ من أنت؟  
فأجاب بحياء:  
- لا أهميّة لذلك .  
- ألم تسمع بما وقع للستّ لطفية؟  
- خير إن شاء الله!  
- لمّ تزرها في بيتها؟  
- لا أعلم لي بمكانه!

## ٤٨٠ الجريمة

استجابت؟ .. قالت برزانة مرعبة:

- ليكن رأيك ما يكون ولكنتك تحبني!

فقال بحنق:

- تبعين نفسك لوحش بسيارة!

- ولكنتك تحبني؟

فصمت صمتاً ذا مغزى لا يخفى فضحكت وقالت:

- لا تنغم بتصرفاتي ولا بزواجي نفسه ما دام قلبي

لك وحدك.

وقال لنفسه بأنه قضى على قلبه بأن ينقسم إلى

قسمين، تلك العدايات الجهنمية، التي لم تقتل من

وجدانه تماماً حتى وهما يدويان في ضوء الأباجرة

الأحمر. استقرّ حذاء أبيض ذو سطح بّيّ على السجادة

بين الصوان والحوان الحامل للزجاجة والعلبة،

وتموجت نهاويل غشاء الجدران الورقي، وتفتتت في

الجوّ هينات منسالة من كون مجهول، وتخطت الدرورة

عندما راحت تغازل يديه بنشوة جنونية وتقول له بدلال

«اخترقي».

\* \* \*

ودخلت أم سمعة الشرفة وهو وحيد يستجدي

نسمة من ليل الصيف وقالت له:

- ضيوف على الباب.

فسأها:

- تعرفينهم؟

- كلاً، قالوا افتحي فجئت لأخبرك.

فتح شراعة الباب فرأى وجهاً لم يره من قبل فغاص

قلبه. فتح الباب مستسلماً فدخل الرجل وتبعه ثلاثة.

اندلع الثلاثة يفتشون وقال له الرجل:

- معدرة، تفتيش لا بدّ منه، هاك أمر النيابة!

فسأله بصوت ضعيف:

- عمّ تفتشون؟

- آلة كاتبة.

وجيء بالآلة فتفحصها الضابط وقال:

- هي التي كتبت عليها الرسالة.

ويسط أمام عينيه الرسالة التي تطوّع بإرسالها

وسأله:

- رسالتك؟

فقال يائساً:

- لا علّم لي بشيء مما تتحدّث عنه.

- متى اشتريت هذه الآلة؟

- اشتريتها ولم أسرقها ولست مطالباً بتفسير سلوكي!

- ستعرض أنت على عمّال المحلّين اللذين اشتريت

منها زجاجة الكونياك وعلبة الشيكولاتة، فهل أنت

مصرّ على الإنكار؟، ولم تصرّ على الإنكار ما دمت

بريئاً؟

وفي سيارة الشرطة سأل الضابط عمّا جعله يشكّ في

أمره فيفتش مسكنه ولكنّ الرجل ابتسم ولم يجب.

وفطن عمرو إلى الخطأ الذي ارتكبه بإرسال الرسالة،

فإنّ كتابتها على الآلة الكاتبة تشي بخوف كاتبها من

الاهتداء إليه بمعرفة خطّه، ممّا يرجّح معه أنّ خطّه غير

بعيد عن تناول التحقيق، وما يثير- بالتالي - الشبهات

حول المتصلين بالفقيدة ومن بينهم زملاؤها في الإدارة.

هكذا استوجب خطوه تفتيش مسكنه - ضمن مساكن

الأخرين - وهكذا تمّ العثور على الآلة الكاتبة، وعُرف

صاحب الرسالة والزجاجة والعلبة.

وقال:

- ولكنتي بريء وكلّ كلمة في الرسالة صادقة.

فقال الضابط برود:

- علمنا من بادئ الأمر بعلاقتك بالقتيلة!

فاعترضت مخيلته الممزقة صورة عمّ سليمان ولكنّه

قال:

- اعترفت بذلك في الرسالة ولكنتي بريء.

فقال الضابط بغموض:

- وأعجبني خيالك!

فقال دون أن يتمنّ معنى قوله:

- وأطلقتكم المجرم الحقيقي!

- جميع من اشتبهت بهم أبرياء.

فتساءل بإنكار:

- فمّن القاتل إذن؟

فأجاب الرجل بهدوء وثقة:

- لم يبق إلا أنت!



## الحجيرة رقم ١٢

- هل وهبتك بقشيشًا؟  
 - نصف جنيه بالتام والكمال...  
 - واضح أنها غير طبيعية ولكن لا أهمية لذلك...  
 فقال الفراش:  
 - وكنت مازًا أمام حجرتها المغلقة في طريقي إلى  
 المغسل فسمعت وراء الباب صوتًا يتكلم بحدة  
 وحرارة...  
 - ولكنها بمفردها...؟  
 - رغم ذلك كانت تتكلم بحدة ويرتفع صوتها  
 تدريجيًا...  
 - كثيرون يفعلون ذلك، ليس بالضرورة أن يكون  
 مجنونًا من يخاطب نفسه...  
 فهزّ الرجل رأسه ولم ينبس فعاد المدير يسأله:  
 - هل وضح لسمعك شيء مما كانت تقوله؟  
 - كلاً، عدا عبارة واحدة وهي «لا يهم»...  
 وأشار المدير إشارة حاسمة إعرابًا عن رغبته في إنهاء  
 الموضوع ثم قال للفراش وهو يمضي:  
 - مزيدًا من الانتباه فهذا واجب على أيّ حال.  
 وقصف الرعد فنظر المدير إلى السماء من نافذة  
 زجاجية فرأها ملبّدة بالغيوم، وكان الجوّ شديد البرودة  
 والمطر متوقّعًا بين آونة وأخرى. وعند تمام الواحدة بعد  
 الظهر تلفنت له الحجيرة ١٢:  
 - ممكن أطلب غداء؟  
 - لا يوجد مطعم بالفندق ولكن يوجد مطعم  
 بالشارع، طلباتك يا فندم؟  
 - تورلي، أرز بالخلطة، مع كيلو كباب مشكّل،  
 تشكيلة سلطات، رغيف بلديّ مجمر، عيش سراي،  
 برتقالتان...  
 أمر المدير بإحضار المطلوب ولكنه دهش لكَمِيّة  
 الطعام المطلوبة، خاصّة اللحوم، وهي تكفي وحدها  
 لستّة أشخاص.  
 وقال لنفسه إنّها مصابة بجنون الخوف والنهم.  
 - محتمل أن تغادر الفندق عصرًا وسأجد فرصة  
 لإلقاء نظرة داخل الحجيرة.  
 وجاء الطعام، وبعد ساعة رجع خادِم المطعم ليأخذ  
 الصينيّة والأطباق. ولم يستطع المدير مقاومة رغبة ملحة

يتدكّر مدير الفندق بصورة لا تُنسى أنّه جاءته ذات  
 يوم امرأة لاستئجار غرفة لمدة أربع وعشرين ساعة،  
 وكان الوقت وقتذاك العاشرة صباحًا. وحدها الرجل  
 بنظرة خاصّة لندرة مَنْ يقصده من الجنس الآخر  
 منفردًا، وإنه ليتدكّر بصورة لا تُنسى أيضًا أنّها تبدّت  
 لعينه امرأة شديدة التأثير بقوة بنيانها ووضوح قسامتها  
 وحده نظرتها وهي تقف أمام الطاولة منتصبّة القامة في  
 معطفها الأحمر وقلنسوتها البيضاء. ولم تكن تحمل بطاقة  
 شخصيّة، غير عاملة ولا متزوجة، ولكنها على الأرجح  
 مطلقة أو أرملة، اسمها بهيجة الذهبي، قادمة من  
 المنصورة. سجّل الرجل ما يلزمه من معلومات ثمّ  
 عهد بها إلى فراش تقدّمها حاملًا حقيبتها، حقيبة كبيرة  
 الحجم فوق المألوف، فقادها إلى الحجيرة رقم ١٢  
 بالفندق الصغير.

رجع الفراش بعد نصف ساعة بوجه متعجب  
 فسأله المدير عمّا وراءه فأجاب بأنّ المرأة غريبة الأطوار.  
 - ماذا تعني؟

أجاب بأنّها طالته بأن يطبق حشية الفراش والغطاء  
 والملاء وأن يودعها ركن الغرفة حتّى يجيء الليل أمّا  
 السرير نفسه فأمرت بإخراجه من الحجيرة معتدرة بأنّها  
 لا يغمض لها جفن طالما أنّه يوجد تحتها فراغ يتسع  
 لشخص قد يجثئ فيه. فقال لها إنّ مخاوفها لا تقوم  
 على أساس وإنّ الفندق لم يقع به حادث واحد منذ  
 نشأته ولكنها أصرت على طلبها فأذعن لمشيئتها...  
 - كان عليك أن ترجع إليّ أوّلًا.

فاعتذر بأنّه لم يجد في طلبها - رغم غرابته - خروجًا  
 على التعليمات الواجب الالتزام بها في الفندق، ثمّ  
 واصل حديثه فقال إنّها أمرته بأن يفتح صوان الملابس  
 على مصراعيه وأن يبقيه كذلك فأدرك من توه أنّها تخاف  
 أن يغلّق في غيبة منها على غريب يتربص فصدع بأمرها  
 في تسليم بايسم.

- العجيب أنّها تبدو قويّة وجريئة...  
 وتفكّر الرجل مليًا ثمّ سأله:

في النظر إلى الأطباق، وجدها فارغة تمامًا إلا من بقايا عظام وصلصة متجلطة. وقرّر أن يتناسى الموضوع كلّه ولكنّه وجد المرأة - صورتها ونوادرها - تطارده وتلحّ عليه. لا يمكن القول بأنّها جميلة ولكنّها ذات سيطرة كالجاذبيّة، وبها شيء يخيف وأشياء تثير حبّ الاستطلاع والإذعان، ومع أنّه رآها اليوم لأوّل مرّة إلا أنّها تترك انطباعًا بالألفة التي لا تكون إلا للوجوه المستقرّة في أعماق الذاكرة من قديم.

ورأى رجلًا وامرأة قادمين نحوه، وسأله الرجل:

- هل السيّدة بهيجة الذهبي تقيم هنا؟

فأجاب بالإيجاب، وأتصل بالمرأة، فطلبت السياح للقادمين بالصعود إلى حجرتها، وكان واضحًا أنّ القادمين من الصفوة، من الناحية المادّيّة على الأقلّ. واندفع الهواء في الخارج بقوة رقصت لها القناديل المعلقة في مدخل البهو الصغير. وسرعان ما قدّم ثمانية أشخاص - أربعة رجال وأربع نساء - فتكرّر السؤال:

- هل السيّدة بهيجة الذهبي تقيم هنا؟

وتّم الاتّصال وجاءت الموافقة فصعدوا بجلال - كانوا على مستوى السابقين - إلى الحجرة رقم ١٢. أصبح الزوّار عشرة. أقارب من أسرة واحدة، أو أصدقاء، أو أقارب وأصدقاء، ولكن لا شك أنّ بهيجة سيّدة غير عاديّة.

- ترى لمّ اخترت فندقنا الصغير؟

ودبّ النشاط في كافتيريا الاستراحة وحملت إلى فوق أقداح الشاي. وشغلته بعض الوجوه في المجموعة الأخيرة فظنّ أنّه سبق له رؤيتها، ولكنّه قال لنفسه إنّ خير ما يفعله أن يغسل عنّه من شئون بهيجة هانم، وإنّها غدًا ستكون ذكرى من مئآت الذكريات الضائعة التي يجيش بها صدر الفندق.

ورأى أمامه سيّدة في الخمسين غاية في الرزانة

والوقار، سألت:

- هل السيّدة بهيجة الذهبي هنا؟

ولما أجاب بالإيجاب قالت:

- بلّغها من فضلك أنّ الدكتورة موجودة.

وأتصل بالمرأة فسمحت لها بالصعود، وأذعن لرغبة

ملحة طارئة فسأل الدكتورة قبل أن تغادره:

- ما تخصّص حضرتك؟

فأجابت وهي تذهب:

- طبيبة مولدة.

لاحظ أنّها قدّمت نفسها بصفقتها المهنيّة وبلا ذكّر الاسم، فهل هي تزور المرأة بهذه الصفة؟... هل المرأة تعاني من مرض نسائي؟... أهي حبل؟... ولم يستطع الاسترسال في أفكاره إذ جاءه رجل بدين قصير متجهّم الوجه قدّم نفسه بصفته المقاول يوسف قابيل وطرح السؤال الذي يتكرّر:

- هل بهيجة هانم الذهبي هنا؟

وعقب الاتّصال التلّفونيّ المعتاد سمح للرجل بالصعود، والمدير يودّعه بابتسامة ساخرة حائرة. ورجع أحد قرّاشي الفندق من مشوار وهو يرتعد من البرد داخل جلبابه البلديّ السميك فقال إنّ الظلام يتراكم في أركان السماء وإنّ النهار سينقلب ليلاً عمّا قليل، فألقى المدير نظرة من النافذة الزجاجيّة ولكنّه كان يفكر بامرأة الحجرة ١٢، المرأة الغامضة جالّبة الضيوف، ويخيّل إليه أنّ روحًا نفّاسة للإثارة والقلق تتسلّل في أنحاء الفندق مذ قدمت، وأنّه يشعر بها تتسلّل إلى زوايا نفسه موقظة بها أحلام المراهقة وأبهة الآمال الدنيويّة الدسمة. وانتبه من استغراقه على صوت يسأل:

- بهيجة هانم الذهبي هنا؟

رأى رجلًا ضخمًا يرفل في جيّبة وقفطان، طربوشه جانح إلى السوراء، ويده مظلمة رماديّة، قدّم نفسه قائلاً:

- بلّغها أنّ سيّد الأعمى الخانوتيّ قد جاء.

انقبض صدر المدير، انكمشت أعضاؤه، لعن الرجل والمرأة معًا، ولكنّه قام بواجبه فاتّصل بها، ولأوّل مرّة يتلقّى جوابًا مخالّفًا، فقال للرجل:

- انتظر حضرتك في الاستراحة.

ماذا جاء يفعل؟، ولمّ لا ينتظر في الخارج؟، لقد عمل في الفندق زهاء نصف قرن فلم يشهد مثيلاً لما يحدث اليوم، وأخوف ما يخاف أن يهطل المطر فيضطرّ الفندق إلى إيوائهم وقتًا مجهول المدى، وبخاصّة رجل الموت ذلك؟!

## الجرمة ٤٨٣

الرجال والنساء، أقبلوا نحوه في معاطفهم فغاص قلبه في صدره، ويادهم وهو لا يدري:

- بهيجة هانم الذهبي؟

فضحك أحدهم وقال:

- أبلغنا من فضلك أن مندوبي جمعية إحياء التراث قد جاءوا.

وأتصل المدير بالمرأة فلما طلبت السماح لهم قال لها:

- عددهم عشرة يا هانم وتحت أمرك في الدور

الأرضي استراحة تسع لأيّ عددا

- ولكنّ في الحجرة متسعاً

وصعد المندوبون والمندوبات والرجل يهزّ رأسه في

حيرة. سيقع الصدام عاجلاً أو آجلاً، سيتفجر غضب

السما في الخارج، سيتمخض ذلك التكتل الشاذّ في

الحجرة ١٢ عن شيء غير سار. وحانت منه التفاتة

نحو الاستراحة فرأى سيّد الأعمى يزحف نحوه فنقر

بأصابعه على سطح الطاولة بعصبية، أوصله بالمرأة قبل

أن يفتح فاه، سمع شكواه ثمّ سمع إذعانه، وتركه

يعيد السّاعة بنفسه، ولكنّ الرجل قال له وهو يهيم

بالذهاب:

- الانتظار بلا عمل مملّ جداً...

فغضب المدير، وكاد يوبّخه لولا أنّ المرأة أتصلت

به طالبة إيصالهم بالمطعم، واستمرت المكالمة دقائق

قبل أن تنقطع، وتساءل هل يبقون حتّى العشاء؟،

وأين يتناولون عشاءهم، كم يودّ أن يعاين الحجرة

بحالتها الراهنة، إنّه منظر يفوق الخيال، منظر جنونيّ

بلا أدنى ريب.

ولم يقف الطوفان عند حدّ فجاء نفر من أساتذة

الجامعة ورجال الدين، أمست المناقشة عقيمة، تركهم

يصعدون، بدا الأمر مزاحاً كابوسياً، وجاء رجل

غامض فصعد دون أن يمرّ به وقد ناداه فلم يلتفت

إليه، وتبعه فرّاش ولكنّه توقّف عندما رآه يدخل

الحجرة ١٢. وشعر المدير بأنّه وحيد وبأنّه يفقد

سيطرته القانونيّة على المكان، وبأنّ شيطان الأحلام

البهيميّة يطرق بابه بعنف. وفكّر بأن يشاور شيخ

الفرّاشين ولكن ظهر له رجل ما إن رآه حتّى تشهّد في

ارتياح، تصانحاً وهو يقول للقادم:

وجاء زوّار جدد، جاءوا متفرّقين ولكنّ تباغاً،

صاحب معرض أثاث ويقال وقصّاب وصاحب محلّ

عطور وأدوات زينة وموظّف كبير بمصلحة الضرائب

ورئيس مؤسّسة وصحفيّ معروف وتاجر جملة للأسلاك

وسمسار شقق مفروشة ووكيل شخصيّة عربيّة من

أصحاب الملايين، وظنّ المدير أنّ المرأة ستنتقل الاجتماع

إلى الاستراحة ولكنّها أشارت بالسماح لهم بالصعود

فصعدوا واحداً في أثر واحد. وتمّلت كراسيّ جديدة

ومضى الفرّاشون بالشاي، وتساءل المدير ترى كيف

يجلس الزائرون، هل يربطهم تعارف سابق: وماذا

جمعهم على وجه التحديد؟. واستدعى شيخ الفرّاشين

وسأله عن ذلك فأجاب الرجل:

- لا علم لي بالداخل، الأيدي تتسلّم الكراسي

والشاي من زاوية الباب ثمّ تغلقه فوراً...

فهزّ الرجل منكبيه وقال لنفسه إنهم ما داموا لا

يتشكّون فلا مسئولية عليّ.

وإذا بسيد الأعمى الخانوتيّ يقبل نحوه فيقول:

- أرجو أن تذكّر الهانم بأنّي في الانتظارا

فقال المدير بجفاء:

- وعدتّ بأن تستدعيك في الوقت المناسب.

ولم يتحرّك الرجل فتلفن للمرأة ليتخلّص منه ثمّ

ناوله التليفون بناء على رغبتها فيما بدا، فقال سيّد

الأعمى:

- يا ستّ هانم العصر فات ونهار الشتاء قصير.

وأصغى إلى السّاعة ملياً ثمّ أعادها ورجع إلى

الاستراحة غير مرتاح، والمدير يلعبه من صميم قلبه،

ويحمّل المرأة مسئولية استدعائه إلى الفندق، ويرمق

باب الاستراحة بنفور وتقزّز. ونزل بعض النزلاء في

طريقهم إلى الخارج، فأبدوا للمدير ملاحظات عن

الحجرة ١٢ المقلقة للراحة فقال الرجل معتذراً:

- يوجد بها زوّار وسيدهون عاجلاً أو آجلاً، لن

يبقى أحد منهم في الليل...

بات يحنّى أن تدفعه مسئولية إلى الصدام معهم

وهم من الصفوة القويّة، وضاعف من كآبته صفير

الرياح في الخارج وروح الأسي التي تغشى الطريق.

ورغم ذلك تراءى عند مدخل الفندق جماعة من

الفرّاشين أنّ باب الحجرة لم يعد يفتح، وأنّ الأطعمة أدخلت من شراعة الباب، وأنّ الضحكات الصاخبة تمتاح الدور كلّهُ، وأصبح المشهد كلّهُ يعرّز على التصديق.

ورجع الفرّاش بعد نصف ساعة ليؤكّد له أنّ القوم يسكرون، فقال له:

- لم أر زجاجة واحدة!

- لعلّها هُرّبت في الجيوب، إنهم يغنون ويصرخون ويصفقون، تلك حال سكر وعريضة، وفسق أيضًا فالنساء هناك لا يقلّون عن الرجال عددًا... .

- والمخبر؟

- سمعت صوته يغني «الدنيا سيجارة وكاس»... . وقصف الرعد في الخارج فقال المدير لنفسه «جائز جدًا أتّي أحلم وجائز أتّي جننت». وإذا بجعاة من عامّة الشعب - تنطق وجوههم وملابسهم بشعبيّتهم - قدموا، وسأل سائلهم:

- هل السيّدة بهيجة الذهبي تقيم هنا؟

فابتسم المدير يائسًا، وأتصل بالمرأة، فرجته أن يجعلهم ينتظرون في الاستراحة وأن يقدم لهم المشروبات، فأشار الرجل لهم نحو الاستراحة فأمر بتقديم الشاي لهم، فامتألت الاستراحة وازداد سيّد الأعمى قلقًا. وجعل المدير يبتسم يائسًا ويغمغم:

- لم يعد الفندق فندقًا، ولم أعد مديرًا، لم يعد اليوم من الزمان، فليرقص الجنون ما شاءت له اللحوم والخمور... .

وبدا تساقط المطر، وأرعدت السماء، ولمح الأسفلت عند مدخل الفندق بأضواء المصابيح ودغدغة المطر، وتتابع ديبب الأقدام، وارتفعت صيحات غلمان مهلّلة، ولجأ عابرون إلى عنق المدخل، وتوالت الضربات المرجفة فوق زجاج النافذة. غادر مكانه إلى مقدّم المدخل فقلّب وجهه في السماء المظلمة ثمّ نظر إلى الأرض فرأى السيل المنهمر ينصبّ عليها كالحصا ويجرف منحدراتها كالطوفان. لقد تلبّد واحتدم ثمّ انفجر.

- إنّه مطر لم يسقط نظيره منذ جيل على الأقلّ.

وتذكّر سيلاً شبيهاً بهذا حفر ذكراه في رأسه منذ

- جئت في وقتك يا حضرة المخبر.

فقال المخبر بهدوء:

- أطلعني على السجّل... .

- تحدث أمور غريبة هنا.

راح الرجل يراجع بعناية الأسماء ويدوّن بعض الملاحظات فقال المدير:

- أراهن على أنّك جئت من أجل الحجرة ١٢.

- هه؟

- الأمور تجري في شدوذ جنونيّ.

- كلّ ما يقع ضمن الطبيعة فهو طبيعيّ!

ثمّ غادره وهو يقول:

- إذا طلبني التليفون فأتّي في الحجرة ١١٢

ذهل المدير، ولكنّه اطمأنّ نوعًا ما في الوقت نفسه، فيما يحدث إنّما يحدث بعلم الحكومة وتمت سمعها وبصرها، وتذكّر أنّه فكّر بمشاوره شيخ الفرّاشين، وهمّ بالضغط على الجرس عندما رأى سيّد الأعمى زاحفًا نحوه ففقد أعصابه وصاح به:

- قالت لك أن تنتظر حتّى تستدعيك.

فابتسم الرجل بخنوع المعتاد للانتهاز وقال:

- ولكنّ الانتظار قد طال... .

- انتظر بلا مناقشة وتذكّر أنّك في فندق لا قراة! فرجع الرجل متصمّرًا، وتذكّر المدير شيخ الفرّاشين فاستدعاه وسأله:

- كيف تجري الأمور في الحجرة ١٢؟

- لا أدري يا سيّدي ولكنّها تضجّ بالأصوات... .

- كيف يتواجدون معًا وهي لا تتسع لهم ولو جلس

بعضهم فوق بعض؟

- عِلْمِي جِلْمِك ولكن على أيّ حال فإنّ الضابط بالداخل أيضًا... .

وذهب الرجل فنظر المدير من النافذة فرأى الليل جائثًا في الفضاء، وقد أضاءت المصابيح فشعت أنوارها وانية خلال الجوّ المشحون بالرطوبة العاصف بالرياح المنجمرة، وجاء طابور من خدم المطعم يحملون الصواني المكتنّزة بالأطعمة، فازداد عجبهُ، وقال لنفسه إنّه لا يوجد بالحجرة إلاّ خوان واحد، فأين تصفّ الأطباق، وكيف يتناولون الطعام؟. وأخبره أحد

## الجرعة ٤٨٥

وارتاح بصفة خاصة لتخلف سيد الأعمى .  
وبعد نصف ساعة رجع شيخ الفَرَّاشين ليطلعه على سير العمل، قال:  
- إنهم يعملون بهمة عالية...  
ثم بعد تردّد:  
- أما أصحابنا في الحجرة ١٢ فحالم سيئة، وهي تزداد بتقدّم الوقت سوءًا على سوء...  
وغضب المدير. عصف به الغضب وكأما عصف به فجأة. عصف بل بعد توثر عنيف حصره طيلة اليوم. تمكّكه الغضب أعصابًا ولحًا ودما. جُنّ واندفع ينشد المزيد من الجنون. صاح بشيخ الفَرَّاشين:  
- اسمع، احفظ ما أقول...  
فحملق الرجل في وجهه بخوف طارئ فصاح بتصميم:

- أهملوا الحجرة ١٢ بجميع من فيها!  
- سيدي، الرجال يصرخون والنساء يبكين...  
فزجر كالوحش:  
- ركّزوا على السطح فوق حجرات النزلاء أما الحجرة ١٢ فأهملوها بجميع من فيها...  
تردّد الرجل مقدار ثانية فصاح وهو يزداد توحشًا:  
- نفذّ تعليماتي حرفيًا، وبلا تردّد...  
والتفت نحو النافذة الزجاجية ينظر إلى الخارج فرأى الزوينة تتلاطم في قلب الليل وتزداد عنفًا ولكّته كان قد تخفّف من عبء ثقيل واستردّ الثقة وصفاء الدهن...  
الذهن...

## الطُّبُول

دقّ جرس المنبه في رنين متصل فدبّت في الأسيرة حركة شاملة. ثمة تناؤب هنا وهناك يندّ وسط همهمات كطين النحل وضحكات طافحة بالبشر وتأوهات مرحة. وتفتحت النوافذ فتدقّق الفجر الغامض متسرّبلاً بنسيم ندى مفعم بشقّي الطيوب وأنفاس الطبيعة النقيّة. وارتفع صوت القائد دسماً واضح النبرات يقطع بأنّه سبقنا إلى الاستيقاظ منذ أمد وتأنّب

صباه. تذكّر كيف انقطعت المواصلات وسدّت الحواري وغرقت الحجرات تحت الأسقف المتهرّسة. ورجع إلى مكانه فالتزمه حرصًا على السجلات والخزانة ولكنّه أصدر أوامره بتشديد المراقبة في الحجرات وفوق السطح. واستدعى شيخ الفَرَّاشين وسأله:  
- ما أخبار الحجرة ١٢؟  
فلوى الرجل شفتيه وقال:  
- تواصل الغناء والضحك، إنهم مجانين...  
ولح على باب الاستراحة سيّد الأعمى فصاح به بأعلى صوته:  
- ارجع إلى مكانك.  
استأذنه الرجل بإشارة من يده فصاح به مرّة أخرى:  
- ولا كلمة...  
وجمع العرد كأنفجار القنابل وانهلّ المطر في سرعة وغزارة جنونيتين فقال لنفسه بقلق إنّ الفندق قديم لم يشيّد بالخراسانة المسلّحة، وأنّ الليل ينلر بالمتاعب.

وجاء فرّاش فقال:  
- تصاعدت الشكوى من الحجرة ١٢ من رشح السقف والبلل!  
فقال بحقن:  
- سكت الغناء والضحك؟... فليغادروا الحجرة!  
- ولكنهم لا يستطيعون!  
فصرفه واستدعى رئيس الفَرَّاشين وسأله فيما قال الرجل فقال:  
- الحجرات كلّها ترشح، سأجنّد الفَرَّاشين لسدّ الثغرات فوق السطح بالرمال...  
- والحجرة ١٢؟

- لقد انحسروا، انزقوا، امتلأت بطونهم فانتفضت، تعذّر فتح الباب، تعذّرت الحركة...  
اجتاح الهياج الكونيّ الفضاء في الخارج، أما في الداخل فقد دبّت حركة نشاط شاملة وانطلق الفَرَّاشون بأكياس الرمل. وحدثت مفاجأة غير متوقّعة، إذ هبّ المنتظرون في الاستراحة متطوعين للاشتراك في العمل. راقب المدير ذلك بارتياح،

لاستقبال اليوم الخطير، قال:

- السرعة والنظام والجدد، لديكم ثلث ساعة حتى تجتمعوا حول مائدة الإفطار.

وانتشرت الحركة في نشاط هيج. أقيدت الأنوار في المغاسل، طرقت الشباشب فوق البلاط، سالت المياه من الصنابير، وهدرت السيوفونات، وأزت الحلاقات الكهربائية.

- الفجر يبشر بجو طيب.

- يجب أن نقطع شوطاً ملحوظاً قبل أن ترتفع الشمس.

- لكنّ الظهيرة آتية والصيف لا قلب له.

سرعان ما امتلأت الكراسي الخشبية حول المائدة المستطيلة بهبو الطعام. استقرت الجاكات الكاكية والبنطلونات القصيرة فوق الأجساد الرشيقة. عقد كلّ حمالة صفّارته حول عنقه وأرسي عصاه إلى طرف المائدة جنب زمزميته وحقيته. وصبّ الشاي في الأقداح ونحطفت الأيدي الفطائر والجبن والعسل الأسود.

وتتابع الثمطق في سرعة تندر بتوقعات متربصة. والحق أنّ القائد لم يمهلنا طويلاً، كأنما أراد أن يمتحن مرونتنا أو أن يذكّرنا بسلطاته منذ البدء، فنفيخ في صفّارته مقدراً ربع دقيقة. نهضنا عجلين، ركّبنا الحقائق فوق الظهور، وعقدنا الزمزميات بالاكْتِاف، وتناولنا العصي، وهرعنا إلى الفناء. انتظمنا طابوراً طويلاً في ظلام شامل عدا شفافية لا تكاد تُرى في الأفق الشرقي. ومثل شبحه أمامنا بقامته الطويلة ومضى يقول:

- لتكن كلّ رحلة جديدة خيراً من سابقتها.

فقلنا في نفّس واحد:

- آمين.

فعاد يقول:

- لنكن مثلاً طيباً للآخرين.

فكرّرنا في صوت واحد:

- آمين.

- ولنستفد من كلّ خطوة وكلّ تجربة.

- آمين.

- سيروا على بركة الله.

- آمين.

ونفيخ في الصفّارة والديكة تصبح فتكوّنا في أربعات، وأنخذنا خطوات «محلّك بير» حتى احتلّ مكانه على رأس الطابور، ثمّ بدأ السير فسرنا وراءه على دقات الطبول، وتبعتنا على الأثر عربة يجرّها جواد تحمل المطبخ والمستشفى. سلّمنا الفناء إلى ممرّ طويل ضيق محصور بين جدارين مرتفعين تفوح منه رائحة الكلس وعطن البول وتظلّل نهايته سعف نخلات مغروسة في الجانبين. شابّ مشيتنا الرياضيّة حذر شديد لما توقّعناه من وجود روث دوابّ أو قاذورات آدمية إذ أنّه رغم الحيطه والتفتيش يتسلّل إلى الممرّ في هدأة الليل أناس لممارسة حرّياتهم بلا حياء. سرنا في حذر حتى خرجنا إلى الحلاء فلفحتنا نسيات نقيّة مطلوقة. ولم نكد نقطع خطوات حتى ترامى إلينا صوت السوّاق وهو يحثّ الجواد على السير ويفرقع بسوطه في الهواء. وتنبّه قائدنا إلى ذلك فصاح بصوته الدسم:

- قف...

فضربنا الأرض متوقّفين فقال بنبرة أمرة:

١ و ٢ يدهبان للاستطلاع وتقديم ما يلزم.

انفصل الزميلان من الطابور فرجعا إلى موقف العربية. أدركنا من حوارهما أنّ حجراً اعترض العجلة اليمنى وأنها يتعاونان على زحزحته. وتساءل قائدنا محققاً:

- متى يبلغ معسكرنا كماله المنشود؟!

وعاد الزميلان إلى الطابور فنفيخ القائد في صفّارته واستأنف الطابور سيره. سرنا أشباحاً ذائبة في ظلام، وفي السماء نجم واحد. وكنا نحبّ ظلمة الفجر، لأنّها سريعة الزوال، ولأننا نطمئنّ إلى الاختفاء في غلالتها فنخرق تقاليد الطابور الصارمة بالمداعبات والملاعبات الحفّية، سعداء بشقاوتنا وعبثنا كاتمين ضحكاتنا فترتمش فوق الشفاه بلا صوت. في ظلمة الفجر يتلقّى سحّي الحظّ ضربة عصا في ساقه أو قرصة في ذراعه أو نواة نبقة في قفاه، ولما كان الفاعل مجهولاً فإنّه ينتقم من أيّ كان وبأيّ وسيلة تتفق له. لم تكن تلك الشقاوة مريحة ولكنّها كانت متعة محبوبة، ولا تتمّ

## الجريمة ٤٨٧

جراحنا وتبادل نظرات حسيرة، متجنّين النظر نحو قائدنا الواقف كتمثال للغضب والازدراء. وساد صمت ثقيل مشحون بالندم. وتلقينا أول شعاع للشمس بوجوه كالحة.

وراح القائد ينقل عينيه من شخص لآخر، ثم قال:

- بداية على أي حال جديدة بكم.

لم ينبس أحد بكلمة. ولا انبرى أحد للدفاع يستوي في ذلك الظالم والمظلوم. وعاد القائد يقول:

- إن زيكم الرفيع ليخجل منكم.

وهز رأسه في أسى ثم تساءل:

- هل لدى المذنب منكم الشجاعة للاعتراف؟

ولما لم يسمع صوتاً قال:

- ليس من مبادئنا إلغاء رحلة بدائنا ولكن لن يمرّ ذنب بلا عقوبة تناسبه.

مضى إلى موقفه، نفخ في الصقارة، هوت المطارق على الطبول، تحرك الطابور في ضوء الصباح الباكر. انتقلنا من الصحراء إلى المدينة فقابلتنا طلّاح العمّال والباعة. وتبعاً لتقاليدنا رحنا ننشد الأناشيد متناسينّ المعركة وآلامها. ولم يكن شيء يؤثر فينا مثل أناشيدنا الجميلة المتغنّية أبداً بالبطولة والمجد والأخوة، فسخرها يخاطب منا القلوب والسرائر. ومرّ بنا السابلة بلا اهتمام، وقليلون من تابعونا بنظرات محايدة، أما الغلمان الذين يهرعون وراءنا فلم يكن قد استيقظ منهم أحد بعد. وزالت آثار المرارة تماماً، وانتصر الشباب بقوته الخارقة، وأنعمتتنا الأناشيد، فدنا أهلاً للرحلة الطويلة الشاقّة أماناً. وسيطر علينا الإيمان بما نفعل وما نقول، بالثقل التي نستظلّ بها، والمجد الذي نمضي إليه، والقوة التي سنحقق بها المعجزات. وكنا سعداء، رغم الجهد المتوقّع والنظام الصارم والعقوبة المتربّصة كُنّا سعداء. وسرنا وسرنا، وأنشدنا وأنشدنا، على دقات طبول لا تتوقف، حتى نفخ القائد في الصقارة فتوقّفنا وسط الضحى. وهتف القائد بوجه لم يزايله الغضب:

- استراحة.

غسلنا وجوهنا في مقهى قريب، ثمّ قصدنا العربية

الرحلة إلا بها، ولذلك كُنّا حريصين على احترام سرّيّتها لنضمن استمرارها. وبنها - رغم انزعاجنا - بها، فالجدية المثالية الواجبة شعار نردده ونلتزم به ولكن يبدو ألا مفرّ من التمرد عليه بين الحين والحين. وما يدري تكوين من تكوينات الطابور الرباعية إلا ورشاش سائل يبّله في مواضع متفرقة من أجسام أصحابه. وتبيّن لهم من رائحته أنه بول! كاد النظام يختلّ. وضاعت الضحكات المكتومة في هدير غاضب لم يتوقّعه أحد. تجاوزت الدعابة حدود الاحتمال وانفجر صوت خشن بلا مبالاة:

- عليكم اللعنة...

فصاح القائد غاضباً:

- قف.

توقّفنا عن السير. انقلبت الدعابة علينا هذه المرّة وأنذرت بالنكد. وتساءل القائد:

- من الوقح؟!

فصاح الآخر متحدّياً:

- كلب بال علينا.

فصرخ القائد:

- الويل لكم.

ولكن سبقته الأحداث فنذت صرخات واختلطت أشباح ونشبت معركة عمياء. تبودلت اللكمات والركلات واللعنات ومضى القائد يهدّد وينذر في الهواء. اشترك كلّ واحد منا في المعركة، هاجماً أو مدافعاً، بلا حساب ولا حذر وكأنا نقاتل المجهول في الأركان الأربعة. اندثر لحظّثذ الودة الجامع بيننا وتلاشت روح الزمالة العتيبة، وحلت محلّها وحشيّة كاسرة تنفث حقداً وشهوة طاغية للأذى، كآنها قوة مدمرة تفجّرت في قلب الظلام. تواصل الضرب بلا رحمة وصمت قائدنا كأنما قد ترك لأيدينا وأرجلنا مهمة إنزال العقاب الشامل بنا. وما ندري إلا والظلمة تخفّت وتنهافت، ومعالم الدنيا تطلّ علينا من حولنا، ورقعة الأفق الشرقيّ تبسم ببهجة الضياء. عند ذلك تراءى المتعاركون، رأى كلّ وجه زميل أو صديق فعقد الحياء أيدينا وتطايرت انفعالاتنا السوداء وتراجعنا بوجوه أسيفة وقلوب منكسرة، وجعلنا نجفّف عرقنا ونضمّد

في الفترة القصيرة المخصصة للقبولة. وداعبنا النعاس ونحن مستسلمون لأحلام اليقظة، وكدنا نستسلم للنوم لولا أن همس هامس:  
- انظروا . . .

تحوّلت الأنظار إلى الحقل الذي يخصوص تحت مستوى الطريق بمتفرأينا زميلاً يكاد يتوارى وراء عربة مقلوبة وهو يحتضن كائنًا لم نره ولكننا رأينا جانبًا من فستانه هفا به الهواء فتحرك كالعلم.

- أيّ جراءة!

- سيجلب لنا متاعب جديدة.

وتطوّع زميل للذهاب إليه لتحذيره. وسرّت شهامة التطوّع إلى آخرين فمضوا في أثره. وتطلّعت الرؤوس إلى العربة المقلوبة باهتمام وإشفاق وتوتّر، وبحث أعين عن القائد حتّى عثرت عليه نائمًا على سريره السّفريّ وراء عربة التموين. رأينا الزملاء وهم يتحاورون عند العربة المقلوبة ولكننا لم نسمع كلمة مما يدور فقال أحدها:

- إنهم يقنعونه بالعودة.

فقال آخر ضاحكًا:

- أو بالاشتراك معه!

وجرت الفتاة إلى مبنى من البوص غير بعيد فاختمت داخله دقيقة ثمّ ظهرت مرّة أخرى في مدخله وهي تتوسّط عددًا من الفتيات. وهرع الزملاء إلى مبنى البوص فدبّ نشاط محموم فينا جميعًا، وثبنا قائمين، وزحفنا نحو المبنى كجيش من المجانين. وكانت الشمس تصبّ على المبنى دفقات حامية من أشعتها فيكاد أن يشتعل ولم يبال أحد بالحرق ولا بالجرح الخانق، وفاح المكان برائحة عرق آدميّ حرّيف، واضطربت أركانه بالصحة والعافية وأنفاس الشباب الملتهبة. وشحنت بالعريضة المكتومة والزفرات المشبوب تردّد صوت ماجن بغناء، رقص مستهتر مهتك، واشتبك اثنان في معركة مازحة. وعدنا واحدًا في أثر واحد، وارتجينا فوق الحصر مستسلمين لراحة عميقة. وما لبثت أن دوت الصقارة وتتابعت دقات الطبول. قمنا نفض عن أنفسنا الكسل. انتظمتنا في

فتناولنا شراب الليمون وبعضًا من البسكوت. وكان الطريق غاصًا بالمازة والسيارات والعربات، وحرارة الشمس تحرق الرؤوس وتستدرّ العرق. وتبادلنا الأحاديث في صفاء كان لم تكن بيننا معركة، وتلدّرتنا ملابساتها بقلوب ضاحكة، ولكننا لم نخلّ من قلق من ناحية عواقبها.

- هل تمرّ بسلام؟

- بعيد ذلك كلّ البعد.

- حبس انفراديّ أو صيام نهار كامل.

وطوبنا الموضوع بقرفه لنواجه ما هو أهمّ في حاضرنا، فهدف الرحلة يظلّ مجهولًا لا ينبئ عنه قائدنا حتّى نستدلّ عليه من خطّ السير. وكنا معسكرين عند مشارف الميدان، ولكنّ الميدان مفترق طرق مليء بالاحتمالات.

- أنتجه جنوبًا أم تمضي شمالًا؟

- الجنوب يعني الأهرام.

- أهرام الجيزة أم سقارة أم دهشور؟

- ولا تنس الفيوم.

- والشمال يعني هليوبوليس أو عين شمس.

- وهناك الصحراء في الجنوب والشمال معًا.

- وهي أسوأ الاحتمالات.

ونفخ القائد في الصقارة فتوالت دقات الطبول كالنداء الملحّ فهرعنا إلى الطابور. وما كدنا نتوسّط الميدان حتّى أدركنا أننا نتجه نحو الجنوب، فعرّفتنا الهدف بلا تحديد، ولن يتحدّد حتّى نبلغ هضبة الأهرام. مضينا بأقدام نشيطة وحيوية رائعة، تستفرقنا الأناشيد فلم نشعر بمرور الوقت. لذلك دُهشنا عندما دُعينا للتوقّف لتناول وجبة الغداء وتبيّن لنا أنّ الساعة تمّت الثانية بعد الظهر. عسّكرنا على حافة حقل مزروع بالجرجير. نزعنا الأحذية وغسلنا أقدامنا في جدول ماء. فرشنا الحصر وجلسنا لتناول الغداء بعد أن جاء كلّ منا بتموينه من العربة وهو عبارة عن طبق يحوي بامية وقطعة من الضأن ومغرفة من الأرز وموزة. أنسانا تناول الطعام همومنا الصغيرة كما أنسانا الوقت فأنزلنا لذته الموشاة بأطياب الأحاديث والنوادر. وبما فرغنا من الطعام استلقينا على ظهورنا لنستمع بالراحة



## الجرمة ٤٨٩

المدرسة، ولكثها في الوقت نفسه ميّزتنا بشيعة الصبر وأملتنا في تخفيف العقوبة، وإن لم تغتبر شيئاً من فتورنا وإرهاقنا وحال الخلدان التي ركبتنا، وتتابع السير والغناء، ولم يعد شيء يحتفظ بعنفوانه إلا دقائق الطبول وصلابة قائدنا غير المبالية، وأقران يُعدّون على أصابع اليد مضوا بهامات مرفوعة وعضلات مشدودة يردّدون الأناشيد بحماس وإيمان حتى أثاروا الحنق والازدراء. وعندما لاحت لأعيننا الأهرام الشاخبة كانت الشمس قد مالت نحو الغرب، فوهنت حدتها، ودبت في الجوّ نسمة جعلت تلاطفنا في استحباء. وأحد الطريق في الارتفاع فتضاعف إرهاقنا واشتدّت آلامنا وتداعت أصواتنا. وبلغنا سطح الهضبة وقد اختفت الشمس وتدنّر الكون بغلالة داكنة هادئة رددت أنفاساً ضعيفة كأنها أنفاس شيخوخة فانية. ودوى صوت الصفارة فتساقطنا من الإعياء ونحن نتأوه بأصوات غير مبالية. ثمّنا أننا سنمكث تحت الهرم ساعة أو أكثر قبل أن نستأنف السير إلى معسكرنا الموعول في الصحراء ولكن قائدنا المنتقم قال بصوت سمعه الجميع:

- لديكم ربع ساعة كاملة!

دُهنا! تبادلنا النظر في صمت ونحن نعلم أنّ الأوامر لا تناقش. ولم نصيغ الوقت في التحسّر العظيم. ولم يكن بدّ من التضحية بالراحة فقمنا لاتباع ما يلزمنا في مقامنا الأخير في حدود ما تسمح به اللوائح. ومدّة الإقامة مجهولة لا يعلم بها إلا القائد ولكنا آثرنا الأخذ بالأحوط. اشترينا ما نحتاجه من سجائر وصابون وفاكهة وقوارير المياه الغازية. ضاع وقت الراحة في الشراء والمساومة وتنظيم السلع. وما فرغنا من ذلك حتى عادت الصفارة تدوي ودقات الطبول تدقّ بلا نهاية فانظمتنا في الطابور الرهيب، يحمل كلّ منا سلّة موز على يد وبطيخة على اليد الأخرى حاشياً جيوبه بالعلب والقوارير فضلاً عن أدواته الأصلية كالعصا والزمزمية والحقيبة. وواصلنا الرحلة من غير أن ننال قسطاً من الراحة، بعضلات منهكة وأعصاب متوتّرة وأنفس غاضبة. وضاعف من متاعبنا مقاومة الرمال الغزيرة لأقدامنا واختفاء معالم الدنيا في جوف الظلام الهابط. استحالت أصواتنا عواء

الطابور. ولحننا القائد متجهّم الوجه فلم ندر إن كان تجهّمه بسبب ذنبنا الأوّل أو أنّه فطن أيضاً لذنبنا الثاني ولكنا كئنا أبعد ما يكون عن الندم. وهمس صوت:

- نجونا بمعجزة.

فقال آخر:

- أو علينا أن نتوقّع عقوبة مضاعفة.

وأخذنا في السير. بعزائم قويّة مضينا. أسعفتنا روح التحدي والصبر. وقلنا لأنفسنا إنّه مهما كان ومهما يكن ومهما سيكون فليس أخلد من البهجة والمسرّة والمرح. ولبثنا على تلك الحال ساعة ونصفاً أو ساعتين. ورغماً عن إرادتنا سلّمنا بأنّ الشمس عنيفة، بل أعنف ممّا تصوّرنا، بل هي في الواقع لا تُحتمل. وتصيّب العرق حتى بلّل ملابسنا، وضاعف من تدمرنا إحساسنا بعدم طهارته. الحقّ أنّ التعب بدأ يزحف على عضلاتنا وأعصابنا مبكراً بالقياس إلى الرحلات السابقة. وكلّما تقدّمنا اشتدّت وطأته وعنت ضرباته أمّا الحرّ فأصبح خانقاً قاتلاً. كلّاً لم ندق هذا الجحيم من قبل، ولم نخر قوانا كما خارت اليوم. وتراخت أوتار أصواتنا وهي تنشد الأناشيد، ولأوّل مرّة نشعر بوزن الوقت وهو يتمطى فوق مناكبنا. تغتبر كلّ شيء، حال لونه وفسد طعمه، ففتر حاسنا ثمّ خمد. حتى الأناشيد تبدّت لنا رتيبة مكرّرة فاقدة المعنى والروح فخرجنا من تردبها. وتخيّل لنا أننا موضع سخرية المارة والمتنظرين تحت مظلات الباص. ولم تقف مشاعرنا المدمّرة عند حدّ فأوشكت أن تلتهم الرحلة نفسها التي بدت طويلة بلا نهاية. معدّبة بلا رحمة، خالية من أيّ معنى أو عزاء، غير جديرة بالطقوس التي تحكمها والنظام الذي يضبطها والأمال المعقودة عليها. وقائدنا نفسه لاح قائداً بلا قيادة ولا جيش، مضحكاً في غضبه، هزياً في عنفه. ألحت علينا تلك الأفكار، وكلّما اشتدّ إرهاقنا اشتدّت إلحاحاً وعنفاً، ونفذ صبر البعض فتوقّف عن الإنشاد أو جعل يحرّك شفثيه بلا صوت، وجنّ البعض الآخر فجازف بالخروج من الطابور مع علّمه بما يعنيه ذلك من فصله من الفريق مجللاً بالعار منبوذاً من الروح الرياضية. وهي فضيحة لم تغب عنّا عواقبها، وآثارها البعيدة في نفّس القائد والمشرفين هناك في

## ٤٩٠ الجريمة

دقات الطبول تبطن رويدًا رويدًا إيدانًا بتغيير الحركة وتقارب المعسكر. وعدنا تدريجيًا إلى سيرنا العادي، ومن شدة الجهد لم نجد حاجة لتبادل همسة واحدة فخاص كل في وحدته. وما ندري إلا ونحن ندخل في الممر الطويل الضيق فتفعم أنوفنا رائحة الكلس وعطن البول... وفي الفناء امتدت تكويناتنا الرباعية لتصنع طابورًا واحدًا، فوقفنا متصبرين لتتقي التقوض والانهيار. وصمت قائدنا مليًا، ربما ليتم تعذيبه لنا، ثم قال بصوت هادئ مليء بالندر:

- انتهت رحلتنا، وغداً يجمعنا الحساب، أما الآن فتناولوا عشاءكم ثم أخلدوا للنوم... ولم يهمننا إلا النوم... أجل، ليكن الآن نوم، وليكن في الغد حساب.

## العريس

عند تلك النقطة من الحديث مال نحوحي حتى شعرت بأنفاسه تنداح فوق صدغي وقال:

- اعزم وتزوج.

استجبت لاقتراحه، كنت في الواقع أتلهف عليه، بت مؤمنًا بأن الزواج هو المغامرة الوحيدة القيمة الباقية لي في الحياة.

قلت:

- فكرة طيبة.

- وماذا تنتظر؟

- أنتظر العروس بنت الحلال.

- هل بحثت عنها بجد؟

- لا وقت عندي للبحث.

فقال واهتمامه بالموضوع يزداد بقوة:

- يوجد حل لكل موقف معقد، ما هي شروطك؟

- عروس مناسبة، هذا ما أريد.

- ست بيت أم عاملة؟

- ست البيت مفيدة والعاملة لها مزاياها غير المنكورة.

- العاملة تملك إيرادًا؟

مشرقيًا، وتقلصت عضلاتنا من حدة الألام، فسينا نسيانًا تأمًا مسرات الرحلة كأنها لم تكن وتمنينا الموت. وداعينا أمل أن يعدل القائد عن خطته وأن يقنع بما أنزل بنا من عقاب صارم، فتسترد الرحلة بهجتها المأمولة وأحلامها الضائعة ولكنّه واصل سيره بلا مبالاة، ولم يكتفِ بذلك فصاح بصوت كالرعد:

- حركة سريعة، ابتدئ!

لم نصدق بادئ الأمر آذاننا، ثم بهتنا من شدة المباغتة. الحركة السريعة نُدعى إليها عادة في مطلع الرحلة وفي ضوء النهار، أما أن تُفرض علينا قبيل النهاية فشيء خارق وغير إنساني يُراد به القضاء علينا. وإلى ذلك فهي نوع من الوثبات المتلاحقة في صورة جري متقارب الخطو يقتضي استخراج البطاريات من جيوبنا الخلفية لتنير لنا الطريق خشية أن نتعثر في نقرة أو نرتطم بحجر، فكيف يُتاح لنا ذلك مع حملنا الثقيل، وتعبنا الأليم؟. ولا فرصة للتمرد فليس أمام الهارب من الطابور في ذلك المكان إلا الضياع في الصحراء والظلام، فلا مفر من الانصياع والإذعان. ومضى القائد يشب، فاندفعت دقات الطبول في تلاحق سريع. وشرعنا في الحركة السريعة. جربنا أن نمارسها مع الاحتفاظ بأحماننا ومع استغناء عن البطاريات ولكن بدا ذلك ضريبًا من المحال. لا مفر من التخلص من أحماننا العزيزة، لا مفر. حتى لو تعرضنا للكآبة والقرف والحرمان، لا مفر. وتخلصنا من البطيخ والسلال، تركناها لقي في الصحراء للحشرات والهوام. وأخذنا نثب بسيقان متهافته وعزائم خائرة وقلوب باكية. مضينا يلفنا الظلام على ضوء البطاريات المتحركة في أيدينا كأننا نجوم متداعية تبعث بإشعاعها الأخير قبل اندثارها النهائي. وتذكرنا بحسرة ساخرة فرحة الاستيقاظ وبهجة الأناشيد ودعابة الطريق ونشوة الحقل ومتعة الشراء، تذكرنا ذلك كله بذهول، ونحن نتقدم شبه عرايا منهوكي القوى إلى معسكرنا الرابض في أعماق الخلاء. وتقدمنا كما قُدر علينا؛ وحتى الأسف لم يعد يجدي، ولم نهتم كذلك بما إذا كان ينتظرنا عقاب جديد أم سيكتفي بما حل بنا. وتاقت أنفسنا للنوم باعتباره الشفاء الأخير لجميع الألام. وأخذت

## الجرمة ٤٩١

- طبعاً، كثيرون لا تزكّيهم في الختام إلا صحتهم  
القويّة!

- إني بحمد الله أتمتع بصحة جيّدة.

- ولكن توجد رصاصة مستقرّة من قديم في صدرك  
نحت الترقوة!

فضحكت منتشياً بالذكريات وقلت:

- ذلك تاريخ قديم.

- ولكن كيف نفذت إلى صدرك؟

فقلت بعد تردّد:

- في مظاهرة وطنية.

- تلك حجة كلّ مصاب برصاصة قديمة.

- أيمن أن يشكّوا في ذلك؟

- العجوز أصبح يشكّ في الثورة نفسها مع أنه كان  
من معاصريها، هو اليوم يقول إنه لم تندلع ثورة ولم  
يُطلق رصاص ولم يستشهد أحد.

- هذا جنون رسمي!

فابتسم الصديق قائلاً:

- على أيّ حال فمن حسن الحظّ أنه قيل له - عابد

ميري - إنك أصبت بها في ملهى للغناء والرقص!

- أتعدّ ذلك من حسن الحظّ؟

- نسيّاً، يمكن الدفاع عن عبث الشباب وطيشه أما  
التورّط في شؤون السياسة فيعرض الإنسان لأخطار  
مجهولة وبالتالي تتعرض لها أسرته، على أنني دافعت  
عنك في هذا الشأن.

- ماذا قلت؟

- قلت إنك لم تنتم لحزب، ولا تنتمي لرأي.  
وإنك مخلص للدولة، لم تكن من الليبراليين ولا  
الشيوعيين ولا الإخوان وذلك بلا شكّ يزكّيك كزوج  
مأمون المستقبل!

فقلت بانقباض:

- ولكن من الظلم أن يقال إنني تعرّضت للقتل في

ملهى للرقص!

- ما علينا، وما حكاية خوفك من الصراصير؟

فضحكت عالياً وقلت:

- حتّى هذا!

- قيل إنك تهدر وقتاً ثميناً في رشّ المطبخ والحمام

- الفقيرة مقبولة عندي وذات الإيراد مقبولة أيضاً.

- لك مواصفات خاصّة في الجمال؟

- حسبي أن تكون مقبولة.

- شروطك يسيرة، أنت تريد امرأة حسنة المعاشرة.

- بلا زيادة.

فقال بثقة:

- طلبك موجود، هل تعرف أسرة ميري؟، عابد

ميري؟ كرمته هي من أرشّحها لك.

وقادني ذات يوم إلى أسرة عابد ميري فقدمني لهم،  
الأب والأمّ والفتاة. والحقّ آني غادرت بيتهم عاشقاً أو  
قريباً من ذلك، تبدّت لي الفتاة مثلاً للرزانة والأنوثة  
والكمال البيّتي، أحببت وقار الأب وأبهة الأمّ. وفي  
ذلك اللقاء تمّ الاتفاق الأوّليّ وهو ما يقابل الترشيح  
للوظيفة في اصطلاحاتنا الحكوميّة، وبقي الأهمّ وهو  
مسوّغات التعيين وتقرير مكتب الأمن. ومن ناحيتي  
تحرّيت عنهم فجاءتني تقارير متناقضة كالمتوقّع، قيل  
لي:

- نعم التوفيق، أسرة ولا كلّ الأسر، ضمنت  
الطمأنينة والسلام في الحياة والموت.

وحذّرتني آخر قائلاً:

- لا تغرّك المظاهر، ستخفقك أغلال العبوديّة.

وسمعت حكايات عن جنون بعض أفراد الأسرة  
وانتحرار آخرين ولكن لم يوهن ذلك من عزمي،  
تحصّنت بخبرتي الطويلة بالحياة والبشر، وأسكرتني  
نشوة متحفّزة للمغامرة ودقّ أبواب المجهول، وقلت  
لنفسي إنّ الحياة نفسها شبيهة بهذا الذي يقال،  
تلقيناها وهي مثال للأمان حتّى بعد الموت ثمّ تكشّفت  
لنا عن مجهول جليل واحتمالات مبهمّة وما زلنا نعشقها  
وتتعلّق بأذيالها حتّى الموت.

وفي الوقت نفسه تعقّبتني التحريّيات تغوص في  
أعماق ذاتي وتاريخي، فساورني قلق غير قليل، ورجوت  
أن يسود التسامح ويتنصر في النهاية. وجاءني صديقي  
الوسيط وقال لي:

- لم أعرف أسرار صحتك إلا هذه الأيام.

فدهشت وتساءلت:

- حتّى عن الصحة يتحرّون؟

## ٤٩٢ الجريمة

وجاءني صديقي الوسيط بعد ذلك بأسبوعين  
فتفحصته بقلق وقلت:

- طبعًا ما زالت التحريات جارية؟

فضحك باقتضاب وقال:

- الحديث كان عن السلوك الشخصي.

- هو على أيّ حال من ذبول الماضي الذي قرّرت  
تغييره من جذوره.

- أنا نفسي قلت ذلك، ولكنّ الماضي يتمثل لبعض  
الناس وكأنّه الحقيقة الوحيدة الراسخة.

- يا له من موقف سخيف حقًا!

فقال برقة ليخفّف من وقع حملته:

- كلام قيل عن القهار.

فهتفت من فوري:

- كلاً، لست بطبعي مقامرًا، لعبت مرّات  
معدودات ثمّ لم أعد إليه.

- والخمر؟

- اسمع، صدّقني، دائماً كنت وما زلت معتدلاً، لم  
أفقد الوعي إلاّ مرّة واحدة.

- آل ميرى لا يخافون الشراب بقدر ما يخافون  
عواقبه.

- لم تكن ثمّة عواقب وخيمة.

- عابد ميرى نفسه يشرب، وهو يغنيّ إذا شرب،  
ولكن قبل له إنك طوّلت لسانك مرّة على الاستبداد

وأنت فاقد الوعي!

- قلت لك إنني لم أفقد الوعي إلاّ مرّة واحدة.

- ربّما وقع ذلك في تلك المرّة، وعابد ميرى يخاف  
أن يتكرّر ذلك بعد أن تكون قد صرت زوجًا وأبًا؟

فقلت بحدّة:

- لا أساس لخوفه صدّقني، ثمّ لماذا تذكر تلك الزلّة  
وتنسى مجاملاتي الطويلة للاستبداد وأنا في تمام الوعي؟!

- الموضوع قابل للمناقشة فلنتركه إلى حين، ولكن  
ما الرأي في ولعك بنسوان شارع محمّد عليّ؟

فقلت وكلّ شيء يتجهمني:

- ماضي أيّ رجل لا يخلو من عبث مثل ذلك.

- عابد ميرى يسلم بالبلد! ولكنّه يحتجّ على اللدوق،  
وقال إن يكن ذا ولع خاصّ بأولئك النسوة فكيف

والحجرات، وإنّ منظر صرصور خليق بأن يفزعك  
لدرجة الصراخ، حتّى ولو كان من النوع الألمانيّ

الصغير الرشيق!

- أهكذا تصفه؟

- الأمر تافه، يبدو تافهًا، ولكن ماذا يعنيه؟، هذه  
هي المسألة، ويقال أكثر من ذلك إنك تتوهّم أنّ البلد

ستتحسّن أحواله كثيرًا إذا نجحت في إبادة الصراصير.  
غضبت ولا شكّ وأنا أتابعه ثمّ سألته بازدياد:

- أهتمّون حقًا في بيت عابسد ميرى بتلك  
السخافات؟

- يا عزيزي إنهم يحترمون بعض الذكريات المتعلّقة  
بالصراصير.

- كلاً!

- هو الحقّ، كانت لهم جدّة تؤمن بأنّ الصراصير  
تحمل بعض أسرار الوجود.

فقلت ساخراً:

- إذن نحاول احترام الصراصير حبًا في آل ميرى.  
ورحت أفكّر - عقب انفرادي بنفسي - في طريق

الزواج المعقّد وهووس التحريات التي تسبقه، كأنّ  
الناس يطمحون إلى الظفر بالتوافق المنشود بين

الزوجين كاملاً غير منقوص، جاهزًا بلا عناء التجربة،  
قبل خوض الحياة الزوجيّة، متناسين قدرة الإنسان

الخارقة على التكيف مع تحدّيات الواقع، فالإنسان  
الذي عاشر عصور الصيد والرعي والزراعة والقحط

والجليد فتغلّب على عناء المواجهة وحلّ التناقضات  
القاسية وحقق ذاته على الوجه المقبول الذي قرّ له

البقاء في الحياة، ذلك الإنسان قادر بلا شكّ على  
التكيف مع عروسه الجديدة مهما يكن من تنافر ماضيه

وماضيهما. وفكّرت أيضًا فيما كان يؤخذ عليّ في الماضي  
من عدم الانتماء لحزب من الأحزاب، وما رُميت به

بسبب ذلك من ثممّ البلادة وقلة التربية الوطنيّة وغلبة  
العبث والتفاهة والأنائيّة وكيف انقلب ذلك إلى نقطة

قوة تركّيبية في غمار التحريات التي تنهال عليّ منقبة عن  
المستور من خطاياي!

## الجريمة ٤٩٣

نفسى لالسنة لا تعرف الرحمة ولا الحياء .

\* \* \*

وبعد مضيّ ثلاثة أسابيع رجع إليّ صديقي فبادرته  
من فوري :

- لن أستمّر .

فقال بحدّة :

- إنيّ أحتقر الضعف، اصمد حتىّ النهاية، ولا تهزّ  
ثقتك الكاملة بنفسك .

- سأخفق في الزواج وأبوء بسوء السمعة .

- اعتبرني لم أسمع شيئاً، واسمع أنت ما قيل عن  
عملك !

وأثار حبّ استطلاعي بقوّة فلم يسعني تجاهله،  
قال :

- شهد لك كثيرون بالتفاني في العمل .

فلم أعلّق وانتظرت متوقّفاً ما لا يسرّ .

- ولكن قيل إنك تحبّ السلطة وتركيز كلّ نشاطك  
في يدك ثمّ تنطلق شاكياً من عدم تعاون الموظفين  
معك !

- لن أناقش، ولكن ما علاقة ذلك بلياقي للحياة  
الزوجيّة؟

- كلّ سلوك مهمل بدأ عرضياً فله دلالة .

- استمرّ .

- وقيل كلام عن تحقيق أجري معك بخصوص بناء  
مجمّع !

- وماذا كانت نتيجته؟، التحقيق مجرد إجراء فلا هو

خير ولا هو شرّ، وما هم يروني مستمرّاً في عملي، بل  
ترقيت مرّتين بعد التحقيق، فما حكمة التنديد بي  
بسيبه؟

- لك حقّ .

- إذن فلنعتبر تلك النقطة منتهية .

- ولكن قيل أيضاً إنك هدّدت بجرّ آخرين أكبر

منك معك فحفظ التحقيق !

- عليهم اللعنة !

- إنهم يستحقّونها .

- أمحدّاهم أن يثبتوا ذلك !

أنتصّر أنّه يمكن أن ينسجم مع فتاة كريمة مثل ابنتي !  
- وهل يوجد فارق حقيقيّ بين كريمته وبين نساء  
محمّد عليّ؟

فضحك صديقي وقال :

- آه لو سمعتك تقول ذلك .

وساد صمت يغلفه الأسى، وارتسم الإشفاق على  
وجه صديقي، ولكّني أشرت إليه أن يواصل، فقال :

- يتحدثون عن شقّة مفروشة تملكها بناءً وأناثاً !

- وفي نيّتي أن أقيم فيها بعد الزواج، ماذا في ذلك؟

- الشقّة لا تهمّ ولكن من دأبت على استقبالهم فيها !

- ماذا يقصد الأوغاد؟

- ها أنت تغضب فيحسن بي أن أسكت .

- هات ما عندك، وإن أردت جواباً فلنّي كنت

أستضيف بها نخبة من الأصدقاء .

- أصدقاء من نوع خاصّ، من إخواننا العرب

الأثرياء .

- استضيفتهم بصفتهم أصدقاء لا أثرياء وقد  
توطّدت علاقتي بهم مدّ أيام إعارتي للعمل في  
بلادهم .

- أمّا أنا فأصدّقك ولكنك تعلم كيف تترجم تلك  
العلاقات البريئة على السنة السوء !

فاستشطت غضباً وهتفت :

- للصبر حدود .

- لا تغضب فذاك امتحان يتعرّض له كلّ طالب  
زواج .

وعجبت - وحقّ لي أن أعجب - من تشدّد الناس في  
تحرّياتهم . وعجبت أكثر بالنظر إلى أننا نعيش فترة من  
الانحلال والفساد بات يُضرب بها المثل . فلمّ يتشدّد  
الناس في تحرّياتهم كلّ ذلك التشدّد، وهل يعتقد الآباء  
أنّه يمكن أن ينتقوا أزواجاً لبناتهم من منطقة مجهولة تقع  
خارج الزمن والتاريخ؟ . وهل عشّ الزوجيّة أهمّ في  
حياتنا العامّة من الوظيفة؟ . وألا يضحّج الناس  
بالشكوى ليل نهار من الخدمات المبتورة - وضمنّاً - من  
المسؤولين عنها؟، فكيف تزوّج أولئك القادة وكيف  
تفادوا من مطاردة التحريات؟ .

ومضى حماسي للزواج يفتّر، وندمت على تعريض

وكننت جالسًا بمكاني المختار عندما لمحت صديقي قادمًا من بعيد. رددت في نفسي الكلام الفظ الحاسم الذي سأجابه به. وقررت أن أعلن تمردي على الزواج الى الأبد.

وبادرني الصديق قبل التحية، قائلاً: عابد ميرى يحبك، ويرجو أن تحدّد موعدًا لإعلان الخطوبة في أقرب وقت ممكن!

ناعمة مستكينّة، مهذّبة غارقة في الطمأنينة، ملهمة لأحلام البيت السعيد، تنتشر كالثدي في أعماقه فتشكّل بضعفها المنساب طاقة مسيطرة بعون الإغراء والرغبات الدفينة. وكانت يجلسها أمامه في الترام صورة مجسّدة لأمنية عذبة غامضة، منعشة للروح، مبدعة للألفة الحميمة، فقال لنفسه إنّ هذا هو ما أبحث عنه. والتقت عينها في حركة عفوية بعينه المرکزتين فانتهت من أحلامها واعتدلت في جلستها ونحت وجهها مدارية ابتسامة خفيفة جدًّا لإدراكها بأنّها كانت موضع نهم والتهم. ودفعته الابتسامة إلى اتّخاذ قرار جريء بتأجيل زيارته للمحامي - رغم دقّة المرحلة التي تمرّ بها القضية - إذا دعيت إلى ذلك فرصة طيِّبة. ولم يغادر مجلسه في محطّة «المحامي»، لبث ينتظر حقله المجهول، ولكنّه تذكّر على رغمه المحن التي عاناها - هو وأسرته من قبله - ما يقارب ربع القرن والتي احتوتها في النهاية القضية، فلم يمضِ قراره بلا قلق، ولكن هل تقوم القيامة إذا تأجلت الزيارة أسبوعًا؟. وانقبض قلبه وهو يتخيّل عاميه في غضبه لتخلّفه عن الميعاد دون اعتذار، فإنّه محامٍ صارم، يحتمر المزاج ولا يحنو على الضعف البشري.

ولما رجع بوعيه إلى الجالسة قبالة ضبطها تنظر إليه في دهشة فأدرك من توه أنّ انفعالاته قد تُرجمت إلى تشنجات في قسامات الوجه وعضلاته وربما تعدّت ذلك إلى اليدين، أجل فإنّ ذلك ممّا يلاحظ عليه أحيانًا، ولكنّه ابتسم إليها بجرأة لا تموزه في أمثال هذه المواقف فأحنت رأسها باسمه، عند ذلك حلّ الرضى بصدوره واطمأنّ إلى أنّ تضحيته لن تضيق في الهواء. وقامت فقام وراءها بتلقائية وبلا أدنى ارتباك وبعد ثوانٍ كانا يترامقان مواجهة على الطوار على حين امتدّ وراءهما

- عليهم اللعنة، ولم يقفوا عند ذلك، بل جعلوا يتساءلون، كيف يعيش حياته المرفهة؟، كيف ملك الشقّة المفروشة؟، والسيارة؟، من أين له ذلك؟ فكوّرت قبضتي غضبًا وقلت:

- يتجاهلون ما ورثته عن والدي، كما يتجاهلون حقيقة أخرى وهي أنّ بعض مؤلفاتي المدرسية مقرّرة في مدارس البلاد العربيّة. . . فكلّ مصدر لإيراد عندي واضح وشريف.

توقّعت أن يتكلّم عن الذين قرّروا كتبي وعن علاقتهم بالأصدقاء الذين استقبلهم في الشقّة المفروشة ولكنّه لم يفعل، كأنّما نكص حيال درجة الحرارة التي ارتفع إليها حنفي، بيّد أنّه حدجني بنظرة قصيرة قرأت فيها ما تورّع عن ترديده. وجعل يضحك ويقول:

- الرجل المخزّف عابد ميرى يميل إلى تصديق الأكاذيب، وفي آخر لقاء قال لي إنّ سوء الظنّ من الفطنة وإنّي بتّ أعتقد أنّ ذلك العريس هو المسئول عن ٥ يونيه!

فصحت في ذهول:

- إذن فإنّي المسئول عن ٥ يونيه!

وغادرت المكان مسرعًا لا أكاد أرى طريقي من الغضب. ماذا يعرف المخزّف عن ٥ يونيه؟. إنّي مع التسليم بكافة جرائم الخلقية أعدّ أو يجب أن أعدّ من أشرف الرجال. وهل أغرابي بالخطايا إلاّ الاقتداء بالآخرين!؟. وكننت في الوقت نفسه ضحية، أجل ضحية لرؤسائي الذين ضربوا لي أسوأ مثل، وها أنا أحرم من جنّة الاستقرار العائلي كأنّي المجرم الوحيد!

وقرّرت العدول عن فكرة الزواج نهائيًا.

وقلت لنفسي إنّه ليس بالمرأة وحدها يحيا الإنسان.

## العُري والغضب

وندمت أشدّ الندم على تعريض نفسي للزوبعة التي عصفت بها.

الجريمة ٤٩٥

فأذعن لدهائها الصامت وهو ينادي بإصرار حماسه الهارب.

\*\*\*

وغادرت الحجرة فأشعل سيجارة. تابع الدخان بفتور وأسى. عاد يفكر بالقضية، وبالنقاط التي عن له أن يناقشها مع المحامي. لو وجد تليفونًا لانتحل عذرًا للرجل وأتفق معه على موعد آخر. ولا فائدة ترجى من الذهاب الآن لأنه سيجده منشغلًا بموعد آخر. أو يجده قد غادر المكتب. وقد عاش زهرة عمره ولا أمل له إلا كسب القضية ولكن الله وحده يعلم بما عانت أعصابه طيلة تلك الفترة الغالية من العمر.

- لا تلجأ إلى المحاكم. المحاكم حبالها طويلة. وهيات أن تظفر في ساحتها بحاجتك.

- وما عسى أن أفعل؟

- كما كان يفعل أجدادك، بل كما يفعل

خصومك...

- ولكن الزمن تغير.

- الزمن لا يتغير، أنت الذي تغيرت...

- إني رجل متعلم.

- عليه العوض!

اليوم لا يدري إن كان أصاب أم أخطأ، ولكنه وقع في أسر القضية، فوكل المحامي، وتبارى المحامون، وتكلم الشهود، ولم يعد في الإمكان تغيير الخطأ. وما هو عار ملقى على فراش عارٍ على حين ينتظر المحامي ويتعجب. ولكن ألم تغب الفتاة في الحتام أكثر مما يجب؟ أي مظهر خداع. وأي آمال قد تبددت. يبدو أن الدنيا تتغير بأسرع مما يدرك. وقد ينزلق في هاوية مخيفة بسبب رغبته الملحة في الزواج والاستقرار. وفضلاً عن ذلك فعليه أن يؤجل مشروع الزواج حتى يتم الفصل في القضية، وإلا فما جدوى أن يتزوج اليوم ثم يشهر إفلاسه غدًا؟

- هل تلجأ للقضاء لأنك متعلم حقًا أو لأنك

ضعيف؟

- إنك تتكلم يا عمي بلغة هيروغليفيّة...

- ابصق على ذقني إن نجحت في ذلك السبيل

مقاصدك.

ميدان الضاحية شبه خال وقد احمر قرص الشمس إيدانًا بالمغيب. تمتم:

- فرصة سعيدة.

فمضت إلى الطريق الوسطى دون أن تحببه ولكنها دعت بأسلوبها المشجع الصامت للحاق بها. ومشى إلى جانبها فتقبلت ذلك دون اعتراض فعاد يقول:

- فرصة سعيدة...

كان الطريق سكنيًا بلا دكاكين، به قلة من المازة، وكثرة من السكان تتواجد في الحدائق، وكما لم يتبين لها هدفًا قريبًا فقد قال:

- يوجد قريبًا من هنا فرع للفردوس.

ولكنها واصلت السير فسار إلى جانبها وهو ينظر فيها أمامه متسائلًا. ووجدها تتجه نحو بيت صغير من دور واحد فاتحتمته دهشة وتلقى رد فعل حاد وأليم.

صدق ما يرى بصعوبة واحتجاج وتبرم وقال لنفسه:

«حقًا إنه لزمان زالت فيه الفوارق بين الأنواع». وبتبدد الحلم لم تبقى إلا الحقيقة القاسية المبتدلة، فشر بتأنيب لتفويته ميعاده الهام بشأن القضية، وتبعها إلى الداخل بلا حماس يُذكر. ووجد البيت صغيرًا حقًا، يتكوّن من صالة طويلة وحجرة وحيدة في النهاية.

حجرة نوم آية في البساطة أو في الفقر، بها فراش ومشجب ومقعد وحيد، وحتى الفراش اقتصر تجهيزه على حشيرة ووسادة بلا غطاء ولا ملاءة، وانبسطلت أرض الحجر الخشبية بلا سجادة ولا كليم ولا حصيرة. ابتسم بفتور وهو يتذكر أحلامه المنتشية وقال إنه لم يبق ما يستحق الاهتمام إلا المرأة نفسها، الجميلة ذات المظهر الخداع. ورجع المحامي يلح على وجدانه فسألها وهو يعلم بالجواب مسبقًا:

- يوجد تليفون؟

فهزت رأسًا بالنفي وهي شارعة في خلع ثيابها فقال مداعبًا يأسه:

- صحتك...

فنظرت نحوه باهتمام فرفع كأسًا متخيلة في الهواء ثم رشف منها رشفة فابتسمت وواصلت خلع ثيابها في رسوخ المحترفات حتى تبدى جسدها عاريًا جميلًا محايدًا، ونظرت نحوه كأنما تحته على الاقتداء بها،

- لقد تأخرت يوماً عن موعد هامّ لتشهد صلاة

العيد فما معنى ذلك؟

- قصصت عليك عشرات القصص ولكنك لا تصدّق.

- حقاً؟... فماذا يعني جريك وراء النسوان وتقلّبك في الحانات؟

عند ذاك قال بانفعال:

- أنت محام أم مربّ؟!

وغادر الحام عائداً إلى الحجرة وهو يضمّر لها - المرأة - عتاباً على طول اختفائها ولكنّها لم تكن قد رجعت بعد. وذرع الحجرة ذهاباً وجيشة ثمّ قرّر أن يرتدي ملبسه. انجبه نحو المشجب ولكنّه لم يجد للملبسه أثراً. ذهل، أجال بصره في أنحاء الغرفة ولكنّه لم يعثر على شيء. آية مداعبة سخيفة.

- ربّاه!

نذت عنه في ذهول أشدّ عندما تبين له أيضاً أنّ ملابس المرأة غير موجودة. تفحص أنحاء الحجرة بغضب، نظر أسفل السرير، مضى نحو الباب وصفّق بشدّة. ولم يكن عرف لها اسماً فصاح:

- يا ست!

وبنبرة أشدّ:

- يا هوه.

واندفع يفتش الشقة الصغيرة، الحام مرّة أخرى والمطبخ ولكنّه لم يجد أثراً لإنسان. ومضى نحو باب الشقة فوجده مغلقاً بإحكام فرجع إلى الحجرة وهو يتميز غيظاً وحنقاً. واضح أنّ المرأة قد ذهبت. من السهل تصوّر أنّها كانت مختفية في ظلام الصالة عندما دخل الحام، ثمّ ارتدت ملبسها بسرعة وأخذت ملبسه وذهبت. ما معنى ذلك؟ هل أرادت سرقة مع منعه من اللحاق بها؟ افتراض غير مطمئن، وثمة سؤال آخر، بيت من هُذا؟... وأيّ علاقة للمرأة به، وكيف تركه عارياً في هذه الشقة الجرداء؟!

وشعر بالعجز والقهر والضياع اللانهائي. لن يرجع إلى ما كان عليه، ذلك الرجل المحترم. إنّه يودّع حياة يعرفها ليستقبل حياة مجهولة مدرّة. ولكنّه لا يريد أن يصدّق، لعلّه مزاح ثقيل سخيف ليس إلّا...

- نحن نفاهم بلغة حيّة جديدة.

لا يدّ للحقّ أن يتصرّ ولو طال الزمن، ولكن ما بال المرأة قد تأخرت؟، ماذا تفعل في الحام؟. ويرم بالانتظار فغادر الفراش، فتح الباب نصف فتحة، أخرج رأسه فرأى الصالة غارقة في الظلام إلّا شعاعاً يترامى من منعطف جانبيّ حتمّ أنّه الحام. تنحج فلم يردّ أحد. صفّق فلم يردّ أحد. سار على أطراف أصابعه نحو الضوء حتى وجد نفسه في الحام ولكنّه وجده خالياً. أدرك أنّها اغتسلت ثمّ ذهبت إلى مكان ما - لعلّه المطبخ - فقرر أن يأخذ دشاً. وتحت سيال الماء المتدفّق انعمشت روحه ونفت شعوره بالذنب حيال المحامي. أجل سيرميّه بالإهمال فهذا دأبه كلّما قعد به عن الاتصال به عذر، ومع ذلك فعندما واظب على ملاحظته في الشهر الماضي ضاق به وقال له:

- يلزمك أعصاب من حديد لكي تواجه حياة العصر...

وقال له أيضاً مازحاً:

- إنّي أتوقّع أن تجيئي المرّة القادمة حافي القدمين مرسل شعر اللحية والرأس مسطولاً كما يفعل شباب العالم الحرّ!

والمسألة في حقيقتها أنّ القضية هي حياته أمّا بالنسبة للمحامي فهي النشاط رقم كذا في جدول أعماله الحافل بأمور لا نهائية - وهو - المحامي - رغم رسوخه في العلم وقدرته الفائقة على الإنجاز، ورغم عطفه الشديد عليه، فإنّه لا يكنّ له احتراماً كافياً. وفي ساعة صفاء وهما يتناولان الغداء معاً قال له:

- لولا اندفاعك الجنونيّ لما كان للقضية وجود أصلاً...

فقال له بإصرار:

- إنّي مسألة كرامة...

- ولكن حتىّ الاندفاع الجنونيّ يجب أن يقوم على أساس من العقل!

- الحقيقة أنّك لا تفهمي...

- حقاً! أنت لغز؟

- إنّي أحترم أموراً تعتبرها أنت بكلّ بساطة خرافات وأباطيل...



## الجرمة ٤٩٧

منفذ في عالم القوانين المشعب الذي يجمله كل الجهل .  
قال له ذات مرة :

- احرص على الجديّة والاستقامة فإن هفوة ماسّة  
بسمعتك ستبّد مجهودي هباء .

فسأله ضاحكًا :

- أتطالبني بالتقشّف حتى يصدر الحكم ؟

- ولمّ لا ؟

- ومتى تراه يصدر في تقديرك ؟

- أسف على أنك لا تحترم التقشّف وبخاصّة في

ظروفك الراهنة التعيسة !

واشتعل غضبًا فهمّ بتعنيف الرجل . أكثر من مرّة  
همّ بتعنيفه ولكنّه كان يتذكّر أنّه لم يدفع له مليًّا واحدًا  
سوى رسوم التوكيل ، وأنّ الأتعاب مؤجّلة ومنوطة  
بكسب القضية ، ف يرجع إلى عقله ويكظم غيظه  
ويسكت . والحقّ أنّه لا يحبّ التقشّف ، بل أنّه يضيق  
بمحاميه لتقشّفه المعروف عنه ، وأيّ قيمة للحياة بلا  
طعام لذيد وشراب هنيء وعناق حارّ ومقام وثير ؟ !  
ذلك جميل حقًا ولكن تحت شرط ألا يجد نفسه عاريًا  
في بيت غريب متوقّفًا بين لحظة وأخرى أن تدممه  
ضربة قاضية .

وتساءل عمّا يُراد به . هل يتركونه حتى يضطرّه  
الجوع إلى الخروج ؟ . هل يجيئون ليخيروه بين التنازل  
عن القضية وبين استدعاء الشرطة لضبطه بالحال التي  
هو عليها ؟

هذا أو ذاك أو غيرها من الاحتمالات ، كلّها طريق  
واحدة تفضي إلى الضياع .

وغلى دمه .

كلّ شيء محتمل إلا تخيّل ابتسامه الشامتة فوق  
شواربهم الغليظة .

وسمع صوتًا فهرع إلى النافذة فرأى سيّارة تقف  
أمام البيت .

- كما توقّعت قد جاءوا . . .

واندفع دمه في الغليان . ومن شدّة القهر جنّ  
غضبه . واكتسح الغضب الخوف فلم تبقّ في صدره إلا  
ألسته المشتعلة . كان لعبة بأيديهم طيلة الوقت ولكنّه  
رفض أن يستمرّ لعبة وأضاء المصباح فتبدّى عاريًا ،

ولكنّ الوقت يمرّ بلا مبالاة . وفجأة ضرب بيده على  
جبينه وهتف :

- مكيدة ، إنّها لمكيدة مجرمة !

لا تقع هذه الأمور مصادفة . إنّ أيدي خصومه  
ترامى له وهي تدبّر بخبث وإحكام رامية في النهاية إلى  
إفشال القضية . يتذكّر الآن أنّه لمح المرأة في مشرب  
الشاي قبل أن يغادره ليستقلّ الترام . وأنها جاءت في  
أعقابه لتجلس أمامه . وسألته عن الساعة لتضبط  
ساعتها وفي الحقيقة لتلفت نظره إليها . وأنها لم تكن  
ملاكمًا كما تصوّر - كيف تصوّر ذلك - فقد فرّجت بين  
ساقها العاريتين لحظة ثمّ ضمّتها بسرعة وحياء  
مصطنع فظنّها حركة بريئة طاهرة ، ثمّ استسلمت  
لأحلام مجهولة في استرخاء ناعم ، فكان بوسعه أن  
يدرك حقيقتها ، ولكنّه ثمل بخياله الجامح ورغباته  
الدفينة فرأى ما لا وجود له وبنى عليه العلابي واندلق  
كغزّ أبه ، لقد أحاط خصومه بتحركاته وأهوائه فرسموا  
خطّة محكمة وأوقعوه بسهولة مخجلة ثمّ تركوه عاريًا في  
مسكن مجهول ليتوقّع قدرًا مجهولًا . ويمقتضى ذلك  
المنطق السليم القاسي فعليه أن ينتظر ضربة قاضية في  
المصيدة .

- ما العمل ؟

كيف يفرّ قبل أن يدممه الخطر ؟ . وجال في المسكن  
مرّة ومرّة بلا جدوى على الإطلاق . ليس إغلاق الباب  
بمشكلة فبوسعه أن يقفز من النافذة ولكن كيف يواجه  
الطريق عاريًا ، هذه هي المشكلة . وأدرك أنّ خلوّ  
السريّر من الغطاء والملاء لم يكن عن فقر أو مصادفة  
ولكنّه ضمن الخطّة التي رُسمت لحرمانه من أيّ شيء  
يستر به جسده . وقف وراء النافذة ينظر من خصائصها  
إلى الطريق المضيء الذي لا يخلو لحظة من عابر ، كيف  
يمكنه أن يمضي فيه عاريًا ؟ ، وماذا يفعل عندما يبلغ  
الشوارع المزدحمة بفرض أن أمكن عبور هذا الشارع  
دون حادث ؟ ! . وسواء أبقى أم انطلق متخطّيًا حدود  
العقل فسوف يقع تحت طائلة إحدى تهمتين خطيرتين ،  
السطو أو الجنون ، وكلتاها خليقتان بزلزلة أركان  
القضية ، فما العمل ؟ . ولم يشعر في وقت مضى بما يشعر  
به الآن بالحاجة الماسّة إلى مشاورة محاميه لعلّه يهديه إلى

## ٤٩٨ الجريمة

متجرّدًا من الخجل والخوف. ها هي الحركة تدبّ خارج الحجره. ستطالعه نظرات بارده وبسات ساخرة فليبتسم وليسخر مثلهم. سيقول مقدّمهم وهو يصطنع دهشة مقبنة:

- ماذا نرى؟

فيقول بهدوء تامّ:

- طال انتظاري لكم!

- هكذا عاريًا!

- كما ترون!

وليكن ما يكون ولكنّ اللعبة لن تستمرّ.

واقتربت الأقدام ثقيلة وتطايرت الضحكات.

وانتظر ينظر في هدوء وتصميم وعناد.

غير مبالٍ بالعواقب.

## الجريمة

تلاشي الهدوء في رحاب التاريخ، تغيّرت أشياء كثيرة، برزت معالم جديدة، ولكن بقي الحيّ الشرقي يزخر بالأزقة والحواري والبيوت البالية، يقابله الحيّ الغربيّ بفيلاته الكلاسيكية وعمايره الأنيقة الحديثة، هكذا وجّدت الضاحية التي وُلدت فيها بعد غيبة دامت ربع قرن. بهرني ميدان المحطّة بأصعاعه ومبانيه الحديثة وتمثال الفلاحة الناهضة، والشارع العريض الطويل الغائص في أعماق الضاحية حتّى المسئلة القائمة في الحديثة الكبرى، كما بهرتني المصانع الجديدة بضخامتها ومداخنها النفّثة وضجيج آلاتها.

ورغبة منّي في الاختلاط بالناس وتوثيق علاقتي بهم قرّرت الإقامة في الضاحية فذهبت إلى مكتب سمسار للشقق وجلست في الانتظار بين جمع من الرجال والنساء. جلست بوجه بسام مشحوذ الهمة للاستجابة لأيّ بادرة ودودة ولكنهم كانوا منهمكين في الحديث:

- ألم يُستدلّ على شخصيّة صاحبة الجثة؟

- كلاً، وُجدت مدفونة من سنين ومحرّقة تمامًا...

- كم سنة؟

- أربع أو خمس سنوات، هذا ما كُتب في الخبر.

- والقائل؟

- لم يُعرف بعد، والأرجح أنّهم عصابة. فالقتل والإحراق والدفن تحتاج إلى أكثر من نجّرم واحد...

وتداخلت في الحديث سائلًا:

- ألم يُعلن في الضاحية وقت ارتكاب الجريمة عن اختفاء امرأة؟

فساد صمت انقطع به الحديث مليًا ثمّ قال شخص:

- لا يمكن تدكّر ذلك.

فقلت:

- ولكنّه لا يمكن أن يغيب عن تفكير المحقّق...

لم تحز ملحوظتي قبولاً فيها بدا لي، فأكدت غربيّ بدلاً من أن تفتح لي مدخلاً إلى علاقة حميمة. وخفت أن أكثر من الأسئلة فيساء بي الظنّ وخاصة لشدة حساسيتي من ناحية المهمة التي أحمل أمانتها، وليقيني المستند إلى خبرة مهنتي بأنّ الأعين يجب أن تكون متبهاة تمامًا نحو أيّ دخيل قد يهدّد أمن الضاحية وسرّها العجيب. وجاء دوري للمثول أمام السمسار فوجدت في حجرته نفرًا من المتعاملين، ووجدت أنّ حديث الجريمة يطوف بهم رغم انهماكهم في إنجاز أعمالهم، وحتّى السمسار نفسه يشارك فيه:

- لا حديث للضاحية إلاّ الجريمة، يتردّد في السوق والمكاتب والمصانع والأكواخ والفيلات...

- ذلك طبيعيّ جدًّا.

- وما الفائدة؟

فقال السمسار:

- ثرثرة، معالجة عقيمة للخوف والعجز، ثرثرة لا جدوى منها...

- ثرثرة وأمانٍ فارغة.

- ولمّ الخوف بالله كأنما كلّ فرد من الضاحية يخشى نفس المصير...

غادرت المكتب بعد أن أجّرت حجره مفروشة في مبنى بالحيّ الشرقيّ، وسط الجمهور الذي أعتمد عليه في استخلاص الحقيقة المنشودة. وتذكرت مقابلي لرئيسي التي كُلفت في ختامها بالمهمة. قال:

- ستذهب إلى الضاحية لجمع التحريّيات والمعلومات.

- سواق تاكسي .  
 وقدمت بطاقة الشخصية والرخصة فراح يتفحصهما  
 بعناية وأنا مطمئن إلى أنه لن يجد ما يريه فيهما، ثم  
 تفحصني بنظرة ثابتة وسألني:  
 - لم اخترت هذه الضاحية للعمل؟  
 فقلت بعد تفكير:  
 - إنه حق مشروع لكل مواطن ولا يستدعي في  
 اعتقادي استجواباً.  
 فأعاد سؤاله ببرود:  
 - لم اخترت هذه الضاحية للعمل؟  
 فأثرت السلام حرصاً على نجاح مهمتي وقلت:  
 - عملها المحدود مناسب لرزقي وصحتي وأنجح  
 اختياري إلى هنا لأني أصلاً من مواليد الضاحية.  
 - ألك بها أهل أو أقارب؟  
 - كلاً... هجروها منذ حوالي ربع قرن...  
 - الجريمة خلقت نفوراً عاماً من الغرباء.  
 كدت أسأله هل عرفوا هوية المجرمين ولكنني  
 أمسكت عن حكمة وتساءلت:  
 - هل تقرر إبعادي من أجل ذلك؟  
 فردّ إليّ البطاقة والرخصة وقال ببرود:  
 - اذهب...  
 ذهبت وأنا أنكر بمدى ارتياب الرجل بي ولكنني لم  
 أجد في سلوكي ما يسوّغ ذلك على الإطلاق فنحيت  
 عن شعوري لأمضي في طريقي بلا ظنون وهمية قد  
 تربكني وتكشف سرّي. وكنت أواصل رجلين في  
 التاكسي إلى المحطة عندما سمعتهما يتحاوران عن  
 الجريمة:

- فظيعة فظيعة، أيّ قسوة!

- كانت بارعة الجمال!

- ولكنّ النار لم تبقّ منها على شيء؟

- أعني لو لم تكن جميلة لما تمزّقت للقتل، أنت  
 تفهمني طبّماً...  
 - طبّماً، وانقضاء خمس سنوات على دفنها يجعل  
 العثور على دليل أمرًا مستحيلًا...  
 فتدخلت في الحديث قائلاً:  
 - قرأت في الجرائد أنّه يمكن بفحص الموميات علمياً

وقال أيضًا:

- من حسن الحظ أنّ أحدًا من رجال الأمن هناك لا  
 يعرفك...  
 سألت باهتمام وأدب:

- ولكن لم سوء الظنّ يا سيدي؟

- حسن، طُمتت معالم جرائم قبيل ذلك وقيدت  
 ضدّ مجهول، لم تكن بفضاعة جريمة اليوم، ولكن ليس  
 ما يمنع من أن يكون مصيرها كمصير سابقاتها...  
 - ورجال الأمن هناك ماذا يفعلون؟  
 - أتريد رأيي؟... إنهم متواطئون، لعلمهم يقومون  
 بالدور الرئيسي في طمس معالم الجريمة...  
 - ولكن لماذا؟

- ذلك ما أودّ أن توافيني بأسبابه...  
 - وأهل الضاحية ما موقفهم؟  
 - هذه هي المسألة...  
 - أليست القتيلة منهم وكذلك القاتل؟  
 - إني أؤمن بذلك كلّ الإيمان...  
 - إذن لم لا تُكتشف الحقائق ويُقبض على المجرمين  
 كما يحدث في كلّ مكان؟  
 - هذه هي المسألة.

كذلك دار الحديث قبيل تكليفي بالمهمة. لم تكن  
 مهمتي لإجراء أيّ تحقيق بصفة سرّية لمعرفة شخصية  
 القتيلة أو القبض على القاتل، وما كان ذلك بوسعي،  
 لأنه لا يقع في اختصاصي من ناحية، ولأنه أمسي  
 متعذرًا ما دام قد مضى على تاريخ الجريمة حوالي  
 الخمس السنوات. مهمتي كشف السرّ عن الأسباب  
 الخفية لطمس معالم الجرائم في الضاحية، عن المصلحة  
 المشتركة التي تشدّ الناس إلى ذلك، الفقراء والأغنياء  
 ورجال الأمن.

غادرت حجرتي لأمارس العمل الذي اخترته عندما  
 قابلني رسول جاء يستدعيني إلى مكتب الأمن. ذهبت  
 من فوري قلقلًا متشائمًا. ما معنى الاستدعاء؟... هل  
 رابهم شيء في سلوكي؟... هل أواجه التحدي وأنا لم  
 أكد أشرع في العمل؟  
 ومثلت أمام الضابط السلي سألني عن اسمي  
 وعلمي، ذكرت الاسم وقلت:

## ٥٠٠ الجريمة

معرفة أسباب الوفاة، فإذا كان السبب جريمة أمكن  
مناقشة الملابس التاريخية تحديد القاتل في شخص أو  
طائفة...

فضحك الرجلان وقال أحدهما:

- على عهد الفراعنة كان الناس يموتون أو يُقتلون  
لأسباب مقنعة...

وضحك الرجلان مرة أخرى.

قلت لنفسي إنَّ أحاديث الناس لا تدلُّ على أنهم  
متواطئون، وتقطع بأنهم غير راضين حتى ولو كانوا  
متواطئين، فلماذا يشتركون في إخفاء معالم الجريمة  
والتستر على القاتل أو القتلة رغم إرادتهم أو رغم  
نفورهم؟!؟

ومرة كنت أوصول أسرة إلى عيون المياه فدار الحديث.  
أيضاً حول الجريمة.

- ممَّا يقال بخلاف ذلك فهو مجرد إشاعة.

- أنت تعلم كما نعلم نحن أنَّها الحقيقة...

وتوثبت لإرهاق السمع ولكني لمحت في المرأة امرأة  
تحدّر المتكلمين مشيرة بذقنها نحوي!. وجعلت أتقلب  
في شتى الأماكن كما أتابع الأحاديث في التاكسي،  
أسجل الكلمات في ذاكرتي، أناقشها، أفكر بأبعادها،  
أستنتج متعاملاً مع الاستقراء والقياس، مستفيداً من  
كلِّ ملاحظة.

وقد سألت رئيسي وكنت أزوره كلِّها أوصلت راكباً  
إلى العاصمة:

- ألا يوجد احتمال أن يكون مرتكب تلك الجريمة  
من خارج الضاحية؟

- ليس ذلك بالمستحيل، وفي تلك الحال تكون  
الجريمة عادية وتأخذ العدالة مجراها...

- ما الذي يحمل فقراء الحي الشرقي على الاشتراك  
مع سادة الحي الغربي في إخفاء جريمة رغم حدّة  
التناقضات بين الجانبين؟

- تساؤل يقطع بأنك بدأت تضع قدمك في الطريق  
الصحيحة...

- أرجح أن يكون القاتل من السادة

- تفكير سليم جداً!

- هل يعني ذلك أنَّ القتيلة من الجانب الآخر؟

- قد وقد...

- السرّ إذن يكمن في المصلحة المشتركة بين الجميع  
حتى رجال الأمن أنفسهم؟

- هذه هي المسألة...

وعلمت ممَّا يقال في الضاحية أنَّ الجثة اكتشفت  
وهم يحفرون الأساس لبناء مصحة الأمراض العقلية،  
وعرفت أول من عثر عليها من البنائين، وهو صعيدي  
من هواة الجلوس في مقهى الشمس بالحي الشرقي.  
وعملت على التعرف به ومجالسته فشربنا الشاي معاً.  
وسألته:

- كيف كان شعورك عندما عثرت على الجثة  
المطمورة؟

فقال بفخار:

- ناديت أصحابي ثم جاءت الشرطة...

تبادلنا حديثاً سطحياً موجلاً الأسئلة الهامة للقاء  
آخر، ولكنني لم أعر عليه بعد ذلك، وقيل إنَّ ظروفًا  
اضطرتته للسفر فوراً إلى الصعيد... ترى هل وقع  
ذلك بمحض الصدفة؟ ساورني القلق فخفت أن أكون  
مراقباً على غير ما أتصوّر، وشحذت انتباهي ما وسعني  
ذلك، ولكنني لم أكف دقيقة عن نشاطي المرسوم.  
فتحت صدري لكلِّ علاقة، استكثرت من الأصدقاء،  
قدّمت الخدمات بلا حساب، وظلّ حديث الجريمة  
يجري على كلِّ لسان، في البيت والمقهى والسوق  
والتاكسي، يتردّد بغیظ وحنق، وأحياناً بسخرية، ولكنه  
لا يشقُّ حجاب الغموض أبداً، ثمّة شيء في الأعباق  
يعوزه التعبير، يكتبه أنه في اللاوعي، أو الخوف أو  
الحنج أو الرغبة المحمومة في الحرب. ولاحظت ذات  
يوم - وأنا في السوق - أن امرأة فقيرة دمعت عيناها  
وهي تصني إلى حديث الجريمة الذي لا ينقطع.  
جذب وجهها عيني بفقره وجماله الدابل المتواري وراء  
غلاف من الإهمال والتعاسة. ترى هل تبكي بدافع  
عاطفة إنسانية عامة أو لأسباب أشدَّ خصوصية؟  
وقررت في الحال تعقبها من بعيد لعلّ وعسى. ولما  
وصلت إلى آخر منطقة في السوق اعترضني صوت  
قائلاً:

- ها أنت تهيم على وجهك مهملاً عمالك!

## الجرمة ٥٠١

يجب مغادرة الحانة قبل أن تُفتعل معركة من أجل القضاء عليّ قضاءً وقدرًا، يجب تجنب السير في الشوارع الخالية، لا تستقلّ التاكسي حذرًا من انفجاره لأسباب مجهولة، لا ترجع إلى حجرتك حتى لا يغتالك كائن جائم في ركن منها. إلى المحطة رأسًا عن طريق شارع المسئلة، وهناك تتعدّد الوسائل للوصول إلى العاصمة.

وفي صحن المحطة شعرت بيد توضع على كتفي فالتفت متوثبًا فرأيت الضابط. وقفنا ترامق ملثًا حتى ابتسم قائلاً:

- جئت لأودّعك بما تقضي به أصول الزمالة.

عدلت عن المكابرة وتمتت ساخراً:

- شكراً.

وهو يضحك:

- ولم تترك التاكسي وراءك بلا سائق؟

فقلت ساخراً أيضاً:

- أتركه في أيدي أمينة!

وهو يعاود الضحك:

- ترى ما الملاحظات التي تمضي بها؟

ففكرت غير قليل ثم قلت:

- أنكم لا تؤدّون واجبكم!

- الناس لا يتكلّمون.

- أعلم أنّ أرزاق البعض بيد البعض الآخر ولكنّ

الغضب يتجمّع في الأعناق وللصبر حدود.

فهزّ رأسه باستهانة وتساءل:

- ما واجبنا في رأيك؟

- أن تحقّقوا العدالة.

- كلاً.

- كلاً؟!

- واجبنا هو المحافظة على الأمن.

- وهل يُحفظ الأمن بإهدار العدالة؟

- وربّما بإهدار جميع القيم!

- تفكيرك هو اللعنة.

- هل تخيلت ما يمكن أن يقع لو حقّقنا العدالة؟

- سيقع عاجلاً أو آجلاً.

- فكّر طويلاً، بلا مشالية كاذبة، قبل أن تكذب

التفت فرأيت الضابط واقفاً يرمقني بنظرته الباردة، فقلت:

- جئت أتسوّق.

- وأين التاكسي؟

- في الميدان الجديد.

ومضى إلى سبيله تاركاً إيّاي في حيرة. فتشت بعيني عن المرأة ولكنها كانت قد ذابت في الزحام. ورجع لديّ أنّي أواجه تدبيراً مُحكّماً لا صدفة عمياء، وأنّ عليّ أن أضعف من الحذر.

وتفرّغت لعملي كسوّاق تاكسي أياماً متتابعة،

وكُلّفت خاطبة أن تبحث لي عن عروس مناسبة، ثمّ

تسلّلت ذات ليلة، عند منتصف الليل، إلى الحانة

الموجودة عند مشارف السوق. وجدها مكتظة

بالشاربين، تضجّ بالنكات والأغاني، حارة بالأنفاس

والدخان والهواء الفاسد. شربت قليلاً ولكّني تظاهرت

بالنشوة والمرح، وأرهفت حواسي لتصيد الفلتات

والشوارد. وكالعادة تطعم كلّ حديث، كلّ حوار، كلّ

مزاح، بحديث الجرمة. قلت لنفسي متعجباً:

- كأنهم جميعاً مجرمون أو ضحايا أو الاثنان معاً.

وسمعت ضمن الأحاديث حواراً ذا دلالة فيما

اعتقد. قال الرجل محتجاً:

- نحن ضعفاء.

فأجابته بحدة:

- بل جبناء.

- ماذا تفعل إذا اعترض سبيلك سياج من النيران؟

- أرمي بنفسي فيها!

- ارم بنفسك وأرنا شجاعتك.

وعربدوا ضاحكين. واثال عليّ نثار من الكلمات

صالح لدى ربطه وإعادة تكوينه لإعطاء اعترافات

خطيرة أو ما يشبه ذلك. تابعت ذلك وأنا أهت من

شدة الانفعال. وشيء جذب رأسي نحو مدخل الحانة

كما يقع لدى توارد الخواطر فرأيت الضابط يتسلّل

خارجاً أفقت من نشوتي وانفعالي، وتنبهت في غريزة

المهنة فأدركت فداحة الخطر الذي يحدق بي. امتلاك

سرّ خطير من هذا النوع يعني الهلاك، وأنا خبير

بأساليب مهنتي، ولذلك فعليّ أن أفكر بصفاء ذهن.

٥٠٢ الجريمة

تقريرك، ماذا ستكتب؟

فقلت بامتعاض:

- سأكتب أنّ جميع القيم مهدرة ولكنّ الأمن

مستتب!

للتحرّش به ولكن في حدود المعقول إذ كان ربعة متين  
البنيان مهيب الطلعة، وإذا به يبادرني - بلا تحيّة -  
قائلًا:

- أنت من طرف أصحاب العمارة؟

فقلت باعتزاز:

- أنا عضو لجنة المصلحة التي استأجرت العمارة.

فقال بهدوء:

- عظيم، أريد أن ألقى نظرة عامّة على الداخل.

- ولكن من حضرتك؟

فقال بتلقائية وبساطة:

- أنا مدير المصلحة!

صعقتي قوله فتشجعت أطرافي، وسرعان ما انحنيت  
بطريقة آليّة كردّ فعل سريع للشحنة الكهربائية التي  
بعثها شخصه في كياني المتهالك، وقلت بخشوع:

- لا مؤاخذه يا صاحب السعادة.

فقال بعدم اكتراث:

- تقدّمني...

اعتبرت أنّ السماء فتحت أبوابها في وجهي وأغدقت  
عليّ بركة ورحمة باختيارى مرشدًا لسعادته. وتقدّمته في  
رشاقة، من مكان لمكان، واصفًا الموقع، معدّدًا المزايا،  
مستجدّيًا نظراته الكريمة إلى الحجرات والأبهاء  
والردهات، مشيرًا بمتهى الذوق واللباقة إلى المرافق.  
وتطوّعت فائلًا:

- أعتقد يا صاحب السعادة أنّ الدور الثالث هو  
اليق الأدوار بمقامكم، فهو مرتفع لدرجة لا بأس بها  
تعتبر مانعًا حاسمًا لضوضاء الطريق وفي الوقت نفسه لا  
تُعَدّ مشكلة في الصعود أو النزول في حال تعطلّ  
المصعد...

وفي فرصة تالية قلت:

- الركن البحريّ ذو مزايا جغرافيّة لا يستهان بها  
فالطريق يحدّه من جهتين أمّا الجهة الثالثة فتقع بها  
محطّة بنزين منخفضة، فهو ممرّ دائم للهواء وضوء  
الشمس.

وفي فرصة ثالثة قلت مشيرًا إلى أضخم حجرة:

- هذه حجرتكم، ويمكن وصلها بالحجرة التالية  
بهدم الجدار لتتسع للاجتماعات، وشقّ باب في الجدار

## المقابلة السامية

قمت بجولة في العمارة الجديدة الخالية. هي جديدة  
بكلّ معنى الكلمة، فوّاحة برائحة الطلاء ما زالت،  
تحتلّ مرتبة صقماً، وعمّا قليل تعلق في أعلى مدخلها  
لافتة كبيرة تحمل اسم مصلحتنا العتيدة. وكنت وراء  
الملابسات السعيدة التي أدت إلى اختيارها وتأجيرها  
للمصلحة. كنت كاتبًا منسيًا بالأرشيف ولكّني اختزنت  
كاتبًا للجنة التي شكّلت للبحث عن مقام جديد  
للمصلحة يضمّ أشتاتها المتناثرة في أحياء متباعدة  
بالمدينة الكبيرة. وكنت أعبر الطريق كلّ صباح أمام  
موقعها في مسيرتي اليومية إلى المصلحة القديمة فدعوت  
اللجنة لمشاهدتها، وسرعان ما اتّخذت الإجراءات  
الإدارية ثمّ توقّع العقد مع مالكيها.

قمت بجولة في العمارة الجديدة الخالية. لم تكن  
إجراءات النقل قد بدأت بعد، وكنت مارًا كالعادة في  
الصباح فأغراني الزهو، وشعور وهميّ بالملكيّة، بالقيام  
بجولة بيروقراطية وكان البوّاب قد عرفني في الزيارات  
الرسمية السابقة فاستقبلني باحترام جاهلاً... لطيبة  
قلبه - مدى البؤس الذي أعانيه كموظف منسيّ حقير،  
ذلك البؤس الذي أغدّه كوني ربّ أسرة مكتنّظة لا  
تذوق اللحوم إلّا في المواسم.

وفي فناء العمارة صادفت رجلًا لا أدري من أين  
جاء. غاظني منه بصفة خاصّة أنّه كان يسير بأقدام  
ثابتة شديدة الرسوخ والثقة. ظننته جاء يبحث عن  
شقة يستأجرها فتوقّعت منه تحية متودّدة ولكنّه تجاهلني  
بادئ الأمر تمامًا، ومضى يلقي على ما حوله نظرات  
متعالية خليقة بأن تشير حقّ موظف - مهما قيل عن  
تعاسته - فهو مكتشف العمارة، فضلًا عن أنّه ممثّل  
السلطة التي ستحتلّها بعد أيام قلائل. وتحفّزت

## الجرمة ٥٠٣

حتى ينقضي الشهر ولكن كل شيء يهون إلا أن أقطع  
بيدي أسباب القربى التي تشدني إلى رحمتي.  
وتمّ النقل إلى العمارة الجديدة، وكالعادة استقرّ بنا  
المقام - نحن موظفي الأرشيف - في البدروم. ولم أكفّ  
عن التفكير في العلاقة الخفية السعيدة التي تربطني  
بصاحب السعادة. ولم أذهب إلى مكتبه للمطالبة بالمبلغ  
كما أمر ولم يرسله إليّ مع أحد موظفي مكتبه والحمد  
لله. ومرّت الأيام تباعاً حتى ساورني خوف أن يكون  
قد نسي في غمار شواغله الكثيرة اللا معدودة. وأن  
تفلت من يديّ فرصة العمر. واستخرت الله،  
وتحوّطت عليه، ثم قرّرت أن أطلب مقابلة المدير  
العام. وقصدت حجرة السكرتير الخاصّ ولكنّ  
الساعي اعترض سبيلي، وأفهمني أنّ السكرتير مشغول  
جداً، وأبدى استعداداً لإبلاغه عن حاجتي، فقلت  
له:

- أرجو تحديد موعد للتشرف بمقابلة المدير العام.  
فخطف الساعي نظرة جانبية من بدلي المهلهلة  
ولكنّه غاب عني دقيقة وراء الباب المغلق ثمّ رجع وهو  
يقول:  
- اكتب حاجتك على عرضحال ثمّغ وأرسلها  
بالطريق الإداري المتبع.  
ولم نجد معه آية محاوره فقد وجدته مغلقاً صامداً  
مثل الباب الذي يجلس أمامه. ورجعت إلى مكنتي  
فريسة لقهر معذب ولكن بإرادة مصممة على الوصول  
مهما كلف الأمر. ومن تويّ لجأت إلى رئيسنا في  
الأرشيف وهو كهل يشاطرنا البؤس والهوان ولا يتقدّمنا  
إلا في العمر فطمعت أن أجد عنده تجاوباً ورحمة.  
كاشفته برغبتني في مقابلة المدير العام وسألته الرأي  
والنصيحة فسألني:

- ولمّ تسعى إلى هذه المقابلة العسيرة؟  
- أريد أن أعرض عليه شكواي.  
- ألسنا كلنا في البلوى سواء؟  
- ولكنّه شجّعني على ذلك!  
- حقاً؟... متى وكيف؟  
فقصصت عليه الجانب الذي يهتّم من لقاء العمارة  
فتفكّر قليلاً ثمّ قال:

القبليّ ليُفتح على السكرتارية الخصوصية.

وقرات أثر ذلك كلّه في وجهه السمع رضى  
وارتياحاً، ورجعنا إلى الفناء بعد جولة سعيدة موفّقة  
وأنا ثعل بلهام سهاويّ من عنف الفرح. وتفضّل  
سعادته فسألني:

- وأنت في أيّ إدارة؟

فقلت متلقياً طاقة النجاة ببراعة:

- كاتب بالأرشيف يا صاحب السعادة، كاتب

منسيّ، ولي شكوى قديمة...

ولكنّه قاطعني قائلاً:

- فيما بعد... فيما بعد.

فاعتذرت عن تسرّعي قائلاً:

- لا مؤاخلة يا صاحب السعادة، سأرفع مظلمتي

فيما بعداً.

ومضى إلى الخارج وأنا أهول في أثره فصادفه بيّاع  
جرائد فأخذ مجلّة وكتاباً بلغ ثمنها خمسة وعشرين  
قرشاً، وتبيّن لي أنّ المدير لا يجد نقوداً صغيرة تفي  
بالشمن وأنّ البيّاع لا يملك فكة لورقة كبيرة، حتى همّ  
المدير بإرجاع المجلّة والكتاب، ولكنني بادرت - مدفوعاً  
بأريحية ملهمة - بدفع المبلغ المطلوب. وتردّد المدير  
قليلاً ثمّ سلّم بالواقع قائلاً:

- تعال من فورك إلى مكنتي لأخذ نقودك.

وذهب يتمتم:

- شكراً...

تركني في دوامة من انفعالات السعادة والأشواق إلى  
المجهول بحيث كان من أيسر الأمور أن تصدمني سيارة  
وأنا غارق في بحر الوجد والأمل. وثبت في يقيني أنّ  
صفحة جديدة من الإشراف تُفتح في تاريخي المليء  
بالتعاب والمحن، فقد تعرّفت بالمدير العام، وعملت  
له مرشداً، وأطلعت على سوء حالي، ووعد بالنظر في  
مظلمتي، وفي لحظة مباركة محفوفة بأنفاس الملائكة  
أصبحت له دائناً بخمسة وعشرين قرشاً. ومعاذ الله أن  
أطالبه بالدين أو أن أذكّر أحداً به، فهو القربان الذي  
يهبني عطفه ويفتح لي عند الضرورة بابه. أجلّ إنّه  
مبلغ جسيم يقتضي اتّخاذ إجراءات تقشّف جديدة حتى  
يتحقّق نوع من التوازن يكفل لي أدنى مراتب الحياة

وقّع عليها برجاء العطف، مضيت بها إلى سكرتير مدير الإدارة، دسّها تحت تلّ من الشكاوى ثمّ انصرف إلى عمله، سألته:

- متى تتفضّل بعرضها على مدير الإدارة؟

فأجاب دون أن يرفع بصره عن أوراقه:

- لا شأن لك بذلك.

- ولكتّها شكوى من نوع خاصّ، أعني أنّي ما كتبتها إلّا بإيعاز من سعادة المدير العامّ نفسه!

فرمقني بنظرة غريبة وتساءل ساخراً:

- سعادتك قريبه؟

- تلك هي الحقيقة بلا سخرية.

- ستعرض في حينها أو أخذها واذهب.

- لا تزعل، متى أرجع لأخذها؟

- بعد أن يتمّ عرضها.

- ومتى يتمّ عرضها إن شاء الله؟

- ستعرض في حينها.

وانصرف عنيّ بحركة حاسمة طاردة فرجعت إلى مكنتي وأنا أسبّ الكادر وشاغليه ما عدا سعادة المدير العامّ طبعاً. ورجوت رئيسي أن يتشقّع لي عند سكرتير مدير الإدارة ولكنّه رفض بغرور الشابّ وقلة أده. ومزّت الأيام وأنا أنتظر وأتصبر.

وذات صباح وزميل لي يراجع معي ميزان الوارد مال نحويّ وسألني هامساً:

- هل حقاً أقرضت المدير العامّ خمسة وعشرين

قرشاً؟

فانزعجت جدّاً وتولّاني الذعر وسألته عمّن أخبره بذلك فقال إنّه سمع همساً يدور حول الموضوع في الأرشيف. يا دافع البلاء ارحمنا. واتهمت رئيسي ولكنّه أقسم لي بأولاده أنّه لم ينيس بكلمة واحدة، فاتهمت زوجتي - ولها صديقات بين زوجات الموظّفين - ولكتّها أنكرت إمّا عن صدق أو عن خوف. انسكب سمّ القلق في نفسي، وتوقّمت أنّ الانظار تلاحقني بدهشة وسخرية، وأنّ أصحابها عمّا قليل سيرمونني بالعتة أو الجنون، ولذلك كان عليّ أن أسرع في مسيرتي قبل أن يقع ما ليس في الحسبان. وذهبت إلى سكرتير مدير الإدارة، فلم يردّ تحيّيّ ولكنّه أشار بامتعاض إلى

- تلك كلمة طائفة عابرة لا يعوّل عليها.

- لن أضيّع على نفسي وأولادي فرصة قلّ أن تجود

بمثلا الساء...

- نصيحتي أن تقلع عن تصميمك.

فهتفت بحماس:

- إنّه أمل حياتي الوحيد.

فجعل يهزّ رأسه مفكراً فلم أر مفرّاً من إطلاق

الرصاصة الأخيرة فهمست في أذنه:

- سأودع لديك سرّاً في ضميرك النقيّ، لقد اقترض

سعادته متي خمسة وعشرين قرشاً!

نظر الكهل في وجهي بسدهول متجسّم فقلت

بحرارة:

- صدّقني فانا أحادثك وأنا في كامل قواي العقلية.

وقصصت عليه قصّة النقود التي أدينه بها فسألني

بارتياب:

- هل سبق لك أن رأيت مديرنا العامّ؟

- كلاً.

- من أدراك أنّ ذلك الرجل هو المدير؟

- لا شكّ في ذلك البتّة.

- ولمّ لا يكون رجلاً عابثاً استغلّ طيبة قلبك؟

- مستحيل... دعني أصفه لك...

ولكنّه قاطعني قائلاً:

- لا جدوى من ذلك فانا لم أره إلّا لمّحا منذ سنوات

ومن بعيد...

- على أيّ حال أنا واثق من أنّه المدير العامّ.

- حكايتك حكاية...

فقلت متجاوزاً الجدل:

- خلّني على قدّ عقلي، ودلّني على كيفية رفع شكوى

للمدير العامّ.

- عظيم، تكتب الشكوى على عرضحال تمّعة

وتقدّمها إليّ بصفتي رئيسك المباشر فأعتمدها ثمّ تُرفع

إلى مدير الإدارة ليعتمدها بدوره ثمّ تُرفع إلى المراقب

العامّ ليعتمدها بدوره ثمّ تُرسل إلى مكتب المدير

العامّ، وثمة نصيحة لوجه الله وهي ألاّ تذكر أمام أحد

حكاية الخمسة والعشرين قرشاً!

وكتبت الشكوى بعناية، قدّمته لرئيسي المباشر،



## الجرمة ٥٠٥

- ألم يرّد المدير العامّ ذينه؟  
ومرّة لاحقني صوت يقول:  
- هذا هو الشحاذ الذي أقرض المدير العامّ...  
فدعوت الله أن يمّدني بصبر نبيه أيّوب، وظلّ أمني  
في رحمته قويًا لا يتزعزع، وتذكّرت سحرية آل نوح منه  
وكيف كانت العاقبة للمتقين. ولم أذهب إلى كاتب  
الصادر بمكتب المراقب العامّ إلا بعد مرور أسبوعين  
كاملين فأعطاني رقم وتاريخ الكتاب الذي أرسلت معه  
الشكوى إلى مكتب المدير العامّ، وسألته بأدب:  
- متى يمكن أن أعرف النتيجة في مكتب المدير  
العامّ؟  
فأجابني بامتنعاض وحنق لا مبرّد لهما على الإطلاق:  
- علّم ذلك عند علام الغيوب!  
على أيّ حال قد وصلت الشكوى إلى مكتب المدير  
العامّ، وسوف يتذكّرني من فوره، ولعلّه يستدعيّني إلى  
مقابلته، أو يجبر في الأقلّ خاطري، وانهارت عليّ  
الأحلام السعيدة، وميّت نفسي بترقية أو علاوة تدعم  
رزق الأولاد. وكنت راجعًا إلى الأرشيف حاملًا البريد  
وأنا أتلو آية الكرسيّ عندما اعترضني موظّف ومضى  
يسألني:  
- هل حقًا...  
وكنت قد ضقت بتحرّش الساخرين فقاطعته قبل  
أن يُتمّ كلامه:  
- اخرس يا قليل الأدب.  
فتراجع الرجل ذاهلاً وهو يقول:  
- أنت مجنون بلا شكّ.  
فصحت به:  
- اذهب وإلا خلعت الحذاء ومزّقته على رأسك.  
وسرعان ما حال بيننا أهل الخير والشرّ. وبعد يوم  
استدعيت إلى إدارة التحقيقات. قال لي المحقّق:  
- أنت متهمّ بالاعتداء بالقول على مراجع الحسابات  
وبالشروع في ضربه.  
فقلت بذلّ:  
- أنا رجل مسكين، لقد أراد أن يسخر مني  
فزجرته، هذا كلّ ما حصل.  
وقال مراجع الحسابات إنّه أراد أن يسألني عن ورود

شكواي فتناولتها شاكراً وهرعت من فوري إلى سكرتير  
المراقب العامّ. قدّمت الشكوى، أردت أن أشرح له  
أهميّة الموضوع ولكنّه بادرنى قائلاً:  
- اتركها واذهب.  
ولكي أرضيه تمحّرت نحو الباب غير أنني سألته:  
- متى أرجع لتسلمها؟  
- لا ترجع.  
فمن اليأس تمهّرات على أن أسأل:  
- والشكوى.  
فرفع عينيه إلى السقف كأنما يُشهد الله على قحتي،  
وعند ذاك تطوّع أكثر من شخص من المحتشدين في  
الحجرة ينصحونني بالامتنال وتنفيذ الأمر، حتّى بهتّ  
واجتاحني الخوف، وتطوّع الساعي لأخذني من ذراعي  
بلطف يوحى بالعطف، وأفهمني في الردهة بأنّ مكتب  
المراقب العامّ يرسل بريده مباشرة إلى مكتب المدير  
العامّ.  
- وكيف أعرف أنّها أرسلت؟  
- تعال بعد أسبوع أو عشرة أيّام وقابل كاتب  
الصادر بمكتب المراقب العامّ فيعطيك الرقم والتاريخ  
وبهما تستدلّ على مصير شكواك في مكتب المدير  
العامّ...  
فقلت مدارياً عجزياً:  
- تصوّر أنّي سألقى من الاحترام في مكتب سعادة  
المدير العامّ ما لم ألقَ واحداً على مائة منه في مكتبكم!  
فدعا لي الساعي قائلاً:  
- ربّنا يرفع قدرك أكثر وأكثر...  
رجعت إلى مكّتي، قلت لنفسي اشتدّي أزمة  
تنفّرجي، وقلت أيضاً إنّ عذاب تلك الأيّام سيكفل لي  
دخول الجنة بغير حساب، وقلت أيضاً إنّه ليس بعد  
الظلام إلاّ النور، وإنّه إن عاجلاً أو آجلاً فسوف  
تدركني رحمة مفرج الكروب. أمّا الأعين الساخرة فلم  
تعتنفني، لم ترحمني، ولم تقنع باستراق النظر، فهذا  
زميل يتساءل:  
- كيف... متى... في أيّ ظروف غريبة أقرضت  
المدير العامّ خمسة وعشرين قرشاً؟  
وهذا آخر يسأل:

## ٥٠٦ الجريمة

كلامه غير المسموع لنا، ثم أعاد السّاعة وقال:  
- آسف، لقد حفظ الطلب!  
اغتالني الخبر فسقطت آمالي جيئة هامة، وقلت وأنا  
مطمور تحت الانقراض:

- هل عرض الطلب على سعادة المدير العام؟  
- طبعًا، هو الذي أمر بالحفظ.  
- مستحيل!  
فابتسم الرجل بلا تعليق فقلت:  
- كنت أتوقّع أن يدعوني لمقابلته!  
فحدجني الرجل بنظرة غريبة دون أن ينبس.  
وعدت مع رئيسي وأنا أقول:

- لا أصدّق.  
فقال الكهل بنبرة مواسية:  
- ولكنّه المصير المحتوم لجميع الشكاوى.  
- ولكنّه أوعز إليّ بكتابتها.  
- ما زلت أعتقد أنّك كنت ضحية رجل مهذار.  
- كلاً... كلاً.  
- إذن فلعلّه نسي، وشواغل المدير تُنسي.  
- والعمل؟  
- سلّم الله أمرك...

ولكنّ الإصرار كان قد ملك عليّ أمرى. ويكلّ همة  
رحت المحرّى مواعيد المدير وحركاته وسكناته. وقرّرت  
ألا أذعن للقوة الباغية ولا للأوامر المكتيبة العمياء.

\*\*\*

ومحرّكت سيّارة المدير لتتنظره أمام العمارة. وقف  
البوّاب والسعاة صقيّين بالإضافة إلى شرطيّ الحراسة.  
وكنت متوارياً وراء لافتة كبيرة في المدخل سجّل عليها  
دعوة لمزايدة. وترامت من ناحية الفناء ضجّة وتراءى  
موكب المدير قادمًا. وعندما حاذا في سيره بسملت ثمّ  
وثبت نحوه لأجثو بين يديه مستعطفًا.

وصاح رجل:  
- المجنون... حذار يا صاحب السعادة...  
ووقع اضطراب شامل وضوضاء عالية.  
لم أدرك بوضوح ما حدث. مادت بي الأرض.  
حوصرت تحت ضغط عشرات من الأيدي القويّة.

مكاتبته من الخزانة، وشهد على صدق قوله زملاء له  
وزميلان من الأرشيف. وضح صدقه حتّى لي أنا،  
وأدركت أنّي أسأت الفهم والتصرّف، ودافعت عن  
نفسي قائلاً:

- كثيرون يسخرون منّي وقد حسبته واحدًا منهم.  
وسألني المحقّق:  
- لم يسخرون منك؟  
فلذت بالصمت ولكنّ كثرة من الشهود فضحت  
حكاية القرض حتّى هتفت:  
- ذاك محض افتراء، واقعة لا أساس لها، ألصقت  
بي ظلماً...

وكادت المناقشة بيني وبين الشهود تتجاوز حدود  
الأدب إلى العنف. وغادرت إدارة التحقيقات مغلوبًا  
على أمرى ثمانًا. وبعد أيام استدعاني رئيسي الكهل  
وقال لي بحزن:  
- تقرّر خصم خمسة أيام من مرتّبك.  
فصرخت:

- ذلك ظلم بيّن، أنا لا أكاد أجد قوت الأولاد.  
- ليتك تمالكك أعصابك.  
- أخطأت، ولكن لي عذري، ترى هل تبلغ حكاية  
القرض مسامح سعادة المدير العام؟  
فقال الكهل بثقة:

- لا يجرؤ أحد في المصلحة على إبلاغها له.  
رغم أحزاني جميعًا فإنّ ثقتي بالله لم تتزعزع، وقلت  
لنفسي إنّه - جلّ جلاله - سيخرجني من أحزاني كما  
أخرج يوسف من سجنه. ويقدر ما حلّ بي من سوء  
تماديت في تحيّل السعادة الموعودة وأمنت بإقبالها  
القريب. وانتظرت طويلاً ثمّ ذهبت إلى كاتب الوارد  
بمكتب صاحب السعادة لأسأله عمّا تمّ في شكواي فقال  
لي بجفاء مجهول الأسباب:

- إنّي أخصّص يوم الخميس للاستفسارات.  
وكان اليوم الأحد ولكنّي كنت قد لُقنت الحكمة في  
إدارة التحقيقات فرجعت بلا تعقيب. وشكوت حالي  
إلى رئيسي فمضى بي إلى وكيل المخازن، وهو صديق  
رئيسي وقريب لكاتب الوارد، فقبل الرجل أن يتلفن  
إلى قريبه مستفسرًا عن شكواي، ولبث يصغي إلى

## الجرمة ٥٠٧

وضحك في سخرية ورتاء.  
 - ربنا يقويك!  
 - كنت فقيراً حقاً ولكن الدنيا كانت رحيمة  
 ويسيرة.  
 هكذا كانت، ترى هل ينظر بباله أنه يملك عمارة  
 وفيلاً وسيارة؟، هل يتصور أنه يخاطب لصاً أريباً في  
 ثوب موظف كبير؟  
 - الحياة أصبحت شاقة.  
 - جداً جداً جداً يا بيك.  
 - ولكنك مؤمن والإيمان كنز لا يقدر بمال.  
 - الحمد لله.

- قدماً كان العيش يتيسر لك ببضعة قروش حقاً  
 ولكن كان يتسلط على البلد إقطاعيون بيدرون الملايين  
 على ملاذهم...  
 - انتهى أمرهم يا بيك ولكن حالي ازداد سوءاً...  
 - بسبب عملك فقط أما ملايين الفلاحين والعمال  
 فقد تحسنت أحوالهم...

- إني لا ألقى إلا شاكياً مثلي...  
 - أنت محصور في بيئة معينة، هذه هي المسألة...  
 - ومتى نتحسن بدورنا؟  
 - كل آت قريب.  
 - ولكن مرّت عشرون سنة؟  
 - ما هي إلا لحظات في عمر الزمان.  
 - علينا أن ننتظر عشرين سنة أخرى؟  
 - لا أدري، قد يضحيّ بجيل في سبيل الأجيال  
 القادمة.

- ولكنني أرى يا بيك كثيرين من المحظوظين  
 السعداء؟  
 - مظاهر خادعة، لكل شكواه ومتاعبه.  
 - أراهم في السيارات الفاخرة كأيام زمان.  
 - هل تصوّرت أعباءهم القاتلة؟، هل تصوّرت ما  
 يؤدّون للدولة من خدمات؟، ثم آمنّ يعمل كمن  
 يرث؟

ابتسم مستسلماً وهو مُكبّب على عمله في تكاسل  
 ليُطيل فرصة الحوار، وجعل ينظر إليه بمودة صافية،  
 وفي نظره تتجلى أشواق للذكريات المشتركة الماضية.

ماذا أقول بعد ذلك؟. لقد جرى معي تحقيق خطيري  
 باعتباري مجرمًا سياسيًا، وكما تبين لهم خطأ الرأي  
 وجهوا لي تهمة الشروع في الاعتداء على المدير انتقامًا  
 لحفظ شكواي.  
 وقد تعلّمت في السجن حرفة النجارة، وفي ميدانها  
 أكدح اليوم لتربية الأولاد.

## أهلًا

دقة أيقظته من شروده، دقة ماسح الأحذية  
 التقليدية، رفع عينيه عن النارجيلة فرآه واقفاً أمامه  
 يرمقه بعين صياد. مضت لحظة وهما يترامقان ثم تهلّل  
 وجه الرجل. هو أيضًا ابتسم.  
 - حمدًا لله على السلامة يا بيك.  
 - أهلًا... كيف حالك؟

وأشار إليه ففرص عند قدميه فأعطاه حذاءه. لم  
 يره منذ عشرين عامًا، منذ انقطع عن المقهى القديم.  
 كان فتى يافعًا متين البنيان متدفق الحيوية، يطوف  
 بأرجاء الحيّ في رشاقة النحلة، يمسح الأحذية،  
 ويروي النوادر والمّلح... ها هو قد جفّ عوده  
 ونغضن وجهه وأدركته شيوخوخة مبحّرة.  
 - لم أرك منذ عمر طويل يا بيك؟

- الدنيا  
 - سافرت؟  
 - كلاً.  
 - وكيف هان عليك مكانك المفضل؟  
 - ها أنا أرجع إليه عند أول فرصة فراغ.  
 - هل مرّت الأعوام في عمل متواصل؟  
 - نعم.  
 - ربنا معك.

منذ عشرين عامًا كانا يكافحان عدوًا مشتركًا هو  
 الفقر على اختلاف موقعهما منه.  
 - لم تتغيّر يا بيك والحمد لله.  
 - أنت أيضًا لم تتغيّر!  
 - أنا؟!

- هل أضايقك يا بيك؟  
- أبداً... هات كل ما في قلبك.  
- الله يكرمك، كنا نضحك ملء قلوبنا من الماضي.  
- ويمكن نضحك الآن أيضاً.  
- ولكن...  
- ولكن داءنا أننا ننظر دائماً إلى الوراء، دائماً نتوهم أن وراءنا فردوساً مفقوداً...  
- ألم نكن نضحك من أعماق قلوبنا؟  
- تذكّر، لقد رقصت يوم قامت الثورة.  
- طبعاً، سكرت بالآمال، سكرنا جميعاً بالآمال...  
- ولقد تحققت الآمال، ولولا سوء الحظ، لولا الأعداء... ماذا كنت تتوقع؟  
- زوال الظلم والفقير، لقمة متوقرة، مستقبل للأولاد...  
- حصل ذلك كله.  
- دائماً نسمع ولكن الأولاد ضاعوا جميعاً...  
- واضح أنك تشكو كثرة العيال؟  
- إني أحمد الله...  
- المدارس مفتوحة لاستقبال الجميع.  
- دخلوها وخرجوا كما دخلوا، ولم ينجح أحد.  
- وما ذنب الثورة؟  
- لا ذنب لها، ولكننا نسكن جميعاً في حجرة واحدة! وفي المدرسة لا يفهمون شيئاً...  
- إنكم تنشدون معجزة لا ثورة.  
- إنه حال أبناء الفقراء جميعاً.  
- كلاً.  
- الاستثناء لا يعول عليه.  
- كان اليأس القديم أنسب لكم!  
- ما زال المال يملك الحظ كله.  
- المسألة أن الأمور معقدة، أمور الدنيا كلها معقدة.  
- خلنا في أنفسنا.  
- ولكننا جزء من الدنيا.  
- هل أنتظر حتى تُحلّ مشاكل الدنيا؟  
- ليس كذلك بالضبط ولكنه تساؤل لا يخلو من حقيقة.
- وضحك ليخفف من وقع قوله ثم استطرد:  
- ولا تنس أننا في حال حرب.  
- أرجع فردة الحذاء وتناول الأخرى ثم قال:  
- وسبق ذلك الهزيمة.  
- لا داعي لتذكيري بما لا يمكن أن يُنسى.  
- بعد أن نفختنا الآمال حتى طرنا في الجوّ.  
- قيل كل ما يمكن أن يقال...  
- متى نحارب يا بيك؟  
- هل تنتظر من وراء الحرب حلاً لمشاكلك؟  
- الحركة بركة.  
- ربّما اللقمة نفسها لن تجدها.  
- فهزّ منكبيه استهانة.  
- سنحارب عندما نضمن النصر.  
- لم ينبس ولكن وضع أنه لم يقتنع.  
- هل تعرف معنى الحرب؟... هل تتصوّر حالنا إذا خربت المصانع والسدود والمواصلات؟  
- نفعل بهم مثلما يفعلون بنا.  
- ستتوقف الحياة هنا.  
- ليكن، المهم أن نحرّر أرضنا.  
- هل تهتمّ الأرض حقاً أو أنك تريد الخراب؟  
- أريد أن أحيي في ظلّ العدل.  
- يبدو أنك تريد أن تهدمها على رموس من فيها.  
- لا والله يا بيك.  
- تحيّل إليه أنه يقصده بشيء ما.  
- المهمّ النصر لا الانتقام.  
- أنا لا أفهم.  
- الأمور واضحة.  
- يا بيك أنا أريد النصر والحياة المعقولة، خبّري كيف ومتى يتمّ ذلك؟  
- لا أدري متى ولكنّه يتمّ بالصبر والعمل والإخلاص...  
كأنه أصمّ، يرفض التصديق والافتناع، وقد أنجز عمله، أعطاه خمسة قروش بدلاً من قرشين، تهلّل وجهه ودعا له بالستر، واعترف فيها بينه وبين نفسه بأنه في حاجة ماسة لذلك الدعاء، وبأنه يشاركه حيرته فضلاً عن المخاوف التي يفرد بها وحده، ورآه يهيم

## الجرمة ٥٠٩

- ألا تريد أن تصدق؟
- فرجع درجة صوته ليقتنع بإيمانه قائلاً:
- ما دمت تصدق فأنا أصدق.
- ضحك ضحكة فاترة مقتضبة، وسأله الرجل:
- هل ترجع إلى المقهى كالأيام الخالية؟
- إن شاء الله كلمنا سنحت فرصة . . .
- عندما رأيتك فرحت ورجعت فجأة إلى الشباب.
- ثم حياه وانصرف.
- وصفق يطلب وقوداً للنارجيلة الخابية.

بالدهاب فسأله :

- ما رأيك فيما قلت؟
- ابتسم مدارياً شكوكه وتمتم:
- كلام جميل.
- وحققي أليس كذلك؟
- مثل كلام الراديو.
- شعر بأنه يذكره بكلام الراديو طيلة عشرين عامًا،
- شعر بأنه يوتخه فأوشك على الانفعال.
- ولكن بروح جديدة تمامًا.
- نرجو ذلك.

الانوار

# الكرنك

## «قرنفلة»

وثمة قوّة مهذّبة مكتسّبة من التجربة والعمل. أمّا خفّة الروح فآسرة نفاذة. تحرّك نظرتها الشاملة الساقية والجرسون وعامل النظافة وترعى الرّواد المعدودين - كأنّهم لصيّر المكان أسرة واحدة - بموّدّة وألفة. يوجد ثلاثة شيوخ لعلّهم من أصحاب المعاشات، وكهمل، ومجموعة من الشبّان بينهم فتاة حسناء، لذلك شعرت بالغرابة وبأنّي دخيل، رغم نشوئي. وقلت اللّهم أنّي أحبّ هذا المكان، القهوة فاخرة والماء نقّي عذب والفنجان والكوب آيتان في النظافة. عذوبة قرنفلة، وقار الشيوخ، حيويّة الشباب، جمال الفتاة. وموقع المقهى في وسط المدينة الكبيرة يصلح استراحة لجوّال مثلي، وثمة عناق حارّ بين الماضي والحاضر، الماضي العذب والحاضر المجيد، ثمّ سحر المصادفة المجهولة. فما إن تعطلت ساعتي حتّى وقعت في غرام متعلّد الأبعاد، وإذن فليكن الكرنك مستقرّي كلّها سمح الزمان.

وحدث ما اعتبرته مفاجأة ساّرة. بدا أنّ قرنفلة أرادت مجاملتي بصفتي زبوناً جديداً فقامت من مجلسها وجاءتني تخطّر في بنطلون كحليّ وبلوزة بيضاء، وقفت أمامي وقالت:

- شرّفت.

تصافحنا وأنا أشكر لها مجاملتها فسألني:

- هل أعجبتك القهوة؟

فقلت بصدق:

- جدّاً، بنّ ممتاز حقّاً...

فابتسمت بسرور، وربت إليّ مليّاً ثمّ قالت:

- يتّجّل إليّ أنّك تذكّرني؟

- فعلاً، من ينسى قرنفلة؟

- ولكن هل تذكّرت دوري الحقيقيّ في الفنّ؟

اهتديت إلى مقهى الكرنك مصادفة. ذهبت يوماً إلى شارع المهديّ لإصلاح ساعتي. تطلّب الإصلاح بضعة ساعات كان عليّ أن أنتظرها. قرّرت مهادنة الوقت في مشاهدة الساعات والحليّ والتحف التي تعرضها الدكاكين على الصّفين. عثرت على المقهى في تنقّلي فقصدته. ومنذ تلك الساعة صار مجلسي المفضّل. رغم صغره وانزوائه في شارع جانبيّ صار مجلسي المفضّل. الختّى أنّي تردّدت قليلاً بادئ الأمر أمام مدخله، حتّى لمحت فوق كرسيّ الإدارة امرأة. امرأة دانية الشيوخوخة ولكنّها محافظة على أثر جمال مندثر. حرّكت قسبتها الدقيقة الواضحة جدور ذاكرتي فتفجّرت ينابيع الذكريات. سمعت عزفاً وطبلاً، شممت بخوراً، رأيت جسداً يتموّج: راقصة، نجمة عماد الدين، الراقصة قرنفلة، حلم الأربعينات الوردية، قرنفلة. هكذا مرقت إلى الكرنك بقوّة سحر مبهمة وفؤاد طروب، من أجل شخص لم أمرّ بباله يوماً. لم تقم بيننا علاقة من أيّ نوع كان، لعاطفة أو مصلحة أو حتّى مجاملة، كانت نجمة وكنت أحد المعاصرين. لم تترك نظراتي المعجبة على جسدها العبقريّ أثراً، أيّ أثر، ولا كان لي حقّ التحيّة العابرة. من مجلسي أجلت البصر فأحاط بالمكان. كأنّه حجرة كبيرة ليس إلّا ولكنّه أنيق رشيق، موزق الجدران، جديد الكراسيّ والموائد، متعلّد المرايا، ملوّن المصابيح، نظيف الأواني، يا له من مجلس ذي جاذبيّة لا تقاوم. ونظرت إلى قرنفلة طويلاً، كلّما وجدت فرصة. انظفأ سحر الأنوثة وجفّت رونق الشباب ولكن حلّت محلّها روعة غامضة وأسى مؤثّر، ما زالت نحيلة رشيقة يوحي عودها بالنشاط والحيويّة.

- أجل، كنت أول من جدّد في الرقص الشرقيّ.
- هل سمعت أو قرأت أحدًا ينوّه بذلك؟
- فقلت بارتياح:
- تُصاب الأمم أحيانًا بفقدان الذاكرة ولكنّ ذلك لا يدوم إلى الأبد.
- كلام جميل ولا شيء وراء ذلك...
- ولكنني قرّرت حقيقة لا شكّ فيها...
- ثمّ تهزّبت من الحرج قائلاً:
- أتمنى لك حياة سعيدة وهو الأهمّ...
- فقال ضاحكاً:
- حتى الآن فالنهاية تبدو سعيدة...
- ثمّ وهي تودّعني راجعة إلى كرسيّ الإدارة:
- والعلم عند علام الغيوب!
- هكذا وفي يسرّ تمّ التعارف بيننا، وتمخّضت عنه صداقة جديدة سعدت وما زلت أسعد بها. هي جديدة بمعنى من المعاني ولكنّ جذورها الخفية توغل في الماضي على مدى ثلاثين عاماً أو أكثر. وتتابع اللقاءات وتراكمت الأحاديث وتوثقت المودة. وتذكّرت يوماً كم كانت محترمة بقدر ما كانت فاتنة بارعة فقلت لها:
- كنت فتانة بارعة ومحترمة معاً، ألم يكن يُعدّ ذلك معجزة؟
- فأجابت بزهو:
- كان الرقص الشرقيّ هزاً للبطن والصدر والعجز فجعلته تصويرياً...
- وكيف تيسّر لك ذلك؟
- لم تكن تفوتني حفلات الرقص الإفرنجيّ في البرجولا.
- ثمّ هزّت رأسها في دلال وقالت:
- أما الاحترام فقد قام سلوكي العامّ على ألا أقبل علاقة إلاّ عن حبّ ولا أمارسها إلاّ عن زواج.
- فتساءلت بتهيّب:
- دائماً وأبداً؟
- فضحكت هاتفة:
- ألا يكفي أن يكون الطابع العامّ هو الاحترام؟
- فأحيت رأسي بالإيجاب، وغمغمت هي بما لم
- أنتبهه، ثمّ قالت:
- الحبّ الصادق يضيف على العلاقة شرعية غير منكورة.
- لذلك لم تتعرّض لك مجلّة بسوء.
- حتى المطرقة!
- فقلت باسماً:
- ولكنّ كثيرين انحرفوا بسببها!
- فتنهّدت قائلة:
- حياة الليل مترعة بالمآسي.
- ما زلت أذكر موظّف المالية.
- فقاطعتني هامسة:
- اسكت، أتقصد عارف سليمان؟. إنّه على بعد أمتار منك، هو الساقى الواقف وراء البار.
- استرقت إليه النظر في وقفته التقليدية. مترهل، أبيض الرأس، تعكس عيناه نظرة ثقيلة ودیعة. ولا شكّ أنّها قرأت الدهشة في عينيّ فقلت:
- لم يكن ضحية لي كما قد تظنّ، كان ضحية ضعفه...
- وقصّصت عليّ قصة عادية. فقد جنّ بها ولكنها لم تشجعه قطّ. ولم تكن موارده تسمح له بالتردّد الدائم على الملهى فامتدّت يده إلى اختلاس أموال الدولة.
- وظهر بين الرّواد كالوارثين ولكنها لم تنل منه ملياً واحداً ولم تنشأ بينها إلاّ العلاقة الرسمية التي تنشأ بحكم تقاليد الملاهي الليلية، ولم يتقدّم خطوة حتى ضُبط متلبساً فُقدّم للمحاكمة ودخل السجن.
- إنّها مأساة ولكن لا ذنب لي فيها، ولما غادر السجن بعد سنوات جاءني في الملهى نفسه وقال لي لقد ضعت إلى الأبد، رثيت له وتوجّست منه خيفة فتشفّعت له عند صاحب الملهى فألحقه بوظيفة جرسون، وكما اعتزلت العمل وفتحت هذا الملهى اخترته لعمل الساقى وهو يقوم به على ما يرام.
- فمسحت على شاربي متسائلاً:
- ألم يحنّ إلى غرامه القديم؟
- بلى، وهو جرسون في الملهى، وضايقتني حتى تعرّض لعلقة الیمة وكنت يومذاك زوجة للفيل بطل رفع الأثقال، ثمّ تزوّج بعد عام من راقصة في



## الكرنك ٥١٥

إخوانية حذرة هامسة ولكنها لا تلبث أن تضيع في الهدير الشامل. ولفت نظري بصفة خاصة إمام الفؤال الجرسون وجمعة مساح الأحذية، يتغنيان بعنتر وفتوحاته، يعاتبان مرارة العيش ولكنها يتغنيان بعنتر وفتوحاته، كأن الفقر قد هان عليهما من أجل النصر والكرامة والأمل. على أن تلك النشوة لم يزهد فيها أحد حتى الحاسدون والحاقدون. لم يخل أحد من رواسب الذل والهزيمة والخذلان فلهبهم الظمأ نحو الكأس المترعة بتحديات العدو القديم، نهلوا منها حتى الشمالة وراحوا يرقصون من وجد الطرب، وأي جدوى تُرجى من النقد عند السكارى؟. أتقول الرشوة... الاختلاس... الفساد... القمع والإرهاب... طظ، أو فليكن، أو إته شر لا بد منه، أو ما أتفه ذلك، خذ رشفة من الكأس السحرية وارقص معنا.

\*\*\*

عندما ترجع قرنفة من عند الحلاق تسترد إلى حين قدراً من الجمال وتشتعل الحيوية في عينيها العسلية. وأغراني ذلك مرة لأن أسأله:  
- لا زوج الآن ولا ذرية؟  
ولكنها لم تجب وندمت على ما فرط مني. ولما لامست ضيقي قسالت لتخفف عني وهي تشير إلى الزبائن:

- أحب هؤلاء ويحبوني.

وتمتت لغير ما سبب واضح:

- الحب... الحب.

فقلت بأسى:

- طالما تممتنا بحب من نحب ولكن لا يخلد من الحب إلا الحبية...  
- الحبية؟  
- هي الحب الذي ينجو من مخالب الواقع ويبقى أملاً خلاباً.

فبحذر سألت:

- هل خاب لك حب؟

- ليس ذلك تماماً ولكن الحب يتدلل أحياناً.

- أحدث ذلك أيام المجد؟

- قد يحدث في أي يوم.

الكومبارس، ما زالت زوجته، وأما لسبع بنات من صلبه، وأعتقد أنه اليوم موق و سعيد... .

ثم وهي تفرق في الضحك:

- يجلو لنا أحياناً اليوم أن نبادل الحب شفويًا.

- هكذا الماضي يُنسى؟

- ولكن كان له زميل وثب على غير توقع إلى وظيفة وكيل المالئة، كان ينقم على الحياة من أجله حتى أحالته الثورة إلى المعاش فهدأ ثأره وعشق الثورة.

انضمت إلى أسرة الكرنك بصفة نهائية ونفذت

الأسرة في صميم حياتي. منحتني قرنفة صداقتها

ومنحتها، لعبت النرد مع الشيوخ محمد بهجت ورشاد

مجدي وطه الغريب، عرفت الشباب وعرفوني خاصة

زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمي حمادة، كما

عرفت زين العابدين عبد الله مدير العلاقات العامة

بإحدى المؤسسات، حتى إمام الفؤال الجرسون وجمعة

مساح الأحذية وعامل النظافة صارا لي صديقين.

وعرفت سر الكرنك الاقتصادي فهو لا يعتمد أساساً

على زبائنه المحدودين ولكن على أصحاب الحوانيت

بشارع المهدي وزبائنهم، وهو السر وراء جودة

مشروباته وامتيازها. ومن أسراره أيضاً أنه كان - وما

زال - مجمع أصوات عظيمة الدلالة، تفصح نبراتها

العالية والخافتة عن حقائق التاريخ الحي. لا يمكن أن

تُنسى أحاديث القوم على عهد انضمامي إليهم. لا

يمكن أن يُنسى امتنان قرنفة وهي تقول عند أي

مناسبة:

- لنحمد الله الذي أنعم علينا بالثورة.

وكان عارف سليمان الساقى وزين العابدين مدير

العلاقات العامة يقْدسان الثورة أيضاً، كل بطريقته

ونواياه، ولم يكن الشيوخ أقل حماساً وإن ردّوا أحياناً

وبحذر شديد:

- لم يكن الماضي شراً خالصاً.

ومن ركن الشباب انبعث الحماس قوَّاراً كالهدير.

عند أكثرتهم يبدأ التاريخ بالثورة مخلقاً وراءه جاهلية

مرذولة غامضة. إنهم أبناؤها الحقيقيون ولولاها لتشرّد

أكثرهم في الأزقة والحواري والضياع. قد تند عنهم

أيضاً أصوات معارضة توحى بيسارية متطرّفة أو

وكما لَبِي دعوتها لزيارة شقَّتْها في الدور الرابع من العمارة التي تقع الكرنك في أسفلها استقبلته استقبالاً فاخراً، زُيِّنَتْ حجرة الجلوس بالورود ومدَّت مائدة حافلة وتصاعدت أنغام راقصة من جهاز تسجيل. وقد قالت لي بثقة:

- وهو يجيبي أيضاً، ثق من ذلك.
- ثم قالت بجديّة:
- ولكنّه لا يدرك مدى حبيّ العظيم...
- ثمّ بامتعاض:
- ولا يبعد أن يمضي يوماً بلا رجعة...
- وهزّت منكبيها وتمتعت:
- حكاية قديمة لا جديد فيها.
- تعرفين كلّ شيء ثمّ تصرّين على المضيّ في طريقك.
- قول سخيف يصلح شعاراً للحياة.
- فقلت بأسياً:
- أشكرك نيابة عن الأحياء...
- ولكنّه جادّ وكريم، وهو أوّل من تحمّس لمشروعي.
- أيّ مشروع من فضلك؟
- كتابة مذكراتي، إني متحمّسة لدرجة الهوس، ولم يعنني إلّا عجزني عن الكتابة.
- وبحماس أيضاً:
- أيهتّم حقّاً بالفنّ وتاريخه؟
- هذا جانب من الجوانب، أمّا الجوانب الأخرى فتدور حول رجال مصر ونسائها في حياتهم الخفيّة.
- أناس العهد الماضي؟
- والحاضر.
- فضائح وما أشبه ذلك؟
- لا تخلو أحياناً من فضائح ولكنّ أهدافها أخطر من ذلك.
- فقلت محدّراً:
- إنّه مشروع له خطورته.
- فقلت باهتمام وفخار:
- وستقوم له القيامة عند نشرها.
- فقلت ضاحكاً:

تسوّقت إلى سماع المزيد ولكنّها تجاهلت رغبتني ولحظت بطرف عينيها زين العابدين عبد الله وقالت:

- انظر إليه، إنّه يجيبي، ماذا يريد؟. يقترح مشاركتي في المقهى وتحويله إلى مطعم ولكنّه يطمع أولاً في فراشي.

- إنّه مكتنز بالدهن.
- أحلام لن تتحقّق.
- لعلّه غنيّ؟
- البركة في أموال الدولة.
- فأنجّه رأسي بحركة تلقائيّة نحو عارف سليمان الساطي ولكنّها قالت:
- ذاك اختلس من أجل الحبّ، أمّا زين العابدين فينب من أجل الطمع والطموح، إنهم أنواع يا عزيزي، منهم من يأخذ لضرورة العيش لتقصير الحكومة في حقّهم، ومنهم الطامحون، ومنهم من يأخذ اقتداءً بالآخرين، وبين هؤلاء وأولئك يميّن الشبان المساكين.
- فقلت بإصرار:
- نعود إلى موضوعنا الأصليّ.
- فقلت بتحدّ:
- أنت تعلم أنّي أحبّ.
- وكنت قد لاحظت أموراً فضبطني متلبّساً بمراقبتها
- فقلت:
- لا تسألني عنه فلست غيباً.
- فقلت بأسياً:
- حلمي حمادة؟
- فمضت دون استئذان إلى كرسيّ الإدارة ومن هناك رميتي بابتسامة عذبة. تحيّل إليّ في وقت من الأوقات أنّه إساعيل الشيخ وسرعان ما اكتشفت علاقته الحميمة بزينب دياب. ثمّ وضع الأمر. وحلمي حمادة فتى رشيق ووسيم أيضاً وذو مناقشات عصبيّة. وقد اعترفت لي قرنفلة بأنّها هي التي بادأته بالغلزل، وأمام رفاقه أيضاً. وتابعت مرّة رأياً سياسياً يدلي به ثمّ هتفت له وهي جالسة على مقربة منه:
- ليحى كلّ من تريد له الحياة وليمت من تريد له الموت.

## الكرنك ٥١٧

- سنراهم فجأة مقبلين . . .
- فقلت لي همساً:
- الحزن يقتلني قتلاً.
- فسألته برقة:
- ألا تعرفين أين مسكنه؟
- كلاً، في مكان ما بالحسينية، وهو طالب بكلية الطب ولكن الجامعة مغلقة لعطلة الصيف، لا أدري شيئاً كما ترى.
- وكرت الأيام والأسابيع حتى أوشكت قرنفلة على الجنون، وحزنت لها حزناً بالغاً حتى قلت لها:
- أنت تهلكين نفسك بلا رحمة.
- لست في حاجة إلى الرحمة ولكني بحاجة إليه.
- وتجئب زين العابدين العاصفة بالصمت والانزواء وكان يداري ارتياحه العميق بالتجهم والاستغراق في النارجيلة. ويوماً قال طه الغريب:
- سمعت عن أنباء اعتقالات واسعة.
- فوجئنا جميعاً. وقلت:
- ولكن أغلبيتهم تنتمي للثورة . . .
- فقال رشاد مجدي:
- ولكن وجد أقلية مخالفة لا يستهان بها.
- فقال محمد بهجت:
- وضح الحق، قد أرادوا اعتقال المتهمين فساقوا أصدقاءهم معهم حتى يتم التحقيق.
- وكانت قرنفلة تتابع الحديث بدهول كالبلاهة وترفض أن تفهم شيئاً أو تقتنع بشيء.
- وجرى الحديث بيننا تعليقاً على الحدث:
- الاعتقال فعل مخيف حقاً.
- وما يقال عما يقع للمعتقلين أفظع.
- شائعات يقشع منها البدن.
- لا تحقيق ولا دفاع.
- لا يوجد قانون أصلاً.
- يقولون إننا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات.
- وأنه لا بد من التضحية بالحرية والقانون ولو إلى حين.
- ولكن مضى على الثورة ثلاثة عشر عاماً أو يزيد

- هذا إذا قُدِّر له النشرا.
- فتجهّم وجهها وقالت:
- يمكن نشر الجزء الأوّل دون متاعب.
- عظيم، ودعي الجزء الثاني للزمن.
- فتمتعت برجاء:
- لقد عاشت أمي تسعين عاماً.
- فقلت برجاء أيضاً:
- ربّنا يطوّل عمرك يا قرنفلة.
- \*\*\*
- وجئت يوماً في ميعادي فوجدت مقاعد الشباب خالية. تبدى المهوى في منظر غريب ونخيم عليه هدوء ثقيل. وانشغل الشيوخ بالعابهم وأحاديثهم أما قرنفلة فجعلت تنظر نحو مدخل المهوى بتسرّب وقلق.
- وجاءت وجلست إلى جانبي وهي تقول:
- لم يجيئ أحد منهم، ماذا جرى؟
- لعلّ موعداً شغلهم؟
- كلهم! ألم يكن بوسعه أن يخبرني ولو بالتليفون؟ . . .
- أظنّ أنه لا داعي للقلق.
- فقلت بحدّة:
- ولكن توجد دواعٍ للغضب.
- ومضت الليلة دون ظهور أحد منهم، وحتى مساء اليوم التالي لم يظهر لأحد منهم أثر. وتغيّر طبع قرنفلة ومضت تنتقل بين الداخل والخارج في عصبية.
- وسألني:
- ما تفسير ذلك في نظرك؟
- فحرّكت رأسي في حيرة، وقال زين العابدين عبد الله:
- إنهم شبّان لا يثبتون على حال ولعلّهم انتقلوا إلى مكان أنسب لهم . . .
- فقلت له بغضب:
- يا لك من غبيّ، ولمّ تمّ تنتقل أنت إلى مكان أنسب لك؟
- فضحك ببلاهة منيعة وقال:
- إنّي في أنسب مكان لي . . .
- وقلت على سبيل المواساة:

فأن لها أن تستقرّ على نظام ثابت.

أما قرنفة فقد أهملت عملها. كانت تغيب بعض النهار كلّ وأحيانًا اليوم بأكمله، تاركة المقهى لعارف سليمان وإمام الفوّال. وقالت لي:

- لم أدعُ أحدًا من كبراء الماضي أو الحاضر إلا زرتّه وسألته، ولا جواب عند أحد ولكنك تسمع كلامًا غير متوقّع مثل: «من أدرانا؟» أو «حذار من السؤال وإلا ساءت العواقب» أو «لا ترخبي بالشباب في مقهاك»، ماذا حصل للدنيا؟

وإذا بفكري يتقمّص انطلاقة جديدة دافِعها الأول الحزن العميق. قلت لنفسي حقًا إنّ حياتنا تزخر بالآلام والسليبيات ولكنّها في جملتها ليست إلا النفايات الضرورية التي يلفظها البناء الضخم في شموخه وإنّها يجب ألاّ تعمينا عن العظمة في تولدها وامتدادها. هل عرفنا ما كان يعانيه ساكن الحارة في القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقّق انتصاره الحاسم على الصليبيين؟ هل نحيلنا آلام أهل القرى عندما كان محمّد عليّ يكون إمبراطورية مصرية؟ هل تصوّرنا عصر النبوة في حياته اليومية والدعوة الجديدة تفرّق بين الأب وابنه والأخ وأخيه والزوج وزوجته، تمزّق العلاقات الحميمة وتحلّ العذاب مكان التقاليد الراسخة؟ وبالمثل ألا يستحقّ إنشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التي تملك أكبر قوّة في الشرق الأوسط، ألا تستحقّ أن نتحمّل في سبيلها تلك الآلام؟ وكنت أشعر طيلة الوقت بأنّه يمكن أن أقع نفسي بضرورة الموت وفائدته بمثل هذا المطلق.

\*\*\*

وما ندري ذات أصيل إلا والوجوه الغائبة المفتّدة تهلّ علينا بفرحة مباغتة. زينب دياب وإسماعيل الشيخ وحلمي حمادة وبضعة نفر آخرين، أما البقية فلم نرّها أثرًا بعد ذلك. هللنا مرّحين، حتّى زين العابدين عبد الله اشترك معنا، أما قرنفة فتراخت في جلستها كأنّها غفت أو أعغمي عليها، لم تنطق بحرف ولم تتحرّك، حتّى مثل أمامها حلمي حمادة فقالت له بصوت مهتج:

- سأنتقم منك!

ثمّ أجهشت في البكاء. وسأل سائل:

- أين كنتم يا جماعة؟

فأكثر من صوت أجاب:

- في نزهة..

وضجّوا بالضحك. وعاد المرح ولكنّ الوجوه تغيّرت، فالرءوس الخليفة أضفت على السحن غرابة فضلًا عن ذبول واضح في النظرة والحيوية. وتساءل صوت - لعلّه زين العابدين - قائلًا:

- ولكن كيف حدث ما حدث؟

فصاح إسماعيل الشيخ:

- دعونا من هذه السيرة...

وهتفت زينب في غبطة:

- سلمى يا سلامة، رحنا وجينا بالسلامة.

وسمعت اسمًا يتردّد، لا أدري كيف تردّد ولا من كان أوّل ناطق به، خالد صفوان... خالد صفوان... ولكن من هو خالد صفوان؟... محقّق ١٩... مدير سجن ١٩... أكثر من صوت يردّد: خالد صفوان... وكنت أختلس من الوجوه النظرات وأكاد ألمس المعاناة والدهول وراء الأفتعة. ويمكن أن أقول إنّ الحياة في الكرنك استعادت روتينها اليوميّ ولكنّها في الواقع فقدت قدرًا لا يستهان به من صميم روحها. أسدل ستار كثيف على فترة الغياب المجهولة فمضت كسرّ مثير محوم حوله الأسئلة وترتدّ خاتبة. ورغم المرح والأحاديث انتشر الحذر في الجوّ مثل رائحة غريبة مجهولة المصدر. وتحمّلت كلّ نكتة بأكثر من معنى وكلّ إشارة بأكثر من مغزى وكلّ نظرة التبست فيها البراءة بالتوجّس. وقالت لي قرنفة:

- الأولاد عانوا كثيرًا.

فسألته بلهفة:

- هل قال لك شيئًا؟

- إنّه لا يتكلّم وفي ذلك ما يكفي.

أجل، في ذلك ما يكفي. نحن في زمن القوي المجهولة وجواسيس الهواء وأشباح النهار. وجعلت أحميل وأتدكّر. تدكّرت ملاعب الرومان ومحاكم التفتيش وجنون الأباطرة. تدكّرت سيرّ المجرمين وملاحم العذاب وبراكين القلوب السود ومعارك

## الكرنك ٥١٩

متى يدوم ذلك؟. وكانت إلى ذلك تساورني بعض الشكوك من ناحية أطعمته ولكنها قالت لي بثقة لا حد لها:

- إنه نظيف بقدر ما هو ذكي، ليس من النوع الذي يبيع نفسه...

أفلحت لو صدقت. ولا أملك ما يدعوني للشك في صدقها، ثم إن منظر الشاب وحديثه يدعوان للثقة وإن شابته الغموض أحياناً والعنف في كثير من الأحيان، ولكن ما جدوى كل ذلك حيال الحقيقة المجسدة وهي أن قرنفة قد تجاوزت خريف العمر وأنه لم يبق لها من تراث الإغراء إلا المال والإخلاص؟.

وقد قال لي زين العابدين مرة:

- لا يغرّتك منظره...

فعلمت أنه يتحدث عن حلمي حمادة وسألته:

- ماذا تعرف عنه؟

- إنه برجي عصري أو قناع خداع.

وصمت لحظة ثم واصل:

- وفي اعتقادي أنه يحب زينب دياب وسوف

يحفظها يوماً من إسماعيل الشيخ...

وأثارت كلمته قلقي لا لأنني اعتبرتها افتراء ولكن لأنها أيدت مشاهداتي عن المجاملات المتبادلة بين حلمي وزينب، وطالما ساءلت نفسي أهي مودة حميمة أم أكثر من ذلك؟.

ولما كانت صدائقي لقرنفة قد أصبحت راسخة فقد

واتتني الشجاعة لأقول لها:

- إنك خبيرة بالحياة والحب.

فقالت بزهو:

- لا يجوز لأحد أن يشك في ذلك.

فتمتت:

- ومع ذلك...؟

- ومع ذلك؟!

- هل تؤمنين بنهاية سعيدة لحبك؟

فقالت بإيمان:

- عندما تحب حقاً فإنما تستغني بالحب عن الحكمة

والبصيرة والكرامة.

واقترعت بأنه من العبث أن تناقش عاشقاً في

الغيبات. وقلت لنفسني مستعيذاً من ذكرياتي إن الدناصير استأثرت بالأرض ملايين السنين ثم هلكت في ساعة من الزمان في صراع الوجود والعدم فلم يبق منها اليوم إلا هيكل أو هيكلان. وعندما يلفنا الظلام أو تُسكيرنا القوة أو تطربنا نشوة تقليد الآلهة فإنه يستيقظ في أعماقنا تراث وحشي ويبعث فينا العصور البائدة. وظلت معلوماتي ترتكز على الخيال حتى أتيت لي بعد ذلك بسنوات أن تُفتح لي القلوب المغلقة في ظروف جد مختلفة وتمدني بالحقائق المرعبة وتفسر لي ما غمض عليّ فهمه من الأحداث في إبان وقوعها.

ولم يكف زين العابدين عبد الله يوماً عن التحلي بالصبر وترقب الفرصة المواتية، ولا شك أن رجوع حلمي حمادة قد أفسد خطته وحرك مخاوف اليأس في أعماقه فدفعه ذلك إلى تجاوز حرصه المعهود فقال مرة باستهتار على مسمع من قرنفة:

- إن وجودهم بالمقهى خليق بالإساءة إلى سمعته.

فسألته قرنفة:

- متى تنوي الرحيل؟

فتجاهل قسوتها بهرود وقال بنبرة الوعظ:

- لي مشروع جمّ الفوائد يستحق العناية والجدية...

وسألني مستوهباً تاييدي:

- ما رأيك في المشروع؟

فسألت بدوري قرنفة:

- ألا ترغبين في الإسهام بقوة أكبر في الرأسمالية الوطنية؟

فقالت بسخرية:

- ولكنه يطمع في المال وصاحبة المال.

فبادرها قائلاً:

- اقتراحي يتعلّق بالعمل وحده أما القلوب فشؤونها

بيد الله ذي الجلال!

فلم تعن بمناقشته أكثر، وبدا أن العشق يستأثر بلبّها كلّها. وطالما شعرت بأنها تمثل دور العاشقة العمياء فامتلا قلبي نحوها بالعطف والإشفاق. ولم

أشك في أن الفتى يحبّها حبّ مراهقة، هي تتقن كيف تفتنه وتسره وهو ينهل من منابع حنانها، ولكن حتى

عشقه . . .

- ربّما .

- بل هو مؤكّد، جميع الناس يتكلّمون ولكن من الذي يُبلغ الكلام؟  
فقلت بعد تردّد:  
- أنت أدري بالمكان . . .

\*\*\*

وللمرّة الثانية اختفى الشّبّان .  
وقع المقدّر فجأة وبلا سابق إنذار كما حدث في المرّة الأولى .

- لا شكّ لديّ في رجالي، عارف سليمان مدين لي بحياته، إمام الفوّال فهو من رجال الله، وكذلك جمعة . . .  
فقلت:

ولم يقع أحد متّاً في حيرة التساؤل وعذاب الشكّ ولكن اجتاحتنا الانزعاج والذهول .  
'وترنّحت قرنفلة تحت عنف الضربة وتأوّمت قائلة:  
- ما كنت أتصوّر أنّي سأتعرّض لمرارة التجربة مرّة أخرى .

- وشيوخ المعاش في عزلة على شاطئ الحياة . . .  
وتبادلنا نظرة طويلة ولكنّها قالت:  
- زين العابدين وغد ولكن لا صلة له بالسلطة فضلاً عن أنّه يخشاها لانحرافه .  
فقلت:

ومن شدّة الأسى صعّدت إلى شقّتها .  
وهيّا لنا غيابها حرّية للمناقشة فقال طه الغريب:  
- حقّ أنا ورغم البراءة والسّن بتّ أخشى على نفسي .

- يعبر بالمقهى كثيرون ونحن لا نلقي إليهم بالأ .  
فتنهدت وقالت بامتعاض شديد:  
- لم يعد في الدنيا أمان . . .

فقال رشاد مجدي متهكّماً بالرغم من شحوب وجهه:  
- ممكن أن يشكّ في أمرك رجال الثورة العرّابيّة لا هذه الثورة!

ورجع الصمت المشحون بالأسى وقعدت قرنفلة على كرسيّ الإدارة كتمثال فاقد الحياة . أجل كانت أمثال تلك الحوادث تقع كلّ يوم ولكنّ تأثيرها يختلف إذا وقعت فيمن يعدّهم الإنسان أسرته . وشككتنا في كلّ شيء حتى الجدران والموائد . وعجبت لحال وطني .  
إنّه رغم انحرافه يتضخّم ويتعظّم ويتعمّق، يملك القسوة والنفوذ، يصنع الأشياء من الإبرة حتى الصاروخ، يبشّر بأنجاه إنسانيّ عظيم، ولكن ما بال الإنسان فيه قد تضاعف وتهاوت حتى صار في تفاهة بعوضة، ما باله يمضي بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية، ما باله ينهكه الجبن والفساق والخواء . وفقدّ زين العابدين أعصابه فجأة وبلا سبب محدّد وراح يقول:  
- أنا حزين، أنا سيّئ الحظّ، أنا تعيس، اللعنة على يوم وُلدت ويوم عرفت هذا المقهى . . .  
تجاهلته قرنفلة فمضى يقول متحدّياً:

وتساءل محمّد بهجت:  
- ترى ما وراء ذلك؟  
فقال زين العابدين عبد الله:  
- إنهم شبّان ذوو خطورة فما وجه العجب فيما يقع لهم؟

- ما ذنبي؟، إنّي أحبّك فما ذنبي؟، لماذا تسيئين إليّ كلّ يوم؟، الا تعلمين أنّه يقتلني قتلاً أن أراك وأنت تموتين حزناً؟، لماذا؟، لا تحتفري حبي، الحبّ لا يُحتقر، إنّه أسمى من ذلك وأعظم، أسفي عليك،

- ولكنهم من أبناء هذه الثورة!  
فضحك زين العابدين وقال:  
- الانتهاء إلى الثورة حجة شائعة بين أعدائها، كنت في شبّابي إذا ضبطني أحد في الطريق إلى درب طياب تعلّلت بأنني ذاهب للصلاة في الجامع الأحمر!  
فقال طه الغريب:  
- إنهم يبدعون في نشر الرعب سامحهم الله .  
وبعد مرور أيام جالستني قرنفلة، طالعتني بوجه كئيب ثمّ سألتني باهتمام:

- خبّرني عن معنى ذلك؟

قرأت خواطرها الخفيّة ولكنني تجاهلتها، فقالت:

- توجد حولنا أسراراً

فتمتمت:

## الكرنك ٥٢١

- ويقولون إنَّ الجماع مفيد أيضًا للقلب.
- السياسة وأنباء الاعتقالات ومعاصرة العطاء.
- الزبادي مدهش والفاكهة أما العسل المزوج بإفراز الملكة فحدّث عنه ولا حرج.
- والضحك، لا تنسوا الضحك.
- وكأس واحدة بالثلج قبيل النوم.
- والمهرمونات لا يجوز الاستهانة بها.
- ومنوم احتياطيّ للأخبار المزعجة...
- ويعد كلّ شيء وقبل كلّ شيء قراءة القرآن.
- أجل. المقهى بلا شباب لا يُجتمَل، وحتى قرنفة لا تدري بأحزاني، ولا تدري أنّ الصداقة قويّة وظمأى مثل الحبّ نفسه، وها أنا أتجرّع الملل وأعاني الوحشة وأرمق الكراسيّ الجامدة الصامتة بقلب مشوّق حزين يتلَهّف على مناجاة أصحابها لتتقدح فيه نشوة الحماس والإبداع والالام المقدّسة.

\*\*\*

ولدى إقبالي على المقهى ذات مساء لمحت وجه قرنفة مشرقًا على غير عادته. دهشت حقًا واجتاحني فيض من الأمل فاندفعت نحو الداخل، وسرعان ما وجدني حيال الأصدقاء المحبوبين، زينب وإساعيل وحلمي واثنين أو ثلاثة آخرين. وتعانقنا بحرارة وضحكة قرنفة تباركنا، وتبادلنا الأشواق متجنّين أين وكيف ولماذا، ولكن تردّد في همس اسم خالد صفوان الذي صار رمزًا من رموز حياتنا لا تكمل إلاّ به وقالت لي قرنفة:

- تصوّر أنّه قد وقع سوء تفاهم في مطلع الشتاء وأنّ البراءة ثبتت في مطلع الصيف ولا تسأل عن مزيد، حسبك أن تتصوّر إن استطعت...

ليكن. لا حيلة لنا في ذلك. وقلت لها:

- ولنتصوّر أيضًا أنّ المقهى أذن كبيرة!

وتجنّبنا حديث السياسة ما وسعنا ذلك، وقلت لها:

- إذا دعت ضرورة إلى الخوض في موضوع وطني فلتتكلم متخيّلين أنّ السيّد خالد صفوان مجالسنا.

ولكنّ الخسارة تبدّت ملموسة أكثر من المرّة الماضية. هزلوا كأثمّ خارجون من مجاعة، لاحت بأعينهم نظرة حزينة وساخرة، ورسب في زوايا

تبعثرين الأيام الباقية من عمرك العزيز بلا رحمة، وترفضين أن تعترفي بأنّ قلبي هو القلب الوحيد الذي يعبدك...

وخرجت قرنفة من صمتها وقالت مخاطبنا نحن:

- هذا الرجل لا يريد أن يحترم حزني!

فقال زين العابدين بمرارة:

- أنا، إني أحترم أوباشًا ومنافقين ومجرمين وقوادين ومرتشين فكيف لا أحترم حزن من علمني تقديس الحزن من حزني عليه؟ معذرة، احزني، استسلمي لقضائك، تمرّغي في وحل الأيام، ربّنا معك...

فقلت بهدوء:

- لعلّه من الأفضل لك أن تذهب.

- لا مكان لي إلاّ هنا، وأين أذهب؟، على الأقلّ

يوجد هنا وهم جنونيّ أخاله أحيانًا أملًا...

وسرعان ما عاد إلى رشده وهدوئه وهو خجلان.

ولكي يسدل ستارًا على تهوّه نهض بقوة ورشاقة جنديّ، فنظر نحو قرنفة وقال:

- أعتذر.

وحنى رأسه تحيّة ثمّ جلس وراح يدخن نارجيلته. وجاء الشتاء ببرده القارص ولياليه الطويلة فتذكّرت أنّ الشبان كانوا يتلاقون في المقهى حتى في الشتاء - وقت الدراسة - ولو ساعة واحدة، وقلت لنفسي إنّ المقهى بدونهم لا يُجتمَل. لم يبقَ إلاّ الشيوخ وقد نسوا المعتقلين وتناسوا الرعب والسياسة فمكفوا على هومهم الشخصية، وكأنّه لم يعد لهم من عمل إلاّ انتظار الأجل. وراحوا يبيكون الأيام الماضية ويتبادلون وصفات بقصد خفيّ واحد هو تأجيل الموت.

- كُّل واشرب ولا تهتمّ فهذا خير شعار في الحياة.

- غيّر ريقك على كوب ماء ويا حبّذا لو عصرت

عليه نصف ليمونة.

- قال حكيم قديم إني أعجب لآل مصر كيف

يمرضون وعندهم الليمون.

- الطبّ الحديث يقرّر أنّ صعود السّلم مفيد

للقلب.

- ومفيد له أيضًا المشي.

والإرهاب ولم أدر كيف يمكن أن يتطهر من الحشرات  
ذاك البناء الشامخ .

وكان زين العابدين عبد الله أول من قال لنا:

- في الجوّ غيم!

إنّه يستمع إلى الإذاعات الأجنبية ويعرف أخبارًا  
نادرة، فحدّثنا عن نشاط للمتسلّين من أبناء فلسطين  
وما يتوعّد به العدو من رذع. قال:

- ليس بعيدًا أن تنشب حرب هذا العام أو العام  
المقبل.

ولكّنا كنا واثقين من قوّتنا، فقال ظه الغريب:

- لا خوف علينا إلّا من تدخل أمريكا...

وفي ذلك النطاق دار الحديث. ولم يفسد الصفو في  
تلك الفترة إلّا هبة عارضة من حلمي حمادة كادت  
تقوّض أركان حبه الراسخ. فقد توهم أنّ قرنفلة  
تعامله بعطف لا يليق بكرامته فرفض ذلك بإباء وقرّر  
هجر المقهى لولا أن أمسك به أصحابه. وذهلت المرأة  
وراحت تعتذر إليه وهي لا تدري بالدقة ما ذنبها.  
وراح يقول بعصبية:

- إنّه لمقرف أن يضطرّ الإنسان إلى سماع نعمة  
واحدة...

واستطرد بحدة:

- وأنا أكره الأصوات الباكية...

وبحدة أعنف:

- ثمّ إنّي ضقت بكلّ شيء...

واعتبرنا المسألة عَرَضًا للحال العامة ونجّبتنا إحداث  
أيّ مضاعفات حتّى تمرّ بسلام، ولم يُغنِ فرح زين  
العابدين الخفيّ عنه شيئًا فإنّ حلمي حمادة لم يتماد في  
غضبه، ولعلّه ندم على ما فرط منه، ونال التأثير من  
قرنفلة غايته ولكنّها لم تنبس بكلمة واحدة. وقد همست  
لي:

- آخر ما كنت أتوقّع.

فسألته بقلق:

- أترأه فطن إلى حديثك معي عنه؟

فنفث ذلك بهزة من رأسها.

- أله سابقة في ذلك؟

- هي الأولى، والأخيرة كما أرجو...

أفواههم امتعاض راسخ. إنّ حرارة الحديث تذيب  
الرواسب فإذا فرغوا منه وخلوا إلى أفكارهم اختضت  
الأقنعة وتجلّى الفتور والعزلة. حتّى العلاقة الحميمة بين  
زينب وإسماعيل تعالي داء خفيًا لا يكاد يُرى عند  
النظرة العابرة الأمر الذي أثار عواطفني وتساؤلاتي. يا  
الطاف الله، إنّ الآلة الجهنمية تطحن أول ما تطحن  
أصحاب الرأي والإرادة، فماذا يعني هذا؟

وجالستني قرنفلة مرّة فلاحظت أنّها راضية ولكنها  
غير سعيدة. وكنت أعلم أنّها لا تجالسني إلّا للبوح  
بشيء فقلت أفتتح الحديث:

- لندعُ الله ألا يتكرّر المكروه...

فقلت بأسى:

- ادعُ الله كثيرًا جدًّا، قل له إنّنا في حاجة شديدة  
إلى دليل حيّ على رحمته وعدله...  
فسألته بإشفاق:

- ماذا وراءك؟

- الذي رجعت إلى حضني خيال فأين إذن حلمي  
حمادة؟

- لعلّك تقصدين الصّحة، ولكنهم كلّهم في  
البلوى سواء، وسوف يستردّون العافية خلال أيام...  
- لعلّك لا تدري أنّه شابّ شجاع ذو كبرياء. وأنّ  
مثله يكون عرضة للشّر أكثر من غيره...

ثمّ قالت وهي تمدّني في عينيّ:

- لقد فقد القدرة على السعادة!

فلم أفهم تمامًا ما تعنيه فعادت تقول:

- لقد فقد القدرة على السعادة!

- لعلّك تبالغين في التشاؤم...

- كلاً، وأنا لا أحزن لغير ما ضرورة.

وتنهّدت بعمق ثمّ استطردت:

- منذ ملكت هذا المقهى وأنا دائبة على العناية به،  
الأرض والجدران والأثاث تنال حظّها كاملاً من  
اهتمامي الكليّ أمّا هم فينكّلون بفلذات الأكباد،  
عليهم اللعنة...

ثمّ قبضت على ذراعي وقالت:

- لنبصق على الحضارة...

وتردّدت طويلاً بين انبهارني بالعظمة ومقتي للفرع



## الكرنك ٥٢٣

- سيتحرك الأسطول السادس .  
 - سنتطلق الصواريخ نحو الدلتا .  
 - ألا يصبح استقلالنا نفسه في خطر؟  
 الحق أننا لم نشك في قوتنا. تداعت كثير من القيم أمام أعيننا وتلوّث أيدي لا حصر لها ولكننا لم نشك في قوتنا. وإنه لتفكير لا يخلو من سذاجة ولكن عذرنا أننا كنا مسحورين، ومصرّين على الأمل، وبدا أنه فوق طاقتنا أن نكفر بأول تجربة وطنية خالصة جاءت في ختام سلسلة من عصور الدلّ والاستعباد. ولبينا متلهّفين حتى استيقظنا على أعنف مطرقة صكّت رعوينا الثملة بنشوات العظمة. ولن أنسى ما زفره طه الغريب، وهو أطلعنا سناً، فقد تجلّى الأسى في عينيه وقال:

- ها أنا ذا على حافة القبر، وسيجيء الأجل بعد أسبوع أو شهر، فيا ربّي لمّ لمّ تعجّل به قبل أن يدركني هذا اليوم الأسود

وأحرق الحزن قلوب الشعب البريء، ولم يعد له من أمل في الحياة إلا أن يرث الضربة ويسترد الأرض، ولكي أنصت هنا وهناك إلى قلوب تخفق بالشهامة والفرح، وبدأت أدرك أنّ الصراع ليس صراعاً وطنياً خالصاً، وأنّ الوطن ينزوي حتى في أشدّ أحوال المحن في خضمّ صراع آخر يجتدم حول المصالح والعقائد، وجعلت أراقب هذه الفكرة فيما تلا ذلك من أيام وأعوام حتى وضحت جوانبها وتعرّت جذورها، فإذا بيوم ٥ يونيو يستوي في التاريخ هزيمة لقوم من العرب ونصر لقوم آخرين منهم أيضاً، وأنه جاء ليهتك الستر عن حقائق ضارية، وليعلن حرباً طويلة المدى بين العرب أنفسهم لا بينهم وبين إسرائيل فحسب.

\*\*\*

وعقب وقوع الهزيمة بأسابيع عاد الغائبون أو بالأحرى عاد إسماعيل الشيخ وزينب دياب وآخران. وجدنا في عودتهم فرحة عابرة وسط الأحزان وتعانقنا طويلاً.

وهتف إسماعيل الشيخ بصوت مضطرب:

- ها نحن أولاء نعود.

ثم بنبرة أعلى:

- يحسن بك أن تقللي من الشكوى والرتاء.  
 فتهدت قائلة:

- إنك لا تدري كم إنّه تعيس!

\*\*\*

وفي أواسط ربيع العام وقع الاختفاء الثالث لم يُبَيّن تلك المرّة أيّ تساؤلات ولا عنفاً في ردود الأفعال. تبادلنا النظرات. هزّنا رعوينا، نطقنا بكلمات لا معنى لها:

- كالعادة.

- نفس النتائج.

- لا جدوى من التفكير.

أما قرنفة فقد صمتت طويلاً فوق كرسيّ الإدارة ثم استرسلت في الضحك طويلاً حتى دمعت عينها وجعلنا ننظر إليها من مجلسنا صامتين.

- اضحكوا... اضحكوا...

وجفّفت عينها بمندبها الصغير وواصلت:

- اضحكوا، جفّت الدموع ولكن لنا الضحك، الضحك أقوى من البكاء وأسلم عاقبةً، اضحكوا من صميم القلوب، اضحكوا حتى يسمعنا أصحاب الحوائت بشارعنا السعيد... .

وسكنت دقيقة ثم استأنفت:

- هل نحزن لأمر تقع بانتظام مثل الشروق والغروب؟... سوف يعودون، وسيجلسون بيننا كالأشباح، وعهد الله أن أسمي المقهى وتذاك «مقهى الأشباح».

ثم نظرت إلى عارف سليمان وقالت أمرة:

- قدّم كأساً لكلّ زبون من زبائننا الكرام لنشرب نخب الغائبين!

وانطوت السهرة في كآبة شاملة... .

على أننا سرعان ما نسينا همومنا القريبة التي تُعدّ شخصيةً بالقياس إلى الأحداث الكبيرة التي اجتاحت الوطن. فقد تطايرت الشائعات وما ندري إلا والجيش المصريّ ينطلق بكلّ ثقله إلى سيناء، فاشتعلت المنطقة كلّها بنذر الحرب. ولم يداخلنا شكّ في قوتنا ولكن.. .

- أمريكا، هي العدو الحقيقيّ.

- إذا هجم الجيش انهالت علينا الإنذارات.

النفس، وتجهّم الجوّ الخائق بالأحلام المفتعلة. لم نكف لحظة عمّا كنّا فيه والساعات تمضي في أثر الساعات ونحن نحترق ونتهالك ونخوض ظلمات فوقها ظلمات تحتها ظلمات.

وكان أشدنا مناعة حيال الوباء إمام الفؤال الجرسون وجمعة مسّاح الأحذية، فهما يرفضان الهزيمة ويصدّقان الراديو ويحلمان بيوم النصر. ولكنها بمرور الأيام مضى شعورهما بالكارثة يفتّر، واهتمامهما بالحياة اليومية يتصاعد، ثمّ انحدرنا في طريق اللامبالاة إلاّ ما استقرّ في أعماق النفس من حزن دائم خفيّ. وأما جماعة الشيوخ فقد ارتدّت مع الأيام إلى الماضي.

- لم نصل إلى مثل هذه الحال في أيّ عهد من العهود.

- حسبنا ما كنّا نستظلّ به من حماية القانون.

- وحتىّ أعنف أيام الاستبداد لم نخلّ من صوت معارضة حرّ..

- وأيام الجهاد والنفي والفداء المجيدة كيف يمكن أن تُنسى!؟

وما لبثوا أن رجعوا إلى الوراثة أكثر وأكثر حتىّ استقرّوا في عهد ابن الخطّاب والرسول فتنافسوا في نبش الماضي يستخرجون أمجاده يتسلّون بها عن حاضرهم.

وكان زين العابدين عبد الله يتابعهم بين الاهتمام والاستهانة ثمّ أفصح عن رأيه قائلاً:

- الحلّ تملكه واحدة هي أمريكا.

وصادف رأيه هوّى في نفس عارف سليمان الساقى فقال:

- صدقت.

ثمّ أشار إشارة شاملة وقال:

- سيتغيّر كلّ شيء من جذوره، وما هذه الصحوة إلاّ الانتفاضة الأخيرة قبل تسليم الروح.

وبقي الشبان وحدهم لا يسلمون أنفسهم للماضي ولا يأملون خيراً في أمريكا، ورويداً ورويداً، وفي أعقاب إفاقتهم من الصدمة، راحوا يتكلمون عن معركة بعيدة المدى، وصراع على مستوى العالم بين قوى التقدّم والإمبريالية، وعن تغييرات أساسية

- وقد قبّض على خالد صفوان!

فقال محمّد بهجت:

- كثيرون انتقلوا من مقاعد الحكم إلى أعماق السجون؟

ووقفت قرنفة وراء الخوان وتساءلت:

- أين حلمي؟

ولكنّ أحداً منهم لم يجب فعادت تسأل بلّالحاح وضيق:

- أين هو؟. ولمّ لمّ يحضر معكم؟

لم ينس أحد بكلمة بلّ وتجنّبوا النظر نحوها فهتفت:

- ألا تريدون أن تتكلموا؟

ولما لم تسمع صوتاً صرخت:

- لا... لا

ثمّ مخاطبة إسماعيل:

- تكلم، قل أيّ شيء يا إسماعيل.

ثمّ تقوّس ظهرها فوق الخوان كأنّها تعاني تمزّقاً في بطنها. لبثت كذلك مدّة في صمت شامل، ثمّ رفعت رأسها وهي تتمتم:

- الرحمة... الرحمة يا أرحم الراحمين!

وأوشكت أن تنهار لولا أن تلقّاه بين يديه عارف سليمان، ثمّ مضى بها إلى الخارج. عند ذلك قال إسماعيل الشيخ:

- قيل إنّه مات في أثناء التحقيق.

وقالت زينب:

- هذا يعني أنّه قُتل.

كان الحزن - كالفرح - يُنسى بسرعة في تلك الأيام. وقد قدّمت العزاء لقرنفلة ولكنّها لم تفقه لكلامي معنى.

وانداحت تلك الموجة الطارئة فعدنا نتابع الأحداث ونمضغ الأحاديث ونعاني الأيام فنحملها فوق كواهلنا ثمّ نمضي بخطوات ثقيلة متعّرة. نستعيد من وحدتنا بالتلاقي وكأنا نتقي ضربات المجهول بالتلاصق، ونخاوف الاحتمالات بتبادل الآراء، وهجمات اليأس العاتية بالنكات الساخرة الأليمة، والخطايا الكبرى بزفريات الاعتراف الحارّة، وفضاعة المسئولية بتعديب

## الكرنك ٥٢٥

النساء، والنساء والرجال أحياناً، يتبادلون الأحاديث والنكات وربما الشتائم واللكمات ويأكلون ويصلّون.

وينظر إليّ بتجهّم ويقول:

- لم يتغيّر شيء جوهرية في حارة دعبس حتى اليوم.

ولكنّه يستدرك:

- غير أنّ المدارس فتحت أبوابها، تلك نعمة لا يمكن إنكارها، دخلت مع الداخلين، ولعلّ أبي كان يتمنّى لي الفشل حتى يتخلّص منّي بإلحاقني بحرفة مثل إخوتي ولكيّ خيّبت ظنّه وواصلت النجاح حتى نلت الثانوية العامة، وأمكني الالتحاق بكليّة الحقوق، وعند ذلك غير الرجل رأيه وداخله زهو وعجب، أيمن حقاً أن يصير ابنه وكيل نيابة؟. وثمة وظيفتان معروفتان جيّداً في حارتنا: الشرطيّ ووكيل النيابة، وأهل حارتنا يتعاملون معهم كثيراً كما تعلم، وصمّمت أمي على أن أستمّر «ولو بت عيني». . . والله وحده يعلم كم كلّفها أن تبتاع لي بذلة تليق بطالب في الجامعة ولكنها اعتبرتها كعقار يجب المحافظة عليه، ويجوز إصلاحه أو ترميمه أو حتى تجديده ولكن لا يجوز الاستغناء عنه.

ثمّ بحذّة:

- الحارة اليوم مكتظة بالتلاميذ والتلميذات ولكنّ مستقبلهم مشكلة متداولة بين الأمم.

وقد قامت الثورة وهو ابن ثلاثة أعوام، فهو ابن من أبناء الثورة بكلّ معنى الكلمة. . . ولذلك لم أخفي عنه دهشتي لما حلّ به من آلام وقلت له:

- لقد ظنّك البعض شيوعياً أو من الإخوان.

فقال بيقين:

- لا لهذا ولا ذاك، وانتهائي الوحيد كان إلى ثورة يوليو، أمّا الآن. . . وجعل يهزّ رأسه صامتاً كأنما لا يدري ما يقول، ثمّ قال:

- وقد عشت دهرًا وأنا أظنّ أنّ تاريخ مصر يبدأ بالثالث والعشرين من يوليو، ولم أتجه للبحث عمّا وراء ذلك إلّا بعد النكسة.

واعترف لي بأنّه آمن بالاشتراكية المصرية وأنّ إيمانه بالدين لذلك لم يتزعزع فسألته:

جوهريّة في الداخل. وهكذا. . . وهكذا. . . وهكذا.

وبخلاف المسألة العامة لم يجرّكني شيء سوى ما طرأ من تغيير ملموس على العلاقة بين زينب دياب وإسماعيل الشيخ. تسلّل مرض مجهول إلى روجيها فباتا غريبين أو كالغريبين حتى بتّ أعتقد أنّها واريّا حبّهما القديم التراب وأنّ كليهما قد استقلّ بحياته وأحزانه. وعند ذلك رجعت إلى ظنّي الأوّل عن حبّها لحلمي حمادة فملت إلى الأخذ به أكثر وأكثر.

وسرّني أن أرى قرنفلة وهي تستعيد نشاطها المألوف. واجمة متحفظة أغلب الوقت، تصغي إليّ بلا مشاركة ولا اندماج، وتبدّت أكثر جدّيّة وأوغل في الكبر.

ويمرور الأيام غابت وجوه، وتردّدت وجوه بين الغياب والحضور، واستمرّ الحال لا يكاد يتغيّر. وفي تاريخ متأخر نسبياً تهتأت لي ظروف وثقت ما بيني وبين بعض أصدقاء الكرنك، وعند ذلك علمت منهم ما لم يكن لي به علم، فاطّلمت على خبايا الأحداث والقلوب وشربت الكأس حتى الثمالة.

## إسماعيل الشيخ

حقاً علمت ما لم يكن لي به علم.

وقد أثار إسماعيل الشيخ اهتمامي من أوّل لقاء بنيانه القويّ وقسماته الكبيرة الواضحة. لم أر عليه سوى بذلة واحدة، يرتديها صيفاً وشتاء، يخلع جاكيتها صيفاً ويعيدها شتاء بالإضافة إلى بلوفر. ورغم فقره الظاهر حظي بالاحترام، وقد نال أخيراً الليسانس رغم اعتقاله المتقطعة.

- إليّ ابن بيثة فقيرة جدّاً. هل سمعت عن حارة دعبس بالحسينيّة؟، أبي عامل في مطعم كبدة، أمي بيّاعة سريحة وهي تبيع أيضاً الخوص والريحان في مواسم القرافة، إخوتي الكبار صبيّ جزّار وسوّاق كارو وإسكافيّ، مسكننا مكوّن من حجرة وحيدة في فناء ريع، الربيع كأنّه أسرة كبيرة يجاوز أفرادها الخمسين عدداً، وليس به حمّام ولا ماء، وبه مرحاض واحد في الفناء تمحّل إليه المياه بالصفائح، وفي الفناء يجتمع

فقلت لها: «هَذَا سَخِيفٌ وَلَا مَعْنَى لَهُ، أَلَا تَسْمَعِينَ مَا يُقَالُ؟» فقالت في ارتياب: «لست واثقة... ولا أنت!» وكنت أعاني آلامًا عنيفة وكانت أيضًا تعاني...

وساءلت نفسي إلى أيّ درجة تعتبر هذا الشوريّ ثوريًا؟. إنّه ثوريّ من نوع خاصّ وهو لا يخفي إيمانه بالدين. وددت أن أسأله عن موقفه من الحرّية الجنسيّة ولكنتي خشيت أن يظنّ بي رغبة في التسلّل إلى أسرار زينب، فأبيت أن أستدرجه إلى البوح بما لا يريد البوح به.

- ومع ذلك فالحبّ الحقيقيّ يهبّ مناعة بخلاف ما يتصوّر كثيرون.

ولكنتي ما زلت أذكر قوله أيضًا:

- في السجن اجتاحنا الضياع فاهتزّ بناؤنا المتين من أساسه.

وتذكرت أنّ الهزّات العنيفة في حياة البشر تعقبها استغاثات جنسيّة تشارف حدّ الجنون، فماذا يعني يا ترى؟. ولكنّه عاف - فيما بدا - الرجوع إلى الموضوع... وسألته:

- وحلمي حمادة؟.

فهتف:

- كان يتخطى التقاليد بكلّ عنف.

- أكان من نفس البيّنة؟.

- كلاً، كان أبوه مدرّس لغة إنجليزية، أمّا جدّه

فكان عاملاً بالسكك الحديدية.

- أكان يحبّ قرنفة حقاً؟.

- أجل، لا يداخلني شكّ في ذلك، لقد عرفنا المقهى مصادفةً ولكنّه أصرّ على العودة قائلاً: «لنعد إلى مقهى المرأة» فعجبت لذلك ولكنّه قال: «إنّها جَذابة ألم تلاحظ ذلك؟» وكنا راغبين في العودة كذلك، وقد أحببناها أيضًا كأصدقاء.

ولم تكن جاذبيّة قرنفة موضع شكّ عندي فقد وقعت أنا نفسي في إسارها ولكن هل يكفي ذلك لأعدل عن ظنيّ القويّ فيما يتعلّق بحبّ حلمي حمادة لزينب؟... ألا يجوز أنّه صرّح بما صرّح به مداراة لعاطفته الحقيقية؟

- خبّرني عن إيمانك بها الآن؟.

فقطّب قائلاً:

- كثيرون يصبّون غضبهم عليها باعتبارها سببًا من أسباب الهزيمة، ولكنّ الحقيقة التي يجب أن تُعرف هي أنّه لم تكن توجد في حياتنا اشتراكيّة حقيقية، لذلك فلأنّي لم أنخلّ عنها وإن تمّنت أن أقطع الأيدي التي تطبّقها، وذلك ما فطن إليه من بادئ الأمر حلمي حمادة الله يرحمه.

- لماذا؟.

- كان شيعيًا.

- إذن كان يوجد بينكم غرباء؟

- أجل، ولكن ما ذنبنا نحن؟.

وحذّني عن زينب طويلًا:

- عرفت زينب في الحارة منذ الطفولة، هي تقيم في نفس الربع أيضًا، وكانت لنا ألعاب مشتركة تعرّضنا بسببها للضرب بالعصا، ولما استوت صبيّة تجلّت ملامحها، كانت تسير فتجذب الأنظار وتحركّ الأشواق فأتصدّى أنا للدفاع عنها مستمدًا الشجاعة من ذكريات الفتوة في حارتنا، وفي المرحلة الثانويّة حال بيننا الرقباء والتقاليد ولكنّ حبنا كان قويًا، يلهب المشاعر ويفرض ذاته على الجميع، وأخيرًا وجدنا حرّيتنا في الجامعة وأعلّنا خطوبتنا وانتظرنا الزواج باعتباره ملاذنا الأخير، وما هي الأحلام تتبدّد ويموت كلّ شيء.

وجدنا في الجامعة حرّية لم يجلها بها من قبل، فوقت الطلبة لا يمكن أن يخضع لسيطرة حارة دعس وتزمتها، وكلّ غيبة ستجد لها عذرًا أو مبررًا، لذلك أمضينا ساعات طويلة معًا، وتعرّفت بأصحابه، وأصبحت من أهل الكرنك، واعتقلت معه، ونضجت شخصيّتها فوق ما كان يتصوّر.

وضحك عاليًا وقال:

- طاحتنا أزمة الجنس، وتخبّطنا حيارى طويلًا، وأحاطت بنا مغريات تجارب حرّة تجري من حولنا، وقلت لها يومًا: «لا شكّ في حبنا أو إخلاصنا وسوف نصبح زوجين، فما رأيك؟» وكنت أحتويها بين ذراعيّ في عناق حارّ ولكنتها قالت لي: «لقد أقسمت لوالدي»

## الكرتك ٥٢٧

- ماذا تريدون؟  
 - ستجيب عن بعض أسئلة ثم تعود قبل طلوع النهار.  
 - دعوني أخبر والدي وأرتدي بدلي.  
 - لا داعي لذلك البتة.  
 وقبضت يد على منكبي فاستسلمت، وسرت بينهم حافياً بجلباب النوم، ثم دفعوا بي داخل سيارة فجلست محاصراً باثنين، ومع أن الظلمة كانت كثيفة إلا أنهم عصبوا عيني وأوثقوا يدي، فسابت ركبتاي وتساءلت:  
 - لماذا تعاملونني هذه المعاملة وأنا بريء؟  
 - اصمت.  
 - خذوني إلى مسئول وسترون!  
 - إنك في الطريق إليه.  
 ركبني رعب ممت، ممت بكل معنى الكلمة، ورحت أتساءل عن التهمة المأخوذ بها، لست شيعياً ولا من الإخوان ولا إقطاعياً ولم يلفظ لساني بكلمة تنال هيبة العهد الذي أعدّه عهدي منذ وعيت ما حولي.  
 توقفت السيارة في مكان ما، أخرجت منها، ثم سرت معصوب العينين بين اثنين يقبضان على ذراعي، حتى دُفع بي إلى مكان، انفكّت القبضتان عن ذراعي. سمعت وقع الأقدام وهي تتباعد وصرير الباب وهو يُغلق. كانت يداي قد تحررتا كما رُفعت العصابة عن عيني ولكنني لم أر شيئاً كأنما قد فقدت البصر. تنحنحت فلم يجيني أحد. توقعت أن تحفّ الظلمة باعتياد النظر فيها ولكنها لم تحفّ، ولم يندّ عن المكان صوت، ترى أي نوع من المكان هو؟، مددت ذراعي أتحسس المجال، تحرّكت بحذر شديد، سرت برودة الأرض في قدمي، لم أعثر بشيء إلا الجدران، لا يوجد في الحجرة شيء، لا كرسي ولا حصيرة ولا أي قائم، الظلام والفراغ والحيرة والرعب، والزمان في الظلام والصمت يتوقّف تماماً وبخاصة وأني لم أعرف متى ألقى القبض عليّ، ولا فكرة لي عن متى تنقش الظلمة أو متى تُبعث الحياة في تلك الجثة الشاملة. ولكن أحب أن أخبرك أنّ الإنسان يتحليل على المعاناة

- كان يحبّ قرنفة، لعله لم يكن سوياً في عواطفه، لعله كان يروم عاطفة كالحب ولكنها ليست الحب نفسه، ولكنه على أي حال عاملها معاملة أمينة صادقة، لم يستجب قط لإغراء استغلالها رغم تيسره له، وهو لا يخلو من مثالية في سلوكه، ومن ناحية أخرى كانت أحواله المادية حسنة، وحسبك أن تعلم أننا ندين في ثقافتنا العامة للكتب المعارة من مكتبته.

- لعله عطف على تاريخها المجيد.  
 فضحك وقال:

- كان يصغي إليها متظاهراً بالتصديق ولكنه لم يؤمن بكلمة واحدة، وكان يحبها كما هي ولكنه طالما سخر من مزاعم التجديد في الفن والتفرد بالسلوك المثالي.

فقلت له كشاهد محايد:

- لقد كانت مثلاً طيباً في الفن والأخلاق!

فقال بحزن:

- فانت فرصة إقناعه!

ولكن لماذا قضي على إسماعيل الشيخ بالاعتقال؟  
 خفت أن يجيب عن سؤالي - كما في الماضي - بالصمت غير أنه قال مستأنساً بتغير الظروف والأحوال:

- كانت ليلة، وكعادي في فصلي الربيع والصيف كنت أنام على أريكة في الفناء تاركاً حجرتنا الوحيدة لوالدي، مستغرقاً في النوم عندما شعرت بنهار ينهمر على روحي كحلم، واستيقظت على هزة شديدة، فتحت عيني فضاء بصري في ضوء باهر يتدفق في عيني، جلست فرغاً فإذا صوت يسأل:

- أين مسكن الشيخ؟

فقلت:

- هنا، ماذا تريد؟، أنا ابنه إسماعيل.

فقال بارتياح:

- عظيم.

وأطفا الكشاف فساد الظلام؛ وبعد حين تبينت أشباحاً:

- قُم معنا.

- من أنتم؟

- لا تحفّ. . . نحن من رجال الأمن.

## ٥٢٨ الكرنك

- مثلت أمام مكتبه حافيًا رثًا الجلباب مهتمًا  
الأعصاب، ورائي شخص أو أكثر وغير مسموح لي  
بالتلفّ يمّة أو يسرة فضلًا عن النظر فيما ورائي فلم  
أز من المكان شيئًا وتركز بصري الكليل في شخصه  
وتحلّلت البقيّة الباقية من آدميّي في رهبة شاملة . . .

وارتسم الامتعاض في قسامة مليًا ثمّ واصل:

- ورغم كلّ شيء انطبع منظره في أعماقي بقامته  
الربعة ووجهه الضخم المستطيل وحاجبيه الغزيرين  
النامين إلى أعلى وعينيه الواسعتين الغائرتين وجهته  
العريضة البارزة وفكّيه القويين وسحته الخالية من أيّ  
تعبير، ورغم كلّ شيء أيضًا خلقت بقوة اليأس  
أسطورة أمل في ذاته فقلت:

- أحمد الله على أنّي أجد نفسي أخيرًا أمام الرجل  
المسؤول.

فأسكتني لكمة جاءني من وراء فتأوت عاليًا، أما  
هو فقال:

- لا تتكلم إلا إذا طولبت بجواب.

وسألني عن اسمي وسنّي وعملي فأجبت وعند ذاك  
سأل:

- متى انضممت إلى الإخوان؟

فلذهلت لغرابة السؤال وأدركت لأول مرّة نوعيّة  
التهمة الموجهة لي وقلت بصدق:

- ما انضممت إلى الإخوان في يوم من الأيام.

- ما معنى هذه اللحية إذن؟

- لقد نبتت في السجن.

- أيعني هذا أنك عوملت معاملة غير طيبة؟

فأجبت في شبه استغاثة:

- كانت معاملة مرعبة يا سيّدي وبلا أدنى مبرر.

- ما شاء الله!

أدركت أنّي أخطأت ولكن بعد فوات الفرصة أما  
الرجل فرجع يسأل:

- متى انضممت إلى الإخوان؟

فشرعت في الإجابة قائلًا:

- ما انضممت . . .

ولكنّ الكلام انقطع. غصت في الأرض بطريقة  
مذهلة ثمّ ارتفعت الأرض متحدية ضعفي بما يشبه

إذا تحطت حدودها، وأنّه في أعماق العذاب يتوتّب  
لطرحة همّه باستهتار يستوي أن تعدّه قوّة أو يأسًا  
فاستسلمت للمقادير وقلت ليات الشيطان إن كان  
مقدورًا له أن يأتي، وليأت الموت أيضًا. وكففت عن  
طرح الأسئلة التي لا جواب لها، ولكن طاب لي أن  
أذكر سلوك فيروس الإنفلونزا الذي يواجه مضادات  
الحيويّة بخلق جيل جديد ذي مناعة ضدّ المضادات.

وسألته:

- لبثت واقفًا؟

- عندما أنهكتي الإرهاق قرفصت، ثمّ تربعت على  
الأسفلت، وبقدرة قادر نمت، هل تصوّر ذلك؟، وبما  
استيقظت، وتذكّرت، أدركت أنّي فقدت موقعي من  
الزمن، أيّ وقت نمت؟، في أيّ لحظة أنا من ليل أو  
نهار، وتمسّست ذقني، وقلت ستكون هي ساعتي  
الكسيحة . . .

- تُركت طويلًا؟

- نعم . . .

- والطعام؟

- كان الباب يُفتح ويُدفع إليّ بطبق به جبن أو مائة  
مملّحة ورغيف . . .

- والضرورة؟

- في ساعة محدّدة يُفتح الباب أيضًا فيدعوني  
عملاق كمصارع السيرك ويقودني إلى مرحاض في  
نهاية طرقة فأتبعه مغمض العينين تقريبًا تفاديًا من ألم  
الضوء، وما أن يُغلق الباب ورائي حتّى يصبح بصوت  
كالرعد «أسرع يا بن الكلب . . . هل تبقى النهار  
بطوله يا بن العاهرة؟» ولك أن تصوّر حالي في  
الداخل . . .

- ولا تدري كم يومًا لبثت؟

- الله وحده يعلم فلحيتي عند كثافة معيّنة لم تعد  
تسعفي . . .

- ولكنهم حقّقوا معك ولا شك؟

فقال متجهيًا:

- أجل . . . وجدنتي يومًا أمام خالد صفوان!

وسكت مضيئًا عينيه في تأثر حتّى شدني إلى مجال  
انفعاله.

## الكرنك ٥٢٩

السحر، وسرعان ما ذاب خالد صفوان في الظلام. أخبرني حلمي حمادة فيما بعد أن مارداً يقف ورائي صفعني بقوة فأغمي عليّ، إذن قد أغمي عليّ، ثم وجدتني في الظلام الذي أخذت منه على الأسفلت. . . .

قلت برئاء:

- يا له من عذاب!

- وقد انتهى فجأة وعلى غير انتظار، في حجرة خالد صفوان أيضاً، ساقوني إليه فبادرني قائلاً:

- ثبت أن اسمك دُون في السجل لأنك تبرعت بقرش لبناء جامع ودون أن تكون لك صلة بهم.

\*\*\*

وحدّثني بعد ذلك عن اعتقاله الثاني:

- كنت في زيارة لحلمي حمادة في منزله، غادرته عند منتصف الليل، ألقى القبض عليّ فور خروجي من البيت، هكذا رجعت إلى حجرة الظلام والفراغ. وتساءل في حيرة عن التهمة التي ستوجه إليه، وطال انتظاره لذلك وهو يعاني عذابات الجحيم حتى مثل مرة أخرى أمام خالد صفوان.

- وقفت صامتاً مستفيداً من تجربتي السابقة، متوقفاً الشرّ. رغم ذلك - من جميع الجهات الأصلية، وتفردت خالد في وجهي وقال:

- يا لك من داهية، حسبتك يوماً من الإخوان!

فقلت بنبرة ذات مغزى:

- وظهرت براءتي!

- ولكن ما خفي كان أعظم.

فقلت بإخلاص:

- إني مؤمن بالثورة، هذه هي الحقيقة الوحيدة. فقال بسخرية:

- الجميع مؤمنون بالثورة، في هذه الحجرة يجهر الإقطاعيون والوفديون والشيوعيون بإيمانهم بالثورة! وحدجني بنظرة قاسية ثم سأل:

- متى انضممت إلى الشيوعيين؟

ووثب الرفض إلى حلقي ولكنني كتمته وارتفع منكباي بحركة عكسية كأنما ليخفيا قفاي، ولم أنبس.

عاد يسأل:

- متى انضممت إلى الشيوعيين؟

وشعرت بالتأزم يلتفت حول عنقي ولم أدر ماذا أقول

فقلت بانفعال وتهدج:

- ألم أقل لك ذلك يا سيدي؟

- الخطأ له عذر أما التهاون فلا عذر له.

ثم بقوة:

- نحن نحمي الدولة التي تحمركم من كافة أنواع العبودية.

- وإني من أبنائها المؤمنين.

- اعتبر الأيام التي أمضيتها هنا ضيافة، وتذكر دائماً أنك عوملت معاملة طيبة، أرجو أن تتذكر ذلك دائماً، وأن عشرات الرجال سهروا الليالي في جهد متواصل حتى ثبتت لهم براءتك.

- الشكر لله ولكم يا سيدي. . . .

وضحك إسماعيل الشيخ بمرارة عند تلك الذكرى فسألته:

- وهل قبض على الآخرين لنفس السبب؟

- كان يوجد بيننا اثنان من الإخوان، أما زينب فقد حققوا معها لعلاقتها بي وسرعان ما أفرج عنها، وبسببي أيضاً قبض على حلمي حمادة، فلما ثبتت براءتي ثبتت بالتالي براءته.

كانت التجربة قاسية جداً، وبسببها كفر بجهاز من أجهزة الدولة هو المخبرات أما إيمانه بالدولة نفسها، بالثورة، فلم يتطرق إليه الشك أو الفساد وتصور أنها - المخبرات - تمارس أساليبها في خفاء عن المسؤولين.

- ففكرت عقب الإفراج عني في أن أرفع شكوى للمسؤولين ولكن حلمي حمادة منعني بقوة.

٥٣٠ الكرنك

فواصلت الصمت.

- ألا تريد أن تعترف؟

استسلمت للصمت كما تعودت أن أستسلم للبلاء  
في الحجرة المظلمة فتمتم:  
- طيب!

ونذت عنه إشارة من يده. سمعت وقع أقدام  
تقترب فاقشعرّ بدني. وإذا بشخص يقف إلى جانبي.  
بطرف عيني أدركت أنه أنثى. التفت نحوها في دهشة  
وبدافع من شعور قهَرَ خوفي، ورغماً عني هتفت  
«زينب!».

- ها أنت تعرفها وهيمك أمرها فيما يبدو.

ونقل عينيه الغائرتين بيننا ثم تساءل:

- ألا هيمك أمرها؟

تمزقت روجي دقيقة كاملة.

- أنت مثقف ولك خيال فهل تتصوّر ما يمكن أن  
يجلّ بهذه الفتاة البريئة فيما لو أصررت على الصمت؟  
سألته بنبرة رثاء موجّهة للعالمين جميعاً:

- ماذا تريد يا سيدي؟

- إنّي أسأل متى انضمت إلى الشيوعيين؟

فقلت دافئاً آخر شعاع من أمل:

- لا أتذكّر تاريخاً معيّنًا ولكنني أعترف بأنني  
شيوعي.

وسجّلت اعترافي على ورقة ثم غادرت الحجرة بين  
حرّاسي.

أعيد إلى زناتته فلم يلقَ تعليماً إضافياً كما توقّع  
بادئ الأمر ولكنّه أيقن من الضياع.

ومضى عليه زمن لا يدريه حتّى مضى به حارس يوماً  
إلى باب مغلق وقال:

- لعلك اشتقت إلى رؤية صديقك حلمي حمادة!

وأزاح غطاء عن عين سحرية وأمره أن ينظر.

- نظرت فرأيت مشهداً غريباً تعدّر عليّ احتواؤه

لاؤل وهلة كمن يرى صورة سريالية، ثم تبين لي أنّ

حلمي حمادة معلق من قدميه وهو صامت ساكن،

مغمى عليه أو ميتاً فتراجعت فزعاً أترنح وغمغمت:

- هذا غير...

وانحبس صوتي لدى التقائي بنظرته المصبوبة عليّ،

وتساءل:

- غير ماذا؟

شعرت بغثيان فعاد يسأل:

- لهذا غير... غير ماذا؟

- غير إنسانيّ أليس كذلك؟، والأحلام الدموية

التي تحلمون بها أهي إنسانية؟

ومضى زمن أصيب في أثناءه بإنفلوانزا حادة عقب  
نزلة برد في ذلك الشتاء. واستدعي للقاء خالد صفوان  
وهو في دور النقاهة. وكانت أقصى أمانيه في ذلك  
الوقت أن يُنقل إلى أيّ سجن أو معتقل خارجي ولكنّ  
الرجل بادره قائلاً ببرود:

- إنك سعيد الحظّ يا إسماعيل.

فرفعت إليه عينيّ بدهول فقال:

- ثبتت براءتك أيضاً هذه المرّة!

خارت قواي وشعرت برغبة عميقة في النوم.

- وكانت زيارتك لحلمي حمادة بريئة، أليس  
كذلك؟

فقلت بصوت لا يكاد يُسمع:

- بلى يا سيدي...

- إنّه شيوعيّ متحمّس، أليس كذلك؟

لم أدر ماذا أقول وعاودني الخوف.

- لقد اعترف، ومن حسن حظّه أيضاً أنّه قد ثبت

أنّه لا ينتمي لتنظيم أو حزب ونحن نصيد اليوم

العاملين لا الهواة!

فاستعدت الأمل في النجاة فقال:

- واضح أنّك تلتزم بالصمت احتراماً لعهد

الصدّاقه!

وسكت لحظة ثمّ استطرّد:

- وذاك الإيمان بالصدّاقه يجعلنا نطمح في

صدّاقتك!

تري متى يأمر بالانصراف؟

- كن صديقاً لنا، قلت إنّك تنتمي للشورة وأنا

أصدّقك، فلتكن صديقاً لنا، ألا يرضيك ذلك؟

- إنّه ليسعدني يا سيدي.

- كلنا أبناء ثورة واحدة وواجب علينا أن نصونها

بقوّة، أليس كذلك؟



## الكرنك ٥٣١

يمكن أن تُقهر، ولكنّها انتهت، وحاولت تشجيعها،  
ولكنّها فاجأتني مرّة بقولها: «ما أحوجك أنت إلى مَنْ  
يشجّعك!».

وحدث أمر خارق في الأسبوع الأوّل عقب الإفراج  
عنه. كانا يسيران معًا بعد الانصراف من الكليّة  
فسألته:

- أين تذهب؟

- إلى الكرّنك ساعة ثمّ إلى البيت.

فقلت وكأنّما تخاطب نفسها:

- أودّ أن أدخل إليك بعض الوقت.

خُيّل إليه أنّ ثمة سرًّا يريد أن ينجلي فقال:

- نذهب إلى حديقة.

- أريد مكانًا آمنًا!

وحلّ حلّمي حمادة المشكلة بأن دعاهما إلى شقّة  
قرنفلة - وهي شقّته أيضًا - وتركها منفردين. وقال

إسماعيل بقلق بريء:

- ستظنّ قرنفلة بنا الظنون.

فقلت باستهانة:

- لتقل ما تشاء!

وعبث به الشكّ، وأخذ يدها بين يديه فقبضت على  
يده ورفعتها إلى عنقها، وتلاقيا في قبلة طويلة، وجدها  
بعدها مستسلمة بين يديه، قال:

- كان أمر مفاجأة، غمرتني سعادة ولكن شابها  
قلق، وانعقدت فوق رأسي تساؤلات مبهمة، وكدت  
أسأله عن سرّ استسلامها ولكنني لم أفعل...

وتبادلنا النظر حتّى قال:

- لعلّها الأحداث قد هزّتها!

- لعلّها...

- وساورني ندم، واتّهمت نفسي بأنني انتهزت  
فرصة ضعف وانهايار.

- هل تكرّر ذلك؟

- كلّما.

- بلا محاولة من جانبك أو جانبها؟

- بلا أيّ محاولة. وظلّت روابطنا الخارجية وثيقة  
ولكنّ روحيّنا انفصلتا...

- موقف غريب.

- طبعًا.

- ولكن لا بدّ من موقف إيجابيّ، نريد صداقة  
إيجابية!

- إنّي أعتبر نفسي صديقًا منذ البدء.

- أيرضيك أن تعلم بأنّ شرًّا يتهدّد الثورة وتسكت  
عنه؟

- كلّما!

- هذا ما نطالبك به، وستذهب إلى زميل ليهديك  
سواء السبيل، ولكنني أحبّ أن أذكرك بأننا قوّة تملك  
كلّ شيء ولا تخفى عنها خافية، تكافئ الصديق وتتغلّ  
بالخائن!

وعند تلك الذكرى اسودّ وجهه واشتدّ أساه  
فتساءلت لأخفّف عنه:

- أكان بوسعك أن ترفض؟

فقال بحزن:

- ستجد دائمًا عذرًا ما، ولكنّ ذلك لا يجدي!

هكذا رجع من معتقله مرشيدًا ذا مرتّب ثابت  
وضمير معذب. وحاول أن يسوّغ عمله بانتهاه الثوريّ  
ولكنّ القلق لم يفارقه أبدًا.

- لأوّل مرّة أجتمع بزینب وأنا غريب لدرجة، لي  
حياتي السريّة الخاصة المجهولة لها والتي يجب أن تظلّ  
مجهولة...

- أخفيت عنها الأمر؟

- نفّدت الأوامر والإرشادات...

- لتلك الدرجة آمنت بقوة تسلّطهم؟

- أجل، وهو إيمان حقيقيّ، يضاف إليه الخوف  
الذي استهلك روحي...، وشعوري بالسقوط، ولم  
أفلح في إقناع نفسي بالشرف فكان عليّ أن أستهتر بكلّ  
شيء، ولم يكن ذلك باليسير عليّ نظرًا لتركيبي  
الأخلاقيّ واستقامتي الروحيّة فوقعت في التخبّط  
والعذاب... والأدهى من ذلك أنّني وجدت زينب في  
صورة جديدة تغشاها كآبة عميقة ولا أثر فيها للشعور  
بالنجاهة فزدت إحساسًا بالغرابة...

- ولكنّها صورة متوقّعة كما أنّها قابلة للتغيّر.

- ولكنني لم أعثر على زينب الأصليّة أبدًا، وكانت  
ذات روح مرحة وثابة، وكان يُخيّل إليّ أنّ روحها لا

## ٥٣٢ الكرنك

وغادرنا بيته حوالى العاشرة. سرنا صامتين. أصبحت أشقّ أوقات علينا تلك التي نخلو فيها إلى أنفسنا. وافترقنا، هي بحجّة العودة إلى الربيع وأنا بحجّة الذهاب إلى الكرنك. وضربت في الشوارع على غير هدى. عجزت عن اتّخاذ قرار. وطيلة الوقت عدّبتني الخوف على نفسي، على زينب، لم اتّخذ قرارًا. رجعت إلى الربيع حوالى منتصف الليل. استلقيت فوق الأريكة بملابسي، قلت لنفسي «لأتخذ قرارًا أو أجنّ»، ولكنني لم اتّخذ القرار، قرّرت تأجيل ذلك إلى الصباح ولكنني لم أنم، وكنت ما أزال مسهّدًا حين اقتحموا عليّ خلوتي...

- تعني رجال الأمن؟

- أجل.

- في نفس الليلة؟

- في نفس الليلة.

- ولكنّه أمر مذهل وغير مفهوم.

- إنّه السحر، ولا تفسير له إلا أنّهم كانوا يراقبوننا معًا ويتنصّتون علينا من بعيد.

فقلت له مواسيًا:

- على أيّ حال فإنّك رفضت أن تبغ عن صديقك.

- حتّى ذلك لا أستطيع أن أدعيه بصدق لأنني لم اتّخذ قرارًا...

هكذا وقع الاعتقال الثالث. ومثل أمام خالد صفوان قبيل الفجر فاستقبله بوجهه البارد وقال:

- خيبت الأمانة وسقطت في أوّل امتحان.

فلم أنبس. فقال:

- حسن، نحن لا نقسر أحدًا على صداقتنا.

وجلّد مائة جلدة ثمّ ألقى به في الزنزانة، في الظلام الأبديّ.

وحديثي عن مصرع حلمي حمادة فقال إنّه مات في حجرة التحقيق. كانت به عصيّة وجراة. استفزتهم إجاباته، تلقّى صفعات فهاج غضبه وحاول أن يردّ الاعتداء بمثله فانهاه عليه حارس باللكمات حتّى أغمي عليه، ثمّ تبين أنّه فارق الحياة.

- وعشت في الظلام زمنًا لا أدريه حتّى ذبت في

- إنّه الموت البطيء. وهو من ناحيتي له ما يفسّره أمّا من ناحيتها فلغز من الألغاز...

- لاحظت تغييرًا ما في علاقتكما في الكرنك ولكنني حسبتة عارضًا.

- سألتها عمّا عانت في السجن في المدّة القصيرة التي قضتها فيه ولكنها أكّدت لي أنّ معاناتها كانت قصيرة وتافهة.. وقد شاب إيماننا الثوريّ امتعاض راسخ، أصبحنا أكثر استعدادًا للإصغاء للنقد، انطفأ الحماس، تضاءلت الشعلة، أجل إنّ الإيمان الأساسيّ لم يقتلع، ولكننا قلنا إنّ الأسلوب يجب أن يتغيّر وإنّ الفساد يجب أن يُستأصل وإنّ أعوان الساديين يجب أن يذهبوا، الثورة المجيدة أصبحت محاصرة...

وذات مساء عادا إلى مناقشة الموضوع مع حلمي حمادة في مسكنه، وقال حلمي حمادة:

- إنّي أعجب كيف أنكما ما زلتما تؤمنان بالثورة!

فقال له إسمايل:

- إنّ وجود الأمعاء بالجسم البشريّ لا يقلّ من جلال العقل...

فقال حلمي ساخرًا:

- إننا نلجأ عند العجز إلى التشبيه والاستعارة..

ثمّ قال لها:

- علينا أن نعمل..

وأطلعها على منشور سرّي سيقوم بتوزيعه مع بعض الرفاق. فقال لي إسمايل:

- فوجئت بتصريحه، فزعت فرعًا شديدًا، ثمّيت أنّي لم أسمع، وتذكّرت عمليّ السرّيّ الذي يطالبني بالإبلاغ عنه فورًا، تذكّرت فترلز كياني كلّ، وتراءت لعينيّ أعماق الهاوية التي سائرديّ فيها...

ومضت ساعة بعد ذلك، حلمي يتكلّم ونحن نصغي أو نعلّق بكلمات مقتضبة، عقليّ شارّد تمامًا وحزنيّ ثقيل، وقلت له:

- اعدل عن النشاط ومزّق المنشور.

فضحك هازئًا وقال:

- يا لك من ماجن حقًا...

ثمّ مستدركًا:

- إنّه ليس الأوّل ولا الأخير!

## الكرنك ٥٣٣

بامتعااض وسخرية إن ذلك يتوقف على درجة حماقتهم، ثم وقعنا جميعًا في الدوامة كما تعلم ومضت تتقاذفنا خطط الحرب ومشاريع السلام ولا يلوح لنا شاطئ. وثمة بارقة أمل وحيدة حيث يوجد الفدائيون.

- إذن فأنت تؤمن بالفدائيين؟

- وعلى اتصال بهم وأفكر جادًا في الانضمام إليهم، ولا ترجع أهميتهم إلى أعمالهم الخارقة ولكن إلى مزاياهم الفريدة التي تمخضت عنها الأحداث، إنهم يقولون لنا إن الإنسان العربي ليس كما يعتقد الكثيرون ولا كما يعتقد هو في نفسه ولكنه يستطيع أن يكون محجزة في الشجاعة إذا شاء.

- ولكن هل توافقك زينب على ذلك؟

فسكت طويلًا ثم تساءل:

- ألم تدري بأنه لم يعد بيني وبين زينب إلا ذكريات

زمالة قديمة؟

ودهشت لاعترافه بالرغم من أنني توقعت أنه جاء مؤيدًا لملاحظاتي واستنتاجاتي، وسألته:

- هل حدث ذلك فجأة؟

- كلاً، ولكن ليس من اليسير اختفاء رائحة جثة إلا بدفنها، في وقت ما وبخاصة عقب نحرّجنا شعرنا بأنه آن لنا أن نشرع في الزواج، وتحدثت معها في ذلك رغم مشاعري الأليمة الدفينة، فلم تعترض ولكنها لم توافق، أو قلّ إننا لم نتحمّس، وتحوّرت في معرفة السرّ ولكنها ارتحمت إلى الموقف بصفة عامة، ثم لم نعد نطرق الموضوع إلا في فترات متباعدة، ولم نواظب على اللقاء كما كنا نفعّل، وفي الكرنك كنا نتجالس كزميلين لا كحبيبين، ولم أنس أن بوادر تلك الحال بدأت في أعقاب الاعتقال الثاني ولكنها استمحلّت بعد الاعتقال الثالث، ومضت العلاقة الخاصة تهنّ وتفتّت حتى ماتت تمامًا...

- مات الحبّ إذن؟

- لا أظنّ...

- حقًا؟

- نحن مرضى، أنا مريض على الأقلّ وأعرف

أسباب مرضي، وهي مريضة أيضًا، وقد ينتعش الحبّ

الظلام...

واستدعي ذات يوم فظنّ أنه ماضٍ لمقابلة خالد صفوان ولكنه رأى وجهًا جديدًا، فأبلغه بنبي الإفراج عنه.

- وقبل أن أغادر المبنى علمت بكلّ شيء.

ولاذ بالصمت مليًا ثم استطرّد:

- بقصّة الطوفان من أوّلها إلى آخرها.

- تعني الحرب؟

- أجل، مايو، يونيه، حتى خبر القبض على خالد

صفوان نفسه!

- يا لها من ساعة!...

- تمخّيل حالي إن استطعت!

- أجل... أستطيع ذلك.

- وكانت الدنيا قد عبرت ذروة النكسة وأفاقت من

الدهول الأوّل فوجدت الميدان مكتسّطًا بالأشباح

والأحاديث والحكايات والشائعات والنكات...

وانعقد الإجماع على أننا كنا نعيش أكبر أكذوبة في حياتنا.

- وهل شاركت في ذلك الإجماع؟

- بكلّ قوّة العذاب الذي كان يفتّت مفاصلي،

تبخرّ إيماني وفقدت كلّ شيء.

- أظنّك اليوم جاوزت ذلك الموقف؟

- درجات ولا شكّ، على الأقلّ فإنني حريص على

تراث الثورة...

- وكيف كان موقف زينب؟

- مثلي تمامًا ولكنها تكلمت قليلًا ثم صممت إلى

الأبد، أذكر أوّل لقاء لنا عقب الإفراج عني. تعانقتنا

بميكانيكيّة، قلت لها بمرارة: لتتعارف من جديد فنحن

بإزاء دنيا جديدة. فقالت لي: إذن دعني أقدم لك

نفسي أنا شخص بلا اسم ولا هويّة. فقلت لها: إنّي

أعرف الآن تمامًا معنى قبض الريح. فقالت لي الأفضل

أن نعترف بحماقتنا وأن نحترمها فهي كلّ ما بقي لنا.

فأخبرتها عن مصرع حلمي حمادة فانخطف لونها

وشردت طويلًا ثم قالت نحن الذين قتلناه كما قتلنا

الألوف غيره. فقلت - غير مؤمن بما أقول -: ولكننا

ضحايًا ألا يمكن اعتبار الحمقى ضحايًا. فقالت

بين زينب وإسماعيل، ففجّر بذلك عاصفة في الربيع ولكنّ إرادة زينب انتصرت. وكان للتجربة أثرها في سلوكها، فتحديًا للاتهامات الباغية قرّرت أن تحافظ على نفسها. ولم تُبالِ أن تُتهم بالرجعية في نظر «البعض»، ولم تؤثر ثقافتها الواسعة في موقفها.

- نحن نمثل المحافظة في تقدّميتها الوثيدة ولذلك وجدت في صبيغة ثورتنا ما ترتاح إليه نفسي وبه تستقرّ. وكانت تفهم نفسية إسماعيل بقدر ما تحبّه، وتؤمن بتماشي موقفها وبأنّه لن يغفر لها تهاونها معه لو حدث معها ادّعى من أقوال لا يؤمن بها في قرارة نفسه.

- وعمّ حسب الله تاجر الدجاج كان يريدني بأيّ ثمن في تلك الأيام، ولم ييأس من رفضي يده، ونشّع عندي بمعجوز من المتعاملات معه ولكّني لفتته درسًا

- أراذك بغير زواج؟

- وبشمن غالٍ.

وكانت تروي ذلك بفتور يتناقض مع الموقف فلم أفهم وقتذاك سرّ فتورها.

- وكذلك زين العابدين عبد الله فيها بعد.

- لا.

نذت عني في دهشة فقالت بثقة:

- بلى.

- ولكّنه مجنون بقرنفلة؟

فهزّت منكبيها فتساءلت:

- أكان يداري طمعه في مالها بالتظاهر بالحبّ؟

- كلاً، كان يحبّها وما زال، ولكّنه طمع في مسرة يتسلّى بها، ولعلّ الوغد ظلّني فتاة مستهترّة.

- متى أعلن رغبتك؟

- مرّات ولكّني أقصد المرّة الأولى عقب أول اعتقال.

- رغم عناده أعتقد أنّه يائس من ناحية قرنفلة.

- ولماذا ييأس؟، إنّه قابع ينتظر رزقه.

ثمّ ختمت قصصها العاطفية قائلة:

- وغيرهما كثيرون!

وعند ذاك سألتها باهتمام خفيّ:

- ألم يكن المرحوم حلمي حمادة واحدًا منهم؟

فأجابته بدهشة:

يومًا وقد يستسلم لموت أبديّ، ونحن على أيّ حال نتظر ولا يؤرّقنا الانتظار...

إنّهما ينتظران. ومنذا الذي لا ينتظر؟

### «زينب دياب»

من أوّل نظرة جدبتي زينب بحيويتها وملاحظتها، بوجهها الخمرّي الرائق وقسماتها النامية في حرّية وعلوية وجسمها القويّ الرشيق. ولعلّ استشفافها لإعجابي بها بغريزتها الفطنة هو ما مكّن لصدّاقتنا أن تتوطّد وأن تتناهى إلى ذروة الثقة، وهي قد نشأت في بيئة إسماعيل وفي ربهه. أبوها بيّاع لحمه رأس وأمّها في الأصل غسّالة ثمّ صارت دلّالة بعد كفاح طويل، ولها أخ سبّك وأختان متزوّجتان. وبفضل مهنة الأمّ الأخيرة وفرت للأسرة بعض ضرورات العيش وابتاعت لزينب الحدّ الأدنى ممّا يلزمها من ملابس. وكان نجاح زينب في المدرسة أمرًا غير متوقّع بقدر ما كان مثيرًا للمعجب والمتعجب. ولم يجدوا بأسًا من تركها تلهو بتلك اللعبة حتّى يجيء ابن الحلال. ولذلك فإنّ الأمّ لم ترحب من بادئ الأمر بإسماعيل الشيخ وكانت تعتبر التلميذ متعطّلًا بلا نهاية وعقبة في سبيل أيّ فتاة جميلة. وكانت أمّ زينب هي القوّة الحقيقيّة في الأسرة أمّا الأب فكان يكدح نهاره نظير بضعة قروش ما يلبث أن يبددها في شمّارة البوظة ويختم سعيه بمشاجرة عائليّة عنيفة. ومن عجب أنّ الأب المتدهور كان وسيًا، يمكن أن يتكشّف وجهه الكالغ النابت الشعر المنغبر الأخاديد عن قسّات مليحة ورثتها زينب أمّا الأمّ القويّة فكانت أشبه برجل خشن.

ونشبت الأزمة المتوقّعة وزينب في الثانويّة العامّة إذ تقدّم لطلب يدها تاجر دجاج يُعتبر في الحيّ الفقير من الأغنياء. كان في الأربعين، أرملة، أبًا لثلاث إناث متزوّجات، رحت به الأمّ لينتشل بنتها من الربيع والتعب الفارغ ويهيئ لها حياة سعيدة. وعندما رفضت زينب العرض غضبت الأمّ، ولفح غضبها إسماعيل وأسرته، ثمّ قالت لابنتها:

- ستندمين، ستبكين بالدموع الغالية...

ولم تمرّ الواقعة بسلام فقد أطلق التاجر لسانه في ما

## الكرنك ٥٣٥

- كلاً! .
- أصارحك بأنني تخيلت بينكما حكاية! .
- قالت بأسى:
- كنا صديقين حميمين .
- ثم بلهجة اعترافية:
- لم أحب في حياتي إلا إسماعيل .
- أما زال هذا الحب قائماً؟
- ولكنها تجاهلت سؤالِي .
- وقصتها مع الثورة مكررة لقصة إسماعيل . وعن أول اعتقال قالت لي:
- قبض عليّ لصلتي المعروفة بإسماعيل، ولم تكن توجد شبهة ضدي، كما أقسمت لهم بأنه لم يكن يوماً من الإخوان، ولم أحجز أكثر من يومين ولم توجه إليّ إساءة .
- وابتسمت في أسى وقالت:
- المتاعب الحقيقية صادفتني في البيت وقالت لي أمي: هذا هو إسماعيل وهذه هي المصاعب التي تجيء من ناحيته .
- وتجهّم وجهها وهي تستطرد:
- وتصادف أن جاء اعتقالي بعد أسبوع واحد من القبض على أبي بتهمة العريضة والاعتداء على شرطيّ! فقلت لها بإكبار:
- إنّ تقدّمك خلال تلك الظروف نجاح باهر! وقلت لخالد صفوان لم تشكّون فينا؟ ألا ترى أنّنا أبناء الثورة، وأننا مدينون لها بكلّ شيء؟، فكيف تتهموننا بالعداوة!؟
- فقال بسخريته الباردة:
- تلك حجة ٩٩٪ من أعدائنا! .
- وحَدَّثتني عن إيمانها القديم بالثورة، كيف أنّ الاعتقال لم ينل شيئاً من صميمه:
- غير أنّنا كنا نشعر بأننا أقوياء لا حدّ لقوتنا، أمّا بعد الاعتقال فقد اضطرب شعورنا بالقوة وفقدنا الكثير من شجاعتنا، وثقتنا في أنفسنا وفي الأيام، واكتشفنا وجود قوة مخيفة تعمل في استقلال كلّي عن القانون والقيم الإنسانيّة، وبسبب ما عانته من عذاب في فترة اختفاء إسماعيل قلت له:
- أليس من الحكمة أن ننطوي على أنفسنا حيناً وأن نتجنّب المجتمعات والأصحاب؟
- ولكنه أجابني ساخراً:
- لقد قبض عليهم بسببي وليس العكس .
- فقلت لها معزّياً:
- هكذا يعاني الإنسان عادة ثمناً للثورات الكبرى . فتساءلت وهي تنتهد:
- متى يمكن أن تمضي الحياة عذبة بلا تعاسات مريرة!؟ .
- ثم حَدَّثتني عن اعتقالها الثاني . شعرت منذ البدء أنّني مقبل على سماع قصة عنيفة للذكريات .
- كانت التهمة تلك المرّة هي الشيوعية! ثمّ بتأثر عصبيّ:
- وكانت فترة لا يمكن أن تُنسى . وكما مثلت أمام خالد صفوان قال لي ساخراً:
- ها هي الصداقة بيننا تتوطّد . فقلت له:
- لا أدري لم قبض عليّ! .
- ولكنني أدري .
- فما هو السبب يا سيّدي؟ .
- السبب يرجع إلى مبادئ السيّدين الجليلين ماركس ولينين! .
- وصمت وهو يتفرّس في وجهي بحدّة ثمّ قال:
- أجيبني تحت شرط ألا ترجعي للحجة البالية، حجة كيف تشكّون فينا ونحن أبناء الثورة الخ... الخ .
- فقلت له وأنا يائسة تماماً من إقناعه:
- لسنا شيوعيين وأقسم لك على ذلك . فتمتم بغموض:
- يا للخسارة! . . .
- ورُميت في الزنزانة معرّضة لعذاب مهين لا تقدّر أذاه إلا امرأة فكان عليّ أن أحيا وأنام وأكل وأقضي الحاجة في مكان واحداً .
- فغمغمت بأسى:
- لا .
- وكنت عرضة في أيّ لحظة لأن ينظر إليّ الحارس

- من خلال منفذ في الباب ويتفرج عليّ ساخرًا، هل تدرك معنى ذلك؟
- نعم للأسف!
- وذات يوم استُدعيت إلى مكتب خالد صفوان في أثناء التحقيق مع إسماعيل، ولما رأيته في ذلّه وبأسه طفرت الدموع إلى عينيّ ولعنت من صميم قلبي الدنيا، ولكنني لم أبقَ هناك إلا ريثما هدّوه بتعديبي ثم رجعت إلى زناتي القذرة لأبكي طويلًا ولأتعدّب يومًا بعد يوم.
- واستُدعيت مرّة أخرى إلى حجرة خالد صفوان فقال لي:
- أرجو أن تكوني راضية عن ضيافتنا.
- فقلت بجرأة:
- كلّ الرضى يا سيدي، شكرًا لكم.
- ها هو صديقك قد اعترف بشيوعيته!
- فهتفت:
- تحت تأثير تهديدكم.
- ولكنّه حقيقيّ بصرف النظر عن الوسيلة.
- قطعًا لا يا سيدي، إنّها لفظاعة!
- فقال بغموض:
- إنّها لروعة!
- روعة!؟
- فقال وهو يشير بيده إشارة خاصّة:
- سنرى!
- وسمعت أقدامًا تقترب حتّى طوّقتني تمامًا، ما عسى أن أقول!؟
- توقّفت عن الكلام، تصلّبت عضلات وجهها، وتوقّعت سماع شرّ يفوق ما سبق، قلت:
- فلننه الحديث إذا شئت؟
- كلاً، إنّهُ ممّا يسرّ ساعه.
- ثمّ وهي تنظر في عينيّ بتحدّ:
- قرّر أن يرى مشهدًا مثيرًا وممتعًا وخارقًا للمألوف.
- فحفظ قلبي بارتياح وتساءلت:
- ماذا تعنين يا زينب؟
- ما أدركته تمامًا!
- كلاً!
- بالتّام والكمال.
- أمام عينيه!
- أمام عينيه!
- وساد صمت كأنّه بكاء أخرس حتّى تمتمت:
- أيّ رجل ذلك الرجل!
- أقصد خالد صفوان.
- لا غرابة في منظره، يصحّ أن يكون استاذًا في الجامعة أو رجلًا من رجال الدين.
- فقلت بلهول:
- المسألة محتاج لدراسة!
- فهتفت بعنف:
- دراسة!؟ هل تردّ الدراسة إليّ عرضي؟
- فاستحييت ولذت بالصمت.
- \*\*\*
- وبعد مرور أسابيع استُدعيت إلى حجرة خالد صفوان أيضًا، وجدته كما دته هادئًا أو أكثر هدوءًا من المعتاد كأن لم يقع شيء. وياقتضاب قال:
- لقد ثبتت براءتكم!
- نظرت إليه طويلًا فجعل ينظر إليّ بثبات ولا مبالاة، ثمّ صحّ:
- أرايت؟
- فأجاب بهدوء:
- إني أرى ما يمكن رؤيته!
- فهتفت بحقن:
- ولكنّي فقدت كلّ شيء!
- كلاً، كلّ شيء يمكن إصلاحه ونحن قادرون على كلّ شيء.
- فصرخت بجنون:
- لا يصدّق أنّ ما يحدث هنا ممّا ترضى عنه الثورة!
- إنّها حماية الثورة وهي أهمّ على أيّ حال من الأخطاء المحدودة، ونحن نبادر إلى إصلاح ما ينبغي إصلاحه منها، وسوف تذهبين وقد اكتسبت قيمة جديدة هي صداقتنا.
- أنحمت في بكاء عصبيّ طويل عجزت تمامًا عن مقاومته فتصبّر هو هادئًا حتّى سكّت ثمّ قال:

## الكرنك ٥٣٧

أخطأت ولكنني اندفعت في الطريق الوحيد المتاحة لي وهي تعذيب النفس، وإنزال أقصى العقوبة بها، واعتمدت على منطق غير عادي، قلت لأنني ابنة للثورة، ورغم كل ما حدث لم أكفر بجوهرها، وإذن فأني مسئولة عنها ومتحملة لمسئوليتها بالكامل، وضمنًا فأني مسئولة عن كل ما حل بي. لذلك رفضت التظاهر بحياة الشرفاء وقررت أن أعيش كما ينبغي لامرأة بلا كرامة...

- شد ما ظلمت نفسك.

- وكنت أحتمل كل شيء إلا أن يجتقني إسماعيل، وفي الوقت نفسه لم أرد أن أخونه، ثم اضطرب تفكيري فضلًا كبيرًا.

وهزت رأسها في أسى وقالت:

- وحدثت أمور كثيرة تعذر معها إصلاح الحال أو الرجوع إلى نقطة الصواب... ورأني في تلك الحال عم حسب الله تاجر الدجاج.

رمقتها بقلق شديد فقالت:

- وجد الطريق ممهدة تلك المرة.

- لا.

- لم لا؟ قلت هكذا ينبغي أن تمضي حياة الساقطة، ولا يجوز السقوط بلا ثمن...

- لا أصدق.

- وقبضت الثمن...

شعرت بقرق الدنيا كلها وجعلت محمدجني بنظرة ساخرة ثم قالت بتحد:

- وزين العابدين عبد الله أيضًا!

فاعتصمت بالصمت فقالت:

- وسط لدي إمام الفؤال الجرسون وجمعة مساح الأحذية.

- طالما اعتقدت في شرفها ووطنيتها..

فقالت بدهشة:

- كانا كذلك ولكنهما تدهورا مثلي تمامًا، ماذا حصل للناس؟، يُخيل إلي أننا صرنا أمة من المنحرفين، تكاليف الحياة والمزيم والقلق تفتت القيم. إنهما يسمعان عن الانحراف في كل مكان لماذا يمنعهما منه؟... أؤكد لك أنها يجتران القواداة الآن، وبلا

- ستذهبن الآن إلى أحد معاوون وسيعرض عليك مشروع صداقة لا يقدر بثمن.

وصمت لحظات ثم استطرد:

- نصيحتي لك ألا ترفضيه، إنه فرصة العمر.

\* \* \*

أصبحت زينب مرشدة. عُرضت عليها امتيازات. تقرر أن يكون إسماعيل رهينة حتى بعد الإفراج عنه، طولبت بالسرية المطلقة، أفهموها أنها تعمل لحساب قوة قادرة على كل شيء.

- وعندما رجعت إلى بيتي وخلوت إلى نفسي هالتي ما خسرت، خسارة حقًا لا تعوض بأي ثمن، ولأول مرة في حياتي وجدتي أحقر نفسي حتى الموت.

قلت معزبًا:

- ولكن...

فقاطعتني:

- إياك وأن تدافع عني، إن الدفاع عن الهوان من ضمن الهوان.

ثم بحدّة:

- وجعلت أردد بإصرار، أي جاسوسة وعاهرة!، وعلى تلك الحال قابلت إسماعيل.

- طبعًا أخفيت عنه أسرارك؟

- أجل.

- لقد أخطأت يا عزيزتي.

- كان عملي السري أخطر من أن أفشيهِ لأي إنسان.

- أعني المسألة الأخرى؟

- منعني الخوف والخجل، والأمل أيضًا، توهمت بعد أن أصلح الخطأ بالجراحة أنني يمكن أن أطمح إلى السعادة مرة أخرى.

- ولكن ذلك لم يحصل، حتى الآن؟

فتمتعت بحزن عميق:

- هيهات.

فقلت برجاء:

- لعلي أستطيع أن أصنع جميلًا.

فقالت بنبرة ساخرة:

- هيهات، انتظر حتى أكمل قصتي، ربما أكون قد

- حياء...  
فتنهتد متسائلًا:  
- هل نياس يا زينب؟  
- كلاً، إنها فترة كالوالباء ثم تتجدد بعدها الحياة.  
فواصلت تقول دون اكتراث بكلامي:  
- وقررت أن اعترف لإسماعيل!  
فقلت دهشًا:  
- ولكنك قلت غير ذلك؟  
- قررت أن اعترف له بطريقة مبتكرة فسلمته نفسي!  
- الحق أتي عاجز عن فهم ما بينك وبين إسماعيل؟  
- من العبث أن تحاول الوصول إلى منطق ثابت من خلال عاصفة...  
- هل تحيين إسماعيل؟  
- لم أحب أحدًا سواه.  
- ماذا عن الآن؟  
- إني أشعر الآن بالموت لا الحب...  
- زينب، إنك ما زلت شابة في مطلع الحياة وسوف يتغير كل شيء.  
- إلى أحسن أم إلى أسوأ؟  
- لا يوجد أسوأ مما نحن فيه فلا بد أن يكون التغيير إلى الأحسن...  
- لنعد إلى قصتنا، كان لي عزاء فيها أفعل بنفسني هو الشعور بعداب العقوبة حتى ارتكبت ما لا يمكن التكفير عنه بأي عقوبة...  
- حقًا؟  
- أجل، بدأت تفرغ مني؟  
- إني أرثي لك يا زينب.  
- ذهب ذات مساء أنا وإسماعيل إلى بيت حلمي حمادة، وجدناه نائرا، واعترف لنا بأنه يوزع منشورات سرية...  
وتوقفت عن الكلام تأثرا للذكرى فرحبت بالاستراحة باعتبارها هدنة في معركة العذاب.  
- بوغتُ باعترافه وتمنيت لو أنني تخلفت عن الاجتماع...  
- إني أفهمك جيدًا.
- وتدكرت القوة القادرة على كل شيء، ركبي الخوف، ونخت أول ما نخت على إسماعيل!  
آه... لقد اعتقد إسماعيل أنهم اكتشفوا تقاعسه عن الإبلاغ بوسائلهم الخاصة ولم يخطر بباله أن التي أوقعته هي زينب. وأنها أوقعته وهي تتوهم أنها تدفع عنه الأذى  
وتبادلنا النظرات في صمت مثل بالبحزن حتى قالت:  
- أنا التي قتلت حلمي حمادة!  
فقلت بصدق:  
- قتله من قضى عليك بالعذاب...  
- أنا التي قتلتها، ورغم كل شيء قبض على إسماعيل أيضًا، لماذا؟ لا أدري، وطال اعتقاله أكثر من المرتين السابقتين، ورجع أشد تهتمًا، لماذا؟ لا أدري، لقد سجلت في تقريره أنه عارض صاحبه ونصحه بالعدول عن مشروعه. ولكن من العبث محاولة الاحتكام إلى المنطق...  
- كنت أنت طليقة في تلك الأثناء؟  
فقلت بسخرية:  
- كنت حرة، أستمتع بحريتي، وبالوحدة والعذاب، ثم جاءت مقدمات الحرب ونذرنا، ومثل الناس جميعًا وثقت بقوتنا إلى غير حد وقلت لنفسني إن كل شيء بخيره وشره سيخلد إلى الأبد، فلما وقعت الواقعة...  
وصمتت في ذهول فقلت:  
- لا داعي للشرح فقد عانيهنا بأنفسنا ولكن هل آيدت جماهير ٩، ١٠؟  
- نعم، بكل قوة...  
- إذن ظل إيمانك لا يتزعزع؟  
- بل لقد انهار من أساسه وأمنت بأنه كان قصرًا من رمال.  
- اسمحي لي بأن أصارحك بأنني لا أفهم موقفك...  
- الأمر بسيط جدًا، لقد أشفقت من حمل المسؤولية فجأة، خفت الحرية بعد أن استنمت طويلًا إلى اللامبالاة، وأنت أكنت من الجماهير تلك اللحظة؟



- تفاصيلها... .
- فهزرت رأسي في أسي وكزرت سؤالي:
- فيم تفكرين الآن؟
- أيهمك حقاً أن تعرف؟
- الحق أنني لا أتصور أنك مستمرة في... .
- وتوقفت رغماً عني. فقالت تكمل كلامي:
- ممارسة البغاء؟
- فلم أنكر ولم أوافق فقالت:
- أشكر لك حسن ظنك.
- فلم أعلّق بكلمة فقالت:
- إنّي أمارس حياة متشكّفة بكلّ معنى الكلمة.
- فتساءلت بفرح:
- حقاً؟
- أجل.
- وكيف حدث ذلك يا زينب؟
- سرعان ما حدث، بثورة مضادة، ونتيجة لقرف لا يزول... .
- ثمّ تساءلت بحنان:
- أين أيام البراءة والحماس أين؟!

## خالد صفوان

- في الكرنك يسيطر حديث واحد، يوماً بعد يوم، أسبوعاً بعد أسبوع، شهراً بعد شهر، عاماً بعد عام، لا حديث لنا سواه. الجميع في ذلك سواء... محمد بهجت، رشاد مجدي، طه الغريب، زين العابدين عبد الله، إسماعيل الشيخ، زينب دياب، عارف سليمان، إمام الفوّال، جمعة وشبان جدد هم آخر عيّنة في تعاقب الأجيال، أمّا قرنفلة فقد انزوت في ثوب الحداد تراقب وتصفي أحياناً ولا تخرج من الصمت.
- ويضنينا الملل كثيراً حتى يقول قائلنا:
- اختاروا موضوعاً آخر قبل أن نجنّ.
- فتحمّس لاقتراحه بالألسنة، نظرق موضوعاً ما، نعالجه بفتور فسرعان ما يلفظ أنفاسه فنعود إلى موضوعنا الباقي، نقتله ويقتلنا بلا توقّف، بلا نهاية.
- الحرب، لا سبيل إلا الحرب.
- بل العمل الفدائيّ ونركّز على الدفاع.
- نعم كنت أتعلّق بأخر رمق من الكبرياء الوطنيّ! فقالت بحدّة:
- عندما علمت بخبر الإفراج عن إسماعيل قلت لنفسني «سأراه مرّة أخرى بفضل الهزيمة!» وتفكّرت في قولها بحزن ولم بالغين.
- وحديثني عن هذيان أول لقاء تمّ بينها وبين إسماعيل عقب الإفراج عنه:
- ولما تخرّجنا وتوظّفنا طغى حديث الزواج كضرورة يفرضها الحياء، كنّا نردّه بلا إيمان ونعبره إلى العزلة، وليس غريباً أن أنغبر وأن أنحلّ عن حلم الماضي ولكن ماذا غيره هو؟... ماذا حدث له في أعماق السجن؟ كلّ منها مقتنع بتغيّره هو ولكنّه يتساءل عن تغيّر الطرف الآخر. وكلّ منها مقتنع بأنه غير صالح للحياة الطبيعيّة. وأنا مقتنع معها بذلك على الأقلّ في هذه الفترة التعميسة، إذ يلزم وقت كافٍ لتضميد الجراح وتطهير النفس، بل يلزم عمل يكون من شأنه إعادة الثقة إلى النفس والاحترام إلى الشخصيّة. غير أنّ مناقشة تلك الأمور تعدّرت عليّ بطبيعة الحال ولكنني قلت مستثراً بالعموميّات:
- الإنسان لا يتغيّر- أعني إلى أحسن- لا بالاستسلام ولا بالانتظار... .
- فقالت بامتعاض:
- ما أسهل التفلسف!
- ربّما، ولكنّ إسماعيل يتوجّه بقلبه هذه الأيام نحو الفدائيّين.
- أعرف ذلك.
- فتساءلتُ بعد تردّد:
- وفيم تفكرين أنت؟
- فصمتت فترة غير قصيرة ثمّ قالت:
- قبل أن أجيبك عليّ أن أصحح واقعة تخصّص إمام الفوّال وجمعة، فالحقّ أنّ وساطتهما بين زين العابدين وبيبي عقب الاعتقال الثاني تمّت بجهل وبراءة... .
- أتعنين أنّها بريتان ممّا رميتهما به؟
- كلاً، ولكنّها سقفاً في الأعوام الأخيرة لا قبل ذلك، وقد التبس عليّ الأمر وأرجو أن تذكر أنّي أروي قصّتي من الذاكرة وأني لا أضمن الدقّة في

- لثرفع الوصاية عن العرب... .
- الحرّية... الحرّية... .
- الاشتراكية... .
- لنقل الاشتراكية الديمقراطية... .
- لنبدأ بالحرب ثمّ نتفرّغ للإصلاح.
- بل نبدأ بالإصلاح ثمّ تتقرّر الحلول في المستقبل.
- يجب أن يسير الاثنان معاً.
- وهكذا إلى ما لا نهاية... .
- وذاوات مساء جاء المقهى رجل غريب يتأبط ذراع شابّ، فجلس على كئب من المدخل، وقال للشابّ بصوت أمر:
- سأنتظر هنا حتى تشتري الأدوية، أسرع.
- وذهب الشابّ ولبت الآخر جالساً. كان متوسط القامة، ذا وجه ضخم مستطيل وحاجبين غزيرين عريضين، وعينين واضحتين غائرتين، وجبهة بارزة، وكان شاحب اللون كأنه مريض أو في دور النقاهة. وسرعان ما همس إسماعيل الشيخ في أذني:
- رأيت الرجل الغريب عند المدخل؟... انظر إليه... .
- وكان قد لفت نظري كأيّ غريب يطرأ على المقهى، فسألته:
- ما له؟
- فأجاب بصوت متهدج:
- إنّه خالد صفوان!
- فاجتاحني الدهول وغمغمت:
- خالد صفوان؟
- دون غيره.
- هل أفرج عنه؟
- انقضت مدّة سجنه وهي ثلاث سنوات ولكنّ أمواله مصادرة... .
- ورحت أشرق إليه النظر بحبّ استطلاع وتعجب، أودّ أن أشرّحه لأعثر على العنصر الزائد أو الناقص في كينونته. وانتقل الخبر من فرد إلى فرد حتى ساد الصمت وتناوبت الأبصار. وغفل عنّا حيناً ثمّ مضى يستشعر التطلّعات المبهمة من حوله فتنبّه إلينا كمن يستيقظ من نوم. تحرّكت عيناه الغائرتان ببطء وحذر،
- الحلّ السلميّ ممكن أيضاً.
- الحلّ الوحيد الممكن هو ما تفرضه الدول الكبرى مجتمعة.
- المفاوضات تعني التسليم.
- المفاوضات ضرورة، كلّ الأمم تتفاوض، حتى أمريكا والصين وروسيا وباكستان والهند.
- الصلح معناه أن تسيطر إسرائيل على المنطقة وتزودها لقمة سائغة.
- كيف نخشى الصلح؟، هل ازدرّنا الإنجليز أو الفرنسيّون؟
- إذا أثبت المستقبل أنّ إسرائيل دولة طيّبة عايشناها وإن ثبت العكس أزلناها كما أزلنا الدولة الصليبيّة من قبل... .
- المستقبل لنا، انظر إلى عددنا وثوراتنا... .
- المسألة علم وحضارة... .
- إذن فلنحارب، لا حلّ إلّا الحرب... .
- روسيا لا تمدّنا بالسلاح الضروريّ... .
- لم يبقَ إلّا حالة اللاسلم واللاحرب... .
- لهذا يعني الاستنزاف الدائم لنا... .
- معركتنا الحقيقيّة معركة حضارة، السلم أخطر علينا من الحرب... .
- فلنسرّح الجيش ولنبن أنفسنا من جديد.
- لنعلن الحياد ونطالب الدول الاعتراف به.
- والفدائيّون؟... أنت تتجاهل القوّة الفعّالة في الموقف... .
- لقد انهزمتنا وعلينا أن ندفع الثمن ونترك الباقي للمستقبل... .
- عدوّ العرب الحقيقيّ هو العرب أنفسهم... .
- قل الحكّام.
- قل أنظمة الحكم.
- كلّ شيء يتوقّف على اتحاد العرب في العمل.
- لقد انتصر نصف العرب على الأقلّ في ٥ يونيو!
- لنبدأ بالداخل، لا مفرّ.
- عظيم، الدين، الدين هو كلّ شيء.
- بل الشيوعيّة!
- بل الديمقراطية.

## الكرنك ٥٤١

عضو حي يموت .  
جرثومة كامنة تدبّ فيها الحياة .  
ثمّ مضى يقول :  
- إلى اللقاء .  
وخلف وراءه ذهولاً شاملاً، قال قوم إنّه يهذي ،  
وقال آخرون إنّه يهزأ بنا، وغير هؤلاء وأولئك قالوا إنّه  
يحاول الدفاع عن نفسه، إنّه يقول إنّه بدأ من البراءة  
وإنّ قوى غشومة أفسدته، ولكن ما العين السحرية؟  
ما العضو الحيّ الذي مات؟ ما الجرثومة الكامنة التي  
دبّت فيها الحياة؟!

\* \* \*

وبعد مرور شهر فاجأنا بحضوره كأول مرّة،  
تساءلنا لماذا يعود؟، لمّ لمّ يجترّ مكائناً آخر ليتنظر  
فيه؟... أهو يتحدّثنا؟... أهو يستعطفنا؟... أئمة  
قوة خفية تدفعه نحونا؟

قال وهو يجلس :  
- أسعد الله مساكم...  
ثمّ وهو يقلّب عينيه في وجوهنا :  
- عندما يأمر الله بالشفاء سانضمّ إلى مجلسكم...  
فسأله منير أحمد وهو آخر من انضمّ إلينا من أحدث  
الأجيال :  
- هلأ فسرت لنا كلمتك المنثورة؟  
فقال بيقين :  
- إنّا واضحة بنفسها ولا تحتاج إلى تفسير، ثمّ  
لأني أكره الخوض في ذلك!  
فقالت له قرنفة :  
- يا خالد بك... إنك تزعجنا!  
فقال يهدوء :  
- أبداً، لا شيء يقرب بين الناس مثل العذاب  
المشترك!

ثمّ بعد صمت قصير :  
- أعدكم بالانضمام إليكم في أول فرصة!  
وضحك ضحكة خافتة وتساءل :  
- فيم تتحدّثون؟  
وسكتنا في حدّر، فقال :  
- إنّي أعرف ما يقال، إنّه يقال في كلّ مكان،

رأى ولا شكّ وجوهها يعرفها حقّ المعرفة مثل زينب  
وإسمايل، ونظر باهتمام إلى قرنفة، ثمّ مدّ ساقيه،  
وتقلّصت شفتاه، لعلّه ابتسم، أجل لقد ابتسم، ولكنّه  
لم يضطرب كما توقّعت، لم يخفّ، وعنه ندد صوت  
ضعيف يقول :  
- هاللو!

ونظر إلى الوجوه التي يعرفها وقال :  
- وقد يلتقي الشيتان...!  
وأغمض عينيه لحظة ثمّ قال وكأنّما يخاطب نفسه :  
- شدّ ما تغيّرت يا دنيا، إنّي أعرف هذا المقهى،  
ها نحن نجتمع في مكان واحد مع أسوأ  
الذكريات...!

فقال قرنفة ولم تكن سمعنا صوتها من زمن  
طويل :

- حقاً أسوأ الذكريات!  
فوجّه إليها الخطاب قائلاً :  
- لست الخزينة وحدك اليوم .  
ثمّ بصوت أقوى :  
- كلنا مجرمون وكلنا ضحايا .  
فقال بحدّة :  
- المجرم شخص والضحية شخص آخر .  
- كلنا مجرمون وكلنا ضحايا، من لم يفهم ذلك  
فلن يفهم شيئاً على الإطلاق...  
وعند ذلك رجع الشابّ فسلمه لفافة الأدوية وأشار  
إلى الروشّة وهو يقول :  
- هذا الدواء غير موجود في السوق .  
فنهض خالد قائلاً :  
- عظيم، المرض موجود أمّا الدواء فغير متوفّر...  
ونظر إلينا وهو يهيمّ بالذهاب وقال :  
- لعنكم تتساءلون ما قصّته؟ ما قصّة ذلك  
الرجل؟. تجدونها في هذه الكلمات المنثورة :

براءة في القرية .  
وطنية في المدينة .  
ثورة في الظلام .  
كرسيّ يشعّ قوة غير محدودة .  
عين سحرية تعري الحقائق .

ونسي أمره تمامًا خلال ثلاثة أشهر، ولما جاءنا مع تابعه في نفس الميعاد من المساء استقبل استقبالًا عاديًا كأنه فرد عادي من الناس، ووجد نفسه في عزلة. ولذلك فتح هو الحديث من ناحيته فتساءل مقتحمًا لامبالتنا:

- أما زلتم تتحدثون؟...

فقال له زين العابدين عبد الله:

- كالعادة!

فأصرَّ على إقحام نفسه قائلاً:

- لقد حدَّثتكم عن آراء الطوائف ولكنتي لم

أحدِّثكم عن رأيي.

فسأله منير أحمد:

- عن الحرب؟

فقال بعجلة:

- هذه النقطة بالذات تحيّر العقول ولكنتي أراها بسيطة. فثمة هزيمة، وعدم استعداد للحرب، فيجب أن نحلها دون إبطاء ولو دفعنا الثمن، لننفق كل مليم على تقدُّمنا الحضاري، ولكنتي في الحق أريد أن أتكلّم عن حياتنا بصفة عامّة.

ونجح في أن يلفت الأنظار إليه فقال:

- سأعترف لكم في الدقائق الباقية لي هنا بخلاصة تجرّبيتي، لقد خرجت من الهزيمة أو قل من حياتي الماضية مؤمنًا بمبادئ لن أحمدها ما حييت، ما هي هذه المبادئ؟

أولًا - الكفر بالاستبداد والديكتاتورية.

ثانيًا - الكفر بالعنف الدموي.

ثالثًا - يجب أن يطرد التقدّم معتمدًا على قيم الحرية والرأي واحترام الإنسان وهي كفيّلة بتحقيقه.

رابعًا - العلم والمنهج العلمي هو ما يجب أن نتقبّله من الحضارة الغربية دون مناقشة أمّا ما عداه فلا نسلم به إلا من خلال مناقشة الواقع متحرّرين من أيّ قيد قديم أو حديث.

ثمّ ثناءب وهو يقول:

- هذه هي فلسفة خالد صفوان التي تعلّمها في أعماق الجحيم، والتي أعلنها في الكرنك حيث يجتمعنا النفي والجريمة.

اسمحوا لي أن أوضح لكم البواعث.

واعتدل في جلسته ثمّ واصل حديثه:

- يوجد في وطننا دينيون، وهؤلاء يهتمهم قبل كلّ شيء أن يسيطر الدين على الحياة، فلسفة وسياسة وأخلاقياتًا واقتصادًا، وهم يرفضون التسليم للعدوّ ويأبون المفاوضات معه ولا يرضون عن الحلّ السلميّ إلا أن يحقّق لهم ما يحقّقه النصر نفسه، أو فإتهم ينادون بالجهاد، ولكن أيّ جهاد؟ تراهم يحلمون بخوارق الفدائيين أو بمعجزة تنزل من السماء، وقد يقبلون السلاح الروسيّ وهم يلعنون الروس وبشرط أن يجيء دون قيد أو شرط، ولعلمهم يفضلون حلًا سلميًّا مشرفًا يتحقّق بتدخّل أمريكا وينهي علاقتنا بروسيا الشيوعية نهائيًّا.

وصمّت لحظات ثمّ واصل:

- ويوجد يمينيون من نوع خاصّ، يتمنّون التحالف مع أمريكا وقطع العلاقات مع روسيا، ويرضون بحلّ سلميّ مع تنازلات لا مفرّ منها، ثمّ يحلمون بالتخلّص من النظام الحاليّ، والعودة إلى الديمقراطية التقليدية والاقتصاد الحرّ.

ويوجد شيوعيون - والاشتراكية فصيلة منهم - يهتمهم قبل كلّ شيء الأيدولوجية وتوثيق العلاقات بروسيا، ويرون أنّ خير الوطن وتقدّمه لن يتحقّق إلا من خلال الأيدولوجية ولو طال الانتظار، ولذلك فهم يرحّبون بالحلّ الذي يرسّخ الاتجاه نحو الشيوعية وروسيا سلمًا كان أو حربًا، أم الحالة التي يُطلق عليها اللاسلم واللاحرب.

ومن عجب أنّه اكتسب شعبية عقب انصرافه، ونوّه كثيرون بقيمة عرضه، وبثراء مخزونه من الأسرار، بل وجد من يدافع عنه فيقول إنّهُ لم يكن مسئولًا عن جرائمه أو لم يكن يتحمّل المسئولية الأولى، حتّى قالت قرنفة محتدّة:

- زحزحوا المسئولية من شخص لشخص حتّى

تستقرّ في النهاية فوق كاهل جمعة مسّاح الأحذية!

ولكن وجد استعدادًا لقبوله إذا قرّر حقًا الانضمام إلى الكرنك.

## الكرنك ٥٤٣

فتفكرت مرة أخرى ثم قلت:  
 - لعل الأمر يحتاج إلى مزيد من المناقشة.  
 فقال ببراءة:  
 - أعتقد أنه ينبغي أن نتناقش طويلاً.  
 وأعلنت إعجابي بالشاب كثيراً حتى برم بي زين  
 العابدين عبد الله فقال لي مرة هازئاً:  
 - سيجد نفسه بعد عامين أو ثلاثة موظفاً بمبلغ  
 زهيد فيختار بين أمرين لا ثالث لهما، الانحراف أو  
 الهجرة؟  
 فغضبت قرنفلة وقالت له بحدة:  
 - متى تخطئ فتنتق بكلمة طيبة ولو مرة؟  
 فابتسم الرجل في استسلام وقال:  
 - الحقيقة مرة يا صاحبة السعادة.  
 فقالت بعناد:  
 - يوجد سبيل ثالث.  
 فسألها بخضوع:  
 - ما هو يا مولاتي؟  
 - هو الذي سيختاره صاحبنا!  
 سررت جداً بانفعالها وعدده علامه طيبة على بدء  
 العودة إلى الحياة مرة أخرى، ولكن خطر لي خاطر  
 مشير، وتساءلت ترى هل شرعت قرنفلة تميل إلى  
 الطالب؟، هل سيحل يوماً محل حلمي حمادة؟. إنني لا  
 أجهل حال بعض النساء في تلك السن ولعهن  
 بالمراهقين، والتفاني في ذلك لحد المغامرة والموس.  
 ووجدتني أتمنى - لو وقع شيء مما دار بخاطري - أن  
 يمضي على صراط متوازن بلا أنانية من جهة ولا  
 استغلال من الجهة الأخرى، ليتحقق للحب النقاء  
 والبراءة.

ديسمبر: ١٩٧١

ملت نحو منير أحمد وقلت:  
 - لعل أيامكم تكون أفضل.  
 فقال:  
 - أماننا جبل شاهق علينا أن نزيحه.  
 فقلت بصدق:  
 - الحق أنكم - أنت وزملاؤك - ثمرة لم تكن  
 متوقعة، فمن ظلام شامل انبعث نور باهر كأنما تخلق  
 بقوة السحر.  
 - إنك لا تدري بالآمنا.  
 - ولكننا شركاء.  
 رمقني بشدة فسألته:  
 - خبرني ما أنت؟  
 - ماذا تعني؟  
 - تحت أي صفة سياسية يمكن أن أصتفك؟  
 فقال بضجر:  
 - اللعنة على الصفات جميعاً.  
 - من حديثك اقتنعت بأنك تحترم الدين؟  
 - ذلك حق.  
 - وفهمت أيضاً أنك تحترم اليسارية؟  
 - ذلك حق.  
 - إذن فما أنت؟  
 - أريد أن أكون أنا بلا زيادة ولا نقصان.  
 فتفكرت قليلاً وقلت:  
 - أهو شوق للأصالة؟  
 - ربما.  
 - أيعني إذن الاتجاه نحو الحضارة الغربية؟  
 - كلا.  
 - إذن فأين توجد الأصالة؟  
 فأشار إلى صدره وقال:  
 - هنا.

حَقَائِدُ - حَلَاتِنَا

## الحكاية رقم ١

تستقرّ على قلبي، فأنظر ناحية التكية. هناك تحت شجرة التوت الوسيطة يقف رجل. درويش ولكنّه ليس كالدراويش الذين رأيت من قبل. طاعين في الكبر، مديد في الطول، وجهه بحيرة من نور مشعّ. عباة خضراء وعمامة الطويلة بيضاء وفخامته فوق كلّ تصوّر وخيال. ومن شدّة حلقتي فيه أتمل بنوره فيملاً منظره الكون. وخاطر طيب يقول لي إنّه صاحب المكان ووليّ الأمر، وإنّه ودود بخلاف الآخرين. أقرب من السور ثم أقول بابتهاج:

- إني أحبّ التوت...

فلم ينبس ولم يتحرك فأتوهم أنّه لم يسمعي، أكرّر بصوت أعمق:

- إني أحبّ التوت...

يخيل إليّ أنّه يشملي بنظرة، وصوته الرخيم يقول:

- «بليلي خون دلي خورد وكلي حاصل كرد».

ويخيل إليّ أنّه رمى إليّ بثمره فأنحني نحو الأرض لالتقطها فلا أعر على شيء ثمّ أستقيم فأجد مكانه خاليًا، والظلمة تغشى الباب الداخلي.

وأقصّ القصّة على أبي فيرمقي بارتباب فأؤكد لها فيقول:

- تلك الأوصاف لا تكون إلاّ للشيخ الكبير ولكنّه لا يغادر خلوته!

فأحلف له على صدقي بكلّ مقدّس فيسألني:

- ترى ما معنى الرطانة التي حفظتها؟

- سمعتها مرارًا ضمن ترانيل التكية...

فيصمت أبي مليًا ثمّ يقول:

يروق لي اللعب في الساحة بين القبو والتكية. ومثل جميع الأطفال أرنو إلى أشجار التوت بحديقة التكية. أوراقها الخضراء هي ينابيع الخضرة الوحيدة في حارتنا. وثارها السود مثار الأشواق في قلوبنا الغضة. وها هي التكية مثل قلعة صغيرة تحدى بها الحديدية، بوابتها مغلقة عابسة، دائيًا مغلقة، والنوافذ مغلقة، فالمبنى كلّ غارق في البعد والانطواء والعزلة، تمتدّ أيدينا إلى سوره كما تمتدّ إلى القمر.

وأحيانًا يلوح في الحديدية ذو لحية مرسله وعباءة فضفاضة وطاقية مزركشة فنهتف كلنا:

- «يا درويش... إن شاء الله تعيش».

ولكنّه يمضي متأملاً الأرض المعشوشبة أو يتمهل عند جدول ماء، ثمّ لا يلبث أن يختفي وراء الباب الداخلي.

- من هؤلاء الرجال يا أبي؟

- إنهم رجال الله...

ثمّ بنبرة ذات معنى:

- ملعون من يكدر صفوهم!

ولكنّ قلبي مولع بالتوت وحده.

ويهنكفي اللعب ذات يوم فأجلس على الأرض لأستريح ثمّ أغفو. أستيقظ فأجدني وحيدًا في الساحة، حتّى الشمس توارت وراء السور العتيق، ونسائم الربيع تهبط مشبعة بأنفاس الأصيل. عليّ أن أمرق من القبو إلى الحارة قبل أن يدبّ الظلام. وأنفض متوتبًا ولكنّ إحساسًا خفيًا يساورني بأنني غير وحيد، وأنني أهميم في مجال جاذبية لطيف، وأنّ ثمة نظرة رحيبة

وتسمح فأدخل، أقترِب من مجلسها فترمقني بنظرة  
باسمة وتقول:

- وقعت يا بطل . . .
- وتستلقي على بطنها وتقول:
- دُك لي ظهري .
- أشمر عن ساعديّ، أدلك ظهرها بحماس ورضا،
- أشمر رائحة جسد بشريّ معبق بالصابون والقرنفل،
- وهي تتمتم:
- تسلم يداك!
- ثمّ بمزاح:
- أنت عفريت من الجنة!
- ثمّ وهي تضحك:
- الكتكوت الفصيح يخرج من البيضة يصيح .
- ويزداد حماسي في العمل فتقول:
- ارفع يدك لفوق يا شيطان، هل ستخبر أمك؟
- كلاً .
- فتضحك وتقول:

- وعارف أيضًا أنه يوجد ما لا يقال، حقيقة أنك  
شيطان، هل تعلمت التدليك في الكتاب؟، ماذا  
تدرس في الكتاب؟

- الفاتحة وإف باء .

- ربنا يحفظك وأشوفك ماشطة، ماذا ستأكل  
اليوم؟

- بامية .

- عظيم ساتغذى عندكم .

زياراتنا لبيتنا ندوات للبهجة والمرح، تنال الملح  
من فيها بلا حساب، وكذلك النكات المكشوفة،  
فتحاول أمي أن تبعدني ولكني أرجع، وتشير لها  
إشارات خفية محذرة فأتشبّث بالبقاء وتتهدى هي في  
الدعابة .

وتسألها أمي معاتبه:

- متى تصلين وتصومين؟

فتجيب:

- في آخر شهر قبل يوم القيامة .

في الخميسين، مهذارة مرحة طروب ولكتها لم تنزلق  
لسوء. وعمل ابنها زكي نجارًا في حارتنا فسار بين

- لا تخبر بذلك أحدًا .

ويبسط يديه ثمّ يتلو الصمدية .

وأهرع إلى الساحة فأتحلف وحدي بعد ذهاب  
الصبيان . أنتظر ظهور الشيخ فلا يظهر . أهتف بصوتي  
الرفيع:

- «بلبي خون دلي خورد وكلي حاصل كرد» .

فلا يجيب . أعاني بلاء الانتظار وهو لا يرحم لهفتي .  
وأتلذّر الحادثة في زمن متأخر، أتساءل عن  
حقيقتها، هل رأيت الشيخ حقًا أو ادّعت ذلك  
استوهابًا للاهوية ثمّ صدقت نفسي؟، هل توهمت ما لا  
وجود له من أثر النوم ولكثرة ما يقال في بيتنا عن  
الشيخ الكبير؟ . هكذا أفكر، وإلا فلماذا لم يظهر  
الشيخ مرّة أخرى؟ . ولماذا يُجمع الناس على أنه لا  
يغادر خلوته؟ هكذا خلقت أسطورة وهكذا بدّتها .  
غير أنّ الرؤية المزعومة للشيخ قد استقرت في أعماق  
نفسي كذكرى مفعمة بالعدوية . كما أنني ما زلت مولعًا  
بالتوت .

## الحكاية رقم ٢

شمس الضحى تسطع والسماء صافية . من موقفي  
فوق السطح أرى المآذن والقباب، وأرى غرابًا واقفًا  
على وتد مغرور في سور السطح مربوط به حبل  
الغسيل . أرمق السطح الملاصق فيتحلّب ريقى .  
تحدّثني نفسي بأن أذهب إلى ستّ أمّ زكي لأحظى  
بشيء من الحلوى . وأعبر السور . أمضي نحو المنور،  
أطلّ من نافذة فيه مخلوعة الزجاج، أرى تحت المنور  
مباشرة ستّ أمّ زكي عارية تمامًا . تجلس على كنبه  
تشمس، تمشط شعرها، عارية تمامًا . . . منظر غريب  
وباهر، وهي في ضخامة بقرة . وأهتف:

- يا تيزة!

ترتعب، تنظر إلى فوق، لا تلبث أن تضحك،

تصيح بي:

- يا عكروت . . . انزل . . .

أهبط بسرعة ثمّ أقف عند الباب بحذر مبهم

وأتساءل:

- أدخل؟



### حكايات حارتنا ٥٤٩

- ماذا جرى لي؟ ... ماذا جرى لي يا رب؟  
 أين أنت يا أمّ زكي؟  
 ويضطرّ المعلّم زكي أخيراً إلى نقلها إلى قصر  
 العيني. وتودّع عيناى الدامعتان الكارو وهي تتأرجح  
 بها. وتلمحني واقفاً فتلوّح لي بيدها وتقول:  
 - ادعُ لي فإنّ الله يستجيب لدعاء الصغار.  
 فأرفع عينيّ إلى السماء وأتمتم: «يا رب... رجّع لنا  
 تيزة أمّ زكي».  
 ولكن كأنّ الكارو حملتها إلى بلاد الواق الواق.

## الحكاية رقم ٣

اليوم جميل ولكنه يعبق بسرّ.  
 أبي ينظر إليّ باهتمام. يبتسم لي برقة وهو يحسني  
 قهوته. وهو يهيم بالذهاب يداعب شعري ويربت على  
 منكمبي بحنان ثم يمضي.  
 وأمّي تقوم بعملها اليوميّ بعصبيّة، تغضي عن  
 عيني وتقول لي مشجعة:  
 - اللعب يا حبيبي...  
 لا نظرات تهديد ولا زجر ولا وعيد.  
 وأصعد إلى السطح بعض الوقت ولما أرجع أجد  
 أمامي جارتنا الشاميّة أمّ برهوم. أعدو إلى المطبخ  
 لأخبر أمّي ولكّني لم أجدها، وأناذي عليها بلا جدوى  
 فتقول لي أمّ برهوم:  
 - نيتك ذهبت في مشوار، وأنا معك حتى  
 ترجع...  
 فأقول محتجاً:  
 - ولكّني أريد أن أعب في الحارة.  
 - وتتركني وحدي وأنا ضيفتك؟  
 وأصبر متضايقاً.  
 ويدقّ الباب فتومئ لي بالانتظار وتذهب. تغيب  
 دقيقة وإذا بعنّ حسن الحلاق ومساعدته يدخلان  
 باسمين فقلت لهما من فوري:  
 - أبي خرج.  
 فقال العجوز:  
 - نحن ضيوف، سنريك لعبة فريدة.

الناس مرفوع الرأس. وهي تلمن التدخين والقهوة  
 وسماح أسطوانات منيرة المهديّة، أرملة، في كلّ بيت لها  
 صديقة حميمة، لم تشتبك في مشاجرة واحدة في حارتنا  
 الحافلة بالمشاحنات.

\*\*\*

وتنتهد أمّي ذات يوم وتقول:  
 - مسكينة يا أمّ زكي، ربّنا يراك ويشفيك...  
 تتوعك صحتّها، وتأخذ في التدهور، تهزل بسرعة  
 مذهلة كأنّها كرة نُقبت، يترهل جسمها فيغدو طيات  
 من الجلد خاوية، ونحيب في شفائها كافّة الوصفات.  
 وتفتي حكمة حارتنا الخالدة بأنّ مرضها ليس مرضاً من  
 الأمراض المعروفة ولكنه فعل من أفعال «الأسياء» وألا  
 شفاء لها إلا بالزار. ويحيى اليوم المشهود فيكتنظ بيت  
 جارتنا بالنساء، ويعبق بالبخور، وتتسلط عليه جوقة  
 من السودانيات يكتنفهنّ الغموض والأسرار. وأطلّ  
 برأسي من المنور فأرى صديقتي في مشهد جديد،  
 تجلس على عرش في عباءة مزركشة بالتلى والترتر،  
 متوّجة الرأس بتاج من العاج تتدلّى منه عناقيد الخرز  
 مختلف الألوان، منقوعة القدمين في وعاء من ماء الورد  
 تستقرّ في قعره حبات من البنّ الأخضر. وتدقّ  
 الدفوف وتمزج الحناجر النحاسيّة بالأناشيد المرعشة،  
 فتفوح في الجوّ أنفاس العفاريث، ويدعو كلّ عفريت  
 صاحبه المختارة من بين المدعوّات للرقص، فتموج  
 القاعة بالحركات، وتتوهج بالتأوهات، وتذوب  
 الأجساد في الأرواح. وها هي أمّ زكي تتلوى بعنف  
 كأنّها رُدت إلى جنون الشباب، وعن فيها المزيّن  
 بالأسنان المدهبة يصدر صفير حادّ، ثمّ تركض دائرة  
 حول العرش، ويتحوّل ركضها إلى اندفاع رهيب،  
 وتدور وتدور حتى تترنح من الإعياء وتتهاوى مغشياً  
 عليها...

وجلجلت زغرودة وارتفع صوت مبتهلاً:

- ليشهدنا خاتم الرسل الكرام.

\*\*\*

وها هي الأيام تمرّ.

وصحة صديقتي لا تتحسنّ.

لا تمزح الآن ولا تضحك وتتساءل في جزع:

فيههر القلب والبصر. بيضاوات ملونّات الشعر والأعين سافرات الوجوه ينفثن ملاحه نقيّة. الدوكار ينتظرنّ فأتسمرّ أنا بين الدوكار وبينهنّ. ويرين ذهولي فتضحك وسطاهنّ وهي أشدهنّ امتلاءً وأغلظهنّ شفة وتقول:

- ما له يسدّ الطريق!

لا المحرّك فتخططني مداعبة:

- أفيق يا أنت!

وأقول متأثراً بدفقة حياة مبهمة:

- بليلي خون دي خوررد وكلي حاصل كرد.

فيغرقن في الضحك وتقول الكبرى:

- إنه درويش.

فتقول الوسطى:

- إنه مجنون!

والقي بنفسي في ظلمة القبو فأمضي مهرولاً حتى أخرج إلى نور الساحة أمام التكيّة. في رأسي حماس وفي قلبي نذير نشوة البراعم قبل أن تفتح. صُورهنّ الباهرة مستكنّة في متحف الأعماق. بذور حبّ لم يفتح لها أن تنمو لأنها عُرس قبل أوانها.

## الحكاية رقم ٥

اليوم سعيد.

سأذهب في صحبة أُمّي إلى زيارة حرم المأمور. هطلت الأمطار في الصباح الباكر ولكنّ الجوّ رَقّ وصفا عند الضحى وأشرقت الشمس. المياه تغمر فجوات الطريق وتحدّد جوانبه ولكنني سعيد بزيارة حرم المأمور.

امرأة عملاقة، سمراء دكناء، في نقرة ذقنها وشم، ونبرتها ريفيّة غريبة، وضحكتها عالية، وقطعتها غزيرة الشعر نقيّة البياض ودائماً تسبح بذكر الله.

وتعانق أُمّي مرّجة وأنا أنتظر. تلتفت نحوي ضاحكة وهي تعبت بشعر رأسي، ترفعي بين يديها فأرتفع فوق الأرض عاليًا، تضمّني إلى صدرها فأغوص في أعماق طريّة، وأشعر ببطنها مثل حشية وثيرة ينبعث منها إلى جوارحي دفء مؤثّر.

وجلس على كنبه وهو يبسم ثمّ قال وهو يخرج من حقيته أدوات بيضاء لامعة:

- يسرّك بلا شكّ أن تتعلّم كيف تستعمل هذه الأدوات.

وأهرع نحوه متملّصاً من ارتباكّي!

ويجيء مساعده بمقعد فيجلسني عليه أمام المعلم قائلاً:

- هكذا أفضل.

وإذا بيديه تكبّلانني من الذراعين والساقين بقوة وإحكام فكأنّها ألصقت بالغراء والمسامير، فصرخت غاضباً:

- ابعدي عني.

واستغثت بأُمّ برهوم ولكنها كانت فصّ ملح ذاب...

ولم أفهم شيئاً ممّا يحدث حتى بدأت العمليّة الرهيبة، ها أنا أعاني هجمة وحشيّة طاغية لا أستطيع لها دفقاً ولا منها مفراً. وها هو الألم الحادّ القاسي ينشب أظافره الشوكيّة في لحمي وينساب بمكر شيطانيّ إلى أطراف جسمي وصميم قلبي. وها هو صراخي يدكّ الجدران ويحتاج أرجاء حارتنا.

\*\*\*

لا أدري ماذا يدور مدّة من الزمن. أغوص في الماء بين اليقظة والنوم. تمرّ بي أجيال من الألوان والمخاوف والأحزان.

وعند نقطة من الزمن تلوح لي أُمّي بوجه يرنو بالاعتذار والتشجيع.

وقبل أن أفتح فمي محتجاً أو متهمّاً تضع بين يديّ هدايا الشيكولاطة والملبس.

وأعيش أيّاماً بين ذكريات أليمة وكنوز من الحلوى بألوانها البهيجة... ويمتلئ البيت بالإخوة والأخوات.

وأتنقل من مكان إلى مكان مفرّجاً بين فخلديّ مبعداً بيديّ الجلباب عن جسديّ.

## الحكاية رقم ٤

وأنا ماضٍ نحو القبو يفتح باب بيت القيرواني تاجر الدقيق وتبرز منه بناته الثلاث. منبع نور يتدفّق

## حكايات حارتنا ٥٥١

هي تلعب في الزقاق المتفرع من الحارة وأنا لا أجرؤ على التسلل إليه في النهار. يعني إحساس خفي ولكنه غير بريء. ونتواعد بالنظر وبلا كلام. ومع المساء أدخل الزقاق فأجدها واقفة على عتبة الباب. نقف شبعين صامتين يكتنفنا الذنب والظلام.

- نجلس؟

ولكنها لا تجيب.

أجلس على العتبة وأشدّها من يدها فتجلس. أنزحزح حتى نتلاصق. يغمري شعور بسرور غريب ذي أسرار. أمدّ يدي إلى ذقنها فأدير وجهها إليّ. أميل نحوها فأقبلها. أحبط خاصرتها بذراعي. أصمت وأهيم وأذوب في دفقة إحساس مبهم فأعرف السكر قبل الخمر.

ونسى الوقت والخوف.

ونسى الأهل والحارة.

حتى الأشباح لا تفرقتنا.

## الحكاية رقم ٧

في ليالي الصيف نسير فوق السطح، نفرش الحصيرة والشلت، نستضيء بأنوار النجوم أو القمر، تلعب من حولنا القطط، يؤنسنا نقيق الدجاج. وتنضم إلينا في بعض الأحيان أسرة جارتنا الحاج بشير. وهي أسرة شامية مكونة من أم وثلاث بنات كبراهن في العاشرة. يحلو لهنّ في أوقات السرور أن يغنين معاً أغنيات جبليّة فأتابع الغناء بشغف يقارب شغفي بالبشرة البيضاء والأعين الملونة. أهيم بالأمّ وبناتها وألحّ في طلب السماع، ويستحقني الطرب فأشارك في الغناء وأحرز في ذلك نجاحاً وإعجاباً حتى تقول جارتنا:

- ما أحلى صوتك يا ولدا

وأجد في مجتمع الليل فرصة للكشف عن موهبتي الصوتية كما يجد فيه قلبي الصغير نشوته في حضرة البهاء الأنثوي. ويصبح الغناء هوايتي، وسامع أسطوانات المهدية قرّة عيني، أما أغنيات الجبل فينشدها قلبي وحنجرتي معاً.

أسير وراءها وأنا أسوي ما تشعّث من شعري وملايسي وكما أفق من نفحة الدفء.

وتقول لأمي:

- بتّ أومن بأنّ القبو مسكون بالعفاريت. . .

فتبسمل أمي فتقول الأخرى:

- إنهم يخرجون عقب منتصف الليل.

فتقول لها أمي محدّرة:

- إياك وأن تنظري من النافذة.

واللاعب أنا القطّة حتى تتوارى تحت الكنية. أنظر إلى رأس ثور مثبت في الجدار فوق سيفين متقاطعين متمتياً الوصول إليه. المضيئة تقدّم لي قطعة هريسة فأتناولها. أمتي النفس بحضن دافئ آخر عند انتهاء الزيارة.

ويطول الحديث ويتشعب.

وتشعل المرأة المصباح الغازي المدّى من السقف.

تدور حول المصباح فراشة.

أتساءل متى تجيء لحظة الوداع الواعدة بالدفء؟

## الحكاية رقم ٦

على حصيرة واحدة نعد صبياناً وبنات في الكتاب. نتلو الآيات بصوت واحد ولا تفرق مقرعة سيّدنا الشيخ بين قدم صبيّ وقدم بنت. وقت الغداء يتربّع كلّ منّا مستقبلاً الجدار بوجهه، يفكّ الصرّة ويفرش منديله كاشفاً عن الرغيف والجبن والحلاوة الطحينيّة. تسترق عيناها النظر إلى درويشة وهي تقرأ أو تاكل.

في الطريق أتبعها حتى تميل إلى الزقاق المسدود ثمّ أسير إلى بيتي حاملاً لوحى وصورتها.

وفي موسم القرافة أضيق بالمكوث في الحوش فأمرق إلى الخارج فتتلاقى - أنا ودرويشة - بين القبور المكشوفة بلا تدبير.

وأشطر فطيرتي فأعطيها النصف، نأكل وتبادل النظر.

- أين تلعبين؟

- في الزقاق.

والتمر. وفي الصباح الباكر أمضي بين أبي وأمي حاملاً  
الحنوص والريحان، تتقدّمتنا الخادمة بسلة الرحمة.  
يسرني تدفق تيارات الخلق، وطوابير الكارو،  
وأعرف باب الحوش كصديق قديم. ويجذبني القبر  
بتركيبه السوقور المنعزل وشاهديه الشاخين، وسره  
المنطوي، وبإجلال والذي له، كما تجذبني شجيرة  
الصبار. وتحت قبة السماء تنطلق مني وثبات فرح.  
ودفقات استطلاع لا يكدرها شيء، ثم تتمّ المسرات  
بمراقبة المقرئ الضريع وجماعات الشحاذين المتكالبين  
على الرحمة.

وتتغير الصورة بدخول همّام في إطارها.

تجيء أختي وابنها للإقامة عندنا فترة من الزمن.  
همّام في الرابعة أو يزيد عنها قليلاً، أجد فيه رقيقاً ذا  
حيوية وجاذبية، يُخرجني بمؤانسته من وحدتي. جميل  
خفيف الروح، يلاعيني بلا ملل ويصدق أكاذيبي  
وأوهامي.

وأجده ذات يوم راقداً وصامتاً، أدعوه إلى اللعب  
ولكنه لا يستجيب، وأخبر بأنه مريض...

ويطبق على الجرح اهتمام وحذر، ويتفشّي فيه ضيق  
وكدر، وأتلقي أحاسيس مبهمة وغير ساّرة، ويزيد من  
تعاسي قلقي وأمي وجزع أختي ثم حضور زوجها...  
وأسال عمّا يحدث فأبعد عن المكان ويقال لي:

- لا شأن لك بهذا... العيب بعيداً...

ولكنّي أشعر بأنّ حدثاً غير عاديّ يحدث...

إنّهُ خطير حتى إنّ أُمّي تبكي. وأختي تصرخ.  
والمح من بعيد صديقي مغطى فوق الفراش مثل  
وسادة. لم يُترك له متنفس. وأخيراً يتردّد اسم الموت  
من قريب. وأفهم أنّه فراق يطول فأبكي مع الباكين،  
ويتألّم قلبي أكثر ممّا يجوز لسنّه.

لا تعود زيارة القبر من أيّامي البهيجة، ويتغير وقع  
منظره. أوّد أن أطلع على خفاياه، وأتلقي الكتابة من  
صمته. ولا يعزّيني أن يُقال إنّ همّام يمرح في الجنة  
ويسقي أزهارها. ولا أتغلب على لوعة الفراق مع كزّ  
الأيّام. إنّه الحزن والحبّ والضائع والخوف والذكرى  
القاسية وإرهاق أسرار الغيب.

وتقول جارتنا لأُمّي ذات يوم:

- الولد له صوت جميل.

فتقول أُمّي بسرور:

- حقاً؟

- لا يجوز إهماله!

- فليغنّ كيف شاء فهو أفضل من العفرتة.

- ألا تودّين أن يكون ابنك مطرباً؟

فتؤخذ أُمّي ولا تجيب فتواصل الجارة:

- ما له سي أنور وسي عبد اللطيف؟

- إنّي أحلم أن أراه يوماً موظّفاً مثل أبيه

وأخوته...

- المغنيّ يربح أكثر من مصلحة حكوميّة.

وأصغني باهتمام وأنا جالس على حجر الجارة مزهواً

بالدفع والمجد.

\*\*\*

ولا تدمم أيّام السعادة والفرح طويلاً فذات يوم أرى

أُمّي تمهّز رأسها بأسف وتتمتم:

- يا للخسارة!

فأسألها عمّا يؤسفها فتقول:

- جيراننا الطيّبون راحلون إلى برّ الشام.

ينقبض قلبي بالرغم من أنّي لا أحيط بأبعاد

الخسارة وأسأل:

- أهو بعيد؟

فتجيب بحزن:

- أبعد ممّا نستطيع أن نبلغه.

أوّد من صميم قلبي أن أغيّر الواقع، أن أرجع

الزمن إلى أمس، ولكن كيف؟

وأودّعهم للمرّة الأخيرة وهم يستقلّون الحانطور

وأقبل يد الحاجّ بشير. وأتبع الحانطور نظري حتىّ

ينغفيه منعطف النحاسين. وأبكي طويلاً وأعاني مذاق

الفراق والكتابة والدنيا الخالية...

## الحكاية رقم ٨

مواسم القرفة تُعدّ من أسعد أيّامي البهيجة.

نشرع في الاستعداد لها مع العشيّ بإعداد الفطير

يتراجع أمام عنفها.

ولها بتان جميلتان، ذوّلت وإحسان.

في أيّ موقع من حارتنا لمحظى بالتودّد، من التاجر والعامل والبائع والصلعوك، كلّ أسرة لها عمل وأجر، هي الوسيطة والشفيعة والحاطبة والدّالة والماشطة، وعند الخصومة فهي القوّة التي تبطش بالخصم.

وتزور أمّي أحياناً فتحكي لها عن أحوالها. وقد يقتضي الأمر تمثيل ما وقع في آخر مشاجرة شاركت فيها فترفع صوتها ويتهدّج بالغضب والسبّ والقذف حتّى يتوهّم السامع أنّ التمثيل مشاجرة حقيقة... .

وهي نجاملنا في المواسم فتجئنا بالكارو لتمضي بنا إلى زيارة المغاوري وأبي السعود طيب الجراح.

وأنا الرسول الذي يوفّد إلى بيتها عند الحاجة. أذهب إليه بقلب طروب يتوق إلى رؤية الحمار المربوط إلى وتد في الفناء، ويتوق للقرب من دولت وإحسان. دولت فتاة طيّبة، تفكّ الخطّ وتحفظ بعض سور القرآن. يحبّها شابّ متعلّم من حارتنا فيتزوّج منها متخطّياً الفوارق ومجازاً بمصاهرة أمّ عبده.

إحسان صورة مصنّرة من أمّها في أخلاقها ولكتّها باهرة الجمال. مطبوعة على العنف والجرأة والبذاءة، تتحدّى أمّها نفسها فتتشب بينهما المعارك المشيرة. ويطلب يدها فتیان كادحون ولكتّها ترفضهم تطلّماً لفرصة فريدة كما حدث لأختها دولت. وإني صديقها رغم فارق السنّ. غرائزي الكامنة ترسل إنذارات خفية تمتزج في عينيّ بأشواق مبهمة. يبهرنى حجمها المترامي وأعضاؤها الثرية المتراقصة. وتدعوني أحياناً لأساعدها وهي تغسل في الفناء. أحل إليها صفيحة الماء من عارضتها الخشبيّة وأمضي كالمترنّح من ثقلها. أجلس قبالتها لأتسلّم منها الملابس بعد عصرها لأكومها في الطشت. في أثناء ذلك تلتصص عيناها وهي ترامق تطلّعاتي باسمه.

وتقول لي ذات مرّة:

- حُذ منديلي واذهب به إلى الشيخ لبيب.

واذهب إلى الشيخ لبيب في مجلسه قبيل القبو. يتربّع على فروة بجلبابه المزركش وطاقيته البيضاء، مكحول العينين مزجّج الحاجبين. أعطيه المنديل ومليّاً

## الحكاية رقم ٩

خبر يتردّد في البيت والحارة.

تقول إحدى الجارات لأمي:

- أما سمعت بالخبر العجيب؟

فتسألها عنه باهتمام فتقول:

- توحيدة بنت أمّ عليّ بنت عمّ رجب!

- ما لها كفى الله الشرّ؟

- توظّفت في الحكومة!

- توظّفت في الحكومة؟

- أي والله... موظفة... تذهب إلى الوزارة

وتجالس الرجال!

- لا حول ولا قوّة إلا بالله... إنها من أسرة

طيّبة... وأمّها طيّبة... وأبوها رجل صحيح!

- كلام... أيّ رجل يرضى عن ذلك؟

- اللّهمّ استرنا يا ربّ في الدنيا والآخرة... .

- يمكن لأنّ البنت غير جميلة؟

- كانت ستجد ابن الخلال على أيّ حال... .

وأسمع الألسن تلوك سيرتها في الحارة، تعلقّ

وتسخر وتنتقد، وكلّمها لاح أبوها عمّ رجب أسمع من يقول:

- اللّهمّ احفظنا... .

- يا خسارة الرجال!

توحيدة أوّل موظفة من حارتنا. ويقال إنّها زاملت

أختي الكبرى في الكتاب. ويحفظني ما سمعته عنها إلى

التفرّج عليها حين عودتها من العمل. أقف عند

مدخل الحارة حتّى أراها وهي تغادر سوارس، أرنو

إليها وهي تدنو سافرة الوجه مرهقة النظرة سريعة

الخطوة بخلاف النساء والبنات في حارتنا. وتلقي عليّ

نظرة خاطفة أو لا تراني على الإطلاق ثمّ تمضي داخل

الحارة. وأتمتم مردّداً كالبيّغاء:

- يا خسارة الرجال!

## الحكاية رقم ١٠

أمّ عبده أشهر امرأة في حارتنا.

في قوّة بغل وجرأة فتوّ، حتّى زوجها سواق الكارو

ويخرج ضابط المدرسة من حجرة الناظر ويمضي في تلاوة الأسماء من كُشِف بيده ثم يقول:  
- لبيق منكم من سمع اسمه وليرجع الآخرون إلى بيوتهم.

لم أسمع اسمي. تشيع في نفسي فرحة شاملة. أعتقد أن سقوطي هو نهاية علاقتي بالتعليم وعصي المدرسين، وأني سأستقبل من الآن فصاعداً حياة ناعمة خالية من الكدر.

وسألني أبي عن النتيجة فأجيبه بارتياح:

- سقطت ورجعت إلى البيت.  
- اخص... تصورتك أفضل مما أنت...  
فأقول بسرور:  
- لا يهّم!  
- لا يهّم؟  
- إني أكره الكتاب وأكره سيّدنا الشيخ وأكره الدروس... فالحمد لله على أنني تخلّصت من ذلك كلّ...  
فيطبّ أبي متسائلاً:

- أتظنّ أنك ستمكث في البيت؟  
- نعم، هذا أفضل.  
- لتلعب مع الأوباش في الحارة، أليس كذلك؟  
فنظرت إليه بقلق فقال بحزم:  
- سترجع إلى الكتاب عامّاً آخر، والفلقة كفيلة بمعالجة غبائك...  
وأهمّ بالاحتجاج فيقول:

- استعدّ لعمر طويل من التعلّم، ستعلّم مرحلة بعد مرحلة حتى تصير رجلاً محترماً...  
ولم أنعم بفرحة السقوط إلا ساعات!

## الحكاية رقم ١٢

ماذا يحدث للدنيا؟  
يجتاحها طوفان، يقلقلها زلزال، تشتعل بأطرافها النيران، تتفجّر بحناجرها الهتافات...  
الميدان يكتظّ بالآلاف، لم يقع ذلك من قبل، هديرهم يرحّ جدران حارتنا ويصمّ الأذان، إنهم

وقطعة سكر، فيشمّ المنديل ويتفكّر ملياً ثم يقول:  
- عمّا قريب يمتلئ الكراز ويغني العصفور...  
وأرجع إليها وأنا أردّد ما سمعته لأحفظه، ويسعدني دائماً أن أؤدّي لها خدمة من الخدمات.

ويطلب يدها صاحب محلّ فراشة، غنيّ في الخمسين ذو زوجة وأولاد، فتزوّج منه. تعاشره عامين ثمّ تخفضي من بيته ومن الحارة جميعاً مخلّفة وراءها ضبّجة وعازراً وإصابة في كبرياء أمّ عبده.

\* \* \*

وفي ذات ليلة من ليالي الزمن الجاري الذي لا يتوقّف أجدني وجهاً لوجه مع إحسان. ترقص وتغني:  
عومسي على الميه يا بت يا شاميّه  
وتراني فيشع من عينيها نور العرفان. أقف ذاهلاً ولكتها تتلقاني ببساطة وبابتسامة مشجّعة. تقبل نحوي فتأخذني من يدي إلى حجرتها ثمّ تغلق الباب وتغرق في الضحك. وتقول لي بعد أن جلسنا:

- الدنيا واسعة ولكتها في النهاية كالحقّ.  
وأقرّس في وجهها فتسألني عن أمها فائلة:  
- كيف حال أمّ عبده؟  
- عال.

- ودولت أختي؟  
- بكرّيها في المدرسة.  
- ووالدتك وأخواتك؟  
- بخير.

فتقول بمودّة:  
- زرني كثيراً.  
وأسألها بعد تردد:  
- كيف جئت إلى هنا؟  
فتضحك وتقول ساخرة:

- من نفس الطريق التي جئت منها أنت!

## الحكاية رقم ١١

نقف في فناء المدرسة الابتدائية جماعات ننتظر نتيجة القبول. أمهينا مرحلة الكتاب، وأدينا امتحان القبول، وها نحن ننتظر إعلان النتيجة.

## الحكاية رقم ١٣

مهذب ذكيّ العينين قصير القامة في مطلع الشباب، قيل لي:

- ابن عمك صبري .

أعرف أباه - عمي - معرفة سطحية فهو لا يبرح الريف إلا نادراً، أما صبري فإنه يرى القاهرة لأول مرة. وأعرف أيضاً من أحاديث الليل أن عمي أرسله إلى القاهرة ليتحقّق بإحدى مدارسها الثانوية بعد أن ترامت أنباء نشاطه الثوريّ في موطنه إلى مراكز الأمن .

أسأله وأنا أرمقه بشغف:

- أنت من شبان المظاهرات وبجيا سعد؟

فيتسّم ولا يجيب . . . لأنه يبدو أعمق من سنّه .

ويقول له أبي:

- هذا بيتك، وأنت الآن آمين، ولكن كُنْ على حذر .

وأقول لأبي:

- ولكنك يا بابا أضربت مع الموظفين؟

فينهري:

- لا تتدخلّ فيها لا يعينك .

ويعارس صبري حياة تلميذ مجتهد ذي طاقة كبيرة في

العمل .

غير أن القلق يلوح في عينيه الذكيتين ذات مساء

فأسأله عما يقلقه فيسأل بحذر:

- ماذا دعاك إلى السؤال؟

- لست كعادتك .

فيدعوني إلى المشي في الحارة . نتسكّع في الحارة وفي

ميدان بيت القاضي حتى يهبط الليل . وهمس في

أذني:

- تستطيع ولا شك أن تحمل ورقة إلى هذا أو ذاك

من الناس؟

- ولكن لماذا أفعل ذلك؟

- لا تفعله إذا كان يضايقك .

وأوافق ليعهد إليّ بمهمة أيّاً تكن .

وأمضي لأورّع أوراقاً على أصحاب الحوانيت

والمارة . يتناولونها بدهشة، يلقون عليها نظرة سريعة،

بيتسمون ثم يواصلون العمل أو المشي .

يصرخون، ويقبضات أيديهم يهددون، وحتى النساء يركبن طوابير الكارو ويشاركن في الجنون . . .

وأحلق فيما يجري من فوق السطح وأتساءل عما يحدث للنديا . . .

وتتلاطم الأحاديث مشحونة بكهرباء الوجدان،

وينهمر سيل من الألفاظ الجديدة السحرية، سعد

زغلول، مالطة، السلطان، الهلال والصليب،

والوطن، الموت الزؤام . . .

الأعلام ترفرف فوق الدكاكين، صور سعد زغلول

تُلصق بالجدران، إمام المسجد يظهر في شرفة المئذنة

ويهتف ويخطب .

وأقول لنفسي إنّ ما حدث غريب ولكنّه مثير ومسلّ

شديد البهجة .

غير أنني أشهد مطاردة .

يندفع أناس داخل حارتنا، يرمون بالطوب،

يتحصّنون بالأركان .

يقتحم الحارة الفرسان بقبعاتهم العالية وشواربهم

الغليظة . تنطلق أصوات حادة مخيفة تعقبها صرخات،

أنزح من مكان المراقبة إلى الداخل فتطالعني وجوه

مدعورة وهمسات تقول:

- إنّه الموت .

نرهف السمع وراء النوافذ المغلقة، لا شيء إلا

أصوات متضاربة، وقع أقدام، صهيل خيل، أزيز

رصاص، صرخة موجعة، هتاف غاضب .

يتواصل ذلك دقائق في الحارة ثم يسود الصمت .

ويتردّد الهدير ولكن - هذه المرّة - من بعيد . . . ثم

يسود صمت مطلق .

وأقول لنفسي إنّ ما يحدث غريب ومزعج وخيف .

وأعرف بعض الشيء معاني الألفاظ الجديدة، سعد

زغلول، مالطة، السلطان، الوطن، وأعرف بوضوح

أكثر الفرسان البريطانيين والرصاص والموت .

تزورنا أم عبده في غايّة من الانفعال، تحكي

حكايات عن الضحايا والأبطال، وتنعى إلينا علوة

صبيّ الفران، وتؤكد أنّ جياد الفرسان حرت أمام

سور التكيّة وألقت الفرسان عن متنها . . .

وأقول لنفسي إنّ ما يحدث حلم مثير لا يصدّق .

وأرجع إليه عند رأس الحارة فيسألني:  
- مبسوط؟  
أعرب له عن سروري الذي لا حد له فيقول  
محدّراً:

## الحكاية رقم ١٥

ويزور أبي جماعة من الأصدقاء فيدور الحديث عن الثورة. لا حديث هذه الأيام إلا عن الثورة. حتى حديثنا نحن الغلمان يرطن بلغة الثورة، ولعبنا في الحارة مظاهرات وهتافات. وتصبح دوريات الإنجليز منظرًا مألوفًا لدينا، نتمن في الجنود النظر بذهول ونقارن بين ما نسمع عن وحشيتهم وما نرى من جمال وجوههم وأناقتهم ونتعجب.

يدور الحديث بين الزوّار عن الثورة.

- مَنْ يصدّق هذا كلّهُ أو بعضه؟!

- إنّه الله الرحمن الرحيم.

- يخلق الحيّ من الميت.

- الفلاحون والعَمّال والطلبة والموظّفون والنساء يَقتلون ويُقتلون.

- الفلاح يحمل السلاح ويتحدّى الإمبراطورية.

- انقطعت المواصلات تمامًا، أصبحت مصر

دويلات مستقلة!

- والمذابح؟

- مذبحه الأزهر.

- مذبحه أسبوط.

- العزيزية والبدرشين.

- الحسينية.

- لا أنا ولا أنت، ليحيى سعدا

- أي والله ليحيى الساحر العظيم.

- ولكنّ الأموات يفوقون الحصر.

- أحياء عند ربّهم.

وينبري رجل ليقصّ سيرة سعد كما يعرفها، ومواقفه مع الإنجليز والحديو قبل الثورة.

والمح أبي تغرورق عيناه بالدموع.

أراقبه بذهول محتقناً بانفعال صامت وفيض من

الدموع ينهمر على خديّ.

## الحكاية رقم ١٤

يبدأ هذا اليوم بمظاهرة هزليّة. من عجب أنهم يهزلون في الفترات القصيرة التي تفصل بين المصادمات الدامية. ها هي مظاهرة ضخمة تسوق في مُقدّماتها حارًا مدتّرًا بقماش أبيض نُقش عليه بالأحمر:  
«السلطان فؤاد»

ابن بلد يمتطي الحمار واضعًا على رأسه قبة بريطانيّة، والهدير يصطخب:

يا فؤاد يا وش القملة من قالك تعمل دي العملة وتستقبل كالعادة بالهتاف والزغاريد.

وأحمل لأبي خبرًا من الحارة أثار خيالي فأقول له:

- يقولون إنّ اسم سعد يُرى منقوشًا على البيض بعد خروجه من الدجاج.

فيضحك أبي، ويضحك ضيف يجالس. ويقول الضيف عن سعد:

- كان أعداؤه يتجنبون النظر في عينيه وهم يجادلونه تفاديًا للشعاع الحادّ الذي ينطلق منها.

ويطرب أبي للكلام ويتمتم:

- إنّه هديّة السماء إلينا.

فيقول الضيف متحمّسًا:

- انتهت سنون النحس وبدأت أيام السعد.

ويتنهد أبي قائلاً:

- يا أسفي على الرجل الشيخ المريض في منغاه. فأذهل وأسأل:

- سعد مريض، كيف هذا يا بابا؟

ولا يعبرني التفاتًا فأصرّ قائلاً:

- سعد لا يمكن أن يمرض.



- في أيّ سنة دراسيّة يا حبيبي؟  
- الثانية الابتدائية.

وأفتن بالفتاة فتملؤني بسحر لطيف وأحلام عذبة.  
وأعرف أنّ عمّي جاءت مع ابنتها من المنيا لتجهّزها  
وأنّ زفافها وشيك. وتشغل أيامها المكدودة بالقاهرة  
بالتردد مع أبي على محالّ الأثاث والنجارين والمنجّدين.  
وفي أوقات الراحة تتبدّى سعاد في ثوب أنيق وزينة  
جذّابة، تتألّق بألوان العرائس وتعبق بشذاهنّ.  
وأختلس منها النظرات بقلب حنان وشوق غامض.  
وتقول لي وهي تنظر إلى الحارة من خصاص  
النافذة:

- حارتكم مسليّة جدًا.  
- تعالّي أفرجك على أزقتها والقبو والتكيّة.  
تتجاهل دعوتي. تتسلّل نظراتي إلى عنقها وأسفل  
ساقها، أتوق إلى تلاقٍ غامض وإشباع مبهم ومغامرة  
مجهولة، أريد أن ألمس خدّها المتورّد، لا أريد أن  
أصدّق أنّها سترحل بعد أيام، وأنّ قلبي لن يجد من  
يؤنسه.

وأستجمع شجاعتي وأقول:  
- أتعرفين؟  
وينقطع الصوت والتفكير فتساءل هي بنبرة محرّضة  
على مواصلة الحديث:  
- أتعرفين؟  
ألوذ بالصمت فتسألني:  
- لماذا تنظر إليّ هكذا؟  
- أنا؟  
- نعم، رأيتك، لا تنكر.  
وتضحك ضحكة قصيرة ثمّ تقول:  
- أنت ولد شقيّ.  
وينقبض قلبي من الشعور بالذنب.

\*\*\*

وأرى أمّي وعمّي ذات يوم وهما يتناوبان النظر في  
صورة فوتوغرافيّة لسعاد. وتقول عمّي:  
- أصرّ العريس على رؤية الصورة.  
- وأبوها وافق؟  
- يعني.

## الحكاية رقم ١٦

سلّومة أوّل شهيد من أبناء حارتنا. حقيقة أنّ علوة  
صبيّ الفران أوّل من قُتل في حارتنا ولكنّه في الأصل  
من أبناء كفر الزغاري. وعمّ طلبة - أبو سلّومة - بيّاع  
يسرح بعربة غزل البنات، وكان سلّومة يعاونه، وينام  
على مقدّم العربة إذا أنهكه التعب.

وتخترق مظاهرة ميدان بيت القاضي فينضمّ إليها  
سلّومة بتلقائيّة دون أن ينتبه إليه أبوه. وتنفضّ على  
المظاهرة قوّة إنجليزيّة في خان جعفر وتطلق عليها  
النار. يصاب سلّومة برصاصة في رأسه ويسقط قتيلاً.

ويتشتر الخبز في الحارة فيجتاحها حزن، ويهزّها  
الفخار والإكبار. ويُقبل الناس على عمّ طلبة يعزّونه  
وينثرون بين يديه لأىّ الكلمات. ورغم حزن الرجل  
وتهاككه فإنّه يمارس إحساسًا جديدًا لم يعرفه من قبل،  
يرى نفسه لأوّل مرّة محوطة بأهل الحارة من كافة  
الطبقات، يفوز بإكبار من لم يبالوا من قبل بردّ تحيّاته،  
وتنهال عليه نفحات الموسرين من التجّار والمعلّمين.

وتكون جنازة سلّومة أعظم جنازة تشهدها حارتنا،  
تصغر إلى جانبها أيّ جنازة سابقة من جنازات الفتوات  
والأعيان ورجال الدين. سعى وراء النعش المكمل  
بالعلم جميع الذكور، وحيّاه النساء من النوافذ  
والأسطح، وانضمّ إلى المشيعين مئات من الحواري  
المجاورة، فبلغت الحسين في ضخامة مظاهرة وجلالها.  
وتصير الجنازة حديث الناس، ويمسي سلّومة اسمًا  
ورمزًا، ويحظى الأب الكادح المصاب بمكانة مرموقة،  
وينوّه المعلّقون بعجائب الحياة المغيرة للقيم في لحظة من  
اللحظات الساحرة.

## الحكاية رقم ١٧

استيقظت ذات صباح فأجد في بيتنا امرأة وفتاة.  
وتقول أمّي:

- تعال سلّم على عمّتك وبنّت عمّتك سعاد.  
أسلم بحياء من يراها لأوّل مرّة. المرأة تشبه أبي  
حقًا، الفتاة غاية في الجمال.  
وتسألني عمّي:

المظاهرات لا تدخل حارتنا شبه المسدودة التي لا مخرج لها من طرفها الآخر إلا الممر الضيق المحاذي للتكية والمقضي إلى القرافة .

وأسال أمي :

- سيرحل الإنجليز؟

فتجيبني بيقين :

- إلى غير رجعة .

وفي الليل تحتفل حارتنا بعودة الزعيم احتفالاً خاصاً. تُضاء الكلوبات في همامات الدكاكين، ترتفع الأعلام، تدوي الزغاريد وتتطوع العاملة المأظية بإحياء الليلة. تقيم سدتها في الوسط أمام الوكالة يحفّ بها تحتها، ترصّ الكراسي أمامها، وعلى أنغام العود والقانون والناي والرق يرقص الرجال، وتغني هي :

ليالي الأانس عادت بالليالي

وتغني أيضاً :

يا بلح «زغلول» يا حليوه يا بلح

وتختم بأغنية ضاحكة مطلعها :

يا واد يا أللني كان جرى لك إيه يا بن المره  
جه الاستقلال غصباً عنك وعن إنجلتره  
وتكتنّ البوظة بالسكارى وتشتعل الفرز بنيران  
المجامر، وحقّ المجاذيب والمتشردون واللصوص  
يسهرون ويفرحون. ويشارك عمّ طلبة أبو الشهيد في  
الحفل، والشيخ لبيب يحضره .  
وأسهر أنا في النافذة، وقوى مجهولة تشحن قلبي  
الصغير بحيوية سحرية .

## الحكاية رقم ١٩

أبي ينظر إليّ نظرة غامضة ويسألني :

- ماذا فعلت؟

فأجيبه بسرور وزهو :

- اشتركت في المظاهرة الكبرى .

- كان يمكن أن تدوسك الأقدام .

- كان الصغار كثيرين .

ويداري أبي ابتسامة ويسألني بنبرة ممتحن :

- الآن سعد زغلول هو رئيس الوزراء فلم

ويترامى إلينا صوت أبي من حجرتي :

- تصرف غير لائق!

فتقول أمي :

- الزمان غير الزمان!

وتقول عمّي :

- ما هي إلا صورة، والعريس لقطة وابن ناس .

فيقول أبي بنبرة لا تخلو من احتجاج :

- على خيرة الله .

أتابع الحديث بحزن خفيّ . تطالعني من ثناياه نذر  
الفراق الأبديّ ووجه الكتابة في الأفق .

وتمرّ أيام الزيارة بسرعة فائقة وأنا عاجز عن  
إيقافها .

وتجيء لحظة الوداع .

وأرنبو إلى حدّ سعاد المورّد كرهيف خارج لتوه من

الفرن .

وتذهب الأسرة كما ذهب آل بشير من قبل .

وتضحك أمي من لوعتي دون أن تفتن إلى عمق

أشجاني .

## الحكاية رقم ١٨

الفرحة ترقص في القلوب، والنشوة تشتعل في  
النفوس، يوم عودة سعد .

أبي يرجع من الخارج كأنما هو راجع من خناقة، زرّ  
طربوشه مفقود، عقدة رباط عنقه غائصة في ثنية  
الياقة، جاكته تنضح بالعرق والتراب، صوته مبوح  
كأنه سعل دهرًا، ولكنّ عينيه تتألقان بنور ظافر.  
يستلقي على الكنبه ويقول :

- هتفت حتى ضاع صوتي، نسيت نفسي تمامًا .

ثمّ بارتياح عميق :

- تجمّعت الدنيا كلّها في ميدان السيّدة، سبحانك

يا ربّي ما أكثر عبادك!

ويجتاح الحارة إحساس غامر بالنصر، ويعتقد كلّ

قلب أنّ الحزبة تدقّ الأبواب. وتطبق المظاهرات على

حيّنا لا تريد أن تنتهي. سعد... سعد... يحيا

سعد. وتلهب حرارة الهتافات خيالي، وآسف على أنّ

## حكايات حارتنا ٥٥٩

وأصير مع الزمن بطلاً من أبطال القراءة، أما صديقي فيهجرها سريعاً ثم يترنح على عرش الكرة.

## الحكاية رقم ٢١

إبراهيم توفيق مقترن في ذاكرتي بالتهريج والتحدّي، خفيف الروح نصف مجنون. بطل هواة لعب الكرة «الزلط» في فناء المدرسة. نتقي عادة من كوم التراب وراء السبيل زلطة في حجم الجوزة لتقوم مقام الكرة، نخوض بها مباراة يومية في فسحة بعد الغداء. والمباراة «الزلطية» ممنوعة رسمياً ولكن يغضى عنها عادة، ويمارس بعنف في أثناء تناول الضبّاط طعامهم، ويكف عنها فوراً عند مرور الناظر، أما عواقبها الوخيمة على الأحذية فيدفع ثمنها الآباء.

وفي الفسحة القصيرة يضغط إبراهيم توفيق طربوشه حتى يصير مثل طاقية، ويرتدي جاكته بالمقلوب، ويحاكي مشية شارلي شابلن ذهاباً وإياباً على إيقاع تصفيقنا، ثم يجتمعه ليعب بإنشاد مونولوج:  
يا عديم الخال يا قليل المال  
رفعتك محال محال في زمن الأندال  
ويوماً يتباهى بالمقالب التي يدبرها لزوج أمه فيقول له أحدنا:

- أتحدّك أن تأكل قرن فلفل حامي!  
والتحدّي يستفزّه لمصارعة المحال فيهتف:  
- أكل عشرة!

ويتراهن فريقان. نبتاع من بيّاع الفول عشرة قرون فلفل حامية، وتحلقناه في حماس...  
ويتناول إبراهيم القرن الأوّل ويأكله مبدئياً نباتاً واستهانة...

ويتناول الثاني محافظاً على ثباته واستهانتته...  
ويتناول الثالث فلا يتغيّر من مظهره شيء إلا أنّه ازدرى ريقه بصورة ملموسة.

ويتناول الرابع فيسعل سعلة مكتومة.  
ويتناول الخامس فتدمع عيناه رغم قوّة إرادته ويسعل بشيء من العنف.  
وعقب تناول السادس يبدو كأنه يقاوم عدواً مجهولاً

تضربون؟

- أضربنا لتأييده في موقفه ضدّ الملك.

- من قال لك ذلك؟

- رئيس الطلبة، قال إنّ سعد زغلول قدّم استقالته احتجاجاً على موقف الملك من الدستور، وإنّنا ذاهبون لتأييد الزعيم.

- هل عرفت وجه الخلاف بين سعد والملك؟  
وأتوقّف عن الاسترسال مرتبكاً فيضحك أبي ولكيّي أبادره:

- نحن مع سعد وضدّ الملك!

- عظيم، وماذا كان هتافكم في عابدين؟

- سعد أو الثورة.

- ما معنى ذلك؟

وأنفكر قليلاً ثمّ أقول:

- معناه واضح، سعد أو الثورة...

وهو يتسّم:

- عظيم، ومن الذي انتصر؟

- سعد، وهتفنا: عاش الملك ويحيا سعد.

ثمّ أقول بحماس:

- الاشتراك في المظاهرة أمتع من أيّ شيء في الدنيا.

فيبتسم أبي ويقول:

- بشرط ألاّ يشترك فيها الإنجليز!

## الحكاية رقم ٢٠

يحيى مذكور أمهر لاعب كرة في مدرستنا، وصديقي المفضّل في المدرسة الابتدائية.

أجده يوماً يقرأ كتاباً في الفسحة فأسأله:

- ما هذا؟

- ابن جونسون... الحلقة الأولى من سلسلة

بوليسية جديدة...

ويعيرني الكتاب بعد فراغه فأقرأه بسعادة لم أجد مثلها من قبل. وأواظب على قراءة السلسلة، ثمّ أنتقل من سلسلة إلى أخرى، ومن كتاب إلى آخر، ثمّ أدمن القراءة.

## الحكاية رقم ٢٢

هاشم زايد يجلس إلى جانبي على قمطر واحد. طويل القامة مفتول العضلات ولكنّه وديع خجول وطيب وحسن السلوك. أمّه أرملة غنيّة تملك بيوت زقاق برمتها وشريكة أكبر عطار في الحارة، لذلك نخصّه بنظرة تجمع بين الإعجاب والحسد. تتهدى إليه نكات إبراهيم توفيق من وراء فلا يملك إلا أن يضحك فإبراهيم المدرّس دون الفاعل الحقيقيّ فينال جزاءه صفة أو لكمة أو ركلة باستسلام التلميذ المؤدّب.

ويفضل هاشم في المدرسة فيتركها، وتموت أمّه فيصير من أكبر أعيان الحارة في لحظة واحدة. وتفرّق بيننا السبل. أراه أحياناً مستقلاً الكارثة أو جالساً في ملابسه البلديّة وسط هالة من المريدين. إنّه يتحوّل إلى شخصيّة غريبة فأنتجّب حتّى مصافحته. إنّه يتكبر ويتعالى ويستثمر قوته في العدوان وفرض إرادته على العباد. كيف يتحوّل الصبيّ الخجول الطيب إلى وحش شرس؟. إنّي أنفكر وأتخيّل دون جدوى...

لا يمرّ يوم في حياته بلا معركة، اللكمة عنده أسرع من الكلمة، والنّبوت مفضّل على اللكمة، ويحلّ بالمكان فيتجنّب الناس كأنه وباء... لو امتدّ زمن الفتوات إلى زمانه لفرض نفسه فتوة، وهو يزعج القسم كما يزعج الحارة، وبييت أياماً بسجن النقطة ولكنّه يرشو المخبرين وشيخ الحارة. تحفّ به دائئاً بطانة ولكن لا صديق له، ولم يتزوج رغم ثرائه ولا يُعرف عنه أيّ ولع بالنساء. وعلاقته بذكرى أمّه مثيرة محيرة، يتذكرها أحياناً بحزن عميق ويتنزّل على روحها الرحمت، وأحياناً ينتقدتها بمرارة وسخرية، يقول:

- كانت بخيلة شحيحة، تهمل نفسها لحدّ القدارة، وتعامل الخدم بقسوة جنونيّة... ويغالي مرّة في الحملة عليها ثمّ - فجأة - يجهش في البكاء، ينسى نفسه تماماً ويجهش في البكاء، ثمّ ينتبه لضعفه فيضحك، ولكنّه يصبّ غضبه على جميع من يشهد دموعه، ويبدو أنّه يضمّر لهم أو أنّه سيضمّر لهم السوء...

اندسّ في أعماقه، وتفيض عيناه بالدمع... وهو يأكل السابغ يسيل الماء من أنفه ويصطبغ أنفه بحمرة عميقة...

ويصبح بعض ضعاف القلوب:

- أوقفوا الرهان...

ولكنّه يرفض بحركة من رأسه دون أن ينبس وكأنما لا يستطيع النطق.

ويلتقي ماء عينيه بماء أنفه في مجرى على ذقنه وعنقه ويتنابه سعال متقطع.

ويستحيل وجهه قرمزياً وتنتفخ شفتاه ولكنّه يلتهم القرون حتّى آخرها وسط التهليل والتصفيق، ويربح...

ولكنّه لعلّه لا يشعر للنصر بلذّة، إنّه صامت محتقن زائغ البصر، وعلى هذه الحال ندخل حصّة الدين. والشيخ يطارده بالتسميع لما هو معروف عنه من الإهمال والشقاوة. يقول له:

- إبراهيم توفيق، سمّع تبارك الذي...

ويلبث إبراهيم صامتاً مغموماً بهمومه الخفية فيصبح به الشيخ:

- قف يا ولد وسمّع...

ولكنّ إبراهيم لا يتحرّك على حين تصدر من الأركان هممة يظنّها الشيخ لعبة متفكّفاً عليها فيصبح: - الأدب يا أولاد الكلاب، قُمْ يا مجرم... قُمْ لا بارك الله فيك ولا فيمن أنجبك...

ويقرب الشيخ منه في مجلسه في آخر الحجره فيهوله منظر وجهه فيتوقّف متسائلاً:

- ماذا بك؟... لماذا تبكي؟

عند ذلك يتكلّم عنه كثيرون فيسمع الشيخ ويتعجّب ويقول:

- أعود بالله... يا أولاد الأبالسة... كلّمكم مجرم

وابن مجرم.

ويذهب بإبراهيم إلى الخارج ليسعفّ في حجره الطبيب...

ولكنّ إبراهيم لا يكفّ أبداً عن التهريج والتحدّي...

## حكايات حارتنا ٥٦١

وأوافق بإيماءة من رأسي فتقول:  
- أحب القطط، وأنت؟  
أجيب وشعوري بتوحدنا يغمري:  
- وأنا... .

وتقترب لترى بوضوح أكثر فأحسّ من صدرها  
لكتفي. تُواصل الحديث فلا أتابعها. إني أضطرم  
فيلتهم اللهب حيائي، أستدير فأصمّمها إلى صدري،  
وتبدأ علاقة وطيدة، مفعمة من ناحيتي بالسرور  
والندم.

أزداد بها معرفة، جميلة جسورة بقدر ما هي  
حريصة. رغم سكراتها المنغومة فبيننا حدود لا يمكن  
تخطيها. ألبّي إشاراتنا، أهرع إلى ظلّها، أما هي فلا  
تعرف النجوى ولا الحلم ولا البراءة، تجذبني إلى  
حديقة الورد ثم تضم فيها نيران الجحيم. لا نعرف  
السكينة ولا الأمان، نقطف الثمار في رعدة من الرعب،  
نجري في حومة الحبّ خطّافين نشّالين مجانين، نراوح  
بين الصراع المكتوب والنعاس المفتوح العينين، وتقلب  
الحياة أغنية مجنونة تتفجّر بالعدوثة والعداب.

وتتزوج سنّية عقب عامين من حبّنا.

ونلتقي بعد أعوام وأعوام من زواجها.

أجدها مفرطة في البدانة، غافية النظرة، رزينة،  
جليلة، راسخة الاستقرار والوقار. نتصافح ونتبادل  
حديثاً روتينياً عن الأحوال والناس. لا بسمّة ذات  
معنى ولا إشارة إلى عهد انقضى. سيّدة مصونة ورمز  
حيّ للأومة، ومثال للتديّن والورع.

وأخطى الحاضر راجعاً إلى عهد صباها النضير،  
وهي فراشة متعدّدة الألوان، تفسّاح طازجة، وردة  
فوّاحة، ينبوع متدفّق.

تلك الأيام السعيدة.

## الحكاية رقم ٢٥

فتحيّة، الأخت الصغرى لسنيّة، تماثلني في العمر.  
مثال للهدوء العذب والرصانة والعمق.  
نظراتنا تتسلّل في استحياء فيستحوذ على أمل  
خلّاب. أمدّ يدي فأقبض على راحتها فتسحبها

ويختفي هاشم زايد من الحارة ومن البيت.  
وتطول غيبته حتّى يدوب رويداً رويداً في ظلّمة النسيان.  
وتسمع من يقول إنه هاجر، وتسمع من يهمس بأنّه  
قتل وأخفيت جثته... .

## الحكاية رقم ٢٣

ذات صباح تدهمني اليقظة بعنف. أستيقظ مجدولاً  
من عالم الغيب بقبضة مبهمة. يلقيني تيار من الطنين.  
أنصت فيقف شعر رأسي من ترقّب الشرّ. أصوات  
بكاء تتسلّل إليّ من الصالة. تغرز أفكار السوء أسنانها  
في لحمي، ويتخايل لعينيّ شبح الموت... .  
أثب من الفراش مندفعاً نحو الباب المغلق. أتردّد  
لحظة ثمّ أفتحها بشدّة لأواجه المجهول.

أرى أبي جالساً، أمّي مستندة إلى الكونصول،  
الخادمة واقفة عند الباب، الجميع يبكون... .

وتراني أمّي فتقبل عليّ وهي تقول:

- أفزعناك... لا تنزعج يا بنيّ... .

أتساءل بريق جافّ:

- ماذا؟... .

فتهمس في أذني بنبرة مختنقة:

- سعد زغلول... البقيّة في حياتك!

فأهتف من أعبائي:

- سعد!

وأترجع إلى حجرتي.

وتتجسّد الكتابة في كلّ منظر.

## الحكاية رقم ٢٤

القطّة الأمّ مستلقية على جنبها مترعة الحلقات  
والصغار تتلاطم مغمضات العين في حضنها. أنا  
وحيد في الحجرة أتابع المنظر باهتمام. وفجأة تتردّد  
أنفاس على كذب منّي فالتفت فأرى سنيّة. هي بكريّة  
جارنا ساعي البريد، دقيقة القسامات خفيفة الروح،  
مليئة بالحويّة والمرح، تكبرني ببضعة أعوام. تنظر إلى  
القطّة بشغف وتمهمس:

- ما أجملها!

بلطف، وبرقة تقول لي:  
- لا أحب العيب.  
وأصيق بجديتها فأقول:  
- إنك لا تعرفين الحب.  
فتقول بأسى:  
- أنت الذي لا تعرفه.  
وتقول معاتبة:  
- أثبت لي أنك تعرفه مثلما أعرفه.

ليست قطرات الندى مثل ذوب الشمع المحترق،  
ويصرفني اليأس فأتعزى بالزهدي، أمضي مصمماً على  
النسيان، ولكن تُرجعني الأشواق أو رسالة عتاب أو  
لقاء غير متوقع فأجد نفسي مرة أخرى حيال قلب محب  
وعاطفة طاهرة وإرادة لا تلين.  
وطريقي شاقة وطويلة، وفتاتي محبوبة كثيرة  
الخطاب. يقول لها أبوها:

- معنى الرفض أن تنتظري عشرة أعوام.  
ثم يقول بحزم:  
- القلوب تتغير بعد عشرة أعوام.  
وبصر على تزويجها من رجل مناسب فتزف إليه  
كسيرة القلب. وتنجب أطفالاً، وترعى بيتاً يُعدّ مثلاً  
للحياة الزوجية الموقفة.

وتشيب عن عيني وخيالي دهرًا طويلاً.  
والتقي بها في مائتم وهي في الستين من عمرها،  
أرملة منذ عشرة أعوام، فتتصافح وتطالعني بنظرة  
صافية تتألق فيها بسمة ذكريات قديمة. يتحرك في  
أصمائي شيء غامض. تتحاذني موجة من التذكر  
والأسى، وشعور فادح بطول الزمن المطروح ورائي.  
وأعلم بأنها تعيش وحيدة بعد زواج بناتها مع خادم  
عجوز. وأجدني أحادتها رغم كل شيء بجرأة مستمدة  
من ضالة ما يتبقى من العمر، وأعزم على زيارتها.  
وأتخيل وأسباب الابتسامة والمرارة تتجاذبي، ثم أبتهل  
في خشوع إلى أشجان الوداع.

## الحكاية رقم ٢٦

ست نجية امرأة وحيدة.

عهدي بها وحيدة دائماً، في بيتها وحيدة، مقطوعة  
من شجرة، يرد اسمها بلا لقب، لا أب ولا أم ولا  
أخ ولا أخت، ولكنها معروفة بأنها امرأة غنية.  
صورتها لا تُنسى، قصيرة جداً، مطبوعة بطابع  
كساح يتجلى في تقوس ساقها وبروز ذقنها، ولها أنف  
كبير مثل أذن حمار، دميمة ولكنها غير منقرة لحفة  
روحها وسخريتها اللاذعة من نفسها ومن الناس.  
تجيء معها في زيارتها لنا بالمرح والضحك، فلا  
نهاية لنوادرها وقفشاتها، وأتصورها دائماً أسعد الناس.  
بيتها مزرعة ققط وكلاب، تولد وتنشأ في عزها  
مكرمة مدللة، لكل اسم وخدماتها الغذائية والصحية  
والرياضية. هي مولعة بهن وهن مولعات بها، وفي  
رحابها المترعة بالرحمة والسخاء تنمحي الخصومة  
الغريزية بين الكلاب والققط فهن يعشن في إخاء ومودة.  
تسألها أمي:

- لم ترك من مدة يا ست نجية؟  
فتقول:  
- كانت نرجس متوعدة المزاج.  
أو تقول:  
- كانت بركة تلد.  
ودائماً تتحدث عن عفريت من الجن يؤاخيها،  
وتحكي عن علاقتها الخاصة باعتزاز وتوّه بنواده.

تقول بجديّة:  
- أمس شعرت بأنفاسه تتردد على وجهي قبيل  
الفجر...  
أو تقول:  
- وجدت بلاص العسل فارغاً فقلت له بالهنا  
والشفا...  
بالصدق والجديّة تتكلم، لعلها لا تتخلى عن المزاح  
إلا حين الحديث عن أخيها الحفي...  
وتزعم أيضاً أن الكلاب والققط تخاطبها بلغاتها  
الخاصة وأنها تفهمها، ولكي تثبت صحة كلامها تمضي  
في محاكاة اللهجات القطية والكلبية فنغرق في  
الضحك.

ولها خبرة راسخة في قراءة الفنجان والورق وتفسير  
الأحلام، وتتهم أحياناً بممارسة السحر والشبشة حتى

## حكايات حارتنا ٥٦٣

فيراى إلى صوت أمي وهي ترهب بضيفة قاتلة:

- أهلاً بك يا ست نظة... .

وأتساءل باهتمام ترى أمي الفاجرة؟

وأتسلل إلى الصالة محتماً بظلمتها وأرسل الطرف إلى حجرة الاستقبال، فأرى امرأة - بين الأربعين والخمسين - بضفة الجسم حسنة التكوين أنيقة اللبس. أعترف بأنها امرأة مثيرة... . وأنها تستحق أن تُعشق. وأعرف عنها معلومات جديدة، منها أن زوجها الثاني - خليل - توفي أيضاً بعد أن أنجبت منه ولداً، وأنها تركت شقتها قبيل القبول لتقيم في شقة صغيرة في بيت قريب منّا، وأدرك أيضاً أن أمي لا ترهب في أعقابها بزيارتها لنا. وأقول:

- إنها شريرة!

ولكنّ أمي تقول بحذر:

- الله وحده هو المطلع على الأفئدة... .

- تعطفين عليها رغم أنك لا ترخين بها.

- سمعت الكثير ولكنّي أرى امرأة ضعيفة وأما لولد

لا زجل لها ولا مال... .

وأراقبها من النافذة كلما سنحت فرصة. وتخيّم عليّ

ذكريات المرحومين حسن و خليل ولكنّي لا أبالي.

وأشعر بأنني مُقبل على مغامرة أخطر من جميع ما مرّ بي

من مغامرات. ولكنّ القصة لم تبدأ... .

ذات صباح تهزّ حارتنا صرخة مدوية.

ينتشر خبر بأنّ جارة ألفت على وجه نظة ماء نار

متهمة إياها بمحاولة خطف زوجها.

تفقد نظة سحرها إلى الأبد.

تضطرّ إلى العمل في حمام الحارة.

يشنّد بي الحزن فترة من الزمن وأردّد ما سبق أن

قالته أمي:

- الله وحده هو المطلع على الأفئدة... .

## الحكاية رقم ٢٨

يزورنا كثيراً.

أحبّه لأنّه يكاد أن يكون صورة متقنة لأبي. من

أحاديثه المكررة في إلحاح أبدّي أن يخاطب أبي قائلاً:

إنّ أم عبده لعنتها جهراً في الحارة عقب اختفاء ابنتها إحسان، ولكنّ طيبها خصلة يشهد لها بها أكثر الناس.

لا يكاد يطرق بابها أحد، لكثرة الكلاب يتجنّب الناس زيارتها، حتّى الخدم لا يطبقون خدمتها، فهي وحيدة في بيتها ولكنّ تؤنس وحدتها الكلاب والقطط والغفريت المواخي... .

تقول لها أمي وهي بصدد الحديث عن وحدتها:

- على الإنسان أن يعمل حسابه لساعة الأجل.

فتجيبها جادة وهي تبسم:

- ستنبح الكلاب حول جثتي وتموه القطط، ويحضر أخي ليغمض عيني، ثمّ يفعل الله ما يشاء.

## الحكاية رقم ٢٧

تقول ضيفة لأمي:

- نظة، الله يسامحها.

فتسأل أمي عن الأخبار فتقول الضيفة:

- ما زالت بالجدع حتّى أوقعتته فتزوّجها، رعاها

وجعلها من أسعد نسوان الحارة، وها هي الفاجرة

تهجره عندما أعجزه المرض... .

وتسأل أمي عن حاله فتواصل المرأة:

- طريح الفراش، وحيد، يبصق دماً ويسعل حتّى

تنخلع ضلوعه، يتمنّى الموت، وكما أزوره يقول لي:

«انظري يا امرأة خالي ما فعلته نظة» فأشجعه وأواسيه

وقلبي يتقلّع... .

وأخيّل أنا المريض والدم والمرأة الفاجرة.

ويعضي زمن ثمّ تزور الضيفة أمي وتقول:

- شوفي العجائب، لم يكد يمرّ شهر على وفاة

المرحوم حسن حتّى أوقعت الفاجرة شقيقه خليل فتزوّجها.

فتهتف أمي:

- نظة؟!

- ومن غيرها يفعل ذلك؟، إلهي ينتقم منك يا

نظة يا بنت أمّونة... .

وأخيّل أنا الميت والعاشق والفاجرة:

ويعضي زمن. ها أنا أذاكر دروسي في حجرتي

- أيرضيك خالي هذا يا خالي؟  
فيقول له أبي:  
- يا محسن، اعتمد على الله وعلى نفسك...  
- يؤلمني أنني غني بما أملك من مال في الأوقاف  
ولكنني عاجز عن صرف ما يميم واحد منه.  
- هذا حال كثير من المستحقين.  
ويضطر إلى أن يعمل كاتبًا بثلاثة جنيهاً شهرياً في  
وكالة الأخشاب بحارتنا. وتحاصره ظروفه القاسية  
فيتزوج من سوسن بنت نعمات الدلالة العاطلة من  
الجمال والمال. ويتقدم به العمر دون أن ينجب فيمضي  
حياته متحسراً. وتضرع زوجته إلى الله ألا يجعل عقدة  
الوقف، وتقول لأبي:  
- لولا الفقر لفجرت، لولا الفقر لطردي...  
لا حديث له إلا الوقف، الوقف يا خالي، الوقف  
يا امرأة خالي، وأسمعه يردد بحرارة:  
- يا رب، نفسي في لقمة حلوة ومسكن نظيف  
وملبس لائق وأنثى، أنثى حقيقية لا تمثال خشبي في  
هيئة امرأة، يا رب نفسي في ولد أو حتى في بنت  
وتتقدم به السن أكثر، وتدمع عيناه أحياناً وهو يرثي  
نفسه حتى ينال مني التأثر.  
وتندفع الأحداث فتغير من إيقاع الزمن ورؤيته  
وتنحل عقدة الوقف  
ويرقص ابن عمي من الفرح فأسأله:  
- ما مقدار البذل الذي سيصرف لك؟  
فيقول بزهو:  
- أربعون ألفاً من الجنيهاً...  
يدور رأسي. أنفّس في وجهه بعجب. إنه يدنو من  
السبعين، أبيض الرأس، ضعيف البصر، هزيل  
الجدس، ليس في فيه سنة ولا ضرس. أسأله:  
- ماذا ستصنع بثروتك؟  
فيقول متهللاً:  
- قلبي يحسني بأنني سامرح في نعمته عز  
وجل...  
ثم يستطرد:  
- سأشتري بيت عيوشة الحكيمة، وأرتب طاقم  
أسنان، وأتزوج...  
- تتزوج؟  
- وسأنجب أيضاً، سوف ترى...  
ويجهد نفسه بتصميم كما يجهد الحياة من حوله.  
أبقى على سوسن، ولكنه يتزوج من توحيدة بنت بياع  
الطرشي وهي بنت جميلة دون العشرين.  
ويخبرني ذات يوم قائلاً:  
- ولي العهد يتكون بإذن الرحمن...  
ويفرط في الطعام بنهم لا يناسب سنه، ثم يلزم  
الفراش عقب سنة أشهر من الزواج.  
وأعوده فيقول لي بصوت خافت:  
- لست نادماً، أبداً، الحمد لله رب العالمين...  
وكان قد بنى مقبرة جديدة وجميلة.

## الحكاية رقم ٢٩

- عليّ البنان صاحب محلّ البنّ في حارتنا صديق.  
يموت أبوه فيحلّ مكانه وهو في طور المراهقة.  
وذات يوم يسألني وأنا أجالسه في المحلّ:  
- هل تعرف أنيسة بنت أمينة الفرّانة؟  
فأجيبه ورائحة البنّ الصارمة تسيطر على حواسي:  
- أعرفها طبعاً، حارتنا كلّها تعرفها...  
- ما رأيك فيها؟  
- بنت فائقة الجمال وهي تشارك أمها في العمل...  
- ماذا تعرف عن أخلاقها؟  
فأضحك قائلاً:  
- ما أكثر ما يقال!  
- ولكنني متأكد من الكثير...  
ويحكم العمامة فوق رأسه. ويقول:  
- أعرف أنها سقطت أول ما سقطت مع حمدان  
صبيّ الفرّان...  
أهز رأسي موافقاً فيمضي هو قائلاً بنبرة اعترافية ثقيلة:  
- ضبّطت أيضاً مع الحنفي صبيّ محلّ الطرشي  
تحت القبور.  
- إنك تتكلم بلهجة حزينة أكثر من  
الضروري...  
- وقيل كلام أيضاً عن علاقتها بخفير الدركا



## حكايات حارتنا ٥٦٥

يلقى المدّ المعادي ببرود، بل ويتحدّاه أكثر فيرجع ذات يوم بزوجة جديدة أجنبية، يزعم أنّها فرنسيّة، ويصرّ أهل حارتنا على أنّها روميّة من بين السوريين! .  
ويذهبان ويحيثان معاً وهي تشخّ سفوراً ونوراً، ترمقها الأعين بازدياء واستنكار، ويترحم المترحمون على المعلّم الحموي .

وتتطير تساؤلات محرّجة عن سلوك الزوجة الجديدة واختلاطها بالرجال، وما يقال عن إدمانها الخمر، وعن صحّة عقيدتها الدينيّة، هل يُعتبر إسلامها حقيقيّاً؟، هل تنشئ أبناءها نشأة إسلاميّة سويّة؟

يعاني بطريق الحموي ذلك كلّ ويتصدّى له بما يستطيع من قوّة واستهانة .

ولكن ثمة متاعب جديدة من داخل بيته تهبّ عليه بلا رحمة . ها هي زوجته تضيق بالحارة وأهلها، وعاداته الأصيلة تتعرّض لمؤاخذتها وسخريتها، وهو كلّها تهاون في حقّ طولب بالمزيد من الاستسلام، حتّى يسلم في النهاية بأنّه غارق في التعاسة حتّى أذنيه .

ويقال له :

- طلقها وأمرك لله . . .

ولكنّه يجيب بإصرار :

- محال أن أسلم بالهزيمة . . .

أمّا هي فتقترح الطلاق من ناحيتها ولكنّه يرفضه بإباء .

وإذا بها تهجره ذات يوم فتخادر الحارة والوطن .  
وغمضي الأعوام وبطريق الحموي أعزب لا يفكر في الزواج .

يقترح عليه إخوته أن يردّ زوجته الأولى فيقول ساخطاً :

- هذا سخف!

- هل تعزم استرداد الثانية؟

- إنّه الجنون نفسه .

ثمّ يقول برزانة وتأمل :

- لا بدّ من الزواج، وعاجلاً أيضاً، لم تضيع

التجربة هباء، فأني على الأقلّ الآن أعرف ما أريد . . .

فأسأله ضاحكاً :

- هل تنوي كتابة سيرة لها؟

- وأيضاً مع حسنين السقاء!

فأغرق في الضحك وأقول :

- إنّه لسلوك يستحقّ التأمل .

- ولعلّ ما خفي كان أعظم .

- من يدري فلعلّها ليست الوحيدة في حارتنا!

فيتنهد قائلاً :

- ولكنّها الوحيدة التي أحبّها!

فأخرج دفعة واحدة من جوّ المرح وأسأله :

- أتريد أن تنضمّ إلى طاور العشاق؟

فينظر إليّ طويلاً ثمّ يقول :

- كلاً، لقد قرّرت أن أتزوجها!

- لا أصدّق . . .

فيقول بجذّ وتجهّم :

- إنّه قرار اتخذ بعد عذاب طويل ولا رجعة فيه،

ولا يهمني ما يقال!

وينقذ عليّ البنان قراره .

## الحكاية رقم ٣٠

يشبّ بطريق الحموي فيجد نفسه متزوّجاً .

كان أبوه مقاول بناء أمّياً فأراد أن يفرح بأخر العنقود في حياته فاختر له بنتاً وزوجه منها وهو تلميذ في الرابعة عشرة من عمره .

يسعد التلميذ باللعبة الجديدة فيجعل منها حكاية يشعل بها قلوب أقرانه المتلهفة وأخيلتهم المحمومة .

وينجح «بطريق» في حياته المدرسيّة ويتفوق فيكمل

تعليمه العالي ثمّ يُبعث إلى إنجلترا عامين . وعقب

عودته يتعدّر عليه التوافق مع ماضيه، زوجته خاصّة،

يتنافران في كلّ شيء، يضيق بجهلها وخرافاتها،

يتهاوى في الغربة والفشل، ويقول لخاصّته :

- لا يمكن أن تمضي الحياة هكذا . . .

ويتخذ قراراً حاسماً وقاسياً، من خلال معاناة

طويلة، فيطلقها .

ويلهج كلّ لسان في الحارة بلعنه ومروقه، ولكنّه

## الحكاية رقم ٣١

وإدريس موظف يثير التساؤلات بإعراضه عن الزواج . ولا يشك أحد من المقرّبين إليها أو المقرّبين إليه في صمود الحب وإصراره وتحديده المتواصل لكافة العراقيين .

ويُندب إدريس للعمل في بعض البلاد العربيّة وتقطع أخباره أعوامًا، على حين تجاوز سيّدة ربيع الشباب ويغض رونق صباها وتلبّسها صورة تعاسة مجسّدة .

ويرجع إدريس من غربته رجلًا في منتصف الحلقة الخامسة . لم يعد أحد يذكر قصّته، ولم تعد القصّة تثير أيّ اهتمام عند من يتذكرونها . وتُعرف حقيقة غير مالوفة في حارتنا وهي أنّ إدريس ما يزال أعزب، لم يدخل دنيا ولم يمارس أبوة .

ومضي إدريس إلى أم سيّدة يطلب يد ابنتها ويدهش كلّ من يعلم بالخبر معلقًا عليه بأنّ سيّدة لم تعد عروسًا تسرّ الحبيب . ويتمّ الزواج متوجّجًا حياة منصهرة بالعذاب والإصرار والوفاء .

## الحكاية رقم ٣٢

سنان شلبي يعمل في مطحن الغلال فيما يلي السبيل القديم . تلوح منه نظرة نحو النافذة في البيت القائم أمام المطحن فيلمح وجهًا أسرّ فؤاده وسيطر على أقداره . يأسر فؤاده ويستحوذ على إرادته بقوة لم يكن يتصوّر وجودها بحال . وقال لنفسه: «لقد جنت يا سنان وما كان كان» .

والجميلة لا تغادر البيت فيما يعلم ولكنّ أم سعد هي التي تتصدّى للمعاملة والتسوّق، وهي امرأة معروفة في الحارة . والعلاقة بين أم سعد والجميلة غامضة، عرضة لشقّي الاحتمالات، فالأسرة لا تزور ولا تُزار، فمن يكون سعدًا؟ أين هو؟، والمرأة أهي أم الجميلة؟، قريبتها؟، خادمتها؟، ثمّ تنتشر أقوال تسيء ولا تسرّ .

يقول سنان شلبي:

- أريدها، إني مجنون بها، بالحلال أو بالحرام

من قصص الحب المؤثّرة في حارتنا قصّة سيّدة كريم . ينشأ حبّ عفيف مستور في خفاء بينها وبين إدريس القاضي ابن الجيران، رغم التكتّم والحياء تفضحها النظرات وأحوال العاشقين . ينشب خصام بين الشيخ كريم مدرّس اللغة العربيّة وعمّ حسين القاضي بيّاع الحلوى . أدب ابنك، ابني مؤذّب، كلمة من هنا وكلمة من هنا، فيوشك الكلام أن يتحوّل إلى فعل لولا تدخّل أهل الخير . ولكن يستيقظ الرقباء وتحمدّ الأعين فيعاني العاشقان في صمت وقهر . وعندما ينتهي إدريس من المرحلة الثانويّة يقنع أباه بأن يحطّب له سيّدة، فيمضي الرجل على مضض إلى الشيخ كريم طالبًا يد ابنته، ولكنّ الشيخ يقول له بجفاء:

- ابنك تلميذ وينقي لا يمكن أن تنتظره . . .

ثمّ يقول الشيخ لبعض خالصاته:

- كيف يطمع في مصاهرتي ذلك البيّاع الحقير؟! ويتقدّم ابن الحلال المناسب لطلب يد سيّدة .

ولكنّ سيّدة ترفضه . ليس الرفض بالأمر الهين ولا المألوف، إنّه في الواقع ثورة غير متوقّعة أذهلت الشيخ والجيران، وزلزلت الأسرة بالغضب والعنف والتأديب، ولكنّ سيّدة تصرّ على الرفض، وتصارع أباهًا بأنّها تمارس حقّها الديني!

وكالعادة المردولة في حارتنا تغمغم الألسنة بالشائعات والشكوك وتختلق الأوهام، ويتناهى ذلك إلى الشيخ كريم فيركبه حزن ثقيل حتّى ينوء به كاهله فيختطفه الموت وهو يلقي درسه في الفصل .

وتتحمّل سيّدة مسئولية موت أبيها أمام الأسرة والناس . تصبح ملعونة شؤمًا متّهمة متجنّبة كالمرض المعدي .

وتترحزح الأعوام فلا يتقدّم لها خاطب .

وينجح إدريس في دراسته العالية فيتقدّم إلى عمّ حبيته طالبًا يدها . . . ولكن لا يلقى إلاّ الرفض والتجهّم، حتّى الأمّ لا توافق . . .

وتمرّ الأعوام، ثقيلة عند المعاناة، خفيفة لدى العدّ والإحصاء، سيّدة شبه سجينّة لا يطلبها أحد،

## حكايات حارتنا ٥٦٧

خاتمه الفضيّ الموروث عن أبيه بجنيه وبهبه حلمبوحة مسلّمًا أمره للمقادر. يتفحص الرجل الجنيه، يدسه في جيبه، ثم يقول لسان:

- لم يبق إلا هريدي الحملاوي، تعرفه؟
- يغوص قلب سنان في صدره ويسأله:
- ما شأنه؟

- إنّه خطيب البنت، ولا يرضى بأقل من جنهين...

فيتأوه سنان قائلاً:

- إنّا ثروة، ثم إنّا سلسلة بلا نهاية...
- هريدي ختام السلسلة...
- ولكن من أين لي بالجنهين؟
- خذ نقودك واذهب...

ويرد إليه الجنيه بحذّة. يتناول سنان الجنيه بقلب طافح باليأس ثم يمضي بلا هدف. وتقوده قدماه إلى البوظة فيسكر حتى يقول لنفسه:

- سأبلغ مناي ولو طرت إليه فوق سحابة...
- ويذهب من توه إلى أم عليش بياعة البيض بحجرتها الخشبية فوق سطح أم عليّ الداية فتقول له مستاءة:

- إني لا أتعامل مع الزبائن في حجرتي...  
فيرمي بثقله فوقها فجأة ويكتم أنفاسها ولا يتخلّ عنها إلا وهي جثة هامدة...

\*\*\*

إنّه يعي تمامًا ضرورة أن يهرب في الحال قبل أن تكشف الجريمة. لا يشك أنّ كثيرين راوه وهو يتخبّط في الحارة ثمّ وهو يتسلّل إلى بيت أم عليّ الداية. إنّه يعي تمامًا ضرورة الهرب ولكنّه لا يفكر إلا في الحب. ويذهب إلى المعلم حلمبوحة فينقده الجنيه ثم يمضي إلى هريدي الحملاوي بالجنهين فيصحبه الحملاوي إلى بيت أم سعد.

\*\*\*

يقول الرواة إنّ سنان دخل حجرة محبوبته كمن يدخل المللكوت. وفي نشوة الخمر ارتقى على قدميها في هيام، وما يدري إلا وهو يبكي من الوجد. واجتاحته لحظة ثراء فأشرق وجدانه بالصراحة والصدق فقال:

أريدها، ولو دفعت حياتي الغالية ثمناً لها...  
ويوثق سنان علاقته بأم سعد في ترددها الدوريّ على المطبخ. ويلمّح لها عن رغباته الخيالية ولكنّها تتجاهله وتشجعه في أن فينضحها بالهدايا الصغيرة التي يطيقها من اللبان والحنّيت والسكر، وعند ذاك تقول له:

- الجوهرة غالية وأنت رجل على قدّ حالك! فيقبض الفقر قلبه ولكنّ الجنون يبسطه فيقول:  
- ربنا يقدّرنا.

ويدرك لتوه أنّ الجميلة تحترف الحب ولكنّ ذلك لا يثنيه عن سعيه فإنّ جنون العشق يتسلّط على إرادته بعنف ويأسره فلا يترك له اختياراً أو مجالاً للتردد. وتقول له أم سعد:

- الأمر ليس سيئاً، يوجد حراس لا تراهم، وغاية ما أستطيعه أن أدلك على الطريق...

وتمدّ له يدها بحركة ذات مغزى فيضع لها فيها قطعة فضية من ذات الخمسة القروش ولكنّها تردّها بإباء ولا تقبل بأقلّ من عشرة قروش أو عشر أجر سنان في شهر كامل! وتقول له:

- أتعرف المعلم حلمبوحة؟ قل له إنك حاضر من طرفي، إنّه راعيها ووليّ أمرها وهو الذي جاء بها إلى حارتنا من المجهول...  
فيقول سنان بضيق:

- ظننتك ستوصليني بغير وسيط...  
- لا أملك إلا أن أدلك على الطريق...

ويذهب سنان إلى حلمبوحة في دكانه الصغير الذي يبيع فيه الدخان والمنزول. يجده كما يعهده عجزاً أعمش جاف الخلق فيحييه ويقول له همساً:

- إني قادم من طرف أم سعد.  
فيرمقه بازدراء ويقول باقتضاب حاسم:  
- جنه مصري!

فيقول سنان بارتياح:  
- إنّه مبلغ جسيم يا معلم...  
فيرض عنه قائلاً:

- وفّر نقودك واذهب لحالك...  
لا شيء يمكن أن يثني سنان عن مطمحه. إنّه يبيع

ويستعين المدرّس بقريب قويّ من أهل التحرش والتحدّي فيعتدي الرجل على بيّاع القلّل، ولكنّ بيّاع القلّل يضطغنها في نفسه ويتربّص لفراج أفندي ثمّ يفقأ عينه!

عند ذاك يجفل المحترمون من أبناء حارتنا إيثاراً للسلامة ولا يبقى إلا الحرافيش. وتهتف الأمّ المغيظة:

- يا ميلة البخت...

وتحتمد المنافسات، وتتعدّد الاعتداءات، وتتساقط التهديدات، ويلتزم آل زيدان الحياد الثامّ خوفاً من العدوان، ورغم بلواهم وكرههم تلفحهم أنفاس الحاسدين والسنتهم، حتّى يقول زيدان لبعض أصدقائه:

- لقد حلّت بنا نعمة اسمها الجمال!

وتتكرّر الخناقات وتكثر الإصابات، وتمضي زينب وأسرته لعنة مجسّدة تستقطب الكراهية والحقد والحسد ورغبة خفيّة في الانتقام.

عمّ زيدان لا يجد فرصة ليتنفّس في هدوء، ويخاف أن يغدر غادر بزينب نفسها...

ويطلع صباح فلا نقف لآل زيدان على أثر. ويتفشّى الوجوم والكدر. وأمنى بخيبة لا يدري بها أحد. ويحزن أتساءل:

- ألا يتيسّر للجمال أن يهنا بالبقاء في حارتنا؟

## الحكاية رقم ٣٤

هنيّة بنت علوانة الدلالة من بطلات الحبّ في حارتنا. أتساءل كثيراً عن سرّ حبّها لحمام صبيّ الخياط البلديّ. إنه فتيّ سنيّ الصورة والسمعة، شرس الطباع، تعكس عيناه نظرة تحدّ وعدوان، يرتدي جلبابه على اللحم ويمضي حافي القدمين. ثمّ إنّ هنيّة بنت متعلّمة، مكثت في الكتاب ثلاث سنوات، تفكّ الخطّ وتجمع الأرقام وتحفظ جزء عم، وأمّها ميسورة الحال، ووقت الغداء تفوح رائحة القلي من مطبخهم. وهنيّة ترفض يد حامد المراكبيّ بيّاع المراكيب عندما يتقدّم لخطبتها. وتبكي الأمّ بحرارة وهي تحكي

- لقد قتلت...

ولم تفهم المحبوبة كلمة، ولم يُقدّم هو على الفعل. وانطرح الزمن خارج وعيه حتّى هلّ أول شعاع للضياء.

وارتفعت من الطريق جلبة، ودقّت الأرض أقدام ثقيلة، فتلقّى سنان أول إشارة خفيّة، واستسلم بأرجية للمقادير...

## الحكاية رقم ٣٣

مرّت فترة بحارتنا يمكن أن تسمّى بعصر زينب. الأب بيّاع فاكهة، والأمّ بيّاعة بيض، وزينب آخر عنقود مثقل بالذكور. وهي جميلة، فلتة رائحة من الجمال، وفي جمالها تتلخّص حكايتها.

في طفولتها كانت لعبة تتخاطفها الأيدي، في صباحها تألقت تباشير الفتنة، في الشباب استوت آية من البهاء والأبهة.

ويقول زيدان الأب لزوجته:

- البنت يجب أن تمحجّب في البيت.

فتوافق الأمّ كارهة إذ إنّها تفضّل بطبيعة الحال لو كان في الإمكان أن تسعى زينب لرزقها...

ويتكالب الخطّاب عليها فترتبك الأسرة حيال الطلاب، وتقول الأمّ:

- من العدل أن يكون حظّها في قوّة جمالها...

لذلك ترفض يد ابن أختها سؤاق الكارو، فتتمزّق أواصر الأخوة، وتنشب معركة بين الأختين تتفرّج عليها الحارة ما بين شامت وتمعجّب ولاعن.

ويتقدّم لها في وقت واحد تقريباً حسن «صبيّ طرابيشي» وخليل «صبيّ جزّار» فيجرّان إلى معركة عنيفة يخرجان منها بعاهتين مستديمتين.

وإذا بفراج الدرّي المدرّس يطلب يدها، أفندي محترم وموظّف حكومة ويُعتبر بالقياس إلى بيّنة زينب حلماً من الأحلام. وتقول الأمّ:

- هذا من نرحّب به...

ولكنّ عليّ بيّاع القلّل يعترض سبيل المدرّس ذات يوم ويهمس في أذنه:

- إن تكن تحبّ الحياة حقاً فابعد عن زينب...

القديمة فلم يعد من المهم أن يذكرها أحد.

## الحكاية رقم ٣٥

في موسم القرافة نزور أحياناً حوشاً غير بعيد من حوشنا. أرى رجلاً يقيم في حجرة المواسم إقامة دائمة كما يُستدلّ من وجود الفراش والكنبة والصوان. أسأل أمي عن هويته فتقول:

- ابن عمّة أبيك رضوان أفندي.

- لماذا يقيم في الحوش؟

تجاهل وقتها سؤالي، وألاحظ خلوّ الحجرة من الرجل في عام تالي، وأعلم أنه انتقل من الحجرة إلى القبر، ثم أسمع قصّته فيما بعد لمناسبة لا أذكرها. أسرة رضوان أفندي تتكوّن منه ومن حرّمه ومن صبيّ وصبيّة. الأم تشغف بالصبيّ على حين يشغف الأب بالصبيّة. يناهز الأخوان البلوغ فيمارس الأخ قوته في معاملة أخته باسم الغيرة والرجولة حتّى تضيق به وبالحياة فيغضب الأب لها وتسوء العلاقات بينه وبين ابنه، أو على قول أمي:

- سكن الشيطان بينها!

يتطوّر النزاع إلى خصام أغبر، تأديب من ناحية الأب بلا رحمة وتمرد من ناحية الابن بلا حذر، حتّى تفصل بينهما الكراهية العمياء فيتمنى كلّ للآخر الهلاك والفناء جهراً وبلا تحفّظ.

وفي ختام المرحلة الثانوية يمرض الشابّ بالسلّ، ثمّ يفارق الحياة عقب اكتشاف المرض بستّة أشهر. موت قاسٍ مطويّ على المكر والحديعة والسخرية فانهارت الأم وتلاشت آمالها في الحياة وزلزل الأب زلزال الخوف والندم، ويقول رضوان لأبي:

- إنّها عمليّة نسل، والحجل يمنعني من مواجهة أمّه.

وبعد مرور عام واحد لوفاة الابن تمّرض أخته بنفس المرض.

وذات ليلة يجيئنا رضوان أفندي وهو يجري حافياً من أقصى الحارة، مشعث الشعر دامي العينين فتهبّ الأسرة نحوه متسائلة وهي على يقين أنّها تتساءل عنه. يقول الرجل وهو يلهث ويطلبهم بعينين انظفاً فيها

مأساتها لأمي:

- تصوّري، حامد المراكبي الرجل الكامل صاحب القرش.

فتساءل أمي:

- كيف وبتتك عاقلة وحافظة كلام ربّنا؟

- قالوا لي إنّه معمول لها عمل فذهبت إلى الشيخ لبيب وزرت الأضرحة وندرت الندور.

ولكنّ هنيّة تصرّ على رفض يد حامد. وتغضب أمّها وتطمعها على وجهها وتصيح بها:

- تفضّلين عليه المجرم؟ بتّك، ولكن مكتوب

عليك الشقا.

ويتراجع حامد المراكبي ويتلاشى، ويبدأ حمام جاداً في التفكير في أعباء الزواج وما يقتضيه من التزامات جديدة نحو مظهره وسلوكه. غير أنّه يُتهم في هذه الأثناء بجريمة السرقة مع الإكراه فيقبض عليه ويُزجّ في السجن عامين.

تتهجّ علوانة الدلالة بالحلّ الذي جادت به السماء وتقول لهنيّة:

- أرايت؟ سبحانه الله الذي لا يعلو على برهانه برهان.

ولكنّ هنيّة تصرّ على رفض حامد المراكبي وتغرق في حزن عميق حتّى يشفق عليها الغاضبون. ويقول كثيرون إنّها لا حيلة لها في الحزن، وإنّ حمام لا يُقتل من قلبها بلا أثر. ولكنّها تصرّ على الرفض حتّى يمرّ العامان ويرجع حمام إلى الحارة. وتدبّ الحياة من جديد في هنيّة ويحنّ جنون أمّها. ويلقى حمام صعوبة في العودة إلى عمله الأوّل أو الالتحاق بأيّ عمل آخر. ثمّ يرى سارحاً بلحمة رأس وطبليّة ويتساءل كثيرون من أين جاء برأس المال، ولا يُعلم إلّا فيما بعد أنّ هنيّة هي التي أمّدتّه بأسورة ذهبية.

وتشور علوانة ثورة عنيفة وتستعدي على ابنتها القريب والجار، غير أنّ هنيّة تعقد قرانها بحمام في القسم وتحت حماية الشرطة.

وأشهد بأنّها زبيجة موقفة، فهنيّة تشاركه في العمل وتدبره له بحكمة يعجز عنها عقله المشتّت حتّى ينجح أو بالأحرى تنجح هي في فتح دكان له، أمّا الذكريات

نور الحياة:

- انتهى كل شيء!

يصقّي الرجل بعد ذلك تجارته، يهجر بيته إلى حوش القرافة ويقيم هناك على مقربة من قبر الفقيدين. وتصرّ حياته على الامتداد حتى يوافيه الأجل.

أما الأم فهي تواظب على زيارتنا، وأراها وأتصل بها وأنا صغير وهي عجوز. يبدو أنها لا تذكر الماضي، وتحبّ التسلية باستقراء الكوتشينة عن البخت. أتذكر جلستها وراء الأوراق المُنْثَدة وتكومي أمامها في تشوّف، وهي تشير إلى صورة وتقول:

- في سكتك واحدة ليست من دمك.

وتبتسم كثيرًا فأقول لأمي:

- تيزة وليدة خفيفة وتحبّ الضحك.

فتمتم أمي:

- ربّنا معها ومع كلّ جريح.

## الحكاية رقم ٣٧

عمّ ينسون الصرماقي كهل لا تشوب سمعته شائبة. يموت ابنه رمضان عقب مرض لم يمّله طويلًا. يجزن الكهل كالمتوقّع ولكنّه يُقدّم على فعل غريب يجعل منه أحدىثة الحارة قبل أن تجفّ دموعه. ما ندري إلّا وهو يعقد زواجه على دليلة خطيبة ابنه المتوفّى، يعقد زواجه عليها وكما يمرّ على الوفاة شهر واحد هل جُنّ الرجل؟ وعلى فرض جنونه إلّا يسهه أن ينتظر عامًا أو بعض عام؟

وكيف تُوافق دليلة وفارق السنّ بينهما أكثر من أربعين عامًا؟

ولكنّ الخبر حقيقة لا شكّ فيها، وها هي دليلة تنتقل إلى بيت عمّ ينسون لتعيش فيه مع زوجته وبقية أسرته.

وتتلوّى الألسنة هامسة، كان شيء بين المرحوم رمضان ودليلة، يسره الزواج الوشيك، والثقة بغدٍ لم يأت، وتدخلّ الموت فقلب الميزان، وتبدّد الأمان، فسقطت دليلة في مازق بلا حماية ولا أمل.

وتقف أمها على السرّ، تفضي به إلى أمّ رمضان، وترمي به هذه على زوجها المحزون، مصيبة جديدة، مصيبة بكلّ معنى الكلمة، ولكن لا يمكن تجاهلها بحال، البنت في مازق، الجاني هو الابن الذي يسأل له الرحمة، ويفكر ويفكر ثمّ يعزم ثمّ يُقدم على أعجب زواج شهدته حارتنا.

تصبح دليلة زوجته، وتلد في بيته وليدها. وثمة أناس باركوا فعل الرجل ودعوا له بحسن الجزاء. وآخرون في غفلة وبراءة رموه بالحياقة والجنون. أمّا غواة السخرية فيشيرون إليه ثمّ يتهامسون: - هذا هو أبو حفيده.

## الحكاية رقم ٣٨

وأنا العب في الحارة تنطلق زغرودة من بيت الديق.

أكثر من صوت يتساءل:

## الحكاية رقم ٣٦

في إحدى ليالي الأرق أرى من نافذتي هذا المنظر. أرى شيخ رجل يترنّح، يتلاطم مع الجدران، يتعثر فيقع ثمّ يقوم بمشقة، تندلق من فيه السائب أغنية «أنا أبله كنت هبلّة» ثمّ يندفع فاقد التوازن كأنه ثور يتوتّب للنتطح، وبعد مغالبة للقوى المجهولة ينطرح كالقتيل. يراه بعض أهل الخير فيحمله أحدهم - لعله قرّان - ليطرحه على لوح عجيب ثمّ يتعاون مع آخرين على رفعه ويضمون به...

يصادفهم على بعد خطوات سكران آخر يترنّح ويتعثر ويقوم ويقع وإذا بالسكران الأوّل يضحك من فوق لوح العجين ويصيح بالآخر:

- اخص، حقيقة أنك مرة، تسكر حتى تقع من طولك وتضحك عليك الناس؟. سُفْخص.

في زمن متأخر، وفي ظروف غاية في الجسدّيّة، يعاودني ذلك المنظر حاملاً إليّ معاني جديدة لم تخطر لي على بال من قبل حين رؤيته.

## حكايات حارتنا ٥٧١

شيء، تتحجّر في عينيه نظرة لا معنى لها، رأسه صغير  
أصلع، يغمغم بين آن وأن:

- أين أنت يا حبيبي!

ترمقه من بعيد بحبّ استطلاع، نتجّيب إثارته كما  
نُبّه علينا، نتهامس:

- انظر إلى عينيه!

- ماذا يعني؟

- إنه مجنون.

كان يُرى قديماً هائلاً صامتاً، يتابع امرأة محجّبة  
باهتمام، يعترض طريقها فيفصل بينهما أهل المروءة.

ويقال إنه رأى في حلم بنتاً جميلة شُغف بها آتما  
شغف، وأنّ الحلم يتكرّر، وأنه يمضي باحثاً عنها.

ويفقد الصبر فيأخذ في التهجّم على النساء ويهّم  
بجذب النقاب، ويتعرّض بذلك للزجر والضرب

والعنف. ويؤمن أهله بأنّه ممسوس فيطوفون به على  
الأضرحة والشيخ لبيب ولكنّه لا يبشّر بشفاء.

ويقولون لأبيه:

- المستشفى لأمثاله وسلم للمقادير.

ولكنّه يجسه في الحجرة ويصمّح النافذة بالقضبان.  
ويقبع نهاره وراء النافذة، يحملق في لا شيء،

ويتقدّم في السنّ، ويغمغم من آن لأنّ:

- أين أنت يا حبيبي؟

## الحكاية رقم ٤١

إبراهيم القرد أضخم بناء إنسانيّ تشهده عيناى. لا  
أتصوّر أن يوجد بين البشر من هو أطول أو أعرض  
منه. مثذنة، يتحسّن طريقه بنبوت رهيب، تحمله  
قدمان حافيتان كأنّهما سلحفتان، يقول أهل حارتنا إنه  
من لُطف الله أن يخلق إبراهيم القرد ضريراً.

وهو الشخّاذ الوحيد في حارتنا فمنذ احترف التسوّل  
لم يتجرّأ شخّاذ آخر على ترديد «الله يا محسنين».

يقعد الساعات متربّطاً عند مدخل القبو، معتمداً  
على نبوته، يصمت طويلاً، ينفجر بصوت كالرعد «يا

أكرم من سئل»، يبيته الطعام في أوقاته، تراكم  
الملايم في جيبه، يتبادل التحيات مع السابلة.

- خير إن شاء الله.

فيبشّرنا أحدهم قائلاً:

- قرئت فاتحة نعيمة السقّاف على شيخون الدهل.

يتناهى الخبر إلى فتحيّة قيسون وهي تغسل ملابس  
في طست أمام مسكنها. تنتثر واثبة كالملدوغة، تفكّ

عقدة جلبابها، تربط مندبيلها حاشرة ما تبعثر من  
شعرها تحته بلهوجة، تتناول ملاءتها من فوق حجر

فتلقّع بها بسرعة مجنونة محرّكة طرفيها كجناحي طائر  
كاسر، تلوّح بقبضتها مهدّدة، تُرجع رأسها إلى الوراء

متوتّبة ثمّ تندفع في طريقها على يقين من هدفها وهي  
تصيح:

- والنبيّ ومن نبيّ النبيّ لأسود حظّه وأطين عيشته  
وأشوّه وجهه حتى إنّ أمّه نفسها لن تعرفه.

وتغضي خلفه وراءها توقّعات خطيرة ورغبة محمومة  
في الاستطلاع وعواطف تتراوح بين الإشفاق والشماتة.

## الحكاية رقم ٣٩

صبري الجواني يثير دائماً عاصفة من التساؤلات.

من بيثة كادحة، يعمل في دكان خردوات، ثمّ  
يندب الجولان بشقّى الخردوات في الأحياء المجاورة.

يتغيّر جلده بسرعة تفوق كلّ تقدير، تتحسنّ صحته  
ويكتسي بحلّة النعمة الزاهية. ينتقل إلى مسكن

جديد، يُرى وهو راجع حاملاً ورقة لحمه وفاكهة  
الموسم، يجلس مساءً في المقهى يدخّن البوري ويحسي

الزنجبيل، ويقضي بعض السهرات في غرزة المواويلي.  
ويتزوّج من بنت ناس، ويرتدي البدلة بدلاً من

الجلباب، وتنطق ملامحه بالرضى والثقة والأمان. وفي  
ليلة دخلة صديقه الحلاج يسكر ويرقص ويغنيّ ويبدى

من فنون الانبساط ما لا يتصوّره عقل.

وعقب الزفة يغادر الفرح ليرجع إلى بيته ولكنّه لا  
يرجع إلى بيته.

يخفي فلا يقف له على أثر أو خبر.

## الحكاية رقم ٤٠

يجلس وراء نافذة مصفّحة بالقضبان، يحملق في لا

ويصيح إبراهيم القرد:

- عليكم اللعنات .

ويغضب أحدهم فيرميه بسلة محطمة ملقاة .

ويثور القرد . أجل يثور ثورة أكبر من ثورة مظاهرة زاخرة . كأنها هرسست له دملاً . يجن جنونه ، يهدر بأقذع الشتائم ، يشهر نبوته ويدور به ويضرب به كل مكان فيرتطم بالجدران والأشياء ، ينشر الفزع في دائرة أخذه في الاتساع . يتفرق الرجال ، يركضون ، يتلاطمون ، يعثرون فيسقطون ، يصيحون ، يستغيثون . القرد ينقلب قوة عمياء مدمرة محتاج الحارة ، يلوذ الناس بالأزقة الجانبية ، تغلق الدكاكين ، تتحطم الكراسي والسلع وتنقلب السلال والمقاطف . وتتدفق قوات الشرطة على الحارة . يدهل الضابط عندما يدرك أن المعتدي ما هو إلا شحاذ ضريير ، ثم يأمر جنوده بإلقاء القبض عليه .

وتتجدد المعركة بين القرد والجنود ، يخوضها الجنود عزلاً من السلاح بأمر من الضابط ولكثهم لا يلبثون أن يتطايروا في الهواء كاللعب ، إنه قوة لا تغلب .

ويتجمع الغلمان في الأطراف ويشجعون القرد بهتاف صاحخب . الحق أنني لم أر رجال الداخلية من قبل على حال من التعاسة كما أراهم الآن . ويصيح الضابط من داخل بدلتة البيضاء ذات الشريط الأحمر : - يا قرد . ستضرب بالرصاص إن لم تسلم نفسك في الحال .

ولكن القرد يتهادى في التحدي منتشياً بثوران القوة والنصر . ويرحمه الضابط فلا يأمر باستعمال هراوة أو بندقيّة ولكنّه يستدعي بعض رجال المطافئ .

ويتدفق الماء من الخرطوم كالشلال فينصب بقوة التي لا مفرّ منها على القرد . يرتبك القرد ويتعثر ويدور حول نفسه مترنحاً منهزماً حانقاً قاذفاً بسيل من السباب الملقح ، ثم يتهاوى فوق أديم الأرض بلا حول فينفض عليه الجنود بالأغلال .

ويغيب القرد عن حارتنا فترة من الزمن ، ولكنّه يرجع ذات يوم ببنائه الضخم وهامته المرفوعة فيلقى استقبالاً حياً وحميماً وحياة حارة . . . فيواصل حياته السابقة متعملاً عند مدخل القبر مثل أسطورة .

وبسبب من حدة التناقض بين قوته الخارقة وبين حرفته المستضعفة فإنه مثار للابتسام ، ولكن بلا حق أو حقد ، فحسبه أنه ابن حارتنا وحسبه أنه لا يستثمر قوته في العدوان !

ويشاء الحظ أن أشهد معركته الكبرى .

ففي أحد المواسم يهبط حارتنا زلومة - شحاذ ضريير أيضاً - من القبور راجعاً من القرافة مثقلاً بالفطير والتمر ، فيختار مجلساً غير بعيد من القرد ليسترخ من عناء يوم مظفر .

ها هما الشحاذان الضرييران يجلسان على جانبي مدخل القبور كأنهما حارسان . ويتلقى القرد بأذنيه الحادثتين رسائل خفية من حركات شفّي زلومة ، كما يتلقى أنفه رسائل مغرية من جراب الأغذية ، يتجه رأسه نحو الرجل باهتمام وتساؤل وتحفز .

ويهتف زلومة في غبطة :

- يا حسين يا حبيب النبي يا سيّد الشهداء . . . مدد .

فيقتب إبراهيم القرد ويتساءل بغلظة :

- من ؟

فيجيبه زلومة ببراءة :

- سائل على وجه الكريم !

- وماذا جاء بك إلى هنا يا بن الزانية ؟

فيسأل زلومة بحدّة :

- أملك أرض الله ؟

- ألا تراني ؟

- إني أرى بنور القلب .

فيتمتم إبراهيم القرد :

- عظيم .

يتمطى ببنائه قائماً ويمضي نحو زلومة وكأنما يراه ، يقبض على منكبه ، لا أدري ماذا يفعل به ولكنّي أرى الرجل وهو يصرخ ويتلوى ويستغيث .

ويتجمهر أناس كثيرون ، يخلصون بينهما بعناء شديد ، يهدر من البعض كلمات غاضبة :

- افتراء وظلم .

- أنت وحش .

- أنت لا تخاف الله !



## حكايات حارتنا ٥٧٣

والعوامل والراقصات. وتلعب الأوتار وتتهادى الأنغام في جرّ من العريضة يهيج أشواق المحرومين ويشير استهجان أهل التقوى والورع.

ويتواصل الطرب والعريضة حتى قبيل الفجر بقليل ثم يخلد الجميع لنوم عميق... وعند ضحى اليوم التالي، والحارة ثملة بأفراح العيد، تصدر عن بيت حواش العدّاد ضجّة غريبة وصيحات فزع كأنّ صاعقة انقضت عليه.

وهرع الناس نحو البيت وهم يتساءلون، ثم تنتشر أخبار لم يُسمع بمثلها من قبل.

يقول الرواة إنّ الداعي والمدعوين استيقظوا فوجدوا أنفسهم مبعثرين في عالم خراب شامل لا يتصوّر ولا يوصف. إنهم يتذكّرون كيف أنّ النوم سرقهم من بين أحضان المسرات وهم على خير ما يحبون ولكنهم فتحوا أعينهم على عالم لا يُرى إلا في أعقاب زلزال مدمر. فالآثاث النفيس قد تحطّم إرباباً، الكنب والدواوين والمقاعد والموائد تفتتت أكواماً ونثاراً، الشلت والمساند والستائر والأغطية قد تهتكت وتمزقت وتطاير حشوها ندفاً، والقوارير والكتّوس والأطباق والمواقد والجوز قد تكسرت وانتشر كسارها، كذلك المصابيح والتحف وحتى السجّاد والأبسطة والملابس. ماذا حدث، لماذا حدث، كيف حدث؟! وتحضر الشرطة فتعابن وتسجّل وتستجوب ولكنّ التحقيق لا يسفر عن شيء. ويقال هنا وهناك إنّ خلافاً دبّ بين السكارى فانقلب معركة حامية لم تبق على شيء، وإنّ رجالاً من ذوي الجاه توسّطوا عند المأمور فغطّى على الحادث بالحفظ، ولكن لم يسمع أنّ أحدًا من المدعوين جرح جرحاً عميقاً أو أصيب بعاهة.

ويقال أيضاً إنّ أعداء حواش العدّاد دسّوا لهم منوماً حتى ناموا ثم دمّروا كلّ شيء بتصميم شامل ودقّة وحشيّة بالغة، ولكن لم يكن من المنطق أكثر أن يوجهوا انتقامهم إلى الأشخاص أنفسهم؟؟

وعلى ذلك فلم يكن يصدّق أحد هذا القول.

ويداع كلام أيضاً عن أنّ ما حاق ببيت حواش إنّما جاء نتيجة لغضب من الله استحقّه باستهتاره وفسوقه وعربدته وأنّ الداعي والمدعوين هم الذين خرّبوا

## الحكاية رقم ٤٢

البرجاهي منهمك في عمله بدكان الطعميّة. يمرّ به الكفراوي فيطلب منه شربة ماء. تتملّك البرجاي نزوة مزاح فيشير إلى حوض الماء الذي منه تُسقى الحمير والبغال ويقول:  
- إليك الحوض فاشرب.

ويضحك أناس من الزبائن فيغضب الكفراوي ويصيح به:

- أنت جبان وقليل الأدب.

فيغضب البرجاي بدوره ويصيح به:

- ملعون أبوك وأجدادك!

وتبادل قذائف من السباب ويتجمّع مشاهدون من أعمار متفاوتة، ويسعى إمام الجامع لفضّ الموقف ولكنّ أحدًا لا يلقي إليه أذنًا فينسحب مستاء.

ويتصاعد النضال فيتناول الكفراوي طوبة يقذف بها الدكان فتحطّم المصباح الغازي الكبير المدبّ من السقف، ويفقد البرجاي أعصابه فيقبض على يد طاسة الطعميّة ثم ينقضّ على الكفراوي فيضرب بها وجهه ورأسه ولا يتركة إلا جثة هامدة.

وصرع إلى مكان الحادث أهل الكفراوي وأهل البرجاي فيخوضون معركة دامية تُستعمل فيها الطوب والعصي والسكاكين، فيقتل من يقتل وينتهي مصير الباقي إلى السجون.

وأعيش عمراً فلا أرى في دارّي البرجاي والكفراوي إلا نساء وبنات يسعين في السواد، يمزني ذلك بطبيعة الحال وأعلّق عليه بما يناسبه.

غير أنّ كثيرين من أهل حارتنا يفخرون بذكريات الغضببات الهادرة والملاحم الدمويّة، ويتشرّفون جهراً بالسجون والمشائق.

## الحكاية رقم ٤٣

حواش العدّاد من أصحاب المزاج في حارتنا. في ليلة عيد يقرّر أن يجي سهرة كبرى في بيته. يلتي دعوته كثيرون من الصحاب والمعلّمين والمطربين

وهو الذي اختار الشيخ إمامًا لها ورثب له أجره، تذكر الشيخ ذلك فقال يخاطب نفسه:

- يا له من امتحان عسير من رب العالمين!  
ورقد الشيخ في بيته ثلاثة أيام ولم يفتح فمه.  
وانتشرت أنباء الجريمة في الحارة فعرف كل من هب ودب أن الست سكينه وجدت قتيلا في حجرة نومها وهي بجلباب النوم. وبدأ التحقيق، واستدعي فيمن استدعوا الشيخ أمل المهدي.  
سأله المحقق:

- ألم تسمع صرخة أو صوتًا ملفئًا للسمع وأنت تؤذن؟

فأجاب:

- كنت مريضًا فلم أؤذن تلك الليلة...  
- أنت جار للقتيل ألا تعرف شيئًا عن علاقتها بأحد؟  
- كانت سيّدة فاضلة ولا أعلم لي بشيء.  
وغادر الشيخ حجرة المحقق وهو يقول لنفسه: «إني لمن الهالكين».

وجعل يبكي بشدة من الحزن والعجز. واكتشف في أثناء التحقيق سرقة بعض قطع من الخليّ فحامت الشبهات حول صبيّ كوّاء كان يتردد على البيت وفُتّش مسكنه فعُثر على الخليّ وبداك وُجّهت إلى الشابّ تهمة القتل.

وبدا ذلك كلّه منطقيًا إلا عند الشيخ أمل، تابع الشيخ أنباء الجريمة باهتمام جنونيّ، مضى يحترق في صميم أعماقه ويناهر عصبًا بعد عصب. كان ورعًا تقيًا ولكنّ شجاعته كانت دون ورعه وتقواه.  
ومن شلّة القلق والحزن تهّدّم ودبّ الضعف في أعصابه.

والتقى ذات يوم بالمعلّم محمّد الزمر أمام السبيل القديم فشدّ على يده كالعادة، وعند ذاك انتفض كأنما مسّ ثعبانًا، وحذّق فيه بقوة غريبة حتى تساءل المعلّم:

- مالك يا شيخ أمل؟

فوجد نفسه يقول:

- لقد رآك الله!

فدهش الرجل وسأله:

دارهم وهم ذاهلون في غيبوبة ثمّ تداعوا نيامًا شبه أموات.

وهذا تفسير يلقي عادة أذنًا مصغية في حارتنا، ومثله ما قيل عن ذؤر العفاريت في الأمر نتيجة لنذر نذره حوّاش ولم يوفّه.

وقرّ أيام وأعوام فلا يذكر أحد من حارتنا حادث ليلة العيد بدار حوّاش العذّاد حتى يبسمل ويحوقل ويستعيد بالله من الشيطان الرجيم.

## الحكاية رقم ٤٤

هذه حكاية تروى عن عهد قديم لم أشهده.

كانت الزاوية حديثة البناء وكان إمامها وقتذاك الشيخ أمل المهدي. صعد الشيخ إلى شرفة المشذنة ليؤذن الفجر فانتبه إلى صوت يصدر عن البيت المواجه للزاوية، مدّ بصره نحوه فرأى امرأة تفتح النافذة ورجلاً يطبق يده على فيها ليمنعها من الاستغاثة، ثمّ يجذبها إلى الداخل تحت المصباح الغازيّ المضيء ثمّ ينهال عليها ضربًا بشيء في يده حتى تهاوت ساقطة. عرف المرأة كما عرف الرجل، أمّا المرأة فهي ستّ سكينه أرملة صاحب مقل، وأمّا الرجل فهو المعلّم محمّد الزمر صاحب وكالة خشب. تسمر الشيخ أمل المهدي في مكانه متدنّزًا بالظلام مرتعد الفرائص من الرعب حتى أغلق المعلّم النافذة. وراح يتمتم:

- لقد قضى على المرأة.

وخانه صوته فلم يستطع أن يؤذي الأذان.  
جريمة قتل، ماذا أوجد المعلّم في هذه الساعة ببيت الستّ؟، توجد أكثر من جريمة، ارحمنا يا ربّ السماوات والأرض!

وهبط السلم الخلزونيّ بمشقة ثمّ جلس على الأرض راكئًا إلى المنبر ظهره. وجاء أوائل المصلّين فهالمهم منظره وسأله بعضهم:

- لمّ نسمع صوتك يا شيخ أمل؟

فأجاب لاهئًا:

- بي مرض والله أعلم.

وكان المعلّم محمّد الزمر هو من تبرّع ببناء الزاوية،

## حكايات حارتنا ٥٧٥

- يا عمّ عاشورا  
يتوقّف متلقّتا أمام نافذة مغلقة في دور أرضيّ ببيت  
الستّ فضيلة الأرملة المستحقّة في وقف الشنانيري،  
ويتساءل:

- من ينادي؟

فيجيبه الصوت:

- أريد منك خدمة فادخل.

المكان مظلم، حتّى شبح التماسيح المحتطّ فوق  
الباب لا يُرى. يمرق من الباب ويمضي نحو المنظره  
مهتدياً بضوء يلوح في شراعة بابها. يرى السيّد فضيلة  
متربّعة على كنبه تركيّة فيقف بين يديها ناشراً في المكان  
رائحة عرقه الفظّة النافذة.

- أريد زيتاً وكسبة...

تقولها ببلاهة، بلاهة تفضح مكرّاً ساذجاً، وتضح  
بشرتها باعتراف قرمزيّ، ويلمح في جفنيها المسبلين  
معجزة الرضى والاستسلام، ولكنّه ليس الاستسلام  
الذي تبادر إلى خياله، فما تزال حصينة وعاقلة ومدبّرة،  
ويغادرها بعد أن يوقن بأنّها تريده في الحلال!

\*\*\*

ويلبث دهرًا لا يصدّق، يتوهّم أنّه يتعامل مع حلم  
من الأحلام، ولكنّه يتزوّج من الأرملة الغنيّة، ويجري  
ذكره في الحارة نادرة من النوادر ومثالاً من الأمثلة. لا  
يبالي طبعًا أن يترك لها العصمة في يدها، ويترك عمله  
بالسرجة كما شرطت عليه، ثمّ يطالع الناس في زيّ  
جديد وجلد جديد وهالة جديدة أضفاها عليه النعيم.  
ومشيئة ستّ فضيلة لا يطلّق زوجته القديمة، وترتّب  
لها ولأولادها ما يكفيهم فيباركون الزواج من أعماق  
قلوبهم. هكذا يعيش عاشور أحلامه القديمة، فيشبع  
ويسعد.

\*\*\*

وستّ فضيلة سيّدته جميلة وكاملة، تحبّه وتسهر على  
راحته وتعيد خلقه من جديد.

وهي لا تفرط في شيء منه. ناعمة مهذبّة وفيّة  
ولكنّها لا تفرط في قيروط منه. ومنذ اللحظة الأولى  
يشعر عاشور بأنّها حريصة على ملكيّته ملكيّة كاملة،  
ظاهرة وباطنه، أصله وظلّه، حتّى فكره وأحلامه، فهو

- ماذا تعني؟... أنت مريض؟

فهتف به:

- اعترف بجريمتك يا قاتل!

ثمّ هروا إلى الزاوية فأغلقها على نفسه بالفتاح  
والمزلاج. لبث في سجنه يومين كاملين لا يستجيب  
لأهله ولا لأحد من الناس.

وعند مغرب اليوم الثالث فاجأ أهل الحارة بظهوره  
في شرفة المثلثة. ولكن أيّ ظهور كان؟. تطلّعت إليه  
الأبصار بدهول وراحوا يقولون:

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله...

- الرجل الطيّب عارٍ تمامًا.

- يا شيخ أمل وحّد الله!

ومضى يدور في الشرفة متبخترًا ويغني بصوت

متحشرج:

أما إنت مش قدّ الهوى بسّ تعمشق ليه؟

## الحكاية رقم ٤٥

بحارتنا عامِلٌ بالسرجة يدعى عاشور الدنف.  
متزوّج، أب لعشرة، في الأربعين من عمره. يتميّز  
بقوّة شديدة وملامح نخشنة وفقر مدقع. يتواصل عمله  
من الضحى حتّى منتصف الليل، لا يعرف الراحة كما  
لا يعرف الشبع. يجتفن بالحسرات إذا رأى الناعمين  
في المقهى أو تطايرت إلى أنفه رائحة التقلية. وهو  
يغبط حمار الطاحونة في السرجة كما يغبط العطار أو  
صاحب وكالة الخشب.

ويقول ذات يوم لسيدنا إمام الجامع:

- الله يخلق الرزق ولكنّه ينسى أبنائي.

فيغضب الإمام ويصيح به:

- لقد بات سيّدنا محمّد عليه الصلاة والسلام  
بعض لياليه رابطًا على بطنه حجرًا ليسكن به جوعه،  
أذهب عليك اللعنة.

\*\*\*

ويرجع عاشور الدنف عند منتصف ليلة من  
السرجة يشقّ الظلماء فيتهدى إليه صوت هامس ناعم  
يقول:

المحفوف بالمتاعب والمخاطر.  
يستحقّ عند ذاك أن يكون نادرة من نوع جديد في  
حارتنا.

## الحكاية رقم ٤٦

كنت أعود سعد الجبلي في مرضه الأخير عندما  
ترامت إلى الحجره من الحاكي أغنية:  
ما هو إنت اللي جايه لروحك بيديك يا قلبي  
فتنهّد سعد وابتسم وتمتم:  
- إي والله، بيديك يا قلبي.  
وتبادلنا نظرة نطقت بتذكرنا لحياته المغامرة الحافلة  
بالمسرات والآلام.

\*\*\*

سعد الجبلي كاتب حسابات بدكان الرهونات  
بحارتنا. طموح بعيد الأحلام فيبيع أرضاً يمتلكها  
ويستقبل من عمله ثم يتاجر في الروائح العطرية.  
يربح أرباحاً كثيرة، يصير من أثرياء الحارة، ولكنه لا  
يتمتع في الواقع بأخلاق التجار الاقتصادية.  
كلّ ليلة يدعو إلى بيته نخبة من الصحاب، يقدم  
الطعام والشراب، يلعب بأوتار العود، يغني من له  
صوت مقبول، تمتدّ السهرة حتى منتصف الليل.  
ثمّ يجيب تقديره في صفقة كبيرة، لا يجد لديه من  
المدخر ما يسدّ به العجز، يشهر إفلاسه...  
يجد نفسه هو وقبيلة مكونة من زوجة وأبناء  
وأخوات على باب الله.

تمرّ به أيام قاسية شديدة، تؤذي صحته وكبرياه  
معاً، ولكنه يبدو دائماً رجلاً قوياً راسخ الأركان. يرجع  
إلى عمله الأصلي في دكان الرهونات، يعطي دروساً  
خصوصية في الحساب، يعيش عيشة التقشف.  
وإيمانه قوي عميق.

أجل يشرب كثيراً، لا يلتزم بالفرائض، ولكنه  
مؤمن حقاً، يعتقد بأن لن يصيبه إلا ما كتب الله له،  
وأنه لا مفرّ من المكتوب.

ولا يقعه عن العمل إلا المرض فيلزم الفراش.  
وأفكر بحال أسرته فيملؤني الأسى.

وأشير إلى من يلعب في الحجره من الصغار وأقول:

يعيش بين يديها، في الحديقة أو المنظرة، وحتى الساعة  
التي يقضيها في المقهى يرى شبحها وراء خصاص  
النافذة يطلّ عليه، ولكنه ينعم رغم كلّ شيء بالحبّ  
والراحة والشعب.

\*\*\*

وعندما يعتاد عاشور الطيبات، عندما تطوي العادة  
معجزات الهناء، يتسلّل إلى روحه الثاؤب. يتوق إلى  
ساعة يخلو فيها إلى نفسه، يهيم على وجهه، يمازح  
صديقاً، يرتكب حماقة بريئة، ولكنه يشعر دوماً بأنه  
مراقب، خاضع، مطارد.  
الحقّ أنه لا ينقصه شيء ولكنه سجين. ثمة أغلال  
من حرير تحزّ عنقه مكان الأغلال الحديدية القديمة،  
ويتدفّق في روحه الثاؤب.

ويجد الزمن طويلاً، ويجد الزمن ثقيلاً، ويجد الزمن  
عدواً.

ويقول لها ذات يوم:

- افتحي لي دكاناً.

فتقول له:

- لديك ما تشتهي النفس، ماذا ينقصك؟

فيقول متشككياً:

- كلّ رجل يعمل حتى الشحاذون.

ويوقن بأنها تخاف أن يستغني عنها بالعمل أو يستقل  
عنها بالنجاح، وهو لا يريد من العمل إلا أن يهتئ له  
قدراً من الحرّة بعيداً عن نظرتها المستقرّة.

\*\*\*

ويرتدّ عاشور الدنف إلى التجهّم والاحتجاج.

ويردّد لسانه ألفاظ التذمر والظلم ونوادرها.

ويغلي غضبه ويفور فيقرر أن يفعل ما يشاء فتجتاح

رياح الشقاق هدوء البيت السعيد.

ويتأدى في غضبه فيلطمها على خدّها الأسيل،

فتطرده من الجنة فيذهب متحدّياً...

\*\*\*

ويتعرّض في نشرده لتعاب كثيرة، يلتقط رزقه

بعناء، يتورّط في أعمال مريبة، يجلد مرّة في القسم.

وتحنّ الست إليه فتعرض عليه الصلح بشروطها،

ولكنه يرفض، يصرّ على الرفض، يمضي في سبيله

## حكايات حارتنا ٥٧٧

ثم يواصل بعد صمت قصير:  
- ومات الرجل فهتك الستر من ورائه عن عالم  
غريب...  
- عالم غريب؟  
- لم يترك مَلِيًّا واحدًا، كانت صدمة، وقلت إنه  
الكرم قد أهلك ثروته...  
وعمضي في قصته أو في اعترافه فيقول إنه توَلَّف،  
وطمخ ذات يوم إلى الزواج من كريمة تاجر الغلال،  
وأراد أن يزكي نفسه عنده فأخبره أنه ابن الألابي...  
- ودهمني الرفض، تحمّرت عن السبب بلالحاح  
شديد حتى عثرت عليه في ذكريات أبي!  
- هكذا؟  
- تصوّر حالي إن استطعت.

ويجري لاهئًا وراء مزيد من التحريات ينش بها قبر  
الراحل فتتكشف له حقائق مريرة خافية، أخطرها بلا  
شكّ اتّهامه في شبابه بالسرقة والحكم عليه بالسجن  
عامًا. وقد قبل تاجر الخردوات بتوظيفه كاتبًا عنده  
لصدقة قديمة بينهما.

شلمي الألابي يجترّ همومه وحده، حتى أمه لا تدري  
شيئًا، وهو يفشي أسراره الدفينة لا ليجد شريكًا يئنه  
همه، ولكن لتوهمه أنّ سيرة أبيه أصبحت نادرة على كل  
لسان.

وتحدث الحقائق المكتشفة آثارًا قاسية مناقضة في  
حياته، فها هو يلتزم بحياة مستقيمة نقيّة بل مثاليّة في  
عمله وحوارته. وها هو يتحرّر بالفضيحة من سيطرة  
آراء الناس عليه فيعمل الصواب دون مبالاة  
بالآخرين. ويعدل عن طموحه إلى الزواج الممتاز،  
ويثابر على التنويه بمآثر أبيه...

ويقول لي مرّة بصراحة صلبة:

- أهمّ شيء في هذه الدنيا أن نعرف الحقيقة...  
ويغمغم بثقة وأسى معًا:  
- الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة...

## الحكاية رقم ٤٨

الأب موظف حكوميّ صغير وذاك أمر- على أيّ

- ربّنا يشفيك من أجل هؤلاء!  
فيقول باستسلام:  
- أما الصّحة فقد انتهت.  
ثمّ يستطرد بثقة:  
- أما الأولاد فلا خوف عليهم ولا هم يمزنون.  
ويرفع أصبعه إلى فوق ويقول:  
- الخوف كفر بالله، أعوذ بالله من الخوف.  
ثمّ بنبرة ساخرة:  
- أحسبت أنّ حياتي أطعمتهم حتى تخاف أن  
يجمعهم موتي؟  
أتمنّى إيمانه منبهراً من قوّته.  
غير أنّ سعد الجبلي لا ينسى الدعاية حتى وهو في  
أعماق المحنة، فما إن يردّد الحاكي:  
ما هو إنت اللي جايه لروحك بإيدك يا قلبي  
حتى يتمتم بانسًا:  
- إي والله، بإيدك يا قلبي...

## الحكاية رقم ٤٧

وشلمي الألابي له حكاية تستحقّ الرثاء.  
لطيف ومحبوب ولكن ثمة لحن ممّيز في حديثه هو  
الإعجاب بابيه. والفخر بالأباء شعار مألوف في حارتنا  
ولكنّ المغالاة فيه لا تخلو من دلالة ولا تسلم على المدى  
من تهكم. وأبوه كان كاتبًا في دكان الخردوات، وكان  
طويلاً عريضاً، والرجال يقيّمون بالطول والعرض في  
حارتنا.

يقول لي شلمي وهو يتنهد:

- طالما رأيت أبي بعيني طفل أو من خلال عيني  
أمي أيضًا!  
فأقول له:

- هذا حال كثيرين منّا.

- ولكنّ الطفل يكبر ثمّ يعمل عادة في حرفة أبيه  
فيتسنى له أن يراه على حقيقته أمّا أنا فدخلت المدرسة  
وواصلت تعليمي فظّل أبي في خيالي أسطورة.

- أيّ أسطورة يا شلمي؟

- أسطورة الجلال والثراء!

حتى الكلبة تضطرب في جنبات البيت مخنقة، ممنوعة من الانطلاق خوفاً عليها من القدارة، تلاعب الضيف بعنف، تنقض على ساقه تتمسح بها، يجن جنونها لدى سماع نباح يترامى . . .

\*\*\*

ويتقدم العمر، صقر يفظ في عزوبته، وهن يذبلن ويغصن في الماء، ويتسربل الجور بالقتامة. والشاب بقدر ما يثير من عطف بقدر ما يستوجب من ازدراء، لا علة واضحة لذلك، ربما لأنه يصبح مثالا للإذعان، والانحناء حيال المصير المحتوم، ومرآة للاصطلاحات والأساليب النسوية المقتبسة من البيت.

ويوماً أرى كلبته في الطريق وقد تدلت بطنها وانفخت فأرمقها بابتسام وإعجاب:

- الكلبة وحدها وهبت حارتنا ذرية جديدة.

أما صقر فبات يمقت أسرته، ويقول عنها:

- أسرة لا تعرف الموت، كما لا تعرف الحياة . . .

## الحكاية رقم ٤٩

أمنية كل صغير في حارتنا أن يطوف به في منامه زائر الليل.

إنه شخصية حقيقية بلا ريب ولكن مملكتها المضيفة تستقر في القلوب البريئة. في ليالي المواسم والأعياد يقولون لنا:

- استحمّ وادخل فراشك فاقرا الفاتحة وتمنّ ما تشاء واستسلم للنوم فربما أسعدك الحظّ بمجيء زائر الليل ليحقق لك أمنيك . . .

وتتابعت تمنّياتي خلال مراحل متلاحقة من العمر ابتهالات يزفرها القلب بين يدي زائر الليل . . .

- يا زائر الليل أغلق الكتاب وخذ سيّدنا.

- يا زائر الليل افتح لي باب التكيّة واملأ حجري بالتوت.

- يا زائر الليل جدّد مباني حارتنا القديمة.

- يا زائر الليل نجّنا من الفقر والجهل والموت.

\*\*\*

وفي صباي شهدت موكباً فخماً يشق حارتنا يتوسطه رجل بالغ الروعة. اكتظت الحارة بالرجال وسدت

حال - نادر في حارتنا. لذلك ينشأ الابن - صقر الموازيني - محسوداً بين أقرانه. ولكنّه يقول لي ذات يوم:

- لو كان أبي صعلوكاً ما عرفت الهمّ أو الغمّ . . . ويتوظّف صقر مثل أبيه. وبعد عام من توظيفه يتوفى أبوه موقظاً صغيراً فقيراً، لا يورثه إلا أسرة مكونة من أم وعمّة وأختين في سنّ الزواج وكلية، كما يورثه أيضاً تقاليد راسخة تتعلّق بالكرامة وتطلّعات جامعة نحو الحياة الجميلة . . .

وأكثرية النساء في حارتنا يرتزفن، أمّا في أسرة الموازيني وأمثالها فمضيّ عليهنّ بالانتظار، واجترار الأحلام، ومضيّ على صقر وحده أن يعمل بمرتب ضئيل ليعول أربع نساء وكلية.

ومضي الحياة ثقيلة مغلقة النوافذ، ولا فرجة له إلا المقهى حتى منتصف الليل.

ويجد راحته في الشكوى فيقول:

- لن تزوّج أختاي أبداً، فنحن لا نرضى بالصعاليك وأولاد الناس لا يرضون بنا، ومن ثمّ فلن يتاح لي الزواج أبداً.

أسرة تعاني الأشواق والحرمان، حتى الأمّ والعمّة لم تجاوزا الخمسين.

وصقر شابّ مستقيم رغم حيويته، ذو استعداد شديد للحياة الزوجية ويحسّ لها حيناً:

- بيت صغير وزوجة وأبناء، تلك هي الجنة! ويتهدّد وتذوب نظراته حسرة وأحلاماً.

\*\*\*

وتضطرب جوانحه بعنف الكبت فيطفر في صفحة وجهه الشحوب والشroud، ويمضي الأيام يتفجّر الحرمان سخطاً على الأهل والنفس والناس، ثمّ ينطبع البيت بطابع الشحناء ومرارة الملاحاة.

والنساء مجبرات على البقاء في البيت - إلا لضرورة - متعاً للقليل والقسال، تحسهنّ التقاليد، يجمعهنّ الحرمان، يعدهنّ الفراغ، يتسلّين بالنقار.

أسرة في صراع دائم مع الحرمان والأهواء واليأس، ونضال خفيّ مع حارسها الذي لا يقلّ عنها يأساً وعداباً.

## حكايات حارتنا ٥٧٩

وأَسأل أبي:

- أهو أقوى من عنتره؟

فيقول بأسماً:

- عنتره حكاية أما هذا فحقيقة والله المستعان... وهو عملاق مترامي الأطراف طولاً وعرضاً، ذو كرش مثل قبة جامع ووجه في حجم عجيبة ست أم زكي، يتمايل فوق صهوة حصانه كالمحمل، ولكنّه سريع الانقضاض كالريح، ويلعب بالنبوت في رشاقة الحواة، وعند القتال يقاتل بنبوته ورأسه وقدميه وأتباعه.

لا يُسمع صوته إلا مزججراً أو هادراً أو صارخاً، ودائماً قاذفاً سيلاً من الشتائم. يخاطب أحبائه بيا ابن كذا وكذا، يسب الدين وهو ذاهب للصلاة أو راجع منها. لا يرى بأسماً أو هاشماً حتى وهو يتلقى الإتاوات ويصغي إلى ألق، يستوي في ذلك عنده صاحب الوكالة ومحمودة القواد، وعلى مسمع ومرأى من وجهاء الحارة وأعيانها يضرط أو يكشف عن عورته! يعجز مرةً أحد التجار عن دفع الإتاوة فيستمهله أسبوعاً ولكنّه لا يقبل فيضطرّ الرجل إلى البقاء في بيته مع الحرّيم حتى يجيئه الفرج.

ويعاقب ناظر المدرسة ابن أحد أتباعه فيعترضه لدى مغادرته المدرسة ويأمره بأن يخلع ملابسه ليذهب إلى بيته عارياً. يتوسل إليه الناظر أن يعفو عنه ويستحلفه بالحسين وقبر الرسول وجعلص متجهّم متوثب ينتظر تنفيذ أمره. ويضطرّ الناظر إلى أن ينزع ملابسه قطعةً قطعة وهو يبكي. يتوقف عندما لم يبق إلا السروال فيزجر الدنانيري فيرتعد الرجل ويخلع سرواله ثم يستر عورته بيديه ويجري نحو مسكنه مشيعاً بقهقهات العصاة.

وهو يهزأ من التقاليد الراسخة فلا يتردد عن إجبار شخص على تطليق زوجته ليتزوجها، وهو كثير الزواج والطلاق، ولا يجرؤ أحد على الزواج من إحدى مطلقاته فيلقين الحياة وحيدات يتسولن أو ينحرفن.

وعرض يوماً فيلازم الفراش أسبوعاً، ويخبره أحد قرّاء الغيب بأن ما أصابه إنما أصابه نتيجة لدعاء بعض أهل الحارة عليه، فلما يبرأ من مرضه يأمر بالآ يحتفل

النوافذ بالنساء، جلجلت الزغاريد والتهافتات، صدحت المزامير والطبول.

زار الدكاكين دكناً دكناً، والوكالة والسرجة والفرن والحمام والكتاب والمدرسة والسبيل الأثري والقبر والزواية والساحات، حتى البوطة والغرزة والقرافة طاف بها.

بهربي منظره فانبعثت في قلبي فرحة لا حدود لها. وانتفض وجداني عن عقيدة راسخة «أن هذا الرجل الرائع هو زائر الليل» وأنه جاء أخيراً استجابة لابتهالاتي في هداة الليل.

وهتفت بصوتي الرفيع الذي لم يناهز البلوغ:

- ليحيى زائر الليل!

وحدث ما لم أتوقعه أبداً، فقد وجم الناس، وتقلصت وجوههم كأنما اندلق في أفواههم عصير الليمون المالح. وقرص إمام الزاوية أذني وصاح بي:

- يا لك من ولد قليل الأدب!

وأمر صاحب الوكالة أحد خفراه قائلاً:

- أبعث هذا الولد الشقي... .

ودفعتني الأيدي إلى بيتي وأنا من القهر والمهانة في نهاية.

وجلست واجماً محزوناً داعم العينين حتى قال لي أبي:

- إنك أحمق، أنسيت أن زائر الليل لا يجيء إلا في

المنام!؟

## الحكاية رقم ٥٠

في زمن مضى لم أدرك منه إلا ذيله كانت الفتونة هي القوة الجوهرية في حارتنا. هي السلطة، هي النظام، هي الدفاع، هي الهجوم، هي الكرامة، هي الذل، هي السعادة، وهي العذاب... .

جعلص الدنانيري فتوة خطير ومن أشد الفتوات تأثيراً في حياة حارتنا. يجلس في المقهى كالطود أو يتقدم موكبه مثل بنيان ضخم. وأنظر إليه بانبهار فيشئني أبي من يدي قائلاً:

- سير في حالك يا مجنون.

ويضرب بنا موته كما أضرت بنا حياته وتكفهر الحياة  
بلعنات الشياطين.

## الحكاية رقم ٥١

ألعب أمام البيت مبتهجا بشمس الشتاء.  
في الناحية المقابلة يلعب عبده ابن الجيران.  
وهو ذو نظرة حاملة وصوت عذب وملامح آسرة،  
ويعجبي صوته وهو يغني:

عجايب والله عجايب ما يصحش يا منصفين  
تهجرني وتعشق غيري وعواذلي مهنيين  
وفجأة يصمت عبده وتعرّب ملامحه عن حزن بلا  
سبب ظاهر، ويخيل إليّ أنه يرمقني باهتمام.

- مالك يا عبده؟

ولكنه لا يردّ أو بالأحرى لم يسمع. وكأنما يشرع في  
الضحك ولكنّه لا يضحك. وتندّ عنه صرخة ثمّ  
يسقط على وجهه. يتصلّب عوده وترتعد أطرافه  
ويطفح الزبد من شذقيه.

ويحمّله أهل الخير إلى داخل بيته.

وأقصد على أمي ما رأيت فهتفت بحرارة:

- الله معه ومع أمّه المسكينه.

وأسمع همسا أنه ممسوس وأنه لا يوجد له دواء عند  
أهل الأرض.

وتسوء حاله ويسيطر عليه البله.

ويومًا يرجع جعلص الدنانيري من القرافة في موكبه  
فتقف له الحارة على الصفيين ويركبها الهول، إلا عبده  
فإنه يعترض سبيل الفتوة بلا مبالاة ويقول:

- إني ألعنك ووظف فيك!

وأقول لنفسي جزعًا: لقد هلك عبده.

ولكنّ الجبار يبتسم، بل ويتأبط ذراعه، ويمضيان  
معًا في سلام.

لم يرحم الجبار أحدًا في حارثنا إلا عبده.

وتعلمني الخبرة مع الأيام أنّ حارثنا تقدّس  
طائفتين: الفتوات والبلهات.

وتحوم أحلام صباي حول الطائفتين.

أحلم حينًا بالفتوة وجلالها.

وأحلم حينًا بالبلهات وبركاتهما!

أحد بعيد الفطر المبارك، حتى زيارة المقابر حُرمت  
علينا، وتمرّ أيام العيد والحارة خالية والدكاكين مغلقة  
والبيوت صامته ويغشانا ما يشبه الحداد.

أيامه أيام رعب وجبن وذلك ونفاق، أيام الأشباح  
والآنات المكتومة، أيام الشياطين والأساطير المخزية،  
أيام التعاسة واليأس والطرق المسدودة.

ولكنّه يُرعب أيضًا الحارات المجاورة، ويسحق  
فتوات الحسينية والعطوف والدراسة، فتمضي زفة  
العريس من حارثنا بلا حراسة، ويتجنب الناس وقع  
خطانا اتقاء لتجهّم المقادر.

\*\*\*

ويقدّر لهذا الجبل الشامخ أن ينهار فيما يشبه اللعبة.  
يُدعى إلى فرح في الدرب الأحمر، وعند مدخل  
البيت يتقدّم منه غلام ويقول له:

- يا عمّ.

فينظر إليه من علّ باستغراب ويسأله:

- ماذا تريد يا ولد؟

وبسرعة البرق.

أجل بسرعة البرق يُخرج من جلابه سكينًا فيطعنه  
في أعلى الكرش ثمّ يشدّ السكين وكأنّه يتعلّق بها حتى  
المائة!

بسرعة البرق وقع ذلك.

ويتجمّد جعلص الدنانيري كأنما دهمه نوم، وتنحطّ  
معدته خارج جسمه، ثمّ يتهاوى كعمارة بكلّ ما  
يتضمّن من قوّة وإقدام ووحشيّة وثقة في النفس  
والدنيا.

ويتبيّن أنّ الغلام ابن أحد ضحايا من كفر  
الزغاري ذريته أمّه وأعدّته لتلك اللحظة.

\*\*\*

ويجتاح الخبر حارثنا كالنار المستطيرة. ندهل ونفزع  
ونبكي ونصرخ.

ونتمنّى الخبر وتبادل النظر فيتسلّل إلى جوانحننا  
استرخاء وأمان وامتنان وفرح.

ويستقرّ بنا الحال فنؤمن بأنّ علينا أن نحزن رغم  
أننا فرحون، وأنّ علينا أن نغضب رغم أنّنا راضون،  
وأنّ علينا أن نتقمّ رغم أنّنا شاكرون.



## حكايات حارتنا ٥٨١

- ليس أسهل من ذلك فهي تُدعى عادة إلى البيوت في أواخر الليل.  
فيقول يائسا:  
- أمنيقي أن أتزوج منها ذات يوم.  
فيقول ميمون باستهانة:  
- اقتلها لتثبت جدارتك ثم تزوج من غيرها فالنساء في حارتنا أكثر من الذباب!  
- ولماذا أم عليّ بالذات؟  
- هذا أمر المعلم ولا مناقشة فيه، وهو يريد أن يجربك، بل لعلة علم برغبتك في المرأة.  
فيقول متتهبداً:  
- الحق أنني لا أستطيع القتل!  
فيغضب ميمون ويصفعه ثم يقول:  
- أحسبت الانضمام للعصابة لهواً؟  
- أعرف الآن أنني لا أستحق هذا الشرف.  
- فات الوقت!  
- فات الوقت؟  
- لن يغفر لك تراجعك ولن تحلو لك الحياة في الحارة.  
ومضي زيان وهو يعد نفسه في الضائعين.  
ويفضي بهمه إلى أمه فتنصحه بالهرب وتحثه عليه، وقبيل الفجر يغادر زيان بيته حاملاً بقجة ملبسه وخمسين قرشاً، هاجراً بيته وحارته وعمله، مستقبلاً العناء والمجهول.  
وكان فارق الزمن بين سعيه إلى الفتونة وبين ضياعه عشرين ساعة من عمر حارتنا.

## الحكاية رقم ٥٣

- ومن فتوات حارتنا حمودة الحلواني. ويحكى أنه الوحيد بينهم الذي عمّر حتى بلغ التسعين من عمره، كما أنه الوحيد الذي اعتزل الفتونة بحكم العجز والكبر.  
وقد تاب وحبّ ولزم المسجد في آخر أيامه.  
ومما يؤثر من سيرته أنه جلس مع الإمام ذات مساء يتسامران عقب درس العصر، فقال للإمام:

## الحكاية رقم ٥٢

- يقف زيان صبيّ مبيض النحاس بين يدي فتوة حارتنا السنوي مبتهلاً فيقول له الفتوة:  
- إن كنت صادقاً فدعني أجربك.  
فيقول زيان بحماس:  
- تحت أمرك يا سيد المعلمين.  
فيقول السنوي بهدوء:  
- اقتل أم عليّ الداية.  
ثم يأمره بالانصراف فينصرف قبل أن يفيق من ذهوله.  
ويغوص زيان في هاوية من الاضطراب ويتمتم لنفسه:  
- إنها لمصيبة لم تجر لي في خاطرا  
\* \* \*  
قبيل ذلك اللقاء كان زيان فرداً مغموراً من أهل حارتنا، ومن الشبان الكادحين في سبيل لقمة العيش.  
وكان يطوي قلبه على حبّ مضطرم لأم عليّ الداية بالرغم من أنها تكبره بعشرين عاماً.  
ويفكر في حاله فترأى له طريقه مسدوداً، ورزقه محدوداً، وأنه لن يروق في عيني أم عليّ إن لم يقلب حاله رأساً على عقب بضربة سحرية. لذلك حلم بالانضمام إلى عصابة السنوي ليثب فوق حاجز الحظ وثبة موفقة.  
ويتشفع لدى الفتوة بصديق لآبيه هو ميمون الأعور فيزكيه الرجل عند السنوي ويقدمه إليه، غير أن اللقاء لم يستغرق إلا دقيقة واحدة أمره في ختامها أمره المرعب:  
- اقتل أم عليّ الداية!

\* \* \*

- ويهم زيان على وجهه في الساحة أمام التكية ولكن الله لم يهده إلى مخرج. ويتسلل إلى ميمون الأعور ليلاً في الغرزة فيقبل يده ويقول له:  
- يا معلم، إني خجلان، ولكنني لا أستطيع قتل أم عليّ الداية.  
ويظن ميمون أن عجزه راجع إلى قلة الحيلة فيقول له:

- ولكن أعجب ما سمعت من حوادث القتل ما ذاع عن مقتل قرقوش العبد؟  
فضحك حمودة واستغفر الله، فقال الإمام بالحاح:  
- حدّثني بخبره يا معلّم حمودة.  
فقال الرجل الذي لم يبدُ قطّ أنّ ذكريات جرائمه تؤرّقه:  
- كنت جالسًا في داخل المقهى عندما جاء قرقوش العبد ليدخّن البوري، لم يكن بيني وبينه شيء على الإطلاق، فدخّن البوري وشرب قهوته ثمّ قام لينصرف وهو يقول لصاحب المقهى «غداً سأكون عندك في مثل هذا الوقت بالدقيقة والثانية كما اتّفقنا فلا تنس». وما أدري إلّا والغضب يجتاحني فقرّرت في الحال قتله، ولم يطلع عليه الصبح!  
- أذلك كلّ ما كان؟  
- بلا زيادة ولا نقصان!  
- ولكن ما الذي أغضبك؟  
- لا أدري، حتّى اليوم لا أدري.  
- ولكن لا بدّ من سبب!  
- ربّما أحققتني ثقته البالغة في نفسه وفي غده، كان يتكلّم بثقة وطمأنينة!  
- ولكن لا بدّ من سبب غير ذلك؟  
- قل إنّه قُتل بلا سبب!  
فتعجّب الإمام ورمق الرجل بغرابة وذهول وكان الكبر قد أهزله فلم يبقَ منه إلّا هيكل عظمي.

## الحكاية رقم ٥٤

ومّا يُحكى أنّه كان بحارتنا شابّ صعلوك يدعى عبّاس الجحش. لم يكن يوفّق أبدًا في إتقان حرفة ولا يمكث في دكان أكثر من أيام ثمّ يُطرد شرّ طردة. وذات يوم رأى عبّاس عناية المتولّي بنت بيّاع الدندورمة فاتّرع قلبه برحيق الحبّ المسكر. ولم يجد سبيلًا مشروغًا إليها فتفتّق عقله عن حيلة، أن يتأمّر مع صحبه من الصعاليك على أن يمثّلوا مع الفتاة دور المتحرّشين وعلى أن يمثّل هو دور ابن البلد الشهم. وخرجت عناية لتتسوّق في ليلة عاشوراء فحاصرها الصعاليك متظاهرين بالعريضة، فوثب عبّاس الجحش

- كثيرون يسيئون الظنّ بالفتوات ولكنّ أولاد الحلال بينهم كثيرون!  
فابتسم الإمام وقال متهكّمًا:  
- إنك على رأس أولاد الحلال.  
فقال حمودة بإيمان:  
- حصّتي من الخير لا يستهان بها.  
- عظيم، أعطني مثلًا يا معلّم حمودة؟  
- أتذكر رجل الفلّ الذي اشتهر بمغازلة الزوجات المصونات؟ أنا الذي دبرّت مصرعه!  
- ولكنّها جريمة يا معلّم.  
- أبدًا، وأنا الذي قتلت سمعة الدنش الذي قتل ابن زوجته.  
- ولكن ذلك لم يثبت وقد برّأته المحكمة!  
- طظ في المحكمة، كان قلبي ذليلي وهو أصدق الحاكمين!  
ثمّ بعد استراحة قصيرة إذ كان الكلام يرهقه في أواخر عمره:  
- ومن حسناي أنني قتلت فهيمة الآلاتيّة القوادة المعروفة!  
فقال الإمام بازدرء لم تره عينا العجوز الضعيفتان:  
- قيل وقتها إنك قتلتها لأسباب لا علاقة لها بحرفتها!  
- لا تصدّق كثيرًا ممّا يقال!  
فضحك الإمام وقال:  
- زدني علمًا بحسناتك!  
- وقتلت أيضًا يمي الخيشي.  
- وماذا كان ذنبه؟  
- المعجرفة، كان يسير في الحارة كأنه خالقها.  
- تعني أنّ نفسه سوّلت له أن يقلّد فتوّته!  
- إنك عنيد ولا تريد أن تعترف لي بفضل.  
- لا تغضب وزدني علمًا بحسناتك!  
فضحك حمودة عن فمٍ لم يبقَ فيه ناب واحد ولا ضرس ثمّ قال:  
- حوادث القتل الباقية لا تُعدّ من الحسنات وقد تاب الله عليّ والحمد لله.  
فقال الإمام بعد تردّد:

## حكايات حارتنا ٥٨٣

وسار فيها رجال الحارة .  
وعند باب زويلة .  
عند باب زويلة اعترض الطريق فتوة العطوف  
ورجاله .  
راه عباس فطارت الخمر من رأسه .  
ولعب فتوة العطوف بنبوته بخفة بهلوان فسقط قلب  
الجحش حتى ركبته .  
وهتف أهل حارتنا في حماس وبراءة فاضطرَّ عباس  
إلى أن يلعب بنبوته كذلك .  
لا يمكن تأجيل القضاء إلى ما لا نهاية .  
وتقدّم خطوات في سكون ثقيل فتقدّم فتوة العطوف  
في غاية من الحذر .  
واندفع عباس نحو خصمه حتى ذهل أصحابه .  
وفجأة .

وفجأة ويسرعة البرق انحرف نحو عطفة الحنفي ثم  
انطلق في ظلماتها مثل رصاصة لائذا بالفرار  
ووجم الجميع دقيقة لا ينطقون ولا يفهمون .  
ثم هدر المكان بالضحك والقهقهات والصياح .  
ولم يرَ عباس بعد ذلك في حيننا كله . وظلّ قرانه  
معهودًا حتى سقط بمضيّ المدة .

## الحكاية رقم ٥٥

الويل لنا عندما يشتدّ النزاع بين الحارات، عندما  
تتصارع التحدييات بين الفتوات .  
نتوقع في الليل أن تجتاحنا هجمة غادرة، نعرض  
في تجوالنا في الحيّ لتحرشات مباغتة، تنقلب أفراننا  
إلى معارك دامية، يسود وجه الحياة ويكفهر .  
ويغدو الانطلاق إلى الميدان محفوظًا بالمخاطر أما  
التسلل عن طريق القرافة فيتهده الشياطين وقطاع  
الطرق، فننحصر في حارتنا كالفئران في المصيدة .  
ذاك ما رواه الرواة عن فترة من حياة حارتنا  
الماضية .

\* \* \*

ويقترح بعض أهل الحكمة هدم جزء من السور  
الشرقيّ، يقولون:

من مجلسه على سلم السبيل، فانقضّ عليهم  
كالوحش، صرعهم واحدًا في إثر واحد حتى طرحهم  
أرضًا، ثم تقدّم من البنت وهو يلهث قائلاً:  
- مصحوبة بالسلامة .

فشكرته ومضت معجبة بقوته الخارقة . وجعلت من  
مغامرته حكاية تتناقلها النساء والرجال .

وصادف ذلك وقتًا خلت فيه الحارة من فتوة - ولم  
تكن الفتوة قد زالت بعد - فتساءل أناس ترى هل آن  
لحارتنا أن يكون لها فتوة؟

ورأى أحدهم عباس وهو يحوم حول بيت بياع  
الدنورمة فهتف به:

- أهلاً بالجحش فتوة حارتنا!

واهتزَّ عباس بالهتاف ولعبت برأسه الأحلام، وتمت  
سطوة المخدرات قال لنفسه:

- فلنجرب هذه اللعبة!

وجمع أصحابه، ومضى على رأسهم نحو المقهى بعد  
أن فرش طريقه بالدعاية المناسبة . وكانت الحارة في  
حاجة ملحة إلى فتوة لتحفظ ذاتها وكرامتها بين  
الحواري المتصارعة، فاستقبلت عباس الجحش  
وصحابه بزفة وبايعته فتوة لها . وتحول الصعاليك إلى  
عصابة، وانهالت عليهم الاتاوات، فتحسنت  
أحوالهم، وازدهتهم الخيلاء فخطروا في الأرض  
كالجمال، ورويدًا رويدًا صدّقوا أوامهم .

وطلب عباس الجحش يد عناية التويّ فقال له  
أبوها بوجه طافح بالبشر:

- بشرى لنا يا معلّم!

وعقد القران .

أما الدخلة فلا تتمّ إلا بعد الزفة .

وتبّيه عباس متأخرًا إلى أنّ زفة الفتوة يجب أن  
تطوف بالحيّ كله، وأنها الاختبار الرهيب للفتوة،  
تجاهه فيها تحدييات الأعداء، فيرجع منها إلى شهر  
العسل وعرش الفتوة أو يمضي إلى القرافة .

لا بدّ مما ليس منه، وماذا يمنع الحظّ من أن يخدمه  
مرة أخرى؟

وسكر وسكر أصحابه .

ومضت الزفة على أنغام المزامير وأضواء المشاعل،

خفيفة كالدعابة .  
ولكنه يستطرد غير مبالٍ باعتراضهم :  
- الجبل فوقنا ونحن نربض عند قدميه وحارتنا  
منخفضة في الوسط .  
ويضحك الجماعة ويقولون ساخرين :  
- يريد منا أن نستهيئ بخطر داهم عاجل لائقه خطر  
وهمي لا يقع إلا في خياله .

\* \* \*

وتقضي أعوام والحارة منهمكة في صراعها اليومي .  
المدرّس يكرّر تحذيره بين آونة وأخرى فلا يلقى إلا هازئاً  
حتى أطلق عليه «الأستاذ مسيلمة» .

\* \* \*

وتربّد السماء ذات شتاء فتتراكم السحب وتسوّد  
وتهبّ فوق المآذن .  
وتهبّ عاصفة تدكّ العاللي فوق الأسطح وتلعب  
بأشجار التوت في التكيّة .  
وينهلّ المطر كأنه أنهار تتدفّق من عل .  
ويتواصل انهلاله ثلاثة أيّام كاملة .

حدّث كونيّ لم نعرفه من قبل غضبة فلكيّة كاسرة .  
وينصبّ من الجبل طوفان فيندفع نحو الممرّ بسرعة قطار  
صاحب، ويزجر في هدير شامل تحت التهامات البرق  
الخاطفة وهزيم الرعد المجمعع .  
وتخفي أرض الحارة تحت طبقات من المياه المرّكزة  
المحصورة، وتأخذ المياه في الارتفاع فتغرق البدرومات  
وتكتسح الدكاكين والوكالات والأدوار السفليّة وباحة  
السييل وفناء المدرسة وتجعل من القبو خزّاناً ومن الساحة  
بحيرة ومن الممرّ الضيّق بين التكيّة والسور العتيق نهراً  
زاحراً، ثمّ تجتاح المياه المقابر فتجرّفها وتقذف بالعظام  
والجثث في أخاديد لا حصر لها تغطّيها الأكفان والخرق  
البالية .

تنهدم بيوت وتنقلب الأسقف مصافي وثقوباً فيهجر  
الحارة أهلها مذعورين ويتشرون في الصحراء لاجئين  
مشرّدين والخراب يحيط بهم وارثاً الأرض وما عليها .  
محنة لا تُنسى .

وذكرى مبلّلة بالدموع .

- لا بأس من هدمه لتتسلّل منه إلى صحراء  
الجبل، ومنها إلى أطراف الأحياء البعيدة التي نتعامل  
معها ونحن في مأمن من الأخطار المحدقة بنا .  
والسور عتيق يكوّن الجناح الشرقيّ للحارة ويقع  
على مبعده يسيرة من سفح المقطم . وتطيب الفكرة لنا  
فنعهد إلى أحد المقاولين من أبناء حارتنا بتنفيذ الفكرة .  
ويتساءل أناس :

- ألا يمكن أن يهتدي العدو إليها فيباغتتنا منها؟  
فيجيب أصحاب الفكرة :

- الوصول إليها عسير، فبينها وبين العمران  
صحراء لا تدوسها قدم فضلاً عن أنّه من اليسير  
حراستها!

ويشرع العاملون في العمل، وتتهيأ لنا ممرّ إلى  
الصحراء نطلق عليه «ممرّ السيل» حيث إنّه يبدأ من  
نقطة تقع وراء السيل الأثريّ مباشرة . هكذا نخلق  
ممرّاً سرّياً للعالم الخارجيّ متجنّبين طريقيّ الميدان  
والقرافة اللذين يحذّان حارتنا من طرفيّها .  
ويتحدّث مدرّس الجغرافيا ذات مساء في المقهى  
فيقول :

- نحن نتوهّم أنّنا حقّقنا الأمان لأنفسنا وأنّه لم يعد  
ثمّة ما نخافه!

فيتعجّب السامعون لقوله فيقول :

- كأنّ معاركنا مع الحارات المجاورة هي جملة ما  
يهدّد سلامتنا!

فيزداد تعجّب الناس من قوله وأدعائه أمّا هو  
فيحضي قائلاً :

- هنالك خطر هائل لا يفطن له أحد ولكنّه كفيّل  
بالقضاء على حارتنا كلّها بضربة واحدة . . .

وكما يسألونه عن الخطر المزعوم يجيب :

- الممرّ الذي شقّ في السور الشرقيّ .

- ممرّ السيل؟

- لو ينهمر من السماء سيّل فيكتسح السفح وينقضّ  
على الممرّ فيغرق الحارة!

وتتجمّع في أعينهم أمارات الدهول والسخرية  
ويقولون :

- إنّها لا تمطر في العام إلا مطرة واحدة وهي مطرة

## حكايات حارتنا ٥٨٥

في الوكالة شاق، وأعباء الأسرة لا يستهان بها، ومتابعة الحكايات مع استيعابها جهد متواصل، ولكنه كان يهادن متاعبه بتخيّل حلمه العذب يوم يمثل بين يدي الدقمة في نقاء الماء وثرء الرباب.

وذاع سره، وعرف كلّ من هبّ ودبّ أنّ عبدون الحلوة يعدّ نفسه للفتونة.

وانبرى له كثيرون من أهل الخير والنصح، فقال له أحدهم:

- النظافة مهمّة، والحكاية مهمّة، ولكنّ الشجاعة عند الدقمة أهمّ من الاثنتين!

- الشجاعة؟

- أجل، واحذر في الوقت نفسه أن تستشير غيرته فيحرق عليك بدلاً من أن يرضى!

- وكيف أوفق بين هذا وذاك؟

- تلك هي مشكلتك وعليك أن تحلّها بالفطنة يا عبدون يا ابن الحلوة!

وقال له آخر:

- والقوّة مهمّة أيضًا، عليك أن تثبت قوتك، عليك أن تثبت أنّك قادر على توجيه الضربات الحاسمة وأنك قادر أيضًا على تحمّل الضربات مهما اشتدّت... .

وعليك أن تثبت له أيضًا أنّ قوتك لا توزن بحال بقوته.

- ولكن كيف يتأتّى لي ذلك كلّ؟

- تلك هي مشكلتك يا عبدون!

ساورته الخبرة ولكنه أراد أن يطمئن نفسه فقال:

- أهل الخبرة يقولون إنّه يحبّ الجمال والنقاء والخير، أشهد أنّ معاملته للبان تقطع بميله الأصيل للخيرا فتساءل الآخر في حذر:

- وماذا عن معاملته للسقاء؟

فانقبض قلب عبدون لحظة ولكنه قال بإصرار:

- أخبرني أي ذات مرّة أنّه يحبّ الفقراء.

- بوسعي أن أعدّ لك عشرة على الأقلّ من أفقر فقراء حارتنا قد نخلّ بهم وشردهم.

خرج عبدون من الأحاديث معتمًا مهمومًا حائرًا، حتّى العدول عن الطريق خطر له، ولكنه الحلم كان قد سيطر على روجه فلم يسعه النكوص. وتشعبت أهداف الحياة بين الوكالة والزوجة والرباب وتجارب

## الحكاية رقم ٥٦

لعب الطموح بقلب عبدون الحلوة العامل بالوكالة فقرر- كما فعل زيّان في زمن أسبق- محاولة الانضمام إلى عصابة «الدقمة» فتوّ حارتنا، واسترشد بأحد كبار العارفين فقال له:

- احذر أن تقترب منه بهذه السحنة أو هذه الرائحة أو هذا الجلباب المزيّت، كُنْ مثل الماء الصافي النقيّ ثمّ جرّب حظّك.

وقال له أيضًا:

- فتوّتنا يحبّ الجمال والنقاء، وهو طراز وحده في سلسلة فتوّتنا فافهم ذلك جيّدًا.

واقنع عبدون بأنّ الطريق إلى الدقمة عمهد ميسور، فذهب إلى الحمام ليغيّر جلده في المغطس، وأعدّ جلبابًا ومركوبًا جديدين. وفيما هو منهمكي في تجديد نفسه سأله صاحب له:

- ماذا هناك يا عبدون؟ هل تفكّر في الزواج؟

فباح له بسرّه، وكان الآخر صاحبًا أمينًا فقال له:

- ليست النظافة وحدها هي ما تهّمّ الدقمة، إنّه أيضًا يحبّ الحكايات.

- الحكايات؟

- عنتره وأبو زيد وغيرهما، فإن لم تعرف السّير تمعّدر عليك أن تواصل الحديث دقيقة واحدة مع الدقمة.

- ولكنّ تحصيل ذلك يطول!

- عندك الراوي في المقهى فلا تضيّع وقتًا إن كنت صادق الإرادة حقًا!

ثمّ قال له وهو يمضي عنه:

- تغيّر الزمن يا عبدون. في بادئ الأمر كان الدقمة يرحّب بأيّ رجل يروم الانضمام إليه، أمّا اليوم فهو يستوي على عرش القوّة دون منازع.

وتفكّر عبدون في الأمر مليًا. وكان عبدون رجلًا عاقلًا. قال لنفسه إنّه من الحكمة أن يأخذ الأمور بالهواة والصبر والإتقان، وألا يتكالب على هدفه تكالبًا يفسده عليه. لبث في الوكالة يعمل بهمة، وتزوّج، وواظب على السهر في المقهى يتلقّى الحكايات على أنغام الرباب. لم تعد الحياة يسيرة أو مريحة، فالعمل

القوة والشجاعة ومغامراتها. ومضى - رغم صلابته - ينوء بالعبء، وتنزلق قدمه، وتتراخي قبضته، تبدد وقته وتشتت عقله وارتكب حماقات متلاحفة، ومقادي في طرقه المتشعبة بجنون حتى فقد السيطرة على حياته، وانتهى دأبه بالخيبة فطرد من الوكالة، وطلق - عقب مشاحنات كثيرة - زوجته.

لم يكثر ذلك كثيرا وظن أن الوقت أزف للقاء الدقمة الذي لم يبق له غيره.

وتفحصه الفتوة مليا ثم سأله:

- ماذا تريد؟

فأجاب عبدون:

- أن أصير من خدامك.

- أترى نفسك أهلا لذلك؟

فأحنى رأسه ليخفي زهوه بمنظره الأنيق وقال:

- عندي ما يريد معلّمي وزيادة!

فقال الدقمة بجفاء:

- لست في حاجة إليك.

فذهل عبدون وقال بضراعة:

- في سيلك فقدت أسباب حياتي جميعا.

فقال الدقمة بلا اكتراث:

- أعرف ذلك.

- وتطردي رغم ذلك؟

فقال الرجل بنفاد صبر:

- بل أطردك بسبب ذلك...!

وبات عبدون الحلوة نادرة تروى...

## الحكاية رقم ٥٧

زغرب البلاقيطي من فتوات حارتنا المعدودين. وهو خاتم الفتوات الكبار فمن بعده لم تقم للفتونة قائمة تذكر.

رشيق مديد القامة أبيض الوجه غزير الشارب خفيف الحركة بالنّبوت لغيّب. ولولا إيمانه - وهذا حقيقة - بأنّ هيبة الفتونة لا ترسخ إلا بالنصر ما خاض معركة قطّ. ويصادفه التوفيق في معاركه فيضرب فتوة الدراسة ويصرع فتوة العطوف ثمّ يمتدّ ظلّه فوقنا

زغرب البلاقيطي من فتوات حارتنا المعدودين. وهو خاتم الفتوات الكبار فمن بعده لم تقم للفتونة قائمة تذكر.

ويرامى التهامس إلى زغرب البلاقيطي فيغضب ويصيح:

- أهذا جزاء من يعدل ويرحم يا أبناء الزنا! ويتجهّم وينذر بالعنف.

\*\*\*

ولكنّ الفتونة هي الفتونة على أيّ حال.

فكلمة زغرب البلاقيطي هي الأولى والأخيرة في أيّ أمر من الأمور. والتحكّم مرّ ولو كان طول العمر نتيجته. إنّه يحذّر الرجال من العريضة ويمنع النساء من الزينة المفرطة ويقيد حرّية الغلمان في لعبهم.

ويغالي في التدخّل فيما لا يعنيه حتى يحمل شاعر الرباب على التحيز لبطولة أبي زيد، ويُبطل الزواج الذي يراه غير متكافئ، والطلاق الذي لا يعجبه وإن رضي به الطرفان، ولم يكن أحد يتجرأ على طلب الكراوية أو الأنيسون عند وجوده في المقهى لنفوره منها.

وفي كلمة كبّلنا بالأغلال رغم حسن نواياه وطيبة خلقه. وزاد من حرج الموقف تكاثر المتعلّمين في حارتنا يوما بعد يوم، وشدة حساسيتهم، وحدّة ألسنتهم.

- اللعنة... لم يبق إلا أن نتنفّس بأمره.

- إنّه مستبدّ ولكنّه عادل.

- مستبدّ يعني أنّه غير عادل.

## الحكاية رقم ٥٨

يجيء ربيع ونحن على شفا هاوية من الملاك. في الحارة عصابات متخاصمة، وبين الحارات المتجاورة خصام مستمر. ويغلي الحقد الأسود، وتمجّ القلوب كراهية وتكاثر حوادث الاغتيال، وينذر الغد بكارثة. وعند الظهيرة من يوم مشرق يقع في مسرح الكون حدث غامض.

ثمة تجمّعات من السحب القائمة تنتشر في الأفق، غريبة في غير زمانها، ثم تنتشر بكثافة متصاعدة مقبضة للنفس. وتتطاول نحو كبد السماء وتنداح فتحفي إحداهما الشمس وتواري الضوء المنير.

وتقضي التجمّعات في التكاثر والتقارب. وتتصل وتتلاصق فتحوّل إلى كتّلات شاسعة، في بطء ولكن في ثبات وإصرار حتى تشكّل في النهاية سقفاً غليظاً من السواد العميق.

وتشخص الأعين نحو السماء متسائلة، من الطريق والدكاكين والنوافذ والأسطح تشخص الأعين نحو السماء. وتدبّ في السقف الأسود حركة متوتّرة فيبدو متموجاً متصارحاً متلاطماً كأنه يحيط من الظلمات مشتبهاً في نضال ضارٍ.

ويهرع الناس من البيوت إلى الحارة يتابعون الأسرار الغامضة، لا يدرون عمّ تتمخّص، ويتوقّعون مزيداً من الإثارة المقلقة.

ويضي الجوّ يتشرّب بلون رماديّ غامق، يزداد قتامة وتجهّماً، ويمضي بحر السواد يقطر نتفاً سوداً، تنتشر في الجوّ ثمّ تزحف هابطة في هدوء مخيف.

ويهجر الناس الحارة إلى الميدان، كذلك يفعل أهل الحارات المجاورة، ينشدون في الانطلاق والتجمّع البشريّ ما يفتقدون من أمان.

وتنفذ إلى حواسّ الشّم رائحة ترابيّة مشيرة للأعصاب، ويأخذ الكون في الاختفاء، وتتخايل الأشباح، ثمّ يغرق كلّ شيء في ظلام دامس.

وترتفع الأصوات المتهدّجة:

- يا ألطاف الله.

- ارحمنا يا ربّ العالمين.

وتتوجّه قلوب نحو هجار الأقرع.

عملاق ورع وفيه شيء لله. إذا اقتنع بخير أقدم عليه ملقياً بالعواقب جانباً.

وهو يقبع في الليالي في الساحة أمام التكيّة يردّد الأناشيد ويحدّث نفسه. يتسلّل إليه في الظلماء رجل داهية ويهمس بصوت حنون:

- أتريد يا هجار أن ترضي ربّك؟

فيعتقد هجار أنه يسمع هاتفاً من الغيب فيقول:

- لبيك!

فيهمس الرجل:

- لقد أعطيت القوّة والبأس فحطّم الأغلال...

\*\*\*

وينطلق هجار في الحارة بحماس من يحمل رسالة مقدّسة.

وتوقّع الطيبون أن ينهار سجن الأغلال.

ويلوح هجار المارد بنبوته. وفجأة يضرب أمام الزاوية. ويثقيّ بامرأة ماضية في الطريق، وينهال بنبوته على تجار وعمّال وتلاميذ

وهاجت الحارة وماجت، وتصايح الناس:

- جنّ الأقرع...

- اقبضوا عليه...

- حاصروه واضربوه...

ورمي بالطوب من كلّ موقع حتى سقط مضرّجاً بدمه.

\*\*\*

لم نفقه لما حدث معنى، وظنّ كثيرون أنّ الرجل لم يفهم الرسالة أو أنه أساء فهمها، أو أنّ في الأمر سرّاً ما زال خافياً.

ولكنّ التدمر من زغرب البلاطي يتزايد، ويجهر كثيرون بما يضمرون، ويعتدي الفتوة على أناس فيقابلون العدوان بالمقاومة، وتسري في الحارة روح تمرد لا عهد لنا بها من قبل.

وتتتابع أحداث مؤسفة ودامية ولكنّها تقضي في النهاية على تراث خطير وتفتح الأبواب لعصر جديد.

وتستعاد حادثة هجار الأقرع في ضوء جديد من الإدراك فيصبح رمزاً للحياة الجديدة.

غَنَامُ أبو رابية، لا أدري كيف نشأت، ولا مَنْ كان أول ناشر لها، ولا مدى ما تنطوي عليه من صدق، ولكنها رغم ذلك كلّه تنتشر وترسخ وتنضمّ إلى تاريخ حارتنا.

يقال والله أعلم إنَّ غَنَامُ أبو رابية استغلَّ مركزه كمشرف ماليّ على الأموال السريّة فاختلس منها عشرة آلاف من الجنيهات، وقيل أكثر من ذلك. وإنّه ضُبط وحُقّق معه واعترف. كان الموقف غاية في الدقّة والحرج، فالرجل محيط بأسماء مَنْ تُوزَع عليهم الأموال السريّة في جميع المواقع، وبوسعه أن يثير فضيحة شاملة تعصف بجميع العملاء وتنزِع الثقة من جهاز الأمن بغير رجعة، فما العمل؟. طالبوه برّد المبلغ في نظير العفو الشامل عنه ولكنّه رفض. ألقوا القبض عليه لإرهابه ولكنّه لم يبال. لم يعثروا للمبلغ على أثر، وتجنّبوا تقديمه للنيابة حتّى لا يبوح هناك بأسراره، وكرّروا المحاولة للاتّفاق معه دون جدوى. أدرك منذ بادئ الأمر أنّه في الموضع الأقوى وتلقّى كافّة التهديدات بسخرية. وقال لهم:

- ألوف وألوف وألوف تُنفق كلّ يوم على أوغاد بلا خلق فما الجريمة في أن أُنال قروشًا لنفسي وتراب حذائي أشرف من أكبر رأس فيهم؟. إنّي أرفض ردّ مليم واحد وأطالب بتقديمه للنيابة العموميّة. ولم يكن في وسعهم أن يعتقلوه إلى الأبد، ولا أن يتحمّلوا مسئولية القبض عليه دون تقديمه إلى النيابة أكثر من ذلك، فاتفقوا معه على أن يلتزم بصون أمانة المهنة لقاء ألا يُسأل عمّا اختلس مع إحالته على المعاش في الوقت نفسه.

وقد اشترى الرجل خرابة وشيّد فيها عمارة واعتُبر منذ ذلك الوقت من أعيان حارتنا.

## الحكاية رقم ٦٠

حليم رمانة من شباب حارتنا العاملين في نقش الأواني النحاسيّة. يغيب فجأة عن الدكان بلا اعتذار، ويُرى هائمًا على وجهه في الساحة أمام النكيّة، لا يعرف أحدًا ولا يعرف نفسه. وسمعت أمّه بالخبر

وتشملنا ساعة من التوقّع المتوتر لأيّ خطر داهم لم يجر لنا في خيال من قبل. وتلاحم الأيدي في الظلام لا تدري يد في أيّ يد توضع... .

## الحكاية رقم ٥٩

غَنَامُ أبو رابية له قصّة طريفة. من ناحية الأصل يُعدّ من فقراء حارتنا. تفوّق في المدرسة وعُيّن بوزارة الداخليّة، وترقى في درجاتها حتّى شغل منصب المشرف الماليّ على الأموال السريّة. يتميز على صعيالك أسرته بالمسكن النظيف، والزوجة الجميلة، والغذاء الطيّب، وله في مظهره هيبة، وفي مجلسه قطب يقصده ذوو الحاجات.

\*\*\*

ويختفي ذات يوم غَنَامُ أبو رابية فلا تراه عين. يتردّد السؤال عنه في البيت والمقهى، بين المعارف والأقارب والحساد. لا يظفر أحد بجواب حاسم، ثمّة غموض يكتنف الموضوع ويثير الحيرة والريب. ليس الرجل مريضًا ولا على سفر ولا صلة له بالسياسة مدها وجزرها، ولا خصوم له على الإطلاق، فلم يبقَ إلّا أن تحوم الظنون حول أمور غاية في الحساسيّة. وأن تختلف فيها الآراء تبعًا للنوايا والمواقف الشخصيّة، فنسمع حينًا أنّه هرب، ونسمع حينًا آخر أنّه قُتل.

ويظهر غَنَامُ أبو رابية ذات يوم فجأة كما اختفى فجأة. ويتزاحم المهثّون في داره. ويفسر الرجل سرّ غيابه بخصام احتدم بينه وبين كبير مسئول في الداخليّة، تطوّر إلى اعتداء من جانبه باليد على الكبير المسئول، فقبض عليه، ولكنّه أصرّ على موقفه حتّى أفرج عنه.

ويصدّق الناس ذلك ويعدّونه بطولة. ويُحال غَنَامُ أبو رابية على المعاش قبل ميعاده القانونيّ بعشرة أعوام فيُعتبر شهيدًا، والناس ذوو استعداد فطريّ لسوء الظنّ بالداخليّة.

\*\*\*

ومع الأيام تناقل الناس حكاية جديدة عن غياب



- بيومي مات!

- بل سُنتق!

- سُنتق!؟

- أُنهم بقتل زينب بيّاعة الحليّ الزجاجيّة!

ويتتمم بذهول:

- بيومي قتل زينب!

\*\*\*

قليلون جدًّا الذين عرفوا أنّ رمانة فقد صديقه الوحيد  
وحبيته الوحيدة، وأولئك قالوا أيضًا:

- وهو يعلم الآن أنّه فُجع في الحبّ والصدّاقة  
أيضًا.

وقالوا:

- لقد ذهبنا مخلّفين له الخيانة والخواء...

\*\*\*

وعانى رمانة تغيّرًا جديدًا في الشخصية. لم يرتدّ إلى  
الغيبوبة لكن تسلّل إلى صميم روحه الخمول وخيم  
عليه الصمت. عاش محتجًّا رافضًا كارهاً، يذبل  
ويهزل، حتّى مرض مرضًا أقعده عن العمل، واسودّ  
الأفق في عينيه.

وأرادت أمّه أن تعزيه فقالت:

- لست فريدًا في مصابك فمصائب الدنيا لا تُعدّ  
ولا تُحصى!

فغادر المسكن من فوره قاصدًا قسم الجماليّة. مثل  
بين يدي المأمور وقال بهدوء:

- أنا قاتل زينب بيّاعة الحليّ الزجاجيّة...

## الحكاية رقم ٦١

ابن عيشة صعلوك من صعاليك حارتنا يعيش  
بالتسوّل وخفّة اليد. تسلّل ليلة إلى بيت ستّ ماشالله  
عندما ثبت له غيابها في فرح. ولسبب ما رجعت  
ماشالله مبكّرة على غير توقّع، فما يدري إلّا وهي مقبلة  
نحو حجرة النوم فاندعر واندسّ تحت الفراش وهو يرتعد.  
أشعلت المرأة المصباح، رأى ابن عيشة قدميها  
وأسفل ساقيها وهي تذهب ونجيء، وسمعها وهي  
تترنّم بحنان:

فمضت إليه ولكنّه لم يعرفها، نادته باسمه فبدا وكأنّه  
يسمعه لأول مرّة، إنّه غريب تمامًا، وكأنّما وُلد  
لساعته.

وانتهجت الظنون إلى المخدّرات ولكنّ ذهوله طال،  
تجاوز اليوم، ويومًا بعد اليوم، ثمّ استقرّ كحال جديدة  
ثابتة، أصبح رمانة وعاء خاليًا من الذكريات  
والعلاقات البشريّة، أصبح جثّة غير هاملة. وقيل -  
كالعادة في حارتنا - إنّه ممسوس، وعولج بوصفات شتى  
من الطبّ الشعبيّ المناسب، كالبخور وزيارة الأضرحة  
والزار، ولكنّه لم يبرأ فسُلّم الأمر فيه إلى الرحمن.

\*\*\*

وذات صباح تقرأ أمّه في عينيه نظرة جديدة، نظرة  
متألّقة تعكس شخصيّة غائبة كأنّما هي ترجع فجأة من  
سفر طويل، يخفق قلب الأمّ بالأمل وتهتف:

- رمانة!

فينظر رمانة إلى شعاع الشمس الهابط من نافذة  
البدروم ويقول بجزع:  
- تأخّرت عن الدكّان.

ويضي مسرعًا إلى الدكّان وأمّه تجهش في البكاء.

ويقبل على معلّمه قائلاً:

- غلبني النوم فمعدّرة يا معلّم.

ويرمقه الرجل في صمت وارتياح، ولكنّه يتركه  
يزاول عمله وهو يحسّ بفراصة صادقة ما طرأ على  
الشابّ. وينظر رمانة فيما حوله باهتمام، وكأنّ لا يجد ما  
يبحث عنه يسأل:

- أين بيومي؟

بيومي صديقه وقرين طفولته، توقّع أن يراه كالعادة  
قبالته، ولكنّه لا يوجد ولا يريد أحد أن يعير سؤاله  
عنه اهتمامًا.

\*\*\*

ويعلم رمانة رويدًا أنّه غاب عن الوجود أشهرًا  
كاملة. يتلقّى هذه الحقيقة بنعومة وأناة، ومع ذلك لا  
يدري كيف يهضمها. ويعود للسؤال عن صديقه  
بيومي فيقال له:

- البقيّة في حياتك!

فيصرخ:

وقف مترنحًا في الحجرة ينظر في الوجوه المحدقة به  
بذهول.

وقال شيخ الحارة لضابط النقطة:

- هذا ابن عيشة . . . نشال يا فندم.

فقال الضابط:

- أخيرًا تعلم كيف يقتل.

وقُبض عليه.

ولكنّ التحقيق لم يسفر عن إدانته بتهمة قتل ستّ  
ماشالله وعشيقها، ثمّ قُبض على القاتل في أثناء التحقيق.  
وكان ابن عيشة يحكي قصته مرّة كلّ ساعة. وقد  
أصابه لطف في آخر أيامه، وكان يقال إنّ الدروشة  
هبطت عليه تحت فراش ستّ ماشالله.

## الحكاية رقم ٦٢

كان الحاجّ عليّ الخلفاوي من أغنياء حارتنا. عُرف  
بالطيبة والصلاح أكثر مما عُرف بالثراء، يعطف على  
المظلومين، ويعين الفقراء، ويبرّ ذوي القربى، ومع  
الأيام ازداد ورعًا وتقوى ورحمة، ولكنه خصّ آل  
مهران برعاية شاملة لم يظفر بمثلها أحد ممن يظلمهم  
عطفه. وكان آل مهران قوسًا فقراء، وبسبب الفقر  
انحرف كثيرون منهم فتورّطوا في الجنح والجرائم  
واشتهروا بالعنف والبلطجة.

ولما شعر الحاجّ عليّ بدنو الأجل استدعى إليه أكبر  
أبنائه وقال له:

- لقد رأيت حلمًا.

فرمقه الابن بعطف واستطلاع فقال الحاجّ:

- أنّ لي أن أزيح عن صدري جبل همّ الأكبر.

فسأله ابنه:

- ما الحلم؟ وما همّ الأكبر؟

فاستغفر الحاجّ ربّه وقال:

- بخلاف الظاهر يا بنيّ كانت حياتي مريرة

- لم يا أطيب الناس؟

فقال الحاجّ وهو يتنفس بمشقة:

- أريد أن أحدثك عن آل مهران.

- إنهم أناس يأخذون منك أكثر مما يستحقّون، بل

لك عليّ كما تيجي تبقى ليلة أهبة

ترى متى يُتاح له الهرب بأمان؟

وغابت ستّ ماشالله دقائق ثمّ رجعت بأربع

أقدام! ثمّة طرف جلباب مقلّم ومركوب أخضر،

فانقبض صدر ابن عيشة وأيقن أنّ حبسه سيطول!

قالت المرأة:

- آنست ونورت.

فقال صوت غليظ:

- لا يتصوّر أحد إلّا أننا في الفرح.

وتناهى إلى أذن ابن عيشة صوت مدغم بقبلات

ومهمات مرحة.

وقالت المرأة:

- لن يتخيّل مهما تخيّل أنني أفلتّ من زحمة الفرح.

فقال الصوت الغليظ:

- سيقتلنا يومًا إن لم نقتله!

وطالت المطارحة الغرامية وهو قابع تحت الفراش،  
وبدأ تأثير المنزول ينملّ حواسّه ويزحف نحو جهازه  
التنفسيّ، وينتشر في روحه منذرًا بعواقبه المألوفة.

وسبح ابن عيشة في بحر لا شاطئ له ثمّ مضى  
يطير في الفضاء بتؤدة وهيمان. حتّى بلغ ذروة عالية نظر  
منها إلى حجرة ستّ ماشالله فرآها بشيء من الوضوح  
على ضوء المصباح، رأى العاشقين، وحتّى الرجل  
المختفي تحت الفراش رآه، تبهّدت المرأة عارية متموجة  
في سحابة من دخان رماديّ على حين مضى الرجل -

كقرد - يثب بين غصون شجرة فارعة. وترامى اللعب  
بلا نهاية غير أنّ عاصفة اجتاحت المكان المتوارى  
فتطاير الدخان وتلاطمت الأوراق. وأكثر من صوت  
نادى بالدم، وتتابعت أصوات الارتطام والدقّ،  
وتبودلت ضربات غاية في العنف والقسوة، وأقبلت  
قوّات جديدة من قلب الظلام فلم يعد للحبّ أثر . . .

وقرّر ابن عيشة أن يواصل طيرانه في الفضاء مبتعدًا  
ما أمكن عن كوابيس الأرض . . . ولكنه ارتطم بشيء  
أو لعلّ شيئًا ارتطم به.

ومشقة استطاع أن يتملّص من قبضة وأمكته أن  
يجرّك عنقه . . . وأن يرى الضوء.

وجرّ جبرًا من تحت الفراش.

## حكايات حارتنا ٥٩١

بمقدم قبقابه فقطع حاجبه، وسجل في وجهه أثرًا باقياً.

منذ ذلك التاريخ القديم عشت عاطفة صفراء ضاربة للسواد في أعماقهما، ويجمعهما اللعب مع الصبيان والاختلاط في المناسبات، ولكن الجرثومة الشرهة تظل رابضة ونفائة الخنق، ويظل منظر أحدهما قوة غادرة ومتحدية للآخر.

في الكتاب يتبادلان الغمز واللمز، يتحرش أحدهما بالآخر ويحرص عليه سيدنا الشيخ عند آية فرصة سانحة.

ومات أبو شلضم وأقيم سراق العزاء كالعادة، ووقف قرمة فوق سطح غير بعيد وراح يغني:

حود من هنا وتعال عندنا

ولما خطب شلضم بنت الفسخاني حاول قرمة حفظها منه، بالحيلة ويتسوي سمعته عند أهلها، وفي خلال ذلك تشاجرا بعنف فقطع شلضم قطعة من أذن قرمة وترك به أثراً باقياً كالذي تركه بوجهه من قبل.

وتزوج كل منهما وأنجب، وتفترقت بهما سبل العمل، وتقدم بها العمر شوطاً، ولكن العقدة الكامنة لم تنحل، حتى إنهما تبادلوا السباب مرة في أثناء صلاة الجمعة وحتى صاح بهما الإمام:

- لعنة الله على الشيطان وصحبه.

وصارا في حارتنا نكتة، تستثير الضحك من بعيد، وتندثر بشر متجدد.

وتحسن أحوال قرمة، ظهرت عليه النعمة، فتح دكاناً للدخان بأنواعه، لمع الذهب في أصابعه وأسنانه، وادعى أمام الخلق أنه ربح ورقة نصيب فاستثمر ربحها، ولكن شلضم راح يحلف بالطلاق أنه اغتال أموال معلمه، وأنه لص لا أكثر ولا أقل.

وتوهم شلضم أنه قادر على أن يشق سبيله مثله فامتدت يده إلى مال معلمه ولكنه ضُبط وحُكم عليه بالسجن بضع سنين، وغادره مفلساً ضائعاً يرى غريمه في عداد الأعيان فجرت جنونه، ولم يجد باباً مفتوحاً إلا باب البلطجة فوجهه بعنف ورغبة متصاعدة في الانتقام، وجعل هدفه الأول المعلم قرمة، حتى أثار مخاوف الرجل على نفسه وعلى أولاده. لم يعد قرمة

الحق أنهم لا يستحقون إلا العقاب.

فأسبل الحاج جفنيه وقال:

- إنهم يستحقون كل ما مملك!

ثم اعترف الحاج لابنه بأنه كان شريكاً لمهران الأب في شبابه الأول، وأن الوفاة حضرت الرجل وهما في سفر فسرق ماله.

- المال الذي استثمرته فصرنا به إلى ما نحن فيه وصار آل مهرا بفقده إلى ما هم فيه.

قال الابن باضطراب:

- إنك لا تعني ما تقول يا أبي.

- إنها الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان.

وغمرها صمت مشحون بالقلق والاختناق حتى قال الحاج:

- كانت الحياة مريرة، أريد أن أجيبك اللعنة، أريد أن يُردّ المال لأصحابه.

فتساءل الابن محتجاً:

- هل نعترف بأننا لصوص؟

فقال الأب بضراعة:

- هذه هي مشكلتك يا بني.

- بل هي مشكلتك أنت يا أبي.

- إني أتردى في حضرة الموت.

فتساءل الابن بجفاء:

- ولم لم تفكر في التكفير من قبل؟

وأغمض الحاج عينيه كأنما تلقى لكمة، وغمغم:

- اللهم مُدّ في عمري حتى أهني نفسي للقيامك.

ولكنه مات قبل ذلك، بل إن رواية القصة يتهمون ابنه بالعبث بدوائه ليعجل بنهايته.

هكذا تروى الحكايات، وبدقة في التفاصيل لا تتاح إلا لمن شهداها.

ولكن هكذا تروى الحكايات في حارتنا...

## الحكاية رقم ٦٣

بذرت الكراهية بين شلضم وقرمة في ضفاف الصبا. في أحد الأعياد مزق شلضم جلباب قرمة الجديد فاشتبكاً في خناقة حامية ف ضرب قرمة شلضم

- لا تضربني... إني أحذرك...  
فانقض عليه ليؤذبه ولكنه تراجع إلى ركن وصاح

به:

- سأعترف، سأذهب إلى القسم وأعترف بكل شيء، وأعترف أيضًا بتسرك علي، إن ضربتني مرة أخرى فسأعترف!

وذهل سلامة، وسأله وهو يكتم فيضان غضبه:

- أنت تهذني بعد كل ما فعلت من أجلك؟

- لا تضربني وإلا اعترفت.

فصاح به:

- إذن أقلع عن فسادك.

فهتف وهو يهز من وجهه:

- أنا حرًا

وقال سلامة لنفسه محسورًا:

- إني أفقد كل يوم شيئًا ثمينيًا لا يُعوض.

ولاحظ كثيرون أنّ الحفير سلامة قد تغير، وأنّ شائبة قد شابت استقامة قامته، وهو من ناحيته شعر أنّ الناس يتغيرون أيضًا، ينظرون إليه باستهانة ما، يجاملونه ولكنّ نظراتهم لا تخلو من سخرية، لقد أوشكوا يومًا مع إعجابهم به أن يحدوا عليه لصلابة أخلاقه، أما اليوم فهم يعطفون ويسخرون.

\*\*\*

وأبهر سلامة عذابه بأن ذهب إلى المأمور واعترف. وتأثر المأمور، أمر بالقبض على برهومة، وقال لسلامة:  
- قدّم استقالتك كيلا تُسرق، إني أعطيك هذه الفرصة إكرامًا لتاريخك.

\*\*\*

ولم يهمل سلامة بلا عمل طويلًا فاستخدمه صاحب مخزن الغلال خفيًا عنده.  
وعُدّ سلوكه مثالًا طيبًا عند أناس، كما اعتُبر نوعًا من البله عند أناس آخرين.

## الحكاية رقم ٦٥

الشيخ لبيب وجه عتيق في حارتنا. تراءى لعينيّ معلّمًا من معالم الحارة مثل التكيّة والقبو والسييل. كان

صعلوكًا كما كان من قبل، إنه يملك الآن مالا وبينين وأسرة وجاهاً ويريد أن يحافظ عليها جميعًا، وأن يتمسك بالحياة من خلال تمسكه بها، ولو تمسّم في سبيل ذلك مهادنة شلضم وشراءه حتى يتحين له فرصة للقضاء عليه.

واستجاب شلضم لسياسة خصمه لبيتّر ماله ولبيتادي في ذلك بلا نهاية وبلا حياء، واستحزّ الموقف وأصبحت الحياة لا تطاق ولا علاج لها إلا الموت.

ودبّر قرمة خطة لقتل شلضم بوساطة رجل ممن يؤجرون للقتل. وتوجّس شلضم خيفة فقرّر أن يقتل قرمة قبل أن يقتله.

وتربّص له لبيل ثم قتله.

ولكنه لم ينعم بالحياة بعده إلا ساعات إذ قتله القاتل المأجور ليستوفي بقية مستحقّاته من أرملة قرمة. هكذا قُتل الرجلان في ليلة واحدة.

\*\*\*

ويقول أبي بعد أن يحكي هذه الحكاية:

- الكراهية من الشيطان يا بني ولكنّ الإنسان مثير للدهشة.

## الحكاية رقم ٦٤

عُرف الحفير سلامة بالضمير الحيّ... كان من القلّة النادرة التي تقدّس القانون في حارتنا التي لم تتعود بعد على احترام القانون لحدائثه تحزرها من الفتونة وتقاليدها المتحدية الاستفزازية ولاستقامته آثار دهشة أهل الحارة واستحقّ عن جدارة احترام المأمور والضباط. وتزوّج سلامة أرملة تكبره في السن ذات ابن يافع اشتهر بالفساد فوجد نفسه في محنة لم تحظر له على بال. وأكّد الشاب - ويدعى برهومة - المحنة بسطوه ليلاً على أحد الحوانيت. وضبطه متلبسًا بالحفير الساهر اليقظ سلامة. وأعاد الحفير المسروقات وغطى على الحفير مكتفيًا بضرب ابن زوجته ضربًا مبرحًا. وأفاق بعد حين قليل فأدرك أنّه خسر جوهره الذي ميّزه بين الناس، وشعر بالخزي وخامره حزن عميق. وتمادى برهومة في فساده فثار غضب سلامة وجعل ينهال عليه بالضرب حتى ضاق به الشاب وقال له مرة:

## حكايات حارتنا ٥٩٣

- باب الحجره مغلق .
- ألا يوجد أحد معك؟
- كلاً .
- أين أمك؟
- أغلقت الباب وذهبت .
- وأبوك؟
- سافر من زمان .
- ويدرك العابر الموقف على نحو ما فيتسم إليه مشجعاً ويذهب، ويلوح وجه الصبي الصغير وراء الفضبان وهو يتطلع بشوق إلى الناس والطريق .

## الحكاية رقم ٦٧

عبد السكري ابن أحد حملة القمام والمباخر . أسرة فقيرة كثيرة العدد تضمها حجرة واحدة . كان عبده آخِر العنقود فأدخله عمّ السكري الكتاب فأحرز التفوق من أوّل يوم . ونصح سيّدنا الشيخ بإلحاقه بالمدرسة الابتدائية فتردّد الرجل ملياً بين إرساله إلى معلّم ليحترف حرفة وبين طريق المدرسة الطويل ، ثمّ قرّر في النهاية إلحاقه بالمدرسة . كان قراراً صعباً ، يعني أن يعيش عبده عائلة عليه دهرًا طويلًا بدلًا من أن يعينه بيوميته ، ولكنّ تفوق عبده أنساه متاعبه ونفخ جناحيه بالفخر . وعند انتهاء المرحلة الابتدائية قال عمّ السكري بزهو :

- أصبح لي ابن من موظفي الحكومة!

ولكنّ عبده أصرّ على دخول المرحلة الثانوية . كان يمضي إلى المدرسة ببذلاته القديمة المتهرّقة وحذائه المرقّع وطربوشه المزيت ولكن مرفوع الرأس بتفوقه ويتكلّم في السياسة أيضًا . واستحقّ بعد ذلك أن يُقبل بمدرسة المهندسخانة بالمجان ، وأن يُختار بعد ذلك عضوًا بالبعثة بإنجلترا . من يومها أطلق على عمّ السكري «أبو المهندس» ، وذاع صيته في الحارة ، وضرب بذكاء ابنه المثل . كان حلم عمّ السكري في شبابه أن ينضمّ إلى عصابة فتوة أو ينتصر في خناقة ولكنّ الزمن يتغيّر ويأتي بالأعاجيب .

\*\*\*

يتخذ مجلسه قبيل مدخل القبو، على فروة يجلس، وبين يديه مبخرة تنفث رائحة دسمة مخدّرة . ذو جلباب أبيض وطاقيّة خضراء، مكحول العينين ضعيف البصر، يطوّق عنقه بمسبحة طويلة تستقرّ شرابتها في حجره .

تتقاطر النسوان على مجلسه، يجلسن القرفصاء صامتات، يرمين بمناديلهنّ وينظرن كلمة تخرج من فمه . يغمغم ويتشاءب ثمّ يتمطى، ينطق بكلمة مفردة مثل «تُفَرِّج» أو بمثل من الأمثال مثل «يا راين ربنا يكفيكم شرّ الجاين» فتفهم المرأة ما تفهم، فيتهلّل وجهها فرحًا أو يغمقّ كآبة، ثمّ تدسّ المقسوم تحت طرف الفروة وتمضي .

عاش الرجل دهرًا رزقه يجري، وكراماته تروى، واسمه يتردّد على شفاه ذوي القلوب الكسيرة وما أكثرهم في حارتنا .

\*\*\*

ويطعن الشيخ لبيب في السنّ وتتغيّر الأحوال . يندر تردّد الزائرات عليه حتّى ينقطع أو يكاد . ويتكاثر التلاميذ بمن لا يراعون له حرمة، ويطاردونه بالسخريات والأزجال العابثة . ويهتف الشيخ :

- ملعونة المدارس المفتوحة لكم .

وتسوء حاله، وصحته أيضًا . ويتوعّد الناس والزمان بعقاب الآخرة، ويتحسّر على أيام الطيّبين الداهيين .

\*\*\*

وأخيرًا يسلم للزمن، يتسوّل، يمضي هاتقًا ماأدا يده «كلّ من عليها فان» .

## الحكاية رقم ٦٦

وراء قضبان نافذة بدروم يلوح وجه صبي صغير . إذا رأى عابر سبيل أليف المنظر هتف به :

- يا عمّ . . .

فيقف العابر ويسأله عمًا يريد فيقول :

- أريد أن أخرج .

- وماذا يمنعك؟

ويشغل عبده وظيفة مرموقة في الوزارة، وبفضله  
قام أول مصباح غازي في حارتنا.  
بعنف بأرض الحارة...  
وأقول لنفسي كلما تذكرت مصرع عبدون اللاله:  
- أن أعرف لماذا أحيا أسهل كثيرًا من أن أعرف لماذا  
عبدون انتحر.

## الحكاية رقم ٦٨

من حكايات حارتنا التي لا تُنسى حكاية عبدون  
اللاه.

## الحكاية رقم ٦٩

نادرًا ما يخرج إلى الحارة، وإذا خرج لحاجة يمضي  
مهرولاً، في عينيه حذر وتوجس، في أذنيه صمم  
يغلقهما دون اللعن ويفتحهما لما ينتفع به، لا يخترق  
القبو، لا يزور المقابر. يعيش وحيدًا في بدروم، لم  
يتزوج، لم يدعن لنزوة، يقرض النقود بالربا يدعى أبو  
المكارم.

ويلعنه الناس ولكثمتهم يقصدونه عند الضرورة.  
وبلغ السبعين من العمر، يتجمع لديه مال وفير،  
ثم يكف عن العمل.  
يتغير حاله، تظهر عليه أعراض غريبة، يرى من  
نافذة البدروم وهو متربّع على الأرض مستقبلًا الجدار  
بوجهه، تمضي الساعات وهو لا يتحرك.

ويذهب ذات مساء إلى الإمام فيقف أمامه صامتًا  
حتى يسأله الشيخ:

- لماذا جاء أبو المكارم؟

فيقول بلا مقدمات:

- حلمت حلمًا...

فيسأله عنه فيقول:

- جاءني شخص في المنام وأمرني بأن أحرق مالي عن  
آخره!

فيبتسم الإمام ويقول:

- ربنا يجعله خيرًا.

- ولكنّه يتكرّر ليلة بعد أخرى!

- ما شكل ذلك الزائر؟

- لا أدري، جفناي ينطبقان في حضرته.

فيسأله الإمام باهتمام:

- من نوره؟

- أظن ذلك...

- هل أعلن عن هويته؟

الاب كان عاملاً في البوظة والام بياعة باذنجان  
مخلل. أما عبدون فيعمل صبيًا في الفرن.  
يجيء بالعجين ويذهب بالخبز ولكنه شاب ولا كل  
الشبان. يحب سلمى بنت ونس الكناس فيتزوج منها  
ويمارس حياة زوجية سعيدة وهادئة.

نشيط ذوممة عالية، يعمل من طلعة الصبح حتى  
أول الليل، لا يرتاح ولا يهد، لا يتدمر ولا يشكو،  
المعلم يقدّره والزيائن يحبونه. يصلي العشاء في  
الزاوية، يحضر الدرس، يؤاخي الإمام ويسترشد بأرائه  
فيما يعن له من مشكلات. نزهته الوحيدة سماع الشاعر  
في المقهى ثم يرجع إلى بيته متسوقًا بطيخة أو خيارًا أو  
سمكًا مقلًا.

وهو حلیم يتحمل نزوات المعلم، وسخافات بعض  
الزيائن، وسخریات الأصدقاء بأدب وابتسام.  
ما أعجبه في حارتنا، كأنه لا يسمع سبابها ولا  
يشهد منازعاتها ولا يتعامل مع أهل المعاصي والفتن من  
أهلها.

\*\*\*

وذات يوم يظهر في الحارة بجلباب أبيض كالحليب  
وطاقيّة مزركشة ومركوب أحمر. وكلما التقى بصاحب  
عانقه أو بذي مقام قبل يده، وقد أضرب عن العمل،  
ولم ينطق في ذلك اليوم إلا بجملة واحدة قال:  
- اقتربت الساعة.

ويخفي ساعة ثم يلوح فوق سطح القبو وهو  
يستقبل الحارة بوجهه صامتًا. ويتعجب الناس  
ويتجمهرون عند القبو. كيف صعد عبدون إلى سطح  
القبو؟ ماذا يفعل في مرتع الثعابين ووكر العفاريت؟  
ينادونه فلا يردّ.

ثم يشب من أعلى السطح فيتهاوى حتى يرتطم

- يا أَلطاف الله!

ينظرون فيرون رجلاً خارجاً من ظلمات القبو، عارياً كما ولدته أمه، يتأوه ويترنح، تحذله ساقاه فيقع على الأرض، ثم ينهض متشبثاً بالجدران، يتلفت حواله ويبكي.

يهرع إليه أهل الخير، يغطونه، يضمّدون جرحاً غائراً في رأسه، يسألونه:

- ماذا حدث لك؟

ولكنه لا يجيب فيسألونه:

- من أنت، ما اسمك؟

يوصل أنيه بلا جواب فيسألونه:

- من أين أتيت؟

لا جواب ولا أمل في جواب:

- أيّ مكان تقصد؟

وبالتخمين وحده يُعرف على نحوٍ ما ما وقع له، فيؤمن الجميع بأنه ضحية لقطاع الطرق.

ويندمل الجرح ولكنّ العقل يذهب فيصبح من أهل اللطف ويعيش في الحارة لا يرحها، أنسا إلى ما يلقي من ستر ورحمة، تطعمه الصدقات، ينام تحت القبو شتاء، وعند سور التكية صيفاً، كلامه هذيان أو أصوات مبهمه، يضحك ويبكي لغير ما سبب، ويظنّ مجهول الاسم والأصل والهوية والهدف.

وكما كانت دواعي الإهمال والاحتقار هي نفس دواعي الإجلال والتعظيم في حارتنا فإنّ عبد الله - هكذا سُمّي باعتباره اسم من لا اسم له - يجتَل مع الأيام مكانة سامية وتتخلّق حوله حالة مبهمه من القداسة. يحبّونه، يلاطفونه، يتودّدون إليه، يحيطونه بأسرار، يؤوّلون أصواته المبهمه، يتوارون وراءه إزاء المصائب المجهولة والأقدار الخفيّة. وأسمع ذات يوم رجلاً يدافع عن «ولاية» عبد الله فيقول:

- أيّ فرد منّا لا تيسّر له الحياة إلا بفضل معرفته للأصل الذي جاء منه وللهدف الذي يسعى إليه، أما عبد الله فقد تيسّرت له الحياة وحظي ببركاتهما مع جهله بكلّ ذلك، ومن نعم بملكوت الحياة وهو يجهل أصله وهدفه ومعنى حياته جدير بالولاية والتقدّيس!

- كلاً.

فيصمت الإمام ملياً ثم يقول:

- أتستطيع أن تصدّق بمالك على الفقراء؟

فيرمقه برؤية ثم يذهب.

وذاث يوم من أيّام الصيف وأديم الأرض والجدران تشتعل بنار الشمس المحرقة يتتبه الناس إلى دخان يتصاعد من نافذة بدروم أبو المكارم. يهرعون إلى النافذة فيرون أبو المكارم واقفاً عارياً تماماً والنار تشتعل في ماله.

\*\*\*

ويهم بعد ذلك على وجهه عارياً، يلتقط الطعام من أكوام القمامة، ثم يقبع في ظلمة القبو. ويُعثر عليه يوماً ميتاً تحت القبو فيدفن في قبور الصدقة. ويرى أحد الأعيان حلماً، يزوره سيّدنا الخضر ويبلغه أنّ أبو المكارم وليّ من أولياء الله وأنه - العين - مكلف بإقامة ضريح فوق قبره.

ويقيم الرجل الضريح، ويمرور الزمن تتلاشى ذكريات أبو المكارم وتبقى له الولاية.

وأسأل أبي:

- وكيف عرف الوجيه أنّ سيّدنا الخضر هو الذي زاره في المنام؟

فيجيبني:

- لعله صارحه بذلك.

فأسأل:

- لو كان أبو الفضل وليّاً حقاً ألم يكن الأفضل أن تصدّق بماله على الفقراء؟

- في تلك الحال كُنّا نعدّه محسنًا لا وليّاً!

ثمّ يستطرد بعد صمت:

- العبرة بالحلم، لقد منّ الله عليه بحلم، فهل تملك أنت حلماً مثله؟

## الحكاية رقم ٧٠

سُحِب الخريف تراكم فتقطر قمامة على حارتنا، ها هم الباعة يتربّون بحلاوة الجوافة والبطاطا. ويشير رجل نحو القبو ويتف:

## الحكاية رقم ٧١

رجل غريب في المقهى .

الغريب في حارتنا يسترعي النظر، فمن أين جاء الرجل؟  
جاء من ناحية القبو وهو ما يعني أنه جاء من ناحية  
القرافة غير مبارك الخطوات .

ومضي الغريب إلى الزاوية فيسلم على الإمام وهو  
يقول :

- لا خاب من استرشد .

ليقول له الإمام :

- نهديك بما نعلم والهداية من الله .

- إنما أريد معلومات عن يوسف المر؟

- لماذا يا أخي؟

- كلّفني بذلك أناس طيبون وأنت سيّد العارفين .

فأدرك الإمام أنّ الرجل ينشد المعلومات لحساب  
أهل فتاة يريد يوسف أن يتزوج منها فقال :

- ولكنّه متزوجاً

- الدين يسر والحمد لله . . .

- عائلة المرّ قديمة في الحارة وحرقتهم العطارة .

- وعمره؟

- في الثلاثين، يعمل في دكان أبيه، له ثلاثة أبناء .

- يغيب أحياناً عن الحارة أسبوعاً أو أكثر؟

فيبتسم الإمام ويقول :

- يبدو أنّك تعرف عنه الكثير، ولكنّه يغيب في

رحلات تجارية .

ثمّ يتساءل الإمام :

- من الذي كلّفك بالتحري؟

فيقول معتدراً :

- لست في حلّ من ذكره .

فيتضايق الإمام ويسأل بجفاء :

- وحضرتك من تكون؟

- ادعى عبد الآخر المقاول .

- أي مقاولات؟

- كلاً، إنه لقمي، أمّا عملي فطمحان غلال .

ويودّعه ثمّ ينصرف .

ويتناهى الخبر إلى يوسف فيدهش فيحلف بالله على

أنّه لا يسعى لزواج جديد وما خطر له ذلك على بال،  
وتكثر التساؤلات عن الغريب وسرّه، تحتدم ملياً ثمّ  
تحفّت وتلاشى .

وذات مساء يُرى الغريب قادمًا من ناحية الميدان .  
يشقّ الحارة بلا توقّف حتّى يحنفي في القبو، ثمّ يجيل  
إلى المرّ الضيق بين السور العتيق وبين سور التكيّة  
ومضي نحو القرافة .

ويعلم يوسف المرّ بخبره فينطلق في أثره حتّى يفوص  
في ظلمة القبو .

ومضي ساعة فيقلق الأب، ويلهب في أثر ابنه  
حاملًا فانوسًا لينير له الطريق مصحوبًا ببعض عمّاله .

في القبو تترامى إليهم تراتيل الأوردة الأعجميّة آتية  
من التكيّة، وفي الساحة، وعلى ضوء الفانوس،  
يعثرون على يوسف المرّ مطروحًا على الأرض وقد فارق الحياة .  
ومع أنّ الطبيب الشرعيّ قرّر فيها بعد أنّ الرجل  
مات بالسكتة إلا أنّ قراره لم يُحترم لحظة واحدة في حارتنا .

يهزّون رءوسهم ويتمتمون :

- الرجل الغريب !

ولكن من الغريب؟ ولمّ قتل يوسف المرّ؟

هنا تتبادل النظرات وتتناجى همسات وتنداح في

الجوّ موجة من الأسرار الحارقة .

## الحكاية رقم ٧٢

وعكلة الصرماتي حكايته حكاية .

كان أبوه صاحب سيرك، كان قويًا وخلّاقًا . يشتهر

عكلة منذ صباه بالرشاقة الخلابة في الملعب .

يتوفّى الأب فيهجر الابن السيرك بلا سبب مقنع .

ينضمّ إلى عصابة فتوة فيثبت صلابته وينال حظًا من

الثروة . وهو ذو رائحة خفيّة تجذب أشواق النساء

فيستوي على عرش الهوى فتنة للقلوب، ويوغر صدور

الرجال حتّى يقول له الفتوة :

- تأدّب وألا شوّهت وجهك .

وكأنّ قلبه لا يعرف الحبّ الحقيقيّ، يهيم بالمرأة

حينًا ثمّ ينبذها، وتفوق غزواته كلّ خيال، ويؤمن

أناس بأنّه يؤاخي الشياطين ويستعمل السحر .



## حكايات حارتنا ٥٩٧

واعتبره الأهل مفقودًا.  
 وتمضي السنون .  
 وذات صباح يعثر على جثة كهل في الساحة أمام  
 التكية شبه عارٍ.  
 ويتعرّف أهل حارتنا فيه على عكلة الصرمانى .  
 ينظرون إلى جثته ذاهلين متسائلين وهو معزول عنهم  
 بالصمت الأبديّ والسرّ المنطوي .  
 كانت حياته أسطورة، وموته لظمة .

## الحكاية رقم ٧٣

مصطفى الدهشوري ابن سقاء ولكنه من القلة  
 الراسخة في العلم في حارتنا، وهو أحد المدرّسين  
 بمدرستنا وصديق لأبي .  
 يسأل أبي وهو يجالسه ذات مساء في بيتنا:

- ما معنى الحياة؟

يبتسم أبي ولما يجده جادًا في سؤاله ومصمًا عليه  
 يجذّته بما يعلم عن الأصل والهدف، والحياة والموت،  
 والبحث والحساب، فيقول الدهشوري:  
 - إذن فأنت واثق من كلّ شيء، من الحياة والموت  
 وما بعد الموت، أحضرك فكرة عمّا يحدث في القبر؟  
 فيحدثه أبي عن التلقين وحساب الملكين ومستقرّ  
 الروح وشفاعة النجاة في الآخرة، وعند ذلك يقول  
 الدهشوري:

- إليك قصّة الجسد البشريّ ساعة بساعة من الوفاة  
 حتّى يستحيل هيكلًا عظيمًا...  
 ويردّد حديثًا مرعبًا ومقزّرًا كأنه كابوس طويل،  
 فيهتف أبي محتجًا:

- كفى، ماذا تريد؟

- أريد أن أصوّر لك حقيقة لا شك فيها.

فيسأله أبي ساخرًا:

- ألا تؤمن بالله؟

فيبتسم قائلاً:

- بلى، لا حيلة في ذلك.

ثم يواصل حديثه:

- ولكنّه لا يتصل بي وأنا عاجز عن الاتصال به،

وفجأة يتزوّج .  
 يتزوّج من أرملة تكبره بأعوام لا جمال لها، ويستقرّ  
 في بيت الزوجية استقرارًا يبشّر بالدوام .  
 ويزهد في الفتونة كما زهد في السيرك من قبل ويفتح  
 دكان حلوى، ويربح ثروة لا بأس بها .  
 وبعد أعوام قليلة يسأم تجارته الرابحة فيصقّيها  
 ويفتح مطعم لحم رأس وكبدة فينجح ويحقّق ثروة أكبر  
 من الأولى .

ويجتاحه حبّ المال، يخلّ من نفسه محلّ النساء  
 والسيرك والفتونة فيتاجر في المخدرات والأراضي،  
 ويتابع بيتًا ودوكارًا ويتحلّى بالذهب .

ويقرّر ذات يوم أن ينقل مقامه من الحارة إلى المدينة  
 الكبيرة . يبني قصرًا ويعيش عيشة الأكابر، ويشترى  
 عزية، ثم لا يرى في حارتنا إلّا عند عقد الصفقات .  
 ويعشق الترحّل، وما إن يجربّه حتّى يخلب لبه، فهو  
 يوميًا بالإسكندرية ويومًا في أسوان، ويزور البلاد  
 العربية، بل ويغامر برحلات في أوروبا .

عندما تعجبه بقعة من الأرض يفتتن بها يصرّح بأنّه  
 لن يبرحها حتّى نهاية العمر، ثم يعتادها ويروم غيرها،  
 ويعذّبه عشق الأماكن كما عذّبه عشق النساء والمال  
 وغيرها من قبل، وبين كلّ رحلة وأخرى يرجع إلى  
 حارتنا لرؤية الأصدقاء وعقد الصفقات .  
 ويجلس ذات مساء بين أصدقائه من تجار المخدرات  
 فيتساءل:

- ماذا يمكن أن يصنع الإنسان أيضًا؟

ويحدثهم عن رحلاته وهم يتابعونه بغير مبالاة شأن  
 من لا يغادر الحارة إلّا لضرورة .  
 ويتساءل عكلة:

- ترى أين جبال الواق؟

ثم يتساءل مرّة أخرى .

- وأين سور الدنيا؟ وإذا أطلّ الإنسان منه فماذا يجد؟

\* \* \*

وترامى عنه أخبار وأخبار .

يقال إنّه أدمن الشراب، يقال إنّه يدمن المقامرة،  
 يقال إنّه يرتكب حماقات لا عدّ لها ولا حصر .  
 ويطول غيابه في الخارج حتّى يُظنّ أنّه لن يرجع .

بيننا صمت قاتل وأرى في الحالة شراً لا تفسير له،  
وأرى في الطبيعة عجزاً ونقصاً، ولا أفهم لذلك معنى،  
فلم أشك في أنه - سبحانه - قرّر أن يتركنا لأنفسنا، بلا  
اتّصال وبلا عناية...  
ويصارحه أبي بأنّه يجذّف مجدّيفاً خطيراً، ولكنّ  
الدهشوري يستمرّ قائلاً:  
- وإذن فالإيمان بالله يقتضي الإيمان بتجاهله لعالمنا،  
كما يقتضي منها الاعتقاد الكليّ على النفس وحدها.  
وسأله أبي غاضباً:  
- أتتخيّل حال الناس لو آمنوا بفكرتك؟  
- لن يكونوا أسوأ ممّا هم بحال من الأحوال وثمة  
أمل بأن يكونوا أحسن.  
ثمّ يشرح فكرته قائلاً:

- لا تخش أن يأخذ الناس الحياة مأخذ العبث إذ  
أثنا أمانة ملقاة علينا، ولا مفرّ من حملها بكلّ جدّيّة  
وإلا هلكنا، وإذا أمكن أن يوجد أحياناً أمثال الحيام  
وأبي نؤاس فإنّما يوجدون لا بفضل فلسفتهم ولكن  
بفضل الجادّين الكادحين الذين يقومون بحمل الأمانة  
عنهم، ولو اعتنق الجميع مذهب العبث فمن يصنع  
لهم الخبز والخمر والرياض؟، وإذن فلا تخش أن يأخذ  
الناس الحياة مأخذ اللهوان وجدوا أنفسهم في عالم بلا  
إله، لا مفرّ من الجدّيّة، ومن الإبداع، ومن الأخلاق،  
ومن القانون، ومن العقاب، وقد يستعينون أيضاً  
بالعقابر الطيّبة لمقاومة الضعف في السلوك والتفكير كما  
يستعينون بها في مقاومة الأمراض، وسيفعلون ذلك  
بإصرار، ولن تمن عزيمتهم بسبب أتهم يجدون أنفسهم  
في سفينة بلا مرشد في بحر بلا شيطان في زمن بلا  
بداية ولا نهاية، ولن تختفي البطولة ولا النبيل ولا  
الاستشهاد.

ويتريث قليلاً متساعهاً مع غضب أبي وسخريته ثمّ  
يستطرد:

- وذات يوم سيحقّق الإنسان نوعاً من الكمال في  
نفسه ومجتمعه، وعند ذلك، وعند ذلك فقط، ستسمح  
له شخصيّة الجديدة بإدراك معنى الألوهيّة وتتجلّى له  
حقيقتها الأبديّة...  
ويتواصل النقاش حتّى ينال منهما التعب، ثمّ

يتساءل مصطفى الدهشوري باهتمام:

- كيف يمكن أن أنشر أفكاري في حارتنا؟

فيقول له أبي بحدّة:

- أهل حارتنا غارقون في هموم الحياة اليوميّة،  
يطحنهم الفقر والجهل والبطش والعداوة.  
- ولكنّها مشكلات لا تحلّ الحلّ الأمثل إلاّ  
بأفكاري؟

- أهل حارتنا لا يفهمون إلاّ لغة واحدة هي اللغة  
المشتقة من همومهم، الخاوية لعذاباتهم، المقدّسة بأوراد  
الكائن المرجوّ عند الشدّة الذي تريد أن تنزعه من قلوبهم.  
ورغم حرص مصطفى الدهشوري تُنسب إليه  
أفكار خارقة تسيء إلى سمعته بين الناس فيشير لغطّ  
يُفصل بسببه من وظيفته وتجهّمه الحياة في حارتنا.

## الحكاية رقم ٧٤

الأعور يتأهّل لموعد غراميّ في الساحة أمام التكيّة.  
يعزم على إنعاش شجاعته بكم قرعة من البوظة ولكنّه  
يسترسل في الشرب حتّى يفقد ذاته تماماً.  
يغادر الحمارّة عقب منتصف الليل فيذوب في  
الظلام، ويدوب في الحبّ، ولا يدري أين يتّجه،  
يرتطم في الظلام بنؤنؤ المجنون وهو يهيم على وجهه  
حيث إنّ جنونه غير مؤذّ، فيقبض على ذراعه دون أن  
يعرفه، ويقول له:

- أرشدني إلى طريق التكيّة.

فيتحرّك نؤنؤ المجنون وهو يقول له:

- لا تترك ذراعي... لماذا تريد التكيّة في هذه  
الساعة من الليل؟

- أتريد الحقّ؟ إني ذاهب للقاء حبيبي.

- عظيم... وأنا ذاهب أيضاً للقاء حبيبي.

- في الساحة مثلي؟

- بل في التكيّة نفسها.

- ولكنّ الأسوار عالية.

- لا مستحيل في الليل.

ويكاد الأعور أن يسقط من شدّة الترنّح فيقول

متشكّياً:

## حكايات حارتنا ٥٩٩

وعقب القرعة الثانية تعانقه فرحة شاملة فيهتز طرباً ويقول لمن حوله:

- صدّقوني إنّ الحزن في هذه الدنيا ليس إلّا وهماً عابراً.

ويفرغ القرعة الثالثة في جوفه ويقول:

- ملعون من يلعن الدنيا، لقمة حلوة ومرة، حلوة وإيمان حلو، ماذا تريدون بعد ذلك؟

ويقف برشاقة فيلعب بعصاه ويقول:

- أنا سعيد يا جدعان...

ويرقص بخفة وبهجة...

وإذا بصوت خشن لم يحدّد مصدره يهتف به:

- نريد الهدوء.

ولكنّه يواصل الرقص، ويأخذ في الغناء أيضاً:

شوفوا العجب حبيبت فلاحه

فيعود الصوت الخشن قائلاً.

- احترم نفسك واجلس...

ولكنّه يستمرّ في معانقة الفرحة...

ويرتفع نبتوت في الهواء ثمّ يهوي على رأسه...

عند ذاك يتوقّف عن الرقص، يسكت عن الغناء،

تتصلب سحته نافضة عنها لآلئ السعادة... ثمّ

يتهاوى على الأرض...

## الحكاية رقم ٧٦

بسرعة الشهب انتشر خبر يقول إنّ الحكومة ستهدم التكيّة ضمن مشروع للمرافق العامة. في لحظة يصير حديث البيوت والدكاكين والوكالات والغرز والبوظة والخرايات في حارتنا.

- حارتنا ميمونة ببركة التكيّة.

- الخضرة والأزهار لا تُرى إلّا في التكيّة.

- والأغنيات الإلمية أين تُسمع إلّا في التكيّة؟

- وما المكان الذي لم يضمّر أذى لإنسان إلّا التكيّة؟

وبالبحث والتحريّ تُكشف حقيقة غريبة وهي أنّ

صاحب المشروع هو المهندس عبده السكري ابن

حارتنا!

ويقول عبده:

- نحن نسير منذ عام ولم نصل بعد؟

- لم يمض على سيرنا إلّا أسبوع واحد.

فيعتذر الأعور عن خطئه فيقول:

- الزمن لا يُرى في الظلام.

- والمحبوبة هل ترى في الظلام؟

فيضحك السكران ويقول:

- إيّ لا أعتد على عينيّ للتعرف على المحبوبة.

- إذن فأنت مجنون!

- ولكن أين التكيّة؟

- نحن لم نسر بشهادتك إلّا أسبوعاً واحداً.

- ولكيّ أقطع الحارة نهائياً في ريع ساعة.

- في الليل تطول المسافة، ألا ترى أنّنا لا نتوقّف عن

السير؟

ويدوخ الأعور، وتمعّج ساقاه عن حمله، فيسقط على

وجهه، ويروح في سبات عميق لا يستيقظ منه إلّا مع

أول شعاع للشمس. ينظر فيما حوله بذهول فيجد نفسه

أمام الخيّارة لم يتعد عنها خطوة واحدة.

\* \* \*

ويقول راوي هذه الحكاية - صبيّ الخيّارة - أنّه كان

يقف عند الباب، يسمع حوار السكران والمجنون،

ويراهما وهما يدوران حول نفسيهما متوهمين أنّهما

يتقدّمان.

ومن يومها والمثل يُضرب بهذه الحكاية في حارتنا

فيقال لمن يسترشد بمن لا يرشد: «أنت سكران وهو

مجنون فكيف تصلان إلى التكيّة؟».

## الحكاية رقم ٧٥

يدخل عمر المرجاني البوظة في غاية من الأبهة

والأناقة.

جلبابه الأبيض يشعّ نوراً، عصامته المقلّوظة تتوجّج

رأسه، مركوبه الأحمر يتألّق، تحت إبطه خيزرانة

رشيقة.

يجيّ الحاضرين يبشر ويقول:

- لعمتلّ قلوبكم بالهنا والأفراح.

ويكرع أول قرعة فتتحرك النشوة في أعماقه وبتسم.

شجرة فارعة، وأن عليّ أن أسلم بذلك كلّه ثمّ أعيش لأهتّم بالأحزان والأفراح، لذلك لا أملك نفسي من الضحك.

فأضحك معه طويلاً حتّى يحدجني بنظرة ساحرة ويسألني:  
- هل تضمن أن تشرق الشمس غدًا؟  
فأقول بثقة:  
- أستطيع أن أراهن على ذلك.  
فيقول وهو يضحك:  
- طوبى للحمقى فهم السعداء.

## الحكاية رقم ٧٨

عرفت الشيخ عمر فكري في بيتنا وهو في زيارة لأبي. هو كاتب محامٍ متقاعد، فتح عقب تقاعده مكتباً للأعمال لمعاونة أهل حارتنا في شئون الحياة بعد أن توثقت أسباب الاتصال بين الحارة وبين المدينة الكبيرة. ويقع مكتبه فيما بين الزاوية والمدرسة، ويقدم خدمات متنوّعة للقاصدين مثل تأجير البيوت ونقل الأثاث وتجهيز الجنازات والسمرسة التجاريّة وشئون الزواج والطلاق.

سمعته وهو يقول لأبي بكلّ ثقة واعتزاز:  
- من خبرتي الطويلة أستطيع أن أقدم شتى الخدمات في أيّ ميدان من ميادين الحياة!  
تحركت في أعماقي رغبة قديمة كامنة فسألته:  
- أتستطيع أن تقدّم لي خدمة؟  
فنظر إليّ بأسماً وسألني:  
- ماذا تريد يا بنيّ؟  
- أريد رؤية شيخ التكيّة الأكبر!  
فضحك الشيخ عمر عاليًا وشاركه أبي ثمّ قال:  
- إنّ الخدمات التي أقدمها جدّية وتتعلّق بجوهر الحياة العمليّة!  
- ولكنك قلت إنك تقدّم شتى الخدمات في أيّ ميدان من ميادين الحياة.  
- ولكنّ التكيّة خارج أسوار الحياة؟  
- هي ليست كذلك في الواقع.  
وقال لي أبي:

- التكيّة تعترض مجرى الحارة كالسدّ وتحول دون انطلاقنا نحو الشمال.

فيقولون له:

- وهل علمت أننا متضايقون من ذلك وآلا يوجد أكثر من سبيل إلى الشمال؟  
- لا تنسوا أنّ القرافة ستُنقل عمّا قريب إلى صحراء الحفير وسيحلّ محلّها عمران شامل.  
- طول عمرنا نسمع أنّ القرافة ستُنقل وما هي باقية لا تتحرّك، فكيف هانّ عليك أن تقترح إزالة التكيّة المباركة؟

واشتدّ النقاش، وحمي الانفعال، وكُتبت العرائض، وحلّ بحارتنا توترٌ وحزن لم تعرفهما من قبل.

ويرفع صوت معتدل يقول:

- لا وجه للعجلة، فلننتظر حتّى يتقرّر بصفة نهائية نقل القرافة ويشرع في ذلك بالفعل، عند ذلك يحقّ لنا أن نناقش مسألة هدم التكيّة.

وغلب هذا الرأي فتراجعت الوزارة وتأجلّ المشروع.

أما الأكثرية فقد رفضت الفكرة جملة وتفصيلاً.

وأما القلّة المعتدلة فهي تقول:

- فلتبقّ التكيّة ما بقيت القرافة.

## الحكاية رقم ٧٧

أنور جلال جالس على سلّم السبيل الأثريّ وهو يضحك عاليًا. أنظر إليه فيخطر لي أنّه سكران أو مسطول فأمضي نحوه وأجلس إلى جانبه ثمّ أسأله:  
- ماذا يضحكك؟

فيجيبني وهو لا يكفّ عن الضحك:

- تذكّرت أنّي طالب بين طلبة متنافسين، في مدرسة تجمع بين طلبة الأزقة المتخاصمة، في حارة وسط حارات متعادية، وآتي كائن بين ملايين الكائنات المنظورة وغير المنظورة، في ككرة أرضيّة تهيم وسط مجموعة شمسيّة لا سلطان لي عليها، والمجموعة ضائعة في سديم هائل، والسديم تائه في كون لا نهائيّ، وأنّ الحياة التي أنتمي إليها مثل نقطة الندى فوق ورقة

## حكايات حارتنا ٦٠١

عُرفوا بالتقوى فأدعى بعضهم أنهم رأوه ولكن لم يتفق  
اثنان منهم على وصف محدد له، اختلفوا لحدّ  
التناقض، وهذا يعني في نظري أنّ أحدًا منهم لم يره.

فقلت بحماس:

- ولكنني رأيت.

- إنكم لا تكذبون ولكنكم تتخيلون.

- وما وجه الاستحالة في رؤيته، ألا يخطر له أحياناً

أن يتمشى في الحديقة مثلاً؟

- ومن أين تعلم أنّ الذي تراه هو الشيخ الأكبر

وليس درويشاً من الدراويش؟

- وهكذا نفضت يدك من المسألة؟

- أبداً، كنت مجنوناً أكثر مما تتصوّر، ذهبت إلى

ديوان الأوقاف متحدثاً، حصلت على معلومات لا

بأس بها عن أوقاف التكية وعن فرقتهم الصوفية، عن

الدرويش المخصّص لتسلّم الربيع، ولكن لم أعر على

كلمة واحدة تخصّ الشيخ الأكبر فضلاً عن كراماته

التي تؤمن بها حارتنا.

فغصصت بالخيبة ورمقته بحقن ثم قلت:

- توجد وسائل أخرى ولا شك؟

فقال باسماً:

- يوجد العقل، هو الذي خلّصني من رغبتني

المحمومة، قال لي إنّنا نرى التكية والدراويش ولا نرى

الشيخ الأكبر

فسأله أبي:

- هل يصلح هذا دليلاً على عدم وجوده؟

- إنه لا يقول ذلك، إنه يقرّر حقيقة نعرفها جميعاً

وهي أنّنا نرى التكية والدراويش ولا نرى الشيخ

الأكبر.

فقلت:

- ولكن توجد وسيلة ولا شك للتثبت من وجوده

ومن رؤيته؟

- لن يتأتّى ذلك بالطرق المشروعة فيما أعتقد، وإنّي

كما تعلم لا أحيّد عن القانون أبداً.

فضحك أبي وقال:

- اعترف أنّه توجد خدمة واحدة على الأقل لا

تستطيع أن تؤذيها يا شيخ عمر.

- أسيّمه بعض ما تحفظ من أشعارها.

لرّددت بسرور:

- بليلي خون دلي خورّد وكلي حاصل كرد.

فقال الشيخ عمر فكري مخاطباً أبي:

- ما أكثر الذين يردّدون هذه الأشعار بلا فهم «ثمّ

ناظرًا نحوي»: أتفهم معنى كلمة واحدة مما رددت؟

فهزّزت رأسي نفيًا فقال:

- إنهم غرباء ذوو لغة غريبة ولكنّ حارتنا مجنونة

بهم.

فقلت له:

- إنك قادر على كلّ شيء.

فتمتم أبي:

- أستغفر الله العظيم.

وسألني الشيخ:

- وما أهميّة رؤية شيخ الدراويش لك؟

- لأتأكد من تجربة مرّت بي في طفولتي.

وقصّ عليه أبي قصتي القديمة فضحك الشيخ عمر

وقال:

- اعترف لكما بأنني رغبت ذات يوم في رؤية الشيخ

الأكبر.

- حقاً؟!

- قلت لنفسي إنّ الحارة كلّها تردّد ذكره رغم أنّه لا

يكاد يزعم أحد أنّه رآه وولعت بفكرة رؤيته ولع

الأطفال، ماذا يحول بيني وبين ذلك؟، ومضيت إلى

التكية، طلبت مقابلة أيّ مسئول بها ولكنهم لا قوني من

وراء السور بتجهّم وقلق، ولم يُبدوا أيّ استعداد

للتفاهم، تكلمت بالإشارة فأجفلوا وأوجسوا خيفة،

حتّى أسفت على ما أحدثت لهم من اضطراب،

ورجعت معترفاً بحياقتي، يائساً من تحقيق فكري

بالإتصال المباشر، مقتنعا في الوقت نفسه بأنّ اقتحام

التكية بالطريق المشروع متعلّدر أو مستحيل، وأنّ

اقتحامها بالتسلّل خرق للقانون لا شكّ فيه لا يتوقّع

من رجل يقوم عمله في الحياة على احترام القانون.

- هكذا عدلت عن رغبتك؟

- لم أعدل عنها كما ظننت، ولكنني جرّبت وسيلة

ثانية، طفت بالطاعنين في السنّ من أهل حارتنا ثمّ

فجاراه في ضحكه قائلاً:

- ليكن، ولكن ما جدوى رؤية الشيخ الأكبر؟، ألم

تكن رغبة مضحكة؟

فسألته بحرارة:

- لم يغلّقون في وجوهنا الأبواب؟

- التكيّة شُيِّدت في الأصل في خلاء لأتّهم قوم

ينشدون العزلة والبعد عن الدنيا والناس، ولكن بمرور

الزمن امتدّ العمران إليهم وأحاط بهم الأحياء

والأموات فأغلقوا الأبواب كوسيلة أخيرة لتحقيق

العزلة.

وابتسم ابتسامة فاترة وقال:

- لقد مددتك بكافة المعلومات الممكنة وهي وإن

تكن غير مجدية في تحقيق رغبتك إلا أنّها قاطعة في أنّه

لا يمكن تحقيق الرغبة إلاّ بوسيلة غير مشروعة خارقة  
للقانون.

\*\*\*

تلك ذكرى لا تُنسى.

وحتى اليوم لم أجد الشجاعة الكافية لمخالفة

القانون، ولكنني في الوقت نفسه لا أستطيع تصوّر

تكيّة بلا شيخ أكبر.

وبمضيّ الأيام لم أعد أرى التكيّة إلاّ في موسم زيارة

المقابر، فألقي عليها نظرة باسمّة، وأستقبل ذكرى أو

أكثر، وأحاول أن أتذكّر صورة الشيخ أو من توهمت

ذات مرّة أنّه الشيخ، ثمّ أمضي نحو المرّ الضيق

الموصل إلى القرافة.

قلب و الليل

## قَلْبُ اللَّيْلِ

- ١
- قلت وأنا أتفحصه باهتمام ومودة:  
- إني أتذكرك جيّدًا.
- انحنى قليلاً فوق مكنتي وأحدّ بصره الغائم. وضع لي من القرب ضعف بصره، نظرته المتسوّلة، ومحاولته المرهقة لالتقاط المنظور، وقال بصوت خشن عالي النبرة يتجاهل قصر المسافة بين وجهينا وصغر حجم الحجرة الغارقة في الهدوء:
- حقًا؟! ... لم تعد ذاكرتي أهلاً للثقة، ثم إن بصري ضعيف...
- ولكنّ أيام خان جعفر لا يمكن أن تُنسى...  
- مرحبًا، إذن فأنت من أهل ذلك الحيّ! قدّمت نفسي داعيًا إياه إلى الجلوس وأنا أقول:  
- لم تكن من جيل واحد ولكن ثمة أشياء لا تنسى.
- فجلس وهو يقول:  
- ولكنّي أعتقد أنّي تغيّرت تغيرًا كليًا وأنّ الزمن وضع على وجهي قناعًا قبيحًا من صنعه هو لا من صنع والديّ!
- وقدّم نفسه بفخار دون حاجة إلى ذلك قائلًا:  
- الراوي، جعفر الراوي، جعفر إبراهيم سيّد الراوي...  
لم تخف عليّ أسباب اعتزازه بالاسم، وأكد ذلك التناقض الحادّ بين منظره التعيّس وبين لهجته المتعالية.
- قال:  
- إنك تعود بي إلى ذكريات عزيزة، أحياء خان جعفر والحسين المقدّسة، أيام الهناء والتجربة...  
- وكانت ثمة وقائع مثيرة وحكايات غريبة...  
فضحك عاليًا. اهتزّ جسده الطويل النحيل حتّى أشفقت على بدلته الرثة أن تتمزّق، ورفع لي وجهه ذا الجلد المدبوغ والشعر النابت وهو يهرش شعر رأسه الأبيض المتلبّد، وقال:  
- نحن أهل، ومن حقّي أن أستبشر خيرًا لفضيقتي العادلة!
- فسألته مؤجّلًا الخصام:  
- تشرب قهوة؟  
فقال بلا أدنى تردّد وبجراحة:  
- لنبدأ بسندوتش فول ثمّ نجيء القهوة بعد ذلك...  
وراقبته وهو يأكل بنهم جائع حتّى ساورني الأسى، واستقرت راثحته في أنفي خليطًا من العرق والتبغ والتراب. ولما أكل وشرب اعتدل في جلسته وقال:  
- أشكرك، لا أريد أن أضيع وقتك أكثر من ذلك، لا شك أنّك اطلعت على طلبي بحكم وظيفتك، فما رأيك؟  
فقلت بأسف:  
- لا فائدة، نظام الوقف لا يسمح بشيء من ذلك...  
- ولكنّ الحقّ واضح مثل الشمس.  
- الوقف واضح أيضًا...  
- كان القانون ضمن ثقافتني ولكنّي أعتقد أنّ كلّ شيء يتغيّر...  
- إنك تعود بي إلى ذكريات عزيزة، أحياء خان



- إلا الوقف فإنه حتى اليوم لم يتغير...  
فهدر صوته الخشن صائحًا:  
- لن يضيع حقّي أبدًا، ولتعلم ذلك وزارة الأوقاف.
- ولمّا وجد متي هدوءًا باسمًا تراجع إلى الهدوء وقال:  
- دعني أقابل المدير العام.  
فقلت بلطف:  
- المسألة واضحة جدًا، فوقف الراوي أكبر وقف خيريّ في الوزارة، ريعه موقوف على الحرمين الشريفين ومسجد الإمام الحسين بالإضافة إلى جمعيات خيريّة ومدارس وتكايا وأسبلة، والوقف الخيري لا يمكن أن يثول إلى شخص بحال من الأحوال.  
قاطعني بحدة:  
- ولكنني حفيد الراوي، وريثه الوحيد، وإني في مسيس الحاجة إلى مليم على حين أنّ الإمام الحسين غنيّ بجنّات النعيم.  
- ولكنّه الوقف!  
- سأقيم دعوى.  
- لا فائدة من ذلك.  
- سأستشير محاميًا شرعيًا، ولكنّ تلزمني استشارة مجانيّة لأنّ النقود كائنات مجهولة في عالمي...  
- لي أكثر من صديق بين المحامين الشرعيّين، ويمكن أن أدبر لقاء بينك وبين أحدهم، ولكن لا تضيع وقتك جريًا وراء أمل لا يمكن أن يتحقّق.  
- إنك تعاملني كطفل!  
- معاذ الله ولكنني أدرك بحقيقة لا جدال فيها.  
- ولكنني حفيد الراوي، وإثبات ذلك يسير عليّ...  
- المهمّ أنّ تركة الراوي أصبحت وقفًا خيريًا...  
- وهل من العدل أن أترك أنا للتسوّل...؟  
- المتفق عليه في الإدارة وهو المتبع في مثل ظرفك أن تقدّم طلبًا بالتماس صرف إعانة شهرية من الخيرات بشرط أن تثبت نسبك...  
جعل يردّد: إعانة شهرية!... يا لهم من مجانين ظالمين.  
وواصل قائلاً:
- صاحب الوقف يلتمس إحسانًا... هذا جنون... وما مقدار الإعانة؟  
صمتُ لحظات متردّدًا ثمّ قلت:  
- قد تصل إلى خمسة جنيهات... وقد تزيد...  
فهقه ساخرًا كاشفًا عن أسنان مثرمة سوداء، ثمّ قال:  
- صدّقني، سأكافح، لقد حملت حياة لا يقدم على حملها الجنّ، فلتكن معركة، لن أكفّ عن القتال حتى أنال حقّي الكامل من تركة جدّي اللعين!  
فلم أمالك من الابتسام وقلت:  
- ليرحمه الله جزاء ما قدّم للخير.  
فضرب حافة مكتبي بقبضته المعروفة وقال:  
- لا خير فيمن ينسى حفيده الوحيد...  
- ولماذا نسيتك؟  
قبض على ذقنه دون أن يجيب. شعرت بأنّ الزوبعة ستنتفشع عاجلاً أو آجلاً، وأنّ التماس الإعانة سيُكتب. ما أكثر التسوّلين عندنا من حَفدة الباشوات والأمراء والملوك. و يقيني أنّه لا يجحد أحد ذرّيته بلا سبب فماذا فعلت يا جعفر؟!  
ومدّ بصره الضعيف إلى لا شيء وراح يقول:  
- وقف خيريّ، حرمان من الميراث، هكذا فعله دائماً مزيج من الخير والشرّ، ها هو يمارس سلطته ميتًا كما مارسها حيًا، وها أنا أكافح في موته كما كافحت في حياته... وحتى الموت...  
٢  
توثقت العلاقة بيني وبين جعفر الراوي. كان في وحدته على استعداد حادّ للالتصاق بمن يشجّعه ولو بابتسامة، وكان يشجّعي على المغامرة شعوريّ بأنّها عابرة سريعة الزوال، فشخصيّته المضطربة لا توحى بالاستقرار والدوام، وإرضاءها يسير هيّن. ثمة أشياء ظاهرة وباطنة جذبتني إليه. هناك على سبيل المثال الذكريات القديمة وافتتاني ببيت الراوي وحكاياته، وما تردّد يوماً عن مغامرات جعفر وجنونه. وهناك أيضًا ميلي إليه رغم فظاعة منظره ورثائي له في خاتمته التعيسة. وكان ذا قامة مديدة. ولولا البؤس - وربما

قلب الليل ٦٠٧

لكلّ إنسان، عليك أن تتخلّى عن عاداتك السخيفة،  
هذا كلّ ما هنالك.

- ومع ذلك فإنّك تتمنّى أن تستردّ تركة جدّك؟  
فقهقه قائلاً:

- لا تحاسبني على التناقض، إنّي حزمة من  
المتناقضات، ولا تنس أنّي عجوز، ولا تنس أنّي  
أخوض معركة مع جدّي منذ قديم.

- أودّ أن أعرف لماذا حرمتك ميراثك؟

- هذه هي المعركة، لا تتعجّل، لست بسيطاً كما  
يترأى لك، كثيرون يخذعون فيّ، حتّى الصبية  
يجرون ورائي وأنا أتخبّط في الشوارع، ماذا يظنون؟ إنّي  
أحبّ الكلام، ولما كنت وحيداً فإنّي أكلم نفسي، ماذا  
يظنون؟ لقد تقدّم بي العمر ولما تكفّ الأسئلة عن  
مطاردتي، صدّقني فإنّي شخص غير عاديّ، حتّى في  
الجليل كنت غير عاديّ، ولا في القصر ولا في الخرابة،  
ورغم التصعّك والتسوّل فإنّي أفق أمام الحياة مرفوع  
الرأس متحدّياً، إذ إنّ الحياة لا تحترم إلاّ من يستهين  
بها...

جعلت أتأمّله باسماً وهو يتحدّى الوجود ببذله  
المتهتكة وجلده المدبوغ، ثمّ تمنت:

- عفارم عليك!

- وليس الإنسان وحده من تعاملت معه فلي  
صيّلات عريقة مع الجهاد والجنّ والعفاريت فضلاً عن  
عناصر الحضارة الجوهريّة.

ثمّ غير نغمته فجأة وسألني:

- هل وقع اختيارك على محامٍ ثقة لنذهب إليه؟  
فقلت متوسّلاً:

- أنس بالله هذه القضية الوهميّة يا جعفر.

- ألسنتُ جعفر إبراهيم حفيد سيّد الراوي؟

- بلى... ولكن لا توجد قضية على الإطلاق.

فصاح:

- إذن سأشعل ثورة تقلب نظام الكون...

- هذا أقرب إلى الإمكان من كسب القضية،

اكتب الالتباس ولا تبدّد الوقت...

فقال ضاحكاً:

- إنكم في الوزارة تعيشون من فتات أوقافنا ثمّ

الأمراض - لنضحت شيخوخته بروعة وجلال.  
سألته بعد أن تناولنا عشاءنا من الكوارع في شارع  
محمّد عليّ:

- كيف تعيش يا جعفر؟

- أتخبّط في الشوارع نهائاً وحتّى منتصف الليل...

- وأين تسكن؟

- أبيت في الخرابة...

- الخرابة؟

- هي ملكي بوضع اليد، وهي ما تبقى من بيت  
جدّي القديم!

وكنت قد انقطعت عن الحيّ العتيق منذ عهد بعيد  
فلم أعرف أنّ البيت تمحوّل إلى خرابة.

- أليس لك أهل؟

- لعلهم يملثون الأرض...

ابتسمت. فقال جاداً:

- لي أبناء قضاة وأبناء مجرمون...

- أعني ما تقول؟

- رغم ذلك فإنّي وحيد...

- يا لها من طريقة في الحديث...

- اسمع، رُدّ إليّ الوقف وأعدك بأن تراني معاطاً  
بالأبناء والأحفاد، وإلاّ فستجدني دائماً وحيداً

طريداً...

- أراك تحبّ الألبان...

فضحك قائلاً:

- إنّي أحبّ اللقمة الحلوة والوقف، كما أحبّ لعن

الواقفين...

- أليس لك مورد رزق من أيّ نوع في

شيخوختك؟

- لي أصدقاء قداماء، أعترض أحدهم فيمصدّ يده

بالسلام ويدسّ في يدي ما يجود به، إنّي أتمرّغ في

التراب ولكنني هابط في الأصل من السماء.

قلت بأسى:

- حياة غير لائقة، اكتب الالتباس فوراً...

- هي الحياة الإنسانيّة الأصيلة، جرّبها بشجاعة إن

استطعت، اقتحم الأبواب بجرأة، لا تتمسكن فكّل

ما تحتاجه هو حقّ لك، هذه الدنيا ملك للإنسان،

من زواياها. لا غريب يطرقها ليلاً إلا رواد مقهى ودود القلائل، وجميعهم من مدخني البوري، قال جعفر:

- دعني أحدثك عن عهد الأسطورة...  
- لعلك تقصد الطفولة.

- إني أعني ما أقول فلا تقاطعني، لا توجد طفولة. ولكن يوجد حلم وأسطورة، عهد الحلم والأسطورة، وهو يفرض ذاته في عذوبة فائقة، وربما زائفة، بسبب من معاناة الحاضر الأليمة عادة، وهو دويّ ضخم في وجداني وعندما أحلله لا أجده شيئاً، وهذا ما يؤكد طبيعته الأسطورية، حسبك أن تعرف أن قطبيه الأساسيين - أبي وأمي - لا أكاد أعرف عنهما شيئاً ذا بال.

- هل غادراك وأنت طفل؟

- لا أذكر أبي بتأناً، لا صورة له في ذاكرتي ولم يخلف صورة فوتوغرافية لتذكرني به، وقد فارق الدنيا قبل أن ينجب غيري، ولا يوجد سوى موقف واحد يشير إليه إشارة غامضة، موقفه يوم الاحتفال بالمحمل وراء نافذة تطلّ على مرجوش، وأنا ممتمّط قفاه وأنظر من فوق منكبهِ إلى الجموع، وإلى رأس المحمل المذهب الذي يتبختر في مستوى النافذة، موقف يدلّ على العطف والحنان أليس كذلك؟ والمحمل معلّم من معالم الأسطورة أمّا الجموع فحقيقة من نوع خاص، بعثت في نفسي ذات يوم في مكثي بميدان باب الخلق فهتفت في وجه «سعد كبير» وقلت...  
قاطعته:

- نحن الآن في الأسطورة فلا نتجاوز حدودها!

- دعني أتكلّم بحرّيّة فإنّي أكره القيود!

- ولكنّ الحكاية ستدروها رياح الخواطر فأضلّ بين شذراتها!

قهقهة قائلاً:

- ألا تسمح لي بأن أعبت بالزمن كما عبث بي؟  
حسن، لنعد إلى الأسطورة، إلى الجنّ الماجن والجماد اللعوب والحقائق الطيفية والأحلام الحقيقية، لنعد إلى الأسطورة، قلت لك إنني لا أتذكر أبي ولكنني لا أنسى يد أُمّي.

تمدّون أيديكم إلينا بالإحسان...  
- اكتب الالتباس ولا تبتدّد الوقت...  
وغشانا الصمت دقائق ثمّ قال وكأنّما يحدث نفسه:

- خمسة جنيهات!...

- يجب أن تستأجر ولو حجرة فوق سطح...  
- كلاً... إنّ المبلغ يكفي للغذاء والسجائر

والكساء... أمّا المأوى فكيف أستأجر مسكناً وأنا أملك قصرًا؟!... لن أهجر الخرابة...  
- اكتب الالتباس في أقرب فرصة وارسله إلى الوزارة...  
- لا داعي للعجلة، دعني أفكّر، قد أكتب

الالتباس وقد أستشير محامياً، ولا يبعد أن أوصل الحياة بلا التماس ولا محام... لا داعي للعجلة...  
- على أيّ حال فقد عرفت سبيلك...  
فقال بحدّة:

- لا سبيل للتفاهم بيننا... فانت تَمَن يخافون الحياة وأنا تَمَن يزدرونها، وجميع ما ترتعد منه لمجرّد تصوّره قد عانيته... جميع ما تسأل الله ألا يقع قد ذهبت إليه فوق قدمي...  
- عظيم جدّاً يا جعفر...  
- هل يعجبك كلامي؟  
- جدّاً...  
- أتودّ أن تسمع المزيد منه؟  
- ثنّ من ذلك كلّ الثقة...  
- لقد قدّمت لي عشاء فاحراً، وستقدّم لي مساعدات هامة في الأيام القادمة، فضلاً عن أنّنا أبناء حيّ واحد. بنا إلى مقهى ودود بالباب الأخضر...  
وسرنا جنباً إلى جنب نحو الحيّ العتيق حتّى اخترقنا القبو الأثريّ إلى الباب الأخضر. وجلسنا ندخّن البوري ونشرب القهوة على حين جرى الحديث في سكون الليل الطويل...  
٣

هجمت عطفة الباب الأخضر تحت ستار الليل. تعود في تلك الساعة أفواج من الشحاذين إلى أركانهم، ينطلق المجاذيب في جنباتها، يفوح البحور

## قلب الليل ٦٠٩

ومرحه الأصيل .

- ما لك يا أمي؟  
- كل شيء طيب، العَب . . .  
- أين أبي؟  
ودارت وجهها عني وهي تقول:  
- سافر . . . العَب . . . عندك السطح ولا تكثر من  
الأسئلة . . .

إنني أعامل معاملة جديدة لا تخلو من جفاء وقلة  
اكتراث، أمي تهرب مني، تهرب بعينيها إن لم تهرب  
بجسمها كله، وهي تبكي من وراء ظهري، أبي لا  
يعود من السفر، ثم إنني لست جاهلاً كل الجهل،  
بلغتني أشياء عن الله . . . الشيطان . . .  
الجن . . . الجنة والنار . . . حتى الموت بلغتني عنه  
أشياء منكرة بغير السرور، متى يعود أبي من سفره،  
ومتى يرجع وجه أمي إلى صفائه المعهود، وكم دام  
انتظاري القليل لأبي، ومتى أدركني اليأس منه، وكيف  
أنسيته وشغلت عنه، وكيف واصلت حياتي بعد ذلك  
وكأن شيئاً لم يكن؟ نسيت ذلك كله ولا سبيل إلى  
تذكره وتسجيله، أما يد أمي فلا يمكن أن تُنسى . . .

- ذكرت مراراً يد أمك؟

- تمسك بي أو أمسك بها ونسير معاً في الحوار  
والأسواق . . .

- للتسوق أم للنزهة؟

كنت بدأت آنس إلى روحه المتقدة وراء الأطلال  
والخرائب، وبدا هو سعيداً ممتناً للعشاء والهوري وظفـره  
بمستيع يتابع ما يقول باهتمام، قال:

- أحياناً أحاول أن أتذكر صورة أمي فلا أعر على  
شيء ذي بال، ما طولها على سبيل المثال؟ كنت بطبيعة  
الحال أقصر منها جدًّا ودائماً أنظر إلى فوق حين أحدثها  
ولكن ذلك لا يدل على شيء ولا يحدّد طولها، ولا فكرة  
لي عن وزنها كذلك، ولا لون عينيها، ولا لونها نفسه،  
ثمّة صورة عامّة غير محدّدة الخطوط، وإشارات ونبرات  
غير مسموعة، وعواطف جيّاشة، وابتسامات  
وضحكات وزجرات، أشبه بأطراف الأحلام، غير أنني  
استطيع أن أقرّر بأنّها كانت جميلة، لولا جمالها لما  
حدثت المأساة، كما إنني أذكر قول جارثنا لمناسبة منسيّة

- يد أمك؟

- صبراً، لقد مات أبي، كيف ولم؟ لا أدري،  
ولكنه مات في ريعان الشباب كما علمت فيما بعد،  
كنت في الخامسة وربما دون ذلك، حتى بيت مرجوش  
لا أتذكره، ثمّة حجرة يُصعد إليها من الدهليز بسلم  
ذو درجتين، وفراش مرتفع يُرقى إليه بسلم خشبيّ  
يفري باللعب، ونارجيلة معزولة فوق صوان حتى لا  
تمتد لها يدي، وقطط مدلّلة، وجندرة، وكرار مظلم  
تسكنه أنواع شتى من الجن، وفار أسود، ومبخرة،  
وقلّة مغروسة في صينيّة يسبح الليمون في مائها،  
وكانون وزكائب فحم، ودجاج وديك مزهو فخور،  
مات أبي لا أدري كيف، ولا أدري ماذا كان يعمل،  
ولكن بوسعي أن أحدثك عن الموت نفسه فأني به  
خبير، إني من صنّاعه، حتى لي يوماً أن أقول إنني  
واهب الحياة، فعندما يشتعل الغضب وتلتهم ألسنته  
كلمات السهائم تفتح أبواب غامضة تتسلّل منها  
الشياطين، بل يجيء إبليس نفسه في موكبه الناريّ  
يحفّ به القضاة ورجال الشرطة والسجانون، عند ذلك  
يغيّر جعفر الراوي اسمه ولقبه وجلده . . .

قلت برجاء:

- ماذا عن موت أبيك؟

- سأمك الله، إنك خائف الإلهام، تودّ أن تعرف  
كيف مات أبي كما لو كان أبك أنت، ماذا أعرف عن  
ذلك؟ أستيقظ في الظلام فأنته إلى أنّ أمي تحملي بين  
ذراعيها وتغادر بيتنا إلى بيت جارثنا، لا شك أنّ النوم  
غلبني، ولما أستيقظ في الصباح أجدي في مكان غريب  
فأبكي، تحييء الجارة بطعام فأسأل عن أمي .  
- أمك في مشوار وستجيء في الحال . . . تناول  
طعامك .

وأتناول الطعام رغم ضيقي، وأسمع طوال الوقت  
صواتاً، ولكنّ الصوت والزرغريد أصوات مألوفة في  
حارثنا، وأرجع إلى بيتنا في نفس اليوم ليلاً أو في اليوم  
التالي فالتقى جواً غريباً وكثيراً يفشي سراً ألياً لا أعرف  
كتمه ولكن تصيبي منه وحشة وقلق مبهم، ها هي  
أمي، ما أشدّ تغيرها، جلبابها أسود، وجهها مريض  
شاحب، نظرتها خافية وذابلة، فقدّ البيت مناخه النقيّ

الطبيعة والرياضة والتاريخ، ولكلّ جهازه الروحي، وإليك مثلاً حياً، فقد أخذتني أمي ذات يوم لزيارة قبر أبي بين قبور الفقراء المكشوفة في العراء، ثم راحت تناجيه قائلة: «زوجتك وابنتك يجييانك ويسألان الله لك الرحمة والغفران يا أحبّ الناس وأكرمهم، إني أشكو إليك وحدتي وهمي فادعُ لنا ربك يا حبيب». وسرعان ما ألصقت أذني بجدار القبر فسمعت تنهّدة وكلاماً أخبرت به أمي فقالت لي: «مبارك أنت حتى يوم الدين»...

فسألته بإشفاق:

- ماذا قال لك أبوك؟

- إنك غير مؤهل لتصديقي فلن أجيئك!

ساورني شعور بأنه يغطّي ماء الدعابة بسطح من الجدّة الخشنة أو أنه يريد إحاطة أسطوره بجو أسطوري يتوافق معها ليرضي حنين قلبه، فتمتمت مدعناً:

- فوق كلّ ذي علم علم عليم.

- كانت دنيانا دنيا حيّة، تنبض بالرغبات والمواطف والأحلام، فيها الجدّ والمزاح، فيها الفرح والأسى، ينتظمهم جميعاً - الأنس والجنّ والحیوان والجهاد - لحن التفاهم والتعامل...

- ولكنك تدرك ذلك كلّ؟

- كلّ الإدراك، بشغف وإصرار...

- ألم يطوّقك الخوف؟

- أحياناً ولكنّي سرعان ما ملكت أسلحة الدفاع

والهجوم وصرت سيّد الدنيا، كنت ذات مساء لاعب الليمون في صينيّة القلقل على حافة النافذة فما أدري إلّا ورأس كائن يتطلّع إليّ من موضع في مستوى النافذة من الطريق، عيناه تضيئان في الظلام وقدماه منفرستان في الأرض، فتراجعت مضطرباً حتى استلقيت على ظهري فوق أرض الحجره ومزقت صرختي سكون الليل، وقد علمت فيما بعد أنّ لقاء الأنسيّ بالجنّي لا يجوز أن يتمّ على ذلك النحو، وقالت لي أمي إنه آن لي أن أحفظ الصمديّة، أمّا عفاريت بيتنا - وهم يقيمون في الكرار - فكانوا يميلون بطبعهم للدعابة، ولا يصدر عنهم أدنى حقيقيّ، يخلطون المشّ بالعسل، أو يخفون

«ولد يا جعفر يا ابن السّت الجميلة»، ولكنّها لم تبق في الحياة كثيراً حتى تمكّنتني من حفظها في قلبي من الدمار، يدها فقط التي بقيت معي، أحسّ حتى الساعة مسّها وضغطها وشدها وانسيابها، وهي تمضي بي من مكان إلى مكان، خلال طرقات مسقوفة ومكشوفة، وتيارات من النساء والرجال والخمير والعربات، أمام الدكاكين وفي الأضرحة والتكايا، وعند مجالس المجاذيب وقراء الغيب، وباعة الحلوى واللعب، تقودني في جلبابي وعلى رأسي طاقيّة مزركشة تتدلّى من مقدّمها تعويذة كالحلية، وكانت أحاديثها متنوّعة ذات صيغ شعريّة تخاطب بها الكائنات جميعاً كلاً بلعنيّة الخاصّة به، فهي تخاطب الله في سمائه، وتخاطب الأنبياء والملائكة، كما تخاطب الأولياء في أضرحتهم، حتى الجنّ والطير والجماد والموق، وأخيراً ذلك الحديث المتقطع بالتهنّدات الذي تناجي به الحظّ الأسود، كانت الدنيا حيّة واعية تتلقّى الكلام وترده، وتشارك بإرادتها الخفيّة في حياتنا اليوميّة، لا فرق في ذلك بين ملاك وباب ضريح، بين الهدهد وبوابات القاهرة القديمة، حتى الجنّ كانت تلين لكلماتها السحريّة، ويفضل ذلك نجوت من مهالك لا حصر لها...

ولما وجدته جاداً لم أتمالك من الضحك فسألني دون أن يخرج من جدّيته:

- علام تضحك؟

فقلت بلهجة المعتذر:

- إنك تروي حلاً ولكنك الآن تعرف تفسيره وتأويله...

فقال بكبرياء:

- لا تتخيّل أنّك تعرف من الدنيا نصف ما عرفت.

- هكذا؟

- إني بخّر ولا فخر!

- ولكنك لا تفرّق بين الحقيقة والخرافة.

- لا توجد خرافات وحقائق ولكن توجد أنواع من الحقائق تختلف باختلاف أطوار العمر وبنوعيّة الجهاز الذي ندرکها به، فالأساطير حقائق مثل حقائق

قلب الليل ٦١١

خلت إلى نفسها وأكثر من مرة ضببتها وهي تبكي،  
وأدركت سرّ العلاقة بين البكاء وبين اختفاء أبي،  
وسألتها:

- ألسنت تقولين إنّ أبي يقيم بين يدي الله؟  
فأجابت بالإيجاب فسألتها:

- إذن فلماذا تبكين؟

فقالت:

- إنه لخطأ يا جعفر ولكنّ الدموع تفيض رغم  
إرادة الإنسان.

لم يقعدني ذلك عن مغامراتي اليومية فأمضي في  
البهجة، أجمع البيض، أطارد الفئران، أمحدّي  
العفاري، وليت المغامرة السعيدة عامًا عقب وفاة  
أبي، وأخذت تجذبني حكايات الرباب في المقهى تحت  
النافذة، تابعتها باهتمام على قدر استيعابي لها،  
وشاهدت معارك تنشب بسبب التعصّب لأبطالها، ومن  
نفس النافذة شاهدت معارك الفتوات في الزفاف،  
فأعجبت بالفتوات كإعجابي بالجنّ، وحلمت طويلًا  
بأن أكون فتوة إن أعجزني أن أكون عفريتًا...  
سألته:

- ألم يتحقّق لك حلم من أحلام الطفولة؟

- لا تسخر منّي وانتظر، أريد أن أحدثك عن  
الحبّ في عهد الأسطورة.

- ولكنّ عهد الأسطورة ليس بعهد الحبّ...

- ولكنّ الحبّ بدأ عندي من سنّ السادسة، كنت  
أحبّ الغوص وسط البنات في ليالي رمضان، والعلاقة  
الوحيدة الجاذة التي أصابني من يد أمّي كانت بسبب  
الحبّ، إذ أغويت بنتًا ثمالي في السنّ فأخذتها إلى  
سحارة وأنزلت الغطاء علينا، ولكن لم يدم لي الحبّ  
طويلاً فسرعان ما بوغثت برفع الغطاء فرفعت وجهي  
فزعمًا فرأيت وجه أمّي يحمق فيّ وضفيريها تسقط فوق  
رأسي، وعلى فكرة كانت ضفيريها طويلة جدًا وكنت  
ألعب بها ما وجدت إلى ذلك سبيلاً فأحلّها وأعقدتها  
وأدورها كحبل، لا شك أنّ أمّي كانت جميلة، ولولا  
جمالها ما نشأت المأساة أصلاً.

- أعطني فكرة عن حبّ الطفولة...

وهو يضحك:

السمن لاستعمالهم الشخصي، أو يطفثون المصباح بيد  
الماشي ليلاً، وأسوأ مزاحهم تحويل الأحلام إلى  
كوابيس...

- هل تستطيع أن تعطيني فكرة عن صورة  
العفريت؟

- كلاً، إنك غير مؤهل للتصديق، ثم إنّ الجنّ  
تختفي من حياة الفرد مع اختفاء عهد الأسطورة  
وسرعان ما ينساها تمامًا، بل إنه ينكرها، رغم أنه  
يلقاها كلّ يوم في صور جديدة من البشر، وفي الحال  
الأخيرة يصدر عنها شرّ حقيقيّ وأذى كبير، ولكنك  
تصرّ على أنّ الجنّ خرافة ليس إلّا، ومن ناحية أخرى  
فقد شاء لي القدر أن أرى النور المبارك في ليلة القدر  
وأنا جالس على حجر أمّي أتطلع إلى السماء...  
فتحت نافذة وأطلّ منها نور باهر طمس أضواء  
النجوم...

فقلت ضاحكًا:

- يقال إنه لا يرى نور ليلة القدر إلّا من كتبت له  
السعادة من البشر.

فقهقه طويلًا ثم قال:

- يبدو أنّك غلبتني هذه المرّة، ولكن إلى حين  
فقط، حقًا إنّي أبلغ مثال للبؤس ولكنّ العبرة  
بالخواتيم، والخاتمة ما زالت مجهولة، وقد أجد الجواب  
في الجنة، ولي مع الجنة تاريخ طويل، كانت أمّي  
تحدّثني عنها حديث الخبير، فأحببتها حبًا لا مزيد  
عليه، خلبتني وسلبت لبي، فصارت حلمي الباهر،  
جنة السحر حيث يرى الله بالعين ويُسمع بالأذن  
ويخاطب باللسان، في حديقة الأهار والألحان والشباب  
الدائم، ولكن لئرجع إلى حديث أمّي، كيف كانت  
تعيش بعد وفاة أبي؟ خطر لي هذا السؤال فيما بعد ولم  
يسعفني الجواب، كنّا نغادر بيتنا كلّ يوم، نزور  
أصراحة ودكاكين ونبتاع ما يلزمنا ثمّ نرجع إلى بيتنا  
لتنهمك هي في الواجبات المنزليّة وآوي أنا إلى جنتي  
الأرضيّة بين القطط والدجاج، وقد تزورنا جارتنا،  
وكان لا أهل لي ولا أهل لها، أكانت تملك مالا؟...  
حتّى اليوم لم أعرف وجه الحقيقة في ذلك، وقد ظلّت  
ترتدي السواد عقب وفاة أبي، وكانت تبكي أحيانًا إذا

- إنه يبدو عبثًا ضائعًا ولكي أذكر أنه صخب بانفعالات حادثة قاربت السكر... .  
ذاك شدوذا
- لست تربوياً على أيّ حال، وبوسعي أن أوكد لك أنّ الجنس لم يكن عنصراً طاغياً في حياتي ولكنه لعب دوراً حاسماً في حينه، أما في الطفولة فقد أسهم في نطاقه الضيق في نأليف الأسطورة، غير أنّ الأسطورة تعرّضت لضربة قاضية لم تكن في الحسبان، فقد استيقظت ذات صباح وحدي دون أن توقظني أمي كالعادة. أدركت أنني استيقظت وحدي عندما وجدتها مستغرقة في النوم، راقدة على وجهها، وسرّني جداً أن أوقظها ولو مرة في حياتي الصغيرة، قرّبت فمي من أذنها وناديتها، مرة ومرة وهي لا تستجيب، حرّكتها بلطف مكرّراً النداء، ارتفع صوتي واشتدّ تحريكي لها ولا يجيب، وأصررت على إيقاظها، وتماديت في إصراري حتّى ملأ صوتي الحجرة بلا أدنى نتيجة، ويشتت تماماً فانزلقت من الفراش وغادرت الحجرة، وتناولت من فوق الكنصول رمانة وصعدت إلى السطح وأنا أقشرها وأقضم حبّاتها الكهربائية ثمّ أتفل حثالتها للدجاج، ورأيت جارتنا فجرتنا الحديث إلى الحال التي تركت عليها أمي، وجعلت تحقّق معي ثمّ أمرتني أن أفتح لها الباب، وهرولت الجارة إلى أمي وانكبّت فوقها وأنا واقف عند الباب، وما لبثت أن ضربت صدرها بيدها وهتفت «يا خير أسود يا أمّ جعفر»، ثمّ أقبلت نحوي فرفعتني إلى صدرها ومضت بي إلى مسكنها، وانقبض قلبي لذلك التصرف، وتذكّرت به تصرفاً مشابهاً يوم اختفى أبي إلى الأبد، ومضيت أصرخ «أمي... أريد أمي...»، وقضيت في بيت جارتنا يومين كانا أسوأ أيام عهد الأسطورة، وفي مساء اليوم الثاني طيّبت الجارة خاطري وقالت لي:
- لا تحزن يا جعفر فربك رحمن رحيم.  
فقلت يائساً:
- أنا فاهم، أمي ذهبت إلى أبي... .  
قدمت عينا المرأة وتمتمت:
- ربّنا معك، هو الأب والأمّ، هو كلّ شيء... .  
وقال زوجها وكان يدلك أسنانه بمسواك:
- يجب عمل شيء، ولو باللجوء للحكومة... .  
فقالت المرأة:
- حتّى الحجر يلين!
- ومضت أيام وأنا أعيش ضائعاً ذاهلاً حتّى أقبلت عليّ الجارة تقول متهلّلة:
- يا حبيبي، أبشّر، أمر ربّنا بالرحمة، ستذهب إلى جدّك!
- لم أفهم شيئاً.  
كنت أسمع الكلمة لأول مرة.
- ٤
- سألته بدهشة:
- لأول مرة؟  
- لأول مرة.
- لم يجر له ذكر في حياة أمك؟  
- مطلقاً، علماً بأنّه كان في نفس الحيّ يقيم... .  
- ولم أخفّت أمك عنك أمره؟  
- ربّما لحنقها عليه، على أيّ حال أفهمتي جارتنا أنّه جدّي، أنّه أبو أبي، ولم يكن البيت بعيداً عن مرجوش، ولا كان غريباً عليّ فطالما سرت تحت سوره العالي ونحن - أنا وأمّي - في طريقنا إلى الحسين، وأذكر أنني سألتها مرة عن هوية ذلك السور العالي الذي يقوم أمام قبو بيت القاضي كالجبل فقالت لي بعجلة: «إنّه السجن حيث يقضي المجرمون أعمالهم في الظلام»، ولم يكن معزولاً عمّا حوله، ففي الأحياء الشعبيّة تتلاصق بيوت الأغنياء والفقراء، ولم يكن يظهر من البيت ذاته شيء ولا من حديقته، فقط سوره المطلّ على بيت المال، وهو سور حجريّ يمتدّ طولاً وارتفاعاً كأنّه حقيقة سور سجن أو جدار قلعة أمّا بابه فيفتح على عطفة جانبية، وكما اجتزنا بوابته تمّ أوّل لقاء بيني وبين حديقته فلم يكن لي عهد قبل ذلك بالحدائق، ولا رأيت من عالم النبات إلّا شجرة بلّخ بميدان بيت القاضي وشجيرة صبار بالقرافة، اقتحم أذنّي تغريد البلابل وزقزقة العصافير ورأيت الأغصان محمّلة متواشبة بأفرادها الصغيرة الملونة، كما رأيت أسراباً

## قلب الليل ٦١٣

- أنت في بيتك، هل أعجبتك الحديقة؟
- فأحيت رأسي بالإيجاب.
- تكلم، إني أحب الكلمات.
- فغمخمت:
- نعم.
- أتعرف من أكون؟
- جدّي.
- ما معنى ذلك؟
- أبو أبي...
- تصدّق ذلك؟
- نعم.
- هل تتذكّر أباك؟
- كان يحملني لأرى المحمل ولكني أتذكّر أمي...
- وأجهشت في البكاء فرّيت على ظهري ثمّ سألت:
- ماذا تذكر من أبيك أيضًا؟
- زرت قبره.
- فنحى وجهه عني قليلاً ثمّ سألت:
- ما اسمك؟
- جعفر.
- ثمّ ماذا؟
- جعفر لإبراهيم...
- ثمّ ماذا؟
- جعفر لإبراهيم!
- جعفر لإبراهيم سيّد الراوي، أجد...
- جعفر لإبراهيم سيّد الراوي.
- من الذي خلقك؟
- الله.
- ومن نبيك؟
- سيّدنا محمّد.
- هل عرفت الصلاة؟
- كلاً.
- ماذا تحفظ من القرآن؟
- قل هو الله أحد.
- ألم تحفظ الفاتحة؟
- كلاً.
- ولم بدأت بقُل هو الله أحد؟

من الحمام نحو حول برج قائم وراء تكعيبة العنب، يطلّ على جدول ماء يشقّ الحديقة بالعرض يقف فيه بستانيّ مفروّسًا حتّى ثلث ساقه ويده مقطف، أمّا أنفي فقد فغمته أخلاط من روائح الجنة حتّى أنملته، وقد ذهلت حتّى أوشكت أن أصرخ من الأعماق، وسرت في ممشي تتجاذبي على الصقّين ألوان الأزهار والورود في طريقي إلى السلامك، وشدّ جاري على يدي وهمس في أذني مشجّعًا:

- هذا هو بيتك الجديد يا جعفر...

كنت في حيرة شاملة، وكان جدّي يجلس على أريكة ذات مسند عالٍ مطعم بالأرايسك تتوسط السلامك، والظاهر أنّ جاري أنهى حديثًا قصيرًا مع جدّي ثمّ قبل يده وذهب، فوجدت نفسي وحيدًا تحت بصره، لمّا أفق من سحر العصافير والأزهار والجدول، وفي أعماق قلبي أسى لم تمن نواجذه، إنّه يجلس متربّعًا في جلباب أبيض فضفاض متلقّعًا بشملة مزركشة مغطى الرأس بطاقيّة بيضاء، طويل الوجه نحيله، قمحي اللون ذو نظرة هادئة مستقرّة، جبهته عالية بصورة بارزة وأنفه طويل شامخ، أمّا لحيته فيضاء مسدلة على الرقبة وتلامس أعلى الصدر، تبادلنا نظرة فلم أقرأ في عينيه ما يخيف وتبدّى لي على قمة عمر طويل وآية في النبل والوقار ومالكًا جديرًا بالحديقة الفاتنة.

وقفت غير بعيد وغير قريب في جلبابي المقلّم وطاقيتي المزركشة حاملة التعويذة أنتعل مركوبًا ملوّنًا وأحمل تحت إبطي لفافة تحوي ثيابي القليلة.

أطال إليّ النظر حتّى اجتاحتني رغبة في الفرار.

وكأنّما قرأ ما في صدري فابتسم، وأشار إليّ بالاقتراب.

قلت بحرارة:

- أريد أن أرجع إلى أمي.

مدّ لي يده فاقتربت ماذا يدي، تصافحنا، ثمّ كنتني رعشة بكاء ولكنتني ثمّ كنت نفسي فلم أبك، وسرى إلى جسدي من ملمسه دفء، قال برقة:

- أهلاً بك.

أجلسني إلى جانبه وقال:



- لست تافهاً كما تتصوّر، إني صاحب حقّ، وذو ثقافة، بوسعي أن أحدثك عن عيوب الديمقراطية، وعيوب الشيوعية...  
- وستحدّثني عن ذلك في سياق حكايته ولكن ارجع الآن إلى حياتك الجديدة.  
فرجع منكبيه في أسف وقال:

- يا للخسارة، لقد ضعف بصري، وإني مهتد بفقدته نهائياً ذات يوم، ولم يبق من العمر إلا أيام، وما زالت البشرية تعاني العذاب والقلق، ما زلنا نموت مخلفين وراءنا أملاً قد تمحقق ونسي، وسبع خيبات تؤزّقنا حتّى الاحتضار، وأنت تريدني على أن أروي قصتي بالطريقة التي تعجبك أنت لا التي أرتاح إليها أنا...  
فقلت برجاء:

- النظام هو ما يلزمنا لنلّم بقصّتك في الأيام القلائل الباقية من الحياة...

- كانت الحياة الجديدة حلماً بديعاً، نسيت الماضي كلّهُ، نسي القلب الخثون أمي الراحلة التي لم أزر لها قبراً، حلمت بها ذات ليلة وكما استيقظت شعرت بنقل قلبي وبكيت، ولكنّ القلوب الصغيرة تتعزّي بسرعة لا تتأقّق إلا لكبار الحكماء، شُغلت تماماً بجداول الماء وأشجار الحنّاء والنخيل والليمون والأعشاب والصفادع والعصافير والبلابل والحمام واليهام، وأزّين خيالي بالفراش النحاسي المذهب والسجاجيد الفارسية والصوان الفخم والمرأة الكبيرة المصقولة والستائر الملونة والدواوين الوثيرة والشرفة المسقوفة بالبلابل والحمام الكبير بأرضيته المعصراي ونخزان مياهه العجيب، كنت أكتشف في كلّ ركن شيئاً جديداً وثمينةً وأثري باسم جديد ومنظر فتان، على أنّ ذلك كلّهُ بهرني دون أن يستحوذ على قلبي حقيقة فلم يراع في إعداد القصر مطالب الأطفال، لذلك لم يؤثر فيّ شيء مثلما أثر حمار البستانيّ، وجدت فيه الصديق والمهابة وقضيت على ظهره الوقت الطويل قاطعاً المشى ذهاباً وإياباً وأنا أتفادى من الغصون الدانية، وأعجبت كثيراً بالطلبة والبشر والفسقية وتمثال الطاووس الذي يتوسطها فوق عامود مرمرية، وتولّت أمري امرأة كهلة حنون نحاسية

- لفائدتها في إخضاع الجنّ.  
- هل تتعامل مع الجنّ؟  
- نعم، كثيرون منهم يقيمون في كرار بيتنا، وهم يملثون مرجوش ليلاً  
- هل رأيتهم بعينيك؟  
- كثيراً.  
- إنك تكذب على جدك.  
- رأيتهم وتعاملت معهم...  
أجرى أصبعه على الخطوط المكوّنة لوجهي برقة وعناية فأنست إليه ونحلت أكثر الارتباك عني. قال:  
- لا تكذب يا جعفر فإنّي لا أحبّ الكذب.  
- ولكنّي أقول الصدق.  
- انظر بعينيك ولا تتخيّل ما لا وجود له...  
وسكت فسألته بدوري:

- يا جدي...  
فنظر إليّ مستطعاً فواصلت:  
- لمّ تمّ تزرنا؟  
مدّ بصره إلى الحديقة ثمّ قال:  
- جدك متقدّم في السنّ كما ترى.  
- لمّ تمّ تدعنا إلى بيتك؟  
بعد صمت آخر أجاب:  
- رفض أبوك ذلك!  
فسألته:  
- هل سأقيم هنا دائماً؟  
- إنّه بيتك يا جعفر.  
- وألعب في الحديقة؟  
- وستلعب في الحديقة ولكن لن تكون حياتك لعباً خالصاً، إنك في السادسة ويجب أن تبدأ الحياة كذلك...  
وبدأت الحياة الجديدة.

\*\*\*

وتوقّف ملتفتاً نحوي وهو يقول بحدة:  
- ذلك هو جدي، الراوي، صاحب الوقف، فأنيّ نظام مجرمي حقّي الثابت؟  
فقلت برجاء:  
- لنرجع إلى حياتك الجديدة!

## قلب الليل ٦١٥

بالعالمية، وأراد أبي أن يسافر إلى أوربا للسياحة والدراسة فتردد جدّي ملياً ثمّ وهبه الموافقة فسافر إلى فرنسا، تعلّم الفرنسيّة، واستمع إلى محاضرات في الفلسفة واللاهوت في دراسة حرّة ثمّ رجع إلى وطنه دون أن يحصل على شهادة أو يجزّر رسالة، وأعلن عن رغبته في مساعدة جدّي في إدارة الأملاك فسمح له بذلك وكان يرسل بمقالات إلى الصحف بين الحين والحين، ثمّ أحبّ أمّي في الوقت الذي كان جدّي يدبّر تزويجه من كريمة شيخ الأزهر، وتزوَّج منها دون مبالاة، ماذا كان عيبتها؟ الفقراً؟ الحقّ أنّي لم أعرف لها أهلاً على الإطلاق، لا خال ولا خالة، لا قريب من قريب أو بعيد، على أيّ حال انفجر غضب الراوي، وهوى بقبضته على رأس الابن الوحيد فقطعه ونبذه، وشخّل إلى كثيرين أنّ سلسلة الراوي بمضمونها التاريخي قد انعدمت وانتهت، ولا شكّ أنّ أبي لم تكن همّه سلسلة الراوي في شيء، كان يريد أن يحقّق ذاته بطريقة أخرى، ولا أخفي عنك أنّي أعجبت به وأسفت لموته الذي لم أحزن له في حينه لصغر سنّي . . .

\*\*\*

سألته:

- أليس لديك فكرة عن المقالات التي كان ينشرها

في الصحف . . . ؟

- بحثت عنها في أرشيف بعض الصحف، وهي تدور حول التوفيق بين الدين من ناحية والعلم والفلسفة من ناحية أخرى، واعتبرتها دون تحييز عصريّة ومتقدّمة، وبصفة عامّة يمكن أن يصنّف أبي في الليبراليين، وعلمت أنّ أبي عمل مترجماً في صحيفة الفجر عقب استقلاله عن أبيه، وأذكر أنّي ناقشت جدّي في موقف أبي عندما بلغت سنّ المناقشة، سألته ذات مرّة ونحن في جلسة مؤانسة:

- كيف هان عليك يا جدّي أن تطرد أبي لزواجه من امرأة من عامّة الشعب؟ . . . إنك رجل مؤمن صافي الروح نبيل الخلق فكيف هان ذلك عليك؟ وكان واضحاً أنّه لم يرحّب بالسؤال ولكنّه أجابني قائلاً:

اللون تدعى بهجة سرعان ما وثقت بيننا العواطف الطيبة المتبادلة، ومن بهجة عرفت الكثير عن مأساة مولدي في مناسبات شتّى وعلى مدى غير قصير، وتبيّن لي أنّ جدّي كان يعيش في البيت وحده محاطاً بحاشية من الوصيفات والخدم، جدّي مات منذ زمن قصير، كما مات أبي بعيداً عن البيت وكان الابن الوحيد الذي تبقى له على قيد الحياة حتّى بلغ سنّ الرجولة عقب سبعة إخوة ماتوا بين الطفولة والصبا، فكان الأمل الباقي بعد عذاب وكان حلم المستقبل الذي تمخّض - في نظر جدّي ولا شكّ - عن خيبة أمل أنكى من الموت وإلا ما هان عليه أن يعاقبه حتّى القطيعة المطلقة والغربة العدائيّة والنبد من البيت والأسرة والتراث، وذلك ما يجعل من جدّي لغزاً في نظري، شخصيّة توحى بالسماحة والرحمة والعدوية ولكنّه ينقلب بالغضب شيطاناً أو حجرًا صلباً، عرفته وهو شبه معتكف في بيته ولكنّه كان في الأصل أزهرياً، ورت عن أبيه وأجداده الثراء الواسع والأزهر، على ذلك لم يعمل في وظيفة عامّة دينيّة أو تعليميّة، عمله كان إدارة أملاكه، فراغه كان الدراسة والأطلاع على علوم الدين والفلسفة والاقتصاد والسياسة والأدب، بهوه كان ملتقى لرجال الدين والتصوّف والسياسة والأدب.

\*\*\*

سألته:

- ألم يكن له نشاط في الكتابة؟  
- كلاً ولكنّه كان يدوّن مذكرات أو يوميات بصفة مستمرة . . . ولا أدري عنها شيئاً . . .  
- وهل كان كذلك أبوه وجدّه؟  
- كانوا دائماً من هيئة كبار العلماء، هو وحده الذي آثر استثمار أملاكه والحياة الحرّة . . .  
- هل لك فكرة عن الرجل العصاميّ في سلسلة أجدادك، أعني الرجل العاديّ الفقير الذي منه نشأ الثراء؟

- إنّها أسرة عريقة في الثراء والدين ولعلّي أنا أوّل صعلوك فيها!

فضحكت وقهقه ثمّ واصل:

- نشأ أبي نشأة دينيّة التراماً بخطّ الأسرة حتّى فاز

ويبدو أنني أحرزت تقدماً يستحق الارتياح، وكان جدِّي يدعوني إلى شهود مجالسه العامرة بصفوة رجال الدين والدنيا، كان يدعوني لشهودها وقتاً قصيراً يناسب استعدادي، وكثيراً ما سمعت القوم وهم ينوّهون بأجدادي في مواقفهم الماثورة حتى امتلأت فخرًا بأولئك الرجال الممتازين الذين عُرفوا بالعلم والجود ومكارم الأخلاق، بقدر ما تنغص صفوي لغياب ذكر والدي، والظلام الذي يغشى أصل أمي، وكلما تقدّم بي العمر عاودت التفكير في أمي بمرارة أشدّ وأعمق، واقتنعت بأنّ مأساتها - ومأساة والدي بالتبعية - حادثة غير معقولة ومناقضة للدين الذي أتعلّمه وأمارسه، وأنّ جدِّي يتصرف أحياناً تصرف من لا دين له! لقد ذهبت أمي ولكنها أورثتني دينها ومأساتها، وسوف يرسبان في جانب من نفسي طويلاً، ربّما أطول مما تصوّرت.

وأغدق جدِّي عليّ حبّه وحنانه وهو يتابع نجاحي وتقدّمي، قال لي:

- يا جعفر، أراك جديراً بتجديد شباب شجرتنا المباركة!

وقال لي:

- سيرٌ متأبطاً ذراع الحكمة وافعل ما تشاء.

وقال لي أيضاً:

- مبارك من يتحلّى بوحى الله، وأمام المجتهد وسيلة ليتبوأ العرش!

وفي نشوة من التفاؤل قال:

- خطواتك في النجاح مباركة، وسوف تدخل

الأزهر الشريف عمّا قريب، ألا يسرك ذلك؟

فأجبتة بإخلاص:

- يسرّني جدّاً يا جدّي، وأودّ بعد ذلك أن أسافر

إلى أوربّا...

فتجلّى الاهتمام في عينيه وسألني:

- ما الذي جعلك تودّ ذلك؟

- أسوة بما فعل أبي!

فمسح على لحيته البيضاء وتمتم:

- عليك أن تتحلّى بوحى الله ثمّ افعل ما تشاء...

فتردّدت قليلاً ثمّ سألته:

- إنك مخطئ في تصوّرك، إنّي أرى الإنسان نوعين: إنسان إلهي وإنسان دنيوي، الإنسان الإلهي هو من يعايش الله في كلّ حين ولو كان قاطع طريق، والدنيوي هو من يعايش الدنيا ولو كان من رجال الدين...

- وهل كان أبي سيّئاً؟

- كان دنيوياً فحسب...

- كانت أمي طيبة ونبيلة...

فتمتم:

- فليرحمها الله!

ثمّ واصل بعد هنيهة:

- لم أخطئ ولم أندم ولكنّي حزنت طويلاً...

كنت متأكّداً من حزنه، لولا حزنه الدفين ما لان قلبه لي، وقال لي:

- لقد فتحت لك قلبي وبيتي، سيكون كلّ شيء لك، ولكن عليك أن تكون إنساناً إلهياً، إنّي لا أدعوك للزهد فإنّ عملي الأوّل هو إدارة الأملاك...

ورتب لي منذ أوّل يوم مدرّساً يعلمني مبادئ الدين واللغة والحساب. لقّنت مبادئ دين جديد غير الدين الذي تلقّيته على يد أمي، دين المغامرة والأسطورة والمعجزة والحلم والشبح، أمّا هذا فدين يبدأ بالتعلّم والجدّيّة، حفظ سور وشرحها، إلمام بالقواعد، ممارسة للصلاة والصيام، دين نظري وعملي، ومدرّس جاد يرفع التقارير لجدّي أسبوعاً بعد أسبوع. ولم يخف المدرّس رضاه عني فقال لي:

- أنت ولد مبارك، ولتيمّ الله نعمته عليك...

كنت قويّ الحافظة، حسن الفهم، محباً للعمل، ومارست الصلاة بسرور مؤثماً بجدّي كما مارست الصيام، ولم يُسنني ذلك ديني الأوّل، فتراكم الجديد فوق القديم، ولم يسكت صوت أمي المتردّد في أعماقي، وقد قال لي المدرّس في أثناء مناقشة:

- الضريح مبنى من المباني والوليّ جثمان...

فقلت بإصرار:

- بل لكلّ شيء حياة لا تفتي أبداً.

فابتسم الرجل وقال:

- فلنترك خلافاتنا للزمن وللمزيد من العلم.

## قلب الليل ٦١٧

- ووقفت أمامه في أدب، ابتسم، تتمم:
- ما هذا؟... صوتك لا بأس به يا جعفر...
- فأحنيت رأسي في رضى وبركة، سألتني:
- ماذا تغني أيضًا في خلوتك؟
- فأجبت:
- أغنيات من العهد القديم.
- مثل ماذا؟
- فترددت قليلاً ثم قلت:
- عصفوري يا أمة عصفوري.
- فواصل ابتسامه وقال:
- ها أنت تحفظ هنا أناشيد مباركة.
- ومضى يتفقد الحديقة وقد بدا جليلاً مضيقاً.
- وفي أوقات الفراغ كنت أجلس إلى بهجة لتحكي لي الحكايات، أو أغني، أو ألعب في الحديقة مع الحمار، وأحياناً ألعب أبناء البستاني والسطاهي وسواق الخنطور، وطيلة الوقت أنتعش للانطلاق في الحارة، وهل يمكن أن أنسى رحلاتي المتواصلة في حوارتي القاهرة تشدني يد أمي؟ وصارحت جدي برغبتني في الخروج فقال لي:
- اركب معي الخنطور في نزهة المساء.
- أريد أن ألعب في الحارة.
- أليست الحديقة أجل من الحارة؟
- فقلت بحرارة:
- أريد أن ألعب مع الأولاد في الحارة.
- فهز رأسه مستسلاً وقال:
- بشرط ألا تغيب عن عين بهجة وألا يفوتك ميعاد صلاة.

هكذا خرجت إلى الطريق الذي منه جئت. وكانت بهجة تجلس على كرسي أمام الباب لترعاني من بعيد، وسرعان ما عرفت أولاد الجيران، وفي مقدمتهم ابن لسواق سوارس يدعى محمد شكرون، كان حسن الصورة رغم ضخامة أنفه وعرجه، دعاني أول يوم إلى مسابقة في الجري، وجرى بأسلوب مضحك ويعناد، وبين آونة وأخرى كان يثب وثبة شيطانية يقطع بها مسافة خيالية متحدثاً بضعفه الطبيعي، وكان لطيفاً وصریحاً فبعد أن تقرّر له الفوز

- أكانت خطيئة أبي الوحيدة أنه تزوج من أمي؟ فتجهّم وجهه وقال بحدة:

- ما مضى قد مضى.

وأغمض عينيه كأنما ليفرغ شحنة احتداده ثم قال:

- لقد شرحت لك ولكنك لا تريد أن تفهم!

قلت لك إن وجهه تجهّم ولكن ما رأيته كان أفظح من ذلك، لم تكن لحظة عابرة، ولكنه تصوّر في صورة جديدة وخفيفة، تمجّرت نظرتة وشدّت عضلاته وتغيّر لونه فخيّل إليّ أنّي أرى شخصاً لم أراه من قبل، عدوّ منطلق من بركان حاملاً غضب الأرض، قل إنّه الصاعقة أو الموت نفسه، ولكنها كانت لحظة عابرة خاطفة ثم عاد جدي إلى مجلسه. عدا ذلك لم أجده قاسياً ولا مخيفاً ولا ثقيلاً، كانت الإنسانية عبيره والحبّ إشارته حتى عزّ عليّ أن أصدق أنّه فعل بأبي ما فعل، وكثيراً ما قلت لنفسي لعلّه كان يضمّر الغفران ويتحين الفرص ليصدر عفوه لولا أن عاجلت المنية أبي في عزّ شبابه، وحتى بعد لحظة تجهّمه المخيفة حدست في قوله «ما مضى قد مضى» ألما أثارته الذكرى وندماً يصرّ على مطاردته، ولعلّ عذابه ناشئ عن مثاليته المفرطة، فهو يطالب الإنسان بالسموّ والتطهّر والكمال، وباعتناق رؤياه في الوجود، ويحتقر الضعف وما يراه انحلالاً وتدهوراً في التكامل البشري، هكذا اقتنعت بأنّ الطريق إلى حنانه واضح ومستقيم ولكنه حافل بالجهد والصبر والعرق، والقوة والتقدّم والسموّ، وهو ما عناه بقوله «الإنسان الإلهي».

وفي المواسم كان يجتمع الزوّار للاستماع والطرب فتغرد الحديقة بالأغاني الصوفيّة ترددها الحناجر الذهبية الذائعة الصيت، وكان جدي من عشاق الطرب، وله فيه ذوق يستوي في مكانه من نفسه الغنيّة بشقّي الاهتمامات الدينيّة والدنيويّة، وكنت أتابع الأناشيد ساهراً حتى الفجر وأنظر تلك السهرات بلهفة المحبين، وقد ضبطني مرّة وأنا أغني:

أدر ذكر من أهوى

كنت مفترشاً حصيرة تحت شجرة ليمون وأردّد الغناء مقلّداً الشيخ فانتبهت إلى ظلّه وهو يغطني وأمسكت عن الغناء في غاية من الارتباك والحياء،

قال لي:

- إنك حفيد الشيخ الكبير وعلى من كان غنياً  
مثلك أن يشتري لنا اللبن الأحمر والسويبا...

ولما أكل وشرب انبسط وراح يغني:

من فوق شواشي الجبل باسمع نغم بالليل  
عشق البنات البكارى هذ مئي الحيل

من فوق شواشي الجبل

وإذا به يملك صوتاً عذباً يهز النفس هزاً، وأدركت  
لتوحي أنني لا أستطيع منافسته، ولكنني رغم ذلك  
غنييت ما حفظته من غنائه، فتكرّر على مسمعي ما  
سبق أن قاله جدّي لي، قال:

- صوتك لا بأس به!

فقلت له:

- صوتك جميل حقاً يا شكرون.

فقال في مباهاة:

- ستسمعي يوماً مطرباً من المطربين.

سرعان ما أتمدت علاقتنا في صداقة وطيدة، تميّزت  
وسط العلاقات السطحية الكثيرة عاطفة راسخة  
وعميقة، وكان الغناء محور اجتماعنا وبخاصة في ليالي  
رمضان الساهرة، ومن ناحيتي دعوته لشهود سهرات  
الطرب الديني في بيتنا فسراً لذلك سروراً لا مزيد  
عليه، وأبهجه أن يسمع أقطاب المنشدين وأن يدرس  
عن قرب مهاراتهم الغنائية وخواصهم الصوتية  
وقدراتهم في التطريب والتأثير، وتجلّى ذلك في انفعاله  
العنيف الذي بلغ حدّ العشق والوله، ودفعه ذلك  
لاقتحام وقار المجلس بجرأة فاقت كلّ تصوّر، فما كاد  
المنشد يجتمّ وصلة حتى قام محمّد شكرون من مجلسه  
إلى جانبي وراح ينشد بصوته الحسن:

أهلاً ببدر التّم روح الجبال

فجذب الأسباع بحلاوة صوته وحدائه سنّه، وعمّت  
شهرة الحاضرين من منشدين ومدعوّين، حتى جدّي  
لم يخف إعجاب به، وكان بين الحاضرين شيخ يدعى  
طاهر البندقي، صوفي وملحن وأستاذ في الموسيقى  
الشرقية ومن أقرب المقربين إلى جدّي، فأعجب  
بشكرون جدّاً وجاذبه الحديث طويلاً، حتى عرف  
أصله وفصله وأماله، لهذا هو سحر الغناء والجنّ

يطربون لنا ونحن نظرب لهم، وقد زعم بعض أهل  
مرجوش أنهم كانوا يسمعون غناء مطرب من الجنّ  
قبيل الفجر...

فقاطعته برجاء:

- دعنا من الجنّ، نحن الآن في بيت الراوي، ثمّ  
إنني مؤمن تماماً بأنك لا تصدق شيئاً من ذلك...  
- الذكريات تنهمر كالمطر.

- هي دائماً كالمطر ومهمتك أن تصنع جدولاً  
صافياً...

فتهدّ ثمّ واصل:

- زار الشيخ طاهر البندقي جدّي عقب أسبوع من  
مغامرة شكرون وأطلعته على خاطرة خطرت له وهي أن  
يعلم محمّد شكرون الموسيقى الشرقية ويدرّبه على  
الغناء فوافق جدّي على ذلك بسرور، وتعهّد بأداء  
نفقات التعليم والتدريب، وثبت عندي من ذلك حبّ  
جدّي العميق للغناء والموسيقى، وأنها عاطفة مستقلة  
بذاتها عنده وليست تابعة لتديّته فحسب، وقد قلت له  
عندما أخبرني بما قرّره بخصوص صديقي:

- إنك تحبّ الغناء يا جدّي!

فابتسم متسائلاً:

- لم لا؟... إنه صديق الروح الحميم...

- وهل سمعت يا جدّي كبار المطربين؟

- نعم، في بيوت الأصدقاء في المناسبات السعيدة.  
ولم يكن إنفاقه على شكرون إلّا مثلاً من إنفاقه على  
المحتاجين من أهل حيننا.

\*\*\*

فقلت تلقائياً:

- وتوجّ ذلك بوقف أملاكه كلّها للخير!

فصاح جعفر:

- أمّا ذلك فلا، لا خير في خير يقوم على شرّاً

- اعتذر عن المقاطعة...

- اعتلّز عن رأيك وهو الأهمّ.

- اعتذر.

نفخ غيظه وواصل حديثه قائلاً:

- أصبح محمّد شكرون تلميذاً للشيخ طاهر  
البندقي، وأناه الحظّ عبر صداقتنا الوطيدة، وكنت أنا

## قلب الليل ٦١٩

- كنت حسن الصورة حقًا...  
 - كنت حسن الصورة، حسن السريرة، شريف  
 الآمال، وقد دخلت الأزهر في طور المراهقة مدعماً بقوة  
 إنسانية منورة، كأني أمير سهاوي، لأجد نفسي في بيئة  
 شعبية أصيلة أنهكها الفقر والتشّيف والأسى، ولا  
 تيسر لها الإنسانية الحقة، إلا في الجسد الصارم  
 والاجتهاد المتواصل وتحصيل العلم بلا هوادة، عرفت  
 العديد من الأقران، وصادقت كثيرين، وقد ذكروني  
 بشعبيّتهم وخرافاتهم بمرجوش وبيد أُمّي وبأصلي  
 المأساويّ الأصيل، فأحببتهم رغم كل شيء، وكنت  
 أدعوهم للعشاء مساء كل جمعة في بيتي، وطيلة شهر  
 رمضان كانت نخبة منهم تظفر معي وتتسخر معي وفيما  
 بين الإفطار والسحور كنتا تُمضي الوقت في المذاكرة  
 والمناقشة، وبذلك اكتسبت مكانة فريدة لا تتأق عادة  
 لطالب، ولاحظ جدّي سروري بذلك فقال لي:

- إياك والخيلاء، املا قلبك بحبّ هؤلاء الفقراء  
 الأشراف، واذكر دائماً نعمة الله عليك...  
 ولكنّ تفوّقي كان يزكيني دائماً عنده، فشيخ التوحيد  
 أثنى عليّ عند جدّي، كذلك أستاذ الفقه والنحو،  
 والمنطق، حتّى سرّ جدّي وقال لي:

- ستكون شيخاً ممتازاً.  
 ثمّ مستدرّكاً:  
 - الأهمّ من ذلك أنّك تمضي في طريق النقاء  
 بخطى ثابتة...  
 وقلت لجدّي:  
 - أريد أن أهب حياتي للدين، لا أدري كيف،  
 ولكنّني غير متحمّس لأيّ عمل كالوعظ أو التدريس أو  
 غيرهما...

- لا أهميّة لذلك ألبتّة، ما يهمني هو إرادتك  
 النقيّة، هو إيمانك وحبّك للدين، بعد ذلك ستجد أنّ  
 كلّ كتاب هو كتاب دين، وكلّ مكان معبد سواء في  
 مصر كان أم في أوربّا، وسييسر الله لك سبيل الحكمة  
 لتكون ممن يجودون بالحكمة، بالكلمة أو بالفعل،  
 وهذه هي الحياة الإلهيّة...

استثار ذلك حماسي لأعلى الدرجات، وكنت أنقذم  
 مترع القلب بالإيمان والقداسة، أسثضيء بمثل جدّي

البوّاب الذي فتح له باب النجاح، وقد سررت لذلك  
 سروراً بالغت فيه أمام جدّي، ولكنّه نظر إليّ بارتياح  
 وسألني:

- هل يمازج سرورك شيء من الغيرة؟  
 فنفتت ذلك بشدّة ولكنّه قال باستياء:

- الغيرة رذيلة لك عليها في مثل سنّك عذر أمّا  
 الكذب فلا عذر لك فيه، لا تكذب يا جعفر، كن  
 دائماً صادقاً، لا تُغضب جدّك فهو يحبّ النقاء، وقد  
 وهبك الله عقلاً راجحاً كما وهب صديقك صوتاً عذباً  
 فانعم بما وهبك ولا تنغص صفوك بما تفتقد، ولو كنت  
 ذا استعداد للغناء ما ساءني أن تصير مطرباً، فالمطرب  
 أيضاً يستطيع أن يكون إنساناً إلهياً، من رحمة الله أنّ  
 كلّ شخص يسعه أن يكون إلهياً حتّى الزبّال، أمّا أنت  
 فعليك أن تستعدّ لدخول الأزهر...  
 فقلت بصدق:

- أعزّ آمالي يا جدّي أن أوفّق في حياتي الدنيويّة...  
 لا أنكر أنّي شعرت بشيء من الغيرة، وأزعجني أن  
 يقتحمني جدّي بقدرة خارقة على قراءة ما في الصدور،  
 ولكنّني على أيّ حال شعرت بشيء من الغيرة، ها هو  
 شكرون يتفوّق بموهبة لا حيلة للاجتهاد فيها، وها  
 أنا أعاني تناقض العواطف في رحاب القلب المعذب.  
 على أنّ أحلامي حامت حول الدين والحياة الدنيويّة،  
 وشعرت شعوراً مبهمًا بأنّ رسالة ما تنتظرن في هذا  
 المجال المقدّس فتطلّعت إليها أشواقني من الأعماق، ولم  
 تغب عن خاطري التركة الكبيرة التي سارثها ذات  
 يوم، عزبة المرج والعمارات والأموال السائلة، ولم يكن  
 العمل يهمني، ولكنّني حلمت بالرسالة، والجلوس فوق  
 أريكة جدّي أستقبل الرجال، رجال الدين والدنيا،  
 نناقش جميع الأمور الهامّة، ونطرب مع المطربين في  
 أوقات الفراغ.

\*\*\*

قلت مقاطعاً:  
 - إليّ أتدكر المغني الأعرج كما أتدكرك في الجبّة  
 والقفطان...

فسألني مباهياً:  
 - ألم تر بنفسك أنّ الله خلقني في صورة حسنة؟

جيلات ولا مغريات وأكثرهن لا يخلين من رمق يزكهن  
عند مراهق مكبوت، وكنت أرى النساء في الشارع في  
ثياهن المحتشمة غاية في الإثارة، وكان النضال بين  
ضميري وغريزي لا يكف ولا يهدأ، غير أنني تغلبت  
على الإغراء بقوة تستحق الإعجاب، وكان تشوفي لله  
فاق كل شيء وهزم الشيطان في معاقله جميعاً.

أجل لاحظت بهجة نظراتي نحو زميلاتها فجزعت  
وتوسلت بمنزلة الأمومة التي احتلتها من نفسي  
لتصارحني بمخاوفها:

- لا تعرض نفسك للهوان، جدك يعتبر جميع ما في  
البيت امتداداً لشخصه، والمساس بأي منها مساساً  
بذاته المصونة، وقد نعمت حتى الآن برضاه ووجدته  
بلا شك نعمة تستحق الحمد عليها ولكن لجدك جانباً  
آخر يسكنه الغضب فتجنبه وأنت خير من يفهم ذلك.  
فتمتت بذهول:

- أبي!

- أجل، وأنت مؤمن، وصلواتك عبادة حقيقية، لم  
لا تفكر في الزواج وجدك كفيل بتزويجك من فتاة تحق  
أحلامك وزيادة؟

فقلت بدهشة:

- لم أفكر بذلك واعتقد أن الوقت المناسب لم يحن  
بعد كما أنني أكره فكرة الزواج كبديل للخوف من  
الخطيئة!

- أنا لا أفهم أفكارك ولكن إذا أردت مساعدة فلأي  
رهن إشارتك.

وقد علم محمد شكرون بذلك الحديث، وكان على  
علم بأزمي ونضالي، وكان يعجب لها، وطالما قال لي:  
- تعال معي إلى بيوت العوالم فثمة فرص فريدة،  
وما عليك إلا أن تغير ملابسك الدينية في بيتي...

ضحكت طويلاً، ورفضت أي فرصة ممنوحة  
بكبرياء واعتزاز بالنفس، وأسعدني أن أتألم في ذلك  
الطريق وأن أنتصر على المي، وكنت أقول لنفسي:

- طوبى لي، إنني أنتصر كل يوم مرة على الأقل على  
الشيطان وإنني جدير حقاً بمستقبلي الطاهر...

وفكرت بأمور جديدة لأول مرة فسألت بهجة:

- متى ماتت جدتي؟

في الحياة، بحياته الجميلة الغنية التي عاشتها في  
قصره، بأصدقائه ومناقشاته وطريه.

ولكن كانت تمر بي ساعات سوداوية، تتسلل إلي  
من مكانها فتغير مذاق الحياة، وتغشاني سحب  
الذكريات السود، فأفكر بحياة النبي التي عاناها أبي،  
ومأساة أمي ذات التاريخ الغامض المجهول، وعند  
ذاك يشور غضبي على جدتي، وأحاسبه في الخيال  
حساباً عسيراً، ويتبدى لي شيطاناً في ثوب ملاك،  
وأقول ما هو إلا رجل من الأعيان يستمتع بكل طيب  
في الحياة ويزعم أنه قدس إلهي...

ولم أجد من أفضي به إليه بهواجسي إلا محمد  
شكرون.

نان بدأ يشق طريقه بصعوبة في ميدان مزدحم  
بأصحاب العروش من كبار المطربين والمطربات.

وكان يحب جدتي ويحفظ له جميله ويقول عنه:

- إنه النبيل ابن النبلاء، لا نظير له في خلق الله  
فأسأله:

- وما رأيك في موقفه من أبوي؟

فيقول لي:

- علاقة الأب بابنه علاقة غامضة بالرغم من  
وضوحها السطحي، أحياناً يتدقق منها الحنان وأحياناً  
تتجمد بالقسوة، عرّجني هذا الذي تراه ما هو إلا  
عاهة صنعها أبي في ساعة غضب، أما أخلاق الرجل  
الحقيقية فتقيم على ضوء علاقته بالآخرين...

وطبعاً لم أقتنع بتلك النظرية وقلت:

- إن أخلاق الرجل - أي رجل - وحدة لا تتجزأ.

على أن تلك الساعات السوداوية كانت تحيء  
كأحوال عابرة لا آراء ثابتة، وسرعان ما يعود إلى  
صفاء النفس والرؤية الواضحة، أما أزمة تلك الفترة  
الحقيقية فكانت أزمة جنس، أزمة المراهق المشوّف إلى  
القداسة ونزاعه الدائم مع غرائزه القوية، وعادوني  
كثيراً ذكريات السخارة والبنت التي باتت الآن مجهولة  
تماماً، وتعبت كثيراً كيف أن جدتي يناقشني في كل  
خاطر تخاطر على أنه يتجاهل المعركة الحقيقية الناشئة في  
صدري، وكان في بيتنا ثلاث نساء - بالإضافة إلى  
بهجة العجوز - في الحلقة الخامسة من أعمارهن، لسن

قلب الليل ٦٢١

- ماذا حدث يا جعفر؟  
فالتفت نحوي قائلاً:  
- إني أتساءل أيضًا عما حدث...  
- ماذا تعني؟  
- بكلّ إيجاز لقد نظرت إلى عيني الفتاة فافتحمني الجنون الكامل...، ولكن لندع مناقشة ذلك إلى حينه، سأصف لك الآن ما وقع، لقد شعرت بأنني متّ وبأنّ شخصًا جديدًا يُبعث في مكاني، وسوف تصدّق أنّه شخص جديد بكلّ معنى الكلمة، لا علاقة له بالشخص الميت، شخص جديد ثمل، يفيض قلبه بالأشواق والقدرة الخارقة على التحدي والالتحام، وسمعت محمد شكرون يقول لي:  
- متى تواصل السير؟  
وراقبني بحدة ثمّ تمتم باسمًا:  
- إنّها راعية غنم!  
فقلت وأنا ألث: - بل إنّه القدر...  
- فيم تفكر؟  
- لا بدّ من معرفة مقرّها...  
- حسن ولكن لا تنس العمامة فوق رأسك!  
قوة أخرى غير إرادتي تسلّمت زمامي، سرنا وراء القافلة، اخترقنا النحاسين فالحسينيّة، ثمّ رأيت العباسيّة فالوالبليّة، لم أشعر بتعب، لم أرحم عرج صاحبي، سرت بقوة الجنون والسكر وتفجّرت في قلبي ينابيع المغامرة بلا حدود، وتتابع أحوال محمد شكرون وشكاياته:  
- ساعك الله...  
- ماذا حلّ بك؟  
- البنت منتبهة إلى متابعتك لها...  
- إنهم حجر وأفطع من الشياطين...  
- قل لي بالله ماذا تريد على وجه الدقّة؟  
أخيرًا رأينا القافلة وهي تدخل معسكر عشش الترجمان وشعاع الشمس يتقلّص من ساحتها الرهيبة لينطوي في شفق المغيب، مودّعًا أكواخها المصفحة وأناسها المتوحّشين وطابع البداوة والنفي الذي يفصل بينها وبين المدينة، وتوقّف محمد شكرون ممسكًا

- فترحمت عليها قائلة:  
- منذ حوالي عشرين عامًا.  
- أكان لمأساة أبي دخل في ذلك؟  
- الأعمار بيد الله وحده.  
- ولمّ لم يتزوج جدّي بعدها؟  
- هذا شأنه.  
وتساءلت ترى هل كان لجدّي حياته الجنسية الخاصة؟... وارعدت لغرابة الفكرة وقلت لنفسي إنّه سيقراّ خواطري في عينيّ كالعادة وسرعان ما تقع مأساة جديدة، وقلت لنفسي أيضًا إنّ جانبًا من نفسي يتعقّب جدّي بالانتقام وإنّ حبيّ له ليس خالصًا تمامًا، وإنّي لا أريد أن أنسى تمامًا مأساة والدي، وأي ذلك أنني ما زلت ألحّ على بهجة حتّى اعترفت لي بأنّ أمي كانت ابنة دلالة تتردّد على بيتنا، وسألتها إن كان عُرف عنها أو عنهما شيء من سوء فأجابت بالنفي وقالت لي صراحة:  
- جدّك لا يعترف بالناس المجهولين!  
فقلت بامتعاض واحتجاج:  
- ولكنّ الناس جميعًا إلّا ما ندر مجهولون...  
إلّا أنّه يحلم بعالم من البشر الإلهيين على حدّ تعبيره، أفلم يظن إلى قسوة حلمه؟  
وقرّرت أن أصوم رجب وشعبان ورمضان كلّ عام، ومضت الحياة في جدّ واجتهاد وطهارة، وكان جدّي يتابعني باهتمام وارتياح مغممًا:  
- ما شاء الله العظيم...!

٥

كنت أسير بصحبة محمد شكرون في أطراف الدراسة عندما أقبلت علينا قافلة من الأغنام تقودها امرأتان. تنحّينا جانبًا لنوسع للقافلة، رأيت المرأتين، وهما أمّ وابنة غالبًا، صورة واحدة متكرّرة، ترتدي جلبابًا أسود، متمنطقة بزئار، حافية القدمين، متلّفة بشال أسود، وبرقع فضفاض تطلّ من فوق حافته العينان، وباليد مغزل.

\*\*\*

وانقطع عن الكلام مليًا حتّى سألته:



- المنطق .
- بدراعي وهو يقول:
- لا خطوة بعد ذلك فليس ثمة مكان لغريب . . .  
وتأوه مستطرذاً:  
- لقد دميت أقدامنا . . .  
فقلت من عالمي الوجدانيّ البعيد:  
- لقد ودّعتني بنظرة حيّة قبل اختفائها . . .  
- مبارك عليك . . .  
ثمّ توّسل إليّ قائلاً:  
- لنستقلّ سوارس في عودتنا.  
ولم يفارقني شكرون ليلتها فسهر معي حتّى منتصف  
الليل في البيت، وجعل يتأملني طويلاً وكأنّه لا  
يصدّق، وسألني:  
- ماذا دهاك؟  
فقلت له بأسى:  
- ما تراه بعينيك .  
- لا أفهم . . .  
- ليكن، إني مجنون بالبت . . .  
- أيجدث ذلك بهذه السرعة؟  
- لقد حدث .  
- ولكتّها راعية ومن بيته شريرة .  
- إنّه القضاء لا مفرّ .  
ومضى يفكر قائلاً:  
- كيف يمكن إغراءها؟ . . . هل لمن استعداد  
لذلك؟ . . . كيف نعمل مع تجنّب الفضائح؟ . . .  
وما العمل إذا تحدّانا المستحيل؟  
فقلت بإصرار لا نهائيّ:  
- بأيّ حال من الأحوال أريدها . . .  
وجعلت أمضي الأصيل عند مشارف الدراسة، مع  
صديقي أو مع نفسي، جالساً على حجر، من حولي  
ترعى الشاة والماعز والجلدي، على حجري كتاب  
المنطق مفتوحاً، وعياني تسترقان النظر إليها وهي  
جالسة لصق أمّها وهما تغزلان، وكان المكان شبه خالٍ  
لا يمرّ به إلاّ المتشرّدون وهم راجعون إلى المقطم،  
وعندما تميل الشمس نحو المغرب تمضي القافلة في  
رحلتها اليومية مخلّفة في قلبي كآبة وفراغاً لا يملؤه شيء  
فأذهب إلى الجامع لأصليّ المغرب ثمّ أحضر درس
- وقرّرت أن أخفي كوباً في جيب قفطاني .  
وعندما جمعنا الخلاء اقتربت من الأمّ وقدمت  
الكوب طالباً حليماً فوثبت مروانة - كما سمعت أمّها  
تناديا - إلى ماعز وراحت تحلب لي اللبن ثمّ ردّت إليّ  
الكوب مغطى بالحجاب فتناولته وأنا أقول لها:  
- عاشت يدك يا مروانة . . .  
فابتسمت لي عيناها على حين نظرت الأمّ نحوي  
بارتياح وأنا أشرب اللبن، ثمّ تمتمت:  
- هنيئاً!  
فشكرتها فقالت لي بلهجة ذات معنى:  
- أنتم يا شيوخ رجال ربّنا .  
فقلت بامتنان:  
- الحمد لله .  
سعدت بإنشاء العلاقة وتبادل الحديث وشملتني  
غبطة سابعة حتّى لحظة الفراق .  
ومن موقع المراقبة قال لي محمّد شكرون:  
- لقد تمحّرت بما فيه الكفاية، وأقول لك إنّ أولئك  
الناس مع كلّ شرّ إلاّ الشرّ الذي يسيل لعابك  
عليه . . .  
فقلت له باستهانة:  
- سيخرج من القمقم مارد لن تعرفه مهما ادّعت  
بأنك كنت له صديقاً .  
ولم يقدر ما في قولي من ثورة، لم يعرف أنّني  
أصبحت ملك الملوك وأنّني أفعل ما أشاء بغير  
حساب، وأنّني سكران بفورة الجنون الأحمر .  
وربط كوب اللبن بيننا برباط حريريّ قاتل، ومن  
شدة نشاطها لمست أناملها وأنا أتناول الكوب، وقلت  
لها:  
- أنت كريمة يا مروانة!  
فحبكت الخمار حول رأسها وهي ترمقني بشيطنة  
فقلت وأنا أذوب في كلامي:  
- ما أجمل عينيك!  
وقلت أيضاً وهي تمضي:  
- ما أحجىء هنا إلاّ من أجلك!  
وكفّمت الأمّ عن الغزل وقامت. تناولت حصاة من

قلب الليل ٦٢٣

فواصل قائلًا:  
 - وذات يوم دعاني جدّي إلى مجلسه، سمح لي بالجلوس ثمّ سألني:  
 - كيف حال دراستك؟  
 أدركت لتوّي أنّه دعاني لأمرٍ آخر إذ إنّ شيوخنا كانوا يبلغونه عن تقدّمي الفريد أوّل فأول، وعلى ذلك أجبته بأنّي عند حسن ظنّه فقال:  
 - ولكنّ الطريق طويل وهو مليء بالمتاعب...  
 فقلت بحماس ظاهريّ فحسب:  
 - المؤمن لا ينجس الطريق...  
 - قول حسن ولكنّ الفعل الحسن أهمّ من القول الحسن.  
 - هذا حقّ.  
 وترتّحت لحظات ثمّ قال:  
 - ثمة أمور تدعو للتأمل، وقد حلمت حلمًا، وعند اليقظة عقدت العزم على شيء...  
 - وما الحلم يا جدّي؟  
 - لا أهميّة لذلك، والأحلام تُنسى بسرعة، ولكن بقي ما عقدت العزم عليه.  
 - أهو يتعلّق بي يا جدّي؟  
 - أجل، وسوف يسعدك...  
 - حقًا؟  
 - قرّرت أن أزوّجك من بنت الحلال.  
 ذهلت، صمّمت، قلت لنفسي إنّ الرجل عالم بكلّ شيء، كيف غاب عني أنّ جولة مسائيّة غريبة يقوم بها حفيد الراوي لا شكّ تلفت الأنظار وتثير التأويلات ثمّ يتطوّر بإبلاغها إليه المتطوّعون، إنّهُ عالم بكلّ شيء ويحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه.  
 - ماذا بك يا بنيّ؟  
 - لم يخطر لي ذلك ببال.  
 - فليخطر إذن...  
 - ولكن...  
 - إنّ الشباب يمضي بلا زواج لأسباب قهريّة وقد حباك الله بنعمته فما معنى أن تؤجّل ما يُعتبر نصف الدين؟  
 - دعني أفكر في الموضوع بعض الوقت!

الأرض ورمتها بعيدًا صوب الجبل. ورأيتي أنظر إليها متسائلًا فقالت:  
 - وسيلة حكيمة لصدّ الزواحف والحشرات...  
 فقلت بارتياح:  
 - الله خير حافظٍ...  
 فقالت بحزم:  
 - ولكن علينا أن نخاطب الشرّ بلغته...  
 \* \* \*  
 وضحك وقال لي:  
 - صدّقني فيما أقول، كلّهُ، وبلا تردّد، لا تتأثر بمنظري الراهن، إنّ من يراني يؤمن بأنّي ولدت في مزبلة ولم أمارس إلّا انفعالات القبيّ، ولكن ما فكرت عن الحبّ؟  
 فقلت مبالغًا بصعوبة السؤال:  
 - الحبّ هو الحبّ، إنّي أصدّق جميع ما يقال عنه...  
 - وتؤمن بأنّه يصنع المعجزات والمعائب؟  
 - أجل، لست غرًا، ولكن حدّثني عن حبّك يا جعفر، عن نوعه، راعية غنم حافية الأقدام قد تشعل الدم...  
 - كان كذلك، نداء للدم، نداء صارخ دافع للحركة، مغرٍ بالجنون والمهالك، يقتحم الأبواب والنوافل ويرتكب الجرائم ويتشحر...  
 فقلت بدهشة:  
 - ولكنك كنت وليًا من أولياء الله الصالحين.  
 - لكي تعيش تجربتي تصوّر أنّك فقدت الذاكرة فجأة وأنت أصبحت شخصًا جديدًا.  
 - ولكنّ الفرد يتغيّر بالتدرّج فيما أتصوّر.  
 - كلاً... كلاً... إنّي أتغيّر من النقيض إلى النقيض... فجأة...!  
 - لا شكّ أنّه يحدث في الظلام أمور كثيرة بعيدة عن وعيك.  
 - الإنسان يخلق المنطق ولكنّه يتجاوزه في حياته، والطبيعة يا عزيزي تستعمل الطفرة كما تستعمل التطوّر!  
 - هات ما عندك يا جعفر.

- مَنِي الْجَدِّ كُلَّ الْجَدِّ سَأَلَنِي:
- هل ترفض حقًا ما عرضه جدك عليك من أجل مروانة؟
- فأجبت بالإيجاب:
- أتترك البيت من أجل راعية الغنم؟
- نعم.
- ما معنى ذلك؟
- اعتبرني مجنونًا إذا شئت.
- ألا تخشى أن يحرمك ميراثك وتجد نفسك شحاذًا؟
- هذا محتمل.
- لا تستحق امرأة تضحية بهذه الجسامة. فهزرت منكبي استهانة فقال:
- أنا لا أفهمك.
- المسألة لا تتعلق بالفهم، إنها واقع.
- وما تفسيره؟... هل ثمة سر؟
- إنه جنون باهر وأنا مسحور به.
- صبرك، يمكن التوفيق.
- إنني أحتقر التوفيق.
- يمكن أن تبقى في رعاية جدك وأن تواصل دراستك وأن تمارس حبك الجنوني... .
- كلاً... كلاً... إنها أشياء متنافرة جدًّا، وقد اخترت... .
- اخترت ماذا؟
- سأهجر البيت والأزهر... .
- لا ضرورة لذلك.
- بل ضروري جدًّا، إنها حياة جديدة... . وإلا طردت من الاثنين... .
- عين أصابت هذا الشاب!
- لا بقاء في بيت جدِّي إلا لإنسان إلهي... . أما الأزهر فأنتي ما وددت مهنته قط... . والإيمان لا يحتاج إلى جميع تلك التعقيدات... .
- ليتك كنت تهجر ذلك لشيء أفضل... .
- المغامرة أفضل... الجنون أفضل... .
- فقال بإصرار:
- لن أفهمك ما حييت.
- سأختار لك عروسًا فريدة وسأترك الحكم لك! رجعت إلى حجرتي هائجًا فلم يغمض لي جفن حتى ترامى إليّ أذان الفجر. شُحنت بقوة جبارة وأردت أن أنهال على الجدران فادكها دكًا، انطلق المارد متحدبًا، صمّم على نيل فتاته ولو على أنقاض الحيّ كلّه لا القصر وحده؛ وناجيت أبي وأمي طويلًا، وثار غضبي على جدّي بلا حساب، إنه لا يريد أن يكفر عن جريرته وما زال غرامه عنيفًا بالتسلط والقهر. وفي حومة الأفكار المتضاربة نشب الحوار بيني وبين جدّي، في حلم أو في هذيان الليل أو بين النوم واليقظة لا أذكر.
- جدّي... إنني أرفض.
- ترفض نعمتي؟
- أرفض القهر.
- ولو كان مني؟
- ولو كان!
- أنت عاق، تخون الجرم والنقاء، في سبيل ماذا؟
- الحرّية!
- راعية الغنم.
- الدم والتشرّد والهواء النقي.
- إنه الجنون الذي يخرج به المسوسون من بيتي العتيق.
- النعيم الحقّ في الجنون.
- إنك ابن والديك.
- وإنني أعتزّ بذلك إلى الأبد.
- نصفك يودّ الانتقام مني.
- لا أريد أن أفكر فدعني أفعل.
- والحبّة والقفطان؟
- سأخلعهما من توي.
- إذن كفرت؟
- لا أريد الدين مهنة.
- ماذا تريد أن تفعل؟
- أريد أن أمارس الحبّ والجنون والقتل!
- أعتقد أنني عبّرت بهذا الحوار عن الحال التي كنت أعانيها تعبيرًا كاملًا، وعندما أفضيت بأسراري إلى محمّد شكرون ذهل تمامًا ولم يصلّدق أذنيه، ولما وجد

## قلب الليل ٦٢٥

- هذا ضروريّ واعتمد على صداقتي لسفاسرة  
الحفلات الدينيّة، لا أصدّق ما تتفق عليه فإنه يبدو  
خيالاً، وما زلت مصرّاً على أنه يمكن معالجة الأمر  
بصورة أخرى.

فقلت بإصرار:

- لا رجوع إلى الوراء ولا خطوة واحدة، وسيكون  
لي رداء، ان البدلة لتختك، والحبّة والقفطان للجوقة  
النبويّة، اليس ذلك ممتمّاً؟

ونظر نحوي في سكون الليل وسألني:

- لأيّ درجة تصدّقني؟

- لي من العمر ما يجعلني أصدّق أيّ شيء.

- أريد درجة من التصديق أشدّ حرارة، كثيرون لم  
يصدّقوني، تألمت لذلك وسعدت به، تألمت لأنّ العمل  
الفدّي يحتاج إلى شهود، وسعدت لأنّ إقدامي ممّا يعزّز  
تصديقه، أريد ومن حقّي أن أريد أن يُعترف بي  
كإنسان غير عاديّ، إنسان لا يستطيع أيّ إنسان أن  
يهجر النعيم الذي كنت فيه بالبساطة التي هجرته  
بها...

- بدافع الحبّ وحده؟

- الحبّ لا يكفي؟... الحبّ هو الجنون خالفاً!

- أكانت مروانة على ذلك القدر من الجمل؟

- ولكن ما الجمل؟... المسألة نداء يصيب مفتاحاً  
كهربائياً...

- ألم ترغب أيضاً في حرمان جدك من وريثه  
الوحيد؟

- مأساة والدي لم تفارقني ولكنّ انطلاقتي كانت  
ملائكيّة لا تلوّثها رغبة خفيّة أو ظاهرة في الانتقام.

- وردّ فعل للكبت العنيف الذي فرضته على  
نفسك بصفتك إنساناً إلهياً؟

- أرفض هذا التفسير أيضاً، قلت لك إنّها كانت  
انطلاقة ملائكيّة، مثل أغنية الفجر، قدح الحبّ  
الشرارة فكشف ضوؤها عن حلم يتجسّد ويتوتّب  
لتحطيم جدار القصر والانطلاق متحدّياً الجاه والقعود  
للتمرغ في تراب الأمّ الخالدة، كما هجر بوذا قصره  
ذات يوم لغير ما سبب مقنع لأحد من الناس...  
ويحدث ذلك فجأة، وليس التطوّر الذي يملأ دماغك

فقلت بسخرية:

- رغم حماقاتك يا شكرون فإنك لم تعرف الجنون  
بعد...

- أيعني هذا أنّك هجرت ماضيك كلّه بسبب  
الحبّ؟

- بل إنّني بسبب الحبّ عرفت جنون المغامرة!  
سلم عمّد شكرون بالأمر الواقع، شعرت بأنّه  
يؤمن حقّاً بأنّ المسألة لا تخلو من جنون حقيقيّ،  
واضطرّ إلى أن يعبّدي بالمساعدة بجسّ نبض مروانة  
وأمرها باعتبار أنّ العاشق يحتاج إلى سنيد كالمغنيّ،  
وبخاصّة بعد أن أكّدت له تحريّاته أنّ مثل مروانة قد  
تقتل ولكنها لا ترضى بعلاقة غير شرعيّة، ثمّ قال  
بامتعاض:

- وماذا عن مستقبلك؟ فحقّي المغامرون الأحرار  
مضطرونّ إلى تناول لقمة؟...

وأغرب شيء أنّي لم أكن أوليت ذلك ما يستحقّه  
من تفكير جادّ، وقد خطر لي للحظة أن أدرس لغة  
عربيّة وديناً في مدرسة أهليّة ولكنّي سرعان ما نبذت  
الفكرة جانباً لتنافرها مع جوّ المغامرة المسحور،  
وأحللت فكرة أخرى مكانها فقلت:

- أكوّن جوقة لإنشاد التواشيح النبويّة؟

- سيمرّ زمن طويل قبل أن تحمي ليلة ثمّ يظنّ  
نجاحك بعد ذلك موضع شكّ وعناء، والطريق  
الطبيعيّ أن تبدأ فرداً في جوقة وهو ما لا يناسبك  
بحال!

فتفكرت ملياً ثمّ قلت:

- أفضل أن أعمل في مختك أنت...

- نخفي؟

- لمّ لا؟... صوتي أجمل من أيّ سنيد عندك...

- إنّك وليّ نعمتي ولكنّ...

- لا لكن من فضلك، ثمّ إنّك تحمي حفلات في  
الشهر الواحد لا تقلّ بحال عن ثلثه، ونجاحك  
مطرّد...

وصمت عمّد شكرون فقلت بحماس:

- ولن تفرّ همّي في تكوين الجوقة الدينيّة الخاصّة  
في الوقت نفسه.

أم مروانة نياحة عنه:  
 - إنّه يرحّب بكما.  
 فقال العجوز يخاطبها بعد أن لکمها في ظهرها:  
 - لأنك أنت توافقين عليك اللعنة...  
 فقال محمد شكرون:  
 - صاحبي من أصل كريم.  
 فبصق العجوز قائلاً:  
 - طظ!  
 فقال محمد شكرون محرّجاً:  
 - وهو يعمل...  
 ولكنّ العجوز قاطعه:  
 - لا يهّمنا العمل أيضاً!  
 فقال:  
 - أخلاقه...  
 فقاطعه العجوز:  
 - ولا تهّمنا الأخلاق!  
 فقال شكرون وهو يتحلّى بمزيد من الصبر:  
 - بكلّ إيجاز نريد كريمتك على سنّة الله ورسوله.  
 فضحك العجوز عن فم خالٍ تماماً وقال:  
 - مع ألف سلامة... تكلم عن المهر...  
 - تكلم أنت، فأنت كبيرنا.  
 فانتفضح العجوز قائلاً:  
 - عشرة جنيهات في يدي هذه.  
 وبسط يده، فتنحّرت أم مروانة حركة غامضة  
 فقطّب العجوز قائلاً:  
 - لنقرأ الفاتحة...  
 وانطلقت من حولنا الزخاريد.  
 لم يعلّق محمد شكرون بكلمة احتراماً لعواظني،  
 وقرّرت من ناحيتي أن أواجه جدّي بالحقيقة كما يجدر  
 بشابّ بلغ رشده وأتمّ مرحلة لا بأس بها من تعلّمه  
 فأخذت مجلسي على مقربة من أريكته في السلامك  
 وكان يسبح في همس وقطته الروميّة تهرّ إلى يساره،  
 وأعتقد أنّه نشأ جوّ من التوقّع والتحفّز شارك كلانا  
 فيه، أنا بما أضمر من نوايا وهو بفراسته التي تقرّأ بها  
 ما في الصدور، وجاءني سؤاله المألوف:  
 - كيف الحال؟

ألا الترسّخ العمليّ للفجأة المبدعة، وإليك مثلاً حيّاً  
 حدث هذه اللحظة فجأة، لقد قرّرت الآن ألا أكتب  
 الالتماس...  
 - ماذا تعني؟  
 - الالتماس بتقرير إعانة شهرية لي من وقف جدّي!  
 - أهى عودة للتفكير في قضية عقيمة؟  
 - لا قضية ولا التماس!  
 - ولكن...  
 - ولا لكن!  
 - فلنؤجّل ذلك إلى حينه، واستمرّ الآن في  
 حكايتك من فضلك.  
 وقهقهه كعادته وقال:  
 - وذات مساء زحف محمد شكرون وهو يعرج -  
 وأنا أتبعه - نحو العريّة العجوز في مجلسها فنحّت  
 مغزها وقامت متوجّسة فقال لها:  
 - صاحبي يرغب في الزواج من كريمتك على سنّة  
 الله ورسوله!  
 ذهلت المرأة، هرولت مروانة بعيداً، وعاد محمد  
 شكرون يقول:  
 - ها نحن تحت أمرك.  
 وتمالكت المرأة انفعالاتها وقالت:  
 - لنا قوم نرجع إليهم.  
 وكان لهم قريب من بعيد غير محدّد القرابة فكان  
 علينا أن نقابله.  
 كان يوماً عجيّباً.  
 كنّا أوّل غريبين يشقّان سبيلهما في عشش الترحمان  
 نهاراً دون أن يتعرّضا للموت. حدّقت فينا أعين شريرة  
 باستطلاع ساخر ومحدّد، وتوقّفت الحركة دقيقة، حركة  
 تدريب القروود وجزّ الأغنام ووزن المخدّرات وجلاء  
 الأدوات المسروقة ودقّ الطبول.  
 وتجمّع حولنا نفر من الغلّيان وراحوا يخيّون الشيخ  
 جعفر هاتفين:  
 شدّ العمّة شدّ تحت العمّة فرد  
 ومضينا إلى العجوز الجالس أمام كوخه وأمّ مروانة  
 واقفة بين يديه...  
 وتصافحنا وكان طاعناً في السنّ حتّى الموت فقالت

قلب الليل ٦٢٧

اكثرها لي محمد شكرون وساعدني على تجهيزها،  
مكوّنة من حجرتين وصالة، وبدت مروانة في ثوبها  
الجديد آية من الجمال والإثارة، ولعلي كنت أرى لونها  
الطبيعي لأول مرة بعد أن خلقها حمام العرس خلقت  
جديداً، ولا أقول إنني سعدت بذلك، وأعترف بأن  
اللون النحاسي الغامق القديم كان أصبح جزءاً لا  
يتجزأ من الصورة التي زلزلت أركان حياتي، على أن  
نداءها ظلّ مستبداً طاغياً وسيطر عليّ سيطرة كاملة  
حتىّ اعتبرت نفسي أسيراً في يد قوّة لا تعرف الرحمة ولا  
المهودة، ومن ناحيتها كانت فاتنة بفطرتها كلسان من  
المهلب، ومعتزة بنفسها ويقومها تكاد تسبغ قداسة على  
التراب الذي منه جاءت كوردة بريّة، حتىّ حياؤها  
الأنثويّ كان غشاء شفافاً لا ضعفاً متأصلاً أو رخاوة  
طبيعيّة، ومنذ اللحظة الأولى شعرت بأنني حيال أنثى  
قويّة لا عمر لها تتدفق منها الفتنة والسحر والتحدّي،  
وأنيّ استسلم في رحابها كاشفاً عن ضعفي بقوّة  
وعنف، وأنيّ أجري كمطارد أو مجنون فاقد الوعي  
والحذر، واشتهر أمرّي بين صحبي الجدد فأطلقوا عليّ  
«الرجل السعيد» و«الرجل الضعيف السعيد» وانهالت  
عليّ التحذيرات والوصفات معاً.

ولم ينسني شهر العسل عملي الجديد فنشطت له  
بهمة عالية، ووجدتني هيّاباً بعض الشيء وأنا أدسّ  
نفسي في بيثة جديدة وأناس جدّهم في الحياة لهو  
ولعب، وكانوا يستقبلونني هاتفين:

- أهلاً بحفيد الراوي!

وهو نداء له مغزاه، تبني كظليّ في كلّ مكان  
أختلف إليه، تردّد في الحرنفش، في تحت عمّد  
شكرون، في الجوقة التي تمّ الاتفاق على أن تعمل  
معي حين الحاجة، وأخذت أحفظ وأندرب بسرعة  
استعداداً للتخت والجوقة معاً، وفي شهر العسل نفسه  
اشتركت مع التخت في إحياء حفل زفاف بالدرب  
الأحمر، ارتديت البدلة لأول مرة والطربوش حتىّ صاح  
محمد شكرون:

- تبارك الخلاق فيما خلق!

وارتبكت وأنا أخوض أمواج المدعوّين والمتفرّجين  
وكنّت أحد اثنين في التخت لا يستعملان إلا حنجرتهما

فأجبت وعقلي شاردا:

- عال والحمد لله.

فقال بهدوء:

- ستعلن الخطوبة بعد ثلاثة أشهر عقب انقضاء  
رمضان!

صمّمت على تجربة قوّي الجديدة بلا تردّد فقلت:

- معذرة يا جدّي لقد وقع اختياري على زوجة  
أخرى.

فلم يبذ عليه أيّ تأثر وتساءل:

- حقاً؟

- هي إرادة الله على أيّ حال.

- إذن هو حقّ ما ترامي إليّ؟

فلم أنبس فعاد يتساءل:

- راعية غنم؟!

فأجبت ببساطة:

- أجل يا جدّي.

قال ولعلّه تنهّد:

- إنك راشد وأدرى بمصلحة نفسك.

فسألته باهتمام:

- هل أطمع في نيل رضاك؟

فمضى يسبح في هدوء فسألته:

- هل يعني ذلك أنه عليّ أن أغادر البيت؟

فلم يلتفت نحويّ: إلى الأبد.

تمت فتناولت يده فلثمتها وذهبت.

وكان وداع بهجة أليماً ودامماً، وقد اقترحت أن  
تطلب لي نقوداً ولكنيّ صارحتها بأن لي من المدّخرات  
ما يجاوز المائة جنيه، وجعلت تبكي وهي تقول:

- الأحزان تبدأ في هذا البيت مع الزواج.

وهمست في أذني:

- صدّقني... جدك تعيس الحظ... إنه لا ينام

من الليل إلا ساعة...

فقلت لها صادقاً:

- إنّي أحبّه وأرفضه!

وغادرت البيت الذي عشت فيه أربعة عشر عاماً  
طاهرة.

وذهبت مع عروسي إلى شقة جديدة بالحرنفش

ويجلسان خالتي اليد من أيّ آله، وقدم لي محمد  
شكرون قدح نبيذ قائلًا:

- إنه ضروري جدًا وألا انحبس صوتك.

في أسبوع واحد عرفت النبيذ والمنزول، ورددت  
الغناء بقوة وانضباط وكنت الصوت الثاني في التخت  
ولا جدال وقد نفخت في السنيدة روحًا جديدة هزت  
التخت بالجلجلة والطرب وهو يقدم:

يا ما أنت واحشني وروحي فيك

ولقينا استحسانًا كبيرًا، وضمن الاستحسان  
أصابني غمزة من سكران فصاح: «يخلق من ظهر  
العالم فاسد» وضج المكان بالضحك حتى مال محمد  
شكرون نحوي وهمس:

- اضحك مع الضاحكين.

وقد فخرت فيما قال الرجل فيما بعد طويلًا، الناس  
يتصورون أنني كنت شيخًا طيبًا ثم فسدت فانقلبت  
سنيديًا في تخت أغني وأنعاطى النبيذ والمنزول، كلاً...  
ليس الأمر كذلك، لقد غيرت مهنتي هذا كل ما  
هنالك، استبدلت مهنة التدريس أو الوعظ مهنة  
أخرى هي الغناء، أما روجي فقد ارتفعت درجات  
وقلبي لم يفسد ولم يتزعزع إيماني، وجددي نفسه هو  
القائل إن الزبال نفسه يستطيع أن يكون إنسانًا إلهيًا،  
ولعلي كنت محمولًا بتيار عواطفني الصاحب في ذلك  
الحين فلم أدرك أبعاد تجربتي كما أدركتها فيما بعد أو كما  
أدركها اليوم ولكنني رغم ذلك ثرت على قول السكران  
واعتدتها دعابة عربية وظالمة، على أي حال بدأت  
عملي الجديد بثقة ونجاح ولكن كان عليّ أن أنتظر وقتًا  
ليس بالقصير لكي أنشد التواشيح النبوية كصاحب  
جوقة له وزنه، أما سعادي فقد غطت على النجاح  
وعلى كل شيء، سعادي الزوجية، وكنت بها فخورًا،  
أنه بأسرارها في كافة المناسبات، وبفضائل الحياة  
الزوجية ومزاياها الطيبة، حتى ضرب بي المثل، وفي  
غمرة السعادة لم أنظر إلى الحياة في بيتي الصغير بعين  
ناقدة ولا حتى محايدة، واستقبلت أولى آيات الأمومة بما  
يشبه الوجد الديني.

حقًا كانت توجد لحظات خائنة حتى في أيام السعادة  
الخالصة...

ولكن ما هي اللحظات الخائنة؟  
هي اللحظة التي تنفصل فيها عن تيار حياتك  
فتقف على ربوة فوق الشاطئ لتراقبه بدهشة.  
في تلك اللحظة كنت أشعر بأن ثمة شخصًا قد  
ضحك عليّ، قد جرّعني مقلبًا...  
وأسال نفسي عمّا حدث.  
أو أنظر إلى مروانة بدهول وأجد رغبة طارئة  
للاتنقام منها.

ما معنى ذلك؟

كأنني أمقتها فجأة وبلا مقدمات.  
ولكنها لم تكن إلا لحظة عابرة، كتقلص عضلة  
طارئ، ثم يعود التيار إلى مجراه السعيد المبلل بأنفاس  
العشق المستعر.

وأعجب لطاقتي في معاشره الفوضى، فانا لا أتدمر  
على حين مروانة لا تحسن تنظيف الشقة، ولا طهي  
الطعام، وتمضي حافية نصف عارية منتفشة الشعر،  
تتحدى الخيال وتناقز الهواء، وتسحبني من يدي لزيارة  
أمها وقربها المعجوز في معسكر الشياطين ليضحك  
المخرف ويقول لي:

- ألم يكن الأفضل أن تعمل إمامًا لجامع؟

أو يبارك بطن زوجتي قائلًا للجنين:

- شرفنا وكن قائلًا فقد ضقنا باللصوص والمهريين!  
ويسخر من أصلي الكريم قائلًا:

- من جدك الراوي؟... أنا جدك الحقيقي،  
واهبك هذه المرأة الجميلة التي تمتص قذائف غرائك  
الشريرة...

فأقول له:

- جدّي من رجال الله...

فيقهه قائلًا:

- نحن رجال الله حقًا، الله المنتقم الجبار خالق  
الجحيم والزلازل، انظر إلى هؤلاء (مشيرًا إلى معسكر  
المشرّدين) إنهم رجال الله، صورة منه في جبروته  
وانتقامه...

والتقيت في تلك الأيام بجارة أمي في بين  
السورين، عرفتها ولم تعرفني، اعترضت طريقها  
وقدمت لها نفسي، ذهلت ودعت لي طويلًا، وتذكرت

قلب الليل ٦٢٩

وتابعني محمد شكرون بأسى، وقال:  
 - إنّي أخاف الحبّ الجنونيّ وأفضل الاعتدال.  
 فقلت بحزن لم يدرك مداه:  
 - إنّي ضحية الشهوة العمياء.  
 - الحياة الزوجية تمرّ بحالات مرّضية حتمية تحتاج  
 إلى حكمة الأطباء.  
 فقلت بامتعاض:  
 - لقد دخلت منطقة اليأس!  
 ذلك أنّي وجدت أنّ الشركة تتحوّل إلى معركة،  
 مضمرّة حيناً ومعلّنة حيناً، وأنّ مروانة إذا تجرّدت من  
 رمز الإثارة الجنونية فلأنما تتمخض عن لا شيء البتّة، أو  
 تتمخض عن ذبّة.  
 وهي إذا غضبت حطمت ما بين يديها، مزّقت  
 ملابسها، طوّحت بكراسة الأغاني والتواشيح من  
 النافذة، التحمت معي في عراك، وأصبح بها:  
 - إنك أبغض إليّ من الموت فتصيح بي:  
 فتصيح بي:  
 - إنك أبغض من القيح.  
 وقد تمتدّ فترات البغضاء، وقد تسأل إليها الهدنة  
 بفضل الأولاد غالباً، وعند ذاك قد تشتعل انفجالات  
 الرغبة من جديد، اشتعالات خاطفة، تعيد ذكرى  
 الأحلام من بعيد، أجل من بعيد.  
 \* \* \*  
 وسألته باهتمام:  
 .. ولكن ماذا أفسد حياتك الزوجية؟  
 - ألم أوضح ذلك في سياق الحكاية؟  
 - كلّاً فيما أعتقد، ما زلت في حاجة إلى تحديد  
 أسباب واضحة...  
 - إنّ الذي ربطني بها حال جنونية، فلمّا زالت  
 وجددتني مع امرأة لا أعرفها ولا أجد مبرراً لبقائها  
 معي، ولا شك أنّ سلوكي العامّ نمّ عن مشاعري  
 الدفينة فأثارها من ناحية أخرى.  
 فقلت:  
 - تزول حال الجنون ولكن يبقى الأولاد...  
 - الأولاد أطالوا عمر زوجي ولكنهم لم يؤمنوه ضدّ  
 الخواء، مروانة مجرّد إثارة، ليست امرأة، لا هي ربّة

أنّي لم أكن أعرف اسم أمّي كما أنّ بهجة لم تكن  
 تعرفه، كنت أناديا «أمّ» فتجيب حتّى أعجزها الموت  
 عن الإجابة، وسألت الجارة عن اسمها فقالت:  
 - ليرحمها الله... كان اسمها سكينه!  
 وشعرت بإغراء في طرح المزيد من الأسئلة عن  
 أصلها وتاريخها ولكنني أخذته، ربّما احتراماً للذكرى،  
 وشدّدت على يدها ومضيت في سبيلي، هكذا عرفت  
 اسم أمّي مصادفة...  
 وسوف أنجب من الذكور أربعة، وسوف تمضي  
 الحياة بعد انطفاء شعلتها، وسوف تهيء أيام الجفاف  
 والجفاء والوحشية...  
 طالما سرّني أن يقال هذا الفتي الذي هجر قصر  
 النعيم ينشد الحبّ والحرية...  
 وطالما استعذبت موقف مروانة المحبّ من الطقاتيق  
 التي أحفظها لتخت محمد شكرون بقدر ما رحمت  
 موقفها الكاره من القصائد والتواشيح التي أعدّها  
 لجوقتي الخاصة...  
 وطيلة الوقت كنت أقاوم الفقر بالعمل والنيّذ  
 والمنزول وشعرت بأنّ المعركة تستغرقني من الفجر حتّى  
 الفجر.  
 وتأوّهت قائلاً:  
 - أيّ عبودية!  
 وجاءت أيام الجفاف والجفاء والوحشية.  
 ها هي مروانة قوية متحدية سليطة اللسان طويلة  
 اليد كأنما خلقت لتقاتل.  
 وقلت لها مرّة:  
 - للرجل احترامه.  
 فقالت لي:  
 - وللمرأة احترامها.  
 ثمّ قالت بوحشية:  
 - لا يوجد رجال خارج عشش الترجمان...  
 فقلت محزوناً:  
 - أهذا جزاء من أعدّ لك البيت والأثاث؟  
 فصاحت بي:  
 - إنّي أكره رائحة البيوت!  
 وأوغلنا السير في أيام الجفاف والجفاء والوحشية.



- بيت ولا هي أم ولا هي سيّدة بالمعنى، وصفاتها  
الجوهريّة خليقة بأن تخلق منها رجلاً، بل قاطع  
طريق... .
- وهي ألم تحبك؟  
- لا أظنّ، ربّما فورة جنونيّة عابرة، أو مغامرة  
استطلاعيّة، لم أكن أمثّل الرجل الذي يمكن أن تحلم  
به، لقد جمع زواجنا بين مغامرين وكان عليه أن يموت  
بمجرّد أن تتحوّل المغامرة إلى روتين... . أظنّ الأمر  
واضحاً؟
- أجل، شكراً... .  
- وكان لي أحلامي الخفيّة، كنت أحلم بالهروب  
من الواقع، من البيت، أحلم بالتوحد فحتّى أولادي  
كانوا يختفون من رؤيا الحلم، ولكن إلى أين؟ وكان  
عملي لا يترك لي مجالاً للنظر إلى فوق، فأوساط  
المنشدين لا قمة لهم يتطلّعون إليها، إلى ذلك فالله لم  
يبني القناعة والرضى بالمقسوم.
- والأهمّ من ذلك أنّي لم أكن أحلم وحدي، أجل  
كانت مروانة تحلم أيضاً، وتمسّكت بالغضب عقب  
مشاجرة، وسدّت الأبواب في وجه الصلح، وتحدّثني  
بنظرة باردة وهي تقول:
- يجب أن نعيد النظر في حياتنا... .  
ولمست في نبرتها تصميمياً حياً فانقبض صدري وتمتمت:  
- حياتنا؟
- أقول لك صراحة إنّه من الظلم أن نكلّف هذا  
البيت بأن يجمعنا أكثر من ذلك.
- فتابعت أصوات الأولاد المتلاحمة بإشفاق وقلت:  
- كلّ الأزواج يفعلون ذلك.  
فقلت بهدوء مخيف:  
- ولكيّني أريد أن أذهب... .  
فسألته ببلاهة:  
- إلى أين؟  
- إلى أهلي!
- تماسكت رغم حنفي وتساءلت:  
- ألا تعجبك الحياة في هذا البيت؟  
فأجابني بقوة:  
- كلاً، أنت تتوهم أنّك صاحب فضل، هذا هو
- نقصك!  
- أظنني ضحيت بالكثير.  
- إني أولى الضحايا!  
- اسمعي... .  
ولكّني أمسكت تمجّباً للشجار فصاحت:  
- لقد كرهت هذه الحياة حتّى الموت!  
فنفخت قائلاً:  
- الأولاد... الأولاد... .  
- من حقّي أن آخذهم معي.  
- لكي ينشئوا في عشش الترجمان؟  
- لكي ينشئوا رجالاً!  
- إنك لمجنونة!  
- أنت المجنون وأقسم على ذلك، لا عاقل يعيش  
من حنجرته كالنساء!  
- لا أمل يرجى من مناقشتك.  
- دعني أذهب.  
- ولكن عليك أن تتركي لي الأولاد.  
- ماذا تفعل بهم؟ إنك تستيقظ من نومك قبيل  
العصر، ولا ترجع إلى بيتك إلّا مع الفجر أو بعده،  
وعلى حال لا يعلم بها إلّا الله، فكيف يعيشون؟ هل  
تعني حقاً ما تقول؟  
فشعرت بالقهر وقلت:  
- لذلك يجب أن يبقى هذا البيت من أجلهم... .  
- إني أرفض ذلك... .  
ولم ينته الحوار بحسم الموضوع.
- فكّرت بالأولاد طويلاً، أيقنت أنّه لا حياة لهم  
معي، وأنّ عليّ أن أتحمّل بالصبر من أجلهم مهما كلفني  
ذلك، غير أنّ مروانة حسمت الأمر بطريقتها الخاصّة  
فرجعت عند فجر يوم لأجد البيت خالياً لا يتردّد فيه  
نفس، وذهبت من تويّ إلى عشش الترجمان فبلغتها مع  
الصباح الباكر.
- وجاءتني أمّ مروانة بوجه متجهّم وقالت لي:  
- اذهب بسلام وافعل ما يفعلها الرجال ولو مرّة!  
قلت لها:  
- الأولاد.  
قالت بازدراء:  
- اذهب بسلام وافعل ما يفعلها الرجال ولو مرّة!  
قلت لها:  
- الأولاد.  
قالت بازدراء:  
- اذهب بسلام وافعل ما يفعلها الرجال ولو مرّة!

## قلب الليل ٦٣١

- إنهم أولادنا  
وجاء العجوز في ثلثة من الرجال المفترسين وقال:  
- أنت رجل خائب فارجع الى بيتك.  
وهمهم الرجال بالفاظ مبهمه فلم يغيب عني الخطر  
المحدق بي، وعاد العجوز يقول:  
- طلتي، أعطها حقها كاملاً، وإذا كان الشرع  
يعطيك حقوقاً الآن أو مستقبلاً فإني أنصحك بأن  
تتنازل عنها صوتاً لحياتك، ارجع قبل أن تطلع  
الشمس على وجهك فقد أقدم على شر كبير إذا رأيتك  
في ضوء الشمس...  
وذهبت من توي لأطلق...  
وأجلت التفكير في المشكلة لحين بلوغ البكري  
السن التي أستحقه فيها، تأجيل أو هروب إذا شئت،  
كنت على يقين من أنني لن أطالب بأولادي بجديّة  
حقّة، معنى ذلك من ناحية أن أخاصم قوماً يتخرّج في  
معسكرهم عتاة مجرمي القاهرة، ومعناه من ناحية  
أخرى أن أعيدهم إلى الحياة لا أمل لأيّ قدر من  
الرعاية فيها، فهؤلاء الأولاد من حفدة الراوي قد كتبت  
عليهم الضياع حيثما كانوا، ولن تُكتب لهم النجاة إلا  
إذا كتبت للمجتمع كله وبصورة حاسمة، هكذا  
ذهبت مروانة طاوية معها قصّة الحبّ والجنون والخيبة،  
وقصّة الجفاف والبغض، لم يبق منها إلا ذكرى الشهوة  
المدهلة، والقوّة التحديّة، والمعجزة الصلبة، وهي  
مثل العاصفة خفيفة وضارة ومثيرة للإعجاب، وضياع  
الأولاد تسلّل الأسى إلى أعماق نفسي ليقم في حجرة  
الأحزان ملتحمًا بذكريات أمي وأبي.  
ولم يكن ممكناً أن أوصل الحياة بهوادة كأن لم يقع  
شيء.  
وكان محمّد شكرون يتابعني بحذر وإشفاق، فسألني  
ذات يوم:  
- حتّى متى تمضي في ترديد الأغاني وتعاطي النبيذ  
والمنزول؟  
مع وجود مروانة والأولاد كان ثمة حياة متكاملة أيّما  
تكن، أمّا الآن فالسؤال يبدو معقولاً، وقلت له وأنا لا  
أعني ما أقول:  
- حتّى الموت!
- فقال جادًا غاية الجدّ:  
- أن لك أن ترجع إلى جدك...  
قلت:  
- لقد انتهى الشيخ جعفر الراوي...  
- يمكن أن يبدأ من جديد، علينا أن نحاول.  
- إني أرفض المحاولة.  
- عن كبرياء؟  
- بل عن تسليم بالواقع الحيّ.  
- أيّ واقع يا رجل؟  
- إنّه لا يرضيني، ولكنّي رفضت المهنة الدينية  
رفضًا لا رجوع فيه، الحياة التي رسمها جدّي لي  
مرفوضة تمامًا، وهو لن يقبلني - إذا قبلني - إلا بشرط  
الرجوع إليها...  
- لعلّه يمنحك حرّيتك الشخصية؟  
- كلاً، إنك لا تعرفه كما أعرفه، وإني أرفض أن  
أعرّض نفسي لتجربة ذليلة.  
فقال بإخلاص لا يداخلني فيه شكّ:  
- إنك صديق عزيز ومن واجبي أن أصارحك  
بأنك تمارس حياة لا تليق بك، فلا أنت مطرب ولا  
أنت ملحن، ويجب أن تفكّر في مستقبلك بجديّة  
أكثر...  
- هذا يمكن بعيدًا عن جدّي!  
- أراك غير سعيد الآن...  
- ربّما، ولكنني قمت بمغامرة جنونيّة ساطلّ فخورًا  
بها ما حييت، وإني فخور أيضًا بأنني أتكيّف مع أيّ  
مستوى للحياة دون تدمر أو ضعف، تجدي طافحًا  
بالبشر والقوّة سواء عشت حياة الأعيان أو حياة  
الصعاليك، وها أنا أتمسك بالصعلكة وأرفض محاولة  
الرجوع إلى حياة القصر، أرفض أن أكون شيخًا محترمًا  
وزوجًا نبيلًا ويمارسًا للطقوس والتقاليد الرفيعة لا لأنني  
أختار ذلك بإرادتي الحرّة ولكن احترامًا لرؤيا جدّي  
وطمعًا في تركته...  
- وماذا عن مستقبلك؟  
- سأفكر جدّيًا في دراسة الموسيقى والتلحين عند  
الشيخ طاهر البندقي إذ لا يمكن أن تمضي الحياة بلا  
طموح...

- جميل، ولكن هل يرضى الرواي الكبير عن ذلك؟

فأجبت:

- ندر أن يرضى جدّ عن حفيدا

ونظرت السيّدة نحو محمّد شكرون قائلة:

- سوف نتقابل عمّا قريب.

انصرفنا سعداء، وفسر لي محمّد شكرون قولها قائلاً:

- هذا يعني أنّنا سنُدعى قريباً لإحياء حفل في بيتها...

وقال لي باهتمام:

- إنّها من آل صديق، كريمة الرجل العظيم، أرملة واسعة الثراء والثقافة...

وصمت قليلاً ليزن كلامه ثمّ قال:

- أعتقد أنّها مالت إليك...

انبعث في نفسي طرب وسألته:

- ألك خبرة بتأويل نظرات النساء؟

- أجل لمحتها أكثر من مرّة في أثناء الغناء وهي

تنظر نحوك حتّى قبل أن تعرف نسبك...

- ليصدق حدسك يا صديقي...

فقال محدّراً:

- ولكنّها سيّدة محترمة.

فقلت محتجّاً:

- يا للأسف!

وفكرت بها ملياً، إنّها شيء نفيس بلا شكّ، ولا

يقفّل من قيمتها أنّها تكبرني على الأقلّ بعشر سنوات،

بل زادها ذلك ملاححة في نظري، أمّا الجنون الذي

اجتاحني ذات يوم فيبدو أنّه لا يتكرّر.

وقال لي محمّد شكرون:

- يا لها من فرصة!

- ماذا تقصد؟

- امرأة ممتازة كالقشدة...

- هبني لم أحبّها؟

- أهذا ممكّن؟... ألم تشمّ رائحتها المسكرة؟

فضحكت عاليّاً، وكان محمّد شكرون قد أحبّ

راقصة وتزوّج منها ووُفق في حياته الزوجيّة غاية

كانت مروانة رمزاً للحياة الماضية، كما كانت العذر الثابت لتقبّل حياة عاديّة بلا طموح، فلمّا ذهبت وجدت نفسي عارياً.

وكان عليّ أن أعيد النظر في حياتي...

وفي تلك الفترة القلقة من الحياة عرفتُ هدى

صديق...

## ٦

كان محمّد شكرون يجي حفلاً في حديقة لبتون، وفي الاستراحة دُعي مع أفراد نخته إلى مقابلة هدى هانم صديق في بنوارها، وكانت تنتظرنا وعلى شفيتها ابتسامة مليئة بالثقة وعلى مقربة منها تجلس سيّدة شديدة السمرة بدا من تأدّبها أنّها وصيفة.

راعني أوّل ما راعني بهاء منظرها، وأناقتها المحتشمة، واعتزازها بنفسها الذي لا يجاوز حدود الأدب، وهالة من الجاذبيّة الرصينة، أمّا جمالها الأنثويّ فيتركز في عينيها السوداوين واستدارة وجهها، وكانت على وجه اليقين في الحلقة الرابعة.

ترك منظرها في نفسي أجمل الأثر، ووقفت بين الزملاء الكهول مزهواً ببذلة جديدة وبصحّة وشباب وقامة فارعة.

دعنتا للجلوس وأمرت لنا بالمرطبات وقالت موجّهة الخطاب لمحمّد شكرون:

- صوتك عذب وتختك ممتاز، إني من أسرة تعشق الأصوات الجميلة.

فلهج محمّد شكرون بالشكر ونوّه بذكرى المغفور له والدها الذي يحنّظ له أهل الفنّ بأجل الذكريات قال:

- طالما سمعت أستاذاً الشيخ طاهر البندقي يقول عن قصره أنّه كان معقل الموسيقى الشرقيّة.

فابتسمت الهانم في رضى، والتقت عينانا أكثر من مرّة، فقال محمّد شكرون مشيراً إليّ في مباحة:

- زميلي جعفر حفيد سيّد الرواي.

فساءلت باهتمام:

- حقّاً؟!

- إنّهم معنا حبّاً في الفنّ...

فتساءلت متخابئاً:

- أيّ أمر أيها البلبل؟
- لا تتغاب، عرفت من وصيفتها أنّهم عرفوا عنك كلّ شيء...
- كلّ شيء!
- السؤال له مغزاه الكبير.
- والجواب له عواقبه الوخيمة!
- رغم كلّ شيء...
- وحدّق فيّ باهتمام ثمّ واصل:
- رغم كلّ شيء فأنت مدعوّ إلى لقاء في حديقة لبتون، إنّي مكلف بإبلاغك...
- فذهلت وتمتعت:
- لهذا يفوق تصوّري!
- ولكنّه الواقع دون زيادة.
- أجل.
- علينا أن نتفق على خطّة.
- ولكنك لم تسألني عن عواطفني؟
- لا أظنّها عدائيّة!
- طبعاً.
- يكفي هذا، وفي اعتقادي أنّ الهانم وقعت كما وقعت أنت ذات يوم.
- لا تبالغ.
- خبّري ألا يسعدك أن تتزوّج منها؟
- أنت تتخيّل أنّها تفكر في الزواج؟
- إنّها ترفض العلاقات غير المشروعة...
- تتزوّج من صعلوك؟!؟
- إنّي أعرف قصّة أمير هجر قصره ليتزوّج من صعلوكة.
- فضحكت فسألني:
- ماذا عن قلبك؟
- إنّي معجب بها، بشخصيّتها وجمالها، لا شك أنّ الارتباط بها يسعدني.
- هذا هو الحبّ، أو هو نوع من الحبّ، أو هو استعداد طيّب للحبّ.
- ليكن.
- إذا فعليك أن تبدأ احتراماً لكرامتها...

\* \* \*

- وذهبنا إلى بيت آل صديق بالحلميّة احتفالاً بختان طفل، ذكّرني السلامك والحديقة بقصر جدّي ولكنّ الحديقة كانت أصغر كما إنّ سور البيت كان قصيراً لا يحجبه عن العالمين، وأقيّم لنا سرداق مكشوف في الحديقة التي عبت بشذا زهر البرتقال ممّا يدلّ على أنّ الوقت كان ربيعاً.
- وغنى عمّد شكرون بانسباط حقيقيّ وردّنا الغناء بحماس غير عاديّ، وارتفع صوتي وأنا أردّد:
- كان قلبي عليك عليك قلبي
- وعقب الوصلة الثانية اندلع النيذ في رأسي وتسلطن المنزول فجلست تحت شجرة برتقال في إعياء...
- وجاءت هدى هانم صديق تتفقّد أحوالنا ونجمنا فقمّت لها وأنا أكاد أترنّح فتمتعت:
- أنت في حال!
- فقلت ممثلاً:
- هذا ما يفعله بي السرور.
- وأمرت لي بقدهح ليمون بالصبودا ثمّ قالت:
- تعجّبي روح المغامرة!
- فأدركت أنّها تشير إلى صعلكتي في تحت محمّد شكرون فقلت:
- إنّي أقرّر مصيري بإرادتي الحرّة.
- فابتسمت قائلة:
- المغامرة الحقّة في رأس الإنسان!
- ماذا تعنين يا سيّدي؟
- فتجاهلت السؤال وقالت:
- ترامت إنّي أنباء مثيرة عن خلافك مع جدك.
- فقلت باستسلام:
- ها هي شهرة ضلالي تذيب بين الصفرة.
- فابتسمت ابتسامة جذّابة وذهبت.
- وشعرت بأنّ باب حياة جديدة يفتح لي رويداً.
- وعقب السهرة مضى بي عمّد شكرون إلى مقهى باب الخلق، قال لي بهجديّة:
- علينا أن نتدبّر أمرنا.

معي قدرتي العجيبة على التكيف والاستهانة بالصعاب، ألسنت أعيش وكأني نسيت أبنائي الأربعة رغم أن جرح القلب لا يريد أن يندمل؟  
وذهبت إلى لقاء هدى في الموعد المضروب بحديفة لبتون.

أقبلت عليها بشجاعة وثبات وثقة بالنفس فذهبت الفوارق وتمّ لقاء بين رجل وامرأة.

جلسنا حول منضدة تحت سقيفة على حين جلست «أمّ حسين» الوصيفة غير قريب، ورغم عظمتها الذاتية اعترأها شيء من الارتباك فقالت:  
- أرجو ألا أكون أزعتك بدعوتي؟  
فقلت بثقة:

- كوني على يقين من أنها جاءت محققة لأحلامي.  
فتساءلت برقة أنثوية:

- حقاً؟

- كنت أتمناها ولا أدري كيف أحققها.

- حقاً؟... ولكن... ولكن لماذا؟

- هذا حديث طويل، ولكن يحسن بي أن أقنع بالاستماع...

فقلت بلهفة:

- لا أهمية لذلك، لماذا كنت تتمناها؟

فقلت بصوت دافئ:

- كما يجدر برجل أحبك من كل قلبه.

فأسبلت جفنيها موردة الخدين والتفت بالصمت في جور من القبول والرضى والسعادة.

- أجل من كل قلبي...

تذكرت الموقف فيما بعد فلم أجد فيه ما يستحق الخجل، كان عقلي وقلبي مقتنعين بها، كنت مرحباً تماماً بالارتباط بها وبلا أدنى طمع في مالها، ومن ناحية أخرى فإن حبها لي - وهو مؤكّد - يقتضي ذلك الاعتراف من ناحيتي تحية لكرامتها، فضلاً عن ذلك كله فإنني لم أكذب أو لم أكذب بالقدر الذي يجعلني كذاباً.

وناقشنا مستقبلنا بكل صراحة، قلت:

- لن يتصل ما انقطع من علاقة مع جدّي...

وقلت أيضاً:

- مزيداً من الشرح من فضلك.

- لقد بدأت هي خطوات ثابتة، وما هي تدعوك للقاء، فهل تذهب لتتظر كالبنت أن تفتحك هي بحبها؟... كلاً... يجب أن تكون أنت البادئ، احتراماً لكرامتها كما قلت...

- أترى ذلك؟

- المسألة ذوق أولاً وأخيراً، لا تنس التضحيات المتوقعة من ناحيتها، حقاً إنها سيّدة نفسها، وأغني الأسرة، ولكن حتماً ستمزق أواصر قربي وعلاقات أسرية بسبب الزواج، لا شك في ذلك...، وإنها لشجاعة لأنها ستصمد في وجه ذلك كله...

- لولا أنني مررت بتجربة مشابهة لما صدقت الواقع...

- بل، ولكنتك مررت بنفس التجربة، ولا تنس أنها تريدك وأنت مقطوع السبب بالراوي، والزوج السابق لمروانة وأبو أربعة أبناء بعشش الترجمان، إنه المستحيل عندما يصير ممكناً...

وفكرت في الأمر من شتى جوانبه بعد أن وجدت من عقلي وقلبي اقتناعاً به فقلت:

- إذا وقع هذا الزواج المذهل فسأجد نفسي مضطراً إلى التخلي عن العمل في التخت؟

- هذا واجب لا شك فيه.

- ولكن كيف أرضى بالألا يكون لي عمل إلا زوج

الهانم؟

فقال بثقة:

- سيكون لك عمل، لا أدري الآن ماذا يكون، ولكن توجد أعمال كثيرة تحتاج إلى رأس المال والمجهود البشري وأنت تملك هذا المجهود؟

ثم وكأنه يشجعني:

- هاك مغامرة جديدة أيها المغامر الأعظم.

فقلت بفتور:

- المغامرة الحقّة استجابة لنداء مجنون، أما هذه الخطوة فتتحقق في رحاب الرويّة وتحسب بالتفكير والمنطق أنتقل بها من حال إلى حال.

- إلى حال أفضل!

- ليكن، إنّي أجري كالعادة وراء الجديد المثير،

قلب الليل ٦٣٥

ونصفيه .

وقلت لمحمد شكرون:

- لن يفرق بيننا شيء .

فاغرورقت عيناه وهو يقول:

- معاذ الله يا أعز الناس . . .

وتم الاحتفال في بيت الخلية - بيت هدى - فلم يشهده من أسرته أحد، واقتصر على الجارات، وأمل محمد شكرون أن يعلن جدتي رضاه على نحو ما، خطاب أو هدية أو طاقة ورد، ولكن لم نلق من ناحيته إلا الصمت.

وكان محمد شكرون قد زاره لمناسبة عيد الهجرة

وقال له وهو يقبل يده:

- فرض علي أن أنهي إلى فضيلتكم أبناء حسنة عن

جعفر.

فتجاهل جدتي قوله تمامًا، فقال محمد شكرون:

- إنه يبدأ حياة جديدة مع سليله الشرف هدى

هانم صديق.

ولكنه واصل تجاهله وفتح موضوعًا جديدًا لا صلة

له بي.

غير أن محمد شكرون قال لي:

- لقد لمست رغم ذلك تأثيره، مثل تقبُّض يده على

المسحة عندما جاء ذكرك، وعندما ترزق بمولود فاذهب

به إليه ليباركه . . .

ولكنني لم أكن أهتم برضى جدتي، ولم أكن أخلو

من انفعالات حنق عليه.

استقبلت شهر العسل الثاني في حياتي، الأيام الهنيئة

التي تمضي في رحاب العاطفة الخالصة والحب

المتكامل، نعم فيها الزوجان بعطلة سعيدة قبل أن

يرجعا إلى الحياة ليتغلغلا في أعماقها أكثر.

وجدتني على رغمي أقارن بين مروانة وهدى.

امراتان مختلفتان جدًا، مروانة عبقرية في لعبة

الجسد، تُرجع الرجل إلى عهد الفطرة، أما هدى

فترجع الجسد إلى مستوى القلب، ورغم أنني لم أحترق

إلا أنني شعرت بطمأنينة ورسوخ ودوام. ورغم

مشاعري الفياضة وحناني المتدفق فقد افتقدت جحيم

مروانة الأبدية.

- قد لا يجرمني ميراثي كله . . .

ثم قلت بوضوح:

- سأكون تعيشًا لو عشت بلا عمل . . .

فقلت بهدوء باسم:

- هذه الهموم لا تخلق عقبة حقيقية في طريق

الحب . . . أما جدك والميراث فلا يهمني، وأما العمل

فلن أعلم أن الرجل لا يعيش بلا عمل . . .

ثم وهي تضحك:

- ولكن هل تعتبر عملك في التخت عملًا حقيقيًا؟

- كان حركة في مغامرة أكبر، هذا كل ما

هنالك . . .

- أوافقك كل الموافقة.

ولقد فُكرت في حبنا طويلًا.

من ناحيتي صادفت سيّدة جميلة، كريهة الأصل،

مثقفة، عاقلة رصينة، واعدة بمعاشرة سعيدة، فملت

إليها كما ينبغي لي وأحببت فكرة الارتباط بها.

أما من ناحيتها فكيف يمكن تبرير هذا الحب؟ إنني

ضائع، طريد، شبه عاطل، شبه جاهل، لا مستقبل

لي، فكيف يمكن تبرير هذا الحب؟

لكنها كانت هي في الواقع التي تحب حبًا حقيقيًا،

حبًا بلا مبرر، فوق التبريرات والأفكار، ولعل هذا

الحب لا يخلو من رغبة في انتشالي من الضياع وإعادة

خلقي من جديد، فكما توجد في الحب سادية

وماسوشية توجد كذلك أحيانًا أمومة ورغبة حميمة في

الإنقاذ.

هذه أفكار عن الحب الذي ربطني بهدى فانتهى

بعقد قراننا بعد أن مزق أواصر أسرتها.

لم أكن وقتذاك أفهمه بهذا الوضوح الذي يتبدى لي

به اليوم، أما في حينه فقد فسرتة التفسير الذي يُرضي

شبابي وغروري ويعوضني عن الإهانة التي لحقتني من

جزء هجر مروانة لي.

وودعت محمد شكرون وزملائي من أفراد التخت،

كما ودعت أفراد فرقتي الدينية وكانوا متطوعين يعملون

مع أكثر من منشد ثانوي تبًا لظروف العمل، ودُعي

الجميع إلى حفل زفاني الذي أحياه محمد شكرون،

وانبسطنا غاية الانبساط وكأنا نودع عهد النزق

- اشرب ولكن لا تسكر...  
أما المنزل فقد أخذت عليَّ عهدًا بألا أقربه، وكلما  
رأيتني جالسًا مع محمد شكرون ذكرتني بالعهد، ولكنني  
نبدته بإرادة قويّة، وعبرت الفترة الحرجة بعزم صادق  
حتى ضحك محمد شكرون وقال لي:  
- إنك شيطان في تكيفك مع العربدة، ملاك في  
تكيفك مع الاستقامة...  
فقلت له:

- إني مصمّم على أن أكون شيئًا.  
مارست حياة رائعة، استعادت من ناحية سعادي في  
أسطورة أمي، كما استعادت من ناحية أخرى النقاء  
الذي نعمت به في بيت جدّي، ولكن نفسي فيها القلق  
المنبعث من رغبة حادة في تحقيق الذات.

أريد أن أكون شيئًا، ولكن ما عسى أن يكون هذا  
الشيء؟ القانوني الضليع؟ أم المحامي الناجح؟  
الحقّ أنّي فُتنت بموادّ الدراسة المتنوعة، واستوعبتها  
بمقدرة شخص ناضج، وانجذبت لها بأقوى ممّا  
انجذبت إلى علوم الدين، وكنت أحفظ المقرّر وأفيض  
عنه فيما يهمني من فروع المعرفة، فقرأت كثيرًا في  
التاريخ والفلسفة والنفس والاجتماع، ومضيت أمتلئ  
بحبّ الحقيقة.

\* \* \*

وقهقه عاليًا ثمّ قال لي:  
- تصوّر الرحلة من أحلام العفاريث إلى حبّ  
الحقيقة!... ما رأيك؟  
فقلت:

- رحلة عظيمة...  
أعجبني بصفة خاصّة المنهج العلميّ الذي يتحقّق  
به أكبر قدر من الدقّة والموضوعيّة والنزاهة، هل  
نستطيع أن نفكّر بنفس الأسلوب في سائر شئون  
الحياة؟ لنعرف المجتمع والوطن والدين والسياسة  
بنفس الدقّة والنزاهة الموضوعيّة؟...

وكانت هدى تساعدي، فهي مثقّفة، حاصلة على  
شهادة مدرّسة أجنبيّة، درست مبادئ العلوم والرياضة  
والآداب واللغات كما درست العربيّة على مدرّس  
خصوصيّ، وهي غاية في الذكاء والاستيعاب، وقد

وفي توقيت رائع قالت لي هدى:  
- أودّ ألا تبقى يومًا أكثر بلا عمل...  
فقبّلتها امتنانًا فقالت بحذر:  
- وحتى إدارة أملاكي لا تُعتبر عملاً مقنعًا ولا هي  
ترضي طموحي...  
فساءلت برقّة:

- إذن لك طموح؟  
- ألا تحبّ أن تكمل دراستك الأزهرية؟  
- كلاً.

- لماذا وجهك جدّك تلك الوجهة؟  
- إنه ذو تفكير خاصّ وسوف أحدثك يومًا عن رأيه  
في الإنسان الإلهيّ.  
- سأصارعك بما أفكّر فيه، يجب أن تدرس في  
بيتك.

- دراسة نظاميّة؟  
- نعم، حتى البكالوريا، ثمّ تتخصّص في دراسة  
عليا، مثل الحقوق مثلاً، وتعمل محامياً ذات يوم!  
- يلزمي عشر سنوات.  
- لم لا؟... التعلّم في ذاته عمل، وأنت في  
الخامسة والعشرين وستجد فيها ميزة لاستيعاب  
الدراسة.

ففرحت بالفكرة وقلت:

- إني أحبّ التعلّم، ولن يهمني ما فاني من عمر،  
ثمّ إنني أريد عملاً لا وظيفة بالمعنى التقليديّ...  
وسرعان ما بدأت بعزم جديد.

خرجت من عصر البطالة المقتّعة والبطالة الحقيقيّة،  
وغطّي التعلّم على إحساسي بأنني زوج بلا عمل  
وبخاصّة وأنني لم أعرّف بإدارة الأملاك كعمل حقيقيّ  
فهي لم تكن تعني أكثر من تحصيل إيجارات والإشراف  
على إجراء بعض الترميمات والتجديدات أو توكيل  
بعض المحامين عند الضرورة.  
وحققت تقدّمًا مذهلاً واستعنت أحيانًا ببعض  
المدرّسين.

وفي أوقات الراحة كتأنا وهدي - نختلف إلى  
المسرح أو صالات الطرب فهي مغرمة بذلك كلّه.  
وكنت أشرب رغم تأفّفها فتقول لي برجاء:

الخدام الذكي... .

حسن، كيف يمكن أن ينقلب الوضع؟  
 أي أن يقرّر العقل أولاً ثم يستغلّ الغرائز لخدمته.  
 هل يمكن أن يقتنع فرد بضرورة فيقرّر قتل نفسه؟  
 إنّ الذين يقتلون بدافع من غرائزهم لا حصر لهم  
 ولكن لم يقتل أحد بدافع من تفكيره الخالص النزيه  
 النقي، إذن فقد عشقتُ العقل وحلمت طيلة الوقت  
 بسيادته المطلقة باعتباره أشرف هديّة إلهيّة لنا، أحلم  
 بالألّا يكون لنا من محرّك إلا العقل، ولا هدف إلا  
 العقل، ولا سلوك إلا من وحي العقل، أحلم بحياة  
 عقلية خالصة يستوي العقل فيها على عرش السيادة  
 على حين تستكنّ الغرائز على أرض الطاعة والعبوديّة،  
 حلمت بأن نشطب من قاموسنا جملاً مثل «أعرف  
 بقلبي» أو «أهمني عواطفني» أو «التعبير الوجداني  
 للحياة»، وصببت غضبي على حجم الشعور  
 واللاشعور، وجبل فرويد المظمور تحت الماء إلا قمته،  
 إذ إنّ المسألة ليست مسألة حجم ولكنها مسألة القيمة  
 أولاً وأخيراً، أردت لقمّة الإنسان - عقله - أن يحكم  
 وأن يسيطر، حتى في شئون الغذاء والجنس، والحب  
 نفسه أيّ قيمة له إذا لم يقتنع به العقل تماماً؟ الحب  
 الأعمى سيظلّ أعمى ويتمخّض بعد الإشباع عن  
 خواء مكرّراً مأساتي مع مروانة، لذلك أتمنى أن يلعب  
 العقل دوره في حياتنا الحميمة كما يلعبه في المعمل،  
 وبفسس اليقظة والنزاهة والموضوعيّة، ويجب بالتالي أن  
 تتغيّر أغانينا وأشواقنا وأحلامنا.

ولا أزعج أنني استطعت أن أرتفع إلى هذا  
 المستوى، بل لعلّ عجزني كان عنصراً هاماً في المسألة،  
 كما أنني لا أدعو إلى تجاهل الغرائز أو الاستهانة بها  
 ولكن أتشوّف إلى تجنّب آثارها المدمرة على الحقيقة،  
 تصوّر أن نقيّم أنفسنا دون خضوع للأناييّة، أن نقيّم  
 أوطاننا بلا تأثر بما ندعوه الوطنيّة، وبصفة عامّة أصبح  
 الإنسان العاقل حلمي كما كان الإنسان الإلهي من  
 قبل... .

قلت له:

- هذه الصورة العقلية للعالم صورتها أناس في  
 كتبهم في صورة مخيفة... .

ساعدتني أكثر مما ساعدني أيّ مدرّس خصوصي.

وكانت تقول لي:

- الشهادة لا تهمّ في ذاتها ولكنها الوسيلة الوحيدة  
 المعترف بها للعمل، ثمّ إنّها تضيف على الدراسة جدّيّة  
 أكثر... .

ولم تفتر همتها في مساعدتي حتى بعد أن تغيّر مزاجها  
 العامّ بالحمل والوحم.

جمعنا رغم فارق السنّ والعلم حبّ يزداد مع الأيام  
 رسوخاً وهو بمأمن من النزوات وردود الفعل  
 العنيفة... .

لقد انتقلت من الفوضى والمخدرات إلى حياة زوجيّة  
 نقيّة وتحصيل للمعرفة بلا حدود، في نظام دقيق أفقدني  
 الكثير من مظاهر الحرّيّة السطحيّة، ولكنه فتح لي  
 أبواب الحرّيّة المضيئة التي يسمو بها الإنسان على ذاته  
 بالوعي، الوعي الذي يسعد به الإنسان الحرّ حتى وإن  
 أبصر بقوة أكثر مأساة الحياة الخافية.

\*\*\*

وهنا قاطعته قائلاً:

- حدّثني عن تجربتك مع الحقيقة والحرّيّة والمأساة.  
 فقال ضاحكاً:

- إلى من توجه كلامك؟ إنك في الواقع تخاطب  
 إنساناً لا وجود له، لم يبق منه إلا الخرابة التي تجالسك  
 الآن في مقهى ودود بالباب الأخضر، لقد مات، لقد  
 دفنت أكثر من شخص عاشوا في جسدي متتابعين ولم  
 يبق إلا هذه الخرابة.

وضحك مرّة أخرى ثمّ واصل:

- ولكنها خرابة غنيّة بالأثار على أيّ حال.

وتنحني ثمّ قال:

- لقد عشقت العقل وقدّسته فأحببت تبعاً لذلك  
 الحقيقة، العقل هو ما يعمل بالمنطق والملاحظة  
 والتجربة ليصل إلى حكم نقيّ تماماً ممّا يخلّ بالمنطق  
 والملاحظة والتجربة، وهو ما أسميته بالحقيقة.

وهذا العقل يُعتبر مخلوقاً حديثاً نسبياً إذا قيس  
 بالغرائز والعواطف، فالذي يربط الإنسان بالحياة  
 غريزة، والذي يربطه بالبقاء غريزة، والذي يربطه  
 بالتكاثر غريزة، ودور العقل في كلّ أولئك هو دور



- أعلم ذلك، لأنهم عاجلونها بقلوب رومانتيكية مريضة وسخيفة، ولكني أومن بأن العقل سيُغني الإنسان ذات يوم عن غرائزه وعواطفه فتصبح جميعاً مثل الزائدة الدودية.

- ولكن كيف انقلبت هذا الانقلاب الخطير من النقيض إلى النقيض...؟

- كما قلت لك من قبل إنني المحرك في الحياة بالطفرة، لقد اكتشفت عالم العقل فجأة ففتنت به، وأيقنت أنني كنت أغامر في خواء، وأني مدعو الآن حقاً للمغامرة في عالم الفكر، هذه هي المغامرة الحققة... .

فسألته باهتمام:

- وماذا عن الحرية؟

- مثل المغامرة، تمارسها أحياناً كمتعة للغرائز كما استمتعت بمروانته والنيبذ والمنزول، هي عبودية متنكرة في لباس حر، الحرية الحقيقية وعي بالعقل ورسالته وأهدافه وتحديد الوسائل بحرية الإرادة وتنظيمها التنظيم الدقيق الذي يجرها مجرى القيود، فهي حرية في لباس عبودية، وجرت حياتي على هذا النحو في رحاب بيت المنيل، فثمة ساعات للمذاكرة، وساعات للقراءة الحرة، وساعات للمناقشة والنزهة والحب، على طريق طويل رفعت على ساريتيه راية العقل... .

وهنا قلت له:

- هلأ حدثتني الآن عن المساسة؟

فنفخ وهو يقول:

- انتظر قليلاً، فثمة مساسة خاصة، ولكني أود أن أعرض عليك رؤياي عن مساسة عامة أولاً، هي مساسة الإنسان العاقل، فقبل خلق العقل كان الإنسان منسجماً مع ذاته وحياته، حياة صراع قاسية ولكن يبدو ألا حيلة له فيها، مثله مثل أي حيوان آخر، فلما أن وُهب العقل، وشرع يخلق الحضارة، حمل أمانة جديدة، مسئولية لا مفر منها، وفي الوقت نفسه هو غير أهل لتحملها، بدأ يدرك النظرة الشاملة، وأن حياته على الأرض هي حياة رجل واحد رغم التناقض الظاهري، ولكنه كان وما زال يمرّ بفترة انتقال تتواجد فيها الغرائز والعقل معاً، فما يقول به العقل تعارضه الغرائز، وما يزال النصر مقرّراً حتى اليوم للغرائز،

على الأقل في الحياة العامة، لم يظفر العقل بالسيادة المطلقة إلا في العلم، فيما عدا ذلك فهو يخضع للغرائز، حتى ثمار العلم نفسه تلتهمها الغرائز، وعلى حين يحتفظ العقل بلغته الخاصة في مجال البحث فاللغة التي تستجيب لها الملايين ما تزال هي لغة العواطف والغرائز، أغاني الجنس والوطن والعنصرية والأحلام السخيفة والأضاليل، هذه هي المساسة العامة، ولن تنقشع سحبها الحمراء إلا حين يعلو صوت العقل وتراجع الغرائز نحو الدبول والفناء... .

أما مساسي الخاصة فنشأت من الصراع بين عقلي وبين إيماني الراسخ بالله.

واعترضني السؤال، كيف تصون إيمانك إذا أردت أن تجعل من العقل هاديك ومرشدك؟

تزعزعت ثقفي في الإيمان الخالص كما تزعزعت في لغة القلب.

وعلى العقل أن يحلّ بقوة هذه المشكلة.

والقول بأنه لم يُخلق لذلك اعترافاً بالمعجز ليس إلا، واقتراحُ بديل له نسّميه القلب أو البداة اعتراف آخر بالإفلاس.

\*\*\*

- وماذا قال لك عقلك؟

- عجزت تماماً عن إدراكه أو تصوّره ولكنه لم يجد مفراً من افتراض وجوده، وهذه هي المساسة، وإذا قرّر أناس أن المشكلة مفتعلة، وأنه يمكن أن نعيش دون التفكير فيها، فقد كلّ شيء معناه مهها خلقنا له من معنى بقوة الخيال والإرادة والشجاعة، وإني لأحسد الذين يعيشون عيشة كبيرة وموتون راضين بلا إله... .

وكاشفت هدى بهمومي، وهي مؤمنة إيماناً بلغ من قوته أنها لم تبال يوماً بالصلاة أو الصوم، فقالت لي:

- لا يمكن تقبل الكون بغيره، ألا ترى إلى عمليات الخلق المتواصلة تحت أعيننا في عوالم النبات والحيوان والإنسان؟... فلا يمكن الشك في قوة الخلق... .

قلت لها:

- أريد علاقة حميمة واقتناعاً لا مفر منه مثل ١ + ١ =

٢.

فقلت هدى:

قلب الليل ٦٣٩

في أسطوانات ناجحة، وقد انتقل هو وأسرته إلى  
روض الفرج ولكنّه لم ينجب ذرية.

وقد ظلّ صديقي الوحيد حتى تعرّفت على زملاء  
من خان جعفر بمن سبقوني في التعليم وعملوا محامين  
ومدرّسين، وقد أفدت منهم في دراسي، ولم يقف  
أثرهم عند هذا الحدّ كما سوف ترى...

وسعدت بالأبناء أكثر من أيّ شيء آخر، كانوا  
آيات في الجمال والصحة والنضارة، وكان البكريّ  
صورة طبق الأصل من جدّه الراوي.

أما جدّي نفسه فما عرفت عنه إلا اليسير ممّا كان  
يبلغني عن طريق محمّد شكرون.

طعن الشيخ في السنّ، اعتكف في بيته بصفة شبه  
دائمة عدا الخروج لصلاة الجمعة، وخصّص ليلة  
واحدة لاستقبال الأصدقاء والمريدين، وأحياناً تستغرقه  
الشيخوخة فيخيّل إلى من يعاشره أنّه نسي همومه  
الماضية والراهنة، فبتّ أشكّ في أن أبقى مجرد ذكرى  
في روحه.

وتتابع النجاح والتفوّق والسنون حتى نلت درجة  
الليسانس في الحقوق.

وأتمت هدى نعمتها عليّ ففتحت لي مكتباً للمحاماة  
في ميدان باب الخلق، وأثنته بمكتبة غنيّة وحجرة  
استقبال فاخرة لا يوجدان عادة إلا في مكاتب كبار  
المحامين!

هكذا بدأت مرحلة جديدة من الحياة.

## ٧

كان وكيل المكتب هو محور النشاط فيه، فهو  
سمسار قضايا صغيرة تليق بمحام مبتدئ، وأنا أعمل  
في الواقع كتابع له وفي نطاق نشاطه.

ولكنّ مكتبي صار ملتقى للأصدقاء الذين اتّخذت  
منهم مرشدين في دراسي القانونية، وكانوا في الأصل  
أقران طريق من بعيد، وفي ذلك الملتقى الدائم تمّ  
الغزو السياسيّ لروحي...

أودّ أن أقول لك إنني لم أكن مقسوط الصلة  
بالسياسة كما قد تظنّ، ففي بيت جدّي كان يزوره  
فيمن يزورونه قوم من رجال السياسة، وكانوا جميعاً

- نحن نتكلّم عن القلب كنيح للإيمان ولكن تذكّر  
أنّ الله لم يعبد إلا الإنسان العاقل، فالعقل في الواقع  
هو أساس الإيمان ولكنّ عجزه النسبيّ عن إدراكه - مع  
حرصه عليه - جعله يُرجع الإيمان به إلى عضو آخر  
هروباً من التناقض.

فقلت لها:

- لقد أدرك الإنسان الحياة والموت والخوف فافترض  
عقله فرضاً لينقل الأمل، وحتى موسى نفسه أراد أن  
يرى الله!

\*\*\*

عند ذلك سألته:

- ماذا عن إيمانك اليوم يا جعفر؟  
فطوّح برأسه إلى الوراء مرسلاً بصره الضعيف نحو  
جدول النجوم الجاري بين مثلثة الحسين من جهة  
وأسطح البيوت العتيقة من جهة أخرى وتمتم:

- إنّي عاجز عن الكفر بالله!

\*\*\*

ثمّ واصل حديثه قائلاً:

- تقدّمت في الدراسة، أحرزت النجاح بعد  
النجاح، اتّسعت مداركي، تنوّعت ثقافتي، أنجبت  
أربعة ذكور، عشت فترة تُعتبر من أغنى وأسعد فترات  
حياتي.

وكان محمّد شكرون هو الذي يوصل النفقة  
الشرعية إلى أم مروانة، وعندما بلغ ابني الأكبر السنّ  
التي أستحقّه فيها قرّرت أن أسترده، وخاطبت في ذلك  
هدى فلم تمنع والحقّ يقال، ولكن تبيّن لي أنّ مروانة  
تزوّجت وأنها رحلت هي والأولاد إلى إحدى  
الواحات، بل قيل إنّها رحلت إلى ليبيا، واشتدّ حزني  
طويلاً...

ولم تمن صدّاقتي بمحمّد شكرون، كنّا نصليّ الجمعة  
معاً في جامع الحسين ثمّ تناول الغداء في الحليميّة،  
وقد اقتصر إسلام شكرون على صلاة الجمعة والامتناع  
عن الخمر في رمضان، وكان يؤكّد لي أنّ الفئانين أمثاله  
سيحاسبون حساباً ملطفاً تراعى فيه ظروف حياتهم  
ومتطلّبات مهنتهم، وكان نجاحه كمطرب من الدرجة  
الثانية قد تأكّد، كما أنّ ألحانه الشعبية ذاعت وطُبعت

والاشتراكية والشيوعية والوضعية والسلفية الدينية والفاشستية. وجدتي في دوامة صاخبة دار بها رأسي، وعملاً بمبدئي في تقديس العقل نزعته إليه أسأله الرشد وسط ذلك الطوفان.

وذاث يوم سألتني الأستاذ «سعد كبير» ونحن بصدد استعراض المذاهب، وسوف أقصر على ذكر اسمه لخطورة الدور الذي لعبه في حياتي ولتفاهة أثر الآخرين، سألتني:

- ما أنت؟

فقلت بعد تردد:

- لا شيء.

فقال بحق وكان شديد الحساسية والعصبية رغم ذكائه وشمول ثقافته:

- إنه الموت . . .

- ولكني دارس مجتهد ممن يقدرسون العقل.

- وهل يتم للعقل مضمونه دون أن يبدي رأيه في

نظام الحكم البشري؟

- ولكن . . . ولكن السياسة مصالح.

- المصالح تهدي الرجل العادي إلى حزبه ولكن

العقل يستطيع بنوره أن يميز بين الحق والباطل . . .

فتساءلت مبتسماً:

- أين توجهني مصالحها فيما تظن؟

- ولكنك بالعقل تستطيع أن تتجاوز موقفك . . .

- على أي حال يجب أن أعطي مهلة أطول

للتفكير.

وأفضيت بهمومي إلى هدى باعتبارها الصديق

الأول الذي لا أخفي عنه شيئاً، فقالت بلا تردد:

- لاحظ أن السياسة مفسدة للعقل.

فقلت لها وكأنما أعلن عما يضطرم في أعماقي:

- ذلك يتوقف على العقل نفسه . . .

فقلت لي بإيمان:

- في السياسة يجد العقل نفسه في محنة . . .

- ربما، ولكن لن يكون الحل في الحرب.

الحق أن التفكير أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياتي،

وما سمعته في مكتبي قد تحداني بعنف، فرحمت أنساءل

عن معنى ذلك كله، ورغم عواطف الصداقة المتبادلة

ذوي طابع واحد، فهم يجردون الصفوة التي يجب أن تحكم لخير الصفوة والرعاع والوطن.

وكان الحديث يدور كثيراً حول الدستور، لا باعتباره أساس الحكم للشعب، ولكن باعتباره وثيقة تمنحهم شرعية الحكم وتؤكد ذاتهم في مواجهة الحاكم، وكأن الميدان لا يشغله إلا الحاكم والصفوة.

وكانوا يستحوذون على إعجابي بفخامة منظرهم وشواربهم الكثة ولحاهم المهذبة، وكانوا يتحاورون بهدوء وتؤدة، ويتكلمون كثيراً عن العلم والتعليم والبعثات وتجديد الفكر الديني، ولم يخفوا احتقارهم للغوغاء وحكم الغوغاء، وأكدوا على حاجة الشعب إلى التربية الطويلة والتوعية المتواصلة حتى يحق له قدر من المشاركة المتواضعة في الحياة السياسية.

وسمعت جدي يتساءل مرة:

- إذن فالسياسة في نظركم مثل التصوف مضمون

بها على غير أهلها؟

وجاء الجواب بالإيجاب فتساءل جدي:

- ومن يرعى مصالح الغوغاء؟

وكان الجواب:

- نحن أصحاب المصالح الحقيقية، فنحن أهل الزراعة والتجارة والصناعة، أما الغوغاء فحاجتها لا تعدو حرفة للرزق وبعض الخدمات . . .

وملئت في ذلك الوقت إلى الاقتناع بتلك النظرية، والتسليم بها كوسيلة ناجعة لانتظام الأمور، وحدث الله على انتهائي في النهاية إلى الصفوة لا الغوغاء.

وقد مرت بنا أيام مثيرة، تعالي فيها اسم الشعب حتى ملأ الفضاء، وتدققت أمواج المظاهرات من الغوغاء كالطوفان، فراقبتها من فوق السطح بدهول وسرور.

بيد أنني لم أنفعل بالسياسة بقوة ملحوظة أبداً، وأمنت بأنه يمكن أن أبلو الحياة حلوها ومرها من غير أن أطرق للسياسة أبداً.

\*\*\*

في مكتبي بميدان باب الخلق غزتني السياسة بعنف لأول مرة، وعلى غير توقع.

اصطرعت في حجرة مكتبي أفكار الليبرالية

في مناخها تفتّحها وازدهارها...  
 - لعلّ هذا أقلّ ما يقال فيها!  
 - وفي الدين مزايا متوازنة لا تُعدّ ولا تُحصى.  
 ففقد أعصابه هاتفاً:  
 - اللعنة!  
 فقلت دون مبالاة بعصبيته:  
 - لا بدّ من الحقيقة ولو طال التخبّط...  
 وكانت هدى في الحقيقة ليبرالية أصيلة ترى في  
 النظام الإنجليزي مثلها الأعلى، وكانت تتابع تأملاتي  
 باهتمام مشوب بالقلق حتّى سألتها:  
 - لمْ تقلقين يا هدى؟  
 فقالت لي بصراحة:  
 - التفكير في السياسة قد يُتبع بنشاط سياسي وهو  
 أمر لا يخلو من خطورة.  
 فقلت لها متنهّداً:  
 - الأمان جميل ولكنّ في الحياة أشياء أهمّ من  
 الأمان...  
 - لذلك أشعر أحياناً بأنّ بقي السعيد أصبح  
 مهتدداً...  
 فقَبَلتْها وأنا أقول:  
 - كوني شجاعة كعهدي بك دائماً...  
 - أصبحت الموضة هذه الأيام أن يؤمن الشباب  
 بالشيوعية...  
 - ولكنّي أفكر يا عزيزتي فلا تهمني الموضة بحال  
 من الأحوال.  
 وواليت الدراسة والتفكير.  
 \* \* \*  
 وهنا فهقه عاليًا بصوت أزعج النائمين والهائمين في  
 الحارة التاريخية فسألته:  
 - ماذا يضحكك؟  
 - سأعترف لك بسرّ لم أبح به لإنسان، ولا لزوجتي  
 الصديقة.  
 - حقاً؟!  
 - خطر لي ذات مرّة أنّه توجد أوجه شبه بين حياة  
 النبيّ وحياتي!  
 وترثت قليلاً ولكنّي لم أعلّق فواصل حديثه:

فإنّني لم أشكّ في أنّ بعضهم ينظر إلى «وضعي الطبقي»  
 نظرة عدائية أصيلة، وبالتبعيّة جعلت - لأول مرّة -  
 أنظر إلى هذا الوضع باعتباره مشار نزاع سياسي  
 اجتماعي، كأنّما استيقظت فجأة لأجد نفسي مستلقياً  
 فوق فوهة بركان.

أجل فإنّني بصفتي حفيد الراوي أنتمي إلى الطبقة  
 الإقطاعيّة، وعليه فمصلحتي تتفق مع حكم الصفوة،  
 ولعلّها لا تتناقض بحدّة مع السلفيّة الدينيّة، ولكنّي لا  
 أتفق مع الليبراليّة الشيعيّة، وأما الشيوعيون  
 والاشتراكيون فهم أعدائي الطبيعيون، مثل عداوة  
 القطّ والفار، هكذا فُكرت، ثمّ تساءلت هل يتيسّر لي  
 رغم ذلك أن أحكمّ العقل بنزاهة بين هذه المذاهب؟  
 أو تخونني العواطف فأستخدمه كعبد ذكي؟  
 بوسعي أن أؤثر السلامة بتجنّب السياسة ولكنّي  
 آمنت بأنّ ذلك لا يتفق بحال مع احترام العقل  
 وتقديسه.

السياسة هي الحياة.  
 ولم ينقطع الحوار بيني وبين «سعد كبير» فقد وجدت  
 في موقفه التحديّ الحقيقيّ الذي يواجهني بكلّ  
 صلابة.

قلت له مرّة:  
 - السياسة عالم رحيب، مفاته موزعة على جميع  
 المذاهب!  
 فتقلّص وجهه الأسمر، دقيق القسيات، وقال:  
 - مغفور لك تردّدك فلا بدّ للفكرة من مهلة  
 حضانية.

- صبرك، إنّي أجد في الصفوة نبلاً وثقافة وعراقة  
 تاريخيّة.

- ممكن في نظام اجتماعيّ عادل أن يرتفع كافّة  
 الأفراد إلى مرتبة الصفوة...  
 فتفكرت ملياً ثمّ قلت:  
 - وفي الليبراليّة حرّيّة وقيم وحقوق للإنسان آية في  
 الجمال؟

- استغلّ ذلك كلّه لخدمة طبقة معيّنة.  
 فقلت بالإخلاص نفسه:  
 - وفي الشيوعيّة عدالة كاملة تجد المذاهب البشريّة

فقلت متململاً:  
- الجزم بالمادّية ليس أقوى في شرعة العقل من  
الجزم بالله...  
فقال بازدراء:  
- ما زلت مثاليًا.  
فهتفت بغضب:  
- لا ترمِ بالصفات الغريبة والتزم بالمناقشة  
الموضوعية.  
فرجع إلى الهدوء وقال:  
- ادرس، يلزمك مزيد من الدراسة.  
فقلت:

- ولكنني غير مقتنع بالنظرية على حين أنني أرى  
العدالة الاجتماعية بديهية لا تحتاج إلى نظرية.  
وانقطعتُ زمناً للدراسة والتفكير.  
وصار صدري معترجاً لصراع كالجحيم.

في ذلك الوقت لم أستمتع بصداقة زوجتي إلا  
قليلاً، ولم أهنأ بملاعبة أبنائي إلا خطفًا، ولاحت لعيني  
فكرة الرسالة كقوة واعدة ومسيطر، ومتواضعة في  
الوقت نفسه لأنني نذرت نفسي لإنقاذ البشرية في مصر  
فحسباً!

وكنت أفكر وأعاود التفكير، وأوجه إلى نفسي  
التحذير تلو التحذير من أن ينزلق تفكيري في مزالق  
العاطفة أو العقائد الموروثة.  
ولكي تتضح لي الأمور قرّرت أن أسجل افكاري  
على الورق.

فسألته باهتمام:

- وفعلت؟

- نعم.

- هل طبعتها في كتاب؟

- كلاً، سبقتني الأحداث.

- أتذكر خلاصتها؟

قال وهو يضحك:

- عرضت تاريخياً موجزًا للمذاهب السياسية  
والاجتماعية، من الإقطاع حتى الشيوعية، ثم عرضت  
مشروعي الذي يقوم على أسس ثلاثة، أساس  
فلسفي، مذهب اجتماعي، أسلوب في الحكم، أما

- فقد توفي والدي وأنا دون الوعي وتوفيت أمي  
وأنا لم أكد أجاوز الخامسة من عمري فتكفلني جدّي،  
ثم تصوّرت خروجي من قصر جدّي نوعاً من الهجرة.  
- ولكنّ النبي لم يهاجر من أجل المغامرة.  
- كلاً... كلاً... إنه تشابه وليس تطابقاً...  
ثم جاء زوجي من سيّدة ذات حسّ ونسب تكبرني  
في العمر، وكيف وجدت في المناخ الذي هيأته لي  
فرصة طيبة للدراسة والتفكير، تأملت ذلك فخطر لي  
أنني سأكون صاحب رسالة أيضاً...  
فتساءلت ضاحكاً:

- رسالة دينية؟

- لكن رسالة من نوع جديد، ولكن سرعان ما  
فتنتني الفكرة فبثُ أسيراً لها... وواليت الدراسة  
والتفكير.

وكنت أحذر نفسي دائماً من خدع الغرائز والعواطف  
لأنني تفكيري من كلّ شائبة.

ووصلت إلى أولى النتائج، وهي أنّ نظامنا  
الاجتماعي غير معقول، ظالم، وأنه مستول عن أدوائنا  
من الفقر والجهل والمرض، وأني لست من الصفوة كما  
توهمت كثيراً ولكنني فرد من عصابة، واحتجّت هدى  
على هذا الوصف ونوهت بشرف أجدادها، ولكنني  
أخذت في تحليل أسباب الثراء من الهبات والانتهازية  
والاستغلال والعسف والقوة حتى اقتنعت بأنه لا يوجد  
ثراء مشروع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة...  
وشجّعني سعد كبير قائلاً:

- هذا الاتجاه طيب يعدّ بخاتمة طيبة، ولكن عليك  
أن تبدأ بالمادّية الجدلية والمادّية التاريخية...  
فقلت بثقة:

- إني أقف موقفاً واحداً من جميع الفلسفات،  
والفلسفة الماركسيّة ليست إلا فلسفة من الفلسفات  
فماذا تتحوّل إلى عقيدة، ولماذا تفرض نفسها بالقوة  
والدكتاتورية؟

- ليست فلسفة من الفلسفات، ولكنّها أنزلت من  
سواء التأمل النظري لتطبّق على حياة الناس، ولتعطي  
للبرسيّة أملاً جديداً، فهي تستحقّ أن تكون  
عقيدة...  
فقلت بثقة:

## قلب الليل ٦٤٣

- أتوقع أن تقتنع برأيي .  
 - ثم ماذا؟  
 - ثم نكوّن جمعية... هيئة... حزبًا...  
 فضحك ضحكة باردة وتمتم:  
 - يا للخسارة!  
 فقلت عتدًا:  
 - إنكم مسلوبو الإرادة والتفكير!  
 فقال بجديّة تامّة:  
 - أنت تعلم على الأقل أننا جادون، وأنا نحمل  
 رهوسنا على أكفنا، وأنا نؤمن بالإنسان!  
 - إنني أؤمن بالإنسان أكثر منك، لا أصدق أنّ  
 مؤمنًا حقًا بالإنسان يمكن أن يقتنع بنظام دكتائوري،  
 وإنني جادٌ أيضًا، وعلى استعداد لحمل رأسي على  
 كفي...  
 - ماذا تنوي أن تفعل؟  
 - سأكوّن جمعية أو حزبًا...  
 وقام سعد كبير وهو يقول بفتور:  
 - لنا رجعة ورجعة ورجعة...  
 وقبل أن أشرع في الدعوة إلى تكوين الجمعية  
 شاورت زوجتي في الأمر فانزعجت جدًّا، وكانت قد  
 قرأت المخطوط بعناية، وقالت:  
 - إنك قانوني وتعلم أنّ دستور البلاد يعتبر  
 الشيوعيّة جريمة.  
 فقلت:  
 - الشيوعيّة شيء ومذهبي شيء آخر...  
 - إنك تدعو إلى نظام اجتماعي شيوعي وهذا هو ما  
 يهّم القانون وواضعيه...  
 - يمكن أن أغير صياغة البند الثاني فإني أجد مثلاً  
 أنّ كلمة الاشتراكية مقبولة ثمّ إنني مؤمن بالله رغم  
 أنّني لا أريد فرض الإيمان على أحد، وأخيرًا فإني  
 مستمسك بالنظام الديمقراطي كما يمارس في الغرب،  
 ألا يُبعد كلّ ذلك الشبهة عني؟  
 - لا أظنّ يا عزيزي، فإني أراك في الواقع شيوعيًا  
 قحًا في الأمر الجوهري الذي يهّم من يملكون ومن لا  
 يملكون...  
 - المسألة أنّك يا هدى لا تؤمنين بي...

الأساس الفلسفيّ فمتروك لاجتهاد المرید، له أن يمتنع  
 المادّيّة أو الروحيّة أو حتّى الصوفيّة، والأساس  
 الاجتماعيّ شيوعيّ في جوهره يقوم على الملكيّة العامّة  
 وإلغاء الملكيّة الخاصّة والتوريث والمساواة الكاملة  
 وإلغاء أيّ نوع للاستغلال وأن يكون مثله الأعلى في  
 التعامل «من كلّ على قدر طاقته ولكلّ على قدر  
 حاجته»، أمّا أسلوب الحكم فديموقراطيّ يقوم على  
 تعدّد الأحزاب وفصل السلطات وضمان كافّة الحريّات  
 - عدا حرّيّة الملكيّة - والقيم الإنسانيّة، وبصفة عامّة  
 يمكن أن تقول إنّ نظامي هو الوريث الشرعيّ للإسلام  
 والثورة الفرنسيّة والثورة الشيوعيّة.

وأعطيت نسخة من المخطوط للأستاذ سعد كبير وأنا  
 أقول:

- هاك رأيي...

فتناوله بدهشة وهو يتمتم:

- حقًا؟!

فقلت بإصرار:

- ولن تخيفني نعوتك المشهورة، برجوازي...  
 تصالحني... تجميعي، فمن حقّي أن أنشئ مذهبًا  
 جديدًا إذا لم أقتنع بالمذاهب القائمة...  
 فلاحث في عينيه نظرة ارتياح وقال:  
 - بشرط أن تنشئ حقًا لا أن تلتفّق.  
 فقلت غاضبًا:

- جميع المذاهب أخذ وعطاء.

وقرأ سعد كبير المخطوط في مكثبي حتّى فرغ منه في  
 حوالي الساعتين أو أكثر ثمّ تنهّد طويلًا وتمتم:

- لا فائدة!

فانتظرت متوتبًا فعاد يتمتم وكأنما يجادث نفسه:

- سمك لبن تمر هندي!

فقلت له:

- أفصیح.

فقال بعصبية:

- تلفيق... أحلام يقظة... خيال... تجميع ما

لا يجتمع... لا شيء...  
 - أهذا هو رأيك النهائي؟

- ماذا تتوقع؟

- إني ديمقراطيّة، وأرى الديمقراطية نظامًا لا ينقصه كي يبلغ الكمال إلا الرعاية الإنسانية للجماهير الشعب! وإنه لا يداخلني شك في أنّ المواطن الإنجليزي مثلاً يتمتّع بحياة أفضل من المواطن الروسي... .
- أما أنا فلا أشارك الإيمان بذلك... .
- فقلت بشيء من الاستياء:
- حسن، طالما اتّفقتنا في كلّ شيء، والآن أنّ لنا أن نختلف!
- وكان سعد كبير يحاول من ناحيته إقناعها بالماركسيّة.
- كان الأصدقاء يتناولون العشاء كثيرًا على مائدتنا، ودعوت محمد شكرون معهم ولكنّه لم يرتح إلى صحبتهم وتلقّى مناقشاتهم بالتناوب.
- وأظنّ أنّه يجب أن تعرف شيئًا أكثر عن سعد كبير، لقد كان أحد الأصدقاء الذين يجتمعون في مكثبي للمناقشة، يمثّلون في مجموعهم جميع المذاهب حتّى المذهب الإقطاعيّ البائد، ولكنّه كان أشدهم حماسًا وتفاعلاً مع مصري، كان محامياً مبشراً، راسخاً في مادته، ذا ثقافة واسعة، ومقدرة في الجدل والمحاضرة، وكان ذا طبيعة حادة متأسكة، شديد اليقين بما يؤمن لحدّ التعصّب الأعمى، من الذين يعملون بكلّ قواهم في أنجاه واحد، ولا يتوانى عن تحطيم خصمه بكلّ الوسائل البلاغيّة والمناورات الغريبة التي تثير ثائرة من يحترم العقل ويقدّسه مثلي.
- وقد لمحت في عيني هدى إعجاباً به واستسلاماً لجدله الحماسي العنيف.
- وذات يوم قال لي محمد شكرون:
- أصحابك لا يعجبونني... .
- فقلت له متودّداً:
- ولكنّهم طيبون.
- فقال بفتور:
- ربّما لكنّ المدعو سعد كبير ليس بالطيب.
- ولكنّه رجل ممتاز بكلّ معنى الكلمة.
- ربّما... . لكنّه أذكى ممّا يجب.
- فضحكت مؤمناً بقوله فعاد يقول:
- لا تفتح بيتك لكلّ من هبّ ودبّ.
- فأنست من صوته ما يشبه الاحتجاج أو التحذير فاشتعل وجداني وسألته:
- ماذا تعني يا شكرون؟
- فقال متهمّراً:
- المسألة أنّي لا أرتاح إليه.
- فقلت بحدّة شديدة:
- أفصّح!
- لأنّه من النوع المُعتدّ بنفسه ولكنّه ليس أهلاً للثقة.
- إنك تقصد أشياء أكثر من ذلك... .
- أبدأ، وأقسم على ذلك برأس الحسين!
- بعد ذلك الحوار لم أرجع إلى طمانيني السابقة، وجعلت أراقب ما يدور حولي بدقّة وسوء ظنّ، وفي الوقت نفسه أبت عليّ كرامتي أن أغيّر من نظام الأشياء، ولو بدر مئي أمر كهذا لأغضبت بلا شك سيّدة أبيّة مثل هدى، ولسقطت في نظرها، ولكنّي جعلت أراقب وأحترق من شدّة الانتباه والقلق، كان ينهمك في الحديث معها فتتهمك معه، ووضح لي أنّ أسلوبه في الحوار يعجبها ويبعث فيها حيويّة دافقة وأنّها تبدو في شوق دائم إلى المزيد منه.
- وقلت لها في أعقاب سهرة:
- لن أدهش إذا اعترفت لي فجأة بأنك شيوعيّة!
- فابتسمت متسائلة:
- أغرّك إقبالي على حديثه؟
- وتأثرك به... .
- إنّه شخص ممتاز ولذلك فأني أرثي له!
- كانت هدى في ذلك الوقت في الخمسين أو جاوزتها بقليل وكان سعد كبير في الثلاثين، ولم يكن بقي في قلبي لها إلا صداقة عميقة، ورغم ذلك ركّبتني الهمّ، ورحت أتساءل عمّا عناه محمد شكرون، هل رأى أكثر ممّا رأيت، هل كتم عنيّ أشياء، هل تعاني هدى أزمة من أزمات الشيخوخة؟ ولكنّها كانت وما زالت مثلاً للعقل والرزانة، ولم أعثر من ناحيته على إشارة واحدة تستحقّ الريبة، لا إشارة ولا حركة ولا كلمة، ورغم ذلك كلّهُ اهتزّ عقلي المقدّس، وسقطت فريسة

بدأت ألثت تناولت قِطاعة الورق . . .

\*\*\*

وصمت ملياً .

ورحت أتمخيل المنظر .

ثمّ واصل حديثه .

- صورة وجهه لا يمكن أن تُنسى، أعني بعد أن غرزت النصل الحادّ في عنقه، وجهه وهو ينطفئ هابطاً إلى قرارة الظلمة، وهو يتخلّى عن المعركة ويستسلم للمجهول، وهو يتخلّى عن الجدل والذكاء والمجد وكلّ شيء .

هتفت :

- قتلت يا جعفر؟

- أصبح جعفر الراوي قاتلاً .

- يا للخسارة!

- وقفت أتأمل جثته الملقاة بين المكتب والكنبة الجلديّة في دُحول بارد سرمديّ وأنا أشعر بأنني تخفّفت دفعة واحدة من كافّة أعباء الحياة وانفعالاتها ثمّ غصت فجأة إلى أعماق دنيا العلم فرأيت من كوّة في جدارها المتهافت شبح المأساة وهو يجري بعيداً عنيّ، في كون آخر مضادّ لا تربطني به صلة بشريّة، وسمعت صوتاً، لعلّه صوتي أو صوت آخر يهتف مذبحاً «يا عقلي المقدّس، لماذا تخليت عنيّ؟» .

- يا للخسارة . . .

- من رئاسة حزب إلى التأييد!

وبعد صمت ثقيل قصير سألته :

- أكان للقتل ما يبرّره؟

- من ناحية فللقتل ما يبرّره دائماً ومن ناحية أخرى

فلا شيء يمكن أن يبرّر القتل .

- أعني هل وجدت في شكوكك ما يبرّر القتل؟

- لا شيء البتّة، صدّقني، وجاء انهيار زوجتي حزناً

عنيّ مؤكّداً لحماقتي، كأنّ المأساة قد وقعت لتسخر من

عابد العقل ومقدّسه، هذا كلّ ما هنالك . . .

- وهل ورد في المحكمة ذكر لشكوكك؟

- كلّاً، أبيت ذلك كلّ الإباء، فصور الموضوع في

المحكمة باعتباره نزاعاً بين شيوعيين أدى إلى

القتل . . . ، وكنت في السجن أصرّ على اعتباري مجرماً

لانفعالات مبهمة . . .

ثمّ اجتاحتني المأساة كأنّها زلزال غير مسبوقه بأسباب

واضحة . . . .

\*\*\*

وصمت ملياً فتساءلتُ :

- المأساة؟

فضحك ولم ينبس فعدت أتساءل :

- المأساة؟ . . . ماذا قلت؟ . . .

- وقعت المأساة وأنا أتأهب لتكوين الحزب .

- ثمّ ماذا؟

- وأتيتاً لخوض غمار المعركة متحدّياً اليسار واليمين معاً .

وواصل حديثه متنهّداً :

- كنّا مجتمعين في مكثبي أنا وسعد كبير منفردين، وجرى الحديث، حاداً من ناحيته كالعادة وحاداً من ناحيتي على غير العادة . . .

قال ثائراً :

- إنك تتوهّم أنك صاحب مذهب ميتافيزيقيّ اجتماعيّ سياسيّ، إنّ أيّ مذهب خليق بأن يستغرق عمراً كاملاً في تكوينه، ولكنّ القارئ يطلع على المذاهب كلّها في عام أو عامين، وقد يتراءى له أن يقوم بعملية انتخاب من المذاهب يظنّها تفكيراً وهي ليست إلاّ عملية انتخاب للجمع بين متناقضات يستطيعها أيّ مخلوق، ويمكن بهذه الطريقة أن يكون لدينا مذاهب بعدد غير الأمتين في العالم!

وصحت به على غير توقّع منه :

- وقع . . . قليل الأدب . . .

نظر إليّ بدُحول وتمتم :

- ماذا؟

فصحت بإصرار :

- وقع . . . قليل الأدب . . .

فتساءل بحقن :

- أنسيت أنّك تخاطب أستاذك؟!

وثبت عليه .

لطمته، لكمني، اشتبكنا في صراع خفيف، لم يوجد من يخلص بيننا، كنت أقوى منه وكان أكثر شباباً، ولما



سياسيًا ولكني اعتبرت مجرد قاتل، وحتى اليوم فإني  
مصّر على آني مجرم سياسي، ما رأيك؟

- لعلك مجرم نصف سياسي!

- ولكن لولا السياسة لما وقعت الجريمة أصلاً...

- ربما... ولكن ماذا كان موقف جدك؟

- قبيل الحادث بأيام جاءني محمد شكرون وأخبرني  
أنّ جدّي مريض جدًّا، واقترح عليّ أن أزوره مصطحبًا  
زوجي وأبنائي، شاورت هدى في الأمر فرحبت به  
جدًّا، وأجلت الزيارة ليوم الجمعة ولكنّ الجريمة وقعت  
مساء الخميس، ولم يصلني من ناحيته رسول أو رسالة  
ولا عرفت حتى إن كان علم بجريمتي.

المهمّ آني طالبت في السجن باعتباري مجرمًا سياسيًا  
رغم أنّه لا توجد تفرقة في المعاملة بين المجرم السياسي  
والمجرم العاديّ، واشتهرت بذلك فصرت به دعاية،  
واعتبر أحيانًا شعبًا تعرّضت بسببه لعقوبة الجلد، وقد  
زارتني هدى مرّة واحدة...

فتساءلت باهتمام:

- هل انقطعت بعد ذلك...؟

- انتقلت إلى جوار ربّها!

ثمّ واصل:

- حزنّت جدًّا، وقلقت على الأبناء جدًّا، ثمّ  
أخبرني شكرون أنّ عمّة والدتهم تكفّلت بهم وأنهم  
سافروا إليها في المنيا ليقوا تحت رعايتها ولا شكّ أنّهم  
نسوي سريعا كما نسيت أمي في مثل سنّ أكبرهم، وفي  
زيارة تالية أخبرني محمد شكرون أنّه سيقوم برحلة فنيّة  
في شمال أفريقيا فانقطعت أخباره عني حتى اليوم، مات  
جعفر الراوي ومات العالم الخارجي...

واصلت الجهاد في السجن داعيًا إلى مذهبي الجديد  
فناصطدمت بجهل وسليّة وسخرية، حتى مأمور  
السجن دعوته، وكان يعطف عليّ لأصلي ومهنتي وسوء  
حظّي...

وفي السجن ضعف بصري وأصبت بأمراض شتى.

وخرجت وحالي كما تراني أمامك.

خرجت وحالي كما تراني أمامك، خرابة من

الخرابات...

عجوز مريض نصف أعمى يحمل حفنة من  
الذكريات لا تصدّق.

ولكنّي لم أفقد صفاء الذهن ولا قوّة الإصرار ولم  
ينطفئ في قلبي سحر الآراء.

وقلت لو أعثر على محمد شكرون فقد أجد فيه  
الخيطة الذي يوصلني إلى قلب الأشياء، ولكنّي لم أعثر  
له على أثر، ولم أصادف أحدًا يعرفه وكأنّه لم يطرب  
بصوته جيلاً من الناس، وفي معهد الموسيقى الشرقيّ  
أخبرني أحدهم بأنّه - محمد شكرون - أقام في المغرب  
ثمّ انقطعت أخباره.

وذهبت إلى قصر الخلميّة فوجدت مكانه عمارة  
شاهقة تملكها شركة تأمين، وكنت قد ورثت عن  
زوجتي مبلغًا محترمًا من النقود أنفقت أكثره في السجن  
في شراء السجائر وخلافه ولم يكذب يبق من شيء ذو  
بال.

وذهبت أيضًا إلى عيش التريجان ولكنّي لم أجد لها  
أثرًا، لقد اجتاحتها العمران فتحوّلت إلى حيّ ستان  
ومحطّة بنزين.

وعثرت على زملاء غير قليلين، بعضهم على المعاش  
وبعضهم ما زال يعمل في المحاماة، وأصارك بأنّه لم  
يتهرّب مني أحد، واستقبلي بعضهم بحرارة، منهم  
من لا يزالون على حماسهم الأوّل لعقائدهم ومنهم من  
شغلته الحياة ومطالبها.

ولكن أين أبناء مروانة وأين أبناء هدى؟

وقرّرت أنّه لا خير يرجي من الاهتداء إليهم وأنّي  
يجب أن أتركهم دون إزعاج، ويطيب لي أحيانًا أن  
أتمنّى حيواتهم وحياة أحفادي منهم، أجل يوجد بينهم  
الآن قطاع طرق وقضاة ولعلمهم أكثر مما أتصوّر، ولعلّي  
أصادفهم في مخبّطي فلا أعرفهم ولا يعرفوني...

ولما فرغت من هذه الأمور العاجلة فكّرت في إمكان  
استئناف الجهاد في سبيل مذهبي وتكوين الحزب، غير  
أنّي اصطدمت بعقبات ليس من اليسير تذليلها، منها  
سنيّ الطاعة وضعفي الشديد، وسحتني التي أصبحت  
تثير الرثاء بل وأحيانًا الاشمئزاز.

إنّ الزعيم كما تعلم يجب أن يحوز شخصيّة ذات

## قلب الليل ٦٤٧

وضحك ضحكة قصيرة ثم سكت وهو ينفخ،  
فقلت برثاء:

- شيخوخة غير سعيدة.

فهتف بكبرياء:

- كلاً، إنّي أرفض الرثاء والعطف، تذكر دائماً أنك  
تخاطب عظيمًا من الرجال، ومن أسباب عظمته  
السحرية أنه قادر على التكيف مع أقصى الظروف  
والأحوال فيخوضها بكلّ تعالٍ وابتسام!

وأمّنت بقوله ولكنني قلت:

- على أيّ حال فإنّ الإعانة الشهرية التي...

فقاطعي بحدّة:

- لقد أخذت فيها قرارًا!

- لم أظنك جادًا فيما قرّرت.

- ولكنني جادٌ كلّ الجدا!

- أتعني أنك لن تكتب الالتماس؟

- قطعًا!

- ولكنّه الجنون عينه...

- سمّه كما تشاء، لقد حرمني الراوي من تركته

وإنّي أرفض أن أتسوّل منها مليًّا واحدًا!

- ولكنك يا جعفر عجوز وضعيف وفقير وسرعان

ما تنفذ النقود المتبقية لديك...

- أعرف هذا حرفًا وحرفًا ولكنني أعتد من الراوي

نفسه...

- دعني أكتب الالتماس بنفسي.

- إنّي أرفض.

- ولكن...

- إنّي أرفض الكلام حول هذا الموضوع...

وساد الصمت، وكان التعب قد نال منه محدثًا كما

نال منّي مستمعًا...

وتشاءت فضحك قائلاً:

- إنّي لا أتشاء قبل الفجر.

فتمتت بفتور:

- عفارم.

- إنّي صعلوك متجول، أغادر خرابة الراوي لأهيم

على وجهي في الطرقات، من مرجوش إلى الخرنفش

إلى النحاسين إلى خان جعفر، في كلّ مكان لي ذكرى

قوة وجاذبية معًا، فضلًا عن ذلك فإنّ ميدان السياسة  
حافل بالشخصيات ذوات الحيوية والتأثير فقلت أسجّل  
نظريتي في كتاب فإن أعجزني ذلك - ولا بدّ أن  
يعجزني - فإنني سأدعو إليها حيثما أسير، وقد يتبناها عني  
شخص أقدر على نشرها وتحقيقها مني...

عند ذاك بدا لي أنّه لم يبق لي إلاّ الراحة القهرية  
القصيرة التي تسبق الراحة الأبدية...

\*\*\*

ولاذ بالصمت مليًّا ثمّ تمتم بهدوء:

- طالعي من الماضي وجه الراوي...

هممت بالحديث ولكنّه بادرنى قائلاً:

- لم أكن أشكّ في وفاته، ولكن ما مآل ثروته  
وقضره؟... ووقفت تحت سور القصر الشاهق وهو  
قائم كالجبل، وتسلّلت إلى العطفة نحو الباب الكبير  
فادهشني أن أجده مواربًا...

وصمت لحظات ثمّ قال:

- دفعت الباب قليلًا ودخلت فرأيت منظرًا لم  
أتوقّعه، لم أتصوّره، لم يجر لي في خاطر، لا الحديقة  
هناك ولا السلامك، لا أخلاط العبير ولا زقزقة  
العصافير، ولكن خرابة مترامية وأكوام من النفايات  
ونفر من الصعاليك...

فهتفت مستغربًا:

- كيف... هل هدم؟

- لا شيء إلاّ الخراب يحيط به جدار شاهق وباب  
عظيم، ونظر إلى الصعاليك بحذر وارتباب، فضربت  
الأرض بقدمي، ورحت أبحث عن أحد حيّ من  
مريدي جدّي، وفي أثناء بحثي وتجوّلي علمت أنّ  
الراوي توفيّ بعد سجنّي بعام واحد، وبأنّه أوقف ثروته  
كلّها على الخيرات دون أن يخصّص لي مليًّا واحدًا ولا  
لاحد من ذريّتي، أمّا القصر فقد ألقيت عليه قبلة في  
إحدى الغارات الجوية ثمّ أزيلت أنقاضه، هذه هي  
القصة كلّها من أوّلها لآخرها، وأدركت في الحال أنّني  
لن أظفر براحة في الراحة القهرية القصيرة التي تسبق  
الراحة الأبدية، ولكنني قرّرت أن أجعل بيتي في  
الخرابة المتخلفة عن قصر جدّي، وإنّي أنام فيها عادة  
ما بين الفجر والضحى كصعلوك من الصعاليك.

## ٦٤٨ قلب الليل

- ونجوى، وفي الحلمية ذكريات، وفي ميدان باب الخلق  
يخفق قلبي، وفي كل مكان أدعو دعوة صريحة إلى  
مذهبي، أدعو البشرية إلى إنقاذ نفسها.
- مذهبك؟  
- أجل...  
- علانية؟  
- أجل...  
- يجب أن تحذر المتاعب.  
- إني لا أخشى المتاعب...  
وقلت لنفسي إن هيبته لا توحى بأي جدية فلا  
خوف عليه.
- واستنمنا إلى الصمت مرهقين.  
وفي لحظة من التخدير والأسى انطلق صوت المؤذن  
يعانق أمواج الظلام.  
وتمطى جعفر قائلاً بصوته الرنان الخشن:  
- آن لنا أن نذهب...  
سرنا جنباً إلى جنب، اخترقنا القبو إلى الميدان  
وهمس جعفر:  
- لتمتلئ الحياة بالجنون المقدس حتى النفس  
الأخير.  
وكان رأسي يطنُ بحديث الليل الطويل.

حمزة المحترم

- بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة .  
فقال صاحب السعادة بنبرة مشجعة :  
- العالم يتقدم ، كل شيء يتغير ، ها هي البكالوريا  
تحل محل الابتدائية .  
اطمأنت القلوب ودارت فرحتها بمزيد من  
الخشوع ، فقال الرجل :  
- حققوا المأمول منكم بالاجتهاد والاستقامة .  
وراح يراجع بياناً بالأسماء حتى سأل عن غير توقع :  
- من منكم عثمان بيومي ؟  
دق قلبه دقة قوية جداً . وقع نطق الرجل لاسمه  
من نفسه موقفاً مؤثراً عنيفاً . تقدم خطوة مطرقاً  
وهمس :

- أنا يا صاحب السعادة !  
- ترتيبك ممتاز في البكالوريا فلم لم تكمل تعليمك ؟  
صمت . اضطرب . لم يدرك في الواقع ماذا يقول  
بالرغم من حضور الجواب في وعيه طيلة الوقت . وعنه  
أجاب مدير الإدارة كالمعتاد :

- لعلها ظروف يا صاحب السعادة !  
سمع المهمة مرة أخرى ، سمع صوت القدر .  
ولأول مرة شعر بأن نمة زرقه تخضب الجوّ ، وأن رائحة  
طيبة غريبة تجول في المكان . ولم يحزنه أن يشار إلى  
«ظروفه» المعروفة بعد أن تقدّس شخصه بعطف  
صاحب السعادة وتقديره . وقال لنفسه إنه يستطيع أن  
يجارب جيئاً بمفرده فينتصر عليه . والحق أنه ارتفع  
وارتفع حتى غاص رأسه في السحاب ، وثمل لدرجة  
العريضة الوحشية . أما صاحب السعادة فنقر على حافة  
المكتب وقال مؤذناً بالختام :

- شكراً ، ومع السلامة . . .  
وهو يغادر المكان قرأ في سره آية الكرسي .

١

انفتح الباب فترأت الحجرة مترامية لا نهائية .  
ترأت دنيا من المعاني والمثيرات لا مكاناً محدوداً منطوياً  
في شقّي التفاصيل . آمن بأنها تلتهم القادمين وتديبهم .  
لذلك اشتعل وجدانه وغرق في انبهار سحري . فقد  
أول ما فقد تركيزه . نسي ما تاقت النفس لرؤيته ،  
الأرض والجدران والسقف . حتى الإله القابع وراء  
المكتب الفخم . وتلقى صدمة كهربائية موحية بخلافة  
غرست في صميم قلبه حباً جنونياً ببهجة الحياة في  
ذروتها الجلييلة المتسلطة . عند ذلك دعاه نداء القوة  
للسجود ، وحرّضه على الفداء ، ولكنه سلك مع  
الأخرين سلوك التقوى والابتهاال والطاعة والأمان .  
كالوليد عليه أن يلذف الدمع الغزير قبل أن يملي  
إرادته . وتلبية لإغراء لا يقاوم خطف نظرة من الإله  
القابع وراء المكتب ثم خفض البصر متحلياً بكل ما  
يملك من خشوع .

وكان حمزة السويفي مدير الإدارة يتقدم الموكب  
الصغير فقال مخاطباً المدير العام :

- هؤلاء هم الموظفون الجدد يا صاحب  
السعادة . . .

مرّ ضوء عينيه على الوجوه ، وعلى وجهه ضمناً ،  
فجال بخاطره أنه دخل تاريخ الحكومة ، وأنه يحظى  
بالمثل في الحضرة . وخيل إليه أنه يسمع مهمة من  
نوع عجيب ، لعله يسمعها وحده ، ولعله صوت القدر  
نفسه . ولما استوفت الفراسة امتحانها الوثيد تكلم  
صاحب السعادة . تكلم بصوت بطيء وهادئ  
ومنخفض فلم يكشف عن شيء يُذكر من جوهره . قال  
متسائلاً :

- جميعهم من حملة البكالوريا؟

فأجاب حمزة السويفي :

لانهاية كذلك. وأشار الرئيس إلى مكتب خالٍ متآكل  
الجلدة منجرد اللون ملطخ ببقع حبر باهت وقال:  
- مكتبك، تفحص الكرسي بعناية فإن أحقر مسار  
قد يبتك بدلة جديدة...  
فقال عثمان:  
- بدلتني قديمة جدًا والحمد لله...  
فواصل الرجل تحذيره:  
- واقرأ الصمدية عندما تفتح دولابًا من دواليب  
شحن فقبل العيد الماضي طلع علينا من أحد الدواليب  
ثعبان لا يقل طوله عن متر...  
وضحك حتى سعل ثم استدرك:  
- ولكنك لم يكن من نوع سام...  
فتساءل عثمان بقلق:  
- وكيف نفرق بين السام وغير السام؟  
- عندك فراش المحفوظات فهو أصلًا من أبو  
رواش وهي بلدة الشعابين...  
وتناسى ذلك واعتده مزاحًا. وراح يلوم نفسه كيف  
فاته أن يرى بكل عناية حجرة صاحب السعادة المدير  
العام، كيف فاته أن يملأ عينيه من وجهه وشخصه،  
كيف لم يحاول أن يقف على سرّ السحر الذي يخضع به  
الجميع فيجعلهم طوع إشارة منه. هذه هي القوّة  
المعبودة وهي الجمال أيضًا. هي سرّ من أسرار الكون.  
على الأرض تطرح أسرار إلهية لا حصر لها لمن له عين  
وبصيرة. إنّ الزمن قصير بين الاستقبال والتوديع ولكنه  
لانهاية أيضًا. الويل للذي ينسى هذه الحقيقة. ثمّة  
أناس لا يتحركون مثل سعفان أفندي بسيوني. الرجل  
الطيبّ التمس. إنه يترنم بحكمة لم يتعلّم منها شيئًا.  
كذلك كان أبوه عمّ بيومي. ليس كذلك من مسّت  
النار المقدّسة قلوبهم. هناك طريق سعيدة تبدأ من  
الدرجة الثامنة وتنتهي متألفة عند صاحب السعادة  
المدير العام. هذا هو المثل الأعلى المتاح لأبناء الشعب  
ولا مطمح لهم وراء ذلك. تلك هي سدرة المنتهى  
حيث تتجلى الرحمة الإلهية والكبرياء البشريّ.  
ثامنة... سابعة... سادسة... خامسة...  
رابعة... ثلاثة... ثانية... أولى... مدير عامّ.  
معجزتها تتحقّق في اثنتين وثلاثين عامًا، وربما تحققت  
في أكثر من ذلك. أمّا الساقطون في وسط الطريق فلا  
حصر لهم. إنّ النظام الفلكي لا يطبق على البشر  
وبخاصّة الموظفون منهم... والزمن يستكنّ بين يديه

- إنّي اشتعلت يا ربّي.

النار ترمي روحه من جذورها حتى هامتها المحلّقة  
في الأحلام. وقد تراءت له الدنيا من خلال نظرة  
ملهمة واحدة، كمجموعة من نور باهر، فاحتواها  
بقلبه وشدّ عليها بجنون. كان دائميًا يجلم ويرغب  
ويريد ولكنّه في هذه المرّة اشتعل، وعلى ضوء النار  
المقدّسة لمح معنى الحياة. أمّا على الأرض فقد تقرّر  
إلحاقه بالمحفوظات. لم يهّمه كيف يبدأ فالحياة بدأت  
من خلّة واحدة بل من دون ذلك. وهبط إلى مقرّه  
الجديد وجناحه ترفرفان، يشقّ طريقه إلى بدروم  
الوزارة. طالعته قتامة، ورائحة أوراق قديمة، ورأى  
سطح الأرض في الخارج عند مستوى رأسه من خلال  
نافذة مصفّحة. وامتدّ البهو أمامه، تتلاصق على جانبيه  
دواليب شتى، وصفت طويل منها يشقّه شقًا طويلاً.  
على حين استقرت مكاتب الموظّفين في ثغرات بين  
الدواليب. ومضى وراء موظّف إلى مكتب يستعرض  
تجويلاً كالمحراب في الصدر جلس إليه رئيس  
المحفوظات. لم يكن أفاق من نفثة السحر المقدّسة،  
حتى الغوص في الدرّوم لم يوقظه. سار وراء الموظّف  
بتشوّته وذهوله وانفعالاته وهو يقول لنفسه: اللانهاية  
هي ما ينشد الإنسان.

وقدّمه الموظّف إلى الرئيس:

- عثمان أفندي بيومي الموظّف الجديد.

ثمّ قدّم الرئيس إليه قائلاً:

- رئيسنا سعفان أفندي بسيوني...  
رأى في الوجه قرابة طبيعية كأنما كان في الأصل من  
مواليد حارته. وأحبّ عظام وجهه البارز وجلده  
الغامق المشدود وشعر رأسه الأبيض المشعث، وأحبّ  
أكثر نظرة عينيه الأليفة الطيبة النزاعة لعكس معنى  
الرياسة بلا جدوى. ابتسم الرجل كاشفًا عن أقيح ما  
فيه، أسنان سود مثرمة، وقال:

- أهلاً بموظّفنا الجديد، اجلس...  
وراح يقلّب في صور أوراق تعيينه ثمّ قال:

- أهلاً... أهلاً... الحياة يمكن تلخيصها في  
كلمتين، استقبال ثمّ توديع...  
وقال عثمان في نفسه ولكنها رغم ذلك لانهاية.  
وهفت عليه ريح خفيفة مجهولة مليشة بجميع  
الاحتمالات فقال إنّها لانهاية ولكنها في حاجة إلى إرادة

### حضرة المحترم ٦٥٣

أحسن حظًا وأوفر رزقًا فتجمع لديها من المال ما بنت به بيتها المكوّن من ثلاثة أدوار، مخزن أخشاب أرضي، وشقتين، تقيم هي في إحداها وعثمان في الأخرى. وابنها حسني لم يخلف وراءه إلا اسمه أما شخصه فقد حملته أيام الحروب والمحن إلى بلاد نائية فاستقرّ فيها. ألا يحقّ له أن يحلم؟. إنه يحلم بفضل الشعلة المقدّسة التي تنقد في صدره، وبفضل حجرته الصغيرة يحلم أيضًا. وألّف أحلامه كما يألّف الفراش والكنبة والسحارة والحصيرة، وكما ألّف الأصوات الحادة والمنغومة التي تندّ عن حنجرتة فتردّد أصداها الجدران الراسخة القائمة.

ماذا كان بالأمس؟. أراد أبوه أن يجعل منه سواق كارو مثله ولكنّ شيخ الكتاب قال له:  
- يا عمّ بيومي توكلّ على الله وأدخل الولد المدرسة الابتدائية...

فذهل الرجل وتساءل:

- ألم يحفظ من القرآن ما يقيم به الصلاة؟  
فقال الشيخ:

- الولد ذكيّ وعاقل وربّما رأيته يومًا من رجال الحكومة...

وفهقه عمّ بيومي غير مصدّق فقال الشيخ:  
- عليك بمدارس الأوقاف فرمًا قبل بالمجان.

وتردّد عمّ بيومي زمنا ثمّ تمّت المعجزة. ونجح عثمان في المدرسة نجاحًا مذهلاً حتى حصل على الابتدائية. تميّز عن أقرانه الحفاة من أبناء الحارة ورأى بعينه الحادثتين أوّل شرارة مقدّسة تنطلق من فؤاده النابض وأيقن أنّ الله يبارك خطاه ويفتح له أبواب اللّانهاية. والتحق بالمدرسة الثانوية بالمجان كذلك. فحقّق من النجاح ما لم يصدّقه أحد في حارة الحسيني. ومرّض عمّ بيومي مرض الوفاة وابنه في السنة الثانية، فندم الرجل على ما «فعله» بابه وقال له:

- ها أنا أتركك تلميذًا لا حول له، فمن يسوق الكارو، ومن يحفظ البيت؟

وفاضت روح الرجل وهو حزين، وضاعفت الأمّ نشاطها مؤمّلة أن يجعل الله من ابنها كبيرًا من الأكابر، ليس الله بقادر على كلّ شيء؟! ولولا وفاة الأمّ بغير توقّع لأكمل عثمان تعليمه في المدارس العليا. وقد اشتدّت لذلك حسرته، وضاعف من حدّتها اكتمال وعيه بظموحه وبأحلامه المقدّسة. ومقدّسة عنده أيضًا

كطفل وديع ولكن لا يمكن التنبؤ بغيره. إنّه يشتعل، لهذا كلّ ما هناك. ويخيل إليه أنّ النار المتقدّة في صدره هي التي تضيء النجوم في أفلاكها. نحن أسرار لا يطّلع على خباياها إلا خالقها.

وقال له سعفان أفندي بسيوني:

- ستدرّب أوّلًا على الوارد فهو أسهل...

ثمّ وهو يضحك:

- على كاتب المحفوظات أن يخلع جاكته وهو يعمل أو أن تحيك لكوعه كمامة من القماش تقيه فيها وراء ذلك، ولكنهم يرجعون إليها آخر شرّ الغبار والإكلبسات.

كلّ ذلك يسير، أما العسير حقًا فهو كيف نتعامل مع الزمن...

### ٣

في مسكنه - حجرة وحيدة ومرافق - يرى نفسه، يتجسّد له معنى حياته. إنّه يعيش متفتح الحواس مرهف الوعي ليتزوّد بكلّ سلاح. ومن نافذته الصغيرة يرى وطنه، حارة طويلة ذات منحى حادّ، مشهورة بموقف للكارو ومسقى للحمير. البيت الذي ولد ونشأ فيه تهدّم. وقامت في موضعه باحة صغيرة لعربات اليد. قليل من مواليد الحارة من يبرحها بصفة نهائية إلا للقبر. يعملون في مواقع كثيرة، في المبيضة... الدراسة... السكّة الجديدة... أو فيها وراء ذلك، ولكنهم يرجعون إليها آخر النهار. ومن خواصّها الحميمة أنّها لا تعرف الهمس أو النجوى، أصواتها مرتفعة جدًّا متوتّرة بين الحكمة والبدائية، ومن بينها صوت قريب قويّ خشن لم يخلخله الكبر، صوت أمّ حسني صاحبة البيت. إنّ أحلام الأبدية جدّ مرهقة، ولكن ماذا كان بالأمس، وماذا يكون اليوم؟. خليق بمثله ألا يعرف المستحيل. وخليق به ألا يترك نفسه للتّيّار بلا خطّة. وخطّة محكّمة. كثيرًا ما يحلم أنّه يبوّل ولكنّه يستيقظ في اللحظة المناسبة، فما معنى ذلك؟. أمّ حسني كانت صديقة لأمه وزميلة ومرشدة، صديقة عمر طويل. كانت كلتاها زوجة لسواق كارو، وعاملة كادحة، تكذّب بصر النمل ودأبه سعيًا وراء القرش، تسند به زوجها وترمّم عشّها. دلالة... ماشطة... خاطبة، وغير ذلك. ماتت أمّه وهي تعمل، أمّا أمّ حسني فما زالت تعمل بهمة عالية. وكانت أمّ حسني

سبيله على أيّ حال، فهو قويّ الجسم كأبناء حارته، ووجهه أسمر طويل ذو جبهة عالية مشرقة وشعر حليق، وبصفة عامّة سيجد في جسمه الصلاحية للماء أيّ مركز مهما جلّ شأنه.

وقال لنفسه مستمداً من طواياها القوّة والتشجيع:

- بداية لا بأس بها، وطريق بلا نهاية...

## ٤

ساعة اللقاء عند أعتاب الخلاء مقدّسة أيضاً، وهو يهرع إليها بقلب مشغوف، ويبرح من يتحفّف من حمل الأيام بثقلها العتيد. هناك عند مشارف الصحراء يقوم السبيل الأثريّ المهجور، على أدنى سلّمه يجلسان جنباً إلى جنب في أحضان الأصيل اللامتناهية، تترامى الصحراء أمامهما حتّى سفح الجبل، ويغني الصمت بلغته المجهولة. سمرتها الغامقة تشبه لون المساء المتحفّز، سمرة موروثه عن أمّ مصرية وأب نوبّي توفي وهي في السادسة. زمالتها القديمة في الحارة تمتدّ أصولها في الماضي البعيد حتّى تتلاشى في منبع الحياة نفسه. عندما ينظر في عينيها النجلاوين الواسعتين أو يرى جسمها الصغير المدمج الفائر بالحويّة فإنه يتلقّى المثال المثير لفطرته الذي يبعث في غرائزه اليقظة والابتهاال. إنّها قرينة طفولته في الحارة وفوق السطح، وزميلته في الكتاب، وبالرغم من أنّها لم تتجاوز السادسة عشرة فهي معدودة ست بيت ماهرة، وهي يد أمّها الوحيدة بعد أن تزوّجت أخواتها السبع.

ابتسمت سيّدة. وجهها بسام دائماً، وعينها مشعّة، وأطرافها تتناوبها حركة رشيقة دائمة ومتوتّرة، وخصلات شعرها الموجّ الحشن ترقص في النسيم الجافّ الهابط من الجبل. ومرقت من الصمت المعذب قائلة:

- فرحت أمّي بدخولك الحكومة...  
سألها في دعابة:  
- وأنت؟

فتبادت في ابتسامتها ولم تجب. أحاطها بدراعه ولثم بشفتيه الحادتين شفيتها المليتين. لم يجر للحبّ ذكر بينهما ولكنّها يعربان عنه في كلّ خلوة بالأحضان والقبل. وهي تشبع من نفسه جانبا المهوم بالحياة في بساطتها ومسراتها، ويحبّها بعقله أيضاً لأنه يقدر مزايها وإخلاصها، ويشعر بتلقائية بأنّها كفيلة بإساعده.

ذكرى والديه. وكلّ موسم يزور قبرهما. وهو من قبور الصدقة الضائع بين القبور في العراء. وهو اليوم وحيد، مقطوع من شجرة. قتل أخوه الأكبر. كان شرطياً. في مظاهرة، وماتت أخته بالتيفود في مستشفى الحميات. وأخ آخر مات في السجن. إنّه يتذكّر أسرته فيشقى بالتذكّر ويرثي لوالديه، ويقرن تلك الأحداث بدراما غلياً يتطلّع إليها باحترام ووجل، فالمصائر تتقرّر في الحارة بفضل الإرادات المتصارعة والقوى المجهولة ثمّ تتقدّس في الأبدية. لذلك فهو يؤمن بنفسه بلا حدود ولكنّه يعتمد في النهاية على الله ذي الجلال. ولذلك أيضاً فلا تفوته فريضة وبخاصّة صلاة الجمعة في جامع الحسين. وكإيمان أهل حارته لم يكن يفرّق بين الدين والدنيا، فالدين للدنيا والدنيا للدين، وجوهرة متألّفة مثل درجة المدير العامّ ما هي إلاّ مقام مقدّس في الطريق الإلهيّ اللانهائيّ. ولما كان يعيش بين زملائه بوعي يقظ لمّاح فقد التقط ما يهّمه من المعاي والكلمات، ثمّ عكف على دراسة خطّة دقيقة للمستقبل، ترجمها في ورقة عمل ليذاكرها كلّ صباح قبل انطلاقه إلى العمل:

## شعار العمل وأحياءة

- ١ - القيام بالواجب بدقّة وأمانة.
- ٢ - دراسة اللائحة الماليّة التي يشار إليها كاتبها كتاب مقدّس.
- ٣ - الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم.
- ٤ - دراسة خاصّة للغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة بالإضافة إلى العربيّة.
- ٥ - التزوّد بالثقافة العامّة وبخاصّة الثقافة المفيدة للموظّف.
- ٦ - الإعلان بكلّ وسيلة مهذّبة عن تديني وخلقي واجتهادي في عملي.
- ٧ - العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم.

٨ - الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدّم لدي شأن، صداقة مفيدة، زواج موفق من شأنه تمهيد الطريق للتقدّم.

ولم يكن من النادر أن ينظر في مرآة صغيرة معلّقة بمسار بين النافذة والمشجب ليتفحص منظره، وليطمئن على نفسه. من هذه الناحية لن يكون منظره عائناً في



## حضرة المحترم ٦٥٥

- أصبحت موظفًا...  
 وشي صوتها بالإعجاب فقبلها مرة ثانية.  
 - لم يحظ أحد في حارتنا بذلك...  
 جميع أقرانه يعملون في شتى الحرف. يرمقونه - إذ  
 مرّ - بالإعجاب وأحيانًا بالحسد. ما أجدره بأن يسرّ  
 لولا شعوره الحادّ القاسي بطول الطريق وعناده.  
 - أنت الأفندي الوحيد!  
 فقال بهدوء:  
 - لا قيمة لذلك خارج حارتنا.  
 - الخارج لا بهمّ، أمّا حارتنا فهي حارة الكاروا  
 فقبلها للمرة الثالثة وقال:  
 - لا تتكلّمي عن الكاروا إلا بالاحترام...  
 - صدقت، أنت شهيم...  
 وقد قبض على أبيها في المعركة التي قبض فيها على  
 أخيه فدخل السجن ومات فيه بسببها، ولكنّ تلك  
 الأحداث تُعدّ من الأجداد التي يطيب بها ذكر الحارة.  
 ولكنّ سيّدة تدور حول نقطة واحدة لغرض واضح.  
 ولا جدوى من تجاهله فما هي تسأل:  
 - وماذا بعد ذلك؟  
 إنّه يدرك لهفتها على كلمة يطيب بها الفؤاد ويسعد.  
 ويعلم أيضًا أنّ سعادته لن تقلّ عن سعادتها بحال إن  
 لم تزد. إنّه يحبّ هذه الفتاة كما تحبّه ولا غنى له عنها.  
 ولكنّه يخاف. عليه أن يفكر ألف مرّة. وليراجع ورقة  
 العمل المريرة. ليتأمل طويلاً الحياة التي تقف أمامه  
 مرحّبة ومتحدّية معًا.  
 - ماذا تعنين يا سيّدة؟...  
 فأجابت معاندة في خفّة:  
 - لا شيء!  
 - لا يجوز أن ننسى أنّنا صغيران...  
 - أنا؟  
 قالتها باحتجاج عذب أشارت به إشارة مليحة إلى  
 أنوثتها الصارخة.  
 فقال مداعبًا:  
 - إنّما قصدت نفسي...  
 - أطلق شاربك فهذا ما ينقصك.  
 أخذ مزاحها مأخذ الجدّ وفكر بأنّ ذلك قد ينفعه  
 حقًا في نضاله فمنذ الذي يتصوّر موظفًا كبيرًا بلا  
 شارب؟  
 قال بهدوء:  
 - سأكمل تعليمي يا سيّدة.  
 - هل ما زال ينقصك تعليم؟  
 - الشهادة العليا.  
 - لماذا؟  
 - مساعد لا بأس به للترقي.  
 - وهل يلزمك وقت طويل؟  
 - أربعة أعوام على الأقلّ.  
 قرأ بتأمّ خفيّ الفتور في عينيها وربّما الخجل وشيئًا  
 من الغضب!  
 - وما ضرورة الترقّي؟  
 ضحك. لثم شعرها. لم يجرؤ على تجاوز ذلك.  
 ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا، وبلكمة  
 أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس  
 والعروس. لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى  
 غناء من فونوغراف.  
 - الظاهر أنّ الترقّي مهمّ أكثر ممّا تصوّرت...  
 فتناول يدها بين يديه وغمغم:  
 - أحبّك، إلى الأبد...  
 نطق صدقًا. ويقدر صدقه اغتمّ وتأمّ وسخط على  
 نفسه، وقال إنّ تجربة الحياة عظيمة جليّة ولكنها  
 مرهقة.
- ٥
- وقف على قبر والديه الضائع بين قبور لا حصر لها  
 وقرأ الفاتحة، ثمّ قال:  
 - يرحمك الله رحمة واسعة...  
 ثمّ ناجاهما بامتنان قائلاً:  
 - عثمان موظّف محترم يخطو خطواته الأولى في طريق  
 عسير ولكنّه مصمّم على السير حتّى النهاية.  
 ثمّ انحنى قليلاً وقال بابتهاال:  
 - كلّ ما نلت من خير فبفضل الله وفضلكما...  
 وتلا غلام ضرير بعضًا من السور الصغيرة فنقده  
 نصف قرش، ورغم تفاهة المبلغ لم يخلّ من الضيق  
 الذي يركبه عند الدفع. كما ذهب الغلام عاد إلى  
 مخاطبة والديه قائلاً:  
 - عهد الله أن أنقلكما إلى قبر جديد إذا حقّق الله  
 آمالي...  
 ولم يكن لديه فكرة عمّا يبقى في الجنت في مجرى  
 الزمن ولكنّه تحيّل أن يبقى شيء على أيّ حال. وتذكّر

ينبض بها قلبه في كل لحظة، التي تستأديه الجهد والإخلاص والإبداع. إنَّها مقدَّسة ودينيَّة. بها تتحقَّق ذاته في خدمة الجهاز المقدَّس المسمَّى بالحكومة أو الدولة. بها يتحقَّق جلال الإنسان على الأرض فتتحقَّق به كلمة الله العليا. إنَّهم يهتفون بغير ذلك أو بما يناقض ذلك ولكنَّهم مجانين مزيفون. ولذلك فإنَّه لم يغفر لنفسه أنَّه لم يملأ عينيه من حجرة المدير العام، ولا من شخصه المتفرَّد الذي يمزِّك الإدارة كلَّها من وراء برافان، في نظام دقيق وتتابع كامل يدكّر الغافل بالنظام الفلكيِّ وبحكمة السهوات.

تنبَّه بعمق.

قرأ الفاتحة مرَّة أخرى. قال مودَّعًا:

- ادع لي ربَّك يا أبي.

ودار حول القبر الذي سقط شاهدها وتشقَّق ركنه ثمَّ قال:

- ادعي لي ربَّك يا أمي.

٦

ما أعجب الفصول في تعاقبها. إنَّه يعايشها من خلال عمله المتواصل. الشتاء في الحارة فصل شديد القسوة ولكنَّه يحفز للعمل، الربيع بخسائنه لعنة، الصيف جحيم، الخريف بسمة غامضة متأمِّلة. إنَّه يواصل العمل بإرادة صلبة وشهوة نارئة. ها هي كتب القانون تصطفُّ تحت الفراش وفوق منضبة النافذة. لا ينام من الليل إلا أقلَّه. يعانق الأفكار ويصارع الغموض، وحتى النجاح لا يريد أن يقنع به وحده. ويوم الجمعة يخصَّص عادة للثقافة العامَّة الجديرة بالمديرين ومَن في خدمتهم. واهتمَّ بالشعر خاصَّة، حفظ الكثير، بل حاول نظمه ولكنَّه فشل. قال إنَّ الشعر كان وما زال خير وسيلة للتقرُّب من الكبراء، والتألُّق في الحفلات الرسميَّة. إنَّه لخسران فادح أن يفشل في نظمه. ولكنَّه على أيِّ حال خير طريق لإتقان النثر، والخطابة لا تقلُّ عن الشعر في النجاح المنشود. والأسلوب الجزل مطلوب، قلبه يحدِّثه بذلك. واللغات الأجنبية مثله وأكثر. جميع تلك المعارف مفيدة، ولها وقتها الذي ترتفع فيه قيمتها في بورصة المضاربات الديونائيَّة، فليس بالتعليمات الماليَّة وحدها يميِّح الموظف. أجل عليه أن يتزوَّد من كلِّ شيء نافع بطرف فمن يعلم؟ وكان يقول إنَّ حياته تيار غير

وهو يعجب لذلك سيِّدة فوضحت صورتها الباسمة أمام عينيه، وخيَّل إليه أنَّها تتحفَّر لإطلاق ملاحظة حادة وصریحة وساخرة. انقبض قلبه وتوجَّع وهمس:

- اللُّهمَّ اهديني سواء السبيل فكلَّ ما أفعل من وحيك.

وعاش من جديد الأيام الأخيرة لأبيه. هذا أمر لا مفرَّ منه. كان المرض والكبر قد أفعدها فكانت نزهته أن يفترش فروة أمام البيت، لا يكاد يرى أو يسمع، يتأمَّل عجزه، يتأوَّه هاتفًا:

- اللُّهمَّ لطفك ورحمتك...

كان في زمانه من رجال الحارة الأشداء. عاش حياة طويلة معتمداً على عضلات ذراعيه وساقيه، يعمل بلا انقطاع ويعاني على المدى شظف العيش والفقر. قوَّة مهددة تتغلَّى على لا شيء ويقهقه في الملمات بلا معنى ولا سبب. ووُجد ذات مساء ميتاً حيث يجلس على الفروة فلم يدِر أحد كيف حضره الموت ولا كيف تلقَّاه هو. أمَّا أمه فكانت ميتتها أدعى للدهشة. كانت تغسل فانطوت على نفسها حتى تقوَّست وراحت تصرخ من شدَّة الألم. وجاءت الإسعاف فحملتها إلى قصر العيني وتقرَّر إجراء جراحة في الأعور قتلت في أنثائها.

أسرته ضحيَّة فريدة للموت. شيء قال له في باطنه إنَّه ربَّما بسبب ذلك سيعمَّر هو طويلاً. واجتاحته موجة من الأسى. كلُّ موت معقول بالقياس إلى موت أخيه الشرطيِّ. رجل كالجمل يقتل بطوب الثور. أيِّ ميتة. لا يعرفهم ولا يعرفونه. إنَّه يقف من تلك الأحداث موقف المترجِّع المتعجِّب. لا يفقه لها معنى على الإطلاق. أجل عرف الكثير من مطالعة التاريخ. عرف التاريخ من أقدم العصور حتى قبيل الحرب العظمى. عرف الثورات. ولكنَّه لم يعيشها ولم يستجب لها. وقد رأى وسمع ولكنَّه انعزل وتعجَّب. لم يحظ بعاطفة عامَّة واحدة تشدُّه إلى الميدان. ما أعجب اقتتال رجال الدولة الكبار وأتباعهم. لقد عاش حياته مطارِّداً بالفقر والجوع فلم يدع له ذلك وقتاً لمدِّ آفاق تفكيره إلى الخارج. انحصر في الحارة بهمومها المجهولة من الجميع، الوحشيَّة، القاسية، المتلاحقة. واليوم يعرف لنفسه هدفاً دنيوياً وإلهياً في آن لا علاقة له في تصوُّره بالأحداث العجيبة التي تجري باسم السياسة. قال إنَّ حياة الإنسان الحقيقيَّة هي حياته الخاصَّة التي

## حضرة المحترم ٦٥٧

وخلقه، ولم يرتح من بادئ الأمر إلى البكالوريا التي تميّز بها وحده في المحفوظات ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلّم الذي سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة «الابتدائية». وفطن عثمان إلى ذلك في حينه ولكنّه طمع في طبيته الفطرية وضاعف من تودّده إليه وإذعانه لتوجيهاته حتى اطمأنّ الرجل إليه تمامًا وفتح له قلبه في صفاء نادر. وفي أوقات الفراغ قرّبه إليه، وأفضى إليه بخواطره، حتى السياسة صرّحه فيها برأيه وأهوائه. ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الإعراض عن اهتماماته أو معالنته بحياده البارد إزاءها، وقال بغموض وحذر:

- الحقّ أنّنا من مشرب واحد، ولا عجب في ذلك...

فسرّ الكهل بقوله سرورًا عظيمًا ذهل له عثمان. عجيب استغراق الرجل في هذه الشئون. وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها. ماذا يشدّهم إليها؟ ليس لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها؟. ولكنّه قال لنفسه بازدياد غير قليل إنهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفًا محدّدًا، وإيمانهم الدينيّ إيمان سطحيّ، ولم يفكروا بما فيه الكفاية في معنى الحياة، ولا فيها خلقهم الله من أجله، وهكذا تتبدّد أفكارهم وأعمارهم في هـو وسفسطة، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل. تستغفلهم الأوهام، ويمضي الزمن وهم لا يعلمون...

## ٧

قال له سعفان بسيوي بعد أن تلقى منه بريد الوارد:

- إني أدعوك إلى سهرة ممتعة في بيتي...  
دهش وانزعج ولكنّه لم يفكر في التملّص. قال الرجل:

- يوجد حفل زفاف في بيت الجيران، ستتعشّى معًا لحمة رأس، ونجلس في الشرفة نستمع للغناء...

كان الرجل يقيم في شقة بالدور الثالث ببيت بعطفة البحر بباب الشعريّة. وتبيّن له أنّه كان المدعوّ الوحيد. طاب نفسًا بالمكانة التي يؤثّر بها رئيسه، وتناول معه عشاءً لذيذًا مكونًا من المنخّ والجبهة واللسان والجوهرة ومبار وفئة بالتقليبة غير الفجل والمخلّل، وحلوى من الشّام، أكلة ممتازة ووفيرة وقد أكل حتى امتلأ. وجلسا في شرفة تطلّ على فناء البيت الذي قام فيه الفرح.

منقطع ماضٍ في مجرى النور والعرقان، يتكاثف بكلّ طريف، ويتشعب في مجالات الفكر، تدفعه حرارة الإيمان والكبرياء البشريّ الشريف، ليصبّ في النهاية في الاعتبار الإلهية.

أما راحة النفس فيحظى بها على سلّم السبيل الأثريّ. في عناق الحبّ المشبوب. بين يدي الفتاة الجميلة المحبّة. في حضنها العذريّ المشتعل. بلا تورّط في فعل أو قول. لكنّه يتعلّق به تعلّقه بالحياة نفسها. آه لو كانت الحياة تقنع بالحبّ والسعادة اليسيرة. ومن شدة قلق سيّدة تجاوزت تحفظها الفطريّ. تبادت في الإفصاح عن عواطفها الصادقة. كشفت عن لهفتها المحمومة. قالت له مرّة بورع:

- لا حياة لي بدونك.

ولكن بدا قولها فاترًا بالقياس إلى ما تمنحه شفتاها المليتان. وقالت له مرّة أيضًا:

- أنت كلّ شيء، ما مضى وما هو آت...

وعيناها العسليةتان تبعثان ألغا ناطقًا بالوفاء والجزع والأشواق الصادقة. وفي غمار العناق الذائب في الأنفاس المحترقة قالت متتهّدة:

- ينقصنا شيء...

فقال ببلادة وأنانية:

- حبّنا الكامل لا ينقصه شيء!

فرفعت منكبيها محتجّة ولكن بحذر من يرغب عن إحراجها ويستعين عليه بالصبر والإصرار، ووجد أنّه يعاني كبئنا مرعبًا سيرمي به مرّة تحت رحمة المجهول. لذلك أذعن لإغراء زميل دعاه إلى زيارة لدرب البغاء الرسميّ. وكان من أبناء حارة الحسيني لم تعوزه الجرأة الكافية، انطلق في الدرب الذي يضيئه مصباحان غازيان متباعدان يغلفهما الغبار الراسخ فيغرق جنباته في شبه ظلام مشير للشهوات. وقلب عينيه القلقتين حتى استقرّ على صيد. ويعقب ذلك عادة إكباب على طلب الغفران، وعكوف طويل على الصلاة والعبادة. وهو ما يفعله عادة كلّما واجه نواياه العميقة الخفية من ناحية سيّدة. فإلى جانب عناء العمل المتواصل وجد عناء أشدّ من عذاباته ضميره. وكان يجتم لياليه الطويلة المرهقة في إعياء نفسيّ شديد، كالإغماء، وأحيانًا تبتّل جفونه وهو لا يكاد يدري.

وكان سعفان بسيوي رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسميّ بإعجاب وحذر. أعجب بجده وحسن تصرفه

هي التي تنفث رائحة النعناع. وقفت دقيقة أو أقل ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامة كادت تفلت منها حياةً وارتباكاً. وساد صمت كأنه الشعور بالإثم، وتشبّع الجوّ بروح المؤامرة، وتضاعف قلقه. قال سعفان:

- ابنتي...

هز رأسه إعراباً عن الاحترام...

- حصلت على الابتدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة...

واصل هز رأسه في تقدير وإعجاب. ترامت إليهما أصوات الجوقة وهي تغني التواشيح. ومضى سعفان قائلاً:

- البيت هو المدرسة الحقيقية للبنات...

لم يعلق، لم يجد ما يقوله، وضاق في الوقت نفسه بصمته...

- ما رأيك في ذلك؟

- أوافقك كل الموافقة...

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح في حياتها المريرة. شعر بأنه يدفع إلى مصيدة. بدأ الغناء بصوت الطرب هادئاً وخافتاً وناعماً. وتمتم سعفان:

- ما أجمل الصوت!

- نعم.

- الحياة جميلة أيضاً.

- بلا شك.

- ولكنّها تطالبنا بالحكمة لتجود علينا بحلاوتها...

- أليست الحكمة ثمرة عسيرة؟

- كلاً، هي هبة من الله سبحانه.

قال لنفسه إنّ الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصيرة. الرجل يحاصره وهو لن يستسلم، ولكن كيف يفوز بحريته ورضى رئيسه معاً؟ لم يعد يسمع من الغناء شيئاً. سعفان يتابع الغناء بأذنه ويده وقدمه وينظر إليه بين ذلك متفحصاً مستطلعاً. وحنق عليه كجلاّد ماكر. ورأى أنّ عليه أن يرّد الدعوة بأحسن منها دفاعاً عن نفسه المهتدة. آله ذلك ألماً غير هيّن. إنّهُ لا ينفق القرش بغير ضرورة ملحة. وفتح حساباً في دفتر توفير البريد مع أوّل مرتب قبضه. ولذلك لم ينظر له على بال أن يغيّر مسكنه أو حارته أو طعامه. وهو يؤمن بأنّ الأذخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعيرة من شعائر دينه، وأمان ضدّ الخوف في

تبدى الفناء غارقاً في الأنوار تصبّب عليه من كلويات كثيرة. وصفت به الأرائك والكراسي التي اكتظت بالمُدعوّين، واكتظت الماشي بالعلمان والأطفال، وأحرق عشرات وعشرات منهم بسور الفناء من الخارج. وشعت الأنوار في البيت من الداخل أيضاً وتراءت النساء وهنّ يذهبن ويجهن. وهدر المكان بالأصوات من جميع الدرجات والأنواع، وارتفع الضحك والسعال والزغاريد. خفق قلب عثمان وهو يرنو إلى جوّ الفرح وانتقلت إلى فؤاده حرارته الفوّاحة بعطر الجنس والحبّ. لذلك تلقى دغدغات التخت الأولى بتأثر أشدّ مما توقّع ومما ألف. فهو لا يعشق الغناء ولكن إذا جاءه بلا كلفة فلا بأس به ولو إلى حين قليل. حسن، الموسيقى لا بأس بها أحياناً، شيء طيب ومريح. الزواج علاقة باهرة وفرح ودين. وخالجه شعور شامل بالأسى.

- لعلك في حاجة إلى الترفيه، هذا ما أقوله لنفسي كثيراً...

قال سعفان ذلك وهو ينظر ناحيته بوجه تضيء أنوار الفرح أجزاء منه وتواري أجزاء في الظلال. وقال أيضاً:

- عمرك يجري في العمل والدراسة ولكنّ الحياة تطالبنا بأشياء كثيرة...

أصغى إليه باهتمام في الظاهر واستخفاف في الباطن. إنّهُ يحقر المواعظ التي تحثّ على الكسل ويعتدّها تجديدًا بذوي الجلال، غير أنّه تذكر سيّدة في عذابها الطويل، وما عليه أن ينجزه ويحفظه ويراجعه، وشعر بأنّه يتسم ابتسامة لا معنى لها. وعاد سعفان يقول:

- لك همّة عالية ولكنّ راحة البال جوهره ثمينة أيضاً...

فقال له واستخفافه به يتصاعد:

- أنت رجل حكيم يا سعفان أفندي...

وظهر في مدخل الشرفة شيخ، فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاي المنعنع. انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه رغم ظلام الغرفة القابع وراءها، وجه مستدير، لونه قمحي، وثمّة ملاححة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق. ساوره قلق. وهو يميل قليلاً ليتناول قدح الشاي رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنتها

حضرة المحترم ٦٥٩

- حقًا؟

- لولا الظروف القاسية لما فكرت إلا في أمر بسيط وطبيعي ومعقول وهو أن أكمل نصف ديني!  
لم يفلح الكهل في مداراة الخيسة التي خنفته،  
وتساءل:

- أيّ ظروف يا ترى؟

فتنهّد عثمان في أسى وقال:

- مسئوليات جسيمة، نحن أبناء الفقر وهو يصرّ  
على مطاردتنا...

وأطرق وهو يقول بصوت كئيب:

- كم كنت أودّ...

وسكت كأنما غلبه الانفعال. تراجع الكهل عن  
ضوء الصباح فمضى في الظلّ. لا مفرّ من ذلك ولكن  
عليه أن يحافظ على صداقته ما وسعه الجهد والحيلة.  
وجاءه صوت الرجل من الظلّ:

- ومتى تستطيع الوقوف على قدميك؟

فأجاب بنبرة يائسة:

- في عنقي صغار وأرامل، ما أنا إلا ثور معصوب  
العينين يدور في ساقية...

مات كلّ شيء. حتّى مطارق قطع النرد لم تعد  
تسمع. عاد يتمتم:

- كم كنت أودّ...

فلم يعلّق الكهل بكلمة. وأراد أن يدفع الحساب  
ولكنّ عثمان أبى عليه ذلك ودفعه من جيبه وهو  
يتمزّق. تلاشت البهجة من الجلسة ولم ينفع في إحيائها  
الافتعال. وغادرا المقهى فمضيا مشيًا على الأقدام حتّى  
ميدان باب الشعريّة، وهناك فارقه الرجل إلى مسكنه.  
وجد نفسه في حال تعيسة من التوتّر والقلق. ودهمت  
موجة مجنونة من الاستهتار فدعته إلى التبذير اليائس  
كأسلوب من الانتحار.

وقصد بلا تردّد الدرب ليدفن في أعماقه قلقه  
وأحزانه وعذاباته ضميره. وقال لنفسه بحزن:  
- حتّى أخطاء الإنسان يجب أن تكون مقدّسة...

٩

اعترضت أمّ حسني طريقه وهو نازل. إنّه لا تفعل  
ذلك بلا سبب. نظر إلى وجهها المحدّد بالتجاعيد  
وشعرها المصبوغ بالحنّاء وجسمها القويّ رغم  
شيخوختها فتدكّر أمّه، صافحها وهو يبتسم فقالت:

عالم خفيف. ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ. سيردّ الدعوة  
بأحسن منها. وسيتمّ ذلك في مطعم لا في حجرته  
المكتظة بالكتب، الفقيرة في كلّ شيء عدا ذلك. وإذن  
فسوف ينفق مبلغًا جسيمًا حقًا. اللعنة على الحمقى.  
بات الغناء ضجيجًا لا معنى له وتفتحت أبواب  
الجحيم. والكهول يهزّ رأسه طربًا غير عالم بجريمته.  
والدنيا تطلق سخرية من سخرياتها.

٨

وقبل مضيّ الشهر دعا الرجل للعشاء في مطعم  
الكاشف. تناولوا سمكًا شهياّ وحلّياّ بمهليّة. وكان  
الكهل من السعادة في غاية وخيل إليه أنّه يتوقّع نزول  
ملاك السعادة والرحمة. ولم يقنع بالعشاء فيها يبدو  
فاقترح قائلًا:

- ما رأيك في سهرة في الفيشاوي؟

وجب قلبه بالم عميق ولكنّه تأبّط ذراعه قائلًا:

- يا لها من فكرة رائعة!

وجلسا في المقهى وهو يتذكّر عيدًا من أعياد الفطر  
تمزّق فيه جليابه الجديد في معركة بحارة الحسيني،  
ضربه أبوه، واضطرّ إلى استعمال الجلباب عامًا كاملاً  
بعد أن رقعت أمّه. وأزعجه سرور الكهل وانشراحه.  
إنّه يتوقّع أن يسمع خبرًا سارًا بلا شكّ. وها هي  
فرحة قلقه في أعماق عينيه الشاحبتين، وها هو يوجد  
بالرضى على كلّ شيء... قال:

- أنت سعيد بزملائك في المحفوظات؟...

- أعتقد ذلك.

- إنهم تعساء ولكنهم طيّبون...

- إنهم طيّبون حقًا...

- أما أنت فشابّ ممتاز، هل تعمل محاميًا إذا  
انتهيت من دراستك؟

- كلاً، لكنّي أرجو تحسين حالتي.

- فكرة طيّبة. يعجبني طموحك الشريف!

وخرج عثمان من تردّده مصمّمًا على النجاة ولو بخنق  
آمال الرجل. قال:

- إنّ همومي أكبر ممّا تتصوّر...

فرمقه الرجل متوجّسًا وسأله:

- لمّ كفى الله الشرّ؟

- لا يهمني الطموح كما تظنّ، تهمني أشياء أقلّ من  
ذلك بكثير...

- عندي خبر...  
 - خير إن شاء الله.  
 فقالت وهي تضيّق عينها الوحيدة - فقدت الأخرى  
 في معركة من معارك الحارة - قالت:  
 - لا خير فيه...  
 نظر إليها جاداً فقالت:  
 - عريس، وُجد عريس في طريقك!  
 - هه؟  
 - عريس تقدّم لسيدة...  
 اجتاحه حزن وذمول كأنّ ذلك لم يكن متوقّعا. لم  
 يجد ما يقوله.  
 - ترزي بلّدي...  
 كان يعلم بأنّ ذلك آتٍ لا ريب فيه. لا يحاول  
 دفعه ولا أمل له في منعه كالموت. ولم ينبس فسحبته  
 من يده إلى حجرتها وأجلسته على الكنبه إلى جانبها،  
 وسألته:

- ألا يهّمك الأمر؟  
 شعر بألم حادّ في أعماق روحه. شعر بأنّ الدنيا  
 تتلاشى. قال بغضب:  
 - لا تطرحي أسئلة لا معنى لها...  
 - هدئيّ خاطرِك...  
 - بحسن بي أن أذهب.  
 - ولكنك لن تتمكّن من لقائها.  
 الدنيا تتلاشى أكثر وأكثر... قالت:  
 - كان يجب أن تدرك ذلك من نفسك.  
 - لم؟  
 - أمّها تشدّد في منعها من الخروج، فرجل حقيقيّ  
 خير من خيال...  
 وتمتم بلا وعي:  
 - رجل حقيقيّ خير من خيال.  
 - أنت تحبّها، أليس كذلك؟  
 فقال بأسى:  
 - إنّي أحبّها.  
 - حكاية محفوظة في حارتنا.  
 - وهي حقيقيّة.  
 - عظيم، ولمّ لم تتكلم؟  
 فقال بحدّة:  
 - لا أستطيع.  
 - اسمع، توّسّلت البنت إليّ أن أبلغك...  
 وهمت بالاسترسال في الحديث ولكنّه غادر الحجره.  
 سار ببطء في الحوارى الضيّقة. كان يتعذّب بعمق  
 ويسلم بمرارة بأنّه لن يراها مرّة أخرى. ورغم عذابه  
 شعر بارتياح خفيّ يائس، وبقدر ارتياحه آمن بأنّ  
 اللعنة حلّت به. إنّه يحبّها ولن تملأ أخرى الفراغ الذي  
 خلّفته وراءها في نفسه. وهذا الحبّ لن يمحي  
 بسهولة، وسيعلمه كيف يكره نفسه وطموحه، ولكنّه  
 سيصرّ على التعلّق بها بقوة الكراهية واليأس. إنّ ما  
 يركبه جنون، ولكنّه جنون مقدّس يخلق باب السعادة  
 باستهانة وكبرياء ويدفعه بقوة في طريق المجد الشاقّ  
 المحفوف بالأشواك. إنّ السعادة تغريه بالتفكير في  
 الانتحار أمّا الشقاء فهو الذي يجرّضه على نشدان الحياة  
 وعبادتها.  
 ولكن يا للخسارة يا سيّدة...!

- وتقدّم في كلّ شيء ولكنّ عذابه لم يكند يخفّ،  
 ورسخت قدمه في عمله حتىّ شهد له سعفان بسيوني -  
 رغم إخفاقه معه - بالمواظبة والكفاءة والاستقامة، وكان  
 يقول عنه:  
 - إنّه أوّل الحاضرين وآخر الذاهبين وفي أوقات  
 الصلاة يؤمّ المصلّين بمصلّى الوزارة...!

## حضرة المحترم ٦٦١

الشتاء. ومرّت أعوام لم يبادلها سوى تحية القدوم وتحية الذهاب. ورغم تديّنه العميق علّمته الشراب، القدر القليل الضروريّ. وكان قدح نبيل من نبيل «السلسلة» الجهنميّ - بنصف قرش - يكفي لطمس عقله وبعث الجنون في دمه حتّى قال لها مرّة في نشوة مضحكة:

- أنت سيّدة الكون...

وكان يتأمّل الحجرة العارية، ويشمّ البخور، ويلمع الحشرات، ويتخيّل الجراثيم المستكنة ويتساءل ليس هذا الكون الملعون المشتعل بنار الجحيم جزءاً من مملكة الله؟ ومرّة أمطرت السماء وجعجع الرعد فانحبس في الحجرة العارية. خلا الدرب ونحّت الأصوات وساد الظلام. تربّعت قدرية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسي الخيزران، وأضاء الحجرة شمعة وحيدة. ولما طال الوقت تناول من جيبه مذكرة مدوّناً بها ملاحظات من دروسه وراح يقرأها - كعادته - بصوت مسموع، وسألته قدرية:

- قرآن؟

فهزّ رأسه بالنفي وهو يبتسم.

- مواعيد غرامية؟

- دروس!

- تلميذ؟... ولماذا تربّي شاربك؟...

- موظّف وتلميذ في مدرسة ليلية...

وتذكر سيّدة بحنين وأسى. وخطرت له فكرة استراح لها وهي أنّ المطر المنهمر يغسل الدرب ويجلو وجهه.

وعاد ذات يوم إلى الحارة فرأى الأرض مفروشة بالرمل أمام بيت سيّدة والرايات تخفق على الجانبين. دقّ قلبه دقة النهاية. والتقى بأّم حسني على السلم - ترى هل تعمّدت أن تنتظره؟ - فحيّاهما عابراً ومضى وصوتها يدعو له:

- ربّنا يحقّق مقاصدك ويسعدك...

لم يستطع أن يركّز عقله في دروسه واقتنعت حجرتة الصغيرة الأصوات، الزغاريد، تمهليل الغلمان، موسيقى حسّب الله، أجل... ها هي سيّدة تدخل مملكة رجل آخر، وتنطوي فترة من الشباب وتدفن.

\*\*\*

غادر البيت بتصميم جديد. قال إنّ الحياة أعظم من جميع آمالها. وإنّ الحيام أجلّ حكمة من المعري. وإنّ القلب هو المرشد الوحيد. اقتحم الفرع حتّى

وهو يؤدّي عمله، ويؤدّي عن المتأخّرين أعمالهم، فالكلام عن نجدته لا يقلّ عن الكلام عن قدرته. وسار في دراسته بعزم قويّ يشتر بنجاح باهر. وأصبح من مدمي التردّد على دار الكتب، يقرأ بهم شتى الثقافات إلى جانب دراسته القانونية الشاقّة. أصبح كذلك من الوجوه المعروفة التي تُرى في جامع الحسين في صلاة الجمعة فُعرف في الحيّ - كما عُرف في الوزارة - بالتقوى والورع. ولكنّ عذابه لم يكد يخفّ، وظلّت سيّدة مسيطرة تماماً على خياله ووعيه حتّى قال لنفسه:

- إنّها الجوهرة الوحيدة في حياتي...

وفي مواعيد اللقاء يجلس على سلّم السبيل الأثريّ فتلفحه حرارة الذكريات ويغوص فيها حتّى تتجسّد له حية ملموسة. في لحظات اشتداد الوجد يتوقّع أن يسمع وقع قدميها الخفيفتين ويرى طلعتها المقبلة مخوفة بالشوق والحياء. وحديثها الطويل وعناقها الحارّ وكلّ موضع ثمين غسله بقبلاته. ولكنّها لا تأتي ولن تأتي. قطعته ولعلّها نسيته. وإذا خطر ببالها لعنته بما يستحقّ. ويوماً مرّ تحت نافذتها في ساعة العاصري فخيّل إليه أنّ رأسها لاح لحظة وراء القلّة المعرّضة للهواء لتبتد، ولكنّها لم تكن هناك أو لعلّها تراجعت باشمئزاز وعجلة. وقال لنفسه:

- مقدّس الإنسان في عذابه...

وقال أيضاً:

- لا يخلو عمل للإنسان من عبادة...

وصادفها صباح الجمعة في الخيمية بصحبة أمّها. تلاقت عيناها لحظة ثمّ حولتها عنه في غير مبالاة. لم تلتفت وراءها. تجلّى له معنى من معاني الموت، كما خرج أبوه من الجنّة بإرادته. وكما يخوض العذاب بشموخ وكبرياء.

وكان يجتلف إلى الدرب بحذر وانفعال ويأس. ووثقت الأيام علاقته بفتاة تماثله في السنّ تسمّي نفسها قدرية. جذبته بسمرة غامقة - مثل سيّدة - ولكنّها أعمق في زنجيتها وبدانتها ولم تكن مغرقة في البدانة. ومنذ ساقته قدماء إليها - منذ زمن ليس بالقصير - لم ينحرف إلى سواها. وذكرته حجرتها بحجرتة ولكنّها أكثر بدائية بأرضها العارية وفراشها المرتفع والمرأة وكروسيّ وحيد يستعمل للجلوس. وكمشجب، وطشت وإبريق. لذلك لم يكن يستطيع خلع بدلتة في ليالي

ووارد المستخدمين حيث تتخذ الإجراءات ثم ترسل صورة إلى المحفوظات التي صدر منها الخطاب للحفظ في ملف خدمته الإداري، بذلك تتم الدورة الفلكية ويعلم من لم يكن يعلم.

وتحل بالسعادة يوماً. وتتابع الأيام. ماذا بعد ذلك؟ هل يتلع الصمت كل شيء؟ لا شيء يحدث. النار المقدسة مشتعلة في صدره. ومقام الحسين يشهد مناجاته الطويلة. الطريق طويلة ولا خطوة واحدة تبشر بالضياء. وقد انتهى من الدراسة أما اغترافه من بحر الثقافة فلا يتوقف أبداً. إنه يُشبع بها أشواقه إلى المعرفة ويكمل بها ذاته لتكون أهلاً للمركز الذي سيخله يوماً بإذن الله وفضله، ويتسلح بها في نضاله الطويل المرير في الغابة الرسمية التي تطالب فيها كل ذي شأن بقرابينه. إنه لا يملك سحر المال، ولا يتمتع بامتيازات الأسر الكبيرة. ولا قوة حزبية تسنده، وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد أو القواد، إنه واحد من أبناء الشعب التبعي الذي عليه أن يتزود بكل سلاح، ويتحين كل فرصة، ويتوكل على الله، ويستلهم حكمته الأبدية التي قضت على الإنسان بالسقوط في الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرة أخرى إلى السماء.

ومن خلال تتابع الأيام في مجراها الأبدية خلت درجة سابعة بالمحفوظات بنقل شاغلها إلى وزارة أخرى. وقال له سعفان بسيوني:  
- رشحتك للدرجة الخالية فلا يوجد في المحفوظات من هو أحق بها منك...  
فشد على يده بامتنان وهو يود أن يقبله فقال الكهل:

- سبعة أعوام مضت عليك في الشامنة، وقد حصلت في أثنائها على ليسانس الحقوق، وأثبتت بجدارة كفاءة لا نظير لها...  
وضحك الكهل كاشفاً عن أسنانه السود المثرمة وقال:

- وهي مضمونة لك إن شاء الله فلا رغبة لأهل الوساطات في وظيفة بإدارة تسكنها الثعابين والحشرات...  
وطال الانتظار ومضت الأيام. وقال لنفسه ها هي سبعة أعوام تمر في درجة واحدة فيلزمني على هذا القياس أربعة وستون عامًا حتى أبلغ الأمل المنشود.

قالوا إنه مجنون. وأشار إلى سيده وقال لها «إني أدع لك الحكم». استجابت رغم الصراخ والعيول لأنه في اللحظات الحرجة التي تسبق الإعدام تتعري الحقائق فتتهزم الموت. ومضى بها مخترقاً ثلاثة أزقة مارقاً من باب النصر إلى مدينة الأموات وهما يترنحان من السعادة.

\*\*\*

لم تسكت الأصوات والزغاريد والأغاني حتى مطلع الفجر. وكان ينظر إلى الكلمات ولا يفقه لها معنى. وشعر بالوحدة فتوغل في عالم مجذب خالٍ من الأصوات والأمل. وثقلت عليه المعاناة في الطريق الشاق فتذكر معارك الأمم، ومعارك الجرائم، ومعارك الصحة والعافية فهتف:  
- سبحان الله العظيم!

حضرة صاحب السعادة المدير العام:

أشرف بإبلاغ سعادتك بأنني حصلت على ليسانس الحقوق هذا العام - من منازلهم - استزادة من العلم واستكمالاً للوسائل الضرورية للموظف، مستلهماً الهمة من عبقرية سعادتك، في ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه.  
رجاء التكرم بالعلم والأمر بحفظ الشهادة المرفقة بملف خدمتي.

وتفضلوا يا صاحب السعادة بقبول فائق الاحترام.

عثمان بيومي

كاتب الواردات بالمحفوظات

لقد أحرز نجاحاً باهراً بالقياس إلى زملائه المتقدمين من منازلهم. وسيدور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملا، فهو يعرض أولاً على رئيسه المباشر سعفان بسيوني ليوقع عليه بالعرض على صاحب العزة مدير الإدارة حمزة السويفي، فهو يسرك في صادر المحفوظات ثم يسرك مرة أخرى في وارد الإدارة. بعد ذلك يعرض على حمزة السويفي ليوقع بعرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العام، فيسرك في صادر الإدارة ثم يسرك في وارد مكتب المدير العام، ثم يقرأه حضرة صاحب السعادة المدير العام، يقرأه بعينيه ويتسلل إلى ذاكرته وربما هز عواطفه، ثم يوقع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لإجراء اللازم، فيسرك في صادر مكتب المدير العام



## حاضرة المحترم ٦٦٣

- مبارك، أما بيان الميزانية فشيء آخر  
فقال باستنائة:

- عظم الله قدرك، لا جرة لي على الاقتراب من  
بيان الميزانية، ولكن عنت لي ملاحظات في أثناء  
العمل، ملاحظات مجتهد درس القانون والمالية،  
فطمع أن تكون في الخدمة عندما تحتشدون لوضع  
البيان الخطير.

وتناول الرجل «الملاحظات» وراح يقرأها والآخر  
يتابعه باهتمام مركز خيالي. لقد سيطرت عليه  
الملاحظات، هذا واضح. ثم قال بهدوء سطحي:

- أسلوبك جيد...
- شكراً يا سيدي...
- يخيل إلي أنك قارئ ممتاز.
- أعتقد ذلك يا سيدي.
- ماذا تقرأ؟
- الأدب، سير العظماء، الإنجليزية والفرنسية...
- هل لك قدرة على الترجمة؟
- إني أمضي أوقات فراغي في مطالعة القواميس.
- فضحك حمزة السويفي وقال:
- شيء جميل، وفكك الله...
- وأذن له في الانصراف ولكنه استبقى «الملاحظات»  
عنده. وغادر عثمان حجرتة ثملاً بالأفراح، يؤمن بأنه  
نال من ثقته ما هو أئمن من الدرجة السابعة نفسها.  
وعندما طبع مشروع الميزانية بعد ذلك بأشهر هرع  
عثمان إلى مقدمه الميزانية فقرأ البيان الذي كتبه بخط  
يده عدا تغيير طفيف لا يقدم ولا يؤخر. سعد بذلك  
سعاده كبيرة، امتلاً ثقة بنفسه وبمستقبله، واستوصى  
بذكائه فلم يفش سر البيان لأحد.
- وما لبث أن صدر قرار بنقله من المحفوظات إلى  
إدارة الميزانية.

ليلتها وقف وراء نافذة حجرتة ينظر إلى الحارة  
العارقة في الظلام. ورفع عينيه إلى السماء فرأى النجوم  
الساهرة. مستقرة فيما يبدو ولكن لا شيء جامد في  
الكون. وقال إن الله خلق النجوم الجميلة ليحرضنا  
على النظر إلى أعلى. وإن المناسبة أنها ستطل يوماً من  
علياتها فلا نجد لنا من أثر. ولا يتحقق معنى لوجودنا  
إلا بالعرق والدم.

المدير العام الذي أشعل النار المقدسة في قلبه. ولم تقع  
عليه عيناه منذ مَثَل بين يديه ضمن المستجدين. وإن  
متعة نفسه أن يقف في جانب من الميدان يراقب موكبه  
وهو يغادر الوزارة في أهبة الملك وقديسيته. هذا هو  
غاية الحياة ومعناها وجلالها.

واستفحل العمل في الإدارة أيام إعداد الميزانية  
فاحتاج مدير الإدارة إلى موظفين إضافيين من الأقسام  
التابعة له فندب عثمان للعمل للمحفوظات. سر  
بذلك وقال إنها فرصته. وتوَّب للعمل بهمة هائلة،  
عمل مع المراجعين كما عمل مع وكلي الإدارة، وشهد  
اجتماعات مع مدير الإدارة نفسه. انفجر كبركان وكأثماً  
كان ينتظر هذه الفرصة منذ اشتعل قلبه بالطموح  
المقدس. ولم يتردد فوضع نفسه تحت تصرف السادة  
الرؤساء من مطلع الصباح حتى منتصف الليل. في  
الظروف الدقيقة الحرجة ينسى كل شيء في الحكومة إلا  
الكفاءة الحقة. والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير  
العام ووكيل الوزارة والوزير ومجلس الوزراء والبرلمان  
والصحافة، فلا مجال في أيامها المشحونة بالإرهاق  
لصاحب امتياز، ولكن يفرض الانتخاب الطبيعي  
نفسه ويتقدم الأكفاء ويعترف بالقيمة الذاتية حتى ولو  
لم يقدّر لها حسن الجزاء. وقد لفت عثمان إليه الانتباه  
وحاز الثقة الكاملة، وتجلت قدرته الخارقة على العمل،  
كما تجلّت درايته باللوائح والقانون. ولم يقنع بما أحرز  
من نجاح فتطوع سراً لكتابة مشروع بيان الميزانية  
الذي يكتبه عادة مدير الإدارة بنفسه. وهياً له العمل  
فرصة الانفراد بمدير الإدارة حمزة السويفي فلما فرغ من  
عرض أوراقه قال له بأدبه الجَم:

- سيدي المدير، اسمع لي أن أقدم لكم بعض  
الملاحظات التي قُدمتها أثناء العمل لعلها تنفع عند  
النظر في تحرير بيان الميزانية!  
فنظر إليه حمزة البسيوني باستخفاف مشوب بالعطف  
وقال:

- أنت شاب ممتاز كما يقال عنك...
- أستغفر الله يا أفندم.
- على فكرة مبارك فقد تمت اليوم الموافقة على  
ترقيتك إلى السابعة...
- تمتع عثمان بلحظة انتصار سعيدة فقال بامتنان:
- بفضل الله وفضلكم!
- فقال مدير الإدارة مبتسماً:

مليًا جديدًا للتخفيف من تقشّفه. ولم يعرف من عالم  
اللهو إلا زيارته الأسبوعية لقدرية في الدرب وشرب  
قدح النبيذ الجهنمي بنصف قرش. قالت له مرة:  
- أنت لا تغيّر هذه البدلة أبدًا، هي هي صيفًا  
وشتاءً، أعرفها من سنوات كما أعرفك...

فقطب ولم يعلّق فقالت:

- لا تغضب، أنا أحب الضحك...  
فسألها بسداجة:

- هل جمعت ما أعطيتك من نقود طيلة السنين  
الماضية؟

فقالت ساخرة:

- عشقت رجلًا مرة فسرق مئتي جنيه، هل  
تعرف معنى مائتي جنيه؟

تخيّل المصيبة فاستعاذ بالله وقال لنفسه إن كوارث  
الدنيا لا تُعدّ ولا تُحصى، وسألها:  
- وماذا فعلت؟

- لا شيء، ربنا يحفظ صحّتنا فهي الأهم...

قال لنفسه إنها مجنونة بلا شك، ولذلك فهي بغني.  
ولكنها كانت الترفيه الوحيد في حياته الشاقة، ووهبه  
عزاء لا بأس به. وأحيانًا كان يحنّ إلى الحبّ وأيامه  
وسحره الذي يغيّر مذاق الدنيا، ويتذكّر سيّدة وسلّم  
السييل المهجور والصحراء، ولكنّه يستسلم في النهاية  
لدعابات الدنيا القاسية، ويرضى عن نفسه المعذّبة  
لاختيارها الطريق العسير المكمل ببركة الله ومجده  
العالمي. وقالت له قدرية ذات ليلة:

- ألا تحبّ أن تمضي صباح الجمعة معًا في نزهة؟  
فدهش وقال:

- إني أجيئك كاللصّ متخفيًا في الظلام...  
- ممّ تخاف؟

ماذا يقول؟... إنها لا تفهم شيئًا. وقال معتذرًا:  
- لا يجوز أن يراني أحد...

- هل ترتكب جريمة؟

- الناس...

فقالت هازئة:

- أنت الثور الذي يحمل الأرض على قرنيه.

إنّه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة  
عليها. وقالت له بإغراء:

- يمكن أن تحتكرني ليلة كاملة، يمكن الاتفاق على  
ذلك...

قال له سعفان بسيوني:

- سأحزن لغيابك عن المحفوظات بقدر ما أنا  
سعيد بك.

وذاب عثمان في الجوّ العاطفي بإخلاص وقتي  
فدمعت عيناه وتمتم:

- لن أنساك أبدًا يا سعفان أفندي ولن أنسى عهد  
المحفوظات.

- ولكّني سعيد لأنك سعيد...

فتنهّد عثمان وقال:

- السعادة عمرها قصير جدًّا يا سعفان أفندي.

ولم يفهم سعفان قوله ولكنّ الآخر كان يعيشه. كان  
يحمل الزمن على ظهره لحظة فلحظة ويعاني الصبر  
نقطة نقطة. وسرعان ما نسي تمامًا أنّه رُقّي إلى السابعة  
أو أنّه يعمل في إدارة الميزانية، كان يعمل بجنون في  
الوزارة، ويتبحّر في المعرفة في حجرته الصغيرة. وبين  
هَذَا وذاك يقول بجزع:

- العمر يجري... الشباب يجري... الأيام لا  
تريد أن تستريح...

وما زال في أوّل الطريق الطويل. وكان ولعه  
بالادّخار يزداد مع الأيام، واستمسكه بمسكنه البدائيّ  
يقوى ويشتدّ. المال حصن، هكذا يشعر. وهو مهر  
عند الضرورة لعروس الأحلام. وعروس الأحلام هي  
التي تفتح مغالقي الأبواب وتستنزل جوهرة المستقبل من  
معتصمها. وللموظفين في ذلك أقوال ماثورة وحكم  
وأمثال. العروس الجميلة إما أن تكون هديّة مجد مبكّر  
أو ذريعة إلى المجد المستعصي. والطريق يبدو شاقًا  
وطويلاً فهو في حاجة إلى إسعاف. وهم يقولون:

- سعادة المدير العام ارتقى إلى مركزه الفريد وهو  
شابّ تقريبًا بفضل السياسة والأسرة فتزوّج من فتاة  
من أسرة تعدّ من ملكات الجمال.

ويقولون أيضًا:

- أما الوكيل الأوّل للإدارة فترقى بفضل زوجته،  
أو أسرة زوجته وهو الأصح...

وهو يزود نفسه بكلّ سلاح فلا عيب إذا استعان  
بعد ذلك بعروس كريمة، وإلا فكيف يقف ضدّ تيار  
الزمن المتدفّق بلا رحمة؟! ولذلك راح يترجم  
للصحف والمجلاّت ليزيد من دخله ويزيد بالتالي من  
مدّخراته. ونجح في ذلك نجاحًا لا بأس به. ولم ينفق

## حضرة المحترم ٦٦٥

فسألها بحذر:

- والضمن؟

- خمسون قرشًا... .

وفكر باهتمام. سببه ذلك راحة حقيقيّة ولكنّ الثمن فادح. إنّه في حاجة إلى الراحة، قال:

- فكرة طيّبة ولتكن مرّة في الشهر... .

- هل تكفي بمرة واحدة في الشهر؟... .

- ربّما أجيء غيرها ولكن بالطريقة العاديّة.

واعترف بأنّه لا غنى له عنها. إنّها تماثله في السنّ، ولكن يبدو أنّها غافلة عن الزمن، وعن أثره السريع فيها. وهي تعيش بلا حبّ ولا مجد، وكأنّها تؤاخي الشيطان في غضبها. وكم غاظه أن تعترف له مرّة بأنّها اشتركت في مظاهرة فهتف محتدًا:

- مظاهرة!

- ما لك!... نعم مظاهرة... حتّى هذا الدرب

أحبّ الوطن يومًا ما... .

وقال إنّ الجنون منتشر أكثر ممّا تصوّر. الاهتمامات السياسيّة تثيره وتدهشه. وهو يصرّ على عدم الاكترات بها. ويؤمن بأنّ للإنسان طريقًا واحدة، وأنّ عليه أن يشقّها وحيدًا مصمّمًا بلا أحزاب ولا مظاهرات، وأنّ الإنسان الوحيد هو الخلق بالشعور برّبّه وبما يطالبه به في هذه الحياة، وأنّ مجده يتحقّق في تحبّطه الواعي بين الخير والشرّ، ومقاومة الموت حتّى اللحظة الأخيرة.

## ١٣

وأطلع عثمان بيومي ذات يوم على إعلان له شأنه. أعلنت الوزارة عن حاجتها إلى مترجم للغتين الإنجليزيّة والفرنسيّة بمكافأة ٣٥ ج. م، وحدّدت يومًا لامتحان مسابقة. اشترك في المسابقة بلا تردّد ولا تفكير شامل. وأسفرت النتيجة عن اختياره ممّا زاد ثقته بنفسه واعتزازه بمواهبه. واستدعاه حمزة السويفي إلى مكتبه - وكانت الوظيفة الجديدة في مكتبه - وقال له:

- أهتاك على نجاحك الذي يقطع بتعدّد قدراتك.

فشكره عثمان بأدبه المعهود فقال الرجل:

- ولكتّها وظيفة ذات مرتّب ثابت وسوف تخرج بها

من الكادر العامّ فهل فخرت في ذلك.

لم يفتن في الواقع إلى ذلك فسرعان ما فتر حماسه لمرتبّها الضخم نسبيًا وقال:

- الحقّ أنّي لا أرغب في الخروج من الكادر

العامّ... .

- هذا يعني أن نعيّن التالي في الترتيب؟

فطرات على ذهنه فكرة طيّبة فقال:

- ألا يمكن أن أرقى إلى الدرجة السادسة على أن تضاف إلى أعمال الترجمة وبذلك أوفّر للميزانيّة مبلغًا لا بأس به؟

فتفكّر مدير الإدارة مليًا ثمّ قال:

- المسألة تحتاج إلى مراجعة المستخدمين والإدارة

القانونيّة... .

- ليكن يا سيّدي... .

فضحك حمزة بك وقال:

- إنّك طموح وحكيم، أرجو أن يكون اقتراحك

مقبولًا... .

وتقرّرت ترقّيته إلى الدرجة السادسة بمرتّب قدره خمسة وعشرون جنيهاً، ورغم تضحيته بعشرة جنيهاً إلا أنّه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات، فضلاً عن الأهميّة التي اختصّ بها بعمله المزدوج. وتمتّع بسعادة قصيرة كالعادة. لم يعرف السعادة إلاّ خطفاً مثل لقاءات الطريق العابرة. وعاد يقيس الطريق الطويلة ويثنّ تحت وطأة لانهائيّتها. ما جدوى الدرجة السادسة وهو يوشك أن يلج مرحلة جديدة من العمر؟. وقبّله سعفان بسيوني وقال له:

- إنّك تقفز بقوة مليحة يا ولدي... .

فقال بأسى:

- ولكنّ الأيام أسرع من الخيال... .

- هي كذلك كفك الله شرّها... .

فرنا إلى وجهه المتغصّن وسأله:

- هلاً حدّثني عن طموح شبابك؟

- أنا؟!، له الحمد، كانت رئاسة المحفوظات أبعد

من خيالي... .

- ألم تحلم بأن تكون المدير العامّ؟

فأغرق الكهل في الضحك حتّى دمت عيناه، ثمّ

قال:

- نحن أبناء الشعب لا نطمع فيها يتجاوز رئاسات

الأقسام.

إنّه مخطئ. إنّما يصدق كلامه على وظائف الوزارة والوكلاء، أمّا وظيفة المدير العامّ فلا تستعصي على أبناء الشعب، هي أملهم المنشود والأخير. وبخاصّة الأفاضل منهم الذين يعدّون أنفسهم لذلك المجد العظيم. بيد

وتحضي الأيَّام، وستمضي أبداً، بصيفها اللافح،  
وخريفها الحالم وشتائها القاسي وريبعها الفواح،  
وسيطلاً عزيمة مثابرة وهمة متصاعدة وقلباً معدباً وأشواقاً  
طاحنة.

١٤

وزارته أمّ حسني كعادتها بين الحين والحين. أهدته  
برطماناً من الليمون المخلل وجلست على الكنبه وهي  
تنظر إليه باهتمام أثار فضوله. ضربت على ركبتيها فجأة  
وقالت:

- تحزني وحقّ الحسين وحدتك...

فابتسم بلا اكتراث فقالت:

- أنسيت أنك تتقدّم في العمر؟

- كلاً طبعاً يا أمّ حسني...

- وأنه لا يوجد ما هو أغدر من السنين!

- صدقت.

- أين الدرّية لتؤنس وحدتك؟

- في عالم الغيب.

وصمت قليلاً حتى قال ضاحكاً:

- طّبع المهنة يتحرّك فيك يا أمّ حسني...

فضحكت وقالت:

- اسمع عندي شيء ثمين...

رغم موقفه الحاسم جذبه الحديث بإغراءاته العذبة  
المجهولة. قال:

- دائماً عندك شيء ثمين.

فقالت بأمل:

- حلوة... أرملة... متوسطة العمر... ولكنتها  
عاقلة، بنت المرحوم شيخ الحارة...

- ها!

- لها بنت وحيدة في الرابعة عشرة!

- إذن هما امرأتان لا امرأة واحدة...

- ستذهب البنت إلى بيت عمّها... لا تحمل همّاً  
من هذه الناحية...

- عظيم.

- وهي صاحبة ملك!

- حقاً؟!

- بيت في برجوان... في حوشه شجرة توت...

نظرت إليه ببصرها الضعيف لترى أثر كلامها،  
فتوهّمت رضاه، وقالت:

أنّ الأيَّام تمرّ بلا توقّف، وفي غفلة ونعومة. ولا قيمة  
لدرجة المدير العامّ إذا لم يتح لصاحبها البقاء فيها  
أعواماً حتى ينعم بها وينعم بالدنيا في ظلّها ويحقّق  
باسمها أجلّ الخدمات للجهاز المقدّس الذي يسمّونه  
الحكومة.

ومنى يكمل نصف دينه؟. قبل بلوغ الأمل أم  
بعده؟. يجب أن يكون أسرة وينجب ذرّية وإلا حقّت  
عليه اللعنة. فإمّا العروس التي ترفع إلى العلا وإمّا  
العلا الذي يحظى بالعروس الباهرة. ومن شدّة معاناته  
للعداب يحنّ أحياناً للهدوء والخمول ويتطلّع إلى الجهاد  
الشاقّ الذي يبب الحياة معناها الوحيد، وعداها  
المقدّس.

وسمع ذات يوم أنّ مدير الإدارة حمزة السويفي  
يشكو ضعف نجله في اللغات الأجنبية فاقترح عليه أن  
يساعده. وتردّد الرجل قائلاً:

- الأوفى أن أحضر له مدرّساً خاصّاً حرصاً على  
وقتك.

فقال له بأسلوبه المختار:

- لن أغفر لسعادتك هذا القول...

وتردّد على بيت المدير فقدّم للشابّ مساعدة فذّة  
كان لها أثرها في إنجاحه. وفكر المدير في تقديم مكافأة  
له فتراجع كأنما يجفل من نار وقال:

- لن أغفر لسعادتك هذا أيضاً...

وأصرّ على موقفه حتى سلّم الرجل، فقال له بنبرة  
المتنّ:

- لا زلت أسير فضلك وتشجيعك...

على أنّه شعر في أعماقه بألم يناسب المبلغ الذي  
رفضه بشهامته. وثمة خيبة أخرى عاناها في تردّده على  
بيت المدير، فقد حلم بأن يجد هناك عروساً «مناسبة»  
ومن يعلم؟... وحلم أيضاً بأنّ خدماته قد تشفع له  
عند حمزة بك فيغضي عن وضاعة أصله، ويقبله في  
طبقة جديدة تمهد له السبيل إلى التقدّم. ولكنّ الحلم  
لم يتحقّق، ولم يصادفه في تردّده إلا الذكوراً سعفان  
بسيوني ما كان يهّمه أصله فهما من أصل واحد تقريباً  
ومنبت متشابه ولكن أيّ فائدة كان يرجوها من الزواج  
من كريمته؟. لا شيء إلا الدرّية والمتاعب والفقر. ولا  
حبّ أيضاً. فهو لم يحبّ إلا سيّدة، وقد مات قلبه مد  
سلاها، ولكنّ المتطلّمين إلى المجد في طريق الله لا  
يحفلون بالسعادة.

## حضرة المحترم ٦٦٧

- هل انتهيت من تبيض بيتك؟

فأحنت رأسها بالإيجاب .

حاولت أيضًا استدراجه للحديث عن وظيفته ولكنّه لزم الصمت. ورغبته تأججت ولكن بلا أمل وتحركت سنيّة حركة خفيفة تنبئ عن رغبتها في الذهاب فقام من فورهِ، سلّم وذهب. وبدلاً من أن يصعد إلى شقته هبط أسفل السلم مضمرًا خطّة تتسم بالجرأة. سمع أقدامها وهي تتحرك على السلم نازلة. دهشت لمراه فقال مظاهرًا بالدهشة كذلك:

- فرصة طيبة...

أوسع لها ولكنّه همس وهي تحاذيه:

- تفضّلي لشرب فنجان شاي فوق...

فقالت بعجلة:

- شكرًا...

- تفضّلي عندي ما أقوله...

فقالت باحتجاج:

- كلاً.

ومضت مسرعة ما أمكنها ذلك. قال وأطرافه ترتعش بالرغبة لأنه أسرع، كيف تصوّر أنّها يمكن أن تقبل؟، ولكنّها الرغبة وقلة الصبر والحيلة. وصعد خجلان غاضبًا. وقال إنه سيظلّ مراهقًا حتى يستقرّ في بيت محترم.

## ١٥

حالته الماليّة تتحسنّ يوميًا بعد يوم، استحقّق علاوة، وعائده من الترجمة يتزايد، ولأنّه لا ينفق إلا ما تحتمه الضرورة فرصه في البريد يرتفع باستمرار. ومهنته في العمل لا تبين، وعلاقته بمدير الإدارة حميمة كأنّها الصداقة، ويومًا قال له:

- أبدى سعادة المدير العامّ إعجابهِ بأسلوبك في

الترجمة...

فاجتاحته موجة فرح حتى أغرقته، وأيقن بأنّه لن ينام من الليل ساعة. طبعًا سعادته لا يتدكّره، ولكنّه بات يعرف الاسم وشخص المترجم المعنويّ. قال مدير الإدارة:

- سعادة المدير مترجم كبير، ترجم كثيرًا من الكتب

الهامة فهو يقدّر عن يمينه!

وتتم شاكراً ثم قال:

- إنّما نلت تقدير سعادته بفضل رضاك عنيّ.

- سترها بنفسك...

ويارشاد من أمّ حسني رأها في السكّة الجديدة. رأها ترتدي معطفًا ولكنّ وضح له أنّ مشيتها المثنيّة الوانية تربّت وترعرعت في الملاءة اللّف. مائلة للقصر وبدينة، ذات وجه ريان وشعر أسود. نادى فيه رغبة بدائيّة. مثل قدرية. قال إنّها أنظف ربّما ولكنّ متاعها أكثر بما لا يقاس. وشعر برئاء نحو أمّ حسني التي تجهل كلّ الجهل رغم طول المعاشرة. من أين لها أن تفهم معنى مراجع بإدارة الميزانيّة ومترجم؟. مأساة الأدميّة أنّها تبدأ من الطين، وأنّ عليها أن تحتلّ مكانتها بعد ذلك بين النجوم.

وسألت أمّ حسني:

- ما رأيك؟

فأجاب بأسيا:

- سيّدة ممتازة... ما زلتِ أستاذة!

- هل أكمل ما بدأت؟

فأجاب بهدوء:

- كلاً.

- ألم تقل إنّها سيّدة ممتازة؟

- ولكنّها ليست بالزوجة الصالحة لي.

وأثبتت المعجوز أنّها عندئذ يتصوّر فجاءته يوماً وهي تقول:

- من المصادفات السعيدة أنّ ستّ سنيّة جاءت

تزورني...

فتحرّكت الرغبة البدائيّة واستسلم لضعف طارئ فلذكرته أمّ حسني بقولها قائلة:

- جاءت تزورني...

فقال بخبث:

- لعلّها تزورني أيضًا.

فقالت وهي تمضي:

- إذا شئت فانزل أنت...

ولم يتردّد فنزل. وغلب الصمت فانفسح المجال لأمّ حسني فراحت تتكلم بلا توقّف. وتذكر عثمان أنّه لم يتكلم كلامًا له معنى إلا مع سيّدة. واضطرّ أن يقول:

- شرفتنا...

فهمست:

- متشكّرة...

- الجو بارد اليوم.

- نعم.

تمت المقابلة في جوٍّ مَحْطَّ وغربة ساخرة، وعَبَثًا حاول أن يجد فوق الشفتين الغليظتين أي أثر لشفتيه أو أسنانه. مكث ما تقتضيه المجاملة ثم ذهب بقلب يخفق بالابتهالات للمجهول الغامض الفتاك ذي الابتسامة الناعمة القاسية. ذهب إلى رئيسه القديم لقضاء سهرة وديّة لمناسبة إحالته على المعاش بعد أيام معدودات. أمسى الكهل عودًا هزيلًا، هلكت آخر شعرة في رأسه، لا بسبب الكبر ولكن لمرض في المعدة، ولكنه ظلّ طيبًا مستسلمًا كالعهد به. ووضح أنه يستقبل نهاية خدمته بكتابة وحزن وتشتت فمضى يجامله ويقول:

- أتمنى لك راحة سعيدة مديدة. . .

فقال الكهل وهو يضحك ضحكة لا معنى لها:

- لا أدري كيف تكون الحياة بعيدًا عن المحفوظات. . .  
ثم وهو يتهدّد:

- ولا هواية لي، وهذا هو المزعج حقًا. . .

- ولكنك محبوب، الجميع يحبونك. . .

- نعم، ولم تعد لديّ واجبات عائليّة بلا إنجاز، ولكنني خائف.

وجعلا يحتمسيان الشاي وهو يسترق منه النظر برثاء حتى رجع يقول - الرجل - :

- أذكر يوم التحاقني بالخدمة كأنه الأمس، إنه يوم لا يُنسى مثل ليلة الدخلة، أذكره بكلّ تفاصيله، كيف مرّ ذلك العمر بهذه السرعة؟

فانقبض قلب عثمان وتمتم:

- نعم كأشياء كثيرة. . .

فابتسم إليه كأنما يفتتح بالابتسامة عهدًا جديدًا وسأله:

- وكيف حال أعبائك العائليّة؟

تذكر ادّعاءاته الكاذبة فقال:

- ما زال الحمل غير خفيف. . .

فرنا إليه بمودة وقال:

- تسلّمتك غلامًا كبيرًا ليس إلّا، وها أنت اليوم

رجل كامل، وعمّا قليل. . . ولكن ما علينا، المهمّ الآن يسرقك الزمن، خذ بالك بكلّ قوّة. . .

- عظيم، وهل يجدي ذلك؟

- على الأقلّ لا يجوز أن يفوتك القطار. . .

- هل تقصد الزواج؟

- كلّ شيء، دائميّ أراك في حال تأهب واستعداد،

ابتسم المدير وقال بنبرة مبالغة في الود:

- دعيت لإلقاء محاضرة في جمعيّة الموظّفين، وقد سجّلت نقاطها، فما رأيك في أن تكتبها بأسلوبك الممتاز؟

فقال بحماس:

- إنّي لسعادة كبرى يا سيّدي المدير.

إنّه يتمنى لو يكلف كلّ يوم بعمل كهذا. إنّ عمله في الإدارة - على ضخامته وتقدير الجميع له - لن يكفي وحده. فلا أقلّ من تقديم الخدمات للرؤساء، وإشعارهم بأهمّيّته وفوائده الشريفة. ولعلّ ذلك يقلّل من جزعه لقلّة ما ناله بالقياس إلى ما يطمح إليه. ولكنه عزاء يتزوّد به في طريقه الطويل. وفي الليل غشيت كآبة بلا مقدّمات وهتف:

- يا لي من مجنون، كيف أتصوّر أنّي سأبلغ يومًا مرادي؟

وحسب ما ينقصه من درجات، الخامسة والرابعة والثالثة والثانية والأولى، قبل أن يتبوأ ذروة المجدا. حسب ذلك وما يقتضيه من سنوات العمر فدار رأسه وداخله شعور عميق بالأسى. وقال إنّه يجب أن يحدث شيء كبير، وإنّ حياته لا يمكن أن تصبح هدرًا. وكان على موعد مع سرفان بسيوني في المقهى فارتدى ملابسه وغادر الشقّة. وجد أمّ حسني في انتظاره أمام شقّتها فقالت له:

- عندي ضيوف يجب أن تسلّم عليهم، عندي سيّدة وأمّ سيّدة. . .

دخل وسلّم. دخل كالحائف ولكن سرعان ما أدرك أنّ كلّ شيء قد انتهى وانقضى. لم يلمس لمحة جفاه أو عتاب واحدة، ولكنه رأى نظرة محايدة لا تكلف فيها ولا التباة تذكر فأيقن من سقوط الماضي في هوة الموت اللأناهيّة. وضاعف من إحساسه العميق بالزمن ترحيب الأمّ به ترحيبًا صافيًا بلا شائبة. رأى الموت يفترس قيمة عزيزة ظنّ بها الخلود والأبدية فإذا بها ذكرى مجرّدة تكاد تخرج من نطاق التاريخ نفسه كأنّها خروج آدم من جنة الخلد. وها هي سيّدة تميل إلى البدانة والبلادة، ذكرته بقدريّة، فأمعن في الاضطراب ورأى أعلى ملاءتها قد هبط عن رأسها فطوّق منكبها، فانطلق الرأس والعنق في حرّية، وتراجع مندليها المنمنم عن جبهة لامعة ومقدّم شعر مفروق، أمّا الألق الذي ألف أن يطالعه في عينيها فقد استقرّ وانطلقًا.

## حضرة المحترم ٦٦٩

العالي الموصل إلى الحضرة الإدارية العليا. وهي فرصة سلطانية تطالبه باستغلال جميع ما تَمَرَس به من خبرة وثقافة ولباقة وإخلاص. ها هي الحجرة المترامية كميدان التي يحلم بأن يحكم منها ذات يوم. الحلم الذي يجب أن يتحقق ولو ضحى على مذبحة بجميع القرابين، الحلم المضمون به على غير أهله من الأكفأ الذين يشترونه بمسرات الدنيا الرخيصة العابرة.

وتفحص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض، سقفها الأبيض الأملس، ونجفتها الكرستال، وجدرانها المورقة، مدفاتها الموشاة بالقرميد، بساطها الأزرق الذي لم يتخيل إمكان وجود بساط في طول وعرضه، وطاولة الاجتماعات ذات الغطاء الأخضر، والمكتب المتصدّر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه البلوري، وتحفه الفضية من زواقات ومحابر وأقلام وساعة وسومان ونافضة وعلبة خشبية للسجائر من خان الخليلي.

وتهيأت فرصة لاستراق النظر إلى المدير السعيد وهو مستقر فوق مقعده الكبير، يطالعه بعينين داكنتين حادتين ووجه حليق، وطربوش غامق الاحمرار، ورائحته الزكية، وشاربه الأسود المتوسط الطول والارتفاع، وهاله الصحة التي تطوقه، وبدانته المتوسطة وإن لم يعرف على وجه الدقة طولها، وتحفظه الراسي المهيب الذي يجعل من صداقته مطلباً عزيز المنال.

ها هو يقف في حضرته، في تناول أنفاسه، في مجال رائحته الزكية، يكاد يسمع نبضه، ويقرأ أفكاره، ويستلهم رغائبه، وينفذ - قبل البوح - أوامره، ويقرأ المستقبل على ضوء ابتساماته، وقرّة عين حلمه الأبدي أن يجلس ذات يوم مكانه.

انحنى بأدب وورع وقال:

- صَبَّحَكَ اللهُ بالسعادة يا صاحب السعادة.

فرجع إليه بصره مغمغماً برداً تحيته، فقال الآخر يقدم نفسه:

- عثمان بيومي رئيس المحفوظات.

فقرأ في ارتفاع حاجبيه المستقيمين ابتساماً لم ترسم على شفثيه، فقال مستزيداً. من تقديم نفسه:

- الجديد يا فندم.

- والمترجم. أليس كذلك؟

فقال بقلب خافق:

- نعم يا صاحب السعادة.

لأي شيء؟ وحتى متى؟

- ولكن هذه هي طبيعة الحياة...

فلوَّح الرجل بيده محتجاً وقال:

- كلنا يتكلم عن الحياة بثقة كأنما يعرفها حق المعرفة...

- لا مفر من ذلك...

- لولا وجود الله سبحانه وتعالى لكانت لعبة خاسرة لا معنى لها...

- من حسن حظنا أنه موجود وأنه أعلم منا بما يفعل...

فقال الكهل بعمق:

- الحمد لله...

وصمتا وتكلمًا، ثم صمتا وتكلمًا حتى آن وقت الذهاب. شعر عثمان بأنه لن يراه مرة أخرى. ولم تكن تربطه به إلا زمالة قديمة وإحساس بالواجب ولكنته وجد نحوه - في لحظة - أسى غير قليل. قال الكهل وهو يصفحه:

- أتوقّع ألا تنساني؟

فقال بنبرة أحرّ من قلبه:

- معاذ الله...

فقال الرجل برجاء:

- النسيان هو الموت.

- مدّ الله في عمرك.

ولم تكن لديه نيّة لزيارته، ولا هو جاء لتوديعه بدافع حقيقي من عواطفه ولكن خوفاً من أن يتهم بالجهود، ولذلك كَرَبه ضميره وورعه الديني، ومضى في طريقه لا يرى شيئاً، ورغماً عنه تركّز تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام.

وكانت مكانته قد تدعّمت لدى مدير الإدارة فلم تعترض سبيله عقبة ذات وزن.

ورُقيّ إلى الدرجة الخامسة في نفس الشهر مع نقله رئيساً للمحفوظات.

هبة قيّمة تتخلّق في الفراغ المشحون بالصبر. الوثبة الجديدة وثبة حقيقية، وإميازها الخطير أنّ رئيس المحفوظات يعرض بنفسه الخطابات الهامة على حضرة صاحب السعادة المدير العام ليتلقّى توجيهاته وينفذها في سرّيّة تامّة. رضي الله عنه أخيراً ففتح له الباب

إتته يؤمن بأن الله خلق الإنسان للقوة والمجد،  
الحياة قوة، المحافظة عليها قوة، الاستمرار فيها قوة،  
فردوس الله لا يُبلغ إلا بالقوة والنضال.

وحانت فرصة لا بأس بها عندما منح حضرة  
صاحب السعادة بهجت نور المدير العام نيشان النيل.  
حبر مقالة في تهنئته نشرتها له صحيفة يدها عادة  
بمترجماته. نوه فيها بالحزم والخلق والدين والإدارة  
والمثالية، قال إنه مثال للمدير الوطني الذي ظن يوماً  
أنه لا يمكن أن يقوم مكان المدير الإنجليزي.  
وعندما دخل الحجرة العصاء لعرض البريد ابتسم  
صاحب السعادة له لأول مرة، وقال له:

- أشكرك يا عثمان أفندي...

فقال وهو ينحني:

- الشكر لله يا صاحب السعادة...

- أما أسلوبك فمما تُغبط عليه.

وآمن بأنه ليس بالنبيذ الجهنمي وحده يسكر  
الإنسان. ولكن السكر لا يدوم. وكثيراً ما يعقبه مخار.  
ويجئ إليه أن عجلة الأيام تزيد من سرعتها. غاية ما  
يذكر أن الزمان لم يكن موجوداً. كانت حارة الحسيني  
مكاناً صرفاً. لا خطورة للدرجة الخامسة في حياة رجل  
يتوسط العمر. رجل يرفع رأسه دوماً نحو النجم  
القطبي، يجس نفسه في حجراته الصغيرة المكتظة  
بالكتب. خير ما في حياته من طعام لحمه الرأس أو  
الكباب في المواسم السعيدة. ولا يعرف من مسرات  
الدنيا إلا النبيذ الجهنمي وقدرية الزنجية في الحجرة  
العارية.

إنه بحاجة إلى دفء إنساني حقيقي، إلى عروس  
وأسرة. لم يعد يحتمل أن يحترق في الحياة وحيداً...  
ما أحوجه إلى أنيس في هذا الكون المكتظ بملايين  
الأكوان!...

دعا أم حسني لزيارته. صنع لها القهوة بيده على  
موقده الكحولي. لعلها شعرت بأنه يتهدأ للكلام في  
قلق عذب. قالت برجاء:  
- قلبي يجذبي أنك ناديتني لأمر، يشهد الله بأنني  
حلمت أمس...  
فقاطعها:

فقال بصوت منخفض:

- أسلوبك جيد...

- إنه لشرف عظيم هذا التشجيع...

- هل لديك مراسلات هامة؟

راح يفتح المظاريف برشاقة ويعرض الخطابات  
ويتلقى في دقة التوجيهات. انحنى مرة أخرى ثم غادر  
الحجرة ثملاً بالأفراح. فكرر في طريق عودته إلى  
المحفوظات بأن حمزة السويدي يتراجع - في حياته -  
إلى الظل حتى يدركه الظلام الذي ابتلع سعفان  
بسيوني وأن مستقبله أصبح منذ الساعة بيد حضرة  
صاحب السعادة بعد الله ذي الجلال. وقال لنفسه:

- احذريا عثمان مغتبه السير الرتيب، لا بد من وثبة

أو وثبات...

وقال أيضاً:

- سعفان بسيوني قضى نصف مده خدمته في

الدرجة التي أسلمته إلى المعاش!

وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للإدارة وكيلين ولكن  
الوثبة لن تأتي إلا عن طريق حمزة السويدي، بأن يرقى  
أو يحال إلى المعاش أو... يموت!! وامتعض من  
نفسه كما يحدث له كثيراً، وابتهل إلى الله قائلاً:

- أسألك اللهم العفو والسماح!

وتساءل:

- لماذا خلقنا على هذه الصورة الفاسدة؟

قل أن يرضى عن طبيعته ولكنه يسلم بواقعها،  
ويؤمن بأن طريقه المقدس تتلاطم على جانبيه أمواج  
الخير والشر، وأن شيئاً لا يمكن أن ينال من قدسيته  
سوى الضعف والخور والقناعة والاستسلام للمسرات  
السهلة وأحلام اليقظة.

- اغفر لي ذنبي أنني أحب المجد الذي بثت حبه

في نفسي يا ذا الجلال...

وتساءل نفسه بتصميم:

- كيف تقنع حضرة صاحب السعادة

بفوائدك؟... هذه المسألة.

كيف ومتى يتاح له تقديم الخدمات دون انحراف أو  
خزي؟. وهو دائن لا مدين كما فعل مع حمزة  
السويدي؟، وفي نطاق الكبرياء والشموخ وإن يكن في  
الحدود الرسمية بأدبها المعروف وكلماتها المعسولة؟  
- إن جهادي شريف أما العواطف والأفكار فهي  
ملك لله وحده...



## حضرة المحترم ٦٧١

- أما الأصل فيمكن القول بأن الأب كان تاجرًا  
مثلاً، هل يتحزون عن ذلك بدقة؟  
- نعم... رحم الله والديك...  
- على أي حال قد يشفع لي شخصي، ولنجرّب!  
ومضت الأيام مرهقة وهو ينتظر. وكلما رجع إلى أم  
حسني أوصته بالصبر. تخيل أسباب التأخير وقلبه  
يغوص في الظلام، وراح يتردد على مقام الحسين.  
وحدث في تلك الأيام أن تخلف عن العمل مدير  
الإدارة حمزة السويفي. وعلم بأنه لزم الفراش لارتفاع  
شديد في ضغط الدم. وزاد من الحرج العام أن  
الإدارة كانت بصدد إعداد الميزانية الجديدة. وقد عاده  
في مرضه، وجلس قرب فراشه طويلاً، وأبدى من  
الحزن والإشفاق ما أطلق لسان الرجل بالثناء عليه  
والدعاء له أن يكفيه الله شرّ الأيام. وتذكر عثمان في  
جلسته أنه لم يزر سعفان بسيوني، وأنه ترك أخباره  
تنقطع عنه كأنه رحل. وقال مخاطباً حمزة السويفي:  
- ارتح تمامًا، ولا تترك الفراش حتى تستردّ عافيتك  
بالكامل، ولا تقلق من ناحية العمل فإنّي والزملاء في  
خدمتك...

فشكره الرجل وتمتم في قلق:

- مشروع الميزانية!

فقال له بيقين:

- سيعدّ بإذن الله، كلهم تلاميذك ويعرفون من  
العمل تحت رياستك ما ينبغي عمله...  
أما في الوزارة فقد دار الحديث طويلاً حول المريض  
ومرضه، قيل إنه ربّما اضطرّ حمزة بك إلى التقاعد أو  
التنحي على الأقلّ عن مهامه الرئيسية. سمع تلك  
الأقوال باهتمام فحقق قلبه بسرور خفيّ تلقّاه بسخط  
وقلق. كالعادة، ولكنّه هبّج أحلامه ومطامعه. وإذا  
بالمدير العامّ يصدر قرارًا بتشكيل لجنة خاصّة لإعداد  
الميزانية جعله مقرّرها. وتمّ اختياره عن دلالة لا تخفى  
على أحد. أجل لم يشكّ أحد في كفاءته ولا في حكمة  
القرار من هذه الناحية ولكنّ - قيل - ألم يكن اللائق أن  
تسند رئاستها إلى وكيل الإدارة محافظة على الشكل ١٩.  
أما هو فكرّس كلّ قواه لإعداد المشروع حتى يبرز  
للوجود كاملاً بلا هفوة واحدة. ونجّلت مقدرته في  
توزيع العمل وتنظيمه ومتابعة المعلومات المطلوبة من  
إدارات الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية  
وتحرير البيان. واقتضى العمل الاتّصال المباشر بحضرة

- لا داعي للأحلام يا أمّ حسني، أريد عروسًا.  
فتهلّل وجهها وهتفت:  
- يا ألف نهار أبيض...  
- عروس مناسبة...  
- ما أكثرهنّ!  
- لي شروط يا أمّ حسني، افهميني جيّدًا...  
- عندي البكارى والثيب، مطلقات وأرامل،  
الغنيّات ومن هنّ على باب الكريم...  
فقال بصوت حاسم:  
- أبعدني فكرك عن حارتنا، عن حيننا كلّ...  
فتساءلت بحيرة:  
- ما هي أفكارك يا ابني؟  
- أريد عروسًا من أسرة كريمة...  
- عندك المعلم حسونة صاحب المطحن البلدي.  
فقاطعها بنفاد صبر:  
- لا تفكر في حيننا، عليك بالأسر الكريمة...  
- تقصد...؟  
- الأعيان... كبار الموظّفين... أصحاب  
السلطة.

بهتت المرأة كأنّما تسمع عن عالم فلكيّ جديد.

- الظاهر أنّه لا حول لك في هذا المجال.

فقالت بيأس:

- تفكيرك غريب يا بنيّ...  
ليكن...

- لا حول لي كما قلت ولكنّي أعرف أمّ زينب  
الخاطبة بالحلميّة.

- عليك بها، وعند التوفيق سأعاملك كما لو كنت  
صاحبة الفضل الأوّل...  
وهي تضحك:

- أنت بخيل يا سيّ عثمان.

- يا وليّة يا ظلمة، هذا وعد ورحمة أمي...  
- ربّنا يوفّق.

- ليس من الضروريّ أن تكون بكرًا، لتكن  
أرملة... مطلقة... عانسًا... لا يهمني الجمال -

ولكن لتكن مقبولة - ولا يهمني السنّ ولا المال.

هزّت المرأة رأسها في حيرة فقال:

- عن الوظيفة والدرجة والشهادة فليرجعوا إلى  
الوزارة أمّا...  
وسكت قليلاً ثمّ استطرّد:

رجع في خطوة واسعة واحدة وانحنى حتى كاد رأسه  
يمس طرف الكتب.

١٨

وثبة موفقة لا شك في ذلك. وإذ جرى الحظّ بذلك  
المعدّل فرجماً بلغ المراد في اثني عشر عامًا أو خمسة  
عشر، ويتبقّى له عدد لا بأس به من السنين يمارس  
فيه الإدارة الكبرى كصاحب سعادة. أمّا مهمّة أمّ  
زينب فقد باءت بفشل أكيد، لم يعد من مجال للشكّ  
في ذلك.

- رئيس المحفوظات رُفض بلا عناء، مدير الإدارة  
رَجْمًا قَبْلَ، أمّا صاحب السعادة فلا يمكن رفضه ولو بلغ  
أرذل العمرا

لا حصر للأسباب التي تدعوه للزواج. منه يستمدّ  
العون، ويبدّد وحشة القلب وعذابات الوحدة،  
ويُرضي ورعه الدينيّ الذي يرى عزوبته إثماً. قدريّة  
تلعب دورًا ملطّفًا في حياته المتوتّرة ولكنّها لا تهبّ رحمة  
أو حنانًا أو مودة إنسانية، فضلًا عن مضاعفتها لمشاعر  
الإثم. العزاء الباقي هو العمل، والثقافة، والادّخار،  
وكلّمها ضاق بتقسّفه قال لنفسه:

- هكذا عاش الخلفاء الراشدون!

وذاث يوم وهو يعمل في المحفوظات بورغيت بسعفان  
بسيوني يقف أمامه مهذّمًا مهزولًا كأنه شبح يودّع  
الحياة. نهض للترحيب به خجلان من هول ما أهمله.  
وأجلسه وهو يقول بحرارة مفتعلة:

- أيّ فرصة سعيدة!

فاستجمع العجز أنفاسه بجهد جهيد ثمّ تمتم:

- كم أوحشتنا يا رجل!

فهتف بأسف وندم:

- اللعنة على العمل، اللعنة على البيت ومَن فيه،  
كم أني أسف يا صديقي العزيز.

قال بصوت شاك:

- أنا مريض يا عثمان...

- لا بأس عليك، بخير إن شاء الله، هل أمر لك  
بقهوة؟

- لا شيء البتّة، كلّ شيء ممنوع...

- ربّنا يردّ لك الصّحة والعافية...

غاص في الحرج والضيق ولم يدر كيف يمكن أن  
تنتهي هذه المقابلة التعيسة. وصمت سعفان قليلًا ثمّ

صاحب السعادة والاجتماع به ساعة كلّ يوم وأحيانًا  
ساعتين، حتى حلّت الألفة بينها مكان الكلفة. وامتدّ  
الاجتماع يومًا أربع ساعات فأمر له بقهوة، وقدم له  
سيجارة ولكنّه اعتذر شاكرًا لكونه غير مدخن. مرّت  
أيّام أترعت قلبه بالسعادة والزهو والأمل، ورضي  
الرجل عن عمله فشعر برضى الله وإقبال الدنيا. وأعدّ  
للمشروع مقدّمة مثاليّة حازت إعجاب المدير بصفة  
خاصّة فترتّب على قمّة النصر المبين.

ورجع حمزة السويفي إلى مكتبه مسترّدًا صحّته في  
اليوم الأخير لعمل اللجنة، وأعلن عثمان أفراده فعانقه  
داعيًا له بطول العمر. قال له:

- كنّا كالضائعين فالحمد لله على سلامتكم.

وتساءل الرجل:

- والمشروع؟

- أعدّ، وكتبّت المقدّمة، هما معروضان الآن على  
صاحب السعادة، وسوف تطلع عليها غدًا أو بعد  
غد، ولكن كيف حال الصّحة؟

- الحمد لله أجروا لي حجامة، ووصفوا لي رجبًا  
دقيقًا، والأمر لله من قبل ومن بعد.

- ونعم بالله... ما هي إلاّ سحابة صيف...

ألّف في خدمته الطويلة انقسام الشخصية  
والعذابات الأخلاقيّة. كما ألّف الصدمات المتوقّعة وغير  
المتوقّعة. كهذه الصدمة مثلًا. وجثم الفتور في أعماق  
قلبه حتى اليأس. ولذلك فعندما خلت درجة رابعة في  
الإدارة القانونيّة دفعه التوتّر إلى الكلام. أوّل مرّة تكلم  
فيها بلسانه بعد أن اعتاد الكلام بأفعاله وخدماته.  
وبفضل الجوّ الذي خلفه العمل بينه وبين صاحب  
السعادة قال له:

- لو تعطّف حضرة صاحب السعادة بالموافقة فقد  
برى أن أستغلّ ثقافتني القانونيّة في الإدارة القانونيّة...

ولكّنّ الرجل قال بلهجة حاسمة:

- كلاً، الإدارة القانونيّة وقّف على أصحاب  
امتيازات يحسن تجنّب التعرّض لها...

آ... كالمروس التي طال انتظاره لها. وامتنع  
ولكنّه قال بخشوع:

- أمرك يا صاحب السعادة!

ومضى نحو الباب ولكنّ صوت الرجل أدركه قائلاً:  
- اقترحت رفع درجة رئيس المحفوظات إلى الرابعة  
في الميزانيّة الجديدة.

- إنا أن نحيا وإنما أن نموت!

١٩

الوقت كالسيف إن لم تقطله قتلك. بات خبيرًا بقتل الوقت ولكن هل نجا حقًا من سيفه؟ أمس خلا إليه موظف جديد شاب ليسأله النصح في مسألة خاصة فمهد لسؤاله بقوله:

- معذرة يا سيدي الرئيس إنما أسألك كوالد أو أخ أكبر!

وقع قوله من مسمعه موقنًا غريبًا حتى خُيِّل إليه أنه يسخر منه! كوالدا! حقًا كان من الممكن أن يكون له ولد في سنه. لم لا؟ ومع ذلك فإنه لم يهمل قط في قتل الوقت.

ويومًا قالت له أم حسني:

- أما هذه المرة فهي ناظرة مدرسة!

اهتز بسرور لا خفاء فيه. ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين أنه يريد «مصعدًا» فما العمل؟

ولم يستطع أن يقاوم حب الاستطلاع فسأل العجوز:

- طاعة في السن؟

- عز الأنوثة... خمس وثلاثون سنة على أكثر تقدير...

- أرملة أو مطلقة؟

- عذراء كما خلقها الله، لم يكن يسمح لمن بالزواج كما تعلم...

ولم يجد بأسًا في أن يراها. رآها في السيدة. مقبولة المنظر والمبنى. أثارته كما أثارته سنية من قبل. هكذا رآها وعلم أيضًا بأنها راته.

وقالت له أم حسني في مقابلة تالية:

- لن تكلفك مليًا واحدًا...

فأدرك أنه حاز القبول. وها هي تقترح أن تجهز نفسها وتعد بيتها ولن يطالب إلا بالهين. قالت العجوز:

- الدبلة والشبكة وبعض الثريات فهل أقول مبارك؟

- صبرك...

- لها شرط واحد أن يكون مؤخر الصداق مائة

وخمسين جنيهاً...

كل شيء جميل ويوافق تمامًا حرصه. وهو مناسب

قال بانكسار وذلل:

- إني في مسيس الحاجة إلى ثلاث جنيهاً.

غصن بالكلام ثم استدرك:

- للعلاج كما ترى...

ارتعد عثان. رأى أن الخطر يوشك أن يدمه. بلا

رحمة. هتف بطريقة مؤثرة كالمطارد:

- يا للفظاعة، ما كنت أتصوّر، ما كنت أتصوّر أن

أرد لك طلبًا، فضلًا عن هذا الطلب بالذات، أيسر

عليّ أن أسرق من أن أرفض طلبك.

فازدرد الرجل ريقه وقال بياس:

- ولا جنية واحد؟

- ألا تصدقني يا أعز الناس؟ والله لولا الحياء،

لولا الحياء...

يش الرجل تمامًا. غرق في أفكار مجهولة. قام

بصعوبة وهو يقول:

- إني مصدقك، كان الله في عونك، ربنا يلفظ

بنا كلنا...

دمعت عينا عثان وهو يصفحه. دعة حقيقية. لا

تمثيل فيها. هي تكثيف لبعض أبخرة الصراع المعذب

الناشب في أعماقه. كاد يلحق به. لكنه لم يتحرك.

تركه يذهب. رجع إلى المكتب وهو يناجي نفسه:

- يا للعذاب...

وقال:

- كان يجب أن نُقَدَّ من صخر أو حديد لنستطيع

تحمل الحياة...

وقال أيضًا:

- الطريق طويلة جدًّا، عزائي أنني أفدس الحياة -

نعمة الله - ولا أستهين بها!

في نفس الأسبوع أبلغ بنعي سعفان بسيوني!

فصدم صدمة عنيفة رغم أن الأمر كان متوقَّعًا.

ومن شدّة ألمه صاح بنفسه:

- كفت عن التألم، لديك من العذاب ما يكفيك.

وتساءل:

- إني محسود فهل أنا سعيد؟

وتساءل أيضًا:

- ما السعادة؟

ثم قال:

- سعادتنا الحقيقية أن الله موجود.

ثم بإصرار:

الرومانسية في حياته الجافة حجرة عارية وبغني نصف زنجية.

- ما معنى هذه الحياة؟

وهو كرس نفسه حقاً لطريق الله المجيد ولكنه يغوص في الآثام، ويتلوّث ساعة بعد أخرى، ويبدو أنه لا يقاوم الموت بما فيه الكفاية من قوة.

- كأنها لعبة خاسرة!

في الآتون المتقد، وهو يتلظى في جحيمه، وفدت على المحفوظات نسمة لطيفة ذات عبر جديد، جديد على المحفوظات والإدارة العامة بكل معنى الكلمة. كانت أول فتاة تلحق بالإدارة وبالمحفوظات بالذات. سمراء رشيقة متناسقة القسماط بسيطة الملبس. أثار منظرها ارتباكها ودهشتها وعطفه وهي تقف أمام مكتبه مقدّمة نفسها. دعاها للجلوس وهو يلمح رموس الموظّفين تبرز من بين صفوف دواليب شنن. إنهم يتعجبون ولا يصدّقون.

- أهلاً بك...

- متشكّرة، اسمي أنسية رمضان.

- تشرفنا، يبدو أنك صغيرة جداً؟

- كلاً، ثمانية عشر عاماً!

- عظيم... عظيم... وما شهادتك؟

- بكالوريا علمي...

- جميل، لم ترى لم تكلمي تعليمك؟

وندم على ما فرط من سؤاله. عاودته ذكريات أول يوم في خدمته في حجرة حضرة صاحب السعادة المدير العام، أما الفتاة فأجابت بحياء:

- ظروف اضطررتني إلى الاكتفاء بذلك.

ولعن الظروف ولكنه تعزّى باشتراكها التاريخي في همّ مخيف واحد. قال ملاطفاً:

- إنك تذكّريني بنفسي، ولكن اعلمي بأنني أكملت تعليمي وأنا موظّف، وأنّ الأبواب المغلقة خليقة بأن تُفتح أمام الهمة العالية...

فقامت عيناها برنوة حزن وقالت:

- ولكننا نعيش مجتمعاً فظلاً سيئاً...

وجد الأفكار «الثورية» التي يجهلها ويتجاهلها تهدّد بمطاردته كالعادة فقال بإصرار:

- الاعتد على النفس خير من مهاجمة المجتمع، الله يأمرنا كأفراد وبحاسبتنا كأفراد، وشقّ طريقك وسط الصخور خير من تسوّل صدقة من المجتمع، الظاهر

جداً إذا كان يروم إكمال نصف دينه فقط ولكن ماذا عن دنياه؟ رغم ذلك غرق في دوامة التفكير ربّما بسبب شعوره بتقدّم العمر. بسبب الإيحاءات المجهولة التي انثالت عليه من عالم الغيب. بسبب ما لاح له ساخراً وقاسياً وغادراً. بسبب الورود التي لم يتشمّمها والأنغام التي تتردّد بعيداً عن تناول أذنيه. بسبب التتقشف والحرمات. ومع ذلك قال لنفسه:

- أيّ تفكير وأيّ تردّد؟ هراء في هراء... لن أجنّ على آخر الزمن!

وتمّنى لو تنشأ بينها علاقة ما. غير مقدّسة... ولكنه يلقى رفضاً أشدّ مما لقي لدى سنية. والقبول ليس سعيداً كما يتبارى إلى الدهن. فهو يقتضيه إعداد شقة وتأثيثها. وانقبض قلبه خوفاً. وقال لأمّ حسني ببساطة آخر الأمر:

- كلاً.

فهمت العجوز:

- أنت تعني شيئاً آخر...

- قلت كلاً...

- أنت لغز يا بني.

فضحك بلا سرور.

- ماذا تريد؟... ألا تحبّ جنس النساء؟

فضحك مرّة أخرى:

- غفر الله لك...

فقال العجوز:

- أنا حزينة يا بني...

فقال لنفسه، بالحزن يتقدّس الإنسان ويُعدّ نفسه للفرح الإلهي.

وجاءت أنسية رمضان وهو فريسة لمشاعر سوداوية طاحنة لا عهد له بها بمثل تلك القوة من قبل. قال إنه تائه في صحراء قاحلة تنلظى بالنيران، لم يفز بشيء ذي قيمة، الأمل طويل والعمر قصير، والماضي حقير، رغم العواطف الشخصية الحميمة فهو حقير، رمزه الحقيقي قبر الصدقة والسجن، والشهيد في أسرته استشهد في جانب الظلم والبيغي، وهو بلا صديق، انقطعت الصلة تماماً بينه وبين أقران صباه، له زملاء يحترمونه ويمسحونهم ولكن لا صديق له، الوحيد الذي يجالسه أحياناً في صفاء خادم في جامع الحسين، والهبة

## حضرة المحترم ٦٧٥

- جاءت قبل الأوان .  
فقال مدير الإدارة ضاحكًا:  
- أو يعد الأوان، لقد عرفت الشيب وأنا أصغر  
منك بعشرة أعوام...  
وضحك المدير طويلاً ثم قال:  
- أمس دار حديث عنك مع بعض الزملاء،  
تساءلنا بحيرة كيف تعيش؟، قلنا إنك لا تظهر في  
طريق أو مقهى أو حفل فأين تقضي وقتك؟، وقالوا إنه  
غير متزوج فلماذا يعيش؟، وقالوا إنه لا يهتم بشيء مما  
يهتم به الناس فماذا يهتم حقًا في الدنيا؟  
فابتسم في فتور وقال:  
- يؤسفني أنني شغلت بالكم...  
- إنك رجل قادر وفاضل ولكنك غامض، ماذا  
يهمك في هذه الدنيا؟  
فقال وقلبه يلهث حيال حصار التحقيق:  
- لا غموض يا حمزة بك، إنني رجل هوايته  
الواجب وقرة عينه في عبادة الله...  
- ونعم بالله، أرجو ألا أكون قد ضايقتك، المهم  
أن يرضى الإنسان عن نفسه...  
ولكن أين الرضى أين؟  
- ها هي طليعة الشيب تغزو رأسه، والحياة المجيدة  
تنقضي كالحياة التافهة، وكم يتبقى له من الزمن يا  
نري؟

## ٢١

وقال له حمزة السويفي يومًا في مناقشة على هامش  
العمل اليومي:  
- السعادة هي غاية الإنسان في هذه الحياة.  
فقال عثمان بازدرأ باطئي:  
- لو كان الأمر كذلك لما سمح سبحانه بخروج  
أبينا من الجنة...  
- إذن فما الهدف من الحياة في نظرك؟  
فأجاب باعتزاز:  
- الطريق المقدس...  
- وما الطريق المقدس؟  
- هو طريق المجد، أو تحقيق الألوهية على الأرض!  
فتساءل حمزة بدهشة:  
- أتطمح حقًا إلى سيادة الدنيا؟  
- ليس ذلك بالدقة، ولكن في كل موضع يوجد

أنك تهتمين بالسياسة وبما يسمونه بالأفكار الاجتماعية؟  
- إنني أؤمن بذلك...  
- لهذا يعني أنك لا تؤمنين بنفسك، أنا لا أعرف  
إلا عزيمتي وحكمة الله المجهولة!  
فابتسمت ولم تعلق بحرف فابتسم أيضًا وقال:  
- سأعهد إليك بالوارد فهو أنسب عمل للموظف  
الجلديد...  
- شكرًا يا سيدي...  
- وسأنتظر منك دائمًا ما يجعلك أهلاً للثقة...  
- أرجو أن تجدني عند حسن ظنك...  
- وإذا صادفتك مضايقات من الزملاء فلا تترددني  
عن إخباري.  
- أرجو ألا أحتاج لذلك.  
وعهد بها إلى موظف ليمرّنها على العمل قائلًا  
باقتضاب:  
- سرّكي الوارد...  
شعر بأن المحفوظات تثب وثبة موفقة نحو الحياة  
المضيئة، وأنها لن تخلو بعد اليوم مما يحرك القلب  
والعواطف، وتبددت بعض الشيء سُحب الذكريات  
السوداوية، وتذكر بدلًا من ذلك سيّدة وسنيّة وأصيلة  
ناظرة المدرسة وقدرية فقال لنفسه إن عالم النساء لا  
نهاية لتنوعه وعذوبته وعذاباته. وتساءل في حيرة:  
- أيها الغاية وأيتها الوسيلة، المرأة أم الدرجة؟  
وقال أيضًا:

- رجال كثيرون عاشوا بلا درجات ولكن من منهم  
عاش بلا امرأة؟  
في مثل سنه يفكر الإنسان مرّتين. قد يضيق  
بصحبة الكتب ويتأفف من العمل، ويشقّ عليه  
الحرمان والتقصّف ويطارده الماضي بلا رحمة. في مثل  
سنه تشتدّ الحساسية بالعزلة والوحشة، وبالانتظار  
المؤزّق لمجد يتعثر. وأمس قال له حمزة السويفي  
ضاحكًا:

- ها هي شعرة بيضاء في رأسك يا عاهل اللوائح  
المالية!  
فزع كأنما ضُبط متلبسًا بجريمة، وقال:  
- لعلّ المنظر خدعك يا سيدي المدير.  
- لتكن المرأة حَكْمًا بيني وبينك فانظر جيّدًا في  
البيت...  
فتمتم منهزمًا:

مركز إلهي... .

ورمقه الرجل بنظرة غريبة فقال لنفسه - نادماً - إنه  
يظن بي الجنون... .

وتطابرت شائعة بأن حضرة صاحب السعادة بهجت  
نور سينقل إلى وزارة أخرى فحقق قلبه خفقة كاد يخلع  
لها. لقد فعل المستحيل حتى حاز ثقته فمتى يجوز ثقة  
القادم المجهول؟. ولكن الشائعة لم تتحقق... . ويوماً  
سلمه مجموعة ضخمة من الأوراق قائلًا:

- هذه أصول ترجمة كتاب عن الخديسوي  
إسماعيل، ترجمتها في نصف عام  
نظر عثمان إلى الأوراق باهتمام فقال صاحب  
السعادة:

- يهمني أن تراجع الأسلوب، أسلوبك فذ  
حقاً... .

تلقي التكليف بسعادة شاملة، وأكب على العمل  
بهمة وقوة وعناية فائقة. وفي شهر واحد أعاده إلى  
صاحب السعادة في صورة بيانية كاملة. بذلك قدم  
الخدمة التي تلهف طويلاً على تقديمها، وأصبح رصيده  
عند صاحب السعادة دائناً، وحظي - عند كل لقاء -  
بإتسامه لا يحظى بها المقربون.

رغم ذلك كله أهبه الجزع بسياطه، ورأى الزمن  
يجري حتى توارى في الأفق تاركاً إياه وحيداً في الخلاء  
مع طموحه المقدس. ومن نفاذ الصبر مضى إلى قارئة  
فنجان في التوفيقية، نصف مصرية ونصف إفرنجية،  
تناولت فنجانه وراحت تقرأه وهو يتابعها باهتمام لا  
يخلو من خجل ويقول لنفسه إنه ما كان يجوز له أن  
يؤمن بهذه الخرافات. قالت له:

- صحتك ليست على ما يرام... .  
الصحة جيدة بلا ريب. ولكن صحته النفسية  
عليلة. لعلها صدقت على أي حال... .  
قالت المرأة:

- سيأتك مال وفير ولكن من خلال متاعب كثيرة.  
إنه لا يطلب المال وإن يكن حريصاً على كل مليم  
يجيبه. لعلها تقصد علاوات الترقية المقدرة في عالم  
الغيب.

- وعدوا لك سيذهب في طريق فلا يعود منه.  
الأعداء كثيرون. يحتفون وراء الابتسامات الخلابية  
والكلمات المعسولة. في طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة  
ووكيل آخر ثانية ومدير إدارة أولى. جميعهم أصدقاء -

أعداء كما تقضي به إرادة الحياة الطاهرة القاسية.

- وفي حياتك زيجتان... .  
إنه لم يوفق إلى الزواج من واحدة، ولكن هذا هو  
جزء من تدفعه الوسواس إلى الوقوع في أحضان  
الخرافات. وتذكر في طريق عودته أنسية رمضان. في  
طريق الصحة والأناقة تتقدم فنعمة الوظيفة سرعان ما  
تتجلى على الفقراء. هو رئيسها الجنون. تربطها علاقة  
إنسانية رقيقة مهذبة يتعذر - حتى الآن - تسميتها. على  
أي حال لم يعد يتصور المحفوظات بغير وجودها  
العيبر.

وكما رجع إلى حجرتة لحقت به أم حسني وقالت له  
باهتمام أثار ابتسامته:

- ست أصيلة هانم عندي وهي... .  
- الناظرة؟

- نعم، وهي تريد أن تستعين بك في بعض  
شئونها.

أدرك في الحال أن المرأة جاءت لتطوقه بضميرتها.  
وانساق إلى المغامرة بغريزته المتطلعة. صافح أصيلة  
لأول مرة. كانت ترتدي فستاناً أزرق يكشف عن  
نحرها وساعديها، ويبرز مفاتيها. ها هي تعرض عليه  
نفسها مهما أذعت من أسباب حقيقية أو وهمية. وأثارته  
كما أثارته سنية وقدرية. إتهن نمط واحد. شهى مثير لا  
خير في الزواج منه. وقالت أم حسني:

- سأذهب لأعد لكما القهوة... .  
لها تكتيك واحد العجوز الساعية وراء الحلال. وها  
هما يجلسان على كنبه واحدة لا يفصلهما إلا وسادة.  
أمال رأسه ليسوي شاربه مرسلًا طرفه إلى ساقها  
المدججة المغروسة في حذاء ذي كعب واطئ أشبه  
بكموب أحذية الرجال.

- تشرّفنا يا هانم.  
- ولي عظيم الشرف.

تشابكت يداها فوق حجرها وقالت بثبات دلّ على  
قدرتها على مواجهة المواقف:

- لي استفسار من فضلك.  
- أفندم؟

- أملك قطعة أرض نزعت ملكيتها، أظنك تفهم  
هذه الشئون؟

- طبعاً.  
- الطريق المزمع إنشاؤه ينفّط أغلبها ولكنه يترك

وتحقيق كلمة الله المضمون بها على غير أهلها.

٢٢

جاءت أنسيّة رمضان لعرض ميزان البريد الشهرّيّ. كان صباح يوم من أيّام الحريف والجوّ الرطيب يتسلّل إلى حنايا النفس بالأسى العذب. نقل بصره بين الجدول الذي يراجعه وبين أصابع يديها المبسوطة على حافة المكتب. خيّل إليه أنّ شيئاً ما يتحرّك في إحدى يديها، يتحرّك ويقترّب في زحف رشيق كأنه كلمة سرّ. يقيناً أنّها علبة صغيرة دسّتها بخفّة تحت السومان بعد توّكّدها من رؤيته لها.

- ما هذا؟

تساءل بصوت منخفض يتناسب غريزياً مع الحذر الذي اكتنف الحركة من أولها. رفع السومان قليلاً فرأى علبة معدنيّة مفضّضة بحجم نصف الكفّ.

تساءل مرّة أخرى:

- ما هذا؟

همست بوجه كالأرجوان:

- هديّة بسيطة...

- هديّة؟... ولكن ما المناسبة...؟

- مناسبة سعيدة...

بدهول وتشتّت من شدّة الانفعال:

- حقّاً؟

- ألا تذكّر؟

قال رغم أنّه تذكّر:

- ماذا؟

- اليوم عيد ميلادك!

تلقّى موجة مترعة بنشوة الفرح. اليوم عيد ميلاده أو تاريخ ميلاده على الأصحّ. ولكنّه يوم يمرّ كالأيّام، ربّما تذكّره قبل حلوله بأيّام أو بعد انقضائه بأيّام أو حتّى في ذات اليوم دون أن يكون لذلك أيّ أثر اللّهمّ إلاّ مضاعفة الجزع على المستقبل. لم يحتفل به أبداً. لم يعرف ذلك التقليد، ولم تعرفه حارته العتيّدة. ها هي أنسيّة تبشّر بتقاليد جديدة، وجديدة أيضاً مناورتها الطاهرة في النوادد وقدرتها البارعة في فتح أبواب الرحمة.

- الحقّ أيّ لا أعنى بتذكّره...

- شيء غريب...

- ولم كلّفت خاطرك بذلك؟

أجزاء. لا يمكن الانتفاع بها؟

- اعتقد أنّ التعويض عن ذلك يراعى عند تقدير

الثمن.

- ولكنّ الإجراءات معقّدة كما تعلم!

- لك أن تعتمد عليّ...

بقدر ما شعر بقوة شخصيّتها بقدر ما يش من إغوائها. إنّها مستعدّة للزواج وما جاءت في الواقع إلاّ من أجل ذلك، أمّا أن ترضى بعلاقة غير مشروعة معه فيبدو أمراً مستحيلًا. ورجعت أمّ حسني، ومضيا يحتمسيان القهوة في صمت تامّ، لعلّها أصلح زوجة من أكثر من ناحية ولكنّها ليست من يريد. وهبطت من السماء صورة أنسيّة رمضان فجلست بينها ومحت المرأة محوًا. منذ عهد السبيل الأثريّ لم يتحرّك قلبه كما تحرّك لهذه الفتاة الصغيرة. لانتّ أعصابه المتوتّرة وصفّت نفسه وتلقّى من الخيال نسمة منعشة أذكت أسمى عواطفه. ولما ذهبت المرأة وجد أمّ حسني تنظر إليه باهتمام تريد أن تطمئنّ على الوظيفة الحيويّة التي ترعاها بعملها وإيمانها. باتت العجوز تعبد الزواج والإنجاب والأفراح وتسيّح لله في معجزة الحبّ التي أبدعها. ولما طال سكونه قالت برجاء:

- لعلّك غيرت رأيك؟

- لماذا؟

- ألم تر أنّها مثل فلقة القمر؟

ولبت جامدًا رافضًا ممتنعًا عن تناول يدها الخنون.

فقالت باستياء:

- قالوا في الأمثال...

غادر الحجرة قبل أن يسمع المثل يا للخسارة. إذا لم يسعفه زواج قيّم فقد يتبدّد سعيه ويهدر أمّله في وسط الطريق. وحياته أصبحت مثار تساؤلات وانتقادات لا حصر لها فأناس يتساءلون لم لا يتزوّج وينجب ويألف ويؤلف؟ وأناس يتساءلون كيف ينحصر في ذاته متجاهلاً الأحداث التي تقع من حوله فينفع بها المواطنون حتّى الموت؟ وما هي المهموم التي تشغلهم وتستحوذ على أفئدتهم؟ إنّها تطاير مع أحاديثهم الصاخبة وتعطلّ أعمالهم. دوائياً يتحدّثون عن الأولاد والأمراض والطعام ونظام الحُكْم وصراع الطبقات والأحزاب والحكّم والأمثال والنكات. إنهم لا يحيون حياة حقيقيّة ويفرون من واجبهم المقدّس. يجفّلون من الاشتراك في السباق الرهيب مع الزمن والمجد والموت

بعيدة بما فيه الكفاية، مهجورة، خارج العمران،  
ممتنعة عن الرقابة، يخوض الترام إليها حقولاً وخلاء.  
ومشياً جنباً لجنب يستمتعان بحياة «حقيقية» في  
الساعات السابقة لميعاد الإغلاق. لم يكن رأى الحديقة  
منذ زارها في رحلة مدرسية. ولم تكن لديه فكرة عن  
أصول اللقاء، ما يقال وما لا يقال. ما يفعل وما لا  
يفعل. سارا صامتين سعيدين ولكنّ ثمة إحساساً غير  
مريح ناوشه، بأنّ اللقاء حدثٌ شاذٌ وخطأ، بأنّه ما  
كان ينبغي أن يستسلم. ودفعاً لارتبائه ولشاعره  
المحيطه أبدي إعجابه بالأشجار والقناطر والجبلالية  
والجداول والبحيرات وبأنواع شتى من الحيوان. ولبت  
مقتنماً بأنّه لم ينطق بكلمة مفيدة بعد، وبأنّه يحاول  
المهرب بعد فوات الأوان. وسارت إلى جانبه تسيل  
عينها بنظرة حاملة وظافرة، مرفوعة الرأس، مسددة  
النهدين، يوحي منظرها بأنّها مندفعة في مجرى من  
المطالب لا أفق له، وأتبا تلتهم في نفسها أجمل أسرار  
الحياة. وتلاقت عينها فقرأ في ألقها البراءة الناصعة  
والمكر العذب وسياًلاً من الرغبات المجهولة. قالت  
محتجّة:

- حتّى وأنا موظفة لا أستطيع أن أخرج إلى مثل  
هذا اللقاء بسهولة...  
فندت عنه نبرة أبوة مضحكة وهو يقول:  
- لا تغضبي من أجل ذلك يا عزيزتي...  
- ولكنّه غير طبيعي مهين...  
- ترجمة غير دقيقة لعواطف الأمهات والآباء. لا  
أعتقد أنّك تؤمنين بذلك...  
- حقاً؟  
فضحكت في ثقة كاملة ثمّ قالت مستدركة:  
- لو عرفت ماما أنّي سألقاك لما منعت فيما أعتقد.  
فقال بقلق:  
- ولكنّها لم تعرف؟  
فعاودها الضحك، وسكتت قليلاً حتّى جفّ ريقه  
تماماً، ثمّ قالت:

- اللقاء سرّ كما اتّفقنا.  
- طبعاً يا عزيزتي.  
- الحقّ أنّي غير مقتنعة...  
واضح جدّاً أنّها تودّ أن تعمل في النور. وما يعنيه  
ذلك واضح أيضاً... ترى هل بات تحت رحمتها؟  
هل ترغمه الظروف على قبول ما ليس في مخطّطه؟

- تحية متواضعة جداً.  
- إنّ عاجز عن شكرك.  
- لا داعي لذلك مطلقاً.  
- كم أنّك رقيقة مهذّبة ولكن كيف عرفت تاريخ  
ميلادي؟

وضحك ثمّ قال مستدركاً:  
- آه... نسيت... أطلعت على ملفّ خدمتي  
الإداري وفضحت سني؟  
- إنّ سنّ العقل والنضج...  
مدّ لها يده فتصافحا. ضغط على يدها الرقيقة  
كغشاء من حرير. انثالت عليه الأفكار المعذّبة طيلة  
الوقت. سيرة الهدية بأحسن منها في عيد ميلادها الذي  
سيعرفه من ملفّها الإداري أيضاً. ورغم سعادته  
المشرقة تمثّى لو أنّها اختارت وسيلة للتحيّة لا علاقة لها  
بالنقود، فإنفاق النقود يؤلّه ويخلّ بميزان حياته. ولكنّه  
لم يهتمّ لذلك طويلاً. إنّهُ ينزلق في هاوية، يطير نحو  
المجهول، مفعم القلب بالمسرة والحنين. وقد ضغط  
على يدها فتلقّت ذلك بابتسامة واعية راضية ومشجّعة  
أيضاً. وماذا بعد ذلك؟ هل يتفق وطريقة الأوحدا؟  
إنّه يواجه ما هو أعظم من موقف دقيق عابر مفعم  
بعبير ساحر، إنّهُ يواجه المجهول والقدر. إنّهُ يطرق  
الباب الذي يوقفون وراءه الزمن أو يرجعون خطوة إلى  
الوراء. وثمة نداء تردّد أن يرجع وإلا هلكت ولكن لم  
تستجب له أذن ولا قلب.

وقفت في اليوم التالي قبالة تراسله بنظرات تفيض  
بالبطاعة والعدوية. حرقت الحرارة رأسه وعنقه.  
انجذبت أصابعه إلى ملامسة أصابعها فوق الدوسيه  
المبسوط بينهما. أفضى إليها بتوجيهات مدغمة لا معنى  
لها. وقتشت عينه المكان بحذر. مال رأسه حتّى لثم  
فأها. تراجع إلى مقعده وهو ينتفض، يرتعش،  
يحترق، ثملاً بخمر الحياة والخوف من المجهول.

وكان لقاء قبيل عصر الجمعة. تمّ نتيجة لتيار من  
الاستسلام لا يقاوم وبأمل في النجاة آخر الأمر. سبّاه  
تدهوراً ولكنّه كان محفوفاً بالسعادة. ولم تكن له خبرة  
بأماكن اللقاءات السعيدة فاقترحت هي حديقة  
الأزبكية ولكنّه اعترض قائلاً إنّها مكان مكشوف تحدّق  
به الأعين من جميع الجهات. أمّا حديقة الحيوان فهي



## حضرة المحترم ٦٧٩

- أبداً .  
 - أنت أجمل شيء في حياتي ...  
 فقالت بهدوء واستسلام:  
 - وأنت كذلك ...  
 فلثم خذها من جديد وهو يضغط على راحتها بقوة  
 وهمس:  
 - ما أشدَّ حيرتي بين ما أريد وما أستطيع ...  
 - هل تريد شيئاً ولا تستطيعه .  
 - الدنيا مليئة بالرغائب الممتنعة ...  
 - حدثني عمّا يخصُّني أنا .  
 لها حقٌّ . ما زال فوه يندى بقبلتها . ما زال كوعه  
 يلامس فنتتها الطرية، وهما يختالان أمام الفيل الذي  
 يرفع خرطومته تحيةً لها .  
 - ليكن ما بيننا سرّاً .  
 - لماذا؟  
 - كيلا يسيء أحد بنا الظنَّ .  
 - ولماذا يسيء بنا الظنَّ؟  
 - هكذا الناس .  
 - لا سوء بيننا .  
 - ولكن هكذا الناس يا عزيزتي .  
 ضحكت بمرح وتساءلت:  
 - أَدْعُونِي يَا أَسْتَاذِي لَتُعْظِنِي؟  
 - دَعْوَتِكَ لَتُعَارَفُ وَلَا تُؤَكِّدُ مِنْ أَنَّ قَلْبِي عَلَى حَقِّ .  
 - وَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ؟  
 - آمَنْتُ بِأَنَّ الْقَلْبَ خَيْرُ دَلِيلٍ!  
 تساءل طيلة الطريق لِمَ لَمْ يَعْتَرَفْ لَهَا بِحَبِّهِ  
 صراحةً؟ لِمَ لَمْ يَطْلُبْ يَدَهَا؟ وَعَلَى فَرَضِ أَنَّهَا  
 سَتَقْلِبُ حَيَاتِهِ رَأْسًا عَلَى عَقْبٍ وَسَتَقِيمُ لَهُ فِي مَحْرَابِ  
 الْحَيَاةِ قَبْلَةَ جَدِيدَةٍ الْبِيسْتِ هِيَ أَقْدَرُ عَلَى إِسْعَادِهِ مِنْ  
 النِّجْمِ الْقَطِيبِيِّ؟!

٢٤

جاءت أصيلة حجازي «الناظرة» بحجة السؤال عن  
 نتيجة مسعاه . بذلك أخبرت أم حسني وهي تدعوه إلى  
 شقَّتْهَا . كان يعاني من همومه الثابتة بالإضافة إلى الحبِّ  
 الذي غزاه ليبلغ بحدة الصراع في نفسه درجة  
 الجنون . لذلك رحَّبَ بزيارة أصيلة حجازي ليهرب  
 من نفسه ولو ارتكب في سبيل ذلك حماقة مأمونة  
 العواقب . كان بحاجة إلى الهرب ولم تكن قدرية في

هل تحاصره عناصر هدم تبَدَّد بصفة نهائية حلمه  
 الوحيد المقدَّس الممتنع؟ ... وتحدَّى من خلال  
 خواطره المخيفة المجهول فأندره بالقتل، حتَّى خجَل  
 من أفكاره وهو يلحظ الغزال الأسمر الذي يثب متأبطاً  
 ذراعاه في فرحة تباركها السحائب السابحة في سماء  
 الخديقة . وسرعان ما صفت نفسه فدفن وساوسه ،  
 وهادن آماله الملحة ، ليدوب في المفاذن المشرقة ،  
 ويتذوق السعير المشتعل في جوفه . ووجد أنَّ كوعه  
 يلامس جسدها اللدن ، ويتلقَّى من مجاهيله الفتية  
 إشعاعات من السحر ، تفرس المكان حوله بنظرة  
 متلصصة أثمة ، ثم لثم خذها ، وعنقها ، ثم التقت  
 شفثاهما . قال بصوت لم يعرفه :

- أنت فاتنة يا أنسية .  
 فابتسمت في حياء وسعادة فقال بحرارة:  
 - أودَّ أن ...  
 وسكت وهو يتنفس بصوت مسموع فتساءلت:  
 - هه؟  
 - كأنني أعرفك منذ الأزل ...  
 فابتسمت في رضى وإن طالبت عينها بالمزيد .  
 قال:

- ما أجمل المكان . كلُّ شيء ينطق بجمالٍ  
 صارخ ...  
 - أنت تحبُّ الطبيعة!  
 وقع القول من أذنه موقعاً غريباً وساخرًا بقدر بعده  
 عن واقعه . قال:  
 - أنت التي جعلت كلَّ شيء جميلاً ...  
 - لا تبالغ ، أتحبُّ أصارحك بشيء؟  
 - جداً!  
 - تبدو عادة غير مهتمِّ بشيء .  
 - حقاً؟ ... وهل صدقت ما يبدو؟  
 - لا أدري ، ولكنني شعرت بأنك لغز بقدر ما أنت  
 طيب ...

- لا معنى لذلك كله ، الحقيقة الوحيدة المسلّم بها  
 هي أنك فاتنة ...  
 - وبعد؟  
 - وما بيننا يجب أن يبقى إلى الأبد مهما يكن  
 المصير!  
 - المصير؟!  
 - ألم يخبرك الملفّ الإداريُّ بشيء غير طيب؟

- إنك تجرح كرامتي بأسلوب غير إنساني...  
- اعفي عني، إني أصارحك بدافع من عذاب شديد...

لاذت بالصمت مقطبة فقال:  
- يمكن أن تهينا الشجاعة سعادة لا يستهان بها.  
- ماذا تقصد؟  
- ألا يكفي أن أنكلم بالإشارة؟  
- لا أظن أني فهمت قصدك...  
فقال بقحة لم يعدها في نفسه من قبل:  
- يلزمتنا مكان آمن نلتقي فيه.  
هتفت:  
- عثمان أفندي؟  
فقال بدون مبالاة:  
- سيكون مأوى رحيماً لاثنين في حاجة إلى الحب والمعايشة...  
قامت غاضبة وهي تقول:  
- إما أن تذهب أو أذهب أنا...  
- سأذهب ولكن فكري بالأمر بروية وعقل، ولا تنسي أنني رجل فقير!!

## ٢٥

لم تعد شعرة بيضاء واحدة يتعدّر اكتشافها. كل فترة تطلّ شعرة جديدة بنظرة بيضاء باردة تذدر بإيقاع جديد للحياة. لعبة طارئة، يتجرّعها الإنسان بلا استساغة، ثم يجد نفسه وجهاً لوجه مع الحتم المؤجل. ويلقي نظرة على الحياة شاملة، يزن أعماله، يقيم ثماره، يتلقى أنفاس المجهول بامتعاض، يتوؤب أكثر للمصراع، يسلم بالهزيمة، ولكنه يأمل أن تحلّ مقدسة. لا خطوة قريبة في سلم الترقية، مدّخره يتصاعد، توتره يشتدّ، جهده يتضاعف، علاقته بأنسيّة تتوطد ولكن في حذر، أما قدرية فتستحقّ أن توصف برفيقة العمر. في أعقاب صلاته يخاطب ربّه:  
- ما الحياة بغير وجودك يا ربّ.  
ولكن يبدو أن الآخرين لا يتناسكون مثله، فقد دقّ جرس التليفون ذات يوم فإذا بالمتحدثة أصيلة حجازي الناظرة:  
- أشكر لك وساطتك المشمرة.  
- العفو يا فندم.

متناول يده كل يوم. صافح الناظرة. جلس وهو يقول:

- مسألتك تسير في طريق الحل...  
سرعان ما غثت مفاتن جسدها لحنها الجهنمي على أوتار فستانها المنقوش بالورد. وتساءلت وهي ترنو إليه بمودة:  
- هل أنتظر طويلاً؟  
رأت أم حسني أن تذهب لإعداد القهوة فركبه تصميم جنوني على حسم الموضوع، وتوجيه ضربة غير متوقّعة مستهيناً بالعواقب. قال:  
- لن تنتظري طويلاً...  
- بفضلك.  
- الحق أن كل شيء يتوقّف على قوة أعصابك.  
- الظاهر أنه ينبغي أن أنتظر بعض الوقت؟  
فقال بنبرة جديدة تماماً كأنما يفتتح بها موضوعاً جديداً لا صلة له بما قبله:  
- اسمحي لي أن أصارحك بإعجابي!  
فغضت بصرها موزدة الوجنتين فقال:  
- إنه إعجاب صادق، إعجاب رجل بامرأة، أنت تفهمين ذلك...  
فلم تنبس ولكنها تبدّت سعيدة وعلى وشك دخول الجنة...  
- ولكن يجب الحذر، يلزم المصارحة بأمر آخر لعله لا يروقك...  
لمحته مستطيلة فقال:  
- فكرة الزواج مستحيلة!  
راقبها وهي تتحوّل إلى رماد ثم قال بجرأة وبلا رحمة:  
- عندي ألف سبب وسبب والدنيا أسرار...  
تساءلت بصوت مريض:  
- ماذا دعاك لمصارحتي بذلك؟  
فقال بلهجة مؤدبة وهو يمعن في قسوته:  
- لسنا مراهقين فلنتكلم كراشدين ولنبحث عن سعادتنا بإخلاص وشجاعة...  
- لا أفهم شيئاً.  
- حسن، إني معجب بك ولكنني أعزب أبدياً.  
- لماذا تقول لي ذلك؟  
- ربّما وجدت عندك حلاً للحال المستعصية.  
فقالت باستياء شديد:

- إني أعذر من يظنون بي الجنون!

٢٦

متى وكيف يفرغ للبحث عن شقة وتأثيثها؟ ترك الأيام تمرّ وهو لا يفعل شيئاً. أهمل الموضوع جملة وتفصيلاً حتى وجدها - أصيلة - تقف أمام مكتبه! ابتسم مرحباً وهو يلعبها في باطنه. قالت:

- معذرة عن جراتي...  
فابتسم صامتاً. فقالت:  
- لم يعد التليفون يكفي كي أفهمك...  
فقال بجديّة تناسب مكان العمل:  
- واضح أنّ الفراغ معدوم في هذه الأيام.  
- ماذا فعلت؟  
- لا شيء.  
- أبداً؟  
- لم يسمح العمل بدقيقة، صدّقيني...  
كانت تتكلّم بجرأة أشبه باليأس، حال من نفذ صبره واشتدّت مخاوفه. قالت:  
- توقّعت أن أجدك أكثر حماسة...  
- الرغبة متوفّرة أمّا الوقت فلا وقت عندي.  
- توجد شقة في روض الفرج...  
ومدّت يدها بورقة مطوية واستطردت:  
- إليك العنوان، عاينها بنفسك واشرع في تأثيثها.  
ثمّ بنبرة إغراء وابتهاال:  
- أرجو أن تعجبك وأن تكون قدم السعد...  
رأى ناراً تقترب وهي تصفرّ. وعقب اختفاء المرأة فحمر بالليالي الطويلة التي ستلحق بليالي ألف ليلة وليلة، لا الليالي التي ستلحق بليالي الترجمة وخدمة حضرة صاحب السعادة، قرباناً على طريق المجد الذي اختاره منذ أوّل يوم كرمز متاح للأشواق اللانهائية. فترت رغبته في المرأة لشدة اندفاعها الأرعن وجودها بنفسها بلا تحفّظ. إنّه لا بأس بها لو تحلّ محلّ قدرته ولكنّه رأى فيها ناراً تقترب مصفرة تودّ أن تلتهمه هو وآماله المقدّسة الموصولة بسرّ كلمة الله العظيم. لن يسمح لقوة أن تقتله إلاّ الموت نفسه باعتباره سراً من أسرار الله مثل مجده الملهم، وما دامت الزوجة المجهولة التي سعى إليها طويلاً لم تقبله فلا يصحّ أن ينهزم ويستسلم لتسوّل الأرامل والعوانس.  
وسمع رأي أصيلة وهي تتسلّل إلى الداخل متعترّة

- وكيف حالك؟

- عال. الحمد لله.

- إني سعيدة بسماع ذلك... .

- شكراً.

- ربّنا لا يجرمنا منك.

- كلّك إنسانيّة.

ومضت ثوانٍ من الصمت ثمّ واصلت:

- ولكن لي عليك عتاب.

- لا سمح الله.

- تركتك آخر مرّة غاضباً، ألا تذكّر؟

- آسف، لم يوجد سبب للغضب.

- أتعقد ذلك؟

- نعم.

- ولكنك لم تسأل عني؟

- آسف، لم أعرف رقم تليفونك.

- ولكنّي عرفت رقم تليفونك.

- أكرّر الأسف.

- عمّيت أن تلتطف الموقف بكلمة حلوة... .

- إني على أنّي أتمّ الاستعداد.

- حقاً؟

- بكلّ تأكيد.

- كيف؟

- لتتفق على ذلك!

وهي تضحك ضحكة مكتومة:

- أو ما زلت تشكو الفقر؟

- إنّه قدر لا مفرّ منه.

- من حسن حظنا أنّ عندي من المال الكافية.

- ربّنا يزيدك.

- هل تتوقّع أن أصارحك أكثر من ذلك؟

- إني على أنّي أتمّ الاستعداد!

- عظيم... ليقيم كلّ منّا بما يخصّه!

ما هو بالاستسلام ولكنّه الانهيار. يستطيع أن

يتخيّل الواقع وراه. العمر بها يتوسّط ويميل نحو

المنحدر، وهي تعاني الوحدة وترتعد أمام الشيخوخة

المقبلة، لا شباب ولا جمال حقيقيّ. ثمة معركة لم

يشهدها ولكنّه يرى عواقبها المحزنة. ماذا يفعل؟. إنّه

يخاف أنسيّة ولا رغبة له حقيقةً في أصيلة، يتمنى في

لحظات يائسة لو يموت قلبه ويحمد شهوته لتطمئنّ نفسه

في مسيرتها المضنية. وقال لنفسه في أسى:

وعلى العنق لضوء المصباح العاري. نظر إلى لا شيء لا ينشد شيئاً كأنما قد أدى المطلوب منه في الحياة الدنيا. وحانت منه التفاتة إليها فأنكرها كآية. كأنها شيء غريب يخرج من باطن الليل، غير الكائن السحري الذي جرّه إلى السعير، شيء أخرس بلا تاريخ ولا مستقبل له. وقال لنفسه إن لعبة الرغبة والنفور ما هي إلا تمرين على الموت، والبعث، وإدراك مُسَبِّق لقبول المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدي من لمحات خاطفة عن ذاته اللانهائية. ودرجة المدير العام آية أخرى ولكنها تجلُّ للإرادة الشاخبة لا للاستسلام العذب. وهذا لله فقد تحصَّن بالبرود العاقل والقاتل أيضاً. وما هي المرأة ترغب بلا شك في العودة إلى موضوعها الهام ولكن من خلال تردّد وخجل. تتمنى لو يبدأ هو. وكما يشت نظرت إليه بابتهاش وأسى وغمغمت:

- نعم؟

عجب لغرابة صوتها وتطفله على وحدته المقدسة، ووجد نحوها نفوراً ثابتاً يوشك أن يصير كراهية. إنَّها تريد أن تهدم البناء الذي يشيده حجراً على حجر.

سألت:

- ماذا قلت؟

ركبه عنف طبعه المستر المستمد من أعماق حارته قال:

- لا شيء.

- ولكنك فعلت شيئاً بلا ريب...؟

- أبداً.

- ألم تعاین الشقة؟

- كلاً.

فأسود وجهها من الحزن وقالت:

- معذرة... هل ينبغي أن أضع النقود بين يديك؟

- كلاً.

- الحقّ أنّي لا أفهمك...

- إنّني واضح جداً.

- ماذا تعني... لا تعذبني من فضلك.

- ليس في نيتي أن أفعل شيئاً...

فقالت بنبرة مرتعشة:

- اعتقدت أنّك وافقت ووعدت...

- ليس في نيتي أن أفعل شيئاً...

في خجلها وذمها، قالت بارتباك:

- صحّ عزمي على المجيء، وقلت لنفسي إذا لمحتني عين قصدت شقة أم حسني كأنما جئت أصلاً لزيارتها...

وجلست على الكنبه وهي تلهث فقال ملاطفاً:

- فكرة طيبة...

- هل ضايقت حضورتي؟

فقال والنشاط يدب في أعماقه:

- بل سرّني فوق ما تتصوّرين...

- ولن تلبث أم حسني حتّى تنام، هل يكدرك أن تشكّ المعجوز فيما حصل؟

- أليّة...

وتبادلا نظرة طويلة تبدّت تحت سيالها الغامض امرأة عارية من أيّ أثر للكبرياء، محض عاشقة مهذرة الدفاع. وسألته برقة ورجاء:

- ماذا فعلت؟

أفاق تماماً من الدهشة. صدفت نفسه عن أيّ موضوع وتركزت في الرغبة المتجسّدة في صورة امرأة مستسلمة. تناول يدها البضة الباردة بعد أن شفط القلب المتقلّص الدم من الأطراف. وضغط عليها ضغوطات متوتّرة باعثاً برسائله الخفية. لم تتوقّع ذلك أو بذلك تظاهرت. أرادت أن تسحب يدها فلم يسمح لها فقالت:

- ماذا فعلت؟

- سنناقش ذلك فيما بعد...

- ولكنك لم تحاول الاتصال بي؟

مال نحوها حتّى قبل خدها وهمس في أذنها:

- فيما بعد... فيما بعد...

- ولكنّي جئت لذلك.

- سيكون لك ما قصدت ولكن فيما بعد.

همت بالكلام ولكنّه سدّ فاهها بقبلة غليظة وطويلة وهو يقول بحدة:

- فيما بعد...

وأعلن لحن من الألحان اللانهائية للطبيعة عن تغريده المتجسّد بنشاط موفور وفرحة كالمعجزة. وسرعان ما خفت تغريده حتّى العدم متراجماً إلى نوم أبديّ، مغلّفاً وراءه صمتاً مريباً وراحة فاترة مشبعة بالأسى. وقد على جنبه فوق الفراش على حين انحطت فوق الكنبه معرّضة قميصها وحبّات العرق فوق الجبين

## حضرة المحترم ٦٨٣

وجاءه يوماً حسين أفندي جميل ليعرض البريد  
كالاعتاد فلما وقَّع عليه بتوجيهاته لم يذهب كالمعتاد . إنه  
شابٌّ من موظفي المحفوظات عمل تحت رئاسته خمس  
سنوات متتابعة وعُرف بالمواظبة وحسن السلوك .

- أتريد شيئاً ما يا حسين أفندي؟

إنه مضطرب بصورة واضحة، ويريد أن يتمخض  
عن شيء، أيّ شيء؟

- مالك؟ ... أهو أمر يتعلّق بالعمل؟

اقترب الشاب أكثر كأنما ليضمن عدم وصول صوته  
إلى الآخرين، وقال:

- يوجد شيء يا حضرة الرئيس .

- ما هو يا بني؟

- آسف، ولكن لا بدّ من الكلام .

- عظيم ... إني مُضغِر إليك .

وسكت ليتأهّب ثم قال:

- الأمر يتعلّق بالأنسة أنسيّة رمضان .

فيما بعد قال لنفسه إنه لم يسمع الاسم أو أنه سمعه  
ولم يفقه له معنى . قال بدهول:

- هيه؟

- أنسيّة رمضان!

- زميلتك؟ ... ماذا عنها؟

فقال بصوت لا يكاد يسمع:

- الحقّ أنّي أحبّها . . .

فقطّب عثمان وقلبه يترنّح . تساءل مستنكراً:

- وما شأنى أنا بذلك؟

- أردت أن أخطبها . . .

- كلام معقول ولكن ما شأنى أنا؟

فأطرق وهو يتمتم:

- ولكن سعادتك . . .

ارتعدت مفاصله . رمقه مستطعاً في استسلام:

- ماذا عني؟

- سعادتك تعلم بكلّ شيء . . .

- أيّ شيء من فضلك؟

- الحقّ أنّه لولاك لتقدّمت لخطبتها . . .

أيقن أنّه هلك . لم يعد لشيء قيمة . ولا الحياة  
نفسها . تساءل:

- لولاي؟

فقال الشاب بوجوم:

- شاهدت كلّ شيء، هنا وفي الخارج!

- إذا لم يكن لديك وقت الآن . . .

- لا وقت لديّ . . . ولن أجده في المستقبل . . .

تنفّست أصيلة بصعوبة وقالت بصوت متهافت:

- صدقت أنّ شعورك مختلف . . .

فاعترف قائلاً:

- لا خير فيّ، هذه هي الحقيقة . . .

تراجعت كأنما طُعت . ارتدت فستانها في عجلة .

ولكنّها انهارت على الكنبه مرّة أخرى في إعياء أسندت

معه رأسها إلى كفّها وأغمضت عينيها حتّى توقّع أن

يُغمى عليها . دقّ قلبه بعنف أيقظه من فتوره وقسوته .

لو وقع ما ليس في حسابان فربّما معرّض لفضيحة مندرّة

بأوخم العواقب . الطريق شاقّ ومرير رغم ما يتمتع به

من حسن السمعة فكيف إذا دهمته فضيحة تمّا ترخّب

الصحف بالحديث عنها؟! أو شك أن يغيّر سياسته

كلّها، أن يخاطر بكذب جديدة، ولكنّها تحركت في آخر

لحظة . قامت بشيء من الصعوبة، مضت نحو الباب

بهدهوء وأسى، ثمّ اختفت عن نظره . تنهّد في ارتياح

عميق . قام إلى النافذة ينظر إلى الحارة شبه المظلمة

حتّى رأى شبحتها يرق من الباب، ثمّ يوغل نحو

طرف الحارة الموصل إلى الجماليّة، وسرعان ما ذابت في

الظلام تماماً .

وقال لنفسه إنّ أحدًا لا يعلم الغيب، ولذلك يتعدّر

الحكم الشامل على أيّ فعل من فعلنا، بيد أنّ تحديد

هدف للإنسان يعتبر هادياً في الظلام وعدلاً في تضارب

الحظوظ والأحداث، وهو مثال على ما يبدو أنّ الطبيعة

ترسّمه في خطواتها اللانهائيّة .

## ٢٧

أما أنسيّة رمضان فهو يحبّها . عليه أن يعترف بذلك

أمام ضميره وأمام الله . منذ عهد السبيل الأثريّ لم

يصدر عن قلبه مثل هذا اللحن العذب . ولذلك فعليه

أن يخشاها أكثر من أيّ امرأة أخرى في الوجود . وهي

أيضاً تحبّه ممّا يضاعف من خطورة الأمر . العروس التي

لا تدفع إلى الأمام ترجع إلى الوراء . ولعلّه كان

يتزوّجها بلا تردّد لو أنّ الذي بينه وبين درجة حضرة

صاحب السعادة خطوة واحدة، أمّا والحال على ما هو

عليه فلن يجني من الزواج سوى المتاعب والهموم

اليوميّة التي تستهلك القوى البشريّة في غير ما خلقت

له .

- أيّ أمر تقصد؟  
- علاقتنا الحميمة المقدّسة.  
- ماذا عنها؟  
- لعلك عجبت من صمتي، ناقشنا كلّ شيء إلا  
الجوهر، ولم تدركي طبعاً أنّي كنت أحترق وأتعذب  
طيلة الوقت...

فلمست ذراعه بإشفاق وقالت:

- اعترف لك بأن قلبي يزداد انقباضاً!

- وأنا اعترف بأنني رجل أنانيّ.

فضّبت ذلك بإصرار قاتلة:

- كلاً، لست أناثياً على الإطلاق.

- أنانيّ بكلّ معنى الكلمة، وبسبب أنانيّتي  
شجعتك وأوهمتك فتهادينا إلى ما لانهائية، لن أغفر  
لنفسي ذلك أبداً.

- لم تفعل إلا ما هو نبيل وطيب!

- لا تدافعي عني، لعلك تساءلت كثيراً متى يتكلّم  
هذا الرجل، ماذا يريد مني؟ حتّى متى نتلاقى ونفترق  
بلا تقدّم حقيقيّ، هل يتسلّى بي؟

- لم أظنّ بك سوءاً قطاً!

- أنا نفسي طرحتها مرّات عديدة، ولكن غلبني  
الاستسلام الوهمي للسعادة فلم أحسم الأمر قبل أن  
يستفحل، وكم صمّمت على مصارحتك بالحقيقة ثمّ  
أضعف وأستسلم!

تساءلت بصوت يدلّ على الخيبة:

- تصارحتني بماذا؟

اختلجت عيناها وهي تسمع الكلمة المحبوبة،  
نظرت إليه بإشفاق، تحوّلت عنه متطلّعة للمجهول  
وكأنّها تصلّي صلاة صامتة لدفع البلاء.

- طبعاً ساءلت نفسك عن ذلك وإلا فما معنى  
الحياة؟

أطرقت كأنّ رغبتها في معرفة المزيد قد فترت لعدم  
توقّعها أيّ خير أمّا هو فواصل قائلاً:

- إني مريض...

- لا...

نذت عنها بخوف صادق فقال:

- لا أصلح للزواج!

حدّقت فيه بدهول فمضى:

- لا يغرّتك منظري فمرضي ليس في القلب أو  
الصدر ولكنّه يعوق تماماً عن الزواج...

بقوّة اليأس نفسه توتّب للدفاع المستميت. لم يحزن  
لحبّه الضائع بقدر ما خاف على «مركزه». قال:

- أنت شابّ سيّ الظنّ، ماذا شاهدت؟، ماذا  
شاهدت يا مسكين؟، ولكن هكذا هم المُجِبُّون، طالما  
عاملتها كابنة من صليبي، علاقة هي البراءة نفسها،  
كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك  
وأنت لا تدري ولا تقصد!!

فقال الشابّ ببراءة وحزن جليل:

- إني أعرف متى وكيف أكنم أحزاني وأحافظ على  
سمعة من أحبهم!

فقال وهو يتنهّد:

- أحسنت... أحسنت...

ثمّ وموجة من الأسى محتاحه:

- سلكت سلوكاً خليفاً بالرجال...

من شدّة ردّ الفعل، والشعور غير المتوقّع بالنجاة  
اضطربت معدته فغزاه إحساس بالغثيان قال:

- مثلك يستحقّ أن يسعد بمن يحبّ...

مضى عنه معدّبه. بقي وحده مع حزنه. وتجمّد  
الجزن وتهوّل فصار كالقدر نفسه. وأعاد إليه ذكرى  
حزنه القديم في الليالي الطويلة وقال لنفسه إنّ الحياة لو  
تقيّم بحظّها من السرور فإنّ حياته تعتبر ضياعاً وهباء.  
لم يقتضينا الجلال هذا الشقاء كلّها؟!

## ٢٨

دعا أنسيّة إلى مقابلته في صحراء الهرم صباح  
الجمعة. هيّاً للقاء تلك المرّة بحذر أشدّ من المعتاد،  
فدسّ لها ورقة سُمّي فيها الميعاد وخطّ السير على أن  
يذهب كلّ منهما منفرداً. كان صباحاً من أصابيح  
الشتاء الجافّ البارد ولكنّ أشعة الشمس كسّتها كساء  
دافئاً ومنعشاً. وكان يرنو إليها طيلة الوقت بحزن  
صادق رغم اقتناعه بأنّه يقوم أساساً بتمثيل دور قاسٍ  
وقذر. ومن أوّل الأمر بدت الفتاة قلقاً على غير  
عادتها، وقالت له:

- شعرت بشيء غير عاديّ فانقبض قلبي...

فقال لنفسه إنّ للمرأة غريزة تغنيها عن العقل في  
معرفة شئونها الصميّة. وإنّه لو كان للإنسان عموماً  
غريزة مثلاً لمعرفة المجهول لما ظلّ مجهولاً حتّى الآن.  
واشتدّ حزنه وهو يقول:

- الحقّ أنّ الأمر يستحقّ التفكير.

## حضرة المحترم ٦٨٥

رائق لا تعكّر المخاوف، أستطيع أن أنهل من العذاب حتى أستنفده وأحرّر منه، وإني بذلك لخير... .  
 ولم يكن صادف في حياته من هي أكفأ منها على إسعاده. ولا سيّدة نفسها. جميلة وذكيّة وطاهرة، وقد أحبته بصدق ونقاء. وبات يؤمن بأنه لن يظفر بمثلها مهما ابتسم له الحظّ وأنه جزاء عادل على أيّ حال.  
 وحمل تيار الزمن حدثًا آخر فقد تخلف حمزة السويفي عن العمل، وعرف في الإدارة أنه يعاني أزمة ضغط جديدة أشدّ من الأولى وأخطر. ومضى إليه يعود. ووجده راقداً في استسلام كامل هذه المرّة وأطياف من العالم الآخر تلوح في نظره الغائمة. تأثر لمنظره ورأى فيه المنظر الأخير الذي يترصد الجميع بمختلف درجاتهم. وقال له:  
 - سلّمت أيّها الإنسان الكريم... .  
 ابتسم المدير ممتنّاً، ومتسوّلاً أيّ كلمة طيبة في ضعفه الداهم:  
 - أشكرك يا أخي، أنت رجل نبيل بقدر ما أنت كفء وقادر.  
 - ما هي إلّا سحابة تمرّ ثمّ تعود لترتّب فوق كرسيك العظيم... .  
 فتقلّص وجه الرجل ليمنع دمعة وقال:  
 - الحقّ آتي لن أعود... .  
 فقال محتجّاً:  
 - لا سمح الله... .  
 - ولكنّها الحقيقة يا أستاذ عثمان.  
 - أنت دائئاً تبالغ... .  
 - ولكنّه تقرير الطبيب، قال لي صراحة إنني بالطاعة والدقّة أنجو من الأزمة ولكن عليّ أن أعتزل العمل فوراً... .  
 غلب الأسى على عواطفه المتضاربة فقال:  
 - ولكنّ رحمة الله واسعة ومعجزاته لا نهاية لها... .  
 - لا أهميّة للحرص على العمل، لقد زوّجت البنات، والابن الأخير في السنة النهائية من كليّة الزراعة، أدّيت رسالتي كما ترى، وما أحتاجه الآن فهو راحة البال.  
 - متّعك الله بكلّ طيب.  
 قال بفخار رغم وهنه وتعبه:  
 - الحمد لله، قمت بواجبي في الوزارة كما تعلم، وأدّيت رسالتي نحو الأسرة، وعشت كما سأعيش

أطرق كالمحزون فسمع تنهّدة حادّة مزّقت قلبه. أو شك أن يتحرّر من كافّة التزاماته وأن يكبّ على قدميها بشفتيه وأن يمضي بها إلى المأذون، ولكنّ القوّة الأخرى صدّته وجمّده.

- لم أهمل، ذهبت إلى أكثر من طبيب، لم أفقد الأمل ولولا ذلك لصارحتك من زمن بعيد، ولكن لا فائدة، لا يجوز أن أستأثر بك أكثر من ذلك وإلّا قضيت على مستقبلك إلى الأبد!

- ولكن كيف استقبال الحياة بدونك؟
- أنت صغيرة، جرح الشباب سريع الالتئام.
- لا أصدّق، إنّه كابوس.
- لا يجوز التهادي في الخطأ بعد ذلك.
- لا أصدّق... .

- كلّ مصيبة غير متوقّعة فهي لا تصدّق ولكنّ الحياة تبدو أحياناً سلسلة من المصائب غير المتوقّعة، ولكن عليك أن تهتدي إلى سبيلك قبل ضياع الفرصة... .

فتمزّق صوتها بالجزع وهي تسأله:

- ماذا تريد؟

- أن نكفّ عن السير في طريق مسدود!

- لا أستطيع.

- لا بدّ مما ليس منه بدّ، فمن الجنون أن

نستمرّ... .

وتجنّب النظر إليها. كان قد نفّد خطّته حتى النهاية بنجاح وإحكام. وبنجاحها الوحشيّ وجد نفسه في الفراغ منفرداً بعداب اليم، مكلّلاً بعار الجحيم، بلا إيمان ولا عزاء. وقال لنفسه إنّه لا نجاة له إلّا بالجنون. الجنون وحده هو الذي يتسع للإيمان والكفر، للمجد والخزي، للحبّ والخداغ، للصدق والكذب، أمّا العقل فكيف يتحمّل هذه الحياة الغريبة؟... كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمّة رأسه في الوحل؟  
 وبكى طويلاً في الليل... .

بدا أنّ ظلمة السحب تنضح بشعاع يهفو خلفها. فقد علم بأنّ أنسيّة رمضان خطبت إلى حسين جميل. سعد بالخبر باعتباره بشير النجاة وقال لنفسه:  
 - أستطيع الآن أن أحزن على الحبّ الضائع ببال

- قلت: لكم ما تشاءون إلا درجة واحدة لرجل وساطته هي مقدرته وخلقه.

فلهج بالشكر لسانه وكنم في القلب أحزانه فعاد صاحب السعادة يقول:

- لا خفاء بيننا في أنّ إسماعيل فائق ضعيف وجاهل.

فقال بامتعاض:

- لا خلاف على ذلك يا صاحب السعادة...

- فالثقل سيقع عليك وحدك بالرغم من أنك الوكيل الثاني.

- إني في الخدمة دائماً...

فقال بهجت نور متأسفاً:

- ماذا كان في وسعي أن أفعل؟... إنه كما تعلم من أقرباء الوكيل.

- لا لوم عليك يا صاحب السعادة...

- على أيّ حال مبارك ومصيرك أن تنال حقك كاملاً غير منقوص...

ورجع راضياً بعض الشيء ولكن امتعاضه مضى يتصاعد فسنسي فرحة الترقية. ولعن الجميع بغير استثناء. وقال جزعاً:

- العمر أسرع من جميع حركات الترقيات!

وودّع موظفي الأرشيف فصافحهم وهو يتلقى تهانيمهم، وعندما جاءت أنسيّة لمصافحته لاحظ - في دوامة من الانفعالات المتضاربة - أنّ بطنها يتخلّق بصورة جديدة وسعيدة. زوجة وحبل ولا شك أنّ حسين سيسعد سعادة خاصة بنقله إلى الإدارة. وجلس في الإدارة كوكيل ثانٍ ولكنه شعر باستعلاء على من حوله، وبأنه أهل الثقة الأولى، وبأنه الحاجة في الإدارة واللوائح والميزانية فضلاً عن دراسته للقانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ في اللغات. وتساءل:

- ما قيمة هذه المزايأ حيا ل سرعة العمر أو أمام مرض مباحث؟!

وتوكد لديه أنّ الوكيل الأول والمدير أصغر منه في السن، وأنّ الدرجات لن تخلو إلا بمعجزة مجهولة، أو بوفاء عاجلة، أو بحادث يقع في الطريق!

- أستغفرك اللهم لأفكاري وتمنياتي...

وكان كلاهما يتمتّع بصحة جيّدة وطبع بهيج وجهل مطبق وعقل مغلق. وإنّ أيّ درجة سوى الدرجة المرموقة لا يمكن أن تبرز التضحيات الجسيمة التي بذلها

مستوراً كثير الأحاب والأصدقاء، فيمّ يطمع المرء أكثر من ذلك؟

- أنت ذلك وأكثر يا صاحب الفضل والفضيلة.

- نحن نمضي واحداً في أثر واحد، هل تذكر المرحوم سلفان بسيوني؟، كُلمن عليها فإن، ولكن العمل الطيب يبقى إلى الأبد.

- صدقت في كلّ ما قلت...

ونظر إليه طويلاً ثمّ قال:

- وفكك الله إلى ما فيه صلاحك.

اشتدّ به التأثير. وبقي التأثير معه طويلاً. وامتلاً في حينه بالعبرة والموعظة حال الرابع من دفن عزيز.

ولكنه أفاق في الوقت المناسب كذلك. وقال لنفسه:

- إنّ أحزان الدنيا توجد لا لتثبّت الهمة ولكن لتشحذها...

وأتمّج تفكيره بكلّ قوّة إلى الدرجة التي ستخلو قريباً. وهو لا يختلف اثنان في الشهادة له بالقدرة والاستقامة والورع. بل هو أكفأ من وكيّلي الإدارة ولكن أحدهما في الثانية والآخر في الثالثة، ولو جرى العدل بغير اعتبار إلا للكفاءة وحدها لكان أحقّ منها بدرجة مدير الإدارة، ولكن كيف يثب من الرابعة إلى الأولى دفعة واحدة؟!

وأحيل حمزة السويفي إلى المعاش بناء على طلبه. وأجريت حركة ترقيات شاملة في الإدارة من الثانية إلى الأولى، فرقي إسماعيل فائق إلى درجة المدير، كما رقي عثمان بيومي إلى الدرجة الثالثة وكيلاً للإدارة. وهكذا غير ضغط الدم شتى المصائر سلّياً وإيجابياً. وسعد عثمان بالترقية يوماً ولكن سرعان ما أدركه الفتور، لقد كان حمزة السويفي موقفاً قديراً ولكن لا يوجد بعده من هو أحقّ بمركزه منه هو، وإنه لمن المضحك المبكي أن يقدم رجل مثل إسماعيل فائق مديراً للإدارة. ومضى إلى حضرة صاحب السعادة المدير العام ليشكره. ولم يكن يداخله شكّ في أنه أقرب الموظفين إلى قلبه وتقديره، وأنه يعتمد عليه في أعمال الإدارة ونشاطه الخاص على السواء. صافحه وأعرب لسعادته عن شكره بلسان بليغ. وقال صاحب السعادة:

- إنك لم تعرف الظروف كلّها، لقد تراكمت على

مكتبي التوصيات من الوزير والوكيل والشيخ والنواب...

ونظر إليه ملياً ثمّ استطرّد:



## حضرة المحترم ٦٨٧

- إنَّ الذين يثرثرون حول صراخ الطبقات لهم  
عذرهم!

ولم تعد أمّ حسني تصلح لعملها الجليل، أصابها ما يشبه الحرف، وعرضت عليه يومًا عروسًا ناسية أُنْها انتقلت إلى رحمة الله منذ أعوام. ومرة - عقب صلاة الجمعة - وكان يجلس في الكلوب المصري رأى أصيلة وهي تسير بصحبة سيّدة أخرى. عرفها من أوّل نظرة، رغم أنّها تغيّرت لدرجة أزعجته. تهذّلت ككرة مثقوبة، وجفّت ينبوع الأنوثة من وجهها، وحلّ محلّه خيال غامض لا هو أنثى ولا هو ذكر. مضت بخطوات فظة مثلاً للتعاسة والتدهور. وشيء قال له إنّ الموت يطاردها، وإنّه يقترب من زمانه ومكانه، وإنّ زمانه الذي تقدّس بالخلود يومًا مضت تنقش عنه الأوهام العذبة، وتتجلّى له الحقيقة الأبدية المتعالية بجلال قسوتها. ألا زالت تذكره أصيلة؟ لا يمكن أن تنساه، لقد نفذ إلى أعماقها بثقله وشدته وأنانيته مخلّفًا وراءه الكراهية واللعنة. أمّا أقران صباه فهم يجترفون الحقارة ويتكاثرون بالذريّة، ويمثلون الجوّ بقهقهاتهم. وضاعت تمامًا عواطف الطفولة البريئة وخيالهما الجاحمة، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب، مثل حارة الحسيني، التي تغيّرت جلدها، ربوع كثيرة تهذّمت وقامت مكانها عمار صغيرة، وشيّدت زاوية مكان موقف الحمير، وكثيرون من أهل الحيّ هاجروا إلى المدبح، كلّ شيء يتغيّر، النور والمياه دخلت البيوت، والراديو يصخب ليل نهار، والملاءة اللّفّت تتوارى، حتّى الخير والشرّ يتجددان ويتنوّعان. كلّ ذلك يحدث وهو ما زال في الدرجة الثالثة، مع عمره المتقدّم، أهدأ جزء الجهد الخارق والتفاني الجليل؟. ألم يعلموا بأنّه إنسان تلخّص في خبرة مؤيّد بالعلم والعمل؟. وأنّ مذكراته الرسميّة وبياناته الخاصّة بالميزانيّة وفتاواه الرائدة في الإدارة والمخازن والمشتريات لو جُمعت في كتاب لكانت دائرة معارف في الشؤون الحكوميّة؟. خبرة مصباح كهربائيّ قوّة خمسينة شمعة ثبتت في جدار مرحاض زاوية بقرية ١. وقال لنفسه أيضًا إنّ الموظّف مضمون غامض لم يُفهم على وجهه الصحيح بعد. الوظيفة في تاريخ مصر مؤسّسة مقدّسة كالعبد، والموظّف المصريّ أقدم موظّف في تاريخ الحضارة. إن يكن المثل الأعلى في البلدان الأخرى محاربًا أو سياسيًا أو تاجرًا أو رجل صناعة أو بحارًا فهو في مصر

من عمره وسعادته وراحة باله. ولعلّه لم يشعر في أيّ وقت مضى بما يشعر به الآن من حاجته إلى زوجة قويّة رافعة، قبل أن تنقضي مدّة خدمته أو يفاجئه مرض أو يدهمه الموت. لذلك طلب من أمّ حسني أن تخاطب أمّ زينب بشأنه من جديد بعد أن رفعه الله إلى الدرجة الثالثة كوكيل للإدارة. وفي تلك الأيام ضاعف من حذره وهو ذاهب إلى قدريّة بالدرب. تراءى له أن يتنكر في ملابس بلدية حتّى لا تعرفه عين، ومضى إليها بجلباب فضفاض وعباءة ولاسة فلم تعرفه حتّى سمعت صوته. ولمّا عرفته ضحكت كما لم تضحك من قبل وسألته:

- رَفْتُوك من الحكومة؟

وكان العمر ينحدر بها رويدًا رويدًا، فتهدت في الضخامة والانطباع بطابع الفحش والشهوانيّة ولكنّ العلاقة بينهما توقفت وداخلها ألفة إنسانيّة. وقد مرّ معها بجميع الأطوار من الرغبة إلى الملل ثمّ إلى العادة التي لا يسهل الاستغناء عنها. وباتت هي والحجارة العارية والنبيل الجهنميّ عناصر متكاملة وحميمة وأليفة، تهب الراحة والتأمل والأسى، وتدفعه إلى مواجهة الحياة في بدائيتها القاسية، غير مبال بسلوك صاحبه الحياديّ وتصرفاتها المهينة، بما لم يحرمه - وهو معها - من وحدته المقدّسة. وكان يقول لنفسه:

- عجيب أنّي لم أمارس الحبّ مع امرأة عاديّة إلّا مرّة واحدة رغم هذا التقدّم في العمرا  
وتدكّر أصيلة، فتدكّر بالتالي أنّها كانت جريمة  
وليست ممارسة للحبّ. وقال أيضًا:

- توجد معاشرّة صحيّة إنسانيّة.

ثمّ وهو يتنهّد:

- كما يوجد المجد.

ثمّ وهو يتنهّد بعمق أكثر:

- وكما يوجد الله وهو أصل كلّ شيء... .

ثمّ وهو يتنهّد بعمق أكثر وأكثر:

- ونحن نتدكّره بالخير ونتدكّره أيضًا بالشرّ!

ظهرت أمارات العجز على أمّ حسني رغم صمودها للزمن فضعف بصرها حتّى الحضيض، وأصابها عرج، فلا تمشي إلّا متوكّنة على عصا هي يد مكنسة قديمة. ويس هو نمامًا من أمّ زينب حتّى قال لنفسه حانقًا:

وهز رأسه ثم تساءل:  
 - بأي عقل نشرع في إعداد الحساب الختامي؟  
 فأجاب عثمان بهدوء ساخر:  
 - بعقلي أنا!  
 فضحك الرجل ضحكة عالية. وكان يسلم بكفاءة  
 مرعوسه وأنه العمود الفقري للإدارة. لم تكن بينهما  
 مودة ولا عداء. رباه كيف مات الرجل. وذهب إلى  
 الوكيل الأول المعروف بصلته الحميمة بالراحل وسأله:  
 - هل عندك علم عن هذه المصيبة؟  
 فأجاب الوكيل الأول بذهول:  
 - شرع في تناول الإفطار، ثم شعر بتعب مفاجئ  
 فقام ليستلقي على ديوان، ولما لحقت به حرمة لثرى ما  
 به وجدته جثة هامدة!  
 إن ما يوفر لنا بعض الطمأنينة هو اعتقادنا بأن  
 الموت منطقي، يمارس وظيفته من خلال مقدمات  
 ونتائج. ولكنه كثيرًا ما يدهمنا بلا نذير كزلزال. تمتع  
 إسماعيل حتى آخر لحظة بكامل حيويته. وما حدث له  
 قد يحدث لأي إنسان، ليس كذلك؟. وهكذا فلا  
 ضمان البتة لصحة أو خبرة أو لعلم. وهزه الخوف من  
 أحماقه...  
 - خير تعريف للحياة أتأ لا شيء...  
 ولكن هل وقع جديد لم يكن له به علم؟. كلا.  
 غير أنه ليس من سمع كمن رأى. وسيستمر خوفه يومًا  
 أو يومًا وبعض يوم. وفي تلك الساعات تتساوى  
 المكاسب والخسائر، والمسرات والأحزان، وتتوارى  
 معاني الأشياء.  
 - ما قيمة ما بذلت طيلة العمر من جهد وتفانٍ؟  
 ولازمته وساوسه في الجنائز، والمآتم، وحتى أحاديث  
 الموظفين المتنوعة في المآتم لم تلغ وساوسه، ولكنه شعر  
 بامتنان لأنه ما زال حيًا.  
 - ما البطولة الحقة؟... هي أننا نعمل بلا هوادة  
 رغم علمنا بكل ذلك.  
 وسرعان ما طرد التفكير في درجة مدير الإدارة ما  
 عداه. إن الوكيل الأول مرشح لوظيفة في القضاء،  
 والطريق واضح بعد ذلك، وهو أن يرقى إلى الثانية  
 ويندب مديرًا للإدارة فيستحق الترقية إليها بعد مضي  
 عام على شغلها.  
 تجسد له الأمل حقيقة ملموسة.  
 ولكنه بوغت بقرار تعيين مدير إدارة جديد نقلًا من

الموظف. وإن أول تعاليم أخلاقية حفظها التاريخ  
 كانت وصايا من أب موظف متقاعد إلى ابن موظف  
 ناشئ. وفرعون نفسه لم يكن إلا موظفًا معينًا من قبل  
 الآلهة في السماء ليحكم الوادي من خلال طقوس دينية  
 وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية. ووادينا وادي فلأحين  
 طبيين يجنون الهامات نحو أرض طيبة ولكن رهوسهم  
 ترتفع لدى انتظامهم في سلك الوظائف، حينذاك  
 يتطلعون إلى فوق، إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى  
 أعتاب الآلهة في السماء. الوظيفة خدمة الناس وحق  
 للكفاءة وواجب للضمير الحي وكبرياء للذات البشرية  
 وعبادة لله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء.  
 ومضى ذات يوم للتفتيش في المحفوظات. وهناك  
 رأى أنسية وقد انتقلت إلى طور النضج الأنثوي  
 والوظيفي أيضًا فأصبحت مراجعة في الوظيفة التي  
 خلت بانتقال زوجها إلى وزارة المعارف. ولم يتمالك أن  
 قال لها وهو يصفافحها:  
 - أيام...  
 فابتسمت في حياء صادق فقال:  
 - سعيدة إن شاء الله؟  
 - الحمد لله.  
 فقال بعد تردد وبإغراء لم يستطع مقاومته:  
 - من حسن الحظ أننا نسي.  
 فقالت ببساطة ومودة:  
 - لا شيء ينسى ولا شيء يبقى!  
 وتفكر في قولها طويلاً. وغادر المحفوظات وهو يقول  
 لنفسه:  
 - يا أنسية أحببتك كثيرًا في الأيام الخالية.  
 وعاد إلى مكتبه فوجد نشرة مرسلة من إدارة  
 العلاقات العامة عرف من شكلها أنها تحمل نعي  
 موظف أو قريب له. قرأ:  
 «انتقل صباح اليوم إلى رحمة الله المغفور له إسماعيل  
 بك فائق مدير الإدارة، وستشيع الجنائز... الخ.  
 أعاد القراءة. قرأ الاسم مرّات. مستحيل. كان  
 حتى الأمس يباشر عمله وهو في غاية من الصحة  
 والنشاط. وقد شرب قهوة الصباح معه في مكتبه،  
 وكان الرجل يقول مردّدًا اهتماماته المعروفة:  
 - البلد يموج بالأفكار المتضاربة...  
 فابتسم عثمان ولم ينس فقال إسماعيل:  
 - كل واحد يعتقد أنه رسول العناية الإلهية.

حضرة المحترم ٦٨٩

من الضياع، إلى محراب مناسب للإيمان، إلى محطة راحة من الأحلام الخرقاء، إلى هدنة مع الحرص والحرمان والوحشة.

- المرأة هي الحياة، الموت نفسه يكلل بجلاله الحق بين يديها...

ولن يلجأ إلى أم زينب، ولا فائدة ترجى اليوم من أم حسني بعد أن أقعدها العجز، ولكن ثمة فتاة جديدة في الإدارة تدعى إحسان إبراهيم لم يتردد في إظهار تودده إليها. ذلك أنه يريد أن يتزوج اليوم إن أمكن. وكلما بات ليلة وحيداً اشتدَّ جزعه. كأن الرغبة في الزواج كانت تبدو في داخله وهو لا يدري حتى انفجرت كبركان. ولم تفهم إحسان تودده على الوجه الصحيح، ولعلها استبعدت أن يغازلها رجل في سنه. وما حيلته ولم يعد يوجد حبَّ كأيام سيِّدة وأنسيّة، ولا رغبة جامعة كأيام سنيّة وأصيلة.

وانتهز فرصة وجودها - إحسان - يوماً في حجرته لعمل فسألها:

- تسمحين لي بسؤال غريب بعض الشيء يا آنسة إحسان؟

- طبعاً يا سعادة البك.

فتردد قليلاً ثم سأل:

- أنت مخطوبة؟

تورد وجهها ورمقته لأول مرة بنظرة أنثى لا موظفة وأجابته:

- نعم يا سيدي.

شعر بخيبة أمل ولكنّه قال:

- معذرة فأني لم أر خاتماً في أصبعك.

- أعني في حكم المخطوبة.

تفكر ملياً ثم قال:

- لدي رجاء ولكن يجب أن يبقى سراً بيننا؟

- أفندم؟

- هل أطمع في أن تدليني على عروس؟

فتفكرت في ارتباك ثم قالت في حذر:

- جميع من أعرف من قريبات وصديقات يقاربني

في السنّ فهنّ لا يلقن بك!

يا لها من ترجمة مهذّبة لـ «لا تليق بهنّ»، وتمادى من

شدّة يأسه فسألها:

- ألا يمكن أن يتزوج إنسان في مثل سنّي؟

- لم لا؟، توجد عروس مناسبة لكل سن!

وزارة المواصلات...

٣١

لا... لا... لا...

ذاك ما لم يخطر له ببال. وحقد على حضرة صاحب السعادة بهجت نور ولعنه ألف لعنة. هو من كان ينبغي أن يدافع عنه. عليهم اللعنة... هل يتصوّرون أن يعمل لحساب غيره طول عمره؟ ومن هو المدير الجديد، من يكون عبد الله وجدي هذا؟ كيف يقدم له نفسه كمرءوس؟. إنه لشيء مخجل. المخجل يطارده في أروقة الوزارة، وما أكثر الشامتين.

ودعاه بهجت نور إلى مقابلته وقال له:

- إني آسف جداً يا أستاذ عثمان...

فقال له صراحة:

- إنه اليأس من الحياة الفاضلة...

- لا... لا، إنه قريب الوزير!

- إني أحسد الموظّفين الكسالي.

- أكزّر الأسف، وأخبرك بأنّ سعادة وكيل الوزارة

أسف أيضاً...

وتهمّل دقيقة ثم قال:

- لا تياس، فالرأي متفق على ترقيتك وكيلاً أوّل

عقب نقل شاغلها مباشرة في هذا الشهر...

لا فائدة. الدرجات لا تهّمه إلا باعتبارها وسيلة

لامله المنشود الذي كرس له العمر. والمدير الجديد في

الأربعين من عمره. شاب أو أكثر من ذلك بقليل.

وإذا سارت الأمور سيرها الطبيعي فسوف يحال على

المعاش وهو وكيل للإدارة أو وهو مديرها على الأكثر إذا

وقعت معجزة. تبدّد حلم الحياة ويات مستحيلًا.

ومات الماضي بعد أن تمخّض عن وهم أسود. ولعلّه

كان خير له لو أقام حياته كأبيه فوق الكارو. ولأول

مرة في حياته يدهم اليأس، فقد بدت نهاية العمر

أقرب كثيراً من جوهرة الأمل. وفكرة جديدة تسلّطت

عليه بقوة قاهرة لم يعهدها من قبل هي الزواج. لا

يجوز تأجيلها بعد اليوم ولا فائدة ترجى من تأجيلها.

وبحسبه أن ضاعت أطيب فترات العمر الصالحة

للحبّ والزواج. ما أشدّ حاجته إلى شريكة، إلى

عاطفة صادقة، إلى مشاركة أمينة، إلى دفء البيت،

إلى الدلّة، إلى علاقة إنسانيّة، إلى قلب ويد ولسان،

إلى ملجأ من العذاب، إلى درع ضدّ الموت، إلى منقلد

- شكراً ومعدرة عن مضايقتك .  
- أرجو أن أوفق لخدمتك . . .
- وعند ذهابها استشاط غضباً . تصوّر أنّها كان يجب أن ترحّب به لنفسها أو لإحدى القريبات أو الصديقات . إذن قد صار كهنة مثل فضلات المخازن التي يعرضها للبيع عند الجرد السنوي . والظاهر أنّه لن يكون أسعد حظاً في مسألة الزواج . ولو نال أمله المنشود وحلم العمر في حجرة صاحب السعادة . ها هو الزمن يلهبه بسياطه على حين أنّه لم يعد يقوى على العُدو . ويمرور كلّ يوم اشتدّ تسلّط فكرة الزواج عليه حتّى كادت تراحم هوس الدرجة . ولم ترجع إليه إحسان بجواب . ومن جنونه راح يحاول مغازلة النسوان في الطرقات والباصات بلا خبرة وبلا نجاح حتّى اضطرّ إلى الكفّ عن ذلك وهو يقول متأوّهًا :
- ما أضيع العمرا  
وتساءل بامتعاض عمّا يجعل زواجه متعسّراً بهذه الصورة حتّى بعد أن نزل عن شروطه المعوقة الأولى . السنّ بلا شكّ مثبّطة ولكنّها ليست كلّ شيء . إنهم يتحرّون عنه وسرعان ما يعرفون كلّ شيء عن أصله وفصله ، هذه هي الحقيقة الأخرى المخزية . إنّ في الحقيقة كهل ذو منبت حقير ، والله أعلم بما يقال عنه بالإضافة إلى ذلك ، فإنّ رجلاً متفوّقاً مثله خليق بإنارة عواطف الحسد في النفوس ، وطالما شعر بأنّه بلا صديق حقيقيّ في هذه الدنيا ، ويأثّه وحيد متعالٍ عن الضعف البشريّ !
- وحمله الليل - كالعادة الرتيبة - إلى الحجرة العارية ، إلى قدرية . وقال لنفسه بمرارة ما أجمل أن يكون نصيبي من الدنيا درجة وكيل إدارة وبغيّاً نصف زنجية ! . وكانت تقول له ضاحكة :
- لأول مرّة تشرب قدحين من النبيذ ، هل قامت القيامة؟
- أمّا القيامة فقد قامت وها هو يشعر بدوار غريب في رأسه . قال لها بلا مناسبة :
- اعلمي يا قدرية أنّي رجل مؤمن .  
فلفت شعرها الخشن بمنديل أحمر وقالت :
- الحمد لله . . .  
- ولولا إيماني بأنّ الدنيا مقدّسة بما هي من صنع الله لرصيت بحياة البهائم . . .  
فنظرت إليه نظرة بلهاء وقالت :
- قرّروا إلغائنا عليهم اللعنة . . .  
فواصل بلا انتباه إلى قولها :
- والله سبحانه . . .  
فقاطعته :
- قرّروا إلغائنا . . .  
- أفندم؟  
- ألم يبلغك ما يقال عن إلغاء البغاء؟  
كلاً . إنّ لا يقرأ في الصحف إلّا الوقيّات وشئون الدولة والدواوين . فتساءل بانزعاج :
- حقّاً؟  
- تَبهوا علينا بالفعل .  
- خبر غريب . . .  
- وعدونا بعمل لمن تريد عملاً ، أيّ عمل؟ ، عليهم لعنات الدنيا والآخرة ، هل أصلحوا كلّ شيء فلم يبق إلّا نحن؟!  
- لعله كلام ، ما أكثر الكلام في هذا البلد . . .  
- يا سيّدنا لقد أبلغنا رسمياً بالأمر . . .  
فسأل بجزع ورعب :
- ومتى يتمّ ذلك؟  
- قبل نهاية هذا العام . . .  
وساد صمت حتّى ضجّت الحجرة بأصوات المربردين في الحارة . كم من مصائب تَوَقَّعها أمّا هذه المصيبة فلم تَجْر له على خاطر . وقال بأسى :
- ستنتشر بيوت الدعارة في كلّ مكان . . .  
- والأمراض كذلك .  
- وآلاف من بنات الناس سيتعرّضن للفساد .  
- ماذا نقول لمن لا عمل لهم؟  
وتنهّد ثمّ سأها :
- وعلام نويت؟  
- على أيّ حال لن أقبل أن أعمل غسّالة في مستشفى .
- هل يمكن أن أعرف عنوان بيتك؟  
- سنكون تحت رقابة مشدّدة .  
وشعر بيأس لا يطاق وسأها :
- ألم تكوّني فكرة عن المستقبل؟  
فقلت بثقة :
- سأتزوج . لم يبق لي إلّا الزواج . . .  
ولطمه قولها فملاً القدح الثالث ، وسأها :
- عندك عريس؟

## حضرة المحترم ٦٩١

سحابات الكابوس الذي يعاني. ثم اجتاحت موجة من الاستسلام بلغت حدّ الاستهتار. ولما أدلى باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الدهول. قال لنفسه إنهم سيتهمونهم بالجنون كما يتهمه الآخرون ولعلّه من الإنصاف أن يعترف - بدءًا من اليوم - بأنه مجنون - كهلة نصف سوداء في ضخامة بقرة مكتنزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والضحش. هكذا تحققت الأمنية التي تاق إلى تحقيقها بجنون، فأصبح زوجًا، كما أصبحت قدرية - رفيقة شبابه - زوجة له. ترى ماذا فعل بنفسه؟ قال:

- عليّ أن أبدأ حياة جديدة...

ولإعجابه بروض الفرج - الذي رآه وهو يعود حمزة السويفي - استأجر به شقة من ثلاث حجرات وصالة، ومضيا يؤثثانها معًا بعد أن ألزمها بالحجاب، باسم الخشمة في الظاهر، وفي الحقيقة خوفًا من أن تقع عليها عين زبون قديم أو حديث. ابتاعا حجرة للنوم وثانية للسفرة وثالثة للمكتبه والجلوس والاستقبال، وثيابًا لها وله، وراديو وغير ذلك. وقد أسهمت في التجهيز بمائة جنيه ورصد هو لها بمثلها. وبدافع من الاستهتار الذي ركبته مال إلى تغيير سياسته نحو «النقود» فأنفق - كَلِمًا دعا الداعي - باستسلام يائس غطى على الألم المعتاد في مثل تلك الأحوال، وتملكته رغبة قويّة في الاستمتاع بطيبات الحياة التي طالما حرم نفسه منها. وودّع أمّ حسني وداعًا مؤثّرًا. فذهلت العجوز لقراره وبكت قائلة:

- لا تهجر منبتك فليس في ذلك خير.

ولكنّه هجره بلا أسف، ولم يكن ممّا يصحّ التفكير فيه أن يجيء بقدرية إلى حارة الحسيني، ونظر إليه بصفة عامّة كرمز للبلبلى والحرمان والضيق والذكريات المحزنة. أغرق آلامه الظاهرة والخفية في المتع المتاحه، وأصرّ على تذكير نفسه - وإقناعها - بأنّ قدرية هي المرأة الوحيدة التي أحبّها حبًّا حقيقيًّا، وإلّا فكيف عاشرها ذلك العمر الطويل كلّها؟. وما هي لا تالو جهدًا في لعب دور ست البيت في الوسط الجديد «الراقي» الذي يُعدّ الانتقال إليه من «الدرب» وثبة خيالية. دعا الله ألا تراها العيون التي عرفتها. ونصحها قائلاً:

- تجنّبي الاختلاط بالجيران.

فسألته:

- لمّ؟

- ما أسهل أن يوجد!

- ولكن كيف؟

فقال في مباهاة:

- عندي خمسمائة جنيه، يمكن أجهز شقة بمائة وخمسين، وأحتفظ بالباقي كاحتياطي، ألا يرحّب كثيرون بالزواج منّي في تلك الحال؟  
- معقول جدًّا...

فقالت وهي تضحك:

- إن وجدت عريسًا مناسبًا فأخبرني...

وعند منتصف الليل وهو يتسلّل تحت البواقي صادف سكران يتقافأ فتقرّز لدرجة غير محتملة. وشعر بوحدته وضياعه ويأسه وبرغبة في الانتحار. وغير طريقه بلا تفكير. رجع إلى الدرب مترنحًا فصادف قدرية تهبط السلم في طريقها إلى ماواها. أوقفها بيده وقال لها:

- قدرية. وجدت لك الزوج المناسب...

لم ير وجهها في الظلام، ولكن حنّ تأثير قوله فقال:

- لتتزوج في الحال!

## ٣٢

وتّم الزواج في اليوم التالي مباشرة. ولم تدهل المرأة لقراره كما توقع. رمقته بنظرة متفحّصة لتتوكّد من صدقه، فلما تبين لها صدقه أحتت رأسها بالقبول. وقال لنفسه لعلّها تعدّه الطرف الرابع في الصفة بسبب الخمسمائة جنيه! وقال لها بعجلة:

- لنذهب إلى المأذون توجًا.

فقالت وهي تضحك في سعادة:

- أفق أولًا وانتظر طلوع النهار.

وبات الليل في شقتها الصغيرة بعطفة الشاشرجي.

وفي الصباح قال لها:

- نُعدّ بيتنا الجديد ثمّ نتزوج.

ولكنّها قالت بإصرار نهائيّ:

- بل نتزوج ثمّ نُعدّ بيتنا.

وجيء بالمأذون إلى البيت. واقتضت الإجراءات شاهدين فلم نجد إلّا قوادين ممن كانوا يعملون معها. وجرّت المراسم البسيطة وهو يتابعها بهول. ما هذا الذي يجري؟. واجتاحه شعور ممزق بالقلق بلغ حدّ الرعب فتمنّى لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدّد

- ستستعمل في غيابك، وبطريقة مقرزة!  
 - ولكن لا بأس من زراعة شجرة أو لبلابة.  
 - ليكن، ويمكن ربيها من الخارج...  
 وتم البناء فلذهب لتسلمه ودفع باقي الأتعاب.  
 تفحص القبر بإعجاب. كان بابه مفتوحاً، والسلم يُرى في تدرّجه نحو المنامة متألقاً بنور الشمس. وانحنى قليلاً ليلقي نظرة على أرضه المنبسطة الجديدة المكلفة بالضوء والنقاء والنظافة وشعر باطمئنان غريب غير متوقّع. فها هو البيت الباقي قد أُعيد، ولن تضيق عظامه في زحمة المعظم كوالديه. وبخلاف المتوقّع أيضاً انبجس من أعماقه شعور ناعم غريب يدعوه بهمس كالغزال إلى الرقاد فوق الأرض النظيفة المضيئة، ليتدوّق راحة لم تقسم له في حياته، وليستمع بهدوء لم يعرفه وسط انفجالاته المتلاطمة الحارقة، نداء مجهول ودّ لحظتها لو يطيعه منقّضاً يديه من الدنيا بكلّ همومها وآمالها. ولم يفق من غمرة مشاعره المجهولة حتّى غادر القرافة راجعاً إلى المدينة. كم يودّ أن ينقل والديه إلى القبر الجديد ليكمل اطمئنانه إليه ولكنّه علم باستحالة ذلك منذ زمن غير قصير. أجل فإنّ قبر الصدقة يكتظّ بالجثث بحيث يستحيل التمييز بينها. وقال متسوّلاً الاقتناع بحكمة تصرّفه:

- ليس من شكّ في أنّ حياتي اليوم خير من حياتي أمس... .

وهي لا تعني بحال أنّه حادّ عن طريق الله وكلمته الأبدية، وإن اعتراه فتور ملحوظ... .

٣٣

لتمض الأيام.  
 مهما يكن من أمر فقد أصبح صاحب أسرة ومالك قبر، وعرف من الطعام ألواناً جديدة غير المعهود من لحمة الرأس والكشري والفلول والطعمية والعدس والبصارة، كما عرف للنقود وظيفة غير التحنيط في صندوق البريد.

ولكن ألا تمضي الأيام في رتابة ووخامة؟ وهل فقد الأمل بصفة نهائية؟!

وانبثقت من تيار الأيام موجة عالية وعاتية غير متوقّعة بتاتاً، غيرت المصائر والحظوظ، وأعدت خلق العالم من جديد. فقد أصبحت الوزارة ذات يوم على

- الناس أخلاقها لا تسراً  
 وكان ينجش أن يقع خلاف بينها وبين إحدى الجارات فتسنى تحفظها وتنفجر براكين الفحش الكامنة في أعماقها. عدا ذلك فإنّه لا يجحد اجتهادها الصادق في إسعاده وحرصها على النجاح في حياتها الجديدة. وبمضيّ الأيام اطمأنّ إلى الحياة الجديدة، سلم بواقعها، ونعيم بما وفّرت له من أنس وراحة ونظام ونظافة، وها هو يصلي بلا قلق ولا حرج، بل ها هو يتقرّب إلى ربّه بما أنقذ من روح ضائعة، ولعلّها روحان لا روح واحدة.

واعتقد أنّ حياته الدنيا قد كملت بالمقسوم له وأنّه أنّ له أن يفكر في آخرته. قال:

- واجب عليّ أن أشيد لي مدفنًا  
 واستشار أهل الخبرة، وبفضلهم اشترى أرضاً في الخفير، وشرع في بناء قبر مناسب. وكثيراً ما تفقّد العمل بصحبة مهندس من الإدارة الهندسية بالوزارة. وسأله المهندس:

- اليس للأسرة مقبرة قديمة؟

فأجاب بثبات:

- قديمة جدّاً، واكتنّظت بالأباء والأجداد، فدعت الضرورة إلى بناء هذه المقبرة... .

فقال المهندس:

- شتان بين الجديد والقديم في القبور، القبر الجديد بناء عصريّ جميل... .

- أنا لا أهتمّ بتملّك بيت في الدنيا فشقة مستأجرة تفي بالغرض ولكن لا مناص من تملّك قبرٍ وإلاّ ضاعت كرامة الإنسان... .

فضحك المهندس وقال:

- في الهند يجرّون الجثث... .

فقال متأنّقاً:

- أعوذ بالله... .

فضحك المهندس كزّة أخرى وقال:

- أتريد رأيي؟ النار أخفّظ لكرامة الجثّة من التراب، ليس لديك فكرة عن أطوار تحلّل الجثّة في القبر؟

فقال بضيق:

- كلّاً ولا داعي ألبيّة لهذه المعرفة!

وتفكّر قليلاً ثمّ سأل المهندس:

- ألا يحسن بناء دورة مياه؟

## حضرة المحترم ٦٩٣

على أيّ حال انفتحت نفسه للعمل كحال الأول، وتعهّد أمام ربّه بأن يسجّل في رياسته الإدارة تاريخاً فذاً حافلاً بالعلم والذكاء والفتاوى الخالدة، وأن يثبت للجميع أنّ الوظيفة عمل مقدّس وخدمة إنسانية وعبادة بكلّ معنى الكلمة. ومن أوّل يوم قرّر أن يتعاون مع عبد الله وجدي بصدق، لأنّ التعاون مع المدير العامّ طقس من طقوس العبادة في العمل، ولأنّه لم يحنّ واجب الوظيفة أبداً، بل قرّر أن يغطّي ضعفه بخبرته، يقدّم له من الخدمات الخاصّة ما هو في حاجة إليها أسوة بوكيل الوزارة نفسه، ولعلّه يجني يوماً ثمرة ما يزرع. وجعل يقول لنفسه:

- عبد الله وجدي في حكم الشباب حقاً ولكنّ عصر المعجزات قد عاد!

ولكنّه في الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها. كان يرمق بدانة عبد الله وجدي باهتمام ويتابع ما يقال عن نهمه في الطعام والشراب بارتياح خفيّ، ويردّد فيما بينه وبين نفسه:

- ما أكثر الأمراض التي يتعرّض لها أمثاله! وهو حقّ وعدل. لم لا؟ إنّه برغم الهفوات رجل مؤمن، من رجال الله، ومن مريدي الحسين، والله لن يتخلّى عنه. قال:

- هل يستطيع الإنسان في يوم الحساب أن يقدّم خيراً من طموحه النبيل وعمله المقدّس وتقديمه الثابت وسجلاً بالخدمات التي أداها للدولة والناس؟! وقال أيضاً:

- إنّ الدولة هي معبد الله على الأرض، وبقدر اجتهادنا فيها تتقرّر مكانتنا في الدنيا والآخرة. . . أمّا حياته الزوجية فلم تنعم بالهدوء والازدهار طويلاً. ومتاعبها كانت متوقّعة رغم مغالطة النفس والتعلّق بالأمال. وقال لها:

- قدرية، إنك تفرطين في شرب الخمر.

فرمقته بدهشة وقالت:

- لهذا واضح، وهو قديم. . .

فقال برجاء:

- يوجد أمل دائماً في أن نتغلّب على عاداتنا السيئة. . .

- لا ضرورة لهذا التعب. . .

فقال برجاء أيضاً:

- بل لآني أمل أن تصومي وأن تصلي فنحن في

قرار بتعيين بهجت نور المدير العامّ وكيلاً للوزارة فخلت وظيفة المدير العامّ لأوّل مرّة منذ عهد مديد، وعاشت قلوب كثيرة في خفقان متواصل مقدار أسبوعين حتى صدر قرار بترقية عبد الله وجدي مدير الإدارة إلى وظيفة المدير العامّ فبات «صاحب سعادة» بالطول والعرض. وانبعث الخفقان في قلب كان قد استنم إلى الهمود زمناً غير قصير. فقال عثمان:

- لآني المرشّح الوحيد «رسمياً» و«طبيعياً» فماذا تراهم يفعلون؟!

ومضت أسابيع فلم يقصّر في حقّ نفسه. حادث المدير العامّ كما حادث وكيل الوزارة.

وسمع بعضهم يقول:

- إنّ وظيفة مدير الإدارة من الوظائف الحساسة.

فسأله عمّا يعني فأجاب:

- لا تراعى الشهادة والكفاءة وحدها عند الاختيار لها ولكن يضاف إليهما المكانة الاجتماعية. . .

فصاح بغضب:

- ذلك كلام يصدق على الوكيل أو الوزير أمّا مدير الإدارة بل المدير العامّ فلا يُجرّم منها أبناء الشعب، بذلك جرى العرف منذ تنحّى عنها الموظفون البريطانيون. . .

ولم يطل به العذاب فقد صدر قرار ترقّيته إلى درجة مدير الإدارة في نفس الشهر. وفيها بعد تدكّر ذلك اليوم بوجد وكان يقول:

- وقعت المعجزة في غمضة عين!

وقال أيضاً:

- لم يعد يفصل بيني وبين المدير العامّ فاصل من الكادرا

ولكن كيف وقعت المعجزة؟ جرى في تقديره يوماً أنّه سيحال على المعاش قبل أن يتحرّك أحد في الطابور أمامه، ولكن حدث تعديل وزارّي اختير فيه وكيل الوزارة وزيراً، ثمّ أعقب ذلك التغيرات السعيدة المفاجئة. وقال له بهجت نور وكيل الوزارة:

- رقيتك رغم الاعتراضات الكثيرة. . .

فشكر له فضله ولكنّه تساءل بأسف:

- ولماذا الاعتراضات؟

فقال الوكيل:

- إنك فوق قمة عمرك الحكوميّ فلا يمكن أن تجهل سبباً ممّا تسأل عنه. . .

- قدرية، فكري، إن لم تغبيري حياتك حلّ الخراب بنا... .

وشحد إرادته للدفاع عن سمعته ومستقبله. ومن خلال ما يشبه المعركة حملها إلى مصحة نفسية وعصبية بحلوان فمكنت بها أشهراً حتى شفيت من الإدمان. خيل إليه أنها عادت امرأة جديدة. ولم تجد من سلوى في حياتها إلا الطعام فأقبلت عليه بشراهة وإفراط، وسرعان ما ظهر أثر ذلك في الدهن الذي اكتنز به جسدها فزاد بدانة على بدانة حتى تبدت في صورة تدعو إلى الرثاء والسخرية معاً. ولم يفارقه القلق من ناحيتها فكان يعمل بعين ويراقبها بعين، ويقول بحزن:

- فقدت الميزة الوحيدة التي كنت أستمتع بها في الليالي البهيمية، وها هي تتعزى كاشفة عن بدائية تعيسة بلا خلق ولا دين ولا عقل ولا ذوق... . وتذكر الآراء التي يعلل بها بعض الزملاء - المولعين بالسياسة والأفكار - هذه الظاهرة وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات ولكنه تذكر أيضاً «حالته»، ألم ينشأ مثل قدرية فقيراً وعاجزاً ومحروماً من كل سلاح؟ بل، ولكنه اكتشف في الوقت المناسب السرّ المقدس في ذاته الضعيفة، كما اكتشف حكمة الله الخالدة، فشق طريقه بجلال وعذاب جديرين بالإنسان مخلوق الله العظيم، ولذلك لم يكذب يعطف عليها، ورجع يتساءل:

- ماذا فعلت بنفسي؟  
أجل، ما معنى حياة زوجية بدائية بلا حب حقيقي أو علاقة روحية أو أمل في ذرية أو مجرد زمالة إنسانية؟! على أنه قال لنفسه محذراً:  
- هوّن من أحزانك، لم تعد تتحمل كالزمان الأول، أجل يوجد تغير جديد، خفيف كالنسيم ولكنه ماكر كالثعلب، إنه السنّ، وإنه الزمن... . وتفكر قليلاً ثم قال:  
- بفضلته نحقق كل شيء، ويسببه نخسر كل شيء، ولا يبقى إلا وجه ذي الجلال!

كالعادة نسي النجاح تماماً. انجابت الأفرح وتراكمت سحب الهموم. أصبحت رئاسة الإدارة عادة روتينية، عليه أن يتجاوزها، وأن يتجاوزها بسرعة

حاجة إلى رضى الله عنّا.

فقلت بامتعاض:

- إنّي مؤمنة بالله وأعلم أنه غفور رحيم... .  
- إنك سيّدة محترمة، والسيّدة المحترمة لا تسكر كل ليلة... .

- إذن كيف تسكر السيّدة المحترمة؟!  
- يجب ألا تسكر على الإطلاق.

فضحكت بصوت مزعج ولكنها سرعان ما قطبت وقالت بأسى:

- لا أمل!

- ماذا تعنين؟

- لا أمل في بنت أو ولد، فات أوان ذلك.

وشر بأنّه يشاركها في الحزن على ذلك ولكنه قال:

- أمامنا على أيّ حال فرص طيبة للحياة الهانئة. وبدلت محاولة غير جادة للامتناع عن الشرب ولكنها استمرت فيما هي فيه. وربما ضاعفت من إدمانها بعد رجوع عثمان إلى الاستغراق في عمله ومعاناتها لفراغ مخيف بلا أنيس. ولحها مرّة وهي تتناول قطعة من الأفيون ففزع الرجل وصاح:

- لا... .

فصاحت بحدة:

- لا تتعرض لهذا!

فسأها بلهفة:

- منذ متى؟

- من أيام سيّدنا نوح.

- ولكن... .

- إلاّ هذا، إنه أقوى من الموت... .

- ولكنه الموت شيء واحد.

فقلت باستهتار:

- ليكن... .

تملكه الفزع. ماذا فعل بنفسه؟ أيّ طلاء سعادة خدعه؟ بأيّ ثمن عليه أن يقاوم. لا جدوى من التفكير في الطلاق لأنه يعني الدخول في معركة حامية ربما انتهت بالقضاء عليه. وسألها:

- كيف تحصلين عليه؟

فلم تجب. فقال:

- تذهبين إلى الخثالة القديمة المشبوهة وفي ذلك ما

فيه من الخطر البين... .

- لا تبالغ... .



## حضرة المحترم ٦٩٥

- من حقك أن تختار سكرتيرتك، بل من حقك أن تعين فيه قريبة من ذوي الثقة...  
 أحقًا لا يعرف الرجل شيئًا عن أصله وفصله؟  
 عرف طيلة خدمته الطويلة عبقرية الموظفین في نبش المستور ونشر الفضائح، ولا شك أن المنبت «الكارو» لم يعد يخفى على أحد. وقال الرجل:  
 - أترك لك الاختيار.  
 فقال مدير المستخدمين مدهنًا:  
 - إنك مثال النزاهة والترقُّع يا سيدي المدير.  
 وفي صباح اليوم التالي دخلت عليه راضية عبد الخالق فحيته وقالت:  
 - راضية عبد الخالق، سكرتير سعادتك إذا سمحت ووافقت...  
 فقال وهو يتدوَّق انفعالًا طيبًا:  
 - أهلاً بك، من أي قسم؟  
 - المستخدمين.  
 - عظيم، وما مؤهلاتك؟  
 - ليسانس آداب قسم التاريخ...  
 - عظيم...  
 هم بسؤالها عن سنّها ولكنّه أمسك، وقدره بخمسة وعشرين عامًا. رشيقة القوام ملحوظة، ذات هالة من الشعر الفاحم سواها الخلاق في بساطة وانسياب فأحدقت بجانبها الوجه الأسمر الطويل صانعة له إطارًا حائياً، وعيناها صغيرتان وواضحتان وذكيّتان يومضان بجاذبيّة، وبروز ثنيتها - وربّما عدّ عيياً - أضفى على فيها شخصيّة حلوة. انفعَل بجاذبيّتها وقال في سرّه:  
 - لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموقِّق...  
 وقال لنفسه أيضًا:  
 - إنّي في حاجة إلى مظلة في هذا الجحيم...  
 ومن أوّل نظرة نزع قلبه إليها بارتياح وسرور ورغبة خفيّة في الاحتساء. ويمرور الأيام ازداد تعلقه بها وبخاصّة عندما علم بأنّها يتيمة وتعيش مع عمّة عانس. وفضحته أمانيه العميقة أمام نفسه، فضحت أحلامه ورغباته، ولكنّه كان أبعد ما يكون عن التفكير - مجرد التفكير - في ارتكاب آية حماقة. قال لنفسه:  
 - حسبي أن أصبح على وجهها كل يوم.  
 واستأسره أدها ورقّتها وعدوية نظرتها الناعمة.

تناسب القليل الباقي من العمر، وألا انقضت مدّة الخدمة وهو واقف كالمسؤول أمام باب الحجرة الزرقاء. والطموح عنيف والزواج لم يعد بالرفأ الموسي.  
 - يا ربّي إنّي أحاول هدايتها فهني من لدنك قوّة. ولكنّ جهده يتبدّد هباء، ودهمها بتعاسة لم تجر لها في خاطر. في الماضي كانت تعيش التعاسة ولا تكاد تشعر بها، وتجد في الخمر والأفيون ملاذًا طيبًا، أمّا اليوم فهي تتصدّى للخواء في بقطة بغیضة بعينين محمّلتين مذعورتين بلا عزاء ولا حبّ ولا ذرّة. قال:  
 - كانت في الدرب عزاء لي ولذّة أمّا في هذا البيت المريح فهي الجحيم.  
 وقال أيضًا:  
 - لو ذهب كلّ منّا إلى حاله لربّما حدثت معجزة سعادة، أين وحدثي القديمة أين؟!  
 ورجع يومًا فرأى في عينيها نظرة حمراء ذاهلة وضاحكة فقال برعب:  
 - عدت إلى الشراب؟  
 فأحنت رأسها باستسلام وقالت:  
 - نعم والحمد لله!  
 فتنهّد وقال:  
 - وعمّا قريب سترجعين إلى الأفيون.  
 فقالت بنبرة ساخرة:  
 - حصل والشكر لله...  
 فتساءل بحدّة:  
 - والعمل؟  
 فقالت بهدوء:  
 - كلّ شيء طيب، ليلة أمس حلمت بأنّي!  
 - سايأس منك نهائيًا.  
 - خير ما تفعل.  
 ووجدتها تدوب في عالمها الوهمي وتعتزله كئيّة فارتاح بعض الشيء. ها هي تستقلّ بدنياها وها هو يعود إلى وحدته. وقرّر - بضمير قلق - ألا يقاوم تدهورها هذه المرّة. وقال يخاطب ربّه:  
 - اغفر لي أفكاري يا ربّ، إنّها قاسية مثل الحياة، وهي جزء منها ليس إلا...  
 وهو يتلظى بذلك السعير تعيّن راضية عبد الخالق سكرتيرة له. وكان مدير المستخدمين قد طلب منه اختيار الشخص الذي يجده مناسبًا لسكرتيرته. قال له:

اللعب بين هذا وذاك يجيء الحظ السعيد أو العبث. ولكن لا يجوز أن ننسى الأخطاء كذلك - أخطاء؟ - أن ننسى سيّدة وأصيلة وأنسيّة. ويمرور الأيام جعل يقول لنفسه:  
- يا قلبي حاذر.  
وكالعادة راح يخاف راضية بقدر ما يودّها. وكالعادة ترك نفسه للتّيّار ليفصل في مصيره قدر مجهول...

٣٥

وتتابعت الأيام بين عمل في الإدارة وأحزان في البيت وأشواق تندلع في القلب. وبدا أنّ الكون قد توقّف وأنّ عبد الله وجددي قد رسخ في وظيفة المدير العامّ مثل الهرم الأكبر. وقال بحزن:  
- لا بارقة أمل.

أين تقع المعجزة هذه المرّة؟. وما هو لم يبق من السواد في رأسه إلا شعيرات معدودات، وقد ضعف بصره فاستعان بنظّارة، وفقد جهازه الهضمي نشاطه المعهود فعرف العقاقير لأوّل مرّة في حياته، وعلاه احديداب لطول انكبابه على المكاتب ولعدم مزاولته أيّ نوع من أنواع الرياضة. وكان يقول لنفسه:  
- ما زلت قويّاً والحمد لله...  
وعلى غير عادة كان ينظر طويلاً في المرآة ويقول:  
- ما زلت مقبولاً!

وفي تلك الأثناء وضع كتاباً في قوانين الموظفين مع تعليق شامل، وكان للكاتب دويّ في أوساط الموظفين. ورغم تقدّمه في السنّ ثابر على طاقته الخارقة في العمل والترجمة، حبّاً فيهما، وهرّباً من شيخ حياته الزوجية وعواطفه المشبوبة المتّسمة في نظره بالنزق والطيش. وقال لنفسه:

- فلأعترف بأنّ ساعة عرض البريد في الصباح هي نصيبي من سعادة الدنيا!  
تبادل تحيّات، تراشّق بسّات، تعليقات مصلحية، دعابات خفيفة، إشارات ثناء لبقة إلى التسرّحية أو الخذاء أو البلوزة.  
ومرّة كان يثني على تسريحتها قالت:  
- أفكر في تقصير شعري...  
فهتفت محتجّاً:  
- كلاً.

وحلّل ذلك بأنّه السلوك الواجب من سكرتيرة نحو مدير، وهو واجب أكثر إذا كان المدير في سنّ والدها. ولكن ما بالها تشغله أكثر ممّا يجب، ما بالها تعبق حياته بشدا طيب ونفّاذ. وقال لنفسه:

- في لحظة من لحظات الحياة يستوي من أخذها مأخذ الجدّ ومن لها بها هو العبث والهزل.  
وتوجّه إلى ربّه داعياً:

- اللهم عفوك ورحمتك.  
وجعل يلاحظ عملها باهتمام حتى سألها يوماً:  
- أيشقّ عليك العمل في مكتبي؟

فأجابت بحرارة:  
- كلاً، إنّي أحبّ العمل!  
- كذلك كنت منذ نشأتي الأولى، وما زلت وأبشرك بأنّه جهد غير ضائع...  
- ولكن يقال...  
فقاطعها:

- أعرف ما يقال، ولا أنكره، الوساطة...  
القرابة... الحزبية كلّ أولئك وما هو أشنع، ولكنّ الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك، حتى أصحاب المراكز من غير ذوي الكفاءة يجدون أنفسهم في حاجة إلى من ينظّم عجزهم من الأكفاء الحقيقيين...  
وابتسم في افتتاح خفيّ بجاذبيّتها واستطرد:  
- لقد شققت طريقي معتمداً على الله سبحانه وعلى عملي...  
- يتردّد ذلك في كلّ مكان.

ترى ماذا يتردّد أيضاً؟. ذلك الذي جعل أمّ زينب لا ترجع بجواب! ولكن لم تعد لذلك أهميّة اليوم. وقال لها:  
- من الإنصاف أن أصارحك بأنني راضٍ عن عملك تماماً!

فابتسمت قائلة بسرور:  
- إنّي مدينة لنبلك بهذا التشجيع!  
لا يوجد جوّ أصفى من ذلك. جوّ نقيّ مليء بالوعود. والقلب يستقطر منه مرخاً مقدّساً. من مثل هذا المنطلق يبدأ العاشق سيره، والزواج الموقّ، والصدّاقة السعيدة. هكذا يصادف الحائرون احتمالات ثرية للسعادة في ظروف غير مناسبة. حين يتفق المكان مثلاً ويختلف الزمان، أو العكس، ممّا يقطع بأنّ السعادة كائنة ولكنّ السبيل ليست ممهّدة دائماً، ومن

## حضرة المحترم ٦٩٧

سألها متصنِّعًا الدعابة:  
 - ما رأيك في هذه الحالة؟  
 ابتسمت وغمغمت بصوت غير مسموع فقال:  
 - لعلك تُتهميني بالأنانيّة؟  
 فقالت همسًا:  
 - كلاً، لست كذلك...  
 - ولا بالخوف؟  
 فضحكت ضحكة خافتة ناعمة وقالت:  
 - لا تلتصق بنفسك ما ليس فيها.  
 - إنّي سعيد برأيك ولكن ما العمل؟  
 وساد الصمت للمرّة الثالثة فقال:  
 - أوّد جدًّا أن أسمع رأيك.  
 فقالت بجديّة:  
 - الموقف دقيق ومحير، ولا أحبّ أن أتجاهل  
 العواطف الإنسانيّة والرحمة...  
 - لعلك تلمحين إلى زوجتي؟  
 - هو ما يجب أن تفكر فيه...  
 - دعي ذلك لي وحدي فأنا المسؤول عنه...  
 - حسن.  
 - ولكني أريد أن أسمع رأيك فيما عدا ذلك...  
 وكانت تمالكت مشاعرها لدرجة لا بأس بها  
 فقالت:  
 - ألم تدلّك مناقشتي في الموضوع على شيء ما يخصّ  
 المبدأ؟  
 - إنّي سعيد جدًّا يا راضية، لهذا يعني أنّك تباركين  
 حبي لك؟  
 فقالت بشجاعة:  
 - نعم.  
 فهزّته النشوة حتّى سكر وقال باستهانة جليّة:  
 - ليكن ما يكون.  
 ثمّ بلهجة مستدرّة للعطف:  
 - اعترف لك بأنني لم أعرف قطّ السعادة.  
 - لم أتصوّر ذلك.  
 - حياة شاقّة وزواج تعيس!  
 - لم أتصوّر ذلك حقًّا.  
 - لماذا؟  
 - تبدو لي دائئًا حكيمًا وفكرتي عن الحكماء أنّهم هم  
 السعداء.  
 - يا لها من فكرة...

وابتسمت لحرارة الاحتجاج على شأن لا علاقة له  
 بشئون اللوائح.  
 - ولكن...  
 فقطاعها:  
 - اتركه وشأنه.  
 - ولكنّ الموضة...  
 - لا خبرة لي بالموضة ولكنني أحبّه كما هو...  
 وتورّد وجهها. تفحصها بعناية فلم يعثر على أثر  
 لاستياء. وأراد أن يستغلّ الدروس التي تلقاها في  
 لحظاته السعيدة الماضية فانتهاز فرصة وجودها ذات  
 صباح وقدم لها علبة صغيرة أنيقة وذهلت راضية  
 وتساءلت:  
 - ما هذا؟  
 - شيء بسيط لمناسبة كبيرة...  
 - ولكن... ولكن كيف عرفت...؟  
 - عقبى لمائة عام...  
 - إنّه يوم ميلادي حقًّا.  
 - طبعًا...  
 - ولكن... ما أنبلك!... الحقّ أنّي لا أستحقّ.  
 - الحقّ أنّك لا تحسنين الكلام كما تحسنين  
 التأثير...  
 - إنّي بممتنة.  
 - وإنّي سعيد.  
 وتنهّد. واستجمع إرادته. ثمّ أذعن لعواطفه كليّة  
 وبلا احتراس وفي اندفاع انفعاليّ خطير، قال:  
 - ما الحيلة؟... إنّه الحبّ...  
 فغضت بصرها متلقية اعترافه باستسلام قدرتي  
 عذب.  
 - آخر ما يجوز الحديث عنه، ولكن ما الحيلة؟  
 غمق وجهها الأسمر بالدم المتصاعد وكتّمتها لم  
 تذهب، جلست مستسلمة كأنّها تتطلّع للمزيد.  
 - لست شابًّا كما ترين.  
 وصمت مليًّا ثمّ استطرّد:  
 - ثمّ إنّي متزوِّج...  
 أجل ماذا يريد؟، لعله لا يريد أن يواجه الفشل  
 المحتمل أو الموت في النهاية وحده، بلا حبّ دائيّ وبلا  
 ذرّيّة! وعاد يقول:  
 - ولكن ما الحيلة؟... إنّه الحبّ...  
 وغلب الصمت مرّة أخرى. لم يعد يبالي بشيء.

حياته سلسلة من الأحلام والكوابيس وإن ذلك الحلم الأخير هو أسعدها جميعاً. وكان يلبث في بيت راضية حتى حوالى منتصف الليل ثم يرجع إلى روض الفرج فلا تسأله قدرية، في ملوكتها، أين كان ولا ماذا يفعل. وعن حكمة قرّر تأجيل الإنجاب حتى يعلن زواجه تفادياً من إحراجها - زوجته الجديدة - في الإدارة.

ونسي في سعادته الغامرة كبره وتجمده الأبدي أمام وظيفة المدير العام وقدرية وقال إن الحياة لم تخلق إلا لتكون مسرحاً للعجائب تحت العناية الإلهية...

## ٣٦

لأول مرة يخطر في ملابس أنيقة. بدلة رمادية من الصوف الإنجليزي، وحذاء إنجليزي كذلك، أما القميص ورباط الرقبة فمن مختارات راضية بنفسها. ولأول مرة كذلك يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحته ونظافته أكثر من أي وقت مضى. وقال لراضية:

- معك يا حبيبتي سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة...

وقبلها ثم استطرد:

- سيكون لنا بنين وبنات...

وتفكر ملياً ثم قال:

- الأعمار حقاً بيد الله وحده ولكنني من أسرة معمرة، أسأل الله أن يمدّ في عمرنا...

فقبلته راضية وقالت:

- قلبي يحدّثني بمستقبل سعيد...

- قلب المؤمن دليله، عندي من الإيمان ما يغفر لي العديد من الأخطاء، وخدمت الدولة بإخلاص يكفّر عن كثير من السيئات، وعندما تستقرّ الأمور سأقوم بالحجّ مجدداً لروحي وجسدي.

أما قدرية فتبادت في التدهور، ولكنّه تدهور أراحه منها تماماً، ولم يخل قلبه من رثاء لها ولكنّه ظلّ على خوفه من مصارحتها بزواجه الثاني.

ولم ينس أنه يمضي نحو نهاية خدمته بلا أمل حقيقي في جوهرة العمر، ولكنّ الأيام في جريانها السريع تمحّضت عن حدث لم يكن في الحسبان، فقد عُين عبد الله وجدي وكيلاً لوزارة الخارجية، فجأة بلا مقدمات وجد عثمان وظيفة المدير العام خالية. أغمض عينيه، توسّل إلى قلبه أن يهدئ من خفقانه، أمسى كلّ شيء

- إني آسفة...

- أما أنا فسمعيد بحبّك.

وأمن بأنّه فاز بأكبر غنيمة في حياته، وأمن بأنّ الحبّ هو القوّة التالية لله سبحانه...

واقضى سير الأمور أن يذهب معها إلى بيتها بالسيدة زينب. قدّمته إلى عمّتها العانس العجوز. ومن بادئ الأمر شعر بأنّ المرأة غير مرحّبة وأنّ موقفها واضح وحادّ. وكانت عصبيّة وصرّيحة. ونوقش الموضوع من جميع جوانبه. قالت له:

- طلق امرأتك أولاً.

فرفض الفكرة وقال معتدلاً:

- إنّها مريضة...

فقالت بحدّة:

- أنت عجوز ولا وفاء لك...

فتدخلت راضية للدفاع والاحتجاج وقالت له:

- لا تزعل من عمّي أبداً...

وعادت العمّة تسأله عمّا يريد فاقترح زواجاً في السرّ لفترة قصيرة حتى يتاح له إعلانه، فصاحت العمّة:

- الله... الله...

وسألت راضية عن رأيها فأجابت:

- يوجد اتفاق بيننا على ذلك، لم أسعد به ولكنّي لم أرفضه.

فصاحت بها:

- أنت حرّة، ولكنّي أرى الأمر كلّه خطأ وحرماً.

فهتفت الفتاة:

- عمّي!

فتحوّلت إليه وقالت بغضب:

- هل تستغلّ ضعفنا وفقرنا وآلا أهل لنا؟

فقال عثمان غاضباً لأول مرة:

- إني أمثودج للفقير وانعدام الأهل.

فقالت العمّة برجاء:

- إذن ليلتقط كلّ منكما رزقه في مكان غير مكان الآخر.

فقالت راضية بإصرار:

- اتّفقنا على مكان واحد...

فقالت العجوز:

- لا حيلة لي ولتكن إرادة الله.

وتّم الزواج بعد شهر واحد في بيت العمّة. وأعيد تأنيث الشقّة لتصلح للحياة الجديدة. وقال عثمان إن

## حضرة المحترم ٦٩٩

- حسن، أنت تعلم رأيي فيك، وأضيف إلى ذلك  
أن رأي الوزير فيك مثل رأيي...  
- عظيم...  
وصمت الوكيل. تبادلنا نظرة طويلة. قال صاحب  
السعادة متسائلاً:  
- ماذا فهمت؟  
أجاب خامداً:  
- نمة اعتراضات من فوق!  
- بالصرحة يوجد شبه صراع...  
- والنتيجة يا صاحب السعادة؟  
- في اعتقادي أن وزيرنا لن يلين...  
سأل بحلق جاف:  
- ما نسبة الأمل في تقدير سعادتك؟  
- كبيرة جداً، ضع ثقتك في الله كما يجدر برجل  
مؤمن مثلك...  
ثقت بالله لا حد لها. لكن دور الشيطان في الإدارة  
راسخ منذ القدم. عليه دائماً أن يعبر جسراً من  
المسامير. وتأوه قائلاً:  
- الفرص الباقية نادرة جداً.  
فقلت راضية:  
- لا تحزن، الدرجة ليست كل شيء في هذه  
الدنيا...  
ولكنه حزن، ورسب الحزن في أعماقه، وتقدم في  
العمر جيلاً كاملاً، وتحولت أحلام الدنيا إلى تراب.  
واقترحت راضية أن يمضياً يوم العطلة في القناطر.  
فاستجاب لاقتراحها العذب، وأعطاهم قياده تجول به  
في الحدائق. وهي البسمة السعيدة الوحيدة في حياته.  
وقالت ضاحكة:  
- حكمة قديمة أن ننسى متاعبنا في أحضان  
الطبيعة...  
تربعت فوق الحشائش وهبت حواسها وروحها  
للماء والخضرة والسياء المنقوشة بالسحاب المبعثرة، وهو  
ينظر إليها بإعجاب وافتنان، وتحدثه عن سحر الطبيعة  
فيجاملها بالموافقة، ويجول بنظرة في الأفق فيرى مناظر  
لم تجده من قبل ولا يشعر نحوها بسحر ما، أجل أنه  
منغمس دوماً في الداخل، في أفكار محدودة وخيالات  
تنفثها الغرائز، في الله ومجده الدنيوي المقدس وصراع  
الخير والشر والفساد، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا  
شيئاً.

في دنياه - عروسه... أفرأه... آماله - لا شيء أمام  
الوظيفة الخالية. تفجر طموحه المكبوت وانقلب إلى  
العابد القديم في محراب الرقي المقدس.  
وقالت له راضية:  
- الجميع يتحدثون عنك بصفتك المرشح  
الوحيد...  
فابتهل قائلاً:  
- فليحقق الله الأمل.  
ثم بحنان وامتنان:  
- الحياة العجيبة تمسح في لحظة من الأحزان ما  
يعجز المحيط عن غسلها، فهي الأم الحنون رغم  
معاملتها أحياناً القاسية...  
ومضى من فوره إلى الخارجة ليهيئ عبد الله وجدي  
فاستقبله الرجل مرحباً وقال له مجاملاً:  
- أعترف لك يا عثمان بك بأنني سررت مرتين،  
مرة لتعييني وكيلاً للخارجية ومرة ليعيني بأنك ستحل  
محلّي في الوزارة.  
وغادر عثمان الخارجية ثملاً من السرور والأمل.  
وتساءل ترى هل يندب أولاً للوظيفة تمهيداً للترقية أو  
يبقى حتى تتم الترقية؟ وكلما مضى يوم عذبه  
الانتظار. أجل تعذب رغم أن الوزير يقدره والوكيل  
يُعتبر حاميه الأول. ولما نفذ صبره ذهب لمقابلة بهجت  
نور الوكيل فاستقبله الرجل بحفاوة وبادره قائلاً:  
- كأنّي أقرأ فؤادك...  
فابتسم عثمان مرتباً ولم يجد ما يقوله فقال الوكيل:  
- ولكنك لا تقرأ ما في فؤادي!  
فقال وهو يفكر:  
- إني مدين لك بكل خير في حياتي...  
فابتسم الوكيل وقال:  
- المطلوب منك شيء من الصبر، وسوف تسمع  
بإذن الله ما يسرك.  
غادره ممتناً ومسروراً ولكنّه تساءل لم يطالبني  
بالصبر؟ وقال لنفسه إن الجور يبشر بالخير ولكنّه لا  
يشعر بالطمأنينة الكاملة. وتصبر وعانى العذاب.  
واستدعاه الوكيل مرة أخرى بعد مرور أسبوع. خيل  
إليه أن الرجل يعالج نظرة فاترة في عينيه فحقق قلبه  
خفقة شديدة. قال بهجت نور:  
- لعلك تتساءل عما أخر ترقيتك؟  
- فعلاً يا صاحب السعادة.

سعادتنا...  
 - ما أجل أن أسمع ذلك...  
 - سأصارع زوجتي بالحقيقة...  
 وابتسم ابتسامة أشرق بها وجهه الحزين وقال:  
 - قوّة مقدّسة تدعوني لتجديد الحياة وإنجاب  
 الدرّية الصالحة...  
 ٣٧

على مسمع من العمّة كرّر نواياه الطيّبة فقالت  
 العجوز:  
 - إنك تبدو لي «إنساناً» و«عاقلاً» لأول مرة...  
 فضحك وأغرقت راضية في الضحك، وقال:  
 - لا خير في حياتنا ولا معنى بدونك يا عمّي...  
 فابتسمت العجوز معلنة عن رضاها فقال:  
 - لقد قضينا يوماً طيباً في القناطر وأن لي أن  
 أذهب...  
 فسألته العمّة:  
 - هل تخبر زوجتك الليلة؟  
 فقال وهو يقوم:  
 - خير البرّ عاجله.  
 وخطا خطوة واحدة ولكنّه توقّف وقد تغيّر وجهه  
 بصورة ملحوظة فسألته راضية:  
 - مالك؟  
 فأشار إلى صدره ولم ينبس...  
 - هل تشعر بتعب؟ اجلس...  
 تتم وهو يشير إلى صدره:  
 - ألم شديد هنا...  
 هرعّت إليه لتسندّه ولكنّه انحطّ فوق مقعده وراح  
 في إغواء.  
 ولسيّاً أفاق وجد نفسه راقدًا فوق الفراش لم ينزع  
 من ملابسه إلّا الخداء ورباط الرقبة. ورأى في الحجرة  
 شخصاً جديداً أدرك من فوره - رغم وهنه - أنّه  
 الطبيب. وقرأ في وجهه راضية شحوباً وحزنًا، وحتى  
 وجه العمّة أعلن عن حزنه. نظر الطبيب في عينيه  
 وسأله:  
 - كيف حالك؟  
 فسأله بدوره:  
 - ماذا جرى؟  
 - شيء طارئ لا خطر منه.

- أنت محبّ الطبيعة ولا شك.  
 - أنا أحبّك...  
 - انظر إلى العشاق!  
 - ما أكثرهم!  
 أنامت راحتها على يده وقالت:  
 - لننس همومنا في هذا الجوّ المنعش.  
 - أجل لننس!  
 - ولكنك في الواقع حزين...  
 تمهّد ولم ينبس، فقالت:  
 - إنك موظّف كبير، في الدرجة الأولى، غيرك  
 كثيرون يسعدون بما دون ذلك بكثير.  
 أوشك أن يقول لها إنّ الإيمان الحقّ نقيض السعادة  
 التافهة ولكنّه أمسك، ثم قال:  
 - لست كغيري من الموظّفين، والحيلولة بيني وبين  
 الوظيفة التي أستحقّها عمل دنيء فيه اعتداء صارخ  
 على النظام الأخلاقيّ للدولة...  
 - ألسنت تغالي في تقديرك للوظيفة؟  
 - الوظيفة حجر في بناء الدولة، والدولة نفحة من  
 روح الله مجسّدة على الأرض!  
 ورمقته بدهشة فأدرك أنّها لا تدري إيمانه ولا  
 مضمونه. قالت:  
 - إنّه لمعنى جديد بالقياس إليّ، ولكنّي سمعت  
 كثيرًا أنّ روح الشعب من روح الله!  
 فابتسم بازدراء وقال:  
 - لا تحدّثيني عن الصراعات السياسيّة...  
 - ولكنّها الحياة الحقيقيّة...  
 - ما هي إلّا صخب زائف...  
 - الدنيا من حولنا...  
 فقاطعها بنفاد صبر:  
 - الدنيا الحقيقيّة في أعماق القلب...  
 وغصّ قلبه في صدره عندما تصوّر إمكان أن تراه  
 «مجنوناً» كبعض الحمقى فقال لها متهزّبًا ولائدًا بأمل  
 جديد:  
 - دعينا من الخلاف...  
 فابتسمت في استسلام عذب فاستطرد:  
 - أن لنا أن نعلن زواجنا...  
 فتورّد وجهها وتساءلت:  
 - هل زالت العقبات؟  
 - علينا أن نواجه الحياة بشجاعة لنستحقّ

## حضرة المحترم ٧٠١

إلى البيت لعبادته، ولما كانت زيارته ممنوعة فقد مُهل إليه طوفان من البطاقات. قرأ الأدعية والتمنيات الطيبة. وتذكر سعفان بسيوني وحمزة السويفي، وعادته ذكريات لم يرتح لها، وتساءل كيف حال حمزة السويفي؟ هل ما زال على قيد الحياة؟ وثمة موظفون جدد يلحقون اليوم بالعمل لم يعرفوه وربما لن تتاح لهم معرفته، وفوق ذلك كله تجري السحب في السماء وتختفي وراء الأفق، وقد فهم الساعة فقط مغزى حركة الشمس.

وأغمض عينيه حيناً ثم فتحها فرأى قدرية جالسة على كنب من الفراش ترنو إليه. قرأ في عينها الدهول الناعم المعتم غير المبالي بشيء كالقمر المجلل بسحابة شفافة. أدرك أنها تناجي الملكوت وأنه لا خوف منها. وبدا أتما - إلى ذلك - شحنت بتوصيات طيبة إذ سأله بهدوء:

- كيف حالك؟

فابتسم مرتباً وقال بامتنان:

- بخير، شكرًا لك!

قالت تعاتب المجهول:

- قيل لي إن نقلك إلى بيتك «الأصلي» غير محمود

العواقب، وكان بودي أن أسهر عليك!

- أشكرك يا قدرية، خيرك سابق!

- انعم بالراحة حتى يأخذ الله بيدك...

وهزت رأسها بحكمة غير معهودة ثم استطرقت:

- لك العذر، أنا فاهمة كل شيء، إنك تريد ولدًا،

ولك الحق، وربنا يحقق رغبتك...

- أنت طيبة وإنسانة يا قدرية...

ولاذت بالصمت ثم راحت في ذهول معبق بشذا الفردوس. وشعر بارتياح عميق لانكشاف السرّ ولتجاوزه منطقة الحرج المليئة بالاحتمالات المتفجرة. ولكنّه من ناحية أخرى أدرك معنى مرضه بكافة أبعاده.

- أيّ أمل يبقى للدرجة؟

أجل... أجل...

- وأيّ أمل يبقى للإنجاب؟

وقال لراضية:

- لم أشعر بنذير تعب ولو من بعيد...

- الطبيب لم يعجب لذلك...

- وعرفت المعنى الحقيقي للمباغثة والغدرا

- ولكن...

- ولكن الأمر يقتضي راحة طويلة بعض الشيء.

فقال بقلق:

- أشعر بأنني في حال طبيعية تمامًا وأنه بوسعي

القيام...

فقال الطبيب بحزم:

- ما دام الأمر كذلك فاعلم أن المسألة ليست

لعبًا، إنها بلغة الطب لا خطر منها، ولكن عدم

الانصياع لكلامي يخلق منها شيئًا آخر، يلزمك راحة

تامة مثالية، شهر على الأقل.

هتف:

- شهرًا

- وأن تلتزم بدقة بالدواء والغذاء الموصوف، لا

مناقشة في ذلك البتة، وسوف أزورك غدًا...

وجمع أدواته في حقيبته الصغيرة ومضى وهو يقول:

- احفظ كلامي عن ظهر قلب...

وغادر الرجل الحجرة وهو يتبعه نظرة مغيظة يائسة.

واقتربت راضية حتى التصقت بالفراش وهي ترنو إليه

بنظرة باسمة مشجعة وهي تقول:

- بعض الصبر وسيمضي كل شيء بسلام...

عكست عيناه نظرة قلقة فمست جبينه بأناملها

بحنان وقالت:

- لا تشغل بالك ولا تحمل همًا...

- ولكن توجد أمور كثيرة...

- سأقوم بالواجب في الوزارة...

- كيف؟

- لا مفر من إعلان الحقيقة، لا عيب في ذلك

البتة...

- يا له من موقف!

- ولا بدّ من إبلاغ زوجتك أيضًا!

- موقف أشدّ.

- علينا أن نواجه الحقيقة وبأيّ ثمن...

وقالت العمّة:

- اخلد أنت للراحة.

ذلك حقّ، وعليه أن يقاوم. إرادة الحياة فيه ترفض

الياس والاستسلام. ليكن ما يكون والأمر لا يخلو في

النهاية مما يشبه المزاح.

وأغمض عينيه تاركًا الأحداث تتشابك في الخارج

بعيدًا عنه رغم أنه محورها. وسرعان ما هرع الزملاء

الصحة والمرض، ومعجزات الشفاء، ورحمة الله، ومهارة الأطباء، وأخبار الوزارة والإدارة، والبطاقة التي أرسلها الوزير، والأخرى التي أرسلها الوكيل.

- لم يحضر الوكيل بنفسه؟  
- إنه غائص في العمل حتى قمة رأسه ولكن عذره ضعيف...

- حسن وما أهميّة ذلك؟

وسرعان ما خاضوا في الأحاديث العائنة، حفلة الإذاعة الأخيرة، والأسعار، صراع الأجيال الخ... وهو قد شارك في الحديث بقدر وتابعه بقدر أكبر، وما يدري إلا وهم يتكلمون في السياسة. صحت أذنيه مرة أخرى الصراعات المضطربة برموزها الرئانة: الحرية... الديمقراطية... الشعب... الجماهير الكادحة... المذاهب الثورية... التبتوات الراسخة عن ثورات الغد... وقال لنفسه إن الفرد ينوء بآماله أفلا يكفيه ذلك؟ ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية، حسن... أي ثورة تضمن له الشفاء وإنجاب الذرية وتحقيق كلمة الله في الدولة المقدسة. ولكنه لم يعلن أفكاره ولم يبيع بسرّه لأحد، إنهم قطع تافه في مراعي التماسه، يعلّقون الأمل على الأحلام لضعف نفوسهم وتهافت إيمانهم وجهلهم أن الوحدة عبادة.

واستشعر دفاء الشفاء الوشيك فرغب في أن يجرب قوته. وجد فرصة في خلخلة الحجر فتزحزح ببطء إلى حافة الفراش، وأنزل ساقيه بحذر حتى مسّت قدماه الأرض. غمغم:

- توكلت على الله...

ووقف مستندًا إلى الفراش واطمأن إلى ثقته بنفسه فحرك قدميه بحذر كأنه طفل يمشي معتمدًا على نفسه لأول مرة. بصعوبة حملته ساقاه من الضعف وطول الرقاد. تقدّم حتى بلغ الباب المغلق ففتحته وواصل السير نحو حجرة الجلوس مضمّرًا مفاجأة سائة. وباقترابه ترامي إليه صوت، حوار يدور بين العمّة وراضية. تساءلت راضية بحدة:

- من؟ من؟ من؟...

فجاء صوت العمّة خافتًا على غير العادة:

- أنت الجانية على نفسك، طالما قلت لك ذلك.

- ما الفائدة؟

- ها هي عقبى الطمع وسوء التصرف!

- إننا سحابة سرعان ما تمرّ وتختفي...

- الحقّ أنّي أسف لك جدًّا...

- أنا؟ إنّ ما يهمني هو صحتك وسعادتك.

فنظر إليها بحبّ وعطف وقال:

- لا أمان في هذه الدنيا...

أطرقت حتى أشفق من أنّها تخفي دمة فقال:

- إنّني ممن لك، أنت نور في هذه الدنيا التي تمضي بلا منطق ولا وجود حقيقي...

- املاً قلبك بالأفكار العذبة حرصًا عليك

وعليّ...

فتنهّد وسأل:

- هل ذهبت قدريةً بسلام؟

- نعم.

- خيّل إلي أنّ صوتها زجر وأرعد، ماذا جرى؟

- لا شيء البتّة، إنّها امرأة مسكينة...

- أجل. الأخطاء ترتكب بعدد تردّد الأنفاس.

- عليك أن تنعم بالراحة الكاملة...

فرقت نظرتها بحنان وسألها:

- هل يقدر لنا أن نحقق أملاً من آمالنا؟

- بمشيئة الله...

فقال وهو يجدها بحزن:

- في لحظة يأس رميت بالدرجة وراء ظهري وتركز

أملي في حلم واحد هو الإنجاب...

- جميل، سيكون لنا ذلك...

شكرًا لك يا حبيبتي...

- اهدأ حتى تتمّ سعادتنا...

- ولكنّي أتساءل عن معنى ضياع أمل ذي طبيعة

خالدة؟... إنه يعني أنّ فناء العالم ممكن، وأنه ربّما

وقع بكلّ بساطة...

- ألا تهب وقتنا آخر للتفلسف؟

- حسن...

- ألا ترغب في شيء قبل النوم؟

فأجاب باسمًا:

- أرغب في معرفة حكمة الحياة...

وأخيرًا استقبل زوّاره. جاء الزملاء والمرءوسون والسعاة والفراشون. وانعقدت الجلسات بحجرة النوم وطالت وبشرت بالشفاء الكامل. ودار الحديث عن



## حضرة المحترم ٧٠٣

فاغرورقت عيناه امتناناً فقال الوكيل:  
 - في مكانك فراغ لا يسده أحد سواك...  
 - إنه كرم أخلاقك الذي يتكلم، ليس إلا...  
 - عمّا قريب ستشفى وترجع إلينا وسوف نجدنا في  
 انتظارك، ولقد حملت معي إليك نباً سعيداً...  
 وابتسم الرجل والآخر يرنو إليه بإعياء وذهول ثم  
 قال:  
 - صدر اليوم قرار ترقيتك إلى وظيفة المدير  
 العام...  
 استمرّ ينظر إليه ولكن ببلاهة فقال الرجل:  
 - انتصر الحق والعدل ولو بعد حين...  
 فتمتم عثمان:  
 - إنّها لبركة من أفضالك.  
 - العفو، وقد كلّفني معالي الوزير بإبلاغك تحيّاته  
 وتمنّياته لك بالشفاء العاجل.  
 - لمعالیه الشكر والدعاء...  
 وذهب الرجل مخلّفاً وراءه فردوساً من المشاعر،  
 كأنّما كان رسول رحمة من الغيب. وتلقّى تهاني راضية  
 وعمّتها وهو مغمض العينين. وعاوده شعور بفقدان  
 الثقة في المكان. وسمعها وهي تقول:  
 - كم أنّي سعيدة...  
 تذوّق في هدوء نجاحه. إنّهُ صاحب السعادة،  
 مالك الحجرة الزرقاء، مرجع الفتاوى والأوامر الإداريّة  
 وملهم التوجيهات الرشيدة للإدارة الحكيمة وقضاء  
 مصالح العباد، وعبد من عباد الله القادرين على الأمر  
 بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال لنفسه:  
 - ستتمّ نعمتك عليّ يا ربّي يوم تمكّنني من القيام  
 لممارسة السلطان وإعلان شأنك في الأرض!  
 ولكنّ الطبيب قال له:  
 - ما يهمني هو صحتك ولا وظيفتك!  
 وإنّه لصارم وعنيد، ولو صحّ تقديره فستظلّ الترقية  
 شكلاً بلا مضمون. قال له:  
 - المؤمن الحقيقي لا يسعد بالصحة وحدها.  
 فقال الطبيب:  
 - لم أسمع بذلك من قبل...  
 - وربّما استنفدت إجازاتي في الرقاد فأحال إلى  
 المعاش!  
 - كلّ شيء قسمة ونصيب!  
 وقال لنفسه بوجوم:

- اصرخي حتّى يسمع!  
 وساد الصمت.  
 عاد إلى الفراش ذاهلاً.  
 - فيم تتحاوران؟... أيّ جناية؟... أيّ  
 طمع؟... أيّ سوء تصرف؟  
 وأغمض عينيه وهو يعضّ على شفته:  
 - يا ربّي المعبود، ماذا يعني ذلك؟، أهو ممكن؟  
 لم لا؟. طالما رغب في أن يلعب هذه اللعبة فلم  
 ينجح. ومن شدّة الشعور بالخيبة ذهل عن وجوده  
 تمامًا.  
 - يا لي من أحق!  
 ودهمته نكسة. هصرته أزمة جديدة. مضت أيام  
 وأيدي الحياة والموت تتنازعه فيما بينها. وبدا أنّه مصمّم  
 على الاستمسك بالحياة رغم كلّ شيء، ورغم قوله  
 لنفسه:  
 - معركة طويلة وخاسرة!  
 - لتكن مشيئة الله...  
 وقيل إنّهُ اجتاز مرحلة الخطر ولكن كان من المسلّم  
 به من أوّل الأمر أنّ رقاذه سيطول إلى أجل غير مُسمّى  
 وهو مغمض العينين. ولم يحقد عليها ولم يغضب وقال  
 لنفسه:  
 - لا يحقّ لي أن أكرهها إلا كما أكره نفسي...  
 وقال أيضًا:  
 - إذا تهيّأ لي يومًا أن أنجب منها فلن أتأخّر حتّى  
 يتحقّق للعبة وجهاها الأبيض والأسود...  
 وتنهّد قائلاً:  
 - يا لي من أحق!... هكذا يكون سوء الختام  
 وإلا فلا...  
 فلم يغضب ولكنّه فقد الثقة في المكان.  
 \* \* \*  
 وذات مساء دخلت راضية بوجه مبتهج وقالت:  
 - وكيل الوزارة جاء لزيارتك.  
 ودخل بهجت نور بوقاره المعروف فصافحه ثمّ  
 جلس وهو يقول:  
 - شدّد حيلك...  
 فقال عثمان بتأثر:  
 - خطوة عزيزة يا صاحب السعادة...  
 - إنك تستحقّ كلّ تكريم ولا يمكن نسيان  
 أفضالك.

## ٧٠٤ حضرة المحترم

شديد ولكنّه احتفظ بأجزائه لنفسه، وآمن في الوقت نفسه بعدالتها. وظلّ على إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدّسة، بالحياة الشاقّة المقدّسة، بالجهاد والعذاب، بالأمل البعيد المتعالي. وقال إنّ العجز أحياناً عن بلوغه لا يزعزع الثقة به، ولا المرض ولا الموت نفسه، ما دام أنّ الإصرار على المضيّ نحوه هو المسئول عن وجود النبل والمعنى في الحياة.

وكره كلمات التشجيع الجوفاء، وسلّم بأنّ تقلّده للوظيفة الجديدة حلم، كما سلّم بأنّ نهوضه لإنجاب ذرّيّة حلم آخر، ومع ذلك فمَن يعلم؟! وما يحزّ في نفسه أنّ كلّ شيء يمضي في سبيله دون مبالاة به.

التعيين والترقي والإحالة إلى المعاش، الحبّ والزواج وحقّ الطلاق، صراعات السياسة وشعاراتها المحمومة، تعاقب الليل والنهار. . .  
وها هي نداءات الباعة تنذر باقتراب الشتاء.  
ولعلّه من محاسن الصدق أنّ القبر الجديد قد حاز رضاه تحت ضوء الشمس.

- لعلهم وهبوا الترقية صدقةً وهم يعلمون أنّ الوظيفة باقية لهم!

ونادى راضية فقال لها:

- لا أريد أن أثقل عليك أكثر من ذلك.

فسألته في حيرة:

- ماذا تعني؟

- تمرّض مريض واجب ثقيل . . .

فوضعت أصبعها على شفّته محتجّة فنحّاه بلطف وقال:

- سأنتقل إلى قسم الطبيب المعالج بالمستشفى.

واحتجّت راضية ولكنّه أصرّ. وعرض فكرته على

الطبيب فوافق عليها ونقل إلى حجرة خاصّة. ومهما

يكن من شأن الزيارات فقد عاد إلى وحدته كالزمن الأوّل.

ومضت الأيام في مسارها الأبدّي، وكاد أن ينقطع

ما بينه وبين العالم الخارجيّ، وكفّت قدريّة عن زيارته

بسبب التدهور والمرض، واستسلم لقدره فلم يعد

يبالي بما كان ولا بما هو كائن ولا بما سوف يكون.

وتحمّل الساعات التي تقضيها راضية إلى جانبه بضيق

عالم الحرفيش

# عاشور الناجي

## الحكاية الأولى من ملحمة الحرافيش

البراءة المغسولة بماء الفجر، وأنجبه نحو الصوت بحذر شديد جاعلاً عصاه لصق جنبه. انحنى قليلاً فوق الصوت، مدّ راحته برحمة حتى مسّ سبّابته لفافة. هو ما توقّعه القلب. جال بأصابعه في طياتها حتى لامس وجهها طرئاً متشجّجاً بالبكاء. هتف متأثراً:

- تدفن القلوب في ظلمة الإثم...

وصاح بغضب:

- لعنة الله على الظالمين...

وتفكّر قليلاً ولكنّه قرّر ألا يهمله ولو فاتته صلاة الفجر في الحسين. النسمة باردة في هذه اللحظة من الصيف، والزواحف شتى، والله يمتحن عبده بما لا يجري له في حسابان. وحمله برفق، ثمّ عزم على الرجوع إلى مسكنه ليشاور زوجته في الأمر. وترامت إليه أصوات آدميين لعلّهم ذاهبون إلى صلاة الفجر فسعل متبهاً فجاءه صوت يقول:

- سلام الله على المؤمنين!

فأجاب بهدوء:

- سلام الله عليكم...

وعرف المتكلم صوته فقال:

- الشيخ عفرة زيدان؟ ... ماذا أخرك؟

- إني راجع إلى البيت والله الأمر من قبل ومن

بعد.

- سلامتك يا شيخ عفرة!

فقال بعد تردّد:

- عثرت على وليد تحت السور العتيق...

- ١ -

في ظلمة الفجر العاشقة، في المرّ العابر بين الموت والحياة، على مرأى من النجوم الساهرة، على مسمع من الأناشيد البهيجة الغامضة، طرحت مناجاة متجسّدة للمعاناة والمسرات الموعودة لهارتنا.

- ٢ -

مضى يتلمّس طريقه بطرف عصاه الغليظة، مرشدته في ظلامه الأبدى. مولاي يعرف مواقعه بالرائحة وحساب الخطوات ودرجة وضوح الأناشيد والإلهام الباطني. بين مسكنه عند مشارف القرافة وبين الحارة يخوض أشقّ مرحلة في طريقه إلى الحسين وأعذبها. على غير المعهود تناهى إلى أذنيه الحادّتين بكاء وليد. لعلّه دويّ أكبر من حجمه في ساعة الفجر. الحقّ قد جذبته من سكرة الرؤى ونشوة الأناشيد. في هذه الساعة تهيم أمّهات بأطفالهنّ! ها هو الصوت يشتدّ ويقترّب وعمّا قليل سيحاذيه تماماً. وتنحنح كيلا يقع ارتطام في مشهد الفجر. وتساءل متى يكفّ الطفل عن البكاء ليرتاح قلبه ويعاود خشوعه. الآن صار البكاء ينخس جنبه الأيسر. تباعد يمينه حتىّ مسّ كتفه سور التكيّة، وتوقّف قائلاً:

- يا حرمة... أرضعي الطفل!

ولكن لم يجبه أحد وتواصل البكاء، فهتف:

- يا حرمة... يا أهل الله!

فلم يسمع إلّا البكاء. ساور الشكّ قلبه فولّت

- الخطأ خطأ من ضيعة . . .  
ثم قالت وهي تتلقى إلهامًا بالرضى:  
- لم يبق لي أمل في الإنجاب!  
فحسر العمامة عن جبهته البارزة مثل قبضة الجندرة  
وتساءل:

- فيم تفكرين يا سكينه؟  
فقالت ثملة بإلهامها:  
- يا سيدنا الشيخ، وهبني الله رزقًا فكيف أرفضه؟  
مسح بمنديله عينيه المطبقتين ولم ينبس فقالت بظفر:  
- أنت نفسك تريد ذلك . . .  
فتجاهلها يقول متشكيًا:  
- فاتتني صلاة الفجر في الحسين.  
فقالت بثغر باسم وعيناها لا تفارقان الوجه  
المحتقن:

- الضوء شقشق والله غفور رحيم . . .  
وقام الشيخ عفرة زيدان ليصلي على حين هبط من  
السلم درويش زيدان مثقل الجفون من أثر النوم وهو  
يقول:

- جوعان يا امرأة أخي . . .  
ورأى الوليد فذهل كما ينبغي لغلام في العاشرة من  
عمره وتساءل:  
- ما هذا؟  
فأجابته سكينه:  
- رزق من الله العليّ القدير.  
فرنا إليه مليًا ثم تساءل:  
- ما اسمه؟

فترددت المرأة ثم غمغمت:  
- ليكن اسم أبي اسمًا له، عاشور عبدالله،  
وليشمه الله ببركته ورضوانه . . .  
وارتفع صوت الشيخ عفرة بالتلاوة.

- ٤ -

وتتابعت الأيام على أنغام الأناشيد البهيجة  
الغامضة، وذات يوم قال الشيخ عفرة زيدان لشقيقه  
درويش:  
- بلغت العشرين من عمرك فمتى تتزوج؟

وانداحت همهمة بين الرجال حتى قال أحدهم:  
- اللعنة على الأثمين . . .  
وقال ثان:  
- اذهب به إلى القسم!  
وسأله ثالث:  
- ماذا أنت فاعل به؟  
فقال بهدوء لا يناسب المقام:  
- سوف يهديني الله إلى مشيئته . . .

- ٣ -

انزعجت سكينه لدى رؤيتها زوجها الشيخ على  
ضوء الصباح المرفوع بيسراها، وتساءلت:  
- ماذا أرجعك كفى الله الشر . . .؟  
وسرعان ما رأت الوليد فهتفت:  
- ما هذا يا شيخ عفرة؟  
- عثرت عليه في الممر . . .  
- يا رحمة الله!  
تناولت الوليد برقة، جلس الشيخ على كنبه بين  
البئر المغطاة والفرن وهو يغمغم:  
- لا إله إلا الله!  
راحت سكينه تهدد الطفل ثم قالت بحنان:  
- إنه ذكر يا شيخ عفرة!  
فحرك رأسه صامتًا فقالت باهتمام:  
- يلزمه غداء . . .  
- وما درايك بذلك وأنت لم تنجبي ذكرًا ولا  
أنثى!!

- أعرف أشياء، ومن يسترشد يجد من يرشده،  
ماذا أنت فاعل به؟  
- نصحوني بأن أذهب به إلى القسم.  
- هل يرضعونه في القسم؟ . . . لنتنظر حتى يظهر  
من يبحث عنه.

- لن يبحث عنه أحد . . .

وتجلى صمت مغممًا بالانفعالات حتى تتم الشيخ  
عفره زيدان:

- أليس من الخطأ أن نقيه أكثر مما ينبغي؟  
فقالت بحماس وحرارة:

## ملحمة الحرافيش ٧٠٩

آداب السلوك والحياة. الحقُّ أنَّ الشيخَ أحبَّه ورضي عنه، وكانت سكينه ترمقه بإعجاب وتقول:  
- سيكون فتيًّا طيِّبًا وقويًّا.  
فيقول الشيخُ عفرة زيدان:  
- لتكن قوَّته في خدمة الناس لا الشيطان.

- ٥ -

جادت السماء بركاتها على عاشور فسعد به قلب الشيخ عفرة زيدان عامًّا في أثر عام بقدر ما سخط على درويش شقيقه وربيبه. لمْ يا ربِّي وقد نشأ في حظيرة واحدة؟. ولكنَّ درويش نأى عن ظلِّ الشيخ سعيًّا وراء الرزق بعد أن رفض التعلُّم قلبه. انطلق إلى العالم غلامًا طريًّا فتربَّ في أحضان المرارة والعنف قبل أن يستقيم عوده، قبل أن تشرب روحه بالصلابة والنقاء. أمَّا عاشور فتفتح قلبه أوَّل ما تفتح للبهجة والنور والأناشيد، ونما نمواً هائلًا مثل بوابة التكيَّة، طوله فارغ، عرضه منبسط، ساعده حجر من أحجار السور العتيق، ساقه جذع شجرة توت، رأسه ضمخ نبيل، قسامته وافية التقطيع غليظة مترعة بماء الحياة. تبتدَّت قوَّته في تفانيه في العمل، وتحمله لمشاقه، ومواصلته بلا ملل أو كلل، وفي تمام من الرضى والتوَّب. وأكثر من مرَّة قال له الشيخ:  
- لتكن قوَّتكَ في خدمة الناس لا في خدمة الشيطان!

وذات يوم أعلن الشيخ عن رغبته في أن يجعل منه مقررًا للقرآن مثله، فضحك درويش ساخرًا وقال معلقًا على رغبة شقيقه:

- ألا ترى أنَّ هيكله الضمخ جدير بأن يلقي الرعب في قلوب المستمعين؟!

ولم يحفل الشيخ بتعليق درويش ولكنَّه اضطرَّ إلى العدول عن رغبته عندما وضح له أنَّ حنجرة عاشور لا تسعفه بحال، وأنها عاجزة عن تطويع النغم، لا حظَّ لها من الحلاوة والمرونة وكأنتها بخشونتها ترنُّ في جوف قَبو، فضلًا عن قصوره عن حفظ السور الطويلة.

وقنع عاشور بعمله كما قنع بحياته، وظنَّ أنَّه

فأجاب الفتى بفتور:  
- عندما يشاء الله...  
- إنَّك حمال قويٌّ والحِمال ذو رزق موفور.  
- عندما يشاء الله...  
- ألا تخشى على نفسك من الفتنة؟  
- الله يحفظ المؤمنين.

فحرَّك المقرئ الضرب وجهه بمنة ويسرة وقال بأسف:

- لم تنتفع بالكتاب ولم تحفظ من كتاب الله سورة واحدة!

فقال بامتعاض:

- العمل هو ما يجاسب عليه وإني أحصل على رزقي بعرق الجبين...

فتفكَّر الشيخ مليًّا وقال:

- في وجهك ندوب فما شأنها؟  
فأدرك درويش أنَّ امرأة أخيه قد وشت به فرمقها مقطبًا وهي عاكفة على إشعال الفرن بمساعدة عاشور فقالت باسمه:

- أتتوقَّع مني يا درويش أن أخفي عن أخيك ما يضرُّك؟

وسأله الشيخ عفرة معاتبًا:

- أتقلد أهل العنف والشرِّ؟

- أحيانًا يتحرَّش بي أهل الشرِّ فادافع عن نفسي...

- يا درويش، لقد نشأت في بيتِ خدمة القرآن شرفه وعزَّته. ألا ترى إلى سلوك أخيك الطيِّب عاشور؟

فقال بحدَّة:

- ليس عاشور بأخي!

لاذ الشيخ بالصمت مستاءً.

وكان عاشور يتابع الحديث باهتمام فصدَّم صدمة متوقَّعة على أيِّ حال. إنَّه يفعل ما بوسعه ولا يدعي أكثر ممَّا له. يقوم بتنظيف البيت، وشراء الخواتج من السوق، ويمضي كلَّ فجر بوليِّ نعمته إلى الحسين، ويملأ الدلو من البثر، ويشعل الفرن، وعند الأصيل يجلس عند قدمي الشيخ فيحفظه ما يتيسَّر من القرآن ويلقَّنه

- عليّ أن أذهب .  
ثمّ مستدرّكاً في رجاء :  
- هلاً تركتني آوي إلى البيت الذي لا أعرف  
سواه؟  
- إنّه بيت لا فندق .  
تبدّت فوهة الفرن خادمة مظلمة، ونذت عن الرفّ  
خشخشة رَجُلٍ فأر ترتطم بأعواد الثوم الجاف .  
وسعل درويش ثمّ سأله :  
- أين تذهب؟  
- دنيا الله واسعة . . .  
فقال متهكِّمًا:  
- ولكنتك لا تعرف عنها شيئاً وهي أقسى ممّا  
تتصوّر . . .

- سأجد على أيّ حال عملاً أرزق منه .  
- جسمك أكبر عائق، لن يقبلك بيت، ولا معلّم  
حرفة، ثمّ إنك تقرب من العشرين!  
- لم أستغلّ قوّتي قطّ فيما يضرّ .  
فضحك عاليًا وقال:  
- لن تحوز ثقة أحد، الفتوة يظنّك متحدّياً،  
والتاجر يحسبك قاطع طريق . . .

ثمّ بهدوء وعمق:  
- ستهلك جوعاً إذا لم تعتمد على قوّتك . . .  
فقال بحرارة:  
- أهبها عن رضي لخدمة الناس والله شهيد . . .  
- لا فائدة من قوّتك إن لم تغسل عنك من الغباء  
فمدّ إليه بصراً حائراً ثمّ قال:  
- شغّلني حملاً معك . . .  
فقال ساخراً:  
- لم أشتغل حملاً ساعة واحدة من حياتي .  
- ولكن . . .

- دعك ممّا قلت، أكان بوسعي أن أقول غيره؟  
- فما عملك يا سيّدي؟  
- صبرك سوف أفتح لك باب الرزق، لك أن  
تدخل ولك أن تذهب . . .  
ترامى من القرافة صوات يشي بتشجيع جنازة فقال  
درويش:

سيبقى بالفردوس حتّى آخر الأجل . وصدق ما قيل له  
من أنّ الشيخ تكفّل به بعد وفاة والدين طيبين  
مقطوعين من شجرة، وحمد الله الذي قدّر ولطف،  
فرعاه برحمة لا يستظلّ بمثلها مأوى آخر في الحارة . وفي  
ذات الوقت رأى الشيخ عفرة أنّه استأثر به مدّة كفت  
لتعليمه وتهذيبه وأنّه أنّ له أن يرسله لتلقّن حرفة من  
الحرف . غير أنّ حتم الأجل كان أسرع فمرض الشيخ  
بحمّى لم تنفع في علاجها الوصفات الشعبيّة، فانتقل  
إلى جوار ربّه ووجدت سكينه نفسها بلا مورد أو قدرة  
على العمل فرحلت إلى قريتها بالقلبيّة . كان الوداع  
بينه وبين سكينه مؤثراً ودامعاً . قبّلته ورقته ومضت،  
وسرعان ما شعر بأنّه وحيد، في دنيا بلا ناس، اللهمّ  
إلا سيّده العنيد درويش زيدان .

وأسبل جفنيه الغليظين متفكِّراً، شعر بأنّ الخلاء  
يلتهم الأشياء، وأنّه يودّ أن يتسلّق شعاع الشمس، أو  
يدوب في قطرة الندى، أو يمتطي الرياح المزمجرة في  
القبو، ولكنّ صوتاً صاعداً من صميم قلبه قال له إنّه  
عندما يجلّ الخلاء بالأرض فإنّها تمتلئ بدفقات الرحمن  
ذي الجلال .

## - ٦ -

تفحصه درويش وهو مقرّص على كئيب من الفرن  
منكسر القلب . يا له من عملاق، له فكّا حيوان  
مفترس، وشارب مثل قرن الكبش . قوّة بلا حيلة ولا  
عمل ولا رزق . من حسن الحظّ أنّه لم يتعلّم حرفة،  
ولكنّه لا يمكن الاستهانة به، ترى لم لا يجبه؟ تُذكره  
صورته المغروسة في الأرض بصخرة مدبّية تعترض  
الطريق، بهبة من هبات الخماسين المثقلة بالغبار، بقبر  
يتجلى في الأعياد متحدّياً، يجب الانتفاع به عليه  
اللعنة!

سأله دون أن ينظر نحوه:

- كيف ستحصل على لقمّتك؟

فتفتح عينيه العميقتين العسليتين وقال باستسلام:

- في خدمتك يا معلّم درويش . . .

فقال ببرود:

- لست في حاجة إلى خدمة أحد .

## ملحمة الحرافيش ٧١١

- نُورِي نَوْرَ اللهِ قَلْبِكَ...  
فنهرة هامسًا:  
- انتظر، أليس عندك صبر؟  
ثمّ وهو يميل نحوه:  
- لا أطلبك بعمل، سأقوم بكلّ شيء، عليك أن  
تحمي ظهري إذا اقتضى الأمر حماية...  
- ولكيّ لا أدري عمّا تنوي شيئًا...  
- اسكت، سيكون لك الخيار...  
وتمخّض جانب الصحراء عن نامة. وحمل الهواء  
عطر حيّ وارتفع صوت موسوم بالشيخوخة يقول:  
- توكلّي على الله...  
وعند القرب وضح أنّ العجوز يمتطي حملاً.  
وعندما حاذاهما تمامًا وثب عليه درويش. ذهل عاشور  
وتحقّقت مخاوفه. لم ير شيئًا بوضوح ولكنّه سمع صوت  
درويش وهو يقول متوعّدًا:  
- هات الصرّة والآن...  
فتردّد صوت مرتعشًا بالكبر والذعر:  
- الرحمة... خفّف قبضتك...  
اندفع عاشور إلى الأمام بلا وعي وهتف:  
- دعه يا معلّم!  
صرخ به درويش:  
- اخرس...  
- قلت لك دعه...  
وطوّقه بذراعيه وحمله بلا جهد، فضربه الآخر  
بكوعه قائلاً:  
- الويل لك...  
لم يتحرّك في درويش بعد ذلك إلا لسانه، أمّا  
عاشور فخاطب العجوز قائلاً:  
- اذهب بسلام!  
حقّي إذا اطمأنّ إلى نجاة الرجل أطلق درويش  
وهو يقول معتدلاً:  
- اغفر لي خشونتي...  
فصاح به:  
- أيّها اللقيط الجاحدا  
- لقد أنقذتك من شرّ نفسك...  
- أيّها البغل الخسيس المخلوق للتسوّل...

- كلّ من عليها فإنّ.  
فقال عاشور وقد نفذ صبره:  
- إني جوعان يا معلّم درويش!  
فمدّ له يده بنكلة وهو يقول:  
- إليك آخر هبة منّي!  
غادر عاشور البيت والمغيب يهبط على القبور  
والخلاء. أمسية من أمسيّ الصيف وثمة نسمة رقيقة  
تتهادى حاملة أخطاوط التراب والريحان. مضى في الممرّ  
حقّي بلغ ساحة التكيّة. بدا لعينيه القبو مظلمًا،  
وترامت أشباح أشجار التوت من فوق الأسوار.  
تصاعدت الأناشيد بغموضها فصمّم على طرح الهمّ  
جانبًا وقال لنفسه:  
- لا تمزّن يا عاشور فلك في الدنيا إخوة ليس  
لعدّهم حصر...  
ومضى تلاحقه الأناشيد:

أيّ فروغ ماء حسن      از روی رخشان شبا  
ابروی خوبی از جاه      رنخسدان شبا

## - ٧ -

امتلاً عاشور بأنفاس الليل. انسابت إلى قلبه  
نظرات النجوم المتألّقة. هفت روحه إلى سماء الصيف  
الصفافية. قال ما أجدرها ليلة بالعبادة! كي يجشو فوق  
الأعتاب. كي يناجي رغبات نفسه الكظيمة. كي  
ينادي الأحبة وراء سياج المجهول.  
وثمة شبح يقف منه على بعد شهرين يعكّر عليه  
صفوه ويشدّه إلى عالم القلق، فرفع صوته الأجنس  
متسائلًا:

- ماذا تنتظر يا معلّم درويش؟

فلكزه درويش في صدره وهمس بحنق:

- أخفض صوتك يا بغل!

كانا يلبدان وراء تعريشة عند طرف القرافة بمشارف  
الصحراء. الجبل في أقصى اليمين والقبور إلى اليسار.  
لا نامة، لا عابر سبيل، حقّي أرواح الموق مستكنة في  
مقرّ مجهول، في تلك الساعة من الليل. والخواطر  
تتجسّد في الظلمة كالندر ويخفق القلب الطيّب في غير  
ما ارتياح. همس عاشور:



- ٨ -

هام عاشور على وجهه. مأواه الأرض. هي الأم والأب لمن لا أم ولا أب له. يلتقط الرزق حيثما أتفق. في الليالي الدافئة ينام تحت سور التكية. في الليالي الباردة ينام تحت القبو. ما قاله درويش عن أصله قد صدقه. طارده الحقيفة المرة وأحذقت به. لقد عرف من حقائق الدنيا على يد درويش في ليالٍ ما لم يعرفه طيلة عشرين عامًا في كنف الشيخ الطيّب عفرة زيدان. الأشرار معلّمون قساة وصادقون. خطيئة أوجدته، توارى الخطأة، ها هو يواجه الدنيا وحده، ولعلّه يعيش الآن ذكرى عفرقة في قلب مؤرق.

ومن شدّة حزنه استمع إلى أناشيد التكية بحبّ. معانيها المترنمة تختفي وراء ألفاظها الأعجمية كما يختفي أبواه وراء وجوه الغرباء. وربّما عثر ذات يوم على امرأة أو رجل أو معنى. وربّما فكّ ذات يوم رمزًا أو أرسل دمة رضى أو تجسّدت إحدى رغائبه في مخلوق حنون. ويتأمل الحديقة بأشجارها الرشيقة الحانية، ووجعها المعشوشب، وعصافيرها المعششة الشادية، ويتأمل الدراويش بعباءاتهم الفضفاضة وقاوقاتهم الطويلة وخطواتهم الخفيفة.

وساءل نفسه مرّة:

- لماذا يقومون بالخدمة كالفقراء؟ لماذا يقومون بالكسب والرثس والسقي، أليسوا في حاجة إلى خادم أمين؟

البوابة تناديه، تهمس في قلبه أن اطرق، استأذن، ادخل، فزّ بالنعيم والهدوء والطرب، تحوّل إلى ثمرة توت، امتلئ بالرحيق العذب، انفتح الحرير، وسوف تقطفك أيد طاهرة في فرح وحبور.

وملكه الهمس الناعم فمضى إلى الباب المغلق

وهتف بخشوع وأدب:

- يا أهل الله...

وكرر النداء مرّات.

إنهم يتوارون. لا يردّون. حتّى العصافير ترمقه بحذر. يجهلون لغته ويجهل لغتهم. الجدول كفت عن الجريان. الأعشاب توقفت عن الرقص. لا شيء في حاجة إلى خدماته.

- فليسأحك الله...

- أيّها اللقيط القذر...

فصمت عاشور عزونًا فعاد الآخر يقول:

- لقيط، ألا تفهم؟... هذه هي الحقيقة.

- لا تستسلم للغضب، لقد قال الشيخ المرحوم

كلمته... فقال بحقد:

- الحقيقة هي ما أقول، لقد وجدك في الممرّ

مهجورًا من أم فاسقة!

- رحم الله الطيّبين...

- بشر في ورحمة أني أنك لقيط ابن حرام... لماذا

يتخلّصون من وليد بلبل؟!

فاستاء عاشور وصمت فراح درويش يقول:

- ضيّعت جهدي، أغلقت باب الرزق في

وجهك، إنك قويّ ولكنك جبان، وهاك الدليل.

وهوى بكفّه على وجهه بجامع قوّته فبوغت

عاشور بأزل لطمة يتلقاها في حياته، وصاح درويش

بجنون:

- أيّها الجبان الرعديدا

عصف الغضب بعاشور. اجتاحت عاصفته جدران

معبد الليل. وجّه من راحته الكبيرة ضربة إلى رأس

معلّمه هوى على أثرها فاقد الوعي. لبث يصارع

غضبه حتّى تراخت للسكون. أدرك خطورة ما أقدم

عليه. غمغم:

- غفرانك يا شيخ عفرة.

انحنى فوق الرجل فحمله بين يديه. مضى به يشقّ

سبيله بين القبور حتّى دخل به البيت. أنامه على

الكنبة. أشعل المصباح. مضى ينظر إليه في قلق

وإشفاق. تتابعت دقائق ثقيلة حتّى فتح عينيه وحرك

رأسه..

تطاير من عيني درويش شرر ينمّ على التذكّر.

ترامقا مليًا في صمت. خيّل إلى عاشور أنّ عفرة

وسكينة حاضران، ينظران في وجوم...

غادر عاشور البيت مغمغمًا:

- توكلت على خالق السماوات والأرض...

## ملحمة الحراليش ٧١٣

فأجاب بخشوع:  
 - نعم، رحمه الله رحمة واسعة...  
 - بلغني أنك رفضت الانضمام لرجال الفتوة  
 فنصوه؟  
 - لا مآرب لي في ذلك...  
 فابتسم المعلم وعرض عليه أن يعمل عنده مكارياً.  
 ومن فوره قبل وقلبه من الفرحة يرقص.  
 ومضى بحماره متحمساً لعمله بكل قواه وحيويته.  
 وكلما مضى يوم اطمأن المعلم إلى سلوكه وأدبه وتقواه،  
 وأثبت عاشور بدوره أنه أهل للثقة.  
 وكان وهو يعمل في فناء البيت يتجنب النظر إلى  
 الناحية التي يحتمل أن يلمح فيها زوجة المعلم. ولكنه  
 رأى ابنته زينب وهي ذاهبة إلى الطريق فخانته طرفه  
 لحظات خاطفة ولكنها جديرة بالندم. وتفشى الندم أكثر  
 عندما اجتاحتها شعلة أهبت الصدر والجهاز الهضمي  
 واستقرت في الجوهرة الحمراء المشعة للرجلة الجامحة.  
 غمغم وهو ثمل بنشوة دسمة نعمة:  
 - ليحفظنا الله!  
 ولأول مرة يردد اسم الله بطرف لسانه وفكره  
 مشدود إلى غيره. وحضرته تجاربه الجنسية البدائية  
 المحدودة في رجفة من الحيرة والقلق والغربة.  
 واقتنع المعلم زين الناطوري بمزاياه كحارس أمين  
 فسأله:  
 - أين تسكن يا عاشور؟  
 فأجاب ببساطة:  
 - سور التكية أو تحت القبو.  
 - يسرك ولا شك أن تنام في الحظيرة؟  
 فأجاب بسرور:  
 - نعمة أشكرها لك يا معلم...

- ٩ -

يستيقظ في الفجر. إنه يألف ظلمته المشعشة  
 بالبسات، وديبب أهل التقوى والفجور، وأنفاس  
 الكون النقية المسرلة بالأحلام. ينفذ عن قلبه صورة  
 زينب المتحدية ويصلي. يلتهم رغيفاً مع الزيتون  
 المخلل والبصل الأخضر. يربت على ظهر حمارة ثم

فترحاسه. انطفاً إلهامه. جلله الحياء. عاتب  
 نفسه. عتف عشقه. شد على إرادته. قبض على  
 شاربته الشامخ. قال لنفسه:  
 - لا تجعل من نفسك حديث كل من هب  
 ودب...  
 وتراجع وهو يقول:

- انصرف عن الذين يرفضون يدك لأنهم في غير  
 حاجة إليها، وابحث عمن هم في حاجة إلى  
 خدماتك...

ذهب وجاء وراء اللقمة. يجد زفافاً فيتطوع للخدمة  
 أو يصادف مائماً فيتطوع أيضاً. يتقدم لمن يريد حملاً أو  
 رسولاً. يرضى بالمليم أو بالرغيف أو حتى بكلمة  
 طيبة.

وصادفه رجل ربعة قبيح الوجه كأن أصله فأر،  
 فداده قائلاً:

- يا ولدا  
 فذهب إليه عاشور بأدب واستعداد للخدمة فسأله:  
 - ألا تعرفني؟

فأجابه مرتبكا:  
 - اعذر غريباً جهلك.

- ولكنتك من أبناء حارتنا؟  
 - ما عشت فيها إلا منذ قريب.

- كليب السماي من رجال فتوتنا قنصوه.  
 - تشرّفنا يا معلم...

وتفحصه ملياً ثم سأله:  
 - تنضم إلينا؟

فقال عاشور بلا تردد:  
 - لا قلب لي على ذلك...

فضحك كليب ساخراً ومضى وهو يقول:  
 - جسم ثور وقلب عصفورة!

وكان يرى حمير المعلم زين الناطوري وهي ترابط في  
 الحظيرة عقب يوم طويل في قضاء المشاوير. يتطوع  
 بتنظيفها وتقديم العلف لها وكنس الفناء ورشه على  
 مرأى من المعلم ثم يذهب دون أن يسأله شيئاً.

وذات يوم ناداه المعلم زين وسأله:  
 - أنت صبي المرحوم الشيخ عفرة زيدان؟

ورمق زين الناطوري عاشور بامتنان وقال مدارياً  
حياءه:

- الله يفتح عليك .

ومضى المعلم إلى الداخل . ولم يبق في النافذة إلا  
زينب .

عاد عاشور عند موقفه عند الباب وهو يقول  
لنفسه:

- لم يبق إلا أن تتبادل النظرات!

واستند إلى الجدار فلمح قطة تتوثب لتخويف كلب  
أسود يتنحى تجمبًا للمعركة . وقال لنفسه:

- حذار يا عاشور، هذه وصية والدك!

واستسلم لأنامل الأحلام الناعمة حتى حرقته أشعة  
الصيف .

- ١٠ -

قالت عدلات لزوجها زين الناطوري:

- إنك تؤكد أنه أهل للثقة؟

- أجل، صار لي به ابن . . .

فقالت بنفاد صبر:

- عظيم، زوجه لزينب . . .

فقطب زين الناطوري متفكرًا ثم قال:

- أمل فيمن هو خير منه!

- طال الانتظار، وكلما جاء عريس لإحدى أخواتها  
رفضته إكرامًا لسنّها .

فقال باستياء:

- لو كانت من لحمك ودمك ما قلت ذلك . . .

- أصبحت عقبة في سبيل بناتي، وهي في الخامسة  
والعشرين ولا جمال لها، وطباعها تسوء يوماً بعد يوم .

فكرّر عابساً:

- لو كانت من لحمك ودمك ما قلت ذلك!

- ألا يكفي أنك تثق به؟ . . . وأنت في حاجة إلى  
من تثق به في كبرك .

- وزينب؟

- ستفرح، أنقذها من ياسها . . .

يسوقه أمامه نحو الميدان مستقبلاً يوم الرزق والعمل .  
يفيض بحيوية مندفة، يمتلئ بثقة غير محدودة في قدرته  
وصبره وامتلاكه للمجهول . تكتنفه دوامة تكاد تقتلعه  
من جذوره . دائماً دائماً تتقدمه زينب فتغلبه بنداء  
غامض . وجهها مشوب بشحوب، أنفها بارز، شفاتها  
غليظتان، جسمها صغير ومدمج ولكنها تستمد تأثيرها  
عليه من مصدر مسحور . دائماً تشعل جذوة في أعماقه،  
وأحياناً لا يرى الحمار وراكبه .

وفي أوقات الراحة يقف أمام البيت يتابع تيار  
السابلة . ما أكثر العاملين في الدكاكين أو وراء عربات  
البيد والسلال والمقاطف، وما أكثر المتشردين من  
الحرافيش بلا عمل . من أبوه بين هؤلاء الرجال؟ من  
أمه بين هؤلاء النسوة؟ رحلا عن الدنيا أم بيقيان؟ هل  
يعرفانه أم يجهلان؟ من الذي أورثه هذا الكائن الهائل  
المفعم بمعروف الشيخ عفرة زيدان؟ ويطرد عن رأسه  
الأفكار العقيمة المضنية فتبادر إليه زينب زين  
الناطوري بندائها الغامض . وقال لنفسه:

- كل شيء يتحرك فلا بد أن تحدث أمور .

وقال لنفسه أيضاً:

- ليكن الطيب حليفي جزاء نبي البيضاء .

وترامى إليه صوت زين الناطوري وهو يتحدث  
غضبياً . رآه في الفناء مشتبكاً في معركة لفظية مع أحد  
العلاء . وبعنف صاح به:

- أنت لص لا أكثر ولا أقل!

فصاح العميل:

- احبس لسانك القلدرا

وإذا بالمعلم يصفعه فيمسك الرجل بتلابيبه . هرع  
عاشور إليهما وهو يهتف:

- وخذوا الله!

رمى نفسه بينهما فركله العميل وهو يسبه . ضمّه  
عاشور إلى صدره بقوة حتى صرخ . تركه يفلت وهو  
يقول له:

- اذهب بسلام فهو خير لك .

سرعان ما خلا منه الفناء . وتكأكات النساء في  
النافذة وصاحت الأم:

- لم يبق إلا أن يعتدي علينا في بيتنا!

## ملحمة الحرايش ٧١٥

زينب تماثله في دماثته. كانت عصبية، سيئة الظن، طويلة اللسان ولكنها كانت مثلاً طيباً للجد والاجتهاد والوفاء.

وكانت تكبره بخمس سنوات، وبقدر ما حافظ هو على حيويته وشبابه سارع إليها التغير والنضوب قبل الأوان. على ذلك لم تزغ له عين ولم يزهد في حبها. وبمرور الزمن ابتاع بنقوده ونقود زينب كارو فترقى من مكارٍ إلى سواق. وقالت له زينب بنبرة وعيد:

- كان زبائنك من الرجال، ومن الساعة لن تحمل  
إلا النساء

فضحك متسائلاً:

- وهل يقصدني إلا زائرات الأضرحة والقبور؟  
فهتفت به:

- بيني وبينك ربنا!

وأحزنه أنه مضى ينسى ما حفظه من القرآن فلم تبق له إلا السور الصغيرة التي يتلوها في الصلوات، ولكن حبه الخير لم يفتر قط. وتعلم أن درويش زيدان ليس الشرير الوحيد في الحياة. تعلم أن الحياة حافلة بالمر والنعف ورتائل لا حصر لها. ولكنّه واطب على الاستقامة ما وسعه ذلك، وكان يحاكم نفسه محاكمة قاسية كلما تورط في خطأ. ولم ينس أنه استولى على جميع مدخرات زينب وبعض أجور أبنائه لكي يبتاع كارو، وأنه في سبيل ذلك قسا عليهم بعض الشيء وغضب غضبات كاسرة!

وكان يشاهد ما يصيب بعض جيرانه من عنت الفتوة ورجاله فيكظم غيظه ويطيّب خاطر المظلومين بكلمات لا تغني ويدعو للجميع بالهداية، حتى قال له جار ذات يوم:

- إنك لقوي يا عاشور ولكن ماذا أفدنا من قوتك؟

علام يلومه الرجل؟ علام يحرضه؟ أليس حسبه أنه رفض الانضمام إلى الطغاة؟ أليس حسبه أنه لا يستغل قوته إلا فيما ينفع الناس؟

رغم ذلك هفت في ضميره الوسواس كما يفو الذباب في يوم قاتظ وقال إن الناس لا يرونه بالعين التي يرى بها نفسه، وتساءل في حزن:

- أين صفاء البال أين؟

## - ١١ -

سمع عاشور المعلم زين يناديه من المنظرة. وكما ذهب إليه أفسح له مكاناً إلى جانبه على الأريكة الخشبية المفروشة بفروة خروف. تردّد عاشور ثم جلس. عند ذلك سأله المعلم برقة:

- ألا تفكر يا عاشور في ضمان نصف دينك؟

## - ١٢ -

الفرحة والنور. عندما يصير الحلم نعمة تشدو في الأذن والقلب. عندما تشرق وجوه العباد بضيء السباح، وحتى الحشرات تمسك عن ارتكاب الأذى. ذهب عاشور إلى حمام السلطان فأزال الشعر والعرق، مشط شعره وهذب شاربه، تطيب بالجلاب، ونظف أسنانه بالسواك، رفل في جلباب أبيض ومركوب فضّل خاصّة لقدميه الضخمتين.

احتفل بزفاف مناسب في بيت الناطوري، ثم أقام العروسان في بدروم مكون من حجرة ودھليز يقع أمام بيت الناطوري. واندلق عاشور في الحب حتى قمت رأسه، وكان بعض أهل الفجور عقب انطلاقهم من الغرز في النصف الثاني من الليل يقفصون في الظلام لصق شبك البدروم ينتصتون ويحلمون.

وأنجب مع الأيام حسب الله ورزق الله وهبة الله، وفي أثناء ذلك توفي المعلم زين وزوجه وتزوجت البنات.

تمتّع عاشور بحياة زوجية سعيدة. ظلّ يعمل مكارياً وأصبح مالكا للحمار الذي وهبه إياه الناطوري ليلة زفافه. وعملت زينب من ناحيتها بتربية الدجاج وبيع البيض فتيسرت المعيشة وفاح الدهليز برائحة التقلية.

وتقدّم الأولاد صوب الشباب فعملوا في مختلف الحرف. عمل حسب الله صبي نجار، ورزق الله مبيض نحاس، وهبة الله صبي كواء بلدي. ولم يرزق أحدهم عملة أبيه ولكنهم كانوا أشداء لدرجة تستوجب الاحترام في الحارة.

ورغم ما عرف به عاشور من دماثة الخلق فإن واحداً من رجال قنصوه الفتوة لم يتحرش به. ولم تكن

- ١٣ -

كان يترعب في الساحة أمام التكية مودعًا الغروب،  
مستقبلًا المساء، ينتظر انسياب الأناشيد ونسمة من  
نسائم الخريف معطرة بالبرد والأسى تنزلق من فوق  
السور العتيق تشدّ بديلها طيقًا من أطياف الخيل. بدا  
عاشور متخفًا بالسكينة ولم تشب له شعرة واحدة. كان  
يحمل فوق كاهله أربعين عامًا وكأنها هي التي تحمله في  
رشاقة الخالدين.

همسة في باطنه جعلته يحول عينيه نحو ممرّ القرافة  
فرأى رجلًا يخرج منه يسير في تكاسل. لم يستطع أن  
يسترّد عينيه، عرفه في بقية ضوء المغيب، دق قلبه،  
ولمجد سروره. أقبل الرجل نحوه حتى وقف أمامه  
حاجبًا عنه التكية ومضى ينظر إليه باسبًا.

تمتم عاشور:

- درويش زيدان!

قال درويش معاتبًا:

- هلا بدأت بالتحية؟ مساء الخير يا عاشورا

فنهض باسطًا يده وهو يقول بنبرة محايدة:

- أهلاً بك يا درويش...

- لم أنغبر كثيرًا فيما أظن...

مؤسف هذا الشبه بينه وبين المرحوم عفرة، ولكن  
غلظت قساوته وتحمّجرت. قال:

- بلى...

فحدجه بنظرة ذات معنى وقال:

- رغم أنّ كلّ شيء يتغيرًا

فتجاهل عاشور ملاحظته متسائلًا:

- أين غبت طول ذلك العمر؟

فقال باستهانة ساخرة:

- في السجن!

ورغم أنّه لم يدهش فقد هتف:

- السجن!

- الجميع أشرار ولكنّي سيئ الحظ!

- الله غفور رحيم...

- عرفت أنّ أحوالك رائحة؟

- الستر لا أكثر من ذلك...

فقال باقتضاب:

- إني في حاجة إلى نقود.

تضايق عاشور، ولكنّه دسّ يده في صدره  
فاستخرج ريالًا، أعطاه له قائلًا:

- إنّه قليل ولكنّه كثير بالقياس إلى حالي...

تناوله بوجه مكفهر وقال بنبرة ذات مغزى:

- لنقرأ الفاتحة على روح أخي عفرة.

فقرأها ثمّ قال:

- لم أنقطع عن زيارة قبره...

فسأله بجرأة:

- هل أجد عندك ماوى حتى أقف على قدمي؟

فبادره قائلًا:

- لا مكان في حجرتي لغريب...

- غريب؟!

فقال بإصرار وجرأة:

- لولا ذكرى مولاي ما مددت لك يدي!

فقال بقحة:

- أعطني ريالًا آخر وسوف أسدّد ديني عند

الميسرة.

فلم يضرّ عليه بالنقود وهو من الضيق في غاية.

ومضى درويش نحو القبو صامتًا على حين تهادى

من التكية صوت عذب ينشد:

زكريه مردم جشم نشسته در خونست

- ١٤ -

رأى عاشور وهو ينطلق بالكارو جماعة تتجمهر في

خرابة على كئيب من مدخل الحارة. وعندما اقترب

منهم وضح له أنّهم عمّال بناء يحدقون بأكوام من

الصفائح والأخشاب وسعف النخل، ورأى بينهم

درويش زيدان. انقبض صدره وقال إنّ الرجل يشيد

لنفسه ماوى. وصاح به درويش حين مرّ به:

- إني أبذل ما في وسعي لخدمتكم...

فقال له بجفاء:

- حسن أن يكون للإنسان بيت.

- بيت؟!

وضحك درويش ضحكة عالية ثمّ واصل:

- سيكون بيت من لا بيت له!

## ملحمة الحرافيش ٧١٧

لاحت منه نظرة إلى الأرض فرأى مخطّط سبيجة  
مبعثرة فوق حصوات اللعب فتساءل بحدّة:

- تلعبون أم تقامرون؟  
لم يجبه أحد. اشتعل غضبًا. تساءل:  
- متى تصيرون رجالًا؟  
وجذب إليه حسب الله قائلًا:  
- أنت الأكبر، أليس كذلك؟  
وفغتمته رائحة غريبة تتناثر من فيه فجزع. جذب  
الأخرين وتشمّم أنفاسهم. آه... فلتخفس الأرض  
بمن عليها  
- سكارى؟... يا كلاب...  
وراح يعصر آذانهم وعضلات وجهه تموج بسحب  
حمراء. وتجمّع غلمان يتفرّجون فهتف حسب الله  
متوسّلًا:

- فلندخل البيت.  
فصاح بصوته الأجنس:  
- تخجلون من الناس ولا تخجلون من الله...  
وشدّته زينب من ذراعه وهي تقول:  
- لا تجعلنا جرسه بين الأوباش...  
فاستسلم ليدها وهو يقول:  
- هم هم الأوباش!  
فهمست بحدّة:  
- ليسوا أطفالًا...  
- لا خير ليهم ولا فيك...  
- البوظة لا تفرغ من الناس!  
فانحطّ على الكنبه وهو يتمتم:  
- يا للخسارة... لا فائدة ترجى منك.  
أشعلت المصباح ووضعته داخل الكوة ثمّ قالت  
بنبرة لطيفة:

- إني أعمل أكثر منك، لولاي ما ملكت الكارو  
وما اشتعل لك كانون...  
فقال بضجر:  
- لم يبق منك إلا لسان مثل السوط...  
فهتفت بحدّة:  
- ذبل الشباب في خدمتكم...  
- لا بدّ من تأديبهم...

- ١٥ -

وقال حسب الله لأبيه عاشور:  
- وضّح الأمر، الرجل يبني بوظة!  
فذهل عاشور متسائلًا:  
- خّارة؟  
فقال رزق الله:  
- الجميع يقولون ذلك.  
فهتف عاشور:  
- ربّاه... لقد أسهمت نقودي في بنائها!  
فقال هبة الله:  
- إنّما الأعمال بالنيّات...  
- والحكومة؟  
- أخذ الرخصة ولا شك.  
فقال عاشور محزونًا:

- حارتنا لم يشيّد بها سبيل للعطشى ولا زاوية  
للمصلّين بعد فكيف تقام بها بوظة؟  
وافتح البوظة فنصوه الفتوة ورجاله فزادت كآبة  
عاشور وتمتم:  
- وأيضًا وجد الحماية!

- ١٦ -

ثمّة ضجّة وراء شبّاك البدروم. ما هذا؟ ألا تكفّ  
هذه الحارة عن الشجار؟ عاشور فوق الكنبه الوحيدة  
بالحجرة يحتمس قهوته، والمصباح لم يشعل بعد. ضلّفة  
الشبّاك ترتعش بهبة من أنفاس الشتاء الباردة، وزينب  
عاكفة على كميّ ملابس بالخنّدة. رفعت زينب رأسها  
وقالت بانزعاج:

- هذا صوت رزق الله!  
- الأولاد يتشاجرون!  
وهرعت زينب إلى الخارج وسرعان ما جاءه صوتها  
وهي تصيح:  
- يا مجانين احتشموا...  
وثب عاشور ناهضًا. في لحظة كان يقف وسط  
أبنائه. صمتوا ولكنّ الغضب لم يتلاش من وجوههم.  
هتف:  
- ما شاء الله!...

- ليسوا أطفالاً وسيدهبون...  
 إنها تعلم أنّ الخصام سيتلاشى سريعاً، وأنّ  
 الكلمات القارصة والهمسات العذبة تمتزج في قلدح  
 واحد...  
 وفكّر عاشور في أمر أولاده بقلق.  
 لم يفلح أحدهم في الكتاب. لم يجد أحد منهم عناية  
 من والديه لانشغالهما بعملهما المتواصل. لم يحظوا بما  
 حظي هو به في كنف الشيخ عفرة. تشرّبوا بعنف  
 الحارة وخرافاتها وغابت عنهم فضائلها. حتّى قوّته لم  
 يرثها أحد منهم. لم يتعلّق أحدهم به أو بأمه، حتّى  
 سطحيّ متقلّب، قلوبهم متمردة من قديم وإن لاذت  
 بالصمت. لا موهبة ولا ميزة، سيظلّون صبياناً ولن  
 يترقّوا أحد منهم إلى درجة معلّم أبداً. وهما هم  
 يهرعون إلى البوطة عند أوّل إشارة، ولن يقفوا عند  
 حدّ.

قال بحزن:  
 - لن يبيثنا منهم إلا ما يكدر القلب.  
 فقالت بتسليم:  
 - إنهم رجال يا معلّم!

- ١٨ -

لم يعد عاشور يرى من النهار إلا غباره، ولا من  
 الليل إلا ظلامه، وكلّما أقدم على عطفة توقّع عثرة  
 ليست في الحساب، وترتّب عينه فيغمغم التهمّ اجعله  
 خيراً. ترى هل أصاب البنيان شدخ يتعدّر ترميمه؟  
 وكان يستنيم إلى مضجعه عقب منتصف الليل  
 عندما ترامى إليه صوت يزعق من وراء النافذة:  
 - يا معلّم عاشور، يا معلّم عاشور...  
 هرع إلى الشباك ففتحه وهو يغمغم «الأولاد!»  
 فرأى شبّحاً منحنيّاً فوق القضبان، سأله:  
 - ماذا هناك؟  
 - أدرك أولادك، إنهم يتقاتلون في البوطة بسبب  
 البنت فلّة!  
 وهتفت زينب:  
 - ابقى أنت ودعني أذهب إليهم...  
 فأزاحها عن طريقه، دسّ قدميه في المركوب،  
 انطلق مثل عاصفة...

- ١٧ -

مرّة وهو مقبل بالكارو فيما أمام الخيّارة تصدّى له  
 درويش قائلاً:  
 - مرحباً...  
 لم يتجاهله هذه المرّة. رغم مقتته لم يتجاهله. شدّد  
 اللجام فتوقّف الحمار عن السير، ووثب واقفاً أمام  
 درويش وقال له بحزم:  
 - هذا العمل لا يليق بذكري أخيك...  
 فابتسم درويش متهمكماً وقال:  
 - أليس خيراً من قطع الطريق؟  
 - إنّه سيئ مثله.  
 - معدرة فلّتي أحبّ المغامرات...  
 - بحارتنا من الشرّ ما يكفي وزيادة...  
 - البوطة كما أنّها تضاعف من شرّ الشرير فلّتها  
 تضاعف من طيبة الطيب، شرّف وجرب...  
 - عليها اللعنة...

- بل شيطانة صغيرة من صنع شيطان كبير. . .  
وغادر المكان وهو يتجنب النظر إليها. . .  
في ظلام الحارة تنفس بعمق. شعر بأن سراحه قد  
أطلق وأنه تخلص من قبضة شريرة. الظلام كثيف لا  
عين له. أحد بصره ليعثر على أشباح أولاده ولكنهم  
ذابوا. هتف:

- حسب الله!

لا شيء سوى الصمت والظلام. بصيص ضوء  
ينساب من القهوة هناك ولا شيء بعد ذلك. قلبه  
يحدثه أنهم لن يرجعوا. سيهجرون مهدم وسلطانة.  
سيترأون في المستقبل كالغرباء. لا أبناء يلتصقون  
بأصولهم في هذه الحارة إلا أبناء الوجهاء.  
شعر وهو يشق طريقه في الظلام بأنه يودع الطمانينة  
والثقة. ها هو تيار مضطرب يلقه في دوامته، وهو  
يساوره الخوف كما يساوره النوم. وقال لنفسه إن البنت  
بهرتهم بجملها. وقال أيضًا إن البنت بهرتهم بجملها  
الفقان. لماذا لا يتزوج الحمقى؟ أليس الزواج دينًا  
ووقاية؟

- ٢٠ -

في انتظاره كانت زينب أمام الباب. امتدى إلى  
مسكنه بضوء مصباحها الموضوع على عتبة المدخل.  
سألته بلهفة:

- أين الأولاد؟

فتساءل بوجوم:

- ألم يرجعوا؟

فتنهدت بصوت مسموع فتمتم:

- لتكن إرادة الله.

وهو يجلس على الكنبه قالت له بحدة:

- كان يجب أن تدعني أذهب. . .

- تذهين إلى البوطة في خضم السكارى؟

- ضربتهم، ليسوا أطفالاً، ولن يرجعوا إلى  
البيت.

- يتسرعون يوماً ثم يرجعون. . .

- إني أعرف بهم منك.

فلاذ بالصمت فواصلت تسأله:

- ١٩ -

ملاً هيكله فراغ الباب. انجهدت نحوه أبصار  
السكارى المطروحين على الجانبين. وثب نحوه درويش  
وهو يهتف:

- سيهدم أولادك المكان!

رأى هبة الله ملقى على الأرض بلا حيلة. رأى  
حسب الله ورزق الله مشتبهين في صراع حقوق، على  
حين انطرح السكارى غير مباليين. صاح بصوت  
فظيح:

- تأذب يا ولد. . .

انفصل الشبان وهما ينظران نحو مصدر الصوت  
برعب. بظهر كمه لطم الأمل فالشاني فتهاوياً فوق  
الأرض التربة العارية. وقف يقلب عينيه في الوجوه  
متحدّياً فلم ينبس أحد. كذف درويش بنظرة متحجرة  
وصاح به:

- ملعون أنت وملعون جحرك الموبوء!

عند ذاك ظهرت فلة لا يدري من أين جاءت  
وتمتمت:

- إني بريئة!

وقال درويش:

- إننا نقوم بالخدمة ولكن أولادك طعموا فيها!

فصاح به:

- اخرس يا قواد.

فتراجع درويش قائلاً:

- ساحك الله. . .

- في قدرتي أن أهدم هذه البوطة فوق  
رءوسكم. . .

تقدّمت فلة خطرة حتى مثلت أمامه تماماً وقالت:

- إني بريئة!

قال لها بخشونة وهو ينتزع عينيه منها:

- اغربي عن وجهي. . .

دفع بأولاده المترنحين إلى الخارج بعنف واحداً في  
إثر واحد.

عادت فلة تتساءل:

- ألا تصدق آني بريئة؟

انتزع عينيه منها مرة أخرى هاتفاً:



- ٢١ -

الظلام مرّة أخرى. يتجسّد في القبور. يغطّي المتسولين والصعاليك. ينطق بلغة صامتة. يحتضن الملائكة والشياطين. فيه يخنفي المهق من ذاته، ليغرق في ذاته. إن قدر الخوف على أن ينفذ من مسامّ الجدران فالنجاة عبث.

- ٢٢ -

خرج من القبور إلى الساحة. انفرد بأناشيد التكيّة والجدار العتيق والسماء المرصّعة بالنجوم. جلس القرفصاء دافئاً وجهه بين ركبتيه. منذ نيّف وأربعين عاماً تسلّلت به أقدام خاطئة لتواري خطيئتها في ظلمة المرّ. كيف وقعت تلك الخطيئة القديمة؟ أين، في أيّ ظروف، ألم يكن لها ضحيّة سواه؟ تخيّل إن استطعت وجه أمك الحالم ووجه أبيك المحتقن، استعد إن استطعت كلمات التفريز المعسولة، استحضر اللحظة الحاسمة التي تقرّرت بها مصائر. كان يقف إلى جانبيها ملاك وشيطان ولكنّ الرغبة تهزم الملائكة. تخيّل صورة أمك. لعلّها مثل... ١٩. لكي تحتدم المعركة لا بدّ من بشرة صافية وعينين سوداوين مكحولتين وقسمات دقيقة مثل البراعم. لا بدّ من الرشاقة والسحر وعدوبة الصوت. وقبل ذلك لا بدّ من القوى الخفية المتدفّقة المناسبة الغادرة المغتصبة بلا ضمير. والطعم الفواح تضعه الحياة في الفخّ وتنتظر. وتودع ذلك كلّ خمسة عشر عاماً من عمر البشر. لذلك دقّ باب الأناشيد ولكنّه لم يفتح. الحقّ كان بوسعك أن تدفعه بقوتك ولكنك لم ترد. ومن يتزوّج الحياة فليحتضن ذريّتها المعطرة بالشبق. ولكن لا مفرّ من أن تعترف بأنّ ما يحدث لا يمكن أن يصدّق. وأن تعالي إحساس المطارد إذا سبق. فالبسمة قدر والدمعة قدر. وها هو مخلوق جديد يولد مكلّلاً بالطموح الأعمى والجنون والندم. ويسأل الغوث من الرحمن فتنسكب عليه خمر الفتن. وثقل رأسه فغفا.

رأى الشيخ عفرة زيدان أمام قبره، حمله بين يديه فسأله في جزع:

- إلى القبر يا مولاي؟

- وما هذه الفلّة التي رمانا بها درويش؟

تجنّب النظر إليها وقال بازدراء:

- فيم تسألين؟ بنت تقيم في فخّارة!

- جميلة؟

- داعرة.

- جميلة؟

فقال بعد تردّد:

- لم أنظر نحوها.

فقالت متأوّهة:

- لن يرجعوا يا عاشور... .

- لتكن إرادة الله.

- ألا تسمع عمّا يفعل الشبان؟

فلم ينبس فقالت:

- علينا أن نتسامح مع الأخطاء... .

فتساءل بذهول:

- حقاً؟

وتبدّت لعينيها ناضبة شاحبة طاعنة في السنّ مثل جدار المرّ العتيق فتمتم:

- إني أرثي لك يا زينب... .

فقالت بحدّة:

- ستبداول الرثاء كثيراً.

- على أيّ حال فليسوا في حاجة إلينا... .

- بغيرهم لا أنفاس في البيت تتردّد.

- إني أرثي لك يا زينب.

أسندت رأسها إلى راحتها وتمتمت متشكّية:

- لديّ عمل في الصباح الباكر.

- جرّبي النوم.

- في هذه الليلة؟

فقال بضجر:

- في أيّ ليلة!

- وأنت؟

فقال بتصميم:

- الحقّ أنّي بحاجة إلى نسمة هواء في الخارج!

## ملحمة الحرافيش ٧٢١

عضلات وجهه تصلبت أكثر. ولم تعد ملابسه تحجب عريه عن الأعين. واختصر طريق حياته بين زاوية الممرّ وهذا المجلس بالبوظة. ما عدا ذلك طوى وتلاشى في نغمة جديدة غامرة. وسرعان ما استنام إلى الهزيمة جدلان بإحساس الظفر. ووقفت فلة بين الأوعية الفخارية تنرنو إليه باهتمام على حين اقتحم الباب حسب الله ورزق الله وهبة الله.

سرى التوقّع في ثنايا الخمول وشرّبت الأعناق. هتف حسب الله:  
- سلام الجدعان.

ولمح أباه فتشّج حلقه وجمد. وحمد حماس رزق الله وهبة الله. وقفوا لحظة مذهولين ثم استداروا فتلاشوا كشيء لم يكن. وارتفعت ضحكة هازئة. ونظرت فلة نحو درويش فلم ينبس ولكن تجلّى الضيق في وجهه...

## - ٢٤ -

احتجّت قسامات زينب وسألته:  
- وهل يستمرّ ذلك إلى الأبد؟  
فتساءل عاشور في قهر:  
- ما الحيلة؟  
- عظيم أن تصدّهم عن البوظة ولكن بأيّ ثمن؟  
فحرك رأسه الكبير بحيرة صامتاً فهتفت بحدة:  
- النتيجة أنك بتّ الزبون الدائم عند درويش!

## - ٢٥ -

كان يمضي بالكارو عندما مرقت فلة من باب الخيّارة فاعترضت طريقه. شدّد اللجام وهو يقول لنفسه «لتدركني رحمة السماء». ودون كلمة وثبت إلى الكارو برشاقة، تربّعت وهي تحبك ملاءتها حولها، وكانت سافرة الوجه. نظر إليها مستفهياً فقالت بعدوية:  
- وصلني إلى مرجوش...  
وظهر درويش باسماً وهو يقول:  
- في رعايتك، وحسابها عندي.  
رأى خيوط العنكبوت ولكّنه لم يبال. طرب حتى

ولكّنه مضى به إلى الممرّ، ومن الممرّ إلى الساحة، ومن الساحة إلى القبو...  
واستيقظ على شيء.

فتح عينيه فسمع صوت زينب وهي تقول:  
- هذا ما تخنته، تنام حتى مطلع الفجر؟  
نهض فزعاً. أسلم لها يده. مضيا صامتين.

## - ٢٣ -

ما يدرون إلا وهيكله العظيم يملأ باب البوظة. اختلجت الجفون الثقيلة، وتردّدت التساؤلات تحت غيوم الأعين:

- ماذا جاء يفعل؟  
- مطاردة أولاده؟  
- لا تتوقّعوا من ورائه مسرة!  
مسح المكان ببصره حتى وجد فراغاً في الجناح الأيسر فمضى إليه وتربّع هناك في هدوء تسترّ به على ارتبائه. هرع إليه درويش قائلاً:  
- خطوة عزيزة...

ثمّ وهو يبتسم:  
- فليعني الله على التصديق!  
تجاهله تماماً. وفي الحال جاءت فلة تسعى بالقرعة وقرطاس الترمس المدعوك بالشطّة. أسبل جفنيه وتذكّر قصّة الطوفان. نحى القرعة جانباً، وأدى الثمن، بلا كلام. وجعل درويش يراقبه بحيرة ثمّ همس له وهو يهيمّ بالابتعاد:

- نحن في الخدمة أيّا تكن!  
سرعان ما نسيه الآخرون. أمّا فلة فساءلت نفسها عبّاً يزهد في الشراب. اقتربت منه مرّة أخرى وقالت وهي تومئ إلى القرعة:  
- إنّها جيّدة فوق الوصف!  
فحنى رأسه فيما يشبه الشكر. وقال لها أحد السكارى:

- ابعدني عنه يا بنت.  
فرجعت ضاحكة وهي تقول بصوت مسموع:  
- ألا ترى أنّه يشبه الأسد؟  
قطرت السماء فرحة من أفراح الطفولة ولكنّ

- ثمل. هرس ترائه تحت حوافر الحماز. سارت الكارو  
وظهره ينصهر بالسخونة.  
وإذا بصوتها يقول:  
- لو أنصفت نفسك لكنت الفتوة...  
فامتلاً بشاشة وتساءل:  
- أترينني شريراً؟  
فضحكت برقة وتساءلت بدورها:  
- وما جدوى الخير مع أناس لا خير فيهم؟  
- ما زلت صغيرة...  
فقالت بنبرة لاذعة:  
- لم أعامل كصغيرة قط...  
فتجهّم وجهه مقطّباً. وحتى تلك اللحظة لم تغب  
عن عينيه النظرات المتطلّعة إلى حمله الثمين. ووجد  
نفسه يسألها:  
- لماذا تذهبين إلى مرجوش؟  
وكما لم تجبه ندم على ما فرط منه. وطلبت منه  
التوقّف عند مدخل مرجوش، ثمّ قالت:  
- ثمّنت لو كان المشوار أطول...  
ثمّ وهي تهمّ بالذهاب:  
- ولكنّ الليل ليس ببعيداً  
رَبّت على عنق الحمار وهمس في أذنه:  
- انتهى صاحبك...  
- ٢٦ -  
مع أول شعاع للشمس اقتحم باب البوطة.  
استيقظ درويش صاخباً محتجاً ثمّ ذهل لمراه ثمّ  
تساءل:  
- ماذا وراءك؟  
فأقامه بيده وحدجه بنظرة هائجة وتمتم:  
- لا بدّ ممّا ليس منه بدّ...  
- ماذا جاء بك يا عاشور؟  
فقال بغلظة:  
- إنك خبيث وشرير وتعرف كلّ شيء...  
فدعك درويش قفاه وهو يطالعه بعينيه المحمّرتين  
وتمتم:  
- هذا وقت الرزق!
- فقال ملقياً بنفسه في اليمّ:  
- قرّرت أن آخذها...  
فقال باسماً:  
- لكلّ شيء وقته!  
فقال باستسلام نهائيّ:  
- على سنّة الله ورسوله!  
اتّسعت عينا درويش من وقع المفاجأة وراحا  
يترامقان في صمت حتى تتمم:  
- ما معنى هذا؟  
- لست كما تظنّ...  
- أجننت يا عاشور؟  
- ربّما...  
فكساه الفتور وقال:  
- إني لا أستغني عنها!  
- سوف تستغني عنها يا درويش!  
- هل فُكّرت في العواقب؟  
- لا دخل للتفكير في ذلك!  
فتساءل في خبث:  
- ألا تعلم أنّه ما من رجل...  
وقاطعه صوت فلة وافداً من فوق أريكتها ممّا قطع  
متابعتهما للحديث وهو يقول:  
- ماذا تريد أن تقول؟... لو كان في حاجة إلى  
شهادتك لسألك!  
فثار درويش وصاح:  
- ستصير أحداثة الصغير والكبير...  
فصاحت فلة:  
- إنّه قادر على حماية ما يملكه...  
فانقضّ عليها فلطمها حتى صرخت فوثب عاشور  
نحوه وطوّقه بدراعيه وشدّ حتى صاح متأوّهاً:  
- أنا في عرض النبيّ...  
فتركه وهو يزجر غاضباً فتهاوى درويش على الأرض  
وهو يصرخ:  
- في ألف داهية...  
وتمتم:  
- هذا وقت الرزق!

- لولا أنني عاشور ما تزوجتها!

وتمضي الأيام وهو يزداد سعادة وامتناناً، واستهانة بالأقاويل. وتعلقت به فلة تعلقاً لم يحلم به. صممت على أن تثبت له أنها ست بيت، مطيعة، بعيدة كل البعد عما يثير غيرته. ومما جعلها أثيرة عنده أكثر أنه وجدها - مثله - مجهولة الأب والأم. وبسبب من شدة حبها له تسامح مع جهلها بكثير من الشئون النافعة، كما تسامح مع كثير من العادات السيئة. ومن أول الأمر أدرك أنها بلا دين إلا الاسم، وبلا أخلاق، وأنها تتبع في سيرتها الغرائز وملابسات الحياة، فتسأل متى يجد وقتاً ليلقنها ما ينقصها حقاً في الحياة؟ الحب وحده ما يحفظها ولكن متى يكفي ذلك؟

ولم ينقطع عن زينب، ولم يغمط لها حقاً، ومضت هي تآلف الحياة الجديدة، وتعاشر جرحها معاشرة التسليم، فلا تكدر زيارته بمكدر.

وجعل درويش يراقب الأمور ويقول بحقد:

- العقرب تعبده، ما زالت تعبده، فمتى تلسعه؟  
وتمضي أيام فتجبل فلة، ثم تنجب ذكراً يسميه أبوه «شمس الدين» ويفرح به عاشور فرحة كبرى كأنما هو بكره.

وتمضي أيام صفاء وسعادة لم يجدهما عاشور فيما سلف من عمره.

- ٣٠ -

ماذا يحدث بحارتنا؟

ليس اليوم كالأمس، ولا كان أمس كأول أمس. أمر خطير طراً. من السماء هبط أم من جحيم الأرض انفجر؟ وهل تجري هذه الشئون بمحض الصدفة؟ ومع ذلك فالشمس ما زالت تشرق وتقوم برحلتها اليومية، والليل يتبع النهار، والناس يذهبون ويحيثون والحناجر تشدو بالأناشيد الغامضة...

ماذا يحدث بحارتنا؟

وجعل يراقب شمس الدين الثمل بالانهاك في الرضاع ويتسم، رغم كل شيء فهو يتسم. وقال:

- ميت جديد، ألا تسمعين الصوت؟

فتساءلت فلة:

- ٢٧ -

جری عاشور مع عزيمته بجرأة مستهترة. حتى حزنه لزينب وذكرياتها لم يوقفه. وقال لها حاني الرأس:

- قضاء الله لا حيلة لنا فيه...

فنظرت إليه ببراءة مستطلعة فقال:

- سأنزّوج من أخرى يا زينب!

وصعقت المرأة. ذهلت تماماً وطارت من رأسها عصافير مصوصة وصاحت:

- أنت الرجل الطيب!

فقال بخشوع:

- قضاء الله...

فصرخت:

- لم تتمحكون باسم الله؟ لم لا تعترف بأنه الشيطان؟ ترميني قشرة وتذهب؟  
فقال بتوكيد:

- مصونة جميع حقوقك!

فصاحت وهي تشرق بالدمع:

- لي الله وحده يا غادر يا خائن العيش والملح...

- ٢٨ -

زُفت فلة إلى عاشور في حفل صامت. استاجر لها بدروماً في طرف الحارة من ناحية الميدان. وسعد الرجل بزواجه حتى خيل لمن يراه أنه رجع إلى شبابه الأول.

- ٢٩ -

واجتاح خبر الزواج الحارة كالنار. تساءل كثيرون:

- ألم يكن بوسعك أن يفعل مثل الآخرين؟

وقال حسب الله:

- إذن كان يصدنا نحن أبناءه ليستولي هو عليها!

وضاعف من أثر الخبر ما عرف به عاشور من الطيبة والاستقامة. أهكذا يقع الناس الطيبون؟ أين الوفاء

لزينب وأين الوفاء لزين الناطوري؟ من الذي جعل منه مالك كارو بعد أن كان مكارياً؟... ومن الذي

انتشله من التشرّد فجعله مكارياً؟

وكان عاشور يقول مدافعاً عن نفسه:

ووقف شيخ الحارة عمّ حميدو أمام دكانه وضرب  
الطبلة براحته فهرع الناس إليه من البيوت والحوانيت.  
وبوجه مكفهزّ راح يقول:

- إنَّها الشوطة، تحميء لا يدري أحد من أين،  
تحصد الأرواح إلّا من كتب الله له السلامة...  
وسيطر الصمت والخوف فترثت قليلاً ثم مضى  
يقول:

- اسمعوا كلمة الحكومة...  
أنصت الجميع باهتمام، ترى أفي وسع الحكومة دفع  
البلاء؟!

- تحنّبوا الزحام!  
فترامقوا في ذهول. حياتهم تجري في الحارة.  
والخرافيش يتلاصقون بالليل تحت القبو وفي الخرابات،  
فكيف يتجنّبون الزحام؟ ولكنّه قال موضحاً:

- تحنّبوا القهوة والبوظة والغرزا  
الفرار من الموت إلى الموت! لشدّ ما تتجهّمنا الحياة!  
والنظافة... النظافة...  
تطلّعت إليه في سخرية أعين الخرافيش من وجوه  
متوارية وراء أقنعة من الأتربة المتلبّدة.

- اغلوا مياه الآبار والقرب قبل استعمالها...  
اشربوا عصير الليمون والبصل...  
ساد الصمت، وظلّ ظلّ الموت يمتدّ فوق الرؤوس  
حتى تساءل صوت:

- أهذا كلّ شيء؟

فقال حميدو بنبرة الختام:

- اذكروا ربّكم وارضوا بقضائه...

رجع الناس إلى البيوت والدكاكين واجمين، وتفرّق  
الخرافيش في الخرابات وهم يتبادلون الدعابات  
الساخرة، ولم يتوقّف موكب النعوش ساعة واحدة...

- ٣٢ -

دفعه القلق إلى الساحة في جوف الليل. الشتاء  
يطوي آخر طيّة في ردائه، الهواء منعش لئّن القبضة،  
النجوم متوارية فوق السحب. في ظلمة داجية تهادت  
الأناشيد من التكيّة في صرحها الأبديّ. لا نغمة رثاء  
واحدة تنداح بينها. ألم تعلموا يا سادة بما حلّ بنا؟

- بيت من يا ترى؟

فعدّ بصره من خلال قضبان النافذة مُتنصّتاً ثمّ  
تمتم:

- لعلّه بيت زيدون الدخاخني!  
فقال فلة بقلق:

- ما أكثر أموات هذا الأسبوع!

- أكثر تمنّ يموتون عادة في عام!

- وقد يمرّ العام بلا ميت واحد...

ولم تهدأ نائرة الطارئ الجديد.

وكان عاشور ماضياً بالكارو عندما اعترضه درويش  
وقال له:

- الأقاويل كثيرة، ألم تسمع شيئاً يا عاشور؟

- عمّ تحدّث؟

- يتحدّثون عن قيء وإسهال مثل الفيضان ثمّ  
ينهار الشخص ويلتهمه الموت...

فتمتم عاشور بامتعاض:

- ما أكثر ما يقال في حارتنا!

- أمس أصيب زبون عندي بذلك حتى لوّث  
المحلّ...

فرمقه بازدراء فعاد درويش يقول:

- حتى بيوت الأعيان لم تسلم، ها هي حرم البنان

توقّيت صباح اليوم!

فقال عاشور وهو يمضي:

- إذن فهو غضب الله!

- ٣١ -

تفاقم الأمر واستفحل.

دبّت في ممرّ القرافة حياة جديدة. يسير فيه النعش  
وراء النعش. يكتظّ بالمشيّعين. وأحياناً تتتابع النعوش  
كالطابور. في كلّ بيت نواح. بين ساعة وأخرى يُعلن  
عن ميت جديد. لا يفرّق هذا الموت الكاسح بين غني  
وفقير، قويّ وضعيف، امرأة ورجل، عجوز وطفل،  
إنّه يطارد الخلق بهراوة الفناء. وترامت أخبار مائلة من  
الحارات المجاورة فاستحكمت الحصار. ولهجت أصوات  
معوجّة بالأوراد والأدعية والاستغاثة بأولياء الله  
الصالحين.

## ملحمة الحرايش ٧٢٥

وقال لنفسه أن ليس لهذا لغير ما سبب. وفكر  
طويلاً. وعندما نضح الشباك بلون الفجر تلقى  
عزمته. ونهض مرحاً بعزمته. أيقظ فلة. بكى شمس  
الدين. غيرت لفته ودست برفق ثديها الشري في ثغره  
ثم التفتت إلى الرجل تعتفه.

مسح على شعرها بحنان وقال:

- حلمت حلماً مذهلاً...

فقال محتجاً:

- لم أشبع من النوم...

فقال بجديّة غير متوقّعة:

- علينا أن نهجر الحارة بلا تردّد.

فرفقه غير مصدّقة فعاد يقول:

- بلا تردّد...

فتساءلت مقطبة:

- ماذا حلمت يا رجل؟

- أبي عفرة أراي الطريق...

- إلى أين؟

- إلى الخلاء والجبل!

- إنك ولا شك تهذي...

- بل رأيت الموت أمس، ورائحته شممت...

- وهل الموت يعاند يا عاشور؟

فقال وهو يحنى رأسه في حياه:

- الموت حقّ والمقاومة حقّ...

- ولكنك تهرب!

- من الهرب ما هو مقاومة!

فتساءلت في قلق:

- وكيف نعيش في الخلاء؟

- الرزق في الساعدين لا في المكان.

فتنهّدت قائلة:

- سيضحك الناس من جهلنا!

فقال بوجوم:

- لقد جئت بنابيع الضحك.

فأجهشت في البكاء فتساءل في قلق:

- هل تتخلّين عتي يا فلة؟

فقال وهي تنتحب:

- لا أحد لي سواك، سوف أتبعك...

اليس عندكم دواء لنا؟ ألم يترام إلى آذانكم نواح  
الثكالي؟ ألم تشاهدوا النعوش وهي تُحمّل لصق  
سوركم؟

رنا عاشور إلى شبح البوابة، إلى هامتها المقوسة،  
بإصرار حتى دار رأسه. تضحمت البوابة وتعملقت  
حتى غابت هامتها في السحب. ما هذا يا ربّي؟ إنّه  
تتمخض عن حركة بطيئة دون أن تبرح مكانها. تتموج  
وقد تنقض في أي لحظة. وشم رائحة غريبة لا تخلو  
من نفحة ترابية. إنّه تتلقى من النجوم أوامر صارمة.  
جرّب عاشور الخوف لأول مرّة في حياته. نهض  
مرتعداً، مضى نحو القبو وهو يقول لنفسه إنّه الموت.  
تساءل في أسى وهو يقترّب من مسكنه، لماذا تخاف  
الموت يا عاشور؟!

## - ٣٣ -

أشعل المصباح فرأى فلة نائمة، وشمس الدين لا  
يبدو من الغطاء إلا شعر رأسه. جمالها مستسلم لسطوة  
النوم، ثغرها مفتّر بلا بسمة. مندبها منسحب  
وخصلات شعرها نافرة. دقّ الرعب أبواب رغبته  
الغافية. تمطى نداء مثل لسان من لب. جرّ بالشهوة  
فاندفع بلهوجة المطارد. همس باسمها حتى فتحت  
عينها. نظرت إليه منكّرة حتى عرفته. فقهرت وقفته  
ونظرة عينيه لترحّرت من تحت الغطاء بارزة،  
وتشاءت، وابتمت، وتساءلت:

- ماذا دهاك في الليل؟

ولكنّه من شدّة الانفعال صمت. امتلأ صدره  
العريض بالعنف والأسى.

## - ٣٤ -

نام ساعتين.

رأى في وسط الحارة الشيخ عفرة زيدان. هرع  
نحوه مجدولاً بالأشواق. كلّما تقدّم خطوة سبق الشيخ  
خطوتين. هكذا اخترق المرّ والقرافة نحو الخلاء  
والجبل. وناداه من أعماقه ولكنّ الصوت في حلقه  
انكتم.

واستيقظ في غاية من القهر.

- ٣٥ -

- أجننت يا عاشور؟ ... أتفهم أنت خيرًا من الحكومة؟  
- ولكن...  
فقاطعه بحدّة:  
- حذار أن تعطل الأرزاق وتنتشر الفوضى...  
- لقد رأيت الموت والحلم!  
- هذا هو الجنون بعينه، الموت لا يُرى، ونصف الأحلام مصدرها إبليس!  
- إني رجل طيّب يا معلّم حميدو...  
- ألم تذهب يومًا إلى البوطة لتنقذ أبناءك من امرأة ثم وقعت أنت في هواها واستأثرت بها لنفسك؟  
فقال بغضب:  
- لقد أنقذتها من الشرّ، ثمّ إني لا أبرئ نفسي من الذنوب...  
فصاح شيخ الحارة:  
- افعل بنفسك ما تشاء ولكن لا تغرّر به أحدًا وإلا أبلغت عنك القسم...

- ٣٧ -

هاجر عاشور في الفجر. تحرّكت به الكارو نحو القبور كما تفعل في مواسم القرافة. تربعت فوق سطحها المترجرج فلة محتضنة شمس الدين، أمامها بقجة مكتظة، وراءها أجولة من الفول السوداني وبلايص من الليمون والزيتون المخلّل، وزكائب من العيش المقدّد. وكما خلصت العربية إلى الساحة، استقبلتها تراتيل آخر الليل وهي تشدو:

جز آستان تو ام درجهان بناهي ينست  
سر مرا بجز آين در حواله كاهي ينست  
استمع عاشور إليها بحزن، ثمّ دعا لحارته بالهداية من أعماق قلبه.  
واخترق الممرّ الطويل، ثمّ شقّ سبيله بين القبور، قبور لا تكاد تغلق حتّى تفتح ثانية، ثمّ انتهى إلى الخلاء. غمره تيار خفيف بارد، منعش وودود، ولكنّه قال:

- احبكي الغطاء حولك وحول الولد.  
فقالت متشكّية:

اجتمع عاشور بأسرته الأولى، زينب وحسب الله ورزق الله وهبة الله، وياح لهم بحلمه وعزمته، ثمّ قال:  
- لا تتردّوا فالوقت ثمين.  
ذهلوا جميعًا وارتسم في وجوههم الرفض. وقالت زينب ساخرة:  
- ها هي وسيلة جديدة لتجنّب الموت!  
وقال حسب الله:  
- أرزاقنا هنا، ولا مجال لنا سواء...  
فقال عاشور غاضبًا:  
- لنا سواعدنا، ولنا أيضًا الكارو والحجار.  
فسأله هبة الله:  
- ألا يوجد الموت في الخلاء يا أبي؟  
فقال عاشور وهو يزداد غضبًا:  
- علينا أن نبذل ما في وسعنا وأن نقدم الدليل للمولى على تعلقنا ببركته.

فهتفت زينب:

- أفسدت البنت عقلك!

فقلّب وجهه في وجوههم وتساءل:

- ما قولكم؟

فأجابته حسب الله:

١- عفواً يا أبي، نحن باقون ولكن مشيئة الله  
هأم عاشور في حزن عميق ثمّ غادر المكان.

- ٣٦ -

رفع شيخ الحارة حميدو رأسه عن مكتبه ليرى عاشور واقفاً أمامه مثل الطود فسأله بحدّة:

- ماذا تريد يا عاشور؟

وقبل أن يجيبه عاشور قال:

- حدّثني ابنك حسب الله عمّا عزمته والله في خلقه شئون.

فقال عاشور بهدوء عجيب:

- جئتكم لتدعو الناس إليه بنفسك فهم أجدر أن

يسمعوا لك!

فصاح شيخ الحارة:

وقالت له فلة:

- حتى الجنة لا تطاق بلا ناس وبلا عمل...

فلم يعترض ولكنه قال:

- نحن مطالبون بالصبر...

وقت طويل من وقته مضى في العبادة. ووقت طويل مضى في تذكر أسرته هناك وأهل حارته، حتى قال لزوجته مرة:

- ما أحببت الناس قط كما أحبهم اليوم.

وكان يحظى بنصيبه من النوم في النهار ويسهر بالليل بطوله. وترامت تأملاته حتى شعر شعورًا عجيبيًا بأنه عمًا قريب سيعلم أصواتًا ويرى أشباحًا. بات صديقًا للنجوم وللنجم. وقال إنه من ربه قريب، لا يحجزه عنه شيء، وأنه لا يدري لم يستسلم أهل حارته للموت؛ ولا لم يقرؤن بعجز الإنسان، أليس الإقرار بعجز الإنسان كفرًا بالخالق؟ واشتبك في أحاديث صامته لا نهاية لها مع ماضيه، الشيخ عفرة، ست سكيته، الناطوري، زينب، وأحاديث هيمة حزينة مع حسب الله ورزق الله وهبة الله. حسب الله كان مرشحًا دائمًا لصداقته فيا للخسارة. رزق الله لا خير فيه ولكنه ذكي، أما هبة الله فتمتلق بآمه بدرجة لا تليق. على ذلك فهو يقر بأنهم خير من كثيرين من أضراهم، ودعا لهم ولائمهم طويلًا. ولاحت له حارته مثل جوهرة غارقة في الوحل. إنه الآن يحبها حتى بسوءاتها ولكن ثمة فكرة تتسلل إليه خلال عباداته المتواصلة بأن الإنسان يستحق ما يعاناه الوجهاء والخرافيش ودرويش يدورون حول محور منحرف يرغب حقيقة في القبض على سره الماكر العسير. وها هو الله يعاقبهم جميعًا كأنما قد ضاق بهم! ورغم ذلك يشمل الفجر بغطته الوردية، ويرقص شعاع الضياء في مرح أبدى! إنه على وشك أن يسمع أصواتًا، ويرى أشباحًا، إنه يتمنح عن ميلاد جديد.

- ٣٩ -

وثمة فرصة سنحت ليملاً قلب فلة بالإيمان. إنها امرأة صغيرة جميلة لا دين لها. لا تعرف الله ولا الأنبياء ولا الثواب ولا العقاب. يحفظها في هذه الدنيا المرعبة

- لا حي موجود.

- الله موجود.

- أين نقف؟

- عند سفح الجبل.

- هل نتحمل جوّه؟

- أقوى مما تتحمله التلال، وتوجد ثمة كهوف...

- وقطاع الطريق؟!

فقال هازئًا:

- فليقدم من كتب عليه الهلاك!

وراحت الكارو تتقدم والظلام يخف. تذبذب الظلمة في ماء وردى شفاف فتتكشف عوالم في السماوات والأرض. تنساب منها ألوان عجيبة متداخلة حتى اصطبغ الأفق بحمرة نقيّة متباهية، تلاشت أطرافها في زرقة القبة الصافية، وأطل من وراء ذلك أول شعاع مغسول بالندى. وتراءى الجبل شاهقًا، رزينًا، صامدًا، لا مبالًا. هتف عاشور:

- الله أكبر...

ونظر نحو فلة وقال مشجعًا:

- انتهت الرحلة...

ثم وهو يضحك:

- بدأت الرحلة!

- ٣٨ -

قضى عاشور وأسرته في الخلاء ما يقارب الستة الأشهر.

لم يكن يغادر موقع الكهف إلا ليحضر ماء من حنيفة الدراسة أو يتتاع علفًا للحمار أو بعض الضرورات في نطاق ما يملك من مدّخر قليل. واقتربت فلة أن تباع قرطها الذهبي ولكنه رفض. وأخفى عنها أسباب زهده. لقد جاءته والقرط في أذنيها فهو من مال حرام جاء!

وتبدت الحياة في الأيام الأولى نزهة ومغامرة ورياضة، ولم تشعر بخوف في ظل زوجها الجبار. وسرعان ما تبدت خالية مضجرة لا تُحتمل. ماذا؟ هل جئنا نحسب الزمن بديبه المتتابع فوق جلودنا؟ هل جئنا لنعدّ حبّات الرمال والنجوم الساهرة؟



فقال بحزم:

- بل ننتظر حتى أتحقق من الخبر... -

- ٤١ -

رجعت الكارو تشقّ طريقها بين القبور في الهزيع  
الأخير من الليل. طفحت قلوب أصحابها بالسعادة  
تحت النجوم وانتفضت بأمان النجاة. ولما انعطفت إلى  
الممرّ واستقبلتها الأناشيد دمعت الأعين وقالت الأناشيد  
إنّ كلّ شيء سيكون كالعهد به.

ها هي الحارة مستغرقة في النوم، الإنسان والحيوان  
والجهاد. عجيبة في سباتها كما هي عجيبة في يقظتها،  
ولسوف تتندّر به طويلاً. عند مسكن زينب توقّف قلبه  
ولكنّه أشفق من إزعاجهم، وأجل ارتبائه ساعتين.  
من القلوب انسابت قبلات تلمس الجدران والأديم  
والحدود وترقص بالطرب. الموت لا يجهز على الحياة  
وإلا لأجهز على نفسه، ولكن ثمة شعور بالندم والحجل.

وضمتهم أخيراً حجرتهم فامتلات خياشيمهم  
برائحة التراب والعطن. وبادرت فلة تفتح النافذة  
وهي تقول:

- كيف يلقاك الناس يا عاشور؟

فقال بتحدّ كاذب:

- كلّ يعمل بإيمانه!

- ٤٢ -

قبع وراء قضبان النافذة يترقب بصبر انطواء آخر  
ذبول الظلام. ها هو أول ضياء يتطامن فوق الجدران،  
ها هي معالمها تتحدّد كوجه صديق قديم. من أول  
قادم يكون؟... لعلّه اللبان أو خادم من بيوت  
الوجهاء. سيجيبه بصوت يمزق الصمت ويليق من  
السخرية حظه المقسوم. ها هو النور يشعشع في الحارة  
وحثّى دكان الفول لم يفتح.

تراجع متململاً وهو يقول:

- الظاهر أنّ تعاليم الحكومة قد غيّرت من عادات

حارتنا... -

ودسّ قدميه في المركوب قائلاً:

- سأذهب لزيارة الأولاد... -

حبّها وأمومتها. حسن، إنّه يلقي عناء في تعليمها.  
ولولا ثققتها فيه ما صدّقت كلمة واحدة ممّا يقول. تحفظ  
سور الصلاة في عناء. يغلبها الضحك فتخرج من  
الصلاة. وتصلّي اتقاء لغضبه واستجلاً لمرضاته.

وسألته ببراءة:

- لماذا ترك الله الموت يفتك بالناس!

فأجابها بعنف:

- من يدري، لعلهم في حاجة إلى تأديب؟!

فقالت مداعبة:

- لا تغضب مثل الله... -

- متى تهديين ألفاظك؟

- عظيم، ولمّ خلقنا بهذا القدر من السوء؟

فضرب الرمل براحته وتساءل:

- من أنا حتى أجيبك نيابة عنه عزّ وجلّ؟

ثمّ برجاء:

- علينا أن نؤمن به فقط، علينا أن نضع قوتنا في  
خدمته... -

فانسحبت من الحديث جملة وهتفت متشكّية:

- الأيام تمرّ والوحدة ثقيلة أظنّ من الموت.

فحوّل عنها نظريه في صمت. إنّها تنذر بالتمرد.

هل تغادره هاربة بشمس الدين؟ وماذا يبقى له في  
الحياة؟

شمس الدين سعيد. يزحف فوق الرمل، يجلس

ليعبث بالحصى، يعرف النوم ولا يعرف الملل، ينضج

في الهواء والشمس، يجد غذاءه الطبيعي متوافراً.

الحمار أيضاً سعيد، يأكل، ينعم براحة كبيرة، يش

الذباب بديله، يبيم في ملكوته مزوّداً بصبر لانهائي.

ويرمقه عاشور بعطف وتقدير. إنّه صاحبه ورفيقه

ومصدر رزقه، وبينهما مودة راسخة.

- ٤٣ -

وتمضي الأيام، يقتربون من حافة الانهيار.

وذات يوم قال لها عقب عودته من الدراسة:

- يقولون هناك إنّ الهلاك يولي مدبراً.

فصفت فلة وصاحت:

- لارجع في الحال... -

لم يجبه أحد.

- ٤٣ -

وراح يصيح دون توقّف، وبلا جدوى...  
وقهقه كالأبله ثمّ تساءل:  
- منذا يسمع أناشيدكم اليوم، ألا تعلمون؟

- ٤٥ -

قال لفلة وهو يجفّف دمه:  
- لا حيّ في الحارة!  
رأى في حمرة عينها أنّها فطنت إلى الكارثة بطريقة  
ما. سمعها وهي تقول منتحبة:  
- من الخلاء إلى الخلاء يا عاشور...  
وراح يتأوّه فقالت:  
- فلنهاجر إلى مكان معمور.  
فنظر إليها بحيرة وصمت فتساءلت بحدّة:  
- أنبئني في هذه القرافة؟  
فتمتم بفتور:

- سنتجوّل فوق عربتنا، لن تبقي في البيت، أما  
المأوى فلا مأوى لنا إلا هنا...  
صاحت:  
- بيت في حارة خالية!  
فصاح بغضب:  
- لن تبقى خالية إلى الأبد!

- ٤٦ -

لا حزن يدوم ولا فرح.  
عاد عاشور إلى ممارسة عمله كسوّاق كارو. وكان  
ياخذ معه فلة وشمس الدين النهار كلّه وشطراً من  
الليل، ثمّ يأوون إلى البدروم في كتف الرجل  
العملاق.

أدرك عاشور أنّ الحارة أصبحت منسيّة في غمار  
المسؤوليات التي واجهت الحكومة بسبب انتشار الشرطة  
في جميع الأحياء. لا أحد يدري به في هذا الركن  
الضائقي ولكنهم سيأتون، يوماً ما سيأتون. سيجيء  
أناس من هنا وهناك وستردّد الأنفاس من جديد  
وترسل دفثها في البقاع.

وكلمًا خرج مبكراً ليعدّ العربة جذبت عينيه دار

انطلق في خلاء، بين أبواب ونوافذ موصدة، إلى  
بدروم زينب، دفع الباب فانفتح، وجد نفسه في  
حجرة خالية عبقة برائحة محزنة. الفراش كما هو  
مغطى بطبقة من التراب، والكنبة الوحيدة عليها أشياء  
كالخرق البالية، والمقعد الخشبيّ مقلوب على مسنده،  
وتحت الفراش تكوّم الحلّة والأطباق والكانسون  
ومقطف مملوء بالفحم إلى منتصفه. والسحارة ليست  
خالية، توجد بها الملاءة وجلباب ومشط ومرآة  
ومنشفة.

- هاجروا؟... ولكن لم يتركوا الملابس!؟...  
عبثًا حاول أن يدفع البلوى أو أن يؤجّل تجربتها.  
ضرب جبينه براحته. تأوّه. أجهش في البكاء. قال إنّ  
سيعلم من الآخرين الخبر، وإنه لم يفقد بعد الأمل.  
غادر المكان مترنّحًا...

- ٤٤ -

اندفع في الحارة حتّى مطلعها عند الميدان. يا له من  
صمت ويا له من خلاء! لا باب مفتوح ولا نافذة.  
تقدّم ببطء وذهول. الخيّارة مغلقة، البيوت، الوكالة،  
القهوة، لا نائمة، لا قطة ولا كلب، لا رائحة لحياة،  
الدور التربة غارقة في نفس الفناء.  
الشمس ترسل أشعتها بلا جدوى، هواء الخريف  
يتموّج في فتور وبلا هدف.

وصاح بصوته الأجنّس الباكي:

- يا هوه!... يا أهل الله...

فلم يجبه أحد. لم تفتح نافذة. لم تثرثب رأس من  
حجر. ليس سوى صمت اليأس العنيد، والرعب  
المتحدّي، والقهر الصليد.

اخترق القبو إلى الساحة فطالعه التكيّة كما هي  
دائمًا. رنت إليه أوراق التوت فرأى رحيقها يسيل دماً.  
سكتت الأناشيد وتلقّعت بطيلسان اللامبالاة. رنا إليها  
طويلاً والحزن يعصف بجذور قلبه ودموعه تسيل.

وبصوت كالرعد صاح:

- يا درويش!

خيّل إليه أنّ غصون الأشجار تميد من صوته ولكن

وننام فوق هذا الفراش، ليلة واحدة نعود بعدها إلى الكارو. . .

- ٤٨ -

لكنها لم تكن ليلة واحدة.  
كانا يغادران الدار فجرًا ثم يتسللان إليها مع الليل. في النهار تمضي بهما الكارو من حيّ إلى حيّ، يتناولان طعامهما عدسًا وفولًا وطعميّة، وفي الليل يرفلان في الثياب القطنية والحريرية، يستريحان في السلامك الداخليّ أو فوق الدواوين، وينامان فوق فراش وثير يُصعد إليه بسلم قصير من الأبنوس. وتتحسّن فلّة الستائر والوسائد والطنافس براحتيها وتهتف:

- لم تكن حياتنا إلا كابوسًا. . .

وتبتدى لها الحارة، في الليل من المشريّة ظلمة وهيكل أشباح غارقة في التعاسة فيتمتم عاشور في أسي:

- حكمة الله تعزّ على العقول!

فتجيبه بتحدّ:

- ولكّنه يهب الرزق لمن يشاء. . .

ويبتسم متسائلًا حتّى متى يدوم هذا الحلم؟ ولكنّها كانت تفكّر في أمور أخرى فقالت:

- انظر إلى التحف حولنا، لا شكّ أنّها غالية الثمن، لمّ لا نبيع بعضها لتأكل مثلها نعيش؟  
فقال بإشفاق:

- ولكّنه مال الغير. . .

- لا صاحب له كما ترى، هو رزقنا من الله. . .  
وتفكّر عاشور مليًا. زحف عليه الإغراء كما يزحف النوم على المكدود. وصمّم على أن يجد لأزمته حلًّا.  
واهتدى إلى حكمة جديدة فقال:

- المال حرام ما لم يُنفق في الحلال!

فقالت متوتّبة للخصام:

- هو رزقنا يا عاشور، وما نريد إلا أن نأكل. . .

ومضى يذرع السلامك حائرًا، ثمّ تمتم:

- هو حلال ما دمنا ننفقه في الحلال!

البنان، تعجبه هامتها الأرجوانية وضخامتها المهيبة وأسرارها المنطوية. ماذا بقي في الداخل؟. . . ألا يوجد من آل البنان من يهّمه استردادها؟

ويرسخ الإغراء في أعماقه وينفث أحلامًا سحرية. كما اشتاق يومًا إلى الأطلاق على أسرار التكيّة. غير أنّ دار البنان قريبة ولا حيّ سواه في الحارة. ليس بينه وبين تحقيق الحلم إلا حركة، حركة مغلفة بالأمان.

- ٤٧ -

هزّ منكبيه العريضين استهانة ودفع الباب فانفتح. التراب يغطّي الفسيفساء، كما يغطّي أرض السلامك الرخامية. التراب هو ما يسود في كلّ مكان. وقف عند مدخل البهو مرتاحًا. إنّه ميدان يا عاشور. سقفه عالٍ جدًّا لا تبلغه رموس الجانّ. في وسطه نجفة مثل قبة الغوري ومن أركانه تتدلّى القناديل. على جوانبه أرائك مغطّاة بالسجاجيد المزركشة، كما تغطّي جدرانها بالحصر الفاخرة وأطر الآيات المدهّبة.

ترامى إليه صوت فلّة وهي تنادي فجرى نحوها. رمقته بذهول. تساءلت:

- ماذا فعلت؟

فأجاب بحياء:

- أمنية طارئة حققتها!

- ألا تخشى أن يعلم أصحابه؟

- لا صاحب له. . .

تردّدت تلعب بها الأهواء ثمّ أشارت إلى الكارو وقالت:

- تأخّرنا. . .

فقال بحياء أشدّ:

- إني أدعوك للمشاهدة يا فلّة. . .

أمضيا النهار في التنقل من حجرة إلى حجرة. وقفا طويلًا في الحّمّ والمطبخ، جرّبا الجلوس على دواوين ومقاعد وأرائك، طفر الجنون من عيني فلّة الجميلتين، قالت:

- نبيت ليلتنا هنا. . .

صمت عاشور وهو يعاني ضعفًا أشدّ فقالت:

- نستحمّ في الحّمّ العجيب، نرتدي ثيابًا جديدة،

ترامت إلى أذنيه حركة غريبة آتية من ناحية الخمارة!  
كان في طريقه إلى الحسين فتوقف. رأى عمّالاً  
يرتمون المكان ويعدّونه لحياة جديدة. مال نحو المدخل  
ثمّ تساءل بصوت مرتفع:

- لحساب من تعملون؟

فجاءه صوت من ركن مظلم إلى يمين الداخل  
يقول:

- لحسابي أنا يا سيّد الحارة!

وبرز درويش من الظلام فترأى أمامه. دهمته  
قشعريرة مفاجأة مختلطة بوثة غضب. هتف:

- أنت حيّ يا درويش!

فقال حائناً رأسه بامتنان:

- بفضلك يا سيّد الحارة!

ورآه في حاجة إلى إيضاح فقال بنبرة لم تخلّ من  
سخرية:

- عملت بحكمتك فهاجرت إلى الخلاء، لم أكن  
بعيداً عنك طيلة الوقت...

فصمّم على مواجهة الموقف بالقوة الضرورية فقال:

- لن أسمح بفتح البوطة!

- إنك سيّد الحارة ووجهها الأوحده ولكنك لست

القانون ولا الفتوة!

فسأله بحنق:

- لمّ لا تذهب إلى أيّ حارة أخرى؟

- هنا وطني يا سيّد الوجهاء...

وتبادلا نظرة طويلة حتىّ قال درويش:

- بل إنّي أتوقّع أن يشملني إحسانك العميم!

ها هو يخطّط للابتزاز وأرعشه الغضب فسحبه من  
يده إلى الخارج ثمّ قال له:

- لعلّي لا أستطيع أن أغلق خمارتك ولكنني لن  
أخضع لأيّ تهديد...

- ولكنك تجرّد على كلّ محتاج؟!

- في سبيل الخير أعطي لا في سبيل الشرّ.

فقال بنبرة ذات مغزى:

- إنك حرّ في «مالك» يا سيّد الحارة!

وضغط على «مالك» ضغطاً موحياً فرفع عاشور

وبمرور الأيام هان كلّ شيء فأصبحت إقامة عاشور  
وأسرته بدار البنان دائمة. سرح الحمار في الفناء  
الخلفي، وووريت الكارو في البدروم. خطر عاشور في  
الدار مثل الوجهاء، بعمامة مقلوطة وعباءة فضفاضة،  
وعصا ذات مقبض ذهبيّ. وتجلّت فلة في نضارة النعيم  
كأجل هانم عرفتها الحارة، أمّا شمس الدين فكان  
يبول على سجّاد شيرازيّ يقدر ثمنه بالمئات. وشاع  
الدفء في المطبخ، وتطايرت منه روائح اللحوم  
بأنواعها.

وبضفيّ الأيام أخذت الحياة تتسرّب إلى الحارة. جاء  
حرافيش فأووا إلى الخرابات. وكلّ يوم يعمر بيت  
بأسرة جديدة. ومضت الدكاكين تفتح أبوابها. تردّدت  
أنفاس الحياة، ارتفعت الحرارة، تجاوبت الأصوات،  
هلّت الكلاب والقطة، عادت الديكة تصيح في  
الفجر، ولم تبق خالية إلاّ دور الأغنياء.

وعُرف عاشور بوجه الحارة الوحيد. يشار إليه  
بإكبار، ويقال بإخلاص:

- سيّد الحارة...

وشاع أنّه الوحيد الذي نجا من الشوطة، فأطلق  
عليه «عاشور الناجي». وتحمّس الجميع لإغداق الثناء  
عليه لجوده وإحسانه وعطفه. كان راعي الفقراء،  
يتصدّق عليهم، ولم يقنع بذلك فكان يشتري الحمير  
ويسرح بها العاطلين، أو يتناع لمن يريد عملاً السلال  
والمقاطف وعربات اليد، حتىّ لم يبق عاطل واحد في  
الحارة عدا العجزة والمجاذيب.

الحقّ أنّه لم يُعرف عن وجهه من قبل مثل ذلك.  
لذلك رفعوه إلى مرتبة الأولياء، وقالوا إنّ لذلك نجاه  
الله من دون الآخرين.

وهذا عاشور واستكنّ ضميره الحيّ. وشرع في  
تحقيق أحلام كانت تراوده من قبل، فجاء بععمال  
لتنظيف الساحة والممرّ، وتطهيرها من تلال الأتربة  
والزباله. وشيّد حوض مياه الدوابّ، والسبيل،  
والزاوية، تلك المعالم التي رسخت في وجدان حارتنا  
مثل التكيّة والقبور والقبور العتيق، وبها وبه  
صارت الحارة جوهرة الحيّ كلّه.

- ٥٢ -

وأشرقت الشمس من جديد في أعقاب ليلة عاصفة باردة. ها هو دكان شيخ الحارة يفتح أبوابه، ويحلّ به شيخ جديد عمّ محمود قطائف. أدرك الناس أنّ الحكومة أخذت تفتيق من هجمة الموت فتعيّن أحياء مكان من هلك من عمّالها.

وتفاهل كثيرون بالحدث ولكنّه كان ذا رجوع مختلف في دار عاشور. انقبض قلب عاشور لا شك، وفزعمت فلة فضمت شمس الدين إلى صدرها وتمتمت:

- لا شيء يبشّر.

فتساءل عاشور في قلق:

- أليس ما مضى قد مضى؟

- ولكنك تشاركني مخاوفي يا عاشورا

- ماذا جنينا؟... وجدنا مالا بلا صاحب فأنفقناه فيما ينفع الناس...

- ألا ينذر وجه ذلك الرجل بشراً؟

فغضب عاشور وصاح:

- فلنلق بصاحب المال الأصليّ جلّ جلاله...

فهددت فلة شمس الدين وقالت:

- أمّا أنا فأرغب في أن يمتدّ نهر الخير حتى يسبح فيه هذا الولد!

- ٥٣ -

وقرر عاشور أن يواجه التحديّ بلا تسويف.

مال في طريقه إلى دكان شيخ الحارة ليحييه.

استقبله الرجل بحرارة وهو يقول:

- أهلاً بسيد الحارة وراعيتها...

فشاع السرور في صدر عاشور وقال:

- أهلاً بشيخ حارتنا!

وإذا به يقول:

- أتدري يا معلّم أنّي كنت على وشك الذهاب للقائك؟

فخفق قلبه ولكنّه قال:

- أهلاً بك في أيّ وقت.

- أجدني في حاجة إلى رأي الناجي أحقّ الناس بالكلام عن الحارة المالكة.

منكبيه استهانة وقال:

- قد تسوّل لك نفسك أن تشي بي، وأن تفشي سرّي بين الناس، لهذا ممكن يا درويش، ولكن أتدري ماذا ستكون عواقب ذلك؟

- تهتدي يا عاشور؟

- أعجنك ورأس الحسين حتى لا يُعرف لك رأس من قدم!

- تهتدي بالقتل؟

- وأنت تعرف أنّي على ذلك قادرا

- من أجل أن تستأثر بمال لست صاحبه؟

- إنّ صاحبه ما دمت أنفقه فيما ينفع الناس...

تبادلا نظرة طويلة مرّة أخرى. تجلّى التخاذل في عيني درويش، فقال ملايناً:

- ما أريد إلا أن تجود عليّ مثل الآخرين...

- ولا ملّيم لأمثالك...

وساد صمت فرجع عاشور يتساءل:

- ماذا قلت؟

فتمتم درويش بأسف:

- ليكن، رغم أنّنا أخوان فسنعيش كالغرباء!

- ٥١ -

تلقت فلة الخبر بانزعاج شديد حتى تجهم وجهها العذب بالنعاسة ثمّ قالت برجاء:

- غير معاملتك له، أعطه ما يطعم فيه، أبعده عنّا شيخ الغدر.

فقال عاشور مقطّباً:

- ألم يطهرك هواء الخلاء من الضعف؟

فلوّحت له بخمار من الحرير الدمشقيّ وقالت:

- أخاف على هذا...

فحرّك رأسه بحدة فقالت:

- لم يعد الأمان كما كان يا عاشور...

فقال باستهانة:

- إنّه شرير حقاً ولكنّه جبان...

فقال شيخ الحارة بإشفاق:  
 - تبقى مشكلة واحدة...  
 فتساءل عاشور بعينيه وهو يشعر بأنه وافى شاطئ  
 الأمان. وقال شيخ الحارة:  
 - تريد اللجنة أن تطلع على وثائق ملكيتك لهذه  
 الدار، وبذلك تنتهي مهمتها...  
 اغتيل الأمان بطعنة غادرة، فاحتفظت عينه نظرة  
 من الباب الموارب، وتساءل:  
 - أئمة شك في ملكيتي لها؟  
 - معاذ الله ولكنها الأوامر!  
 فقال بحدة بصوته الخشن:  
 - أريد أن أعرف ما تعنيه أوامرك؟  
 فقال محمود قطائف بصوت منخفض:  
 - اغتصبت بعض دور الهالكين في الأحياء  
 المجاورة!

وغرقا معاً في صمت ثقيل مشحون بالتوجس  
 والريب حتى رفع عاشور صوته قائلاً:  
 - هبها فُقدت في فوضى الموت والهجرة؟  
 فتمتم شيخ الحارة بأسف:  
 - ستكون ورطة أي ورطة!  
 فصاح عاشور غاضباً:  
 - ورطة... ألم تقنع اللجنة بما نهب؟  
 فارتعد الرجل من شدة الصوت وقال كالمعتد:  
 - ما أنا إلا عبد الأمر...  
 - عندك معلومات فصّح بما في نفسك...  
 - المسألة أنّ عضواً من أعضاء اللجنة أعلن بعض  
 التساؤلات...

- عليه اللعنة...  
 - الوثائق تحسم كافة الريب...  
 - ولكنها ضائعة!  
 فقال بلين وخوف:  
 - ستكون ورطة يا معلّم عاشور...  
 عند ذلك اقتحمت الحجرة فلةً نائرة وهتفت غاطبة  
 شيخ الحارة:  
 - لندع اللفّ والدوران.  
 فنهض الرجل مرتبكاً فقالت بصراحة مثل ضربة نبوت:

هكذا دخل محمود قطائف دار عاشور. وجلسا  
 متجاورين على ديوان بالبهو على حين توارت فلة وراء  
 الباب الموارب. احتسبا القهوة وهما يتبادلان كلمات  
 المجاملة حتى قال الرجل:  
 - بحاجة أنا إلى رأي رجل يعدّه الجميع وليّ  
 نعمتهم!

فقال عاشور بفتور:  
 - في خدمتك يا شيخ حارتنا...  
 فترث الرجل قليلاً ثم قال:  
 - تكوّنت لجنة منذ قليل بجرّد دور الأغنياء  
 ومحسوبك عضو فيها...  
 - ليرحم الله من مات.  
 - وقد تبيّن لنا أنّ الدور قد نُهب يا صاحب  
 النجاة!

- ولكن لم يكن بالحارة حيّاً!  
 - ذاك ما كشف عنه الجرد.  
 فقال عاشور بحق:  
 - إنّه لغريب، أسأل الله أن يكون المال قد وقع في  
 يد من يستحقونه؟  
 - يستحقونه؟  
 - أعني الفقراء من أبناء حارتنا.  
 فابتسم محمود قطائف وقال:  
 - هذه نظريّة ولكنّ للحكومة نظريّة أخرى.  
 - وما نظريّة الحكومة؟  
 - الدور تُعتبر ملكاً لبيت المال وسوف تُعرض للبيع  
 في المزاد...!

فحدّجه عاشور بحدة وسأله:  
 - وماذا عن النهب؟  
 فهزّ منكبيه قائلاً:  
 - رأت اللجنة أن تتغاضى عنه منعاً لتعريض  
 الأبرياء للتهم!  
 أدرك عاشور أنّ اللجنة قد نهب الدور، ورغم  
 شعوره بالازدراء فقد استعاد الكثير من طمأنينته، وقال  
 مداعباً:  
 - لعلّ اللجنة تعمل بنظريتي يا شيخ محمود.

القلوب. لأوّل مرّة تحبّ الحارة وتعشق. ووقف عاشور  
في القفص مزهواً بحرارة القلوب من حوله. ولعلّ  
القضاة أعجبوا بعملفته، وبصورة الأسد المرسومة في  
صفحة وجهه. ولم ينس الناس صوته الأجش وهو  
يقول:

- لست لصاً، لم أعتد على أحد صدّقوني، كان  
الموت قد أهلك الحارة، رجعت من الخلاء فوجدتها  
خالية، وجدت الدار بلا صاحب، ألا تستحقّ أن  
توهب للوحيد الذي نجا؟... ولم أستأثر بالمال  
لنفسي، اعتبرته مال الله، واعتبرت نفسي خادماً له في  
إنفاقه على عباده، فلم يعد يوجد جائع ولا متعطل،  
ولم يعد ينقصنا شيء فعندنا السبيل والحوض والزاوية،  
لماذا قبضتم عليّ كاللصوص؟... لماذا تعاقبوني؟  
وقال الناس آمين. وحقّ القضاة ابتسم باطنهم  
طوال الوقت. وحكموا عليه بعام واحد.

- ٥٧ -

رجعت فلة إلى البدروم وهي لا تملك ملياً واحداً.  
وجدت رعاية صادقة. جاءها الطعام، وحمل إليها الماء  
والوقود، وعقب مسكنها بالكلمات الطيبة. وانحسار  
الستر عن سرّ عاشور لم ينل من حبّ الناس له أو  
احترامهم، بل لعلّه خلق منه أسطورة أغنى بالبطولة  
والجود.

ولكنّها قرّرت ألا تعيش على جود المحسنين. وأن  
تعمل في سوق الدراسة بعيداً عن الأعين.

واعترض طريقها درويش وقال لها بخشوع:

- قلبي معك يا أمّ شمس الدين... .

فقال له بحدّة:

- اشمت بنا ما تشاء يا درويش!

فقال لها بحرارة:

- لا دخل لي فيما كان ومحمود قطائف شاهد على

ذلك... .

- ولكنته جاء على هواك... .

- ساحك الله، ماذا أفيد من سجنه؟!

- لا تخف فرحك يا درويش.

فقال متودّداً:

- لن يصعب عليك صعب فلننسو الأمر فيما بيننا... .

فقال الرجل بأسف:

- لو كان الأمر بيدي هان!

ونض عاشور محتدداً وهو يقول:

- لتكن إرادة الله... .

- ٥٥ -

تحدث أمور في السرّ والعلانية. الحارة الغارقة في  
نشاطها الدائب لا تفطن لها. قليلون جدداً من  
يلاحظون أشياء دون أن يرتبوا عليها نتائج ذات بال.  
والقلوب ثملة بالأمال مؤمنة بالضياء.

وذات صباح خرج عليهم عاشور الناجي منكس  
الرأس. بجسمه العملاق ولكنّه منكس الرأس ومكبّل  
اليد بقيد حديديّ أيضاً. هو عاشور الناجي دون  
غيره. يحفّ به جنود، يتقدّمهم ضابط ويسير محمود  
قطائف في ذيل الموكب.

انتشر شرر الدهول الغاضب بين الناس فشدهم  
من الدكاكين والبيوت وملاً بهم النوافذ.

- ماذا نرى!

- ماذا وقع للدنيا؟!

- الرجل الطيب في الحديد!

وهتف الضابط بحدّة:

- أوسعوا الطريق... .

لكنّهم تجمّعوا وراء الموكب وتبعوه كالظلّ حتىّ صباح  
الضابط مرّة أخرى:

- الويل لمن يقترب من القسم!

وجعل درويش الخمار يتساءل عن معنى ما يرى  
ويرفض تصديقه، وبصوت مرتفع قصد أن يسمعه  
عاشور قال:

- ورحمة أخي ما خرجت من لساني كلمة واحدة... .

وتبدّت فلة آية في الجمال والحزن، متورّكة شمس  
الدين، حاملة بقجة، محرّمة العينين من البكاء... .

- ٥٦ -

وكانت محاكمة عاشور من الأحداث المستعصية على  
النسيان. شهدها جمع غفير من الحارة وخفقت لها

## ملحمة الحرافيش ٧٣٥

شأنه . . .  
 وابتسمت فلةً بفتور وقالت:  
 - من أخبارنا التعيسة أن درويش أصبح فتوتنا . . .  
 فقطب عاشور وتمتم:  
 - لن ينفعه ذلك . . .  
 وعجبت فلةً فقد خيل إليها أن عاشور يزداد صحةً  
 ونضارة . . .

## - ٥٩ -

لم ينقطع الناس عن التفكير في عاشور الناجي طيلة  
 مدة سجنه. انتظر الحرافيش على لهف يوم عودته،  
 وعمل آخرون لذلك اليوم ألف حساب. حصن  
 درويش نفسه بالاتباع، وأغدق عليهم النقود من  
 حصيلة الإتاوات المفروضة على العباد. وشجعه على  
 ذلك محمود قطائف قائلاً:

- إن الكثرة تغلب الفرد مهما تكن قوته.  
 وأيده الأعيان خوفاً من حب الحارة للغائب، حتى  
 اتفق الرأي على إخضاعه أو اغتياله.

وتتابعت الفصول، وظلت التكية تشدو بالأناشيد  
 الغامضة، حتى جاء اليوم الموعود.

وتلقت شيخ الحارة فيها حوله وغمغم حانقاً:  
 - ما شاء الله!

رأى الإعلام ترفرف في أعالي الدكاكين والأسطح،  
 رأى الكلوبات تُعلن، رأى الأرض تُفرش بالرمل  
 الفاقع، سمع موجات الأصوات وهي تهدر بتبادل  
 التهاني. وعاد يغمغم:

- كل ذلك من أجل عودة لص من سجنه!  
 ورأى درويش قادماً فسأله:

- هل أعددت العدة لاستقبال الملك؟

فهمس درويش بصوت مضطرب:

- أما علمت بما حدث؟

وقص عليه حكاية العصابة، كيف انقضت من  
 حوله وذهبت إلى الميدان لاستقبال العائد فلم يبق معه

رجل واحد. اصفر وجه شيخ الحارة وتمتم:

- الأوغاد! . . .

وهمس في أذن درويش:

- ساعحك الله، دعي الخصام واقبلي مشورتني . . .

- مشورتك؟

- لا يصح أن تعمل في سوق الدراسة وحدك . . .

فسألته ساخرة:

- عندك عمل أفضل؟

- تحت رعايتي أفضل من العمل وحدك في سوق!

- في البوظة؟!

- مع الحفظ والصبون!

فصاحت به:

- ملعون أنت في الدارين!

وغادرت بلا تحية.

وفي المساء ترامت إليها أنباء بأنه يكون عصابة

لينصب نفسه فتوة للحارة . . .

## - ٥٨ -

ولما زارت عاشور ورأته في لباس السجن اغرورقت

عينها. وتوالت شمس الدين مرحاً حتى تلقى قبلة

أبيه من وراء الحاجز. وسألها عن حالها فقالت:

- أعمل في السوق والحال معدن . . .

وبدا ممتعضاً متمرّداً، وقال:

- الظلم أقبح من السجن نفسه . . .

وأكثر من مرة قال:

- لا أستحق العقاب . . .

وبلغت نبرته غاية الاحتجاج وهو يقول:

- ليس بين المساجين من يماثل درويش في شره . . .

فقالت ساخرة:

- ألا تعلم، لقد دعاني إلى العمل عنده!

- الوغد، وماذا عن شيخ الحارة؟

- يعاملني باحترام . . .

- وغد آخر ولص حقيقي . . .

- أحل إليك تحيات لا عد لها . . .

- مباركة تحياتهم، وكم أتوق إلى سماع

الأناشيد . . .

- سترجع إلى سماعها، أما الزاوية والسبيل

والخوض فأصبحت تُذكر مقرونة باسمك . . .

- بل يجب أن تُقرن باسم صاحبها الحقيقي جل



## خاتمة

وكما توقع الحرافيش أقام فتوته على أصول لم تعرف من قبل. رجع إلى عمله الأول ولزم مسكنه تحت الأرض كما ألزم كلّ تابع من أتباعه بعمل يرتزق منه، وبذلك محق البلطجة محققاً. ولم يفرض إتاوة إلا على الأعيان والقادرين لينفقها على الفقراء والعاجزين. وانتصر على فتوات الحارات المجاورة فأضفى على حارتنا مهابة لم تحظ بها من قبل، فحفّت بها الإجلال خارج الميدان كما سعدت في داخلها بالعدل والكرامة والطمأنينة. وكان يسهر ليله في الساحة أمام التكيّة، يطرب للألحان، ثمّ يبسط راحتيه داعياً «اللهم صن لي قوتي، وزدني منها، لأجعلها في خدمة عبادك الطيبين».

- علينا أن نعيد التفكير لمواجهة الخماسين...

فمضى درويش وهو يقول:

- إنه الفتوة الجديد بلا منازع...

- ومن الميدان ترامى طبل وزمر.

وفي الحال خرج إلى الحارة أهلها نساءً ورجالاً وصغاراً. وتهادت كارو من ذوات العجلات الأربع قد تربّع في وسطها عاشور، تتقدّمها الزفة، ويحديق بها رجال العصابة.

صفقّ الناس وهلّلوا ورقصوا، ومن شدّة الزحام قطعت العربة المسافة بين مدخل الحارة والزاوية في حوالي الساعة.

وتواصل الرقص والطرب حتى فجر اليوم التالي.

وجد عاشور الناجي نفسه فتوة للحارة دون منازع.

# شمس الدين

## الحكاية الثانية من ملحمة الجرافيش

- ٣ -

في الجوّ نسيم رطيب، وذبول شابورة تتلاشى في  
المجهول، وفي الجنبات تتدفق حياة البشر. عمّا قليل  
سيلقى أباه. سيجدّه مستلقياً بلا غطاء. سيعاتبه بما له  
عليه من دأله.

واخترق القبو إلى الساحة. سبقته عيناه وهو يتأهب  
للمحمة اللقاء. ولكنّه وجد المكان خالياً. جال بصره  
فيما حوله في صمت وقهر. الساحة والتكيّة والسور  
العتيق ولا أثر للإنسان. في هذا الموضع يجلس العملاق  
عادة فأين ذهب؟

وألقى على التكيّة نظرة حانقة. هي شاهد لا يدلي  
بشهادته. وتساءل مرّة أخرى «أين ذهب؟».

- ٤ -

لعله يجد الجواب عند غسان أو دهشان أقوى  
مساعدين للرجل. ولكنّها تلقياً السؤال بعجب، وقال  
إنّه يذهب إلى الساحة قبيل منتصف الليل فيمكث  
ساعة أو أكثر، لا يتقدّم ولا يتأخر. وسأل شمس  
الدين:

- ألم يكن هناك ميعاد به ارتبط؟

فنصّبها علمها بأيّ شيء عدا ما ذكر.

وبعد تردّد قصد شيخ الحارة محمود قطائف فتلقّى  
الرجل الخبر بدهشة، وراح يفكر ويفكر ثمّ قال:

- لا تقلق لغياب الأسد، عذره معه، وسيرجع قبل

الضحى . . .

- ١ -

في ظلّ العدالة الحنون تطوى آلام كثيرة في زوايا  
النسيان. تزهو القلوب بالثقة وتمتلئ برحيق الموت.  
ويسعد بالأحان من لا يفقه لها معنى، ولكن هل  
يتوارى الضياء والسما صافية؟

- ٢ -

لأوّل مرّة تستيقظ فلّة فلا ترى عاشور جنبها يغطّ  
في نومه. فقلقت عينها المقلتان بالنوم وانقبض  
صدرها. استعادت بالله من همسات الغيب في القلب  
العاشق، وأسفر عالمها العذب عن خلاء. أين الشابّ  
العجيب البالغ السّتين من عمره؟ القويّ النشط  
الفاحم الشعر؟ هل غلبه النوم في سهرته الليلية أمام  
التكيّة؟

ونادت شمس الدين حتّى فتح عينيه متدمّراً.  
طالعتها بوجهه الجميل متسائلاً، فقالت له:

- أبوك لم يرجع من سهرته!

ولما استوعب قولها أزاح عنه الغطاء ونهض بجسمه  
الرشيق المائل إلى الطول، وبقلق غمغم:

- ماذا حدث؟

فقالت تتحدّى هواجسها:

- لعلّ النوم قد غلبه . . .

تجلّت رشاقته أكثر وهو يرتدي جلبابه، ووسامته  
المكلّلة ببراءة الشباب الأوّل. ومضى وهو يقول:

- كيف يطيب السهر في فجر الحريف؟!

- ٥ -

القهوة والبوظة والغرز. ولم ينم من أسرته أو رجاله  
أحد. وتأوّمت فلّة قائلة:

- ما أكثر الرجال وما أقلّ الحيلة... .

فتساءل شمس الدين بحزن:

- هل أغفلنا بابًا أو تهاونًا في عمل؟

فتركت دموعها تسيل وقالت:

- قلبي رفض من بادئ الأمر أن يُجَدِّع بالأمل... .

فصاح بحق:

- إني عدوّ القلوب الضعيفة المتشائمة، ما كان أبي

لعبة ليُختطف، ولا كان غرًا ليمضي إلى شرك بلا

حذر، وما يجزني إلا انسداد السبل... .

- ٨ -

وفي ضحى اليوم التالي اجتمع رجال عاشور في  
القهوة، بينهم شمس الدين وفلّة، وانضمّ إليهم محمود  
قطائف شيخ الحارة وحسين قفّة إمام الزاوية. لفّتهم  
الحيرة جميعًا وغطّت قلوبهم بالندر. وساورتهم مخاوف  
ولكن لم يجرأ أحد على التصريح بما يساوره. وقال  
دهشان:

- معلّمنا لم يخرج عن عاداته مرّة طوال عشرين  
سنة.

فقال الشيخ حسين قفّة:

- في الأمر سرًّا

فقال غسان:

- لا يخفي عنّا سرًّا.

وقالت فلّة:

- ولا عني من باب أولى.

فتساءل حسين قفّة:

- ألا يكون قد انضمّ إلى التكيّة؟

فارتفع أكثر من صوت يقول:

- خيال لا يقبله عقل... .

فقال محمود قطائف:

- قلبي يحدّثني بأنّه سيظهر فجأة ما اختفى

فجأة... .

فقالت فلّة بنبرة باكية:

- لا يوجد أمل!

وخذلت فلّة إرادتها فهتفت:

- أفرع إليك يا ربّي من قلبي ومخاوفه... .

وجلس شمس الدين بين رجال أبيه في القهوة  
يتناقشون ويتظرون، ينظرون نحو القبو تارة ونحو  
مدخل الميدان تارة أخرى. وانتشرت سحائب الخريف  
مفضّضة بالنور المستر. وانتصف النهار ولم يظهر  
لعاشور أثر. عند ذاك تفرّق الرجال في شتى الأنحاء  
وراء شهادة أو خبر. وعرفت الحارة الواقعة فاشتعلت  
بها، وشغلتها عن الرزق والكدح.

- ٦ -

ومما الخبر إلى الأعيان والتجار فدهمهم الدهول.  
وتفتّى في جوهم سحر كالمعجزة. أجل فعندما  
تستحكم القبضة ولا يوجد منفذ واحد للأمل، تؤمن  
القلوب القانطة بالمعجزة، ولولا الإشفاق من خيبة  
عاجلة لأسدلوا الستائر وجهروا بالشماتة والفرح. ماذا  
ينقذهم من سطوة الجبار وشبابه المتجدّد وإرادته  
الحديديّة إلا معجزة؟ أفليدم الغياب، ولتطوّر  
الأسطورة، ولينقلب الوضع إلى الأبد!

وسعى درويش الحّار إلى محمود قطائف وسأله:

- أين ذهب الرجل؟

فقال شيخ الحارة بنبرة ساخرة:

- وهل أنا على الغيب مطّلع؟

فحرّك درويش رأسه الأبيض وتمتم:

- ثمة احتمال لا يجوز أن يغيب وهو ضعفه المباحث

أمام النساء!

فابتسم محمود قطائف بازدياء ولم يعلّق فواصل

الأخر:

- كنت أحسب له للبقاء مائة سنة!

فغمغم شيخ الحارة:

- ويخلق ما لا تعلمون.

- ٧ -

وهبط المساء، وسابت أمواج الليل برودة غير  
متوقّعة، ولم يظهر لعاشور الناجي أثر. وغشيت الكآبة

## ملحمة الخرايش ٧٣٩

اعتقد قوم أن درويش غدر بالرجل في مجلس السماع  
ثم سحبه إلى القرافة فدفنه في قبر مجهول. وأصرّ أناس  
رغم اليأس على أنه سيرجع ذات يوم هازئًا من كافة  
الظنون. ومن شدة الحزن تصوّر آخرون أن اختفاه  
كرامة من كرامات الأولياء.

ومضى سحر العادة القاسي يفعل فعله بالخطب،  
يعاشره ويألفه ويهونه، ويدفعه في تيار الأحداث  
اللانهاية فيذوب في عيائها.  
لقد اختفى عاشور الناجي.  
ولكنّ الزمن لن يتوقف وما ينغي له...

- ١١ -

وكان لا بدّ من اختيار فتوة جديد للحارة قبل أن  
ينفطر نظامها أو تدوسها أقدام الحارات المتربصة.  
وانحصر الاختيار بين غسان ودهشان باعتبارهما أقوى  
الرجال وألصقهما بالناجي، ولم يلتفت إلى شمس  
الدين لحداثة سنّه ونعومة مظهره. وانحاز رجال لكلّ  
رجل فتقرّر أتباع ما يتبع عادة في هذه الأحوال، وهو  
أن يتصارع المتنافسان في صحراء المهالك، ثم يتوجّ  
الفائز فتوة للحارة.

تلقت فلة تلك الأنباء، ورأت شمس الدين وهو  
يرتدي جلبابه استعدادًا لشهود المعركة ضمن الأتباع  
ففاضت دموعها وراحت تندب حظّها. وضاق الشاب  
بذلك فقال:

- لا يمكن أن تعيش الحارة بلا فتوة.

فتساءلت بحدة:

- وهل تخلف القطط الأسود؟

- لا حيلة أمام قضاء الله.

- سوف ترتدّ الفتوة إلى عهد البلطجة والطفغان.

فقال الشاب بحرارة:

- ليس من اليسير النكوص عن تراث الناجي...

فتنهّدت وقالت وهي تخاطب نفسها:

- أمس كنت رغم الفقر السيّدة، ومن الغد سأكون  
الأملة الحزينة المهجورة، أبتهل للمجهول بلا أمل،  
أحلم بالفراديس المفقودة، أنزوي عند الأفراح، أخاف  
الظلام، أحذر الرجال، أتهبّ النساء، ولا صديق إلا

وعند ذاك صباح دهشان:

- لعله الغدرا

وخفقت القلوب وتطاير من الأعين الشرر فعاد  
دهشان يقول:

- حتى الأسد يجري عليه الغدر...

فصاح محمود قطائف:

- الصبر الصبر يا رجال، لا يوجد بحارتنا كاره

واحد لخير من حملت الأرض...

- يوجد كارهون وغادرون!

- احذروا الفتنة واصبروا والله شهيد...

- ٩ -

وكان درويش يقدم قرعة لسكّير قبض الرجل على  
ذراعه وهمس في أذنه:

- سمعت الرجال وهم يقولون إنه لا يغدر بعاشور  
إلا درويش!

ففزع الخمار وهرع إلى دكان محمود قطائف وأفضى  
إليه بما سمع وهو يرتعد من الذعر حتى ضاق به شيخ  
الحارة وقال له بحدة:

- لا تفعل كالنساء.

- كيف أتهم وأنا لا أغادر البوطة ليلاً ونهاراً؟!

فتفكّر شيخ الحارة ملياً وقال له:

- اهرب... لم يعد أمامك إلا الهرب.

وقد اختفى درويش زيدان نجاة، فلم يعد يُعرف  
إن كان هرب أم قُتل، ولم يسأل أحد عنه، وتجاهله  
محمود قطائف تماماً، وما لبث أن حلّ محلّه عليه أبو  
راسين بياع المنزول وكانّ درويش لم يكن...

- ١٠ -

ومضت الأيام لا تحمل بصيصاً من أمل. تسير  
بطيئة ثقيلة مسرّبة بالكآبة. ويش كلّ قلب من أن  
يرى من جديد عاشور الناجي وهو يمضي بهيكله  
العملاق، يكبح المتجبرين ويرعى الكادحين وينشر  
التقوى والأمان.

وترتدي فلة الحداد، ويبكي شمس الدين بلا  
حساب، ويفرق الأعوان في الحزن والتفكير. وقد

الإهمال والنسيان . . .

فقال بعتاب:

- ولَكُنِّي لم أمت بعد يا أمي!

- فليمدَّ الله في عمرك حتى تلعن الحياة، ولكنَّه تركك يافعًا، سواق كارو، لا مال ولا جاه، ولا عملقة تضمن لك الفتونة . . .

فتمتم في كتابة:

- أن لي أن أذهب، أستودعك الحي الذي لا يموت.

وتأبَّط عصا أبيه العجاء وذهب.

- ١٢ -

نشأ شمس الدين في مسكن متشَّف فلم يعرف من الحياة إلا البساطة والكدح. لم تحتفظ ذاكرته بصورة واحدة من دار البنان السامقة. وكان عاشور يتملَّ وجهه الوسيم، المقتبس من وجه أمه، ويقول باسمًا:

- لن يصلح هذا الولد للفتونة . . .

وأرسله إلى الكتَّاب، وسكب في قلبه أعذب ألحان الحياة، ولم يهمل جانب القوَّة فعلمه ركوب الخيل واللعب بالعصا والمصارعة وإن لم يفكر أبدًا في إعداده للفتونة. ولما درج شمس الدين في الوعي بنفسه وبما حوله، أدرك سطوة أبيه غير المحدودة، وسرعان ما ارتطم بالتناقض الحادِّ بين «عظمته» وبين حياته الفقيرة الكادحة. وقال له مرَّة عند قدوم عيد:

- أريد يا أبي أن أرتدي عباءة ولثة . . .

فقال عاشور بحزم:

- ألا ترى أنَّ أباك لا يرتدي إلاَّ الجلباب؟

وكانت فلة تضييق بالحياة مثل ابنها، وكانت تقول لعاشور على مسمع من شمس الدين:

- لو أخذت من الإتاوات ما يضمن لك حياة كريمة ما لامك أحد . . .

فيقول لها عاشور:

- بل عليك أن تربيَّ الدجاج لتهيي حياتنا شيئًا من اليسر المشروع . . .

ثمَّ يقول مخاطبًا شمس الدين:

- لا قيمة لبريق في هذه الحياة بالقياس إلى طهارة

الضمير وحبِّ الناس وسباع الأناشيد . . .

ودرَّبه على الكارو، وتبادلا العمل عليها، وكما شارف السَّتين تركها له أكثر الوقت. وكان شمس الدين يعجب بأبيه ويحلمه، ويحمن في الوقت ذاته إلى الحياة السائغة، ويؤيد أحيانًا أماني أمه الجميلة، ويدافع من هذه الرغائب الكامنة قَبْلَ بسلامة نيَّة «عديَّة» قدَّما له صاحب الوكالة، فبادر إلى شراء عباءة ولثة ومركوب، وخطر مزهواً بها صباح يوم العيد. وما إن رآه عاشور حتى أخذ من تلاببه إلى البدرور ثمَّ لطمه لطمة دار بها رأسه وصاح به:

- يتسلَّلون إليَّ من ثغرة ضعفك بعد أن أعيتهم

إرادتي الصلبة . . .

وألزمه بردَّ الملابس إلى البائع ثمَّ بردَّ العديَّة إلى صاحب الوكالة. وأدرك شمس الدين أنَّه لا يقبل له بغضب أبيه، وخجل من نفسه، وخلدته أمه فلم تجرأ على الدفاع عنه أو الوقوف إلى جانبه.

ولكُنَّ الحَبَّ - لا العنف - كان ما يربط شمس الدين بأبيه، فكان تلميذه ونجيِّه وصديقه، وتشبَّع بكلماته وبمثاله وبتقواه ونزوعه إلى الألحان والنجوم، ومضى بالكارو فخورًا، وقاهرًا لنزعات الضعف التي تومض بين الحين والحين في أعماقه.

ورغم الفقر كان الحَبَّ والإجلال يحفَّان بهم حيثما ذهبوا فهل يستمرُّ الحال كما كان؟

ها هي أمه ترنو إلى الغد بأعين طافحة بالهواجس!

- ١٣ -

في صحراء الممالك الوحشيَّة المترامية لاح الرجال كحفنة من رمال. أرض الهارين وقطاع الطرق، ماوى الجنِّ والزواحف، مقبرة العظام المطمورة. غسان يتقدَّم هلالًا من رجال، يقابله غير بعيد دهشان ورجاله. الأعين تترامق تحت أشعة شمس محرقة وتتلقي من لظى الرمال جحيبًا . . . الخلاء المحيط يرنو بعين باردة ساخرة قاسية منذرًا المنهزم بالضياع الأبدي.

أقبل شمس الدين هادئًا، اختار موقفه في مركز بين الجماعتين، معلنًا حياده، ومعلنًا في الوقت ذاته

## ملحمة الحرافيش ٧٤١

يجهد كل للنفاد إلى ملمس فيقابل بالصدّ والردّ والإفلات، ويستحرّ الهجوم والخذل والإصرار، وتبارك الشمس النضال بجحيمها المستعر.

وبحركة خاطفة مباغثة يعمي الخلد فيلمس نبوت غسان ترقوة دهشان.

وتعنف جماعته بحماس متقد:

- غسان... غسان... اسم الله عليه!

وتراخي دهشان وهو يلهث ويتجرّع الأسى. ومدّ له

غسان يده وهو يقول:

- نعم الأخ أنت!

فشدّ عليها دهشان وهو يتمتم:

- ونعم الفتوة أنت!

وردّدت الأفواه بنبرة منغومة:

- اسم الله عليه... اسم الله عليه...

ودار غسان حول نفسه في رشاقة وسعادة وهو

يتساءل:

- هل من معترض؟!

استبقت الحناجر إلى المبايعه. ولما هدأت العاصفة

ارتفع صوت يقول:

- إنّي أعترض يا غسان.

- ١٤ -

انجذبت الأنظار نحو شمس الدين في ذهول. كان يقف بقامته الرشيقه المائلة للطول، رافعاً وجهه الوسيم، ويشرته بأشعة الشمس تحترق. تتم غسان:

- أنت يا شمس الدين؟

فأجاب به بثبات:

- نعم يا غسان...

- أتطمع حقاً في الفتوة؟

- هي واجبي ومصيري.

فقال شعلان الأعور بإشفاق:

- أبوك نفسه لم يعدك لها!

- تعلمت أشياء، وعرفت أشياء لا يستثمرها مثل

فتوة!

- الخير وحده لا يكفي!

فلعب شمس الدين بنبوت أبيه في رشاقة خلابة،

استعداده للانضواء تحت راية المنتصر. رفع يده تحية وقال بصوته الجمهوري الخشن الذي لم يرث عن عاشور سواه:

- سلام الله على رجال حارتنا.

فتمتمت شفاه جافة من التحفّز والإصرار:

- سلام الله على ابن العظيم الطيّب.

وتذكّر شمس الدين أنّ أحدًا من الفريقين لم يسع

إلى ضمه إليه ولا إلى نيل بركة أمه. أجل ففي ميدان

الصراع الوحشي لا يُكترث بالنساء ولا بالياضين...

وانضمّ شعلان الأعور إلى موقف شمس الدين وهو

فتوة متقاعد بالكبر ويقوم من الجماعة مقام الناصح

الأمين. قال شعلان يمهّد للمصارعة:

- سيبدأ الصراع بين غسان ودهشان فليتذكّر كلّ

واحد من الجماعة واجبه...

وحرك يده محذراً وواصل:

- يلزم كلّ مكانه، يرضى بما وقع، وخرق العهد

معناه الضياع للجميع...

لم ينبس أحد، ظلّ الخلاء يرنو بنظرته الباردة

القاسية الساخرة، ونعق غراب في القبة الصافية، فعاد

شعلان الأعور يقول:

- للفائز الحق، وعلى الجميع الطاعة وأولهم

الخاسر.

استسلمت الجباه المبلة بالعرق للمقادير ولم تعترض

فخاطب شعلان غسان متسائلاً:

- تعهد بالطاعة إذا الآخر انتصر؟

فقال غسان:

- أتعهد والله شهيد.

- وأنت يا دهشان؟

- أتعهد والله شهيد.

فقال شعلان:

- اللمة كافية لتقرير النصر، والخذل الخذر من

عنف لا يورث إلا الضغينة.

وأسعت الدائرة فاقتصررت الحلقة على غسان

ودهشان. جسنان متينان يلعبان بالنبوت لعب الحواة

ويتحفّزان. وثب غسان إلى الأمام فانقضّ عليه

دهشان. التحم النبوتان ومحاورا برشاقة ومكر ودهاء.

وتقاربا خطوة فخطوة حتى التصفا تمامًا ولفّ كلٌّ  
منها ذراعه حول الآخر. وشدّ كلٌّ بما فيه من عزم  
وإصرار وقوّة حتى انتفخت منه العضلات ونفرت  
العروق. انغرزت الأقدام في الرمال. وتعمقلت إرادة  
صلبة تروم اعتصار الخصم وتصفية ماء حياته.  
وحملت الأعين في ذهول وتوقّعت لدم أن ينفجر.  
وتتابعت الثواني منصهرة في الأتون الملتهب. وانحبست  
الأنفاس فلم تُسمع نامة واحدة. حتى تلاقى حاجبا  
غسان في عبوسة حاقدة. وبدا متحدّيًا للمستحيل  
والقدر. أو أنّه يغالب الغرق. ويدافع المجهول ولو  
بالجنون. ويطلق الحقد الأعمى على اليأس الزاحف.  
ويتخاذل رغم الإصرار والكبرياء والغضب. ويتخبّط  
وتترنّح ساقاه. ويتهاوى في العجز ويشهق فلا يرحمه  
شمس الدين حتى تسقط ذراعه وتسداعى رجلاه  
وينهدم.

يفف شمس الدين لاهنًا غارقًا في العرق، وينلب  
صمت الدهول، حتى يمضي شعلان الأعور إليه  
بملابسه وهو يقول:

- نغم الفقى... ونغم الفتوة...  
وتنطلق الحناجر هاتفة:

- اسم الله عليه... اسم الله عليه...  
وصاح دهشان:

- ها قد بُعث عاشور الناجي!  
فقال شعلان الأعور:

- اسمه الجديد شمس الدين الناجي...  
وظلّ الخلاء محيطًا متراميًا ماثبًا على جلاله وتعالیه...

- ١٥ -

وكانت الحارة تنتظر زفة الفتوة الجديد. راهن  
كثيرون على غسان كما راهن كثيرون على دهشان،  
ولكن لم يحظر ببال أحد الفقى المليح شمس الدين. ولما  
ترامت الأخبار ذهل الجميع، وسرعان ما انقلب  
الدهول فرحة شاملة. فرح الحرافيش ورقصوا وقالوا  
إنّ هذا يعني أنّ عاشور حيّ لم يمّت.

وتساءل محمود قطائف بامتعاض شديد:

فصاح غسان:

- يعزّ عليّ أن أسبيء إليك... .

- لنُدع النّبوت يتكلّم!

- إنك غلام يا شمس الدين!

فقال بإصرار:

- إني رجل من صلب رجل... .

فرفع غسان وجهه إلى السماء تحت النار المندلعة  
وصاح:

- عفوك يا عاشور ومعدرة!

لم يرتح أحد لما يجري. التوت الشفاه بالامتعاض.  
وتبدّت نظرة الخلاء أبرد وأقسى وأسخر مما كانت.

وبدأ شمس الدين المعركة فتلاقى الخصمان.  
وتفجّرت معجزة في اللحظة الأولى فتسلّل نبوت

شمس الدين إلى ساق غسان والتصق. وقف غسان  
ذاهلًا. وخيّل إلى كثيرين أنّه استهان بخصمه فحدث

ما حدث. المعركة لم تبدأ فكيف هكذا تنتهي؟ وتمادى  
غسان في ذهوله، ولم يهتف أحد. ومدّ شمس الدين

يده وهو يقول:

- نغم الأخ أنت!

فتجاهل غسان يده، وتوتّب بين حاجبيه الغضب.  
وصاح شعلان الأعور مشفقًا ومحدّرًا:

- غسان امدد يدك!

فهتف غسان:

- إنّها ضربة حظّ وقدر.

- ولكن شاء الله أن يتصر.

فهتف غسان بإصرار:

- النّبوت حكم فاصل لمتهاثلين في القوّة، ولكنّ  
شمس الدين عود أخضر ما أيسر أن ينكسر أم تريدون

أن تكونوا لقمة سائغة لكلّ حارة ولعبة بيد كلّ فتوة  
مقتدر؟!

عند ذاك رمى شمس الدين نبوته، ونضا عنه  
ملابسه إلّا ما للعورة يستر، ووقف بقامته الرشيقة  
المتألّقة بلعاب الشمس ينتظر.

وابتسم غسان ابتسامة ثقة، وفعل مثل صاحبه،  
وهو يقول:

- سوف أحيك من شرّ نفسك.

## ملحمة الحرافيش ٧٤٣

- عليك اللعنة، بل عاملتك بالأصول...  
 - لولا الحقد ما رحبت بفتونة غلام!  
 فتساءل دهشان بحنق:  
 - ألم ينتصر بكلّ جدارة؟  
 وعند ذلك تساءل عليه أبو راسين الخمار:  
 - قلبي يحدّثني بأنّ فتوتنا الجديد سيكون من زبائني  
 الكرام...  
 فقهقه غسان وقال:  
 - أحلق شاربي لو فعل، ولن نحظى منه إلا  
 بالفقر...  
 فصاح شعلان الأعور:  
 - لن تمرّ الليلة على خيرا  
 فقال غسان ساخراً:  
 - هذيان سكران يا شعلان، ستمرّ الليلة مثل كلّ  
 ليلة، ومثل الليالي السعيدة الغابرة التي شهدت ستّ  
 الستات وهي تخطر بين السكارى بجهاها الفتان!  
 ورماه دهشان بالقرعة فأصاب صدره وصرخ في  
 وجهه:  
 - يا وغد...  
 ووقف غسان متحدّياً فوثب شعلان نحوه وقال له  
 بحزم:  
 - لا حياة لك في هذه الحارة...  
 فأدرك خطاه رغم سكره، وغادر البوظة وهو  
 يترنّح...

## - ١٨ -

ولم يفكر أحد في إبلاغ شمس الدين بما قيل عن  
 أمّه. قال شعلان لدهشان:  
 - لا علم للفتى بذلك التاريخ القديم.  
 فقال دهشان:  
 - ولكن من حقّه علينا أن نبلغه بتمرد غسان...  
 وصمّم شمس الدين على حسم الأمر بالسرعة  
 الواجبة فقصده غسان في مجلسه بالقهوة، وقف أمامه  
 بوجه موج بالغضب، وسأله:  
 - يا غسان هل يمكن أن نخلص لي كما أخلصت  
 لأبي؟

- هل رجع عصر المعجزات؟  
 واستقبل شمس الدين بالبهجة والأفراح، وحتى فلة  
 زغردت رغم الحداد.  
 واستمع شيخ الحارة إلى القصة كما رواها شعلان  
 الأعور بكآبة دفينية، وراح يتساءل:  
 - ترى هل يمتدّ عهد التجهم والفقير؟!

## - ١٦ -

وقال شمس الدين لأمّه فلة مزهواً:  
 - كنت أعدّ نفسي لذلك.  
 فقالت بابتهاج:  
 - حتى أبوك لم يصدّق.  
 فقال بجديّة:  
 - ما أشقّ أن يكون مثلي خليفة لأبي...  
 فقالت بدهاء:  
 - لا تنس عدوك غسان، ولكن بيدك أن تملك  
 قلوب رجالك!  
 فتنهّم وجهه وقال:  
 - إني اليوم الأمل فلا خاب الأمل...  
 فقالت بإغراء:  
 - الاعتدال سيّد الأخلاق.  
 فقال بإصرار:  
 - إني اليوم الأمل فلا خاب الأمل.

## - ١٧ -

ومضت الأيام هازجة بالأفراح، وآمن الناس بأنّ  
 عاشور الناجي لم يمّت.  
 وكان غسان يسهر في البوظة فيسكر ويفتني:  
 البخت إن مال حتعمل إيه بشطارتك  
 وذات مرّة قال له شعلان الأعور:  
 - ألم تشيع من هذا الموال؟... عليك أن تنقي  
 قلبك...  
 فقال دهشان:  
 - إنّه يفتحه للشياطين...  
 فقال غسان بغلظة:  
 - إنك لا تغفر لي انتصاري عليك يا دهشان.



- ٢٠ -

رغم ذلك رجع شمس الدين من معركة العطوف  
مبيلل الحاطر. الزوينة الثملة بالقوة والنصر تتشرب  
بالأتربة والقاذورات. لقد قال له فتوة العطوف وهو  
يتوثب للالتحام.

- أقدم يا بن الزانية... أقدم يا بن عاهرة حمارة  
درويش!

وملأ سبابه الأسباع. هلل له رجاله وزجر  
الأخرون. أهو محض سباب مما تفتتح به المارك؟ أم  
هو تاريخ يعلمه الجميع ويجهله هو بحكم حداثة سنه؟  
ونحلا إلى شعلان الأعور وسأله عما يعنيه الرجل  
فقال له شعلان بحدة:

- نباح كلب جريح!  
وقال له أيضا:

- إن امرأة يختارها عاشور الناجي زوجة له ووعاء  
لذريته لا يمكن أن ترتقي إليها شبهة من الشبهات...  
واطمان قلبه، ولكن لفترة قصيرة. لم يسترد  
الصفاء. وهامت في صدره الهواجس مثل السحائب في  
اليوم المطير. وفي وقت راحته جعل يسترق النظرات  
إلى فلة. إنثا في الأربعين أو دون ذلك. مليحة ملاحه  
فائقة. صغيرة الجسم رشيقة فاتنة. عينها تفسان  
سحرا خالصا. تقيّة محترمة وذات شخصية مؤثرة. لا  
يمكن أن يتصور ذلك، والويل لمن تسول له نفسه  
اقتحام محرابها! كم تعلق بها لدرجة الهوس حتى قال له  
عاشور الناجي يوما:

- الرجل الحق لا يتعلق بأمه مثلما تفعل...  
واستصحبه معه وهو صغير، فكان يأكل وينام فوق  
الكارو، ودار في فلك أبيه منتزعا من الأحضان  
الدافئة.

تري ماذا شهدت حمارة درويش؟ هل يوجد رجال  
يعرفون من خفايا أمه ما لا يمكن أن يعرفوا؟  
وغمغم بغضب:

- الويل لمن تسول له نفسه اقتحام محرابها!

فقال غسان:

- لقد عاهدتك على ذلك... .

- ولكنك كاذب وغير أمين... .

- لا تصدق الوشاة... .

- أصدّق المخلصين... .

ومال نحوه وهو يقول:

- لن تكون بعد اليوم من رجالي... .

ولم ير غسان بعد ذاك اللقاء في الحارة... .

- ١٩ -

لم يتغير شيء من عهد عاشور الناجي. خلفه شمس  
الدين راعيا للحرافيش شاكيا للسادة والأعيان، وثابر  
الفتوة على عمله سواقا للكارو، كما اشتغل كل رجل  
من رجاله بحرفته. ولم يتخل عن شقته الصغيرة  
مسكنا، وسدّ أذنه دون همسات أمه المتوسلة. امتلأت  
أعطافه بالعظمة الحقيقية، وروى ظمأ قلبه بحب  
الناس وإعجابهم، وسرعان ما صار من رواد الزاوية  
وأصدقاء الشيخ حسين قفة. ومن أموال الإتاوات جدد  
أثاث الزاوية، ورحب باقتراح للشيخ حسين قفة فأنشأ  
كتابا جديدا فوق السبيل.

ولم يغفل عن مسئولته حيال الحارة والناس أبدا.  
شعر بثقل الأمانة وخطورتها شأن المخلصين من  
الرجال. ولا شك أنّ فتوات الحارات المجاورة قد  
استردوا أنفاسهم باختفاء العملاق المهيب، وراحوا  
يتحرشون ببعض الباعة المتجولين من أبناء الحارة.  
فلكي يؤكد قوته وينفض عنها شبهات الظنون، ولكي  
يثبت أنّ ملاحته ورشاقته لا ينقصان من فتونته، قرّر  
أن يتحدى أقوى الفتوات وهو فتوة العطوف. وتحين  
فرصة زفة عطوفية فتعرض لها في ميدان القلعة،  
فدارت بين الفريقين معركة حامية انتصر فيها انتصارا  
حاسبا اجتاحت أنباؤه الحارات جميعا، فأيقن كل من  
داعبه أمل في التحدي أنّ الشمس الدين لا يقل عن  
عاشور قوة وبأسا.

هكذا حافظت الحارة على نظامها المثالي في الداخل  
وعلى سمعتها خارج نطاق الميدان.

- الدرب الأحمر يا معلّم . . .  
 وثب إلى مقدّمة الكارو، وهو يتمنى لو يخطف من  
 المرأة نظرة أخرى. وجعلت عيوشة تقول:  
 - ما أجل أن تسوق الكارو يا فتوتنا وأنت إن  
 شئت أن تعيش حياة الوجهاء ما منعك مانع!  
 فسعد بقولها ولكنّه لم ينس. إنّه يسعد بدفء  
 الحب، ويمتلئ بأريج العظمة الحقيقيّة، ويمحق بذلك  
 خطرات الضعف والغواية. وتوقّع أن تقول الجميلة  
 شيئاً ولكنّها لاذت بالصمت، حتّى غادرت العربية في  
 الدرب الأحمر. هناك ملأ منها عينيه، وأتبعها ناظره  
 وهي تمضي نحو رواق المشايخ.  
 ولبثت عيوشة بمحلّها فنظر نحوها متسائلاً فتمتمت:  
 - القلعة . . .  
 مضت العربية وهو صامت. صمت رغم أنّه رغب  
 في التكلّم. وإذا بالعجوز تسأله:  
 - ألم تر من قبل ستّ قمر؟  
 فشكر للمرأة فتحها الحديث وأجاب:  
 - كلّاً . . .  
 - هذا شأن السيّدات المصونات!  
 - من حارتنا؟  
 - نعم، أرملة غاية في الجمال والغنى . . .  
 فتساءل:  
 - ولم لا تستقلّ الحانطور؟  
 - رغبت في عربية فتوتنا!  
 فالتفت نحوها فقرأ في عينيها الكليلتين نظرة باسمه  
 ماكرة. اشتعلت حواسّه مرّة أخرى. استحضر صورة  
 عجميّة فتراقصت الصورتان في وجدانه وثلّمت. وقالت  
 عيوشة:

- أعجبتك ولا شك؟  
 فسألها بخشونة مصطنعة:  
 - عمّ تسألين يا وليّة؟  
 فقالت ضاحكة:  
 - مهنتي بيع الملابس والسعادة للناس . . .  
 فانقطع عنها في حذر.  
 وعند ميدان القلعة غادرت العربية وهي تقول له:  
 - للكلام بقيّة فلا تنس عيوشة . . .

وذات يوم رأى وجهها أرجعه سنوات إلى عهد  
 الطفولة.  
 كان يمضي بالكارو نحو الميدان فاعترضته معركة  
 عجيبة ناشبة بين فتاة وفتى. كانت الفتاة تثب كالنمر  
 فتلطم الفتى، تبصق على وجهه، قاذفة إيّاه بسيل من  
 الشتائم، وهو يتفادى من هجماتها، ويردّ الشتائم بأقبح  
 منها، والناس من حولهما يتفرّجون ويتضحكون.  
 وكما رأى الناس شمس الدين حيّوه، وتوقّفت  
 المعركة، فهرب الفتى، وراحت الفتاة تلتقط ملامحها  
 من الأرض وتلتفت بها وهي ترامقه في حياء.  
 أعجب شمس الدين بحيويّتها، ونضارة وجهها،  
 ومرونة جسدها. ورأته يرنو إليها فقالت معتذرة:  
 - قلّ أدبه يا معلّمنا فأذّبه . . .  
 فتمتمت بأسماً:  
 - أحسنت، ما اسمك؟  
 - عجميّة . . .  
 ثمّ بمزيد من الحياء:  
 - ألا تذكرني يا معلّم؟  
 وتذكرها فجأة فقال بدهشة:  
 - بلى . . . كئنا نلعب معاً . . .  
 - ولكنك لم تتذكرني . . .  
 - تغيّرت كثيراً، أنت ابنة دهشان؟  
 فنحت رأسها وذهبت.  
 ابنة معاونه دهشان، ولكن لشدّ ما تغيّرت.  
 وأشعلت حواسّه فتدفّق شبابه مثل أشعة الظهيرة.

وعند مشارف الغوريّة رأى عيوشة الدلالة وهي  
 تشير إليه فتوقّف. تبين له أنّها بصحبة سيّدة أخرى.  
 سيّدة ذات بهاء يلفت الأنظار بملاءمها الكريشة  
 وعروس برقعها الذهبيّة، وعينيها المكحولتين  
 الجمليتين، وجسمها المدمج الرّيّان. وسرعان ما  
 اتّخذت المرأتان مجلسهما فوق العربية وعيوشة تقول  
 بنبرتها العجوز:

- ٢٣ -

- من بنات الوجهاء!
- هو أيضًا إثراء عن طريق امرأة!
- ولكنه طبيعي لا شذوذ فيه، وأصارك بأن هذا ما يتمناه قلبي!
- فرنا إليها بقلق وقال:
- إنك لا تسلمين بحياتنا المجيدة إلا مضطرة، أصدقت حقًا أنني أستهين بحب الناس وبالعظمة الحقيقية؟
- أكنت تمكر بأمك؟
- كنت أداعبها!
- فقلت باستياء:
- لست أنانيّة كما تتصوّر، أمس فقط رفضت يد سيّد وجهاء الحارة!
- فقطب منزعجًا وقد تحضّب وجهه بالدم، فقالت:
- وعيوشة كانت الواسطة أيضًا!
- عليها اللعنة!
- قلت لها إن أرملة عاشور الناجي لا تقبل أن يحلّ محلّه رجل آخر.
- فقال بجفاء:
- أقلّ ما يمكن أن يقال . . .
- فقلت بتحدّ:
- قلته إكرامًا لأبيك لا خوفًا منك . . .
- ومن الوغد؟
- ليس وغدًا، وما طلبه مشروع . . .
- من هو؟
- عنتر الخشّاب صاحب الوكالة!
- فقال بازدرأ:
- إنه متزوّج ومائلني في السنّ!
- فهزّت منكبيها استهانة وقالت:
- هذا ما كان! أمّا حالنا فنحن نُجري العدل بين الناس ونظلم أنفسنا!
- فقال بحزم:
- لقد قال أبي كلمته وما عليّ إلا الطاعة.
- وقال لنفسه إن قلبها لطموح، إنّه متمرّدة، ترى ما حقيقة تاريخك أيّتها السيّدة التي أحبّها أكثر من أيّ شيء في الوجود؟!
- وتلاقت به أكثر من مرّة فوق الكارو، عيوشة الدلالة. الغزو يطرق بابه بعنف ولكنّ ضعفه الحقيقيّ يكمن في قلبه الفتيّ، في شبابه المتوقّد. قمر تناوشه بأبهتها، وعجميّة تناوشه أيضًا بشبابها. ولعلّه يتجاوز عمره اليافع في إدراك ما يعنيه زواجه من سيّدة في مركز قمر، وما يعنيه زواجه من فتاة مثل عجميّة. ثمّة عاصفة تتوّب في الأفق. من المستحسن أن تقصف بوادرها وأن يخوض ضرباتها ليحظى في النهاية بالهدوء والاستقرار.
- وفي جلسة المساء عقب العشاء رأى أمّه في حال غير عاديّة. عيناها الجميلتان تبرقان بالسكر، وتنفلدان إلى دوامة هواجسه. وما هي تسأل في عتاب:
- ماذا يجري وراء ظهري؟
- حسن. إنه يرحّب بالكاشفة. ويرغب في هتك أسرار قلبها المتمرّد.
- عمّ تسألين؟
- فرفعت رأسها في كبرياء من يتعالى على الانخداع وتساءلت:
- أيّ لعبة تلعبها عيوشة الدلالة؟
- وقال لنفسه إنه لا سرّ يصاب في فم عيوشة المثرم، وابتسم مستسلّمًا وهو يتمتم:
- إنّه تمارس مهنتها.
- فقلت بحدّة:
- قمر في مثل سنّ أمك وهي عقيم!
- فقال رغبة في الإثارة ليس إلا:
- ولكنّها جميلة وغنيّة!
- لم يبق من عمر جمالها إلا أيام، وإذا كنت ترغب حقًا في الثراء فماذا يصدّك عنه؟
- فتساءل منكرًا:
- أترضين لي خيانة عهد عاشور الناجي؟
- ولكنّ الإثراء عن طريق امرأة لا يقلّ عن ذلك عارًا!
- فقال لا عن إيمان ولكنّ تماديًا في إثارتها:
- لا أظنّ ذلك . . .
- حقًا؟ . . . إذن دعني أخترك عروسًا مناسبة

- ماذا قلت؟  
فقال ياباء داخلي:  
- قرأت فاتحة عجمية بنت دهشان.  
- مزاح من جديد؟  
- هي الحقيقة يا أمي...  
فتساءلت محتجة:  
- أما كان يجب أن تشاوري قبل أن نفعل؟  
- بنت مناسبة وأبوها رجل مخلص...  
- أبوها رجل مخلص ولكن أما كان يجب أن  
تشاوري؟  
فقال بهدوء:  
- إني أعرف رأيك مقدما وهو مسجبل...  
فتمتت محزونة:  
- يا للخسارة!  
فتساءل بأسا:  
- ألا استحق تهنئة طيبة؟  
وترددت قليلا، ثم اقتربت منه فلثمت جبينه  
وتمتت:  
- فليبارك المولى خطواتك...

واستاذن شيخ الحارة محمود قطائف في مقابلة شمس  
الدين. تذكرت فلة خطوة مثل هذه في العهد القديم  
فغمغمت «عليه اللعنة». فاستقبله شمس الدين  
فأجلسه إلى جانبه على الكنية الوحيدة في الحجرية.  
ورغم تجاوزه الستين بدا متمتعا بالصحة والحيوية،  
وأقدر على الصمود لضالة جسمه وخفته. وقدمت فلة  
القهوة وقد لفت رأسها بخمار أسود، وجمالته قائلة:  
- كيف حالك يا معلم محمود؟  
فدعا لها الرجل بالصحة والبركة وقال:

- ليتك تشرفين مجلسنا بحضورك لنتفع برأيك!  
فبادلت فلة نظرة مع شمس الدين ثم جلست على  
حافة الفراش. وتوثب شمس الدين للاستماع وهو لا  
يتوقع خيرا. كان يعد محمود قطائف بين كارهيه  
المكظومين، مثل الأعيان، ومن فقدوا بفتورته الجاه  
والسيطرة. وقال شيخ الحارة:

اعترف شمس الدين بأن أمه قوية وعنيدة. اعترف  
أيضا بأنه يحبها ويحترمها لا باعتبارها أمه فحسب ولكن  
بصفتها أرملة عاشور الناجي أيضا. أجل إن عاشور  
الناجي أبوه ولكنه يمثل في الوقت ذاته حقيقة أكبر من  
الأبوة. وهو يهيم بهذه الحقيقة أكثر من الأبوة نفسها.  
هي محور حياته، ومعقد أمله، وسر افتتانه بالعظمة  
الحقيقية.

لذا قرّر أن يصيب هدفه دون مشاورة عقيمة.  
مضى بصديقه دهشان إلى الساحة أمام التكية في  
أول الليل.

كانت ليلة من ليالي الصيف الرائقة. والحناجر  
تشدو بالحانها والنجوم فوقها تتوامض في سلام.

وقال شمس الدين لدهشان:  
- في هذا المكان الطيب كان عاشور يخلو إلى نفسه  
ويواصل أسى أفكار الحياة.

فدعا دهشان لمعلمه القديم بالرحمة في السماوات  
فقال شمس الدين:

- وقد اخترته لتحل بركته بما سأطلبه منك...  
فتمتم دهشان:

- إني رهن أمرك ولتحل به البركة...  
فقال شمس الدين بهدوء:

- أريد ابتك عجمية على سنة الله ورسوله!  
وأخذ دهشان بما لم يتوقع فانعقد لسانه، فسأله  
شمس الدين بلطف:

- ما قولك يا دهشان؟  
- يا له من شرف لم أحلم به يا معلمي...  
فمد له يده قائلا:  
- إذن فلنقرأ الفاتحة.

ولدى رجوعه إلى بيته من الساحة مارس شعورا  
البيئا، شعور التحدي لسطوة أمه، السطوة القوية  
الناعمة. قال وهو يجالسها في هدوء غامض:

- أمي، قرأت الآن فاتحة عجمية بنت دهشان.  
وللحظة لم تفهم فلة شيئا. ثم رنت إليه في ذهول:

وتساءل بخشونة:  
 - ألا يعيشون في أمان وراحة بال؟  
 - حلمك يا معلّم، لم لا تؤخذ الإتاوات إلا منهم؟  
 - هم وحدهم القادرون...  
 - ولكنّ الناس تفسّر ذلك على هواهم ويستهيئون بهم!  
 فقال بغضب:  
 - إنهم يأبون إلا الرفعة لأنفسهم والسدونيّة للآخرين.  
 فصمت محمود قطائف ملياً ثمّ قال:  
 - من حقّهم أن يطالبوا باحترام يكافئ أعمالهم.  
 - ماذا تعني؟  
 - ماذا كانت تكون حارتنا لولاهم؟ دورهم زينة، أساؤهم نجوم في الحيّ، من حوانيتهم يتدفّق الغذاء والكساء لحارتنا، ومن أموالهم شيدت الزاوية والخوض والسبيل والكتّاب الجديّد، ألا يكفي ذلك كلّهم؟  
 فاحتدّ شمس الدين غاضباً وقال:  
 - لولا أبي ما انتفع بأموالهم أحد، انظر إلى نظرائهم في الحارات الأخرى ماذا يفعلون!  
 فلاذ شيخ الحارة بالصمت مرّة أخرى، بدا متردّداً، فقالت فلة:  
 - تكلم، ما على الرسول إلاّ البلاغ.  
 فتشجّع محمود قطائف قائلاً:  
 - إنهم يرون أنّهم مظلومون، كما يرون أنّك ورجالك مظلومون أيضاً، يقولون إنّ منزلة الفتوة الحقيقيّة بين الأعيان، وإنّ الأعيان فضّلهم الله درجات على الناس، ولن يتقصّ ذلك من حقّ الفقير في العدل!  
 فصاح شمس الدين:  
 - وضخّ الأمر يا شيخ الحارة، إنهم يغرونني بنبد المهدي والارقاء في أحضان البلطجة...  
 - معاذ الله!  
 - هي الحقيقة وإنك لتؤمن بما أقول...  
 - معاذ الله يا معلّم.  
 - إليك رأيي النهائي...  
 فقاطعه واقفاً وهو يقول بتوسّل:

- الحلم سيّد الأخلاق، والكمال من شيم القادرين...  
 فهزّ شمس الدين رأسه دون أن ينبس فواصل الرجل:  
 - بكلّ أمانة يا معلّم شمس الدين إنّي مفوّض من الأعيان للحديث معك...  
 - ماذا يريدون؟  
 - لهم رغبة شريفة صادقة في الاحتفال بزفافك...  
 فقال شمس الدين ببساطة:  
 - سيجري زفافي في نطاق قدرتي كسوّاق كارو.  
 - ولكنك فتوة الحارة أيضاً...؟  
 - لن يغيّر ذلك من وضعي كما تعلم.  
 - إنك فتوة الجميع، فتوة الأعيان كما إنك فتوة الحرافيش، ومن حقّ كلّ فريق أن يحتفل بك بطريقته وفي نطاق قدرته...  
 والتفت شيخ الحارة نحو فلة وسألها:  
 - ما رأيك يا ستّ أمّ شمس الدين؟  
 فأجابت فلة بدهاء:  
 - الكريم يقبل التكريم، ولكنّ الرأي رأيه...  
 فقال محمود قطائف بارتياح:  
 - بالحقّ دائماً تنطقين...  
 وتجهّم وجه شمس الدين فقال:  
 - كيف أقبل تكريم أناس أعلم أنّهم يكرهوني؟  
 - كلّ لا أحد يكره العدل، ولكنهم يرغبون في تصفية الجوّ...  
 - إنّه لن يصفرو بالألاعيب، وإنّي أحنّ أنّ عندك الكثير فهات ما عندك...  
 فتحرّج محمود قطائف ملياً ثمّ قال:  
 - إنهم يقولون إنّ جميع الناس يتمتّعون بالعدل والكرامة عدا الأعيان وأصحاب النشاط الحقيقيّ، فهل هذا من العدل؟  
 ها هي جيوش الظلام تتحرّك. تريد أن تطمس قبسات النور في زوايا الحارة وأزقتها. يتوهّمون أنّ شمس الدين صبيّ يافع تخلّب لبه الزينة كما تخلّب لبّ أمّه الجميلة. فارفع عصا عاشور العجرا وأهروها على نبضات الفتنة والغرور والإغراء.

ملحمة الحراليش ٧٤٩

- ٢٨ -

مشى شمس الدين بحذاء الحمار مطمئناً ومشخناً  
بالجراح. طالما رأى الشعاع يسيل مبتهجاً عقب الغيوم  
الممطرة. لا خجل من الضعف إذا المرء عليه انتصر.  
وما معنى القوة إذا لم تستو فوق خلجات الخور. فانهل  
من رحيق الحياة السامي النابع. من علو الهمم.  
وأمام دكان محمود قطائف شدّ اللجام فتوقفت  
العربة.

وهرع إليه الرجل متلهفًا.

فتخطاه بنظرة باردة وقال بحزم:

- عاشور الناجي لم يمت!

- ٢٩ -

وكان شمس الدين ماضيًا نحو مسكنه ليلاً عندما  
اعترضه شيخ امرأة. همست:  
- مساء الخير. . .  
- عيوشة؟ . . . ماذا جاء بك؟  
- هلأ تبعتني إلى حجرتي؟  
خفق قلبه. خاف الدعوة. ثار فضوله. اشتعل  
شبابه. مضى وراءها صاغراً.

- ٣٠ -

همست المعجوز وهي تتقدمه في الدهليز:

- أمرك عجيب!

- ماذا؟

- ألا يحق لنا أن نسأل لم يُرفض البدر في تمامه؟  
فتحت باب الحجر فارتقى ضوء المصباح على  
الأرض. تنحّت من أمامه وهي تدفمه بيدها. رأى  
ست قمر جالسة على حافة الفراش وهو الموضع الوحيد  
الصالح للجلوس. مبرقة ملفوفة في ملاءتها غاضبة  
البصر من الحياء.

وقف يرنو إليها في غاية من الانفعال.

وتساءلت عيوشة من موقفها فوق العتبة:

- هل بلغك عنّا ما يسوء؟

فأجاب بارتباك:

- أبداً.

- بل فكّر في الأمر قليلاً، لا أطلبك إلا بتأجيل  
الحكم حتى تفكّر. . .  
ومرق من الحجر كالهارب. . .

- ٢٧ -

اختفى محمود قطائف تاركًا خلفه رائحة تبغ  
وعرق. وترك صمتًا تتلاقى فيه النظرات وتتباعد.  
وثمة تناحر بين الفتى وأمه. بين الفتى وغرائزه. وزينة  
الدنيا ذات رائحة نفاذة ينجذب إليها فحلل الأهواء  
المكبوتة. في هذه الحجر الصغيرة تضطرم أحلام باللائئ  
والنعيم والضجعة الطيبة. همسات النفس يجمّر لها  
الوجه خجلاً. أمه الجميلة المتمردة ذات الالتفاتة  
الساحرة. مجالها مجهول النسب يتجسّد ضعفه البغيض  
المستر.

وقال لها متحدثًا:

- الفتوة كما تعلمت هو حامي الحارة وراعيها  
وكايح قوى الشرّ فيها. . .

فقال ساخرة:

- وهو لا يتميز عن أيّ متسول فيها!

قال بحرارة:

- أتني، كوني معي لا عليّ. . .

- إني معك دومًا والله شهيد. . .

فهتف منقضًا على أمه ونفسه معًا:

- أريد أن أكون جديرًا باسم الناجي

وعهده. . .

فقال أمه بظفر:

- عاشور لم يتردد عن وضع يده على دار البنان

الخالية!

فقال غاضبًا:

- العبرة بالخاتمة!

- بل أعطانا في كلّ حال مثلًا يُحتذى. . .

فقال بازدراء:

- سيجيء زمن نلصق فيها بعاشور العظيم كلّ

خلجة ضعف تضطرب في نفوسنا. . .

- ٣٣ -

وَرُفَّتْ عَجْمِيَّةٌ دَهْشَانٌ إِلَى شَمْسِ الدِّينِ النَّاجِي،  
 وَتَصَدَّى لَهُ شَعْلَانُ الْأَعْوَرِ وَهُوَ يَقُولُ:  
 - هَذِهِ لَيْلَةٌ يَطِيبُ فِيهَا الْخُرُوجُ عَلَى الْأَصُولِ...  
 وَمَضَى بِهِ إِلَى غُرْزَةِ خَلِيلِ سَكَّرَ. وَمِنَ الْغُرْزَةِ مَضَى  
 بِهِ إِلَى بُوْظَةِ عَلِيَّةِ أَبُو رَاسِينَ.  
 وَسَارَتِ الزَّرْقَةُ التَّقْلِيدِيَّةُ تَحُوبَ أَطْرَافِ الْحَيِّ يَتَقَدَّمُهَا  
 الطُّبْلُ وَالزَّمْرُ، وَتَحْدَقُ بِهَا النَّبَايِيتُ. لَمْ يَعْتَرِضْهَا  
 مَعْتَرِضٌ، وَبِهَا رَسَخَتْ مَهَابَةُ الْفِتْنَةِ الْأَكْبَرِ.  
 وَرَأَى شَمْسُ الدِّينِ أَنَّهُ يَطِيرُ بِلَا تَوَقُّفٍ. وَعِنْدَ كُلِّ  
 مَحْطَةٍ تَهْرَهُ نَشْوَةٌ سُرُورٍ وَإِلْهَامٍ. وَبَارَكَ عَاشُورَ النَّاجِي  
 وَهُوَ يَمْتَطِي مَهْرًا أَخْضَرَ. وَهَزَجَتْ لَهُ الْمَلَانِكَةُ فَوْقَ  
 قَطْعِ السَّحَابِ. وَانْفَتَحَ بَابُ التَّكْيَةِ وَتَدَفَّقَ مِنْهُ اللَّحْنُ  
 الْمَلَكِيُّ وَنَارُ التُّوتِ.  
 أَمَّا عَجْمِيَّةٌ فَقَدْ حُمِلَتْ عَلَى هُوْدَجٍ مَكْلَلٍ بِالسَّائِرِ  
 الْمَرْكُشَةِ.  
 وَاسْتَقْبَلَتْهَا فَلَّةٌ بِوَجْهِ مَشْرِقٍ وَقَلْبٍ كَثِيبٍ.

- ٣٤ -

فِي الصَّبَاحِيَّةِ جَلَسَ عَلَى أَرِيكَتِهِ الْمَخْتَارَةَ بِمَدْخَلِ  
 الْقَهْوَةِ.  
 لَمَحَ عَيُوشَةٌ تَسْلُلُ نَحْوَهُ ثُمَّ تَقْرَفُصُ تَحْتَ يَمِينِهِ.  
 حَجَبَتْ سَحَابَةٌ ضَوْءَ الشَّمْسِ. هَمْسَ الصَّوْتِ الْمَثْرَمِ:  
 - أَلْفَ نَهَارٍ أَبْيَضٍ!  
 فَشَكَرَ فَاسْتَدْرَكَتْ:  
 - وَلَوْ آتَى لَمْ أَشْهَدِ الْفَرْحَ!  
 فَقَالَ بِخُمُولٍ:  
 - دَعْوَتُكَ مَبَاحَةٌ فِي جَمِيعِ الْأَفْرَاحِ.  
 - عَلَى أَيِّ حَالٍ نَتَوَقَّعُ أَنْ يَشْمَلَنَا عَدْلُ فَتَوَاتِنَا  
 كَالْآخِرِينَ!  
 - أَيُّ ظَلَمٍ تَشْكِينِ؟  
 - لِيَّ أَدَافِعُ عَنْ ضَعْفِ سَيِّدَةٍ جَلِيلَةٍ...  
 فَقَالَ بِامْتِعَاضٍ:  
 - أَنْتِ الْغَاوِيَةُ!  
 - هَلْ تَصِحُّ الْغَاوِيَةُ عَلَى الْقَوِيِّ الْأَمِينِ؟!  
 فَتَمَّتْ مَتَكَدِّرًا:

- هل في جمالنا نقص أو عيب؟

فقال والخدر يسري في حواسه:

- معاذ الله... .

- هل هون من شأننا البوح بسرنا؟

فغمغم بأصوات مغضوبة وجف ريقه.

وأغلقت العجوز الباب فدفعت به إلى الحافة.

وتمتت قمر بصوت لا يكاد يسمع:

- إني خجلى، لا أدري ماذا صنعت بنفسى... .

فقال ببلاهة:

- كل خير... .

- لا تسئ بي الظن... .

وتهاوى تحت دفعة طوفان فالتهمت الغريزة الكون  
 كله. وأذعن لمشيئة القوة الملكية المزهوة بالاستهتار  
 والخيلاء والعمى.

وهست قمر وهي تقاوم مقاومة لا معنى لها:

- لا تسئ بي الظن... .

- ٣١ -

وجد شمس الدين نفسه في الدهليز مرة أخرى.  
 عقب إغلاق الباب وراه. سبح الظلام في المكان  
 وتسرب إلى حنايا نفسه. أخلفت النار رساذا خانقا  
 وزفرت الدنيا فتورا وأسى.

وعند نهاية الدهليز رأى شبح عيوشة على ضوء  
 النجوم الباهت. همست له وهو يمضي:

- الأمل في شهامة الرجال لا يجيب... .

فتنجم حانقا ومضى مثقلا بالأسى... .

- ٣٢ -

لقد أخطأ ولكن خطأ الآخرين أفدح. وهو مبليبل  
 البال ولكنها امرأة داهية. لن يقع في الشرك كأبله، لن  
 يقامر بمعدنه النفيس، ولو تحمّل ألما وكدرًا. إن قوى  
 الظلام تتأمر عليه، كما تتأمر عليه أمه ونزعات ضعفه،  
 ولكنّه جدير بخوض المعارك.

- ٣٦ -

رغم كل شيء اعتبرته أمه متهاوناً في حقها .  
واستسلمت للغضب فرمته بطعنة مفاجئة . انتهزت  
فرصة غياب عجمية في الخارج وقالت له بجرأة  
سافرة:

- قررت أن أتزوج ا

فذهل شمس الدين ورماها بنظرة متأججة وهو  
يتساءل:

- ماذا؟

- قررت أن أتزوج ا

- إنك تمزحين . . .

- بل هو الجد .

فصاح:

- هو الجنون .

- لا جنون فيما الله به أذن .

فصرخ بغضب:

- لن يقع ذلك وأنا حي ا

وصار عنتر الخشاب غريمه فأهانته وهدهه حتى اضطر  
الرجل إلى لزوم داره، وراح يقول لأصحابه:

- انظروا ماذا يفعل الفتوة العادل . . .

وقال أيضاً:

- إنه يتحدث شريعة الله ذي الجلال . . .

ويتضاعف غضب شمس الدين، ويتضاعف  
حزنه، ويشعر بأن الأرض الطيبة تميد به وأنه ينحرف  
عن الجادة . . .

وتصاب فلة بحمى، تتدهور صحتها ولا تنفع معها  
وصفات العطار. وترنو إليه صامتة، وتعجز حتى عن  
البكاء، وتسلم الروح في جوف الليل .

- ٣٧ -

شعر بأنه يُقتلع من جلوره وأن الشمس لم تعد  
تشرق.

وتطايرت شائعات في الحارات المعادية بأن شمس  
الدين دس السم لأمه ليمنعها من الزواج. وتمادوا  
فقالوا إنه اكتشف علاقة غير مشروعة بينها وبين عنتر  
الخشاب. وهاج شمس الدين فخاض معارك حامية

- عليك اللعنة . . .

فنهضت لتذهب وهي تقول:

- لن نمل انتظار العدل . . .

- ٣٥ -

وتمر الأيام .

تزجر زوابع أمشير ثم تعقبها رياح الخماسين .  
تتراكم السحب ثم يسفر بحر الصفاء الأزرق .

من أول شهر ينشب صراع حام بين فلة وعجمية،  
يستحز ويستفحل بلا أمل في سلام، وتنجب العروس  
ولذا بعد ولد. ويتجاهل شمس الدين الصراع، يشفق  
من مساندة المظلوم كما يشفق من زجر الظالم. ثبت له  
أن دخول معركة آمن من الدخول بين امرأتين  
متعاديتين. وتبدت فلة عنيدة شرسة لا ترحم كما تبدت  
عجمية قوية سليطة اللسان متوحشة عند الغضب رغم  
مزاياها النافعة في النشاط والتفاني في العمل  
والإخلاص للزوج والولد.

وسمع ذات يوم فلة تعير زوجته بجد لص وما  
يدري إلا وعجمية تصيح بها «يا ربيبة البوطة». عند  
ذاك فقد صوابه وصفع زوجه صفعة كادت تفقدها  
الحياة . . .

ومضى إلى ساحة التكية منفرداً بنفسه في الظلام. لم  
يسمع الألمان ولا رنا إلى نجم. انصهر في نار باطنه  
الموقدة. هي الحقيقة بلا مرأى. يعرفها الأعداء  
والأصدقاء. لولا سطوته لتغنى بها الكارهون. هي  
حكايته المفضلة وراء الأبواب المغلقة. إنه يعانق  
الجنون. يعانق الجنون ويرفض أن يحتقر أمه. لو لم  
تكن بريئة وفاضلة ما تزوج منها عاشور الناجي .  
اقتراها بعاشور شهادة أبدية بفضلها وخلقاً جديداً لها .  
الويل لمن تسول له نفسه المساس بها. ولكن تبقى بعد  
ذلك الحقيقة قرحة دامية. وقد جاء الوفاء ليهلك أي  
رجل من العابثين بها. ولكن تبقى الحقيقة قرحة  
دامية. قدح الحياة حتى في أسعد أحوالها لا يخلو من  
كدر وسم. الويل الويل للحزن والكدر.

ومن شدة أساه حمل السور العتيق المترامي فوق  
عائقه . . .



ما ترغب في سماعه. يتوهم الفحل أنه اقترب بالدنيا  
قران دوام. ولكنّ العربية لا تتوقّف والدنيا زوج خثون.

- ٤٠ -

دأبت عجميّة على صبغ شعرها بالحناء. غزاها  
المشيب مد بلغت الخمسين فلما شارفت الستين لم يبق  
برأسها شعرة سوداء واحدة. الحناء تروي الشعر بماء  
الغسق وتضفي عليه حرارة وشموشًا. وهي ما زالت  
قويّة، تفيض بالحويّة، متحرّكة لا تهمد، تواصل  
العمل مع الشمس وأحيانًا مع الشمس والقمر. ولم  
تزايلها النظارة واكتسبت مع الأيام بدانة فاخرة. لم  
يتسلّل إلى هيكلها المتين ما يثير هواجس الحذر.  
ويداعبها شمس الدين فيقول لها وهو يلحظ عجيبة  
الحناء:

- ما جدوى الكذب يا وليّة؟  
فتسائله ساخرة:

- إذا كان الشيب علامة صادقة فلم يبقى رأسك  
أسود؟  
فاحم الشعر، قويّ البنيان، مستمسك بالقوّة  
والرشاقة والبهاء. إنّها تضمّن نحوه حبًا وإعجابًا بلا  
حدود، ومسا من الغيرة والخوف، لم يتزوّج بأخرى، لم  
يرتكب إلا هفوة عابرة لم تتكرّر مع عجوز في سنّ أمّه.  
ولكن منذًا يضمن المستقبل؟

- ٤١ -

وذا صبايح وهو يمشط ذؤابته حملقت عجميّة في  
رأسه، وبفرحة لم تفلح في مداراتها هتفت:  
- شعرة بيضاء!  
التفت نحوها باهتمام كما يلتفت إلى صوت النذير في  
المعركة. حدجها باستياء فقالت:  
- شعرة بيضاء وحقّ النعمة...  
فنظر إلى المرأة الصغيرة بيده وتمتم:  
- كاذبة...  
فاقتربت منه مرّتزة بصرها على هدفها كالفطة عندما

تنفضّ على الفأر، استخلصت من اللدّابة شعرة وقالت:  
- ها هي يا معلّم...

دون أن يتحدّاه أحد، وتمثّل في الحيّ جبارًا لا يعرف  
الرحمة.

وغشيتنه كآبة دائمة مثل المرض المزمن. وتمهّلت في  
خياله انحرافاته، واجتّز مواقفه المؤسفة مع قمر وفلة  
وعنتر الخشاب وعنفه الجنونيّ في المعارك.

وراح يقول محزونًا:

- إنّي أحمل اسم الناجي لا صفاته.

وذا ليلة اضطربت أعصابه تحت ضربات قدره  
فمضى كالنائم إلى مسكن عيوشة الدلالة. جلس على  
الفراس دون أن ينظر إليها وهي تحمّلق فيه بدهول.  
وقال بلا أيّ انفعال:

- إليّ بقمر...!

- ٣٨ -

وتمضي الأيام.

يكبر الأبناء ويتأهلون بشقّي الحرف.

يموت شيخ الحارة محمود قطائف فيحلّ محله سعيد  
الفقير. يموت شعلان الأعور ويتقاعد دهشان. ويموت  
شيخ الزاوية حسين قفة فيحلّ محله الشيخ طلبه  
القاضي. ويموت عليه أبو راسين فيشتري الخجارة عثمان  
الدرزي.

وولدت عجميّة آخر العنقود «سليمان». وجاء نموه  
خارقًا للمألوف حتى ذكر أباه بعملاقة عاشور. لذلك  
قرّر أن يؤهله للفتونة. وأن يربيّه التربية المثاليّة الخليقة  
بعهد الناجي وتقاليده.

ورغم ما عانى شمس الدين من انحرافات شخصيّة  
فإنّه حافظ على نقاء فتونته للحارة. ظلّ يعمل سواق  
كارو رغم سطوته وتقدّمه في العمر. ورعى الحرافيش  
بالرحمة والعدل والحبّ. وعُرف بالتقوى والعبادة  
وصدق الإيمان. وتناسى الناس أخطاه، وعبدوا طيّب  
خصاله، وأصبح اسم الناجي مرادفًا عندهم للخير  
والولاية والبركة.

- ٣٩ -

تنساب عربة الزمن مكثّلة بالزهو والحياء. صلصلة  
عجلاتها المدوّية لا يسمعها أحد. الأذن لا تسمع إلا

- ٤٣ -

وقالت عجمية عقب ذهابه إن ما يبقى للإنسان هو الإيمان.  
وجاءها نعي أبيها دهشان فصرخت صرخة ارتجت لها قضببان الشباك . . .

- ٤٤ -

بكت عجمية أباهها دهشان طويلاً . جعلت تقول إن الإنسان يصبح بطول العمر عادة محبوبة يتعدّر تصوّر الدنيا بغيرها . وحزن شمس الدين لوفاة صديقه وصديق أبيه من قبل . ولكن لم يزعجه موت كما أزعجه موت عنتر الخشاب صاحب الوكالة . فهذا رجل يمثله في السنّ، يقف معه في صفّ واحد، وتدهورت صحته بغتة عقب شلل مفاجئ . ولكنّ الموت لا يهّمه . لا يزعجه بقدر ما تزعجه الشيخوخة والضعف، إنّه يأبى أن ينتصر على الفتوات وينهزم أمام الأسى المجهول بلا دفاع . وتساءل في دهشة:  
- ألم يكرم عاشور الناجي بالاختفاء وهو في عزّ القوّة والكرامة؟

- ٤٥ -

وجرت أمام عينيه بمجلسه بالقهوة مصارعة ودّية بين ابنه سليمان وبين شابّ آخر من رجاله يدعى عتريس . تعادلا في القوّة والمهارة دقائق حتى تمكّن سليمان من هزيمة صديقه .

اشتعل باطن شمس الدين بالغضب، وكبر عليه أن يصمد عتريس أمام سليمان أكثر من دقيقة . لم يسرّ بانتصاره . لم يتصوّر أنّ القوّة تعوزه وهو الشبيه بعاشور في عملته ولكن تنقصه ولا شكّ المهارة الكافية .

- ٤٦ -

ومضى بسليمان إلى سطح البيت الذي يقيم في شقّة منه . خلع ثيابه إلا ما يستر العورة مغموساً في أشعة الغروب الذهبية وقال لسليمان:  
- افعل مثلي . . .  
فتساءل الشابّ متراجعاً:

تفحصها في المرآة . لا مفّر ولا مكابرة . كأنما في سوء ضبط . كما ضُبط منذ أعوام وأعوام وهو يتسلّل إلى بدروم عيوشة . امتلاً قلبه بالاستياء والحنق، والخبجل . وتجنّب النظر إليها متمتاً باستهانة:  
- وماذا يعني هذا؟  
ومضى وهو يقول:  
- يا لك من حقودا

- ٤٧ -

لم يمزّ الاكتشاف بسلام كما توقّعت . كان يتفحص رأسه كلّ صباح بتدقيق واهتمام . ندمت على ما بدر منها . وقالت مدهنة:

- لا علاقة البتّة بين الشيب والعافية . . .  
ولكنّه كان يتساءل عمّا بلغ من عمر . متى بلغه؟  
كيف قطع ذلك الشوط الطويل؟ ألم يهزم غسان أمس؟  
وكيف هرم دهشان وبات يمشي مثل طفل؟ وأيّ قيمة لفتوة بغير قوّة دائمة؟

وعادت عجمية تقول:

- الصّحة هي ما الله نسال . . .

فسألها بغیظ:

- لماذا تكثرين من الحكم الفارغة؟

فضحكت لتهوّن من حدّته وقالت:

- الصبغة لا تعيب الرجال .

فهتف:

- لست من الحمقى . . .

لأوّل مرة يتساءل عمّا فات وعمّا هو آتٍ . ويتذكّر الأموات . ويتذكّر الأولياء الذين عمّروا ألف عام . والخراب الذي يعبث بالأقوياء . وأنّ الغدر ليس وقفاً على ضعف النفس والرجال . وأنّ هدم زفة مسلّحة أيسر ألف مرّة من صدّ ثمانية بما لا يقال . وأنّ البيت يجتدّ والخرابة تعمر لا الإنسان . وأنّ الطرب طلاء قصير الأجل فوق موال الفراق .

وطوّق رأسه باللثة وسألها:

- أتدرين ما هو الدعاء؟

ولما لم تجبه قال:

- أن يسبق الأجل خور الرجال!

- إني خجلان بما جرى .  
- اذهب مصحوبًا بالسلامة .  
أراد أن يكرّر الأمر ولكنّه صمت . لم يتحرّك لسانه  
ونسي . أقبل الليل قبل مواعده .

- ٤٨ -

أغمي على شمس الدين الناجي .  
فتح عينيه فرأى تلالًا حمراء فوقها سماء تقطر غبارًا .  
غازلته ذكرى وسرعان ما تلاشت . إنّه يتنفس في كهف  
تسكنه اللامبالاة . ينحسر الضباب فيترأى وجه  
عجمية ووجه سليمان . يدهمه الوعي بغلظة وضحكة  
صفراء . شمّ رائحة ماء الورد المتطايرة من عنقه  
ورأسه .

همست عجمية بوجه شاحب :

- هرّبت دمنا . . .

وسأله سليمان بصوت متهتج :

- بخير يا أبي؟

غمغم :

- الحمد لله . . .

ثمّ بنبرة المعتذر :

- حتّى شمس الدين لا ينجو من المرض . . .

فقال عجمية بحيرة :

- ولكنك لم تشكّ . . .

- ما أبغض الشكوى إليّ!

وبقلق تساءل :

- تسرّب الخبر إلى الخارج؟

- كلاً، غبت دقيقتين . . .

- عظيم، لا يجوز أن يُعرف الخبر، حتّى الأبناء لا

يجوز أن يعرفوا . . .

ونظر إلى سليمان وقال :

- ستسنى كلّ شيء عقب خروجك . . .

فحنى رأسه امتثالاً ولكنّ عجمية سألته :

- أنت بخير؟

- كلّ خير .

- عند العطار وصفة ولا شكّ تفيدنا .

فقال بامتعاض :

- لم يا أبي؟

- إنّه أمر .

وتراءى وجهًا لوجه، شمس الدين بجسمه القويّ  
الرشيق وسليمان بهيكله العملاق كأنه عاشور .

وقال شمس الدين :

- بكلّ ما أوتيت من قوّة صارع .

فقال سليمان :

- اعفني من العار .

- صارع وتعلّم فليست القوّة بكلّ شيء .

وأطبق عليه بالقوّة والإصرار .

تلاحما فانفتخت منها العضلات وهو يقول :

- بكلّ قوتك . . .

فقال سليمان :

- إني أمهلت عتريس مودّة لا عن عجز .

فزجر شمس الدين :

- بكلّ قوتك يا سليمان . . .

وشعر شمس الدين بأنّه يغالب السور العتيق وأنّ  
أحجاره المترعة برحيق التاريخ تصكّه مثل ضربات  
الزمن . وحمي الصراع حتّى خال شمس الدين أنّه  
يصدّ الجبل . منذ دهر لم يخض معركة . قوّته راكدة في  
ظلّ سمعته الشاخنة . تناسى أنّه يدرب فلدة الكبد .  
الموت أهون من التراجع . ركب عناد ذو عين واحدة .  
شدّ على عضلاته بالإصرار والكبرياء . رفع البنيان بين  
ذراعيه ثمّ طرحه أرضاً .

وقف يلهث ويتألم ويبتسم .

نهض سليمان وهو يضحك قائلاً :

- أنت الناجي الأصيل المقتدر .

راح شمس الدين يرتدي ثيابه . تنازعت انفعالات  
متضاربة . لا حزين هو ولا سعيد . غابت الشمس  
واستكنّ الهدوء الشامل بين يدي المساء .

- ٤٧ -

جلس شمس الدين على الكنبه فلم يفارقه سليمان .

لم يفارقه؟ هل يشي وجهه بالآلامه؟

- لم لا تنصرف بسلامة الله؟

فتمتم سليمان :

## ملحمة الحرايش ٧٥٥

دارت برأسه أفكار شيطانية وسرعان ما هرع إليه  
عشان الدرزى. أفاق من جنونه فتلاشت نواياه  
المستهتره. استسحف سلوكه. كسلًا. لن يتحدى  
الهواء. لن يتهادى في ارتكاب الحماقات. ستسبح فرصة  
فينتهزها. ستعرض تجربة فيخوضها.  
وغادر المكان دون أن ينس بكلمة أو يفعل شيئًا  
تاركًا وراءه ذهوًا شاملًا.

- ٥٠ -

الأيام تتلاحق. ثمة مصير يتخايل عن بعد ولكنه  
راسخ ويقرب. لا شيء يؤخر خطوته. إنه يشد  
عضلاته ويسل إرادته ويتنظر. لماذا تتمسك بالقوة  
ولست عابدها الأوحده. الشيب ينتشر. أيضًا التجاعيد  
حول الفم وتحت العينين. البصر يفقد حدته وكذلك  
الذاكرة.

ويزحف التغير على عجمية بسرعة أشد ودون  
تدرج. تفتت شهوتها للطعام ويسوء الهضم. وتصاب  
بالآلام مجهولة في الظهر والساقين. وتهزل وتنضب ثم  
تستسلم للرقاد. ماذا دهى هذه المرأة القوية؟ وتجرب  
الوصفة بعد الوصفة ولكن ثمة شيئًا جوهريًا فُقد.  
ويكثر من الجلوس في القهوة تاركًا الكارو لسليمان.  
يجمع برجاله، يسمع الأخبار، يزن كل يوم سطوته،  
يتحن في النفوس أثره وهيبته. ويقول أحد أتباعه ذات يوم:  
- ظهر في العطوب فتوة جديد...  
فيقول باستهانة:

- لعلّ القدر يعميه عن وزنه الحقيقي لنؤدبه!  
وفي المساء يخلو إلى نفسه ساعة في الساحة يستمع  
إلى الأناشيد ثم يسرع إلى البيت ليجلس إلى جانب  
عجمية. ويلاحظ بلا جهد أنها تمضي من سنى إلى  
أسوأ. هل تقدّر عليه الوحدة في آخر أيامه؟ كل وصفة  
جربت ولكنها تمضي من سنى إلى أسوأ.

- ٥١ -

وكان راجعًا إلى البيت ظهرًا عندما ارتطمت قدمه  
بنحلة يلعب بها طفل. وجاء صوت الطفل وهو يصيح  
مغيظًا:

- إنه من أعدائنا.  
- الحلاق مفيد أيضًا وهو من محبيك...  
- قلت إنه لا يجوز أن يُعرف الخبر، وأنا بخير...  
فتساءل سليمان بجزع:  
- ولكن لم يحصل ما حصل؟  
فقال متظاهرًا بالثقة:

- إنه الجهد عقب الإفراط في الطعام!  
استرد الوعي تمامًا فاسترد الثقة. نهض وتمشى في  
الحجرة الصغيرة. ألا يحسن به أن يسهر بعض الليل  
في الساحة كما كان يفعل عاشور؟  
ثم ناداه النوم باغراء لا يقاوم.

- ٤٩ -

مضى نحو الساحة عند الأصيل. كانت الشمس  
تسحب أذيالها من الأسطح والمثلثة. مرّ بعتريس وهو  
يسقي حماره من الحوض فحياه الشاب تحية الصبي  
لمعلمه المهيب. وعند زاوية السبيل التقى بسعيد الفقي  
شيخ الحارة فوقف يتبادل معه حديثًا عابرًا. من مكمنه  
وراء جناحي السبيل ترمى إليه صوت عتريس وهو  
يخاطب آخر قائلاً:

- معلّمنا شمس الدين ليس كعادته...  
فقال الآخر بأسف:  
- لعله مريض...  
فقال عتريس مشاركًا في الأسف:  
- أو لعله العمرا

اجتاحته شعلة غضب. غادر مكمنه فرجع إلى  
عتريس وهو يهتف:  
- أيها الجهاد!

ورفعه بين يديه عاليًا ورمى به في الحوض. تفرّق  
الواقفون تاركين الحمير وقد جفّلت من رجرجة الماء  
عقب سقوط الجسم.

ولم يعد يصلح لزيارة الساحة فعدل عنها.  
وباندفاع عمياء بادر إلى الخبّارة فمرق من بابها مثل  
عاصفة. سكنت الأصوات المخمورة وحدقت به  
الأبصار في توقّع دهشة. جعل ينظر إليهم في تحدّ غير  
مفهوم حتى وقفوا مترنحين وخاشعين...  
مفهوم حتى وقفوا مترنحين وخاشعين...

- ستجدنا جميعاً في خدمتك . . .

فتساءل محتدماً:

- ماذا تريدون؟

فلم ينبس أحد فقال:

- لولا ثقتي في قوتي لاعتزلت!

فقال سباحة:

- دع سليمان يحمل العبء.

ولكنّ سليمان بادره:

- ما زال أبي هو الأقوى . . .

فرمق ابنه بامتنان وتساءل:

- ماذا تعرفون عن لعنة العمر؟

فقال سباحة:

- إنه ينقلب نعمة بين أحضان الراحة . . .

- ويطمع الآخرون فينا، ما أبغض قفا الحياة.

وساد الصمت حتى قال بضيق:

- انصرفوا مشكورين . . .

- ٥٤ -

صلاح كار كجا ومن خراب كجا

بين تفاوت ره از كجاست تابكجا

كان يذوب في السماع تحت ضوء البدر الذي حوّل

بكيماياته بلاط الساحة إلى فضة.

وقبيل منتصف الليل غادر مجلسه. مرّ بدتكان سعيد

الفقيّ شيخ الحارة وهو بها فلماً رآه الرجل مضى إليه

وهو يتساءل:

- أما علمت يا معلّم؟

فلماً استوضحه ما يعني قال سعيد الفقيّ:

- رجالك يتربصون لزفة فتوة العطوف الجديد!

انتفض غاضباً وهتف:

- كذب.

- هي الحقيقة وسيتصرون بإذن الله . . .

- أين؟

- عند بوابة المتوليّ، يريدون أن يشكموا الفتوة

الجديد . . .

فتساءل شمس الدين محتدماً:

- من وراء ظهري؟!

- يا عجوز يا أعمى!

الثفت نحوه فرآه في طول عنزة وهو يمدجه بنظرة

جريئة متحدّية. ودّ لو يهرسه بقدمه. كظم غيظه

ومضى. هذا جبل يجهله. إنه يعيش بفضلته ويجهله.

ويصرّح بعفوية بما يكتمه الراشدون. أليس من

الأفضل أن نموت مرّة واحدة؟

- ٥٢ -

عند الفجر من تلك الليلة استيقظ على حركة

مبعثها عجمية. أشعل المصباح فوجدتها جالسة في

الفراش متألفة بحيوية طارئة بعثت في نفسه الأمل.

قال لها:

- لقد شفيت يا عجمية.

ولكنّها لم تجبه. نظرت إلى الجدار وهمست:

- أبي . . .

فامتلاً كآبة وثمنم برجاء:

- عجمية!

رأها تغيب في المجهول وتتلاشى فهتف:

- لا تركبني وحدي.

أسندها إلى صدره.

رفيقة العمر تحضر.

'ودهمه البكاء مجرّداً ولكن لم تسلم من عينيه دمعة

واحدة.

- ٥٣ -

تناوبت زوجات أبنائه خدمته. لم يخل البيت من

أصوات وأنفاس ولكنّه كان ينجي نفسه:

- ما أفضح وحدتي . . .

لم يحزن لموت عجمية كما توقع. شعر بأنّه على بعد

خطوات قلائل منها. الحزن في مثل سنّه لا يعني شيئاً.

إنّه لا يخشى الموت ولكن الضعف يخشى. أصبح طاعناً

في السنّ، وسيجيء يوم لا تبقى له فيه من الفتوة إلا

الاسم والذكرى.

وقال له بكرّيه سباحة وكان قد جاوز الخمسين:

- من حقك أن نخلد إلى الراحة . . .

وأكثر من واحد قال:

- ٥٦ -

رجع الرجال، على رأسهم شمس الدين الناجي،  
يخوضون الظلام على ضوء الشموع. وأنشدوا بأصوات  
أيقظت النيام:

- اسم الله عليه... اسم الله عليه...  
ثم غنى ذو صوت حسن:

يا عود قرنفل في الجنينة منعنع

ولكنّ شمس الدين لم ينعم طويلاً بفوزه المبين.  
سرعان ما انفصل عن الجمع فوجد نفسه وحيداً.  
وحيد في وحدة متعالية وموحشة. ووردت كلمة تقول  
إنّ كلّ شيء هباء حتى الفوز. وتقول أيضاً إنّ الهتاف  
كثير ولكن ما أكثر الأذان التي تتعاقب على ساعه.  
وأقبل نحوه عاشور الناجي حاملاً على ذراعين أمّه  
الجميلة في كفنها الكموني، وفرح لظهور عاشور بعد  
اختفائه الطويل، وقال إنّه كان على يقين من ظهوره  
ذات يوم، ولكن ألم تُدفن أمّه بعد؟ وفي لحظات  
الرضى تهبط سحابة فيمتطيها ذو الحظّ السعيد فترتفع  
به في جوف القبة. عند ذاك لا يبالي بالموجات المثبّطة  
التي يتلقاها من المجهول. يستوي لديه أن تحمله ساقاه  
أو تحذلانه. ولكنّه وحيد. وحيد يتألم. ما معنى هذا  
الضعف الزاحف. الأنوار الخافتة تنطفئ. إنّه يقترب  
من الحارة وفي الحقيقة هو يتعد. يتعد إلى ما لا  
نهاية. لم يعد له من مطمح أكثر من أن يبلغ فراشه.  
وتجملجل الأصوات:

- اسم الله عليه... اسم الله عليه...

ويصارع شمس الدين المجهول في وحدته. إنّه  
يصنّده عن السير، يرفع أديم الأرض حيال قدميه،  
يسرق فوزه العظيم ببسمة ساخرة. ويكوّر قبضته،  
ويسدّد إليه ضربة في الصدر لم يعرف لعنفها مثيلاً من  
قبل.

وتأرّه شمس الدين الناجي ثمّ تهاوى فتلقفته أيدي  
الرجال.

وضرب الأرض بعصاه المعجزة واندفع في الظلام.  
أتبعه سعيد الفقيّ عينيه حتى اختفى ثمّ تمتم  
ساخرًا:

- أيها المعجوز المخرف الذي يبول على نفسه!

- ٥٥ -

بدأت المعركة قبل وصوله بدقائق. رآه بعض رجاله  
فصاحوا:

- شمس الدين الناجي...

الزفة تصور بضربات النبايت. سليمان يفعل  
الأعاجيب. فتوة العطوف يحمل حملات صادقة تنزل  
الرجال.

اندفع شمس الدين بلهفة إلى قلب المعركة. وثب  
برشاقة أمام ابنه سليمان فصار وجهًا لوجه مع فتوة  
العطوف. تفادى من ضربة شديدة ثمّ وجه ضرباته  
السريعة في خفة وحذر. امتلاً بقوة عجيبة لا يدري من  
أين جاءت فقاتل كخير ما قاتل من قبل. تجلّى مندفعًا  
فيأضًا ملهًا شديد البأس. تضاعف حماس رجاله  
وتضاعدت جمجمة النبايت. وثلث بنشوة القتال  
فخلق المعجزات. أصابته ضربات لم تعجزه ولم توقفه.  
ونال من خصمه ضربة أخرجته من النضال. وسرعان  
ما تفشى الخور في رجال العطوف وأخذوا يتقهقرون.  
وما هي إلا ساعة حتى انقلبت الزفة مآثمًا. تحطمت  
الكلوبات وديست الورود وتحطمت المزامر والدفوف  
ولاذ الرجال بالهرب...

وقف شمس الدين وهو يلهث والدم يخضب  
جبهته. التفت حوله رجاله. وجاء سليمان فلثم يده  
ولكنّه قال له:

- لي معك حساب.

فقال سليمان معتذرًا:

- إنّه الوفاء لا الغدر.

وصاح الرجال:

- صلاة النبيّ ترضي النبيّ.



## الحُبُّ وَالْقَضْبَانُ

### الحِكَايَةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ مَلْحَمَةِ الْحِرَافِيشِ

- ١ -

بقوة انتصارات أبيه أو جدّه، ولكتّها كانت كافية لتأمين الحارة وبسط قدر لا يستهان به من هيبتها. وترك العراك آثارًا مستديمة في الجبين والعنق ولكتّها عُذّت شهادة طيبة لبطلته الرائعة.

ومن الحقّ أن يقال إنّ قلبه كان ينازعه أحيانًا إلى الحياة الطيبة الرغيدة، وإنّه كان يقرأ مثل ذلك في وجوه أعرابه وإخوته، ولكنه تجمّم الضعف ولم يشجّمه وفتح قلبه الغضّ لسحر العظمة الحقيقية.

- ٣ -

وكانت فتحة - شقيقة صديقه عتريس - زميلته في الكتاب. وغابت عنه دهرًا حتى رآها مرة أخرى في جنازة أبيه. ورغم حزنه مال قلبه إليها. كانت تقاربه في السنّ، في أنفها فطس. عميقة السمرة، جميلة العينين، ذات حيوية فائقة، وشعر بأنّ الزواج جدير بأن يصون فتوته من مبادل لا تليق بالفتونة النقية. هكذا طلب يدها من عتريس، وسرعان ما زوّجت إليه، واستبشرت الحارة بالزواج خيرًا، وعدّته نصرًا للحرافيش والفتونة النقية.

- ٤ -

ومضت عشرة أعوام هادئة. كان سليمان يعمل شاعرًا بأنّ الفتونة عبء ثقيل وبهجة عابرة. وكانت فتحة تعمل كما عملت عجمية وفلة من قبل وتلد بنتًا بعد بنت.

خفقت الأفئدة لموت شمس الدين الناجي. أسهمت الحارة في تشييد قبر له يليق بمقامه. وشيّعته إليه في جنازة مهيبة لم يتخلّف عنها زجل أو امرأة. وعُذّت صلابته البطولية أسطورة وكرامة من كرامات الأولياء حتى سُمي بقاهر الشيخوخة والمرض. وبقيت ذكرى فتوته النقية العادلة خالدة مثل فتونة أبيه العظيم، وتنوسيت هناته الانفعالية، ولم ينس أحد أنّه عاش ومات كادحًا، كما عاش ومات فقيرًا.

وبفضله وفضل أبيه عاش في وجدان الحارة مثل أعلى ترنو إليه الأعين والقلوب على تعاقب الأزمان.

- ٢ -

تولّى الفتونة سليمان شمس الدين الناجي. عملاق مثل جدّه عاشور، دون أبيه في الجمال والرشاقة، ولكنه مكتسب بروعة الصورة الشعبية الأصيلة. لم يتقدّم لمنافسته أحد، وانضمّ إليه عتريس بحماس وحبّ. ولم يتغيّر مذاق الحياة في شيء. لعب الأمل بقلوب السادة والوجهاء أيامًا ثمّ خمد. لم يكن عمره يتجاوز العشرين ولكنه أتبع خطى أبيه بلا تردّد. ظلّ حامي الحرافيش وشاكم الأغنياء، وعدوّ البلطجة، وممارس مهنة أبيه برضى واقتناع.

وكانت توقع واجه تحذبات من فتوات الحارات المجاورة فلم ينكص عن خوض المعركة بعد المعركة، وأحرز في كلّ معركة انتصارًا، أجل لم تكن انتصاراته



وفي العام الأخير من أعوامه الهادئة رأى سنيّة السمري .

من مجلسه في القهوة في أوقات الراحة يراها والدوكر يمضي بها. كريمة السمري كبير تجار الدقيق، برّاقة المنظر في طربزتها، تطلّ من فوق برقعها الأبيض عينان سوداوان ساجيتان ساحرتان، يبعث مرورها السريع الدفء والإلهام.

تعلّق بالدوكر اهتمامه. امتدّ بصره إلى دار السمري السامقة. حلم على إيقاع جرس الدوكر برقص الفتوات في أعقاب الظفر. تاه بعلمقة الفتوة على تواضع الكارو. وتساءل من يجلس إذا سليمان وقف. وعدا بوابة التكيّة فأبى باب يغلق في وجهه. والضعف قبيح ولكن ألم يعشق عاشور فلّة جدّته. أليست دار السمري أنقى من خمّارة درويش. هل كان عاشور ينكص إذا كانت فلّة كريمة للبنان؟ هل غير استيلاؤه على دار البنان من عدله وطيبته. وهو قادر على قهر الفتوات ومحق الإغراء ولكنّ الحبّ قدر. وحتىّ شمس الدين في هوى قمر وقع. سيجزع الحرافيش ويفرح السادة ولكنّ سليمان لن يتغيّر. ثمّ ما الحيلة إذا كان الحبّ حكم. أجل ما زالت فتحيّة الزوجة المخلصة والأمّ الولود. وهي أيضًا شقيقة عتريس الوفيّ. الحبّ الجديد غطّاهما كاللوجة الصاخبة ولكنّ جذورها هناك راسخة. ما أعذب الألم في محن الأهواء الجامحة!

- ٥ -

عقب صلاة الجمعة سار سعيد الفقير شيخ الحارة إلى جانبه. قبيل القهوة قال له:

- رأيت يا معلّم حلّمًا عجيبًا...

فحدّجه سليمان بنظرة متسائلة فقال:

- حلمت بأنّ أناسًا طيبين يتمنّون لقاءك...

فخفق قلب سليمان وشعر بأنّه تجرّد فجأة من

ملابسه وبقم ساخرًا ليداري اضطرابه:

- حلم شيطانيّ...

فواصل شيخ الحارة بجديّة:

- ولكنّهم ينتظرون أن تحيي الخطوة الأولى

منك...

وتساءل سليمان متخابثًا:

- ماذا يريدون من سواق كارو؟

فأجاب سعيد الفقير بإجلال:

- أن يوصلهم إلى سيّد الحارة دون منازع...

- ٦ -

ارتفعت موجة الإغراء كالجبل فاستدعى سليمان

عتريس إلى مجلسه بالقهوة وقال له:

- عندي سرّ أريد أن أفضي به إليك.

فتطلّع إليه عتريس في امتثال فتساءل سليمان:

- أنت صديقي فكيف تراني لوتزوّجت مرّة أخرى؟

فسأله عتريس ببساطة:

- تنوي التخلّص من فتحيّة؟

- بل ستبقى في أعزّ مكان...

فضحك عتريس وقال:

- أنت تعلم يا معلّم أيّ شارع في الزواج من

الثالثة!

- الرجال لا يتنابدون بسبب النساء ولكن توجد

مشكلة في الأمر...

فابتسم عتريس وقال:

- إنّ الجديدة من دور السادة؟!

فتمتم سليمان بارتياح:

- ذاع السرّ لهذا الحدّ؟

- الحبّ ذو رائحة نفاذة!

- ماذا يقول الناس؟

- وماذا يهّمنا من الناس؟

- ماذا يقول الحرافيش؟...

فقال عتريس باندهاق:

- اللعنة على الحرافيش، أمّا أعوانك المخلصون

فسيرقصون طربًا...

فبادره سليمان عابسًا:

- أخطأت التصوّر يا عتريس، سليمان الناجي لن

يتغيّر...

فانطفأ تألّق الآخر وقال:

- هل تشرك الهانم في بدروم فتحيّة؟

- أيّا كان الحلّ فسليمان لن يتغيّر... الحقّ أنكم

## ملحمة الحرافيش ٧٦١

أجل حافظ على مظهره في الخارج. وأصرّ على ممارسة عمله المتواضع. ولم يتلقَّع أمام الأعين إلا بعظمته الحقيقية. غير أنه آنس رياحاً جديدة تهبّ على جوه المستقرّ، وشرراً يتطاير يوشك أن يشعل حرائق الأركان. ثمة نظرات نافذة تمتك ما يستقرّ في معدته من أطايب الأطعمة والأشربة. وهمسات تدور حول اللجنة الخفية، بخاصة من رجاله وأتباعه. واضطرّ - ولأول مرة - أن يورّع عليهم في المواسم والأعياد، وفي سرّية بالغة، نقوداً من الإتاوات، دون غبن يذكر للفقراء والحرافيش. شعر وهو يفعل ذلك بأنه يضطرّ الخطوة الأولى في طريق كربه شديد الانحدار، وأنه يجيد نوعاً ما عن سبيل الناجي. ثمّ هاله أن ينعم بما ينعم به في دار السمري على حين تعاني فتحيّة وبناتها حياتهنّ الجافة الشاحبة، فامتدّت يده مرّة أخرى إلى الإتاوات وخصّهنّ بنفحات محدودة، منحدرًا درجة جديدة في الطريق الكريه. ومضى يقول متعزّيًا:

- لن يمّسّ ذلك حقوق الفقراء والحرافيش إلا قليلاً... -

ولم يسكت حواره مع نفسه، ولم تصفّ الحياة من شوائب الكدر. وها هي سنّية تلخّ عليه في أن يكفّ عن ممارسة مهنته، أن يؤجّر آخر ليسوق الكارو، وها هو يرفض بإباء، ويحاول أن يسيطر سيطرة الفحل القويّ. وهي تحبّ وتظاهر بالطاعة تاركة الفعل والتأثير لحبّها المتسلّل المقتحم.

وكلمها شعر سليمان بأنه يتغيّر قال لنفسه بحزم:

- ما تغيّرت، ولن أتغيّر... -

## - ٩ -

وجمعت مائدة العشاء بدار السمري بينه وبين وجهاء الحيّ. كانوا يتجنّبونه خوفًا أو إيثارًا للسلامة، الآن يحقدون به آمين كما يحقد المشاهدون بالأسد في حديقة الحيوان.

وتبودلت الأنخاب، وجرت الدماء بالشجاعة، وهلّت تباشير الآمال، حتّى قال صاحب الوكالة:

- لعلك ظننت يوماً أننا لا ندعن لك إلا بالقهر،

ألا تدري يا معلّم أنّ العدل قيمة يجبّها في النهاية من

تضيّقون بالعدل ضيق الوجهاء!

- معلّم، من من الفتوات يرضى بما نرضى به في العيش؟

فقال سليمان بإصرار:

- سليمان لن يتغيّر يا عترس!

## - ٧ -

حمل سعيد الفقّي رغبة سليمان إلى السمري وسرعان ما قوبلت بالرضى. كان السمري في أعماقه يجتفر سواق الكارو وأصله ولكنّه كان يتطلّع إلى مصاهرة الفتوة الجبار سيّد الحارة وشاكنم الأغنياء. ورجاء واحدًا أن يخصّص لكريمته جناحًا في داره حتّى يشيد لها دارًا مناسبة فلم يعارض سليمان في ذلك. وصعبت فتحيّة وبكت ولكنها سلّمت بالمقدّر. وفرح السادة وتوجّس الحرافيش ولكنّ سليمان أعلن أنّه لن يتغيّر.

وشهدت الحارة زفافاً لم تشهد له مثيلاً من قبل.

## - ٨ -

هكذا ربطت المصاهرة بين الفتوة سليمان وبين الوجهه السمري. وقال عنها شيخ الحارة سعيد الفقّي:

- مصاهرة مباركة بين الفتونة والوجهة.

وقد امتلأ جيبه جزاء سعيه المشكور، بالرغم من أنّ سليمان أعلن أنّه لن يتغيّر. ولكنّ الحياة جادت بمداقات جديدة، وحملت السحب ماء سلسبيلاً. وقال سليمان لنفسه إنّ من النساء من هنّ جبن قريش ومنهنّ من هنّ زبدة وقشدة. أسكرته الرائحة الزكيّة. وداهنته البشرة الملساء، وأطربته النبرة العذبة. وحلّت دنياه الرشاقة اللعوب. وبإقامته في دار السمري أيّاماً معدودات كلّ أسبوع عرف نعومة المجلس ودفء المرقد وسلاسة الملابس وأبهة الماء الساخن في الحمام الفسيح، والستائر والوسائد والشارق، والتحف والتهاويل، والسجاجيد والأبسطة، والحيّ والجواهر، والأهمّ من ذلك كلّ الأطعمة الفاخرة واللحوم المتنوعة والحلوى الساحرة. وذهل الفتوة، وعجب كيف تستكنّ هذه اللجنة الخلابّة في طوايا الحارة المتفشّفة.

عن عمله وأحلّ فيه أحد رجاله. وزاد من الهبات لنفسه ولأعوانه فمضت العصابة ترتفع نحو منازل الوجهاء حتّى هجروا في النهاية حرفهم البسيطة أو أهملوها. وتناقصت أنصبة الفقراء والخرافيش وإن لم يُجرموا من الهبات. تغيّر وجه الحارة المشرق، وأخذ الناس يتساءلون، أين عهد عاشور، أين إخلاص شمس السدين. وتحفّز الأتباع للمتسائلين وأرهبوا الساخطين.

وأنشأت سنيّة بكر وخضر نشأة مرفهة ناعمة، ثم أدخلتهما الكتاب، وأعدتهما للتجارة، فلم يبشّر أحدهما بأنّه سيخلف أباه ذات يوم. ولمّا بلغا سنّ المراهقة فتحت لهما محلاً لبيع الغلال وبذلك صارا تاجرين وجيهين...

وتجنّب سليمان المعارك ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وآثر في النهاية أن يحالف فتوة الحسينيّة ليتفادى من مواجهة التحديّات وحده، وفقدت الحارة مركز السيادة الذي تبوّأته منذ عهد عاشور الناجي.

وتغيّرت صورة العملاق ومنظره، ارتدى العباءة والعمامة، واستعمل الكارثة في مشاويره، نسي نفسه تمامًا، ثمل حتّى أصابه سحر الانحراف. ومضى يمتلئ بالدهن حتّى صار وجهه مثل قبة المئذنة وتدلى منه لغد مثل جراب الحاوي.

وكان سعيد الفقير عندما يهتته بأحد الأعياد يقول له:

- آيامك كلّها أعياد يا معلّم سليمان...

- ١١ -

كان الشقيقان بكر وخضر مختلفي المظهر. بكر يشابه أمه سنيّة هانم في جمالها ورقتها، يبدو دائماً هائماً مترقماً. أمّا خضر فرغم جماله ورث عن أبيه وجنتيه البارزتين وطوله دون عملقته وإلى الرقة أقرب كان. ولعلّه لم يكن في ترّفّع شقيقه ولكنّه لم يعد على أيّ حال متواضعاً. واكتسباً معاً من دار السمري أسلوباً راقياً في الحياة وعادات عالية وتهذيباً أنيقاً، فلم يعرفا حارثتها إلا من الشرفات العالية، ولم تطأ أقدامهما أرضها المبلّطة، وأدارا محلّها من حجرة فاخرة لا

يتنفع بها ومن يخسر؟!

فتمتم متسائلاً:

- ومن يخسر؟

- حسبك أنّك جئبتنا الحقد والحسد واللصوص.

وهنا قال البنان:

- ولكتننا وجدنا في عدلك الشامل شيئاً من الظلم!

فتساءل مقطباً:

- الظلم؟

- ظلمك نفسك وأتباعك...

وتساءل العطار:

- أيّ ظلم في أن تنال نصيبك كاملاً وأن ينالوا نصيبهم؟

وتساءل سموه السمري:

- ألا تسفك دماؤكم دفاعاً عن كرامتنا؟

وقال تاجر الغلال:

- الفتوة ورجاله من الوجهاء أو هذا ما ينبغي أن يكون...

فقال معترضاً:

- كلاً، ما فعل ذلك أبي ولا جدّي...

فقال صاحب الوكالة:

- لولا إقامة جدك العظيم في دار البنان ما عرفت الحارة معنى الفلاح...

فقال بإصرار:

- كان فتوة أعظم منه وجيهاً...

فقال صاحب الوكالة:

- خلق الفتوة ليكون وجيهاً وليلعني الله إن كنت كاذباً أو مغرضاً فيما أقول!

وضحك ساخراً ودفء الخمر يغزوه...

- ١٠ -

وأنجبت سنيّة له «بكر» ثم «خضر» فنعم بما يعدّه أبوة حقيقية. وفي أثناء ذلك تمّ تشييد دار جديدة لسنيّة. وبات سليمان يسعد بأيّامه في الدار بقدر ما يشقى بعودته الإجماريّة إلى بدروم فتحية. استولت سنيّة على قلبه تماماً كما استحوذت دارها على رغباته. وبتعاقب الأيام زحف على وجدانه مخدر فعّال. كفت

## ملحمة الحرايش ٧٦٣

- فسأله بغضب:  
 - من أنت لكي تفهم المعلم عاشور؟  
 - هكذا قيل يا أبي...  
 - لا يفهم عاشور إلا من اشتعل قلبه بالشرارة المقدسة...  
 - ألم يحتل دار البنان؟  
 فقال سليمان محتدًا:  
 - معجزته في الحلم والمعهد.  
 فقال بكر بجرأة غير محمودة:  
 - كان يستطيع أن يهرب من الشرطة بلا حلم.  
 احتقن وجه سليمان بالدم وهتف:  
 - هكذا تتكلم عن الناجي؟  
 تمخض الوجيه عن وحش في لحظة من الزمان وكأنَّ  
 عاشور الأسطوري قد بُعث من جديد فجفلت سنيّة  
 وقالت مخاطبة ابنها بحدة:  
 - جدك رجل مقدس يا بكر...  
 وصاح به أبوه:  
 - إنك لا تصلح لشيء نبيل...  
 وغادر الرجل مجلسه إلى مخدعه فقالت سنيّة لبكر:  
 - لا تنس أنك بكر سليمان شمس الدين عاشور  
 الناجي!  
 وتمتم خضر:  
 - أجل.  
 فقال بكر وما زال متأثرًا من غضبة أبيه:  
 - ولكنني تاجر ومن آل السمري أيضًا.

## - ١٣ -

وقررت سنيّة هانم أن تفرح بيكريةها. وكانت  
 معجبة برضوانة رضوان كريمة الحاج رضوان  
 الشوبكشي العطار فخطبتها له. لم يرها بكر من قبل  
 ولكنّه كان يثق بشهادة أمّه.  
 وكان الحاج رضوان الشوبكشي واسع الثراء وفير  
 الدرزيّة وعاشقًا للهو والطرب. وزفت رضوانة إلى  
 بكر، وخصص لها جناح في الدار.

يتلاقيا فيها إلا بكبار التجار تاركين المعاملات اليوميّة  
 مع الجمهور لوكيل المحلّ. ولم يفهما والدمهما. رغم  
 أنّها لم يرياه إلا في أفخم صورة فإنّهما لم يقتنعا بالفتونة  
 ولا أضمرا لها الاحترام الكافي. لم يفتنا إلى أنّه لولا  
 سطوة أبيهما لما نجحت تجارتها، ولعبث العملاء  
 والتجار بسذاجتها التجاريّة، فخصلا الخبرة والمهارة في  
 أسعد الظروف المواتية وهما لا يعلمان.

## - ١٢ -

وذات مساء جلست الأسرة حول المدفأة المطلية  
 بالفضّة في بهو المعيشة. كان شهر طوبة يستوي على  
 عرشه الثلجي والرداذ لم ينقطع منذ الصباح الباكر.  
 ونظر سليمان إلى ابنه الرقيقين المتلفعين بالعباءة  
 المخملية المنزلية ثم قال باسًا:  
 - لو رأيكم عاشور الناجي لأنكركما وتبرأ منكما...  
 فقالت سنيّة وهي ترمقها بحب وإعجاب:  
 - حتى الملوك يتمنوهما!  
 فقال سليمان بوجوم:  
 - إنهما ابنك وحدك وما منها أحد يخلفني...  
 فبادرت متسائلة:  
 - ومن أعلمك أنّي أودّ لها الفتونة...؟  
 فسألها بجفاء:  
 - ألا تحترمين الفتونة؟  
 فتراجعت بلباقة قائلة:  
 - أحترمها كما أحترم رَجُلها، ولكنني أكره أن  
 يتعرّض ابناي لمخاطرها...

وتساءل ما جدوى الخصام؟... وماذا بقي من  
 العهد؟... لقد تزوّجت بناته الكبريات من حرافيش  
 أمّا الصغيرة المعاصرة لوجهته فقد تزوّجت من «محترم»  
 وسوف تنجب ذرية غريبة مثل أبيها. وقد استنام  
 الضمير إلى الدعة، واستسلم الجسد الشره إلى تيار  
 الإغراء والاستهانة. والمعارضة في هذه الحال حركة  
 ساخرة.

وقال ابنه بكر:

- ولكنّ جدنا عاشور الناجي كان يحبّ الحياة

الفاخرة!

- ١٤ -

بزواج بكر وفد إلى الدار جمال جديد. فرح بها بكر وعشقها من أول ليلة. كانت ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبي. وذات قامة فرعاء رشيقة. شيء واحد ضايق بكر مضايقة عابرة، أمّا كانت تماثله في الطول، وتبدو أطول منه بحذائها ذي الكعب العالي. وقالت له أمّه تطمئنه من ناحية أخرى:

- ستجدها ذات قابليّة للامتلاء، وستصير مع الأيام في وزن أمّها بلذن الله...

وكانت العروس تتعزّر في الحياء ولا تكاد تنظر في وجه أحد. ولكتّها مع الأيام بدأت تكتشف ما حولها، وتحذق بنظرات نافذة في وجه الأب العملاق، وخضر شقيق زوجها، وسائر الأشياء المحيطة بها.

وقال خضر لأمّه مرّة:

- العروس لا تستقرّ.

فقالت باسمه:

- ستستقرّ عندما تنجب، إنّي أعرف هذا النوع النفيس. ألا تؤدّ أن أحطّب لك فتاة مثلها؟ فقال خضر:

- ليس قبل أن أبلغ العشرين...

تردّد وهو يرنو إلى عينين فارسيتين ترنوان إليه من سجّادة معلّقة فوق الجدار ثمّ قال:

- وأفضّل الشعر الذهبيّ والعينين الزرقاوين...

فبسطت سنيّة صفيرتها الفحاء أمام عينيها وتساءلت باسمه:

- هل ولى زمان الشعر الأسود؟

- ١٥ -

وانعقدت بين رضوانة وخضر صداقة وأخوة. وكان يقوم بخدمتها كلّما غاب بكر في إحدى رحلاته التجارية. وفي أثناء ذلك صرف شقيقها الصغرى وفاء. كانت صغيرة الجسم، باهرة الجمال، ولكتّها ذات شعر كستنائيّ وعينين عسليّتين. وقام بخاطره أنّ رضوانة قد تقترحها عليه زوجة بطريقة أو بأخرى فأشفق من أن يغضبها رفضه. وسألته أمّه ذات يوم:

- هل تعجبك وفاء؟

فقال بحزم:

- فتاة ممتازة ولكن ليست لي...

فتمتمت أمّه بأسف:

- أراها ممتازة حقًا...

وعند ذاك قال لأمّه:

- أخشى أن تغضب رضوانة إذا علمت...

فقالت سنيّة:

- رضوانة ذات كبرياء وهي لا تعرض شقيقتها

للبيع، ثمّ إنّ الزواج قسمة ونصيب!

- ١٦ -

وقام بكر برحلة تجارية تستغرق بضعة أيام. وعندما رجع خضر من المحلّ مساء إلى الدار وجد رضوانة واقفة عند مدخل جناحها. تصافحا، وعندما همّ بالسير قالت له:

- أريد مشورتك في أمر.

تبعها إلى بهو الجلوس. جلس على ديوان. جلست أمامه على أريكة وراحت تتطلّع إليه في صمت كأنّها لا تدري كيف تبدأ حديثها. تنسّم في الجوّ عبق بخور غنّدر وراح ينصت لهسيس الصمت. ولكي يشجّعها على الكلام قال:

- إنّي رهن إشارتك...

فلم تنبس، وكما لاحظت شدّة انتظاره قالت:

- لا أدري ماذا أقول، هل ضقت بسرعة من

وجودك معي؟

- أبدًا، المسألة أيّ أودّ خدمتك.

فقالت بغموض:

- لا أريد أكثر من ذلك...

انتظر وهو يقلق تحت شعاع العينين. تضاربت في رأسه التخمينات. حدث شيء لم يقع له في بال؟ هل سيفاجأ باقتراح محرّج؟ قال:

- تحت أمرك...

فقالت بنبرة غريبة:

- أنت تجهل حالي ولذلك فإني أغفر لك

تسرّعك...

- دعيني أطمئنّ عليك...

فقلت وهي تحدج بنظرة ماكرة وجريئة:  
 - ساجاريك ليس إلا، ذات يوم أخبرتني أُمِّي أن  
 سنيّة هانم السمري خطبتني لابنها...  
 رفعت عينيها إلى السقف حتّى ترامى جيلدها  
 كالشمعدان الفضيّ. شيء هتف به أنّ الجمال الأسر قد  
 خلق للقتل. وأنّ الأسى أثقل من الأرض وأشمل من  
 الهواء. وأنّ الإنسان لا يتنفّس بحرّيّة إلا في منفى  
 الهجر.

واعترفت قائلة في استسلام ناعم عذب:  
 - بصعوبة شديدة وارتيت فرحتي  
 ثمّ فيما يشبه الغناء:  
 - ولم يداخلي شكّ في أنّه أنت  
 خرس وجفل فقلت وهي تحدج بجرأة:  
 - هذه هي القصّة، فهل فهمت؟  
 فقال بصوت متهدّج:  
 - ساق الحظّ إليك خير الشقيّين...  
 فقلت برقة وعتاب:  
 - لا تُسمعني صوت الخوف  
 - إنّه صوت النجاة...  
 - طالما أشعرتني بوذك.  
 - طبعًا، فإنّك زوج أخي المحبوب  
 فنهضت نحوه بحركة رشيقة ومالت قليلاً حتّى غزته  
 بشذاها الطيّب وقالت:  
 - بل حدّثني عن مكنون قلبك...  
 فوقف مدعورًا، وتباعد قائلاً:  
 - صارحتك بكلّ شيء...  
 - أنت خائف  
 - كلّاً.  
 - تخاف أخاك، تخاف أباك، تخاف نفسك...  
 - كفى عداًباً...  
 - ليس للحيطان آذان ولا عيون...  
 فانفلت نحو الباب وهو يتمتم:  
 - وداعاً...  
 وغادر البهو أعمى العين والقلب والبصيرة.

- أهذا ممكن؟  
 - لمّ لا؟... يجب أن يكون ممكناً...  
 فتساءلت وهي تهرب من عينيه:  
 - هل ذقت الهزيمة في حياتك؟  
 - لا أظنّ، ولكن أيّ هزيمة؟ من عدوك؟  
 - لا عدوّ لي، إنّها هزيمة من الداخل...  
 فهزّ رأسه متحيّرًا فقلت متشجّعة بصورة أوضح:  
 - هزيمة الإنسان أمام نفسه، رضاؤه بالدمار إذا  
 شئت...  
 فقال متجهّماً:  
 - أحوذ بالله... صارحيني كآخ...  
 فقلت بنبرة قاطعة:  
 - كلّاً، إخوتي هناك في الدار الأخرى...  
 - ولكيّ أخوك أيضًا...  
 - كلّاً، ولكن لمّ لا تسمع القصّة من أولها؟  
 فقال بتلهّف:  
 - إني مصغّر.  
 فقلت بقلق واضح:  
 - حدث وأنا بنت في دار أبي أنّي رأيتك مرّة ومرّة  
 على تباعد في الزمن وسمعت من يقول إنّك ابن الفتوة  
 سليمان الناجي.  
 هزّ رأسه صامتًا، وتلقّى في الوقت نفسه رسالة  
 مقلقة من المجهول. أما رضوانة فواصلت حديثها:  
 - لم أر بكر أبدًا، وهكذا حدث، لم أعرف حتّى أنّ  
 لك شقيقًا، فلا لوم على أحد...  
 ازدادت ندر المجهول، نفثت المخاوف في الجوّ  
 المعبق بالبخور، استحضر صورة بكر وأمه وأبيه...  
 جاءت الأسرة لتسمع القصّة العجيبة.  
 - لماذا لا تتكلّم؟  
 - إني أصغني...  
 فقلت ضاحكة في ارتباك:  
 - ولكنّ القصّة انتهت.  
 - ولكنّي لم أفهم شيئًا...  
 - إنّك لا تريد أن تفهم...  
 فقال بيأس خفيّ:  
 - كلّاً...

- ١٧ -

الزوجة المشتاقة المنتظرة؟ هل تقبل عليه كما أقبلت نحوه بنظرها المشتعلة وأشواقها المحمومة؟ هل يسدل الستار على نزوة الماضي ويمضي تيار الحياة في مجراه المألوف؟

أو يغلبها الفتور والعواطف الدفينة فتتعلم بالمرض؟... هل يدب الفساد في الحياة الزوجية الجديدة فتتعقد الأمور ويتجهّم وجه الحياة؟

وارتعدت مفاصله وغمغم:

- بوسعها أيضًا أن تنتقم!

ها هو بكر يسألها عمّا بها فتقول باكية:

- أخوك غدرا

أيّ أكذوبة، أيّ شرّ يتدرا

ولكن مهلاً. لم تخبر حماها أو في الأجل حماها؟ على أيّ حال ستجد من يصدّقها ولن يجد هو من يصدّقها.

كلّا. إنّها مأكرة وجريئة. ستظاهر بالحزن، وتقول في غموض:

- أودّ أن نعيش بعيداً عن هذه الدار.

سيسألها بكر عمّا يضايقها فتقطّب ولا تحيب. تشاجرت مع أمي؟ مع أبي؟ كلّا.. كلّا. لا يبقى إلاّ خضر. ألم يحسن خضر خدمتك؟ إنّها لا تحيب ولكن يبدو أنّها لا تطيق سماع اسم خضر. أيّ خطأ ارتكبت؟ ثمّ تتضح الحقيقة مثل سواد الليل تحت سماء ملبّدة بالغيوم. في هذه الحال تلوذ الجميلة المأكرة بانطباع شخصيّ قد يصدّق وقد لا يصدّق ولكنه يترك أثره المحتوم. لن تصرّح بأكثر من أنّ نظراته لم تعجبها، لم ترتج لها، وأنّها لذلك تفضّل العيش بعيداً عن دار السمري!

كيف يدافع عن نفسه؟ هل يهدم سعادة أخيه وسمعة أسرته؟ هل يهرب حاملاً الإثم وحده؟

ولكن أليس من الجائز أنّ أوهامه محض هواجس لا أساس لها، وأنّها الآن ينعمان بالحبّ بعد الغياب؟!

عند ذاك سمع أقدام متوتّرة. ثمّ رأى بكر يسدّ الباب مرتجفاً من شدّة الغضب.

تجنّب خضر رؤيتها. حتّى الغداء كان يتناوله في المحلّ، والعشاء في أيّ سهرة مفتعلة. لم تلاحظ سنيّة شيئاً، ومزّت الساعات في هدوء ودعة في دار سنيّة السمري.

وعصفت الأحزان والقلق بقلب خضر. ماذا عليه أن يفعل؟ إنّهُ مهجور مع مشكلة لا يجوز فيها المشاورة. نازعته نفسه إلى هجر الحارة كلّها، ولكن أين يذهب، وبأيّ عذر يتعلّل؟ إنّهُ صاحب مبادئ. طالما قال عنه سليمان إنّهُ تشربّ ببعض روح الناجي وإن حُرّم من قوّته وسيطرته، بخلاف شقيقه بكر الذي عشق التجارة والمغامرة والريح.

إنّهُ يتعدّب ولا يفعل شيئاً، ويسلم للمقادير بلا ثقة ولا اطمئنان...

- ١٨ -

رجع بكر من رحلته فقصد المحلّ قبل الدار. استقبله خضر بحرارة. أقبل بكر متهلّلاً بالفوز وهو يقول:

- صفقة رابحة والحمد لله...

فابتسم خضر مرحباً فتساءل بكر:

- كيف حال العمل؟

- عال...

وإذا به يسأله:

- لست كعادتك، مالك؟

فارتعد، وتعلّل بوعكة عابرة. كيف يمكن أن تطيب المعاشرة بعد ذلك؟ سجّل تفاصيل الصفقة في الدفتر والأفكار تتلاطم في رأسه. الإفضاء إليه بالسرّ جريمة، وإخفاؤه عنه جريمة أخرى. كيف يمكن أن يختفي؟! وقام بكر وهو يقول:

- إني مرهق ويمسّن بي أن أذهب إلى الدار...

- ١٩ -

في هذه اللحظة يلتقي بكر برضوانة. في هذه اللحظة أيضاً يدرك خضر مدى خطئه ببقائه في الحارة. كيف تلقاه الجميلة الجريئة؟ هل تستطيع تمثيل دور

- ٢٠ -

- لم ينبس أحد فصاح:  
 - الويل لمن يخفي همسة...  
 ورمى رضوانة بنظرة حادة أمرًا:  
 - تكلمي يا رضوانة...  
 فأجهشت في البكاء فهتف متبرمًا:  
 - لا أحب الدموع...  
 فتمتت وهي تشهق:  
 - لم أقل إلا أنني أريد أن أعيش بعيدًا...  
 - هذا وحده لا يعني شيئًا ذا بال!  
 فقال بكر:  
 - فهمت من حديثها أنها تكره أن تعيش في دار  
 واحدة مع خضرا  
 - لماذا؟... أريد حقيقة ملموسة...  
 فقال بكر:  
 - تجسدت لي الحقيقة دون تصريح...  
 فصاح سليمان:  
 - الحقيقة الحقيقة حتى أقوم بواجبي...  
 ثم نظر نحو رضوانة وأمر:  
 - تكلمي بالصراحة الكاملة...  
 فأجهشت في البكاء مرة أخرى فلوح بيده ساخطًا  
 ثم التفت نحو خضر وسأله بحنق:  
 - ماذا فعلت؟  
 فتمتم خضر:  
 - لا شيء والله مطلع...  
 - أريد أن أعرف كل شيء فلا تشور زبيعة بلا  
 سبب...  
 هنا قالت سنية:  
 - يوجد سوء تفاهم ليس إلا...  
 فقال لها سليمان بحدة:  
 - اسكتي...  
 فقالت بيأس:  
 - إنه الشيطان يندس بيننا...  
 فقال سليمان بحنق:  
 - الشيطان لا يندس إلا بإذن منا...  
 فقالت سنية مولولة:  
 - حلت بنا اللعنة!
- صرخ بكر:  
 - يا لك من وغد خسيس...  
 انقضت عليه كالوحش وراح يكيّل له الضربات  
 والأخضر لا يردّ. دميت شفتاه وأنفه ولكنّه لم يردّ،  
 فصاح بكر:  
 - سلّك العار...  
 تراجع متسائلًا:  
 - ماذا جرى لك؟  
 - ألا تعرف حقًا؟...  
 - لا أفهم شيئًا...  
 فصرخ:  
 - تطمع في زوجة شقيقك.  
 فهتف خضر:  
 - أيّ جنون!  
 واستأنف الحملة عليه حتى هرع عمال إلى مدخل  
 الحجرة ونجمهر نفر في الحارة أمام المحلّ.  
 وترامى من بعيد صوت سليمان الناجي وهو  
 يزجر...  
 - ٢١ -
- تفرّق الناس ورجع العمال إلى أماكنهم. صاح  
 سليمان:  
 - إذا رفعت يد فلّتي قاطعها...  
 تراجع بكر ومضى خضر يجفّف دمه بمنديله. قال  
 بكر:  
 - إنه غادر يستحقّ التأديب...  
 - لا أريد أن أسمع كلمة هنا...  
 وردّد بصره بينها في غضب وأمر قائلاً:  
 - اتبعاني...  
 ومضى نحو الدار مثل أسد جريح.

- ٢٢ -

- وقفوا أمامه جميعًا، بكر وخضر ورضوانة وسنية.  
 صاح بفظاظة:  
 - الحقيقة!



استسلم لما يشبه النوم. وهرع إليه سعيد الفقي  
وأخرون ولكنّه أصدر أصواتاً مبهمّة ولم يستطع النطق.  
ومُحِلّ سليمان الناجي إلى دار سنّيّة هانم السمري  
كطفل عاجز.

- ٢٥ -

دمه شلل نصفيّ فرقد فوق فراشه عاجزاً. وكلّ  
من رآه أدرك أنّ سليمان الناجي قد تحوّل إلى لا شيء.  
وعادته فتحية وبناته مثل الغرباء. وقامت سنّيّة برعايته  
ومريضه في صبر وحزن وهي تغمغم دائماً:

- حلّت بنا اللعنة!

وانقضت بضعة أعوام قبل أن يستطيع أن يتحرّك.  
غداً في قدرته أن يسير على نصف جازاً نصفه الآخر  
وهو يتوكأ على عكازين. وكان ينشد الفرجة بالجلوس  
أمام الدار أو في القهوة، ينطق بالكلمة أو الكلمتين  
ويلقي على ما حوله نظرة غائبة وقد هجرته معاني  
الأشياء.

- ٢٦ -

وناب عتريس عن سليمان في الفتونة. ظلّ على  
ولائه له بادئ الأمر، يزوره، ويعطيه نصيبه كاملاً من  
الإتاوات، ويمارس السلطة الفعلية في العصابة، ويقول  
له:

- أنت سيّدنا وتاج رأسنا. . .

ثمّ شغلته واجبات الفتونة - هكذا قال - عن واجب  
الزيارة، فكفّ عن ورود دار السمري إلا يوم حمل  
الإتاوة.

ثمّ أعلن فتوته واستولى على نصيب سليمان من  
الإتاوات فلم يصادف من أحد الأعوان ما يكدر، بل  
لعلهم أملوا أن يتحرّروا على يديه من الالتزامات  
المحدودة التي ظلّ سليمان ملتزماً بها حيال الحرافيش.  
وسرعان ما عادت الفتونة إلى سابق عهدتها قبل  
عاشور الناجي. فتونة على الحارة لا لها، ولا خدمة  
تؤدّيها إلا خدمة الدفاع ضدّ الفتوات الآخرين. وحتى  
في هذه الناحية اضطرّ عتريس إلى مهادنة أعداء ومخالفة  
آخرين، بل حتى الإتاوة دفعها إلى فتوة الحسينيّة

فقال سليمان:

- فلتحلّ اللعنة بمن يستحقّها. . .

ويغتم غادر خضر البهو فصاح به سليمان:

- ارجع يا ولد. . .

ولكنّه اختفى فصاح بكر:

- ألا ترى أنّه يهرب يا أبي؟

فصرخ سليمان وهو ينهض:

- ها أنت تعترف يا مجرم.

ولكنّه لم يرجع ولم يلحق به أحد.

- ٢٣ -

جرت فضيحة آل سليمان الناجي على كلّ لسان.  
وترجم الحرافيش على عهد الناجي القديم، واعتبروا  
ما نزل بسليمان وابنيه جزاء عادلاً على انحرافه  
وخيانته. قالوا إنّ عاشور كان وليّاً، أيده الله بالحلم  
والنجاة، وأكرمه حياً وميتاً. أمّا الكارهون فقالوا إنّها  
ذريّة داعرة متسلّسة من أصل داعر لم يكن إلا لصاً  
فاسقاً.

واجه سليمان ذلك بوحشية غيرت من شخصيته  
للمرة الثانية، فكان يشقّ الحارة بجسمه العملاق  
وبدائه الأخذة في التهادي، متربصاً لأيّ هفوة حتى  
خافه أقرب المقرّبين إليه. ولم يعد منظره ينسجم مع  
الفتونة، فهو يترهلّ ويعلوه الخمول ويغرق في الإدمان  
والترف. وانتفضت كرشه وتدلّت عجزته، ومن إفراطه  
في الطعام كان يغلبه النوم وهو متربّع على أريكته في  
القهوة.

- ٢٤ -

وذات صباح وقف سليمان الناجي يحدث سعيد  
الفقيّ شيخ الحارة وسط وحل تكدّس في جنبات الحارة  
من أثر مطر انهلّ شطراً من الليل. وكان سعيد الفقيّ  
يقول له:

- إنّ الله يمتحن من عباده المؤمنين. . .

وأراد سليمان أن يعلّق ولكنّه حلق بغتة في وجه  
عدوّ ينقضّ عليه من الغيب وتهاوى على الأرض  
كمثدنة. حاول النهوض مرّات ولكنّه عجز. ثمّ

ملحمة الحرافيش ٧٦٩

وخطر له كثيرًا أن يطلقها ولكنه أشفق من ألا يجد في مسكن فتحيّة الراحة الضرورية. وتجرّع الدلّ والمهانة متصبرًا...

- ٢٨ -

وجالسه سعيد الفقيّ ذات يوم في القهوة. طالعه بوجه ودود، وقلب ذي حقد دفين قديم. وقال له بنبرة الصديق:

- يا معلّم سليمان يعزّ علينا حالك...  
فرمقه بنظرة لا معنى لها فواصل الرجل:  
- ولكن لك علينا حقّ الصديق والإخلاص...  
ماذا يريد الرجل؟  
- الرأي عندي يا معلّم أن تطلق سنيّة هانم  
فاختلج جفناه وارتعشت يده، فقال سعيد:  
- هذه نصيحتي كصديق قديم...  
غمغم سليمان:  
- لم؟  
فأجاب الرجل:  
- لن أزيد حرفًا...

- ٢٩ -

لم يعد ردّ الفعل عنده ذا شأن. غدا ألمه مجردًا. لا السرور يضحكه ولا الحزن يبيكه. ولكن لا بدّ من الطلاق. سيسير في الطريق حتّى نهايته المسدودة.

ورجع من القهوة إلى مسكن فتحيّة الذي استأجره لها عقب انقلابه الخطير. استدعى المأذون وطلق سنيّة هانم. وقد جزع لذلك بكر وقال له:  
- ما كان ينبغي أن يقع ذلك...

فقال له:

- بل عليك أن تصون أمك يا بكر

فصرخ بكر:

- قطعًا لالسنة الوشاة

وافترقا شبه متخاصمين. وجعل سليمان ينفق من

مدّخره ويقول:

- أسأل الله أن يجيء موتي قبل أن أمدّ يدي إلى

بكر...

ليتنجّب معركة خاسرة. وكلّمها هان خارج الحارة زاد طغيانًا وصلفًا داخلها. وأهمل أخته فتحيّة وأكثر من الزواج والطلاق. واستأثر بالإتاوات هو وعصابته على حين أغدق على الحرافيش الزجر والتأديب، وأنزل الوجهاء - على حدّ قول سعيد الفقيّ شيخ الحارة - حيث أنزلهم الله سبحانه وتعالى...

- ٢٧ -

لم يفقد سليمان الناجي الفتونة فحسب ولكنه فقد نفسه أيضًا. لم يعد شيئًا وتلاشت الدوافع والمعاني. واستمسك بأمل شارد في الشفاء حتّى سأل رضوان الشوبكشي العطار حما ابنه بكر:  
- أليس لحالي دواء عندك؟  
فأجابه الرجل وهو يداري ازدراءه:  
- لقد بذلت العطارّة جميع ما في وسعها...  
وقال رضوان الشوبكشي لنفسه: «يطمع في استرداد قوته وفتوته عليه اللعنة وعلى أصله».

وطاف سليمان بالأولياء، الأحياء منهم والأموات، وناجى الأمل كلّ مناجاة، وظلّ يزحف على عكازين، ويمجد فوق الأريكة مثل قدر المدّمس. وانتابته حكمة لم يعرفها في حياته فقال إنّ الإنسان لعبة هزيلة والحياة حلم. وتجاهله عتريس تمامًا، كما تجاهله الأعوان، وتجاهله الحرافيش بلا رحمة وعدّوه المسئول الأوّل عمّا حاق بهم.

ثمّ تغلغلت التعاسة في جوف داره. بدا أنّ سنيّة هانم برمة بالحياة في جواره. تركت مهمّة رعايته إلى جارية، وتجهّمت الحياة بقدر ما تجهّمتها الحياة. ولم تنس قطّ ابنها الهارب خضر، وفترت لذلك العلاقة بينها وبين رضوانة. ومضت تتغيّب عن الدار كثيرًا ناشدة التسلية في دور الجيران. وتألّم سليمان لذلك غاية الألم، وقال إنّ أثر الشمس يحى وراء الغيوم. وإنّه لا كرامة لعاجز.

وقال لها مرّة:

- غيابك عن الدار يطول أكثر ممّا يليق.

فقال له بحدّة:

- لم يبق بها شيء.

- ٣٠ -

في أثناء ذلك تحسنت أحوال بكر التجارئة والمالئة . وأنجب من رضوانة رضوان وصفئة وساحة . وقد زلزه طلاق أمه ، وترامت إليه شائعات اليممة ، حتى اضطر إلى أن يبصرها بسلوكها وما يثيره حولها . وغضبت سنية ولعنت الحارة ووصفتها بكل خسيس ، ولم تغير من تحررها وانطلاقها . إلى ذلك كان بكر قلقاً مضطرباً في حياته الزوجية . لم يشعر أبداً بأنه ملك رضوانة ، ولم يكف عن التفاضل في حبها . ليست هي بالمطبعة ولا بالمتفاهمة ولا بالمستجيبة ، وبها حدة مجهولة الأسباب تستفحل مع الأيام . إنها تنال ما تريد بلا امتنان ولا سعادة ، وهو لا يطيق الدنيا إذا جفته أو خاصمته . ويجن جنوناً إذا خطر له أن حبها له ليس بالقوة اللائقة . ماذا ينقصها؟ ماذا تريد؟ أليس هو بالزوج المثالي؟ إنه يتجنب ما يثيرها من قريب أو بعيد ولكن ما يثيرها يدهمه من حيث لا يحتسب .

وبدت المعاشرة بلا أثر ، وبدت الذرية بلا أثر كذلك . وانطوى على قرحة أفسدت عليه مذاق حياته الخاصة .

- رضوانة ، بوسعك أن تجعلي من دارنا عشاً للسعادة . . .

فتساءلت بغموض :

- أليست هي كذلك؟

- ولكنك تهملين حبي يا رضوانة؟

فقال متأففة :

- إنك لا تفكر إلا في مسراتك ، وتنسى أنني أم

لثلاثة . . .

فقال بأسف :

- أنني أفقد حرارة تكافئ حبي العظيم!

فضحكت بفتور وتمتمت :

- أنت طماع ، أما أنا فأبذل خير ما عندي . . .

وضاعف من تعاسته تمزق العلاقات الطيبة بين أمه وزوجته . منذ اختفاء خضر تغيرت سنية ، وسرعان ما قابلت رضوانة التغير بثله أو بأسوأ منه . وتناقرتا مرة بعنف حتى قالت سنية لها بحدّة وإتهام :

- قلبي يحدّثني ببراءة خضرا

فأجابتها بحدّة أشدّ:

- الأصوب أن تصوني سمعتك!

فهاجت سنية ورمتها بشمعدان صغير لم يصبها . وكما رجع بكر وجد رضوانة شعلة من الكراهية والغضب .

وخلا إلى أمه يعاتبها ولكنها قالت له :

- نصيحتي لك كأم أن تطلقها . . .

فذهل بكر ، فقالت ساخرة :

- كانت قدم الشر الذي قضى على أخيك وأبيك

وأملك . . .

ثم بصوت حاد متهدج :

- إبليس نفسه يعجز عن فعل ذلك كله ، حتى

أنت حفيد الناجي الكبير تؤدي الإتاوة لصعلوك من

خدم أبيك وجدك . . .

وقال بكر لنفسه :

- إنها اللعنة قد حلت بنا حقاً!

ودارت عجلة الأيام بلا توقّف كعادتها . ومات

السمري الكبير أبو سنية فورثت عنه مالا لا بأس به .

واستوهبها بكر بعض المال ليزيد من رأس ماله فلم

تمنعه ، ومضى في طريق الثراء بلا حدود . أخذ يتسلّى

عن همومه بالإغراق في العمل ، وخوض المغامرات

الناجحة والمضاربات الخطيرة ، حتى كادت أن تستأثر

به شهوة المال لدرجة الجنون . كان يكتز المال كأنما

يتحصن به حيال الموت والأحزان والفردوس المفقود .

وكان ينطلق نحو الكفاح من مركز منحرف في أرض

الأحزان والهموم متحدّياً الألم والمجهول . ولم يكن بكر

كريمًا ولكنه أيضًا لم يكن بخيلاً . لم يكن ينفق في

الخارج ملياً لغير ما فائدة تعود عليه ، أما في داره فكان

بحراً ، أهدى إلى رضوانة جواهر تساويها وزناً ، وجدّد

أثاث الدار ورياشها ونحفها حتى صارت متحفًا . وقال

والحسرة تقرض قلبه :

- ليت السعادة بالمال تشتري .

- ٣١ -

ذات يوم أشهر رضوان الشوبكشي - أبو رضوانة - إفلاسه . كان الرجل مسرفاً ، مولعاً باللهو والطرب

## ملحمة الحرافيش ٧٧١

عشرة أعوام، وكان قد لزم الفراش منذ عام في رعاية مخلص من فتية. ذهب إليه، قبل يده، جلس إلى جانب فراشه وهو يعتذر عن إهماله بشواغله وهمومه.

وقال سليمان الناجي:

- نهايتي اقتربت يا بكر.

فدعا له بطول العمر والعافية فقال الرجل:

- حلمت بجذك شمس الدين ثلاث مرّات في

ثلاث ليال متعاقبة...

- هذا لا يعني شيئاً ضاراً يا أبي.

- هذا يعني كل شيء، وقد قال لي إنّ الدنيا لا

تساوي شيئاً حتى يهبها الإنسان روحه...

- رحمه الله يا أبي...

فقال بأسى:

- ما مضى قد مضى، ولكي أسألك من أين أتيتك

يصلح لها؟

فأدرك أنّه يعني الفتنة فدارى ابتسامة وقال:

- ما زالوا صغاراً ولن يصلحوا لها...

- ولا أحد من أبناء أخواتك لأبيك؟

فقال بعد تردد:

- لا أدري يا أبي...

- لأنك لا تدري عنهم شيئاً...

وتأوه ثم قال:

- إني أودع الدنيا مثل سجين... أستودعك الحي

الذي لا يموت!

- ٣٤ -

في جوف ذلك الليل فاضت روح سليمان شمس الدين عاشور الناجي. وبالرغم من عزلة الطويلة مشى في جنازته جميع أهل الحارة، حتى عترس ورجاله، ودُفن إلى جانب شمس الدين.

وئسرت مكامن الأحزان في قلوب آل الناجي والخرافيش، وانسابت عليهم الذكريات مترعة بالأسى.

- ٣٥ -

وطرات حركة جديدة غير مألوفة. نذت عن تيار الأحداث الرتيبة والساعات التوائم مثل شهاب يرق

والليالي الملاح فأفلت منه توازنه التجاري وهوى. ورحب بكر بالفرصة ليثبت لزوجته المتمردة حبه وكرمه، فلما عرضت دار الشويكشي للبيع في المزاد اشتراها بثمان فاحش لبيسر لحميه تسديد ديونه. وألحق بمحلّه إبراهيم الشويكشي شقيق رضوان الأصغر وجعله وكيله وأمين سرّه. غير أنّ رضوان الشويكشي لم يتحمّل الصدمة فمات بالسكتة، وشيعه بكر بما يليق بمقامه وأقام له مأتماً استمرّ ثلاثة أيام، وتوقع بعد ذلك أن تغيّر رضوانة من سلوكها أو تهذب من طبعها ولكنها كانت مثل الصلب لا تلين، وزادتها الأحزان فتوراً ونفوراً حتى قال بكر لنفسه:

- إنّ قيام القيامة نفسها لن يغيّرها...

- ٣٢ -

وأطبق الظلام عندما اختفت سنيّة أمه من الدار والحارة كارثة لم يستطع لها دفناً. وسرعان ما عرف أنّها أخذت مالها وهربت مع شاب سقاء وتزوجت منه. كارثة حقيقية نكست رأسه، فنفض منها يديه، ولم يهتم حتى بمعرفة مقامها الجديد، وتوارى وراء سجلّاته ورحلاته.

وسعى إليه عترس الفتنة وقال له:

- إني في خدمتك إن أردت خدمة...

فكرة منظره، وداراه بابتسامة ممتنة، وقال له:

- الشكر لك يا معلّم، وليفعل الله بها ما يشاء...

وتبدّت له الدنيا رماديّة ضاربة للحمرة. وتساءل

لماذا نحبّ هذه الحياة ونحرص عليها هذا الحرص

كلّه؟ لماذا ندعن لمشيئتها الحادة القاسية. ألا يجتق لها

بعد ذلك أن تسلط علينا دود أرضها؟ اللعنة على

عاشور الناجي الأسطورة الكاذبة، اللعنة على

الذراويش المجانين الذين لا يكفون عن الغناء،

وتساءل أيضاً:

- يوجد خطأ جسيم ولكن أين هو؟

- ٣٣ -

وذات مساء أرسل سليمان الناجي في طلبه. تدنّر أنّه لم يزره منذ أشهر فحجل. كان قد مرّ على شلله

- في سماء باهتة .  
وتساءلت رضوانة في حيرة «ماذا يفعل الرجل؟» .  
على غير عادة أخذها بكر من يدها وراح يتفقد  
جنبات داره الكبرى طابقاً بعد طابق . لأنه جاذ أكثر مما  
تتصور، عظيم الاهتمام، كأنما يستعدّ لرحلة أو لمضاربة  
خطيرة .  
- ماذا تفعل بالله؟  
فلم يجب، لم يتسم، مضى بها من حجرة إلى  
حجرة، من بهو إلى بهو، من قاعة إلى قاعة، طائفاً  
بقطع الأثاث النادرة، بالتحف، بالطنافس والستائر  
والسجاد، بالقناديل والشمعدانات والتنجف، بمخدع  
نوم رضوان وصفية وساحة .  
تمتمت بضيق:  
- تعبت . . .  
فأشار إلى مرآة تحتلّ جداراً كاملاً مؤطرة بالذهب  
الخالص وقال:  
- لا نظير لها في البلد كله . . .  
وأشار إلى نجفة شاخة مترامية الأبعاد، مرصعة  
بالكواكب وقال:  
- إحدى ثلاث في مدينتنا الكبرى . . .  
ثمّ أشار إلى القبة الزجاجية التي تعلق المنور بألوانها  
الشيّ وقال:  
- صنعت وزُخرت في عام كامل وكلفت ثمن  
مئونة جيش!  
ثمّ بسط راحته نحو سجادة عملاقة تغطي أرض  
البهو الكبير وقال:  
- مُحلت إليّ خاصّة من أرض العجم!  
لم يترك صواناً إلاّ أشاد به، لم يغفل جوهرة حتى  
قدّم لها فروض الطاعة والثناء .  
عند ذلك توتبت رضوانة للتحدّي فجلذبت معصمها  
من قبضته وتساءلت:  
- ما الحكاية؟  
فشبك ذراعيه على صدره وهو يحدّقها بنظرة غريبة  
غامضة ثمّ قال:  
- الحكاية أنني محبوب الأقدار!  
- ماذا تعني؟
- الأقدار تعشقني فهي لا تغفل عني لحظة ولا  
تنام!  
- إنك تبدو لعيني غاية في الغرابة؟  
- انظري إليّ جيّداً، تأمّليني طويلاً ما استطعت،  
أنا الدنيا بلا زيادة ولا نقصان . . .  
- لم تعد أعصابي تتحمّل أكثر . . .  
فابتسم لأوّل مرّة وقال:  
- الحكاية يا رضوانة العزيزة المحبوبة المدلّلة  
التمرّدة أنّ بكر سليمان شمس الدين عاشور الناجي  
قد أفلس . . . !  
- ٣٦ -  
لم تفهم شيئاً . لم تصدّق المستحيل . نطح رأسها  
سقف الصوان . تخالفت لها الدنيا في صورة امرأة تنمز  
بعينها اليسرى . تهيّأت لتستقلّ العربة الماضية إلى جبال  
الواق . تبدّى لها وجه بكر أجمل من الواقع وأنعس من  
الممكن . مرقت من فيها شهقة سرعان ما تجسّدت في  
صورة عقرب .  
تمتم بكر:  
- هي الحقيقة يا رضوانة .  
رآها تتمخّض عن تمثال للذهول فقال بقهر وبأس  
وحقد:  
- لا فتونة ولا مال ولا سعادة!  
تساءلت بريق جاف:  
- ولكن . . . لكن كيف وقع ذلك؟  
- كما يقع الشلل والفضيحة والموت . لم تتعجّبين؟  
ما هي إلاّ مغامرة أخطأت الهدف!  
فقالت بعداب:  
- طالما حذروك من المغامرات . . .  
فقال بازدرأ:  
- الذين لا يعملون ينتقدون ويعطون ويحسدون،  
عليهم اللعنة . . .  
وساد الصمت دقيقة فرقصت أشباح المخاوف،  
وارتطمت الأحلام المستحيلة بجدران الواقع الصلد  
المكفهر . ثمّ تساءلت:  
- وماذا بعد؟

فهمس الخنّار:

- أحلام المتخمين كوابيس!  
وقبيل المنادة بدقيقة ترامى رنين جرس مؤثّر.  
أنجّمت أبصار نحو مدخل الحارة فرأوا كارثة قادمة  
يتوسّطها رجل. ترى أهر مزاید طارئ من الخارج؟  
وقفت الكارثة عند الحلقة. غادرها شابّ في عباءة  
سوداء، وعمامة مقلوطة، طويل رشيق، ذو سحنة غير  
غريبة...

وأكثر من صوت هتف:

- يا ألطاف الله، لهذا خضر سليمان الناجي!

- ٣٨ -

تطايرت التوقّعات من رأس إلى رأس. سرت  
المهمة مثل الطنين. دارى سعيد الفقيّ ابتسامه.  
اصفرّ وجه بكر وارتعشت أطرافه. أمّا خضر فقد رفع  
يده بالسلام، وتلقّى الرّدّ بترحيب ورجاء، وقال سعيد  
الفقيّ:

- جئت في وقتك!

وتساءل عثمان الدرزي:

- أجئت مزايدياً؟

فقال خضر بأسى:

- بل جئت لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

أدرك الجميع أنّه يتكلّم من موقع القوّة والثقة. وأنّ  
الفقيّ نجح في مهجره وأثرى، فانتعشت أنفُس الدائنين  
وقال صوت:

- فليبارك الله خطاك...

فقال خضر:

- إذن فليؤجّل المزاد لعلنا نصل إلى اتفاق.

عند ذاك صرخ بكر:

- كلاً!

تركّزت عليه الأبصار في ذهول لصاح مخاطباً أخاه:

- لن يطهرك الزمن من جريمتك فاحسأ ملعوناً غير

مشكوراً!

وتناثرت الاعتراضات مثل الرذاذ وقد تلاحت

السحابّ الراكضة فانعدقت خيمة دكنا.

وقال خضر برجاء:

- سوف تصفّى التجارة وتعرّض جميع الأملاك في  
المزاد، أمّا بعد ذلك...

وتوقّف فتساءلت:

- أمّا بعد ذلك؟

- بعد ذلك ننضمّ إلى قافلة المتسولين...

- لا شكّ أنك تحاول إرعابي...

- أحاول إيقاظك ليس إلّا...

فصاحت:

- إنّه جزاء الجنون...

فقال ساخراً:

- إنّها التجارة فحسب، فيها شريك خفيّ هو  
القدر!

- أنت الذي غامرت لا القدر...

- وأنت طالما جحدت وتنگرت، ولكن لا شأن  
لذلك بالسوق...

فانهمرت دموعها وقالت:

- الآن أعرف كيف مات أبي...

فقال بمرارة:

- كان سعيد الخطّ!

- والأولاد ما مصيرهم...؟

فقال بامتعاض:

- فلندعهم ينعمون بنوم سعيد.

- ٣٧ -

توقّفت الحارة عن نشاطها المألوف لتشهد المزاد  
الخاصّ بالرجل الذي كان أغنى أغنيائها من قبل أن  
ينزل في هاوية الإفلاس.

ثمّة سحابّ كانت تركض فوق سطح الشمس في  
اليوم الأخير من أمشير. ووقف بكر سليمان الناجي  
وسط الشركاء الذين انقلبوا دائنين. جفّت فوق  
شفاهم بسمات التودّد، انداح فوق خدودهم شحوب  
القلق، وارتباك التحقّر، ولكنّ الأشداق انتفخت  
بحميّة التصميم.

ومال سعيد الفقيّ شيخ الحارة على أذن عثمان  
الدرزي الخنّار وسأله متهمكياً:

- لم ير حلم النجاة مثل جدّه الأوّل؟

- دعني أقم بواجبي ...  
فصرخ بكر في هياج:  
- الخراب أحب إلي من النجاة على يدك ...  
فقال الشيخ طلبة القاضي شيخ الزاوية:  
- لا يجوز تبديد رحمة من السماء.  
فصاح بكر:  
- ما جاء إلا للشبابة والانتقام.  
وأحاط الدائنون ببكر يهدّونه ويقنعونه، وقال  
الشيخ طلبة القاضي:  
- فليؤجل المزداد حتى نستقرّ على رأي لا يعقبه  
ندم ...

- ٣٩ -

- إنك في حال لا يمكن أن تحاسب معها على  
قول ...  
- إلي في تمام قواي العقلية، الإنسان قد نجّته  
النعمة، ولكنّه يلقن الحكمة على يد الإفلاس والمحن،  
ما أنت إلا امرأة قدرة تتطّلع إلى عاشقها القديم ...  
فصرخت:  
- لقد فقدت عقلك.  
- المعجزة أنني لم أفقده طيلة معاشرتي لك، هل  
وجدت منك إلا الجحود والتمرد والنفور؟ هل وجدت  
منك إلا الغدر والخيانة المكبوتة؟ ... أعطيتك كل  
شيء ولم آخذ إلا الهواء، وكنت اللعنة وراء جنوبي  
وإفلاسي، فلتحلّ بك اللعنة والخزي ...  
وتلوت قائمة مثل لسان من لهب وصرخت في  
وجهه:  
- اقطع لسانك القدر.  
فجنّ جنونه.  
انهال عليها ضرباً ورفقاً وركلاً حتى تهاوت مغمى  
عليها. ومن خلال النار المشتعلة في عينيه حملق فيها  
ذاهلاً. اعتقد أنّها تحتضر أو أنّها ماتت. وبسرعة  
تملّص من هموم حياته ومن عدايات الحيرة. وثب من  
فوق أسوار الواقع فغادر المكان مكتنفاً بتصميم مدّثر ...  
فتمتت في حرج:  
- لعله ينشد التكفير.  
- لا تكفير لمن لا ضمير له ...  
- لم يضحّي بماله إذن؟  
فاجتاحه الغضب وقال:

- ٤٠ -

كان خضر سليمان الناجي مجتمعاً بالدائنين في دكان  
شيخ الحارة عندما اقتحمها بكر. قبض بيده على

## ملحمة الحرائش ٧٧٥

وحارته أيضًا. وتعلم في مهجره أن الناجي معنى  
حيّ أما السمري فلا وزن له يذكر. تعلم أن البطولة  
الحقّة مثل المسك تطيب بها النفوس وتهفو إليها  
الأرواح ولو لم تؤت القدرة على استعمالها. ولكن لهذا  
هو ملاك الأمر كلّ وراء رجوعه إلى الحارة؟!

وسألته فتحيّة:

- لمّ تكمل نصف دينك؟

فأجابها مبادرًا:

- كرهت الزواج في الغربية!

## - ٤٢ -

وبوحي من تفكيره طلب مقابلة عتريس. تمّ اللقاء  
في دار عتريس الفخيمة. واستقبله الفتوة بترحاب  
واحتفاء وقال له:

- شرفت الدار يا سليل البطولة...

فقال خضر بتواضع:

- إنه واجب من يروم الإقامة نحو فتوتنا...

فقال عتريس بارتياح:

- أنتم أصل الخير والبركة...

بذلك خمدت تساؤلات مربية في مهدها.

## - ٤٣ -

حتّام ينتظر؟ إنه يمارس عمله في محلّ الغلال،  
ويعاني شتى الانفعالات المتضاربة. وما هي الخماسين  
تسفع الجدران، تثير الغبار، ترفع الحرارة، تلون الجوّ  
بالكدر. وعمّا قليل يتهدى الصيف بجلاله الشعبيّ  
وصراحته الحامية وأنفاسه اللزجة. حتّام ينتظر؟ لقد  
أرسلت رضوانة إليه من يشكره فردّ الردّ الجميل. وعن  
لسانه قالت فتحيّة لرضوانة إنه يتذكّر دائمًا أنه تهودلت  
الرسل بينهم كالأغراب، حتّى أرسل إليها ستّ فتحيّة  
طالبًا مقابلتها. وذهب إليها ليلاً، متجنّبًا الأنظار،  
حتى لا تصبح ذكريات الماضي حكاية مرّة أخرى على  
الأسنة. ذهب يحمل بين جنبيه دوامة، ويضمّر أيضًا  
تصميماً.

استقبلته رضوانة في بهو الاستقبال. طالته عنتشمة  
الملابس، مطوّقة الرأس بخيار أسود كأنها في حداد.

سكين وثمل برحيق الجنون الأحمر. صاح:

- لقد قتلتها وسأقتلك يا تيس.

ووجه نحو أخيه ضربة. انحرفت الضربة بسبب  
تدخّل البعض فاخرقت العمامة دون الرأس. تكالبوا  
عليه، انتزعوا السكين من يده، طرحوه أرضًا.

- جنّ الرجل.

- بل هو مجرم.

رفع بكر رأسه عن الأرض قليلاً وصاح:

- أنتم وراء المال ولو في بؤرة فسق.

وقال شيخ الحارة:

- نسلمه إلى القسم.

هتف خضر بجزع:

- لقد قتل زوجته...

- يسلم للقسم.

وعاد بكر يصيح:

- جميعكم أوغاد وكلاب...

## - ٤١ -

سرعان ما تكشفت الحقائق. لم تمت رضوانة كما  
توهم بكر. أطلقوا سراح بكر. تواری بكر عن الأنظار  
واختفى من الحارة.

أذى خضر ما تمّ الاتفاق على أدائه من أنصبة  
الدائنين. صفيت التجارة، أمّا دارا السمري  
والشويكشي فبقينا في حيازة رضوانة.

ودعت ستّ فتحيّة خضر للإقامة في مسكنها  
الصغير. مسكن أبيه - حتّى ينظّم حياته. ووضح أنّ  
خضر ينوي الإقامة في حارته. وبلا تردّد اتخذ  
الإجراءات لشراء محلّ الغلال ومواصلة نشاطه  
التجاريّ السابق. وفكر أيضًا في شراء دار السمري أو  
الشويكشي، ليجد لنفسه مقامًا مناسبًا من ناحية،  
ولتنفيذ رضوانة من ثمن الدار ما تعيش به عيشة كريمة  
هي وأبناء أخيه رضوان وصفية وسماحة.

وقالت له فتحيّة زوجة أبيه:

- جميع ما ينبع من قلبك نبيل...

فأجابها بفتور:

- لم أنس أسرتي، ظلّت تعيش معي في الخارج...



- ولكنك تعلم أنّها ما زالت ملك بكر الغائب...!

فتورّد وجهه وهو يقول:

- قد نجد لذلك حلًا...!

فهزّت رأسها في ريبة فقال:

- على الأقلّ لأكون في خدمتك...!

فقالت بكبرياء:

- في الدارين من التحف ما يكفل لنا حياة رغيدة!

- ولكنّي مستول أيضًا.

فقالت وهي ترمقه بنظرة غامضة:

- لست في حاجة إلى مساعدة والشكر لك...!

فحنى رأسه امتثالاً، وتحرك حركة توحى بوجوب

إنهاء المقابلة، فتساءلت بقلق:

- أم جئت لغرض آخر؟

فتطّلع إليها بنظرة دهشة فقالت بجرأة:

- من أجل الزجر والتأديب؟

فهتف بصدق:

- أعوذ بالله من خاطر لم يدرك لي في بال!

فلاذت بالصمت فعاد يقول بحرارة:

- ما نطقت إلّا بالصدق...!

فانقشع التوتر من شفثتها وحلّ مكانه سلام. وعند

ذاك قلبت الصفحة قائلة:

- لقد نجحت في مهجرك والحمد لله.

- أجل، انتفعت بمذخري الذي حملته معي...!

- تسعدنا ولا شكّ سعادتك...!

فتوقّف قليلاً ثمّ قال:

- النجاح لا يوفّر دائماً السعادة...!

- تلك حقيقة عرفتتها بنفسى ولكن ماذا حرّم عليك

السعادة أنت؟

فلاذ بصمت ذي مغزى فارتبكت وقالت:

- نحن أيضًا خسرنا السعادة.

فتمتم:

- يا لها من لعنة...!

- كانت سنّة هانم تردّد دائماً أنّ اللعنة قد حلّت

بنا...!

أدركت من تجنّبه السؤال عن أمّه أنّه علم بمصيرها

وتصافحا، وتلاقت عيناهما مقدار ثانية ولكنّها مشتتة مثل شرارة متطايرة عن احتكاك حجّرين. ثمّ جلسا صامتين متحرّجين يودّان الخلاص.

قالت رضوانة:

- إنّها لفرصة كي أشكرك بنفسى...!

فقال متحرّراً من حرجه بعض الشيء:

- وفرصة لي لأضع نفسي في خدمتك.

- ماذا عن بكر؟

- لم أهمل واجبي في ذلك الشأن ولكن لم يعثر له

على أثر.

- متى يرجع في تصوّرك؟

- إنّهُ ذو كبرياء فيما أعلم وأخشى أن تطول

غيبته... كيف حال الأولاد؟

- على خير ما تحبّ...!

فتردّد خضر قليلاً ثمّ قال:

- أوّد أن أشترى دار الشوبكشي إذا أذنت!

فقطّبت قليلاً وهي تقول:

- تريد أن تقدّم مآلاً لامرأة مفلسة!

فقال متلعثاً:

- إنّني بحاجة إلى دار بصفة عاجلة...!

ثمّ بتسليم:

- وأولادك أولادنا على أيّ حال.

فقالت وهي تتفحصه:

- تشكر على نواياك الطيبة...!

وصممت لحظة ثمّ تساءلت:

- ترى هل نسيت الإساءة القديمة؟

فبادر يقول:

- من يحمل الماضي تتعثر خطاه.

- ولكن هل يُنسى الماضي حقاً؟

- أجل. إن يكن من الخير أن ننساه...!

- لا أدري.

- لولا ذلك ما رجعت، وما تمّ بيننا لقاء...!

فلاحت نظرة حذرة في عينيها الجميلتين وتساءلت:

- هل جئت حقاً من أجل شراء الدار؟

فدارى ارتباكاً تهذّده لحظة وقال:

- أجل...!

## ملحمة الحرافيش ٧٧٧

فقال بنبرة اعتراف:  
 - تكلمت أكثر مما يجوز.  
 فهتفت وهي تفقد الوعي:  
 - ما الذي يجوز، ما الذي لا يجوز، لماذا جئت؟  
 إنك ما جئت إلا لتقول ذلك...  
 فقال وهو يتدهور أكثر فأكثر:  
 - في البدء كانت اللعنة، والآن الجنون...  
 فبعث جهاها جارفاً الأسى وقالت:  
 - أسمعني بصراحة ووضوح...  
 - إنك تدركين كل شيء...  
 - لا أهمية لذلك، أسمعني صوتك...  
 فرنا إليها بنظرة هشة تسيل اعترافاً. بعثت النظرة  
 في أوتارها عزف النغم فتوهج جهاها كالشعاع، واكتسى  
 بحلّة الظفر المبهرجة.  
 - إذن لم يكن أنت الذي قال لا...  
 فقال بأسى:  
 - شخص في قاطها...  
 - ثمّة شخص آخر، ماذا يقول؟  
 قال بجديّة بالغة:  
 - كنت أحبك، ما زلت أحبك، ولكن علينا أن  
 نفكر طويلاً...  
 واستقرّ الصمت بإرادة الطرفين في وقار الليل، وفي  
 الصمت عزفت في الأذان دقات القلوب...

- ٤٤ -

لو أنّ شيئاً يمكن أن يدوم على حال فليمّ تتعاقب  
 الفصول؟

- ٤٥ -

الانتظار محنة. في الانتظار تتمزق أعضاء الأنفس.  
 في الانتظار يموت الزمن وهو يعي موته. والمستقبل  
 يركز على مقدمات واضحة ولكنه يحتل نهايات  
 متناقضة. فليعب كلّ ملهوف من قدح القلق ما شاء.  
 متزوجة، غير متزوجة، أيضاً عاشقة. تكاشف  
 الأولياء، تستشير المحامي، تجنّ من التفكير في الخطوة  
 التالية.

فندمت على ذكرها ولكنّه قال:  
 - لعلها صدقت.  
 فقالت بأسى:  
 - كانت تعدني اللعنة...  
 فقال بصوت منخفض:  
 - نحن نبالغ في أحزاننا...  
 فقالت بجرأة:  
 - اعترف بأنني كنت شريرة وأنني ظلمتكم ظلم  
 الحسن والحسين...  
 فغمغم:  
 - لا عودة إلى الماضي...  
 فقالت متهادية في جراتها:  
 - لا أحد يعترف للعواطف بحق...  
 فلم يجد ما يقوله، فقالت:  
 - ولو كانت صادقة!  
 ها هي لحظة طالما يش من العثور عليها. لعله من  
 أجلها جاء. لعله من أجلها رجع إلى الحارة. لعله  
 بسببها لم يذق للسعادة طعمًا.  
 وقال منحدرًا في عذوبة:  
 - حتى أصحاب العواطف قد يتنكرون لها...  
 فتألفت عينها، وجرى في لونها المشرق التساع  
 التفكير والنهم للمعرفة، تساءلت:  
 - ماذا تعني؟  
 فصمت معانيًا الإثم فعادت تتساءل:  
 - ماذا تعني؟  
 فتساءل في حيرة:  
 - ماذا قلت؟  
 - أصحاب العواطف قد يتنكرون لها، لا  
 تهرب...  
 فهرب في الصمت فقالت وهي تشمل بنشوة طارئة:  
 - من ناحيتي لم أتنگر...  
 ظلّ صامتًا فواصلت بانفعال شديد:  
 - لا تصمت، لماذا جئت؟  
 فقال متهاكًا:  
 - لقد قلت...  
 - أعني قولك الأخير...

- جليًا، وقالت بحدة:
- هكذا الناس دائميًا وأبدًا...
  - فقال إبراهيم:
  - من واجبتنا أن نقطع الألسنة.
  - أودّ أن أقطعها بلا رحمة...
  - فقال إبراهيم بمكر:
  - نالنا ما نالنا من اختفاء زوجك، إنّه لوغدا فانزلت قاتلة:
  - هو كذلك، ومن حقّي ألا أسكت على ذلك...
  - فاشتعلت هواجسه وتساءل:
  - ماذا تعنين؟
  - من حقّي أن أطالب بالطلاق!
  - فصرخ إبراهيم بغضب:
  - الطلاق!
  - أجل، ما أغضبك؟
  - النساء المحترمات لا يعلنن ذلك...
  - لا يفعل ذلك إلا النساء المحترمات!
  - وكيف تبرّينه؟
  - بأنّه تركني بلا موردا
  - فتساءل بترئص:
  - وهل يبيئك الطلاق بموردا؟
  - أدركت أنّها تجاوزت الحدّ بتصرّيحها فارتبكت قليلاً
  - ثمّ تمتمت:
  - على الأقلّ أن أقطع صلة لم يبق لها معنى...
  - فقال برجاء:
  - أجلي ذلك من فضلك، ثمّ إنّه طريق معقد لا ندري شيئاً عن مسالكه.
  - كلاً، المحامي له رأي آخر!
  - فتساءل في ذهول:
  - استشرت محامياً أيضاً؟
  - فلاذت بصمت متحرّج فهتف:
  - يا للعارا... ومن وراء ظهري؟!
  - محض استشارة لا ضرر منها...
  - بحقّ لناس عند ذاك أن يقولوا إنك تسعين إلى الطلاق تمهيداً للزواج من خضر.
  - عليهم اللعنة...

في محلّ الغلال تمارس التجارة بمهارة، تحاور العواطف بشغف، تداري الأشواق بعذاب، تصارع الغرائز بعنف، ترفع إلى السماء أمانى وابتهالات. الناس تراقب وتتدكّر، تحصي اللفتات والنوايا، تؤوّل الأوهام بأوهام، تتعجّل تحقيق الظنون، تتسكّر بالتقوى والبراءة.

ويقول سعيد الفقّي شيخ الحارة:

- الشهامة قناع، والفاسق أبرع من الشيطان.
- ويسأل عثمان الدرزي السكارى في البوطة:
- لم يتزوج حتى الآن؟

#### - ٤٦ -

زحف مدّ الأسى حتى غطى إبراهيم الشوبكشي شقيق رضوانة ووكيل خضر. الأقاويل تدهمه مثل الشرر. خسر الجاه وها هو على وشك أن يخسر الشرف. الحياة تدبر رويداً رويداً مندرّة بمأساة.

وسأل خضر ذات يوم:

- أليس من حقك أن تطالب بدازي الشوبكشي والسمرى نظير ما سدّدت من دين؟
- فأجابه خضر بدهشة:
- ما خطر لي ذلك ببال.
- فقال إبراهيم بمكر:
- جميل أن تحفظ عهد بكر رغم أنّه ضيّعه...
- فقال خضر ببراءة:
- أبناء بكر أبنائي...
- ما أجل الكلام ولكن ماذا عن النوايا؟

#### - ٤٧ -

ولقي إبراهيم الشوبكشي نفسه في الجحيم. بين يديه سهل منبسط، وحياة واعدة لا بأس بها، ولكن ثمة قوى نابعة من المجهول تدفعه إلى طريق وعر. وهو لا يسير مغمض العينين، ولكنّه يمتلئ بوعي حادّ كالنصل، ويدرك أنّه يطرق باب الرعب.

ذهب في المساء لزيارة شقيقته رضوانة. طالما تبادلوا الحبّ صافيًا والرعاية. ولكنّه لم يجد بدءاً من مصارحتها بما يتردّد على ألسنة الخلق. واستاءت رضوانة استياءً

## ملحمة الحرافيش ٧٧٩

- ولكنّه أمر خطير بالنسبة لسمعنا!  
فقالت بحدة:  
- سلوكي طاهر لا شائبة تشوبه.  
فقال وهو يحملق في وجهها بوحشية:  
- سيرجح لديهم - ولهم العذر - أنك كنت شريكة  
في جريمته . . .  
- سيجدون دائئاً ما يقولونه . . .  
- ولكنّه خطير جداً وسينسف سمعتنا نسفاً . . .  
فقالت بغضب:  
- لست قاصرة يا إبراهيم . . .  
- المرأة قاصرة حتى تدخل القبر . . .  
وجفلت من غضبه فقالت:  
- فلنؤجل الحديث إلى وقت آخر.  
فقال بعناد:  
- إنه غير قابل للتأجيل . . .  
فهتفت بعصبية:  
- دعني وشأني . . .  
فصرخ:  
- الآن أدرك أنك شريكة لها  
- أنسيت ما حدث؟  
- ولكنّي أعرف قصة امرأة العزيز . . .  
فصاحت غاضبة:  
- حسبي أنّي واثقة من نفسي.
- فوقف شاحباً وسأل:  
- بصراحة أجيبي، هل تنوين الزواج من خضر؟  
- أرفض الاتّهام كما أرفض التحقيق . . .  
- يا للكوارث التي لا تريد أن تقف عند حدّها  
فوقفت بدورها وهي تتساءل:  
- أليس الزواج علاقة مشروعة؟  
- أحياناً يكون هو والزنا سواء.  
- لم أسمع عن ذلك من قبل . . .  
فقال بهدوء طارئ:  
- إذن فأنت تنوين الزواج من خضر؟  
فلاذت بالصمت وأطرافها ترتعش.  
- إنك تنوين الزواج من خضرا حقاً أنّ للناس  
غريزة لا تخيب . . .  
فقالت بأسى:  
- تبرأ منّي إذا شئت، لنفصل يا إبراهيم!  
فقال بهدوء:  
- سوف نفصل يا رضوانة . . .  
وانقضّ عليها بغتة. بكلّ وحشية وجنون طوق  
عنقها بيديه. شدّ بقوة حتى ثمل بالعنف وتمادى في  
القتل. ودافعت رضوانة عن حياتها بيدين عاجزتين،  
بانتفاضات عشوائية، بصرخات لم تخرج، باستغاثات  
لم تُسمع، بأمانى لم تدعن، بياس بتد النور والأشياء.  
مضت تسترخي، تستسلم، تمهن، تهمد، معلنة العدم . . .



## المُطَارِد

### الحكاية الرابعة من مدحمة الجرافيش

- ١ -

العادية، طيبة النقاء والبساطة التي تقف على حافة السذاجة والبله. لم تلعب في الدار دورًا ذا شأن ولم تنجب أطفالًا، وتركت جمالها للفطرة بلا تأنق ولا تزويق. ورضي خضر بحظه ولم يخطر له ببال أن يتزوج من أخرى. ومال إلى الورع والتقوى، وأكثر من السهر في الساحة أمام التكية كما فعل جدّه عاشور من قبل. وتزوجت صفيّة من بكرى صاحب وكالة الخشب، وعمل رضوان في محلّ الغلال وكيلاً لعمّه في المكان الذي خلا بسجن إبراهيم الشوبكشي. ومن خلال العمل تجلّت رزائته وأمانته ومواهبه التجارية فبشّر بمستقبل رائع.

أما سباحة فقد بدا أنّه مشكلة.

- ٢ -

كان سباحة متوسط الطول، فائض الحيوية، قويّ العضلات، في وجهه ملامح شعبية من وجه جدّه سليمان، تنبسط تحت رأس نبيل وبشرة صافية تذكران بأمه رضوانة...

أنّم تعليمه في الكتاب، واكتسب من عالم الفضيلة شهامة وكرمًا وبعض الورع، ولكنّه ولع بمغامرة الشباب، والجسارة، وعبادة البطولة، أمّا العمل في المحلّ فلم ينشرح له صدره، ولا تجلّت له فيه مواهب. وأتخذ من بعض أفراد عصابة الفللي أصدقاء، فشاركهم سهراتهم في الفرز، وحتّى البوظة طاف بها مرّات.

الشمس تشرق، الشمس تغرب، النور يسفر، الظلام يجيّم، الأناشيد تشدو في جوف الليل. غابت رضوانة في بطن الأرض، غاب إبراهيم في السجن، غاب بكر في المجهول.

لم يرث أحد للفتيلة، فاز إبراهيم بالعطف والتقدير، انطوى خضر على أحزانه لا يشاركه فيها أحد. كثرتداول الحكم عن فساد طبيعة المرأة، الأمثال تضرب على خيانة الإخوة، تردّد المواعظ اللعنة النازلة بآل الناجي.

تنكّرت لهم الفتونة، رفل في ثوبها الزاهي عتريس حتّى انتقل إلى الآخرة، حلّ محلّه الفللي أقوى أتباعه، اندرج عاشور وشمس الدين وحتّى سليمان ضمن ركب الأساطير.

ها هو كبيرهم خضر سليمان الناجي يتربّع فوق كرسيّه بمحلّ الغلال، يثرى يومًا بعد يوم، يؤدّي الإتاوة للفللي في حينها. مبتور الصلة ببطولة الأبطال.

شيد دارًا جديدة، عكف على تربية رضوان وصفيّة وسباحة، لبث أعزب حتّى قارب الأربعين، دفن فتحيّة زوجة أبيه، شهد موت الشيخ طلبة القاضي إمام الزاوية، وسعيد الفقّي شيخ الحارة، وعثمان الدرزي الختار.

وأخيرًا تزوّج خضر من ضياء الشوبكشي صغرى أخوات رضوانة، وهي بنت بها من رضوانة مشابه وفيها جمال أليف، وسرعان ما تبينّ له طبيعتها غير

فتساءل خضر جزعاً:  
 - هل تراودك فكرة الفتونة؟  
 فقال بثقة:  
 - لم لا؟  
 - ولكنك لا تملك القوة الكافية...  
 فقال بحرارة:  
 - هكذا ظنّ بشمس الدين!  
 - ولكنك لست شمس الدين...  
 فقال:  
 - عندما يجين وقت المعركة...  
 فقاطعه خضر:  
 - احذر الفللى، إنه شيطان ماكر، احذر أن تمرفنا  
 مغامرتك فتلقي بنا في الهوان والضياح...  
 وقال له شقيقه رضوان:  
 - أفلح عن طموحك، الفللى مائة عين، لقد طواك  
 تحت جناحيه حتى لا تغيب عنه حركة من  
 حركاتك...  
 فابتسم ساحة، وتجلّت الأحلام في عينيه مثل حمرة  
 الغسق...

- ٤ -

في تلك الليلة سهر خضر في الساحة أمام التكية.  
 دفن قلقه ومخاوفه في الظلمة المباركة. رفع عينيه إلى  
 النجوم الساهرة طويلاً. رنا بإجلال إلى شيخ السور  
 العتيق. ابتهل إلى بوابة التكية الشامخة. تأمل ممرّ الفناء  
 بأسى. حياً أشباح أشجار التوت. تذكّر بوجود الثاوين  
 في القبور والضائعين في المجهول. العواطف المشبوبة  
 التي لم تنهل من رحيق الحياة. الآمال التي تلاشت في  
 الأبدية. الأحلام المنطلقة من وهدة السكون مثل  
 الشهب. العرش الهائم فوق كافة احتمالات الخير  
 والشر. وتساءل:  
 - ماذا يجتئى الغد؟... لم يختصّ عاشور وحده  
 بالرؤيا الهادية؟

وانتبه إلى الأنغام وهي تصعد مثل الهداهد هاتفة:  
 أنا نكه خاك را بنظر كيميا كنند  
 آيا بودكه كوشه جشمى بما كنند

وقلق لذلك خضر، وكثيراً ما كان يقول له:  
 - يلزمك قدر كبير من الإرادة والتركيز...  
 فينظر ساحة إلى شقيقه رضوان بفضول ويقول:  
 - لم أخلق للتجارة يا عمي...  
 فيسأله قلماً:  
 - لم خلقت إذن يا ساحة؟  
 ويشرد ببصره في حرج فيقول خضر:  
 - إن مصاحبة الفتوات واللهم معهم ليس هدفاً  
 لأمثالك...

فيتساءل ساحة:  
 - ماذا كان أجدادنا يا عمي؟  
 فيقول خضر بجذبة:  
 - كانوا فتوات حقاً لا بلطجية، ولم يعد لنا من أمل  
 إلا في التجارة والجاه!  
 رغب في إرشاده وتوجيهه مدفوعاً بقوة حبه لأمه،  
 وقد تركزت فيه وفي رضوان وصفية عواطف أبوته  
 المغتالة. حقاً لم تعد رضوانة إلا ذكرى، ولكنها ذكرى  
 لا تريد أن تموت...

- ٣ -

وما يدري خضر سليمان الناجي إلا وساحة ينضمّ  
 إلى عصابة الفللى رجلاً من رجاله. احتفل الفتوة  
 بانضمام حفيد الناجي إلى أعوانه، وعده أكبر نصر له  
 في حارته. أما الحرافيش فاعتبروا ذلك طوراً جديداً  
 من أطوار المساة التي تطحنهم. وقيل - فيما قيل - إن  
 الله قادر على أن يخلق أحياناً من صلب الأبطال أوغاداً  
 لا وزن لهم، وإن عاشور صاحب الحلم والنجاة  
 والعدل الشامل ظاهرة خارقة لا تتكرّر.

وحزن خضر حزناً عميقاً، وعانى مرارة الحيبة  
 والمهانة. وقال لابن أخيه:  
 - إنك تمرغ ذكرى الناجي والسمرى والشوبكشي  
 في التراب...

فقال له ساحة:  
 - رأسي مليء بالآمال يا عمي...  
 - ماذا تعني يا ساحة؟  
 - سوف يرجع عهد الناجي ذات يوم إلى أصله!

الأعضاء، بسامة الوجه، فائضة الحيوية والأنوثة مثل نافورة، فاضطرم بالرغبة والاندماج. تلاقت العين في حب استطلاع متبادل، واستجابة عامة مثل أرض خصبة. انصهر بأسرارهما الهواء المظهو بأشعة الشمس والأنفاس الحارة والأحزان وشذا الخوص والريحان والقطائر. مال نحو منعطفها مثل عباء الشمس. واستحته الموت المحيط بأن يسرع وآلا يتردد.

لم يكن في الأمر مفاجأة. كان يعلم من نوازع نفسه أنها ميالة بنهم إلى السود. وكافة مغامراته البدائية وقعت في أحضانهم، في ظلام القبر أو الخرابه وراء البوطة.

- ٧ -

اعتمد على نفسه وحدها. اختار للتحرّي أسوأ الناس طراً أول ما اختار. سأل صديق أبو طاقية عن مهلبية وأمها. وقال الرجل:

- إني لا أبرح البوطة ولكن الأخبار نجيشي متطوعة ساعة بعد ساعة...

وجعل الرجل يتذكر ثم قال:

- للبت معجبون ولكني لم أسمع عنها كلمة سوء...

ارتاح سباحة وعدّ شهادة أسوأ الناس خير شهادة. ولم يقنع بذلك فسأل الشيخ إسماعيل القليوبي شيخ الزاوية فقال له:

- حرفة أمها ملعونة...

- إني أسأل عن البنت؟

فتساءل الشيخ باستياء:

- لم تختار زوجتك من مسكن تستقر بآركانه العفاريات؟

أما محمد توكل شيخ الحارة فكان واضحاً وهو يقول:

- سمعة البنت لا غبار عليها...

وقال سباحة لنفسه:

- إنها أنقى سمعة من جدتي سنينة هانم السمري...

- ٨ -

مضى سباحة إلى مسكن صباح كودية الزار المطل على حوض الدواب. اعتقدت بادئ الأمر أنه

- ٥ -

وفكر خضر في تزويج سباحة من بنت الحلال. اعتقد أنه يعيش طور مغامرة هوجاء، وأنه ينقصه العقل. والارتباط بأسرة كريمة مدعاة إلى إعادة التفكير. والنزول بدار فاخرة وإنجاب ذرية كريمة ومصاهرة الأكارب، من شأنه خلق دنيا جديدة تقتضي أن يغيّر الإنسان جلده وعينه. ورأى في أنسية كريمة محمد البسيوني العطار أمله المنشود. وجسّ النبض فلقى ترحاباً كما قدر وأكثر...

عند ذاك قال لسباحة:

- وجدت لك ابنة الحلال...

فتساءل سباحة:

- أليس من الواجب أن نبدأ بأخي الأكبر رضوان؟

- أو نبدأ بالجواد الجامح!

- الحق أني سبقتك يا عمي...

- حقاً؟!

فحنى رأسه بهدوء فسأله بلهفة:

- من السعيدة المحظوظة؟

فقال وعلى شفثيه ابتسامة تحد:

- مهلبية!

ضحكت ضياء ضحكة عالية دون أن توضح نظرتها البريقة سعادتتها بالخبر أو أساها، أما رضوان فتمتم بدهول:

- مهلبية!

فقال سباحة بهدوء:

- كريمة كودية الزار صباح!

عبس خضر واحتقن وجهه. ضربت ضياء بيديها دفاً مجهولاً وهي تفرق في الضحك. تساءل خضر:

- ماذا وراء تنكيلك بنا؟!

فقال سباحة بهدوء:

- عمي إني أحب مهلبية!

- ٦ -

رأها لأول مرة في موسم القرافة بصحبة أمها فوق كارو. من موقفه أمام حوش شمس الدين رآها وهي تثب من العربة. سمراء غامقة السمرة، ضاربة للسواد، ممشوقة القد، واضحة القسما، مفصلة



- نحن أهل والظفر لا يقتلع من لحمه...  
فارتاح سباحة وطرح السؤال نفسه على رضوان  
فقال بحماس:

- ستجدني دائئًا إلى جوارك...  
أما الحزن الدفين فلم يكن ثمة سبيل إلى محقه.

- ١٠ -

- أهلاً بالناجي سيّد الكل!

هكذا رَحَّب به الفللي وهو مترَبِّع وسط أقوى أعوانه  
في غرزة تربية. وهكذا يرحَّب به دائئًا. وهو ليس  
غرًا. قلبه يهمس له دائئًا بالحلذر. يشعر بأنّه ثمة من  
يحصي عليه الحركات ويستقرئ النظرات واللفتات.  
يشعر بأنّه يتحرَّك وسط دائرة من التوجُّس والترصد.  
ولكنّه كان يمثّل دوره كما ينبغي. هرع نحو المعلم الأكبر  
ولثم كتفه في خشوع، واتَّخذ مكانه المتواضع بين  
الأعوان فوق الحصيرة.

قال سباحة في بشاشة:

- جئت أدعو المعلم والإخوان إلى حفل زفاني...  
فقهقه الفللي في انشراح وقال مخاطبًا حمودة قواده  
الخاص:

- زغرد يا ابن الفنجرية!

لزغرد حمودة زغردة لا تتأقِّ لامرأة قارحة وقال  
الفللي:

- مبارك عليك، متى؟

- الخميس القادم بمشيئة الله...

- من السعيدة المولودة في ليلة القدر؟

- كريمة صباح كودية الزار.

وجم الرجال، تطلَّعوا في ذهول نحو الفتوة، لاحوا  
في ضوء المصباح الواني أشباحًا شائهة الوجوه. وقال  
الفللي:

- ليس لصباح إلا بنت وحيدة!

- هي المقصودة يا معلم...

في الصمت لم تُسمع إلا القرقرة، وسعلات متناثرة،  
وتلوث أسرار مبهمة في الدخان المنتشر.

وهتف الفللي:

- يا حسين يا سيّد الشهداء!

يقصدها كزبون وجرى خاطرها إلى ضياء هانم  
الشوبكشي. قالت له:

- أهلاً بسليل المجد...

وجعل ينظر إليها بهدوء، وشذا البخور السوداني  
يفعم أنفه ويخدره، وعيناه تتابعان دفوفًا مختلفة  
الأحجام، وسياطًا وسيوفًا ودزاعات من الخرز الملون  
مبعثرات بين الكنية والرفوف. ثمَّ تعودان إلى الجسد  
البدين مثل زكية الفحم. قالت صباح:

- في الخدمة يا سيّد الكل...

فتمتم:

- ليس كما تتوقَّعين...

- في الخدمة على أيّ حال...

فقال وهو يغرز عينيه في الحصيرة المزركشة:

- طالب القرب في بتك مهلبية...

دهشت المرأة أول الأمر. تغيَّر جُوهها بغتة. أشرق  
الوجه بابتسامة كاشفًا عن أسنان نضيدة بيضاء،  
وتتمت:

- زين!

فرفع رأسه باسماً وقال:

- الله أسأل التوفيق...

فقالت بنبرة ذات معنى:

- لا أحد من الأسرة معك؟

فقال بنموض:

- قلت أبدًا بنفسني...

- حقًا؟... ما أسعدني بالرجل الحرًّا

فابتسم متشجعًا فتمتت:

- زين!

وتلاقت يدهما فقرآ الفاتحة...

- ٩ -

ولم يفرط خضر في أنسيّة كريمة محمَّد البسيوني  
العطار فتزوج منها رضوان، وأقام بنيانه على أساس  
متين.

وسأل سباحة عمّه:

- هل تشهدون زفاني؟

فأجابه خضر بلا تردّد:

- ١١ -

انضمم إلى مجلس الأسرة قبيل منتصف الليل  
بساعة. قال له عمه خضر:  
- كانت ضياء تقصص علينا حلياً رآته عنك...  
لم يسمع. قالت له أنسيّة زوجة رضوان:  
- رأتك تمتطي بغلاً، تلهبه بسوط ولكنه يتشبث  
بالأرض.  
وقال له رضوان:  
- أحلام امرأة عمنا تستحق التأويل كما تعلم...  
فقالت ضياء:  
- إنه عريس، لا تزعجوا العريس...  
وزفر ساحة بصوت مسموع فتفحصه رضوان  
باهتمام وتمتم بقلوب:  
- أنت شخص آخر يا ساحة...  
فقال خضر:  
- ذلك ما لاحظته وتجاهلته إلى حين...  
فقص عليهم القصة بحذافيرها. سقطت على  
السامعين كتل من الرمال. حتى ضياء ارتسم الذعر في  
وجهها الجميل. وتمتم خضر:  
- طالما حذرتك...  
وقال رضوان:  
- وجود مثلك في العصابة مثار للمخاوف، وحتى  
إذا لم تمس المخاوف الفللى نفسه فإنها خليفة بأن محتاح  
الأتباع الطموحين المتربصين بالمستقبل، ولا شك أنّ  
دأبهم كان الإيقاع بينك وبين الفتوة...  
صدّق خضر على قوله وقال:  
- ها هو يدفع بك إلى مأزق لا مخرج منه إلا  
بضياع الكرامة أو فقدان الحياة نفسها...  
وقال رضوان:  
- ضاعف من حذرك فإن عينه ترى حتى ما يكمن  
في شقوق الجدران!  
وقالت ضياء بحزن:  
- البغل متشبث بالأرض!  
فسألته أنسيّة:  
- علام نويت؟  
ولكنّ ساحة لاذ بالصمت، وبدا تعيساً...

ونظر إلى رجاله متسائلاً:

- ما رأيكم في لعب هذه الدنيا العجيبة يا  
جدعان؟  
مصممت الشفاه من وطأة العبرة، وتتابعت  
الأصوات:  
- يا لها من دنيا!  
- يا للعجب!  
- يا هوه!  
وسمع الفللى حمودة صفة ودّية وقال له:  
- عليك أنت أن تبلغ السرّسليل المجد والشرف...  
فقال حمودة مخاطباً ساحة:  
- منذ ساعة واحدة تصوّر، منذ ساعة قرّر المعلم  
الأكبر اختيارك لتكون رسوله إلى صباح لتطلب يد  
كريمها له!  
ذهل ساحة. مادت به الأرض، رأى الجبّ فاغراً  
فاه ينتظر جيئته. لم يستطع أن ينبس بكلمة.  
قال الفللى:  
- لأنه القدر، لم يستقرّ اختياري إلا أمس فقط،  
ومنذ ساعة قرّرت اختيارك رسولاً لي...  
ها هي الحقيقة تنجلي. لقد قبله عضوًا بلا  
امتحان. كان يتربص به. ويتنظر الفرصة المواتية. وها  
هي قد جاءت بأبعادها القاسية. وها هو في مفرق  
الطرق بين الحياة والموت. إما الهلاك وإما الضياع.  
ونظر الفللى إلى رجاله وتساءل:  
- ما العمل؟  
فتتابعت الأصوات:  
- من ينكر الشمس في السماء؟  
- هل تعلق العين على الحاجب؟  
- يا بخت من اختاره المعلم رسولاً.  
وسأله حمودة:  
- متى تتكلم يا ساحة؟  
عليه أن يتكلم. الشرر يملأ الغرزة، عليه أن  
يغوص في الأرض. ويرحب بالعدم. عليه أن يتجرّع  
السّم الزعاف.  
قال ساحة سليمان الناجي:  
- السمع والطاعة يا معلم...

- لا يمكن أن أتخلى عنك!

فهتفت صباح بدعوى:

- هو المهلاك وخراب بيتي.

فقالته مهلبية:

- إني معك...

فخفق قلبه واشتعلت في حواسه لذة عنيفة. أما

صباح فقالته:

- هو الجنون...

فقالته مهلبية:

- نهرب.

فهز رأسه موافقاً، فتساءلت صباح:

- وأنا؟

- لا شأن لك في الأمر...

- هل للانتقام عقل؟

- اهربي معنا!

- رزقي هنا...

- الرزق في كل مكان.

فقالته مهلبية:

- سيكون لدينا نقود.

فهتفت صباح:

- آه من الجنون إذا استحکم...

ومضى ساحة يخطط لتدبير محکم...

- ١٣ -

ومن فوره ذهب إلى الفللى بمجلسه في القهوة. لثم

كثفه وقال بسرور:

- مبارك عليك يا معلّم...

فرنا إليه ملياً ثم قال:

- عفارم يا ابن الأصول.

- ١٤ -

ها هو يلبد في ظلمة الممر بين السور العتيق وسور

التكية. هنا، منذ أجيال، ألقى بعاشور، بلا اسم ولا

شكل، في لفاة. هنا انهمرت فوقه الأناشيد بلا وعي

منه. هنا امتدت إليه يد الرحمة تنتشله من الضياع. ها

هي الأناشيد تتسلق أمواج الظلام:

وقال خضر بحزم ووضوح:

- احذر أن تفكر في أي نوع من المقاومة!

- ١٢ -

ذهب ساحة إلى مسكن الكودية في الصباح الباكر.

شعر في طريقه بوقع الأعين مثل لسعات الجمر. لثمت

صباح جبينه وهي تقول:

- لم يبق إلا يومان ثم يجيء الخميس السعيد...

فابتسم ابتساماً فاترة وتمتم:

- وقعت أمورا

فحدجته بنظرة متوجسة فقال باقتضاب وصراحة

حادثة:

- ما أنا إلا رسول الفللى لأطلب يد كريمتك

مهلبية!

انزلت الكلمات فوق وعيها دون أن تترك أثراً.

كرّر القول. طالب بحضور مهلبية فحضرت. راح

يقصّ عليها القصة وهما تتابعانه في وجوم، ثم هبط

الصمت بكل ثقله.

وكان ساحة أول من خرج من الصمت فقال:

- إنها محنتي أولاً...

استنزلت صباح اللعنات وقنعت بذلك، فقال

ساحة:

- علينا أن نتدبر الأمر...

فقالته صباح:

- إنه الرعب!

وسألته مهلبية:

- ماذا نويت؟

رغم كآبة الموقف انبعث منها إليه إثارة حادة. قال:

- يهمني أن أعرف رأيكما...

إذا بصباح تقول:

- يا ابني منذا يفكر في معاندة الفللى؟

- نستسلم؟!

- هو عين العقل ولا رأي غيره...

ومال بصره نحو مهلبية فقالته:

- رأيك أولاً؟

فقال بوضوح:

## ملحمة الحرافيش ٧٨٧

مثلقياً نازاً تسري في البطن والصدر والأطراف. فوق  
ما يتحمّل البشر. . .

تلاقي الجمعان وتجاوبت الأصوات:

- أين الثعبان؟

- مؤكّد أنّه تسلّل إلى الساحة.

- لا أثر له في الساحة. . .

- ولا في الممرّ.

الأم يمزّق الجسد وينداح في الروح. يخذم الأمل  
ويستعذب الموت.

- ١٧ -

السحب تهبط. تتهادى في المكان مثل الضباب.  
تومض في ثناياها نجوم. الأرواح ترقص مثل  
الأطيار. السقاء يوزّع قربة مليئة بالدموع. عاشور  
الناجي يتفقد الحارة الخالية. يقطع الحزن قلبه على  
الشهداء. يعتف الشوطة ويأخذ بتلابيبها. ثم يرقص  
رقصة النصر. يتلاقى مع سيّدنا الخضر في الساحة.  
إني قادم لأقودك إلى السدرة. يسيران مشتبكي  
الذراعين فوق شعاع كوكب مضيء.

وشمس الدين يرفض استقبال الشيوخة. يتركها  
متسوّلة عند الباب. يحمل السبيل فوق عاتقه ويمضي به  
نحو القبو. المتسوّل لا يبرح موقفه. شمس الدين  
يرقص رقصة النصر. ولكن أين سيّدنا الخضر؟  
المتسوّل لا يبرح موقفه. يا له من متسوّل عنيد. لا  
يرقّ لشلل سليمان. ولا لدموعه. يتركه يهوي درجة  
بعد درجة. أين المعجزات؟ أين الأحلام؟ ثمة دم يملأ  
حوض الدوابّ. ويملأ صهاريج السبيل. ويجفّ في  
العروق. غير أنّ المتسوّل تحرك حركة عفوية. ولأول  
مرّة يتكلّم فيقول. عاشور لم يمّت. عاشور سيرجع قبل  
بزوغ الهلال. . .

- ١٨ -

يشعر أوّل ما يشعر بحركة في الجفون. بوجود  
مجرّد. بنفحة من وعي.  
يرى شابورة. تنجلي عن نقوش لانهائية في سقف  
المخدع. يا أطفاف الله. أين تسمع هذه الهمسات.

دربن زمانه رفيقي كه خالی از خللست

صراحی می ناب و سفینه غزلست

ستجیء مهلبیة متلقعة بالظلام، يضيء قلبها في  
الظلمة بما ينبض به من ابتهاك للحبّ والحياة. سوف  
يتلامسان في الممرّ، تمرّ الأبدية المترعة بالأمال الملتهبة،  
والأمال المتجددة.

حقّ أنّه مضطرب. أكثر من مرّة طوى جلبابه  
وبال. تنصّت يحلم بالنجاة ويقارع التحديّات  
والظنون. نذر لآل البيت خروفاً. استحضر مثال عمّه  
خضر الذي فرّ ضائعاً ثمّ رجع وجيهاً. لعلّه يرجع  
ذات يوم ليعيد عهد الناجي إلى عرشه. . .

الفلل الآن يغطّ في نومه. يحلم بالزفاف غداً.  
خدرته الزغاريد والعهود والبسات. الآن أيضاً تزحف  
مهلبیة لصق الجدار نحو القبو. لعلّها في هذه اللحظة  
تشقّ الساحة والأناشيد. جسمها الحارّ يسوقها وقلبها  
الخافق يرشدها. الأناشيد تنتظم دقات قلبها، تباركها،  
تبدّد وحشة الظلمة. . .

- ١٥ -

من مكان ما في مملكة الظلام انطلقت صرخة.  
صرخة ممزّقة بالفزع واليأس. سرعان ما تجسّدت في  
صورة فريسة موءودة الفرحة. تتطلّع بعينين محتجتين  
نحو النجم اللامع. متلاطمة مع تموجات الأنغام.  
مسلمة في النهاية إلى قبضة الصمت القاسي الساخر.

- ١٦ -

وثب ساحة من مكمنه كالمحترق. مهلبیة ولا أحد  
سواها. اندفع نحو الساحة بلا حذر. ترامى إليه وقع  
أقدام من ناحية الساحة. قادمة منذرة بنواياها  
الدموية. افتضح السرّ بطريقة ما. بينه وبين الضحية  
عشرات النبايب والخناجر. لا جدوى من الإقدام.  
توقّف. تقهقر والأقدام تتقدّم. عند منتصف الممرّ  
ترامى إليه وقع أقدام من ناحية القرافة. لئنه محاصر.  
لئنه الموت. السور العتيق مرتفع جداً. سور التكيّة  
مدجج سطحه بقطع الزجاج المدبّب المغروس. وثب  
بكلّ قوّته متعلقاً بطرف السور. انبطح فوق سطحه

## ٧٨٨ ملحمة الحرافيش

هذه الألوان. أما زالت الدنيا على قيد الحياة؟ هذا الكائن امرأة. ضياء زوجة عمه خضر. تميل فوقه في براءة وتتمتم:

- ما أكثر الأحلام!

دار خضر. ها هو صوت عمه الطيب يردد:

- نحمد الله...

ها هي الذكريات تدهم في طوفان. كيف تسلل إلى داره سائل الدم. وسور التكيّة المسلح. ما أفسى قلوب الحناجر الذهبية. وصرخة مهلبية في جوف الليل. طارت بكلّ الآمال الحية فألقتها وراء السور العتيق. بقي اللقب المعبّد الدامي وحده. تأوه من الأعماق. همس عمه في أذنه:

- إنك هنا سرّ من الأسرار الخفية...

وقال رضوان:

- لا ضمان لحياة أحدنا لو ذاع السرّ!

ها هي الحقيقة مخضبة الوجه بالحجل والعار. ولكن كيف هُتِك سرّ هربه؟...

## - ١٩ -

ثمضي صحته في التحسن يوماً بعد يوم. وتستعاد الحكاية بتفاصيلها الوحشية. مهلبية قُتلت. شهد عشرات بأنّه - ساحة - استدرجها بحيلة إلى الساحة ثم قتلها انتقاماً منها لإيثارها الفللى عليه. شهدت بذلك أمها أيضاً. آثرت المرأة الحياة على الموت فشهدت لصالح القتلة. وإذن فقد قُتل ثمّ لاذ بالفرار. وقال ساحة:

- صباح المسكينة هي التي اضطرت إلى البوح بسرّنا!

وما العمل الآن؟

لا مفرّ من الهرب. كما هرب أبوه بكر وجدته سنية، كما اختفى عاشور. فليودّع التكيّة والقبو والزاوية والسبيل والحوض والوجوه الحميمة كما ودّع السعادة.

وسأل عمه:

- كيف تعاملون؟

فقال خضر بأسى:

- بالازدراء والغلظة... فتأوه. غير أنّ عمه قال له:

- يجب أن يكون هربك هذه المرة سرّاً لا يفشى!

## - ٢٠ -

وجاءت أخبار مؤكدة بأنّه قد صدر عليه حكم غيابيّ بالإعدام. وقال له خضر:

- بات الهرب واجباً لأكثر من سبب...

إنّه يحتنق تحت ضغط الظلم والحقن. وعاد خضر يقول:

- يجب أن تمرّ خمسة عشر عاماً قبل أن يعثر عليك أحد.

وقال له رضوان:

- الحكومة تجرّد في أترك، وأعداؤك يجردون، احذر بصفة خاصّة حمودة ودجلة وعنتر وفريد فقد كانوا على رأس الشهود...

آه. متى يقف على قدميه؟ متى تحفّ آلامه؟ متى ينسى أنّه نكص عن نجدة مهلبية؟ متى يُنزل انتقامه بأعدائه؟ ومتى وكيف يفلت من حبل المشنقة؟

وعان آل الناجي شرّ معاملة. حتّى الفقراء والخرافيش منهم لم يسلموا من الأذى. ثمة غلمان قذفوا خضر بالطين. نُهبت عربة له محمّلة بالغالل. كانوا يأوون إلى بيوتهم مع المساء. غير أنّ خضر لم يغال في التشاؤم، وقال:

- سوف يدعون في آخر الأمر لسحر النقود...

## - ٢١ -

بتأمله إلى الشفاء الكامل نبض قلبه بدم جديد. جعل يفكر في المستقبل ويرسم الخطط. لا مسرة في الطريق حقاً ولكنّه لم ينهزم. ودبّ من جديد في أعماقه حبّ الحياة. اجتاحته رغبة ملهمة. تحفّز للعناد والإصرار والبقاء.

## - ٢٢ -

عندما عدّى النيل آمن بأنّه انتقل إلى وطن جديد. كاد وجهه أن يحنفي وراء لحية مسترسلة ولانة تطوّق الرأس فوق الحاجبين. أصبح اسمه بدر الصعيديّ،

- ٢٣ -

ثمة فتاة في الجانب الآخر من العطفة. ملمح من ملامح الحارة الثابتة. تدعى محاسن بيّاعة الكبدية. دكانها متحرّك يمكن حمله بجهد قليل. طلبية موضوعة فوق قائم أسطوانيّ من الجريد، منسوج الفراغات بالخصوص المجدول، ترصّ على سطحها كبد العجول والضأن، يتوسّطها ميزان وساطور. والفتاة طويلة القامة، ثرية الأعضاء، ذات نظرة عسليّة، فيها من الجاذبية بقدر ما فيها من حدة الطبع وطول اللسان.

يتوق الغريب إلى ما يؤنس وحدته ويبدّد وحشة قلبه القلق. يتابع نشاطها باهتمام، يلاحظ عنفها بشغف. إنَّها مطمع كلّ شابّ، وسرعان ما تشهر أسلحة الدفاع من لسان سامّ وأظافر حادة. إنّه خير من الاستسلام، ولكن لم يطلبها ابن الحلال؟

انفتحت شهيتته للكبد: أدرك أنّه ينساق في طريق مجهول العواقب. وأنّه يمضي مدفوعاً بقوة في داخله قبل أن تكون في الجانب الآخر من الحارة. وزنت محاسن له رطلاً ولقته في ورقة ثمّ قالت ببساطة:

- خذ يا سنيّ!

سرّ بدعابتها واعتبرها نحيّة. إنَّها تذكّره برشاقتها وثراء أعضائها وغمقة سمرتها بفقيدته التعيسة مهلبيةّة. وتذكّره بالنّالي بنكوصه المزري عن نجدتها وبآلام الماضي الحزين. ولكنّه ما زال يكابد الحياة، وربّما كابدتها طويلاً تحت المطرقة. وكلّما طرح الموت ظلّه عليه تشبّث أكثر بأهداب الحياة.

ومن ناحيتها كانت تتباعد منه العدس والبقول والحلبة. خذ يا سنيّ هات يا سنيّ. خذي يا ستّ محاسن. خذي يا ستّ الكلّ. لم يجاوز الاحتشام في تعامله معها. لعلّها قرأت في عينيه أكثر ممّا يقول أو يفعل. لعلّها عجزت أيضاً لما ينفرد به من سلوك طيب... وعلى جانبي الحارة، ويعيداً عن أيّ شبهة، نضجت عاطفة قويّة...

- ٢٤ -

عقب صلاة العصر تعمّد أن يشير إلى سيرتها في حديث له مع إمام الزاوية:

وحرفته بيع التمر والحلبة والعدس. أقام في بدروم ببولاق وعُرف بسلوك عذب.

ونصب أمام مخيلته جبل المشنقة كأنه الميزان الذي لا يفارقه. أدرك أنّ الموت يرصده، أنّ الشياطين تقتفي أثره، وراح يسجّل في دفتر خاصّ الأيام في مرورها كما يسجّل في الدفتر الآخر معاملاته التجارية. وغاب العالم القديم، كما غاب أهله وأهل حارته، طموحه في الفتوة، حبّه، الآمال الحارة. لم يبق معه إلا المنفى والعمل والتقوى.

ووجد بادئ الأمر وحشة في بولاق. أجل إنّ العالم متشابهة، فثمة السبيل وحوض الدوابّ والكتّاب والزاوية وشيخ الحارة، طموحه في الفتوة، حبّه، الآمال الحارة. لم يبق معه إلا المنفى الناجي العظيم؟ ولم يثر في الناس فضولاً ذا خطر، ببولاق ميناء نهريّ يلتقي عندها العديد من المراكب الشراعية كلّ يوم، ويؤمّها الأغراب عبوراً وإقامة، لذلك لا يلوذ بها الغارون من وجه القانون، ولا تضيق بالغريب. وهي ممتدة ومتفرّعة بخلاف حارته المكنونة، فتكاثف في أعماقه الغربية والضياح، ولكنها غريبة مسرلة بالأمان على أيّ حال. ثمة وقت غير محدود لتأمل حياته، ودراسة مشاريعه، واحتضان نوازعه الثابتة للانتقام وفرض سيادة العدل. هكذا قبع الحالم الكبير في دكانه الصغير، يتعامل باللطف، ويُدّرع بالأمانة، ويقنع بالرزق الحلال، ويتحدّى المجهول.

وقال له شيخ الحارة:

- الطيبون أمثالك نادرون.

فقال بأدب:

- من بعض ما عندكم...

- ترى ما سبب هجرتك من الصعيد؟

فأجاب بدهاء وقلبه يخفق:

- كيف يُسأل صعيديّ عن ذلك!

فضحك الرجل وواصل بدر الصعيديّ قائلاً:

- وأجدادي الأوائل كانوا من بولاق!

فقال الرجل وهو يتناول منه لفافة بدينة حافلة

بالمتنوّعات:

- جميل أن يحنّ الإنسان إلى أصله...

- ٢٦ -

أعلنت الخطبة . وبعد أشهر تمّ الزفاف .  
رغم أنّ العروسين كانا بلا أهل فقد اكتظّ الفرح  
بالمدعوين من الجيران والزيائن . أنفق بدر الصعيديّ  
عن سعة . جالت زفته بالحليّ في حمى الفتوة فمرت  
بسلام .

وجّهزت شقةً مكوّنة من حجرة وصالة ، حجرة  
للنوم وصالة للجلوس والمائدة ، وأسهمت محاسن وأمها  
في الجهاز بما يرفع الرأس .

وسعد ساحة بعروسه ولكن تنغص صفوه بعض  
الشيء بإقامة حماته معها ، واحتلالها الصالة ليل نهار .  
كانت عجوزاً ضريرة ، تشهد قسماها العتيقة بجمال  
داير ، وكانت وقحة سليطة اللسان ، قذت كلماتها من  
رصاص ، فلم تعرف المجاملة حتى في شهر العسل  
والمجاملات . ولكنّ الحبّ اكتسح كلّ شيء في فصله  
الورديّ . . .

- ٢٧ -

تفرّغت محاسن للبيت . أحبّت زوجها . اكتشفت أنّه  
ميسور الحال أكثر ممّا يعلن ، وأنّه في الداخل أجمل منه  
في الطريق .

قالت له مرّة :

- لو حلقت لحيتك لكنت من أحسن الناس  
صورة . . .

فقال متهزّباً :

- إنّها سرّ نجاحي في الحياة .

وإذا بحماته تبغته قائلة وهي تقهقه بصوت داعر :

- استعملها بدل المقشّة !

ولم يكن يستخفّ لها ظلّاً ولا ينفّر لها ماضيّاً فحرق  
عليها وقال بحدّة :

- أوافق بشرط أن نكنسك بها . . .

فاشتعلت العجوز بالغضب وهتفت :

- احترسي من هذا الرجل فإنّ قلبه أسود . . .

رماها بنظرة حاقدة وعدّها ضمن سوءات الحظّ التي  
تطارده .

- أهي وحيدة يا مولانا!

- كلاً، إنّها تعيش مع أمّ عجوز ضريرة . . .

- ولا أهل لها سوى ذلك؟

- قُتِل أبوها في خناقة، ولها أخ في اللبان . . .

- أظنّها في العشرين فلمّ لم تتزوج؟

- فاستغفر الإمام وقال :

- كانت أمّها سيّئة السمعة!

- ولكن هل البنت . . .؟

- فقاطعه الشيخ بصدق :

- لا غبار عليها والله أعلم!

زكّاه عنده زهد الآخرين فيها . ليس الغريب  
المطارّد بالصالح للمنافسة . الزواج يؤصّله في المكان  
ويجلب له الثقة . وهي خير من أخرى ذات أهل  
يهتمهم أن يعرفوا الأصل والفصل . وأهمّ من ذلك كلّ  
لمّ لا يعترف بأنّه يرغب فيها بكلّ شبابه؟

- ٢٥ -

انتهاز فرصة وجودها بدكّانه لشراء حوائجها،  
متشجّعاً بدلاها ومرحها، فسألها :

- ماذا ترين يا محاسن إذا طلبك رجل على سنّة الله  
ورسوله؟

فرمقته باهتمام ، اهتمام غطّته بنظرة ساخرة وضّاءة ،  
وتساءلت :

- أ يوجد مثل هذا المجنون؟

- أجل ، إنسان من لحم ودم ومستور برعاية  
الله . . .

وتبادلا النظر مليّاً في رضّى وسلام ، ثمّ غلبها المرح  
فتساءلت :

- أله لحية مثل فروة الخروف؟

- هو ذلك . . .

- وماذا أفعل بلحيته؟

فقال ضاحكاً :

- لحية مستأنسة ولا ضرر منها على الإطلاق . . .

ثمّ وجّها على الرضى ولكتّها ذهبت دون أن

تنبس . . .

ومضى يتذكّر مهليّة بأسى عميق . . .

- ٢٨ -

حتى محاسن لم تنج من سهام العجوز. كانت فاسدة  
الطبع مشاكسة سيئة الظن بكل شيء. كثيراً ما تقول  
لابنتها:

- تفضنون عليّ بأطياب الطعام وترمون إليّ  
بأسوئه...

فتقول لها محاسن:

- تأكلين مما نأكل.

فتقول بإصرار:

- كذّابة لا تخفى عليّ حقيقة رائحة، كذّابة مثل  
زوجك؟

فيغضب سباحة ويقول:

- ما دخلي أنا؟

- أنت رأس البلوى...

- الصبر... الصبر... حتى يجيء الفرج!

فتصرخ العجوز:

- الفرج!... ستسبقي إلى القبر!

- طريقنا مختلف على أيّ حال.

فتقهقه قائلة:

- أراهن على أنك قتلت أباك في الصعيد وجئتنا

هرباً من جبل المشقة!

ارتعد حنقاً وحقداً وتمتّى لو يحطم رأسها...

- ٢٩ -

لكنه سعد بمحاسن حقاً، ولاذ بحضنها من همومه  
الراسخة. هي أيضاً تستجيب له وتسعد به. أجل آمن  
منذ الشهر الأول بأنّها ليست الزوجة الطيبة المطيعة.  
إنّها جريئة، حادة، واثقة من نفسها، مداعباتها تخشن  
أحياناً لحدّ القسوة. وهي تبالغ في عنايتها بنفسها.  
تكثر من الاستحمام والتعطر بالقرنفل ولكنها تتزيّن لحدّ  
البهرج. وعدّ ذلك من مزاياها ولكنّه كره أن يطّلع  
عليه غريب. ومن جرّاء ذلك نشب بينها أول خلاف  
جديّ.

قال لها مرّة:

- لا تطلي من النافذة وأنت على هذه الصورة...

فقالت باستياء:

- طالما عملت في الطريق...

- كنت تظهرين كما خلقك الله...  
فقالت بحدّة:

- وكنت ترى كيف أوذّب السفلة!

وتدخلت العجوز فقالت:

- ألم أقل لك إنّ قلبه أسود؟!

فهرها قائلاً:

- اقطعي لسانك القدر...

فولت العجوز:

- فليحكم الله من قاتل أبيه!

فأعرض عنها وهو ينتفض غضباً وقال لمحاسن:

- تشجّعك على الفساد...

فاشدّها بها الاستياء وقالت:

- لست عرضة للفساد...

- في هذا الأمر أطالبك بالطاعة التامة...

- لست طفلة ولا خادمة...

فانهارت فرامله وصاح:

- سأقذف بك من النافذة!

فجنت محاسن وهتفت:

- سأقذف بك في المراض...

فصاحت العجوز:

- عفارم!

فصرخ سباحة:

- أمحدى أن تتجاهلي أمري...

وقف الخصام عند ذلك الحدّ. وسرعان ما تصافيا في  
اليوم التالي. وفي مساء ذلك اليوم بشرته بأنّها في  
طريقها إلى الأمومة...

- ٣٠ -

ماتت حماته العجوز الضريرة ميتة غريبة...  
سقطت من نافذة الصالة المطلّة على المنور فتهدّمت  
رأسها. لعلّه من حسن حظّ بدر الصعيديّ أنّه كان  
وقت ذلك في دكانه. وجرت الإجراءات سراعاً وبلا  
عرقلة حتى شُيِّعت القتيلة إلى قبرها. احتفل بدر  
بالجنازة والمأتم إكراماً لمحاسن ولمركزه في الحارة. ووجد  
رغم ذلك حرجاً لسابقة العداء المستحکم بينه وبين الراحلة.



ويومًا بعد يوم سَجَل في دفتره السَّرِيّ جريان الزمان  
البهطيء. وعند كلِّ مرّة يتذكّر حبل المشنقة، ويتساءل  
هل تُكتب له النجاة حقًا؟ ويتذكّر أهله، وأهل  
حارته، ترى ماذا فعل الزمان بهم، ويتذكّر أعداءه،  
الفللى ودجلة وعنتر وفريد وحمودة القواد، هل يقف  
فوق رؤوسهم يومًا وقفه المنتصر، هل يعيد إلى حارته  
عهد الناجي، هل يرجع إلى سماع الأناشيد؟

- ٣٢ -

وبعد رمانة أنجبت محاسن قرّة ووحيد. استوى بدر  
وجيهاً من وجهاء الحارة ومُحسِنًا من رجالها الطيبين.  
أصبحت له منزلة خاصة عند المساكين.  
ولم تتخلّ محاسن عن عنايتها التقليدية بجمالها  
ونظافتها. لم تشغلها الأمومة عن الأنوثة وحبّ الحبّ.  
وإلى ذلك ولعت بالحشيش حتى صار مزاجًا ملازمًا.  
جربته أوّل الأمر على سبيل المشاركة العابثة مع زوجها  
الذي يدخنه في بيته كلّ ليلة. خرت بعد ذلك بين  
أنامله الناعمة الشرهة وهامت به.  
ومرت الأيام وتعاقبت الأعوام حتى أمّن الرجل إلى  
مصيره وانجلت عنه المخاوف أو كادت.

- ٣٣ -

وسرى إلى بولاق خبر عجيب.  
ثمّة صداقة تتوطّد أركانها بين فتوة بولاق والفللى  
صعقه الخبر. انفتحت بغتة تحت قدميه فوهة جبّ.  
زلزلت أركان دنياه الأربعة.

وسأل شيخ الحارة عمّا يقال فقال الرجل:

- أبشر، إنّه يعني مضاعفة لقوة الفتوتين!

تظاهر بدر بالسرور فقال شيخ الحارة:

- ستكثر الأفراح والليالي الملاح...

- هذا هو المأمول.

- ثن من ذلك، سوف تُتبادل الزيارات، وهذا

يعني الغناء والرقص والسكر.

فتمتم بدر بريق جافّ:

- ما أطيب ذلك وأجمله!

تسلّل ثعبان إلى المسكن المطمئن. لم يخطر له ذلك

ويكت محاسن بكاءً مرًا حتى قال لها:

- لا تبكي فأنت حبلى...

فسألته بعتاب قاس:

- ألا تهتمك المرحومة؟

ولمّا لاذ بالصمت اتهمته قائلة:

- لا تدار فرحتك!

فقال محتجًا:

- الموت يفرض احترامه.

وعدّدت محاسن مزايا أمها التي لا يجوز أن تُنسى.

كانت تحبها رغم مشاكستها السطحية، ومن قبل أحبّت  
أباها لدرجة العبادة. وشدّ ما تحطّمت عند مصرعه في  
عزّ شبابه. وشدّ ما تحطّمت عندما قضى على أخيها  
بالتأييد. وأدمنت الأفيون فاضطرب سلوكها وأُتهمت  
بكلّ سوء. هكذا فقد بصرها فزادت تعاستها.  
وتكالت عليها الأحزان وهي مهملة في بيت رجل لم  
يرحب بوجودها قطًا

وقالت أيضًا إنّها كانت في شبابه من أجل بنات  
بولاق، وإنّما أثرت الزواج من أبيها على الاقتران  
بقصّاب غنيّ فلم تكن تافهة أبدًا.

تابع سباحة سيرة العجوز وهو يتذكّر جدّته سنّية  
هانم السمري التي هربت مع سقاء في سنّ ابنها،  
وتساءل بحزن ترى أين تقيم، وماذا فعل الزمان بها،  
وماذا فعل بأبيه بكر؟ وكم ينطوي الماضي على مخازٍ  
وأحزان!

- ٣١ -

وجاء الصيف زافرًا أنفاسه الحارّة. إنّه يحبّ  
ضياهه، لا يضيق بلفحاته، ويستعذب أماسيه الرقيقة،  
ويعشق الملوخية والبامية والبطيخ والشام، ويستبشر  
بالاستحمام كلّ شروق.

وأنجبت محاسن ذكرًا. وسرّ الرجل به سرورًا  
فخورًا. ودّ لو يسمّيه شمس الدين، ولكنّه خاف  
الاسم كأنّما سيزيح عنه الأمان، فوافق على الاسم  
الذي اختارته محاسن، رمانة، اسم أبيها.

وتضاعف نجاحه وثراؤه، وحول ساعدَي محاسن  
تكاثرت الأساور الذهبية، وبدا وجه الحياة بسامًا.

## ملحمة الحرافيش ٧٩٣

من جديد. الإلهام يفعم وجدانه. اطمئن يا بدر ولا تخف. تحصن وراء لحيتك واعتمد على رب العدل. واشتدت ارتباطاته الوجدانية بمحاسن ورمانة وقرّة ووحيد. بالطعام والشراب والعبادة والحياة. حتى الشتاء وجد في سحبه شغفًا. طرب لكل شيء حتى أصوات الشتائم المتبادلة. أسف على أنه لا يستطيع أن يلقن الأبناء حكايات عاشور وشمس الدين. أن ينشئوا جاهلين لأصلهم المبارك، لبركة الحلم، وصداقة سيّدنا الخضر. متى يعرف رمانة أنه رمانة سباحة الناجي؟

وقال لنفسه:

- افرح عند كل شروق شمس ولا تحزن عند غروبها!

- ٣٦ -

كان يسجل مرور يوم جديد بدفتره السريّ عندما أمره شعور داخليّ بأن يرفع عينيه. رفع عينيه فرأى محمّد توكل شيخ حارته الأصلية على بعد متر من دكانه. رآه يمرّ وهو يلقي نظرة عابرة. انخلع قلبه. اخترقه الفزع مثل بلطة. تلاشى كل شيء.

هل رآه الرجل؟ هل تذكره؟

ولحه عن بعد جالسًا في دكان شيخ الحارة. يتحدثان ويتضحكان، وتنظر عيناه كيفًا اتفق. إنه الموت. شدّ ما يسعده أن يقدم خدمة للداخلية. شدّ ما يسعده أن يهتئ الفللي بالقبض عليه. لوعمي الرجل ما عرف - هو - الأمان بعد الساعة. أصبحت بولاق مباحة للأعداء.

وها هو خبر ينتشر أنّ محمّد توكل يسعى إلى مصاهرة تاجر الخردة. لعلّه جاء في صحبة الفللي فقاده عيناه إلى زوجة جديدة. سوف يمسي من أهل بولاق بقدر ما هو من أهل الحسين. لم تعد بولاق بالماوى الآمن.

أجل لم تعد بولاق بالماوى الآمن...

على بال. طالما ظنّ أنّ النيل حاجز لا يُعبر. هكذا سيجيء الفللي وعصابته. سيمرحون في الحيّ. سيُدعى إلى الأفراح. لم يزل نصف المدّة قائمًا، قابضًا على جبل المشنقة. لن تخفى حقيقته عن الأعين الثاقبة. ورسم خطّة. ادعى المرض قبيل الزيارة بأيّام. حتى محاسن صدقته وحلت في الدكان محلّه.

- ٣٤ -

في الليلة الموعودة قبع وراء خصائص النافذة. غيرت الدنيا ساحتها. كل شيء ينطق بالغرابة. السخرية متجسّدة حول الكلوبات مثل وجه ساحرة. نفايات الأمان مكومة في المزابل. أما الحارة فتتموج برقص الراقصات والراقصين. ورائحة السمك المقلّي تملأ الهواء. إنه الشتاء فلم لا تمطر السماء؟ أين الرعد والبرق؟ أين قسوة الرياح؟ وعلا الطبل والزمر. وضجّ المكان بالهتاف والزغاريد. ها هو موكب الأصدقاء يقترب. تتقدمه جياذ راقصة مجلجلة بأهلتها الفضية. ها هو أبغض خلق الله، الفللي القبيح اللثيم الطاغية، شابكًا ذراعه بذراع فتوتنا. يتسم عن أسنان ذهبية. ها هو دجلة. عنتر. فريد. أين حمودة؟ قتل. سُجن. مات. الأوغاد مجتمعون. أين القضاء والقدر؟ ما جدواك أيّها الحقد؟ إنهم يتعدون ولكنّ الضوضاء تنفسي. ليلة صاحبة. معرودة. مضمرة للعذابات المبهمة. متوعدة بكلّ شرّ. عزرائيل يباركها. جبل المشنقة يطوقها. الأحلام تختنق فيها. الأحبة - محاسن ورمانة وقرّة ووحيد - يتحوّلون إلى أطياف. قد تلاشى في أيّ لحظة. ويحلّ ظلام دامس. ويحلّ ياس قاتل. ويحلّ فراغ شامل....

- ٣٥ -

رجع إلى دكانه مستقبلاً التهانى. القبوع في البيت مفسدة للروح، مثير للمخاوف. مهوّل للأحزان. أما الحركة فبركة. المعاملة تجديد للدماء وبعث للشجاعة. اختفى الأعداء. توارى عزرائيل. رحيق الحياة يجري في ريقه. التوكّل على الله ينعش روحه. الأمل يخطّر

- ٣٧ -

- فقلت باستسلام:  
 - سافرا  
 - صاحب همّة عالية، ولكنك لست كعادتك يا ستّ محاسن...  
 - بخير يا ريس.  
 - متى يرجع؟  
 فلاذت بصمت واجم فتساءل الرجل بحذر:  
 - امرأة أخرى؟  
 فقلت بحدة:  
 - كلاً.  
 - هل تطول غيبته؟  
 - ستطول أعواماً يا ريس؟  
 - يا للخبر!  
 - قسمني...  
 - ولكنك تخفين أشياء...  
 فقلت بفتور:  
 - كلاً.  
 فمضى الرجل وهو يقول:  
 - لا أمان للصعايدة!
- قالت له محاسن وهي تتفرّس في وجهه:  
 - في قلبك شيء.  
 كان الأبناء قد ناموا. وكانت تحوم حوله في زيتنها  
 الحلوة فأنست منه ما خيّب حلمها. قال:  
 - في قلبي أشياء...  
 سلّمت للخيبة وتساءلت:  
 - التجارة؟  
 فتمتم بحزن:  
 - التجارة رابحة، ولكنّ أمامي رحلة طويلة...  
 - الصعيد؟  
 - ربّما...  
 - ولكن ما السبب؟  
 فتجاهل سؤالها قائلاً:  
 - سوف تطول أعواماً...  
 - أعواماً!؟... خذنا معك...  
 - أتمنّى ذلك ولكنّه مستحيل...  
 فقطبّت في ريبة فقال:  
 - رحلة مطازد لا رحلة تاجرا  
 - مطازد!؟

- ٣٩ -

ونشر شيخ الحارة الخبر حتّى علم به محمّد توكل  
 وكان ينزل ضيفاً عليه. وبخلاف ما توقّع اهتمّ  
 الضيف بالخبر وتساءل:

- أهو الصعيديّ ذو اللحية؟

فأجاب شيخ حارة بولاق بالإيجاب.

عند ذاك أغمض محمّد توكل عينيه متفكّراً...

- ٤٠ -

عقب ساعة اهتزّت الحارة على كبسة عسكريّة.  
 اقتحمت قوّة منها مسكن بدر الصعيديّ بقيادة  
 ضابط، وقد اقتحمت دكّانه بقيادة المخبر حلمي عبد  
 الباسط.

زحف الأهالي نحو المواقع كالنمل.

سأل حلمي عبد الباسط محاسن بخشونة:

- أين ساحة سليمان الناجي؟

- ٣٨ -

ودّع الرجل زوجته وأولاده وغادر داره متسلّلاً قبيل  
 الفجر.

مع الصباح الباكر وقفت محاسن في الدكّان تمارس  
 حياتها الجديدة. كانت كثيفة حزينة ضائقة بسرّها.  
 وكانت تقف بين الشكّ واليقين ممّا حكاها زوجها. لقد  
 خدعها أعواماً، ربّما له عذره، ولكنّه خدعها، فهل  
 صدقها أخيراً أم تمادى في خداعه؟

ومرّ بها شيخ الحارة فسألها عن زوجها، ماذا أقعده  
 في البيت، فقلت بوجوم:

- سافر إلى الصعيد...

فدهش الرجل وقال:

- أمس قابلته فلم يخبرني بشيء...

## ملحمة الحرالميش ٧٩٥

طويل القامة، كبير الوجه. ذو عينين صغيرتين وأنف غليظ، وشارب مثل مخرطة الملوخية. يا له من منظر شؤم، وشؤم ما اقترن به من ذكريات. إنّه يراقبها بلا أدنى شكّ فماذا يظنّ؟ يمرّ بالدكان فيرمي بنظرة غريبة مثيرة للتساؤل، أو يجلس بدكان شيخ الحارة فيسدّد بصره بلا هوادة. ماذا يظنّ وماذا يريد؟ تساءل عقلها وتساءلت غريزتها. توثبت للنضال كما توثبت للاستطلاع.

ومرّة توقّف أمام الدكان. اقترب خطوة فانحسر في أفكارها. تبسّم متسائلاً:  
- أتؤمنين حقاً ببراءة زوجك؟  
فأجابت دون أن ترفع عينيها إليه:  
- إنّي أصدّقه.  
فقال بنبرة الوعظ وهو يمضي:  
- حتّى يلتفتّ الحبل بعنق القاتل يظلّ مصرّاً على براءته!

## - ٤٣ -

ورأت يوماً محمّد توكل شيخ الحارة فدعته إلى دكانها. أكرمه وقالت له:  
- لعلّك تدرك ما أعانيه من متاعب.  
فقال الرجل مجاملاً:  
- كان الله في عونك...  
- ولكنك وحدك من يعرف الحقيقة...  
- الحقيقة!؟  
- حقيقة التهمة...  
فقال توكل بلباقة:  
- لا أعرف إلا ما أسفر عنه التحقيق.  
- ولكنّه أقسم لي بأنّه بريء...  
- ثبت أنّه قتل البنت ثمّ هرب...  
- تنهّدت محاسن يائسة، ثمّ قالت:  
- حدّثني عن أهل زوجي وأبنائي...  
فقال محمّد توكل باسماً:

- إنهم من صلب فتوات قدامى يروون عن سيرهم ما يشبه المعجزات، ولكنّي لا أصدّق خيال أهل حارتنا، فهم يؤمنون بأنّ الخير بدأ وانتهى في ماضٍ

فأجابت بثبات:

- لا أعرف أحدًا بهذا الاسم...  
- حقاً؟... أين بدر الصعدي؟  
- لا أدري.  
- كذّابة...  
- لا تسبّ يا مخبر، ماذا تريدون من رجل شريف؟  
- شريف!؟... أنت تعلمين أنّه هارب من حبل المشنقة...  
- أعوذ بالله... الحارة كلّها تعرفه...  
فصاح:  
- أمامي إلى القسم...  
فهتفت:  
- لي أبناء ثلاثة لا أحد يرعاهم. ماذا تريدون منّي؟

## - ٤١ -

فتش الدكان كما فتش البيت. جرى تحقيق دقيق مع محاسن. أفرج عنها. وطار الخبر في الحارة مثل النار. ذهل الناس ذهولاً.  
- بدر الصعدي!  
- صاحب اللحية...  
- المحسن!  
- قاتل هارب من المشنقة!  
- لم يكشفه إلا حماته وإن تكن امرأة سوء مثله!

## - ٤٢ -

مضت العادة تستلّ من العجائب روحها وجدّتها. أدخلت محاسن أبناءها الكتاب، وكانت تحييهم هم عقب الكتاب إلى الدكان أو تركهم يلعبون أمام عينيها. شدّ ما حزنّت على زوجها، وشدّ ما حزنّت لحظها الأسود. ورغم نوبات الحنق لم تنس أنّه تركها مستورة، بل غنيّة بتجارة رابحة.  
ومند يوم الكبسة لم يتخلّف المخبر حلمي عبد الباسط عن المرور بالحارة أو الجلوس أحياناً بدكان شيخ الحارة. ترى أما زال يراقبها؟ إنّهّا تشعر بنظرانه وتضيق بحركاته ولكنّها تتجاهله. رجل فظّ غليظ.

غامض، ولا يفرقون بين الحقيقة والحلم، يفكرون بعواطفهم، ويحكمون على الأشياء بتعاستهم، ويصدّقون أنّ الملائكة هجرت سواواتها ذات يوم لتحمي هذا أو ذاك من أجدادهم...  
 - هل الفللى منهم؟  
 - كلاً، انتهى زمان فتوتهم، لم يعد أحد منهم يفكر فيها، أكثرهم اليوم فقراء أو من أهل الحرف، ولكنّ زوجك ينتمي إلى الأسرة الغنيّة الوحيدة فيهم، فعّمه المعلم خضر من كبار التجّار، وكذلك شقيقه رضوان، هل تنوين تسليمهم الأبناء؟  
 فبادرت تقول:

- كلاً، لن أتخلّى عن أبنائي، ولست في حاجة إلى أحد، وما سألتك إلّا لأعرف ما ينبغي معرفته...  
 - قد يطالبون بهم ذات يوم؟  
 فقالت محاسن بحرارة:  
 - سأحتفظ بهم ما وجدت إلى ذلك سيلاً...  
 فقام شيخ الحارة وهو يقول:  
 - كان الله في عونك...

- ٤٥ -

ومرّت الأيام ثقيلة متشابهاً. أرهاقها الجهد المتواصل والضجر. وأرهاقها الحرمان من الذي كان يملأ حياتها. ووجدت مشقّة في تموين دكانها بالسلع فهبط الدخل رغم أنّه ما زال فوق الكفاية. وراحت تحاكم ساحة وتدنيه لما نزل بها، وتشتدّ في محاسبه كلاً أثقلها الضجر أو عدّبتها الوحدة. وأكثر الوقت ضاع رمانة وقرّة ووحيد في الطريق بلا رعاية حتّى قال لها شيخ الزاوية:

- الأولاد معرّضون للشّر يا ستّ محاسن...

فقالت بأسى:

- ما العمل؟ لم يبلغوا بعد السنّ التي يعدّون فيها للعمل في الدكان...  
 - ليس الأفضل أن يلقنوا حرفة ولو على سبيل حفظهم من الطريق؟  
 فقالت مقظبة:  
 - لن أتركهم تحت رحمة أناس لا ثقة لي فيهم...  
 وتضاعف سخطها وقلقها...

- ٤٦ -

ولم يكفّ حلمي عبد الباسط عن الحومان حولها. ومرة قال لها بحنان:  
 - إني أرثي لك يا ستّ محاسن...  
 فقالت بإصرار:

- إني قويّة وناجحة...  
 - ولكنك لست حرّة.  
 - ماذا تعني؟

- ٤٤ -

مع الأيام أصبح حلمي عبد الباسط من زبائن الدكان. أكان ذلك ضمن خطته في المراقبة؟ ولكن كفى خداعاً للنفس. هذه النظرات الجائعة لا تصدر عن تجسّس. وليس في حياتها ما يستحقّ المراقبة. إنّه يحوم حولها بنظرات مشغوفة، وابتسامه متودّدة، وارتباك ينم عن نواياه الدنيّة. إنّها تعرف ذلك بغريزتها ولكنّها تتجاهله. وهي تشعر بنفور ولكنّها تتجنّب الحزم. وقلقها من المستقبل يتزايد يوماً بعد يوم.

ومرة قال لها:

- سامحه الله...

فنظرت إليه مستطلعة رغم أنّها عرفت من يقصد فقال:

- يتركك وحيدة مع ثلاثة أبناء...

فلم تنبس فقال:

- وحتّى إذا كتبت له النجاة فعليك أن تنتظري

## ملحمة الحرافيش ٧٩٧

- أهلاً بكما، وشرفنيا...  
فقال خضر:  
- كان ينبغي أن نتعارف من قبل ولكن الأخبار لم  
تتسلل إلينا إلا أمس!  
- أفهم ذلك جيداً...  
همت أن تقول إنها عرفت عنهما الكثير ولكنها  
سرعان ما عدلت عن ذلك. وقال خضر:  
- شرفنا أن نعرفك نحن أهل زوجك، وأهل  
أبنائه، ويسرنا أن نكون في خدمتك!  
- تستحق الشكر يا معلّم خضر...  
فقال رضوان:

- ثقتنا في الله كبيرة، وسوف ينكشف الظلم عن  
المظلوم...  
- حدّثني سباحة بكلّ شيء، ولكن ألا تستطيعون  
إثبات براءته؟  
فقال خضر بأسف:  
- نخاطر بأرواحنا في سبيل قضية خاسرة...  
وتساءل رضوان:  
- أين الأولاد؟  
- في الكتاب...  
وانخطف لونها وهي تقول:

- فقد أصغرهم عينه في مشاجرة مع الأولاد.  
تجلى التأثر في وجهي خضر ورضوان، وقال خضر:  
- حملك ثقيل يا ستّ محاسن.  
فقالت بحذر:

- لست ضعيفة ولكنّه سوء الحظ...  
فقرأ خضر أفكارها ولكنّه تساءل:  
- كيف تتصوّرين المستقبل؟  
- أن يعملوا في الدكان...  
أجال خضر عينيه في الدكان فقالت:  
- الرزق موفور والحمد لله...  
فقال برقة:  
- لعلّه توجد فرصة أطيب عندنا!  
فقالت بلهفة:  
- لا أحبّ أن أتخلّى عنهم...  
فقال بوضوح:

- ما زلت مرتبطة بحبل المشنقة...  
فقطبت قائلة:  
- إني راضية...  
- بل عليك أن تتحرّري لحريك وخير الأولاد...  
ماذا يريد أن يقول؟  
- في مثل ظرفك تطالب المرأة بالطلاق!  
فضحكت ساخرة فقال:  
- سيطلبك ابن الحلال فإنك في الحقّ جوهرة...  
وغادر الدكان متجنّباً سماع جواب لا يرضيه...

## - ٤٧ -

عقب اختفائه بدقائق سُمعت صرخة عصفت  
بجدور قلبها. اندفعت من الدكان مجنونة فرأت وحيد  
يتمرغ في التراب مخضب الوجه بالدماء. وعن بعد ثمة  
غلمان يجرّون فزعين. تجاهلت مضطّرة الجناة ورفعت  
ابنها بين يديها وهي تصوّت. ولما تفحصت وجهه  
صرخت بأعلى صوتها:  
- ضاعت عين الولد!

## - ٤٨ -

سُحب الهموم تراكمت. أمطرت قلقاً وكآبة.  
وحلّت بالأركان الضجر. تجلّت همسات الإغراء مثل  
قوس قزح.

## - ٤٩ -

أمام الدكان وقف دوكار. نهضت محاسن  
مستطلعة. غادر الدوكار كهل ثمّ شابّ، يرفلان في  
عباءتين من وبر الجمل. أقبلا عليها والكهل يقول  
متسائلاً:  
- ستّ محاسن؟  
أجابت بالإيجاب فقال الكهل:  
- أنا خضر سليمان الناجي عمّ زوجك سباحة وهذا  
شقيقه رضوان...  
خفق قلبها بعنف. قدّمت لها مقعدين وقلبها  
يخفق. وتمتت:

- ٥١ -

لا دائم إلا الحركة. هي الألم والسرور. عندما تخضّر من جديد الورقة ، عندما تنبت الزهرة، عندما تنضج الثمرة، تمحي من الذاكرة سفحة البرد وجلجلة الشتاء.

- ٥٢ -

كلّ ما يحدث مألوف لا ينكره عرف ولا دين. والقشرة الصلبة تنطوي على سائل الرحمة العذب مثل جوزة الهند. هكذا انتقل رمانة وقرة ووحيد من بولاق إلى دار خضر الناجي. لم يدرك الغلمان ما يراد بهم. أجهشوا في البكاء فبكت محاسن بحرارة. برزت قرارها يزعم أنّ آل الناجي هدّوها بالالتجاء إلى القضاء. اعتذرت عن سلوكها ولكنها حزنت بصدق ومن الأعماق. نبض قلبها بالعواطف المتناقضة مثل مشمشة حلوة النسيج مرّة النواة. ثمّة إشار الأبناء بالنعمة والتضحية بهم في آن. ثمّة صراع بين الوفاء لساحة ومحاسبه الدائمة على خداعها ثم تركها وحيدة. وثمة صراع أعنف بين الصبر والحمرمان من ناحية وبين الاستسلام لتيّار الحياة المتدفق من ناحية أخرى. بين الزلل والفتنة وبين الحقّ الشرعيّ لغريزة نعمة. أقنعت نفسها بأنّها امرأة ضعيفة وأنّ عليها أن تتصرّف من منطلق الضعف والمحافظة على السلوك السويّ. وأبدها في تفكيرها شيخ الزاوية وشيخ الحارة وكثرة من الجيران.

- لا خير في الوفاء لقاتل... -

- ولا خير في بقاء شابة جميلة بلا زوج... -

وهل يمكن أن تنسى ما التصق بالمرحومة أمّها من سوء السمعة؟ إلى ذلك كلّه فإنّ زواج امرأة من مخبر أمر مرغوب فيه من غالبية أهل الحارة.

هكذا سلّمت محاسن أبناءها إلى أهل سباحة، وهكذا حصلت على الطلاق من سباحة القاتل الهارب.

- ولن نحمالك على ما تكرهين، ولكن أليس من الظلم أن يُجرّموا من حياة أفضل؟

فراحت تقضم أطرافها وهي لا تدري فعاد الرجل يقول:

- لن نحمالك على ما تكرهين... -

وقال رضوان:

- اعتبري زيارتنا للتعارف والمودة... -

وقال خضر:

- واعلمي أنّك لست وحيدة، نحن أهلك أيضًا، فكري على مهل فيها أعرضه عليك، تعالي معهم إذا شئت، زورهم في أيّ وقت، أو أبقهم في كنفك، الأمر بيدك على أيّ حال... -

- ٥٠ -

ما إن غاب رنين جرس الدوكار حتّى كان حلمي عبد الباسط في الدكان. سألتها باهتمام:

- ماذا يريد السادة؟

لم يعد غريبًا أن تباسطه في الحديث. كفت من زمن عن صدّه وتحديده. أصبح عادة يومية في حياتها. حتّى قبّحه لم يعد منقرًا أو مزعجًا. هكذا وافته بما لديها. وبادرها قائلاً:

- عين الصواب... -

- أهجر أبنائي؟

- بل ترسلهم إلى حظّهم السعيد.

- ماذا تعرف عن قلب الأمّ؟

- الأمومة الحقّة تضحية!

فقالت بمكر:

- ربّما كان الأصوب أن أذهب معهم... -

فهتف:

- معاذ الله!

- إنهم أهلي أيضًا... -

- ولكنك غريبة! أنت من بولاق وهم من

الحسين، هنا عزّتك وكرامتك... -

وحذق في وجهها بعينه الصغيرتين النهمتين ومثمت:

- وهنا من يحبك أكثر من نور عينيه... -

ملحمة الحرايش ٧٩٩

المتابعة الملائقات والتهدّات والرغبات مع السباب واللطافات. وجاء الوليد في أعقاب وليد حتى اكتمل لها سنة. الشيء الوحيد الذي لم يمسه التغيير كان حرصها الأبدى على أنوثتها وجمالها.

- ٥٥ -

وتمرّ الأيام، وتنمو الحياة وتتفرّع، وتتجمّع المصائر في الأفق.

- ٥٦ -

وكان ساحة بكر الناجي يعاني الحياة وهو يسمع صلصلة عجلة الزمن تجرّ وراءه. إنّ الإنسان يشقى بساعة انتظار فكيف إذا صارت الحياة كلّها مفرغة إلا من انتظار متواصل؟ ومن أوّل الأمر صمّم على ألا يقيم في مكان واحد. عمل بائعاً سريعاً يجهول بين القرى، مرسلًا لحيته وشاربه، مخفيًا عينه اليسرى بزعم العور. وظلّ يسجّل مرور الأيام في دفتره السريّ، ويسجّل أيضًا أعمار أولاده رمانة وقرّة ووحيد. وتركزت أوقات فراغه في تذكّر أسرته، محاسن وأولادها. وفي أعقاب الجهد والعناء، قبيل النوم، يتعزّى بالأحلام. الحلم باليوم الموعود. يوم النجاة من المشنقة والعودة إلى الأهل، يوم يرجع إلى حارته مشهرًا عصا التأديب، باعًا من ظلمات الحاضر عهد الناجي بعدله المرموق. وتحديثه نفسه أحيانًا، إذا اشتدّ خفقان قلبه بالخنين، أن يزور أهله متخفيًا في ثياب امرأة، ولكنّه يكظم أشواقه، وينثني عن عزمته، متقهقرًا أمام العواقب الوخيمة الجديرة بإهدار صبر الأعوام.

وعاش وحيدًا. بل عاش في ظلّ أطياف متجسّدة لا تبرحه. أطياف الظلم والحنان والحرمان والخوف المستمرّ من انكشاف أمره. واعتماد محاوره نفسه وأطيافه. يحاررها من خلال الصمت أو بصوت يسمعه الخلاء والشجر والنيل. وجنّ مرّة إذ خيل إليه أنّه يرى محاسن. وحلم مرّة بأنّه التقى بمحمّد توكل في سوق الدومة. ونعير أحلامه ما رأى فيه سيّدنا الخضر، ومن عجب أنّه لم يبق له من الحلم شيئًا، سوى ثقل في القلب وحزن في الوجدان، وأمل غامض، وقال لنفسه:

- ٥٣ -

وتّم زواجها من المخبر حلمي عبد الباسط في جوّ من الترحيب والمرح. جدّدت جهازها ولكتّها لبثت في شقتها، وظلّت تعمل في دكانها لتحافظ على استقلالها وكرامتها كالثالث زوجة في حياة الرجل. ووجدت عناء في الانتقال من معايشة سباحة إلى معايشة عبد الباسط، ولكنّ الجديد يطمس القديم عادة ويغطي على ذكرياته وبخاصّة إذا تمتّع بجدارة ذات شأن. لذلك ألفته مع الأيام، وأحبّته، وأنجبت له. ودأبت على زيارة رمانة وقرّة ووحيد في دار خضر. تُستقبل بالترحاب والاحترام من أهل الدار، وبالحبّ الشديد من الأولاد. ووجدت أنّهم يتأقلمون بسرعة، ويتبدون في صورة مختلفة، ولكنّهم لا ينسون أمهم ولا ملاحظهم ولا أقرانهم ولا حتى أباهم الذي طال غيابه. ولكن بمرور الأيام وكثرة الإنجاب تباعدت الفترة بين الزيارة والزيارة، وطالت أكثر ممّا يتوقّع حتى ندرت، وذهب الأولاد لزيارة أمهم في الدوكان ولكنّ عبد الباسط استقبلهم استقبالًا جافًا جعلهم لا يفكرون مرّة أخرى في تكرير الزيارة. وأخذت العلاقات تفتّر حتى أندرت بالقطيعة. حتى حصون القلوب يغزوها الزمن بانسيابه بين النعومة والصرامة.

- ٥٤ -

لم ينفق عبد الباسط من نقوده إلا في أيام شهر العسل. ثمّ قال لها بصراحة حادة:  
- أنت غنيّة وأنا فقير والتعاون مشروع بين الزوجين...

واحتجّت على موقفه، واعتبرته استهانة بحبّها، ولكن لم يجد الاحتجاج شيئًا. كلاهما يتسم بالعنف والعناد، وهي لا تفكر في التضحية بحياتها الزوجية الجديدة بعد أن عانت في سبيلها ما عانت.

ولم يقنع عبد الباسط بذلك فكان يقترض منها عند الضرورة. وتراكت القروض دون أن يلوح أمل في السداد. ونشبت بسبب ذلك خصومات وتبدلت لعنات. الضرب أيضًا تبدل، والعنف احتدم أيّما احتدام. ولكنّ تيار الحياة لم ينقطع. وحملت أمواجه



سببت الليلة في حزن أسرته، وقذف بنفسه  
صوب الأمل...

- ٥٩ -

سمعت محاسن طرقاً خفيفاً على الباب.  
كان الأولاد قد ناموا على الشلّت في الصالة.  
وكانت قد تزينت وتأهبت للنوم.  
من الطارق والليل يكاد أن ينتصف؟  
فتحت الباب عن زيق فرأت شبحاً فسألته:  
- من؟

دفع الباب فانقضّ عليها. هكذا خيل إليها، قبل  
أن تصرخ أطبق على فيها. صاراً كائناً واحداً تحت  
ضوء المصباح المشتعل في الكوة. رفع فاه مطبقاً براحته  
على فيها وهو يقول:

- أنا ساحة يا محاسن، ساحة رجع...

عند ذلك سحب راحته فراحت تملكق في وجهه  
المغطى بالشعر بذهول.

- ليطمئن قلبك، ساحة رجع، انتهى العذاب  
لم تخرج من ذهوها فقال:  
- انقضت المدّة، لم يبق إلا ساعات، خانني  
الصبر...

هنا ظهر حلمي عبد الباسط في باب الحجرة وبيده  
جندرة وهو يقول:

- جئت لقضائك، سلّم نفسك...

تلقى ساحة ظهوره كضربة فوق يافوخه... تتمم:  
- من هذا؟... رجل في حجرتك!... ما معنى  
هذا يا محاسن...

لاذت محاسن بزوجها. ازدردت ريقها وقالت:

- إنه زوجي...

وأشارت إلى الأولاد الذين رأهم لأول مرة وقالت:

- أبو هؤلاء...

ارتفعت يسراه ثم انحطت فوق رأسه والأرض تميد  
به، وراح يقول:

- حقاً؟... زوجك!... ما تصوّرت شيئاً كهذا!

ولوّح عبد الباسط بالجندرة قائلاً:

- سلّم نفسك، أنا نخب النقطة!

- إنه لا يجيء إلا لخير...

وقال أيضاً:

- لا يوجد ألم بلا معنى، وسوف يجيء الضياء ذات  
يوم...

الحقّ أنه إذا كان قد فقد كلّ شيء فإنّ شجاعته لم  
تنضب وقوّته لم تن. لعلّه يزداد بالإصرار شجاعة  
وقوّة، ويزداد بالشجاعة والقوّة إصراراً، ولكن ماذا  
صنعت الدنيا بمحاسن ورمانة وقرة ووحيد؟ سيرجع  
ذات يوم فيجدهم رجالاً في الدكان. سينظرون إليه  
بذهول أول الأمر ولكنّه لا يمكن أن يحق من  
ذاكرتهم.

وكلّما مرّ عام تنهد قائلاً:

- ها هو الجبل يتزحزح!

- ٥٧ -

وكان العام الأخير أشدّ الأعوام عذاباً. وكلّما مرّ منه  
يوم اشتدّ العذاب. إنّه يستمسك بالصبر ويلاطفه  
ويتوسّل إليه أن يثبت حتّى الدقيقة الأخيرة. إنّه  
يصارع الألم بعنف لا هوادة فيه. يُغرق أفكاره في هموم  
الحياة اليومية ولكنّها تأتي إلا أن تغرق في مجرى الزمن،  
أن تتابعه لحظة بعد أخرى، أن تندسّ في اللحظة حتّى  
تتضخّم فتصير دهرًا، حتّى تنغرز في أساس التجمّد  
وتنعدم الحركة تمامًا.

- ٥٨ -

ولم يبق إلا يوم واحد. صباح الغد وينتهي كلّ  
شيء. سينطلق إلى العمل لكي ينسى. ولكنّه عجز عن  
العمل. عجز عن أيّ شيء إلا معانقة الزمن. عزيمته  
تبتدّد وتبخر. ويقول بصوت مرتفع كأنّما يستمدّ من  
ارتفاع الصوت قوّة ويجعل منه تعهدًا أمام الكون:  
- سأبيت ليلتي هنا ثمّ أذهب مع الصباح إلى  
البيت...

ولكن تمزّدت أعصابه على حيلته. هزئت بتعهده.  
أرسلت أوامرها إلى أعضائه فكفّت عن العمل، فلا  
طعام ولا شراب ولا حلم. راقب قرص الشمس  
المدقوق في السماء. جفّت آخر قطرة الصبر.

## ملحمة الحرافيش ٨٠١

ولكنه وثب إلى قارب وراح يجذّف مبتعدًا عن الشاطئ...  
وعند منتصف النهر جاءه صوت غير غريب،  
صوت شيخ الحارة وهو يصيح به:  
- سلّم نفسك يا سباحة، قتلت حلمي عبد الباسط  
نحبر الحكومة... .

- ٦٠ -

صاح خضر سليمان الناجي وهو يرنو إلى سباحة:  
- سباحة أخيراً!  
تعانقا عناقًا حارًا ثم هتف خضر:  
- طالما حلمت بيوم النجاة فالحمد لله ربّ العالمين،  
دعني أوقظ رضوان...  
ولكنّ سباحة أمسك بيده وتمتم:  
- الأولاد؟  
- انتظر حتّى الصباح، عليك أن تحلق لحيتك  
أولاً...  
فهمس سباحة بإصرار:  
- الأولاد... .

- ٦١ -

اقترب من الأسرة المتجاورة وهو يرنو إلى الوجوه  
الهائمة في وادي النوم المجهول. ثغور مفتحة، وأقنعة  
متحرّرة من حركة الزمن، وملامح صبا واشية بحرارة  
المراهقة، وبدور ناضجة يكمن في نواتها مستقبل غنيّ  
بالمتناقضات.

أطلّ الحنان من عينيه مبلّلاً بالدمع، وتدقّق الشوق  
في حناياه ينبوغًا ساخنًا، واهتزّت جوارحه حتّى شهق.  
ضغط على شاربه ولحيته ليحرّر شفّتيه فهمس خضر  
في أذنه:

- أخاف عليهم الفزع.  
ولكنه لثم الخدود بحفّة ورشاقة، وهو يراقب  
حركات صغيرة سريعة غامضة، ثمّ تراجع بهدوء  
وحذر وأسى.

- حقًا؟

وتشّج بنوبة من الضحك فصاح عبد الباسط:  
- إذا قاومت حطّمت رأسك...  
فهمست محاسن:  
- دعه يذهب...  
فقال لها بلهجة أمرة:  
- صوّتي في الناظفة...  
وبسّرة انقضّ سباحة على طفل فرفعه بيد وأطبق  
بالأخرى حول عنقه وقال والطفل يصرخ:  
- حذار، لا حركة ولا صوت وإلا هلك  
الطفل...  
صرخت محاسن:  
- دع ابني يا مجرم!  
- لا حركة ولا صوت، لا تهاجم ثعبانًا جريئًا...  
- اترك الولد.  
- هو بخير ما دمت بخير...  
قالت محاسن:  
- رمانة وقرّة ووحيد في كفالة عمك.  
فهزّ رأسه وهو يقول:  
- طيّب ولكن الويل لمن تحدّثه نفسه بتسليمي إلى  
المشقة... .

فتوسّلت محاسن إلى زوجها قائلة:

- دعه يذهب.

فقال عبد الباسط بنبرة تسليم:

- فليذهب إلى الجحيم... .

- ارم الجندرة أولًا... .

رمى عبد الباسط الجندرة. هرعت محاسن إلى  
سباحة فأخذت الطفل. وبسّرة التقط عبد الباسط  
الجندرة ورمى سباحة بها فمست قمة رأسه. لم يكن  
التسديد محكمًا، وقد أصاب اللاثة، فالتقط سباحة  
بدوره الجندرة وانقضّ على الرجل وضربه ضربة  
صادقة على عنقه فتهدى على الأرض فاقد الوعي.

غادر البيت وثبًا وصوت محاسن يلاحقه. عندما  
بلغ الطريق كان بعض الساهرين يتجهون نحو مصدر  
الاستغاثة. اندفع بكلّ قوّته نحو الطريق الموصل إلى  
النيل... وسرعان ما بدأت مطاردة من نوع جديد

- ٦٢ -

وقال له خضر:

- عليك أن تنام . . .

فقال وهو يهز رأسه:

- لا وقت للنوم . . .

- ولكنك متعب جدًا يا سباحة . . .

- وأمامي تعب بلا نهاية.

فراح يحدّثه عن موت الفللى منذ عامين وحلول

الفسخاني محلّه، عن موت دجلة أيضًا وحمودة، وسجّج

عنتر وفريد، وسباحة يتابعه بلا اكتراث.

ووضع يده على منكبه وقال:

- ما زلت مطاردًا يا عمّي . . .

فتساءل خضر بانزعاج:

- ألم تنقض المدة؟

فقال وهو يتنهد:

- اضطررت إلى قتل وغد منذ ساعة!

- ٦٣ -

في طريقه إلى الاختفاء وقف في الساحة أمام  
التكيّة. ها هو يمتلئ برائحة الحارة وأنفاسها، ولكن أين  
النشوة؟ كم حلم بهذه الوقفة كمنطلق لدفقة جديدة  
من الحياة. تؤدّب الأوغاد وتبعث روح العهد. ما هي  
الليلة إلا بدء رحلة طويلة جديدة في دنيا العذاب  
والمطاردة، سيرجع إذا رجع شيئًا بلا حول . . .

ومضى نحو الممرّ والأصوات تترنّم في جلال الليل:

درد مارا نيست درمان الغياث

هجر مارا نيست بابان الغياث

## قِرَّة عَيْني

### الحكاية الخامسة من ملحمة الحرافيش

عليه مشخناً بالجراح في عطفة الكبابجي حيث كان في سهرة أخرته لما بعد منتصف الليل. ولم يجد الإسعاف في إنقاذ الرجل ففضى نحبه عقب يومين من الحادث. ورغم إجماع القلوب على معرفة المجرمين فقد قُيد الحادث كالعادة ضدَّ مجهول، وضاع خضر مثل ذرة من رمال.

- ١ -

كان لعودة سباحة بكر الناجي المباغنة واختفائه الخاطف زلزلة عنيفة في نفوس آل الناجي والخرافيش. ولعلّ أبناءه كانوا أقلّ الناس تأثراً إذ أنه جاء وذهب وهم نيام، فضلاً عن أنه لم يعد بالقياس إليهم إلا ذكرى باهتة مثل ذكرى أمهم محاسن البولاقيّة. ورويت مأساته بالطول والعرض فأصبحت أسطورة وموعظة.

- ٣ -

زُلزل آل الناجي لمصرع عميدهم، وعدّوا ذلك نهاية من نهايات الهوان المقدّر عليهم. رغم ذلك استسلموا لقدرهم وأقرّوا بعجزهم، غير أنّ وحيد - ابن سباحة الأصغر - غضب غضبة مجنونة أندرت بوخيم العواقب. قال بحنق:

- قاتل عمّنا يمرح ويدعى الفسخاني  
وتساءل بمرارة:

- أكان عاشور الناجي يتصوّر هذه النهاية لذريّته؟  
ومثله في الانفعال كانت ضياء أرملة خضر ولكنها انفعلت بأسلوبها الموائم. دفعتها الجريمة فتهافت في أحضان المجهول، جفلت من عالم الأنس، لقنت لفة الجهاد والبطير، واحتمت من نصال الألم بكهف الأشباح. صارت شيخة، الحلم رؤيتها، والفنجان نافذتها، والنبوءة الغامضة ترجمانها. وعشقت الجلباب الأبيض والخمار الأخضر والمبخرة النحاسية، تهادى عند الأصيل بين الساحة والميدان، تنفت الدخان العطر، تلوذ بالصمت، تتبعها جارية، تحمّق بها الأعين.

- ٢ -

وانتظم رمانة وقرّة ووحيد في العمل بمحلّ الغلال مع عمهم رضوان وعمّ أبيهم خضر. وترامى إلى الحارة خبر عجب يقول إنّ المخبر حلمي عبد الباسط لم يمّت كما توهم المتوهمون. وإنه شفي من ضربة الجندرة، وواصل حياته في خدمة الحكومة والبلطجة على محاسن. عند ذلك تجلّى العيب في هرب سباحة، واشتدّ الحزن عليه، فهبّ خضر للبحث عنه. من أجل ذلك سعى سعيه لدى مأمور قسم الجماليّة، من أجل ذلك فاوض فتوة الحارة «الفسخاني» مضاعفاً له الإتاوة وواعداً إياه بمكافأة مغرية، ومن أجل ذلك أيضاً رصد مكافأة كبيرة لمن يعثر عليه.

وأثار نشاطه ريبة الفسخاني. وذكّره رجال من أعوانه بتطلّع سباحة إلى الفتونة فقلق الرجل وقلق معه وجهاء الحارة وأعيانها.

وما تدري الحارة إلا والرجل الطيّب خضر يُعثر

- ٥ -

وفي أعقاب ليلة معرودة رأى حلماً طويلاً. رأى نفسه في الساحة أمام التكية ولم يكن من المولعين بالساحة. وجاءه درويش فقال له:  
- الشيخ الأكبر يجربك بأنّ العالم قد خلُق فجر الأمس.

فصدقه وحيد ثملاً بسعادة تفوق التصوّر. ومحل على هودج فراح يشقّ الحارة بين صقّين من الرجال والنساء. ورأى أمه محاسن البهلاقيّة وهي تشير إليه وتقول:  
- اصعد.

فارتفع به الهودج، فحملته الرياح إلى خلاء يجذب به جبل أحمر. ووجد نفسه يتساءل:  
- أين الرجل؟

فانحدر عملاق من سفح الجبل وقال له:

- اثبت في مركز النجاة...

فقال له بيقين:

- إنك أنت عاشور.

فتناول ساعده ودلكه بدهان قائلاً:

- هذا هو السحرا

- ٦ -

عندما استيقظ وحيد وجد نفسه مفعماً بإلهام. أذعنت له القوّة والتفاؤل والنصر. لم يشكّ في أنّه قادر على المعجزة. وأنّه يستطيع أن يقفز من سطح الدار إلى الأرض دون خوف من الكسر.

أطاع الريح الهوجاء فارتدى ملابسه ومضى من توه إلى مجلس الفسخاني بالقهوة. رماه بنظرة قاسية وقال له:

- إنّي أتمدّدك أيها المجرم...

رفع الفتوة جفنيه الثقيلين. تصوّره مجنوناً. رحّب على أيّ حال بالبطش بأحد أشبال الناجي. سأله:

- مسطول يا بن القديمة...

فبصق على وجهه.

وثب الفسخاني قائماً، تجمّع خلق للمشاهدة.

لم يتردّد وحيد، انقضّ على الفتوة، وبكلّ قوّته

ويسخر رجال من رجال الفتوة فيقول قائلهم:

- ذلك آمن من الطمع في الفتنة...

وآلم سلوكها الشبان، كما ألم رضوان وزوجته أنسيّة وشقيقته صفيّة ولكتّهم عجزوا عن ترويضها. حتّى وحيد الغاضب قال لها:

- دارك يا امرأة عمّي، الزمي دارك إكراماً للذكرى

عمنا خضر...

فنظرت إليه ببلاهة وقالت:

- رأيتك في نومي متمطّياً جرادة خضراء...

فيبس وحيد من مناقشتها ولكتّها سألته:

- ألا تدري معنى ذلك؟

فلم يكثرث ولكتّها قالت تحييب نفسها:

- إنك خلقت للهواء!

- ٤ -

ويقوّة الغضب اخترق وحيد جدار الصدر. ما أضجره بمحلّ الغلال! ما أبعدته عن رمانة وقرة تقول الشيخة إنّه خلُق للهواء. ترى هل يصلح للتحدي؟ كان متوسط القامة وسيّئاً، رغم عوره، قويّاً ولكتّه بالقياس إلى الفسخاني مثل هرة بالقياس إلى خروف. لم يندفع في مغامرة ولكتّه يضطرب كثيراً بحركة غامضة وقلق معذب. طالما قال له عمّه رضوان:

- احذر الخيال وأقبل على العمل...

وطالما قالت له عمته صفيّة:

- لا تؤوّل أحلام ستّ ضياء على هواك...

وانحرف عن خطّ الأسرة فصادق شيخ الحارة محمّد توكل رغم فارق السنّ وسهر معه كثيراً في غرزة الصناديقي. وأنشأ علاقة طيبة مع صديق أبو طاقية الخمار من خلال تردده بين حين وآخر على البوطة. له صبوات في العريضة ولكن لم تفته أبداً صلاة الجمعة، حتّى قال له مرّة الشيخ إسماعيل القليوبي:

- هل يجمع الله في قلب واحد بين الخمار والزاوية؟

فتساءل وحيد بمرارة:

- ألا ترى قائلاً يرح ويريقاً يتعلّب في الغربية؟

## ملحمة الحرافيش ٨٠٥

وتذكر الحرافيش تدهور سليمان الناجي فقالوا إن الشرّ وحده هو ما يورث في آل الناجي. وتألم لذلك قرّة كما تألم عمّه رضوان أمّا رمانة فقال:

- حسينا العزّة التي عادت إلى آل الناجي ...

وكان رمانة يشبه أخاه وحيد في تكاليفه على المسرات واستهائته بعهد الناجي القديم. وأطلق وحيد على نفسه «صاحب الرؤيا» ولكنّ الحرافيش دعوه سراً بالأعور. وعُرف بشدوذه فلم يتزوّج، وأحاط نفسه بفتية مثل المالك ...

هكذا استقرت فتونة وحيد الأعور ...

## - ٨ -

تعب قلب رضوان. غدا العمل يرهقه رغم أنّه كان دون الأربعين. ما أسرع أن يتصبّب عرقاً بارداً وتظلم الدنيا في عينيه. وتراكت فوقه الأحزان بسبب مأساة أخيه سماحة وسلوك وحيد. لذلك عزفت نفسه عن التجارة والحياة ومال إلى العزلة والعبادة. هكذا هجر المحلّ تاركاً إدارته لرمانة وقرّة.

## - ٩ -

احتلّ رمانة وقرّة حجرة الإدارة، يشتركان في عمل واحد وقلباهما مفترقان. كان قرّة وسيماً، تشعّ من عينيه جاذبيّة، ورث من أمّه محاسن دقة قسماها ورشاقتها، فضلاً عمّا عُرف به من تهذيب واستقامة، كأنه شمس الدين في جماله وعذوبته دون قوّته. أمّا رمانة فكانت قصيراً بديناً مثل برميل، غامق اللون غليظ القسامات، به استهتار وخشونة. وكان قرّة أقدر منه في الإدارة والتجارة، وأنقى منه في المعاملة، وقد أحبّه العمّال لسماحته وجوده. وكان رمانة يخالط أخاه وحيد في الغرزة، ويتورّط في المغامرات بنهم، وينتقد - إذا سكر - شقيقه قرّة حاسداً وساخراً.

قال مرّة لقرّة:

- إنك تبدد مالك لتشتري به حُبّ العمّال، أيّ

حكمة في هذا!

فقال له قرّة:

- العطف ليس تجارة ...

ضربه بيده المسحورة في عنقه فتقهقر الرجل حتّى وقع على ظهره وهو يشهق. خطف وحيد نبتوته وضربه على ركبتيه فشله. والتحم مع نفر من أتباعه فجدلهم بقوّة وسرعة مدهلتين.

لم ينقضِ النهار حتّى كان وحيد سماحة الناجي فتوّه للحارة!

## - ٧ -

عصفت الدهشة الحارة.

خفت قلوب الحرافيش بالأمل. اضطربت خواطر الوجهاء بالخوف. حلمت أسرة الناجي بالعرش المضيء. ومضى وحيد ينوّه بالحلم الذي رآه، والمعجزة التي أحدثتها يده المسحورة. والثقة الخارقة في النصر التي هوّنت عليه مجابهة الموت. وسرعان ما أحسّ حرارة الأمل المتطلّعة إليه، وبرودة الخوف المتوجّسة منه، ولكنّه آثر التمهّل والتدبّر، فترك الأمور تسير في طريقها المعهود عدا نفحات جادها على المعسرّين من الحرافيش.

وسأله عمّه رضوان:

- متى تحقّق حلم أبيك الغائب؟

فأجابه بحذر:

- خطوة خطوة وإلا أفلت زمام العصاية من

يدي ...

- هذه سياسة لا بطولة يا بن أخي ...

فقال بغموض:

- رحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

ولم يفقد رضوان الأمل، على حين طال بوحيد التأمل. وكلّما مضى يوم تدوّق جلال الفتونة، ونعمة الثروة، ومداهنة الوجهاء، وأخذ يستسلم لتيّار الإغراء، فتقوى في نفسه نوازع الأنانيّة، وتضعف أحلام البطولة والمهّد. وإذا به يشرع في إنشاء دار خاصّة به، ويتمتّع بكلّ جميل وطيب في الحياة، ويولع أكثر بالبوطة والمخدّرات، ويتبادى في ممارسة شدوذه حتّى خرج به من السرّ إلى العلانية، حتّى قال رضوان لزوجته أنسيّة:

- أليس الأفضل أن يكون الوغد من غيرنا!

- ماذا هو إذن؟  
- جرّبه يا رمانة!  
فضحك ساخرًا وهو يقول:  
- ما أنت إلا ماكر...  
ورغم أنّ قرّة كان يصغر رمانة بعام إلا أنّه كان  
يشعر بأنّه مسئول عنه، حتّى عن وحيد كان يشعر  
بمسئوليّته أيضًا. وضاق رمانة ووحيد بمثاليّته. وغضب  
وحيد مرّة فقال له:  
- صرتم سادة الحارة بعد أن كنتم أذلاءها، ألا تقرّ  
لي بهذا الجميل؟  
فقال له قرّة بحدّة:  
- وما فقدنا سمعتنا القديمة إلا بك...  
فقال بحقنّ أفقد ضبط النفس:  
- لا أصدّق الخرافات!  
فتساءل قرّة ساخرًا:  
- ألسنت «صاحب الرؤيا»؟  
فغادره ساخرًا معتدًا.  
كذلك ساءته مغامرات رمانة فقال له يومًا:  
- تزوّج، أكرمنا بزواجك...  
فقال له رمانة بحقنّ:  
- أنت أخي، أصغر منّي بعام، لا تسعّ للسلط  
على حرّيتي...  
وقلق رضوان ممّا لاحظ بين الشقيقتين من منافرة  
فقال لقرّة:  
- يهمني أن يستقرّ الوثام بينك وبين أخيك...  
وقالت له عمته صفيّة:  
- بنا من الجروح ما يكفي، ولن تغتير الكون...  
وهذا وما زالت الشبيخة ضياء تتهادى بمبخرتها في  
الحارة كلّ أصيل، تنساجي المجهول، دامعة  
العينين...  
- ١٠ -  
وكان قرّة عائداً إلى الدار ليلاً عندما اعترضته في  
الظلمة عجوز وهي تقول:  
- مساء الخير يا معلّم قرّة.  
فردّ تحيتها متعجبًا فقالت له:

- ١١ -

تبع العجوز يشقان الظلمة الكثيفة تحت القبو حتّى  
خرجوا إلى ظلمة الساحة المشعشة بأضواء النجوم.  
كان الزمان صيفًا والنسمة لطيفة وانية، وعدوبة  
الأناميد تملأ الجوّ. قادته العجوز إلى شبح واقف تحت  
السور العتيق. لم يتبيّن منها شيئًا ولم يكن رآها أو سمع  
عنها من قبل. ولما طال السكوت همس مشجّعًا:  
- إني في خدمة الهانم.  
فجاءه صوت ناعم مضطرب النبرة يقول:  
- أشكرك...  
ثمّ مستدركة في توّسل:  
- لا تسيء بي الظنّ!  
- معاذ الله...  
وحجز السكوت بينهما كالأزل فأدرك أنّها تنادي  
شجاعة مفتقدة وذهبت به الظنون كلّ مذهب، حتّى  
اضطرّ إلى أن يقول:  
- إني مصغ إليك...  
فقالت وهي تزداد اضطرابًا:  
- سُممتك كالورد، وما هي إلا كلمة واحدة،  
فليعني الله على قولها...  
- إني أصغي إليك بكلّ اهتمام...  
- أخوك رمانة...  
وانقطع الصوت كأنّه اختنق فحقق قلبه، تبدّدت  
ظنون، حلّ محلّها الظلام، تتمم:  
- أخي رمانة؟  
بدت عاجزة عن مواصلة الحديث، وتحاللت  
الحقيقة مثل حشرة تزحف في الظلام. عند ذاك همست  
العجوز:  
- كان قد وعدنا بالزواج...  
- هكذا!  
فقالت العجوز:

- ١٠ -

وكان قرّة عائداً إلى الدار ليلاً عندما اعترضته في  
الظلمة عجوز وهي تقول:  
- مساء الخير يا معلّم قرّة.  
فردّ تحيتها متعجبًا فقالت له:

## ملحمة الحرافيش ٨٠٧

- تحت شرط ألا يكون له علاقة بالأخلاق!  
 - لا شيء مقطوع الصلة بالأخلاق...  
 فقال بعناد:  
 - أرفض الاستماع...  
 - صبرك، ليس كما تتصوّر، إنّه أمر يهّمك أكثر ممّا يهّمني، ولا يمكن إهماله...  
 - أثرت فضولي؟  
 فوضع راحته على منكبه برقة وهمس:  
 - إنّه يتعلّق بعزيزة!  
 تراجع رأس رمانة كأنّما ضُرب بحجر وتمتم:  
 - عزيزة؟  
 - كريمة إسماعيل البنان...  
 - لا أفهم شيئاً، ماذا تريد أن تقول؟  
 فقال بهدوء ناعم وقويّ في آن:  
 - عليك أن تتزوّج منها، وفي الحال!  
 أزاح اللثة عن رأسه، تخلّص من راحة أخيه بهزّة من منكبه وقال بحلّة:  
 - لا حياة، أين الحياة؟... كيف أتصلت بك؟  
 - لا يهّم، المهمّ أن نمنع وقوع مأساة...  
 فقال بسخرية:  
 - لا مأساة إلا في خيالك!  
 - أعتقد أنّها مأساة حقيقة...  
 فقال رمانة وهو ينفخ:  
 - كلّاً، لا رغبة لي في ذلك...  
 - لمّ لا؟... لا شك أنّها أعجبتك مرّة، ثمّ إنّ أباهما وجّه حسن السمعة!  
 فقال ببرود:  
 - لا ثقة لي فيمن تستسلم!  
 - أيّ ما كان الرأي فثمة أحكام للشهامة أيضًا...  
 - أيّ شهامة!... إنّي احتقر ذلك...  
 فقال برجاء:  
 - المطلوب الستر، ثمّ افعل بعد ذلك ما بدا لك...  
 فهزّ رأسه في حيرة وقال:  
 - ثمة عقبة في الطريق...  
 - ما هي؟

- إن لم يفب بوعده في الحال حقّ علينا الهلاك!  
 وابتعد الشبحان، وصوت نحيب مكتوم يتكّلس  
 حول طيلة أذنه...  
 - ١٢ -

وتناول عشاءه مع عمّه رضوان وزوجه أنسيّة.  
 ضياء لا تبارح جناحها، ورمانة دائماً في سهرة خارج  
 الدار. وقال له عمّه:  
 - لست كعادتك...  
 فتمتم:  
 - إنّي بخير...  
 فقالت أنسيّة:  
 - لست كعادتك ورأس الحسين...  
 كيف يبدأ الكلام؟ رأى أن يفاغحها بالأمر.  
 هكذا تصوّر وهو عائد من الساحة. إنّه الآن يتراجع،  
 قوّة تمنعه وتحدّره. لقد أودعته الفتاة سرّاً وعليه أن  
 يصونه. يجب أن يبدأ برمانة رغم كراهيته لذلك.

## - ١٣ -

نامت الدار ولكنّه لم ينم. رجع رمانة قبل الفجر  
 بساعة واحدة.  
 رأى عينيه محمّرتين ثقيلتين بالخمار. أدرك في الحال  
 صعوبة مهمّته. ولكن كيف يتصرّف وهو يعلم أنّه  
 يستيقظ في الضحى، وأنّه - قرّة - يفتح المحلّ في  
 الصباح الباكر، وأنّ حجرة الإدارة لا تتسع لمثل هذا  
 الحديث؟  
 - ماذا أيفظك؟  
 فمضى به إلى حجرته. ارتمى الشابّ على ديوان وهو  
 يقول في حذر:  
 - موعظة الفجر؟  
 فتجاهل سخريته وقال برقة:  
 - عندي حديث هامّ أرجو أن يتسع له صدرك يا  
 رمانة...  
 - حقّاً؟  
 - هذا مؤكّد!  
 فقال بتربّص:  
 -



عاشور المعجزة. لا يستطيع أن يهز منكبيه ويمضي.  
تشده القرة الجاذبة. لن يكون أكثر حرّة من الطير  
والشهاب والمطر. إلى مركز العذاب والمعاناة. إلى  
جحيم القوى المتخاصمة المتعادلة.

- إن تكن رحيماً حقاً فتزوّجها أنت!  
الوغد يتحدّاه. الوغد يمتحنه. الوغد ينتقم منه.  
الهدا هو حظّه من الزواج؟ كلّاً وألف مرّة كلّاً. ولكن  
أين المقرّ؟ إنه يحتقر الاستسلام ولكنّه أيضاً يقُدّس  
العذاب. كأنّه قدر لا يتزحزح. ولكن ألم يقل للوغد:  
- المطلوب الستر ثمّ افعل ما بدا لك...  
أجل إنّه الستر أولاً ثمّ يفعل ما بدا له.

- ١٥ -

قال لعمّه رضوان:  
- قرّرت أن أكمل نصف ديني!  
فضحك الرجل وقال:  
- رمّانة سبقك في ذلك بساعة واحدة!  
فخفق قلبه مؤملاً أن يكون الله قد هداه، فسأله  
عمّه:

- من يا عمّي؟  
- رثيفة كريمة إسماعيل البنان.  
فخاب أمله وصمت فسأله رضوان:  
- وأنت؟

فرسم ابتسامة على شفثيه متظاهراً بالدهشة وقال:  
- يا للمصادفة العجيبة!... تصوّر يا عمّي أنّي  
أريد شقيقتها عزيزة!  
فضحك رضوان ضحكة عالية وقال:  
- فليبارك الله لكما، إنّ سعيد، وإسماعيل البنان  
جار نبيل وتاجر أمين... .

- ١٦ -

لم يتطهّر بالقرار من هواجسه. الغبطة مزاجها قلق  
وجفاء. كما يغرق المطر النقيّ في الوحل. وضاعف من  
أساه أطلاق رمّانة ورثيفة على سرّه. وإلى ذلك فقد  
خاف أن تأبى عزيزة يده المجلّلة بالإحسان وتدهمهم  
بكارثة، ولكن جاء البشير بالرضى. وانغرز النصل

- حبّ بيبي وبين شقيقتها رثيفة!  
فقال قرّة بجزع:  
- لا يمكن أن تلذبح واحدة ثمّ تتزوّج من  
الأخرى... .

فغمغم بكلام غامض فقال قرّة:  
- وربّما علمت رثيفة بالمأساة ذات يوم... .  
- إنّها تعلم بالفعل!  
- وتوافقك على ما تريد؟  
فهزّ رأسه بالإيجاب فقال قرّة:  
- إنّها لشريرة يا أخي... .  
- بل هي مثلي تحتقر من تستسلم!  
- ولكنّها شقيقتها!

فقال بحق:

- لا توجد الكراهية الحقّة إلا بين الإخوة  
والأخوات!

فجفل قرّة، ثمّ غضب، وهتف:  
- عليك أن تتزوّجها في الحال... .  
فصاح به:  
- لا أسمح لك!  
ونفض متحدّياً، مضى وهو يقول:  
- إن تكن رحيماً حقاً فتزوّجها أنت!

- ١٤ -

تسقط الأمطار فوق الأرض ولا تتلاشى في الفضاء.  
وتومض الشهب ثانية ثمّ تنهاوى. والأشجار تستقرّ في  
منابتها ولا تطير في الجوّ. والطيور تدوم كيف شاءت  
ثمّ تأوي إلى أعشاشها بين الغصون. ثمّة قوّة تغري  
الجميع بالرقص في منظومة وأحدة. لا يدري أحد ما  
تعانيه الأشياء في سبيل ذلك من أشواق وعناء. مثلما  
تتلاطم السحب فتنفجر السماء بالرعود.

وقد فكّر قرّة في همّه طويلاً. وقال لنفسه إنّه ما عليه  
من بأس إن هو مضى في سبيله وقد بذل ما في وسعه  
من جهد. ماذا في وسعه أن يفعل أكثر ممّا فعل؟ ولكنّه  
لم يستطع أن يمضي على هواه. استغاثة عزيزة تتردد مع  
الأناشيد. راسخة مثل السور العتيق. نحيبها متكأس  
حول طبله أذنه. إنّه مسؤل. وآل الناجي أيضاً. حتى

## ملحمة الحرافيش ٨٠٩

- إني أسف وحزين...  
 - إني أشعر بفداحة الظلم الذي تتحمّله...  
 فقال مجاملاً:  
 - ولكنتك تتحمّلين ما هو أفدح...  
 - إنه خطئي على أيّ حال!  
 يا له من حديث في ليلة الدخلة. لم تند عن  
 أحدهما حركة. حتّى طرحة الزفاف بقيت في موضعها  
 فوق الرأس. غير أنّه تفرّس في وجهها بحرّيّة في غيبة  
 من عينيها المنكستين، وتأثر أكثر بجمالها وجاذبيّتها حتّى  
 اعترف فيما بينه وبين نفسه بأنّه لولا شدوذ الظرف  
 لالتهمها التهاماً. وقال بهدوء:  
 - لن تُرغمي تحت سقفي على شيء ترفضينه...  
 فقالت بحرارة:  
 - إني واثقة من شهامتك ولكنتي...  
 وأمسكت لحظة ثمّ قالت:  
 - ولكنتي أوكد لك أنّه لم يبق من الماضي إلا ذكراه  
 المؤلمة.  
 ترى ماذا تعني؟... فيم تفكّر؟... ألم تدرك  
 أبعاد إقدامه على ما فعل؟... متى يصارحها بكلّ  
 شيء؟... ومتى يتحرّر من تأثير أنوثتها الطاغية؟  
 وتجاهل قولها، وقال متهرّباً ربّما:  
 - إني أعجب لشقيقتك فهي لا تقلّ عن أخي  
 سوءاً!!

فقالت بازدياء:

- ما أليقها ببعضها!  
 - ماذا بينكما؟  
 - شرّ ولا شيء إلا الشرّ.  
 - ولكن ما سببه؟  
 - تريد أن تستأثر بكلّ شيء، بالتفوق والحبّ،  
 ولكنتي تفوّقت، وتوهّمت أنّ والديّ يجبّاني أكثر  
 فأضمرت لي الحقد والكراهية، إنّها فظيعة...  
 - أخي أيضاً فظيع...  
 ثمّ مستطردّاً:  
 - ولكنتك...  
 وصمت فقالت بحرارة:  
 - انتهى، أبصرت بعد عمي!

الطاهر الحامي في اللحم حتّى النخاع، وتعجّل الأمر  
 بصورة أذهلت الجميع وأثارت الدعابة.

- ١٧ -

رُفّت عزيزة ورثيفة إلى قرّة ورمّانة في عرس واحد.  
 عرس ابتهجت له الحارة كلّها. وفي حفل الزفاف رأى  
 قرّة الشقيقتين لأوّل مرّة في حياته. هاله تماثلها كأنّهما  
 توأمان. توسّط في الطول والامتلاء، لون خمريّ نقيّ  
 البشرة، سواد عميق في العينين، تناسق بديع في  
 القسمات. وفتش عن فروق بين الاثنتين حتّى ظفر به  
 في ثغرة في ذفن عزيزة وهي الكبرى، وامتلاء أشدّ في  
 الشفتين. هذا كلّ لا وزن له ولكنته عثر على فارق  
 ملموس في نظرة العينين المتماثلتين. نظرة عزيزة ثابتة  
 وهادئة موحية بالطمأنينة، أمّا نظرة رثيفة فقلقة خاطفة  
 البريق كأنّما تستقرئ أعين الآخرين بلا توقّف ويلوح  
 فيها ذكاء أسود، فسرعان ما توكد في قلبه النفور منها.  
 ولم تحاول إخفاء فوزها، ولعلّه الوحيد الذي أدرك  
 ذلك. أمّا عزيزة فكانت تنظر طول الوقت إلى حدائها  
 الأبيض المزّين بالأطلس والترتر. وقال لنفسه إنّها  
 عروس غير سعيدة، وهو أيضاً عريس غير سعيد،  
 وسوف يهون ذلك عليهما اتّخاذ القرار المتوقّع. ومضى  
 بها إلى الجناح المخصّص لها على دقّ الدفوف وغناء  
 العالمة وهو يتساءل ترى ماذا فعل بنفسه؟!

- ١٨ -

ولما خلا إليها وجدها متعثرة في الارتباك حتّى قمة  
 رأسها. لا تجرؤ على النظر إليه ولا على إتيان أيّ  
 حركة. بلا حول ولا كرامة، فريسة إحسانه. رق لها  
 بقوّة. وضاعف من رقته تأثره بجمالها الفتان الحزين.  
 ولكنته لم ينس أنّ قلبها مغلق، وأنها غريبة ثاماً، وأنّ  
 فستان الزفاف بمثابة بدلة السجين. ما هي إلا فترة  
 عبور لا دوام لها. وفي هذه اللحظة تستكنّ رثيفة في  
 حضن رمّانة مفعمة بالرغبة والفوز. ترى ماذا عليه أن  
 يقول؟ وأعفته من ذلك فجاءه الصوت الناعم قائلاً:

- الشكر لك...

فرق أكثر وقال:

ومثلت عزيزة ورثيفة دورهما بإتقان كشقيقتين فلم تلاحظ أنسيّة شيئاً يكدر البال. وفي حجرة الإدارة بحلّ الغلال واصل قرّة ورمانة عملهما، ولم يُتبادل بينهما حديث إلا في شئون العمل. هكذا تجاور الحبّ والمقت.

وسرعان ما حبلت عزيزة. وشمل الفرح آل البنان وآل الناجي. قرّة وحده تمنى لو تأخر الحبل. وتساءل متى بدأ؟ تسألّت حشرة إلى قلب الزهرة النابض بالنضارة. أظلم المعبد المنير بروح شريرة. إبر الشكّ المحماة المسمومة. ولكنّها لا تقرأ أفكاره. إنّها تمرح في البراءة والحبّ الصادق. ولم يعد للتراجع موضع. إنّ رجلاً حرّ وصادق وعاشق. وهو مؤمن أيضاً وثقته بالله عظيمة. وأصبح رفيقاً للسرور والألم...

- ٢٠ -

لمّ لم تحبل رثيفة؟

تردّد السؤال بقلق في دار آل البنان وآل الناجي. وانطحنت به رثيفة وعيناها تطفحان بالحنق. لا يؤخر الحبل إلا علةً فالطبيعة لا تعرف التأجيل. وحامت الشبهة كالعادة حول رثيفة. ولم يهدأ لأمرها بال. واستفتيت الداية فأفنت بالمشورة تلو المشورة. وبمضيّ الأيام رسخ الخوف وتوگّد الجزع فتجمعت سحب الأحزان.

وقال رمانة وهو ثمل في مخدعه:

- يا لها من ضجّة!

فقالت رثيفة بحدّة:

- لا يرحمون إنّهم الجحيم...

قال رمانة بمتعضّاً:

- إنّكما متماثلتان، فما النقص بك؟

فتملكها غضب شديد وتساءلت:

- ألهمك الله أنّ النقص بي وليس بك؟

فقال غاضباً:

- إنّني رجل كامل...

- ما من رجل إلا ويتصوّر ذلك!

فجنّ جنون غضبه المخمور وصاح:

- أجرب نفسي مع زوجة أخرى؟

ربّاه. واضح أنّها تعيش في حلم. وهي صادقة. حقاً؟ أجل صادقة. ما قيمة ذلك؟ المهمة شاقّة. وأيّ خوف من تأثير جمالها وجاذبيّتها! الضعف في أعماقه أقوى من القوّة في أنوثتها. ها هي ترفع عينيها لأوّل مرّة فتلتقي العينان. ويواصل الشمع ذوبانه في الشمعدان الفضيّ.

سألته باستسلام:

- أوّد أن أعرف ما يجول بخاطرك!

يا لها من ليلة صيف دافئة. ولم ينس. قالت:

- تراني غير لائقة بك!

فقال باندفاع:

- إنّك صادقة وأصيلة ومحترمة!

- أشكرك وأقدّر عطفك، ولكنّ العطف لا يصلح

أساساً للحياة!

إنّه يناقش، يتعذّب، ويقاوم الإغراء. سألها:

- ماذا يجول في خاطرك أنت؟

فقالت بحرارة وشجاعة استمدّتها من الحديث:

- إنّني حرّة، حرّة تماماً، ولكنّ كلّ شيء يتوقّف

عليك...

بصراحة قال:

- لا أنسى أنّك طالبت بالزواج منه!

فبادرته:

- كان الخوف ورائي لا الرغبة، صدّقني...

فقال مخدّراً:

- إنّني أصدّقك!

فقالت بتسليم:

- ولكن لك الحقّ كلّ الحقّ في التصرف بما تراه

لائقاً...

أيّ هاوية أيّ إغراء أيّ جنون يعرّب في قلبه!

أيّ قلق أيّ رغبة في دفن القلب عند الأرقّ المعدّب،

يسفّ المؤرّق الخشخاش، فينحسر الجبين عن ثغرة

تتسلّل منها أنامل النوم الناعمة...

- ١٩ -

ومضت الأيام المتأجّجة بالصيف. استسلم قرّة تماماً

وعشق عزيزة. آمن بأنّ الحبّ إذا شاء قهر التراث.

ملحمة الحرائش ٨١١

- ٢٣ -

ومحافظة على المظاهر زار جناحه رمانة ورثيفة. أهديا  
الوليد مصحفاً مذهب الغلاف. وقال له رمانة:  
- يترى في عزك...  
ورنت رثيفة إلى الوليد طويلاً وهي تقول:  
- ما أجمله!

وتقلص قلب عزيزة وهي ترى نظرة رثيفة فوق وجه  
عزيز. وتصرف قرّة التصرف الطبيعي المرح. وطيلة  
الوقت سأل ربه أن يلهمه الصواب. أن يضيئه  
بالحقيقة. ألا يعرض حبه لمحنة مضللة. أن يعبر به  
السواوس والظلمات. أن يرفعه إلى براءة عزيزة  
وصدقها. ألا يتردى في الجحيم بإرادته.

- ٢٤ -

وحمل الطفل في لفافته ومضى به ليلاً إلى ساحة  
التكية. استقبل فيض الأناشيد في أوله. دعا الله أن  
يجعل من الصغير غصناً في دوحة البطولة والخير. أن  
تتجسد فيه الأحلام المقدسة لا الأهواء الجاسمة  
الشريرة. وسرح فكره إلى الممر الضيق حيث ترك  
عاشور في مثل سن ابنه. وكما تعبر سحابة وجه القمر  
فتحجب نوره اقتحمه خاطر مظلم. تذكر ما يتقول به  
الأعداء عن عاشور وأصله. غشيته كآبة عفة. لاذ  
بالأناشيد ليغتسل من عرقها الحامض. وغمغم «اللهم  
هبني القوة».

انغمس في الأنعام تمامًا وهي تردد:

نقدتها را بود آياكه عيارى كيرند  
ناهمه صومعه داران بي كارى كيرند

- ٢٥ -

لما خرج من القبو عائداً سمع صوتاً غليظاً يتساءل:

- من القادم؟

عرف صوت أخيه وحيد الفتوة فأجاب بأسياً:

- قرّة سباحة الناجي.

فقهقه الفتوة. وقفوا شبحين في الظلام. تساءل

وحيد:

- كنت في الساحة مثل الأجداد الطيبين؟

ارتفع رأسها والتوى عنقها إلى الورا مثل حية  
وتمتمت بازدراء:

- سكران!

فتبادى في غضبه قائلاً:

- لعل لي جنيناً ينمو في بطن أخرى!

فصاحت:

- مجنون!

- احفظي لسانك القدر...

- أنت أنت القدر.

فنهض مهدداً فتراجعت متوتبة للدفاع فلم يتحرك  
ولكنه قال بحقد:

- شيطانة وعقيم!

كانت أول مشاجرة زوجية وقد دهش لعنفها.

ولكن رغبتيهما المتلاحتين كانتا أقوى من الأعاصير  
الطارئة.

- ٢١ -

كان محمد توكل شيخ الحارة يجالس صديق أبو  
طاقية الخمار عندما مرّت الشيخة ضياء بمبخرتها.  
فضحك الخمار وهمس:

- رجعت الفتونة إلى آل الناجي فلم تواصل المرأة  
المجنونة البكاء؟

- ٢٢ -

في أوائل الربيع ونداءات الباعة تتردد بالملاحة  
والعجور وضعت عزيزة طفلاً أسموه عزيز. وطوّقت  
الشواغل قرّة حتى هدا كل شيء، فرقدت عزيزة في  
فراشها وراح هو يحنو على الوليد متأملاً. تأمله بقلب  
مضطرب بشقى الانفعالات المتضاربة. ورنّت عزيزة  
إليه برقة وإعياء وفخار وتمتمت:

- ما أشبهه بك!

لم تؤكد ذلك؟ إنه لا يجد له شكلاً ولكنها تتكلم  
ببراءة. لقد نسيت الماضي تمامًا وهي غريقة البراءة  
والحب. عاد الرفيقان - السرور والألم - يتجاذبان.  
ولكنه كان مصمماً على الحياة والسعادة.

- ٢٨ -

ولم يعد رمانة يقنع بالبوطة والمخدرات فانزلت إلى القمار يدفن فيه ضجره. وتصبر قرّة ما تصبر حتى فاض به الكأس فقال له يوماً وهما في حجرة الإدارة:

- إنك تبعثر مالك بلا حساب...  
فقال بجفاء:  
- إنه مالي!  
- تضطرّ أحياناً إلى الاقتراض مني!  
- هل أكلت عليك قرصاً؟  
فقال قرّة باستياء:  
- ولكنّ ذلك ضارّ بعملنا المشترك، ثمّ إنك لا تكاد تبذل فيه أيّ جهداً!  
فقال رمانة بامتعاض:  
- إنك لا توليني ثقتك.  
فصمت قرّة ملياً ثمّ قال:  
- من الخير لكلينا أن ننفصل، فليستقلّ كلّ بتجارته قبل أن نفرق معاً... .

- ٢٩ -

عُرف الخصام فاضطربت له أفئدة الأسرة.  
أمّا وحيد فقد زار قرّة وقال له بكلّ صراحة:  
- افعل ما تراه في صالحك.  
وقال له أيضاً:  
- ابنك يكبر يوماً عن يوم.  
ثمّ قال عن رمانة بازدياد:  
- إنه خنزير مثل زوج أمه!  
واجتمعت صفيّة بقرّة ورمانة وقدمت اقتراحها قائلة:

- ليستقلّ قرّة بالإدارة وليأخذ رمانة نصيبه من الريح وهو حرّ فيه... .  
فقال رمانة:

- لست طفلاً يا عمّي... .  
فدمعت عينها وقالت:  
- سمعة الناجي أمانة بين يديكما... .  
فقال قرّة بحزن:

- سمعة الناجي... لنا الفتونة وماهي بالفتونة.

- بل ذهبت بالوليد، ها هو بين يديّ... .

- مبارك عليك، نويت أن أزورك غداً في المحلّ مهتئناً... .

- لم لا تزورني في البيت؟

- أنت تعلم أنّي أتهنّب!

فقال قرّة برقة:

- إنه بيتك والله الهادي... .

فقال وحيد مغتيراً نبرته:

- وكان في نيتي أن أفالحك بأمر آخر!

- خيراً؟

- أخونا رمانة... .

تهنّد قرّة ولاذ بالصمت فقال وحيد:

- إنه يعبت بماله بسفاهة، لست واعظاً، ولكني أعلم أنه لا يقدر على السفاهة إلّا فتوة!

- أنا عارف، النصيحة غير مجدّية، ولا ينجم عنها

إلّا الغضب!

فقال وحيد بحق:

- إنه يتتحر.

- ٢٦ -

كان ما يربط رمانة برثيفة شيء أقوى من الخير والشرّ والنزاع. لا يفترط أحدهما في الآخر مهما نشب بينهما من خلاف. النقار متواصل والحبّ متواصل. يختلط العنف بالدلال، الزجر بالتهنّدات، سوء الظنّ بالقبّل. هي في اعتقاده عقيم وهو في حدسها عقيم، هو زجلها الوحيد، وهو أيضاً لا يخطر له أن يتزوّد عليها. ويقول وهو ثمل:  
- إنّها قدرا

- ٢٧ -

وتوفّي رضوان بكر الناجي عقب مرض قصير. كان قد اعتزل الحارة حتى نسي تماماً فتذكّره الناس بالموت بضعه أيام. ووزعت تركته بالاتّفاق حتى يخلص المحلّ لرمانة وقرّة، ووزعت بقية التركة بين أنسيّة زوجته وصفيّة أخته.

ملحمة الحرايش ٨١٣

- ٣١ -

مضى قرّة يستعدّ لسفر عاجل . اقترح رمانة عليه أن  
يؤجّل فكرة الانفصال لحين عودته ، وقال له برقة غير  
معهودة :  
- ربّما وجدتي لدى عودتك شخصًا آخر . . .

- ٣٢ -

وفي الليل تطرّق الحديث بين قرّة وعزيزة إلى  
الموضوع . ولم تخفّ عزيزة مشاعرها فقالت :  
- إنّه لا يستحقّ الثقة . . .  
فقال قرّة :  
- بلى ، ولكنّ الوقت لا يتسع الآن لإجراءات  
الانفصال . . .  
- ليكن ولكن لا تتردّد . إنّه لا يحبّك ، هو وزوجته  
يتمنّيان لنا الهلاك !  
وتابعت عزيز وهو يلعب قطة بيضاء فرقت عيناها  
وهي تقول :

- تلقّيت من السماء هديّة جديدة لك . . .  
فرمق بطنها بحنان وبهجة . وأشارت عزيزة إلى عزيز  
وتمتت :

- أهلك يهلّمون له بالفتونة . . .

فابتسم قائلاً :

- هكذا آل الناجي !

فقالت عزيزة :

- أمّا أنا فأومن بأنّ أبواب الخير كثيرة . . .

- وعاشور؟

- دائماً عاشورا . . . أتمنّى إلى أحلامهم؟

- سأنشئه كما أنشأني المرحوم خضر ليفعل بنفسه  
بعد ذلك ما يشاء . . .

- كم تريحون أنفسكم لو تتناسون أنّكم ذريّة  
عاشور الناجي !

- سنظّل ذريّته على أيّ حال . . .

ورنا إلى عزيز طويلاً ثمّ تساءل :

- متى أجلسه أمامي في حجرة الإدارة؟

أبونا ضائع بلا ذنب . أخي إمّا في البوظة أو الغرزة ثمّ  
يمضي إلى القمارا  
فتوسّلت إليه قائلة :  
- أنت أنت الأمل يا قرّة .  
فقال بشدّة :  
- لذلك أريد أن أستقلّ بتجارتي . . .

- ٣٠ -

اندعرت رقيقة لفكرة الانفصال وأعلنت عن مخاوفها  
حقّ قال لها رمانة :  
- أنت أيضًا لا تثقين فيّ !  
فقالت بلين ومداهنة :  
- إنك أهل للثقة إذا أقلعت عن عاداتك السيّئة .  
- سأقلع عنها حتّى إذا اضطرت لتحمل مسؤوليتي !  
- وهل تعرف العمل حقًا !  
فقطّب متسائلًا فقالت :

- يلزمك وقت للتدريب يا رمانة ، احذر العناد  
والغرور ، كان الرأي دائماً رأي أخيك ، هو عاقد  
الصفقات ، هو الرحالة ، هو كلّ شيء ، وأنت متربّع  
وراء مكتبك لا شيء !

فتلظّى بالحقد ملياً ثمّ قال :

- وما العمل إذا صمّم على تحقيق فكرته؟

فقالت والشرّ يتراقص في عينيها :

- يجب منعه بأيّ ثمن . . .

- بالقرّة؟

- بأيّ ثمن ، اتدري ما معنى أن تستقلّ الآن؟ أن  
تفلس في أيام أو أسابيع ، أخ وجيه وأخ فتوة وأخ  
شحاذا!

- والعمل؟

- بادر بالملاينة ، في الوقت نفسه غير حياتك ،  
اشترك في العمل ، ثمّ نفكر في كلّ شيء . . .

صمت متجهّماً فرجعت تقول :

- خسائرك فادحة ، ماذا يبقى لك لو وقع

الانفصال الآن؟ تذكر ذلك ، وتذكر أيضًا . . .

وسكتت قليلاً ثمّ واصلت :

- وتذكر أيضًا أنّه لا يوجد مستحيل . . .

- ٣٧ -

باتت الحارة تتساءل عن غياب قرّة. دعت عزيزة  
وحيد وسألته:  
- ماذا ترى يا معلّم وحيد؟  
فقال الفتوة:  
- اعتزمت السفر بنفسى... .

- ٣٨ -

غاب وحيد أيّامًا ثلاثة ثمّ رجع في مساء الرابع.  
رأت عزيزة وجهه فغاص قلبها في صدرها وهتفت:  
- ليس وراءك خيرا  
فقال وحيد بوجوم:  
- قرّر عملاؤه أنّه لم يصل إليهم... .  
فتساءلت عزيزة بوجه شاحب:  
- ما معنى ذلك؟  
فقال أنسيّة وهي تداري اضطرابها:  
- قلبي يحدّثني بالسلامة... .  
فقالت عزيزة:  
- قلبي لا يحدّثني بذلك... .  
فقال رمّانة:  
- لا تستسلموا للتشاؤم... .  
فهتفت عزيزة:  
- الغائبون في أسرتكم أكثر من الحاضرين... .  
فقال أنسيّة:  
- فليخيّب الله الظنون السيّئة... .  
فتمتت رثيفة:  
- آمين... .

عند ذاك ولولت عزيزة:

- ما العمل وأنا امرأة لا حول لي؟!  
فقال وحيد:

- لقد قمت بالخطوة الأولى وتوجد بعد ذلك  
خطوات... .

وقالت أنسيّة:

- إنّه لا أعداء له... .

فقال رمّانة:

- هذا حقّ ولكنّ للطريق أخطاره... .

- ٣٣ -

أخذ السائق مجلسه بالدوكرار. وقف قرّة بين  
مودعيه. وحيد ورمّانة والشيخ إسماعيل القليوبي شيخ  
الزاوية ومحمد توكل شيخ الحارة وآخرين. وأمسك  
محمد توكل بيد رمّانة وتساءل بلهجة ذات معنى:  
- من يحمل محلك يا معلّم عند السفر إذا استقلّ كلّ  
منكما بتجارته؟

فتجاهل قرّة الملاحظة مواصلاً حديثًا جانبيًا مع  
الشيخ إسماعيل. وفي تلك اللحظة مرّت الشيخة ضياء  
بمخزمتها وعينيها الدامعتين. لم يعد منظرها يثير استياء  
أحد من آل الناجي، وقال وحيد:  
- الشيخة تبارك سفرك!  
وصافحهم واحدًا بعد واحد واستقلّ الدوكرار  
ورمّانة يقول:

- بالسلامة في الدهاب وفي الإياب... .  
ورنّ الجرس وتهادى الدوكرار نحو الميدان... .

- ٣٤ -

كانت الرحلة عادة تستغرق أسبوعًا. مضى الأسبوع  
ولكنّ قرّة لم يرجع. تبدلت الأفكار في الدار مساء  
فقال رمّانة:

- عذر الغائب معه.

وتمتت أنسيّة:

- لا يحسب الوقت في رحلته بالساعة والدقيقة.

وقالت رثيفة:

- مرّة تأخّر يومين عن ميعاد عودته... .

ولاذت عزيزة بالصمت.

- ٣٥ -

مرّ اليوم التالي كما مرّ الأوّل. تردّدت الكلمات  
الملتزمة للطمأنينة. قالت عزيزة لنفسها:  
- ما أبغض قلّقًا لا مبرّر له... .

- ٣٦ -

يذهب الدوكرار مع الصباح إلى ميناء بولاق ثمّ  
يرجع مع الليل خاليًا. ويعدّب السهاد عزيزة حتىّ الفجر... .

- الأبرياء!
- أصغي إليّ، اضبطي لسانك...
- لا أعداء لنا سواهما...
- قَطّاع الطريق أعداء كلّ إنسان...
- لا أعداء لنا سواهما.
- لا دليل لديك إلّا سوء ظنّك القديم...
- فقال: بإصرار:
- لن أهد ولو مضى العمر كلّه على ذلك...

## - ٤٢ -

اقتحمت جناح الشبيخة ضياء وهو ما لا يجراً عليه أحد. وجدتها متربّعة على شلثة مستغرقة في تهاويل السجّادة. ركعت إلى جانبها. لم تلتفت المرأة إليها، لم تشعر بها. همست:

- يا شبيخة ضياء ما رأيك؟

فلم يطرُق الصوت باب دنياها المسحورة فهامت بحرارة:

- قولي شيئاً يا شبيخة ضياء!

ولكنّ ضياء لم تسمع، لم تحسّ، لم تولد. شعرت عزيزة بأنّها تصارع مجهولاً لا سبيل إليه، وأنها تتحدّى المستحيل...

## - ٤٣ -

وعاشت شبه معتزلة في جناحها منفردة بعزير. حتّى الطعام كان يُحمل إليها. وزارها في الجناح رمانة ورثيفة. وكان حزنهما على الغائب جليلاً مشهوداً. وقالت لها رثيفة:

- عزلتك تضاعف من أحزاننا...

فقال: وهي تتجنّب النظر إليها:

- لم أعد صالحة لمعاشرة الآخرين...

فتمتم رمانة:

- نحن الأهل الأقربون...

فقال بضيق:

- الحزن كالوباء يوجب العزلة...

فقال رمانة:

- بل المعاشرة تعالجه، واعلمي أنّي لا أكفّ عن

فتأوّمت عزيزة، وقال وحيد:

- سأفعل المستحيل...

## - ٣٩ -

مضى أسبوع في أثر أسبوع. تابعت الأيام بلا مبالاة. شُغل الناس بالشمس والليل والنهار والطعام. أيقنوا أنّ المعلم قرّة لن يرجع إلى حارته.

## - ٤٠ -

أصرّت عزيزة على مصارعة النسيان واللامبالاة. غياب قرّة كارثة يتجدّد وقوعها في قلبها كلّ صباح. وهي تتمزّق بالحزن والغضب. تأبى أن تصدّق أنّ سنن الكون يمكن أن تتبدّل بفتة في لحظة من الزمان. ومن شدّة الانفعال أجهضت فرقدت مريضة أسبوعاً. واستدعت وحيد وقالت له:

- لن أسكت، لن أهد، ولو مضى العمر كلّه على ذلك...

فقال وحيد:

- إنك لا تدركين حزني يا ستّ عزيزة، إنّه لعار أن يقع ذلك لشقيق فتوة...

- لن أسكت ولن أهد...

- لم يعد لأحد من رجالي من مهمّة مقدّمة على البحث والتحريّ، استعنت أيضاً بأصدقاء من الفتوات...

وتمهّل قليلاً ثمّ قال:

- ذهبت إلى أمّي في بولاق، إنّا اليوم ضريرة، وذهبت معي إلى فتوة بولاق، الدنيا كلّها تبحث عن قرّة...

## - ٤١ -

من ناحية أخرى زار أبوها إسماعيل البنان مأمور القسم فوعده الرجل بتقديم كلّ مساعدة ممكنة. وجعل أبوها يشجّعها ويواسيها ولكنّها قالت له:

- كأ أنّ قلبي يعرف السرّ...

وقرأ أبوها خواطرها فقلق وقال:

- إيّاك وسوء الظنّ بالأبرياء...



البحث . . .

فقال بإصرار:

- أجل، علينا أن نعرف القاتل!

فهفت رثيفة:

- لا اصدق أنه قُتل . . .

تذكيره بسير أجداده من آل البنان، بل دفعها لإخلاصها لقرّة إلى التنويه له ببطولات الناجي ومثله العليا وأجاده الأسطورية. وبثت فيه - بلا وعي وبوعي أحياناً - الحذر من عمّه وزوجته، والنفور منها، وشحنت قلبه بأنباء العداوة التي اضطرت بين أبيه وعمّه، واختفاء أبيه الغريب المريب . . .

وكان قرّة قد نُسي. لم يبق حياً إلا في قلب عزيزة، ولدوجة ما في خيال عزيز. وثمة حلم يقظة كان متعة تأملاتها، أن تجوب البلدان بحثاً عنه، أن تعثر عليه، أو أن تكتشف بالبيّنة قاتليه، أن تنتقم، أن تعيد ميزان العدل إلى استوائه الأبديّ، أن يستعيد القلب صفاءه . . .

- ٤٤ -

فُسّر اختفاء المعلم قرّة في الحارة باعتباره نتيجة لعدوان قطاع الطريق. هكذا يقال جهراً كلما جاء للحادث ذكر. أما همسات الاتهام في البوظة والغرزة فكانت تحوم حول رمانة. لقد قضى على شقيقه بالقتل قبل أن يقضي عليه بالفصل والإفلاس. وما هو مستقل بإدارة المحلّ، متصرفاً في ماله ومال ابن أخيه اليتيم. وقد أطلع عن العريضة والقهار حتى لا يقال بأنه يبّد مال اليتيم، وعمل ألف حساب لوحيد فتوة الحارة. رغم ذلك فقد تضاءلت عملاقة المحلّ، واختصرت معاملاته، واعتد رمانة عن ذلك بقلة درايته ومهارته التجارية.

وقال لشقيقه وحيد:

- ليس في وسعي أفضل من ذلك، وإني أرحب بأن تعمل معي إذا شئت . . .

ولكنّ وحيد قال له ببرود:

- أنت تعلم ألا خبرة لي بهذه الشئون.

- ٤٦ -

وما إن جاوز عزيز العاشرة حتى طالبت عزيزة بأن يتدرب في محلّ أبيه. وسرعان ما وافق رمانة وهو يقول:

- أهلاً بالعزيز ابن العزيز . . .

وعقب ذلك توفيّ إسماعيل البنان أبو عزيزة فورث عنه قدرًا من المال لا بأس به، فقررت أن تكنزه ليستثمره عزيز في التجارة عندما يستقلّ عن عمّه وماتت أنسيّة عقب وفاة أبيها بعام ونصف فخلت الدار من الأحباب. لم يبق إلا رمانة ورثيفة، والشيخة ضياء إن عُدّ وجودها وجودًا. وقد عجزت الشيخة عن مواصلة مسيرتها اليومية في الحارة فاعتزلت تمامًا في جناحها، وعند الأصيل من كلّ يوم كانت تدلي بالمبخرة من مشربية حجرتها، وحتىّ الدموع لم تعد تسعفها . . .

- ٤٧ -

وينظر رمانة متأملًا كلما وجد الفراغ. ها هو عزيز يجلس في مكان أبيه بحجرة الإدارة. إنّه يتقدّم بخطوات ثابتة تنبئ عن رجاحة عقل. يطرق بلا شكّ باب المراهقة. صبيّ جميل مفعم حيوية. قامه طويلة رشيقة، عذب الملامح، يلوح القلق في عينيه كما يلوح التفكير. وبينها مجاملة محسوسة ولكن بلا ألفه

- ٤٥ -

ولم تكثر عزيزة كثيرًا لما يطرأ على المحلّ من تحوّل أو ضمور. كانت تحلم باليوم الذي يحلّ فيه عزيز في مكان أبيه، فيستقلّ عن عمّه ويعيد إلى المحلّ سيرته الأولى. في سبيل ذلك وقفت نفسها على تربية وحيدها. أرسلته إلى الكتاب في سنّ مبكرة. وزوّده بمعلم خاصّ ليزيده علمًا بالحساب والمعاملة. ولم تأل في

## ملحمة الحرافيش ٨١٧

ما أكثر ما تردّد ذلك بينها! ها هو الشيطان يطلّ  
من عينيها الجميلتين، قال بحق:  
- ما كلّ مرّة تسلم الجزرة...  
فقالت ساخرة:  
- فلننتظر المصير.  
- أصبح الآن يتعامل معي فثمة أمل!  
- تصوّر أن تحطفه من حضن أمه المغلي بالحقد!  
- إنّه لم يعرف بعد أنّ في الدنيا طربًا وسرورًا!  
- الأفعى مغروسة في أعماقه...  
فنفخ متجهّمًا. وساد الصمت إلّا من هسيس  
الخواطر الدامية. وتراعى من الحارة صباح غلمان،  
وتتابع نقر فوق خصائص المشريّة فتمتت رثيفة:  
- رجع المطر...  
تسلّى بفحص الجمرات في المدفأة يعود من الحديد،  
قال:  
- يا له من برد!  
فقالت مارقة من أفكاره:  
- إنّه لحلم...  
- ما هو؟  
- ليس مستحيلًا أن يغرى مثله بأجماد الناجي!  
- عزيز؟  
- أجل، إنّه سنّ الأحلام، مثل أبيك المطازدا  
رنا إليها بلهول. خافها بقدر ما أعجب بها. ولكنّه  
قال بخمول:  
- لا ثقة له فيّ!  
- ولكنّه يُشحن إذا لم ير اليد التي تشحنه...  
وتنهّدت بحمق وهي تقول:  
- ثمّ يحذّر وحيد في الوقت المناسب!  
ما جدوى ذلك كلّ؟ إنّه يشعر أحيانًا بالضجر.  
ولكن طاب له أن يتسلّى بحلم يقظته الدامي...

- ٤٩ -

اصطحبه معه إلى مجالس الرجال بحجة تقديمه إلى  
العملاء فلم تستطع عزيزة أن تمنع. ودارت الجوزة  
ولكنّه لم يدعها إليها قط. وقال له:  
- إنّه ضرورة في مجالس الرجال ولكن تجنّبها فهي

حقيقيّة. وثمة نفور أيضًا يتوارى وراء الكلمة المهذّبة  
والابتسامة الحلوة. حلوى كذبة أبريل المرّة. مشحون  
بنفثات أمه السائمة. وقد يستوي يومًا عدوًّا ذا خطرًا  
يتصوّر أحيانًا أنّه ابنه! ولا يتخلّى عن تصوّره رغم أنّ  
وجه الصبيّ مزيج متعادل من وجهي عزيزة وقرّة.  
ولكن ما الفائدة؟ العبرة بالروح لا بالدم. إنّه ابن  
أخيه بل إنّه عدوه، وهو لا يستطيع أن يجنّب مهما  
تصوّر. وقد لا يقوم تصوّره على أساس. ولعلّه لو علم  
بخواطره لآزاد له كرهاً.  
وقال له:

- إنك منطوي على نفسك يا عزيز، لماذا؟  
حدّق فيه الصبيّ بحيرة كأنّه لم يفهم فقال:  
- أين أصدقاؤك؟... لم لا تحالطهم في الحارة؟  
فتمتم:

- أحيانًا أستقبلهم في الدار...  
- هذا لا يكفي...  
وضحك رمّانة ثمّ قال:  
- لم أسمعك تخاطبني مرّة بقولك يا عمّي...  
فارتبك عزيز فقال رمّانة:  
- إنّي عمك، صديقك أيضًا...  
فابتسم عزيز وقال:  
- طبعًا...  
وكفّ عن مضايقته بلباقة. وقال لنفسه إنّ عليه أن  
يحاول مستقبلًا أن يصطحبه إلى مجالس الرجال، أن  
يخرجه من قوقعة النفور، أن يسرقه من قبضة أمه...  
ونظر في دفتره ولكن سرعان ما اشتعل خياله  
بالصور الجائعة. رأى عزيز وهو يحتضر... إثر حادث  
أو مرض...  
- ٤٨ -

وكان يكاشف رثيفة بهواجسه، وكانت تقول له:  
- طالما حدّرتك بما تعدّه الأفعى...  
فقال بضيق:

- لم أكن بحاجة إلى تحذير!  
- ولا أنت في حاجة إلى من يرشدك إلى ما ينبغي  
عمله...  
- إنّه ضرورة في مجالس الرجال ولكن تجنّبها فهي

- لا تليق بك...  
وتعرّف عزيز بكثيرين. أسعده أتهم يحفظون لأبيه  
خالص الودّ وبجميل الذكري. وتتلاحق الأقوال:  
- لم نعرف له نظيراً في أمانته ودقته...  
- الأخلاق في المرتبة الأولى ثمّ تحييء التجارة...  
- كان في التجارة كما كان جدّه في الفتونة!  
- واحسرتاه على عهد الناجي وأمجاده...  
- سيجيء يوماً من يعيد العهد إلى عرشه...  
دائماً تتردّد تلك الأقوال في كلّ لقاء. وفي طريق  
العودة إلى الدار يقول له رمانة:  
- هؤلاء الناس لا يكفون عن الأحلام...  
ويقول له أيضاً:  
- لولا عمّك وحيد ما كان لنا قيمة في هذه  
الحارة...  
ومرّة قال عزيز:  
- ولكنّ وحيد ليس مثل عاشور.  
- لا أحد مثل عاشور، لقد انتهى عصر  
المعجزات، حسبنا أن رجعت الفتونة إلى آل  
الناجي...  
تمنى أن ينفذ إلى أعماقه. وكان - في الاجتماعات -  
يسترق النظر إليه فيشرح صدره بضوء الحساس المشع  
من عينيه...  
وذات مساء قالت عزيزة لعزيز:  
- جاء اليوم الموعود.  
أدرك ما ترمي إليه ولكنّه انتظر فقالت:  
- تستطيع الآن أن تضطلع بشئونك، لم تعد صبيّاً،  
استقلّ بتجارتك، عندي من المال ما يضمن لك  
نجاحاً مثل نجاح أبيك...  
فهزّ رأسه موافقاً ولكنّها لم تلمس الحساس الذي  
توقّعت فقالت:  
- أبعد عنك عدوّ أبيك، وحسبه ما نهب من  
مالك...  
- هذا متفقّ عليه!  
- ولكنك لا تبدي الحساس الواجب...  
- الحساس متوقّر، طالما انتظرت هذا اليوم...  
- ستنقّذه فوراً؟  
- أجل...  
- ولكنك مشغول البال، أكثر من مرّة لاحظت  
ذلك فعلّته بمتاعب العمل...  
- هو ذلك!  
فقال بارتياب:  
- كلاً يا عزيز، عيناك محدّثانني بأنّ هناك شيئاً  
آخر...  
فضحك قائلاً:  
- لا تجعلني من الحبة قبة...  
سرّه حقيقة بأن يخفيه عنها بقدر ما هو حقيق بأن  
يخفيه عن وحيد نفسه. إنّه يعرف تماماً موقفها  
ومشاعرها. غير أنّها قالت بقلق:  
- لا تخفّ عني شيئاً يا عزيز، نحن محوطون  
بالأعداء، عليك أن تطلعي على كلّ شيء...  
فقال متظاهراً بالمرح:  
- سأنقذ ما اتّفقنا عليه، ما عدا ذلك فهو  
وهم...  
فقالت بمزيد من القلق:  
- أيّ وهم؟ ما أكثر الأوهام القائلة!  
ارتعد لنهاذ بصيرتها المستلهمة من غريزة الأمّ وحبّها  
وخوفها معاً. غمغم متهزّباً:  
- لا شيء!  
فهتفت بحرارة:  
- لا تسلّمني للجنون، أمك حزينّة أبدية، تحمّلت  
ما لم تتحمّله زوجة مخلصة، أنت أملها الوحيد، عزاء  
صبرها وتصبرها، استيقاظها من كابوس طويل، وقد  
قضي علينا أن نعيش في غشاء من المكر السيّء، ولن  
يقدم لنا السّم إلا في قطعة من الحلوى، لا خوف  
عليك من العداء السافر، ولكنّ الخوف واجب من  
البسمة الحلوة والكلمة العذبة والدواء الشافي وأقنعة  
الإخلاص التي لا حصر لها...  
فتمتم وهو يتلوى في الحصار:  
- لست غرّاً يا أمّاه...  
- ولكنك بريء والبراءة فريسة الأوغاد...  
- ٥٠ -

ثم بحدّة:  
- لقد أعطيتاني الحبل، ما عليك إلا أن تتوفّر  
لعملك، استقلّ عن عدوّ أبيك، بل عن قاتله، توفّر  
لعملك، لقد أعطيتاني الحبل...

- ٥١ -

ثمة صمت ينذر بهبوب عاصفة. نظرات عزيز لا  
تبشّر بخير. منذ شارف بلوغ الرشد وهو يتوقّع منه  
ضربة قاسية. لم يفلح في كسب ثقته، بادلته ملاينة  
بملاينة، لم تزلّ قدمه رغم دهنه الأرض تحت قدميه  
بالزيت، وما هو يتحفّز للانتقام.  
وخاطبه ذات صباح بقوله:

- عمّاه!

لأوّل مرّة ينطق بها فأيقن أنّها مقدّمة لشرّ.

- ماذا يا ابن أخي؟

فقال يهدوء كريبه ذكّره ببعض أحوال أبيه قرّة:

- أرى أن استقلّ بتجارتي!

رغم أنّه توقّع ذلك، توقّعه منذ طويل، إلا أنّ قلبه

غاص في صدره، وتمتم:

- حقّاً؟! طبعاً أنت حرّ، ولكن لماذا؟ لماذا نفّقت  
قوّتنا؟

- أمّي ترغب في مشاركتي!

- هذا يمكن مع المحافظة على الوضع الراهن...

- كان أبي يرغب في ذلك كما تعلم!

- قال ذلك يوماً ما ولكنّه لم يصمّم عليه وإلا ما

منعه مانع...

فقال عزيز بهرود:

- منعه اختفاؤه الغريب...

فانقبض قلب رمانة، ولكنّه تجاهل الطعنة وقال:

- كان بوسعك أن يؤجّل السفر حتّى يفعل ما

يشاء...

ثم باستياء واضح:

- لا تصدّق كلّ ما يقال...

فقال بجرأة لم يبدها من قبل:

- إني أصدّق ما يستحقّ التصديق...

فقال رمانة بياس:

وانزلق إلى أن يقول وهو لا يدري:

- إنّه خارج الموضوع!

- رمانة؟!

- أجل...

- حدّثني عن الموضوع، واحزنناه، هل أصبحت

غريباً عن قلبي وروحي فلا أعلم شيئاً عن أخطر

الأمور إلا ما تلقّيه إليّ المصادفة العمياء؟!

- لم أضمر إخفاء شيء عنك ولكنّي أعلم

بهواجسك!

- صارحني فإنّ قلبي يوشك أن يتوقّف...

فنهض، راح يتمشّي في الحجرة، ثمّ وقف أمامها،

تساءل:

- ألا يحقّ لي أن أفكّر بنبل؟

فدهمتها أفكار مفزعة وقالت:

- ما العواقب يا عزيز؟ هذا ما بهمّ، سبق أن فكّر

جدّك سباحة بنبل وما هو طريد كالمثسول لا يدري

أحد عنه شيئاً... حدّثني عن أفكارك النبيلة يا

عزيز...

مضى بنبرة اعترافية يحدّثها عمّا دار في اللقاءات مع

العملاء، تابعته بوجه شاحب حتّى خضّبته في النهاية

بصفرة الموت... وقالت بصوت متهلّج:

- إنّه محريض واضح على عمّك وحيد!

- لست غرّاً...

- إني أرى رمانة في نسيج المؤامرة...

فيادرها:

- لم ينس بكلمة، وهو دائماً في صفّ وحيد، ودائماً

يحدّثني...

- لا تصدّقه، إنهم يردّدون ما يشحنهم به، هل

صارحتهم بأفكارك النبيلة؟

فقال بصدق:

- كلاً، لست غرّاً، قلت لهم إني لا أخون عمّي

وحيد...

- لهذا حسن، هل قلت لعمّك قولاً آخر؟

- كلاً... تظاهرت بالميل لقوله...

تهدّدت بعمق، اغرورقت عيناها، غمغمت:

- حمداً لله...

- ثم هددوه:
- الأمل معقود بميراثك!
  - ميراثي؟
  - عزيزة ستمدّه بميراثها...
  - لأتّها كانت تعدّه لساعة الانتقام...
  - بميراثك أستطيع أن أبدأ من جديد!
  - فتساءلت بذهول:
  - ومالك أنت؟
  - فقال بقنوط:
  - لم يبق منه ما يصلح لإقامة محلّ كريم...
  - فهتفت:
  - التهمة القمار!
  - ماذا؟ أهذا وقت الزجر؟
  - لم أكنز ميراثي مثلها فعلت الأفعى، وتريد أن تبّد ما بقي منه لتسوّل معاً!
  - فقال محتدّاً:
  - سأبدأ بسلوك جديد!
  - فضحكت ساحرة فاشتعل غضبه وقال:
  - لم يبق إلّا أن أكاشفه بأنّه ابني!
  - فانتقل اللهب إليها وصاحت:
  - أفق، ألم تقتنع بعد بأنك عقيم؟
  - فصاح بحقنق:
  - بل أنت العقيم!
  - ما وجدت الداية بي من عيب!
  - همّ بأن يلطمها ولكنّها تحفّزت للردّ مثل لبؤة غاضبة. لم تقنع بتراجعه فتبادت في الخلق وهي تقول:
  - أشيئت بنا الأعداء، لعلّ وهمّ الأبوة الفارغ هو ما صدّك عن التخلّص منه طيلة الأعوام الماضية!
  - فتمتم وهو يهزّ رأسه دهشة:
  - محسبين القتل لهواً!
  - عند ذلك أقبلت جارية لتستأذن في حضور محمّد
  - توكل شيخ الحارة.
- أكرّر أنك حرّ، ولكنّه ضارّ بكليتنا...
- ليس هو كذلك بالنسبة إليّ...
  - تلقى طعنة ثانية وهو يتلظى بالحقد الدفين. وقال لنفسه إن يكن ابني حقّاً فكيف ألفته إلى الدور الساحر الأليم الذي يلعبه! كيف أكبح الشيطان الذي يتمطى في قلبه الأسود لينتقم منّي؟
  - قال:
  - تعبير لا يجدر بك، ألا تفكر في الأمر ملياً؟
  - فقال برقّة ما استطاع:
  - إنه أمر متفق عليه.
  - فقال بيأس:
  - حتّى إذا رجوتك أن تعدل عنه؟
  - يؤسفني أنّي لا أستطيع تحقيق الرجاء...
  - لعلّها أمك؟
  - تريد أن تشاركني كما قلت...
  - إنه سوء الظنّ الذي يخلق الكراهية على أساس من الأوهام.
  - فتردّد قليلاً ثمّ قال:
  - ليست أوهاماً، الحسابات غير مقنعة، والشركة لم تكن في صالحيّ...
  - من الآن ستلعب دورك كاملاً...
  - فتمتم عزيز بضيق:
  - لا فائدة يا سيدي.
  - فاجتاحه الغضب وهتف:
  - إنّها الكراهية، إنه الحقد الأسود، إنّها اللعنة التي تطارد آل الناجي...

- ٥٢ -

- رجع رمّانة إلى رثيفة محطّماً. وسرعان ما أخبرها بكلّ شيء، ثمّ قال:
- بذرة الكراهية تلفظ ثمرتها السامة.
  - فقال رثيفة بوجه مخطوف من الحقد:
  - الأمل معقود بوحيد...
  - ولكنّ الماكر الصغير لم يقع بعد في الشرك...
  - لا تنتظر حتّى يقع...
  - ليس الأمر باليسر الذي تحلمين به...

- ٥٣ -

- استقبله في بهو الاستقبال بالدور الأوّل. جاء الرجل في هالة من العجلة والاهتمام والقلق حتّى

مشهد من الخدم .  
وفي الحال انتقلت عزيزة وعزيز إلى دار البنان، ولم  
يبق في الدار إلا رمانة ورثيفة والشيخة ضياء .  
واستقلّ عزيز بمحلّ الغلال، فجذده، وأعادته إلى  
أيام ازدهاره كما كان أيام قرّة ولم يساور وحيد ارتياب  
فيه، ووجد في تنبيه عزيزة له ما طمأنه من ناحية عزيز  
لزاره مهتئاً ومضغياً عليه أمام الحارة رضاه وحمائته .  
وأقلع عزيز عن أحلامه . أفلح عنها وهو حزين، غير  
مرباً من ازدراء نفسه . وقنع بممارسة الخير في محلّه، مع  
عمّاله وعملائه وزبائنه ومن يتيسر له مساعدتهم من  
الحرافيش .

- ٥٥ -

قبع رمانة في داره . قضى على نفسه بالسجن بلا  
حُكْم . يحيط به الخوف ويستكنّ في قلبه الخزي . ينفق  
من ماله غير المستثمر ومن مال رثيفة . يقتله الضجر .  
يهرب من الضجر في الخمر والمخدرات . يمارس غضبه  
على الخدم والجدران والأثاث والمجهول .  
ومضت العلاقة تتوتّر بينه وبين رثيفة، وتسوء يوماً  
بعد يوم، اشمأزت من جينه ويطالته وغيبوته  
وصراخه . وسرعان ما اشتدّ الخلاف والنقار وحلّ  
النفور محلّ الوثام . وكلّما نشبت بينهما مشاجرة طالبتة  
بالطلاق حتّى فقد وعبه ذات مرّة فطلّقها . كان القرار  
اهوج إذ كان كلّ منهما لا يستغني عن حبّ الآخر  
ولكنّ الغضب مجنون والكبرياء عريضة والتبادي  
مرض . وكأنا أراد كلّ شريك أن يثبت للآخر أنّه هو  
العقيم فسرعان ما تزوّجت رثيفة من قريب لها، على  
حين تزوّج رمانة من جارية في داره . وثبت لها باليقين  
تقريباً أنّها عقيمان . وتزوّج رمانة من ثانية وثالثة ورابعة  
حتّى تجرّع كأس اليأس لآخر نقطة فيه .  
عاش رمانة كما عاشت رثيفة في الجحيم، في دنيا  
الضجر بلا حبّ . . .

- ٥٦ -

ذات صباح جاء الحارة رجل غريب . معتمّ بعمامة  
سوداء، متلقّع بعباءة أرجوانية، ضرير يسترشد في

انقبض قلب رمانة . وجلس وهو يتساءل بلا أيّ  
تمهيد :

- هل أغضبت أخاك وحيد؟
- فذهل رمانة وقال :
- ما بيني وبينه إلا كلّ خيرا
- رأيتك الساعة في البوظة هائجاً ثملاً، يلحن  
ويسبّ، متهمّاً إياك بأنك تحرّض عزيز عليه!
- فانتثر منفزحاً وهو يصيح :
- التراء وكذب . . .
- فبادره عمّد توكل :
- لا تتوان عن إقناعه . . . عجلّ . . .
- فتساءل رمانة محتثاً :

- ماذا تعني؟

- إن لم تسرع فسيصيبك أذى لا تتصوّره . . .
- ولكنّه أخي!
- فقال توكل وهو لا يفتن إلى أبعاد قوله :
- ليس نادراً أن يقتل الأخ أخاه في حارتنا!
- فازدرد رمانة ريقه بامتعاض وغمغم :
- هكذا . . .
- فقال شيخ الحارة :
- لقد أعذر من أنذر فتحركّ وحقّ الحسين . . .

- ٥٤ -

لم يجرأ رمانة على مقابلة وحيد وهو سكران فقرر أن  
ينتظر حتّى الصباح . غير أنّ الشيخ إسماعيل القليوبي  
شيخ الزاوية اقتحم عليه داره عند منتصف الليل  
حاملاً إنذاراً من وحيد بأنّه إذا غادر داره فقد عرض  
نفسه للهلاك .

وأدرك رمانة أنّ عزيز هو الذي أوقع بينه وبين  
وحيد فتهجم على جناحه وانهاه عليه سباً حتّى أوشك  
أن يلتحم الاثنان في عراق عنيف . عند ذلك اعترفت  
عزيزة بأنّها هي التي فطنت إلى المؤامرة التي دبّرها لابنها  
وأتمها أفضت بظنونها إلى وحيد . وصبّ رمانة عليها  
غضبه حتّى صرخت في وجهه :

- ابعد عن وجهي يا قاتل قرّة .

هكذا اشتعلت الدار بالغضب والكراهية على

اتّحت الخصومات في حضرة الأب المعذب شهيد  
النقاء.

وقال له وحيد:

- أعددنا لك الحنّام والطعام...

فتمتم في هدوء:

- مهلاً، لقلبي أن يطمئن أولاً...

وحرك رأسه ثمّ تساءل:

- أين خضر؟

فقال وحيد:

- سبحان من له الدوام.

فوجم قليلاً ثمّ تساءل:

- وزوجته ضياء؟

- في جناحها، شبيخة غائبة في ملكوت الله...

وتردّد سباحة في إشفاق ثمّ تساءل:

- وقرّة؟!

فساد الصمت، فتأوّه الرجل وقال:

- قبل الأوان... طالما حلمت بأنّ ضرسبي

انخلع...

وبسط راحته وهو يقول:

- يدك يا عزيز...

قبض على يده بحنوّ، وسأله:

- تذكره ولا شك؟

فقال عزيز:

- اختاره الله وأنا طفل...

- يا رحمة الله... ومن أمك يا بني؟

- كريمة إسماعيل البنان...

- أنعم وأكرم، وأين هي؟

- هي وعمّي صفيّة في الطريق إلينا...

وسأل الرجل:

- وأنت يا رمانة؟

تبادل وحيد ورمانة نظرة سريعة، وقال رمانة:

- لي أكثر من زوجة هنّ من سيقمن بخدمتك...

- أولادك؟

- لم أرزق بذريّة بعدا

فشهق بعمق متمتياً:

- إرادة الله وحكمته، وأنت يا وحيد؟

مسيره بطرف عصاه، ذو لحية بيضاء وجبين نبيل.  
مرّت فوقه الأعين بلا اكتراث، ترك وشأنه، تساءل  
البعض عمّا جاء به.

عندما ابتعد عن مدخل الحارة بأذرع هتف:

- يا أهل الله!

فسأله الحنّام صديق أبو طاقية:

- ماذا تريد؟

فقال بنبرة حزينة:

- دلوني على دار خضر سليمان الناجي.

تفرّس صديق أبو طاقية في وجهه ملياً. سرعان ما

رأى حلماً. سرعان ما دهمه الماضي. صاح بذهول:

- يا أطفاف الله!... المعلم سباحة بكر الناجي!

فقال الضرير بامتنان:

- نور الله قلبك!

على عجل جاء كثيرون في مقدّماتهم وحيد وعزيز

وعمّد توكل وإسماعيل القليوبي. وحمي العناق

والتبريك والدعاء.

- يوم السعد يا أبي.

- يوم العدل يا جدّي.

- يوم النور يا معلّم.

وكرّر سباحة مراراً ووجهه يضيء بالإشراق:

- بارك الله فيكم، بارك الله فيكم...

وكلّ دعاه إلى بيته ولكنّه قال بإصرار:

- داري دار خضر!

وانتشر الخبر فدعا الرجال من الدكاكين وجمع

الحرافيش من الجحور والحرايات، وتعالى التهليل

والدعاء ثمّ زغردت النساء في النوافذ والمشربيات.

وقال صديق أبو طاقية:

- سبحان الله العظيم، لا غيبة تخلد ولا ظلم

يدوم.

ترتّب سباحة فوق ديوان، وجلس أمامه على الشلت

وحيد ورمانة وعزيز. هكذا اجتمع وحيد ورمانة

وعزيز. هكذا اجتمع وحيد ورمانة وعزيز في سلام

كظيم. كما يتجاور البلسم والسّم في محلّ العطار.

- يا بركة السماوات السبع!  
وتجلى الرضا في وجهه وفي حركاته المرحية...  
وقال:  
- ليهنا عاشور في غيبته الملائكية... وليسعد  
شمس الدين في جنات النعيم...  
لم يفكر أحدهم لحظة واحدة في إيقافه من الحلم أو  
الاستهانة بسعادته. وبدا هو كأنما قد نسي الغربة  
والمطاردة ونعم بحسن الختام. وقال بهدوء:  
- إلي بالحمام والطعام ولتحل بركة الله بالأرض.

- ٥٨ -

نام ساحة بقية النهار كله. وسهر الليل في ساحة  
التكسية. عرفها هذه المرة عن طريق الأذن والأنف  
واللمس. ودعا بقوة الخيال صور التكسية والتوت  
والسور العتيق. وراح يملأ قلبه بالأنغام في ارتياح  
وغبطة.

ويسط راحتيه وقال:

- حمدًا لله الذي شاءت إرادته أن أدفن إلى جوار  
شمس الدين. حمدًا لله الذي أذنت رحمته للعدل أن  
يظل في حارتنا، حمدًا لله الذي أورث ابني خير إرث  
للإنسان الخير والقوة.

وجرى شكره في ظل نشيد يترنم:

هو أنكه جانب أهل خدا نكهرد  
خداش در همه حال از بلانکه دارد.

فساد الصمت حتى تحرك رأس الرجل بقلق فعاد  
يتساءل:

- وأنت يا وحيد؟  
فقال وحيد مقطبًا:  
- لم أتزوج بعد!  
- أعجب ما سمعت، لم تكن الكوابيس التي أراها  
بلا سبب! ورضوان؟  
- البقية في حياتك...  
- حقًا؟... لم تبق إلا الأساء...  
وسكت مليًا ليهضم أنباء الزمان، بلا انتباه للتوتر  
المستحوذ على الجالسين، ثم سأل:

- من الفتوة اليوم؟  
فقال وحيد بشجاعة لأول مرة:  
- ابنك وحيد!  
فانتفض الرجل من التأثر وقال:  
- حقًا؟

- ابنك وحيد يا أبي...  
وقص قصة الرؤيا والثوب إلى الفتوة فتهلل وجه  
ساحة وهتف:

- أول نبا من السماء...  
وشبك ذراعيه فوق صدره تمتنًا وقال:  
- إذن قد رجع عهد عاشور...  
ركبهم الارتباك والحرج ولكن وحيد قال بجرأة:  
- عهد عاشور رجع!  
فهتف الضير:





# شهد المدكة

## الحكاية السادسة من ملحمة الحرافيش

- ٣ -

ولبت رمانة حبيس داره حتى بعد زوال الأسباب  
الداعية إلى ذلك. فقد تراجع وحيد عن وعيده بمجرد  
عودة سباحة، ولكن رمانة كره الخارج، وغاب عن  
الوعي والكرامة. وكان يعيش في شبه عزلة عن زوجاته  
الأربع، ولم يسئل قط عن رثيفة، ودأب على السكر  
والمخدر.

وذات مساء اشتد به السكر فمضى مترنحاً إلى جناح  
الشيخة ضياء، فدار حول مجلسها وهو يقهقه، وراح  
يقول لها ساخراً:

- إنك أصل البلاهة والبلاء...

وظلّت المرأة غائبة فقال:

- إني في حاجة إلى نقودك فأين تكنزينها يا  
معتوهة؟

وقبض على يدها وأنهضها بعنف ففزعت المرأة  
وضربت بالمخرة في وجهه. عند ذلك جنّ غضبه فقبض  
على عنقها وشدّ بعنف فلم يتركها إلا جثة هامدة.

- ٤ -

ارتجت الدار بالفرع. انقضّ الخبر على الحارة. أبلغ  
شيخ الحارة الحديد جبريل الفصّ القسم. قبض على  
رمانة. حوكم وقضى عليه بتأييده. ودعا عزيز إليه قبيل  
حمله إلى الليمان وقال له:

- أعترف لك بأنني مدبر قتل أبيك.

فقال عزيز بأسى:

- ١ -

تدهورت صحّة سباحة فاضمحلّ سريعاً، وما لبث  
أن أسلم الروح وهو يتأهب للنوم عقب صلاة الفجر.  
وكأنه لم يرجع من منفاه إلا ليُدفن في جوار شمس  
الدين. غير أنه مات سعيداً، مات وهو يتوهم أنه إنما  
يهجر فردوساً إلى فردوس. وقال عزيز:

- لقد أنكرنا حقيقة حياتنا أمامه فاعترفنا بذلك - بما  
فيها وحيد نفسه - إن حياتنا منكر لا يجوز إفشاؤه على  
مسمع من الطيبين.

- ٢ -

ونجح عمل الغلال نجاحاً عظيماً، وأثرى عزيز ثراء  
واسعاً. وقنع من البطولة بإيمان القلب، وحبّ الخير  
وممارسته في نطاق محدود. أفلح عن أحلام النبيل مؤثراً  
السلامة، ومعتزلاً عن تقصيره أمام ضميره أنه لم يعد  
للبطولة ولم يملك وسائلها.

وخطبت له عزيزة ألفت الدهشوري كريمة عامر  
الدهشوري صاحب وكالة الحديد فرضي باختيار أمه  
ملهمة حياته وراعية أمنه ونجاحه. ورُفّت إليه بعد  
مرور عام على وفاة جدّه سباحة. وأقام معها في دار  
البنان التي اشتراها وجددها فأصبحت دار عزيز.  
وكانت العروس حسناء فارعة بدينة مثقفة في فنون  
البيت وآدابها فوجد فيها بغية قلبه وسرعان ما ربطها  
الحبّ برباط متين.

واستقبلا حياة مترعة بالسعادة والذويّة.

- أعرِف ذلك .

فقال بحزن:

- إنّه مدفون بملابسه في قبر وحيد لصق مقام  
الشيخ يونس . . .

- ٥ -

واستخرج عزيز جثة أبيه قرّة بحضور شيخ الحارة  
وغبر فضلاً عن وحيد وعزيزة . هكدا ظهر قرّة وهو  
هيكل عظيمي فجدد الأحزان . وكفن ثم شُيع في جنازة  
مهيبه ثم أعيد دفنه في قبر شمس الدين .  
وقالت عزيزة:

- ليرتح اليوم قلبي ، كان ذلك بعض حلمي ، وقد  
ضمنت به أن أرقد إلى جواره إذا حان الأجل .

- ٦ -

وناوش الأم من جديد ضمير عزيز . وكلما ساءت  
سمعة وحيد اشتدّ ضغط الأم عليه . لقد غدا الفتوة  
مضرب الأمثال بشدوذه وشراسته في الحيّ كلّ لا في  
الحارة وحدها . وقد عاش بضعة أعوام بعد وفاة أبيه ،  
ومات أثر هبوط في القلب نتيجة الإفراط في البلعة .  
وفي أثناء ذلك كلّ كان عزيز يتحرّى عمّن يصلح  
للفتونة من آل الناجي الكثيرين لعلّه يبعث عهد  
عاشور بعد موات ، ولكّنه وجد آل الناجي قد ذابوا في  
الخرافيش ، فهصرهم الفقر والبؤس ، واستلّ من  
أرواحهم خير ما فيها . هكدا فوجئ بموت وحيد دون  
أن يعدّ له خليفة لائقاً . وسرعان ما واجهته مشكلة  
غاية في الحساسية . هل يُدفن إلى جوار شمس الدين؟  
لقد أبى قلبه ذلك . قالت له ألفت الدهشوري:

- إنّه عمك على أيّ حال . . .

ولكّنه ظلّ على إباته ، ودفنه في قبر من قبور الصدقة  
بحوش الناجي . ومن عجب أنّ ذلك التصرف لم  
يقابل بارتياح في الحارة . وقال سنقر الشّام الختار  
الجديد:

- جامله حيّاً وانتقم منه ميتاً . . .

- ٧ -

ووثب إلى الفتونة نوح الغراب . كان فظاً غليظاً  
نهياً . هادن فتوات الحارات واستثمر قوته في الاستبداد  
بالحارة حتّى صار من كبار الأثرياء في عام واحد .  
وتحمّل الناس وطأته بلا مبالاة ، ولم يعد أحد يتحسّر  
على فتونة الناجي بعد أن تلاشت أحلامها العذبة على  
يد وحيد . وابتهج الوجهاء ، وانحشر الحرافيش في  
طور جديد من أطوار الصعلكة والبؤس .

- ٨ -

دارت الشمس دورتها . تطلّ حينئذ من سماء  
صافية ، وحينئذ تتوارى وراء الغيوم . وقد جدّد عزيز  
الزاوية واختار لها شيخاً جديداً هو الشيخ خليل  
الدهشان عقب وفاة إسماعيل القليوبي . وجدّد أيضاً  
السبيل وحوض الدوابّ والكتّاب القديم .

وترملت رثيفة فعاشت وحيدة في دارها مع الخدم .  
ورثت عن زوجها الجديد ثروة غير قليلة ولكن انقطع  
ما بينها وبين شقيقتها عزيزة تماماً كما أنّها غريبتان بل  
عدوّتان . ومن عجب أنّها كانت تتهمها بأنّها سبب كلّ  
شرّ حاق بها ، وأنّها نفخت فيها روح التعاسة مذ كانتا  
في المهدي .

وخرقت مألوف التقاليد في الحارة عندما مضت  
تزور رمانة في سجنه ، فأعلنت بذلك حبّها له رغم كلّ  
ما حصل .

هكذا مضت السنون بخير لا يُذكر وشرّاً لا يُحصى .

- ٩ -

وذاث يوم علم عزيز قرّة الناجي أنّ أحد عمّاله لقي  
حتمه وهو ينقل حولة من الغلال . كان يدعى عاشور  
وينسب نفسه بصدق إلى آل الناجي لانحداره من  
فتحية أم البنات زوجة سليمان الناجي الأولى . امتلأ  
قلب عزيز الرقيق بالحزن ، فدفن الرجل ورثب لزوجته  
معاشاً شهرياً . وبالتحرّي عن أسرته عرف أنّ بناته  
تزوجن ، عدا بنت صغيرة في السادسة تدعى زهيرة ما  
زالت في حاجة إلى الرعاية . اقترح عزيز على الأم أنّ  
تضمّ الصغيرة إلى داره لتكون في خدمة أمّه عزيزة

## ملحمة الحرافيش ٨٢٧

في واقع ملموس من أجل خيال قد لا يتحقق أبداً...  
ثم مواصلاً بنبرة من قرّر أن يخفي الموضوع:  
- لقد وعدتها بالموافقة فضلاً عن أنها صاحبة الحقّ  
الأول في ذلك.

## - ١٢ -

جهّزتها عزيزة هانم بالفراش والثياب والنحاس.  
ودائماً كانت تردّد:  
- يا للخسارة...

وكان عزيز يحسني قهوة الصباح قبيل ذهابه إلى  
المحلّ عندما جاءته عزيزة بهزيمة لتودّعه شاكراً ضيافته  
لها، قبل مغادرتها الدار. دخلت الأم وهي تنادي:  
- تعالي يا زهيرة لتقبلي يد سيّدك...  
وهمس عزيز معترضاً:  
- ما ضرورة ذلك يا أمي؟!

دخلت الفتاة مسرّبة بالحياء والارتباك ثمّ وقفت  
عند الباب. نظر نحوها مشجعاً. ثبت بصره عليها  
ثواني ثمّ سرعان ما استردّه. قرّب بصره. حافظ على  
وقاره الظاهر تحت عيني أمّه وزوجته. كتم الدهشة في  
أعماقه. دهشة عنيفة جاححة. كيف دلفن هذا الكنز في  
جناح أمّه؟ كيف أخفي سرّه عنه؟ إنّه قوام رشيق لا  
يتأقّق لراقصة. وصفاء بشرة لا يحظى به بشر. وفتنة  
عينين مسكرة مخدّرة. إنّه روح الجمال الفتاك. لحظ  
ألفت هانم فوجدها منمكة في إرضاع طفل فتهاك  
نفسه وقال متشبّثاً بالنجاة:

- مبارك عليك يا زهيرة.

فقالت عزيزة:

- قبلي يد سيّدك.

مدّ يده. اقتربت حتى اجتاحت رائحة القرنفل  
المتطايرة من شعرها الفاحم المسترسل، شعر بانطباع  
شفتيها فوق ظاهر يده. خطف منها نظرة أخرى وهي  
راجعة. وسرعان ما دهمه لإهام بأنّه سيرى ذات يوم  
معجزة.

## - ١٣ -

من عادته صباحاً أن يمضي بالدوكار إلى الحسين

هانم فرحت بذلك أيّما ترحيب. وانتقلت زهيرة إلى  
جناح عزيزة وكأنّها انتقلت إلى الفردوس. تجلّى لونها  
الحقيقيّ لأوّل مرّة، نعمت بالغذاء والكساء، مارست  
واجبات الدار. واستحققت عطف عزيزة فخصّتها  
بمعاملة رقيقة دون الجوّاري والخدم، بل أرسلتها فترة  
إلى الكتاب. ولم يهتمّ عزيز برؤية البنت ولكنّه أوصى  
أمّه بها وهو يقول في دعابة:  
- لا تنسي أنّها من آل الناجي...

## - ١٠ -

وزارت أمّ زهيرة المعلّم عزيز في حجرة الإدارة وقد  
نسيها تماماً. ذكّرتّه بنفسها، وبالعامل عاشور الذي  
مضت عشرة أعوام على مصرعه، ودعت له طويلاً،  
ثمّ قالت:  
- يدوم عزّك، عبد ربّه يرغب في الزواج من  
زهيرة.

وتدكّر المعلّم عزيز البنت وكان قد نسيها أيضاً  
فسأل المرأة:

- هل تريه كفتاً لها؟

فقالت باعتزاز:

- شابّ كامل، رزقه كافٍ...

فتمتم عزيز بلا اكتراث:

- على خيرة الله...

## - ١١ -

على مائدة العشاء أنهى عزيز إلى عزيزة هانم وألفت  
هانم قراره. وسرعان ما قالت ألفت ضاحكة:

- عبده القرآن! إنّه بغل...

وقالت عزيزة محتجّة:

- البنت ممتازة وتستحقّ من هو خير من عبده  
القرآن!

فتساءل عزيز ضاحكاً:

- هل تتوقّعين أن يتقدّم لها تاجر؟

- جمالها يؤهلها لذلك...

فقال عزيز بلا مبالاة:

- الولد كفه لها، أنّها راضية، لا يصحّ أن نفرط

يُستعمل مطبخًا وحمّامًا. وتذكّرت الفردوس المفقود، ولكنّ غريزتها همست بأنّه كان فندقًا للعبور لا للإقامة، وأنها كانت به ضيفة، أمّا هذا البدروم فهو بيتها ومصيرها، فيه ملكت رجلًا، وحققت حلمًا، واطمأنّ القلب.

- ١٥ -

وتمكّن الحبّ من قلبه فكاد يهتك ستره، ولكنّه غلا في إظهار الرجولة. وحقّ قبل أن ينتهي الشهر الأوّل سألها:

- هل تقعين في البيت كما تفعل الهوانم؟

فتساءلت بدورها:

- ماذا تريدني أن أفعل؟

فقال بحزم:

- اليد البطّالة نجسة!

- ١٦ -

هكذا سرحت زهيرة بالملبن وبراعيث الستّ. ارتدت جلباب العمل الأزرق يغطيها من العنق حتّى الكاهل، وخطرت وهي تنادي:

- الملبن يا أولادا

بانطلاقها إلى الطريق اكتشفت ذاتها. تنبّهت إلى سحرها وقوتها. الأعين تلتهمها، الألسنة تتغنى بالثناء عليها، منظرها يبعث السحر ويخلق الحركة. إنّها قويّة مدلّلة بالطبيعة والناس. وهي تقابل الغزل بالترفّع والكبرياء، وتزداد تبيها وثقة بالنفس.

- ١٧ -

وتوثقت العلاقة بينها وبين عبد ربّه. في الأعماق هو رجلها وهي معبودته. يعاملها بتقاليد الرجولة ولكنّه يجدها صلبة بقدر ما هي محبّة، غضوبية أحيانًا بقدر ما هي مخلصّة. وأنجبت له «جلال» فسرى رحيق الأمومة في أعطافها وتلقّت سعادة جديدة.

- ١٨ -

وكان عبد ربّه الفرّان يحمل الخبز إلى دار رثيفة

فيقرأ الفاتحة ثمّ يميل إلى السكّة الجديدة فالصاغة فالنحاسين ثمّ ينتهي إلى المحلّ. فقَدَ نفسه طيلة الطريق. روحه تهيم في مساوات ويبقى جسده في الدوكار بلا روح. هل عرف أخيرًا لم تشرق الشمس؟ لم تتألّق النجوم في الليل؟ عمّ تفصح أناشيد التكيّة؟ لم يتعدّب المجانين بالسعادة؟ لم نحزن للموت؟ وتمرّ عشرة أعوام وهذا الجبال يتنفّس في كنفه! كيف غاب السحر عن أمّه وزوجته؟ هل تظنّ البنت إلى ثرائها؟ أهي مثل الريح تزعزع الأركان بلا تبه؟ هل جنّت الأمّ لترحبّ بعبده الفرّان ذلك الترحيب الأعمى؟ هل يوسعها أن يحول بين المطر وبين أن ينهمر؟ يا لتعاسة القلوب الغافلة!

في عشية الزفاف زارته أمّ زهيرة لشكره. تفرّس في وجهها بحبّ استطلاع. عجوز تشي مخلّفاتها بجبال دابر. رمقها بحنق خفيّ. قال:

- كلّ شيء على ما يرام؟

- بفضل الله وفضلك.

- ألم تتعجّلي؟

فقالت بتسليم:

- فامتعتها مقروءة منذ مولدها.

ومضت وهو يلعبها في سرّه. وتساءل محزونًا لم لا تفعل ما نشاء؟!

- ١٤ -

رُفّت زهيرة إلى عبد ربّه الفرّان في حفل متواضع. لم يرها مذ كانت في السادسة ولكنّه اعتاد أن يعتبرها حليلته. ولما رآها ليلة الدخلة صعقه جمالها ولكنّه كان مشحونًا بتعاليم وتقاليد أوجبت عليه التظاهر بالثبات والسيادة. كان فوق العشرين بعام، طويلًا مفتول العضلات، ذا سحنة شعبيّة صميمة بنتوء خديّه وطفس أنفه وغلظ شاربه. حليق الرأس مثل زلطة عدا ذؤابة نافرة في المقدمة. صلب ركعتين، وأنخذ من الخشونة إهابًا يخفي به عدوية الأعماق.

أعجبت برجولته، استنامت إلى حرارته، سلّمت به مثل قدر.

وجدت نفسها في بدروم مكوّن من حجرة ودهلين

## ملحمة الحرالميش ٨٢٩

فقال ألفت هانم معترضة:  
 - إنَّها ذات وليد لا تستطيع فراقه في هذه السنِّ  
 وصحبته مدعاة للقدارة...  
 تابع عزيز الحوار باهتمام. شعر بأنَّ زوجته لا ترتاح  
 لرجوع زهيرة إلى الدار فاشتعل وجدانه بالتوجُّس وكانَّ  
 إصبعًا يشير نحوه بالاتهام، فقال بحزم:  
 - رأي ألفت عين الصواب!

- ٢١ -

كانت زهيرة تمشط شعر رثيفة في قاعة الجلوس  
 عندما دخلت خادمة لتستأذن لقادم قائلة:  
 - المعلم محمد أنور...  
 من تعليق رثيفة عرفت زهيرة أنَّ القادم هو ابن  
 المرحوم زوج رثيفة، وأنه ظلَّ على ولائه لها حتَّى من  
 بعد ما ذاع ما ذاع عن زيارتها لرمانة في سجنه.  
 وسرعان ما جاء القادم فسلمَّ وقدم لفافة أنيقة لأرملة  
 أبيه وهو يقول:  
 - البطارخ!  
 فتهلل وجهها وشكرته. كان شابًا متوسط الطول  
 مقبول الملامح، جميل الجبَّة والقفطان. قالت له:  
 - فيك الخير يا محمد.  
 فقال بانسراح:  
 - يهمني أن تذوقي البطارخ قبل أيِّ زبون من  
 زبائن دكائي...  
 فسألته بدعابة:  
 - متى تدعني أدفع الثمن مثل بقية عشاق البطارخ؟  
 فقال وهو يتناول قذح قرفة محشوة باللوز والجوز  
 والبندق:

- عندما تشرق الشمس من الغرب!

فضحكت رثيفة وقالت:

- فيك الخير يا محمد.

وهو يحتسي القرفة وقعت عيناه على زهيرة وهي  
 منهمكة في تمشيط سيديتها. دهل. لم يصدق عينيه. ركز  
 عينيه في القذح وكأنَّه يهرب. قال في سرِّه «الغياث بالله  
 من صنع الله».  
 وسألته رثيفة:

هانم، فسألته ذات يوم:

- لماذا تترك زوجتك تسرح في الطريق؟

فقال الرجل بتسليم:

- الرزق يا ست هانم.

- الرزق متعدّد السبل، إنِّي امرأة وحيدة وفي حاجة  
 إلى وصيفة، وخدمتي توفّر رزقًا أكثر وتقي من شرِّ  
 الطريق...  
 فأخذ عبد ربّه وتساءل في حيرة:

- وجلال الصغير؟

فقال بإغراء:

- لن أفرق بين الأمّ وابنها...  
 فغزا الطموح قلبه وقال:

- الأمّ والأب والابن في خدمتك يا ست هانم.

- ١٩ -

تمتت زهيرة بقلق:

- رثيفة هانم!

فقال عبد ربّه:

- هانم واسعة الثراء ووحيدة.

- ولكنتها عدوة عزيزة هانم اللدود!

- لا شأن لنا بذلك، وخدمتها أيسر وأغنى من

التسوّل في الحارة وأنت حاملة القفّة بذراع والطفل  
 بذراع...  
 - الأفضل أن أعمل في خدمة عزيزة هانم.

فقال عبد ربّه باستياء:

- ولكنتها لم تطلبك وهذا يعني أنّها لا تريدك...  
 وصممت زهيرة ولكنَّ حلمها بالفردوس نشط منجديد...  
 استشاطت عزيزة هانم غضبًا عندما علمت بالخبر

وهفت:

- يا لها من بنت متعجّلة...  
 ففعلت ألفت هانم:- لم تقصدك بسوء ولكنتها تسعى للرزق...  
 - نحن أولى بها!

فتساءلت ترى أياكون حلمها رجلاً مثل محمد أنور؟ لم  
تجد من قلبها أي خفقة تنبئ عن جواب. وتأمله عقلها  
بلا حماس وبلا فتور. ودمتها فكرة متحديّة تقول إنّ  
قلب المرأة هو ضعفها. وإنّ علاقتها بالرجل يجب أن  
تتحدّد بعيداً عن الغريزة والقلب. الحياة غالية مترامية  
الأبعاد لا حدّ لأفاقها، وما الحبّ إلاّ متسوّل ضريّر  
يزحف في أركان الأزقة. وتنهّدت وقالت لنفسها:  
- ليس أتعس من الحظّ السيّئ إلاّ الرضى به.

## - ٢٣ -

وكانت زهيرة تُرضع جلال في قاعة الجلوس عندما  
رأت فجأةً محمد أنور يقتحم المكان. بسرعة دسّت  
ثديها في ثوبها وحبكت الخمار حول رأسها مرتبكة  
بالحياء. رنا إليها مضطرب النظرة ثمّ تساءل:

- أين رثيفة هانم؟

أيقنت بكذبته، لم تشكّ في أنّه رأى الهانم في  
الدوكان وهو ماضٍ بها إلى الميدان، ولكتها أجابت  
بأدب:

- خرجت في مشوار.

فتردّد ملياً ثمّ قال:

- أنتظروا... كلاً، يجب أن أرجع الآن إلى  
الدكان، أليس كذلك؟

فقال بحسم ودون مبالاة بالمجاملة:

- مع السلامة يا سيدي!

ولكنّه لم يكن ينوي الذهاب. تسمرّ تحت وطأة قوّة  
طاغية. واقترب ببصر زائف يشي برغبة جنونيّة جاحدة.  
تراجعت مقبلة. اقترب أكثر فقالت بحدّة:

- لا... لا...

فتمتم في هلوسة:

- زهيرة!

فهتفت:

- سأذهب إن لم تذهب أنت!

- حلمك... إني... إني أحبّك... .

فقال بحزم:

- لست ساقطة!

- معاذ الله... إني أحبّك... .

- كيف حال تجارتك؟

فاستردّ نفسه من عالم الافتتان وقال:

- عال والله الحمد.

ولاحظت زهيرة نظرة منه إليها متسوّلة تبرق  
بالانبهار فافتتّر باطنها عن بسمة.

## - ٢٤ -

كان محمد أنور يتردّد على دار رثيفة في كلّ مناسبة  
تسبح. غدا بالقياس إلى زهيرة عادة، كما غدّت نظراته  
الملتاعة عادة أخرى. وكان يجاذر من إثارة أدنى شبهة  
عند رثيفة، ويب دارها ما تستحقّه من السواء  
والاحترام. ما من رجل رآها إلاّ وجنّ بها. أصبحت  
تؤمن تماماً بأنّها أجمل من جميع هوانم الحارة. وهي  
أيضاً من آل الناجي مثل المعلّم العظيم عزيز. ولكن  
كم أنّها عجيبة الحظوظ في هذه الدنيا!... توقّر لامرأة  
داراً ولاخرى بدروماً. تعطي واحدة تاجرًا ثرياً وتعطي  
أخرى فزّاناً. لقد تقرّر مصيرها وهي عمياء. حتّى  
ميلها الفطريّ لزوجها لا يقنعها بالرضى. ليست الحياة  
شهوة وأمومة. ليست فقراً وكدحاً ونعيماً كاذباً مستعاراً  
من خدمة هانم غنيّة. ليست أن تملك قوّة مذهلة ثمّ  
تبددها في الخنوع. باطنها يتغيّر ببطء ولكن بثبات  
وإصرار. يتمخّض كلّ يوم عن حركة، كلّ أسبوع  
عن وثبة، كلّ شهر عن طفرة. إنّها تكتشف ذاتها طيّة  
وراء طيّة. تنشق من جوفها أنواع شتى من المخلوقات  
المتحفزة الصارمة. وتحاكم في الخيال أنّها وزوجها  
ومسكنها وحظّلها. تحقد على كلّ ما يطالبها بالرضى،  
على حكمة الأمثال وعطف الهانم وفحولة زوجها.  
وتتلقّى من المجهول شراباً ملتهباً به يستفحل الخيال  
ويشمل القلب ويطلع الفجر الأحمر.

وقال محمد أنور لرثيفة هانم ذات يوم:

- أما سمعت بالخبر؟... لقد وثبت إلى الفتونة في

بيرجوان امرأة!

فضحكت رثيفة هانم وقالت:

- أودّ أن أرى امرأة وهي تصرع الرجال... .

ودارت زهيرة ابتسامة إعجاب واشتعلت في قلبها

نيران غامضة. ورماها محمد أنور بنظرة مثلّهفة متوسّلة

- يا للعار!

فصاح:

- ملعونة الدار وصاحبها!

فصاحت بدورها:

- أنا لا أنكر الجميل...

فلطمها على وجهها وغادر البدروم.

جئت زهيرة بالغضب. انفجر الحلق المكتوم.  
صكّت الحجر بنظرة رفض نهائية. استغرقتها اللطمة  
فتضخمت واستفحلت وانساححت في وجدانها حتى  
قتلت حواسها. وانهالت بقبضتها على الفراش دون  
مبالاة بصراخ جلال.

وغادرت البدروم قاذفة بالماضي في أحضان الفناء.

- ٢٦ -

عجبت رثيفة هانم لعودة زهيرة السريعة عقب  
ذهابها بساعة واحدة، ولكن الفتاة سألتها:

- هل تتسع دارك يا ست هانم لإيوائي؟

- لم كفى الله الشر؟

فقال بمسكنة:

- لن تطيب الحياة بعد الآن مع الرجل...

وهزّت الهانم رأسها مستطلة فقالت زهيرة:

- يريد أن يمنعني من خدمتك!

فقال رثيفة بامتعاض:

- الناكر للجميل...

- وانها على ضرباً...

- يا له من وحش لا يدري أيّ كنز يجوز!

وتفكرت الهانم قليلاً ثم قالت:

- ولكني لا أحبّ تخريب البيوت...

فقال زهيرة بإصرار:

- إني راضية عمّا أفعل...

فقال رثيفة باسمّة:

- الدار دارك يا زهيرة!

- ٢٧ -

تلعنم عبد ربّه الفران بالخجل تحت نظرات رثيفة  
هانم. غمغم مستغفراً ولكنّه ركّز على هدفه بإصرار

واضطّر إلى التراجع خوفاً من شبح رثيفة فقال وهو

يمضي:

- كيف أتزوج من امرأة متزوجة!

- ٢٤ -

عاشت في دوامة من التمرد والتحقر. على الحياة أن  
تغيّر وجهها. القوّة كفيّلة بأن تغيّر أبعاد الكون. كلّ  
دقيقة تمرّ بلا تغيير انتصار للدّلّ والتعاسة. ولكن كيف  
تخوض المعركة؟ وانتهزت فرصة صداع ألم برثيفة هانم  
فتطوّعت قائلة:

- سأبيت معك يا ست هانم...

فتساءلت رثيفة:

- وزوجك؟

- لن يقتله الرعب إذا بات وحده!

وعندما مضت ساعتان على موعد رجوعها جاء عبد

ربّه مستطلاً فقابلته وقالت له:

- الهانم مريضة...

فسكت الرجل لا يدري ماذا يقول ثمّ تساءل

بمرارة:

- أما كان يجب أن تخبريني؟

فقالت بعجلة وضيق:

- الهانم مريضة ألا تريد أن تفهم!

- ٢٥ -

لدى رجوعها إلى البدروم في مساء اليوم التالي أدرك  
عبد ربّه أنّ الهانم كانت متوعكة توعكاً خفيفاً لا  
يقتضي البيات خارج المسكن. واجتساحه الغضب  
فقال:

- الهانم ليست في حاجة إليك فالدار ملأى

بالجواري...

فغضبت أيضاً إذ كانت تتمنى الغضب بأيّ سبيل

وتساءلت:

- أهدأ جزء الإحسان!

فقال بحزم:

- أخلاقك تسوء يوماً بعد يوم وقد قرّرت ألا

تعودي إلى الدار...



ورجولة . قال :

- ماذا تعني لظمة؟ ... ليست بعاهة مستديمة!

فقالت الهانم باستياء :

- إنك مخطئ وجهول ...

فتمتم بأدب وتصميم :

- عليها أن ترجع معي الآن ...

فقالت رثيفة بحدّة :

- عندما تعرف قيمتها لا قبل ذلك .

وانترع قدميه من موقفه وقد احمرت الدنيا في عينيه .

- ٢٨ -

جلس عبد ربّه في الخيّارة يعبّ من القرعة ويهفّف  
شاربته بكمّ جلبابه الأزرق . لا حديث له إلّا زهيرة .  
قال :

- هربت ومعها الولد .

فقال أحد السكارى :

- أنت خرج ...

فهتف محتجّاً :

- رثيفة هانم تشجّعها!

فقال له الخيّار سنقر الشّام :

- تصرف كرجل .

- ماذا تعني؟

- طلقها!

فتقلص وجهه وقال :

- أحقر شعرة في جسدي تستطيع أن تقتل امرأة .

فقهقه نوح الغراب الفتوة وصفعه على قفاه مداعباً

وهو يقول :

- يا عنترّة!

فباخ غضبه وقال بخشوع :

- من معلّمى الأكبر تجميء المشورة ...

فقال نوح الغراب وقد احمرت عيناه بالخمر

والسطل :

- دشها بقدمك حتّى تصير خرقة بالية ...

أمّا جبريل الفقي شيخ الحارة فقال :

- في الطلاق راحة للبال .

فقال نوح الغراب :

- الطلاق في مثل هذه الحال عجز .

وراح عبد ربّه الفرّان يتساءل :

- من قال إنّ الزواج نصف الدين؟ ... ألاّ إنّه

نصف الكفرا!

- ٢٩ -

مضى عبد ربّه مترنّحاً في الظلام حتّى وقف تحت

دار رثيفة هانم . جاش صدره بالخمار والغضب .

تصارعت في قلبه المحتقن تقاليد الرجولة وهمسات

الحبّ المستبدة . وبصوت غليظ متحشرج صاح :

- انزلي يا بنت يا زهيرة ...

وجعل يخور وهو يترنّح ، ثمّ يعاود الصياح :

- معي نار الفرن وشياطين القبور ...

وفتحت نافذة فأطلّ منها الشيخ خليل الدهشان

شيخ الزاوية وتساءل بغضب :

- من المجنون؟

- أنا عبد ربّه الفرّان .

- انجرّ يا سكران يا رجيم .

- أريد زوجتي والشرع معي!

- كفاك عربدة وتهجّجاً على دار الطيّبين!

- من ينصفني إذن إلّا إبليس؟

فصاح به :

- عليك اللعنة ...

انفضّ على باب الدار وجعل يضربها بقبضته حتّى

لحق به جبريل الفصّ شيخ الحارة فشده من ذراعه وهو

يقول :

- اخرس يا مجنون، سر معي ، ساكون شفيعك

لدى الهانم!

- ٣٠ -

وجد جبريل الفصّ رثيفة هانم غاضبة نائرة .

أصبحت المعركة بينها وبين عبده الفرّان بعد أن كانت

بين زهيرة وبينه . قالت بحدّة :

- الفرّان الحقير!

فقال شيخ الحارة :

- ما هو إلّا خادمك ...

ملحمة الحرافيش ٨٣٣

- هذه إرادتي إذا صممت!  
أجل. إلتها امرأة قويّة رفيعة الشأن. غير أنّها لم تنفّذ  
مشيئتها إلّا باللجوء إلى الفتوة. الفتونة حلم الخيال  
الأبدّي. حصرة آل الناجي المهلكة، ذروة الحياة  
ألتلّفعة بأضواء النجوم.

- ٣٣ -

وابتسمت مشجّعة!  
ها هو محمّد أنور تاجر البطارخ يقول لها:  
- مباركة عليك الحرّية والكرامة.  
ويتنهد فرصة ذهاب رثيفة هانم لشأن من شئونها  
فيهمس:  
- إني وقلبي في الانتظار.  
وتشعّ عيناه ببريق الرغبة فيواصل إبتهاه:  
- على سنّة الله ورسوله!  
تري بأيّ عين ينظر إليها؟ عين تاجر إلى خادمة؟  
الحقّ أنّه لم يملأ عينها قط. طالما رأته هسّا وذليلاً.  
ولكنّه قادر على أن يجعل منها هانماً من نوع ما. هل  
يمكن أن تطمع في خير منه؟  
وابتسمت له مشجّعة.

- ٣٤ -

سكر عبد ربّه تمامًا حتّى مادت به أرض البوظة  
الثابتة. وسأل سنقر الشّمّام:  
- هل يعيب الرجل أن يبكي؟  
فضحك الخنّار قائلاً:  
- إذا كان في حجم البغل مثلك...  
فحمل عبد ربّه القرعة بين يديه وجعل يميل بها يميناً  
ويسرة كأنّما يرقص وراح يقول:  
- تلاش يا عبد ربّه، اندفن في الظلام، حتّى تراب  
الحارة أقوى منك، هل جرّبت قوتك إلّا مع العجين  
وأنت تدفع به داخل الفرن؟ الله يرحمك يا عبد ربّه!  
- ماذا جرى لعقلك؟  
- طلق، طلّقت، بكلمة انتهيت، حتّى القملة  
تقاوم، يا فرحة العدا فيك يا عبد ربّه...  
فقال له سنقر محدّراً:

- ألم تشهد وقاحته؟... أسلمها له ليتنقم  
منها؟...

- أعتقد أنّه يحبّها يا ستّ هانم!  
- الحيوان لا يعرف الحبّ...  
فتساءل جبريل الفصّ:  
- وإذا طلبها لبيت الطاعة؟  
فقالت بإصرار:  
- لن تضيق بي الخيل!

- ٣١ -

استدعى نوح الغراب عبد ربّه الفران إلى مجلسه  
بالمقهى. نظر إليه ملياً ثمّ قال بنبرة أمرّة:  
- طلق المرأة!  
فذهل عبده الفران. اجتاحه اليأس. أدرك أنّ  
رثيفة هانم عرفت كيف تنتقم: واستثقل الفتوة صمته  
فهتف:  
- فقدت النطق؟  
فقال بخشوع:  
- ألم تقل يا سيّد الناس إنّ الطلاق في مثل حالتي  
عجز؟  
فقال بسخرية:  
- وإنّك لعاجز!  
- الشرع معي يا سيّد الناس!  
فقال الفتوة بنبرة قاطعة:  
- طلق يا عبد ربّه.  
- ٣٢ -  
وقع الطلاق. سبق عبد ربّه إليه كما يساق المحكوم  
عليه إلى المشنقة. انتهى الحلم وضاعت الجوهرة.  
وثملت زهيرة بنشوة الانتصار وبهجة الحرّية. في الوقت  
نفسه وجدت نبضة أمي في الأعماق أسفاً على حرارة  
ستفقدتها إلى الأبد. وضمتّ جلال إلى صدرها فتبدّى  
لها ثمرة حبّ لا يستهان به. وسرعان ما طالبها  
طموحها بالتعويض الكامل. وتجلّت لها شخصيتها في  
صورة واضحة قاسية مجلّلة بالسموّ والألم.  
وقالت لها رثيفة هانم بمباهاة:

فقال عبد ربّه متشجّعاً:  
 - رغبتى أن أردك والعشرة لا تهون...  
 فتمتمت زهيرة:  
 - لا...  
 - العشرة لا تهون ولا تُنسى، وكانت لنا آيأنا  
 الحلوة!  
 فغضت بصرها لأول مرة وقالت بحزم:  
 - لا أنت لي ولا أنا لك!

- ٣٦ -

تسلّل محمد أنور إلى الدار في غيبة الهانم. قابل  
 زهيرة بلهفة وهو يقول:  
 - ليس من حقّي الحضور، ولكفّي أجازف من  
 أجلك بكلّ شيء، اتبعيني في الحال لنعقد زواجنا  
 فتساءلت في كبرياء:  
 - من ضمن لك موافقتي؟  
 فقال بدّل:  
 - إني أحبك يا زهيرة.  
 - ولمّ تدعوني إلى الهرب كأني لصة؟  
 فتنهّد وهو يقول:  
 - لا فائدة، لا تريد الهانم أن توافق أبداً!  
 فسألته بدهشة:  
 - فأنحتها في الموضوع؟  
 فحنى رأسه في غمّ وقال:  
 - عنيدة ومتكبرة!  
 تلقت طعنة في صميمها فقالت بزهو:  
 - إني من آل الناجي!  
 - عنيدة ومتكبرة، أمرتني أن أنقطع عن زيارتها أنا  
 الذي ولدت في هذه الدار...  
 واجتاحتها الغضب فقالت له:  
 - سأتبعك في الحال.

- ٣٧ -

رُقت زهيرة إلى المعلم محمد أنور تاجر البطارخ.  
 غضبت رقيقة ورمتها بالخيانة والخبث. دهشت الحارة  
 وجعلت من الزيجة حديثها فتردد كثيراً ذكر الحظّ

- إطاعة الفتوة شرف!  
 فانذر عبد ربّه رغم سكره وتمتم:  
 - الحمد لله...  
 ثمّ وهو يتنهّد:  
 - وقوة أخرى تطحنني!  
 - ما هي؟  
 - حبّ الملعونة بنت الملعونة!  
 فضحك سنقر وقال:  
 - هذا ما يعيب الرجل حقاً!  
 فغنى عبد ربّه بصوت مثل النهيق:  
 عجائب والله عجائب  
 فقال له سنقر الشّام:

- اشتغلّ بالغناء فالغنون فيما يبدو خائبون مثلك في  
 الحبّ...  
 - ٣٥ -

رجع عبد ربّه يحمل الأربعة إلى دار رقيقة هانم بعد  
 أن تشفّع له أكثر من رجل طيب. وذات مرة سأها  
 بخشوع:  
 - لعلك عني راضية؟  
 فقالت له ببرود:  
 - ما فات مات!  
 فتردد قليلاً ثمّ قال بضراعة:  
 - دعيني أنفرد بها دقيقة.  
 فرمقته بحذر ثمّ قالت:  
 - كلا.  
 - أكلمها إذا أذنت في حضرتك.  
 وتفكرت قليلاً ثمّ نادت زهيرة فجاءت في جلباب  
 كحليّ كوردة نضرة. ترامقا ملياً فلم ترمش أو تغضّ  
 بصرها. بدت غريبة بعيدة باردة. صورة متناقضة تماماً  
 مع صراع ناشب في الأعناق. قال عبد ربّه:  
 - قلبي أبيض، لننسى ما فات...  
 فلم تنبس بكلمة فقال:  
 - ندمت على ما كان مئي...  
 فواصلت الصمت حتىّ قالت رقيقة هانم:  
 - تكلمي يا زهيرة.

ملحمة الحرايش ٨٣٥

الوردى، ونظرة العين الساجية، ورشاقة الجيد وهو يتهايل في رضى.

- ٣٩ -

وزارت يوماً وليّة نعمتها عزيزة هانم فقُبلت يدها  
وقالت:

- دفعت بي ظروف إلى دار أخرى ولكن قلبي لم  
يتحوّل.

وصفا قلب عزيزة بالكلمة الطيبة. لثمت خذها  
وأجلستها إلى جانبها فعاملتها كندّ لها. امتلأت بنفحة  
سعادة وخيلاء. شربا القرفة وأكلت طبقاً على لوز  
بالمكسرات. وسألته عزيزة عن حالها وزوجها وجلال  
ابنها. وجاءت ألفت هانم فرحبت بها. وقالت لها  
عزيزة:

- هذا ما يستحقّه جمالك والجمال سيّد الأكوان.  
فقالته زهيرة:

- بل دعاؤك وعطفك يا سيّدة النساء.

- ٤٠ -

وعقب عمّد أنور على الزيارة متسائلاً:

- ورثيفة هانم ألا تزورينها أيضاً؟  
فقالته بغصّة:

- المتكبّرة!... عليها اللعنة.

- سيجنّ جنونها!

- فليجنّ جنونها.

فساوره القلق وتمتم:

- لا حدّ لشرّها!

فتساءلت وهي تسبل جفنها على نظرة مآكرة:

- ألسنت رجلاً؟

فتقلّص قلبه وصمت.

- ٤١ -

وذات أصيل شهدت الحارة منظرًا لا يُنسى.

كانت زهيرة سائرة تخطر في ملاءمتها الفاخرة عندما  
وقف دوكار رثيفة هانم على كئيب منها. وأطلّ رأس  
الهانم، وسُمع صوتها وهي تقول بنبرة عتاب لا تخلو

السعيد وليلة القدر وعجائب الحبّ. وحملت معها  
جلال فرحّب به الرجل، وعدّ نفسه أسعد خلق الله.

وجدت زهيرة نفسها - لأول مرّة - ستّ بيت. ها

هي تملك شقّة متعدّدة الغرف، ثمينة الأثاث، فيها  
الحمام والمطبخ، وبها خزّان يملؤه السقاء كلّ يوم.

وملكت أيضاً الفساتين والملاءات القريشة وعرائس  
البراقع الذهبية. وباتت في عنقها قلادة، في أذنيها

قرط، في ساعديها أساور ذهبية، في ساقها خلخال من  
فضّة.

وحفلت سفرتها بالأطعمة اللذيذة، لا تكاد نقلّ  
نفاسة عن أطعمة دار عزيز أو دار رثيفة، وهي  
صاحبته كما هي طاهيته.

وما إن مضى الشهر الأوّل حتّى قرّرت أن تحطّم  
القضبان فهي تخرج لزيارة أمّها أو جارة أو زيارة

الحسين. ورآها الناس في زيّها الجديد فهتفت أعياقهم  
سبحان الله الخلاق العظيم.

- ٣٨ -

سعد محمّد أنور بزهيرة سعادة تفوق الخيال. لم

يقتصد في إعلان حبّه وإعجابه وتعلّقه الجنونيّ بها،

وتدليله غير المحدود لها. ومن بادئ الأمر لم يرتح  
لخروجها وعرضها فتنّتها الباهرة على الأعين. وأفضى

إليها بملاحظاته في رقّة بالغّة ولُكته كدّر صفوها،

فسرعان ما تراجع وهو يباليخ في ملاطفتها. اكتشف أنّه

يتحمّل أيّ مكروه إلّا أن يُغضبها أو يحرم من رضاها

ومرحها. وأدرك أنّه ضعيف حيالها، مستهتر بالوصايا

التقليدية، ولُكته استسلم لتيار لا قبّل لقلبه بمقاومته.

عرف نفسه تمامًا، عرف أنّه أسير الحبّ ولعبته.

وثمّة شعور عميق وضح له مثل صورة حيوان

خرافيّ، وهو أنّه لم يملك معبودته بعد، لعلّه لا يستطيع

أن يملكها؟ لعلّها تستعصي على أن تُمتلك، إنّهُ شعور

مهزوم ذو وجه أصفر، يتعلّل بالعلل، ويستنجد

بالأوهام، ويغظّي مرارته بالمعاطيا وحلو الكلام. إنّهُ

عبد الحبّ لا نده ولا سيّده، وزنه في يده لا في قلبه أو

جسده، تستوي لديه حمرة الشروق وحمرة الشفق. إذن

فليتواز وراء الرقّة والعدوية ليحظى ببسمة الثغر

من مسحة من مودة:  
- زهيرة ا  
فالتفتت زهيرة مرتبكة فقالت الأخرى:  
- يا خائنة ا  
لم تملك إلا أن تقترب مائة يدها على مرأى ومسمع  
من كثيرين بينهم جبريل الفصّ وخليل الدهشان وعبد  
ربّه الفرّان. وقالت رثيفة:

- متى تزوريني؟  
فأجابت زهيرة وهي تزداد ارتباكًا:  
- في أقرب فرصة يا هانم، ما معني إلا...  
وغمغمت في حيرة فقالت رثيفة بنبرة عدوانية قاسية  
متحدية مباغتة:

- يسعدني أن أرحّب بخادمتي المخلصة...  
وسرعان ما اشتعل الغضب بقلب زهيرة فهتفت:  
- إني هانم مثلك ا  
واندفعت في طريقها وقد أعماها الانفعال...

## - ٤٢ -

وكان عبد ربّه الفرّان يسكر في البوطة ورياح  
أمشير تزجر في الخارج. وإذا به يقول:  
- حلمت أمس حلمًا عجيبًا...  
وكما لم يسأله أحد عمّا رأى وأصل حديثه:  
- رأيت الخماسين تهبّ في غير أوانها...  
فقال الختار سنقر الشّام ضاحكًا:  
- حلم من صنع الشيطان...  
- اقتلعت الأبواب، أمطرت التراب، طيّرت  
عربات اليد، أطاحت بالعمم واللانات...  
- وماذا صنعت بك أنت؟  
- تركتني أرقص فوق جواد أصيل...  
فقال له سنقر:  
- أحكّم الغطاء فوق دبرك قبل النوم!

## - ٤٣ -

شعر محمّد أنور بالخوف يزحف نحوه. أشباح  
الأخطار تتراقص في أركان دنياه الضيقة. هل يجيق به  
مصير مثل الذي حاق بعبد ربّه الفرّان؟ وجعل يبتلس  
فساد.

## ملحمة الخرافيش ٨٣٧

وجيه الحارة، وصديق زوجها. سيعلم الزوج أنها ليست مقطوعة من شجرة على الأقل. وتسلّلت إلى محلّ الغلال ورذاذ يتساقط فبلّ ملاءتها ووجنتيها. اقتنحمت عليه حجرة الإدارة. وجدته وحده، مجللاً بوقاره الجميل وقد وخطّ المشيب - متعجلاً بعض الشيء - شاربه. عرفها من أول نظرة. عرفها رغم البرقع. لم يكن في حاجة إلى تذكّر هاتين العينين الساحرتين المطلّتين حول العروس الذهبية. خيّل إليه أنّه القدر يفتحم حصنه.

تمادت إلى أذنيه نبرتها الناعمة وهي تقول:  
- لم أجد سواك ملجأً لخيبري.  
فتساءل وهو يضبط عواطفه التضاربية:  
- ما الخيرة كفى الله الشرّ؟

- زوجي!  
- إنّه رجل طيب فيما أعلم.  
- ولكنّ معاملته ساءت جدّاً في الأيام الأخيرة...  
- بلا سبب؟  
- يرغب في إذلالي.  
وقصّت عليه موقفه في الحارة فتفكّر عزيز قليلاً ثمّ قال:

- التصرّف بعيد عن الحكمة ولكنّ حقّه المشروع لا جدال فيه.  
لقالت بحرارة:  
- لا يُفرض السجن على امرأة في حارتنا...  
فتبسّم المعلم عزيز وقال لها:  
- سأحدّث عنك باعتبارك من آل الناجي ولكن عليك أن ترضي بالمعقول...  
- ٤٤ -

استمدّ محمّد أنور من يأسه شجاعة. وكان في صميمه مشفقاً من فقدها. لذلك ما كاد يراها - من دكانه - خارجة إلى طريقها حتّى فقد رصانته فاعترض سبيلها وقال لها بحزم:  
- ارجعي إلى البيت!  
فذهلت وهمست له:  
- لا تثر فضيحة...  
فقال بعناد:  
- ارجعي إلى البيت.  
ولحت العين تزحف نحوها مثل الأفاعي فاضطرّت إلى الرجوع وهي تغلي...  
- ٤٥ -

في المساء، وعند ذهابه إلى بيته، وجد محمّد أنور عاصفة في انتظاره. كان يتوقّعها تماماً. وكان أبغض شيء إلى قلبه أن يتهادى في الغضب، أن يفسد الجوّ، أن يطمس الجمال المعبود بالسخط. وأيدى استعداده لأيّ تنازلات تحت شرط الإذعان لرغبته المشروعة. قال لها:  
- لا تتصوّري أنّي أسعد بإهانتك، ما أريد إلا المحافظة على سعادتنا...  
ولكنّها بدت مثل هبة من غبار. اصفرّ الوجه وانقلبت السحنة وتطاير من العينين شرر. تجسّد الغيظ مقنناً أسود، وطفرت الكبرياء حيّة متوتّبة. وقال لنفسه أعوذ بالله من هذا الشرّ، أعوذ بالله من هذا القلب، ألا يشفع لي ما صنعت منك؟

## - ٤٧ -

شفاة المعلم عزيز لم تحقّق لها إلا ما هو دون القليل. لم يعد أمامها إلا الإذعان ولو إلى حين. إنّها تدعن وتضمّر السوء معاً. غير أنّ لقاء المعلم عزيز أسفر عن أشياء لم تجر لها في خاطر من قبل. أشياء مثيرة جنونيّة رائعة الجمال. أشياء قذفت بها إلى دنيا مغمورة بالأحلام. قالت لنفسها إنّ المعلم عزيز معجب بها. بل أكثر من ذلك. لقد أدلت عيناه

## - ٤٦ -

ووجدت زهيرة نفسها في سعي. إنّها تأبى أن تهزم. ولا تنسى موقفها الأليم بين يديه في الحارة... وهي لا تحبه ولم تحبه قط. ولكن كيف تتصرّف وأين تذهب؟ في مثل حالها تذهب الزوجة إلى أهلها وهي لا أهل لها. فإمّا سيّدة في ذلّة وإمّا هائمة على وجهها. تتربّص بها الشماتة في أكثر من دار وفي بدروم عبد ربّه أيضاً. وتذكّرت سيّدها الأوّل المعلم عزيز ساحة الناجي،

- ألا ترين أني زوجة وأم؟

فقال العجوز:

- ما يمرّ يوم إلا ونرى الشمس وهي تشرق ثم نراها وهي تغرب، وما على الرسول إلا البلاغ.

- ٤٩ -

سرعان ما تقهقر عمّد أنور. تخلّى عن صلابته الطارئة الزائفة فأوى إلى ضعفه الفطريّ. لشدّ ما آمن بأنّ زهيرة جوهرة، بلا قلب، وأنها تغلت من قبضته مثل الهواء. غير أنّه لم يتصوّر الحياة بدونها. هي روح الحياة وعادتها المسيطرة. وهي شديدة الخطورة لا يؤمن لها جانب، وهل ينسى ما حاق بعبد ربّه الفران؟ لا ثقة له فيها، وكلّما تزعزعت ثقته نزع أكثر إلى الالتصاق بها والاستحواذ عليها بأيّ ثمن. وفشله في ذلك يعني فشله في الحياة كلّها. في الدنيا والآخرة معاً. وسوف يظلّ الخصام بينها وبين رثيفة مصدر إزعاج له على طول المدى. إنّّه يعي تماماً أنّه أتعب الناس، وأنّ عليه ألاّ يضمن بتضحية.

ها هو مجلس المساء يضمّهما معاً. هي تُرضع راضي فوق ديوان، هو يدخن البوري، جلال بلاعب قطة. الحقّ أنّه لم يعد يطيق جلال. طالما عطف عليه وأحبه في الماضي، ولكن ما إن جاء راضي حتّى مقته وتمنّى زواله من الوجود، غير أنّ معاملته له لم تتغيّر، ظلّ يغمره بأبوّة باسمة كاذبة، يضيف بها إلى أشجانه عناء جديداً.

وقال لزهيرة وهو يعتقد أنّه يفعل المستحيل لاسترضائها وامتلاكها:

- عندي لك مفاجأة سارة.

فنظرت نحوه بفتور فقال:

- هديّة السلامة!

فابتسمت فواصل:

- عقد شراء صورّيّ تصبحين به مالكة لبيبي!

تورّد وجهها وقالت بحبور:

- يا لك من رجل كريم.

إنّه بيت من ثلاثة طوابق وأسفله دكان الفول.

وسعد الرجل بفرحتها فاستردّ بعض طمأنينته.

باعترافات فاتنة فمتى بدأ ذلك؟ حقاً ما من رجل رآها إلا وفتن ولكن هل المعلم عزيز مثل سائر الرجال؟ ثمّ إنّه متزوج وهي متزوجة. وهو كهل أيضاً ومثال للنبل وحسن السمعة. مثله لا يمدّ الطرف إلى امرأة متزوجة. متزوجة من صديق. وما أزهدها هي في علاقة غير مشروعة! ما فائدتها؟ إنّها تطمح إلى اكتساب حقّ. في سبيل ذلك وطئت قلبها بلا رحمة. في سبيل ذلك لمحس أحياناً بجيشان الجنون السامي في قدح من الخمر المقدّسة. وتراءى لها عزيز ساحة الناجي في هالة حلم وردّي لم تدبر كيف يمكن أن يتجسّد لها في عالم الحقيقة. هل يمكن ذات يوم سحريّ أن تصبح ضرة لألفت هانم، وشبه ابنة شرعيّة لعزيزة هانم؟ هل يمكن أن تتسلطن يوماً في دار فاخرة وتستقلّ بالدوكر ذي الجرس الرنّان؟

وتضاءل عمّد أنور حتّى انقلب ذرّة من سخام متطايرة فوق أديم طريق طويل ليس له نهاية.

- ٤٨ -

وعندما وفدت الفلاحة يبشّرن بالفيضان ويبعن البلح كانت زهيرة تعاني ولادة عسيرة أنجبت في أعقابها راضي الابن الثاني لها.

وسعد به عمّد أنور سعادة خفّفت عنه ويلات الهموم والقلق، وأمل أن يكون فاتحة عهد جديد من زيجة حكيمة موفّقة.

وكانت أمّ هشام الداية تعودها يوماً بعد يوم حتّى اجتازت العناء بالسلامة. وفي آخر زيارة همست في أذنها:

- عندي لك رسالة...

فرمقتها زهيرة بنظرة متسائلة فقالت العجوز:

- رسالة من السباء!

فجرى خاطرها إلى عزيز وتساءلت:

- ماذا عندك يا أمّ هشام؟

فقال ووجهها يكتسي بقناع الإثم الشاحب:

- رسالة من نوح الغراب فتوّ حارتنا...

دقّ قلبها بالمفاجأة. توقّعت شهاباً من الشرق فمرق

شهاب من الغرب. ثمّلكت أعصابها وقالت:

## ملحمة الخرايش ٨٣٩

- أطلق؟... لا يوجد في حياتي ما يتطلب ذلك!  
فقال له بنبرة قاطعة:  
- طلق زوجتك!

- ٥١ -

غادر محمد أنور دار نوح الغراب وهو فاقد لحواشيه الخمس. هل جاء دوره ليعامل كما عومل عبد ربّه الغراب؟ هل كابد تاجر محترم معاملة مثل هذه من قبل؟ هل تبون عليه حياته وسعادته وكرامته كأنها لا شيء؟!

واجتاحه غضب يائس عصف بتردده ونثره في الهواء.

جنّ محمد أنور تمامًا.  
أقدم على ما لم يُقدم عليه أحد من قبل في الحارة.

- ٥٢ -

ذهب جبريل الفصّ شيخ الحارة إلى الفتوة نوح الغراب في مجلسه بالقهوة فحيّاه وقال:  
- حضرة فؤاد عبد التّواب مأمور القسم يطلب مقابلتك.

عجب الفتوة وتساءل مقطّبًا:  
- لماذا؟

- لا علم لي يا معلّم وما على الرسول إلاّ البلاغ.  
فتساءل بتحدّ:  
- وإذا رفضت؟  
فقال شيخ الحارة بملاينة:

- لعلّه يريدك لتقديم خدمة للأمن العامّ يا معلّم  
ولا موجب للتحدّي بلا ضرورة!  
فهزّ الفتوة منكبيه استهانة وصمت.

- ٥٣ -

استقبل المأمور فؤاد عبد التّواب الفتوة نوح الغراب بترحيب. جلس الفتوة أمام مكتب المأمور متحلّيًا بابتسامة لطيفة وروائح الجلد تفغّم أنفه. قال:  
- يسعدني وربّ الحسين أن أقابل المأمور.  
ابتسم المأمور. كان بدينًا متوسط القامة كتّ

وأسعدهما حقًا أن تصبح مالكة. ومن أعياقها شكرته. وشكرته أيضًا لاعترافه الضمنيّ بقوتها وندمه على تحدّيها. ولم يخلّ وجدانها من ازدراء له. ولم يوقف ذلك انشغالها الدائم بعزیز ونوح الغراب. عزيز الغنيّ ونوح القويّ. وعزیز ذو قوّة أيضًا كما أنّ نوح ذو ثروة تتزايد مع الأيام. عزيز له زوجة ونوح له أربعة وقطيع من العيال. لا غنى عن القوّة، ولا غنى عن المال. المال يخلق القوّة والقوّة تخلق المال. ترى كيف تسير الأمور؟ إنّها تؤمن بأنّها لم تكذب تبدأ بعد. وهي تفكّر في ذلك كلّ وهي قريبة من أنفاس عمّد المتردّدة.

- ٥١ -

قرّر محمد أنور أن يحصّن سعادته بنوح الغراب. زاره في داره وجلس بين يديه في بهو الضيوف كما يجلس الغلام بين يدي شيخ الكتاب. ودون أن ينبس قدّم له صرّة موحية، تناولها الفتوة، مضى يعدّ ما فيها، ثمّ قال:

- لقد أذيت الإتاوة فلمّ هذا القدر الجسيم؟

فقال محمد أنور:

- أريد أن أستظلّ بحمايتك.

- لك أهداء؟

- وقاية من القدرا

فأعاد إليه الصرّة بلا اكتراث وابتسم. خفق قلب محمد بانزعاج غير متوقّع فأنسعت عيناه في ارتياب وجزع. وتمتم نوح الغراب:

- سبق القدرا

يا للويل!... هل لعبت رثيفة لعبتها؟ هكذا تصوّر لأنّه لم يخطر له ببال أنّ نوح الغراب يعمل لحسابه الشخصيّ. وقال نوح الغراب:

- كنت على وشك أن أرسل في طلبك...

فقال محمد أنور بريقٍ جافّ:

- ما الخبر يا معلّم؟

فقال بهدوء مقيت:

- لأنصحك بتطليق زوجتك!

خاص قلبه في صدره وشعر بالموت. تساءل مدهولًا:



شخصية فؤاد عبد التّوّاب. كان رجلاً شجاعاً وعنيّداً. وقد عُرف في ريف الصعيد قبل نقله إلى القاهرة بالسّفاح! ولولا تقاليد الداخليّة نفسها في سياستها المرسومة مع الفتوّات لأقدم بدافع ذاته الجريئة على تصفية الفتونة من الحارات كلّها.

لذلك ما كاد يبلغه أنّ محمّد أنور لم يستشعر الأمان المنشود حتّى قام بمظاهرة حاسمة ألجمت الألسنة وهزّت جذور القلوب. ما تدري الحارة ذات يوم إلّا والمأمور يغزوها على رأس قوّة مسلّحة! ترامت نداءات عسكريّة جاذبة للأسباع والأنظار، ثمّ تراءى جبريل الفصّ وهو يتقدّم بين ثلّة من المخبرين، يتبعه ضابط القسم، فالمأمور في حلّته الرسميّة، وأخيراً طابور ضخم من الجنود المدجّجين بالسلاح. سار الموكب في توّدة وحزم حتّى اخترق القبو إلى الساحة، وهناك قام بتكوينات عسكريّة مدممة ثمّ رجع على مهل وقد اصطفّت الناس على الجانبين كأنّهم في يوم المحمل. لم يأبه المأمور بالنظر نحو الناس ولكنّ عينيه كانتا تتسلّان أحياناً إلى النوافذ المكتظة بوجوه النساء. وعلى مبعده سيرة من السبيل اقترب شيخ الحارة من المأمور ولفت نظره إلى زهيرة في نافذتها باعتبارها محور المعركة الدائرة. ولبت نوح الغراب في مجلسه بالمقهى، أمّا محمّد أنور فقد انقبض صدره في دكّانه وتوقّع مزيداً من الشرّ لا الأمان، على حين راح محمّد عبد ربّه القرآن يتابع الموكب بدهول ويقول لمن حوله:

- سنشهد قريباً قيام القيامة!

- ٥٥ -

وأكثر من مرّة لاحظت زهيرة أنّ المأمور فؤاد عبد التّوّاب «يصادفها» في السكّة الجديدة وهي راجعة من زيارة الحسين. وأكثر من مرّة لاحظت أنّه يتعجبها بنظرة حادة جامحة جائحة. وغمغمت لنفسها «حتّى المأمور». وبدأ الميدان ساخراً وحافلاً بالفتن. مثل جراب الحايي المليء بالفئران والقطط والثعابين. وهزّها طرب الخيلاء. وتبيّ لها أنّها تمتطي نسرًا خرافياً ترفّ جناحاه بالقوّة والإلهام والخلق. عزيز. . . نوح الغراب. . . فؤاد عبد التّوّاب، السحر والحبّ وقمّة المجد المكلّلة

الشارب حسن الملامح. قال:

- يسرّني أن أقابلك يا معلّم، الفتوّة في الواقع من رجال الأمان!

- تشكر يا حضرة المأمور.

- والفتوّة هو فارس الحارة وحاميتها أيضاً، هو الروعة والشهامة، يد الشرطة وعينها في مجاله، هكذا تقدّركم الداخليّة. . .

فكرّر وقلقه يتكاثف:

- تشكر يا حضرة المأمور.

فقال بحزم يتناقض مع مجاملاته:

- لذلك أتوقّع أن يجد المعلّم محمّد أنور الأمان في كنفك.

فاحمّرّ وجه الرجل وتساءل:

- هل شكاني إليك؟

- لي وسائلي في معرفة الأخبار، وهبه لجأ إليّ فهذا من حقّه، ومن واجبي أو أوفّر له الأمان، ولكنّي أقنع بمطالبتك بذلك!

وفصل بينها صمت. أدرك أنّ المأمور يحذّره وينذره بأسلوب لطيف. ولما طال الصمت سأله المأمور:

- ما قولك؟

فقال نوح الغراب بهدوء مريب:

- نحن أوّل من يحترم القانون.

فقال المأمور بحزم:

- أعتبرك مسئولاً عنه!

- ٥٤ -

- لم يحدث شيء كهذا من قبل في الحارة. لم يكن يدخلها شرطيّ إلّا عند الضرورة القصوى، وكأفّة جرائم الفتوّة تُنسب عادة إلى مجهول حيال تصميم شهود الزور. فهل يفعل المأمور فؤاد عبد التّوّاب ما لم يفعله غيره إذا عثر على جثة محمّد أنور تحت القبو أو في المرّ؟ وكيف واتت الجراءة محمّد أنور على الاستغائة بالمأمور، وكيف قبل المأمور أن يتحدّى نوح الغراب بأسلوبه اللزج؟ وبدأ لأوّل مرّة أنّ مأموراً يضع نفسه في كفة ميزان واحد مع فتوّة مخاطرًا بهيبته المزركشة! ولكنّ ثمة جانباً مجهولاً خفي على الناس هو

## ملحمة الحرافيش ٨٤١

ومن جوف اليأس دهمه إلهام مباحث فقال لزهرية:  
- اجمعي ما خفّ وغلا، سنهرب الليلة بعد أن تنام  
الحارة.

ذهلت زهرية وتمتمت:

- نهرب!
- حتىّ المأمور نصحني بأن أطلقك!
- المأمور؟!
- اعترف بعجزه عن حمايتي فلم يبق إلا الهرب...
- فطنت إلى ما وراء نصيحة المأمور ولكنّها لم تدري  
كيف تتصرّف مع زوجها. تساءلت بارتياح:  
- أين نذهب؟
- بلاد الله واسعة، معي مال لا بأس به، سننشئ  
عملًا جديدًا...
- يا للشيطان! يريد أن يبذد أحلامها بضربة واحدة  
كي تصبح طريفة ولكي ترتبط به إلى الأبد. كي تند  
القسوة والوجود. كي تدوب في عتمة الشقاء مثل  
ساحة. ومن يدري فقد تضطرّ إلى العمل بيدها من  
جديد مثل المتسولات. ألا فليهرب الجبان وحده.  
فليختف من حياتها إلى الأبد.
- لا تضبّعي الوقت...
- فقالت بفتور:  
- بل فكّر في الأمر مرتين.
- فكّرت مائة مرّة فلم يبق إلا الهرب...
- كلاً...
- كلاً؟!
- إنه مستحيل...
- إنه ممكن، ستعرفين ذلك قبل طلوع الفجر.
- فقالت بعناد:  
- كلاً...
- فرمقها بدهول فقالت:  
- إنه التشرّد والضياع...
- فقال بارتياح:  
- لديّ ما يكفيننا...
- كلاً.
- ألا ترين أنّي ها هنا مهتد بالقتل؟
- لقد أخطأت وأنت تعرف ذلك!

بالنجوم. وتتابع نبض قلبها، وعند كلّ نبضة تتشكّل  
صورة برّاقة تحرق كلّ مألوف...

- ٥٦ -

- واستدعى المأمور محمّد أنور إلى مقابلة في سرّيّة  
مطلقة. أجلسه أمامه وقال:  
- لقد رفعت راية القانون بقوة لم تعرفها حارة من  
قبل فهل أتاك الأمان؟
- فهزّ محمّد أنور رأسه في حيرة وقال:  
- لا أدري...
- فقال فؤاد عبد التّوّاب بتسليم:  
- صدقت، أنا مثلك، الحقّ أنّي أخاف عليك...
- فقال محمّد أنور بقلق:  
- لا تساوي الحياة ملياً في حارتنا!
- صدقت قد يقتلك أيّ وغد حقير، ماذا يفيدك  
بعد ذلك لو سحقتنا الفتونة واقتلعنا جذورها؟
- أجل ماذا يفيدني!
- فتساءل المأمور:  
- هل تسمع نصيحة وإن بدت غريبة؟
- ما هي؟
- طلق زوجتك!
- ذهل محمّد أنور وتمتم:  
- أنت تنصحيني بذلك؟
- إنه أشقّ على كرامتي ممّا هو على كرامتك ولكنّي  
أخاف على حياتك...
- أكاد أجنّ يا حضرة المأمور...
- فقال المأمور بدهاء:  
- ما هو إلا إجراء مؤقت حتىّ أسوي الحساب مع  
الطاغية...
- إجراء مؤقت؟
- ثمّ يعود كلّ شيء إلى أصله!
- نفكّر محمّد أنور ملياً ثمّ قال:  
- سافكّر في الأمر بكلّ جدّيّة.

- ٥٧ -

رجع محمّد أنور إلى بيته وهو يتخبط في اليأس.

أمنت بأنّها ما زالت مشدودة إلى زوجها برباط  
الزوجيّة. رغبت بشدّة في الانطلاق، واجتاحتها نفثات  
الأحلام الذهبيّة. صمّمت على ألاّ تضيّع دقيقة من  
حياتها. وزارت المعلّم عزيز سماحة الناجي وقالت له:  
- هرب وهو الآن يمارس انتقامه من بعيد...  
أدرك عزيز ما تعنيه. وجد فيه عدوية وسحرًا. ثمل  
بالغبطة والأمل. سألتها:

- كيف تتيسر لك الحياة؟  
- إيراد البيت يوفر لي عيشة الكفاف...  
فقال برقة:  
- لست وحيدة فتحي من ذلك...  
فحنّت رأسها امتنانًا وقالت:  
- الشكر لك، ولكتّي أريد أن أوّمن حياة الطفلين.  
فتساءل وقلبه يخفق:  
- ماذا عندك من رأي؟  
فقالت بجرأة:

- أطلب بالطلاق باعتباره مجرمًا هاربًا.  
هكذا انفتح أمامه باب المجهول عن مغامرة مزلّلة  
فقال:  
- علينا أن نفكر في ذلك...

- ٦٠ -

وشغل المعلّم عزيز بمتابعة محاكمة محمّد أنور غيايًّا  
وتوكيل عامٍ للمطالبة بالطلاق، وظلّ قلقلًا معدّبًا بين  
رغبته وبين سمعته، بين قلبه وبين احترامه لألفت  
وصديقه محمّد أنور، على حين تتابعت الأحداث من  
وراء ستار معلنة عن أهوائها الحارّة الجنونيّة.

- ٦١ -

وجاء أول طارق في الليل. فتحت الشراعة فرأت  
شبحًا، وشمت رائحة مثيرة للحنان والتقرّز. تساءلت  
بريبة:

- من في هذه الساعة من الليل؟  
فجاءها الصوت القديم قائلاً:

- عبد ربّه الفران...  
تحرّكت أعماقها بالرغبة والغضب معًا. هربت من

- ما من حيلة أخرى كانت بوسعي؟

- وما ذنبي أنا؟

فقال بنبرة جنونيّة:

- على الزوجة أن تتبع زوجها.  
فنبذت صلبة نافرة متحفّزة للتملّص والمقت ثمّ  
قالت:

- ليس في وسعك أن تحميني!

فضرب صدره بقبضته وهتف:

- آيتها الأفعى!

وبحركة غريزيّة تراجعت إلى النافذة فهتف:

- تريدن أن تلعبى لعبتك القديمة!

وقرأت الموت في صفرة نظرتة اليائسة وتكؤور قبضته  
وتصلّب عوده فصرخت بأعلى صوتها مستغيثة من  
النافذة على حين وثب نحوها كالنمر.

- ٥٨ -

كسر الباب. تدفّق إلى الداخل نوح الغراب،  
المعلّم عزيز، وجبريل الفصّ شيخ الحارة. تراجع  
محمّد أنور. سقطت زهيرة مغمّي عليها. دوى صوتا  
جلال وراضي.

شغل الرجال بإعادتها إلى الوعي. أفاقت. اختفى  
محمّد أنور تمامًا. نظر نوح الغراب إلى جبريل الفصّ  
بنظرة ذات معنى فقال شيخ الحارة بنبرة رسميّة:

- جريمة شروع في القتل وهرب!

فتمتم عزيز:

- يكفي أنّه هرب...

فتساءل نوح الغراب:

- والجريمة؟

وقال جبريل الفصّ:

- الجريمة واضحة مثل الشمس ونحن شهودها!

وقال عزيز مخاطبًا زهيرة:

- أدعوك إلى البيات عند أمي هذه الليلة!

- ٥٩ -

اختفى محمّد أنور دون أن يطلّقها. سرعان ما  
رجعت إلى شقّتها. ثملت بادئ الأمر بشعور الحرّيّة ثمّ

فهتفت بحدّة:

- إني أشرف هانم في الحارة!

- ٦٣ -

قبل أن يذهب جبريل الفصّ جاءت أم هشام  
الداية فأخفتها في حجرة أخرى. ولما خلت إليها قالت  
العجوز:

- لا شيء يقف في سبيلنا الآن...  
فقالت زهيرة:

- نوح الغراب على العين والراس ولكنه متزوج من  
أربع!

- تحلين محلّ إحداهن!

فقالت بكبرياء حادّ:

- زهيرة لا تكون ضرة لامرأة!

فتساءلت العجوز بدهشة:

- يطلق الأربع؟

فقالت بإصرار:

- هو حرّ فيما يفعل وما يشاء...

- ٦٤ -

وطلق نوح الغراب زوجته الأربع.

زُلزلت الحارة بالخبر، كما زُلزلت به أسرات أربع،  
وتردد اسم زهيرة على الألسنة كأنشودة للجبروت  
والقسوة. تلقى المأمور الخبر فعضّ على شفته، وعلم  
به عزيز فذهل ولكنه انطوى على أساه في صمت.

ومن المصادفات أن جاء خبر موت رمانة في سجنه  
في يوم الزفاف، وفي اليوم نفسه انتحرت رثيفة هانم  
حزنًا على رمانة مشعلة النار في نفسها!

وسارت زفة نوح الغراب في موكب ضخم، وفي  
أمان من عهود الصداقة بينه وبين فتوات الحارات  
المجاورة. غير أنه حدثت مفاجأة في الدراسة لم يتوقعها  
أحد إذ تحرّش فتوة العطوف بالزفة خارقاً العهد والذمة.

كيف حدث ذلك ولماذا حدث؟

علي أيّ حال نشبت المعركة دامية. وسرعان ما  
ظهرت قوّات من الشرطة كأنما كانت متربّصة للحظة  
مناسبة.

ضعفها متسائلة بحدّة:

- ماذا تريد؟

فقال بنبرة مغمورة متوسّلة:

- لنرجع إلى حياتنا.

- مجنون وسكران...

- أنا زوجك الوحيد.

- اذهب وإلا ناديت الناس.

وأغلقت الشراعة وهي تموج بالغضب والمقاومة...

- ٦٥ -

تسلّل إلى بابها في نفس الليلة جبريل الفصّ شيخ  
الحارة. دخل متلقّماً بالخذر والخوف، وسرعان ما قال  
عقب جلوسه مباشرة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولكن لا مفرّ  
من إبلاغ الرسالة...

قالت وهي تخمّن ما وراءه كما تخمّن مخاوفه:

- هاتي ما عندك.

- حضرة المأمور يطلب يدك!

صدق التخمين. إنّه يخشى في الوقت نفسه أن  
يفطن نوح الغراب إلى دوره. ولكن ما المأمور؟ ماذا  
يستطيع أن يعطيها إلا اسماً ومظهرًا فارغين؟ ربّما كان  
عزيز أفضل الثلاثة ولكنّ نوح الغراب القوّة لا يمكن  
تجاهلها. وهو أيضًا القوّة الحقيقيّة والسيطرة غير  
المحدودة.

- ما قولك يا ستّ زهيرة؟...

- هل يسكت نوح الغراب؟

- المأمور متكفّل بأمره!

فقالت بمكر:

- لي طفلان، دخلي محدود، والمأمور متزوج  
وأب...

- هو أدري بطاقته...

فترددت قليلاً ثمّ قالت:

- وأنا أدري بما أريدا!

فتساءل جبريل الفصّ:

- تفضّلين أن تكوني خليعة للغراب على أن تكوني

خليعة لحضرة المأمور؟

عملت القوّات على فضّ المعركة بلا هوادة.

وإذا برصاصة تصيب العريس فترديه قتيلاً . . .

للزواج من زهيرة!؟

- ٦٧ -

واستأذن شيخ الحارة في مقابلتها. أدركت في الحال ما وراء المقابلة. بدت فاترة حيال المأمور. إنّها اليوم أضحى من المأمور وقسمه جميعاً. عزيز سباحة الناجي لؤلؤة ثمينة صالحة لتتويج أحلامها. عيبه أنه سيّد محترم نبيل ورث عن جدّه نبلة دون قوّته وجراته. لقد عشق الجدّ ذات يوم امرأة يتنافس فيها ابنه فأدّب الابنين وتزوّج المرأة! أمّا عزيز فعاشق يكتّم الحبّ، ينطوي عليه، يتجنّب الخطأ، ويتوغّل في العمر. ربّما كان بوسعها أن تسحره وتملكه ولكن ما جدوى ذلك وثمة رجل عنيد مجرم - المأمور - لا يتورّع عن أن يدبّر لعزیز مثلها دبّر لنوح الغراب!؟

آه يا نسمة الأمل المضيء الهائمة فوق السحاب!

- ٦٨ -

وقالت لجبريل الفصّ:

- ليكون معلوماً أنّي لا أرضى بضرة!

فقال شيخ الحارة:

- معروف أنّ زوجة المأمور تكبره مثل أمّ وهي

غنيّة، فهل تسدّين الفراغ؟

- ماذا يوجب عليّ ذلك؟

فقال شيخ الحارة محدّراً:

- إنّه مصيبة من مصائب الزمن.

غضبت. كتمت غضبها تماماً. نشط خيالها

وتصلّبت إرادتها. تظاهرت بالاستسلام وهي تقول:

- لينتظر العدة وعند الله التوفيق . . .

فتهلّل وجه شيخ الحارة وتمتم:

- الحمد لله ربّ العالمين!

- ٦٩ -

لم تفرط في دقيقة بلا عمل. اقتحمت حجرة المعلم عزيز مثل نسمة ثملة بالندى والعطر. أنيقة حزينة المظهر ذات نظرة فائنة مبتهلة. لمحت تورّد وجهه واختلاج عينيه وجيشانه بالانفعال فقالت بنعومة

- ٦٥ -

اشتعلت الحارة بالخبر. شيعت فتوتها في جنازة مهيبة. وفزعت زهيرة للخبر أيضاً. فزعت أكثر ممّا حزنت. اغتمّت لاقران زفافها بالفجعة. أسفت لأنّها لم تستمتع بالفتونة إلّا ساعات. تقول الحاسدون - وما أكثرهم - بأنّ زيجتها الجديدة صادفت مصيبتين وجرت ستّ مصائب. صادفت موت رمانة وانتحار رثيفة. وجرت القضاء على عمّد أنور وتطليق أربع نساء ومصرع نوح الغراب. فأبّى شوّم يسير بين يدي هذه المرأة الجميلة التي لا يقف طموحها عند حدّ! اكتأبت لذلك ولكتّتها صرفته عن بالها بإرادة من حديد. وحسبت الثروة التي ستؤول إليها ببهجة عميقة استقرّت تحت قشرة الحداد. سرعان ما أفاقت من الصدمة فغمرها الارتياح. ها هي تتمتع ببعض جاه الفتونة دون أن تؤدّي ثمنها لرجل لم تشعر نحوه بأيّ عاطفة طيبة قطّ. الأجدر أن تعترف بأنّه قتل في اللحظة المناسبة قبل أن ينتهك حرمة جسدها الجميل. وأنّه لقي الجزء الذي يستحقّه كلّ طاغية قدر. وأبّى امتهان كان يلحق بالناجي العظيم إذا استسلمت حفيدته الراقعة لمجرم فاسد في لباس فتوة. وقالت إنّه لا ملامة عليها إلّا إذا ليمت ربح أبيّة لاقتلاع شجرة خاوية نخرها السوس.

- ٦٦ -

وجرى همس متوتّر بأنّ المأمور فؤاد عبد الثواب يكمن وراء التدبير المحكم الذي انتهى بهلاك نوح الغراب. وأنّه أزاحه من طريقه لا دفاعاً عن الأمن ولكن طمعاً في الاستحواذ على زوجته الفاتنة زهيرة.

وضاعف من سوء الظنّ به تدخّله العجيب لمنع اختيار فتوة جديد للحارة، فمضت الحياة في الحارة بلا فتوة يضبطها لأوّل مرّة في حياتها الطويلة العريضة، وشعر الناس بمذلّة لم يشعروا بمثلها من قبل.

وتساءل المتسائلون متى يحسر المأمور القناع ويتقدّم

## ملحمة الحرافيش ٨٤٥

أنا الفوز. رمقت جلال وراضي بحنان وهمست:

- ليكن مجدكها فوق كل مجد!

- ٧١ -

وبادرت إلى زيارة المعلم عزيز الناجي لشكره  
فقلت منشرحة الصدر:

- هكذا يكون الرجال ولألا فلا... .

فابتسم الرجل المفتون وتمتم:

- يسعدني أنك سعيدة... .

فقلت بدلال:

- نجوت من الوباء مثل جدنا العظيم... .

ثم بحزن:

- أما السعادة... .

فرنا إليها مستطلعاً فقلت:

- ما هي السعادة حتى يحق لنا أن ندعيها؟

- لعلها تُعرف بالفطرة!

- متى يمكن أن تصف امرأة مثلي بأنها سعيدة؟

فقال مخفياً اضطرابه:

- لا ينقصك اليوم شيء.

فقامت في رشاقة. نظرت إليه طويلاً حتى ذابت

إرادته أو كادت. قالت وهي تمضي:

- ينقصني أهم شيء في حياة الإنسان!

- ٧٢ -

استسلم المعلم عزيز لقدره. أقرّ لضعفه بالقوة

الحارقة. كأنه السور العتيق. كأنه بوابة التكية. كما

وقع لجده ذات ليلة في الحجارة. وأغرب الجنون ما

يصيب المرء في كهولته. استرق النظر طويلاً إلى أمه

عزيزة، وهو منفرد بها في جناحها. تتم:

- أُمِّي... .

قالت وهي تشعر بغرابة الجو:

- هات ما عندك... .

فقال بهدوء:

- تشاء إرادة الله أن أتزوج مرة أخرى... .

ذهلت الهانم. رنت إليه طويلاً. تساءلت:

- حقاً؟

مستغيثة مؤثرة:

- ما حيلتي وليس لي في الضيق سواك؟

ها هو يعترف بالحب كل شيء فيه إلا لسانه. قال:

- أهلاً بك يا زهيرة هانم!

فانتشت بالأدب وتساءلت:

- ماذا أفعل؟... هل أستسلم للمأمور السفّاح؟

فتساءل عزيز مستنكراً:

- طلب يدك؟

- بلا حياة.

قَطَب الرجل فقالت:

- أيّ خاتمة لامرأة سيئة الحظ لم تحظ مرة واحدة

بحرية اختيار شريك حياتها... .

فقال بتأثر واضح:

- لا ترضي بما تكرهين... .

- أعترف لك بأني أخشاه!

فقال بحدة:

- كلاً.

- إنه مجرم كما يعلم الجميع، هو الذي قتل نوح

الغراب... .

- مجرم قتل مجرماً!

فقالت بهدوء:

- أجل، لو استجوبت الداخلية رجال العطوف

لوقفت على الحقيقة... .

ونظرت إليه ملياً ثم قالت:

- القضية تتطلب رجلاً محترماً يمكن أن تُسمع

كلمته في الداخلية!

وانجابت سحابة الصيف عن وجه الشمس

المنير... .

- ٧٠ -

صدر أمر مفاجئ بنقل المأمور فؤاد عبد التّوّاب إلى

الصعيد. خلت السماء من نذر العواصف المهلكة.

وتربّع صيف مزدهر بالبطيخ والشمام والعنب. سرعان

ما وثب إلى الفتونة سمكة العلاج. أما زهيرة فقد

أسكرتها الخيلاء، فأمنت بأنها الفتوة الحقيقي وراء

الأحداث. قالت أنا العقل، أنا الإرادة، أنا الجمال،

- كانت هي الظالمة، وأنتك مهب نفسك  
للشقاء...  
فتمتم بهدوء:  
- إنما الأعمال بالنيات...  
فقلت عزيزة بحق:  
- هذه الوضيعة الحسيسة...  
فقال محتجاً:  
- أصلنا واحد يا أمّاه.  
- أصلكم الذي تفخرون به هو الخير لا الدم، ألم  
يكن رمانة قاتل أبيك من أصلكم؟... ألم يكن وحيد  
من أصلكم؟  
فقال بهدوء:  
- ما قدر كان...

- ٧٣ -

رُفّت زهيرة إلى عزيز قرة الناجي. قاطعت عزيزة  
هانم الفرح، لم تعترف به، وعاشت في الدار مع ألفت  
والأبناء في كدر أبدئي. وابتاع عزيز دار نوح الغراب  
من ورثته فأهداها إلى زهيرة. جدّد أثائها ورياشها  
وتحفها جاعلاً منها عش حبّه الخالد. وقد احترم حقوق  
ألفت هانم كاملة، لم يضمنّ عليها وعلى أولادها  
بالرعاية المثالية والحبّ الوقور، غير أنه لم يعرف الحبّ  
الحقيقيّ إلا في مغيب كهولته.

- ٧٤ -

ونعمت زهيرة بشعور رفيف خياليّ مثل الإلهام  
المشرق. هو الفوز في جلاله والحلم في أهته وكبّاله.  
الدار والثروة والجاه وسيّد الوجهاء. لم تبتس بغضب  
عزيزة ولا حزن ألفت، وإن كان ثمة كبرياء فهي سيّدة  
الكبرياء وأحقّ الناس به بما وهبها الله من جمال وذكاء.  
أمنت بأنّها فتوة في إهاب امرأة وأنّ الحياة المقدّسة لا  
تمتثل إلا للأقوياء. ولأوّل مرّة تجهد بين يديها زوجاً  
تحرّمه وتمعّب به ولا تفرط فيه، أمّا الحبّ فطلما قهرته  
في سبيل ما هو أعظم وأجمل، وطلما قالت لنفسها  
«لست امرأة ضعيفة مثل غيري من النساء».  
واستمتعت بجاهها بكلّ سبيل فعند الأصيل تتوسّط

- أجل.  
- من؟  
قال بعد تردّد:  
- زهيرة!  
هتفت عزيزة محتجّة:  
- كلّاً...  
- هي الحقيقة...  
فهتفت:  
- الأفعى!  
فقال بتوسّل:  
- أمّي، لا تسرعني في الحكم...  
- الأفعى!  
- طالما أحببتها يا أمّي...  
- وطالما أحببتها ألفت، ولكّنها أفعى...  
- إنّها امرأة سيّئة الحظّ...  
فابتسمت عزيزة في حزن وتمتمت:  
- رثيفة أخرى.  
فقال بتوسّل:  
- لا تأخذني بالظواهر...  
- كيف سحرتك يا سيّد العقلاء؟  
- أمّي، إنّي أدري ما أفعل تماماً...  
فتأوّمت الأمّ وتساءلت:  
- وألفت الأصبيلة؟  
فقال بتصميم:  
- ستظلّ سيّدة الدار وأمّ الأبناء...  
- ترى ألا زلت تحترم أمّك؟  
- كلّ الاحترام يا أمّي.  
- إذن فاعدل عن رأيك!  
فقال بأسّي:  
- لا أستطيع...  
- سحرتك يا بنيّ...  
- من حقّي عليك أن تسعدي لسعادتي...  
- أنسيت ما حصل لعبد ربّه ومحمّد أنور ونوح  
الغراب؟  
فقال باستياء:  
- ظلّموها جميعاً!

## ملحمة الحرافيش ٨٤٧

أن تفعل كي تخلق لنفسها سيرة فذة لم تحظ بها امرأة  
من قبل؟

- ٧٦ -

وذات مرة غادرت جامع الحسين كالعادة وسط  
مظاهرة من الشحاذين والمجاذيب. أجلست جلال  
وراضي على مقعديهما وهمت بالصعود عندما سمعت  
صوتاً قريباً يهمس:

- زهيرة . . .

نظرت نحو الصوت فرأت محمّد أنور يطالعها بوجه  
الموت. اندعرت مندفة نحو الدوكار ولكنّ الرجل  
رفع عصا غليظة وهوى بها بكلّ قوته على رأسها النيل  
الجميل فتهاوت على الأرض صارخة. وظلّ يضرب  
الرأس بوحشية حتى هشمه تماماً غير مبالٍ ببكاء جلال  
وراضي.

لم يبق من وجه البهاء والجمال إلا عظام محطمة  
غارقة في بركة من الدم.

الدوكار تجلسة جلال وراضي في المقعدين أمامها،  
ويضي الدوكار على مهل مجلجلاً برنين جرسه الفضيّ،  
وهي متسلطنة كملكة، تومض عيناها الساحرتان من  
وراء الياشمك. والناس يتطلعون إليها في إعجاب  
وحنق وذهول. تتذوق جمال اللحظة في أنسة  
واستيعاب، منتشية بإلهام سامٍ مجتّح يجعل من الدنيا  
ماسة في إصبعها تعكس صورتها المليحة الفاتنة.  
وتزور الحسين، وتسرّ بتجمهر الشحاذين حولها،  
وتهب العطايا والصدقات.

- ٧٥ -

وأنجبت لعزیز ذكراً أسماه شمس الدين فازدادت  
الدنيا جمالاً وكرماً. وعلى حين مضت هي تتألق جمالاً  
وشباباً مضى المعلم عزيز ينحدر نحو شيخوخة مبكرة.  
وعاملت أسرتها بكرم فاق كلّ تصوّر فعاشت أمتها  
وأخواتها حياة رغدة. وحيرها سؤال الحوح، ماذا عليها





# جلال صاحب الجلالة

## الحكاية السابعة من ملحمة الحرافيش

- ١ -

أصاب مصرع زهيرة المعلم عزيز بطعنة وحشية لا دواء لها. تراءى في الجنائز والمآتم كشيخ فقد النعمة والأمل، وتُبدت تمامًا من جسد الحياة. تضاعف ألمه بقدر ما تماسك أمام الناس. تبدت له الدنيا عجزًا مآكرة قاسية لا حدًا لمكرها ولا لقسوتها، فأضمر نحو كافة عودها الرفض والمقت. وزارته أمه عزيزة هانم فاستقبلها بفتور وعتاب صامت ولكنها بكّت وضمتته إلى صدرها وهمست في أذنه:

- لا يجوز أن نتخاصم تحت ضربات القدر...  
ولثمت جبينه ثم واصلت متهددة:  
- كآتني ما خلقت إلا للحزن والأسى...  
وانزلت فوق قلبه كلمات العزاء فلم تترك أثرًا...

- ٢ -

وعقب الوفاة بأشهر أصيب المعلم عزيز بالفالج. لم يمهل المرض إلا أسابيع ثم فاضت روحه. وحزنت عزيزة حزنًا مهلكًا. لم يجبر لها في خاطر أيتها ستدفن وحيدها النبيل وأتتها ستبقى بعده يومًا واحدًا تتنفس. عاودها الحزن كاشدًا مما كان على فقد قرّة وكآتها مخلوق مهيب لا يتجلى جلاله إلا في رحاب الحزن الكبير. عزيزة الجميلة النبيلة التي قطعت حياة معاندة تبذر الصبر وتحصد الألم.

واحترامًا لوصية عزيز ضمت راضي إلى دارها مع

شمس الدين، ورغم العناية البالغة بشمس الدين فإنه مات في شهره الثامن. أما جلال فأخذه أبوه عبد ربّه الفران.

- ٣ -

اهتزت الحارة لمصرع زهيرة. هزها صراع الحظ مع القدر. التمسّت العبرة في ثنايا الأحداث وتقلّبها. تساءلت لم يضحك الإنسان، لم يرقص بالفوز، لم يطمئن سادراً فوق العرش. ولم ينسى دوره الحقيقي في اللعبة ولم ينسى نهايته المحتومة. ولم تخل الحنايا من أسى ولكن سرعان ما غرق الأسى في خضمّ الحقد والغضب. وانصبّت اللعنات وقيل هذا جزء الظالمين. وعزيز النبيل لم يحترم أحد حزنه، وأتهم بخطف زهيرة من عبد ربّه الفران، ولم يحزن أحد لموته الحزن الذي يستحقّه. وقال الحرافيش إن أسرة الناجي أصبحت مسرح الحزن وأمثولة العبر جزء خيانتها لمعهد جدّها العظيم صاحب الكرامات والبركات... وفي ذلك الوقت تنكر الجوّ في برمودة، فتلبّدت الساء بالغيوم على غير ميعاد، وانهلّ مطر غريب، ثم تساقط وابل من البرد، فذهل الناس وعجبوا، ووجفت قلوبهم، ولكتهم غمغموا حيارى «لعلّه خير يا رب العالمين!».

- ٤ -

لم يكتب على طفل ما كتبت على جبين جلال بن

فسأله وهو يجهمش:  
- متى ترجع أمي؟  
وضاق به من ثقل رأسه فقال له:  
- ستذهب إليها بعد عمر طويل فلا تتعجل...

- ٧ -

وجاءت سيرة زهيرة ذات ليلة في البوطة فقال سمكة  
العلاج الفتوة:  
- أول امرأة يُقتل بسببها فتوة عظيم...  
فتظاهر عبد ربّه بالرجولة وقال:  
- نالت جزاءها...  
فقال جبريل الفصّ شيخ الحارة:  
- لا تدع الشفاء من الحبّ.  
فقال عبد ربّه متحدّياً:  
- أخاف أن يكفر مصرعها عن شرّها فتقسم لها  
الجنة!

فقال سنقر الشيام الخيّار ضاحكاً:  
- إنك تتمنى لها النار لتضمن لنفسك لقاءها!  
فتأوه وقال متخلّياً عن تظاهره:  
- يا للأسف، هل بات الجمال الفتان حقاً طعاماً  
للدود!  
ثم قال بصوت هادر:  
- صدّقوني، أحبّتي لدرجة العبادة، ولكنّها كانت  
مجنونة...

وراح يغني بصوت كالنهيقي:  
يا بو الطاقية الشبيكة قل لي مين شغلها لك  
شبكت قلبي إلهي ينشغل بالك

- ٨ -

ودخل جلال الكتاب. ولد مليح ذكي فائق الحيوة  
قويّ المبني. ويوم طولب أن يحفظ «كلّ نفس ذاتقة  
الموت» سأل سيّدنا:

- لماذا نموت؟  
فأجابه الشيخ:  
- حكمة الله خالق كلّ شيء...  
فتساءل جلال بعناد:

زهيرة بن عبد ربّه الفران من المعاناة والألم. منظر  
تهشيم رأس أمّه الجميلة انغرز في أعماقه. كابوس دائم  
يعذب يقظته ويكدر أحلامه. كيف تأقّ لهذه القسوة  
أن توجد، كيف أمكن أن يلقي جمال نبيل تلك النهاية  
البشعة؟ لماذا وقع ذلك، لماذا صممت أمّه، لماذا  
اختفت؟ وماذا جنى حتّى يُجرم من جاهها وحنانها وأبته  
الحياة النابعة منها؟ لم لا ترجع الأيام إلى الوراء كما  
تتقدّم إلى الأمام، لم نخسر ما نحبّ ونعاني ما نكره،  
لماذا تدعن الأشياء لأوامر صارمة. لماذا يُنقل من الدار  
الفاخرة إلى مسكن عبد ربّه الفران، ومن هو عبد ربّه  
الفران، ولم يُطالب بالاعتراف به أباً له. إنّه ابن أمّه  
بلا شريك، هي أمّه ومبدعته ومهدده وحبّه. إنّها روحه  
ودمه، صورتها مطبوعة على وجهه، صوتها يشدو في  
أذنه، وأمل استرجاعها ذات يوم لا يجبو في قلبه.  
إنّ العظام المحطّمة الغارقة في بركة الدم لا تُنسى  
إلى الأبد.

- ٥ -

تغيّرت دنيا عبد ربّه الفران أيضاً. بفضل الثروة  
التي ورثها جلال انتقل من البدروم إلى شقة محترمة.  
ابتاع الفون من صاحبه باسم ابنه وراح يديره إدارة  
سيّئة لإدمانه الخمر. ارتدى الجلباب الأبيض والعباءة  
الملوّنة، توجّ رأسه باللثة المرزكشة، واختفت قدماه  
الغليظتان لأوّل مرّة في مركوب أحمر. وقال لنفسه  
بتشجيع «تمتّع يا عبد ربّه بجاه زهيرة». ولم يجد من  
يحاسبه على العبث بمال جلال الصغير. ورغم الخمر  
والأسى تعلق قلبه بجلال. رنا مبهوراً إلى جمال زهيرة  
المطبوع على محيّاها. إنّه يذكّره بأسعد أيامه وأشقاها.  
ولا يألو جهداً في استئناسه وطمانته وكسب مودّته.  
ذلّك الصغير الجميل النافر...

- ٦ -

واستيقظ جلال ذات ليلة قبيل الفجر وهو يبكي  
فأيقظ أباه المخمور. انزعج عبد ربّه ومسح على شعره  
الأسود الناعم متسائلاً:  
- حلمت يا جلال؟

- ١١ -

وفي الكتاب التقى من جديد بأخيه راضي. إنه ابن القتال ولكنه ضحيته أيضًا. وهو غلام رقيق مهذب وضعيف. ومثله يُعيرُ بابن زهيرة فيجهش في البكاء. وتصدّي للدفاع عنه حتى أسكت خصومه. وتعلّق به الغلام وقال له:

- إنك أخي وإنّي بك لفخورا

كان راضي دونه قوّة وجمالاً ولكنه كان بالغ التهذيب. وقال له مرّة:  
- أدعوك للغداء معي...

- ١٢ -

وذهب جلال إلى دار المرحوم عزيز الناجي. رأى عزيزة هانم المعجوز النبيلة كما رأى ألفت هانم، قبل يديها، فرحبتا به، ودهشتا لجماله وصحته. ورأى أيضًا قمر صغرى بنات المعلم عزيز. بنت جميلة خفيفة الروح تصغره بعامين. بهره جمالها. نظر إليها طويلًا في أثناء الغداء وبعده. وكما انفرد براضي قال له:  
- ألا ترى أنّ قمر جميلة مثلما كانت أمّنا؟  
فهزّ راضي رأسه بلا اكتراث فقال جلال:  
- يا لك من سعيد بمشاركتها دارًا واحدة...  
فقال راضي:

- لا يعجبني إلا صوتها!

- ١٣ -

ناهز جلال المراهقة. أدرك أبعاد حياته خيرها وشرّها. آمن بعناد أنّ أمّه كانت أعظم امرأة عرفتها الحارة. وبأنّه سليل الناجي العظيم الذي لم يُعرف سرّ اختفائه حتى اليوم. لم يكن فتوّة مثل سمكة العلاج ولكنه كان وليًا وصديقًا للخضر. وحطّم جلال في الخيال رؤوسًا مليئة بالعناد والشرّ، وصادق ملائكة ذوات أجنحة ذهبية، وطرق باب التكيّة ففتح له على مصراعيه، وطارده قلق متلّغ بظلمة الليل، وظلّت قمر تومئ إليه من نافذة المشريّة.

وتساءل بزهو:

- ما عيب أمّي؟... كانت تبحث عن رجل مثلي

- ولكن لماذا؟

فغضب الشيخ. مدّه على الفلقة ثمّ ألهب ظهره بالجريدة. صرخ باكياً. لم يسكن غضبه طيلة اليوم. ما كان يقع له شيء من ذلك لو أنّ أمّه ما زالت تتألّق بالحياة، والحياة تتألّق بها...

- ٩ -

وتعرّض جلال في الكتاب والحارة لحملة صفراء قاسية. كلّ ولد يعيره هاتفاً «ابن زهيرة». دائماً ابن زهيرة. أهي سبّة يا أشقياء! ويرجمونه بشظايا من سيرتها المجهولة له. الغادرة، الخائنة، المزوجة، المتكبّرة، القاسية، الخادمة، الهانم المزيفة.

ويهرع إلى أبيه فيسأله:

- لماذا يسبون أمّي؟

فيلطفه مواسياً فيقول:

- كانت أجمل من الملائكة...

فينصحه أبوه قائلاً:

- أحرّسهم بالصبر...

فيتوارى جماله خلف عبوسة ناقمة ويتساءل محتجاً:

- الصبر؟!

فيرمقه أبوه بانزعاج.

- ١٠ -

وتسلّل إليه سيرة أمّه كلمة من هنا وكلمة من هناك. إنّه يرفض أن يصدّق. وإذا أرغم على التصديق رفض أن يعتبر الأمر مخزياً. ستظلّ أمّه ملائكة مهما فعلت. وما العيب في أن يتطلّع الإنسان إلى هلال المثلثة؟ ولكن هل يجدي منطق مع أولاد شياطين؟  
هكذا اضطرّ جلال إلى أن يخوض معركة بعد معركة. الحقّ أنّه كان يتمنى غير ذلك. طالما أحبّ الودّ والتمس حسن العلاقة والصدقة. الأولاد يستهينون بذلك ويرومون المشاكسة. وهو صلب عند التحدي. عنيد حيال المستحيل. أدرع بخشونة ليست من طبعه. ردّ على الكلمة بضربة. تكاثرت مشاجراته وتوكدت انتصاراته. انقلب غلاماً مخيفاً وعُرف بالشيطنة. رفعته القوّة وأخرست خصومه فثمل بها وعبدها.

فلم يسعدنا به الحظ في حياتها التعمية القصيرة!

- ١٤ -

وأشركه عبد ربّه الفران في إدارة الفرن. وأثبت جدارة وذكاء وهمة عالية. وأعجب به الأب أيما إعجاب ومضى يتخلى له عن مسئولياته، مسلماً بكلّيته لقرعة البوظة. تدهور عبد ربّه وزاده توفّر النقود بين يديه تدهوراً. وبفخار وإعجاب مضى ينظر إلى ابنه جلال. يراه وهو يسيطر بقوة شخصيته على العمال ويستحقّ احترام العملاء رغم سمعة أمه السيئة. ويراه وهو يصلب عوده وتشدّ أطرافه ويتعلمق هيكله وتتدفق الحيوية في بنيانه وتألّق بالجمال الفريد وجهه. ولم يبق لجلال من ثروته إلا الفران، ومن الماضي إلا ذكريات اليمّة، حتى بسماوات المجاملة فوق الشفاه لا تخدعه فهو على يقين من أنّ وراءها تتلاطم همسات السوء عن أمه الجميلة، ولكنّ المستقبل يعدّ بخير كثير لمن كان في مثل قوته وجماله، وصورة قمر بنت عزيز تعدّ أيضاً بأعذب الآمال...

- ١٥ -

كان يجلس في العصارى أمام الفرن يراهن على ديكه في مصارعات الديوك، تلك كانت هوايته المفضّلة. ويرنو أحياناً بهيام إلى قمر وهي جالسة إلى جانب ألفت هانم في الدوكار ويتذكّر عهد صباه وتردده على دار عزيزة هانم وملاعبته لراضي وقمر، تلك الأيام السعيدة. ولكنّها انقطعت بسرعة عندما أنس من عزيزة وألفت فتوراً في استقباله. لماذا احتضنتا راضي ونفرتا منه على حين أنّها معاً ابنا زهيرة؟ لا سبب إلا احترام وصية المعلم عزيز من ناحية، والشبه الملموس بين وجهه ووجه المرحومة أمّه، فهو يذكّر المرأتين بالراحلة المقيّنة.

وتبقى بعد ذلك الهوة الفاصلة بين فرّان سئى السمعة مثله وبين كريمة المعلم عزيز ذات الأصل والأبهة. ولكنّه يحبّها حباً ملك عليه حواسه وعقله، ويلمس في نظرة عينها المتألفتين استعداداً طيباً وميلاً واضحاً، فهل يتهيب حظّه السعيد كالجبناء؟

- ١٦ -

وأدرك ما فعله أبوه بثروته فعاتبه على ذلك معاتبه ساخنة. ومنعه من التدخّل في العمل وهو يقول:

- ستعيش راضياً مكرّماً.

ولكنّ أباه كان مصدر إزعاج لا ينتهي. إدمانه الخمر مهلك للصحة والكرامة. يسهر كل ليلة في البوظة، ويتسلّى ببثّ شكاته من ابنه، يقول:

- يعاملني كما لو كنت أنا الابن وهو الأب، يحاسبني حساب المالكين...

أو يتساءل وهو يقهقه:

- هل سمعتم عن ابن يزجر أباه لأنّه يروّج عن نفسه بقرعة أو قرعتين؟

وكان يتكلم بحبّ لآعن حقد، ويمضي في التساؤل:

- هل نسي وصية ربنا بالوالدين؟

وعجز جلال عن أن يجعل من أبيه رجلاً محترماً. وقد أراد ذلك عن حبّ من ناحية، ورغبة في محق عقبة من العقبات التي تعترض طريق حبه من ناحية أخرى. وحزن عبد ربّه لإساءته غير المقصودة لابنه الجميل. قال له مرّة كالمعتاد:

- أمك كانت السبب، انظر إلى نهايات من أحبّوها

من الرجال...

وقطب جلال محتجاً فقال عبد ربّه:

- عمّد أنور شئق، نوح الغراب قُتل، المأمور نُفي، عزيز مات غمّاً، أما أنا فأسعدهم حظّاً...

فقال جلال متوسّلاً:

- تحبّب ذكر أمي بسوء يا أبي...

فتمتم:

- لا تحزن ولكن فكّر، تريد أن تتزوّج من قمر، لا تظنّني عقبة يا بنيّ، ذكرى المرحومة هي العقبة، كيف تصوّرت أنّ ألفت هانم تعطي كرميتها لابن زهيرة؟

فهتف جلال:

- لا تعبت بجراحي...

فقال له الرجل بحنان:

- أنصحك ألا تتزوّج من امرأة تحبّها، وألا تحبّ امرأة إذا تزوّجتها، اقنع بالمعاشرة والمودة واحذر الحبّ فإنّه مكيدة...

## ملحمة الخرافيش ٨٥٣

فقال بإصرار وعناد:

- أبلغها الطلب.

- لك هذا.

وغادرها وهو يغصّ بخيبة ترابية.

- ١٩ -

ولكنّ ثمة مفاجأة مزلّلة كانت تتربّص بدار  
المرحوم عزيز. فقد رفضت ألفت هانم الدهشوري يد  
جلال غير أنّ قمر انطوت على نفسها كالمتوقّعة.

وسألها جدّتها عزيزة هانم:

- تريدينه زوجاً لك؟

فأجابتها بشجاعة نادرة:

- نعم.

فهاجت ألفت هانفة:

- إنّه ابن زهيرة.

فهزّت منكبيها استهانة. غير أنّ الأمّ تجاهلت رغبة  
ابنتها بعناد وحشيّ. ورخبت بخاطب من آل  
الدهشوري ولكنّ قمر أعلنت رفضها له بلا تردّد.

وانهالت ألفت على ابنتها باللوم والتفريع ولكنها أصرت  
على رأيها حتىّ قالت:

- فلأبقّ بلا زواج...

فصاحت أمّها:

- حلّت بك روح زهيرة الشريرة...

فبكت قمر ولكنّ ألفت لم ترقّ لها وقالت بعناد:

- ابقّي بلا زواج فهو عندي أفضل...

- ٢٠ -

وتدهورت صحّة عزيزة هانم فجأة بحكم  
الشيخوخة والأحزان. ذبلت ذبولاً شديداً وتغيّر لونها  
وسرعان ما عجزت عن الحركة فلزمت الفراش. لم  
تفارقها ألفت. جزعت للوحدة التي تتهدّدها في الدار  
الكبيرة. غير أنّ عزيزة قالت لها:

- لا تخافي سيمنّ الله عليّ بالشفاء...

وصدّقتها كما اعتادت أن تصدّقتها دائماً ولكنّ  
العجز تمت بصوت كأنه صوت شخص آخر:

- إنّها النهاية يا ألفت...

- ١٧ -

وعلم جلال ذات ليلة أنّ أباه يعرّيد في ساحة  
التكيّة. هرع إليه من فوره فوجده يحاكي الأناشيد  
بصوت منكر فساقه إلى البيت من ذراعه وهو يقول له:  
- الحارة تغفر أيّ شيء إلا هذا.

ولما نام الرجل وجد جلال من نفسه رغبة حارّة  
للمعودة إلى الساحة. لم يخلّ إلى نفسه أمام التكيّة من  
قبل. وكانت الليلة حالكة السواد. تتوارى النجوم  
فوق سحب شتوية كثيفة. وكان البرد قارصاً فحبك  
العباءة حوله وطوّق وجهه باللثة. وغمرته الأناشيد  
مثل أمواج دافئة. تذكّر رواد المكان من آل الناجي.  
الجدّ الأول الذي ذاب فيه مثل سرّ مكنون. وهمس له  
صوت إنّما يمتاز الرجال بتحديّ الصعاب وسرعان ما  
ملا أعطافه إلهام سخّيّ بالبشر والفوز. عقد صداقة  
مع الظلمة، مع الصوت، مع البرد، مع الدنيا كلّها.  
صمّم على الطيران فوق العقبات مثل طائر خرافيّ...

- ١٨ -

وفي أثناء ذلك. اشترى راضي محلّ الغلال بماله  
الموروث عن أمّه وتزوّج من نعيمة حفيده نوح  
الغراب. تشجّع جلال فقابل عزيزة هانم، وقال لها  
بثبات:

- يا ستنا النبيلة، أريد يد قمر حفيدتك...

فنظرت إليه طويلاً بعينيها الذابلتين وقالت بصراحة  
العجائز:

- اقترحْتُ يوماً أن يتزوّجها راضي ولكنّ ألفت  
رفضت!

فقال جلال بثقة:

- إنّه جلال من يطلبها هذه المرّة.

- ألا تعلم لم رفضت؟

فسكت مقعّباً فقالت بصراحتها السافرة:

- علماً بأنّ راضي ذو مزايا ليست لك!

فقال بحدّة:

- لست فقيراً، ثمّ إنّي من آل الناجي...

فقالت بضجر:

- قد قلت ما عندي.

أراد أن يستحوذ على الطمانينة ويمحق الأوهام. وأن يتندر حظه مُغليقاً الأبواب في وجه القوى المجهولة. صار بذلك «الرجل السعيد». وشهدت الأيام أقصى درجة من الثراء في سجايه الحميدة. حتى أبوه السكير لم يعد يحاسبه. ودلّل عمّاله وذويهم. وترنّم بالغناء، وهو يعمل وهو يتابع مصارعة الديوك. ازدهر جماله وتضخّمت قوّته. وسهر الليالي بالساحة يستمع الغناء ويبتهل الدعاء.

وتردّد على عروسه محمّلاً بالهدايا، ومنها تلقى مسبحة من الفهرمان ينتظمها سلك من الذهب هديّة معطرة. غدت حياته وأمله وسعادته ورؤيته الذهبيّة. رآها أجمل خلق الله رغم أنّ كثيرين نوهوا بتفوق جماله الباهر، ولكنّ عدوبتها فاقت كلّ الحدود.

وتراجعت ألفت هانم عن فتورها فأهدت الرضى والألفة، ونعتته بالابن الطيّب، وشرعت ترسم للمستقبل صورة جديدة، مقترحة عليه مشاركة راضي في محلّ الغلال مستعيناً بجال قمر. ومرة قال جلال لقمر:

- لقد تجلّت عظمة آل الناجي في أشياء وأشياء،  
ها هي تتجلّى اليوم في الحبّ...  
فابتسمت في دلال فقال:

- الحبّ يصنع المعجزات...  
فقالت بعدوبة:

- لا تنس دوري في صنع المعجزة!  
فضمّتها إلى صدره وهو يهيم من الوجد.

- ٢٣ -

وجاء بأبيه ليزور ألفت هانم وقمر. جاء الرجل مفيقاً ولكنّه بدا كالسكران بنظرته الثقيلة الغائمة ونبرته المترنّحة ورأسه المتقلقل. أدرك أنّه يمثّل دور الوجيه وأنّه غريب عن ذاته وأحواله. ونظر إلى ألفت هانم بثهيب، وشعر بأنّه يتحوّل من شخص إلى مخلوق آخر، وعجب كيف أنّه ملك ذات يوم جمالاً يزرّي بهذا الجمال كلّ. وقال لألفت هانم:

- إنيّ كما تعلمين يا هانم ولكنّ ابنيّ جوهرة...  
فتمتمت ملاطفة:

وضعف بصرها حتى لم تعد ترى. ورغم ذلك تطلّعت إلى لا شيء وراحت تنادي قرّة وعزيز فارتعدت ألفت وشعرت بأنّ الموت اقتحم المخدع وأنّه ينتظر في ركن وأنّه أقوى الثلاثة حضوراً. وتمتمت بنبرة باكية:

- ليرحمنا الله.

فقالت عزيزة:

- إنيّ المعذبة أمّ المعدّيين، أملي الأخير في ذي الجلال.

فهتفت ألفت:

- اللّهمّ خفّف عنها!

فقالت:

- أوصيك باثنتين!

فحملت فيها باهتمام فقامت المعجوز:

- لا تعدّبي حفيذة قرّة.

وتنهّدت بعمق ثمّ قالت:

- لا تعدّبي ابنة عزيز.

وجاءها الاحتضار ثمّ فاضت روحها مجلّلة بالحبّ والنبل...

- ٢١ -

مضت سنّة أشهر من عام الحداد. تمّت ألفت الدهشوري ألاّ ينتهي هذا العام أبداً ولكنّها أضمرت لوصيّة عزيزة كلّ إجلال. داعبها أمل في أن تتغيّر قمر نفسها ولكنّه أمل لم يتحقّق.

واستدعى المعلّم راضي أخاه جلال وقال له:

- أهنتك بالقبول...

فاجتاحه تيار ساهويّ من الأفراح أخرسه.

واقترح راضي أن تعلن الخطوبة فوراً على أن تؤجّل الدخلة لما بعد الحداد. ولم يعد في الإمكان أن تُقتلع هذه اللحظة من ذاكرة جلال إلى الأبد.

- ٢٢ -

وما كاد يمرّ شهران على الخطبة حتى طالب جلال بإلحاح بعقد القران بلا حفل على أن تؤجّل الدخلة والحفل حتى ينتهي عام الحداد. وتمّ له ما أراد. كأنّما

أركانها لا يريد أن يبرح .  
 وذات ليلة حلم جلال بأن والده يغني بطريقته  
 الهمجية الساخرة في ساحة التكية . واستيقظ ثقيل  
 القلب فتيّن له أنه إنما استيقظ حقاً على صوت يدوي  
 في الخارج . صوت من نوع خاص لا علاقة له بالغناء  
 ولا بالتكية . صوات في جوف الليل يعلن صعود روح  
 إلى مستقرها |

- ٢٥ -

شعر جلال بأن كائناً خرافياً يحلّ في جسده . إنه  
 يملك حواس جديدة ويرى عالماً غريباً . عقله يفكر  
 بقوانين غير مألوفة وها هي الحقيقة تكشف له عن  
 وجهها . رنا إلى الجنة المسجاة طويلاً . طوى الغطاء  
 عن الوجه . إنه ذكرى لا حقيقة . موجود وغير موجود .  
 ساكن بعيد منفصل عنه بعيد لا يمكن أن يُقطع .  
 غريب كل الغرابة ، ينكر ببرود أي معرفة له . متعال  
 متعلق بالغيب . غائص في المجهول . مستحيل غامض  
 مندفع في السفر . خائن ، ساخر ، قاس ، معدّب ،  
 محبّر ، خفيف ، لانهايتي ، وحيد . وغمغم بدهول وتحدّ:  
 - كلاً .

يد غطت الوجه فأغلقت باب الأبدية . تهدمت  
 الأركان تماماً . لسان يلعب له هازئاً . ثمّة عدو يتحرك  
 سوف ينازله . لن يتأوه ، لم يذرف دمعاً واحدة . لم يقل  
 شيئاً . تحرك لسانه مرّة أخرى مغممًا:  
 - كلاً .

رأى رأس أمه المهشم . خيال تراهى واختفى قبل  
 أن تطبع صورته في وعيه . رأى الديك وهو يفقأ بمنقاره  
 الوردية عين خصمه . رأى الساء تشتعل بالنيران .  
 رأى بركة الدم الأحمر . ووعده المجهول بإدراك كل  
 شيء إذا كشف الغطاء عن الوجه مرّة أخرى . مدّ يده  
 ولكنّ يدًا أمسكت بيده وصوت قال:  
 - وحد الله |

ربّاه أوجد معه آخرون؟ أوجد آخرون في الدنيا؟  
 من قال إذن إن الدنيا خالية . خالية من الحركة واللون  
 والصوت . خالية من الحقيقة . خالية من الحزن والأسى  
 والندم . إنه في السواق متحرّر . لا حب ولا حزن .

- أنت رجل طيب يا معلّم عبد ربّه . . .  
 واهتزّ لذلك الاحترام الذي لم يحظ بمثله أبدًا وقال  
 مشيرًا إلى جلال:

- إنّه يستحقّ السعادة جزاء برّه بوالده . . .  
 وضحك ضحكة عالية بلا سبب ، وسرعان ما ارتدّ  
 إلى الوقار مرتبًا .

وعندما غادر الدار هو وجلال سأله ابنه:

- لم لم تقدّم الهدية للعروس؟  
 تذكّر الهدية التي أعطاه جلال إياها ليقدّمها  
 للعروس بيده فلم ينبس ، فسأله جلال بضيق:

- نسيت؟

فقال برقة:

- إننا جوهره ليست عروسك في حاجة إليها على  
 حين أنني في أشد الحاجة إليها .

فقال جلال بعتاب:

- هل قصرت في حقك؟

فربت على ظهره قائلاً:

- أبدًا ولكن مطالب الحياة كثيرة .

- ٢٤ -

وجاءت الأيام الأخيرة من عام الحداد في خريف  
 أبيض يتنفس في عذوبة فائقة . وامتلات السحب  
 الشفافة بالأحلام . وألمت وعكة برد بقمر غير أنها لم  
 تعطل الاستعدادات المتوتبة للزفاف . واندفعت الوعكة  
 في طريق المجهول فارتفعت الحرارة واضطربت  
 الأنفاس واشتدّت الآلام وتسّلّ الذبول إلى الوردية  
 الناضرة مثل عدو ماكر خسيس خائن . ولزمت الفراش  
 بلا حول فخبث نظرتها واصفرّ لونها ووهن صوتها .  
 توارت تحت الأغطية الثقيلة ، متأوهة ، تتغدى  
 بالكراوية والليمون ، وتعصب بمكمدات الخلّ .  
 وسهدت ألفت هانم مشتتجة الأفكار ، وقلق جلال  
 فنقد صبره في انتظار ساعة الشفاء .

وخيم على الدار شعور غامض لا يريد أن يفصح  
 عن ذاته ، وطافت بخيال ألفت اللحظات الأخيرة من  
 حياة عزيز وعزيزة ، وخیل إليها وهي تكاد تجنّ أنّ  
 كائناً مجهولاً قد حلّ بالدار ، وأنه يكمن في ركن من



- ٢٨ -

وكان يمرّ أمام البوطة في جوف الليل عندما رأى  
شبحًا مترنحًا عرف فيه أباه عبد ربّه. تأبّط ذراعه  
فتساءل الرجل:

- من؟

- جلال يا أبي...

- وصمت السكران قليلاً ثمّ قال:

- إني خجلان يا بني...

- لماذا؟

- كان الأجدد أن أذهب أنا لا هي...

- لماذا؟

- هو العدل يا بني.

- فقال باستخفاف:

- يوجد شيء حقيقي واحد يا أبي هو الموت.

- فقال عبد ربّه معتذرًا:

- ما كان يليق أن أشرب في هذه الأيام ولكنني

عاجز.

- فقال له وهو يسنده:

- تمتّع بحياتك يا أبي...

- ٢٩ -

ومضى الخريف يورّي ويقبل الشتاء بقسوته القاهرة.  
وراح الهواء البارد يسفع الجدران ويلسع العظام.  
وتطلّع جلال إلى سحابة مظلمة فهامّ بالمستحيل. ورأى  
ذات مرّة ألفت هانم وهي راجعة من القرافة فكرهها  
من صميم فؤاده وبصق في خياله على صورتها  
المتورّمة. قبلته كارهة ثمّ تخلّصت منه بالموت. والموت  
عندها طقوس وفتاير. كلّهم يقدّسون الموت ويعبدونه  
فيشجّعونه حتّى صار حقيقة خالدة. لا شك أنّها  
اغتاظت عندما تسلّم نصيبه من تركة قمر. لذلك  
أخذه كاملاً. ثمّ ورّعه على الفقراء خفية. وقال لنفسه  
إنّ علامة الشفاء عنده أن يحطّم رأس الهانم  
المتعجرفة.

ذهب العذاب إلى الأبد. حلّ السلام. وثمّة صداقة  
متوحّشة مطروحة على القوي العاتية. هنيئًا لمن يروم  
أن تكون النجوم خلّانه، السحب أقرانه، والهواء  
نديه، والليل رفيقه.

وللمرّة الثالثة يغمغم:

- كلاً.

- ٢٦ -

نحّى جلال عن العمل لوكيله. وجد الراحة في  
المشي. يتمشّى في الحارة، وفي الحيّ، بين البوّابات  
والقلاع، يجلس في القهوة وحده يدخن البوري.  
في الليل وقف قبالة التكيّة. مرّت به الأنغام.  
باستهانة طرق الباب. لم يتوقّع ردًا. عرف لم لا  
يردّون. إنهم الموت الخالد الذي يتعالى عن الردّ.  
تساءل:

- أليس للجار حقّ؟

- وأنصت للغناء فانساب الصوت في عذوبة:

صبحدم مرغ جمن با كل نوحاسته كفت

نازكم كن كه درين باغ بي جون نو شكفت

- ٢٧ -

واعترض مسيرته ذات يوم الشيخ خليل الدهشان  
شيخ الزاوية فابتسم إليه برقة وقال:  
- لا بأس من كلمة تقال...  
فنظر إليه ببرود فقال الشيخ:  
- إنّ الله يمتحن من عباده الصّدّيقين.  
فقال بازدراء:  
- لا جديد فهذا ما يقوله الديك عندما يصبح في  
الفجر.

فقال الرجل:

- كلّنا أموات أولاد أموات.

فقال بيقين:

- لا أحد يموت.

- لم تأخرت عن تسليم الإتاوة لسمكة العلاج؟  
فأجابه ببساطة وثقة:  
- لا يفعل ذلك إلا الضعفاء الجبناء.  
حلق الأب في وجهه برعب وسأله:  
- تتحدّى الفتوة؟  
فقال ببرود:  
- أنا الفتوة يا أبي.

- ٣٣ -

وتعمد أن يمرّ أمام مجلس الفتوة بمجلسه في المقهى  
فسرعان ما جاء صبيّ القهوة قائلاً:  
- المعلم سمكة يسأل عن الصحة؟  
فقال بنبرة عالية:  
- أخبره بأنّ الصحة طيبة تتحدّى الجهلاء.  
اقتحم الجواب الفتوة مثل لفحة نار. وسرعان ما  
اندفع معاونه خرطوشة - الوحيد من رجاله الذي  
تصادف وجوده معه - وبسرعة خاطفة رفع جلال  
مقعداً خشبياً وضربه به ضربة صادقة فانطرح على  
ظهره فاقد الوعي. وأخذ جلال نهبته ووقف ينتظر  
سمكة العلاج الذي أقبل مثل وحش ضارٍ. وتدقّق  
سيل المتفرّجين، وتنادى رجال الفتوة من الأركان.  
وتبادل الرجلان ضربتين، ولكن حُسمت المعركة في  
ثوانٍ. كان جلال قوّة خارقة حقاً. تهاوى سمكة  
العلاج مثل ثور ذبيح.

- ٣٤ -

وقف جلال بجسمه العملاق في هالة من لهيب  
التحدّي والغضب. وغزا الخوف قلوب الرجال فلم  
يكن في العصابة من هو جدير بخلافة سمكة إلا  
خرطوشة المنطرح إلى جانبه. وبعض الرجال ممن  
يضمرون الحقد للعصابة انهال على أفرادها بالطوب  
منضمّين إلى جلال. وسرعان ما تقرّرت السيادة لمن  
يستحقّها.

هكذا وثب جلال بن عبد ربّه بن زهيرة إلى الفتوة  
بكلّ جدارة، وهكذا رجعت الفتوة إلى آل  
الناجي . . .

- ٣٠ -

وصادف في طريقه جبريل الفصّ شيخ الحارة فحيّاه  
الرجل وقال:  
- لا تُرى يا معلّم جلال إلا ذاهباً أو آتياً، عمّ  
تبحث؟  
فأجابه بازدياء:  
- أجد ما لا أبحث عنه وأبحث عمّا لا أجد.

- ٣١ -

وانفرد بنفسه تلك الليلة في ساحة التكيّة. لا  
التماساً للبركة ولكن تحدّياً للظلمة والبرد. هنا خلوة  
عاشور. هنا اللاشيء. وقال إنّه يعترف بأنّه ليس  
عاشقاً. لا حزن على حبّ ضائع. أنا لا أحبّ. أنا  
أكره. الكراهية والكراهية فقط. أكره قمر. هذه هي  
الحقيقة. هي الألم والجنون. هي الوهم. لو عاشت  
لانقلب على مثال أمها. تحكم بالغباء وتضاحك النافه  
وتقلّد الأمراء وهي حفنة من تراب. كيف هي الآن في  
قبرها؟ قرية متفخخة تفوح منها روائح عفنة، وتسبح في  
سوائل سامة ترقص فيها الديدان. لا تحزن على مخلوق  
سرعان ما انهمز. لم يحفظ العهد. لم يحترم الحبّ. لم  
يتمسك بالحياة. فتح صدره للموت. إننا نعيش ونموت  
بإرادتنا. ما أقيح الضحايا! دعاة الهزيمة. الهاتفون بأنّ  
الموت نهاية كلّ حيّ. وبأنّه الحقّ. إنّه من صنع  
ضعفهم وأوهامهم. نحن خالدون ولا نموت إلا  
بالخيانة والضعف. عاشور حيّ. أشفق على الناس من  
مواجهة خلوده فاخطفى. أنا خالد. وجدت ما أبحث  
عنه. وما يغلق الدراويش الأبواب إلا لأنهم خالدون.  
من شهد جنازة لهم؟ إنهم خالدون. يتغنّون بالخلود  
ولكن لم يفهمهم أحد.

وتمل بشراب الليل المثلج.

مضى نحو القبر وهو يغنم:

- آه يا قمر . . .

- ٣٢ -

وتجسّدت الأفكار المحمومة في صورة نسر محلق ذي  
صريريدك الأبنية. وسأله أبوه ذات صباح وهو يتشاب:

- ٣٥ -

قال له أبوه ووجهه يومض بالفرح:  
- ما تصوّرت أن تكون فتوة رغم قوتك الهائلة...  
فقال جلال بأسياً:  
- وما تصوّرت ذلك ولا جرى لي في بال...  
فقال عبد ربّه بفخار:

- وعد بذلك المعلم جلال؟

فيقول بثقة وثبات:

- ما طمح إلى الفتوة إلا من أجل ذلك!

- ٣٨ -

دان له الأصدقاء والأعداء. ليس ثمة قوة تتحداه  
ولا مشكلة تشغل باله. يتمتع طيلة الوقت بالسيادة  
والجاه والمال. اكتنفه الفراغ وتسلل إليه التثاؤب. تركّز  
تفكيره في ذاته. تجسّدت له حياته في صورة بارزة  
واضحة المعالم والألوان حتّى النهاية الحادّة العابثة. بدءاً  
من رأس أمّه المهتمّم، ومعاناة الحارة المهينة، وموت  
قمر الساخر، وقوته المهيمنة بلا حدود، وقبر شمس  
الدين الذي ينتظر الركب راحلاً في أثر راحل. ما  
جدوى الحزن، ما فائدة السرور، ما مغزى القوة، ما  
معنى الموت؟ لماذا يوجد المستحيل؟

- ٣٩ -

وسأله أبوه ذات صباح:

- الناس يتساءلون متى يتحقّق العدل؟

فابتهس جلال بامتعاض وتمتم متسائلاً:

- ما أهميّة ذلك؟

فقال عبد ربّه بدهشة:

- إنّه كلّ شيء يا بنيّ...  
فقال بازدياء:

- إنهم يموتون كلّ يوم وهم مع ذلك راضون!

- الموت علينا حقّ أما الفقر والذلّ فبيدك محققهما!

فصاح جلال:

- اللعنة على الغباء.

فتساءل عبد ربّه بأسياً:

- ألا تريد أن تحتذي مثال عاشور الناجي؟

- أين عاشور الناجي؟

- في أعلى عليين يا بنيّ.

فقال بازدياء:

- لا أهميّة لذلك...  
- أعوذ بالله من الكفر...  
فقال بوحشيّة:

- ٣٦ -

أصبح يتحرّك بإلهام القوة والخلود. رسم لنفسه  
طريقاً. تحدّى فتوات الحارات ليستثمر فائض قوته.  
تغلّب على العطوف والدراسة وكفر الزغاري والحسينيّة  
وبولاق. كلّ يوم كان المزمار يزفّ للحارة بشرى نصر  
جديد. غدا فتوة الفتوات وتاج القوة والسيادة كما كان  
عاشور وكما كان شمس الدين.

وسعد الخرافيش مؤمّلين فيما عُرف عنه من كرم  
وسجايا حميدة، كما انزعج الوجهاء وتوقّعوا حياة  
موسومة بالكبح والعناء.

- ٣٧ -

وتاه عبد ربّه عزّة وكرامة، وراح يبشّر في البوظة  
بالعهد الجديد. إنّه يُستقبل الآن بالإجلال والإكبار،  
ويلتفت حوله السكارى يتنسمون منه الأخبار فيقول:

- رجع عاشور الناجي.

ويفرغ القرعة في جوفه ويواصل:

- فليسعد الخرافيش، ليسعد كلّ محبّ للعدل،  
سيتوفّر الرزق لكلّ مسكين، سيعرف الوجهاء أنّ الله  
حقّ!

فيستأل سنقر الشّهار الختار:

ما يدفعه إلى الجاه والمال والتملك قوّة عمياء مجهولة، جوهرها القلق والخوف، كأنما كان يتحصن ضدّ الموت، أو يوثق علاقته بالأرض حذرًا من غدره. لقد غرق في خضمّ الدنيا ولكنه لم يغفل قطّ عن خداعها، لم تخدّره ابتسامتها، لم يطربه عذب حديثها، كان حادّ الشعور بلعبتها المرسومة، وغايتها المقصودة. لم يأنس للخمر ولا المخدّر ولا الهوى ولا التكيّة، وكان إذا خلا إلى نفسه تأوّه قائلاً:

- ما أشدّ عذابك أيّها القلب!

- ٤١ -

ويومًا سأله أخوه راضي ولعله كان صديقه الوحيد:

- لم لا تتزوّج يا أخي؟

فضحك جلال ولم يجب فراح راضي يقول:

- الأعزب موضع تساؤل دائمًا.

فسأله ساخرًا:

- لم الزواج يا راضي؟

- إنّه المتعة والأبوة والخلد.

فضحك جلال عاليًا وقال:

- ما أكثر الأكاذيب يا أخي...

فتساءل راضي:

- لمن تجمع هذه الأموال؟

يا له من سؤال! أليس الأجدد بمثله أن يجيأ حياة الدراويش؟ ها هو الموت يطارده دائمًا. ها هو رأس زهيرة ووجه قمر يتجسّدان من جديد. لن تنفعه القلعة ولا الثبوت. سيذوي بهاء هذا الجبال المتألق. ستفقّوص أعمدة هذه القوّة الشاخنة. سيرث المال قوم آخرون وهم يغمزونهم بالسخریات. ستعقب الانتصارات الباهرة هزيمة أبدية.

- ٤٢ -

على أريكة الفتوة يتربّع في المقهى. تمثال من الجبال والقوّة يبهر الأنظار ويهزّ القلوب. تتكاثف الظلمات في جمجمته لا يدري بها أحد. يتسلّل شعاع إلى الظلمات في صورة بسمة متألّقة بالتحية والإغراء. بسمة ترك أثرًا في الظلام. من هذه المرأة؟ امرأة من بنات الهوى،

- أعوذ بالله من اللاشيء!

- لا أتصوّر أن يمضي ابني كما مضى سمكة العلاج...

- لقد انتهى سمكة العلاج كما انتهى عاشور.

- كلاً، جاء كلّ من طريق مختلف وذهب إلى طريق مختلف...

فنهض محتدًا وقال:

- لا تزد من همّي يا أبي، لا تطالبني بشيء، لا يفزّئك ما بلغت واعلم أنّ ابنك رجل غير سعيد...

- ٤٠ -

يش عبد ربّه وكفّ عن الحديث عن الفردوس المعهود. وقال وهو في غاية من السكر:

- إرادة الله فوق كلّ إرادة وما علينا إلّا الرضى.

ويش الحرافيش وتساءلوا:

- لم لا نشكّ في الماضي ليرتاح بالنا؟

واستنام الوجهاء إلى الطمأنينة، أدوا الإتاوات، وقدموا الهدايا بلا حساب.

ومضى جلال بقلب أجوف تتلاطم فيه رياح الكآبة والقلق، ويظاهر متألق ينضح بالقوّة والسيادة والنهم. بدا أوّل ما بدا أنّه وقع أسيرًا لعشق المال والتملك. شارك أخاه راضي في محلّ الغلال، كما شارك الخشّاب والبنان والعطار وغيرهم. لا شبع من ناحيته. وترحيب حازّ من ناحيتهم ليثبتوه في أرض الوجاهة والسؤدد. غدا أكبر فتوة وأكبر تاجر وأغنى غنيّ، وفي الوقت نفسه لم يتهاون في جمع الإتاوات وتقبّل الهدايا، ولم ينعم بخيره إلّا رجال عصابته حتّى عبده عبادة. وشيّد عمارات كثيرة، كما شيّد إلى يمين السبيل دارًا خيالية، سمّيت بحقّ بالقلعة لجلالها وكبرها، وفرشها بفاخر الأثاث، وحلّأها بالتحف، كأنه حلم الخالدين. ورفل في الثياب الغالية، وتنقّل بالدوكر والكارثة، وتوهّج الذهب في أسنانه وأصابعه.

ولم يكثر لحال الحرافيش ولا عهد الناجي، لا عن أنانية أو ضعف أمام مغريات الحياة، ولكن ازدراء لهمومهم، واستهانةً بمشكلاتهم. والعجيب أنّه كان بطبعه أميل إلى الزهد، واحتقار مطالب البدن، وكان

فقال ساخراً:  
 - الفقراء ينامون نومًا عميقًا!  
 - وكيف تنام أنت؟  
 - لعلي لا أنام!  
 فضحكت بعذوبة وقالت:  
 - سمعت من أهل العلم أنك ما شربت في حياتك  
 قرعة ولا دخننت نَفْسًا ولا لامست امرأة، أهذا  
 صحيح؟  
 لم يدر بماذا يجيب ولكنه شعر بأنها ستحقق ما تريد.  
 أما زينات فواصلت:  
 - أقول لك إن الحياة ليست إلا الحب والطرب.  
 فتساءل متظاهرًا بالدهشة:  
 - حقًا؟  
 - ما عدا ذلك فأنا نتركه وراءنا للغير!  
 فقال بامتعاض:  
 - ونترك أيضًا الحب والطرب!  
 - كلاً، إنهما يمتصان بالجسد والروح ولا يرثهما  
 أحدا  
 - يا لها من لعبة سخيفة...  
 فقالت بحرارة:  
 - لا عشت يوماً بلا حب أو طرب...  
 - إنك امرأة مدهشة...  
 - امرأة وكفى!  
 - لا يهّمك الموت؟  
 - إنه علينا حق ولكني لا أحب سيرته...  
 حق؟ حق؟ وسألها:  
 - أتعرفين شيئاً من سيرة شمس الدين الناجي؟  
 فقالت بفخار:  
 - طبعاً، من حارب متحدّياً الكبر...  
 - تحدّى الكبر بعناد.  
 فقالت بنعومة:  
 - السعداء حقاً من ينعمون بشيخوخة هادئة!  
 فقال بتحدّ:  
 - السعداء حقاً من لا يعرفون الشيخوخة!  
 فانقبضت لتغيّره وقالت بإغراء:  
 - أنت لا تملك إلا هذه الساعة...!

تقيم في شقة صغيرة فوق بنك الرهونات، يعشقها  
 الوجهاء. تحبّه كلياً مرّت التحية اللائقة بسيد الأحياء.  
 لا يرفض التحية ولا يستجيب لها. ولا ينكر أثرها  
 الملطف لعذاباته. متوسطة التكوين، ريانة الجسد،  
 جدّابة الملامح زينات. ولأتمها تصبغ شعرها بلون  
 الذهب دُعيت بزينات الشقراء. لا ينكر أثرها الملطف  
 لعذاباته ولكنه لا يريد أن يستجيب لها. طالما كُبحت  
 شهواته تحت ضغط انهماكه في القتال، والبناء، وجمع  
 المال، ومعاينة الملل.

## - ٤٣ -

وذات مساء استأذنت زينات الشقراء في مقابلته.  
 استقبلها في بهو الضيوف. تركها تنبهر بالأثاث،  
 بالتحف، بالقناديل المزركشة. تجرّدت من ملاءتها  
 وبرقعها، جلست على ديوان قطعة من الفتنة المسلّحة.  
 وتساءلت برشاقة:  
 - ترى كيف أعّلل حضورتي؟... أقول مثلاً إنني  
 أريد تأجير شقة في عمارتك الجديدة؟  
 فوجد نفسه يجاملها قائلاً:  
 - لن يطالبك أحد بتعليل...  
 فضحكت راضية وقالت بصراحة:  
 - قلت لنفسي فلنزره ما دام يبخل علينا  
 بالزيارة...  
 شعر بأنه هبط أولى درجات الإغراء ولكنه لم يحفل  
 بذلك وقال:  
 - حللت أهلاً وسهلاً  
 - شجّعني لطفك الذي تقابلني به كل أصيل...  
 ابتسم. وتردّد سؤال خلف الابتسامة إلام آل حال  
 قمر في قبرها اليوم؟ وسألته بجرأة عجيبة:  
 - ألم أعجبك؟  
 فقال بصدق:  
 - إنك تحفة...  
 - وهل مثلك يشعر ولا يفعل؟  
 فتتمتم في حيرة:  
 - غابت عنك أشياء...  
 - إنك أقوى الرجال فكيف تنام كما ينام الفقراء؟

- لِمَ لَا؟

وضحك عبد ربّه ثمّ قال:

- صحّتي حسنة بالرغم من كلّ شيء، واعتيادي بعد الله على المعلّم عبد الخالق العطار...

- ومن العروس؟

فقال بمباهاة:

- بنت زويلة الفسخاني، بنت حلال في العشرين من عمرها...

فسأله باسمًا:

- أليس الأفضل أن تختار سيّدة تفاريك في السنّ؟

- كَلّا، لا يُرجع الشباب إلّا الشباب...

فتمتم جلال:

- فليسعدك الله يا أبي...

وجعل عبد ربّه ينوّه بالعطار وسحره، وقدرته على ردّ الإنسان إلى شبابه...

- ٤٦ -

رُفّت فريدة الفسخاني إلى المعلّم عبد ربّه، وأقاما في جناح بالقلعة دار جلال الفخيمة. وطيلة الوقت كان جلال يفكّر في سحر المعلّم عبد الخالق العطار. إنّه شريكه وصاحبه ومَن يحسنون التودّد إليه. ودعاه ذات ليلة إلى داره فانسطلا معًا، وتسليًا بتناول الفاكهة والحلوى. وقال له جلال بجديّة:

- ما يدور بيننا فهو سرّ...

فوعد المعلّم عبد الخالق بذلك سعيّدًا بالمنزلة الجديدة التي أنزله الفتوة فيها. وسأله جلال:

- علمت أنّك تردّ الكهول إلى الشباب؟

وبابتسامة ثقة أجاب العطار:

- بعون الله تعالى.

فقال جلال باهتمام:

- لعلّه أيسر لك أن تحافظ على الشباب؟

- هُذا مسلّم به.

فتنوّر وجه جلال بالارتياح وتمتم:

- لعلّك أدركت ما تعنيه دعوتي لك يا معلّم عبد

الخالق.

فتفكّر العطار مليًا متهيّبًا ثقل الأمانة وقال:

فقال ضاحكًا:

- موعظة مناسبة لمقدم الليل...

فأغمضت عينها مرهفة السمع حتّى وضّح زفيف الريح. وسمع هطول الأمطار فوق النوافذ المغلقة.

- ٤٤ -

سرعان ما صارت زينات الشقراء عشيقة لجلال عبد ربّه الناجي. دهش الناس ولكنهم قالوا هو خير على أيّ حال من سيّئ الذكر وحيد. وتجنّبها عشاقها القدامى فأصبحت له وحده. علّمته كلّ شيء، انضمت إلى تحف الدار قرعة مذهبة وجوزة مدندشة. لم بأسف على شيء، وقال إنّ للحياة مذاقًا لا بأس به. وأحبّته زينات حبًّا ملك عليها نفسها، وداعبها حلم غريب أن تصبح حليّة له ذات يوم. ومن عجب أنّ حبّه القديم لقرع بُعث أيضًا كذكرى خالدة مفعمة بالعدوية. أدرك أنّه لم يهجره أبدًا. لا شيء يزول. ولا حبّ أمّه. سيظلّ مديّنًا لرأس أمّه ووجه قمر بمعرفة مأساة الحياة، ولحن الحزن الخافت المتردّد تحت سطح الأنوار الباهرة والانتصارات المتألّفة. ولم يعرف لزينات عمراء، لعلّها ثمائله في عمره أو تكبره، وسيظلّ ذلك سرًّا. وقد تعلّق بها، أهو حبّ جديد؟ وتعلّق بالقرعة والجوزة. إنّه مدين لها أيضًا بمفاتيح جوهريّة مثيرة للفرح والقلق، ولا يرى بأسًا من التسليم للتّيّار.

- ٤٥ -

ورأى أباه «المعلّم» عبد ربّه يخلو إليه باهتمام، ويسأله:

- لِمَ لا تتزوّج؟... أليس الحلال أفضل من الحرام؟

فلم يجر جوابًا فقال عبد ربّه:

- ولتكن زينات كما فعل عاشور...

فهزّ رأسه منكرًا فقال الأب:

- على أيّ حال لقد صدقت عزمي أنا على

الزواج

فقال جلال بدهول:

- إنّك يا أبي في السّتين



## ملحمة الحرافيش ٨٦٣

- مؤاخاة الجن، الخلود واللجنة الأبدية، التحام الإنسان بالشیطان إلى الأبد...  
فتساءل جلال وهو يتأدى في الاهتمام:  
- حقيقة هذا أم هديان؟  
فتردد عبد الخالق ثم قال:  
- لعله حقيقة!  
- زدنا تفسيراً...  
- لماذا؟... أنتفكر حقاً في تلك المغامرة؟  
فضحك جلال ضحكة عصبية وقال:  
- ليس إلا آتٍ أحب أن أعرف كل شيء...  
فقال عبد الخالق ببطء:  
- يقال... إن... شاور...  
فتساءل جلال:  
- ذلك الشيخ المجهول الذي يدعي قراءة المستقبل؟  
- ذلك عمله الظاهر، ولكنه ينطوي على أسرار  
مرعبة...  
- لم أسمع عن شيء من ذلك...  
- إنه يخاف المؤمنين...  
- وهل تصدق ذلك؟  
- لا أدري يا معلّم ولكنه أمر لعين...  
- الخلود؟  
- مؤاخاة الجن!  
- إنك تخاف الخلود!  
- يحق لي ذلك، تصوّر أن أبقى حتى أشهد زوال  
دنياي، يذهب الناس رجالاً ونساءً، وأبقى غريباً  
وسط غرباء، أفرّ من مكان إلى مكان، أبيت مطارزاً  
أبدياً، أجنّ، أتمتّى الموت...  
- وتحافظ على شبابك إلى الأبد؟  
- وتنجب أبناء وتفرّ منهم، وكلّ جيل تعدّ نفسك  
لحياة جديدة، وكلّ جيل تبكي الزوجة والأبناء،  
وتتجنّس بجنسية الغربة الأبدية، لا يربطك بأحد  
اهتمام أو فكر أو عاطفة...  
وهتف جلال:  
- كفى...  
وضحك الرجلان طويلاً، وتمتم جلال:  
- يا له من حلم...

زينات في الوصفة السحرية ولكنه كان يتراجع عن فكره دائماً. لعله بدأ يخشى سيطرتها وسحرها فكره تحصينها ضدّ الزمن الجبار. كان يحبّها أكثر الوقت ولكن تمرّ لحظات يودّ أن ينتقم منها ويصقها في أقرب مزبلة. لم تكن علاقته بها بسيطة وواضحة. كانت تنداح في شبكة معقّدة من العلاقات فتتداخل مع ذكرى أمه، ذكرى قمر، عداوته للموت، كرامته، وتعلّقه الأيسر بها. وكان ما يحنقه أكثر من سواه ما يبدو عليها أحياناً من طمأنينة راسخة وثقة بالنفس لا حدود لها. ها هي ترهق بالشراب والسهر، ويلتهب جلدها بالمساحيق، فهل تلحظه خفية بالحسد؟

- ٥٠ -

- وسأل مرّة المعلّم عبد الخالق:  
- سمعت ولا شك عن حكاية عاشور الناجي؟  
- حكاية محفوظة يا معلّم...  
فقال جلال بعد تردد:  
- إني أعتقد أنه ما زال حيّاً  
فذهل عبد الخالق ولم يدر بماذا يجيب. كان يعلم أن عاشور وليّ عند قوم ولصّ لقيط عند آخرين، ولكنهم يسلمون جميعاً بموته. وواصل جلال قائلاً:  
- وأنه لم يمّا  
وقال عبد الخالق:  
- كان عاشور رجلاً صالحاً والموت لا يخطئ  
الصالحين...  
فتساءل جلال محتجاً:  
- أبنغي أن يكون الإنسان شريراً كي يخلد؟  
- الموت حقّ، ولكن لا يتطلّع إلى الخلود مؤمناً  
- أعلى يقين أنت من ذلك؟  
فخاف عبد الخالق وقال:  
- هكذا يقولون والله أعلم...  
- لمّ؟  
- أعتقد أنّ الخلود لا يتاح للإنسان إلاّ بمؤاخاة  
الجنّ...  
فاشتعل جلال باهتمام داهم حادّ وقال:  
- حدّثني عن ذلك...



## - ٥١ -

- سأل الصوت باليةً وتحدّ:
- اسم أمك؟
- أجاب كاظمًا:
- زهيرة.
- ماذا تريد؟
- تردّد قليلاً ولكنّ الصوت لم يمهله فتساءل:
- ماذا تريد؟
- أن أعرف ما يقال عن مواخاة الجنّ.
- ماذا تريد؟
- لقد قلت.
- ماذا تريد؟
- فاجتاحه الغضب وتساءل مندرًا:
- ألم تعرف من أكون؟
- جلال بن زهيرة.
- أستطيع أن أطحنك بضربة واحدة.
- كلاً.
- قيلت بكلّ ثقة وطمأنينة فهتف جلال:
- تريد أن تجرّب؟
- فتساءل الصوت ببرود ولا مبالاة:
- ماذا تريد؟
- لم يجب. لم يقدم على فعل. عاد الصوت:
- ماذا تريد؟

## - ٥٢ -

- انطلق من الظلام صوت عميق مؤثّر هادئ يسأل:
- اسمك؟
- تنهّد في ارتياح وأجاب:
- جلال الفتوة.
- أجب على قدر السؤال، اسمك؟
- فوسّع صدره وأجاب:
- جلال عبد ربّه الناجي.
- على قدر السؤال اسمك؟
- فأجاب بحدّة:
- جلال.
- اسم أمك؟
- غلى دمه بسرعة خفيفة. رأى رغم الظلمة ألواناً جهنمية.
- سكت الصوت. هل ذهب؟ وقع مرّة أخرى في الضياع. تلهّف عليه بأعصاب ممزّقة. حملق بقوة ولكنّه لم ير شيئاً.

- ٥٥ -

تلقت زينات الشقراء قراره كأنه ضربة قاتلة.  
 قطيعة أليمة غير مسبوقة بتمهيد، وبلا سبب مقنع.  
 إنها المرارة والخوف واليأس. ألم يكونا كالزبدة والعسل  
 حلاوة وامتزاجاً؟ وأمنت بأنها ملكته إلى الأبد. ها هو  
 يغلق الباب مثل دراويش التكية هاجراً أحبابه في  
 الحيرة والعداب. بكت طويلاً والخدم يصدونها عن  
 الجناح. زارت أخاه المعلم راضي فوجدته في حيرة  
 عاتلة. جالست أباه عبد ربّه في جناحه. لقد تغرّب  
 المعجوز فلم يعد يزور البوطة إلا فيما ندر، استقام  
 وخشع. وهو مثلها في حيرة من أمر ابنه. قال:  
 - لا أستطيع رؤيته رغم أننا في دار واحدة...  
 عانت زينات حياة معذبة. لم يكن المال ينقصها  
 ولكنها فقدت تاج الحياة، تزعزعت ثقتها بنفسها،  
 وتجهّمها المستقبل الغامض.

- ٥٦ -

وجزعت العصابة واضطربت. لم يملاً مؤنس العال  
 عين أحد ولكنهم التزموا بطاعته. وتساءلوا أيّ نذر  
 نذره، ولمّ يعهد بالفتونة لآخر، وتجارته وأملاكه لأخيه  
 راضي؟  
 وتسربّ النبأ الخطير إلى الحواري المتنافسة، وبمرور  
 الزمن أعلن الفتوات التحدي من جديد. وتلقى  
 مؤنس العال أولى هزائمه على يد فتوة العطوف، ثمّ  
 تابعت الهزائم أمام كفر الزغاري والحسينية وغيرهما،  
 حتى اضطّر مؤنس العال لشراء أمن الحارة وسلامتها  
 بالإتاوات. وأراد رجاله إبلاغه بما آل الحال إليه ولكن  
 حيل بينهم وبين ذلك، وكأنه الموت قد انتزع فتوتهم  
 منهم ودفنه في جناح محكم الإغلاق.

- ٥٧ -

وتابع الناس بذهول بناء المئذنة الغربية، وتواصل  
 ارتفاعها إلى ما لا نهاية، من أصل ثابت في الأرض بلا  
 جامع أو زاوية، لا يُعرف لها هدف أو وظيفة، حتى  
 الذي يقوم بتشبيدها لا يعرف شيئاً عنها. وتساءل  
 قوم:

- ٥٣ -

ورجع الصوت بعد عذاب. تساءل:  
 - أنت على استعداد لتقديم ما يُطلب منك؟  
 أجاب بلا تردّد:  
 - أجل.  
 - أن توقف على جاريتي حواء كبرى عمارتك  
 للتكفير بريعتها عن ذنبي.  
 تفكّر طويلاً ثمّ قال:  
 - أوافق.  
 - أن تشيد مئذنة ارتفاعها عشرة طوابق.  
 - في الزاوية؟  
 - كلاً.  
 - زاوية جديدة؟  
 - كلاً، مئذنة مستقلة...  
 - ولكن...  
 - دون مناقشة.  
 - أوافق.  
 - عش عاماً كاملاً في جناحك، لا ترى أحداً، لا  
 يراك إلا خادماك، تجتّب ما يذهلك عن نفسك...  
 فانقبض قلبه ولكنّه قال:  
 - أوافق.  
 - في اليوم الأخير يتمّ الالتحام بينك وبين الجنيّ ثمّ  
 لا تذوق الموت أبداً.

- ٥٤ -

أوقف جلال عبد ربّه الناجي كبرى عماراته على  
 حواء الجارية الحيشية. اتفق مع مفاول على تشييد  
 المئذنة العملاقة في إحدى الخرابات، وقد امتثل الرجل  
 لما يُطلب منه طمعاً في المال وخوفاً من البطش. وعهد  
 بالعصابة إلى وكيله مؤنس العال مزوداً إياه بكافة  
 الإرشادات. أعلن عن عام اعتزاله معتلاً بأنه يوفي  
 بنذر نذره. وقبع في جناحه يسجل الأيام كما فعل  
 سماحة في مهجره، متجنباً القرعة والجوزة وزينات  
 الشقراء. ومضى نفسه بالفوز في أكبر معركة خاضها  
 بشر.

- هل مسّه جنون؟

أما الحرافيش فقد قالوا إنها اللعنة حلت به جزاء  
خيانته لعهد جدّه العظيم، ونجأه لرجاله الحقيقيين،  
وجشعه الذي لا يقنع بشيء.

- ٥٨ -

ومرت الأيام وهو مستغرق في عزله. يقتلع كل يوم  
من قلبه جذور العالم الخارجي، الفتنة والمال والمرأة  
المحبّة الجميلة. يستسلم للصمت والوعي والصبر.  
يسلبه الأمل والفوز الذي لم يطمح إليه إنسان من  
قبل. عاشر الزمن وجهًا لوجه بلا شريك. بلا ملهة  
ولا مخدّر. واجهه في جموده وتوقفه وثقله. إنّه شيء  
عنيد ثابت كثيف وهو الذي يتحرك في ثنياه كما يتحرك  
النائم في كابوس. إنّه جدار غليظ مرهق متجهّم. غير  
محتّم إذا انفرد بمنعزل عن الناس والعمل. كأننا لا  
نعمل ولا نصادق ولا نحبّ ولا نلهو إلا فرارًا من  
الزمن. الشكوى من قصره ومروره أرحم من الشكوى  
من توقّفه. عندما يدركه الخلود سيجرب آلاف الأعمال  
بلا خوف وبلا كسل. سيخوض المعارك بلا تدبّر.  
سيسخر من الحكمة كما يسخر من الحماقة. سيتقلّد  
ذات يوم عمادة الأسرة البشرية. أما اليوم وهو يزحف  
فوق الثواني فهو يبسط راحته سائلًا الرحمة...  
ويتساءل متى يجيء الجان، وكيف يؤاخيّه، هل يراه  
رؤية العين، هل يسمع صوته، أم أنّه يلتحم به مثل  
الهواء الذي يتنفسه. إنّه مرهق ضجر. لكنّه لن يلين  
للخورد. لن ينحسر المعركة. ليتأمّ وليبك إذا شاء. إنّه  
مؤمن بما يفعل. لن يتراجع. لن يخشى الخلود. لن  
يعرف الموت. سيظلّ الكون خاضعًا لتقلّبات الفصول  
الأربعة أمّا هو فربيع دائم. سيكون طبيعة كون  
جديد. أوّل مستكشف للحياة بلا موت. أوّل رافض  
للراحة الأبدية. القوّة الظاهرة الخفية. إنّما يخشى الحياة  
الضعفاء، أمّا معاشره الزمن وجهًا لوجه فعذاب لا  
يعرفه الخيال...

- ٥٩ -

وقف جلال عاريًا أمام نافذة مفتوحة في آخر يوم  
من العام المكتوب. استقبل شعاع الشمس مغسولًا  
برطوبة الشتاء، وتلقّى نفحات باردة من ريح متأنية.  
أنّ للمتصبّر أن يجني ثمرة تصبّره. أنّ الليل الضنى  
والإرهاق والوحدة أن ينتهي. لم يعد جلال عبد ربّه  
الإنسان الفاني. إنّه ثمل بروح جديدة ثملًا أعطافه،  
تسكّره بالإلهام، تنفحه بالقوّة والثقة. بوسع أن يحدث  
نفسه فيحدث الآخر في آن، أن يثق كلّ الثقة بما  
يهمس في ضميره. انتصر على الزمن بعد صموده أمامه  
وجهًا لوجه بلا رفيق. لا خوف منه بعد اليوم. فليهدّد  
غيره بجريانه المنحوس. لن يتلي بالتجاعيد ولا  
بالشيب ولا بالوهن. لن نخونه الروح، لن يحمله  
نعش، لن يضمّه قبر. لن يتحلّل هذا الجسد  
الصلب، لن يتحوّل إلى تراب. لن يذوق حسرة  
الوداع.

تجوّل عاريًا في الحجرة وهو يقول بطمأنينة:  
- مباركة هذه الحياة الأبدية... -

- ٦٠ -

فُتح الباب بعصبيّة واقتحمت الحجرة زينات  
الشقراء. طارت نحوه مجنونة بالأشواق فذابا في عناق  
حارّ طويل. انتحبت باكية. سألته بعتاب حارّ:  
- ماذا فعلت؟

قَبِل خدّيا وشفتيها فعادت تتساءل:

- كيف هنت عليك؟

اجتاحه الحنين إليها. شيء ثمين جميل عابر. يراها  
شابّة جميلة وعجوزًا دميعة. كذبة عذبة. كأنّ  
الإخلاص أصبح مستحيلًا. قال لها:

- لننس ما فات...

- ولكني أريد أن أعرف...

- كأنّه مرض وانتهى...

- يا لك من خائن...

- يا لك من امرأة مليحة...

- أتدري ماذا حصل للعالم في غيابك؟

- فلنؤجّل الحديث عن ذلك...

## ملحمة الحرافيش ٨٦٧

مقوس مصقول. ويواصل جسمها المتين ارتفاعه، لا تُرى له قمة، لا يعلوه بناء، ويعلو أضعاهاً فوق كل شيء، توحى أضلاعه بالقوة، ولونه الأحمر بالغرابة والرعب.

وتساءل عبد ربّه:

- لو سلّمنا بأنّها مثذنة فأين الجامع؟

فلم يجب، فقال راضي:

- كلّفتنا مبلغاً طائلاً...

وعاد الأب يسأل:

- ما معنى هذا يا بني؟

فضحك جلال وقال:

- الله أعلم...

- منذ تمّ بناؤه ولا حديث للناس سواه...

فقال جلال بازدراء:

- لا تهتمّ بالناس، إنّه من النذر يا أبي، وقد

يرتكب الإنسان حماقات كثيرة ليلبغ في النهاية حكمة فريدة...

وهمّ الأب بمعاودة السؤال ولكنّه سبقه بنبرة قاطعة:

- انظر، ها هي المثلثة، سيفنى كل شيء في الحارة

وتبقى هي، اطرح عليها أسئلتك وسوف تحببك إذا

شاءت...

- ٦٣ -

وانفرد بالمعلم عبد الخالق العطار وسأله بجديّة

خفيفة:

- ماذا ظننت باعتزالي؟

فقال الرجل بصدق وقلبه يخفق بالخوف:

- ردّدت قولك بلا زيادة.

- وماذا ظننت بالمثلثة؟

فقال الرجل بعد تردد:

- لعلّها من النذر يا معلّم...

فسأله متجهّماً:

- ألسنت رجلاً حكيمًا يا عبد الخالق؟

فبادر الرجل يقول:

- إن تفشّت همسة واحدة فاعتبرني المذنب!

فتراجع رأسها وقالت بانبيها:

- ما أجل منظرك!...

فانقبض قلبه وتمتم وهو يرمقها برثاء:

- آسف على ما عانيت...

فقال بعناد:

- سأستردّ صحتي في ساعات... ولكن ما سرّك؟

فقال بعد تردد:

- كنت مريضاً وشفيت...

- كان ينبغي أن أزم جانبك...

- كان العلاج هو الوحدة!

وضمّته إلى صدرها وهي تقول بشغف:

- دعني أرى إن كان الحبّ ما زال هو الحبّ...

أمّا آلامي وأحزاني فسأحدّثك عنها فيما بعد...

- ٦١ -

جلس في بهو الضيوف فاستقبل المعلم عبد ربّه والمعلم راضي في عناق صادق، وسرعان ما جاء مؤنس العال ورجال العصابة. قبلوه باحترام وقال له مؤنس محزوناً:

- ضاع كل شيء لم يكن باليد حيلة...

وفي موكب من رجاله خرج إلى الحارة، ومضى إلى المقهى، اجتمعت الحارة كلّها في الطريق تحييه فاختلفت المحبّ بالكاره، والمعجب بالحاسد. ومال نحو مؤنس العال فسأله:

- ألم يظنّ أحد بي الجنون؟

فهتف الرجل:

- أعوذ بالله يا معلّم...

فقال له وهو يرمق الجمهور بازدراء:

- فليذهبوا إلى أعمالهم مشكورين...

ثمّ غمغم:

- ما أكثر الكره وما أقلّ الحب!

- ٦٢ -

وزار المثلثة ويصحبته عبد ربّه وراضي. رسخت قاعدتها وسط خرابة، وأزيل الحصى والقاذورات ممّا حولها. قاعدة مربعة في مساحة بهو ذات باب خشبيّ

- ٦٤ -

وطمحت إلى الزواج. ولعلّ السلو عن الحياة نفسها  
أهون من السلو عنه وقد تجسدت فيه القوة والجمال  
والشباب والعظمة غير المحدودة. ولكنّه خرج من  
عزلته مخلوقاً آخر. مخلوق يبهر بالقوة والجمال، ويرعب  
بالتقلّب والجنون والحنكة والاستهانة. وشعرت بأنّها  
تدقّ وتنحل وتتضاءل، بل وتتلاشى أمام سيادته المرعبة  
المجهولة. ولم تجد ما تتذرع به حياله إلا الضعف  
والابتهاال والهزيمة، ولكنّه اعترضها بنعومة متكبرة،  
معتزة بشموخها، متعطفة بحنان بارد، متحصنة بتعال  
لا متناه، وقال لها:

- اقنعي بمنزلة تمسدين عليها...

ورأت أنّها تذبذب بقدر ما يزدهر، وأنّها ينطلقان في  
طريقين متضادين، فاحتقن قلبها بالحبّ والتعاسة...

- ٦٧ -

ورزق عبد ربّه الأب بذكر سيّاه خالد. وسرعان ما  
تاب وأقلع عن البوطة بصفة نهائية، ووجد سروره في  
الصلاة والعبادة، فأخذ من الشيخ خليل الدهشان  
نحيه وصديقه...

وداخله قلق مرعب من ناحية جلال وقلق أشدّ من  
ناحية المثذنة المخيفة. خيل إليه أنّ علاقة الأبوة  
تتهتك، وأنّ ابنه أصبح غريباً لا يمتّ إليه بصلة، بل  
أصبح غريباً بين الناس غرابة المثذنة بين الأبنية. إنّه  
مثلها قويّ وجميل وعقيم وغامض. وقال له:

- لن يطمئن قلبي حتى تتزوج وتنجب...

فقال جلال:

- في الوقت متسع يا أبي...

فقال بتوسل:

- وحتى تبعث عهد الناجي العظيم...

فابتسم ولم يجب، فقال الأب:

- وحتى تتوب عن المنكر وتتبع سبيل الله...

وتذكر ماضي أبيه القريب والبعيد فقهقه بصوت  
كالطبل.

- ٦٨ -

مرّت الأيام لا يخشى من مرورها. وتسابعت

في جوف الليل تسلل إلى المثذنة. رقي سلمها  
درجة درجة حتى انتهى إلى شرفتها العليا. تحدّى جوّ  
الشتاء القارص في تسلطه الشامل على الوجود. تطاول  
رأسه إلى مهرجان النجوم الساهرة المنتشرة فوقه  
كمظلة. آلاف الأعين تومض فوقه، وكلّ شيء تحته  
غارق في الظلام. لعلّه لم يصعد ولكنّ قامته طالت كما  
ينبغي لها. عليه أن يرتفع، أن يرتفع دائماً، فلا سبيل  
إلى النقاء إلا بالارتفاع وفوق القمة تسمع لغة  
الكواكب، وهمسات الفضاء، وأمانى القوة والخلود،  
بعيداً عن أنات الشكوى والخور وروائح العفن. الآن  
تشدو ألحان التكيّة بأغنيات الخلود، وتعرض الحقيقة  
العشرات من وجوهها الخفية، وينكشف الغيب عن  
شئى المصائر. من هذه الشرفة يستطيع أن يتابع  
الأجيال في تعاقبها، وأن يلعب لكلّ جيل دوراً، وأن  
ينضمّ بصفة نهائية إلى أسرة الأجرام السماوية...

- ٦٥ -

وقاد رجاله ليؤدّب أعداءه وليعيد إلى حارته مكانتها  
السابقة. في فترة قصيرة أحرز انتصارات باهرة على  
العطوف والحسينية وبولاق وكفر الزغاري والدراسة.  
كان يرمي بنفسه على خصومه فيتطايرون أمامه  
تسحقهم الهزيمة والذلّ. عرف بأنّه القوة التي لا  
تقاوم، التي لا تجدي معها قوة أو شجاعة...

- ٦٦ -

وتغيّر أسلوبه في الحياة. أصبح يأكل فيفرط في  
الأكل، ويشرب فيفرط في الشرب، ويدخن فيفرط في  
التدخين. وكلّمها غائلته غانية استجاب لها مستعياً  
بالسرّيّة والستر، وسرعان ما تحرّر من سطوة زينات  
فلم تعد إلاّ وردة جميلة في حديقة ملأى بالورود.  
وترامت أنباء مغامراته إلى المرأة فاشتعل بجوانحها  
جنون الغيرة والخسران، ورأت وجهها في مرآة  
المستقبل متلاشياً في ظلمة النسيان والضياح. طالما  
وجدت فيه الطفل البريء ذا المذاهب الخارقة.  
وفتحت لها براءته أبواب الأمل البعيد، فضمنت الحبّ

## ملحمة الحرافيش ٨٦٩

واحتواها بين ذراعيه فضمته إلى صدرها بقوة  
جنونية...

- ٦٩ -

تخلص من ذراعيها ومضى ينزع عنه ملبسه حتى  
بدا كتمثال من نور. ونهض قائماً. راح يتمشى في  
المخدع، وسرعان ما ترنح حتى ضحك. قالت:

- شربت بحرًا...

- ما زلت ظمآن...

فغمغمت كأنما تخاطب نفسها:

- ذهب زمان الحب...

وترنح متطوِّحًا حتى تهاوى فوق ديوان. وضحك  
عاليًا. قالت:

- إنه السكر...

فقال متجهماً:

- كلاً، شيء أثقل، كأنه النوم...

حاول القيام ولكنّه استسلم متمماً:

- إنه النوم يجيء بلا دعوة...

عضت على شفتها. هكذا سينتهي العالم ذات يوم.  
وأتعس الناس من يتشد النصر في الهزيمة.

وقالت له بصوت مبحوح:

- حاول أن تنهض.

فقال بتراخٍ وقور:

- لا داعي لهذا...

- ألا تستطيع يا حبيبي؟

- بلى، إنَّها نار الجحيم والنوم...

فانتفضت قائمة. تراجعت إلى مركز المخدع وهي  
تنظر إليه بوحشية حلَّت محلَّ العذوبة الحزينة.  
أصبحت قطعة من التحفُّز المشرب بالمرارة والحزن.  
نظر نحوها بعينين غائمتين، حوَّل بصره إلى لا شيء،  
قال بنفس ثقيل:

- ما بال النوم يزحف!

فقالت بنبرة اعتراف مقدَّسة:

- ليس النوم يا حبيبي...

- لعله الثور الذي يجعل الدنيا على قرنه؟

- ولا هو الثور يا حبيبي...

الفصول بلا جزع. وارتفعت الإرادة الصلبة فوق قوى  
الطبيعة المتصارعة. ولم يعد الغيب يضمّر ما يخيف.  
وفي هاوية اليأس والحزن تلقت زينات الشقراء  
دعوة للحب، طالما انتظرتها، طالما تلهفت عليها، طالما  
تبيها لها قلبها المكلوم.

ها هو يجود بليلة من ليلائه، وها هي تمضي إلى داره  
ينطق ظاهرها بالرضى والقناعة. وفتحت النوافذ  
وانجابت الستائر لتوسع لنسائم بشنس. لقيته بالبشر  
والمرح وكتمت في الأعماق أحزانها. تعلّمت أن تعامله  
بحذر الخائف، فراحت تعدّ الشراب وتقدّم الأقداح،  
وتهمس في أذنه:

- اشرب يا حبيبي...

فيقول لها وهو يعبّ من الخمر عباً:

- ما أطفك!

وقالت لنفسها إنّه فقد قلبه كما فقد براءته، وإنّه  
يتباهى وهو لا يدري بقسوته مثل الشتاء، وقالت  
لنفسها أيضاً إنَّها تنتحر بوعي وإرادة...

ورمقها وهو يتوغّل في السكر، وتتمم:

- إن صحَّ نظري فلست كالعهد بك...

فقالت بعدوبة:

- إنّه وقار الحب...

فضحك قائلاً:

- لا وقار لشيء...

وعابت خصلة من شعرها الذهبي وقال:

- ما زلت في أعزّ مكانة ولكنك امرأة طموحة...

فاندفعت قائلة:

- ما أنا إلا امرأة حزينة...

- تذكري نصائحك الغالية عن قصر الحياة...

- كان ذلك في زمان الحب...

- ها أنا أعمل بها لشكراً لك...

وقالت لنفسها إنّه لا يدري ما يعنيه كلامه، وإنَّها  
تعلم الغيب أكثر منه بقيراط، وإنَّ الشرّ يرفع الإنسان  
على رغبته إلى مرتبة الملائكة. ورنّت إليه طويلاً بشغف  
وهي تقاوم رغبة في البكاء. واستنامت إلى نسائم  
بشنس وقالت لنفسها إنّه شهر غدار، سرعان ما تدممه  
الخمسين فينقلب شيطاناً مغيراً يفتك بالريبع.

- إنك مضحكة يا زينات، لماذا؟  
- بل إنني أنتحر...  
- هه؟  
- إنه الموت يا حبيبي!  
- الموت؟...  
- لقد جرعت من السم ما يكفي لقتل فيل...  
- أنت؟  
- أنت يا حبيبي...  
وضحك ولكنه سرعان ما كف عن الضحك في إعياء فقالت وهي تبكي:  
- قتلتك لأقتل حياة العذاب!  
حاول الضحك مرة أخرى وتمتم:  
- جلال لا يموت...  
- الموت يطل من عينيك الجميلتين...  
- الموت مات يا جاهلة...  
واستجمع كل قوته حتى وقف ممتدًا في فضاء الحجر. تراجعت إلى الوراء في رعب، ثم اندفعت هاربة مجنونة...  
- ٧٠ -  
كأنه يحمل المثلثة المرعبة فوق كاهله. الموت ينطحه كما ينطح أي حيوان أعمى صخرة صلبة. وهتف بلا خوف:  
- ما أشدّ الألم!  
سار مترنحًا نحو الخارج وهو عارٍ تمامًا. تتمم وهو يغادر الدار إلى ظلام الحارة:  
- جلال يتألم ولكنه لا يموت...  
تقدّم ببطء شديد يخوض الظلمة الحالكة مغمغمًا بصوت غير مسموع:  
- النار... أريد ماء...  
وجعل يتحرك في الظلام ببطء شديد، يغمغم متشككًا وهو يعتقد أنه يملا الدنيا صياحًا. وتساءل أين الناس؟... أين الأتباع؟... أين الماء؟... أين زينات المجرمة؟... وقال إنه الكابوس في ثقله وساجته ولكنه ليس الموت، القوي المجهولة تعمل الآن بكل طاقتها لتردّه إلى الحياة والسخرية... ولكن ما أشدّ الألم! ما أفضح الظمأ!  
وعثر في تحيطه بجسم بارد، آه إنه حوض الدواب. اجتاحته فرحة النجاة. انحى فوق حافة الحوض. فتهوى إلى أسفل. مدّ ذراعيه فغرقتا في الماء. لامست شفتاه الماء المشبع بالعلف. شرب بنهم. شرب بجنون. صرخ صرخة مدوية ممزقة بوحشية الألم. غاص نصفه الأعلى في الماء العكر، تقوّض نصفه الأسفل فوق أرض مغطاة بالروث، كفتته الظلمة الحالكة في تلك الليلة المشيرة المفزعمة من ليالي الربيع...  
خوف:

# الأشباح

## الحكاية الثامنة من مدحة الجرافيش

- ٣ -

وورث التركة الضخمة رجلاً، الأب عبد ربّه، والأخ راضي. وعُلم موت جلال بإفراطه في الخمر والمخدرات. أمّا انطراحه بين العلف والروث عارياً فاعتُبر جزاءً إلهياً لصفه وشموخه وتعاله على البشر. وبقيت المشذنة بلا وريث، متهادية في الضخامة والارتفاع والعقم، آية على الغطرسة والجنون.

- ٤ -

وبعد حين فتح المعلم عبد الخالق العطار فاه. همس بالمغامرة العجيبة، بمؤاخاة الجان، بدور الرجل الغامض شاور. هكذا ذاع السرّ وتناقله الناس، وأكّدت زينات الشقراء الظنون بما روت عنه من اعتقاده بأنّه لا يموت. واختفى شاور وجاريته هرباً من غضب الخلق. واقترح كثيرون هدم المشذنة ولكنّ الأغلبية خافت أن يكون الجحّي قد سكنها حقاً، فيخشى على الحارة من هدمها أن يلحقها من الأذى ما لا يدريه البشر. هكذا تُركت، يتجنّبها القوم، يلعبها الرائح والغادي، تمتلئ جوانحها بالحيات والخفافيش والعفاريث.

- ٥ -

وقال الحرافيش إنّ ما حلّ بجلال هو الجزاء العادل لمن يخون عهد الناجي العظيم. من ينسى دعاءه الخالد بأن يبه الله القوّة ليجعلها في خدمة الناس. وعندما

- ١ -

دهر طويل كان ينبغي أن يمرّ قبل أن تنسى الحارة منظر جثة جلال المنطرح على حافة حوض الدواب. جثة عملاقة بيضاء ملقاة بين العلف والروث. هيكلها العظيم يوحى بالخلود، سلبيتها المتهافئة تشهد بالفناء وفوقها يتشبع الجوّ على ضوء المشاعل بالسخرية المرعبة.

انتهى القويّ الشامخ في عنقوان شبابه. تلاشى ظلّه ذو المائة عين والألف قبضة. حمله أبوه عبد ربّه وأخوه راضي إلى داره العظيمة. سُرع في جنازة مهيبة إلى قبر شمس الدين الناجي. حُلّد ذكره في سجلّ الفتوات العظام بالرغم من صفاته الشيطانية. يذهب الإنسان بخيره وشره ولكن تبقى الأساطير.

- ٢ -

توتّى الفتونة بعده مؤنس العال. ورغم ما خلّفه موت جلال من ارتياح عامّ إلا أنّ الحارة فقدت توازنها وداومتها مخاوف جديدة. وسرعان ما نزلت عن مكانتها المرموقة فمضت في ركب الحيّ حارة من الحارات، وتلاشت فتونة فتوة الفتوات، وراح مؤنس العال يهادن ويصادق، أو يخوض معارك خاسرة، ويضطرّ أحياناً لشراء السلامة بالإتاوة والهدايا، أمّا داخل الحارة فلم يتصوّر أحد أن يُخلص مؤنس العال للعهد الذي خانته جلال حفيد الناجي ومعجزة القوّة والنصر.



- ٩ -

ودخل جلال الكتاب عامين، ثم عمل سواقًا عند «الجدع» صاحب العربات الكارو. وكانت زينات قد أنفقت مَدَّخَرها فلم تستطع أن توفّر لجلال عملاً أفضل، وكانت فخورةً بابنها كما كانت فخورةً بصبرها واستمساكها بالحياة الشريفة. ورغم تجاوزها للأربعين كانت ما تزال على قدر من الجمال جعل المعلم الجدع يطمع في ضمّها إلى حريمه. لم ترحب زينات برغبة المعلم وخافت في الوقت نفسه أن يسيء معاملتها، ولكن الرجل نبذ رغبته عندما قال له مجاهد إبراهيم شيخ الحارة الذي خلف خليل الفصّ بعد وفاته، قال:

- كيف تركز لامرأة قتلت ذات يوم رجلها؟! وعرف جلال - مع الأيام - أنه ابن جلال صاحب المثلثة وحفيد زهيرة، وأن عبد ربّه جدّه، والوجيه راضي عمّه، عرف تاريخه الحزين كما عرف تاريخ الناجي، ولبسه لقب ابن الحرام كقدر لا مفرّ منه ولا تكذيب له. وقال له المعلم الجدع ذات يوم:

- إِيَّاكَ أن تعتمد إلى العنف، اصبر وما صبرك إلا بالله، وألاً فابحث عن رزقك في مكان آخر. . .

وقال له الشيخ سيّد عثمان شيخ الزاوية (خليفة المرحوم الشيخ خليل الدهشان):

- مؤنس العال يرقبك باهتمام باعتبارك من حفدة الناجي، حذار أن تستغلّ قوتك فتهلك. . .

فصبر جلال مؤثراً السلامة، واستحقّق باجتهاده وأمانته تقدير الجدع. . .

- ١٠ -

وتمرّ الأيام وتنبت من جديد آمال. تشجعت زينات بعطف الجدع على جلال وراحت تخطب له عفيفة ابنة المعلم. وكان الرجل فظاً صريحاً عندما أجاب قائلاً:

- جلال ولد طيب ولكنّي لا أزوّج ابنتي من ابن حرام. . .

ويكت زينات منفعةً أما جلال فقد تحمّل الطعنة صابراً. . .

يخون حفدة الناجي عهده تحلّ بهم اللعنة ويفتك بهم الجنون. حتّى المعلم عبد ربّه ناله من ازدراء الحرافيش ما ناله، وكذلك المعلم راضي، ولم يغنّ عنها مالهما الغزير.

- ٦ -

وعاشت زينات الشقراء فترة من الرعب والترقب ولكنّ أحدًا لم يشر إليها باتهام. حتّى من ساوره شكّ في دورها تغاضى عن ظنونه حامدًا لها فعلها المجهول. ولم تنعم المرأة بانتقامها، فعاشت وحيدة زاهدة بلا قلب ولا راحة. واكتشفت عقب موت جلال بفترة من الزمن أنّ حبّهما قد خلق في بطنها ثمرة فحرصت عليها بقوة حبّها الخالد، وملكها شعور بالفخار رغم أنّها ثمرة غير مشروعة. وأنجبت ذكرًا فسّمته جلال بكلّ جراءة وصراحة متحدية به التقاليد.

- ٧ -

وهبته حُبّين، حبّ الأمومة، وحبّ العاشقة الخالدة لأبيه الراحل. ونشأ جلال في أحضان أمه حياة متواضعة، آثرتها أمه على العودة إلى حياة الغانيات، ولم تنس قطّ أنّه الوريث الحقيقي لتركه جلال الخيالية. وسعت إلى المعلم عبد ربّه، ثمّ إلى المعلم راضي، لينزلا للصغير عن شيء من ماله ولكنّها قاطعاً بحدّة دلّت على أنّها يتّهمانها بدور فاصل في مصرع جلال. وقال المعلم راضي:

- امرأة مثلها كيف تعرف من يكون أبًا لابنها!

- ٨ -

وترعرع جلال كابن من أبناء الحارة، مجهول النسب، يشار إليه باعتباره ابن حرام، كما كان يشار إلى أبيه باعتباره ابن زهيرة. ولكنّ عمّوه المطرد أثبت لكلّ ذي عينين أنّه ابن جلال دون غيره. أجل لم يكن له قوته ولا جماله ولا عملته ولكن لا يخطئ أحد في ربط الصورة المتواضعة بالأصل البارّ.

- ١٤ -

عندما بلغ المعلم جلال عبد الله الخمسين من عمره انقلب حاله ودهمته العجائب من زوايا المجهول. في البدء كانت وفاة أمه. ماتت زينات فجأة عن ثمانين عامًا. ومن عجب أن جلال - رغم كهولته ورغم شيخوخة أمه - قد صدم صدمة عنيفة زعزعت توازنه. رُئي في الجنائز وهو يبكي ويتحبب، ثم غشيته كآبة ثقيلة خنقته ثلاثة أشهر حتى ظنَّ به التدهور. ولم يفهم حزنه وسخر منه كثيرون. وهو نفسه كان يقول إنه طالما أحبها حبًّا جمًّا ولكنَّه ما كان يتصوّر أن يفعل به موتها ما فعل. أما الأعجب من ذلك فهو ما حصل له عقب انقشاع الكآبة. لقد وُلد شخص جديد مجهول الأصل. كأنما قذفه قبو مسكون بالعفاريت. تبدى له حبُّ لأمه عاطفة غريبة مضللة كأنها سحر أسود، تبخّرت في الهواء مخلّفة حجرًا باردًا شديد القسوة. أصبح يثور للذكراها ويلعنها. لم يبق في قلبه أثر لحزن أو برّ أو وفاء. وثمة صوت يهمس له في ذهنه بأنّها كانت ينبوع العداوة والمقت في حياته، وأنه ضحيّتها الأبدية. وتساءل ذات يوم:

- هل حزنتم لموتها حقًّا؟... يا لها من نزوة جنونية أمام الموت!

ومرّة كان يجالس مجاهد إبراهيم شيخ الحارة فقال له:

- كانت أمي ذات صفات كريمة وسمعة سيّئة ونوايا خبيثة... .

فدهش شيخ الحارة وقال له:

- لا أكاد أصدّق أذني... .

- أومن الآن بأنّها حقًّا قتلت أبي، وقد كانت

عريضة مدمنة للمخدّرات. إني أتقرّز من ذكراها... .

- اذكروا حسنات موتاكم... .

فهتف بحقد لم يُعرف عنه:

- لا حسنة واحدة لها!

ثمّ بغیظ أشدّ:

- لقد تمّعت بعمر طويل مريح لا تستحقّه... .

- ١١ -

ومات الجدع عقب تناوله صينيّة فول بالخلطة وصينيّة كنافه بالقشدة، وقد تجاوز السبعين من عمره. وانتظرت زينات عام الحداد ثمّ طلبت عفيفة من أمها فوافقت المرأة بناء على ما أنست من ميل ابنتها للفتى... .  
هكذا رُقت عفيفة الجدع إلى جلال عبد الله.

- ١٢ -

وبالزواج ترقى جلال عبد الله من سواق كارو إلى صاحب كارو وإن لم تكن عفيفة هي المالكة الحقيقية. أحسن الإدارة وتحسّنت أحواله المعيشية ثمّ توجّح حفظه بالأبوة. وتتابعت أيّام مريجة أنجب فيها بنات، ثمّ رُزق بذكر سرعان ما أسماه شمس الدين جلال الناجي. أعلن بالتسمية عن كبريائه الدفين مثل النار في الصوّان. وسلّم الجميع بصدق التسمية غير أن آل الناجي الأكبر - مثل الوجيه راضي - امتعضوا لها، أما الحرافيش وسائر الناس فلم ينسوا أن جلال الأب ابن غير شرعيّ للمجنون صاحب المثلثة الشيطانية. وقال عبة الفوّال صاحب البوظة وخليفة المرحوم سنقر الشّمام:

- ما أكثر الذين يسمّون بعاشور وشمس الدين في حارتنا!

أجل لم يبق من تراث الناجي الخالد إلاّ الأسماء. أما العهود والأفعال فتعيش في الخيال مع الأساطير والمعجزات المسربة بالحسرات.

- ١٣ -

وعمر أيّام رتيبة ومريجة في حياة جلال عبد الله وأسرته. ويُعرف الرجل بالطيبة والأمانة وحسن الخلق والورع. ويتوفّر له الزرق، ويعشق العبادة، ويصبح من أقرب المقرّبين للشيخ سيّد عثمان شيخ الزاوية، وتتوثّق علاقته بزوجه عفيفة ويقنع بمعاشرتها، ويحسن تنشئة شمس الدين، ويظلل الابن البارّ لأمه زينات رغم ما أورثته من سوء سمعة وألم. وتدّل البشائر على أن هذه الأسرة ستشقّ طريقها في يسر وبلا تاريخ... .

- ١٥ -

وتغيّر سلوكه فيما يشبه الانهيار.  
كفّ عن الصلاة، هجر الزاوية، ماج بانفعالات  
عنيفة. وإذا به يقتحم البوطة لأول مرة في حياته. كان  
هناك الفتوة مؤنس العال وبعض رجاله فلما رآه صاح  
ساحراً:

- أخيراً عرف الحمار الضالّ حظيره...  
وضجّ الحاضرون بالضحك أما جلال فابتسم في  
شيء من الارتباك ثم رفع القرعة إلى فيه الظمان.  
وسأله مؤنس العال:

- ماذا أغراك بتقليد الرجال؟

فقال بسرور:

- الاقتداء بالرجال شرف يا معلّم...

ولما انصرف الفتوة راح جلال يغني:

على باب حارتنا حسن القهوجي

وسكر وانبسط وراح يقول:

- حلمت أمس بأنني تسلّلت إلى مثذنة أبي، وأنّ  
شخصاً جميلاً صعد بي إلى شرفتها العليا، ثم دعاني إلى  
ملاعبته الحجلة فرحت أحجل حتى اختلّ توازني  
فسقطت من الفتحة العالية. ولكنني لم أصب بأذى  
أذى...

فقال له عنبة القوّال الخيّار:

- خير ما تفعل أن تجرّب ذلك في يقطتك...

فراح يغني من جديد:

باسمع نغم بالليل عشق البنات البكارى

هدّ منيّ الحيل

- ١٦ -

وجد عفيفة مستيقظة تنتظر. لم يسبق له مثل هذا  
السهر. وتطايرت إلى أنفها رائحة البوطة فضربت  
صدرها براحتها هاتفة:

- سكران...

فراح يرقص ويقول:

- أنا جدع يا بنت الجدع.

- ١٧ -

وذاعت أخباره فعجب الناس وقالوا «مجنون ابن  
مجنون». واعترضه الشيخ سيّد عثمان ذات يوم وسأله:  
- ماذا قطعك عنّا؟  
فلم يجبه فسأله بأسى:  
- أحقّ ما يقال عنك؟  
فهجره ماضيّاً في سبيله.

- ١٨ -

وكان إذا سكر وفقد الوعي تقتحمه مغريات جديدة  
كأنما تتفجّر عنها غرائز رجل آخر. كان ينجذب إلى  
البنات المراهقات أو من دونهنّ بقليل، بقوّة غشوم،  
فيعاكسهنّ ويغازلهنّ، وإذا خلا إلى إحداهنّ انبثق في  
إهابه وحشّ نهم. لذلك كان يتحاشى السكر في النهار  
خشية العواقب، ويتسلّل ليلاً إلى الخرابات مثل ذئب  
جائع...

وقادته قدماء ذات ليلة إلى مسكن «دلال» الغانية،  
وانفرط منه الزمام...

- ١٩ -

غدا رجل الانحلال والفضائح. أوتيّ قوّة كبيرة على  
الاستهانة بكلّ شيء. ولعلّ ما ربطه بدلال أنّها كانت  
صغيرة السنّ وذات وجه مطبوع بطابع الطفولة، وأنّها  
كانت تتسامح في نزواته الغريبة فتوفّرها له بدلاً من أن  
تقصيه عنها أو تعنّفه بسببها. وقالت له مرّة بصراحة:

- إني أحبّ الجنون فلا يهّمك ما يقال!

فهتف جلال:

- أخيراً عثرت على امرأة عظيمة مثل جدّتي زهيرة!  
وانطرح على ظهره في تراخٍ وارتياح وراح يعترف  
لها قائلاً:

- استيقظت ذات صباح فوجدتني سكران بلا خمر،  
وكان يخفق بصدري قلب حديد. كرهت حاضري  
وذكرياتي، حتّى التجارة والربح، ومشاكل البنات  
المتزوّجات، وكرهت امتثال ابني شمس الدين الذي  
يعمل سواقفاً عندي وكأنّه حمار يسوق حمّاراً، وكرهت  
أمّه التي يمضيّ محصّناً ببركاتها، ورأيته تستنزفني بلا

## ملحمة الحرافيش ٨٧٥

وبرّه ودمائه. ولم تكفّ أمّه عن شكواها، فتلقّى منها  
نفحات متواصلة من المرارة والحنى. وطالما حدّرته:  
- سيبدّ كلّ شيء، سيتركك متسوّلاً...  
وبدا له أنّ أسرته تعاني من لعنة أبدية، تستعين  
بالجنون والدعارة والموت. وتقلّص قلبه فأخذ يجفّ من  
الوفاء والحبّ، ويتحدّى المجهول بالقوّة والقهر.  
وعجب متسائلاً:  
- لِمَ قبلت أمّي الزواج من مثل هذا الرجل؟

- ٢١ -

وجعلت الأمور تسير من سيّئ إلى أسوأ كعقود نهار  
الصيف الماضية نحو الظهيرة المتلظية. وأخذ قلب  
شمس الدين يتلونّ بالسواد ويتشرّب بالرفض والحنى.  
وترامى إليه وهو جالس في القهوة أنّ أباه يرقص في  
البوظة شبه عارٍ. وجنّ الفتى فانطلق من فوره إلى  
البوظة بقلب محزون وإرادة مصمّمة. رأى أباه وهو  
يرقص وليس عليه إلّا سرواله. والسكرارى يصفّقون  
ويغنون:

عومي على الميّه

لم يتبه المعلم جلال لمقدم ابنه فواصل الرقص في  
غاية من الانسجام. ورأى بعض السكرارى شمس  
الدين فكفّوا عن التصفيق والغناء داعين الآخرين إلى  
ذلك وقال أحدهم بإغراء شريّر:  
- فلنشهد منظرًا طريفًا!  
وبتوقّف التصفيق والغناء توقّف المعلم جلال عن  
الرقص محتجًا. وعند ذلك انتبه إلى وجود ابنه، كما  
فطن إلى غضبه وتحديّه فغضب بدوره وصاح به  
متسائلاً:

- ماذا جاء بك يا غلام؟

فقال شمس بأدب:

- تفضّل يا أبي بارتداء ملابسك...

فصاح المخمور:

- ماذا جاء بك يا وقح؟!

فقال بإصرار:

- أتوسّل إليك أن ترتدي ملابسك.

فانقضّ عليه مترنّحًا ولطمه لطمه شديدة صفقت في

وجه حقّ، كما استنزفتني أمّي من قبل بطريقة أخرى،  
ونار القلب والعقل والكبد وأعضاء التناسل وهتفت  
بشرى للشياطين...

فقال دلال ضاحكة:

- إنك ألدّ رجل في العالم...

فقال بثقة:

- سمعت أنّ الرجال يولدون من جديد في سنّ

الخمسين...

فقال بيقين:

- ومرة أخرى في الستين... والسبعين...

فتأوّه قائلاً:

- لولا غيرة امرأة شريرة لخلد أبي وحطّم كأس

المنون...

فقال له دلال:

- لولا أنّك معجزة ما أحببتك قطّ...

- ٢٠ -

تابعت الضربات وانهاالت بعنف على رأس عفيفة.  
تقوّضت دنياها، تبدّد حلمها، تبخّرت سعادتها،  
اعتقدت أنّ «عملاً» عمل لزوجها فطافت بأضرحه  
الأولياء وقراء الغيب، التزمت بكلّ نصيحة نصحت  
بها، ولكنّ جلال توخّل في ضلاله بلا هواة. لقد  
أهمل عمله أو كاد، واطب على السكر والعربدة،  
التصق بدلال، استباح كرامته في مغازلة البنات.  
لولا الخوف من العواقب لفكّرت في أن تشكوه إلى  
مؤنس العمال. ولم تجد في حزنها ووحدتها إلّا ابنها  
شمس الدين فبثته حزنها وماساتها، وقالت له:  
- حدّته يا شمس فربّما لان لك.

وكان بين عفيفة وشمس الدين علاقة حميمة فاقت  
كلّ تصوّر، فحزن الفتى لأمّه، حزنه على سمعته  
وكرامته. وتشجّع فصاح أباه بأحزانه ولكنّ الرجل  
غضب، وهزّه بعنف، قائلاً:

- أتريد أن تربّيني يا ولد؟!

فانطوى الفتى على أحزانه. كان يماثل أباه في قوّته  
وملاحظته وأخلاقه الماثورة التي تقوّضت فجأة. ولم يدر  
ماذا يفعل، وراح يعاين ثورة من عواطفه تتحدّى بنوّته

في زاوية مستسلمًا للأقدار...  
وغاب الزمن تمامًا. وانداحت لحظة ساخرة مفعمة  
بكافة الاحتمالات. لحظة عشوائية أقوى من كافة  
وسائل التفكير والتدبير. وأدركت عفيفة كما أدرك  
شمس الدين أنّ الحاضر يدفع الماضي ويعدمه ويدفنه.  
وتمت مجاهد إبراهيم:

- أيّ قدر يعبت باب ووحيده...  
فولوت عفيفة هاتفة:  
- إنه الشيطان...  
وخيم صمت فوق جلال مثل جبل. ما زال صدره  
يعلو وينخفض. هتف مجاهد إبراهيم:

- يا معلم جلال!  
وهتفت عفيفة:  
- لتشملنا رحمة الله القدير.  
وسأل شيخ الحارة الخلاق:  
- ماذا نجد؟  
فأجاب الخلاق وهو لا يكف عن عمله:  
- العمر بيد الله وحده...  
- ولكن لك خبرتك أيضًا؟  
فاقترب منه وهمس في أذنه:  
- لا نجاة من تلك الضربة...  
- ٢٢ -

فتح جلال عبد الله عينيه المظلمتين. لم يكده يعرف  
أحدًا. طال صمته حتى حطم أعصاب من حوله ولكنه  
أخذ يستعيد قبسات من إدراكه. تتمم:

- إني راحل!  
فتأوهت عفيفة قائلة:  
- بُعد الشر عنك...  
فعاد يتمتم:  
- إني لا أخشى الظلام...  
- إنك بخير.  
- لتكن إرادة الله...  
- ٢٣ -

اقترب مجاهد إبراهيم من الفراش وقال:  
- يا معلم جلال، أنا مجاهد إبراهيم، تكلم أمام  
هؤلاء الشهود...  
- ٢٤ -

البوطة الصامتة، وصاح أكثر من صوت في تحريض  
وسرور:

- عفارم!

وانهال الرجل على ابنه لطمًا حتى خارت قواه من  
شدّة السكر فتهوى على الأرض فاقد الوعي...  
ونذت ضحكة ثم ساد الصمت وقال صوت:  
- قتلت أبك يا شمس الدين...  
وقال آخر:

- حتى الشهادة لم ينطق بها!

وانكبّ شمس الدين على أبيه يلبسه ثيابه، ثم حمه  
بين يديه، ومضى به مشيًا بتهففات غليظة ساخرة.

أفاق المعلم جلال بعد قليل فوق فراشه بمسكنه  
الشرعيّ. جالت عيناه الحمراوان فيما حوله فرأى  
عفيفة وشمس الدين ومعالم الحجرة الكريمة. سرعان  
ما تذكر كل شيء. إنه الليل وكان ينبغي أن يكون في  
فراش دلال. وهذا الفتى قد جعل منه سخرية  
السكراري وأعدم هيبة الأبوة. جلس في الفراش وهو  
ينفخ. وثب إلى الأرض. انقضّ على شمس الدين  
وراح يكيل له الضربات. رمت عفيفة نفسها بينها  
باكية. تحول جلال إليها فاقد الرشد. قبض على عنقها  
وشدّ بوحشية. عبثًا حاولت المرأة التخلص من  
قبضتيه. تجلّت في وجهها اليائس معالم الاختناق  
والموت. صاح شمس الدين:  
- دعها... إنك تقتلها...  
لم يحفل به منتشياً بوحشية الجريمة. فزع شمس  
الدين إلى مقعد خشبيّ فرفعه وهوى به على رأسه بقوة  
جنونية...  
- ٢٣ -

حلّ هدوء ثقيل محلّ الصراخ والانفعال الأحمر.  
استلقى المعلم جلال فوق فراشه مضربًا في دمه.  
اقتحم السكن جيران وجاء أيضًا مجاهد إبراهيم شيخ  
الحارة. وقدم الخلاق لتقديم الإسعافات الضرورية  
ويوقف الدم السائل، على حين انزوى شمس الدين

## ملحمة الحرافيش ٨٧٧

- ٢٥ -

ذهل شمس الدين وهو يصغي إلى صوت أبيه قبل أن ينقطع . خائنه الشجاعة فلم ينبس بكلمة . تلقى حنان أبيه المحتضر بخشوع وجبن وندم . زاغ من نظرات مجاهد إبراهيم فدفن وجهه في يديه وبكى . وطيلة يوم الجنائز وأيام المأتم لم يغمض له جفن . تحرك بين الناس شبهاً تطارده أشباح الجحيم . لقد جنَّ جدّه وجئت جدّة أبيه وارتكب نفر من السلالة أبشع الانحرافات ولكنّه أوّل من يقتل أباه من آل الناجي الملعونين .

ولما خلا إلى أمّه قالت تشجّعهُ :

- إنك لم تقتل أباك ولكنك دُفعت إلى الدفاع عن أمك . . .

وأيضاً تساءلت :

- أليس الله بعالم كل شيء؟

ثمّ قالت بحرارة :

- إنّ الشهادة التي حماك بها خليقة بالتكفير عن ذنوبه جميعاً، وسوف يلقي ربّه بريئاً طاهرًا مثل طفل وليد . . .

وأغرق شمس الدين في البكاء وتمتم :

- لقد قتلت أبي!

- ٢٦ -

ودعاه المعلم عبد ربّه للقاءه في «القلعة» دار جلال صاحب المئذنة . كان يعلم أنّه والد جدّه جلال وأنّه في المائة من عمره . وجدّه هرمًا لا يفارق داره، ولا حجرته، ولكنّه كان بالقياس إلى عمره موفور الصحة والنشاط، وقورًا، يرى الأشياء ويسمع الأصوات ويعي الأمور . عجب شمس الدين لتعمير الرجل بعد وفاة ابنه وحفيده، ولم يكن يحمل له ذرّة من حبّ أو احترام، ولا ينسى مقاطعته لأبيه . . .

تفحصه طويلاً وهو يقربه من وجهه ثمّ قال :

- البقيّة في حياتك . . .

فردّ عليه ببرود فقال عبد ربّه :

- في وجهك شَبّه من جلال بن زهيرة . . .

فقال ببرودة :

فتساءل جلال بصوت ضعيف :

- أين شمس الدين؟

فدعاه مجاهد إبراهيم إلى الاقتراب فاقترب وقال

شيخ الحارة :

- ها هو ابنك . . .

- إنّي راحل . . .

فسأله شيخ الحارة :

- ماذا حصل؟

- قضاء الله . . .

- من الذي ضربك؟

وسكت الرجل فألحّ مجاهد إبراهيم قائلاً :

- تكلم يا معلّم جلال .

- إنّي راحل . . .

- من الذي ضربك؟

فقال متنبّهًا :

- أبي!

- الأموات لا يضربون، يجب أن تتكلم . . .

فتنبّه مرّة أخرى وقال :

- لا أدري . . .

- كيف؟

- الحارة مظلمة .

- هل اعتدي عليك في الحارة؟

- أو في مدخل البيت . . .

- لا شكّ أنك عرفت الجاني . . .

- كلاً . . . أخفاه الظلام والغدر . . .

- لك أعداء؟

- لا أعرف . . .

- هل تشكّ في أحد؟

- كلاً . . .

- أنت لا تعرف الجاني ولا تشكّ في أحد؟

- بل، استغثت بابني فجاء ليحملني ثمّ غبت عن

الوجود . . .

سكت مجاهد إبراهيم . حدّقت العين بجلال وكان

يحتضر . . .

أن تزوّج ابنتها من قاتل أبيه . ولم يكن شمس الدين  
يبتّم كثيراً بالزواج . ولكنّ الرّفص عمق جراحه فصنّم  
على الزواج بأيّ ثمن . . .

وكانت توجد راقصة تدعى نور الصباح العجمي ،  
مجهولة الأصل متهتكة . أعجبه منظرها فزارها متستراً  
بالظلام ، لا ليعاشرها كما توقّعت ولكن ليخطبها !  
ودهشت البنت . وظنّته يرسم لاستغلالها ولكنّه قال لها  
بصدق :

- بل أريدك ستّ بيت بكلّ معنى الكلمة . . .

فأضاء وجهها بالفرح وقالت :

- إنك شابّ نبيل وإنّي أستحقّ ذلك !

- ٢٩ -

وحزنت عفيفة فقالت محتجّة :

- إنّها بنت داعرة .

فقال شمس الدين بكآبة :

- مثل جدّتي زينات !

ثمّ متمتّاً بسخرية :

- ما أكثر الداعرات في أسرنا المجيدة !

- لا تياس بسرعة يا بني . . .

فقال بامتعاض :

- إنّها الوحيدة التي تقبلني بلا امتعاض . . .

- ٣٠ -

وزقّت نور الصباح العجمي إلى شمس الدين  
جلال الناجي . وهتك شمس الدين ستار الانكماش  
فأقام حفلاً شهده عمّاله وأهل أمه ، وتجاهل من  
يتجاهلونه . وسخرت الحارة من الزبيجة فجرى على  
الألسنة ذكر زينات وزهيرة ، وذكريات الأسرة التي  
هبطت من السماء لتتمرّغ أخيراً في الوحل . بكلّ قحة  
قال عنة الفؤال الحنّار :

- ألم يكن عاشور نفسه لقيطاً . . . ألم تكن أمّ

الأسرة الأولى عاملة في هذه البوطة ؟!

- ٣١ -

وقبّض للزواج أن ينجح . تحوّلت نور الصباح

- لقد قاطعت أبي . . .

فقال بهدوء :

- كانت الأمور معقّدة . . .

فقال بتحدّ :

- بل الطمع في التركة !

- كلّ تركة عدا عهد عاشور فهي لعنة . . .

- ولكنك تتمتّع بها لآخر لحظة في حياتك . . .

فقال العجوز بنبرة مضطربة :

- دعوتك لأعزّيك ، خذ نصيبك من التركة إذا

شئت . . .

فقال شمس الدين وكأنّه يكفّر عن جرمته :

- إنّي أرفض كرمك . . .

- إنك عنيد يا بني . . .

- إنّي أنكر من أنكر أبي . . .

عند ذاك أغمض العجوز عينيه فغادر شمس الدين

المكان .

- ٢٧ -

لم يجد شمس الدين بدءاً من مواجهة الحياة . انطبع  
وجبه بجديّة تكبره بنصف قرن . أخذ نفسه بالتقوى  
والاستقامة . حلّ محلّ أبيه في إدارة العربات فهرب من  
ذاته بالإغراق في العمل . عُرف في الحارة بقايل أبيه .  
اعتبر لعنة متحرّكة في مقابل المثلثة تلك اللعنة الثابتة .

ويتساءل أناس ماذا تتوقّعون من شابّ أبوه ابن حرام  
وجده صاحب المثلثة ؟ صنّم شمس الدين على تحدّي  
اللعنة بوجهه الصارم وإرادته الصلبة وقلبه المترع  
بالندم . أخلص لدينه ، تصدّق على الفقراء ، عامل  
زبائنه بالحسنى ، مضى في الحياة منفيّاً ملعوناً . استقرّت  
في عينيه نظرة كئيبة ، كره الفكاهة ، تجنّب الغناء  
والطرب ، حذر من البوطة والغرزة . لفحته مشاعر  
الناس فكروه الناس ولكنّه تمسك بالحياة . . .

- ٢٨ -

ولم تجد عفيفة الجدد من دواء لحال شمس الدين  
خيراً من أن تزوّجه . أعجبتها صادقة بنت بيّاع الفول  
فخطبتها له مزكّية إياه بعمله وأصله ولكنّ الأسرة أبت

- ثمّ يتسلّل من البيت وأنت نائم . . .  
وذهل شمس الدين مرّة أخرى لأنّ كريمة العنّابي  
أرملة تقترب من السّتين من عمرها وابنه مراهق ليس  
إلّا . وقال له مجاهد إبراهيم:  
- احذر أن يعتاد الولد البرجعة!

- ٣٤ -

وتربّص شمس الدين في الظلام أمام باب دار كريمة  
العنّابي . جاء بعد أن تأكّد من أنّ الولد قد غادر فراشه  
وها هو ينتظر . وقبيل الفجر بساعة فتح الباب وتسلّل  
منه شيخ . سقط في يد أبيه، فززع أول الأمر، همّ  
بضربه لولا أن عرف صوته فانقهر .

- أيها الخنزير . . .

وشدّه بعنف فشتمّ راتحته فصاح:

- وسكران أيضًا!

ولطمه لطمه طيّرت الخمر من رأسه . وفي البيت  
عنفه وضربه حتّى استيقظت نور الصباح وعفيفة،  
ومضت الحقيقة تتكشّف لها من خلال اللطحات  
واللكمات . وقال ساحة:

- كفى يا أبي وجهي يتحطم .

- إنك تستحقّ القتل، تخدعني؟

- تبت وأنا في عرضك!

وقالت عفيفة:

- إنّها أكبر منّي المجرمة . . .

فصاح شمس الدين وهو يشير إلى ساحة:

- هو المدّنب ولا أحد سواه!

- ٣٥ -

وقال شمس الدين لنفسه إنّ المقدمات تنذر بأوخم  
العواقب . وإنّ من يبدأ بعشق امرأة في سنّ جدّته  
فكيف ينتهي؟ وقد رأى كريمة هانم العنّابي في بعض  
مشاويرها فهاله تصاييها وزواقها وبدانتها المفرطة،  
وآمن بأنّ أسوأ ما ينشأ عليه مراهق أن يآلف أن تنفق  
عليه امرأة .

وفي ذلك الوقت توفّي مؤنس العال فخلفه في الفتونة  
سمعة الكلبيشي فازدادت أحوال الحارة حطّة وإظلامًا .

العجمي إلى ستّ بيت . سعد بها شمس الدين فاستقرّ  
جانب من جوانبه القلقة . ولم ينقص صفو البيت من  
آنٍ لأنّ إلّا المشاحنات بين عفيفة ونور الصباح . ويقدر  
ما كانت عفيفة صارمة غير متسامحة كانت نور الصباح  
حادة سليطة اللسان . ولكنّ المعاشرة لم تتحطّم،  
وأنجبت صباح من البنات ثلاثًا، وأخيرًا جادت  
بساحة شمس الدين الناجي .

- ٣٢ -

ويتقدّم الزمن تناسى شمس الدين همومه وذنبه ما  
أمكن ولكنّ الكآبة كانت قد صارت له طبيعيًا . ونشأ  
ساحة وليس له جمال أبيه أو جدّه ولكنّه يبشّر ببنيان  
أشدّ . وولعت به أمّه وجدّته فحافظتا عليه ككنز غالٍ .  
ولم يحقّق نجاحًا في الكتاب . وتشاجر ذات يوم مع  
قرين فضربه باللوح فكاد يفقده عينه وأوقع أباه في  
مشكلة لم يخلص منها إلّا بتعريض لا يستهان به . وقسا  
عليه فضربه حتّى أحزن أمّه وجدّته . وجزّه إلى العمل  
في الحظيرة قبل الأوان وهو يقول له:

- تعلّم أدب الحياة بين الحمير . . .

ومما ساحة تحمّ رعاية أبيه الكئيب وسرعان ما  
شارف المراهقة . . .

- ٣٣ -

ورغم أنّ الفتى لم يكن يغيب عن عيني أبيه من  
الصباح حتّى النوم إلّا أنّه لم يطمئنّ إلى أحواله تمامًا،  
فأنس منه جوحًا وتوقّع منه المتاعب .

وذاث يوم جاءه مجاهد إبراهيم شيخ الحارة وقال  
له:

- أوّل ما شطح نطح!

شعر بأنّه يعني ابنه ساحة ولكنّه لم يصلّق لشدّة  
إحكام قبضته حول الفتى . وتساءل عمّا هنالك فقال  
شيخ الحارة:

- هل تصدّق أنّ ابنك مرافق كريمة العنّابي؟

فذهل شمس الدين . متى يفعل ذلك؟ قال:

- إنّه لا يغيب عن ناظريّ حتّى أودعه فراشه!

فضحك مجاهد إبراهيم وقال:



ونقل عينيه بارتياب بين المرأتين وتساءل:  
- ماذا يحدث وراء ظهره؟

- ٣٨ -

تصوّر أنّه لائد بدار كريمة العنابي. أفضى بظنونه إلى  
شيخ الحارة مجاهد إبراهيم. وقام الرجل بتحريّاته ثمّ  
قال له:

- لا أئر لساحة في حارتنا!

وأيقن أنّ الله يعاقبه على جريمته. عليه أن يكفّر عن  
جريمته كما كفّر عن جرائم الآخرين. ولا يبعد أن يقتله  
الفتى ذات يوم. لم لا؟... إنّه لا يحسن بهذه الدنيا  
ظنًا. وألقى على المئذنة نظرة وحشيّة وتساءل:  
- لم يقفون على هذه اللعنة قائمة؟

- ٣٩ -

لم يُعثر على أثر لساحة رغم أنّ شمس الدين أوصى  
جميع السواقين عنده باليقظة والتحري. ها هو الفتى  
يمضي في أثر المختفين من رجال الأسرة ونسائها.  
وتتلاحق الأعوام. أمّا عفيفة فقد ماتت في أعقاب  
مرض طويل وأما نور الصباح فقد أمرت الأيام ما كان  
منها حلواً. ومضى شمس الدين يحمل أثقاله، ويغمغم  
كلّما حرّ به ألم «أمرك يا ربّ».

- ٤٠ -

ولكنّ غيبة ساحة لم تدم كما دامت من قبل غيبة  
عاشور أو قرّة. رجع إلى الحارة ذات يوم وقد بلغ  
رشدّه. بلغ رشدّه ولكنّه فقد أشياء ثمينة لا تعرّض.  
امتلاً جسده بالقوّة والشراسة. اختفى جماله وراء غلالة  
من التجهّم ونسيج متقطع من الكدمات والعاهات  
المستديمة. أكان يعاشر قطاع الطرق؟ حتّى أبوه لم يعرفه  
لأوّل وهلة. ولما اكتشف حقيقته اجتاحتته موجة من  
السرور والأسى. اضطرب بين الشكر والحنق. تمزّق  
بين الحبّ والسخط. وتبادلا النظر طويلًا في الحظيرة  
بين السواقين والحمير. وتنحّى به جانبًا وسأله بإشفاق:  
- ماذا فعلت بنفسك؟

وجعل يردها والآخر صامت مستغنيًا بمنظره عن

وتلقّى الحرافيش البلوى كقدّر مكتوب لا مفرّ منه،  
فلم تعد الفتونة - بصرف النظر عن هويّة الفتوة - إلّا  
بلوى قائمة.

- ٣٦ -

وتوفّي الجدّ عبد ربّه فشيّع في جنازة كبيرة لم يشترك  
فيها شمس الدين ولا ساحة. وعُرف بعد ذلك أنّه  
أوصى للفتى ساحة بخمسائة جنيه. وطالب ساحة  
بميراثه ولكنّ أباه أبى أن يسلمه إياها إلّا أن يبلغ  
رشدّه. وشدّد الرقابة عليه حتّى عالى الفتى حياة  
مريرة. وذات مرّة حانت من شمس الدين نظرة إلى  
الفتى وهما يعملان في الحظيرة فضبط في عينيه نظرة  
جدباء انقبض لها صدره فقال لنفسه:

- الولد لا يجيبي!

وتنهّد مغتمًا وقال:

- لا يدرك الأحق أنّي أعمل لما فيه خيره...

- ٣٧ -

وتدافعت الأحداث مثل زيد النهر الأشبر. ولاحظ  
شمس الدين ذات صباح وهو يجتسي قهوته في بيته قلقًا  
أسود يلفّ عفيفة ونور الصباح فحنق قلبه وتساءل:  
- ساحة؟

فتلقّى صمتمًا مريبًا ضاعف من أحزانه فسأل بحدّة:

- ما الجديد من متاعبه؟

بكت نور الصباح وقالت عفيفة بنبرة متشنّجة:

- ليس في البيت...

- رجع إلى التسلّل؟

- بل غادرنا!

- هرب؟

ومضى مشحونًا بسوء الظنّ إلى السحارة فاكتشف  
اختفاء الميراث فصاح:

- لصّ أيضًا...

فقالت أمّه:

- حلمك يا بئي، إنّه ماله...

فقال بإصرار:

- لصّ هارب!

## - ٤٢ -

واكتشف المعلم شمس الدين سرقة قدر من مال العمل لا يُستهان به. عرف في الحال ما يعنيه ذلك. وأدرك أنه قد يفلس يوماً من جراء حماقة كهذه. ولم يتردد فذهب من توه إلى البوظة. وجد ساحة يجالس سمعة الكلبي ورجاله كأنه واحد منهم. أشار إليه أن يتبعه ولكنّ الفتى لم يستجب. تاة في سكره وطالع أباه بنظرة متحدية. وكظم الأب غيظه وقال له:

- أنت تعلم بما دفعني إليك. . .

فقال ببرود:

- إنا نقودي كما هي نقودك، وإني أنفقها على خير وجه. . .

فقال سمعة الكلبي:

- أحسنت. . .

فقال شمس الدين لساحة:

- إنك تعرّضني للخراب. . .

فقال ساحة بلسان ملتو:

- أنفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب. . .

فقال سمعة الكلبي:

- هذا الولد حكيم!

واقترب عنبة الضوّال من شمس الدين وهمس في أذنه محذراً:

- وخذ الله!

ولكنّ الغضب اجتاحه فصاح:

- اشهدوا جميعاً على أنني أطرد هذا الابن العاق من بيتي، وأني أتبرأ منه إلى يوم القيامة. . .

## - ٤٣ -

وتلقت نور الصباح الخبر كمصيبة دهما فصرخت:

- لن أفرط في ابني أبداً. . .

فكرها شمس الدين في تلك اللحظة بكلّ قوّة حنقه وغيظه وصاح:

- لن يدخل هذا البيت ما حييت. . .

- ابني. . . لن أفرط فيه. . .

فقال بلا وعي:

- إنه ينضح بأصلك القدر. . .

أي بيان. وسأله:

- بددت النقود؟

فحنى رأسه. آه. البعض يستثمر والبعض يبدد.

وتنهّد من الأعماق وتمتم:

- لعلّ الحياة قد لقتك درساً مفيداً. . .

ولما ضاق بصمته قال له:

- اذهب إلى أمك. . .

## - ٤١ -

وسرعان ما انطلق الأمل الضعيف الذي ساور شمس الدين. أفاق من عاطفة الأبوة الملتاعة التي اجتاحتها. رأى العناد والاعوجاج والسفه في صورة جديدة من قوّة شرسة متحجرة ومع ذلك لم يستسلم لليأس فقال له برقة:

- إلى العمل يا بني، درّب نفسك على إدارة ما ستكون صاحبه غداً.

وشجعتته نور الصباح بحنانها وتوسلاتها. أما ساحة فقد أبى العمل كسواق فأبقاه أبوه معه في الحظيرة مشرّكاً إيّاه في صميم عمله. غير أنّه تملل وغالى في طلب النقود. ولم يعد في وسع الأب أن يعامله كغلام فراح يسهر في البوظة والغرزة وبيوت الدعارة متجاهلاً صاحبه الأولى كريمة العنابي.

وقال له شمس الدين بحضور أمه:

- خير ما تفعل أن تتزوج. . .

فقال ساخراً:

- لا توجد بنت جذيرة حقاً بحفيد الناجي العظيم! فسأله أبوه:

- هل تدرك ما يعنيه اسم الناجي؟

فقال بقحة ما بعدها قحة:

- معناه التفرد بالمعجزات مثل بناء مثلذنة العفاريات!

فهتف شمس الدين مغيظاً محنقاً:

- إنك لمجنون!

ومضى الأب لحاله وهو يقول لنفسه:

- إنه يكرهني ما في ذلك من شك. . .

وتهرّب من هاجسه حيناً غير أنه قال بوجوم:

- سيقتلني ذات يوم. . .

- ٤٦ -

شعر شمس الدين بطائر الخوف يملق فوقه. وذات  
يوم مضى إلى دار سمعة الكلبيشي طاوياً جوانحه على  
مغامرة فريدة. حيّاه بإجلال وقال:  
- أريد أن أتشرف بيد كريمتكم.  
فتفحصه الفتوة ملياً ثم قال:

- من ناحية السنّ فليس ثمة ما يمنع من أن تتزوج  
بنت السادسة عشرة من رجل في الأربعين...  
فحنى شمس الدين رأسه في خشوع، فقال سمعة  
الكلبيشي:

- أصلك كريم ومالك وفيرا  
فواصل شمس الدين خشوعه ورضاه فسأله الفتوة:  
- كم تدفع مهراً؟  
فقال شمس الدين بقلق دفين:  
- ما تأمر به يا معلّم...  
- خمسمائة جنيه...  
فقال بحكمة:  
- إنّه مبلغ جسيم ولكنّ المطلوب أغلى وأعزّ...  
فمدّ له يده قائلاً:  
- لنقرأ الفاتحة...

- ٤٧ -

رُفّت سنبلة سمعة الكلبيشي إلى شمس الدين جلال  
الناجي.  
احتفلت الحارة كلّها بالزفاف. صار شمس الدين  
في أعزّ وآمن مكان. لم تكن سنبلة جميلة ولكنّها كانت  
غضّة الشباب كما كانت ابنة الفتوة.

- ٤٨ -

وتولّى اللعبر نور الصباح وابنها سباحة. وقال  
سباحة:  
- تبدّد حلم الميراث...  
فقال عفيفة وهي لا تصدّق نفسها:  
- ولكنّ حقك لا يُمسّ...  
فقال سباحة:  
- هل تصوّرين أنّ الكلبيشي سيترك الأمور

فأجابته فاقدة الوعي أيضاً من اليأس والغضب:  
- ليس في أصلي دعاة أو جنون...  
فلطمها لكمة أسقطتها على أرض الحجر فجنّت  
من الغضب وبصقت على وجهه. عند ذلك صرخ:  
- اذهبي فأنت طالق بالثلاثة!

- ٤٤ -

أقامت نور الصباح وسباحة في شقّة واحدة. انخرط  
الفتى في عصابة سمعة الكلبيشي ولكنّه لشدّة إسرافه لم  
يدق الرضى قطّ. ولم يخف كراهيته لأبيه عن أحد،  
وخاض في معايب آل الناجي بكلّ قحة كأنّه أكبر  
أعدائهم.

وعاش شمس الدين وحيداً. ولم يعد ينعم بالأمان  
أو الطمأنينة. وتوقّع لنفسه نهاية مثل نهاية أبيه أو  
أفزع. وتوتّب للدفاع عن نفسه بكلّ وسيلة. كان  
يغدق على عمّاله ليريح قلوبهم، ويحكم إغلاق شقّته باباً  
ونوافذ. وبذل العطاء لسمعة الكلبيشي وتودّد إليه ما  
استطاع إلى ذلك سبيلاً.

- ٤٥ -

وزاره يوماً شيخ الحارة مجاهد إبراهيم وقال له:  
- أنصحك بالحكمة يا معلّم شمس الدين...  
فسأله بوجوم:  
- ماذا تعني؟  
- خفّف من العداوة، أجر عليه بعض المال...  
فلاذ شمس الدين بالصمت، فقال شيخ الحارة:  
- سمعته أمس في البوظة يمّي الندماء بسهرات  
خلّابة عندما...

وتروّف الرجل فقال شمس الدين بكآبة:

- عندما أموت أو أقتل!

- لم يجر للقتل ذكر ولكن ليس هناك أشبع من أن  
يتمنّى الابن موت أبيه أو أن يتمنّى الأب موت  
ابنه...

- ولكنني لا أتمنّى موته...

فقال مجاهد إبراهيم بوضوح:

- نحن بشر يا معلّم!

ملحمة الحراميش ٨٨٣

أدرك من أول وهلة ما يعنيه. تجسّدت لعينيه صورة  
ابنه سحاحة. انذعر لموافقة الرأي لأمانيه الخفية أكثر من  
انذعاره إشفاقاً على وحيدته. وتساءل متجاهلاً  
ومتغائباً:

- أيّ شخص تعني يا معلّم؟

فقال الكلبشي بازدراء:

- لا... لا... لا تستغفل الكلبشي يا أبا

سحاحة!

فتساءل بارتياح:

- تقصد سحاحة؟

- هو ما تقصده أنت!

- إنه ابني.

- كما كنت ابن أبيك!

فقَطّب متألماً وقال:

- إنك قوّة لا يجوز عليها أن نخشى أحداً...

- دعك من هذا الكلام الفارغ، ثم إنك لم تفهم

غرضي!

فقال شمس الدين بامتعاض:

- زدني إيضاحاً!

- بئح أملاكك بيحاً صورياً لزوجتك ييأس سحاحة

ثم يرحل!

فخاص قلبه في صدره وقال كالمستغيث بأيّ شيء:

- أو يحفره ذلك على الانتقام منّي!

- لن يمّسك سوء ما دمّت حيّاً!

رأى الشرك فاغراً فاه. رأى الصائد مكشراً عن

أنيابه. الفقر أو الموت أو الاثنان معاً. محال أن يقبل

ومحال أن يرفض. قال بتوسّل:

- أعطني مهلة للتفكير...

فعبس الفتوة محنقاً وقال:

- ما سمعت مثل ذلك من قبل...

فقال بضراعة:

- مهلة قصيرة...

فنهض الرجل وهو يقول:

- صباح الغد. عندك الليل بطوله...

للشرع!؟

فقال نور الصباح محذرة:

- الحياة أغلى من المال...

فقال بغضب:

- إن أعين رجاله ترقبني ليل نهار، كالمتبع مع

المخيفين من آل الناجي، وها هو ظرف جديد يدفعه

إلى المزيد من الخدرا

فتأوهت نور الصباح وقالت:

- الخذر يا بني، لعنة الله على أبيك، وليحفظك

الله.

- ٤٩ -

اقتنع سحاحة بأن حياته باتت مهدّدة ليخلص الميراث  
لسنبلة وحدها، وليأمن الفتوة جانبه على فتوته بصفة  
نهائية.

والعجيب أنّ شمس الدين نفسه لم يستنم طويلاً  
إلى سبات الطمأنينة العذب. ماذا يجول بين سحاحة  
وبين الانتقام منه وهو أدرى الناس بطبعه المستهتر؟  
وهل يوجد سيّد للموقف اليوم أقوى من سمعة  
الكلبشي؟ لقد وضعه الخوف من الموت بين فكي الموت  
نفسه، ولن يستكنّ الفتوة حتّى ينتزع منه ماله إلى آخر  
مليم. وهو لم يملّ حقاً لسنبلة، وعواده حينه إلى نور  
الصباح، ولكن كان عليه أن يحمل ثقل تلك المعاشرة  
مع أثقال حياته الأخرى. وثمة حقيقة تنشب أظافرها  
في لحمه وهي أنّ الأمس لا يمكن أن يرجع أبداً...

- ٥٠ -

وزاره سمعة الكلبشي ذات ليلة. أشار إلى ابنته  
فغادرت الحجرة فتوقّع أمراً لا يسرّ. ما معنى زيارة  
ليليّة؟ كره منظر وجهه الشبيه بكرة كثيرة الندوب. كما  
كره ثقته الموحية بأنّه يجلس في بيته وبين أهله. وراح  
يتكلّم عن عجائب المصادفات ونوادير الدهر والقوى  
الخفيّة المسيطرة على مصائر البشر، وشمس الدين في  
حيرة من تأملاته، حتّى قال الفتوة:

- انظر مثلاً كيف أنّ وجود شخص معيّن غير

مريح لكلينا!

- ٥١ -

فأجاب شمس الدين بهدوء مريب:

- كلاً... .

- كلاً؟!

- لا بيع ولا شراء.

فاصفر وجه الفتوة وتمتم:

- يا له من قرار جنوني... .

- بل هو عين الصواب... .

ارتسمت في أساريه صورة كالحة للشعر وقال:

- تعتمد على مصاهرتي؟

فقال شمس الدين بهدوءه المصمم:

- أعتمد بعد الله على نفسي!

- تتحدّاني؟!

- بل أصارحك برأيي ليس إلا... .

اجتاح الغضب سمعة فطمه بقسوة. جنّ جنون  
الأخر فردّ اللطمة بأشدّ منها. وثب الرجلان في لحظة  
واحدة شاهرين ثبوتيهما. وسرعان ما التحما في معركة  
قاسية. كان شمس الدين قوياً وأصغر من سمعة بعشر  
سنوات ولكنه لم يمارس الممارك. وجاء رجال الفتوة من  
جميع الأنحاء وبسرعة مذهلة وبينهم ساحة. أحاطوا  
بالمعاركين دون تدخل من جانبهم احتراماً للتقاليد  
المرعية. وتمكّن سمعة الكلبشي من خصمه واستجمع  
قوته ليوجه إليه ضربة قاضية. في تلك اللحظة وثب  
ساحة وثبة مفاجئة فهوى بنبوته على رأس الفتوة  
فتقوّض بنيانه وانطرح أرضاً. وقع ذلك بسرعة  
خاطفة. صرخ الرجال وانقضّوا على شمس الدين  
وساحة، ولكنّ ثمة مفاجأة أخرى كانت متربّصة  
انضمّ نفر من الرجال إلى ساحة وشمس الدين!  
هتفت أصوات:

- خيانة وضيعة!

والتحم الفريقان بضراوة ووحشية. تصادمت  
النبابيت، تلاطمت الأجساد، فرقعت الصكّات،  
تطايرت اللعنات تحت الرذاذ، سالت الدماء،  
استحرت الأحقاد، أغلقت الدكاكين، هرولت  
العربات، تجمّع الناس في طرفي الحارة، اكتظّلت  
النوافذ والمشربيات، علا الصريخ والمويل... .

لم يغمض لشمس الدين جفن. ترك سنبله في زينتها  
تنتظر حتى غلبها النوم. أطفأ المصباح، تدنّر بعباءته  
اتقاء للبرد، رأى في الظلمة الأشباح. أشباح الماضي  
كلّها. ما هذا التدهور بعد الصمود؟ ألم يحمل أثقاله  
ومضي بها؟ ألم يكفّر عنها بالصبر والألم؟ ألم يلتزم  
بالجدية والاستقامة والجلد؟ كيف جاء التدهور ليرث  
نضاله كلّ بلا دفاع؟ لقد حدث ذلك بسبب سقوطه  
في هاوية الخوف. الخوف أصل البلاء. خاف ابنه  
فطرده ثم طلق أمه. ثم مضى بقدميه إلى وكر  
الشیطان. بلا تفكير سليم مضى. وكيف يتهيأ التفكير  
السليم لمنذرع؟ عندما صرع الخوف واجه الحياة  
بكبرياء. لم تقض عليه نوائب السمعة السيئة والجريمة  
البشعة واحتقار الحارة. واجه الحياة بكبرياء. طوّع  
اليأس لخدمته، بنى على أساس داعر أسرة كريمة،  
نجح في العمل، حاز القوة والثراء، عندما صرع  
الخوف. اليوم يطالّب بالنزول عن ثروته، غداً يقتله  
ساحة، بعد غد يؤخذ ساحة بجريمته يفوز الكلبشي  
بالمال والأمان. يقول شبح في الظلام، لا تقتل ابنك،  
لا تحمل ابنك على قتلك، لا تدعن للطاغية، لا  
تستسلم للخوف، طوّع اليأس لخدمتك، ابحث في  
الموت عن عزاء كريم إذا تعدّرت الحياة... .

وعصفت ریح الشتاء في الخارج كالنواح فتخيّل  
- مأخوذاً بنشوة الخيال - أنّ عاشور أصغى لها ذات ليلة  
في بدرومه الخالد... .

- ٥٢ -

في الصباح سقط رذاذ مشبّعا بروح أمشير النقيّة  
المتقلّبة النائرة، ونفذت البرودة إلى نخاع العظام.  
مضى شمس الدين فوق الأرض الزلقة متوكّفاً على  
عصاه الغليظة. رحّب به سمعة الكلبشي وهو متربّع  
فوق أريكته بالقهوة.

- أهلاً بالمعلم شمس الدين... .

دعاه إلى الجلوس إلى جانبه فجلس ثمّ سأله  
هامساً:

- نشرع في إجراءات البيع؟

## ملحمة الحرافيش ٨٨٥

اللحظة المناسبة لحماية شمس الدين وإعلان ثورته،  
ونجح مشروعه ولكنّه رقد بين الحياة والموت...

- ٥٥ -

تواصل سقوط الرذاذ طيلة النهار. تشرّب الجوّ  
بظلال كستنائية ونعاس. نُقش أديم الأرض الزلقة  
بحوافر الدوابّ. أمّا المعلّم شمس الدين فقد انطرح  
لوق فراشه يحتضر في رعاية جاره بعد أن هجرته  
سنبلة. لم يفتح عينًا، لم ينس بكلمة، نذت عنه  
حركات مبهمّة، تبدّى متخلّيًا عن كلّ شيء، وعند  
جثوم الليل أسلم الروح...

- ٥٣ -

مُهل شمس الدين إلى بيته محطّمًا. استطاع سباحة  
أن يرجع إلى مسكنه بجهد شديد ثمّ رقد وهو بين  
الحياة والموت. أمّا سمعة الكلبيّ فقد أصابه العجز  
وتلاشت أسطوره، وانهمز رجاله.

- ٥٤ -

وتكشّفت حقائق في اليوم نفسه. عُرف أنّ سباحة  
طمح إلى الفتوة، وأنّه نجح في ضمّ بعض الرجال  
إليه سرًا. وأنه كان يرسم للقضاء على الفتوة والسيطرة  
على أبيه فلمّا بوغت بالمعركة بين الفتوة وأبيه انقضّ في



## سَارِقُ النِّعْمَةِ

### الحكاية التاسعة من مدحة الجرافيش

- ١ -

ولكن ذلك لم يجز على أحد. كان قد عُرف عن ائتماره على فتوته وإغرائه بعض الرجال للانضمام إليه، وأنه انتهر فرصة نشوب المعركة بين أبيه والكلبشي لينفذ مؤامره دفاعاً عن أبيه. بل لقد اتهم من بعض كارهيه بأنه لم يدافع عن أبيه شمس الدين كما يجب، وأنه سُرُّ لوفاته، غير أن شيئاً من همساتهم لم يبلغه، وظلّ مزهواً بالأسطورة التي خلقها. . . وانداحت فتوته على الحارة كجبل شاهق، ولكنه أذب فتوات الحارات فرفع منزلتها في الحيّ جميعه وأرجع إليها الهيبة والجلال. وأنشأ بماله ومال أخيه فتح الباب داراً جميلة أقامت بها نور الصباح العجمي أمه، أما هو فكان يتنقل ما بين البوطة والغرزة وبيوت العاهرات. . .

- ٣ -

ومات سمعة الكلبي فورثت سنبله عنه ثروة لا بأس بها، كان لها من الأخوات عشر. وما لبثت أن تزوجت من كاتب في بنك الرهونات. ولم يلق فتح الباب ترحيباً من زوج أمه، وضاق به أكثر عندما أنجبت له سنبله بنين وبنات. نشأ الغلام في جور حزين، فكان يلوذ بأمه ويتجنب رب البيت، وضاعفت حساسيته من ألمه ووحدته، ولم يشفع له تفوقه في الكتاب ولا حسن خلقه ووداعته. لذلك ما إن بلغ التاسعة حتى مضت به سنبله إلى الفتوة ساحة وقالت له:

- هذا أخوك فتح الباب وقد آن له أن يعيش تحت

كُتبت لساحة شمس الدين جلال الناجي النجاة من الموت. استعاد صحته رويداً ثم استردّ قوته. وأضافت المعركة الأخيرة إلى وجهه تشوهات جديدة فانقلب ذا وجه قبيح ينذر بالشرّ والإرهاب. وتبوأ الفتوة دون منازع فبشّرت فتوته بسيطرة غير محدودة. وسرّت نور الصباح العجمي أمه بحفظها، وبانتصارها الحاسم على ضرّتها سنبله بنت الفتوة السابق سمعة الكلبي. ورجعت سنبله إلى دار أبيها العاجز حيث أنجبت وليدها ابن شمس الدين الذي أسمته فتح الباب باسم جدّها لأمها. واقتسمت ثروة شمس الدين بين ابنه ساحة وفتح الباب وأرملته سنبله. وصار ساحة وصياً على أخيه بحكم القرابة، ولم ينازعه أحد في ذلك خوفاً من بطشه، هكذا عاد جلّ ثروة أبيه إلى قبضته الحديدية. وقال ساحة لسنبله:

- لقد هجرت أبي، تركته محتضراً وحيداً، وأنه لظلم أن ترثي بعض ماله، فلا تنتظري ملياً من مستحقّات فتح الباب. اعتبري بعضه إتاوة والبعض الآخر عقوبة لك. . .

- ٢ -

وخلق ساحة أسطورة حول ذاته. أذاع أنه ما خاض المعركة ضدّ الكلبي إلا دفاعاً عن أبيه رغم ما كان بينهما من خلاف وعداوة، وأن انضمام من انضم إليه من رجال العصابة كان بدافع الشهامة وحدها.



جناحك . . .

لمحلّ الغلال وانتاؤها مثله لآل الناجي . وقد دهشت  
أمه عندما طلب إليها أن تحطّبها له ، ولكنّها سرّت  
لذلك سرورًا لا مزيد عليه . وقال لها سباحة وهو  
يقهقه :

- حسبي وحسبها أننا ننتمي إلى زهيرة الجميلة  
المجنونة قتالة الرجال !  
وكان قبحة وسلوكه جديرين برفضه ولكن منذا  
الذي يرفض يد فتوة ؟!

- ٥ -

زُفّت فردوس إلى سباحة . التحم ذو الوجه القبيح  
بذات الوجه العذب . وقد كان جميلًا ذات يوم ولكنّ  
النبايت أعادت خلق وجهه . أما اعتزازه بأصله  
وفحولته فلا حدود له . فرغم كلّ شيء نجح الزواج  
وجاد بسعادة ساخنة . ويفضله أصبح سباحة مديرًا  
لمحلّ الغلال ومالكه الفعليّ . ومن حجرة الإدارة  
استلّت إرادة من صوّان تتصرّف في شئون المال  
والمعارك معًا . ووهبه الزواج عطايا من العلوّية  
والنضارة ، ورغدًا من حياة القصور وأساليب المعيشة  
الرفيعة ، وإطارًا ثريًا من الرياش والتحف ومباهج  
الترف . ولم ينقطع عن العربة ولكنّه قرأها لعنه  
الشرعيّ ، فانتقلت إلى القائمة المذهّبة الجوزة والقرعة .  
وعلمه محلّ الغلال وأبته الإدارة حبّ المال وجمعه فقرّر  
أن يعيد سيرة جدّه جلال صاحب الخوارق المجنونة ،  
وأن يفرض سيطرته - بعد الناس - على الأشياء  
الشمينة .

- ٦ -

وأثبتت فردوس أنّها ذكيّة بقدر ما هي حسنة الحظّ .  
لقد أحبّت زوجها . ومضت تنجب له ذريّة من خلق  
الحبّ ودفته . فلم تألّ جهدًا في تهديبه وامتلاكه بتسلّل  
عذب لا تحذّي فيه ولا كبرياء . لم تكن تحترم الفتونة  
ولكنّها لم تنكر مزاياها . وكسائر آل الناجي كانت تنوّه  
بذكريات الفتونة الأسطوريّة القديمة ، بعدالتها ونقاها ،  
ولكنّها في الوقت نفسه بحكم انتمائها إلى الوجاهة تنفر  
من تلك الفتونة النقيّة التي تؤثّر الفقر والبطولة وتشكم

وتفحصه سباحة فوجده جميلًا رقيقًا حزينًا ولكنّ  
قلبه لم يرقّ له ، وقال :

- ماله يبدو جائعًا !

فقالت سنبله :

- كلاً ، لكنّه غلام رقيق .

- لا يصدّق من يراه أنّه ولد من صلب فتوات من

ناحيّتي أمّه وأبيه !

- هكذا هوا

فقال محاولًا التخلّص منه :

- لك أن تحتفظي به . . .

فاغرورقت عينها وقالت :

- لا يوفّر بيتي له السعادة . . .

واضطرّ سباحة إلى احتضانه ومضى به إلى أمّه نور

الصباح ولكنّها كرهت إيواؤه وقالت لابنها :

- لم تعد لي طاقة على رعاية الأطفال . . .

الحقّ أنّها أبت تربية ابن ضرّتها سنبله . وحرار سباحة

ماذا يفعل ، وتجرّع الغلام الدلّ والأسى بصبر . وعند

ذاك تطوّعت عجوز من صديقات نور الصباح

باحضانه . تلك كانت سحر الداية . أرملة بلا ذريّة ،

ومن سلالة الناجي . وكانت تقيم في بدروم من

حجرتين بإحدى عمارات جلال صاحب المثلذنة ،

وكانت طيبة القلب ومعترّة بأصلها فلقي فتح الباب في

رحابها أوّل حياة دافئة خالية من الكدر ، وأعانته ذلك

على تحمّل فراق أمّه سنبله . . .

- ٤ -

ورأى سباحة الفتوة ذات يوم فتاة جميلة وصغيرة

فأعجبته . لم تكن في متناول اليد كغيرها من نساءه .

رآها في دوكار وعرف الدار . وأنس من وجهها الحسن

ألغة تنمّ عن تقارب روحيّ خفيّ ما لبث أن كشف

أسبابه . تبين له أنّها فردوس حفيذة المرحوم المعلم

راضي محمّد أنور من زهيرة ، أخي جلال صاحب

المثلذنة . وكان إعجابه شهوة ورغبة في الامتلاك ولكنّها

كانت من القوّة بحيث جعلته يفكر في الزواج جادًا لأوّل

مرّة في حياته البهيمية . وأغراه بها إلى ذلك ملكيتها

## ملحمة الخرافيش ٨٨٩

- وقد اختفى ذات يوم، وطال اختفاؤه حتى آمن الناس بموته، أما الحقيقة التي لا شك فيها، فهي أنه لم يموت... .

فسألها فتح الباب بدهشة وأمل:

- حتى الآن يا جدتي؟

- وحتى الغدا

- ولم لا يرجع؟

- علم ذلك عند الله وحده... .

- قد يرجع فجأة؟

- لم لا؟

- هل علم بما فعل أخي سياحة؟

- طبعًا يا بني.

- ولم سكت عنه؟

- من يدري يا بني؟

- هل يرضيه الظلم يا جدتي؟

- كلاً يا بني.

- لم يسكت عنه؟

- من يدري يا بني، ربّما لسخطه على تهاون الناس

مع الظالم... .

وسكت فتح الباب ملياً ثم عاد يسأل:

- كل ذلك حقيقي يا جدتي؟

- هل كذبت جدتك قط؟!

## - ٨ -

ويذهب فتح الباب إلى الكتاب ويجيء. يرى جدّه عاشور في كلّ مكان. إنّه ينبض في قلبه وخياله. ويشتعّل في أشواقه وآماله. يراه في الزاوية والسييل والحوض. يراه في الممرّ وفي الساحة أمام التكيّة. طالما نظرت عيناه إلى هذا السور العتيق، إلى هذا الباب المغلق، إلى أشجار التوت الفارعة، كما ينظر هو إليها الآن. ما زال الجوّ مخضلاً بأنفاسه ونجواه. ورغائبه وأحلامه. وسره مطويّ في الغيب لا تكشفه هذه الأشعة السائلة. حتّى سيجيء ذات يوم. هكذا تكلمت جدّته الصادقة. سيلوح بعصاه العجراة فيتلاشى سياحة ذو الوجه القبيح. يتلاشى بظلمه الأسود وجشعه الأحمر وماله المكتنز. ويهّلل الخرافيش

السادة والوجهاء. وإذن فلتبقي الذكرى موضعاً للتبرك والفخر، ولتبقى فتونة اليوم واقعاً يحقّق القوّة والسيادة والثراء. وما من بأس على سياحة أن يفعل ما يشاء تحت شرط أن يفعله في دارها، وفي غشاء من خيوطها الذهبية المحكمة.

وتمرّ الأيام وهي سعيدة بحياتها، والأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً... .

## - ٧ -

واصل فتح الباب تعلّمه في الكتاب وحفظ ما تيسر من القرآن. طابت نفسه بجوّ الحنان في مقامه الجديد فانزاح غطاء الخوف من نفسه عن كنوز من عواطف غنية وخيال بديع. غلام قمحيّ اللون أسود العينين رائق البشرة، في ذقنه ثغرة، وفي قدّه رشاقة، ينضح بالعدوية والفظنة. تناسى أمّه كما تناسته وتعلّق بسحر الداية قلبه. أحبّها وقَدّسها، وتلقّى منها أنواراً لم تخطر له على بال.

كانت تقول له في ليالي السمر:

- نحن من أصل واحد مبارك هو عاشور

الناجي... .

طلما تحدّثت بيقين عن ماضٍ غابر كأنّما كانت حقاً تتنفس فيه.

- أنبل الأصول كان أصله، وخاف عليه أبوه من غضب فتوة ظالم، وجاءه في المنام من أمره بأن يترك وليده في الممرّ في رعاية التكيّة، وما تردّد أن فعل... . ولعن فتح الباب من تقوّلوا على جدّه بأنّه كان لقيطاً فقالت سحر:

- من أنبل الأصول كان أصله، وقد ترعرع في أحضان رجل خير، ونما شاباً قوياً، وذات مرّة أمره ملاك في المنام أن يهجر الحارة اتّقاء للوباء ودعا الناس إلى الهجرة ولكنهم سخروا منه فمضى محزوناً بزوجه وولده، ولما رجع أنقلد الحارة من العذاب والذلّ كما أنقلده الله من الموت... .

وراحت تحكي له قصّة عاشور، عودته، مقامه في دار البنان، فتونته، عهده، حتى امتلأت عينها الصبيّ بالوجد والدموع، فقالت سحر:

ليوم الخلاص ويسبحون في بحر النور. وتتفوّض مثلذنة الجنون فتتراكم أنقاضها فوق الغدر والخيانة والسفه. أم أنه يتجاهلنا لتهاوننا مع الظالم حقاً؟. إنه يجب جدّه. يودّ أن يحظى برضاه. ولكن من أين له القوّة وقد خُلِقَ رقيقاً كالخيال؟ من أين له القوّة؟.

- ٩ -

ولما ناهز فتح الباب المراهقة فكّرت سحر بمستقبله. وشاورت عمّ مجاهد إبراهيم شيخ الحارة فقال لها:  
- اختاري له حرفة.

فقلت باعتزاز:

- إنه من خيرة من تعلّم في الكتاب.

فسألها الرجل:

- ألسنت داية فردوس هانم؟

فأجابت بالإيجاب فقال لها:

- حدّثيها بشأنه، ومن ناحيتي سأمهّد له عند المعلّم ساحة...

- ١٠ -

وقالت سحر لفردوس هانم:

- فتح الباب ولد ممتاز، وهو من دمكم، وأولى الناس بالعمل في محلّ أخيه...  
ورحبت الهانم بذلك ووعدت بإقناع زوجها.

- ١١ -

وتفحص ساحة أخاه فتح الباب بعناية وتمتم بازدراء:

- رقيق مثل فتاة...

فقلت سحر:

- هكذا خُلِقَ ولكلّ شيء نفعه...

فتساءل برود:

- وما نفعه؟

- يحفظ القرآن، يكتب ويعرف الحساب...

فتحوّل نحو الفتى وسأله متهمكياً:

- أأمين أنت أم طويل اليد مثل بقية الأسرة المجيدة؟

فقال فتح الباب بحرارة:

- إني أخاف الله وأحبّ جدّي...

- جدّك جلال صاحب المثلذنة؟

- جدّي عاشور الناجي!

فقطّب ساحة وتغيّر وجهه فبادرت سحر تقول:

- إنه طفل بريء...

فقال ساحة بوحشية:

- جدّك عاشور أوّل من علّمنا السرقة!

دُهل فتح الباب وتألّم. خالفت سحر أن ينبس بكلمة تسدّ طريقه فقالت:

- إني أضمن أمانته وجدّه والله شهيد...

هكذا ألحق فتح الباب بالمخزن مساعداً لأمينه...

- ١٢ -

تفانى فتح الباب في عمله. كان المخزن يشغل بدموعاً مترامياً يماثل في اتساعه مساحة المحلّ كلّه. تُرمى فيه أجولة الغلال على الأرفف والأرض، ولكّنها تتعرض لحركة يومية بين المجيء والذهاب، فلم يكن الميزان يكفّ عن العمل ولا يده تكفّ عن التسجيل. ويحكم عمله كان يحظى بمقابلة أخيه ساحة مرّة على الأقلّ كلّ صباح ليطلعه على حركة الوارد والصادر. وارتاح الفتوة إلى نشاطه ويقظته ووجد فيه عيناً تلقائية على أمين المخزن وقال له بأسلوبه:

- إني أشجّع المجتهد وأبطش بالكسول...

- ١٣ -

وعملاً بنصيحة سحر زار نور الصباح المعجمي أمّ معلّمه ليقدم لها فروض الطاعة. لم يكن قد بقي من جمالها شيء، وقد رحبت به بفتور دلّ على أنّها لا يمكن أن تنسى إساءة. وإذا بها تسأله:

- كيف حال سنبله أمك؟

وأجاب بدلّ:

- لم أرها منذ فارقتها لكرامية زوجها لي!

فقلت بحنق:

- لا عذر لها سوى أنّها بلا قلب...

وغادرها مضمراً ألا يراها مرّة أخرى.

## ملحمة الحرافيش ٨٩١

تتلاحق حتى لا تبقي على شيء. حقاً؟ سيندر الطعام،  
وربما اختفى تمامًا، والعاقل من يخزن اليوم ما يتبلى به  
غداً. وعمل بالحكمة القادرون، وترامق الحرافيش  
وهم يضحكون، ولم يصدّقوا أنهم سيُحرمون من  
اللحمة التي ينتزعونها بالعرق أو يتصدّق بها عليهم  
المتصدّقون...  
وامتلاً الجوّ بالطنين، واصطبغ بصفرة منقّرة،  
فرحفت أشباح القلق بالليل والنهار...

## - ١٨ -

واندفعت عجلة البلاء بلا تدبُّج. ارتفعت الأسعار  
ساعة بعد ساعة. تلبّد الأفق بسحب سوداء. عملت  
حوانيت الغذاء نصف يوم الندرة الأظعمة. تلاطمت  
الشكاوى والأناث. وتكوّنت أمام محالّ الدقيق والفلو  
مظاهرات. لم يعد للناس من حديث إلاّ الطعام.  
لهجوا به في البوظة والغرزة والقهوة. اندلع الشرر  
فاشتعل ناراً. حتىّ الوجهاء جهروا بالشكوى ولكن لم  
يصدّقهم أحد وفضحتهم وجوههم الرّيانة المورّدة.  
وقال عنية الخنّار:

- إنّه الوباء!

ومخّدت الأسعار في الارتفاع، وبخاصّة الغلال،  
وراح ساحة يصيح:

- لم يعد يبقى ما يكفي للعصافير...

غير أنّ فتح الباب قال لجذّته ليلاً:

- ما أكذبه يا جدّتي، المخزن ملان!

وقال لها أيضاً:

- ما الأسعار التي يفرضها إلاّ إتاوة جديدة...

فقال له بإشفاق:

- احفظ لسانك يا بنيّ...

فقال متألّماً:

- إنّه وحش لا تعرف الرحمة قلبه...

## - ١٩ -

وازداد الجوّ عبوسة ودمامة. وامتطت الأسعار  
الجنون. ندر الفول والعدس والشاي والبنّ، واختفى  
الأرزّ والسكر، وتدكّل الرغيف. ونذّت عن الأعصاب

## - ١٤ -

وبتوجيه جدّته أيضاً زار فردوس هانم. وقد عظمت  
عليه فبهره جمالها وأناقته. قالت:

- سمعت عن نشاطك ما يسرّ الخاطر.

ولكنّه لاحظ أنّها لم تعرّفه إلى أبنائها. لعلّها أبت أن  
تقدّم عاملاً بسيطاً مثله بصفته عمّهم. وآله ذلك  
ولكنّه صمّم على تجاهله وتناسيه. وغادرها معطرّاً بشذا  
جمالها وأناقته. ومضمراً في الوقت نفسه ألاّ يزورها  
مرّة أخرى...

## - ١٥ -

وبالعمل اكتسب ثقة وعزّة. مضى يتشبّه بالرجال  
فربّي شاربه، وطوّق رأسه باللثة. وعرف طريقه إلى  
الزاوية فتوتّقت صلته بالشيخ سيّد عثمان. وكان يجلس  
في القهوة ساعة من الليل فيشرب القرفة ويدخّن  
البوري، ثمّ لا يرجع إلى جدّته حتىّ يطوف بالساحة،  
فقد أدركه عشق الأناشيد.

## - ١٦ -

واضطربت أعصابه بألم مجهول. وفاض قلبه بالحنين  
وتلظى بلهب خفيّ. مناظر النساء سحرته، أصواتهنّ  
أرعشت قلبه. ومن أقرانه تلقى سيلاً من دعوات  
الإغراء للتعرفّ إلى البوظة والغرزة وبيوت الدعارة  
ولكنّ الماضي كان يصرخ في أذنيه محدّراً. الماضي  
المرهق بذكريات المثلثة والانحرافات والشهوات التي  
قضت على أصالة أسرته. وكان جدّته كانت تقرأ  
أفكاره فقالت له ذات يوم:

- أنّ لك أن تتزوّج...

وطرب للفكرة ووجد فيها الخلاص المنشود...

ولكن سرعان ما اكفهزّ الأفق وأنذر بعواصف لم

تخطر على البال...

## - ١٧ -

جاءت الهمسات من خارج الحارة حاملة نذراً من  
نوع غريب. قالت إنّ فيضان ذلك العام شحيح أو إنّه  
لن يأتي. ما معنى ذلك يا ترى؟ قالت إنّه الويلات

- ٢٢ -

وجلس فتح الباب إلى جدته كئيبيًا محزونًا، وجعل يقول:

- جدّي عاشور لن يرجع!

فرمقته العجوز بنظرة حزينة فقال:

- ما زال غاضبًا علينا

فتمتمت سحر:

- أيام أشدّ من أيام الوباء...

- وفي التكيّة ما زالوا ينشدون للطرب!

- لعلّها دعوات يا بني!

فتساءل فتح الباب بقلق:

- ألا يجدر بهم أن يجودوا على الناس ببعض ما عندهم؟

فقالت سحر بحرارة:

- لا يجوز عنايتهم...

- عندهم الثوت والأرض مزروعة بالخضر...

فلوّحت بيدها محذّرة فقال متنهّدًا:

- أمّا أخي ساحة فهو الشيطان نفسه...

- ٢٣ -

في الظلام مرقت ذرّة نور، في الصمت اندسّت همسة حنان. ولم يجاوز السرّ خرابات الحرافيش. حرصوا على الكتمان ووجدوا في الكتمان حياتهم. فثمة صرّة حاوية لطعام تُدسّ في يد أحدهم، تعقبها همسة تقول «من عاشور الناجي» وسرعان ما يدوب شبح في الظلام. حدث ذلك أوّل مرّة في القبو، ومرّة ثانية وقع في المرّ، وتكرّر في الخرابات. وتهامس به الحرافيش. عرفوا بالفطرة أنّ السرّ يسعى وراءهم وأنهم المقصودون بالاتّصال. تلقّوا من الغيب لقمة. أدركوا أنّ معجزة تتخلّق في ظلام الليل. أنّ نافذة للرحمة قد فُتحت. أنّ عاشور الناجي أو روحه تضرب فيما بينهم. أنّ الكون الصلد المصمت تتشقق جدرانها ويطلّ منها المجهول. وجرت الدماء في عروقهم، ونبضت قلوبهم بالحياة من جديد.

صرّة الرحمة وهمسة عاشور الناجي...

المرهقة بوادر استهانة، فتعدّدت السرقات، وتعاقب خطف الدجاج والأرانب، وبعض السائرين ليلاً نُهبوا أمام بيوتهم، وانبرى رجال العصابة يندرون ويهدّدون، ويدعون إلى الأخلاق والتضامن بحناجر قويّة وبطون مكتنزة.

وكشفت الأيام عن أنيابها الحادة القاسية، وتضخّم شبح الجوع كالمتذنة المجنونة، فشاع أنّ الناس يأكلون الخيل والحمير والكلاب والقطط، وأنهم عمّا قليل سيأكل بعضهم بعضًا...

- ٢٠ -

وفي ذلك الوقت البارد الأصفر تصدّى يوم غريب كأنما هبط من كون آخر. فقد رُفت إحسان بنت الفتوة ساحة إلى ابن صاحب وكالة الخشب. أقيم حفل خياليّ لم تشهد له الحارة مثيلاً، تحدّى الزمن والجوع. وأعلنت فردوس هانم أنّها ستطعم جميع الحرافيش. وتجمهر الجياع في ساحة العرس. وما إن ظهرت الصواني على رأس الخدم حتّى هجم الحرافيش كالوحوش الضارية. تخاطفوا الطعام وتخالطوا مثل ذرّات الغبار في يوم عاصف. وانتشر الشدّ والجذب والخطف، ثمّ التلاحم والشجار حتّى امتزج الدم بالمرق. وثمل الناس بالفوضى والشغب، واندفعت موجة منهم إلى البوطة فاكتسحتها، التهمت المرّة وعبت من براميل البوطة، ثمّ انطلقوا في الحارة مهلّدين، وقذفوا بالطوب أشباح الخرابات. وخضعت الحارة للعريضة الهوجاء حتّى مطلع الفجر...

- ٢١ -

في اليوم التالي تعرّضت الحارة لحملة تآديب وإرهاب. انتشر فيها رجال ساحة، ومضى الفتوة يقطعها من القبو حتّى مشارف الميدان ذهابًا وإيابًا. ولم ينبجّ حرفوش من علقة أو إهانة، وتفتّى الدر فخلت الحارة من السابلة وأغلقت الدكاكين وهجرت القهوة والغرز حتّى الزاوية لم يقصدها عابداً في ذلك النهار.

عاشور الناجي؟!

انقلب الظلام قناة سحرية للاتصال بين الأرواح .  
ثمل الفضاء بالهمسات السحرية . سُحن الغيب  
بالقوى المجهولة . . .

- ٢٦ -

وكانت ثمة قوة أخرى تعمل بلا هوادة حتى وقفت  
على سرّ الطعام المجهول . وكشف ساحة عن الخزي  
في صميم محله . وسرعان ما صرخ ضامر الحسني أمين  
مخزن الفتوة من الرعب وقال بحرارة :

- إني بريء يا معلّم وليشهد الله . . .

فقال ساحة بوحشية :

- سُرق من المخزن أكثر من نصفه .

- إني بريء يا معلّم . . .

- إنك مجرم حتى تثبت براءتك .

- لا تخسر رجلاً وهبك حياته لخدمتك!

- معك أنت المفاتيح .

- أسلمها لك كلّ مساء . . .

- ولكنّي أجدها مكانها كلّ صباح وأعيدها  
إليك . . .

- ممكن أن تؤخذ فيها بين ذلك وتعاد!

- وأنا لا أدري؟

فقال ضامر الحسني بابتهاال :

- إذا كان السارق ممن يترددون على حجرتك بلا  
إذن!

استقرت في عيني ساحة نظرة صلبة محتقنة بالنار  
كأنما تنادي الشياطين من أوكارها، وتمتم ووجهه ينضح  
بالدمامة والغلّ:

- إن تكن كاذباً فقد هلكت، والويل للمجرم . . .

- ٢٧ -

من وراء السبيل، في ظلمة كثيفة، تسلل فتح  
الباب إلى باب المخزن . أدار المفتاح بحذر ودفع الباب  
برقة . ردّ الباب وتقدّم خطوات مستهدياً بنور الذاكرة .  
اشتعل مصباح فجأة فألقى على المكان ضوءاً  
فاضحاً . اندعر فتح الباب وتسرّر في موضعه . برزت

- ٢٤ -

وبعثت نشوة الفرح حياة في الألسنة فرقصت على  
أنغام أمانيتها . تردّد اسم عاشور حتى تجسّد . لم يذكر  
شيء عن الصرة ولكن انتشر أنّ عاشور يُبعث في ظلام  
الليل . وسخر رجال ساحة من الخرافة . قالوا إنهم  
يسهرون الليل فلا يلقون أحداً . ودعا ساحة الشيخ  
سيّد عثمان شيخ الزاوية وقال له :

- جنّ الناس من الجوع . . .

فحنى الشيخ رأسه فسأله :

- هل بلغك ما يقال عن عودة عاشور؟

فحنى الشيخ رأسه بالإيجاب فسأله :

- ما رأيك فيه؟

- لا يصدّق . . .

- لكنّه كفر أيضاً!

فقال الشيخ بإشفاق :

- إنّه لكفر . . .

فقال ساحة بنبرة حاسمة :

- قُمْ بواجبك . . .

وراح الشيخ يخطب الناس محدّراً إياهم من الخرافة  
والكفر، وقال الرجل «لو بُعث عاشور حقاً لجاءكم  
بالطعام» فسخر منه الخرافيش وازدادوا إيماناً .

- ٢٥ -

انقلب الظلام قناة سحرية للاتصال بين الأرواح .  
ثمل الفضاء بالهمسات السحرية . في غفلة من الرقباء  
تدفقت النجوى مفعمة بالحرارة . ويتساءل الرجل :

- أنت عاشور الناجي؟

ولكنّ الهامس سرعان ما يدوب في الظلام مثل  
روح شارد .

همسة تدعو النائم أن يستيقظ . همسة تؤكد أنّ  
المخازن مليئة بالخير . همسة تلعن الجشع، الجشع عدو  
الإنسان لا القحط . همسة تتساءل أليست المغامرة  
أفضل من الموت جوعاً . وهمسة تنبه إلى أنّه توجد  
ساعة ينام فيها رجل العصابة فتتخلّى عنهم قوتهم .  
وهمسة تسأل ماذا يمكن أن يفف في وجه الكثرة إذا  
اندفعت؟ وهمسة تتحدّى، كيف تترددون ومعكم

خرجوا من دور العصابة كالسيل، غمروا الحارة، اقتحموا المخازن، نهبوا كلّ مخزون بها، دمروها تدميرًا. وأول هدف لهم كان مخزن ساحة الفتوة. بل لم يُترك قائم في المحلّ كلّ. نهب الغلال حتّى آخر حبة. ورثي فتح الباب معلّقًا في عرق من عروق السقف، مدلّى الدراعين، مغمى عليه أو ميتًا، ففكّ وثاقه وطرح على الأرض بين الحياة والموت. سيطروا على الحارة تمامًا حتّى شعشع أول ضوء للنهار. دُعر الناس في النوافذ والمشبّيات وارتفع الصراخ، عند ذلك فُتح باب الفتوة ساحة، ونجلى الرجل مثل وحش قابضًا على نبتوته...

- ٢٩ -

تطلّعت إليه الأبصار. تسمّروا في حقد وتصميم ولكن استبقوا إلى السكوت والتوقّع. ها هو الوحش المخيف ولكنهم سكارى بالنصر لا يخافون، وفي الوقت نفسه يتردّدون. لعلّه انتظر أن ينضمّ إليه رجاله فلم يعرف بعد ما حاق بهم. لا شكّ أنّه سيفطن إلى ما وقع إن لم يكن قد فطن إليه بالفعل. إنّه وحده يواجه الحرافيش، هو وقوّته ونبتوته وسحره الخرافي. وتساءل بصوت فاجر:

- ما معنى هذا؟

فلم يجبه أحد، ومن النوافذ هبطت إليه استغاثات، وأنباء النهب والسلب. تساءل مرّة أخرى:

- ماذا فعلتم يا أولاد الزواني؟

لم ينبسوا، لم يخلدلوا ولم يتشجّعوا، فتساءل بوحشيّة:

- ماذا فعلتم يا أبناء الزواني؟

فانطلق صوت كالحجر صائحًا:

- جدّك كان ابن الزانية...

وارتفع هدير من القهقهات فوثب ساحة وثبة قويّة ملوّحًا بنبتوته وصاح:

- اثبتوا إن كان في أسالكم رجلا

فانحط الصمت عليهم كصخرة ولكن لم يتراجع أحد. وتبيّنا ساحة للانقضاض. عند ذلك ظهر فتح الباب شاحبًا مخلخل القدمين وهتف وهو يستند إلى جدار:

من الظلمة على ضوء المصباح وجوه مخيفة قاسية، وجه ساحة، وجه ضامر الحسني، وجوه نفر من أشدّاء العصابة. تلاطمت النظرات في ارتطام عنيف. انغرز الصمت في النفوس وأزّ في الأذان مثل فحيح الأفاعي. احترق الجوّ بأنفاس حارّة منطلقة من غرائز بدائيّة وحشيّة. وملائته نظرة أخيه. نفلت إلى أعماقه فاقتلعت أعضائه من جذورها. شعر بالسّم يسري في جوارحه، وبالهزيمة المطلقة، بالضيق في غياهب الفناء. انجلت عنه هموم الأمل فغاص في اليأس، وانتظر كلمة القضاء كأنّها تخصّ شخصًا آخر.

وجاء الصوت يسأل باردًا ساخرًا حانقًا:

- ماذا جاء بك في هذه الساعة من الليل؟

لم يبق له إلّا الاعتراف والشجاعة والتوكّل على الله. أجاب بهدوء غير متوقّع:

- لقد علمت كلّ شيء...

- ماذا جاء بك في هذه الساعة من الليل؟

فقال بشجاعة أكثر:

- جئت لأنقذ أرواحًا من الموت...

- أهدأ جزاء من يحسن إليك؟

فقال بهدوء:

- هذا ما ينبغي فعله...

- إذن فأنت عاشور الناجي؟

فلاذ بالصمت. فقال ساحة بغلّ:

- ستعلّق من قدميك في السقف يا معلّم عاشور

حتّى تصفّى روحك نقطة بعد نقطة...

- ٢٨ -

ووقعت الواقعة. رسبت الهمسات في أعماق الحرافيش فتحوّلت إلى قوّة مدمّرة. اجتاح الحارة طوفان لم تعرفه من قبل. هكدا قسم الحرافيش أنفسهم إلى جماعات، وتسألّت كلّ جماعة إلى مسكن رجل من رجال العصابة. تمّ ذلك قبيل الفجر في ساعة النوم العميق. هوجم الرجال في أسرّتهم، دهمتهم الكثرة، غلبوا على أمرهم، انهزموا، نُهب دورهم، زالت عنهم غشاوة السحر مخلّفة وراءها عاهات مستديمة. ولم يُسمع أذان الفجر من صياحهم.

- ٣٢ -

وتطلّع الناس إلى العدل. عمرت قلوب الحرافيش بالأمل وامتلات أنفوس الوجهاء بالمخاوف. واقتنع فتح الباب بأنّ العدل لا يجوز أن يتأخّر يوماً واحداً. وقال لمعاونيه:

- علينا أن نحبي عهد عاشور الناجي... .

ونشط الرجالان في توزيع الخيرات والوعود والآمال، ومضت الجراح تندمل. ولاحظ فتح الباب أنّ الرجلين ينويان عنه في جمع الإتاوات وتوزيعها، كما لاحظ أنّ رجال العصاة ما زالوا يتمتعون بامتيازاتهم، يستولون على أنصبة من الإتاوة ويعيشون عيشة البطالة والبلطجة. ساورته المخاوف. وأشفق من أن ترجع الأمور رويداً إلى مجراها القديم. واجتمع برجاله وقال لهم:

- أين العدل؟... أين عهد عاشور؟

فقال له دنقل:

- تغيّر الوضع ولكن علينا أن نسير بعد ذلك خطوة خطوة... .

فقال فتح الباب بامتعاض:

- العدل لا يقبل التأجيل... .

عند ذاك قال دنقل بجرأة جديدة:

- لا يمكن أن يرضى رجالك بحياة بسيطة مثل بقية الناس!

فهتف بحرارة:

- إذا لم نبدأ بأنفسنا فلن يتحقّق خير... .

- إذا بدأنا بأنفسنا ترعزعت أركان الفتنة... .

- ألم يكن عاشور يتعيّش من عرق جبينه؟

فقال حميدة:

- تلك أيام لا يمكن أن ترجع... .

- لا يمكن!؟

فقال دنقل بفتور:

- خطوة... . خطوة... .

لو كان فتوة حقاً لحسم الأمر بكلمة واحدة. وساءل نفسه محزوناً:

- ما الفائدة ما دمت لا أملك فتوة جدّي عاشور؟... .

والحرافيش ترى هل نسوا قوتهم المدمرة!؟

- اقلدوه بالطوب... .

سرعان ما انفجر الحرافيش وانهاال الطوب على الرجل. توقّف هجومه تماماً تحت المطر. استبقت الدماء من جراحه حتّى تخضّب بها وجهه والثياب. ترنّح متراجعاً وهو يحور. أفلت الثبوت من يده. تقوّض بنيانه فوق عتبة الدار... .

وانقضّ الجميع على الدار. فرّ عنها أهلها من السطح إلى الأسطح المجاورة. نُهبت ودُمّرت ثمّ تُركت خرابة مسوّرة... .

- ٣٠ -

سرعان ما عُرف دور فتح الباب في المعركة. تجسّد أسطورة ونودي به فتوة للحارة. وقد ارتبك الفتى وتخيّر. لم يغرّه النصر، ولم يضلّ في تقدير ذاته، فهو لم يقبض في حياته على ثبوت، وجسمه الهشّ لا يصمد لضربة يد. وقال لمحبيّه:

- نختار فتوة ونأخذ عليه عهداً بأن يحكم كما حكم عاشور... .

ولكنهم وقعوا في أسر الانفعال فصاحوا:

- أنت أنت الفتوة ولا فتوة غيرك!

هكذا وجد فتح الباب شمس الدين جلال الناجي

نفسه فتوة دون منازع... .

- ٣١ -

وبفضل رجلين في العصاة- دنقل وحميدة- حافظت الفتونة على هيبتها سواء في الحارة أم في الحارات المجاورة. وكان دنقل وحميدة من رجال العصاة السابقين، وكذلك كان غالبية رجالها، ولكنّ فتح الباب سيطر سيطرة مطلقة بسحره الخاصّ وقوة الحرافيش المتمثلة في كثرتهم المنتشبة بالنصر والثورة.

وفي تلك الأيام ماتت نور الصباح العجمي، وآوت فردوس هانم وأبناؤها إلى دار أسرتها من آل راضي بعد أن فقدت جلّ ثروتها فهبطت من طبقة إلى طبقة.



- ٣٣ -

وفي لحظة يأس وغضب معًا صارح فتح الباب  
دنقل وحميدة بأنه سيعلن تخليه عن الفتونة. وجزع  
الرجلان واستمهلاه واعدن إياه بتحقيق مطالبه.  
واجتمع الرجلان بصديقهما مجاهد إبراهيم شيخ  
الحارة، وقال له دنقل:

- فتوتنا ناغم، لا وفاق بيننا وبينه، فما رأيك؟  
فأجاب المعجوز بحنق:

- يريد أن يرجع عهد الناجي اليس كذلك؟...  
- نعم.

- أن يسود الخرافيش ويستذل الوجهاء ويجعلنا  
أضحوكة بين الحواري!  
فقال له دنقل بكآبة:  
- لقد هدّد بالتخلي عن الفتونة...  
فهتف مجاهد إبراهيم:

- ليس الآن، ليق الصورة والأمل حتى نطمئن  
تمامًا إلى أن الخرافيش لم يعودوا إلا الخرافيش فقط،  
وأنهم نسوا تمامًا هبتهم الجنونية، حققوا له نصف  
مطالبه...

فقال حميدة ساخطًا:

- الكلّ أو لا شيء، ذلك مطلبه!

فتفكر مجاهد إبراهيم مكفهرًا ثم قال بإصرار:  
- فليبق فتوة فترة أخرى ولو بالقوة والقهر!

- ٣٤ -

وزار دنقل وحميدة فتح الباب في مسكنه المتواضع.  
انفردا به وقال له دنقل:

- نحن نبذل الجهد ولكننا نلقى عقبات كالجبال،  
ورجال العصابة غاضبون، يتوعدون بالشرّ والدم...

فتمتم فتح الباب بذهول:

- ولكنكم أقوى الرجال...

- هم الكثرة وهم الغدر...

فقال بإصرار:

- سأتحلّي عن الفتونة!

فقال حميدة:

- لا نضمن لك الحياة إن فعلت...

وقال دنقل:

- لا تغادر مسكنك أبدًا، ستلقى لدى أول خطوة  
خارجة مصرعك!

- ٣٥ -

أدرك فتح الباب موقفه عاريًا. قال لجذته سحر:

- ما أنا إلا أسير محاصر!

فتأوهت المعجوز وقالت:

- ما باليد حيلة، اقنع بنصف الأمل...

فهتف بأسى عميق:

- عليّ اللعنة إن خنت جذّي لحظة واحدة!

- وكيف تتحدّى القوة؟

فتفكر متحيرًا وهو يغمغم:

- الخرافيش!

فقال بإشفاق:

- سيقتلونك قبل أن تتصل بأحد منهم!

- ٣٦ -

لبث فتح الباب في الأسر، لا يدري أحد ما سرّ  
انزواته، ويؤول بالزهد تارة أو بالمرض. كانت الأعين  
ترصده نهارًا وليلاً، وحتى جذته حيل بينها وبين  
الخروج. وكان يعلم علم اليقين بأن حياته رهن  
بتحمس الخرافيش، وأنه سيتلاشى يوم تتلاشى  
أسطورتهم ويركبهم الهوان. واشتدّ الحذر بالعصابة،  
ولم يتوانوا عن مراقبة الخرافيش وممارسة الإرهاب  
والعنف.

وذاث يوم وثب حميدة على دنقل فبطش به واستأثر  
لنفسه بالمركز الأوّل في العصابة. وعندما اطمان جانبه  
من ناحية الخرافيش أعلن نفسه فتوة على الحارة...

وظنّ فتح الباب أن أسره قد انتهى ولم يعد له مبرر  
أو معنى. قال للفتوة الجديد:

- ما مضى قد مضى، دعني أمارس حياتي العادية

وأرتزق من عمل مثل بقية خلق الله...

ولكن حميدة رفض مطلبه وقال له:

- إنك غير مأمون الجانب، فابق حيث أنت،

وسيجيئك رزقك بلا تعب!

## ملحمة الخرافيش ٨٩٧

تفسير ذلك إنه جنّ حزناً على ضياع الفتونة من بين  
يديه، فتسلّل ليلاً إلى مثذنة جدّه المجنون، فرقي فيها  
إلى أعلى شرفة، ثمّ رمى بنفسه للهلاك والكفر...  
هكذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاده...

- ٣٧ -

هكذا انتهت سيرة فتح الباب وجهاده. مثل صحوة  
قصيرة مشرقة في يوم طويل ملبد بالغيوم. وذات صباح  
عُثر عليه، جثة مهشّمة في أسفل المثذنة المجنونة.  
خفقت قلوب كثيرة في أسى وفرحت قلوب. وقيل في

# التوت والنبوت

## الحكاية العاشرة من ملحة الحرافيش

- ١ -

بموت فتح الباب صحت الحارة من حلمها الوردية، ارتطمت بصخرة الواقع، انطوت على أحزانها، تكاثف ظل حميدة السفاح حتى حجب نور الشمس.

لم يبق من صفوة ذرية الناجي إلا بنات فردوس أرملة سباحة ذي الوجه القبيح وبكرتها ربيع سباحة الناجي. أما البنات فقد ذبن في عامة أهل الحارة، وأما ربيع فقد نشأ فقيراً، ولم تكن أمه تملك مالا يذكر، فعمل كاتباً في محل البنان، ومارس حياة غاية في البساطة، رغم ذلك كان يعدّ خير آل الناجي. لم يستدر ذلك رحمة أحد. فعلى تعلق الحرافيش بسير عاشور وشمس الدين وفتح الباب، فقد أضمرُوا الاحتقار والمقت لسائر آل الناجي لخياتهم لعهد جدّهم العظيم، ولانخراطهم في سلك المجرمين والبلطجية.

وقد أراد ربيع أن يتزوج من أسرة كريمة ولكن طلبه رُفض فأدرك أنّ أصله لا يغني عن فقره وتفاهة عمله، وأنّ الفقر يفضح معايب يسترها الثراء عادة، مثل انتباهه إلى سباحة ذي الوجه القبيح وجلال المجنون وزهيرة السفاحة، وزينات الشقراء الداعرة ونور الصباح العجمي الغانية. سلسلة صدئة من الدعارة والإجرام والجنون. لذلك غشيت كآبة ثقيلة ممتدة فقرّر أن يمضي حياته أعزب متسربلاً بالوحدة والكبرياء. وماتت فردوس هانم بعد أن جاوز الخمسين، فاضطرّ

إلى أن يقيم في شقة صغيرة من حجرتين وحيداً. ولم يطق الوحدة المطلقة وضاق بإهمال بيته الصغير فبحث عمّن يقوم بخدمته فجاءه أولاد الحلال بأرملة في الثلاثين من آل الناجي تدعى حليلة البركة. وجدها جادة وأمينة مقبولة الصورة، قوية الشخصية رغم فقرها، فكانت تنظف البيت وتعدّ الطعام ثم تذهب للمبيت في بدرومها. ومع الأيام مالت نفسه إليها فرغب أن يتخذ منها خليله، ولكن المرأة أبت ذلك في حزم وقالت له:

- سأذهب يا سيدي ولكني لن أعود. . .

وجد نفسه وحيداً بائساً كما كان أو أشدّ بؤساً، ولم يعد في وسعه أن يحتلم الوحدة والحرمان العاطفي، إلى خوف من المرض والموت وحنين إلى الذرية، فعرض على المرأة الزواج وسرعان ما قبلت وهي سعيدة. هكذا تزوج ربيع سباحة الناجي من حليلة البركة بعد أن عبر الخمسين بثلاث سنوات. وسعد بحياته الزوجية، ووجد في شريكته سيّدة بيت حازمة، ورعة متديّنة، فخوراً بانتهاها إلى الناجي، مسحورة بأبجد الأسرة الأصيلة، وأنجب منها ثلاثة، فائز وضياء وعاشور. ومات ربيع وبكرته فائز في العاشرة وضياء في الثامنة وعاشور في السادسة، مات دون أن يترك لأسرته ملبياً واحداً. . .

- ٢ -

تركت حليلة البركة لتواجه الحياة وحيدة. كان

فهتفت بتذمر كالمحتج:  
 - الحرام!  
 - اقنع بنصيبك، ماذا تريد؟  
 - ما أنا إلا خادم حمار وما أنت إلا خادمة  
 أوغاد...  
 فقالت باعتزاز:  
 - نحن نعمل ونحن شرفاء...  
 فقهقه. وكان قد طاف بالبوطة قبل رجوعه وشرب  
 قرعتين.

- ٤ -

واشتغل عاشور الابن الأصغر صبيًا لغتًا يدعى  
 أمين الراعي، تعهد إليه الأثر بما تملك من ماعز  
 فيسرح بها في الخلاء لتمرح وتنعم بالشمس والهواء  
 والأعشاب، وذلك نظير أجر معلوم. بذلك ارتاح بال  
 حليلة البركة فقد أصبح أبناؤها الثلاثة عمالًا يرزقون،  
 ووهبتها الحياة بسمة صافية. ومضت الحياة بمسراتها  
 الصغيرة وأحزانها المألوفة حتى بلغ فائز العشرين من  
 عمره. وسألته أمه في ساعة صفاء:  
 - متى تكمل دينك يا بني؟  
 فابتسم ابتسامة غامضة وقال:  
 - صبرك يا أمي وما صبرك إلا بالله...

- ٥ -

ولم يرجع فائز من مشاويره في ميعاده المألوف. مضى  
 أكثر الليل ولم يرجع. ذهب عاشور إلى البوطة يبحث  
 عنه، وتشتم ضياء أخباره في الغرز، ولكن لم يُعثر له  
 على أثر. وفي الصباح مضت حليلة البركة إلى المعلم  
 موسى الأعور صاحب الكارو مستطلعة عن خبر ابنها  
 فوجدته قلقًا ساخطًا، وقال لها:

- لا خبر عنه...  
 فانزعجت الأم وقالت:  
 - نذهب إلى القسم؟  
 فقال المعلم:  
 - ولا خبر عنه في القسم...  
 ثم تتم بحق:

أهلها من الحرافيش فقررت أن تعتمد على نفسها،  
 مستعينة بالعزيمة لا بالدموع. انتقلت إلى بدروم مكوّن  
 من حجرة ودهلين، باعت فائض الأثاث البسيط،  
 استغلّت مواهبها في بيع المخلل والمفتقة والخدمة كبلانة  
 ودلالة. لم تولع بتريديد الشكوى والحسرة على الماضي،  
 وواجهت زبائنها بوجه مشرق كأنه سعيد، ولم تخجل من  
 أحلام عذبة عن مستقبل مجهول.

أدخلت أبناءها الكتاب، وعند السن المناسبة عمل  
 فائز سواق كارو، وضيء شيئًا في محلّ النحاس.  
 وهانت شدة الحياة قليلًا، ولكن لم تنزل تطالب حليلة  
 بالعمل وقد بلغت الخمسين.

وكان فائز أول من واجه الحياة من أسرته. وجدها  
 معادية معاندة، وأنه يؤاخذ فيها على جرائم أجداد  
 وجدّات لم يعرفهم. كان طويلًا نحيلًا بارز الأنف  
 ضيق العينين قويّ الشدقين، وكان يزدرد السخريات  
 ويكبت مشاعره ويمضي في عمله. عرف عن أمه جانبًا  
 مضيئًا من تاريخ الأسرة ولكنّه عرف جانبها المظلم في  
 الحارة بين الناس. في البيت تلقن معاني الزاوية  
 والسبيل والكتاب والحوض، وفي الخارج دمه مغزى  
 المثذنة العملاقة المجنونة. وهذه الدور الرائعة التي  
 كانت مقامًا لأجداده ثم أصبحت مساكن للتجار  
 والوجهاء الأغرّاب. كم يتأملها بغرابة ويحلم، كم  
 يتخيّل تلك الأيام الخوالي، ولا يخلو دماغه منها حتى  
 وهو ينخر الحمار لينطلق بالكارو في أرجاء الحيّ  
 العتيق. إذن فهذه هي الدنيا، ولكن كيف ينبغي أن  
 تعامل معها؟

- ٣ -

وأعلن سخطه على مسمع من أمه وأخويه فقالت له  
 حليلة:

- كان جدك عاشور وليًا!  
 فقال فائز بحدة:  
 - مضى زمن المعجزات أما الدور فهي في قبضة  
 الآخرين...  
 فقالت الأم بحرارة:  
 - من الحرام جاءت وفي سبيل الحرام هلكت...

## ملحمة الحراميش ٩٠١

وهو نفسه شيّد داره في نهاية الزقاق.  
وقد حدث أن تأخّرت حلّيمة في صنع صفيحة  
مفتّحة بسبب وعكة طارئة، ولما ذهبت بها إلى الدار  
لعنها بعنف وصفعها! ورجعت المرأة دامعة العينين  
ولكنّها أخفت الخبر عن ابنها ضياء وعاشور. غير أنّ  
ضياء كان يتردّد أحياناً على البوظة، وفي مرّة سأله زين  
علباية الخنّار:

- ألم تعلم بما حدث للستّ الوالدة؟

هكذا تلقّى ضياء الإهانة ثمّ قذف بها دامية في  
قلب عاشور. وتلقّى ضياء بالغضب، ولكنّ شره لم  
يجاوز جذران البدروم، أمّا عاشور فغاص في الحزن  
حتّى قَمّة هامته. كان قوياً ومهدّباً. غطّى تهذيبه على  
قوّته فواراها عن الأعين. وكان نبيل الرأس غليظ  
القساات غامق السمرة، وفي وجنتيه بروز وفي فكّه  
صلابة. ولم يطق البقاء في البدروم مع أحزانه فخرج  
إلى الظلام، مسوّقاً بقوّة خفيّة نحو ساحة التكيّة، نحو  
خلود جدّه عاشور. جلس القرفصاء دافئاً رأسه بين  
ركبتيه في جورّ جامد لا يتنفس تسبّح فيه الأناشيد  
وحدها. أصغى طويلاً وغمغم:

- ما أشدّ ألمي يا جدّي!

وناجته الأناشيد بلغتها الغامضة:

بي مهر رخت روز مرا نور نماندست  
وزعمر مرا جز شب ديجور نماندست

- ٨ -

واستقرّت الإهانة في الأعماق، فهي لا تُضمّ ولا  
إلى الخارج تُقذف. وكان عاشور ينمو نمواً فذاً كشجرة  
توت، يذكّر هيكله المتماذي في العملاقة وملاحه الغليظة  
الجدّابة بما قيل في وصف جدّه عاشور. أصبح منظر  
راعي الغنم جديراً بلفت الأنظار. وخالت حلّيمة أن  
تثير قوّته هواجس الوحش حسّونة السبع فحدّثته  
قائلة:

- تناسّ قوّتك، تظاهر بالجبن فهو أرحم، ليتني ما  
سميتك بعاشورا

ولكنّ الفتى كان فطناً، مستغنياً بفسطنته عن  
التحذير. وكان يمضي طيلة نهاره في الخلاء بين الماعز

- فلننتظر والله المستعان!

ومضى يوم في قفا يوم، القلوب مشتعلة وفائز لا  
يعود.

وصاح المعلّم موسى الأعرور:

- سرقة وربّ الكعبة، سرق الكارو واختفى،  
ولكن له الويل...

وهتفت بركة في جزع:

- ألم تجرّب أمانته طوال تلك الأعوام؟

فقال بغضب:

- إنّه مؤذّن كئيبان...

- ٦ -

وبكت حلّيمة طويلاً كما بكى ضياء وعاشور.  
وتعاقبت الأيام والأسابيع والأشهر. لم يعد يشكّ أحد  
في المارب وجريمته. وقال حسّونة السبع الفتوة الجديد  
ساخرًا:

- كانوا يسرقون الدور الفخيمة فأصبحوا يسرقون  
الكارو!

ولجأ موسى الأعرور إلى الشيخ جليل العالم شيخ  
الزاوية وعمّ يونس الساييس شيخ الحارة فأفتيا بأنّ على  
ستّ حلّيمة وابنيها ضياء وعاشور أن يؤدّوا ثمن العربة  
والحمار إلى موسى الأعرور. وأدّت الأسرة الثمن مقسّطاً  
وهي حزينة وصابرة.

- ٧ -

وقعت حادثة لا تُعتبر غريبة بمقياس ما يقع في  
الحارة ولكنّها هزّت قلوب الأسرة هزّاً. كانت حلّيمة  
تقدّم كافّة الخدمات لدار الفتوة حسّونة السبع بلا  
مقابل، بلا كلمة شكر. حتّى هنا لا غرابة ولا  
تعجب، فقد كان حسّونة من أفظع الفتوات الذين  
سيطروا على الحارة وأذلوها. كان يستغلّ حتّى أفقر  
الفقراء. وكان يجادل بيده وقدمه لا بلسانه وينشر  
الرعب مع الهواء. وكان على شراسته وقوّته حدّراً  
كثعلب. هو الذي أوجب على جميع أتباعه بأن  
يستأنروا لأنفسهم بزقاق لا يقيم فيه أحد غيرهم  
ليتجنّبوا مؤامرة كالتّي دُبرّت للفتوات أيام فتح الباب.

حليمة:

- ننتقل إلى بدروم أكبر يسعنا جميعاً فهو للمعيشة  
أوفر... .

ووقع اختيار المرأة على فتحة وشكرية ابنتي محمد  
العجل العلاف بحظيرة المعلم موسى الأعور. ولم يكن  
أحد منها قد رأى فتاته، ولكنها كانا يغليان بوقدة  
الشباب، ويتوتب خيالها الجامح لمعانقة أي أنسى.  
هكذا قرئت الفاتحة.

- ١٠ -

وجاء إلى الحارة فتى غريب. نطق وجهه بالعافية،  
رغل في عباءة بيّنة. انتعل مركوباً أحمر، طوّق رأسه  
بلاثة من الشاهي المنمنم، في يده مسبحة من  
القهرمان. أول من رآه كان زين علباية الخمار. لم  
يعرفه إلا حين ابتسم فهتف الخمار:

- من؟... فائز بن ربيع الناجي...

وتطلعت إليه الأعين غير أنه مضى من توّه إلى  
القهوة، إلى أريكة حسونة السبع، انحنى فوق يده  
فلثمها ثم وقف ممتثلاً. قال حسونة وهو يتفحصه:

- ما شاء الله ما قد رجع المارب!  
فقال فائز:

- مصير الحيّ إلى أصله!

فقال حسونة السبع بلهجة ذات مغزى:

- آثار الشطارة بادية عليك...

فقال فائز بخشوع:

- هذا من فضل ربّي...

ودخل القهوة عند ذلك موسى الأعور، وفي أعقابه  
دخل شيخ الحارة يونس السائس. وهتف موسى:

- في ساحة فتوتنا يتحقّق العدل.

فهره الفتوة قائلاً:

- لا تنهق كالحمار...

فقال الرجل:

- باع العربية والحمار ثم تاجر بمالي!

فسأل الفتوة فائز:

- ماذا فعلت بماله؟

فقال فائز:

بصحبة معلمه أمين الراعي. لم يظهر قط في البوظة أو  
الغزوة أو القهوة. لم يستعمل قوته قط إلا في المناورة  
والصبر. أجل مزقته الإهانة. غضب حتى تحيّل أركان  
الحارة وهي تُهدم ويبيعت من في القبور، ولكنّه لم  
يتهور، ضبط نفسه، لم يتجاهل القوة الغشوم المتربّصة  
الحدرة القاسية ونبايتها المتأهبة. وكلما ضاق صدره  
مضى إلى ساحة التكية، يؤاخي الظلام، ويدوب في  
الأناسيد. وتساءل مرّة في حيرة:

- ترى أيدعون لنا أم يصبّون علينا اللعنات؟

وتساءل مرّة أخرى في أنسى:

- منذاً يحلّ لنا هذه الألغاز؟

وتنهّد طويلاً ثم استطرّد:

- إنهم يغلقون الأبواب لأننا غير أهل لأن تُفتح في  
وجوهنا الأبواب!

وكان يجد ضياء في البدروم صاحباً بالغضب. ومرّة  
قال ضياء:

- لولا أننا صرنا حرافيش ما تعرّضت أمتنا  
للإهانة...

فقال له عاشور:

- حرافيش أم وجهاء لا يهمّ، ستدرك الإهانة دائماً  
من يتقبّلها!

- ماذا علينا أن نفعل؟

فصمت عاشور ملياً ثم تتمم:

- لا أدري يا أخي!

- ٩ -

خافت حليمة عواقب الأفكار المحتدمة، فقالت  
ببساطة وصراحة:

- ما أصابني لا يُعدّ إهانة في حارتنا!

وصمّمت على أن تجتاز بهما تلك المحنة ففكّرت  
جادة في تزويجهما. لقد فقدت فائز وما هو الزمن يمضي  
مسرّعاً بلا أمل. سيبيعت الزواج وثبات جديدة في هذه  
الحياة الراكدة. سيجعل منها رجلين أكثر تعقلاً، وأشدّ  
حدراً، وأبعد عن المغامرات الفاتكة. وسألتهما:

- ما رأيكما في بنت الحلال؟

ورحبا بارتياح. كانا فقيرين مكبوتين فرحبا. وقالت

أمام البدروم وجد حليلة في انتظاره. لدى بلوغ  
الخبر إليها خرجت إلى الطريق. كأنه حلم أو خرافة أو  
معجزة ولكنه على أي حال سعادة تفوق الاحتمال.  
ضمته إلى صدرها وأجهشت في البكاء وظلّت تردّد:  
- الشكر لك يا ربّ... الشكر لك يا ربّ.

واجتمع شمل الأسرة عقب عودة ضياء وعاشور.  
امتزجت الدهشة بالسعادة مرّة أخرى. لبث فائز بينهم  
في الحجر الصغيرة كياسة في كوم من المهشيم. يشعّ  
منه نور، ويسيل أمل يتجلّى المستقبل على ضوئه في  
صورة خالصة لم يحلم بها أحد. تغيّرت أحاسيس  
الأسرة، خلقت خلقًا جديدًا. مضى فائز يقول:

- الناجح محسود، ستفتعل حويلي الأقوال، ولكنّي  
بريء والله شهيد...

فقالت حليلة بحرارة:

- قلبي يصدّقك...

- ما الحكاية؟... بكلّ إيجاز لقد سُرق الكارو  
وأنا نائم، تحيّرت، قرّرت الحرب، لعلّه كان قرارًا  
خاطئًا ولكنه ما حصل...

تركّزت عليه الأبصار بقلوب مرحة مستعدّة  
للتصديق. قال:

- همت على وجهي آيأما بلا عمل حقّي انتشلي  
خواجًا، الحكاية طويلة، عملت عنده خادمًا وسوّاقًا،  
حيته من تحرّش بعض الأراذل، تعلّمت على يديه سرّ  
العمل، ثمّ جاءني الحظّ بسمته العذبة، لا بدّ من  
الحظّ، ربحت ورقة نصيب، قرّرت أن أعمل  
لحسابي، صادفني نجاح فاق كلّ تقدير...

وسأله عاشور باهتمام:

- ما عملك بالضبط يا أخي؟

- ليس من اليسير شرحه، هل سمعت شيئًا عن  
السمسرة والمضاربة؟ حسن، لا دكان لي ولا محلّ،  
نعمد الصفقات في الطريق في المقاهي، إنّها أمور  
معقّدة، سنعود إليها بتفصيل أكثر، ولكنّي لن أشرككم  
فيها، لقد رسمت للمستقبل صورة محدودة ومتنوّعة  
ومضمونة...

فتورّدت الوجوه من البهجة وعدوية الحلم ولاذت

- ورأس الحسين لقد سُرق الكارو وأنا نائم،  
لذلك هربت...

فقال موسى:

- كذاب!... من أين لك هذا الجاه؟

- العمل والحظّ وفضل ربّي...

فتمتم يونس السائس:

- قضية طريفة حقًا...

فقال فائز:

- إنّه مالي، لو كنت نصًا ما رجعت، وما أرجعني  
إلا حرصي على تسديد ديوني...

وقدّم للفتوة صرّة وهو يقول:

- عامان مضيا بلا إتاوة.

تناولها الفتوة. ابتسم لأوّل مرّة. قال فائز:

- من أجلك يا معلّم جئت أوّلًا، ولأرى أهلي

أخيرًا!

قال حسونة السبع:

- لصّ؟... لا يهّم، ولكنك فهلويّ، إنّي  
أصدّقك!

فتساءل موسى الأعور:

- وأنا يا معلّم؟

فقال يونس السائس:

- لقد قبضت ثمن الكارو والحمار من ستّ حليلة  
البركة...

فقال موسى الأعور:

- ماله في الواقع هو مالي أنا...

فقال حسونة السبع:

- من حقّ موسى صرّة مثل صرّتي.

فلم يتردّد فائز فقدّم للفتوة صرّة أخرى. فطرب

الرجال بالحكم العادل فهتفوا معًا:

- اسم الله عليه... اسم الله عليه...

ولكنّ حسونة السبع أبقي الصرّة الجديدة في قبضته  
على حين تجلّت في عينيّ موسى الأعور نظرة يائسة.

قال الفتوة يخاطب فائز:

- أنّ لك أن تذهب إلى أهلك.

والغمز والتهنئات. وما إن ارتفع الضحى حتى فاز  
الجاه بامتيازاته واستقرّ في مركزه وسلّم الجميع بقضاء  
المقادير. وكم من قلوب أحرقتها الحسد، وكم من قلوب  
دوّخها الانبهار، وكم من قلوب ثملت بأمال مجهولة!  
ووقف جليل العالم شيخ الزاوية ويونس السائس  
شيخ الحارة يتناجيان. قال يونس وهو يرمق عاشور:  
- يقال إنّ هذا الفتى يشابه جدّه الأوّل.

فقال جليل:

- ثمة فرق هو ما بين الذهب الخالص والنحاس  
المطّي بالذهب!

- ١٣ -

واعترضت الطريق المنبسط عقبة كالحة، هي قراءة  
فاتحة شكرية وفتحية! فرضت نفسها عليهم من أوّل  
يوم. وقال ضياء لأمه معاتباً:  
- لم تسرعت يا أمي؟  
فلم تدرِ حليلة بم تحيب. لم تعد سعيدة بالخطوبة  
ولا متحمسة لها، ولكنها تكره عادة أن تفعل ما تحجل  
منه، كما أنّ تقوى الله تملأ قلبها. وتمتت:

- قسمة ونصيب!

فسألها بحدة:

- ماذا؟

فقالت باستسلام:

- يقول المثل «خلدوهنّ فقيرات يغنكم الله».

- ولكنّ الله قد أغنانا من قبل أن نأخذهنّ!

- ألم تكونا قدم السعد؟

فتمتم ضياء في ضيق:

- إنّه لعبت!

ولبت عاشور صامتاً متجهّماً. إنّه لم يعد سعيداً  
بالخطوبة، ولكنّه يكره عادة أن يفعل ما يضحج منه -  
مثل أمه - تملأ التقوى قلبه. سألته حليلة:

- وأنت يا عاشور؟

فأجاب مغلوباً:

- لقد قرأنا الفاتحة...

فهتف ضياء:

- كلاً، إنّه قرار مؤسف لا يسرّ، ولكن كلاً ثمّ كلاً...

بالصمت والابتهاال فمضى يقول:

- إرادة الله العليّ القدير أن يعود آل الناجي إلى  
مركزهم المرموق!

فتساءل عاشور هامساً:

- تعني الفتونة يا أخي؟

فضحك قائلاً:

- لا... لا... أعني الوجاهة والأبهة!

فقال ضياء بإشراق:

- ما أجمل هذا!

- يجب أن تتغير هذه الحياة الضحلة، لن نكون  
بعد اليوم من الحرافيش، لا راعي غنم ولا شيال،  
هي إرادة الله العليّ القدير...

فهتفت أمه:

- إنك ثمرة حبي ودعائي...

فقال بجديّة بالغة:

- علينا أن نفكر فيما ينبغي عمله بلا تردد، فإنّ  
نشاطي يتطلّب مني رحلات بلا نهاية!

- ١٢ -

وحلّت تغيرات حاسمة مثل تغيرات الفصول  
الأربعة. ما بين يوم وليلة تحوّلت حليلة البركة إلى  
ست بيت فلا خدمة ولا بيع. استقال ضياء من محلّ  
النحاس كما استقال عاشور من رعي الأغنام. انتقلت  
الأسرة إلى شقة مؤقتة مكوّنة من أربع حجرات،  
والأهمّ أنّه شرع في تشييد دار للأسرة في خرابة أمام  
بنك الرهونات. واشترى فائز وكالة الفحم تاركاً  
إدارتها لأخويه، فجلس ضياء وعاشور في حجرة  
الإدارة، رافلين في العبادة الفضاضة، ناشرين من  
أعطافها شدا المسك والعنبر.

تداخل الحلم في الحقيقة وتداخلت الحقيقة في الحلم  
وانبهرت العين وشخصت الأبصار. عند استبدال  
الثياب الفاخرة بالأسمال البالية شعر الأخوان بلهول  
ورهة ثمّ بسعادة مسكرة. خرجا إلى الطريق كأنهما  
يخوضان معركة. شدّ منظرهما الأبصار، أحدق بهما  
أناس من الحرافيش والصفار. انهلّ عليهما طوفان  
متضارب من السخريات والبركات والعبث والجحد



## ملحمة الخرماليش ٩٠٥

يوجه سببه إلى أخيه. أدرك أنه يمتحن رجل الأسرة  
العملاق القوي. سرعان ما لاذ بنصيحة أمه ودهائه  
الفطري فقال بأدب:

- ليغفر الله الذنوب!

- بسرعة تنسون أصلكم، تنسون الجنون  
والدعارة، أليس محمد العجل أشرف منكم؟

فقال عاشور كاظماً انفعالاته:

- إنه رجل شريف وعمًا قريب سأنضم إلى  
أسرته...

- كلاً...

- ولكنك الحق...

- رفض الرجل النبيل أن تسعد إحدى ابنتيه على  
حساب الأخرى...

- ولكن خطوبتي لم تُفسخ!

- بل قُسخت من ناحيته، وها أنا أبلغك  
بقراره...

فصمت عاشور متجهماً فقال الفتوة:

- عليكم أن تعوضوه عمًا أصابه.

- نفعنا ما يراه فتوتنا صوابًا.

## - ١٦ -

وانقشعت السحابة المثقلة بالحقد والمرارة والندم.  
ومضت الأيام مترققة بالسعد والإقبال. غدت وجاهة  
ضياء وعاشور عادة يومية مألوفة. واستقرت الدار  
الفاخرة أمام بنك الرهونات. وحل الدوكار حليلة  
البركة إلى مشاويرها. أما فائز ربيع الناجي صاحب  
الجاه وباعته فكان يزور أهله ويتفقد ملكه على فترات  
متباعدة.

## - ١٧ -

وعشقت الأسرة الجاه واستنامت إليه. عاشور نفسه  
فرح في أعماقه بفسخ خطوبته وبخاصة وأن فسخها لم  
يحمّله إثماً. وسعد بحياة النعيم فاعتبر أخاه فائز معجزة  
من معجزات الأسرة وعبقريّة من عبقرياتها. وكان  
يتطلّع بشغف إلى أقمار الأُسَر في العربات، إذ كان  
يحبّ الجمال كما يحبّ التكيّة وكما يحبّ مجد أسرته

فقالت حليلة بحزم:

- افعل ما تشاء بنفسك، ولا تعتمد عليّ...

## - ١٤ -

وقابل ضياء ربيع الناجي عمّ يونس السائس شيخ  
الحارة فرجاه أن يحمل اعتذاره إلى محمد العجل.  
وتأمل شيخ الحارة وجه ضياء الصغير وقسماته الدقيقة  
وسامته الشاحبة بلا معنى وقال في نفسه إنه وغد حقاً  
بالصورة والمضمون ولكنّه قال له مدهاناً:

- إنه لعدل ما تفعل ولن يلومك عليه إلا حاسد أو  
حاقد.

فقال ضياء مدارياً خجوله:

- ما باليد حيلة.

- وعاشور، ماذا عنه؟

فقال ضياء بحق:

- إنه طيب أحق!

فضحك يونس السائس وقال:

- ستمتدحه السنة وهي تسخر من سذاجته!

## - ١٥ -

وأثار فسخ خطوبة ضياء عاصفة من السخط  
والتهكم أسهم فيها الطيّبون بطبيعتهم، والحقادون  
بحقدهم وحسدهم. وغطت ندالة ضياء على شهامة  
عاشور فسرعان ما تجوهلت وانصبت اللعنات على  
الأسرة الخائنة التي تتجسد قسوتها وأنانيتها في أمثلة  
حيّة، وتلدوب قداستها في أساطير غابرة لم يشهدها  
أحد.

وكان المعلم عاشور ربيع الناجي ماضياً إلى وكالة  
الفحم عندما ترامى إليه صوت غليظ ينادي بنبرة  
أمرية:

- عاشور!

رأى الفتوة حسونة السبع متربّعاً فوق أريكته وسط  
نفر من أتباعه فمضى إليه بلا تردّد وأدى التحية  
اللائقة. ولم يدعه الفتوة للجلوس وقال له متحدثاً:

- إنكم أنذال يا آل الناجي...

أدرك عاشور ما وراء ذلك من سبب. وعجب لم لم

الفتوة تستكنّ في جوفه مثل خنجر، وإنه لا يدري بأيّ وجه يلقي جدّه عاشور؟ وإنّ سعادته ينقصها شيء جوهريّ. وتساءل:

- لم يساور القلق إنساناً وهبه الله النعمة والكمال؟
- فأجابت أمّه بلا تردّد:
- إنّه الشيطان يا بنيّ!
- حقاً إنّه الشيطان، ولكن أيّ شيطان؟!

- ١٩ -

وأعجب الشقيقان ضياء وعاشور بفتاتين من أعرق الأسر، فخطب ضياء سلمى الخشاب كريمة صاحب وكالة الخشب، كما خطب عاشور عزيزة العطار كريمة أكبر عطار في الحارة. وتبدّى فائز في حفل الخطوبة في أبهة ملك الملوك... ومضت الأيام متفرقة بالسعد والإقبال.

- ٢٠ -

وفي ذات ليلة جاء فائز في غير ميعاده... كانت الأسرة مجتمعة في قاعة الجلوس، وثمة مدفأة كبيرة من النحاس تشتعل جاراتها. كانت الأمّ تسبح، وعاشور يدخن البوري، وضياء ينسطل، على حين عزفت في الخارج ريح باردة مندرة بالمطر.

جاء فائز في غير ميعاده إذ كان يجيء عادة - إذا جاء - في الضحا مستعرضاً أبته ودوكاره. هبّ الجميع لاستقباله. وسرعان ما لاحظوا أنّ معجزة الأسرة فاتر النظرة متجهّم الوجه. جلس على ديوان، أزاح العبادة عن منكبيه رغم شدّة البرد. تساءلت حليلة بقلق:

- مالك؟

فتمتم في خمول:

- لا شيء... .

- بل يوجد شيء يا بنيّ!

فقال بلا مبالاة:

- وعكة... .

وصمت وهو محطّ الأنظار فتجلّى وجهه بالتصلّب الذي كان يطالهم به قديماً قبل أن ينتصر على الحياة. قامت حليلة وهي تقول:

الحقيقيّ الذي عبث الماضي بشداه الطيب النقيّ. وكان يقدق بلا حساب على الفتوة وشيخ الحارة، وجدّد الزاوية والسبيل والخوض والكتاب، وتصدّق على الحرافيش. وفيما يتعلّق بالحرافيش قالت له أمّه:

- لا تثر مخاوف حسّونة السبع، دعهم لي فإنّي أستطيع أو أوزّع الصدقات في الخفاء!

ووافق عاشور إذ كان يعلم أنّ ثورة الحرافيش لا تُمحي من ذاكرة الفتوات!

ولعلّ ضياء كان أسعد الجميع. عشق الجاه بشغف وشرامة. نعم بالكبرياء في حجرة الإدارة، بالترف في دار الناجي الفاخرة، بالكارثة والدوكار، هام بالثياب الأنيقة والأطعمة الفريدة، اقتنى أجود أنواع البوظة والحشيش والأفيون والمنزول. عبد في أعماقه أخاه فائز، كما عبد رجال الأسرة الأخيار منهم والأشرار على السواء، وكان يقول متباهياً:

- المهمّ أن تحرق المألوف!

ولعلّ حليلة كانت أقرب الأسرة إلى القصد ولكنها أيضاً نعمت بالعزّ والجاه. وفي المواسم كانت تهزّب الصدقات إلى الحرافيش، وغمرت أمّ فتحية وشكرية بخيرها حتّى نسيت المرأة الإساءة وصارت من أقرب المقرّبات إليها.

- ١٨ -

وظلّ نداء خفيّ يدعو عاشور إلى ساحة التكيّة ليطلب مع الأناشيد، كما كان يدعو أحياناً إلى الخلاء حيث كان يرعى الأغنام. وكانت سعادته ساء تظهر في جنباتها قطع السحاب، وأحياناً تركض حتّى تخفي وجه الشمس. وقد يدهم في أعذب اللحظات قلق غامض فيفتر حساه ويتساءل عمّا يعنيه ذلك. ولاحظت حليلة ذلك فقالت له مرّة:

- ما أضيع الرجل بلا زوجة يسكن إليها!

فقال بارتياح خفيّ:

- هو ذلك، ولكنه ليس كلّ شيء!

فسأله ضياء:

- ماذا تريد أكثر من ذلك؟

فقبل يده ظهرًا وبطنًا. ولكنه قال لنفسه إنّ إهانة

## ملحمة الجرافيش ٩٠٧

وهتفت حليلة بصوت مبجوح:  
 - ليدركنا سيّد الرسل!  
 وصرخ عاشور:  
 - الحَلّاق!  
 وغادر الحجرة بسرعه جنونيّة. وراحت حليلة  
 تصوّت فصاح بها ضياء:  
 - إنّه حيّ!  
 فصرخت:  
 - انتهى، لم فعلت بنفسك هذا يا بنيّ؟!  
 سرعان ما جاء الحَلّاق، تبعه يونس السايس  
 والشيخ جليل العالم، ثمّ رجال ونساء من ال الخشّاب  
 وآل العطار.  
 وتراجع الحَلّاق وهو يتمتم:  
 - سبحان من له الدوام.  
 اجتاحت الدار الأنيقة عاصفه من الجنون.

- ٢٢ -

قبيل منتصف الليل جاء رجال السلطة، فباشروا  
 التحقيق مع الأهل والخدم، وتفحصوا الأمكنة بدقّة  
 وعناية بالغة...  
 سأل المأمور:  
 - ما تفسير ذلك في تقديركم؟  
 فقالت حليلة:  
 - حتّى أمس كان أسعد خلق الله.  
 - أتعرفون أعداء له؟  
 - كلّاً.  
 - ماذا كان يعمل؟  
 - كان رجل أعمال وسمسرة ومضاربات...  
 - أين مكان عمله؟  
 - لا مكان محدّد له، له دار في الدراسة عند  
 مشارف الجبل...  
 - ماذا تعرفون عن شركائه وعملائه؟  
 - لا شيء البتّة!  
 - كيف كان ذلك؟  
 - هو الحقّ بلا زيادة ولا نقصان!

- أغطي لك كراوية...  
 وتمتم ضياء:  
 - وتنام!  
 وأسبل جفنيه مليّاً ثمّ قال:  
 - لا مفرّ في بعض الأحيان من أن يحنّ الإنسان إلى  
 بيته...  
 فقال عاشور:  
 - شتاء هذا العام لعين...  
 - ألعن ممّا تتصورون...  
 - وأنت تعمل بطاقة تفوق احتمال البشر...  
 فردّد بغموض:  
 - احتمال البشر...  
 فقال ضياء:  
 - للإنسان حقّ في الراحة...  
 فقال بتسليم:  
 - قرّرت أن أحظى براحة عميقة.  
 وساد الصمت. ثمّ ما لبث أن نهض قائلاً:  
 - سأوي إلى فراشي...  
 ومضى إلى مخدعه...  
 وجاءت حليلة بقدح الكراوية فمضت في أثره.  
 كان الشمعدان يضيء المخدع، وكان فائز راقداً  
 فوق الفراش بملابسه. قالت حليلة:  
 - لم تغرّ ملابسك؟  
 وسرعان ما سقط القدح من يدها، وصرخة ممزّقة  
 انطلقت من فيها...  
 - ٢١ -

وقفوا يحدّقون بأعين تطفح بالدهول والجنون.  
 فائز شاخص البصر، ملقى الوجه بلا حَوْل، كأنه  
 متجمّد منذ ألف عام، يسراه مدلّاة من حافة الفراش  
 الوثير، تتكوّن تحتها بحيرة من دم فوق السجّادة  
 الشيرازي، وثمّة خنجر منطرح فوق القفطان الكمّونيّ  
 ذو مقبض ذهبيّ. جرى ضياء يفتش تحت الديوان  
 والفراش والصبوان في الحجرة المغلقة النوافذ وهو  
 يصيح:  
 - مستحيل... ما معنى هذا؟...

- ٢٣ -

دفتري ولا ملّيم واحد. وتبادل الشقيقان نظرات حائرة.

تساءل عاشور:

- ما معنى هذا؟

وتساءل ضياء:

- أين ثروة المرحوم؟

وسأل عاشور المحقق:

- هل عرفتم جديدًا من الأمر؟

فأجاب الرجل:

- لن يفلت منّا خيط من الحقيقة...

- ٢٦ -

رجع ضياء وعاشور من رحلتهم الاستكشافية الخائبة مدهولين. اشتدّ اللغز غموضًا واكتنفته سحب دكناء فتوزّعت القلوب الهواجس. حقًا لقد أمّن لها شقيقتها الحياة قبل أن يذهب، فهما وأمهها الوارثون لو كالة الفحم ولدارين رائعتين، ولكن ماذا عن ثروة فائز، وماذا عن حياته المبهمة؟ وتفكّر ضياء ثم قال:

- لعلّه فقد ثروته فانتحر...

فقال عاشور معترضًا:

- ولم ينتحر وهو ما زال مالك الوكالة والدارين؟

فهزّ ضياء رأسه في حيرة وتمتم:

- ترى لم ينتحر المنتحرون؟!

- ٢٧ -

واستأثر انتحار فائز باهتمام السكارى في البوطة.

تساءل زين علباية الخنّار:

- لم ينتحر رجل مثل فائز؟

فقال يونس السائس شيخ الحارة:

- ليس بسبب الإفلاس فقد ترك ثروة تجعله من

كبار أغنياء الحارة...

فقال له زين علباية بلهجة تحريض:

- لا شك أنّ عندك معلومات باعتبارك من رجال

السلطة...

وعزّ على يونس أن يعلن إفلاسه فقال بنبرة الحذر:

- إنهم يكتشفون جميع من كانت لهم صلة

بالرجل.

أعلن أنّ فائز ربيع الناجي قد انتحر لأسباب لم يكشف التحقيق عنها بعد. ورغم انتحاره فقد شُيع في جنازة جلييلة ودُفن إلى جوار شمس الدين.

ومضت أيام الماتم الثلاثة والأسرة في ذهول لا تدري شيئًا عن كارثتها الكبرى...

- ٢٤ -

لماذا انتحر فائز ربيع الناجي؟

ظلّ التساؤل يشدّ قلوب الأسرة، يقرع وعيهم المترع بالحزن والذهول. وما هي السلطة - كما يؤكد يونس السائس شيخ الحارة - جاذبة في البحث والتحري، ولكن كيف خيم عليهم الجهل حتى اللحظة الأخيرة؟ كيف أصابهم العمى فلم يروا شعاعًا واحدًا من النور؟ كان يغيب طويلاً، ويحتفظ بكافة أسرار عمله لنفسه، ولكنّ زيارته المتقطعة المتباعدة كانت تملأ الدار بهجة وسرورًا وأملًا متواصلًا في الحاضر والمستقبل. حتى آخر زيارة كان شخصًا آخر، ماذا حدث، ماذا غيّر، كيف صار الموت بغيته وملاذه؟!

ولولت حليلة قاتلة:

- لقد حلّت بنا اللعنة...

وتساءل ضياء:

- ما السرّ؟... أكاد أن أجنّ!

فقال عاشور:

- لن يكشف السرّ عمّا يسرّ فالناس لا ينتحرون بلا

سبب...

- ٢٥ -

وتلاقت أفكار الشقيقين على تفقد دار الراحل كقراءة أولى لأسراره ومعاملاته ومصادر أمواله. وتمّ الاتفاق بينها وبين السلطة على ذلك. كانت دارًا ضخمة ذات فناء مترام من ناحية الجبل. ولفت الأنظار كثرة المخادع الوثيرة، ومخازن الخمور والمخدّرات، وغزارة التحف والرياش. ولما فُتحت الخزائن وُجدت خالية تمامًا. لا عقد ولا خطاب ولا

عند ذاك قال حسونة السبع الفتوة متهكِّمًا:

- هناك سبب أقوى من الإفلاس...

وأنجّمت إليه الرعوس بكلّ إجلال فقهه قائلًا:

- الجنون!... في دماهم جنون موروث عن رجال ونساء، حتى كبيرهم الأول المقدّس ألم يكن لقيطًا ولصًّا؟!

- ٢٨ -

ومضت حياة آل الناجي ثقيلة كثيبة. أُجّل الزفاف بطبيعة الحال، وواصل ضياء وعاشور حياتها اليومية وقد انطفأت في نفسها جلوة الإبداع والسعادة، أما حليلة البركة فقد اعتزلت في جناحها، تجتّر الأحزان وتتعرّى بالعبادة...

- ٢٩ -

وذات مساء - وكان الشتاء ما زال يسفح الحارة بسياطه - جاء عمّ يونس السائس إلى الدار، يسير بين يدي مأمور القسم وقوة من المخبرين. اجتمع المأمور وشيخ الحارة بالأسرة في قاعة الاستقبال، وسرعان ما سأل المأمور:

- لمن وكالة الفحم والداران؟

فأجاب ضياء:

- كانت ملك المرحوم، وعنه ورثناها.

- إلى بوئاتق الملكية.

ذهب ضياء ثمّ رجع بصندوق فضّيّ متوسط الحجم فمضى المأمور يطالع الوثائق، ثمّ ردّد عينيه بين حليلة وابنيها وقال:

- كلّ شيء ملك للخير...

لم يفقه أحد معنى لقوله، ولم تعكس وجوههم أيّ أثر، فقال يونس السائس:

- جميع ما في حوزتكم من تجارة وعقار ملك للخير،

لم يكن ملكًا لفائز، وبالتالي لا حقّ لكم فيه...

صرخ ضياء:

- ما معنى ذلك؟

فقال شيخ الحارة:

- الأمر لله عليكم أن تسلّموا الدار والوكالة في

الحال...

- في الأمر خطأ ولا شك!

- لقد باع فائز كلّ شيء، وقدم المالك الجديد

المبايعة وهي صحيحة ولا شك فيها!

تساءل عاشور بذهول:

- أحقّ ما تقول؟

فقال المأمور بهدوء وحزم معًا:

- لم نأت في هذه الساعة للمزاح...

- إنه فوق ما يتصوّر العقل!

- ولكنّه الواقع الذي لا شك فيه...

فتساءل ضياء بفزع:

- إذن فأين ثمن البيع؟

- علّم ذلك عند الله والمنتحر...

وسكت المأمور لحظات ثمّ استدرك:

- لعلّه كان بيعًا صوريًا، ولعلّه تمّ خلال مقامرة

جنونيّة، التحقيق ماضٍ في سبيله القدر!

وقال ضياء:

- فوق ما يتصوّر العقل!

وقال عاشور:

- إنّها جريمة تسمّى السرقة!

فتساءل المأمور:

- لمّ انتحر بدل أن يبلغ عن السرقة؟

- في الأمر جريمة يا حضرة المأمور.

- بل سلسلة من الجرائم!... ولكن لا بدّ أوّلًا

من التفيتش!

- ٣٠ -

لبثت الأسرة تنتظر مهيضة تحت حكم الإعدام.

رجع المأمور وهو يقول:

- سلسلة من الجرائم، الجرائم البشعة... هلمّوا

معنا...

تساءلت حليلة بصوت متهكِّج:

- إلى أين؟

- إلى القسم...

وقال يونس السائس ملاحظًا:

- لا بدّ من استكمال التحقيق...

وأراد الشيخ جليل العالم شيخ الزاوية أن يتشفع لهم فقال:  
- لا تزر وازرة وزر أخرى...  
فصاح به حسونة السبع:  
- أسكت يا كافر وإلا شنقتك بشال عمّتك!  
وكان آل الخشّاب وآل العطار في مقدّمة من تبراّ منهم...

- ٣٤ -

أقامت الأسرة المطازدة في حجرة الرحمة بمدفن شمس الدين. في الجيوب قروش معدودة، وفي القلوب أنى جديد أنساهم أحزان الموت والإفلاس. تحجرت الأعين، حتى عينا حليلة البركة، جلسوا متقاربين، ينشدون النجاة من تلاصقهم، ويستدفئون بنبضات قلوبهم في ضياعهم الشامل، وريح الشتاء تزجر بين شواهد القبور. وإذا بضياء يصيح:

- الكلاب!

فقال حليلة برجاء:

- فلنفكر بحالنا...

فقال ضياء بجمرة وسخرية:

- لم يبق أمامنا إلا أن نعمل ترابية...

فقال الأم:

- معاشر الجثث أطيب...

وتساءل عاشور بذهول:

- أفضي علينا حقًا بهجر حارتنا؟

فقال له أخوه:

- ارجع لتغسل وجهك مرّة أخرى ببصاقهم!

فقال عاشور بتحدّ:

- سنعيش حياتنا على أيّ حال...

- لنرجع إلى التسوّل...

وكانت الريح تزجر في الخارج بين شواهد القبور...

- ٣٥ -

في اليوم التالي دخلوا في حال جديدة من الحزن امتازت بالهدوء والركود. قالت حليلة البركة:

تساءل عاشور:

- ونحن متهمون؟

فقال المأمور بحزم:

- صبرك، وما صبرك إلا بالله...

- ٣١ -

جرى التحقيق طويلًا مرهقًا. وعلى ذمته حُجزت الأسرة في سجن القسم أسبوعًا. ولكن ثبت بالدليل وشهادة الشهود أنه لم توجد علاقة بينهم وبين عمل فائز السريّ الخارجيّ، فثبتت براءتهم وأطلق سراحهم فرجعوا إلى الحارة، ثلاثة يركبهم الخزي والعار لا ماوى لهم.

- ٣٢ -

وكانت الحقائق قد سبقتهم إلى الحارة مثل رائحة عفنة. عرف الكبير والصغير، الصديق والعدوّ أنّ فائز بدأ مغامرته ببيع الكارو. أنه استثمر ماله في الدعارة والقمار والبرجة والمخدرات. وكان يقامر بثروات خياليّة، وفي حال الخسران كان يستدرج الغريم مستعينًا بالنساء والمخدرات فيقتله ويستولي على النقود ثم يواريه في فناء داره. وفي آخر مقامرة خسر أمواله جميعًا، ثم اضطرّ إلى المقامرة بأملاكه في شكل عقد بيع صوريّ فخرها أيضًا، ولم يتمكّن من قتل غريمه الذي فرّ بروحه وماله. ولما خسر كلّ شيء، وأصبح سرّه مهددًا بالافتضاح انتحر. وقد تلقى رجال الأمن رسالة من مجهول - لعله كان شريكًا - وهي التي دلّت السلطة على سرّ الجرائم ومدافن الضحايا. هكذا كُشف الغطاء عن سرّ فائز المفزع، نجاحه وانتحاره!

- ٣٣ -

رجعوا إلى الحارة، ثلاثة يركبهم الخزي والعار لا ماوى لهم. غدت حكايتهم نادرة الشامتين ومفزع المتخيلين. وأضرم نارها السبع وعلباية والعجل. وبقوة الحقد أمطرتهم الأفواه بصقًا والأكفّ صفعًا حتى هرولوا نحو القبور، ومنه تسلّوا إلى المر، ثم استقرّوا في القرافة...

## ملحمة الحرافيش ٩١١

- لست نبياً . . .

وقال له عاشور برقة:

- ابق معنا فما أحوج بعضنا إلى بعض .

فقال بإصرار نهائي:

- كلاً، لقد قضي الأمر . . .

- ٣٦ -

ودع ضياء أمه وأخاه وذهب. دمعت عينا حليلة وهي تودعه ولكن لم يكن ثمة متسع للحزن. واستقبلت وعاشور حياة معاناة شاقّة. سرحت بالفتنة والمخلل كالمسولات، وسرح عاشور بالفاكهة، عملاً يُحمل مقطّفاً، كأنما قد تعاهدا على الصبر وتجنّب الشكوى وعدم نبش ذكرى ما مضى. ولكنّ الماضي لم يُقتلع من أعماقهما. ذكرى الدار ذات الأجنحة، والعيش الرغيد، وأهبة الدوكار وحجرة الإدارة. ذكرى العباءة الفضفاضة والمسبحة القهرمانيّة وروائح المسك والعنبر والكلمات الطيبة. وعزيزة العطار باليشمك والابتسامة الهانئة. وإقبال يونس السائس مدهاناً وقوله المأثور في الصباح «صباحك الله بالسعادة يا من يشرق النور من جبهته». آه يا فائز ماذا فعلت بنفسك وبنائنا؟! حتىّ جلال المجنون لم يقتل ويُدفن الجثث. ما هذه اللعنة التي تطارد ذرّيّة صاحب الولاية والمعجزة؟ ودأب على قضاء وقت راحته في الخلاء حيث رعى الغنم. حيث لجأ عاشور صاحب العهد وتلقّى النعم. ذلك الجدّ الذي أحبه وآمن بعهده. وعبد خيره وقوته. أليس هو مثله حباً في الخير وامتناناً للقوّة؟ ولكنّ ماذا فعل كلاهما بخيره وقوته؟ أمّا الجدّ فقد حدثت على يديه المعجزة، وأمّا هو فسيرح بالخيار والقثاء والرطب. وفي الليل دأب على التسلّل إلى ساحة التكيّة. يتلقّع بالظلام ويستضيء بضوء النجوم. يرذد البصر بين أشباح التوت والسور العتيق. يقتعد مكان الناجي ويصغي إلى رقصات الأناشيد. ألا يبالي رجال الله بما يقع لخلق الله؟ متى إذن يفتحون الباب أو يهدمون الأسوار؟ يريد أن يسألهم لماذا ارتكب فائز جرائمه. حتىّ متى تشقى حارتنا وتمتهن؟ لم ينعم الأناثيون والمجرمون؟ لم يجهض الطيبون والمحبتون؟ لم يغطّ في

- لا وقت لدينا نضيّعه . . .

فعلّق ضياء على قولها بأنّه لا وقت لديهم ولا مال

ولا صديق ولا شيء، فتساءلت:

- أين يجدر بنا أن نذهب؟

فأجاب ضياء:

- بلاد الله لا حدود لها . . .

أمّا عاشور فقال:

- لنبق في المدفن غير بعيدين عن حارتنا حتى يتاح

لنا الرجوع . . .

تمتم ضياء بازدياء:

- الرجوع؟!

- أجل، لا بدّ من الرجوع ذات يوم، وأكثر من

ذلك، لا حياة لنا إلّا في حارتنا . . .

فحسنت حليلة الخلاف قائلة:

- لنبق هنا بعض الوقت على الأقلّ . . .

عند ذاك قال ضياء:

- لم أنم ليلة أمس، فكُترت حتىّ سمع الأموات

نبضات فكري، صدقت عزمي على قرار . . .

- ما هو؟

- ألا أبقى هنا . . .

فتجاهلته أمه وقالت:

- عن نفسي أعود إلى ممارسة مهنتي السابقة في

أطراف الحيّ البعيدة . . .

فقال عاشور:

- سأسرح بفاكهة . . .

تضايق ضياء من تجاهلها رأيه فراح يؤكده قائلاً:

- سأذهب ولو اضطررت إلى الانفصال عنكما . . .

فسألته أمه:

- أين، وماذا تفعل؟

فقال مواصلاً انفعاله:

- لا أدري، سأتحدى الحظّ والقدر . . .

فتساءلت بحزن:

- كما فعل الآخر؟

فصاح بإصرار:

- كلاً . . . توجد سبل أخرى . . .

- أعطني مثلاً . . .؟

- النوم الحرافيش؟  
هذا والجور يمتلئ بالأناشيد...  
ديدى كه بار جز جور وستم نداشت  
بشكست عهد وز غم ماهيج غم نداشت
- ٣٧ -  
وقالت حليلة لنفسها إنه يبدو دائماً منشغل البال،  
شارد اللب، فيم يعلم يا ترى؟ هل يمكن أن تمضي  
الحياة في معاناة متصلة بلا نسمة ترطبها؟ وسألكه  
بحنان:  
- ماذا يشغلك يا عاشور؟  
فلم يجب، فتساءلت:  
- ألا يحسن بنا أن نجد لك زوجة تؤنس وحشتك؟  
فقال باسماً:  
- ما نجد اللقمة إلا بشقّ الأنفس...  
- إذن فهناك ما يكدر صفوك...؟  
فقال بصدق:  
- كلاً يا أتي...  
فلتصدقه ولكن ماذا يشغله؟ في باطنه حياة كاملة  
مجهولة. لذلك تشمر بالغيرة كما تشمر بالخوف...  
- ٣٨ -  
وضاق بأسراره ذات ليلة. كان الوقت ربيعاً وقد  
طاب الجلوس في مكان غير مسقوف من المدفن.  
وانبسطت السماء متبرجة بما لا يصحى من نجومها.  
كانا يتناولان عشاء من المش والخيار. وقال عاشور:  
- أتساءل أحياناً عما يفعل ضياء...  
فتنهدت حليلة وتمتمت:  
- إنه نسينا تماماً...  
وغرق عاشور في الصمت فلم يسمع إلا صوت  
تمطّقه ونباح الكلاب عند مشارف القرافة. ثم عاد  
يقول:  
- أخاف أن يفعل كما فعل فائز من قبل...  
فقالت الأم محتجة:  
- لقد ضرب لنا المرحوم مثلاً لا يمكن أن يُنسى...  
- ولكنتا ننسى دائماً يا أتي...
- أهدا ما يشغلك يا عاشور؟  
فحنى رأسه بالإيجاب في ضوء هلال شاحب. مضى  
يتساءل:  
- لم سقط فائز؟ لم جنّ جدنا جلال؟ لم يفترسنا  
حسونة السبع؟  
- أليس عندنا من الهّم ما يكفي؟...  
- إنه همّ واحد متصل الحلقات...  
فاستعادت حليلة بالله وقالت:  
- اسمه الشيطان...  
- أجل، ولكن لم يغرّر بنا بلا عناء؟  
- إنه ينهزم أمام المؤمنين...  
ورجع للصمت وقد فرغ من العشاء وراح يدخن  
جوزة من المعسل ونباح الكلاب في اشتداد حتى انقلب  
في بعض خيوطه إلى عواء. وقال بغتة:  
- إليك رأيي يا أتي، الشيطان ينتصر بالتسلل من  
نقاط الضعف فينا...  
فاستعادت بالله من الشيطان الرجيم فواصل عاشور  
قائلاً:  
- إليك رأيي أيضاً، حبان يشغلان أضعف ما فينا،  
حبّ المال وحبّ السيطرة على العباد...  
فتمتمت حليلة:  
- لعلها شيء واحد...  
- ربّما، المال والسيطرة...  
- حتى عهد جدك انتكس...  
فردّد بغموض:  
- جدّي!  
فحدجته بنظرة متسائلة، فتساءل بدوره:  
- ماذا كان ينقصه؟  
- ينقصه؟!  
- أعني لماذا انتكس...  
- لم يكن الذنب ذنبه...  
فتمتم بعجلة:  
- طبعاً...  
ولكنه تساءل في سرّه عما كان ينقصه، عما أفضّل  
سعيه النبيل عقب وفاته أو عقب وفاة شمس الدين.  
ما دام يوجد خطأ فلا بدّ أن يوجد صواب. وإذا وُجد



## ملحمة الحرافيش ٩١٣

وقضى بينهم ساعة سعيدة مترعة بالضحك والبهجة.  
ومنذ ذلك اليوم لم ينقطع قط عن سوق الدراسة.

- ٤١ -

بلقاء الحرافيش اشتعلت النار في كيانه كله.  
تجمعت قواه الحيويّة كلها ودقت جدران قلبه تريد أن  
تنطلق. لا يمكن أن ينام من تضطرب جوانحه بهذه  
القوة كلها. إنه يتحدّى المجهول كما تحدّاه فائز من قبل  
وكما يتحدّاه ضياء اليوم، ولكنّه يشقّ طريقًا آخر،  
ويتطلّع إلى آفاق أبعد. إنه يواجه المجهول ويصافحه  
ويرمي بنفسه في خضمّه. كأنما كتبت عليه المغامرة  
والمغامرة وركوب المستحيل. إنه يحمل سرًا عجيبيًا،  
ينبذ الأمن والسلامة، ويعشق الموت وما وراءه. ولقد  
رأى في منامه من اعتقد أنه عاشور الناجي. ورغم أنه  
كان يبتسم فقد سأله بنبرة عتاب واضحة:

- بيدي أم بيدك؟

وكرّرها مرّتين فوجد عاشور نفسه يجيبه وكأنما أدرك  
ما يسأل عنه:

- بيدي!

فظلّ الناجي باسمًا ولكنّه توارى كالغاضب مخلفًا  
وراءه الخلاء.

وتساءل عاشور لدى استيقاظه عمّا عناه جدّه  
بسؤاله، وعمّا عناه هو بجوابه، وتخيّر طويلًا ولكنّ قلبه  
امتلاً بالهام التفاؤل والإقدام.

- ٤٢ -

وذات يوم طرح هذا السؤال على الحرافيش في  
سوق الدراسة:

- ماذا يُرجع حارتنا إلى عهدنا السعيد؟

وأجاب أكثر من صوت:

- أن يرجع عاشور الناجي.

فتساءل باسمًا:

- هل يرجع الموق؟

فأجاب أحدهم مقهقها:

- نعم.

قال بثبات:

الصواب مرّة فيمكن أن يوجد مرّة أخرى. وإذا كان  
قد انتكس بعد وجوده فيمكن أن نضمن له حياة لا  
تعرف الانتكاسة.

وعادت حليلة تتساءل:

- أليس لديك من الهمّ ما يكفيك وزيادة؟

- ٣٩ -

كلّا، لم يقنع بما لديه من همّ. وكيف يقنع من  
أدمن التواجد كلّ يوم ساعة في الخلاء وساعة أو  
ساعتين في ساحة التكيّة؟ كيف يقنع من ينطوي  
صدره على جدوة دائمة الاشتعال؟ كيف يقنع من  
تورّقه الأحلام الملوّنة؟ كيف يقنع من بات يعتقد بالألّا  
جدّ له إلّا عاشور الناجي؟

ورسم فوق رمال الخلاء طريقًا. وتخيّله على ضوء  
النجوم في ساحة التكيّة. وناجاه في تجواله ومنامه. حتّى  
تجسّد له كالسور العتيق قوّة وصلابة وجلالًا.

- ٤٠ -

وتلنّحًا طويلًا في سوق الدراسة. في سوق الدراسة  
يتصمك كثيرون من حرافيش الحارة. لقد كان يتجنّب  
لذلك السبب، ومن أجل ذلك يتلنّح اليوم في جنباته.  
ومرّ أمام تجمّعاتهم وهو ينادي مترنّمًا بالخيار. سرعان ما  
عرفه بعضهم. هتف هاتفهم:

- المعلم عاشورا

وسخر صوت قائلًا:

- أخو السّفاح يسرح بالخيار. . .

وأقبل عاشور نحوهم يحمل البشاشة في قسبته  
الغليظة. مدّ يده وهو يقول:

- أترفضون هذه اليد مثل الآخرين؟

فصافحوه بحرارة وقال أحدهم:

- عليهم اللعنة. . .

وقال ثان:

- ما وجدنا منك إلّا الخير.

- وأمك الطيّبة كيف حالها؟

فقال عاشور:

- برؤياكم رجعت روحي الشاردة إلى وطنها. . .

وفهقها طويلاً، ثم قال رجل مشيراً إلى عاشور:  
- هذا الرجل مجنون ولا شك، لذلك فيأتي  
أحبّه . . .

- ٤٣ -

طرق طارق باب حجرة الرحمة. كان عاشور يجالس  
أمه عقب العشاء متدثرين ببطانيتين أتقاء برد الشتاء  
القارص. وفتح عاشور الباب فرأى على ضوء المصباح  
وجهاً يعرفه، وسرعان ما هتف:  
- أخي ضياء!

وثبت حليلة البركة وضمته إلى صدرها. ذابوا  
دقائق في حرارة ثم أفاقوا فجلسوا على الشلت يتبادلون  
النظرات. تجلّى ضياء بعباءته الغامقة ومركوبه الأخضر  
ولائه المنمنمة. تجلّى بادي الصحة والسعادة. وانقبض  
قلب عاشور وثارث هواجسه. وختمت حليلة على  
ظنونها بابتسامة وحنان. وخرج ضياء من الصمت  
القصير قائلاً:

- ما أطول الأيام!

ثم وهو يضحك:

- وما أقصر الأيام!

تمتت حليلة البركة وقد اغرورقت عيناها:

- نسينا تماماً يا ضياء . . .

فقال ضياء بلهجة جمعت بين التشكي في ظاهرها  
والظفر في أعماقها:

- كانت الحياة شاقّة فوق ما يتصوّر العقل . . .

وآن أوان التحدّث عن «الحاضر» ولكنّ حليلة  
وعاشور أحججا بادئ الأمر عن الخوض فيه. ذكرهما  
المنظر بمنظر سابق لا يُحى من الذاكرة واستحوذ عليهما  
قلق خفيّ. وقرأ ضياء أفكارهما فقال:

- أخيراً أخذ الله بيدنا!

فتمتت حليلة تمّصاً من حرج الصمت:

- الحمد لله .

وطالعه بوجه مستطلع فقال بهدوء:

- إنّي اليوم مدير أكبر فندق ببولاق . . .

ونظر نحو عاشور متسانلاً في مرح:

- ما رأيك؟

- لا يجي إلا الأحياء.

- نحن أحياء ولكن لا حياة لنا . . .

فسأل:

- ماذا ينقصكم؟

- الرغبة . . .

فقال عاشور:

- بل القوة!

- الرغبة أسهل منألاً . . .

- كلاً!

فسأله صوت:

- إنك قويّ عملاق فهل تطمح إلى الفتونة؟

وقال آخر:

- ثمّ تنقلب كما انقلب وحيد جلال وساحة!

وقال ثالث:

- أو تُقتل كما قُتل فتح الباب . . .

فقال عاشور:

- حتّى لو صرت فتوة صالحاً فما يجدي ذلك؟

- نسعد في ظلك!

قال آخر:

- لن تكون صالحاً أكثر من ساعة!

فتساءل عاشور:

- حتّى لو سعدتم في ظلّي فهذا بعدي؟

- ترجع ريمة لعادتها القديمة . . .

وقال رجل:

- لا ثقة لنا في أحد، ولا فيك أنت!

فابتسم عاشور قائلاً:

- قول حكيم.

وفهقه الخرافيش فعاد عاشور يتساءل:

- ولكنكم تثقون في أنفسكم!

- وما قيمة أنفسنا!

فتساءل عاشور باهتمام:

- أمحفظون السرّ؟

- نحفظه من أجل عيونك!

فقال عاشور بجديّة:

- لقد رأيت حلماً عجيباً، رأيتمكم تحملون

النبأيت . . .

## ملحمة الحرافيش ٩١٥

- أن نرجع إلى حارتنا. أن نستردّ جاهنا، أن نتلقّى  
تحيات من بصقوا في وجوهنا. . .  
فقال عاشور بحزم:  
- تخلّ عن حلمك يا أخي.  
- حقًا؟ ماذا تخاف؟ إنّ سحر النقود يصنع  
المعجزات.  
- لقد فقدنا الاحترام الحقيقيّ حتّى ونحن أغنياء.  
فتساءل باستياء:  
- ما الاحترام الحقيقيّ؟  
هل يفضي إليه بحلمه أيضًا؟ ولكنّه لم يجد فيه أيّ  
ثقة. يمكن التفاهم مع الحرافيش أمّا هذا الشخص  
الناجح المتهوّر فلا تفاهم معه. أجب بأسيء:  
- هو ما فقدناه من قديم.  
رفع ضياء منكيه استهانة وقال بضيق:  
- على أيّ حال أن لكما أن تودّعا هذه الحياة مع  
الأموات.  
فقال عاشور بحزم:  
- كلاً.  
- كلاً. . . ترفض معونتي؟  
- نعم.  
- إنّه الجنون بعينه.  
- المال مال زوجتك ولا شأن لنا به.  
- إنك مجرّحي.  
- معذرة يا ضياء، دعنا فيها نحن فيه.  
- ما زلت تسيء بي الظنّ!  
- كلاً، أعتقد أنّي واضح تمامًا.  
فقال باستياء باد:  
- لن أترك أمي.  
فقال حليمة بعجلة:  
- إنك ابن طيّب ولكنني لن أهجر أخاك.  
- أنت أيضًا تسيئين بي الظنّ!  
- معاذ الله، ولكنني لن أهجره، دع الأمور  
لنفسها. . .  
- حتّى متى تقيمين في مدفن بين الأموات؟  
- لم نعد كما كنّا فقراء دقّة، حالنا تتحسنّ يومًا بعد  
يوم. . .

فقال عاشور بصوت لا حياة فيه:  
- عظيم!  
- إنّي أقرأ ما يدور بخاطرك!  
فتساءل عاشور:  
- ليس الأمر مثيرًا؟  
- ولكنّه عاديّ جدًّا، ومختلف جدًّا عن مأساة  
المرحوم. . .  
- ذلك ما أتوقّعه.  
- لقد عملت في الفندق خادمًا. ثمّ عملت كاتبًا  
لمعرفتي القراءة والكتابة. ثمّ حصل استلطاف بيبي  
وبين كريمة صاحب الفندق. . .  
سكت مليًا ليغرّز أقواله إلى عمق معقول ثمّ  
واصل:  
- خفت أن أطلب يدها من أبيها فأخسر كلّ شيء.  
ولكن وافاه الأجل، تزوّجنا، أصبحت مدير الفندق  
وصاحبه الفعليّ. . .  
تمت الأمّ:  
- ليكتب الله لك التوفيق. . .  
فرنا إلى عاشور مليًا ثمّ تساءل:  
- أخالجت شكّ في أقوالي؟  
فقال عاشور بعجلة:  
- كلاً. . .  
- إنّ مأساة فائز لا تريد أن تُمحي من ذاكرتك. . .  
- لا يمكن أن تُمحي أبدًا.  
- لقد سلكتُ طريقًا آخر.  
- الحمد لله. . .  
- تصدّقتني؟  
- نعم.  
فقال باعتزاز:  
- لدى إقبال الدنيا سرعان ما تدكّرت أمي  
وأخي. . .  
فقال حليمة البركة:  
- ليحفظك الله.  
- ذلك أنّي لم أنخلّ عن حلم قديم.  
فتساءل عاشور:  
- حلم قديم؟

فقال بقوة:

- بوسعي الآن أن أرجعكما مكرمين إلى حارتنا . . .

فقالت حليلة متوسلة بحرارة:

- دع الأمور للزمن . . .

حتى ضياء رأسه متمتًا:

- يا لها من خيبة أمل!

- ٤٤ -

وعقب انصراف ضياء قالت حليلة:

- صددناه بعنف يا عاشور.

فقال بإصرار:

- لم يكن من الأمر بد.

- ألم تنق بأقواله؟

- لا.

- إني أصدقه.

- إني على يقين من انحرافه.

- منذ الذي لا يتعظ بعد مأساة فائز؟

- نحن، ما تاريخ أسرتنا إلا سلسلة من

الانحرافات والمآسي والدروس الضائعة . . .

- ولكنني أصدقه.

- كما تشائين . . .

وتفكرت قليلاً ثم قالت:

- حتى أسرارك لم تأمنه عليها؟

فقال عاشور بأسف:

- لا، إنه لا يؤمن بما أومن به . . .

- ألم يكن من المحتمل أن ينضم إليكم؟

فقال عاشور بهدوء:

- إنه لا يؤمن بما أومن به.

حقاً لقد جاء ضياء في وقت غير مناسب إذ كان

عاشور يتوئب - بعد عشاء طويل - للخطوة

الحاسمة . . .

- ٤٥ -

وذات يوم عجيب، والحارة تعاني حياتها اليومية

المألوفة الكثيفة، والشتاء يوتئ مودعًا، انحدر من تحت

القبو رجل. عملاق الهيكل، يرفل في جلباب أزرق

وطاقيّة بنية وبيده نبوت. سار بهدوء وثقة كأنه راجع

من غيبة ساعة لا بضع سنين. رآه أول من رآه محمد

العجل فمد إليه عينيه بدهول وتمتم:

- من؟ . . . عاشورا

فقال له عاشور بهدوء:

- سلام الله عليك يا عم محمد . . .

سرعان ما شخصت إليه الأبصار بدهشة، من

الدكاكين والنوافذ وأرجاء الحارة شخصت إليه. لم يلق

بالأ إلى أحد وشق طريقه إلى المقهى. وكان حسونة

السبع متربعا فوق أريكته، وفي حاشيته جلس يونس

السايس شيخ الحارة والشيخ جليل العالم شيخ

الزاوية. دخل عاشور المقهى فالتجهد نحوه الأعين في

ذهول. أما هو فمضى إلى ركن وهو يقول:

- السلام عليكم.

لم يسمع ردًا. وواضح أن الفتوة انتظر منه تحية

خاصة مشفوعة باستعطاف، ولكنه مضى إلى مقعد بلا

مبالاة وجلس. سرعان ما توقع الناس أحداثًا. ولم

يطق السبع صبرًا فسأله بخشونة:

- ماذا أرجعك يا ولد؟

فأجاب بهدوء:

- لا بدّ يومًا أن يعود الإنسان إلى حارته.

فصاح به:

- ولكنك طردت منها منبؤدا ملعونا.

فقال عاشور بهدوءه المطمئن:

- كان ظلمًا ولا بدّ للظلم من نهاية . . .

فتدخل الشيخ جليل قائلًا:

- تقدّم إلى فتوتنا واسأله العفو.

فقال عاشور ببرود:

- لم أجد لطلب العفو.

فهتف يونس السايس:

- ما عرفناك مغرورًا ولا وقحًا.

فقال بسخرية:

- بالصدق نطقت.

عند ذلك نثر حسونة السبع ساقيه المتشابكتين نحو

الأرض وسأله منذرًا:

- علامّ تعتمد في رجوعك إن لم يكن على عفوي؟

- ٤٧ -

واجتمع بعاشور ليلاً يونس السائس وجليل العالم.  
 كنا واضحّي القلق، وقال شيخ الحارة:  
 - المامول ألا يقع ما يقتضي تدخّل الشرطة...  
 فقال عاشور في استياء:  
 - كم من جرائم ارتكبت تحت بصرك وكانت  
 تقتضي تدخّل الشرطة...  
 فقال الرجل بلهفة:  
 - معذرة، إنك أدرى الناس بظروفنا، أودّ أن  
 أذكرك أنك انتصرت بهم ولكنك غداً ستقع تحت  
 رحمتهم!  
 فقال عاشور بثقة:  
 - لن يقع أحد تحت رحمة أحد...  
 فقال الشيخ جليل العالم بإشفاق:  
 - لم يكبحهم في الماضي إلا التفريق والضعف...  
 فقال عاشور بثقة أشد:  
 - إنّي أعرفهم خيراً منك، عاشرتهم في الخلاء  
 طويلاً، والعدل خير دواء...  
 فتردّد يونس السائس قليلاً ثمّ تساءل:  
 - والسادة والأعيان ماذا يكون مصيرهم؟  
 فقال عاشور بقوة ووضوح:  
 - إنّي أحبّ العدل أكثر مما أحبّ الحرافيش وأكثر مما  
 أكره الأعيان...  
 - ٤٨ -

ولم يتوان عاشور ربيع الناجي ساعة واحدة عن  
 تحقيق حلمه ذلك الحلم الذي جذب به الحرافيش إلى  
 ساحته، ولقّنه تأويله في الخلاء، وحولهم به من  
 صعاليك ونشالين ومتسولين إلى أكبر عصابة عرفتها  
 الحارة.  
 سرعان ما سارى في المعاملة بين الوجهاء  
 والخرافيش، وفرض على الأعيان إتاوات ثقيلة حتى  
 ضاق كثيرون بحياتهم فهجروا الحارة إلى أحاء بعيدة  
 لا تعرف فتوة ولا فتونة. وحتمّ عاشور على الحرافيش  
 أمرين: أن يدرّبوا أبناءهم على الفتونة حتى لا تن  
 قوتهم يوماً فيتسلطّ عليهم وغداً أو مغامر، وأن يتعيّش

فقال بصوت جهوري:

- اعتمادي على الله جلّ شأنه.

فصاح السبع:

- اذهب على قدميك وإلا ذهبت على نقالة.

فوقف عاشور وشدّ على نبتوته. اندفع صبيّ القهوة  
 خارجاً منادياً رجال العصابة. هرع الآخرون إلى الحارة  
 خوفاً. انقضّ السبع بنبتوته، وانقضّ عاشور بنبتوته،  
 فارتطم النبتان بعنف جدار متهتم. ونشبت معركة  
 غاية في الشدّة والقسوة.

وجاء رجال العصابة من شتى الأنحاء فاخضى  
 الناس من الحارة وأغلقت الدكاكين، وامتلات النوافذ  
 والمشبّيات.

وإذا بمفاجأة تدهم الحارة كزلزال. مفاجأة لم يتوقّعها  
 أحد. تدفّق الحرافيش من الخرابسات والأزقة،  
 صائحين، ملوّحين بما صادفته أيديهم من طوب  
 وأخشاب ومقاعد وعصيّ. تدفّقوا كسيل فاجتاحوا  
 رجال السبع الذين أخذوا، وبسرعة انقلبوا من المهجوم  
 إلى الدفاع. وأصاب عاشور ساعد السبع فأفلت منه  
 النبت، عند ذلك هجم عليه وطوّقه بذراعين، وعصره  
 حتى طقطع عظامه، ثمّ رفعه إلى ما فوق رأسه ورمى  
 به في الحارة فتهاوى فاقد الوعي والكرامة.

أحاط الحرافيش بالعصابة، انهالوا عليهم ضرباً  
 بالعصيّ والطوب فكان السعيد من هرب وفيها دون  
 الساعة لم يبق في الحارة إلا جموع الحرافيش وعاشور.

- ٤٦ -

كانت معركة لم تسبق بمثل من حيث عدد من  
 اشترك فيها. فالخرافيش أكثرية ساحقة. وفجأة تجمّعت  
 الأكثرية واستولت على النبايت فاندفعت في البيوت  
 والدور والوكالات رجفة مزلزلة. ثمزّق الخيط الذي  
 ينتظم الأشياء وأصبح كلّ شيء ممكناً. غير أنّ الفتونة  
 رجعت إلى آل الناجي، إلى عملاق خطير، تشكّل  
 عصابته لأول مرة أكثرية أهل الحارة. ولم تقع الفوضى  
 المتوقعة، التفّ الحرافيش حول فتوتهم في تفانٍ  
 وامتثال، وانتصب بينهم مثل البناء الشامخ، توحى  
 نظرة عينيه بالبناء لا بالهدم والتخريب.

- ٥٠ -

واعتمدت حليلة البركة أنه آن له أن يفكر في ذاته .  
وجاءه ضياء أخوه سعيدًا، وفي نيته أن يستعيد وكالة  
الفحم، وأن يصير كبير الأعيان في كنف أخيه الفتوة،  
ولكنه لم يلق منه تشجيعًا، فاضطر إلى الاستقرار في  
فندقه. واقترحت حليلة عليه أن يتزوج قائلة:

- ما زال في حارتنا نفر من الأعيان الطيبين الذين لم  
يفرطوا فيها... .

فتذكر عاشور موقف أسرتي الخشب والعطار  
بامتعاض شديد وقال لأمه:

- أشعر يا أمي أنك تطمحين إلى حياة أفضل مما  
نحن فيه... .

فقال المرأة بصدق:

- ليس العدل أن تظلم نفسك!

فقال بقوة محتجًا ورافضًا:

- لا... .

قالها بقوة. ليست قوة الرفض الحقيقي. بل قوة  
يداري بها ضعفًا يحس به أحيانًا في أعناق خواطره.  
فكم يحزن أحيانًا إلى رغد العيش والجمال كما يعلم  
بحياة الدور والمرأة الناعمة. لذلك قال لا بعنف وقوة.  
وقال لها:

- لن أهدم بيدي أعظم ما شيدت من بناء  
شامخ... .

وأصر أن يجيء الرفض من ذاته لا حذرًا من  
الخرافيش. إنه يريد أن يتفوق على جدّه نفسه. لقد  
اعتمد جدّه على نفسه على حين خلق هو من الخرافيش  
قوة لا تقهر، ولقد مال مرة جدّه مع هواه وسوف  
يصمد هو مثل السور العتيق. ومرة أخرى قال بقوة:

- لا... .

- ٥١ -

وتّم له أعظم نصر، وهو نصره على نفسه. وتزوج  
من بهية بنت عدلات الماشطة بعد مشاهدة واستقراء  
من جانبه. وعندما اقتلعت مثذنة جلال من جذورها  
أحييت الحارة ليلة رقص وطرب. وعقب منتصف الليل  
ذهب إلى ساحة التكية لينفرد بنفسه في ضوء النجوم

كلّ منهم من حرفة أو عمل يقيمه لهم من الإتاوات.  
وبدأ بنفسه فعمل في بيع الفاكهة، وأقام في شقة  
صغيرة مع أمه. وهكذا بُعث عهد الفتوة البالغ أقصى  
درجات القوة وأنقى درجات النقاء. ولم يجد الشيخ  
جليل العالم بدءًا من الثناء عليه، والجهر بالتنويه  
بعدته، وكذلك يونس السائس فعل، ولكنّه ارتاب  
في ضميرهما، ولم يشك في أنّهما يتحسّران على الهبات  
التي كانت تتسرّب إليهما من الأعيان، وعند توزيع  
الإتاوات بين أفراد العصاة الهاربة.

وما لبث الشيخ جليل العالم أن هجر الحارة فعين  
مكانه الشيخ أحمد بركات. ولما كان يونس السائس  
معينًا من قبل السلطة فقد تعذّر عليه هجرها، وكان  
يغمغم وهو منفرد بنفسه في دكانه:

- لم تبق في الحارة إلا الزبالة!

وكان يفضي بذات نفسه إلى زين علباية الخمار  
فيتساءل الرجل في قلق:

- حتى متى تدوم هذه الحال؟

فيقول يونس السائس:

- لا أمل مع بقاء الوحش على قيد الحياة... .

ثمّ يتنهد مواصلاً:

- لا شك أنّ أناسا مثلنا تناجوا بما نتناجى به الآن  
على عهد جدّه الأول، فاصبر وما صبرك إلا بالله... .

- ٤٩ -

وجدد عاشور الزاوية والسبيل والخوض والكتّاب،  
وأنشأ كتّابًا جديدًا ليتسع لأبناء الخرافيش، ثمّ أقدم  
على ما لم يقدم عليه أحد من قبل فاتفق مع مقال على  
هدم مثذنة جلال. وقد كان يصدّ السابقين عن ذلك  
خولهم من إغصاب العفاريت التي تسكنها ولكنّ  
الفتوة الجديد لم يخف العفاريت. وقام هو في الحارة  
عملاقًا كالمثذنة ولكنّه في الوقت نفسه مستقرّ للعدل  
والنقاء والطمأنينة. ولم يبدأ بتحدّي أحد من فتوات  
الحارات ولكنّه كان يؤدّب من يتحدّاه ويجعل منه عظة  
للآخرين فتهيات له السيادة بلا معارك.

## ملحمة الحرالمير ٩١٩

من الخيزران وثمره من الثوت، استعدّوا بالمزامير  
والطبول... .

\*\*\*

عاد إلى دنيا النجوم والأناشيد والليل والسور  
العتيق. قبض على أهداب الرؤية فغاصت قبضته في  
أمواج الظلام الجليل. وانتفض ناهضًا ثملاً بالإلهام  
والقدرة فقال له قلبه لا تجزع فقد يفتح الباب ذات  
يوم تحية لمن يخوضون الحياة براءة الأطفال وطموح  
الملائكة... .

وهتفت الحناجر شادية:


دوش وقت سحر از غصه نجاتم دارند  
واندر آن ظلمت شب آب حياتم دارند.

ورحاب الأناشيد. تربع فوق الأرض مستنبيًا إلى  
الرضي ولطافة الجوّ. لحظة من لحظات الحياة النادرة  
التي تسفر فيها عن نور صافي. لا شكوى من عضو أو  
خاطرة أو زمان أو مكان. كأنّ الأناشيد الغامضة  
تفصح عن أسرارها بألف لسان. وكأنّما أدرك لمّ ترمّموا  
طويلاً بالأعجميّة وأغلقوا الأبواب.


\*\*\*

وسبح في الظلام صرير فرنا إلى الباب الضخم  
بذهول. رأى هيكله وهو يفتح بنعومة وثبات. ومنه  
قدم شبح درويش كقطعة متجسّدة من أنفاس الليل.  
مال نحوه وهمس:

- استعدّوا بالمزامير والطبول، غدًا سيخرج الشيخ  
من خلوته، ويشقّ الحارة بنوره، وسيهب كلّ فتي نبوتنا



**Bibliotheca Alexandrina**



**0218019**